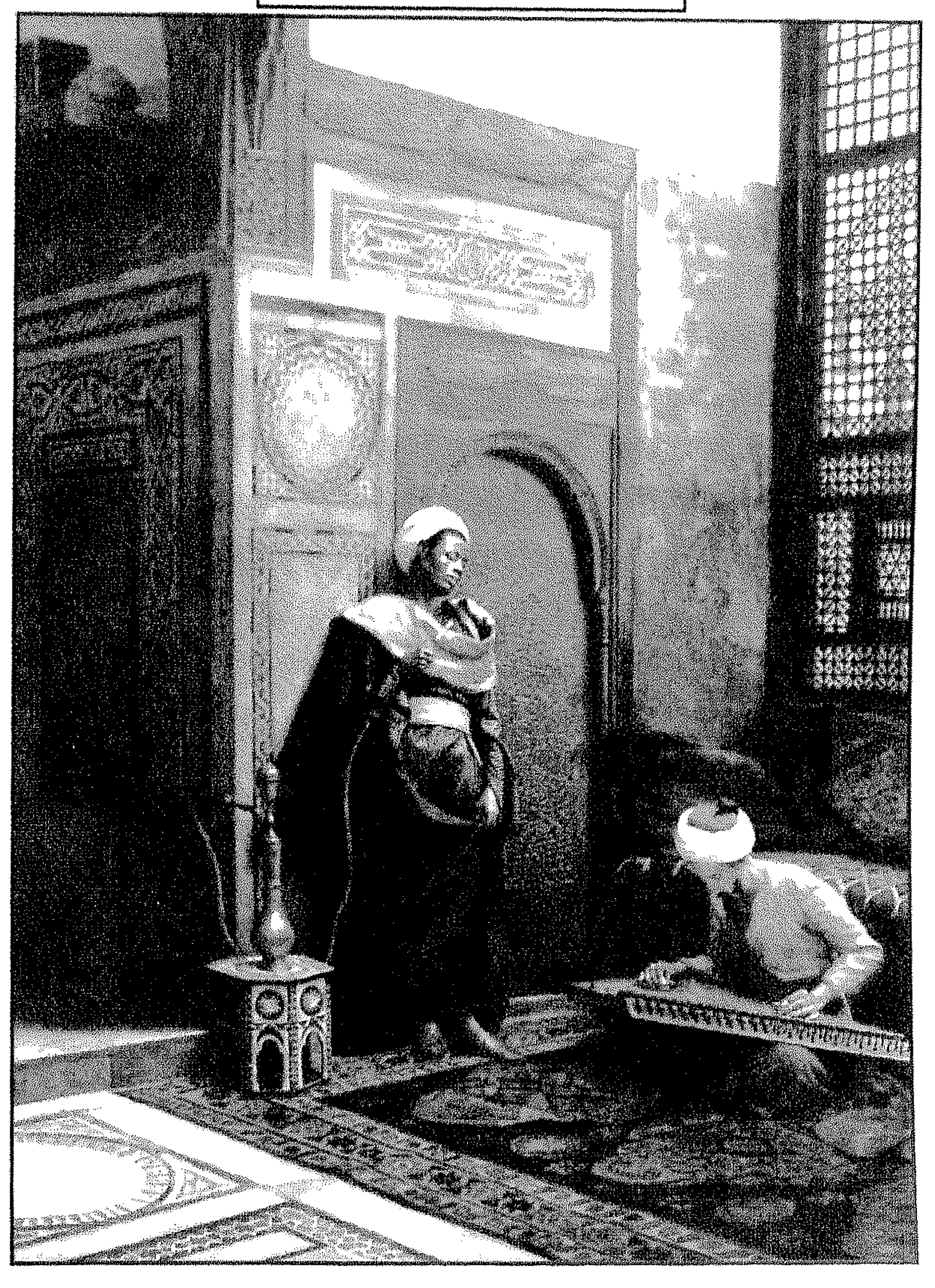
الهلال

مازالت الأحلام ممكنة

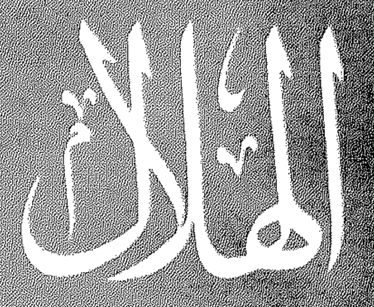
2005

- دعوة إلى جدل حول المستقبل
- المستقبل واللعب على الكبار
- المجلات الثقافية والفتوى بغير علم

لوحة وفنان



اللوحة : عازف القانون - الفنان : لودفيج دويتش

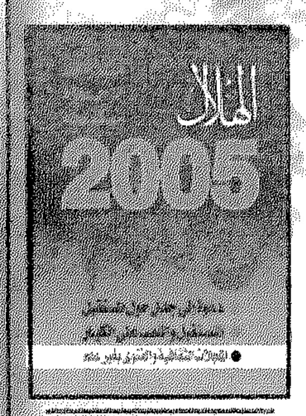


مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة ذو القعدة ١٤٢٥ هـ - يناير ٢٠٠٥م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت.٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

مازالت الأحلام ممكنة

هيا ننظر إلى الأمام ، ونعمل من أجل بناء المستقبل .. فالعالم من حولنا يتحرك بسرعة فائقة ، ومع كل يوم جديد تظهر أفكار جديدة ، ويحاول العالم أن يفتح صفحة جديدة ، ولعل وقفتنا مع عام جديد تكون من أجل فتح صفحة جديدة تصلنا بالمستقبل ، وها هو المستقبل يفتح ذراعيه ، فلا يجوز أن نرتد إلى الوراء ..

ونحن أمة تبحث عن المستقبل ، تراثنا يمتد وراء نا مئات السنين ، وسوف يذهب هذا التراث أدراج الرياح إذا تجمدنا واكتفينا بهذا التراث ولم نبعث فيه الحياة ، فما جدوى الماضى إذا كان حاجزا يقف بيننا وبين المستقبل .

علينا أن ننظر إلى المستقبل ولا ننظر إلى الخلف ، وكفانا بكاء على الأطلال ، وحزنا على اللبن المسكوب ، فلعل تلك النظرة تعطينا الأمل والقوة التى نحقق بها التحديث والنهضة التى بدأت منذ مائتى عام ، وكثيرا ما تراوح مكانها ، ولا يعنى عدم النظر إلى الوراء ، عدم معرفة حكمة الماضى أو عدم إدراك عبره .

عزيزى القارئ ..

كنا معك دائما ، صوت من لا صوت له ، وكنت معنا حاضرا ، نشهد معا التغيرات المتلاحقة ؛ اختفى وجه العالم الذى نعرفه ، وأطل علينا وجه عالم آخر ، فكان التغير أسرع من الخيال ، وأعنف من كل التوقعات، ومن لا يلاحقه أو يتوقف ولو قليلا يسقط فى بئر التخلف العميقة ، فلن نظل معتمدين على حصاد الماضى ، مهما بلغت أهميته ، بل سنلجأ إلى الكلمة الفعل ، الكلمة التى تشبه الحب الذى يبذر ثم ينتظر الحصاد ..

لقد قام رموز الماضى وقادته بما يقدرون عليه ، وجاء دور أجيال جديدة ، تمتلئ بالوعى والحرارة لتصنع مستقبلا جديدا ، وتقدم مشروعها من أجل البشرية ، فالعالم يفكر ولابد أن نفكر معه ، ويجئ بصور جديدة متلاحقة . وعامنا الجديد بشير ونذير

من خلال الأحداث الجسام التى تجتاح المشرق والمغرب ، وخاصة فى العراق وفلسطين ، مما يقيم غمامة سوداء تمنع الرؤية ، وتحول أحيانا دون التفكير السليم ، ويفرض علينا الواجب أن نخترق الحجب ونعمل من أجل مستقبل أجيالنا .

وملامح العصر الجديد ، تجعل عالمنا هذا يوصف بأنه بداية التاريخ لا نهايته ، برغم تقلبات الدنيا ، وانتقال الأمور والأحوال .. لذلك يصبح البحث عن النغمة الصحيحة ، أمرا بالغ الأهمية وبالغ الصعوبة معا ، فقد تكاثرت النغمات الكاذبة ..

ولم يعد مقبولا أن نسألك يا عامنا الجديد ، ماذا وراءك ؟! بل سنصنع بعقولنا وأيدينا أحداثك ، لن تحركنا نغمات وايقاعات تأتى من بعيد ، ولن نتخلى عن البصر والبصيرة ، ولن نتخلى عن الحكمة فى مواجهة خطوبك .

نتفاعل بالجديد الذى يحل محل القديم ، ونواصل السير ونصل ما انقطع من أعمالنا وأعمال الرواد الذين سبقونا .

وحتى نمسك بالمستقبل ، لم يعد مقبولا سوى أن تكون المواطنة هى أساس العلاقة بالوطن ، ولم يعد مقبولا سوى أن تكون حقوق المرأة ومساواتها بالرجل فكرة راسخة ، وأن يكون القضاء على الفقر جزءا لا يتجزأ من حقوق الإنسان المقدسة ، وأنه لا يقوم بناء سوى على أساس من الحرية الكاملة والإرادة الحرة . ولم يعد مقبولا أن نغلق أبوابنا أمام الفكر الجديد والتقنية الحديثة ، وأن نؤمن إيمانا لا شائبة فيه بتفاعل الثقافات ، وأن نثق بأنفسنا ، ولا ترتعش أيدينا ولا تهتز قلوبنا ، فلا يبنى الأوطان سوى المؤمنين بوطنهم الواثقين من أنفسهم .

وأمامنا تحديات حضارية وثقافية كبيرة ، لا سبيل إلى مواجهتها إلا بجمع عناصر القوة والاستفادة من الميزة النسبية والتخلص فى نفس الوقت من الخرافة وعوامل الضعف .

ولعل الجزء الخاص الذى نقدمه فى هذا العدد عن آفاق المستقبل ، يساهم فى الإجابة عن السؤال التقليدى ، ما العمل ؟ ويساهم أيضا فى طرح قضايا وأفكار لا نزعم أنها كلها الصواب ، ولكنها تحرك العقل وتفتح آفاقا جديدة . ■

المحـــــرر



الجراد بين الأمس واليوم

بقلم
د. محمد رجب البيومى

رباه ! أكان ينقصنا الجراد حتى يستشرى خطره ، ويكاد يقضى على الأخضر واليابس ، سرب هائل يبلغ طوله ستين كيلو متراً وعرضه عشرة كيلومترات ! فيسد آفاق الشمس ، ويليه غيره أسرابا خلف أسراب ! ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .. لم نفرح بالعيد لأن أنباء أشقائنا فى العراق وفلسطين ، قد أقلقت المضاجع ، وأدمت القلوب ، وظننا أن الكأس قد امتلأت حتى فاضت ! ثم نفاجأ بالجراد !!



ذو القعدة ١٤٢٥هـ - يناير ٢٠٠٥م

لقد حذرت منظمة الفاو الدولية من خطر الجراد قبل عام ، وعبرت عن أسفها اليوم لأن الدول التى داهمها الجراد لم تلق بالا للتحذير ومن بينها مصر ، ثم أفاق الشعب على الهول كما استيقظ نائم على صراخ مزعج هائل ! وقد قيل إن الجراد جاء من طريق ليبيا على غير المعهود فلم نستطع مقاومته ! وها هى ذى المنظمة تقول إن له عودة فى الربيع القادم! فهل نستمع الآن هذا القول ونعيه ؟

وقد كان من المبكيات أن جمهرة

الفلاحين قد دقوا الطبول لينفروا الجراد فيطير ، فكان ما صنعه أن طار إلى المحافظات المجاورة ! وانتشر خطره إلى أبعد ما يتصور ! فأين التوجيه السديد ، وأين المسئولون فى المحليات ! وهم يسمعون الطبول تدوى، وكأنها العلاج الوحيد !

لقد ذكرنى هذا العلاج الهازل ، بما ذكره الناقد اللبنانى الفكه مارون عبود، حيث قال ، إن الضيعة التى يملكها أبوه وجيرانه ، قد داهمها الجراد ذات عام ، وتأهب كل زارع لصد العدوان ، ولكن والده انتظر كثيرا ، فسأله مارون نجله عن إهماله ، فقال اسكت : عندى دياب !! ودياب هذا قط سماه الرجل بهذا الاسم لأنه معجب بالبطل الشعبى دياب بن غانم خصيم أبى زيد الهلالى! وبعد يومين صحب ديابا مباهيا إلى الضيعة ، وقال فى لهجة صارمة ! اهجم يا دياب ! اهجم يا دياب ! وتقدم القط المسكين ، فغمرته سحابة كثيفة من الجراد مزقته تمزيقا ، ونظر مارون إلى والده متهكما : فقال له : دياب كان عيان ! المسكين مات!

وفى كتب اللغة « أرض جرداء ، أى حل بها الجراد ، فأكل ما بها من نبات فهى خاوية مقفرة ، وإذن فالجراد شر بالنسبة للعرب كما هو بالنسبة إلى الناس جميعا ، على أنهم كانوا يأكلونه ويستطيبون لحمه ، ولكن شره أكثر من خيره ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ شعر كثير عن الجراد ، ولسنا بصدد الحديث عنه ، لأنى أقصر هذا المقال على الجراد فى مصر .

معجزة موسى

لقد سلط الله على قوم فرعون فى مصر آفات كثيرة منها الجراد حيث قال الله عز وجل ، «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين، فلما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل» وقد تحدثت كتب العهدين القديم والحديث ، عن معجزة موسى التى أجراها الله على يده حين تحداه خصومه قائلين «مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين» فجاء فى سفر الخروج ما نصه « ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر ، لأجعل الجراد يصعد إليها ، ويأكل كل عشب الأرض، وكل ما تركه البرد ، فمد موسى عصاه على أرض مصر ، فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية ، فصعد الجراد على كل أرض مصر ، وحل فى جميع نواحيها ، فلم يكن قبله جراد ولابعده ، فغطى كل وجه الأرض، وأكل جميع الشجر والثمر الذى تركه البرد حتى لم يبق شىء أخضر » .

وحين نقرأ كتب التاريخ فى العصور الوسطى نجد الحديث عن الأوبئة والطواعين والزلازل وما إليها من كوارث الدهر ومصائب الأيام ، يمثل جانبا هاما

من التأليف التاريخى ولكن الحديث عن الجراد لايكاد يوجد إلا فى نبذ يسيرة مبتورة ، فهل عفا الله عن مصر فأنقذها منه ؟! .. وليس الأمر فى ذلك أمر المؤرخين فحسب ولكنه أمر الرحالين والشعراء ، ففى كتب الرحلات عن النوائب المروعة الطاحنة ما يكفى ، كما فى أشعار الأدباء صدى بارز لهذه النوائب وبخاصة فى العصر المملوكى والعصر الأيوبى ! وقد تكون الكارثة فى هجوم الجراد أقل وقعا من كوارث الأوبئة والطواعين ، لأن كارثة الجراد تنصب على الزروع والثمار دون الأرواح ، أما الأوبئة فتصيب الأناسى أول من تصيب، ولكن المصيبة مع ذلك فى الزروع والثمار ذات خطر لاينكر ، وما مصير الإنسان إذا عدم القوت ، وسطا عليه جيش من الجراد يجعل الأخضر قاحلا جديبا ، على أنى قرأت قصيدة «شاكية» تصف هول الجراد لشاعر من شعراء عصر محمد على ، وهو عصر متواضع جدا من الناحية الأدبية ولا يعمد أحد شعرائه للشكوى من الجراد إلا إذا كان الخطب فادحا ، هذا الشاعر هو السيد على الدرويش (١٨٥٣) وقد اتصل بأمراء الأسرة الحاكمة ، وعرف بأنه شاعر عباس الأول، وله ديوان شعرى يقع فى ٤٨٢ صفحة يضم إلى القصائد نماذج من نثره ، ومما قاله عن الجراد الذى اجتاح مصر سنة ١٢٥٩ هـ .

تجد الجراد على الجر
يد مظللا مثل الثمر
رقش تلوح كأنها
نار تلظى بالشجر
لواحة للأرض لا
تبقى النبات ولا تذر
وصغيرة فى حجمها
لكنها إحدى الكبر
الأرض كانت جنة
فالآن ترمى بالشرر
نزل الجراد بها كما
نزل القضاء أو القدر

ومطلع القصيدة :

يا صاح ما هذا الخبر
قلت الجراد هنا ظهر
قالوا الجراد فقلت إيه
وهل من المقضى مفر؟

ولم أجد من تحدث عن هجمات الجراد فى العصر الحاضر حديثا علميا ، غير باحثين فاضلين أحدهما الأستاذ الكبير ميخائيل بك شاروبيم صاحب الموسوعة الحافلة (الكافى) وهو مؤرخ مظلوم لم يأخذ حقه من التنويه الصادق ، حيث كتب أربعة مجلدات فى التاريخ المصرى كانت خلاصة وافية لكبريات الأحداث التاريخية فى وطننا العزيز منذ العهد الفرعونى إلى مفتتح القرن العشرين ، وإذا كان قد اكتفى بالنقل . ولم يفسح مجال النقد والتعقيب فحسبه أنه فرد واحد قام ، بما لم تقم به لجنة علمية ذات أعضاء متخصصين!

وقد أفاض فى ذكر حملة الجراد التى تمت غارتها فى سنة ١٨٩١

فكان مما قال.

وردت أخبار من مديرى الوجه البحرى والوجه القبلى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات كثيرة ، وذكر أسماء شتى للبلاد والقرى المنكوبة بغارة الجراد منها ما ينتمى إلى الشرقية والبحيرة والقليوبية والمنوفية والمنيا ، ولا أطيل بذكرها ، وكانت الأخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، فخاف الناس شره ، واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما ، وأرسلت إلى المديرين والمحافظين بضرورة استئصال شأفته، إذ فتك فتكا ذريعا بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل ، وظل الناس فى حيرة من أمره أيام رمضان حتى أذن الله سبحانه فهبت ريح فى أخريات شوال سنة ١٣٠٠ ، وكانت ريحا عاتية بعضها من الشرق وبعضها الآخر من الغرب فاكتسحته ، ومضى بعضه إلى الحوف الشرقى ، وبعضه إلى الجبل الغربى ، ولم تترك غير القليل فى البلاد والقرى التى فتك بمحصولها الزراعى ، فجد الأهالى فى استئصاله بضرب العصى ، وسعف النخيل وشجعت الحكومة الناس على جمع بيضه ، وفرضت قرشين لمن يأتى بآفة من بيضه فتسابق الناس فى البحث عن مواطنه ، وإخراجه منها ، وكان أكثره فى مركز النجيلة بمديرية البحيرة ، وبالجبل الغربى وسواحل البحر ، والمنيا وخاصة بمدينة الفشن ، ومن المؤلم أن سحابة منه نزلت على مزرعة قطن فأكلتها كلها وما جاءت على آخرها حتى ماتت جميعها ، وجاءت سحابة أخرى إلى مزرعة مجاورة ، ورأت صرعى الجراد بكثرة هائلة فامتنعت عن مزارع القطن تلقائيا وانتقلت إلى الأشجار والنباتات الأخرى ، مما يدل على ذكاء هذا الهاجم المتحفز ، وهذا ما يذكرنى بقصة رواها لى أحد الفلاحين فى قريتى منذ عهد طويل فذكر أنه كان جالسا فى حقله فرأى قطا يتحفز لاصطياد «نطاط» والنطاط هو من الجراد الصغير ، وكان يقف على جذع شجرة قريبا من الأرض ، ويغرى القط به حتى إذا هم بالوثوب عليه طار ، وتركه متربصا، ثم يعيد الكرة ثانية وثالثة ورابعة والقط يهم بالوثوب فلا يدرك الفريسة ، حتى يئس ومال إلى السكوت !

غارة تقضى على الجراد

ثم يذكر الأستاذ شاروبيم هذه الواقعة:

فى أثناء هذه الغارة ، وفى بلد أشمون جريس بالذات شاهد الناس أسرابا جديدة من طيور تشبه أبى قردان تأتى من ناحية الجبل طوائف بعد طوائف وهى تتبع الجراد أينما وجدته وتزدرده ازدرادا ثم تلتقطه بعد المضغ ميتا ، ولاترحل هذه الطيور حتى تقضى على الجراد بكل مكان تحله فساعدت على إبادته ، وبعض الجهلة من الفلاحين كانوا يرجمون هذا الطير المنقذ بالأحجار ، لما يتوهمون من شره مع أنه صديق مخلص ، وقد قال المؤلف إن طوائف منه تملأ الطريق فى هيئة صفوف

كالجند تماما ، وهى مطمئنة تؤدى واجبها فى ارتياح ، فهى تترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية إلى الحوف الشرقى لتسد عليه الطريق ، وتقتله ضربا بالأجنحة، ووخزا بالمناقير دون أن يفتر لها عزم وكأن الله قد أراد أن يخفف وطأة هذا العدو المغير ، فيسر له هذا الطائر وليتنا نجده الآن فى هذا المأزق الخطير.

هذا بعض ما ذكره الأستاذ شاروبيم، ولم نجد من مؤرخى هذه الحقبة من التفت إلى رصد هذه الظاهرة كما قام بذلك عن عيان .

أما الباحث الثانى فهو الدكتور مأمون عبدالسلام وكيل قسم النباتات بوزارة الزراعة فى السنوات الأخيرة من حياته ، وكانت جريدة الأهرام فى الثلاثينيات ، تحفل بمقالاته العلمية والتاريخية على نحو متسع ! وقد خص الجراد ببحث ضاف لم ينشره فى الأهرام كما اعتاد ، ولكنه نشره بمجلة الرسالة على عددين ، وربما كان حجم البحث لايسمح لجريدة يومية باستيعابه فآثر أن ينشره فى مجلة أدبية علمية ، وقد أشار إلى ما كتبه الرحالة السويسرى بوركهاردت عما شاهده من رحلة للجراد فى عهد محمد على ولعلها الرحلة التى نظم فيها الشاعر على الدرويش قصيدته التى أشرت إلى بعض أبياتها ، وقد قال إنه زار الشام ثم انتقل إلى مصر فشاهد أسرابا من الجراد الشره تلتهم أوراق السيال والدوم والطرفاء ، وتجردها من أوراقها الخضراء فلا تترك غير الأعواد الجافة، وإذا كان الأستاذ شاروبيم قد فرغ من تأليف كتابه قبل وفاته سنة ١٩٢٠، فإن الدكتور مأمون عبدالسلام قد تابع الحديث عن غارات الجراد قبل رحيل المؤلف وبعده ، إذ تحدث عن غارات متتابعة فى سنوات ١٩١٤ ، ١٩١٥ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، وذكر أن وزارة الزراعة قد رصدت مكافآت مالية لمن يدل على موضع بالصحراء يدفن فيه بيض الجراد لتقضى عليه قبل وجوده ، وقد بلغ ما جمع فى غارات الجراد الكبرى سنة ١٩١٥ ثلاثمائة وأربعين ألف آفة ، تحوى ثمانية وعشرين بليون من البيضات ! كما بلغ ما جمع من الجراد الحى بعد موته ثمانية بلايين جرادة سوى النطاط ، والنطاط هو الجراد الصغير قبل أن يشب ويسميه العرب (الجندب) وقد كان منتشرا فى الاراضى الزراعية ولايزال ولكن بصورة لاتدعو إلى الخوف فسرعان ما يقضى عليه ، وله أعداء تورده موارد الحتف ، كأبى قردان والهدهد والغراب فتساعد الفلاح على استئصاله فى غير عناء ومن الفلاحين فى قرى مصر من يشوونه ، ويجعلونه غذاء كالسمك تماما، وأنا شخصيا لا أطيق أن أراه على مائدة، مع أن الدين يبيح أكله فقد قال صلى الله عليه وسلم «أحلت لنا ميتتان : السمك والجراد ، ومما يستطرف ذكره ما جاء فى جريدة الوفد (٢٢ نوفمبر سنة ٢٠٠٤) من أن حزب المؤتمر اليمنى قد قرر استعداده



لاستقبال أسراب الجراد من أجل تجميعها لأكلها مباشرة ، أو حفظها لتؤكل فى أوقات لاحقه ، كما أوضح الحزب أن عادة أكل الجراد فى اليمن تعود إلى العصور القديمة ، حيث يفضل اليمنيون أكله بعد تحميصه فى الأفران، أو تمليحه وتجفيفه وحين يكثر الجراد تقوم بعض الأسر ببيعه فى المحلات التجارية ، وستشارك الأسر فى استقبال الجراد بموكب احتفالى تردد فيه الأغانى الشعبية ابتهاجا بهذا الرزق الذى جاء على غير موعد .

بلاد تأكل الجراد

وليست اليمن وحدها هى التى تستطعم أكل الجراد ، فكثير من أهل الكويت يستطعمونه وقد ذكر الأستاذ أحمد طه السنوسى وقد قضى أكثر حياته بالكويت ، أن القوم يلذهم طعمه كلحم الخراف تماما ، وقد يغلو ثمنه حتى يساوى ثمن اللحم ، ولم تظهر فى هذه البلاد التى تلتذ طعم الجراد أمراض تعزى إليه، والمسألة مسألة تعود وتآلف .

« وبعد » .

فالشاعر العربى القديم يقول

إن الأمـــور صـغـيـرهـا
مما يهيـــج له العظيم

وهو قول لا يلتفت إليه كثير من المسئولين الذين يصدرون الآراء المخطئة دون تدبر ، فبعضهم يهون الأمر ، ويعد الجراد شيئا هينا ، لأنه لا يضر الناس بل يقف عند الزرع والنبات ، ويزيد أحدهم فيقول إن الجراد ليس له أى علاقة بالصحة العامة ، بل إن بعض الدول الأوربية والعربية تعتبره غداء دسما ويسمونه جنبرى الصحراء وهو وجبة مفضلة سواء كان مسلوقا أو مشويا ، وهذا كلام قد يقال حين يكون الجراد بعيدا عن البلاد ، أما أن يكون ذا خطر داهم يتطلب الغوث العاجل ، فهو الخطأ بعينه ، وقد كان وزير الزراعة صادقا أمينا حين أعلن فى مؤتمر عام أننا مع الجراد اليوم فى كارثة تتطلب تضافر الجهود ، ولم يقل كما قال بعض المحافظين ، إن الجراد ينتقل من مكان إلى مكان ، ومصر منطقة عبور له لن ينالها خطر منه ، كما أن من المسئولين من حذر إدارات الزراعة فى الأقاليم أن تبدى للصحافة أى تصريح ، لأن ذلك يحدث البلبلة دون داع ومعنى ذلك أن تقنع المريض المتألم بأنه موفور الصحة تام العافية ، حتى يداهمه الموت دون علاج ! وإن المسئولين الكبار فى ساعات الخطر يواجهون شعوبهم بالحق المر ، ويصرون على كشف الحقائق مهما كانت شديدة المرارة ثم يسيرون إلى العلاج مهتدين بما يسمعون من النصائح المخلصة دون حساسية ما لأن الوطن وطن الجميع ، وإلى أن نؤمن بهذه المسلمات البديهية فإن على المسئولين الكبار ، أن يكونوا كبارا فعلا فى تحمل النتائج ، وحل الأزمات ، وأن يدعوا مناصبهم إذا كانوا يكتفون بالخداع والتمويه . ■

حريــة التعبير الأكاديمى على الإنتــرنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

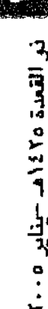
يعتبر موضوع الحرية الأكاديمية موضوعا جديدا نسبيا، حيث لم يهتم به على مستوى العالم إلا مع بداية عقد الثمانينات، وظهرت بدايات الدعوة للحرية الأكاديمية فى القرن الـ ١٢ في أوربا لمقاومة سلطات الحكومة والكنيسة. واشتدت الدعوة وأصبحت جادة مع أواخر القرن الـ ١٨ حين زادت المطالب بحرية الفكر، وكانت البداية فى جامعات ألمانيا التى اشتهرت بالحرية فى التدريس والتعليم، وطالب أساتذتها بامتيازات لا تمنح لغيرهم من الموظفين المدنيين، وفى نهاية القرن ١٩ كانت دعوة الحرية الأكاديمية منتشرة فى الجامعات الأمريكية الجديدة من خلال أعضائها الذين تخرجوا فى الجامعات الألمانية، وما لبثت تلك الدعوة أن أصبحت جزءا من أفكار فلسفة الحرية وانتشرت انتشارا واسعا فى جامعات أوربا وأمريكا.



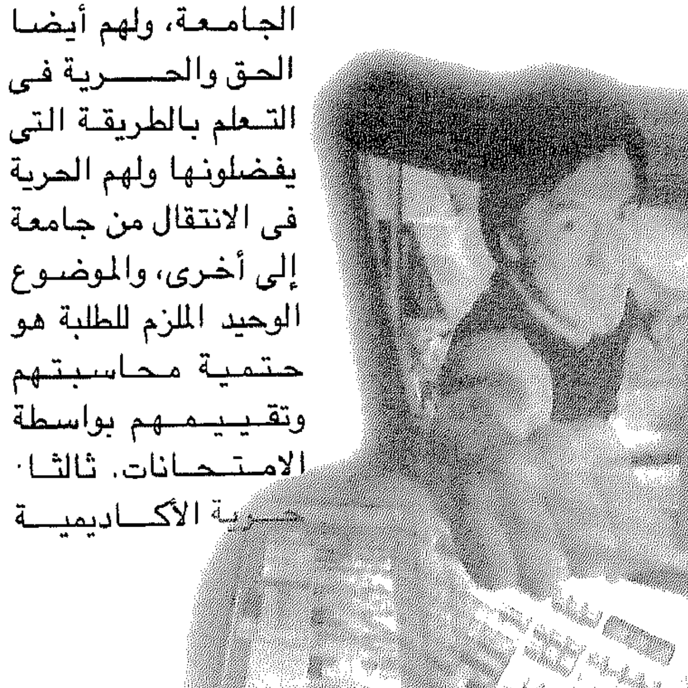
ومصطلح الحرية الأكاديمية له معانٍ وتطبيقات مختلفة ، وأخذ الكثيـــــر من المناظرات والمداولات والمجادلات فى العالم، وحتى الآن فى بعض الدول ليس هناك اتفـــاق على معانيه وتطبيقاته، فالاختلافات والجدل حول الحرية الأكاديمية تتركز حول تطبيقات المبادىء التى تنادى بها، أكثر من كونه اختلافات حول قضية قبول أو رفض للمبادىء نفسها، وتكون المجادلة دائما حول مدى احترام وقبول حدود هذه الحرية . فالحكومات الديكتاتورية تحاول التحكم فى البحوث والتعليم، وبعض المجتمعات حتى الديمقراطية منها لا تسمح للأستـــاذ ذى النظرة المعادية للديمقراطية، أو الشيوعى ، أو الفاشى بالتدريس، بل تجرده من حقوقه الشرعية وأهليته، وبعض المجتمعات تكتفى بالمراقبة وتسمح للأساتذة بالتعبير عن أفكارهم الراديكالية مع تركهم يتطرفون لدرجة التآمر ضد الحرية، وهذه المواقف تعكس الاخـتــلاف فى هامش السمـــاح بتلك الحرية فى المجتمعات المختلفة. ورغم ذلك هناك اتفاق واضح على معاني ومبادىء الحرية الأكاديمية وان كان الاختلاف فى عدد الحقوق التى أعطتها تلك الحرية لأفراد المجتمع الأكاديمى.

مفهوم الحرية الأكاديمية

ويمكن أن نتناول مفـهـوم الحرية الأكاديمية على ٣ مستويات: أولاً الحرية الأكـاديمية للأستـاذ: وهى حقـوق الأساتذة فى الجامعات والأكاديميات بممارسة العمل بحرية ، بدون تدخل أو منع أو رقابة من الآخرين سواء كان من الحكومة أو أى سلطة إدارية، أو سياسية، أو دينية واجتماعية، أو أى هيئة أخرى خارج الجامعة. والأساتذة فى الجامعات والأكاديميات لهم كل الحق والحرية فى الكلام والتعبير والتفكير والمناقشة والمجادلة، ولهم أيضا الحق والحرية فى التدريس والتعليم والتعلم والنقد والإبداع، علاوة على حرية المشاركة واختيار وإجراء البحوث، وحرية نشر نتائج هذه البحوث بصورة صريحة ونقلها للطلاب والآخرين بدون رقابة أو حذف أو تعديل أو عقاب. وللأستـاذ الحق والحرية فى تفصيلاته لواجباته الأكاديمية، فالأستاذ لا يحتاج أن يراجعه أحد فى خطته الدراسية أو البحثية أو مقالاته ولا يستأذن أو يحصل على موافقة رسمية من أى جهة لكى توافق أو تستحسن ما يقوله أو ما يدرسه أو يبحثه أو ينشره. وفى حجرة الدرس أو المعمل للأستاذ الحرية الكاملة فى مناقشة موضوعه مع الحرص على ألا يتعرض لنقط الخلاف المثيرة للجدل التى ليس لها علاقة بموضوع الدرس، ويجب على الأستاذ ألا يكذب أو يلوى نتائجه البحثية لتلائم وتتكيف مع التصورات المقدمة من قبل، أو تلك التى تخدم أهدافاً سياسية. والحرية الأكاديمية تعطى حصانة للأستاذ فى الاحتفاظ بموقعه الوظيفى والأكاديمى طالما هو مؤهل لذلك، ولم يخل بواجباته الأكاديمية بصرف النظر عن معتقداته الشخصية، وتؤكد أن الأستاذ أو الباحث الذى يسعى لاكتشاف الجديد يستحق حريته بداية من كونه طالبا حتى يصبح أستاذا من خلال تقاريره ومقالاته وبحوثه



ونتائجه. ثانيا: الحرية الأكاديمية للطلاب: تعطيهم كل الحق والحرية فى الكلام والتعبير والتفكير والمناقشة والمجادلة، ولهم أيضا الحق والحرية فى التعليم والتعلم والنقد والابداع، علاوة على حرية المشاركة واختيار وإجراء التقارير والتدريبات البحثية وحرية تبادل الأفكار، وهى تضمن حصانة للطلاب وتحميهم من أى كشف أو افتضاح لرأيهم ورؤيتهم التى يعبرون عنها فى امتحاناتهم وتقاريرهم وتدريباتهم من قبل أساتذتهم، وأيضا تضمن لهم عدم التشهير بهم أو استغلال أخطائهم المسجلة فى ملفاتهم. وللطلبة الحرية فى اختيار المواد التى يدرسونها، ولهم الحق فى تنمية معتقداتهم واتجاهاتهم المستقلة بعيدا عن أساتذتهم وأيضا عن الجامعة، وتعطى لهم كل الحرية فى حضور أو عدم حضور المحاضرات أو التدريبات الأكاديمية، وتترك لهم حرية التصرف وتدبير أمورهم، ومن حق الطلبة قبول أو رفض أفكار أساتذتهم أو أفكار الجامعة، ولهم أيضا الحق والحرية فى التعلم بالطريقة التى يفضلونها ولهم الحرية فى الانتقال من جامعة إلى أخرى، والموضوع الوحيد الملزم للطلبة هو حتمية محاسبتهم وتقييمهم بواسطة الامتحانات. ثالثا: حرية الأكاديمية



للمؤسسة التعليمية: وتؤكد تعاريف الحرية الأكاديمية على أن للجامعات والأكاديميات كامل الحرية فى صنع سياستها التعليمية والإدارية والمالية، ولها الحرية فى وضع السياسات والشروط التى على أساسها يتم اختيار أعضاء هيئة التدريس ومساعديهم بدون رقابة من أحد أو تحكم أو تدخل أو اعتراض من خارج الجامعة مهما كانت تلك الجهة، وهى حرة فى وضع قواعد قبول الطلاب بها وفى اختيار موظفيها الإداريين، ولها كل الحق فى وضع القواعد التى تحدد أسبقيات الأساتذة وفقا لآلياتها الخاصة، ولها أيضا الحرية فى تنمية معارفها وتبادلها مع المؤسسات الأخرى، حيث يتوفر لها حرية الاتصال بالمؤسسات والهيئات المعنية الأخرى بدون اعتراضات أو رقابة من الإدارة الرسمية، وتعطى الحرية الأكاديمية الحق للمؤسسات التعليمية بالإعلام الحر بنتائج البحوث التى تقوم بها، لأن ذلك من صميم العملية التعليمية ويشكل أقوى ضمان لدقة النتائج العلمية وموضوعيتها، وتؤكد على ضمانات الاستقلال المالى والمؤسسى. والحرية الأكاديمية تلزم الجامعة بتقييم أساتذتها على مدى قدراتهم فى تأدية واجباتهم الأكاديمية وليس حسب معتقداتهم الشخصية، والحرية الأكاديمية تضمن المصداقية والثقة المتبادلة بين الأساتذة والجامعة والمجتمع لتنمية المعارف استنادا على معايير أخلاقية وقوانين آداب المهنة ، ورغم أهمية الحرية الأكاديمية وضرورتها لتنمية المعارف، من خلال تدعيم

الأكاديميات بحق حرية الاتصال ونقل المعارف الجديدة حتى لو كانت تختلف مع المعتقدات السائدة فى المجتمع.

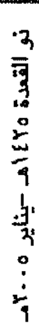
حرية ليست مطلقة

ورغم أن الحرية الأكاديمية تعتبر من أساسيات الديمقراطية، فهى حرية ليست مطلقة، فهى لا تسمح بالقذف والتشهير أو الإساءة وتشويه سمعة الغير، وهى أيضا لها حدود يجب أن تحترمها مثل ديانات الآخرين وأهداف الجامعة أو البحثية وأهداف المجتمع ويجب أن يكون ذلك واضح عند التعاقد مع الأساتذة، وعلى المجتمع أن يمارس ويحافظ على منظومة الحريات بسماحة، بدون تعنت أو قسوة من معاييره الثقافية لأن مساحة الاختلاف بين أفراد المجتمع تعكس مسافات الاختلاف الملائمة للحرية بين الأستاذ والطالب، وإذا كانت الحرية الأكاديمية هى حق المجتمع الأكاديمى فى أن يمارس الإبداع العقلى فى العملية التدريسية والبحثية دون تدخل من الدولة أو المؤسسات الدينية أو الاقتصادية، فهى استقلال لتأمين دور الجامعة فى إحداث التطور، وهى أيضا ضرورية لحيوية النشاط الإبداعى مثل الفنون والآداب، والحرية الأكاديمية تحترم وتصون الحرية الشخصية لكل من الأساتذة والطلبة خارج مؤسساتهم التعليمية، فلهم كل الحق فى تنمية وتكوين آرائهم خارج مؤسساتهم.

إن الحرية الأكاديمية حق من حقوق الإنسان، وإذا كانت حقوق الإنسان حقوق عامة، فالحرية الأكاديمية هى حرية خاصة لأعضاء المجتمع الأكاديمى، وقد يرى البعض تناقضاً فى ذلك، ولكن الحرية الأكاديمية ليست امتيازا، لأنها ضمن متضمنات التراث الفكرى والدستورى والقانونى لحقوق الإنسان، فهى رغم أنها دعوة جديدة إلا أن مقاصدها موجودة فى مبادىء ومواثيق حقوق الإنسان، وقد كثرت محاولات تقنين الحرية الأكاديمية أى تأصيلها، وإيجاد سند لها فى مبادىء ومواثيق حقوق الإنسان، وأهم مرجعية قانونية للحرية الأكاديمية هو الحق فى التعليم، وأيضا إلى عدد من الحقوق المتفرقة فى المواثيق الدولية، خصوصا تلك التى تتضمن الحق فى حرية الفكر والرأى والتعبير، وتكوين الجمعيات والاجتماع والتجمع الذى نصت عليه المواثيق الدولية لحقوق الإنسان الصادرة بعد الحرب العالمية الثانية، وأيضا اتفاقية اليونسكو المناهضة للتمييز فى التعليم (١٩٦٠)، ومع ذلك فليس هناك إلى الآن فى حدود علمي وثيقة دولية للحرية الأكاديمية مما يدخل تحت مظلة القانون الدولى ولا أى آلية دولية لأعمالها، لكن اهتمت الكثير من المنظمات غير الحكومية ، ومنظمات الأمم المتحدة بموضوع الحريات الأكاديمية بداية من أوائل الثمانينات.

الحريات الأكاديمية فى الجامعات العربية

نشر العديد من الدراسات عن الحريات الأكاديمية فى الجامعات العربية، نخرج منها أن هناك غياباً كبيراً للحريات الأكاديمية والممارسات



الديمقراطية فى أغلب الجامعات العربية، وتسود قيم التسلط والتصلب والسيطرة والعلاقات العمودية بين أطراف الحياة الجامعية وتشكل العلاقات الديمقراطية والتفاعل الديمقراطى غيابا واضحا فى البيئة الجامعية العربية، وتأخذ طرق التدريس فيها طابع التلقين والحفظ وذلك على حساب طرائق التدريس النقدية والحوارية التى تعزز شخصية الطالب وتنمى لديه كل مقومات الإبداع والابتكار، وتؤكد الدراسات غياب التفاعل التربوى بين الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، مع وجود حواجز نفسية واجتماعية تتنافى مع الأداء الديمقراطى والأكاديمى فى الجامعات العربية، ومع غياب الحرية الأكاديمية وعدم تفرغ الباحثين أصبح العلم لا يعبر عن نفسه بكل حرية فى الجامعات العربية، حيث القيود المفروضة على نشر المعلومات وتداولها، مما يحول دون إتاحتها للباحثين وعموم الناس، وهذا دائما حال البلدان المتخلفة كلها، حيث نجد علماء ينتمون لمصالح الحكومات، ويتولون فى غالب الأحوال مهام إدارية، وعلماء آخرون (خارج الدائرة) وهم كثيرون وأكثر نشاطا وإنتاجاً، لا يستشارون فى التخطيط لأية سياسة علمية أو اقتصادية أو اجتماعية، ولا يستفتون فى القرارات الحكومية المتعلقة بالعلم ومجالاته وتطبيقاته، ان ما نستخلصه من هذه الدراسات أن الحرية الأكاديمية التى اختصت السلطات المسئولة بها الجامعات كانت - فى أحسن أحوالها قديماً وحديثاً - امتيازاً مرهوناً يعلق أو ينفذ تبعاً للأحوال المزاجية لهذه السلطات .. ولم تكن أبداً حقاً مكتسباً تقتضيه طبيعة العمل فى الجامعات.

الإنترنت محدد جديد للحريات الأكاديمية

إن صعود الإنترنت طرح أسئلة جديدة حول الحرية الأكاديمية فى الحرم الجامعية، وإلى أى مدى يمكن للجامعات أن تنظم استعمال تقنية البريد إلكترونى، ومواقع ويب، من قبل طلابها وأساتذتها؟ وإلى أية درجة يمكن للجامعة أن تلتزم بإيقاف «سوء استعمال» أنظمة معلوماتها الخاصة؟ لقد أصبحت الإنترنت وسيطاً جديداً ورئيسياً للمحادثات العلمية والبحثية، ونعرف ان الإنترنت جعلت الحياة مختلفة فى أشكال عديدة، بما فى ذلك استعمالات وتطبيقات الحريات الأكاديمية فى المؤسسات التعليمية، ونزعم بداية أن هناك اختلافات واضحة جدا بين عوالم الطباعة والمطبعة والعوالم التخيلية. فهناك فروق أصيلة بين الأحداث التى تحدث على نحو متقطع فى الحرم الجامعى أو التى تحدث خلال أو خارج قاعة الدروس، ببساطة لا تنطبق على طبيعة الاتصال الرقمى. فمبادىء السرية والخصوصية التى تحكم الوصول إلى المواد الورقية لا تلائم دائما تبادلات البريد الإليكترونى أو الرسائل الفورية، أو قواعد

النشر فى المجلات العلمية الورقية وما شابه ذلك، فهى تنطبق بشكل ناقص على مواقع الويب وغرف الدردشة ومجموعات الأخبار، ومع التسليم بأن محددات الحريات الأكاديمية هى منظومة متداخلة ومتفاعلة من المتغيرات الخارجية التى تحيط بالجامعة ومن المتغيرات الداخلية النابعة من الجامعة نفسها، وهذه المتغيرات ذات طبيعة سياسية واجتماعية وثقافية، نزعم أن من أهم محددات الحريات الأكاديمية فى القرن الحادى والعشرين هى تأثيرات الثورة المعلوماتية، فعندما دخلت الإنترنت الجامعات المصرية، حرصت بعض الجامعات على وضع فلترة على مواقع الجنس وحجبها على مستخدمى الإنترنت داخل الجامعة، وجامعات أخرى اشترطت أن يكون الاستخدام تحت رقابة مشرف من الجامعة وهكذا، وفى دول أجنبية أخرى منعت نقاط الإنترنت داخل الجامعات من الوصول إلى مجموعات النقاش التى تهتم بقضايا الرق والعبودية، والجنس، والمواقع المتعلقة بالخصى وتبديل الجنس، وتناقش فى عجالة اليوم تنظيم مثل هذا الوصول بدون التعارض والتورط فى صراع مع القيم التى تبيح حرية التعبير الأكاديمى داخل الحرم الجامعى، ونزعم إن إثارة مثل هذا السؤال حتى لو كان مؤيداً لتحديد الوصول إلى بعض خدمات الإنترنت، يجب أن يناقش ليس فقط على ضوء المعايير الداخلية لمجتمع الإنترنت، بل يجب أن يؤخذ فى الاعتبار المؤسسة التى تقدم خدمة الإنترنت وهى الجامعة، ومعايير المجتمع العلمى فى تفاعلاته على الإنترنت. فى الجامعات الأمريكية نوقشت استراتيجيات مختلفة لتبرير وحماية حرية الكلام على الإنترنت، مع التأكيد على دور الجامعة فى حماية القيم الأخرى بين طلابها مثل قيم التسامح والحوار والأمانة الفكرية، وأن الجامعة يجب أن تسمح لكل وجهات النظر وتدافع عنها بالحوار المفتوح، وتنكر وتمنع وجهات النظر التى تنشر بالعنف والهجوم على الآخرين.

فى يناير عام ٢٠٠١، رفضت المحكمة العليا الأمريكية مراجعة قرار شامل من محكمة الاستئناف الأمريكية للدائرة الرابعة التى رفضت أى تعديل فى الحريات الأكاديمية للأساتذة فى الجامعة، وكان ذلك إشارة إلى قانون فرجينيا الذى منع الموظفين الحكوميين باستثناء شرطة الولاية من استعمال الحاسبات الحكومية فى المصالح العامة فى الوصول والولوج على مواقع ذات المحتوى الجنسى، بدون موافقة مكتوبة من رئيس المصلحة، وعلى القانون أن تلك الكميات الكبيرة من المواد الفنية على الإنترنت، ومواد الأدب، والكتابات الاجتماعية والتأريخية، والمعلومات الطبية، والمناقشات أكاديمية التى تراوحت بين نظريات فرويد عن القضيب إلى الدراسات المرحة والسحاقية كانت محرمة وممنوعة بشكل افتراضى على الأساتذة، والمكتبيون، وأمناء المتاحف.

الحرية الأكاديمية وتكنولوجيات المعلومات والاتصالات

إن توافر تكنولوجيات المعلومات والاتصالات فى المؤسسات ومع فشل تلك

المؤسسات فى وضع ونشر تعليمات عملية كافية لاستعمالها فى مراحل مبكرة من شأنه خلق الكثير من المشاكل للحريات الأكاديمية، حيث تزود تلك المؤسسات بالجديد من تكنولوجيات المعلوماتية، لكنها لا توضح فى المراحل المبكرة قواعد استعمالها، والتى تعتقد تلك المؤسسة أنها قانونية، وتبين فيها ما هى الاستعمالات المتوقعة، أو ما هى تلك النشاطات التى تريد منعها بأثر رجعى، حيث يفتقد الحوار الكافى بين صناع القاعدة المعلوماتية والأعضاء الآخرين فى المؤسسة، الذين غالبا ما يكون كلهم مستائين، وهى تحديات جديدة أمام الحريات الأكاديمية المجددة للمشاركين فى العملية التعليمية، لأن الحريات الأكاديمية ليست خرقا للقانون، واستعمالات تكنولوجيات المعلوماتية مثل الكمبيوتر والإنترنت بخدماتها من قبل الطلاب والموظفين فى الجامعة والتى تخرق القانون والقواعد الموضوعة، يجب أن تستدعى التحرك من قبل الجامعة بدون إهمال أو تغاض، حيث يسود اعتقاد بين الطلاب والأساتذة فى الجامعة أن تلك القوانين مكسورة ويمكن التغاضى عنها، خاصة التى تتعلق على سبيل المثال، بوصول غير مخول إلى الحاسبات أو الملكية الفكرية، والجامعة التى تملك قواعد داخلية تحكم استعمال تكنولوجيات المعلوماتية، تريد منع الضرر عن بنائها التحتى أو مصادر تمويلها، أو لمنع انسحاب خدمات المعلوماتية من المؤسسة، أو لمنع إجراءات الحجب والمنع غير العادلة أو تدهور خدماتها المعلوماتية. ويبدو من الصعوبة المجادلة بإقناع المؤسسة أن الانشغال فى النشاطات التى سببت تلك الأضرار يمكن أن تبرر بالمحافظة على الحريات الأكاديمية.

هل الحريات الأكاديمية تدعم حرية الوصول إلى الإنترنت؟

نشأت فى الكثير من الجامعات حول العالم بعض القضايا ضمن سياق الحريات الأكاديمية، ومدى الوصول غير المقيد للأساتذة والطلاب إلى الإنترنت وخدماتها مثل البريد الإليكترونى والويب. والسؤال المطروح الآن على جامعات العالم: هل الحريات الأكاديمية تدعم حرية الوصول إلى الإنترنت والبريد الإليكترونى أو الويب، بمعنى أنها تدعم الإنترنت غير المفلتر؟ الحقيقة هناك فعلا مخاوف هامة حول بعض أنواع محددة من المحتويات المتوفرة على الإنترنت، وأكثرها وضوحا مواقع الخلاعة والبورنو، كمثال، كنت أقوم بتدريس مقررا حول تطبيقات الإنترنت فى مثيودلوجى العلوم الاجتماعية لطلاب التمهيدى المسجلين لمرحلة الدكتوراه، وكان محور المقرر، كيفية البحث فى الإنترنت حول موضوع علمى معين، وفى أثناء التدريب كنت ألاحظ، أن الفصل إذا كان يضم طلابا من الذكور فقط، كانوا يمارسون عملية البحث بحرية كاملة، وقد يتعرضون لمواقع تعرض الجنس، فيتم

التعليق عليها بنوع من الفكاهة الخفيفة، ويستمرون فى تدريبهم البحثى. أما إذا ضم الفصل طلابا وطالبات، يكون كل منهم حريصاً ألا يقع فى مطب التعرض لأى موقع يعرض الجنس. هذا معناه أنه رغم التوجه القيمى بالحرية الكاملة فى الإنترنت كتكنولوجيا، إلا أن هذا التوجه رفض من قبل المستعملين فى مجتمع معين. ويوجد تباين واضح فى درجة الأضرار المحتملة التى يمكن أن يسببها التعرض لمثل هذه المواقع، وأيضا تباين فى الأضرار المحتملة التى يمكن أن تسببها فلترة المواقع غير المرغوبة؟ فى أغلب الأحيان يخفق المرشح فى فلترة المادة غير المرغوبة، ويمنع المواد المرغوبة والمفيدة خاصة فى غياب معرفة المعايير، لأن الفلترة غالبا ما تكون قائمة على مصطلحات مرتبطة مثلا بموضوع الجنس، ولكن بعض تلك المصطلحات تستعمل أيضا فى الدراسات الطبية والاجتماعية وهكذا، ولا يجب أن تنشغل المؤسسات التعليمية بعمليات فلترة ومتابعة نشاط الطلبة والأساتذة فى دخولهم على الإنترنت، ما لم يكن هناك دواع واعتبارات قانونية.

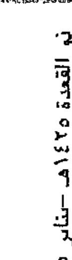
والحريات الأكاديمية ليس لها معنى فى مؤسسات تعليمية، تعمل على حجب ومنع معلومات استنادا لوجهة نظر أو تمييز شخصى، بمعنى أدق الحريات الأكاديمية توفر حرية الوصول إلى الإنترنت للأغراض الأكاديمية بشكل لا يسبب أذى إلى المستعملين الآخرين أو إلى الجامعة، ويجب أن يعى الطلاب والأساتذة بمسئوليتهم حيال ذلك، ويكونوا مدركين لأهداف تطبيقات تكنولوجيات المعلوماتية، ومدركين أيضا لسياسات الاستعمال الصحيحة والإجراءات التأديبية المتوقعة.

هل تنجح المراقبة؟!

ودائما تثار مجادلة حول مراقبة الجامعات لاستعمالات أساتذتها وطلابها للإنترنت وخدماتها بأنها سوف تعيق الحريات الأكاديمية، وذلك بمنع البحث فى المجالات المثيرة للجدل أو المكروهة، وهنا نضع مجموعة من النقاط للاستبصار بها وهى:

١ - الجامعات والمؤسسات التعليمية مثل أى مؤسسة أخرى لها الحق (التزامات تعاقدية وقانونية) من التأكد بأن قاعدة تكنولوجيات المعلوماتية التى تملكها تستعمل بشكل ملائم بمعنى طبقا لقواعد المؤسسة وضمن القانون.

٢ - إن أكثر المستعملين يملكون إمكانية الوصول إلى الإنترنت وخدماتها خارج الجامعة، فى البيت أو فى المكتبات العامة، أو فى مقاهى الإنترنت.. إلخ وهو وصول غير مراقب وبتكلفة معقولة، وهكذا فرفض تقديم الخدمة غير المراقبة فى الجامعات والمؤسسات التعليمية لا يشكل نكراناً مطلقاً لحق الوصول إلى المصدر. ومعظم المؤسسات الأكاديمية فى الدول المتقدمة لا تملك القدرة للانشغال فى مراقبة استعمالات تكنولوجيات المعلوماتية بين أعضائها، حتى مجرد الالتفات إلى ذلك، وتفضل أن تكون ممارسة تلك الرقابة ضمن الإطار القانونى لمراقبة الاتصالات إذا استدعى الموقف ذلك، وربما تكون تلك الممارسة أفضل من أن



تحتفظ المؤسسة الأكاديمية لنفسها بحق المراقبة، حيث تضفى الرقابة فى إطار قانونى طابع شخصى على المراقبة تستدعيه ظروف قانونية أوجدتها هواجس وشك بأن هناك حالة انتهاك لقواعد المؤسسة أو للقانون وكل هذه الحالات الشخصية تستدعى الفحص والتدقيق، وسؤال آخر يطرح نفسه هل الجامعة مجبرة على تزويد الأساتذة والطلبة بمنصة مفتوحة لنشر وإذاعة آرائهم وأبحاثهم؟! هنا أيضا يثار جدل لأن منع وحجب وجهات النظر أو الأبحاث الأكاديمية للطلاب والأساتذة من على المنصة المفتوحة القائمة على تكنولوجيات المعلوماتية يدون ضد الحرية الأكاديمية. على أية حال هناك أرضيات وأسس عامة مشتركة فى العديد من الظروف وليست هذه الحالة ، منها:

١ - إن الاستعمال غير المراقب لتكنولوجيات المعلوماتية قد يترك الجامعة تتعرض للمسئولية الإجرامية أو المدنية التى قد تضر بسمعة المؤسسة، ومصادر التمويل، وفرص تزويدها بالخدمات التعليمية.

٢ - أكثر المستعملين سيكون عندهم الفرصة أن يكون لديهم صفحات ويب مستضيفة خارج الجامعة يعرضون فيها بحرية تامة وجهات نظرهم وأبحاثهم التى تتحفظ عليها الجامعة، فعدم سماح الجامعة بذلك لا يشكل نكراناً مطلقاً لوجهة نظرهم ، ولكنها لا تريد بأن يؤخذ الانطباع بأن وجهة النظر هذه محمولة أو مدعومة من قبل الجامعة، خاصة إذا كان البحث أو وجهة النظر المنشورة غير مرتبطة بأعمال المستعمل فى الجامعة.

على كل حال القرار بمنع الحريات الأكاديمية على منصة خدمات تكنولوجيات المعلوماتية التى تقدمها الجامعة لمنع نشر المواد المثيرة للجدل فى الأبحاث ووجهات النظر المتعلقة بأعمالهم الأكاديمية فى المؤسسة أو الاستعانة بمواد تعليمية إيضاحية تفعل العملية التدريسية، يجب أن تكون مسألة قلق عظيم، وقد تكون هناك طرق أقل تقييدية فى معالجة مثل هذه الأمور، مثل الوصول المحدد والمشروط للمواد التعليمية للطلاب، أو نطاق ومجال المؤسسة، ومن ناحية أخرى فإن مفهوم الحرية الأكاديمية ، سيكون دائما موضوع للاشتباك بين النظرة الإدارية للتربية الحديثة والحريات الأكاديمية، وسيكون هناك دائما أولئك الذين يريدون الترويج لوجهة نظرهم تحت راية الحريات الأكاديمية، بينما هناك آخرون ينكرون الحريات الأكاديمية لبعض هذه القضايا، ليس هناك أجوبة سهلة أو حلول بسيطة لفك هذا الاشتباك، ليس هناك غير التخطيط الفعال لحوار مفتوح بين الطرفين لخلق القواعد المناسبة. ■



● «تمثل الدبلوماسية الناجحة إئتلافا بين الضرورة والصدفة» .

هنرى كيسنجر
وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق

● «أعتقد أن النساء أكثر حنكة من الرجال ».

بارى شيرمان
النائب ورئيس لجنة التعليم
بمجلس العموم البريطانى

● « الكتابة عندى، من البداية، وحتى يومنا هذا، رحلة استكشاف» .

نادين جورديمر
الفائزة بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٩١

● « يعبر الجنس غير الحى عن نفسه، من خلال اختلاس النظر من ثقب الباب ».

الفريدا بيليك
الأديبة النمساوية الفائزة بجائزة
نوبل فى الأدب لعام ٢٠٠٤

● « الثقافة إذا لم تعبر عن روح المجتمع، وجوهر الحياة، فإنها مهما بلغت تقدميتها، وحداثتها لا تدوم ».

الروائى السورى خليل النعيمى

● «التليفزيون المصرى تحول إلى سمسار» .

الموسيقار محمد سلطان

● «الأديب لا يصادر رأيا أو يحجب رؤية، وإنما يحتوى الفكر فى شموليته المحسوبة » .

الأديب نجيب محفوظ
الفائز بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٨

● « إسرائيل تعانى نوعا من الاضطراب النفسى، يتمثل بمعاداة فرنسا، دون سواها من دول أوروبا، فالإسرائيليون يحبون أن يكرهوا فرنسا» .

جيرار آرو
سفير فرنسا لدى إسرائيل

● « من لا يستفيد من أخطاء تاريخه، مكتوب عليه تكرارها ».

الكاتب البحرينى محمد جابر الأنصارى

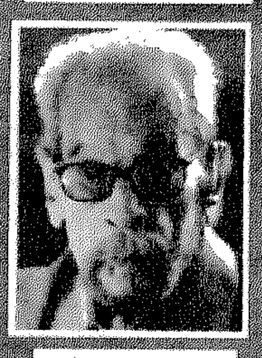
● « قساوة قلب كونداليزا مستشارة الأمن القومى تثير الاستغراب، ليس فقط لأنها أنثى، وإنما لأنها فى الوقت نفسه ذات حس موسيقى ».

الصحفى السورى فؤاد مطر

● « عصر السوبرمان انتهى فى العالم كله، ولم يعد له وجود، إلا فى السينما، مثلما لم يكن للمدينة الفاضلة وجود إلا فى ذهن أفلاطون ».

غازى الياور
رئيس العراق المؤقت


هنرى كيسنجر


نجيب محفوظ


محمد سلطان

المجلات الثقافية
والفتوى بغير علم!!

بقلم
مصطفى نبيل

تظل الحاجة ملحة، فى كل جوانب الحياة، إلى التجديد والتطوير المستمر، فالتقدم إلى الأمام مثل التجديف ضد التيار، يقترب من مقصده مع التطوير والتجديد، خاصة ونحن نعيش ثورة الاتصالات والمعلومات، بكل ما تفرضه على كل المجالات، وتأثيرها على الصحف والمجلات أشد وأكبر، لذلك يقوم فريق العمل فى مجلة الهلال بجهد كبير فى تطوير وتجديد مجلة «الهلال» التى يصل عمرها إلى اثنى عشر ومائة عام، والسعى من أجل تجديد المادة التحريرية، وتطوير الطباعة واستخدام أحدث التقنيات ، وبذل المزيد من الجهد فى الإخراج، واستخدام الخط واللوحة والصورة، كل ذلك من أجل جذب القارىء وإثارة دهشته.

ومن أجل التواصل مع الأجيال الجديدة، ومن أجل اللحاق بثورة العصر. قدمنا للقارىء مشروعاً كبيراً، قارب على الانتهاء بالاشتراك مع مكتبة الإسكندرية، ذلك الصرح الثقافى الشامخ، لوضع



برنامج فهرسة مجلة الهلال منذ نشأتها سنة ١٨٩٢، ووضع مادتها على أقراص مدمجة رقمية تغطى إصداراتها خلال تاريخها الطويل الحافل فى خدمة الثقافة العربية، والذى لا يكاد يوجد كاتب إلا وساهم فى تحريرها.

ويقدم هذا المشروع بانوراما الثقافة العربية، ومرآة للفن والفكر خلال ما يزيد على قرن من الزمان، ذكريات ومقالات عن المرحلة التاريخية التى عاشتها «الهلال» والتى بدأت فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، عندما كانت الصحافة الثقافية وعاء الفكر الذى تلوذ به الطلائع المثقفة فى تصديها للتحديات، فعلى صفحات الهلال ظهرت أسماء أشهر الأدباء والشعراء والفنانين والمفكرين والعلماء، ممن كان لهم أبلغ الأثر فى وجدان وعقل القارئ والإنسان العربى.

تغيرت الدنيا وظلت رسالة المجلة باقية وهى الحفاظ على الهوية الوطنية، فالدنيا وإن تغيرت ظلت التحديات التى نواجهها على حالها.

ومازالت «الهلال» تطير فوق الواقع، ويجد الفكر أفقا يسبح فيه، فنحن جيل سادس أو سابع من الكتاب الذين تولوا مسئولية العمل فى«الهلال»، فمسيرة «الهلال» سلسلة متصلة الحلقات.

نقول ذلك بعد أن تزايدت الهجمات على المجلات الثقافية، وكثر الحديث حول غياب هذه المجلات، حتى لقد كتب أحد الشعراء والكتاب

المرموقين ، مدعيا غياب المجلات الثقافية ، متجاهلاً هذا الكم من هذه المجلات. (فاروق شوشة – الأهرام)

وهؤلاء الذين ينكرون وجود مجلة «الهلال» كان تكوينهم الفكرى والثقافى من خلال صفحاتها على امتداد صدورها بداية من عام ١٨٩٢.

وقبل ذلك تناول أحد تقارير المجالس القومية المتخصصة، ما يطلق عليه أزمة المجلات الثقافية، وها هو مجلس له اعتباره، يدعى التخصص ، يجهل أو يتجاهل المجلات الثقافية ذات التاريخ المجيد، ينكرها ويتنكر لها، ويجهل أن أعرق مجلة ثقافية فى الوطن العربى تصدر فى مصر، وبدلاً من كلمة تشجيع أو كلمة نقد موضوعى لمسيرة هذه المجلة، طالبوا بإصدار مجلة ثقافية أخرى وهى دعوة لا غبار عليها، إذا لم تعن إنكار وجود القائم من المجلات الثقافية.

فعندما يتحدث الجالسون فى المجلس القومى للثقافة عن مجلات ثقافية جديدة ويتجاهلون المجلات الموجودة، غامزين إياها، فهو تفكير عقيم وجهل عميق.. والمدهش حقاً أن يأتى كلام قريب منه على لسان وزير الثقافة.. وتجدر الإشارة إلى أن هناك من لا يرى ولا يعرف شيئا، ولا يحمل تقديراً لشىء، ويرفع صوته أو يسن قلمه متحدثاً عن المجلات الثقافية وكأنها اختراع مدهش!، ولا يكلف نفسه عناء استعراض هذه المجلات، ولا أن يتناول مادتها التحريرية، ولا يجهد نفسه ويقدم تقييما ونقدا للدوريات الثقافية، ولا يفرق بين أزمة المجلات الثقافية والأزمة الثقافية التى علينا جميعا أن نتكاتف من أجل مواجهتها، أو أن يشغله التأمل ولو قليلاً فى أثر التقنيات الحديثة، فى عصر الفضاء وثورة الاتصالات والمعلومات، على ظاهرة ضعف القراءة الورقية! وأن يدرك أن نجاح المجلة الثقافية إحدى نتائج المناخ الثقافى العام وإحدى نتائج التناغم بين الكاتب والقارىء، أى بين المرسل والمتلقى، كما لا يمكن فصل أزمة الدوريات الثقافية عن أزمة الثقافة، وترتبط أزمة الثقافة بوضع المثقف فى المجتمع الذى ينتمى إليه، وقدرة هذا المجتمع على الاستفادة من جهد مثقفيه وكتابه، ومدى نجاحه فى جعل المفكرين جزءًا حيويا من نسيجه، هذا فى الوقت الذى يعانى المثقفون فى العالم الثالث من التجاهل والإهمال، أو من التدجين والتطويع، مما يبعث لديهم الشعور بالإحباط والسخط.





ومن هنا يأتى الشعور بالعبثية واللاجدوى، بين الكتاب والقراء على السواء، عندما تطرح فكرة على الرأى العام، وتأخذ فرصتها من الحوار ويؤيدها قطاعات واسعة من الرأى العام، ثم لا تجد هذه الأطروحات طريقها إلى أرض الواقع.

والحرية هى الترياق الذى تعيش به المجلة الثقافية، وهى الهواء الذى تتنفسه، وإذا غابت الحرية عانت وضعفت المجلة الثقافية. لذا يتوقف مدى نجاح المجلة الثقافية على قدرتها على الوصول إلى آخر هامش للحرية، والوصول إلى حافة الأسلاك الشائكة وما يحيط بها من ألغام، وكما نرى لا يأتى القيد على الحرية من الدولة وحدها، بل كثيراً ما يأتى من الإرهاب الفكرى الذى يضع قيداً أشد قسوة على الحرية، وعلى الأفكار الجديدة.

ويبدو هذا التحدى واضحاً من نظرة سريعة على مالقيته العديد من المجلات الثقافية، التى يصرعها دفاعها عن الحرية، وكلنا يتذكر مذبحة المجلات الثقافية عندما انقلبت السياسة المصرية على عقبيها فى منتصف السبعينات، وأغلقت كل من مجلتى «الطليعة» و«الكاتب» وقبلهما تم التخلص من سبع مجلات ثقافية كانت تصدر من القاهرة، هى مجلة القصة، والفكر المعاصر، المجلة، الفنون الشعبية، الكتاب العربى، السينما، المسرح، وهناك تاريخ طويل من القمع وملاحقة وإغلاق المجلات الثقافية!

والسجل طويل ، نذكر منه فصل رئيس تحرير مجلة المعرفة السورية عندما نشرت فى افتتاحيتها بعض نصوص «طبائع الاستبداد» للكواكبى، ومن كلاسيكيات الموقف من الحرية، ما كتبه خليل مطران فى «المجلة المصرية» فى مطلع القرن العشرين تحت عنوان التضييق على الصحافة، وحمل على حالة خوف الحكومات من النقد، وعبر عن ذلك شعراً بقوله:

شردوا أخبارها بحرًا وبرًا
واقتلوا أحرارها حرًا فحرًا
إنما الصالح يبقى صالحاً
آخر الدهر ويبقى الشر شرا
كسروا الأقلام هل تكسيرها
يمنع الأيدى أن تنقش صخرا

قطعوا الأيدى هل تقطيعها
يمنع الأعين أن تنظر شزرا
اطفئوا الأعين هل إطفاؤها
يمنع الأنفاس أن تصعد زمرا
إخمدوا الأنفاس هذا جهدكم
وبه منجاتنا منكم، فشكراً

إشارات وتنبيهات

وقد أثير مؤخرا التحدى الذى يواجه الكتب والصحف والدوريات الثقافية، بسبب ما أحدثته مستجدات العصر من تغيير نال من بعض عادات القارىء الذى جذبته الإنترنت، ويستدلون على ذلك بظهور جيل جديد لا يرى فى الورق وعاء للثقافة، وبعد أن أصبحت المعلومات والبيانات تبرمج على «ديسكات»، وتسترجع على شاشة الكمبيوتر، وتتدفق المعارف والمعلومات بلمسة أصبع. كما قدم التليفزيون والفيديو تسلية أفضل وأكثر تشويقا، ووقر فى اقتناع شريحة من هذه الأجيال أن عادة القراءة طراز عتيق فات أوانه!

وتوزع الجيل الصاعد، بالفعل، فإما جذبته الإنترنت وكل ما جاءت به التكنولوجيا الحديثة، وإما جذب قطاعاً آخر من الشباب، لا أقول التدين وإنما «الدروشة» وزادت مظاهر التدين وتراجعت ممارساته المتمثلة فى عمل أفضل ومعاملة أحسن، وقطاع ثالث من الشباب انصرف للهو وعانى من المخدرات ومشتقاتها، وظلت شريحة جد قليلة تتابع العصر وتتابع الكتابات الجديدة على السواء وخاصة خارج القاهرة.

والغريب أن تهدد ثورة المعلومات والاتصالات القراءة الورقية عندنا، مع قلة ما تحقق منها فى بلادنا، فى الوقت الذى لم يحدث تأثير على القارىء فى الدول المتقدمة، التى ظهرت فيها هذه الثورة وتطورت، والتى يتنازعها أهل الكمبيوتر وأهل الاتصالات وأهل المكتبات.

والقضية الحقيقية والملحة يجب أن توجه إلى التقاعس فى نقل هذه الثورة التقنية إلينا، ولا يمكن الزعم أنه توجد صناعة برمجيات عربية، ولم يبذل - حتى اليوم - الجهد الكافى الذى يهدف إلى تعريب نظم وتشغيل وتطوير لغات برمجة عربية.

ورغم أن التقدم التقنى أصبح معيار التقدم ، وقدراً لا مناص منه، فعلينا أن نعالج آثاره الجانبية، وكما قيل .. «على العلم أن يكتشف ، وعلى التقنية أن تطبق، وعلى الإنسان أن يتكيف..»، ولا ينبغى أن ننسى فى هذا السياق شيوع أمية الكمبيوتر



والمعلومات فى العديد من التجمعات العربية، كما علينا أن نتذكر ضعف النشر عموماً، والنشر العلمى على وجه الخصوص، وبطء وعشوائية حركة الترجمة، وندرة المجلات المتخصصة، كما أن أثر التقنية الحديثة فى المنتج الثقافى لا يمكن إنكاره، فقد وفرت له وسائل مساعدة.

وقدمت التقنية الحديثة فنا جديداً هو فن الخرائط، وفن عرض وتبسيط المعلومات فى جداول ناطقة، وأصبح الناشر قادراً على إصدار ذات الكتاب فى أكثر من عاصمة، متجنبا بذلك أسعار النقل وقيود الجمارك وغيرها من العقبات.

ومازلنا لا نتورع عن وضع الثقافة فى ذيل قائمة أولوياتنا باعتبارها أقل أهمية، كما أن طغيان السياسة ظاهر على الساحة الثقافية العربية، والولع بالعناوين الكبيرة ، وغياب التفاصيل الصغيرة التى تصنع التقدم والنهضة.

ومازال المستقبل للتوافق بين كلمات الكاتب وعدسة المصور وريشة الفنان، ولن تختفى المطبوعة فى شكلها الورقى، وسيظل الكتاب رفيقا للقارىء الذى يأخذه حيثا ذهب، ومازال الكتاب حلقة وصل تربطنا بالماضى أى بتجارب البشر والمستقبل بآماله. فالأدوات التى استحدثت هى فى حقيقتها أدوات تساعد على القراءة وتقوم عليها، وثبت بالتجربة أنه لا أحد يقرأ على الكمبيوتر أعمالا إبداعية من شعر ورواية أو حتى الفلسفة والتاريخ، كما تأكد أنه مع انتشار الوسائط الحديثة ازداد توزيع الكتب فى الدول المتقدمة.

أما التحدى الثانى الذى تواجهه المجلات الثقافية فهو اختلال التوازن بين تكلفة العمل الثقافى الرفيع وعائده، فتعانى المجلات الثقافية من هذه الفجوة الكبيرة، خاصة بعد التكاليف الباهظة التى يتكلفها التطور التقنى واستيراد المطابع الحديثة واستخدام الكمبيوتر والجمع التصويرى وفصل الألوان، علاوة على الارتفاع الكبير فى أسعار الورق - الذى مازلنا نستورد معظمه من الخارج - ، وارتفاع سعر المجلة يؤدى إلى قلة انتشارها، فيمكن الاستغناء عن الكتب والمجلات ويستحيل الاستغناء عن الغذاء والدواء خاصة وعموم القراء لا يقدرون على الشراء، والكثير من الأغنياء الجدد لا

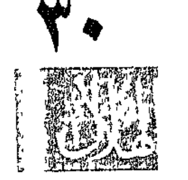
يدركون قيمة الكلمة المكتوبة، وغالبا ما يأتي ارتفاع أسعار المطبوعات على حساب القراء، وينال من مكافآت الكتاب، هؤلاء الكتاب الذين لم يعودوا قادرين على إشباع حاجاتهم المعيشية مما يكتبون، وربما ينجح فى إشباع هذه الحاجات عندما يبتعد عن محراب فكره، ويتجنب الخوض فى أمهات المسائل، وينشغل بالرائج من الأمور، أو عندما تغلب على كتاباته ممالأة أولئك القادرين على الدفع!

ومن ناحية أخرى تواجه الدوريات الثقافية عدم القدرة على جذب المتخصصين للمساهمة فى تحرير فروع المعرفة المختلفة، ويقل الكتاب المتخصصون مثلاً فى الثقافة العلمية، رغم أن لدينا الكثير من العلماء المشهود لهم بالقدرة والكفاءة العالية، والمنتشرين فى الجامعات والمؤسسات العلمية، ولكن ليس لديهم عادة الكتابة فى الدوريات الثقافية، ولا يشعرون بالحاجة إلى تقديم معارفهم للقارىء، ولعلهم راضون بعزلتهم فى معاملهم وأبراجهم العاجية، هذا باستثناءات قليلة مثل د. أحمد مستجير ود. نبيل على وغيرهم، وبرز فى سنوات سابقة الكثير من العلماء الذين مازلنا نذكر مقالاتهم مثل د. أحمد زكى و د. عبدالمحسن صالح ود. عبدالحليم منتصر.

وما أحوجنا اليوم لهؤلاء العلماء فى ظل عصر غياب اليقين، ومع سرعة وتيرة التغيرات التى يشهدها العالم، وسقوط مدارس فكرية كانت راسخة، وبشائر ظهور مدارس وأفكار جديدة.

وهناك قضية أخرى مسكوت عنها وتعانى منها المجلات الثقافية ، فى ظل المناخ الفكرى السائد، الذى يسوده الاستقطاب والانقسام الحاد بين أصحاب المدارس الفكرية المختلفة، وتقوم حروب فكرية تستخدم فيها كل أدوات الصراع التى تفرضها الخصومة الحادة، وتحولت الكلمات إلى طلقات معبأة بالحقد والعنف.

وفى ظل هذا المناخ قامت السدود والحواجز بين المدارس الفكرية، وبدلاً من الحوار قامت أشرس المعارك، وانغلقت كل مدرسة على ذاتها، لا تعرف ولا تريد أن تعرف ما يطرحه الآخر، واتسمت العلاقات بالوقيعة والترصد، وأخذ القراء من كل مدرسة يبحثون عما يؤكد أفكارهم، وينصرفون عن كل ما يدعو للتفكير أو إعادة النظر، ولا يطيقون قراءة ما يخالف وجهات نظرهم، مما يضع قيداً ثقيلاً على الأفكار الجديدة، وتقتل



المبـــــادرات ويجف مع هذا المناخ الإبداع!

وكنا فى «الهلال» ومازلنا نغتبط كلما شاهدنا مجلة عربية جديدة، تنسج على منوالنا، وتحمل مشعلا جديداً بنفس الطريقة التى تحمل بها الهلال مشعلها متجاوزة الصعاب، فكانت القاهرة دائما تنقل خبرتها كاملة إلى كل ركن من أركان الوطن العربى الكبير.

أما ما ينبغى أن يهتم به المعنيون بالدوريات الثقافية، فهو الوصول إلى استراتيجية للثقافة العربية، فالثقافة تنعكس شرقا وغربا على القراء فى كل مكان، وهذه الثقافة هى التى تصنع المكانة الحقيقية لمصر، كما صنعت لها المكانة فى الماضى القريب والبعيد، وقد ارتفع اسم مصر مع ارتفاع أسماء كتابها وشعرائها وموسيقييها وكل عالم أو مفكر فيها، وهذه الأسماء الكبيرة هى التى تتخطى الحدود إلى كل قارىء عربى، مما يعنى رعاية الأقلام كبيرها وصغيرها، وتحويل وزارة الثقافة إلى ملتقى للمثقفين بعد أن ظلت طويلاً داراً للموظفين!

وأخيراً..

مع ارتفاع الكثير من الصيحات التى تدعى تراجع الفلسفة والأيديولوجيا، وسحق الهويات أمام الهيمنة الخارجية، وتصاعد أهمية المعلومات والأرقام كأساس لاتخاذ القرارات الحيوية، فلا يمكن إنكار التحديات التى تواجه المجلة الثقافية، فى ضرورة التزود بأدوات المعرفة الجديدة، وتراجع دور «الكلمة» وشيوع ثقافة «الصورة» التى طغت، وما أصاب عادة القراءة فى بلدنا من انحسار! فثبات واستمرار المجلات الثقافية، دليل قاطع على استمرار التقدم فى المجتمعات العربية.

وإذا كانت الساحة قد خلت من أسماء كبيرة كانت ذات صدى واسع، كالمقتطف والرسالة والثقافة وغيرها فإن الأمل يحدونا فى استمرار المجلات الثقافية العربية فى المرحلة التاريخية المقبلة، واتساع نشاطها، هو ذاته الأمل فى استمرار التقدم والنهضة.

ولا يمكن أن تنهض أمة، وهى تعانى من الأمية، وبدون أن تصبح مستحدثات العصر جزءا من نسيجها وبنيانها، وهو الدور الذى تسعى لتحقيقه المجلات الثقافية. ■

هل عطلت الثقافة الوطنية التقدم ؟!

بقلم
د. جلال أمين

الرفاهية الإنسانية كائن بالغ التعقيد ، من الصعب جداً سبر أغواره والتمييز بين عناصره ومكوناته ، والكشف عن العوامل المؤثرة فيه ، إيجابا وسلبا ، إنها لفظ قريب جدا فى معناه من لفظ السعادة أو الرضا ، ونحن نعرف صعوبة الكشف عن مكنون السعادة أو الرضا ،عن أسباب أى منهما ومكوناته ، ونعرف أن هناك عشرات العوامل المتداخلة والمتضاربة التى قد تزيد من سعادتنا أو تقلل منها : اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية والعامل الذى قد يؤثر تأثيراً إيجابيا على الرفاهية الإنسانية (أو السعادة) عن طريق تأثيره الإيجابى على حالتنا الاقتصادية مثلا ، من الممكن جداً أن يؤثر على الرفاهية تأثيرا سلبيا بسبب تأثيره السلبى على جانب من جوانب الثقافة ، كاللغة أو الدين ، أو على درجة الطمأنينة إلى المستقبل ، أو على طبيعة العلاقة بين أفراد الأسرة .. الخ



لهذا السبب لم أشعر قط بالارتياح لذلك التعبير الغريب الذى بدأ استخدامه فى أوائل القرن الماضى ، وهو تعبير «الرفاهية الاقتصادية» (economic wel-fare)، فهو تعبير يوحى بإمكان تجزئة الرفاهية الانسانية إلى أجزاء ، بعضها اقتصادى وبعضها سياسى أو ثقافى .. وهو أمر فى رأيى غير جائز ، ولعله أقرب إلى المستحيل .. ومن ثم فقيام الاقتصادى بقياس أو وصف ما يحدث للجانب الاقتصادى من الرفاهية الانسانية وكأنه معزول عن بقية جوانب الرفاهية ، لا يؤثر فيها ولا يتأثر بها ، لابد أن يؤدى إلى أخطاء جسيمة ، حتى على مستوى التحليل النظرى.

ومثل هذا العمل شبيه بالكلام عن «طب الذراع» مثلا ، أو «طب الساق» وكأن ما يحدث للذراع أو الساق يمكن فهمه وعزله عما يحدث لباقى أجزاء الجسم.

ما أكثر ما كُتب من تحذيرات للاقتصاديين من مغبة «الاسترسال فى هذا الخطأ ، والتنبيه والتذكير بأن الإنسان كائن لا يمكن تجزئته إلا بخسارة كبيرة ، حتى على مستوى التحليل أو بغرض مجرد الفهم . ولكن كل هذه التنبيهات والتحذيرات ضاعت سدى لأننا ننتمى إلى حضارة آخذة فى الخضوع ، أكثر فأكثر ، للاقتصاد ، من ناحية ، وتعلى ، من ناحية أخرى ، من شأن التخصص وتقسيم العمل . إنها حضارة «تكنولوجية» فى الأساس، والحضارة القائمة فى الأساس على تقدم التكنولوجيا لابد أن تقع فى هذا الخطأ : المبالغة فى الاعتقاد بأهمية الاقتصاد وفوائد التخصص . وفى مثل هذا المناخ من الممكن جداً أن تظهر مفاهيم من نوع «الرفاهية الاقتصادية» ، التى تقوم على تصور أن رفاهية الانسان يمكن تجزئتها إلى أجزاء يمكن أن يفهم كل منها على حدة ، وأن أهم هذه الأجزاء ، هو الجزء الاقتصادى.

ما الذى يمكن أن يتوقعه المرء ، فى مثل هذا المناخ ، فيما يتعلق بطريقة تناول الاقتصاديين لموضوع «الثقافة الوطنية» ؟ إنى أقصد بالثقافة هنا ليس معناها الضيق الذى يشير إلى الانتاج الفكرى والفنى لمجتمع ما ، بل أقصد بها المعنى الأهم الذى يقصده الإنثروبولوجى عادة ، ويشمل كل ما يميز مجتمعا عن غيره فى أنماط التفكير والسلوك ، والعادات والتقاليد ، والمعتقدات الدينية والقيم الأخلاقية ، والنظرة العامة للحياة. بهذا المعنى العام للثقافة ، وفى مناخ كالمناخ الفكرى الذى وصفته حالاً ، ما الذى يمكن أن يتوقعه المرء من الاقتصاديين عندما يتناولون مثلا قضية العلاقة بين التنمية الاقتصادية ، والثقافة الوطنية للمجتمعات الفقيرة ، أو التى تسمى أحيانا بالمتخلفة ، وأحيانا بالنامية، وأحيانا بالآخذة فى النمو ، وأحيانا بالعالم الثالث .. الخ ؟ إن تتبع موقف الاقتصاديين من هذه القضية خلال القرن الماضى بأكمله يكشف عن شئ ليس بأقل من «الجناية» الكاملة ، إذ

تعرضت الثقافة الوطنية للمجتمعات الفقيرة لسلسلة من الإهانات المتتالية ، من جانب كتاب التنمية، ارتكبت باسم العلم ، أو باسم التقدم والتمدين ، أو باسمهما معا .

الثقافة الوطنية كمانع للتقدم

بدأت القصة بموقف الاقتصاديين من قضية التقدم الاقتصادى فى البلاد الفقيرة التى خضعت للاستعمار لفترة طالت أو قصرت ، خلال القرن الممتد بين ١٨٥٠ و ١٩٥٠ .

طوال هذه الفترة لم يكن شعار التنمية الاقتصادية قد اخترع بعد ، بل كانت الكتابة فى هذا الموضوع ، تحت أى اسم من الأسماء ، نادرة للغاية ، إذ كانت الفترة هى فترة الاستعمار ، فى صورته التقليدية ، الذى يقوم على وضع اليد على مواد أولية ينتجها البلد المستعمر (بفتح الميم) واستغلال قوة العمل الرخيص فيه ، وتسويق بعض فوائض منتجات الدولة المستعمرة (بكسر الميم) . كان تحقيق هذه الأهداف الاستعمارية لا يتطلب على الاطلاق تنمية اقتصادية بالمعنى الذى نفهمه الآن (رفع متوسط الدخل ، رفع معدل التصنيع ، رفع مستوى الإنتاجية .. الخ) بل على العكس بالضبط ، كانت أهداف الاستعمار تتعارض مع التنمية الاقتصادية للبلاد المستعمرة تعارضا مباشرا ، إذ إن التنمية كان لابد أن تؤدى إلى ارتفاع مستوى الأجور (وهو ما لا ترغب فيه الدولة الاستعمارية بالطبع) ، وإلى تصنيع المواد الأولية محليا (وهو مالا ترغب فيه أيضا) وإنتاج سلع بديلة للواردات (وهو بدوره شئ غير مرغوب فيه) .

كان من المفيد جدا ، فى مثل هذا الوضع ، أن يشاع بين شعوب الدولة الخاضعة للاستعمار أن التنمية الاقتصادية فيها أمر مستحيل ، أو فى حكم المستحيل ، لأسباب متعددة أهمها عدم ملاءمة ثقافتهم الوطنية لمثل هذا الهدف السامى . فثقافتهم الوطنية تدعو إلى الكسل ويسودها الايمان بالقضاء والقدر وتقديس القديم والنفور من أى جديد ، وتقديم الأمور الروحية على الأمور الاقتصادية ، وتعلى الروابط العائلية فى ظل العائلة الممتدة ، على حساب استقلال الفرد وطموحاته الخاصة ، وتتخذ موقفا معاديا لاقتضاء فوائد على القروض ، وكلها أمور معطلة للتنمية بل ومانعة لها مما يجعل التنمية الاقتصادية فى حكم المستحيل ، ومن ثم فالأفضل لهذه الدول المتأخرة (backward) ، وهو الاسم الشائع للمجتمعات الفقيرة فى أوائل القرن العشرين ، أن تنسى التصنيع والتنمية وترضى بما هى فيه . نسى هؤلاء الكتاب أو غضوا البصر عن حقيقة تاريخية بسيطة، وهى أن بلادهم المتقدمة اقتصاديا كانت كلها ومنذ وقت قريب ، تدين لثقافات لها نفس الخصائص التى يشكون من وجودها الآن فى المجتمعات الفقيرة : نفس الكسل ، ونفس الايمان بالقضاء والقدر ، ونفس تقديس القديم والنفور من الجديد ، ونفس التغليب للأمور الروحية على الأمور الاقتصادية ، ونفس الاعلاء



للروابط العائلية على الروح الفردية ، ونفس الرفض لاقتضاء فوائد على القروض .. الخ ومع ذلك حققت هذه البلاد تنمية اقتصادية سريعة ، مما كان المفروض أن يلفت نظرهم إلى أن كثيرا من هذه الخصائص التى يشكون منها قد تكون نتيجة للركود الاقتصادى وليس سببا له .

الثقافة الوطنية كمعطل للتقدم

مع انتصاف القرن العشرين كانت أمور العالم قد تغيرت كثيرا عما كانت قبل قرن أو حتى نصف قرن من الزمان ، فقد أصبحت بعض أنواع التقدم الاقتصادى فى البلاد الفقيرة مطلوبة حتى من وجهة نظر الدول المتقدمة نفسها ، ولكنها أنواع معينة من التقدم دون غيرها ، ومازالت بعض أنواع التقدم الأخرى مضادة لمصلحتها ويتعين التحذير منها . من المفيد للدول المتقدمة أن تتسع أسواق الدول الفقيرة لاستهلاك سلع وخدمات جديدة لم تكن تنتج من قبل ، أو لم تكن تنتج بهذه الكثرة ، من السيارات إلى زجاجات الكوكاكولا إلى الأسلحة وتصريف هذه السلع يحتاج إلى بعض أنواع التنمية ، كارتفاع متوسط الدخل ، بشرط ألا يعنى هذا زيادة قدرة هذه الدولة الفقيرة على إنتاج مثل هذه السلع بنفسها والاستغناء عن استيرادها . لم يعد من المفيد إذن القول بأن التنمية فى هذه البلاد مستحيلة، بل من المفيد التشجيع عليها ، ومن ثم ظهرت شعارات التنمية وترددت بكثرة فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتشرت انتشار النار فى الهشيم ، وحيث إن التنمية الآن أصبحت ممكنة ومرغوبا فيها ، فإن من الأفضل الإقلاع عن تسمية هذه البلاد بالمتأخرة، وإطلاق أسماء أكثر تفاؤلا كالدول المتخلفة (Underdeveloped) أو حتى النامية (developing).

ولكن الثقافات الوطنية ، وإن لم يكن من المفيد الآن اعتبارها عائقا أبديا للتنمية فإنها مازالت عاملا لا يشجع على تحقيق هذا التوسيع للأسواق أمام بضائع الدول الأكثر تقدما ، تحول الأمر إذن من النظر إلى الثقافات الوطنية من كونها «مانعا» للتنمية الاقتصادية إلى كونها مجرد «معطل» لهذه التنمية . الأمل فى التنمية الاقتصادية يجب أن يكون موجوداً ويجب دعمه وتشجيعه ، ولكن الثقافة الوطنية يجب تعديلها التعديل المناسب...

هكذا وجد كتاب التنمية فى الخمسينات والستينات من أبسط الأمور وأوضحها ، الكلام عما سموه «الخصائص المشتركة بين الدول المتخلفة » (Common Characteristics) . هذه الخصائص لم تقتصر على أوصاف اقتصادية ، كانخفاض معدل الادخار وضعف الانتاجية وغلبة الزراعة على الاقتصاد، بل شملت أيضا خصائص ثقافية ، كانت كلها فى نظرهم خصائص سلبية لأنها تعوق الارتفاع بمعدل التنمية الاقتصادية .

لم يخطر ببال كتاب التنمية فى ذلك الوقت ، ولا نحن جرؤنا على لفت نظرهم إلى أن الخصائص العكسية قد تكون قد

بلغت عندهم حداً لم تعد معها أفضل من خصائصنا التى لا تعجبهم ، فالمبالغة فى قدرة الإنسان على السيطرة على مصيره قد يترتب عليها من النتائج ما هو أسوأ من المبالغة فى التقليل من دوره . والإعجاب بالجديد لمجرد أنه جديد قد لا يكون أفضل من التمسك بالقديم لمجرد أنه قديم . وتحرير المرأة قد يصل إلى حد تحريرها من الروابط العائلية نفسها مما قد يقلل من رفاهية الجميع بمن فيهم المرأة نفسها .والإفراط فى الفردية قد لا يكون أفضل من الافراط فى الارتباط بالأقارب البعيدين .. الخ .

***

خلال عقدى الخمسينات والستينات، ارتكبت جناية أخرى فى حق الثقافات الوطنية للبلاد الفقيرة وذلك بضمنا جميعا، نحن شعوب هذه البلاد ، واعتبارنا شيئاً واحداً دون تمييز بين أمة وأخرى ، وبين ثقافة وغيرها ، مادمنا نشترك جميعا فى تلك الخصائص المقيتة التى سموها «خصائص البلاد المتخلفة» . ففيما يتعلق بهذا «التخلف» ، الهند مثل الصين ، والعرب مثل الأفارقة وشعوب أمريكا اللاتينية ، والمسلمون والمسيحيون مثل الوثنيين ، ألا يجمعهم جميعا انخفاض متوسط الدخل بالمقارنة بالولايات المتحدة الأمريكية ؟

***

فى هذين العقدين ، الخمسينات والستينات ، كانت من أكثر نظريات التنمية شيوعا نظرية روستو (W. Rostow) فى مراحل النمو الاقتصادى ، التى قالت بأن أى دولة يمكن تصنيفها إلى مرحلة أو أخرى من مراحل خمس ، وأن من الممكن ترتيب الدول بعضها فوق بعض بحسب مدى تقدمها فى السير من مرحلة متأخرة إلى مرحلة متقدمة . والهدف النهائى هو بالطبع الوصول إلى ما وصلت إليه الولايات المتحدة الأمريكية وهو مرحلة الاستهلاك الجماهيرى العالى ». (High Mass Consumption) ، والتى تعتبر أهم سماتها شيوع استهلاك السلع المعمرة كالسيارة والثلاجة والمكنسة الكهربائية . انهمكنا نحن طلاب التنمية الاقتصادية فى ذلك الوقت فى محاولة تحديد إلى أى مرحلة من مراحل روستو تنتسب هذه الدولة أو تلك ، وهل معدل الاستثمار الذى تطلبه روستو للانتقال من مرحلة متخلفة إلى مرحلة أعلى ، هو المعدل الصافى أم الاجمالى ، ولم نلاحظ وقتها أن كتاب روستو كله لم يحتو على كلمة واحدة عن السمات الثقافية للأمة ، وما يمكن أن يحدث لها نتيجة الانتقال من مرحلة من المراحل الخمس إلى مرحلة أخرى . ولعل روستو قد اعتبر من قبيل المسلمات التى لا تحتاج إلى نقاش ، كما فعل كارل ماركس من قبله ، أن الانتقال من مرحلة متخلفة اقتصاديا إلى مرحلة متقدمة اقتصاديا لابد أن يعنى أيضا الانتقال من حالة ثقافية «متدنية» إلى حالة ثقافية «أرقى» .

اعترافات بالخطأ ولكنها ناقصة

منذ نهاية الستينات وطوال السبعينات انتشرت أفكار مدرسة جديدة فى التنمية



هى المدرسة الرافضة للتبعية (Depen-dency) والمنادية بفك الارتباط (De-linking) مع الغرب ، وبالتنمية المعتمدة على النفس (Self reliance) ولكن الملاحظ أن رفض التبعية من جانب الغالبية العظمى من هؤلاء الكتاب كان منصبا على التبعية الاقتصادية ، ولم تحظ التبعية الثقافية باهتمام يذكر من جانبهم ، وربما كان تفسير ذلك أن قادة هذه المدرسة كانوا من أمريكا اللاتينية ، ومن ثم ينتسبون فى الأساس إلى نفس الثقافة الغربية ، لغة ودينا وقيما أخلاقية وسلوكية..

فى السبعينات رفع بعض كتاب التنمية ومؤسساتها الدولية شعار «إشباع الحاجات الأساسية» ، كبديل لهدف زيادة متوسط الدخل ، وحاولوا التنبيه إلى أهمية رفع مستوى العمالة ، وإلى أن ارتفاع معدل نمو الدخل قليل الأثر فى رفع مستوى الرفاهية إذا لم يصاحبه تخفيض معدل البطالة ، ولكن الحاجات الأساسية التى أخذوا يؤكدون عليها ويطالبون بإشباعها كانت محصورة فى الحاجات المادية ، من غذاء وكساء ومأوى ، ونادرا جداً ما وجدنا فى هذه الكتابات أى إشارة إلى أن الانسان له حاجات ثقافية أيضا إلى جانب حاجاته المادية ، وأن الثقافة الوطنية تحتاج إلى حماية مثلما يحتاج الانسان إلى الغذاء الكافى والكساء والمأوى الملائمين .

ظهر فى السبعينات أيضا من عبروا عن قلقهم من تدهور البيئة ، ومن أن التنمية الاقتصادية السريعة قد تهدد البيئة المادية بالتلوث كما تهدد بعض الكائنات الحية من الحيوان والنبات بخطر الانقراض ، ولكن قلما كنت تجد أحدا يعبر عن قلقه من الخطر الذى يهدد ثقافات الدول الفقيرة بالتلوث ويهدد بعض هذه الثقافات بالانقراض .

***

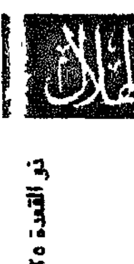
وفى التسعينات رفع شعار جديد لطيف اسمه «التنمية البشرية» (Hu-man Development) ، وقيل إنه مفهوم يتجاوز المقياس التقليدى الذى يقتصر على متوسط الدخل ، وأنه،أى هذا المفهوم الجديد ، يقوم على ثلاثة مؤشرات : أحدها هو نفس المؤشر القديم ، متوسط الدخل ، والمؤشران الآخران يتعلقان بالعمر المتوقع عند الميلاد وحالة التعليم . وقد اعتبر أن إدخال مفهوم التنمية البشرية يمثل تقدما بالمقارنة بمفهوم التنمية الاقتصادية التقليدى ، إذ أنه يدخل فى حسابه أشياء أخرى غير الاقتصاد ، ولكن الحقيقة أن حالة الثقافة ظلت مهملة فى ظل التنمية البشرية كما كانت دائما ، بمعنى أنه من الممكن جدا أن يعتبر أداء الأمة ناجحا جدا طبقا لمعيار التنمية البشرية حتى ولو كانت تتدهور بسرعة فيما يتعلق بمحافظتها على هويتها أو ثقافتها ، كأن يجرى استبدال لغتها القوية فى التعليم والاعلام بلغة أجنبية ، أو أن تحل السلع وأنماط السلوك الأجنبية محل السلع وأنماط السلوك المتفقة مع تقاليدها.

***

ثم حدث فى مطلع القرن الجديد الواحد والعشرين ، أن خطر للبعض أن التنمية البشرية يمكن أن تسمى باسم أعظم وأفخم وهو « التنمية الانسانية» ، ولو أن الاسمين ترجمة لنفس الأصل الانجليزى وهو (Human Devel-

(opment . واستخدم هذا الشعار الجديد ، التنمية الانسانية ، خصيصا للتعامل مع ثقافتنا نحن بالذات ، فصدر تقريران يحملان هذا الاسم ، ولابد أن ثالثهما على وشك الصدور ، يتكلمان عن الحالة المزرية التى وصل إليها العالم العربى...

زعم تقرير التنمية الانسانية أنه سيقيس التقدم والتخلف بطريقة أخرى مختلفة حتى عن طريقة التنمية البشرية ، إذ سيتخلى نهائيا عن مؤشر متوسط الدخل ويتكلم عن أشياء أقرب إلى معايير التقدم الانسانى . ولكننا بحثنا من بين هذه الأشياء عن حالة الثقافة ، ومدى احترام وصيانة ثقافة الأمة وشخصيتها ولغتها وقيمها الخاصة ، فلم نجد شيئاً عن هذا بالمرة اللهم إلا ما يعتبر من قبيل ذر الرماد فى الأعين، بل وجدنا المعايير المستخدمة تتعلق بما سمى بالحرية والمعرفة وتمكين المرأة ، وإذا بهذه الأشياء الثلاثة تعرف بالتعريفات الغربية ، فالحرية تقاس بمدى تطبيق الديمقراطية بالطريقة الغربية ، والمعرفة تقاس بأشياء مثل عدد الكتب المترجمة من لغات أجنبية إلى اللغة العربية ومدى انتشار جهاز الكمبيوتر أو الحاسوب ، وتمكين المرأة يقاس بمدى استقلالها عن الرجل ، أى أن كل أمة قطعت شوطا بعيدا فى تقليد الغرب تعتبر متقدمة «إنسانياً » ، وكل من تقاعست عن ذلك اعتبر أداؤها فى التنمية الانسانية متخلفا .



الانفتاح الاقتصادى والثقافة الوطنية

منذ السبعينات من القرن الماضى أخذت تتردد ، بقوة متزايدة ، شعارات جديدة فى كتابات التنمية تدور حول ضرورة الانفتاح الاقتصادى ، ثم أضيف إليها شيئاً فشيئاً شعارا التصحيح الهيكلى والخصخصة.

وكلها تدور حول الدعوة إلى فتح الأبواب على مصاريعها أمام التجارة الدولية ، والاستثمارات الأجنبية ، وتقليص دور الدولة فى حماية الاقتصاد القومى ومحدودى الدخل . كما شاع الكلام أيضا عن دور المجتمع المدنى ومزايا تقويته ، وعن حقوق الانسان وضرورة احترامها . ولكن كلتا الدعوتين إلى تقوية المجتمع المدنى وحماية حقوق الانسان كانتا تثاران دائما وكأنما ترفعان فى مواجهة الدولة : تقوية المجتمع المدنى على حساب قوة الدولة ، وحماية حقوق الإنسان ضد اعتداء الدولة. ولكن الدولة ، كما أن من الممكن أن تعتدى على حقوق الأفراد ضرورية أيضا لحماية بعض هذه الحقوق. والدولة لا تحمى الاقتصاد فقط ضد الواردات المنافسة من السلع ورءوس الأموال الاجنبية بل هى ضرورية أيضا لحماية الثقافة الوطنية . واضعاف دور الدولة على هذا النحو الكاسح والشامل الذى تدعو إليه هذه الشعارات الجديدة ، كان لابد أن يعنى ترك الثقافة الوطنية بلا حماية فى مواجهة تيارات جارفة من السلع والخدمات الأجنبية ، ومن الشركات والقنوات الفضائية ، لتضيف تخريبا جديداً إلى ما أحدثته التنمية فى الخمسينات والستينات من تخريب ثقافى.

الثقافة الوطنية كمهدد للسلام العالمى

خلال التسعينات رفع شعار جديد

يتفق مع الحالة الجديدة التى دخل فيها العالم لسقوط الكتلة الشيوعية وبدء انفراد الولايات المتحدة بتقرير مصير العالم . فقد بحث صناع الرأى العام فى الولايات المتحدة عن شعار جديد يمكن أن يحل محل مكافحة الشيوعية ويقوم بنفس الدور فى تحريك عجلة إنتاج الأسلحة ، وتكوين الأحلاف ، وتبرير التدخل فى أمور الدول الأخرى وفرض الإرادة عليها ، فتفتق ذهنهم عن شعار «صراع الحضارات» ، وإذا بنا نجد ثقافتنا وقد وصفت فجأة بأنها فى حالة صراع مع ثقافة الغرب التى اعتبروها بالطبع ثقافة أرقى ومن ثم أحق بالبقاء . والغريب أننا وقعنا فى الفخ مرة أخرى ، فلم نحاول الرد على ذلك بالقول بأن الحالة ليست حالة صراع بين ثقافات وإنما حالة اعتداء من ثقافة على أخرى ، وأن تشخيص الحالة بأنها حالة صراع حضارات معناه أن هناك عراكا بين ثقافتين على قدم المساواة من حيث القوة ، وفى يد كل منهما نفس الأسلحة ، ومن ثم فلكل منهما نفس فرص الانتصار على الأخرى ، مع أن الحقيقة أننا أمام دولة كبرى أو مجموعة من الدول الكبرى تفرض إرادتها على دول أخرى ، لأسباب اقتصادية وسياسية وعسكرية ، والنتيجة الحتمية لهذا هى اعتداء ثقافة الأمم المتفوقة اقتصاديا وعسكريا على ثقافات الأمم الأخرى .

الثقافة الوطنية ثقافة إرهابية

وكأن كل هذا لم يعد كافيا ، بل المطلوب الآن توجيه ضربة قاصمة لثقافتنا بحيث لا تبقى أمامها فرصة للاستمرار . إن ثقافتنا الآن لا توصف بالتأخر أو التخلف بل بالإرهاب والمطلوب الآن ليس الارتقاء بهذه الثقافة بحيث تتكيف مع متطلبات التنمية الاقتصادية ، على أساس أن هذه هى طريقة التعامل المناسبة مع «التخلف» ، بل المطلوب الآن استئصال هذه الثقافة من جذورها ، على أساس أن هذه هى طريقة التعامل المناسبة مع «الارهاب».

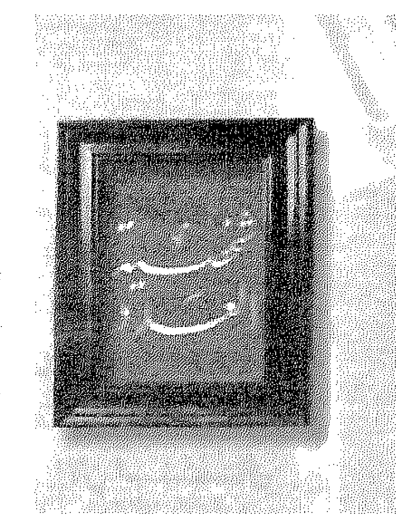
نعم ، لا تزال التنمية السريعة شعاراً مرفوعا ، وأحد المبررات المستخدمة للاعتداء علينا واحتلال جزء أو آخر من بلادنا ، ولكن التنمية الآن لا يقال إنها ضرورية للقضاء على التخلف بل يقال إنها ضرورية للقضاء على الارهاب.

***

ما أعظم هذه الرحلة إذن التى قطعناها خلال الخمسين عاما الماضية ، منذ أن قبلنا بحسن نية شعار التنمية الاقتصادية ، ولم نعترض على اعتبار ثقافتنا عقبة من عقبات التنمية ، وحتى وصلنا إلى شعار التنمية الانسانية وأصبحت ثقافتنا تعتبر ليس مجرد تربة ملائمة لتفريخ الارهاب ، بل أصبحت ثقافتنا تعتبر مرادفا للارهاب واسما آخر له.

على أى حال ، لقد دفعت أمتنا ثمنا باهظا نتيجة غفلة مثقفينا . فقد قبلوا بأن توصف أمتهم بالتخلف فى مقابل الحصول على معونات التنمية ، فانتهى الأمر بأن وصفوا ، هم وأمتهم ، بالارهاب، الذى يتعين القضاء عليه. ■

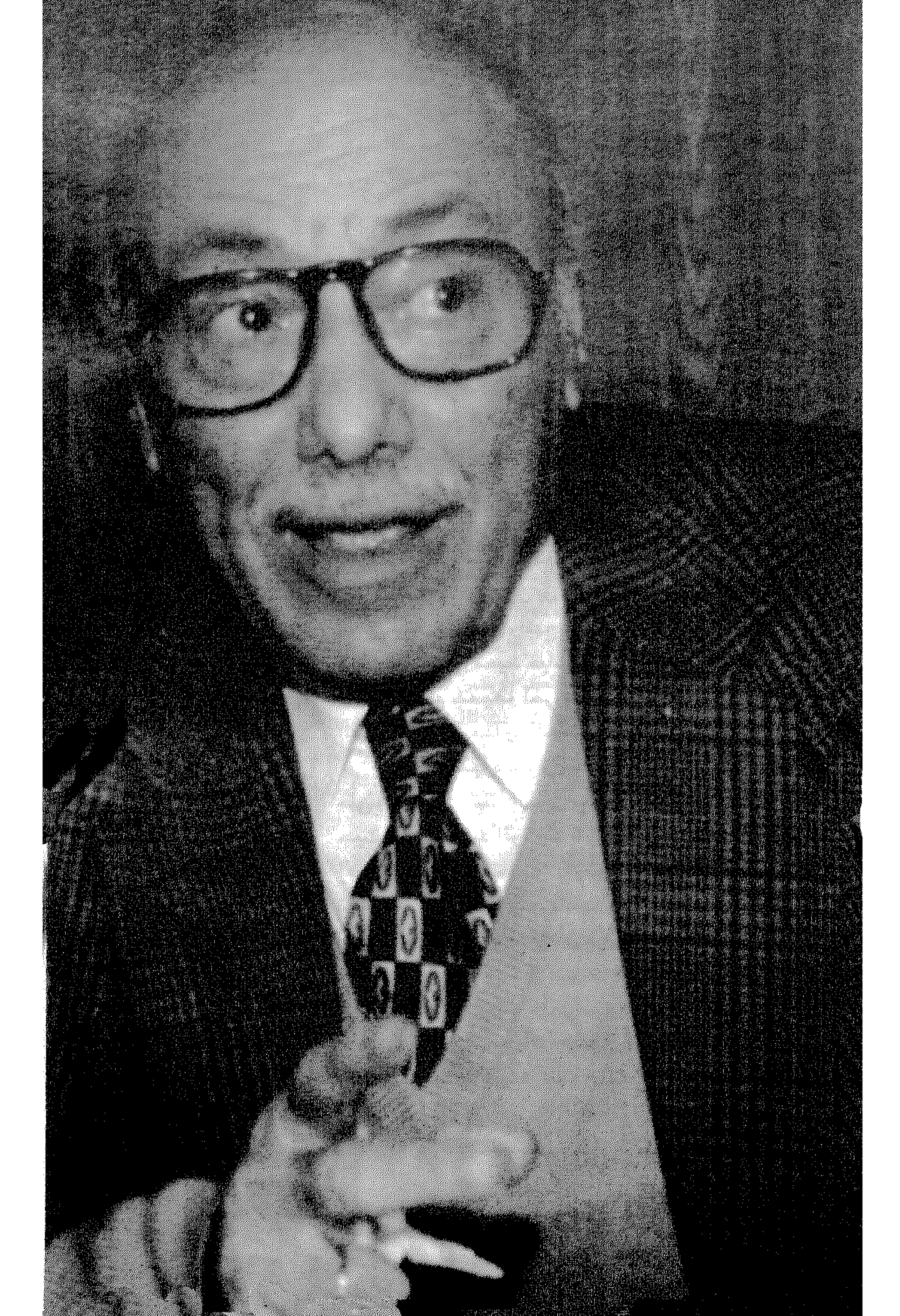
فرع صبار



بقلم
خيرى شلبى

يا شجرة الصبار العتيدة ما أعظمك..
لله درك يا شجرة الصبار..
يا كتاب الأسرار ، فيك وحدك فك شفرة الأرض، التى أودعت بين سطورك ملتقى جميع الكابلات الكهربائية التى تنير الطرق إلى السماوات العليا فى رحاب الخالق الأعظم..
حقا وأيمُ الحق.. فإن الأصالة الكامنة فى شجرة الصبار هى وحدها آى من أعظم الآيات البينات..
فإن كان فى بيتك شجرة صبار، أو مررت بها ذات لحظة فاعلم أن هذه النبتة الشائكة الخضراء كحزمة من السيوف أو الخناجر المعقوفة قد حظيت بأكبر نصيب من تجليات العقلية الإلهية المبثوثة فى الحجر والشجر والنبات والحيوان والطيور والإنسان وكافة الكائنات من الحشرة إلى الفيل إن فى البر أو فى البحر أو الجو؛ وكل هذه وتلك - كما فى الذكر الحكيم - أمم أمثالنا.

ومثلما شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يزود كل كائن ضعيف بأسلحة وعتاد وقوة معينة يعجز الإنسان نفسه عن مقاومتها، شاءت حكمته أن يضع فى نبتة الصبار قدراً عظيما من نبله وخلوده؛ إذ هى النبتة التى إن يعجبها المناخ رفضته وضنت عليه بشرف حضورها الأخضر؛ ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تمحوها؛ فلسوف تقوم بتحصين نفسها ضد عوامل الفناء، بأشكال مختلفة، وقد تضمر وتتوارى لبعض الوقت حتى إذا راق لها الجو واندحر الفساد من أعطافه أورقت كأن شيئا لم يكن، لتعلن الحب والوفاء والحكمة والود الجميل على من حولها



تبشرهم بأن رحيقها البلسم صار جاهزا للاستشفاء من أمراض عديدة، وفى نفس الوقت تلفت انتباههم إلى جذور الأصالة وكيف يجب أن تكون فى الإنسان، تعلم الواعين بها دروسا حافلة بالمعانى السامية تدور كلها حول ضرورة أن يحمى الإنسان نفسه من التلوث، ألا يتنازل عن أصالته، وأن الأصالة هى التفرد، هى استمرارية القيمة منذ الأزل وإلى الأبد.

وكم فى حياتنا من أناس يشبهون شجرة الصبار ينتحلون أخلاقياتها أو ربما كانوا من أبنائها الذين تشربوا خصالها باعتبارها الچين الأم لكل چينات الوراثة في الكون ولهذا فهى أشد الكائنات قدرة على الاستغناء.

وإننا لنجد بين البشر الأصحاء كثيرين ممن نعرفهم أو لا نعرفهم فى جميع مجالات الحياة، وبين العامة من أولاد البلد والفلاحين والعمال والصنايعية، يعيشون حياة غاية فى الصعوبة مستحيلة على غيرهم ومع ذلك لا يسقطون، لا يبيعون حليهم عند الزنقة، ولا يتدنون بل إن عزة نفوسهم تمنح وجوههم نضارة أصدق وأعمق وأبهج ممن هم فى رغد من العيش.

إنهم كثر فى محيط حياتى..

وعمدتهم جميعا أخى وصديقى ورائدى الكاتب الكبير.. الفنان المطبوع.. محمود السعدنى.

إن هو إلا شجرة صبار حية تنكرت - وهى يمكن أن تفعلها خلّى بالك - فى شكل إنسان يبدو رأسه كحزمة خناجر مورقة، حيث الرأس شديد الولاء لشفرة الأرض، وحيث التقوس هو الأساس فى الكون تختم به الأرض ماركتها المسجلة على جميع نتاجها من مخلوقات ونباتات، وليس صدفة أن الجنين فى الرحم يأخذ شكل البيضة كالأرض مدحوة ، تفقس فيه إن كان طيرا أو يولد بها إن كان حيوانا ؛ وكذا جميع ثمار الفاكهة على الإطلاق إما كروية أو فص مقوس..

وهكذا فإن تقوس أفرع شجرة الصبار داخل الإنسان محمود السعدنى هو على وجه الدقة والتحديد عبقرية محمود السعدنى.

لو كان محمود السعدنى خطا مستقيما لانقطع بسهولة ،



وكم فى حياتنا من أناس يشبهون شجرة الصبار ينتحلون أخلاقياتها أو ربما كانوا من أبنائها الذين تشربوا خصالها

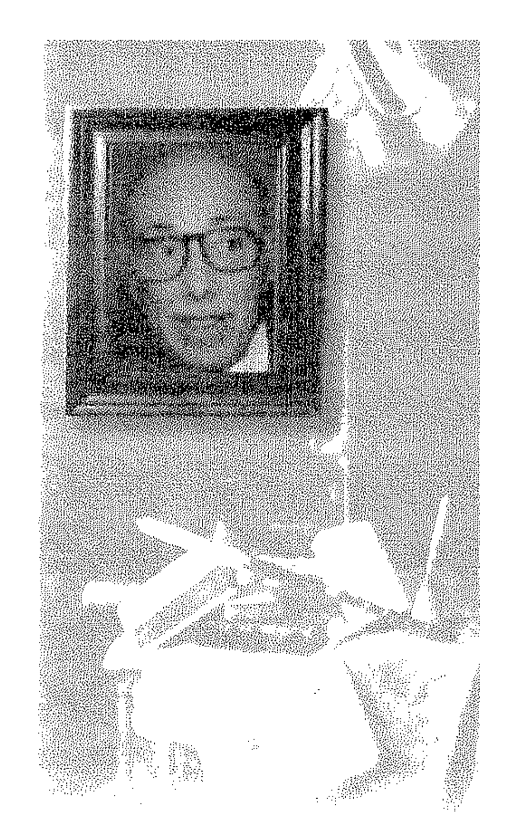
ولطاش فى الهواء ولعبت به الرياح على مزاجها، ولضاعت موهبته الأدبية والفنية فى كتابات سقيمة رعديدة، ولأغراه المنصب ورغد العيش أن يصير بوقا من الأبواق يستأجره أصحاب الأفراح والمآتم ليملأ الدنيا ضجيجا وصخبا وهراء كما فعل الكثيرون من بنى جيله وغيره من الأجيال..

جبلة محمود السعدنى أنه متقوس كفرعة الصبار يعرف حين ينطلق كيف يغوص فى الكتلة، كيف ينفلت من الريح الهوج فينسرب من تحتها أو من فوقها يشقها شقا ليصل سالما إلى هدفه دون أدنى عناء.

صبرا قليلا فسوف تدركون حالاً ماذا عنيته بهذا التقوس الطبيعى الأصيل فى الشخصية الأدبية الفنية لمحمود السعدنى..

آخر الأجيال

بادىء ذى بدء أنتم تعلمون أن السعدنى كاتب أديب نشأ وترعرع بين مدارس الأساليب فى الأدب العربى قديمه وحديثه من الجاحظ وأبى حيان والأصفهانى والقلقشندى وابن قتيبة إلى المويلحى وعبد العزيز البشرى فالمازنى والعقاد فطه حسين وتوفيق الحكيم ويحيى حقى ومحمود تيمور وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين فمحمد لطفى جمعة ومحمد توفيق دياب وأحمد قاسم جودة فمحمد التابعى وكامل الشناوى.. إضافة إلى أن معظم أبناء جيله كانوا - تقريبا - آخر الأجيال ممن تربوا على مدارس الأساليب فدخلوا ميادين الصحافة والقصة والرواية والمسرحية والقصيدة من باب الأسلوب الفاخر، كعبد الرحمن الخميسى وعبد الرحمن الشرقاوى وسعد مكاوى ويوسف السباعى، وإحسان عبد القدوس وغيرهم. ولكن النضج أصاب حوالى أربعة ممن التحقوا ببلاط صاحبة الجلالة وفى نفس الوقت ظلوا مرتبطين بولعهم بكتابة القصة هم يوسف إدريس ومحمود السعدنى وصلاح حافظ، حيث حدث فى أدبهم نوع من التصالح البديع جدا بين الطبيعة الأسلوبية الصرفة ومقتضيات القص من لغة درامية مرنة لا بأس أن تكون تمرمطت بتراب الشارع والحارة وانبصمت عليها تلزيقات الحياة اليومية أو شحومات العمل. وقد ظل محمود السعدنى بين هؤلاء الأربعة يكافح بإخلاص ونجاح لسنوات منافسا ليوسف إدريس فى القصة القصيرة فكتب عدة مجموعات ذات وزن ثقيل حقا فى هذا الفن الحميم: (السماء السوداء)، (جنة رضوان)، (بنت مدارس) وغيرها، لكنه سرعان ما طور نفسه بعد تجربة يعتد بها فى القصة والرواية والمسرحية، مستفيدا من كل ماخبره من أدوات هذه الفنون ليكتب المقال القصصى المسرحى. وفى الوقت الذى جفل فيه لطفى الخولى من سيطرة الأسلوبية على قصصه فى مجموعتيه: (رجال وحديد) و (ياقوت مطحون)، فلجأ إلى المسرح بعدة تجارب ناجحة هى: (قهوة الملوك)



و(القضية) و(الأرانب)؛ ليقتنع فى الوقت المناسب أن مفكر بالدرجة الأولى ولابد له من الأسلوب اللغوى المستقيم الحاد الاستقامة ليوصله إلى معان لا لبس فيها، ثم يمضى بنجاح كمفكر يكتب للصحافة فكرا سياسيا. فى هذا الوقت كان محمود السعدنى قد بات عند قراء الصحافة العربية من المحيط إلى الخليج.. «فرخة بكشك».

الطفل الشقى، الذى يجرى عاريا وراء عربات الرش، وينط فوق الأسوار الشائكة من أجل تمرة عجفاء، ويحلم بحذاء جديد للعيد، وله عشرات بل مئات من العمات والخالات والجدات، قانتات نادبات مقطوشات الرؤوس، من سكسكة إلى مسعدة إلى جا الخالق.. لا نعرف إن كان من الجيزة أو من الإسماعيلية أو السويس؛ ربما كان من كل هذه البلدان فهذا جائز بالنسبة لكثيرين من المصريين الشقيانين إن بلباس الفاعل أو بطربوش الأفندى حيث يتصادف أحيانا أن يولد كل ولد من عياله فى بلد، وأن تكون أمه فى بلد وحماته فى بلد وأبوه فى بلد وهو فى بلد. الواحد من هؤلاء إذا سألناه: أمال الكريم منين؟ ورد علينا قائلا: من مصر، أو من بر مصر، وجب علينا أن نصدقه فى الحال، سيما وأننا سنجد على صفحة وجهه كل الملامح البارزة فى خريطة مصر كما انطبعت بيئاتها على وجوه أبنائها..

○ بادىء ذى بدء أنتم تعلمون أن السعدنى كاتب أديب نشأ وترعرع بين مدارس الأساليب فى الأدب العربى قديمه وحديثه

السعدنى .. وحوارى الجيزة

نعم نرى على صفحة وجه السعدنى حوارى الجيزة بناسها الضعفاء المساكين يخدمهم فتوات نجيب محفوظ فى بيوتهم وقتما شاءوا: آباء مغلولين بسلاسل من عيال، رجالا مقهورين، جزارين قساة، بلطجية، بقالين طامعين فى مكسب تافه، حرامية جرابيع يسرقون الكحل من العين، مجارى ضاربة، أسمالا بالية، حياة دون مرتبة الإنسانية وعلى مقربة منها حياة رغدة شاهقة فى قصور وفيلات، تجار سوق سوداء ومحتلين وأغنياء حرب ونصابين ومحتالين. والولد الشقى يحمل كل هذا على كتفيه النحيلتين لكنه بحكم الموهبة كان مفطورا على خلاص سعيد من الحمولات المضنية بأن يضعها فى ذاكرته لتوزع نفسها بنفسها على أماكنها الطبيعية من ذاته المجبولة على الامتصاص كالسفنجة السميكة، بعض هذه الحمولات يأخذ

طريقه إلى قلبه فيسكنه، وبعضها يسكن في ذاكرته كخبرات وأرصدة من التجارب الحية. ما بين قلبه وذاكرته وشائج اتصال قائمة حتى وهو مستغرق فى النوم، لتزيده وعيا على وعى، تدفعه للبحث عن تفاسير وإجابات شافية لما يعتمل في صدره من أسئلة عويصة ومسائل شديدة التعقيد، يريد أن يستجلي فلسفة القدر فى التدخل لربط شبكات العلاقات بين البشر ليكون هذا من الفقراء وذاك من الأغنياء، هاذاك يخطف منه الأب فى عز الشباب ويكتب عليه أن يعيش طفولة منكسرة ذليلة تحت سطوة زوج أم أو زوجة أب وذاياك له أكثر من أب وأكثر من خال بل ربما تصبح البلاد كلها من خدمه كولى عهد مرتقب. يلتمس الرؤية والمعرفة فى صحف تقوده إلى مجلات ترشده إلى كتب يدمنها ويغرق فيها ليتحول الوعى إلى إدراك رشيد، تتفتح عيون الصبى على الواقع الذى يراه رؤية العين فى مدن القناة موطن أقاربه - لعلهم أخواله - وفى مدينة القاهرة والجيزة حيث يرتع المحتل الأجنبى فى طول البلاد وعرضها يستذل أهلها بعسف وصلف ووحشية..

الاستقلال التام أو الموت الزؤام

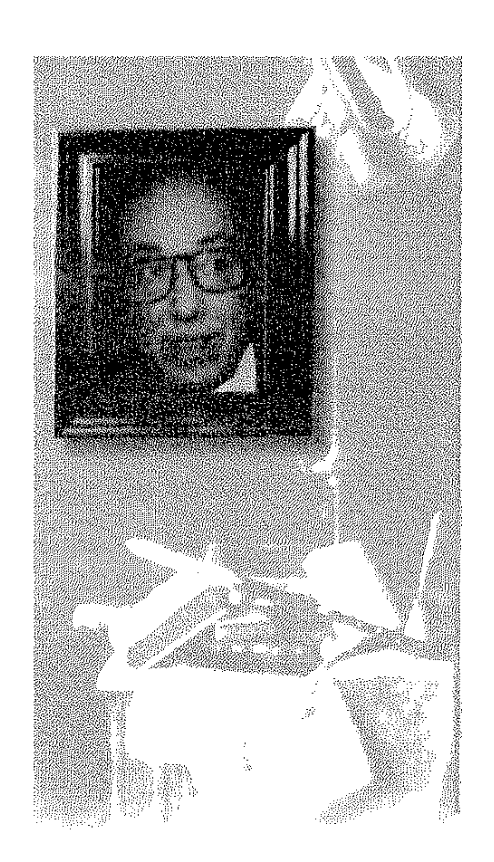
مشكلة الولد الشقى إذن ليست فردا قائما بذاته، هذه الفاقة التى يعيش فيها أهله تشمل كل بنى جلدته بالكد الذليل مع استمرار العوز.

المأساة إذن فى هذا الاحتلال الأجنبى الذى يمتص خيرات البلاد لا يترك منها سوى الفتات لأذنابه وخدمه وعماله . ومن ثم فإن حياة كريمة حقا لن تتوافر لأى مصرى حقيقى شريف ما لم يتم إجلاء هذا المحتل ودحره تماما: الاستقلال التام أو الموت الزؤام. تلك كانت تميمة الجيل كله وشعاره المرفوع على الدوام يعملون تحت ظله بأسلحة عديدة من التطوع فى حرب العصابات فى مدن القناة إلى تهييج المشاعر والكتابة الأدبية والفنية.

شئنا أم أبينا فإن جيل محمود السعدنى لمع وتكونت مواهبه وقدم تجلياته فى ظل المقاومة الجادة الناجعة بقضية ذات ثلاث شعب: التحرر الوطنى، العدالة الاجتماعية، الديمقراطية. لا أحد من هذا الجيل كتب فى حياته شيئا خارج حدود هذا المثلث الأزلى الغنى بالمشاعر مادة الآداب والفنون.

السماء السوداء، ذلك عنوان أول مجموعة لمحمود السعدنى وهو بعد فى العشرينيات من عمره - المديد بإذن الله.. والنبى يارب - لعله وقتها كان فى بواكير العشرينيات، وكانت صلته بالكتابة الصحفية قد بدأت وبات اسمه مألوفا لقراء بعض الصحف. ولكن مجموعة السماء السوداء، إذا قيست بسن كاتبها، وبعمر هذا الفن نفسه فى الثقافة العربية، يتضح دونما أدنى شك أنها كانت فلتة من الفلتات، وخطوة ريادية كبيرة فى تأسيس فن القصة المصرية القصيرة. لم تكن مجموعة (أرخص

ليالى) ليوسف إدريس قد صدرت بعد بل كان يوسف نفسه لا يزال فى علم الغيب، لا ولا مجموعة (العشاق الخمسة) ليوسف الشارونى ذات النبرة الحداثية الزاعقة. فإذا بمجموعة السماء السوداء تحمل فى ملامحها وفى كل شىء فيها بطاقة هويتها المصرية الخالصة دون أى ظل من تصنع أو ادعاء أو افتعال بل حتى دونما وعى من الكاتب. القصة تقول لك أنا مصرية حتى النخاع وكاتبى معجون فى طين مصر ووحلها ومياه غسيلها ، تفوح من أعطافى رائحة المعسل الزكية.. فى القاهرة الفاطمية.. فى الجيزة الفرعونية. هذا أول وأخطر منجز فى هذه المجموعة : القص المصرى الصرف عن مصريين أقحاح وحياة مصرية دامغة.



جيل محمود السعدنى لمع وتكونت مواهبه وقدم تجلياته فى ظل المقاومة الجادة الناجمة بقضية ذات ثلاث شعب

الأسلوب فى القص

يأتى بعد ذلك المنجز الثانى وهو بدوره ذو شأن خطير حينما نؤرخ للفن القصصى، فنعرف إلى أى حد نجح السعدنى فى نفى الأساليب الأدبية الفخمة الرصينة.. لقد أطاح بلغة الأدب السائدة آنذاك لسبب بسيط، ما أجمل أن يدركه شاب فى مثل سنه لم يدرس الأدب فى معهد أو جامعة؛ ذلك هو أن هذه الأساليب لا تصلح مطلقا للقص، إنما القص فى حقيقة أمره ضد الأسلبة؛ لأن الأسلوب فى الفن القصصى يرتقى من تنضيد العبارات وصقلها وحشوها بكل غريب مدهش، ليشمل عملية البناء من أساسها تخطيطا ومعماراً وابتداع نظام ما، يكشف لنا عن عالم ما.

ويلوح لى أن السعدنى ذا الثقافة العشوائية التى تلعب فيها الشفاهية دورا كبيرا؛ قد استفاد من طرائق الحكى فى المأثور الشعبى، من الحكواتى وشاعر الرباب إلى ألف ليلة وليلة والسير الشعبية، وحينما جاء يكتب قصة انبعث فيه صوت الحكواتى كصوت ملائم تماما لهذه النوعيات من الناس والحيوات التحتية.. فكتب بلغة قصصية مرنة مطواعة تاركا مفرداته العربية الجميلة تتكاتف مع العامية العتيقة تتأبط كل منهما الأخرى فى إيقاع ذى جرس شجى بهيج كطرقعة القبقات تحت كعبى بنت البلد بالملاءة اللف مع العلم بأن الكعبين ريالان من الفضة.

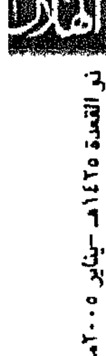
يجىء المنجز الفنى الثالث فى هذه المجموعة وهو أنها ذات موضوع واحد يربط جميع القصص ببعضها. ذلك أنها كلها قصص وإن قامت على ناس وحياة ومشاهد إنسانية عميقة إلا أنها سجلت صوراً من المقاومة الشعبية للاحتلال الإنجليزى. البديع انك لاتشعر أن هذه القصص كتبت من أجل هذا الغرض وحده وإن كان فى حد ذاته كبيرا ومهما؛ إنما تشعر أنها كان لابد أن تكتب لنرى هذه الحياة ونستمتع بهذا الأنس الجميل الخلاب المشع.

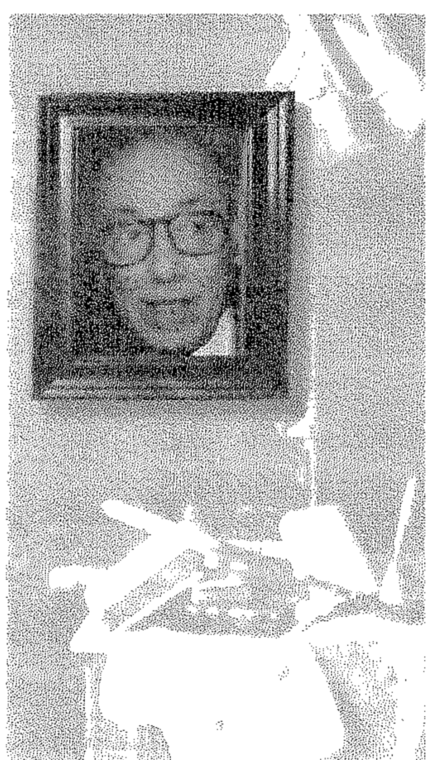
ولم يكن غريبا إذن أن تكون مجموعته الثانية (جنة رضوان) ضلعا بارزا فى المثلث الحداثى المهم جدا الذى صدرت مجموعاته الثلاث تباعا فى سلسلة الكتاب الذهبى بمبادرة - ومغامرة - من السيدة روز اليوسف التى عمدت إلى نشر كتب لكتاب جدد غير معروفين تجاريا أو جماهيرياً، فجاءت (أرخص ليالى) ليوسف إدريس، و(جنة رضوان) لمحمود السعدنى، و(العشاق الخمسة) ليوسف الشارونى. وفى الواقع تصعب المفاضلة بين المجموعات الثلاث لأن كل واحدة كرست لجديد طازج فى القصة القصيرة المصرية لا أظن أن بحثها يهمنا كثيرا فى هذا المقام كما أنها فى الواقع ليست مهمتى.

الهموم مادته فى الكتابة

إنما الأديب الذى صيغ من عناء الفقراء، ومن بواتق الانصهار فى نار الهموم اليومية وارتفاع الأسعار وندرة السلع، وجرب الجوع والعطش والبرد، وشاهد تكل النساء وسفك دم الشباب تحت سنابك خيل الطغاة اللصوص. هذا الأديب المصاغ من هذه الهموم الشعبية لابد أن تكون هذه الهموم هى مادة الأساس فى كتاباته أدبية كانت أو فنية أو صحفية. وإنه لمن المستحيل عليه أن يخون قضيته بأى حال من الأحوال، وهل يخون الضمير نفسه؟ هل يأكل الإنسان لحمه؟ . قبل الثورة كانت قضية التحرر الوطنى هى شغله الشاغل. وبعد الثورة اتسعت قضية التحرر الوطنى لتشمل التحرر من الجهل والفقر والمرض والاستبداد. ولما كان بطبيعته يميل إلى الكتابة السخنة، ربما لأنه دخل ميدان الكتابة بروح الجندى المقاتل الذى لا يفارق موقعه، وأنه كان مجذوبا دائما بمسألة العناء اليومى للشعب؛.. لذا فقد اختار الصحافة كخندق يحارب منه كل من يتراخى فى تيسير الحياة على الناس، كل من يتساهل فى أداء واجبه، كل من يخادع الشعب أو يسرق قوته أويحتال عليه.

هو وإن كان متفائلا بثورة يوليو ويتمنى لها النجاح فى مبادئها الستة العظيمة المعلنة؛ إلا أنه لاينسى مطلقا أن القائمين بها والقائمين بالحكم هم من العسكر، وما أخطر الصدام معهم، وفى نفس الوقت هو مجبول على البوح، والقول، والانتقاد، فكيف يا ترى يمارس دوره الواجب كجزء فى ضمير الأمة يتعين عليه الكشف







○ استفاد من طرائق الحكي في المأثور الشعبي، من الحكواتي وشاعر الربابة إلى ألف ليلة وليلة والسير الشعبية

والمصارحة والنقد والاعتراض على ما يراه جائرا وضد مصالح القوم؟ كيف هذا والصحافة قد أممت وتحولت إلى صحافة للتعبئة أحادية النظرة؟ هل يتحول إلى بوق وهتيف حنجوري؟..

في اعتقادي أن مثل هذه الأسئلة ربما لم تخطر على باله لأن طبيعة موهبته الفنية قد شافت شغلها من تلقاء نفسها ومضت تمارس دورها في سلاسة.

الأشواك.. والسخرية

تحركت في داخله فرعة الصبار فشفت عنها كتابته الصحفية المباشرة؛ فكان من السهل على أي قارئ أن يستشعر في هذه الكتابة ملمس أشواك فرعة الصبار وأن يرتعد من ملمسها.

هذه الأشواك هي ملكة السخرية الحادة، الحوشية، التي يتمنى كل قارئ ألا يقع تحت طائلها ذات يوم. فهي سخرية لا تعرف الرحمة ولا الحياء، لاسعة حارقة كطرف الكرباج السوداني: سخرية تفضح وتعري وتقرص في مناطق موجعة، وتكوي بالنار كما تفعل الأم القاسية حتى لا يعود ابنها لارتكاب المحظور مرة أخرى.

ملكة السخرية عند محمود السعدني ليست فحسب معادلة لأشواك الصبارة، بل إن مادة هذه السخرية تمتاح من متاع الصبار كثيرا من الأصالة والبلسمة القادرة على شفاء الأمراض - ويا طالما عالجت سخريات السعدني حالات نفسية مستعصية على أطباء النفس - والكثير جدا من الصفات الحميدة التي نراها بارزة في شخصية الحبيب محمود..

أهم هذه الصفات هي أنه مثل الصبارة لديه قدرة هائلة على الاستغناء. إنه يعرف مقدما أن هذه المقالة أو تلك قد تؤلب عليه الدنيا كلها، قد تحاربه في رزقه، على الأقل تحرمه من بعض ما يستحقه من مكافآت مادية أو أدبية؛ قد يخسر صديقا، يستعدي عليه مسئولا تسلطيا، يوغر صدر وزير أو رئيس وزراء أو رئيس دولة من الدول أو طائفة من المنتفعين بسوء وضع من الأوضاع. ومع ذلك يكتب المقالة غير عابئ بما سيحدث ولسان حاله ينطق بالمأثور الشعبي الدارج. إنشا الله تخرب.

في غياهب السجون!

إنه من فرط ما كابد الفقر والحرمان، ومن شدة ما عاناه من هموم العيال، وما لاقاه من غدر الثورة التي ألقت به في

غياهب السجون دون ذنب أو جريرة؛ أصبح يعتقد أنه مهما ادلهمت الحياة أمامه فلن يحدث له أفظع مما حدث من قبل .الجوع؟ إنه مدرب عليه. الطرد من الوظيفة؟ إنه ياما طرد. السجن؟ لقد سجن. التشهير؟ لن يصدقهم أحد. لقد ضرب المثل في قوة الصبر والصمود واحتمال المكاره ومقالب الزعماء والملوك العرب، ولا أظن أن مذكرات الولد الشقي بأجزائها قد عبرت عن حقيقة العناء الشديد الموجع الذى كابده في رحلة المنفى، ويبدو أنه قد ترفق بأعصاب قرائه فأعطاهم عصيراً مخففا لكى يحتملوه، وضع لهم فوق الخمر السعدانى المعتق بعض مكعبات الثلج والصودا.. أما الصورة المروعة لصحفي ذى مبادىء أخلاقية وسياسية معينة حين يكتب عليه قدر غاشم أن يقضى سنوات من عمره، أحلى سنوات عمره، راحلا من بلد إلى بلد تحت جنح الظلام يجر خلفه زربة عيال بينهم الحبيبة هالة المريضة بشلل الأطفال يبحث لها عن طبيب نطاسى يجرى عدة عمليات جراحية تتكلف الآلاف المؤلفة من أموال لا يملك هو منها مليما واحدا، بعد أن تنصل منه أصحاب الوعود من زعماء وملوك وهيأ لهم غباؤهم أنه يمكن أن يكون جنديا في كتائبهم تحت أمرهم يكتب مسبحا بحمدهم إذا هم عالجوا له ابنته فإذا بهم يكتشفون أن «نقبهم على شونة» وأنه لن يتورع عند اللزوم عن سلخهم بكرباج السخرية النقدية، فقلبوا له ظهر المجن وتوعدوه بعد أن كانوا قد وعدوه فإذا هو أذكى وأسرع إلى الهرب من بطشهم.. هذه الصورة التى وردت في مذكرات السعدنى على سبيل الدردشة بذكريات موجعة، ترينا إلى أى حد يتطابق السعدنى مع أصالة الصبار.

ولكن هذه الخصائص قد تتوافر فى كاتب من الكتاب ومع ذلك لا تحقق له نجاح السعدنى ولا شهرته، لا ولا مكانته المرموقة عند الجماهير العريضة والمسئولين معا، ما لم يكن فى قلبه ما فى قلب محمود السعدنى من متاع الصبار، أعنى المكابدة ضد عوامل القهر والفناء، رفع أرصدته الشعورية فى بنك التجربة الحياتية، بحيث يكون الكاتب أشبه بأرشيف حى للمشاعر القومية على نظام دقيق لا تفلت منه شعرة..

إن محمود السعدنى يضغط على زر فى صدره فإذا هو قد تلبسته شخصية قهوجى بعينه من آلاف من القهوجية في وجدانه، فيشعر بمشاعره ويفكر بطريقته ويعبر بلسانه حتى لا تجد أدنى فرق بينه ككاتب وبين الشخصية التى يشف عنها. وهكذا الأمر بالنسبة لأنماط لا حصر لها من الشخصيات المصرية الصرفة من أقصى البلاد إلى أقصاها، من أعماق الريف إلى قاع المدينة، من وجهاء القرية، لا وجوه السلطة فوق دست الحكم.

قطرات من عصير الحياة

تعبيراته كذلك ليست موضوعة، ليست منحوتة بقلم يكتب، إنماهى قطرات من عصير الحياة فى الشارع فى الحارة فى المقهى فى الحفل فى ديوان الموظفين فى كل مكان فيه حياة. هى تعبيرات دامغة مقحمة لا تقبل الرد أو اللجاجة. ذلك أنها بنت التجربة العملية، شارك فى صنعها الملايين فأودعوها مشاعرهم وظلال بيئاتهم

وإشعاع ذواتهم وفيض حكمتهم.

هذا - ربما - يفسر لنا هذه المسحة الفولكلورية الناطقة فى أسلوب محمود السعدنى. إنه يستخدم نفس اللغة العربية التى يكتب الجميع قديما وحديثا؛ ولكن اللغة عنده تبدو فوق عروبتها مصرية تلبس العمامة المملوكية و«اللباس أبو دكة» بشراريب والبنش واللاسة. هى لغة رغم فصاحتها وأصالتها وجزالتها والتزامها بفنون البلاغة العربية الموروثة تكاد - لفرط سيولتها بالسهل الممتنع - تكون عامية واضحة لجميع الأفهام،كلغة السير الشعبية وألف ليلة وليلة وابن إياس والجبرتى؛ فصحى عريقة ولكنها أخذت من العامية المصرية رصيدها الغنى من الشحنات الشعورية كلغة نتكلم بها ونفكر ونحلم ونتوجع ونغنى ونحزن بها؛ وهذه الشحنات الشعورية التى تتمتع وتتميز بها العامية المصرية دون جميع لهجات العرب نظرا لعراقتها فى ظل مجتمع أشد عراقة فى النظام الدولى، هى التى أضفت على أساليب الفصحى المصرية خصوصية فريدة أكسبت اللغة العربية إشراقا وسيولة ومرونة، ووسعت من رداء المفردة ليتسع لكثير من دم ولحم التجارب والمعانى والأحاسيس فى طور المفردات وأبعدها عن جذورها البدوية القديمة.. ثم إنها فى أسلوب السعدنى أصبحت لغة مزاجها رايق جدا، أصبحت تتحزم وترقص عشرة بلدى بالعصا وبالشمعدان، تلطم وتصرخ كنساء مصر الثكالى المنكوبات على امتداد التاريخ بفقد رجالهن وعيالهن فى أعمال سخرة أو حروب مجانية، تغنى بالموال والدور والطقطوقة والمونولوج الشكوكوى والياسينى، تتفتون مع الفتوات وتتعارك بالنبوت وبالكرسى والروسية والشلاليت، تردح بالصوت الحيانى لمن يجدر به الردح من البكوات الزائفين بتوع الحلمبوحة، تتسلطن فى العصارى مع واحد الشاى ومبسم النارجيلة لتتلقى أخبار الحى بأريحية وحميمية لتلعب دورا فى درء المصائب أو إغاثة ملهوف أو مساعدة محتاج أو مواجهة عدوان..

لغة السعدنى

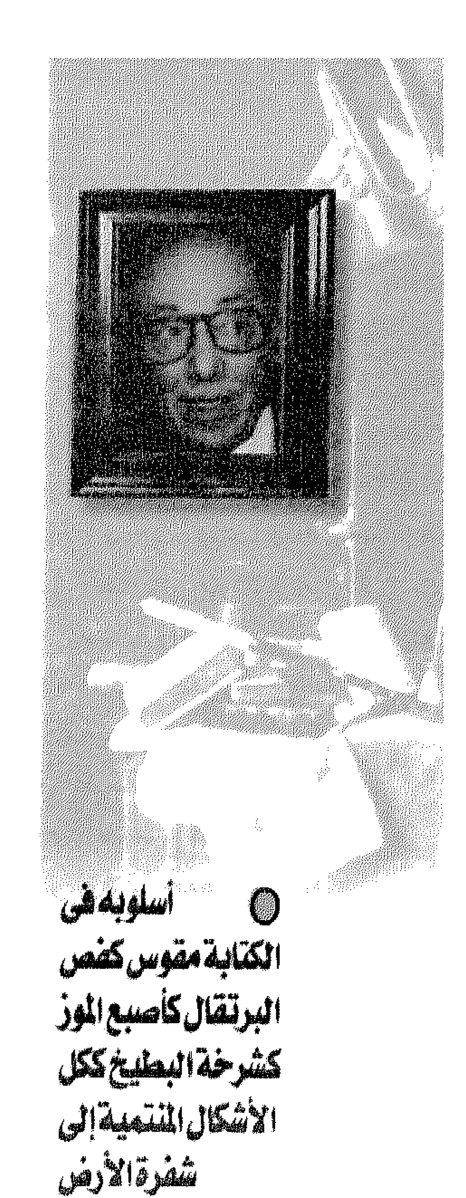
تلك هى لغة محمود السعدنى وهى تمثيل لمكوناته الشخصية إذ هو مخلوق ليكون عمدة أو قعر مجلس أو شيخ

هو مخلوق ليكون عمدة. فيه «كاريزما» قوية طاغية يملك بها التأثير الفورى على أعتى شخصية

طريقة أو زعيم عصابة. فيه «كاريزما» قوية طاغية يملك بها التأثير الفورى على أعتى شخصية تجلس إليه لدقائق معدودة. ولولا أن ضمير الكاتب فيه هو الأصل الراسخ لكان لمحمود السعدنى مستقبل باهر فى مجالات كثيرة جدا. لديه مخزون لا ينفد مطلقا من مادة للحديث، تتفرع الحكايات وتنسلخ من بعضها تماما كألف ليلة وليلة، تتدفق النوادر والطرف والملح بغير حساب. قدرته مذهلة على التحدث ببساطة شديدة عن أمور شديدة التعقيد، تحيلها خفة ظله الطاغية إلى محض طرف لا تستحق الرهبة التى نحيطها بها. وفى وجود السعدنى فى أى مجلس ينسى الجميع تماما أنهم قادرون على الكلام فأى متكلم فيهم لابد أن يصيبه الإحباط فى الحال إذ هو لا يملك شيئا ولو يسيرا من خفة الظل هذه ولا كل هذا الثراء من الحكايا والمواقف والتجارب ولا هذه القدرة على ربط كل هذه البوارق ببعضها فى لغة سحرية مبهرة. لهذا يفضل الجميع الصمت والإنصات. عندئذ تكون الكلمة مسعفة، حيث يقتنع جليس السعدنى بأنه من الحمق أن يضيع على نفسه هذه الفرصة العظيمة فى سبيل أن يثبت حضوره فى القعدة بكلمتين ستبدوان لابد فارغتين أمام هذا السيل المنهمر من الكلام الملآن بالتجربة كالوثيقة، الطافح بالبهجة كفرح غامر. وهكذا ينصت الجميع بشغف.

ليته كان مجرد حديث يلقى وإلا كان هناك من ينافسه فى البراعة والسبك؛ ولكنه كلام تشخيص، يتحول فيه محمود السعدنى إلى فنان مسرحى عملاق؛ يروى ويشخص فى نفس الآن، يلعب جميع أدوار الأطراف الغائبة، فحين يقول مثلا: وقال لى فلان؛ فإن فلانا بلحمه ودمه يقوم فى صوت السعدنى ويتكلم بنفسه بلهجته بكل ما ينطبع على اللهجة من صفات وخصائص نفسية واجتماعية وثقافية خاصة بالذات المتكلمة. فإذا علمنا أن الحديث المنفرد يتناول مئات الحكايا والمواقف والمواجهات والصدمات والمراوغات، اتضح لنا أن السعدنى لحظتئذ يكون كوكبة من البشر فى شخص واحد. وإنى لأزعم بأن السعدنى لو جلس على أية خشبة مسرح وأطلق لحديثه عنان الوهج فلن يصمد أمامه فى الساحة المسرحية لا عادل إمام ولا صبحى ولا غانم ولا أى مضحك. لأنهم مضحكون أما هو ففيلسوف يضحكنا على أنفسنا على خيبتنا وأوضاعنا الموكوسة، إنه عجينة من ظرفاء مصر الأفذاذ من ابن نباتة المصرى إلى المعلم دبشة الجزار إلى عبدالعزيز البشرى وحافظ إبراهيم وإمام العبد وبيرم التونسى ومأمون الشناوى وأبو السعود الإبيارى وبديع خيرى إضافة إلى الريحانى وبشارة واكيم، مرشوش عليها مكسرات من عبدالرحمن الخميسى وكامل الشناوى وعزت المفتى صاحب البعكوكة وفتحى قورة بهلوان القافية.

تاج الملك مينا



أسلوبه فى الكتابة مقوس كفص البرتقال كأصبع الموز كشرخة البطيخ ككل الأشكال المنتمية إلى شفرة الأرض الدائرية.

ومحمود السعدنى إبن بلد بمعنى الكلمة لاتغرنك بعض بذلاته الفاخرة التى تلحقه ظلما وعدوانا بطبقات الأثرياء الأنقاء، فإنه في الواقع لايستريح ولايتسق مزاجه إلا بأطقم اللبس البلدى حين يرتدى الجلباب الكشمير وفوقه العباءة الجوخ السوداء وعلى رأسه طاقية ببوز مدبب هى الصورة المعاصرة لتاج الملك مينا موحد القطرين، هى نفس الطاقية باستثناء الشارة الملوكية، والعصا العوجاية فى يده، وهكذا يلتقى الوزراء والأمراء والعمداء والمحافظين والكتاب من أصدقائه المتنوعين ليعزمهم على العشاء فى «نادى الصحفيين» المواجه لمنزله على نيل الجيزة، لسوف ينتهز الفرصة ويحدث المحافظ عن مطلب يحلم به سكان الجيزة، ويحدث الوزير عن مشكلة ولد مات أبوه ولم يعد له عائل ونود إلحاقه بكذا، وهكذا تجده دائما محملا بشكاوى الناس وطلباتهم والتماساتهم، وكلهم ناس يمكن أن يداسوا تحت الأقدام قبل وصولهم إلى مثل هذا المسئول الكبير، فيتبنى السعدنى مشاكلهم ويقبل على حلها بإخلاص حقيقي ودون ضجر، وقد يكلم المحافظ ألف مكالمة تليفونية ويلاحقه حتى يمسك به ويروح يعنفه ويؤنبه على تراخيه فى الرد على الطلب الفلانى، والسعدنى هو الشخص الوحيد فى العالم العربى الذى يحق له أن يخاطب المسئولين باللهجة التى تروق له حسب درجة انفعاله سخطا أو رضاء، هو الوحيد المسموح له بأن يهزر مع أى شخصية مهما عظم شأنها، وأن يقرصها فى الكلام قرصات موجعة يتقبلها المقروص بصدر رحب بل يكون أول الضاحكين المبتهجين بطرافتها وبما فى القرصة من ابتكار وخيال فى التعبير يتفوق على السرياليين، أما الشتائم عنده فلا سقف لها، وهى شديدة الديمقراطية تطال الكبير قبل الصغير بلا تفرقة ولاتمييز!.



أسلوبه في الكتابة

يأتى بعد كل ذلك أهم عنصر فى موهبه محمود السعدنى بنت شجرة الصبار. ذلك هو التقوس الذى فطرت عليه موهبته الفنية من حيث الطبع الشخصى والإطار التشكيلى لموهبته كما نحاول الآن أن نترسمه، إن أسلوبه فى الكتابة مقوس كفص

البرتقال كأصبع الموز كشرخة البطيخ ككل الأشكال المنتمية إلى شفرة الأرض الدائرية. أنت تبدأ قراءة مقال لمحمود السعدنى فإذا هو قمة فى الجدية كحكيم أو فيلسوف يبحث فى قضية كأداء عويصة، هذه الفرشة البالغة الجدية تتصاعد بك تملأك حماسة ورغبة فى المتابعة وشغفا لمعرفة النقطة التى سيصل عندها فصل الخطاب، فإذا بالمقال قد تقوس ومال كالصاروخ بعد تحرره من جاذبية الأرض وامتلاك جاذبيته الخاصة المتجهة نحو هدف بعينه، هذا التقوس الفنى هو الحصيلة الفكاهية الساخرة التى استخدمها الكاتب كوقود يدفع الصاروخ لأعلى، ليتمكن من إصابة قلب الهدف ببراعة حيث لايستطيع الهدف هروبا أو فكاكا من الرشق الغائص فيه. عندئذ يباح لسن القلم الفنان المكار أن يحفر كيفما شاء فى أرض الهدف يأخذ منها مايشاء من عينات أو يترك فيها مايريد من نبات أو أجهزة اتصال وقياس .. إلخ ..

موهبة التقوس الفنى هذه هى التى مكنت محمود السعدنى من إصابة الهدف فى كل موضوع يكتب فيه، لأنه لو دخل إلى الهدف مستقيما مباشرا حادا فإن سهمه قد يضيع فى الريح لخفته، ولسوف يعرف الهدف كيف يتفاداه بسهولة، لكن الطرف المتقوس للسهم يمكنه من مخادعة الريح والمرور من تحتها أو من فوقها لينفلت داخلا إلى حيث يريد.

وجميع الزعماء والأمراء والملوك العرب الذين أصابتهم سهام السعدنى المقوسة ولمست أماكن موجعة فيهم لم يفلحوا فى أن يكونوا أشرارا فى ردهم عليه، الرغبة فى الانتقام سرعان ماتخفت وتتلاشى لأن الوجع حين يخفت يخلف فى النفس معنى باقيا مفيدا ومهما، فإن تصادف أن التقوا السعدنى مصادفة فى إحدى المناسبات أو التدابير القدرية واستيقظت فيهم الرغبة فى الانتقام منه أو إيذائه عجزوا عن التنفيذ إذ يرون أمامهم رجلا شديد التواضع ذا نفس مقوسة تقوسا لطيفا قصد به أن يمعن فى الهزء بهم ومزيد من السخرية منهم، فبهذه الحيلة يشخص لهم مرضهم الأزلى ببروزه، كأنه يقول: يا أصحاب الغطرسة والاستبداد والقوة الغاشمة ها أنذا العبد الفقير إلى الله تعالى قد كشفتكم وهزأت بكم فلا تتكبروا على شخصى الضعيف لأنه الأقوى بحكم زهده فى الجاه والسلطان، وليس ثمة أقوى من سلطان القلم، سيما وإن كان شاربا من زهرة الصبار. ■



آفاق المستقبل

جزء خاص



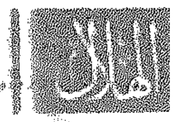


دعوة إلى جدل حول المستقبل دون إنكار تاريخ التدخل الأجنبى

نحن مسئولون عن أوضاعنا وأحوالنا

بقلم

مصطفى الحسينى



يرمى هذا المقال إلى أن يكون دعوة متواضعة من كاتبه لفتح جدل فى أوساط المثقفين والمعنيين والرأى العام العربى، وفى مصر بالذات، اعتبارا لدورها التاريخى كمصدر للمعايير وضابط للخطو فى العالم العربى، إن كانت المعايير محفزا وإن كانت مثبطا . وان كان الخطو تقدما أو نكوصا.

آن الأوان لأن نتخلى عن عادة إلقاء مسئولية ما نحن عليه من ضعف وما نتعرض له من امتهان على القوى الأجنبية والعوامل الخارجية. آن أوان الإقرار بمسئوليتنا الشاملة والكاملة عن ما نحن فيه من ضيم وما لحق ويلحق بنا من حيف، اصبح سكوننا امامه مادة حياتنا.

لا يعنى هذا إنكار التاريخ الطويل والقاسى للتدخل الأجنبى فى شئوننا، حتى كاد أن يتحكم بها ويقرر لنا مسارات حياتنا لعقود وعقود. ولا يعنى هذا أن الأجنبى عندما كان ينهب ثروات بلادنا ويدمر ركائز نمونا وتقدمنا. كان «يتبادل معنا» كما يدعى. لا يعنى هذا نفى أن الأجنبى لعب دورا كبيرا فى تمزيق أراضينا والاستيلاء على ما طاب له منها. ثم أخذ يبث بذور الفتنة والفرقة فى ما بيننا، حتى أمسينا وأصبحنا لا نكاد نتفق على شىء، حتى ما اعتدنا أن نلوك أنها قضيتنا المركزية أصبحت مجرد مادة لمزايدة بعض حكوماتنا على بعض. وموضوعا لتنازلات تلد أخرى حتى أصبحت «القضية» أرضها وشعبها مجرد هباء فى مهب الريح.

لا يعنى هذا إنكار شىء من ذلك وغيره من عدوان الأجنبى علينا كثير، نعرفه، إنما يبدو أننا لا ندرك أعمق أسبابه وأهم مغازيه.

أهم الأسباب هو ضعفنا، الذى نتحمل المسئولية الأولى عنه، وهو الذى جعلنا ويجعلنا، فى الماضى وفى الحال وفى الاستقبال، معرضين للعدوان والبغى.

إن ما تعرضنا ونتعرض له، ليس إلا من أعراض طبع الأقوياء حيال الضعفاء، فما يقوله التاريخ، هو أن الإمبراطوريات، على مدى ما شهد التاريخ منها، تغير وتنهب وتستولى، حتى يقف فى وجهها من لديه قدرة، أو ما تتيقن أنه يختزن احتمالات قدرة على إيقافها.

أما أهم المغازى، بل أخطرها . أننا

لطول ما استلمنا لإلقاء المسئولية على الأجنبى ، تبرئه لأنفسنا وإعفاء لنا من ما يترتب على المسئولية من عبء ، يوشك المستقبل أن يفلت من أيدينا ، بل أن يغيب عن أفقنا.

ما لم نبادر الآن، اليوم قبل الغد، إلى البدء فى العمل على إقامة ركائز لمستقبل يعفينا من الضعف ويعدنا بالقوة.

لماذا اليوم وليس غدا؟

ربما تأخرنا كثيرا. فما نواجهه اليوم كان يتشكل تحت أبصارنا على مدى طويل، بدأ يتخذ طريقة إلى الذروة التى بلغها الآن منذ حوالي عقود أربعة - تحديدا منذ الهزيمة العربية أمام إسرائيل فى ١٩٦٧.

ما هو أمامنا اليوم، أن إسرائيل تتصرف على أنها دولة كبرى، ويعاملها العالم على أنها كذلك.

الدول الكبرى ما بين من تسلم لها بأن أمنها يعلو على كل أمن، وبين من تسايرها فى هذا الشأن. الدول الكبرى تعفيها من المحاسبة على ما تحاسب عليه بقية الدول: من إنتاج أسلحة الدمار الشامل ومعدات استخدامها، بل أقرت لها القوى الكبرى بما عينت نفسها لها، رقيبا على الدول الإقليمية فى هذا الشأن . كأنها هى المولجة بضمان تنفيذ ما يتصل به من اتفاقات دولية. إلى احتلال «أراضى الغير بالقوة»، إلى تهديد البلدان المجاورة بل ودول الإقليم التى ليس لها معها جوار حدود، صراحة وعلنا وعلى رؤوس لأشهاد، إلى تجاهل القرارات الدولية وإعلان رفضها. إلى انتهاك الاتفاقات الدولية فى كل شأن، خصوصا ما يتعلق منها بقواعد الحرب والتزامات قوى الاحتلال، الى انتهاك حقوق الإنسان.

أمام هذا المركز الدولى المتميز الذى حازته إسرائيل ، ليس لنا ان نلومها على قوتها، ولا أن ننسب الفضل فى تحقيقها الى غيرها. ليس فقط لأن ذلك يجافى الحقيقة والواقع إلى حد بعيد. إنما بالتحديد لأن هذا النوع من السلوك لا يفيدنا بل يزيدنا ابتعادا عن سواء السبيل.

إن الاعتراف بقوة العدو هو الخطوة الأولى نحو إعداد أنفسنا لمواجهته.

يتعزز هذا المركز الدولى لإسرائيل بتطور تحالفها مع الولايات المتحدة إلى مستوى اندماجها فى الاستراتيجية الامريكية الشاملة التى ترمى إلى الهيمنة على العالم : اقوياءه وضعفاءه.

معالم الاستراتيجية الأمريكية الصهيونية

■ **الهدف الاستراتيجي:**

السيطرة على القرار السياسى فى العالم ككل وفى كل من دوله على حدة، بحيث يصبح القرار على كلا المستويين:

أ - امريكيا / إسرائيليا.

(أو) ب - منسقا مع الولايات المتحدة ومتوافقا مع مصالحها ومصالح إسرائيل.

(أو) ج - غير متعارض مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وهو الحد الأدنى لما تقبل به الولايات المتحدة وإسرائيل من غيرهما من الدول.



وهذا هو مضمون الهيمنة التى يكثر الكلام عنها.

■ **الوسائل:**

الوسائل المادية: العسكرية والسياسية والاقتصادية.

١ - السيطرة على مصادر الطاقة فى العالم، فى الحال وفى الاستقبال وتشمل:

أولا: السيطرة على المصدر الرئيسى الراهن للطاقة فى العالم - اى النفط الذى سيبقى كذلك الى مدى المستقبل المنظور، حيث يقدر الخبراء حاليا ان يحتفظ بهذا المركز للأربعين سنة التالية (هذا التقدير قابل للتغيير تبعا للتناسب بين وتيرة الزيادة فى استهلاك النفط، ووتيرة زيادة اكتشاف احتياطيات جديدة منه) اما بالسيطرة المباشرة على مواقع احتياطياته او على طرق نقله ووسائله. والوضع الافضل لتحقيق ذلك هو السيطرة على العنصرين معا.

القوى الدولية التى تستهدفها هذه الوسيلة هى البلدان الصناعية المتقدمة، المؤهلة للوصول إلى ما تخشاه الولايات المتحدة اى القدرة على منافسة عناصر قوتها، أو حتى تحديها. وان لم تكن اراضيها هى مسرح تحقيق هذا الهدف.

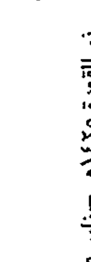
بهذا الصدد سنلاحظ انه فى سياق الإعداد لغزو افغانستان بذريعة القضاء على تنظيم القاعدة، حصلت الولايات المتحدة على تحالفات سياسية ومواطىء قدم عسكرية شملت بلدان اسيا الوسطى، (السوفييتية سابقا)، وبذلك أسست لإكمال سيطرتها على مواقع احتياطيات النفط والغاز المؤكدة وشبه المؤكدة، كما حسمت لصالحها الجدل الذى كان جاريا حول مسار خط أنابيب نقل انتاج منطقة بحر قزوين من النفط والغاز.

كما حققت بما حصلت عليه من تسهيلات عسكرية فى آسيا الوسطى امكانية قطع طرق نقل كل من النفط والغاز من مصادرهما الروسية والايرانية - إن دعت الحاجة.(١)

إضافة الى ذلك، امتلكت امكانية التحكم فى طرق نقل الطاقة بريا - تحت الأرض - من الشرق الأوسط والقوقاز الى الشرق، أى إلى شبه القارة الهندية والصين واستطرادا إلى اليابان.

فى الاستراتيجية الامريكية لا يتحقق هذا الهدف الا بالوسائل العسكرية على مستويات متعددة:

أ - الغزو المباشر، مثل ما نرى فى أفغانستان (لفتح الطريق امام خط أنابيب القوقاز. ومثل ما نرى فى العراق التى لم تكن السيطرة على نفطها تحتاج الى الغزو. فقد كان النفط العراقى - عمليا تحت السيطرة الامريكية منذ فشل الحظر النفطى العربى فى سبعينات القرن الماضى. بحكم قوانين السوق، التى أثبتت ان السوق النفطية هى «سوق مشترين» ثم بحكم العقوبات التى فرضت على العراق منذ مطلع التسعينات. انما اتخذ قرار غزو العراق بغرض تحويلها إلى «رأس الذئب الطائر» الذى لن تخطىء الدول المعنية رؤيته. (انظر ما حدث فى ليبيا وما يجرى التلويح به امام أعين



سورية وإيران).

ب – الحصول على «التسهيلات العسكرية عن طريق التلويح بعصا الاتهام بـ «عدم التعاون فى الحرب على الإرهاب» وبجزرة الاستثمارات والمعونات، والأهم منها «العفو» عن السلطات القائمة ودعمها، كما نرى فى أحوال البلدان السوفييتية السابقة فى آسيا الوسطى . بل وفى جورجيا وأوكرانيا .

ج – التلويح برأس الذئب الطائر فى العراق . على ما سبقت الإشارة.

ثانيا : منع البلدان التى لم تحقق حتى الآن قدرة على التعامل مع تكنولوجيا الطاقة النووية من الحصول عليها أو تطوير ما قد يكون لديها من قدرات فى هذا المجال.

يقدر ان الطاقة النووية هى المرشح الأرجح لاحتلال مركز «المصدر الرئيسى للطاقة» بعد نضوب النفط عاجلا او آجلا.

كما أن الطاقة النووية، حالما تتحقق غير قابلة للتدويل، أى أن من طبيعتها أن تنتج محليا وتستهلك محليا (باستثناء ترتيبات الربط الكهربائى بين دولتين أو أكثر، والتى تحقق – عادة – فى اطار علاقات ودية، تستبعد استخدامها أداة للضغط)، ما يترتب على هذه الخاصية للطاقة النووية أنها تجعلها أداة غير صالحة للضغط على الدول من خارجها، ولهذا تريد هذه الاستراتيجية منع من لا يمتلكونها من امتلاكها .

القوى الدولية التى تستهدفها هذه الوسيلة هى بلدان العالم الثالث التى تتمتع بإمكانية واضحة أو راجحة للنمو.

والهدف الأمريكى من التحكم بهذا المصدر اللاحق للطاقة هو ان يكون تطور تلك البلدان رهنا بمشيئتها ، إذ أن حرمانها من اكتساب المعرفة النووية واستطرادا التكنولوجيا اللازمة لإنتاجها، سيضطرها الى استيراد حاجتها من الطاقة «الجديدة» بعد نضوب النفط.

الذريعة الملائمة التى تستخدمها الولايات المتحدة لتحقيق هذا الغرض هى «منع انتشار الأسلحة النووية».

وتتسلح هذه الذريعة بالضغط الدبلوماسى والسياسى والاقتصادى والخشن على الدول التى تلحق بها تلك «التهمة».

يجدر أن نلاحظ ان هذا هو الغرض الحقيقى للحملة التى تشنها الولايات المتحدة على إيران وكوريا الشمالية.

٢ – المحافظة على ما للولايات المتحدة من تفوق مطلق فى السيطرة على طرق النقل البحرى والجوى فى العالم. كما على شبكات النقل البرى، التى تأخر تحقق اكتمال سيطرتها عليها حتى نهاية الحرب الباردة، بينما كانت قد تحققت فى المجال البحرى فى فترة ما بين الحربين العالميتين وتأكدت تماما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. كذلك تحقيق سيطرة كاملة فى مجال نقل النفط والغاز تحت سطح كل من الأرض والبحر، وهو ما أسست لإكماله فى سياق الاعداد لغزو افغانستان.

وتعتبر هذه الوسيلة مكملا ضروريا

للوسيلة الأولى.

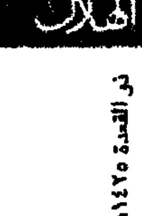
٣ - المحافظة على ما للولايات المتحدة من تفوق عسكرى على أى دولة أخرى او ائتلاف من الدول، سواء كان من المحتمل او غير المحتمل ان يكون اى منها منافسا أو مناوئا ، فضلا عن أن يكون معاديا للولايات المتحدة ، فى الوقت الراهن أو فى المستقبل المنظور.

المستهدف هنا هى القوى الدولية المتمتعة بقدرات ذاتية فى مجالات التكنولوجيا العسكرية، بما فيها الدول الأعضاء فى الحلف الأطلسى . إضافة الى روسيا والصين والهند واليابان.

أدوات الولايات المتحدة فى ممارسة هذه الوسيلة متعددة وميسورة، أهمها: اتفاقات الحد من التسلح .الابقاء - ما امكن - على تسليح الدول الأطلسية فى نطاق الحلف الأطلسى تحت السقف الأمريكى ادخال تطوير التكنولوجيات المتقدمة ضمن اتفاقات دولية تتمتع فيها الولايات المتحدة بوضع الطرف الأقوى.

الوسائل غير المادية:

هذه وسائل عديدة يصعب حصرها وتصنيفها ، لكن أبرزها ما يجرى استخدامه الآن: الترويج لما يسميه المروجون الجذريون لتلك الاستراتيجية «صراع الحضارات» أو الثقافات . إعادة استلال الصراع الدينى بين الإسلام والمسيحية الشرقية من موقعه البائد فى العصور الوسطى، لتوظيفه فى إخراج المسلمين ورعايا الكنائس المسيحية الشرقية، أى شعوبنا وبلادنا من دائرة الحضارة الانسانية . تضخيم خطر «الارهاب الدولى» .(وفرت حوادث ١١ سبتمبر / ايلول ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة سندا ملائما لهذا التضخيم) وتحويل هذا الخطر بعد ان جرى تضخيمه الى ذريعة لشن «حرب طويلة» - لامدى زمنيا لها ولا مكانا محددا لها. اشاعة أوهام حول قدرة الارهابيين على الحصول على أسلحة الدمار الشامل واستخدامها لاستخدام تلك الأوهام ذريعة لحركات معظم دول العالم الثالث الفقيرة من المعرفة ومنعها من ممارسة البحث العلمى البرىء والمشروع. التحكم فى انتقال المعرفة والمعلومات وتكاملها . الترويج للثقافة الشعبية الامريكية. من فنون ال «بوب» الى الوجبات السريعة والمشروبات الغازية الضارة، الى الأزياء وانماط السلوك باعتبارها ثقافة العصر التى لا غنى عنها ، سعيا الى استنساخ العالم على شاكلتها على ان من أخطر هذا النوع من الوسائل ما تسميه تلك الاستراتيجية حملة نشر الديمقراطية او الإصلاح الديمقراطى فى العالم. وفى هذا السبيل تستخدم السلاح لتحقيق الديمقراطية من «فوهه البندقية» على نحو ما نرى الآن فى العراق وافغانستان. وتستخدم كل ادوات الضغط ووسائله لإجبار الدول على تغيير مناهجها التعليمية، على نحو يهدد هوياتها القومية. هدف هذه الحملات ليس نشر الديمقراطية ، إنما نشر نموذج شكلى لتطبيق لون منها، يلخصها فى «صناديق الاقتراع» بهدف تمكين العناصر المحلية



الموالية لأصحاب هذه الاستراتيجية، ليس فقط من السلطة فى بلادها، بل من إعادة صياغة المجتمعات بما يلائم اهدافه.

ثالثا : مكان إسرائيل فى هذهالاستراتيجية:

تحتل إسرائيل فى هذه الاستراتيجية مكان الشريك الكامل والمكافىء تقريبا للولايات المتحدة الأمريكية صاحبة هذه الاستراتيجية رغم التفاوت البالغ فى الحجم والامكانات والمركز الدولى، حيث تحظى الأخيرة بإقرار دولى شامل بكونها القطب الوحيد للنظام الدولى . لكن إسرائيل أصبحت تشاركها حتى فى هذا المركز حيث أصبح لها حق «فيتو» غير مباشر ، لكنه مضمون ، فى مجلس الأمن الدولى.

تمكنت اسرائيل من تحقيق موقع الشراكة بفضل عدد من العوامل، اهمها:

١ - نجاحها فى توظيف «الدياسبورا اليهودية» المنتشرة فى العديد من دول العالم ، حيث تحتل فيها - غالبا - مواقع مؤثرة، لخدمة سياساتها بما فيها استراتيجية الهيمنة الأمريكية.

وقد تضاعفت قدرة إسرائيل فى السيطرة شبه الكلية على «الدياسبورا» بفعل النصر الذى احرزته علينا فى ١٩٦٧ حيث وظفت ذلك النصر فى تعزيز موقع الجاليات اليهودية حيث تقيم، اصبحت هى حامية اليهود فى العالم واصبحوا هم أدواتها الفعالة والطيعة.

٢ - تعظيم دور اليهود الامريكيين، عن طريق الخدمات التى تقدمها اسرائيل للمصالح والاغراض الامريكية فى هذه المنطقة على وجه الخصوص حتى نجحت فى ادماج «أمنها/ مطامعها». ضمن منظومة الامن القومى الامريكى.

٣ - تركيزها فى العقدين الاخيرين على تنمية قدراتها العلمية والتكنولوجية واستطرادا، الاقتصادية، ساعدتها فى ذلك الهجرة اليهودية الضخمة والتى تتميز بكفاءات علمية فائقة من الاتحاد السوفييتى السابق، اثناء مقدمات تفككه وبعده، ما اتاح لها الدخول فى علاقات تبادل اقتصادى وسياسى وامنى - مبنيه على ما حققته فى تلك المجالات.

٤ - نجحت اسرائيل فى «تعيين نفسها» حارسا للمصالح الغربية - وليس الامريكية وحدها، فى المنطقة وهى تتحرك تدريجيا لأن تتخذ من تلك المصالح رهينة تضمن بها استمرار دعم القوى الكبرى لها ومعاملتها معاملة الشريك المكافىء.

١ - هذه الاستراتيجية ليست من متغيرات السياسة الامريكية، انما من ثوابتها. أى أنها ليست رهنا بإدارة سياسية امريكية بعينها ، ناهيك عن رئيس بعينه.

بدأ تبلور خطوط هذه الاستراتيجية فى أواخر القرن التاسع عشر فى عهد الرئيس ويليام ماكنلى. واكتسبت زخما فى عهد الرئيس تيودور روزفلت . واستمرت مضطردة مع بعض العثرات الطفيفة التى لم تؤثر على مجراها ، مثل ما أدى اليه الشقاق الحزبى بين الرئيس وودرو

ويلسون والكونغرس فى أعقاب الحرب العالمية الأولى.

منذ ذلك الزمن كانت العناصر النافذة - فكريا وتنفيذيا فى المؤسسة السياسية الأمريكية ترى على الافق تراجع الامبراطورية البريطانية ، كما شجعتها السهولة التى وضعت بها الولايات المتحدة . فى اول خطوة لها فى معترك الصراع الدولى، نهاية الامبراطورية الاسبانية من كوبا الى الفليبين وكانت تلك العناصر النافذة إما ترى فرصة تاريخية أمام الولايات المتحدة لوراثة الإمبراطورية البريطانية واما قدرا عليها لا مفر منه لإكمال رسالة الحضارة الغربية فى العالم.

٢ - لا انقسام عميقا داخل المؤسسة الامريكية حول هذه الاستراتيجية ففى سياق ما دار فى الولايات المتحدة من جدل فى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر، توافق عليها «العمليون» و«الامبرياليون» و«المثاليون» كانت القوة الرئيسية المحركة لذلك الجدل هى نمو الطاقة الإنتاجية الأمريكية بما يفوق طاقة أسواقها المحلية وطاقة أسواق «مجالها الحيوى» على نحو ما رسمه «مبدأ مونرو».

٣ - لم يعد دور إسرائيل فى الاستراتيجية الأمريكية ، دور اداة التنفيذ، على نحو ما كانت بالنسبة لفرنسا وبريطانيا فى ١٩٥٦ او بالنسبة للولايات المتحدة فى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ اصبحت إسرائيل شريكا شبه مكافىء، لا تقتصر هذه الشراكة على التنفيذ، انما تمتد عمقا الى وضع المفاهيم التى تنبنى عليها الاستراتيجية الامريكية الشاملة وصياغتها.(٢)

موقع العالم العربي من هذه الاستراتيجية

يتحدد هذا الموقع بفعل نوعين من العوامل اولهما طبيعى وثابت والثانى تاريخى وقابل للتغير.

١ - العوامل الطبيعية اثنان: الجغرافيا والجيولوجيا.

أ - الجغرافيا: غنى عن الذكر ان العالم العربى يقع فى «الوسط الملائم» من الكرة الأرضية، متوسطا محيطين - الهندى والأطلسى - من ثلاثة محيطات كبرى صالحة للملاحة ، كما انه على موقع حاكم للبحرين اللذين يربطان هذين المحيطين: الابيض المتوسط والاحمر، وفى داخل العالم العربى او على تخومه ، تقع أهم المضايق والممرات الدولية ذات القيمة للملاحة فى العالم: هرمز وباب المندب وقناة السويس وجبل طارق. كما أن مضيقى البوسفور والدردنيل المؤديان إلى البحر الاسود ثم عمق اوروبا السلافية يتجه مخرجهما الى البحر المتوسط الذى تشغل بلدان عربية شاطئيه الشرقى والجنوبى. هذه عقدة مواصلات العالم، خصوصا بعد ان تبين ان التطورات الكبرى فى مجال وسائل الانتقال لم تقلل من اهمية هذا الموقع.

ب - الجيولوجيا : باختصار، أدت المصادفة الجيولوجية إلى أن يحتوى باطن اراضى العالم العربى ما يقرب من ثلثى احتياطى العالم من النفط، الذى اصبح

المصدر الرئيسى للطاقة فى العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

كما أدت المصادفة الجيولوجية ذاتها إلى أن يكون هذا المخزون الحيوى موزعا ما بين أقصى الشرق من العالم العربي – منطقة الخليج وما يقارب اقصى الغرب منه – ليبيا – والجزائر.

كذلك ادت مصادفة او مصادفات اخرى. جغرافية وطبوغرافية ومناخية، الى ان يكون الجزء الاكبر من ذلك المخزون فى بلدان قليلة السكان، لا تقدر على استيعاب الطاقة للتطوير الصناعى الذاتي، كما أغراها التدفق النقدى الضخم والسريع والذى يتطلب جهدا الى تصدير النفط الى الخارج ، بدلا من استخدامه ضمن خطة تنمية قومية او إقليمية(٣)

تأثير العوامل الطبيعية :

أدت المصادفة الجيولوجية – النفط إلى أن تكون السيطرة على العالم العربى على رأس أدوات تحقيق الاستراتيجية الأمريكية إليها.

كما أن الموقع الجغرافى الذى يشغله العالم العربى . يجعل السيطرة عليه من أهم مستلزمات السيطرة على طرق النقل والانتقال بين أطراف العالم. أدى هذان العنصران «الثابتان» إلى أن يكون العالم العربى مسرحا لابد منه لممارسة استراتيجية الهيمنة الشاملة، كما يؤدى العنصر الثالث – «القابل للتغيير» – ضعفنا البنيوى التاريخى إلى تسهيل ذلك. بل الإغراء به.

ب – العامل التاريخي:

لا حاجة للخوض فيه كثيرا بحكم أن حصيلته ماثلة امامنا: حالة ما نحن فيه من ضعف وتدهور مطرد، أصبح فعله ناشطا فى بنياننا الاجتماعى بمكوناته جميعا: الثقافية والسياسة والاقتصادية والاجتماعية .. الخ.

تدخل أحوالنا الراهنة ضمن هذا العامل التاريخى، احوالنا الراهنة لا تقتصر على نظم الحكم التى تفتقر إلى الشرعية ، تحكم بالاستبداد والقمع . تستجيب لمطالب الخارج أكثر مما تستجيب لمطالب الداخل ومتطلباته . تنهب ثروة البلاد بأساليب الفساد. تسد الطرق والسبل امام الأجيال الجديدة، التى هى الحامل الطبيعى لمستقبل البلاد، فيهاجر ويهجرها افضل ما بينها من مواهب محتملة ليس من بين دولنا القائمة من هو أفضل من الآخر فى هذا الشأن.

إنما يدخل ضمن احوالنا الراهنة ما نعانى منه من وهن اجتماعى شامل، لا يتسع المجال للخوض فى معالمه وأسبابه. وان كان تحديد هذه وتلك من بين أول ما يستحق جهد البحث باتجاه توفير ركائز نهوضنا مما نحن فيه.

هل نحن مستهدفون في الحرب الجارية والحروب اللاحقة التي ترمي الي تحقيق تلك الاستراتيجية ؟

الجواب : نعم ولا.

نعم. لأنه لا استجماع للوسائل التى تضمن تحقيق تلك الاستراتيجية دون السيطرة على العالم العربى بسبب موارده

النفطية وبسبب موقعه بالغ الأهمية ، كما أن دوام تلك السيطرة يستلزم الإبقاء على ضعفنا إن لم يكن بالمقاييس المطلقة ، فبالمقاييس النسبية.

ولا.. لاننا لسنا المستهدفين استراتيجيا بتلك الحرب. المستهدفون استراتيجيا هم تلك الدول التى تملك ممكنات تحقيق قوة تجعل منها، على الاقل، منافسا للولايات المتحدة الأمريكية.

ما العمل ؟

ليس فقط لأننا لا نستطيع تغيير الجغرافيا ، انما اساسا لأن الموقع المهم الذى نشغله على سطحها هو بطبيعته ميزة استراتيجية نهائية لنا، . ولولا ضعفنا البنيوى الذى أنتجه تاريخنا، وليس فقط لاننا لا نستطيع الغاء المصادفة الجيولوجية التى جعلت من بعض باطن ارض العالم العربى مستودعا لمعظم النفط، كما انه يمكن تحويله الى رصيد قوة لنا، ان نحن استطعنا امتلاك ناصية تاريخنا قبل ان ينضب النفط، فإن هذين العنصرين من عوامل تعرضنا فى التاريخ الحديث، ليسا موضوعا لهذا السؤال.

ما يتعرض له هذا السؤال هو العنصر الوحيد المتغير من عوامل ضعفنا التاريخى والراهن.

وجهة ما علينا ان نعمل فى سبيله لإنهاء كابوسنا التاريخى الطويل هو العمل على تقوية بنياننا الاجتماعى من أسسه جميعا الى أوجهه كلها.

والسؤال هو: عمليا، من أين نبدأ؟

تحتاج اجابة هذا السؤال الى جهد المثقفين الوطنيين ومواهبهم، على أسس من التفكير الواقعى المتطلع الى مستقبل ناهض ومشرق.

١ - يلاحظ هنا ان المعركة التى فتحتها روسيا ضد كبرى شركات النفط فيها - يوكوس - هى خطوة تهدف إلى مقاومة هذه السيطرة . فى ما يخص روسيا . اذ ان يوكوس كانت قد بلغت مرحلة متقدمة فى المفاوضات مع اكسون موبيل باتجاه «توحيد العمليات» ، كما طرحت فكرة خط أنابيب سيبيريا - الاسكا عبر أقصر طريق بين الجهتين - مضيق بيرنج. قد يفسر ذلك الدرجة غير العادية من الاهتمام التى اولتها الولايات المتحدة لقضية يوكوس.

٢ - راجع التقارير التى يصدرها «مركز واشنطن لسياسة الشرق الأدنى» كل ٤ سنوات أثناء حملة انتخابات الرئاسة الامريكية منذ حملة انتخابات ١٩٧٩ كارتر / ريغان فى سلسلة تسمى تقرير مجموعة الدراسة الرئاسية وقارن مع السياسات التى اتبعتها الولايات المتحدة فى المنطقة منذ ذلك التاريخ.

٣ - يلاحظ ان العنصر الجيولوجى رغم كونه من الثوابت، قابل للتغير بنضوب الاحتياطى النفطى.

كما يلاحظ انه - فى حدود ما هو معلوم حتى الآن - لا توجد فى باطن ارض العالم العربى، معادن أخرى ذات قيمة اقتصادية يعتد بها. وستكون لهذه النقطة اهميتها التاريخية فى ضوء اعتياد المنطقة (او جزء منها) العيش على تصدير مادة خام ناضبة بالضرورة.



المستقبل
واللعب على الكبار

بقلم
جميل مطر

يستنكر بعض المعلقين السياسيين ميل مسئولين عرب، أو دعوتهم إلى الاستفادة من الخلافات فى العلاقات الأوروبية الأمريكية، يعتقد عدد من هذا البعض أن التجربة السابقة في محاولة أكثر الدول العربية الاستفادة من الصراع بين الكتلتين السوفيتية والغربية لم تفرز سوى الجمود السياسى واستمرار التخلف والاستبداد ويرى عدد آخر أن الدعوة الراهنة، أى بعد انتهاء الحرب الباردة، إلى الاستفادة من الخلافات بين دول أوروبية والولايات المتحدة محكوم عليها مسبقاً بالفشل المؤكد لأن الخلافات وهمية، وإن وجدت، فتافهة إذ أن أمريكا مسيطرة والغرب متوحد حول ادعاء انتصاره على كافة الأيديولوجيات .

المستنكرون العودة إلى اللعب على الكبار يستنكرون لأنهم يلاحظون زيادة فى غوغائية أو فى قلة نضج صانعى السياسات الخارجية العربية التى تسلك هذا المنحى، وأكثرية بينهم تتصرف بانتهازية وسذاجة فتحصد نتائج مهينة وفى الغالب سلبية وقد سمعت أحد المستنكرين يصف السياسيين الذين يفكرون فى الاستفادة من خلافات الدول العظمى بأنهم لايتمتعون بأخلاق حميدة لأن أمريكا كريمة معهم وحامية لهم ولا تتوقع منهم الشر مقابل حسناتها .

سياسة قديمة

ما لايعرفة الكثيرون أن سياسة الاستفادة من تنافس القوى العظمى قديمة وقد ذهب بعض علماء العلاقات السياسية والدولية إلى القول بأن هذه السياسة تكاد تكون طبيعة ثانية للعمل الدولى لدول الشرق الأوسط فقد مارسها مشاهير المماليك عندما تعاملوا مع «الدول - المدن» الأوروبية واستخدموها لدعم مكانتهم فى مواجهة الخلافة فى بغداد وغيرها . وأبدع فى التعامل بها سلاطين الإمبراطورية العثمانية، ومن بعدهم مارسها معظم حكام الدول العربية التى حصلت على استقلالها مع انحسار الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية ودخلت فى علاقات مع الدولتين الأعظم خلال الحرب الباردة ولا يوجد فى واقع الأمر ما يرجع كفة المعارضين لهذا الأسلوب فى ممارسة السياسة الخارجية أو كفة أنصاره الذين يؤيدون العودة إلى هذه الممارسة . ومع ذلك فقد اشتد الجدل مؤخراً بين الفريقين بعد أن خرج من يقول إن الامتناع عن ممارسة اللعب مع الكبار منذ أن فرضت الولايات المتحدة نفسها قطباً أوحد عاد بأسوأ العواقب على المنطقة العربية بأسرها، وكذلك العالم الإسلامى ولا ينقص أصحاب هذا الرأى الحجج فالمكانات الدولية لكافة الدول العربية والإسلامية وصلت إلى حدود دنيا غير مسبوقة حتى فى أيام الاستعمار، أى قبل أن تصبح ذات سيادة واستقلال ناهيك عن الطريقة التى تقاد بها دول العالمين العربى والإسلامى إلى مؤتمرات لاصوت لهم فيها ولا رأى واستمرار تدهور الحقوق والقضية الفلسطينية وتشريع قوانين مخصصة لمحاسبة دول عربية وفرض عقوبات عليها وعقد مؤتمرات قمم دولية لحثها على إصلاح ذاتها والتخلى عن بعض تقاليدها وتغيير

مفاهيم وممارسات دينية لايتناسب بعضها وحاجة إسرائيل إلى استمرار التوسع وحاجة أمريكا إلى ترسيخ الهيمنة، رغم أن كثيرا من المفاهيم الأخرى التى لم تمتد إليها دعوة الإصلاح تستحق الأولوية وتسبق المفاهيم التى اختارت أمريكا وإسرائيل تغييرها. أحد أهم الأسباب فى كل هذه الانهيارات فى المكانات العربية أن العرب صاروا بدون نصير دولى .

ويستخدم هذا الفريق كافة الحجج ليثبت أن العرب والمسلمين خاسرون منذ أن توقفوا عن ممارسة هذا الأسلوب والاستفادة من صراعات الكبار ومنافساتهم ففى العالمين العربى والإسلامى حربان ناشبتان أهلكتا آلاف العرب والمسلمين ودمرتا الكثير مما كان قائماً ولم تشيدا أى جديد فضلاً عن أن عقدين فى ظل هذه السياسة لم يتحقق خلالهما قفزة واسعة نحو الرخاء أو الاستقرار أو العلاقات الطيبة بين دول الإقليم، ولم تحل قضية الفلسطينيين ولم يتوقف نزيف دمائهم وخسائرهم، ولم تعم الديمقراطية الحقيقية التى وعد بها القطب الأوحد وشن حربين بذريعتها، ولم يصبح الإقليم جزءاً من غرب عصرى ولم يصل إلى حافة الانطلاق نحو التقدم التكنولوجى والعلمى المؤكد، كما يقول هؤلاء، إن الإقليم بكاملة من أقصى أطرافه فى جنوب آسيا ووسطها إلى أقصى أطرافة على شواطى الأطلسى وحدوده مع أوروبا وإفريقيا، اكتسب ثقافة أشد تطرفاً وأكثر تشدداً وصار العنف أسلوب تعامل سياسى يتقدم على أساليب أخرى كثيرة. وبدت الخسارة أشد ما يكون فى السيادة الوطنية إذ اتضح أنه فى ظل غياب قطب آخر يوازن نفوذ القطب الأوحد وهيمنته فقدت دول المنطقة قدراً عظيماً من حرية إرادتها وقدرتها على التصرف المستقل فى الشئون الخارجية والداخلية وهو ما نراه بوضوح فى عدد كبير من الدول العربية كما فى باكستان وإندونيسيا ونيجيريا، بينما كان أحد أهم أهداف سياسة الاستفادة من تعدد الأقطاب والتنافس بينهم حماية الاستقلال الوطنى والمشاركة فى حماية السلام العالمى وكانت هدفاً للدول المستقلة حديثاً حين اجتمعت فى باندونج، وبعد ست سنوات عادت فاجتمعت فى بلغراد عندما نضج القادة وتبلورت الفكرة وفى الشهور القليلة الماضية أبدع قادة البرازيل وجنوب إفريقيا والهند فكرة جديدة تتناسب مع الظروف الدولية الراهنة، ولم تجد دولة عربية واحدة لها مكاناً فى هذا التجمع الناشئ مكن دول واعدة قررت أن تنتزع من مجتمع القادة العظام حقوقاً لها ومكانة.

المثير للاهتمام أن الجدل ذاته، مع اختلافات، يدور الآن فى معظم عواصم

دول الأتحاد الأوروبى. إذ إنه بعد عقدين - العقدان ذاتهما اللذان وقع فيهما ما يشبه الإذعات لقطب أوحد فى كثير من أنحاء العالمين العربى والإسلامى - يفتح الأوروبيون عيونهم على حقيقة كالصاعقة، وهى أن الغرب غربان وليس غرباً واحداً فمنذ عقد أو أكثر، طلع عليهم وعلينا فرانسيس فوكوياما بنبوءة أن الانسجام بين دول الغرب ومجتمعاته سيكون كاملاً فقد وصل التاريخ، حسب رأيه، إلى نهايته، وانتصرت الليبرالية الغربية، وتوحد الغرب على شرعية واحدة، ولن يحدث بعد الآن (تاريخ إعلان نهاية التاريخ) أن تشكك دولة غربية فى شرعية دولة غربية أخرى، كما كان يحدث فى القرن العشرين وأدى إلى حربين عالميتين.

لا يا فوكوياما

فتح الأوروبيون عيونهم على حقيقة أن الأمريكيين يريدون شيئاً مختلفاً واكتشفوا أنهم، أى الأوروبيين، على عكس نبوءة فوكوياما، يحملون كثيراً من الشكوك فى شرعية القوة الأمريكية وشرعية قيادتها للغرب .لقد قامت شرعية قيادة أمريكا للغرب على أعمدة ثلاثة، وكلها أعمدة انتصبت فى سياق وجود إمبراطورية شيوعية سوفيتية خلال الحرب الباردة، أول هذه الأعمدة هى التهديد العسكرى السوفيتى لأوروبا الغربية والاقتناع بأن أمريكا هى الأقوى والأقدر على صد هذا التهديد، ثانيها التهديد الأيديولوجى، أى الشيوعى وأهلية الولايات المتحدة لقيادة الأيديولوجية المضادة، وثالثها وجود روسيا متشبثة بهذين التهديدين للغرب، التهديد العسكرى والتهديد الأيديولوجى، إذ كان هذا التشبث والتصميم من جانب روسيا وتأكيدها المستمر على نواياها التوسعية، الضمان الأعظم لحماية أوروبا من هيمنة أمريكا ومحاولاتها فرض إرادتها على الدول الأوروبية وإخضاعها لمشيئتها. بمعنى آخر بينما كانت أمريكا فى حاجة لإنعاش أوروبا اقتصادياً ومساعدتها على التوحد سياسياً لتساعدها على الوقوف ضد الزحف الشيوعى العسكرى والأيديولوجى وإخراج القوات السوفيتية من أوروبا الشرقية والوسطى، كان لأوروبا

مصلحة فى الوجود السوفيتى فى وقت خرجت فيه ضعيفة من الحرب العالمية الثانية، وكان لها مصلحة فى القوة الأمريكية لحمايتها من الخطر السوفيتى ويفضل هذا التوازن بين القطبين الأعظم استطاع شارل ديجول من ناحية وفيلى براندت من ناحية أخرى الاستمتاع ببعض الإستقلالية والحرية فى الحركة الدولية .

***

انتهت مرحلة فى العلاقات الدولية، وبخاصة علاقات دول القمة، كانت أوروبا خلالها مطمئنة إلى الوجودين السوفيتى والأمريكى. تغير الوضع. لم يعد يوجد خطر شيوعى أو سوفيتى أو روسى يهدد أوروبا كقارة أو كدول، ولكن يوجد خطر أمريكى بسبب إصرار واشنطن على قيادة أوروبا وحمايتها رغم عدم وجود تهديد لأوروبا من أى جهة، فى ظل غياب التهديد لأوروبا تصبح أمريكا فاقدة لشرعية القيادة، فالدول موضوع الحماية لاتعترف بحاجتها إلى حماية. وتكتشف أوروبا كما يقول الكاتب المعروف جارتون آش، أن أمريكا لاتفكر إلا فى أمريكا بينما العالم وفيه أوروبا، لايفكر إلا فى أمريكا لقد كانت أمريكا دائماً موضع اهتمام فى كافة عواصم العالم، اهتمام بانتخاباتها وبسلوكيات النخبة الحاكمة فيها والأيديولوجية المحركة لها وسياساتها وأطماعها وشخصية رئيسها وتوازنات قوى الضغط فيها، ولكن لم يحدث أن وصل الاهتمام بأمريكا فى العالم فى أى وقت مضى إلى حده الراهن. ويعترف قادة فى الغرب بأن هذا الاهتمام كان يأخذ أحياناً شكل القلق من أن أمريكا لو تركت منفردة تهورت فى اتخاذ قرارات سياسية غير حكيمة، فالثقة الأوروبية فى حكمة صانعى السياسة فى أمريكا لم تكن على الدوام قوية أو كاملة. نعرف من التجارب التاريخية، وبخاصة تجارب كل من تشرشل الإنجليزى وديجول الفرنسى وبالما السويدى ونهرو الهندى وتيتو اليوغوسلافى مدى خشية صانعى السياسة فى دول متفاوتة الثقافة والعلاقة مع أمريكا من انفراد أمريكا فى اتخاذ قرارات دولية خطيرة ومازالت كلمات صمويل هانتنجتون تتردد فى آذان الأوروبيين، وخاصة تحذيره من غطرسة أمريكا وانفراديتها، مع أنه كتب هذا قبل وصول بوش الصغير إلى الحكم .

ازداد القلق وتضاعفت الخشية عندما أدركت أوروبا أن تأثيرها على أمريكا تآكل.

كان لبريطانيا تأثير كبير ومتواصل على السياسة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية لأن تشرشل كان يعرف مدى جهل واشنطن بأحوال أوروبا وتوازناتها ومازال المسلمون يدفعون ثمن التأثير الهائل لمارجريت تاتشر فى صنع توجهات وسياسات إدارة الرئيس ريغان



فى الثمانينات، ولاننسى أنها صاحبة الفكرة «المبدعة» بأن الإسلام سيكون عدو الغرب فى المستقبل المنظور. وكان لأوروبا الغربية تأثير على أمريكا خلال الحرب الباردة ليس لأنها كانت الأقرب إلى الاتحاد السوفيتى والأدرى بشئون أوروبا الشرقية، ولكن أيضاً لأنها أدركت مدى حاجة أمريكا لها. كانت أوروبا حليفاً أساسياً لأمريكا فى الحرب الباردة بحكم وجودها فى بؤرة الصراع .

أوروبا الضعيفة

وتغيرت المعادلة جذريا فقد فقدت أوروبا القدرة والفرصة للتأثير القوى على أمريكا لأنها صارت بسبب الموقع أضعف من أن تكون حليفاً أساسياً فهى ليست فى بؤرة الصراع، أيا كان هذا الصراع، وهى فى الوقت نفسه أقوى من أن تقع فريسة سهلة للإمبراطورية الأمريكية المتنامية النفوذ والأطماع. أوروبا ليست الشرق الأوسط، وأى دولة أوروبية، مهما صغر حجمها أقوى فى مواجهة الطمع الأمريكى من أى دولة عربية مهما كبر حجمها، لأنها أى الدولة الأوروبية اكتسبت مناعة من عضويتها فى كيان سياسى إقليمى قوى على عكس أى دولة عربية لايحميها تضامن إقليمى أو قومى على أى درجة من القوة أو المصداقية. هذه المناعة يشير إليها خافير دى سولانا، المسئول عن الشئون الدولية فى الاتحاد الأوروبى، حين يقول إن أمريكا سوف تعود إن آجلاً أو عاجلاً إلى أوروبا لأنها ستحتاج إلى شرعيتها، شرعية كيان يضم ٢٥ دولة. وبالفعل تغير الحال منذ أن دخلت أمريكا الحرب ضد العراق متجاهلة الشرعية الأوروبية فى مجلس الأمن . عند ذلك، بالغت فى الوقت نفسه فى تضخيم ضعف الاتحاد الأوروبى والصعوبات التى تعترض تبنية سياسة خارجية واستراتيجية موحدة.

ويعرف القادة الأوروبيون بمن فيهم قادة الدول الحديثة الانضمام للاتحاد الأوروبى وعلى رأسهم قادة بولندة، يعرفون حق المعرفة، أنهم فى حاجة إلى أن يكونوا قريبين من أمريكا ليس فقط من أجل تقليل فرص تهورها فى سياسات خارجية تعود بالضرر على كل الغرب، إن لم يكن كل العالم، ولكن أيضا لأنهم كما

يقول برنارد بوت وزير خارجية هولندا والرئيس الحالي للاتحاد الأوروبي في محاضرة ألقاها مؤخراً في كلية سانت أنطوني بأكسفورد : «إن جاهزية أوروبا وقوتها لاتكفيان وحدهما لتحقيق تسويات سليمة للمشكلات في العالم من دون تعاون قوي ووثيق مع الحليفة الكبرى الولايات المتحدة»، ولكنه قبل أن يصل إلى هذا التعاون القوي والوثيق مع الولايات المتحدة كان يدعو الاتحاد الأوروبي لاختيار سياسة الاعتدال بدلاً من سياسة القوة، في إشارة واضحة إلى الاختيار الأمريكي الراهن وأضاف محذراً بشدة من أن سياسة القوة هذه تهدد بتدمير الحضارات وهدم جسور التواصل بين دول العالم ودعا الوزير الهولندي دول أوروبا إلى اتباع سياسة مرنة في تنفيذ سياساتها وأهدافها من دون التخلي عن مبادئها .

بين أوروبا وأمريكا

أوروبا تؤمن بالديمقراطية وحقوق الإنسان ونظافة البيئة ومحاربة الإرهاب ولكنها تعلن بكافة الوسائل أنها لا تريد أن تفرض إيماناتها هذه بالقوة على كافة شعوب العالم بينما الرئيس بوش يردد أن أمريكا بصفتها «أعظم قوة من أجل الخير في العالم ستنشر الديمقراطية في الشرق الأوسط لأن القيم الأمريكية صادقة وقوية وحقيقية وضرورية لكل إنسان في أي مجتمع»، هنا تتسع الفجوة بين السياسات الخارجية الأمريكية والسياسات الخارجية الأوروبية، إذ أن طرفاً يعتبر نفسه رسولاً للتبشير بمبادئه، ويرى أنها مبادئ عالمية وأن من حقه استخدام كل الأساليب الممكنة ومنها القوة المسلحة لنشرها، بينما الطرف الآخر يعتقد أن الحوار وسيلة أفضل لنشر المبادئ والأفكار الغربية وتفادي فرض تلك التي لاتصلح للتطبيق في ثقافات أخرى ومن مفارقات التطور في العلاقات الدولية أن أوروبا الآن ضد أولوية استخدام العسكر في حل النزاعات الدولية وضد مبدأ توازن القوى، رغم أنها ابتدعت هذين المبدأين ومعهما الأيديولوجية القومية والأيديولوجية الاشتراكية، وبها جميعاً أوقعت العالم في أخطر حروب تذكرها الإنسانية المؤكد أن أوروبا لا تخشى من احتلال أمريكي لأراضيها وثرواتها، ولاتتوقع صداماً أو صراعاً دامياً مع أمريكا أخشى ما تخشاه في رأيي هو أن تفقد السيطرة تماماً على أمريكا أي على مجريات شئون العالم . أوروبا التي كانت ترسم الخرائط السياسية لكافة الدول والمستعمرات في كافة قارات العالم وكانت تفرض الحرب والسلم على شعوب وبين بعضها البعض، وكانت في أحيان كثيرة تعرف عن ثقافات وثروات وتقاليد بعض شعوب العالم ما لم يكن يعرفه عنها قادة هذه الشعوب، الآن لا قادة أمريكا ولا قادة هذا البعض من الشعوب يعرفون ما يلزمهم معرفته ليسيطروا ويحكموا ويهيمنوا بكفاءة المنتصرين الأوروبيين الأوائل .

بدأت أوروبا تصحو من غفوة هي



أقرب ما تكون إلى قيلولة المتعب بعد قرون من التوسع الإمبراطورى والحروب الأوروبية والعالمية والثورات الداخلية وآخرها الثورتان الصناعية والاجتماعية. ويبدو أن قادتها متنبهون إلى أن حليفتهم أى الولايات المتحدة صارت تثير مخاوفهم أكثر من أن تبنى ثقتهم لتكسبها. يخيفهم فيها اللجوء المستمر إلى القوة واستخدام أكثر درجات الضغط والنفوذ والإمبراطورية، وتخيفهم غطرسة قادتها لاعتقادهم أن القيم الأمريكية، ليست أى قيم غربية أخرى، هى التى يجب أن تسود وتعتنقها سلما أم حربا شعوب العالم كله. لم يعد الخطر الذى يهدد كل الغرب واحدا، فأمريكا اختارت عدوا لنفسها وتحاول فرضه على أوروبا غير المقتنعة بخطورته، بل إن بعض قادة أوروبا يعتقد أن هذا العدو تصنعه السياسات الأمريكية المتهورة وأساليبها الإمبراطورية، ولاتخفى اختلافات فى الرأى بين قادة أوروبا حول ما إذا كان التحول الحادث فى أمريكا تاريخيا وجذريا، أم أنه ارهاصات وربما اجتهادات مجموعة «ثورية» داخل النخبة الحاكمة انتهزت لحظة مناسبة فى مسيرة التطور الاجتماعى وفى مسيرة العولمة لتقضى على «النظام السياسى الأمريكى» فتبدل فيه «تشريعيا واقتصاديا ودينيا» ما شاء لها أن تبدل، ويرى أصحاب هذا الرأى أن هذه المجموعة الثورية راحلة بدون شك ولن تفلح فيما عزمت عليه فلن تكفيها ثمان سنوات من حكم بوش لتكمل مهمتها كما يوجد اعتقاد بأن التيارات الليبرالية والعلمانية لن يطول صبرها على ما يحدث فى أمريكا .

ومع ذلك يبقى أن الطريق الموصلة إلى استعادة أوروبا نفوذا يكفى لإحداث التأثير اللازم على السياسة الأمريكية مازالت طويلة .. بمعنى آخر قد لايتحقق أمل بعض السياسيين العرب فى العودة قريبا إلى ممارسة لعبتهم المحببة، أى اللعب على القوى الدولية الأعظم، فالمعادلة الدولية مازالت تحت الصنع فى انتظار تقدم أهم فى مسار الوحدة السياسية الأوروبية، وعلى أمل استمرار كل من الهند والصين على معدلات نموهما وتقدمهما ونجاح الشعوب العربية والإسلامية فى إفراز نخب جديدة تساعدها فى تخطى حواجز سباقها من الزمن والحضارة وتطورات القيم والأخلاق. ■



ملامح عالم جديد

يخلو من عرفات وباول .. ويفسح لبوش ورايس

بقلم
د. عماد البشرى

«من هذا الأمريكى اللطيف الذى قال هذا..؟ ألا تذكرون لى اسمه ثانية .. ؟! إن من يتحدث عن أوروبا القديمة أو الجديدة إنما يقول قولا فاقد المعنى، إنه لنقص فى الثقافة أن تتخيل إمكان حدوث انقسام فى الرؤى حول أوروبا بين كل من بريطانيا وفرنسا».

قائل هذه العبارة هو الرئيس الفرنسى جاك شيراك، والمعنى بالكلام هو وزير الدفاع الأمريكى دونالد رامسفلد وهى فى حديث أدلى به مؤخرا للصحافة البريطانية بعد برهة من إعلان وزير الخارجية الأمريكية كولن باول عن استقالته، يوم الاثنين المنقضى (حسبما جاء بصحيفة التايمز البريطانية العدد ٦٨٢٣٤ يوم الثلاثاء ٢٠٠٤/١١/١٦) وقد أفضى شيراك بتصريحات غاية فى الأهمية، حيث أكد على أن ثمة حتما تاريخيا يتعلق بتعددية قطبية فى موازين السياسة العالمية ، أو هناك إلى جانب القوة الأمريكية، القوة الأوروبية، ومعها القوتان الصينية والهندية. تلك القوى جميعها يتعين عليها التعايش المشترك، وكى يضمن هذا لامناص من وجود الأمم المتحدة، الأمر الذى يستلزم التنسيق الفورى بين القوة الأمريكية والقوة الأوروبية . بيد أن المشكل يكمن – وفق استطراده – فى شك الرئيس الفرنسى فى إمكان انجاز أى عمل مشترك مع أمريكا فى وضعها الراهن.

لعل هذا الذى عبر عنه الرئيس الفرنسى، يمثل انعكاسا دبلوماسيا هادئا لواقع عالمى فى طور التشكل يستحيل على أحد أن يستشف أبعاده النهائية أو حتى عناصر تفاعل هذا التشكل ومخرجاته. ولكن دعنا نحاول تلمس المعطيات المشاهدة فيما بين ما نراه من وقائع، فى محاولة لتحليل كل على حدة، تاركين آثار التفاعل لما يفرزه المستقبل القريب.

مستجدات عالمية

يمكن حصر المعطيات العالمية المستجدة فى عدد من النقاط، أولاها إعادة انتخاب الرئيس الأمريكى دبليو بوش (الابن) ثانية لمدة أخرى. ثانيتها



رحيل عرفات وغيابه لأول مرة عن المشهد الفلسطيني. ثالثتها استقالة الجنرال كولن باول وزير الخارجية الأمريكية من منصبه وتقليد الدكتورة كونداليزا رايس المنصب خلفا له . ولكل معطى من تلك الثلاثة تداعيات جلل، لها ما لها من تأثير على الوضع العالمي المباشر، أو الوضع الأمريكي بظله الثقيل على العالم.

أولا: إعادة انتخاب الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش ثانية لمدة أخري.

المشاهدة لهذا الحدث يدرك تماما أهميته القصوى، ليس بحكم الأهمية التقليدية للرئاسة الأمريكية في المنظور العالمي فحسب، وإنما – أيضا – للطبيعة الخاصة لرئاسة جورج دبليو بوش (الابن) وأثرها على الوضع العالمي الراهن، فقد فاز المذكور بهذه الانتخابات بعد معركة انتخابية شرسة بينه وبين غريمه الديمقراطي «جون كيرى» استطاع فيها الأخير – على الرغم من خسارته – أن يعيد تشكيل الرأى العام الأمريكي – ولو مؤقتا – على قاعدة من أن الحرب الوحيدة المبررة أمريكيا هي الحرب على الإرهاب، لا الحرب على محور الشر، كما اعتاد بوش والإعلام الأمريكي أن يسوغه للعقل الأمريكي . وبذلك صار عصيا على الرئيس بوش – ولو في المرحلة المقبلة – أن يسوق الأمة الأمريكية إلى حرب أخرى على دولة أخرى، كسوريا أو إيران بيد أن هذا ليس معناه زوال شبح تلك الحرب نهائيا، إذ يظل الملف السلاح النووى الايراني أهمية خاصة في الأجندة الأمريكية، لا محيد حيالها عن تنازل إيران عن برامجها النووية إذ ثمة فيتو أمريكي حاسم – وغير قابل للنقاش – على وجود دولة إيرانية مسلمة لديها سلاح نووى.

نجاح بوش

بيد أن المشكل يكمن في أن الرئيس بوش الابن لا يريد أن يقيم نجاحه الانتخابي تقييما سليما، بحسبانه نجاحا – في حقيقته – عسيرا جاء بشق الأنفس، ونتيجة لأخطاء وقع فيها المرشح الآخر هو وحزبه أيضا، نجاحا يعكس الاستقطاب الحاصل في الأمة الأمريكية بين فريقين يكادان يتعادلان في القوة، فريق ضد مفهوم الحرب أى مفهوم التعاطي العالمي من زاوية العداء وهو الذى مثله المرشح بوش، ومفهوم السلم مع الحرب على الإرهاب، أى مفهوم التعاطي مع المنظور العالمي لا من زاوية عدائية وإنما من زاوية العمل المشترك مع استمرار الحرب على الإرهاب. هذا الفهم جميعه يرفضه بوش الابن ، ولا ينظر للأمر إلا من زاوية أنه رئيس أعيد انتخابه ، ومن ثم فهو بمثابة المفوض من قبل الشعب الأمريكي للاستمرار في سياساته التي صيغت مدة رئاسته الأولى، وذلك بغض النظر عن حجم نجاحه وبغض النظر عن عدد الأصوات الحقيقية التي حصل عليها،

فسياسته استفتى عليها ونجحت، هكذا بهذه البساطة.

يكمن المشكل الآخر، فى أن أوروبا فى حال من عجز عن التعامل مع الإدارة الأمريكية، ولعل سخرية الرئيس الفرنسى من وزير الدفاع الأمريكى ، على ما أشير فى بداية المقال ، لأبلغ تعبير عن الافتقار إلى سياق تحاور مشترك بين الجانبين الأمريكى والأوروبى الأشمل، الأمر الذى زاد طينه بلة، استقالة كولن باول على ما سيلى ذكره لاحقا.

ثانيا: رحيل يا عرفات

لا ريب فى أن هذا الحدث يمثل شأنا جللا فى التاريخ العربى بعامة والفلسطينى بخاصة ، فعرفات هو قائد الثورة الفلسطينية المسلحة، وهو الزعيم المنتخب من غالب أبناء الشعب الفلسطينى، الحائز على رضاء الجميع سواء داخل الأرض المحتلة أو خارجها فى المخيمات المنتشرة بالدول العربية، بل المقبول من كل الفصائل، وهو أيضا المتهم من قبل الجميع: متهم من قبل الأطراف الفلسطينية المقاومة بأنه مع السلام المانح لكل شئ من دون الحصول على شئ، وكذا المتهم من قبل الأطراف الغربية وأنصارهم فى الداخل بأنه الإرهابى الذى أشعلها فتنة فى السنوات الأخيرة، إشارة إلى الانتفاضة الثانية «انتفاضة الأقصى».

لقد استمر عرفات على قمة العمل الفلسطينى ما يربو على الأربعين سنة، مشكلا العمل ومحركا لمجرياته، ومفعلا لغالب عناصره، حتى اصطبغت القضية الفلسطينية بشخصه.

عبء رحيل عرفات

بيد أن المشكل أن بهذه القدرات وبطول الزمن، حدث أن تهيأت هياكل المناصب التى شغلها من رئاسة السلطة الفلسطينية إلى رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية إلى حركة فتح بحجم شخصيته، الأمر الذى أفرز رحيله عبئا كبيرا حول اختيار خلفه، وجوهر هذا العبء يكمن فى أن لا أحد ممن يطرح اسمهم خلفا له، لديه المقدرة على الاضطلاع بالأدوار المزدوجة بل والمتناقضة فى أحيان، كما اضطلع بها عرفات.

فقد أفرزت سنوات ما بعد أوسلو حقائق جديدة على العمل الفلسطينى، فبعد أن كان الميدان السياسى الداخلى لهذا العمل هو منظمة التحرير الفلسطينية ورجالها من الفصائل المختلفة، حيث كانت تمثل مرجعية للقرار الفلسطينى ، صارت فلسطين ذاتها - الضفة الغربية وغزة - هما ساحة النشاط السياسى، وهنا لا أعنى بفلسطين الحقيقة الجغرافية فحسب، وإنما أعنى بها الحقيقة الديمغرافية الجيوسياسية، ومن ثم جاءت المصداقية الشعبية داخل الواقع السياسى بالداخل لا الخارج كما كان قبل أوسلو، وهى تلك المصداقية التى فرضت نفسها على الواقع

الدولى، الذى صار ينشدها بدوره، كما أفرزت تلك السنوات نهجين للعمل الفلسطيني يسيران في خطين متوازيين متقابلين - متضادين في سعيهما - لا يلتقيان. تمثل النهج الأول في المقاومة المسبوغة بكل صور النشاط المسلح الممكن والمتصور. أما النهج الآخر فتمثل في المسارات التفاوضية المنفتحة على كل احتمالات التفاوض في كل القضايا العالقة . هذان النهجان كان عرفات متمكنا من الإمساك بهما بطرف في كل يد، في توازن ندر أن اختل، بل يزاد على هذا أن عرفات تمكن - بشكل ما - من أن يعيد فرز أبناء العمل الفلسطيني من القادة والكوادر السياسية مع صبغ كل منهم بلون من ألوان أى من هذين النهجين.

أبو مازن والبرغوثي

هذا الواقع بهذه المعطيات يخلق الآن تعقيدا يصعب حله دون تنازلات منوطة به، فليس ممن تطرح أسماؤهم من يستطيع - بل محل الأهلية - للاضطلاع بهذا الدور المزدوج الذى قام به عرفات، وذلك لخلافته فكل منهم محسوب على نهج من النهجين، وكل منهم يحمل أحكاما مسبقة على شخصه، يصعب بموجبها إرضاء أنصار النهج الآخر. ولكن دعنا نتحدث عن أبرز المرشحين: وهو محمود عباس «أبو مازن» مهندس أوسلو كما شاع عنه، وكما يحلو له أن يشاع عنه. وهو شخصية قديمة فى العمل الفلسطيني، يحمل مصداقية النشاط الفلسطيني القديم - من خلال منظمة التحرير- ولكن يفتقر إلى المصداقية الشعبية الحديثة، ففي استطلاع للرأى أجرى قبيل رحيل عرفات بأيام ظهر أن شعبيته لا تتجاوز ١٪ من الشعب الفلسطيني، بل إن ثمة ما يقال في الإعلام البريطاني - من باب التهكم - إن احتمالات بقائه على قيد الحياة حتى التاسع من يناير موعد الانتخابات المقررة لرئاسة السلطة الفلسطينية، أيضا لن تتعدى هذه النسبة، إلا أن محمود عباس المعروف للغرب بأنه معتدل والمعروف للفلسطينيين برفضه لانتفاضة الأقصى، هو وجه مقبول لدى الغرب، والأخير يرى فيه خير من يفاوض خلال هذه المرحلة، إلا أنه لا يريد أن يبدى سندا ظاهرا له، لإدراك السياسة الغربية لما فى تلك المساندة من تقليص لشعبيته - إن كان ثم شعبية - وترتيب لآثار عكسية. وعلى الجانب الآخر يعتبر مروان البرغوثي - الذى أعلن ترشيحه وانسحابه أكثر من مرة - شخصية معروفة في النضال الفلسطيني الحديث، فهو أمين سر حركة فتح المنتخب في الضفة الغربية، وهو المنسوب له تأسيس جماعة شهداء الأقصى الجناح العسكرى لحركة فتح فى انتفاضة الأقصى، وهو كذلك المنسوب له قيادة العمل الميداني النضالي إبان تلك الانتفاضة وحتى القبض عليه، وهو محمول على نهج المقاومة ذات النهج والشعبية



الجارفة على أرض الواقع الفلسطيني. ولا ريب أنه لو لم ينسحب من الترشيح لحسم الموقف لصالحه، ولوضع الكرة في الملعب الإسرائيلي، بمعنى هل كانت ستفرج عنه وتتحمل أعباء الغموض الذى سوف يكتنف الساحة السياسية، بحسبان رئيس السلطة أحد الصقور الذى قاد الانتفاضة وسجن بسببها . أم كانت سترفض الافراج عنه وتتحمل الأعباء السياسية المترتبة على حبس رئيس السلطة الفلسطينية من اشتعال للانتفاضة واكتسابه شعبية دولية على قاعدة من ميكانزمات اكتساب «مانديلا» لسمعته الدولية من داخل السجن. على كل ، لقد حل البرغوثي الموقف ، وأبعدنا عن جو الترقب والاستفهام بانسحابه الأخير والنهائي.

أضف إلى ذلك شكلا آخر، حول ترتيبات الانتخابات وهى المتعلقة بمن له حق الانتخاب والضمانات التى تمنح لتوفير هذا الحق، فهل يكون لأبناء القدس - الذى تدعى إسرائيل أنه جزء منها - حق الانتخاب؟ وهل يضمن فى ظل التجزئة الإسرائيلية للضفة الغربية، السماح للناخبين بالذهاب إلى صناديق الانتخاب.

على أن البادىء ، على الرغم من كل ذلك، أن محمود عباس فى طريقه إلى رئاسة السلطة، الأمر الذى يطرح التساؤل الخاص بمدى قدرته على قيادة العمل الفلسطيني، ومدى قدرته على ايجاد صيغ قبول من قبل الفصائل المختلفة وعلى قمتها حماس والجهاد، خاصة إذا ما أقدم على اتفاقات نهائية مع إسرائيل، حسب ما هو مخطط له فى الغرب - فهناك حديث عن مطالبة بلير لبوش بالضغط على إسرائيل لتحريك التفاوض فى المسار الفلسطيني على خلفية خارطة الطريق.. وإلى أى حد يمكن أن يلقى مثل هذا الاتفاق قبول الفلسطينيين، وهو الاتفاق الذى سبق ورفضه عرفات فى كامب ديفيد الثانية عشية خروج كلينتون من الرئاسة الأمريكية.

ثالثا : استقالة الجنرال كولن باول والتغييرات في الإدارة الأمريكية

ثم يأتى هذا الحدث، ليزيد صورة الوضع العالمى ارتبكا، فالجنرال كولن باول يعد من الوجوه المقبولة عالميا بصفة عامة ، واوروبيا بصفة خاصة، فقادة اوروبا يرون فيه رجل الإدارة الأمريكية الاوحد القابل للتفاوض معه والممكن التعامل من خلاله. بيد أن الظاهر ان تلك الاستقالة كانت متوقعة من قبل المراقبين (أنظر الهيرالد تريبيون الدولية - العدد الصادر يوم الاربعاء ٢٠٠٤/١١/١٧) ، بحكم التناقض الحاد فى الرؤى بينه وبين مجموعة المحافظين الجدد المتحكمة فى زمام الإدارة الامريكية، وعلى قمتهم تحالف تشيني رامسفيلد . إذ لا يخفى عن

فطن ان باول كان معارضا للحرب على العراق، كما انه لم يقم بتوظيف كل الامكانات الدبلوماسية لخدمة سياسات امريكا بالطريقة التى تريدها مجموعة المحافظين الجدد.

بيد أن الغريب فى الامر، التباين الشاسع فى تقييم هذا الرجل وتقييم عمله خلال المرحلة التى تربع فيها على قمة الخارجية الامريكية ، ان ثمة من يرونه من انجح وزراء الخارجية الأمريكية فى ظل الظروف العصبية التى عمل من خلالها - اى فى ظل وجود المحافظين الجدد - فقد تمكن من ايجاد اريحية سياسية بين كل من الهند والباكستان ادت بدورها الى تهدئة الأجواء فى الجوار لساحة الحرب على الارهاب فى افغانستان ، كما تمكن بشكل أو بآخر من تحييد الصين مؤقتا وايجاد صيغ تناغم فى العلاقات الامريكية الصينية، وهى جميعها نجاحات تحسب له لأنها هدأت الاوضاع على جبهات ما كانت امريكا قادرة على اضافة صراعات اخرى فيها الى جانب تلك المشتعلة فعلا والمشتبكة هى عملا بها. وهناك آخرون يرون فيه أحد أكثر وزراء الخارجية الأمريكية فشلا ، إذ لم يستطع التعاطى مع سياسة بلده تعاطيا كافيا من الزاوية الدبلوماسية ، كما لم يستطع ان يحصل من مجلس الامن على قرار صريح بالحرب على العراق، كما أمل هو وكما اقنع الرئيس بوش بذلك - على الرغم من معارضة تشينى ورامسفيلد - هذا اضافة الى اهتزاز مصداقيته امام العالم بعد ان وقف فى الامم المتحدة يؤكد مرارا وتكرارا على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ، الامر الذى ثبت بعد عدم صحته.

لطمة للدبلوماسية الأمريكية

غير أن رحيل الجنرال باول عن الخارجية الامريكية يعاصره خروج ساعده الأيمن ريتشارد ارميتاج الذى يلقب فى الاعلام بالرجل الذى لا يهدأ . وهو خروج مزدوج يمثل لطمة للعمل الدبلوماسى الامريكى، خاصة إذا قورن الشخصان بخلفهما.

يخلف باول الدكتورة كونداليزا رايس، التى تجيد العزف على البيانو كما تستطيع لعب كرة التنس، وتفهم بقدر لا بأس به فى الكرة الأمريكية . تخصصها العلمى فى الاتحاد السوفييتى وأشكال التعامل معه. بدأت حياتها مع الحزب الديمقراطى وسرعان ما هجرته إلى الحزب الجمهورى حيث عملت فى إدارة الرئيس رونالد ريجان . وابان ترشيح دبليو بوش الابن لانتخابات الرئاسة الامريكية عام ٢٠٠٠ جىء بها معلما له فى السياسة الخارجية ، حيث استبقاها معه بعد نجاحه مستشارا للأمن القومى ، وهى تحظى بثقة كبرى لدى الرئيس الامريكى ، وهى صاحبة القول النهائى لديه على حد تعبير الإعلام العربى : الهمسة الأخيرة فى أذن الرئيس قبل التوقيع على القرار.

على أن هذا التعيين الذى تم للدكتورة

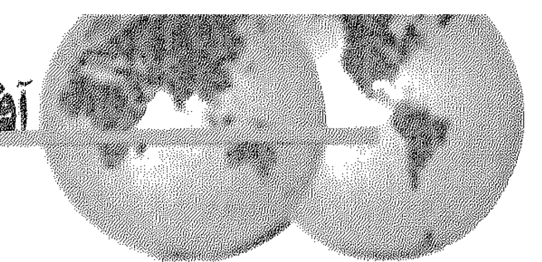


رايس فى قمة العمل الدبلوماسى الامريكى، يشكل حلقة من سلسلة حلقات بدأها الرئيس بوش منذ ما يقرب من ثلاثة اشهر ، بغية فرض هيمنة مؤسسة البيت الابيض، على سائر المؤسسات السياسية والعسكرية الامريكية فمن المقطوع به ان البنتاجون تحت السيطرة الكاملة للبيت الابيض ممثلا فى ديك تشينى نائب الرئيس الامريكى ورجله الاقوى دونالد رامسفيلد وهما جناحا السياسة الامريكية

كما انه باستقالة جورج تينت من وكالة المخابرات المركزية، تم تعيين بورتر جوس ، والأخير عمل سابقا رئيسا للجنة المخابرات فى مجلس النواب ، وهو من الدوائر السياسية القريبة جدا من المحافظين الجدد وقدم الى وكالة المخابرات المركزية ومعه اربعة مساعدين كبار من البيت الابيض على قمتهم باتريك بوراى، وتسبقهم تصريحات عاصفة صدرت.. من بورتر قبيل القدوم اذ قال إنه بصدد اجراء تعديل وظيفى بالوكالة، واعدا بزلزلة أوضاعها المؤسسية لتصحيح ما يلحق بعملها من خلل ادى الى عدم الكشف عن احداث ١١ من سبتمبر قبل وقوعها كما ادى الى تضليل الرأى العام بالتأكيد على وجود اسلحة دمار شامل فى العراق . وبذلك يكون الامر فى مؤسسة المخابرات المركزية الامريكية قد دان لسيطرة البيت الابيض ، خاصة ان ذلك تصاحب مع استقاله اثنين من ارفع المسئولين بها هما «جوف ماكلوفلين وستيفن كابس.

ثم جاءت السيدة رايس على قمة العمل الدبلوماسى الامريكى مفتقرة كما يقال لأى كفاءة ادارية لقيادة الجهاز البيروقراطى بالخارجية الامريكية ، ويتوقع ان تأتى بمساعد خلفا لارميتاج المستقيل هو بواته وهو من رجال البيت الابيض - كبار موظفيه - المسئول عن الحد من التسلح ، وهو مهندس السياسات الهجومية على كوريا الشمالية وإيران ، وبذلك يتوقع الخبراء حصول تفريغ للعمل السياسى الأمريكى الدولى ، من عناصر الدبلوماسية كافة لصالح عناصر البيت الأبيض بأبعادها العسكرية والمخابراتية، وهو شأن يلقى بظلاله على انشطة السفارات الأمريكية فى بلدان العالم اجمع.

وبعد فتلك بعض من اعتبارات وأحداث فى طور التشكل، ظاهرها كباطنها يثير من الارتباك ما يربو على ما تثيره من توقعات. والمشكل كما قال أحد ألمع أساتذة العلوم السياسية بواحدة من أبرز جامعات العالم فى انجلترا بمحاضرة اخيرة له ألقاها بعد عودته الفورية من الولايات المتحدة الامريكية «إن كل هذا التعقيد والتشابك فى عناصر ومعطيات السياسة الدولية فى يد متحكم أوحد هو الرئيس الأمريكى الحاصل فى إجازة تخرجه على درجة - C» أى ما يعادل المقبول فى الجامعات المصرية والعربية.■



آفاق العولمة والدولة القومية

بقلم
د. صلاح قنصوه

١ - الدولة القومية الحديثة:

كانت نشأتها إحدى النتائج الرئيسية لسيطرة الفئات التجارية والصناعية (أى المدنية أوالبورجوازية) فى القرن السابع عشر التى كانت فى حاجة إلى إطار محدد بعيدا عن الاقطاعيات الزراعية المنقسمة، والامبراطوريات المترهلة، وذلك للمنافسة على أسواق العالم، والاستيلاء على المواد الخام، وتشغيل الأيدى العاملة الرخيصة.

وقد استبدل بالمثل الأعلى لعالم العصر الوسيط الموحد، الضعيف الارتباط بعضه ببعض، والعامل لخدمة الارستقراطية بإرشاد سلطة الكنيسة الروحية والمادية معا، استبدل به مثل أعلى قوامه دول قومية مستقلة، مطلقة السيادة على أراضيها. وكان هذا محصلة لعناصر ثلاثة :

أولها : حاجة التجارة ومصالحها إلى تركيز الجهود الاجتماعية لطبقة التجار المتزايدة الأهمية حول الدولة عوضا عن البلدة المحلية. وقد أدى ذلك الاتساع فى المدى والرقعة إلى اتساع وتعمق مماثلين فى نطاق الأعمال التجارية .

وثانيها : أدى تقلص المركز إلى تقلص حدود المجتمع وذلك من الامبراطورية العالمية إلى الدولة القومية ذات الحدود المعلومة .

وثالثها : انتقال السلطة، بتأثير هذين الاتجاهين السابقين ، من الكنيسة التى كانت راعية للنظام القديم إلى الحكومة المدنية .

ومن المفارقات أن حصول الدول الحديثة على احتكار التحكم فى أراضيها لم يكن معتمدا على جهودها الذاتية (أو الداخلية) وحدها. بل أن إبرام معاهدة «وستفاليا ١٦٤٨» هو الذى دفع الحكومات (أو الدول) تدريجيا إلى الامتناع عن دعم الذين يعتنقون مذهبها الدينى فى نزاعهم مع دولهم. وأفادت

الدول من استقلالها عن التدخل الخارجى الذى نصت عليه تلك المعاهدة فى فرض سيادتها على مجتمعاتها على النحو الذى رجحت أوضاع النزاع بين سلطة الإقليم، والجماعات الدينية التى تنتشر فى دول عدة، نصائح سلطة الدولة القومية.

من هنا ندرك أن درجة كبيرة من القدرة على بسط السيادة جاء من خارج الدولة عن طريق الاتفاقيات التى عقدت بين هذه الدول فى اطار طائفة من الدول الناشئة حديثا.

ولعل ذلك يدعونا إلى الاستنتاج، بالمثل، بأن هذه السيادة قد تتضاءل بفعل عوامل خارجية عنها فالدولة القومية ظاهرة تاريخية، وليست قدرا مكتوبا .

ولقد أتاحت الدولة القومية للرأسمالية أن تؤدى أنشطتها بما يلائم مصالحها. فوضعت التشريعات الجديدة التى تنظم العلاقات والمعاملات بين المواطنين فى نطاق نمط الانتاج الجديد. وكفلت للنظام القضائى كفاءة الحسم فيما يثور من نزاعات أو يحدث من مخالفات للقوانين. ولقد أباح استقرار النظام البرلمانى وقيام الأحزاب السياسية، لأول مرة فى التاريخ، أن يغير المواطنون حكامهم بصفة دورية دون اللجوء إلى الانقلابات فى النظام السياسى والاجتماعى للدولة، ودون استعمال للعنف أو القوة المسلحة. أما استخدام القوات المسلحة فكان موجها للخارج فحسب، لتأمين رسم الحدود بين الدول القومية، أو إعادة ترسيمها. ولم يكن دور الدولة القومية مجرد حارس يخفر تطور الرأسمالية، بل نهضت الدولة بدور حاسم فى توحيد رقعة السوق القومية، وتأمين مصالح رأسمالها.

وفى القرن العشرين اكتسبت الدول وسائل إدارة الاقتصاد القومى وتوجيهه، إما عن طريق الاكتفاء الذاتى والتخطيط كما كان الحال فى اقتصاد بريطانيا وألمانيا فى الحربين العالميتين، وإما بواسطة ما يسمى بالاجراءات «الكينزية» التى تستخدم السياسة النقدية والضريبية للتأثير فى قرارات الأنشطة الاقتصادية مما أسلم إلى تغيير النتائج الاقتصادية بمقتضى ذلك، وخاصة فى مواجهة الكساد الكبير» فى أمريكا وغيرها عام ١٩٣٠.

وعلى هذا الوجه تمت هيمنة الدولة فى الستينات على الكيان الاجتماعى فى العالمين الغربى والشيوعى، ولكن بطرق متباينة، فكان ثمة اقتناع راسخ فى الدول الصناعية الغربية بأن فى مقدور إدارة الاقتصاد القومى الاستمرار فى ضمان العمالة الكاملة، والنمو المطرد. بينما ساد إدارة الاقتصاد فى الدول الشيوعية مبدأ التخطيط المركزى الدائم. وتحولت الدول فى الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى إلى هيئات للخدمات العامة تضطلع بالاشراف الشامل على كل جوانب الحياة الاجتماعية بغية تحقيق الاستقرار والازدهار.

وكانت الحرب الباردة هي الممثل لبنية النزاع بين فريقين من الدول القومية. وأصبح الرعب المتبادل بين معسكرين مسلحين القوة المحركة لهذا النزاع، وهو رعب استثمره الجانبان لمبررات أيديولوجية، رغم أن النزاع الحقيقي لم يكن صداما أيديولوجيا فحسب. فعندئذ كرست الحرب الباردة الحاجة إلى الدولة القومية لامكانياتها العسكرية، ولأساليبها في الضبط الاقتصادي والاجتماعي على المستوى القومي، تلك الأساليب اللازمة لمواصلة تلك القدرات العسكرية .

وتجمد النظام في مواجهة صدامية ثانية في كل من المركزين، على حين نشبت نزاعات بين بعض أطراف المركزين التي كانت حروبا بالوكالة عنهما .

ومن ثم بقيت الدولة ضرورة برغم أن قواها ظلت معبأة في نزاع معلق، أو تربص متوتر. إلا أن احتمال الحرب بين القوتين العظميين ظل تهديدا واردا حتى عام ١٩٨٩، وإن لم تكن مرجحة، مما جعل الدول القومية أمرا لازما . وكان الاعتقاد السائد أن ضعفها أو ضمور قدرتها على التحكم في مجتمعاتها قد يغري العدو على اكتساحها بحيث يقضي على منجزات الاشتراكية في الشرق، أو فرض طغيان شيوعي في الغرب. وقد دفع اتقاء ذلك الصدام على الالحاح على أهمية تحكم الدولة القومية الذي كان من شأنه، وبدوره، مؤديا إلى تعطيل مواجهة التغيرات العالمية المستجدة التي أضعفت ذلك التحكم فيما بعد .

٢ - معنى العولمة :

ربما كان من الخطأ أن نخلط بين «العولمة»، و«النظام العالمي الجديد» ونجعل منهما شيئا واحدا. فمصطلح النظام العالمي الجديد يعود إلى الرئيس «بوش» الأب بعد أن فرغ من تأديب النظام العراقي في حرب الخليج الثانية، وخلو المسرح السياسي من الشرير السوفيتي. وكلمة نظام الانجليزية Onder التي استخدمت تعني أيضا الترتيب، وكذلك تعني الأمر والنهي. ومعنى هذا أن العالم على امتداد تاريخه حتى اليوم يمثل تعاقبا للنظم العالمية التي تسيطر فيه دولة على دول أخرى كثيرة. فهنا يشير الترتيب بين الدول إلى مركز وأطراف. كما يعني الأمر والنهي هيمنة دولة ما على أخريات.

ولعل من المفيد أيضا أن نشير إلى أن عالمي International بالانجليزية إنما تعني حرفيا بين الدول بعبارة أخرى هناك فرق بين ما يخص العلاقات بين الدول، وما يتعلق بالعلاقات على مستوى العالم كله. بينما يقابل العولمة بالانجليزية globali-zation ما يشير إلى التعامل على مستوى الكرة الأرضية globe وبالفرنسية يبدو الأمر أيسر كثيرا في الترجمة فهو mondialisationمن الكلمة wonde التي تعني العالم بأسره ولكن ليس بمعنى الكون Universe.

فأما النظام العالمي الجديد فإن جدته تعود إلى اختفاء قطب آخر منافس كان



هو المركز بالنسبة لأطراف أخرى، وكان يمثل هيمنة على دول تابعة له وتدور فى فلكه.

بينما العولمة صيغة أخرى ومختلفة تماما عن النظام العالمى (البين - دولى). فعلى حين تهيمن دولة على غيرها بما تملك من نفوذ اقتصادى لشركاتها القومية وبنصيبها الكبير فى الشركات المتعددة للجنسيات أو القوميات ، تعتمد العولمة على الشركات المتعدية أو المتخطية للقوميات، أى التى لا يهم أصحابها مصالح دولهم القومية حيث يكون انتماؤهم، وولاؤهم ومصالحهم رهنا بتلك الكيانات المستقلة الجديدة، أى الشركات العابرة للقوميات أو الجنسيات .

وللعولمة وجهان، الأول اقتصادى وما يتبعه سياسيا، والثانى ثقافى. فأما الوجه الأول فلم ينجز مهامه بعد، وهى تلك التى تتمثل فى سيادة الشركات المتعدية - العابرة للقوميات وليست المتعددة العابرة للقارات. وهذا من شأنه ، إذا ما تم أن يؤدى إلى تحولات فادحة فى دور الشركات والمصالح القومية، فضلا عن مؤسسات الدولة الراهنة.

أما الجانب الثقافى ، فكان حظه موفورا بما حققته الأدوات العولمية التكنولوجية من تغيير بالغ الخطر فى قنوات التواصل والتداول بين الأفراد حيث أوشكت على نسف المسافات بين أطراف العالم. وتسمى هذه الأدوات بالنانوتكنولوجيا أى التكنولوجيا خاطفة السرعة (النانوثانية جزء من بليون من الثانية)، وكذلك التيلتكنولوجيا أى المؤثرة عن بعد. ومن ثم أوشك الانسان على قهر فاصل الزمن، وأبعاد المكان. مما تتبدى بعض آثاره فى السموات المفتوحة، والتعامل مع برامج الكومبيوتر والانترنت على سبيل المثال.

غير أننا اليوم ، وهذا هو سر الخلط بين الأمركة (أى النظام العالمى الجديد) وبين العولمة، نجتاز مرحلة تمفصل ar- ticulation مازال الجديد فيها مشتبكا مع السائد القديم . فثمة مفصل يربط بينهما وهو ما نلاحظه فى تطور الرأسمالية إلى الاقتصاد المالى بدلا من الاقتصاد العينى بسهولة، نقله وتداوله، وسرعة معدلات دوران العملات والتوظيفات المالية، والانجاز فى العملات استنادا إلى المضاربات وألعاب الحظ والمصادفة مما حفز على تسميته باقتصاد «الكازينو» أحيانا واقتصاد «الفقاعات» أحيانا أخرى . وكان من نتيجة ذلك تركز الأصول المالية والانتاجية بتأثير حركة الاندماجات بينها فى صور نشاط مشترك ، وتقسيم الأسواق، وتخليق كيانات عملاقة تضم مصارف وشركات تابعة للعمل فى مجالات متنوعة. وكان لهذه الاندماجات أن تؤدى إلى انخفاض المنافسة فى بعض ميادين الاقتصاد العالمى بسبب سيطرة قلة من الشركات على هذه الميادين . وبطبيعة الحال ماتزال الدول الغربية وعلى رأسها

أمريكا تستأثر بالغلبة والنفوذ فى نطاق مصالحها القومية.

وبينما تتضاءل المسافات والفواصل فى هذا الاقتصاد المالى، تتسع الهوة بين الأغنياء والفرقاء. وتزداد البطالة بين الشباب.

وحينئذ يمكن أن نتفهم مقاومة الشباب ومظاهراتهم المنددة بالعولمة. بالعدو الحقيقى ليس العولمة بوصفها كذلك، بل هو النظام العالمى الجديد بقيادة أمريكا الذى يستغل أدوات العولمة ووسائطها المتاحة .

ولا يعنى هذا أن العولمة أفضل من النظام العالمى الجديد ، ولكنها تعنى أنها ستؤدى إلى نتائج أخرى، إذا ما أنجزت شقها الاقتصادى ، أهمها نهاية الهيمنة القومية على توابعها ، وانفراط المركزية الغربية، وزوال القبضة القوية للدولة، وانحسار وظائفها. وبدلا من التصنيف إلى هيمنة أو تبعية، سيكون الاختيار بين المشاركة أو التهميش .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحقق الكثير من نتائج العولمة الثقافية مما تنبئ به حال السيولة والفوضى، وغياب المعايير. فالعالم . كما يقول برجنسكى ، يغلب عليه الشمول والتفتت معا مما أدى إلى نشأة العديد من «الجيتو» داخل اطار البلد الواحد. فقد أحدثت الثورة فى التكنولوجيا الالكترونية أزمة توتر بين الانسان الداخلى والانسان الخارجى. كما أن تدفق المعلومات أو انفجار المعرفة يؤذن بخطر التشظى الفكرى بازدياد حالة عدم اليقين كلما ازداد التوسع المتاح للمعرفة. وربما تسمح الخشية من عجز الانسان على التكيف مع التعايش بين المجتمعات أو النقابات المتفاوتة، ربما تسمح بتقويض ما كان يعد من قبل جوهرا انسانيا واحدا لا يمكن المساس به .

ومن هنا يشتد الحنين لدى الانسان المعاصر إلى خصوصية حينما يحيا فى بيئة متشابكة مربكة وخالية من الخصوصية أو الهوية القومية، وذلك إزاء ما يتهدد الدولة القومية ، أى الدولة الأمة من الإضمحلال.

كما يؤكد «توفلر» على ذلك بتنويعة مختلفة بقوله ببزوغ الخصوصيات الثقافية لكل إقليم، ومنطقة مع إثارة المشكلات العرقية ونشوب الحروب الأهلية. ويرد ذلك إلى تفكك المجتمع الجماهيرى أى مجتمع الجملة المتكتل، وقيام ما أسماه بديمقراطية الموزايكو، وكأننا بإزاء طبق سلاطة تختلط بهذه المكونات محتفظة بتفردها ضد التجانس القديم، أو ضد ما يسمى «ببوتقة الانصهار» التى تواجه اليوم مقاومة متزايدة .

وربما كان من علامات الإنشقاق عالية النبرة ما نصادفه اليوم من الأهمية المتصاعدة للمجتمع المدنى على المستوى المحلى أو العالمى، وجماعات حقوق الانسان ، وكذلك النزعات الجديدة مثل النسوية وغيرها كما يضاف أيضا النزعات الأصولية والعرقية .



والعولمة على أية حال ليست مرادفة للتجانس ، رغم انضوائها على بعض عمليات التجانس الجزئية، بل هى اطار جديد للتمييز والتصنيف ، كما أنها ليست مجرد زيادة هائلة فى التعاملات على صعيد العالم ، بل هى تمثل تحولا فى الشكل ، أو الصيغة، أو الأسلوب الذى يصبح العالم بموجبه متحدا. فهى عملية لإعادة التوجيه ولكن بعيدا عن الدولة القومية.

٣ - آثار العولمة على الدولة القومية :

لا ريب أن ما يحدث فى العالم اليوم ، وما نتوقعه من زيادة نفوذ الشركات المتعدية القوميات، أن يؤثر فى «سيادة» الدولة القومية على أنحاء مختلفة تتنازل فيها الدولة عن كثير من وظائفها التقليدية.

فأولا: فيما يخص القوات المسلحة :

لم تعد الرأسمالية متعدية القوميات فى حاجة كبيرة للكثير من المهام الموكولة للدولة . فلم تعد تتطلب جيشا ضخما قويا بعد أن كاد أن ينتهى عهد الفتوح والغزوات والاحتلال المباشر. وأصبح المهم هو القوة الاقتصادية لتلك الشركات التى يسهل دخولها أو التوسع فى نشاطها فى أى مكان فى العالم.

ولذلك تطلب انتهاء الحرب الباردة خفض ميزانيات التسلح مع إيلاء الأهمية لجيش محترف يتكون من عدد محدود نسبيا من الأفراد المؤهلين الذين يمضون حياتهم المهنية كلها فى الجيش ليتلقوا المزيد من التدريب على الأسلحة الحديثة شديدة التعقيد . فالتقدم التكنولوجى يؤدى إلى تسريح أعداد كبيرة من الأفراد سواء فى الجيش أو العمال فى المصانع ومواقع الخدمات.

ويؤكد هذا إلغاء فرنسا عام ١٩٩٦ التجنيد الاجبارى على سبيل المثال.

وثانيا: فيما يتعلق بالأمن الداخلى والخارجى:

تعتمد الشركات اليوم على نظم أمن خاصة تملكها أو تستأجرها من شركات متخصصة تستخدم أحدث الأجهزة الإلكترونية ، ومن ثم فلم تعد فى حاجة ماسة إلى خدمات الشرطة . وفى حالة الأمن الاجتماعى والسياسى فإنه لا يمثل حاليا ضرورة ملحة لأن الحكومات تنسحب من التعامل مع خصومات العمل ويقتصر دورها فى الحالات المهمة على الوساطة بين النقابات العمالية وادارة الشركات . فأصبح الأمر قائما على عقود العمل الجماعية. وأصبح مبدأ تحديد الحد الأدنى للأجور بقانون موضع جدل عنيف فى الدول التى تمارسه . بينما لا يطبق فعلا فى بريطانيا والولايات المتحدة.

بل إن هناك ما يطلق عليه (إيشيلون - أو إكيلون) Echelon كأسم كودى لشبكة عالمية من الكومبيوترات المصممة على أساس اجراء عمليات بحث وتحليل

آلي للملايين الرسائل التي يتم اعتراضها من كلمات أو عبارات مبرمجة مسبقا فى جميع الاتصالات التليفونية ورسائل الفاكس وعناوين البريد الالكترونى التى تتم لحظة بلحظة فى جميع أنحاء العالم . وكل كلمة تتضمنها أية رسالة فى الترددات والقنوات المختارة فى واحدة من محطات الرصد يتم البحث عنها تلقائيا . وتسمى وحدات المعالجة فى الشبكة «قواميس ايشيلون» . وتتصل هذه الشبكة بمؤسسات استخبارية على مستوى العالم كله. كما أنها صالحة للاستخدام الشخصى الذى أتاحته هذه الشبكة كنوع من خصخصة المخابرات بعيدا عن سلطة الدولة القومية ورقابتها!

وثالثا : مجال البريد والاتصالات:

يعتمد رجال الأعمال اليوم اعتمادا متزايدا على شركات البريد الخاصة التى تنقل البريد من «الباب إلى الباب» فى أقصر وقت ممكن . ولم تعد لهيئات البريد التى تديرها الدولة فى نظر الشركات الأهمية السابقة فى الماضى.

رابعا : القضاء:

لم يسلم من الاستغناء عنه ، فكل عقود الشركات الكبرى تنص على الالتزام باجراءات التحكيم ضمانا لحسم أى خلاف بين الأطراف المتعاقدة فى أسرع وقت ممكن . كما أن القضايا المدنية تسقط قبل الحكم فى أحوال كثيرة نتيجة للصلح بين الطرفين الذى يتم خارج المحاكم ويتنازل بمقتضاه المدعى عن دعواه . حتى فى الحالات التى تخضع للقانون الجنائى ، يجوز للمتهم والمجنى عليه فى قوانين بريطانيا والولايات المتحدة ومن يتبعون تقاليدها، أن تنتهى «صفقة» Deal بين الطرفين كل اجراءات التقاضى.

خامسا: النقود :

فمن أهم الأدلة على استقلال عالم المال والأعمال عن كل الحكومات هو التعامل ببطاقات الائتمان Credit cards التى لا تخضع لاشراف أية جهة الا ضرورة حرص أصحاب الاسم التجارى على ضمان سلامة إصدارها من أى بنك فى أى بلد فى العالم: فهى إذن نقود ، أى أداة دفع آنية حاضرة، انتزع القطاع الخاص حق خلقها من الدول القوية ذات السيادة. ومعنى هذا أن حق خلق النقود قد سقط من اطار سيادة الدول ليصبح محكوماً بآليات السوق. وهى تزداد رواجاً لأنها مقبولة فى كل دول العالم المهمة، أيا كانت العملة التى حسب الدين بها ، وفى النهاية يسدد حامل البطاقة دينه بعملة الدولة المقيم بها من خلال البنك الذى أصدر له البطاقة. فهى إذن نقود «عولمية» دون شك.

وإلى جانب هذا كله تقف بعد الصعاب التى تقلل من سلطان الدولة فى وضعها وتنفيذها لما يسمى بالسياسات «الماكرو اقتصادية» (أو الاقتصادية الكلية) التى تراها صالحة للاقتصاد القومى إذا لم

تشاركها القوى المتمثلة فى الشركات متعدية القوميات التى تنتمى تاريخياً لها، أو التى تعمل فى أرضها مع وجود الإدارة العليا فى بلد آخر. فسينشأ الخلاف فى وجهات النظر حين يفكر طرف فى مصلحة الاقتصاد القومى المحلى على حين يفكر الطرف الآخر فى اقتصاد العالم بأسره.

وعلى أية حال ، فليس فى مقدور أية دولة حتى لو كان ناتجها المحلى الاجمالى أكثر من خمس الناتج المحلى الاجمالى للعالم كله «الولايات المتحدة»، أن تنسحب من عملية العولمة لتعيش فى عزلة عنها . ومهما يحدث من صدام مصالح، أو حروب تجارية بين الدول الصناعية، فإن عملية العولمة ستجرف فى طريقها الكثير مما يعرقلها، فهى طريق لم يعد فى المستطاع العودة عنها .

ولعل الخطر الرئيسى الذى يواجهها هو أن السلطة الاقتصادية العولمية، لا توازنها أو تقابلها سلطة سياسية على نفس مستواها . فقد تدخلت الدولة القومية من قبل لحماية الرأسمالية كطبقة من تصرفات خرقاء قصيرة النظر من بعض الرأسمالية. ولذلك تتطلب الرأسمالية العولمية سلطة سياسية تحميها من أخطائها ، فضلاً عن مكافحة تدهور البيئة، وانتشار الفقر، ومخاطر الجريمة المنظمة، وأعمال العنف ضد الأفراد والأموال. غير أن هذا أمر بعيد المنال لأنه يشترط أن يتحلى المسئولون عن الشركات بفضائل رجال الدولة. فالرأسمالية فى مسعاها لمزيد من الأرباح لابد أن تضمن دوما وجود فئات واسعة من المستهلكين تساهم هى فى رفع قوتهم الشرائية للحصول على سلعها وخدماتها .

والدولة القومية هى التى تستطيع إذا كانت تتبع نموذج «دولة الرفاه» Wel-fare أن تؤمن هذا المطلب الاقتصادى والإنسانى على السواء.

وموجز هذا كله، أن العولمة إذا سارت فى طريقها الاقتصادى على غير هدى دون أن يؤازرها نوع ما من النظام السياسى، فإن العالم سيغرق فى فوضى إن لم تحتفظ الدولة القومية، المقلمة الأظافر، بدور مهم فى نطاق أى اقتصاد أو سياسة معولمة. فالدولة لابد أن يحتفظ لها بدورها بوصفها مصدراً للقوانين والتزاماً بإعمالها، ومراقبة لتطبيقها .

إلا أن هذا الدور المهم بطبيعة الحال، لن يكون على نفس المستوى، وبالقدر نفسه الذى كانت عليه سلطات الدولة القومية التقليدية. كما أن رقعتها الجغرافية وولايتها على العناصر العرقية والطوائف الدينية يمكن أن تتسع، أو تضيق، على النحو الذى سيغير لا محالة من موقعها الحالى على الخريطة الراهنة. ■

مستقبل الليبرالية

بقلم
شوقى جلال

هل سقطت الليبرالية ؟ سؤال يبدو غريبا على الرغم من أن القرنين ١٩ ، ٢٠ حفلا بأحداث تبرر هذا السؤال ؛ تماما مثلما وقع من الأحداث ما يبرر التساؤل عن سقوط الماركسية (كذا) فى أواخر القرن العشرين . أو لنسأل السؤال على نحو آخر : هل حققت الليبرالية وظيفتها ومثلها العليا التى نشأت لها ودعت إليها ؟ وهل أكدت مصداقيتها التحولات الكوكبية العلمية والتكنولوجية والسياسية والاجتماعية أم تفرض تغيير إطارها الفكرى وتطويره والتكيف مع الجديد ؟



ذو القعدة ١٤٢٥هـ - يناير ٢٠٠٥م

تمثل الليبرالية الديمقراطية التعبير الثقافى السياسى عن حقبة حضارية هى حقبة الحداثة التى بدأت بعصر النهضة ثم التنوير . وجوهر هذا التعبير الحرية الفردية مع أدنى قدر من تدخل السلطة والاتجاه إلى التغيير لصالح الغالبية من خلال المؤسسات ، أى ضد النزعة المحافظة وضد الحكم المطلق . ولذا اتخذت من الديمقراطية منهجا سياسيا للنظام الاجتماعى .

وافترضت الليبرالية على لسان فلاسفتها السياسيين ، أن جميع البشر عقلانيون ولديهم الاستعداد الثقافى ، بل والوراثى ، للتمتع بممارسة الحرية فهذه

هى الطبيعة البشرية قبل نشوء الاجتماع السياسى وفرض نظم قسرية. وبناء على هذا فإن السلطة السياسية تعاقد حر بين أفراد أحرار ذوى عقول مستقلة وفعالية إيجابية فى بناء وتسيير المجتمع ، وهم مصدر السلطات .

انحراف الأسس الليبرالية

ولكن مع إطراد حركات الاستقطاب الاجتماعى فى الغرب ، فسرت النظم السياسية الحاكمة الحرية الفردية على أنها حرية المشروعات الاقتصادية الفردية التى بلغت ذروتها فى التطور الرأسمالى إلى الاحتكار ثم إلى الشركات متعدية القوميات . ويشكل هذا أول انحراف عن أسس الليبرالية وامتد هذا النهج ليتحول إلى أسلوب للتوسع الاستعمارى .

ونذكر هنا شهادة لورد اكتون إذ قال فى عام ١٨٧٨ : « كانت الحرية هى شعار الطبقة الوسطى ، أما المساواة فقد كانت شعار الطبقة الدنيا أو العامة . وكانت الطبقة الدنيا هى وقود معارك النضال ، وهى المنتصر إذ أنها هى التى استولت على الباستيل وجعلت فرنسا جمهورية دستورية . وطالبوا بحقهم فى مكاسب الثورة . ولكن الطبقة الوسطى أقامت نظاما جديدا نقل الاستثمار بالامتيازات ، وفرض شكلا من الظلم الاجتماعى . وحرمت شركاءها فى الثورة من حق التصويت ، وبذا لم تكن الثورة قد اكتملت ولا أوفت بوعدها بالنسبة لأبناء الطبقة الدنيا ، إذ لم تتحقق المساواة المنشودة .

وأصبحت الليبرالية على مدى الفترة من ١٨٤٨ - ١٩٦٨ هى الايديولوجيا المهيمنة على فكر جميع التيارات المحافظة الليبرالية الديمقراطية والاشتراكية الراديكالية . وتأسست الديمقراطيات الليبرالية فى الغرب باسم حقوق الإنسان الكلية والطبيعية . وظهرت نظريات سياسية ليبرالية حداثية تبرر هذه الدعاوى وتؤكد من منطلق المحورية الغربية أن العقل الغربى ، عقل الإنسان الأبيض ، اكتملت فيه ومعه وبه خاصيات الحرية والاستقلال الذاتى . وأكدت أن مسار الحضارة الإنسانية مسار خطى أحادى بلغ ذروة كماله فى الغرب حيث الروح الكلى للإنسانية ، ومن ثم فإن الحداثة غربية والتحديث نهج غربى ، وهما المثل الأعلى للمجتمعات الأخرى التى بات عليها الاقتداء بالغرب واقتفاء أثره والتحدث بلغته .

تحولات سياسية

ولكن مع انتصاف القرن العشرين وبداية التحولات الجذرية فى العلوم والفلسفات والفكر الاقتصادى والسياسى والتى شملت كل الأصعدة المحلية والإقليمية والعالمية ، واجه الغرب أزمة عميقة صدعت أطره الفكرية التقليدية ، أى أطر فكر التنوير الذى تجسده المحورية الغربية . وتهاوت على مدى

النصف الثانى للقرن العشرين ، ولاتزال ، أسباب معقولية ومصداقية هذه الأفكار .

واكثر من هذا أنه على مدى النصف الثانى من القرن العشرين ، والآن تجلت خصوصيات مجتمعات شقت طريقها نحو النهضة الحداثية دون التزام بالنهج الغربى فى التحديث الثقافى ، وهى مجتمعات شرق آسيا والهند تحديدا . لم تعد هذه المجتمعات، مثلما كانت فى فكر التنوير، مجتمعات برابرة ، ولم تعد كذلك موضوعا سلبيا للاستشراق والأنثروبولوجيا فى ضوء النظرة الفكرية الغربية التقليدية . وإنما أصبح لهذه المجتمعات حضورها السياسى والاقتصادى والثقافى والفكرى . وأجريت دراسات علمية مقارنة عن أسس التفكير وعن المنظومات الذهنية لهذه المجتمعات والمنظومات الذهنية التقليدية عند الغرب التى افترض بحكم مركزيته أنها منظومات كلية . وكشفت هذه الدراسات المقارنة عن أن ماساد أكاديميا على مدى قرون بشأن قوانين الفكر وقواعد الإدراك ومسار الحضارات إنما يمثل خصوصية غربية وليست قوانين كلية عامة لكل إنسان فى كل زمان ومكان .

وظهرت دراسات أخرى عن حضارات هذه الشعوب كشفت انحيازا غربيا فى اختلاق مسار خطى أحادى لتطور الحضارات يدعم نظرته المحورية الغربية وصدع هذا الواقع الجديد المنظومة الذهنية الغربية .

وسادت الغرب نزعة شك متعاظمة تشك فى الفروض الكلية وفى القول بجوهريتها وطبيعيتها ، والتى تشمل أساس الفكر السياسى الليبرالى الحداثى . ويواجه العالم اليوم حقائق دافعة تؤكد طبيعة وضرورة التنوع الثقافى الكوكبى ، وأن التنوع معين الحياة المتجددة والمتفاعلة للثقافات .

ولم يعد مقبولا مع تقدم العلم الزعم بأن الوضع الطبيعى والنظرى للبشرية البدائية هو الفردية الحرة المتساوية ، ومن ثم نفى العملية التاريخية التطورية للبشر والمجتمعات ، إن العبيد صنعتهم ثقافة عبيد ، والأحرار صنعتهم ثقافة أحرار بفضل فعالية إنسانية اجتماعية متطورة المراحل .

التوسع والتنوير

ويشهد تاريخ الأحداث عن أن مفهوم العقل الكلى ، ويعنى عقل الغرب المتحضر ، ومفهوم المعرفة الكلية ، التى تعنى معارف هذا العقل وصدقها الكلى، كانا أساسا لدعم المركزية الغربية وفرض عصر الهيمنة الكوكبية الغربية سياسيا وفكريا . واستطاع الغرب من خلال التوسع الامبريالى أن يفرض بقوة وسلطان القنابل وآلات الحرب ، وبفضل التفوق التكنولوچى والعسكرى أن ينشر مع التوسع نفوذ مفاهيم التنوير عن الطبيعة والحرية والحق باعتبارها ثقافة الغرب .

وغرس الغرب وهما بأن الانفصام بين التحديث الاقتصادى والتكنولوجي وبين التحديث الثقافي على النمط الغربى - أى ضرورة التغريب شرطا للحداثة والتقدم الحضارى .

وليس خافيا أنه باسم طبيعة الأمور والصدق الكلى فرضت الولايات المتحدة على اليابان وعلى عدد من الدول فى أمريكا الجنوبية دستورا ديمقراطيا ليبراليا ظنا منها حسب إطار الفكر التنويرى ، أن هذا هو نهج التقدم الحضارى . ولكن انجازات اليابان ومن بعدها الصين وغيرهما من بلدان شرق وجنوب أسيا ، وهى إنجازات حداثية تحققت لأسباب أخرى غير التغريب ، بل نقول مناهضة للتغريب . هذا بينما أخفقت بلدان أمريكا الجنوبية التى التزمت بنصائح الولايات المتحدة الأمريكية ودعوتها للتغريب .

وكانت ثورات الشباب الغربى فى الستينات نذيرا بالفشل التام لفكر التنوير الذى استخدمته أوروبا من قبل، والولايات المتحدة الآن ، مبررا للتوسع الامبريالى وللهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية . وتمثل ثورات شباب الغرب دعوة لتجديد الفكر الغربى وصولا إلى فكر ما بعد التنوير وكذلك دعوة للالتزام بالخصوصية الغربية على قدم المساواة مع الخصوصيات الاجتماعية الأخرى ، والإيمان بالتنوع والنسبية الثقافية . ودعا الشباب أيضا إلى ضرورة الاعتراف بالمستجدات من أحداث على الصعيد العالمى وتعدد سبل التحديث الاجتماعى وصولا إلى الحداثة أى تجديد جذرى لمفهوم وآلية المجتمع المدنى الديمقراطى الليبرالى .

مجتمع بلا هدف أو إرادة

وأعرب الشباب عن ثورة رومانسية ضد انتهاك القيم المحورية للتراث الليبرالى : الحرية ، الإخاء ، المساواة بين الشعوب والإنسانية إذ صدرت بيانات الشباب الثائر تقول : « نحن نتهم المجتمع الراهن بأنه أسير إطار عقل فاسد شرير - عقل يتسامح مع الظلم وبلادة الحس والافتقار إلى الصدق واللاإنسانية » .

ويصف عالم النفس الأمريكى حال الشباب والناس والمجتمع المرفوض فى كتابه «ثورة الأمل» فيقول: « نحن بشر ليست لنا أهداف سوى أن ننتج وننتج أكثر وأكثر . إرادتنا غير موجهة إلى شىء؛ بل لا إرادة لنا لكى نريد . نحن يتهددنا خطر الفناء بسلاح نووى ، وخطر الموت بفعل السلبية التى غرستها فينا الحياة السلبية وابتعدنا عن مسئولية اتخاذ القرار» .

ونجد على النقيض فلاسفة النزعة المحافظة موضوع الاتهام من قبل الشباب وقوى الحرية يدعمون انتهاك قيم الليبرالية الديمقراطية ، نذكر من هؤلاء عالم النفس والفيلسوف الأمريكى «بورهوس سكينر»

الذي يشكل فكره هو وأترابه ، أساسا لليبرالية الجديدة النافية لليبرالية التقليدية وتؤكد نزعة الداروينية الاجتماعية أى الصراع أو حرية الصراع من أجل الوجود الاجتماعي وبقاء الأقوى يقول سكينر في كتابه «بعيدا عن الحرية والكرامة» إن الحرية هراء ميتافيزيقي وأحد الموروثات البالية من كلمات بغير مضمون ، وأشباح لا مكان لها، ويقول أيضا « إن العلم ينكر أن هناك كائن يدعى الإنسان ، وإن من العلماء من يرى أن الإنسان بصدد عملية إلغاء . وإن من يتعرض للإلغاء هو الإنسان المستقل ... الإنسان الذى تدافع عنه أدبيات الحرية والكرامة » .. وواضح تماما أن إنسان سكينر الغاء أو نفى كامل لحلم الليبرالية الديموقرطية ، ويمثل فكر سكينر وأمثاله الأساس الفلسفي للفكر السياسي للولايات المتحدة ونزعتها الامبريالية أو نزوعها للهيمنة وبناء امبراطورية تخضع لسطوتها بلدان العالم .

نعم سقطت الليبرالية

وفي ضوء ما عرضناه من تاريخ سلطات الغرب ، والواقع الجديد الكوكبي الذى آل إليه التطور التاريخي للرأسمالية في صورة شركات متعدية القوميات يمكن القول أن مبادىء الليبرالية الديمقراطية سقطت مرات ومرات . سقطت في بداية الحقبة حين استأثرت بالسلطة ومغانمها الاقتصادية والاجتماعية دون من قدموا دماءهم ثمنا لهذا الانتصار ، وبذلوا جهدهم لنمو الصناعة ، وعقدوا آمالهم فى حياة أفضل .

وسقطت مرة ثانية حين نهبت المستعمرات وحرمت شعوبها من حقوقهم في أوطانهم وسلبتهم إمكانات تطوير بلادهم . وتغيرت مواقع أطراف التناقض، إذ انتقلت من احتكار الاقتصاد على مستوى الأمة ، إلى احتكار عالمى .. ومن احتكار الاقتصاد إلى احتكار الخبرة الفنية واحتكار المعلومات وأسلوب توظيفها وصنع القرار وكذا احتكار لقوى الضغط لتوجيه السياسة على الأصعدة المحلية والعالمية وأيضا هيمنتها على أهم وسائل الإنتاج الثقافي وصناعة الفكر فى العالم .. متمثلة في وكالات الأنباء وصناعة السينما وإنتاج برامج التليفزيون والإذاعة الموجهة والأقمار الصناعية المخصصة للاتصالات ورعاية الندوات والمؤتمرات العالمية .

وسقطت مرة ثالثة في النظرية وفي التطبيق إذ أكد البحث العلمي فساد نظريات التنوير عن أن الحضارات التزمت خطا أحادى المسار غايته وذروته الغرب . وثبت فساد القول أن نهج التغريب هو النهج المطلق للتحديث والحداثة . وأثبت العلم كذلك فساد القول بالتفوق العنصرى لعرق بذاته . وهذه جميعها قضايا تحاول الولايات المتحدة اتخاذها أساسا لسياستها من أجل الهيمنة الكوكبية



باعتبارها وريثة أوروبا .

وسقطت أيضا إذ أكدت بعض بلدان المستعمرات السابقة حضورها القوى على الساحة العالمية ، وقدرتها على التطوير العلمى والتكنولوجى دون التزام بالتغريب الثقافى نهجا للتحديث الاجتماعى .

وسقطت حين عمدت قوى الغرب المهيمنة إلى إلغاء دولة الرفاه ومبدأ الحرية الفردية والمساواة ، وأبدلت الليبرالية الديمقراطية ومثلها العليا بما سمته «الليبرالية الجديدة» وبدأت نذر هذا السقوط مع نهاية الحرب العالمية الثانية .

وعبر عن هذا الباحث الكبير «كارل بولاتى» فى رائعته «التحول العظيم» عام ١٩٤٤ ينتقد بولاتى بشراسة فى كتابه هذا مجتمع القرن ١٩ الصناعى المرتكز على السوق الحرة . ويقول «السماح لآلية السوق بأن تكون المدير الأوحد الموجه لمصير البشرية وللبيئة العالمية .. يعنى تدمير المجتمع ، وإنما الأولوية للمجتمع على النظام الاقتصادى» .

وظهر العديد من فلاسفة الليبرالية الجديدة المناهضة لفكر الليبرالية الديمقراطية من حيث التطبيق الاجتماعى خاصة مجتمع الرفاه ومبادىء الحرية والمساواة ونذكر من هؤلاء فريدريك فون هايك ومن تلامذته ميلتون فريدمان . ونذكر أيضا مارجريت تاتشر زعيمة المحافظين البريطانيين ورئيسة وزراء بريطانيا سابقا والتى جعلت رسالتها تطبيق مبادىء الليبرالية الجديدة ، وجدير بالذكر أن السيدة مارجريت تاتشر شاع عنها اسم مصطنع هو «السيدة تينا Tina» وهو الأحرف الأولى لكلمة (لا بديل) أى لابديل عن الليبرالية الجديدة والسوق الحرة الطليقة من كل القيود فهى قانون طبيعى شأن قانون الجاذبية ، ولا فكاك منها والتى وصفها فوكوياما بعبارة «نهاية التاريخ» .

وتعبر تاتشر عن مثلها الأعلى البديل بقولها :

«مهمتنا بلوغ المجد فى سياق اللامساواة ، .... لانعبأ بالمتخلفين فى سباق المنافسة .... الناس غير متساويين بالطبيعة وهذا خير ..... لا فضل للضعفاء ذوى الحظ السىء فى التعليم ، وإن ما يصيبهم يستحقونه ، لأن الخطأ خطأهم وليس خطأ المجتمع».

وطبيعى أن ما ينطبق على الأفراد المواطنين ينطبق بالضرورة على المجتمعات . ومن ثم فإن المجتمعات الضعيفة المتخلفة ليست أهلا للبقاء على الرغم من أن الخطأ ليس خطأها وحدها بل أولا وأساسا خطأ من نهبوا خبراتها ودمروا ثقافاتها باسم الرسالة الحضارية للرجل الأبيض سليل العرق المتميز كما زعموا ويزعمون وهذا هو ما تذهب إليه الليبرالية الجديدة على يدى بريطانيا والولايات المتحدة بعد أن سقطت المثل العليا لليبرالية الديمقراطية ■

فى دراسة تقع فى ثمانية عشر مجلداً

إسرائيل الكبرى عام 2020

بقلم
د. إبراهيم البحراوى

ما بين عامى ١٩٩٢ و ١٩٩٨ عكف مائتان وخمسون خبيرا إسرائيليا، يمثلون الجامعات والمعاهد العليا والوزارات المختلفة ونقابات المهندسين ومخططى العمران والوكالة اليهودية، على وضع خطة لمستقبل الدولة والمجتمع الإسرائيلى على مدى زمنى طويل محطته الأخيرة عام ٢٠٢٠. لم يكتف رئيس هذا الفريق البروفيسور آدم مازور بالخبراء الإسرائيليين بل أشرك كذلك فى هذه الدراسة التخطيطية المستقبلية أساتذة من جامعات العالم المختلفة مثل جامعة دبلن وأولبرج وهاواى وكمبردج والمعهد الملكى التكنولوجى فى السويد وتسوكويه فى اليابان ونخمين من هولندا وليل فى فرنسا وهارفارد والجامعة التقنية فى برلين وضع الفريق ثلاثة مسارات رئيسية للبحث والدراسة: الأول إسرائيل فى أجواء السلام أو عكسه، والثانى إسرائيل فى مسار الدول الصناعية المتقدمة، والثالث إسرائيل والجاليات اليهودية فى العالم.

وفي نطاق البحث المستقبلي وبهدف اكتشاف السيناريوهات المختلفة المتوقعة مع المتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية، وضع الفريق اربعة سيناريوهات متباينة لكل مسار: السيناريو الأول بقاء الأوضاع على ماهي عليه وقت إجراء الدراسة، والثاني سيناريو متشائم بالنسبة لأهداف الخطة، والثالث سيناريو متفائل، والرابع السيناريو الأكثر ترجيحا من وجهة نظر الباحثين المخططين. لقد جاءت حصيلة هذه الدراسة ثمانية عشر مجلدا، حجب أحدها عن النشر العام واقتصر توزيعه على النخبة السياسية والعسكرية وموضوعه الأمن، في حين نشر سبعة عشر مجلدا حول المخطط وجوانبه المختلفة.

وقد نشر مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت المجلدات الستة الأولى مع مقدمة للطبعة العربية.

المسار الأول: إسرائيل في أجواء السلام وعكسه.. العنصران الرئيسيان لهذا المسار هما الأرض والناس، والمقصود بالأرض هو المساحة التي تقوم عليها الدولة طبقا لظروف الانكماش والتوسع المرتبطة بالحروب ، أو التسويات السياسية مع العرب، أما المقصود بالناس فهم أولا اليهود الذين استوطنوا فلسطين وأقاموا الدولة ، واليهود الذين استوطنوا الضفة وغزة والجولان، واليهود المتوزعون في العالم، والذين يهدف المخططون إلى جلبهم كمهاجرين في المستقبل. وكذلك فإن المقصود هم الفلسطينيون كافة ، سواء من في داخل الأرض المحتلة أو اللاجئون. والمحيط البشرى العربي، في كافة الدول العربية، فضلا عن جميع مسلمي العالم الإسلامي، باعتبارهم جميعا عناصر بشرية مؤثرة في مسار السلام والصراع.

في هذا المسار يسلم فريق البحث بأن البدائل المتاحة مستقبلا محدودة، وترتيبا على ذلك يركز على ضرورة التمسك بمبدأين الأول: «تعزيز الامن الوطني» بما يعني مواصلة الحفاظ على التفوق العسكري على المحيطين العربي والإسلامي معا. والثاني «ضمان الملكية الوطنية للأرض» وهو ما يعني تثبيت السيطرة على الاراضي التي تم احتلالها عام ١٩٤٨، والأراضي التي تم استيطانها بعد حرب ١٩٦٧، وعدم إرجاعها إلى أصحابها أو السماح لأصحابها بالعودة إليها، خاصة فيما يتصل بحدود ١٩٤٨ وما يضم إليها من أراضي الضفة والجولان.

يقوم سيناريو السلام المرجح في المخطط علي الافتراضات التالية:

١ - إقامة كيانين قوميين على أرض فلسطين، هما دولة إسرائيل ودولة فلسطين.

٢ - سيكون من الضروري تقييد الكيان الفلسطيني في موضوعات الجيش والأمن، ومن المحتمل مع مرور الوقت توحيده مع الأردن في كيان فيدرالي أو كونفدرالي.

٣ - يتولى الكيان الفلسطيني ادارة شئونه الداخلية بنفسه.

٤ - ستوقع الدول العربية والإسلامية معاهدات مع إسرائيل تعترف بها، وتسقط حقوق اللاجئين فيها، وحق الدولة الفلسطينية في القدس كعاصمة سيادية.

٥ - ضمان أن تكون الحدود مع الكيان الفلسطيني والدول العربية مفتوحة للإسرائيليين وبضائعهم، ومغلقة في الاتجاه الآخر، أي دخول العرب وبضائعم إلى إسرائيل.

٦ - لضمان الحركة على الحدود في هذا النطاق ، يتم اختيار ١٣ نقطة محصنة على خط الهدنة ، مجهزة بكل الاحتياطات الأمنية، ٣ على حدود قطاع غزة، واحدة في

طابا ، ٢ فى شـمـال وجنوب القـدس، ٢ على نـهـر الأردن، ٤ على حـدود الضـفـة، واحـدة فى رأس الناقورة شمال فلسطين.

٧ - يتـوقـع السـيـناريو المرجح فى المخطط كذلك إقامـة مشاريع مشتركة مع العرب فى عدة مناطق ، تكون الريادة فيـهـا لليهـود، ويقدم فيـهـا العرب الأرض والعمال. وهذه المناطق أشبه بممرات طويلة من العمران المشترك، من القدس الى عمان ومن غزة الى العريش ومن رأس الناقورة إلى بيروت. وهو مـخطط يستلزم طرقا سريعة، تصل إسرائيل ببيروت ودمشق وعمـان والقاهرة، باختـراق سيناء على ثلاثة مـحـاور فى الوسط والجنوب والشمال.

٨ - فى هذا المخطط أيضـا يتم إقـامـة مـشاريع مـشتركة مع العرب، لاستـغـلال الموارد الطبيعية من مياه ومعادن وبيئة، ومن هذه المشـاريع تطوير السـاحل الشـمـالى لسيناء، واستـغـلال مـعادنهـا، ومـشـاريع سياحيـة حول طابا والعقبـة، وتطوير وادى عـربة، واسـتـغـلال البـحـر الميت وأمـلاحـه، وتطوير نهـر الأردن، وتطوير شـامل للمـيـاه والمعـادن والسـيـاحـة والآثار لسـهل الحـولة والجـولان، والأنـهـار اللبنانيـة التى تـصب فى فلسطين:

٩ - يتم تطوير الطرق والسكك الحديدية الموصلة إلى البلدان العربية ، وربط الشبكات الكهربائية فى المنطقة.

١٠ - مقابل إزالة بعض المستوطنات فى الضـفـة ، كثمن لعملية السلام، يتم تطوير منطقـة النقب ومدينة بئر سبع، بحيث تكون مركز الثقل السكانى الثالث بعد مـجمع تلك ابيب وحيفا، لتتسع المنطقة الى ثمانمائة ألف نسمة، معظمهم من المهاجرين الجدد.

١١ - فى إطار سيناريو السلام تتقلص النفـقـات الأمنيـة، ويتـقـلص الناتج الزراعى الإسرائيلى، ويتم التركيز على زيادة الإنتـاج الصناعى.

١٢ - تصبح إسرائيل مجمعا سياحيا ، بربطها مع الضفـة الغنية بالآثار التاريخية والمسيـحـيـة، وبالأردن، وجـعلهـمـا منطقـة سياحية تبدأ الأفواج دخولها من إسرائيل. وبالاضافة إلى هذا تستقبل إسرائيل السياح العـرب ووفـود المرضى للعـلاج، بدلا من توجههم إلى العواصم الاوربية.

١٣ - نظرا للـخـدمـات المتطورة فى إسرائيل والمواصلات السهلة، وبفضل رأس المال اليهودى فى العالم، تصبح إسرائيل مقر الشركات متعددة الجنسيات ، والوكيل العام لها فى المنطقة.

١٤ - يسمح للعمال العرب بالدخول الى إسرائيل فقط، مع معالجة الآثار السلبية لذلك على العمالة اليهودية الشرقية، والعمالة بين عرب ١٩٤٨ نتيجة لانخفاض أجور العمال الوافدين من الكيان الفلسطينى.

١٥ - نتـيـجـة لمناخ الأمن المترتب على السلام، يتدفق المهاجرون اليهود من العالم، ويتم جلب نصف يهود العالم إلى إسرائيل.

١٦ - تنتـهى المقـاطعة العربية بالكامل، مما يؤدى إلى تدفق الاسـتـثـمـارات على إسرائيل من ناحيـة، ويفتح أبواب أوربا على اتساعها أمام إسرائيل.

١٧ - سـيـبـقى الاقـتـصـاد الفلسطينى خاضعا للاقتصاد الإسرائيلى.

وعلى الرغم من أن هـذا السـيـناريو بافتراضاته المغرقة فى التفاؤل قد فشل فى التنبؤ باندلاع الانتـفـاضـة ، فإن السيناريو الأسـوأ قـد توقع حـدوث جـمـود فى عـمليـة السـلام، وأوصى بإعـادة احـتـلال المدن الفلسطينية فى حالة حدوث هذا الجمود، وهو ما شهدناه خلال سنوات الانتفاضة . غير أن السيناريو المرجح والمبنى على التفاؤل يعيد اتخاذ مساره فيما تشهده المنطقة من أجواء بعد رحيل الرئيس عرفات لا تغيب عن عين القارىء، سواء فى مشروع الانفصال عن



غزة والحماس الدولي له وكذلك العربي، أو في التوجه الذي أعلنه رئيس منظمة التحرير الفلسطينية «محمود عباس» حول انهاء عسكرة الانتفاضة، او في دعوة رئيس الوزراء البريطاني توني بلير لعقد مؤتمر في لندن لدعم الإصلاح والاقتصاد، في مناطق السلطة،او في خطاب الضمانات الذي قدمه الرئيس الامريكي بوش لشارون، والذي يعترف بحق إسرائيل في ضم الكتل الاستيطانية الكبرى في الضفة ، ورفض حق عودة اللاجئين الى ديارهم، وقصر توطينهم على الدولة الفلسطينية الجديدة، أو في أجواء التعاون الاقتصادي بين مصر وإسرائيل والذي تمثل في توقيع اتفاقية الكويز .

إن كل هذه المؤشرات، بالإضافة الى تصاعد أصوات بعض الكتاب العرب حول ضرورة تخفيض سقف الاهداف القومية الفلسطينية لتمرير التسوية الممكنة، تعيد وضع السيناريو الإسرائيلي المرجح على مسارات خريطة الواقع. ومع ذلك فإن أي باحث لا يستطيع القطع بأن التطورات المستقبلية ستسير في الاتجاه الذي تحدده المؤشرات السابقة، نظرا لوجود عناصر كامنة في الواقع المحلي في إسرائيل، قد تؤدي إلى انتكاس هذه المؤشرات . ولعل أهم هذه العناصر، والتي سبق أن لعبت دورا في عكس مسار الاحداث، تتمثل في ايديولوجية الجماعات اليمينية والدينية المتطرفة، والتي أدت برفضها لسيناريو السلام وإقامة دولة فلسطينية من ناحية، ورفضها لعملية التسوية المرحلية، كما تمت في اتفاقية أوسلو، من ناحية ثانية إلى إشاعة أجواء إرهابية ضد حكومة رابين ، مما أدى إلى اغتياله في نهاية المطاف وتحول المسار السلمي منذ ذلك الحدث إلى سلسلة انتكاسات متتالية. إن عنصر التطرف الايديولوجي اليميني والديني في إسرائيل قد سجل قدرته على اعتراض مسار السلام مرتين، الأولى في اغتيال رابين والثانية بعد مفاوضات كامب ديفيد ٢٠٠٠،

• الدراسة تتوقع فرصة إسرائيل للصعود إلى مستوى الدول الست الأولى في العالم مع عام ٢٠٢٠

عندما تم اتهام باراك بأنه قد فقد عقله وأهليته الدينية لقيادة إسرائيل، نتيجة لما اعتبر تفريطا من جانبه في «حقوق إسرائيل التاريخية والدينية» في المفاوضات، وهو ما أدى إلى إسقاطه أمام شارون.. الملقب في ذلك الوقت بلقب ملك إسرائيل والاب الروحي للاستيطان اليهودي .ولا يغيب عن القارئ ذلك الانقلاب الذي حدث ضد شارون في أوساط المستوطنين وأوساط اليمين ، سواء داخل حزب الليكود نفسه، او في الاحزاب اليمينية العلمانية الاخرى مثل «إسرائيل بيتنا» وكذلك في الاحزاب الدينية مثل الحزب الديني القومي ضد الاب الروحي للاستيطان مع إعلان خطته للانفصال من جانب واحد عن غزة وسحب مستوطناتها . فلقد اعتبر شارون بدوره مفرطا في «حقوق إسرائيل» وهو ما يضع مستقبل المسار السلمي بغض النظر عن مدى الرضا العربي عنه وعن ثماره الضئيلة المتوقعة، موضع تساؤل في المدى القصير.

غير أنه من الواضح أن الرهان الأساسي، الذي بنى عليه المخططون الإسرائيليون سيناريو السلام المتفائل والمرجح عندهم، يعتمد أساسا على رؤية لأوضاع العالم العربي والعالم الإسلامي خلال الخمس الأول من القرن الحادي والعشرين، والتي من المرجح ان تسودها حالة التشرذم والنزعة القطرية الضيقة، والبحث عن المصالح الضيقة بعيدا عن مواطن المشكلات الكبرى، التي يمكن أن تؤدي إلى خسائر على المستوى الوطني الضيق، فضلا عن اطمئنان المخططين الإسرائيليين الى استمرار هيمنة القطب

الأمريكي المنفرد على العالم، خلال خمس القرن الحادي والعشرين الاول. مما يعنى من وجهة نظرهم توفير الظهير الدولي القادر على فرض السيناريو المفضل لديهم .

معنى هذا ان المخططين الإسرائيليين يرون ان حدوث انتكاسات فى مسار سيناريو السلام المرغوب، لا يعنى سوى التأجيل أو التأخير لبعض الوقت، إلى حين التمكن من قهر العقبات التى قد تظهر بين الحين والآخر على غرار انتفاضة الأقصى، لمواصلة العمل على تحقيق المخطط والوصول به إلى وضعه الأمثل فى عام ٢٠٢٠ .

ولقد رأيت أن أخصص معظم الحيز فى هذا العرض لرؤية المخططين الإسرائيليين لمسار السلام، باعتباره المسار الأكثر أهمية بالنسبة للقارىء العربى.

إن المسار الثاني المتصل بالوصول بإسرائيل إلي مصاف الدول الصناعية الكبري يقوم أساسا على استثمار رأس المال اليهودى فى العالم ومستوى العلماء المتقدم والطبقة الواسعة من أصحاب التخصصات الهندسية والتكنولوجية والطبية ، التى تصل جاهزة من الدول المتقدمة مع المهاجرين الى الدولة، والقدرة على النفاذ إلى الأسواق الآسيوية والأمريكية والاوربية، ومستقبلا الشرق أوسطية، خاصة عن طريق الصناعات العسكرية المتطورة.

لقد صنف المخططون الإسرائيليون وضع إسرائيل حاليا بين الدرجة السادسة والثامنة من أصل ٢٤ درجة، تحدد مدى تطور الدول المتقدمة الكبرى فى العالم، ومن المؤشرات المستخدمة فى الدراسة، التى تقاس بها مكانة الدول على اساس الدرجات الاربع والعشرين، عدد السكان الحضريين الى مجموع السكان، وهو مرتفع فى

• الأمن الإسرائيلي أكبر هموم النخبة السياسية والعسكرية

إسرائيل، ومؤشر زيادتهم السنوية وهو مستقر، وزيادة حصة الفرد من الناتج القومى سنويا ، وهى منخفضة نتيجة زيادة أعداد المهاجرين، ومؤشر معدل العاملين فى قطاع الخدمات وهو مرتفع، وحصة الخدمات من الناتج القومي وهو مرتفع، ومعدل العاملين فى الزراعة وهو منخفض ، ومستوى تملك السيارات واستهلاك الطاقة للفرد وهو منخفض. بسبب تزايد المهاجرين، ودرجة التعليم وهى مرتفعة، ومستوى البيئة وهو منخفض بسبب التلوث وزيادة السكان.

وطبقا لهذه المؤشرات يتنبأ السيناريو المرجح والمفضل بوجود فرصة كبيرة أمام إسرائيل للصعود إلى مستوى الدول الست الأولى فى العالم مع عام ٢٠٢٠.

أما المسار الثالث وهو إسرائيل ويهود العالم فان السيناريو المرغوب فيه يتجه إلى التخطيط نحو جلب نصف يهود العالم إلى إسرائيل، والابقاء على النصف الثانى فى البلدان المتقدمة ، ليبقوا نقطة ارتكاز قوية لإسرائيل فى هذه البلدان .

ويذكر المخططون ان عدد اليهود عام ٢٠٢٠ سيكون ما بين ١٢.٨٥٤.٠٠٠ إلى ١٣.٨٥٤.٠٠ نسمة فى العالم، سيقطن إسرائيل منهم ما بين ٤٤ الى ٥٠٪ .

وأهم ما فى الدراسة هو التأكيد دائما على ان السيناريو المرغب فيه لا يتحقق من تلقاء ذاته، بل بالتخطيط والعمل المنظم المثابر دون كلل ويجدية. ■



بقلم
د. الطاهر أحمد مكي

تعودت منذ وعيت أن أستخدم لفظ رئيسي لوصف الشيء الأكثر أهمية بين مجموعة من الأشياء أو الأشخاص، فالصحة شيء رئيسي في الحياة، ووزير الداخلية رئيسي بين الوزراء في حكومات العالم الثالث، والبروتين طعام رئيسي في غذاء الإنسان وهكذا.

ومنذ أعوام اعترضني من يقول لي: كيف تخطئ وأنت أستاذ في دار العلوم، إن صحة التعبير «رئيس» بدل «رئيسي»، فقلت له: إن الكلمة لا تقع من أذني موقعا مريحا، وأنا بمقولة عباس العقاد: «العربية لغة شاعرة»، بمعنى أن طلاوة اللفظ ووقعه على الأذن، وانسجام حروفه فيما بينها، والمواءمة بين كلمات الجملة، لها أثرها في النفس قبولا وتأثيرا، وهو ما له أهمية عندي، ومن ثم لم أعر ملاحظته اهتماما.

ولما انتهى بي المطاف عضوا في مجمع اللغة العربية الموقر، لم أرد أن أخطئ فيما يعرف صوابه عامة المثقفين، فعدت إلى دراسة القضية من جديد لأتسلح بالعلم ولا اكتفي بالتذوق وحده، فوجدت أن الأمر لم يفت على المجمع، وإنما عرض للمشكلة ودرسها، واختلف الأعضاء حولها بين مؤيد ومعارض، وكان بحث أستاذنا الجليل المرحوم محمد خلف الله أحمد الفيصل في هذا:

● هناك فرق في الدلالة يدركه الحس اللغوي بين الوصف من الرياسة على صيغة فعيل «رئيس» والوصف منها بصيغة النسب «رئيسي»، فالرئيس هو الشريف، وسيد القوم، والشخص المبرز، والشيء الذي ينزل من غيره منزلة السيد من قومه.

أما الرئيسي فهو المنتمي إلى مفهوم «رئيس» والآخذ منه بحظ، وكأنه فرد من أفراده.

● مثل النسب هنا مثله في أساسي وحتمي وثانوي وجوهري وعرضي وظاهري وباطني، وغيرها مما لا يحصى.

● «رئيسي» في الاستعمالات الحديثة صحيح إذن، والوصف به غير الوصف برئيس، والنسب فيه على بابه، لأن النسب المشتق من الوصف طريق مشروع من طرق التعبير عن المعاني.

وقد انتهت لجنة الأصول في المجمع إلى القرار التالي، وأقرها المجمع عليه:

«يستعمل بعض الكتاب العضو الرئيسي أو الشخصيات الرئيسية، وينكر ذلك كثيرون وترى اللجنة تسويغ هذا الاستعمال بشرط أن يكون **المنسوب إليه أمرا من شأنه أن يندرج تحته أفراد متعددة.**

• • •

تستطيع إذن أن تستخدم كلمة «رئيسي» أو «رئيسية» صفة، فهي أخف وقعا، وأكثر استعمالا، ولا تخشى تخطئة من أحد.



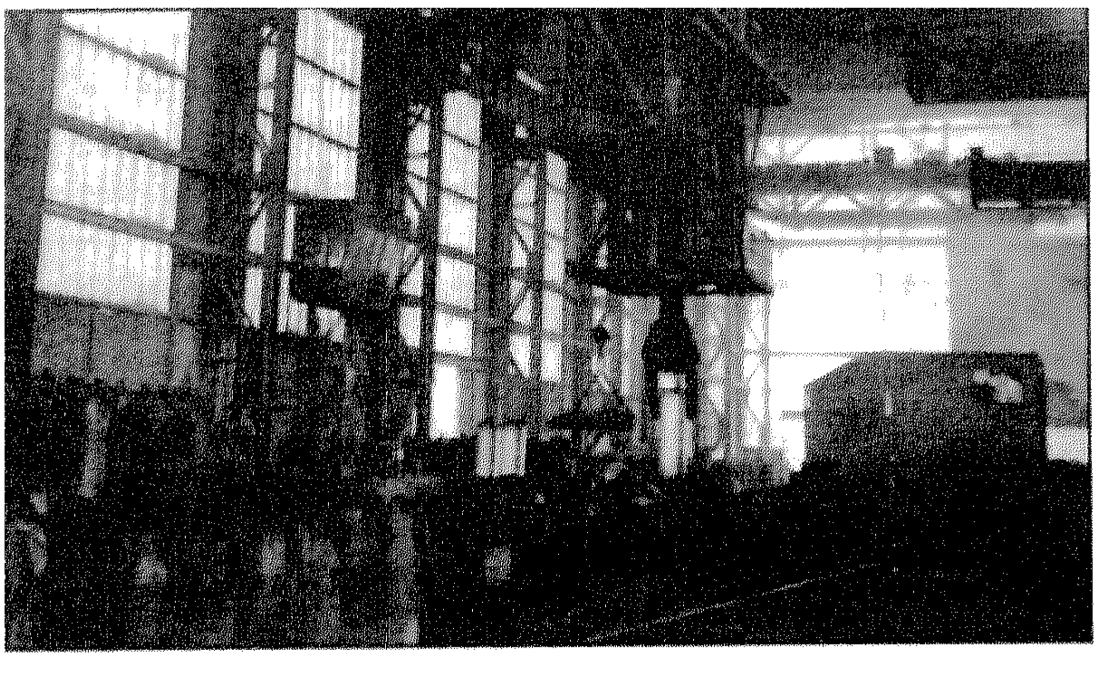
التنمية المصرية
من التخطيط إلى الانفتاح

بقلم
محمد عودة

لا تتحقق التنمية الصحيحة فى مصر خاصة إلا برؤية متكاملة، تتمثل فى خطة شاملة يكون محورها وقاعدتها الراسخة الصناعة والتصنيع، ولا يعنى ذلك إقامة عدد من المصانع الكبيرة والصغيرة هنا وهناك ، ولكن يعنى خطة ومشروعا قوميا ، لتحقيق دولة صناعية عصرية، تجمع كل أفرع الصناعة الثقيلة والوسيطة والخفيفة والصناعات الاستراتيجية، سواء التقليدية أو الذرية النووية ، وكلها صناعات تملك مصر كل مقوماتها ، بل تحتمها التحديات الدائمة غير المتكافئة ، التى تواجهها مصر والتى تتفاقم يوما بعد يوم.

وكان ذلك هو المنهج الذى اختارته ثورة يوليو ، وبعد تصفية آخر محاولات الثورة المضادة فى الداخل ، وبعد استكمال السيادة ورحيل آخر جنود الاحتلال، بل وغرق الامبراطورية فى مياه السويس .أعدت أول خطة خمسية للتنمية وإرساء الأسس لإقامة مصر «الثورية»

واسترشد المخططون بتجارب العصر ، سواء فى العالم الثالث الأفروآسيوى أو فى المعسكر الاشتراكى ، أو فى الغرب، خاصة التجربة الألمانية واقتصاديات ايرهارد ، وقبل كل شئ استنفرت الثورة قوى الشعب لتتحقق التنمية بالشعب وللشعب.



صناعة الحديد والصلب إحدى الصناعات الاستراتيجية الثقيلة التى ترتكز عليها خطط التنمية

وتكاتفت كل القطاعات وتكاملت فى الانجاز.. القطاع العام فى الصناعات الثقيلة والاستراتيجية ، والقطاع المختلط فى الصناعات الوسيطة وإصلاح الأراضى، والقطاع الخاص فى الصناعات الاستهلاكية والخفيفة.

وكان النجاح باهرا وتجاذب العالم أصداءه ، واعتمدت الأمم المتحدة الخطة المصرية ، نموذجا وتوافدت البعثات من كل أرجاء العالم الثالث لدراستها واستلهامها.

وكان النجاح حافزا على استكمال الطريق والمضى إلى رحلة أبعد ، وتم إعداد خطة عشرية محورها الصناعة الثقيلة والاستراتيجية سواء التقليدية أو النووية ، وأن تقوم مصر الدولة القائدة والحاسمة ، والتى تحقق السلام والرخاء لشعبها وأمتها الكبيرة . وعرضت الخطة على عدد من الخبراء والعلماء الأجانب المتعاطفين وأيدوا كل ما قام به المصريون، وأكدوا أن نجاح الخطة سوف يكون نموذجا وحافزا لكل الدول النامية، وأكدوا أيضا أنه سوف يقوض كل استراتيجيات الحرب الباردة. وكانت تقوم وترتكز وفق نظرية ابتكرها «جورج كينان» الأمريكى وتقضى بحصار السوفييت حصارا محكما ، حتى يتهاوى من الداخل . ولم يكن ذلك الحصار ليتم بغير انضمام مصر، لأن الشرق الأوسط يعد تاريخيا «بطن روسيا الناعم» ومصر هى مفتاح المنطقة وبغير انضمامها لن يشق هذا البطن!

وأضاف المستر دالاس ، وزير الخارجية الشهير، إلى النظرية خطوة أبعد، وأعلن أن الحصار والاحتواء لابد أن تتبعه الخطوة الحاسمة ، وهى التحرير وبها يحسم التاريخ الحديث.

عرض دالاس

وحضر المستر دالاس إلى مصر وقدم عرضا سخيا لعبدالناصر؛ أن تتعهد

الولايات المتحدة ببناء السد العالى وأن تقوم بتسليح الجيش المصرى، مقابل أن تنضم مصر إلى حلف بغداد ، وأن تعترف بإسرائيل.. واعتذر عبدالناصر أن مصر لا تستطيع أن تستبدل الاحتلال البريطانى باحتلال جديد مزدوج ، وأن تتحول مصر التى كافحت سبعين عاما لكى تسترد سيادتها وحريتها إلى قاعدة لحرب «باردة» بين دولتين وكتلتين لا ناقة لمصر فيها ولا جمل ، وأن مصر لا تستطيع أن تعترف بدولة تقهر شعبا عربيا وتحتل أرضه، وتمارس ضده كل أنواع الارهاب والتعذيب، وهى دولة تضرب عرض الحائط بكل قرارات الأمم المتحدة ، وتعتمد فى كل ذلك على العلاقة الخاصة والحميمة التى تربطها بالدولة الأعظم.

وقال عبدالناصر « إن السلام والاستقرار لن يتحقق فى المنطقة، بل ولأبعد مدى طالما أن الولايات المتحدة تزدرى ولا تعبأ بالقوانين الدولية ، وتعلن بلا حرج انحيازها لإسرائيل بل وتضمن لها التفوق النوعى على كل الدول العربية مجتمعة.. وأنها تمد إسرائيل بكل مقومات التسلح النووى ، لكى تكون القوة الذرية السادسة فى العالم» ، هذا فضلا عن أن بن جوريون لم يمل منذ قيام الدولة أن يكرر أن المنطقة لا تسع دولتين كبيرتين وإما مصر أو إسرائيل.

وانضمت مصر طبيعيا إلى جبهة باندونج ، وأصبحت مع الدول الثلاث الأخرى الهند والصين وإندونيسيا أعمدة جبهة عدم الانحياز الجديدة ، وندد بها المستر دالاس وبالمؤتمر وأعلن بهوسه، الدينى أن الحياد خطيئة لا تغتفر ، وأصدر قرار الحرمان ضد عبدالناصر ؛ لأنه بانضمامه امتدت الجبهة وعبرت إلى أفريقيا ثم إلى أمريكا اللاتينية!!

وأثبتت الوثائق التى نشرت بعدئذ أن حرب ١٩٦٧ افتعلت لهدف واحد هو إجهاض مشروع التنمية المصرى ، وألا تستكمل مصر خطة التصنيع.

شهامة قائد

وشنت الحرب وكانت الهزيمة الساحقة، وأعلن عبدالناصر بشهامة البطل التاريخى مسئوليته كاملة ، وقدم استقالته . وكان عبدالناصر قد عرف الخطة كاملة وجمع قادته وضباطه ، وأخبرهم بالتفاصيل، وكان ذلك كفيلا بأن يحسم كل المشاكل ، إن لم يكن تاريخ المنطقة ، ولكن لم يكترث القائد العام ، ولم يأبه قائد الطيران ولم ينتقل وزير الدفاع من مكتبه ، وثبت بعدئذ أن الدود نفذ إلى سلة التفاح.

وأعلن عبدالناصر مسئوليته وقدم استقالته ، ولا شك أنه كان مسئولا . ولو تولى القيادة منذ اللحظة الأولى وجمع بين القيادة السياسية والعسكرية ، وأعلن التعبئة العامة كما فعل عام ١٩٥٦ لأنقذ البلاد من كارثة محققة ولتحولت المعركة إلى نصر تاريخى ولكن أخطأ روزفلت فى بيرل هاربور وتشرشل فى دنكرك.

وانتفضت الأمة عن بكرة أبيها المدن والقرى والكفور والنجوع من الخليج إلى المحيط «لأول مرة فى التاريخ تخرج أمة بأكملها لتعيد زعيما هزم هزيمة ساحقة» كما كتبت صحيفة لومند الفرنسية.

واستوقفت الحرب بعد أسابيع وتحولت إلى حرب استنزاف، وهو الاسم الذى أطلقه القادة الاسرائيليون «أردنا أن نستنزف عبدالناصر ولكنه استنزفنا»



محولات السد العالى لتوفير الطاقة اللازمة للصناعات التى تنهض بالدول

وقوض سلاح الدفاع الجوى المصرى السيادة المطلقة للطيران الإسرائيلي على السماء والذى كانت تفاخر به إسرائيل وتبنى عليه كل زهوها وبكت جولدا مائير فى الأسبوع الحزين أسبوع تساقط الطائرات ، كما سمى ، وقالت لقد تآكلنا وانتفض أشهر قادة إسرائيل فى حرب ٦٧ فاتح القدس، كما سمى، وأعلن «لقد خسرنا الحرب ولا مناص من السلام الآن» ، وتحول النداء إلى انتفاضة فى إسرائيل ترفع هذا الشعار.

ولأول مرة طلبت إسرائيل إلى الولايات المتحدة أن تتوسط لدى عبدالناصر لعقد هدنة والجلوس إلى مائدة مفاوضات وقبل عبدالناصر لالتقاط الأنفاس وإعداد المعركة الفاصلة «.. سوف ندمر خط بارليف ونواصل الزحف إلى تل أبيب ونفاوض هناك!»

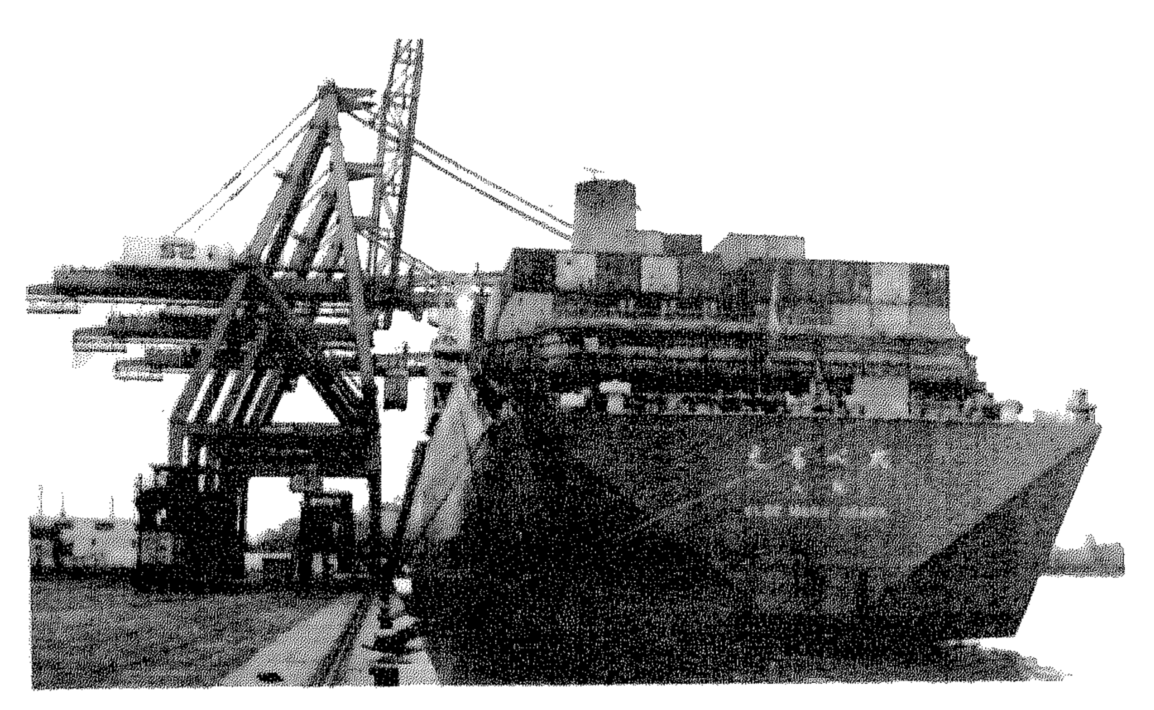
وشاءت إرادة الله أن يختار إلى جواره عبدالناصر قبل أن يحقق حلم حياته، وشهد العالم جنازة اعتبرت حدثا فى تاريخ القرن العشرين. وفى آخر كتاب أمريكى صدر عن عبدالناصر بعنوان «ناصر آخر العرب » هذا العام قال الناشر كان أعظم زعيم عربى فى القرن العشرين، وقال المؤلف لو لم تسلط الولايات المتحدة عملاءها وجواسيسها وتشن حربا باردة وساخنة على عبدالناصر لانتصرت القومية العربية العصرية ولما حدثت مأساة ١١/٧ وتدمير الأبراج ثم الارهاب!



تولى الرئيس أنور السادات خلفا لعبدالناصر وكان الرفيق المخلص الأمين والمتفانى فى الولاء وحينما سئل عن سياسته أجاب على الفور «سياسة واحدة.. طريق عبدالناصر».

سياسة مضادة

ولم تمض أسابيع حتى خرج بسياسة مضادة تماما استبدلت الشعار الذى



الاستيراد و سمسرة الموانىء والاستهلاك أهم سمات الفترة الانفتاحية

تحقق به النصر «إن ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يسترد إلا بالقوة» بشعار مضاد يعلن أن ٩٩,٥٪ من الحل فى يد الولايات المتحدة الأمريكية التى لا يجهل أحد أنها كانت وراء العدوان سنة ١٩٦٧ قلبا وقالبا.

ولم يلبث طويلا حتى أكمل سياسته بشعار أشد وطأة وانتكاسا قال «إن التنمية التى حققت الخطة الخمسية الأولي والتى أعدت للخطة العشرية كانت فى حقيقة الأم «انغلاقا» عزل مصر عن العالم العريض الغربى ولابد من انفتاح ولأوسع الأبواب ليدخل الهواء النقى وينعش الاقتصاد الراكد.

وباسم الانفتاح تدفق سيل من النفايات التى خلفتها حقب الاستعمار والاستغلال التى لفظتها البلاد لكى تؤمن البناء الجديد وخرجت من الجحور أرتال من الأفاعى السامة التى اختبأت متربصة ليوم الثأر.

وبتكاثر الطحالب نمت طبقة حاقدة موتورة وغير منتمية هدفها الأول والأخير الثراء عن أقصر طريق وأى طريق وانقضت أساسا على القطاع العام وباسم مستثمر مجهول الاسم والنسب بيع القطاع العام قاعدة التنمية وبأبخس الأثمان وتداعى وتفكك الانجاز الشامخ ثم الاقتصاد المصرى عامة.

سماسرة الموانىء

وهيمنت الطبقة الجديدة على الاقتصاد وعلى طريقة الحياة عامة وتسمى هذه الطبقة فى القاموس السياسى الأوروبى «الكومبرادور» أى سماسرة أو قراصنة الموانىء وهؤلاء يصدرون ويستوردون ويهربون كل شئ ولكن فى إطار محدود لا يتعدونه وارتد المجتمع المصرى فى ظل هذه الطبقة أو كاد إلى مجتمع ما قبل الثورة وانقسم إلى طبقتين من الأثرياء ثراء فاحشا غير مشروع ومن الفقراء فقرا مدقعا تحت كل خطوط الفقر وينقسم



ناصر التخطيط .. .. وسادات الانفتاح

الشعب المصرى الآن وفق مقولة بريطانية إلى شعبين مختلفين أغنياء ومعدمين لا صلة بينهما ويتربص كل منهما بالآخر ولم يخالج كثيرين الشك فى أن هذا الطريق كان اختيار الرئيس الجديد ولكن لم يلبث أن صدر كتاب أمريكى لأحد أقطاب الأجهزة الفكرية والعقائدية بعنوان «السادات.. وتصفية الناصرية» ثم أتبعه بكتاب آخر «ناصر والسادات» دراسة مقارنة فى نظامين وقطع الشك باليقين وأصدر نفس المؤلف كتابا آخر عن الملك الحسن الثانى ملك المغرب «سبط رسول الله» كما كان يحرص على التذكير بذلك فى خطبه وأحاديثه وشرح كيف كانت رسالته مكملة وهى تصفية الثورة الجزائرية واليسار المغربى وقد تم ذلك بنفس الحنكة والبراعة المصرية.

وتمت تصفية الخطة العشرية بالطبع والقطاع العام والمختلط وأعلنت «الخصخصة» عقيدة مطلقة للتنمية ولم يقدم أى دليل أو حجة تثبت نجاحها ولكن كان العالم قد تحول وأصبح قرية كبيرة ولها عمدة واحد فقط يعرف شئون الرعية «قاصرة الوعى» ويعيد إلى الصواب كل من يحاول الانحراف أو يخرج على الإجماع!!

وتمثل الوزارة الجديدة نموذجا للحلقة الفارغة التى سوف تدور فيها التنمية التى تنتهى إلى طريق مسدود وقد بدأ رئيس الوزراء «المصلح» سياسته بأن قسم الشعب إلى فريقين الأغلبية «الغلابة» والموسرين، وتعهد بأن يوصى هؤلاء خيرا بأولئك وتعهد بأن يعطف على الشعب ويفيض عليه من فضل إحساناته.

وفى هذه الفترة العصيبة من تاريخنا خاصة ومن تاريخ الأمة العربية عامة وحيث نواجه أخطر التحديات فإن التنمية هى العامل الحاسم ، وبعث الخطة العشرية لتصنيع مصر ولتحقيق مصر الصناعية، وذلك بمراجعة نقدية ايجابية لتطورنا الحديث ، وما تحقق أو لم يتحقق وإثارة حوار عام بين كل القوى والاتجاهات القومية وكل الهيئات والسلطات المعنية التشريعية والتنفيذية والسلطة الرابعة خاصة والاسترشاد بالتجارب الناجحة والباهرة فى الصين خاصة وفى الهند وماليزيا ثم فنزويلا والبرازيل وأعلنا التعبئة ضد القوى المعادية ليتم الانجاز للشعب وبالشعب . وإلا سوف نستمر فى الدوران فى الحلقات المفرغة ، وذات يوم سوف ينفد صبر الأغلبية المحرومة وينفجر سخطها ، وتحمل أرواحها على أكفها وتفرض ما تريد.

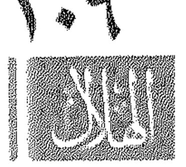
وحبذا لو قرأ المسئولون عندنا شيئا من التاريخ قراءة صحيحة. ■

خواطر

حول تكريم الأدباء

بقلم
وديع فلسطين

إذا رُتِّبت فئات المجتمع من حيث حظوظها فى الحياة ، فالمؤكد أن المفكرين والأدباء لا يظفرون إلا بأدنى الحظوظ، فقد يشقى الأديب طول عمره ولا يجد إنصافاً، بل لعل الجحود يطارده حتى بعد الممات، ومن هنا تنبهت هيئات وأفراد لتكريم الأديب فى حياته، منها هيئات رسمية تمنح جوائز بأسماء ومسميات شتى، ومنها هيئات أهلية يضطلع بنشاطها أفراد حاولوا بدورهم أن ينصفوا الأدباء والمفكرين بمنحهم جوائز مادية فى مهرجانات هى فى كثير من الأحيان أشبه «بالزفة» تمتد فيها خوانات الطعام فى فنادق النجوم الخمسة وفى العواصم المختلفة، ولكن يعيب هذه المحاولات جميعاً أن المشرفين عليها سواء أكانوا يمثلون جهات رسمية أم مجرد أفراد، هم بشر لهم ما للبشر من أهواء وانحيازات يصعب البرء منها عند اتخاذ قراراتهم بالتكريم، ولعل أصرخ مثال لذلك أن أستاذنا الدكتور شوقى ضيف تعرض للرسوب ثلاث مرات فى لجان التحكيم قبل أن تتشرف الجائزة به، فى حين فاز بها قبله تلاميذه أو من هم بمقام تلاميذه.



هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يلاحظ مثلاً أن اليساريين هم أكثر الناس احتكاراً للجوائز المالية السخية، وهي ظاهرة لا تعليل لها، سواء أكانت من صنع المصادفات الملفقة أم من نوازع الهوى، ويلاحظ كذلك ، أن جوائز الشعر - ولا شعر إلا الموزون المقفى - تذهب إلى الزجالين وإلى أصحاب المنشورات السياسية وإلى الذين يكتبون ما أسميه «بالخزعبلات الشعرية»، ثم إن التكريم يذهب عادة إلى أفراد معدودين في مواسم مقررة، ويتخطى كثرة كاثرة من مستحقي التكريم، سواء أكان مادياً أم معنوياً، ومع ذلك ، فأنا أقول دائماً إن كل خير يصيب الأدباء - ولو خطأ - ينبغي الترحيب به مادام الأدب والأدباء تواضعت أقدارهم في مجتمع غلبت عليه السطحية وانشغل بكرة القدم وشخلعات المسلسلات.

ندوة الإثنينية بجدة

سقت هذه المقدمة لأتحدث عن نموذج آخر من نماذج التكريم ابتدعه الشيخ عبدالمقصود خوجة في ندوته الأسبوعية كل يوم إثنين - ولهذا عرفت «بالإثنينية» والتي يعقدها في جدة منذ عام ١٩٨٣، والشيخ عبدالمقصود قارئ جيد بصير - وهو المؤهل الأول الذي يستعين به في الحكم على حملة الأقلام في المعمور العربي ، لا تهمه الأضواء المسلطة بحق أو دون حق على زيد أو عبيد من الناس، ولا يعترف بالتخوم الجغرافية التي تفرق بين الأدباء والمفكرين، بل يعتبر الساحة الثقافية وطناً واحداً ، فيلغي بذلك كل الهويات المدونة في جوازات السفر، ويعامل ضيوفه من الأدباء والمفكرين باعتبارهم رموزاً تنتمي إلى أسرة واحدة، وإذا كانت الأبواق في ما مضى تتحدث عن عالم يمتد من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر، فإن «دنيا» عبدالمقصود خوجة قد اتسعت وتجاوزت هذا العالم إلى أي بقعة يعيش فيها شاعر أو مفكر أو أديب، حتى استراليا وحتى البرازيل وتعتبر أوربا «فركة كعب» بالنسبة لهذا العالم المترامي الأطراف.

ومع أن «الاثنينية» مازالت نشاطاً فردياً وليس جماعياً، فإن الشيخ عبدالمقصود خوجة يتعامل مع ندوته وكأنها مؤسسة ثابتة الأركان لها تقاليدها غير المكتوبة، ودستورها المستمر من مبادئ الضاد السامية، ونظامها الذي لا تحيد عنه، فغايتها الوحيدة النبيلة هي اختيار كل من يستحق التكريم من هذا المعمور العريض، ودعوتهم إلى جدة لتقديمهم في ندوة الاثنين أمام جمهور يضم صفوة كريمة من عشاق الأدب، وهم قد يبلغون المئات

عدداً ، جاءوا من بقاع في الجزيرة ثقة منهم بأن ندوة التكريم تستأهل المشاركة فيها.

ورغبة في انتظام نشاط هذه الندوة التي تنعقد أسبوعياً، فإن راعيها الشيخ عبدالمقصود خوجة يعد برنامجاً لأشهر مقبلة لاستضافة من يختارهم، سواء من خارج المملكة العربية السعودية أو من داخلها، وحسبك أن تعرف أن المختارين للتكريم يختارون بأشخاصهم وليس بمناصبهم أو بوجاهاتهم الاجتماعية، وإنما بانتمائهم الأصيل إلى قيم الضاد وليس هدمها بدعوى التجديد والابداع والتيسير - وليمت سيبويه غير مأسوف عليه حسب الصيحة التي سمعناها واستنكرناها مؤخراً.

فارس الاثنينية

فإذا انعقدت الندوة في موعدها الأسبوعي في فناء فسيح تكتنفه الأشجار الباسقة وتزينه الورود الجميلة، ثم التعريف ابتداء «بفارس الإثنينية» ، وسرد موجز لسيرة حياته وأعماله ، وهي بيانات موثقة تفيد المشتغلين بالببليوغرافيا، ثم يلقى راعي الاثنينية الشيخ عبدالمقصود خوجة كلمة في الترحيب بالضيف المكرم وفي إبراز جهوده المبذولة على مدى العمر، وفي بسط المسوغات التي دعت إلى تكريمه متى كان الضيف من الذين جُحدت أعماله حتى في بلده أو من الذين تنكبتهم أحكام النقاد فظلمتهم ظلماً بيناً، فغاية خوجة، التي يحتشد لها بكل أريحية نفس، هي إنصاف الذين لم يحالفهم الإنصاف، والإشادة «بفارس الاثنينية» أمام هذا الحشد الحاشد من الحاضرين المشوقين لسماع كل كلمة تقال في هذه المناسبة.

ثم يتبارى المتكلمون شعراً ونثراً في استقبال الضيف والتحدث بما يعرفونه عنه، ولا سيما إذا كانت تربطهم به علاقات شخصية عميقة تلقي أضواء على حياته وجهوده ومسيرته، وقد يُفاجأ الضيف بوصول فاكس من الداخل أو الخارج مشاركة في تحية الضيف، بل قد تُرتجل قصيدة في الترحيب به من متتبع لآثاره أو معجب بها.

ثم يلقي المكرم كلمته ، فيتحدث فيها عن رحلة المكابدة التي عاناها في حياته، وعن صنوف المحن التي مرّ بها، كما يتحدث عن اختياراته، واختباراته والمحطات الرئيسية في حياته، ففي هذه المناسبة يسوق شهادة من واقع تجربته في الحياة بحلوها ومرّها، ويصارح الناس بكل ما يعتمل في صدره، فالندوة منبر مفتوح بغير رقابة أو خطوط حمراء، والحرية فيها متاحة وبلا قيود، وكل الحاضرين الذين جاءوا من تلقاء أنفسهم غير مسخرين ولا تم حشدهم حشداً، آذان

صاغية وعيون مشدودة إلى الضيف لأنها تراه لأول مرة عن قرب وبغير تصنع.

ورغبة فى اشراك الجمهور فى الندوة بإيجابية وفاعلية، فإن باب الأسئلة يفتح على مصراعيه بل مصاريعه، فتوجه إلى الضيف الأسئلة مهما امتدت السهرة، فالقوم لا يريدون أن تفوتهم هذه الفرصة.

تسجيل وقائع التكريم

وحتى لا يتبدد كل هذا الكلام فى الهواء ويضيع فى تلافيف النسيان، فإن الشيخ عبدالمقصود خوجة يحرص على تسجيل كل وقائع التكريم بآلة التصوير وبشريط الفيديو وشريط الصوت، ومتى اجتمعت لديه حصيلة عدد من حفلات التكريم نشرها بكل وقائعها فى سجل ضخم يصدر فى صياغة فاخرة مزوداً بالصور التذكارية التى التقطت فى الحفل، وقد صدر حتى الآن عشرون مجلداً من مجلدات التكريم ضمت وقائع ٢٥٩ حفلة رصدت لتكريم الأدباء، عدا ٥ ندوات «على ضفاف الاثنينية» ويقع هذا السفر فى ٧٥٠ صفحة.

وهذا الضرب من ضروب التكريم يصيب كثيرين ممن لم يساعفهم الحظ فى سباقات الجوائز ومهرجانات «المتمهرجين»، وحسب الأديب أن يعرف أنه اختير لجدارته الشخصية وأنه لن يعرض نفسه فى مماكسات المسابقات فقد يفوز وقد يخيب، وأن التكريم سعى إليه سعياً حثيثاً دون أى جهد من جانبه، وأن الجمهور الذى واجهه جاء خصيصاً ومن مسافات بعيدة لا بقصد المجادلة بل لكى تكون له حظوة مشافهة من أريد تكريمه، فهذا التكريم لا يحتاج إلى بذل وساطات أو التوسل بالعلاقات العامة أو الخاصة، وإنما هو تكريم بقصد التكريم ليس إلا.

ونظراً لما يمتاز به راعى الاثنينية من نزاهة مطلقة وسمعة ناصعة، فإن اختياراته تحظى بالتقدير من جانب جمهور الندوة، كما تعتبر هذه الندوة فى مدينة جدة حدثاً ثقافياً جليلاً يحرص الناس على متابعته والمشاركة فيه.

ومن واقع تجربتى الشخصية أقرر أننى كنت أتهيب هذه المجابهة مع حشد أنا مبتوت الصلة به، ولكن الحفاوة التى نعمت بها من راعى الاثنينية انعكست على جمهوره، فألفيت نفسى محاطاً بأصدقاء غمرونى بلطفهم وودهم، وإن كنت لكثرة عددهم لم أستطع التعرف على أحد منهم، وما أحلى أن يجد المرء نفسه مطلوباً لذاته، وليس لمنصبه، وأن تكريمه ليس من قبيل المداهنة أو الرياء أو ارتجاء مثوبة.

هذا نموذج فريد من نماذج التكريم لا أعرف له مثيلاً فى مجتمعنا الثقافى. ■



حنان الحاج على فى جزئيتها المونودرامية المؤثرة



بقلم

صافى ناز كاظم

أنا فى موقف أحسد عليه، ذلك لأننى قادرة على أن أقول بالفم المليء: صرت أكره المسرح. وإذا استطعت أنا أن أصرح، أو أصرخ، هكذا فلا بد أن غيرى ممن شاهدوا عرض الفنان النابغة «روچيه عساف» «جنينة الصنايع» على خشبة مسرح العرائس بالقاهرة يومى الخمس والجمعة ٢٥ و ٢٦/١١/٢٠٠٤، قد أحسوا إحساسى، وإن عبروا عنه بكلمات تبدى الإعجاب والتصالح، فالسائد أن الناس، خاصة من يريدون أن يقدموا أوراقهم إلى دائرة المثقفين للقبول بدرجة «مثقف مبتدىء»، يخشون الطعن فى المسلمات، فإذا كان هناك رصيد متراكم من أعمال متميزة لروچيه عساف أعطته الأحقية فى مكانته، واحداً من أهم رجال المسرح العربى، يكون من الصعب على «المبتدئين فى تذوق الفن» أن ينكروا عليه عملاً من أعماله وإن أصابهم بالملل القاتل حتى وجع الظهر وكتم التنفس.



عـصـام بو خـالد ، فى لحظة بارقـة من لحظات العرض التى أفلتت من سوس الملل

روجيه عساف

الغريب أننى أحسست أن روجيه عساف شخصياً، كان يشاركنى صيحتى من مقاعد المشاهدين، وذلك بصيحة من أحد ممثلى العرض تقول: «هذا العرض يكون أفضل بحذف ثلاثة أرباعه»! وهذا ما أراحنى وشجعنى لأردد بصوت سمعه من يجاورنى: «صدقت والله»!

* * *

الملل، هو السم الهارى لأى عمل فنى. إنه مثل سوس الخشب ينخر البناء الفنى ويحيله «بودرة» ما أن نلمس هيكله حتى يفترش الأرض متهالكا. تقول بعدها والله كان هذا الحطام صندوقا أربيسك فنيا رائع الصنعة والجمال، أو كان مقعدا مريحا، أو تحفة لا تعوض، قل ما تريد: دخلت فيه سوسة النخر فلا حل هناك سوى أن تتخلص منه حتى لا ينتشر الوباء. وللعلم فإن سوس الخشب لا يأكل الخشب الأبيض الرخيص، إنه يستحلى أغلى الأنواع من الزان والأرو وطالع حتى العزيزى.

تقول بطاقة العرض إن «جنينة الصنايع» تأليف جماعى معتمد على مصادر عدة: «جريمة فى البيت» ليوسف سلامة ، و «مسألة هوية» لمحاسن عجم، وتحقيقات ميدانية قامت بها تينا أشقر. وهى تمثيل: حنان الحاج على، وبيرناديت حديب، ومارى بيرناديت صغير، وأنطوان بلابان، وفادى أبى سمرا، وعصام بو خالد. مكانها مدينة بيروت، وزمانها نهاية القرن العشرين، والمناسبة: مجموعة من

الممثلين يقومون بتمارين على مسرحية قوامها جريمة واقعية ارتكبها مجرم متلبس يدعى خليل طه. قام بتقطيع أعضاء الضحية ورميها في أنحاء شتى من «جنينة الصنايع». هذه الحادثة الواقعية، التى لا نعلم متى وقعت بالضبط، تجعل روچيه عساف ومجموعة فرقته يربطون بين الضحية القتيلة، ممزقة الأعضاء وبين مدينتهم بيروت، التى خاضت الحرب اللبنانية وخاضتها الحرب، فرآها روچيه عساف ومجموعته هى الأخرى ضحية مقتولة مقطعة الأوصال وتحرك أشلاءها رافعة معدنية ضخمة، وللتعبير عن هذا الربط أدخلنا المخرج فى ستة منولوجات، مونودرامية، تحملت على عاتق ممثلى العرض الستة، الذين كان عليهم أولا التعبير عن التمرد بوصفهم ممثلين مطلوب منهم أداء أدوار مفروضة عليهم، لا يفضلونها، بمعنى أن يمثل كل ممثل دور ممثل يتمرد- (!)- ثم ينصاعون بقهر الممثل، الذى يؤدى دور المخرج، للعودة إلى أداء أدوار المسرحية المكتوبة والموكولة إليهم. وبين السلاحين لم تتقطع أوصال بيروت والحمدلله، لأن الأوصال التى تقطعت كانت هى أوصال العرض الذى امتلأ بالشجار المفتعل بين تمثيل «التمثيل» وتمثيل «غير التمثيل»، كأننا، كما قال على الراعى منذ أربعين سنة: إحنا ناقصين خيلة!، فإذا كان هذا العرض قد تم تقديمه للمرة الأولى فى بيروت سنة ١٩٩٧ بنجاح وانبهار وحماس، فإن استقبالنا له بالقاهرة عام ٢٠٠٤ لا يمكن أن يظل كذلك.

★★★

إن الأعمال الدرامية، على المسرح وغيره، أصبحت الآن أبرد كثيرا من نشرات الأخبار المصورة التى تتصاعد سخونتها كل دقيقة بـ «نبأ عاجل» يقصم الظهر حقا، ليس بسبب الملل طبعا، بل من وجع الهوان وألم الجزع من قلة الحيلة.

صحيح جداً أن الفن، بمجمله، يصير فى مأزق شديد أمام الأزمنة المتصاعد فيها لهب الأجساد المشوية، وأتربة القرى التى انقلب عاليها سافلها، لذلك كان من الضرورى دائماً أن يهرب الفن إلى الترفيه والتسلية، وإن لم يخلوا من العصبية والتوتر، أو أن ينغمس ميدانيا فى أتون النيران، كما فعل معظم عظماء الكتاب والأدباء وأهل الفنون جميعها الأوروبيون إبان وبعد اشتعال قارتهم بالحربين الأولى والثانية. وكان من المتوقع أن يفرز ذلك الانغماس الحى نتائجه فى تعديل صيغ الشكل لكى يتفادى وطأة المضمون وثقله على النفس المجروحة والملسوعة ولحظات هدوئها المتوجعة.

لا يمكن أن يقبل المجروح والملسوع والمتوجع فنا يسكب على قروحه المزيد، ولا يمكن أن يستقبل غير المحتمل فوق واقعه غير المحتمل. هذا الفنان الذى لا يعى كل هذا فنان فقد بصيرته، واختل إيقاعه، وتسربت رسالته من بين أصابعه.

مع كل احترامى لفنانى العرض من

الممثلين «العباقرة» نعم وعلى رأسهم الفذة «حنان الحاج على»، بكل تأكيد، إلا أننى لم أتواصل مع جهدهم المبذول ، فلقد كان، إلا فى لمحات بارقة، ثرثرة طويلة منهكة امتدت لزمن لم يبد ساعة و٤٠ دقيقة، كما أشارت بيانات بطاقة العرض، بل آماداً وأمتاراً من العذاب اللانهائى، وهذا ما لم أرضه لفنان ذكى وحساس ودقيق مثل روجيه عساف.

★★★

قبل ذهابى إلى عرض روجيه عساف بأيام، كنت قد شاهدت على مسرح قاعة عبد الرحيم الزرقانى، بالمسرح القومى، عرضا ظريفا هو «شريحة وست مسامير»، تأليف وإخراج وتمثيل الفنان البديع سامى مغاورى. ولقد انقسم العرض إلى جزءين، أو حدتين، كل واحد مستقل بذاته، ويمكن دمجهما كأن الثانى معقب على الأول.

والأصح، وعملاً بمقولة على الراعى الخالدة: «إحنا مش ناقصين خيلة»، كنت، ومازلت أفضل لو حذف سامى مغاورى الجزء الثانى تماماً ودمج بعض مقاطعة المناسبة مع الجزء الأول، بحيث لا يزيد العرض على ٤٥دقيقة، أو ٤٠ دقيقة والمسرحية، يمكن أن أطلق عليها «تحقيق درامى» لتجربة واقعية مر بها سامى مغاورى حين كسرت ساقه واضطر إلى دخول واحد من المستشفيات الحكومية. فالمسرحية تحكى ما حدث بتعقيبات وإشارات تستخرج الطريف، من الواقع المؤلم، والمؤلم من المضحك المبكى.

«تحقيق درامى»، مشابه لـ «التحقيق الصحفى» الدال على السلبيات والفاضح للمزيف المتوارى خلف اللافتات الخلابة. بصدق وبدقة وبتلخيص، لملم سامى مغاورى تفاصيل الواقع الذى أدهشه داخل مستشفى يعالج ولايعالج، وينقذ ولا ينقذ، يتزين بالمطلوب والمفروض أن يكون عليه وجوب الحال، وحين يرحل الزائرون المسئولون ومعهم الاطمئنان الكاذب: أن كل شىء كما ينبغى، تنزع إدارة المستشفى عن المرضى كل الحقوق ليتسلطن الإهمال ويعودون كما هم: عرايا وجوعى ومنهوبين.

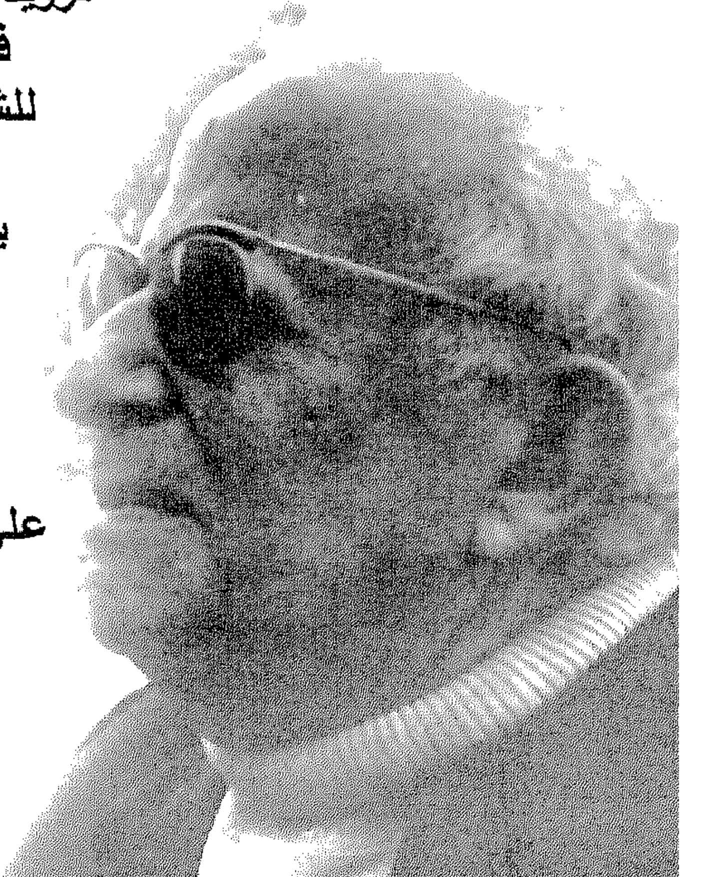
عرف سامى مغاورى الصياغة المناسبة، فلفلف قضيته فى المزاح الجاد وتلامس مع جمهوره - (٤٠ مقعداً تقريبا) فى موافقة التجارب المتشابهة فضحك من ضحك على حقيقة: «إذن فالكل يعرف»!

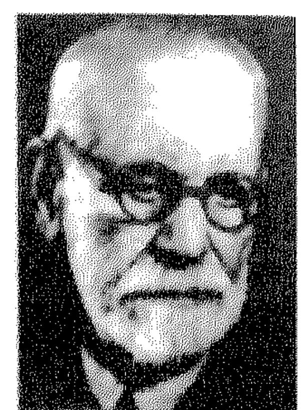
سامى مغاورى شخصية مسرحية غالية، تقدم نفسها بتلقائية واعتزاز وموهبة فطرية فى المزاح يغلفها الحزن غير المتشائم، ويقدم ممثليه بحب وعطاء وحدب ورعاية، وقد اختارهم باقة موهوبة من طلبة الفنون المسرحية، برز منهم: عبد الغفار عنانى، وأحمد هزاع، وأحمد البنهاوى، وأحمد عثمان، ومصطفى حسن، ومحمد درويش. وهذا البروز لبعض الأسماء لا يحرم مجموعة العمل كله من تحية حارة بقدر الشوق إلى المسرح الجاد الذى يؤدى دوره من دون أن يدمى القلب الغارق أصلاً فى لجج الدم والمذابح. ■

الجنس وفرويد في كتابات يحيى حقي

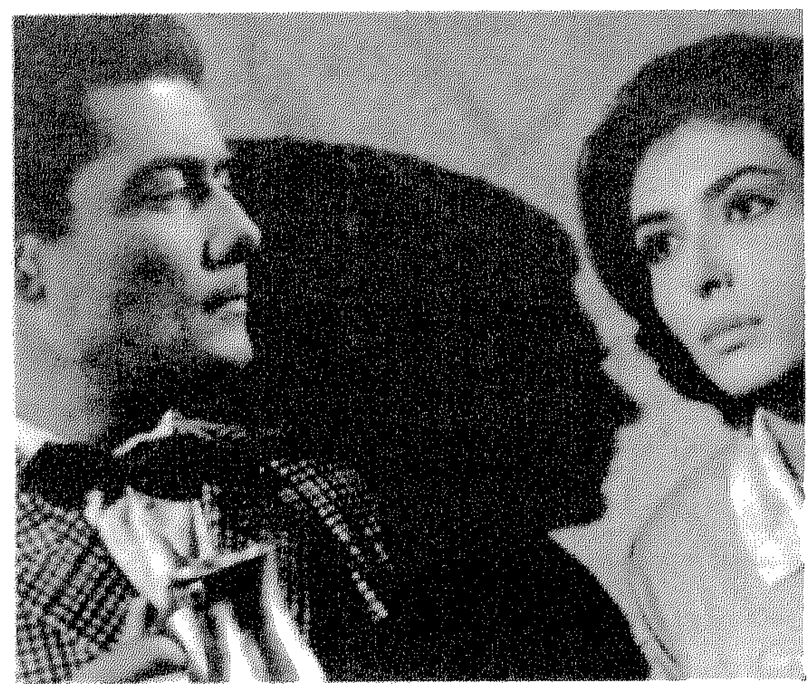
بقلم
مصطفى بيومى

يتمثل الصدام الرئيسى بين بحث يحيى حقى عن النظريات، ومزاجه الذى يستعصى على النظريات فى موقفه من عالم النفس اليهودى سيجموند فرويد. إذا كان علمه جديرا بالاهتمام، فإن يهوديته - عند حقى - مثيرة للشك. ومن ناحية أخرى فإنه عالم جرئ مقتحم. عقل يحيى حقى لا يستطيع إنكار علمه، لكن عواطفه تقف ضد الجرأة والاقتحام والصراحة، وتميل إلى الهمس والحياء. «الستر الجميل» الذى ينشده حقى فى الجنس، يتحطم على صخرة الصراحة القاسية، التى لا تخلو من القبح، عند فرويد.





سيجموند فرويد



صورة من فيلم قنديل أم هاشم

ما من مرة يأتى فيها اسم فرويد فى كتابات حقى إلا ويقترن بالإشارة إلى يهوديته، وقد كان يحيى، معبرا فى ذلك عن الشخصية المصرية المتسامحة مبرأ من عداء اليهود إلى أن خيمت سحب الصهيونية ووقعت كارثة فلسطين، فتغير موقفه كثيرا.

فى العشرينيات من القرن العشرين، وقبل أن يستفحل خطر الصهيونية، عمل يحيى حقى عند أحد المحامين اليهود فى مدينة الاسكندرية، ويعلق على فترة عمله هذه قائلا: هو من اليهود، وكانت هذه الكلمة لا ترن فى أذنى ذلك الوقت رنين أجراس عربة المطافئ أو الإسعاف، كنا فى غفلة تامة - بفضل سذاجة زعمائنا السابقين - عن الخطر الداهم رغم النذر السافرة والطلائع البينة، أكان هذا إيذانا من القدر بأن خطوتى الأولى تجمعنى بهذا الجنس العجيب من الناس الذى سيقابلنى شبحه فى مستهل كهولتى فينكبنى ويؤذينى أشد الأذى ويقلب كل المبادئ الجميلة التى اعتنقتها بحب وغرام إلى أضداد لها! «خليها - ٧٠».

يحيى حقى برئ من رذيلة التعصب الدينى، لكنه يمارس رد الفعل على التعصب الدينى والسياسى لليهود. إسرائيل دولة مؤسسة على الاعتداء والسلب والنهب والاغتيال وقتل الشيوخ والأطفال، ويتساءل حقى: كيف يمكن أن تكون الجريمة دعامة قيام دولة؟ هل عدنا إلى عالم يتحكم فيه العنصبجية والبلطجية؟.

لكن عداء يحيى حقى يصل إلى حافة التطرف أحيانا، فيعلى من شأن اليهود، دون أن يقصد، ويقر بخصوصيتهم إلى الدرجة التى يتصور فيها أنهم روجوا للأنظمة الديمقراطية وتحمسوا لها فى إطار تآمرى: يخيل إلى أن اليهود هم الذين عملوا، أكثر من غيرهم، على الترويج لهذه الأنظمة الجديدة بدعوى نصرة الديمقراطية والعدالة والمساواة. وما فعلوه فى فرنسا وغيرها من دول أوربا المسيحية فعلوه أيضا فى تركيا الإسلامية. لا عجب أن النائب الذى سلم السلطان عبدالحميد قرار عزله توطئة لإنشاء برلمان ديمقراطى كان رجلا يهوديا. «عطر – ١٤».

هل يمكن أن يصل رد الفعل على التطرف اليهودى إلى هذه الدرجة من التطرف المضاد؟! ألم يخطر على بال يحيى حقى أن التفسير التآمرى يمكن أن يسئ إلى الديمقراطية كطرح إنسانى إلى حياة أفضل، أكثر مما يسئ إلى اليهود، الذين لا يعيبهم أن يبحثوا عن الأفكار والنظم السياسية التى تعاملهم معاملة البشر؟!

العلاقة بين اليهود والجنس

وينعكس هذا الموقف على رؤية حقى للعلاقة بين اليهود والجنس فهو يعتقد أن اليهود أكثر انحلالا من غير اليهود، ويرى أن كتابهم المقدس ملئ بقصص يندى منها الجبين! وفى تعليقه على يوميات عباس علام التى يحكى فيها عن غرامه بالممثلة المصرية اليهودية فيكتوريا موسى، يرصد ظاهرة سيطرة الممثلات اليهوديات على المسرح المصرى فى تلك المرحلة التاريخية المبكرة، ويرد السيطرة إلى أسباب تتعلق بـ «الطبيعة اليهودية»: ذلك أن «شعب الله المختار!» يفتخر أيضا على بقية الشعوب بأنه يتلقى الغريزة الجنسية بحمد وشكر، ويؤديها بأمانة وإخلاص، وأنه لا يرى فى أدائها شيئا من العقد وأنواع الكبت والحياء الكاذب. إن كتابهم المقدس نفسه يزخر بقصص تتسم بغلوها فى اللذة الحسية، وكل من يمدح لك نشيد الأناشيد دون أن يبصرك بما فيه من هذا الغلو فقد غشك. «مدرسة – ٥٤».

دفاع الكاتب الكبير عن فيكتوريا موسى، بعد الهجوم العنيف الضارى، بعيد عن الإقناع، والقول بالموقف اليهودى الخاص من الجنس تأكيد لاختلاف اليهود، وهذا هو جوهر العقيدة الصهيونية التى يعاديها يحيى حقى!

الذى يعنينا هنا أن موقف حقى، الذى لا يفصل بين اليهودية والصهيونية، قد أثر على موقفه من فرويد اليهودى. هل كان يظن فى أعماقه أن عالم النفس الكبير ضالع فى مؤامرة يهودية لإفساد العالم وتشوية البشر؟!. وفضلا عن يهودية فرويد، فإن موقف حقى منه يمكن رده إلى طبيعة الأفكار الجريئة

والتحليلات المقتحمة لأغوار النفس البشرية التى تميز العالم النفسى الكبير، ثمة انشطار يشكل موقف يحيى حقى: قسم منه، وهو الذى يقر بأهمية الجنس وضرورته فى حياة الإنسان، لا يملك إلا الإعجاب بشجاعة فرويد وإضافاته الرائدة، والقسم الثانى الذى لا يطيق الابتذال ويكره الفجاجة والمباشرة وانعدام الحياء، ويحب الستر والرقة، يسئ الظن به ويهرب منه.

موضوعية فرويد وعلميته لا تنفى أنه هدم أحلاما ذاتية كثيرة لحقى، الذى يحن كثيرا إلى طفولته ويعيش على ذكرياتها، وإذ بفرويد يبخر الأحلام ويكتشف فى الطفولة عالما جديدا مختلفا: وكأنما فجأة سقط على الأرض فامتد ظل رهيب لطبيب يهودى من فينيا اسمه فرويد، طلع يقول لكل واحد منا حاسب حاسب، على عينيك غشاوة قديمة، لقد عمد لى القدر أن أكون أنا أول من يفتحهما لك، لترى الحق، إنك واهم يا عزيزى، إن عهد الطفولة الذى تحسبه مثالا للبراءة والطهر، ما هو إلا عهد انبثاق الغرائز فى أعنف صورها وأشدها بدائية. إن هذا الطفل يعشق أمه، يتمنى موت أبيه إن مصه لإبهامه الذى بنى فى قلبك الحب والحنان ما هو إلا نشاط جنسى، إذا أردت أن تقابل وجها لوجه غريزة التحطيم، حب الأذى، والعدوان، فى أصدق صورها وأشدها عنفا، فتأمل مسلك الطفل. «فى السينما – ٦٧».

الغضب من فرويد

لا يقوى حقى على دحض المقولات الفرويدية القاسية التى لا يستسيغها وتتمثل حيرته فى عبارة دالة تكشف عن اقتناعه بمعقولية تفسيرات فرويد، وضيقه بها فى الوقت نفسه: جزى الله فرويد، لا أدرى هل أقول خير الجزاء أو شر الجزاء، فحين قرأته وجدت تفسيرات معقولة لأحلام لى كثيرة فى صباى وشبابى. إنها كما قضت على الغموض قضت أيضا على جانب كبير من سحر هذا العالم الخفى المجهول الذى عرفته فى طفولتى. «كناسة – ٨٢».

هذا هو ما نعنيه بالانشطار والازدواجية. علم فرويد قضى على كثير من الغموض، لكن قسوة العلم قضت – أيضا – على كثير من السحر المرتبط بالغموض، ما أجمل تعلق الإنسان بالسحر، حتى لو كان وهما!.

لا يخلو فهم حقى لفرويد من الغضب والحزن فقد أشهر العالم مبضعه بلا رحمة، وقلب علم النفس رأسا على عقب: جزم لنا بأن الغريزة الجنسية هى مهماز الحياة، وأن كبتها هو مرجع لكل العلل، فى البدن أو السلوك، وأنها تتجلى فى الطفل وهو يتبرز وهو يلقم ثدى مرضعته، وأن هذا الطفل عاشق لأمه، كاره من شدة الغيرة لأبيه، تتبع سير

العظماء والتقط من أحلامهم أو عابر كلامهم ربما كلمة واحدة أتاحت له فيما يزعم كشف عوراتهم وعاهاتهم المخبوءة وفضح شذوذهم المستور. هذا الرجل المنفوخ أمسك بمبضع لا يرحم لتشريح القلوب والإطلال على كل العواطف الإنسانية. «من باب – ٨٢».

استحق فرويد، بالانقلاب الشامل الذى أحدثه، أن يحتل مكانا فى رصد حقى لأهم الظواهر التى عاصرها فى رحلة عمره، لكن مكانته تأتى فى سياق منفر. يقول حقى، مؤرخا لما مر به من أحداث جسام فى حياته القصيرة الطويلة: وفى علم النفس عاصرت «بافلوف» و«فرويد»، وأصبح الإنسان عند الأول آلة ميكانيكية، وعند الثانى سراديب مخيفة، يضاجع فيها الابن أمه. «ناس – ٧٦».

لا يعرف فرويد شاعرية يحيى حقى وهو يتحدث عن ليوناردو دى فينشى. إذا كان حقى يتحدث عن قيثارة المساء ولوحة الجوكندا التى رسمها فى ساعة الأصيل، فإن فرويد يفضح بلا شاعرية: ليوناردو منطو على نفسه، معذب، هتك «الفضاح» فرويد سره وأطلعنا على تمزقات روحه «فى محراب – ١٧١».

وصف «الفضاح»، وهو توصيف أخلاقى يقر بالمهارة ضمنا، لا يتعارض مع تصدى يحيى حقى لترجمة مقال طويل مهم، يتجاوز الخمسين صفحة، كتبه فرويد عن مايكل أنجلو. «نفسه – ١٩٣ : ٢٤٦».

ذلك أن الرفض الأخلاقى لا يبرر إهمال ما يستحق الاهتمام.

وإذا كان فرويد قد فضح ليوناردو دى فينشى، فإن حقى يجد كثيرا من الراحة فيما كتبه اليهودى اميل لودفيج عن اليهودى فرويد. إنه يترجم مقال لودفيج عن صورة فرويد، ثم يعلق متشفيا: هذه هى صورة فرويد كما رسمها اميل لودفيج، يا لها من صورة بشعة مخيفة، أحسست بعدها بالغثيان والاختناق فطلبت فصا من ليمونة ونسمة هواء محملة بزفير أناس ترطبت قلوبهم وتأثرت بالألم واللذة وعرفوا ما هو الضحك كما عرفوا ما هو البكاء. «من باب – ٨٤».

توصيف ظاهرة الابتذال

لقد وصل حقى إلى مبتغاه! لا يهم علم فرويد طالما أنه مشيد على أطلال إنسانيته. ما أجمل أن يكون المرء إنسانا يعرف الألم والبكاء معرفته اللذة والضحك، أما فرويد فهو كتلة من العقل البارد تثير الغثيان!.

ويتجاوز الأمر مرحلة التشفى إلى تحميل فرويد ما لا يحتمل وما لا ذنب له فيه، أهو المسئول عن إسفاف باب بريد القراء فى بعض الصحف المصرية؟ إن لم يكن مسئولا وحيدا، فهو يتحمل على الأقل عند حقى جزءا كبيرا من المسئولية: أنظر كيف كان باب أسئلة القراء فيما مضى، وانظر اليوم حاله،



بعد أن شاعت نظرية فرويد والتحليل النفسي.. أخ يفسق بزوج أخيه، وامرأة تخون زوجها بلا سبب وتسأل المشورة، إلى غير ذلك من الفضائح والمخازي تنشر على الناس.. «عنتر - ١٩٣».

لا خلاف مع يحيى حقي على توصيف ظاهرة الابتذال المميز لبريد القراء في كثير من الصحف المصرية، وهو ما ينال خيرا كبيرا من اهتمام الكاتب الرائد في عديد من مؤلفاته، لكن الاختلاف حول دور ومسئولية فرويد، أهو الذي أوجد الفسق بالمحارم والخيانة الزوجية والفضائح والمخازي الجنسية؟ أهو الذي دفع الصحف والمجلات إلى الاهتمام بنشر الرسائل المسفة المبتذلة؟

يحتل فرويد ركنا دائما في عقل يحيى حقي، وهذا ما يدفعه إلى استدعائه أحيانا بلا مناسبة، في سياق الحديث عن محمد توحيد السلحدار، يقول حقي: لا أريد أن أسير في ركاب فرويد (يقال إنه أصبح مودة قديمة) وأزعم أنه كان يعاني من مركب نقص هو سر رغبته الجامحة في التفوق بالعقل وقد خذله الجسد، في الصالون، في الكوشة، ربما في الفراش أيضا. «ناس - ١٧٤».

يمثل فرويد هاجسا دائما يستدعي المقاومة، وعلى الرغم من رغبة حقي المعلنة ألا يسير في ركابه، فإنه يلجأ إلى منهجه ولا يبتعد موضوعيا عن ركابه!.

لا ينكر حقي تأثره بفرويد، فهو يشير إلى ولعه بالدراسات والتحليلات النفسية: وتأثرت بآراء فرويد وأدلر «كناسة - ٤٩».

ويتجسد هذا التأثر بشكل مباشر في قصة مبكرة نشرت سنة ١٩٢٨، ففي متن القصة نجد فقرة تصف الأعمى السارق من منظور الصبي العليل:

«.. وأخذ يقول: إن من لا يرى النور، لا يفهم قط ما فهمه هذا الأعمى وإنما هي غريزة التخفي التي تمتلك الحي عندما يجد نفسه في موقف يتنافى مع ما يعترف به المجتمع من تقاليد وأوامر.. فالطفل يهرب وراء الجدار ليأكل يتلهف حلاوته المسروقة، ويأكل الحلاوة الحلال أمام والديه ببطء ودلع..» «الفراش - ١٥٩».

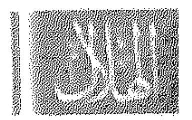
ويأبى حقي إلا أن يزيد الأمر شرحا، فيقول في الهامش: يمكن وضع هذه الغريزة ضمن النوع الأول من تقسيم فرويد وهو الخاص بغريزة الهرب وما يتفرع منها من غريزة حفظ النفس والهرب من الخطر. «نفسه - ١٥٩».

يحيى حقي الشاب لا يتقن توظيف ثقافته فيفسد فنه القصصي بالإقحام المباشر للتحليل النفسي، ويستخدم لغة لا تتوافق مع شخصية مريضة عديمة الثقافة، ويصل الخلل إلى ذروته في الهامش الجاف الذي يقترب من هوامش المقالات والدراسات العلمية! ■



بقلم
د. نبيل حنفى محمود

عندما بزغت شمس السادس والعشرين من شهر ديسمبر الماضى، كان ذلك إيذانا بمرور ثلاثين عاما على رحيل الموسيقار : فريد الأطرش (١٩١٥ - ١٩٧٤ م) عن دنيانا، جاء رحيل فريد الاطرش بعد مشوار فى عالم الغناء العربى امتد لقرابة نصف القرن، وهو مشوار تأسس على الكفاح والصبر والصدق وتوّج بالشدو الجميل وحب الملايين، ولم يكن ذلك المشوار خلوا من المعارك والمنافسات ، فمنذ معركته الأولى والمصيرية التى خاضها فى مطلع ثلاثينيات القرن الماضى أمام لجنتى إختبار الأصوات فى معهد الموسيقى الملكى وفى محطة الإذاعة الحكومية ، وحتى معركته الأخيرة مع العندليب الأسمر عبدالحليم حافظ (١٩٢٩- ١٩٧٧ م) ، خاض فريد الأطرش أكثر من معركة دفاعا عن مكانته وعما آمن به من أفكار فى الموسيقى والحياة، وهى معارك تغيرت الأطراف المناوئة له فيها بين أفراد من أهل الغناء والصحافة وحتى البعض من أهل البيوتات الراقية .



فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ .. بالأحضان



وبالرغم من ذلك. فإن أيا من هذه المعارك لم ترق إلي ما وصلت إليه معركته الأخيرة مع العندليب، لأن هذه المعركة بما تضمنته من أحداث وتراشقات وتحديات، قد بلغت في تاريخ الغناء المصري والعربي مبلغا لم تبلغه معركة بين أقطاب الغناء.. لا قبلها ولا بعدها، إذ يكفي للتدليل علي ذلك القول بأن كلمة النهاية فيها خرجت من فم الزعيم جمال عبدالناصر، لذا. فإن المرء لا يجد بين معارك أهل الغناء في العصر الحديث معركة جديرة باسم «أم المعارك».. مثل معركة البلبل والعندليب!

جذور تاريخية

لم يكن أكثر من إستمعوا إلى حلقة برنامج «ركن الأغاني الخفيفة» فى السادسة من مساء الأثنين ٥ مارس عام ١٩٥١ م تفاؤلا، ليعتقد أن المطرب الجديد عبدالحليم شبانة الذى قدمه البرنامج للمرة الأولى، سوف يقفز وخلال سنوات قلائل من هذا الركن المخصص لتقديم الهواة والأصوات الجديدة، ليتبوأ مكانا مميزا فى الصف الأول لكبار مطربى ومطربات العصر الذهبى للغناء المصرى والعربى، كانت الأغنية الأولى التى قدمت صوت عبدالحليم شبانة لمستمعى «ركن الأغانى الخفيفة» من إذاعة القاهرة ، هى أغنية «ذكريات» التى نظمها محمود عيد ولحنها عبدالحميد توفيق زكى، ثم توالت أغنيات القادم الجديد إلى عالم الغناء المصرى.

وعندما كان عبدالحليم حافظ ينحت طريقه للشهرة فى صخور المعاناة، بما قدم من أغنيات فى شهور البداية وما تلاها من شهور حتى قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢م. كان فريد الأطرش قد انتهى - آنذاك - من تدعيم مكانه على قمة الغناء المصرى كهرم غنائى ثالث، بجوار أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب ، ذلك المكان الذى تأسس بمجموعة من الأغنيات الرائعة التى تغنى بها فى الثلاثينات من إذاعة القاهرة ، وتدعم بعد ذلك بسلسلة من أجمل وأهم ما شهدت السينما المصرية من أفلام استعراضية وغنائية. آنذاك.. كان فريد الأطرش قد أطلق أقوى وأشهر أغنياته على الاطلاق، ويكفى ان نذكر هنا أن الجمهور الذى كان يتساءل فى مساء ١٩٥١/٦/٩ عن الصوت الجديد الذى تغنى بأغنية «شكوى» من ألحان كمال الطويل ، ذلك الجمهور كان يعرف ويترنم قبل سنوات بأغنيات فريد الخالدة مثل : أول همسة – الربيع – حبيب العمر – ياللا سوا – ويازهرة فى خيالى وغيرها.

الاقتراب من الكبار

انطلق صوت القادم الجديد إلى عالم الغناء بأغنيات عبرت – وبصدق – عن لهجة غنائية جديدة، وهى أغنيات قدمت عبر ميكروفون الإذاعة مثل: لقاء – ظالم – والأصيل الذهبى، وتوجت بأغنية «صافينى مرة» التى تغنى بها عبدالحليم حافظ لأول مرة من الإذاعة المصرية في صباح الخميس ١٦ أبريل عام ١٩٥٣، وكانت بمثابة كلمة السر التى فتحت له أبواب الشهرة والجماهيرية .

منذ أن استتب الأمر في مصر لثورة يوليو، عملت أغنيات عبدالحليم حافظ الوطنية على دعم إنتشاره الجماهيرى واقترابه من دائرة كبار رجال الثورة، وقد بدأ عبدالحليم أغنياته الوطنية بعد حوالى شهر من قيام الثورة بأغنيتيه: «تعيشى حرة يا بلادى» و«ارفعوا الأعلام»، والأغنيتان من تأليف سمير محبوب وألحان محمد الموجي. وجاءت إذاعتهما الأولى فى ١٩٥٢/٨/٢٦م ، بعد ذلك

عندما كان عبدالحليم حافظ ينحت طريقه للشهرة، كان فريد الأطرش قد انتهى من تدعيم مكانه على قمة الغناء المصرى كهرم غنائى ثالث بجوار أم كلثوم وعبدالوهاب

وعندما أرسى عبدالحليم دعائم شهرته، قدم فى شهر يناير من عام ١٩٥٧م - وبعد انحسار العدوان الثلاثى على مصر - أربعة من أجمل أغنياته الوطنية، كانت هذه الأغنيات وبترتيب إذاعتها هى : «إنى ملكت فى يدى زمامى» من شعر مأمون الشناوى وألحان كمال الطويل - «الله يابلادنا» من نظم أنور عبدالله وألحان محمد عبدالوهاب - «إحنا الشعب» من تأليف صلاح جاهين وتلحين كمال الطويل و«ثورتنا المصرية» من كلمات مأمون الشناوى وألحان رءوف ذهنى. ومنذ عام ١٩٥٧ م.. واكبت أغنيات عبدالحليم الوطنية مناسبات الثورة ومعاركها، حتى غدا - وبرأى الكثير من النقاد والجماهير - صوت العهد الجديد والناطق الغنائى باسم ثورة يوليو ١٩٥٢ م.

لم تكن علاقة صوت فريد الأطرش وشخصه بثورة يوليو ١٩٥٢م منذ نجاحها بأقل مما رصد عن علاقة عبدالحليم حافظ بها، فقد كان فريد الأطرش هو صاحب أول نشيد - وليس أغنية أو طقطوقة - قدمته الإذاعة عن الثورة بعد نجاحها، وهو نشيد (الشباب) الذى اشترك فى صياغته كل من الشاعرين الكبيرين. محمود بيرم التونسى ومأمون الشناوى، وقد تغنى فريد بهذا النشيد من الإذاعة فى مساء السبت ٢٧ سبتمبر عام ١٩٥٢م ثم توالت اسهاماته الغنائية فى أعياد الثورة ومناسباتها .

بدايات الصراع

عندما بدأ نجم عبدالحليم فى الالتماع، كان محمد عبدالوهاب قد اعتزل الغناء وقتها أو كاد. وأدرك عبدالوهاب بذكائه أن مستقبل الغناء العربى سوف يشهد للقادم الجديد دورا مرموقا، فعمل على إحتوائه بالتلحين له وإدخاله شريكا فى شركة للانتاج الفنى، وقد أفصح عبدالحليم عن رأيه فى محمد عبدالوهاب فيما رواه عنه رفيق مشواره وصديق عمره مجدى العمروسى للصحفى عادل البلك فى مجلة «أكتوبر» تحت عنوان «حكايات مجدى العمروسى مع رفيق الشارع الطويل» ، حيث ذكر العمروسى ما يلى: «كان عبدالحليم يقول دائما أنا لم أضع فى اعتبارى فى يوم من الأيام أن الاستاذ محمد عبدالوهاب منافسا لى، كنت دائما اعتبره الأستاذ والمعلم» (أكتوبر. العدد ٨٤٩ - ١٩٩٣/١/٣١م - ص ٤٠ : ٤١) ، ثم يكمل العمروسى اعترافات عبدالحليم حول شعوره بالمنافسة فيقول: «أما فريد الأطرش فهو المنافس الحقيقى لى فى الغناء، وهو منافس قوى وله جمهوره العريض فى مصر وفى البلاد العربية». فولد ذلك الشعور صراعات بعضها خفى وأكثرها ظاهر، بين النجم الصاعد والنجم المخضرم الذى تبوأ مكانه عند قمة الغناء المصرى قبل ما يقرب من عقدين من الظهور الأول للمنافس الجديد، وليس هناك ما هو أدل على وجود هذه الصراعات مما ورد فى موضوع : «مع النغم الحزين من قبل سفره»، والذى قدمته مجلة «الاذاعة» فى عددها رقم (١٢٥٨) الصادر فى ١٩٥٩/٤/٢٥م . يحكى الموضوع ما حدث فى حفل وداع نخبة من أهل الفن لعبدالحليم قبل سفره للعلاج فى ألمانيا، إنعقد الحفل فى نادى الفرقة الماسية وظللته مشاعر الود والزمالة، فكان

مما قاله محرر الموضوع فى ثناياه الفقرة التالية «فريد الأطرش الذى حاول الكثيرون أن يوقعوا بينه وبين عبدالحليم. ونسجوا على لسانه الأقاويل.. ليتهم جاءوا ليروا والدموع الصادقة تجول فى عينيه، وهو يمسك عوده ويغنى لعبدالحليم : سافر مع السلامة» ، إن الصياغة النافية للخبر لم تصمد كثيرا فى مجال تكذيب ما تردد عن الصراع الخفى، والمعلن بين النجمين حيث لم يمض كثير من الزمن على نشر هذا الموضوع فى مجلة «الإذاعة» المصرية، حتى تصاعد الحديث عن خلافاتهما وتجاوز سهرات الفنانين ومحافلهم ليصل إلى الصحف العربية خارج الحدود المصرية، ومن ذلك الحديث الذى أدلى به فريد الأطرش للصحفي هاني طعان ونشر بعدد ١٧ سبتمبر عام ١٩٦٢م من صحيفة «الراصد» اللبنانية ، هاجم فريد فى حديثه هذا الموسيقار محمد عبدالوهاب وتلامذته بدءا من محمد أمين وحتى عبدالحليم حافظ، وذلك بدعوى أنهم يناصبونه العداء ويشيعون أنه شامى وليس مصرى، فجاء رد عبدالحليم سريعا فى شكل حديث أدلى به لمجلة «الرأى العام» اللبنانية، قدم الحديث تحت عنوان «مع عبدالحليم حافظ.. وجها لوجه» فى عدد المجلة الصادر فى ٢٥ أكتوبر عام ١٩٦٢م، وعندما سئل عبدالحليم فى الحديث عمن يأتى بعد محمد عبدالوهاب فى ميدان التلحين، فإنه أجاب قائلا: كمال الطويل ومحمد الموجى ، فسأل محرر الحديث عبدالحليم وهو مندهش لإجابته : وفريد الأطرش؟ فرد عبدالحليم قائلا : بعد كمال الطويل ومحمد الموجى. يأتى هو والسنباطى والشريف .. إلى آخره !، وامتلأ ما تبقى من حديث عبدالحليم لمجلة «الرأى العام» بالغمز واللمز والتجريح فى فريد الأطرش وأعماله.

لقاء لم يكتمل

تواصلت المناوشات بين النجمين فى السنوات الأولى من عقد الستينيات. مما جعل البعض من أصدقائهما يرتب لنزولهما ضيفين على إحدى حلقات البرنامج الإذاعى الشهير «على الناصية» وفى لقاء مفتعل لكليهما مع السيدة آمال فهمى مقدمة البرنامج أمام مبنى الإذاعة، وبعد العناق والقبلات.. أكد النجمان وشهدت على أقوالهما آمال فهمى أن الأمور بينهما على خير ما يرام. وأن ما يشاع عن خلافهما أو صراعهما.. إنما هو كيد كائد او افتراء حاسد ، وامتدادا لتلك المواقف الإعلانية التى لا تعبر عن حقيقة ما يدور بين النجمين، نزل عبدالحليم حافظ فى أحد أيام شهر رمضان لسنة ١٣٨٦ هـ «ديسمبر ١٩٦٦م» ضيفا على برنامج «أوافق وأمتنع» الذى كانت تقدمه الإذاعية سناء منصور من إذاعة الشرق الأوسط ، وعندما سئل عبدالحليم عن رأيه فى امتناع الموسيقار محمد عبدالوهاب – فى حلقة سابقة من البرنامج – عن اجابة سؤال حول الفرق بين صوتى فريد الأطرش وعبدالحليم حافظ، أجاب عبدالحليم بلباقة وذكاء : «دى دبلوماسية من الأستاذ عبدالوهاب، لأننا إحنا الإثنين أصحابه، وامتنع عشان ماحدش فينا يتضايق، إنما أنا بارد على هذا السؤال بقولى أن صوت فريد الأطرش أحسن وأجمل من صوتى بكثير» ، وجاء رد فريد على مجاملة عبدالحليم سريعا وفى حلقة تالية من نفس البرنامج، حيث أجاب عن سؤال حول أمنياته لعام ١٩٦٧ بقوله : «إنها أمنية قديمة عندى، كانت ولا تزال أعز أمنية وهى أن يغنى عبدالحليم حافظ لحنا من ألحانى، ويظهر هذا اللحن على



> لم تكن علاقة صوت فريد الأطرش وشخصه بثورة يوليو ١٩٥٢م منذ نجاحها بأقل مما رصد من علاقة عبدالحليم حافظ بها

الناس عام ١٩٦٧» ، وعندما سمع عبدالحليم حديث فريد في إذاعة الشرق الاوسط ، اسرع الى منزل فريد ليعانقه قائلا: أنا سمعتك .. وبكيت وأنا باسمعك.. وأنا تحت أمرك ، فامتشق فريد عوده وأسمع عبدالحليم مطلع أغنية «زمان ياحب» التى كان قد انتهى من تلحينها، ثم أتبعه بمذهب أغنية «ياويلى من حبه» التى لم يكن قد فرغ من تلحينها بعد ، وخرجت الصحف والمجلات فى الأسبوع الأخير من شهر يناير عام ١٩٦٧م لتزف للجمهور أنباء اللقاء المنتظر.

عندما تناثرت الهمسات والأقاويل بعد شهر من لقاء النجمين حول مآل اللحن المنتظر ، كتب حسين عثمان في العدد رقم «٨٢٣» من مجلة «الكواكب» الصادر فى ١٩٦٧/٥/٩ عن وجود خلاف بين فريد وعبدالحليم ، وأشار الكاتب الى أن هذا الخلاف قد يتسبب فى إجهاض حلم لقاء صوت عبدالحليم بألحان فريد ، جاء رد عبدالحليم على ذلك سريعا ، حيث نشرت مجلة «الكواكب» على الصفحة الثالثة من عددها رقم (٨٢٤) مقالا لعبدالحليم حمل عنوان: «أنا وفريد الأطرش» ، انكر عبدالحليم فى مقاله وجود أى خلاف بينه وبين فريد، وقال أن فريد أجرى بروفة واحدة مع الفرقة الماسية لجزء من أغنية «زمان يا حب» وانه اعتذر عن حضور البروفة لارتباطه بعمل آخر فى نفس اليوم، وتصادف أن إلتقى الصحفى اللبنانى المعروف جورج الخورى بعبدالحليم ذات صباح فى شرفة بالدور الثامن من فندق شبرد - القاهرة، كان ذلك فى مطلع شهر أبريل من عام ١٩٦٧، حيث أكد عبدالحليم فى لقائه بالصحفى اللبنانى على عدم وجود خلافات بينه وبين فريد، وأقسم عبدالحليم لجورج الخورى - عندما كانت أشعة الشروق الساحرة تغمر معالم القاهرة النائمة - بكل عزيز وغال، على أنه سوف يتغنى بإحدى أغنيات فريد فى خلال شهرين!!

الرحيل الى بيروت

قبل أن يهجم صيف عام ١٩٦٧م على القاهرة بأيام قليلة ، حل فريد الأطرش بفندق بريستول - بيروت فى ١٩٦٧/٤/١٣ قادما من القاهرة، كانت بيروت فى ذلك الصيف ملتقى كثرة من الفنانين المصريين مثل محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وغيرهم، وعندما انقشع غبار الحرب بعد التاسع من يونيو فى ذلك العام، تساءل الناس فى القاهرة أين محمد عبدالوهاب وفريد الأطرش من المعركة ؟، كان عبدالحليم قد قفل عائدا الى القاهرة قبل الحرب بأيام، حيث انهمك مع بليغ حمدى وآخرين فى تسجيل أغنيات حماسية قبل الخرب وبعدها، بينما شارك كل من عبدالوهاب وفريد فى موجة الأغنيات الحماسية المصاحبة لحرب الخامس من يونيو، بأغنيات سجلاها فى بيروت وأذيعت من كل الإذاعات العربية، حيث لحن عبدالوهاب وغنى أنشودة «حى على الفلاح» بينما قدم فريد للمعركة نشيدين هما: «يوم الفدا» و«يابلادى».

عندما عاد محمد عبدالوهاب الى القاهرة قبل حلول فصل شتاء «١٩٦٧ - ١٩٦٨» ، بدت إقامة فريد الأطرش ببيروت وكأنها هروب مما غشى أجواء القاهرة من مشاكل وصراعات، كانت المشاكل بسبب

ما اعترى صناعة السينما من ركود فى أعقاب قرارات التأميم فى يوليو ١٩٦١، وكانت الصراعات التى بدأت فى الثلاثينيات مع أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب، قد بلغت مع عبدالحليم حافظ درجة من الحدة والحساسية غير مبررة أو مألوفة. يضاف الى ذلك أن ثمة أجهزة فى الدولة كانت قد بدأت تتحرك ضد أهل الغناء ، وعندما طار فريد الأطرش من بيروت إلى باريس فى مطلع شهر مارس من عام ١٩٦٨، ليحصل على توقيع الفنانة الكبيرة : فاتن حمامة على عقد بطولة فيلمه التاسع والعشرين: «الحب الكبير» ، لم يعد هناك شك لدى الجمهور والنقاد فى أن فريد قد ترك ساحة الغناء فى القاهرة لعبدالحليم ، وانه - أى فريد - قد آثر هدوء العيش والانتاج فى ربوع لبنان المزدهرة فى تلك الأيام.

العودة الوسام

عندما هبطت طائرة شركة طيران الشرق الأوسط القادمة من بيروت بمطار القاهر ظهر الخميس ١٩٧٠/١/٢٩، كان فريد الأطرش بين مستقبليها حيث وجد فى استقباله جمع من الجمهور والأصدقاء لايكاد يصدق عودته ، بعد أن ملأ اليأس قلوب محبيه من المصريين لطول إقامته ببيروت التى امتدت لنيف واثنين وثلاثين شهرا، ولكنه عاد لتتلألأ أضواء شقته الكائنة بالدور العاشر فى العمارة رقم ٧٦ بشارع النيل بالجيزة والشهيرة بعمارة فريد الأطرش، فتنعكس تلك الأضواء على صفحة النيل الخالد مصحوبة بأنغام تجارب الفرقة الموسيقية فى شقته على ألحان عدة بدأ فى تسجيلها لنفسه ولغيره من المطربين والمطربات، وكانت قصيدة «لست وحدك» التى نظمها عبدالجليل وهبى هى أول ما أذيع من هذه الألحان، فقد أذيعت هذه القصيدة الوطنية التى شدت بها المطربة فايزة أحمد لأول مرة من إذاعة القاهرة فى ٩ مارس عام ١٩٧٠م

بعد الإذاعة الأولى لقصيدة «لست وحدك» بخمسة أيام. انطلق صوت جرس التليفون فى شقة فريد الاطرش صباح السبت ١٩٧٠/٣/١٤م ، كان المتحدث الذى ايقظ فريد الأطرش مبكرا - على غير عادته - هو السيد صلاح الشاهد : كبير الأمناء برئاسة الجمهورية ، تضمن حديث صلاح الشاهد التليفونى مفاجأة لم تكن تخطر لفريد ببال، كانت المفاجأة هى إنعام الرئيس جمال عبدالناصر عليه بوسام الاستحقاق من الطبقة الأولى، وفى صباح اليوم التالى - الأحد ١٩٧٠/٣/١٥م - دخل فريد الى مكتب كبير الأمناء بالقصر الجمهورى، وقد أعاده التألق والفرح عشر سنوات الى الوراء، كانت براءة الوسام التى أمسك بها فريد وصلاح الشاهد أمام عدسات المصورين تقول: «من جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة الى الموسيقار فريد الاطرش .. تقديرا لحميد صفاتكم وجليل خدماتكم للموسيقى، قد منحناكم وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى، وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذانا بذلك.

أم المعارك!

أحدث تكريم الزعيم جمال عبدالناصر لفريد الأطرش صدى طيبا فى المجتمع المصرى، تمثل ذلك الصدى فى تعدد مظاهر الاحتفال باهداء ذلك الوسام اليه. وبالرغم مما كانت تعانيه مصر من ظروف احتلال سيناء بعد نكسة يونيو ١٩٦٧م، فقد اتخذت تلك المظاهر شكل كتابات صحفية وحفلات لهيئات ومؤسسات مثل معهد الموسيقى ونادى الزمالك وجمعية



أحدث تكريم الزعيم جمال عبد الناصر لفريد صدى طيبا ولم يكن هناك سوى شخص واحد أظهر مشاعر مغايرة.. كان ذلك الشخص - وللأسف - هو عبد الحليم !!

الشبان المسيحيين والفرقة الماسية . وفى حفل معهد الموسيقى الذى إنعقد فى سرادق أقيم بحديقة المعهد التى كانت تطل على شارع الجلاء ، تقدمت أم كلثوم حضور هذا الحفل ومعها سفراء الكويت ولبنان وصفوة من الموسيقيين والفنانين والمثقفين، كانت فرحة الجميع بإهداء الوسام لواحد من جيل الرواد صادقة لا تشوبها شائبة، ولم يكن هناك - وقتها - فى الوسط الفنى سوى شخص واحد أظهر مشاعر مغايرة لما أبداه جميع أهل الفن والجمهور تجاه منح فريد ذلك الوسام الرفيع.

كان ذلك الشخص - وللأسف - هو عبدالحليم حافظ، ، حيث اتخذ مجموعة من الإجراءات منذ عودة منافسه الأوحد - على حد تعبيره - الى القاهرة . وهى اجراءات لا تعبر عن الود بحال من الأحوال، من ذلك إعادة عرض فيلمه الأخير «أبى فوق الشجرة» بعد أن حقق نجاحا ساحقا فى عرضه الأول الذى بدأ فى شهر مارس من عام ١٩٦٩م واستمر حتى الأيام الأخيرة من العام، جاءت إعادة عرض فيلم عبدالحليم الناجح مواكبة لبدء العرض الأول لفيلم فريد الأخير - آنذاك «الحب الكبير» فى ٢/٢/١٩٧٠م، وبما يعنى خلق حالة من المنافسة بين الفيلمين فى اجتذاب الجمهور والتأثير على العرض الأول لفيلم فريد. ولكن الإجراء الأسوأ من جانب عبدالحليم.. جاء فى سياق حديث صحفى أدلى به لمجلة الحوادث اللبنانية، وقد أورد الأستاذ/ رجاء النقاش فقرة من ذلك الحديث فى سياق مقاله «كلمات فى الفن» الذى نشر بالعدد رقم (٩٧٨) من مجلة «الكواكب» الصادر فى ٢٨/٤/١٩٧٠م، جاء فى تلك الفقرة وبنص ما نقله الأستاذ/ رجاء النقاش من مجلة «الحوادث» ما يلى: «فريد الأطرش أكبر فنان (مجرح)... أنا ماسك عليه كلام قاله فى بيروت والكويت عن مصر، وأستطيع أن أؤذيه أذية بالغة إذا كانت المنافسة بين الفنانين بالشكل ده، ولو أنى

فريد الأطرش مع صلاح الشاهد كبير أمناء القصر الجمهورى وبينهما وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى الذى منحه عبد الناصر لفريد





تكلمت ما حصل على الوسام، الحكاية بسيطة... كنت أقدر بمنتهى البساطة أحط فى جيبى (ريكوردر) صغير، وأسجل كلامه وأخرب بيته، لكن هل التصرف ده يبقى أخلاقى؟»، ولندع الأستاذ/ رجاء النقاش يعلق على ما تضمنته تلك الفقرة من حديث عبدالحليم لمجلة «الحوادث»، قال الأستاذ النقاش معلقاً: «لست أدرى لماذا يسقط عبد الحليم – وهو فنان كبير وناجح بكل المقاييس – هذه السقطات الصغيرة التي لاتليق به... لماذا لا يكتفى بنجاحه وفنه؟... ويبتعد عن هذا الأسلوب الاستفزازى الذى يعامل به الكثيرين من زملائه»، وقد أنحى الأستاذ النقاش فى مقاله المشار إليه هنا باللائمة أيضا على فريد الأطرش لأخطائه ولبعض تصرفاته، فكان مما عابه الأستاذ النقاش على فريد شكواه الدائمة من الاضطهاد وحديثه عن أن كبار المطربين والمطربات لا يقبلون على التعاون معه، وأضاف الأستاذ النقاش إلى ذلك استنكاره لما ردده البعض من أن فريد حمل: «تسجيلاً صوتياً لحديث تليفزيونى قال فيه عبد الحليم (إن صباح وفيروز أجانب)»، ثم أرسل فريد التسجيل إلى بيروت ليثير الدنيا هناك فى وجه عبد الحليم، ويعلق الأستاذ النقاش على ذلك بقوله: «هذا أمر أقل بكثير من قيمة فريد».



إندلعت شرارة التراشقات بين النجمين.. أثر إعلان فريد الأطرش عن رغبته فى لقاء جمهوره فى حفل يقام ليلة شم النسيم التى توافق مساء ٢٦ أبريل عام ١٩٧٠م، كان عبدالحليم حافظ قد أعلن – وقبل أن يصرح فريد برغبته عن حفل سيقيمه فى تلك الليلة أيضا، وعندما ذهب فريد ليتفق مع الفرقة الماسية التى كانت تصاحبه فى كل حفلاته، وجد أن عبدالحليم قد سبقه فى الاتفاق معها، فأعلن انه سيغنى ولو بمصاحبة عوده فقط، لقد عمل معسكر عبدالحليم الذى ضم نخبة من كتاب وموسيقيين وإعلاميين كبار على الضغط على المطربين والمطربات وحتى على الإذاعة والتليفزيون من أجل إفساد أو إلغاء حفل فريد، حتى أن المطربة فايزة أحمد تراجعت عن المشاركة فى حفل فريد، وترددت شائعات عن اعتذار كل من سعاد محمد وفهد بلان ومحمد رشدى عن المشاركة مع فريد فى حفله، ولنضرب مثلا هنا لنوعية الضغوط التى جرت فى تلك المعركة، وهو ما تعرض له المطرب محمد رشدى ورواه بعد ذلك فى العدد رقم ٢٤٢٨ من مجلة «الكواكب» الصادر فى ١٠/٢/١٩٩٨م ، قال رشدى عن ذلك : «فى الواحدة صباحا وقبل الحفلة بأيام، جاءنى بليغ حمدى وكالعادة عندما نجلس يمسك بالعود ويغنى، وقال لى بليغ سوف اسمعك لحنا جديدا ، عندما تغنيه سوف يغنيه الشارع خلفك، واسمعنى أغنية (ردوا السلام) التى غنتها عفاف راضى بعدها. سمعت الأغنية.. جميلة فعلا وفيها رائحة الأسكندرية، وقال بليغ بعد أن اسمعنى الأغنية غنها ولا تشترك فى حفلة فريد ، وتفاقمت الأمور أكثر عندما طرح السؤال التالى: أى من الحفلين ينقله التليفزيون؟ ، حيث كانت امكانات التليفزيون فى ذلك العهد لا تسمح بنقل حفلين على الهواء فى نفس الوقت، وعندما تأزمت الأمور وتجاوزت التصريحات والتراشقات كل ما جرى عليه العرف، جاءت نهاية المعركة على يد الزعيم جمال عبدالناصر.

نهاية المعركة

حدثت نهاية المعركة فى حفل زفاف إبنة السيد عبداللطيف البغدادى : عضو مجلس قيادة الثورة السابق، جاء حفل

الزفاف فى ذروة المعركة وقبل ليلة شم النسيم بأيام، شهد ذلك الحفل لقاء الزعيم جمال عبدالناصر بعبد الحليم حافظ، وهو اللقاء الذى وضع حدا لتراشقات المسكرين ووضع حدا فاصلا ونهائيا بين النجمين. ولنترك رواية ما حدث فى هذا اللقاء للإعلامى الكبير: وجدى الحكيم وهو صديق مقرب لعبدالحليم ، وقد روى الأستاذ وجدى الحكيم قصة اللقاء فى حديث نشر بالعدد رقم (٢٤٢٨) من مجلة «الكواكب» الصادر فى ١٩٩٨/٢/١٠م ، حيث قال «كان الرئيس جمال عبدالناصر موجودا فى تلك الليلة (ليلة زفاف إبنة السيد عبداللطيف البغدادى) فمن طبيعته أن يحضر مثل هذه المناسبات لزملائه ، وقبل أن يغنى عبدالحليم ، استدعى لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر ، وأسرع عبدالحليم سعيدا. ولكنه صدم، فقد سأله الرئيس عبدالناصر: مزعل الأستاذ فريد ليه ياعبدالحليم؟! ، وفوجىء عبدالحليم بالسؤال، ولم يكن أمامه إلا أن يرد ، فقال ياريس.. فريد..، وقبل أن يكمل كلامه قاطعه الرئيس عبدالناصر : الأستاذ فريد ، ولم يضف عبدالحليم كلمة ، لكن الرئيس أكمل بأنه أمر أن يذيع التليفزيون والبرنامج العام حفلة الأستاذ فريد ، وسوف يسجل التليفزيون حفلة عبدالحليم ويذيعها صوت العرب على الهواء، ثم تذاع حفلته (أى عبدالحليم) فى التليفزيون فى اليوم التالى ، وطبعا لم ينطق عبدالحليم الذى أحس أن الموقف الرسمى ينصر فريد الأطرش عليه»، ولا تعليق !.

فى ليلة الأحد السادس والعشرين من أبريل عام ١٩٧٠ ، أطل فريد الأطرش من فوق خشبة مسرح سينما قصر النيل وعبر شاشة التليفزيون المصرى وميكروفونات إذاعتى البرنامج العام ومع الشعب ، وبعد كلمة رقيقة حيا فيها الحضور وشكر مصر شعبا وقيادة ممثلة فى الزعيم جمال عبدالناصر، على ما لقيه من عطف وتكريم، انطلق بحماس ابن العشرين ليقدم بمصاحبة الفرقةالذهبية بقيادة صلاح عرام ، أغنية وطنية جديدة تغنى فيها بمصر وحب مصر وزعيمها وبكلمات مأمون الشناوى التى يقول مطلعها:

سنة وسنتين سنة وسنتين
وانت يا قلبى تقول أنا فين
ودبت وتهت فى أشواقك
وشفت النيل وعرفت أنا فين
يا مصر.. يا عمرى.. يا نور العين

وعلى المسرح الآخر فى قاعة سينما ريفولى، كان عبدالحليم حافظ يقدم واحدة من أجمل أغنياته على الإطلاق «زى الهوا»، التى نقلتها موجات إذاعتى صوت العرب والشرق الاوسط مباشرة الى ملايين المستمعين فى مصر والعالم العربى، وبعد منتصف الليل. عاد فريد مرة أخرى الى مسرح سينما قصر النيل ليقدم أغنيته الخالدة «الربيع» فى تلك الليلة.. قدم فريد أغنية «الربيع» ، بتوزيع حديث أعده الموزع المعروف أندريا رايدر ، وقد قاد رايدر الفرقة الموسيقية المدعمة ببعض عازفى فرقة أم كلثوم على المسرح، وحين إنبلج الصباح.. كان المطربان الكبيران قد قدما ليلة لا تنسى فى تاريخ الغناء العربى ، ليلة أضافت الى تراث الغناء العربى جديدا لم ولن تمحه الأيام. ■

ليثي

٣٠ سنة من الكاريكاتور اللطيف جداً !

بقلم
محيى الديـن اللبـاد

قرب نهاية النصف الأول من الخمسينيات، أطل علينا صلاح الليثى (١٩٢٣-١٩٨٣) -بدون مقدمات- على صفحات مجلة «التحرير». تفرجنا -يومها- على رسم تعب عليه الليثى وأنجزه بأناقة واقتدار واختلاف عن السائد يومها. كان رسماً وحيداً نشر في قياس كريم، ولكن بغير سياق. كان هذا معتاداً من «التحرير» ومألوفاً في تلك الأيام؛ رسامون كاريكاتوريون كثيرون يمرون وينشرون رسومهم لمرة أو مرات قليلة، ولكنهم لا يعودون للظهور.

كان واضحًا من الرسم أن صاحبه فنان مثقف يأنف من البذاءة، إلا أن الموضوع الذى اختاره لرسمه كان موضوعًا شوارعيًا بجدارة: رجل بجلباب ملقى على ظهره في الأرض، وقد غُرس فى صدره سكين طويل، وحوله بعض زحام، ورجل إسعاف يسأله بلهفة:

– **بتوجعك ؟**

ويرد «المغدور»:

– **أوى .. خصوصًا لما أضحك !**

وبعد هذا الرسم، عاد الرسام ونشرت له **التحرير** بعض الصفحات المزدوجة متعددة الرسوم، ظهرت متقطعة على مدى ٣ سنوات، ثم اختفى **الليثى** بعدها لسنوات أخرى.

فيما بعد، رأينا رسوم **الليثى** مع المقال الأسبوعى **لأحمد بهاء الدين** فى **أخبار اليوم** عام ١٩٦١. كان **بهاء** ينشر له رسمين مع كل مقال من مقالاته الطويلة. وكان

صلاح الليثى، رسم رجائى ونيس

الليثى -وقتذاك- يعمل رساماً ومصمماً للإعلانات فى شركة النصر للتصدير والاستيراد بفرع دمشق أيام الوحدة. وكانت صلته مع **بهاء الدين** هى البريد السورى الذى حمل رسوم **الليثى** إلى **بهاء** فى رسالة أسبوعية منتظمة. وظل **بهاء الدين** ينشر رسوم ذلك الرسام المجهول مع مقاله كل سبت بانتظام دون أن يرى أحدهما الآخر.

وفى ١٩٦٢، سرت موجات توتر وقلق واضطراب فى بقعتين بالقاهرة: شارع القصر العينى وشارع مظلوم باشا. إذ انتقل **صلاح جاهين** فجأة من **روزاليوسف** و**صباح الخير** إلى جريدة **الأهرام** ليرسم كاريكاتورها اليومى أو «افتتاحية الأهرام بالكاريكاتور». وكان **أهرام هيكل** قد قرر أن ينشر الكاريكاتور على صفحاته للمرة الأولى بعد ٩٧ سنة متصلة من الصدور دون كاريكاتور.

ساعتها، كان على **روزاليوسف** أن تعفى النجوم الكبار من رساميها من المهام الصغرى فى المجلتين، وتفرغهم لملء الفراغ الذى تركه **جاهين** (وأى فراغ كان!).

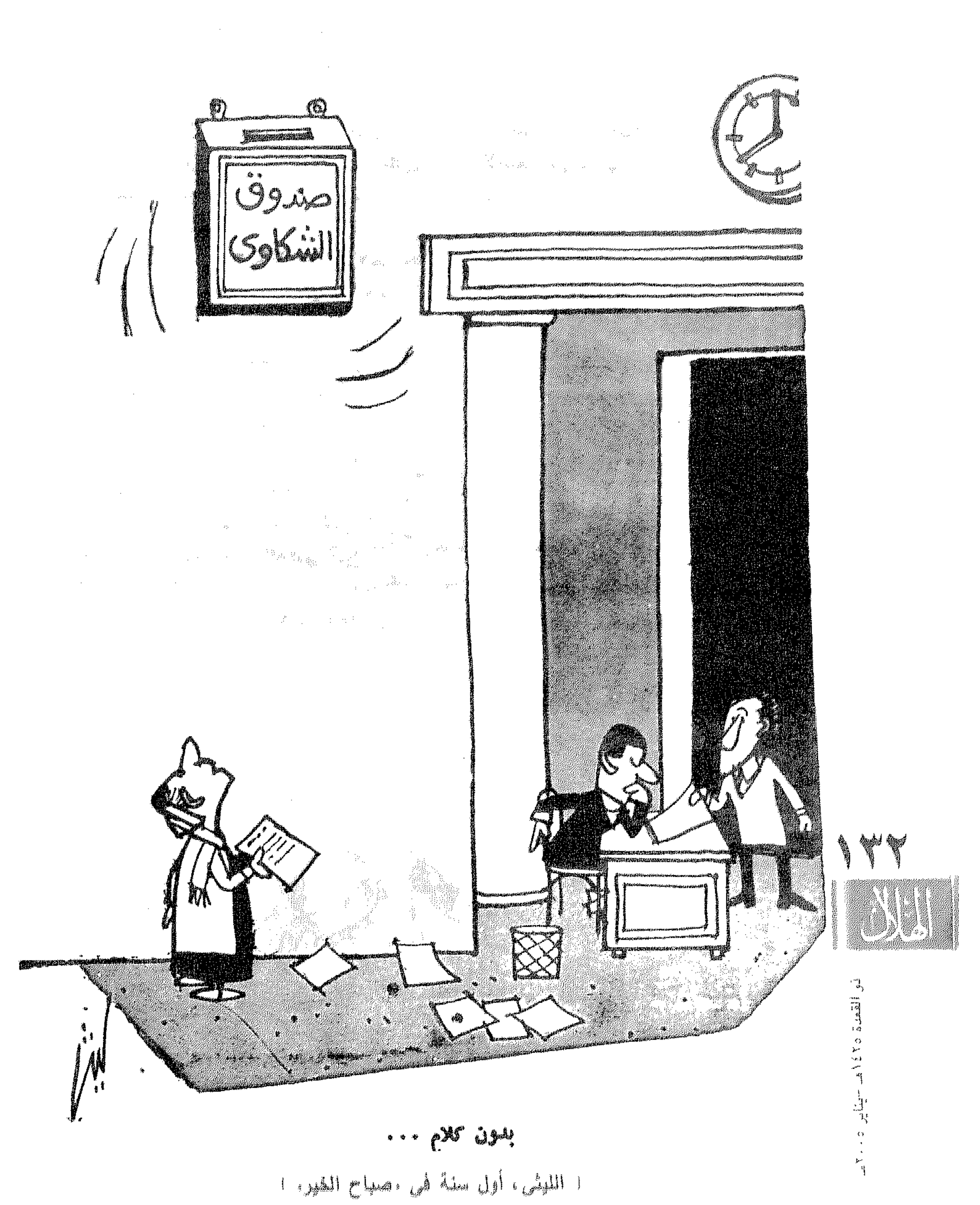
وبالتالى كان على الدار أن تضم إلى فريقها رسامين آخرين أحدث عمراً ليقوموا بالمهام الأصغر التى تركها النجوم الكبار. وهكذا انضم إلى الدار -فى نفس الوقت- أربعة رسامين. **رؤوف عياد - محمد محفوظ - محيى الدين اللباد** الذين كانوا فى أول عشريناتهم، وكبيرهم **صلاح الليثى** الذى كان يخطو نحو الأربعين، وعائداً لتوه من عمله فى سوريا، والذى كان نشر **بهاء الدين** لرسومه فى **أخبار اليوم** تزكية معتبرة له عند **روزاليوسف**.

بدأب وجدية وإخلاص وببعض تكشيرة، ظل **الليثى** يداوم فى ساعة مبكرة من الصباح، ولستة أيام فى الأسبوع (أغلب الظن أنه كان يتمنى أن يداوم يوم الجمعة أيضاً، لولا أن الظروف العائلية لم تمكنه من ذلك). كان يجلس ليدبج رسوماً لتشغل واحدة منها الصفحة الجاهينية الكاملة فى



- بعودة الايام .. معلهش ماخدتش بالى .. زحمة شغل !

[الليثى، أول سنة فى «صباح الخير»]



بدون كلام ...

! «الليثي» أول سنة في «صباح الخير» !

صباح الخير والمعنونة «**من دواوين الحكومة**»، بالإضافة إلى رسوم أخرى كثيرة كانت تتوزع على مختلف صفحات **صباح الخير**.

كان **الليثى** أكثر منا رزانةً وانضباطًا، وكانت ملابسه وسجائرة من أنواع أفضل كثيرًا مما نلبس وندخن. كان رب عائلة، وأب لثلاث بنات، له بيت عصرى أنيق، اختير أثاثه وتفاصيله بعناية وذوق ومعرفة، وبلا مبالغة. وكان يتكلم الإيطالية أحيانًا، ويصف لنا بعض طرق طبخ الإسباجيتى غير المعروفة (على سبيل المثال: طبخها بدون صلصة، وبالخل والتوم).

كان على **صلاح** وحده أن يضبط إيقاع كاريكاتوره ليتوافق مع **صباح الخير**، ولم تكن هناك أية معاونة له من المجلة فى تلك المهمة. ولذا عمل كثيرًا وبهمة وبإخلاص لتأسيس طريق جديد لعمله، وجرب كثيرًا فى مجال الرسم والأفكار والموضوعات، كما حاول -على المستوى الشخصى، وبكل الإخلاص والمحبة والتهذيب- أن يندمج ويصبح واحدًا من الفريق القديم الذى حمل سمات خاصة فى اللعب والسخرية والهزار.

كل عدة ساعات، كان يقوم من جلسة العمل، ليطقطق ظهره بعد طول انكفاء على الرسوم، أو يذهب إلى بوفيه الحاج **سيد سلامة** المقابل لحجرة الرسامين ليطلب شيئًا يشربه أو يأكله، أو يتمشى حتى الحمام. وفى عودته، كان يقف عند مكتب واحد من الزملاء فى الغرفة، ويسأله بلهجة تمثيلية متصنعًا الجد:

- **تشترى كلب؟** (مع تفخيم الكاف واللام والباء).

وبعد بضع سنوات حوّل السؤال إلى:

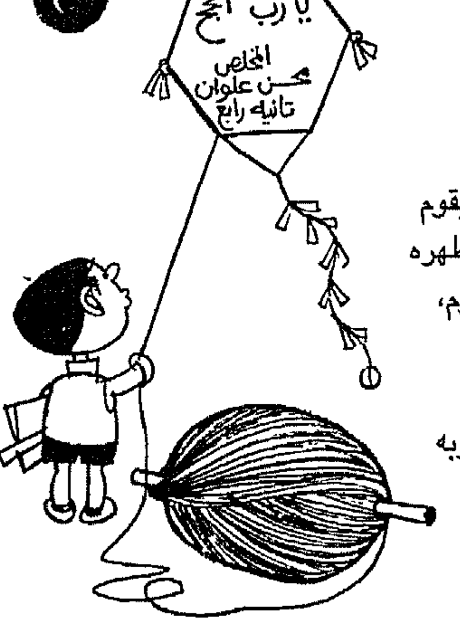
- **تشترى خلاّط؟**

ثم يعود للانكفاء على رسومه.

كان الليثى يحضر أنيقًا فى چاكيت بليزر كحلية، وبنطلون رمادى، وكرافات، يحمل حقيبة **سامسونايت** فارغة إلا من ورقات معدودة وجريدة الصباح. كان طويلاً وسيمًا خفيفًا، بحيث تتصور أنه -لو كان قد حصل على بعض التدريب فى صباه- لكان لاعب تنس. ولما لم يكن قد فعل، فقد اختار مهنة رسم الكاريكاتور، وأخلص فيها حتى تركت فيه أثرًا على شكل حدبة متوسطة مثل كثير من الرسامين والكتاب والخطاطين المتفانين فى عملهم.

كان شعر رأسه كثيفًا طويلاً وقابلاً للتصفيف على الطريقة الطليانية. كان يطليه من الجنبين ويرسلهما إلى الخلفين. كما كان يطيل مقدمته ويجعلها على شكل **البوجودى** الطليانى كأى فتى روميو فى الخمسينيات. وعندما كان يتركنا وقت الظهيرة بعد نهاية يوم عمله، كنا نرى بعض هذا الشعر ساقطًا على جبهته.

كانت كفاه طويلتان بأصابع طويلة تليق برسام أنيق، وكان ذراعاه أيضًا طويلتان [انظر كيف عبر الرسام **رجائى ونيس** عن طولهما فى الرسم (الذى رسمه من الذاكرة) بأن



[الليثى، أول سنة فى «صباح الخير»]

قصر من طول أكمام الجاكيت والقميص ليؤكد طول الذراعين!].

نجح **الليثي** في تأسيس كاريكاتور الصفحة الأسبوعية الكاملة (الجاهينية سابقًا) عن البيروقراطيين والفاسدين والمرتشين والموظفين الذين لا يتقون الله في تعاملهم مع أهل البلد الغلابة.

وبعد سنتين أو ثلاثة من دخوله **صباح الخير**، وبالتدريج، نجح **الليثي** في القبض على نغمته الخاصة، وإيقاعه الخاص، وأفلح في صكّ شخوصه ومفرداته، وطرائق تناوله لموضوعاته. وتسلطن.

وتمكن **الليثي** من نحت عدد من «التيمات» والشخوص واللزمات طبعت كاريكاتوره، كما تمكن من توظيف كل ذلك بطريقة شخصية خاصة:

الخادمة الريفية الطفلة التي يلبسونها القميص القديم الواسع لـ «سيدها» كجلباب. والاضطهاد السادي الذي تلاقيه بسبب وبدونه من «ستّها». وعندما تصبح فتاة «مدوّرة» يأتي الدور على «سيدها» ليتحرش بها.

الركاب المنتظرون على محطة الأوتوبيس في زحام مستعرض وقت الذروة، وهم يحملون أوراق الشغل وصحف الصباح وقراطيس الفاكهة الرخيصة.

- أزمة التاكسي.
- الفلاح المظلوم وصديقه الوحيد طائر أبو قردان.
- الموظف صاحب الجبين الخاليين.
- وأزمة اللحمة وفراخ الجمعية الاستهلاكية.
- الفساد الحكومي.
- الشرطي السري (المخبر) بجلابية وبالطو وجريدة.

وغيرهم.

ومع تزايد اهتمام القراء برسوم **صلاح الليثي**، وتعلقهم بها، ومتابعتهم لها، أفردت **صباح الخير** صفحتين لرسومه، ازدادوا أحيانًا كثيرة إلى ثلاثة، ووصلوا في مرات إلى أربع صفحات. وازداد استغراق **الليثي** في كاريكاتوره وازداد هيامًا بالعمل وإخلاصًا له.

وانتقل **صلاح الليثي** إلى غرفة خاصة صغيرة جدًا في الدور السابع، كان عرضها بالكاد هو عرض مكتبه + كرسيه. فقط. وكان للغرفة شباك واحد واسع يطل منه على المنور الذي يفصله عن شباك مماثل ومقابل على بسطة سلم الدور نفسه أمام باب المصعد. كان المنتظرون والصاعدون يلقون التحية -عبر المنور- على **الليثي** فيردها حسب حالة العمل التي يكون عليها: إن كان لا يزال في حالة البحث عن أفكار، فهو «يزوم» فقط. وفي حالة انتهائه من اصطياد الأفكار، كان ينادي على بعض الخاصة من زملائه، ليستطلع رأيهم في أفكاره. أما إذا كان قد شرع في رسم أفكاره، فهو يرد بتحية متوسطة لا تنزعه من استغراقه. أما إذا كان قد فرغ من الرسم، فهو يكون -حينذاك- واقفًا على أهبة



واحد ـ نكره يعملوا مكاتب تنسيق والركوب يبقى بالثانوية العامه .. !!



ست للخدامة ـ .. اشتغل بهمة يابت .. علينا ديون لدول كتيرة !

المغادرة يفرد كم القميص ويتناول الجاكيت مدخلا فى كميها كفيه وقد غطتهما آثار الأقلام الرصاص والحبر الأسود، فهو لا يبقى على كرسيه بعد انتهاء العمل.

كان **صلاح** يجلس كل صباح إلى مكتبة العريض، يقلب صفحات مجموعة الصحف والمجلات الصادرة فى ذلك الصباح، ويسجل على ورقة ما يراه موضوعات مهمة على أوراق بيضاء من مقاس الفولسكاب، ثم يبدأ فى اصطياد أفكار كاريكاتوره، ويسجلها مكتوبة:

[واحد بيقول لواحد: هأ - بلدنا دى صحيح بلد شهادات ... استثمار!]

أو:

[ولد غلبان واقف أمام محل «كبابجى أبو شقرة» وبيقول:
هأ - يا بخت الواد شقرة!]

ويظل يضيف إلى قائمة أفكاره المكتوبة ويشطب منها حسب نتائج الاستفتاء الذى أجراه مع من استدعاهم للتقييم، حتى يصل العدد المطلوب إلى ٦-٨ رسوم. هنا يفرد **الليثى** ورق الرسم الكبير مقاس ٢٥×٣٥ سنتيمترًا، ويبدأ فى إنجاز رسومه ببراعة ملفتة للنظر وبأناقة. وكان مثيرًا أن تتابع حركة ذراع **الليثى** الطويلة والنحيلة فى كم القميص المشمر، وأن يتحرك بصرك مع حركة يده الحساسة وهى تبدأ بسحب الفرشاة المثقلة بالحبر عدة مرات على ورقة مهملة لتخليص الشعر من الحبر الزائد، ثم تعود بها إلى ورقة الرسم لترسم بها خطًا طويلاً مستقيمًا أو منحنًى كامل الأوصاف.

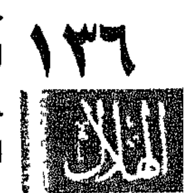
كانت رسومه على قواعد المنظور المضبوطة، وكان تجسيمه مقنعًا حتى وإن كان الرسم فى خطوط قليلة. وحمل كاريكاتوره خبرات جرافيكية رفيعة احتفظ الرسام بها قوية حاضرة فى بديهته منذ أيام عمله فى تصميم الإعلانات فى **شركة الإعلانات المصرية وشركة النصر للتصدير والاستيراد** . كما حمل كاريكاتور **الليثى** كثيرًا من تاريخه وتكوينه الأكاديمى فى قسم الدراسات الحرة فى كلية الفنون الجميلة، وفى مرسمها بالأقصر، ثم فى أكاديمية الفنون فى روما وفى دار صك النقود هناك التى درس فيها فن الميدالية.

كانت الخلطة فى رسوم **الليثى** خاصة ومميزة تختلف عن خلطات باقى زملائه. كان يقدم نكته بالحد الأدنى من «اللوع» والمؤامرة ورسم الخطط على القارئ، ومن وسائل الإضحاك الخفية غير المباشرة والمعروفة في فن النكتة. كانت أفكار «نكته» صريحة ومستقيمة مثلما كان شخصًا صريحًا ومستقيمًا.

ونافس حواره برقيات الشفرة، وخلا من الزيادات والمحسنات والمقبلات التمهيدية، والإخراج المركّب. لم يأخذ قارئه بعيدًا فى أزقة ملتوية ليفاجئه بالنكتة غير المتوقعة، بل كان يقدمها إليه من اللحظة الأولى على صينية من فضة.

وكان حوار كاريكاتور **الليثى** -أيضًا- حوار «الحد الأدنى»، وكان أحيانًا مثل حوار بعض أعمال المسرح الحديث التى ترفض الإيهام ومحاكاة الواقع، بل تؤكد أن الأمر تمثيل فى تمثيل ومختلق.

كانت رسومه أيضًا رسوم «الحد الأدنى» رغم تفوق المستوى الفنى والثقافى، والجهد المنفق فيها والاتقان والخبرة. لم يكن فى الرسم صخب، وكان الصوت الصادر عنه قليلاً جدًا. كان الرسم -مع أنه يرسم «نكتة»- مشحونًا بالتراجيديا، يندر أن نشاهد فيه شخصين يتحدثان وينظر كل منهما إلى الآخر. بل دائمًا ما نجد شخصًا يكلم الآخر وهو يقف خلفه ينظر إلى قفاه، أو





(بيع اللحمه فى اكياس)

نزار - حرام .. طيب واللى ما بيكلوش لحمـــــه يتفرجوا عليهـــا ازاى .. !؟

يكلم شخصًا آخر ينظر إلى أعلى بدون سبب. وكثيرًا ما تتكلم الأشخاص دون أن تفتح فمها، أو يطلب الخطيب يد بنت الرجل بينما ينكفئ الأخير متأملاً أرض الحجرة.

وفى واحد من كاريكاتوراته، يسخر **الليثى** ممن يذهبون إلى الحج بغرض التجارة أيام لم تكن فى البلد بضاعة مستوردة. وكان الكاريكاتور يخبرنا أن أحد المودعين يهتف للحاج المسافر:

- هأ ... ما تتساش الويسكى يا حاج!

لكن الرسم لا يظهر به أى حاج أو أى مودع، بل تحتل الرسم طائرة ركاب عملاقة تملأ المساحة رابضة على أرض المطار فى رسم متقن ومنظور جميل، ويحيط بها عدد من لمسات الفرشاة السوداء، لابد أن إحداها كانت تمثل ذلك المودّع الذى كان مفترضًا أن يهتف مذكرًا الحاج بالويسكى.

ويطبق الحزن على شخصيات **الليثى** المرسومة حتى أنها كثيرًا ما تبدو غير مبالية -بالقدر اللازم- بمصائرها وبالمصائب التى يتحدث عنها الكاريكاتور الذى يعملون فيه. فالزوجة التى يخونها زوجها مع الخادمة أمام عينيها مباشرة تكتفى بإرسال دمعتين، وتواصل العمل على ماكينة الخياطة رغم كل ما يحدث. والزوجان اللذان يناقشان مصير الفراخ المجمدة فى الثلاجة بعد طلاقهما يتحدثان بينما ينظر كل منهما إلى حائط مخالف للحائط الذى ينظر إليه الآخر. أما الجزاران اللذان يناقشان تضاؤل فرصة جمهور المستهلكين فى التفرج على اللحمة، فأولهما يسبل عينيه واضعًا كفه على ذقنه فى تعبير شديد الهم، بينما يقف الآخر خلفه مثل الممثل عبد البديع العربى ينظر غاضبًا إلى الهواء الذى ينظر إليه زميله.

هذه الخلطة المتقشفة من الضحك والنقد والحزن والرسم والحوار المختصر والجهد والكدح المخلص المبذول في العثور على الفكرة وفي إنجاز الرسم والبراعة واللطف، كانت قريبة جدًا من تركيبة **صلاح الليثى**. الذى كان التقشف إحدى سماته الشخصية، فرغم أناقته الظاهرة وترفعه الواضح، كان قليل المطالب متواضعًا فى طلبه لمتع الحياة.

ولأن القارئ يحب الكاريكاتور الذى يشبه صاحبه، أحب قراء **صباح الخير** رسامهم **صلاح الليثى** لأنهم -مع طول العلاقة مع رسومه- حدسوا (وهذه قدرة خاصة عجيبة عند الجمهور) أن كاريكاتوره يشبهه.

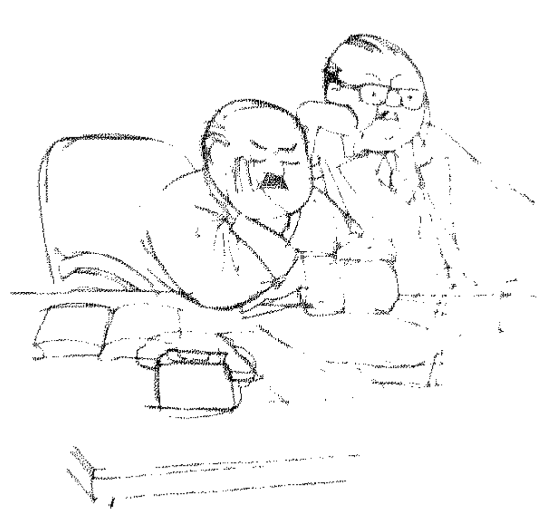
لابد أنهم أحبوا -أيضًا- فى عمله جوانب الفنان المثقف المرهف البرئ المستقيم الأنيق والجاد والمهذب والمضبوط الذى اختار لكاريكاتوره موضوعات الناس الضعفاء المخربشين الملخبطين، كما اختار أن تكشف رسومه سخافات طبقته الوسطى وادعاءاتها وغلاظة قلبها، كما عرفها عن قرب ●

نشر كاريكاتور صلاح الليثى بين ١٩٥٤ و ١٩٨٣ فى التحرير، أخبار اليوم، صباح الخير، روزاليوسف، الخليج (الشارقة)، ٢٣ يوليو (لندن)، والأهالى.

[صلاح الليثى، رسم رجائى ونيس]



ـ .. وفى حالة الانفصال .. الفراخ اللى فى التلاجه تبقى ملك مين .. ؟!



ـ .. كان ممكن مصر تبقى الأم المثاليه .. لولا ولاد الحرام .. !!



ـ ولما يخلص مخزون الفحم فى الارض .. حنضحك ازاى ؟؟



الراجل لمراته ـ هأ ... باتقشف !

أبرز قراءات المثقفين في عام 2004

مر عام فى حياة الأمم والشعوب ، ونستقبل عاما جديداً يملؤنا التفاؤل ، ألا يكون مثل العام المنصرم ، بكل ما فيه من آلام وعذابات لشعوبنا العربية وللشعوب المقهورة فى العالم أجمع .

وفى هذا «التحقيق» نستطلع آراء عدد من مثقفينا وكتابنا عن أهم الكتب التى قرأوها ورؤيتهم لما تضمنته من آراء وما تناولته من قضايا حيوية ، كما نتعرف على رؤية للمسرح والسينما، وما أصابهما فى هذه الأيام..

نشاط ثقافى مكثف اختتم بجائزة نجيب محفوظ

د.عبدالمنعم تليمة

على الرغم من الظروف الساخنة القاتلة ، التى تجرى على أرض أوطاننا العربية ، فإن العام ٢٠٠٤ شهد فى حقل الثقافة العربية ما يرضى الضمير العربى ، وما يثمر ثمراته الطيبات.

بدأ السيد عمرو موسى يفتح الجامعة العربية برصانة وتخطيط على العمل الثقافى العميق والمسئول.



بدأ أمين الجامعة العربية بالتنسيق المضطرد مع مدير مكتبة الإسكندرية الدكتور اسماعيل سراج الدين ، وإذا الجامعة العربية تمثل العرب المعاصرين ، ومكتبة الإسكندرية تمثل مركزا ثقافيا عالميا.

فكأن العرب الآن يعملون ثقافيا مع العالم قاطبة وشهدنا عدة مؤتمرات فى الجامعة العربية ، وفى مكتبة الاسكندرية ، أحاطت بالشأن الثقافى إحاطة علمية شاملة ومبشرة.

أيضا كان هناك أعمال ثقافية لفتت الأنظار ، فى صدارتها ما نشره المجلس الأعلى للثقافة من مترجمات ، من كافة اللغات ، وبلغت هذه الأعمال حوالى أربعمائه عمل .

ولفت النظر أيضا نشاط الهيئة العامة لقصور الثقافة بخاصة فى ميدان النشر ، ولابد أن نشير إلى نشاط السنتين الماضيين ، فى الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، والهيئة العامة للكتاب .

لفت الأنظار أيضاً المعرض الدولى لللكتاب فى فرانكفورت ، الذى خصص هذا العام بكامله للثقافة العربية.

قرأت كثيرا من المجموعات الشعرية . ومجموعات القصص القصيرة والروايات ، وآخر هذه القراءات «الأحلام» بديعة نجيب محفوظ الأخيرة.

ومع هذه البديعة المحفوظية ، بديعة أخرى عراقية ، وهى رواية «المحبوبات» للروائية عالية ممدوح ، والتى استحقت بجدارة أن تفوز بجائزة نجيب محفوظ للرواية العربية هذا العام.

أهم كتاب قرأته : الثقافة الثالثة العلمية والتكنولوجية

د.أحمد أبوزيد

تميز عام ٢٠٠٤ بظهور عدد كبير من الكتب والدراسات والمقالات الجادة التى تعالج الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية المترتبة على ازدياد الإقبال على استخدام الإنترنت وما ارتبط بذلك من تدفق المعلومات عن شتى مجالات المعرفة

وسهولة الحصول على تلك المعلومات من مختلف بقاع الأرض وبشتى اللغات وبخاصة اللغة الانجليزية التى تعتبر الآن وبحق اللغة الكوكبية كما يسميها الأمريكيون ، وكان تدفق المعلومات مجرد خطوة هامة وأساسية تمهد لظهور ما يعرف باسم مجتمع المعرفة ، وهو المجتمع الذى لا يقتنع بالحصول على المعلومات من مصادرها المختلفة والمتنوعة وإنما يعمل ايضا على (صنع) المعرفة وتصديرها للآخرين ، أى أنه مجتمع (منتج) للمعرفة وليس (مستهلكا) لها ، ومن هنا أصبحت المعرفة سلعة تعود على المجتمع المنتج لها بفوائد أو بعائد اقتصادى فضلا عن تحقيق مكاسب سياسية على الصعيد الدولى. فالمعرفة قوة حسب تعبير الفيلسوف الفرنسى ميشيل فوكوه ، كما أن القوة الاقتصادية تحمل معها فى الأغلب ازدياد النفوذ السياسى الذى يتجاوز حدود الدولة المنتجة وتخضع لهيمنته المجتمعات الأقل حظا وقدرة على الانتاج والتصدير . وقد أصبح إنتاج وتصدير المعرفة أعلى وأغلى شكل من أشكال النشاط الاقتصادى / الاجتماعى / الثقافى .

وقد أتيح لى خلال ذلك العام (عام ٢٠٠٤) الاطلاع على عدد لا بأس به من هذه الأعمال الجادة الطريفة المبتكرة التى تفتح أمام القارئ - وبخاصة فى المجتمعات النامية أو مجتمعات العالم الثالث التى ننتمى إليها - مجالات من الفكر والعلم كفيلة بأن نشعر إزاءها بمدى التخلف والتأخر الذى يمسك بخناقنا، ولكن الاطلاع عليها سواء فى لغتها الأصلية أو من خلال الترجمة قد يكون حافزا على نفض رداء الكسل الذى نرتديه فى عالمنا العربى البعيد إلى حد كبير عن كثير من تيارات الفكر المعاصر، وبوجه أخص بعيد عن الإحاطة بالكشوف العلمية والإنجازات التكنولوجية الباهرة وتأثيرها فى حياة الفرد والمجتمع . فالعصر الحديث هو عصر العلم، والثقافة السائدة هى الثقافة العلمية، والإنسان المثقف هو الإنسان الذى يواكب حركة مركز العلم ويستوعب مناهجه ونتائجه وتطبيقاته فى الحياة المعاصرة، واستخدام هذه المناهج فى ارتياد مجالات الثقافة الأخرى بما فى ذلك الإنسانيات . ولقد أصبح العالم المتقدم فى الغرب يقرأ مثلا عن التأويل البيولوجى للتاريخ بعد أن كان السائد والمألوف الكتابة عن التفسير الاجتماعى أو السيكولوجى للتاريخ .



أحد هذه الكتب المهمة التى أتيح لى الاطلاع عليها والتأثر بها كتاب أصدره كاتب يدعى روبرت بروكمان وهو رئيس مؤسسة ثقافية تعرف باسم Edge فى أمريكا، والكتاب بعنوان (الثقافة الثالثة) وهو عنوان له دلالته وأبعاده ومغزاه .

ولكى نعرف هذه الأبعاد لابد من الرجوع إلى الخمسينات من القرن الماضى حين

أصدر المفكر البريطاني سي بي سينو كتابه عن (الثقافتان) الذى أثار في ذلك الحين كثيرا من الجدل . والمقصود بالثقافتين هنا الثقافة العلمية والإنسانيات وكيف أن المتخصصين فى فروع الانسانيات المختلفة لا يكادون يعرفون شيئاً عن العلوم الطبيعية والعكس بالعكس بل أن كلا من الفريقيين ينظر باستعلاء - إن لم يكن الاستهانة - إلى الفريق الآخر وأن هذا الموقف غير السليم من شأنه الإساءة إلى وحده الفكر الإنساني على اعتبار أن ثمة نوعا من التكامل بين الثقافتين ولكن المشكلة تنحصر فى كيف يمكن التقريب بينهما لصالح الإنسان نفسه .

وقد ذهب بروكمان في كتابه (الثقافة الثالثة) إلى أبعد مما ذهب إليه سنو إذ يرى أن التقدم العلمي والتكنولوجي يحتم على إنسان العصر الاهتمام بالثقافة العلمية فى المحل الأول والاستعانة بمناهج العلم الأمبيريقية فى فهم العالم وما يدور فيه من أحداث ، وأن هذا المنهج الأمبيريقى هو المنهج الصحيح الذى ينبغى تطبيقه حتى فى الانسانيات ، تمشيا مع الاتجاه الفكرى العام السائد ، وأن ما يطلق عليه اسم الفعل الذهنى أو الفعل العقلى أصبح الآن فى أيدى العلماء وبعض المفكرين والانسانيين الذين يتمتعون بالقدرة على استيعاب العلم وإمكان الاسترشاد بأساليبه وطرقه ومناهجه فى دراسة موضوعات ، تخصصهم فى الانسانيات ، ولذا فهو يطلق عليهم اسم (الإنسانيين الجدد) فالعلم هو مركز الثقل فى الثقافة الجديدة بعد أن كانت الانسانيات تحتل هذه المكانة خلال (العصور السابقة) ، ولذا فإن المثقفين الجدد الذين يمثلون الثقافة الثالثة أصبحوا يهتمون الآن بمشكلات جديدة تماما مثل البيولوجيا الجزيئية والهندسة الوراثية . وتكنولوجيا النافو أو الأجهزة المتناهية الصغر والذكاء الصناعي والتنوع البيولوجي وما إليها من مستحدثات العصر التى ينبغى تداولها بين كل فئات المثقفين بل ونشرها بين عامة الناس كجزء أساسى من ثقافتهم العامة التى يجب أن تتواءم مع مستجدات العصر الذى تسوده الثقافة العلمية التى هى خلاصة التجارب والبحوث الاكتشافات العلمية والإنجازات التكنولوجية .

إن القرن الحادى والعشرين يحتاج إلى كثير من بذل الجهود الجادة لمتابعة هذا التقدم العلمى الهائل والمتنوع وهذه أمور ميسورة بغير شك بفضل ما تحمله من معلومات وسائل الاعلام المختلفة . فهل أن الأوان لمجتمعاتنا العربية أن تفيق من غفوتها التى طالت واستطالت حتى تلحق بركب الثقافة الجديدة إن كان من الصعب عليها أن تسهم فى إنجازاتها ؟



أهم كتاب قرأته : تسويق المشرع الإمبراطورى الأمريكى

د. رءوف عباس

شغلت خلال العام الذى أسدل عليه ستار الزمن، بمتابعة ما يصدر فى الغرب من كتابات بأقلام جوقة المنظرين الصهاينة لترويج المشروع الامبريالى الأمريكى، وتسويغ الهيمنة الأمريكية على العالم العربى الإسلامى، ويأتى فى مقدمة هذه الأعمال كتابى برنارد لويس: «أين الخطأ؟» الذى صدر عشية واقعة الحادى عشر من سبتمبر، والكتاب الآخر: «أزمة الإسلام». وفى هذين الكتابين أعاد برنارد لويس المؤرخ الصهيونى الشهير طرح أفكاره التقليدية عن الإسلام والثقافة الإسلامية التى يرجع فيها ما تعانيه شعوب العالم الإسلامى من قصور التنمية، وتخلف سياسى إلى الثقافة الإسلامية ذاتها، وأن لا منجاة لهذه الشعوب مما تعانيه سوى التخلص من هذا القيد التقليدى، وتنبى ثقافة الغرب.

ويذهب برنارد لويس فى الكتابين إلى أن المسلمين لا يقبلون الآخر، ولا يقبلون التعايش معه إلا إذا كان تابعا لهم، فهم يعيشون على «أوهام» التاريخ يوم كانت لهم الهيمنة على العالم القديم، ولذلك فهم عدوانيون بطبعهم، لا يقبلون التعايش مع الثقافات الأخرى، ويستدل على ذلك بموقف العرب من إسرائيل «واحة الديمقراطية» فى الشرق الأوسط، ورفضهم لها.

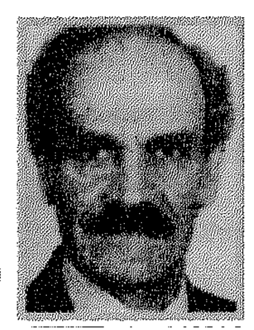
وخطورة هذه الأطروحة ترجع إلى ما يصاحبها من تأثير كبير فى قرائه وعلى صانع القرار الأمريكى، وخاصة ما له من نفوذ على اليمينيين الجدد الذين يملكون مفاتيح صنع القرار فى أمريكا.

وقد ترجم الكتابان إلى العربية بهدف توعية المثقفين العرب بأبعاد هذا التوجه الذى يستدعى مواجهة من جانبهم بكتابات تدحض تلك الفرية، وتصحح صورة العرب والمسلمين أمام الرأى العام العالمى، كما تهدف اتاحة الكتابين باللغة العربية إلى أن يعى من يعنيهم أمر الإصلاح بكل أبعاده، بضرورة طرح مشروع إصلاحى جاد يقيل العثرات، ويدعم الوجود العربى الإسلامى فى مواجهة المشروع الإمبريالى.

وشغلت بكتاب ثالث عن هجرة اليهود من مصر نشر بالإنجليزية بعنوان «شتات اليهود المصريين» كتبه يوئيل بينين قدم فيه دراسة هامة عن مختلف طوائف اليهود التى سكنت مصر والعوامل التى دفعتهم للهجرة فى مصر التى يأتى فى مقدمتها كون معظمهم يحملون جنسيات أجنبية، ولكن الملفت للنظر وصم المؤلف لمن كتب عن اليهود من المصريين بالعداء للصهيونية، وما يكشف عنه الكتاب من سعى لإعادة بناء دور للإسرائيليين الذين هاجروا من مصر إلى الكيان الصهيونى تهدف إلى لعب دور عراب التطبيع بين إسرائيل ومصر والعرب.

ومن ثم يدعم الكتاب المشروع الامبراطورى الأمريكى من زاوية ادماج إسرائيل في ما يسمى بالشرق الأوسط الكبير.

ومن الجدير بالذكر أننى رشحت هذا الكتاب للترجمة فى إطار المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة فاعترض المؤلف لأن الرسالة التى يحملها الكتاب لا يريدها أن تتاح للقارىء العربى.



أهم كتاب قرأته : «أوقات مثيرة»

إيريك هوبسباوم يرفض الصهيونية كعقيدة سياسية

السفير شكري فؤاد

الكتاب الذى استمتعت بقراءته عنوانه «أوقات مثيرة» Interesting Times وهو السيرة الذاتية للمؤرخ الإنجليزى الماركسى المعروف «ايريك هوبسباوم» Eric Hobsbawm الذى يعتبر فى رأى كثير من النقاد أهم مؤرخ يكتب بالإنجليزية فى وقتنا الحاضر كما يضعه آخرون مع الفرنسى بروديل كأعظم مؤرخين معاصرين . ولهوبسباوم اكثر من عشرين كتابا أشهرها رباعيته التاريخية : «عصر الثورة» و «عصر رأس المال» و «عصر الامبراطورية» وأخيراً «عصر التطرف (أو التناقضات) - القرن العشرون القصير ١٩١٤ - ١٩٩١ ».

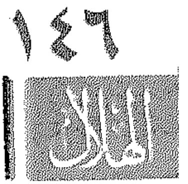
فى تقديمه لسيرته الذاتية يتساءل هوبسباوم ، بتواضع الواثق من قدر نفسه ، عما يدفع القارئ الذى لا يعرفه أو لم يسمع باسمه من قبل إلى قراءة هذه السيرة ، فهو كما يقول عن نفسه ليس ممن تطلق عليهم صفة «المشاهير» أو ممن تؤهلهم أحداث حياتهم لأن يكتبوا مذكراتهم أو ذكرياتهم ، كما أن كتابه ليس من أدب «الاعترافات» وهو لا يدعى أنه القديس أو غسطين أو جان جاك روسو، ومع ذلك فإنه يرى أن هناك ما يجعل كتابه جديراً بالقراءة ، ذلك أن حياته قد امتدت طوال هذا القرن المرعب من تاريخ البشرية (القرن العشرين) وإذا كان بشخصه لم يترك أثرا بارزاً فى العالم إلا أنه عاش حياته الطويلة «كمراقب مشارك» فيما يدور حوله من أحداث الأمر الذى يجعل من سيرته الذاتية جزءاً مهما من انتاجه العلمى يتناول فيه حياة شخصية عامة لا حياته الخاصة.

والكتاب فى الواقع كتاب فى التاريخ أكثر منه كتاب سيرة فقد استعرض فيه تاريخ أوربا والأحداث العالمية فى القرن العشرين من خلال حياة نشيطة لمناضل ماركسى انخرط فى الحزب الشيوعى البريطانى منذ شبابه وفى الحركة الشيوعية الأممية إلى جانب اسهاماته الفكرية كمؤرخ وأكاديمى مرموق .

ولد هوبسباوم لوالدين يهوديين أم نمساوية وأب بريطانى التقيا لأول مرة فى الاسكندرية عام ١٩١٣ فى الغالب، ثم رحلا إلى النمسا ليتزوجا هناك ولما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى كانت كل من النمسا وانجلترا فى معسكر معاد للآخر فلم يستطع الزوجان الاستقرار فى أى من الدولتين وغادرا أوربا إلى الإسكندرية مرة أخرى حيث كان لكل منهما أقارب يعيشون فيها وهناك ولد ايريك هوبسباوم عام ١٩١٧ وقضى فيها العامين الأولين من عمره قبل أن تعود الأسرة من جديد إلى ڤيينا بعد انتهاء الحرب ، ويقول إنه لا يذكر شيئاً عن الاسكندرية سوى قفص للطيور كان يقف أمامه عندما يزور حديقة الحيوان فى النزهة .

يقع الكتاب فى اكثر من اربعمائة صفحة تضم ثلاثة وعشرين فصلاً ويذكر المؤلف أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول :

«شخصى - سياسى» عن الفترة من عام ١٩٢٠ إلى تسعينات القرن



الماضى تناول فيه طفولته وصباه فى ڤيينا وبدء اهتمامه بالشأن العام ثم سفره لظروف عائلية للإقامة فى برلين عام ١٩٣١ وهناك شهد سقوط حكومة فيمار وصعود النازية ووصول هتلر إلى الحكم فلم بدأ اضطهاد هتلر لليهود غادر برلين إلى انجلترا حيث يعيش حتى الآن ، وفى انجلترا انضم إلى الحزب الشيوعى ، وكان قد اعتنق الاشتراكية منذ شبابه ، والتحق عام ١٩٣٦ بجامعة كمبردج كما اشترك في الحرب العالمية الثانية مجنداً فى الجيش البريطانى ، ويضم هذا القسم تاريخاً مفصلاً للحزب الشيوعى البريطانى وتقييما لنشاطه وإسهاماته .

أما القسم الثانى فتناول فيه نشاطه الأكاديمى كأستاذ ومؤرخ وعرض فيه لتطور المدارس المختلفة فى كتابة التاريخ فى القرن العشرين ، وفى القسم الثالث والأخير يتحدث عن أسفاره وارتباطاته بالأحداث فى الدول المختلفة التى زاهرها وشارك فى بعض انشطتها السياسية والفكرية وعرف زعماءها واتصل بساستها من فرنسا واسبانيا وايطاليا إلى الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية ودول العالم الثالث وهكذا يأخذنا هوبسباوم فى سيرته الذاتية إلى جولة تاريخية تبدأ من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى ظهور النازية وهزيمتها ومن انتصار الشيوعية فى روسيا وشرق أوربا إلى سقوطها مع جدار برلين ومن الحرب الباردة إلى هيمنة الولايات المتحدة ومن فرانكو فى أسبانيا إلى بيرلسكونى فى ايطاليا ومن روزفلت إلى بوش فى الولايات المتحدة.

ومع أن هوبسباوم يعتز بيهوديته كديانة أو كانتماء ويقول إنه بدأ مشاركته فى الحياة العامة فى سن الرابعة عشرة كعضو فى فريق الكشافة فى ڤيينا الذى كان أغلب أعضائه من أبناء الطبقة المتوسطة اليهودية . فإنه يرفض الصهيونية كعقيدة سياسية ويقول إن الحركة الشيوعية التى انضم إليها فى انجلترا كانت أممية تعمل من أجل البشرية كلها، ولم يكن غريبا أن كثيراً من الشبان اليهود الذين عرفهم فى الحزب بدأوا حياتهم صهيونيين ثم أصبحوا بعد ذلك شيوعيين عندما أدركوا أن معاناة اليهود الواضحة هى جزء من ممارسة القمع والظلم على مستوى العالم كله وليست خاصة بشعب معين ويضيف فى خاتمه كتابه أنه لم يكن فى يوم من الأيام صهيونيا وأنه يمكن أن يسلم بأن مشروع هرتزل لإقامة دولة يهودية لم يكن فكرة طيبة ولعله كان من الأفضل لهرتزل (والعالم ؟) أن يستمر كاتب عمود متميز فى جريدة المانية كما كان

عندما بدأ حياته العملية بدلا من مشروعه الصهيونى .

وفى الفصل الأخير يقول المؤلف أن كتابه ينتهى عند لحظة أو وقفة درامية فى تاريخ العالم نتيجة الهجوم فى ١١ من سبتمبر ٢٠٠١ على مركز التجارة العالمى فى نيويورك والبنتاجون فى واشنطن، ويضيف أن المبالغة والهوس اللذين اتسمت بهما التغطية الإعلامية «للميديا» الأمريكية لهذا الحدث خلقت فجوة بين الولايات المتحدة وباقى دول وشعوب العالم نتيجة اختلاف فهم كل من الجانبين لما حدث فى ذلك اليوم الرهيب فالعالم رأى فيه هجوماً ارهابياً مثيراً راح ضحيته آلاف من الابرياء كما مثل اهانة بالغة للولايات المتحدة، ولكن ذلك على بشاعته لا يمكن أن يكون سببا للاعتقاد بأن العالم كله قد تغير عما كان عليه قبل الحادث وأن عهداً جديداً قد بدأ ، أما الولايات المتحدة فأعلنت أن كل شئ فى العالم قد تغير وبترويجها لهذه المقولة فإنها قامت فعلا بتغيير المسرح العالمى بإعلان نفسها الحامى الوحيد لنظام عالمى تقوم هى فيه بتحديد وتعريف الاخطار التى تتهدده لتواجهها بمفردها إذا استدعى الأمر ذلك ، أما كل من اعترض على هذه الفكرة أو رفض قبولها فقد اعتبرته عدواً فعلياً أو محتملاً . ولم يكن هذا ، كما يقول هوبسباوم ، أمراً غير متوقع لأن الذين ظلوا يعدون منذ أواخر الثمانينات لاستراتيجية تهدف إلى إقامة امبراطورية عسكرية أمريكية تسيطر على العالم هم انفسهم الذين يقومون الآن بتنفيذ وتطبيق هذه الاستراتيجية. إن أحداث ١١ من سبتمر وماتلاها أثبتت أننا سنعيش فى عالم تهيمن عليه قوة عظمى عملاقة وحيدة قررت ألا يكون هناك حدود لقوتها ولا حدود لاستخدام هذه القوة. وهكذا انتهى القرن العشرون وبدأ القرن الواحد والعشرون بفجر قاتم يلفه الغموض .

هذه النظرة المتشائمة لا يقصد منها هوبسباوم أن يدفعنا إلى اليأس بل أن يحفزنا على استمرار النضال فيقول فى آخر جملة من كتابه : «بالرغم من ذلك لا ينبغى لنا أن نلقى سلاحنا حتى فى الاوقات العصيبة لأن الظلم الاجتماعى لازال يحتاج إلى من يشجبه ويقاومه ، والعالم لن يصبح أحسن حالاً من تلقاء نفسه».



مشيناها خطى..
سيرة ذاتية رائعة

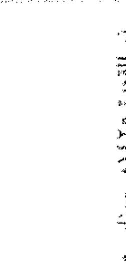
د. محمد أبو الغار

نشر في الشهر الماضي استاذ التاريخ المعروف رءوف عباس سيرته الذاتية التي امتدت من طفولته إلي أيام الشباب والدراسة في الجامعة والكفاح بالعمل قبل التخرج من آداب عين شمس، ثم نضاله العلمي والوطني في جامعة القاهرة ومواقفه السياسية والعلمية الوطنية المشرفة خلال مسيرته الجامعية وخلال حياته في اليابان وقطر التي تخللت حياته الجامعية كمبعوث لجامعة القاهرة.

أول الأمر تشعر أثناء قراءة هذا الكتاب بأن الكاتب صادق وأمين مع نفسه ومع القارىء فهو لم يخف شيئا من علاقاته العائلية فى طفولته وشبابه أو علاقات العمل قبل الالتحاق بعضوية هيئة التدريس بجامعة القاهرة وذكر الأحداث المؤسفة التى تسبب فيها أعضاء هيئة التدريس وكبار الأساتذة فى الجامعة والتى أدت إلى انهيار الحياة الأكاديمية فى الجامعة وأدت إلى سيطرة الأمن على الجامعة وتدهور العملية التعليمية والبحث العلمي.

مشاهد الصبا

ويحكى رءوف عباس عن طفولته وعن الظروف الاقتصادية الصعبة التى صادفته فكان والده عاملا فى السكة الحديد فى بورسعيد وتنقل من مكان إلى آخر مع أبيه وعاش مع جدته لأبيه منذ أن كان عمره أربع سنوات بالقاهرة فى قرية على أطراف حى شبرا ولم يكن بالمنزل مياه جارية ولا مجار ولا كهرباء وكانت هذه القرية بها نسبة متساوية من المسلمين والأقباط معظمهم نزحوا من محافظة المنيا، وعاش رءوف عباس فى هذه الظروف الصعبة حتى بلغ الخامسة عشرة من العمر والتحق بكتاب القرية ولاقى الأهوال والعذاب من الضرب والاستهزاء من مدرس الكتاب ومنه انتقل إلى المدرسة الابتدائية. ويحكى رءوف عن المعاملة السيئة والإهانة البالغة التى لقاها من جدته وعن المشي لمدة ساعة للذهاب للمدرسة وساعة أخرى للعودة منها. ويضيف الصورة الرائعة لشارع شبرا الأنيق فى ذلك الحين والذى كان سكانه ومحلاته مملوكة



للجاليتين ايونانية والأرمنية، ويقارن بين النظافة والأناقة فى بيوت الشارع وبين البيوت لكئيبة إذا تركت الشارع الرئيسى عشرات الأمتار فى الشوارع الجانبية، ثم انتقل لى الدراسة فى مدرسة شبرا الثانوية حيث قرأ فى مكتبتها لأول مرة طه حسين عبدالرحمن الرافعى وسلامة موسى ومنها نقل ليعيش مع والده ودخل مدرسة طوخ الثانوية وحصل على الثانوية العامة القسم الأدبى عام ١٩٥٧ ولاقى صعوبة كبيرة فى تدبير مبلغ ثمانية عشرة جنيهاً مطلوبة كمصاريف الجامعة واستطاع الحصول على المجانية ودفع اقل من أربعة جنيهات كمصاريف للدراسة. وكانت ظروفه الاقتصادية غاية فى الصعوبة فى سنوات الدراسة الجامعية فكان يسير خمسة كيلومترات يوميا حتى يركب قطار السابعة صباحا من منوف للقاهرة وفى المساء يعود بنفس الطريقة وبالرغم من هذه الظروف الصعبة كان الثالث فى ترتيب التخرج.

ويحكي رءوف عباس عن أساتذته وحكاية تأثره بأحمد عبدالرحيم مصطفى أثناء الدراسة وعزت عبدالكريم فى مرحلة الدراسات العليا والتى تكشف عن مدى أهمية الأستاذ المعلم والمربى والصديق للطالب وتأثيره عليه مدى الحياة، وهو ما افتقدته الجامعة تماما بسبب تضخم أعداد الطلبة من ناحية وانشغال الأساتذة خارج الجامعة من ناحية أخرى. ويقارن عباس بين جامعة عين شمس الوليده والتى لم تكن تعانى من الترهل الذى اصاب جامعة القاهرة.

العمل الوطني

وبعد تخرجه من آداب عين شمس تم تعيينه فى شركة صناعية فى كفر الزيات فى قسم المراجعة بمرتب واحد وعشرين جنيها وكان يأكل فى مطعم الشركة مقابل اشتراك شهرى قدره ٧٥ قرشا ، وقام بتثقيف العمال وساعدهم على المطالبة بحقوقهم واشترك معهم فى تقديم عريضة احتجاج وبعد ذلك اتصلت به المباحث الذين قالوا له ياريت تبعد عن الجماعة دول انت مش قد البهدلة. وبعد ذلك شاهد رءوف بعينه قمة الفساد من رئيس مجلس الإدارة المسنود لأن خاله كان شمس بدران وفى ذلك الوقت كان قد نجح فى تمهيدى الماجستير بتقدير جيد جدا وسجل رسالة الماجستير عن الحركة العمالية فى مصر. ويحكى عن زيارته للنبيل عباس حليم فى قصره بالاسكندرية والحديث الذى دار بينهما بالانجليزية لضعف لغة النبيل العربية بالرغم من أنه كان رئيس حزب العمال، وزاره مرات كثيرة وحصل منه على اليومات ومقالات

هامة. ثم قابل زعماء العمال المصريين وكذلك النقابيون الماركسيون وقد حصل على الماجستير بدرجة ممتاز ثم دبر له استاذه منحة تفرغ من الجامعة للتحضير للدكتوراه وتزوج فى هذه الفترة. وتثير حكايات عباس الكثير من المآسى والفوضى التى دبت فى أرجاء الجامعة وكيف أنه حصل على وظيفة معيد فى قسم التاريخ بمعجزة.

ويتحدث عن المعارك والأحزاب والشلل داخل قسم التاريخ بجامعة القاهرة والتى ليس لها علاقة إطلاقا بالعلم أو الاختلاف فى وجهات النظر العلمية وإنما لأسباب شخصية ومزاجية بحته وهى آفة أصابت الجامعة كالسوس من الداخل واتاحت للامن ووزارة التعليم التدخل والسيطرة على الجامعة.

ويتحدث عن صالون محمد أنيس الاسبوعى فى مكتبه بالجامعة والذى تعرف فيه رءوف عباس على كبار الصحفيين والمثقفين وفتح له ابواب المجلات الثقافية للكتابة. ومما لاشك فيه ان البعثات الخارجية التى تتاح لأعضاء هيئة التدريس تضيف اليهم الكثير وخاصة من المتميزين الذين يقضون وقتهم فى التعلم والدراسة وهذا ما حدث مع رءوف عباس فى اليابان التى صقلته علميا ومنهجيا وعن مساهمته الجوهرية فى إنشاء قسم لغة اليابانية فى كلية آداب القاهرة بالرغم من انه يحكى ما حدث بتواضع شديد.

حول الإصلاح

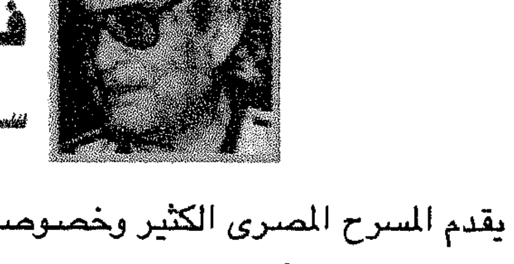
ثم يتحدث عن إعارته إلى قطر لمدة ٤ سنوات قضاها فى القراءة والبحث والتأليف وبعد عودته بفترة اصبح رئيسا للقسم وقام بدور جوهرى بتنظيم قسم التاريخ وإعادة النظام والجدية فى العمل ورفض التسيب حتى مع زوجة الرئيس السادات وابنته.

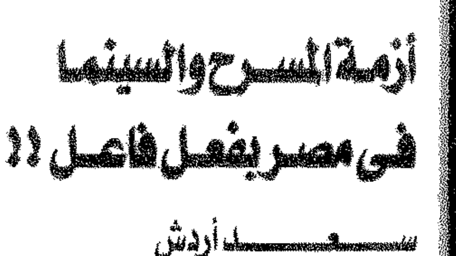
وقد حاول رءوف عباس قدر المستطاع إصلاح الأحوال فى قسم التاريخ فى مواجهة قوى عاتية متخلفة لا تبغى الا المصلحة الشخصية وأصدر مجلة المؤرخ المصرى. ويفرد رءوف فصلا كاملا عن مقابلة تمت مع السادات بحضور منصور حسن وذلك ضمن مجموعة من الأساتذة وشرح كيف فشلت مهمته وتمت تنحيته من هذه اللجنة وكيف رشح يونان لبيب رزق بدلا منه لوضع امتحان الثانوية العامة فى التاريخ وكيف رفضت وزارة التعليم ذلك، فعاد ورشح عاصم الدسوقى ولكنهم رفضوه لانه اثار مشكلة لانه وضع سؤلا فى العام السابق عن تاريخ فلسطين. وقد رفض الاهرام نشر خطاب لرءوف عباس بخصوص هذه المشكلة ونشرته الأهالى فى صفحتها الأولى.

ويفرد فصلا خاصا سماه «تحت القبة» وهو يشرح تردى الأحوال الأكاديمية

وانتشار الفساد فى الجامعة وفصلا آخر عن دوره فى الجمعية التاريخية ونشاطه فى دار الكتب والوثائق القومية.

وهذا الكتاب يحوى أشياء مهمة فيها عبق التاريخ فى أوائل الأربعينات ويركز على الحياة الجامعية التى عشش فيها الفساد وأصبح الاساتذة فيها يخافون ويهابون القيادة السياسية ويتوددون لها وبالاضافة الى ذلك فهو كتاب انسانى بالغ الرقة لا يدعى صاحبه انه قام بدور البطولة إنما يحكى بشجاعة فائقة وقائع محددة عايشها. اهلا بهذا الكتاب الجميل للمكتبة المصرية وتحيه لأستاذ عظيم تعتز به جامعة القاهرة.





أزمة المسرح والسينما فى مصر بفعل فاعل !!

سعد أردش

لم يقدم المسرح المصرى الكثير وخصوصا مسرح القطاع العام ، سواء كان البيت الفنى للمسرح ، أو البيت الفنى للفنون الشعبية والاستعراضية والغنائية . ويبدو أنه ليس لدى المسئولين رغبة فى ذلك !

إنما على كل حال ، فمن الأعمال التى قدمت فى عام ٢٠٠٣ ثم امتدت إلى ٢٠٠٤ مسرحية «الملك لير» ، حيث استطاع مخرجها أحمد عبد الحليم أن يعمل تفسيرا إنسانيا معاصراً ، وقريبا جدا من المشاهد المصرى ، وهذا أدى إلى عرضها فترة طويلة ، فضلا عن عرضها أكثر من مرة ، كما دعيت لتقديم عروض فى عدة بلاد عربية ، وشاركت فى مهرجانات مسرحية.

وربما هذا هو العمل المحترم الذى توقفت أمامه ، ويعود الفضل فى ذلك إلى مخرجه.

ولكن دعونى أقول بأن البيت الفنى للمسرح مقل جداً فى أعماله ، وحتى مسرحيتى «الملك لير» و «زواج على ورقة طلاق» لألفريد فرج ، وهى أيضا من إخراج أحمد عبد الحليم ، هاتان المسرحيتان قدمتا فى ٢٠٠٣ قبل أن تتولى



الإدارة الجديدة للبيت الفنى للمسرح.

وغير ذلك لم أر شيئاً جديداً فى المسرح ذا قيمة !

وبالطبع إذا استمر الحال على هذا المنوال فسوف يغلق !

الآن كل دور المسرح التى تتبع البيت الفنى للمسرح مغلقة فالمسرح الحديث يعيد ما قدم فى شهر رمضان «قاعدين ليه» لسعيد صالح ، والمسرح القومى لا يقدم شيئاً ، والطليعة مغلق، والشباب مغلق ، ومسرح الغد مغلق هو الآخر ، وبالتالى ماذا نفعل ؟

وإذا لم نستدرك ما يحدث الآن ، وأعدنا النظر فى هذا الموقف الذى يجمد المسرح المصرى ، فسوف تكون النتيجة سيئة ، وإذا أردنا إعادة النظر ، فينبغى أن نعيد النظر فى القيادات أولا ، ونعيد النظر فى المنهج ، وأيضا ضرورة إعادة النظر فى التخطيط العلمى للمسرح.

وكل هذه العناصر التى أشرت إليها لم تتوفر فى الإدارة الجديدة للمسرح ، ولكى تتوافر ، لابد من عمل جهد كبير .

لابد لنا أن نعرف أن المسرح المصرى منذ بداياته كان يضم روادا وقيادات تهتم به شكلا وموضوعا ، يعرفون بالضبط البرنامج الذى «يشد» وتهتم به الجماهير المصرية للمسرح ، ولكى أضرب مثلا لذلك ، ينبغى أن نراجع – مثلا – مسرح الستينات ، وهنا سوف نجد أن المؤسسة العامة لفنون المسرح والموسيقى ، تقدم فى كل مسرح من مسارح الدولة عشرة عروض – على الأقل – فى السنة الواحدة مقسمة بين عروض مصرية ، وعروض عربية ، وعروض عالمية وهذا فى رأيى هو ما نسميه بالتخطيط العلمى.

ومن هنا أقبل المشاهد على المسرح ، لدرجة أن عدد المشاهدين انتقل من بضعة آلاف إلى ما يفوق المليونى مشاهد.

وهذا هو ما نود أن نعود إليه ، ويستلزم ذلك أن نؤمن بالتخطيط العلمى السليم ، وكما ذكرت فى البداية فذلك يستلزم إعادة النظر فى القيادات المسئولة عن المسرح المصرى.

فالقيادات الحالية الموجودة إما غير مبالية ، وإما غير قادرة على العمل !

ولو أردنا أن نربط ما يحدث للمسرح بالضعف الذى أحل بالسينما فلابد أن نعرف بأن كل وسيلة من وسائل التعبير لها مناطق الاختصاص ، ومناطق

الشد والجذب .

والمسرح بالذات كمؤسسة تثقيفية تنويرية ، يتميز بالدرجة الأولى بأنه حوار حى بين الجمهور الذى يجلس فى الصالة ، والممثلين الموجودين فى الفراغ المسرحى ، وهذه ميزة غير موجودة فى كل وسائل التعبير التكنولوجية ، سواء أكانت إذاعة أو تليفزيون أو سينما ، ومن هنا فإن العالم المتحضر يركز على هذه النقطة ، وركز على اختيار أعمال تهم الجماهير ، وتتحاور مع قضايا الجماهير ، أو على الأقل تقدم لهم أعمالا جمالية منتقاه من التراث الإنسانى والعالمى.

وقضية السينما من وجهة نظرى مختلفة كل الاختلاف، لأنه بالنسبة للمسرح إذا كانت الدولة قد أبقت على البيت الفنى للمسرح ، والبيت الفنى للفنون الشعبية والاستعراضية والموسيقية ، فإن الدولة أو وزارة الثقافة بمعنى آخر قد ألغت قطاع السينما ، وبالتالى أصبحت السينما فى أيدى القطاع الخاص ، أى فى يد رأس المال .

ورأس المال يسعى بالدرجة الأولى إلى الربح . ولهذا فإننا نرى السينما تجتاز أزمة شديدة ، أو فلنقل تتخبط ، وربما ذلك المشروع الذى قام به التليفزيون – إدارة السينما الجديدة – قد أعطى – على الأقل – الأمل فى أن تعود السينما المصرية مرة أخرى .

وهنا نتوقف عند نهضة السينما المصرية ، عندما كان المخرجون الكبار يتنافسون ، ويقدمون عشرات الأفلام فى السنة الواحدة. هذا الجهاز الذى أشرت إليه ، حينما يصل إلى هذه الدرجة ، ويبدو أنه هو الآخر ليس لديه خطة تنموية ، أو خطة طموحة ، لكى يعيد السينما إلى مستواها !

ذلك كله يدعونى للتوصل إلى حقيقة مؤلمة ، وهى أننا يمكن أن نتقدم فى الزراعة ، وفى التعليم ، وفى التأمين الصحى والنقل والاتصالات .

فلماذا لا نتقدم فى الثقافة ؟!

هل مصر لا تتقدم فى الثقافة ، لأنه ليست لديها الكفاءات والكوادر الثقافية التى تطور الحركة الثقافية ؟!

والإجابة بالقطع .. لا ! لأن مصر عامرة وولودة ، وتعطى للثقافة فى كل جيل

بلا عدد .

وهل لأن الجماهير غير مقبلة على النشاط الثقافى ؟!

وأجيب أيضا بأن ذلك غير صحيح! بدليل أن الجماهير تقبل على الكتاب ، ومعارض الفنون التشكيلية ، ومهرجانات السينما ، وتقبل على مهرجان القاهرة للمسرح التجريبى، إذن الجماهير موجودة ومنطلقة .

وإذن فهناك سبب آخر - لا هو متصل بكوادر الثقافة ، ولا هو متصل بالجماهير .. هذا السبب الآخر من وجهة نظرى قد يكون - وأرجو ألا أكون مخطئا - أن الدولة لم تضع فى اعتبارها أن تزرع الثقافة بوجه عام ، والمسرح بوجه خاص فى البنية الأساسية للدولة ، بحيث أن المسرح يأخذ طريقه فى التطلع والطموح ، والنمو والازدهار مثله مثل المؤسسات الأخرى.

وحينما نبحث عن المسرح - مثلا - فى البنية الأساسية للدولة تجده مسألة هامشية ، لا تطبق خطة علمية طموحة ، تقصد بالمعنى الحقيقى والموضوعى تثقيف وتنوير الجماهير .

وبهذه المناسبة - إذا كان رأيى فى محله - أدعو الدولة ووزارة الثقافة بالذات إلى أن تعيد النظر فى وضع الأجهزة الثقافية بوجه عام .. والمسرح بوجه خاص.



حد الغواية .. رواية فاتنة

جميل عطية إبرهيم

«حد الغواية» لعمرو عافية رواية متميزة وفيها جمال وفتنة وصادرة عام ٢٠٠٤ عن دار ميريت . ومرجع الفتنة فى هذه الرواية يستند إلى معالجتها لأحداث تتعلق بسنوات السبعينات من القرن الماضى ومخاضها التعيس على خلفية من التاريخ ومعرفة الكاتب الواسعة بمولد الحركة الصهيونية والخلفية الفكرية الحاكمة لهذه الحركة عبورا بحرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وحتى أيامنا هذه .

وعمرو عافية متخرج من كلية طب الاسكندرية سنة ١٩٨١ ومن مواليد سنة ١٩٥٨

وعاش كطالب جامعى أحداث حركة الطلبة فى السبعينات وشاهد نشأة الحركات الأصولية وصراعها مع اليسار الجامعى وكذلك الأزمات السياسية التى صاحبت عصر الرئيس السادات .

وعلى الرغم من انتساب الكاتب - بحكم العمر - إلي جيل الثمانينات أو التسعينات أو ما بعد ذلك كما يشاء فى الأدبيات المتداولة حاليا فقد ابتعد تماما عن مزاعم الحداثة وكتابة الجسد والشكلانية وغير ذلك من أقاويل وانغمس روائيا فى صلب المشاكل السياسية ليضرب بمطرقة ساخنة ويفجر القضايا الحريفة من منطلقات روائية بحتة أضفت على روايته جمالا وفتنة بسبب تعمقه فى موضوعه وإلمامه به مع معرفة عميقة بأصول الفن الروائى خاصة فى أرقى صوره واهتمامه على وجه الخصوص بدراسة أعمال وليام فولكنر وروايته الفذة «الصخب والعنف» وقد استفاد كثيرا فى بناء روايته من مبنى رواية «الصخب والعنف» فى تقطيع الزمان والخروج والدخول فى لعبة كر السنين بطريقة سلسلة بعيدة عن تعقيدات وليام فولكنر وألغاز تيار الشعور واللاوعى.

الفصل الأول من هذه الرواية والمعنون «باريس يوليو ١٩٩٨» حيث جاء الصحافى طارق شاهين ليبحث عن هاشم الصادق ليحل لغزا يشتبك مع الفصل الأخير المعنون لانى - سور - مرن يوليو ١٩٩٨ .

وكأن الرواية كلها تدور فى شكل دائرى - روندو - بينما بقية فصول الرواية تدخل إلى أمكنة فى أزمنة سابقة وتخرج منها إلى أمكنة وأزمنة لاحقة . وهذا البناء الفنى المعقد جاء سلسلا فى هذه الرواية وهذه تحسب للكاتب .

هذا من ناحية البناء الفنى أو الشكل، فإذا غصنا إلى صلب الرواية - المضمون - نجد الكاتب قد نجح فى فتح مجموعة كبيرة من الملفات الساخنة ، وهل توجد فى منطقتنا قضية أسخن من القضية الفلسطينية وجرائم الحركة الصهيونية منذ نشأتها؟

هذه القضية الساخنة ترتبت عليها مسائل وعلاقات اجتماعية فى الخمسين سنة الأخيرة قبل حرب ١٩٤٨ تتعلق بالمسألة اليهودية والفرق بينها وبين المسألة الصهيونية وإقامة دولة إسرائيل ككيان استعمارى فى المنطقة العربية .

ومن الملفات المسكوت عنها مسألة زواج مسلم من يهودية قبل حرب ١٩٤٨ فى

سلام، وقيام رجال أعمال يهود فى المشاركة فى قطاعى الأعمال والاقتصاد وبقية مناحى الحياة فى مصر وغلق هذا الملف وتجريمه - أو على الأقل رفضه - بعد حرب ١٩٤٨ وبعد حرب ١٩٦٧ على وجه التحديد . والرفض الشعبى الكاسح للتطبيع الفردى أو على مستوى الدولة أيضا - وبعنف .

المشاعر العربية لم تعد تسمح فى ظل مذابح وجرائم حرب ترتكب يوميا للفرح والبهجة بزواج مختلط من هذا النوع .

رواية «حد الغواية» لا تشجع على مثل هذا الزواج المختلط كما ظن البعض ولكنها تتناول ملفا من ملفات الماضى . ملفا من تاريخ المنطقة وتعرضه على بساط البحث فهل نتنكر للتاريخ بسبب الخوف من نبش صفحات قريبة ؟

فصول الرواية تفيض بتقديم جرائم الحركة الصهيونية وفضح أولوياتها القائمة على مقولات ثبت عدم صحتها مثل عودة المحرومين من وطن إلى أرض خالية من البشر وغير ذلك من مقولات التفوق للعرق .

وتكشف الرواية من جانب آخر عن تعصب آخر شاع مع قيام الحركات الأصولية وممارسة عمليات إرهابية لكنها لا تخلط مطلقا بين أسباب وبنية الحركتين - فالإجرام الصهيونى مرافق لنشأة الحركة الصهيونية ويعتبر من أساسياتها ولا يمكن قبوله بأية معايير فهو لا يصنف فى القانون الدولى إلا كجرائم حرب وجرائم إبادة الجنس أما تجاوزات الجماعات الأصولية على الرغم من بشاعتها فهى بمثابة ردود أفعال وتصنف كجرائم قتل وليس إبادة الجنس فإبادة الجنس المتعمد القصدى تحكمها فلسفة وتمييز عرقى أو دينى وغير ذلك من فلسفات التمييز المجرمة قانونا . ويحسب للكاتب أنه تناول الحركة الصهيونية بكل هذا الوعى المعرفى بالتاريخ وكذلك تناوله للحركات الأصولية فى الشرق الأوسط كرد فعل لمظالم .

وتتعدد الخطابات فى هذه الرواية ومنها حالة الطبيب الذى مال فى مرحلة الدراسة الجامعية إلى الجماعات الأصولية وفقد عقله فى النهاية .

النص الروائى لا يمتلك خصوصيته أو قيمته من أهمية القضايا التى يثيرها، فهو ليس مرافعة لكنه يمتلك خصوصيته فقط من التصاقه بقضايا الحق والخير والجمال، وقد التصق هذا النص بقضايا شديدة الأهمية وفتح ملفات مغلقة من بوابة الحق والخير والجمال ففتح أذهاننا وأمتعنا جماليا وفنيا . ■

الرواية عام ٢٠٠٤

بقلم
د. حامد أبو أحمد

كنت فى مدريد منذ سنوات ، وتصادف أن شاهدت فى إحدى القنوات التليفزيونية برنامجا عن الرواية ، فوجدت المتحدثين يتكلمون عن أنه لكثرة مايصدر من روايات يبدو وكأن الشعب الإسبانى كله يكتب الرواية. ومن يقوم بإحصاء لما يصدر فى مصر والعالم العربى الآن من روايات سوف يحس بنفس هذا الإحساس. فالروايات تصدر يوميا لكتاب قدامى وكتاب جدد حتى صار من الصعب ، بل من المستحيل ، أن يستطيع الناقد المتخصص فى فن الرواية أن يلم بكل هذا الانتاج وأن يقرأه.



وتتوالى الأيام والشهور والسنوات فيزداد إحساس هذا الناقد بأن للقدرة البشرية حدودا، ويزداد اقتناعه بأن النقد في عصرنا الحاضر لابد أن يتم بشكل جماعي، بمعني أن يقوم العمل النقدي علي أساس موسوعي، توزع فيه الحصص علي عدد من الكتاب والنقاد كل منهم يدرس زاوية محددة، أو عددا من المؤلفين، أو مجموعة من الروايات.

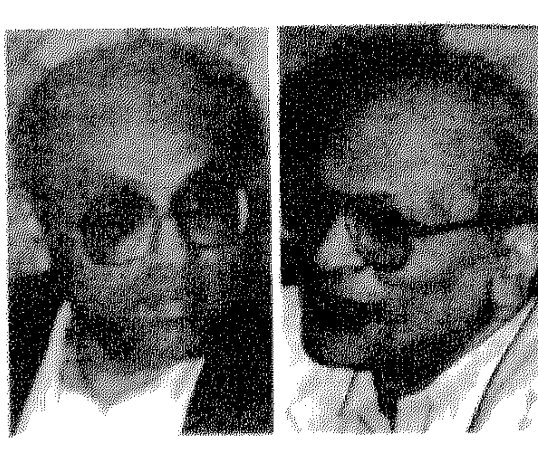
وربما لايكون هذا الأمر ملحا فى أجناس أدبية أخرى مثل الشعر، لكنه فى الرواية أصبح ضروريا، وأذكر أنى عندما كنت أدرس فى إسبانيا كنت ألاحظ أن كثيرين من النقاد تخصصوا فى الكتابة عن هذا الشاعر أو ذاك، أو عن فلان الروائى.. فناقد مثل ريكاردو جيون كانت معظم أعماله تدور حول شاعر وكاتب روائى هما: خوان رامون خمينيث الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٦، وبنيتو بيريث جالدوس رائد الواقعية فى الرواية الإسبانية فى القرن التاسع عشر، ولاشك أن كلا منهما كان يحتاج بالفعل إلى

أكثر من ناقد، وهذا ما حدث، فخوان رامون كان شاعرا غزير الإنتاج، متعدد الجوانب، مجددا ومؤسسا لاتجاهات شعرية مهمة مثل الحداثة، والرمزية، والشعر الصافى أو الخالص، وكان له تأثير قوى على الشعراء الذين جاءوا بعده المعروفين بـ «جيل ١٩٢٧» مثل جارثيا لوركا، وبيثينتى ألكساندر وخورخي جيين وسواهم، أما جالدوس فكان كاتبا غزير الانتاج بصورة لامثيل لها، ويكفى أن له رواية هى «الأحداث القومية» يصل عدد مجلداتها إلى اثنين وأربعين مجلدا، فضلا عن أعماله الأخرى الكثيرة.

واضح إذن أن الإنتاج الإبداعى فى كل أنحاء العالم غزير جدا، بما فى ذلك مصر والعالم العربى. لقد قدم المرحوم الدكتور على شلش فى كتابه «نشأة النقد الروائى فى الأدب العربى الحديث» إحصائية تقول إنه فيما بين عامى ١٨٧٠ و١٩١٤م صدرت مائتان وخمسون رواية كان الكثير منها يستلهم التراث القديم فى بعض أبنيته التعبيرية. وإذا كان هذا قد حدث فى فترة كنا نتلمس فيها كتابة الرواية فما بالك بالفترة الحالية بعد أن تأصل فن الرواية فى الأدب العربى وخطا خطوات قوية وواضحة نحو العالمية؟.

ظواهر وملامح خلال العام

إننى عندما قمت بتجميع مالدى من روايات صدرت خلال عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤ هالنى هذا الكم من الكتب، وعلى





الرغم من أن ما عندى هو جزء فقط مما نشر فى مصر خاصة، فما بالك لو وصل إلىّ كل المنشور من الروايات فى مصر والعالم العربى؟! وقد أحصيت ما استطعت أن أقرأه من هذه الأعمال التى لدى فوجدت أنى لم أقرأ إلا القليل منها. ومن ثم فإننى أنبه القارىء منذ البداية إلى أن هذه الدراسة سوف تكون انتقائية، وأنها لن تحيط علما بكل مانشر من روايات على امتداد عام واحد، وأنها من ثم تبحث فى الأطر العامة وليس فى الخصائص الذاتية الفردية، إنها نوع من الرصد لظاهرة باتت تستعصى على الجهد الفردى الواحد، لكننا على أية حال لن ننتظر حتى يأخذ الجهد الجماعى دوره فى ثقافتنا المعاصرة، وبالتالى سوف نحاول أن نرصد بعض الظواهر والملامح التى جاء بها العام المنصرم ٢٠٠٤، وهو الذى سوف نقتصر عليه فى هذه الدراسة.

وأول ملاحظة نخرج بها من رصدنا

لما نشر من روايات عام ٢٠٠٤ هى أن إنتاج الأسماء المعروفة كان قليلا إذا قارناه بعدد ماصدر للأسماء الجديدة أو التى عرفت منذ سنين قليلة فقد نشر محمد كمال محمد رواية «الجراد والزقاق» وهى رواية تتلمس طاقة النور فى القبو المظلم، أو تبحث عن الورد وسط كومة من الشوك. ونشر جمال الغيطانى رواية «نوافذ النوافذ» وهى نوع من السيرة الذاتية منذ الطفولة والشباب إلى اللحظة الراهنة يطل فيها المؤلف من نوافذ كثيرة رآها فى حياته مثل النوافذ الأولى، ونوافذ الفزعات، ونوافذ السفر وسواها، يوسف القعيد صدرت له رواية «قطار الصعيد» التى كتبها أكثر من مرة - كما ذكر لنا فى آخر صفحة - «كتابة أولى» عام ١٩٨٠، و«كتابة أخيرة »عام ٢٠٠٠، ولعله أدخل عليها لمسات أخرى فى أوقات مختلفة، وهذه عادة عرفناها عند كثير من المؤلفين فى كل أنحاء العالم، يوسف القعيد فى هذه الرواية يقدم لنا عملا يقترب من الرواية البوليسية، لكنه مفعم بأشواق اللحظة الراهنة وصروفها، وتطلعات الناس. وقد اقترب المؤلف فى بعض المشاهد من الواقع السحرى الذى يمثل تيارا مهما فى الرواية العالمية الآن. أما محمد جبريل فقد قدم لنا رواية «حكايات الفصول الأربعة» التى جاءت بعد عدد آخر من الروايات صدرت له خلال الفترة الأخيرة من بينها رواية تقوم على الفانتازيا عنوانها «نجم وحيد فى الأفق» ورواية تستلهم سيرة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله. محمد عبدالسلام العمرى نشرت له «روايات الهلال» رواية «قصر الأفراح» التى جاءت بعد روايته الأخرى التى أثير حولها جدل كثير وهى «الجميلات»، وكل هذا يضاف إلى ما أنتجه العمرى خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة. صدرت لإبراهيم عبدالمجيد رواية خارج مصر ولكنها لم تصل إلى هنا. ولاشك أن هناك روايات أخرى لأسماء معروفة صدرت خلال عام ٢٠٠٤، ولكنى لم أرها أو لم أدون معلومات عنها. لكن الملاحظ أن هذه الأسماء المعروفة استنفدت طاقات كبيرة خلال عام ٢٠٠٣ بإصدار عدد كبير من الأعمال التى كان لها أصداء فى الساحة الثقافية مثل رواية «أمريكانلى» لصنع الله ابراهيم، و«رتق الشراع» لفؤاد قنديل، و«إنه الرابع من آل مستجاب» لمحمد مستجاب، و«ليلة عرس» ليوسف أبو ريه، و«ماذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله» لمحمد جبريل، و«لهو الأبالسة» لسهير المصادفة، وهى وإن كانت روايتها الأولى إلا أنها استقبلت استقبالا طيبا فى الوسط الثقافى، ورواية «عصف الرياح» لمحمد كمال محمد و«شارع مصنع النسيج» لصفوت عبدالمجيد.، و«الكوميديا الشيطانية» لهانى الرفاعى، و«فنار الأخوين» لفوزية مهران..



وغيرها .. أعمال كثيرة لسلوى بكر، ومحمد البساطي، وخيرى شلبى، وإدريس على، وحسن نور، وسمية رمضان، وسحر الموجى، ونعيم صبرى، وسعيد بكر، ومصطفى نصر، وعماد الدين عيسى، ويحيى مختار، وإدوار الخراط، ومحمد قطب، وغيرهم.

فى العالم العربى صدرت أيضا روايات كثيرة لأسماء معروفة، وأسماء جديدة تحفر بقوة في عمق الإنتاج الروائى العربى، مثل نورة الغامدى، ويوسف المحيميد، وفهد العتيق، وعائد خصباك، وصالح السنوسى، والطاهر وطار، وسالم حميش وسواهم.

أسماء واعدة

وفى مقابل قلة الإنتاج الروائى للأسماء المعروفة خلال عام ٢٠٠٤ وجدنا عددا كبيرا من الأعمال لكتاب عرفت أسماؤهم منذ سنوات قليلة أو يدخلون المجال للمرة الأولى، من هؤلاء علاء الأسوانى فى مجموعة قصصية أصدرها تحت عنوان «نيران صديقة» ، لكن ثبت أن القصة الأولى فى هذه المجموعة وهى «الذى اقترب ورأى» ليست إلا رواية من ذلك النوع الذى نسميه رواية قصيرة أو novela لأنها تزيد على مائة صفحة. وقد أثير جدل كبير حول هذه القصة لأنها تقدم أفكارا صادمة ومثيرة للخلاف، وخاصة الفكرة



محمد جبريل — محمد عبد السلام العمرى

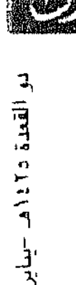
التى تقول إننا نحن المصريين من أفضل الشعوب، حيث يطرح علينا الراوى فى البداية هذا السؤال: «.. وإذا كان مصطفى كامل يختار، بإرادته الواعية كما يزعم، أن يكون مصريا! فلابد أن أسبابا مهمة دفعته إلى هذا الاختيار!، لابد أن يرى فى الشعب المصرى فضائل لاتوجد فى أى شعب آخر. ماهذه الفضائل إذن؟ هل يتميز المصريون مثلا بالجدية وحب العمل كالألمان أو اليابانيين؟ هل يعشقون المغامرة والتغيير كالأمريكان؟. هل يقدرون التاريخ والفنون كالفرنسيين والإيطاليين؟ ليسوا على أى شىء من ذلك . بماذا يتميز المصريون إذن؟ أين هى فضائلهم؟..الخ».. ولاشك أن هذه الرواية تضاف إلى العمل المهم الذى أصدره علاء الأسوانى قبل ذلك، وهو «عمارة يعقوبيان».

من هذه الأسماء أيضا ابتهال سالم فى روايتها «صندوق صغير فى القلب» وهى مكونة من ثلاثة أجزاء: الحى القديم،

والرحيل، والحنين . وكانت ابتهال سالم قد نشرت من قبل رواية تحت عنوان «نوافذ زرقاء». أما رضا البهات فقد نشرت له في إبداعات التفرغ رواية «شمعة البحر» وهي رواية تعود بنا إلى أيام ماضية منذ بداية ثورة يوليو ١٩٥٢. وبشرى أبو شرار الكاتبة الفلسطينية المقيمة بالإسكندرية قدمت لنا خلال عام ٢٠٠٤ روايتها الثانية «شهب من وادي رام» ، وهي رواية تستلهم فيها التاريخ والموروث القديم لمنطقة فلسطين التي نكافح الآن من أجل أن نحصل على وطن معترف به في جزء منها فقط . وكانت بشرى قد أصدرت خلال عام ٢٠٠٣ رواية أخرى عنوانها «أعواد ثقاب» إلى جانب مجموعاتها القصصية الثلاث منذ عام ٢٠٠١ إلى الآن. والحق أن هذه المؤلفة الفلسطينية تحاول أن تحفر لنفسها مساحة متميزة ضمن الإنتاج القصصي والروائي العربي.

والمهندس أحمد ماضي الذي يقيم ندوة شهرية بقريته القريبة من مدينة كفر الشيخ صدرت روايته الأولى «الظلام الدافيء»، وهي رواية تقدم أنماطا من الشخصيات السوية المكافحة من أجل أن تجد لنفسها طريقا في زحمة الحياة التي نعيشها الآن. وقد انتهى أحمد ماضي من كتابة رواية أخرى عنوانها «ابحثوا لنا عن إمام آخر» أعتقد أنها سوف تثير الكثير من الجدل عند صدورها لأنها تناقش موضوعات ساخنة مطروحة الآن بقوة عندنا على الصعيدين السياسي والاجتماعي.

والسيد الوكيل الذي عرفناه كاتبا للقصة القصيرة وناقدا دخل في عام ٢٠٠٤ عالم الرواية بروايته «فوق الحياة قليلا» والأسماء، في الحقيقة، كثيرة: فرات عبدالله، وحسن هند، وأحمد أبو خنيجر، وصلاح مطر، وشوقي عبدالحميد، وغيرهم. وكل كاتب يحاول أن يأتي متميزا عن غيره، وأن تكون له بصمته، وأن يجذب الانتباه. ولاننسى في هذا الشأن أن نشير إلى أسماء أخرى واعدة في مجال الرواية، مثل خليل الجيزاوي الذي نشر إلى الآن ثلاث روايات هي «يوميات مدرسة البنات» و«أحلام العايشة» وأخيرا خلال عام ٢٠٠٤ رواية «الألاضيش»، فضلا عن مجموعة قصصية. هناك أيضا خالد السروجي،. وإبراهيم صالح، وسهام بيومي، والمرحوم مصطفى عبدالوهاب الذي قرر قبيل وفاته اقتحام عالم الرواية .وغيرهم. وإذا أضيفت هذه الأسماء إلى الأسماء الأخرى الكثيرة التي تعمل في الساحة، أو التي دخلتها منذ سنوات قليلة، لأدركنا مدى الصعوبة التي تحيط بأي ناقد يحاول تقديم رصد موضوعي لكل هذه الأعمال، ولهذا فإني كما فصلت في بداية هذه الدراسة، أرى أنه من الأفضل أن يختار الناقد أحد طريقين أو

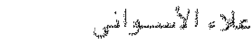


كليهما: فإما أن يدرس كل كاتب على حدة، وإما أن يختار فترة محددة يكرس لها جهده لفترة طويلة، ويمكن أن تدخل هذه الفترة فى إطار عمل جماعى. وإذا فعلنا ذلك فإني أعتقد أننا قد نصل إلى جهد نقدى يتطابق أو يتوازى مع الجهد الإبداعى . وإذا لم يحدث هذا فسوف تظل كل كتبنا النقدية تدور فى حدود الجهد الانتقائى الفردى. وهذا مالاحظته من قراءتى لعدد كبير من الكتب النقدية الصادرة خلال الفترة الأخيرة، وبعض المؤلفين كانت تبلغ بهم درجة الادعاء حدا يدخل فى نطاق المستحيل عندما يضع الناقد لكتابه عنوانا شموليا تظن من خلاله أنك سوف تعثر على توصيف لكل الروايات التى صدرت خلال النصف الثانى من القرن العشرين مثلا.

ظاهرة لافتة للنظر

وهى ظاهرة مهمة لايمكن أن نختتم هذه الدراسة القصيرة دون أن نلم بها، وهى العودة مرة أخرى إلى «الواقعية» بخصائص وسمات تتفق مع ماتميزت به الواقعيات السابقة، وإن كانت هذه المرة من منظورات مختلفة وباستخدام تقنيات جديدة، ومعروف أن الواقعية صارت لها صور وأنماط متعددة كالواقعية النقدية، والواقعية الاشتراكية، والواقعية النفسية، والواقعية السحرية، والواقعية البنائية وغيرها. صور كثيرة درستها كتب كثيرة




علاء الأسوانى — خيرى شلبى

أيضا، من بينها «واقعية بلا ضفاف» لرجاء جارودى . ومما تتميز به الواقعية الجديدة وتتفق فيه مع الواقعيات السابقة اكتشاف الجوانب السلبية فى حياتنا الحاضرة لتسليط الأضواء عليها حتى يمكن معالجتها أو تجاوزها. هناك أيضا رصد الواقع من أى منظور أو أى اتجاه، والكشف عما يعانيه الفرد المنسحق فى زمن لم يعد فيه مكان للضعيف، وغير ذلك من خصائص وسمات عامة وموجودة فى كل عصر. لكن هناك سمات جديدة وليدة اللحظة الحاضرة، من بينها : انسحاق الفرد فى زمن العولمة أو الرأسمالية المتوحشة، والمقارنات التى لاتنتهى بيننا وبين أمم سبقناها فى مجال التحديث، لكنها قطعت أشواطا مهمة فى مجال الحضارة والتقدم بينما نحن مازلنا فى مكاننا لم نراوحه بعد. هناك أيضا البعد النفسى الذى أصبح يلعب دورا أساسيا فى الإنتاج الروائى المتميز بعد أن اتضح أن البعد الداخلى أو النفسى

لحياة الإنسان أعمق بكثير من الواقع الظاهر وأكثر دخولا فى جوانب الصدق والكشف والبيان. لاننسى كذلك التكثيف فى استخدام التقنيات المحدثة، وقد كان هذا نتيجة طبيعية للتعرف على الإبداعات الجديدة التى شكلت علامات بارزة فى تطور الفن الروائى فى كل أنحاء العالم، بما فى ذلك أدب أمريكا اللاتينية الأخير الذى كانت له أصداء واسعة فى ساحتنا الثقافية.

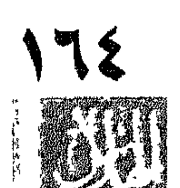
من هذا المنظور سوف أقدم بعض أمثلة من هذا التيار الواقعى الجديد ولن يقتصر كلامى على الأعمال الصادرة خلال عام ٢٠٠٤، وإنما يمكن أن أضم إليه العام السابق لأن التحديد الزمنى الصارم فى مثل هذه الملاحظة التى نحن بصددها ينطوى على بعض القصور.

ذكرت أن الرواية الواقعية الجديدة عادت لتكون أكثر التصاقا بالواقع وهذا واضح جدا فى رواية صدرت فى منتصف عام ٢٠٠٤ وهى رواية «الشىء الآخر» لسعيد سالم، فبطل هذه الرواية منصور عبدالرازق هو بطل من هذا الزمان الذى نعيشه، وهو بطل منسحق ومهزوم هزيمة مركبة ويشعر فى أعماقه بالعجز المطلق. عجز فى مواجهة واقعه الفردى، والواقع الجماعى، ولهذا يخاطبنا قائلا: «أنا فى حقيقة الأمر من ذلك الصنف من الناس الذين يتكلمون كثيرا ويفعلون قليلا. أظل أقلب الفكرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى استبصرها من مجال عريض الاتساع، فتتملكنى الحيرة، وأشعر بالتشتت والضياع، وأعجز فى النهاية عن اتخاذ قرار بشأنها، وتكون النتيجة صفرا» (ص٧٥٥).

وفى رواية «ليلة عرس» ليوسف أبو ريه يكشف الراوى عن التناقضات الرهيبة التى يعيش فيها مجتمعنا. فهذا أبو عاشور صاحب غرزة مشهورة فى القرية يدعى أنه يمنح أو (يأخذ) من العلم اللدنى ويصدقه هؤلاء السذج المحيطون به، وهذا مجرد مثل من أمثلة كثيرة فى الرواية.

وصنع الله إبراهيم فى «أمريكانلى» يناقش أسباب التفوق اليابانى التى يمكن أن نجدها فى: الموقع الجغرافى، والاستفادة من التراكم المالى والمدخرات التى جمعت فى سنوات العزلة، والسمات الشخصية حيث يتميز الفرد اليابانى بالانضباط والتفانى فى العمل، ولا ينسى الراوى أن يقول لنا إن الديمقراطية كان لها دخل فيما حدث فى اليابان وكل هذا يأتى فى إطار مناقشات مستفيضة فى عمل روائى طويل تبلغ صفحاته الخمسمائة صفحة.

أما علاء الأسوانى فى روايته المذكورة «الذى اقترب ورأى» فيفتش عن كل السيئات التى أوصلت الإنسان المصرى إلى حالته الراهنة، وجعلته في مجال المقارنة مع الشعوب الأخرى،



وخاصة في أوربا وأمريكا، في مرتبة أدنى بكثير ، ولاشك أن هذه الرواية يمكن أن يرفضها الكثيرون وهذا ماحدث فعلا، ولكني أعتقد أنها مثل مشرط الجراح قد يكون قاسيا جدا لكنه لازم وضروري.

فهذه إذن مجرد أمثلة من روايات واقعية بدأت ترصد اللحظة بعيون الكاميرا الدقيقة التي توجه لالتقاط صورة محددة . صحيح أن بعض الكتاب لهم باع طويل في هذا الشأن مثل صنع الله إبراهيم، لكن هناك آخرين يتوجهون نحو هذا الموضوع بقوة، وبعضهم بدأ يركز على أخطار الدكتاتورية وما تجره على الشعوب من خراب وويلات، وكثيرا ما يستلهم الكتاب سيرة حاكم دكتاتور من عصر سابق مثل رواية محمد جبريل المذكورة عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، ولاشك أن الكتاب العرب بدأوا أيضا يطرقون هذا الموضوع بقوة والدليل على ذلك رواية سالم بن حميش «مجنون الحكم» التي تبنى أيضا على سيرة الحاكم بأمر الله.

ولانختم هذه الدراسة قبل أن نشير إلى الإبداعات النسائية في مجال الرواية. وقد أشرت من قبل إلى بعض الروايات وبعض الأسماء، ولكني أضيف هنا أن الكتابة النسائية حفرت لنفسها بقوة في فن الرواية والقصة العربية، ولم يعد هناك أي فرق بين إنتاج الرجل وإنتاج المرأة، لأن المهم هو أن يكون الكاتب متميزا وصاحب بصمة ، وأن تكون الكاتبة كذلك. وهذا واضح جدا فيما يصدر من كتابات نسائية، كثير منها يصب داخل التيار الواقعي الجديد. وهذا يدل على أن الإبداع القصصي والروائي صار تراثا مشتركا يتأثر به الرجل والمرأة على حد سواء. وبعض الكاتبات لهن الآن عالمهن القصصي والروائي الزاخر بالشخصيات وبالأحداث مثل سلوى بكر، وفوزية مهران، ونعمات البحيري، ونجلاء علام، وهناء عطية، وسهام بيومي، وهالة البدري، ومنال القاضي، وعزة بدر، ورضوى عاشور، وصفاء عبدالمنعم، وسواهن . أسماء كثيرة وأعمال كثيرة اقتصرنا منها على ماصدر أو بعض ماصدر عام ٢٠٠٤، وهو بكل المقاييس كثير أيضا ويحتاج إلى جهود جماعية للرصد والتحليل.■


محمد البساطي



سلطة الشعر

بقلم
د. محمد عبد المطلب

مع زمن العولمة دخل الشعر العربى دائرة الاهتمام، وتتابعت عليه مجموعة مقولات، وبدأت بالمقولة الأولى (انحسار الشعر) ، ثم تلتها المقولة الثانية (زمن الرواية) ، ثم جاءت الجملة الأخيرة: (موت الشعر) التى ترددت على استحياء أولا، ثم استفاض الحديث عنها فى زمن العولمة الأخير، وكأن المقولات كانت تمهيداً لضم الشعر إلى شعار العولمة الأخير :(مقاومة الإرهاب) ، فكانت الجملتان الأولى والثانية بمثابة المقدمة، والجملة الأخيرة بمثابة النتيجة المرجوة .

وتوالى هذه المقولات على الشعر العربى يستحضر على الفور المقولة التراثية (الشعر ديوان العرب) ، فما المقصود بهذه الجملة؟ وما المقصود بالديوانية؟ . فى تصورنا أن الديوانية هنا تعنى الذاكرة العربية التى اختزنت ركائز الثقافة العربية وحرصت على نقلها من زمن إلى زمن، ومن جيل إلى جيل، وقد أوضح الناقد المغربى (ابن رشيق) فى كتابة (العمدة) مقصود الديوانية بقوله : «احتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر

أيامـهـا الصـالحـة وأوطانـهـا النازحـة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتـهـز أنفسـها إلى الكرم، وتدل أبناؤها على حسن الشـيم فـتـوهـمـوا أعـاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سـمـوه شـعـرا، لأنهم شـعـروا به:أي فطنوا».

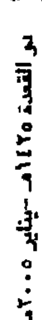
مـعنى هذا أن الشـعـر كـان ممثل السلطة الثقافية في الزمن العربى، وقد حـدد ابن سـلام فى (طبـقـات فـحـول الشـعـراء) طبيـعـة هذه الثـقـافـة بقـوله «وللشـعـر صناعـة وثقـافـة يعـرفـهـا أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات: منهـا مـا تثقـفـه العين، ومنهـا مـا تثـقـفـه الأذن، ومنهـا مـا تثـقـفـه اليد، ومنهـا مـا يثقفه اللسان».

لكل هذا تحولت المدونة الشعرية إلى (وثيقـة) ثقافية، تضم الأعراف والتقاليد والخبرات، كمـا تضم الوقائع والأحداث، ومن ثم تحـولت الوثيـقــة إلى أفق من الهـيـمنة التى لاتحـتـاج إلى مـسـتندات شرعية كغيرها من المؤسسات السلطوية فـأفق السلطة الشـعـرية مـفـتـوح للجـمـيع يدخلونه اخـتـيـارا، بوعى أو بدون وعى، سـواء أكانوا من مـبـدعى الشـعـر أم من متلقيه .

ونشـيـر إلى أن سـيطرة السلطة الشعرية كانت تتناوب عليها - أحيانا - لحظات تمرد فـردى أو جـمـاعى، ويكون ذلك إشارة على أن الشعرية العربية على أبواب مرحلة إبداعية طارئة، تمهد لسلطة إبداعية جديدة ، قد تكون موافقة للسلطة السـابقـة عليـهـا، وقـد تغـايرهـا فـى بعض الركائز أو الهوامش.

والتحرك من سلطة شعرية إلى أخرى لا يحتكم إلى جماعية أو فردية، فقد يكون لعنصر فردى من القوة ما يتيح له قدرا كبيرا من التأثير أولا، ثم السيطرة ثانيا، وهو مـا سـجلتـه المسـيـرة الشـعـرية مع شـعـراء بعـينهم أمـثـال زهـيـر بن أبى سلمى فـى الجـاهـليـة، وأبى نواس وأبى تمام وأبى العـلاء بعـد الإسـلام، أمـا فى العصر الحديث فقد ترددت أعلام ريادية مؤثرة أمـثـال: البـارودى وشـوقى ومطران وجـبـران، ثم نازك الملائكة والسـيـاب وأدونيس وصـلاح عبد الصـبور وحـجـازى وسـواهم من جيل الريادة.

وقـد زادت سلطة الشـعـر رسـوخـاً لكونه حامل الأداة التعبيرية التى اخترقت الزمـان والمكان، ونعنى بذلك (اللغــة العربيـة) التى لازمت الشعر فى مسيرته الطويلة المتجذرة فى العمق العربى، حيث كـانت العـربيـة أداة الشـعـر وغـايتـه على صعيد واحد، ولذلك كان ابن عباس يقول: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه



فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب».

(٢)

إن هذا التمهيد يضعنا أمام ركيزتين أساسيتين فاعلتين فى تشكيل الهوية العربية : اللغة والشعر ، وكلاهما فاعل فى لحظة الحاضر المعتمة التى تسود الواقع العربى بعد أن تهرأت مجموع سلطاته ووصلت إلى درجة بالغة الوهن، حتى إن أدواتها التنفيذية لم تعد قادرة على فرض سيطرتها بإحكام، لأن معظم مستنداتها الشرعية قد لاحقتها عوامل التعرية، ولم تعد السلطة الثقافية بقادرة على ترميم هذه المستندات ورتق خروقها، وخطورة ذلك فى أن الذات العربية أصبحت ممتلئة بكم هائل من المرارة المتمردة التى تسكن الداخل وتنتظر اللحظة المناسبة لينتقل التمرد من الداخل إلى الخارج، وقد أخذت ملامح هذا الانتقال تطل علينا من وسائل الإعلام المختلفة من ناحية، ومن تجليات الإبداع النثرية والشعرية من ناحية أخرى.

ومن المؤكد أن السلطة فى مستوياتها كافة تمتلك قدرا وافرا من الذكاء، وقدرا وافرا من التلون المرحلى الذى يساعدها على استعادة مناطق نفوذها فى المناطق التى أخذت فى الخروج عليها .

وذكاء السلطة يتمثل فى وعيها بأن الذات العربية الجماعية تتحرك غالبا إلى مناطق نفوذ السلطة الثقافية ومن ثم فإنها تزكى هذا التحرك بل ربما مهدت الأرض أمامه، لكن مع تعديل باب الدخول إلى رحاب السلطة الثقافية، ثم تعديل مكان الدخول نفسه، أى أنها تعمل على تعديل الأفق المهمين من (سلطة الثقافة إلى ثقافة السلطة)، وذلك بإنتاج ثقافة مصنعة وإكسابها قوة تنفيذية تتيح لها إزاحة سلطة الثقافة السائدة كليا أو جزئيا، وفى مقدمة ركائز السلطة المزاحة اللغة والشعر، وفى سبيل ذلك رفعت السلطة مجموعة شعارات تمثل مداخل شرعية لثقافتها الجديدة مثل : (تجديد الخطاب الدينى) و(تحديد الخطاب الثقافى) و(الخطاب مع الآخر) و(حوار الحضارات) و(الإصلاح الثقافى) .

واللافت أن المؤسسات العربية الرسمية هى التى رفعت هذه الشعارات وروجت لها وانفقت عليها بسخاء تمهيدا لإنتاج هذه الثقافة المصنعة وفق شروط العولمة، ولايهم إن كانت هذه الثقافة مضادة لمكونات الهوية العربية، المهم أن تكون موافقة لمواصفات العولمة.

ومعنى تصنيع الثقافة أن ترسخ لهيمنة السلطة من ناحية، وإعادة النفوذ لمناطق التمرد، أو المناطق الآخذة فى التمرد من ناحية أخرى .

ويبدو عمل السلطة على هذا النحو أشبه ما يكون بعملية تجميل مزيفة، سرعان ما يتغلب عليها الزمن، ويزيل آثارها الخادعة، وليس من همنا هنا أن نتابع مجموع الشعارات المرفوعة إجمالاً وتفصيلاً، لكن همنا الإشارة إلى ما يتصل منها بإجراءات التجديد التي لاكتها كثير من المؤتمرات والندوات (المعلنة) و(المغلقة) بإحكام على شخوص بعينها، وجداول أعمال محددة لايدخل فيها شئ من المكونات المحلية، أملاً في تفريغ (الذاكرة العربية) من مخزونها التراثي جملة، وفي مقدمة هذا المخزون (فن الشعر) ومن يتابع ركائز التجديد، يلحظ أنها تحمل دعوة مضمرة طورا، وصريحة طورا آخر لنقل الثقافة العربية جملة إلى (متحف الآثار)، وتحويل خطاباتها المقدسة إلى منتج بشرى قابل للرفض والطعن، وخطاباتها الثقافية إلى خطابات مزورة ليس لها مكان في عصر الهيمنة الكونية ومن ثم تغييب الخصوصية، ويصبح الطريق ممهداً لإنتاج ثقافة السلطة لتهيمن على القلوب والعقول .

(٣)

ننحي مؤقتا تجديد الخطاب الديني لنستحضر تجديد الخطاب الثقافي، وقد بدأت الدعوة إلى هذا التجديد بمقدمة مغلوطة فحواها: أن الثقافة العربية قد فقدت شروط الصلاحية، بل إنها المسئولة عن كل سوءات الحاضر، ولاسبيل للخروج من هذا الواقع الكارثي إلا باعتماد ثقافة العولمة التي يجب أن يخضع لها القاصي والداني .

وفي مقدمة الخطاب الثقافي المرفوض (الخطاب الشعري)، وبما أن الشعر حامل اللغة، فإن الخلاص من الشعر يعني الخلاص من اللغة أيضاً، والذكاء في المواجهة طرح المقولة الأولى (انحسار الشعر)، مع تقديم مبررات ساذجة من مثل أن المتغيرات الحضارية لم تعد مهيأة للتعامل مع هذا الفن بوظائفه المحنطة التي عفى عليها الزمن، وتناسى أصحاب المقولة أن فن الشعر ظل حاضرا وفاعلا منذ أقدم الحضارات وبرغم التطورات الهائلة التي مرت بها المجتمعات البشرية من البدائية إلى الزراعية إلى التكنولوجية، فإن الشعر حافظ على أن يكون في مقدمة الفنون القولية مع تعديل بعض وظائفه التحريضية والتأثيرية والتخزينية والجمالية واللغوية بل إن عظمة هذا الفن القولي في أنه حافظ على جوهره برغم دخوله في مراحل تطورية من حيث الشكل ومن حيث المضمون، حتى إن

كثيرا من أجناس القول حاولت الاقتراب منه، ولا أقول جديداً إذا زعمت : أن كل الفنون تهفو إلى الشعرية، وتستهدف بلوغ طاقتها الجمالية.

إن مقولة انحسار الشعر تتنافى تماما مع قانون الإحصاء الذى لايكذب ولايتجمل، إذ الملحوظ أن الشعراء فى تزايد لاتناقص، دون نظر إلى الجانب الكيفى، فهذا ما سوف نتناوله فيما بعدم،ولو أننا حصرنا رواد الحداثة الشعرية فى العصر الحديث لما زادوا على أصابع اليدين، فإذا انتقلنا إلي شعراء الجيلين التاليين، فسوف نجد كثرة بالغة، مما يعنى اتساع القاعدة الإبداعية، وهو ما ينافى مقولة (انحسار الشعر).

ولم يكد الشعر يتقبل الضربة الأولى ويتغلب عليها، حتى تأتيه الضربة الثانية التى تزعم أن هذا الزمن ليس زمن الشعر، وإنما (زمن الرواية) ويبدو أن هذا الشعار قد وقع فى التباس بين (الرواية) بوصفها أحد فنون القول، وأجناس أخرى تعتمد (فن الصورة) وبخاصة ما تقدمه (السينما وجهاز التليفزيون) وربما بسبب ذلك اللبس ظهر شعار جانبى مضاد لمقولة (زمن الرواية) هو (زمن المسلسل التليفزيونى) .

ولاشك أن أجهزة الصورة المرئية قد وضعت الرواية فى منطقة خلفية، وأبعدتها عن المنافسة أو المواجهة المباشرة مع المتلقى لما للأولى من جاذبية وإغراء وقدرة على الوصول السريع إلى المتلقى العام والخاص على حد سواء .

وإذا كانت الحضارة قد قدمت بدائل للرواية فإنها لم تستطع - بعد - أن تقدم بدائل حقيقية لفن الشعر، والأوفق القول بأن فنون الصورة قد أفادت كثيرا من فن الشعر فى السعى إلى العمق الإنسانى بتشكيلات جمالية تشبع العاطفة إشباعاً شبيها بالإشباع الشعرى، لكنها برغم ذلك لم تستطع أن تدفع الشعر للخلف كما فعلت مع الرواية .

(٢)

وبما أن الشعارين أو المقولتين السابقتين لم تحققا الهدف من إزاحة الشعر عن الصدارة الإبداعية، جاءت المقولة الثالثة(موت الشعر) لأن إعلان موته يعنى موت الذاكرة العربية بوصفها الجدار العازل الذى يحمى الذات العربية من الضياع فى مواجهة الطوفان الوافد بما فيه من صالح وطالح.

وللوصول إلى ترسيخ هذه المقولة (موت الشعر)، كان من الضرورى إتمام بعض الإجراءات التمهيدية، حيث حاول دعاة التجديد تشوية النماذج الشعرية الكبرى فى التراث العربى وصولاً إلى



زمن الحداثة، بدءا من امرئ القيس وصولاً إلى أحمد شوقى ونزار قبانى، بهدف إثبات إن مقولة (الشعر ديوان العرب) مقولة فاسدة، لأن النماذج البشرية للشعر نماذج فاسدة وخادعة، ومن ثم لابد أن تنتقل الديوانية إلى أجناس قولية أخرى على حساب الشعرية وهى أجناس ليس لها هذا العمق التاريخى التراثى الذى اكتسبه الشعر، ومن ثم فإن تدخلها ليس له قيمة حضارية يخشى منها على مواجهة العولمة بكل ضراوتها.

ثم يأتى الإجراء التالى الممهد لموت الشعر بزعم غريب، وهو أن الواقع العربى تسيطر عليه أنظمة (السلطة المطلقة) (الدكتاتورية) وأن المجتمع العربى لا ينفر من هذه الأنظمة على النحو الذى نعرفه فى الثقافة الغربية، وذلك يرجع عند أصحاب الدعوة لموت الشعر إلى أن الثقافة العربية قد كرست لتقبل مثل هذه الأنظمة عندما أعلت من شأن (الفحل الشعرى) وجعلته صاحب الأمر والنهى فى الواقع القديم، وهنا يرد على الخاطر فورا تساؤل محير : هل ياترى كان فى ألمانيا نموذج للفحل الشعرى الذى أنتج (هتلر)؟ وهل ياترى كان فى إيطاليا نموذج للفحل الشعرى أنتج (موسيلينى) وهل كانت الديكتاتوريات المنتشرة فى العالم شرقاً وغرباً وليدة الفحولة الشعرية، أم ذلك خاص بالثقافة العربية وحدها؟ ومن إنتاج الثقافة العربية للنظم الدكتاتورية، يتجه أصحاب مقولة (موت الشعر) إلى إجراء آخر يرون فيه مبررا للموت أيضا إذ يدعون أن الشعر العربى يتحمل مسئولية كبيرة فى تشويه الأنثى واضطهادها ثم تهميشها،فقد صورت الشعرية الأنثى فى صور جسد إغوائى مبتذل، وأن وظيفته الوحيدة إمتاع الذكر، وحتى عندما تربط بين الذكر والأنثى عاطفة ما، فإن الإعلاء يكون للذكر دائما، ويقتنص أصحاب هذا الرأى الأبيات الشعرية المفردة لكى يدللوا على صدق رأيهم .

والمغالطة هنا واضحة لأمرين نوجزهما فيما يلى :-

أولا : احتكام أصحاب الادعاء إلى الاجتزاء، وبتر الأبيات من سياقها الكلى، والأمانة العلمية تقتضى الاستقراء لا الاجتراء، فمقابل كل نموذج من هذه النماذج المرفوضة، عشرات النماذج التى تعلى الأنثى إلى آفاق بالغة السمو والشفافية .

ثانياً :أن أصحاب هذا الادعاء يقفزون قفزة متعمدة على مرحلة شعرية



كاملة، ربما لايكون لها نظير فى تاريخ الشعرية العالمية، هى مرحلة الشعر العذرى المكتنزة بكم هائل من إجلال الأنثى والارتفاع بها إلى درجة قريبة من القداسة ويطول بنا الأمر لو رحنا نقدم النماذج الشعرية التى توثق ما ندعيه، وهو ما نعد له دراسة مستقلة .

ويكاد التشوية الشعرى يصل غايته عندما يوضع على عاتق الشعر مسئولية شيوع ظواهر الكذب والخداع، والمبالغة والنفاق، ويستدل أصحاب هذه الدعوى بمقولة نقدية تراثية هى :(أعذب الشعر أكذبه)، وكأنهم يساوون بين الكذب الأخلاقى والكذب الفنى، ويلغون الفارق بين الخطاب الشعرى بكل تجاوزاته ومغامراته فى اللفظ والمعنى، والخطاب التوصيلى العملى بكل انضباطه الصياغى والدلالى.

(٥)

بقى أن نعرض لموقف أصحاب التجديد الثقافى من الشعر فيما يمكن أن يكون لهم فيه وجهة نظر ترتبط بحاضر الشعرية العربية،وذلك أنهم يرون أن الشعرية العربية دخلت مرحلة بالغة الضعف والرداءة، وبخاصة مع مرحلة الحداثة، وأن ذلك وحده يكفى لإعلان وفاتها، أو قرب وفاتها على الأقل.

وفى تصورنا أن هذا المدخل الذى يلجون منه إلى موت الشعر، هو أضعف المداخل، ذلك أن الرداءة تكاد تكون ملازمة لكل إبداع شعرى أوغير شعرى بل إنى قد أغلو بعض الشئ فأدعى أن الغلبة فى تاريخ الشعر كانت للردئ، لكن الزمن - كما تعودنا - يقوم بعملية تصفية، فينفى الردئ ويستبقى الجيد تتوارثه الأجيال، وكل جيل يستقبل إنتاج من سبقوه، ويضيف إليه، دون أن يلتفت إلى الردئ الذى لايروى إلا على الندرة، أو للتفكة .

وقديما قال القاضى الجرجانى فى كتابة (الوساطة) : «ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية، فأنظر، هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لايمكن لعاتب القدح فيه.. ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة، لو جدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة، ومردودة منفية».

وبرغم ذلك لم يدع القاضى الجرجانى - أو غيره - أن هذه الشعرية المسترذلة قد هددت الشعر العربى فى قليل أو كثير، فلم يصلنا أن شاعرا، أو عدة شعراء، أو حلفا شعريا قد هدد مسيرة الشعر بإبداعه الهابط فكل مرحلة شعرية مليئة بالغث والسمين، كما هو الأمر فى كل أجناس الإبداع، ولم يكن الغث يوما

مـدعـاة لنفى السـمين، ولم يكن مـدعـاة لظهـور نبـوءة مـوت الشعـر كـمـا نـسـمـع اليوم.

ويبـدو أن إشكالية الرداءة،إشكاليـة قديمة وجديدة فى الآن نفسـه، وقد عبر عنها الشاعر العباسى (دعبل الخزاعى) فى قوله :

يموت ردئ الشعر من قبل أهله
وجيده يبقى وإن مات قائله

٦

إن الذى نخلص إليــه، أن الشـــعــر بوصفة (ديوان العرب) سيحتفظ بسلطته الثقافية المهيمنة على الرغم من المنافسة الحادة التى تواجهه من أجناس الإبدا ع القولية وغير القولية .

لكن لاشك أن هذه المنافســة ســوف تعـدل من مـفـهـوم (الديوانيـة) لأن هناك مستجدات علمية وفنية وقولية استحوذت على بعض من مــقــتـنيــات الشـــعــرية، وأقتنصت منها بعض الوظائف .

وبرغم ذلك يبقى للشعـر – وحـده – التـعـبـيـر عن الجـوهـر الداخلى للإنسـان، وهو الأمـر الذى يسـتـعـصـى على سـواه، وهذا هو الذى أدركـه الشـاعـر الجـاهلى (طرفة بن العبد) فى قوله:

رأيت القوافى يتلجن موالجا
تضيق عنها أن تولجها الإبر

أى: أن الشـعـر قـادر على الوصـول إلى المكنون الذى لايستطيعه سواه .

وقـديما قـال مـعـمـر بن المثنى:«إن الشعر جوهر لاينفد معدنه».، وقد صدق الرجل فـبـرغم مـا انـتـاب الشـعـر من تحـولات داخلية وخـارجـيـة تبـعـا للتطور الحضارى الذى مر به العالم العربى، لم يفقد الشعر جوهره مخترقا حدود الزمان والمكان والوقائع والأحداث .

ولاشك أن نفوذ السلطة الشعرية كان بالغـا فى المؤسـسـة الأكـاديمية، حـيث سـيطر الشـعـر على مـعظم الدراسـات، قديمة وحديثة، كما كان بالغا فى الواقع العـربى العـام، فـقـد احـتل منصـة مـعظم الاحـتـفـاليـات والمؤتمرات والمهرجـانات والمسـابقات بجوائزهـا الرفيـعة، ومازال الإنسـان العـربى يسـتـرجـع مـحـفـوظه الشـعـرى فـى أحواله ومقاماته ومـواقفه، وكأنه يسترجع عنصرا مركزيا من هويته فى مواجهة القنابل العنقودية الموجهة إلى ذاكرته من أبناء جلدته أولاً، ثم من الآخر ثانياً . ■



الحسناء

قصة قصيرة

بقلم : محمد الشارخ

كنت على وشك أن أنام، فى الثالثة بعد الظهر وقد تغديت غداء خفيفاً ولبست البيجاما ودلفت للسرير وبدأ النوم يتسلل لعيونى حين سمعت دقا خفيفاً على الباب . من يكون؟ لايمكن لأحد أن يأتى للغرفة ولا حتى الجرسونات طالما وضعت على الباب إشارة يرجى عدم الإزعاج ، وظننت ذلك حلماً أو خيالات ما بين اليقظة والنوم ، لكن دوق الباب استمر وبصوت أعلى فتيقظت وفتحت عينى ونظرت إلى السقف وإلى جدران الغرفة ورفعت الغطاء القطنى عن جسدى ورفعت ظهرى وقمت نحو الباب وفتحته رويداً ومواربأً فى البداية ثم أكثر قليلاً وجاء الصوت

– هل جون هنا ؟

– ماذا ؟

– جون .. هل جون فى الغرفة ؟

– لايوجد جون هنا

ـ أليست هذه غرفة ٧٠٥ ؟

– نعم ٧٠٥

– وجون ليس هنا

– ليس هنا

وأخذت تدير عينيها بى، وبريق العينين يتفحصنى ويتسلل من فتحة الباب داخل الغرفة.

– إذن ليس هنا

– نعم ليس هنا

– أنا متأسفة ظننتها غرفة جون .

وقفلت راجعة قليلاً للوراء وظهر كدر على الوجه مع ابتسامة مريبة تبرز غمازاتها وأسناناً ناصعة مصفوفة، وبدأت تستدير لتعود

– هو أعطانى هذا الرقم آسفة

وضحكت ضحكة سخرية ونظرت إلىَّ فاحصة أو مذهولة أو مكسورة أو ماكرة ورجعت أنظر إليها وهى تمشى فى الممر الطويل نحو المصاعد لم أستطع أن أقفل الباب ظللت أنظر إليها وهى تسير كما فى الهواء السيقان الطويلة المصقولة تميل يميناً وبقية الجسد يميل شمالاً، كموج البحر شمالا وجنوباً بالتنورة البيضاء والخصر الهفيف وبالشعر الأشقر كسنابل القمح التى تميل مع الهواء، ورائحة العطر التى تركتها خلفها تصل إلى نفسى وقبل أن تلج قاعة المصاعد التفت نحوى ولاحظت أن الباب مازال مفتوحاً فلوحت بيدها إشارة مع السلامة والابتسامة من بعيد واللؤلؤ الأبيض وبدى لى أنها تزم شفتيها الحمراوين كما فى القبلة من بعيد وبعد هنيهات بين مصدق ومكذب .. هل أعطتنى قبلة؟ قفلت الباب وفتحته ثانية قفلت الباب ووقفت برهة دائخ بين النوم واليقظة وهذا الحلم الحقيقية من يكون جون؟ أهى ماكرة اخترعت اسم جون؟ ولماذا لم أدعها للانتظار عندى قليلا؟ ودخلت الحمام أنظر لوجهى فى المرآة، كان الشعر مرتبأ ووجهى أحمر ، ونشوة تغطى

الوجه وهو يستيقظ ويتحرك وينتفخ لهفة وتشوقاً . هززت رأسى وعدت للسرير على المخدة ووجهها يطالعنى . كان لها غمازات . وفى صدرها وهج الأصيل . القميص السماوى بالياقة العالية وتلك الرائحة . هل أرسلت قبلة قبل أن تلج بهو المصعد !! أين جون ؟ وتقلبت وأنا أشم رائحتها وهو ينتفخ قليلاً ولم أعد قادراً على النوم. ربع ساعة أو نصف ساعة أتقلب يمنة ويسرة وألعن أبو جون أحيانا ثم أترحم على والديه مرة أخرى إن كان موجوداً فعلاً . لعله أخوها أو ربما زوجها أو زميلها . وقمت سريعاً لعلى أجدها فى بهو الفندق . قمت مسرعاً وتأكدت من تسريحة شعرى وتعطرت ولبست قميصاً وبنطلوناً وحذاء بدون جوارب وفى الممر كنت أحس مشيتها. يمين وشمال، والرائحة ومثل النسيم مثل الهواء البارد المنعش ، كانت مشيتها وذاك الشعر والعينان ووهج الأصيل كل شئ فى الممر مطبوع



بمشيتها والجدران التى مرت عليها وزجاج النوافذ والهواء الذى ما غادر الممر بعد مرورها. وفى المصعد شممت رائحتها وكان فى المصعد فتاة بيدها باقة ورد وبالأخرى تقرأ بانهماك شديد رسائل التليفون ورجلان طويلان بقبعات صيفية ونظارات سوداء لايتكلمات مع أنهما يلبسان نفس الملابس ويظهران عدم ملاحظة وجودى بينما ينظران نحوى تلصصاً وليس نحو الفتاة . وتخيلت لو أنها فى هذا المصعد وبدون أن يكون معنا أحد. تخيلتها تبتسم وتسأل عن جون. لعله أخوها أو زميلها . وعدت إلى رشدى . عدت إلى غرفتى مستغرباً ما حل بى . كنت متلهفاً لتلك

الابتسامة . وبدون بيجاما وبسرعة دخلت السرير أريد النوم . ورن التليفون رن دون توقف هى ؟ هل يمكن أن تكون هى؟ رن ثانية ولم ينقطع قمت مسرعا ومددت يدى نحو التليفون

– ألو

– نعم

– هل هذه غرفة ٧٠٥ ؟

– نعم

– هل أتتك فتاة شقراء

– نعم

– أين هى ؟

– لا أدرى

– متى ؟

– قبل نصف ساعة

– وأين ذهبت ؟

– لا أدرى

– ماذا قالت ؟

– سألتنى عن جون

– أنا جون .. أنت ماذا قلت لها

– قلت لها إنه لا يوجد جون هنا

– وبعد ذلك

– ماذا تقصد بعد ذلك ؟

– ماذا حدث بعد ذلك ؟

– قالت متأسفة

وابتسمت
- ابتسمت
- أظنها ابتسمت
- ولا تدرى إلى أين ذهبت ؟
- طبعاً لا أدرى لم أسألها
- أنا جون ... تصور غرفتى ٥٠٧ لقد أعطيتها الرقم غلط ... متأسف للإزعاج

الآن جلست على السرير عارياً أنظر للأرض والسقف وأراها تبتسم . عرفت سبب الكدر على وجهها والابتسامة الساخرة وكدت أموت ضحكا من هذا المسكين «تصور غرفتى ٥٠٧ وأعطيتها الرقم غلط» تصور ! تصور!، وترقبت أن أرى مساء إبراهيم منصور وأروى له ما حصل . تخيلت ضحكته المجلجلة وتنظيره وتحليله. لم أستطع أن أنام أخذت حماماً سريعاً. ومشطت شعرى ولبست قميصاً شبابياً وبنطلوناً رمادياً فاتحا وهرعت إلى بهو الفندق . أين هى؟ فى المقهى، عند مدخل الفندق، قرب الاستقبال . بين محلات البيع الصغيرة فى ردهة الفندق. أين هى؟ أين ذاك القميص السماوى؟ أين الشعر الأشقر؟ ورائحتها تملأ الصدر ولا أكف فى داخلى عن الضحك شماتة على جون وخيبته. لابد أن أجدها سأدعوها للغرفة، وستكون مصيبة جون أكبر، والنكتة أكبر، والبهجة أكبر. وهو ينتفخ قليلاً متلهفاً للفرصة . وكانت الساعة قد قاربت السادسة وها هو إبراهيم بيده غليونه العاج الشهير والذى فى العادة وحيثما حل لايخلو من المفرقعات. وكان البارحة قد زارنى بعد وصولى نيويورك مباشرة وشرح لى كل ما عمله خلال الأسبوع الذى أمضاه هنا . نيويورك حلم . حلمنا جميعاً . ومنذ أن كنا ندرس



الترجمة بكلية الأداب وعيوننا صوب نيويورك . بالأخص إبراهيم تعرف على كل ما يمكن التعرف عليه عن أمريكا . امرأة أو رجل ، شاب أو عجوز، أبيض أو أسود، كتاب أو مجلة أو فيديو فى الأدب والموسيقى والرسم ونيويورك، كان يردد هى كل شئ . دعك من المستقبل والسعى له . إنها الوجود كله . الذين يذهبون لنيويورك من أجل المستقبل هم فقراء أو عديمى نوق . أتينا نيويورك لنعيش المسرح والجاز والمعارض . نيويورك ودلفنا للبار وجلسنا على مقاعده العالية والزبائن لم يتوافدوا بعد ، والفتاة التى شاهدتها فى المصعد تضع الورد على طاولة فى مدخل البار وتخفض رأسها وتتحدث بانهماك فى التليفون وإبراهيم ينفخ غليونه ولا يكف عن إحاطتى بكل ما شاهده خلال الأسبوع فى نيويورك حتى ظننت أنه شاهد كل شئ . ومرة تخيلت أن هذه المشاهدات من خيال

ابراهيم الواسع إذ كيف يمكن أن يرى كل هذه الأشياء في أسبوع واحد. ولكنه كان مصراً سيأخذني للمتروبوليتان والشارع الخامس وبرودواتي وبرج التجارة العالمي ونصب الحرية وسنترال بارك ومركز روكفلر ومقهى شوارب الأب في جرينتش والأمم المتحدة وصالة جوجنهايم. العمل ترجمة والمرتب غير مهم لكنه كاف والمفرقعات التي يملأ بها غليونه متوافرة . والجميع في العمل ودودين لطيفين حلوين والعمارة جميلة والمحلات ملأى بكل شئ نيويورك كما كان دائماً يراها . وكنت متفحزاً لأحكي له قصة جون وهو كالعادة يشير بيده على دعني أكمل . حديثي، دعني أكمل كنت متحفزاً لاحكي له عن جون. قاطعته خلاص إبراهيم هل تدرى ما حدث اليوم. ومات من الضحك وبصوته الجهورى أين أنت ياجون . طارت الحمامة . وعب من كأس البيرة التي طلبناها وهو



يضحك والبارمان كان ينظر لنا مستفسرا فحكى له إبراهيم الذى نسى أني موجود وأني صاحب القصة وكان البارمان يشرب من كأس بيرة بجانبه ويغسل أطباقاً . واحمرَّ وجه البارمان وهو يهز رأسه ويكرر «نعم نعم مثل زوجتي» . وإبراهيم يهز يده بوجهي أنت ضيعت الفرصة . لماذا تستعجل . ويلتفت للبارمان الذى يؤكد ما قاله إبراهيم «تسرعت» . ويضحك ويهز رأسه ووجهه يحمَّر وإذا بشخص كان واقفا غير بعيد عنا يضرب على كتفي من الخلف فاستدرت نحوه. تفرس بى وبإبراهيم ملياً ونظر للبارمان الذى مازال يضحك مع إبراهيم ويكرران جون وأنت ضيعتما الفرصة

وابراهيم يشير بيده الطويلة على «أنت وجون كلاكما ضيع الفرصة» وجاء الصوت وابراهيم مستمر في تذمره من تصرفي .

– أنت غرفة ٧٠٥ ؟

– نعم .

– أنت أم صديقك

ونظرت إليه . مفتولاً، بدون ربطة عنق ، وبشارب أشقر صغير وعينان شرستان أو حادتان وخاتم من خواتم الجامعات الأمريكية في يسراه . تلك الخواتم التي لوضربت بها الحديد لانكسر ...

– أنا .

– أنا جون الذى، كلمتك بعد الظهر .

– فرصة طيبة .

– من أين أنت ؟

وددت لو أكذب لكن خوفي التلقائي من صراحة إبراهيم التي يمكن أن تفضح كذبي منعتني .

– وأنت من أين ؟

نظر إليَّ وعيناه تتفحصاني ولاحظت الخاتم الكبير بشماله، لاحظت قامته المديدة وكفه . أزرق العينين

وعلى الموضة في الشكل واللبس والحركات ويهز قدميه وجسمه يتراقص ويطلب فودكا بالثلج .

– أنا من رود آيلاند، هل تعرف رود أيلاند .

– لا . لقد وصلت أمس فقط إلى نيويورك .. أول مرة أزور أمريكا .. أول يوم عبٍ من الكأس الذي بيده وإبراهيم مازال مع البارمان يضحكان بصوت جهوري من جون .

أهذا صاحبك ؟

– نعم .

– قل له أنا جون.

وشعرت بالإحراج. هززت إبراهيم .هذا جون وضحك إبراهيم بصوت مرتفع وهو ينفخ غليونه وأشار للبارمان ..

– هذا هو جون .. جون الحقيقى .. والتفت نحوى وبعينين جاحظتين .. الذى طارت منه الحمامة والبارمان يقطع شرائح ليمون ويهز رأسه مؤكدا صحة كلام إبراهيم .. وخاطب البارمان جون . وقال لاباس . وجون نزل من كرسيه ووقف بجانبى ونظر إلى البارمان الذى



كان يسند يديه على منضدة البار وسأله جون.

– هل تعرفهما من قبل ؟

– لا .. لماذا

وحكى جون القصة للبارمان الذى كان قد سمعها قبل ذلك من إبراهيم . أعطيتها النمرة غلط وضرب البار بقبضته .. الحظ الحظ .. والتفت نحوى وهو يهز كتفيه ورقبته .

– ألم تكن جميلة

– جميلة !!! إنها جذابة أيضا . وعاد يتحرك وينتفخ كما فى كل مرة أذكرها . وتوقف البارمان عن تقطيع شرائح الليمون وقال لجون والدم يصعد لجبينه «مثل زوجتى تماماً» وإبراهيم ينفخ الغليون

ويتنهد من تعب الضحك . ويهز يده ويكرر أنت ضيعت الفرصة. قال جون. وأنت لماذا لم تدعها للمكوث عندك

وإبراهيم وجدها فرصته .

– هل سمعت ؟ قلت لك لم لم تدعها عندك؟

قلت والبارمان ينصت وابراهيم يستنكر ويتأفف لم أكن أعرف من هو جون، ولا لماذا هى تدق الباب، ولم أكن مستعد نفسياً . لم أكن مهيئاً . وقفز إبراهيم من كرسيه حانقاً ونظر للبارمان يسند الحديث إليه وليكشف عدم صواب تصرفى وهل الموضوع يحتاج إلى تهيئة؟ والبرمان يهز رأسه. لأ لا طبعا . قلت لجون وإبراهيم مستمر فى تعليقاته مع البارمان الذى يحادث إبراهيم ويسترق السمع لنا . قلت لجون لكن بعد أن ابتعدت عن الغرفة وقفلت الباب لم أستطع أن أنام . لقد عدوت إلى المصعد لأبحث عنها قبل أن تكلمنى أنت بالهاتف . هل تعرفها منذ مدة !

- لن تصدق أنت ما اسمك . وهو يدندن بقدميه ويرفع خصلة شعره بيده فتبرز الكتفين العريضين والرقبة .. والطويلة . يشرب جرعة أخرى . لن تصدق

والبارمان يدني رأسه يسترق السمع ويبتعد عن صوت إبراهيم الذى مازال يكرر معقول تضيع الفرصة أول يوم فى نيويورك؟ . من أول يوم؟ يرددها بحرقة وبصوت جهورى ضجر .

أول مرة أشاهدها . كنت فى الغداء مع مدير الشركة والمحاسبين . أنا أيضا وصلت البارحة من رود أيلاند هذه ثالث مرة آتى بها لنيويورك . وثانى مرة يحدث معى نفس الأمر. كنا على الغداء وكنت أشرح لمديرى والمحاسبين طلبات بعض العملاء فى رودأيلاند . ثم تقدمت هذه المرأة نحوى. كنت أتحدث لمديرى وشاهدتها قادمة نحوى، باتجاهى وهى تنظر لى وتبتسم . حاولت أن أتذكر هل أعرفها من قبل لم تتح لى الفرصة للتفكير فقد كانت طاولتها



جنب طاولتنا لكنها ما إن وصلت طاولتنا انحنت عليَّ ووضعت يدها على كتفي وفمها بأذني دون أن تعير انتباهاً للآخرين. وهمست «أنت شاب جذاب . أريد أن أقبلُك» وقبلتني بطرف الفم ومضت وأنا مشدوه واستغرب المدير والزملاء وحاولتُ أن أكمل حديثنا عبثاً . استغرب المدير الحادث وأقسمت أنني لا أعرفها وليس بيننا موعد سابق . وقال المدير وقد صار وجهه أحمر والشك يساوره فى أني وعدتها . هنا قال : إنها تجلس خلفي وهذا صاحبها معها لقد سمعتهما يتحدثان عن هاواى يبدو أنهما كانا فى إجازة . وبعد قليل إذ عادت من الحمام رأيت عيون المدير تحت نظارته السميكة وعيون المحاسبين تتجه

كلها باتجاه واحد وبدأ العرق على جبيني وشعرت بايقاع حذائها ، وبمشيتها شمال يمين وشددت يدى على مفتاح الغرفة الذى كان على الطاولة . كانت فى طريقها لطاولتها مع الرجل الذى كان مستمراً فى الأكل . وقفت بجانبى تنظر بابتسامة جسوره لمديرى والمحاسبين ووضعت يدها على كتفي وقالت للجميع آسفة لمقاطعة حديثكم ، وهمست لى بصوت خافت مغوى . أعطنى نمرة غرفتك بسرعة ، يبدو عليك أنك غريب . وضحكت بخفة هذا زوجى لقد عدنا هذا الصباح من هاواى . وسنغادر فى السابعة .. أعطنى رقم الغرفة سأتيك بعد نصف ساعة. ما اسمك . قلت لها بسرعة جون وغرفتى ٧٠٥ . ومديرى والمحاسبين ينظرون لى باستغراب شديد وسألنى أحد المحاسبين هل أعطيتها نمرة غرفتك؟ . والحرج يطغى على كل أحاسيسى وجوارحى لم

يصدق مديرى ما يحدث وقام بعد قليل ومعه المحاسبين دون أن أكمل مهمتى ومع ذلك أعطيتها الرقم الغلط . هذا هو الحظ وضحك ساخراً من نفسه وزادت سرعة ضرب قدميه راقصاً على الأرض . يندب حظه، يغطى جرحه، يرفس يدندن، يشد قبضته، يضحك يهز خصلة شعره. هذا هو الحظ والبارمان ينصت ملياً . ملياً وشد قبضة يده والخاتم الجامعى يلمع ذهبت . إلى غرفتك وتنهد ٧٠٥ وشد على كتفى وهزنى بقوة ٧٠٥ وجرع الكأس مرة أخرى وإبراهيم يكرر ضيع الفرصة . أغضبت مديرى ولم أحصل منها على شئ . ثانى مرة يحصل معى نفس الإشكال . ونظر إلى بتمعن كما لو كان متشككاً فيما قلت . نظر إلى بعينين حادتين وهو يصك أسنانه وبحرقة وأسى وحنق دفين .

– لا أعرف من أين أنتما . ولست مضطراً لتصديق روايتك . لكن



عليك أن تعرف أن هذه هى المرة الثانية التى يحدث لي فيها نفس الشئ . فى الزيارة الماضية حدث نفس الشئ – نفس الشئ – المرأة تأتيك . تريدك . ثم تضيع منك . لاتنال منها ما تريد . وكان البارمان يهز رأسه موافقا وإبراهيم منصتاً ينفخ بغليونه . إسمعا منى وعب بقية الكأس، لن أعود لهذه المدينة . لن أعود لهذه المدينة تغويك ولا تعطيك . تعالا لرود آيلاند . هذه المدينة . يهز رأسه ويدندن ويتمايل جسده .. لن أعود لهذه المدينة والبارمان يهز رأسه مؤكداً صحة كلامه وبحزن شديد وصوت أبح «أنا تركتنى زوجتى بعد أسبوعين، أسبوعين من مجيئنا لنيويورك . حتى الآن لا أعرف أين هى؟ منذ سنتين لم تتصل، وأنا لم أسأل عنها ، ومسح يديه بالفوطة ، وعيناه احمرتا وابراهيم اقترب منى ويهمس بأذنى متأففا يبدو أننا صرنا خارج الموضوع . وهما يتحادثان .. اسمع يا جون. وأشار البارمان إلى كنبة فى مدخل البار تجلس عليها الفتاة التى تتكلم بتشنج فى التليفون والورد فى حضنها . جلست معها على هذه الكراسى، بعد أسبوعين من مجيئنا لنيويورك وأتيت لها بباقة ورد ياسمين أبيض ذو رائحة بهية وضعتها على نفس الطاولة وهى تبعدها عن وجهها . قلت لها انتظرى لا تستعجلى،لكنها كانت مصرة على رأيها . قلت لها لا تستعجلى، لاتستعجلى . ■

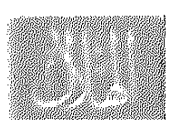
بورصة الفن التشكيلى فى مصر

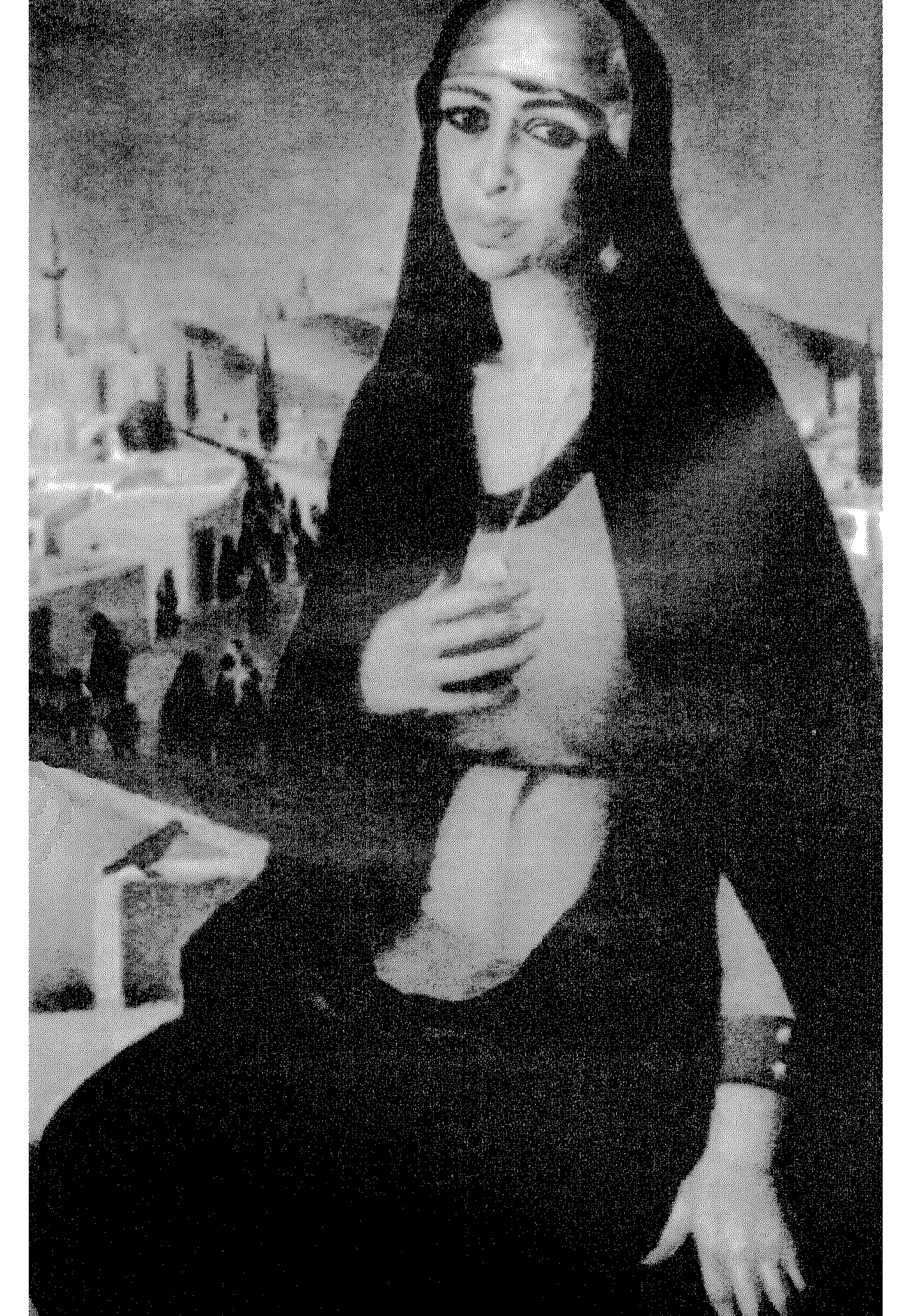
- سوق حجمه بالملايين ويفتقر إلى المعايير
- مكانه الأحياء الفاخرة ورواده ذوو الياقات البيضاء ورجال الأعمال
- دور وزارة الثقافة تشجيعي فقط !!

تحقيق
أمانى عبد الحميد

كثر الكلام حول أسعار بيع لوحات وأعمال الفن التشكيلى فى مصر، البعض ينفي وجود سوق حقيقى، والبعض الآخر ينعى حظه لأن أعماله لم تلحق بقطار الأسعار المتصاعدة. بل إن بعضهم يستعجب لأن أعماله برغم رخص سعرها - لا يشتريها أحد، فى حين لمعت أسماء كثيرة لمجرد أن لوحة واحدة وصل سعرها إلى مبلغ مالى محترم، ورغم القيل والقال هناك حركة بيع وشراء نشطة داخل قاعات العرض سواء الخاصة أو التابعة للدولة إلا أنها سوق بعيدة كل البعد عن عامة البشر مكانها داخل الأحياء الفاخرة وروادها ذوى الياقات البيضاء. فهل هناك بالفعل سوق أو بورصة للفن التشكيلى فى مصر؟

« نعيمة » - محمود سعيد





بعيدا عن الأزمة الاقتصادية التى أصبحت تعتصر كل بيت مصرى، هناك حركة بيع وشراء نشطة داخل قاعات الفن التشكيلي فى مصر وبعيدا عن عامة البشر والموظفين الكادحين فى كل أرجاء البلاد، هناك أحياء فاخرة تنعم برفاهية خاصة، لا نستطيع أن نطلق عليها أنها مجرد كماليات وإنما هى شئ يفوق ذلك بكثير ففى أحياء القاهرة الراقية مثل المعادى ، الزمالك. جاردن سيتى ، وسط البلد كمركز ثقافى، عدد كبير من قاعات أو التى يطلق عليها «جاليرى» متخصصة فى عرض وبيع أعمال الفن التشكيلى بعضها تابع للدولة متمثلة فى قاعات وزارة الثقافة (مجمع الفنون بالزمالك، مركز الجزيرة، قصر الفنون) وبعضها خاصة يمتلكها مصريين أو أجانب مقيمين وصل عددها إلى ما يزيد عن ١٥ قاعة مثل (مشربية، الزمالك، دروب، خان مغربى ، سفر خان)

فى الماضى كان أبناء الطبقة الأرستقراطية والأجانب يتعلمون الفن منذ الصغر أو حتى لاستكمال الوجاهة يقيمون الجاليريهات أو القاعات لعرض الفنون ولكن اليوم اختلفت الأوضاع ودخل اللعبة مستثمرين ورجال أعمال يتقنون عملية البيع والشراء والسعى وراء تحقيق الربح الأعلى مما أثر على حركة الفن التشكيلى، وانحصرت قيمة كثير من أعماله فى سعر بيعها فقط بغض النظر عن دور الفنان وأعماله فى إثراء الحركة الفنية، والدليل أن لوحات الفاكهة والمناظر الطبيعية الصامتة والبورتريهات لاتزال تمثل الأعلى مبيعات فى الأسواق رغم أنها لا تحمل فكراً فنيا حقيقياً!

وبرغم ذلك كثير من الأصوات تؤكد أن حركة البيع والشراء لا يمكن أن تصل على أى حال إلى مرتبة الصناعة المنظمة وأننا لا نملك فى مصر بورصة حقيقية للفن التشكيلى قادرة على تحديد حجم التعاملات المالية داخلها. ويؤكدون أيضا أن ما نسمع عنه من أسعار خيالية قد تكون أسعار وهمية يطلقها الفنانين لعل وعسى تصيب أحد الزبائن الأثرياء. فلم يعد أحد يهتم بشراء لوحة بسبعين ألف أو مائة ألف.

إلا أن دخول الكثير من الأثرياء والمليارديرات سوق الإقتناء بدل الكثير من الأوضاع ونشطت حركة البيع والشراء خلال العشر سنوات الماضية، بشكل يجعل التساؤل المطروح بقوة هل نملك بورصة للفن التشكيلى فى مصر؟ أم لا؟

وإذا كان لدينا سوق حقيقية، فما هى معاييرها والقواعد التى تنظم أسعارها؟ وما هو الحجم الحقيقى للتعاملات المالية داخلها؟ وإن كان أهم التساؤلات هل للدولة متمثلة فى وزارة الثقافة دور حقيقى فى دعم حركة البيع والشراء داخل أوساط الفن؟ أم أن لجنة المقتنيات التى يشرف عليها المجلس الأعلى للثقافة تقوم بدور تشجيعى لا صلة له بالأسعار الفعلية للأعمال الفنية داخل سوق الفن التشكيلى؟

وما هو دور رجال الأعمال فى إثراء ذلك السوق؟ وكيف تلعب قاعات العرض الخاصة على الوتر الحساس بين المشترى والفنان؟

لجنة المقتنيات

محسن شعلان مدير الإدارة المركزية لقطاع المتاحف والمعارض بقطاع الفنون التشكيلية: أكد أن لجنة المقتنيات هى لجنة

تابعة للمجلس الأعلى للثقافة ومنبسقة من لجنة الفنون التشكيلية مكونة من فنانين ذوى خبرات من كل فروع الفن التشكيلى (تصوير، خزف، نحت، جرافيك...) دورها تقييم الأعمال الفنية واختيار العمل الذى سيدخل ضمن مقتنيات الدولة، وأوضح أنها تتابع كافة الأحداث الفنية والمعارض التى تقام داخل قاعات الفن التشكيلى سواء التابعة للدولة أو الخاصة. تقوم بزيارتها وتختار الأعمال التى سيتم اقتنائها. كذلك تتابع المعارض الكبيرة والجماعية التى ينظمها قطاع الفنون التشكيلية مثل صالون الشباب السنوى، صالون القطع الصغيرة، المعرض القومى للفنون التشكيلية.

وأوضح «شعلان» أن حصيلة ما تقرر اللجنة اقتنائه يكون ضم مجموعة أعمال متحف الفن الحديث الذى يمثل الحركة الفنية المصرية منذ بداية القرن العشرين.

ويؤكد أنه رغم امتيازات اللجنة فى حرية الاختيار إلا أن حدود الميزانية المقررة لها سنويا تحد كثيرا من إمكانية شراء أو اقتناء الكثير من الأعمال، فتحولت الأسعار التى تحددها إلى مجرد أسعار تشجيعية وليست دليلا حقيقيا على قيمة العمل الفنى.

وإن كان يشير إلى أن الأسعار يتم تحديدها على أساس نوع العمل نفسه ويضرب مثالا بأن الجرافيك من أقل الفنون سعرا فى مختلف دول العالم نظرا لأن الفنان يستخرج أكثر من نسخة أصلية لعمله الفنى، فى حين يعتبر التصوير الزيتى من أعلى الأعمال سعرا على اعتبار أن العمل هو قطعة فنية واحدة لا مثيل لها ولا يمكن استخراج نسخ منه وإلا تصبح نسخ مقلدة وليست أصلية.

وأشار أن فن النحت يعانى أيضا من انخفاض أسعاره لأنه أيضا يعتبر عمل فنى يمكن أن يتم استخراج عدد من النسخ الأصلية منه، حيث النحت فى الأساس يكون على «طينة» ثم يستخرج منها قالب وفيه تصب المادة التى سيتشكل منها العمل الفنى سواء «برونز أو بوليستر» لذا يمكن أن يقوم الفنان باستخراج أكثر من نسخة فى القالب.

وبالتالى يصبح لديه أكثر من نسخة أصلية وليست مقلده، وهذا بالتأكيد يقلل من سعر البيع ويضرب مثال بتمثال أمير الشعراء أحمد شوقى للفنان جمال السجينى حيث يوجد منه أكثر من ثلاث نسخ أصلية.

وعن وجود بورصة للفن التشكيلى فى مصر أكد شعلان أن ما ينظم عمليات البيع والشراء فى مصر هى محاولات فردية قد لا تصل إلى حجم البورصة ولكن هناك جهود تحاول الوصول أو الدخول فى البورصة العالمية ولكن للأسف تعوقها عراقيل كثيرة أهمها عدم وجود ما يطلق عليه سمسار الفن التشكيلى أو الوسيط.

الخبير بين المتلقى أو المشترى وبين الفنان أو قاعة العرض.. وأوضح أن دور ذلك الوسيط مهم جدا فهو حلقة الوصل التى تحافظ على كرامة الفنان وتقدر قيمة أعماله وبين المشترى بشكل حضارى، حتى لا يتعرض الفنان إلى عملية التفاوض على السعر أو حتى لا يضطر إلى قبول سعر لا يتناسب مع فنه وقيمته.

وأشار أن فى معظم دول العالم تقوم الشركات الكبرى برعاية الفن التشكيلى سواء بشراء الأعمال أو تقديم منح

للفنانين مما يتيح حالة من الاستقرار داخل الوسط الفنى ويشجع على الدخول فى بورصة فنية حقيقية. ويضرب مثالا بأن الدولة خارج مصر ليس لها دور حقيقى فى رعاية الفن ولكن من يقوم بذلك هم أصحاب القاعات الخاصة ورجال الأعمال. بل توجد قاعات متخصصة فى نوع واحد فى الفن مثل (التجريدى، الواقعى) أو حتى فى أعمال الرواد أو الشباب وهكذا. لذا أكد أن حركة الفن التشكيلى فى مصر تحتاج أولا إلى دعم حقيقى قبل إقامة بورصة له. على أن تتكاتف كل الجهات الخاصة والتابعة للدولة لتقديم التسهيلات التى يحتاجها أى فنان مصرى لكى يبدع.

سوق جديد

إبراهيم عبدالملاك فنان تشكيلى وناقد فنى وهو أيضا موثق للأعمال الفنية والابداعية. مؤمن بعملية الخصخصة فى الفن. فهو يرى أن دور الدولة متمثلة فى وزارة الثقافة يجب أن يظل دورا تشجيعيا وليس تطويريا وأن امكانياتها المحدودة تحد كثيرا من كرامة الفنان المادية. حيث أن أرقام شراء الفن فى مصر هزيلة جدا رغم أننا نملك تراث فنى ضخم كونه الفنانين المصريين الأحياء منهم والأموات.. ويوضح عبد الملاك أنه مع انفتاح العالم وتطبيق اتفاقية «الجات» ستنفرد مصر بما تملكه من فن تشكيلى وسيتحول سوقها الخاص بها إلى جزء مهم من الدخل القومى. ويدلل على ذلك بأن وقتها سيتضاعف ثمن الابداع الإنسانى بشكل مذهل، فإذا تزايدت أسعار الذهب أو الماس فى الأسواق العالمية بنسبة ٢٠٪ فإن اللوحة الفنية تتضاعف أسعارها بنسبة ١٠٠٪. ويكفينا أن نعلم أن محمود خليل عندما أسس مجموعاته الفنية فى بداية القرن العشرين كلفه ذلك ما يقرب من ٣٠٠ ألف جنيه. ولكن مقتنياته اليوم أقامت متحفا عظيما ووصلت قيمتها التقديرية إلى ما يقرب من ٨ مليارات دولار. ويذكر أن حتى سوق المستنسخات فى أوروبا قد أصبح اليوم سوق يعتد به وقد يصل ثمن اللوحة المستنسخة (طبق الأصل) إلى ما يزيد عن مليون جنيه! فما بالنا بثمن اللوحة الأصلية . ويشير إلى أن أهم قاعات متخصصة فى بيع الإبداع الفنى هما قاعتى «ثوثبى وكريستى» تعاملاتهم المالية تفوق المليار دولار فى العام الواحد . ولكنه يؤكد - بالرغم من ذلك - أن القاعات الخاصة التى تزايدت أعدادها خلال العشر سنوات الماضية (من ثلاث قاعات الى ١٥ قاعة داخل القاهرة وحدها) قد نجحت فى تأسيس بورصة فنية لها معاييرها وقيمها الخاصة. ويدلل بأنه عندما يصل سعر لوحة عبدالهادى الجزار «الرجل الأخضر» إلى مليون جنيه فلا نستطيع أن نقول أن البيع والشراء يحدث اعتباطا! ويوضح أن تلك القاعات نجحت فى ايجاد أماكن عرض للمبدعين وخلقت أجواء مشابهة لما نراه فى الخارج فهى تقدم خدمة للفنان بعلاقات القائمين عليها أو أصحابها المتشعبة، علما بأنها تسعى الى الربح أيضا . ويؤكد أن أى قاعة قد تصل مصروفاتها الشهرية إلى ما يزيد عن ثمانية آلاف جنيه. لذا فعليها العمل بجد حتى تغطى مصروفاتها وتحقق الربح من وراء عملها فى مجال الفن التشكيلى.

وعن سوق الاقتناء نفسه يرى «عبدالملاك» انه سوق جديد ومختلف عما

« فرح زليخة » - عبد الهادى الجزار





كان فى الماضى. فمعظم الأغنياء فى مصر يسرفون أموالهم على حفلاتهم وترفهم الشخصى وليس على اقتناء الفن أو الإبداع كما كان فى مصر منذ ٥٠ أو ٦٠ عاما مضت ، وإن كان يؤكد على وجود أعداد منهم تهتم وتقتنى منهم رجال أعمال مثل نجيب ساويرس (صاحب لوحة الجزار) محمد فريد خميس، ومحمد سعيد فارس أحد أهم المقتنين فى اليوم، حيث يصل حجم ما يقتنيه من أعمال فنية ما يعادل ثلاث أو خمس أضعاف ما يوجد فى متحف الفن الحديث فى مصر . ومحمد تاج وهانى عنان وغيرهم من رجال الأعمال. ويرى أن اتساع قاعدة المتلقين الذين يشجعون الفن يدل على اتساع حجم الإبداع وتلك ظاهرة تبشر بالأمل.

انعدام الثقافة الفنية

وعلى قدر تفاؤل ابراهيم عبدالملاك ، جاءت آراء منى قطب أحد أهم وسطاء الفن تشكيلى فى مصر يملؤها التشاؤم . ففى البداية ترى أنه خلال العشر سنوات الماضية ارتفعت أسعار بيع لوحات الفن التشكيلى فى مصر كمجرد طفرة غير حقيقية تسببت فى أحداثها دخول رجال الأعمال سوق الفن وذلك للتباهى والمظهرية فقط. فارتفعت أسعار أعمال فنية قد لا تستحق. أو نظرا لشطارة الفنان فى اجتذاب الزبون أو لعلاقاته العامة الوطيدة بأصحاب رؤوس الأموال.

وبالتالى أصبحت الروح المعنوية العامة محبطة خاصة وأن أصحاب المال يخشون من إخراجه من جيوبهم . بل إن الإبداع والفن أو حتى تذوقه كلها مصطلحات لا يحتاجون اليها فى الوقت الحاضر.

وتنتقد «منى» الأوضاع الحالية بقولها أن انعدام الذائقة الفنية لدى المتلقى إلى جانب انعدام وجود حركة نقدية حقيقية تقيم الأعمال الإبداعية وتبرز الجيد والسيء فى العمل دون اللجوء إلى المجاملات أو حتى إلى تصفية الحسابات الشخصية. كلها عوامل ساهمت فى انحدار حركة الفن وسوقه.

وللأسف تلك المعطيات أفسدت الفنانين أنفسهم فقد الكثيرين منهم عزة النفس ولحظات الصدق الداخلى مما أثر على ما يقدمونه من ابداع. ونظرا لانعدام التواصل الحقيقى بين الفنان والمتلقى تعقدت الأمور أكثر. فالفنان يعمل بشكل منفصل عن الجمهور وبالتالى لا يستوعبه أيا منهم، . وعندما يجد نفسه منعزلا تماما يضطر إلى أن يبتذل نفسه وينزل بمستواه أملا «فى بلوغ أذواق الجمهور المنحدرة» أصلا فيبتذل فنه والابداع ككل. لذا تعود «منى» لتؤكد أن أرقام البيع ليست هى المعيار الحقيقى لقيمة الفنان – بعدما عرفنا أسبابها – ولكن بصمة الفنان ودوره فى حركة الفن التشكيلى هى القيمة الحقيقية التى نقدر بها فنانينا.

وترى أن وظيفة الفن أبعد من مجرد لوحة فنية نعلقها على الجدران ولكنها وظيفة متصلة بكل أوجه الحياة، لذا أصبح ضرورى أن تقوم الدولة متمثلة فى وزارتها (الثقافة، الإعلام،التربية والتعليم....) بتوعية البشر وتثقيفهم بأهمية الفن والجمال فى حياتنا.

أسعار متناقضة

ومن الجانب الآخر داخل سوق الفن التشكيلى تقابلنا مع إبراهيم محمد عبد الرحمن الشهير بإبراهيم بيكاسو، هو أحد مالكى قاعات الفن التشكيلى، ورغم أنه

« الزهرية » – صبرى راغب



تشـرب الصنعـة على أيدى الأجـانب المقيمين في مصـر فى منطقة وسط البلد (الشواربى) وتعلم منهم كيفية التعامل مع العـمـلاء وزبائن الفن إلا إنه طور فى البزنس الخاص به، فلم يعد مجرد صانع براويز فاخرة للوحات فنية، بل تحول إلى خبير فى تلك اللوحات وأقام قاعة لعرض وبيع لوحات وأعمـال الفن التشكيلى فى مصر. ويرى «بيكاسو» أن ارتباطه برواد الفن فى مصر أمثال إنجي أفلاطون وتحية حليم وبيكار ومنير كنعان جعله يحتل مكانة بين الفنانين ويمتلك الخبرة. وعلى مدى ثلاثين عاما قضاها داخل أروقة الفن التشكيلى يحكي لنا ويقول كـانت فى البداية حركة الفن التشكيلي قاصرة على جمهور الطبقة الأرستقراطية، هم يقتنون اللوحات لتزيين منازلهم بل ويخصصون جزء من ميزانيتهم لذلك. ولكن للأسف مع تدهور أوضاع تلك الطبقة أو اختفائها فى مصر. هاجمتنا فنون أخرى مستوردة من الهند والشرق الأقصى مما تسبب فى ضرب حركة بيع الفن التشكيلى وانهيار أسعاره.

ويؤكد أنه فى منتصف الثمانينات فى القرن الماضى بدأت حركة جديدة تنشط على استحياء بين أفراد طبقة الأثرياء الجدد، حيث ورث أبنائهم - الأكثر تعليما - المال، فاهتموا بتذوق الفنون، واللجوء إلى شراء الأعمال الإبداعية، وبرغم أن السوق اختلف كثيراً عن سوق الطبقة الأرستقراطية القديم. ويؤكد أن أسعار سوق الفن التشكيلى اليوم لا ترتبط بواقع البيع والشراء الفعلى بـ ٥٠٪ تقريبا. فالفنان يحب أن يتباهى بأسعار لوحاته ولكن عندما تقع صفقة البيع يتنازل كثيراً عن السعر المعلن.

ويشير إلى أن أسعار الفنان الواحد قد تتفاوت. ويحددها مدى إقبال المشترى على أعماله. ويقول أن هناك حالة من التناقض الغريب داخل سوق الفن. ففى بعض الأحيان نرى فنان يبيع أعداد كبيرة من أعماله ولكن لايمكن اعتباره من كبار الفنانين، وآخر يعتبر رمز من رموز حركة الإبداع لكن أعماله لا تلقى رواجاً داخل السوق. كذلك يوجد فنانين أعمالهم فى الماضى كانت تحقق أرقاماً فلكية لكن اليوم لم يعد لها سعر. مثال ذلك حسن سليمان كان هو الفنان الأغلى خلال فترة السبعينات وقد تصل ثمن اللوحة الواحدة له إلى (٧٠ ألف جنيه) أما اليوم مع غزارة الإنتاج المطروح فى السوق قد لا تصل سعر اللوحة إلى (٨ آلاف جنيه) ويؤكد «بيكاسو» بأن هناك فنانين لا يزالون يحتفظون بقيمة أعمالهم مثل عبد الوهاب مرسى نظراً لندرة أعماله فالعمل الواحد له قد يصل ثمنه (١٥٠ ألف جنيه) وغيره من الفنانين أمثال محمد صبرى (لوحاته تصل أسعارها إلى ٧٥ ألف جنيه) وصبرى منصور (٨ ألف جنيه) محمد الرزاز (٥٠ ألف جنيه) فى حين قد تصل لوحات الدكتور أحمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية إلى (٢٥٠ ألف جنيه) ومصطفى عبد المعطى إلى (١٥٠ ألف جنيه).

ويرى أن كثيرا من الفنانين أسعارهم لا تدل على قيمتهم الفنية الحقيقية مثل فرغلى عبد الحفيظ الذى تصل أسعار لوحاته إلى ٢٠ ألف فقط. مقارنة بفنانة

« السمك والناس » - محمد حامد عويس



مثل نازلى مدكور وهى تلميذته تصل لوحاتها إلى (١٢٥ ألف جنيه) كما أكد أن أسعار الرواد الأوائل فى تصاعد مستمر رغم أنها تتفاوت بين فنان وآخر ويضرب مثال بلوحة عبد الهادى الجزار التى اشتراهما نجيب ساويرس بـ مليون ونصف المليون (عرس زليخة، الرجل الأخضر) جعلت من الجزار الفنان الأعلى سعراً رغم أنه ليس أكثر فناً أو قيمة من محمود سعيد على سبيل المثال. رغم أن لوحة «بنات بحرى» تم تقييمها بمبلغ (٢ مليون جنيه) لكنها ليست للبيع لوجودها بمتحفه بالاسكندرية. ويشير إلى أن ندرة أعمال الفنان وتزايد الطلب عليها يرفع من سعر بلوحتا. مثال ذلك أعمال حامد ندا حيث يصل سعر لوحاته إلى (٣٠٠ ألف جنيه) وتحية حليم إلى (٢٥٠ ألف جنيه) وإنچى أفلاطون إلى (١٥٠ ألف) أما جاذبية سرى إلى (١٠٠ ألف) وصلاح طاهر إلى (١٠٠ ألف).

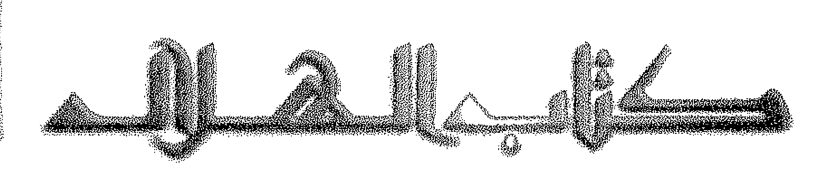
ويرى أن الفنان الذى يرسم أو يعمل من أجل الفلوس يُقدم فن رخيص لا ثمن له. فالفن الحقيقى سعره يتزايد مع الوقت مثال ذلك أن أعمال صلاح عبد الكريم - وهى نادرة - لا تقل أسعارها عن (١٥٠ ألف جنيه) والأعمال النحتية (الحجر) للفنان محمود مرسى لا تقل عن (٧٠ ألف جنيه) فى حين وصلت إحدى أعمال محمد رزق وهى طرق على النحاس إلى (١٠٠ ألف جنيه) وتماثيل نبيل هجرس قد تصل إلى (٣٠ ألف) وعبد الهادى الوشاحى إلى (١٥ ألف) وعبد العزيز صعب (١٥ ألف) وهى أسعار أعمال كل من صبحى جرجس، وفاروق إبراهيم وحسن حشمت ونبيل درويش. فى حين قد تصل أعمال آدم حنين إلى (٢٠٠ ألف جنيه).

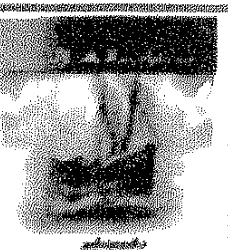
سوق بلا معايير

ويرغم الأسعار التى حددها «بيكاسو» إلا أن ناهد الخورى صاحبة ومدير إحدى القاعات الخاصة بالزمالك والخبيرة فى المدارس الفنية التشكيلية بدأت اعتراضها الشديد على وجود ما يسمى بالسوق أو البورصة للفن التشكيلى فى مصر وأوضحت أن الحركة الفنية تعانى من انعدام للمعايير التى تحدد قيمة العمل الفنى. فكيف يمكن أن نحدد سعر كل فنان وسعر كل عمل فنى له؟ وأشارت إلى ما تقوم به كثير من قاعات العرض بتحديد أسعار الأعمال التى تُقدمها وهذا عمل يتنافى مع كرامة الفنان. وتضرب مثالاً بأن عدد من أصحاب القاعات يُجبر الفنان على انزال أسعار لوحاته أو أعماله على اعتبار أن ذلك سيسهل عملية البيع. أو تشترط عليه أن تحصل على نسبة قد تصل إلى ٤٠٪ من قيمة البيع. وبالتالى تتحول العلاقة بين الفنان وصاحب القاعة إلى علاقة اقتصادية بحتة لا صلة لها بالفن وتشجيعه. وأكدت أن المعيار الذى يجب أن يتم التعامل به بين أعضاء الحركة الفنية هو القيمة الفنية للفنان وللعمل فقط. وليس حركة البيع والشراء.

ويرغم كل ما قيل عن بورصة الفن التشكيلى هل بالفعل نمتلك سوق لبيع وشراء الأعمال الفنية فى مصر أم المسألة لاصلة لها بذلك وتفتقد المعايير القادرة على إنجاحها.؟ ■







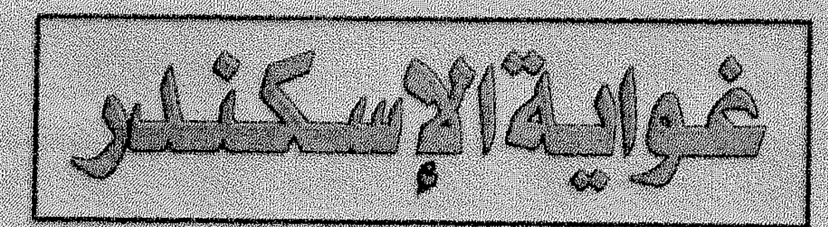
القراءة الصهيونية للتاريخ

الحروب الصليبية نموذجاً

د. قاسم عبده قاسم

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٥ يناير ٢٠٠٥



غواية الإسكندر

بقلم
محمد جبريل

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٥ يناير ٢٠٠٥



« أشتاتا أشتوت» وعودة أفلام المقاولات

الاسكندر الاكبر على الطريقة الامريكية

قشطة يابا» من أفلام العيد الصغير

رحلة مع آفاق السينما من مصر إلى الصين

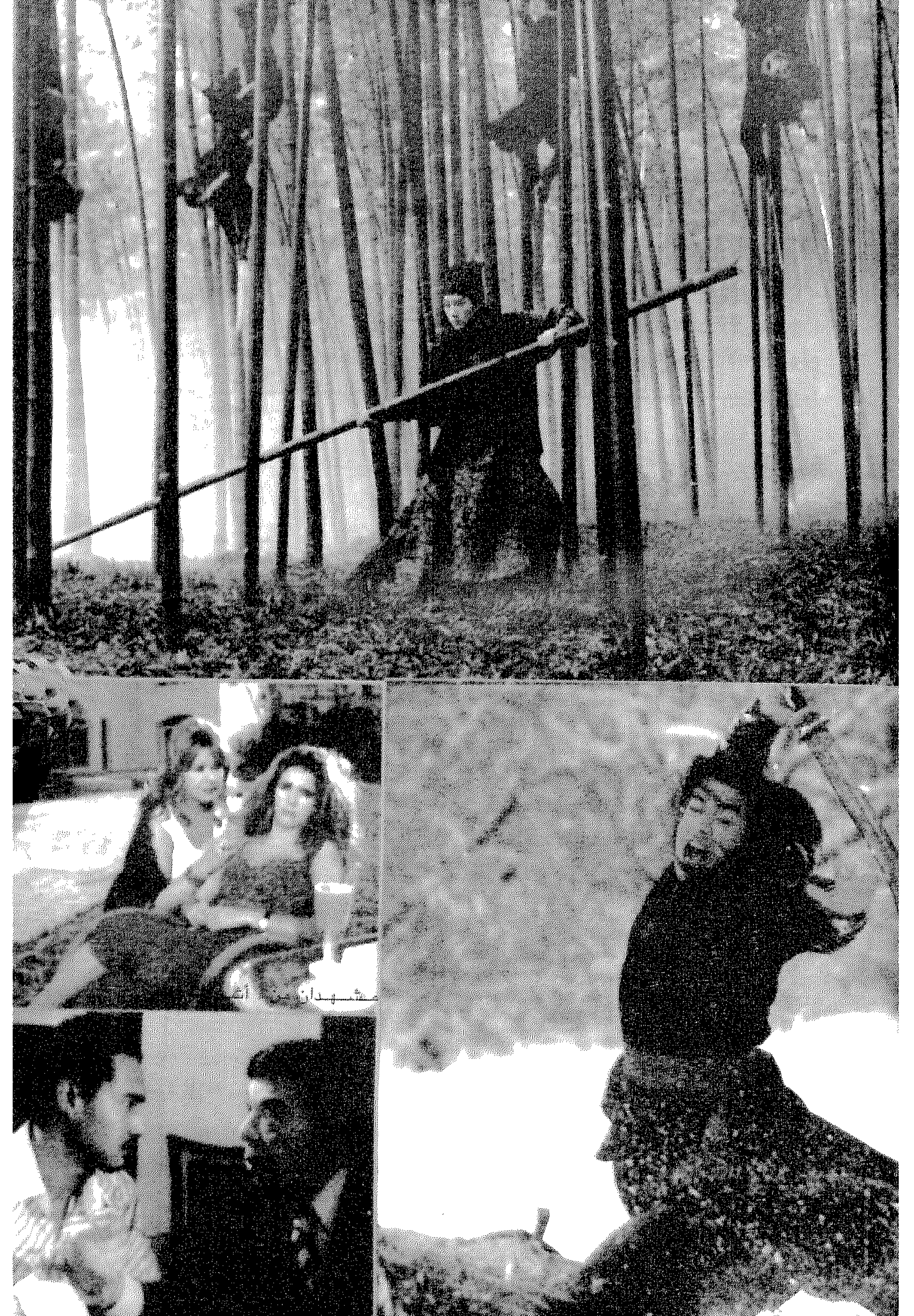
بقلم
مصطفى دريش





ذو القعدة ١٤٢٥هـ يناير ٢٠٠٥م

كانت السنة التى ودعناها قبل ساعات، من السنوات العجاف فى تاريخ السينما عندنا، ففيها انخفض عدد الأفلام المصرية التى جرى عرضها فى دور السينما. بطول وعرض البلاد . إلى ثلاثة وعشرين فيلما. بما في ذلك .، الأفلام الستة، التى انتهز أصحابها فرصة العيد الصغير، حيث لا يعلو. بقوة القانون صوت على صوت السينما المصرية فى جميع دور السينما، فاسرعوا بعرضها فى غفلة من الزمان.



وهذه الأفلام التي جرى عرضها مساء وقفة العيد، بعد انتهاء حظر المشاهدة في دور السينما، أثناء شهر رمضان، هي «حالة حب»، «كان يوم حبك»، «حبك نار»، «قشطة يابا»، «اشتاتا اشتوت» و«سيب وأنا سيب».

أسباب الضياع

وذلك العدد. واقصد به إجمالي المعروض أثناء السنة الماضية، يقل بحوالي تسعة أفلام، عن اجمالي ما جرى عرضه أثناء السنة الأولى من القرن الحادي والعشرين.

وغني عن البيان، أن ذلك الانخفاض الكبير لم يأت من فراغ، وإنما له أسباب.

لعل أهمها، تجاهل المسئولين عن الثقافة لفن السينما ربما لعدم إدراكهم أن مهمتهم الكبرى تنحصر في حمايته، والنهوض به بوصفه الفن الجماهيري الأوسع انتشارا والأسرع وصولا إلى قلوب وعقول الناس.

علاوة على ذلك، افتقاد صانعي الأطياف الوعي بأهمية تحرير الفن السابع من نير رقابة متخلفة، غير معاصرة لروح عصر ثورتي الاتصالات والمعلومات.

العزلة غير الجميلة

وذلك الافتقاد، كان من نتيجته انعزال السينمائيين عن الحياة السياسية والأدبية والفنية كل الانعزال.

ومن ثم، أصبحت افلامهم محصورة في أفكار مكررة، خالية من أي خيال.

وهذا العيب، الجسيم، قد شاب أفلام السنة الماضية بشكل بالغ الخطورة والوضوح، بحيث اصبح مكشوفا للنظر، مطلوبا للتحقيق، شأن الشجرة الوارفة، يسكن في جذعها السوس، ولا احد يلتفت إليه، مادامت قائمة مثمرة.

فإذا ما تهاوت أو اصفرت اوراقها. فالناس يبحثون في علتها، والانظار تهتم بالسوس الذي عاش فيها فسادا. زمنا طويلا.

العينة بينة

فما من سينما في مشارق الارض أو مغاربها حملت معظم افلامها خلال سنة واحدة كما أقرب إلى السوقيَة والابتذال، وابعد ما تكون عن الابتكار، كما حملت معظم افلام السينما المصرية التي جرى عرضها خلال السنة التي رحلت، قبل ساعات.

وعينه من هذه الأسماء «كصايع بحر»، و«كيمو وانتيمو» و«قشطة يابا»، تكفي لمعرفة حال السينما على ضفاف النيل، دون حاجة إلى وقفة طويلة عند كل فيلم، وهو ما لا يتسع له المقام.

كل ما استطيع أن اقوله بإيجاز شديد عن هذه الأفلام أنها في عمومها، لا هي مستمدة من بيئتنا. ولا هي قريبة إلى نفوسنا. ولا هي نابعة من تقاليدنا وعاداتنا وتصرفاتنا.

وهنا، قد يكون من المفيد ان اعقد مقارنة بين حال السينما عندنا، وحالها

فى بلد نام، مشابه وضعه لوضعنا . الا وهو الصين. إلى عهد قريب، كانت السينما الصينية تعانى من آزمة طاحنة، كادت تودى بها فيما لو كان قد كتب للثورة الثقافية، بعد موت الرئيس «ماو تزى تونج» (١٠/١٠/١٩٧٦) ان تستمر تحت قيادة ما اصطلح على تسميته بعصابة الأربعة، بزعامة «جيانج كينج» آرملة الرئيس.

فمما يعرف عن هذه الأرملة الدموية، انه لم يمض سوى شهر على موت زوجها، إلا وكان قد صدر قرار بالقبض عليها، هى وافراد العصابة ، وبعد خمس سنوات صدر الحكم عليهم جميعا بالاعدام «١٩٨١».

غير أن الحكم عليها خفف إلى السجن المؤبد «١٩٨٣» وبقيت محبوسة إلى ان تخلصت من حياتها بالانتحار «١٩٩١» ومع التخلص منها، هى وأفراد عصابتها، عادت الروح إلى السينما الصينية، بفضل جيل جديد من السينمائيين الشبان، رفع راية الحرية عالية، ضد مسلمات شمولية، عفا عليها الزمان .

لزوم المقارنة

وكان من بين سينمائيى هذا الجيل الذى ذاق الأمرين اثناء الثورة الثقافية، شاب موهوب اسمه «زانج بيمو».

ولقد ذاع صيته عالميا، أثناء العقد الأخير من القرن العشرين.

ويرجع الفضل فى ذيوع صيته إلى فيلمه «ارفع المصباح الأحمر» «١٩٩١».

فذلك الفيلم نبه الأذهان فى الغرب، خاصة بلاد العم سام إلى أن ثمة سينما صينية جديدة، جريئة ، متحررة من اغلال ثورة ثقافية، عاثت فى ارض الصين فسادا أدى الى حصد ارواح ملايين الصينيين.

ورغم انه كان يقابل بالاستحسان فى اى مكان يتيح له فرصة العرض، إلا أن قطاعا من الدوائر الحاكمة فى الصين كان له وقتها نفوذ كبير لم يتحمس له. واعتبره فيلما معاديا.

[illegible]

والآن وقد جاوز عمره الخمسين، نراه يجدد نفسه على نحو أهله لأن يكون صانع ذلك النوع من الافلام الذى يدور حول فن الحرب على الطريقة الصينية وجودا وعدما وهو نوع سينمائى اشتهرت به صناعة السينما فى هونج كونج»، قبل ضمها إلى الأرض الأم فى الصين.

وكان اول افلامه التى من هذا النوع «بطل» الذى جرى ترشيحه لجائزة اوسكار افضل فيلم أجنبى، قبل عامين إلا قليلا.

وبعده قام باخراج «بيت السكاكين الطائرة »، ذلك الفيلم الذى يجرى عرضه حاليا فى الولايات المتحدة، ووصفه ناقد جريدة «النيويورك تايمز» الواسعة الانتشار، بأنه اشبه بماسة تخطف الأبصار.

هذا، وأرجح الظن، انه قد يكون من بين الأفلام الأجنبية الخمسة التى سيعلن بعد بضعة اسابيع، عن ترشيحها لجائزة اوسكار.

وفى استطلاع رأى حول احسن الأفلام التى جرى عرضها فى المملكة المتحدة خلال السنة التى على وشك الانتهاء، تجربة سنويا مجلة «امباير» السينمائية بين محرريها.

كان بين الأفلام الفائزة، وعددها خمسة وعشرون فيلما «زانج ييمو» «بطل» و«بيت السكاكين الطائرة »، الأول فائز بالمركز الثالث وغير مسبوق الا بفيلمين أمريكيين أحدهما فقد فى الترجمة لصاحبته المخرجة «صوفيا كوبولا» والآخر العقل الصافى مشرقا اشراقة خالدة لصاحبة المخرج غريب الاطوار ميشيل كوندرى والثانى «بيت السكاكين» فائزا بالمركز الثالث عشر.

الصعود .. لماذا؟

ولعلها المرة الأولى فى تاريخ استطلاع من هذا النوع يفوز فيلمان لمخرج واحد. وطنه، حتى عهد قريب، لم يكن له شأن يذكر على خريطة السينما العالمية.

وهذا الصعود يرجع فى قول إلى رأس مال «هونج كونج» الذى حرك المستنقع الراكد فى الصين، وهو قول أفرغ وفى قول آخر إلى تشجيع هوليوود، متمثلا فى شركة ميراماكس وصاحبيها الأخوين واينشتاين وهو قول افرغ وفى قول ثالث الى دعم الحكومة الصينية المباشر لصناعة السينما، باعتبارها من الأولويات، وهو افرغ واعقم من القولين الأولين.

حقا كل هذه العوامل مجتمعة، قد تكون ساهمت فى نهضة السينما الصينية.

ولكن العامل الرئيسى، الذى لعب دورا كبيرا فى تحقيق تلك النهضة. هو ذلك الجيل الجديد الجاد من السينمائيين الذى عانى واقع الثورة الثقافية الأليم العقيم، ورغم معاناته اثر مواجهة العاصفة المميتة، بالصمود، وعدم اللهو مع اللاهين والمحبين للمال حبا جما.

وفوق هذا، كان جيلا على قدر كبير من الثقافة والوعى بضرورة جمع عناصر القوة فى كيان الأمة الصينية ورؤاها، مع التخلص من عوامل الضعف، فى ذلك الكيان وهذه الرؤى، لينشأ الصينى العصرى الجديد.

رغم الحصار

وما رأيته من افلام هذا الجيل اقل من القليل ولا غرابة فى هذا، فالحصار المفروض علينا يحول بيننا وبين الاطلال على السينما العالمية، بجميع اطيافها.

وعلى كل. فالقليل الذى رأيته يشهد على حيوية السينما الصينية، وتحررها من القيود التى كانت تكبلها، فتعوق حريتها فى التعبير.

ومن بين هذا القليل، اذكر على سبيل المثال فيلم «بطل» السابق ترشيحه لجائزة





أوسكار افضل فيلم أجنبى،، والفائز بالمركز الثالث فى ترتيب افضل الافلام التى جرى عرضها فى المملكة المتحدة، حسب استطلاع رأى أجرته مجلة «امباير» ، قبل ايام.

فهذا الفيلم، تصادف ان شاهدته معروضا على شاشة صغيرة، بفضل اسطوانة رقمية، كما تصادف ان جاءت مشاهدته ، قبل ساعات، من مشاهدتى فيلم «الاسكندر الاكبر» معروضا على شاشة كبيرة، فى إحدى دور السينما.

ما قبل التاريخ

وبفضل تزامن مشاهدة الفيلمين، كان فى وسعى ان اعقد مقارنة بينهما، خاصة ان كليهما من نوع الانتاج الضخم الذى يصرف على انتاجه عشرات الملايين «فبطل» بلغت تكاليف انتاجه ثلاثين مليون دولار، وهو رقم مذهل ، وغير مسبوق بالنسبة لسينما كادت تختفى من الوجود، اثناء حكم عصابة الاربعة الحالك السواد. و«الاسكندر الاكبر» ارتفعت تكاليف انتاجه، والدعاية لتسويقه إلى مائة وخمسة وستين مليونا من عزيز الدولارات.

والأهم ان احداث كليهما تدور قبل الميلاد، ببضعة قرون من عمر الزمان.

فالفيلم الصينى يعرض للصراعات الدموية، عندما كانت الصين بلدا مقسما ، تتنازع ارضه سبع ممالك ومحاولات اغتيال الامبراطور الذى كان يعمل دون كلل او ملل من اجل توحيد الصين، فى

ذلك الزمان الموغل فى القدم.

وكــيـف كــان له مـــا أراد رغم كل المؤامرات. اما الفيلم الآمريكى ، وهو من إخـراج اوليـفـر سـتـون صـاحب ولد فى الرابع من يوليه ونيكسون فيعرض لصعود الشاب الاغريقي الاسكندر ابن الملك فيليب حتى اصبح قائدا لا يشق له غبار.

وبجـيش اغـريقى قليل العـدة والعـدد يسـتـولى على مـصـر، حيث نصب نفسـه فرعونا.

يهـزم جـيـوش الفـرس الجـرارة، ثم يواصل الزحف، حـتى سـهول بلاد تركب الافيال، ويستمر على هذا الحال، الى ان يجـيـئـه الموت، وهو لا يزال فى ريعـان الشباب.

القفزة الكبري

ومما اثار دهشـتى ان المقـارنة بين «بطل» و«الاسكندر الأكـبـر» جاءت لغيـر صالح الفيلم الأخير.

امـا لماذا تغلب الفيـلم الصـينى، فـذلك لأنه جاء خفيفا مجنحا، فيه من لغة الشعر الشيء الكثير.

فى حين جاء الفيلم الأمريكى، طويلا، ثقيلا، امتد عرضه ثلاث ساعات، لاتطاق.

باخـتـصـار، كـان «بطل» ، رغم مـدة عرضه التى لم تزد على تسعين دقيقة ، إلا قليلا ، فيلما ملحميا، حواره القليل. شديد التركيز، ذكرنا بروح المأساة الإغريقية فى أرقى حالاتها ، وأكثرها صفاء.

امـا الأسكندر الأكـبـر لصـاحـبـه اولبفرستون المخرج الامريكى المنوج باكثر من أوسكار . فكان على العكس من ذلك تماما، فبلما ميلودراميا زاعقا ليس فيه من روح المآسى الإغريقية شىء ولو قليل.

ورغم سـاعـاته الطوال. حـيث حـاول «سـتـون» عـرض حـيـاة اشـهـر غـازى فى التاريخ القديم، بما احاط بها من أساطير لا يترك منها شيئا فاصلا. الا واحصاه، بوصفه شيئا جديرا بالاهتمام.

ورغم ذلك، فالفيلم ينتهى، وكأنه لم يقل شيئا ومن قبل أن نصل إلى بيوتنا، كان كل اثر له قد تبخر من ذاكرتنا.

هذا هو حال «الإسكندر الأكبر» معى .

البقاء للأصلح

وبالمقـارنة ، فـحـال «بطل» اخـتلف اختلافا جذريا لم يزل يعيش على شاشة ذاكـرتى، اراه، واسـتـمـتع به بدل المرة ، مرات.

وكيف لا استمتع به. وجمله السينمائية آية من من آيات بلاغـة، افـسـحت مكانهـا لزاد عظـيم مـن الـفـن، والـفـكـر والحس الجمالى الرفيع.

ومشـاهده ولقطاته، ارتفعت تكويناتها إلى مستوى ساحر للفؤاد، يمكن ان يقارن بمستوى لوحات كبار الفنانين التشكيليين.

وهـذا مـــا يفــرق ، ولاشك ، بين فن زائف، حتى لو صرفت على انتاجه، بسفة، عـشـرات الملايين وفن اصـيـل كـالماس، تخطف افلامه الأبصار. ■

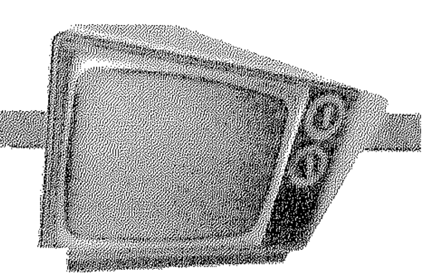


بقلم
مرفت رجب

البشرى

لما كان هذا العدد من «الهلال» يصل إلي يد القارئ الكريم في اليوم الأول من سنة جديدة، وجبت التهنئة، خاصة إن كانت مصحوبة بقدر من البشر والتفاؤل وجدته مبرراً.. فأنت إن تمنيت أمنية، وصبرت عليها ووجدتها تتحقق، فلا شك في أن هذا مبعث بشر وتفاؤل، حتي وإن كان لابد من الانتظار لعامين متتاليين، حتي يأتيك اليقين بأن أمنيتك قيد التحقق وقد يتذكر قارئ مداوم أن أولي كتاباتي لهذه المجلة الغراء، كانت في عددها الصادر في الأول من ديسمبر من عام ٢٠٠٢، وأن عنوان المقال كان «السيد الوزير» وهو المقال الذي حمل مني أمنية هي الآن قيد التحقق، فيما لها من بشري..

ولقد تناول المقال أمورا كثيرة، لكنها شديدة المساس بالعصب، «السيد الوزير» من واقع حلقة من الحلقات المتصلة المنفصلة التي يذيعها التليفزيون البريطاني من سنين، ومازالت تحظى بنجاح مشهود، اعتمدت عليه في دعوتي إلى إنتاج من نفس نوع الحلقات الدرامية المتصلة المنفصلة وقد انقطع





الانتاج منها

أو كاد أمام طوفان المسلسلات المترهلة فى الثلاثين حلقة أو ما يزيد .. وإذا كنا قد شاهدنا فى العام الماضى «مذكرات زوج معاصر» بطولة أشرف عبدالباقى، فإن ما يجرى تصويره الآن من حلقات «أين ذهب الحب» يؤكد البشرى بانبعاث هذا الاتجاه، ويجعلنا نتشبث بالأمل فى أن يأخذ بيده ولاة الأمر لعلهم بذلك أن يوجدوا مخرجا ملائما من الأزمة المستحكمة للإنتاج الدرامى فى بلادنا .

هو وهى

وأتصور أن الوقت قد حان لنطرح السؤال على الأستاذة سناء البيسى صاحبة «هو وهى» وكاتبة السيناريو والحوار لتلك الحلقات التى أبدع إخراجها الراحل يحيى العلمى ويبدو أنه كان مصمما على أن يبلغ ذرى غير مسبوقة ، فكان له ما أراد وكيف لا وقد اختار أشعر شعراء زمانه صلاح جاهين ليكتب لها كلمات الأغانى بما فيها المقدمة والنهاية، وأما الألحان فقد أفرد لها أعذب ثنائى بين صائغى الموسيقى، كمال الطويل وعمار الشريعى وكم طربنا ومرحنا وانشرحنا، مع كل تنغيمة أو قفلة أو استهلال ، وكيف لا والمغردة هى عصفورة السينما المصرية سعاد حسنى بصحبة الممثل المبدع الفنان أحمد زكى ولا تزال جمل الشريعى فى الموسيقى التصويرية حاضرة، ولكل ما سبق وغيره كثير، أعذر سناء البيسى فى أنها توقفت، والأرجح أنها تخشى «هو وهى» وتتوقع أن أى شئ آخر ربما يتضاءل جنب «هو وهى» ، ولنفس أسباب الخشية أرجوها أن تتقدم، وهى أهل لهذا التحدى. ولابد أنها تعرف كيف تختار فريقا لمواصلة المسيرة، والرأى عندى هو أن «هو وهى» لها نفس مقومات الاستمرار مثل «السيد الوزير» فى التليفزيون البريطانى .. وهى عند الإنجليز حلقات متصلة منفصلة لها فريق من كتاب السيناريو والمخرجين. ولكم تمنيت أن تحقق شيئا مشابها عندنا، ولذلك فإننى أكرر الدعوة لسناء البيسى لتبادر، وبإمكانها أن تبدأ بفريق مكون من ستة من كتاب السيناريو والحوار إضافة إليها، بمعنى أن عبء الكاتب من «السبعة» سيكون أن يكتب خمس حلقات كل شهر.

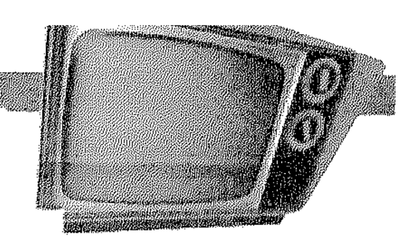
ولعل المبادرة نفسها مطلوبة من

الأستاذة نهى حقى صاحبة حلقات «اللقاء الثانى» وأتصور أن السنين الطوال التى تفصلنا عن أيام كتابتها لقصص اللقاء الثانى زودتها بحكايات وحكايات لمن باعدت بينهم الأيام ثم قربت، وهى الأقدر على بيان ما بين الحالين من شجون وشجون ، وإن كنت بصراحة لا أقوى على المطالبة بالمزيد من نهى حقى وأنا أعلم أن لها قصصا بعنوان «البنات ما بتتجوزيش ليه»، وأخرى بعنوان مذكرات غرفة فندق لكنها للأسف حبيسة أدراج قطاع الانتاج من سنين.

ولا يمكن فى هذا السياق أن نمر مرور الكرام بدور الإخراج، فهو عصب آخر فارق، وفى هذا أكرر ما سبق أن بينته من ضرورة رد السيادة إلى المخرج ، وإلا فلا صلاح لما إعوج فى الشأن الدرامى ، وبالطبع فإن استخدامى لكلمة مخرج جدير بكل سلطات الحل والعقد فى عمله ، تسرى فقط على المخرجين الأكفاء، وليس على من انتحلوا الصفة عنوة واقتدارا فأساءوا إلى الشاشة ولوثوا تاريخ المهنة فكلامى عن الحلقات المنفصلة المتصلة «اللقاء الثانى» لا يمكن أن يكتمل دون الاشارة إلى دور الإخراج والذى اضطلعت به الاستاذة علية يس ١٩٨٨ بعد غياب عن هذا اللون الذى أظنها تعتز به بعد أن نالت فى ١٩٧٣ جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى، وذلك عن إبداعها فى إخراج حلقات «فى وسط الزحام» بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٣

هى فى عينيه، هو فى عينيها

ولقد كتبت الأستاذة وفية خيرى حلقات «وسط الزحام» ١٩٧١، ثم عادت وكتبت عددا آخر من الحلقات ١٩٧٢ محاطة بكل تقدير يليق بنجاح العمل ، ولكن كان علينا أن ننتظر حتى عام ١٩٧٨ حين أخرجت لها مجيدة نجم حلقات «مواقف انسانية» ذلك حين انضمت وفية خيرى إلى أشهر ثلاثى من كتاب الحلقات المتصلة المنفصلة مصطفى كامل، وعاصم توفيق وجلال الغزالى، وننتظر حتى عام ١٩٩٢حين تعرض لها الشاشة من إخراج الأستاذ نور الدمرداش، الحلقات المتصلة المنفصلة «هى فى عينيه، هو فى عينيها» ، وانظروا وتأملوا معى، ماذا فعلت الأستاذة وهى صاحبة واحد من أشهر الأعمال الناجحة «وسط الزحام» والذى كان قصة وسيناريو وحوار وفية خيرى، لقد فعلت





مــا لو حــذا

حذوه آخرون لنجوا من قارب غرق بمن فيه من المتشبثين باللقب الثلاثى قصة وسيناريو وحوار فى «هى فى عينيه وهو فى عينيها» اكتفت وفية بكتابة السيناريو لتتيح لنا أصواتا ورؤى جديدة، وهكذا جعلت كل حلقة مبنية على قصة لكاتب مختلف مثل عبدالله الطوخى وصبرى موسى ورستم الكيلانى ويوسف القعيد وهدى جاد وسيكنة فؤاد وزينب رشدى وإيفلين رياض وسناء البيسى وجمال الغيطانى ونبيل عبدالحميد وعلى عيد ، وما أشد حاجتنا اليوم لاستحضار هذاالمثل بكل تداعياته الإيجابية وإلا فبالله عليكم هل ينفع أن يزدحم السوق الثقافى المصرى لعشرات المبدعين من كتاب الرواية والقصة القصيرة والشاشة عندنا عاملة «ودن من طين وودن من عجين» هل ينفع أن تظل حفنة من الأسماء باركة على أنفاسنا سنين وسنين وسنين وبلدنا فيها خيرى شلبى ومحمد البساطى وإدوارد الخراط ومحمد توفيق، وعلاء الأسوانى و... و..... .

هذا بخلاف مناجم يوسف إدريس التى تعلم منها أساتذة ولا زالت تنتظر من الأساتذة من يحسن الاقتراب..

أين ذهب الحب

ومرة أخرى ننتظر ، ويطول الانتظار، وعكس ما حدث لأحدهم أذاعت له الشاشة المصرية ثلاثة مسلسلات فى شهر واحد وبلا أى حياء، بينما ننتظر ظهور عمل جديد لقلم جديد ويكون علينا أن نصبر ، وإذا كان من المنتظر أن يعرض أين ذهب الحب أوائل هذا العام ٢٠٠٥ وإن كانت الشركة المنتجة قد تسلمت نصوص العمل فى عام ٢٠٠٠ وكتب التعاقد مع المؤلفة فى عام ١٩٩٩ وكل ذلك يهون ، المهم أن يعجلوا بإذاعة العمل ليس فقط تقديرا لمؤلفته وفية خيرى ومخرجه إبراهيم الشقنقيرى وأبطاله، دلال عبدالعزيز ومحمود قابيل وعبدالمنعم مدبولى والهادى الجيار وميمى جمال وعبدالله فرغلى.. وكل منهم جدير بكل تقدير طبعا، لكن بصراحة الأهم الآن أن يتقدموا لإنقاذنا فقد فاض بنا الكيل، نعم فاض بنا الكيل من قصر الكتابة على حفنة بعينها دون خجل، وفاض بنا الكيل من تضييق دائرة اختيار الممثلين وفرض تكرارهم حتى يصيبنا منهم سقم مرير، ومنهم من كان

عندنا من أفضل الممثلين ، لكنهم سرعان ما ينزلقون إلى دائرة الهدر، إما عن غفلة، أو خشية من أن يفوتهم الغرف من أوعية تبديد المال العام .. ليتضاعف العجز فى ميزانية اتحاد الاذاعة والتليفزيون فضلا عن تردى الأوضاع المالية لما يسمى بـ«شركات الإنتاج» وعذرا على هذا الاستطراد، فلقد كان قرارى أن نختم المقال على نبرة مستبشرة، وسنفعل، والمسألة أن كل ما سبق من إشارات إلى الأعمال الدرامية التى تم تقديمها فى الشكل المتصل المنفصل، هى إشارات على سبيل التذكير لا الحصر، هناك أمثلة أخرى نجحت كتلك التى كتبها ملك الكوميديا «أحمد رجب» وزعيم السخرية «أنيس منصور» لكن المسألة أيضا أن هذا النوع لا يمثل سوى نقطة وسط طوفان المسلسلات ، رغم أن ما تم إنتاجه من هذا النوع كان من أقوى أسباب الارتباط الوثيق الذى غزله التليفزيون بين الشاشة وجماهير المتلقين ..

وإذن فلقد ضربت الأمثلة إنعاشا للذاكرة ومعها الأمل والثقة فى أن للأزمة الراهنة حلولا متاحة، وما أحدث أعمال وفية خيرى «أين ذهب الحب» إلا خيطا من نور أتمنى أن يتحول إلى شعس مضيئة أرى أن طريقنا إلى نورها يتطلب ثلاث خطوات، أولا اتخاذ قرار حاسم بحصر انتاج المسلسلات على عمل واحد فى العام وعلى أن يستمر هذا الحصر لمدة ثلاث سنوات متتالية .

ثانيا تكوين مجموعات مصغرة من الكتاب والمخرجين على أن يتم ذلك بمبادرة منهم ، وليس فرضا عليه ، يعنى أن ينتخب الكتاب بعضهم البعض ، وكذلك المخرجون بشرط استبعاد المجموعة المؤيدة التى احتلت أعمالها الشاشة لسنوات وسنوات.

ثالثا : أن يكون الانتاج الدرامى على محورين:

أ – الحلقات المتصلة المنفصلة .

ب – تمثيلية السهرة أو ما اصطلح على تسميته مؤخرا بالفيلم التليفزيونى القصير، ومنه أعمال فضلوا حبسها على رفوف مكتبة التليفزيون ، وإن عرضوها فذلك يقتصر عندهم على القنوات المشفرة.

المهم أن الأزمة مهما استحكمت ، فالحلول متاحة وإن بدت للبعض بعيدة المنال. ■

ها أنا ثمل بالبريق
الذى شع فى مقلتيك
أسافر عبر سماواتك الفاتنات
قمراً ممعناً فى ارتياد الغمام
نافراً من مدار الزحام
ممسكاً بحبال من النور
تحكى الأساطير
تنفض عنها صقيع الظلام ..
وتشبعنى بالتراتيل كل صباح ..
ها أنا هابطٌ حلم أشواقك الدافئة
فأرى فيك طفلتى القدسية
تشى على ساعدىَ
تهدهدنى بالشفاه العذاب
أيا ربة الشعر ..
من أين جئت إلىّ
وكيف ألوذ بذيل ردائك
والريح تحملك الآن
نحو اشتعال المدى ...
كيف لى أن ألوذ بوجهك مبتسماً
فتفيض جداول شعرى
وتزدهر الشجراتُ العتيقة
تملؤنى بالبشارات فى لغة الياسمين

شعـــر
أحمد سويلم

تجعل عمرىَ ألفاً
تغافلُ هذا الزمان الشقى
تغالطه فى احتساب الخطى
وارتحال السنين ..
تفيأت فيك ظلال الحنين
وشاهدت ريح الصبا
وهى تجدل خصلاتها فى يديك
تدغدغ أهدابى الناعسات
بحلم جديد ..
مايه يا ربة الشعر
ماذا عسانى أراك على ضفة النهر
هل أراك زبرجدة من زمان العبير القديم
ربيعاً من العشق
يخترق الغيم
يتخذ الأفق سدرته فى السديم
أم امرأةً ...
كل ما أشتهيه بها
كل ما أرتضيه بها
وأرانى بمحرابها
ممعناً فى الجنون ..

علمني أبي ألا أتوقع شكراً على واجب أديته

عبد الرؤوف الريدي

الوجـــدان

أعكف الآن علي كتابة مذكراتى التى ستشمل بإذن الله رحلتى مع الدبلوماسية والتى بدأت من نيويورك عام ١٩٥٥ كمحلق دبلوماسي فى بعثة مصر لدى الأمم المتحدة وانتهت فى واشنطن حيث عملت سفيراً لمصر فى الفترة من ١٩٨٤ - ١٩٩٢

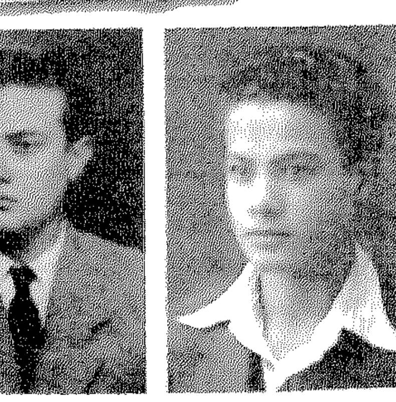
فى كل مرحلة من مراحل هذه الرحلة كنت أكتسب تجربة جديدة تضاف إلى التجارب السابقة، إلا أن تشكيل الوجدان جاء منذ الأيام الأولى، وبقى معى طوال العمر . تشكل هذا الوجدان فى أيام الطفولة والشباب ، القرية والمدرسة والأحداث التى شهدتها ، وتركت بصماتها ، وأصبحت تكّون فى مجموعها المخزون العاطفى المسئول عن ردة الفعل الأولى فيما أصادفه من أحداث .

ولدت في عزبة البرج عام ١٩٣٢ وتفتحت عيناى على البحر، وتفتحت مسامعي على قصص البحر . عزبة البرج تقع على أقصى نقطة شمالاً في الشاطئ الشرقي من فرع دمياط ، حيث يصب النيل مياهه في البحر المتوسط ولايقتصر تميز هذه البقعة على موقعها الجغرافي بل يمتد إلى موقعها في تاريخ مصر ... فميناء دمياط حافل بالتاريخ ... وقصدته عدة حملات صليبية كان أشهرها الحملة السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع .. ونجح في احتلال دمياط والمنطقة المحيطة بها في القرن الثالث عشر، ثم كانت هزيمته المدوية في المنصورة

وقد حدث أن جاءت في أوائل هذا العام كاتبة أمريكية تؤلف كتاباً عن هذه الحملة فصاحبتها إلى رأس البر على الشاطئ المقابل لعزبة البرج ، حيث منطقة اللسان التي تمتزج فيها مياه البحر بمياه النيل،ويوجد «البوغاز» ذلك الممر الضيق في المصب الذي تمر منه السفن، سواء الخارجة إلى عرض البحر أو القادمة . كانت عزبة البرج أمامنا على الشاطئ المقابل في البر الشرقي.. وكان نهر النيل يزدحم بسفن الصيد الراسية . نظرت إلى البوغاز وقلت لها ... من هنا دخلت الحملة الصليبية السابعة ... وعلى هذه الأرض نزل ملك فرنسا وجيشه ثم اتجهوا حتى وصلوا جنوبا قبالة دمياط ... ومن هذا البوغاز غادر لويس التاسع أيضا بعد ثلاثة أعوام ... هي عمر هذه الحملة التي انتهت بهزيمته وأخذه أسيراً ثم الإفراج عنه ضمن صفقة تمت مقايضته فيها .

بين عصرين

شببت في هذه المنطقة في حقبة زاهية من تاريخها .. كانت حقبة تصل بين عصرين شهدت عصراً قديماً وهو يأفل ... وشهدت





الريدى بين الصبا والشباب

عصراً جديداً وهو يقبل ... كما شاهدت عالمين .. عالم عزبة البرج ... عالم الصيد والسردين والسفر على السفن الشراعية لنقل البضائع من وإلى موانئ البحر الأبيض وتركيا ... وعالم رأس البر في أزهى عصوره في سنوات الحرب العالمية الثانية حيث كانت تؤمه الارستقراطية المصرية وصفوة المجتمع القاهرى

شببت في هذه المنطقة الخلابة التي تختلف عن الريف المصرى في أنها بقعة محاطة بالمياه في ثلاثة جوانب ؛ البحر شمالاً ونهر النيل غربا، وبحيرة المنزلة شرقا ، وكأنها شبه جزيرة، وتدور اقتصادياتها في ثلاثة محاور: الصيد والنقل البحرى خاصة مع موانيء شرق البحر المتوسط والسياحة الداخلية في مصيف رأس البر أما مدينة دمياط .. فهي تلك القلعة الصناعية والتجارية الضخمة والتي درست في مدرستها العتيدة التي ضمت المدرستين الابتدائية والثانوية معاً . ودمياط هي أقدم الموانئ المصرية المعاصرة، وتقع جنوب المصب بأربعة عشر كيلو متراً على الشاطيء الشرقي ، وقد شهدت الكثير من أحداث التاريخ ، وأنشأ بها عمرو بن العاص ثاني مسجد في مصر يحمل اسمه بعد مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط (مصر القديمة) ، وأهل دمياط رجال أعمال

وتجار من الطراز الأول، والمدينة كلها عبارة عن ورشة عمل كبيرة ... تنتج الأثاث ومنتجات الأليان والحلويات الدمياطى وميناؤها الحديث الذى يبعد عن المصب أى عن الميناء القديم «البوغاز» أصبح الآن أهم ميناء للحاويات فى مصر . وقد افتتحه الرئيس مبارك يوم ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٤ بعد تطويره ليصبح أول ميناء إليكترونى وأكبر الميناء للتصدير فى مصر، وقد قال الرئيس عند افتتاح الميناء «ليتنا نصبح جميعا شطار مثل الدمايطة» وقد عدت إلى دمياط بعد رحلة الدبلوماسية لأكون أول رئيس لمجلس أمناء دمياط الجديد (١٩٩٣- ١٩٩٦) وتلك تجربة أخرى من تجارب ما بعد مشوار الدبلوماسية فى المجتمع المدنى

فى هذا المثلث الذهبى الذى تمتد قاعدته من عزبة البرج شرقا إلى رأس البر غرباً ويوجد رأسه فى مدينة دمياط جنوباً، تفتحت عيناى على الدنيا كما تفتحت مداركي الأولى

.

أبى سطور بلدنا

كنت قريباً من أبى وكان عمله يشمل البلدة كلها .. من سفن شراعية وسفن صيد الأسماك وتجارة أدوات البحر والصيد ... وكان ناجحاً فى تجارته ... وكان مثالاً نادراً فى الإسهام فيما نسميه الآن «المجتمع المدنى» ... بنى مسجداً قبل أن يبنى منزلاً للعائلة وذهبت معه إلى القاهرة لمقابلة وكيل وزارة الصحة «توفيق باشا شوشة» – الذى تقدم باسمه جائزة سنوية فى منظمة الصحة العالمية حتى الآن حيث قدم له شيكا بألف جنيه تبرعا من أهل البلد لإقامة مجموعة صحية فكانت أول مستشفى فى البلد أو لعلها المستشفى الوحيد حتى الآن فى عزبة البرج ... كان أبى وفديا كبيراً ... وكانت البلدة كلها وفدية، بينما كانت مدينة دمياط تميل إلى حزب الأحرار الدستوريين الذين كان من أقطابهم حامد العلايلى نائب دمياط لسنين طويلة . كان أول درس تعلمته من أبى، ومازلت أذكره حتى الآن هو ما كان يقوله لى دائماً ...«إياك أن تتوقع شكراً إذا أديت واجباً عليك نحو أهلك أو بلدك...» كنت أواظب على الذهاب معه للصلاة فى جامع «الريدى» وكان الاحتفال فى الجامع بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام احتفالا جميلاً بهيجاً ، يستمر لأثنتى عشرة ليلة، كنا نقضيها فى الاستماع إلى السيرة النبوية ثم نقف صفوفاً للذكر، حتى إذا جاءت الليلة الأخيرة، وهى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول، كان أبى يوزع الحلوى ثم نخرج جميعاً ونمشى فى الشارع الرئيسى فى البلد فيما كان يسمى «السيارة» والتى كانت ترفع فيها الأعلام الخضراء «والكلوبات» ...وننشد الأناشيد والأذكار ...

كانت أيام رمضان أياماً مشهودة، ولم يكن بالبلدة مدفع للإعلان عن موعد الإفطار فكنا نعتمد على شخص يصعد إلى مئذنة الجامع، ويشاهد الشمس وهى تسقط فى البحر فى الغرب، فيقوم برفع العلم الأخضر الذى كان الناس يراقبونه من منازلهم ... فيكون ذلك إيذانا بالإفطار ..

مصيف مصر الأول

وفى أوائل الأربعينيات حينما غزت القوان الألمانية مصر بقيادة روميل من الغرب وأصبحت هذه القوات على مقربة من مصيف مصر الأول أى الإسكندرية أصبح مصيف رأس البر هو المصيف الأول لوقوعه على الجانب الشرقى بعيداً عن قوات المحور ، وفى هذه الفترة كان كبار شخصيات المجتمع



يأتون للاصطياف فى رأس البر بل لقد جاءت الملكة الأم «نازلى وبناتها» واتخذوا من فندق «كريستال بالاس» الذى أنشأه واحدا من أبناء بورسعيد فى عزبة البرج وأقيم للأسرة المالكة آنذاك شاطىء خاص على الطريق ما بين عزبة البرج وبورسعيد.

فى هذه الأيام كانت التمشية على شارع النيل فى رأس البر متعة لاتعادلها متعة يشارك فيها الجميع من كافة الطبقات ومختلف الأعمار، وكانت الجاكتة البيضاء من مودات هذه الأيام وكذلك حمل المنشة، أما الفتيات فكن يتبارين فى استعراض أزياء الصيف الزاهية، وبعد التمشية يذهب الجميع إلى السوق البلدى لتناول الفطير الدمياطى الشهير

كان مصيف رأس البر أقرب شئ إلى البساطة والروح العائلية . كما كان هو المصيف المفضل للجالية اليهودية المصرية. وكان يروق لهم استخدام قوارب النزهة الشراعية التى تأخذهم إلى منطقة «الرملة الصفراء» جنوب رأس البر بحوالى ثلاثة أو أربعة كيلو مترات وكانت منطقة جميلة للاستحمام كما كانوا يستأجرون المراكب الشراعية أيضا فى فترة ما قبل الغروب ويخرجون للنزهة والغناء والمرح ... أما الغروب فكان مشهدا رائعا يرقبه الكثيرون على شاطىء البحر ويتابعون قرص الشمس الذهبى وهو يسقط إلى أن يتلاشى فى البحر

كان لرأس البر فى هذه الفترة روادها وعشاقها ومن بينهم مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد وأم كلثوم وفؤاد سراج الدين ومحمد عبد الوهاب وفكرى أباظة وتوفيق الحكيم وإبراهيم دسوقى أباظة ومحمد التابعى ومصطفى أمين وغيرهم كثيرون والواقع أننى، وقد زرت أغلب مصايف العالم ، لم أجد حتى الآن مصيفا أجمل وأبهج من رأس البر فى هذه الحقبة الزاهية.

بداياتى فى التعليم

كنت من أول جيل من عزبة البرج يذهب إلى التعليم الرسمى ، وأول درس حصلت عليه كان عمرى وقتها لايزيد على خمس سنوات ، وأدين لأول أستاذ لى الشيخ زكريا فودة - رحمة الله - بالفضل، فقد علمنى مبادىء اللغة العربية ومادة الحساب، ثم التحقت بعد ذلك بمدرسة عزبة البرج الأولية ، وأمضيت فيها عاما ، ثم وجد أبى رحمه الله أن من المهم أن التحق بالتعليم الحديث . فتقدمت للامتحان لدخول المدرسة الإبتدائية بمدرسة دمياط الابتدائية عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ وعمرى وقتها سبع سنوات ، وكانت الرحلة يوميا إلى المدرسة لاتنسى ، كنت أذهب أنا وشقيقتى الصغرى إلى دمياط بالسيارة صباحا ثم نعود فى نهاية اليوم الدراسى مع الغروب . كانت المسافة حوالى أربعة عشر كيلو مترا وكان الطريق ترابيا ، وهذه المنطقة مشهورة بهطول الأمطار. وكثيرا ما كان الطريق يتوقف بسبب الأمطار ، فنضطر للذهاب إلى المدرسة أما بالسفن الشراعية حيث تستمر هذه الرحلة ما يقرب من ثلاث ساعات، أو نذهب سيرا على الأقدام، أو عن طريق ركوب الدواب، ولم أكن أحب هذه الطريقة كنت أشعر بنوع من الغربة طوال دراستى الابتدائية ... ولعل ذلك كان راجعا إلى أنه لم يكن لدى أصدقاء من دمياط ذاتها . ولم يفارقنى شعور الغربة هذا إلا فى مرحلة الدراسة الثانوية .

كان مدرس اللغة العربية والدين فى المرحلة الابتدائية هو الشاعر الكبير طاهر أبو فاشا ... الذى تخرج من الأزهر الشريف، وكان هو الذى تبنى فكرة إنشاء فريق تمثيل فى المدرسة الابتدائية وكنت بين أعضائه

ولم يكن هناك شئ يجذبنى للمدرسة أثناء الدراسة الابتدائية، وعندما انتقلت للدراسة الثانوية تعثرت فى السنة الأولى ورسبت مرتين ، واتفقت مع أبى الذى تفهم رغبتى فى أن أترك الدراسة لأكون معه فى عمله الذى كان يستهوينى، إلا أن أمى رحمها الله أصرت على أن أعود للمدرسة .... وعندما عدت تفتحت مداركى على شئ جديد كان له الفضل الأكبر فى أن استأنف مسيرة الدراسة . كانت أحداث مصر السياسية قد أصبحت تلقى بظلها على مصر كلها، وكانت مظاهرات الطلبة قد عمت القطر بما فى ذلك مدينة دمياط فى أعوام ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، وكان ذلك بداية شعورى بما يجرى فى مصر ذهبت فى رحلة مع المدرسة إلى القاهرة عام ١٩٤٥ ... وأثناء وجودنا فى القاهرة وقع حادث كبير ... وهو اغتيال رئيس وزراء مصر آنذاك أحمد ماهر باشا أثناء مروره فى البهو الفرعونى بالبرلمان وهو متجه إلى مجلس الشيوخ ، بعد أن ألقى خطابه الذى أعلن فيه الحرب على دول المحور، حتى يضمن لمصر مقعداً فى مؤتمر سان فرانسيسكو الذى وضع ميثاق الأمم المتحدة ، كان هذا الحادث بداية لإعصار أخذ مصر كلها لمدة سبعة أعوام حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ كانت هذه الأعوام السبعة التى أثرت على مصر كلها فترة هامة فى تشكيل حسى السياسى، فى ٤٥ أغتيل أحمد ماهر وفى ٤٦ كانت مظاهرات الطلبة والعمال ومفاوضات صدقى بيفن، وفى ٤٧ صدور قرار تقسيم فلسطين، وفى عام ٤٨ حرب فلسطين، وعام ٤٩ هو عام اتفاق الهدنة والمواجهة بين الحكومة والأخوان المسلمين، وعام ١٩٥٠ هو عام إلغاء معاهدة ١٩٣٦، وعام ٥١ هو عام حرب الفدائيين فى منطقة القناة ، وعام ٥٢ هو عام حريق



عبد الرءوف الريدى مع عبد الناصر والسادات

وفريق تمثيل آخر فى المدرسة الثانوية وقد لمع من فريق المدرسة الثانوية بعد ذلك المخرج المعروف سعد أردش، وقد بقى طاهر أبو فاشا معنا فى المدرسة إلى أن التقى فى رأس البر بالأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة وكان وزيراً للأوقاف ومحباً للشعر فطلب إليه أن يعمل معه فى القاهرة ومن هنا بدأت رحلة أبو فاشا الشعرية فى القاهرة ومع الإذاعة المصرية ... التى ملأها بأشعاره ورواياته الشعرية وأهمها ألف ليلة وليلة إلى أن وافته المنية منذ عدة أعوام

زاملت فى مرحلة الابتدائية عبد المنعم سليم وحسب الله الكفراوى وأسامة الباز وأخوته ومحمد حواتر وغيرهم ، وفى الثانوية التقيت بالصديق العزيز محمود سالم الكاتب الروائى المعروف ... والذى يعتبر بيته حتى الآن واحة للقاء الأصدقاء من الأدباء والمفكرين .

كنت أقضى فترة الشتاء فى الدراسة،

القاهرة وقيام الثورة

عدت للدراسة عام ١٩٤٦ وكانت دمياط الثانوية التى عدت إليها هى معقل المظاهرات فى دمياط وبدأت أقرأ فى هذه الفترة .. صحف الوفد ... وأقرأ لكتابها الكبار.. المرحوم عزيز فهمى ومحمد مندور وفى «المصرى» أقرأ مقالات أحمد أبو الفتح .. ثم بدأت أقرأ فى الصفحات الأدبية لسعد مكاوى وعبد الرحمن الخميسى . كنت أقرأ صحف الحزب الأشتراكى واللواء الجديد للحزب الوطنى الجديد والملايين للحركة الشيوعية المصرية وبدأت أحب الأدب ووجدت نفسى أحب المدرسة وأشارك فى حياتها السياسية والثقافة.

اجتمع ثلاثتنا المرحوم عبد المنعم سليم والصديق العزيز محمود سالم أمد الله فى عمره وأنا وأصدرنا مجلة «الغد» وكان الاشتراك السنوى هو عشرة قروش، وقد دفع ذلك فريقا أخر من المدرسة على رأسه الصديق وزميل رحلة الدبلوماسية أسامة الباز فأصدروا مجلة «الزميل» .

ولو سألنى أحد فى هذه الفترة ... ماذا تود أن تصبح فى المستقبل لجاء ردى مباشرة وبلا تردد . أريد أن أشق طريقا مثل طريق الدكتور عزيز فهمى ... فهو محام وهو كاتب ، وهو نائب عن الشعب والآن وبعد رحلة العمر فمن الواضح أن ذلك لم يتحقق وإن كان قد تحقق شى قريب منه، فالعمل الدبلوماسى، خاصة فيما مارسته فى الأمم المتحدة بل وفى واشنطن كان يجعلنى أشعر بأننى لا أمثل مصر الرسمية فقط بل أمثل مصر كلها شعبا وحكومة ...

أحداث متلاحقة

وفى الثانى من نوفمبر ١٩٤٧ وصلت إلى المدرسة فذكر لى بعض الزملاء أنه سيكون هناك إضراب اليوم . فلما سألت عن السبب قيل لى أنه بسبب ذكرى «وعد بلفور»

ويصافح الرئيس مبارك

فسألت عما هو وعد بلفور فقيل لى أنه الوعد الذى صدر فى نوفمبر ١٩١٧ من وزير خارجية بريطانيا بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . وقد تلاحقت أحداث هذه القضية بسرعة عجيبة ، سمعنا عن بدء حرب عصابات فى فلسطين بين العرب واليهود ... ثم عن قيام جماعات اليهود بالهجوم على القوات البريطانية فى فلسطين ووقوع مذبحة ديرياسين وكان نسف فندق الملك داود فى القدس الذى كان يضم مقر القوات البريطانية بفلسطين من أخطر ما سمعناه فى هذا الشان ، وهو يعتبر واحدا من أكبر العمليات الارهابية فى التاريخ الحديث . ثم سمعنا عن قرار مفاجىء للحكومة البريطانية بعرض قضية فلسطين على الجمعية العامة للأمم المتحدة لأنها قررت مغادرة فلسطين وتركها لمصيرها أو ترك شعب فلسطين العربى لمصيره .. سمعنا أن هناك مشروعا لتقسيم فلسطين .. وكان الرأى العام المصرى متعاطفا مع الفلسطينيين الذين رفضوا فكرة



التقسيم ، ولكن الجمعية العامة للأمم المتحدة أصدرت قرارها بالتقسيم، رغم إرادة العرب والفلسطينيين أهل البلاد، وبدأت جماعات من المتطوعين المصريين يتوجهون لمساعدة أخوتهم فى فلسطين واجتمع مجلس جامعة الدول العربية وقرر تكوين جيش من المتطوعين، هو جيش الإنقاذ بقيادة فوزى القاوقجى وكان يعمل من الأراضى السورية

وسافر المتطوعون من الأخوان كما سافر الأستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة ومعه مجموعة من متطوعى الحزب فى الكتيبة الخضراء ، إلا أن أهم شخصية ذهبت لقيادة المتطوعين كان المرحوم البطل أحمد عبد العزيز الذى استشهد هناك ، وسرعان ما تلاحقت الأحداث بعد ذلك وخاصة بعد إنسحاب بريطانيا فى ١٥ مايو ... ومازلنا نعيش تداعيات ومضاعفات هذه القضية فى المنطقة كلها

- كانت أعوام الدراسة الثانوية حتى عام ١٩٥٠ فى قلب سنوات الإعصار السياسى الذى أشرت إليه ، وفى هذه السنوات كانت بداية تكوينى السياسى، والثقافى فأصبحت أحصل على أعلى الدرجات فى موضوعات الإنشاء وأحببت اللغة العربية وألمت بقواعدها .. واشتركت فى تحرير مجلة المدرسة إلى أن أصبحت رئيسا لتحريرها كما أحببت مادة التاريخ وبعد أن كنت قد تعثرت فى السنة الأولى إذا بى فى السنة الأخيرة يكون ترتيبى الأول على المدرسة (القسم الأدبى) وبدأت استعد للدراسة الجامعية .

بداية اهتمامى بالسياسة

جئتُ القاهرة فى خريف عام ١٩٥٠ فى مرحلة خصبة من تاريخ مصر السياسى وامتدت هذه الفترة حتى خريف ١٩٥٥ ... فى هذه الأعوام الخمس سارت حياتى بالتوازى مع الحياة السياسية فى مصر . عندما جئت إلى القاهرة وجدت نفسى أبتعد شيئاً ما عن حزب الوفد وبدأت أفكار الحركات السياسية الأخرى تجذب اهتمامى ... وخاصة الحزب الأشتراكى (مصر الفتاة سابقا) ... وأعجبت بأحمد حسين الذى كان يقود حرباً معلنة ضد الملك ... وكانت الحياة السياسية والثقافية فى مصر بالغة الثراء ... كانت الأحزاب السياسة تعقد مؤتمراتها فى الميادين العامة وكثيرا ما كنت أذهب للإستماع إلى خطيب مصر الأول أنذاك مكرم عبيد فى المناسبات الكبرى فى ميدان باب الحديد وكنت أذهب لمجلس الدولة لاستمع إلى مرافعات محمد عصفور أمام رئيس المجلس السنهورى باشا التى يطالب فيها .. بالغاء أوامر مصادرة جريدة الاشتراكية والشعب الجديد اللتين كان يكتب فيهما أما فى الجامعة فكنت أحضر تجمعات الأحزاب واستمع إلى خطيب الأخوان الشهير حسن دوح وإلى أحمد الخطيب زعيم الطلبة الوفديين ... وفى المساء كنت أذهب أنا وزميلى كمال خشبة إلى البيت الأخضر (مقر الحزب الأشتراكى) فى ١٦ شارع ضريح سعد ... وكنت أحضر محاضرات سلامة موسى الشهيرة فى دار الشبان المسيحيين، وكنت أسكن أنا وكمال فى القاهرة الإسلامية التى اخترناها لتكون منطقة وسطا بين جامعة ابراهيم باشا (عين شمس حاليا) وبين جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليا) ... وهى نفس المنطقة التى تدور فيها أحداث روايات نجيب محفوظ ... كنت أمر على خان الخليلى كل يوم فى الطريق إلى شارع الأزهر لآخذ أتوبيس ١٩ الذى يذهب لجامعة القاهرة بينما كان كمال يذهب إلى ميدان بيت القاضى





ليأخذ الأتوبيس الذاهب إلى العباسية حيث تقع جامعة عين شمس

تأجج المشاعر الوطنية

وكنا كثيرا ما نمر على سور حديقة الأزبكية حيث نشترى روائع الكتب بأرخص الأسعار، ومازال كمال يحتفظ بمكتبته العتيدة التى جمعها من سور حديقة الأزبكية . وكانت الحياة الفكرية والثقافية زاخرة وخرجت إلى الوجود صحف تعبر عن كل التيارات وظهرت كتب مازالت أصداؤها حتى الآن .... «المعذبون فى الأرض» لطه حسين و«ومن هنا نبدأ» لخالد محمد خالد، وكان كبار الكتاب والأدباء يكتبون فى السياسة من أمثال العقاد والمازنى ومندور ... كان هذا هو الجو الذى شهدته القاهرة عندما وصلتها كطالب بالسنة الأولى بكلية الحقوق فى بداية خريف ١٩٥٠ فى أعقاب إلغاء معاهدة ٣٦، وقد أدت هذه الخطوة إلى مزيد من تأجيج المشاعر الوطنية وبدء حرب الفدائيين ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة .. ولم تكن الحكومة تعارض حركة الفدائيين وإن لم تكن قد أيدتها علنا، والتى سارت بإيقاع سريع وفقدت الحكومة السيطرة على مسار الأحداث ، وقد انتهت هذه المرحلة بالمعركة المعروفة بمذبحة الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢

أذكر إننى ذهبت فى هذا اليوم إلى جامعة القاهرة وتوجهت مع ألوف الطلبة إلى المبنى الرئيسى للجامعة ، ووقف «حسن دوح» زعيم الطلبة الأخوان آنذاك يخطب ضد الإنجليز ولكنه لم يدع إلى ممارسة العنف، بل أذكر أنه دعا إلى ضبط النفس وتجنب الاندفاع فى أعمال غير مسئولة سرنا . فى مظاهرة إلى مجلس الوزراء الذى كان مجتمعا آنذاك .. وخرج المرحوم عبد الفتاح حسن وزير الدولة وخطب مؤكدا أن الحكومة ستفعل كل ما فى وسعها لإنهاء الاحتلال .. إلا أن هذا لم ينجح فى تهدئة المشاعر الملتهبة ولم

تكن الحكومة مسيطرة على الموقف ، بل إننى أذكر مشهد ضابط جيش بزيه وقبعته العسكرية محمولا على الأعناق يقود الهتافات التى يرددها وراءه المتظاهرين كما لا أنسى عساكر بلوكات النظام يشاركون فى المظاهرات ... وهكذا وكان واضحا للعيان أن الحكومة غير قادرة على السيطرة على الموقف ، فكان حريق القاهرة فى يوم مأساوى لا ينسى وعاشت مصر بين ٢٦ يناير و ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تاريخ قيام الثورة فترة حالكة حيث أعلنت الأحكام العرفية وأقال الملك وزارة النحاس وألقى القبض على المئات وقدم أحمد حسين إلى المحاكمة بتهمة التحريض على حريق القاهرة ولم ينقذه سوى قيام الثورة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، عندما قام الضباط الأحرار بانقلابهم على الحكومة كان النظام السياسى قد تهاوى بالفعل .

كنت كالعادة أمضى الصيف فى عزبة البرج فى عام ١٩٥٢ حينما جاءت الأنباء بوقوع ثورة ٢٣ يوليو وتولى الضباط الأحرار الحكم، وقد عمت الفرحة كل قطاعات الشعب الذى انطلق فى مسيرات لتهنئة الضباط الذين قاموا بهذه الثورة وكانت الشخصية التى تعلقت بها أبصار الجماهير هى شخصية محمد نجيب ، ولم يعرف الناس شخص جمال عبد الناصر إلا بعد قيام الثورة بفترة من الوقت .

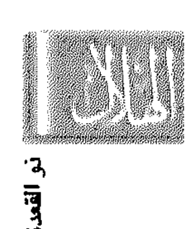
استطاعت الثورة أن تقبض على ناصية الأمور إلى أن دب الخلاف بين قادتها حول قضية الديموقراطية التى تفجرت فى أحداث مارس ١٩٥٤ وكان غالبية الطلبة فى الجامعة يؤيدون محمد نجيب وخالد محى الدين من أجل إعادة دستور ٢٣ وعودة الحياة النيابية إلى مصر - إلا أن المعركة حسمت - فى النهاية لصالح الفريق الآخر بقيادة جمال عبد الناصر

المطالبة بالديمقراطية

تخرجت من كلية الحقوق فى عام ١٩٥٤ وكان ترتيبى يؤهلنى للالتحاق بالنيابة العامة .. وحتى يأتى على الدور فى التعيين ذهبت للتمرين بمكتب الأستاذ محمد عصفور المحامى الذى كان معروفا لنا من قبل كمحامى الحريات ، وكان الأستاذ عصفور آنذاك يعد رسالة الدكتوراه فى القانون الدستورى وكان كثير الانتقاد «لحكم الضباط» وكثيرا ما كان يعبر عن اعتقاده أنه لا نجاة لمصر إلا من خلال حكم ديموقراطى يقوم على أساس دستورى سليم ، وقد ظل عصفور وفياً لمبادئه حتى وافته المنية منذ بضعة أعوام .. رحمه الله .

وبينما كنت أتدرب فى مكتب الأستاذ عصفور فى صيف ١٩٥٤ ظهر إعلان فى الصحف صادر من وزارة الخارجية المصرية لإجراء مسابقة لتعيين ملحقين دبلوماسيين ، قرأت الإعلان قراءة عابرة ولم يدر بخلدى أن أدخل هذا الامتحان - فالصورة التى كانت قد استقرت فى أذهاننا عن العاملين بالسلك الدبلوماسى هى صورة شباب من الطبقة الأرستقراطية الذين يتحدثون اللغات الأجنبية التى تعلموها منذ الطفولة.

فات موعد التقدم لهذه المسابقة التى لم أعرها اهتماما وما هى إلا فترة وجيزة حتى ظهر إعلان آخر وتحدد موعد آخر للامتحان ، وفى هذه الفترة زارنى صديق محام متخرج معى من نفس دفعتى ١٩٥٤ ، ليقترح علىّ أن نتقدم سويا لهذا الامتحان .. فلما أخبرته أن معرفتنا باللغات الأجنبية معرفة ضئيلة أجاب بأن الأمر ليس بالصعوبة التى أتصورها وأنه



يعرف بعض الذين نجحوا في الامتحان السابق ومعرفتهم باللغات الأجنبية لا تزيد كثيرا عن معرفتنا بها ، أقنعنى هذا الزميل بأن أحاول أن أخوض معه هذه التجربة وأشار أنها لن تكلفنا أكثر من رسم التقدم للامتحان هو جنيه واحد .

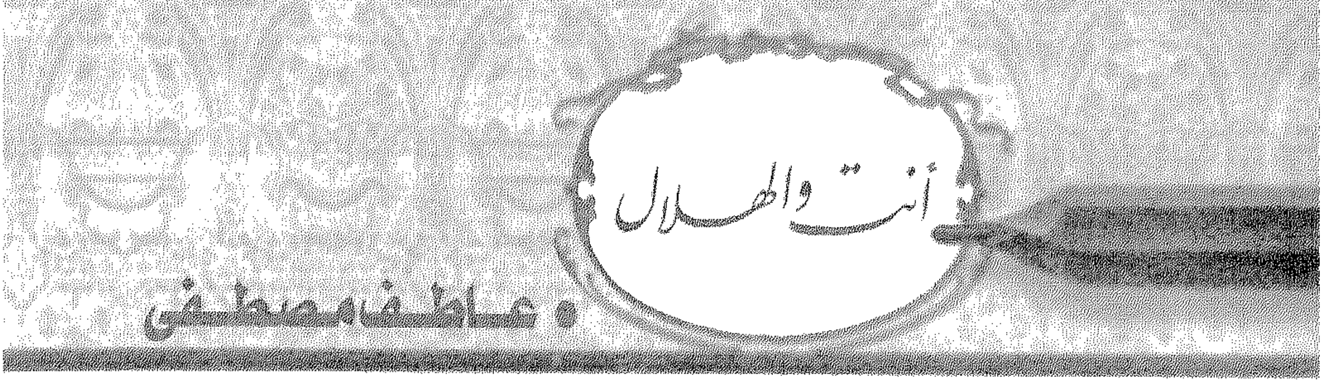
أديت الامتحان بعد أن ركزت على اللغة الانجليزية التى أديت بها امتحان التاريخ السياسى وخرجت لمواصلة عملى بمكتب الأستاذ عصفور ، ودون أن يكون لدى أمل كبير في إننى سأجتازه بنجاح ولكن ما هى إلا أسابيع حتى تلقيت خطابا من وزارة الخارجية يفيد بأننى اجتزت الامتحان التحريرى ، وأنه قد تحدد موعد الأداء الامتحان الشفوى والاختبار الشخصى ، وعندما تلقيت هذا الخطاب اعتقدت لأول مرة بأن عملى بوزارة الخارجية أصبح أمرا قريب المنال ، وكنت قد أصبحت أكثر إقبالا عليه خاصة بعد أن اتضح أن الجو السياسى في مصر قد اختلف تماما عما كان عليه من قبل ، وبالتالى فإن آمال العمل السياسى الداخلى التى كانت تراود جيلنا لم تعد قائمة ، وكان باديا أن الدبلوماسية تقدم أفقا جديداً فى العمل السياسى فى مرحلة جديدة .

دخلت الامتحان الشفوى ولدى ثقة كبيرة فى النجاح حيث كنت متعودا على الامتحانات الشفوية فى دراستى بالحقوق وكانت الهيئة التى مثلت أمامها مكونة من لفيف من الدبلوماسيين الممارسين والأساتذة .. تتكون من المرحومين السفير محمد عوض القونى والمرحوم الدكتور أحمد سويلم العمرى والمرحوم الدكتور عبدالله العريان والمرحوم السفير كمال عبد النبى ، وكانت نتيجة امتحان المسابقة متجاوزة لكل توقعاتى .. حيث كان ترتيبى الثانى على دفعة ضمت أكثر من أربعين ملحقا .... كانوا أكبر مجموعة التحقت بوزارة الخارجية حتى ذلك الحين .

تسلمت عملى بوزارة الخارجية يوم ١٩٥٤/٤/٢٧ وكان مقر الخارجية على مقربة من كوبرى قصر النيل فى مواجهة جامعة الدول العربية الحالى يضم كل إدارات الخارجية آنذاك . وما أن انتهت فترة هذا التدريب حتى صدرت حركة دبلوماسية تضمنت نقلى مع الزميل يوسف شرارة أول الدفعة - والذى أصبح فيما بعد سفيرا لمصر فى لندن - إلى بعثة مصر لدى الأمم المتحدة بنيويورك .. التى وصلنا إليها يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ .. وكان يوم الإعلان عن صفقة السلاح التاريخية مع الكتلة الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا تحديدا .

ومن هنا بدأت أولى خطوات المشوار الدبلوماسى الذى أخذنى بعد ذلك لما يقرب من الثمانية والثلاثين عاما .

وإذ يقدر لهذا المقال أن يظهر فى عدد الهلال يناير ٢٠٠٥ ، فإن ذلك يعنى أن رحلتى الدبلوماسية قد بدأت منذ خمسين عاما .. وطوال هذه الرحلة كانت سنوات التكوين الأولى لا تفارقنى بل أصبحت جزءاً من كيانى .. أستعيدها .. واستعين بها .. ومازالت رحلتى إلى موطن الجذور فى المثلث الذهبى هى الرحلة التى أرنو إليها وأسعى إليها كلما استبدت بى الحاجة إلى واحة أهرع إليها من عناء الحياة فأجد فيها راحة النفس وأنس الروح . ■



قضية انفلات آمالنا الكبار!

أراني مشدودا فى عدد ديسمبر ٢٠٠٤ إلى مقالات ثلاث هن فى عرف يجمعهن عنوان واحد ألا وهو «ماذا حدث لمصر» الأولى للدكتور جلال أمين . أين ذهبت آمالنا الكبار ، والثانية للدكتور مصطفى سويف · كيف ندرك قضايانا، أما الثالثة قضية الكتاب للأستاذ وديع فلسطين .

والقضية التى آراها من خلال مقالاتهم تقدم تقديما ناقدا فكرنا الاقتصادى والاجتماعي والسياسى (جلال أمين) فكرنا التخطيطى بين النظرة التجزيئية والنظرة التجميعية أو التكاملية فى جذورنا الاجتماعية (مصطفى سويف) فكرنا الثقافى حيث كاد يستوى الفكر عندنا والحذاء (وديع فلسطين) .

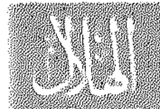
إنها قضية انفلات الأمور من بين أيدينا بسبب استنامتنا لهجوم الليبرالية الجديدة (أو الاستعمار الجديد إذا شئت) الذى زاد حدة وتوحشا على بلاد العالم الثالث .

والحقيقة المرة أننا ندخل فى عهد جديد من الاستعمار ، وأن ما كسبه العالم الثالث فى سنوات ما بعد الحرب، يجرى الآن فقده بسرعة .

لقد أصبح واقعنا السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى كما كان قبل سنة ١٩٥٢ .

ملحوظة : آلمنى أن يسقط الأستاذ وديع فلسطين من قائمة نقاده الكبار . الدكتور محمد غنيمى هلال والدكتور شكرى عياد والدكتور عبدالقادر القط والأستاذ محمود أمين العالم والدكتور محمود الربيعى .

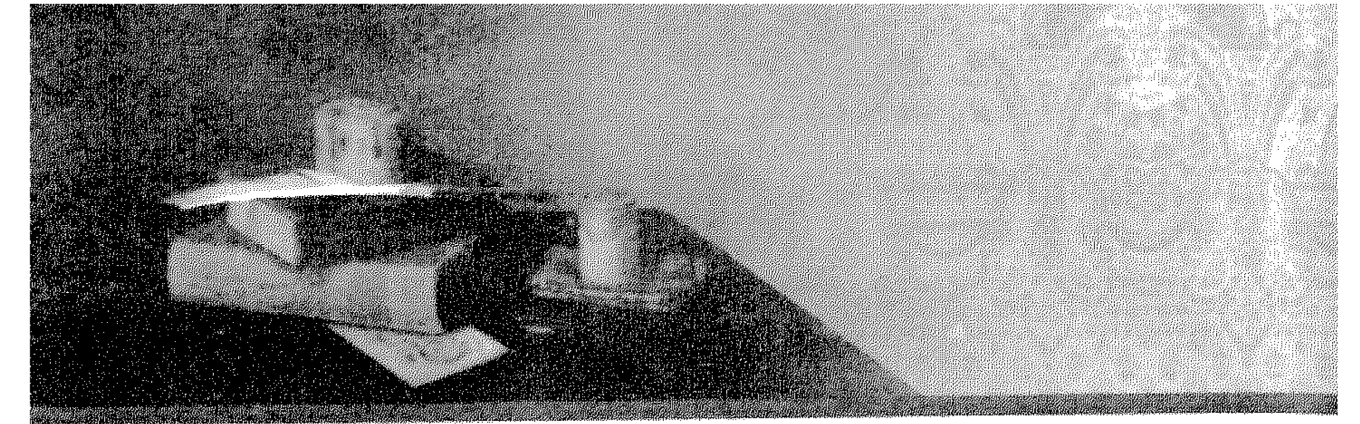
د. سامي منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية - قسم اللغة العربية



تصوف أيها العربى

تصوف أيها العربى واطرح — شطاه العاجزين عن الحضور
خيالك رهن أمسك والقضايا — على كتفيك من نسج الغرور
ألم تك بالقليل أشد بأسا — وأوتيت الظهور على الكثير ؟
تراث الأريحية من أسود — على تلك الجياد .. ومن نسور
ولولا الروح فى الأجسام تسرى — لما كان الوجود سوى قبور
عززت بقدرة ماذا دهاها — وقد أصبحت فى الجم الغفير ؟
أتشكو من هوانك كل يوم — كأن الشمس تطلع بالسعير
وهل كان الزمان سوى شموس — لكل الناس فى كل العصور
رأى آباؤك الإشراق منها — وعرش الله فوق بساط نور
هى الآفاق مازالت شعاعا — تطل على الصحارى والبحور
ومن همساتها تحيا حقول — وتدفق فى أنابيب الغدير
هى الأنهار ترقص من شجاها — وقد غنى لها سرب الطيور
فهل كانت قلوبهم شعورا — وأصبحت القلوب بلا شعور ؟

سليم الرافعى - بيروت



من أسرار نبوغ زكي مبارك



لقد كان زكى مبارك يعتقد منذ نعومة أظفاره أنه موكل بإيقاظ الهمم والعمل على الرفع من مستوى اللغة العربية بين أفراد المجتمع العربى فقدم بذلك صحته وعافيته غير متوان فى جميع مراحل حياته عن إبداء ما يمكنه من أعمال متميزة تشهد بتفوقه ولمعان نجمه كمفكر أسطورى لم يرض بواقع جيله الذى كانت تتقاذفه أمواج التغريب والاستشراق .

وجهود زكى مبارك فى خدمة اللغة العربية متشعب وثرى فى آن واحد ولعل السر فى نبوغ زكى مبارك هو استماتته فى سبيل نيل أكبر عدد ممكن من الألقاب العلمية التى عززت دربه وكانت سندا قويا له فتحت أمامه أبوابا من المعارف لم تتح لغيره ، فبعد أن انتسب للجامع الأزهر الذى كان النواة الأولى فى توجهه نحو دراسة الأدب العربى لم يثنه طموحه آن ينتسب كذلك إلى الجامعة المصرية التى فتحت أبوابها للطلاب سنة ١٩٠٣ .

ثم هو لم يقعد به طموحه عند ذلك الحد بل تغرب لينهل من معين السوربون وهو الرجل الذى لاييسر له وضعه المادى آنذاك التوجه نحو تلك الجامعة لكنه ذلل كل الصعاب وتخطى جميع العقبات إلى أن تكلل سعيه بنيله درجة دكتوراه الدولة فى الآداب من تلك الجامعة .

لقد كانت له جولات وصولات فى جامعة السوربون حتى ناصبه أستاذه وليام مرسيه أشنع ضروب العداء ، لا لشىء إلا لأنه لم يستكن ولم يرض بما كان يمليه أستاذه على غيره من أفكار وآراء ونظريات كان أديبنا يرى فيها نيلا من نقاوة الفكر العربى ، ولقد أقام زكى مبارك لبنة أساسية فى صرح الأمة العربية لما آثار قضية نشأة النثر الفنى وكأنه أراد أن يقول للعالم الغربى وأتباعه إننا أمة مفكرة لايستهان بها وأن لنا شخصية مثالية وكيانا لايرضى بالمذلة والتبعية لأحد ، وبعد أن رجع من باريس بدأ يعد للدكتوراه الثالثة عن التصوف الإسلامى ثم قدم أطروحته عن عبقرية الشريف المرتضى لكنه رحل قبل المناقشة .

إذن لابد لمن أراد أن يحذو حذو أديبنا أن يستقتل فى سبيل نيل الألقاب العلمية ثم أن يوظف معارفه فى توجيه الدراسات الأدبية كما عليه أن يتحلى بالأصالة العربية الحقة تلك الأصالة التى لاتعرف النعرة العرقية حتى يسلم من كل المآخذ التى قد توجه إلى فكره إذ أن الصدق فى حب العروبة ينبع من معين الدين والحضارة لاغير ، فمتى يجود الدهر بأديب عربى مثل زكى مبارك أم أن الأمهات العربية قد أصابها العقم اللهم إلا من أدعياء الأدب الذين يبقون بما يشيعونه من أفكار وتوجهات سية على جيلهم وعلى الأمة العربية .

مصطفى بكير حواش - عضو اتحاد الكتاب - غرداية - الجزائر

وقالت لى..

وقــــالـت لـى : أتـهـــــوانـى ∴ وتعـــشـق ســحـــر أجـــفـــانـى
وهـل ترضـى بـأن تحـــيـــا ∴ هـنيـــئــا بين أحـــضـــانى
فــقلت حـــبـــيــبـتـى يومـــا ∴ ســـقـــاك الـغـــيث الحـــانى

وروض وجهك القمرى أيامى وأزمانى

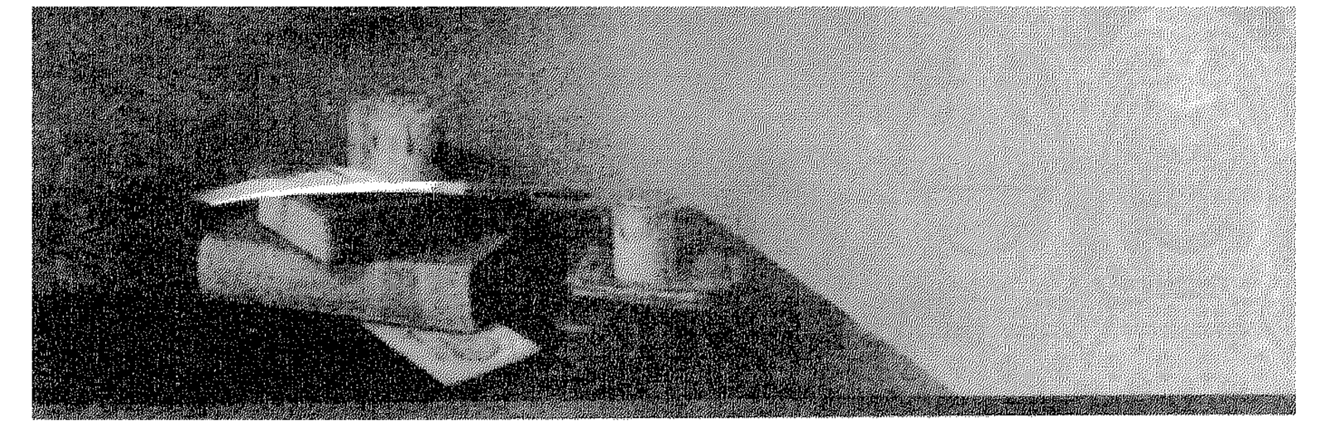
فـــتـــهت بنســـمـــة حـــيرى ∴ غـــــزت بالحب وجـــــدانى
وأحـــيت بابتـــســـامـــتـــهـــا ∴ قـــواحل عـــمــــرى الفـــانى
فـــأى ســــعــــادة أهـوى ∴ إذا مـــــــا الحب نـادانى
ســوى تســـبــيح عـــينيـهـــا ∴ بلـحـظ آســـــر حـــــانى
فـــــلاتسـلى عن المـاضـى ∴ سـلـــى قـلـبـــى عـــن الآنـــى
تجـبك النســـمـــة الحـــيرى ∴ وســـحـــر أريجـــهـــا الدانى
بأن القـلب مـــــشـــــتـــــاق ∴ و «فـى عـــــيـنيـك عـنوانـى»
ورغـــم هـــواى تـــأتـــيـنـــى *** وتســـــألـنـى : أتـهـــــوانـى ؟

أحمد محمد الدماطي
الشهداء - منوفية



مع عبق «عطر الأحباب» وفى أضواء «قنديل أم هاشم» نستقبل فى مستهل عام ٢٠٠٥ الذكرى المئوية لميلاد يحيى حقى (٧ يناير سنة ١٩٠٥ - ٩ ديسمبر سنة ١٩٩٢) الفنان الأصيل والعبقرى المبدع ، والذى يحمل انتاجه طابعا سحريا أو سمة صوفية تلخصها كلمة الإلهام ، وتحس فى إبداعه الأدبى بالوجد الصوفى أو النشوة الدينية الأصيلة .

وأدب يحيى حقى من حيث ثراء المعانى والأحاسيس يؤكد ويحقق إنسانية الإنسان ، ويتنوع إنتاجه بين القصة القصيرة والرواية والنقد والدراسة الأدبية والسيرة الذاتية واليوميات والمقال الأدبى .. وكان الهلال دائما حفيا ومحتفلا بيحيى حقى فى حياته الخصبة وبعد رحيله ، ففى حياته يتحدث حديث العقل للعقل والقلب للقلب فى حوار خصب مع الأستاذ عاطف مصطفى فى هلال ديسمبر سنة ١٩٧٧ عن «الإبداع الفنى وتدهور الفكر» ، وتنشر الهلال فى عدد فبراير سنة ١٩٨٥ جزءاً خاصا عن حقى ، وبعد شهر من رحيله تفرد مجلتنا القراء ملفا خاصا عنه فى عدد يناير سنة ١٩٩٣ .



ومن هنا ومن خلال منبر الهلال فإننى ادعو إلى أن يكون عام ٢٠٠٥ - وعلى مداره - هو عام الاحتفالية بالذكرى المئوية لميلاد صاحب «مواقف ثقافية» . احتفالية ثقافية وادبية نعيد فيها قراءة واكتشاف جوانب العطاء والعبقرية ، بدءا بمعرض القاهرة الدولى للكتاب هذا الشهر ، وأن تقوم الهيئة العامة للكتاب بإعادة طبع ونشر الأعمال الكاملة له . والتى أشرف عليها الأستاذ فؤاد دواره ، كما اقترح أيضا أن تصدر هيئة البريد المصرية طابع بريد تذكارى يحمل صورته تخليدا لذكرى ميلاده .

أما صاحبة «همسة عاطرة» الأستاذة نهى كريمة أستاذنا الكبير ؛ فلابد وأن تشارك من خلال احتفالية الراحل العظيم يحيى حقى بالكشف عن جوانب الثراء الإنسانى والمجهولة فى شخصيته .

عمرو عبدالمنعم حمودة - برما مركز طنطا = محافظة الغربى

ومضـــــات

(١)

إن السجن الحقيقى ... لايفتح بابه إلاَّ للداخل ..

... كالمصيدة تماما ..

.. لايمنح الخروج للأحياء !

(٢)

شىء مفجع أن لا أبعث إلا لكى أفكر فى صمت ..

.. وأصرخ بلا صوت !

يبدو أننى والحظ ..

... عدوان منذ البداية !

(٣)

إن عالما يمكن حصره فى مقلة عين...

.. لايمكن أن يملأ عينا تزخر بطموحات لاتحصر !

(٤)

إن من يكتشف وعيه فى غمرة صفاء موسيقى دافىء

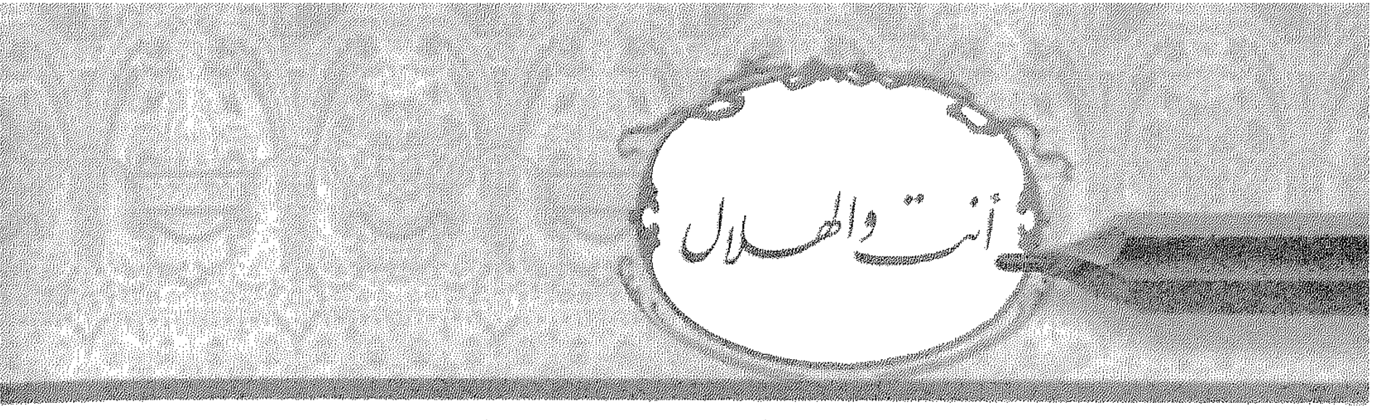
عذب .... مازالت حدوده تبحث عن أطوالها .....

ثم يجد نفسه - بغتة - داخل بوتقة العذاب ..... يتكهن حتما ..... بأن الفصل الآتى ....

.. خنجر فى جرج الفصل السابق..

- وهو الضحية !

البشير التلمودي - تونس



عرفات الذي لم يسلم من خصومه!

لقد كشف رئيس التحرير فى مقال «ياسر عرفات ومشاهد ثلاثة» عن بعض مشاهد عايشها عن كثب مع الزعيم الفلسطينى الراحل، وتلك المشاهد وثيقة الصلة بالقضية الفلسطينية، عرضها بموضوعية ويتدفق المؤرخ

كانت حياة عرفات رحلة طويلة من أجل فلسطين، تأرجحت بين الخطأ والصواب، ومنحها زخما دوليا، كما أنه أجاد بمهارة فائقة فنون الحوار والسياسة إبان حياته.

ومن عجب أنه لم يسلم من خصومه حينما أراد أن يدافع عن قضية بلاده، وعن السلام الذى كان دوما يردده: «سلام الشجعان، حاملاً فى يده اليمنى غصن الزيتون».

لقد تربص به أعداؤه خصوصا عندما صافح إسحق رابين فى البيت الأبيض واعتبروا ما حدث فى أوسلو وثائق استسلام، وأنه باع القضية وتاجر بها على حساب الفلسطينيين.. وفى رأيى أنهم أخطأوا فى حق الرجل!

لكن المطلوب الآن بعد رحيله وفى مرحلة من أخطر المراحل التى تمر بها القضية الفلسطينية أن تتضافر الجهود ويتم نبذ الخلافات، فضلا عن التمسك بالثوابت القومية والوطنية للشعب الفلسطينى، وبناء جبهة وطنية تخوض معركة الانتخابات فى سياق البرنامج الوطنى على أمل أن يتحقق السلام الشامل القائم على العدل.

د. صمويل لبيب سيحه - المنيا

اللقاء مع ياسر عرفات

ذكر رئيس التحرير فى مقاله «ياسر عرفات ومشاهد ثلاثة» والذى نشر فى ديسمبر الماضى ٢٠٠٤ أنه قابل ياسر عرفات بمعسكر تدريب جامعة فؤاد الأول فى خريف ١٩٥١ أى منذ ما يقرب من ثلاثة وخمسين عاما.. فهل صحيح أنه تم اللقاء بينهما فى هذه الفترة وكيف يمكن أن نؤكد هذا

إبراهيم سماحة - الاسكندرية

الهلال: فى هذه الصورة التى تضم حسن دوح مع مصطفى نبيل كان اللقاء مع ياسر عرفات بمعسكر تدريب الجامعة وكان عرفات يتولى تدريب الطلاب على ما يطلق عليه «التكتيك العنيف» وهو المعسكر الذى تدفق عليه المتطوعون من شباب الجامعة فى ذلك الوقت.



م

محمود سامي البارودي - فارس السيف والقلم
١٨٣٩م - ١٩٠٤م

ولد محمود سامي البارودى – الذى احتفلنا فى الشهر الماضى بمرور مائة عام على رحيله – يوم الخميس ٢٥ رجب ١٢٥٥ هـ ٣ أكتوبر ١٨٣٩ م وتوفى فى ١٣ ديسمبر ١٩٠٤ .

من أسرة جركسية ووالده حسن بك حسنى البارودى من أمراء المدفعية في ذلك الوقت ، ثم صار مدير الندقلة وبربر فى عهد محمد على .

توفى أبوه وتركه فى السابعة من عمره ، وتلقى محمود تعليمه الأولى فى منزله على أيدى أساتذة متخصصين ، شأن الأسر العريقة آنذاك، التحق في سن الثانية عشرة من عمره بالمدرسة الحربية ، وتخرج فيها برتبة ملازم فى عام ١٨٥٤ م .

عكف على قراءة دواوين الشعر العربى ، فحفظ منها دواوين فحول الشعراء ، ولم يكن مألوفا أنذاك النهل من الثقافة العربية ، فكان محل تندر من الأتراك والشراكسة ، لانصرافه إلى الكتابة والشعر .

عمل بوزارة الخارجية ، وذهب إلى الآستانة عام ١٩٥٧ ، وأعانته إجادته للغة التركية ، ومعرفته اللغة الفارسية على الالتحاق بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية التركية ، وظل هناك نحو سبع سنوات وبعد عودته إلى مصر فى فبراير ١٨٦٣ عينه الخديو إسماعيل «معينا» لأحمد خيرى باشا على إدارة المكاتبات بين مصر والأستانة ضاق البارودى بروتين العمل الديوانى ، ونزعت نفسه إلى تحقيق آماله فى حياة الفروسية والجهاد ، فنجح فى يوليو عام ١٨٦٣ فى الانتقال إلى الجيش ، حيث عمل برتبة «البكباشى» العسكرية وألحق بالاى الحرس الخديو وعين قائدا لكتيبتين من فرسانه وأثبت كفاءة عالية

تجلت مواهبه الشعرية فى سن مبكرة بعد أن استوعب التراث العربى، وقرأ روائع الشعر العربى والفارسى والتركى فكان ذلك من عوامل التجديد فى شعره الأصيل.

اشترك الفارس الشاعر فى إخماد ثورة جزيرة كريد عام ١٨٦٥ واستمر فى تلك المهمة لمدة عامين أثبت فيهما شجاعة عالية ، وبطولة نادرة .

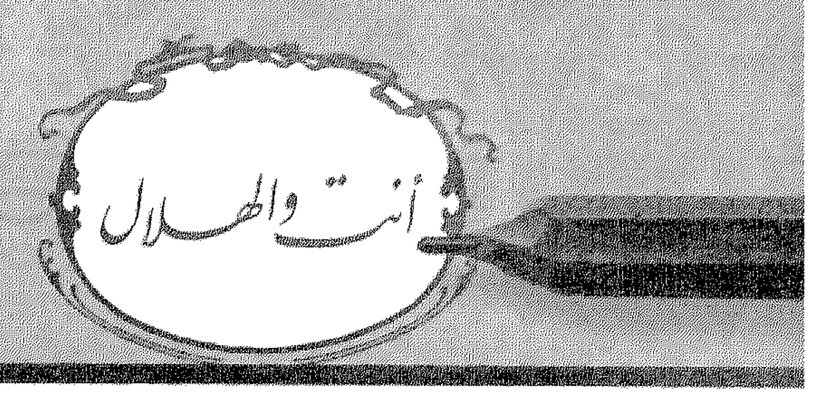
كان أحد أبطال ثورة عام ١٨٨١ الشهيرة ضد الخديو توفيق بالاشتراك مع البطل أحمد عرابى ، وقد أسندت إليه رئاسة الوزارة الوطنية فى فبراير عام ١٨٨٢ م .

بعد سلسلة من أعمال الكفاح والنضال ضد فساد الحكم ، وضد الاحتلال الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢ ، قررت السلطات الحاكمة نفيه مع زعماء الثورة العرابية فى ديسمبر عام ١٨٨٢ إلى جزيرة سرنديب ظل فى المنفى أكثر من سبعة عشر عاما يعانى الوحدة والمرض ، والغربة عن وطنه ، فسجل كل ذلك فى شعره النابع من ألمه وحنينه .

وبعد أن بلغ الستين من عمره اشتدت عليه وطأة المرض ، وضعف بصره ، فتقرر عودته إلى وطنه مصر للعلاج ، فعاد فى ١٢ سبتمبر ١٨٩٩ وكانت فرحته غامرة بعودته إلى الوطن وأنشد «أنشودة العودة التى قال فى مستهلها .

أبابل رأى العين أم هذه مصر
فإنى أرى فيها عيونا هى السحر

والبارودى يعتبر بحق رائد الشعر العربى الحديث ، الذى جدد فى القصيدة العربية شكلا ومضمونا حتى أنه لقب باسم «فارس السيف والقلم ».



أخطاء بلا تعمد .. ولكنها تسىء إلينا !!

أخطاء بسيطة تسبب نوعا من الإزعاج ، وتصيب عددا من المثقفين الحريصين على قراءة الهلال فى مواعيده بالضيق الشديد ، إما بسبب أخطاء فى ترتيب الصفحات أو ما يحدث من عدم اهتمام بالتجليد .

وهذه شكوى تلقيناها من أحد المشتركين الأعزاء علينا فى إنجلترا هو الأستاذ عبدالحميد الصراف ، والذى وصلت إليه نسخة الهلال (مربوطة) بخيط ، ودون أن يكلف المختص بإرسالها نفسه بإلصاقها .. عموما هذا وفى رسالة القارىء المشترك العزيز تحية أخوية صادقا ،، شكرا جزيلا على إرسال عدد الهلال مرة ثانية (لشهر أكتوبر) وقد أرسل من القاهرة فى يوم ١٠/١٦ ووصلنى يوم ١٩ من الشهر والسبب كما تجدون فالظرف الذى أرسله طيا ليس فيه ولا ذرة صمغ ولذا ربطوه بهذا الخيط ، الذى تجدوه مع رسالتى إليكم ، والظاهر أن هناك خطأ فى الشعبة المسئولة عن إرسال المجلة للمشتركين .

إذ أن هذا الخطأ كلفكم ٤ جنيهات ثمن العدد زائد عشرة جنيهات ونصف جنيه أجور البريد المسجل ، كما كلفنى حوالى ٢٠ جنيها مصريا أجور مكالمات مع رئيس التحرير لتكون مجموع الخسارة قد بلغت ٣٥ جنيها لأن الظرف يعد خاليا من الصمغ !

الهلال : نكرر اعتذارنا للأستاذ عبدالحميد الصراف وعلى وعد بألا يحدث ذلك ثانية إن شاء الله .



نبوءة

سيزهر رغمً أنفك يا دخيل ... وطنى الذى تمشى عليه وتستطيل
أنسيت أنك صرت عبدا للخنا ؟! ... وأنا إلهى كافل ووكيل
أنسيت أنك كم مشيت بدربنا ؟! ... تبغى رضانا وتستميل
ولكم حفظنا العهد حفظ معلم ... صان الحقوق ولم يخنه خليل

السيد التحفه
شبراخيت - ش أحمد عرابى



أهمية خاصة للكتاب

سؤال لابد أن نطرحه على الجيل الجديد من الشباب ..
لماذا لا يقرأ تلك الكتب التى تدور المطابع ليل نهار لطبعها وطرحها فى الأسواق ،
هل هذا الجيل تحول لكى يهتم بالوسائل الحديثة وأولها الكمبيوتر ، واكتفى بالشرائط المدمجة وأجهزة «الو وكمان» وكاسيت السيارة لسماع الموسيقى وغيرها !
فى اعتقادى أن أحد الأسباب المهمة فى تراجع أهمية الكتاب ما حدث فى حياتنا

لكنى تحت أى مسمى ففى اعتقادى أن الكتاب خير رفيق وخير جليس فى هذه الحياة التى عدنا نلهث ونجرى بلا توقف ولا هوادة .

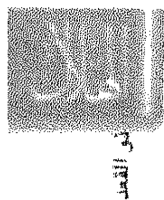
د. جمال على العطار
الاسكندرية - كامب شيزار

باب مهم لكل الكتاب

صدمت بنشر قصتى «حتى لايكون البلاغ كاذبا» فقد اعتبرتنى مجلة الهلال مجرد قارىء ، وأنا أرسل لها كتاباتى بحسن نية باعتبارى كاتبا .. وقد نشرت عددا من المرات فى مجلة الهلال . ابتداء من عدد يونيو ١٩٨٣ ، وحتى عدد أكتوبر ٢٠٠٣ .
لقد وقع على ظلم ، وبودى أن أجد لرسالتى صدى ، وكان يمكن لمن تعجبه قصتى ألا ينشرها فى باب أنت والهلال.

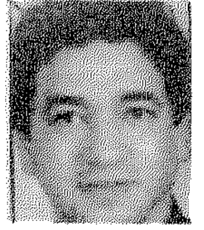
حسن سيد لبيب
القاهرة - امبابة

الهلال : الكاتب الصديق .. لم يحدث أبدا ما تضمنته رسالتك الينا ، فالعمل الذى وصلنا لاتزيد مساحته تقريبا على صفحة واحدة ، وحرصا منا على نشر العمل ، وانطلاقا من اهتمامنا بك ، وليس كما ذكرت أن البعض لايعرفك .. وسؤالنا كيف لانعرفك ونشرنا القصة بمجرد قراءتها، ولم تؤجل مثل عشرات من الأعمال التى تصلنا من كتاب لهم اسمهم .
وباب أنت والهلال من الأبواب التى يقبل عليها قراء الهلال ويكتب الينا بانتظام ضمن هذا الباب كتاب ونقاد من بينهم الدكتور سامى منير عامر الناقد وأستاذ اللغة العربية بكلية التربية جامعة الاسكندرية وشعراء وكتاب لهم وزنهم .
لذا لزم التنويه .



الكلمة الأخيرة

شفافية النعام



بقلم: د. محمد المخزنجي

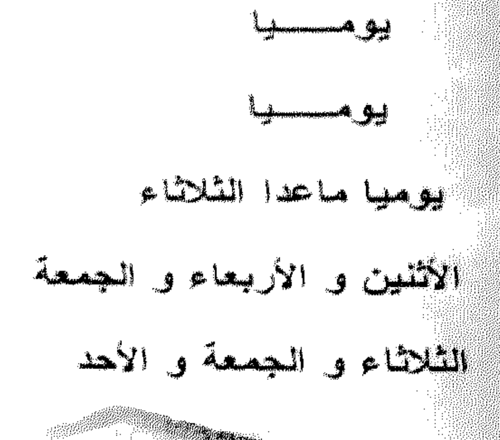
أدهشني الخبر الذى قرأته عن وجود مزارع للنعام في إحدى المناطق الصحراوية التي تم تخضيرها في مصر مؤخرا، وكان مناط الدهشة في الخبر هو أن هناك سباقات (مبهجة) تجرى بين البشر وهم يمتطون ظهور النعام في هذه المزارع. رأيت في ذلك جنونا مجانيا من ألوان الجنون العجيبة التى تجتاح أيامنا، فالنعام لم يخلق لذلك، ولعل هذا الابتكار (الترفيهي) يكون الأول من نوعه في العالم. لقد رأيت النعام يركض في المزارع الشاسعة في ناميبيا وجنوب أفريقيا، وكان طليقا وسريعا وعرفت بعد ذلك أنه من أسرع الطيور عدوا على سطح الأرض، فهو يجرى بسرعة تبلغ مائة كيلو متر في الساعة أي يستطيع أن يسبق آلاف الآلاف من سيارات النقل العام التى تزحف في شوارع القاهرة أو ترتج على طرقنا السريعة، والنعام المدجن ثروة قومية في الجنوب الأفريقي، تعطى الواحدة منها لحما قليل الكوليسترول بوزن ما يعطيه خروف كبير أو عجل صغير، وريشها يحشو أوثر الوسائد، وجلدها يتأنق في مصنوعات فاخرة بأسعار فلكية، أما بيضها الذى يصل حجم الواحدة منها إلى حجم كرة قدم، فإنه يستخدم كأغطية مصابيح فاخرة، وخزانات للمياه النادرة لقبائل صحراء كاليهارى. وعلى ذكر بيض النعام، تتداعى إلى خاطرى فرية يلصقها البشر بالنعام، مفادها أنه يخبئ رأسه في الرمال عندما يهاجمه مفترس من ضوارى البرارى الأفريقية، ولقد تحريت هذا الأمر على الواقع ومن الكتب، واكتشف أن النعام لا يدفن رأسه ليخفي ما يهدده أو يهرب من الحقيقة، بل إن هذه الفرية ألصقها به البشر عندما رأوه ولم يفهموا أنه يفعل أمرا مختلفا تماما، فالنعام عندما يبيض يختار نعامة أماً لترقد على بيض إناث العائلة جميعا، ولأن كثيرا من البيض في حفرة الرقاد يكون خارج نطاق صدر الأم الراقدة، فإنها تنهض بين الحين والحين لتقلب البيض حتى لا يتعرض كثيرا لحرارة الشمس اللاهبة في الصحارى والبرارى الجنوبية، ثم إنها تفعل شيئا غريزيا آخر، إذ تحرص أن تكون بيضتها هى لصق قلبها دون بقية البيض الذى وضعته إناث العائلة! أمر مشروع، ومفهوم، وواضح.. بل هو بالغ الشفافية لدى هذا الكائن الذى تضرب به المثل في إخفاء الحقائق هروبا من مسئولية المواجهة، بينما نحن من نفعل ذلك. وبمناسبة تحويل النعام إلى حمير سباقات ترفيهية في مزارع صحراواتنا الجديدة، يخطر لى أمر بالغ الخطورة في مستقبل بلادنا لم يتوقف أحد لمواجهة حقائقه، وهو السؤال الذى طرحه الدكتور رشدى سعيد عن خطر استهلاك مخزون مياهنا الجوفية التى لا تتجدد، في مشاريع زراعية نهمة وعشوائية فيما يسمى تخضير الصحراء، وإذا ما كان من الأجدى أن نصنع الصحراء فلا نستهلك مخزون المياه النادر بما يحرم أجيال المستقبل من مياه الطوارئ النادرة هذه، هل هناك من توقف بشفافية لمواجهة هذه المعضلة؟ لا أحد، بدليل هذه الهوجة التى تجتاح الصحراء القريبة من الوادى والنهر، في حمى من التعمير العشوائى والزراعة التى أخشى أن تكون حمقاء، وطوبى للنعام! ■

مصر للطيران

بمناسبه الجدول الشتوى الجديد
تعلن مصر للطيران عن رحلاتها الأتية

اولا :- فى الخليج و الشرق الأوسط

دمشق	يومــــيا
بيروت	يومــــيا
عمان	يومــــيا
دبى	يومــــيا
ابو ظبى	يوميا ماعدا الثلاثاء
البحرين	الأثنين و الأربعاء و الجمعة
صنعاء	الثلاثاء و الجمعة و الأحد



ثانيا :- فى افريقيا

الخرطوم	يومــــيا
طرابلس	يومــــيا ما عدا الجمعة
بنى غازى	الأربعاء و الأحد
تونس	الأربعاء/ الجمعة/ الأحد
لاجوس	الأثنين/ الثلاثاء / الأربعاء / الخميس



ثالثا :- اوروبا

باريس	يومــــيا
روما	يوميا ماعدا الأربعاء
فرانكفورت	يوميا ماعدا الأربعاء
اسطنبول	يوميا ماعدا الأربعاء و الجمعة

مصر للطيران
EGYPTAIR

بالأضافة الى رحلاتنا المنتظمة على شبكة الخطوط العالميه
اوروبا و أسيا و افريقيا و امريكا

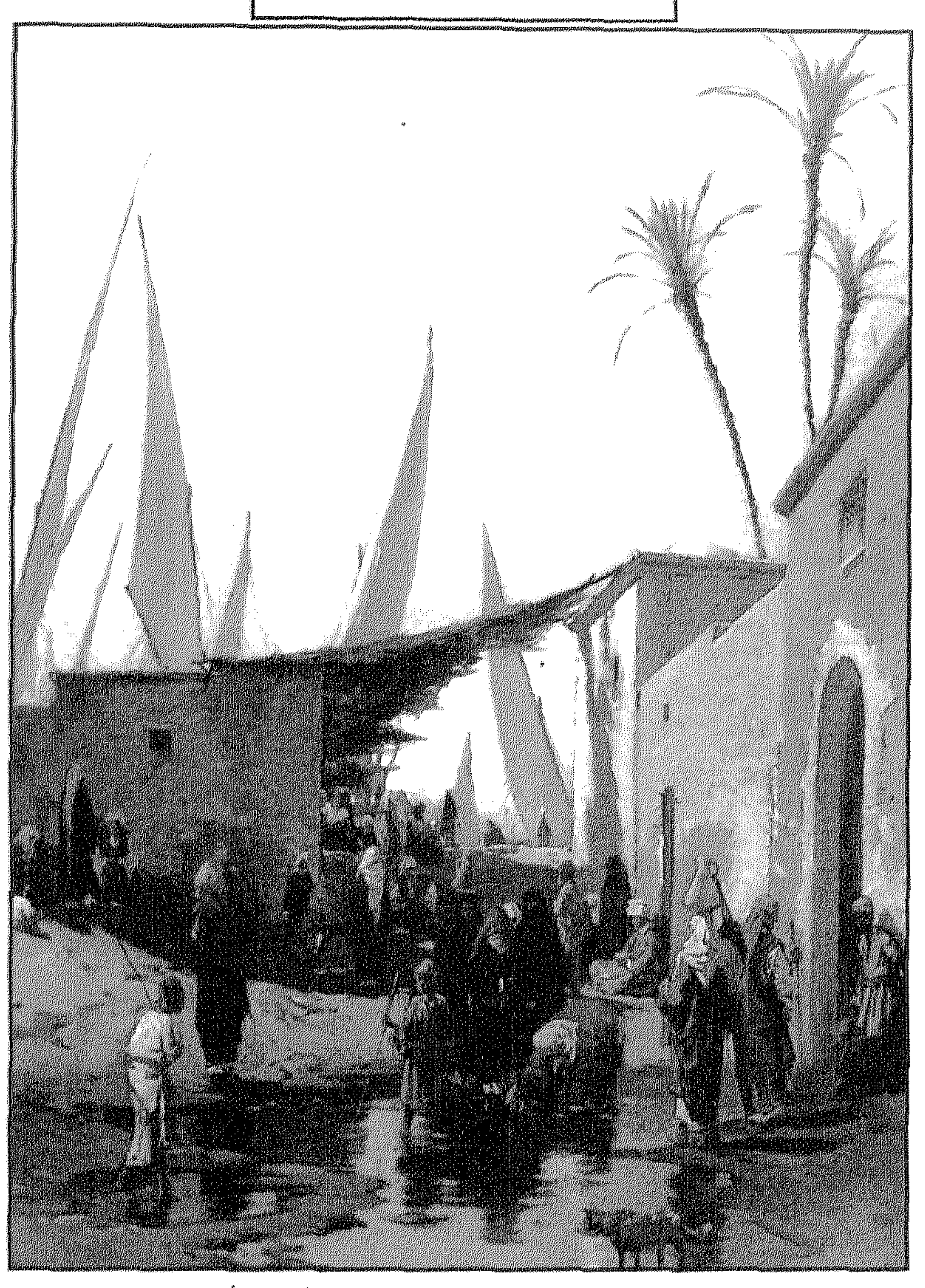
الهلال

فبراير ٢٠٠٥ الثمن ٤ جنيهات

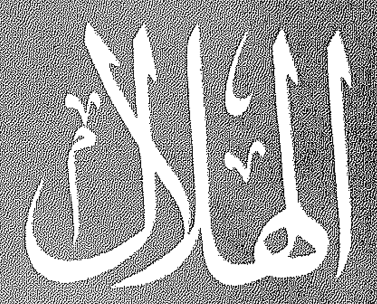
- الوعى المفقود
- الجريمة والمجتمع
- عجائب المخلوقات



لوحة وفنان



اللوحة : قرية مصرية الي جوار النيل - المجمع الثقافي بأبي ظبى



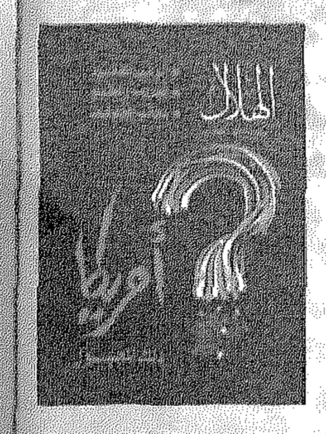
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة ذو الحجة ١٤٢٥ هـ - فبراير ٢٠٠٥م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥,١دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
العراق ٢٠٠٠ دينار- البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١
ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس
٢ دولار- إيطاليا٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

اقتصاديات الكتاب

يظل لقاء الرئيس حسنى مبارك بالمثقفين أبرز وأهم ما يشهده معرض الكتاب، فهو فرصة للحوار وسماع صوت أرباب القلم وأصحاب الفكر فيما يجرى من أحداث.

وقد تابعت باهتمام هذه الجلسات منذ أن كان يحضرها توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقى وأحمد بهاء الدين وفتحى غانم وعبدالرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس.. وقد أسهموا برحيق فكرهم فى هذه اللقاءات.

اتسم اللقاء الذى عقد بمناسبة معرض الكتاب فى دورته السابعة والثلاثين بالصراحة، ودعا الرئيس الكتاب إلى الكلام بقلوب مفتوحة وعقول جسورة، وطالب الرئيس الكتاب بالإسهام فى تقديم تصورات وأفكار للمساهمة فى التحديث والنهضة، «فلسنا معزولين عما يجرى حولنا، ونحن شركاء فى صياغة العصر الحديث خلال مسيرة الإبداع»، كما أكد الرئيس أنه لا توجد جهة تملك مصادرة أى كتاب سوى القضاء.

ومازال معرض القاهرة الدولى للكتاب يثير الكثير من الخواطر والتأملات، ولاشك أن هذا الملتقى الثقافى قد طرأ عليه كثير من نواحى التطور، وعظم دوره فى إثراء الثقافة العربية، بعد أن أصبح هناك المزيد من الاهتمام بإقامة الندوات التى تستضيف أعلاما فى الثقافة والسياسة.

وتسهم هذه اللقاءات فى إضاءة المصابيح على طريق النهضة. كما صار المعرض بؤرة الاهتمام بالفنون والمسرح والشعر علاوة على الكتاب وكثرت أجنحته، وازداد عدد الدول التى تشارك فيه، الأمر الذى يساهم فى تحريك المياه الراكدة فى حياتنا الفكرية، وأصبح يسد نقصا ملحوظا فى المنابر القائمة للحوار الفكرى والسياسى والاجتماعى. وهو جانب إيجابى لا ينكر، ونتمنى أن يستمر ويتطور.

ولكننا لا نرى الحقيقة إذا تجاهلنا أن هدف المعرض هو الكتاب العربى الذى يبدو آخر ما يتذكره المشرفون على المعرض. وهو بطل تلك الملحمة بلا منازع، وقد وقع تحت حصار محكم تمتد جذوره إلى بعيد.

فى الثلاثينات كان الكاتب حراً يكتب ما يشاء، ويقتحم المواقع الفكرية مهما كانت مناعتها، وكانت حياتنا العقلية غنية بالحوارات المثمرة، وكان الكتاب منتعشا والقراء متعطشين إلى كل جديد، ينتقل من بلد عربى إلى آخر بلا حواجز ولا قيود، ونتيجة تلك الحركة الثقافية النشطة، كان الكتاب مقروءا ومعروضا ومحل اهتمام الصحف والدوريات المختلفة. ولا يكاد كتاب يصدر إلا وتتناوله أقلام كبار الكتاب بالنقد والعرض.

ومع الأيام تراجعت حرية الكاتب والكتاب، ووضعت أمامه القيود والسدود، وعومل كسلعة تجارية تحصل الجمارك والرسوم على مستلزمات إنتاجه، وارتفعت تكلفة إنتاجه وتقلصت أسواقه، مما أدى إلى رفع السعر النهائى للكتاب، وهى القضية الأولى التى تجعل إقامة هذا

المعرض أمرا ضروريا لتنشيط الحركة الثقافية، واسترجاع القراء، الذين أضرب عدد منهم عن القراءة، والأخذ بيد ناشر الكتاب وصانعه..

فهل نأمل أن يكون المعرض الذى يلتقى خلاله صانعو الكتاب وموزعوه وقراؤه فرصة لحل مشكلة الغلو الفاحش فى أسعار الكتب، الأمر الذى حول المعرض فى السنوات الأخيرة إلى مكان لاستعراض عناوين الكتب دون شرائها؟!

ومشاكل الكتاب عديدة، لاتقف عند ارتفاع سعره، بل هناك تحديات التقنية الحديثة المتمثلة فى الكمبيوتر والإنترنت والكتاب الالكترونى والتى جعلت بعض القراء أميل إلى التسلية والفرجة عن صحبة الكتاب وقراءته. فهل سيواجه معرض الكتاب تحديات هذه المرحلة؟

لقد توزعت اهتمامات الأجيال الجديدة، فمنهم من جذبته ما جاءت به التكنولوجيا الحديثة، ومنهم من انجذب إلى «الدروشة»، والفهم السطحى لتعاليم الدين، فزادت مظاهر التدين السلبية، وظلت شريحة محدودة تتابع العصر وتتابع فى ذات الوقت الكتاب، وهذه الشريحة هى التى تعانى من الفارق الكبير بين تكلفة العمل الثقافى والقدرة على اقتنائه.

فهل لنا أن نحلم بكتاب عربى رشيق جذاب، لا يمتنع قارىء عن شرائه لارتفاع سعره.

وهذه بعض الاقتراحات..

- المساهمة فى توزيع الكتاب ومساعدة الباحثين على التعرف على مجالات القراءة، برصد أكثر الكتب توزيعا خلال المعرض والاحتفاء به، وتقديم جائزة لأجمل الكتب إخراجا، وأكثر الأغلفة جاذبية من كتب المعرض والصادرة خلال العام الفائت، والمدهش ان هذا معمول به فى معظم معارض الكتب فى العالم، وأصبح ميسرا باستخدام الحاسب الآلى.

- أن ينتهز الناشرون العرب فرصة المعرض ، ويدرسوا مصاعب التوزيع والتسويق من أجل انتشار الكتاب فى مصر والدول العربية، والاستعانة بدراسات علمية حول الموضوع.

- البحث عن ظاهرة غياب أو ندرة الكتب العلمية والكتب المترجمة ، وغياب التنسيق بين دور النشر المختلفة.

- إمكانية التنسيق بين شركات التوزيع، واستخدام منافذ البيع المتوافرة، وتستطيع هيئة الكتاب إتاحة منافذ توزيعها لدور النشر المختلفة على أسس اقتصادية، يرجع عائدها على الجميع.

أن يكون معرض الكتاب فرصة لعقد صفقات بيع الكتب للمكتبات العامة، ومكتبات المدارس علنا . وبما يحتاجه ذلك من شفافية.

- وأن يتم تصنيف الكتب المعروضة بصورة تسهل الوصول إليها، وأن توجد أماكن محدودة يتجه إليها الزائر للحصول على ما يريده. وحتى لا يضيع معظم وقته فى البحث دون جدوى.

أما القرار الذى يستحق الإشادة والتحية فهو دعوة الروائية «نادين جورديمر» الحائزة على جائزة نوبل فى الأدب، والتى نشرت روايات الهلال أهم أعمالها، وهى كاتبة جنوب أفريقيا التى وقفت بصلابة ضد التفرقة العنصرية.

كما دعى المعرض الكاتب الفرنسى المصرى المولد روبير سوليه، صاحب كتاب «مصر ولع فرنسى» وغيره من الكتب والأعمال الأدبية ..

وأخيرا.

علينا أن نتخلى عن العادة البغيضة والتى تتمثل فى أن ينهال الخلف على السلف بالنقد والتجريح، وأن نفرق جيدا بين لحظة التكريم ووقت النقد والحساب، فلا يمكن ان نغفل الدور الحيوى الذى قام به د. سمير سرحان عندما تولى مسئولية الهيئة العامة للكتاب، وما أداه من أجل معرض الكتاب ومكتبة الأسرة.

وجاء وقت تكريمه على ما أداه من جهد. ■

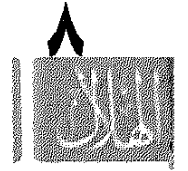
المحرر

الوعى المفقود!

بقلم

د. مصطفى سويف

دعانى إلي كتابة هذا المقال دواع متعددة، يأتى بعضها من خارج الوطن، ويأتى بعضها الآخر من داخله، وكلها تنذر بأمور بالغة السوء تتهدد مستقبل هذه الأمة القريب والبعيد معاً. وأمام هذه النذر رأيت أن خير ما يمكن التسلح به هو الوعى فى أعلى درجاته وأشمل مستوياته، حتى نتمكن من الفهم المبكر لإشارات الأقوال ودلالات الأفعال، وحتى يكون بمقدورنا وضع التدابير المدروسة (استباقاً لما يخطط لنا) وتفعيل هذه التدابير فى الوقت المناسب إجهاضا لما يراد بنا. وفى هذا المقال سوف أبدأ بالحديث عما أقصد بمفهوم الوعي، ما هو؟ وما هى وظائفه الرئيسية فى حياتنا، ثم أثنى بتحديد ما الذى أشير إليه بالمهددات الخارجية والداخلية، وأخيراً أحاول أن أوضح بعض معالم الطريق إلى تنمية الوعى.



ما هو الوعي؟

يعتبر مفهوم الوعي من أكثر المفاهيم ذيوعا في أقوال مثقفينا المنطوقة والمكتوبة، ومع ذلك فلا تزال المعرفة بطبيعته وأهميته معرفة حدسية إلى حد كبير. ولما كان عنوان المقال الراهن هو الدعوة إلي تنمية الوعي، وهو عنوان يقتضي معرفة بما ينطوى عليه هذا المفهوم تتجاوز مجرد المعرفة الحدسية فقد رأيت أنه لابد لي في بداية الحديث من تسليط قدر من الضوء على المقصود بالوعي، والدور الذي يؤديه في حياتنا العقلية المعتادة، وعلاقة هذا الدور بالأدوار التي تقوم بها سائر مكونات هذه الحياة، وذلك حتى يتسنى لي أن أتحدث عن تنميته وكيف يكون التوجه إلى هذه التنمية.

جدير بالذكر هنا أن دراسة الوعي تقع على مفترق طرق بين عدة أنواع من المنظومات الدراسية: الفلسفة، وعلم النفس العصبي، وفيزيولوجيا الأعصاب، وبحوث التطور البيولوجي، ودراسات الأنثروبولوجيا الحضارية، وبحوث الحاسب الآلي. ويستطيع القارىء أن يستنتج من هذه الحقيقة كم أن دراسة هذا الموضوع خصبة ومشوقة ومركبة نظراً لتشعب مسالكها بين هذا الكم من الأنساق المختلفة. ولا يسمح المقام هنا بالخوض في المناقشات الفلسفية المسهبة التي تناولت الموضوع وافتتحت الطريق إلى النظر فيه، وهي تبدأ من كتابات أفلاطون في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد وتمتد لتصل إلى كارل بوبر وفايجل من فلاسفة أواسط القرن العشرين الميلادى. ولكننا نتجه مباشرة إلى البحوث والنتائج التي قدمها عدد من العلماء المرموقين في العقود الثلاثة الأخيرة. والسؤال الأول في هذا الصدد هو: ما المقصود بمصطلح الوعي؟ والإجابة: هذا المصطلح يشير إلى وظيفة عقلية مركبة، بمعنى أن لها مستويات «أو مظاهر» متعددة، وأول مظاهرها أو أدناها أنه الآلية التي نستخدمها لصياغة نموذج ذهني «أي مجموعة من التصورات» لأي موضوع يشغلنا أو نفكر فيه، وتكون هذه التصورات هي مادة التفكير لدينا، فنتناولها باستحداث تغييرات في صفاتها وفي العلاقات القائمة بينها، وبذلك يكون لكل منا معمله العقلي الخاص «في دماغه» يشكل فيه هذه التصورات أو التمثلات ويعيد تشكيلها ويغير من العلاقات فيما بين بعضها البعض كيفما شاء، هذا الاستحضار العقلي لهذه التمثلات وما يصحبه من معالجات داخلية هو أدنى مظاهر تشغيل الوعي، وهو يمكننا من العودة إلى الواقع المادي المحيط بنا بصورة أفضل مما لو كنا قد واجهناه مباشرة دون توسط هذا التوظيف للوعي.

لاتزال المعرفة بطبيعة الوعي وأهميته معرفة حدسية إلى حد كبير!!

الوعي بالوعي

ثم يأتي مظهر أعلى من ذلك مباشرة، هو «الوعي بالوعي»، أي أن أتنبه

إلى أننى أنا الذى أمارس هذا الوعى، بعبارة أخرى أربط بين الوظيفة الأولية للوعى وبين قيادة مركزية، هى الذات، تمارس هذا الوعى وتتحكم فيه بدرجات مختلفة من حيث التوجيه والسرعة والتوقيت، ويرى عدد من علماء التطور البيولوجى أن البوادر المبكرة لهذا المستوى من الوعى توجد عند بعض فصائل القردة العليا، وتكون لهذه البوادر قيمة بقائية هامة إذ توفر لأفراد هذه الفصائل مهارة عالية فى حياتها التسلقية بين فروع الأشجار وما تقتضيه هذه الحياة من مواءمة بين حدود جسمها «بقدراته الحركية الإدراكية» واستغلال للمكان بأبعاده الثلاثة.

الوعى البشرى

ثم يأتى بعد ذلك مستوى ثالث لا يتحقق إلا لدينا نحن البشر، وله كذلك قيمة بقائية بالنسبة لنا. وتسهم فى تحقق هذا المستوى حياتنا الاجتماعية بصورتها البشرية، وتتميز هذه الحياة بتوافر ثلاثة مكونات أساسية، هى: الذكاء الاجتماعى أو ما يسميه البعض الذكاء الماكيافيلى، واستخدام الآلة ، واستخدام اللغة أو الكلام، وتسهم هذه المكونات الثلاثة معاً بنصيب كبير فى صنع الوعى البشرى كما نعيش به ومن خلاله؛ فأما عن اسهام الذكاء الاجتماعى فذلك من خلال تنشيط عمليتين تتعلقان بـ «الآخر» نؤديهما دائما ودون انقطاع، هما: الرصد أو التسجيل التقديرى لموقع «الآخر» بالنسبة لنا، والتنبؤ بماذا ينوى أن يفعله فى خطوته التالية انطلاقاً من هذا الموقع؟ هذا عن عنصر الذكاء الاجتماعى. أما عن استخدام الأداة أو الآلة فقد تعلم الإنسان منذ كان بدائيا أن حدود فاعليته لا تقف عند حدود جسمه بل تمتد لتشمل مع الجسم امتداد الأداة وكأنهما يكوّنان معاً امتداداً واحداً متصلا. ويرى أهل الاختصاص أن خبرة التآزر أو التعاون مع «الآخر» كانت تتغذى هى وخبرة استخدام الأداة على مصدر عصبى/ اجتماعى مشترك يصب فى التنبه إلى مزيد من فاعلية الذات، كلاهما يضيف امتداداً لمحدودية الذات، وفى حالة التآزر مع «الآخر» يكون ذلك مصحوبا بوعينا بـ «الذات ممتدة فى الآخر».

وأخيراً نأتى إلى استخدام اللغة؛ وتشترك اللغة مع استخدام الأداة أو الآلة فى أن كلا منهما يقضى عند تفعيله بأن يقوم الإنسان «الفرد» بمجموعة من الاستجابات أو السلوكيات المنظمة، وفى كل من الحالين ينتظم الفعل المنطلق على أساس قاعدتين: التقسيم إلى أجزاء محددة، وتسلسل هذه الأجزاء تسلسلا معيناً. ويرجح بعض العلماء وجود قدر من التداخل بين الأسس البيولوجية المنظمة لكل من الوظيفتين «استخدام الآلة واللغة» بدليل أن كثيرين من الأشخاص المصابين بالاضطراب فى وظيفة اللغة وهو الاضطراب المعروف باسم الأفازيا «وهو نوع من العجز عن التعامل مع معانى الكلمات» يكونون فى الوقت نفسه مصابين باضطراب فى وظيفة الفعل الحركى المنظم يعرف باسم أبراكسيا. وكذلك بدليل إمكان قيام لغة حركية / إشارية خاصة يستخدمها الأشخاص

الصم البكم لتبادل المعانى. ومع ذلك لا يجوز أن نتصور أن اللغتين «اللفظية/ الصوتية والحركية/ الإشارية» متكافئتان من حيث المرونة والثراء، وتشير جميع الدلائل إلى ضخامة إسهام لغتنا اللفظية/ الصوتية فى إثراء وعينا البشرى، وفى الوقت نفسه تشير دلائل متعددة إلى أن الذكاء الاجتماعى عمل ويعمل كواحد من أهم مصادر التنشيط لتنمية الوعى واللغة فى آن معاً.

خلاصة القول أن الوعى وظيفة عقلية مركبة، تفصح عن نفسها فى ثلاثة مستويات: أدناها صنع التصورات أو التمثلات الذهنية عن الواقع فتزيد من قدرتنا على معالجته، والمستوى الثانى هو الوعى بالوعى، وعنده يرتبط الوعى بذاتنا حيث الذات منظومة نفسية مركزية تحكم نشاط الوعى توجيها وسرعة وتوقيتا، والمستوى الثالث هو الوعى بالوعى ممتداً من خلال «الذات مع الآلة» و/ أو «الذات مع الآخر». وفى هذه المستويات الثلاثة يقوم الوعى بمهمتين رئيسيتين، هما: الرصد لحاضر نشاط معين، والتنبؤ بمآل هذا النشاط.

الوعى وظيفة عقلية لها ثلاثة مستويات: أدناها صنع التصورات عن الواقع

أعتقد أن هذا القدر من الحديث عن طبيعة الوعى ومهامه فيه الكفاية لخدمة أغراض هذا المقال. وجدير بالذكر فى هذا الموضع أن الدراسات العلمية لهذا الموضوع فى جبهاته المتعددة، وخاصة جبهة علم النفس العصبى، تتنامى فى الوقت الحاضر بصورة لافتة للنظر. ومن أهم الأسماء التى ارتبطت بها هذه الدراسات جون برادشو فى جامعة موناش بأستراليا، وكارل بريبرام فى جامعة ستانفورد بكاليفورنيا، وكلاهما أستاذ فى علم النفس الصبى، ومايكل أربيب وهو أستاذ فى قسم علوم الحاسب الإلكترونى فى جامعة جنوب كاليفورنيا.

دواعى الاهتمام بموضوع الوعى

النذر الدولية شديدة السوء تتنامى حولنا فى هذه المنطقة من العالم منذ أوائل الثمانينات، وهناك نذر محلية لاتقل عن ذلك سوءاً تضيق الخناق علينا داخل الوطن العربى وداخل مصر نفسها . وأمام هذا الزحف المتسارع نحونا من مصادر التهديد بالغة العدوانية على هويتنا وحقنا فى الحياة الكريمة أعتقد أن خط الدفاع الأول من جانبنا لابد وأن يكون مزيداً من كفاءة الوعى بوظيفتيه الرئيسيتين الرصد لما يقع حولنا (من أفعال وأقوال)، وهو مايعنى الإدراك والاستيعاب، ثم التنبؤ بالتوجه (أو المقاصد القريبة والبعيدة) ولا يجوز أن ننسى أن وظيفتى الرصد والتنبؤ تستندان إلى المهمة عميقة الجذرية للوعى، وهى مهمة حفظ البقاء. بعبارة موجزة إن مايقع علينا الآن تهديد لبقائنا، وإن ملاذنا الأول فى مواجهته هو شحذ الوعى إلى أقصى المدى، ومنه

إلى استنهاض الإرادة السياسية الرشيدة للأمة.

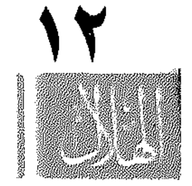
العدوان من الخارج

فى مقامنا الراهن سوف أكتفى بذكر نوعين اثنين من المهددات القادمة إلينا من الخارج : الأول هو تدابير العدوان بكافة أشكالها، والثانى هو المهارات المتنامية عند المحترفين الحاليين للسياسة. فأما عن تدابير العدوان فقد اتخذت وتتخذ أشكالا متعددة؛ منها مايمكن اعتباره خطوات جزئية وهى فى الوقت نفسه خطوات مموهة كتلك التى حدثت خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضى، وظلت تتخفى تحت غطائين أحدهما معنوى/ أيديولوچى من وحى الحرب الباردة بين معسكرى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، والثانى مادى وقد تمثل فى وقائع «الحرب بالإنابة»، حيث أنيب المجاهدون والإسلاميون لمحاربة قوات الاتحاد السوفييتى فى أفغانستان، وجرى إمدادهم بالمال والسلاح والتدريب، وحيث أنيبت قوات صدام حسين لضرب الثورة الخومينية فى إيران وجرى إمداد هذه القوات بالسلاح طبقاً لعقود عرفت باسم عقود «إيران كونترا». هذان مثالان لتدابير الخطوات المموهة للعدوان. وهناك تدابير العدوان الصريح بدرجات مختلفة، منها عدوان الضربات الخاطفة المحدودة، مثل ما وقع على ليبيا فى الثمانينيات (من جانب الولايات المتحدة)، وما وقع على ساحل العاج منذ بضعة شهور (من جانب فرنسا)، ومع وقع على سوريا منذ شهور كذلك (من جانب إسرائيل). ثم هناك عدوان الحصار والاستنزاف (مثل ماوقع على العراق وليبيا على امتداد التسعينيات). وأخيراً وليس آخرا هناك العدوان المباشر الشامل (من قبيل ما يقع الآن على العراق). كل هذا عن تدابير العدوان كنوع واحد من المهددات القادمة إلينا من الخارج.

المهارات الخطرة

يتصف معظم الساسة بعدد من الخصال تعطى طابعاً خاصاً لسلوكياتهم وشخصياتهم، وتكشف عن نفسها بأشكال مختلفة فى أداء أدوارهم السياسية. ويأتى فى مقدمة هذه الخصال تفضيل الكلام المراوغ والمفاهيم الزلقة، تليها النظرة التشييئية /اللاعاطفية للبشر، ثم الشعور بالوصاية على الآخرين. وتمثل هذه الخصال الثلاث مقاماً مشتركاً عند معظم الساسة إن لم يكن عندهم جميعاً. وما يهمنا فى السياق الراهن هو الوقوف عند هذا المقام المشترك، وبوجه خاص عند تفضيل الكلام المراوغ والمفاهيم الزلقة. أما الخصلتان الأخريان فربما أتيح لى أن أعالجهما فى مقال آخر.

وتتمثل أخطار الكلام المراوغ والفكر الزلق فى حقيقتين مترابطتين، فهو يترك الطرف المقصود بهذا الكلام فى حيرة من أمره مما يربكه ويشل أو يضعف قدرته على التخطيط المسبق، أو يوقعه فى سوء التأويل، وهو من ناحية أخرى يتيح للمتكلم مساحة شاسعة من حرية الحركة ومن ثم مفاجأة الطرف الآخر من حيث لايحتسب. وهناك أمثلة لا



حصر لها وقعت فى عالم السياسة الدولية فى السنوات القليلة الماضية تبين الكيفية التى يجرى بها تفعيل هذه الصيغة. وفى هذا الصدد يكفى أن نتأمل كيف استخدمت وتستخدم مفاهيم مثل : «الإرهاب» ، و«الدول المارقة»، و«محور الشر».. الخ. ولكن ربما كان أخطر مثال على ما أقول هنا مشروع الشرق الأوسط الكبير (وقد نشرت ترجمته العربية فى مجلة السياسة الدولية، أبريل ٢٠٠٤). وقد قرأته أكثر من ثلاث مرات حتى الآن، وفى كل مرة كانت أبعاد المراوغة والزلق التى تغمر النص من أوله إلى آخره تتضح أمامى بما لايدع مجالاً للشك فى أن هذه الأبعاد جزء لايتجزأ من هندسة التقرير، (انظر مقال الدكتور أحمد سليم البرصان عن المشروع، فى ذات العدد من مجلة السياسة الدولية).

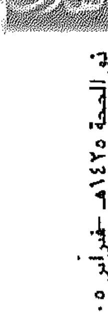
إن ما يهددنا الآن لا سبيل للتعامل معه إلا بتصعيد الوعى إلى أقصى مداه!

ولا تتوقف أخطار هذا النوع من الكلام والأفكار عند إحداث البلبلة فى فكر المتلقى أو شل فاعليته ولكنها تمتد لتحدث ماهو أسوأ من ذلك، فهى تعطى فرصة لأصحاب الهوى ممن يحيطون بالمتلقى المستهدف أصلاً أن يدعموا أخطاء تأويله، والأدهى والأمر من ذلك أنها تقدم لهم ولبعض الإعلاميين نماذج لغوية وفكرية ينسجون على منوالها فى أحاديثهم وكتاباتهم فى هذا المجال وغيره من المجالات القريبة أو المماثلة. وقد بدأت فعلاً محاولات الزج بنا، وتزيين الزج بنا، فى مشروع الشرق الأوسط الكبير، على المستوى الأيديولوچى (من خلال «منتدى المستقبل» الذى عقد فى الرباط وأنهى أعماله فى ١٢ ديسمبر ٢٠٠٤) ، وعلى المستوى الاقتصادى (من خلال اتفاقية الكويز) والبقية فى الطريق، ولعل قارىء هذا المقال أن يعيد الاطلاع على وثيقة «مشروع الشرق الأوسط الكبير» ليشهد بنفسه حقيقة هندستها.

العدوان من الداخل

أقصد بعوامل العدوان من الداخل جميع العوامل التى تصيب المجتمع بالهشاشة وتكون داخلية المنشأ، وإن كان هذا لايمنع من أن تكون هذه العوامل نفسها على صلة ببعض العوامل القادمة من خارج المجتمع. والمقصود بالهشاشة جميع مظاهر الضعف فى المؤسسات الرسمية وغير الرسمية للمجتمع مما يتيح مزيداً من الفرص أمام عمليات التآكل وعوامل العدوان القادمة من الخارج أن تغير كثيراً من المعالم الديموجرافية والثقافية للمجتمع.

وتنقسم عوامل العدوان الداخلى فى مجتمعنا المصرى إلى فئتين كبيرتين: إحداهما فئة يمكن أن نسميها فئة العوامل المزمنة، ويأتى فى مقدمتها عوامل التخلف، والثانية مانسميه العوامل الحادة. وقد تحدثت فى مقال سابق فى هذه المجلة الغراء (مارس ١٩٩٣) عن «أبعاد التخلف الاجتماعى»، وهى



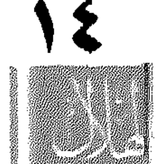
خمسة: التمسك بالشكل على حساب الجوهر، والتبسيط المخل، والإهدار، واختزال الحياة الإنسانية إلى محتواها البيولوجي، وهبوط قيمة الكيف مصحوباً بصعود قيمة الكم. وما أقصده الآن بعوامل التخلف هو الإشارة إلى مجموع العوامل الفاعلة وراء هذه الأبعاد الخمسة. ولا أظن أن أحداً يمكن أن يجادل فى مدى فاعلية هذه العوامل/ الأبعاد فى ترسيب حالة الهشاشة ودرجة تمكنها من مجتمعنا المصرى بصورته الراهنة. أما عن العوامل- الحادة فيأتى فى مقدمتها عاملان رئيسيان يشير كل منهما إلى منظومة من الاحتقانات أو التوترات المتنامية بمعدلات بالغة الخطر: منظومة احتقانات سياسية / اقتصادية، ومنظومة احتقانات دينية / اجتماعية. وإذا كانت العوامل المزمنة تغرى فى معالجتها بأقدار من البطء والتسويف فإن العوامل الحادة لاتحتمل التلكؤ أو المماطلة وذلك لطبيعتها الانفجارية، ولأنها فى الوقت نفسه تقوم بدور آخر هو دور الضوء الأخضر أمام قوى العدوان المتربصة فى الخارج.

الطريق إلى عودة الوعي

أمام هذه المهددات جميعا وهى تطبق علينا من الخارج والداخل معاً يبدو لى أن الأمر لم يعد يحتمل الاكتفاء بردود الأفعال الدفاعية محدودة الأفق، ولابد من نقلة كيفية تنطوى على أقدار من الفاعلية (بدلاً من المفعولية)، وعلى التخطيط المرن الذى يحمل معه عدداً من البدائل الممكنة التنفيذ إذا حدث كذا أو كذا... الخ. هنا، وباعتبار هذا المطلب بالضبط (مطلب النقلة الكيفية فى إدارة شئوننا الخارجية والداخلية) لابد من الاستناد إلى قاعدة متينة من تنمية الوعى، لأن الوعى هو ملاذنا الأخير لحفظ البقاء، ونحن الآن مهددون فى بقائنا كدولة وكخصوصية حضارية . وفيما يلى أقدم تصوراً للكيفية التى يمكن بها أن نمضى فى هذه التنمية.

الخطوة الأولى

الخطوة الأولى على الطريق إلى تنمية الوعى تتمثل فى تمكين المواطنين من حسن إدراك المشروعات الكبرى التى تمس حاضر حياتهم، سواء قامت هذه المشروعات بوساطة الدولة أو بوساطة مؤسسات المجتمع المدنى. ويقتضى ذلك أولا وقبل كل شىء استحداث نقلة كيفية للإعلام كما وكيفا، حيث يجب أن يقدم أى مشروع جديد من خلال الإطار الذى يجمع بينه وأية مشروعات أخرى لها نفس الدلالة أو التوجه. فإذا سادت هذه القاعدة أمكن للمواطن أن يكون فى ذهنه تصوراً واضح المعالم متكامل الأركان لمسيرة البناء أو الإصلاح أو التطوير ... الخ كما تمضى فى المجتمع، وأمكن له كذلك أن ينظر فى هذه المسيرة بنظرة تقويمية، وربما حفزه كذلك إلى المشاركة بالرأى أو بالفعل فى هذه المسيرة. جدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذه الخطوة لايجوز أن تنفرد بها الحكومة وأجهزتها، ولكن لابد من أن تشارك فيها أجهزة القوى المعارضة ومؤسسات المجتمع المدنى، ولا ضير من اختلاف الرؤى التى ستطرح فى هذه الحال،



وسوف يكون للمواطن فى نهاية الأمر أن يستخلص لنفسه رؤياه. ولاشك أن إدارة الأمر على هذا النحو سوف تضع على عاتق الإعلام والإعلاميين مسئولية لايمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها.

الخطوة الثانية

تشجيع الفكر التحليلى النقدى الذى يتناول مايمس حياتنا من مشروعات كبرى، سواء؛ أكانت هذه المشروعات صادرة عنا (مثل مشروع تطوير التعليم الأساسى) أو مصدرة إلينا (مثل مشروع الشرق الأوسط الكبير)، خاصة فى تناوله هذا المشروع أو ذاك من حيث العائد علينا ومن حيث علاقته بالمشروعات المماثلة فى تاريخنا القريب. مثل هذا التشجيع يعتبر خطوة ثانية على الطريق نحو تنمية الوعى لدى المواطنين تنقل الموقف نقلة أبعد مما تصل إليه الخطوة الأولى، لأنها تعنى بإطلاع المواطن على مواضع الاتصال بين الجديد المطروح وما سبقه فى الماضى القريب من مشروعات أو محاولات مشابهة بحيث يرسخ فى النفس شعور بالتراكم الإصلاحى أو بالمسيرة المتصلة لا المتقطعة أو المتعثرة، وهو تراكم يتمحور حول مايعود علينا بشكل مباشر أو غير مباشر.

الخطوة الثالثة

الترحيب بالفكر التحليلى النقدى نحو المشروعات الجديدة، كما هو الحال فى الخطوة الثانية، مع فارق واحد هو التركيز على مايمكن أن يترتب على هذا المشروع الجديد فى المستقبل المنظور من نتائج إيجابية أو سلبية، وما الذى يمكن اتخاذه من تدابير منذ الآن لتعظيم فاعلية الإيجابيات، والتقليل من أثر السلبيات.

وأخيراً وليس آخراً أقدم التعقيب القارىء الذى يحرص على الرؤية الواضحة للعلاقة بين بداية هذا الحديث ونهايته؛ فقد تحدثت فى الجزء الأول عن الدراسات العلمية الحديثة للوعى، وأوضحت رأى العلماء فى طبيعته كوظيفة عقلية، بقائية، ومراحل ارتقائه لدينا نحن البشر، منذ بوادره المبكرة المتمثلة فى الوعى بالوعى حيث الذات تتولى القيادة المركزية لنشاط هذا الوعى، ثم استمرار نموه بدفع من الذكاء الاجتماعى حيث رصد موقف الآخر واستشفاف مايمكن أن يؤول إليه. أما طبيعة العلاقة بين الجزئين الأول والأخير من هذا الحديث فتتمثل فى كون «طريق التنمية» يقوم أساساً على التطبيقات المجتمعية أو البرمجة المجتمعية لأساسيات الوعى ومعالم ارتقائه، وهى برمجة تتسم أساساً بأنها تضع مهمة التثقيف السياسى على عاتق الجميع، حكومة ومعارضة ومؤسسات مدنية، بل وكل قادر على التصدى لهذه المسئولية. ■

چورج أورويل
وعالم ما بعد ١١ سبتمبر

بقلم
د. جلال أمين

الغالبية العظمى من الكتب ينساها الناس بعد فترة من صدورها، طالت أو قصرت، وقليل منها ما يظل الناس يذكرونه ويقرأونه على مرّ الأيام وربما العصور، والأقل من ذلك ما يزداد عدد قرائه وافتتان الناس به كلما مر الوقت وبعد الزمن به.

من هذا العدد القليل جدا من الكتب رواية چورج أورويل التى لم يطلق عليها اسما بل رقما وهو (١٩٨٤)، والتى كتبها فى سنة ١٩٤٨ ومضى على صدورها أكثر من نصف قرن، ومع ذلك يزداد عدد قرائها وافتتان الناس بها ويزيد الحديث عنها عاما بعد عام. فما سر هذه الرواية؟ وما سر چورج أورويل نفسه، الذى وصفه بحق ناشر آخر طبعة من طبعات هذه الرواية بأنه «يزداد الاعتراف بعظمته عاما بعد عام»؟
(a growing reputation for greatness)

أما شهرة الرجل فترجع فى الأساس إلى كراهيته الشديدة للكذب، الكذب بكل صوره، فى الحديث اليومى أو فى السياسة، أو فى العلاقات الاجتماعية، أو فى الكتابة الصحفية أو فى الأدب.. إلخ. ولكنه فوق ذلك كان ذا حاسة قوية للغاية لاكتشاف الكذب أينما وجد، وكانت لديه الشجاعة الكافية لفضح الكذب فى كافة صوره، فضلا عن الموهبة التى تمكّنه من التعبير عن ذلك بشكل

بالغ الأثر.

وأما أن هذه الشهرة تزيد عاما بعد عام، فسببه على الأرجح أننا نعيش في عصر تزداد فيه أعمال النصب والاحتيال عاما بعد عام.

نحن نعش في عصر يلعب فيه التسويق ما يسمى بثورة المعلومات والإعلام والاتصالات دورا متزايد الأهمية. ولكن التسويق يقوم في جزء كبير منه على الخديعة، والإعلام في جزء كبير منه إعلان، والمعلومات يزداد فيها شيئا فشيئا نصيب المعلومات المغلوطة أو المزيفة. فكيف لا تزيد، يوما بعد يوم، شهرة رجل كان همه الأكبر فضح الخداع والتزييف؟

وأما شهرة رواية (١٩٨٤)، ونمو هذه الشهرة عاما بعد عام، فترجع إلى أنها تتعلق بالمستقبل، إذ حاول فيها مؤلفها سنة ١٩٤٨ أن يتصور ما يمكن أن يكون عليه العالم في سنة مقبلة، ولتكن سنة ١٩٨٤، فإذا بكثير مما تنبأ به قد تحقق بالفعل أو آخذ، يوما بعد يوم، في الاقتراب من التحقق الكامل.

★★★

قرأت رواية ١٩٨٤ أكثر من مرة، وكان دافعي إلى قراءتها في كل مرة شعور قويّ بأننا نتعرض لخدعة أو كذبة كبيرة، حيث تقول لنا وسائل الإعلام عكس الحقيقة بالضبط، وتحوّل المجرمين إلى قدّيسين أو العكس، وتطلق أنبل الأوصاف على أسوأ الأشياء، أو أسوأ الأوصاف على أنبل الأشياء.

قرأتها أول مرة في أعقاب الاعتداء الإسرائيلي على مصر وسوريا والأردن في ١٩٦٧، الذي سمّي حرباً، وكنت قد سمعت عن موضوع الرواية قبل أن أقرأها، فقرأتها على أمل أن أجد فيها ما يساعدني على الوصول إلى التفسير الحقيقي لما حدث. ثم قرأتها مرة أخرى في أعقاب هجوم صدّام حسين على الكويت في ١٩٩٠، إذ لم أصدق قط الحجج التي قدمها صدام حسين لتبرير هذا الهجوم، وكنت أقرب إلى الاعتقاد بأنه، بعكس ما كانت تشيعه وسائل الإعلام، الغربية والعراقية على السواء، ينفذ مخططا أمريكيا إسرائيليا في الأساس. ثم قرأت الرواية في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، إذ لم أصدّق أيضا ما قيل

جورج أورويل

من أن مجموعة من الإرهابيين العرب أو المسلمين خططوا ونفذوا هذا الهجوم، تحقيقا لرفعة الإسلام وانتقاما من الولايات المتحدة وإسرائيل.

لم أكن أتوقع بالطبع، في أي حالة من الحالات الثلاث، أن تمدني الرواية بالإجابة الكاملة على أسئلتي، إذ كيف يمكن ذلك والرواية كُتبت منذ أكثر من نصف قرن؟ ولكن كان أملى أن تمدني الرواية بما يقوّى بصيرتى ويوجه تفكيرى في الاتجاه الصحيح.

وهذا هو ما حدث بالفعل، فقد قوّت الرواية من شكوكى، ودعمت سوء ظنى، وقدّمت لى المبررات المعقولة لهذه الشكوك وهذه الظنون، مما قوّى اعتقادى بصحة قول قرأته لأورويل نفسه، ولكن في كتاب آخر، وهو أن «أحسن الكتب هو الذى يقول لك ما كنت تعرفه من قبل».

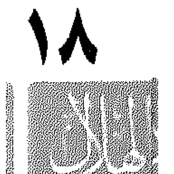
فما الذى وجدته في هذه الرواية مما يلقى ضوءا على أحداث ١١ سبتمبر، مختلفا عما تقول به التصريحات الرسمية والتفسيرات الشائعة؟

لقد دعمت الرواية **أولا** من اعتقادى بصحة ما يسمى بنظرية المؤامرة، ليس بالمعنى الذى يريد الايحاء به أعداؤها، أى بمعنى اجتماع بعض الأشخاص من ذوى الملامح الشيطانية، في حجرة مظلمة، للتخطيط لجرائم يحققون من ورائها أرباحا أو منافع شخصية، بل بالمعنى الأبسط بكثير، وهو مجرد أن ما يُنسب للأعمال السياسية من أهداف نبيلة كثيرا ما يخفى وراءه أهدافا أنانية ليس لأصحابها مصلحة في الإعلان عنها.

فها هو أورويل يقول في روايته إن من الممكن جدا أن الغارات التى تشن على الدولة، وتقتل كثيرا من أهلها، وتنسب إلى العدو، قد تكون من فعل حكومة الدولة نفسها لتبرير إجراء معين تنوى اتخاذه، أو لإثارة مشاعر الناس ضد دولة أخرى تنوى مهاجمتها... إلخ كما يقول إن الهدف الحقيقى من الحروب المستمرة لا علاقة له بالرغبة في إحلال السلام، ولا في تغيير نظام فاسد في دولة أجنبية وإحلال نظام صالح محله، بل الهدف في نهاية الأمر الحصول على مادة أولية نادرة أو قوة عمل رخيصة، بل والأهم من ذلك مجرد إشباع نهم لا يرتوى أبداً إلى مزيد من القوة.

وثانياً: أكدت الرواية أهمية سلاح الكلمات والشعارات في كسب الناس إلى صفك، كتسمية عدوك بالإرهابى، وتكرار هذا الوصف ليل نهار، وتعويد الناس الوقوف دقيقتين كل يوم تسميان «دقيقتين للكراهية» يعلن فيهما الناس سخطهم على هذا العدوّ ويذكرون خلالهما وقوفهم إلى جانب النظام.

من الطريف أن الاسم الذى اختاره أورويل لهذا العدو المخترع هو اسم «الاخوان أو الأخوة» (Brother-hood) وهو قريب جدا من اسم



القاعدة أو الأصوليين الذين شنت عليهم إدارة الرئيس بوش الحرب فى أفغانستان فى أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والذين زعمت هذه الإدارة وجود علاقة بينهم وبين صدّام حسين ، لتبرير شن الحرب على العراق أيضاً بعد الهجوم على أفغانستان ببضعة شهور.

قبل انتهاء الرواية بقليل، وأثناء تعذيب بطل الرواية المتمرد «ونستون»، على يد واحد من قادة الحزب الحاكم «أوبراين»، يسأل ونستون أوبراين عما إذاكان «للاخوان أو الأخوة» وجود حقيقي، أم أن الأمر كله مجرد اختراع من جانب النظام الحاكم؟ فيجيبه أوبراين: «إنك لن تعرف أبدا الإجابة على هذا السؤال». فهل هذه الإجابة تنطبق أيضا على حالنا مع ما يسمى بتنظيم «القاعدة»؟

وثالثا: تؤكد الرواية ذلك الاستعداد المدهش لدى غالبية الناس لتصديق ما يقال لهم، مهما كانت درجة منافاته للعقل، طالما أنه جرى ترديده بالدرجة الكافية، وطالما اقترن هذا الترديد والتكرار بإثارة شعور بما يسميه أورويل «الوطنية السانجة»، والتى تنطوى على التسليم الأعمى بكل ما يقوله الزعيم (أو الأخ الأكبر) واعتبار الزعيم والوطن شيئاً واحداً.

ورابعاً: أن المهم لتحقيق أغراضك، ليس حقيقة الأشياء، كما توجد بالفعل فى العالم الخارجى، بل هو ما يعتقده الناس مهما كان مخالفا لهذه الحقيقة. «الحقيقة ليست خارجية». (Reality is not external)، هكذا يقول أوبراين للمتمرد ونستون، أثناء قيامه بتعذيبه. فليس المهم ما إذاكانت ٢ +٢ تساوى أربعة حقا أم خمسة، المهم أن الناس مستعدون، عندما يخضعون للوسائل اللازمة لغسيل عقولهم، ليس فقط لترديد القول بأن ٢ + ٢ = ٥ بل وللاعتقاد فعلا بأنها تساوى خمسة.

وخامسا: أن الانتصار الحقيقى للحكم الشمولى لا يتم باستئصال معارضيه جسديا، أو بعضهم فى السجون، بل يتم بتغيير ما يدور فى رؤوسهم من أفكار، وإحلال أفكار ملائمة محلها. إن النظام الذى يصوّره أورويل فى ١٩٨٤ لم يسترح حتى فرّغ رأس ونستون من مضمونه فأصبح «كالصدفة الفارغة»، وبعد هذا يمكن ملء هذه الصدفة الفارغة بما يشاءون من أفكار.

هكذا نفهم حرص الأمريكيين والإسرائيليين، ليس فقط على تفريغ مناطق كاملة فى فلسطين من الفلسطينيين، وفى العراق من العراقيين، بل الأهم من ذلك تغيير النظم التعليمية والثقافية والإعلامية السائدة، بحيث يصبح أهل المنطقة كلهم على استعداد لاستقبالهم. ■



الجريمة والمجتمع

بقلم

د. على ليلة *

• ارتباط تصاعد الجريمة بالمسألة الطبقية

• ارتفاع نسبة الجرائم في مراحل التحول والمناطق العشوائية

* أستاذ علم الاجتماع - كلية الآداب - جامعة عين شمس

تعد الجريمة ظاهرة إنسانية واجتماعية، وهي تعبر عادة عن الجوانب السلبية في الحياة الانسانية والاجتماعية ويمكن القول بأن تاريخ البحث العلمي في مجال الجريمة قد مر بمراحل عديدة. بحيث تضمنت كل مرحلة رؤية جديدة لذات الظاهرة الإجرامية. وتعتبر النظريات البيولوجية أول المعالجات العلمية للظاهرة الإجرامية، حيث تزعم هذا الاتجاه عالم الإجرام الإيطالي سيزاري لومبروزو الذى رأى أن السلوك الإجرامى هو ناتج عن البيئة البيلوجية لبعض البشر في المجتمع، وهى البنية ذات الطابع المشوه والتي نجد بعض مؤشراتها في بعض السمات ذات الطبيعة البيولوجية الخارجية كالجبهة العريضة وكبر الفكين والعين الضيقة وغير ذلك من السمات البيولوجية، بحيث نجد أن هذه البنية البيلوجية المشوهة تعد مؤشرا لسلوك إجرامي كامن، يضغط حتي يصبح صريحا علي ساحة المجتمع.

وفى مرحلة تالية تم النظر إلى الجريمة بالاستناد إلى المرجعية البيولوجية كذلك، غير أنه تم الاستناد هذه المرة إلى متغير الوراثة، وليس إلى مجرد التشوهات الخلقية، حيث ينتقل السلوك الإجرامى من الآباء إلى الأبناء، مثلما تنتقل الجينات البيولوجية الأخرى ، فالجريمة تعد هنا مرضا ينتقل ويورث عبر الأجيال. ويمكن النظر هنا إلى أن تفسير الجريمة بالوراثة يسير فى نفس خط التأكيد على المتغيرات أو العوامل البيولوجية باعتبارها المتغيرات المؤسسة للسلوك الإجرامى، وعلى هذا النحو تعتبر نظريات الوراثة استمرارا لذات التراث الذى بدأه سيزارى لومبروزو عن التشوه الخلقى كمؤشر لوقوع السلوك الإجرامى.

وبانتهاء هذه المرحلة انتقل التفكير العلمى المتصل بتفسير الجريمة ومحاولة فهم أسبابها وعواملها إلى مرحلة جديدة وثالثة، وهى تفسير الجريمة بالبيئة المحيطة، وهى البيئة التى تنوعت بين البيئة الجغرافية، حيث النظر إلى أهل الوديان والمناخات المعتدلة، باعتبارهم الأقل مبدأ لارتكاب السلوك الإجرامى، مقارنة بأهل الصحراء والمناطق الجبلية، باعتبار أن قسوة البيئة الطبيعية تنعكس على قسوة السلوك الانسانى، وبخاصة السلوك الذى يمكن وصمه باعتباره سلوكاً إجرامياً أو منحرفا.

لقد أصبح ينظر إلى السلوك

الإجرامي باعتباره يرتبط بالسياق أو الإطار الاجتماعى بالأساس. وهو يرتبط بالإطار الاجتماعى من بعدين. البعد الأول : أنه تم التخلى عن النظرة الأحادية لتفسير السلوك الاجرامى، فلم تعد الجريمة نتيجة لعامل بعينه بل أصبحت الجريمة تدرك باعتبارها نتيجة لمجموعة من العوامل، كالتنشئة الاجتماعية المنحرفة، والأسرة المفككة وتأثير الأصدقاء والرفاق، إضافة إلى تأثير الظروف الاقتصادية والبيئية والوراثية. وهو ما يعنى بتعددية العوامل الدافعة للسلوك الإجرامى. وأصبح البحث العلمى فى نطاق علم الإجرام لا يبحث عن متغيرات معينة باعتبارها المتغيرات المسببة للسلوك الإجرامى، ولكن أصبح البحث يتركز فى تحديد الوزن النسبى لتأثير كل عامل من هذه العوامل فى تسبيب حدوث السلوك الإجرامى.

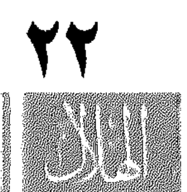
الصورة الغالبة للمجرم

وهناك ثلاثة أنماط للسلوك الإجرامى، السلوك الاجرامى النمطى، والسلوك الاجرامى أو المجرم بالموقف والمجرم العائد. ويشكل المجرم النمطى الصورة الغالبة للمجرم الذى يقترف جريمته بسبب عوامل أو دوافع معينة، دفعته إلى إرتكاب السلوك الإجرامى، بحيث إنه إذا انتفت هذه العوامل أو الدوافع أو ضعفت فاعليتها انتفى السلوك الإجرامى، أما إذا حضرت وكانت قوية فإنها تفرض السلوك الإجرامى، أما إذا حضرت وكانت قوية فإنها تفرض وقوع السلوك الإجرامى.

ويشكل هذا النمط من الإجرام النمط الغالب، وفى الغالب فإن المجرم من هذا النمط يعود إلى حياة السواء والاستقامة بشرطين: الأول إذا واجه عقابا رادعاً على جرمه، والثانى إذا انتفت الظروف أو العوامل التى دفعته إلى السلوك الإجرامى.

ويتمثل النمط الثانى من السلوك الإجرامى فى المجرم بالموقف، وهو عادة المجرم الذى ليست لديه ميول إجرامية قوية تدفعه إلى السلوك الإجرامى، ولكن الظروف المحيطة هى التى تضغط عليه بإتجاه السلوك الاجرامى والأمثلة على ذلك كثيرة، الشخص الذى يجد نفسه أمام خزينة أموال مفتوحة، وليس هناك من أحد يراقبه، قد يضعف ويسرق مبلغا من المال خاصة إذا كانت هناك بعض الظروف الاقتصادية الضاغطة. أو الشخص المستقيم الذى قد يرتكب جرما تحت غواية موقفية لامراة، الأمر الذى يدفعه لارتكاب جريمته تحت ضغط ووطأة الغواية، أو العكس أن ترتكب المرأة الجريمة الموقفية تحت وطأة غواية رجل. ويتميز المجرم بالموقف بأنه لولا الموقف الذى وجد فيه الإنسان، لما ارتكب الإنسان جريمته، بيد أن ذلك لا يمنع من أن تكون الاستجابة لغواية الموقف مشيرة إلى ضمير ضعيف لم يستطع أن يشكل عقبة أو عائقا أمام ارتكاب السلوك الإجرامى.

ويشكل المجرم العائد النمط الثالث، وهو المجرم الذى يعود دائماً إلى ارتكاب السلوك الإجرامى برغم العقاب الذى قد يناله أو يفرض عليه. وترجع عودة المجرم



إلى ارتكاب جريمته برغم العقاب المتكرر إلى استمرار الظروف التى فرضت سلوكه الإجرامى الأول، وربما شهدت هذه الظروف قوة أكثر من حيث قدرتها على الدفع باتجاه الجريمة.

وقد تكون هذه الظروف ذات طبيعة إيجابية أو سلبية. والظروف الإيجابية هى التى تفرض إغراءً لارتكاب السلوك الإجرامى، مثال على ذلك المال والثراء الذى يتحقق نتيجة للاتجار فى المخدرات، أو العقاب السهل فى مقابل فداحة الجرم، أما الظروف السلبية فهى التى تضغط باتجاه السلوك الإجرامى.

طبيعة الفعل الإجرامى

وما دمنا نتحدث عن أنماط المجرمين فإننا نجد أن هناك عدة متغيرات تؤثر على طبيعة الفعل الإجرامى الذى يرتكبه. فمثلاً يختلف الفعل الإجرامى بحسب متغير النوع. فالجريمة التى ترتكبها المرأة تختلف عن الجريمة التى يرتكبها الرجل. إذ تميل المرأة إلى السلوك الاجرامى غير المباشر، كما أن جرائمها من نوع الجرائم الناعمة التى تعكس طبيعتها إلى حد كبير. بينما يميل الذكور إلى السلوك الإجرامى المباشر. والخشن الذى يعكس طبيعته كذلك. فمثلا فى جريمة القتل، قد تلجأ المرأة إلى الخداع وعدم المواجهة، كالقتل بالسم، بينما قد يستخدم الرجل الآلات الحادة والمواجهة فى عملية القتل، وفى جريمة السرقة، من الممكن أن تستخدم المرأة بعض غوايتها حتى تستلب الضحية ما تريد، بينما قد يميل الذكور إلى استخدام القوة فى سلب أو سرقة مايريد، وهو ما يعرف بالسرقة بالإكراه، غير أنه كلما قطع المجتمع شوطا على طريق التنمية والتحديث والتقدم اختفى الفارق بين جرائم الرجال والنساء.

ويعد متغير المستوى الاجتماعي الاقتصادى من المتغيرات التى تلعب دوراً بارزاً فى تحديد طبيعة السلوك الإجرامى، وفى تاريخ علم الإجرام برز ربط بين الطبقات الدنيا والجريمة المكلفة للمجتمع أو المهددة لاستقراره.

وإذا تأملنا الأمر، فسوف نجد أن الجريمة تختلف باختلاف الطبقات الاجتماعية، فالطبقات الدنيا لها جريمتها التى تتجه عادة إلى إشباع الحاجات الأساسية للبشر.

بينما تحدث الجريمة فى نطاق الطبقات العليا إرتباطا بالحالة الترفية التى يعيشها أبناء هذه الطبقة، وأيضا بسبب تحلل أبناء الطبقات العليا من الالتزامات الأخلاقية التى يوافق عليها المجتمع، فى حين نجد أن الطبقة الوسطى، باعتبار أنها تشكل الوعاء الأخلاقى للمجتمع، هى من أكثر الطبقات من حيث امتلاكها - فى ظروف المجتمع السوى والمستقر - للمناعة الأخلاقية المضادة للسلوك الإجرامى مما يجعلها أقل طبقات المجتمع من حيث ميلها للسلوك الإجرامى.

جرائم أصحاب الياقات البيضاء

وفى هذا الصدد قدم عالم الاجرام التشهير أدوين سانرلند نظريته حول ارتباط الجريمة بالمسألة الطبقية أو بمتغير المستوى الاجتماعى الاقتصادى.

فقد ربط علم الإجرام السابق على كتابات ساذرلند بين الفقر والجريمة، باعتبار أن إجرام الفقراء هو الإجرام المكلف للمجتمع. وبديلاً لذلك قدم سازرلند نظريته الشهيرة حول «جرائم» أصحاب الياقات البيضاء.. باعتبار أنها الجرائم التي يرتكبها أصحاب الوظائف العليا، أو من ينتمون إلى الشرائح الطبقية العليا، حيث يرى سازرلند أن جرائم هؤلاء البشر هي الجرائم المكلفة للمجتمع، مقارنة بجرائم أفراد الطبقات الدنيا، الذين سماهم بجرائم أصحاب الياقات الزرقاء.

بالإضافة إلى ذلك يلعب متغير التعليم دوراً أساسياً في تحديد طبيعة السلوك الإجرامي، فالجرائم التي يرتكبها المتعلمون تختلف عن الجرائم التي تنسب عادة للأميين حيث نجد جرائم المتعلمين هي الأكثر إحكاما، وتوصف عادة بعدم المباشرة على عكس جرائم الأميين التي يكون لها عادة الطابع المباشر، إضافة إلى أنها عادة ما تكون أقل إحكاماً، ومن المتيسر حل شفرتها إلى حد كبير، ويرتبط بذلك أيضا متغير السياق الاجتماعي، حيث نجد أن طبيعة الجريمة تختلف باختلاف السياق الاجتماعي. في هذا الإطار نجد أن جرائم السياق الحضري تختلف عن جرائم السياق الريفي. سواء من حيث القصد الإجرامي، أو الأدوات المستخدمة، أو درجة الخشونة المباشرة.

أضعاف منظومة القيم

وتتزايد معدلات الجريمة وتتعدد أنماطها في فترات التحول الاجتماعي التي تمر به المجتمعات، وذلك يرجع إلى أن فترات التحول الاجتماعي من شأنها إذا كانت شاملة وذات طبيعة جذرية من حيث التغيرات التي تنتج عنها، أن تؤدي إلى اضعاف منظومة القيم الموجودة في المجتمع والتي من شأنها أن تسير التفاعل الاجتماعي الحادث فيه. فإذا ضعفت قيم المجتمع فإنها تكون عاجزة عن توجيه سلوكيات البشر في المجمع، بحيث يكون التفاعل الاجتماعي بين البشر وسلوكيات البشر في إطار عشوائي غير محكوم بقيم ولا معايير، مما قد يدفع بكثير من هذه السلوكيات إلى منطقة الجريمة والانحراف. هذه الحالة أشار إليها عالم الاجتماع إميل دور كيم وسماها «حالة الأنومي» وهي الحالة التي يفتقد فيها المجتمع امتلاك المعايير والقواعد الضابطة والمنظمة لسلوك البشر. في هذه الحالة تبرز السلوكيات المنحرفة والإجرامية غير الموجهة بقيم، أو تظهر القيم الفردية لتملأ الفراغ القيمي القائم في المجتمع، بسبب التحولات الاجتماعية غير المواتية، ومن ثم تبرز القيم الأنانية المؤكدة على مصلحة الفرد ولو على حساب الجماعة، الأمر الذي يخلق مناخاً مواتيا لانتشار سلوكيات الجريمة والانحراف.

بالإضافة إلى ذلك فإن فترات التحول الاجتماعي عادة ما تكون تحولا بين نموذجين اجتماعيين، المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث، ومن ثم توجد في فترات التحول الاجتماعية ظاهرة الثنائية البنائية أو المجتمعين حيث يتواجد نموذجان

للمجتمع أحدهما تقليدى ينسحب من على المسرح بسبب عملية التحول أو يبرز الثانى ليحل محله. فى هذه المرحلة توجد عادة السلوكيات أو الأفعال الإجرامية والانحرافية بصورها التى تنتمى إلى المجتمع التقليدى وتلك التى تنتمى إلى المجتمع الحديث، الأمر الذى يجعل من فترة التحول الاجتماعى فترة متخمة بظواهر الجريمة والانحراف، إما بسبب ضعف منظومة القيم الموجهة لسلوك البشر فى المجتمع، أو بسبب طبيعة المجتمع الانتقالى لسلوك البشر فى المجتمع، أو بسبب طبنيعة المجتمع الانتقالى والفترة الانتقالية، أو بسبب الثنائية البنائية التى تفرض ثنائية أنماط الجريمة والانحراف.

إلى جانب ذلك فإننا نجد أنه خلال مراحل التحديث والتحول الاجتماعى التى قد يمر بها المجتمع، فتخلق ظاهرتين وتتمثل الظاهرة الأولى فى ارتفاع معدلات الهجرة من الريف إلى المدينة، وفى العادة يكون غالبية المهاجرين من الشباب الذين سقطت عنهم روابطهم العائلية والجماعية الضابطة، والذين يعيشون فى بداية مرحلة الهجرة على أطراف المدن وفى أحيائها المختلفة، فى ظل حالة من التوتر والقلق وعدم التكيف، الناتج عن ترك القيم والتقاليد ونمط الحياة القديمة، وعدم التمكن من استيعاب القيم الحضرية الحديثة الموجهة لسلوك البشر، وفى نطاق هذه الفجوة تتزايد السلوكيات الإجرامية والانحرافية، لأن الأوضاع الاجتماعية التى يوجد فى نطاقها المهاجرون لا تكون فى المراحل الأولى من الهجرة مواتية الأمر الذى يرفع من معدلات السلوك الإجرامى والانحرافى وتتزايد معدلات الانحراف والجريمة إذا عاش المهاجرون فى ظل نوعية حياة لا توفر إشباعا لحاجاتهم الأساسية الأمر الذى قد يدفعهم إلى سلوكيات إجرامية وانحرافية كالسرقة والانحراف لتأمين بعض الاشباع لحاجاتهم الأساسية الملحة.

نمو المجتمعات العشوائية

وتتصل الظاهرة الثانية بنمو المجتمعات العشوائية على أطراف المدن الكبيرة والصغيرة على السواء. ولما كان سكان هذه العشوائيات إما من المهاجرين الجدد من الريف إلى المدينة بحثا عن فرص الحياة الملائمة أو من الذين لفظتهم أحياء المدينة الأخرى، ومن ثم فسكان العشوائيات يعيشون فى ظل حالة من الفقر والإحباط والإحساس بالدونية، تسود بينهم ظواهر البطالة، كما أن القيم التى توجه سلوكيات البشر فى المجتمعات العشوائية ضعيفة، فسكان هذه العشوائيات جاءوا من كل حدب وصوب لا تسود بينهم معايير أو قيم مشتركة متفق عليها، تنظم تفاعلاتهم، ومن ثم نجد الميل إلى الجريمة والانحراف ملازما لمثل هذه الأوضاع المتردية، فى مثل هذه المجتمعات يصبح اللجوء إلى القوة والبلطجة والجريمة والانحراف، هى السلوكيات اليومية التى تستكمل هيكل نوعية الحياة التى يعيشها البشر فى التجمعات العشوائية.

وتعتبر انتشار ظاهرة تعاطى المخدرات الظاهرة الثالثة المصاحبة

لفترات التحول الاجتماعى، ففى فترات التحول، قد تضعف القيم المشكلة للضمير الفردى والجمعى على السواء – على نحو ما أشرت – وفى فترات التحول الاجتماعى يضعف اليقين الاجتماعى والثقافى عند البشر وتضعف المعايير المحتكم إليه، وفى فترات التحول الاجتماعى قد يتمزق النسيج الاجتماعى للمجتمع، الذى قد نجد بعض مظاهره فى تفكك الأسر، وصراع الأجيال، وحتى صراع الفئات والجماعات المشكلة للمجتمع، ذلك بالإضافة إلى الاختراق الثقافى الذى قد يحدث لثقافة المجتمع، التى أصبحت ضعيفة وهشة على نحو ما أشرت. كما تظهر أنماط كثيرة من صنوف الفشل التى يعانى منها البشر، اضافة إلى انسداد قنوات الحراك الاجتماعى ، وفى نطاق نوعية الحياة هذه تنتشر مشاعر الإحباط والسخط وعدم الاشباع، والإحساس بفقدان أى معنى للحياة، ومن ثم يصبح الهروب من هذه الحياة نتيجة منطقية وواقعية إلى حد كبير، الهروب من خلال التطرف الديني، بحثا عن يقين، وعن اشباع للحاجات الأساسية ولو فى ظل حد أدنى من التقشف، أو الهروب إلى عالم خيالى يتيح من خلال تعاطى المخدرات أو إدمانها، الحصول على أجازة مؤقتة من هموم وإحباطات الحياة اليومية التى يعيش فى إطارها البشر، وبخاصة الشباب، أو الهروب إلى عالم الجريمة والانحراف بحثا عن إشباع للحاجات ولو بالقوة أو العنف، أو الانحراف بحثا عن المتعة، فى عالم لا يتيحها بصورة سوية ومقبولة.

وهو ما يعنى أن فترات التحول فى تاريخ المجتمعات هى الفترات التى تشهد عادة ارتفاعاً فى معدلات الجريمة باتجاه الزيادة، وأيضا تعدد أو تكاثر أنماطها.

ويعمق هذا التكاثر للسلوكيات الإجرامية والانحرافية وجود ما يمكن أن يسمي بالدولة الرخوة أو القانون الرخو أو المسترخي، وهى الحالة التى تكون فيها الدولة أضعف من أن تضبط التفاعل الاجتماعى الحادث فى المجتمع، أو هى الحالة التى قد يطبق فيها القانون بصرامة ودقة على البعض، بينما يعجز عن ضبط وتوجيه سلوكيات البعض الآخر، الأمر الذى يشكل بدوره إطاراً إضافيا لتفريخ الجريمة والانحراف.

عراك حول الكعكة

ذلك يدفعنا فى النهاية إلى التساؤل حول علاقة الجريمة أو الانحراف بالمجتمع ، المؤكد أنه حسبما يذهب التراث النظرى فى علم الاجتماع، أن الجريمة والانحراف لازمة للمجتمع، فما دامت الموارد الاقتصادية غير متكافئة فى نموها مع النمو السكانى على المستويات الاجتماعية المتعددة ابتداء من المستوى المحلى إلى القومى إلى العالمى، فإنه من الطبيعى أن يحدث عراك حول الكعكة للحصول على نصيب يشبع الحاجات الأساسية، ذلك يحدث على مستوى الأفراد والدول على السواء. وفى قلب العراك تسقط القيم، وتبرز المصلحة ومنطق «الغاية تبرر

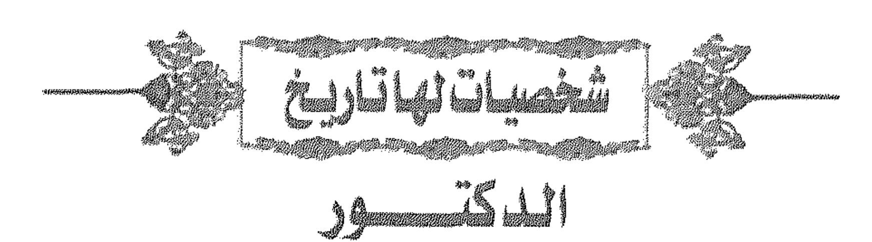
الوسيلة» أو منطق الإنسان الذى يعيش حياة الغابة العارية من آية قيم تنظم اجتماع البشر مع بعضهم البعض، وهى الحالة التى تعد بابا واسعا لتدفق موجات الجريمة والانحراف.

على هذا النحو يمكن أن نرصد ثلاثة مستويات لعلاقة الجريمة بالمجتمع. فى المستوى الأول يمكن أن تكون الجريمة والانحراف ذات وظيفة بالنسبة للمجتمع ويمكن أن نسمى هذا المستوى بالمستوى الاجتماعى ، وتكمن وظيفة الجريمة هنا فى التذكير بالعقاب الذى قد يردع البشر من ارتكاب جرائم أخرى، هذا بالاضافة إلى أن الجريمة فى حدود هذا المستوى تكون فى حدودها الدنيا، وتنتج فى العادة عن ظواهر التوتر وعدم التكيف الناتج عن تفاعل الحياة فى المجتمع. وبرغم إدانة الجريمة إلا أنها تكون فى هذا المستوى مقبولة، ولازمة للمجتمع، تعبيراً عن إزدواجية الخير والشر التى تشكل قاعدة الوجود الإنسانى.

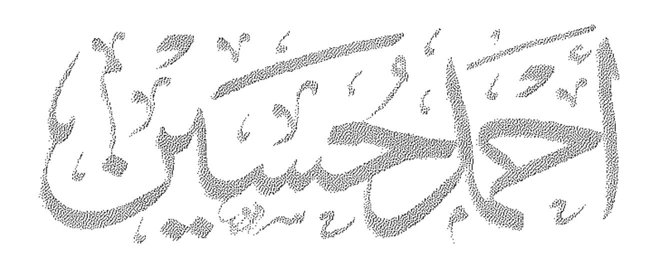
ويمكن أن نسمى المستوى الثانى والتالى لعلاقة الجريمة بالمجتمع بالمستوى البنائى.. وفى هذا المستوى ترتفع معدلات الجريمة بأنماطها المختلفة. بحيث يصبح ارتفاع الجريمة والانحراف وزيادة أنماطها مؤشراً على حدوث إنهيار أو انهيارات فى بناء المجتمع، كما هى الحال فى فترات التحول الاجتماعى، فإذا استمرت الجريمة فى تصاعدها على هذا المستوى، فإنها تؤدى عادة إلى تمزيق النسيج الاجتماعى ولا تصبح ذات وظيفة بالنسبة للمجتمع، كما هى الحال فى المستوى السابق، ولكنها تصبح مدمرة للمجتمع، ومؤدية إلى مزيد من انهيار أبنيته الأساسية العائلية، والتعليمية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية.

وفى المستوى الثالث، حينما يتصاعد نمو الظاهرة الإجرامية والانحرافية تدخل فى مستوى ثالث هو المستوى الأخلاقى، حيث لا تصبح الجريمة مجرد سلوك أو فعل يضر بالآخر أو بالمجتمع، بل تصبح الجريمة فى حد ذاتها أفعالا تشير إلى حالة الانهيار الأخلاقى والاجتماعى الكامل للمجتمع، وتصبح فى هذه الحالة دقات ناقوس الخطر التى تذكر بالحاجة إلى بعث اجتماعى وأخلاقى جديد. على هذا المستوى تتحول جرائم الجنس إلى جرائم اغتصاب، جنس بالاضافة إلى عنف، تتحول السرقة البسيطة المحدودة، إلى فساد واختلاس وتبديد للمال العام حتى تركيع المجتمع، يتحول الدفء الأسرى، والتراحم، إلى ما يمكن أن يسمى بزنا المحارم.

تتحول فى إطار هذا المناخ القدوة إلى قدرة على الغش والخداع، فى هذا المناخ الفاسد تتزايد معدلات الجريمة مخولة، ويسقط اليقين عن البشر، وتضيع الثقة وتصبح الحاجة إلى التغيير وخلق مجتمع جديد واجبة، بل هى فرض عين. ■

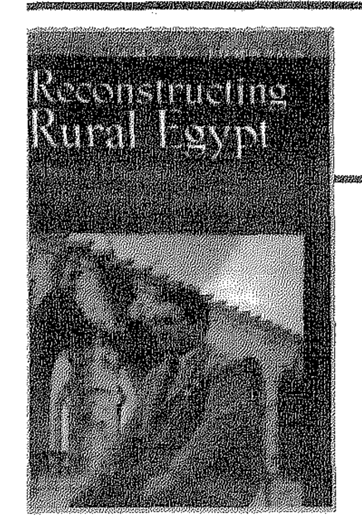


الدكتــــــور



مصلح اجتماعى من طراز خاص (١٩٢٨ - ١٩٥٨)

بقلم
د. عاصم الدسوقي



في ضوء كتاب إيمي جونسون.. «أحمد حسين ومشروعاته لإصلاح الريف»

خلال أزمة تمويل السد العالى فى شهر يونية ١٩٥٦ وقبيل أن تسحب الحكومة الأمريكية حصتها فى تمويل المشروع، ويعلن البنك الدولى للإنشاء والتعمير انسحابه من العملية كانت وكالات الأنباء العالمية والصحافة المصرية تردد اسم الدكتور أحمد حسين سفير مصر لدى الولايات المتحدة الذى كان يحاول إقناع جمال عبد الناصر بقبول الشروط الأمريكية لتمويل السد العالى وكانت تتلخص فى قبول مصر لجنة مراقبة مالية للإطمئنان على قدرة مصر على الوفاء بتسديد القرض الممنوح من البنك الدولى ثم استمع العالم إلى خطاب أحمد حسين فى الجمعية العامة للأمم المتحدة قبيل العدوان الثلاثى على مصر وأثناء العدوان، وبعد ذلك بأقل من عامين عاد الرجل إلى مصر وقدم استقالته من وزارة الخارجية وانزوى فى بيته واعتزل الحياة الاجتماعية حتى وافته المنية فى ١٩٨٤ .



والحقيقة أن أحمد حسين لم يكن رجلا دبلوماسيا عاديا تدرج فى الوظائف الدبلوماسية شأن الدبلوماسيين المحترفين وإنما دخل هذا السلك فى مارس ١٩٥٣ بناء على طلب محمد نجيب وجمال عبد الناصر استفادة من اتصالاته الدولية وتقديرا منهما لاستقالته فى أغسطس ١٩٥١ من حكومة الوفد التى كان يشغل فيها منصب وزير الشئون الاجتماعية احتجاجا منه على عدم استجابة الحكومة لمشروعاته فى إصلاح القرية وكان إصلاح الريف وتحسين أحوال فلاحيه الشغل الشاغل لأحمد حسين منذ عمل مفتشا بمصلحة التعاون بوزارة الزراعة فى عام ١٩٢٨، فاشتهر بين أقرانه وصفوة أهل الريف بالمصلح الاجتماعى. وهذا ما لفت نظر الباحثة الأمريكية إيمى. جونسون Amy John-son التى جاءت إلى مصر فى عام ١٩٩٥ لتكتب رسالة أكاديمية عن وزارة الشئون الاجتماعية، ولكنها وهى تقلب فى وثائق الوزارة اكتشفت التقارير والدراسات التى كان يكتبها أحمد حسين خلال مناصبه المختلفة فرأت من ثم أن يكون موضوع بحثها عن «أحمد حسين ومشروعاته فى إصلاح الريف وتنميته»، فكان هذا الكتاب الذى نشرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى العام الماضى تحت عنوان Recon-structinhg Rural Egypt (إعادة بناء الريف المصرى) فى ٣٠٤ صفحات

تبنى مشروعات إصلاح الريف

لقد كان تبنى أحمد حسين لمشروعات إصلاح الريف المصرى وأحواله استثناء لدور أبناء طبقته الاجتماعية ومواقفها، فهو أحد أبناء الصفوة الاجتماعية فى مصر قبل عام ١٩٥٢ ومع ذلك فقد خرج على طبقته ووضع أفكاره فى خدمة فقراء الفلاحين وتحسين أحوال أهل الريف عموما. لقد كان سليل أسرة من أغنياء

الصعيد وفرت له أسباب الحياة الرغدة وأرسلته بعد حصوله على البكالوريا (الثانوية العامة) لاستكمال تعليمه فى الخارج حتى حصل على الدكتوراة ووالده كان وفديا وتولى وزارتى الأوقاف والحقانية فى حكومات وفدية، وعثمان محرم باشا أحد أعمامه ، ووالدته تنحدر من أصول تونسية - تركية وابنة عم أمير الشعراء أحمد شوقى .. وكان بإمكانه والحال كذلك أن يمضى فى الحياة شأن كثير من أبناء الصفوة .. ينخرط فى أحد الأحزاب السياسية ويتطلع للمشاركة فى الحكم، ويفكر فى كيفية الحفاظ على ثروته والعمل على تنميتها، ويختلف فى وقت الفراغ إلى نادى الجزيرة ليركب الخيل، ويلعب الجولف ويسهر مع أصفيائه، إلا أنه لم يكن ذلك الرجل، بل لقد كان يعتبر أن كبار ملاك الأراضى الزراعية هم السبب فى إفقار الفلاحين وتخلف الريف ومن هنا كان مشروعه فى إصلاح الريف الذى ملك عليه وجدانه، والذى بسببه اصطدم بالمناخ السياسى الطبقى فى مصر قبل ١٩٥٢، كما لم يكن مرتاحا لقانون الإصلاح الزراعى الذى أصدره الضباط الأحرار فور القيام بالثورة مع أن القانون استهدف إصلاح أحوال الفلاحين المستأجرين والمعدمين، لأنه بثقافته المثالية كان ضد أن تقوم الدولة بإجراءات الإصلاح ويفضل أن يتولى هذه المهمة الفلاحون أنفسهم عن طريق الاقتناع بالمشاركة ليضمن تنفيذ الإصلاح واستمراره.

الصراع مع الأحزاب البرلمانية

كيف أصبح أحمد حسين ذلك المصلح الاجتماعى للريف المصرى ..!! هل كان إدراكه لواقع الريف الأليم وبؤس حياة الفلاحين وراء دراسته للاقتصاد الزراعى؟ أم أن دراسته لهذا الفرع جاءت بتوجيه والده ليحصل على الخبرة اللازمة لإدارة شئون أرض الأسرة مثلما يفعل أصحاب المشروعات الصناعية والتجارية مع أبنائهم فى كثير من الأحوال ..؟. على كل حال لقد سافر أحمد حسين إلى ألمانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى للدراسة الجامعية، وكانت تسويات الحرب قد تركت آثارها المدمرة على الحياة هناك مما فتح المجال أمام الحركة الاشتراكية لتزدهر وتتصارع مع الأحزاب البرلمانية وفى الجامعة تأثر كثيرا باستاذه فى الأقتصاد الزراعى فردريك آيريبوى Aereboe، ومن ثم كانت أطروحته للدكتوراه (١٩٢٧) عن «التعاونيات الزراعية فى ألمانيا وأهميتها بالنسبة للأفراد وللاقتصاد الوطنى»، وقد حصل عليها وهو فى الخامسة والعشرين من عمره.

وبعد عودته تم تعيينه مفتشا بمصلحة التعاون بوزارة الزراعة (١٩٢٨)، وكان



حقق د. أحمد حسين شهرة دولية قبل أن يكون وزيرا من خلال حضوره مؤتمرات المنظمات الدولية

إنشاء هذه المصلحة إحدى ثمرات جهود عمر لطفى بك الذى قاد حركة التعاونيات فى مصر متأثرا بدراسته للتعاونيات فى إيطاليا وقد تدرج فى وظائف الوزارة حتى أصبح رئيسا لمصلحة التعاون بعد تأسيس وزارة الشئون الأجتماعية (١٩٣٩)، وفى الوقت نفسه كان يقوم بالتدريس بالجامعة بكلية الزراعة ويشجع طلابه على وضع مشروعات لإصلاح الريف كما يتصورون.

على أن أحمد حسين لم يكن راديكاليا يسعى لوضع أفكاره موضع التنفيذ بالقوة كما لم تكن أفكاره نفسها راديكالية الطابع، وإنما كان إصلاحيا محافظا يسعى لتطبيق أفكاره الإصلاحية عن طريق إشاعتها داخل المجتمع بالحديث الدائم عنها حتى يتم اقتناع أصحاب المصلحة اقتناعا ذاتيا فيقومون من أنفسهم بالجهود اللازمة لتحقيقها بالطريق التعاونى المسالم وبعيدا عن التدخل الحكومى الذى قد يفشل الفكرة من أساسها. وفى هذا الخصوص نراه يتقدم باقتراح لإنشاء بنك تسليف زراعى (تأسس فعلا فى ١٩٣١) ليتولى عملية تسليف الجمعيات التعاونية بدلا من الحكومة مع إلغاء الحد الأقصى للقروض الزراعية مما أدى إلى زيادة عدد الجمعيات الزراعية وغيرها من ١٣٥ جمعية قبل إنشاء البنك إلى ٥٣٩ فى نهاية عام ١٩٣١

ولما كان كبار ملاك الأراضى الزراعية

يسيطرون على تلك الجمعيات فى مختلف القرى رأينا أحمد حسين يهتم بتعليم الفلاحين كيفية المشاركة فى إدارة الجمعيات حتى تنمو وتتطور تطورا طبيعيا اتفاقا مع منهجه فى التدرج الإصلاحى .
وفى إطار هذا المنهج قام بتأسيس «جماعة الرواد» فى عام ١٩٣١ بكلية الزراعة - وهو نفس العام الذى اقترح فيه إنشاء بنك التسليف - كأحد مظاهر النشاط الطلابى حيث كان يكلف أعضاء الجماعة بكتابة تقارير ودراسات وصياغة مشروعات لمواجهة مشكلات الريف تحت شعار «تقوية الأمة فى تقوية الفرد ولنبدأ بأنفسنا»

أهمية العلم

ثم تقدم أحمد حسين بمشروعه خطوة أخرى حين نجح فى تأسيس «الرابطة المصرية للدراسات الاجتماعية» عام ١٩٣٧ قوامها جماعة الرواد من تلاميذه وأصدقائه بالجامعة للتأكيد على أهمية العلم فى العمل الاجتماعى، وكان قد وضع خطة متكاملة لإصلاح القرية عرفت باسم «المراكز الاجتماعية الريفية» واختار لتنفيذ التجربة (أكتوبر ١٩٣٨) قريتين مختلفتين هما: المنايل مركز سبين القناطر قليوبية، وشطانوف مركز أشمون منوفية لتقديم جميع الخدمات المتكاملة صحياً واجتماعيا وبمشاركة الأهالى وبمعاونة مندوبين كبداية من مختلف الجهات الحكومية ذات الصلة لتقديم الرعاية المطلوبة . ثم انتشرت التجربة فى السنوات التالية بقدر محدود وبدأ الفلاحون يندمجون فى التجربة، إلا أن المشروع صادف عقبات كما لاحظ أحمد حسين من صفوة القرية الذين شعروا بأن تطوير الريف وتنميته سوف يخرج الفلاحين من تحت سيطرتهم وتلك كانت أحد متاعب الرجل .

وفى ١٩٤٢ أدرك تماما أن الحكومة المصرية التى يسيطر عليها كبار الملاك وأصحاب الأموال مسئوله عن عدم تخفيف البؤس الذى يغمر الفلاحين حتى تفشى فيهم الفقر والجهل والمرض، وأكثر من هذا أن الحكومة قررت إلغاء مصلحة الفلاح بوزارة الشئون الاجتماعية لكن أحمد حسين استطاع ببعض المناورات أن يقنع مجلس الوزراء بالإبقاء على المصلحة والعمل على تنفيذ مشروع المراكز الريفية . وكانت خطته تستهدف إنشاء ١٢٠٠ مركز بمعدل ٣٠ - ٤٠ مركزا فى العام الواحد لتغطية جميع القرى المصرية بعيدا عن إعانة الحكومة، وكل مركز يقوم بتقديم خدمات متكاملة لأهل القرية. وفور إنشاء المركز تقوم مصلحة الفلاح بإيفاد موظفين اثنين دائمين (خبير زراعى وزائر صحى) ومساعد معمل، ومشرف نادى اجتماعى وساعى بريد، ورجل أمن، ويختار فلاحو



استفادت الثورة كثيرا من اتصالات د. أحمد حسين وعلاقاته الدولية

القرية طبيبا يزورهم ثلاث مرات فى الأسبوع يدفعون له مرتبه وتجمع البيانات الحكومية عام ١٩٥٠ على أن المراكز التى تأسست نجحت فى تحقيق زيادة الرعاية الصحية فى القرى، وفى تقليل نسبة الأمية، وزيادة مستوى التعليم،وزيادة الحاصلات الزراعية ودخل المزارعين من العمل الحرفى وبيع المشغولات اليدوية.

وفى عام ١٩٤٩ وكان قد أصبح وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية نجح فى إقناع مجلس الوزراء بتوزيع الأراضى المستصلحة على المعدمين فى القرى الأقرب لمناطق الاستصلاح بواقع خمسة أفدنة للأسرة الواحدة يقسط ثمنها على ثلاثين سنة مع تقديم قروض عينية فى شكل مواشى ومستلزمات الإنتاج، ونقل الملاك الجدد إلى المناطق المستصلحة مما يؤدى إلى تخفيف الكثافة السكانية فى الريف. وكانت الحكومة قبل مشروع أحمد حسين هذا تعطى الأرض المستصلحة لكبار الملاك ثم لخريجى كلية الزراعة ثم للمعدمين بحيث أنه خلال المدة من ١٩٣٥ - ١٩٤٩ بيعت ٩٠,٧ ٪ من تلك الأراضى لكبار الملاك وللخريجين بنسبة ٧,٦ ٪ وللمعدمين والمستأجرين بنسبة ١,٧ ٪.

حد أدنى لأجر العامل الزراعى

وعندما عاد حزب الوفد للحكم فى يناير ١٩٥٠ دخل أحمد حسين وزيراً

للشئون الاجتماعية وكان وراء ترشيحه للمنصب صديقه أحمد نجيب الهلالى وأحد المؤسسين للرابطة المصرية للدراسات الاجتماعية، كما كان أحد أربعة خبراء دخلوا الوزارة أن يكونوا أعضاء فى حزب الوفد وهم : طه حسين للمعارف، وزكى عبد المتعال للمالية، وحامد زكى وزير دولة . وقد قبل أحمد حسين الوزارة اعتقادا منه أن الوفد وهو المشهور بشعبيته قد يعضده فى برنامجه الإصلاحى الذى كان قد وضعه مستهدفاً وضع حد أدنى لأجور عمال الزراعة، وتنظيم العلاقة بين ملاك الأراضى الزراعية والمستأجرين، وتوزيع الأراضى المستصلحة على المعدمين تحت اسم «مشروع الخمسة أفدنة» وكذا أراضى الأوقاف وأراضى وزارة الزراعة التى لاتحتاجها للأبحاث والتجارب، والأراضى المصادرة بسبب عدم تسديد أصحابها الضرائب المقررة، وفى الوقت نفسه زيادة ضرائب الأطيان للحد من زيادة الملكيات الزراعية وبغرض توجيه فائض الثروة للاستثمار فى الصناعة والأغراض الإنشائية ويلاحظ أنه فى كل هذا لم يقترب من وضع الملكية الزراعية القائمة فيطالب مثلا بتحديدها مثلما فعل محمد خطاب فى مجلس الشيوخ ١٩٤٥، لأن هذا الإجراء يتنافى مع منهجه الإصلاحى المحافظ .

غير أن حكومة الوفد لم تساند أحمد حسين فى مشروعه الخاص بوضع حد أدنى للأجور الزراعية إذ لم يكن بإمكان حكومة كبار الملاك أن توافق على تشريع يغير من طبيعة علاقات الإيجار القائمة وإزاء فشل هذا المشروع نجح فى تمرير قانون فى أغسطس ١٩٥٠ (رقم ١١٨) عرف «بقانون الإقطاعات»، وكان يقضى بأن يقوم كبار ملاك الأراضى فى كل قرية بتوصيل المياه النظيفة، وإمداد الفلاحين بالسماد والوقود، وتوفير مسجد لإقامة الصلاة، ومكان لتجمع الناس (نادى) وتخصيص أماكن للمواشى بعيدة عن سكن الفلاحين، وتخصيص قطعة أرض مجانا لكل عامل زراعة يزرع فيها ما يحتاجه من خضراوات وإذا مارفض المالك القيام بهذه المشروعات بعد انتهاء المهلة المحددة تتولى الحكومة تنفيذ القانون وتحميل المالك جميع النفقات .

تحسين حال الفلاحين

ورغم أن أحمد حسين ظل محافظا على فكرته عن الإصلاح الاجتماعى فى الريف من حيث التدرج والبطء والتواضع كما لاحظت إيمى جونسون وتحسين حال الفلاحين عن طريق تعويدهم على المشاركة فى البرامج الإصلاحية، إلا أن طموحه المتواضع هذا كان أكبر من أن تستوعبه طبقة كبار الملاك التى كانت تهيمن على

د. أحمد حسين فى جولة داخل أحد معارض المشغولات اليدوية للأسر المنتجة

السلطتين التشريعية والتنفيذية، وبالتالى لم تكن أفكاره، ومشروعاته محل ترحيب، بل لقد تعرض الرجل للهجوم الشخصى حين اعترض عبد اللطيف محمود وزير الزراعة على مشروعاته واصفا إياه بأنه «الوزير الأحمر» (كناية عن الشيوعية) فما كان من أحمد حسين إلا أن رد عليه قائلاً «مفيش حد أحمر منك» (كناية عن الغباء).

وأمام هذا المناخ المعادى لأفكار الإصلاح الاجتماعى لم يكن أمام أحمد حسين إلا تقديم استقالته فى أغسطس ١٩٥١ غير نادم، بل لقد رفض العدول عنها رغم إلحاح مصطفى النحاس رئيس الوزراء وفيما بعد قال: إنه يقتل نفسه فى العمل من أجل الفقراء، وهؤلاء الوزراء يمنعونه من ذلك حتى بدا أمام نفسه كمن يتسول الموافقة على مشروعاته من مجلس الوزراء وكأنه يعمل من أجل نفسه. وكان من الطبيعى أن تتوقف مشروعاته التى تركها فى وزارة الشئون الإجتماعية، لكنه لم يتوقف عن أفكاره وطموحاته نحو إصلاح الريف فنراه يؤسس «جمعية الفلاح» لتكون منتدى لمناقشة مشكلات الريف ضمت بعض المهتمين من الشخصيات العامة وزملائه من جماعة الرواد وبدون ارتباط بأى حزب من الأحزاب السياسية طبقا لمبدئه .

على كل حال فبعد استقالته عرض عليه أن يرأس مجموعة من خبراء الأمم المتحدة للسفر إلى المكسيك ودول الكاريبى لمدة تسعة شهور لمراجعة مشروعات تنمية الريف فى تلك البلاد وتقديم المساعدات



اللازمة وكان الرجل قد حقق شهرة دولية منذ ١٩٤٣ وقبل أن يكون وزيرا من خلال حضوره مؤتمرات المنظمات الدولية مثل منظمة الفاو (الأغذية والزراعة) ومكتب العمل الدولى، بل لقد عرض عليه أثناء وزارته أن يشغل منصب الأمين المساعد لسكرتير عام الأمم المتحدة فاعتذر مفضلاً البقاء فى مصر لرعاية مشروعه الإصلاحى

الرجل الذى قال لا !

وأثناء وجوده فى مهمته الدولية بالمكسيك قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، وعندما عاد إلى مصر طلب منه نجيب وناصر أن يكون وزيرا فى الحكومة الجديدة وكانت استقالته من حكومة الوفد قد ذاعت باعتباره الرجل الذى قال لا، لكنه لم يقبل العمل الوزارى مرة ثانية فتقرر تعيينه سفيرا لمصر لدى الولايات المتحدة الأمريكية (٥ مارس ١٩٥٣) استفادة من خبراته وعلاقاته الدولية وقد قدر له أن يشهد أزمات مصر مع الحكومة الأمريكية ابتداء من طلب السلاح إلى تمويل بناء السد العالى إلى تأميم قناة السويس وتداعيات العدوان الثلاثى وكثيرا ما كان يطلب إعادته لمصر بدعوى أنه ليس دبلوماسيا كما كان يصرح لأصدقائه والمحيطين به لكن الظروف كانت تستبقيه رغما عن إرادته .

ويبدو واضحا أن أحمد حسين لم يكن مرتاحا فقط للإجراءات الاقتصادية التى اتخذتها حكومة الثورة وفى مقدمتها الإصلاح الزراعى باعتباره إجراء فوقيا وذلك لميله إلى التدرج كما رأينا، بل لقد كان غير راضٍ عن توجهات جمال عبد الناصر إزاء السياسة الأمريكية فى المنطقة، لكن كان عليه باعتباره سفيرا أن يبرر توجهات ناصر ويشرحها على غير اقتناع ثم جاءت الوحدة المصرية – السورية ضد توجهاته الفكرية فيما يتعلق بالتحالفات السياسية الكبرى فكانت النهاية وهكذا وجد نفسه وهو فى السادسة والخمسين من العمر يقدم استقالته للمرة الثانية فى حياته الوظيفية (مايو ١٩٥٨) ويعتزل الحياة العامة، ولزم منزله لا يبرحه إلا قليلا إلى نادى الجزيرة للقاء أصدقائه القدامى على فنجان من الشاى، بل لقد رفض رئاسة مؤتمر منظمة الفاو فى روما فى أواخر السبعينات إلى أن مات فى صمت فى عام ١٩٨٤ وهو فى الثانية والثمانين من العمر . ■

أقــوال معاصرة

● «الأديب العراقى، برغم ظروف الاحتلال والكوارث الأخرى أشبه بالزهرة الصخرية التى تتحدى الظلم والطغيان»

الأديب العراقى محمد رشيد
مؤسس دار القصة العراقية

● «تدمير مسرح مثل تدمير معبد، نحن لا شئ بدون ثقافتنا»

قول للكاتب المسرحى حنيف قريش بمناسبة مهاجمة السيخ لإحدى المسرحيات فى بريطانيا

● «علينا أن نتغلب على خوف الدول الأوروبية منا لأن بلادنا كبيرة جدا وفقيرة جدا ومسلمة جدا»

رجب طيب أردوغان - رئيس وزراء تركيا



رجب طيب أردوغان

● «ننسى أحيانا أن الغرب لا يترجم ما لا يباع هم تجار فى النهاية ويريدون أن يربحوا»

الأديبة اللبنانية حنان الشيخ

● «أعشق الليل والمتعة والرقص والخمر!»

كاترين دى نيف - نجمة السينما الفرنسية الأولى

● «الاعتماد الكلى على الولايات المتحدة فى حل أزمة الصراع العربى الاسرائيلى هو نوع من الهروب أو التناسى ليظل الوضع كما هو عليه»

الكاتبة الإسبانية لولا بانيون - مؤلفة كتاب «فلسطينيون»



الصادق المهدي

● «أى عمل أو جهد لا يستهدى بفكر فهو أعمى»

الصادق المهدى - رئيس وزراء السودان الأسبق

● «أعلن أن ابنى توفى بسبب إصابته بمرض الإيدز ولن أخفى هذه الحقيقة، لأن الإعلان عنها هو السبيل الوحيد لجعل الإيدز يبدو كأنه مرض عادى»

نلسون مانديلا
رئيس جمهورية جنوب أفريقيا السابق



نلسون مانديلا

● «تخوين البعض وتحجيمه ليس خيارا جيدا»

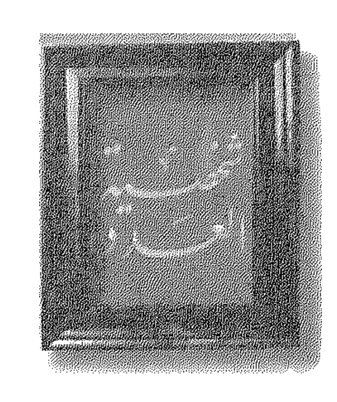
الدكتور خالد حدادة
أمين عام الحزب الشيوعى اللبنانى

● «العطاء لا يعرف سن المعاش»

المفكر المصرى الدكتور يونان لبيب رزق

● «المشكلة فى الإعلام العربى هو أنه ليس موجها للناس وإنما للمسئولين»

الإعلامى اللبنانى زائين كيومو جيان



إدوار الخراط
كلاسيكي يعشق التجريب

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

فلنبدأ بالبداية التقليدية ولو أن إدوار الخراط - موضوع هذه المقالة - أبعد الكتاب عن المنحي التقليدي في إبداعه ونقده علي السواء، وأكثرهم - وقد أشرف علي الثامنة والسبعين - إيغالاً في التجريب.ولد إدوار قلتة فلتس يوسف الخراط في ١٦ مارس ١٩٢٦ في الأسكندرية لأب من إخميم في صعيد مصر وأم من الطرانة غرب دلتا النيل، وحصل علي ليسانس الحقوق في ١٩٤٦ من جامعة الاسكندرية. عمل أثناء الدراسة، عقب وفاة والده في ١٩٤٣، في مخازن البحرية البريطانية في القباري بالأسكندرية، ثم مترجماً ومحرراً بجريدة «البصير» في الأسكندرية، ثم موظفاً في البنك الأهلي بالأسكندرية حتي ١٩٤٨.

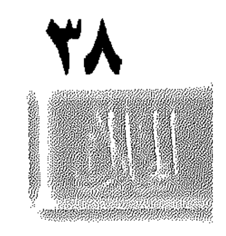
شارك فى الحركة الوطنية الثورية فى الأسكندرية فى عام ١٩٤٦، واعتقل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ سنتين فى معتقلات أبو قير والطور. عمل فى شركة التأمين الأهلية المصرية بالأسكندرية حتى ١٩٥٥ ثم مترجماً فى السفارة الرومانية بالقاهرة حتى ١٩٥٩.تزوج فى ١٩٥٧ وله ولدان (إيهاب وأيمن) وأربعة أحفاد . فى ١٩٥٩ عمل بمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ثم فى اتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين حتى ١٩٨٣ واستقال منهما بعد وصوله إلى منصب السكرتير العام المساعد فى كلتا المنظمتين ، وعمل بعض الوقت مستشاراً لرئيس منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية وللأمانة العامة لاتحاد الكتاب الأفريقيين الآسيويين ، وهو الآن متفرغ للكتابة.

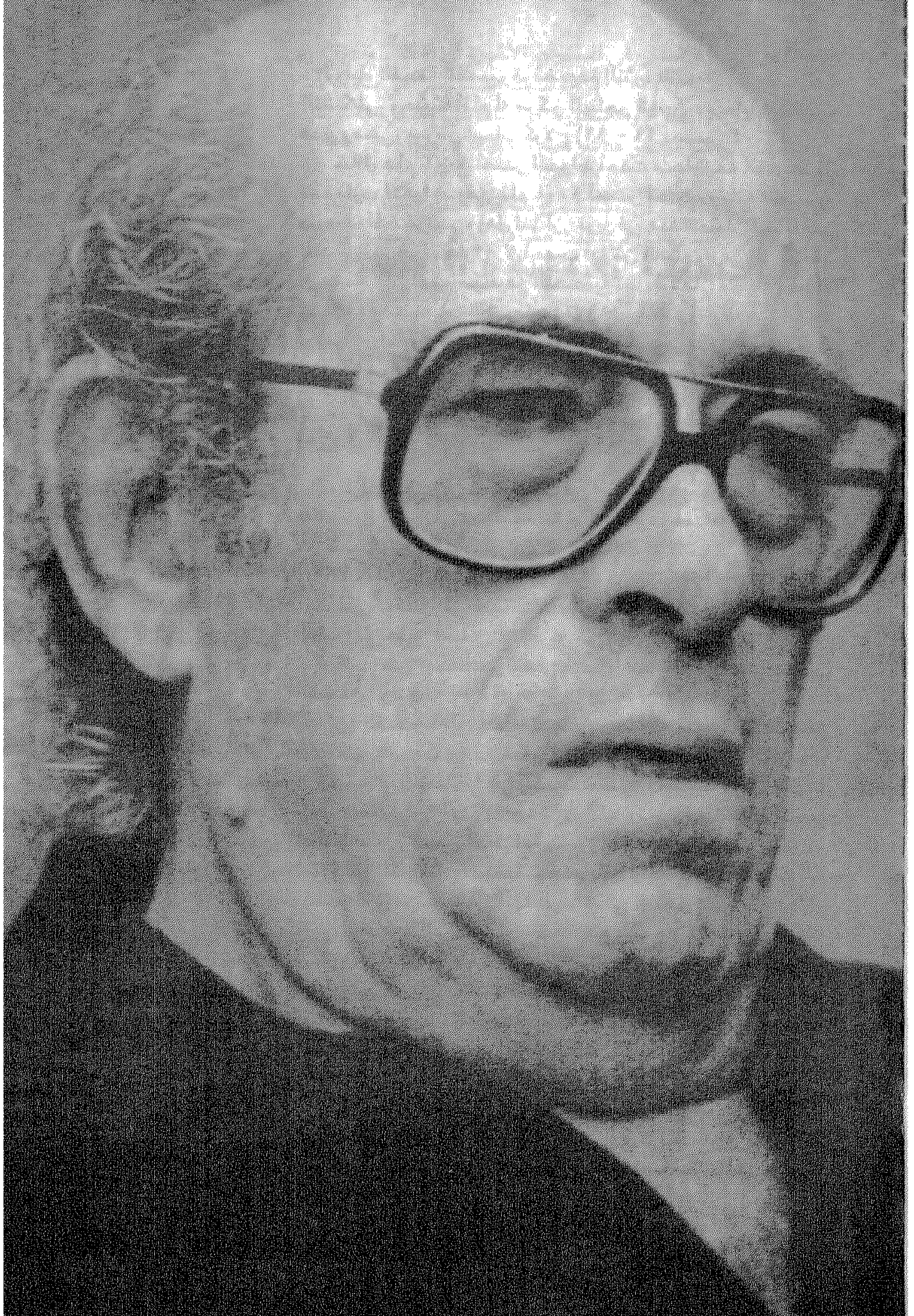
سافر إلى معظم بلاد أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا فى رحلات عمل، وشارك فى إصدار وتحرير مجلة «لوتس» للأدب الأفريقى الآسيوى، ومجلة «جاليرى ٦٨» الطليعية. وحاضر فى أكسفورد ونيويورك ولندن وإيطاليا وباريس وشيكاغو ونال عدداً من الجوائز الأدبية الكبرى آخرها جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ٢٠٠٠.

كولاج روائي

إدوار الخراط - على إمعانه فى التجريب - نموذج «رجل الأدب» بمعناه الكلاسيكى القديم : الرجل الذى ألم من كل شيء بطرف ، وغطت ممارسته للحرفة (فهى حرفة إلى جانب كونها رسالة ورؤية إلى آخره) عديدا من الأجناس الأدبية بل أزالت الفواصل بينها







: الرواية، القصة القصيرة، قصيدة النثر، النقد الأدبى، نقد الفن التشكيلى. وحديثاً أقام له مركز الهناجر للفنون ، برعاية الدكتورة هدى وصفى، معرض لوحات كولاج (١٢ - ١٩ ديسمبر ٢٠٠٤).

خلال عام ٢٠٠٣ أصدر الخراط أحدث مجاميعه القصصية «مضارب الأهواء». وفى عام ٢٠٠٤ أصدر أحدث رواياته «الغجرية ويوسف المخزنجى» (هل لنا أن نري فى هذا العنوان إيماءة إلى القديس يوسف النجار؟). لا أحسب أياً من العملين يرقى إلى أمجاد له سابقة: فإن أعظم مجاميعه القصصية تظل أولاها : «حيطان عالية» (١٩٥٩) و«ساعات الكبرياء» (١٩٧٢). وأعظم رواياته هى أيضاً أولاها : «رامة والتنين» (١٩٧٩). وكل ماجاء بعد هذه الأعمال الثلاثة ليس إلا هوامش على المتن ، هوامش ضرورية ولكنها لا تقع فى المركز، ولا تمثل لبابه المستقطر الذى انصبت عصارته - كثيفة مركزة - فى الأعمال الأولى.

أعظم ماكتب

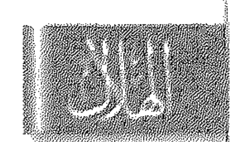
مازلت حتى الآن أعد مجموعة الخراط «حيطان عالية» أعظم ماكتب. بل إنى - فى لحظة سلاطة لسان تغفرها صداقة امتدت لأكثر من خمسة وأربعين عاماً - قلت له يوماً : إنك لم تكتب فى حياتك كلها إلا كتاباً واحداً. وقد رد علىّ - والجزاء من جنس العمل - بقوله : بل أنت الذى لم تقرأ فى حياتك كلها إلا كتابا واحداً. ترى أين تقع الحقيقة بين هذين القطبين المتنافرين من الرأى؟

أغلب الظن - كما هو الشأن عادة - أنها تقع فى مكان ما على الخط بين الرأيين.

إن «الغجرية ويوسف المخزنجى» مثلاً - ولا أتحدث هنا عن فضائلها فهذه أمور بديهية فى كل سطر يجرى به قلم الخراط - تعانى من عيب أساسى فى رسم شخصية الغجرية : فهى (مهما أسهب الكاتب فى وصف مظهرها ومسلكها وتحليل دوافعها) لاتتجسم أمامنا فرداً متميز الذاتية وإنما هى أشبه بنموذج فطرى كبير Arche type يمثل «المرأة» بكافة تجلياتها وجوانبها - روحية وعقلية وجسدية - ومن ثم يطغى فيها الرمز الكلى الشامل على المثل الجزئى المتعين. لقد فقد الكاتب هنا قبضته على الأشجار فى غمرة انشغاله بمنظر الغابة . ويتفاقم هذا الانطباع من جراء توزع شخصية الغجرية على امرأتين أو أكثر : بهذا يزداد السائل تميعاً، ويفقد ما بقى له من كثافة . إن المرايا المتواجهة هنا لاتزيد الصورة الأصلية سطوعاً وإنما هى تشتت انتباه الرائى، وكأنما نحن بإزاء رسم تكعيبى تتكسر فيه الأشكال إلى شذرات صغيرة.

لاتقوم هذه التحفظات فى صدد نقد الخراط الأدبى والتشكيلى، فإنجازه هنا هو من السموق إلى الحد الذى لا نملك معه إلا أن نقف خاشعين إزاء الصروح النقدية التى شادها، شامخة كأعمدة معبد

○ شارك فى الحركة الوطنية الثورية فى الإسكندرية فى عام ١٩٤٦، واعتقل سنتين فى ١٥ مايو ١٩٤٨



الكرنك . لقد أصدر فى السنوات الأخيرة أربعة كتب نقدية : «فجر المسرح. دراسات فى نشأة المسرح» (٢٠٠٣)، «المشهد القصصي في مصر» ٢٠٠١، «القصة والحداثة» (٢٠٠١)، «المسرح والأسطورة: دراسات فى الظاهرة المسرحية» (٢٠٠٤). أعمال تتكامل بشكل مباشر أو غير مباشر، مع أعمال له سابقة.

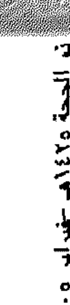
أحدث مشاهد القص

لا غرابة فى أن تنبسط مروحة هذا الناقد الفنان لتغطى الرقعة الممتدة من بدايات الظاهرة المسرحية إلى أحدث مشاهد القص فى مصر، وتتجاور فيه الحداثة والقدم ، بل يتحاور الطرفان فى جدل متصل خلاق. والخراط تمتد اهتماماته إلى كل فروع المعرفة الإنسانية (بما فى ذلك السياسة والقانون والاقتصاد) معجونة بخبرة حياتية غنية ونهم إلى الكشف والارتياد وتعرف المجهول (يذكر فى إحدى مقابلاته الصحفية أنه يكره الكتابات المعلبة والسير على السنن التقليدية فى القص كراهية التحريم . وعندى أنه يسرف فى ذلك حتى ليستحيل التجريب في نظره - بصرف النظر عن نتيجته - غاية فى حد ذاته أو يوشك أن يكون كذلك ، ناسياً أو متناسياً - فيما يبدو أن كلمة التجربة ، تعريفاً ، تتضمن احتمالات الاخفاق كما تتضمن وعود النجاح، وربما أربت فيها مرات الاخفاق الكثيرة على حالات النجاح المعدودة).

معرفة بعلم الإنسان

«فجر المسرح» يتناول الدراما البدائية ، والمسرح الدينى عند الفراعنة، والمسرح المصرى القديم (لايكاد الخراط - وهذا غريب - يذكر كتاب الأب إتيين دريوتون العمدة فى هذا المجال، وإن ذكر لويس عوض الذى استفاد من دريوتون) وفجر المسرح الإغريقى متوقفاً على أعتاب الثالوث المقدس من شعراء التراچيديا: إسخولوس وسوفوكليس ويوربديس، ومعهم شاعر الكوميديا أرسطوفان.

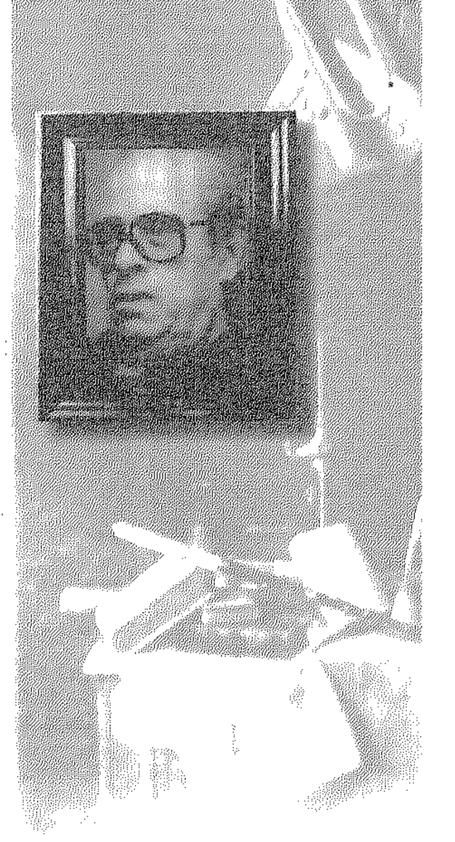
ويرتوى الكتاب من معرفة الخراط العميقة وجولاته الواسعة فى علم الإنسان، ومباحث الدين المقارن، وتواريخ المسرح ودراساته النقدية ، مستنداً إلى أعمال من قبيل «الغصن الذهبى» لفريزر و «الأساطير اليونانية» لروبرت جريفز ومالنوفسكى وجلبرت مرى وغيرهم. ويرتاد منطقة من البحث (نشأة المسرح منذ وطأت قدما الإنسان - أو أطرافه الأربعة - أرض هذا الكوكب) يعتورها الغموض، ويكتنفها النقص من جراء البعد الزمنى وندرة المصادر، وترتمى عليها ظلال انعدام اليقين. ويعمد الخراط إلى إضفاء الطابع الفنى الإبداعى على هذه الدراسات مما يمنحها مذاقاً متميزا عن الدراسات الأكاديمية السابقة



مشاهد من القص المعاصر

وفى كتابى «القصة والحداثة» و«المشهد القصصى» ينقلنا الخراط إلى مشاهد من ساحة القص المعاصر. يكتب الخراط هنا عن عدد من الروائيين وكتاب القصة القصيرة مثل أحمد زغلول الشيطى وتوفيق عبد الرحمن وحسنى حسن وخيرى عبدالجواد وعادل عصمت وعاطف سليمان وغادة الحلوانى ومحمد ناجى ومصطفى ذكرى ومنتصر القفاش ونورا أمين ويوسف فاخورى وإبراهيم فهمى وبدر الديب وچورچ البهجورى وسعيد الكفراوى وعبد الحكيم حيدر ومحمود الوردانى وميرال الطحاوى وهالة البدرى.

ويضم إليهم - مصيباً فيما أعتقد - شاعرا هو محمد عفيفى مطر صاحب السيرة



الذاتية التي تشفى على تخوم القصة : «أوائل زيارات الدهشة».

وفي كتاب «المسرح والأسطورة» (وأغلب محتوياته قائم على برامج خاصة إذاعية) دراسات عن أسطورة أورفيوس والديانة الأورفية، وميديا وأنتيجون في المسرح اليوناني والمسرح المعاصر، وشخصية إلكترا بين جيرودو وسارتر وأونيل، وكليوباترا بين برنارد شو وشكسبير وشوقي ، والملامح الأسطورية في مسرح سترندبرج ، والأسطورة والشعر في مسرح طاغور ، والعدالة والتمرد في مسرح كامي. وينتهي الكتاب بثلاثة مقالات تحمل عناوين : «هل مات المسرح؟» شخصيات مسرحية طقوسية» ، « طقوس مسرحية حديثة».

أقيم أنواع النقد

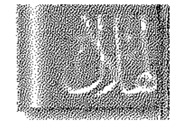
وتبقى – بعد التحفظات التي أوردتها – حقيقة أساسية مؤداها أن النقد الذي يكتبه فنان خالق (من طبقة الخراط أو أدونيس أو عبد المعطي حجازي أو يوسف الشاروني أو نعيم عطية أو محمد أبو سنة أو شفيق مقار أو بهاء طاهر أو بدر الديب أو علاء الديب) هو أقيم أنواع النقد وأعلاها. لئن كان النقد – كما كتب محمد مندور منذ زمن بعيد – هو فن إدراك الفروقات الدقيقة Nuances بين الأساليب فإن الخراط يرسم صورة واضحة في ذهنك ووجدانك للعمل المنقود فلا يمكن أن تختلط عندك صورة رواية لچورچ البهجوري برواية لمحمود الورداني مثلا. كلا العملين في نقده يظل بارز القسمات، متميز الشيات ، واضح القطع.

وفي مجال النقد التشكيلي أخرج الخراط دراسات ومقالات نقدية وقصائد عن أحمد مرسي، وعدلي رزق الله، وأرداش الحوشي المعاصر، والمثال جمال عبدالناصر، وفؤاد كامل، وآدم حنين، وسامي علي، ورمسيس يونان، ومحمد ناجي، والفن القبطي، والأقنعة الافريقية، وفن نسج السجاجيد في قرية الحرانية (من المؤسف أنه، في غمرة حماسه المسرف، لأحمد مرسي وعدلي رزق الله يهمل فنانين آخرين لايقلون عنهم أهمية كالفنان الراحل موريس فريد). وإذ يلم الخراط الآن – على حد تعبيره – بقايا نهار العمر، يجمع شمل مختارات من نقده التشكيلي في كتاب عنوانه «في نور آخر» يوشك أن يخرج من تحت عجلات المطبعة.

ولنأخذ كتابه المسمى «الفنان أحمد مرسي: شاعر تشكيلي» (سلسلة نقوش، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧) مثلاً . يتتبع الخراط تطور هذا الفنان الشاعر المقيم بنيويورك من معرضه المشترك الأول عام ١٩٥٤ ومعرضه الفردي الأول (١٩٥٨) حتى أواخر التسعينيات. ويلخص ملامح عمله الثابتة في : رفض قواعد الفن الأكاديمي، إهمال المنظور، استخدام رموز أدبية أو شاعرية،

○ يكره الكتابات المغبة والسير على السنن التقليدية في القص كراهية التحريم





بحثه عن ألوان أصيلة تنقل رؤيته الخاصة للأشياء. ويحلل الخراط عدداً من تصاريح مرسي، مثل لوحة «الثورة» وغيرها، مبرراً مافيها من كثافة ، وعمق تشكيلي، وتراكم الطبقات اللونية وكأن الفنان عالم چيولوچي يغوص على أعماق الأعماق.

هنا، كما في سائر دراساته التشكيلية، يكتب الخراط نقداً فنياً من طراز غير مسبوق في حياتنا الفكرية والفنية: إن بصيرة الفنان هنا تغذو رؤيته لعمل فنانين آخرين ، رغم اختلاف الوسيط «medium» المستخدم ، لكي تنفذ - بلا خطأ - إلى لب الرؤية الفنية وأدوات التعبير عنها. قد لايميل بعض الأكاديميين أو التقليديين (والكلمتان ليستا مترادفتين) إلى هذا النوع من الكتابة لأنه يحمل آثارا لا تنكر من تدريب الكاتب الأدبي، ولا يتورع عن الإتيان بمعدلات لفظية أو قولية للقيم التشكيلية المعبر عنها، ولا يخلو من صور شعرية محلقة ونزعة انطباعية تعتمد على الذوق الخاص واللقانة المباشرة والعيان الداخلي.

لا نكران لكون الخراط - هذا القاص الكبير - ناقداً انطباعياً، وهاوياً قبل أن يكون محترفاً في مجال نقد الفنون. لكن من قال إن الانطباعية خصيم النقد؟ إنها مذهب نقدي مشروع أثمر ثمارا باهرة على أيدي رجال من طراز ولتر باتر وأوسكار وايلد وأناتول فرانس ويحيى حقي وغيرهم.

وفي مجال قصيدة النثر - ذلك الجنس الأدبي الهجين، «عصيدة النثر» كما دعاها الدكتور أحمد درويش - برهن الخراط (إن كان ثمة حاجة إلى برهان) على مشروعية هذا اللون الأدبي الذي يظل، رغم ذلك، رافدا هامشيا وفرعاً من التيار الرئيسي للشعر لايمكن أن يكون هو الأساس ، حيث إن انتظام الإيقاع - صورة من الصور - شرط لازب (إلى جانب العاطفة والصورة) . أخرج الخراط من الدواوين: «تأويلات» (١٩٩٦) «لماذا؟ مقاطع من قصيدة حب» (١٩٩٦) «ضربتني أجنحة طائرك» (١٩٩٦) «طغيان سطوة الطوايا» (١٩٩٦) «صيحة وحيد القرن» (١٩٩٨) «سبع سحابات، دانتيللا السماء». (٢٠٠٠). وهذا نموذج من شعره (الذي يشفي - في غير هذا المثال - على تخوم السيريالية): مقطوعة من ديوان «صيحة وحيد القرن» عنوانها «شمس وظلام معاً» كتبها في باريس ، بقهوة كالوني في ٣٠ بابه ١٧١٣:

تسايل نور الشمس
على شعرها المنسدل
يومىء إليّ بأن الحياة انحسرت
جنون الرغبة المحبطة يربض تحت المائدة
مثل قط عجوز وشرس
متى يثب
متى ينشب مخالبه في عنقي الممدود؟
متى؟

مناجاة

أما الوجدانيات فتشمل مناجاة عنوانها «أيتها النفس» ومطلعها «اتركي دار الفناء .. وارتفعي في العلاء»، حيث اثارة من وجدانيات شعراء المهجر وأبولو الذين كان الخراط قد شرع في قراءتهم آنذاك، و«ذكرى».

وثمة قصائد وصفية عن «النمر» و«الوردة» و«النسر» والربيع والمروج» و«فراشة تتغنى فى الربيع» تكثر فيها الألفاظ القاموسية الصعبة مع شروح لها فى الهوامش (دعا الدكتور نعيم عطية - فيما بعد - الخراط كاتباً وصافاً).

وثمة رثاء لمصطفى كمال أتاتورك الذى كان موضع إعجاب عام فى العالم العربى (ياخالد الترك جدد خالد العرب..») رغم توجهه العلمانى وجنوحه إلى التغريب. أو ربما كانت إنجازاته العسكرية والسياسية قد غطت - مؤقتاً - على هذا الجانب الأخير منه، وهو ما أثار فيما بعد - فى العالم الإسلامى - رد فعل ضده.

ويكتب الخراط فى الفخر : «ألا إلى سبيل العلا ما أتقرب .. وإلى طريق المجد ما أتنسب» (قارن المعرى : ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل .. عفاف وإقدام وحزم ونائل).

وينقل الخراط عن الإنجليزية قصيدة يسميها «مصرع فى الغاب» (دون نص على ذكر اسم المؤلف الأصلى) وأخرى عنوانها «الحياة» عن السير هنرى ريدر (من تراه يكون؟) وثالثة عنوانها «أحب أن أسبحا» (من المؤلف؟).

ومن شعر المناسبات نجده يحتفل بعيد ميلاد فاروق (القصيدة مؤرخة فى فبراير ١٩٣٩ وكان فاروق مازال وقتها موضع محبة الشعب) و«عيد القران الملكى السعيد». وثمة مناجاة لصديق غائب «حرقة الفرقة».

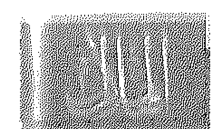


وينتهى الديوان بمقال للخراط عن اللص الظريف أرسين لوبين - بطل موريس لبلان - عن إعجاب باكر بهذا البطل ، وإن كنت لاتدرى له موضعا فيما يطمح إلى أن يكون ديوان شعر!

ليس للمرء أن يسخر من حماقات الصبا هذه - من منا ، نحن المشتغلين بالأدب، لم يقارف مثلها فى صباه؟ - فهذه هى الدمدمات الأولى المكتومة - كنبضات زلزال تحت باطن الأرض - التى لن تلبث - بعد ستة أعوام أو نحوها - أن تتفجر تفجراً باذخا - مروعاً فى جماله - على شكل أقدم أقاصيص «حيطان عالية» (١٩٤٤ وما بعدها) المجموعة التى يؤرخ بها تاريخ القصة القصيرة فى مصر كما يؤرخ بـ«العشاق الخمسة» ليوسف الشارونى و«أرخص ليالى» ليوسف إدريس.

تجربته الحياتية

وشهادات الخراط على تجربته الحياتية والفنية يضمها كتابان لاغنى عنهما لدارس عمله : «مهاجمة المستحيل: مقاطع من سيرة ذاتية للكتابة» (١٩٩٦) و«مراودة المستحيل: حوار مع الذات والآخرين» (١٩٩٧)، وهما فى مثل أهمية «ها أنت أيها الوقت» ، «سيرة أدونيس الشعرية الثقافية»، و«حياتى فى الشعر» لصلاح عبدالصبور، و«حوارات الشارونى» (الهيئة العامة لقصور الثقافة).



ولا يقل إنجاز الخراط فى حقل الترجمة عن إنجازه فى حقل الإنشاء الأصيل. لقد نقل إلى العربية من الروايات: النصف الأول من رائعة تولستوى «الحرب والسلام» (مع تذييل للطبعة الثانية بقلم جمال الغيطانى) «فارالاكو» وهى رواية غينية لإميل سيسيه (بتقديم محمد مندور) «الشوارع العارية» للروائى الإيطالى فاسكو براتولينى.

ومن مجاميع القصص القصيرة «الغجرية والفارس» (قصص رومانية بأقلام سادوفيانو، ويون كاراجيالى، وألكسندرو ساهياو وتيودورا أرجيزى وغيرهم، مع مقدمة لعبد الرحمن الشرقاوى)، «شهر العسل المر» (قصص إيطالية لإجنازيو سيلونى وبراندلو ومورافيا وغيرهم ، وهى من أبدع ما ترجم)، «حوريات البحر» (قصص أمريكية لساروريان وهمنجواى وشتاينبك وفوكنر وأبدايك وآخرين أقل شهرة)، «الرؤى والأقنعة» (مختارات من القصص الغربى لآلان روب جرييه وناتالى ساروت وآرابال وبكيت وجويس وديلان توماس وبورنمات وإرسكن كالدويل وكاميلا خوزيه ثيلا وغيرهم)، «ثلاث زنبقات ووردة» (قصص لمولك راج آناند ومحمد ديب ومولود فرعون وجوركى وتشكوف وغيرهم).

ومن المسرحيات : «الخطاب المفقود» للكاتب الرومانى ا.ل. كاراجيالى، «أنتيجون» لجان أنوى (بالاشتراك مع ألفريد فرج الذى لم يعد دوره - فيما حدثنى عصفور صغير ليس لى أن أكشف عن هويته - أن يخط على الورق ماكان الخراط يمليه)، «ميديا» لأنوى ، «الغضب وأحلام السنين» (جزآن يضم الأول مسرحيات لأنوى وسترندبرج وكاتب ياسين وإريك بركوفتشى وموريس ميلدون ، ويضم الثانى مسرحيات لأونيل ولوروا جونز ونبترو كونراد وسول بيلو وجيوفيند داس).

ومن دواوين الشعر : «السرير المائدة» لبول إيلوار (مع مقدمة فخيمة عن السيريالية)، «عصيان الحلم» (مختارات من الشعر الأفروآسيوى لسنجور ومالك حداد والطاهر بن جلون وغيرهم).

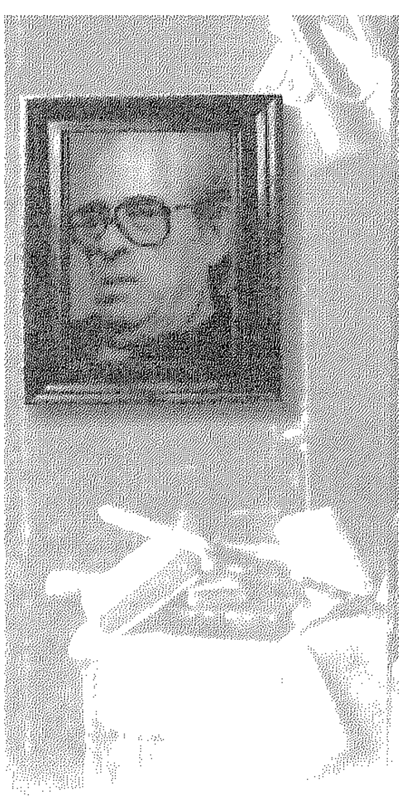
ومن كتب الفلسفة : «نحو التحرر: وراء الإنسان ذى البعد الواحد» لهربرت ماركيوز.

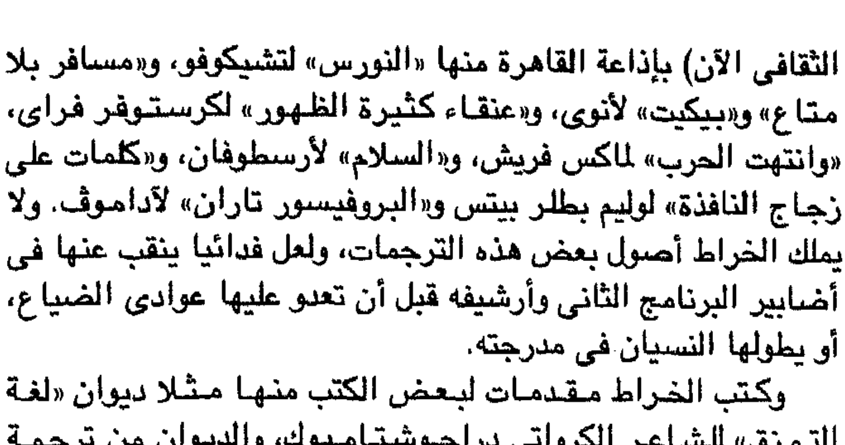
دراسات سياسية

ومن الدراسات السياسية : «الوجه الآخر لأمريكا: الفقر فى الولايات المتحدة» لميكائيل هارنجتون، «تشريح جثة الاستعمار» لجى دى بوشير، «الإسلام الاستعمار: عقيدة الجهاد فى التاريخ الحديث» لرودلف بيترز. ويسجل كاتب هذه السطور، فخوراً، أن الخراط مدين له بترجمة كلمتين فى كتاب دى بوشير المذكور أعلاه. فقد كنت فى زيارة له فى شقته بالزمالك فى عام ١٩٦٨ - اعجب للذاكرة كيف تحتفظ بهذه البسائط - وكان مشغولا بترجمة الكتاب عن الفرنسية ، وقد أجلس أمامه طابعاً على الآلة الكاتبة ينقر عليها مايمليه الخراط وهو ممسك بالنص الفرنسى وصادفته عبارة Ies guerres puniques فسألنى كيف تترجم، وأجبته بزهو وثقة «الحروب البونية»، وكنت قد عرفت خبرها منذ قرأت فى حداثتى كتاب الدكتور توفيق الطويل الرائع «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة»، ومن يومها غدا هانيبال - محبوب البعل - من أبطال صباى وشبابى ، ومازال كذلك فى شيخوختى.

ومن الدراسات الأدبية نقل الخراط عن الفرنسية كتاب فرانسيس جونسون: «سيمون دى بوڤوار: مشروع الحياة».

وله مسرحيات مترجمة أذيعت عبر السنين على موجة البرنامج الثانى (البرنامج





الثقافى الآن) بإذاعة القاهرة منها «النورس» لتشيكوفو، و«مسافر بلا متاع» و«بيكيت» لأنوى، و«عنقاء كثيرة الظهور» لكرستوفر فراى، «وانتهت الحرب» لماكس فريش، و«السلام» لأرسطوفان، و«كلمات على زجاج النافذة» لوليم بطلر بيتس و«البروفيسور تاران» لآداموف. ولا يملك الخراط أصول بعض هذه الترجمات، ولعل فدائيا ينقب عنها فى أضابير البرنامج الثانى وأرشيفه قبل أن تعدو عليها عوادى الضياع، أو يطولها النسيان فى مدرجته.

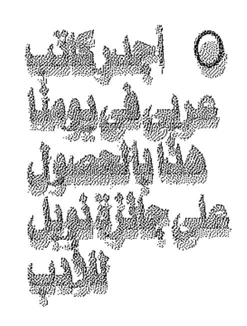
وكتب الخراط مقدمات لبعض الكتب منها مثلا ديوان «لغة التمزق» للشاعر الكرواتى دراجوشتامبوك، والديوان من ترجمة الشاعر رفعت سلام (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠).

ترجمات رائعة

وكثير من ترجماته تتصدرها مقدمات رائعة، لا تكاد. تجد لها ضريبا عند غيره من المترجمين، نفاذ بصر وزكانة فراسة وبلاغة تعبير، انظر مثلا إلى قوله عن الكاتب المسرحى السويدى سترندبرج صاحب التجربة الحياتية العاصفة والتجديدات التقنية الباهرة:

«ما القيمة الفنية لأعمال سترندبرج؟ بوسعنا الآن بعد أن عرضنا لجوانب من فنه أن نقول باطمئنان إنه فى الواقع، فضلاً عن منحاه الأسطورى الذى لاشك فيه، من أكبر المسرحيين قامة وأضخمهم أثراً. إن له عيوبه التى لاشك فيها، افتقاره إلى الصنعة الدقيقة البارعة، ونوع من الهلهلة فى بنائه، وتعثر أحياناً بعوائق الحبكات والعقدة، لكنه فوق ذلك وبعد ذلك ليس مبتذلا قط، ولارثا، مشاهده دائماً خارقة يرى فيها نفس شيطانى من الأنفاس التى تتصعد فى أعماق البشر جميعاً، ضرباته قوية حاسمة بل مخيفة القوة والقطع، وشخصياته ذات أبعاد فوق الأبعاد اللاإنسانية، رؤاه حادة معذبة الاضطرام والتوهج، وعالمه يزلزل أركان كل دعة وكل استنامة. هذا إلى قصد وتركيز فى أدائه الفنى يكاد يشفى على الاعجاز، فليس فيه تطويل ولا تفصيل ولا تلك الحواشى المنمقة، الباهتة بعد حين، بل ذهاب مباشر عنيف إلى الغرض».

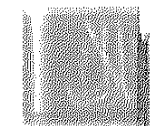
المسرح والأسطورة
ص ١٧٩ - ١٨٠



«ذهاب مباشر عنيف إلى الغرض»: هذا جوهر سترندبرج فى خمس كلمات. بهذه البصيرة الثاقبة، والاختيار المحكم للصفات، يتمكن الخراط من أن يضع يده على الأعصاب العارية المتوفرة لمن يكتب عنهم.

تكريم يستحقه

ويثلج الصدر أن الخراط - بعد أن قضى سنوات طويلة يعمل فى عزلة دونها عزلة النساك - قد نال أخيراً مايستحق من التكريم وطار صيته فى العالم العربى والخارج على السواء . ترجم عدد من

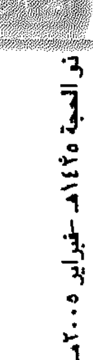


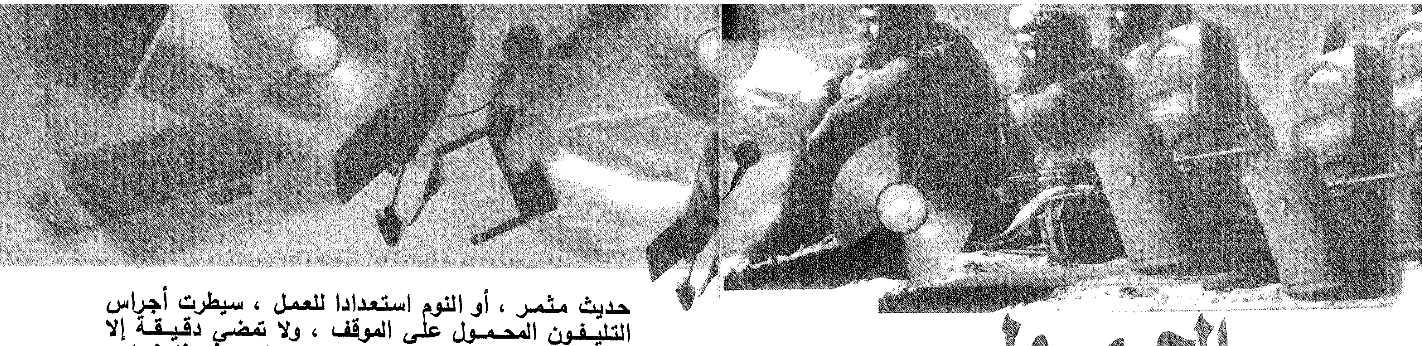
رواياته وأقاصيصه إلى عدة لغات (ترجمت رواية «حجارة بوبيللو» مثلاً، إلى ست لغات: الفرنسية والإيطالية والألمانية والهولندية والإسبانية القاطالونية والبولندية، وستظهر لها ترجمة – بلغة سابعة هي الانجليزية – في شهر إبريل القادم).

وظهرت سبعة كتب كاملة عنه باللغة العربية إلى جانب رسائل جامعية، بالعربية والإنجليزية والفرنسية، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية للقصة عام ١٩٧٣، وعلى جائزة الصداقة الفرنسية العربية من فرنسا عام ١٩٩١، وعلى جائزة سلطان العويس فى مجال القصة والرواية عام ١٩٩٤/١٩٩٥ ، وعلى جائزة كافافيس للدراسات اليونانية عام ١٩٩٨، وعلى جائزة نجيب محفوظ للرواية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٩٩..

واحد من أهم القاصين والنقاد

إدوار الخراط – في رأى كاتب هذه السطور – واحد من أعظم القاصين والنقاد العرب فى القرن العشرين والعقد الأول من الألفية الثالثة . إنه – إلى جانب نجيب محفوظ وأدونيس – أجدر كاتب عربي في يومنا هذا بالحصول على جائزة نوبل للأدب. وقد اصطلحت مجموعة من العوامل على أن تجتمع فى حالته لتصنع منه هذا الأديب واسع الرقعة شامل الرؤية متعدد الأوجه : قبطى مصرى عربى مغروس حتى النخاع فى المسيحية الأرثوذكسية (يحب الخراط أن يؤرخ قصصه بالتقويم القبطى إلى جانب التقويم الميلادى) ولكنه بنفس القدر غارق فى تيارات الثقافة العربية الإسلامية؛ يسارى قديم ملتزم بقضايا الاشتراكية والمجتمع اللاطبقي والبروليتاريا ولكنه فى الوقت ذاته متمرد على كل قيود الأيديولوچيا مجاوز لها؛ استبطانى شديد الفردية حاد الشعور بالعزلة والانفصال وفى الوقت ذاته مفتوح على قضايا المجتمع وحضور الآخرين، مجدد فى استخدام اللغة لايخشى الامتياح من آبار العامية وكلام السوقة، – بل البذاءة الصراح – وهو فى الوقت ذاته دائم المعايشة للغة العربية فى قواميسها القديمة وتراثها الأدبى والدينى والصوفى ومنجزاتها الكلاسيكية يحب الحوشى والغريب والمهجور، علمانى لادينى عميق الحس الدينى فى آن، حساسية نهمة لا تنقع لها غلة تتخذ من كل جوانب الخبرة الإنسانية ميدانا لها، ولاتنى ترنو بناظريها إلى آفاق أرحب وآماد أبعد؛ عقل قوى مكين يعكف على قضايا الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والسياسة فيحللها تحليلاً ويفككها تفكيكا ويعيد تركيبها بما يسارق رؤيته الخاصة؛ «صوت صارخ فى الشوارع» و«مغامر حتى النهاية» (عنوان كتابين عنه بأقلام مختلفة صدرا فى ١٩٩٨ و٢٠٠٠ على التعاقب)؛ روح متوهجة تحيا فى حالة اشتعال دائم وتمشى فى دروب الحياة اليومية وهى تنوء بثقل ماتحمل على كاهلها من خبرات وذكريات ومخاوف ورغبات وشخوص ومواقف ورؤى قد لاتضعها على الورق إلا بعد انقضاء خمسين أو ستين عاماً على صدمتها الأولى. إنه – مثل كامل التلمسانى وچورچ حنين ورمسيس يونان وبولا العلايلى – وتحد من هؤلاء الذين «عذبتهم أرواحهم وطوحت بجسومهم النزوات والمعاشق ومفازع مجرد الوجود» (مخلوقات الأشواق الطائرة). أو هو (وأنا هنا أزن كلماتى جيداً) رجل من طبقة كافكا وإليوت ولورنس وسارتر وكامى ، واحد من تلك العبقريات الملهمة المعذبة فى أدب القرن العشرين ، ندين لها بتوسيع أفق رؤيتنا، وإغناء حساسيتنا، وزيادة بعدنا بالوضع الإنسانى وبملحمة الإنسان فى لحظات قوته وضعفه ، سموه وضعته ، هزيمته وانتصاره. ■





المحمول والقيم الجديدة

بقلم
د. أحمد محمد صالح

● المحمول يكشف ٩٠ بالمائة من حالات الخيانة الزوجية !

● وفتوى بطلاق الزوجين عن طريق رسائل المحمول !

منذ أكثر من عشرين عاما تضطرنى ظروف العمل إلى السفر إلى جنوب مصر ، بطريقة منتظمة ودورية ، ومن مقعدى الدائم المجاور لنافذة القطار أقابل الكثير كصحبة سفر ، وهم عادة من أساتذة الجامعات، ورجال القضاء والنيابة ، والمحاماة والزراعة والرى ، والشرطة والجيش ، وكانت مصر بمشاكلها دائما هى موضوع حديث السفر ، وتغير الموقف الآن ، وأصبح الكل مشغولا بالمحمول ! وبات ينتقل معنا عدد هائل من الأجهزة ، نمارس من خلالها حياتنا الاجتماعية ، وتغرس فينا قيما جديدة ! وأصبح السفر معاناة بعد انتشار المحمول ، فبدلا من الاستمتاع بقراءة كتاب ، أو حديث مثمر ، أو النوم استعدادا للعمل ، سيطرت أجراس التليفون المحمول على الموقف ، ولا تمضي دقيقة إلا وتسمع رنينا ، ومحادثات بصوت مرتفع ، فهذا غزل ، وذاك غضب وثورة، وتلك تحية باردة ، وانتهكت الخصوصية ! وضحكت فى نفسى من الدراسة الايطالية الأخيرة التى نشرتها الأنباء حول الهاتف المحمول الذى كشف عن ٩٠ بالمائة من حالات الخيانة الزوجية فى ايطاليا فى الفترة الأخيرة ! وتشير الدراسة إلى أن الإيطاليين لديهم هواتف محمولة أكثر من أى جنسية أوروبية أخرى .

وشغلنى المنظور الاجتماعى للتليفون المحمول أو «سيسولوجيا المحمول» ، ونشرت مجلة الهلال للكاتب منذ عدة شهور دراسة حول التداعيات الاجتماعية للمحمول ، واليوم نستكملها من منظور الانثربولوجيا من خلال عدة دراسات قيمة منشورة مثل دراسة Hans Geser فى جامعة زيوريخ Zurich، فى سبتمبر عام ٢٠٠٣ تحت عنوان نحو نظرية اجتماعية للتليفون المحمول ، ودراسات Joe Mathews المنشورة عام ٢٠٠١ فى لوس انجلوس حول تأثير المحمول داخل محيط الجامعة ، وبحوث Andreas Nilsson وآخرين فى السويد عام ٢٠٠١ حول التليفون المحمول كوسيط اتصالى ، ودراسات Rich Ling فى النرويج عام ٢٠٠٠ حول تأثير انتشار المحمول بين مراهقى المدارس ، وتأثير المحمول على المؤسسات الاجتماعية فى أوربا ، ودراسات كثيرة أخرى فى أوربا وأمريكا .

وبداية، وفى حدود علمى نسجل عدم وجود دراسات عربية فى ذلك الموضوع ، غير مقالات انطباعية ، وأيضا ما نشر أخيرا محليا وعالميا إن المحاكم فى بعض الدول العربية والإسلامية وغيرها مثل

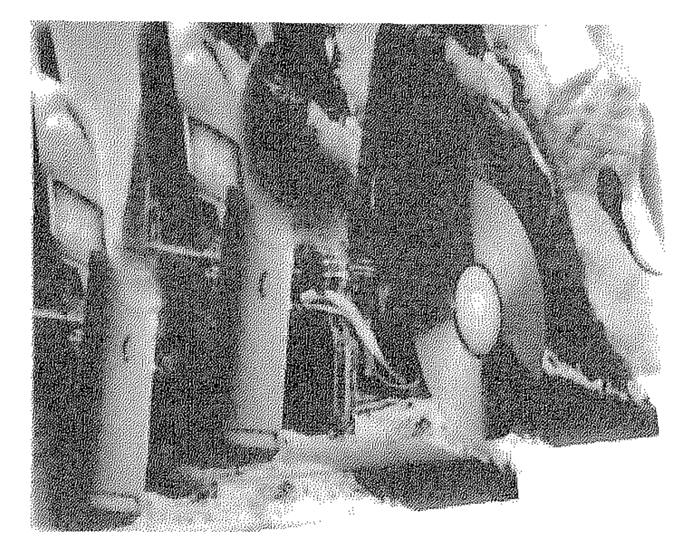
سنغافورة اعترفت بصحة الطلاق بين الزوجين الذى يتم من خلال رسائل المحمول ، واعتبرته إعلانا من الزوج عن نية الطلاق لايختلف عن إعلان الطلاق فى رسالة عادية أو عن طريق البريد الإلكترونى . وأثناء كتابة هذه العجالة قرأت فى الأخبار تحليلا لدراسة ماجستير فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة عن تأثير واستعمالات المحمول فى مصر ، وكانت أهم النتائج أن المحمول لم يؤثر فى تركيبة النسيج الاجتماعى الخاص بالمجتمع المصرى، ولم يغير المحمول فى تقاليد المجتمع كما حدث فى المجتمعات الأخرى حيث ضعفت الروابط الأسرية والعلاقات الاجتماعية ، وأن غالبية عينة البحث يستعملونه فى الاطمئنان على الأهل والأصدقاء ، ولتنظيم المقابلات وتحديد مواعيدها ، على عكس ما يحدث فى الخارج ، حيث يحتل استخدام المحمول لأغراض العمل المرتبة الأولى .

التجاور والاستقرار !

منذ فجر الإنسانية من ملايين السنوات ، كان تطور ونشوء الحياة على الأرض مقيدا دائما بعاملين ماديين متوافقين بدرجة كبيرة : الأول هو التجاور الفيزيقى ، وهو شرط مسبق للكائنات الحية لبدء العلاقات التفاعلية ، والحفاظ عليها . الثانى هو الإقامة فى أماكن مستقرة ، وكانت ضرورية لتنمية وتطوير أشكال وأنماط اتصال أكثر تعقيدا وتعاونا . القيد الأول تضمن تنوعات كثيرة من اشكال ومظاهر وسلوكيات حياة ، تحدث أساسا بطرق متميزة فى القضاء الفيزيقى . وهذا يعنى بالمفاهيم الإجرائية أن هناك علاقة قوية موجودة بين الموقع المكانى ، وانتشار منظومة متكاملة من سلالات وأجناس معينة ! وعلى المستوى البشرى ، تظهر التمايزات العنصرية واللغوية والعرقية ، واختلافات أخرى بطول الخطوط الجغرافية ، علاوة على أهمية تلك التمايزات بين التجمعات القائمة على الاتصال المواجهى لصيانة التجمعات والمؤسسات الاجتماعية لإشباع الحاجات السيكولوجية والفسيولوجية الفردية .

والقيد الثانى يمكن إثباته بسهولة بالملاحظات التجريبية العملية المنتظمة ، حيث نجد مستويات متقدمة من التكافل والاتكال المتبادل والتنظيم بين الكائنات الحية التى تعايشت فقط لفترات طويلة فى نفس الأماكن الفيزيقية ، بالطبع يحدث أيضا تفاعل واسع الانتشار خلال الحركة الانتقالية. لقطعان الظباء، وأسراب الطيور ، وتجمعات الأسماك . والتأثيرات المعوقة لتلك العوامل الفيزيقية (التجاور الفيزيقى ، والإقامة المستقرة) ، تزيد أثناء التطور البيولوجى والاجتاعى والثقافى ، لأنها تتصادم أكثر فأكثر ببعض النتائج الأخرى لنفس هذا التطور، مثل زيادة حركة الانتقال المكانى ، وتصاعد القدرات على الاتصال بالآخر . وهكذا فالحيوانات أكثر تأثرا من النبات ! لأنها تملك وسائل الاتصال ، ولأن حاجاتها للقرب الفيزيقى

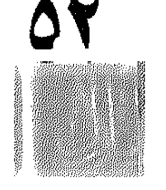




، والاستقرار والسكون تصطدم مع معظم القيم الأخرى المطلوبة للاستمرار فى الحياة والتكيف النشط مثل قيمة التحرك والانتقال ! وفى الحقيقة المغزى الوظيفي للتحرك والانتقال يمكن تجريده بالحقائق الآتية : ١ - أثناء التحرك والانتقال ، تتقلص الاتصالات الصريحة غير المتحفظة ، ويمكن أن تتوقف تماما . ٢ - مجرد الحركة الجسدية تظهر المسافات أو الفراغات المكانية ، التى تتصادم مع صيانة العلاقات الاتصالية الصريحة . وبسبب تلك المعضلات الخطيرة ، كان يجب إيجاد حلول وسيطة توفيقية وقد تكون مؤلمة بتوفير الحفاظ على الاتصال الداخلى الجماعى ، من خلال تحرك الجموع بالكامل معا ، واقتصار الاتصالات على المناسبات المحدودة النادرة ، أو بالأحرى عندما يجتمع السكان بكثافة فى أماكن معينة ، ومعايرة شفرات وأكواد الاتصال ، وتبسيط الرسائل بطريقة متوافقة مع ظروف الحركة ومتغيرات التوزيع المكانى .

ولاشك أن ندرة الاتصالات المحلية لم تمنع الناس من تأسيس اتصالات وروابط تضامن بين الأشخاص ، وروابط تعاون بين المجموعات المحلية البعيدة جغرافيا (على سبيل المثال الزواج من الغرباء) . وتملك الثقافات الأكثر تقدما عناصر اجتماعية محلية منوعة تعتمد على العضوية أو الانتماء الشخصى أكثر من اعتمادها على عوامل أقليمية ، مثل الجمعيات الخيرية، القبائل والعشائر ، المجموعات العرقية ، النخب الاقطاعية ، والحركات المهنية والدينية . وعلى ذلك فالتفاعلات والتطورات الداخلية لكل التجمعات الاتصالية المحلية لاتستطيع الاعتماد على وسائط اتصالية بدائية ، التى تعتمد عليها كل الحياة الاجتماعية التى أسست على التفاعل المستمر بين الأشخاص ، بل يجب بدلا من ذلك أن يكون على أساسين آخرين ، إما على أساس نزعة سيكولوجية ، ينوب فيها المشاركون مثل المشاعر الدينية ، ومشاعر الحب ، والانتساب لهوية معينة، أو على أساس مادة تبريرية مفرضة أو وثائق مكتوبة مثل : الشعارات ، العبادات ، روابط قانونية ملزمة ومعلنة العضوية .

وفى مجتمعاتنا العصرية ، مألوف فيها بدرجة كبيرة ، العيش فى حياة مميزة بالاختلافات والتناقضات المؤلمة والمتواصلة بين البعد الاجتماعى ، والبعد المكانى ، ومن جهة أخرى تسمح المجتمعات العصرية بالقرب المكانى والتجاور الشديد بين كتل الجماهير غير المبالين بالآخرين مثل المدن المزدحمة ، المستودعات والمتاجر ، والحافلات وغيرها، وفى نفس الوقت يجب على تلك الكتل أن تقبل بشدة المسافة المكانية مع أهم رفاقهم : الأحبة فى البيت ومع

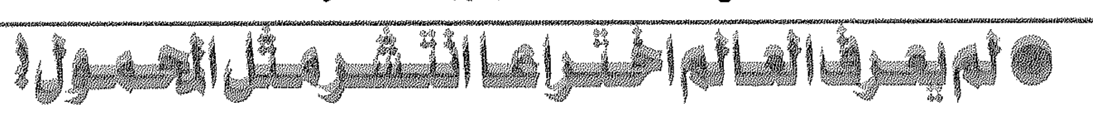


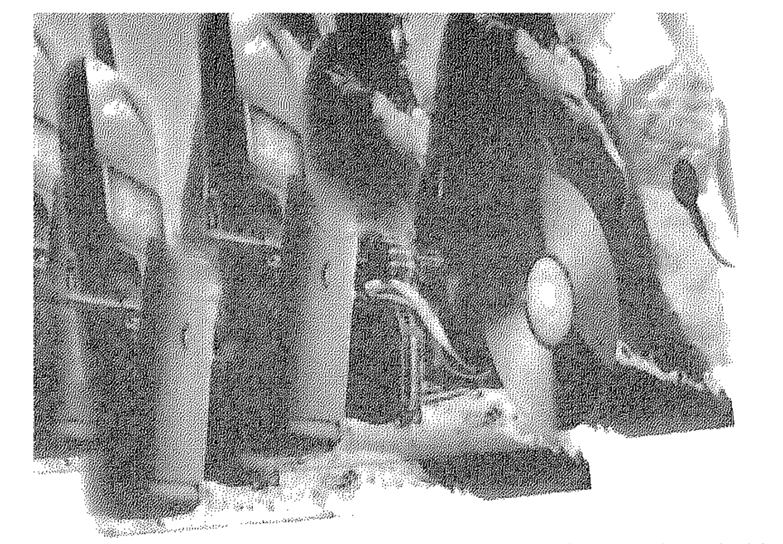
الزملاء المهنيين البعيدين . وبالتأكيد تليفون الخط الأرضى أزال شرط التجاور الفيزيقى ، لكن من جهة أخرى قد قوى ودعم وصان الحاجة إلى الإقامة فى أماكن معينة . وفى ظروف تحرك وانتقال الأفراد تتوافر فقط القدرة على الاتصال والتفاعل وجها لوجه ، مثل الجلوس فى نفس مقصورة القطار ، أو التجاور فى مقعد الطائرة أو الباص ، وهنا يجب عليهم أن يصلوا البيت أو المكتب لكل يتواصلوا مع متحدثين بعيدين ! وتكنولوچيات الاتصال اللاسلكى هى فعلا أصل كل المبتكرات التكنولوچية التى تجعل الاتصالات متوافقة مع قابلية التحرك المكانى . والجدير بالملاحظة أن هذه القابلية للحركة أول ما أدركت ، كانت فى أجهزة الإرسال مثل الراديو والتليفزيون ، وإن بقيت فى تلك الأجهزة ساكنة وتحت سيطرة قيادة من النخبة المميزة القليلة جدا ، سواء كانوا أفرادا أو نظما حكومية .

الحاجات الاجتماعية

ومن هذا المنظور الارتقائى الواسع جدا فإن المعنى السيسولوجى فى واقع التليفون المحمول اليوم ، هو تفويض الناس بالمشاركة فى الاتصالات والتفاعلات بدون قيود الشرطين الأساسيين ، وهما التجاور الفيزيقى، والثبات والاستقرار المكانى ، واستجابة لتلك الحاجات الاجتماعية الراسخة بشدة فى النفس البشرية ، ليس بمستغرب أن ينتشر الهاتف المحمول فى كل أنحاء العالم فى سرعة مثيرة ولاهثة! فى الحقيقة ، هناك أسباب مقنعة لافتراض أن المحمول مرغوب على حد سواء فى كل المجتمعات والثقافات وتحت كافة الشروط الثقافية، والاجتماعية والاقتصادية . لكن فى نفس الوقت ، هذا التحرر من القيود فى قبول المحمول ، كان على حساب الاتصالات الثنائية القائمة على المواجهة ، مع زيادة الشكوك عن الحالات الموضوعية للظروف البيئية للرفاق المتصلين .

وفى المنظور النظرى لمانويل كاستيلز Manuel Castells، وهو عالم اجتماع مشهور فى جامعة بيريكللى من أصل إسبانى ، اهتم فى السنوات الأخيرة بالتأثيرات الاجتماعية لثورة المعلومات ، وقال : « إن الانترنت أعطيت مكانة ضخمة كمبتكر وإبداع جديد ، ولها حساباتها وأبعادها وتداعياتها ، بينما أهملت التسهيلات التى قدمها التليفون المحمول فى مجملها . ونزعم هنا أن هذه الرؤية تتجاهل حقائق أساسية تظهرها المقارنة بين المحمول من جهة وتكنولوچيات الكمبيوتر الشخصى والانترنت من جهة أخرى ، حيث نجد التليفون المحمول ، هذه الأيام يستعمل من قبل طبقة أوسع من السكان حول العالم ، وله تأثيراته الاجتماعية على كثير من مستعمليه ، وأنهم جميعا جاهزون ومستعدون أن ينفقوا مبالغ مالية كبيرة على فواتير التليفون الشهرية ، أكثر من تلك التى ينفقونها على خدمات الكمبيوتر ومزودات الانترنت .





ومن أهم التأثيرات الرئيسية للهاتف المحمول ، هو قدرته على تضمين ودمج جماهير السكان في الدول الأقل نموا في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ، وهم عادة أميون جزئيا ، ولم يمتلكوا أبدا في حياتهم وسائل لشراء كمبيوتر ، ولم يوصل لهم حتى الآن شبكات تقليدية لتليفونات الخط الأرضي ! وهو ما نلاحظه في مصر مثلا بين سكان عشوائيات المدن والريف حيث الأمية ، ينتشر المحمول بين أيدي الجميع !

وفي دراسة تجريبية حديثة بالاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية ITU زودتنا بالدليل المدهش حول الكيفية التي ساهم فيها الهاتف المحمول في تضييق فجوة رقمية بعمر قرن في استخدام التليفون بدرجة كبيرة بين دول متقدمة ودول أقل نموا . حيث تظهر الاحصائيات عام ٢٠٠١ أن حوالي ١٠٠ دولة بينها الكثير من افريقيا امتلكت تليفونات محمولة أكبر بكثير من تليفونات الخطوط الأرضية ، وامتلكت تكنولوجيا الهاتف المحمول أكثر من تكنولوجيا الكمبيوتر في ربط سكان أقل تميزا إلى مجال المعلومات الرقمية . (تقرير تطوير تكنولوجيا الاتصالات العالمي ٢٠٠٢) .

إن العالم لم يعرف اختراعا انتشر استخدامه بالسرعة التي انتشرت بها أجهزة المحمول ، والتي تجاوز عددها المليارى جهاز ! وستتضاعف خلال العامين القادمين ! وفي دراسة حديثة نشرت نتائجها منذ شهور لجامعة بيركلي بولاية كاليفورنيا الامريكية كشفت الدراسة عن أن ٩٨٪ من المعلومات حول العالم ، تنتقل عبر التليفونات ، سواء الثابت أو المحمول ، وفي هذا الصدد تجدر الاشارة إلى أن المواطنين الأوربيين يتبادلون ٣٠ مليار رسالة قصيرة «اس أم اس» عبر التليفون المحمول في كل شهر ، هذا ومن المتوقع اتصال ٩٠ مليون كمبيوتر بدون سلك بشبكة الانترنت خلال السنوات الخمس القادمة وسيؤدي كل هذا إلى زيادة التحميل على الشبكة وإطالة مدة التصفح .

وهناك اتفاق واسع بين المهتمين والباحثين أن أجهزة التليفون المحمول ممكن أن تكون بديلا وعوضا عن أجهزة الكمبيوتر الشخصية المكتبية الثابتة أو أجهزة الكمبيوتر المحمولة المتنقلة ، لأنها أجهزة متعددة الوسائط وقادرة على أن تنقل الصوت ، والرسائل النصية ، والصور ، والنغمات، والتطبيقات وأي شيء آخر إذا شفر في الشكل الرقمي. وقالت رابطة بيانات المحمول (إم دي إيه) إن مستخدمي المحمول يتصفحون نحو ٢٥.٥ مليون صفحة في اليوم عبر خدمة تصفح الانترنت على الهاتف المحمول (الواب) . وساهمت الصفحات الخاصة بنغمات الهاتف والأخبار والصفحات التي تساعد في الوصول إلى

أقرب ملهى أو سينما ، فى زيادة تصفح الانترنت عبر الهاتف المحمول .

وأكثر من ذلك نجد فاعلية المحمول المتعدد الوسائط عندما يتوحد مع الحجم والوزن الصغير المتناقص ، والحاجة القليلة إلى الطاقة ، والثمن الرخيص ، علاوة على بساطة وسهولة الاستعمال كل ذلك جعل من الممكن أن يستخدم المحمول من قبل الأطفال الأصغر ، والناس الأميين أو المعاقين والسكان المهمشين غير القادرين على التوافق مع مصطلحات الكمبيوتر .

وفى المراحل المبكرة فى تاريخ الهاتف المحمول ، اقتصر استخدامه على النخبة ، وللأغراض المهنية ، وبين ذكور الطبقة العليا ! لكن تحت التأثير المشترك للتقدم التكنولوچى من ناحية ، والتحرير الاقتصادى من ناحية أخرى، انخفضت أسعار مكالمات التليفون الأرضى بشكل مثير ، وأصبحت مستقلة تقريبا عن المسافة الجغرافية ، وأصبح الهاتف المحمول إحدى الآلات الصريحة للاتصال الموجودة فى كل مكان . ويتوقع هذا العام ٢٠٠٥ أن يبلغ مجموع التليفونات المحمولة التى تستعمل فى العالم أكبر بكثير من عدد أجهزة الكمبيوتر والتليفزيون .

المحمول للجميع

وبينما يستخدم الجميع الهواتف المحمولة ، تظهر تلك التكنولوچيا جانبا جديدا هو تساوى كل الناس فى استخدام الهاتف المحمول ، بصرف النظر عن العمر ، والجنس ، والخلفية الثقافية ، والثروة ، والدخل ، أو الوضع الطبقى ، على سبيل المثال ، الدراسات النرويجية تظهر أن الهواتف المحمولة تتبنى بالتساوى بين الجنسين ، ومن قبل الأطفال من كل الخلفيات الاجتماعية ، وأن المحمول اخترق تقريبا كل جماعات العمر الأصغر بالكامل ، وينتشر تبنى المحمول بصرف النظر عن التعليم ، والجذور الاجتماعية ، فهو يسد على الأقل بعض الفجوات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، فالتليفون المحمول وصل للجميع ، وأضحى استخدام الرسائل القصيرة للتليفون المحمول وسيلة اتصال شائعة بين سكان الكرة الأرضية وخاصة الشباب ، يستخدمها الناس لتبادل النكات والمعلومات والأرصاد الجوية واليانصيب والأوراق المالية ونقل التهانى فى الأعياد وتحديد مواعيد وأماكن اللقاءات . وتقول أرقام هيئات الاتصالات الصينية إن عدد الرسائل القصيرة للموبايل يتجاوز ٦٠ مليارا سنويا، أى سدس الرقم فى العالم ، ويشير تحليل مستخدمى هذه الرسائل إلى أن الشباب بين سن الخامسة عشرة والخامسة والعشرين هم الفئة الأكثر استخداما للرسائل القصيرة ، بمعدل ٢ - ٥ رسائل يوميا . وقد أوجدت الرسائل القصيرة ظاهرة ثقافية جديدة فى الصين غير مسبوقة ، وأزعم أنها منتشرة فى العالم اليوم ، يسمونها «ثقافة الأصابع» التى تؤثر تأثيرا بالغا فى حياة الفرد

● استخدام المحمول للرسائل القصيرة والنكات !

اليومية نتيجة نمط الاتصال الجديد .

وامتلاك الموبايل ، أو المحمول كما يحلو للبعض ، جسد الاختلاف بين الثقافتين الشرقية والغربية ؛ ففى الغرب يشترون الموبايل بالسعر الذى يتناسب مع الغرض منه فى مجال الاتصالات النقالة، ولايطلبون فى المحمول إمكانيات لايريدونها . فى الشرق كما يحدث فى مصر والصين مثلا يشترون الموبايل تقليدا للآخرين ومن أجل المظهر ، لكن منى سليمان صاحبة رسالة الماجستير التى قرأنا عنها كانت تظن أن عددا كبيرا من مستعملى المحمول فى مصر يستخدمونه فى «المنظرة» لكن الاجابات أكدت العكس . غير أنها تعود لتشير إلى أن الأمر يحتاج إلى دراسة أعمق . وإن كان هذا لاينفى أن البعض يشترى الموبايل لأغراض تجارية ضرورية ، ومن هؤلاء الفلاحون الصينيون الذين يعتمدون على المحمول فى إجراء الاتصالات الخاصة بأعمالهم فى الزراعة وتربية المواشى ، خاصة مع زيادة معرفة الفلاحين لأهمية معلومات السوق ، وحاجاتهم للاتصال بالغرباء للعمل فى المدن الكبيرة .

وفى قرى بنجلاديش التى يهيمن عليها الرجال لايتم الاتصال بالعالم الخارجى إلا عن طريق سيدات المحمول ، حيث لاتوجد خطوط هاتف أرضية فى شهاب أزبور التى تبعد ١٥٠ كيلومترا شرق داكا العاصمة . لكن الاتصالات فى هذه القرية الصغيرة ومناطق ريفية أخرى نائية تطورت دفعة واحدة من دواب البريد إلى الهواتف المحمولة .

وبنجلاديش عدد سكانها ١٣٠ مليون نسمة ، و٨٠ فى المائة منهم يعيشون فى الريف الذى يعتبر واحدا من مناطق العالم الأقل انتشارا لمعدلات الهواتف فى العالم بمتوسط ثلاثة هواتف لكل ألف شخص ، ومع ذلك يوجد بها الآن ١٢٥ مليون هاتف محمول تديرها أربع شركات فقط من القطاع الخاص ، والتى تعرض الهواتف فى حزمة منخفضة السعر على نساء القرى اللاتى يعرفن الآن باسم «سيدات المحمول» فى ظاهرة اجتماعية جديدة ، وتسجل الهواتف بأسماء النساء فقط ، ولكن يمكن للأزواج والأولاد استخدامها فى خدمة للجمهور مقابل بضع تكات للمكالمة الواحدة . ويصبح وجود هاتف واحد فى العائلة مصدرا لتجارة عائلية فى قرى عديدة تحقق عائدا مقداره ١٠ آلاف تكا (١٧٠ دولارا) فى الشهر ، وهو مبلغ كبير فى بنجلادش الفقيرة ، حيث يبلغ متوسط دخل الفرد ٣٦٨ دولاراً سنويا .

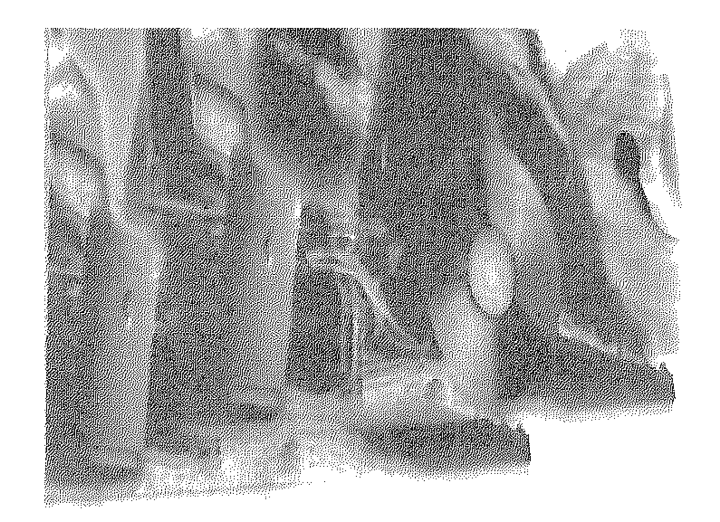
التغييرات فى استخدامات المحمول

تظهر دراسات كثيرة أن هناك تمددا وتوسعا وظيفيا فى سلوكيات استخدامات الهاتف المحمول لأن المستخدمين تدريجيا يغيرون العادات ويتعلمون استعمال التقنية الجديدة فى

تشكيلة متنامية من الأغراض ، وفى سلسلة متسعة من الأوضاع ، وفى دراسة زمنية بين مستخدمين جدد للهاتف المحمول ، وجد palen/ salzman and youngs عام (٢٠٠١) أن المواطنين يبدأون بمفاهيم وتصورات ضيقة إلى حد ما حول استخدمات المحمول التى يحتاجون لها ، لكن إلى حد بعيد تكبر وتتوسع تلك الاستخدامات مع مرور الزمن ! ويمكن أن نلاحظ الآتى : ١ - إن التليفونات المحمولة غزت وسيطرت تماما على السلوك الروتينى اليومى لكل مستوياته ، وعلى كافة الأوقات . فالتبنى للتكنولوچيا الجديدة ، هو فى الأصل سعى لحل مشكلة معينة ، فالأمن فى حالة الحوادث الفجائية يوجه التفاعل فى هذا الموقف نحو الدائرة الخاصة للفرد، ، وربما نحو ممثلى مؤسسات الطوارئ . وبينما يصبح الاستعمال وملكية التليفون المحمول روتينيا ، ويظهر تنسيقا بين استعمالات المحمول المتنوعة فى كافة المواقف اليومية ، فإن استعمالات المحمول تحركت من غير العادى أو فوق العادى والمفاجئ إلى المتوقع والعادى الروتينى . ٢ - هناك زيادة واهتمام ملحوظ فى تزيين وتجميل نداءات المحمول ، بحيث تصبح غير آلية ، وتؤدى وظيفة اجتماعية وعاطفية ، مثل إظهار القلق ، التضامن ، الالتزام ، الافصاح بالقرب ، الاشفاق ، التعاطف والحب . وباختصار ، أصبح من الشائع جدا أن يعجز المستخدمون عن توقع أنماط استعمالهم المقبلة للمحمول بطريقة سليمة . وكان انتشار تليفون الخط الأرضى فى نهاية القرن الـ ١٩ قد اتبع تقريبا انماطا مشابهة إلى حد ما، ففى دراسة فيشر ١٩٩٢ حيث برر المتبنون الأوائل لتليفون الخط الأرضى تبنيهم لتلك التكنولوجيا الجديدة لأسباب متعلقة بالأمان والتجارة ، وليس لأى فوائد اجتماعية ، لكن التليفون استخدم على نطاق واسع لأغراض وأهداف اجتماعية مثل المؤانسة الاجتماعية منذ البدايات المبكرة لعام ١٩١٠ ! ومع ذلك ، فالطبيعة المكملة الايجابية لمكالمات الهاتف المحمول كثيرة ، وتختل بوضوح عن الاستعمال التقليدى للتليفونات المثبتة ، حيث تدل معظم المكالمات على وجود بعض المشاكل الناشئة حديثا بدون حل حتى الآن ، ويجب أن تناقش ، على اعتبار توافر المحمول فى كل مكان لإرسال وتلقى المكالمات ، فهو أشبه بالاتصال الواقف وجها لوجه ، حيث تكون الإشارات معبرة بدرجة كبيرة ، ومحادثات الاعتناء شائعة جدا ، فالاتصال بالمحمول لايستهدف أصلا نقل معلومات معينة لكن فقط من أجل التعبير عن المحبة وتأكيد أن العلاقات تتواجد وستستمر فى المستقبل، فمجرد رنين المحمول يعتبر إشارة كافية على حدوث اتصال ، وعلامة على الرغبة فى التواصل بصرف النظر عما وصل فعلا من مضمون الرسالة !

الحاجة لدراسات اجتماعية

وعلى الرغم من أن ملكية التليفون المحمول كلية الوجود ، ومتجانسة ، وعلى كافة قطاعات السكان ، حيث تختفى قيمة المحمول كرمز للوجاهة والمكانة



الاجتماعية ، فان الهواتف المحمولة ربما مازالت تبرز التفاوتات الاجتماعية، بقدر أنماط الاستعمالات الواقعة، التى ترتبط بإحكام بالأغراض المتنوعة للأفعال الاجتماعية فى المواقف المختلفة ، وأيضا بالأوضاع المختلفة للعلاقات والأدوار الاجتماعية . على المستوى النظرى ، هذا الوضع يستدعى تطور مفاهيم تحليلية تفصيلية ، ودراسة الرموز الملائمة لفهم الاختلافات الرئيسية فى أنماط استعمالات المحمول ، علاوة على المعانى الرمزية المتنوعة المنسوبة للهواتف المحمولة ، مثل رسائل المستخدمين . وعلى المستوى المنهجى تظهر الحاجة لدراسات مسحية ، واستخدام مناهج الإثنوجرافيا ، لتقييم مثل هذه المتغيرات بطريقة تجريبية ، وبطرق كمية ونوعية .

ومن المنظور الكمى ، فالمفهوم البسيط لمقدار أو كمية استخدام الهاتف المحمول ينتج عنه تصور متعدد الأبعاد يكشف على الأقل ثلاثة متغيرات مستقلة: ١ - كثافة الاستخدام الذى يعكس غالبا كيفية الاستعمال من حيث عدد مرات الاستعمال ، والوقت الذى يستغرقه فى الاستعمال بصرف النظر عن طبيعة الاستخدامات المختلفة التى يستخدم فيها المحمول ٢ - عرض الاستخدام الذى يعبر غالبا عن عدد الناس الذين توجه لهم المكالمات ، وعدد الذين يتلقى منهم المكالمات ٣ - نوعية وتعددية الاستخدام وتقيس الاستعمالات المختلفة التى يستخدم فيهاالمحمول ، أو المواقف المختلفة التى يستخدم فيها ، بصرف النظر عن كيفية تكرار تلك الاستخداما .

وبينما يكون البرهان التجريبى المجمع حتى الآن بدراسات كمية منهجية هو بالأحرى مقيد ومحصور بالمستقبل ، فإن بناء نظرية اجتماعية للمحمول حاليا، معتمد بشدة على دراسات عديدة تعتمد على طرق نوعية مثل طرق بحث الإثنوجرافيا، ومقالات انطباعية تزودنا بفرضيات مقنعة قائمة على قصص مثيرة ، ومع ذلك ، فالتركيب التمهيدى لهذه المادة غير المتبلورة يبدو مثمرا لكى يطور تعميمات أكثر نظرية ، وفروض تختبر فى بحوث تجريبية فى المستقبل . وحتى الآن لايرى التليفون المحمول مبدئيا من قبل الباحثين كعامل تصميم سببى ، لكن إلى حد ما كأداة مزودة بمجموعة من القدرات العملية المعينة التى قد توظف تحت شروط السيسولوجية أو السيكولوجية المتنوعة . لهذا يجب عند بناء النظرية أن يركز ليس أصلا على التأثيرات السببية أو النتائج المحددة لاستخدام الهاتف المحمول ، لكن بوجه عام أكثر على عواقبه وتداعياته وتضميناته فقدراته العملية المعينة تسهل أو تعيق أساليب متنوعة للسلوك الاجتماعى ، كالتفاعلات والعلاقات ، وتخلق ظروفا بيئية جديدة تجرى تحتها النظم الاجتماعية التقليدية . ■

الطوفان..

نظرية تتمخض فتلد «تسونامى»

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

جذب تشابه الشواطىء الشرقية للقارتين الأمريكيتين مع ما يقابلها من الشواطىء الغربية لقارة أفريقيا إهتمام عالم الأرصاد الجوية والجيولوجيا الألمانى: ألفريد فيجنر Alfred Wegener (١٨٨٠ - ١٩٣٠م)، وعندما تخيل فيجنر التصاق شواطىء أفريقيا الغربية بما يقابلها من الشواطىء الشرقية للأمريكتين، فإن التطابق بين انحناءات تلك الشواطىء بلغ حداً أذهل فيجنر، كانت تلك هى الفكرة التى صاغ منها فيجنر اللبنة الأولى فى «نظرية انجراف القارات» Continental drift theory.

افترض فيجنر أن قارات العالم كانت فى البدء وقبل ما يقرب من مائتى مليون سنة قارة واحدة، أعطى فيجنر تلك القارة الواحدة اسم «بانجيا» Pangea وهى تعنى «الأرض الواحدة» فى اللغة اليونانية، ثم افترض فيجنر بعد ذلك أن تلك القارة العظمى قد انقسمت - كما هو موضح بشكل (١) - بفعل تصدع هائل أصاب القشرة الأرضية قبل ما يقرب من مائة وخمسة وثلاثين مليون سنة إلى قسمين رئيسين، تخيل فيجنر أن القسم الأول - وهو الشمالى - ضم قارات أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا، بينما حوى القسم الثانى - وهو الجنوبى - قارات أفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا والقطب الجنوبى، كانت تلك هى الأسس الأولية للنظرية التى طرحها فيجنر فى شكل مجموعة من النقاط على مؤتمر علمى عقدته جمعية الجغرافيين الألمانية بمدينة فرانكفورت فى عام ١٩١٢م، ويعتقد بعض علماء الجغرافيا - ممن اعتنقوا أفكار فيجنر - أن خمسة وستين مليون سنة قد انقضت قبل أن تستقر قارات الأرض فى أماكنها الحالية.

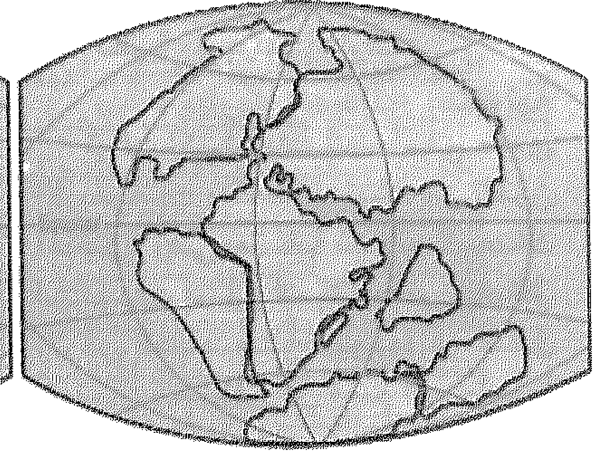
قدم فيجنر عددا من الشواهد والدلالات لدعم نظريته، وكان أولها توافق العديد من شواطىء البحار والخلجان

LAURASIA
TETHYS SEA
GONDWANALAND

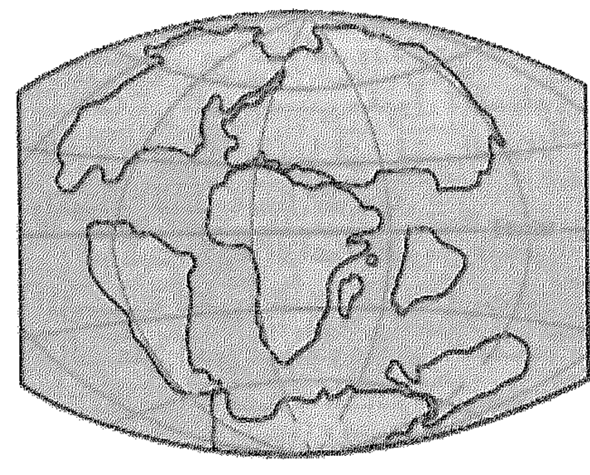
PANGAEA

بانجيا قبل ٢٢٥ مليون سنة

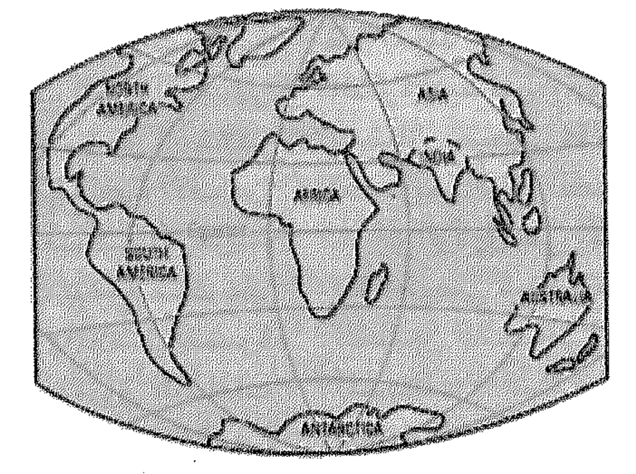
وضع القارات قبل ٢٠٠ مليون سنة



وضع القارات قبل ١٣٥ مليون سنة



أوضاع القارات قبل ٦٥ مليون سنة



الأوضاع الحالية للقارات

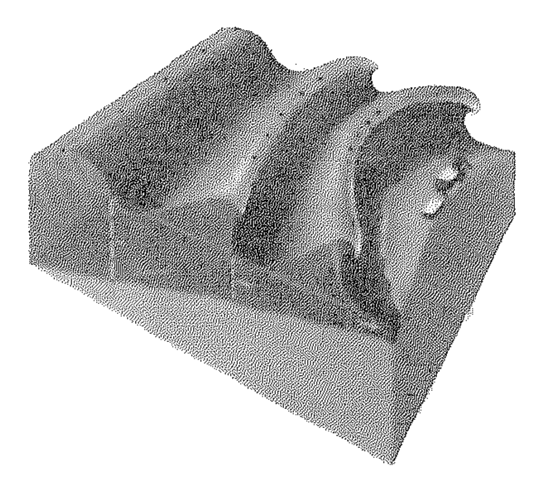
شكل (١) انفصال القارات طبقا لنظرية انجراف القارات

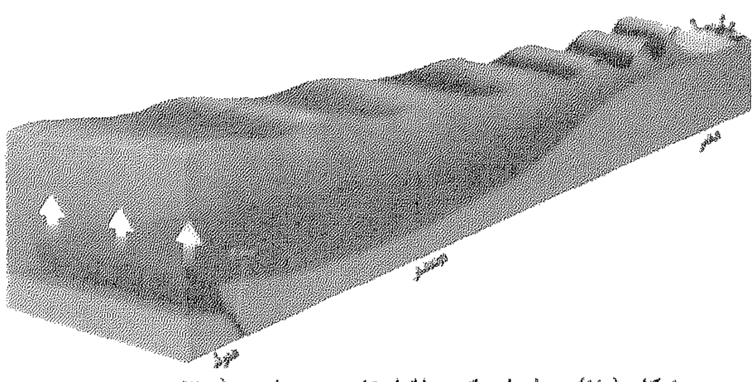
المتقابلة مثل شواطىء البحر الأحمر والخليج العربى وخليج غينيا، مما يدعم من فكرة انقسام القارة الأم - بانجيا - وانفصال أجزاءها بعد ذلك، من تلك الأدلة أيضا.. أن دراسة طبقات الأرض فى قارة القطب الجنوبى أثبتت أنها تحمل نفس خصائص ما يقابلها من أرض - وطبقا لما اقترحه فيجنر من انقسام القارات - فى جنوب أفريقيا!، ومن أقوى الشواهد التى قدمها فيجنر أيضا.. وجود النباتات المدارية مثل النخيل والحيوانات المدارية مثل الماموث فى شمال أوروبا!، وبالرغم من قوة ما قدم فيجنر من شواهد ودلالات، إلاّ أن إخفاقه فى تقديم سبب مقبول لانقسام القارة الأم، كان سببا فى رفض العلماء والمهتمين للنظرية حال طرحها.

لم تلبث الأدلة الداعمة لفروض فيجنر المؤسسة لنظرية انجراف القارات أن توالت على أيدى مجموعة من العلماء، ومن ذلك ما أوضحه العالم البريطانى آرثر هولمز Arthur Holmes من عام ١٩٢٨م من أن تيارات الحمل الحرارى فى الجزء المنصهر من جوف الأرض، حيث تتولد هذه التيارات نتيجة للفروق بين كثافات قلب الجزء المنصهر وسطحه، وهى فروق تنشأ من اختلاف درجات الحرارة التى تبلغ عدة آلاف من الدرجات المئوية عند مركز الأرض... بينما تقدر تلك الدرجات ببضع مئات عند سطح الجزء المنصهر والملاصق لقشرة الأرض الصلبة، تتسبب فروق الكثافات فى خلق تيارات من الصهارة تتحرك فى اتجاهات أفقية تحت القشرة الصلبة للأرض ، حيث تعمل قوى الشد الهائلة والتى هى محصلة لقوى الاحتكاك والضغط الفائقة بين تيارات الحمل والقشرة الأرضية الصلبة، تعمل هذه القوى الماسية للشد على تحريك القشرة الأرضية الصلبة التى تحمل القارات فى اتجاهات متعارضة، مما ينجم عنه فى النهاية تصدع القشرة الأرضية وانقسامها إلى أجزاء، كان ذلك سبباً مقبولاً وداعماً لفروض فيجنر حول انجراف القارات، مما أطلق العنان لأفكار العلماء التى توالت فيما بعد بين الثلاثينيات والستينيات من القرن العشرين، لتخرج لنا بنظرية جديدة من رحم نظرية «انجراف القارات».

نظرية الصفائح التكتونية

توالت اكتشافات العلماء فى عقدى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى، وهى بمثابة نتائج لأبحاث استهدفت استجلاء كنه بعض مشاكل الأرض الغامضة، ويجمل د. عادل رمضان مصطفى من قسم الجيولوجيا بكلية العلوم - جامعة عين شمس فى بحثه القيم، الذى جاء تحت عنوان «نظرية الصفائح التكونيّة» ونشر بالعدد الثانى من المجلد رقم (٢٩) من مجلة «عالم الفكر» (ديسمبر ٢٠٠٠م)، يجمل د. عادل رمضان مصطفى هذه المشاكل فى الآتى: تضاريس قاع المحيط - توزيع مناطق حدوث الزلازل على الأرض - شدة المجال المغناطيسى لبعض مناطق الأرض (مثل القطبين الشمالى والجنوبى) ولقيعان المحيطات - اتساع قيعان المحيطات - واكتشاف فوالق جديدة، حيث أوضحت دراسة قاع المحيط وجود أخاديد عميقة وسلاسل من الجبال فى أعماق





شكل (٢) مراحل تكون الطوفان تسونامي (نقلا عن عدد أغسطس / سبتمبر ١٩٩٩ من مجلة العلوم)

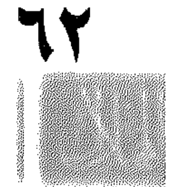
المحيطات، مما يستدل منه على أن قوى الشد الهائلة والمرتبطة بتيارات الحمل الحرارى فى الجزء المنصهر من جوف الأرض، قد سببت هذه الأخاديد أو الفوالق بتأثير اتجاهاتها المتعارضة (المتضادة) التى عملت على شد القشرة الأرضية فى اتجاهين متضادين، بينما نشأت الجبال فى قيعان المحيطات عند مناطق التقاء تلك التيارات المتقابلة، وهو ما جعل القشرة الأرضية تتمدد إلى الخارج نحو سطح مياه المحيط عند مواضع تلاقى تيارات الحمل، وأظهرت دراسة الزلازل أنها تحدث فى مناطق محددة تسمي بأحزمة الزلازل، مما يشير إلى أن ثمة أسبابا ترتبط بهذه المناطق وتطلق الزلازل، وكشفت القياسات المغناطيسية عن أن اتجاه المجال المغناطيسى لصخور بعض المناطق يؤكد أن هذه الصخور كانت قبل ذلك فى مواضع أخرى.. ثم انتقلت إلى أماكنها الحالية منذ ردح من الزمن، وهو ما أطلق عليه العلماء اسم «انقلاب الاستقطاب المغناطيسىّ للأرض»، والذى يعني وبساطة أن اتجاه المجال المغناطيسىّ للأرض كان فى وضع مخالف لما هو عليه الآن، وبمعنى آخر وبنص ما يقول د. عادل رمضان مصطفى فى مقاله المشار إليه هنا: «أن القطب الشمالى المغناطيسىّ كان بالقرب من القطب الجنوبى الجغرافى، وكان القطب الجنوبى المغناطيسىّ فى مكان قريب من القطب الشمالى الجغرافى»!، وفى هذا تأكيد تام ومطلق لكل ما قال به فيجنر فى عام ١٩١٢م عن «انجراف القارات»!، وأما اتساع قيعان المحيطات .. فان ذلك يحدث – ومن منطلق فروض نظرية – إثر انفصال الجبال المتكونة فى قيعان المحيطات، وهى جبال تكونت من تجمد الصهارة المندفعة من الجوف المنصهر للأرض خلال صدوع فى قيعان المحيطات، فإذا ما انفصلت تلك الجبال بعد تجمدها... فإن انزياحها سوف يتسبب فى اتساع هذه القيعان، ولكن الدليل الأقوى على صحة نظرية فيجنر يجىء من اكتشاف فوالق جديدة فى القشرة الأرضية، ومن ذلك مشهد معاصر رصدته أعين العلماء وأجهزتهم فى جيبوتى، حيث شخصت أبصار العالم

وبعثاته العلمية إلى هناك منذ نهاية الستينيات، وذلك لرصد ومراقبة الفالق Fault الذى يتولد فى الأرض بدءا من خليج «تجورا» فى جيبوتي والمطل على خليج عدن .. ويمتد شاقا هضبة الحبشة حتى يصل إلى الهضاب الصخرية فى قلب القارة الأفريقية ، ويتوقع العلماء أن يتسع هذا الفالق ليصبح محيطا كالأطلنطى بعد ما يقرب من مائتى مليون سنة ! ، وهكذا تحققت كل فروض فيجنر ، ولكن ذلك كان إيذانا بميلاد نظرية جديدة : « نظرية الصفائح التكتونية plate tectonics theory من رحم النظرية الأم : «نظرية انجراف القارات».

سبع صفائح للأرض

عندما أذنت ستينيات القرن العشرين بالانصرام ، أصبح فى الإمكان وبعد ما تراكم لدى العلماء من نتائج الاكتشافات والمشاهدات السابقة ، أن يعلن عن ميلاد نظرية جديدة تفسر هيئة الأرض وجغرافيتها ، حدث ذلك عندما نشر ثلاثة من العلماء هم ايزاكس وأوليفر وسايكس Isacks , Oliver and Sykes بحثا فى المجلد رقم (٧٣) من مجلة «أبحاث الجيوفيزياء الأمريكية» ، افترض العلماء الثلاثة أن سمك قشرة الأرض الصلبة يبلغ فى المتوسط حوالى مائة كيلومتر ، وأن الجزء الأسفل من هذه القشرة - ويسمى بالنطاق الصخرى - له من الصلابة ما يجعل من الممكن اعتباره مصمتا وكأنه قطعة واحدة ، ثم أضاف العلماء إلى ذلك أن النطاق الصخرى للقشرة الأرضية يرتكز على نطاق لدن يتكون من صخور فى حالة لدنه وغير منصهرة ، وأن هذا النطاق اللدن يفصل بين النطاق الصخرى للقشرة الأرضية وبين صهارة جوف الأرض ، قسم العلماء الثلاثة فى بحثهم القشرة الأرضية إلى سبع صفائح كبيرة بالإضافة إلى عدد من الصفائح الصغيرة ، اشتملت الصفائح الكبيرة على الآتى : الصفيحة الافريقية (تحمل قارة أفريقيا) - الصفيحة الأورو آسيوية (تحمل قارتى أوروبا وآسيا وجزءا من المحيط الأطلنطى) - صفيحتى أمريكا الشمالية والجنوبية (تحملان قارتى أمريكا الشمالية والجنوبية وباقى المحيط الأطلنطى) - صفيحة المحيط الهادى (وتقع تحت المحيط الهادى) - الصفيحة الهندية الاسترالية (تحمل قارة استراليا وشبه القارة الهندية والمحيط الهندى) وصفيحة القارة المتجمدة الجنوبية (وتحمل هذه القارة) ، بينما افترض العلماء أن تجيء مجموعة الصفائح الصغيرة مثل الصفيحة العربية وغيرها أسفل ما تبقى من مناطق العالم .

طرح العلماء الثلاثة الفكرة الأساسية لنظرية «الصفائح التكتونية» بعد هذه الفروض التمهيدية ، تتبلور تلك الفكرة فى أن الصفائح التى اقترحت فى النظرية تتحرك فى اتجاهات مختلفة وبسرعات جيولوجية كبيرة (من ١ إلى ١٥ سنتيمترا فى العام) ، وتفترض الفكرة الأساسية للنظرية أن الصفائح المكونة لقشرة الأرض الصلبة تتباعد وتتقارب تبعا لما يؤثر عليها من قوى تتولد من تيارات الحمل الحرارى فى الجزء المنصهر من جوف الأرض ، إن ما يحدث عند تصادم الصفائح يتوقف - طبقا لما تقول به النظرية - على ما تحمله تلك الصفائح ، فإن كان التصادم بين صفيحتين تحملان



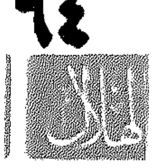
شكل (٣) مشهد من سيناريو تنبأ به ستيف وارد وسيمون داي في عام ٢٠٠١ لموجات طوفانية تضرب شواطىء فلوريدا الشرقية بعد ٩ ساعات من تولد تسونامي عند جزيرة لابالما بجزر الكنارى

محيطين ، إن احداهما سوف تنغرس تحت الأخرى مما يرفع من درجة حراراتها ، ولتتفجر فيما بعد سلسلة من البراكين تحت سطح الماء ، فإذا ما استمر تفجر البراكين لحقبة من الزمن ، فإن سلسلة من الجزر سوف تظهر فوق موقع التصادم مثل جزر الفلبين وجزر الهند الشرقية وجزر المنطقة الشرقية من البحر الكاريبي ، أما إن حدث التصادم بين صفيحتين تحملان قارتين ، فإن أيا منهما لن تقدر على اعتلاء الأخرى ، وبالتالى فإن حافتيهما سوف تتداخلان وترتفعان في شكل كتل هائلة تكون فى النهاية سلاسل جبلية ، وتقول النظرية إن

سلاسل جبال الهملايا قد ظهرت منذ ٨٠ مليون سنة إثر اصطدام شبه القارة الهندية - التى انفصلت من أفريقيا - بالحرف المقابل لها من قارة آسيا! ، ومن المهم التنويه هنا عن أن التكتونية تعنى عملية التشوية التى تغير شكل القشرة الأرضية .

ميلاد تسونامى

اكتشف العلماء فى التسعينيات من القرن الماضى أن حدوث زلزال فى موقع فالق أو فاصل بين صفيحتين تكتونيتين تحت سطح الماء سوف يتسبب فى انزلاق حافتى الصفيحتين على طول الفالق أو الفاصل وبسرعة معينة ، فإذا بلغت سرعة انزلاق الحافتين حدا كافيا لاطلاق موجات زلزالية seismic waves، فإن الموجات الزلزالية المنطلقة فى موضع انزلاق الحافتين سوف تدفع ما فوق الفالق من ماء فى الاتجاه لأعلى نحو السطح ، وبذلك تولد تلك الأمواج الطوفانية العملاقة ، تنطلق هذه الأمواج العملاقة فى المرحلة الثانية من عمرها وذلك من موقع ميلادها عند الفالق وعبر المحيط بسرعات هائلة قد تزيد على ٧٠٠ كيلومتر فى الساعة وتصل إلى ٨٠٠ كيلو متر فى الساعة ! ، وكأنها طائرة نفاثة تنطلق على سطح الماء ، وبالرغم من ذلك فإن هذه الأمواج لاتشكل خطرا فى المياه العميقة ، وذلك لأن طولها يكون كبيرا جدا إذا ما قورن بارتفاعها فى المياه العميقة ، ومن هنا أخذت تلك الأمواج اسم «تسونامى» tsu - nami وهو يعنى فى اللغة اليابانية « موجة الميناء»، تشبيها لتسارعها المخادع عبر مياه المحيط وكأنها أمواج الميناء الهادئة ، ونظرا لما تنطوى عليه تلك الأمواج من طاقة هائلة ، فإن أمواج تسونامى تستطيع الانتقال لمسافات قد تبلغ آلاف الكيلومترات ، وهى تحمل الطاقة الزلزالية المدمرة بعيدا عن موقع الزلزال المولد لها عند الفالق ، ومن أمثلة انتقال هذه الموجات لمسافات بعيدة ، أن أمواج التسونامى الذى وقع فى جزر الويسيان Aleutian بولاية الاسكا فى عام ١٩٤٦ م انتقلت عبر المحيط الهادى لتضرب جزر هاواى التى تبعد عنها ٣٧٠٠ كيلومتر، ثم تأتى المرحلة الثالثة والأخطر فى عمر أمواج تسومانى - وطبقا لشكل (٢) - عندما تقترب من الشواطىء وتدخل مناطق المياه الضحلة ، عندها تتناقص سرعتها لتصل ربما إلى سرعة السيارات أو موجات المد الهادئة ، ولكن انكسار أمواج تسونامى عند النتوءات والرءوس البرية والأخاديد المنتشرة فى قاع البحر ، بالإضافة إلى التضحل shoaling والذى يعنى تناقص المسافة الفاصلة بين الأمواج المتتالية بسبب تناقص عمق الماء فى الاتجاه نحو الشاطىء ، فيعمل كل من الانكسار والتضحل على حشد طاقة الأمواج وتركيزها فى حجم صغير من المياه وكما هو واضح فى شكل (٢) ، فتتولد قبل الشاطىء أمواج مرتفعة تحملها تيارات سريعة ، تنتصب تلك الأمواج كأنها جدار عال من الماء يكتسح ما أمامه على الشاطىء من مبان وحياة ، ولقد بلغ ارتفاع أمواج التسونامى الذى ضرب قرية أونى عند الطرف الجنوبى



لشبه جزيرة أوكوشيرى باليابان فى ١٩٩٣/٧/١٢ م حوالى ٣١ مترا! ، وذلك بالرغم من الحواجز البحرية التى أقيمت فى تلك المنطقة تحسبا لموجات التسوناميات التى تتوالى على جزر اليابان .

أوضحت الأبحاث الجيوفيزيائية أن ميلاد تسونامي لايرتبط فقط بحدوث زلزال عند موضع فالق بين صفيحتين تكتونيتين تحت الماء ، وإنما يرتبط أيضا بقدر من الاحتمال كبير بحدوث انهيار كارثى فى سفوح البراكين البحرية ، وبالرغم من اختلاف أسباب ذلك الانهيار التى تتراوح بين الزلازل والتشققات الناجمة عن تحول المياه المختزنة فى مناطق من جسم البركان إلى بخار ، حيث تعمل مياه الأمطار المتسربة فى الشقوق الممتدة عبر جسم البركان على حفز الزلزال ، وتتحول تلك المنطقة إلى بخار بفعل الحرارة المنطلقة من جوف البركان ، ولسبب من الأسباب أو لأكثر من سبب ، فإن انهيار جانب أو جزء من البركان يزن آلافا من الأطنان ، يولد فى مياه المحيط أو البحر من الطاقة ماهو أكثر من المطلوب لاطلاق طوفان تسونامى كبير ، ومن أمثلة ذلك ماحدث فى الأيام الأولى من شهر نوفمبر من عام ٢٠٠٠م ، عندما انفصلت كتلة صخرية يزيد حجمها على ألفىّ (٢٠٠٠) كيلومتر مكعب (!) عن السفح الجنوبى لبركان كيلوئيا ki-lauea volcano فى جزيرة هاواى ، فأطلق سقوطها فى مياه المحيط الهادى زلزالا قدرت شدته بمقدار ٧.٥ درجة من درجات مقياس ريختر (العلوم : المجلد ٢٠ - العددان ٦/٧ - يونيو / يوليو ٢٠٠٤م) ، ولم تعقب ذلك الزلزال موجات تسونامى المرعبة ، وذلك لأن هذه الموجات لا تنطلق من موقع الزلزال إلا عندما تتجاوز قوته ٧.٧ درجة من درجات مقياس ريختر .

سجل ذموي

أدرك العلماء منذ عقد التسعينيات فى القرن العشرين ما تنطوى عليه أمواج تسونامى من طاقة هائلة تفوق كل ما صنعه البشر من طاقات الدمار وبما فيها القنابل الذرية ، فكان ذلك حافزا لإنشاء قواعد بيانات Databases تحفظ كل مايتعلق بتلك الأمواج المدمرة ، وتشير المعلومات التى حوتها قواعد البيانات إلى حدوث عشرة طوفانات تسونامية مدمرة فى عقد التسعينيات ، وقد أودت تلك الطوفانات بحياة أكثر من ٤٠٠٠ شخص فيما بين عامى ١٩٩٠ و ١٩٩٨ م فى المناطق والدول التالية: نيكاراجوا - جزيرة فلورس فى اندونيسيا - شبه جزيرة اوكوشيرى باليابان - جزيرة مندورو فى الفلبين - شرق جاوا - جاليسكو بالمكسيك - ايريان / جايا فى غينيا الجديدة - جزيرة سولاويزى فى ماليزيا - الساحل الشمالى لبيرو - وبابوا فى غينيا الجديدة (العلوم : مجلد ١٥ - العددان ٨/٩ - أغسطس / سبتمبر ١٩٩٩م) ، كان ذلك حافزا للعلماء فى عديد من مراكز الأبحاث فى دول مختلفة على وضع نماذج رياضية لمحاكاة تلك الأمواج العملاقة ، وقد أثار كل من ستيف وارد Steve Ward من جامعة كاليفورنيا

فى سانتا كروز بالولايات المتحدة الأمريكية وسيمون داى Simon Day من جامعة لندن الرعب فى الأوساط العلمية ، وذلك عندما نشرا نتائج نموذج رياضى اشتركا فى اقتراحه للأمواج الطوفانية التى قد يسببها إنهيار الجانب الغربى لبركان فيجا Vieja volcano فى جزيرة لابالما بجزر الكنارى فى المحيط الأطلنطى ، وقد اعتبر الباحثان فى نموذجهما أن حجم الجزء المنهار من البركان يبلغ ٥٠٠ كيلو متر مكعب ، قدم الباحثان النموذج الرياضى المقترح وبعضا من نتائجه فى مقاله بعنوان : «إنهاك بركان فيجا - انهيار محتمل وتسونامى عند لابالما فى جزر الكنارى» ، وتم نشر المقالة فى العدد رقم (١٧) من المجلد الثامن والعشرين من مجلة «رسائل أبحاث الجيوفيزياء» Geo-physical Research Letters الصادر فى عام ٢٠٠١ م ، وقد تنبأت تلك النتائج بأن موجة طوفانية يبلغ ارتفاعها ٩٠٠ متر وتتبعها سلسلة من الموجات يزيد ارتفاعها على ١٠٠ متر سوف تغمر الجزر المجاورة لجزيرة لابالما ، وأن أمواجا يبلغ ارتفاعها من ٥٠ إلى ١٠٠ متر سوف تضرب الشواطىء الشمالية الغربية فى قارة افريقيا ، بينما تصل أمواج يقدر ارتفاعها بحوالى من سبعة إلى عشرة أمتار إلى السواحل الغربية لكل من اسبانيا وانجلترا بعد ما يقرب من ساعتين إلى خمس ساعات من انهيار جانب بركان فيجا ، وقد تنبأ النموذج بأنه بعد تسع ساعات من بدء الكارثة .. فإن أمواجا يصل ارتفاعها إلى ما بين ٢٠ إلى ٢٥ مترا سوف تضرب شاطىء فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية وكما هو موضح بشكل (٣) .

النبوءات تتحقق

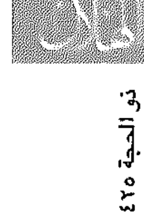
جاءت كارثة طوفان التسونامى الأخير لتؤكد نبوءات ثلاث ، النبوءة الأولى تتمثل فيما قال به فيجنر عن انزياح القارات ، والنبوءة الثانية فيما خبرت به نظرية الصفائح التكتونية عن نشوء الزلازل وتكون الجزر والجبال ، وأما النبوءة الثالثة .. فهى ما حذر منه ستيف وارد وسيمون داى مؤخرا ، فقد حدث بالضبط ما حذرا منه ولكن فى مكان آخر ولسبب آخر ، ففى الساعة الثامنة - بالتوقيت المحلى لاندونيسيا - من صباح الأحد ٢٦ ديسمبر الماضى ، انطلق زلزال بلغت قوته ٨.٩ درجة بمقياس ريختر - ويعد خامس أقوى زلازل القرن العشرين - من منطقة تقع قبالة اقليم آتشيه Aceh بجزيرة سومطرة ، وقدرت الهيئة الأمريكية للمسح الجيولوجى أن مركز الزلزال يبعد حوالى ١٦٢٠ كيلومترا عن جاكرتا فى اتجاه الشمال الغربى ، وتعد منطقة الزلزال - وطبقا لفروض نظرية الصفائح التكتونية - منطقة تقارب لتلك الصفائح، ومن العجيب والمذهل أن المقال السابق الاشارة اليه هنا للدكتور/عادل رمضان مصطفى يؤكد على إمكانية حدوث تصادم فى هذه المنطقة بين صفيحة قارية (وهى صفيحة أوراسيا) وقوس جزر (ويتكون من جزيرة سومطرة وجزر نيكوبار وجزر أندمان التى تشكل قوسا بالفعل !) .

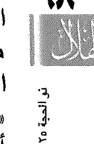
إن ما صنعه التسونامى الأخير فى الدول التي اجتاحها سوف تنعكس آثاره على كل العالم ، لأن ما صنعه فى البيئة

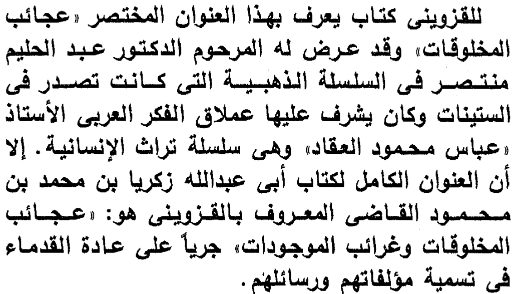
هناك سـوف يؤثر على الأرض ولسنوات طوال ، ومن ذلك أنه أدى - وطبقا للصور الملتقطة بالأقمار الصناعية - إلى تزحزح مجموعة جزر نيكوبار وجزيرة سيميوليو من أماكنها لمسافات كبيرة! ، بل إن الأفدح فى الهول الذى جاء به الزلزال ، هو أن الأرض قد ارتجت بفعل هزة قدر علماء الجيولوجيا أنها تعادل تفجير مليون قنبلة ذرية !! (الأهرام : ٢٠٠٤/١٢/٣٠ م - ص ١) ، ومما يؤكد تلك التقديرات ما أعلنه باحثون استراليون فى ٢٠٠٥/١/٩ م من أن معدات مراقبة الهزات تسجل الآن - وبعد أسبوعين من الزلزال - أن الأرض مازالت تتأرجح حتى الآن ! (الأهرام : ٢٠٠٥/١/١٠ م - ص ٤) ، إن المحزن فى الأمر حقا .. هو أنه كان من الممكن أن يتضاءل حجم الخسائر فى الأرواح على وجه الخصوص ، وأن ينحصر حجم الدمار البيئى فى أضيق نطاق ، لو أن أحدا ممن بيدهم الأمر ورسم سياسات العالم ، قد أصاخ السمع وأعمل الفكر فيما قاله العلماء منذ فيجنر وحتى ستيف وارد وسيمون داى، أو لو أن مجسات رصد الزلازل التى نشرت فى محيطات العالم لأغراض التجسس، قد ربطت ببرنامج حاسوبى مخصص للتنبؤ بحدوث الطوفانات التسونامية ولتحذير الغافلين من الدول والبشر .

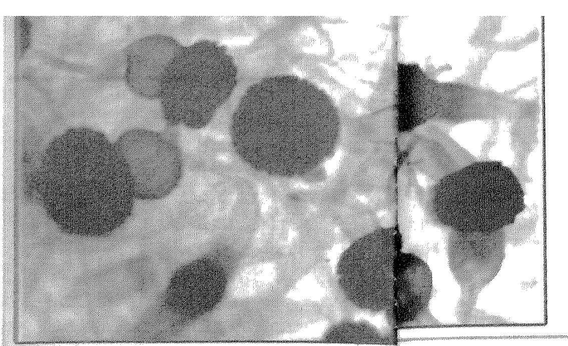
وماذا عنا ؟

قد يعتقد البعض منا فى مصر والمنطقة العربية أن بلادنا بعيدة عن مثل هذه الكوارث ، ولكن ما جاء فى نظريات طبيعة الأرض والأبحاث التى أجريت فى هذا المجال ، يكشف ذلك عن أنه ليس هناك من مكان على سطح الأرض بمنأى عن مثل الطوفان الأخير، حيث تقع شبه الجزيرة العربية والعراق والشام كله - وطبقا لفروض نظرية الصفائح التكتونية - فوق الصفيحة العربية ، وهى صفيحة تلتقى مع ما يجاورها من صفائح تكتونية مثل صفائح : أوراسيا - الهندية الاسترالية والأفريقية فى حدود تتراوح بين تصادمية وتماسية وتباعدية ونطاق غور، وهى حدود تتولد عندها الزلازل فى سلاسل جبال مكران وزاجروس (فى إيران) وطوروس (شمال سوريا) وفى خليج عدن والبحر الأحمر وفالق البحر الميت ، ويمكن القول فى ضوء ما طرحته كارثة التسونامى الأخير من معلومات ، أن ما ضرب الاسكندرية فى عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤ م وهز مصر والسودان وكل الشام ، وقوض فنار الاسكندرية الشهير وخسف بحى القصور وشارع كانوب الشهير الأرض وأغرقهما فى مياه الميناء الشرقى (الآن) ، كان زلزالا من النوع المولد لطوفان التسونامى ، وهو ما يمكن أن ينشأ عند نطاق الغور فى الطرف الشمالى للصفيحة العربية والواقع تحت مياه البحر الأبيض ، إن الذاكرة الجمعية للشعب المصرى مازالت تحتفظ بلحظات الرعب التى صاحبت زلزال دهشور فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى ، وهو لايعدو مزحة بجانب هول التسونامى وزلزاله ، فهل نعد للأمر عدته ونتحسب لكارثة كهذه قد تصيبنا ونحن فى غفلة؟، أم أننا سنظل نوفر الاعتمادات فقط لمدرب الفريق القومى لكرة القدم ولاستيراد اللحوم السودانية والأثيوبية؟! ■









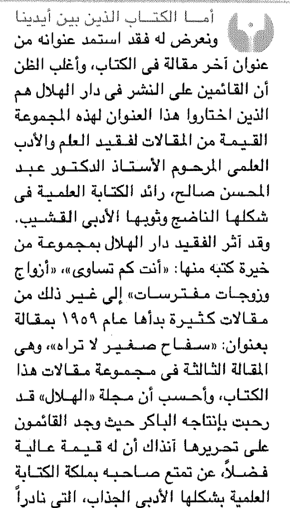
نماذج لبعض الفطريات

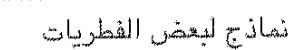


العقد الجذرية التى تسببها بكتريا الريزوبيام النافعة فى جذر نبات بقلى

عجائب المخلوقات

فى آخر أعمال الدكتور عبد المحسن صالح





بقلم
د. محمد فتحى فرج *

للقزوينى كتاب يعرف بهذا العنوان المختصر «عجائب المخلوقات» وقد عرض له المرحوم الدكتور عبد الحليم منتصر فى السلسلة الذهبية التى كانت تصدر فى الستينات وكان يشرف عليها عملاق الفكر العربى الأستاذ «عباس محمود العقاد» وهى سلسلة تراث الإنسانية. إلا أن العنوان الكامل لكتاب أبى عبدالله زكريا بن محمد بن محمود القاضى المعروف بالقزوينى هو: «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» جرياً على عادة القدماء فى تسمية مؤلفاتهم ورسائلهم.

* أستاذ الفسيولوجيا ووكيل كلية العلوم السابق - جامعة المنوفية

أما الكتاب الذين بين أيدينا ونعرض له فقد استمد عنوانه من عنوان آخر مقالة فى الكتاب، وأغلب الظن أن القائمين على النشر فى دار الهلال هم الذين اختاروا هذا العنوان لهذه المجموعة القيمة من المقالات لفقيد العلم والأدب العلمى المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المحسن صالح، رائد الكتابة العلمية فى شكلها الناضج وثوبها الأدبى القشيب. وقد آثر الفقيد دار الهلال بمجموعة من خيرة كتبه منها: «أنت كم تساوى»، «أزواج وزوجات مفترسات» إلى غير ذلك من مقالات كثيرة بدأها عام ١٩٥٩ بمقالة بعنوان: «سفاح صغير لا تراه»، وهى المقالة الثالثة فى مجموعة مقالات هذا الكتاب، وأحسب أن مجلة «الهلال» قد رحبت بإنتاجه الباكر حيث وجد القائمون على تحريرها آنذاك أن له قيمة عالية فضلاً، عن تمتع صاحبه بملكة الكتابة العلمية بشكلها الأدبى الجذاب، التى نادراً ما تتوافر فى كاتب علمى.

من هو الكاتب؟

ولد المرحوم الدكتور عبد المحسن صالح فى قرية طما البيشة بمركز ببا بمحافظة بنى سويف فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٨، وبعد انتهاء فترة دراسته قبل الجامعية بمدارس بنى سويف، التحق بعلوم القاهرة وتخرج فيها عام ١٩٥٠ وظل بها إلى أن حصل على درجة دكتور الفلسفة فى علم النبات فى تخصص الميكروبيولوجى أو الأحياء الدقيقة عام ١٩٥٧، ولم يُعين فى وظيفة مدرس لمدة ثلاث سنوات، كانت فرصته الحقيقية التى استثمرها فى القراءة والتحصيل لتحقيق التثقيف الذاتى بصورة متكاملة. كما يذكر محمد جبريل فى كتابه: «قراءة فى شخصيات مصرية».

وقد كانت لعبد المحسن صالح رسالة، لا تقتصر فقط على مجرد تبسيط العلوم، إنها قد اتخذت بعداً «تنويرياً» يستهدف جعْل العلم أحد الأسس الثابتة فى حياتنا، باعتباره البُعد الأهم فى عصر العلم الذى تحياه البشرية، وعلى ذلك فقد كان الرجل من أشد علمائنا قدرة على لفت انتباه قارئه، وإثارة مناقشات لا تنتهى معه، حول



أصعب القضايا العلمية، تلك التى تتصل بالحياة، والأحياء، والكون وعناصره، وما يعترى كل ذلك من تغير تطور بل وموت، بشكل مبسط يدفع أقل الناس حظاً من الثقافة - وربما من التعليم - على القراءة، والخروج بفوائد جمة، وتكوين وجهة نظر.

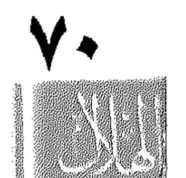
ويكفى تصفح بعض كتبه من مثل: «أنت كم تساوى»، «الإنسان الحائر بين العلم والخرافة»، «لماذا نموت»، «التنبؤ العلمى ومستقبل الإنسان»، للدلالة على نزول العالم من برجه العاجى ليناقش فى إطار مبسط أعقد النظريات والحقائق العلمية بأسلوب أدبى رفيع ودرجة عالية من التواصل مع القارىء العربى أياً ما كان موقعه أو انتماؤه.

كان الدكتور عبد المحسن صالح من طبقة المرحوم الدكتور أحمد زكى ولكن فى صورة عصرية مشرقة، وقد كان الرجل قبل وفاته يعمل أستاذاً للميكروبيولوجيا الصحية بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية وقد لقى ربه إثر نوبة قلبية فاجأته وهو بين كتبه وأبحاثه عن عمر يناهز الخامسة والخمسين وذلك عام ١٩٨٦م «غرة رمضان الموافق ٩ مايو من ذلك العام بعد أن ترك للمكتبة العربية مجموعة من مؤلفاته القيمة التى سدت فراغاً كبيراً وتتمثل قيمتها ليس فقط فيما حوت من معلومات وحقائق ولكن أيضاً فى منهجه فى تأليفها وما أدت إليه من تنوير وتبصير وفهم عميق للحياة والأحياء.

وقد سبق الرجل وعاصره كثيرون مثل: د. مصطفى مشرفة، د. مصطفى عبدالعزيز، د. عبدالحليم منتصر، د. عبدالحليم كامل، د. محمد رشاد الطوبى، د. عبد الحافظ حلمى محمد أطال الله فى عمره، وغيرهم كثيرون، واستطاع عبد المحسن صالح بأسلوبه السهل الممتنع، وحسه الأدبى العالى وفهمه للعلم ورسالته وفلسفته أن يصنع لنفسه مكاناً متميزاً بين هؤلاء الأساطين، ولذلك فقد خاض فيما لم يخض فيه غيره من مسائل، وهناك بعض عناوين كتبه التى تنم عن ذلك وتدل عليه أصدق دلالة من مثل: «هل لك فى الكون نقيض»، «الإنسان حائر بين العلم والخرافة»، «تنبؤات العلم البيولوجية» وغيرها.

وماذا عن الكتاب؟

وكتاب «عجائب المخلوقات» هو مجموعة من المقالات الأخيرة التى كتبها الراحل العظيم، وعلى ذلك فقد نشرها وهو فى قمة النضج العلمى والأدبى، ويستطيع القارىء أن يستشف ذلك من سلاسة الأسلوب وتقنيته الفنية العالية حتى أن بعض المقالات كُتبت بأسلوب قصصى وبعضها الآخر احتوى على حوارات ذكية مما جعلها مشوقة تستحوذ على انتباه القارىء وتجذبه لقراءتها عن اخرها. وقد كتب مقدمة الكتاب عالم أديب فى قامة الدكتور صالح وهو الدكتور أحمد مستجير ليؤكد على ذلك فيقول: «تجوب مقالات هذا الكتاب فى آفاق علمية رحبة واسعة عريضة، من تركيب الذرة والجزىء إلى المادة الحية والوراثة، إلى السلوك البشرى والحيوانى، وإلى ما شئت من مواضيع تتصل بحياتك، بأسلوب ذكى رشيق بهيج ممتع، ثم ستلحظ كيف يستطيع هذا الكاتب العلمى الفذ أن يستخلص الحكمة من كل ما يرويه، ليفاجئك باستنباطات

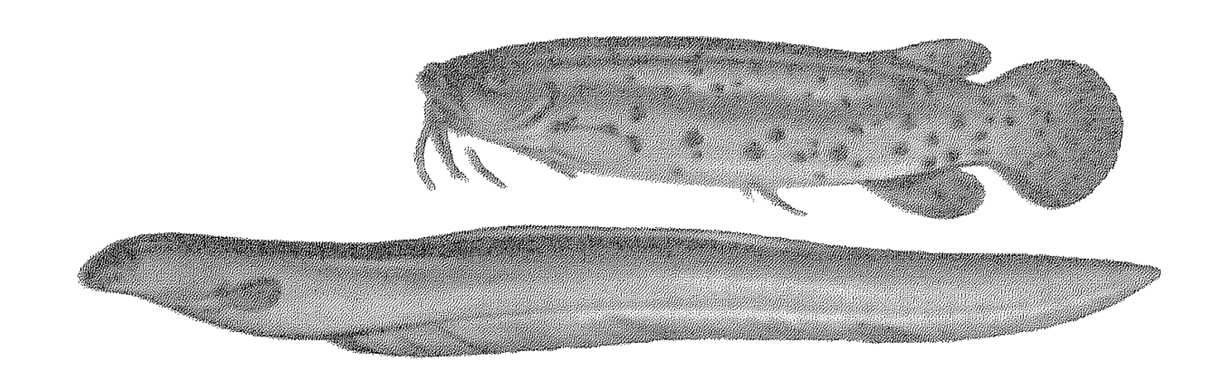


تدهشك». ص ٥.

صدر هذا الكتاب عن مؤسسة دار الهلال فى سلسلة كتبها الشهيرة التى بدأت بكتاب المرحوم الأستاذ العقاد: «عبقرية محمد» فى يونية عام ١٩٥١، والكتاب الذى بين أيدينا هو إصدار أكتوبر ٢٠٠٣، العدد رقم ٦٣٤، ويقع الكتاب فى ٣٤٧ صفحة، بخلاف فهرس الكتاب. وقد صنُفت مقالات الكتاب فى بابين، أولهما بعنوان: «مخلوقات لا نراها» احتوى على ١٦ عنوانا، والباب الثانى بعنوان: «حقائق وأساطير» وقد انتظم تحت هذا العنوان ١٤ مقالاً هذا، وتتفاوت المقالات تفاوتاً كبيراً فى طولها وعرضها وعدد صفحاتها فنجد مقالة لا تتجاوز صفحاتها خمس صفحات أخرى تربو صفحاتها على ٣٥ صفحة، وذلك طبقاً لطبيعة الموضوع وطريقة المعالجة. وإذا كنا لا نستطيع أن نعرض لهذا الكم الهائل من هذه المقالات فلا أقل من أن نعرض لنماذج منها.

بدأ الكتاب بمقالة تحت عنوان «مصانع ضخمة لا تراها»، والعنوان هنا دال وجذاب فى نفس الوقت لاحظ وجه التناقض فى ضخامة المصانع مع عدم إمكان رؤيتها، وهذا هو وجه الغرابة، فالكاتب آلى على نفسه أن يجذب القارىء منذ البداية، وقد جاءت عناوين بقية المقالات على هذه الوتيرة من الإيجاز والتشويق والانتقاء الدقيق وتدور المقالة حول بعض الأحياء الدقيقة وهى كائنات مجهرية لا ترى بالعين المجردة بيد أن إنتاجها من السماد الذى تصنعه من غاز النيتروجين الهوائى يفوق إنتاج مصانع العالم مجتمعة بحوالى ثمانية أضعاف، كما يذكر المؤلف. وتتمثل هذه الأحياء فى مجموعة من البكتريا من جنسْ: الكلوستريديام Clostridium وجنسْ أوزوتوباكتر وتقوم بتحويل النيتروجين الجوى إلى نشادر ثم تكمل أنواعا أخرى كالبكتريا من جنسْ نيتروزوموناس Ni-trosomonas وجنسْ نيتروزوكوكاس Nitrosococcus فتحول النشادر، بإضافة الأكسجين، إلى مركب النيترتيت وهو مركب سام، إلا أن كائنات أخرى تنتمى إلى جنسْ نيتروباكتر Nitro-bacter تهاجم النيتريت السام فتحوله إلى مركب غير سام وهو السماد الحقيقى المعروف بالنيترات. وهناك نشاط لبعض الكائنات الدقيقة، تنتمى إلى جنسْ جنسْ الريزوبيام Rizobium، حيث تقوم باقتناص نيتروجين الهواء لتثبته على هيئة سماد، وذلك بالتعاون مع جذور بعض النبتاتات كالبرسيم ونبات الفول، وهذا السماد المتكون يمثل غذاء جيداً لهذه النباتات، ثم إن ما يتبقى من جذورها فى التربة يمثل إضافة جيدة تخصب التربة وتزودها بأجود الأسمدة الطبيعية. وعلى ذلك يمكن للقارىء أو المرشد الزراعى أن يستنتج من ذلك ببساطة أن زراعة هذه الأصناف من النباتات فى الأراضى المستصلحة حديثاً (الأراضى الجديدة) تحسِّن من صفات تربتها وتعمل على تسميدها وإعدادها بحيث تصلح لزراعة أنواع أخرى من المزروعات.

وهكذا، تأتى مقالات الفصل الأول لتحكى أطرافاً من قصة العلم لا سيما فى شقة البيولوجى، فالمقالة الثانية، على سبيل المثال، يذكر فيها المؤلف قصة اكتشاف



السمك الرعاش (المولد للكهرباء)

أنواع من الفطريات تسبب تعفن وتلف الأخشاب، ومن ثم أدت إلى إتلاف قطع الأسطول الإنجليزى وكادت تقضى على سمعة المملكة المتحدة كسيدة البحار، وكان فرسان البحوث العلمية التى أدت إلى اكتشافها كل من بيثيل Bethel (١٨٣٨) ثم بولتون (١٨٧٩) ومن بعدهما مارشال وورد (١٨٩٠). أما روبرت هارتيج الذى عاش فى غابات ألمانيا، أكبر مصادر الثروة الخشبية، فيعزى له الفضل الأول فى معرفة السبب الحقيقى لتعفن الأخشاب بواسطة الفطريات.

والفائدة التطبيقية لذلك هو تطعيم القوائم الخشبية بمواد كيميائية سامة تمنع نمو وتواجد الفطريات فيها لاسيما فى الأجواء الرطبة لحماية المصنوعات والمنتجات الخشبية من تدميرها على أيدى هؤلاء المخربين الصغار (الفطريات)، والتى يتسبب عنها نتائج قاتلة مثلما حدث بانهيار بعض المناجم التى ارتكزت سقفها وجدرانها على أعمدة خشبية ضخمة عاثت فيها فسادا تلك الفطريات فتهاوت بما فيها على من فيها من البشر .

أما المقالة الثالثة فتشبه سابقتها حيث تحكى عن قصة اكتشاف فطر آخر تسبب فى هلاك كثير من الضحايا الأرستقراط الأثرياء من أصحاب القصور وضيوفهم، ولم يكن فى اختياره هذا طبقيا بالمعنى الذى يفهمه البشر فى تصنيف الناس، ولكنه اعتمد فى ذلك على المقتنيات الثمينة التى عادة ما يدخل فى دهانها أو طلائها مواد تحتوى على عنصر الزرنيخ، وهذه مكانها الطبيعى قصور الأغنياء كاللوحات والصور والتحف وما إلى ذلك، وفى الجو المشبع بالرطوبة تسعى هذه الفطريات فى التجمع على هذه المقتنيات فى محاولة منها للبحث عن غذائها، شأنها فى ذلك شأن الكائنات الحية الأخرى، وحينما تقوم بذلك فإنها تعيث فيها فسادا وتكون النتيجة إطلاق مركبات الزرنيخ على هيئة غازات سامة تتراكم فى جو القصور المغلقة فى ليالى الشتاء، طلبا للدفء، لا سيما وقت السهر والرقص والشرب والسمر، فتختلط بهذا الجو، ويستنشقها أهل القصر ورواده دون أن يدروا أو يدرى رجال البوليس عن أمرها شيئا، وهكذا كان يحدث التسمم البطئ فمنهم من كان يصمد ومنهم من كان يضعف فيسقط ويظهر عليه التسمم .



وقد ذاع اسم «جوسيو» العالم الذى كشف سر ذلك «المجرم الخطير» ملك الزرنيخ .. فطر كلادوسبوريام .

كما يحتوى هذا الباب أيضا على مقالة مهمة جدا جعل لها المؤلف عنونا شيقا كعهدنا به فى عناوين هذا الكتاب وغيره هو «تمثيلية لا نراها» ، وتؤكد هذه المقالة عمق إيمان الرجل فقد جاء فى مقدمتها: «وإذا كان لكل مسرحية نقاد، فلا يمكن لمتفرج مهما بلغ علمه أن ينقد تمثيلية الحياة.. وذلك أنها شئ فوق مستوى النقد، بل فوق مستوى البشر، فى الدقة والفن والقدرة والإخراج» إذا أن المبدع فى هذه المسرحية العظيمة لا يحتاج إلى تقديم، لأن الله سبحانه وتعالى، أخرج فأبدع، وصمم فأتقن، فليس بعد هذا الإخراج من عظمة إلا عظمته وقدرته» ص٣٢ .

وتحكى هذه التمثيلية أو المسرحية، حسبما يسميها المؤلف فى متن الكتاب، عن خطوات الانقسام الخلوى، فالكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان تتألف أجسامها من خلايا، وهذه الخلايا منها تتألف الأنسجة، ومن الأنسجة تتكون الأعضاء، ومن الأخيرة تتألف الأجهزة، ومجموع ذلك يكون منظومة الكائن الحى، إذا فالأساس فى كل ذلك هى الخلايا، وفى هذا المقالة، أو المسرحية، يوضح المؤلف بأسلوب معبر شائق الكيفية التى يتم بها انقسام الخلايا فتتضاعف أعدادها، ويتم ذلك فى جميع مراحل حياة الكائن الحى، بيد أنه يتضح أكثر فى مراحل نمو الكائنات الحية كمرحلة الطفولة عنه فى مراحلها الأخرى، وهى قصة تدعو بحق للإيمان بعظمة الخالق المبدع المصور القائل جل شأنه: «وفى أنفسكم أفلا تبصرون» الذاريات : ١٢ .

والحق أن موضوعات الباب الثانى أكثر عمقا وثراء فكريا من موضوعات الباب الأول ، إذا استثنينا آخر فصول الباب الثانى فموضوعه أقرب إلى فصول الباب الأول ، فقد تناول فيها المؤلف قدرة بعض الكائنات كالأسماك على توليد الكهرباء، وهذه الظاهرة ليست جديدة فى ملاحظتها وتسجيلها، فقد تناولها القزوينى فى كتابه المشار إليه فى أول هذه المقالة، كما ذكرها أيضا الشيخ الرئيس ابن سينا فى »الشفاء» فى الجزء الخاص بعلم الحيوان، وعنهما لخص ذلك كمال الدين الدميرى فى كتابه: «حياة الحيوان الكبرى»

والكاتب فى معالجته لموضوعات هذا الباب، يمزج بين العلم والفلسفة، ويثير كثيرا من التساؤلات والقضايا التى تحرك الفكر ولا يمكن الانتهاء فيها إلى رأى قاطع، وهى بذلك تفتح الباب على مصراعيه لمزيد من النقاش والحوار وتبعث على الحراك الفكرى بشكل عام، وهذا هو مجال عبدالمحسن صالح وميدانه الذى لا يجاريه فيه قلم آخر.

يقول الكاتب فى أهم وأطول فصول الكتاب وأكثرها تنشويقا، تحت عنوان: «كيف ينظر علماء الطبيعة الحيوية إلى المرأة؟ المرأة أثمن وأفضل بيولوجيا من الرجل » ما نصه: «ما أكثر ما كتب عن المرأة، وعن الجنس عند المرأة وعن الحب عند المرأة.. أكثره غث، وقليله ثمين، ولهذا كان لابد أن تقدم المرأة بطريقة أخرى فيها موضوعية تتناسب ووضع المرأة فى المجتمع البشرى خاصة، أو الأنثى فى طوفان المخلوقات عامة» ص٢٨٨ .

ويقـول المؤلف في مـوضع آخـر في محاولة لتحديد البداية الصحيحة لمعالجة هذا الموضوع الشائك والمتعدد الجوانب: «من أين نبـدأ إذن؟.. هل نبـدأ بالمرأة خاصة، أو الأنثى عامة؟.. أو هل نتعرض للبدايات التي جاء على أساسها الذكر والأنثى؟ علينا أن نأخذ الأساس .. أن ننظر إلى البدايات .. ففيها يرتبط الظاهر بالباطن.. وبالباطن نبدأ، وبالظاهر ننتهي .. وبهذا تتجلى لنا حقائق الأمور وجواهرها» ص٢٩١ .

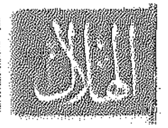
ثم يشرع في سرد القصة من أولها فيقول: «في البداية.. كان الذكر وكانت الأنثى.. ولقد ظهر على هذا الكوكب منذ مئات الملايين من السنين على هيئة خلايا ميكروبية منها الذكر ومنها الأنثى، وباندماج هذا مع تلك، تنتج سبيكة وراثية تختلط فيها مكونات الميكروب الذكر، مع الميكروب الأنثى، ثم تتعدد الخلايا قليلا، فتظهر مخلوقات بدائية .. أيضا فيها الذكر وفيها الأنثى.. الذكر يتحول إلى خلايا جنسية، ثم تنتهي حياته .. والأنثى تبقى في مكانها حاملة بويضاتها، وهي لا تطلقها في الماء كما تفعل الذكور، بل تحتفظ بها ، وعلى الخلايا الذكرية أن تسعى وتكد وتبحث عن الأنثى .. وقد يتوه منها الملايين، وقد يموتون في الطريق، ولكن هناك قلة قليلة تصمد وتكافح وتبحث حتى تصل إلى الأنثى.. إلى البويضات أو الخلايا الجنسية الأنثوية التي تحتفظ بها دون أن تكلف نفسها مشقة البحث والموت كما يفعل الذكر أو كما فعلت خلاياه الجنسية. وكأنما هذه الأنثى البسيطة التركيب أهم وأثمن للحياة من كل الذكور» ص٢٩٢ .

وعندما يحين الكلام عن الإنسان فإن الكتاب يلخص إلى أن : «الجنس بالنسبة للرجل نهاية.. أبسط نهاية ، وبالنسبة للمرأة بداية.. أعظم بداية» ص٣١٣.

ثم ينتهي إلى أن«الأنثى هي حاملة الأجيال، ووالدتها وصانعتها! كأنما الذكر بالنسبة للأنثى وسيلة.. والأنثى بالنسبة للحياة غاية.. فهي الحاضنة الحقيقية لهذا الطوفان الدافق من المخلوقات .. ومن أجل هذا فقد حافظت عليها بوسائل كثيرة، تختلف باختلاف النوع .. أو كما سبق أن قلنا: «إن الأنثى أثمن وأفضل بيولوجيا من الذكر، وكأنما الذكر في حياة الأنثى ليس إلا بمثابة عابر سبيل، ليضع البذرة، ويترك لها الباقي» ص٣١٧ .

وتذكرني هذه المقالة بمقالة كتبتها الدكتورة م. رازمُسُن (M. Rasmu-son) نشرتها في مجلة Impact بالعدد الأول من المجلد الحادي والعشرين (١٩٧١) بعنوان: «الرجال هم الجنس الأضعف» Ment, the weaker sex وباعتبار أن الكاتبة متخصصة في علم الوراثة فقد تطرقت إلى الاختلافات الجنسية في الكروموسومات وما يترتب على ذلك من تأثيرات بيولوجية أخرى سواء في إنتاج البروتينات أو الأنزيمات أو التوازن الهرموني وقد خلصت في النهاية إلى أن الذكور هم الجنس الأضعف، أو أن الأنثى هي الأثمن والأهم بيولوجيا كما يقول الدكتور عبد المحسن صالح رحمه الله .

ولنا في الختام بعض الملحوظات حبذا لو أُخذت في الاعتبار عند إعادة طبع هذا



الكتاب القيم .

أولها خاص ببعض الأخطاء المطبعية، ورحم الله أياما كان يندر فيها وجود خطأ مطبعي واحد في إصدارات هذه السلسلة العظيمة لـ «كتاب الهلال» التي كان من كتابها العقاد وأحمد أمين وتوفيق الحكيم ومي زيادة وطه حسين والزيات وميخائيل نعيمة وغيرهم كثيرون .

أما الملحوظة الثانية فتتعلق بعدم الاهتمام بالتوثيق في حالة الاقتباس من المصادر المختلفة ولا سيما عند الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم، خاصة مع وقوع بعض الأخطاء المطبعية عند النقل أو الطباعة، وهذا التوثيق ليس ترفا أو تزيدا ولكنه ييسر الرجوع إلى المصدر المقتبس منه فيسهل التصحيح .

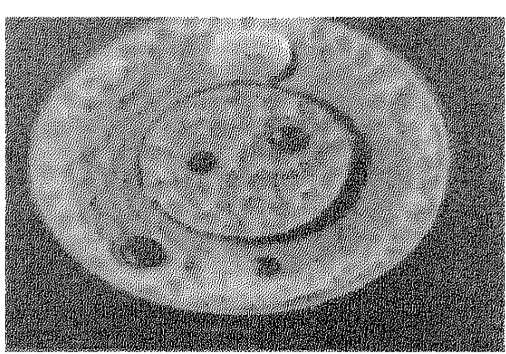
أما الملحوظة الثالثة فتتعلق ببيت الشعر الشهير:

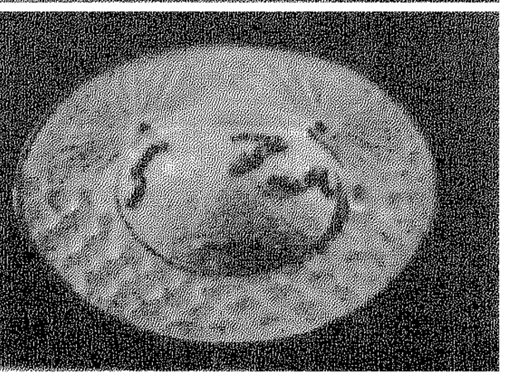
الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعبا طيب الأعراق

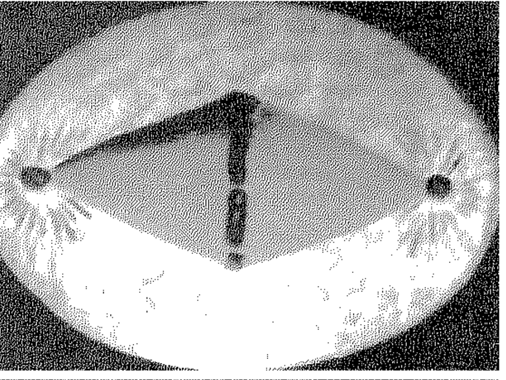
فهذا البيت ليس لأمير الشعراء أحمد شوقي كما ذكر الكاتب (ص٣١٧)، ولكنه لشاعر النيل «حافظ إبراهيم» من قصيدة بعنوان «مدرسة البنات ببورسعيد»، وقد أنشدها حافظ في حفل أقيم ببورسعيد في ٢٦ يونية سنة ١٩١٠ لإعانة تلك المدرسة، ويقول في مطلعها:

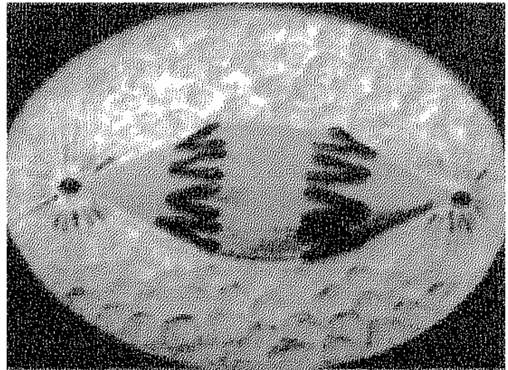
كم ذا يكابد عاشق ويلاقي
في حب مصر كثيرة العشاق

وأخيرا فإن إدراج أسماء العلماء وكذا الأسماء العلمية للكائنات الحية المختلفة، الواردة أسماؤها في الكتاب باللغة الأجنبية أمر مهم، إذ أنه ييسر على القارئ نطق هذه الأسماء النطق الصحيح بعد كتابتها بالحروف العربية. ■











خطوات الانقسام الخلوي

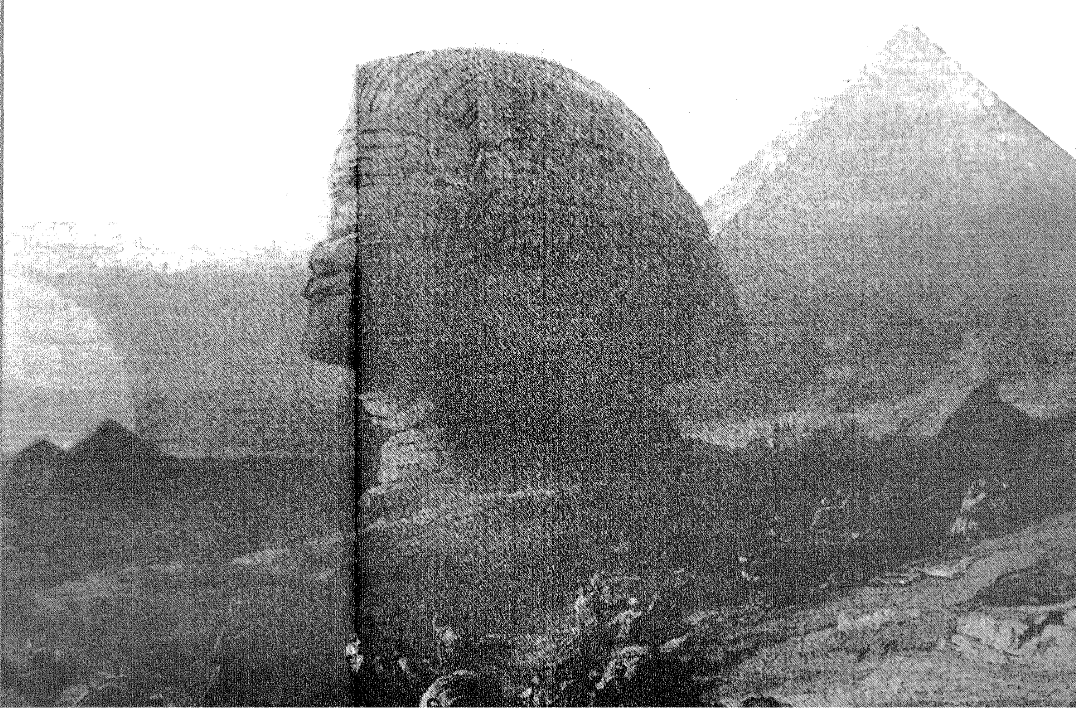


أبو الهول
هذا الغامض الصامت!

بقلم

على عبد الله بركات*

يعد أثر أبو الهول - الرابض غرب نهر النيل، عند الحافة الشرقية لهضبة الهرم - من أهم الآثار القديمة بمصر والعالم.. والأثر - كما هو معروف - لوجه إنسان جميل القسمات، على جسم أسد ضخم، يشرف على منظر أخضر بهيج من وادى النيل، وفى مستوى سلسلة تلال المقطم البعيدة إلى الشرق ويبلغ طوله حوالى ٤٦ مترا، وارتفاع قمته من الأرض٢١ مترا ..



والأثر منحوت من تل من الحجر الجيرى يرتفع حوالى ٤٠ مترا فوق مستوى سطح البحر تقرب إليه ملوك الفراعنة، وزاروا موقعه وصادوا الغزلان والأسود من المنطقة، التى كان يطلق عليها وادي الغزلان وقد اهتم بعضهم على فترات متباعدة، بعملية رفع الرمال السافية عنه وصيانته وترميمه ووصل حد تعظيمهم لأبى الهول، اعتبار بعضهم أن الأهرام - بجلالها وعظمتها - تابعة له، وأنها بنيت من أجله.. وقد سجلوا معتقداتهم وممارساتهم تلك على

* جيولوجى بالهيئة المصرية العامة للثروة المعدنية ..

اللوحات التذكارية، التى اكتشفت بالمنطقة، وعلى مقربة من المعبد المخصص له، أو فى أماكن أخرى متفرقة.. وكذلك قدسه الأهالى، وقدموا له القرابين، على مر العصور، حتى القرن الرابع الميلادى، حيث انتهت الوثنية، فأهمل أمره وطمرته الرمال حتى عنقه، وظل كذلك حتى العصر الحديث.. وإن ظل بعض سكان المناطق المجاورة لأبى الهول، يقومون ببعض الطقوس التى تنم عن تقديسهم له، حتى أوقات متأخرة من التاريخ سجلها بعض مؤرخى العرب فى كتاباتهم..

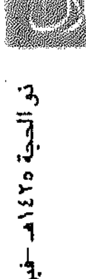
حارس الجبانات

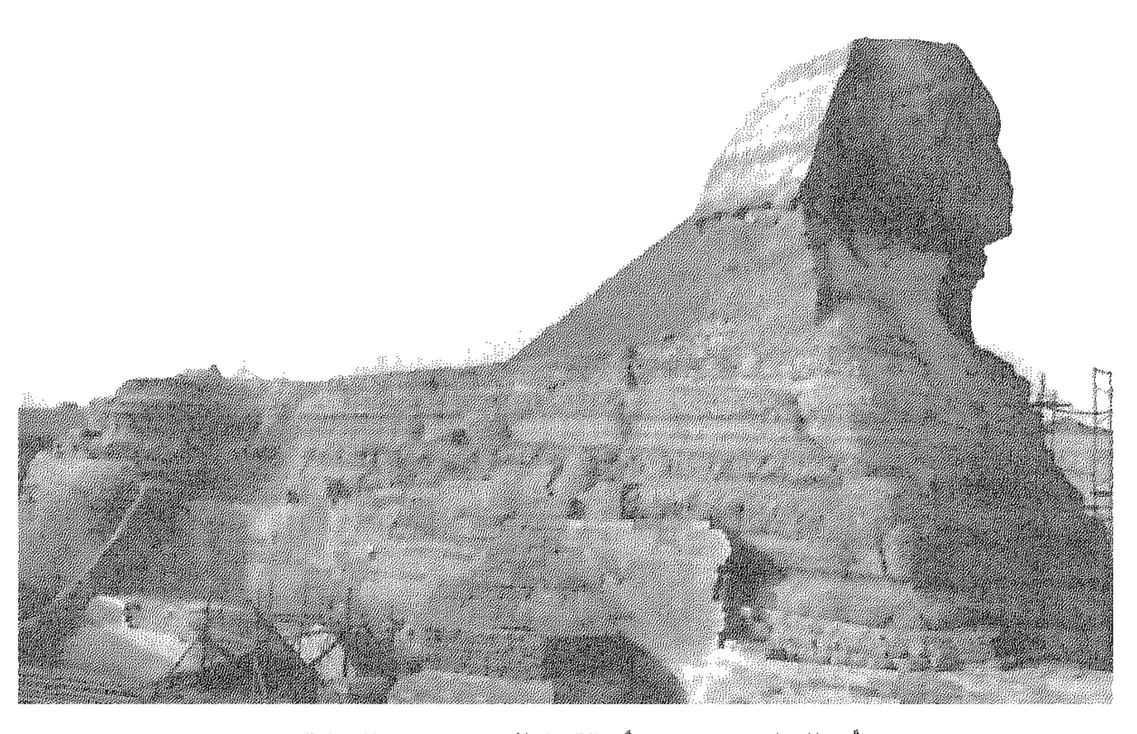
وقد ظل أبو الهول - على مدار التاريخ - مثار اهتمام المؤرخين والفنانين، والشعراء، والعلماء، وحتى العامة من الناس، وسوف يظل كذلك.. فمازالت الأسئلة المثارة حول تاريخ إقامته، والسبب وراء إقامته، وماذا يمثل؟ تنتظر المزيد والمزيد من الدراسات ..ومن هنا فليس غريبا أن يهتم الناس بكل كلمة تكتب عن هذا الأثر العجيب ..

وتوجد نماذج متعددة لتماثيل أبى الهول، معروفة فى أماكن متفرقة من مصر والعالم.. منها ما هو على هيئة وجوه رجال (تمثل فى الغالب الملوك)، ومنها ما هو على هيئة وجوه نساء(تمثل فى الغالب الملكات)، وأخرى على هيئة وجوه كائنات متباينة، على أجسام مختلفة.. وكذلك تتفاوت أحجام، وأعمار آثار أبى الهول تفاوتا كبيرا، فمنها الصغير، ومنها الكبير، ومنها القديم جدا ومنها الحديث نسبيا.. لكن أضخمها وأقدمها على الإطلاق هو أبو الهول الشهير، القائم على الحافة الشرقية من هضبة الأهرام، حارسا لجبانات الأموات إلى الغرب منه، ومشرفا على النيل إلى الشرق ومتلقيا أول خيوط الضوء من الشمس المشرقة، ومودعا أخر أشعة الضوء من الشمس الغاربة.. وقد قيل الكثير عن الأسرار والأساطير حول أبى الهول، والخبايا والكنوز المدفونة أسفل منه..

أم الهول

ومن الطريف أن يكون لهذا الأثر العجيب - الذى يحظى بكل هذا الاهتمام - نظير على هيئة أنثى، على الجهة المقابلة، أى على البر الشرقى للنيل.. إذ ذكر المؤرخ المصرى الشهير ابن إياس (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م - ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) فى مقدمة كتابه المسمى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» (تحقيق د. محمد مصطفى) فى معرض حديثه عن عجائب مصر - وجود أثر ضخم لأنثى أبى الهول (رأس امرأة على جسم أسد) يربض على البر الشرقى، وعلى نفس ارتفاع أثر أبى الهول





أبو الهول .. غموض وأسئلة مازالت تبحث عن الإجابة !..

الغـربى:« .. وكـان يقـابل هذا الصنم (يقصد أبا الهول الغربى)، صنم آخر فى بر مصر، عند قصر الشمع، وكان عظيم الخلقـة، متناسب الأعضـاء وهو من الصوان المانع (الحجر الجيرى الصلد المتماسك) على هيئة امرأة، وفى حجرها مولود من الصوان أيضا، وكان الناس يسمونه «سرية أبى الهول» ويقال لو وضع على رأس أبى الهول خيط، ومد إلى ذلك الصنم، الذى يقال له السرية، لكان على رأسيهما مستقيما.. ويقال إن أبا الهول طلسم للرمل يمنعه عن الطين (الأرض الزراعيـة)، وإن صنم السرية طلسم الماء يمنعه عن بر مصر، لئلا يهدم أملاكها.. وكان لهما حكمة.. وقد كسر الصنم الذى يقال له السرية، سنة إحدى عشرة وسبعمائة (هجرية) (أى سنة ١٣١١ م)

أثر السرية

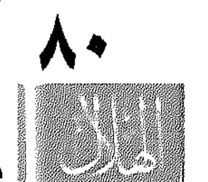
فى واقع الأمر، لم يذكر «ابن اياس» حدث كسر أثر السرية، ضمن سرده لأهم أحداث سنة ٧١١هـ، داخل الكتاب ذاته.. ولم يتم العثور على روايات أخرى، تتحدث عن هذا الأثر، فى كتابات المؤرخين العرب، ولم يرد ذكر حادثة كسره، ضمن أحداث سنة ٧١١ هـ ، فى العديد من كتب التاريخ المتاحة فعلى سبيل المثال، لم يذكر عبد اللطيف البغدادى شيئاً مباشراً عن آثر السرية، رغم أنه زار مصر قبل التاريخ الذى كسر فيه (٧١١ هـ)، وسجل مشاهداته التى جمعها خلال تلك الرحلة، فى كتابه

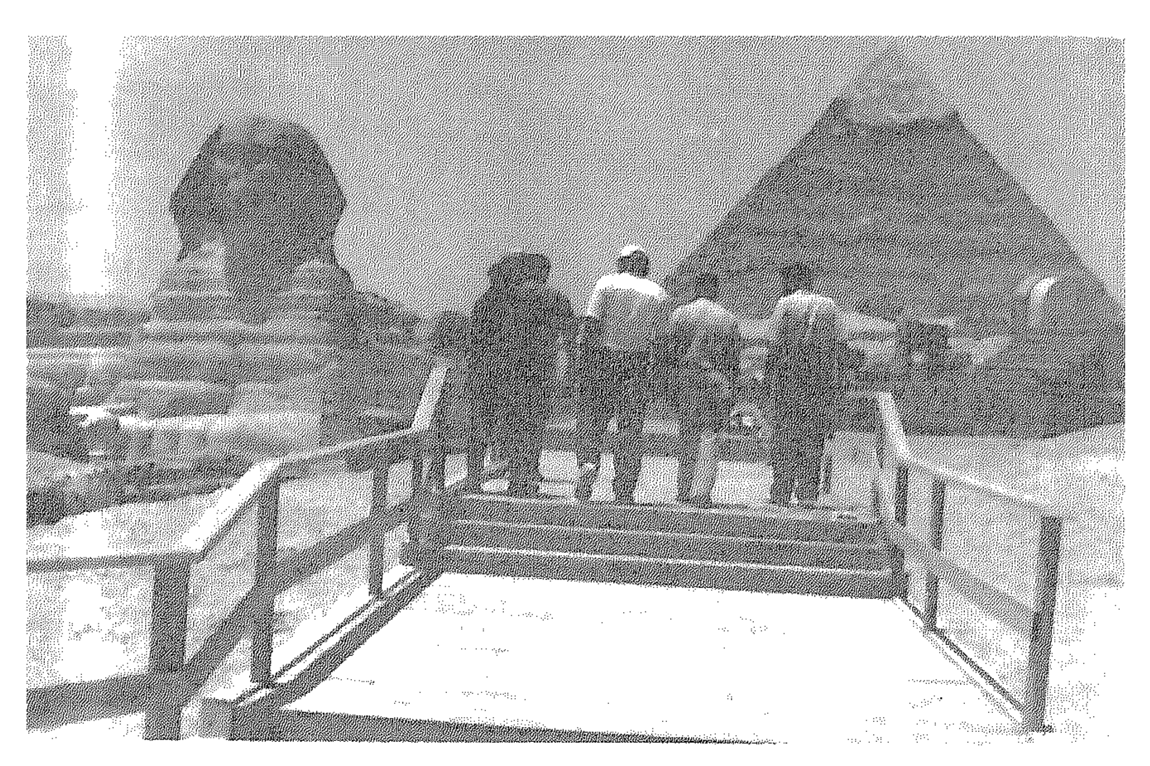
المشـهـور والمسـمـى «كـتـاب الإفـادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعـاينة بأرض مـصـر» والذى فـرغ من كتابته فى سنة ٦٠٠ هـ ولعل ذلك يرجع إلى غلبـة أثر أبى الهـول الغـربى فى التـاريخ كله، على مـا عـداه من الآثار المماثلة نظرا لقربه بل والتصاقة بالأهرام ويبدو ذلك جليا، من رواية «عبد اللطيف البغدادى» الخاصة بأبى الهول، إذ يذكره تاليا لذكره الأهرام : «وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة (مقياس للأبعاد تقريبى، وتعادل قدر رمية بسهم) صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم، يسـمـيـه الناس أبا الهـول ويزعـمـون أن جـثـتـه مـدفـونه تحت الأرض، ويقـتـضـى المقياس أن تكون جثته بالنسبة إلى رأسه سبعين ذراعا، وفى وجهه حمرة ودهان أحـمـر يلمع عليـه رونق الطراءة.. وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمـال كـأنه يضـحك تبـسـمـا. وسـألنى بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت فقلت تناسب وجه أبى الهول فإن أعضاء وجهه بالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الصور متناسبة والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضاء مع عظمها، وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله»:

وعلى الرغم من عدم وجود روايات أخرى عن ذلك الأثر الذى ورد فى رواية «ابن إياس» تبدو صحيحة فى ضوء بعض النقاط الاتية :

١- ظهور آثار أنثى أبى الهول قديما جدا فى التاريخ المصرى.. ويذكر الدكتور سليم حسن فى كتابه «أبو الهول» أن الطراز المصرى الأصيل من أنثى أبى الهول نادر لكنه ظهر قديما، وربما يكون أقدم من نماذج الذكور ويضيف أن : أبا الهول الأنثوى كان يشبه تماما أبا الهول الذكرى، فيما عدا الوجه الأمرد وما فيه من صفات الأنثى الواضحة والأكثر من ذلك أنه كان يطلى باللون الأصفر، وهو اللون التقليدى لجسم المرأة فى مصر القديمة، على حين أن أجسام الرجال كانت تطلى باللون الأحمر القاتم ويفترض أن أبا الهول الأنثوى، كان يمثل إحدى الأمهات من عظام ملكات الأسرة الرابعة فإذا كان الملك فى ذلك الوقت يمثل على هيئة ذكر أبى الهول، فإن ظهور الملكة فى هيئة أنثى يكون شيئا عاديا، بل منطقيا..

٢- يذكر د/ سليم حسن فى كتابه: «أبو الهول»، أيضا أن: الأساطير القديمة كانت تربط بين الأسود والفيضان.. ومن تلك الأساطير أن «تفنوت»، التى تشخص المطر والندى والرطوبة، كانت تمثل فى صورة امرأة برأس أسد أو على صورة أسدية كاملة وينقل رأى «حوربولون» الذى عاش فى القرن الخامس قبل





الطريق إلى أبو الهول ..

الميلاد، والذى كان يرى: «أن الأسود كانت تعد من سمات الفيضان، وذلك لأن النيل كان يشكو فيضه عندما تكون الشمس فى برج الأسد، كذلك كان المشرفون على الأعمال المقدسة فى القديم يصنعون الميازيب ونافورات المياه ومجاريها فى صورة أسد» وهذا ربما يجعل من وجود نصب الأبى الهول الأنثوى حارسا أو مشرفا على النيل من البر الشرقى، أمرا منطقيا، على غرار أبى الهول حارس جبانات الملوك على الجانب الآخر، كما استقر فى أذهان الناس قديما وتناقلته الأجيال .. ومن هنا يبرز ما ذكره «أبن إياس» من أن أثر السرية كان يحرس بر مصر من الفيضانات المدمرة لكن من الممكن أن يكون لوجوده مدلولات أخرى عند قدماء المصريين، كأن يشترك الاثنان معا فى حراسة النيل، وما حول ضفتيه من الأراضى الزراعية ..

٣- ما ورد فى بعض روايات المؤرخين عن قصر الشمع، يؤكد أن الموضع كان به العديد من الآثار الفرعونية، وهذا ما حققه واستخلصه «الفريد ج. بتلر» من كتابات المؤرخين القدماء، حيث يذكر: «وقد كانت المدينة التى حول قصر الشمع محلة مصرية قديمة فقد وجدت بها آثار فرعونية وكان عند الباب الجنوبى للحصن (يقصد حصن بابليون) تمثال مصرى معروف».. ويضيف فى موضع آخر: «وإنا نظن أنه كان لايزال بمدينة مصر.. كثير من

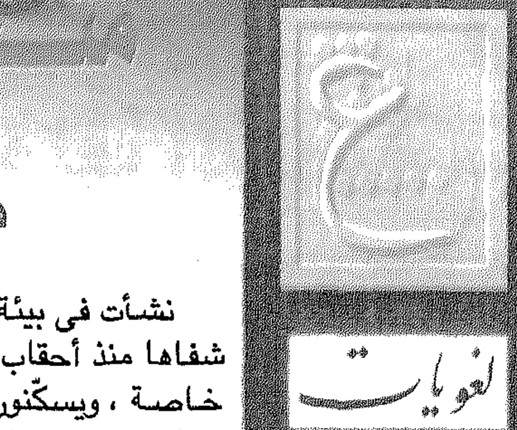
مبانى المصريين القدماء، فإن الباحثين اليوم يعثرون فى كثير من الأحيان على حجارة كبيرة وعليها نقوش بالخط الهيروغليفى»

و«قصر الشمع» ذاته يطلق على حصن قديم، كان يطلق عليه اسم حصن بابليون إلى الجنوب من الحصن الرومانى الذى يطلق عليه الآن حصن بابليون وقد ذكر أمر ذلك الحصن القديم «سترابو» ووصفه على أنه حصن قوى على تل صخرى مرتفع .وهذا يعنى أنه قديم جدا، بل موغل فى القدم .. ويذكر ألفريد ج. بتلر» «وقد سبب اسم بابليون ارتباكا كبيرا.. وبقى ذلك الاسم إلى اليوم ولكنه لايطلق على الحصن نفسه، فاسمه الآن «قصر الشمع».. وليس من السهل أن نعرف أصل تسميته قصر الشمع.. ولكن قد نصت الأخبار على أنه قد كان فى حصن بابليون القديم هيكل للنار، وأنه قد بنى هيكل آخر مثله فى صرح من الصروح بالحصن الرومانى وذلك فى مدة تملك الفرس للبلاد فى القرن السابع، ونجد فى كتاب ياقوت «قبة الدخان»، ولعل منشأ ذلك أن الصروح العالية كانت تتخذ فى وقت الحروب مراقب تبعث منها الإشارات، فلعله قد جعل على أحد الصرحيين أو عليهما معا منائر توقد فيها للإشارة فنشأ من ذلك اسم قصر الشمع

ويتماشى هذا الوصف مع ما ورد فى رواية «ابن اياس» من أن الأثرين (الغربى والشرقى) كانا على نفس المنسوب أو الارتفاع بدليل قوله : «ويقال لو وضع على رأس أبى الهول خيط، ومد إلى ذلك الصنم، الذى يقال له السرية، لكان على رأسيهما مستقيماً والمنطقة ذاتها تتشابه من الوجهة الجيولوجية(العمر الجيولوجي ونوعية الصخور)، والارتفاع مع منطقة الأثر الغربى وقد كان الصاعد إلى أسوار حصن بابليون الرومانى يشرف على المقطم والجيزة والأهرام وعين شمس ..

وتفتح هذه الرواية النقاش العلمى، حول مدلول ذلك الأثر فى التاريخ المصرى القديم، وماذا يعنى ؟! كما أنها قد تلقى مزيدا من الضوء على الأثر الغربى .. فهل يخرج أبو الهول عن صمته الأبدى ويتفوه لنا بكلمة ؟!!..

وفى ظل التوجه الحضارى الحالى، نحو العناية بالقاهرة التاريخية، نتمنى أن يأخذ المجلس الأعلى للآثار هذه الرواية فى الحسبان، ويقوم بعمل دراسة عن المنطقة، تقود فى النهاية إلى إعادة نصب أثر على غرار الأثر الذى ورد ذكره فى رواية «ابن إياس».. ■



لغويات

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

نشأت فى بيئة عربية خالصة ، يتوارث الناس العربية فيها شفاها منذ أحقاب بعيدة ، ويندر الخطأ بينهم فى صوغ الألفاظ خاصة ، ويسكّنون إجمالا أواخر الجمل ، فإذا أعربوها قد يخطئون قليلا . وكان أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس يعود إلى أبناء هذه القبيلة (المطاعنة) ، ملتمسا الصواب إذا غم عليه الأمر فى قضية علمية ، ودراسة هذه اللهجة موضوع رسالة ماجستير فى آداب قنا .

فى هذه البيئة تلقيت كلمة «مَتحف» (بفتح الميم) ، واستقرت كذلك فى ذاكرتى وفى وجدانى . فلما جئت إلى عالم القاهرة الرهيب ونطقتها كما حفظتها صوّبها لى موجه لغة عربية فى قسوة ، قل : « مُتحف» (بضم الميم) . ولم يكن علمه عندى موضع شك ، وأنا فى شبابى الباكر، وظللت أصطنع هذا النطق لسنوات طويلة ، وكان ثقيلا على لسانى وفى وجدانى وأذنى وعزوت ذلك إلى العادة وحدها ، وصعوبة تجاوزها .

وبقى فى النفس شىء من هذا التصويت ، فالناس فى قبيلتى ، كلهم على امتدادها وتعدد قواها ينطقونها «مَتحف» (بفتح الميم) ، وعلّلتها بأن الفتح أخف نطقا من الضم ، وأن الناس فى تعاملهم اللغوى يميلون إلى الأسهل دائما ، وقد لايكون هو الصواب . ثم تبين لى أخيرا أن مجمع اللغة العربية أجاز الأمرين : مُتحف بضم الميم ، ومَتحف بفتحها ، وأنها وردت فى المعجم الوسيط مضبوطة بالضم والفتح . ونص قراره :

« يجوز أن يؤخذ من كلمة تحفة – شىء أتحفت به غيرك للإلطاف – فعل ثلاثى من باب نَصَر ، ومن مصدره يؤخذ أسم مكان على وزن مَفْعَل ، فتكون كلمة مَتحَف (بفتح الميم والحاء) صحيحة فى الاستعمال بالمعنى المتعارف عليه الآن لمكان إيداع التحف وعرضها .

أما مَتحف (بضم الميم) فهى من أتحف بمعنى أعطى تحفة ، ويصح أن يكون معناها مجازا عرض التحف للإطلاع عليها . واسم المكان من الفعل الرباعى «أتحف» يأتى على وزن اسم المفعول «متحف» قياسا . وهى صيغة مشتركة بين اسم المكان واسم الزمان واسم المفعول والمصدر ، ويميز كل واحد منها عن الآخر بقرينة حالية أو مقالية .

● ● ●

فاستخدم أيها القارىء أيا من الصيغتين : مُتحف بالضم أو مَتحف بالفتح ، فكلتاهما صحيحة ، ولاتخشى بأساً ولا حرجا . ■

دائرة حوار

الفكر العربى ولغز النهضة
البحث عن الجذور

بقلم
شوقى جلال

غياب الحوار الفكرى، لأن الحوار يجرى بين طرفين ولا يوجد طرف عربى

مسألة الفكر العربى أو العقل العربى أو الإسلامى ، إلى آخر ذلك من مسميات مكرورة ، ناقشها كثير من المفكرين العرب والمسلمين فى محاولة للكشف عن أسباب التخلف والفشل . وغاب سؤال: كيف يفكر «العقل» أو العقول العربية أو الإسلامية، العرب أو المسلمون ، فى الواقع الحياتى الملموس إزاء قضايا محددة عابرة أو حاسمة . بمعنى البحث العقلانى النقدى للكشف عن المنهج وعن محددات الاختيار والانحياز لقضايا فكرية بعينها ، وأسلوب المعالجة، وتطور هذا النهج إن كان قد تطور أو جمد على مر العصور والأزمات ، وكيف هيأ لأصحابه قدرة على الفعل وعلى التفاعل مع الآخرين ، أو ألزم أصحابه عزلة وعجزا. وكيف أثرت الأحداث الفاصلة في هذا المنهج ، أم أنه قنع بأن يسر لأصحابه العزاء والسلوى والابتلاء فى الحياة الدنيا. ولايزال الغالبية جامدين عند تعريف السلف والأقدمين من أن العقل ، أداة الفكر ، جوهر ، وهو أعدل الأشياء قسمة بين الناس . وغفلوا أو عزفوا عن إنجازات علوم عديدة واكتشافات حديثة مثيرة ، وحوارات علمية معاصرة خصيبة ، ورؤى متباينة ومتطورة تشكل أساسا مكينا لارتقاء حضارى وإثراء فكرى ، والخلاص من عثرة أزمنت حتى باتت تقليدا .



ولكن هل حقا يوجد فكر عربى / ماهى قضاياه وإنجازاته ؟ ما دوره وفعاليته وتطوره مع تطور الأحداث والمجتمعات - إن كان له تاريخ متطور ؟ وما مضمونه ؟ وما مرجعيته ؟ هل يمثل تيارا يعبر عن مسار المجتمع أو المجتمعات مستخلصا الخبرة والعبرة من رؤية أو من رؤى عقلانية نقدية عن الماضى والحاضر مع استشراف لمستقبل لا نراه ردة إلى السلف ، وإنما هو مجمل زخم الحراك الاجتماعى والنشاط الانتاجى ومعاناة البناء والتطوير الإرادى . الفكر حصاد معرفة فى صياغة نسقية هادفة معنية بتحليل قضايا ، وحل لمشكلات ، وحفز لحراك ، ودعم لعلاقات قائمة أو منشودة ، وتشكيل أو إعادة تشكيل لهيكل المجتمعات ، وتحقيق لتكيف على صعيد اجتماعى متكامل وفى إطار من المنافسة أو الملاءمة على صعيد إقليمى وعالمى ، والفكر الاجتماعى منتج جمعى وليد جهد ذاتى متكامل للمجتمع ، ومعبر عن هدف اجتماعى مشترك من حيث التغيير والبناء ، وعن آلية المجتمع فى هذا التغيير وإنجاز الهدف . إنه رؤية جمعية تاريخية غير أحادية ، ومن ثم يجسد حركة متطورة فى الزمان ، وسجلا للجديد من الأحداث ، وحيوية التنوع والتعدد فى سياق من حرية التبادل والتفاعل والإبداع . ويشكل قوة جذب وانتماء وتمكين فى حلبة الصراع والانتخاب بين الأفكار محليا وعالميا .

تحليق فى الفراغ

وذهبنا فى كتابنا : «الفكر العربى وسوسيولوجيا الفشل» ، إلى أنه لايوجد فكر عربى عصرى يحمل هذه الخصائص والصفات ، ربما هناك مفكرون أفراد يجتهدون ، ولكنه ليس فكرا مجتمعيا بالمعنى العلمى . إنه فكر أو اجتهادات نظرية لأفراد ، أو تهويمات وتحليق فى فراغ ، وليس فكرا حافزا لحراك ، ولا فكرا معاصرا نابعا من واقع الاجتهاد الاجتماعى النظرى والجهد العملى النشط لبناء الوجود مشروعا مؤسسا على فهم علمى عصرى ، وآثرت أن أهدى كتابى إلى المثقف العربى الذى افتقدته النهضة ولاتزال ، تأكيدا لمسئولية المثقف العربى عن التنبيه إلى هذا الخواء .

ورأى غالبية المثقفين ممن ارتهنت حياتهم برضا أصحاب السلطان أن عنوان الكتاب شديد التشاؤم لأننا نعيش مع حكامنا دائما وأبدا عصور إنجازات ونجاحات !!! ورأى البعض أن مثل هذا العنوان والحديث وأد للأمل فى مهده . ولكننى على عكس ما ذهب إليه ظن البعض ، أقرر أن عنوان الكتاب متفائل .. ذلك لأنه يوضح أن الفشل يحدث لأسباب اجتماعية يقرها علم الاجتماع وتدخل فى نطاق إرادة وفعل وتقانة وفكر الإنسان ، وليس قدرا ولا طبيعة جبلية .. ومن ثم فإن المجتمع قادر بإرادته وبفعله وفكره ، ومنهجه فى الفعل والفكر ، على أن يصحح الخطأ ، ويزيل الأسباب إذا عرف نفسه كوجود تاريخى ، وعرف عصره ومقتضياته وتحدياته .

معنى الفشل

وأعنى بالفشل أن المجتمع عاطل من المعرفة الكاملة والصحيحة نسبيا ومرحليا لتوجيه مسارات حركته وطاقاته وأنشطته الاجتماعية بصورة فعالة فى الاتجاه الصحيح للتطوير .. أى للتكيف مع حضارة العصر بهدف البقاء والعطاء والامتداد والمنافسة . ومن أسباب الفشل أيضا أن يكون المجتمع عاطلا من ثقافة ترسخ قيم التغيير والتحدى الفعال . وفى حالة غياب هذه المعرفة - الفكر فى صورة

نسقية يغدو واقع المجتمع أو نشاطه ضربا من أسلوب المحاولة والخطأ مع نسبة عالية من الإخفاق ، وحركة غير مطردة وغير سوية ولا مستوية ، مختلة التوازن ، عاجزة عن كفالة أسباب البقاء ، ناهيك عن المنافسة والتطوير .

وأعنى بالفكر الاجتماعى الفاعلية الجدلية بين الذات (الإنسان / المجتمع) والموضوع ، ذلك إن الإنسان لايفكر إلا فى مجتمع . وفكر المجتمع حصاد تاريخية الفعل أو النشاط الاجتماعى فى إطار صراع الوجود .. أى إنتاج الوجود . وإنتاج الوجود - أى الحضارة - هو نشاط مادى ومعنوى (تقانة وفكر) وكلاهما وجهان للوجود الاجتماعى وأداة واحدة للتكيف الذى هو معرفة - فكر - وفعل استجابة لتحديات البقاء والتكاثر . والحضارة عندى هى عملية تاريخية قوامها إبداع الأدوات المادية والإطار الفكرى - القيمى فى تكامل معا استجابة لتحديات وجودية يفرضها الواقع المتجدد والطبيعة بتفاعلهما مع الإنسان - المجتمع . وهذا التعريف فيه دينامية ، إذ يدمج الإنسان كأحد مكونات البيئة الحضارية بسلوكه وفكره وقيمه ، ويتسق مع التعددية والتطور فى الزمان والتنوع فى المكان .

ثقافة موروثة وفكر مبتكر

الفعل والفكر الاجتماعيان هما المشروع الوجودى الجمعى . وفكر الأمة ليس حاصل تراكم فكر أفراد . ويتعطل فكر الأمة - المجتمع حين يتعطل الفعل الجمعى لإنتاج الوجود ، وهنا يعيش أبناء المجتمع أسرى وعى زائف وثقافة مغتربة ، وواقع يغلب عليه طابع النمطية والاطراد العشوائى .

وهنا نمايز بين :

أ - ثقافة معيشة موروثة .

ب - وفكر هو ابتكار وتجديد متلاحم مع الفعل الاجتماعى الانتاجى ويشكل وعيا بالتاريخ وبالواقع فى تناقضاته وصراعاته وتحدياته ، ويستشرف المستقبل تأسيسا على الفعل والفكر الإراديين للمجتمع . علاوة على أنه فكر نقدى لرصيد الماضى وللواقع ، بمعنى أنه آلية مراجعة مستمرة وتغذية مرتدة بين الفعل والفكر الاجتماعيين فى حركتهما .

وإن الفعل الاجتماعى لإنتاج الوجود ماديا ومعنويا (تقانة وفكرا) هو عملية اشتباك وتفاعل بين منتج جمعى collective producer (الإنسان - المجتمع) يتفاعل مع البيئة لإنتاج وجوده ، وجرى أن ننظر إلى هذا الفعل نظرة تطورية باعتبار الانتاج عملية مركبة العناصر وعملية خالقه دائما وأبدا .

الفكر / اللغة تولد من خلال فعل الإنتاج للإنسان الأول hominid امتدادا للوجود الجينى / البيولوجى، وتخليقا ماديا ومعنويا للعقل الذى يجسد الوجود التاريخى الفاعل النشط للإنسان / المجتمع . وهذه مسألة محورية ومعيار رئيسى للحكم على الفكر الاجتماعى وجودا وعدما أو ركودا وتجددا . إن الفكر / اللغة بدأ نشأته التطورية مع أول أداة إنتاج اقتضت تجمعا وتنظيما لأغراض مجتمعية تعزز التكيف ، بدأ هنا التواصل الرمزى بين البشر فى سياق الاستجابة وواقع التفاعل أو الفعل الاجتماعى مع الطبيعة ، وهو فعل متجدد أبدا ، ويفضى إلى تجدد التواصل الرمزى ، أى تجدد الفكر / اللغة .

والفعل الإنتاجى المجتمعى ، والذى نسميه العمل الاجتماعى ، عملية مركبة ومتطورة للتعامل مع المادة التى هى





الطبيعة ، المعدلة والطبيعة ، والطبيعة البشرية .

وبين الفعل المجتمعي والفاعل ، أى المجتمع والطبيعة ، وحدة وتكامل . وهذا العمل أو الفعل المجتمعى منتج للأداة المادية - التقانة ، وللأداة المعنوية - الفكر ، وإن الفعل أو النشاط البشرى على امتداد التاريخ الوجودى للنوع البشرى دمج الإنسان/ المجتمع والطبيعة . وتعتمد علاقة التفاعل بين الإنسان - المجتمع والطبيعة في تطورها المطرد على :

أ - وسائل الإنتاج .

ب - الطاقة .

ج - المعرفة والمعلومات .

وتطورت المجتمعات البشرية حضاريا تأسيسا على تكامل ووحدة هذه العناصر الثلاثة ، وتحدد فى ضوئها نمط التنامى الحضارى لتوليد المنتج والفائض .. وهذه آلية التكيف للنوع البشرى فى إطار صراع الوجود الحضارى .

حضارة الرعى : أدنى حد من الطاقة قيمة العمل والطاقة البشرية المبذولة ، أدنى مستوى - الفكر تأمل نظرى مجرد ، إنه مجتمع الكلمة الشفاهية .

حضارة الزراعة : طاقة عمل عضلية ، نمط تنامى محدود رهن القوة العضلية ومساحة الأرض - فائض قيمة محدود يسمح بالتجارة ولغة الكتابة .

حضارة الصناعة : طاقة آلية متطورة مع توزيع لا مركزى .. نمط تنامى متسارع - فائض قيمة كبير من المخرجات الاقتصادية - علاقة كيفية جديدة بين الإنسان والطبيعة - فكر فلسفة الإرادة - الإنسان العام .

أين نحن ؟

هذا يبرز السؤال :

أين موقعنا من العالم من حيث الفعالية .. فعالية إنتاج الوجود ؟ ومن ثم تصور المستقبل ..

هذه هى القضية المحورية فى كتابى المشار إليه ، ولكن بأساليب تناول مختلفة ومن زوايا متباينة .

إن جوهر أزمة المجتمعات العربية أنها أزمة فعل التطوير الاجتماعى الحضارى ، أو أزمة إنتاج الوجود على مستوى منافس لحضارة العصر . وهى قضية امتدت قرابة خمسة قرون بالنسبة لبعض البلدان .

وحاولت الخروج عن السياق التقليدى فى النظر إلى عصر ذهبى ولى ، والزعم أن الفشل مرجعه أننا تنكبنا طريق السلف . وحاولت الخروج أيضا عن مقولة التحديث محاكاة للغرب فى إطار الشكليات . ذلك أن الحداثة معيار متجدد ومتنوع ، والتحديث متعدد الآليات ، وفعل ذاتى أصيل . إنه صناعة لاحيازة ، وفعل ابتكارى متجدد .. وثقافة تغيير وتكيف ، ولنتذكر أن نهضة اليابان لم تكن محاكاة قصد التشبه ، بل محاكاة قصد الندية والمنافسة .

القضية تطوير وتحول حضارى وليس تنمية .. التنمية امتداد وتوسع وزيادة كمية على مستوى أفقى ، أما التطوير فهو امتداد وتعزيز رأسى صاعد أو تحول كيفى يقضى إلى نشوء أنماط وأشكال وعلاقات جديدة ولغة / أو فكر جديد .

والتطوير الحضارى للمجتمع موقف من الحياة ، ونمط سلوكى فى الاستجابة للتحديات ، وآلية تكيف فى إطار المنافسة وصراع الوجود .. والتكيف فعل اجتماعى إنتاجى مادى ومعرفى نحو هدف صاعد للانتقال بالمجتمع من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى للطاقة والفعالية والتعقد والفهم والإبداع وفرص الاختيار .. أو هو

إجمالا الإنجاز فى إطار معايير حضارة العصر .

ويمثل العلم روح حضارة العصر إنجازا فكريا وماديا تقانيا فى تلاحم وتطور مطرد ووجود مؤسسى وشبكى يعمل ويفكر فى حرية على الصعيدين المحلى والعالمى ، وأصبح العلم والتقانة بهذا المعنى هما قصبا السبق وأساس التغيير والإنجاز والتمايز وعماد التكيف والبقاء والصراع ، ويقتضى التطوير الحضارى للمجتمع فى عصر الصناعة والمعلوماتية وعصر اقتصاد المعرفة إطلاق وتوجيه مسارات طاقات جميع أبناء المجتمع عبر مزيد من التنظيم الاجتماعى المعقد بهدف تعزيز الطاقة الإنتاجية وتنظيم المخرجات ، ولهذا تمثل عملية التطوير إبداعا اجتماعيا ذاتى المنطلق وليست محصلة عوامل خارجية حصرا ، وإنما تحمل خصوصيات ثقافة وبيئة وتاريخ المجتمع ، وتحمل طبيعة الوعى الاجتماعى بالتحديات ، وهى عملية إبداعية أيضا ، لأن المجتمع يكتشف من خلالها إمكاناته الذاتية لابتكار الوسائل والحلول والأهداف .

التطور كل متكامل

والتطوير الاجتماعى عملية تتجاوز الأبعاد المادية للمجتمع فى الزمان والمكان ، لتشمل فى كل واحد متكامل أبعاد العقل والحياة . إن التطوير الاجتماعى ثقافة أو موقف إنسانى اجتماعى من الوجود .. وهذا الموقف تجل لعناصر حياتية وعقلية ولا عقلية عديدة تتمثل فى السلوكيات الاجتماعية والمهارات والخبرات النظرية والعملية والاتجاهات والاعراف والتقاليد والتنظيمات الرسمية والمؤسسات غير الرسمية والقيم الثقافية والمحددات اللغوية والمعلومات وأسلوب تناولها والتماسها ومعالجتها - وكذا العقائد وأنساق الفكر والقيم الروحية . إذ أن هذا كله يتفاعل معا ويؤثر فى بعضه بعضا بحيث يؤثر فى مسار التطور البشرى فى صياغة الإنسان / المجتمع، الموقف والفعل .

وحيث أن عملية التطوير هى فعل تكيف اجتماعى ، أى إنتاجى مادى وفكرى ، فإن المجتمع ، ممثلا فى مثقفيه ومفكريه ، يعمد بفضل جهد ذهنى رفيع المستوى إلى استخلاص المبادىء الأساسية أو الأفكار من حصاد خبراته ، وحصاد التفاعلات الاجتماعية والمعلومات المتراكمة ، ويصوغ هذا كله بفضل قوة تنظيم الأفكار فى صورة مركب نسقى من معارف مفاهيمية . وهكذا يكون التطوير آلية اجتماعية لإثراء الفكر فى مراحل تاريخية مطردة ، ويكون الفكر الاجتماعى النسقى دالة هذا الجهد المنظم .

النشاط الاجتماعى الانتاجى يفضى عقليا إلى تنظيم الوقائع فى صورة معلومات . ويعمد العقل الاجتماعى إلى تأويل المعلومات فى صورة فكر اجتماعى . معنى هذا أن الفكر الاجتماعى جهد نسقى يهدف إلى تأويل الخبرات المكتسبة حصاد التجربة الاجتماعية الانتاجية فى ضوء المصالح والأهداف ، ويعود هذا الفكر فى صورة تغذية عكسية إلى المجتمع فى نشاطه لمزيد من الفعالية والتصحيح والتنظيم ، ومن آليات الإنجاز فى تطور مطرد . وهنا يبين بوضوح أن التفكير الاجتماعى إنما هو إنجاز اجتماعى يحمل خصوصية التجربة الاجتماعية .

تجسيد الفكر

ويجسد المجتمع فكره المستحدث والمتجدد فى منظومات اجتماعية متعددة

المجالات والمستويات ، من ذلك إعادة تنظيم العمليات الإنتاجية من خلال تطبيق المهارات والتكنولوجيات المستحدثة فى مجالات الإنتاج والخدمات . ويتجلى هذا أيضا فى تنظيم المؤسسات ، وتنظيم البيانات والمعلومات والمعارف من خلال المؤسسات الاجتماعية مثل المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية والثقافية . ويسهم هذا كله فى بناء الإنسان / المجتمع وتعزيز أو تجديد تطلعاته الداعمة لحركة التطوير والمنافسة ، والانتقال بالفكر الاجتماعى إلى طور آخر تنظيما وفعالية وأرحب أفقا وأرقى منهجا .

وحيث أن نهج التطوير والتغيير قيمة ثقافية وموقف حياتى فإن فعل التطوير تحدده بقوة طبيعة القيم الثقافية السائدة فى المجتمع مثلما تحدده تطلعات المجتمع واتجاه استجاباته ، ونظرته أو تأويله للتحديات. ولهذا يمثل التطور الاجتماعى دالة على طبيعة واتجاه ومحتوى الإدراك البشرى وتطلعات ومواقف وقيم البشر وتصوراتهم لذواتهم ولدورهم فى الحياة كمشروع وجودى .

ولكن مفهوم القيم ، ومن ثم مجال تأثيره ، مختلف باختلاف الثقافات . هناك من المجتمعات من يحصر القيم فى نطاق الأخلاق .. الحرام والحلال دينيا فقط . وتكون هذه القيمة بمحتواها المحدود هى مفتاح السلوك أو الزر الذى يحرك ، بل يستثير ، الإنسان / المجتمع عند الضغط عليه وكأنما انحصر الوجود داخل هذا النطاق المحدود دون سواه . هذا بينما القيم متعددة متباينة بتعدد وتباين الأنشطة والسلوكيات صانعة الحياة ... التطوير والتغيير قيمة ... الإبداع قيمة .. الفن قيمة .. البحث العلمى قيمة ومغامرة الاستكشاف المعرفى قيمة .. وجمال الحياة أو صنع الحياة الجميلة قيمة .. والاستقلال قيمة ، بينما التواكل والاعتماد على الغير قيمة سلبية .. والسبق فى المنافسة العلمية أو غيرها قيمة .. والموضوعية قيمة .. والتناغم الاجتماعى قيمة .. والعدالة قيمة .. والتضحية قيمة .. وغيرها وغيرها من عناصر سلوكية تكفل انتصار الحياة وتعزز التكاثر والبقاء .

وتشكل القيم بهذا المعنى ما يمكن أن نسميه محتوى تحت الشعور الجمعى ، ومن ثم القوة الدافعة وراء مجمل الحركة الاجتماعية ، وتنصرف عبرها ومن أجلها طاقة المجتمع فى أعمق المستويات ، إذ أنها معالم التطلعات الجمعية تحت الشعورية ، وصورة المجتمع عن ذاته وفهمه لنفسه، ولنهجه فى الحياة ، ودالة على معنى الوجود ومجال الاستباق ، ومصرف الجهد والنشاط .

ومن ثم إذا عدنا إلى سؤالنا التقليدى : لماذا تخلفنا ؟ يجب ألا يقتصر البحث والنظر على الإنجازات المادية ونتصور النهضة حيازة لتقانة أو لفكر من إبداع واستنبات الآخر ، وإنما أن نرى التقانة والفكر إبداعا ذاتيا من مخاض المجتمع فى سياق تفاعل وتنافس على صعيد عالمى .. ويتعين هنا أن نتجاوز الأبعاد الظاهرة الراهنة إلى ما وراءها ، أى إلى الموروث من قيم وثقافة تصوغ بنية ما تحت الشعور وتمثل القوة الحاكمة والموجهة ، أى أن تنظر إلى الإنسان باعتباره حزمة متكاملة من الجينات قرينة حزمة متكاملة مما يمكن أن نسميه الجينوم الثقافى الذى انتقل عبر الأجيال فى صورة تراث هو حصاد خبرات مكتسبة على امتداد القرون والأحقاب وقابل للتغير والتلاؤم فى ضوء الضغوط الانتخابية . ويمثل هذا التراث الثقافى الذى تتباين عناصره بتباين خبرة

المجتمعات وخصوصيات تفاعلها مع الطبيعة عاملا قوى التأثير فى بناء الموطن الملائم Niche Construction ، من حيث الاتجاه والمرونة والنمط . ويصف البعض الإنسان بأنه جماع نمط وراثى ظاهرى متطور cvolutionary phenogenotypc مؤلف من:

١ - عمليات جينية .

٢ - عمليات اكتساب معلومات خلال النشوء التطورى الفردى -ontoge netic .

٣ - عمليات ثقافية ، والتى تمثل فى حقيقة نشأتها وتطورها امتدادا للجينات فى التطور المشترك لها extended phenogenotype co - evolution.

لهذا فإن من مقتضيات حركة وثقافة التطوير الحضارى أن نبحث طبيعة الموروث أو التراث الثقافى وتجلياته السلوكية فى عملية بناء الموطن تاريخيا وإلى أى مدى يتصف بالمرونة والدينامية وقابلية التغيير والتجديد والفعالية أو التفاعلية الإرادية- إلى أى مدى يشكل قوة حفز للتفاعل والتطوير فى ضوء ما يفرضه من قيم متمايزة حاكمة للسلوك وتشكل المفاتيح الأساسية للنظر إلى الوجود والحياة ومصرفا لمخاض طاقة الإنسان/ المجتمع .

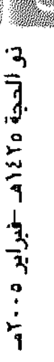
لذلك يبدو لى أن من المستصوب السؤال عن طبيعة مكونات ومفاتيح الجينوم الثقافى العربى وتجلياته فى التاريخ من حيث قابلية التغيير والتجديد ومناط التحدى والفاعلية والتفاعلية ، وطبيعة القيم التى تشكل محورا للوجود والسلوك ، ويدعونا هذا إلى أن نمايز بين نمطين من السلوك الاجتماعى .

سلوك قائم على الوعى ، أى شعورى conscious ، وسلوك تحت شعورى subconscious السلوك الواعي هو الفعل قرين الفكر فى تفاعل مع البيئة وظواهر الحياة والسلوك تحت الشعورى هو التجلى الحقيقى والعفوى للجينوم الثقافى الاجتماعي أو للقيم الاجتماعية وتكون له الغلبة والسيادة فى مراحل التخلف والركود .

وذهبت فى الكتاب إلى أنه لا يوجد فكر اجتماعى عربى ، وإنما خطاب عربى . وسبب ذلك تعطل فعل الإنتاج العربى ، ومن ثم تعطل الفاعلية الجدلية بين المجتمع كقوة إنتاج ، وبين الفعل والفكر ، وما يتبع هذا من تطوير مادى ومعنوى .. تقانى وفكرى ، وتطوير للرصيد الثقافى الموروث ليكون قوة داعمة ، وتطوير للغة اتساقا مع الفكر الجديد .. وإن فعل التطوير الحضارى هو الذى سيلقى ضوءا كاشفا ويفرض شروطا وجودية تستلزم تغيير سلوكيات وعلاقات وأوضاع من أجل ضمان نجاح التكيف ، مثل محو الأمية الأبجدية والثقافية وتعلم لغة الحاسوب وثقافته ، وتطوير لغتنا وحل أزمة المصطلح العلمى والهيكلة المؤسسية لأنشطة المجتمع .. والإسهام الإيجابى فى حضارة العصر كقوى فاعلة .. وإنما الفكر العربى رجع صدى السلف، ومن ثم نعيش غربة فى الزمان، أو رجع صدى للغرب ونعيش معه غربة فى المكان ..

وثم سؤال هل مكونات الجينوم الثقافى العربى وما يسميه البعض ثوابت الفكر العربى لها دور فاعل فى هذا الركود والتواكل والاستلاب ؟ أزعم أنه لايوجد فكر عربى ، وإنما هناك ثقافة عربية موروثة لها ظرفها الوجودى التاريخى المؤثر على واقعنا مع تعاقب الأجيال .. ما هو الفكر العربى العصرى عن قضايا مثل





التغير الاجتماعى وأنواعه ومحدداته فى التاريخ ؟ أو عن تطور الفكر الاجتماعى العربى والإنسانى ، وعن التكيف الاجتماعى وآليات التكيف ومعاييره .. أو عن اللغة : النشأة والتطور وتجليات هذا فى تاريخ وبنية اللغة العربية . الهوية الاجتماعية فى التاريخ ، والنشأة والتكوين والتمايز ... أو عن الظاهرة الثقافية : النشأة والتطور أم أنها ثابتة فى الزمان والمكان . سوسيولوجيا الفكر والعقائد فى التاريخ العربى .. أو عن الحضارات : النشأة والتطور - صعودها وانحلالها .. أو عن التراث كرصيد ثقافى وتطوره فى التاريخ فى ضوء نظريات العلوم ذات الصلة «الوراثة - اللغة - آلية انتقال التراث والانتخاب بين الماضى والحاضر - علم اجتماع المعرفة - علم نفس المعرفة .

واللافت للنظر أن الحوار الفكرى العربى والعالمى منعدم لأن الحوار يجرى بين طرفين ولا يوجد الطرف العربى ، وإنما العرب أسرى الأخذ فقط منذ قرون دون عطاء ، أخذ عن السلف فى تكرار موحش ، أو أخذ عن الغرب فى تبعية رعناء- وتعطل الفكر مع تعطل إنتاج مشروع الوجود .. الوجود الاجتماعى رهن القدرة التنافسية فيما بين المجتمعات فى مجال الطاقة الابتكارية للإنتاج .. وإذا كانت الطاقة فى عصر الرعى والزراعة هى قوة العضلات ، وفى عصر الصناعة قوة المحركات الآلية .. فإن الطاقة فى عصر المعلوماتية هى المعرفة ، والمنتج هو المعرفة فى صورتها النسقية ، والفائض الذى يوظفه المجتمع للتطوير الذاتى هو فائض قيمة المعرفة ، والتنافس بين المجتمعات مضماره إنتاج المعرفة وسرعة ومعالجة وتوظيف واستثمار المعرفة وإدارة دورات المعرفة اجتماعيا فى هذا كله .. فأين موقعنا ونحن أسرى ثقافة اجتماعية نصفها بالعراقة والثبات لقدمها وجمودها، ثقافة تصرفنا عن علم الدنيا بحثا منهجيا، ودراسة عقلانية ، وإبداعا ذاتيا أصيلا، وترصد جهدنا لعلم حياة اجلة .. وتحصر طاقتنا لعدو أوحد ليس هو التخلف والتبعية والتحجر والاستبداد .. بل هو الشيطان والخطيئة فقط .. ورسخت فينا تقليدا هو تأمل ظواهر الوجود كمعجزات يعجز الإنسان عن أن يستكشف أسرارها.. ثقافة تفرض حدودا أو قيودا لما يجوز بحثه وتعلمه .. فى حدود الحرام والحلال الروحانيين ، ثقافة اختزالية تصادر جهود البحث والاستكشاف لأنها تضع حلا جامعا مانعا لا سؤال بعده .. انه الخلق ، وهكذا كان الخلق .. والسؤال والبحث والاستكشاف لأنها تضع حلا جامعا مانعا لا سؤال بعده .. إنه الخلق ، وهكذا كان الخلق .. والسؤال والبحث والاستكشاف تطفل وافتئات وانصراف عن «علم نافع» إلى أفكار مثل التطور .. أفكار ما أنزل الله به من سلطان .

لهذا أرى أن سبيلنا ليس تنمية بل تطويرا اجتماعيا حضاريا .. فعالية إرادية أصيلة حيث العالم محل لإرادة الإنسان / المجتمع .. لقد تجاوز العالم المتقدم حضارتى الزراعة والرعى ، ثم انتقل إلى حضارة الصناعة والعلم إنتاجا تقانيا وفكريا ، ثم إلى المعلوماتية ، ويقف الآن على الطريق إلى عصر اقتصاد المعرفة .. إنسان جديد .. عقل جديد .. عالم جديد لن يرحم من يتخلف عن الركب .. فإلى أين نحن نسير ؟ هل اخترنا بإرادتنا قدرنا ومصيرنا أم أن أمرنا موكول لإرادة أخرى ؟ ■

دائرة حوار

دعوة إلى جدل حول المستقبل

ما العمل؟

بقلم
مصطفى الحسينى

فى العدد الماضى من الهلال وجّه كاتب هذه السطور دعوة متواضعة إلى «جدل حول المستقبل».
انتهى التحليل الذى انبنت عليه تلك الدعوة إلى التساؤل عن «ما العمل؟».
لكن هذا السؤال الظاهر البساطة يحتاج فى الحقيقة إلى توضيح وإلى تطوير..

فى هذا الباب يلزم ما يلى:
١ - أن التحليل الذى ورد فى المقال السابق، ليس إلا تعبيرا عن رؤية كاتب هذه السطور لمكاننا في العالم الراهن وحتى المنظور من مستقبله. وموقعنا على خريطته. وحالنا فيه مقارنة مع سوانا. وأن الغرض من عرضه هو التأسيس لسؤال «ما العمل؟».

ولا يخفى كاتب هذه السطور أن غرضه من عرض تحليله هو ما تصوره من حماية الجدل حول مستقبلنا من أفكار شائعة، من قبيل أننا «أمة مستهدفة» - من ميراث الفكر القومى العربى الذى استغرق معظم القرن السابق من تاريخنا. ومن قبيل أن «الإسلام مستهدف» أو أن «المسلمين مستهدفون» - من بين ما ترفع الحركات الإسلامية من دعاوى.

هذه «برانويا» قومية أو دينية لا يتأسس عليها حاضر ولا مستقبل.

ما أراد ذلك التحليل التأكيد عليه هو أن هذا النوع من الأفكار، رغم رنينه التعبوى فهو انهزامى بالنتيجة والضرورة. فهو يحاول تعبئة ما هو غير مهيأ للتعبئة. هل يمكن تعبئة المتخلفين؟ هل يمكن أن تكون قصارى الجهد

التعبوى هى التحريض دون قدرة على خوض المعركة؟ حصيلة مثل هذا التحريض هى تعبئة الغيظ المؤدى إلى الحماقة دون تعبئة الطاقة التى هى شرط الفعل ولزومه، وهو نوع من التعبئة لا يؤدى في أفضل الأحوال إلا إلى إحباط سلبي مصدره العجز. ويؤدى فى أسوئها إلى أن نجلب على أنفسنا هزيمة أخرى لا خلاف فى أننا فى غنى عنها.

أراد التحليل تأكيد أننا - بمعنانا الشامل - مسرح لصراع لسنا نحن أطرافه. أن الصراع يدور على مواردنا وموقعنا، لكنه لا يدور معنا، يدور بين المتنازعين على ما لدينا.

لا يعنى أى مما سبق أن ذلك التحليل هو القول الفصل. ولا يرمى إلى مصادرة اجتهادات أخرى قد تكون أدنى منه إلى الصواب.

لكن هذا الكاتب يتعلل بأمل ألا يكون اختلاف التحليل حاجبا عن رؤية مشاكلنا ووضع المسئولية عنها على كاهلنا، دون إنكار دور غيرنا ومسئوليتهم الجزئية عنها. دور الغير ومسئوليته عن بعض السبب، أو حتى السبب كله، لا تعنى مسئوليته عن معالجة ما ألحق بنا من ضرر، بل إنه يعتبر أن مصلحته هى إبقاء الوضع على ما هو عليه. هذا من ناحية، من الناحية الأخرى، لعلنا جميعا ندرك أن وهم أن الصراع دائر بيننا وبين هؤلاء الآخرين الأقوياء، يعنى أننا مهزومون سلفا، ما لم نواجه نحن مشاكلنا باعتبارها مسئوليتنا أولا وأخيرا.

●●●

٢ - إنه، فى نهاية المطاف الذى هو الشروع فى الجدل بادئا من السؤال الظاهر البساطة، يلزم أيضا قول إنه ليس للسؤال جواب جامع مانع، من المفترض أن تكون له أجوبة متعددة، بل عديدة. كلها قابل للنقاش، معظمها سليم وصحيح وكلها مفيد.

فالسؤال الظاهر البساطة لا يرمى إلى البحث عن ما اصطلحنا على وصفه بأنه «مشروع قومى شامل»، حسب عبارة من أطلقوه ومن شاركوا فيه. ويغامر كاتب هذه السطور بقول أن ذلك البحث كان عقيما وأن للمرء أن يعتبر الفراغ منه نعمة من النعم. ليس فقط لأن بعض من روجوا له ومن شاركوا فيه أوصلوه إلى إسفاف وصف مشروع «مترو الأنفاق» في القاهرة ومشروع تعميم الصرف الصحى، بأن واحدهما أو الآخر هو «المشروع القومى الشامل» الذى أجهد «المفكرون» أنفسهم فى البحث عنه. كان ذلك الإسفاف - لحسن الحظ - العلامة الساطعة على انعدام جدوى ذلك البحث. إنما كان مصدر انعدام الجدوى أن البحث استهدف التوصل إلى «أو فى الحقيقة: الرجم بـ» «مشروع قومى شامل» يضم العناصر الكاملة والنهائية لعلاج ما نعانى من مشاكل. لا يوجد أبدا، بالنسبة لأى بلد أو أى أمة - قوية أو ضعيفة، غنية أو فقيرة، خامدة أو متوهجة، قاعدة أو مقدامة - مشروع من هذا القبيل.

القصد من سؤال «ما العمل؟» هو استدراج التفكير حول «نقط البداية» المتعددة والمتنوعة التى يمكن أن ننطلق



من كل منها لمعالجة مشاكلنا وإعادة بناء رواسينا الوطنية قوية وراسخة، وفى الوقت نفسه موفورة الحيوية. الحيوية التى تجعلها قادرة على البناء علي ما تحقق، دون توقف. والتى توفر لها قدرة استيعاب ما يحيط بها من تغيرات: داخل حدودها وفى إقليمها وجواره وفى العالم الأوسع. وهى، كما لا يصعب أن نشاهد وندرك، تغيرات أصبحت فى هذا العصر سريعة ومتلاحقة. قدرة الاستيعاب التى تمنحها طاقة التكيف مع تلك التغيرات الحادثة والآتية دون ريب، سعيا إلى طاقة التأثير والإسهام والمشاركة فيها وليس مجرد التكيف معها. ربما تحتاج عبارة «نقط البداية» المتعددة والمتنوعة إلى أمثلة تساعد على توضيحها.

● قد يقول قائل، على نحو ما هو شائع فى أوساط المشتغلين بالسياسة إن نقطة البداية هى الديمقراطية بما تعنيه من انتخابات حرة ونزيهة وما يترتب عليها من إمكان تداول السلطة.

● وقد يقول آخر، بل إن نقطة البداية هى إنقاذ التعليم - محتواه ونظامه وكفاءته.

● وقد يقول ثالث، إنما هى تمكين الناس العاديين من شئونهم، أى تعميق الإدارة المحلية على قواعد ديمقراطية تؤدى إلى أوسع مشاركة فى تسيير الحياة اليومية للناس حيث تجرى.

● وقد يرى رابع أنه يجب البدء من إعادة رسم خريطة الطبوغرافيا السكانية للبلاد، على نحو ما يدعو الدكتور رشدى سعيد من نقل الكتلة الصناعية مع كتلتها البشرية إلى الصحراء، مع تحديثها، حيث تتوافر لها هناك مصادر الطاقة. ثم تحويل الدلتا ووادى النيل بعد تخليصهما من غول الصناعة وغيرها من أشكال إهدار الأرض وإفسادها وتدمير بيئتها، إلى «محمية طبيعية» لا تستخدم أرضها إلا للزراعة وإسكان المشتغلين بها وما يلزمهم من خدمات كالصحة والتعليم والترفيه.

● وقد يرى خامس أن نقطة البداية هى التأسيس لمحاسبة الناس للحاكمين عن طريق غرس اقتناع شامل بسيادة «دافع الضرائب» على المشتغلين بالإدارة، حيث الإدارة خدمة مدنية لا سلطة حكومية.

● وقد يرى سادس أن الخطوة الأولى يجب أن تكون العمل على استئصال الفساد المتغلغل فى حياتنا، حيث لم يعد محصورا فى فساد الإدارة، بل يكاد يصبح طريقة حياة وطبع مجتمع.

● وقد يرى آخر أن نقطة البداية هى تفكيك الدولة الأمنية التى أعلت أمن الدولة على أمن الوطن.

● وقد يرى سابع أن نقطة البداية هى الأخذ بأسباب العصر، أى بالتكنولوجيا المتقدمة.

● وقد يرى ثامن وتاسع أن البدء يجب أن يكون عودة إلى الدين أو التراث أو الأصول.

●●●

هذه كلها ، وغيرها كثير بالتأكيد «نقطة البداية» قد يوردها الجدل. والأرجح أن لا تغنى واحدة عن الأخرى.

انما هدف الجدل هو البحث عن

تناسقها وتراتبها وتتابعها - إن كان التتابع لازما - وفرز أى منها يؤسس للآخر وأى منها يُبنى عليه وأى منها ينبنى على غيره.

ومن مهمات الجدل حول «نقطة البداية» أن يكون مرمى الخلاف فيه هو التمحيص، لا البحث عن مواضع الاختلاف من أجل الشِّجار الذى يشتت الأفكار.

● ● ●

٣ - إن سؤال «ما العمل؟» ليس موجها فقط إلى المفكرين والمثقفين وقادة الرأى على تعدد مشاربهم واتجاهاتهم وتنوعها الخصب. إنه موجه - بالقدر نفسه وعلى قدم المساواة - إلى الناس جميعا فى هذا البلد، وقراء «الهلال» شريحة منهم، قد لا تمثل، لا قطاعا أفقيا ولا قطاعا رأسيا منهم. لكن هذا المنبر العتيد، بما فى تاريخه الحافل من أدوار فعالة فى تطور هذا البلد، ينعش أملا فى أن تلقى هذه الدعوة المتواضعة ما يفى ببعض غرضها من استجابات.

● ● ●

٤ - إن الجدل المبتغى لا يجوز أن يقتصر على مصر وشؤونها، وبالتالى، ليست الدعوة إلى خوض ذلك الجدل مقصورة على المصريين، بل على الجدل أن يدخل فى حسابه وأن تتطلع رؤيته إلى الإقليم الجغرافي - السياسى الذى تقع فيه مصر. عبارة «الإقليم الجغرافى - السياسى» مقصودة. القصد منها ألا يتفرع الجدل أو ينحرف إلى مسارب إيديولوجية حول هوية المنطقة، حول الهوية القومية العربية أو الهوية الإسلامية الأكثر اتساعا، أو حول طبيعة الهوية المصرية: عربية أم إسلامية أم وطنية مصرية تستغنى بنفسها معنويا عن غيرها.

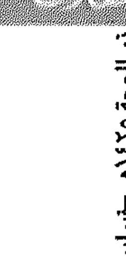
مراعاة الإقليم فى جدل حول المستقبل تعتمد إدراك أن صعوبة عزل الداخل عن الخارج متزايدة وستتزايد. وأن الإقليم هو الخارج المباشر واللصيق. وأن توسيع النظر في طرفى الأوضاع وتطوراتها المرغوبة وغير المرغوبة، المخططة من قبل الأطراف المعنية بالإقليم من داخله ومن خارجه، بخيرها وشرها، وما يأتى حصيلة للتطورات، من ناحية، وبين ممكنات معالجتها وعلاجها، بما يكتنفها من معوقات محتملة وما تعد به من جوائز، من الناحية الأخرى، من شأن توسيع النظر أن يقيل عثرات وأن يرعى مصالح تستحق الرعاية وأن يولد غيرها وأن يفتح آفاقا لا تنفتح إلا به.

● ● ●

حتى لا تبقى هذه الدعوة المتواضعة إلى «جدل حول المستقبل» معلّقة تنتظر استجابات تلقائية قد لا تأتى ممن يفترض أنها تعنيهم، إنما تأخذهم مشاغل الحياة مآخذها المألوفة، ستدعو، «الهلال» كتابها إلى خوض هذا الجدل، كما ستدعو سواهم من الكتاب والمفكرين العرب. وستنشر مساهماتهم تباعا فى قسم خاص يتكرر فى أعدادها التالية تحت عنوان «جدل حول المستقبل».

كما تعدو قراءها إلى المشاركة فى هذا الجدل.

لعله يؤول مآلا يؤدى إلى مبادرات عملية. ■



Goodbye America!

Globalisation, debt and the dollar empire

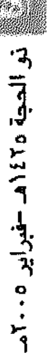
Michael Rowbotham



بعد الحرب العالمية الثانية بدأ الاستعمار الغربى ينحسر عن أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وكان حلم شعوب هذه القارات ودولها الناشئة أن تشهد مرحلة من التنمية والازدهار.. ولم لا وهى تتمتع بوفرة هائلة من ثرواتها الطبيعية..! وكان من المتوقع أن يأتى عالم الشمال الغنى بالخبرة والتكنولوجيا ورؤوس الأموال إلى هذه الدول، بحيث يصنع هذا التزاوج أزهى عصور التعاون وتبادل المنافع بين نصفى الكرة الأرضية : شمالها وجنوبها.

يعبر عن هذا الحلم «واين نافتسيجر» فى كتابه «أزمة الديون فى أفريقيا» بقوله : «لقد دخلت أفريقيا فى النصف الثانى من القرن العشرين بطموحات كبيرة» ويقتبس فى هذا السياق من «كوامى نكروما» الرئيس الأسبق لغانا كلاما كان قد صرح به سنة ١٩٥٥ حيث قال: «إذا حصلنا على الاستقلال فسوف نحوِّل ساحل الذهب (الاسم القديم لغانا) إلى جنة فى عشر سنوات فقط»، لكن هذا الحلم المبكر بالازدهار والتقدم أصبح يحكى الآن كما تحكى قصص الأطفال الخرافية، فقد انقلب حلم التنمية الأفريقية والتنمية فى دول العالم الثالث بصفة عامة إلى كابوس مروع مصحوب بأبشع صور المعاناة الإنسانية والمجاعات ، وأصبح ملايين البشر غرباء مهمشين فى أوطانهم يعيشون فى عشوائيات ويخوضون في مستنقع من الاقتصاد المدمر، الذى لم يفشل فحسب فى إمدادهم بالقوت الضرورى وإنما دمر كذلك ثقافتهم الخاصة، ونسف ماضيهم ومستقبلهم وآمالهم جميعا.

ويعقب على هذه الحالة «نافتسيجر» قائلا: هكذا تحول النهوض العظيم الذى



كان متوقعا لأفريقيا فى الستينات إلى ارتكاس عظيم».

من أين جاء الخطأ؟

هنا تبرز أمامنا أسئلة هامة: من أين جاء الخطأ؟ هل يكمن السبب فى أن الحلم لم يكن حلما واقعيا؟.. هل هو الانفجار السكانى؟ أو انعدام الكفاءة الاقتصادية؟. وهناك أسئلة أخرى كثيرة تجرى على أقلام الاقتصاديين دون أن يصلوا إلى إجابات شافية.

ولكن هناك اقتصاديين آخرين - ربما عددهم قليل - غير أنهم جميعا متفقون على إجابة واحدة هى : «لا» ، وعلى عكس ما يتصور الكثيرون، جاءت نتائج تحليلاتهم بحقيقة أجمعوا عليها وهى «أن دول العالم الثالث قد تم السطو عليها.. وأن الديون الحالية التى تنوء بها إنما هى مقياس هذا السطو، وهى السبب الرئيسى لفشل التنمية فى العالم الثالث. لم تكن الأحلام المبكرة بالازدهار والتقدم مبالغ فى مثاليتها إذن، وإنما يكمن الخطأ فى الطريقة التى اتبعت فى تنمية العالم الثالث ، وأن وراء هذا الخطأ الفاحش عدد من المؤسسات الاقتصادية والسياسية الدولية، عملت كلها على تحقيق مصالح الدول الغنية وشركاتها العملاقة على حساب دول العالم الثالث، وأن هذا الوضع هو الذى أدى إلى إشاعة الفقر وتفشى الفوضى الاجتماعية والاقتصادية بل أدى إلى فساد سياسى عارم.

هذه الرؤية التى قد تبدو - لأول وهلة - رؤية غريبة أو متمردة يتبناها عدد من الاقتصاديين الجدد، أبرزهم «مايكل روبثام» الذى سبق أن عرضنا له كتابا عن الاقتصاد الحديث بعنوان : «قبضة الموت» أرجع فيه علل هذا الاقتصاد إلى الديون والفوائد المركبة باعتبارهما الأصل فى خلق النقود وتداولها وهذا هو كتابه الثانى الذى خصصه للنظر فى ديون العالم الثالث تحت عنوان : «وداعا أمريكا!: العولمة والديون وإمبراطورية الدولار».

كيف نشأت أزمة الديون فى العالم الثالث ؟:

أنشئت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مؤسستان متكاملتان وظيفيا هما صندوق النقد الدولى والبنك الدولى.. كان هدفهما المعلن هو توفير رصيد من فائض أموال الدول الغنية لاستثماره فى تنمية الدول التى لديها مشروعات تنمية وينقصها التمويل الداخلى.. ومن أهم وظائف هاتين المؤسستين القيام بدراسة جدوى لمشروعات التنمية وتقديم

النصيحة بشأنها، وتوفير القروض اللازمة بشروط محددة يفترض أن تلتزم بتنفيذها الدول المقترضة ، لإصلاح اقتصادها الضعيف فيما عرف بمصطلح إعادة «الهيكلة الاقتصادية» لكى تصبح هذه الدول مؤهلة لاستقبال القروض.

وضع صندوق النقد والبنك الدوليين وصفة اقتصادية عامة افترضا أنها صالحة لكل الدول كما وضعا نموذجا للتنمية اعتبراه النموذج الأمثل للتنمية فى دول العالم الثالث، خلاصته فى عبارة واحد:

اقترض.. استثمر وانتج.. صدّر.. سدّد الديون.

هذا الاصلاح الاقتصادى الموصوف مؤسس على افتراض أن سبب أزمة دول العالم الثالث وتخلفها يكمن فى بنائها الاقتصادى الضعيف، ومن ثم على هذه الدول أن تقوم بتعديل اقتصادياتها لتتوافق مع الاقتصاد العالمى الأوسع، وجاء خبراء البنك والصندوق ليقوموا بهذا التعديل ويخضعوا مسار هذه الاقتصاديات لمتطلبات وإجراءات تفصيلية أدت إلى نتائج خطيرة يرصدها اقتصادى من العالم الثالث هو «بادى أونيمودى» حيث يقول: «لقد أدت سياسة التعديل الهيكلى إلى الاستغناء عن ملايين العمال، وإلى تخفيض مستمر لسعر العملة الوطنية أمام العملات العالمية، وإلى خصخصة القطاع العام، وفتح الأبواب على مصاريعها لدخول الشركات عابرة القارات، والقضاء على كل أنواع السيطرة الحكومية على الأجور والأسعار، وإلغاء دعم السلع اللازمة لمعيشة الفقراء.. وكانت النتيجة النهائية خلال العقود الأربعة الأخيرة فشل ذريع على طول الخط لسياسة الصندوق والبنك، وفشل كل المشروعات الاقتصادية التى وافقا عليها أو أشرفا على تنفيذها ، وترتب على تطبيق نموذج التنمية الموصوف لدول العالم الثالث تراكم فى ديونها، فلم تستطع دولة واحدة تسديد ديونها بل عجز بعضها حتى عن تسديد الأقساط فى مواعيدها، واضطرت إما إلى إعادة جدولة الأقساط، أو إلى مزيد من الاقتراض.

وانتهت بذلك أسطورة التنمية فى العالم الثالث لتتحول إلى كارثة اقتصادية وديون ترزح تحتها وتستنزف مواردها ودخلها الوطنى.

اتهام الدول المدينة :

بدلا من أن يعترف الصندوق والبنك الدوليان بأخطائهما الفاحشة يلقيان باللوم كله على الدول المدينة ويتهمانها بأربع تهم محددة ينسب إليها فشل المشروعات وعدم القدرة على تسديد

الديون:

١ - الضعف المزمن فى البنية الاقتصادية.. والدليل هو عدم القدرة على تسديد الديون..!

٢ - الفساد السياسى الذى تمارسه النخب الحاكمة فى دول العالم الثالث.. وتحويل قادة هذه الدول أموال المساعدات الاقتصادية والقروض إلى حسابات خاصة بأسمائهم الشخصية فى بنوك أجنبية.

٣ - هروب رأس المال المحلى للاستثمار فى الدول الغنية والمستقرة اقتصاديا.

٤ - الانفاق الباهظ على الأسلحة وبناء جيوش لا لزوم لها.

ولا يجادل «روبثام» كثيرا فى صحة هذه الاتهامات الموجهة إلى دول العالم الثالث خصوصا ما يتعلق بفساد النخب الحاكمة، ولا يستبعد أن تكون هذه المثالب من أسباب تفاقم أزمة الديون فى العالم الثالث، ولكنه يرفض رفضا قاطعا أن تكون هى السبب الأصلى فى الأزمة، وإنما يكمن السبب فى طبيعة النموذج المفروض على التنمية وفى النصائح والإجراءات الجبرية المفروضة من قبل البنك والصندوق، بل إنه يرى أن الفساد السياسى والفوضى الاجتماعية والاقتصادية المتفشية فى الدول المدينة ليست أسبابا وإنما هى نتائج حتمية لسياسات الصندوق والبنك، ويؤكد الحقيقة المخفية وراء كل الادعاءات والتى لا يصرح بها أحد، وهى أن القروض التى قدمت لم تكن . أبدا - بقصد أن تتمكن الدول المدينة من تسديدها وإنما لكى تبقى ديونا معلقة فى رقبتها إلى الأبد، ويزعم «روبثام» أن خبراء الصندوق والبنك أو على الأقل أصحاب القرارات الكبرى فيهما يعلمون أنها ديون غير قابلة «بطبيعتها» للتسديد.

وقد يتساءل سائل: لم هى غير قابلة للتسديد؟ والإجابة البسيطة المباشرة - عند «روبثام» هى : أن هذه الديون هى جزء أساسى من عملية الإمداد العالمى بالنقود.. قد تتمكن دولة هنا أو هناك من تسديد بعض ديونها ولكن فى الجملة ينبغى أن تبقى أرقام هذه الديون فى صعود متصل للحفاظ على الإمداد النقدى اللازم لحركة الاقتصاد العالمى.

من المسئول عن تدمير اقتصاديات الدول النامية ؟:

يقول «روبثام» إن التنمية القائمة على فكرة : (اقترض - استثمر - صدّر - سدّد الديون) تبدو شيئا معقولا كما يبدو مبدأ التجارة الحرة مبدأ عادلا،

كذلك فإن نظرية تدفق رأس المال تلقائيا من الدول الغنية إلى الدول النامية للاستثمار تبدو نظرية منطقية، ولكن الواقع العملى شىء آخر مختلف، فجميع هذه الأفكار والنظريات لا تعمل، والذى يعمل على الساحة فى واقع الأمر: منظمات عالمية تنشط فى تآزر وتنسيق كاملين، تحركها دول كبرى غنية فى مقدمتها أمريكا.

والسيناريو الذى يعبّر به عن هذه الحقيقة هو أن البنك والصندوق - بعد أن يكونا قد أوقعا الضحية فى شرك الديون.. وبعد أن تقوم الضحية بتنفيذ (روشتة) الصندوق الموصوفة للإصلاح والهيكلة، وبعد أن تتخلى عن كل سيطرتها باسم حرية التجارة، وبعد أن تبيع كل ممتلكاتها باسم الخصخصة، بعد كل هذا تهبط الشركات العالمية العملاقة كالغيلان فتلتهم الأراضى وامتيازات التنجيم والتنقيب، وتتحول شركات القطاع العام والخاص إلى ملكية هذه الشركات العملاقة، ثم تجد أسواقا مفتوحة لتصريف منتجاتها بلا قيود ولا ضرائب تذكر، كما تجد فى شعوب الدول المدينة جائزة إضافية هى العمالة الرخيصة.

هذه الشركات العملاقة تبلغ من ضخامتها وقوة نفوذها بحيث تبدو أمامها الحكومات الوطنية فى وضع هزيل غير قادرة على التصدى لها أو الحد من تأثيرها المدمر.

ويسوق «روبثام» عددا كبيرا من الأدلة والأمثلة على صحة رأيه فيما يتعلق بدور صندوق النقد الدولى والشركات العملاقة فى تدمير اقتصاديات دول العالم الثالث لا بالنسبة لنماذج التنمية التى بدت واعدة فى أول الأمر، بل أيضا بالنسبة لما عرف بمعجزة النمور الآسيوية .

لقد سبق إلى اكتشاف هذه الحقيقة مؤتمر معهد الاختيارات الإفريقية (IFAA) سنة ١٩٨٧ الذى طالب الدول الإفريقية بإغلاق مكاتب البنك والصندوق الدوليين، وأكد أن برامج التنمية الموصوفة تحت اسم (SAPS) قد تسببت فى بطالة بالجملة وانخفاض فى الدخل الوطنى وتضخم مالى مروع وهروب رءوس المال إلى الخارج وارتفاع مستمر فى الديون الخارجية، وحرمان الشعوب من الاحتياجات الأساسية للمعيشة وإفلاس للصناعات المحلية.

حتى قصص النجاح الأسطورى التى ذكرت عن غانا وساحل العلاج لم تكن أكثر من عملية تخفيف مؤقت أعقبها انهيار كامل فى منتصف عقد التسعينات من القرن العشرين، وكانت القطاعات

الأكـثـر تضـررا والأسـوء حـالا هى قطاعـات الزراعـة والصناعة والخدمـات الاجـتـمـاعـيـة. وقـد وقع العبء كله «لما سمي بالتعديلات الهيلكية» على كاهل الفقراء والطبقات الاجتماعية الضعيفة.

فـقـد اضطرت الحكومـات التى سقطت فى شرك الديون المتراكمة إلى خفض إنفاقها على المستشفيات العامة والتـعليم والدعم السلعى، وتدهور الاستثمار في الزراعة المحلية مصدر طعام الشعب، كما تدهورت الصناعة وركد البحث العلمى وتدهورت البنية الأساسية من الطرق والكهرباء.. وأدى هذا كله إلى بطالة عارمة تضخمت بسبب اقتلاع الفلاحين من الأرض التى كانوا يزرعونها بالمحاصيل المحلية لأنها خصصت لزراعة محاصيل للتصدير الخارجى بهدف تسديد الديون. وتسبب إلغاء الدعم الحكومى للسلع الشعبية الأساسية ، وتخفيض قيمة العملة المحلية فى الارتفاع السريع، لأسعار المواد الغذائية .

وكانت النتيجة النهائية لكل هذا انهيار مأساوى فى مستويات معيشة فئات من الطبقة المتوسطة الدنيا ألقيت فى مستنقع الفقر المتفشى.

ويضيف «روبثام» الى هذه الأوضاع المأساوية أربعة جرائم أخرى تصر على ارتكابها المؤسسات الدولية هى:

١ - محاولة علاج الديون بمزيد من الديون

٢ - استبدال بعض الديون ببيع القطاع العام، بمعنى أنه لكى تسدد دولة ما بعض ديونها تضطر الى التخلى عن ممتلكات الشعب من الأرض والمؤسسات الصناعية والمالية.

٣ - تدمير البيئة : إذ تضطر بعض الدول فى نضالها للتخلص من عبء ديونها لحرق غاباتها الطبيعية لكي تنشيء على أرضها الشركات العملاقة مشروعاتها كما حدث في دول أمريكا اللاتينية.

٤ - تفضيل النخب الغنية فى بلاد العالم الثالث الذين يشتركون مع الأجنبى بنصيب ما فى شراء القطاع العام بأسعار بخسة.

كارثة النمور الآسيوية

حققت أربعة من دول جنوب شرق آسيا هى تايوان وكوريا وماليزيا واندونيسيا نجاحا اقتصاديا بدا - لفترة من الزمن - شيئا مبهرا لفت أنظار العالم، وأخذت شعوب كثيرة تتطلع إلى أن تحذو حذوها، ولكن هذا النجاح المبهر لم يستمر طويلا ، إذ تمخض بين عشية

وضحاها عن انهيار مفاجىء وكارثة نسفت اسطورة النمور الأربعة. فما الذى حدث فى سيناريو النمور الآسيوية؟ باختصار شديد نذكر الحقائق التالية:

١ - انحساب هائل لرءوس الأموال الأجنبية

٢ - هبوط مفاجىء فى العملات وأسعار البورصات.

٣ - تحولت رءوس الأموال الهاربة إلى الدول الصناعية الكبرى مما أدى إلى تدعيم قوة هذه الدول اقتصاديا وماليا.

٤ - اضطرت النمور الآسيوية المجروحة الذهاب الى صندوق النقد بحثا عن قروض ضخمة فأصر من جانبه على ان تبيع هذه الدول شركاتها وتعيد هيكلة اقتصادها ، وهى نفس الروشتة الجهنمية التى يقدمها إلى كل دول العالم الثالث.

٥ - عاد رجال المال والأعمال من أوروبا وأمريكا مرة ثانية إلى ساحة النمور المنهكة، لا للاستثمار ولكن - فى هذه المرة - لشراء أكبر مؤسساتها الصناعية بأبخث الأسعار .

هذا النزيف الهائل والمفاجىء للثروات من أقصى الشرق إلى الدول الصناعية الكبرى فى الغرب قضى تماما على فكرة أن حرية التجارة تحقق المساواة بين الأمم. هذه الحقائق جعلت رجل دولة برازيلى شهير يقول: «إن الحرب العالمية الثالثة قد بدأت.. إنها حرب صامتة ولكنها لا تقل شراسة.. إنها تدمر البرازيل وأمريكا اللاتينية.. وعمليا كل بلاد العالم الثالث.. أكبر اسلحتها هى الفوائد البنكية، وهو سلاح أكثر خطرا من القنبلة الذرية».

أمريكا أيضا مدينة. ولكن!

يشير «روبثام» فى كتابه عن ديون العالم الثالث الى حقيقة أن أمريكا أيضا تعانى من عجز مزمن فى ميزانها التجارى، بمعنى آخر أنها تستورد أكثر مما تصدر بما قيمته السنوية مائة وخمسون بليون دولار. فإذا لم تضف الحكومة الأمريكية مبلغ ثلاثمائة بليون دولار سنويا بالاستدانة من البنوك فان فقدها للمال بسبب استيرادها الواسع من الخارج يمكن أن يجعلها تركع على ركبتها فى غضون بضعة أشهر، إن لم يكن فى خلال أسابيع. ذلك إذا كانت أمريكا مضطرة لأن تسدد ديونها بنفس الطريقة المفروضة على دول العالم الثالث، ولكن هذا لا يحدث فما الذى تفعله أمريكا مما لا تستطيعه الدول المدينة من العالم الثالث؟

سنرى من اجابة «روبثام» على هذا السؤال أن أمريكا لا تضع فى هذا المجال معجزات ولكن وضعها المتميز فى

العــالمْ هو الذى يوفـر لهـا الحـصـانة اللازمة من السقوط فنحن نعرف مركز الدولار العالمى من حيث اعتباره العملة المعيارية التى يقاس عليها قيمة العملات الأخرى، وكل ما تفعله أمريكا أنها تصك أطنانا من الدولارات الورقية وفى مقابل ذلك تفـتح أمـامـهـا ثروات العـالم بلا عوائق، والتحليل الحقيقى لهذا الوضع ينتهى الى حقيقة أن أمريكا فى مقابل عـملتـهـا الورقـيـة تحـصل على سلع وخدمات هائلة من العالم الخارجى ولا تسطيع دول العـالم الثـالث ان تصك دولارات ورقية والا ارتكبت بذلك جريمة التزوير.. كذلك تستخدم أمريكا (الدين العـام) لتـغطيـة العـجـز فى مـيـزانهـا التـجـارى. ولا يسـتطيع صندوق النقد الدولى أن يفرض عليها تغيير أو هيكلة نظامها الاقتصادى وفق وصفته المعهودة لكى تكون مؤهلة للاقتراض كما يفعل مع الدول المدينة فى العـالم الثـالث، وإنما يقرضـها كما تقرضـها البنوك الامريكية بلا قيود فهى تستطيع أن تستدين عندما تريد وتستطيع أن تؤجل دفع ديونها كما تشـتـهى ويبـقى اقـتـصـادها فى إطار السيطرة وتظل حـريتـهـا السـيـاسـيـة بلا مـسـاس من أى تدخل أجنبى.. وهذا مـا لا تسـتطيـعـه أى دولة أخرى فى العـالم الثالث.

عدم شرعية ديون العالم الثالث

تبلغ ديون العالم الثالث ٢.٣ تريليون دولار، ومـعنى هذا أن هذه الدول مـدينة بسلع ومنتجات تساوى فى قيمتها هذا المبلغ المذكور لدول أخرى فى هذا العـالم هى الدول الغنيـة الدائنة.. ولكن البـحث المتأنى لهذه العلاقة غير المتكافئة تكشف لنا عن حـقـيـقـة هامـة مـفـادها أن الدول المدينة قد قامت بتسليم الدول الدائنة سلع ومواد من ثرواتها الوطنية بما تزيد قيمته عن هذا الدين أضعـافا مـضاعـفة، والى جـانب هذا النزيف من الثـروة الوطنيـة اضطرت الى التـخلى عن كـثـيـر من الأراضى والصناعات الرئيسية وممتلكات القطاع العام . تم بيعها – قهرا – بأبخث الأسعار لشركات عملاقة تنتمى الى الدول الغنية والحقيقة كما تصورها «سوزان جورج» أن ديون العالم الثالث من الناحية العملية قد تم تسديدها بأكلمها وأصبح الشـمـال هو المدين للجنوب وإن تحـدثت أرقام الديون بعكس ذلك».

لذلك يرى «روبشـام» أن ديون العـالم الثـالث ديون غـيـر شـرعـيـة وأن هناك مـبـررات وحـجـج قـوية تدعم إلغـاء هذه الديون من أساسها وأن إلغاء هذه الديون ممكن دون ان تترتب عليه أى خسائر لأى

من الطرفين: الدائن أو المدين على السواء بل يمكن أن يحقق مصالح مشتركة للجميع، وصفها بالتفصيل فى كتابه كما أشار الى الاستراتيجيات التى يمكن اتباعها من إلغاء هذه الديون.. وهو يذكرنا دائما بأن هذه الديون - فى التحليل النهائى ليست أكثر من أرقام فى دفاتر البنوك الدولية!

وينصحنا «روبثام» ألا نصدق صيحات بعض الكتاب الذين يزعمون بأن ديون العالم الثالث تهدد النظام المالى العالمى، ولا مقولة، أن البنوك تريد تسديد هذه الديون، بل تحتاج البنوك الى مزيد من المقترضين ومزيد من الديون لأن هذا هو الأساس فى خلق النقود وضخها فى الاقتصاد العالمى، ولان تصاعد هذه الديون وبقاءها معلقة فى رقبة المدينين هو الوضع الأمثل لحركة الاقتصاد العالمى وازدهاره.

ويلفت نظرنا ايضا الى حقيقة هامة وهى أن قدرا من تدخل الدولة ضرورى ومطلوب لحماية الاقتصاد الوطنى من غوائل العولمة الزاحفة، ويرى أن إلغاء الديون الخارجية ممكن اذا عولجت مشكلات العولمة بالقوانين المحلية. كما يرى أن حرية التجارة لم تعد مجرد فكرة بل دينا وثنيا يتعبد به كثير من الناس، ويريدون فرضه على كل شعوب العالم لتكريس القهر والاستغلال.

والخلاصة فيما يرى «روبثام» هى: أن دراسة نظام التمويل الحديث تؤكد أن إلغاء ديون العالم الثالث أصبحت مبررة بدرجة أكبر بكثير مما كان ينظر إليها فى الماضى القريب، فالملف التاريخى والتحليل المالى يؤكد أن طبيعة ديون العالم الثالث تفتقر الى الشرعية، وأنها لا تمثل خطرا على الاقتصاد العالمى، وأنها ليست - كما يدعى بعض الخبراء - نتاجا ولا مقياسا لعدم أهلية البلاد المدينة ولا لفساد بها بقدر ماهى تعبير عن الفشل الذريع للمؤسسات الاقتصادية الدولية، وأن الدعوة السائدة الآن فى كتابات المصلحين الاقتصاديين الداعية الى إلغاء هذه الديون هى دعوة للاعتراف بفشل هذه المؤسسات فى سياساتها وتوجيهاتها.

وينبه «روبثام» الى : أنه رغم أن ديون العالم الثالث قد أصبحت بلا سند شرعى إلا انه لابد من تآزر الجهود الدولية لإلغائها.

ويرى أن استمرار وجودها والآثار المدمرة التى تترتب عليها رغم الجهود الاقتصادية التى بذلتها دول العالم الثالث هو أمر غير مبرر اقتصاديا او أخلاقيا أو إنسانيا. ■

سعد زهران
ومذكراته سجيناً

بقلم
د. الطاهر أحمد مكي

كنت يوما ذا شباب يافع ومستقبل مرموق ... وذات يوم قررت الانضمام إلى الجموع الثائرة ... ولم أكتف بذلك فجازفت بالعمل في السراديب.. ثم قضيت من حياتي خمسة وعشرين عاما في السجن .

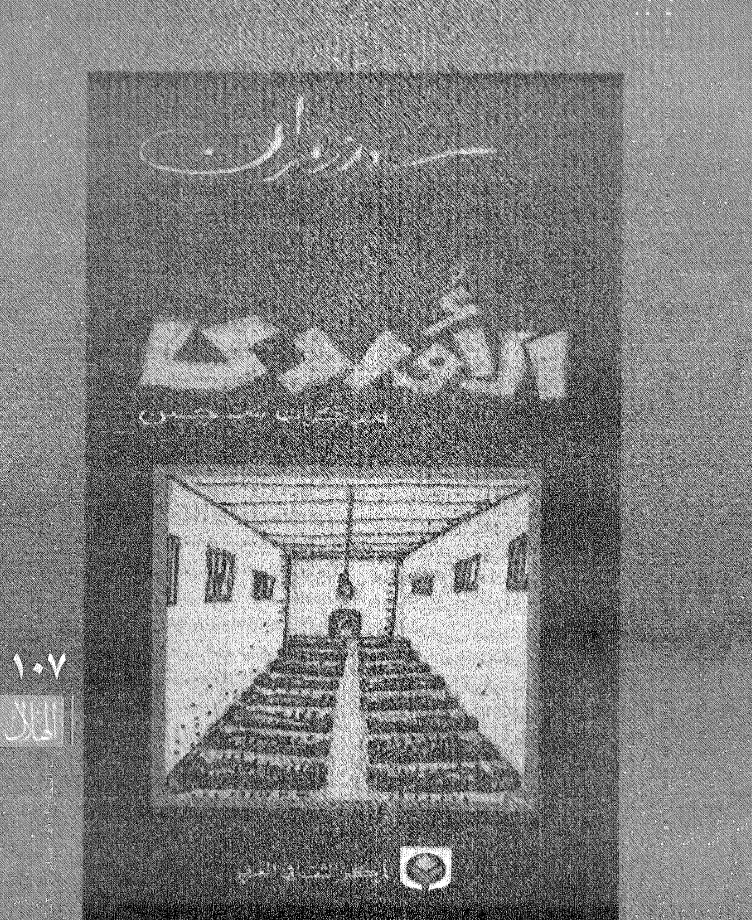
وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز الخمسين، وبعطف من البعض ألحقت بوظيفة بمرتب مبتدئ، وعما قريب سأترك الخدمة دون أن أستحق معاشا وقد فاتني الحب والزواج والأسرة، وإذا امتد بي العمر فلا مفر من التشرد والجوع.

– لكنك بطل!

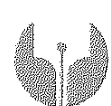
– لا يذكرني اليوم أحد!

– لا أصدقاء لك؟

– منهم من قتل في الثورة، ومنهم من تبوأ يوما الوزارة، فبعد ما بيني وبينه .



نجيب محفوظ: قصة «عنبر لولو» صيف ١٩٦٧



كأنما عنى نجيب محفوظ وهو يكتب قصته تلك شخوص مذكرات سعد زهران، فبعضهم قتل، والبعض أصبح وزيرا، والآخرون لا يذكرهم أحد، أو كان نصيبهم الجوع والتشرد، وقبل أن أعرض للمذكرات نفسها، ونظلمها حين نسجنها فى هذا المصطلح، فهى تتجاوزه لتصبح ببنائها ولغتها وأحداثها رواية توثيقية فإن كاتبها يستحق منى شهادة موجزة.

عرفت سعد زهران قبل نصف قرن من الزمان، إلتقينا ثلاث مرات: الأولى فى نادى المعلمين فى الجزيرة صيف عام ١٩٥٣ ، حيث يلتقى الشباب من كل الاتجاهات، أخوان مسلمون وشيوعيون، وما بينهما من تيارات تتفاوت ثورية وعنفا، أو لا تبالي بشئ، تتحرك علانية أو تمارس نشاطها تحت الأرض، وجرى الحوار بيننا هادئا عنيدا، حول قانون الإصلاح الزراعى. كان سعد يهاجمه بشدة، ويرى أن مصادرة أراضى كبار الملاك يجب أن تتم دون تعويض، وأن تعطى الأرض للفلاحين بلا مقابل، وهو اتجاه تبناه الشيوعيون إذ ذاك، وكنت أرى أن الملاك مواطنون أيضا، وأن اضطهادهم ودفعهم إلى التشرد لا مبرر له، ويكفى تجريدهم من القوة التى يملكونها حتى لا ينقضوا على النظام الجديد، وعلى الدولة أن توفر لهم حياة كريمة فى غير سرف، كما أن إعطاء الفلاحين الأرض بلا مقابل يقعد بهم عن الجد فى زراعتها والحفاظ عليها، ورجح لدى أن الشيوعيين يرون فى قوانين العدل الاجتماعى التى تبنتها الحركة العسكرية ، ولما تصبح ثورة بعد، قد يحرمهم من الشعبية التى يتمتعون بها بين أوساط العمال والفلاحين.

شاب قوي

لم يكن الحوار مع سعد زهران سهلا كان شابا فارعا، قوى العضلات، متين البنيان، متوهج الفكر، حاضر الذاكرة، محاور جيد، يحاصر من يواجهه بالمنطق والحجة، ومع أننى لم أكن أعرف أنه من قيادات «حدتو» (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى)، خالطنى هاجس بأنه ينتمى إلى إحدى الحركات الشيوعية المتعددة التى كانت تعرفها الحياة السياسية فى وطنى إذ ذاك. ولم يعرف هو أيضا أننى مررت بالحركة ولما أزل تلميذا بالمرحلة الثانوية أعوام ١٩٤٦، ١٩٤٨، وأننى فارقتها فى أبريل من هذا العام الأخير محتجا على منشور نزل إلينا من القيادة، وطلب منا تنفيذه: أن نحتج ونعبئ الرأى العام ضد دخول الجيوش العربية فلسطين للدفاع عن عروبتها، لأن إسرائيل سوف تصبح قاعدة الديمقراطية فى الشرق الأوسط، ونقطة انطلاق فاعلة لنشر الشيوعية وحماية حقوق العمال، وكان هذا آخر عهدى بالحزب، وإن ظل إيمانى قويا على الدوام بضرورة حماية المطحونين فى وطنى، وتهيئة حياة كريمة لهم، والدفاع عن العمال من تغوّل رأس المال،

والفلاحين من بطش كبار ملاك الأراضى، وهو إيمان أحسبه اليوم أقوى، والحاجة إليه أمس مما كان بالأمس البعيد.

خلال الحوار التقط سعد عنوان سكنى، لم يدونه فى ورقة، ولم يسأل عنه مباشرة ولم يكن بيتى فى شارع مشهور، وفوجئت به بعد أيام يطرق بابى زائرا، وقال إنه جاء يزورنى لنستكمل الحوار الذى بدأناه فى نادى المعلمين على مهل. لا أذكر من تفاصيل ذلك الحوار شيئا، ومؤكد أنه كان يهدف إلى تجنيدى أو إعادة تجنيدى إذا شئت، ولكن الأمر استعصى عليه، ولم نتقابل مرة أخرى، ففى اللحظة التى أطبقت عليه أبواب السجن كنت آخذ طريقى إلى إسبانيا مبتعثا فى رحلة دراسية، وبقى من اللقاء إعجاب استقر فى أعماقى، إكبارا وتقديرا لشاب وحيد الساق، تحمل هذا الجهد المضنى ماشيا مسافات طويلة لكى يصل إلىَّ، من أجل أن يجندنى فى حزبه فردا.

ومرت سنوات طويلة، تعاورتنا أحداث متباينة، قاسية مريرة أحيانا، وبهجة مشرقة أحيانا أخرى. عدت أنا إلى القاهرة عام ١٩٦٤ وأفرج عن المعتقلين الشيوعيين فى العام نفسه، وكانت السنوات التى تلت هذا أقسى ما مر على المصريين جميعا فى تاريخهم الحديث: الانفصال وتمزق الجمهورية العربية المتحدة، والحصار الاقتصادى، ونمو سرطان المخابرات والمباحث العامة وازدياد شراستهما، وتوج ذلك كله هزيمة ندفع ثمنها أوطانا وجماعات وأفرادا حتى يومنا.

طوال هذه المدة لم نلتق فى مصر، وغابت عنى أخباره، إذ كان علينا أن نحترس فى خطانا وأن نتبين متى نلتقى وأين، وفى أى أمر نتحدث ومع من ، وكل من فى مصر ملاحقون وموضع الظن والشبهة: اليساريون، والليبراليون والإخوان المسلمون ، وليس فى الساحة السياسية مكان لغير المنافقين والمطبلين والكذابين، ومن نسوا لون السماء لكثرة الانحناء على حد تعبير محمد مهدى الجواهرى شاعر العراق العظيم.

شرخ فى جدار الخوف

بعد الهزيمة مباشرة حدث شرخ فى جدار الخوف، اهتزت سلطة القهر، وبدأ المصريون يفرون بحرياتهم، ومن فقرهم أيضا، ليعملوا فى أى مكان خارج مصر، وجاء نجاحهم ماهرا فى كل موطن عملوا فيه، وكان فرارى مع آخرين من مهن وتخصصات مختلفة أن نذهب إلى الجزائر، وأغلبنا يشعر فى أعماقه أنه يقوم بعمل قومى، فقد أصبحت الجزائر سندا قويا لأمتها العربية والإسلامية، رغم ما واجهت من صعاب، وشهدت فى ذلك الوقت آلاف المدرسين المصريين ومئات الأساتذة الجامعيين يعملون فى تعريب التعليم ويحررون الألسنة من اللغة الفرنسية بعد أن تحرر الوطن من الجنود، وتدفع مصر مرتباتهم رغم الظروف التى تمر بها عن طيب

خاطر ورضا.

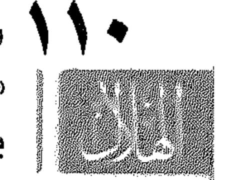
وجاء آخرون بعقود خاصة ليعملوا في المستشفيات والمؤسسات الأهلية، أطباء ومهندسين وصحفيين وإعلاميين، ووسط هذا الخليط المتلاطم تلتقي بكل ألوان الطيف: فضلاء ملتزمين وتجار مدلسين، وسياسيين من شراذم الاتحاد الاشتراكي، أو انتهازيين قفزوا من السفينة قبل أن تغرق.

لقاء جديد

في هذا الجو التقيت بسعد زهران من جديد، في النصف الأول من عام ١٩٦٩ في منتجع «بن عكنون» حيث ننزل مؤقتا فعرفته وأنست إليه، ولا أدرى إن كان ذكرني أم غم الأمر عليه، فعشر سنوات سجنا في تلك الأيام تنسى المرء اسمه، ولكنه على أي حال ارتاح إليَّ، أو هكذا بدا لي، وأشهد أن ما شدني إليه هو الصلابة التي اتسم بها، وتمسكه بمبادئه فلم يساوم عليها، وهذا ما جاء به إلى الجزائر، وما أكثر الذين تساقطوا في الطريق، باعوا تاريخهم ونضالهم، وخرجوا من السجون والمعتقلات ليعملوا «بصاصين» على رفاق الأمس، يترصدون خطاهم، ويسودون الصحائف عن تحركاتهم، ويشهدون عليهم إذا تطلب الأمر، وبينهم أساتذة جامعيون شاركوا في عمليات غسيل المخ التي تجرى على الشباب، يساريين أو من الأخوان المسلمين، مقابل وزارة هزيلة يتولاها لعام أو اثنين، فلما أفلتت منهم جاءوا الجزائر ساخطين، وبرئ سعد من ظاهرة تحول عدد من اليساريين والأخوان المسلمين، في أخريات حياتهم، إلى برجوازيين يحبون الترف، ويعشقون الثراء الفاحش، ويتسمون بالبخل الشديد، دون أن يقيموا لطهارة الوسيلة حسابا، واكتفى بأن يعمل محررا للشئون الخارجية في صحيفة المجاهد الأسبوعية، وأحسب أنه صنع هذا ليكون بمنأى عن القضايا الداخلية، وحولها يختلف الرأى دائما، ولا يحب أن يكون محسوبا لأحد، ولا على اتجاه بعينه.

في أمسيات «بن عكنون» قص عليّ سعد زهران الكثير مما تضمنته مذكراته في خطوطها الرئيسية وآراء أخرى لم ترد فيها مباشرة، وإن كان القارئ الذكي يستطيع أن يستنتج بعضها مما يقرأ، وتسجل الصفحة الأخيرة من المذكرات أنه حررها في العام نفسه الذى كان يقصها عليَّ ١٩٦٨ - ١٩٦٩، أتبعها بملحق محدود الصفحات، يتضمن وصفا للسجن مبنى وآليات عمل، وبعض الرسوم التوضيحية، وأحسب أنها بقلم الكاتب نفسه.

من حيث المحتوى ذهب التعذيب البشع الذى كان يصب على رءوس السجناء بأكبر قدر من الوصف والتفصيل والدقة، أفاض في ذكر وسائله وأنواعه: السباب والضرب بالشوم والحبس الانفرادى في الزنازين، وكسر الزلط في الجبل، والطعام القذر المختلط بالذباب، واستخدام كل ما من شأنه تدمير نفسيات السجناء وهزيمتهم داخليا وخطط له خبراء متخصصون، وعلماء



نفسيون متمكنون، ويمارسه ضباط وأطباء وعساكر وممرضون ماتت فى نفوسهم كل نوازع الإنسانية، ليسوا أسوياء فى سلوكهم العادى، ومن له إلمام بعلم النفس الذى يدرس الجريمة يعرف أن المخنثين ومن يفتقدون الرجولة، والمثليون السلبيون من أقسى البشر إذا واتتهم الفرصة.

الجثة تتحرك

فى إحدى الليالى اشتد المرض على سجين، فصاح زملاؤه يطلبون الدكتور... تمت الإجراءات فعلا تحت ضغط الصياح والضجيج الكبير الذى قام به المسجونون، ولكن بعد أن دخل الطبيب زنزانة السجين وفحصه وجد أن الوقت فات، وأن السجين قد فارق الحياة، فحرر محضرا بذلك وانصرف، على أن تتم فى الصباح بقية الإجراءات، وأهمها نقل السجين المتوفى إلى مشرحة السجن، لتشريح الجثة والتحقق من أن سبب الوفاة كان طبيعيا، أى ليس نتيجة اعتداء أو تسمم ، والمفروض أن الطبيب هو الذى يقوم بها، ولكن العادة جرت بأن يتركها «للتمورجى» ، ويكتفى هو بالتوقيع على الأوراق.

فى الصباح وصل الشاويش أمين إلى السجن ليجد جثة المتوفى تنتظر التشريح، ولكن حين ضرب المشرط فى بطن المتوفى بدأت الجثة تتحرك. أدرك الشاويش بسرعة أن الطبيب أخطأ فى تشخيص الحالة، لم يكن السجين قد توفى، وإنما كان فى حالة غيبوبة بسبب شدة المرض، فلما ضرب المشرط فى أحشائه حركه الألم.

لم يتردد الشاويش لحظة، اتجهت يداه المهولتان بسرعة نحو عنق السجين، وكتم أنفاسه حتى أجهز عليه، وهو يصيح بانفعال شديد: أرقد يا ابن الكلب! ارقد! الدكتور كتب فى الأوراق الرسمية أنك مت، موت يا ابن الكلب حتعمل مشكلة للدكتور، موت، موت!

يذكر سعد رفاقه فى المعتقل بأسمائهم صريحة دائما، عمالا بسطاء مغمورين، تبخر ذكرهم مع الزمن، تعرف ذلك من وصفه لهم، أو حين يورد حوارهم معه بالعامية، مستجيبا لقواعد الفن فى بعض اتجاهاته، وأطباء وصيادلة ومهندسين وأساتذة جامعيين، ومن أسلوبه فى تناولهم تدرك الذين يتعاطف معهم، والذين له رأى مختلف فيهم، ومن أراد أن يعرى واقعهم، أو يلمح إلى أنهم انضموا إلى الأحزاب الشيوعية خطأ، أو أرادوها مركبا لأهداف أخرى، ولكنهم لم يتخلصوا من الأنانية، ومن رواسب البرجوازية المستقرة فى أعماقهم، ودعما لرأيه، وربما تسترا بالموضوعية، قد يأتى بما يريد أن يقرر على لسان سجناء آخرين، والنموذج الأوضح لهذا تصويره للدكتور فؤاد مرسى، والذى أصبح وزيرا للتموين والتجارة الخارجية فى وزارة د. عزيز صدقى الأولى، التى تألفت فى ١٧ يناير ١٩٧٢، ولم تدم غير شهر وعام واحد، فقد تغيرت فى ٢٧ مارس ١٩٧٣، وكان

هذا آخر عهده بمنصب وزير.

لماذا جاءوا به؟ ولماذا أخرجوه؟ لا أحد يعرف لأن الوزراء في مصر لا يؤخذ رأيهم حين يختارون، ولا يستشارون حين يفصلون، وهم في كلتا الحالتين يخضعون لإرادة الآخرين.

الدكتور فؤاد مرسى

كيف صورت المذكرات الشيوعي الذي أصبح وزيرا في عهد السادات بعد خروجه من المعتقل بثماني سنوات؟

ينقل المؤلف القصة التالية عن عامل اسمه خضر:

«كان آخر عهدي بالدكتور فؤاد مرسي في معتقل القلعة «بيه». في عصر كل يوم يخرج يتمشى في حوش المعتقل، وهو يلبس بذلته الأنيقة، وأحيانا - وعلى سبيل التبسط - كان يرتدي فوق البنطلون والقميص روب دي شامبر أنيقا، من الصوف. وأحيانا - إمعانا في التبسط - كان يلبس قبقابا «يطرقع» به زهوا على الأرضية الحجرية لفناء المعتقل، كان وجهه دائما متألقا تظهر عليه النعمة، ذقنه حليقة، نظارته لامعة، يحف به الدكتور إسماعيل صبري من يمين، وسعد زهران من يسار، وهو يتبادل الحديث معهما موزعا الابتسامات والتحيات الوقورة الباشة على جمهور الرفاق.

كان هذا آخر عهدي به، في معتقل القلعة حتى مارس ١٩٥٩.

«ثم تفرقت بنا السبل، إلى أن ذهبنا إلى الأوردي (ليمان أبو زعبل) في منتصف يونيو ١٩٦٠... ولاحظت أن نشاطا بدأ يدب بينهم، وأنهم أخذوا يتبادلون حديثا هامسا مع أحدهم بالخارج وقال أحدهم: هذا هو الدكتور فؤاد.

دفعني الفضول إلى الإسراع والتعلق بقضبان الشباك لأرى الدكتور فؤاد، أو غيره، لأتبادل معه كلمة أو كلمتين حول الوضع القائم في هذا السجن العجيب... وحين أطللت بنظري رأيت اثنين من المساجين يلبسان ملابس مصفرة وممزقة، الأرجح أن لونهما كان أبيض كان أحدهما يتطلع يمينا ويسارا يرقب الطريق ليحذر الآخر إن ظهر أحد من السجانين، وكان الآخر يتلفت أيضا لا لهدف واضح، ولكن بمجرد دفع القلق والذعر، ثم يندفع ناحية الحائط المقابل، حيث توجد كومة من القمامة التي أخرجناها من عندنا في الصباح فينبش كومة القمامة ليخرج كسرات من الخبز ينفض عنها التراب، ثم يدسها في حلق بنطلونه.. كان قصير القامة، ذراعاه طويلان يتدليان مترهلين إلى قرب ركبتيه، يتحرك حركات عصبية غريبة، وبعد أن يختطف كسرات الخبز من القمامة يهرول إلى موقع المسجون الآخر، ويتلفت يمنة ويسرة، ويقضم في نهم قضمة من كسرة في يده ثم يستدبر مهرولا ناحية كومة القمامة مرة أخرى.

ولكني لم ألبث أن تنبهت وسألت: ولكن أين الدكتور فؤاد؟

فأجاب: هاهو.

نظرت إلى حيث يشير، فإذا به يشير

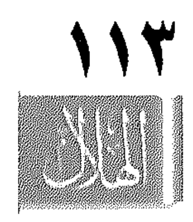
إلى المسجون القصير، الممزق الثياب الذى ينبش فى كومة القمامة ... إنه الدكتور فؤاد!

حين يضرب المفتاح فى الباب كان الدكتور فؤاد ينطلق إلى الخارج، يجرى كأحسن ما يجرى الآخرون، وفى طابور الرياضة كان يدور فى فناء السجن عدوا مع الآخرين تحت وقع الشوم كأحسن ما يكون، وفى الجبل كان يملأ غلقه ترابا ويحمله ويجرى به إلى أكوام التشوين كأحسن ما يكون، وفى طابور الغداء كان يجرى حيث توضع قراوانات اليمك ويختطف قروانتـه من على الأرض ويحملها عائدا عدوا، كل ذلك كأحسن ما يكون ولكن بعد أن يكتمل عقد المعتقلين فى العنبر، وينصرف الشاويش، فإن الدكتور فؤاد ، لأسابيع عديدة، كان يفقد فى لحظة كل قدرة على الوقوف على ساقيه، كان يجلس فى مكانه، وإذا أراد أن ينتقل حتى إلى دورة المياه، كان لابد من أحد يحمله.. ويظل على تلك الحال إلى أن يسمع صوت ضربة المفتاح فى الباب فيهب من قعدته وينطلق يجرى كأسرع وأحسن ما يكون.

ربما كانت عينا فؤاد مرسى أشد وطأة على نفسى من الجميع .بعد أيام معدودة كان وجهه الممتلئ اللامع قد أصبح عظميا مغبرا، عليه بقع بيضاء كالجير الممزوج بالتراب، وبرزت عظام جبهته ونتأت عظمتا وجنتيه، وأسفل الجبهة البارزة ظهر حاجباه أشد ما يكون كثافة، وأسفل المحجرين الواسعين ارتسمت هالتان زرقاوان سوداوان ، وتحيط لحية كثيفة وخط فيها شيب سريع بوجه شبه ميت، وتزيد النظارة السميكة الداكنة من الجو المظلم المحيط بالعينين اللتين أصفر بياضهما، وصغرت فى داخلهما حدقتان رماديتان منطفئتان، لا تعرف حين تنظر فيهما إن كان ينظر إليك أو لا ينظر إلى أى شئ على الإطلاق، وحين تتحرك حنجرته إلى أعلى وترجح أنه ربما ينظر إليك ، ويهم بالحديث معك، فإذا بتلك الكحة المكتومة المبحوحة العصبية تخرج من فمه، كأنها حشرجة جريح يحتضر، وتتذكر أن فؤاد مرسى كان قد أصبح قليل الكلام لدرجة تدعو إلى الفزع».

وفى لغة دقيقة متحفظة ولكنها تشى بالكثير ، يقدم لنا الدكتور لويس عوض متهما بالشيوعية ومعتقلا مع الشيوعيين يقول:

«كان الدكتور لويس عوض يجلس إلى جوارى ونحن منهمكان فى ترميم الملابس وتطبيقها ، وهو يجيب على أسئلتى المتتابعة المستطلعة ، مستشهدا فى حديثه بأقوال من كتابات الإغريق وأدبائهم ، مقارنا بين الأساطير الإغريقية القديمة وما يفترضه من أصولها الفرعونية وفروعها المسيحية، محاولا أن يستشف من الفولكلور المصرى السرمدى منابعه الحضارية القديمة، عازفا عن الإجابة عن أسئلتى المتكررة عن الجهد الذى قام به لنقل بعض تراث الأدب الإنجليزى، من



شكسبيرى وعصرى ، إلى القارئ العربى ، مفضلا على هذا الموضوع تأملات عريضة فى الأصول القومية للحضارة المصرية وللثقافة الهيلينية»

وأذكر أن الحديث تطرق إلى سياسة التعليم، وأننا اختلفنا حول هذا الموضوع مثلما اختلفنا حول كثير غيره، وتنبهت فجأة أثناء الحديث حين استوقفتنى كلمة قالها ردا على سؤال لى عن الأصل فى موقفه من بعض المشكلات ، قال:

– أصلى أنا أرستقراطى.

استوقفتنى المفارقة ، فاستفسرت لكى أزداد تأكيدا:

– ماذا تقول؟

فرد وهو يؤكد مخارج ألفاظه:

– أنا أصلى أرستقراطى.

ودارت عينى فى أرجاء غرفة الترميم مرة أخرى، لأعيد النظر فى ذلك السيناريو السريالى الذى يحتضن ذلك الأرستوقراطى الجالس إلى جوارى، وأصابعه تغوص فى الوسخ الرطب لأسمال المعتقلين، وعيناه المحولتان الجاحظتان تبرقان من خلف نظارة متسخة سميكة مربوطة بخيوط وأسلاك، ووجهه الضامر الأسمر الأصفر يفيض هزالا ، وأنفه المديب يسيل بشكل لا ينقطع وهو لا يكاد يلاحقه مسحا بكم «جاكتته» المتهرئ المتسخ المصفر.. أذهلتنى المفارقة حينا عن متابعة حديثه المتدفق حيث خيل إلىَّ وأنا أتابعه بعينين ذاهلتين أنه يحدث نفسه بصوت غريب لا يسمعه إلا هو.

صاح الشاويش بأعلى صوته الأجش الحاد:

اسمع يا واد إنت.. إنت بتفهم؟

قلت:

– نعم؟ أنا يا فندى؟

رد قائلا وهو يمد يده ليقبض على معصم الدكتور لويس:

لأ، أنا مش باكلمك أنت، أنا باسأل الواد ده.

فرد الدكتور لويس متلعثما:

أيوه.. أيوه يا فندى.

طيب قوم.. قوم معايا.

ثم توقف الشاويش وهو فى طريقه إلى الخارج ، وأدار بصره فى وجوه الجالسين ، وكل واحد يحاول أن يخفى وجهه متمنيا أن تمر المسألة على خير ، ثم صاح ، وهو يشير بأصبعه إلى الدكتور فؤاد مرسى.

– وانت يا واد.. أنت بتفهم؟

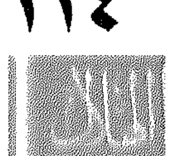
ورد الدكتور فؤاد ، وهو يهب واقفا:

أيو يا فندى..

تعال معايا أنت كمان.

وبعد انصرافهم تساءلنا عن السبب الذى يجعل الشاويش يبحث عن اللى بيفهموا ، وكيف أن هذين الاثنين بالتحديد هما أكثر الجميع فهما هل أخبره أحد أم أنها الفراسة؟

على أى حال لم يطل الانتظار ، فبعد دقائق عاد الشاويش يسوق الاثنين أمامه، وقف قليلا ثم انصرف . ولاذ الدكتور لويس والدكتور فؤاد بالصمت المطبق على غير العادة ولم تنجح أى



محاولة لحملهما على الكلام ، ولكن الدكتور جميل حقى وهو صيدلى، سرد الجانب الآخر من القصة.

دكتور سباك

فى ذلك اليوم وقع اختيار الشاويش على الدكتور جميل، لكى يسلك المجارى التى كانت قد سدت وطفحت خلف العنابر، وقام الدكتور جميل بفتح غطاء «البكابورت» ونزل بساقيه فى الوسخ إلى حيث المجارى المسدودة، ومعه سلك طويل يحاول علاج الحالة ، ورغم توجيهات الشاويش باءت المحاولات كلها بالفشل وظلت المجارى مسدودة عندئذ تجرأ الدكتور جميل وقال للشاويش إن التسليك لا يجب أن يتم فى هذا المكان ولا بتلك الطريقة ، ولحسم الخلاف وجد الشاويش أن خير طريقة هى انتداب العيال اللى بتفهم لإبداء الرأى والمشورة وجاءت مشورتهما بما يرضى الشاويش ويتفق مع وجهه نظره تماما.

وجاء ذكر الدكتور إسماعيل مرتين، الأولى عارضة حين أشار إلى محمود العالم، وكيف كان إلى جانب إسماعيل صبرى يرتديان الطاقية بطريقة تغطى نصف الوجه حتى تهرب عيونهما مختفية تحت الحافة الممزقة المتدلية، وخلف النظارات السميكة . والثانية فى موقف عظيم بالغ الجلال ، عندما اختاره الضابط بعد التدريبات الرياضية وسأله:

– أنت تعرف نشيد الله أكبر.. وتعرف تغنيه؟

– إحنا نعرفه وننشده فى المناسبات الوطنية ولكن ليس فى مثل هذه الأوضاع ولا بتلك الطريقة، نحن لا ننشد هذا النشيد ونحن مكبلون بالأغلال ، هذا امتهان للنشيد . فتقدم الضابط على رأس مجموعة من السجانين ، وانهالوا عليه بالشوم ، وخر على الأرض تحت ركلات الأحذية حتى سالت دماؤه . نظر اسماعيل إلى الضابط وقال:

– لو كنت رجلا أخرج مسدسك وأطلق علىَّ :

قال الضابط: سأجعلك عبرة فى الجبل فى ذلك اليوم فى الجبل، وضع إسماعيل وسط الحلقة وانهال عليه السجانة ضربا كان المطلوب أنْ يصرخ ، ولكنه وضع طاقيته بين أسنانه وكتم صوته.

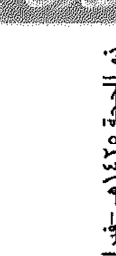
بدا أن السجناء يتأهبون لعمل شئ جماعى، فأمر الضابط بوقف الضرب، وبعدها لم يعودوا يجبرونهم على الإنشاد نهائيا.

عاد الزملاء إلى العنبر ، وإسماعيل يتوكأ على اثنين منهم ، وهو فى حالة إعياء كامل ، والدماء تنزف منه.

فى اليوم التالى عندما فتح العنبر ونودى على طابور العمل ، انطلق المعتقلون عدوا خارجه وظل إسماعيل جالسا فى مكانه ، فقد كان فى حالة لا تسمح له بمجرد الجلوس إلا بصعوبة بالغة . خلال العنبر وساد صمت حزين، قلت:

– ازيك يا إسماعيل، شد حيلك.

رفع إسماعيل وجهه نحوى ، كان من



الصعب تبين ملامحه تحت الجروح والأورام والكدمات والرضوض الحمراء والقرمزية التي تبقع وجهه وتبينت أو هكذا خيل إليّ أن شبح ابتسامة تطفو فوق ذلك التشويه المروع عندئذ تنبهت إلى صوت أقدام خفيفة.. أدركت الضابط حسن منير.

بعد لحظات اقتحم السجان العنبر وزعق في إسماعيل لكي ينزل مع طابور العمل إلى الجبل ، وكان من الصعب عليّ أن أتابع السجان وهو يجره إلى الخارج، بينما هو لا يكاد يحتمل الوقوف على قدميه المتورمتين الداميتين العاجزتين وفي الجبل لم يتوقفوا عن ضربه أمام جميع المعتقلين ولما أصبح كسيحا تماما وضعوه في حلقة من حجارة البازلت الأسود ، ووضعوا في يده قادوما يدق به ويكسر الزلط دون توقف.

أما سعد نفسه فتلقى الجزاء على تعبير «شد حيلك» خمسة أيام في الزنزانة أمضاها واقفا على ساق واحدة ومعاناته خلالها يطول وصفها ، وأنصح بقراءتها في الكتاب ص٦١ إلى ص ٧٤.

نلتقي بشخصية سعد زهران عبر صفحات المذكرات ثابت المبدأ ، صلب الموقف إنسانا في سلوكه بقدر ما تسمح به ظروف، معتقل ، متى بكى، ومتى تمنى الموت، وله فيه وحوله خواطر ترتقي إلى مرتبة عالية من التفكير.

ومع أن الكتاب يحمل عنوان «الأوردي مذكرات سجين» فهو نص من الأدب الروائي الجيد ، ذو أسلوب أدبي فخيم يتسم بالواقعية والصدق، وهذان ينعكسان في دقة التصوير وسلامة اللغة ، يستخدم الفصحى في السرد، والعامية الموائمة لمستوى شخوصه في الحوار، وعلى غير ما نعهده في روائيي هذا الزمان وقصاصيه وكتابه ، برئت الرواية من الأخطاء اللغوية والاملائية والأسلوبية تماما.

إن الواقعية في التصوير والصدق في السرد ، والبعد عن المبالغة والتهويل أبلغ تأثيرا في النفس من الخطابية الجوفاء وهي لا تنقل إليك ما حدث ، وإنما تنقلك إليها ، فتعيش أحداثه ، وتلقى شخصياته ، من أجلهم تغضب وتسخط وتلعن ، وتحزن وتبكي وتغتم ، وترضى وتسعد وتغتبط، مع كل موقف حسب موقعه من نفسك، وذلك هو الأدب الخالد بعينه.

افتقدت في المذكرات أشياء سمعتها من سعد نفسه في أمسيات «بن عكنون» لم أجدها في المذكرات ، بعضها - ربما - لم تأت له مناسبة منها: أن سيطرة اليهود على الحركة الشيوعية في مصر، وخيانة الاتحاد السوفيتي لها ، وتفضيله مصالح دولة عليها ، كانا وراء فشلها ، والثاني وكانت هنا مناسبته ، الاعتراف بأنه رغم قسوة وبشاعة ما عاني الشيوعيون ، فإن العذاب الذي صب على معتقلي الإخوان المسلمين كان أشد هولا، والثالث : خلو المذكرات من أي حوار يتصل بالحركة نفسها والمعتقل يضم أقطابها، أتراه غاب خوفا من الشرطة وتجسسها واختراقاتها فكان



الحوار يجرى صمتا وبالإشارة، ربما كان هذا هو السبب وأخيرا فإن أسماء تباهى الآن بالشيوعية وتصم آذاننا بذكرياتها عن السجون، وبما ضحت فى سبيلها، طافت وتطوف بالأبواب الحاكمة تطلب لنضالها ثمنا، لا أكاد أجد لها فى المذكرات ذكرا أو إشارة.

ثلاث روايات اختلفت دافعا ، واتفقت غاية ، وتقاربت أسلوبا ، وتفاوتت نتائج، كانت من نتاج النصف الثانى من القرن العشرين.

الأولى روسية، كتبها ألكسندر سولجنيتسين، يوم فى حياة سجين فى سيبيريا وكان محكوما عليه بالأشغال الشاقة المؤيدة ثمانية أعوام أمضاها فى سيبيريا ، قبض عليه وهو فى الجبهة أثناء الحرب العالمية الثانية ، لأنه كتب رسالة ينتقد فيها ستالين ونشرها عام ١٩٦٢ وهى أول عمل أدبى له ، أحدث ضجة داخل وطنه وخارجه وحملته إلى جائزة نوبل فى الأدب، فحصل عليها عام ١٩٧٠.

والرواية الثانية مصرية «كتبها حمدى البطران : يوميات ضابط فى الأرياف» ونشرتها دار الهلال، وجاءت روعتها من أن الذى ألم بطرف من التعذيب والقسوة الغاشمة، كان الجانى نفسه، ولم يكن المجنى عليه، وصور ما تصنعه العقيدة بالبشر، حين تصنع منهم مناضلين يستهينون بكل ما يلقون من صعاب فى طريقهم، وما يقدمون من تضحيات وأحسب أنها أروع مما كتب توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف، ولكنه - لسوء حظه- جاء فى زمن النقاد والمثقفون يغارون فيه على لون واحد من حرية الفكر فحسب فانتهت به إلى التحقيق والخروج من عمله ضابط شرطة وصمت عنه النقاد جميعا.

والثالثة رواية سعد زهران، ودون مجاملة من أى لون، أحسب أنها تفوق الاثنتين الآخريين، جاء تصويرها للتعذيب مستقصيا والحرية التى تمتع بها الكاتب - نسبيا - أوسع بكثير من زميليه، فهو ليس موظفا فى الحكومة وبالتأكيد فإن مساحة الحرية الأدبية والفكرية فى مصر الآن أوسع بكثير مما كانت عليه الحال فى الاتحاد السوفيتى فى الستينيات، ومما كانت عليه فى مصر منذ ربع قرن من الزمان، ومع ذلك فحظه من جانب آخر أقل حظا من زميليه ، لقد نشر البطران روايته في مصر ، وهو فى حد ذاته مكسبا، وتلقى عنها مكافأة ،هى رمزية على التأكيد ، ولكنها مقابل على أى حال.

واضطر سعد أن يلجأ بروايته إلى الخارج ، إلى دار نشر فى لبنان أو المغرب ومن ثم سوف يكون انتشارها فى مصر محدودا للغاية.

أعمال روائية ثلاث ، جديرة بالتقدير والدرس ، وكأى شئ ثمين ، تزداد مع الزمن لمعانا وتجد تقديرا ، وتفتح الباب على مصراعيه لمن يعنون بالأدب المقارن! ■



على ضفاف النيل

بقلم
د. محمد رجب البيومى

وفد على مصر شعراء كثيرون منهم زعماء الشعر العربى فى أزهى عصوره أبو نواس، وأبو تمام، وأبو الطيب، ودعبل الخزاعى، ولا شأن لى بهم، إذ وفدوا إلى البلد الطيب مرتزقين مادحين ثم هجائين ناقمين، فما تركوا فى دنيا العاطفة همسا حانيا، ولا ذكرى مشجية، إنما شأنى، كل الشأن مع هؤلاء العذريين الذين هربوا من الجزيرة العربية فرارا من حب عاصف أخذ عليهم منافذ الراحة، فما يهنئون بمضجع فى الليل، ولا ينعمون بمستقر فى النهار، حتى إذا ضاقت بهم السبل رأوا أن يتركوا مسرح الأحداث إلى الوادى السعيد، فقد يجدون فى ظلاله الوارفة وجناته الناضرة، وأميره العربى السماح! ما ينسيهم بعض الشىء لواعجهم الثائرة وما يبرد قليلا من جراحهم الناغرة! والمحزون إذا ضاق به واقعه اشرأب إلى هجرة قد يجد فيها برد السلام! ويقول فى نفسه إن لم يكن مهجره سعيدا، فلن يكون أكثر بلاء مما هو فيه! فإلى مصر!

كانت الفسطاط فى عهد أميرها عبدالعزيز بن مروان كأنها دولة مستقلة لا تخضع لأمير المؤمنين عبدالملك بن مروان فى شئ، فقد اشترط والدهما مروان بن الحكم أن تكون مصر لعبدالعزيز خراجا وتدبيرا وسياسة، وأن تكون خيراتها الحافلة وقفا على الأمير ودولته ورعاياه! وكان الناس لأول عهده يبغضون الدولة الأموية، ويرونها غاصبة معتدية، وعرف مروان ذلك فقال لولده : المال كثير لديك فابسط يدك للقريب والبعيد، واجعل الرؤساء من العلية أصدقاءك، وإذا استطعت أن توهم كل رئيس أنه وحده خلك المختار، فافعل، وابسط موائدك للضيفان صباح مساء، بحيث لا ترد عن بابك آكلا فقيرا كان أو غنيا. وقد حدث المؤرخون، أن الأمير كان له مائة جفنة (مائدة) تنصب يوميا حول داره، وألفٌ أخرى تُحمل على العجلات إلى بيوت الناس، حتى قال فيه الشاعر :

كل يوم كأنه عيد أضحى
عند عبدالعزيز أو عيد الفطر
فله ألف جفنة مترعات
كل يوم تمدها ألف قدر

وقد ذاعت مكارمه فى دمشق مقر الخلافة، وفى الجزيرة العربية، فجعل الناس يتقاطرون على مصر، تجارا وشعراء، وصناعا، فيجدون ما يأملون، وكان من الوافدين شعراء الصبابة من العذريين، ومنهم جميل ابن معمر، وكثير عزة، والعوام بن عقبة، ونصيب، ولنبدأ بجميل!

كان عبدالعزيز جالسا بمنزله الفخم فى مدينة حلوان التى أنشأها بعيدا عن الفسطاط على نحو يبرز أبهة الإمارة، ومكانة الأمير، فأصبحت ملتقى الوافدين من شتى ربوع الدولة الأموية، فتقدم إليه الحاجب يعلن أن شاعرا يسمى جميل بن معمر يطلب الاذن، فتهلل وجه عبدالعزيز، وقال لجلسائه: هذا شاعر أحب أن أراه وأسامره، وهو لا يحمل مدحة شعرية كغيره من زملائه الوافدين، إذ جعل شعره رهن الصبابة والشوق! ثم قال بصوت مرتفع عجل يا غلام باستدعاء الشاعر العذرى النبيل .

عزائى أننى أحبها!

وما كاد جميل يخطو خطوته الأولى عند الباب حتى سارع عبدالعزيز إلى استقباله قبل أن يتقدم إلى مجلسه، وهو ما لم يفعله لأحد، حتى للأمراء من إخوته، ثم عانقه وفسح له مكانا على أريكته غير أنه تطلع إلى وجهه فوجده شاحبا كسيفا كأنما يعانى داء جسيما ألم به، فسأله فى وجل: ماذا نزل بك يا جميل، لم يكن حالك هكذا فى آخر لقاء بيننا عند بيت الله أرجو أن يكون الأمر سحابة صيف.

فقال جميل: لا شئ يسئ بعد زيارتى مصر، ولقائى الأمير! فعجل عبدالعزيز يسأل: أفصح ما الذى نزل بك؟

فسكت جميل وقال: لقد حاولت أن أهرب من نفسى فى البادية والحضر، فضاقت الدنيا بمشاعرى وقلت: لأبعد الرحلة إلى مصر، فلقاء الأمير هناك عوض عن كثير!!

سكت عبدالعزيز وقال: أفهم كل ما

عانيت ياجميل، لقد أهدر الوالي دمك، وتربص بك أهل بثينة، ونازلت أقرباءها في صيال عنيف، وكل ذلك هين لديك جوار ما يستعر في أعماقك من لهيب!

قال جميل: إن عزائي الوحيد أنني أحبها، وأنها تحبني مهما تجهمت الأيام، ولكن ما علمته من أنها قاست ألوانا من العذاب على أيدي أبيها وأخيها وزوجها! جعلني لا أطيق البقاء! إذ لابد من الانتقام! ولئن هممت به فلن يقف معي أحد، فكل الناس إلبٌ عليّ!

فابتسم الأمير، وقال أنت مطمئن إلى وفائها وصدق محبتها، ولن يريد الفتى العذري غير هذا الهوى البريء من الأغراض! والقرب لديه كالبعد إذا توثقت العلائق، وتعانقت الأرواح! ثم سكت الأمير، وسكت جميل، ولم يشارك أحد من الحاضرين في الحديث هيبة للأمير، ورعاية لمشاعر الضيف الكريم، وأراد عبدالعزيز أن يقطع السكون، فاتجه إلى الحاضرين وقال: تعجبون من قولي إن القرب كالبعد لدى جميل، فأنا لم أقل هذا من عندي، ولكن الفتى العذري قد أفصح عنه حين قال:

وإني لأرضى من بثينة بالذي
لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا، وبألا أستطيع وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالعام تنقضي
أواخره، لا نلتقي.. وأوائله

فابتسم جميل ابتساما كسا وجهه بنور جديد لم يبد عليه من قبل، وقال، شرفني الأمير بالتعبير عما أكن وروى شعري فأكسبه جلالا ومهابة، فقال عبدالعزيز، لقد عاد إلى وجهك إشراقه ياجميل، فلتحرص على صفائك هذا، ودعني أسألك! ما الذي أعجبك من بثينة، وما الذي أعجبها منك!

فقال جميل، طبيعي أن أعجب بجمالها وشبابها، وهذا مالا أحب الخوض فيه، ولكن ذكاءها اللماح، وحساسيتها البالغة، وذهنها المتوقد كل ذلك قد أنزلها من قلبي أجل مكان!

فاتجه الأمير للحاضرين وقال مبتهجا: قد حلا القول، وطاب الحديث، تحدث يافتى عذرة عن بعض ما تعلم من بوارق ذكائها اللماح. فقد أكون غافلا عن ومضه الدقيق!

قال جميل، وقد بان في وجهه انكسار خاشع، (كأن معاودة الذكرى هاجت من شجونه) «في المحنة التي أهدر فيها والي المدينة دمي إن دنوت من حي بثينة، اشتد شوقي إلى لقائها، وأحسست أن قلبي يثب من أضالعي يريد الفكاك، فصممت على أن أحتال للقائها، وفكرت فيما يمهد السبب لذلك، واجتهدت في إخفاء ملامحي ملبسا ومنظرا، كيلا تسهل معرفتي، فلما دنوت من الحي، رأيت شابا جلدا تظهر عليه ملامح المروءة، فقلت له هل لك في مساعدة أخ مريض على بلوغ حاجته، فقال أهلا ومرحبا، قلت: ضاعت ناقتي

السمراء حين فرت ناشزة، ولم أقدر على لحاقها، فإذا قبلت أن تطوف بمنازل الحى، وتقول من رأى ناقة سمراء شردت عن صاحبها، فيدله عليها، وله أجره، كان ذلك صنيعا لا أنساه، فاستجاب الشاب، ومازال يطرق المنازل بالسؤال حتى بلغ منزل بثينة فسمعته يقول من رأى ناقة سمراء شردت عن صاحبها من أيام! فقالت فرحة باسمة، رأيتها بالأمس بعد العشاء تطوف بشجرة الإثل هناك! وعاد الشاب فأخبر جميلا بما سمع، ففرح وهم إلى شجرة الإثل حتى دنا المساء فأبصرها قادمة، قال جميل فقلت فى فرحة، ومن أدراك أنى صاحب السؤال، قالت إن النياق كثيرة ولا يسأل عن شرودها فى المنازل، فلابد أن يكون وراء ذلك شئ! فابتسمت وقلت : ومن أدراك أنى سأفهم الجواب، فقالت ضاحكة سبحان الله! أتضع السؤال، ولا تعرف الجواب؟ فكان ردها من أحسن ما سمعت فى حياتى.. هذه واحدة.

فقال الأمير: وأما الثانية!

فقال جميل: لقد اشتد بى شوقى إلى لقائها ذات صباح، فبعثت كُثيرا صديقى إلى منزلها، وله صلة بأهله، فأخذ ينشد من شعره، وجاءت بثينة فرمت بحجر فى الفضاء دون مناسبة، فقال لها أبوها، ما هذا يا بثينة، قالت، رأيت الآن كلبا يأتينا كل ليلة من وراء الرابية بعد العشاء، فيزعجنا بنباحه، فرميته كيلا يعود! ثم أشارت إلى كلب يسير على بعد، ونهض كثير إلى جميل، فقال له لقد رأيت بثينة إذ خرجت ترمى كلبا بحجر، وقالت إنه يجئ من وراء الرابية إذا نوم الناس بعد العشاء! فيزعجنا! ففكرت فيما صنعت، وقلت إنها حددت الزمان والمكان، وسعيت إلى الرابية ليلا، فوجدتها تقدم! وكانت فرحتى بلقائها لا تحد .

قال الأمير ماذا أقول، أأزعم أن للعشاق ألسنة تتجاوب بغير ما يتحدث الناس، فتفهم من الألفاظ مالا تسمعه الآذان، فرد جميل! هو ما يقول الأمير.

وسكت الجمع إذ بدا على وجه جميل ما قدم به من الشحوب، بل زاد حتى أزعج الأمير، فأشار عليه أن يستريح فى مكان هيأه لإقامته! وقال بعد ذهابه متأثرا، ما أخاله سيعيش طويلا، لقد عرفت فى ملامحه ما أنذرنى بشجن أليم.

ضعيف أمام الهوى

تهيأ جميل للاستراحة فى مخدعه، وهى استراحة جسمية فحسب، لأن عواطفه الوجدانية، قد تألبت عليه، وحاول أن يستعطف الرقاد فما تيسر له، وهو على صبره وجلده كان ضعيف الرأى فى أمر هواه، وقد ارتاع حين وجد دموعا تتقاطر على خده، وحذر أن يزوره طارق يستفسر عنه فى هذه الحالة فأخذ يقاوم بشدة ما طرأ عليه، وسبحت به الأوهام، فجعل يفكر فى مصيره من بعد، وقد قذف نفسه فى ديار تنأى عن مطارح هواه، مهما قوبل فيها بالتبجيل

والاحترام! وكأن غربته عجلت تفاقم دائه فأخذ يحس بتهالك قوته، والأمير يرسل إليه مستفسرا، وقد جاءه أن صحته ليست كما يود، فعجل بزيارته وقضى معه وقتا غير قصير، ونادرا ما كان يفعل ذلك مع القاصدين! ولكنه جميل.

وإذا كان لكل شئ نهاية فقد أحس الشاعر العاشق، أنه يعيش أيامه الأخيرة، فشغل عن كل شئ إلا عشق بثينة كيف تصنع حين يفجؤها الخبر الصاعق، وكيف يشمت بها زوجها وأقاربها الأدنون، ووجد نفسه يترنم بهذين البيتين:

صدع النعي وما كني بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قفول
قومي بثينة فاندبي بعويل
وابكي خليلك دون كل خليل

وحلت الساعة الرهيبة، فحزن الأمير واحتفل بتشييعه باكيا، وطار النبأ إلى وادي القرى، فصادف موقعه الصاعق من بثينة، وقد أذهلها عن كل شئ إلا عن بكائها الحار، ورثائها الدامع الذى تقول فيه:

وإن سلوى عن جميل لساعة
من الدهر لا حانت، ولا حان حينها
سواء علينا ياجميل بن معمر
إذا مت بأساء الحياة ولينها

هذا عن جميل: أما كثير بن عبدالرحمن صاحب عزة، فقد تأهب للرحيل إلى مصر حين علم أن جميلا قد سبقه إليها، وكان مقامه بالحجاز نابيا قلقا، فهو عاشق مهجور، تخذله عزة كى يذيع عنها رقائق الشعر فحسب، وإذا تعطفت بالحديث معه مرة، فبعدما قست عليه مرات، وهو لا يزداد إلا وجدا وهياما، وبلواه فى مأساته أعنف وأقسى من بلوى جميل، لأن جميلا محب مودود، من حوله من القوم يكبرون فروسيته ووسامته وقوة شخصيته، فيريح ذلك نفسه كثيرا كثيرا، مهما لاقى فى حبه من العقبات، وهدد بالاغتيال!

لقد ضاقت بكثير نفسه، فصمم على أن يرحل إلى مصر. مؤملا أن يجد فى لقاء جميل بها بعض الاستقرار، وهى الأيام لا تعطى راغبا ما يود، فما كاد يقطع الصحراء ميمما شطر وادى النيل، وما كاد يصل إلى حلوان مقر الإمارة، حتى فوجئ بحديث القوم عن وفاة جميل، وهى مأساة لم يكن يتوقعها من قبل! وحار فى نفسه ماذا يصنع؟ ولكنه عرف أن عبدالعزيز بن مروان يروى شعره، ويتحدث عنه فى مجالس السمر والإنشاد، فرأى أن يتقدم إليه، ولا سيما بعد ما سمع عن احتفاء الأمير بجميل! لقد وهم كثير حين ظن أن الطريق ممهد تماما، ولم يدر أن نظرة عبدالعزيز إليه تختلف عن نظرته لصاحبه، وإن روى شعره، وألم بسيرته فى الحجاز، وصاحب الحظ العاثر لا يتركه أين ارتحل، وقد طلب الإذن حين عرف أن الأمير يسمر مع حاشيته، فأذن له، وكان كثير قصيرا جدا مع دمامة فى وجهه، وسواد فى لونه، حتى أنه نازع بعض خصومه فى موقف ما فحمله فى يده كالكرة، ورفعه إلى الأعلى ثم قذف به إلى

مدى بعيد، فما استطاع النهوض دون مشقة، دخل كثير حين جاءه الإذن، فلم ينهض له الأمير، بل نظر إليه قائلا، اخفض رأسك ياكثير كيلا يصدمك السقف! استهزاء بقصره ومظهره، ثم رأى أن يخبر ذاته فسأله أن ينشده، فضاقت منادح القول أمام الشاعر الذى لم يجد من أمارات الترحيب ما كان يأمل، واشتغل الأمير فى حديث عن بعض عماله مع من كان يحادثه، وكان فى الحاضرين الأمير بشر بن مروان شقيق الأمير عبدالعزيز، فلحظ ما اعترى الزائر المسكين من حرج، فاتجه إليه مبتسما، وقال فى تودد: لي معك مجلس حافل بعد صلاة العشاء فى قصرى القريب من هنا، فانتبه عبدالعزيز إلى ملاحظة أخيه، وأقبل على الشاعر يلاطفه معتذرا عن انقطاع الحديث، ثم قال أخى بشر يتعاطى الشعر وقد آثر نفسه بك عليّ، ولن أنساها له! فقال بشر، ما دمت جعلتنى من زمرة الشعراء فأنا به أولى، وانتظم الحديث كما كان!

وفى المساء كان مجلس الأمير بشر فى أكمل اتساقه، وقد حضره كثير ضيفا كريما قوبل بكثير من الاحتفاء! وكان الشاعر صريحا فى الإجابة عن كل ما وجهه الحاضرون إليه، إذ رد على من سأله عن شعور عزة نحوه فأنشد قوله:

وددت وما تغنى الودادة أننى
بما فى ضمير الحاجبية عالم
فإن كان خيرا سرنى وعلمته
وإن كان شرا فلتلمنى اللوائم

فقال قائل، ما كان لعزة أن تنصرف عن حبك بعد أن قلت:

وسعى إلى بعيب عزة نسوة
جعل المليك خدودهن نعالها
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى
فى الحسن عند موفق لقضى لها!

فقال كثير هو قدر وابتليت به، وأخذ القوم ينشدون ما حفظوه من روائع كثير، فأشرق وجهه بالسرور، وأنساه مجلس المساء تجهم مجلس الصباح حتى ود لو انقضى الليل دون رقاد، وقال له بشر، مقامك لدى ولن تبرح منزلى إلا عند التنزه والارتياض، فسر بما سمع وأنشد أبياتا على البديهة فى شكر الأمير!

كثير وعزة

ولو كان كثير يملك قلبه لاستطاب العيش فى كنف بشر، ولكن لواعجه نحو عزة قد غلبته ، فعزم على العودة بعد أسبوعين ، ونزل بشر على إرادته، فهيأ له الراحلة والرفيق! ثم كانت المفاجأة القاسية حين نزل كثير المدينة، وسأل عن عزة مشوقا، فقيل له لماذا جئت من مصر، إنها سترحل إليها مع زوجها بعد يومين! عض الشاعر على شفتيه متحسرا، وحاول أن يراها فلم يستطع، وأخذ يروح عن نفسه بالشعر الباكى يعرض صفحة قلبه فكان مما قال:

سألت حكيما أين تمضى بها النوى
فخبرنى مالا أحب حكيم!
ولست براء نحو مصر سحابة
وإن بعدت إلا قعدت أشيم
لعمرك ما أنصفتنى فى مودتى
ولكننى يا عز عنك حليم!

ولم ير بدا من أن يرصد منزلها،

ليراها حين تمضي راحلة، وكانت حسرة دامية عبر عنها بقوله:

كفى حزنا للعين أن رد طرفها
لعـزة عيـر آذنت برحيـل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا
فقلت البكا أشفى إذن لغليلى
تلوهت محزونا وقلت لصاحبى
أقاتلتى ليلى بغير قتيل!

وكما مات جميل في مصر بعد أيام من زيارتها! ماتت عزة بها! فبكى عليها كثير في الحجاز، كما بكت بثينة على جميل في وادى القرى.

أذكر أنى قرأت في مجلة الثقافة الصادرة بتاريخ (٦ مايو سنة ١٩٤٧) للأستاذ حسين مظلوم رياض مقالا طريفا قال فيه تحت عنوان (يوم فى صحراء المقطم).

« ماذا على مصلحة الآثار لو جددت هذا المسجد، وعبدت طريقه، وأضافت إليه قبورا رمزية للعشاق الذين ظفرت بهم صحراء القاهرة، أمثال جميل بثينة، وعزة كثير، جريا على سنة أوربا فى تخليد مدافن العشاق، وجعلها متنزهات يهرع إليها الأدباء، يستوحون من فيضها وينهلون من معينها الصافى» ولو علم الأستاذ حسين مظلوم أن فى مصر من أبنائها العشاق كثيرين غير جميل وعزة لعرف أن مايدعو إليه سيشمل عشرات وعشرات، ولكن التاريخ يهمل من يشاء فيمضى ذكره فى طى النسيان ! ليبقى على ذكرى عزة وجميل.

شاعر غزلى رقيق

ونأتى - ثالثا - إلى رحلة العوام ابن عقبة بن كعب بن زهير إلى مصر، وهو شاعر غزلى رقيق تحدر من أسرة شاعرة أصيلة فجده الأول زهير بن أبى سلمى شاعر الحكمة فى العصر الجاهلى، وجده الثانى كعب بن زهير مادح الرسول الأشهر، وأبوه عقبة شاعر غزل لم يشتهر أما هو فما بين أيدينا من شعره يكشف عن معدنه الأصيل، وكان له فى غرامه بالسوداء قصة عجيبة، حيث كانت معشوقة والده عقبة، فلما مات، أحبها حبا مبرحا، وهامت به، وليس فى الأمر غرابة ما، فقد يكون الوالد قد هام بها وهو فى سن الأربعين، وكانت فى الثامنة عشرة أو ما فوقها ثم مات، وولده فى العشرين، فأتيح له أن يشهدها، وأن تنجذب إليه كما ينجذب أصحاب السن المتقاربة دون عجب! بل العجب أن تنجذب إلى أبيه، وكان فى العوام شهامة ومروءة فلم يشأ أن يزيد موقفها حرجا حين أجبرها أهلها على الزواج من غيره. ولمس جذوة الحب المتقدة فى صدرها نحوه، كما أحس تماما بمثل ماتحس، يدل على ذلك قول الذين تحدثوا عن غرامها العنيف العفيف معا ، أنها كانت (تتوله) به، والتوله مرحلة أخيرة قبلها مراحل الإعجاب، فالحب المتبادل، فالشوق الطبيعى، أما إذا جاءت مرحلة التوله، فليس بعدها غير مرحلة الصراخ اللهيف، وقد سميت بالسوداء وقاية للحسد الذى يلحق بها، وأذكر أن أحد أثرياء الصعيد فى القرن الماضى سمى ولده «الشحات» توقيا للحسد كما سمى المتوكل على الله جاريته (قبيحة) وهى

أجمل جواريه على الإطلاق مهما يكن من شئ. فقد آثر العوام بعد زواج السوداء من غيره أن يرحل إلى مصر فى تجارة ظنها ستنسيه ولكن الأنباء جاءته بعد ارتحاله بأن السوداء مريضة وأنها فى مرضها القاسى أخذت تتوله بذكره، فلم يطق صبرا، وانطلق راجعا إلى مثواها، ورحلة مصر إلى الجزيرة العربية فى عهد العوام لم تكن رحلة بالطائرة تقطع ساعتين أو ثلاثا، بل كانت تقطع على ظهر الإبل أكثر من ثلاثين يوما بين رمال الصحراء، ونار الظهيرة، ووحشة الليل، وظمأ الهاجرة، وذلك هين لدى العاشق العميد، وحين وصل إلى حماها، ونظر إليها من بعيد عرفت أنه جاء من أجلها، فأشارت إليه أن يرجع كيلا يثير الثوائر، فما غنم منها غير نظرة خاطفة، وقد اشتدت مواجعه فعبر عن مشاعره بقصائد باكية قال فى إحداها :

ونبئت سوداة (الغميم) مريضة
فأقبلت من مصر إليها أعودها
ووالله ما أدرى إذا أنا جئتها
أأبرئها من دائها أم أزيدها
نظرت إليها نظرة ما يسرنى
بها حمر أنعام البلاد وسودها

وكان يود أن يملأ عينه منها، ولكنها أشارت برجوعه متعجلة خيفة حديث الناس فلم يتبين ملامحها الصبيحة على نحو ما كان يريد، وأشار إلى ذلك بقوله:

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا
ملاحة عينى أم عمرو وجيدها
وهل بليت أخلاقها بعد جدة
ألا حبذا أخلاقها وجديدها!

وهكذا كانت عينا أم عمرو الناعستان موضع سؤاله، وثيابها الجديدة التى ربما أخلقها الزمن موضع اهتمامه! وهما سؤالان لم يجد من يجيب عنهما! ولعل العين الناعسة والثوب الجميل كانا بعض ما جذبه إليها فى أيامهما الأولى قبل أن تشتعل النار، فظل المشهد الأول مهبط خياله، مهما كثرت بعده المشاهد، ساحرة أو غير ساحرة! لقد رجع الشاعر لهيفا إلى مصر ليكابد أهوال الرحلة من جديد، وقد تأججت عواطفه أكثر من ذى قبل، ومازال فى مغتربه النازح يتسقط أخبارها، حتى فجع برحيلها متأثرة بدائها الدفين فصرخ بأبيات قال فيها:

لئن تك سوداء العشية فارقت
لقد غاب ملح الغانيات ونورها

ولم يهنأ بعدها بعيش فمات فى مهجره البعيد.

هذا حديث مقتضب عن ثلاثة من شعراء الهوى العذرى رأيت أن أذكر بهم أرباب الوجدان فى مصر، ليعرفوا أن مصر كانت تفتح صدرها، للائذ الطريد، حين يرجو أن تخفف لواعجه نسمات النيل، وهو رجاء يبدو قريبا لدى صاحبه بدءا، ثم يعلم أنه حلم بعيد ، ولن ينقذه منه غير أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض، فتعلو روحه إلى الأفق البعيد، وقد بقي حديث نصيب. فإلى أمد آخر.■

من وحى
شوقى
ومنبحة شعره

بقلم
وديع فلسطين

ينشر الشاعر فى حياته ديوانه ، فإن لم يسعفه العمر أوصى بمن يشرف على طبع ديوانه واستكماله أو قد يتصدى لهذه المهمة أديب متطوع يجمع ما تناثر من شعره فى بطون الصحف والمجلات ، وربما المخطوطات . ولا شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) ولا خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩) رأى أى منهما ديوانه الكامل منشوراً فى حياته ، فأشرف على استكماله آخرون بعد وفاتهما .

وكل ديوان حجة على صاحبه ، بكل مافيه من بديع النظم أو سقيمه ، ومن جليل الآراء أو سخيفها ، ومن جميل العاطفة أو شائنها .

وهو بحكم انتسابه إلى عصر الشاعر يعد وثيقة شاهدة على هذا العصر ، تظلّ حصينة غير مستباحة سواء للناقدين أو للرقباء ، فدور الناقد هو تقييم هذه التجربة الشعرية وفق أى مقاييس تتراءى له ، أما دور الرقباء فهو حماية الأخلاق إن كان فى الشعر خروج على نواميس الجماعة ، ولكن ليس لهم حق فى تطبيق مقاييس الحاضر الاجتماعية على مقاييس عصر عاشه الشاعر واضطرب فيه وكان مرآة له .

وكان طبيعياً أن تندرج في دواوين الشاعرين أحمد شوقي وخليل مطران قصائد في امتداح أو ذم رموز العصر من رجال السياسة ومن إليهم ، أو التلميح إلى الرغبات الشعبية التي كانت تمثل الآمال المرجوّة ، كقول خليل مطران مثلاً في قصيدة «مصرع بزرجمهر» : كل شعبٍ خالقُ نيرونه ، أو قوله في قصيدة أخرى :

أنا لا أخاف ولا أرجي
فرسي مؤهبة وسرجي
فإذا نبا بي متن بر
فالمطية بطن لــج
الوعد والإيعاد ما كانا
لــدي طريق فلــج

«والفلج هو النجاح»

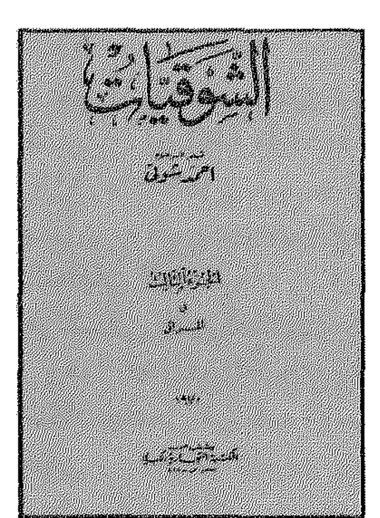
أو قول شوقي :

زمان الفرد يا فرعون ولى
ودالــت دولة المتــجبرينا

أو قوله :

وجواهر التيجان مالم تتخذ
من معدن الدستور غير صماح
صوت الشعوب من الزئير مجمعاً
فإذا تفرق كان بعض نباح

ولكن سطوة الرقباء لم ترض عن هذا الكلام ، ولا الكلام الذي قيل في رموز العصر من حكام او ساسة في عهد باتوا يسمونه بالبائد البغيض - وماهو بكذك - فانتهزوا فرصة إعادة طبع «الشوقيات» وأعملوا فيها الحدف والبتر في مذبحة حصرها الدكتور مصطفى الرفاعي في ٣٦٠ بيتاً تمثلت في قصائد محذوفة بكاملها وفي ٢٤١ بيتاً استبعدت من قصائد أخرى ، أي ما مجموعه ٦٠١ من الأبيات .



أما خليل مطران ، فعندما أريد إعادة طبع ديوانه بأجزائه الأربعة ، اعترض على عشرات من القصائد التي نظمت في مناسبات سياسية أو حتى اجتماعية ، وامتنع بذلك نشر الديوان في مصر لاعتراض «الورثة» على هذا التشويه، ونشط «شطار» لبنان في إعادة طبعه بنصه الكامل .

الشوقيات المجهولة

وهناك محاولتان جريئتان لخدمة شعر شوقي ، قام بأولاهما الدكتور محمد صبري السوربوني (١٨٩٠ - ١٩٧٨) الذي استعان بحاسته الأدبية والنقدية ومعاصرته لعهد شوقي وقام بحصر كثير من شعره المنشور بتوقيعه الصريح أو بتوقيع رمزي في صحف ذلك العهد ، واجتمع له من حصيلة بحثه كتاب ضخم في جزءين عنوانه

«الشوقيات المجهولة» .

أما المحاولة الثانية فقد اضطلع بها الدكتور أحمد الحوفى (١٩١٠ - ١٩٨٣) الذى أخضع ديوان «الشوقيات» لشروح مفصلة تناولت تواريخ القصائد ومناسباتها ، وترجم للأسماء الواردة فى ثناياها وأعد فهارس موسعة للأعلام والمواقع والألفاظ والقوافى بحيث أصبح كتابه ذو الجزءين الموسوم «ديوان شوقى» مرجعاً كاشفاً لا غنى عنه لمن يدرس شعر شوقى بكل ملابسات عصره .

وعندما كنت فى المرحلة الابتدائية ، قررت وزارة المعارف علينا مسرحية «مصرع كليوباترة» لشوقى ، وكانت طبعتها تحمل تاريخ ١٩١٧ ، وفيها صدر شوقى المسرحية بعبارة إهداء «إلى صاحب السمو الملكى الأمير فاروق ولى عهد الدولة المصرية» ، ثم أردف الإهداء بقصيدة من ٢٧ بيتاً وهى قصيدة لم أعثر عليها فى كل ما اطلعت عليه من شعر شوقى المنشور والمجهول ، وفيها يقول الشاعر :

فاروق يا أزكى نبات الوادى
ولمحة الآباء والأجداد
ويامناط العهد من «فؤاد»
إلى اليد المأمولة الأيادى
أرفع ما قد وسع اجتهادى
ورد الربا وزنبق الوهاد

وختمها بقوله :

فإن تقبلت ، وذا اعتقادى
جزيت إخلاصى واحتشادى
لجيلك الناهض بالبلاد

على أن الصنيع الذى قام به الطبيب الدكتور مصطفى الرفاعى وهو يستقصى الطبعات المختلفة «للشوقيات» فى سنوات ١٩٤٣ و ١٩٥٠ و١٩٥٢ و١٩٥٤ و١٩٥٦ و١٩٧٠ ، استطاع بفضله أن يحصر «جريمة» الحذف والبتر والتشويه التى لحقت بالديوان ، وخرج من جماع هذا البحث كله بكتاب ضخم يقع فى أربعة أجزاء أسماه «الشوقيات الصحيحة» رد فيه كل المحذوف إلى مكانه الأصيل وأضاف إليه المجهول من شعر شوقى الذى اهتدى إليه السوربونى .

وهذا عمل فذ اضطلع به طبيب هاو للشعر ، لم تشغله أعباء عيادته ولا كرسيه كأستاذ جامعى فى طب الإسكندرية عن إنجاز هذا العمل وفاء للشعر قبل أن يكون وفاء لشوقى .

ولم يكتف بذلك ، بل أصدر كتابين كبيرين عنوان الأول «فى رحاب شوقى» أبرز فيه مواقف الشاعر فى الدفاع عن الحريات والحرص على المنازع الوطنية والعربية والدينية ، والتأكيد على الأخلاقيات حتى فى الغزل الرقيق ، وكذلك انفعالاته إزاء الأحداث الجسام فى مصر والعالم ، كشعره فى زلزال مسينا وزلزال يوكوهاما - ومن يدلنى اليوم على قصيدة واحدة انفعل فيها شاعر بالزلزال الكاسح الذى أنزل الخراب والدمار والموت ببلدان الشرق الأقصى - وعند احتراق مدينة ميت غمر وعند الاعتداء على سعد زغلول باشا ودعوته إلى عدم فصم وحدة وادى النيل ، وغير ذلك من المواقف التى تعلى من قدر شوقى شاعراً وطنياً ورائداً خلقياً وساهراً على تاريخ هذه الأمة ، فإن لم تتبع

له أبيات القصائد المحدودة ، أفرغها فى مسرحياته الشعرية الرائدة :

مصرع كليوباترة وقمبيز وعلى بك الكبير وعنترة ومجنون ليلى وأميرة الأندلس وغيرها .

الكلمة لا تموت

أما الكتاب الثانى للدكتور مصطفى الرفاعى فعنوانه «المتنبى وشوقى» وقد جمع فيه بين عبقريتين بينهما ألف عام ، تشابهت بعض ملامح حياتهما ، وتقاربت بعض القيم التى دعا إليها كل منهما ، وأنشأ مايمكن تسميته «بالحلف المتين» بين هذين الشاعرين اللذين ملآ الدنيا وشغلا الناس بسبب صدقهما فى التعبير مهما اصطلحت عليهما الخصومات فى عصرهما . لقد عاش كلاهما للشعر باعتباره سبيل حياة ، وتحمل شوقى النفى، فى حين جرب المتنبى حياة السجن وانتهى عمره بالقتل فى البيداء .. ولو علم قاتلوه أن المتنبى حى إلى هذا اليوم ، برغم العوار الذى أصاب شعرنا المعاصر فى «هوجة» التجديد والتغريب، فلعلهم كانوا يدركون أن الكلمة لا تموت ، وأن العبقرية لا تعرف القبور وأن ذاكرة الأمة قد تنسى الذين عبروا كأصنام فى حياتهم ، ولكنها لا تنسى شاعراً من طراز شوقى أو المتنبى ، قد تكون له بعض العيوب كإنسان ، ولكنه استطاع أن يستعلى على كل هذه العيوب بإنسانيته وأشواقه العليا.

د. محمد صبرى السوربونى

وقد تخيل الدكتور مصطفى الرفاعى أنه قابل «شوقى» فى حلم طويل من أحلام اليقظة ، فأجرى معه حواراً ذكياً حاول فيه أن يستجلى من شوقى ما استبهم على الناس فهمه من مواقفه السياسية والفكرية، فكان يوجه إلى شوقى سؤالاً فيه مايشبه الاتهام ، فيرد عليه شوقى من واقع شعره فى مرافعة كمرافعات المحامين المدرهين فى أعتى القضايا . فعندما سأله مثلاً كيف تورط فى رثاء بطرس غالى باشا (١٨٤٩ - ١٩١٠) الذى اغتيل بسبب مواقفه السياسية غير السليمة قال شوقى إنه إنما انتهز هذه الفرصة ليتحدث فيها عن وحدة الأمة ، ويعلى من شأنها ، فقال فى سياق الرثاء .

أعهدتنا والقبط إلا أمة
للأرض واحدة تروم مراما
نعلى تعاليم المسيح لأجلهم
ويوقرون لأجلنا الإسلاما
الدين للديان جل جلاله
لو شاء ربك وحد الأقواما
هذى قبوركم وتلك قبورنا
متجاورين جماجماً وعظاما

وعندما سأله عن أمة العرب وموقف مصر منها قال فى تضاعيف قصيدة :

كلما أن بالعراق جريح
لمس الشرق جنبه فى عمانه

وكأنما قال شوقى هذا البيت فى يومنا الحالى الذى يئن فيه لا جريح واحد فى العراق بل آلاف من الجرحى تنصب عليهم الراجمات الماحقة ، ولكن «الشرق» المزعوم مازال عنه لاهياً !

والغريب أن شوقى قال هذا البيت فى سياق حفل أشبه بالعرس أقيم لتنصيبه أميرا للشعراء ، وهى مناسبة لم تكن تستدعى الحديث عن مصائب الأمة .

ثم عاد الرفاعى يسأل «شوقى» فى أحلام يقظته عن موقفه من العلم والعرفان، فرد عليه الشاعر مستشهداً بقوله :

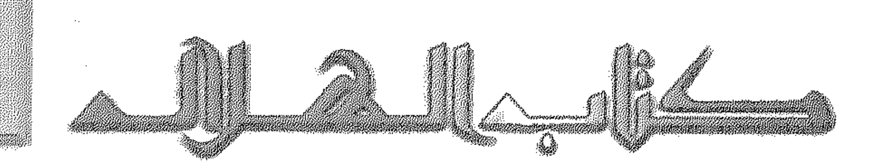
سبحانك اللهم خير معلم علمـ
ـت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته
وهديته النور المبين سبيلا

ولم يدع شوقى الاقتصاد حتى أدخله فى رسالته الشعرية ، فعندما دعا محمد طلعت حرب باشا (١٨٦٧ - ١٩٤١) إلى إنشاء بنك مصر حياه شوقى بقصيدة قال فيها :

تدفق مصرف الوادى فروى
وصاب غمامه فسقى وجادا
وأقبل من شباب القوم جمع
كما بنت الكهول بنى وشادا
تأنى حين أسسك ابن حرب
وحين بنى دعائمك الشدادا
نصون كرائم الأموال فيها
وننزلها الخزائن والنضادا
ونخرجها فتكسب ثم تأوى
رجوع النحل قد حملن زادا
ومن عجب نثبتها أصولاً
وتلك فروعها تغشى البلادا

ومن نافلة القول أن نحيى هذا الطبيب المتيم بشوقى الذى أسدى له خدمات جلى أعادت إلى شوقى نضارته الأولى بل بكارته الأصيلة قبل أن يفترعها جهل الرقباء ، وأبرز بلسان شوقى آراءه ومقاصده التى دسها فى تضاعيف شعره، ودفع عنه خبائث التهم التى رمته بالتزلف للحكام وأصحاب السلطان ، ووضع شوقى فى إطاره الصحيح - وليس فى الإطار الذى آثره الدكتور لويس عوض (١٩١٤ - ١٩٩٠) بقوله إن الشعر مات بموت شوقى .. صحيح أن الشعر ربما مات على أيدى شعارير هذه الأيام بما ينظمونه من «الخزعبلات» ، ولكن ستظل دولة الشعر باقية مادام يتصدى للذود عنها حتى الأطباء من أمثال الدكتور مصطفى الرفاعى

أما «أحفاد شوقى» الذين نسبوا «سفاحاً» إلى هذا الشاعر العظيم ، فشوقى منهم برىء . ■

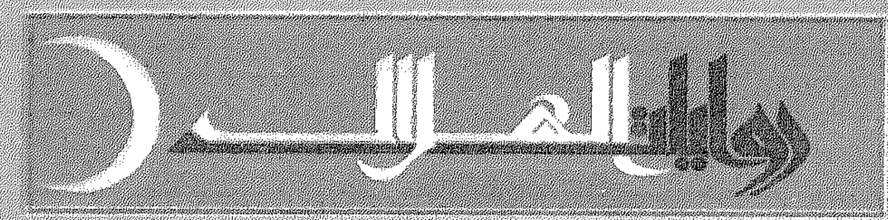


الاسلام والدولة المدنية

د. عبد المعطى محمد بيومى

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

٥ فبراير ٢٠٠٥

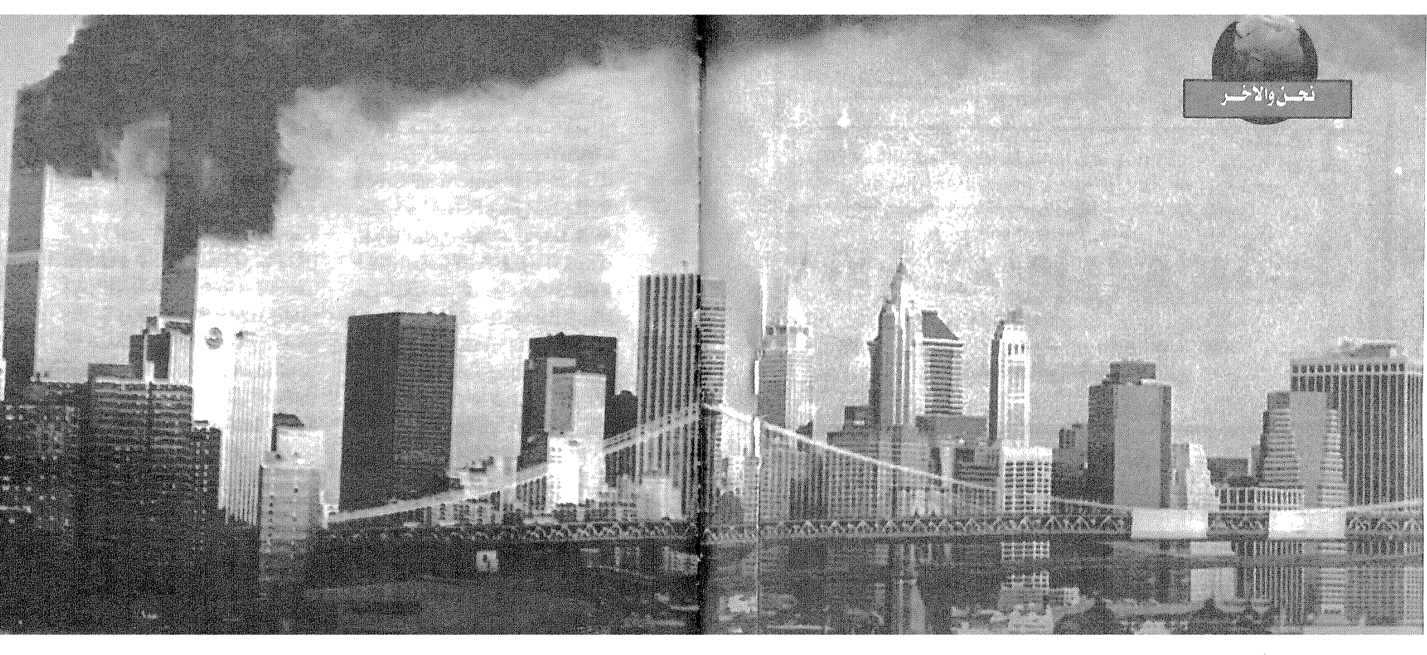


قلم النجار

تأليف
مانويل ريفاس
ترجمة
صالح علمانى

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٥ فبراير ٢٠٠٥



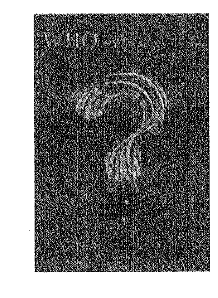


أمريكا ذلك المجهول..

صامويل هنتنجتون

ومخاوفه على الهوية الأمريكية

بقلم
د. السيد أمين شلبي



أصدر المؤرخ وعالم السياسة الأمريكي صامويل هنتنجتون مؤخراً كتاباً تحت عنوان «who we are» ، الذى أثار ومازال يثير جدلاً واسعاً فى الولايات المتحدة والعالم، شبيه بالجدل الذى أثاره عام ١٩٩٣ حين نشر مقاله الشهير عام ١٩٩٣ ، والذى تحول عام ١٩٩٦ إلى كتاب بالعنوان نفسه عن «صدام الحضارات». ومثلما حذر هنتنجتون فى كتابه الأول من الخطر الإسلامى الكونفوشيوس، الذى تتعرض له الولايات المتحدة والغرب، فإنه فى كتابه الجديد يحذر من الخطر الذى تتعرض له الهوية والثقافة الأمريكية، كما تشكلت على مدى ثلاثة قرون وجوهرها الأنجلوبروتستانتى، من القوة المتعاظمة من الأمريكيين من أصول لاتينية وخاصة المكسيكيين حيث باتوا يشكلون أكبر أقلية فى الولايات المتحدة وأصبح تعدادهم حوالى ٤٠ مليون نسمة وبشكل أصبح يهدد بانقسام ثقافى ولغوى فى المجتمع الأمريكى.

ويعالج كتاب هنتنجتون التغيرات التى تحدث فى السمة البارزة وجوهر الهوية القومية الأمريكية، ويقصد بالسمة البارزة ما يوليه الأمريكيون من أهمية لهويتهم القومية مقارنة بهوياتهم المتعددة الأخرى، وهو فى هذا يقدم عدداً من النقاط الجوهرية منها أن ما يشكل جوهر الهوية الأمريكية قد اختلف عبر التاريخ، فعند نهاية القرن الثامن عشر كان المستوطنون البريطانيون يحددون هويتهم ليس فقط كسكان لمستعمرتهم ولكن أيضاً كأمريكيين، وعقب الاستقلال بدأت فكرة الهوية الأمريكية تأخذ طريقها بشكل تدريجي وبطيء فى القرن التاسع عشر، ولكن بعد الحرب الأهلية أصبحت الهوية الأمريكية بارزة مقارنة بالهويات الأخرى، ومع هذا فإنه فى الستينات بدأت الهويات الفرعية والثنائية وعبر القومية تتنافس وتفتت الهوية القومية، غير أن أحداث ١١ سبتمبر أعادت هذه الهوية إلي المقدمة فكلما رأى الأمريكيون أمتهم مهددة فإنه من المحتمل أن يكون لديهم إحساس عال من الهوية، فإذا ما تلاشى هذا التصور للتهديد فإن الهويات الأخرى يمكن أن تحتل الأولوية مرة أخرى على الهوية القومية.

جوهر الهوية الأمريكية

ويعتبر هنتنجتون أنه عبر القرون حدد الأمريكيون بدرجات متفاوتة، جوهر هويتهم فى ضوء العنصر Race، والعرق ethnicity، الإيديولوجية والثقافة، وقد تم تصفية كل من العنصر والعرق إلى حد كبير، وأصبح الأمريكيون يرون بلدهم كمجتمع متعدد الأعراق والأجناس، وأصبحت «العقيدة الأمريكية» The American Creed كما صاغها فى البداية «توماس جيفرسون» وطورها آخرون، ينظر إليها باعتبارها العامل الحاسم المحدد للهوية الأمريكية وهى الهوية التى كانت نتاجا للثقافة الأنجلو بروتستانتية المميزة للمستوطنين المؤسسين لأمريكا فى القرن السابع عشر والثامن عشر. وتتضمن العناصر الرئيسية لهذه الثقافة من : اللغة الإنجليزية، المسيحية، الالتزام الدينى والمفاهيم الإنجليزية لحكم القانون، مسئولية الحكام وحقوق الأفراد وقيم الفردية للمنشقين البروتستانت، وأخلاقيات العمل والاعتقاد بأن البشر لديهم القدرة والواجب لمحاولة خلق الجنة على الأرض أو «مدينة فوق التل» City on the Hill. وقد انجذب ملايين من المهاجرين لأمريكا بفعل هذه الثقافة والفرصة الاقتصادية التى ساعدت على خلقها. وقد ظلت الأنجلوبروتستانتية مركزية بالنسبة للهوية الأمريكية لمدة ثلاثة قرون، وهى المشترك الذى امتلكه الأمريكيون وهى ما ميزهم عن شعوب أخرى، غير أنه فى نهاية القرن العشرين تعرضت السمة البارزة وجوهر هذه الثقافة لموجة جديدة من المهاجرين من أمريكا اللاتينية وآسيا والشعبية التى أصبحت فى الدوائر المثقفة السياسية لنظريات تعدد الثقافات



والتنوع، وانتشار الإسبانية كلغة ثانية، والاتجاهات اللاتينية Hisponiza-tion في المجتمع الأمريكي، وتأكدت هويات المجموعات القائمة على العنصر والعرق والجنس وتأثير الشتات Dias-pora وحكومات أوطانهم والالتزام المتزايد للصفوة للهوية العالمية. ويتوقع هنتنجتون أنه فى الاستجابة لهذه التحديات التى تتعرض لها الهوية الأمريكية، فإن الهوية الأمريكية يمكن أن تتطور فى ثلاثة اتجاهات:

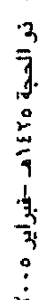
١ - أمريكا قائمة على العقيدة تفتقر إلى جوهر ثقافى تاريخى ويوحدها التزام مشترك لمبادىء العقيدة الأمريكية فقط.

٢ - أمريكا منقسمة إلى شعبين bi-furcated بلغتين الاسبانية والانجليزية وثقافتين الأنجلو بروتستانتية واللاتينية.

٣ - أمريكا Exclusivist تتحدد مرة أخرى بالعنصر والعرق وتخضع هؤلاء الذين ليسوا بيضا وأوروبيين.

أزمة الهوية القومية

ويسجل هنتنجتون تأثير أحداث ١١ سبتمبر على الهوية الأمريكية فيلاحظ أنه قبل هذه الأحداث كانت ظاهرة رفع الأعلام الأمريكية على المبانى والمنشآت قد ضعفت، ولكن بعد ١١ سبتمبر أصبحت الأعلام الأمريكية فى كل مكان وبشكل لم يكن مألوفا، وهو ما عكس الأزمة التى مرت بها الهوية الأمريكية قبل هذه الأحداث وضعف ما تتسم به عند الأمريكيين مثل بعض المتعلمين والنخبة الأمريكية حيث بدت الهوية الأمريكية وكأنها قد توارت عن النظر، وسحقت العولمة وتعدد الثقافات والعالمية والهجرة ومعاداة القومية الوعى الأمريكى وأصبحت الهويات العرقية والعنصرية فى المقدمة، وعلى نقيض أسلافهم أصبح المهاجرون يحتفظون بمواطنة ثانية وأثار التدفق اللاتينى الجماعي العديد من الأسئلة حول وحدة اللغة والثقافة الأمريكية وأخلى تعليم التاريخ القومى السبيل أمام تعليم التواريخ العرقية والعنصرية، وحل الاحتفال بالتنوع محل ما يتمتع به الأمريكيون من عوامل مشتركة، وبدت الوحدة الوطنية والاحساس بالهوية القومية التى خلقها العمل والحرب فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وتدعمت فى الحروب العالمية فى القرن العشرين تتآكل، ومع عام ٢٠٠٠ وبمعان كثيرة كانت أمريكا أمة أقل مما كانت عليه خلال قرن، وارتفعت أعلام الهويات الأخرى بأعلى من العلم الأمريكى وتعددت الأحداث التى عكست التحديات التى يواجهها جوهر الهوية الأمريكية من الهويات الأخرى وواجهت عبارة «نحن الأمريكيين» مشكلة جوهرية حول الهوية



الأمريكية، فهل «نحن» We أمة واحدة أم متعددة؟ وإذ كنا «نحن» يميزنا عن «هم » Them ومن هم من ليسوا نحن: العنصر، الدين، العرقية، القيم، الثقافة، الثروة السياسية أم ماذا؟ وهل الولايات المتحدة، كما جادل البعض «أمة عالمية» تقوم على مشترك لكل البشرية وتحتضن من حيث المبدأ كل القوى؟ أم أننا أمة غربية تحددت هويتها بميراثنا ومؤسساتنا الأوروبية؟ أم أننا نتميز بحضارتنا المتميزة، كما جادل المدافعون عن مفهوم «الاستثنائية الأمريكية» American Exceptionatism عبر تاريخنا؟ وهل نحن أساسا مجتمع سياسى تقدم هويته فقط فى عقد اجتماعى تجسد فى الاستقلال والوثائق المؤسسية الأخرى؟ وهل تمتلك هوية ذات معنى كأمة تعلو فوق هوياتنا القومية والدينية الأخرى؟ كل هذه الأسئلة بقيت للأمريكيين بعد ١١ سبتمبر، وهى فى جانب منها أسئلة بلاغية ولكنها أيضا أسئلة لها معان عميقة بالنسبة للمجتمع الأمريكى والسياسة الأمريكية فى الداخل والخارج.

وفى اعتقاد هنتنجتون أنه إذا كانت قلة من الناس هى التى توقعت تفكك الاتحاد السوفييتى، والتحرك نحو تحلل المملكة المتحدة قبل حقبة من تحققها، كذلك فإن قلة من الأمريكيين تتوقع تفكك أو حتى تغيرات جذرية فى الولايات المتحدة، ورغم هذا فإن نهاية الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفييتى، والأزمة الاقتصادية لشرق آسيا فى التسعينات، وأحداث ١١ سبتمبر تذكرنا بأن التاريخ ملىء بالمفاجآت. وأعظم مفاجأة يمكن أن تحدث هى ما إذا كانت الولايات المتحدة فى عام ٢٠٢٥ ستظل هى ذلك البلد الذى كان عام ٢٠٠٠ أكثر منها دولة مختلفة جدا «أو بلدان» بتركيب مختلف جدا لنفسها ولهويتها عما كانت عليه منذ ربع قرن سابق. فالشعب الأمريكى الذى حقق الاستقلال فى نهاية القرن السادس عشر كان قليلا ومتجانسا وأغلبية من البيض والبروتستانت ويشترك بشكل واسع فى ثقافة مشتركة وملتزم بشكل غالب بالمبادىء السياسية التى تجسدت فى إعلان الاستقلال والدستور وغيرها من الوثائق المؤسسة، ولكن مع نهاية القرن العشرين تضاعفت أعداد الشعب الأمريكى قرابة مائة مرة، وأصبحت أمريكا متعددة الجنسيات ٦٩٪ من البيض، ١٢٪ من اللاتيين، ١٢٪ من السود، ٤٪ آسيويين ومتعددة الأعراق بدون أغلبية عرقية ومتعددة الديانات (٣٦٪ بروتستانت، ٢٣٪ كاثوليك، ٨٪ ديانات أخرى، ٨٪ بلا ديانة)، وأصبحت الثقافة الأمريكية المشتركة تحت الهجوم من عديد من الأفراد والجماعات فى المجتمع الأمريكى، وجردت نهاية الحرب الباردة أمريكا من امبراطورية الشر التى كانت تحدد نفسها فى مواجهتها، ولم نعد نحن الأمريكيين ما كنا عليه، وغير متأكدين مما سنصبح عليه.



وعلى الرغم من إدراك هنتنجتون أنه ليس هناك مجتمع خالد، وأنه حتى أكثر المجتمعات نجاحا يصل إلى النقطة التى يتهدد فيها بالتفكك والتحلل بقوى خارجية «بربرية» لا ترحم، ورغم مشاركته فى الرأى القائل لماذا أمريكا، أكثر من أى أمة أخرى، ربما ولدت لكى تموت، فإن هنتنجتون يعتقد أن بعض المجتمعات وهى تواجه تحديات خطيرة لوجودها هى أيضا قادرة على تأجيل موتها ووقف تفككها بتجديد إحساسها بهويتها القومية وهدفها القومى والقيم الثقافية المشتركة، ويعتقد هنتنجتون أن الأمريكيين قد فعلوا هذا بعد ١١ سبتمبر ولكن التحدى الذى يواجهونه فى السنوات الأولى منذ الألفية الثانية هو ما إذا كانوا عازمين على الاستمرار فى فعل هذا إن لم يكونوا معرضين للهجوم. ويلاحظ هنتنجتون أن الخبرة التاريخية والتحليل السوسيولوجى يظهر أن غياب «الآخر» الخارجى من المحتمل أن يقوض الوحدة، ويولد الانقسامات داخل المجتمع، ومن غير الثابت ما إذا كانت الهجمات الإرهابية المتقطعة والصراعات مع العراق أو «دول مارقة» أخرى سوف يولد التماسك القومى الذى أحدثته حروب القرن العشرين، كما يلاحظ أن تصفية المكونات العنصرية والعرقية للهوية القومية والتحديات لمكوناتها الثقافية والقائدية، إنما تثير أسئلة فيما يتعلق بمستقبل الهوية الأمريكية، وعنده أنه على الأقل هناك أربع هويات محتملة: أيديولوجية، أو هوية ذات شعبتين أو إقصائية Exclusive أو ثقافية، ويتوقع أن تكون أمريكا فى المستقبل مزيجا من هذه الهويات أو هويات أخرى محتملة.

ويؤكد هنتنجتون تأثير الهجرة اللاتينية على وحدة اللغة ووحدة الثقافة الأمريكية فيعتبر أن هذه الهجرة وخاصة بعد ١٩٦٥ يمكن أن تجعل من أمريكا قسمين فيما يتعلق باللغة «الإنجليزية والإسبانية» والثقافة «الإنجليزية واللاتينية» الأمر الذى يمكن أن يحل محل الانقسام bifurcation الأبيض والأسود باعتباره الانقسام الأكثر أهمية فى المجتمع الأمريكى. وسوف يصبح جزء من أمريكا وخاصة فى جنوب فلوريدا والشمال الغربى لاتينيا فى المقام الأول فى الوقت الذى تتعايش فيه كل من الثقافات واللغات فى باقى أمريكا، وباختصار فإن أمريكا سوف تفقد ثقافتها ووحدتها اللغوية وتصبح مجتمعا فى اللغة والثقافة مثل كندا وسويسرا وبلجيكا، ويرد هنتنجتون هذا الاتجاه إلى شعبية نظريات تعدد الثقافات والتنوع بين المثقفين والنخبة السياسية وسياسات الحكومة حول التعليم الثنائى اللغة، وكانت القوة الدافعة وراء هذا الاتجاه إلى الانقسام الثقافى هى



الهجرة من أمريكا اللاتينية وخاصة المكسيك، وقد كان للهجرة المكسيكية هذا التأثير بسبب الخصائص التى ميزتها من هجرات الماضي والحاضر من بلدان أخرى حيث لم يستطع المهاجرون المكسيك أن يندمجوا فى المجتمع الأمريكى مثل ما يفعله المهاجرون الآخرون.

إزاء هذا الاحتمال يتصور هنتنجتون أن القوى المختلفة التى تتحدى جوهر الثقافة والعقيدة الأمريكية يمكن أن تولد حركة من جانب الأمريكيين البيض لإحياء المفاهيم العنصرية والعرقية للهوية الأمريكية التى نبذت وضعفت الثقة فيها لخلق أمريكا تستبعد وتطرد أو تتجاوز أو تقهر الجماعات العنصرية والعرقية والثقافية الأخرى وحيث توحى الخبرة التاريخية المعاصرة أن هذا رد فعل كبير الاحتمال من جانب جماعة عرقية وعنصرية تشعر بأنها مهددة بصعود جماعات أخرى وهو ما يمكن أن يخلق بلدا عنصريا غير متسامح على درجة عالية من الصراع بين الجماعات.

ويؤكد هنتنجتون مرارا على الجوهر الأنجلوبروتستانتى للهوية الأمريكية وغيرها كأساس لوحدة وتماسك هذه الهوية ويعتبر أن هذه الوحدة قد انبثقت من قدرة واستعداد النخبة الأنجلوبروتستانتية على طبع صورتها علي الشعوب الأخرى التى أتت إلي أمريكا وهو الطابع الذى ظلت عليه قيمها وعاداتها وعلاقاتها الاجتماعية، ومستويات ذوقها وأخلاقياتها على مدى ٣٠٠ عام، ومازالت كذلك رغم الاحتفاء بالتنوع، بل إن ملايين المهاجرين وأطفالهم قد حققوا الثروة والقوة والمكانة فى المجتمع الأمريكى تحديدا لأنهم دمجوا أنفسهم في الثقافة الأمريكية السائدة، وهكذا فإن جوهر هويتهم هو الثقافة التى خلقها المستوطنون والتى استوعبتها اجيال المهاجرين والتى خلقت العقيدة الأمريكية، وتقع البروتستانتية بقيمها التى تعتمد على المسئولية الفردية وتقديس العمل فى قلب هذه العقيدة.

ويقارن هنتنجتون بين قدرات جماعات المهاجرين على الاندماج فى الثقافة الأمريكية وخاصة اللغة والزواج، فيعتبر أن المهاجرين من الهند وكوريا واليابان والفلبين كانوا أسرع فى الاندماج بسبب قرب مستويات تعليمهم ولغتهم وخاصة الهنود والفلبينيين، ولكن المهاجرين من أمريكا اللاتينية وخاصة من المكسيك، كانوا أبطأ فى عملية الاقتراب من المعايير الأمريكية، كما يبدو المسلمون - وخاصة المسلمين العرب - أكثر بطئا فى الاندماج، إذا ما قورنوا بالجماعات الأخرى التى هاجرت بعد عام ١٩٦٥، وقد يكون هذا راجعا إلى تحيز المسيحيين واليهود تجاه المسلمين، الأمر الذى قوى فى نهاية التسعينات وبعد حوادث الإرهاب التى قام بها جماعات إسلامية متطرفة، وقد يرجع هذا أيضا عند هنتنجتون إلى طبيعة الثقافة الإسلامية واختلافها عن الثقافة



الأمريكية.

ولمدة أربعين عاما كانت أمريكا قائدة «العالم الحر» ضد «إمبراطورية الشر»، وبدون امبراطورية الشر كيف تحدد أمريكا نفسها؟ أو كما تساءل باحث أمريكى «بدون الحرب الباردة ما هى فكرة أن تكون أمريكا؟» فالنظرية السوسيولوجية وشهادة التاريخ توحى أن غياب العدو الخارجى، يشجع على عدم الوحدة الداخلية. ولهذا فليس غريبا أن نهاية الحرب الباردة قوى من جاذبية الهويات الفرعية فى أمريكا كما فعلت فى العديد من البلدان الأخرى، فغياب تهديد خارجى هام يخفض من الحاجة لحكومة قومية قوية وأمة متماسكة ومتحدة، وكما حذر اثنان من الباحثين عام ١٩٩٤، فإن نهاية الحرب الباردة سوف تتسبب فى تآكل التماسك القومى والسياسى في الوقت الذى تبرز فى المقدمة الاختلافات العرقية والطائفية، وبنفس المعنى رأى باحث آخر أن نهاية الحرب الباردة سوف تخلق إحساسا دائما بالمصلحة القومية وتقليل الاستعداد للتضحية من أجل البلد، والثقة فى الحكومة ويخفف من الالتزام الأخلاقى.

وجاءت هجمات التسعينات على مركز التجارة العالمى، والسفارات الأمريكية فى تانزانيا وكينيا والمدمرة كول وغيرها من الهجمات الإرهابية التى أحبطت بنجاح، شكلت بالتأكيد حربا متقطعة منخفضة المستوى ضد الولايات المتحدة، كما أن الدول والمنظمات الإسلامية تهدد إسرائيل والتى يراها الكثير من الأمريكيين باعتبارها حليفا وثيقا. وكانت إيران والعراق – فى عام ٢٠٠٣ – تفرض تهديدا محتملا لإمدادات البترول لأمريكا والعالم، كما فعلت باكستان على أسلحة نووية فى التسعينات وفى أوقات مختلفة قيل إن إيران والعراق وليبيا والعربية السعودية تتبنى نوايا وبرامج نووية. ودعمت الفجوة الثقافية بين الإسلام وأمريكا المسيحية والأنجلوبروتستانتية من مؤهلات الإسلام كعدو .وجاءت الهجمات على نيويورك وواشنطن وحرب أفغانستان والعراق «والحرب على الإرهاب» لكى تجعل الإسلام المتشدد عدو أمريكا الأول فى القرن الواحد والعشرين(!).

ويستخلص هنتنجتون أن الهوية الأمريكية سوف تشكل بصورة حاسمة بالإدراك الجديد لاكتشاف أمريكا للهجوم الخارجى وتأثير تفاعلات أمريكا الشديدة مع شعوب ذات ثقافات وديانات مختلفة. فالتأثيرات الخارجية يمكن أن تدفع إلى إعادة اكتشاف وتحديد الأمريكيين لهويتهم التاريخية الدينية وثقافتهم الأنجلوبروتستانتية.

يذكر هنتنجتون قول تيودور روزفلت

عام ١٩١٧ «بأننا يجب أن يكون لنا علم واحد، ولغة واحدة هي لغة إعلان الاستقلال وخطبة جورج واشنطن في الوداع وخطبة لينكولون في جوتسبرج «ويقارن هذا بقول كلينتون عام ٢٠٠٠» فإني آمل كثيرا أن أكون الرئيس الأخير الذي يتحدث الإسبانية»، ويحذر هنتنجتون من أنه إذا ما استمر هذا الاتجاه فإن الانقسام الثقافي بين اللاتينيين والإنجليز سوف يحل محل الانقسام العنصري بين البيض والسود، وسوف تكون أمريكا المنقسمة بلغتين وثقافتين مختلفة بشكل جذري عن أمريكا ذات لغة واحدة وثقافة أنجلوبروتستانتية والتي عاشت لأكثر من ثلاثة قرون.

الانبعاث الديني

وبعد الاستخلاصات التي انتهى إليها هنتنجتون حول ما مرت به الهوية الأمريكية وما يشكل جوهرها من أساس أنجلوبروتستانتي، ثم عما تعرضت له منذ الستينات من تدفق الهجرة اللاتينية وما أحدثته من انقسامات ثقافية ولغوية في المجتمع الأمريكي، يخصص هنتنجتون فصلا مستقلا عما ينتظر الهوية الدينية والقومية الأمريكية في القرن الواحد والعشرين. ويتصور أنه مع القرن الجديد بدأت الهوية الأمريكية مرحلة جديدة تتشكل فيها بالانكشاف الأمريكي للهجوم الخارجي وتحول جديد إلى الدين، ويقظة عظمى في أمريكا تساير انبعاث الدين في معظم العالم. فحتى الثمانينات كانت هناك شكوى من غياب التأثير الديني من الحياة الأمريكية العامة، ولكن في التسعينات تعرضت الأفكار الدينية والاهتمامات والقضايا والجماعات والخطاب لولادة جذرية جديدة وتعدى الوجود الديني في الحياة العامة بكثير ما كان عليه في هذا القرن، وكتب المؤرخون «إن أحد الملامح اللافتة وغير المتوقعة في نهاية القرن العشرين في الحياة الأمريكية كان هو إعادة ظهور الشعور الديني كقوة كبيرة في السياسة والثقافة».

وفي هذا السياق ظهرت حركة المحافظين الدينيين الذين غيروا النقاش الأمريكي، فقد غيروا من المشاركين في هذا النقاش والافتراضات التي حملها ولغته ومحتواه بل وما خلص إليه، وباختصار فقط غيروا القواعد، عما هو أصبح طيبا، وما هو طيب أصبح سيئا وما هو سيىء أصبح طيبا.

وبعد ١١ سبتمبر قال الرئيس الأمريكي «إننا نرفض أن نعيش في خوف»، ولكن هذا العالم هو عالم مخيف وليس أمام الأمريكيين إلا أن يعيشوا مع الخوف إن لم يكن في خوف، والتعامل مع هذه التهديدات يتطلب تناوبا صعبا بين المحافظة على الحريات التقليدية وبين المحافظة على أهم حرية التي أخذها الأمريكيون موضع تسليم وهي حرية أن يكونوا آمنين في الداخل من عدو مخيف يهاجم حياتهم وممتلكاتهم ومؤسساتهم، هذا الاكتشاف أصبح شأنا مركزيا سيحدد الأمريكيين أنفسهم في هذه

المرحلة الجديدة من تطور هويتهم.

الإسلام المتشدد في مواجهة أمريكا

يبدأ هنتنجتون في وصف العلاقة بين أمريكا والإسلام المتشدد بالتنبيه بأن الأمريكيين لا يرون الإسلام وشعبه وحضارته باعتباره عدوا لأمريكا، ولكن الإسلاميين المتشددين سواء الدينيين أو العلمانيين يرون أمريكا وشعبها وحضارته باعتبارها عدو الإسلام، وليس أمام الأمريكيين إلا أن يروا الإسلاميين المتشددين على هذا النحو. ويرى هنتنجتون عدة تشابهات من هذه الحرب الجديدة بين الإسلام المتشدد وأمريكا وبين الحرب الباردة، فالعداء الإسلامي يشجع الأمريكيين على أن يحددوا هويتهم وفق شروط دينية وثقافية مثلما روجت الحرب الباردة لتحديدات سياسية وعقائدية لهويتهم، وتصف كلمات جورج كينان عام ١٩٤٦ حول التهديد السوفييتي بدقة أعداء أمريكا الإسلاميين: «نحن إزاء قوة سياسية تلتزم بشكل متطرف بالاعتقاد بأنه مع الولايات المتحدة لا يمكن أن يكون ثمة تعايش Modus Vivendi وأنه من المطلوب والضروري أن يمزق تناسق حياتنا، وأن تكسر السلطة الدولية لدولتنا». وكما فعلت الدولية الشيوعية، فإن الجماعات الإسلامية المتشددة تحتفظ بشبكة من الخلايا في بلدان العالم، ومثل الشيوعيين فإنهم ينظمون الاحتجاجات السلمية والمظاهرات وتتنافس الأحزاب السياسية في الانتخابات. وهم يتبنون المنظمات التي تتبع أهدافا دينية والتي يجذبون فيها الأعضاء. وتجد المجتمعات الإسلامية المهاجرة في غرب أوروبا والولايات المتحدة بيئة غير مهددة وفي بعض الأوقات متعاطفة مشابهة بما قدمه المعجبون باليسار بالاتحاد السوفييتي. ومثلما أشار الرئيس الأمريكي للاتحاد السوفييتي باعتباره «امبراطورية الشر» يشبه تشبيه الرئيس بوش دولتين إسلاميتين، العراق وإيران، بالاضافة لكوريا الشمالية ، باعتبارها «محور الشر»، وهكذا فإن أمريكا الأيديولوجية والثقافية مع الشيوعية المتشددة قد تحولت إلي حربها الدينية والثقافية مع الإسلام المتشدد.(!).

ويتتبع هنتنجتون تجمع الاتجاهات المعادية للمسلمين نحو أمريكا فيقول إنها اكتسبت قوة في التسعينات وأصبحت واضحة بشكل جاد بعد ١١ سبتمبر، فعلى الرغم من أن المسلمين عامة قد عبروا عن فزعهم وتعاطفهم لما حدث في هذا اليوم، ولكن كثيرين سرعان ما تبنوا نظريات تقول إن الهجمات قد نظمتها المخابرات الأمريكية أو الموساد



الإسرائيلي، وعارضوا بشدة العمل العسكري الأمريكي ضد القاعدة في أفغانستان ونظام طالبان، وأظهرت استطلاعات الرأي لعشرة آلاف مشترك في ٩ دول إسلامية في ديسمبر ٢٠٠١ يناير ٢٠٠٢، أن الذين تم سؤالهم قد اعتبروا أمريكا «قاسية، عدوانية، متغطرسة، سريعة الاستثارة ومتحيزة ضد السياسات الأجنبية».

ويرجع هنتنجتون خصومة المسلمين تجاه الولايات المتحدة جزئيا إلى التأييد الأمريكي لإسرائيل، كما لها أيضا جذور من الخوف من القوة الأمريكية، والحسد للثروة الأمريكية، ولما ينظر إليه على أنه استقلال أمريكي، والعداء للثقافة الأمريكية العلمانية والدينية، واعتبار ذلك نقيض الثقافة الإسلامية. ومثل هذه الاتجاهات تنتشر وتزرع في آلاف من المدارس الدينية التي تؤيدها الحكومة السعودية وحكومات أخرى ومؤسسات للإحسان من جنوب شرق آسيا إلى شمال أفريقيا. ورددت الخطب واللقاءات التي تقدم إلي ملايين الحجاج في مكة في عام ٢٠٠٣ صدى «صدام الحضارات». وينتهي هنتنجتون إلى أنه إذا كان المسلمون يرون أمريكا بشكل متزايد باعتبارها عدوا، وإذا كان هذا هو قدر أمريكا التي لا تستطيع تفاديه، فإن البديل الوحيد هو أن تقبله وأن تتخذ الاجراءات الضرورية للتعامل معه.

ويصور هنتنجتون أن التاريخ الحديث يوحي بأنه من المحتمل أن تنخرط أمريكا في صراعات مختلفة مع بلدان وجماعات إسلامية وربما أخرى في السنوات القادمة.

ويختتم هنتنجتون كتابه بالتساؤل عن دور أمريكا في العالم وهل سيوصف بالعالمية Cosmopolitan أم الإمبريالية أم القومية؟ في هذا الشأن يتصور هنتنجتون في هذه المرحلة الجديدة ثلاثة مفاهيم رئيسية تقوم في أمريكا في العلاقة ببقية العالم. فالأمريكيون يمكن أن يحتضنوا العالم بمعنى فتح بلدهم للشعوب والثقافات الأخرى أو أن يحاولوا إعادة صياغة هذه الشعوب والثقافات الأخرى في ضوء القيم الأمريكية الموجودة أو أن يحتفظوا بتميز مجتمعهم وثقافتهم عن الشعوب الأخرى، ويستعرض هنتنجتون إمكانيات كل بديل وينتهي إلى أن كلا من الاتجاهين العالمي، والإمبريالي يحاولان أن يخفضا أو يصيغان الخلافات الاجتماعية والسياسية والثقافية بين أمريكا والمجتمعات الأخرى، أما البديل القوى فسوف يعترف ويقبل ما يميز أمريكا عن المجتمعات الأخرى، فأمريكا لا تستطيع أن تكون العالم وتظل أمريكا، كما أن الشعوب الأخري لا تستطيع أن تصبح أمريكا وتظل نفسها، فأمريكا مختلفة وهذا الاختلاف يحدده بشكل كبير ثقافتها الأنجلوبروتستانتية، فالبديل للعالمية والإمبريالية هو القومية التي تكرس نفسها للحفاظ ودعم هذه الخصائص التي حددت أمريكا منذ

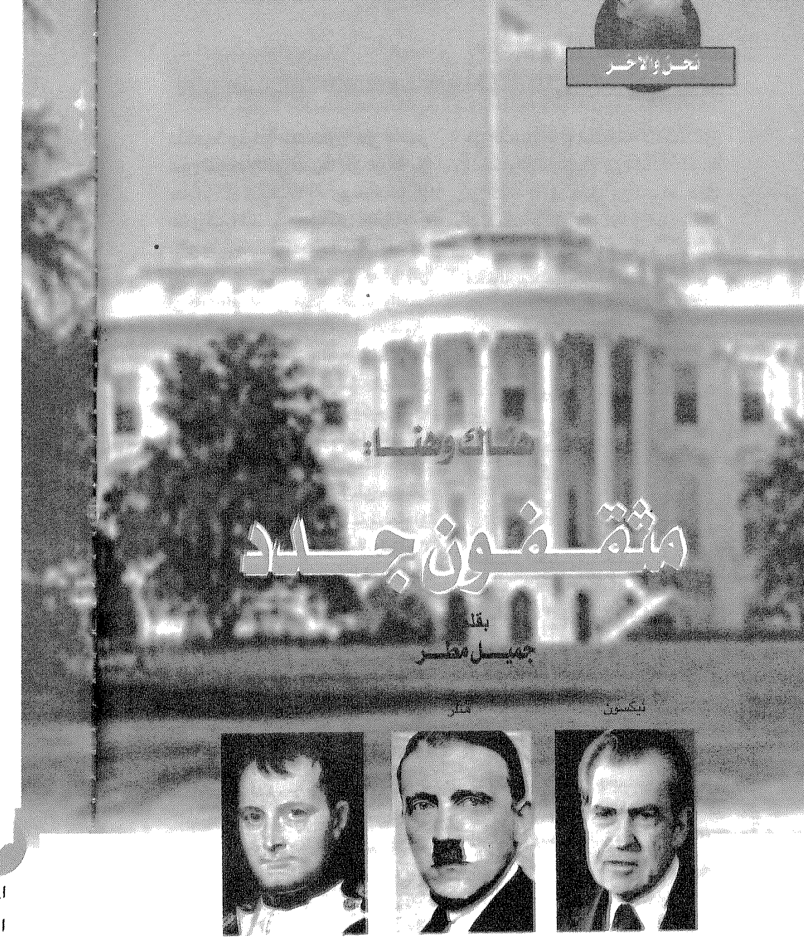


نشأتها. ويركز هنتنجتون على عنصر تدين أمريكا والذى يميزها عن غيرها من معظم المجتمعات الغربية، كما أن الأمريكيين مسيحيون بشكل غالب الأمر الذى يميزهم عن معظم الشعوب غير الأوروبية، ويقود التهديد الأمريكي إلى أن يروا العالم فى ضوء الخير والشر وإلى مدى أبعد بكثير مما يراه الآخرون. وفى عالم يصيغ فيه الدين التحالفات والعداوات فى كل قارة، فإنه لن يكون مفاجأة إذ ما تحول الأمريكيون مرة أخرى إلى الدين لكى يجدوا هويتهم القومية وهدفهم القومى.

يستخلص هنتنجتون أن عناصر هامة من النخبة الأمريكية ترجح أن تصبح أمريكا مجتمعا كوزموبوليتانيا، وترغب نخب فى أن تتبع دورا إمبرياليا، ولكن الكتلة الغالبة من الشعب الأمريكى تلتزم بالبديل القومى والحفاظ وتقوية الهوية الأمريكية التى عاشت لقرون. وسواء اختارت أمريكا أن تكون عالمية أو إمبريالية أم قومية، فإن ما سيختاره الأمريكيون سوف يشكل مستقبلهم كأمة ومستقبل العالم.

والواقع أننا نرى فى كتاب هنتنجتون الجديد امتدادا وتوسيعا لكتابه الأول عن «صدام الحضارات»، فإذا كان الكتاب الجديد يحذر من تآكل الهوية الأمريكية وأساسها الأنجلوبروتستانتى وما يتهددها من انقسام لغوى وثقافى، فإنه في الفصل الذى خصصه لـ «مستقبل الحضارات»، وحديثه عن «تجديد الغرب» فى كتابه الأول يهاجم من أسماهم دعاة التعددية الثقافية الأمريكيين «الذين رفضوا تراث بلدهم الثقافى بدلا من محاولة توحيد الولايات المتحدة ويرغبون في خلق بلد ذى حضارات متعددة أى بلد لا ينتمى لأى حضارة ويفتقر إلي قلب ثقافى.. ويرينا التاريخ أن دولة بهذا الشكل لا يمكن أن تستمر طويلا كمجتمع متماسك، فولايات متحدة متعددة الحضارات لن تكون الولايات المتحدة بل ستكون الأمم المتحدة»..

من ناحية أخرى فإذا كان جوهر كتاب «صدام الحضارات» هو تصور أن الصدام المقبل بين الحضارات سيكون بين الحضارة الأمريكية الغربية وبين حضارات أخرى من أبرزها الإسلام، فإن الكتاب الجديد يضع أمريكا فى مواجهة الإسلام، وهو وإن كان ينبه إلى أن الأمريكيين لا يرون الإسلام كشعب ودين وحضارة عدوا لهم، إلا أنه ينبه أيضا إلى أنهم يرون الإسلاميين المتشددين - حتى العلمانيين منهم على هذا النحو - وهو يستخلص أن العدو الحقيقى المحتمل للولايات المتحدة الآن هو الإسلام المتشدد وأنه إذا كان هذا هو قدر أمريكا فلابد أن تتحد وتتعامل معه على هذا النحو الخطير. ■



فى اجتماع انعقد مؤخرا قال أحد الأمريكيين للحاضرين وبينهم عرب ومسلمون وأوروبيون، «ترتكبون خطأ فادحا إذا تمكن منكم الوهم أن التيار المحافظ فى الولايات المتحدة طارئ، أنصحكم أن تدركوا الحقيقة وتتخلوا عن الأمنيات مهما كانت ممتعة أو مخدرة، التيار المحافظ فى أمريكا هو التيار الأساسى والدائم والمستمر، لم يتوقف يوما ولم يتغير ولم يستسلم فى أى وقت للمد الليبرالى، أمريكا، ما كانت ولن تكون بغير عقيدة المحافظين» وقال أيضا والحضور يستمعون باهتمام لأن المتحدث معروف لديهم، فهو قائد بارز فى التيار المحافظ وآراؤه تستمع إليها الإدارة الحاكمة بكل احترام وتنفذ الكثير من توصياته ونصائحه، قال «إن التيارات الأخرى فى الساحة الأمريكية هى الطارئة والعابرة والمؤقتة، بل لعلها الانحراف الضرورى الذى يشد على ساعد التيار المحافظ ويدفعه نحو تصحيح مساره كلما امتدت إليه يد التغيير أو اقتربت منه أفكار تحمل مسميات الإصلاح والتقدم».

التأمل فى هذه الكلمات يثير فى الذهن أفكارا شتى، أهمها المقارنة مع جوانب تعيشها المنطقة العربية. فالرأى شائع بين بعض المفكرين العرب والمسلمين بأن السائد فى المجتمعات العربية والإسلامية هو التيار المحافظ، بمعنى أن «السلطة التقدمية» فى العالمين العربى والإسلامى، سواء

كانت ليبرالية أم يسارية أم ثورية سلطة عابرة أو فاصلة بين مرحلتين أو شكلين من أشكال السلطة المحافظة، شائع أيضا بين المفكرين الممثلين للتيارات المحافظة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا أن السواد الأعظم من شعوب هذه المنطقة محافظ بطبيعته، وأنها بذلك تمثل السند الأهم لسلطة سياسية وثقافية سياسية وفكر سياسى محافظ، وتتمسك بالفكرة نفسها التيارات ذات التوجهات الدينية، يتفرع من هذا الرأى أفكار شتى، وأغلبها داعم له.

الخطر على القيم

كتب مفكر أمريكى كتابا تحت عنوان «كنساس نموذجا: كيف كسب المحافظون قلب أمريكا»، ذكر فيه أن الحزب الجمهورى الأمريكى قرر استعادة المكانة السياسية للمحافظين فى الساحة الأمريكية منذ أن شعر فى أواخر الستينات بالخطر على منظومة القيم، كانت الولايات المتحدة تعيش فى ذلك الحين حال ازدهار ثقافى غير مسبوق وكانت الطبقة المثقفة تمر فى أزهى مراحل تطورها، واقترن هذا الازدهار بانفتاح شمل كافة أوجه الحياة وسادت فى المجتمع سلوكيات ليبرالية بلغ التطرف فيها أحيانا حدا بعيدا اقترب بعضها من حد الانحلال الخلقى والتسيب المجتمعى، وازدحمت الساحة الفكرية بكل الأفكار وبخاصة ما يتصل منها بالعلمانية وعادت إلى الصدارة أفكار التطور الداروينية والجهر بالخروج عن الأديان والتقاليد وتعرضت القيم لتحولات عنيفة ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف هجمات الليبرالية، وربما كان آخرها الهجمة التى رافقت القفزة المفاجئة فى مسيرة العولمة خلال بعض سنوات الثمانينات ومعظم التسعينيات، ومع كل هجمة من التيار الليبرالى ضد أسس الحكم والأخلاق فى أمريكا كان المحافظون حريصين على إبراز خطورة «التحول نحو اليسار والإلحاد وانحلال المجتمع»، كما كانوا يسمون هذه الهجمات، ولم ينته القرن العشرون إلا وكان اليمين المحافظ قد استعاد معظم أرصدته، وهز معاقل الليبرالية حيث توجد أغلبيتهم فى المدن الكبرى والساحلين الشرقى والغربى للولايات المتحدة، وكان أحد المعاقل فى ذلك الوقت البيت الأبيض حيث كان يجلس رئيس ليبرالى، تصرف معظم عهديه فى كل الشئون، ما عدا الشخصية، كرئيس محافظ.

آليات استعادة المكانة

وقد ركز المحافظون حملة استعادة المكانة والنفوذ على عدة محاور، كان أهمها محور المثقفين وأغلبهم كان ينتمى للتيار الليبرالى. إذ صادفت إحدى الحملات انتهاء الحرب الباردة وبروز رأى بين الجمهوريين الأمريكيين يدعو

للبحث عن عدو جديد يلم أطراف الجماعة المحافظة ويعبئ الشعب الأمريكى وراء أهداف المحافظين، ووقع الاختيار على جماعة المثقفين والأفكار التى كانت تبشر بها لتكون العدو الداخلى الجديد لأمريكا، واستخدم المحافظون كافة الآليات للوصول إلى الفرد الأمريكى العادى وخاصة فى مناطق الوسط والجنوب، هاجموا «كل بدعة» مثل شرب القهوة المخلوطة بالقشدة وحيازة السيارات «الفولفو» رمز الصناعة الأجنبية الفاخرة ونقل التلاميذ السود مع البيض فى حافلات مشتركة وانتقدوا محبى الأشجار فأطلقوا عليهم «حضنة الأشجار» كناية عن المدافعين عن البيئة، وهاجموا محبى الأغانى الصاخبة كالروك أندرول، وكان التعبير السائد أنها أغانى هابطة بالذوق والأخلاق معا، وحملوا على المثليين الذين يحظون بتأييد المثقفين الليبراليين وعطفهم، وعلى الساعين لتمكين النساء والمعارضين لحكم الإعدام والذين يطالبون بمعاملة كريمة للمساجين، واتهموا بالإلحاد أو الخيانة كل الذين اتخذوا جانب النقد للتدين وظواهره ورموزه والذين يسخرون من المواطن الأمريكى الذى يلوح فى كل مناسبة بالعلم الأمريكى، ويحتفظ فى بيته ببنادق ورشاشات للدفاع عن نفسه وممتلكاته وكان أبرز من استخدم هذا الأسلوب فى الحملة ضد الليبرالية اثنان من المرشحين لرئاسة الجمهورية: ريتشارد نيكسون، وبارى جولد ووتر، ويلاحظ مؤلف الكتاب أن بعض بنود هذه الحملة كانت نفسها البنود التى استخدمها النازيون فى ألمانيا والبلاشفة فى روسيا فى عقد الثلاثينيات لمطاردة أنصار التيار الليبرالى.

أفكار المحافظين

وقد سمعنا عن قادة الفكر المحافظ الجديد فى أمريكا أو قرأنا لهم أفكارا تقول أن «حكومتنا وثقافتنا ومدارسنا يهيمن عليها طبقة سياسية حاكمة راقية التعليم إلى حد لا يتناسب مع نوع التعليم الذى يتلقاه أغلب المواطنين، وتحتقر معتقدات الجماهير العادية وممارساتها طبقة متغطرسة ومقززة ومغرورة ومدعية، وتتكبر على الدين والمعتقدات كافة، ومادية التفكير ومراوغة» يقصدون المثقفين وبينهم الإعلاميون، من أصحاب التوجهات الليبرالية.

ويرد الليبراليون، وقد صاروا فى موقع الدفاع، بأنه حدث بالفعل أن تبوأت الصدارة بعدهم فى مواقع النفوذ الثقافى فى الولايات المتحدة فئة من «المثقفين الجدد» هؤلاء لديهم كما يقول الليبراليون، قدرات خاصة وبخاصة القدرة على التحلى بسلبية مفرطة، أو بمعنى آخر قدرة سالبة بقوة هائلة،

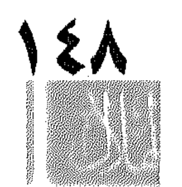


هؤلاء يكتبون ويبشرون ويقودون وهم فى حال عدم تأكد، يتصرفون بغموض شديد وفى جو من الضبابية، وبنوايا ملؤها الشك والتشكيك، ويقول قادة الليبرالية الأمريكية، أن المثقفين الجدد من المحافظين فقدوا الرغبة فى البحث عن الحقيقة والعقل والمنطق. أسهل عليهم تخوين الآخر واتهامه بالإلحاد والكفر والتعصب والإرهاب وتشويه سمعته عن الدخول معه فى حوار أو محاولة فهم ما يدور فى ذهنه ويدافع عنه. المثقفون الجدد يرفعون شعارات العودة بالأخلاق والسلوكيات ونظم التفكير إلى الماضى، إلى الجذور. ويأتى الولاء عندهم قبل أى شئ آخر كالولاء الأولى الذى عرفناه للقبيلة وأساطيرها وللدين والطائفة والحزب والزعيم. ويقتبس أحد المثقفين الليبراليين عن نابليون بونابرت تعليقه على سلوك هذا النوع من السياسيين أو المثقفين بأنهم يتفاخرون فى العلن بقطعة من الحرير ويعلنون أنهم مستعدون للموت من أجلها. يخشى الليبراليون الأمريكيون أن تكون العودة إلى تقديس العلم الأمريكى والوطن مقدمة لفاشية أمريكية تهون أمامها كافة فاشيات التاريخ. أظن أنها نفس الخشية لدى بعض الليبراليين العرب المخضرمين من سلوكيات الليبراليين الجدد الذين أحاطوا بالسلطة السياسية فى كثير من بلادنا العربية، فيدفعونها نحو الاستبداد.

ملمح قديم

ليس جديدا هذا الصدام بين القوى المحافظة والقوى التقدمية، وبالتأكيد ليس غريبا عنا فى عالمنا العربى فقد نشبت بفضله حرب باردة عربية استمرت لأكثر من عقد من الزمن. وخلفت جروحا غائرة فى الجسد السياسى العربى، وتشوهت بسببها صورة المحافظين والتقدميين، سواء كانوا يساريين أو ليبراليين، ومنذ ذلك الحين لم تتمكن النخب السياسية العربية من استعادة ثقة الجماهير بها، ولم يكن الصدام الأول، ولا كان الصدام الأخير، فالتاريخ الإنسانى حافل بثورات وثورات مضادة، بل أن الإنسان يكاد يكون قد أدمن متابعة هذا المسلسل أو ممارسته، يكاد هذا الإدمان يصطف مع ثلاثية الإدمان عند الإنسان منذ فجر التاريخ البشرى، إدمان السكر وإدمان الدهون وإدمان الجنس، لقد أدمن أيضا ممارسة الثورة على الوضع القائم وممارسة الثورة المضادة لثورته مدفوعا بحنينه إلى الماضى.

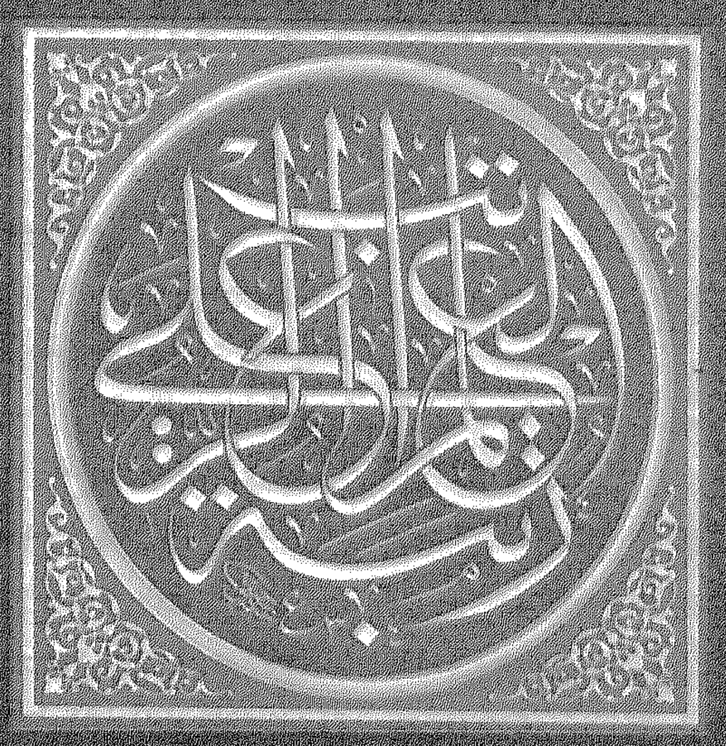
وتتشابه بعض توجهات المثقفين الجدد من المحافظين الأمريكيين وبعض توجهات كثير من المثقفين «الجدد» فى العالم العربى رغم أن وصفهم بالجدد



يبدو غير دقيق باعتبار أن أغلبهم كان فى مواقع القيادة والريادة فى سنوات المد التقدمى «الثورية» ولعب دورا فى الحملة ضد المحافظين العرب، هناك وهنا، يقف الجدد ضد «الإيديولوجيين» أى ضد المثقفين المنادين بحريات أوسع للمواطن بحجة أن هذه الحرية قد يستغلها أعداء النظام الحاكم، أى فى منظور هؤلاء، أعداء الوطن هناك وهنا، يعتمد الجدد على مشاعر التدين، وأحيانا، قوة المؤسسة الدينية، من أجل دعم الحكم المحافظ. وقد تبدو الصورة مختلفة فى عالمنا العربى الذى يدخل صراعا مع تيار دينى أشد تطرفا نحو اليمين من النخبة الحاكمة ومن المثقفين الجدد. ويتأكد التشابه بين الجدد هناك وهنا فى الاعتماد على المشاعر الدينية إذا اعتبرنا أن المؤسسة الدينية فى العالم العربى، تقتصر المؤسسة الدينية الرسمية، وليست كما فى ظنى، هى كل ما يتصل بالممارسات الجماعية للدين ابتداء من المؤسسة الدينية الرسمية وانتهاء بجمعيات الرفاة والرعاية والتطوع مرورا بالدعاة الأفراد الذين يبيعون رسائلهم على شرائط مسموعة أو مرئية وبرامج الدين فى الإذاعة والتليفزيون، بهذا المعنى يعتمد المحافظون الجدد الأمريكيون اعتمادا كاملا على كافة أنشطة «المؤسسة الدينية»، ويشجعونها ويتبادلون معها التقوية والتمكين. بينما يعتمد المثقفون الجدد من العرب والمسلمين على أنشطة بعينها ويرفضون أنشطة أخرى يعتقدون أنها – إن قويت – فستحرمهم فرصة احتكار المناصب السياسية والانفراد بقيادة اليمين.

وهناك وهنا، تتمحور الدعوة عند الجدد حول البحث عن عدو مناسب فى الداخل والخارج تعبأ من أجله الجماهير «المحافظة» وحول أولوية الوطن ورموزه مصحوبة بغطرسة وتعالى لتغطية الفشل الداخلى والخارجى، وحول إعلاء مفهوم الواقعية والزعم بهجر الأيديولوجية لتبرير الممارسات غير الإنسانية والسياسات المترددة والمتقلبة. ويستغرق «الجدد» ويبدعون فى الغموض والمراوغة ليخفوا اعتمادهم على قوى وممارسات غير مقبولة جماهيريا كالفساد والولوغ فى سياسات خصخصة الرعاية الاجتماعية والصحية وتفاقم سوء الإدارة وتردى أخلاقيات التعامل.

تتشابه أشياء هنا مع أشياء هناك. ولكن يبقى أن هنا غير هناك، المثقف هناك، مازال عنصرا حرا والسلطة رغم عنفها وعنفوانها مازالت مقيدة. ■





نحن والآخر

أمريكا

وتحديات الثقافة العربية

١٥٠

بقلم

د. محمد حرب

«نحن قادة مجموعة الثمانى، ندرك أن السلام والتطور السياسى، والاقتصادى والاجتماعى، والرخاء والاستقرار فى بلدان الشرق الأوسط الكبير وشمال إفريقيا، تمثل تحديات تهمنا. ولذا نعلن دعمنا للإصلاح الديمقراطى والاجتماعى والاقتصادى المنبثق من تلك المنطقة».

«إن شعوب الشرق الأوسط الكبير وشمال إفريقيا تتمتع بتقاليد وثقافة غنية بالإنجازات فى مجالات الحكم والتجارة والعلوم والفنون، وقد قدمت إسهامات كثيرة دائمة للحضارة الإنسانية».

بهذه الفقرة السابقة، بدأت الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية «مجموعة الثماني» برنامجها لإصلاح بلادنا. في مؤتمرها عام ٢٠٠٤ في سي أيلاند بولاية جورجيا في الولايات المتحدة الأمريكية. والذي نخصه هنا، هو الإصلاح الاجتماعي الثقافي من هذه المنطقة.

وسبب كتابة هذا المقال أن كتاباً ركزوا على الجوانب الديمقراطية والاقتصادية دون الجانب الثقافي، وهو الذي يعنينا هنا.

تحديث الثقافة العربية

قدمت الإدارة الأمريكية مشروعها عبر دراسات قام بها نحو ٣٠٠ باحث لتحديث الثقافة العربية واللغة العربية:

«سبب تقديم المشروع، كما تراه الولايات المتحدة الأمريكية - إدارة الرئيس بوش.

١ - إن عدم تطوير اللغة العربية وعدم تحررها من أشكالها القديمة التي ظلت عليها منذ قرون، خاصة أن ذلك أدى فعليا إلى صعوبة كبري في استيعاب أهل الحضارات والأديان الأخرى لهذه اللغة أو تعلمها أو الاقتراب فكرياً ممن يتحدث بها.

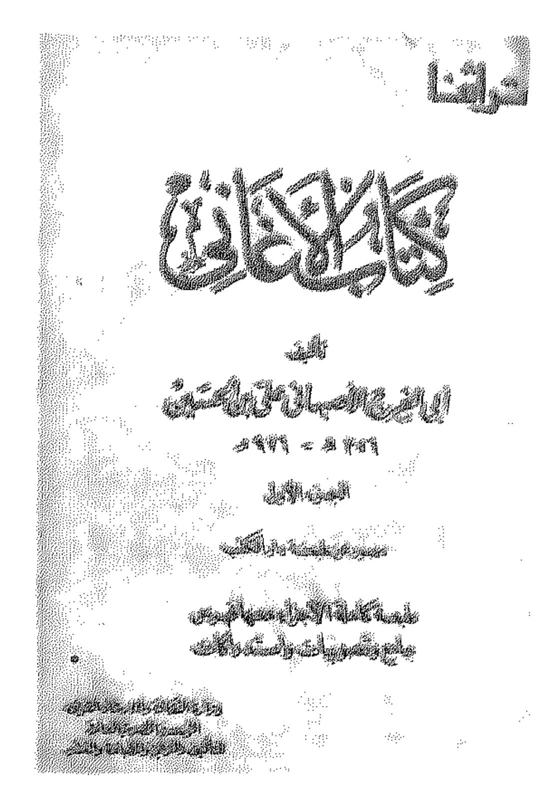
٢ - إن الإرهابيين الذين يتحدثون اللغة العربية، وتتم ترجمة كلماتهم إلى الإنجليزية أو الفرنسية لا نعرف شعورهم الحقيقي أو الدوافع الكامنة وراء ارتكابهم لهذه الأحداث، لأن الترجمة العربية إلى اللغات الأخرى يبدو أنها تواجه بمشاكل حقيقية (نحن) غير قادرين على تصنيفها وتبيان أسبابها الحقيقية».

٣ - إن العلوم الدولية لا تستطيع أن تعتمد هذه اللغة بسبب تعقد رموزها وصعوبة أشكالها في الوقت الذي يستطيع أهل اللغة العربية ومتحدثوها إتقان اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية مثل الإنجليزية والفرنسية.

٤ - العرب يتحدثون اللغات الأوروبية مثل أهلها تماماً مما يؤكد سهولة أشكال وحروف اللاتينية وقدرتها على التأقلم والتطوير تحت أي ظرف.

٥ - ندرك أن هناك لغة مشتركة يمكن أن تجمع كل سكان الكرة الأرضية فيما عدا الذين يتحدثون باللغة العربية، وهو ما يجعل من الصعب بناء تواصل فكرى معهم أو معرفة دوافعهم النفسية.

٦ - إن صعوبة التقاء اللغة



التراث العربى على قائمة الاستهداف

العربية مع اللغة الإنجليزية كانت الدافع الرئيسى وراء موجة الكره العربى لأمريكا وإسرائيل، والشعور بالبغض والانتقام من الذين يتحدثون الإنجليزية والفرنسية.

هدف المشروع

● لذلك كان الهدف من المشروع الأمريكي، كما جاء فى الجانب الثقافى منه:

١ - أن يتم تطوير مادة اللغة العربية فى كل المدارس العربية والإسلامية.

٢ - أن يتم إلغاء المناهج القائمة حالياً فى هذه المدارس التى تعتمد على دراسة اللغة والصور الجمالية وإبداعاتها والكلمات والنصوص المتشابهة مثل الشعر القديم الذى ينتهى بحروف واحدة.

٣ - إلغاء ما تتضمنه اللغة العربية ومناهجها من توجهات ومبادىء دينية قد لا تتفق على بناء التواصل مع الآخرين غير العرب، أو كما يطلق عليهم فى البلاد العربية الأجانب».

***

● يضيف المشروع الأمريكى فى تحديث اللغة العربية قوله:

«إن العرب يصرون الآن على أن يكون حوار الحضارات والثقافات، برنامجاً حقيقياً من أجل التقريب بين الشعوب العربية والغربية.

وعلى العرب فى ذلك أن يدركوا أن تحقيق هذا الأمر لن يكون إلا من خلال الإتفاق على تغيير أشكال اللغة العربية والتأثير على المحتوى الثقافى الذى يمكن أن تعتقد فيه الأجيال القادمة».

إن العرب والمسلمين مطالبون بأن يقبلوا بهذه الثورة الكبرى فى تطوير هذه اللغة العربية وأشكالها».

***

● إلى هنا ينتهى عرض الجانب

الثقافى واللغوى فى مشروع الشرق الأوسط الكبير وشمال إفريقيا، وقد اعتمدنا فيه على الترجمة العربية للمشروع فى جانبه الثقافى واللغوى - الذى نشرته جريدة الأيام البحرينية فى عددها الصادر يوم ٢٣ مايو عام ٢٠٠٤، وكان العنوان «ضمن مشروع الشرق الأوسط الكبير، تم استبدال الحروف اللاتينية بحروف القرآن!! وعلى الترجمة العربية للمشروع كاملاً التى نشرتها أيضاً جريدة الأيام البحرينية فى عددها الصادر فى ٢٠٠٤/٦/٤ تحت عنوان: «مسودة خطة إصلاح الشرق الأوسط وشمال إفريقيا المعدلة والمقرر طرحها خلال قمة الثمانى.. دعم الإصلاح بالمنطقة مسعى طويل الأمد يتطلب تعهدات تمتد لأجيال».

نتائج المشروع

● والنتيجة أن هذا المشروع - فى جانبه الثقافى الذى يعنينا - سينتهى إذا تم فرضه بشكل أو بأخر إلى النتائج التالية:

١ - ستتحول كتابتنا للغة العربية من الحروف العربية الجميلة، إلى الحروف اللاتينية، والمعروف أن الحروف العربية لها جمالياتها ولها فنون كتابتها.

٢ - إذا -لا قدر الله- طبقت هذه الخطة، فى بلادنا العربية، فلن يستطيع العرب بعد جيلين فقط من التطبيق، قراءة التراث العربى بكافة أشكاله من أدبية ودينية وثقافية وفنية.

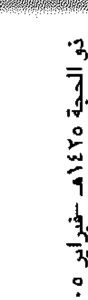
٣ - تفريغ اللغة العربية من محتواها الدينى ستكون له نتائج سلبية فى فهم الأجيال التالية للإسلام ولأحكامه وسيضيع صوت الوسطيين المسلمين.

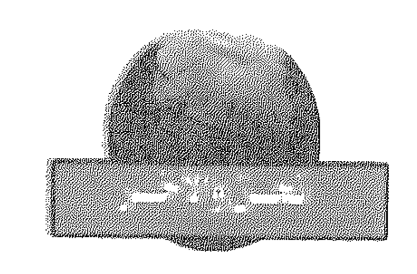
٤ - ستضعف فكرة القومية العربية التى تعتمد أساساً على اللغة فى ترابط الشعوب العربية بصرف النظر عن الدين الإسلامى أو المسيحى أو غيرهما.

٥ - تحتاج بلادنا العربية إلى ميزانيات ضخمة لنقل التراث العريق إلى الحروف اللاتينية.

٦ - هذا المشروع يساعد على استقلال اللهجات العربية وتحولها إلى لغات مستقلة، وستكون لكل دولة عربية، لغتها وقواميسها الخاصة، كما حدث فى آسيا الوسطى.

٧ - هذه هى المرة الثانية التى سيرى فيها الشرق الأوسط تحويل الحرف العربى إلى الحرف اللاتينى، وكانت الأولى هى التجربة التركية. ■





أمريكا والهنود الحمر وحقوق الإنسان

• جماعة أصولها من القرن الثاني وقتوتها معاصرة
• تمسكوا بمعتقداتهم رغم بعثات التبشير المتكررة
• لم يبق من الهنود سوى ٤,٣ مليون نسمة

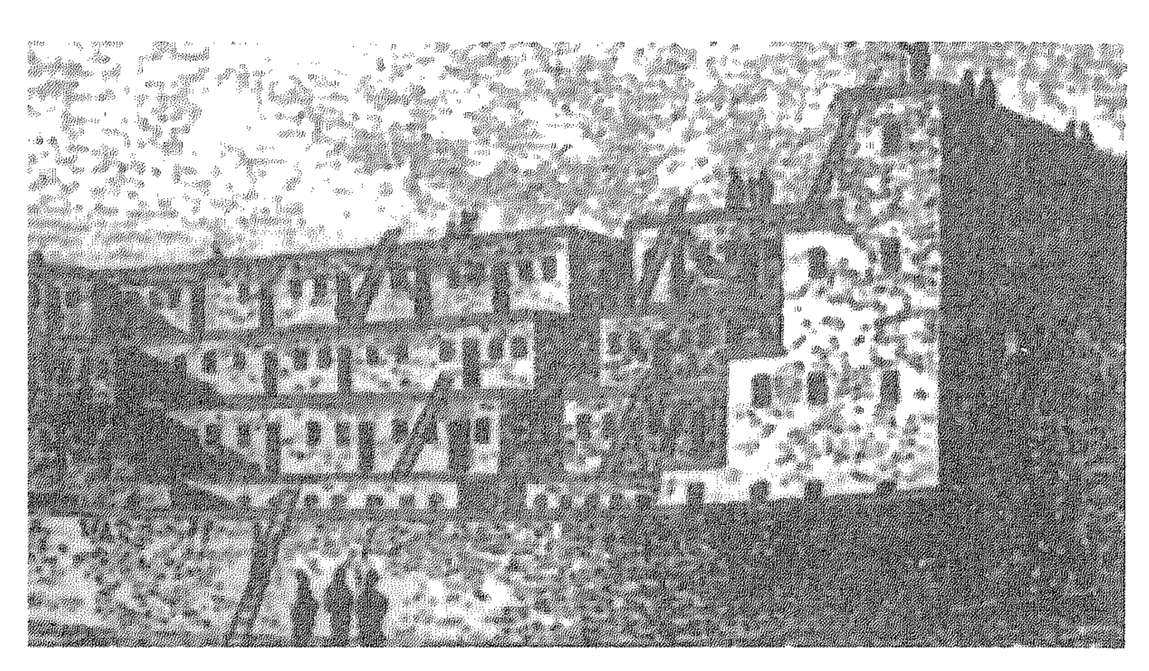
بقلم : د. محمد المهدى

فى أوائل أكتوبر الماضى وقرب الكابيتول الأمريكى الشهير، تم افتتاح المتحف الوطنى للهنود الأمريكيين. وضعت فى زوايا المتحف أربع صخرات حمراء ضخمة، جاءت من الجهات الأربع موطن الهنود، من كندا شمالا إلى تشيلى جنوبا، ومن فرجينيا وميرلاند شرقا، إلى هاواى فى الغرب. نعم سكن من يسمون بالهنود الحمر الأرجاء الأربعة لأمريكا شمالا وجنوبا، ولكن لم يبق منهم سوي ٤,٣ مليون يمثلون ١,٥ ٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية .. هل صاروا ذكرى متحفية ؟

يتحدث جارسيا ماركيز في كلمته التى كتبها بمناسبة حصوله على نوبل عام ١٩٨٢ عن العالم الغامض والغريب والساحر لأمريكا اللاتينية «إكزوتيك» من نوع خاص لم يدركه الغرب، عالم من ثروة الذهب، وثروة الأساطير والمعتقدات والفنون والعمارة.. يقول ماركيز:

«فى بحثه عن ينبوع الشباب الخالد قام الفارتوتيز كابيثادى باكا باستكشاف شمال المكسيك لمدة ثمانى سنوات فى حملة ضلت طريقها، والتهم أفرادها بعضهم البعض، ولم يعد منهم غير خمسة من التسمائة»

وقصة (الجبل) للروائى الراحل فتحى غانم تروى تجربة معمارية قدمها المعمارى العالمى حسن فتحى، أراد حسن فتحى أن تكون قريته (القرنة) نموذجا من حيث جمعها بين استخدام أهلها الأدوات ومادة وخامات البيئة، وبين الطابع المحلى والتراث القديم فى تصميم الشكل الخارجى والداخلى، أقام القرية وكانت نموذجية، ولكن أهل الجبل رفضوا النزول وسكنى القرية.. تحولت لمدينة أشباح، فقدنا تجربة معمارية وإنسانية هامة لإغفال الجانب الاجتماعى



رسم تخيلي لمدينة البويبلو الدائرية

والاقتصادى للتجربة .

حقق بعد ذلك حسن فتحى حلمه فى المكسيك، وتدرس الآن تجربته الناجحة هناك فى جامعات الفنون والعمارة فى العالم... لماذا؟

مؤخرا وفى زيارة لولاية نيو مكسيكو إحدى الولايات الأمريكية وجدت الإجابة. هناك تعيش جماعة من الهنود الحمر اسمها (زينى) تبدو حالتهم كمن أفلت من قبضة التاريخ، ولا أقصد المعنى الاستنتاجى من أنهم يعيشون على الفطرة فحياتهم متطورة، يستخدمون أدوات العصر سريعة الإيقاع، ومع ذلك فهم يمثلون الإنسان الأمريكى الأول إن صحت تسميتهم بالأمريكان (أمريكا منسوبة لمستكشف فلورنسى هو (أمريكو فسبتشى) يمثلونه من حيث إصرارهم على ممارسة طقوسه القديمة فهى ترتبط ارتباطا وثيقا بفضائلهم .

القرن الثاني ق . م

(نيومكسيكو) تتبع الولايات المتحدة منذ عام ١٩١٢، استطاعت بعض قبائل الهنود الحمر فيها أن تصل إلى ثقافة متقدمة قبل وصول البيض إلى أمريكا، تنتهى هذه القبائل إلى مجموعة تسمى (بويبلو) أقامت عدة قرى موزعة على قبائل من بينها جماعة (زينى) التى استطاعت أن تحافظ على طابعها الخاص إلى الآن. نيو مكسيكو تعتبر امتدادا طبيعيا للمكسيك، تتميز بثراء الطبيعة وتنوعها. كان فى المنطقة نوعان من الهنود قبائل (نافاهو) المرتحلة وجماعة (بويبلو) التى أقامت القرى المستقرة. أجداد (البويبلو) يرجعون إلى القرن الثانى قبل الميلاد، كانوا يسمون (أنا سازى)، يمثلون عصر ما قبل التاريخ بالنسبة لتاريخهم بمقياس التاريخ المكتوب الذى بدأ عمليا بعد غزو أهل أوروبا .

نميز من ثقافة هؤلاء الأجداد (أنا سازى) مرحلتين، مرحلة صناعة السلال وكانوا فيها متنقلين وراء الصيد، اكتشافهم للزراعة بدأ تقريبا من القرن الرابع الميلادى، وبالتالى بدأ الاستقرار

وصنع الأوانى وإقامة السكن بصورة متقنة، فى القرنين الخامس والسادس تطورت صناعة السلال وبناء القرى فى صورة منازل فوق الأرض مخروطية السطح مع استخدام الأقواس والسهام.

المرحلة الثانية من حضارة (أنا سازى) هى المتعلقة (بالبويبلو) أنفسهم، يستكملون فيها الجوانب الأدبية والروحية من احتياجاتهم، تمتد من القرن الثامن إلى السابع عشر، يزرعون فيها الذرة بصورة متطورة بنظام دقيق .

مساكنهم علت إلى عدة أدوار بطريقة خاصة متدرجة دائرية تتفق مع طبيعة المنطقة والجو وبمواد البيئة، تشكل فى الوقت نفسه حصنا طبيعيا ضد القبائل التى ظلت فى مرحلة التنقل .. قبائل (نافاهو) .

المرحلة الكلاسيكية من ثقافة (البويبلو) بلغت أوجها فيها يعرف بـ(البويبلو) الثالث، بدأت من القرن العاشر الميلادى. منازل القرية ترتفع لخمسة أدوار، أخذت شكل تكتل متكامل فى بنائها فى نصف دائرة، حول ميدان داخلى وكأنها مسرح يونانى قديم ضخم، ولكن للسكنى وممارسة العقائد والفنون المحور الأساسى فى حياتهم. فى هذه المرحلة ظهر تطور الحس الفنى فى إبدا ع وزخرفة الأوانى، لم تستكمل هذه المرحلة تطورها فقد تعرضت لغزوات القحط وغزوات القبائل المرتحلة وغزوات أوروبا، فى هذه المرحلة أيضا استقرت قبائل (زينى) فى المنطقة التى لاتزال توجد بها إلى الآن .

تجاورت قبائل (زينى) مع أهل أوروبا. بدأ الصراع. قراهم كما ذكرنا كانت متكتلة المنازل على صورة نصف دائرية من الفخار الأحمر، ولعدة طوابق، تذكرك فى الهيكل العام بأبنية اليمن العتيقة. لها شرفات تطل على ميدان القرية العام حيث يمارسون فن الحياة

أخلاقيات الفنون

كيف كانت حياتهم فى هذه المرحلة؟

المرحلة التى يسميها أهل أوروبا بمرحلة رفع الستار عن هذه الجماعة فى مسرح الأرض، أو بدء إضافة صفحات جديدة إلى كتاب التراث الإنسانى... القرن السادس عشر عدد قبيلة (زينى) كان لايتعدى آنذاك ثلاثة آلاف، يعيشون على شكل تجمعات تجمعاتهم الآن ١٤) كل تجمع يحمل اسم نبات.. الذرة أو التبغ، أو اسم حيوان أو طائر، النسر، الدب، الديك، أو اسم الشمس. يحبون الاستقرار ويبدعون من خلال شعورهم بالأمان لذلك كانت تزعجهم بالدرجة الأولى الغزوات. لاتسعفهم أدواتهم القتالية غير المتطورة بحكم عدم اهتمامهم بأمور الحرب لذلك اعتمدوا فى مواجهة الأعداء على نظام إعطاء السلاح المتاح لكل قادر على حمله ومن لايخرج يسمى (لامانا) يجلس فى القرية يمارس الأعمال النسائية. ولم يعتبروا ذلك كغيرهم من الشعوب إهانة ولكن اعتبروه نوعا من توزيع التخصص، فربما تحول الـ(لامـانا) فى يوم ما إلى مقاتل أو العكس.

أبدعت جماعة (زينى) صنع الأوانى الفخارية الراقية برؤية جمالية خاصة، شكلوا المنحوتات المتطورة والمتميزة بقدرة بصرية على تجريد الخطوط تجسيدا لانفعال معين، مع قدرة على تطويع الخامة الحجرية أو خامة خشب شجرة الصنوبر التى أصابتها صاعقة فأحدثت نتوءات نادرة على ملمسها، أما صناعة الدمى فألوانها الزاهية المتسقة

تثرى عين الطفل بالجماليات إلى جوار دورها الوظيفى حيث يصحبها الطفل فى يومه ليحدثها عن همومه، وتوخى الفنان فى تشكيل السلال الوحدة الزخرفية الدائرية لتتسق مع الجو العام فى عمارة المدنية. ويرتبط بالنحت الفنون الخزفية فقد جاءت كتشكيلات منفردة، وأحياناً على شكل جرار أو أوان منزلية. وهناك نوعان من الفنون تفوقا هما الحياكة والرسم الرملى sand painting حيث يستخدم الرمل الملون على الأرض الخالية من الألوان لأسباب جمالية خالصة أو وظيفية. ومما يثير العجب والإعجاب لجوء الطبيب المعالج لحالة من الحالات إلى تشكيل تكوينات رملية لونية أمام المريض، ويطلب منه مداعبتها بأنامله وإعادة تشكيلها بحسه الخاص وأخذ ما يناسب ذوقه منها .

ولجماعة (زينى) مجموعة نادرة من إبداعات نسيج الأغطية، أو الأحرمة، أو فنون الرياش الحمراء والخضراء والزرقاء والصفراء، إلى جوار الفنون الخرزية والجلدية والنسيجية التى تشيع نفس الطقوس الجمالية فى مساحة خارج المسكن ومساحة داخله ولهم أيضا تشكيلات زخرفية دقيقة هى تصغير للبنائية التى تحيط بالإنسان.. شكلوا الفيروز والكهرمان الأسود، والمحار الأحمر، فضلا عن مجموعة رائعة من الأقنعة بعدة خامات .

ولايمكن أن تخلو حياة جماعية على هذا المستوى من فلسفة خاصة، يقارنها بعض رجال حضارة الغرب بفلسفة الحضارة اليونانية. تقول فلسفتهم إن بإمكان الإنسان تحصيل السعادة بقدر احترامه للآخر . سلوك مهذب معتدل نحو الغير المتعادل معك. والقيم التى



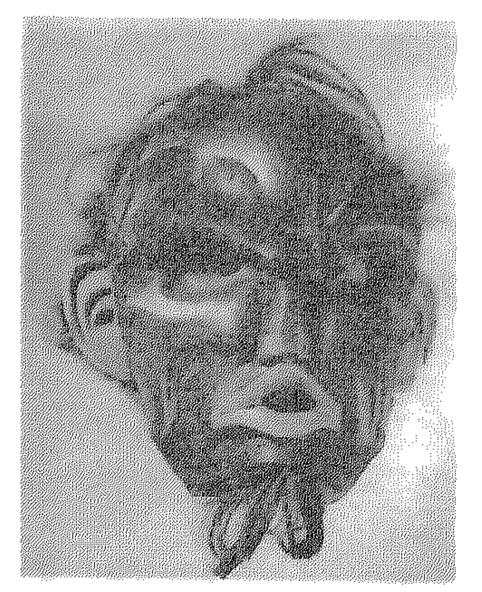
استعراض لشخصية هندية فى متحف الهنود الحمر حاليا

يقدرونها بالدرجة الأولى تتعلق بالتماسك والسلام ، فهى تعلو على ما عداها من مقاييس، وإذا حدث أن أحد أفراد الجماعة بدأ يميل إلى التكبر والترفع أو انصراف إلى جمع المال على حساب الجماعة، فإنهم يشبهونه بالساحر، والساحر فى نظرهم هو المتصل بالأرواح الشريرة يتحاشونه يقاطعونه، يرى نفسه منفيا وسط الجماعة فيعدل سلوكه. طقوسهم ترتبط بعقائدهم، وعقائدهم ترتبط بأخلاقهم، وأخلاقهم ترتبط بفنونهم. مسالمون إلا إذا اعتدى عليهم، يهتمون بتربية أولادهم، تبهجهم احتفالات السلف.

اللون الأبيض واللون الأحمر

والآن كيف تداخل العنصر الأبيض الأوروبى مع العنصر الهندى الأحمر؟

فى عام ١٥٢٩ شاع بين الإسبان



قوة النحت على قناع من (زينى) يمزج الغضب والإصرار

الذين وصلوا إلى المكسيك أن هناك ست قرى في الشمال أطلقوا عليها اسم (سيبولا) سكانها يمتلكون ثروات من الذهب والأحجار الكريمة النادرة، قام (كابيزا دى فاكا) باجتياح مناطق نعرفها الآن باسم فلوريدا وأريزونا ونيومكسيكو وتكساس بحثا عن الثروة. سمع بقصة القرى الست، وصل نائب ملك إسبانيا في المكسيك للمنطقة وأرسل حملة عام ١٥٣٨ بقيادة الراهب (ماركودى نيزا) لاستطلاع الأمر، تبين من بعيد القرى الست ذات الأدوار العالية تعجل أمره وعاد لسيده وادعى أنه شاهد الثروة ولا ينقص سوى إرسال حملة عسكرية كبيرة

أرسلت الحملة بقيادة (فرنسيسكو دى يورونادو) فى ٢٣ فبراير عام ١٥٤٠ مائتين من الفرسان، ومئات من المشاة وثمانمائة من الهنود يعملون فى خدمتهم ومرشدهم الدينى الراهب (دى نيزا) تبينت الحملة فقر المنطقة.. وضع الراهب فى النار وأحرق حيا عقابا على معلوماته



براعة حساب الضوء واللون على ملامح قناع الصيحة والدهشة (زينى)

المضللة. دخلت الحملة القرية بالقوة وعرفوا أن اسمهم (زينى) يمارسون طقوسهم الهادئة المسالمة كل صباح باكر، عددهم لايزيد على ستة آلاف، جرت محاولات عديدة لإدخالهم المسيحية وفى كل مرة يتم الصدام تلجأ الجماعة للاعتزال فى الجبل.. وكانت آخر المحاولات عام ١٧٠٣ وأخيرا تم الاتفاق على أن تمارس كل جماعة عقيدتها بطريقتها إلى أن خرج الإسبان نهائيا عام ١٨٤٦.

فى عام ١٩١٢ عندما أصبحت نيومكسيكو إحدى ولايات أمريكا أخذت قرية الهنود الحمر حق الاستقلال الإدارى على أن تحترم القانون الأمريكى. لها شرطة خاصة تنظم أمورها الحياتية ولها تقاليدها التى تنفر من كل دخيل يتدخل فى شئونها. فى عام



إيحاءات هندية فى لوحة للفنان المكسيكي المعاصر (فرانسيسكو زنيجا)

١٩٢٠ أرسلت بعثتان كاثوليكية وبروتستانتية ولكن ظلت الكثرة على عقائدها. أثناء الحرب العالمية الثانية، خرج بعض شبابها وشارك فى القتال، وأعفى بعضهم لارتباطهم بالعقيدة وإنتاج الفنون .

بعد عودتهم من الحرب أو من أوروبا حدثت ردود فعل مختلفة، بعضهم ترك قريته وأخذ بالنموذج الأمريكى، وبعضهم عاد كسابق عهده، وبعضهم دعا إلى تآلف جديد، على طريقة بطل (قنديل أم هاشم) للراحل الكبير يحيى حقى .

أهل قبيلة (زينى) فى حياتهم اليومية يستخدمون الأدوات الحديثة الكهربائية والإلكترونية ويتعلمون كل التخصصات، ولكن عند العقائد يختلف الأمر، عند الإبداع الفنى يختلف الأمر، عند العلاقات الإنسانية يختلف الأمر. يقول عنهم المؤرخ (جين كازانوفا) صاحب كتاب (الآلهة ترقص فى سيبولا) (جماعة زينى تقدم نموذجاً ملحوظاً ونادراً لدخول التاريخ بجدارة وعن يقظة) .

هنود نيومكسيكو اختاروا طريقتهم بأنفسهم وأصروا عليها وسط الناطحات. الجبل بالنسبة لهم نفى مؤقت على عكس جبل أهل قرية (القرنة) فى قصة الروائى فتحى غانم، والمعمارى حسن فتحى

هل انحنت الناطحات تحية للنفس الزكية .. وإلى متى؟

هل أفلتوا من زمن حضارة المتاحف، وأسر متحف الكابيتول؟ ■

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار

رحلة ابن جبير

(٥٤٠-٦١٤هـ)

بقلم
د. أحمد درويش

كان من عادة أهل المغرب الأقصى والأندلس، أن يجعلوا من بعد ديارهم عن الأراضى المقدسة، ومشقة السفر لأداء فريضة الحج، فرصة لتدوين مذكراتهم ومشاهداتهم وهم ينتقلون على ظهور الدواب أو السفن عبر شواطىء البحر المتوسط، أو بحر الروم أو قريبا منها ، ويعرجون على جزره أو مدائنه المتناثرة فى البحر أو على الأرض فى رحلات تتوالي فيها الأيام والأسابيع والشهور ويكثر فيها التوقف للراحة أو للتزود بالماء والطعام أو للتمتع بمشاهد بلاد المسلمين التى يمر بها الحجيج فى جو مفعم بالشوق لزيارة قبر الرسول - صلي الله عليه وسلم - وأداء المناسك والتخفف من الأعباء والذنوب .



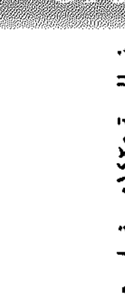
ولم يكن مستبعدا أن يتم خلال الرحلة الطويلة التزاوج والإنجاب سواء بنى رفقاء القافلة بعضهم البعض، أو بينهم وبين أهل البلاد التى يحلون بها، وكان من الشائع أن يختار للرحلة الطويلة من بين المسافرين قاضٍ وإمام يؤم الناس للصلاة، ويوثق العقود ويقضى فى المنازعات، ويعقد القران بين الراغبين فى الزواج، وكان من الشائع أيضا، أن يتخلف بعض الحجيج فى رحلة الذهاب أو العودة، يشدهم بلد من البلدان فيجاورون فيه طلبا للعلم أو انشغالا بالتجارة أو تغييرا لمسيرة الحياة.

كتب الملاحظة والتجربة

وقد كتبت مئات الكتب التى تصف رحلات المغاربة والأندلسيين للحج، وتفاوتت قيمتها بطبيعة الحال، فأصبح بعضها لا يتعدى المذكرات الشخصية، التى يحتفظ بها الأولاد والأحفاد، ثم لا تلبث رياح النسيان أن تطويها، وارتقى بعضها إلى مصاف كتب الملاحظة والتجربة والتدوين ورصد عادات الشعوب وتقاليدهم مما أهمله التاريخ الرسمى المكتوب، ويأتى فى مقدمة هذا النمط، رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة كاتب رحلة ابن جبير هو العالم والأديب والشاعر الأندلسى مولدا، السكندرى وفاة، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى، وقد ولد فى بلنسيه بالأندلس، ثم انتقل منها إلى غرناطة وكانت واحدة من أهل الممالك الإسلامية، وتلقى العلم على علماء عصره من أهل الأندلس أو من الوافدين إليها من علماء المشرق، وظهر نبوغه الشعرى وأثرن عنه قصائد كثيرة كان من أشهرها مجموعة من قصائد الرثاء التى كتبها فى زوجته أم المجد وكان محبا لها عاشقا، وقد أعطى لهذه المجموعة عنوانا مستقلا هو «وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح» كما أعطى لقصائده الاخوانية عنوانا آخر هو «نظم الجمان فى التشيكى من اخوان الزمان، وكأنه كان يود أن يجعلها دواوين مستقلة يحمل كل منها عنوانا، فى عصر لم تكن فيه قد شاعت بعد العناوين المستقلة للدواوين، وكان يكتفى بجمع أشعار الشاعر مقرونة باسمه ، مثل ديوان البحترى أو أبى تمام أو المتنبى .

رحلة للحج

وقد قادته شهرته شاعرا وعالما إلى بلاط أمراء عصره يلتمسون عنده



الفائدة معلما والمتعة نديما وكان لمجالس بعضهم تقاليد يدخل فيها شراب الخمر الذى كان شائعا وكان ورع الرجل يمنعه من الشراب فيعتذر لأصحاب الدعوة، ويقبل اعتذاره ، حتى كان ذات يوم فى صحبة السيد أبى سعيد بن عبدالمؤمن أمير غرناطة ، وقد استدعاه لكى يكتب له كتابا، وجاء الشراب، فمد الأمير يده إلى ابن جبير بكأس فجفل واعتذر وقال ياسيدى ماشربتها قط، فغضب الأمير وأقسم عليه أن يشرب سبع كئوس، فتجرعها مكرها، فملأ له الأمير سبع كئوس من دنانير الذهب فحملها ابن جبير إلى بيته، وأضمر أن يحج بها كفارة عما شربه مكرها، وكان ذلك السبب المباشر فى قيامه برحلته التى شكلت عماد رحلة ابن جبير، التى سافر فيها من غرناطة فى بلاد الأندلس فى الثامن من شوال سنة ٥٧٨هـ، ثم عاد إليها قبل انقضاء ثمانية أيام من شهر المحرم سنة ٥٨١هـ بعد نحو عامين وثلاثة أشهر، سجل خلالها مشاهداته وانطباعاته عن العالم الإسلامى فى شمال أفريقيا ومصر والحجاز والشام والعراق وجزائر البحر المتوسط وحال المسلمين فى عصر الصليبيين، وموقعهم بين الحكام الظالمين والعادلين الذى كان من أشهرهم فيما رأى ، صلاح الدين الأيوبى، وموقع بلادهم بين الأمن والخوف الذى كان يتجسد له أكثر ما يتجسد فى تعسف رجال المكوس والضرائب فى موانئ البلاد الإسلامية، وفى انعدام الأمن فى بلاد الحجاز لذلك العصر، وكانت طرقاتها خاضعة لسيطرة فريق من قساة الأعراب.

تدوين تواريخ الأحداث

وقد بدأ رحلته بركوب البحر حيث قضى ثلاثين يوما بين شواطئ الأندلس وشاطئ الاسكندرية، وكان حريصا على أن يدون تواريخ الأحداث وقت وقوعها، ويذكر فيها موقعها من الشهور العربية والافرنجية ما أمكن، فهو يذكر أنه بدأ بتدوين الرحلة «يوم الجمعة الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة على متن البحر فى مقابلة جبل شيلر» وكان قد بدأ رحلته قبل ذلك بنحو ثلاثة أسابيع «فى أول ساعة من يوم الخميس لشوال المذكور، وبموافقة اليوم الثامن لشهر فبراير الأعجمى» ويبدو أن

الأسابيع الأولى لرحلة ابن جبير على ظهر البحر قد تلقاها بمشاعر الخوف والاضطراب، كما تلقاها من قبل سلفه الشاعر ابن الرومي حين أعلن رفضه أساسا لركوب البحر في بيتيه المشهورين :

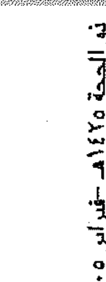
لا أركب البحر إني
أخاف منه المعاطب
طينٌ أنا وهو ماءٌ
والطين في الماء ذائب

أما ابن جبير فإنه كثيرا ما كان يتحدث عن أهوال الرحلة البحرية وهو فى الطريق إلى الاسكندرية فيقول : «وفى ليلة الأربعاء عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة فبقينا على تلك الحال الليل كله ، واليأس قد بلغ منا مبلغه وارتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا بعض ما نزل بنا، فجاء النهار وهو يوم الأربعاء التاسع عشر من ذى القعدة ، بما هو أشد هولا وأعظم كربا وزاد البحر اهتياجا وأربدت الآفاق سوادا .. وتمكن اليأس من النفوس، وارتفعت أيدى المسلمين بالدعاء لله عز وجل. وأمثال هذه المشاهد كثيرة فى رحلة ابن جبير الشاعر الذى كثيرا ما يسمح للأحداث أن تصور من خلال انطباعاته وانفعالاته، دون أن يتعارض ذلك مع دقته الرقمية التى تجعله يسجل أدق التفاصيل، حتى اسم الفندق الذى نزل فيه بمدينة الاسكندرية، حيث يقول: «وكان نزولنا بها بفندق يُعرف بفندق الصفّار بمقربة من الصبانة .

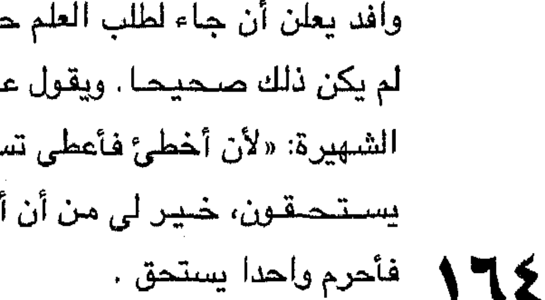
منار الاسكندرية

وتتجلى بعض جوانب دقته فى وصفه لمنار الاسكندرية ، وهو أحد عجائب الدنيا السبع التى اختفت ، ولم تبق لنا صور مجسدة له، إلا بعض صور قليلة منها وصف ابن جبير الرفيق، حيث يؤكد أن نوره فى البحر، يظهر على بعد سبعين ميلا، وارتفاعه أكثر من مائة وخمسين قامة، أما مساحته فقد حاول ابن جبير أن يقيسها بنفسه حين قال: «ذرعنا أحد جوانبه الأربعة فألقينا فيه نيفا وخمسين باعا» .

ويعجب ابن جبير اعجابا شديدا بالمظاهر الحضارية الرائعة لمدينة الاسكندرية فى عهد صلاح الدين الأيوبى، ويتحدث عما خصصه صلاح الدين من ألوان الرعاية لطلاب العلم الغرباء الذين يفدون على الأسكندرية



من كل مكان ، فهو لا يكتفى بتوفير المساكن والغذاء لهم ولا بمجانية تعليمهم وإنما يخصص لهم أطباء يتابعونهم بالرعاية الطبية، وحمامات عامة يذهبون إليها من احتاجوا، وخصص مندوبين يستقبلون الراغبين فى طلب العلم القادمين من مشارق الصحراء الغربية، يكادون يهلكون عطشا وجوعا فيستقبلهم عمال صلاح الدين بالماء والغذاء والمعونة، وحين يعترض بعض أعوانه عليهم بأن كثيرين منهم ليسوا فى حاجة، يرفض بشدة أن يمنع العون والعطاء عن أى وافد يعلن أن جاء لطلب العلم حتى لو لم يكن ذلك صحيحا . ويقول عبارته الشهيرة: «لأن أخطئ فأعطى تسعة لا يستحقون، خير لى من أن أخطئ فأحرم واحدا يستحق .



مساجد لا يحصى عددها

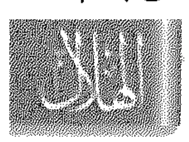
وإذا كان ابن جبير قد استطاع أن يقيس أضلع منار الاسكندرية بالباع فإنه عجز عن أن يعد مآذن مساجدها التى أدهشه كثرة عددها، ونقل اختلاف الناس فى عدد المساجد حتى وصل به بعضهم إلى اثنى عشر الف مسجد فى الاسكندرية وهو يواصل رحلته فى الدلتا ويتوقف فى دمنهور وسبك وقليوب قبل أن يصل إلى القاهرة (يوم الأربعاء الحادى عشر من ذى الحجة والسادس من أبريل) ولا ينسى أن يرصد عنوانه بالفندق الذى نزل به وهو «فندق أبى الثناء فى زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص فى حجرة كبيرة على باب الفندق» ويحرص على أن يزور فى القاهرة مشاهد أهل البيت مثل مشهد الحسين والسيدة زينب وبعض مشاهد الصحابة والتابعين والعلماء والزهاد، ويقف بالتفصيل أمام جامع عمرو بن العاص، ومسجد بن طولون، الذى كان مقرا لدراسة الطلاب الوافدين، ويبين مدى العناية الاجتماعية والصحية والمالية التى كانوا يلقونها فى عهد صلاح الدين الأيوبى، وبلغت رعايتهم حدا لفت نظر ابن جبير عندما علم أن السلطان جعلهم يختارون من بينهم رئيسا لهم يكون حاكما عليهم ولا يتدخل فى شئونهم أحد من رجال الدولة، لكى يتفرغوا للعلم والمعرفة دون أن يعكر صفوهم أحد، يقول ابن جبير «ومن أعجب ماحدثنا به المتخصصون منهم أن السلطان جعل أحكامهم

إليهم، ولم يجعل لأحد يدا عليهم، فقدموا من أنفسهم حاكما يمتثلون أمره، ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده، واستصحبوا الدعة والعافية، وتفرغوا لعبادة ربهم ووجدوا من فضل السلطان أكبر معنى على الخير».

والواقع أن وصف ابن جبير التفصيلي لمظاهر الحضارة والعلم والعدل في عصر صلاح الدين، يوضح أن النصر الذي تحرزه الأمم في مراحلها التاريخية الفاصلة، لا يأتي فقط من قوتها العسكرية، وإنما يأتي من إدراك قوادها لمفهوم بناء مجتمع متماسك، يحتل فيه العلم والمعرفة مكان الصدارة، ويسود فيه الإحساس بالأمان والعدل والرغبة في المشاركة في البناء وتحقيق النصر.

نقد موضوعي

إن رحلة ابن جبير تمتد لكي تشق النيل جنوب القاهرة وهو يمر على القرى واصفا ومدققا وساردا للمعلومات التاريخية التي عرفها أو يسمع بها وهو عندما يمر على قرية «اسكر» على الشاطئ الشرقي للنيل جنوب القاهرة بنحو سبعين كيلومترا، يذكر أنها القرية التي ولد فيها موسى عليه السلام وألقته أمه في اليم من على شاطئها، وعندما يصل إلى قنا يخترق الصحراء الشرقية لكي يستقل البحر الأحمر من ميناء «عيذاب» وهو في موضع مدينة القصير الحالية، وصولا إلى جدة، وكان ذلك يتم تلافيا للاحتكاك بالصليبيين في خليج السويس، وينتقد بشدة إجراءات الجمارك والنقل في ميناء عيذاب، ويصفه بأنه جزء من العذاب، ولا يقل انتقاده لبعض أهل الحجاز لسوء استغلالهم الحجيج في ذلك العصر الذي لم يكن الأمن قد استقر فيه بعد بالديار المقدسة ومع أن رحلة ابن جبير تمتد إلى الشام والعراق، قبل أن يعود مرة أخرى إلى مصر في طريق عودته إلى الأندلس، فإن مصر بصفة عامة، والاسكندرية بصفة خاصة وهي التي شدته فقرر العودة إليها، وخاصة عندما فقد زوجته في بلاد الأندلس، فعاد إلى الاسكندرية وجلس للدرس في مساجدها العامرة التي بهرته مآذنها من قبل في زيارته الأولى لها، وظل بها، حتى لقى ربه يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة٦١٤هـ، ودفن بها في قبر يقول عنه العلماء الذين أرخوا له، إن الدعاء عنده مستجاب. ■



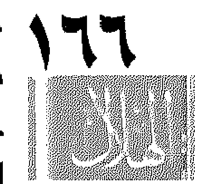
في ليالي الأزبكية على خشبة المسرح القومي:

سمير العصفوري يقول ثم يشطب ثم يشخبط !!

بقلم
صافي ناز كاظم

سمير العصفورى واحد من فنانى المسرح الباقين على اعتقادهم الصحيح بأن «المخرج هو صاحب العرض المسرحى» ، وأن كاتب النص تنتهى مسئوليته عند تسليم أوراق نصه، وهذا الأمر، مبدأ مسرحى وليس نظرية مسرحية . إنه مبدأ مسرحى لا يجوز التراجع عنه أو خلعه وفقا لمزاج هبّة جاهلة من الكتاب المغرورين والنقاد السائرين على نهج «الهبلة التى معها طبلة» .

يظل لكاتب النص المسرحى الحق فى طبع مسرحيته على ورق فى كتاب ويقدمها لمن يريد أن «يقرأ» المسرح ولا «يشاهد» المسرح.



مامعنى هذا الكلام؟ معناه أن لا عذر هناك لأى مخرج يقول: مشكلة العرض كانت النص وأنا ملتزم بطوله وعرضه. ومعناه أن يكون المخرج حراً تمام الحرية فى حذف نصف الأوراق أو ثلاثة أرباعها، وفقا لما تتطلبه خطة العرض، وأن يلخص بلغة «العرض المسرحى» ما قاله كاتب النص بلغة «الكلام» . نعم إنه لصحيح ألا يكون من حق المخرج العبث برؤية مؤلف النص ولا برسالته الفكرية وموقفها وتحويرها وتدويرها لاتجاه معاكس لأهدافها، هذا شىء آخر، لكن الذى من حقه بلا جدال، أن يلخص ويكثف بلغة المسرح ما أراد كاتب النص «الرغى» و«الثرثرة» به بلغة «الكلام» . باختصار : ليس على المخرج أن يخضع لنزوات كاتب النص وينفذ له كل ما يخطه قلمه الثقيل ويحبس مشاهديه ساعات طوال ليستمعوا فى ملل يكسر الدماغ إلى كلام كلام كلام يعيد ويزيد فى محلك سر حتى يبلغ بهم الأنين مبلغه من تنميل الأرجل ووجع الظهر ونتائج الجلوس على مقاعد مؤلمة تعانى من سوء التنجيد والتجديد، كما هو الحال فى مقاعد قاعة المشاهدين بالمسرح القومى العريق بكل قدره

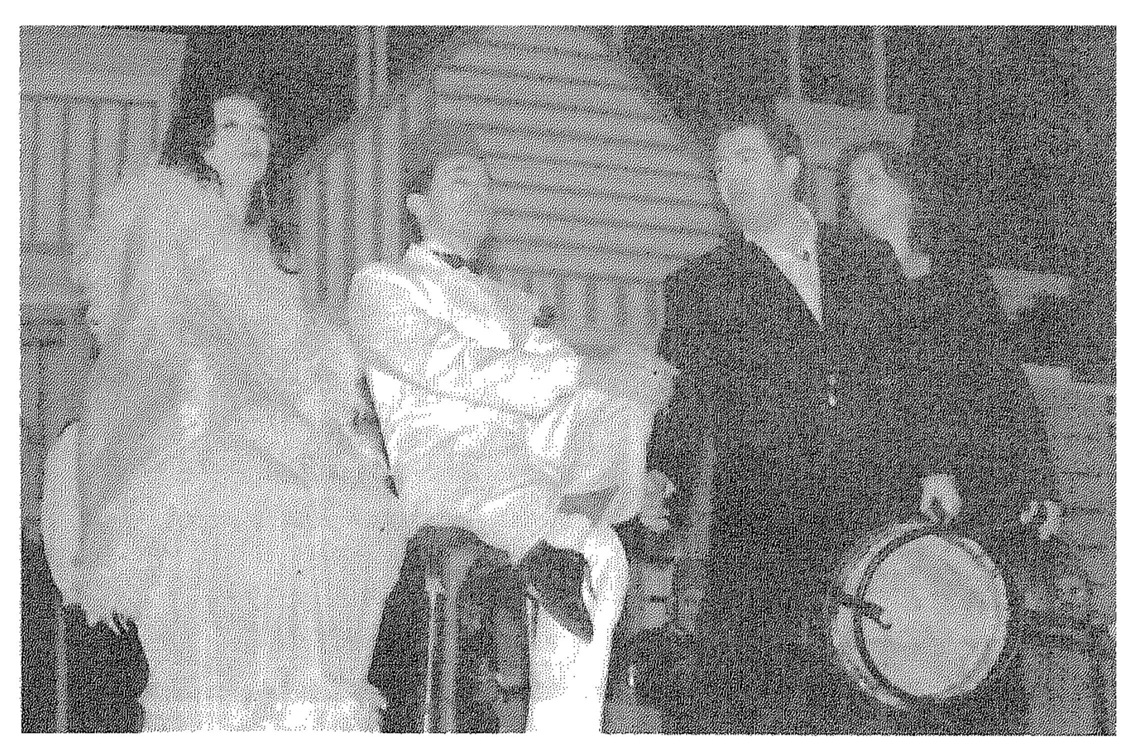


الفنان سامى مغاورى ، مانع صواعق الملل ، مع الفنانة انتصار

التاريخى.

★★★

سمير العصفورى مخرج العرض المسرحى «ليالى الأزبكية»، التى كتبها وكتب أشعارها د. أسامة أبوطالب، بتنويه أنها مأخوذة عن مسرحية «الليلة نرتجل» تأليف المسرحى الإيطالى لويجى بيراندللو، الذى ولد عام ١٨٦٧ وتوفى عام ١٩٣٦، وابتدع مسرحه فى عشرينيات القرن الماضى يرفع الخط الفاصل بين المتخيل والواقع، فهو صاحب «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» التى كتبها عام ١٩٢١، و«هنرى الرابع» عام ١٩٢٢، و«العارية» سنة ١٩٢٢، «وكل على طريقته» سنة ١٩٢٤، و«كما تريدنى» سنة ١٩٣٠، ليس بالضرورة أن نحب «بيراندللو» ، لكننا نعترف له بإرسائه فكرة «المسرح المرتجل» ، والتى أكل عليها الدهر وشرب وأصبحت أسلوبا مبتذلا مستهلكا لا يستحق الاهتمام باسترجاعه. وباعتراف د. أسامة أبوطالب، فى كلمته المطبوعة فى برنامج «ليالى الأزبكية» يقول: «هذا النص الذى عذبنى أولا ككاتب يبحث عن لغة مسرح الحقيقة يحاول بها الهروب من وصمة الخيانة التقليدية لروح اللغة، فأجبرنى إلى اللجوء كمترجم للغة ثانية هى الألمانية فى محاولة لاستكشاف جوهر صيغته المسرحية. ثم أضنانى ثانيا فى محاولة البحث عن العربية الشاعرة المناسبة لاجتياز القطيعة مع لغته الأصلية، وفى نفس الوقت تحقيق خصوصية العامية المصرية بدلالاتها وايحاءاتها تاريخيا ولغويا وفنيا. كل ذلك تم تجسيده كمعمار فى بنية درامية استعيرت كمجرد مادة / شكل / هيكل، فيما تغير الموقع والمناخ والعصر والإنسان وجوهر الصراع بالطبع، حيث استبدلت جدلية الفن بجدلية السياسة كمبحث فى مخاض الأربعينيات المصرية



إيهاب صبحى ،أحد هدايا العرض من شباب المسرح الأفذاذ ، مع أحمد زاهر وبثينة رشوان وانتصار

الفائرة بتيارات التقدم ومعاكسات الارتداد - (؟! لم يحدد المسئول من هذه المعاكسات ولا أريد أن أستنتج أنه يقصد تيار التمسك بالعقيدة الإيمانية وثوابتها)- وبإضاءة التنوير وعراك التحرر فى مواجهة الانغلاق استعدادا لانفجار الثورة، وكجهد من أجل تحقيق العدل والتنوير بالفن النبيل الذى بدونه لا يمكن تصور الحياة» . ولقد حرصت ، أنا صافى ناز ، على نقل هذه الكلمة للكاتب د.أسامة أبوطالب، عسى أن يكون من بين القراء من يستطيع فهمها ، لأننى أشهد أننى لم أفهم من رطانتها أى شىء، وإن كنت أدركت، بحاستى السابعة، أن أسامة أبوطالب قد عانى الكثير من أجل إطلاق الرصاص على بيراندللو للتخلص منه تماما ليقدم «ارتجاله» الخاص به الذى لا تشوبه شائبة» بيرانديللوية ومادام الأمر كذلك

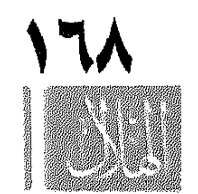
فلماذا كان عذابه وضناه؟

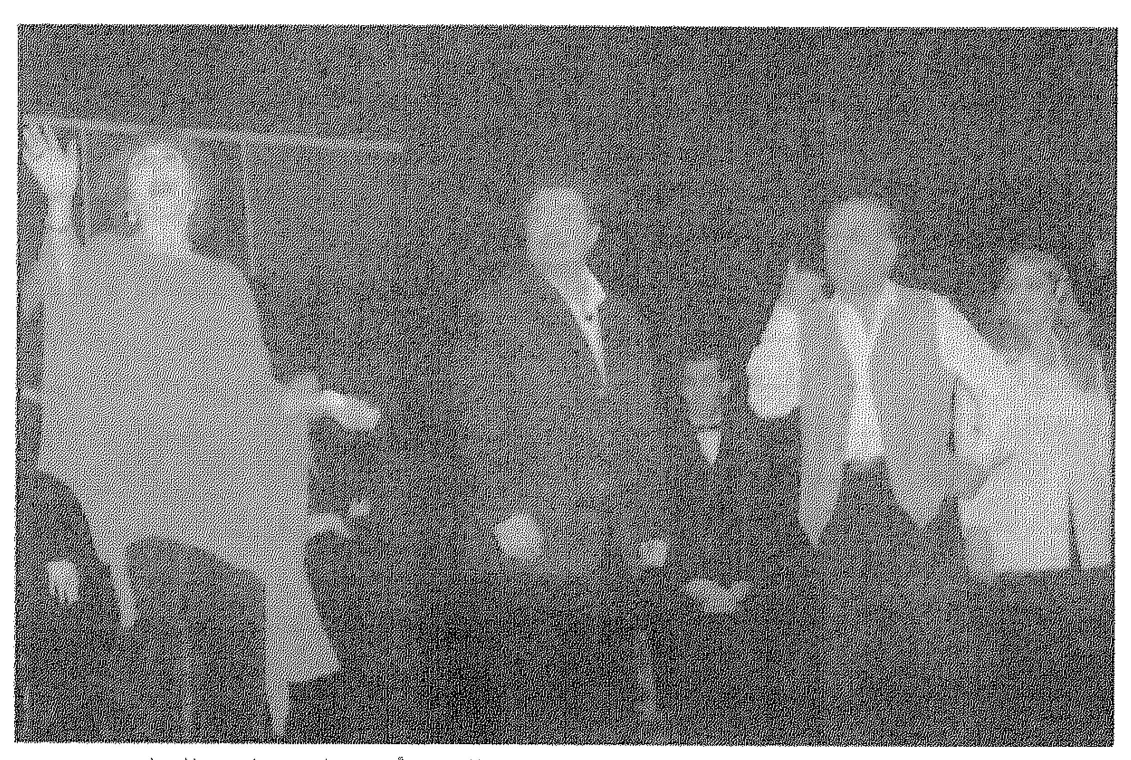
ما علينا.

الذى علينا هو المخرج سمير العصفورى، الذى تسلم الأوراق من أسامة أبوطالب، لتتحول من «ورق» إلى «عرض مسرحى».

★★★

سمير العصفورى فنان ذكى ، هادىء، لاذع النكتهة ثاقب النظرة، ناقد لنفسه وللآخرين، لديه تقييم مأساوى للحركة المسرحية - (أو فلنقل لقلة الحركة المسرحية) - يلخص أمورها بمزاح متشائم، يبدو يائسا بكل حماس الملاحق للأمل، ويراجع الآمال بكل مواجهات الاحباط، ويتحدث عن «المفروض» لأصول المسرح بخبرة عريضة، واعتداد بثقافة واسعة، وطلاوة تجعلك تشتاق لمشاهدة أعماله بينما يكون هو زاهدا فى رغبتك تلك، بل يكون مندهشا من سعى الجمهور المستمر





مشهد من العرض يجمع عمر الحريرى وفادية عبد الغنى وأحمد زاهر وماجدة الخطيب

للذهاب للمسرح والصبر على المشاهدة ، متعجبا أنه لم ينفض المسرح تماما من برامجه للترفيه أو التثقيف.

حاول سمير العصفورى أن يثنينى عن مشاهدة «ليالى الأزبكية» ، منبها أنها ليست مسرحية بيراندللو بحذافيرها، وإن اعتمدت على «فنية الارتجال» ، وأخبرنى أن مدتها ثلاث ساعات تتضمن الاستراحة لمدة ربع ساعة. توجست من مدة العرض، ومع ذلك قلت لا بأس، لأننى كنت أريد أن أرى شغل سمير العصفورى، ويطمئننى أن من أبطال العرض سامى مغاورى الذى يجيد الارتجال والخروج على النص بحيوية مانعة لصواعق الملل.

★★★

الحاصل أننى ذهبت أنا وصديقاتى فى مساء يوم خميس، تنفيذا لمشورة سمير العصفورى، الذى أكد أن حفلات مساء الخميس هى الأفضل فى العناية والدقة والإحكام.

وبدأ العرض فى تمام التاسعة وعشر دقائق، سحبتنا الساعة والنصف الأولى من العرض بسرعتها إلى التفاؤل، مفتتح استعراض راقص سريع لمجموعة نشيطة ومجيدة من الشباب، دربه ضياء ومحمد، مع موسيقى جياشة ومبهجة صاغها جمال مصطفى ، ثم سامى مغاورى، راويا ومعلقا، ومقدما لممثلى العرض، الذى برز منهم : «محمد طه» و«إيهاب صبحى»، و«محسن منصور» و«محمد المهدى» ، وهم من الشباب الفنى الأفذاذ الذى استطاع أن يفلت من «قلة الحركة المسرحية»، وينمى قدراته ويحمى موهبته ويحتفظ ببشاشته ، رغم كل المثبطات الداعية إلى التجهم والتيبس.

على مدى ساعة ونصف تقريبا، نجح العرض فى أن يقول أشياء جادة بلغة

المزاح البليغة ، مفادها أسرة مصرية فى سنوات الأربعينات، ماتت الأم فتلاشى الحبل الرابط بين أعضائها : الأب «عمر الحريرى» المناضل الذى خيبته الخمر وليالى الحانات حتى وقع فى براثن داهية سكيرة فاسدة - تؤديها باتقان ماجدة الخطيب - تسيطر على بيته، وعلى قراراته ، وعلى بناته فتأخذهن إلى بوابات الفساد حيث يكون وراءها عسكر المحتل الانجليزى،لا تفلت من الفخ سوى ابنة واحدة - «بثينة رشوان» - أنقذها المحب - «أحمد زاهر» - بكل وعود الخير والهرب من عصابة زوجة الأب المتعاونة مع المحتل، تتبنى منطقه ولا يهدأ نشاطها فى استقطاب الصالحين لخندقها الملوث، تحبذ الانحراف، وتكسر فطرة المقاومة وتقود إلى هزيمة الروح بأساليب المخاتلة والمراوغة والكذب والتثبيط . بكل لغة المسرح نجح سمير العصفورى فى أن يقول الكثير، فالسكارى ليسوا بالضرورة سكارى الخمر، وزبائن الحانات ليسوا بالضرورة زبائن حانات السكر والعربدة المعتادة، فكم من سكير بغير الكأس، وكم من حانة هى بؤرة الإتلاف الفكرى والثقافى، هدفها أخذ زبائنها إلى غيبوبة العقل والروح لإشاعة الخنوع والاستسلام لمنطق المحتل والتنازل عن الحق لصالح الأعداء.

ماكدنا نتهامس بأن العرض قد أفلت من سوس الملل الذى تهاوت تحته مسرحية «روجيه عساف» التى سبق وشاهدناها على مسرح «العرائس»، حتى بوغتنا بشطب ما تصورناه رسالة العرض، كأن سمير العصفورى قد استخسر فينا بهجة السرعة بالتكثيف والتلخيص وإجادة الإدارة بفن المزاح، فإذا بنا أمام مشهد، حسبناه ختام العرض، يدعو الأب إلى الموت، فى تطويل سمج ، ومراوحة متكلفة متنطعة بين الاستسلام للموت فورا أو بعد لأى، حتى تمنينا لو قمنا من مقاعدنا الى خشبة المسرح للحسم.

تأتى وفاة الأب السكير، المناضل السابق، الذى اكتشف. بعد كل التنازلات ، أنه قد خدع وغرر به، وعرف بعد فوات الأوان، أنه لا يملك حل الخلاص، حتى بعد رمى يمين الطلاق بالثلاثة مفارقا زوجته الخبيثة، التى تعلن بدورها سعادتها بهذا الانفصال بعد أن حققت معظم مآربها واستحقت جائزة المحتل، هنا كان يجب أن ينتهى العرض.. لكن هيهات!

★★★

يدخل الراوى ليخبرنا أن البيت لابدّ له من رجل يحل محل الأب المتوفى، ويكون هو المحب الذى تصورناه المنقذ من الضلال، وتنعطف بنا المشاهد إلى اتجاهات متعارضة، غير متسقة، غير منطقية، ليس بسبب فن الارتجال، ولكن بسبب «شخبطة» هائلة تتذرع برفض التشنج الدينى، والتزمت القاهر للمرأة، فتوقعنا فى مخنقة جدلية بين «بثينة رشوان» و«أحمد زاهر» يثبتان فيها أنهما من الأبطال التاريخيين فى فن إزهاق أرواح المشاهدين.

وكما قالت صاحبتى فى طريقنا ونحن نلوذ من المسرح بالفرار، وقد جاوزت الساعة الواحدة صباحا، هذا عرض كان مثل وجبة شهية لذيذة، سكبوا فوقها أكياس من الملح فأصبح من المستحيل بلعها، ونسفت ما كان منها مستساغا . يا خسارة! ■

الفن

خيال حر وإبداع متمرد

بقلم
د. صبرى منصور

كانت التحولات التى طرأت على المشهد الفنى التشكيلى فى الغرب خلال القرن العشرين محصلة طبيعية لكل ما حدث فى أوروبا من تطور استغرق قرونا زمنية منذ عصر النهضة الإيطالية . ففى هذا القرن تسارعت خطى التجديد والتغيير فى الأساليب والرؤى الفنية ، حتى أضحى من هذا القرن بمثابة متحف من الابتكارات الأسلوبية كما يرى أندريه مالرو ، واختتم القرن العشرون تغييراته الكثيرة والمتعارضة بفن ما بعد الحداثة والذى يؤرخ لظهوره بشكل واضح بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ ، وفيه شحذ الفنان الغربى ملكاته الإبداعية ليثبت أنه صاحب خيال حر وخلاّق ، ولم تقف فى سبيل إبداعه الفنى أية عوائق اجتماعية أو ثقافية أو تقاليد ، ومن هنا جاء العديد من الأعمال الفنية الحديثة فى صورة تجارب ومغامرات تشكيلية تكمن قيمتها الفنية فيما احتوت عليه من جرأة وابتكار فى الفكرة وجسارة اقتحام مناطق مجهولة .

إرهاصات التغيير

وعلى الرغم من أن العديد من نقاد الفن ومؤرخيه قد رأوا أن مرحلة التجديد المتسارع في الأساليب الفنية الحديثة قد بدأت مع ظهور المدرسة الانطباعية ، إلا أننا نرى أن بواكير التحديث كانت مع عصر النهضة الذى أسس مرحلة حضارية جديدة مازالت آثارها ممتدة حتى عصرنا الحاضر ، فمتواليات التجديد مازالت تترى منذ ذلك العصر وإن كانت خطاها قد تسارعت فى القرن العشرين مواكبة ما حدث فى المجالات العلمية من اكتشافات مذهلة ومتلاحقة أدت إلى تغيير فى نوعية الحياة الإنسانية واختلاف فى البنيات الاجتماعية والتوجهات الثقافية .

فلقد أسفر التطور الحضارى - منذ عصر النهضة - عن إطلاق سراح العقل الإنسانى ، والإفراج عن القوى الخيالية الكامنة فيه بعد إنتهاء القرون الوسطى المظلمة ، وزوال سلطة الكنيسة وتعنت رجال الدين فى قضايا الفكر والفن ، وأدى ذلك التطور إلى تغيير جذرى فى حياة الإنسان ، وأثر تأثيرا عميقا على نظرته إلى الكون وموقفه منه ، وخلق مناخا من الحرية أتاح له الانطلاق فى جميع المجالات سواء العلمية منها أو الفنية ، ففى الوقت الذى انطلق فيه الإنسان الأوروبى ناحية التفكير العلمى بعيدا عن التفسيرات الدينية متبعا المنهج العقلى والتجريبى ، فإنه من ناحية أخرى أطلق العنان للتعبير الفنى عن الأحاسيس والمشاعر التى ظلت مكبوتة داخله لقرون عديدة ، وكلها مشاعر تجاه عناصر الحياة المحيطة والتغنى بجمالها وإظهار فتنتها وتأكيد مواطن الحسن فيها ، وإذا أضفنا إلى العامل الدينى الذى توارت أهميته تلك التغييرات الاجتماعية والسياسية التى منحت الفرد حرية وانعتاقا من أسر العبودية الاقطاعية ، فإن مبدأ الحرية يظل هو الأساس لفترة حضارية إنسانية جديدة . وليس غريبا أن تنعكس تلك الحرية على جميع مجالات النشاط الإنسانى الخلاق عامة وعلى الإبداع الفنى على وجه الخصوص ، وخلال القرن العشرين وصلت هذه الحرية

● نحن فى حاجة لتفجير كوامن الإبداع الذى ينبع من ذاتنا المستقلة ويعبر عن هويتنا



عمل مركب - ماريوس سبيليوبولوس ، ١٩٩٤

إلى درجة غير مسبوقة حين أنتج بعض الفنانين فنا هو فى حقيقته لا فن ، إذ أنهم امتلكوا الحرية الكاملة التى تسمح لهم حتى بتحطيم القيم الجمالية التى يسعى الفن نحو أرسائها وتجسيدها ، وهم فى ذلك مثل الطفل الذى - أحيانا - يجرب فعل الخطأ ليقنع نفسه بأنه حر وغير مقيد وقادر على الفعل ، وأليست لوحة فونتانا الشهيرة التى عرضها عام ١٩٦٠ والتى هى عبارة عن مجرد شق طولى بالسكين فى قماش الرسم الخالى دليلا على ذلك؟

فهى وإن كانت تحمل بعض القيم الجمالية المتمثلة فيما خلقه الشق من تباين بين الظل والنور ، إلا أنها تحمل فكرة عدمية ترمز إلى معان عديدة ، من بينها تلك العلاقة العنيفة بين الفنان وسطح لوحته والتى يمكن أن تدفعه أحيانا الثورة عليه إلى قتله أو تشويهه.

كما أن المتأمل الفاحص لمسار تاريخ الفن الأوروبى يستطيع أن يلحظ بسهولة تلك الحلقات المتسلسلة التى تربط التحولات الفنية منذ عصر النهضة ، وأن كل حلقة منها متصلة بسابقتها ، كما

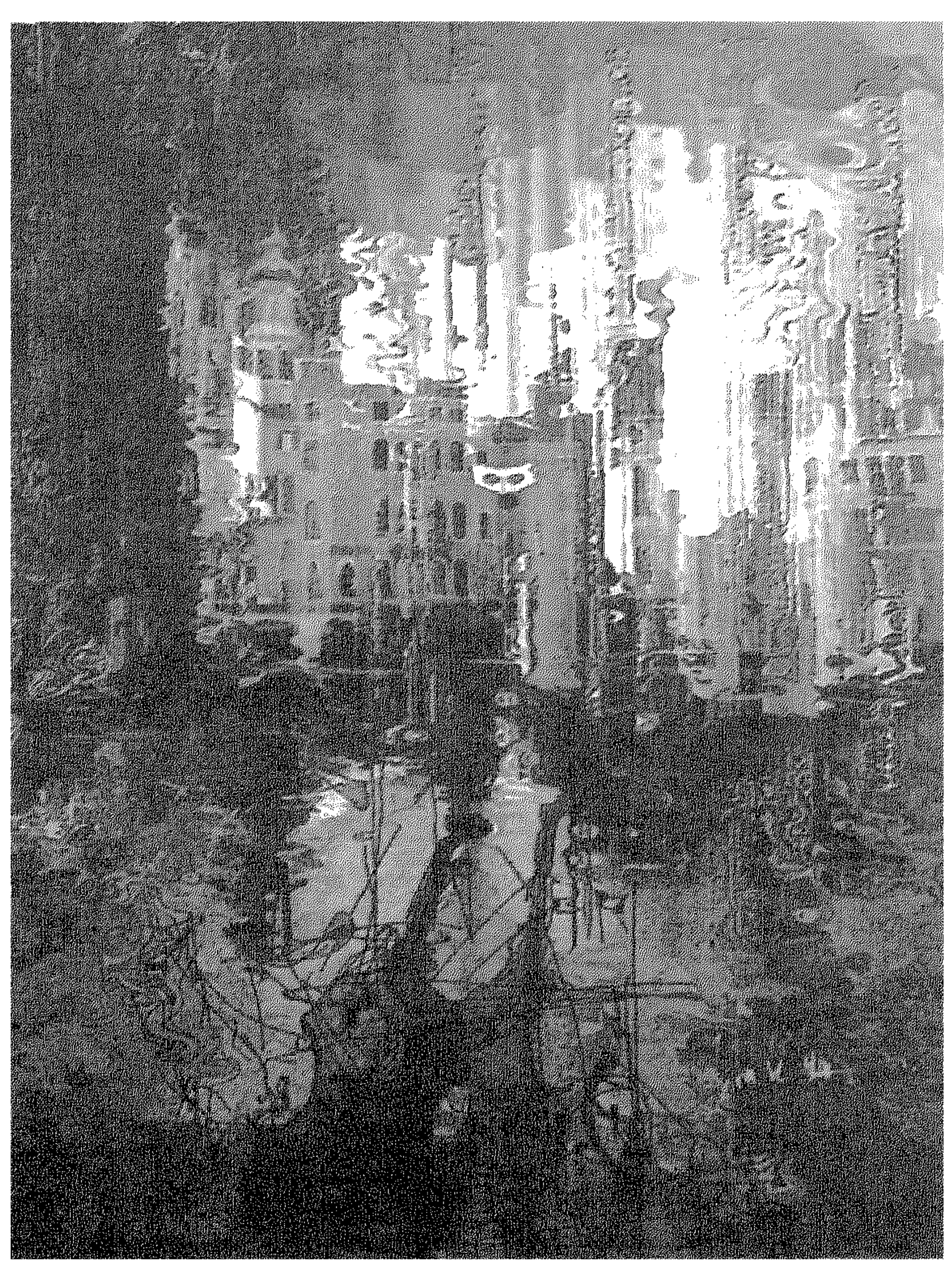
أنها فى الوقت نفسه تحمل بذور التغيير القادم، والذى سرعان ما ينضج ويفصح عن نفسه بوضوح فى مراحل لاحقة ، ولقد أوصلت أعمال فنانى النهضة المبكرين - جيوتو وتشيمابوى - وبييرو ديللا فرانشيسكا وبوتتشللى وأسلوبهم الذى اقترب من الطبيعة والإنسان إلى ما ابدعه الثلاثى الذهبى لعصر النهضة مايكل أنجلو ودافنشى ورافاييل ، وفى الوقت نفسه حملت أعمال مايكل انجلو الإرهاصات الفنية لطراز الباروك الذى تبلورت معالمه بعد قرن من الزمان، وهناك المصور الأسبانى جويا الذى كانت أعماله الأخيرة الموغلة فى الخيال وضربات فرشاته العنيفة والمختصرة مصدر إلهام للتعبيريين والسيرياليين من بعده بعقود زمنية ، كما أن الانطباعية لم تأت من فراغ فقد احتوت أعمال كونستابل وتيرنر على مؤشرات قوية للنظرة الفنية الجديدة التى سرعان ما وصلت إلى ذروة تألقها واكتمالها عند الانطباعيين ، والرمزية وجدت فى لوحات جوجان ملهما لها والتكعيبية اعتمدت على أسلوب سيزان الذى يعد الأب الروحى لمنهجها ، وفان جوخ أرسى فى أعماله الأساس للأسلوب الذى تبلور عند التعبيريين فيما بعد وقام على التعبير العنيف عن نوازع النفس الداخلية للفنان .

أساليب مختلفة لفن ما بعد الحداثة

جاء فن ما بعد الحداثة استكمالا لمسيرة الحرية الخلاقة والمبدعة لفنانى الغرب ، فلم تختلف معالمه الرئيسية اختلافا جذريا عن تجارب سابقة فى فن الحداثة ، وإن كان قد تم الامتداد بها إلى آفاق أرحب وأكثر جرأة ومن أهم تلك المعالم رفض المضمون الأدبى، والمبالغة فى الإثارة والإدهاش ، مع استخدام أكثر للوسائط العلمية والتكنولوچية الأكثر تقدما . والتحرر من كل الالتزامات ومن الزمان والمكان.

وتحول فن ما بعد الحداثة من الأفكار الراسخة إلى الأفكار المتغيرة ، مصاحبا تحول أسلوب الرؤية الفنية من مجرد التلقى السلبى إلى مشاركة المشاهد ومساهمته فى بناء العمل الفنى، فى الوقت نفسه الذى تغيرت فيه المواد والخامات الوسيطة ، فبدلا من استخدام الألوان والفرشاة فى تمثيل الأشياء ، فإنه تم الاستعانة بالأشياء نفسها حيث يتم تلصيقها ودمجها داخل سياق العمل الفنى .

وفى حين احتلت الفكرة التى يقوم عليها العمل الفنى موقع الصدارة



فينسيا - بيترمى لين ، ٢٠٠٢ (صورة معالجة بالكومبيوتر)

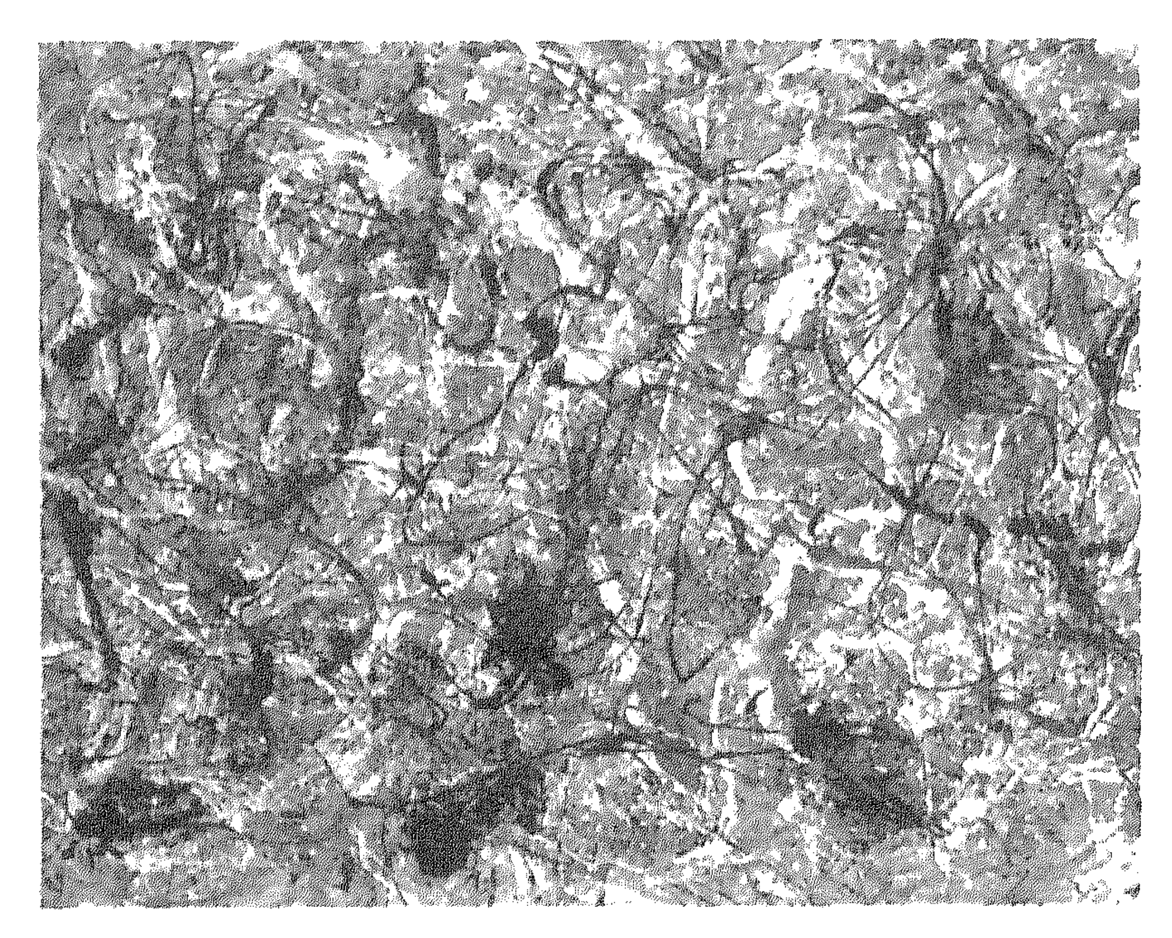
وأصبحت هي الأساس في الحكم على مدى توفيقه ونجاحه ، فإن المهارة في الأداء والقدرة الفنية قد تحولت إلى مجرد صياغة بأكثر الوسائل الحرفية بساطة ، فوظيفتها تجسيد فكرة العمل وتوصيل رسالته .

ولقد تعددت أشكال وأساليب فن ما بعد الحداثة ، وربما كان هذا

التعدد إحدى السمات التى تميز بها ، وكانت التعبيرية التجريدية - ذات المنشأ الأمريكى - هى أول الأشكال الفنية لفن ما بعد الحداثة ، وفرضت نفسها على الساحتين الأمريكية والأوروبية باعتبارها الأسلوب الجديد الواجب اتباعه بعد الحرب العالمية الثانية ، ولقد احتوت التعبيرية التجريدية على درجة من الديناميكية والحركة الداخلية ، وصلت إلى ذروتها فى أعمال المصور الأمريكى جاكسون بولوك - المولود فى نيويورك عام ١٩١٢ - والذى قدم صورة فريدة وغريبة على الإبداع الفنى كانت مثارا - فى البداية - للتندر والسخرية ، حين تعامل مع سطح لوحاته بأسلوب حر وعشوائى وتلقائى فهو حين يمارس التصوير فإنه يهجر فكرة حامل الرسم والقماش المشدود ويبسط قماش تصويره إما على الحائط أو على الأرض مباشرة ، وهو لا يلجأ فى تلوينه إلى فرشاة أو (باليتة) ألوان. وإنما هو يلف ويدور حول العمل دافقا ألوانه مباشرة على السطح ، محاولا خلق حياة داخلية تنبثق من خلال التداخلات اللونية والخطية التى يخلقها بعفوية وفى تحرر كامل من أية قيم تقليدية .

ولم يكن فن (البوب) أو الفن الشعبى - وهو فن أمريكى المنشأ أيضا - إلا امتدادا للأفكار التى قامت عليها جماعة «الدادا» فى بدايات القرن، ووجد هذا الأسلوب منذ السبعينات قبولا لتعبيره عن واقع الحياة العصرية وأدواتها الاستهلاكية فى صورة متندرة ساخرة ، ولجأ فنانو البوب أمثال جاسير جونزو وروبرت روشنبرج إلى المبالغة فى البحث عن اللامقبول واللامعقول ، واعتبرا من أكثر الدعاة لفن «الدادا» الجديد بأعمالهما التى اعتمدت على فن التلصيق والتجميع (الكولاج) . ولم يقف فنانو البوب عند حد تجميع الأشياء والعناصر المصنعة والمستخدمة فى البيئة المحيطة كعلب المياه الغازية والأطباق البلاستيكية والزجاجات الفارغة ، وإنما امتدت تجاربهم التشكيلية إلى أجسادهم ذاتها التى أصبحت مسرحا لأعمال فنية .

● ارتبط فن ما بعد الحداثة بمظاهر الحضارة الغربية المعاصرة وجسد أزمتها



تكوين تجريدى – جاكسون بولوك ١٩٥٠

وظهر أسلوب آخر يكرّس عامل الإيهام والخداع البصرى (فن الأوب) وفن الحركة (الكينتيك) وقد كان المصور المجرى فاساريللى قد أسس قبل مبادىء الخداع البصرى واكتشف تلك الإمكانيات التى تجعل أعماله تبدو وكأنها تتحرك رغم سكونها فى حقيقتها ، ومن خلال استخدامات دقيقة للرسوم قائمة على تسلسل رياضى وهندسى صارم ، وعن طريق استخدام لونى محسوب يتم خلق إحساس متدفق بالحركة والحيوية من خلال التأثيرات البصرية المثيرة للعين . وقد شمل الفنان البصرى والحركى تلك الأعمال التى تتحرك كيفما اتفق ودون تحريكٍ آلى محسوب ومبرمج بدقة ، خانقه تشكيلات حرة وفق الحركة الدائمة ، وتلك الأعمال التى يتم تحريكها عن طريق برنامج تم إعداده وفق نظام رياضى محسوب بدقة متناهية . ولقد أتاح الفن الحركى واستخدامه لعنصر الزمن فى الأعمال الفنية الفرصة لظهور تنويعات متتالية ولا نهائية من التصميمات التى تعتمد على الفعالية البصرية وما يمكن أن

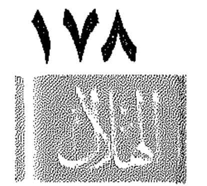
تتلقاه من تغييرات مثيرة فى الأشكال وعلاقات الخطوط والألوان بفعل الأضواء المتحركة ، وكل تلك الأشكال لم تعر المعنى الأدبى أو المضمون الرمزى أى التفات ، فهى فى النهاية أشكال تجريدية أولت العامل البصرى كل الاهتمام والتركيز .

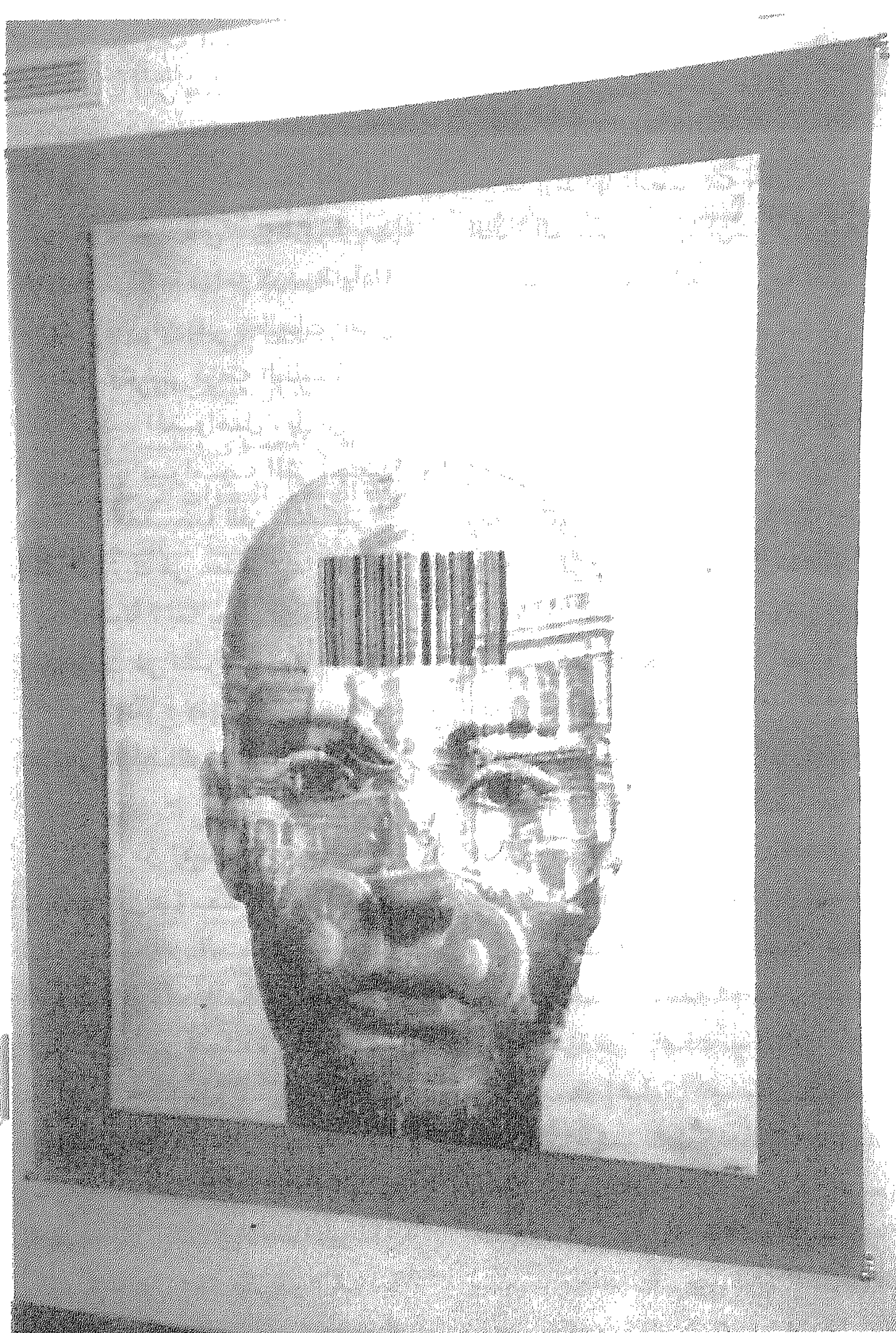
وفى الثمانينات ظهر تحول مثير فى فن ما بعد الحداثة من خلال أسلوب الواقعية المفرطة أو «السوبريالية» فبعد هجر طويل لعالم الواقع وللأساليب التشخيصية .

وبعد الإمعان فى التغريب والإثارة والمغامرات التشكيلية زاد الحنين إلى اللوحة التقليدية مع إعادة النظر فى تراث الماضى ، وسعى اتجاه ما فوق الواقعية إلى تسجيل الواقع بدقة متناهية ، وكان جمهور الفن فى شوق إلى هذه النوعية من الأعمال الفنية التى تضاهى الواقع وتمثله فى تفاصيله ومفرداته ، وبعيدا عن عالم النفايات والبقايا التى سادت فن البوب أو عالم الطرافة التشكيلية والإيهام فى الفن البصرى ، والحركة الميكانيكية فى الفن الحركى ، فإن فنانى ما فوق الواقعية قدموا أعمالا تزيد فى درجة واقعيتها عن آلة التصوير الفوتوغرافى، واعتمدوا على اختيار الزوايا التى لاتستطيع الآلة الإمساك بها ، وفى الوقت نفسه قاموا بالتركيز على وجهة نظر ناقدة للواقع .

وفى الثمانينات أيضا اتخذ فن ما بعد الحداثة شكلا آخر يقوم على إدراك جديد ومختلف للعالم ولوظيفة الفن ، وذلك من خلال الفن المفاهيمى الذى تبنى وجهة نظر فكرية ونظرية وجسدها بكل الوسائل والعناصر المتاحة وهو يرمى إلى إعادة التعرف على الحياة المعاصرة بكل ما تشمله من عناصر وأفكار ، وإعمال الذهن بطريقة واعية وناقدة ، وإعادة النظر فى مسلمات كثيرة والتشكيك فى مدى فاعليتها ، فهو مجرد رسالة فكرية يوجهها فنان له فلسفة ورأى خاص ، وهو فى سبيل إيصال فكرته وإثارة النقاش حولها فإنه يلجأ إلى جميع الوسائل والإمكانيات التى تشرح فكرته وتزيد من إيضاحها بما فى ذلك استخدام النصوص اللغوية المكتوبة .

وخلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين وصل فن ما بعد الحداثة إلى أن يهجر صورته القديمة كلية ، فالعمل الفنى المركب - أو التجهيز فى الفراغ أتاح للفنانين فرصة إقامة بناء تشكيلى ثلاثى الأبعاد بالفعل ، وبدلا من التقيد بالشكل التقليدى للوحة المعلقة أو التمثال القائم فى الفراغ ، فإن الأمر تحول إلى إجراء حوار





رءوس آلية - لويس باريا ، ١٩٩٨

تشكيلى حر ، مع استعمال كل المواد والخامات التى يمكن أن تساهم فى ثرائه الفنى .

ومع تعاظم دور الحاسب الآلى فى الحياة المعاصرة ، اتجه فن ما بعد الحداثة إلى استخدامه كوسيط وأداة حديثة يمكن أن تفى بتطلعات الفنان المعاصر وترضى نزعته الطامحة نحو التجديد المتواصل ، بل إن هذا الجهاز - ببرامجه التى أجيد تصميمها خصيصا للفن التشكيلى - اعتبر كشريك فى عملية الإبداع وليس مجرد وسيلة ، بما يمكن أن ينتجه من إمكانيات فى سرعة الأداء ، وما يقدمه من تنوع لانهائى للتصميمات الفنية والخطط اللونية فى ميزان النقد

يتضح من الأساليب المتعددة التى شملها فن ما بعد الحداثة مدى ارتباطه بمظاهر الحضارة الغربية المعاصرة ، فقد انعكست عليه آثار الهزات الفكرية الجديدة ، بل أصبح هو نفسه صورة تمثل أزمة هذه الحضارة فى بنيتها الاجتماعية وسيادة النواحى المادية وغلبة الطابع العقلى ، إلى جانب زيادة عوامل القلق واللامعقول ، مع تكريس الفردية المطلقة التى أدت إلى تجارب عديدة لا قيمة لها السوى تأكيد حرية الفنان فى إبداع أى شىء ، أما فيما يتعلق بالوسائط التى لجأت إليها أساليب فن ما بعد الحداث فإنها جاءت متلائمة مع ما أريد لها التعبير عنه ، فالمفاهيم الفنية الجديدة كان لها أن تجد الرواء المناسب ، والأفكار العصرية التى أنبتتها بيئة تكنولوجية وصناعية فى الغرب كان لها أن تجد سبيلها إلى العمل الفنى حاملة لرسالته ومواكبه لحداثته ، ولم يجد المتلقى الغربى - وهو يعيش الحداثة وما بعدها - صعوبة فى التواصل وفى قراءة الفن الجديد والتعامل معه بجدية وتفهم ، بل ربما كان تشجيعه لهذا الفن فى المضى قدما نحو استكشاف آفاق أكثر حداثة سببا رئيسيا فى تعدد أشكال هذا الفن وثراء ما يقدمه من أفكار وإبداعات فنية جديرة بالتقدير والاحترام .

ولعل أكثر العوامل التى منحت فن ما بعد الحداثة قيمته كحلقة جديدة متميزة من حلقات تسلسل الفن الغربى، هو إعادة الاعتبار للإرث الثقافى الماضى ، وإمكانية التواصل معه والامتداد به ، فبينما كانت الحداثة ثورة على التقاليد القديمة وتتعمد مخالفتها ، فإن الفن الجديد يوصى بالعودة إلى شكل من أشكال ما قبل الحداثة ، ويعتبر الماضى

واحدا من مصادر الهامه ، واعتبر العودة إلى مفهوم الزمن والتاريخ الذى يحتوى على الإنجاز الحضارى ، والتحرر من النظرة الآحادية ، وتنويع مصادر الإلهام من أى اتجاه ، عودة إلى إضفاء روح إنسانية جديدة ومتفتحة الذهن ، فقد نجد فى عمل فنى واحد مزجا أسلوبيا يتألف من ملامح من عصر النهضة وملامح من الفن الحديث وربما من فنون أخرى قديمة فى عملية توحيد فنى حضارى فريد .

نحن وما بعد الحداثة

فرضت أساليب فن ما بعد الحداثة نفسها على الساحتين الثقافية والفنية فى دول العالم الثالث ومن بينها مصر، فالفنانون فيها يتطلعون بانبهار إلى ما جلبته أساليب ما بعد الحداثة ، وما خلقه الخيال الإنسانى الطليق من أية قيود ، وإلى تلك الأشكال الجديدة غير المسبوقة فى عالم الفن التشكيلى وما تعكسه من حرية غير محدودة للمبدعين . وفى سبيل مواكبة الفكر العالمى والثقافة العصرية يعتقد العديد من الفنانين المصريين - وعلى الرغم من أنهم يعيشون فى مجتمع لم يدخل حتى الآن مرحلة الحداثة ناهيك عما بعدها - أن أساليب فن ما بعد الحداثة هى الوحيدة التى يمكن لها أن تحمل رسالتهم الثقافية والجمالية ، لهذا فإنهم يحرصون على أن يأتى إبداعهم مشابها لنماذجها قريب الصلة بها - ليستدعوا بذلك إلى الذاكرة تأثير الفن الحديث منذ أربعينات القرن الماضى على الفن المصرى ، حيث سارت حينذاك نفس الدعوات إلى مشابهة اتجاهات حداثية كالتجريدية والسيرالية والفن البصرى . وهكذا يبدو لنا أنه لافكاك للخيال الفنى المصرى من التبعية الثقافية للاتجاهات الغربية ، فنحن دائما فى انتظار الجديد لنقتفى أثره مما يؤكد حاجتنا الحقيقية لتفجير كوامن الإبداع الفنى الحر الذى ينبع من ذاتنا المستقلة ، ويعبر عن هويتنا وروحنا المختلفة ، ويجسد حلمنا الخاص كجماعة بشرية لها ما يميزها عن الآخرين . وتلك إشكالية ثقافية تبدو معقدة التركيب صعبة الحل ، إلا إذا خلصت النوايا وصدقت الرغبة فى الإصلاح الحقيقى القائم على أسس سليمة لكل نواحى حياتنا الاجتماعية والثقافية . ■

الملاك

سليم الرافعي
طرابلس - لبنان

فقد الشاعر ولده وهو فى زيارة إلي أحد الأقارب، فكانت هذه القصيدة عصارة أحزانه.

يا تـــراب اكتمـــل بـــه يا تـــراب
حــــل فـيــك المــلاك وهــو إهــاب
وجـــهـــه والصـــبـــا الأغـــن ربـــيـع
فـمــــــه القبلة التـى لا تـعــاب
صـــدره لـلعنــاق مــــن أزلـــــى
ســــال فيه مــلء الهـيولى شبــاب
ورقيـق الضلوع ســـاوى شـــــــعاعاً
أيهـــا الضـــوء .. هـــل دهـــاك الحجاب؟
هضـبة الـنـور أنـت.. والكـون ليــــل
والدياجــى تزيـــغ فيهـــا الهضـــاب
وتـنـاديك لـــوعـــة الأم.. مـــــاذا
صــانـع أنـت.. والخشـــوع جـــواب
يــاوديــع الإبــاء .. هــل كـنـــت إلا
منـهـلاً حـين تسـتقيك الصـحـاب؟؟
منسك الورد والغصـــون الزواهـــى
هــــزهــــن المغــــرّد الوثـــاب



ونجى الأتراب فى كل خطب

مثلما فى الظلام يسرى شهاب

يا جلال البكاء فى الدمع مرحى

فليجد هذه الدموع سحاب

زارع يحسب الأزاهير ملكاً

غرس الحب .. هل جفاه الصواب؟

قبلتا والد وأم .. لماذا

مزقت قبلتيهما الأنياب؟

نحن فى الأرض .. نحن منها .. دعانا

كوكب الحب .. هل دعانا الغياب؟

من دوى المأساة فى الزهر يشدو

أبدى العناق حين تصاب

نلبس الروضة اللعوب وننسى

أن عرى الخريف فينا عقاب

وجرى النهر .. قبل النهر أرضاً

قالت الأرض: ملء قلبى العباب

يا تراب الأعماق أين حبيب

من دمى .. من حقيقتى مستطاب؟

كيف أبى قبراً لطير توارى

السماوات وكره والضباب؟

فى سطور الآفاق آية حكم

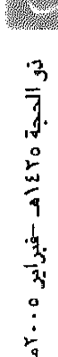
أيها الجاهلون .. هذا كتاب

يكتب الماء للحياة .. ومهما

يبدع الماء .. فالحياة سراب ..

حـــرب النجـــوم
الطـريق إلى أوسـكار

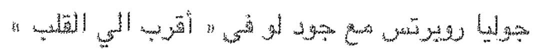
بقلم
مصطفى درويش



ما أن يقترب العام من نهايته المحتومة، حتى تبدأ المناورات، وتنطلق الشائعات والتكهنات حول مصير تمثال ذهبي، أطلق عليه سدنة مصنع الأحلام في هوليوود، عاصمة السينما، لقب أوسكار.

وفي هذا الجو المشحون بقلق صراعات من أجل الفوز بهذا التمثال، وصفها البعض بحرب النجوم، طلعت علينا قبل بضعة أسابيع «مجلة «امباير» - أي امبراطورية بالعربية - وهى مجلة سينمائية شهرية، بعدد نهاية العام، حيث إرتأت أن خمسة أفلام من حصاد العام هى وحدها الجديرة بالترشيح لجوائز أوسكار.




جوليا روبرتس مع جود لو فى « أقرب الى القلب »


لقطة من « فندق راوندا »

وهذه الأفلام الخمسة وفق ترتيب المجلة هى «الاسكندر الأكبر»، «الطيار»، «أقرب إلى القلب»، «طرق جانبية» ثم «البحث عن نڤرلاند».

ووفقا لوجهة نظرها، أى مجلة «امباير» كان مخرجو الأفلام الأربعة الأولى هم وحدهم الجديرون بالترشيح لأوسكار أفضل مخرج.

وهؤلاء المخرجون الذين وقع عليهم الاختيار، حسب ترتيب المجلة لهم، هم «أوليڤرستون» و«مايك نيكولس» صاحب «أقرب إلى القلب» و«الكسندر بين» صاحب «طرق جانبية»، و«مارتن سكورسيزى» صاحب «الطيار».

أما صاحب الفيلم الخامس «البحث عن نڤرلاند» وهو المخرج «مارك فورستر»، فقد اسقطته المجلة من كشف مرشحيها لأوسكار أفضل مخرج، مستبدلة به «والتر ساليس» صاحب «ذكريات دراجة بخارية»، ذلك الفيلم البرازيلى الذى يدور وجودا وعدما حول سيرة الثائر «شى جيفارا» حين كان شابا يافعا، لايزال فى دور التكوين.

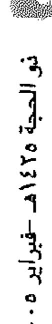
فى العجلة الندامة

واللافت للنظر فى أسماء الأفلام الخمسة المرشحة، ومخرجيها وجود اسمى «الاسكندر الأكبر» و«اليڤرستون» فلو كانت المجلة قد تحلت بقليل من الصبر لما تعجلت ترشيح كليهما، فتجنبت بذلك خطأ إساءة التقدير.

إلا أنها لم تؤثر التريث، إلى حين عرض الأسكندر الأكبر، ذلك أنه ما أن جرى عرضه، حتى تناولته الأقلام بالنقد الشديد، وفشل فشلا ذريعا وعلى كل، فخطأ المجلة فى التقدير مغتفر إلى حد ما. إذ كيف كان يرد على البال، مهما شطح الخيال، أن فيلما لمخرج فى منزلة «أوليڤر ستون» الفائز بأوسكار أكثر من مرة، يخيب خيبة الإسكندر الأكبر!!.

وليس أدل على ذلك، من أن مجلة

« الكورس » الفيلم الفرنسى المرشح للكرة الذهبية



«بريميير» السينمائية الأمريكية ارتكبت هى الأخرى، نفس الخطأ، بقيامها بترشيح الأسكندر الأكبر مع عشرة أفلام أخرى للأوسكار وإن كانت تجنبت ارتكاب خطأ ترشيح مخرجه «ستون» وبدلا منه رشحت «مارك فورستر» صاحب «البحث عن نفرلاند».

الهرولة .. لماذا؟

ولكن صورة ماهو جدير من الأفلام بالترشيح لأوسكار ، والفوز بها فى نهاية المطاف، هذه الصورة لاتبدأ فى الاكتمال إلا والعام يقترب من أسبوعه الأخير. حيث يهرول المنتجون إلى طرح أفضل ماعندهم من أفلام، حتى تتاح لها فرصة المشاركة فى التنافس على جوائز أوسكار.

ومما يزيد الصورة وضوحا ، فاكتمالا ، إعلان اتحاد الصحفيين الأجانب فى لوس أنجلوس عن ترشيحاته للأفلام وصانعيها ، ثم الإعلان عن أسماء الفائزين بجوائزه المسماة بالكرة الذهبية (٢٠٠٥/١/١٦) كما أن جوائز اتحادات نقاد السينما فى مدن الولايات المتحدة الكبرى. واختيارات نقاد كبريات الصحف والمجلات الأمريكية لأفضل الأفلام التى شاهدوها على امتداد العام، هى الأخرى تساهم فى وضوح الصورة واكتمالها.

فمثلا إذا ألقينا نظرة طائرة على ماجرى نشره فى عدد من المجلات السينمائية المتخصصة «كهوليوود ريبورتر» و«ڤارايتى» و«سكرين انترناشونال» لتبين لنا أن ثمة شبه اجماع حول ترشيح عدد من الأفلام.



لقطة من « البحر داخلي »

عولمة الأوسكار

وأول ما يلاحظ على هذه الأفلام أن بينها أربعة أعمال سينمائية أجنبية متكلمة بغير اللغة الإنجليزية، وهي «خطوبة طويلة جدا» للمخرج الفرنسي «جان بيير جينية» و«البحر داخلي» للمخرج الإسباني «اليياندرو امينابار» و«مذكرات دراجة بخارية» و«بيت السكاكين الطائرة» للمخرج الصيني «زانج بيمو».

وذلك الارتفاع في عدد الأفلام الأجنبية، إن دل فإنما يدل ، على اتجاه مصنع الأحلام في هوليوود، نحو تبني المزيد من عولمة السينما، من خلال عولمة جوائز أوسكار.

فإذا ما انتقلنا إلى الأفلام الأمريكية المرشحة من قبل محرري ونقاد تلك المجلات فستكتشف أن معظمها وعلى غير المألوف مداره سير بعض المشاهير.

ففيلم «الطيار» على سبيل المثال، يعرض لحياة «هوارد هيوز» ذلك المليونير غريب الأطوار، ويتقمص شخصيته نجم «تايتانيك «ليوناردو دى كابريو».

و«البحث عن نڤرلاند» يدور حول حياة الأديب الاسكتلندى سير «جيمس ماثيو باري» صاحب قصة بيتربان».

ويتقمص شخصيته «جوني.ديب» ذلك النجم الذى يعد، وبحق، واحدا من أحسن ممثلي مصنع الأحلام، وأكثرهم موهبة، وتفانيا في أداء ما يسند إليه من أدوار.

و«كينسي» وهو فيلم مداره سيرة رائد أمريكي، ركب المخاطر، وبفضل أبحاثه غير المسبوقة في عالم الجنس الفسيح فتح



ليوناردو دى كابريو في فيلم « الطيار »

آفاقا، وكشف أسراراً.

مولد نجم

ويؤدى دوره «ليام نيسون» نجم «قائمة شندلر» ذلك الفيلم الفائز بالعديد من جوائز أوسكار .

و«راى» وهو عن حياة «راى شارلز» المغنى الأسود الضرير، الذي جاءه الموت، قبل بضعة شهور.

ويلعب دوره فى الفيلم «جيمى فوكس»، ذلك الممثل الأسود، متعدد المواهب.

والمولعون بالسينما يتذكرونه من أول لقاء معه على الشاشة فى فيلم «أحداث متوازية» حيث سرق الكاميرا أكثر من مرة، من نجم النجوم «توم كروز».

ومما يثير الدهشة، أن أيا من هذه الأفلام لم تتح له فرصة العرض عندنا، فى مصر المحروسة، حتى يومنا هذا.

ولنقاد جريدة «نيويورك تايمز» الثلاثة «اد. اد. سكوت» و«امانولا دارجيس» و«ستيفن هولدن»، آراء أخرى فى أفضل الأفلام التى شاهدها كل واحد منهم على مدار العام.

مصر لا - أفريقيا نعم

وبداية فليس بين الأفلام العشرة التى اختارها كل واحد من النقاد الثلاثة فيلم مصرى أو عربى واحد وإن كان بينها فيلم أفريقى اسمه «مولاد» لصاحبه المخرج السنغالى عثمان سيمبين «البالغ من العمر ثمانين عاما وفيلمه يعرض لقسوة الحياة بإحدى قرى غربى القارة السوداء حيث تعامل المرأة بوحشية منقطعة النظير فى زمن حصلت فيه النساء على قدر كبير من حقوقهن السليبة، حتى كدن يرتفعن إلى منزلة الرجال.

حمايتنا من أنفسنا

ولم يجمع النقاد الثلاثة فى اختياراتهم إلاّ على فيلمين أحدهما «مليون دولار .. ياحبوبة» إخراج كلينت ايستوود.

ويشاركه فى أداء الأدوار الرئيسية الممثل الأسود والرائع «مورجان فريمان».

والنجمة «هيلارى سوانك» التى سبق لها الفوز قبل خمسة أعوام، بجائزة أفضل ممثلة رئيسية، عن أدائها لدور فتاة مسترجلة فى «الأولاد لايبكون»، ذلك الفيلم المحظور علينا مشاهدته فى المحروسة، كغيره من روائع الأفلام، لا لسبب سوى حمايتنا من أنفسنا!!

موت العواطف

أما الفيلم الآخر، فاسمه «العقل النقى وشمسه الساطعة إلى الأبد» وصاحبه «ميشيل كوندرى» ذلك المخرج المثيرة أفلامه للجدل، والمنشطة للفكر، كشفا عن وجه الحقيقة.

وقصة فيلمه الأخير تدور حول صراع الحب مع التكنولوجيا فى زماننا، حيث لاتمكث عاطفة الحب على شاشة ذاكرتنا إلاّ وقتا قصيرا، ثم سرعان ما تنمحي، دون مبالاة، وبغير حساب، ويتقاسم بطولة هذا الفيلم الغريب كل الغرابة «جيم كارى» ذلك النجم الذى بدأ مهرجا، وشيئا فشيئا تحول إلى ممثل لايشق له غبار.

مع نجمة «تايتانيك» «كيت وينسليت» ومن بين الأفلام التى وقع عليها اختيار النقاد الثلاثة وعددها بعد استبعاد الفيلمين الحاصلين على الإجماع من حساب قائمتى اثنين منهم، ستة وعشرون فيلما، لم يعرض منها عندنا حتى الآن سوى أربعة أفلام هى «فهرنهايت ١١/٩» «أحداث متوازنة»، «أقتل بيل جزء ثان» و«الجبابرة».

والفيلم الأخير يدخل فى عداد أفلام الرسوم المتحركة، وربما فيما عدا «مليون دولار .. ياحبوبة»، فأحد لايتوقع لمعظم الأفلام الأخرى أن يكتب لها عرض عام عندنا، لا فى المستقبل القريب، ولا حتى البعيد ومن بين هذه الأفلام اذكر «التعليم الردىء» لصاحبه المخرج الإسبانى «بدرو المودفار».

ومما يعرف عنه، أنه قد افتتح به مهرجان كان الأخير كما أذكر «الأم» لصاحبه المخرج الإنجليزى «روجر ميشيل» وهو من الأفلام القليلة التى تحدث بجدية موضوعها وجدته ضجة كبرى، حينما تتاح لها فرصة العرض العام.

أما لماذا لن تتاح «للأم» تلك الفرصة عندنا، هو ومعظم الأفلام التى وقع عليها الاختيار من قبل النقاد الثلاثة، فذلك لأنها من نوع غير مألوف، يفتح آفاقا جديدة لفن السينما ومثل هذا النوع من الأفلام ليس له مكان فى بلد إرتأت رقابته أن شعبه ليس له وعى، ولا حرية، بل ولا كرامة انسانية، تخوله الحق فى أن يشاهد ماتشاهده الشعوب الأخرى، في مشارق الأرض ومغاربها.

والآن إلى قائمة الأفلام المرشحة لجوائز الكرة الذهبية، هى وصانعيها، لأقول إنها هى نفس الأفلام التى وقع عليها اختيار النقاد فيما سلف ذكره من جرائد ومجلات لم يزد عليها سوى فيلم واحد فى القسم الخاص بأفضل الأفلام الدرامية، وهو «فندق رواندا» لصاحبه المخرج الأسود «تيرى جورج».

وفيلمه يدور حول مذبحة التوتسى فى رواندا حيث قتل مئات الألوف من التوتسى الأبرياء، بوحشية منقطعة النظير.

وفيلم ثان فى القسم الخاص بافضل الأفلام الموسيقية أو الكوميدية، وهو «شبح الأوبرا» المأخوذ عن مسرحية موسيقية بنفس الاسم للموسيقار الإنجليزى «أندرو لويد ويبر».

وفيلم ثالث فى القسم الخاص بأفضل الأفلام المتكلمة بلغة أجنبية، أى بغير اللغة الإنجليزية وهو «الكورس» لصاحبه المخرج الفرنسى كريستوف بارانتيه يبقى لى أن أقول إنه ليس بين الأفلام الخمسة المتكلمة بلغة أجنبية، أى فيلم متكلم بلغة الضاد، ولا حتى «الباحثات عن الحرية» لصاحبته «ايناس الدغيدى»، والفائز بجائزة أفضل فيلم عربى من مهرجان القاهرة السينمائى الأخير!! ■

أيرلندا

شتات الدموع والأمل

بقلم
الفاروق عبد العزيز

عندما نشر الكاتب «تيم بات كوجان» سيرة ذاتية لمايكل كولينز بعنوان «مايكل كولينز: الرجل الذى صنع أيرلندا» لخصّها بعد نشرها فى حديث قال فيه: «إن حياة وإنجازات كولينز تقدم مثالا يلخص مأساة أيرلندا الحديثة: الشقاء المتصل، ضياع الفرصة، تبديد الطاقة، افتقاد الأمل، وذلك التأثير المروّع للتاريخ، وأخيرا تلك الدراما التى لعبت بطولتها الكلمات والأوصاف... فمن يكون إرهابيا فى نظر البعض، هو محارب فى سبيل الحرية فى نظر الآخرين».

ربماكان نشر السيرة الذاتية «للرجل الذى صنع أيرلندا»: مايكل كولينز سببا مباشرا فى فتح ملف السينما الأيرلندية وربما على نطاق أوسع ملف الأيرلنديين فى هوليوود؛ أعنى صورة الأيرلنديين فى السينما الأمريكية. فمنذ تجددت الانتفاضة الأيرلندية فى عام ١٩٦٩، طرأ تغيير ملموس على صورة النمط الأيرلندى فى أفلام هوليوود. من السكير اللطيف والفم المحشو بنبات البرسيم، إلى نمط جديد سلبى أيضا تمثل فى صورة الوجه الغاضب الجاحظ العينين: الإرهابى!

وهنا تكمن المفارقة! فمع قبول الإنجليز، بتشجيع ومباركة الأمريكيين، الجلوس إلى مائدة التفاوض مع الأيرلنديين الشماليين ممثلين فى حركة «الشين فين» (الذراع السياسية للجيش الجمهورى الأيرلندى الذى تمتد جذوره إلى ما قبل ٩٠ عاما) بل واستقبال زعيم الحركة جيرى آدامز فى البيت الأبيض، تصّر هوليوود على الاستمرار فى رسم الصورة أحادية البعد

مايكل كولينز الحقيقى

للأيرلندى الإرهابى، كما شاهدناها فى فيلم فيليب نويس «ألعاب وطنية» فى عام ١٩٩٢، وحتى فى فيلم آخر لمخرج ليبرالى كـألان باكيولا فى عام ١٩٩٧ اسمه «فى قبضة الشيطان». وكلا الفيلمين يقدم الطرف المجنى عليه ضحية الأيرلندى الإرهابى فى صورة بطل أمريكى محبوب لدى الجمهور العام، المتأثر برسالة الفيلم، وهو هاريسون فورد.

ولكن من يريد هوليوود؟؟

«إذا توقفت عن اللهاث وراءها، فستلهث وراءك يوما».. كالدنيا (؟!).

ربما كان هذا هو لسان حال أحد عباقرة الإدارة المالية فى جمهورية أيرلندا الذى استلهم فكرة الحوافز الضريبية المغرية لكى يطبقها بنجاح عظيم فى «مجلس الفيلم الوطنى الأيرلندى» ليوقظ الصناعة السينمائية الأيرلندية من سبات طويل ويدخلها فى سباقات تتخطى فيها الحواجز الإقليمية والدولية.

ومنذ منتصف الثمانينات بدأت بوادر السياسة الجديدة تلوح فى الأفق، ووصلت الرسالة عالية واضحة إلى شركات الإنتاج الأيرلندية: أرسلوا لنا أفكاركم ومشروعاتكم! وبين السطور أودعت رسالة أخرى مفادها أنه ليس غير صناع السينما الأيرلنديين بمقدورهم توصيل الروح الأيرلندية الحق، بما فى ذلك تغيير الصورة السلبية للمقاتل الأيرلندى، إلى العالم. ومادامت اللغة إنجليزية فالوصول مضمون إلى قلب أكبر سينمات العالم انتشارا وتأثيرا: السينما الأمريكية.

ولكن ذلك لن يتم، هكذا أدركوا، إلا بإنتاج على مستوى عال من الإنجاز. فأية قضية، وفى الصدارة منها القضية الأيرلندية، لا يمكن اعتبارها بحال مبررا لأى إنتاج فنى أو فكرى ردىء الصناعة، ربما مستذكرين عبارة الشاعر محمود درويش المضيئة: «إننى أرفض أن تكون القضية الفلسطينية المبرر الوحيد لشعرى».

شكل جذاب

ومع هبوب هذه الروح الفنية الثورية، أثمرت سياسة الإدارة السينمائية الجديدة عن ميلاد شكل جذاب ومؤثر لصورة «متوازنة» (بمعنى إيجابية على العموم)» للأيرلندى. وإلا فلم اختار أحد أهم مخرجى الجيل الجديد جيم شيريدان شخصية واقعية مقعدة، على نحو يبدو ميئوسا منه تماما، هو الشاب الأيرلندى كريستى براون القادم من الأعماق السفلية للمجتمع، لكى يتخطى به حواجز كثيرة فى السباقات الدولية وفى مقدمتها حاجز هوليوود ذاتها، ولكى يثبت بالفوز فى تلك الأشواط قدرة أيرلندا الدائمة على تزويد عاصمة السينما العالمية بأروع المواهب التمثيلية وأكثرها تميزا. ها هو فيلمه «قدمى اليسرى» (١٩٨٩) يقدم قصة عظيمة من قصص مقاومة العاهة وحفنة أخرى من المعوقات، تنتصر فى نهايتها الإرادة الإنسانية.

ولنلاحظ هنا الرسالة الرئيسة للفيلم والرسائل الفرعية المصاحبة لها. وجاء الفيلم انتصارا قيّما للروح الجديدة محققا الكثير من الدوى الإعلامى حينا فاز ممثله الأول دانيـيل داى لويس بأعظم الجوائز

السينمائية وأكثرها مصداقية: الأوسكار. كما فازت بريندا فريكر بأوسكار أحسن ممثلة مساعدة عن نفس الفيلم، في الوقت الذي رشح فيه الفيلم، من بين ترشيحات دولية أخرى، لنيل أكبر الجوائز: أوسكار أحسن فيلم وأحسن سيناريو وأحسن مخرج لجيم شريدان.

وفي فورة هذا الحماس المستعاد أخرج نيل جوردان في عام ١٩٩٢ فيلمه الهام «لعبة الصراخ» عن واحدة من قصص الجيش الجمهوري المعاصرة، عن سيناريو لجوردان فاز عنه بأوسكار. ورشح الفيلم للفوز في خمسة أفرع منها أوسكار أحسن فيلم. هذا في الوقت الذي انطلق فيه جيم شيريدان ليشكل فريقا مع تيري جورج فيكتبان ويخرجان فيلمين بالغي الأهمية في مسيرة السينما وحركة التحرير الأيرلندية معا: الأول «باسم الأب» في عام ١٩٩٣ والذي رشح لثماني جوائز أوسكار، بما في ذلك أحسن فيلم والثاني هو «ابن واحدة من الأمهات» في عام ١٩٩٦.

شكلت هذه الأفلام، كأفضل الأمثلة المعروفة، علامة مميزة في مسيرة السينما الأيرلندية لعرض «قضيتها» على نحو متوازن، مما أثمر عن تغيير ملموس رأيناه لاحقا في رسم صورة الأيرلندي في هوليوود. ولعله يتمثل في أن هوليوود قد كفت (حتى الآن على الأقل!) عن رسم صورة سلبية للأيرلندي كإرهابي.

وهنا تعطي السينما الأيرلندية، بفضل سياسات التمويل الحكومية الذكية، أقوى الأمثلة وأكثرها حيوية على سينما وطنية استطاعت أن تنهض من بين الرماد خلال عقد واحد تقريبا، لكي تؤثر بالفن أولا وثانيا في هز مفاهيم مسبقة لسينما عابرة للقوميات مسيطرة على العقل والوجدان إلى أبعد الحدود في كل مكان تقريبا فوق ظهر الكرة الأرضية: السينما الأمريكية.

في الوقت الذي تناول فيه «ابن واحدة من الأمهات» حكاية أم على هامش حياة وموت أحد مناضلي حركة الجيش الجمهوري الأيرلندي؛ بوبي ساندز في عام ١٩٨١، تناول فيلم نيل جوردان «مايكل كولينز» (١٩٩٦) حياة بطل تاريخي رومانسي ثوري نجح، وهو لم يتم بعد عامه الثاني والثلاثين، في أن يجبر الإمبراطورية البريطانية على الجلوس إلى مائدة المفاوضات لأول مرة في تاريخها الأيرلندي في عام ١٩٢١.

موت بوبي علامة فارقة

كان عام ١٩٨١ علامة فارقة في حياة المخرج الشاب نيل جوردان. فقد عكف على الفور بعد الإعلان عن موت بوبي ساندز، أحد مناضلي حرب الاستقلال الأيرلندية، بعد إضراب طويل عن الطعام في السجون البريطانية على كتابة سيناريو عن حياة ونضال مايكل كولينز الزعيم التاريخي للمقاومة الأيرلندية. وهي مهمة فرغ منها في عام ١٩٨٣.

ولكن أحدا لم يكن قادرا على تمويل إنتاج بهذا الحجم في تلك الأيام خاصة لمخرج لم يختبر بعد. وخلال الأعوام التالية أظهر فنانون محترمون اهتماما جديا بإنتاج فيلم عن كولينز، منهم مخرجون من أمثال جون هيوستون ومايكل تشيمنيو

وممثلون من طراز روبرت ردفورد وكيفن كوستنر.

وكان الحل أن تشارك الحكومة الأيرلندية (مجلس الفيلم الوطنىّ) فى إنتاج الفيلم (بميزانية قدرها ٢٥ مليون دولار وهو رقم غير مألوف فى الأوساط السينمائية الوطنية) بالمشاركة مع استديو أمريكى رئيسى هو شركة وارنر التى اشترطت قيام نجمة شباّك من وزن جوليا روبرتس فى دور صديقة كولينز (كيتى كيرنان) لأسباب تسويقية. غير أن حجم دورها فى النهاية لم يكن ذا أهمية درامية تذكر.

يقدم «مايكل كولينز» بطله الوطنىّ فى تفاعل خلاّق بين التاريخ والدراما على نحو موصّل وفعاّل ومثير، وهو يتابع رحلة كولينز منذ انتفاضة يولستر فى عام ١٩١٦ والأحداث الكبرى التى شكلت حياته العامة خلال الأعوام الخمسة التالية والتى أدت إلى ميلاد الجيش الجمهورى الأيرلندى وإجبار الإمبراطورية البريطانية على التفاوض فى عام ١٩٢١ ثم اغتياله بأيد أيرلندية مجهولة الهوية والدافع.

ومن بين ثنايا التاريخ (ما هو التاريخ فى التحليل النهائى؟ أليس هو ما يكتبه هذا وذاك من وجهتى نظرهما!) تتسلل الدراما التى تنسجها وجهة نظر جوردان والتى تصور لنا العلاقة الطردية بين شخصيتى كولينز وديفاليرا بالكشف الدرامى عما دار فى محاوراتهما المنفردة، وصراعاتهما الدائمة بين الثورى والسياسى (وهو صراع قديم بين المثالية والبراجماتية الذرائعية) وبأهمية أقل عما دار خلف أبواب مغلقة من صراع بين الحب الفردى (الفتاة العاشقة كيتى) والحب العام للقضية. وبالطبع تكتسح الثورة فى مسيرتها الغلاّبة المشاعر العاطفية الفردية. وفى كلتا الحالتين فإن قلب وعقل المشاهد يتضامنان مع الثورى النقى الخاص للثورة.

وفى هذا يؤجج الفيلم الممتاز مشاعر المشاهدين، فى أى مكان ومن أية ثقافة، بالتعاطف مع القضية الأيرلندية.

تقديم البطل الرومانسى

وربما كان فى مقدمة أبرز عناصر امتياز الفيلم أداء الممثل الأيرلندى ليام نيسون الذى أتصور أن «البحث» الذى قام به لرسم الشخصية كان على أساس تقديم البطل الرومانسى الثورى كولينز كشخصية لها أخطاؤها ومع ذلك يسهل التعاطف معها. قدم نيسون كولينز كبطل تاريخى مغاير لصورة الأبطال التاريخيين المندفعين دوما بالإلهام والمثالية كما شاهدناها فى الأفلام الملحمية الهوليوودية.قدمه كفرد معذّب بموهبته التى يدرك أنها عنصر قوته الرئيسى: موهبة التدمير. غير أنه فى قرارة نفسه كان يريد السلام إلى حد الاستعداد للموت فى سبيله. بطل فرد يواجه خيارات صعبة. ومن هنا كان من اليسير أن تلمس مقدار معاناته إثر اشتعال الحرب الأهلية الأيرلندية فى عام ١٩٢٢، بعد توقيعه التكتيكى على معاهدة السلام (صك موته)... السلام الذى كان أول ضحاياه.

وأداء نيسون أخيرا أداء مشّع لأن حماسه الشخصى لقضية كولينز يستولى



وليام نيسون (مايكل كولينز) يستعرض قواته

بصدقه على أداء كل حركة من حركاته الجسدية والصوتية.

باسم الأب نعلن الثورة!

يفتتح فيلم «باسم الأب» بافتتاحية غير متوقعة!

ها هو «بطلنا»! اللص الصغير الذى يفتتح يومه بعملية صغيرة فوق سطح منزل صغير لكى يسوق له حظه العاثر دورية بريطانية تتقصى فى المنطقة تحركات عسكرية جمهورية لكى يسقط «بطلنا» بين المطرقة والسندان... بالصدفة!! فعندما يحدث صوتا وبدا أن السرقة قد أخفقت، تتطلع صوبه عيون وفوهات بنادق القوات البريطانية التى تراه قنّاصا كامنا؛ بينما هو فى أعين المقاتلين الأيرلنديين مثير للمشاكل ويستحق تكسيرالركبتين!

وفى مطاردة مثيرة للص الفأر تتعقب القوات المسلّحة بعربات الجنود المدرعة «القناص» المحتمل فى شوارع غطتها الأحجار الصغيرة وبقايا زجاجات المولوتوف، لكى يخرج الشعب من الأزقة لإنقاذ «المقاتل» (لمن لا يعرفه) و«الأيرلندى» وحسب (لمن يعرفه)! وكان من الطبيعى أن تتحول الأزقة والساحات الصغيرة فى دقائق إلى ساحات وميادين للمقاومة فيم بدا أنه روتين يومىّ معتاد.

ويبدأ ذلك الشاب الطائش فاقد الصلة بمحيطه السياسى الفوّار فى عام ١٩٧٤ رحلة طويلة تمتد إلى خمسة عشر عاما، ليجد نفسه فى أولها، بعد أن هرّبه والده برفقة ثلاثة من أصدقائه، فى قلب عاصمة

(العدو) لندن لكى يجد عملا يتعيش منه وإن ظل على لهوه وفساده. وفجأة يقع الحدث الذى يغيّر حياته إلى الأبد حين يجد نفسه فى مركز عاصفة مدمرة أثارت عطشا قوميا للانتقام. فعندما يضرب مقاتلو الجيش الجمهورى الأيرلندى أهدافا فى قلب لندن يسقط الشاب البرئ وزملاءه ضحية سهلة للشرطة البريطانية! ويبدأ تحوّل رئيسى فى شخصية الشاب فى الحدوث فى منتصف رحلته عقب انضمام والده إليه فى سجنه، بعد الحكم عليه أيضا حينذاك تضئ العلاقة بين الأب والابن جوانب مختلفة فى العلاقة العضوية بين الخاص (الأب والابن) وبين العام (القضية الأيرلندية).

وبعد صراع طويل بحثا عن العدالة فى أروقة القضاء البريطانى تقوده محامية بريطانية مقتنعة ببراءة موكلها ، يصل الشاب إلى نهاية رحلته قادرا على أن يكتب عن تجربته بنفسه وينشرها فى كتاب بعنوان «ثبتت براءته» بقلم جيرى كونلون!

تلقف الكتاب على الفور المخرج جيم شيريدان الذى اشتهر بفيلمه الممتاز «قدمى اليسرى» ١٩٨٩ ولعب دور الفنان المقعد كريستى براون فيه نفس الممثل الذى لعب دور جيرى كونلون - الممثل دانيال داى لويس ، وكان جيم شيريدان قد كون فريقا مع تيرى جورج ، مخرج فيلم «ابن واحدة من الأمهات»، يتبادلان فيه أدوار كاتب السيناريو والمخرج والمنتج من حين لآخر كما هو الحال فى «باسم الأب».

وعندما عرض «باسم الأب» فى عام ١٩٩٤ حقق كل أمنيات آباء السينما الأيرلندية فى مجلس الفيلم الوطنى الأيرلندى ، فهاهو الفيلم يكتسح هوليوود من أوسع أبوابها رافعا راية القضية الأيرلندية بمزيج لونى فعال وجذاب بين الفن والسياسة.

أوسع الأبواب حقا! فقد رشح الفيلم لسبع جوائز أوسكار! أحسن ممثل لدانيال داى لويس عن دور الابن، وأحسن ممثل مساعد عن دور الأب لبيت بوسلثويت، وأحسن ممثلة مساعدة عن دور المحامية لإيما طوسون، وأحسن مونتاج لجيرى هامبلنج، وأحسن سيناريو لجيم شيريدان وتيرى جورج، وأحسن مخرج لجيم شيريدان، وأخيرا أهم جائزة: وهى أحسن فيلم للمنتج جيم شيريدان.

كما فاز الفيلم بجائزة الدب الذهبى فى مهرجان برلين وبحفنة أخرى من الجوائز من جمعيات الفيلم السياسى وحقوق الإنسان وحركات السلام.

وإذا كان «باسم الأب» مبنيا على قصة حقيقية للابن جيرى كونلون والأب جوزيبى كونلون ، فإن ما يقنعنا بصدق روايتهما على الشاشة هو نجاح كاتب السيناريو فى إبداع المزيج السحرى بين الحقائق (التاريخ) وبين قليل من الخيال الدرامى.

الفيلم ، فى تصورى، ليس عن حكاية انتقال الشاب الطائش فاقد الاتجاه جيرى كونلون من عالم لا معنى له إلى حياة أكثر ذكاء ووعيا (وان كنا رأينا ملامح من هذا الانتقال) كما أنه ليس فيلما عن الصورة

الكبيرة للصراع الأيرلندى البريطانى (وإن كنا رأينا ملامح من تلك الصورة).

إنه فى الأساس، ولعله هذا سر نجاحه، فيلم عن علاقة عائلية بين ابن وأبيه تتطور من لامبالاة كاملة من جهة الابن إلى علاقة حميمة بين صديقين بعد أن دفعتهما الظروف إلى «فرن» واحد من المعاناة المشتركة، توفى الأب فيه بعد أن قدم أروع دروسه وآخرها ، وخرج الابن الضال من مطهره إنسانا بعد أن لمس بيديه الجوهر الخالص لفكرة الأبوة والبنوة ذاتها! بقدر ما لمس حيوية الطاقات الثورية والإنسانية الكامنة فى تعاطف السجناء الآخرين مع محنته ليلة وفاة أبيه حين ألقى السجناء أوراقا مشتعلة من نوافذ زنازينهم إلى باحة السجن فى الليل فى مشهد بديع استحق وصف الناقد جيمس بيراردينللى «إنها ليلة الدموع النارية»

محور مهم كان يستحق تحوير أى تاريخ لكى يتحقق ذلك الجمع الإبداعى فى زنزانة واحدة والذى لم يكن ممكنا من قبل فى زمن الحياة العبثية لهذا الابن اللاهى.

وجاءت نتيجة التحوير فعالة إلى أبعد الحدود.

لم يكن تحقيق ذلك التأثير الساحق للفيلم ممكنا إذا لم يحشد الكاتب والمخرج مجموعة عناصر لتجسيده على الشاشة فى مقدمتها الأداء المبدع لممثليه خاصة الممثل الأيرلندى دانيال داى لويس الذى لعب دور الشاب جيرى والذى يظهر أداؤه الأخاذ هنا مدى تفاعل الصراعات الداخلية بينه وبين ذاته خلال خمسة عشر عاما من التحول من افتقاد المسئولية إلى الوعى.

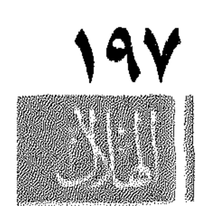
وبنفس القدر من الإبداع والتجلى يظهر الأب - الممثل البريطانى بيت بوسلثويت مدى صلابته الأخلاقية وعمق حبه لابنه الصعب ووثوقه من براءته خاصة فى المشاهد التى جمعت بينهما فى الزنزانة، ويتميز أداؤه بقدر وافر من الكثافة الانفعالية المركبة التى تشع ببساطتها أمام أعيننا، فهو بكبريائه وتماسكه أمام مهانة السجن، وشعور مستمر بالعار لم يكن يستحقه أعطى المصداقية.

وبالمثل كان أداء الممثلة الممتازة إيما طومسون، بقدرتها المذهلة على التحكم شبه المطلق فى تطويع انفعالاتها ، يبهرنا خاصة فى مشهد المحاكمة حيث ألقت خطبتها تاركة لدى الحضور ومشاهدى الشاشة معا أعظم انطباع عن محنة العدالة الضائعة فى شخص جيرى، الأسطورة الأيرلندية المعاصرة، لتردد أصداء المحنة الكبرى: القضية الأيرلندية.

أيام غير عادية فى حياة أم عادية

المحنة الكبرى يمكن أن ترسم ملامحها محن صغرى . حكاية مدرّسة.. أم عادية.. أو حكاية ابن واحدة من الأمهات فى انعكاسها على المشهد الواسع للقضية الكبرى، شكلت المدخل الأمثل لرواية قصة أيرلندا فى فيلم المخرج تيرى جورج «ابن واحدة من الأمهات» ١٩٩٣.

فى الأشهر الأولى من عام ١٩٨١ وأثناء اعتقاله فى سجن ميز فى مقاطعة يولستر بأيرلندا الشمالية كتب بوبى



ســانـدز الناشط فى حــركــة الجــيـش الجـمـهورى الأيرلندى فى يومياته السرية يقول:

«يعـتـصـر الحـزن قلبى لأننى حطمت قلب المسكينة أمى»

بين الحب الفــردى وبين الولاء لحب عام تقع منطقة فاصلة، حارقة. اختار فيها بوبى ســانـدز نوع الحب الذى يجب أن يأتى على رأس أولوياته العاطفية . وكذلك فـعل نحـو ثلاثمـائة وثلاثين رفـيـقـا له فى سجن ميز فى عام ١٩٨١ .

اخـتـار هؤلاء مـا اخـتـاروه! ولكن ماذا عن أم بوبى؟

مـاذا عن أمـهـات الأبناء الـثـلاثمـائة والثلاثين؟

«ابن واحدة من الأمـهات» ليس فيلما عن بـوبـى ســـــانـدز ولا عـن الأبـنـاء واختياراتهم.

إنه فيلم عن اثنتين من هذا الجمع من الأمـهـات، وبالتـحـديد عن هذا الاخـتـيـار الصعب الذى لا ينبغى لأم أن تضطر إلى القيام به أبدا.

«ابن واحـدة من الأمــهـات» يقف عند الحد الفاصل بين فيلم الرسالة السياسية وبين جرعة الفن القوية . فيتنقل من حين لآخر بين هذه وتلك، وأعـتـقـد أن كـاتبـيـه ينجحـان فى مـعظم الحـالات فى الابتـعـاد عن ترداد واستغلال المعلومات السياسية المضمَّنة فى رسـالة الفيلم لذاتها، بل يتم عرضـهـا علـى نحـو مرض لزيادة وعينا من خلال رصـد مبـاشـر للأثر الإنسـانى لهذه المعلومات على الحياة اليومية لشخصيتين نموذجيتين يمكن أن نصادفـهـمـا فى أى مجتمع.

من قــال أن الأمــهــات مــهــمــا كن مـسـيّسـات لا يأبهن لحـيـاة أولادهن؟ هذه هـى الأم الأولى – آنى القــروية المنظرة المسيّسة التى تبارك انخراط وليدها الأكبر فى صفـوف النضـال الأيرلندى وهـى تدرك فى كل لحظة حـجم المخـاطر المحـيطة به، أمـا الأم الـثـانيـة – كـاثلين فـهـى مـدرسـة مستقرة اجتماعيا سعيدة بعائلتها المكونة من ابنهـا الشـاب وشـقـيـقـتـه المراهقـة . لا تهتم بالسياسة . يعنيها أن تتمتع أيرلندا الشـمـاليـة بحـريتهـا بالتـأكـيد ولكن دون مساهمة منها أو من أى من أفراد عائلتها.

تفاجأ كاثلين فيما يشبه الصاعقة بنبأ اعتقال ابنها بسبب مشاركته فى هجوم لخليـة من خـلايا الجيش الجـمـهورى! لقد أخفى عنها كلية نشاطه السرى.

لص يشارك بالمصادفة فى أعمال وطنية



ورغم عدم قبول كاثلين لمبادئ النضال المسلح، إلا أن أمومتها تدفعها بالطبع إلى الاهتمام بمصير ابنها الذى ألقى به فى السجن فى زنزانة مع سجين قديم هو بوبى ساندز ، هذا فى الوقت الذى يسجن فيه أيضا فى زنزانة مجاورة ابن آنى.

من هذا الموقف تتطور القصة لكى تلتقى المرأتان، المتباعدتان اجتماعيا وسياسيا ، من خلال محنة الإضراب عن الطعام الذى قاده بوبى ساندز والذى لحق به ابنا المرأتين من ضمن ثلاثمائة وثلاثين سجينا، ستة وستون يوما كانت كفيلة بأن يتبدل موقع كاثلين من الوقوف على الحياد إلى المشاركة فى العمل العام . وعندما يموت بوبى ساندز فى نهاية إضرابه، يستمر الابنان فى الإضراب مع زملائهم غير أنهما قد أصبحا الآن هيكلان عظميان مشرفان على الموت، وتعيّن الآن على المرأتين أن تواجها نفسيهما أمام اختيار قاس: أن توقعا، بالإنابة عن ولديهما على بيان فردى لكل من الابنين الغارقين فى الغيبوبة يفيد قبولهما وقف الإضراب ، وإلا فإنهما ستشهدان الموت البطئ لولديهما ، كان اختيارا قاسيا بين احترام معتقدات ولديهما ، اللذين أقسما على الموت ، وبين حب الأم الفطرى الخالد لحياة أولادها.

واختارت المرأتان! احترمت آنى التزام ولدها السياسى فلقى حتفه ، بينما قررت كاثلين التوقيع لإنقاذ ابنها، وهو اختيار يتسق مع شخصيتها وتطور وعيها السياسى ، وكان هذا الحل «للعقدة» مثاليا إذ ابتعد كلية عن شبهة المباشرة فى توصيل رسالته السياسية.

ويتمتع المشاهد المتذوق ببسيطرة وحضور الممثلتين الرائعتين الأيرلنديتين هيلين ميرين (كاثلين) وفايونيولا فلاناجان (آنى) اللتين تظهران بقوة عمق المسافة التى بدأت منها علاقة المرأتين قبل أن تصهر المعاناة المشتركة جليد الاختلاف بينهما.

وقد اشتهرت ميرين بأدوارها القوية، ولكننا هنا نراها فى دور أم مضطربة حول اختياراتها فى أتون واقع سياسى متفجر حاولت أن تتجنب آثاره بذكائها.

حاولت أن تعيش حياتها فى هدوء مع عائلتها ولكن هذا الواقع يقتحم حياتها من أضعف المواقع: الابن الذى أرغمها على القيام برحلة عاطفية شاقة لتصل إلى وضع يمكنها من القيام بالاختيار الذى رأته صحيحا. أما فلاناجان فإن قدرتها على الالتزام والسيطرة تبرز بوضوح على وجهها طوال الوقت. إن ألف ممثلة كان يمكنها أن تقتل هذا كله بالمبالغات الانفعالية . ولكن لنتذكر أن قوة الممثل ليست فى إطلاق الانفعالات ولكن فى السيطرة عليها ليستخدم منها ما هو ضرورى كلما دعت الحاجة.

أفلام ثلاثة تعكس إيمانا عميقا لصانعيها بقضيتهم ، وتعرض مفهوما ذكيا ومؤثرا وموصلا لرسالتهم . والأهم أن نبوءة ذلك البيروقراطى الأيرلندى الكاشفة قد تحققت فى نهاية المطاف: انتج فيلما سياسيا ولكن جميلا.. يصل إلى قلب العالم.

وقد كان.. ■

رسالة ليتوانيا :

الأدب عند سقف العالم

بقلم
محمود قاسم

بعض هواة السفر، ما إن تحط بهم الطائرات في المدن، حتي يسعوا إلي الآماكن السياحية، أو المعالم الأثرية للتعرف علي الوطن.

وقد أصابني الله بهوس جميل، هو أنني أسرع بالبحث عن أدباء أي مدينة وفنانينها، وأيضا عن اسواق بيع الكتب المستعملة، للتعرف الحقيقي حول ما يبدعه الأدباء والفنانون في هذا الوطن،. باعتبار أنهم قلب أي مدينة.

وأثناء زيارتي إلي ليتوانيا، خلال الشهر الماضي، اكتشفت أن هناك ايضا حركة أدبية يجب الوقوف عندها ذلك البلد الذي لايكاد الكثيرون منا يعرفون اسمه، ولا موقعه على الخريطة، رغم أن مدينة فيلنوس العاصمة، هناك مكان يعتبرونه «مركز» أو «وسط» أوروبا.



صور أدباء ليتوانيا على جدران مبنى اتحاد الكتاب

تبدو الثقافة فى هذا البلد بعيدة، تماما عنا.، بمختلف أشكالها، فى الأدب، والسينما، والموسيقى والفن التشكيلى، فلا نعرف بالمرة اسما من أسماء مبدعيها فى كل هذه المجالات، ولعل أشهر هذه الأسماء هى للممثل دوناتاس ماتيوتيس (٨٠ عاما) بطل الفيلم الشهير «سولاريس».

لعل السبب الرئيسى فى هذا، هو ارتباط ثقافة هذه البلاد، ليتوانيا، واستونيا، وأوكرانيا، وغيرها من بلاد انفصلت منذ أربعة عشر عاما بالثقافة



بلاتيلس

السوفيتية، فصار على هذه البلاد أن تعلن على العالم ثقافتها بلغاتها المحلية، المحصورة فقط داخل حدود هذه البلاد، ولعل أول ظاهرة يمكن ملاحظتها هو إحلال اللغة الإنجليزية مكان اللغة الروسية التى كانت بمثابة اللغة الثانية فى المدارس، بعد اللغة المحلية.

ففى جميع المؤسسات الثقافية التى قمت بزيارتها، كانت هناك مطبوعات تصدر عنها باللغة الإنجليزية بالاضافة إلى اللغة المحلية، حدث ذلك فى اتحاد الكتاب الذى أصدر دليلا عن اعضائه من الكتاب باللغة الإنجليزية، وحدث ذلك أيضا فى مجلة فصلية تحمل اسم «مجلة فيلنوس» التى تحمل شعار الكتابة الجديدة من ليتوانيا، بما يعنى اهتمام هذه المجلة الصادرة بالإنجليزية بكل ما كتب حديثا، من جميع الأجيال وترجمته إلى اللغة الإنجليزية، كما توجد لدىّ مجموعة من الإصدارات المنتظمة أو غير الدورية الصادرة باللغة الإنجليزية، منها الكتاب السنوى عن مؤتمر للشعر يعقد كل عام، ويدعى إليه شعراء معاصرون من كل أنحاء العالم.

«الحياة تنبض من خلال الأدب».. ذلك ما يمكن ملاحظته من خلال لقاءات مع هؤلاء الأدباء الذين يودون الدخول إلى القارة الأوربية من خلال اللغة الإنجليزية، وهى السبيل الأسهل للتواصل بين الثقافات الآن.

أنا جميلة فى أحلامى

العلامة البارزة هى مجلة «فيلينوس ريفير»، الفصلية، التى صدر العدد السادس عشر منها هذا الشهر بما يعنى أنها صدرت لأول مرة فى النصف الثانى من التسعينات، وهى تصدر عن اتحاد الكتاب بدعم من مؤسسة الدعم الإعلامى، ومجموعة الدعم الثقافى والرياضى (انظر الاسم)، وتشتمل على ترجمة مختارات أدبية لكتاب متعددى الاتجاهات، ففى العدد الخامس عشر الصادر فى الصيف الماضى، هناك مقتطفات من روايات «فجر استخراج الحضارى» للكاتبة يورجا زفاناستورتى. وهى رواية عصرية استوحتها الكاتبة من احداث منشورة فى الصحف اليومية واهمية هذه الرواية ان القارىء يعرف الأسس الحقيقية للأبطال، وان للمؤلفة الحق فى سير الأحداث.

الرواية تحمل عنوان «مكان منخفض» والكاتبة فى الأربعين من عمرها.

اما الروائى الثانى فهو ماريوس ايفاسلوفكس فى الثلاثين تقريباً، وتدور احداث رواية «الأخضر» حول التواصل والتناحر بين الأجيال، فهناك شخص لديه وسوسة الا يحقق شيئا فى حياته، مثلما فعل سيزيف فى الاسطورة الشهيرة، هو مطارد من الماضى والمستقبل معا، يعرف انه لم يبدأ بعد وانه ربما ينزل من أعلى الجبل كى يستجمع صخرته التى عليها ان تطاوعه حتى يصعد بها إلى أعلى الجبل، ثم سوف تنحدر عبر اصابعه الى السفح.

أنا لست أنا

فى ليتوانيا يزدهر الشعر، وعطاء الشعراء بشكل ملحوظ، وقد بدأ ذلك فى

أمام مبنى اتحاد الكتاب

العدد المشار إليه من المجلة. حيث هناك نصوص ومراجعات للعديد من دواوين الشعر، الاجيال متعددة، مثل ديوان «اغنية حب، لأنتاناس يوناس. و«سلالم» للشاعرة دوفيل جلشوت، المولودة فى مدينة كاونس، ثالث كبريات المدن عام ١٩٥٩ والتى تقول فى إحدى قصائدها:

في احلام اليقظة
أنا جميلة
رشيقة
فاتنة
غير ليتوانية
لكنني لست أنا

وقد إخترنا هذه الكلمات من قصيدتها لنؤكد أنها لا تتمتع بهذه الصفات بالمرة فهى بدينة أشبه بالرجال وتحب بلادها كثيرا.

كما أن المجلة نشرت فى عددها المشار إليه الفصل الأول من مسرحية «لوشيا» الكاتبة لورا سنتايا، بما يعنى أن فنون الكتابة التى بدأت فى التقلص فى بلاد أوروبا الأخرى، لا تزال مزدهرة فى ليتوانيا، خاصة المسرح، والشعر، والقصة القصيرة وأن أبناء الأجيال الجديدة من

الكتاب لا يزالون يتعاطون هذه الكتابات بشكل يمثل ظاهرة.

مثقف بكل الوظائف

ففى أوائل الخريف الحالى، عقد المهرجان السنوى للشعر المعروف باسم الخريف حيث يأتى الشعراء من جميع أنحاء العالم لإلقاء قصائدهم. وفى هذه الدورة جاء خمسة وعشرون شاعراً من روسيا وبلغاريا والولايات المتحدة ، وبولندا وسويسرا، وبلجيكا، ولاتفيا، والنرويج، وايسلندا، واستونيا، وبريطانيا، وسلوفينيا، بالإضافة إلى شعراء من ليتوانيا، مزيج من الثقافات، والاتجاهات والأجيال. وقد صدر إبداع هؤلاء الكتاب فى مجلد ضخم يتضمن أشهر قصائد هؤلاء الشعراء وسير ذاتية من حياتهم.

وراء هذا النشاط المكثف، شاعر معروف هو كورلنيوس بلاتيلس «مولود عام ١٩٥١» والذى يعد أنشط المثقفين المعاصرين، والأكثر وجوداً فى الحقل الثقافى، فرغم صغر سنه نسبيا، إلا أنه يحمل وراء ظهره تاريخاً سياسياً، وأدبيا يدفعك إلى الالتقاء به، فهو شاعر ومترجم وكاتب مقال، كما تولى مقاعد وزارية مرتين فى وزارتين مختلفتين، وهو رئيس تحرير والمشرف على العديد من المطبوعات ورغم تخرجه من معهد البناء عام ١٩٧٣، ورغم عمله كمهندس حتى عام ١٩٨٨، لكن بعد تحرير ليتوانيا، بدأ نجمه يصعد بسرعة. فعمل مديراً لإحدى دور النشر، ورئيسا لتحرير مجلة «آداب وفنون» التى تصدر باللغتين الليتوانية والإنجليزية وله مناصب عديدة ومن بين دواوينه «كلمات وأيام» ١٩٨٠، و «منزل فوق الجسر» ١٩٨٤ و«علامة مسجلة».. كما ترجم أعمال الشاعر شيزلاف ميلوش (نوبل ١٩٨٠)، إلى الليتوانية.

تحدث الشاعر إلىَّ عن تجربته قائلا: «ليس هناك فاصل ملحوظ بين الشاعر فى داخلى وبين المهندس، فلكل مهنة مقتضياتها.. بدأت فى الكتابة وأنا مهندس، أخذنا الروس إلى الجيش ونحن فى العشرينات وصار علىَّ ألا أتحدث فى السياسة، ولا عن الجيش لمدة عامين.

«ولم أفكر فى نفسى كضابط، كنت أوازن بين نفسى كشاعر وبين هويتى كضابط. نحن شعب تربى فى نظام يحوى العديد من التناقضات. وبعد الجيش كنا نشكل مجموعة من الشعراء الشباب، نمثل روحاً جديدة فى الشعر الليتوانى، لم يكن لهذا الجيل اى نوع من الاعتراضات المعلنة والاحتجاجات. كنت عضواً فى مجموعة تكتب، ولها رأيها، تؤمن أن اللغة هى أهم شئ يمكن من خلاله الاتصال بالعالم. نحاول الاتصال بثقافات الآخرين. فنحن لدينا لغة محدودة، لكنها تختلف عن بقية اللغات. لكن الثقافات الأوروبية متقاربة بشكل عام.

والشعر عند بلاتيلس ينبع من الجذور، لذا فهو يتكلم بشكل سلبى عن جميع أسماء الشعراء الروس الذين قدستهم الأمبراطورية السوفيتية، مثل مايكوفسكى، وآنا أخماتوفا، وهو يرى أن موقفه من العالم لم يتغير مع الاستقلال، هناك

إحساس بالحرية والاستقلال، لكن لاشك فى أن مفرداته اللغوية صارت مطلية بذهب الحرية. ففيما قبل كان الشعراء لايستخدمون لفظ الجلالة في قصائدهم، أما الآن فهو بارز فى إبداع الكثير من الشعراء ، فقد تغيرت أشياء كثيرة الآن باعتبار أن الشاعر هو ابن عصره، والعصر الذى نعيش فيه، يكثر المال ويقل الشعر، وتتوفر الحرية.. فهل يعتبر الشعر منفذا للتعبير عن القهر.

وقد وجد هؤلاء الأدباء فى الحرية وسيلة للتنوع، وليس السير على وتيرة واحدة، وهناك فارق ملحوظ بين أشعار الكتاب الذين تم اعتقالهم فى معسكرات سيبيريا وبين هؤلاء الذين آثروا السلامة.

يردد بلاتيلس فى قصيدته مستشفى القديسة اليزابيث

عبر نهر اناكوستيا ، وبين الأشجار

حملت القديسة اليزابيث كعكة مستديرة

عليها سكين يلمع ، مطهوة بشكل جيد

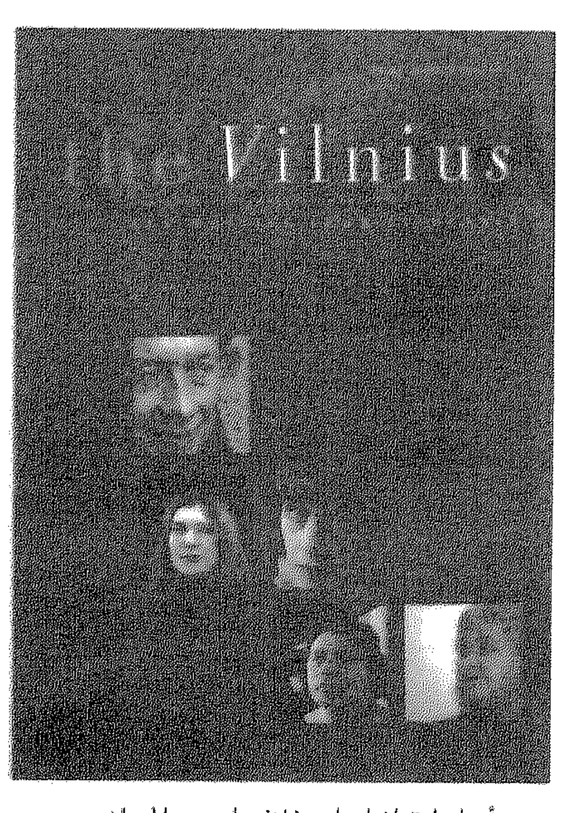
ستقدمها لطلبة مجموعة الشعراء المنتظرين

تلتف اذرعتهم حول أجسامهم يرمقون

عيونهم مستديرة استدارة الكعكة

شاعر وحيد

إذا كان بلاتيلس يمثل الشاعر الرسمى الذى يتولى العديد من المناصب فإن المصادفة جعلتنى التقى بشاعر آخر



أدباء ليتوانيا على غلاف إحدى المجلات

موهوب فى أحد الأسواق، هو فيتوتس كاراليوس، رجل تجاوز السبعين بعدة أعوام، يعيش وحيدا، يرتاد الأسواق، ويعمل فى صمت، هو شاعر، ومترجم ودرس اللغة الإنجليزية وقام بتعليمها فى المدارس لسنوات عديدة، وترجم عن هذه اللغة إلى الليتوانية، ومن بين دواوينه، «اضواء وعيون» و«كتاب الشعر» وفيه يقول بكل جرأة:

يتكلم الأفق بلغة العالم،

وللخزف وجهه السياسي

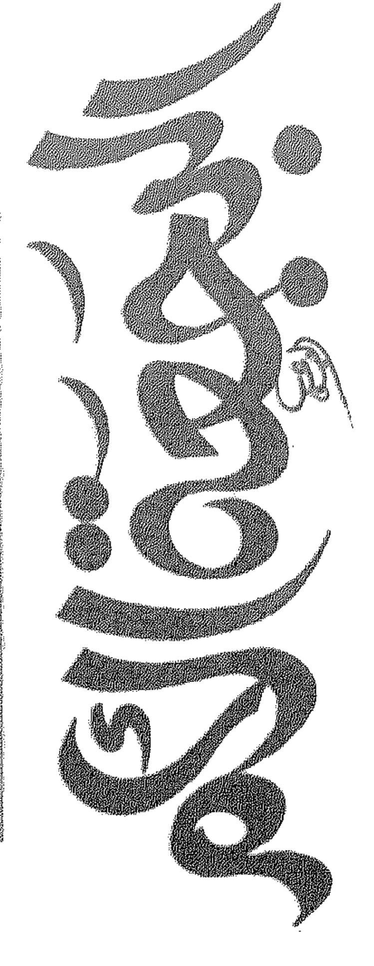
المستقبل المشرق ليس سوي دائرة من الخطايا الجسيمة

والحزب كائن انتهاري يعكس الواقع

والأفق الرسمي مزين برايات لسنا في حاجة إليها

مرفوعة بين السماء والأرض ■









من حسن حظ جنيف أن ثمة بحيرة تتوسطها وتحد من سطوة الحضارة المادية فيها. مدينة يتعايش فيها الريف والحضر. ويبدو أن أهلها لم يدعوا شيئا للمصادفة فجعلوا لكل شئ مكانه الجسر الرئيسى الذى يربط بين الضفتين ويحمل السيارات لم يمنع البجع والبط من التوالد وتربية الأفراخ. والعمارات التى تحمل لافتات الشركات العالمية والمصارف الكبرى لاتحول دون تزاحم طيور السنونو وتناديها وتهريجها، أما النافورة التى تتوسط الماء وترسل زخاتها إلى عنان السماء، فهى - للعارفين - شفاء من القلق والشارع الذى أسكن فيه- وهو شارع محترم- يتوازى مع عدد من الشوارع التى تركت لعلب الليل والمومسات وسندوتشات الشاورمة حى الأضواء الحمراء كما يقال. ولم يفت سكان جنيف أن يضعوا فى شارع المتاجر الكبرى والترام مقاعد خشبية للمتسوقين من أصحاب الركب المتعبة وها هو

الترام ينساب فى هدوء لايسمع له صوت، والأطفال يلعبون على الرصيف، وباعة الهوت دوجز يمارسون تجارة مربحة فى يوم السبت، أفضل أيام الأسبوع للتسوق .

جلست على أحد تلك المقاعد، وقلت لزوجتي: «لن أبرح مكانى هنا، فلم أعد أقوى على السير «ولكنها لم تقتنع بالدخول وحدها فى أحد المتاجر الكبرى إلا بعد أن سلمتها بطاقتى الائتمانية:

- إليك شيكا على بياض يمكنك أن تشترى ما تشائين وأن تنفقى ما تشائين وخطفت البطاقة الائتمانية من يدى واندفعت نحو المتجر ثم توقفت فى منتصف الطريق وعادت تسأل :

- أخبرنى : هل مازلت تحبنى؟

- أهذا هو الوقت المناسب؟

- لابد أن تجيب .

- مازلت أحبك بطبيعة الحال .

وعادت إلى الجلوس لتسند رأسها إلى كتفى:

- وستبقى على حبى حتى عندما أبلغ السنة الحادية بعد المائة؟

- هل قلت الحادية بعد المائة؟ ولكننا سنعيش إلى الأبد. لقد اتفقنا على ذلك .

وكل ذلك لا بأس به، أنا أفهم ما وراء حديثها عن الحب، فتلك طريقتها فى استباق صدمة النفقات القادمة والتخفيف من وقعها وهاأنذا قد أصبحت مهيئا لتلقيها وليس يعنينى الآن إلا أن أجلس فى الشمس وأستوعب ما حدث أثناء جولتى الصباحية .

فى الثامنة والنصف تماما حملتنى قدماوى دون أن أدرى إلى حى الأضواء الحمراء. وبدلا من الذهاب إلى البحيرة والإئتناس بمشهد البجع وجدتنى أسير غير بعيد من أمرأة تسحب كلبين من نوع البودل. كانت تمشى على كعبين عاليين وترتدى معطفا خفيفا من الفراء الأبيض، هل يمكن أن تكون من بنات الهوى؟ لقد رأيت بعضهن يعرضن بضاعتهن ساعة الغداء يوم الأحد، أما فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ هل يمكن أن يكون هناك رجال يقبلون على هذا الأمر ساعة الإفطار؟وكانت تمشى على الجانب الآخر من الشارع، فلم يكن بوسعى أن أتبين ملامح وجهها، إن كانت من بنات الهوى، فلابد أنها من طبقة مختلفة. فهى رشيقة لا تكشف عن ثديين ضخمين ولا عن ساقين سمينتين .

وعند إحدى النواصى انتقلت صاحبة الفراء الأبيض إلى جانبى من الشارع فلما صرت بمحاذاتها سمعتها تقول هامسة:

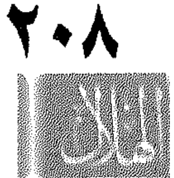
- هالو بيبى.

معنى ذلك أن سوق الهوى تفتح أبوابها مبكرا. والمرأة من النساء اللاتى يبدأن ورديتهن فى الصباح. ومع ذلك فقد كنت سعيدا بتحيتها فها هى امرأة تعتقد أننى مازلت أصلح للعبث وليس يعنينى أنها تبيع الحب بالمال. فهى متميزة فيما يبدو ولابد أنها تتخير زبائنها، ورأيتها اتوقف لكى تستظل من الرذاذ بمدخل إحدى العمارات. وذلك إذن هو المكان المثالى للتفاوض: ما هى رغبات الزبون. وكم من الوقت يريد أن يقضى معها، إلى غير تلك المسائل التى يحسب السعر بناء عليها، ولقد كانت تنتظرنى فلما اقتربت منها متمهلاً سمعتها تلقى تحية الصباح بصوت رخيم :

- بونجور .

كانت بالفعل أنيقة، ولم يكن وجهها مطلياً على نحو صارخ. وكانت جميلة رغم أنها تجاوزت الأربعين. ورأيتنى أرد التحية بأدب محنيا رأسى. حدث ذلك على نحو تلقائى. ولو أننى كنت ارتدى قبعة لرفعتها من باب الأدب. ولم أتقدم خطوات حتى داهمنى اضطراب شديد، وعدت أدراجى. فلما واجهتها قطبت حبينها كان وجهها مألوفا فأين رأيتها من قبل؟ وهل رأيتها من قبل حقا؟ لو أننى كنت أو من بتناسخ الأرواح لقلت إننى رأيتها فى حياة أخرى. وأمعنت النظر فيها. إننى أعرف تلك الابتسامة الحالمة ولكن الابتسامة سرعان ما حلت محلها تكشيرة. كأنما أرادت أن تقول: «مادمت لست جادا فلماذا لاتغرب عن وجهى» وكنت عاجزا عن أن أغرب عن وجهها إلا أنها لم تترك لى فرصة حتى أتغلب على ذهولى. فقد أدارت ظهرها ودخلت العمارة ورأيت الباب الزجاجى ينصفق من ورائها .. وفكرت لبرهة ثم اندفعت نحوها. كانت مازالت تنتظر هبوط المصعد الكهربائى. وهممت بالتضرع إليها «يا الفيرا الأمانات التى تركتيها لدى مازالت فى الحفظ والصون أرجوك أن تستردديها». ولكنى لم أكد أفتح فمى بمناداتها حتى دخلت المصعد وتحرك بها.

وقفت مذهولاً لا أدرى ماذا أفعل وجدتنى فى مواجهة الرجل الذى كنته فى لندن يوم أحد من صيف سنة ١٩٧٥. رأيتنى واقفا عند باب مسكنى أودعها بنظرى وهى ماضية فى سيارتها البيتلز الصفراء وأنتظر بداية من تلك اللحظة زيارتها التالية. لقد عاهدتنى على أن تعود ووضعت فى أمانتى أعمالها الفنية وحليها كضمان للعهد وخيل إلىَّ عندما يئست من انتظارها أنها اختفت من حياتى إلى الأبد، وأن



الرجل الذى كنته لم يعد له وجود إلا فى ذاكرتي.

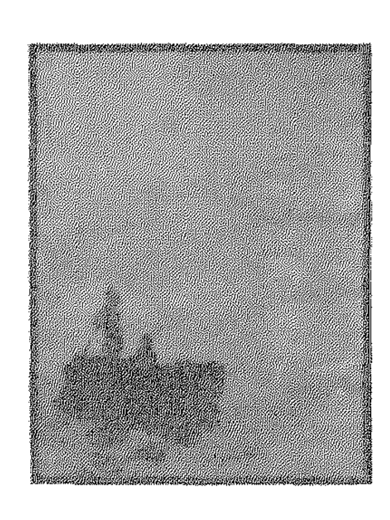
أما أن الناس قد يرغبون فى ذلك الشئ فى الصباح ويسعون إليه فى حى الأضواء الحمراء أو ما شابهه من الأماكن قبل الإفطار أو بعده، فقد أصبح الآن أمرا مؤكدا، ولم لا وقد تذكرت الآن أن صباح الأحد فى لندن يمكن أن يأتى معه بشهوة ضارية، يحدث ذلك خاصة إذا خرج المرء من حمى الحفلات مساء الجمعة ومساء السبت خاوى الوفاض دون أن يفوز بصيد يكافئه على طول السهر. وهكذا خرجت الفيرا للصيد فى ذلك اليوم، وهكذا خرجت أنا ومن ثم كان لقاؤنا فى ظلام السينما، ولم يكن الذهاب إلى السينما فى عصر ذلك اليوم إلاَّ وسيلة لقتل الوقت المتبقى قبل بزوغ بداية الأسبوع الجديد وقد كان لدى سبب أخر للوقوع فريسة لكآبة آيام الأحاد، وهو أن تيبس عنقى كان يشعرنى - أنا الشاب - بما يشعر به الشيوخ من عجز عن الحركة وكان من الصعب على أنا أصدق أن عنقى المريضة ستشفى فى يوم من الأيام، وأننى سأتمكن من جديد من تحريكها يمنة ويسرة. كنت أشعر بضيق خانق فبقدر ما كنت أسير عنقى المتصلبة، كنت أسيرا لتلك الشهوة.

كل ما حدث معها منذ البداية حتى انصرفت. كان يدل بوضوح على أن الأمر سينتهى بعودتها لقد انشق ظلام السينما عنها، وجاءت إلى ثقتى دون مقاومة تذكر، واستلقت على السجادة محتضنة الراديو الكروى الأخضر. وأحاطت عنقى بكفيها فشفتها مما الم بها، وتركت لدى أشياءها كل ما تملك كما قالت، هل يمكن أن يحدث كل ذلك دون أن تعود ؟

لاأستطيع مهما حاولت أن أستحضر القشعريرة التى سرت فى جسدى عندما لمست فى ظلام السينما ظهر الأنثى المجهولة التى طلبت إلى أن أساعدها على الجلوس إلى جانبى، تماما كما أجدنى عاجزا عن استحضار شعورى الرائع بالشفاء عندما دلكت عنقى فما إن أفقت من إغفائى حتى وجدتنى قادرا على تحريك عنقى بحرية لابد لى من ذلك الجسد وتلك النفس الشابة حتى أتمكن من استحضار تلك الأحاسيس والمشاعر. كلا ليس بوسعى أن أعبر الفجوة التى تفصلنى عن ذلك الرجل الذى كنته .

لو أننى مازلت حقا ذلك الرجل الذى كنته، لما منعنى شئ من استيقافها فهل كنت سأدعوها إلى استرداد لوحاتها ومجوهراتها التى تركتها عندى؟ أو أننى كنت سأحاول استردادها هى نفسها؟ ولو حدث ذلك لكان ثمة مشهد لا أستطيع تخيل تفاصيله وربما انتهى الأمر باستدعاء قوادها لطردى من العمارة أو استدعاء البوليس (ومن هو قوادها اليوم: أهو صديقها جورج أم أن





هناك رجلا غيره؟) ثم أعود فأتساءل: هل كان يمكن أن يصل الأمر إلى ذلك الحد وهى التى ردت إلى رقبتى عافيتها على وقع أنغام بتهوفن؟ كل شئ ممكن، بل يخيل إلى أن تذكيرها بكل ذلك كان كفيلا بأن يستفزها ويخرجها عن طورها. وما موضع الحنان أو الرحمة - أو سم ذلك ما شئت - من مجرى الزمن الذى لا يتوقف؟ أليس من طبيعة ذلك التيار المتدفق أن يجرد كل شئ من قيمته ويجعله عدما أو كالعدم؟

واستأنفت سيرى نحو البحيرة. كان الرجل الذى كنته منذ خمسة وعشرين عاما شابا قوى البنية يميل إلى القصر، مقطب الجبين دائما، ويصعب عليه الابتسام فى حاجة إلى الحب وإن تسلى عنه بالجنس. وأنا اليوم رجل سعيد، ولم أعد أشعر بالوحدة، أولنقل إن الشعور بالوحدة لم يعد يثقل على. أستطيع الآن أن أبتسم كلما خطر لى أننى وحيد، فذلك فيما أقول لنفسى ليس بالشئ المهم ولولا أننى مازلت لا أدرى ماذا أفعل بالأمانات التى وضعتها لدى، لقلت إن صفحتى معها قد طويت وقد حاولت غير مرة أن ألقى بحليها فى النيل، ولكنى كنت أتراجع كلما تذكرت أننى لا أستطيع أن أتخلص من أعمالها الفنية بنفس الطريقة، بل ولا على أى نحو آخر وسوف أواجه تلك الأعمال معلقة على الجدران عندما أعود إلى القاهرة، وسوف تترتب على ذلك مشكلة كبرى لا أريد ولا أستطيع أن أفكر فيها الآن.

ها هو البجع قد تآلف مع حركة المرور الصاخبة على الجسر وانصرف لحياته يدبرها كما شاء ثمة. بجعتان تنزلقان على الماء بسرعة رهيبة فى خطين متوازيين وقد رفعتا أجنحتهما أهو سباق؟ وها هى إحداهن تدرب فرخها على الانقلاب في الماء رأسا على عقب. أهو نوع من اللعب أم ضرورة من ضرورات العيش لصيد السمك؟. وأخرى رأيتها بالأمس ويسعدنى أن أراها اليوم على حالها: هى مثلى لاتعبأ بحركة المرور ولابالمصارف ولاسبائك الذهب الخفية، ولابمحال المجوهرات أو الكافيار أو الساعات أو الشيكولاطة أو مطاوى الجيش السويسرى، فقد بنت بجعتى لنفسها مرقدا على اليابسة تحت الجسر، وأراها تتلفت يمنة ويسرة وهى راقدة على بيضتها كأنما تتحفز لحمايتها من عبث البشر، فقد تسول لأحدهم متسول أو طفل - نفسه أن يختطف البيضة الضخمة الفخمة.

وهكذا أمضى جولتى الصباحية وهكذا يسعدنى أن أقع على

مشهد مثل مشهد تلك البجعة الأم. انقضت شهوات الصباح العنيفة، وجاء أوان الملذات البسيطة البريئة، فما الذى جاء بالفيرا بلحمها ودمها؟ كانت قبل أن تتعرف على تدعونى إلى التفاوض. لا يمكن أن يكون ذلك وهما. صحيح أنها فى فترة من الفترات كانت «تظهر» بين حين وآخر ولكن ظهورها هذه المرة لايمكن أن يكون موضعا لشك.

الغريب فى الأمر أننى لم يخطر لى أن أسألها عن اسمها بعد أن خرجنا إلى ضوء النهار. سألتنى فى المقهى عن كل شئ. إسمى وبلدى وعملى. أما أنا فلم يكن اسمها يعنينى فى شئ. كنت اسيرتلك القشعريرة التى أصابتنى فى ظلام السينما عندما وضعت يدى على خصرها. كذلك كان يشعر الرجل البدائى عندما يرتطم جسده بجسد أنثى فى ظلام الكهوف فيندرجا معا فى تيار الحياة الجارف

وهكذا أردت لاتصالى بالنرويجية الحسناء أن يقترب قدر الإمكان من ذلك المثل الأعلى. أو قل الأدنى للرغبة. كنت فى المطبخ أعد العشاء عندما صاحت من غرفة الجلوس:

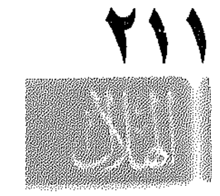
- إسمى إلفيرا

ومضت الأيام والأسابيع والشهور دون أن تعود وعلقت لوحاتها على الجدران حتى إذا عادت وجدت كل شئ فى استقبالها. لها لوحتان تروقان لى، إحداهما تحمل عنوان «فرس البحر» وهى صورة لبحر هائج تحولت أمواجه إلى حصان : الحصان مفتوح الخياشيم واسع الحدقتين أحمرهما تكاد تسمع حمحمته، كأنه يريد أن يفلت من طبيعته المائية - فهو موج فى نهاية المطاف - وأن يخرج عن خضم الزرقة المترامية إلى ما لانهاية. أما اللوحة الثانية فهى لشجرة أنبثقت عنها إمرأة أو هى شجرة نمت غصونها على هيئة امرأة لم يظهر منها إلا رأسها

وجذعها بينما بقى نصفها الأدنى على حالته الخشبية وقد ظهرت فى عينى المرأة، علامات الفرح الواضح فهل هى فرحة بتحولها إنساناً رائع الحسن، بالثروة الأنثوية التى جادت بها الطبيعة عليها؟

وفى اللوحتين لحظة توتر حاسمة فهنالك شد وجذب بين قوتين النزوع إلى شكل أعلى من أشكال الحياة والحرية والسعادة، والقيود التى تمسك بتلك القوة الدافعة وتشدها إلى الطبيعة الدنيا، وكلما نظرت إلى الصورتين تعلقت عيناى بلحظة التوتر تلك: للحصان أن يرتفع بصدره الجسيم وعرفه الطائر ما شاء وللمرأة الشجرة أن تنهض من خشبها بثدييها الرائعين وشعرها الغزير وفرحها الباهر ما شاءت، فكل شئ رهن بلحظة لم يحسن توترها بعد وقد ينهار كل شئ رغم كل شئ .

فهل كانت تصور نفسها؟ ولقد انهار كل





شئ وهكذا حل الصراع بيني وبين جورج بانتصاره. وكنت أفتح صندوق حليها بين حين وآخر بل إنني أخذت من بين حليها سلسلة من الذهب ووضعتها حول عنقي ولكن انتظارها بتطويق العنق التي شقتها بسلسلتها لم يعد بها. ويقيت السلسلة حول عنقي سنوات حتى أعدتها إلى موضعها الأصلي .

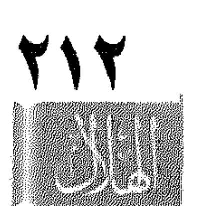
وفي فترة من الفترات بحثت عنها طلبتها في نوادي القمار التي يرتادها العرب في لندن، وحدثني شاب تركي يعمل في أحد تلك النوادي قال: إنه يعرفها ويعرف صديقها جورج ولكنهما اختفيا منذ فترة وكنت أذهب في بعض أيام الآحاد إلى السينما التي التقيت بها فيها لأول مرة وأقف بعد انتهاء العرض عند الباب أتفحص وجوه الخارجات.

واضطرتني ظروف العمل إلى الرحيل إلى بروكسل، فاستبقيت شقتي في لندن وظللت أدفع إيجارها ثمانية عشر شهرا، وكنت أعود بين الحين والحين لأرى كيف توقف الزمن في ذلك المكان فاللوحات مازالت معلقة على الجدران والراديو الكروي الأخضر مازال في موضعه من غرفة الجلوس.

توقف الزمن عند ساعة بعينها، ساعة أرغمت فيها على طلب صداقة إلفيرا دون شروط ساعة أصبح يكفيني فيها الإئتناس بزيارتها بعد أن زالت الشهوة العمياء، فهلا كررت الزيارة؟ ولقد كانت تلك الساعة عينها موضع شد وجذب بيني من ناحية وبين الفيرا وصديقها جورج، من ناحية أخرى أنا أريد أن أحتفظ بها، بينما تريد هي أو يريد جورج أو يريدان معاً أن يمحواها محوا. ولقد انهزمت.

كانت إلفيرا «تظهر» بطريقتها الخاصة في يوم من الأيام، رأيت في لندن رجلين يحملان مرآة ضخمة، وهناك بدت اللحظة خاطفة، صورة إلفيرا على صفحة المرآة كانت تنزل على درجات السلم الهابط إلى قطار الأنفاق. فاستدرت على عقبي وجريت لألحق بها! ولكنها لم تكن تظهر إلا لتختفي في الزحام. وقد طاردتها حتى اختفت تماما. وخرجت ذات يوم إلى النيل في الصباح الباكر كعادتي كل يوم . وأخذت أرقب أسراب الحمام وهي تعبر النهر نحو نخيل البدرشين، حتى أيقظني من نشوتي صوت سيارة تتوقف كانت صفراء من طراز البيتلز ولم أتحرك من مكاني حتى رأيت رجلا يخرج منها.

ثم توقفت عن الظهور. ولم يبق في حياتي منها إلا صندوق



حليها ولوحاتها التى مازالت تنتقل معى وتعلق على الجدران أينما ذهبت ومازلت بين حين وآخر أقاوم زوجتى أو ألجأ إلى رشوتها كلما رأت أنه قد آن الأوان لكى تتخلص من «آثار ماضى الداعر» – على حد قولها فماذا عساى أفعل الآن بتلك الآثار؟

من المؤكد الآن أننى لن أراها بعد اليوم حتى لو رأيت المرأة التى كانت ترتدى معطف الفراء الأبيض وتسحب الكلبين من نوع البودل. فلم يبق إذن إلا أن أطلق يد زوجتى فى أعمالها الفنية وحليها ستعرف كيف تتصرف فيها .

وعند ذلك الحد استقر فى نفسى حزن ثقيل . لم يكن يعنينى فى الماضى أن ساعة الأنس قد توارت فى أعماق الزمن. ولم تعد تناوشنى إلا لماما ومن بعيد وكنت إذا لمحتها من بعيد أهز رأسى متسلحا بحكمة الشيوخ وأقول : «نزوة من نزوات الشباب» ولكن لماذا – بعد كل تلك السنين أرزأ بهذه المصيبة فأرى المشكلة الأصلية بلحمها ودمها تسير على كعب عال فى معطف من الفراء الأبيض؟ أتلك هى اليد التى شفتنى؟ فى يوم من الأيام كانت السماء تمطر فى أوسلو، ولمحت فتاة تقف تحت مظلتها عند محطة أتوبيس، فقطعت الشارع ركضا إليها وناديتها بلهفة :

– إلفيرا!

واستدارت الفتاة التى تقف تحت المظلة لتقول:

– آسفة لست أنا من تريد .

وعندما اعتذرت لها ابتسمت:

– لاتيأس سوف تجدها.

وها هى النبوءة قد صدقت وجدتها ولكن هل كان ينبغى أن أجدها على ذلك النحو؟ وهل تنطوى القصة كما جرت على درس يستخلص؟ لو أن فى الوقت متسعا لتقصيت الأمر ولكن ليس فى الوقت متسع. ها هى زوجتى قادمة كلما اقتربت بان وجهها المشرق السعيد بما حملت من مشتريات. كم أحسد هذه المرأة ! سوف تتجاوز المائة بسهولة .

كانت تحاول أن ترينى ما اشترت. وكنت أنظر فى مشترياتها دون أن أرى شيئاً وكانت تقول:

– ألا تعتقد أن هذا التخفيض الذى حصلت عليه تخفيض ممتاز؟

ولاحظت وجومى فتساءلت :

– ماذا حدث؟ عندما تركتك كنت فى حالتك الطبيعية .

قلت :

– لقد رأيتها اليوم.

فامتقع وجهها وهتفت فى استنكار:

– من هى التى رأيتها؟

قلت وقد تنبهت للخطر المحدق بى :

– البجعة الأم .

فاسترخت عضلات وجهها وقالت:

– إذا كنت تحب الأطفال إلى هذا الحد فلماذا رفضت فكرة الطفل الرابع ؟ ■

التكوين

وقفت على حقيقة مأساة

دراسة الإسلام بصورة خاطئة

محمود إسماعيل

من المسلم به أن كل مفكر أو مبدع يتسم فكره أو إبداعه بنوع من الخصوصية؛ حتى لو كان منتميا إلى اتجاه فكرى بعينه يشاركه فيه الكثيرون. فبرغم وحدة الموضوع والمنطلقات والمنهج والمقاصد؛ يتفرد كل مفكر ببصمته الخاصة.

ويرجع ذلك - فيما نرى - إلى تفرد كل مفكر أو مبدع بمخياله الخاص الذى هو - فى التحليل الأخير - نتيجة تكوينه الفكرى، والذى يعد بدوره ممثلا لتجربته الذاتية فى رحلته مع التفكير والإبداع.

وتتداخل فى هذا التكوين درجة ثقافته؛ اتساعا وعمقا، فضلا عن نوعية المعارف التى حصلها ودرجة استيعابه لها حسب ملكاته الفطرية، وتجاربه المكتسبة. هذا بالإضافة إلى منظوره الأيديولوجى المستمد من معتقداته الدينية والمذهبية ووضعه الطبقى وطموحاته الشخصية.

حصاد ذلك كله يحدد «مخياله» الذى يقارب به

مباحث حقله المعرفى. ولعل ذلك يفسر لماذا تتباين التخريجات والأحكام عند من ينتمون إلى مدرسة فكرية بعينها؛ بحيث يمكن الحديث عن تيارات متعددة داخل المدرسة الفكرية الواحدة.

وبخصوص تكوينى الفكرى الذى أفرز وشكل مخيالى الخاص والذى ميز ما قدمته من نتاج معرفى؛ يمكن رصده بعرض رحلتي مع المعرفة ؛ منذ ولدت فى قرية من قرى مصر فى أربعينيات القرن الماضى، وسط أسرة رقيقة الحال فى رعاية أب متصوف يمتهن حرفة البناء . وقد عانت القرية ما عانته سائر القرى التى كانت أشبه بما يمكن أن يسمى «الدومين» الخاص بأسرة إقطاعية كان مؤسسها قاطع طريق - فى عصر محمد على - حاز «زمام» القرية وتوارثه أفراد أسرته من بعده!

وبفضل «طه حسين» الذى حقق مجانية التعليم؛ التحقت بالمدرسة الابتدائية بـ«البندر» بعد حفظ بعض أجزاء القرآن الكريم في كتاب القرية. ولما التحقت بالتعليم الثانوى؛ بدأ الاهتمام بالسياسة؛ حيث كانت الثانويات مسرحا لسائر الأحزاب السياسية، ومنبرا للنقاش السياسي والجدل الفكرى «المراهق».

كان من الطبيعى أن أنضم لجماعة «الإخوان المسلمين» التى كان والدى



د. فوزي حماد — د. محمد انيس

عضوا فيها. ثم التحقت بحزب «مصر الفتاة» لما كان يطرحه من شعارات عن «العدالة الاجتماعية» ولانبهارى بزعيمه «أحمد حسين» الذى أسرنى بخطبة بليغة عن فساد الملكية وحق الفلاح فى تملك الأرض التى يفلحها؛ وذلك فى ندوة بمقر الحزب بمدينة المنصورة. وكانت جريدة «الاشتراكية» درسا أسبوعيا يقوم بشرحه الصديقان المرحومان «أحمد حماده» - نائب رئيس الحزب الناصرى السابق - والدكتور فوزى حماد - عالم الذرة الأشهر الذى فارقنا منذ شهرين - واللذان نجحا فى تحويل قرية «الطويلة» إلى «بؤرة سياسية ثورية».

وفى كلية الآداب - جامعة القاهرة - قسم التاريخ - وبفضل أستاذنا المرحوم د.محمد أنيس «رائد مدرسة التاريخ الاجتماعى» - توجهت لقراءة الفكر الماركسى الذى تأكدت لى علميته من خلال



قراءات موسعة فى التاريخ.

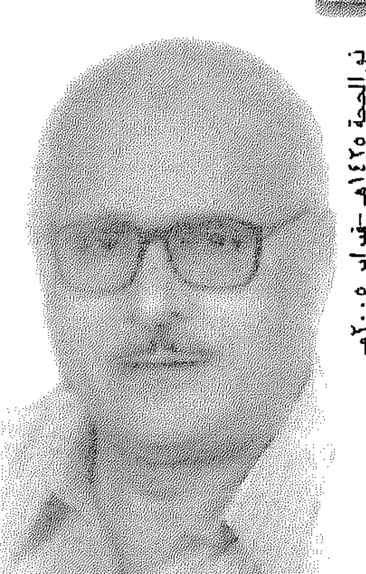
ومع ذلك؛ كان الإعجاب بالتجربة الناصرية وما تنجزه على الصعيد العملى يصل إلى حد الرهان؛ برغم ما تعرضت له من مضايقات «أجهزة الأمن»، لكون إسمى مسجلا ضمن قائمة الإخوان المسلمين.

وبعد التخرج؛ عملت مدرسا بالمعهد الدينى بالمنصورة؛ فوقفت على حقيقة مأساة دراسة «الإسلام» بصورة خاطئة، كما تعرضت لمضايقات أخرى أفضت إلى استقالتى، ثم تعيينى «بمصلحة الاستعلامات»؛ ومنها إلى «مركز تاريخ مصر الحديث والمعاصر» الذى كان يشرف عليه الدكتور أنيس الذى صاحبته لعشر سنوات كانت بالغة التأثير فى بلورة تكوينى الفكرى. وفى نفس الوقت؛ واصلت البحث فى التاريخ الإسلامى بإشراف أستاذ مستنير هو المرحوم الدكتور حسن محمود.

وبفضل الدكتور أنيس؛ التحقت بقسم الأبحاث فى جريدة «الجمهورية»؛ لأبدأ كتاباتى الصحافية.

ثم التحقت بكلية الآداب جامعة عين شمس مدرسا للتاريخ الإسلامى. وحين أصدرت كتاب «الحركات السرية فى الإسلام» من منظور مادى تاريخى؛ قوبل بحفاوة من قبل الماركسيين، وبتنديد مشايخ الأزهر. ثم توالت كتاباتى فى التاريخ الإسلامى التى جرت على مشكلات معقدة؛ حيث جرت محاولات فصلى من الجامعة؛ لولا جهود المرحومين د. عبد القادر القط والأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى الذى احتضن وتحمس لكتاباتى فى مجلة «روز اليوسف»، والذى تأثرت - بدورى. بكتاباته فى «الإسلاميات»، فضلا عن إبداعاته الشعرية؛ التى فتحت لى الطريق للشعر والقصة القصيرة والنقد الأدبى؛ من قبيل الهواية ليس إلا.

ونظرا لتعاظم المضايقات «الأمنية»، قررت الإعارة لجامعة «فاس» بالمغرب؛ حيث قضيت عشر سنوات - بعد استقالتى من الجامعة المصرية - أسهمت - نظرا لما أتاحه النظام الملكى من حرية الفكر؛ كذا لمتابعة ما يستجد من إبداعات منهجية وإبيستيمية فرنسية - فى ترسيخ تشبثى بالمادية التاريخية. كما أسهمت فى الحركة الثقافية والأدبية فى



المغرب، وحظيت كتاباتى فى الصحف والدوريات المغربية بقبول وحفاوة.

ولما عدت إلى مصر فى منتصف الثمانينات ، واصلت الكتابة الثقافية والصحافية - فى صحف ومجلات اليسار - كما أنجزت مشروع «سوسيولوجيا الفكر الإسلامى» - عشرة مجلدات - فضلا عن العديد من الكتب والدراسات فى المجالين الأكاديمى والأدبى الثقافى.

ثم أعرت إلى جامعة الكويت، مواصلا نفس الجهود؛ برغم مضايقات التيار الإسلامى؛ التى عجلت بعودتى إلى جامعة عين شمس؛ حيث أواصل الجهود ذاتها؛ إلى الآن.

تلك نظرة «بانورامية» موجزة لرحلتى مع التاريخ والفكر والأدب؛ يمكن باستقرائها الوقوف على طبيعة التكوين الفكرى؛ أو بالأحرى تشكيل «مخيالى» الثقافى؛ وهو ما نوجزه فيما يلى:

أولاً: تأثير الثقافة الدينية فى التوجه لدراسة التاريخ والفكر الإسلامى؛ بروح نقدية.

ثانياً: أثر الوضعية الاجتماعية فى التوجه السياسى والأيديولوجى.

ثالثاً: تأثير المرحوم د. محمد أنيس فى بلورة وترسيخ التوجه المنهجى المادى التاريخى، والرؤية الجدلية الصراعية للتاريخ.

رابعاً: الجمع بين الأكاديمية البحتة والدور الثقافى التنويرى؛ كمثقف عضوى.

خامساً: تجربة الإقامة فى المغرب وسط مناخ صحى يتيح نطاقا عريضا لحرية الرأى والتعبير فيما هو فكرى؛ لا سياسى.

سادساً: ممارسة العمل السياسى من خلال حزب التجمع الوحدوى الديمقراطى، ومؤسسات المجتمع المدنى، والكتابة فى «الإسلاميات» وفق نهج عقلانى.

سابعاً: تردى الأوضع العامة فى العالم العربى ، بما يقود إلى الانغماس و«الغرق» فى الكتابة كنهج للخلاص الفردى، وطريق إلى العمل العام؛ الذى يستهدف التغيير على المدى الطويل. ■

همـوم الثقافة

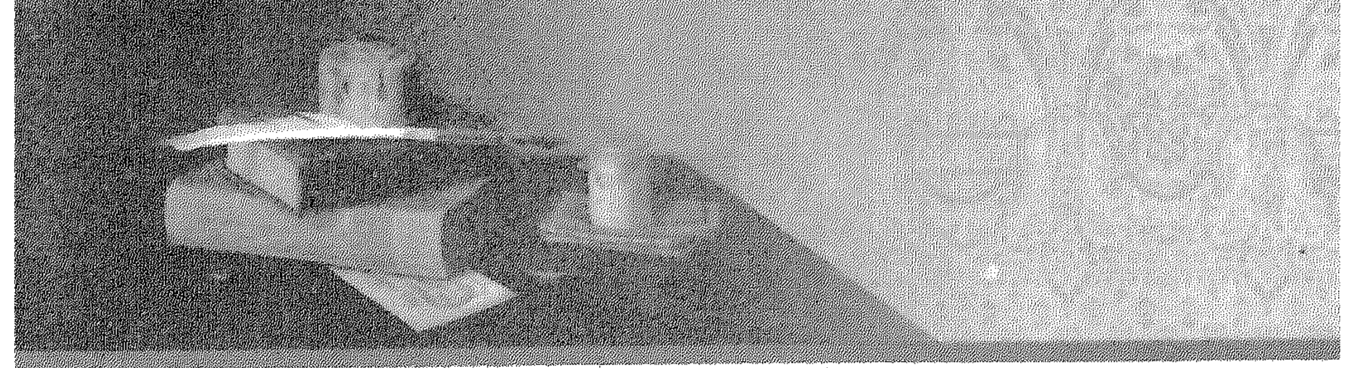
فى بداية عـام جـديد أهنىء من يعـملـون على رفـع لواء «مـجلة الـهـلال» فى سماوات عالمنا الثقافى.

عـجـيب أمـر هؤلاء المثـقـفـين الذين لايزالون يناوئون بآرائـهـم التنـويرية ذات الذبالة المتأججة، برغم غياهب الظلمات المتمثلة فى تلكم التيارات الداخلية، أو الخارجية بأعاصيرها المجتاحة، مثبتين للقادم من الأجيال أن الحرية بصدرها الحنون ستظل صامدة.

أسوق قولى تعليقا على ما جاء عند الدكتور رءوف عباس فى كتابه الذى صدر عن كتاب الهلال «مشيناها خطى» الذى أوجعنى لما حواه من وقائع أحس كثيرون ، ممن قاربوا نهجة عناءها فى ترسيخهم دفاترهم لثقافتهم التى تحصلوا عليها – بشق الأنفس – تحت قبة الجامعة المصرية ، ولكن يعترف رءوف عباس بأسى عميق بما وقع من بعض ضعاف النفوس الذين أغشاهم المنصب أو المال، فوضع مقولته التى هى طامة كبرى: «هان الأساتذة» على السلطة، عندما هانت عليهم نفوسهم «كتاب الهلال» العدد ٦٤٨ ديسمبر ٢٠٠٤ ص ٢٤٩.

وأشير أيضا إلى مقال «المجلات الثقافية والفتوى بغير علم» واضعين أمام من يهمهم أمر الثقافة، ولا يفرقون بين أزمة المجلات الثقافية ، والأزمة الثقافية، التى علينا جميعا أن نتكاتف من أجل مواجهتها ، الطريق الأمثل الذى به تستمر حياة المجلات الثقافية، والتى ذبح معظمها، ألا وهو : «أن الحرية هى الترياق الذى تعيش به المجلة الثقافية، لذا يتوقف نجاح المجلة الثقافية على قدرتها على الوصول إلى آخر هامش الحرية، والوصول إلى حافة الأسلاك الشائكة، وما يحيط بها من ألغام «الهلال يناير ٢٠٠٥ ص ٢٦ ، ص ٢٧.

د. سامي منير عامر- صديق الهلال
الاسكندرية - كلية التربية
جامعة الاسكندرية - قسم اللغة العربية



غابة العصر الجديد

أحداث غابتنا تزيد
من غير وقف للمزيد
الكل يأكل بعضه
والكل فى بطن اللحود
بعض بقوته افترى
والبعض قوت للشديد
ومن المدائن للقرى
يجرى كثير لا يفيد
هو أى بيع او شرا
والشر فيه المستفيد
وتباع فيه وتشترى
أم الخبائث والخدود
والمرتشون وغيرهم
يتزايدون بلا حدود
أين الملوك ومن له
حكم على هذا الصعيد؟
اين الذين تملكوا
امر المتاهة والعبيد ؟
كل تلهى بالذى
هو فيه عن كل الوجود
لكن رب الناس لا
يلهو بوعد أو وعيد
يرنو لكل الخلق من
عليائه الحى المجيد
سبحانه الله الذى
ما شاء يحكم ما يريد
بالعدل يحكم إنه
هو ربنا العدل الرشيد
لولاه لا نهدم الجميع
بغابة العصر الجديد

حسن عبدالخالق ابوالغيط
المصيلحة- شبين الكوم - منوفية - مصر

المصريون.. شعب واحد

يعيش شعب مصر على ضفاف النيل فى نطاق وحدة وطنية عريقة، ترتبط بضميره ووجدانه وروحه، وهذه الوحدة هى التى حفظت لهذا الشعب شخصيته القوية، فاستطاعت مصر أن تقف فى وجه الغزاة والمستعمرين.

لقد جاء الإسلام مصدقا للرسل من قبله، لا يفرق بين أحد منهم ، فهو يقر بنبوة موسى ويوقره، ويقر بنبوة عيسى ويجله، ويحكم الإسلام بالكفر على من ينكر رسالة موسى وعيسى عليهما السلام ويوم دهم الاستعمار البريطانى أرض مصر كان أول أهدافه تفريق شعب مصر بكل الوسائل والأساليب.

إننا شعب واحد.. ووحدتنا الوطنية راسخة رسوخ العقيدة، ثابتة ثبات الإيمان.

فإذا كان هناك من يحسبون أنهم بالمشاغبات والشائعات وتدبير المظاهرات، يمكنهم ان ينالوا من هذه الوحدة الوطنية، فإنهم واهمون

أحمد خضير - ٥ شارع الطوخي - فوه

السيف المجنون

لو كان للسيف عقل … لساد فى الخلق عدل
لكن كل ظلوم … يغريه بالبطش جهل
يحدوه كل أثيم … بكل إفك يضل
ما اختص بالخير ملك … ركناه زهو وختل
وما يسوسون امنا … إن جار وزن وكيل
لا ييئسنك ظلم … فمن اذل يذل
متوهم فى الليالى … جندا له لا تكل
يحيى أنا شاء موتى … او ذا خراب وقتل
فليجعل الشمس غضبا … من مغرب الأفق تعلو
وليأسرن نهارا … فليس يتلوه ليل
ان لم يحاذر فدعه … فليس للدهر خل

د. أحمد بديع

فرية مغلوطة

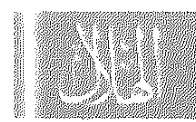
اتهم صديقى القديم «وديع فلسطين» الشيخ عبدالعزيز الربيعى بأنه سرق قصيدة من الشاعر حسن كامل الصيرفى، وهنأ بها الشاعر «عزيز أباظة» فى مناسبة من المناسبات ، وكان هذا فى عدد الهلال أكتوبر ٢٠٠٤.

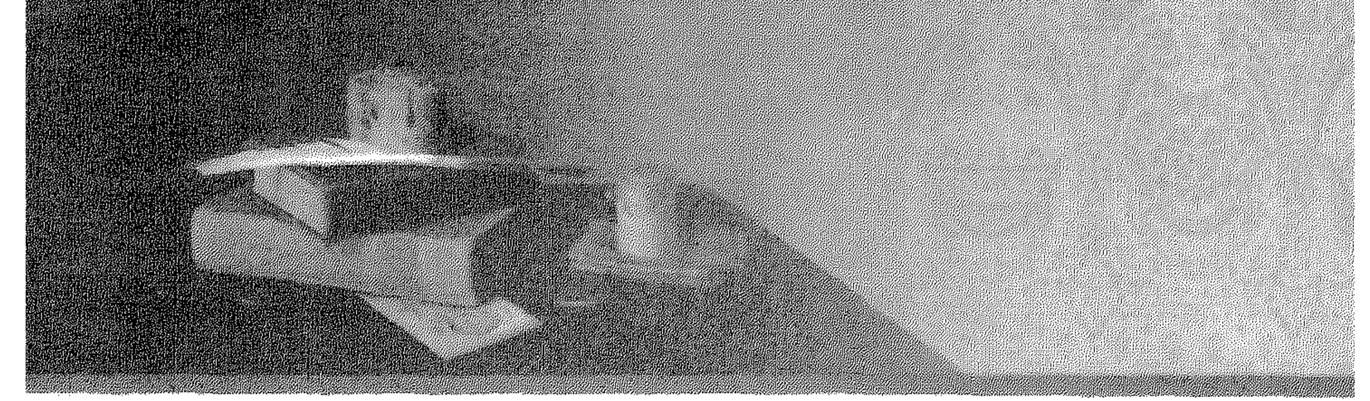
وعلى الرغم من أن الأستاذ «وديع» قد ساق الكلام مغلفا بشىء من التساؤل والتشكك، علاوة على إرجاعه إلى كتاب لعبد العزيز خميس، فإننى لا أعفى وديع من تعزيز سريان هذه الفرية المغلوطة التى أثارت الكثير من الغبار والجدل حول اسم الربيعى، فالقول إذا قيل يؤدى دوره، يستوى فى ذلك أن يكون صدقا أو كذبا.

وقد يعتذر وديع بأنه متأكد من كذب هذه التهمة، ولكن ألم يقرأ قول الشاعر القديم

قد قيل ان صدقا وإن كذبا
فما اعتذارك من قول قيلا

وعلى أى حال لاتزال هذه التهمة تثير الجدل حتى الآن، وتتناولها أقلام المدافعين عن الربيعى فى الصحف والمجلات، وأنا أعتقد أن اتهام الربيعى والدفاع عنه يسىء إلى شخصه،





فهو فوق مستوى الشبهات.

وحقيقة الأمر - كما عرفتها من مصادرها - أن الأمير صقر القاسمي، عندما كان مقيما فى القاهرة كان على علاقة طيبة بكل الأدباء والمفكرين العرب، وكان عبدالعزيز الربيعى من أهم أصدقائه ، وكان عارفا بمنزلته الأدبية، وقد أقام له فى مرة من المرات حفل تكريم، ودعا الأدباء والشعراء المصريين والعرب لتكريم هذا المفكر السعودى ، وقد ألقى الأدباء والشعراء كلمات وقصائد فى هذا الحفل ومنهم الشعراء محمود غنيم وحسن كامل الصيرفى والعوضى الوكيل وغيرهم، والقصيدة التى قال وديع أن الربيعى سرقها من الصيرفى قيلت فى تكريمه فى بيت القاسمى، ثم إن الأستاذ وديع زعم ان الذى اتهم الشيخ الربيعى بالسرقة هو ابن خميس، وهذا غير صحيح، واتحدى ان يدلنى على هذا الكلام الذى قال إنه فى كتابه .

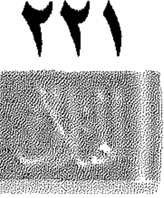
وفى نهاية هذه السطور اتقدم بالاعتذار للشيخ الربيعى عما لحقه من اتهام اديب مصرى وصديق قديم غفر الله له وسامحه.

د. عبدالعزيز الدسوقي
القاهرة - مدينة السادس من أكتوبر

سأظل

سأظل أولد فى عيونك كل يوم ألف مرة
وأظل أحلم بالقصائد تطلق الأحلام حرة
وأظل يا وطنى أحبك، من أحبك ، كيف يكره؟!
وأظل اجتاز الفيافى. أبتغى ريا بنظرة
وأظل فى عينيك نهر، أودع الأعماق سره
وأظل فى شفتيك لحن. تشتهى الأسماع سحرة
وأظل ثم أظل كالغيب المباغت بالمسرة
أهب الصحارى فرحتى، عشقا تقاطر ، ما أحره
أفتبخلين وقد بذلت قصائد بالحب ثره
بالله جودى حبتى، وردى حياض الحب مرة

أحمد محمد الدماطي - الشهداءالمنوفية





أمير الشعر في لبنان

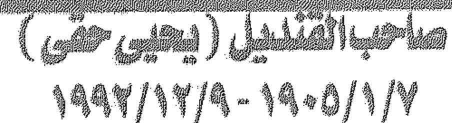
بشارة الخورى شاعر لبناني ولد عام ١٨٨٠ م في العاصمة بيروت، أصدر صحيفة «البرق» .. وبها نشر قصائده التى جمعت بين الوطنية والعاطفية.. كرمه أدباء وشعراء العرب عام ١٩٦١ بقصر اليونسكو ببيروت ومنح لقب أمير الشعر فى لبنان، وهو صاحب عدة دواوين منها «الهوى والشباب، وقد غنى له مطربنا الكبير محمد عبدالوهاب قصائد «الصبا والجمال» جفنه علم الغزل، ياورد مين يشتريك وتوفى عام ١٩٦٨

قال فيه شاعر زجال:

فى الاسم كان صغير
والفعل كان كبير
اخطل لبنان وشعره
بين العرب شهير
ادى النعمان يدلك
وعدوه يقول عليه
والمذهب الرومانسى
يقول له يا أمير
والنغمة الوجدانية
والرنه الموسيقية
بتتمزج فى شعره
بصياغة مش عادية
للورد لك اماره
والربوة والرياض

محمد أمين عيسوي - الاسماعيلية

ي



نشأ يحيى حقى فى بيئة تعشق القراءة، واستقى كل ينابيع المعرفة الأولى فى حياته من مكتبة أخيه الأكبر إبراهيم، كان عمه محمود طاهر على صلة وثيقة بشوقى ، وعن طريقه أتيح له الجلوس إلى أحمد شوقى عدة مرات. وكان الجو الغالب على البيت الذى يعيش فيه يتلخص فى ثلاثة مظاهر:

شغف برشاقة اللفظ والابتهاج بالتوفيق فى العثور على الكلمة المناسبة للمعنى.

نوع من الحياء يتنبه لزلة اللسان مهما كانت طفيفة.

قدر من الانطوائية .

بدأ تعليمه فى كتاب السيدة زينب، ثم التحق بمدرسة والدة عباس الأول التى تخرج فيها الزعيم مصطفى كامل وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩١٧، ثم التحق بمدرسة بنباقادن وحصل منها على شهادة الكفاءة ثم انتقل إلى المدرسة السعيدية والخديوية، ومنها حصل على البكالوريا عام ١٩٢١.

التحق بمدرسة الحقوق العليا وزامل فيها توفيق الحكيم ودرس على يدى احمد أمين والدكتور نجيب الهلالى وتخرج عام ١٩٢٦ ، وقضى فترة التمرين بنيابة الخليفة ثم عمل محاميا لفترة قصيرة بالاسكندرية ودمنهور إلى أن عين كمعاون للإدارة فى مركز منفلوط سنة ١٩٢٧ حيث قضى هناك عامين كانا أهم سنتين فى حياته على الاطلاق كما يشير فى مذكراته.

ومن تأثير تلك المرحلة أنجز مجموعته القصصية «دماء وطين» ولعل أهم انجاز لتلك المرحلة استلهامه لقصته الرائعة البوسطجى والتى تحولت إلى فيلم يعد علامة بارزة فى السينما المصرية.

انتاجه غزير ما بين المجموعات القصصية «قنديل ام هاشم» «أم العواجز» و«دماء وطين» ورواياته : صح النوم ويومياته «خليها على الله» ودراساته ومقالاته «خطوات فى النقد» «فجر القصة المصرية» دمعة فابتسامة وغيرها من عشرات الكتب والترجمات والمسرحيات.

ويحيى حقى الذى احتفل المجلس الأعلى للثقافة بمرور مائة سنة على ميلاده يعد علامة بارزة فى تاريخنا الأدبى، فضلا عن كونه شخصية محبوبة أحب «الهلال» وأعطى لها دائما الكثير من كتاباته ومشاركته فى ندواتها الأدبية.

لم ينس فضله تلامذته الكثيرون ومن بينهم الأدباء وكتاب الرواية والقصة: بهاء طاهر - خيرى شلبى - ادوار الخرط - إبراهيم عبدالمجيد - محمد المخزنجى، سلوى بكر - صلاح عبدالسيد - ابراهيم أصلان وكثيرون منهم، وسجلوا خواطراهم وذكرياتهم وفضله عليهم فى كثير من المناسبات واللقاءات الفكرية والأدبية.

ليظل قنديله دائما مشتعلا يضىء حياتنا الثقافية التى اشتقات إلى فارس مثله يعيد إلينا هذا الضياء المتلألىء .

نال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب.

وجائزة الملك فيصل العالمية.

اشتعال

حـــينمــــا أفنى جـــمـــوده
ورمـــى عـــنـــى صـــــــــــدوده
زادنى الحب اشــتــعـــالا
فى شــرايين الـقـــصـــيــدة
هـــكـــذا الحـب بـــقـــلــبـــى
ضـــمـــن الحـــســـان فـــريـده
فى الهـــوى الحـــان شـــوقى
من تـصـــانيـــفى الـعـــديدة
صـــــــورة الشـــــوق تـغـنـى
فى اشـــتـــعـــالات جـــديدة
فى اشــتـــعـــالات المعـــانى
تبـدأ الدنيـــا الســـعـــيـــدة
يبـــــدأ الحب قـــــريبـــــا
لاشـــتـــعـــالات بعـــيـــدة
خـــيل صـــبـــرى فى اشــتـــعـــال
ادركت فى الوصل عـــيـــدة
يا حـــبـــيـــبى ذاك حـــبى
ردد المـاء نـشـــيـــــــــده
حـــبك الجـــارى اقـــتـــحـــام
وانفـــجـــارات شـــديدة
كل اوراقـى التـــهـــــاب
فى الهـــــوى افـنى وجـــوده
فى الهـــوى توقـــيـــع قلبى
رد لـــلـــحـــن وريــــده
رد للـعـــــشق انصــــهـــارا
رد لـلـغـــيـــم رعـــودة
قــــد بنى تـوقـــيـــع قلبى
للـهــــوى الأحلى رصـــيــــده

عبدالله بن علي - الاقزم
السعودية - القطيف

محمد على .. وإعادة طبع الهلال

بعد نشركم الجزء الخاص عن إبراهيم باشا، هذا القائد العسكرى الذى شهد العالم بعبقريته، ودوره فى العسكرية المصرية، يحق لنا أن نعتد بكل ما تضمنته المقالات لصفوة الكتاب والمفكرين.

ومثلما حدث فى هذا الجزء، أتمنى تخصيص آخر يتناول والده محمد على الكبير الذى يعد باعث النهضة المصرية منذ مائتى عام والذى شيد المصانع، وبنى المدارس وأرسل البعثات إلى الخارج. لتعود حاملة أفكار النهضة والتقدم.

كما أتمنى ان يعاد طبع الهلال منذ صدورها فى عام ١٨٩٢، وحتى تعم الفائدة ويزداد دور الهلال التنويرى على مدار القرون والعقود

محمد طلعت أبوزيد
مصر الجديدة - القاهرة

الهلال : نشكر صديقنا الدائم، وقد نشرنا من قبل جزءا خاصا عن محمد علي، وهذا لا يمنع من نشر المزيد عنه في مناسبة مرور مائتي عام علي توليه حكم مصر.

وفيما يخص إعادة طبع الهلال ، فهناك مشروع يتم الآن حيث تم الاتفاق بين دار الهلال ومكتبة الاسكندرية علي طبع الهلال كله علي C.D وقريبا جدا ستطرح الأسطوانة المدمجة، الأولي وتتضمن السنوات الخمس الأولي من بداية اصدار الهلال.



الشعر ديوان العرب

معروف منذ القدم أن الشعر «ديوان العرب» يحوى كل ما يتعلق بشئونهم الحياتية سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية.

ولم يشد الشعر الحديث عن هذا الطريق.. لأنه ورث عن آبائه الشعراء الأوليين الصدق فى التناول.. والسير حذو النعل بالنعل على خطاهم.

ولما لا ألم يقل بعضهم «كل الصيد فى جوف الفرا» ؟! الم يقل آخر «ما الليث الا عدة خراف مهضومة» ولعلك عزيزى القارىء ملم بتفاصيل أزمة القطن الأخيرة التى ضربت الفلاح المصرى فى الصميم ، إذ انخفض سعر القطن عن العام الماضى.

قال محمود حسن اسماعيل.. من ديوانه الأول «أغانى الكوخ» - ط . دار سعاد الصباح - القاهرة - ١٩٩٣ فى قصيدته الغنائية «كنز الذهب الأبيض» متحدثا عن «لوزة القطن»

ذاك تاج النيل فاند بـ عـنده
امل الفلاح والجهـد المضـاع
وارث للمسكين عيشا اسودا
ران فى كوخ حقيرة متـداع
نامت النعمـة عنـه وجفـت
معدما لم يرعه فى مصر راع
وسـطا البؤس عليه فـغـدا
زورقا فى اليم محطوم الشراع

ولو سألنا ترى ما سيكون مصير الزورق المحطوم فى بحر لجى سوى الضياع!! لاستطعنا من خلال هذه الصورة الموغلة فى العمق، والجمال والبساطة فى أن نقول: حقا أن الشعر ديوان العرب.. وهو باق ما بقيت الدماء تجرى فى العروق

السيد التحفة - شبراخيت - شارع احمد عرابي

نبع الثقافة الفياض

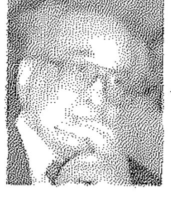
أهنئكم على عدد يناير الماضى والذى تضمن العديد من الموضوعات التى تتسم بالموضوعية والصدق، والأسلوب الشيق الرشيق وجعلتنى أشعر بالندم العميق لعدم متابعتها منذ كنت فى ربيع العمر. لذلك تمنيت من الله أن يطيل عمرى، كى أستزيد من نبع الهلال الفياض.

اكرر تهنئتى لكل من يضع بصمة مضيئة فى سبيل إخراج هذه المجلة إلى حيز الوجود، حتى تصل إلى محبيها.

محمد عبداللطيف سليم مرجاوى

الهلال : ونحن نبادلك الشكر، ونحرص جميعا علي أن تكون الهلال كما هي دائما أولي المجلات الثقافية في العالم العربي. والتي ظلت علي مدي مائة وثلاثة عشر عاما تقوم بدورها التنويري الرائد بأقلام كبار الكتاب في الوطن العربي.

الأسلحة الفاسدة!



بقلم: كامل الزهيرى

نشرت المصور تحقيقا فى ١٨ سبتمبر ١٩٥٣ بعنوان: «لو كان هتلر حيا. ماذا تريد أن تقول له؟»، وسألت المصور عددا من الشخصيات العامة منهم البكباشى أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة. وفى نفس الصفحة جاء خطاب له.

قال السادات: «عزيزى هتلر. أهنئك من كل قلبى. لأنك وإن كنت هزمت ظاهريا. إلا أنك المنتصر الحقيقى، فقد استطعت أن توقع بين تشرشل «العجوز» وحلفائه وبين حليفهم الشيطان وألمانيا منتصرة. لأنه أصبح لزاما للتوازن العالمى أن تخلق ألمانيا من جديد، رغم أنف الغرب والشرق. ولن يوجد سلام قبل أن تعود ألمانيا كما كانت، وهو ما سيفعله الشرق والغرب رغما عنهما». ثم ختم السادات خطابه: «ويكفيك فخرا أنك أصبحت خالدا فى ألمانيا. ولن ندهش إذا ما رأيناك فى ألمانيا مرة ثانية أو رأينا بدلا منك «هتلر» جديدا».

وخطاب السادات على ما فيه من توقعات واجتهادات سياسية فيه ما يوحى بإعجاب السادات بهلتر، عكس ما جاء فى خطاب غيره من أصحاب الرسائل. ومع السنين نسيت خطاب السادات حتى جاءت مفاوضات الرئيس السادات مع مناحم بيجين. ثم تعثرت حول إزالة المستعمرات الصهيونية فى سيناء عام ١٩٧٧.

واتهمت صحف إسرائيل الرئيس بأنه دعا إلى حرقها.. ورد السادات أنه دعا إلى حرثها لا حرقها. والخطأ كان مطبعيا. وفرق بين الحرق والحرث! ولكن صحفا ألمانية أيامها هاجمت السادات ونشرت أنه كان من عشاق هتلر (استنادا إلى خطاب ١٩٥٣).

وقد تكون المفاجأة أكثر أننى حين قرأت كتاب «معاداة السامية الجديدة» الذى نشرته منظمة براى بريت الأمريكية عام ١٩٧٤ نشرت النص الكامل لخطاب السادات فى عدد المصور ١٨ سبتمبر ١٩٥٣.

ويضيف هذا الكتاب - ٣٥٤ صفحة - فى فصله التاسع أدلة على معاداة السامية، ومنها تكرار نشر كتاب حكماء صهيون، ونشره أيضا فى مطبوعات مصلحة الاستعلامات عام ١٩٥٧ ويغفل الكتاب ما كتبه أحمد بهاء الدين أو كاتب هذه السطور حول بروتوكولات حكماء صهيون. واستند هنا إلى ما كتبته فى عدد الهلال سبتمبر ١٩٦٧ - وقد أعدت نشره فى كتابى الأخير «سبعون كتابا فى كتاب». ص٥٩٢، «رد على سارتر» قلت فيه:

- إن الاستناد إلى مذكرات هرتزل إنما هو خير سبيل لكشف حقيقة الصهيونية بدلا من الاستناد إلى وثيقة صهيونية أخرى متنازع عليها وهى «بروتوكولات حكماء صهيون». لأنه لا أحد من الصهيونيين ينازع فى مذكرات هرتزل، لكنهم يدعون صدقا أو كذبا أن البروتوكولات إنما دستها عناصر معادية للسامية ولهذا نضع هذه البروتوكولات بين قوسين من باب الحذر، ونقتصر استنادنا إلى مذكرات هرتزل. لأنها توضح فى نفس الوقت كيف تكوّن هذا التيار الفكرى الصهيونى.

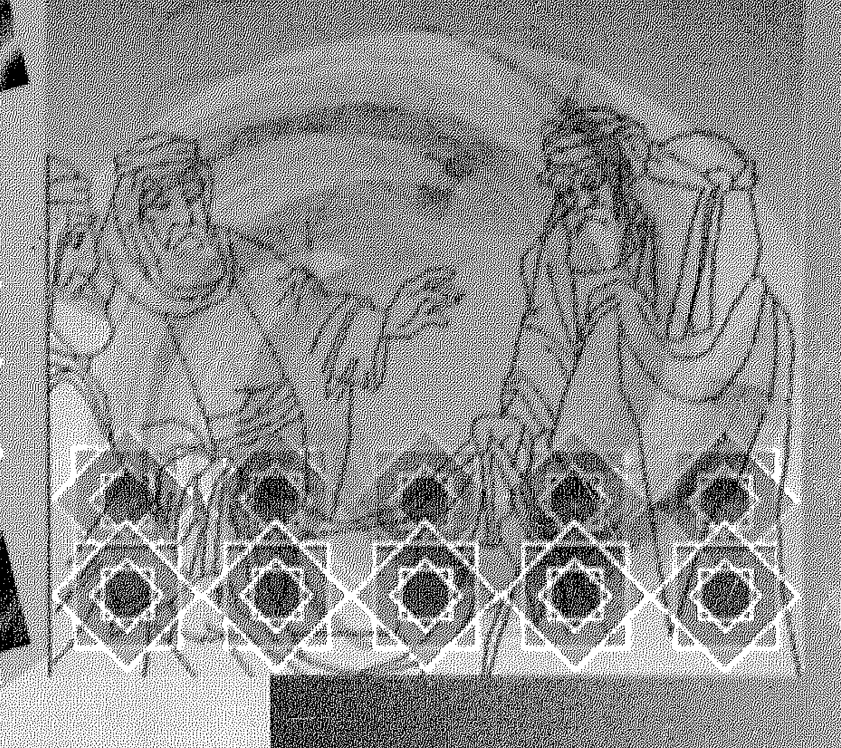
وبعد ...

قد يكون مغزى هذه الحكايات أننا مع العدو فى حرب إعلامية أيضا. والعدو لا ينسى يطمئن أحيانا إلى سذاجة بعض من يستخدمون فى هذه الحرب وفى الكتب والمسلسلات «بروتوكولات حكماء صهيون» أو قصة فطائر الدم مع أن لدينا فى المعركة أسلحة أقوى.

وأخشى أن أقول إننا نستخدم فى الحرب الاعلامية أسلحة فاسدة، ونترك الحقائق. وننسى أن الحق.. تخدمه الحقيقة!

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع: ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع: ١٠، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت: ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس: ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية.

الهلال

- الإرهاب والإنترنت
- الأصالة والحداثة
- معارك بيرم والوثنية

مارس ٢٠٠٥ الثمن ٤ جنيهات

فرويد ونوازع النفس البشرية في:

ألف ليلة وليلة



لوحة وفنان



اللوحة : صانع الأثاث　　　　الفنان : لود فيج



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة محرم ١٤٢٦ هـ - مارس ٢٠٠٥م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط)
المكاتبات ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

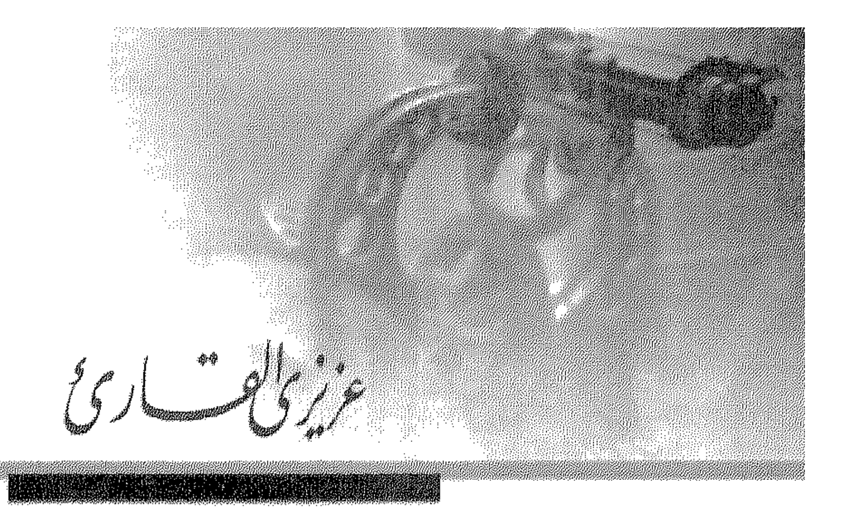


تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



الأبواب الثابتة



الهلال.. على أسطوانة رقمية

فى حفل ازدان بعدد من صفوة مثقفى مصر، احتفلت مجلة «الهلال» بصدور الأسطوانة «C.D» الأولى من المشروع الكبير بطبع الهلال (١١٣ عاما) على أسطوانات مدمجة ، ليكون هو المشروع الثقافى الأول فى مصر والعالم العربى.

انتظم عقد المثقفين الذين لبوا دعوة الهلال ، وجاءوا إلينا يملؤهم الحب وتعلو الفرحة وجوههم وهم يستقبلون عملاً فريدا وراءه جهد كبير، فكانت الهلال تطرح الفكرة تلو الأخرى لكى يتحقق لها فى النهاية ما أرادت ، وأرادته دار الهلال ، بل والأجيال المتعطشة للثقافة ، والعودة إلى المنابع الأولى والتى حملتها الهلال عبر قرن وعقد من الزمان.

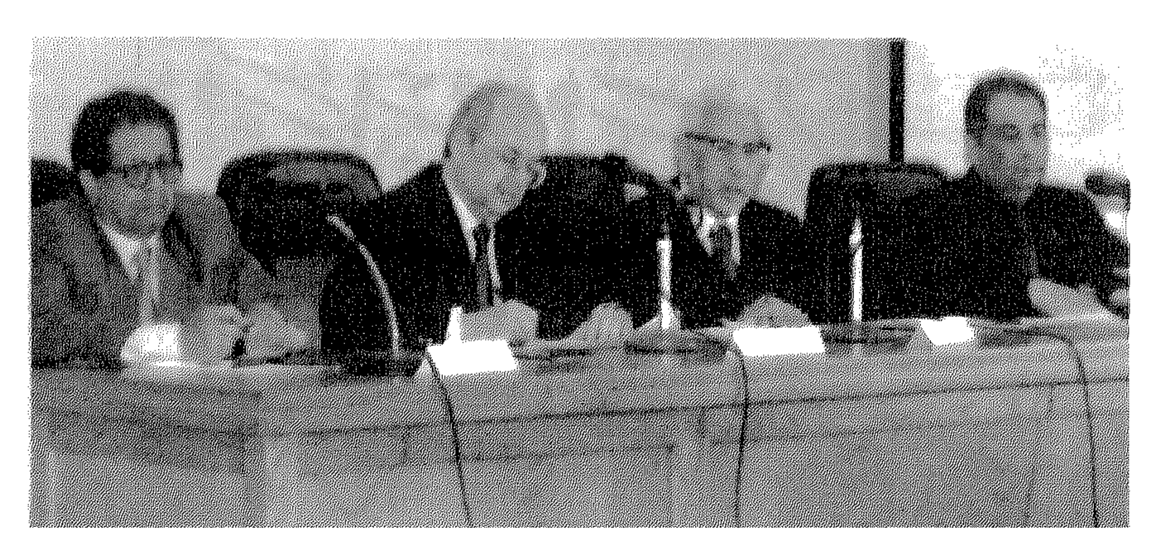
قاعة الاجتماعات بدار الهلال شهدت فرحة المثقفين، وأيضا تلك التحية من مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة ، وهو يحيى الجهد المتميز لمكتبة الاسكندرية ممثلة فى رئيسها الدكتور اسماعيل سراج الدين والذى جعل منها جزءا من مجتمعها، تكسر حواجز العزلة بينها وبين وطنها، تناقش همومه ومشكلاته بشجاعة واستقلال، وتضىء سماءه بأنوار خلاقة ، تسعى لاستشراف مستقبله، فى ضوء طموح المصريين، لبناء وطن ديمقراطى، يزدهر بالحرية.

وجاءت التحية واجبة للدكتور يوسف زيدان، الذى بذل هو ورجاله فى جميع تخصصات مركز المخطوطات الذى يديره بكفاءة واقتدار ، على ما بذلوه من جهد رائع فى هذا المشروع الثقافى الكبير الذى يحيل ١١٣ عاما، هى عمر مجلة الهلال، والتى تشكل ذاكرة الأمة، ونبضها المعرفى والثقافى والسياسى، إلى أسطوانات مدمجة، تجعل صفحات الهلال، على امتداد هذه السنوات التى تشكل عصر النهضة زادا ميسرا للباحثين، وتفتح الطريق إلى استثمار هذا الكنز الانسانى الضخم، الذى يلخص مسيرة النهضة طوال هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر.

لقد كانت مجلة الهلال، أول مجلة ثقافية من نوعها صدرت فى عام ١٨٩٢، وقلدتها بعد ذلك كثير من المجلات العربية، وبهذا المشروع تعود «الهلال» مرة أخرى رائدة لكل المجلات الأخرى، بهذا المشروع الرقمى.

.. ولكن السؤال الذى يطرح نفسه علينا.. ولماذا هذا المشروع الثقافى الكبير، ولماذا هذا الاهتمام الذى استغرق سنوات فى ضمائر العاملين فى الهلال؟!

لقد أصبحت ثروة الهلال بفضل هذا المشروع الذى يستفيد من أعلى مستويات



د. إسماعيل سراج الدين رئيس مكتبة الاسكندرية يلقي كلمته وعن يمينه مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال وعن يساره مكرم محمد أحمد رئيس مجلس ادارة دار الهلال و د. يوسف زيدان مدير مركز المخطوطات

التقنية الحديثة فى متناول الجميع، حيث ترى فيه الأجيال المتتابعة الجديدة، سجلا للثقافة المصرية، فى سعيها نحو التجديد والتحديث ، ولسانا للعرب المحدثين ، يتابع شرارة النهضة الفكرية التى حملها الهلال منذ عام ١٨٩٢ حتى الآن وهذا المشروع الحضارى يمثل - بحق - بعثا جديدا لهذه النخبة المتميزة من المفكرين المصريين والعرب، الذين أضاءوا صفحات الهلال بوهج أفكارهم فى هذه الفترة المبكرة ، وكانوا رسلا ودعاة لتجديد الفكر والعقل العربى، وهؤلاء تواصلت جهودهم على امتداد مائة عام تدعو إلى تحرير المرأة، وإتاحة العلم ، وإنشاء الجامعة الأهلية، وكسر أسوار العزلة مع العالم، والتواصل مع مستحدثات العصر ، والاستفادة من تجارب الآخرين.

إن الهدف من هذا المشروع، أن تكون الهلال بين يدى الباحثين، والمراكز البحثية المنتشرة فى جامعاتنا فى مصر والوطن العربى، خاصة وأنها ظلت منذ صدورها فى حالة تجديد مستمر، فى كل مجالات الثقافة والفنون، ومضت طوال مسيرتها، حاملة مشعل الحرية والرأى المستنير، تتواصل مع الأجيال، التى حرصت على قراءتها والاستفادة من نبع فياض ، لايتوقف من الثقافة والمعرفة.

***

كما تجب التحية فى هذه المناسبة لرؤساء التحرير السابقين الذين لعبوا دورا مهما فى الهلال وارتقائها ابتداء من مؤسسها جرجي زيدان وإلى كل من حمل المسئولية من بعده مثل الدكتور أحمد زكى والأساتذة كامل زهيري ورجاء النقاش وكمال النجمى.

والتحية الأوجب لكل المثقفين الكبار الذين شاركونا هذه المناسبة، وقدموا المداخلات والملاحظات حول أهمية هذا المشروع، الذى سوف يتوالى صدوره كما قال د. إسماعيل سراج الدين فى كلمته، كل خمسة أعوام فى أسطوانة مستقلة (باستثناء السنوات ١٨٩٢ إلى ١٩٠٠ التى تأتى فى أسطوانة واحدة) ليكتمل ، خلال الأشهر القادمة ، هذا المشروع الذى تفى به مكتبة الاسكندرية، وببعض ما وعدت به من وعود يوم افتتاحها، كان بينها العناية بالتراث ، ومواجهة التحدى التكنولوجي وعبور الهوة الرقمية.■



بقلم
د. عبد الرشيد الصادق محمودى

عندما نتحدث نحن العرب عن «الآخر» فإنما نعني فى المقام الأول أوروبا أو العالم الغربى ذلك العالم الذى يقع إلى الشمال والشمال الغربى من البحر المتوسط بينما نقع نحن إلى جنوبه وإلى الجنوب الشرقى منه، أما علاقاتنا بالشرق البعيد أو بأعماق أفريقيا أو بأمريكا اللاتينية، فإننا نسلم بها بطبيعة الحال، ولكنها تأتى فى المقام الثانى ولاتكاد تسبب لنا قلقا أو مصدرا للتساؤل، وصحيح أن لنا أعماقا جغرافية وثقافية تترامى بعيدا نحو الجنوب والشرق والجنوب الغربى، وإن للعالم الغربى أطرافا نائية إلى الشمال والشمال الغربى والغرب البعيد (أمريكا)، ولكننا رغم هذا الترامى من الجانبين نلتقى مع الآخر فى هذه المنطقة التى نسميها البحر المتوسط.

ولقد صدق طه حسين إذن عندما ركز فى كتابه عن مستقبل الثقافة على منطقة الشرق الأدنى وأوروبا وعلى المجال الثقافى الذى يتمحور حول البحر المتوسط، فأقل ما يمكن أن يقال عن هذا المجال إنه ملتقى لثقافتين.

واستخدم لفظ «الملتقى» بصفة مؤقتة وانتظارا لمزيد من البحث والتحديد،

وحتى نجيب عن السؤال التالى هل البحر المتوسط من الناحية الثقافية بحيرة سلام ووئام أم أنه ميدان اقتتال أو خط فاصل بين ثقافتين متصارعتين؟ هناك فى هذه القضية مذهبان متعارضان أحدهما وفاقى وثانيهما صراعى، وسأسلك بين هذين المذهبين طريقا ثالثا وفى رأيى أن هذا الحل الثالث أقرب إلى واقع التاريخ وأنسب لازدهار الثقافة المصرية والعربية بصفة عامة

والواقع أن بعض أقوال طه حسين قد توحى بأنه من المنادين بإلحاق مصر بالعالم الغربى بحيث تصبح تابعة له. ومن هذا قولته الشهيرة فى مستقبل الثقافة «نريد أن نتصل بأوروبا اتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءا منها لفظا ومعنى وحقيقة وشكلاً» ومن هذا أيضا رأيه أن السبيل إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية هى «أن نسلك سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب».

محاكاة أوروبا

ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الأقوال فى سياقها الأوسع تبين لنا أنها لاتعبر إلا عن جانب واحد من موقف طه حسين فسوف نلاحظ عند قراءة مستقبل الثقافة قراءة فاحصة أنه يقرن بين محاكاة الأوروبيين والاستقلال، يقول مثلاً «إذا كنا نريد الاستقلال العقلى والنفسى الذى لايكون إلا بالاستقلال العلمى والأدبى والفنى فنحن نريد وسائله بالطبع ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الأوروبى ثم نعمل كما يعمل الأوروبى ونصرف الحياة كما يصرفها» وواضح أن محاكاة الأوروبيين ليست إلا وسيلة لتحقيق الاستقلال أو التأكيد الذاتية - كما نقول بلغة هذه الأيام، فهى نوع من التعلم عن أوروبا وشرط ضرورى وليس كافيا لتحقيق الاستقلال وازدهار الشخصية .

طه حسين

محمود شاكر

وطه حسين يكتب أحيانا وكأنه يريد أن يقول إن محاكاة الغير فى مجال الثقافة يمكن وينبغى أن تكون محاكاة إبداعية . نرى هذا فى بعض كتاباته الفرنسية التى أسعدنى الحظ بجمعها وترجمتها. فهو فى مقاله عن «جوته والشرق» يثنى على الشاعر الألمانى العظيم لأنه استطاع أن يحطم إطار

الشعر الأوروبى وينظم الشعر فى ديوانه الشرقي على غرار ما فعل شعراء الفرس والعرب غير أن طه حسين يؤكد أيضا أن هذه المحاكاة لم تكن من قبيل التقليد الأعمى، وأن جوته قد بث فى قصائده «الشرقية» شيئاً من نفسه كألمانى وأوروبى.

وفى مقابل هذا المثال الغربى يضرب طه حسين مثلا آخر فى مقالة فرنسية أخرى عن «بدايات الأدب المسرحى فى مصر» فهو يروى كيف ذهب توفيق الحكيم إلى فرنسا وعاد بعدد من المخطوطات التى أرسى فيها دعائم المسرح المصرى وهو يفترض أن توفيق الحكيم قد جلب هذا الفن من الغرب، وهو الفن الذى لم يكن معروفا لا فى الجاهلية ولا فى ظل الإسلام ويشير طه حسين إلى أن توفيق الحكيم قد تأثر بجيرودو وأناتول فرانس. بيد أن توفيق الحكيم استطاع أن يجعل من هذا الفن المجلوب إبداعاً لا يمكن أن ينسب إلا إليه وجزءا لايتجزأ من الأدب العربى، فقد جعله مزاجا رائعا من عناصر إسلامية ومصرية وغربية .



وبإمكاننا إذن أن نجمل هذا الدرس فنقول : إذا كان جوته قد استشرق ليؤكد ذاتية الألمانية والأوروبية، فقد غرب توفيق الحكيم ليؤكد ذاته المصرية الإسلامية الشرقية وتلك إذن هى المحاكاة الإبداعية. بها يخرج الفنان عن الأطر الموروثة ويطرح شيئا من ذاته لا لشئ إلا ليعيد إليها الحيوية والنظرة ويؤكدها من جديد .

التأليف بين ثقافتنا

وما يصدق على الفنان الفرد يصدق علي الثقافات فتجديد الثقافة العربية يعنى فى نظر طه حسين تحقيق مزاج أو تأليف رائع بين ما لدينا وما لدى الآخر الذى هو أوروبا ولابد لهذا التأليف أن يشمل التراث العربى الإسلامى، وخاصة الأدب القديم كما يشمل أحدث ما وصلت إليه أوروبا فنحن - كما يقول - ندرس الثقافة العربية لأنها تكّون شخصيتنا وندرس ثقافة الأوروبيين لأنها تكمل شخصيتنا وتعدنا للمستقبل .

فإذا أراد أحد أن ينقد هذه الآراء نقدا سديدا فعلية أن يوجه سهامه إلى ما فيها من نزعة وفاقية ومما قد يقال فى هذا الصدد إن هذه الآراء تميل إلى التجريد والمثالية إذ تغلب أوجه الاتفاق مع أوروبا، وذلك مثل اشتراكنا معها فى التراث الكلاسيكى فمن المعروف أن هذا الاشتراك لم يحدث دون نزاع، وذلك أن العرب لم يتلقوا علوم اليونان دون مقاومة وظلت الحرب معلنة على الفلسفة والفلاسفة حتى أفلت شمس الحضارة العربية ودب الجمود فى أوصالها ولم تتلق أوروبا هذه العلوم عن العرب دون أن تحاول تخليصها من الطابع العربى الذى اكتسبته، كذلك لا ينبغى أن ننسى أن أوروبا المعاصرة ليست مجرد امتداد لليونان القديمة .

ومما قد يقال فى نقد الوفاقية أنها تسعى إلى عقد الصلح بسرعة ودون نقد

عميق للحضارة الأوروبية، فقد كان طه حسين وغيره من الليبراليين المصريين يعتقدون أن المحتل الأجنبي لابد راحل، وأن رحيله يؤذن لامحالة بفتح صفحة جديدة من الوفاق والمودة مع العالم الغربي ولم يدركوا يومئذ أن الاستعمار عن طريق الاحتلال ستتلوه صور أخرى من الهيمنة الأجنبية ولم يعرفوا ما نعرفه اليوم من نقد للاستعمار الجديد والحضارة الصناعية والمجتمعات الاستهلاكية وكانوا يجهلون أو يتجاهلون ما كان هنالك من نقد ماركسي لهذه الظواهر .

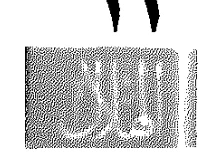
نظرية الصراع

وفي مقابل المذهب الوفاقي نجد تيارا آخر يرسم نموذجا صراعياً محضا لمنطقة البحر المتوسط ولهذا التيار جذور عريقة وصور متعددة، ولكن ربما كان الفقيد الأستاذ محمود محمد شاكر أبرز ممثليه ففي مؤلفاته - وخاصة في كتابه المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - أوضح تعبير عن النموذج الصراعي وليس من قبيل المصادفة أنه يقف على طرف نقيض من طه حسين . ولست أشير فقط إلى نقده الصريح لطه حسين في آخر «رسالته» وفي كتاباته الأخرى وإنما أشير أيضا وفي المقام الأول إلى تلك الحرب الخفية التي يديرها على صفحات الكتاب كله نقضا لمذهب أستاذه وخصمه اللدود وطردا لشبحه .

البحر المتوسط وفقا لهذا النموذج الصراعي ميدان قتال أو خط فاصل بين ثقافتين بينهما حرب لا هوادة فيها منذ انتشار الإسلام. فهناك الشمال المسيحي والجنوب الإسلامي وكل من الثقافتين عالم قائم بذاته. فالثقافة في رأى الأستاذ شاكر كل متكامل كالبنيان المرصوص أو النسيج المحكم وهي تقوم أساسا على الدين أو ما كان في معنى الدين من أخلاق، ولها وعاء خاص بها هو لغتها فليس لأحد لا يدين بدينها ولم يتعلم لغتها وأخلاقها منذ المهد أن يعرفها إلا من خارجها أو أن يحدث أهلها عنها بخبر صادق أو يريد لهم الخير به والحرب بين الثقافتين دينية أو لنقل صليبية على مر العصور ومهما تغيرت الأشكال، فليس هناك فارق جوهري بين «الهمج الهامج» تجمعهم مسيحية الشمال من أصقاعها الشمالية لتلقي بهم في أتون المعركة وبين الاستعمار أو حملة نابليون أو التبشير أو الاستشراق، فكلها أسلحة في معركة صليبية واحدة، وليس ثمة فارق من حيث المبدأ بين غزو ديار الإسلام ونقل معارفه فكلاهما عمل من أعمال الغصب والاستيلاء .

نقدا لتصور شاكر

فماذا يمكن أن يقال تعليقا على هذه الرؤية الصراعية؟ لايمكن بطبيعة الحال أن ننكر أن الصراع بين ثقافة الشمال وثقافة الجنوب حقيقة من حقائق التاريخ، ولكن تصور الأستاذ شاكر لتكامل الثقافتين كل في حد ذاتها ولطبيعة الصراع بينهما ينطوي على كثير من



التبسيط والتعمية. فهو لم يتوصل إلى هذا الصراع إلا بحذف ما يروق له من حقائق التاريخ ومثال ذلك أنه بدأ قصته بانتشار الإسلام، وله أن يفعل ذلك لولا أن هذا الاختيار لا مبرر له فى هذه الحالة سوى أنه مناسب لرأيه أن الدين هو محور الثقافة وأن الحرب بين الثقافتين دينية بالضرورة وعلى الدوام وقد كان من المناسب له أيضا أن يغفل تطور الثقافتين، وأن يتجاهل الفوارق بين المرحلة الصليبية ومرحلة التوسع الاستعمارى والرأسمالى فى أوروبا ولقد نسلم بأن الدين أو ما كان فى معنى الدين أساسى فى كل ثقافة، ولكن هذا التسليم لا ينبغى أن يكون مطلقا فلم يكن الدين هو الدافع الوحيد أو الأساسى إلى الصراع فى جميع المراحل وسوف نرى فيما يلى أن الدين لم يكن فى جميع الأحوال هو القوة المحركة الوحيدة على الصعيد الفكرى .

غير أن أهم ما يستبعده صاحب رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا هو انتقال التراث اليونانى إلى الثقافة العربية ثم انتقاله منها إلى الثقافة الأوروبية فهو يدرك أن العرب قد نقلوا علوم الأوائل ويفترض أنهم أفادوا منه كما يدرك أن أوروبا أخذت هذه العلوم عن العرب ويرى صراحة أنها أفادت منها، ولكنه يمر على هذه الحقائق مر الكرام ويخفى عليه مدلولها فى ضجيج المعركة الكبرى وغبارها ولو أنه توقف عند تلك الحقائق لرأى أنها لاتناسب القصة التى يرويها وأنها تؤدى إلى انهيارها .

صعوبة فصل الثقافتين

أول نتيجة تترتب على انتقال التراث اليونانى من الشمال إلى الجنوب ثم من الجنوب إلى الشمال هى أن الفاصل بين الثقافتين ليس حاسما كما يبدو لأول وهلة وصحيح أن انتقال هذا التراث قد تم فى الحالتين فى إطار من علاقات القوى والصراع الإقليمى، وأن طريقة تمثله قد اختلفت على نحو أو آخر من حالة إلى أخرى، وأن النتائج التى ترتبت على هذا التمثل قد اختلفت على نحو أو آخر بين الحالتين، ولكن تبادل هذا التراث واختلاف الثقافتين فى تلقيه واستيعابه يدل على أن لهما تاريخا مشتركا ومصيرا واحدا فى بعض الجوانب فليس من الممكن عرض تطور إحدى الثقافتين دون التطرق إلى تطور الأخرى . وما اختلافهما فى تلقى التراث اليونانى وتمثله إلا حلقتين فى قصة واحدة، هى قصة النزاع الذى يفرقهما ويجمعهما .

والنتيجة الثانية التى تستخلص من دراسة انتقال التراث اليونانى هى أن تمثل هذا التراث لم يتحقق فى الحالتين دون ترتيب الثقافة المتلقية ترتيبا جديدا وهو ما يعنى بدوره اختلال التكامل على نحو أو آخر ولفترة تطول أو تقصر فى نطاق هذه الثقافة وذلك أن نقل علوم اليونان إلى الثقافة الإسلامية كان يعنى إفساح المجال داخل هذه الثقافة لعامل جديد أو قوة دافعة جديدة هى: العقل

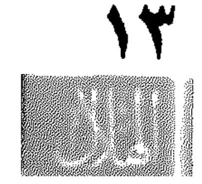
وبعد أن كان الإيمان سيدا لامنازع له وكان بهذا المعنى هو أساس الثقافة ومحور جميع العلوم فيها، أدخل عامل العقل وأصبحت المشكلة الأساسية منذ ذلك الحين هى تحديد مكانة العامل الجديد بالنسبة للدين وقد حدث عندئذ ذلك التصدع بين النقل والعقل ودارت المعركة المعروفة التى اختلفت فيها المذاهب ورجحت فيها كفة هذا الطرف أو ذاك حتى جاء الغزالى وانتصرت أراؤه فى نهاية المطاف، وعندئذ عاد إلى الثقافة تكامل أو توازن من نوع جديد . وهو تكامل جديد لانه كان مختلفا عن التكامل الأول فقد كان هذا بسيطا خاليا من التعقيد والقسر بينما كان التوازن الذى حققه الغزالى يقوم على إلجام الفلسفة وكبحها بوسائل معقدة بعضها فلسفى، ولنا أن نقرأ تصنيف الغزالى للعلوم فى إحياء علوم الدين لنرى كيف يصفى العلوم الفلسفية تصفية لا تخلو من العنف فيرد بعضها إلى أدوات للدين ويطرد بعضها شر طردة.

والتكامل كما يتحدث عنه الأستاذ شاكر هو إذن ضرب من الأساطير وتكامل الثقافة حول الدين ليس فى أفضل الأحوال إلا مرحلة مؤقتة ولحظة عابرة فى تاريخها وهو نوع من التوازن الدقيق الذى لايلبث أن يختل، ومثله مثل إيمان العجائز الذى يقال إن عمر بن الخطاب دعا أن يوهبه وهو إذن مثل أعلى لايتحقق فى الواقع إلا على وجه التقريب وللحظة متلاشية وما إن يحاول أهل دين ما أن يوفقوا بينه وبين أشياء أخرى مثل العقل أو مقتضيات التطور أو الواقع أو الحضارة حتى تكون المحاولة فى حد ذاتها دليلا على زوال لحظة البساطة الأولى وتشقق البناء المرصوص أو النسيج المحكم .

موقف وسط

ولعلنا نكون إذن أقرب إلى الصدق عندما نتخذ موقفا وسطا بين مذهب الوفاق ومذهب الصراع فنقول إن العلاقة بين ثقافة الشمال وثقافة الجنوب علاقة التحام ونزاع عندما يعنى هذا تداخل المواقع والتنافس على أرض مشتركة فبين الثقافتين تراث مشترك هو نفسه موضوع نزاع بينهما. وذلك أن علوم اليونان لم تنتقل بين الثقافتين إلا فى ظل التوسع السياسى والجغرافى من جانب هذه الثقافة أو تلك، وهو لم يستقبل فى كلتا الحالتين دون أن تحاول الثقافة المتلقية أن تحوره وفقا لمتطلباتها وتأكيدا لذاتها .

موقف وسط يجمع بين المذهبين المذكورين ويتجاوزهما، فهو يبرز تعقيد الواقع الذى اختزله كل منهما واقتصر على جانب واحد منه. فطه حسين على سبيل المثال يركز على اتفاق الثقافتين ويهون من أوجه الخلاف بينهما. صحيح أنه يقترب من الحقيقة عندما يضرب المثل بجوته وتوفيق الحكيم كأديبين حاول كل منهما أن يحاكى أهل الثقافة المقابلة لكى يؤكد ذاتيته. ولكن طه حسين لايكاد يرى انقطاعا أو تضاربا بين لحظة



المحاكاة ولحظة الإبداع، ولايكاد يدرك أن تأكيد الذات يعني بالضرورة مقاومة واعية أو غير واعية لأساليب الغير. وهو على الصعيد النظرى العام يكاد ينتهى إلى أن أوجه الخلاف بين الثقافة الإسلامية والثقافة الأوروبية عارضة أو ثانوية. أو لنقل إنه يذيب هذه الفوارق ويبددها إذ يرى أن الثقافتين ترتدان بالتحليل إلى مقومات واحدة متماثلة .

أما الأستاذ شاكر، فهو يبسط العلاقات المعقدة بين الثقافتين عندما يفترض أن تصارعهما يعنى انفصال كل منهما وتكامله فى حد ذاته. وهو يقترب من الصدق عندما يرى أن كلا من الثقافتين قد أخذت عن الأخرى وأعطتها، وعندما يبرز الدافع فى كلتا الحالتين إلى الاستحواذ على ما لدى الطرف الآخر. ولكنه لايكاد يشير إلى هذه الحقائق حتى تغيب عنه دلالتها. فعملية الأخذ والاستحواذ بين هذين الطرفين المتنازعين تعنى بالضرورة اشتراكهما فى عناصر واحدة - هى موضوع النزاع - وتداخلهما كما تعنى أن أخذ هذه العناصر قد أدى فى الحالتين إلى اختلال فى تكامل الثقافة المتلقية، وأن تمثلها لم يكتمل إلا وقد تحولت الثقافة عن طبيعتها الأولى.

وليس من قبيل المصادفة أن الأستاذ شاكر قد تجاهل هذه الحقائق التاريخية فهو يستبعد التطور والتاريخ منذ البداية، ويتصور أن الثقافة الإسلامية كنظام مغلق من الأقوال أو النصوص التى لاتلتمس جذورها إلا فى أنفس العرب. والمنهج الذى يقترحه منذ البداية منهج «بيانى» يقتضى إجراء التذوق على كل ما أنتجه العرب من كلام منظوم ومنثور فى أى علم من العلوم بوصفه «إبانة منهم عن خبايا أنفسهم بلغتهم والبحث بهذا المعنى دراسة لغوية تنصب على كلام العرب لتقصى معانيه ودلالاته فى أنفسهم بمعزل عن واقع التاريخ وبذلك تبدو الثقافة كنسيج واحد وإن تعددت خيوطه وتنوعت، فكأنها الشبكة التى تخرج من جوف العنكبوت .

نتائج عامة

ويحق لنا بعد هذا العرض أن نستخلص بعض النتائج العامة وأولى هذه النتائج تتعلق بوحدة الثقافة الإسلامية فالدين أساسى فى هذه الثقافة، ولكن هذا لا يعنى أن الثقافة تنتظم على هذا الأساس كالبناء المرصوص أو النسق الفلسفى أو النسيج المحكم أو الجهاز العضوى وتدل دراسة التاريخ على أن هذه الثقافة قد تعرضت فى تاريخها لهزات وانقلابات وتحولات جذرية، وأنها تطورت فاستقبلت وتمثلت مبادئ أخرى - مثل مبدأ العقل - أو استنبطتها .

وليس هناك من وحدة أو تكامل أو منطق إلا ما أمكن ملاحظته فى إطار التطور من علاقات متغيرة غير متجانسة وغير متسقة بين مقومات هذه الثقافة سواء أكانت أصيلة أم مجلوبة وليس صحيحا أن إزالة أى خيط من هذا

النسيج يهدد بتفككه أو أن استبعاد أى حجر من البناء يعنى تداعيه بأكمله فتطور الثقافة - أى ثقافة - أو حياتها عملية مستمرة من الحذف والإضافة أو الهدم والبناء..

وتتعلق النتيجة العامة الثانية بثقافة البحر المتوسط أو بالثقافة العالمية أو الإنسانية فقد أحاطت بهذا البحر ومازالت تحيط به ثقافات متعددة وليس هناك من وحدة تجمع بين هذه الثقافات أو من تراث مشترك بينها إلا ما كان ثمرة لتلاحمها وتشابكها عبر التاريخ. وليس من الممكن أن نعزل فى هذا التعدد نواة صلبة ظلت ثابتة لنطلق عليها الثقافة الإنسانية أو العالمية. ولكن هناك تراثا فضفاضا متعدد الجوانب والمراحل بحسب تعدد الثقافات التى تداولت هذا التراث وتنازعته عبر العصور. فقد جرت سنة التطور على أن يؤول التراث المذكور إلى الثقافة الغالبة فتتناوله بالحذف والإضافة وتعيد تنظيم مقوماته وتطبعه لفترة بطابعها. وليس من الممكن أن نصف وحدة هذا التراث دون أن نروى قصة الجدل والنزاع الذى دار ومازال يدور بين الثقافات المذكورة، وإنا لنقترب من الصدق إذا شبهنا هذه الثقافات بالدوائر المتقاطعة، وتزداد الدقة إذا نحن أضفنا إلى هذا التشبيه الهندسى بعدا زمنيا ديناميكيا فقلنا عن هذه الدوائر إنها دوائر نفوذ .

أما النتيجة العامة الثالثة فتتعلق بالموقف الذى ينبغى أن نتخذه اليوم من الثقافة الغربية، وهو موضوع معقد ويستحق دراسة قائمة بذاتها، ولكننا قد نقول بصفة مؤقتة وعلى سبيل الاختصار إنه لا مفر فى هذه الحالة من أن نشتبك مع الثقافة الغالبة فنتعلم عنها وننازعها بقدر الإمكان فيما لديها (أو فيما آل إليها) ويقتضى هذا أن نتخذ من الثقافة الأوروبية موقفا إيجابيا فنشتبك معها فى بناء العلوم والحضارة. فذلك هو الإطار الوحيد الذى يحدد لنا ما نأخذ وما ندع من التراث وما نأخذ وما ندع من الغرب دون تعسف أو تعصب أو تلفيق .

ويترتب على ذلك أن جميع الجهود التى تبذل اليوم لبحث مشكلة التراث والمعاصرة - أو الأصالة والتجديد - تبقى علامة على العقم والتخلف طالما اقتصرت على المستوى النظرى البحت ولم تنخرط فى عملية البناء والتزمت بمقتضياتها، وذلك أن معاناة الضرورات التى تمليها عملية البناء هى الطريق إلى الحرية والإبداع، وما أشبهنا، إذ نحاول حل المشكلة على المستوى النظرى البحت، بمن يتساءل عن أى المذاهب يتبع فى الرقص وعن سبل الإبداع فى هذا الفن دون أن يعانى ضروراته ودون أن يلتمس هنالك منافذ الحرية، وليس لأحد لم يتعلم قواعد اللعب ولم يتمرس بها أن يثور عليها . ■


متى نصلح
التعليم
الأساسي ؟
● اجتماع التلاميذ حول أجهزة الكمبيوتر ليس دليلا على تقدم وتطور التعليم الأساسي.
● هل من الصواب أن تزاحم اللغة الوطنية بلغة أخرى لدى طفل لا يعرف لغته ؟
● تلاميذ الإعدادي لا يعرفون قراءة الأسئلة فهل يستطيعون الإجابة عنها؟
● انسحب طلاب معهد الفنون من الامتحان فسمح لهم بالعودة بصحبة المذكرات !

بقلم

د. محمد رجب البيومى

أكتب هذا المقال وفى وهمى أن كثيرا من القراء لن يصدقوا وقائعه لأنها تقرب من المستحيلات ، ولكنى وجدت بعض الفضلاء يذكرون وقائع متشابهة مما أريد أن أتحدث عنه ، فقلت فى نفسى لقد وجدت نصيرا يحفظ ماء وجهى أمام من يكذبون ، ولهم عذرهم فى التكذيب لأن الأمر كما قال أحمد شوقى عن بعض الأحداث.

تكاد لروعة الأنباء فيها

تخال من الخرافة وهى صدق

أما الذى أريد أن أرويه عن نفسى، فهو أنى وقفت ذات ضحوة عند بائع الخضراوات الذى أشترى منه حاجتى، فوجدته مع ولده الذى يحمل دبلوم التعليم الصناعى ، يملى عليه اسم أخيه ليكتبه على ظرف يتجه إلى السعودية فراعنى أن يكتب حامل الدبلوم الصناعى كلمة السعودية (أسعدية) وأن يخطئ فى كتابة اسم أخيه (مصطفى) فيكتبه (مستف) فصحت بالكاتب ، أأنت تحمل الدبلوم؟! فقال نعم . فقلت أأنت تحمل الابتدائية فالإعدادية فثانوية التعليم الفنى ولا تستطيع أن تكتب اسم أخيك ؟! فقال كلنا فى الامتحان يساعد بعضنا بعضا! فسكت لم أنطق ، وكتمت السهم فى كبدى .

لم أجرؤ على أن أكتب هذه الواقعة المزعجة ، مع شدة ألمها المبرح فى نفسى ، ثم مضت الأيام ، فقرأت مقالا للأستاذ صلاح قبضايا بجريدة الوفد الصادرة بتاريخ ٢٠٠٥/١/٦ فوجدته يتحدث عن واقعة ملموسة هى أن عددا من طلاب الشهادة الإعدادية عجزوا عن كتابة أسمائهم فى الاستمارات التى تقدموا بها إلى الامتحان ، وقد أثار ذلك مع الدكتور حسين كامل بهاء الدين قبل أن يترك الوزارة ، وقرر أنه سيجرى تحقيقا مع المدارس التى ينتمى إليها التلاميذ ، ويسأل كيف نجحوا فى الشهادة الابتدائية . ثم فى الأولى والثانية فى المدرسة الإعدادية دون أن يتمكنوا من معرفة كتابة أسمائهم فقط، لا أن يتمكنوا من قراءة الاسئلة والإجابة عنها ! ومضى الحادث دون نتيجة ما . ثم تكرر اليوم فى عهد الدكتور أحمد جمال الدين موسى ، والمأساة هى المأساة ! مما دفع الأستاذ صلاح قبضايا إلى إعادة الشكوى من جديد !

وما مر أقل من أسبوع حتى نشرت الجمهورية أن السيد محافظ الفيوم كان

يمر بلجان امتحانات الإعدادية ، فرأى التلاميذ لا يعرفون قراءة الأسئلة، وهم ساكنون لا يكتبون ! فالتلميذ المسكين لا يعرف قراءة السؤال ، وطبيعي أنه لن يعرف الإجابة فضلا عن كتابتها وقد أمر بالتحقيق وأشار بضرورة دورات مدرسية فى إجازة نصف العام ، ليتعلم التلاميذ قراءة الأسئلة ! وهذه الدورات التى تتم فى خمسة عشر يوما لا يمكن أن تكون علاجا شافيا لمحو الأمية لدى التلاميذ.

إكرام لجنة الامتحان

وأضيف من عندى ما يتكرر كل عام فى أكثر لجان الإعدادية والثانوية بالريف فى أكثر المحافظات حيث يقوم العمدة أو شيخ البلد أو أكبر رجالها المرموقين ، بجمع أموال كثيرة من أولياء الأمور ، فتكون حصيلتها إكرام لجنة الامتحان فطورا وغداء وعشاء ، ليتركوا التلاميذ فى حرية تامة ، فيأخذ كل من جاره ما يستطيع أخذه من الإجابة ، بل وليتغاضى المراقب عن أجوبة مكتوبة تأتى من الخارج خاصة ببعض المحظوظين ، وتمضى أيام الامتحان على هذا النمط المخجل ، وقد يحمل المراقبون بعض الهدايا ، ممن أظهروا مهارتهم فى تيسير هذا البلاء ، وقد علمت أن بعض التلاميذ لا يكتب شيئا ، لأنه لا يدرى أى شئ ، فيسمح المراقب لجاره أن يأخذ ورقة الإجابة ، وينقل إليها صورة مما كتبه ! دون حرج ! وقد برر أحد هؤلاء المزورين هذا الإثم الفاضح ، بأن الرحمة تعم ، والنجاح للجميع ! فليست هناك محاباة لإنسان دون إنسان !

والتعليم العالى أيضا

وأستطرد قليلا ، فأقول إن البلاء لا يقف عند مدارس الأقاليم بل يتعداه إلى الكليات المرموقة فى التعليم العالى، والحوادث المشهورة أكثر من أن تسرد، وأضرب المثل لواحدة منها بما جاء فى جريدة الجمهورية الصادرة بتاريخ ٢٠٠٥/١/١٦ تحت عنوان (فضيحة فى معهد الفنون) !

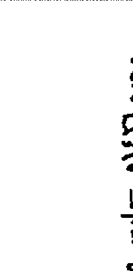
«كان الأربعاء الماضى موعد امتحان مادة علم الجمال التى يدرسها د. وائل غالى الأستاذ بمعهد السينما لطلبة السنة الثالثة بمعهد الفنون المسرحية ففوجئ الطلاب بأسئلة عن أجزاء من المقرر لم يتم تدريسها، حيث إن أستاذ المادة لم يلتق بطلبته إلا مرتين فقط، الأولى بمعهد السينما ليسلمهم ملزمة من المقرر ، والثانية بمعهد الفنون ليستكمل حديثه عن مواد الملزمة ، وقد انسحب الطلبة من قاعة الامتحان ورفضوا الإجابة . وتظاهروا أمام قاعة الامتحان وقد ضغط عليهم عميد المعهد بعد الوعد والوعيد حتى دخلوا قاعة الامتحان بعد أن ألغى الأسئلة التى جاءت خارج الملزمة ، وسمح للطلبة بالدخول

باللزمة والنقل المباشر منها ، وكانت النتيجة أن أوراق إجابة (علم الجمال) للسنة الثالثة ، جاءت متشابهة ، وطبق الأصل تماما من مادة الملزمة» .

فهذا معهد عال بأرقى أحياء القاهرة . وليس مدرسة قروية في أقصى الريف ، لا يحضر الأستاذ في الترم الأول غير مرتين ، مرة لتوزيع الملزمة ، ومرة لشرح ما بها ، ثم تجئ الأسئلة فيما لم يشرح ولم يدر عنه الطالب شيئا من قبل ، وهذا كله هين بجوار النتيجة النهائية ، وهي السماح للطلاب بالغش الصريح من الملزمة المنكودة ، واتفاق الإجابات لدى الجميع، حرفا حرفا ! ولم يسأل أحد أين المقرر الدراسي ، ولماذا أهمل ؟ وأين كان المدرس في هذه الأشهر التي لم يقم فيها بغير درس واحد ، لأن الدرس الأول كان لتوزيع الملزمة ، وتسلم أجر الكتاب الذي لم يطبع جميعه بعد ؟ ثم ما هذا الإجراء الذي اتخذه العميد بإباحة النقل الحرفي دون مبالاة !! إنني والله لا ألوم شيخ البلد في القرية حين جمع النقود ليطعم المراقبين ، قدر ما ألوم المدرس والعميد!

بين المنهج والدرس

على ان المشكلة تنحصر في هذا الانفصام التام بين من يضعون المناهج للدراسة في المدارس في مختلف مراحلها ، وبين من يقومون بالتدريس ، ويعرفون قدرات التلاميذ العقلية عن كثب ، فالذين يضعون المناهج يعقدون المؤتمرات التربوية ، ليتحدثوا عن وجوب التطور التعليمي لمواكبة التقدم وهم يقولون لابد من أن يدرس التلميذ الابتدائي في مدرسته ما يجد من مخترعات العصر من كمبيوتر ، وفيديو وأن يعرف ما يمت إلى الانترنت وطرق الاستخبار الحديثة حتى يكون كزميله الأوروبي وفعلا تم ذلك في كثير من المدارس ، وتباهت بعضها بصور للتلاميذ الذين يجتمعون حول الكمبيوتر، ويزاولون أعمال الانترنت والفيديو ، فنشرت الجرائد بعض هذه الصور على أنها الدليل الملموس على تقدم التعليم الأساسي في مصر ، وهذا محض تزييف للحقائق الصارخة، لأن مدرسة أو مدرستين في القاهرة والإسكندرية لا تمثلان آلافا من المدارس في الجمهورية ، وأكثرها تجمع من الفصول ما يضم الواحد منها سبعين تلميذا ، يقف منهم ثلاثون، حيث لا يجدون المقاعد ، والمدرس بطبيعة الحال ، لا يعطي شيئا في هذا الجمع الحاشد ، فيكتفي بكتابة العنوان على السبورة ، ثم يعطي عنوانه للتلاميذ كي يلجأوا إليه في الدرس الخصوصي لمن يقدر عليه ، وأثناء الامتحان يرعى تلاميذه الذين آووا إلى منزله ، فيبذل جهده في انجاحهم بما يملك من وسائل المجاملة المشتركة بين الزملاء ! فليت شعري أيوجد لدينا مجال للحديث عن الفيديو والكمبيوتر والإنترنت ، وضرورة اطرادها في المدارس على مختلف المستويات ، ونحن لا نعلم حروف الهجاء ، ولا نضبط أعداد الحساب !





والدليل المفجع بين أيدينا الآن ، حين نرى من يتقدمون إلى امتحان الاعدادية لا يعرفون كتابة أسمائهم ! والجاهل الذى لم يتعلم فى مدرسة ، يستطيع أن يكتب اسمه بالتقليد ، دون أن يعرف حروف الهجاء! ليكون بدلا من الختم القانونى!

اللغة الأجنبية تزاحم

وبمناسبة تقرير اللغة الانجليزية بالمدارس الابتدائية أتساءل : هل من الصواب أن تزاحم اللغة الوطنية بلغة أخرى لدى طفل يزحف زحفا ، فى تفهم حروف الهجاء فى لغته ، ومن هؤلاء العباقرة الذين سنوا ذلك فى حماسة ملتهبة ؟ وهم أبعد الناس عن معرفة مدارك الأطفال ومقدرتهم المحدودة على الاستيعاب ، لقد كتبت فى خطر هذا الاتجاه منذ أطلت رءوسه فى الثمانينات . وكان مما قلت فى جريدة الجمهورية الصادرة بتاريخ ١٩٨٠/٣/٣ تحت عنوان (تدريس اللغة الانجليزية فى المدارس الابتدائية) .

«لقد قامت فلسفة اللغة الواحدة (وهى اللغة الوطنية) فى المرحلة الأولى على قاعدة علمية مسلّمة ، وهى أن اللغة هى أداة التفكير وأن التفكير لا يطرد فى ذهن الإنسان طفلا كان أو رجلا إلا إذا وجد من ألفاظ اللغة ما يستعين به على تصور ما يحس وما يريد ، وتلميذ المرحلة الأولى فى حاجة إلى هضم لغته أولا ، ليستطيع تصور ما يريد أولا ثم التعبير عنه ثانيا . فكيف يكون الأمر لو أرهقنا التلميذ بدراسة لغة ثانية ، وهو لا يستوعب من ألفاظ لغته الأولى ما يعينه على أداء أفكاره ؟! .. كما أننا الآن لا نجد من يستطيع تدريس اللغة الانجليزية فى المدارس الإعدادية على نحو منشود ، فكيف نجد من يستطيع تدريسها فى المدارس الابتدائية ، والذين يظنون الحل فى إطالة المدة فى تدريس الانجليزية ابتدائيا وإعداديا وثانويا ينسون أن الوقت ليس هو المشكلة ولكن المشكلة هى استعداد التلميذ العقلى من ناحية ، وفقدان من يتقن التدريس على وجهه الصحيح !»

وأقول بعد ذلك إنه لم يستفد من تدريس اللغة الانجليزية فى المرحلة الابتدائية إلا أصحاب الدروس الخصوصية وحدهم . على أنهم لا يفهمون قدرات التلاميذ ، فيقدمون إليهم ما يفيد ، بل يجبرونهم على حفظ الكلمات ، ومحاولة كتابتها على نحو من العجلة المقيتة ، لأن المتزاحمين كثيرون ، والإخلاص فقيد .

الماضى الجميل

وإذا كان لنا أن نستفيد من الماضى .. والماضى القريب . فلنرجع إلى المدارس الإلزامية فى الثلاثينات والأربعينات التى

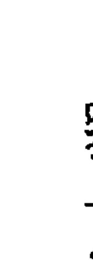
كانت تمثل المدارس الابتدائية الآن ، فنتساءل كيف أدت هذه المدارس دورها بنجاح تام ؟ بحيث كان المتخرج فيها يقرأ الصحف . ويطالع الكتب ويفهم مسائل الحساب المعقدة فى الكسب والخسارة والربح البسيط والمركب ، وإن نجاح هذه المدارس يرجع إلى أمرين هما المدرس، والمنهج .

أما المدرس ، فلم يكن يحمل غير كفاءة التعليم الأولى ، وهى شهادة تأهل لها خمس سنوات ، بعد أن تخرج فى المدرسة الإلزامية واجتاز امتحانا مبدئيا فى علوم هذه المرحلة . يضم إليها حفظ القرآن الكريم ، وفى مدرسة المعلمين يجمع التلميذ بين علوم الأزهر فى المرحلة الابتدائية من فقه ونحو وصرف وتاريخ وأدب ، وبين علوم المدرسة الثانوية ، إذ لم تكن الإعدادية قد وجدت بعد ، فيدرس الرياضة والمواد الاجتماعية والعلوم ماعدا اللغة الأجنبية، يدرس ذلك كله بجد ، حيث المنهج الملائم ، والمدرس المتمرس ، والمراقبة الدقيقة ، فإذا أنهى سنوات الدراسة ، وعين مدرسا بالتعليم الأولى كان مؤهلا لرسالته بل لقيادة بيئته فى القرية التى تكن له كل تقدير .

يقول الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات عن مدرس هذه الحقبة :

المعلم الإلزامى والطالب الأزهرى هما الشعاع المنبعث من نور الدين والعلم فى القرية ولولاهما لتدجى على القرى ظلام من الضلال والجهل لا يمتد فيه بصر ولا بصيرة ، لأنهما يعايشان سواد الشعب وعامته من الزراع والصناع ، فيوقظان فيهم العقل ، ويحييان الضمير ، ويعقدان الصلة الاجتماعية بين حياة المدينة ، وحياة القرية ، ولو كان للتوفيق كرسى فى الحكومة لا تخذوا من التعليم الإلزامى وحدة ثقافية تبرئ الفلاحين أطفالا ورجالا من الجهالة والمرض . وكان من الممكن أن تعتمد وزارة المعارف على المعلمين الإلزاميين فى تعليم الأطفال بالنهار ، وأن تعتمد وزارة الشئون الاجتماعية عليهم فى تعليم الرجال بالليل .

وأما المنهج ، فهو المنهج الطبيعى الذى لا يثقل التلميذ بحقيبة ملأى بالكتب والكراسات يحملها فوق ظهره ، دون أن يعرف من أثقالها غير القليل ، وقد كتبت فى مجلة الهلال مقالا عن الكتاب المدرسى شرحت فيه ما يلقى على الطلبة من أحجار ساحقة يحتمها منهج لا يبالى مؤلفوه بما يرهق العقول الغضة من كظة تدعو إلى الهذيان ، فلا أعود لما كتبت ، وأذكر أن الكتب كانت لا تتجاوز فى العام الدراسى أربعة كتب صغيرة يحملها التلميذ بين يديه ، وكأنها جريدة الصباح !وإن نظرة واحدة إلى الأسئلة التى تعقب كل موضوع فى كتب اليوم تدعوك إلى الحيرة والدهشة ، أنكر أنى قرأت أسئلة عن موضوع اختاره المؤلفون للدكتور زكى نجيب محمود بالسنة الأولى الثانوية فوجدت من بين هذه الأسئلة الموجهة للطالب ! ماذا ترك



الدك

تـور مـن

المعانى التى تكمل

هذا المقال ؟وهو سؤال لا

يقـدر المدرس أو الموجـه على

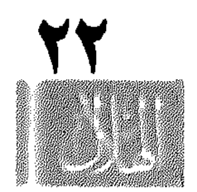
الإجـابة عنه ! كـمـا قـرأت فى السنة نفسـهـا سـؤالا خـاصـا بعـبـد القـاهر الجرجانى ورأيه فى بعض مسائل البيان ، ولا أطيل فى هذه النوادر بل أدعو مخلصا إلى مناهج ميسرة ، وكتب مبسطة على أن نبـدأ قـبل كل شئ بإصـلاح التـعليم الابتـدائى، لأنه الأسـاس الحـافظ للبناء المـمتد إلى مـا يليه ! ومـا جـاء الضـعف للمدارس الإعدادية والثانوية والجامعية إلا لأن البناء العلمى قد بنى على شـفا جرف هاو !

ويجب ألا نضع رءوسنا فى الرمـال حين نتوهم لدى الطفل قدرة فوق طاقتـه فنقـتـرح له من المناهج ، ونسن له من الأبواب ، مـا ينوء به ، ولدينا من رجـال التربية من يستطيعون القيام عن جدارة بتـحـديد مـواضـع الخطأ والصـواب فـيـمـا نزاوله من المقررات ، فـقد راعنى أن أجـد ثلاثة مـجلدات من كـتـاب سـلاح التلميـذ جميعها خاصة بتلميذ السنة الرابعة من التعليم الابتدائى ، وهى فى مضمونها لا تزيد عن مـحـتـويات الكتب المقـررة لهـذا المسكين ، وتهـافت أوليـاء الأمـور على شرائها لأنها فى رأيهم أقرب الوسائل إلي الحفظ والاستظهـار ، ولابد من رجعة إلى الكتب القديمة التى أشـرت إليـهـا ، والتى أغنت التـلاميـذ فى عهـد الازدهار المدرسى بيسرها وإيجازها ، كما لا أرى مـانعا من العـودة إلى نظام الفـتـرتين فى بعض الأمـاكن التى يزدحم بـهـا السكان ، فذلك أدعى إلى النظام التربوى من فترة واحدة تجمع فصولا تزدحم بالتلاميذ ازدحـامـا يفقد الدرس مضمونه ، ويحول دون الأداء الصـحـيـح، وقـد رأينا بعض الإدارات التـعليمـيـة تزهو مفـتـخرة بأنها قضت على الفترتين فى جميع مدارسـهـا ، وهذا حسن جدا لو لم يكن على حساب الأداء التعليمى المنشود أما أن يتبعه تكدس الفصول بمن لا تطيق من التـلاميـذ ، فـإننا بذلك نحـول دون التلقى المنشود ، ونجعل الأمر صوريا لا نفع منه .

لقـد أكـثـرت من الكتـابة على مـدى شـاسع من العـمـر مـتـحـدثـا عن مـشكلات التعليم فى جميع مراحله ، ولا أزال كـأنى لم أقل شيئا ، بل يزيد من ألمى أن أضطر إلى التكرار فى بعض مـا أقوله لأن المرض الذى أعـالجه يزيد ولا ينقص ، وقد يعـالج بما يضـاعف من شـدته ، وأكـاد أرى من يعترض هازئا من هذا الإلحاح المتواصل ، ولكنى أقابله صـابرا ، ومتذكرا قول القائل :

وتضحك مني شيخة بدوية

كأن ما رأت قبلي أسيرا يمانيا ■



اقـــوال معاصرة

● «تعلمنا هذه الأيام أن نتجرع اليأس كما نتجرع الماء »

الشاعر السورى «أدونيس»

●«النظام الديموقراطى لا يملك أدوات سيطرة تسمح بالقضاء على قائمة تجاوزات السلطة الاقتصادية ، كما فى قصة الملك الذى كان يمشى عاريا قديما ، فالديموقراطية تسير عارية عليلة »

ساراجو
الأديب البرتغالى الحائز
على جائزة نوبل

●«وصيتى إذا طلبها أحد منى هى · إقرأ اقرأ .. اقرأ »

نادين جورديمر
الاديب الجنوب افريقية الحائزة على جائزة نوبل

● «عدوى الأول ، وربما الأوحد ، هو البحث عن المعنى»

الأديب الفرنسى آلان روب جرييه
عضو الأكاديمية الفرنسية

● «الديمقراطية وسيلة للتوافق والاتفاق ، لكنها ليست حلا للمشاكل والتعقيدات ، إنها وسيلة للحلول »

المفكر العراقي فالح عبد الجبار

●«قنبلة الزيادة السكانية تحمل آثارا مدمرة ، وتوابع مزلزلة . تهدر آمال التطوير وتطلعات التصحيح»

الدكتور محسن زهران
أستاذ التخطيط بجامعة الاسكندرية

●التاريخ كائن لا يرحم ، ولا يأخذ بالمثاليات ، لكنه يحترم من يحترم منطقه وقوانينه ، ويكون معه سخيا».

المفكر البحريني محمد جابر الأنصارى

● «البيت هو المؤسسة التى يستطيع الفرد ممارسة استقلاليته فيها بعيدا عن التحديق القمعى لصاحب العمل والدولة ، إنه المجال الخاص فى عالم تزداد فيه العمومية والتطفل

المفكر البريطانى بيتر ساندرز

●الثورات لا تنفجر نتيجة عمل يقدم عليه الحاكم بقدر ما تنفجر لأن السلطة تكف عن القيام بأعمال ينتظرها منها المواطنون»

الباحث الاجتماعى والسياسى بارينجتون مور



أدونيس



ساراجو



نادين جورديمر



الإنترنت

والأصولية الدينية (١)

بقلم
د. أحمد محمد صالح

اخترقت تقنيات القرن الحادى والعشرون كافة المجتمعات، وبعمق شديد، حتى تلك المجتمعات الدينية الصارمة والمكتفية ذاتيا والتى تحاول فصل نفسها عن الخارج، مثل جماعات الأصولية الدينية. وبداية الأصولية الدينية ليست حكرا على دين واحد، بل هى موجودة فى اليهودية وفى المسيحية، وفى الإسلام، وهى أيضا لاتنحصر فى الأديان فقط، بل هى سمة الكثير من الحركات والأحزاب بما فيها حركة الدفاع عن البيئة، ومنتشرة فى العالم بين جماعات عرقية عديدة، وتتلاقى كل جماعات الأصولية الدينية فى خصائص مميزة لها، أهمها صراعها مع الحداثة، والسعى تحركاً باسم قوة عليا تعبر عنها النصوص من أجل ضمان الكلية الشاملة لمبدأ أو إيمان ما، وقد تعطى لنفسها الحق فى فرض معتقداتها، حتى لو احتاج ذلك إلى استخدام العنف. وينتمى مفهوم الأصولية الدينية تاريخياً إلى الجماعات المسيحية. واستخدم مع بدايات عام ١٩١٠، ويعرفها «قاموس روبير» فى عام



١٩٦٦ ، بأنها: «موقف أولئك الذين يرفضون تكييف أى عقيدة مع الظروف الجديدة». وقاموس أوكسفورد، بدوره، يقدم تعريفا لها ويقول: «التمسك الصارم بالمضامين الأرثوذكسية التقليدية، وبحرفية النصوص المقدسة، ومعاداة الليبرالية والحداثة».

الأصولية اليهودية والإنترنت

ومنذ أسابيع نشرت المجلة العلمية «مجتمع المعلومات» فى مجلدها رقم ٢١، يناير ٢٠٠٥، دراسة مثيرة صادرة عن جامعة واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، تحت عنوان «الإنترنت والأصولية الدينية» للباحثين Gad Barzilai, Karinc Barzilai، الأول أستاذة مساعدة فى المعلومات بجامعة واشنطن، والثانى أستاذ فى العلوم السياسية والقانون بجامعة تل أبيب، ويعمل حاليا أستاذ زائر بجامعة واشنطن، وهما زوجان. واعتمدت بيانات الدراسة على سجلات المستعملين للإنترنت فى إسرائيل، وبلغ عدد المبحوثين ١٤ ألف يهودى أرثوذوكسى متطرف، وتبين أن الجماعات الدينية المتطرفة من الإسرائيليين اليهود الأرثونوكس، والذين يتجنبون العالم الحديث وتقنياته، ومنعتهم قياداتهم الدينية بصفة خاصة من استعمال الإنترنت، أنهم نهمين ومتعطشين جدا ومبدعين فى تصفح شبكة الويب، وقال الباحثان أن نتائج الدراسة يمكن أن تسلط الضوء على الجماعات الدينية المتطرفة جدا، والموجودة حول العالم بما فى ذلك الجماعات المتطرفة المسيحية والإسلامية. ونذكر القارىء أن اليهودية كديانة تمثل أغلبية سكان دولة واحدة فقط فى العالم هى إسرائيل (٨٣٪)! وعدد كبير من سكان إسرائيل يعتبرون من فئة بلا ديانة أو فئة الملحدين، واليهود المتدينين يمثلون أقلية فى إسرائيل. المثير للانتباه، أن عدد اليهود الذين يعيشون فى الولايات المتحدة الأمريكية

أكبر من عدد اليهود الذى يعيشون فى إسرائيل، ونسبة اليهود المتدينين هناك أكبر من متيلتها فى إسرائيل! ويقول الفرنسى هايمان اليهودى الاصل ان الاصولية اليهودية تعتبر «أوامر التوراة أهم من الديمقراطية، أو من حقوق الإنسان، هذه الاهتمامات الإنسانية التافهة التى لا تساوى شيئاً أمام الخطط الإلهية»، فعندهم تعاليم العهد القديم، التلمود، بل شروح فقهاء الشريعة تنطوى على إجابات صائبة عن كل قضايا العصر، وينقل هايمان عن إيان لوستيك أنه إذا كانت الصهيونية التقليدية قد رفعت شعار «المهم ليس ما يعتقده غير اليهود، ولكن ما يعتقده اليهود أنفسهم»، فإن الاتجاهات الأصولية اليهودية، رفعت شعار «المهم ليس ما يفعله غير اليهود، ولكن ما يفعله اليهود». وعقيدة طائفة اليهود الأرثونوكس ترفض ذوبان اليهود فى الأقوام الأخرى وتكرس مشاعر الكراهية والاحتقار للآخر من غير اليهود. وهى من أهم الطوائف اليهودية فى العهد الحديث. وتنقسم إلى اليهودية الأرثونوكسية الحديثة واليهودية الحريدية. ومن خصائص الأرثونوكسية: التمسك الصارم بالهالاخاة وهو الجزء التشريعى من التلمود، والتقبل المحدود جدا للحضارة الحديثة، ورفض لأصناف الحضارة غير الأخلاقية. والإيمان بأن الأساليب الحديثة لدراسة الكتب المقدسة خاطئة ومكفرة، ولكن بعض اليهود الأرثونوكس يقبلون هذه الأساليب. هذا وتمثل تلك الطائفة الدينية المتطرفة ٦٪ من سكان إسرائيل، ويعيشون في جيوب مكتفية ذاتيا بالقليل من وسائل الراحة الحديثة، ومنذ فترة طويلة منعهم حاخاماتهم البارزين من استعمال الإنترنت لأى شىء ما عدا العمل. وتقول كارين فى حديث لها عن الدراسة. عندما بدأنا الدراسة، كنا متأكدين أن هذه الجماعة الدينية ترفض تماما كل التقنيات الحديثة، لكننا وجدنا بدلا من ذلك أنهم تجنبوا الإنترنت فى أول الأمر، ثم عدلوا عن رفضهم وكيفوا استعمالهم للإنترنت لتلبية حاجاتهم. وتكشف نتائج البحث عن صدام معقد بين التقنية الحديثة المتمثلة فى الإنترنت وتلك الجماعة الدينية الأصولية المتطرفة، والتى كافحت بشدة من أجل تجنب موضوعات الإلهاء العلمانية المنتشرة على الشبكة. وتبين نتائج الدراسة:

١ – على الرغم من فتاوى الحاخامات بعدم استخدام الإنترنت بصفة خاصة، إلا ان الدراسة وجدت ان ثلث الإسرائيليين الأرثونوكسيين المتطرفين يتصفحون شبكة الويب، وهى نسبة منخفضة للغاية إذا قورنت بمعدل استخدام المجتمع الإسرائيلى عموما للإنترنت، لكنها نتيجة ذات مغزى هام.

٢ – الإسرائيليون الأرثونوكسيون المتطرفون الذين يستعملون الإنترنت لإرسال

الرسائل البريدية الإلكترونية للتفاعل مع غرباء عن جماعاتهم يبلغون حوالى نصف عدد مواطنيهم العلمانيين الذين يستعملون الإنترنت لنفس الغرض، لكنهم على الأرجح أكثر عددا من الإسرائيليين الآخرين من حيث الاشتراك فى منتديات الإنترنت للحوار مع أعضاء من جماعاتهم.

٣ - تستعمل النساء الأرثونوكسيات المتطرفات الإنترنت أقلّ بكثير من الرجال فى جماعاتهم، على الرغم من الحقيقة التى تقول إنّ فى تلك الطائفة الدينية النساء هن اللاتى يقمن بأكثر الوظائف بالمقارنة بأزواجهن من الرجال المشغولين بصفة عامة ودائمة بمتابعة الدراسات الدينية. ويرصد الباحثان بأنّ الرجال يتصفّحون الإنترنت من المكتبات والمقاهى.

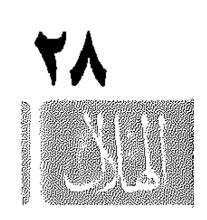
٤ - واتضح أيضا أن ظاهرة الانقسام الرقمى كانت أقل صراحة ووضوحا على طول خطوط الطبقات الاجتماعية بين الأرثونوكسيون المتطرفون بالمقارنة بالإسرائيليين ككل، فباستعمال مؤشرات الدخل الأوطأ والأعلى بين مستعملى الإنترنت فى تلك الطائفة الدينية ظهرت النسب مساوية بشكل تقريبى. ويقول بارزيلى: بعد أحداث ١١ سبتمبر زاد الاهتمام بدراسة ظاهرة الأصولية الدينية، وتوضيح أبعادها. وفى مسح علمى قام به الباحثان لمواقع الأصوليين الدينيين حول العالم، اتضح أن قلة تلك المواقع تروج لنشاطات إرهابية. وجدير بالملاحظة أن الجماعات الدينية المنغلقة على نفسها والمكتفية ذاتيا نادرا ما تتطوع بالمعلومات إلى الغرباء، وهؤلاء الناس غالبا لا يجيبون على استطلاعات الرأى، لذلك نثمن الصعوبات الكثيرة التى واجهت الباحثان لتحديد ١٤٠٠٠ مستعمل للإنترنت من الإسرائيليين الأرثونوكسيين المتطرفين. ونزعم هنا أن النتائج يمكن ملاحظتها علميا على الجماعات الدينية المتطرفة عموما، سواء الإسلامية أو المسيحية لأن جوهر ذهنية التطرف الدينى، كما نزعم واحد فى كل الأديان وهو امتلاك الحقيقة المطلقة، وإن اختلفت تفاصيل تلك الحقيقة من دين لآخر. وأمامنا هذا الفيض من مواقع الإنترنت لجماعات إسلامية متطرفة، تلك المواقع التى يفترض أن توظف فى نشر العلوم وتعميم المعرفة، تم توظيفها فى نشر الدمار «وصور القتل» وقطع الرؤوس، وتطفح فيها الفتاوى التى تحرض على الإرهاب، خاصة تلك الفتاوى المضحكة التى تتوالى من شيوخ الوهابية حول تحريم التليفون المحمول المزود بكاميرا، وتحريم استخدام المرأة للإنترنت بدون محرم، وكلها فتاوى تصب فى الصدام بين ذهنية الأصولية الدينية والتقنيات الحديثة.

وفى فحص دور منتديات الحوار على الإنترنت بين اليهود الأرثونوكسيون

المتطرفين، وجد الباحثان أنها تعتبر مخرجا لهم لإثارة مضايقات مجهولة الهوية يتحدون بها سلطة أعضاء الجماعة، ويعرضون فضائحها ويشهرون بها، وما كان يتجاسروا أن يجعلوا هذا التحدى شخصيا، لكن أغلب الأرثوذوكسيون المتشدّدين يستعملون الإنترنت لتبادل المعلومات العادية حول أحداث الطائفة، من شريعة وشئون وطنية. وفى البحوث والكتابات الحديثة. وفى البحوث والكتابات الحديثة (ما بين عام ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤) والتى تناولت تأثير الإنترنت على المجتمعات والأديان اعتبرت الإنترنت صمام أمان للطوائف الدينية، حيث تتيح الفرصة لسماع الأصوات الداخلية المختلفة داخل الطائفة بدون الحاجة لمواجهات عنيفة داخل الجماعة. والمفارقة هنا أن تقنيات المعلومات المتمثلة فى الإنترنت أثرت تماما على تلك الجماعة الدينية المتطرفة، واقتحمت خصوصياتها، ولكنها فى نفس الوقت دعمت التماسك الداخلى لها. ونزعم أن الإنترنت تتيح المجال للجماعات الدينية المختلفة بعرض تراثها الدينى من كتب مقدسة، وشرائع، وفتاوى وعبادات، وطقوس، وشعائر، وشروح، وتفاسير، وتواريخ، وسير.. إلخ فى فضاء الإنترنت لتعليم وهداية أتباعها، ونشر دعوتها بين الآخرين. لكن فى نفس الوقت تعطى الإنترنت الفرصة للآخرين خاصة العلمانيين بأن يكون هذا التراث الدينى فى متناول يدهم، يأخذونه بالنقد والتشريح، لهدم قناعات تلك الجماعات بأنها تملك الحقيقة المطلقة.

التفاعل بين الدين والتقنية

ونرصد فى الكتابات الكثيرة عن العولمة، أن الإنترنت والأصوليات الدينية هما من مظاهر ونتائج العولمة، فقد حذر ألفن توفلر فى كتابه الشهير «السلطة الجديدة» من تصاعد الأصوليات FUNDAMENTALIST على عتبة الثورة المعلوماتية.. هذا ومنذ أن تطورت وتوسعت تقنيات فضاء الإنترنت من برامج وشبكات اتصال محلية وعالمية، والتفاعل بين مستحدثات تقنيات المعلومات والدين يدرك فى أغلب الأحيان ويفهم كمتناقضين، خصوصا بين التقنية والممارسات الدينية الأكثر محافظة وتزمتا. والملاحظة الأكثر بروزا هى التناقض والنزاع المحسوس بوضوح بين الأصوليّة الدينية وتقنيات الاتصالات. ورغم ذلك ستبقى الأديان دائما طريقة للحياة ذات مغزى حول العالم ولا يستثنى من ذلك عالم الإنترنت. وبينما السياسات الوطنية والدولية لتقنيات المعلوماتية تروّج وتسير نحو عولمة وتكييف موضعى لمعايير وتطبيقات واستخدامات الإنترنت، نجد الجماعات الدينية المحليّة، خصوصا الأصولية، تقاوم مثل هذه السياسات بشدّة لأنهم يدركونها كتهديد لثقافاتهم وممارساتهم المحليّة وإذا نظرنا إلى

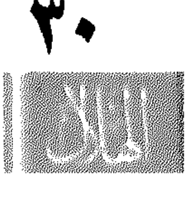


الإنترنت كظاهرة مركزية للحداثة المعاصرة فى تفاعلها مع ممارسات الأصولية الدينية التقليدية، تتساءل الدراسات عن الكيفية التى تتم بها التفاعلات الواسعة بين الأصوليّة الدينية والإنترنت، وإذا كانت هذه العلاقات يمكن أن تتحول إلى مصالح يتم فيها تكييف الإنترنت وإعادة بناءها ثقافيا وتعديلها وتكيّفها وفقا لحاجات جماعات الأصولية الدينية!؟

وكما ذكرنا أن الأصوليّة الدينية هى نظام للقيم المطلقة وممارسات عقائدية حول الإله تعتمد على النصوص القانونية المقدّسة بشدّة، ويوجد بها مستوى هامّ من العلاقات المترابطة والمنسجمة بين أعضاء الجماعة وتصل غالبا إلى علاقات نسب وقرابة، وهى علاقات منعزلة تماما عن العالم الذى يحيط بها، مع انضباط جماعى صارم، ومؤسس على تدرج سلطة أبوية تميّزها فى أغلب الأحيان. بالمقابل، العكس تماما فى فضاء الإنترنت الذى يدرك كإنعكاس لنتاج المعاصرة والحداثة العلمية. ويعتبر العديد من المراقبين والباحثين أن فضاء الإنترنت التخيليّ يمثّل ويجسد الحريّة الفردية، وشمول المعرفة، والقابلية للحركة الاجتماعية والاقتصادية، والمساواة، والفوضى اللانهائية، وتعدد الجوانب، وسهولة التفاعلات بين الأشخاص والمجموعات. وينظر الأصوليون الدينيون للحداثة على ما يبدو كمفهوم أقرب للكفر والزندقة، بل يمكن أن نعتبر الأصولية الدينية ردّ فعل على الحداثة نفسها، وهى دائما مرتابة من التقنية وخاصة فضاء عالم شبكات الاتصالات، لأنهم يعتبرونه تهديدا للمحافظة على موروثهم الثقافى والدينى. والسؤال كيف يتفاعل التناقض ويبرز فى النشاط البشرى، وبشكل أكثر تحديدا كيف يتصالح ويتوافق الانضباط الاجتماعى الصارم وتقييد الحريات الفردية فى الأصولية الدينية مع الحداثة والعلمانية وتقنيات الاتصال؟! وهل التكنولوجيا تؤثر غالبا على حياة البشر؟! بل هل التكنولوجيا تشكل التاريخ؟! حيث أظهرت عدة دراسات على التليفون المحمول كنموذج لتقنيات الحداثة وجود توحد بين الانسان والتقنية، ورصدوا ثلاث سمات تصف التفاعل بين تقنيات الاتصال والنسق الاجتماعى والمؤسسى: أولا اتصال دائم بين البشر من خلال التقنيات النقالة والتى تعيد تشكيل حدود النطاق العام والخاص. ثانيا ارتباط وتعلق البشر بالتقنية ليس فقط على أساس وظائفها اليومية لكن أيضا بارتباطهم واحتضانهم للقيم والمتضمنات التى تروّج لها التقنيات خلال أخلاقيات الاتصال الدائم. ثالثا، حتى أولئك الذين يرغبون فى تجنّب، وإهمال، والهروب من التكنولوجيا أو حتى مقاومتها، يتأثرون بها بعمق شديد. لكن هل تنطبق تلك السمات على التفاعل بين الإنترنت والأصولية الدينية؟! وفى دراسة بارزيلى

وزوجته وجدوا عكس ما وجدته دراسات المحمول، فلم يجدوا هذا التوحد بين التقنية وثقافة البشر، فبعد تحليل منظّم وفحص تجريبى لمرجعيات الطائفة الأصولية الدينية اليهود الأرثونوكس، أنتهوا إلى المقولة التالية: أن القيود الثقافية لجماعة الأصولية الدينية تقاوم بشدة تقنيات الحداثة فى أول الأمر، ثم تتأثر من قبل الإنترنت بواسطة عمليات مجتمعية معقّدة تكيّف الإنترنت لإنجاز حاجات الجماعات الدينية الأصولية، وفى عملية التحوّل هذه تصبح الإنترنت نوعا جديدا ومختلفا من التقنية يناسب ثقافة الأصولية الدينية. ووجدوا فى دراستهما أن ثقافة الأصولية الدينية تعدّل التقنيات وتمنحها سياقا مجتمعيا يناسبها. وهكذا تصبح الإنترنت منظومة تقنيات مثقّفة مختلفة فى سياقات ثقافية متباينة. بشكل محدّد أكثر، ناقش الباحثان بأنّ تطبيقات الإنترنت خاضعة للتعديلات الثقافية، وتعالج وتكيف وفقا لتعليمات ولوائح منضبطة مجتمعيا ومحليا. وتتم هذه العمليات بطريقتين: بينما تموضع الجماعة التقنية وتكيفها محليا، نجد الجماعة بنفسها تعيد تشكيل نفسها لتصبح جزءاً من عالم معولم. وتصبح التقنية المثقّفة أو بمعنى أدق المكيفة مطلبا لجماعات الأصولية الدينية لكى يكونوا ضمن حدودهم الداخلية والخارجية التقليدية. والتكيف الثقافى للتقنية، أو التقنية، هو تكييف المنتج بالتعديل والتحوير وبما يتضمنه من برمجيات، ووثائق، وأدوات ذات علاقة مثل الألوان والصور والتأثيرات الصوتية، والتواريخ، والتقويمات، ووحدات القياس، والترقيم، والأرقام العددية، والإجراءات القانونية فى صيغ وسياق ملائم ثقافيا. وجادل الباحثان حول المدى الذى يمكن أن تعدّل فيه التقنية، ويخلق الفرص لـ أعضاء الجماعة لإبداء للتعبير عن أنفسهم.

الصدام بين جماعات الأصولية الدينية وفضاء الإنترنت



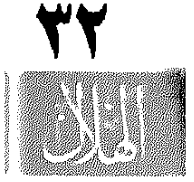
أشار العديد من الباحثين فى علوم السياسية إلى أن مفهوم الجماعة أو الطائفة الدينية سبق مفهوم الدولة القومية، ورصدوا الجماعة أو الطائفة الدينية كالشكل الأقدم لهوية الجماعات البشرية. وفى الثقافة الشعبية، يدلّ مفهوم الأصوليّة الدينية فى أغلب الأحوال على التطرّف السياسى والعنف، والإرهاب. على أية حال، نحن نتعامل فى هذه العجالة مع سمات أوسع كثيرا لمفهوم الأصوليّة الدينية. على مستوى أساسى، الأصوليّة الدينية جوهريا مدخل محافظ تقليدى جدا ومقاوم لتغيير النصوص الدينية خلال أى محاولة لتجنّب وتدارك التصادم مع الحداثة والوصول إلى حل واقعى وتوفيقى معها. لذلك قد تدرك وتفهم الأصوليّة التصادم مع الحداثة والوصول إلى حل واقعى وتوفيقى معها. لذلك قد تدرك وتفهم الأصوليّة الدينية كردّ فعل على الحداثة مستهدفة

حفظ القيم الدينية ضد إغراءات الحداثة العلمانية، وتبين أدبيات الأصولية الدينية أنه تحت بعض الظروف، قد تكون تلك الجماعات الدينية متصلة على الإنترنت وقد لا تكون متصلة لكن التفاعل بين جماعات الأصولية الدينية على الإنترنت وبين جماعات الأصولية الدينية غير المتّصلة أقل وضوحا. والحقيقة هناك القليل من الأبحاث حول الدين والإنترنت، ويحتاج الباحثون والمفكرون لفهم تشكيل الهوية الدينية على الإنترنت إلى الكثير من الجهد العلمي. وحددت عدة دراسات، منها دراسات الباحثان برازيلي أربعة أبعاد اجتماعية وسياسية تميز جماعات الأصولية الدينية في تفاعلها في سياق الإنترنت قد تمكّننا من فهم معنى الإنترنت كتقنية مثقّفة، وهي: الهرمية والتدرج، النظام الأبوي، الانضباط، العزلة. ولضيق مساحة النشر، نناقش في تلك العجالة الخاصية الأولى، ثم نتناول بقية الأبعاد بالتحليل في العدد القادم.

الهرمية والتدرج في السلطة

تتميز جماعات الأصولية الدينية بهرمية شديدة في السلطة، تستند بشكل رئيسي على تبعية وخضوع مجموعات كبيرة من الأعضاء إلى سلطة نخبوية لها قدسية في أغلب الأحيان، مثل الكهنة، والرهبان، الوعاظ، والقساوسة، والشيوخ وعلماء الدين، والدعاة في الإسلام، والحاخام في اليهودية والأسقف والقسّ في المسيحية والبوذية، وكما يشير أحد مؤسسي علم الاجتماع في أوروبا، ومن أكبر علماء الاجتماع في كل الحقبة المعاصرة، عالم الاجتماع والاقتصاد الألماني ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) إلى أن الهرمية المعتمدة على السلطة المقدسة لقوامة مؤثّرة، لها القدرة على دعم الشرعية وتوليد الطاعة من خلال العقيدة الدينية. وطبقا لفكر أميل دور كايم (١٨٥٩ - ١٩١٧) الفيلسوف الفرنسي، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث يعتبر مفهوم الحداثة بالضرورة يعلمن المجتمع الإنساني ويضعف بالتالي هرمية السلطة الدينية، وببساطة شديدة وقد تكون مخلة فإن هرمية السلطة الدينية المستندة على النخبة المقدسة، هي التي تسيطر تماما على تدفق المعلومات داخلها. ومن البديهي واستدلالا تكون الرقابة مفروضة أيضا على الإنترنت داخل تلك الجماعات، وعادة ما تستهدف تلك الرقابة الحد وتقييد إمكانية الوصول إلى مصادر المعلومات، من خلال آليات مثل المنع والغلق والترشيح والفلترة، وتقسيم نطاقات البث والسيطرة والتحكم على البنية التحتية للشبكة. وفي بعض الجماعات الدينية، مثل الحركة الدينية أميش Amish (نشأت في أوروبا ١٦٤٤ - ١٧٢٠، وبدأت كحركة إصلاحية داخل الحركة الدينية المينونايتي Mennonite في جنوب الراين بسويسرا، وانشقوا وهاجروا إلى أمريكا مع بدايات

القرن الثامن عشر)، وأيضا في بعض الجماعات الإسلامية الأصولية أو المحافظة جدا، تمنع فيها ببساطة القدرة على الوصول إلى الإنترنت بعدم توفير بنية تحتية تكنولوجية ملائمة. وحتى لو توفرت قدرة الوصول تمارس تلك الجماعات الدينية الرقابة على الإنترنت من خلال آليات حذف المعلومات بعد أن ترسل للشبكة أو توقيع عقوبات على المتجاوزين، لأن النخب الدينية خائفة بشدة من أن تخسر السيطرة على تدفق المعلومات ضمن حدود جماعاتهم الدينية، ويعتبرون الإنترنت تشكّل تهديدا على ثقافة الجماعة الدينية وتتحدّى شرعيتهم. لكن الدراسات بينت أن الجماعات الدينية الأكثر عزلة وانغلاقا لا تستطيع منع أعضائها من التردّد على عالم فضاء الإنترنت، حيث اتضح أن الجماعات الدينية الأرثوذكسية الأكثر تطرفا يستعمل أعضائها الإنترنت عالميا لأغراض مختلفة، تتراوح من التجارة الإلكترونية، وطلب المعلومات، الترفيه والتسلية، النقاش والجدال، الحج التخيلي، والمعارضة ضدّ جماعاتهم والارتباط الاجتماعي مع الغرباء، وهي كما نرى أنشطة مأخوذة من فضاء الإنترنت ذات السمة العلمانية، لكن تقنيات المعلومات، والمعلومات نفسها تم تحويرها وتعديلها خلال عمليات تموضع محلي للتكيّف مع الخصائص المعيّنة للجماعات الدينية المختلفة. واتضح أيضا أنه حتى لو وصلت مراقبة الجماعات الدينية للإنترنت إلى شروطها القصوى، فإن أعضاء تلك الجماعات يجدون الوسائل الملائمة للمراوغة من تلك الرقابة التي تحرم وصولهم إلى مواد معينة باستخدام تطبيقات تناقض تلك الرقابة، ويتحدون بها جماعتهم ومبادئها الأساسية! ومن ناحية أخرى تخدم تقنيات المعلومات وتحديدا الإنترنت هرمية السلطة من خلال أدوات تضفي الطابع الشخصي ضمن سياق المحتوى، على سبيل المثال، النخبة الدينية قد تستعمل تقنيات وأنظمة معلومات لنشر معلومات ذات طبيعة شخصية إلى التابعين المستهدفين لأغراض التربية والتعبئة العمومية. والجماعة الدينية كمجتمع محلي قادرة على تثبيت أوامر الترتيب الهرمي للسلطة وهي متصلة على الإنترنت، بنفس القوة التي تحدثها بها وهي غير متّصلة، بعرض وتقديم خدمات افتراضية تخيليّة لأعضائها، مثل الصلاة من على بعد أو الصلاة الإليكترونية والاتصالات، والمشاورات على الإنترنت مع السلطات الدينية الأعلى، التي كانت تستلزم لحدوثها قبل الإنترنت المواجهة الشخصية. ورصدت تقارير بحثية أنّ النخب الدينية متلهّفة جدا وتواقة لاستعمال مواقعهم على الإنترنت لزيادة وجودهم ونشر رؤيتهم وتوضيح اعتقاداتهم بين أفراد جماعاتهم المحليّة، واتضح أنهم الأكثر استعمالا لأشكال الاتصال ذات الاتجاه الواحد مثل إرسال الخطب والمواعظ أو

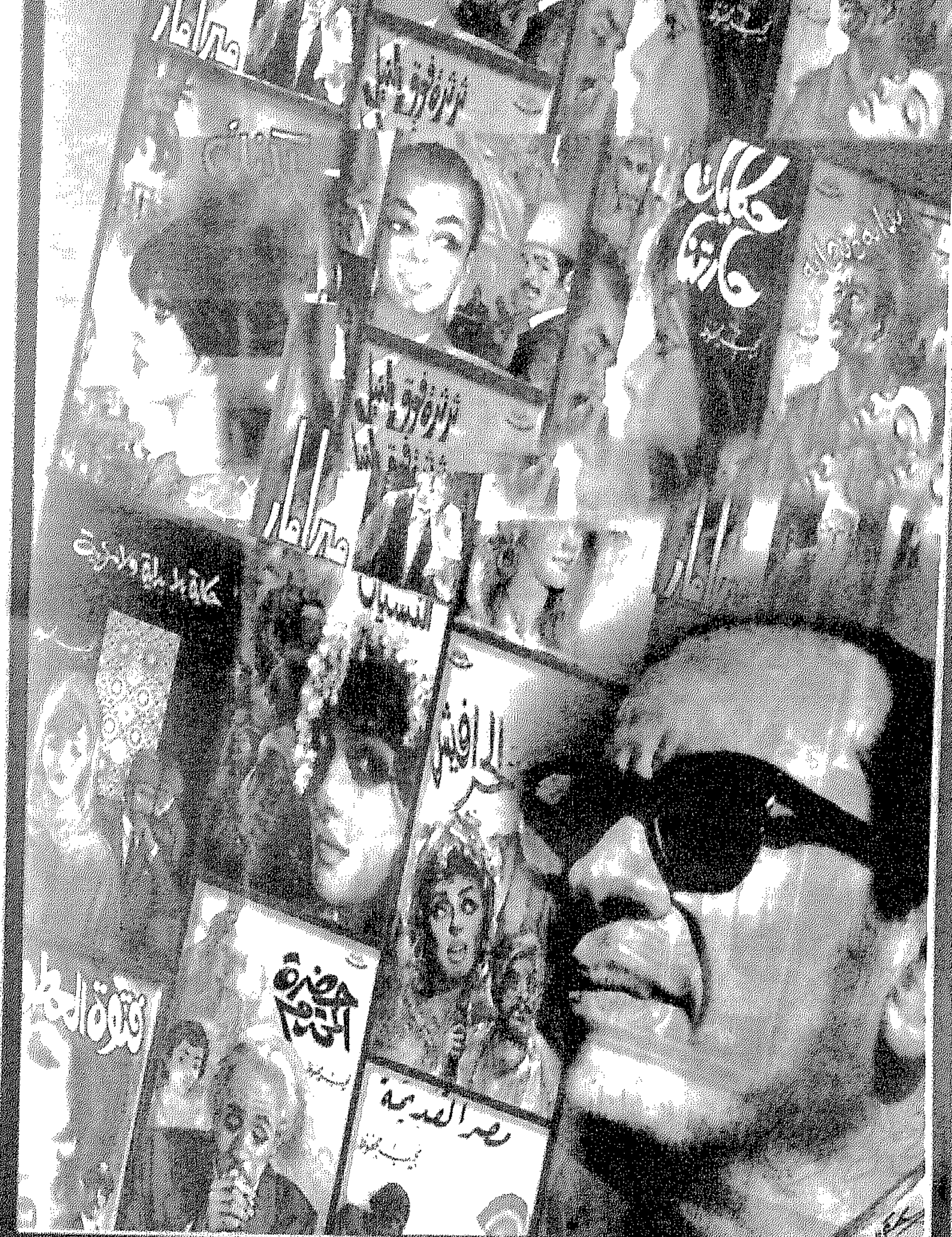


المعلومات الأساسية حول العقيدة، بدلا من الاتصالات الروحية ذات الاتجاهين القائمة على التفاعل مثل المناقشات الروحية، الصلاة على الإنترنت، أو جمع تبرعات. ودراسات أخرى بينت أن أكثر تطبيقات الإنترنت استعمالا من قبل النخب الدينية هو استعمال البريد الإليكترونى لتبادل المشورة بين أفراد النخب الدينية نفسها، ولتعبئة المستجيبين من التابعين وتشجيعهم لحضور الطقوس الدينية فى أماكن العبادة، ويستعملونها أيضا لإرسال التصريحات والخطب والمواعظ المهمة، فالفوائد التى كسبتها النخب الدينية بالسماح بالاتصال بالإنترنت أكثر ربحا بالمقارنة بالتكاليف التى خسروها، وهى فقدان بعض السيطرة، خصوصا عند استعمال تطبيقات إنترنت صارمة ومقيدة. وهكذا تستعمل الجماعات الدينية الإنترنت، وهى مازالت محافظة على أنماطها المؤسسية الأصلية للتدرج وهرمية السلطة.

عموما ربما يقال إن جماعات الأصولية الدينية فى استعمالها للإنترنت هى جزء من عمليات العولمة، ومرتبطة بها، وفى نفس الوقت تحافظ على هيكل قوتها وسلطتها. هذا وتوفر كل تطبيقات الإنترنت أنماطاً مختلفة من أشكال الاتصال يشارك فيها أعضاء الجماعات الدينية من خلال الحوار والمناقشات الجماعية العامة، على سبيل المثال التطبيقات المزودة بمنصات للتفاعل الآنى بين العديد من المستعملين منتديات الحوار، ومجموعات الأخبار، وهى على الأرجح تطبيقات تسهل وتمكن دخول أعضاء جدد للجماعات، وفى الوقت نفسه خروج أعضاء منها. وإذا كانت العولمة هى: نمو الرأسمال الاجتماعى محليا، وارتباطه من على بعد مع محليات أخرى من خلال تقنيات الاتصالات والمعلومات، تزعم العديد من الدراسات أنه من خلال تقنيات المعلوماتية تتم عولمة جماعات الأصولية الدينية، وذلك يعنى أن تتم داخل جماعات الأصولية الدينية عمليات ومعالجات ذات طابع عالمى ولكنها تحقن انتقائيا وجزئيا داخل الطابع المحلى للجماعة، ووفقا لذلك قد تضعف هرمية وتدرج السلطة داخل جماعات الأصولية الدينية نتيجة اتصالها بالإنترنت ذات الطابع العولمى، لكن تلك الجماعات مازالت محافظة على هرمية السلطة فيها، ملخص الموضوع أن الإنترنت يمكن أن تبنى ثقافيا بطرق مكيفة مع حاجات السلطة الدينية فى جماعات الأصولية الدينية .

يتبع العدد القادم.

■



إبداع الحلم وأحلام المبدع

بقلم
د. يحيى الرخاوى

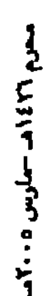
حين طُلب إلىّ في الهلال أن أسهم في هذا العدد، تصورت من بعض ما اقترحوه أنه علىّ أن أشترك في «الفتوى» حول طبيعة (نفسية!!) إبداع محفوظ في هذه الأحلام أو في غيرها، فاعتذرت، واقترحت أن أقدم لمحة عن تصوري «كيف ساهمت الإعاقة الاضطرارية - في الرؤية والسمع والأداء اليدوي - تحديا لمحفوظ المصر على مواصلة إبداعه (أو الذي لا يملك لإبداعه دفعا)، كيف ساهمت الإعاقة في تحديد شكل في هذا العمل خاصة. لكنني حين هممت بذلك تحت وهم أن هذه الأحلام، بقصرها وتكثيفها، وقفزاتها، وفجائيتها، وغموضها.. إلخ هي نتاج اضطرار محفوظ اضطرارا إلى الاختزال والتركيز هكذا لصعوبة الكتابة (إعاقة اليد)، وصعوبة مراجعة ما كتب وإعادة صياغته (إعاقة النظر) وصعوبات كثيرة أخرى لا داعي لذكرها. تصورت أن كل هذه الصعوبات هي التي تكمن وراء هذا الشكل الجديد من الكتابة القصيرة المركزة المكثفة. لكنني فوجئت أثناء مراجعة بعض خلفية مادة المقال بما يلي:

إنه بالرغم من احتمال صحة هذا الفرض، ولو جزئيا إلا أن صدور أصداء السيرة الذاتية قبل كل هذه الإعاقات بسنوات، يكاد ينفي أغلب هذا الفرض فالأصداء فيها نفس التكثيف، ونفس الإيجاز، ونفس النقلات، ونفس الشطح الإبداعي الرائع، وبعض الترميز، رجعت إلى دراستي للأصداء(١) فوجدت أن بها قليلا مما أسماه محفوظ حلما، لكن فيها الكثير مما يمكن أن يصل إلى القارئ باعتباره كذلك، وكليا مازالت تقع فيما هو إبداع يتخفى قليلا أو كثيرا تحت عباءة ما يبدو - تمويها ربما مقصود - «حلما».

تصورت أن نجيب محفوظ بحدسه الرائع قد رأى احتمال إصابته بمثل هذه الإعاقات التي لم تظهر إلا بعد سنوات، فراح يدرب نفسه (دون أن يدري) على كيفية تجاوزها، فكانت الأصداء تمهيدا لأحلام فترة النقاهة.

لكن الأمر يمكن أن يرجع إلى ما هو أقدم من ذلك بكثير، إذا نظرنا في مجموعته «رأيت فيما يرى النائم» وأيضا في بعض فقرات أعماله حتى الطويلة منها، بما في ذلك الحرافيش أو «حديث الصباح والمساء»، وغيرها.

من كل هذا عدلت عن محاولة إثبات ذلك الفرض وقدرت أن أقتطف من رحلتي



مع أحلام محفوظ الإبداعية ما يشير إلى بعض ما تقول. متميزة بما تقوله شكلا وموضوعا (وهما واحد فى هذا المستوى الإبداعى).

وفيما يلى مقتطفات من تلك المسيرة بترتيبها التاريخى، لكن ذلك يحتاج إلى تقديم ضرورى كالتالى:

إبداع الحلم، وأحلام المبدع:

ليس جديدا أن يبدع نجيب محفوظ حالما، أو أن يحلم مبدعا. الحلم العادى هو إبداع الشخص العادى. وإبداع المبدع هو حلم الواقع الأعمق، القادم، القائم حالا. نحن لا نحلم بالمعنى الذى شاع، فمسخنا الحلم رموزا وتأويلا، سواء فك شفرته ابن سيرين أو ترجمة فرويد إلى منظومة نظريته أو شطح أوهامه. نحن نؤلف أحلامنا التى نتذكرها تأليفا فى الثوانى (أو بضع الثانية) التى تسبق اليقظة مباشرة، أو التى هى يقظة غير كاملة بعد. أما ما قبل ذلك فهو «الحلم بالقوة»(٢) الذى يسجل برسام المخ الكهربائى أثناء ما يسمى النوم النقيضى أو النوم الحالم والذى يعرف أيضا باسم نوم «حركة العين السريعة» REM الحلم الذى نحكيه، ونتصور أنه الحلم، هو الجزء الذى التقطنا أبجديته من مفردات ما تحرك فى الوعى الآخر. ثم رحنا ننسج منها ما تيسر فنصيفه على أنه الحلم. هذا هو الفرض الذى سبق أن قدمته منذ حوالى ربع قرن فى أطروحة «الإيقاع الحيوى نبض الإبداع» (٢).

يزعم هذا الفرض أننا جميعا مبدعون بالضرورة، وأن الحلم ليس إلا ما نشكله نحن فى تلك الفترة الشديدة القصر قبيل اليقظة.

لم أكن أتصور أننى سوف أستطيع تحقيق بعض هذا الفرض ولو بعد حين. لم يكن يخطر على بالى أن أعايش مبدعا بحجم نجيب محفوظ وعمقه، حتى أستطيع أن أتابع علاقته بأحلامه مصدرا للإبداع، لتضىء بعض جوانب هذا الفرض.

نجيب محفوظ والحلم الإبداع:

انتبهت إلى موقع نجيب محفوظ مما يمكن أن يسمى: الإبداع الحالم أو الحلم الإبداع، سواء وضعه هو تحت اسم الحلم أو الرؤية، أم تحت أى مسمى آخر (مثل القط الأسود مثلا) كان ذلك فى بداية الثمانينات حين كتبت عن مجموعة رأيت فيما يرى النائم التى نشرت فيما بعد فى «قراءات فى نجيب محفوظ» (٣)، ثم عاودت الكتابة عن أحلام محفوظ المبدعة أو الإبداعية فى دراستى التى لم تكتمل عن أصداء السيرة الذاتية(١)، ثم كتبت عن بعض أحلامه الإبداعية الأخيرة (أحلام فترة النقاهة) بعد نشرها، وقد عايشت ولادتها شخصيا، كتبت ما تراءى لى عن طبيعة هذا الإبداع، كما تناولت بعضه فى كل من مجلتى «إبداع» (٥). «ووجهات نظر» (٦)

فقدرت أن أسترجع بعد ذلك لعل فيها ما يضاف ترابطا مفيدا.

أسئلة لها إجابات

كثرت التساؤلات حول أحلام فترة النقاهة بالذات، فيضطر محفوظ - ضمن آخرين - للرد على أغلب تلك التساؤلات



بما تيسر. مع أنه ليس ملزما بالرد من جهة ، ثم إنها ليست مسئوليته من جهة أخرى، وفي كثير من الأحيان: الإجابات ليست دائما في مقدوره - بالمعنى الموضوعي الكافي.

بعض هذه التساؤلات السانحة تقول: هل هي أحلام أم إبداع؟ هل هو يرصد ما جرى في الحلم أو يضيف؟ هل هو يستقي مادة الحلم وشخوصه من الحلم فقط أم من الحلم والواقع؟ أم من الحلم الواقع والذاكرة جميعا؟ ما علاقة ما يكتب الآن بما يسمى «أحلام اليقظة»؟ كنت أتعجب عادة كيف يضطر محفوظ أحيانا إلى أن يجيب ببعض ما يمكنه هكذا؟ كيف يتصدى بعض المفتين (من العلماء والنقاد جميعا) بفتاوى وتأويلات ترد على مثل هذه الأسئلة التي لا رد لها؟

رحت أراجع رحلتي مع أحلام محفوظ منذ ربع قرن فوجدتني لا أستطيع ، وحتى الآن أن أجيب بمثل تلك الإجابات الحاسمة التي وصلتني بكل ما استطعته هو اجتهادات واحتمالات كالتالي:

أولا : من قراءة باكرة في : رأيت فيما يري النائم (١٩٨٢) الحلم / الإبداع: سعي للكشف وتطلع إلي معرفة ممتدة

..... في هذه المجموعة نجد أن هذا اللحن المميز الضارب في التاريخ المتطلع للمستقبل في أكثر من حلم وأكثر من موقع: «أهي حجرتي الراهنة: أم أخرى أوتني فيما سلف من الزمان؟»

حلم ١ (٧/ص ١٤٢).

«لن أحيد عن التطلع إلى الأمام» حلم ١ (٧ / ص ١٤٢)»

آن أوان قراءة الطالع» حلم ٤ (٧/ص ١٤٧).

الإيقاع سريع في سعي المعرفة اللاهث وهو يتوامم مع طبيعة زمن الحلم.

وشعرت طوال الوقت بأنني أسعى وراء غاية: لكنها غابت عن وعيي أو غاب وعيي حلم ١١ (٣/ص ١٦٣).

وقد بين محفوظ أن هذا الدافع إلى المعرفة ينبعث أساسا من مجرد أن الإنسان له «ماض». له تاريخ.

« ... في فيضان أحلام» «رأيت فيما يرى النائم» نتعرف على المغامرات المعرفية أكثر.. ولكننا نجدها ملتفة بأجواء الغموض دون الإقلال من: «نشاط السعي الدوب: «مثقلة بآلاف الكلمات المبهمة (٧/ص ١٤٣) حلم (٢) «عدوت منها، ولكني عدوت في مجالها وحضنها (٧/ص ١٤٣) حلم (٧) وقد سبقت الإشارة إلى ارتباط المعرفة بالحزن ، ويعود هذا الارتباط إلى الظهور في نهاية حلم (٣). وتستمر المغامرات المعرفية مع مصاحباتها من حزن، أو تطلع أو ضياع ، أو ربكة ، طوال الأحلام بشكل ملح: ففي حلم ١٤ نجد المتابعة للشاب الوسيم (الذي يمثل أمله) تحمل الرغبة الملحة لاستطلاع ما هو فاعل، وما هو وراء، ولكنه - كالعادة - ينهك ويسقط دون أن «يصل» ودون أن يعرف، تاركا وراءه الشرود والانخداع والعزاء، بما يذكرنا بالنهاية اليائسة من المعروفة، التي تدفع لمزيد من المعرفة . بعد أغلب المحاولات، وفي المقابل نرى مواجهة للرجل بالغ الكبر، «والنظر في عينيه



كبلورتين متوهجتين.. إلخ.

أكتفى بهذا القدر من هذا النقد الباكر الذى يمكن للقارىء الرجوع إلى تفاصيله حيث نشر(٣).

ثانيا : أحلام نجيب في أصداء السيرة

لم تظهر الأحلام فى الأصداء بشكل مباشر إلا قليلا مثلا: حين تلاحقت ثلاثة أحلام وراء بعضها «فقرات ٦٤, ٦٥, ٦٦» وفيما يلى عينة لقراءة حلمين.

فقرة ٥٨ (الأصداء):

فى مرحلة حاسمة من العمر عندما تسنم بى الحب ذروة الحيرة والشوق همس فى أذنى صوت عند الفجر. هنيئا لك فقد حجم الوداع ، وأغمضت عينى من التأثر فرأيت جنازتى تسير وأنا فى مقدمتها أسير حاملا كأسا كبيرة مترعة برحيق الحياة.

القراءة..... تتكثف اللحظات فى ذروة الحيرة، ويصاعد الحب ، لا إلى ذروة السعادة بل إلى ذروة أروع، ذروة الحيرة والشوق، فنتعلم التمييز بين حب مخدر حتى السعادة وبين حب منتش بالحيرة محاط بالشوق، كل ذلك عند الفجر: البداية الباكرة المشقشقة، فتولد الحياة ، كما عودنا محفوظ - من الموت، نعم: عادت الأصداء تمزج الحلم بالحسم وتجسد الموت، وتشق الذات البشرية ليعلن الواحد منا نهاية مرحلة حاسمة من العمر، ويشاهد نفسه بنفسه، وهو يتقدم المشيعين حاملا دلالات ولادته الجديدة الكأس المترعة برحيق الحياة، ثم يؤكد ضمنا ما ذهب إليه أدوار الخراط فى «يقين العطش» من أن الأرتواء ليس هو اليقين، وإنما تعميق الحيرة والشوق أبدا «يقين العطش» إدوار الخراط (٤).

٦٥ - «الأصداء» اللحن.

فى حلم ثان وجدتنى فى حجرة متوسطة يضيئها مصباح غازى يتدلى من سقفها، فى ركن منها جلس جماعة من الرجال والنساء على شلت متقابلة يتسامرون ويضحكون بأصوات مرتفعة، لم يكن فى الجدران باب ولا نافذة إلا فتحة صغيرة في اتساع عين منظار مرتفعة بعض الشيء، فلم أر منها إلا سماء تتوارى وراء المساء. شعرت برغبة شديدة فى العودة إلى أهلى ودارى . ولم أدر كيف يمكن أن يتيسر لى ذلك.. وسألت السمار : أكرمكم الله كيف أستطيع الخروج من هنا؟ فلم يلتفت إلىّ أحد وواصلوا السمر والضحك، وغزت الوحشة أعماقى، عند ذلك لاح لى من خلال الفتحة وجه غير واضح المعالم وقال لى : إليك هذا اللحن أحفظه منى جيدا، وترنم به عند الحاجة ، وستجد منه الشفاء من كل هم وغم.

القراءة

يظهر فى هذا الحلم «رحم الدنيا» وتولد قصيدة قصيرة «سماء تتوارى وراء المساء» وتتأكد لى العلاقة بين الموت والعودة، فكرة العودة أصيلة فى الوجود الإنسانى سواء كانت فى تعبير «أن يسترد الله أمانته» كما يفهم الموت عند أهل التقوى، أو سواء أفادت أن يرجع المنفصل منها إلى الالتحام بأصله كما يشير المتصوفة عادة، العودة إلى الأهل

والدار وصلتنى هنا باعتبارها العودة إلى الأصل «الكل»، وحين تستحيل العودة إراديا «إلا بالانتحار وهو ليس عودة وإنما إجهاض» ينبغى أن نتكيف ونحن فى الانتظار حتى يحين الأوان.

هذا اللحن الذى هبط عليه من الفتحة التى تبدو منها السماء وهى تتوارى وراء المساء، يمكن أن يكون «دينا» له طقوس وأنغام ويمكن - وهذا مستبعد نسبيا - أن يكون اغترابا له أيضا فعل التنويم والتسكين، وأما الشفاء من الهم والغم فهو يتحقق بالتوجهين معا : ولكن واحدا إلى أعلى وواحدا إلى أسفل «الاغتراب» أما أن يعزف للحن العبادة التصعيدية فيزول الغم، أو يخدر المغترب لحن بالإلهاء العامى فيغوص الهم، وشتان بين هذا وذاك لكن الاحتمالين قائمان.

ثالثا : قراءة باكرة لعينة من أحلام النقاهة.

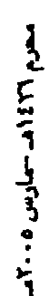
الحلم (٢٦).

جمعنا مقهى بلدى وقص علينا صاحبى قصة بوليسية من تأليفه.. وقبيل الختام دعانا إلى الكشف عن القاتل. ومن يفز يعف من دفع ثمن طلبه. ووفقت إلى الإجابة الصحيحة وحدث بذلك غاية السعادة . وبعد ساعة استأذنت فى العودة إلى بيتى، ولإنشغالى بنجاحى تهت فسرت فى طرق حتى وجدت نفسى أخيرا أمام المقهى مما أثار ضحك الجميع وتطوع أحدهم فأوصلنى إلى بيتى وودعنى وانصرف . وبيتى مكون من طابق واحد وحديقة صغيرة وشرعت فى خلع ملابسى ولما صرت بملابسى الداخلية لاحظت أن خطا من التراب يتساقط من أحد أركان الغرفة.. وكان هذا المنظر قد ورد فى القصة التى ألفها صاحبنا وكان نذيرا بسقوط البيت على من فيه فبكيت أن بيتى الصغير سينقض فوق رأسى. وملكنى الفزع فغادرت البيت بسرعة ولهوجة واستزادة فى الأمان انطلقت بعيدا عن البيت بأقصى سرعة فى الهواء الطلق.

المكان هذه المرة هو مقهى بلدى (لاحظ البداية بتحديد المكان فى كل مرة) والبداية بقصة بوليسية يحكيها مؤلفها «يبدو أنه ألفها لتوه» وهو أحد الأصدقاء ، فنستنتج أنها قصة سطحية للتسلية ، وينجح الراوى (الحالم) فى حل اللغز (من القاتل). ومع أن الجائزة تبدو تافهة «ثمن ما شرب» إلا أنه يبدو أن نشوة النجاح فى ذاتها كانت غامرة حتى أسكرته فكاد يفقد وعيه وتاه عن بيته ودار حول نفسه حتى عاد إليهم فى نفس المكان مما اضطر أحد أصحابه أن يوصله إلى بيته.

نكتشف من البداية كيف أن نشوة النجاح الذاهلة هذه لا تتناسب مع حقيقة المكسب «ثمن المشاريب» ومع ذلك فالنجاح هو النجاح ، والتنافس هو التنافس، والجوائز هى الجوائز والنشوة هى النشوة حتى الذهول.

حين يعود صاحبنا إلى نفسه «بيته» ويتعرى إلا قليلا «بقيت الملابس الداخلية» ينقلب الخيال الى واقع حتى تكاد القصة - على تفاهتها الظاهرة - تصبح حقيقة، وهنا يقفز إلينا سؤال آخر غير سؤال القصة اللغز، سؤال يقول من القتيل «لا من القاتل؟» التعرى بعد ذهول الفوز على



تفاحة الجائزة أمكن أن ينبه الراوى أنه اذا كان شخصه بهذه الهشاشة تسكره نشوة فوز لا قيمة له. فهو مقتول بأى فوز يغرقه فى اغترابه حتى الذهول.

هكذا، فجأة يضعنا محفوظ أمام التساؤل عن معنى النجاح ومعنى التنافس، ومعنى الفوز . يعلن محفوظ أن تمثيلية النجاح التى نمثلها جميعا هى دوامة فراغ، وأن سعار الفوز الذى يسكرنا برغم تفاحة الجائزة هو الضياع ذاته، إن الراوى برغم فوزه بمكافأة حل اللغز، هو هو القتيل بسكره بتافة الفوز وهو - برغم فوزه ، أو حتى بسبب فوزه هذا - يواجه انهيار وجوده الهش الذى يعلنه تساقط التراب من أحد أركان الغرفة فهو الفزع من خدعة فوز لا قيمة له حيث لم يمنع انهيار وجود كان هشا طول الوقت، ولم ينتبه صاحبه إلى هشاشته إلا حين غمره ذهوله بفوزه الخائب فوجب الهرب.

لكن هل ثم سبيل إلى الإصلاح أو التعديل أو الإفاقة أو البدء من جديد؟

يترك محفوظ النهاية مفتوحة ، يترك صاحبنا وهو يبحث عن الأمان بعد أن تيقن من قرب انهيار وجوده «بيته الصغير» ، راح يبحث عن الأمان خارج ذاته فهو يعدو بعيدا عن بيته. يجرى بأقصى سرعة فى الهواء الطلق، يجرى من نفسه «بيته هو نفسه» ، وهذا الهواء الطلق، لا يعد بشىء إلا مواصلة الجرى. (المعرفة . الكدح).

رابعا : نظرة إلي حلم حديث ربما تم إملاؤه لا كتابته

(نصف الدنيا عدد ٧٧٧ - ٢ يناير ٢٠٠٥).

ربما لا نجد فرقا كبيرا بين أحلام الأصداء، وأحلام النقاهة فى المرحلة التى كان محفوظ يكتب بنفسه الأحلام برغم الإقاعة الشديدة، حتى كانت تبدو «شخبطة» تكاد لا تقرأ وهى تنشر فى نصف الدنيا . لكنه حين أعيق حتى عن أداء هذه الشخبطة. وقاوم فكرة الإملاء فترة، ثم اضطر إليها لإلحاح الإبداع . الحياة، فقد يمكن أن نتصور أننا سوف نجد فى بحث مطول فروقا دالة دلالة أهم بين استرسال الكتابة فى أحلام الأصداء، وبين أحلام الشخبطة وبين أحلام الإملاء.

على أية حال قلت أختم المقال بإشارة متواضعة إلى حلم من آخر أحلامه «التى نشرت فى العدد ٧٧٧ نصف الدنيا ، يناير ٢٠٠٥» إشارة هى التى صدرت بها بحثى الذى كتبته «عن كبت الخوف وتسطيح البشر»

حلم ١٤٤: «نظرت فى ظلمات الماضى فرأيت وجه حبيبتى يتألق نورا بعد أن دام غيابها خمسين سنة فسألتها عن الرسالة التى أرسلتها لها منذ أسبوع فقالت : إنها وجدتها مفعمة بالحب ولكنها لاحظت أن الخط الذى كتبت به ينم عن إصابة كاتبه بداء الخوف من الحياة وبخاصة من الحب والزواج ولما كنت مصابة بنفس الداء فقد عدلت عن الذهاب إليك وفكرت فى النجاح فلذت بالفرار».

كيف عرى محفوظ الخوف من الحياة ومن العلاقة بالآخر «الحب» هكذا وهو فى هذه المرحلة مع كل الإعاقة والصعوبة كيف

كثف الزمن قفزا عبر نصف قرن كيف عمم هذا الخوف بين الطرفين بهذه الدقة كيف كان الهرب هو الحل فى مواجهة هذا الخوف المتبادل.

نجح نجيب محفوظ أن يلغى الزمن وأن يختزل خمسين عاما ليتواصل الحوار: خطاب العتاب من أسبوع والفراق من نصف قرن والرد المؤجل «الآن».

انطلاقا من هذا الحدس الإبداعى ألا يجدر بنا أن نتدارس هذه الظاهرة فى جذورها الأعمق بدءا من الخوف من الآخر ومن الحب ومن الحياة إلى الخوف من الحرية والخوف من الإبداع بديلا عن الدعوة المسطحة الشائعة أنه «لا تخف» ودع القلق عليك وعليك بالسعادة وما شابه.

تعقيب : إذا قارنا الأحلام بأحلام فترة النقاهة الواردة فى الأصداء يمكن أن نتبين الفرق بينها فى مدى استرسالها، وتواضع النقلات الصارخة، وخفة درجة الغموض المتواضعة حيث تبدو أحلام فترة النقاهة أكثر تركيزا، وأعنف نقلات، وأدهش مفاجآت.

هل هذا يرجع إلى الإعاقة، أم الى النضج أم إلى نقلة إبداعية أعمق، الأرجح عندى أنه يرجع إلى كل ذلك معا.

وفيما يلى قراءة محدودة لأحد أحلام فترة النقاهة كما نشرت فى إحدى المجلات «ربما لبيان الفرق»(٦).

وبعد:

لا يعدو كل ذلك إلا أن يكون مقدمة متواضعة لدراسة تفصيلية تتساءل فإعادة النظر . فالنقد، فمناقشة النقد، فنقد النقد، لا يوجد لمثل هذا العمل . ولا لأعمال محفوظ كافة قراءة واحدة، ولا يصح فيها رأى واحد، ولا يجوز عليها تفسير واحد، وقد وجدتنى وأنا أعاود ما سبق أن كتبته شخصيا أعيد النظر، ثم أعيد النظر لكننى لم أتدخل فى هذه المرحلة كثيرا.

ألا يتساءل ذلك ومثله وغيره إحياء الاقتراح الذى تقدمت به مرارا لهيئة الكتاب بأن تصدر «دورية منتظمة لنقد نجيب محفوظ»، لعلها تحيى الحركة النقدية ليس فقط فى نقد محفوظ، وإنما فى النقد عامة، كما ينبغى بما ينبغى؟

الهوامش :

١ - يحيى الرخاوى قراءة فى أصداء السيرة الذاتية. الإنسان والتطور أعداد «عدد ٦١ - ابريل ١٩٩٨ وعدد ٦٥ - ٦٦ ابريل ١٩٩٩ وعدد ابريل ١٩٩٤ وعدد ٦ يناير ١٩٩٨ وعدد ٥٩ أكتوبر ١٩٩٧ وعدد ٦٢ يوليو ١٩٩٨».

٢ - يحيى الرخاوى الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع «فصول - المجلد الخامس - العدد الثانى - يناير ١٩٨٥».

٣ - يحيى الرخاوى «قراءات فى نجيب محفوظ» الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩١.

٤ - إدوار الخراط «يقين العطش» دار شرقيات للنشر، ١٩٩٦.

٥ - يحيى الرخاوى فى «أحلام نجيب محفوظ» تعد من قبيل المنامات أم هى أحلام يقظة؟ مجلة إبداع العدد الأول - الثالث يناير (٢٠٠٢).

٦ - يحيى الرخاوى قراءة فى «أحلام نجيب محفوظ» وجهات نظر العدد ٤٨ يناير (٢٠٠٣). ■

فرويد ونوازع النفس البشرية في:

ألف ليلة وليلة

بقلم
ماهر البطوطي

لم يكن علم النفس، على النحو الذى ظهر على يد فرويد وأتباعه، معروفا أيام«ألف ليلة وليلة»، بطبيعة الحال، غير أن من يتأمل الحكايات التى اشتملت عليها هذه الليالى، يعجب من التماثل الغريب بين الوقائع التى تضمنتها بعض الحكايات، وأصول التحليل والعلاج النفسيين على نحو ما نعرفه اليوم.. وإليكم مثالا على ما نرمى إليه..

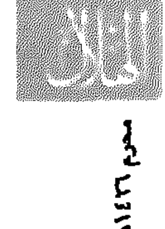


شهرزاد عالجت بحكاياتها عقد شهريار النفسية

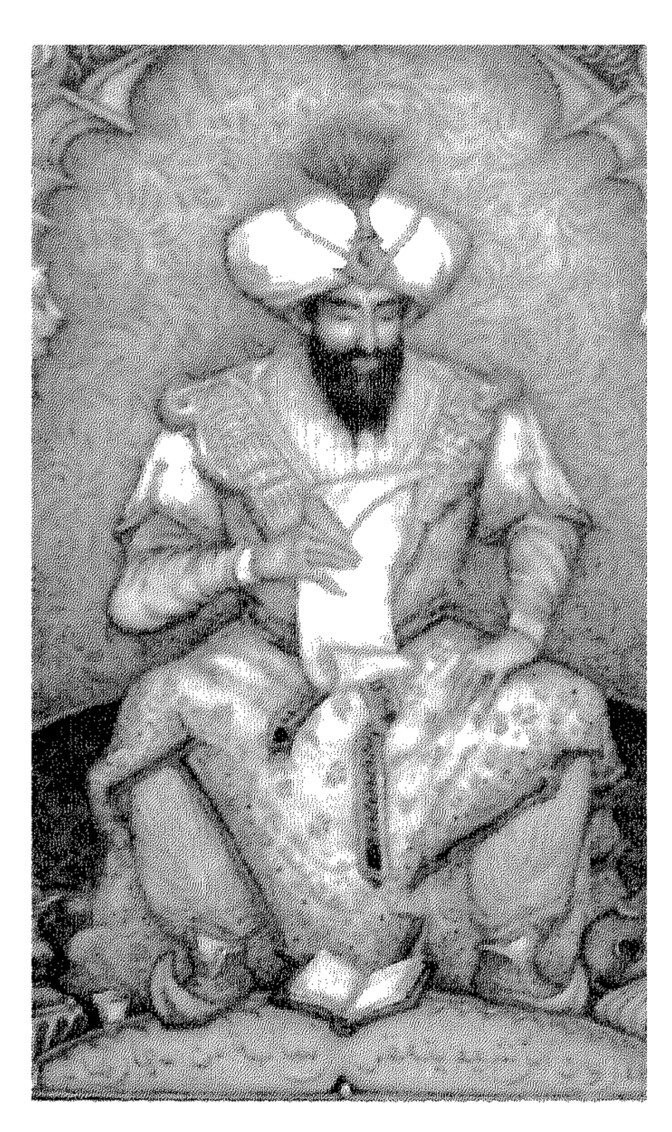
«لكن يا أمي ما سبب كون الملكة تبغض الرجال؟ فقالت ياولدى أعلم أن لها بستانا مليحا ما على وجه الأرض أحسن منه، فاتفق أنها كانت نائمة فيه ذات ليلة من الليالى، فبينما هى فى لذيذ النوم إذ رأت فى المنام أنهـــا نزلت فى البستان فرأت صيادا قد نصب شركا ونثر حوله قمحا وقعد على بُعد منه ينظر ما يقع فيه من الصيد، فلم يكن إلا مقدار ساعة وقد اجتمعت الطيور لتلتقط القمح فوقع طير ذكر فى الشرك ، وصار يتخبط فيه فنفرت الطيور عنه وأنثاه من جملتها، فلم تغب عنه غير ساعة لطيفة ثم عادت اليه وتقدمت إلى الشرك وحاولت العين التى فى رجل طيرها ولم تزل تعالج فيها بمنقارها حتى قرضتها وخلصت طيرها، كل والصياد قاعد ينعس ، فلما أفاق نظر إلى الشرك فبعد ساعة وإذا بالطيور قد اجتمعت عليه ومن جملتها الأنثى والذكر فتقدمت الطيور لتلتقط الحب وإذا بالأنثى قد وقعت فى الشرك وصارت تتخبط فيه، فطار الحمام جميعه عنها وطيرها الذى خلصته من جملة الطيور ولم يعد إليها، وكان الصياد غلب عليه النوم ولم يفق إلا بعد مدة مديدة فلما افاق من نومه وجد

مزجت حكايات ألف ليلة بين الخيال وواقع الحياة

الطيرة وهى فى الشرك فقام وتقدم إليها وخلص رجليها من الشرك وذبحها فانتبهت بنت الملك وهي مرعوبة وقالت هكذا يفعل الرجال ومع النساء،فالمرأ تشفق على الرجل وترمى روحها عليه وهو فى المشقة ، وبعد ذلك إذا قضى عليها المولى ووقعت فى مشقة فإنه يفوتها ولم يخلصها ، وضاع ما فعلته معه من معروف فلعن الله من يثق فى الرجال،



ياملك الزمان وفريد العصر والأوان، إنى أنا جاريتك ولى ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين فهل لى فى جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية؟ فقال لها الملك : تمنى تعطى ياشهر زاد ، فصاحت على الدادات والطواشية وقالت لهم: هاتوا أولادى ! فجاءوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة أولاد ذكوراً : واحد منهم يمشى،، واحد يحبى، وواحد يرضع فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك وقبلت الأرض وقالت ياملك الزمان هؤلاء أولادك وقد تمنيت عليك أن تعتقنى من القتل إكراما لهؤلاء الأطفال فإنك إن قتلتنى يصير هؤلاء الأطفال من غير أم ولا يجدوا من يحسن تربيتهم من النساء وعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال ياشهرزاد، والله إنى قد عفو عنك من قبل مجئ هؤلاء الأولاد لكونى رأيتك عفيفة نقية حرة تقية، بارك الله فيك وفى أبيك وأمك وأصلك وفرعك وأشهد الله على أنى قد عفوت عنك من كل شئ يضرك فقبّلت يديه وقدميه وفرحت فرحا زائدا وقالت له: أطال الله عمرك وزادك هيبة ووقارا وشاع السرور فى سراية الملك حتى انتشر فى المدينة، وكانت ليلة لا تعد من



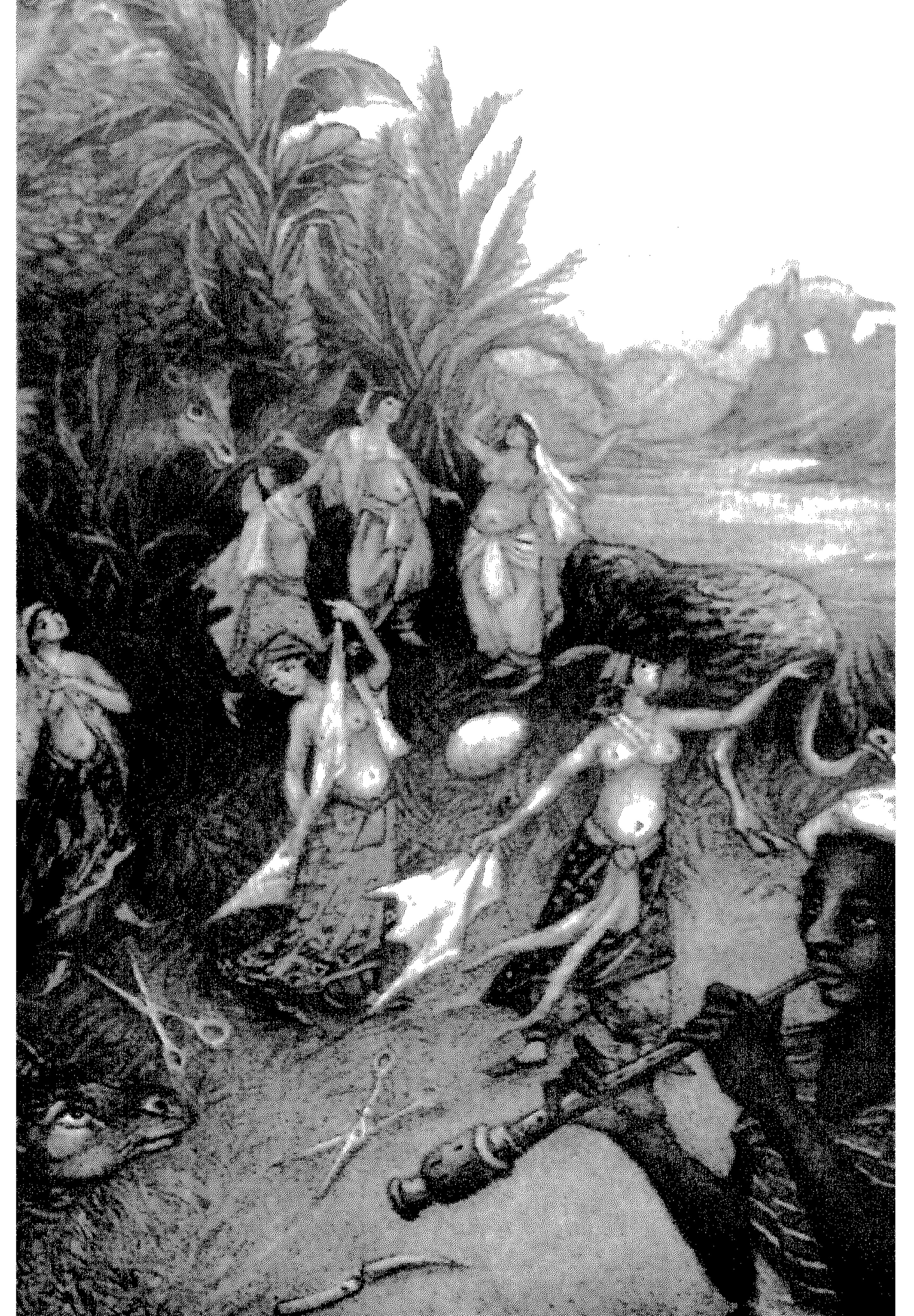
شهريار جلس إلى شهرزاد كما يجلس امام طبيبه

فإنهم ينكرون المعروف الذى تفعله معهم النساء ثم إنها بغضت الرجال من ذلك اليوم».

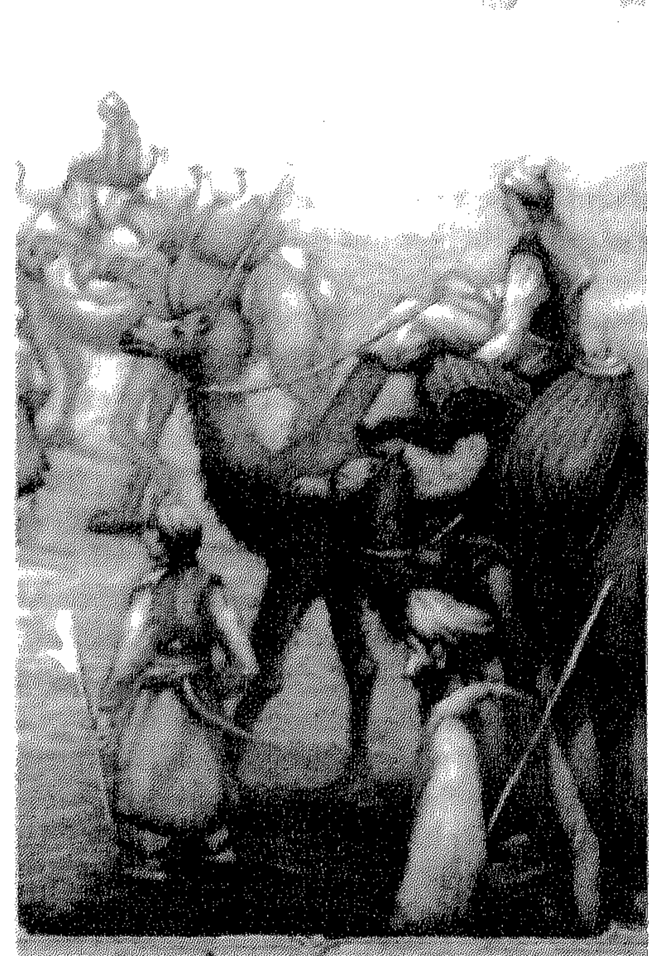
حكاية أردشير وحياة النفوس

وكانت شهر زاد فى هذه المدة قد خلّفت من الملك ثلاثة أولاد ذكورا ، فلما فرغت من هذه الحكاية قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يدى الملك وقالت له:

الحكايات الغريبة كانت سببا فى اقلاع شهريار عن قتل زوجاته



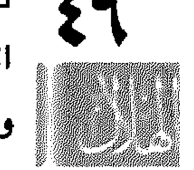
الأعمار ولونها أبيض من وجه النهار وأصبح الملك مسرورا، وبالخير مغمورا، فأرسل إلى جميع العسكر فحضروا وخلع على وزيره أبى شهرزاد خلعة سنية جليلة وقال له سترك الله حيث زوجّتنى ابنتك الكريمة التى كانت سببا لتوبتى عن قتل بنات الناس، وقد رأيتها حرة نقية عفيفة زكية ورزقنى الله منها بثلاثة أولاد ذكورا، والحمد لله على هذه النعمة الجزيلة . ثم خلع على كامل الوزرا وأرباب الدولة وأمر بزينة المدينة ثلاثين يوما وا م يكلف أحدا من أهل المدينة شيئا من ماله، بل كامل الكلفة والمصاريف من خزانة الملك فزينوا المدينة زينة عظيمة لم يسبق مثلها، ودقت الطبول وزمرت الزمور، ولعبت كامل أرباب الملاعب وأجزل لهم الملك العطايا والمواهب وتصدق على الفقراء والمساكين وعم بإكرامه سائر رعيته وأهل مملكته ...»



رحلت ألف ليلة بالقارئ الى أماكن بعيدة

عقدة نفسية

نحن هنا أمام عقدة نفسية مركبة، لم تنشأ عن واقعة حقيقية، بل عن حلم تراه إحدى الأميرات ابنة أحد الملوك فيصيبها بتلك العقدة النفسية الدفينة ويتمثل الحلم فى غدر طير ذكر بأنثاه، رغم أن الأنثى كان قد سبق لها أن أنقذت زوجها ذكر الطير من شرك «أى فخ» نصبه صائد الطيور ذلك أن الذكر لم يفعل مع أنثاه نفس الشئ حين وقعت هى فى الفخ ذاته، وتركها تلقى مصيرها بالذبح على يد الصياد وقد انعكست هذه العقدة النفسية فى شكل كراهية الأميرة للرجال على وجه العموم، لما رأته من غدر وخسة وخيانة ذكر الطير الذى يرمز لديها للذكور جميعا.



وتأتى هذه العقدة فى سياق حكاية نمطية من حكايات ألف ليلة وليلة، حيث يسمع أردشير ابن ملك شيراز عن جمال حياة النفوس ابنة الملك عبد القادر ملك العراق فيعقد العزم على وصالها ويخرج من بلاده بحثا عنها والفوز بها - على السماع -- (كما يحدث فى غرام دون كيشوت بدولسينيا) ويصل أردشير بصحبة وزير أبيه إلى العراق، ويفتتح محلا للتجارة الثمينة ويشتهر بجوده وكرمه وتزوره مربية حياة النفوس فيبوح لها بسره ويحملها رسائل حب وغرام إلى سيدتها الأميرة بنت الملك وترد الأميرة على رسائله برسائل تطلب منه الكف عن حبها وتهدد بقتله إذا واصل مكاتبتها وتبوح المربية العجوز لأردشير عن «العقدة النفسية» التى سببت كراهية الأميرة لصنف الرجال فماذا يفعل أردشير؟ عندئذ يهب الوزير لمساعدته، ففكر فى حيلة جعلته يقوم بما يمكن أن يقوم به أرقى المعالجين النفسيين المحدثين، ولكن على نحو فعلى وليس نظريا، دونما جلسات استماع أو علاج بالأدوية أو الصدمات الكهربائية!

فقد علم أردشير والوزير من المربية أن حياة النفوس لها بستان عظيم، تخرج



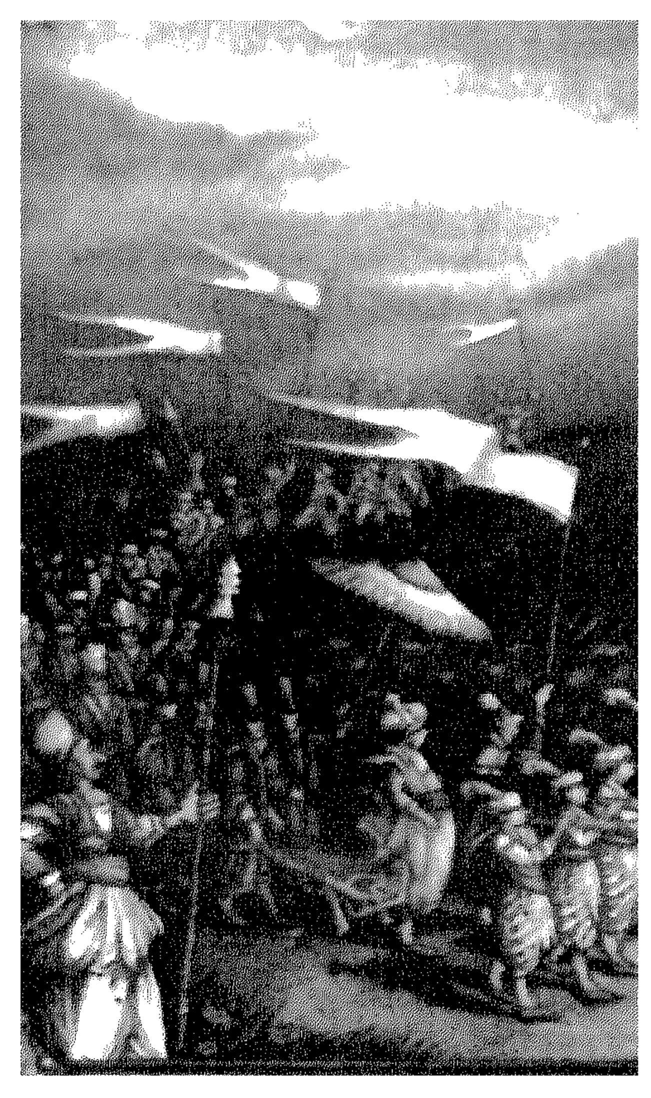
لم تخل حكايات شهرزاد من السحر وقصص الجان

للفرجة عليه والتنزه فيه مرة فى السنة، فيحتال الوزير على حارس البستان العجوز الفقير ليسمح له برسم «جدارية» كاملة على جدران البستان المهملة وأتى الوزير بالعمال والبنائين، وطلب منهم رسم الجدارية على شكل لوحات على الوجه التالى صياد ينصب فخا للطيور وينثر فيه قمحا - تجتمع عليه الطيور فيقع ذكر طير فى الشرك - تهرب جميع الطيور ومنهم

أنثى الذكر - تعود الأنثى وتقرض حبال الشرك حتى تخلص ذكرها بينما الصياد نائم - يصحو الصياد وينصب الشرك مرة أخرى وبه القمح - تتشبك أنثى الطير فى الفخ ويطير عنها الطيور ومنهم ذكرها - حين يطير الذكر يلتقطه نسر جارح ويلتهمه - لهذا لم يعد الذكر لإنقاذ أنثاه، التى يذبحها الصياد .

إسقاط الصورة

ويشرح الوزير لأردشير سبب ذلك الرسم بقوله: «أنا الذى فعلت ذلك الأمر وأمرت الدهانين بتصوير المنام وأن يجعلوا الطير الذكر فى مخالب النسر الجارح وقد ذبحه وشرب من دمه وأكل لحمه، حتى إذا نزلت بنت الملك ونظرت إلى هذا الدهان ترى صورة هذا المنام وتنظر إلى الطير وقد ذبحه النسر الجارح فتعذره وترجع عن بغضها للرجال»



اعتمدت دراما الحكى فى ألف ليلة على البدايات المثيرة والنهايات السعيدة

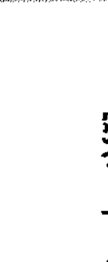
وهكذا يمضى العلاج الفعّال تذهب الأميرة لزيارة بستانها، فتلاحظ من الخارج أنه جرى تجديد الجدران، وحين تدخل ينتابها العجب مما تراه، وتهتف بمربيتها : «تعالى انظرى شيئا عجيبا ادخلى صدر الإيوان وانظرى» وكانت المربية مطلعة على الحيلة، وكأنها مساعدة الطبيب النفسى أو ممرضة عنده فهى تتأمل الجدارية متعجبة، ثم تقول لها شارحة: «إن هذا هو صورة البستان والصياد والشرك وجميع ما رأيته فى المنام، وما منع الذكر لما طار من أن يعود إلى أنثاه ويخلصها من شرك الصياد إلا مانع عظيم، فإنى نظرته تحت مخالب النسر الجارح وقد ذبحه وشرب دمه ومزق

لحمه وأكله، وهذا ياسيدتي سبب تأخيره عن العودة إليها وتخليصها من الشرك...» فقالت بنت الملك: هذا الطير جرى عليه القضاء والقدر ونحن قد ظلمناه». وتفيض المربية في الدفاع عن ذكر الطير وعن الرجال عموما حتى زال كل ما في قلب الأميرة بنت الملك من بغض للرجال !

وتمضى القصة بعد ذلك في مجراها وأحداثها الجسام ما بين مد وجزر، وتنتهي إلى زواج أردشير وحياة النفوس بعد الكثير من المغامرات والملابسات العجيبة .

أما الاقتباس الثاني الوارد في صدر هذا المقال فهو علة وجود حكايات ألف ليلة ذاتها . إذ أن شهر زاد قد توسلت بالحيلة إلى صرف نظر الملك شهريار - زوجها - عن عادته في قتل العروس التي يتزوجها في الصباح وقد انعكست آية التحليل النفسي هنا، فبدلا من أن يجلس المريض النفسي (ولاشك أن شهريار واحد من هؤلاء المرضى) أمام الطبيب النفسي ويحكي له همومه وهواجسه ومسار حياته، إذ به يجلس أمام الطبيبة النفسية - شهرزاد - التي تعالجه بتقديم حكايات وقصص تفصيلية تجسم أمامه كل مظاهر الحياة الانسانية ومنها العقد النفسية التي يعاني منها خاصة، وأهمها غدر النساء حقيقة أن الكثير من قصص شهر زاد يزخر بمكائد النساء وحيلهن وخيانتهن (أنظر الفصل الخاص بذلك من هذا الكتاب) إلا أن هذا يضع المريض النفسي في مواجهة الواقع وينبهه إلى واقع الحياة ليدرك أن النساء - كما الإنسان عموما - فيهن الصالح والطالح، وكما أن هناك نساء خائنات، هناك الكثير من النسوة الوفيات لأزواجهن وهي واحدة منهن، فهي تعالج زوجها بالقصص وبالحب وبالعشرة الطيبة : إذ أنها قد أنجبت منه خلال الألف ليلة وليلة، ثلاثة من الأبناء!

وقد نعى الكثير من النقاد على شهر زاد امتثالها الخانع لزوجها، وأثارت الكاتبات النسويات FEMENISTS هذا الموضوع مرارا وتكرارا، غير أني هنا أراها بمثابة المرأة الذكية التي احتالت بمعرفتها وذكائها للأخذ بيد ذلك الزوج الذي ترسبت عنده «عقدة نفسية» عميقة ضد خيانة المرأة، وقادته عبر مسالك كثيفة من حبكات القصص التي تمزج الخيال بالواقع، وتقدم له الواقع بحلوه ومره، بخيانة المرأة ووفائها، وجمالها وقبحها، حتى تنجح في النهاية في علاج زوجها، مما يؤدي إلى أن تنتهي تلك الحكايات هذه النهاية السعيدة التي قرنت الهناء بالشفاء .. ■





آرثر ميلر واليانكى

مسرح الالتزام

السياسى - الاجتماعى - الأخلاقى

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

ثلاثة قمم كانت تقف على رأس المسرح الأمريكى في القرن العشرين ، كأهرامات الجيزة الثلاثة ، هى : يوجين أونيل ، وتنسى وليمز ، وآرثر ميلر .

أونيل رحل عن عالمنا فى ١٩٥٣ ، ووليمز فى ١٩٨٣ . وفى ١١ فبراير الماضى لحق بهم ميلر عن تسعة وثمانين عاما فانقضت بذلك حقبة من تاريخ المسرح الأمريكى .

كان الثلاثة يشتركون فى أمور ، ويختلفون فى أمور جمعوا - وهنا مكمن عظمتهم - بين الأبعاد الفلسفية والنفسية والاجتماعية مع تفاوت فى الدرجة ، فأونيل أكثرهم إنشغالا بقضايا من قبيل قدر الإنسان وما يقع وراء الأفق ، ووليمز أكثرهم انشغالا بسيكولوجية المرأة وحياتها الجنسية والعاطفية وعلاقتها بالرجل . أما ميلر فكان أكثرهم اهتماما بقضايا المجتمع ، وأشدهم انخراطا فى حقل السياسة ، وأحدهم وعيا بالقوى الاقتصادية التى تحرك المجتمع الأمريكى .

ولد ميلر فى ١٧ أكتوبر ١٩١٥ فى حى هارلم (مانهاتن) بمدينة نيويورك لأب نمساوى من رجال الصناعة وأم أمريكية المولد ألمانية السلالة كانت تعمل مدرسة فى إحدى المدارس الثانوية . تأثرت موارد والده المالية بسنوات الكساد الاقتصادى (١٩٢٩ - ١٩٣٤) فعرف ميلر منذ مطلع شبابه معنى الفقر . التحق بإحدى مدارس نيويورك ثم بجامعة متشجان ، حيث درس الاقتصاد والتاريخ والصحافة ، وحصل على الليسانس فى ١٩٣٨ . بعد تخرجه اشتغل فى «مشروع المسرح الفيدرالى» ، وامتهن - أثناء دراسته وبعدها - مهنا كثيرة منها أنه ، عند مغادرته المدرسة الثانوية - اشتغل موظفا كتابيا ، وسائق عربة لورى ، وغاسلا للأطباق كى يسدد مصروفات دراسته الجامعية مما أغنى خبراته الحياتية وفتح عينيه على الجانب المظلم والخطر من الحلم الأمريكى ، وشكل نظرته المأسوية إلى ورطة الإنسان فى منتصف القرن العشرين .

اقترن ميلر بمارى سلاترى فى ١٩٤٠ ثم انتهى زواجهما بالطلاق فى ١٩٥٥ . تزوج النجمة السينمائية مارلين مونرو فى ١٩٥٦ وساعد على إقامة شهرتها فى السنوات الست التى تلت زواجهما إلى أن تم طلاقهما فى ١٩٦١ . وتزوج للمرة الثالثة من إنج موراث وهى مصورة صحفية .

تعاطفه مع اليسار

كان ميلر يسارى الميول - وإن لم ينخرط رسميا فى صفوف الحزب الشيوعى- وقد أدرجت السلطات الأمريكية اسمه فى القائمة السوداء عام ١٩٥٥ ، وفى العام التالى مثل للتحقيق أمام لجنة الأنشطة المعادية لأمريكا ، فى ظل الإرهاب المكارثى ، فنفى عن نفسه تهمة الشيوعية ، ولكنه عبر بشجاعة عن تعاطفه مع اليسار ، ورفض أن يدلى بأسماء الأشخاص الذين كانوا يحضرون معه اجتماعات الكتاب التى ينظمها الحزب الشيوعى ، فأدين بتهمة احتقار الكونجرس فى ١٩٥٧ ولكن المحكمة برأته حين استأنف الحكم .

فى ١٩٦٥ انتخب أول رئيس أمريكى دولى لنادى القلم ، وفى ١٩٦٨ قاد جماعة أمريكية داعية إلى إنهاء حرب فيتنام وإقرار السلام فيها .

كان وقوع ميلر فى شبابه الباكر على رواية دوستويفسكى «الإخوة كارمازوف» هو ما قرر اتجاهه للأدب . كتب مسرحية عنوانها «مازال العشب ينمو» (١٩٣٦) وفى ١٩٤٤ أخرج كتابا عوانه «الموقف طبيعى» وهو أقرب إلى أن يكون ريبورتاجا مسطحا عن الحياة فى الجيش ، وفى العام نفسه قدمت أول مسرحية له على أحد مسارح برودواى وكان عنوانها «الرجل الذى أوتى الحظ كله» . على أن أول نجاح له هو الذى حققته روايته المسماة «البؤرة» (١٩٤٥) وموضوعها معاداة السامية (كان ميلر يهوديا) فى المدن الأمريكية . ومالبث أن هجر الرواية ليتفرغ للكتابة المسرحية فأخرج :

- كلهم أبنائى (١٩٤٧) .
- موت قومسيونجى (١٩٤٩ . وليس - كما نبه الدكتور لويس عوض أكثر من



مرة فلم يلق أحد بالا إلى تنبيهه · موت باتع متجول) .

– البوتقة (أو الأتون ، الاختبار القاسي ، الامتحان العسير) (١٩٥٣).

– مشهد من الجسر (١٩٥٥ ، وتحولت إلى فيلم في ١٩٦٢ ، يحب لويس عوض أن يترجم عنوانها إلى : مشهد من كوبرى بروكلين) .

– ذكرى يومى اثنين (١٩٥٥) .

– بعد السقوط (أو بعد الخريف : فكلا الترجمتين صحيح) (١٩٦٣) .

– حادثة فى فيشى (١٩٦٤) .

– الثمن (١٩٦٩) .

– خلق العالم وشئون أخرى (١٩٧٣)

– سقف رئيس الأساقفة (١٩٧٧).

–الساعة الأمريكية (١٩٨٠) .

– مرثية السيدة ونوع من الحب (١٩٨٢) .

– لا أستطيع أن أتذكر شيئا و / كلارا (١٩٨٧) .

– قيادة أسفل جبل مورجان (١٩٩١)

– اليانكى الأخير (١٩٩٣) .

– الزجاج المكسور (١٩٩٤) .

– علاقات مستر بين (١٩٩٨) .

– اللمسة الأخيرة فى الصورة (٢٠٠٤) وهى آخر عمل له .

وله بالإضافة إلى ما سبق ، «الناشرون» (غير المتوائمين ، اللامتأقلمون) (١٩٦٠) وهو نص سينمائى كتبه لزوجته الثانية مارلين مونرو

وله من مجاميع القصص القصيرة : «لست بحاجة إليك بعد» (١٩٦٧) و«فتاة بسيطة» (منزلية) (١٩٩٥) .

ومن المسرحيات الإذاعية : «القط والسباك الماهر الذى كان رجلا» و«الجد والتمثال» .

وفى أدب الأطفال : بطانية چين (١٩٦٣) .

وفى السيرة الذاتية «منحنيات فى الزمن» (١٩٨٧) .

وفى أدب الرحلات : «فى روسيا» (١٩٦٩) و«فى البلد» (١٩٧٧) ترجم له شفيق مقار ، على صفحات الهلال (مارس ١٩٧٠) مقالة عنوانها «رحلتى فى الاتحاد السوفيتى» وفيها يصف ميلر لقاءاته بأدباء سوفيت مثل ڤالنتين كاتايف وزيارته لقبر ماياكوفسكى ولقاءات مع جاليا زوجة يفتشنكو وآخرين) .

واقتبس للمسرح مسرحية إبسن «عدو الشعب» (١٩٥١) .

مسرح الواقعية

ولميلر مقالات مهمة تلقى الضوء على نظرياته وممارساته المسرحية منها المقدمة التى كتبها لمجموعة مسرحياته (١٩٥٧) ومقالاته عن «المأساة والإنسان العادى» (١٩٤٩) و«حول المسرحيات الإجتماعية» (١٩٥٥) و«الأسرة فى الدراما الحديثة» (١٩٥٦) و«الكاتب المسرحى والعالم الذرى» (١٩٨٦) .

يعد ميلر خير ممثل لمسرح الواقعية





الاجتماعية فى عصرنا . ومن أقواله فى ذلك «إن المسرحية الإجتماعية كما أراها هى التيار الرئيسى فى المسرح منذ فجر التاريخ ، وأما المسرحية غير الاجتماعية فهى تيار فرعى ، يتبدى قليلا ثم لا يلبث أن يختفى . ولا يمكننا أن نأخذ مأخذ الجد مسرحية تعنى بسيكولوجية الفرد من أجل ذاتها مهما بلغت هذه المسرحية من دقة فى التحليل والملاحظة » (انظر مقالة «الفرد والمجتمع فى مسرحيات أرثر ميلر» ، مجلة «الثقافة الأمريكية» خريف ١٩٦٥، ص ٦٢) .

وينعكس هذا البعد الإجتماعى على خيوط مسرحيات ميلر : فهى تعالج سباق الفئران والجرى وراء النجاح المالى وإعجاب الآخرين ، وصراع الإنسان للتكيف مع المجتع ، والعلاقة بين المجتمع والفرد ، والمثل العليا الزائفة التى تؤدى بالإنسان إلى الهلاك (كما فى انتحار ويلى لومان ، بطل «موت قومسيونجى») .

أما البعد السياسى فيتجلى ، على أسطع الأنحاء ، فى مسرحيات «كلهم أبنائى» و«البوتقة» و«حادثة فى ڤيشى» بل هو شريان سار فى أغلب أعمال ميلر ، حتى لو كانت ، فى ظاهرها ، بعيدة عن السياسة .

«كلهم أبنائى ، (التى تناظر ، من حيث الخيوط ، مسرحية إبسن» سيد البنائين») مسرحية أخرجها إيليا كازان فى ١٩٤٧ وكانت من العوامل التى وطدت شهرة الرجلين . إنها حملة على تجار الحروب ، وإدانة للأخلاقيات الرأسمالية التى تجعل صاحب مصانع مثل جوكيلر ينتج ، ابتغاء للربح ، قطع غيار فاسدة يترتب عليها مصرع عدد من الطيارين ، فيهم واحد من أبنائه ، ويدرك - بعد فوات الأوان - فداحة جريرته وأن هؤلاء الشباب جميعا «كلهم أبناؤه» فلا يعود أمامه إلا التفكير عن ماضيه بإطلاق رصاصة على رأسه . وفى هذه الدراما الإبسنية (يقارنها صلاح عبد الصبور فى كتابه «فى مدينة العشق والحكمة» ، بمسرحية أخرى لإبسن هى «أعمدة المجتمع») تتضاعف جريرة رجل الصناعة إذ يترك شريكه فى المصنع يتحمل المسئولية وحده ، ويدخل السجن بينما يبرأ هو ، وإن كان العقاب المعنوى لا يلبث أن يلاحقه وذلك حين يكتشف ابنه ، بعد الحرب ، جريمة أبيه .

محاكمات السحرة

و«البوتقة» - وهى مسرحية تاريخية تعد أقرب أعمال ميلر إلى روح الشعر - أمثولة رمزية عن المكارثية فى أمريكا الخمسينيات (كتب سارتر لها سيناريو سينمائيا بالفرنسية) . إنها تستوحى محاكمات السحرة والساحرات ، فى غمرة هيستريا دينية ، فى بلدة ساليم بولاية ماساشتوستس الأمريكية فى ١٦٩٢ ، وتشتبك فى شخصية بطلها جون بروكتور الحيرة المعنوية العامة بالورطة الأخلاقية الشخصية ، كما هو الشأن فى رواية هوثورن ، فى إطار الأخلاقيات البيورتانية لولاية نيو إنجلند فى القرن السابع عشر ، «الحرف القرمزى» .

أما «حادثة فى ڤيشى» فقائمة على حادثة فعلية هى تحقيق قام به النازى أثناء الحرب العالمية الثانية واستجوابهم عددا من الفرنسيين بتهمة أنهم يهود .

ولا تنفصل هذه الخيوط الاجتماعية

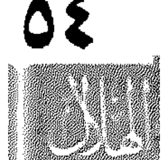


والسياسية عن اهتمامات ميلر الأخلاقية التى تتخذ شكل انشغال بالصراع بين القانون الوضعى والقانون الأخلاقى («مشهد من الجسر») وأثر الماضى فى الحاضر («بعد السقوط») والمثالية والمسئولية الشخصية («موت قومسيونجى») . ذلك أن ميلر لا يكتب مسرحيات عن طاقات الإنسان وإساءة استخدامها فحسب ، وإنما أيضا عن العائلات والعلاقات بين أفرادها . إنه كاتب أخلاقى يؤمن أن تحقيق الذات لا يتسنى إلا بمساعدة الآخرين : فالإنسان حيوان إجتماعى عليه أن يفكر فى سعادة الآخرين ، ويرعى حقوقهم ، ويؤدى واجباته . بيد أنه على حين يؤمن ميلر بقدرة الإنسان على صنع الخير وبسط السعادة على من حوله ، ينظر فيجد الشر والبؤس فى كل مكان . إن آل لومان يعيشون معا تحت سقف واحد ولكنهم لا يكاد يفهم بعضهم بعضا . وحتى فى المسرحية التى يتمكن أبطالها من الإفصاح بوضوح عن مشاعرهم أطفالا ومراهقين وراشدين – مغنى مسرحية «الثمن» لا يحدث تلاق حقيقى بين الشقيقين ڤيكتور وولتر فرانز . ويلوح أن ميلر قد يئس من العثور على جواب للسؤال الذى طرحه فى مقالته «الأسرة فى الدراما الحديثة» . «كيف يتسنى للإنسان أن يجعل من العالم الخارجى بيتا له ؟» وكيف يتسنى للإنسان أن يصنع مما هو بيته ، بالاسم ، بيتا حقيقيا ؟ (انظر أناماسا، مادة ميلر (آرثر) فى «معجم الثقافة الحديثة» ، تحرير جستين ونتل ، كتب آرك ، لندن ١٩٨٤) .

أهم الأعمال المسرحية

انظر كيف تلتقى هذه الجدائل الثلاث – السياسية والإجتماعية والأخلاقية – فى المسرحية التى ربما كانت أعظم أعمال ميلر وأبقاها على الزمن . «موت قومسيونجى» (كتبها ميلر فى ستة أسابيع فى ربيع ١٩٤٨ ولكنها ظلت تختمر فى ذهنه لمدة عشر سنوات ، وفازت بثلاث جوائز) . إنها سجل ، من منطلق التعاطف ، للأيام الأخيرة فى حياة لومان ، وهو مسافر تجارى فى الثالثة والستين من عمره ، لا قيمة له تذكر من حيث المهنة ، ولكنه ذو قيمة من حيث هو إنسان . يظل يناضل حتى النهاية ضد رؤسائه القساة ، وزوجته العاجزة عن أن تمد له يد العون ، وأبنائه الذين لا يهتمون بغير ذواتهم ، وضعفه الشخصى أمام المغريات (يضبطه ابنه مع امرأة فى غرفة فندق) . ينتهى هذا القومسيونجى المتجول إلى كارثة (ينتحر فى نهاية المسرحية كى تحصل أسرته على قيمة بوليصة التأمين : عشرون ألف دولار) نتيجة لتقبله القيم الزائفة للمجتمع الأمريكى المعاصر ، قيم التنافس والكسب والاقتناء .

وعلى الصعيد التقنى نجد هنا لمحات من ماضى لومان تعلو وتنحسر فى ذاكرته ، ويزيد ميلر من تأثيرها باستخدام تلاعب الإضاءة والموسيقى على نحو ما كان يفعل



الكتاب المسرحيون التعبيريون . إن موت لومان محاولة أخيرة لتحقيق مثله الأعلى أن يكون زوجا وأبا ورب عائلة جيداً ، وقومسيونجياً جيداً ، وهي أحلام ترتبط بكون حياته لا تساوى أكثر من قيمة بوليصة تأمين !

أو انظر إلى مسرحية «مشهد من الجسر» : إنها مأساة شرف وانتقام أسرية ، في ظل كوبرى بروكلين ، تنجم عن لجوء مهاجرين إيطاليين ، دخلا الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية ، إلى شقة إدى كاربون ، وهما من أقارب زوجته وابنتها . وتقع الابنة في حب أحد الإيطاليين فتثور غيرة إدى - إذ كان يكن للفتاة ، وهي منه بمنزلة الإبنة ، حبا مكظوما - ويشي باللاجئين لدى السلطات فتلقى القبض عليهما ، وينتقم أحدهما منه فيقتله . ويلعب محام ، يدعى ألفيرى ، في المسرحية دور الكوراس الذى يعلق على حتمية الكارثة» .

ويلفتنا هذا إلى حقيقة مؤداها أن ميلر ، وإن كانت أغلب مسرحياته تقدم صورا واقعية للحياة والمجتمع الأمريكي، فإن فيها أصداء من إبسن ومن المأساة الإغريقية القديمة وذلك إذ تتردد فيها خيوط معرفة النفس وحقيقة الذات ، ويجمع بين الرمزية والطبيعية دون تنافر (انظر مادة : ميلر (آرثر) في «رفيق أكسفورد إلى الأدب الإنجليزى» ، تحرير مرجريت درابل ، الطبعة الخامسة ، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٨٧) .

سيرة ميلر الذاتية

أو انظر إلى مسرحية «بعد السقوط» : إن بطلها ، كونتين ، محام يسارى لبرالى في الأربعين يجرى الحدث التعبيرى داخل رأسه . لقد قصر في حق أبيه وزوجته الأولى ، ولم يملك شجاعة الجهر بمعتقداته الليبرالية والدفاع عن صديق له في فترة الاضطهاد المكارثى . ولم ينجح في صيانة زواجه الثاني من ماجى وهي مغنية شعبية مشهورة . وفي المسرحية عناصر واضحة من سيرة ميلر الذاتية، وإن أنكر ذلك فيما بعد . فكونتين يحمل ملامح منه ، وماجى تحمل ملامح من مارلين مونرو . على أن المسرحية تمتاز بالنضج : نضج يجاوز ما تعود عليه رواد المسرح التجارى ، وبرفضها أن تصطنع حلولا سهلة أو ذلقة اللسان للمشاكل التى تطرحها (مارتن سيمورسميث : مرشد إلى الأدب العالمى الحديث ، الناشر : ماكميلان ، لندن ١٩٨٦) «إن بعد السقوط» - بوضعها من بعض الزوايا صورة شخصية للمؤلف - فقد ذاتى تسعى الشخصية المركزية فيه إلى محاولة تتبع جذور أفعالها وفهمها على حقيقتها، وإدراك معنى علاقاتها الشخصية في الماضى . وعندى أنها دراما سيكولوجية تشبه إلى حد ما رائعة أونيل «فاصل غريب» .

مسرحية أخرى تجمع بين خيوط السياسة والاجتماع والأخلاق هي «الثمن» : إنها مسرحية عن الذنب والمسئولية ، والصراع بين الذات والمجتمع ممثلا في الصراع بين أخوين - شرطى وجراح - إذ تقيم تضادا بين حياة وآراء هذين الشقيقين اللذين ظلا منفصلين طويلا وأخيرا التقيا لكي يتخلصا من بيت الأسرة القديم . تشف «الثمن» عن تقبل («فقدان البراءة» باعتباره حالة محتومة



للإنسان ، وهى تستخدم التقنية الإبسنية ، تقنية العرض الارتدادى إلى الخلف ، فى أصفى أشكالها (كما فى مسرحية إبسن «روز مرشولم») . وإذ تنهى الشخصيات إلى إدراك حقيقة دوافعها المعقدة ، تتفتح عيون النظارة على قدرة الإنسان على خداع ذاته (انظر مقالة بيتر دافيسون : «تنسى وليمز وآرثر ميلر وإدوارد أولبى» فى كتاب : الأدب الأمريكى ، تحرير بوريس فورد ، المجلد التاسع من «مرشد بليكان الجديد إلى الأدب الإنجليزى» ١٩٨٨ ، ص ٥٦١) .

فى مقابلة أجراها الناقد المسرحى البريطانى رونالد هايمان مع ميلر عام ١٩٧٠ قال الأديب عن مسرحيته «الثمن» .

«كان ما شغلنى أساسا فى مسرحية «الثمن» هو ما يتكلفه المرء فى سبيل أن يكون شخصاً يرفض الانجراف وإغواء قيم المجتمع ، إنه بمعنى ما ثمن الصدق مع النفس . وبمعنى آخر فقد رفض الشرطى أن يختار الجنس ودوافع النجاح فى المجتمع . وقد أقام بينها وبين نفسه حائطا . وحافظ على نوع من الصدق الأحمق العنيد مع النفس نتيجة لذلك ولكنك ترى كم دفع فى مقابل ذلك» (د. على شلش ، عندما يتحدث الأدباء ، سلسلة اقرأ ٤٢٧ ، دار المعارف ١٩٧٧، ص ١١١) .

ومسرحية «الساعة الأمريكية» ولو أنها ليست من مسرحيات ميلر المهمة ، محاولة لكتابة ملحمة اجتماعية ، وتاريخ لفترة الكساد الاقتصادى على المستويين القومى والفردى . وقد سلف القول إن أبا ميلر كان رجل صناعة غنيا تأثر بفترة الكساد الاقتصادى فى ثلاثينيات القرن الماضى ، وهى فترة خلفت أثرا عميقا فى الابن - أديب المستقبل - إذ رأى كيف تعمل العوامل المعاكسة على الانتقاص من كرامة الإنسان وتجريده من احترامه لذاته . وتكون لديه احترام عميق لمن يحافظون على نزاهتهم فى مثل هذه الظروف وازدراء - يماثله عمقا - لمن يستغلونها فى تكويم الثروات على حساب إنسانية الآخرين . لقد ولدت فيه فترة الكساد إحساسا بأن من واجب الكاتب المسرحى أن يعالج المشكلات الأخلاقية لعصره ، وهو فى هذا يلتقى مع سائر كتاب الالتزام فى القرن العشرين : شود وبرخت وسارتر وكلفورد أورتس .

لقد قدم ميلر تفسيرا نافذا لضغوط الحياة الحديثة إزاء خلفية مجتمع آخذ فى التغير على نحو مأسوى ، واتسم عمله بالغنى والتنوع ، وكانت السمات المميزة لفنه المسرحى هى : الحساسية، والفكاهة ، واستلهام التراث اليهودى ، والإحساس القوى بالمواجهات الدرامية ، والقدرة على استغلال مشاهد لقاء الشخصيات على أكمل الأنحاء (انظرمقالة أناماسا السابق ذكرها) . لقد قدم الحلم الأمريكى على شكل «حديقة خربة» (التعبير لمارشال وكر فى كتابه : أدب الولايات المتحدة الأمريكية ، الناشر : ماكميلان ، هامشير ١٩٨٥) .

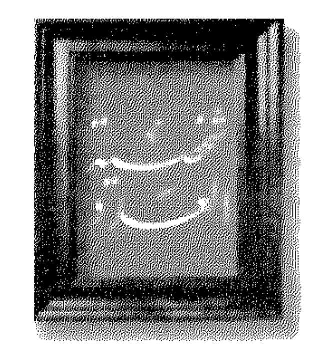
وقد قرر موقفه ، كاتبا مسرحيا ومفكرا ، فى كتاباته التنظيرية ، وكانت نظرياته فى الدراما ، على الدوام ، مثار تفكير ونقاش

مأساة الإنسان

ولا ينفى هذا ، بطبيعة الحال ، أن عمله كان موضع نقد صارم من نقاد كبار مثل إريك بنتلى ، وفيليب راف الذى يرى أنه ليس بالمفكر (انظر مقالة «آرثر ميلر ومغالطة العمق» ١٩٦٤ فى كتاب راف «الأدب والحاسة السادسة»، الناشر ، فيبر وفيبر ، لندن ، ١٩٧٠) ومارتن سيمورسميث الذى يصفه بأنه أقرب إلى الصحفى والمصلح الاجتماعى منه إلى الشاعر (سيمورسميث فى مرجعه السابق ذكره) .

على أنه مهما يكن الرأى فى مثل هذه النقدات وسواها فإنه لا مشاحة فى أن ميلر قد كتب مسرحية واحدة ، على الأقل ، دخلت تراث الأدب المسرحى العالمى ، وعدد من المسرحيات الجيدة . وليس أقل منجزاته شأنا أنه كتب مأساة الإنسان العادى ، بعد أن كان أبطال مآسى الماضى من الملوك والأمراء ، وكشف عن ينابيع النبل والشجاعة والجلد فى البسطاء المسحوقين تحت آلة الرأسمالية التى لا تعرف ، فى سبيل الربح المادى ، رحمة بأحد .

ويبقى - فى الختام - أن نضيف أن آرثر ميلر قد كان - منذ ستينيات القرن المنصرم - من الوجوه الحاضرة فى المشهد المسرحى المصرى ، إذ ترجم الكثير من أعماله وقدم على خشبة المسرح ، وكرمه مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى فى ١٩٩٨ بوصفه أحد رواد المسرح التجريبى فى العالم (انظر قاموس المسرح ، تحرير وإشراف د. فاطمة موسى ، المجلد الخامس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ - ١٩٩٩ - ، ص ١٦٦٥ - ١٦٦٧) . ومن أبرز من ترجموا أعماله أو كتبوا عنه فى الكتب والمجلات والصحف الدكاترة والأساتذة : محمد مندور ، ولويس عوض ، وصلاح عبد الصبور ، وعبدالعزيز حمودة ، وسمير سرحان ، وشوقى السكرى ، وعلى شلش ، وسمير عوض ، وميخائيل رومان ، ومحمد اسماعيل محمد ، وشفيق مقار، وعبد الله الشفقى ، وجمال عبدالناصر، ونبيل راغب ، ويسرى خميس ، وعبد الحليم البشلاوى ، وعبدالمنعم الحفنى ، وزغلول فهمى ، وكامل يوسف ، ومحمود بدر الدين خليل ، ومحمد رجا الدرينى ، وسامى خشبه ، ولويس جريس ، وشوقى فهيم، وعزت ابراهيم وغيرهم . وعقب وفاته كتب عنه صبحى حديدى فى جريدة «القدس العربى» تحت عنوان «أمريكى عاق» ، وشريف بهاء الدين فى جريدة أخبار الأدب (٢٠/٢/٢٠٠٥) تحت عنوان «ضمير المسرح الأمريكى» وابراهيم درويش (فى نفس العدد) تحت عنوان «فضح انقلاب الحلم الأمريكى على نفسه» وكلها عناوين توحى بالصورة التى استقرت لميلر فى الذهن العربى (وهى صورة صحيحة إلى حد كبير مع زيادة هنا أو نقص هناك) . صورة «المعارض ذى الضمير» الملتزم بقيم العدالة والحرية والنزاهة فى عالم لا يفتأ يسحق هذه القيم بالأقدام يوماً فى إثر يوم . ■



الأستاذة الدكتورة



طفلة معجزة... ورائدة في علم الوراثة والهندسة الوراثية

بقلم
صافي ناز كاظم

وقفت أمام ملفها المعنون: «تاريخ الحياة العلمي والوظيفي للأستاذة الدكتورة عفت عبداللطيف أحمد بدر، ومبررات الترشيح لجائزة الدولة التقديرية في العلوم التكنولوجية المتقدمة التي تخدم المجالات الزراعية». رغما عني لم أستحضر الصورة الحديثة لهذه الرائدة في علم الوراثة والهندسة الوراثية، فقد قفزت إلى ذهني صورة التلميذة/ الطفلة - التي كانت قد بلغت العاشرة في عيد ميلادها ٨ يناير ١٩٤٩ - بيضاء، متوردة الوجه، بضفيرتين من الشعر الأحمر الطويل، ترتجف تبكي من الخوف والحمى. هذه اللقطة لم تغب عن ذاكرتي أبدا منذ امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، يونيو ١٩٤٩، في حوش مدرسة «الطائفة الإسرائيلية» - مدرسة اليهود المصريين - بشارع سبيل الخازندار مع ناصية شارع مصنع الطرابيش بالعباسية الشرقية، والتي كانت وزارة المعارف العمومية تؤجرها، ربما لاتساعها، مقرا لامتحانات الشهادات العامة: الابتدائية، والثقافة، والتوجيهية، لتلاميذ مدرسة العباسية الابتدائية، ومدرسة العباسية الثانوية للبنات. كانت وقتها معروفة باسم «عفت عبداللطيف» فقط، ولم تكن ساعتها صديقتي، فهي نسبيا «الجديدة»، جاءت من روضة أطفال شبرا محولة إلى مدرسة العباسية قافزة مباشرة إلى السنة الثانية الابتدائية، وخلال السنوات، ثانية، ثالثة، رابعة، ذاعت شهرتها بصفتها «الطفلة المعجزة»، المتفوقة في كل المواد: عربي وحساب وانجليزي وتاريخ وجغرافيا وصحة وألعاب وأشغال فنية وتدبير وموسيقى، ما عدا الرسم والخط. لم أعرف، وأنا واقفة أرقبها، ما الذي يمكن أن يجعل هذه «البنت الشاطرة» ترتجف هكذا بكل هذا الهلع خشية الامتحان حتى يبلغ بها التوتر إلى ارتفاع في درجة الحرارة تهمس به والدتها الأنيقة للمشرفة على المراقبة: «حرارتها ٣٩». وعندما ظهرت نتيجة الامتحان وكانت «عفت عبداللطيف» هي الأولى على المدرسة، وفي قائمة الأوائل على القطر المصري، فهمت أن الخوف لم يكن من الرسوب، بل كان خشية فقدان المركز الأول. لم تكن في امتحان بل في سباق



ومنافسة ، هذه الحالة التي لم أكن أحشر نفسي فيها أبدا ، فقد استأثرت منذ البداية بإحساس ذاتي داخلي لا يتزعزع بأنني خارج المنافسة في اللغة العربية، إلقاء وإنشاء ، وفي الحساب والهندسة ، أنال الدرجات النهائية من دون قلق أو توتر ، وبعد ذلك لم يكن يهمني سوى المرور ، بلا رسوب ، عبر جميع سنوات الدراسة حتى التخرج . ولعل هذا الاختلاف الجذري بيني وبين عفت هو الذي جمعنا على الصداقة المتينة منذ التحاقنا بالسنة الدراسية الأولى بمدرسة العباسية الثانوية ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ، وحتى الآن والحمد لله .

«عفت» الأولى دائما ، النابغة في كل المواد العلمية والأدبية ، ما عدا الرسم والخط ، تخوض التنافس الدراسي بجدارة فائزة ، بالإضافة إلى استحواذها على الإعجاب من الجميع ، من أول حضرة الناظرة إلى حضرة الضابطة ، مرورا بالمدرسين والمدرسات كافة ، و«شلة» الزميلات ، اللاتي لا يطمعن في تنحيتها عن مركز «أولى أوائل الطلبة» ، فهي الجميلة ، الأنيقة ، المرحة ، التي لم يمنعها انكبابها على الاستذكار والاطلاع ، والقراءة المكثفة ، ومسئولية التفوق ، من أن تمتلئ بالحيوية ، والجدولة في سلك مشاغبة المدرسين مع المشاغبات والمجادلات - (منهن حضرتي طبعا) - والرهان على إضحاك المتشددين منهم في الصرامة، والإفلات مع ذلك من العقاب بصنعة اللطافة والظرف وخفة الظل ، فوق أنها المعتنى بها جداً من والدتها المبتكرة ذات الذوق الرفيع «عصمت المفتي» - (الشقيقة الوحيدة للعالمين الشهيرين في الطب والمجتمع ، دكتور أنور المفتي ودكتور علي المفتي الكبير) .

أوقفت « عفت » اشتراكها في حافلة المدرسة لنتمتع بالسير معاً، هي وشقيقتي فاطمة - (الأستاذة الدكتورة بزراعة أسيوط وزاملت عفت بزراعة عين شمس) - وأنا ، في الطريق من المدرسة إلى منازلنا . نتوقف أولا عند مدخل عمارتنا ١١٦ شارع العباسية، نكتب تعهدنا المبكر بأن نكون من جنود مصر الصالحين المحققات للإنجازات في العلوم والفنون والآداب لمصرنا العزيزة ! ثم تكمل طريقها ، مع صديقة رابعة لنا تاهت منا الآن وكان اسمها آمال إسماعيل كامل .

عند شارع عشرة الشعبي ، الذي هو شارع عبده باشا ، تنعطف يمينا تواصل السير إلى تقاطعه مع شارع موسى قطاوي فتأخذ يمينا آخر حتى تصل الفيلا رقم ١٥ ، جوار مسجد السنية ، المشهورة في الحي باسم : «بيت المفتي» ، تدخلها من بابها الخلفي صاعدة إلى الطابق الثاني حيث تسكن مع أسرتها : والدها



قطعت على نفسها عهدا هي وزميلاتها أن يكن من جنود مصر الصالحين المحققين للإنجازات في العلوم والفنون والآدب



حسن بك المفتي جالساً وإلى يمينه زوجته اعتدال هانم عثمان عسل وإلى يمينها إبنتها عصمت ويقف وراءها زوجها عبد اللطيف بدر وإلى يساره على وأنور وعثمان وشاكر المفتي فى مطلع شبابهم - ١٩٢٧

المربى الفاضل عبد اللطيف بدر ، من رجال التربية والتعليم ، ووالدتها عصمت هانم المفتي ، ومحمد شقيقها الذى يصغرها بست سنوات ، وعثمان الأصغر من أخيه بعامين ، وطرزان كلبهم الأسود المروع .

***

« بيت المفتى » كان علامة تاريخية في شارع موسى قطاوى ، وظل هكذا حتى منتصف الستينيات إلى أن تم هدمه وعزل أهله إلى مصر الجديدة ، وربما عاد تاريخ بنائه إلى القرن التاسع عشر حين كانت المنطقة مزارع وحقولاً وحدائق غناء . تدريجيا تحول كل شيء إلى زحام أسواق وبشر ولم يعد هناك أى شاهد على زمان العز والرفاهية فى الحى إلا عراقة «بيت المفتى» ذلك الذى يقع وصفه بين قصر صغير أو ڤيلا كبيرة أو مشتمل عائلى من دورين وحديقة واسعة لها باب حديدى ، خلاف الباب الخلفى الذى كان عمليا هو باب الخروج والدخول . عند الدور الأول تقول « عفت » ونقول وراءها : هذه شقة « جدو » و « نينة »، وتلك شقة « خالو شاكر » رحمه الله، وقبل أن ندخل شقتها فى الدور الثانى تشير إلى الشقة المقابلة : « شقة تيزة فهيمة أخت نينة وزوجها عمو كمال وجيش قططها » ، ترعاها بحدب وتعوضها عن عدم الإنجاب .

«جدو» ، هو حسن بك المفتى، ابن الشيخ على المفتى من هيئة كبار علماء الأزهر، كان ضابطا كبيراً من ضباط البوليس، ساند ثوار ١٩١٩ فأحالوه على الاستيداع، وبدلا من أن يستقر فى بيت عائلته بالجمالية، آثرت «نينة»، زوجته اعتدال هانم ، السكنى فى بيت العباسية الموروث عن والدها التاجر الكبير المعروف السيد عثمان عسل، فأسماه الناس بالشهرة «بيت المفتى» إذ ترعرع فيه أبناؤها «المفتية» : شاكر وأنور وعلى وعثمان، وابنتها الوحيدة عصمت أم عفت .



في كل ماكان يعتز به « جدو » ، حسن بك المفتي ، كانت مكتَبَة ثرية بنفائس الكتب التراثية والعصرية وحكايات سلكه الوظيفي الذي أوصله إلى رتبة « مأمور » جاب معظم مدن القطر المصرى ، وتفاصيل الحركة الوطنية التى فجرت ثورة ١٩١٩ وأيدها بكل قواه وسلطاته حتى فقد وظيفته ضريبة ذلك التأييد . بهذه الخلفية المفتخرة بالخسارة المادية لصالح العطاء الوطنى ، وقيم النهضة والثقافة والعلم تفوق كل أولاده في تحصيلهم الدراسى وتألقوا في مساراتهم المهنية بالإجادة والتفانى والإخلاص والصدق والأمانة . تخرج المستشار شاكر في كلية الحقوق، والدكتوران أنور وعلى فى كلية الطب، والدكتور عثمان فى الهندسة، وترسب الندم فى قلب شقيقتهم عصمت، المتوقدة ذكاء وموهبة، لأن والديها حين فضلا لها مدرسة سان چوزيف الفرنسية سدا عليها طريق إكمال دراستها بالجامعة فعقدت العزم على ألا يحدث ذلك لابنتها «عفت» .

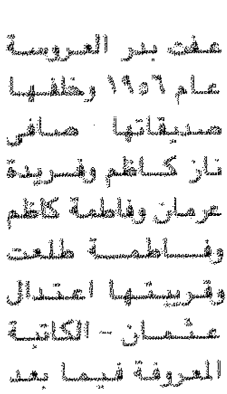
تزوجت « عصمت » عام ١٩٣٧ وهى فى الحادية والعشرين من الشاب عبد اللطيف ، ابن الشيخ أحمد بدر ، من كبار تجار الغلال فى كرموز بالإسكندرية . فى الثامنة والعشرين ، ذكيا نابها متوقد الحماس لمسيرة النهضة التربوية الحديثة ، تخرج عبد اللطيف فى كلية الآداب قسم التاريخ جامعة فؤاد الأول عام ١٩٣١ ، وأكمل عامى التخصص التربوى فى كلية التربية عام ١٩٣٣ ليخوض مهنة التدريس ، التى عشقها وتفانى فيها عاملاً بشغف الهاوى المبتكر المطبق لفن العملية التربوية .

جمّع الله ووفق بين الزوجين السعيدين عبد اللطيف وعصمت ، كأنهما كانا قد التقيا عند محطة الحب والعشق والغرام على الرغم من ترتيبات الزواج التقليدى . نزور «عفت» فنلمس البشاشة والسلام والتفاهم ، يقرأ عمنا «عمى عبداللطيف» كتاب التاريخ فتتفتح آفاقه ويثبت وعيا ممتعا، لا حفظا وتلقينا متجهما . وأشكو لـ «طنط عصمت» غلاسة اللغة الفرنسية فتصير مع مساعدتها درساً ضاحكا منطقيا ميسراً ينوّب مخاوفى ويحل عقدتى .

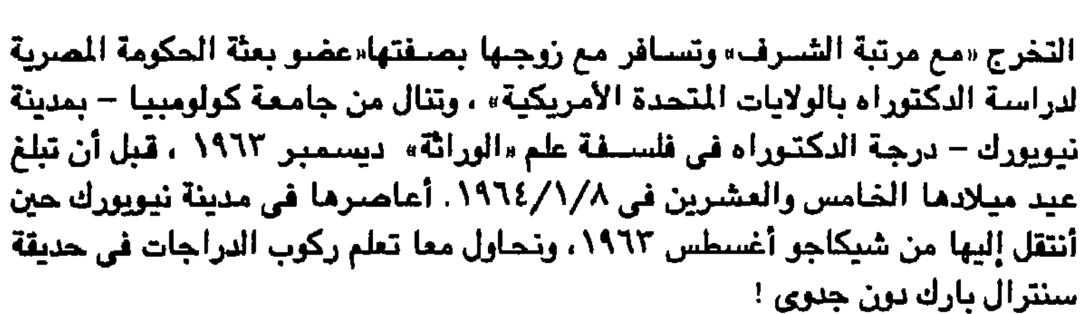
تتوجه « عفت » للقسم العلمى، وأتوجه للقسم الأدبى ولا نفترق. نحصل على « التوجيهية » يونيو ١٩٥٤ ، وهى الأولى على المدرسة وتتم خطبتها إلى «عبدالخالق» ، قريبها المحب والحبيب المتخرج فى كلية الزراعة جامعة الاسكندرية والمعيد بها فتختار الالتحاق بكلية الزراعة جامعة عين شمس ! خلال دراستها تتزوج وتنجب «مصطفى» فى ١٩٥٧/٨/١١ ، لكنها ، باحتواء «المشتمل العائلى» ، لا تتنازل عن التفوق الدراسى ، والمركز الأول حتى

○ لا تتنازل عن التفوق الدراسى والمركز الأول حتى التخرج مع « مرتبة الشرف » وتنال الدكتوراه قبل أن تبلغ الخامسة والعشرين





عفت بدر العروسة عام ١٩٥٦ وخلفها صديقاتها : صافى ناز كاظم وفريدة عرمان وفاطمة كاظم وفاطمة طلعت وقريبتها اعتدال عثمان - الكاتبة المعروفة فيما بعد



التخرج «مع مرتبة الشرف» وتسافر مع زوجها بصفتها«عضو بعثة الحكومة المصرية لدراسة الدكتوراه بالولايات المتحدة الأمريكية» ، وتنال من جامعة كولومبيا - بمدينة نيويورك - درجة الدكتوراه فى فلسفة علم «الوراثة» ديسمبر ١٩٦٣ ، قبل أن تبلغ عيد ميلادها الخامس والعشرين فى ١٩٦٤/١/٨. أعاصرها فى مدينة نيويورك حين أنتقل إليها من شيكاجو أغسطس ١٩٦٣، ونحاول معا تعلم ركوب الدراجات فى حديقة سنترال بارك دون جدوى !

لم يكن مهما أن أخفق أنا فى المحاولة ، لكنه كان من العجيب أن أرى «عفت» تخفق فى شئ !

خلال بحثها العلمى الرائد فى علم الوراثة والهندسة الوراثية ، لا تتخلى عن اهتماماتها الثقافية والفنية ، تدهشنى بحديثها المطول عن ديستوفسكى وهى مشغولة بنتائج تجاربها فى معملها ، ولا يفوتها مشاهدة عروض برودواى المسرحية المتميزة ، والعروض التجريبية «أوف برودواى» ، تتابع حفلات الموسيقى ، وتقتنى مع زوجها الدكتور عبدالخالق مراد «ألبومات» الموسيقى الكلاسيكية ، وتكون الزائرة الشغوفة بالمتاحف ومعارض الفن .

* * *

تعود الدكتورة عفت بدر مع زوجها الدكتور عبدالخالق مراد إلى مصر عام ١٩٦٤ ، الذى تلد فى ٢٦ أكتوبر منه ابنتها «منى» ، شقيقة صغرى لأخيها «مصطفى» الذى بلغ السابعة، وتكون إقامتها الدائمة منذ ذلك التاريخ بالاسكندرية حيث أصبحت زميلة لزوجها فى هيئة التدريس بكلية الزراعة ، جامعة الاسكندرية .

تتدرج فى السلك الجامعى : الأستاذة الدكتورة بقسم الوراثة ، رئيس مجلس قسم الوراثة ، مقرر اللجنة العلمية الدائمة للوراثة بالمجلس الأعلى للجامعات ، عضو اللجنة العلمية الدائمة للوراثة بالمجلس الأعلى للجامعات ، عضو اللجنة الخاصة للتكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية بالمجلس الأعلى للجامعات ، عضو لجنة العلوم

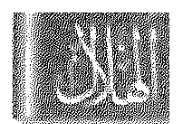
والتكنولوچيا باللجان الاستشارية المتخصصة بمكتبة الاسكندرية ، عضو اللجنة العلمية الدائمة لفحص الإنتاج العلمى فى مجال بحوث الهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية لمدينة مبارك للأبحاث العلمية والتطبيقات التكنولوجية ، رئيس مجموعة البيولوجيا الجزيئية بمركز الدراسات العليا والبحوث بجامعة الاسكندرية ، نائب رئيس الجمعية المصرية للعلوم الوراثية ، عضو مجلس إدارة منتخب الجمعية المصرية للعلوم الوراثية ، عضو هيئة تحرير وسكرتير تحرير لعديد من المجلات العلمية المتخصصة ، عضو لجان مناقشة رسائل ماچستير ودكتوراه فى جامعات مصر والسعودية وجامعة جرينوبل بفرنسا ، أستاذ زائر أبحاث الهندسة الوراثية بجامعة هارفارد الأمريكية ، محاضر زائر بمعهد العلوم البيولوجية، جامعة تسوكوبا باليابان ، أستاذ زائر بالمركز القومى للبحث العلمى بفرنسا ، عالم زائر بالمعهد القومى للعلوم التطبيقية بفرنسا ، باحث زائر فى جامعة بروكسيل الحرة ببلچيكا ، الباحث الرئيسى للعديد من المشاريع البحثية المتعلقة بالوراثة والبيئة والهندسة الوراثية ، أنشأت خلالها مدرسة علمية متميزة ومعملا مجهزا للهندسة الوراثية بالكلية وهو مسجل بكتيب أكاديمية البحث العلمى والتكنولوچيا ، كما أنشأت أول معمل ومدرسة علمية فى مجال السمية الوراثية والتى قد تسببها مكونات البيئة المختلفة ، وطرق الكشف عنها بجامعة الإسكندرية فى أوائل السبعينيات ولها عشرات الأبحاث المنشورة فى هذا المجال المهم إذ إن السمية الوراثية ترتبط بإحداث السرطان وكذلك التشوهات الجنينية، ناشطة فى مجال تبسيط العلوم والتعريف بما هو حديث فى مجالات الوراثة والهندسة الوراثية وكذلك مناقشة أخلاقيات وضوابط التكنولوچيا المتقدمة من خلال أحاديث تليفزيونية ومقالات ومحاضرات عامة فى جمعيات غير حكومية ومكتبة الإسكندرية وقصر الثقافة بسيدى جابر ، عضو فى جمعيات أصدقاء البيئة ، وتنمية المجتمع ، وحماية المستهلك ، وأصدقاء الموسيقى ، وعضو منتخب فى جمعية أصدقاء مكتبة الاسكندرية و و و و ......

بحثت وأنشأت وأشرفت ورشحت وحصلت ، وألفت ، .... إلخ ، ولا نهاية لمفردات انجازاتها العلمية ، التى أوفت بها عهدها الذى وقعناه معا عام ١٩٥٣ «بأن نكون من جنود مصر الصالحين المحققات للانجازات .... لمصرنا العزيزة» .

★★★

رحل عنها زوجها وزميلها الأستاذ الدكتور «عبدالخالق مراد» عام ١٩٧٩، وهى فى الأربعين ، وهاجر ابنها «مصطفى» ، وابنتها

○ الدكتورة عفت واحدة من أعلام مصر العلمية وثمرة باهرة لوالد تربوى فذ وقدوة أخلاقية تحتذى ، ومعه زوجة وأم مثالية تعاونه





د. عفت بدر تمثل مصر في المؤتمر الدولى للوراثة الذي عقد فى دلهي عام ١٩٨٣ مدعوة فى بيت السيدة أنديرا غاندى التي تصافح دكتور بالتيمور الحاصل على جائزة نوبل وإلى يساره دكتور سميث الحاصل كذلك على جائزة نوبل في العلوم

«منى» إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتزوجا هناك وأنجبا أحفادا لها تزورهم كل عام ، ومنذ عشر سنوات اقترنت بزوجها الفاضل الأستاذ الدكتور عباس يحيى رئيس قسم الهندسة المعمارية والتصميم البيئى بالأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوچيا بالاسكندرية ، وأمين عام جمعية أصدقاء البيئة ، والذى يشاركها هوايات الفن والموسيقى والرحلات .

***

هذه هى الأستاذة الدكتورة عفت بدر، واحدة من أعلام مصر العلمية التى لا تعد ولا تحصى، وثمرة باهرة من بيت كان فيه والد تربوى فذ وقدوة أخلاقية تحتذى، ومعه زوجة وأم مثالية تعاونه ، وأخوال علماء أجلاء: الطبيب الأستاذ الدكتور أنور المفتى، والطبيب الأستاذ الدكتور على المفتى - الأكبر-، وأستاذ الهندسة الدكتور عثمان المفتى، وشقيقان الأستاذ الدكتور محمد بدر، رئيس قسم القوى الكهربائية بهندسة عين شمس، والراحل شابا، الأستاذ الدكتور عثمان بدر، أستاذ الحاسبات بقسم هندسة الحاسبات والنظم ومدير شبكة الاتصالات الدولية (الإنترنت) بالمجلس الأعلى للجامعات .

***

إن دعوى فقرنا العلمي : كذب ، ومصطلح «آخر المحترمين» : بهتان، ليس لدينا عقم ، وبلادنا ليست عاقرا ، فنهر العطاء فى مصرنا الولادة ممتد ولا يزال جاريا إلى ما لا تراه العين .

شئ وحيد هو الذى يزعجنى فى صديقتى «عفت بدر» ، إنه حبها، الذى يناوئنى، للطعام الصينى وشوربة السمك، وهكذا العلماء لهم بالضرورة غرائبهم ! ■

محمد علي
والصعود إلى السلطة (١-٥)

بمناسبة مرور مائتى سنة على توليه حكم مصر

بقلم
طارق البشرى

(١)

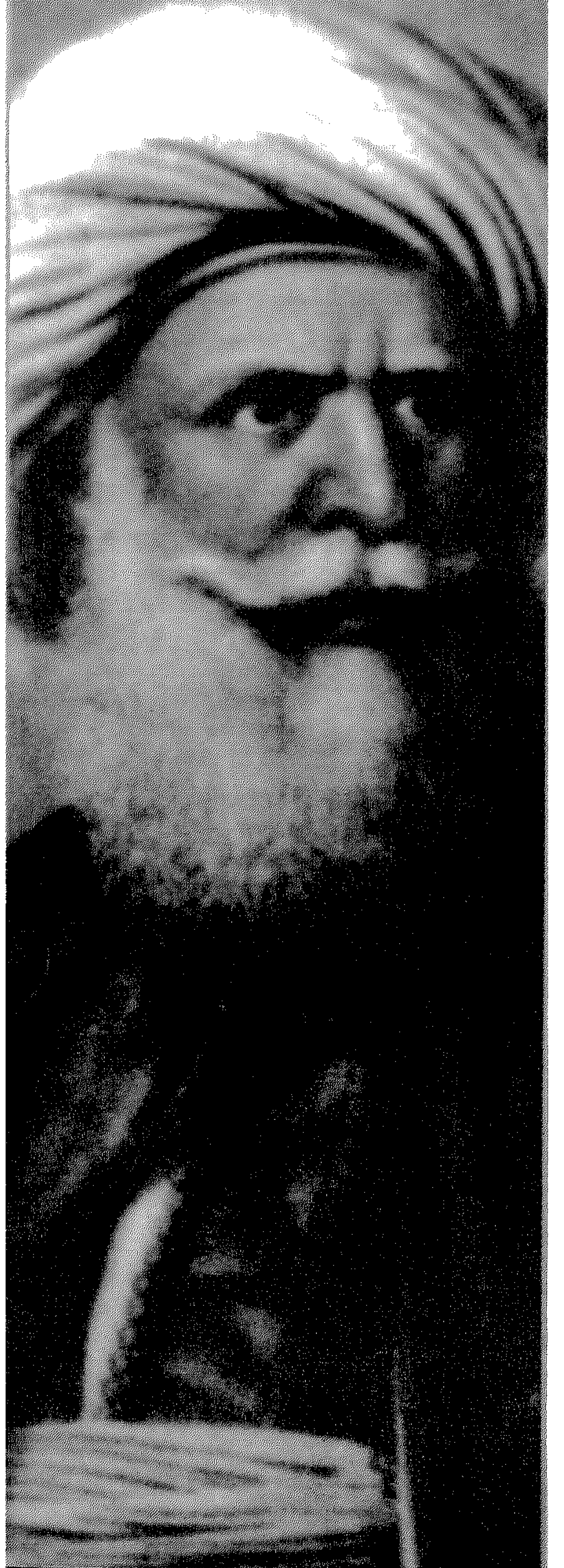
إن ما يساعدنا على فهم المشروع السياسى الذى تبلور فى سياسات محمد على، أو دار محمد على فى فلك تحقيقه، هو أن نعرف طبيعة الدور الذى قام به الرجل وهو يصعد إلى السلطة السياسية فى مصر، وان ندرك المفاد السياسى الذى لعبه فى الأحداث الكبيرة التى جرت فى عهده، ذلك العهد الذى شغل النصف الأول من القرن التاسع عشر جله.

ويتعين أن نلحظ، أننا عندما نتكلم عن «مشروع سياسى» لا نقصد تكوينا فكريا سياسيا معدا سلفا قبل البدء فى تحقيقه، ولا نقصد برنامجا سياسيا صيغ من قبل العمل على تنفيذه، إنما نقصد مجموعة السياسات الإرادية التى يجرى اختبارها من خلال البدائل المتاحة وتتراكم تفاصيلها من خلال مسلسل الأفعال وردود الفعل على المدى الزمنى الذى جرت فيه هذه السياسات، قد يكون «المشروع» فكرا وبرامج وأهدافا مسبقة، وقد لا يكون، وهو فى كل الأحوال يجرى تخلقه الواقعى فى سياق حركة سياسية تتابع أفعالا وردودا على مدى زمني، وهذا التتابع هو الذى يكشف أوضاع هذا المشروع فى الواقع وبالتحقق العملى، وليس فى الأذهان والتصورات المسبقة، ونحن هنا أمام تاريخ جرت أحداثه تباعا وتمت، ولسنا أمام مقاصد ودعوات جرت أقوالا مروية أو مكتوبة. اننا أمام حقائق ولسنا أمام أماني ولا وعود.

* * *

(٢)

بدأت قصة محمد على فى مصر فى ظروف إخراج الحملة الفرنسية من مصر،



وقد كان هو ممن شاركوا فى إخراجها، وكانت حملة الفرنسيين على مصر أتت فى يوليه ١٧٩٨ وخرجت فى سبتمبر ١٨٠١، وشارك فى إخراجها الجيش العثمانى وقوات بريطانية، وأمراء المماليك المصرية، وجماهير من الشعب المصرى تحركت وقتها ثائرة تحت قيادة علماء من الأزهر وأعيان مصريين ، وكان لكل من هذه القوى أهداف ترجو أن تحققها بعد إخراج الفرنسيين.

إن الفرنسيين بقوا فى مصر مدة لاتزيد على السنوات الثلاث إلا بشهرين أو ثلاثة، وذلك من بدء ما وطئت أرض مصر قدم فرنسية، حتى نهاية ما غادرتها آخر قدم عسكرية، ولذلك أجدنى شديد التحفظ على كل الأقوال التى تتحدث أو تشير إلى الأثر «التنويرى»، «أو التحديثى» للحملة الفرنسية فى ذلك الوقت، ليس فقط من الجوانب التثقيفية أو الحضارية، ولكن أيضا من جانب قصر المدة، فإن جيشا غازيا من حضارة غريبة وبلغة غريبة وبتقاليد غريبة، وفى ظل غزو عسكرى مسلح يضرب ويقتل ويهدم، وفى ظل مقاومة شعبية، كل ذلك لا يمكن أن ينتج أثراً ثقافياً فى مدة ثلاث سنوات.

يمكن القول إن الحملة الفرنسية أنتجت آثارا مهمة، وذلك نلمسه فى الجانب السياسى، والجوانب الخاصة بموازين القوى السياسية التى تتعامل مع الأحداث المصرية، وهذا ما سأشير إليه حالا، ولكن لا يمكن فى ظنى أن يكون الغزو الفرنسى ذا أثر فى القضايا الثقافية الخاصة بالتنوير والتحديث التى

نعرف جميعا أن التحولات بشأنها تستلزم أوقاتاً أطول ومجاهدات أشق وأزمانا تتوالى، ولذلك فنحن عندما نتكلم عن تنوير أو تحديث، إنما يتعين علينا أن نتكلم عن محمد على ومشروعه الوطنى، والذى استمر إلى ما يشارف نصف القرن بتشكيلات مؤسسية ونهوض اقتصادى ومعاهد تعليم يتعين أن نتكلم عن ذلك وليس عن عملية غزو أجنبى فاشل لم يكتب لها البقاء أكثر من ١٢٠٠ يوم، لا تكفى وليدا أن يحسن الكلام، وشأن التطور الثقافى فى عهد محمد على هو شأن ذات التطور فى ذات الفترة فى الدولة العثمانية بغير غزو فرنسى.



أهم أثر فى ظنى للحملة الفرنسية، أنها بدأت تاريخيا ما يمكن أن نسميه فى السياسة الدولية «المسألة المصرية»، وحدث من قبل ذلك ما اسمى «المسألة الشرقية» وهى تتمخض عن مسألة كيفية اقتسام أشلاء الدولة العثمانية بين القوى الأوروبية المتنافسة على البلاد العربية الإسلامية. أما «المسألة المصرية» فهى وضع خاص اتخذ فى إطار المسألة الشرقية، وهى تتعلق بتنافس الدول الأوروبية الكبرى على الاستيلاء على مصر بوجه خاص لأهميتها فى المنطقة العربية الإسلامية ولأهميتها فى طريق التجارة الدولية بين آسيا وأوروبا.

كما أنه من أهم الآثار السياسية للحملة الفرنسية، أن مصر كانت تحكم قبل هذه الحملة بنوع من أنواع التوازن بين الهيمنة العثمانية وتبعية مصر لدولة الخلافة وسيطرة العثمانيين عليها، وبين «التشخيص المصرى» المحلى المتمثل فى بكوات المماليك، فكان ثمة توازن بين السلطة المركزية للدولة العثمانية فى حكم مصر، وبين المشاركة المحلية لهذه السلطة فى حكم مصر من جانب القوة السياسية الاجتماعية المحلية للمماليك المصريين المقيمين بمصر، والذى تتكون منهم قوة عسكرية تدعم الحكم وتشارك فى السلطة وإصدار القرارات السياسية المحلية، والحاصل أن الحملة الفرنسية هزمت قوة المماليك ونجحت فى تشتيتها مما أضعف وجودها، ومما أضعف من وجودها السياسى والاجتماعى فى مصر.

* * *

(٣)

الأصل أن كل من شارك فى حدث سياسى ما من القوى السياسية المحيطة بهذا الحدث، كل من شارك فى ايجاد الحدث إنما يشارك فى نتائجه ، إلا أن تطغى إحدى القوى المشاركة على غيرها، أو أن يوجد من الأسباب الذاتية لإحداها أن تنسحب.

والحدث هو خروج الفرنسيين من مصر، فصارت القوة الفرنسية قوة مجلوة، فلا يكون لها أثر فى السياسات بعد إجلائها، وغابت مساهمتهم النشطة فى

صناعة أحداث ما بعد خروجهم، وزاد هذا الضعف بسبب أن السلطان العثماني كان كارها للثورة الفرنسية التي أطاحت بحكم أسرة مالكة عريقة في فرنسا، وامتدت كراهته هذه إلى نابليون، ولم يكن من نفوذ الفرنسيين في السياسات المصرية إلا ما أمكن أن يساعدوا فيه للضغط على الإنجليز لتترك قواتهم البريطانية مصر، وإلا ما كان من صراعهم مع الإنجليز في أوروبا ومع القوى الأوروبية الأخرى مما أضعف إلى حد كبير التأثير الأوروبي كله عن الأحداث المصرية.

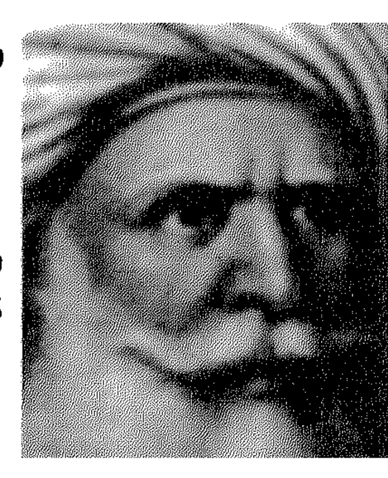
أما الإنجليز، فقد كانت لهم قوة عسكرية شاركت في إخراج الفرنسيين من مصر، وقد جلت هذه القوة عن مصر بضغوط الفرنسيين وبضغوط العثمانيين أيضا، ولكن بقي من النفوذ الإنجليزي ما استطاعوا به أن يدعموا قوة المماليك بحسبانهم قوة محلية ذات أثر في السياسات المصرية، فضلا عن وجود اسطولهم بالمياه المصرية وضغوط سياستهم على الباب العالي في استامبول، وقد استخدم الإنجليز هذا النفوذ في محاولة تثبيت الوجود المملوكي في مصر ومحاولة إعادته إلى سابق قوته وإطلاق سراح من اعتقلته منهم القوات العثمانية عقب خروج الفرنسيين، وتراخي بذلك القضاء على المماليك.

أما المماليك، فقد كانوا ضعفوا جدا، كانوا من الناحية التاريخية قوة اجتماعية آخذة في الأفول، لأنهم كانوا يجيئون مصر بعمليات شراء الغلمان الآتية من مناطق القوقاز، فلما استولت روسيا على هذه المناطق انقطع الوارد منهم، ثم أنهم كانوا يشكلون في مصر قوة محلية ويعتمدون على أساليب التسلح والحروب التقليدية التي تعتمد على الفروسية وأدوات الحرب القديمة من سيوف وحراب وغير ذلك، وقد داهمتهم قوات الحملة الفرنسية وركزت هجومها عليهم، وشتتت شملهم، وكانوا منقسمين قسمين، قسم يتولاه إبراهيم بك وقد هرب من الفرنسيين وضعف ووهنت قوته، وقسم مراد بك الذي ذهب إلى الصعيد مقاوما، ثم مات مراد بك وخلفه «الألفي» و«البرديسي»، والألفي أيده الإنجليز والبرديسي أيده النفوذ الفرنسي المضعوف، وجرى التنافس بينهم ولم يستطيعوا أن يكونوا قوة مستقلة.

أما العثمانيون، فقد كان هدفهم الأول طبعا إخراج الفرنسيين ، مستعينين في ذلك بكل القوى التي يمكن أن تشاركهم في تحقيق هذا الأمر، وكان سعيهم من بعد أن يستأثروا وحدهم بمصر بغير مشارك لهم في ذلك ، وان يستفيدوا من الاضعاف الحادث للمماليك في إقصائهم كلية عن الشئون المصرية ، كما يستفيدون من التوازنات الأوروبية في إخراج الإنجليز من مصر، رغم أنهم كانوا شركاءهم العسكريين في إخراج الفرنسيين وكانت القوة العثمانية التي أتت إلى مصر للمساهمة في إقصاء الفرنسيين، كانت تتكون من جيشين أولهما يبلغ نحو خمسة وعشرين ألف جندي من الانكشارية والحرس ، وثانيهما يبلغ نحو ستة آلاف جندي من الارنؤود والانكشارية، وكانت ثمة خلافات بين

الجيش، كما كان ثمة خلاف داخل كل منها بالنسبة لقادتهم وتجمعاتهم.

وورثت الحركة المصرية الدور المحلى الذى كان يشغله المماليك مشاركين فى ذلك العثمانيين فى إدارة الشئون المصرية، لأن المصريين بدأوا ينظمون أنفسهم فى حركة مقاومة الغزو الفرنسى بعد أن انهارت قوة المماليك وابتعاد قواتهم وقياداتهم إلى الشام شمالا وإلى صعيد مصر جنوبا، فلما جلا الفرنسيون صار لهذه القوة المدنية المصرية دورا فى الأحداث التالية وكانت قوتهم تتكون من جماهير مصرية تنتظم فى الطرق الصوفية ونقابات الحرفيين ويقودهم قيادات وسيطة من علماء الأزهر ومن الأعيان فى المدن وفى التجارة والحرف، ونحن نعرف أن تجمعات الطرق الصوفية وتنظيماتها، كانت تنتشر فى المدن والقرى، وتقوم بمهامها فى الدعوة الدينية كما تقوم بدور نظامى اجتماعى فى تنظيم الخدمات والمعونات لمن يحتاجها وكذلك كانت تصنع نقابات الحرفيين على توافق مع تنظيمات الطرق وكذلك كانت تدعمها جميعا الأوقاف من حيث التمويل وكفالة الخدمات، وهذه التكوينات الاجتماعية الثقافية وشبكة تنظيماتها تحولت إلى العمل السياسى فى خدمة مقاومة المحتل الأجنبى، عندما أسفر الاحتياج التاريخى عن لزوم ذلك، ومن هذه الأنشطة المستحدثة تفتقت قيادات جديدة مثل السيد عمر مكرم والسيد المحروقى



وكبار شيوخ الأزهر مثل الشرقاوى وغيرهم، كما تفتقت قيادات وسيطة من التجار والحرفيين وغيرهم، وصارت قوة سياسية فيما تلى خروج الفرنسيين سنة ١٨٠١ حتى تولى محمد على ولاية مصر فى ١٨٠٥، وما تلى ذلك من أعوام قليلة.

* * *

(٤)

محمد على تركى شب فى البانيا بين الأرنؤود، وهو ليس من الأرنؤود ولا من عشائرهم، ولد فى سنة ١٧٦٩، وكان أبوه رئيس حرس منوطاً به حراسة الطرق، وتوفى أبوه وابنه فى الرابعة عشرة فكفله عمه، ثم رعاه حاكم المدينة، جاء مصر قبل خروج الفرنسيين منها فى سنة ١٨٠١، ضمن الفرقة الألبانية فى كتيبة رئيسها حسين قبطان، وكان برتبة بكباشى «مقدم» ثم رقاه الوالى التركى خسرو باشا فى أواخر السنة ذاتها، ثم صار الرجل الثانى فى قيادة الأرنؤود بعد مقتل طاهر باشا.

ولعل وجود محمد على ضمن الفرقة الألبانية وهو تركى ليس من عشائر الأرنؤود ولا من الانكشارية، لعل ذلك مما ميزه وأتاح له قدرا من مرونة الحركة والقدرة على المناورة الواسعة فى الإطار العام للقوى العثمانية، ذلك دون أن يستوعب تماما داخل أى من فئات هذه القوى وفرقها وفصائلها المتصارعة، وان أحداث مصر فى الفترة من ١٨٠١ إلى

: ١٨٠ أحداث كثيرة وكثيفة ومليئة بالوقائع الصغيرة هي أحداث وضع تتناثر وقائعه، ولم تكن ظهرت خطوطه العامة بعد، ولا كانت تبلورت له خصائص متميزة ولا كان أي من الاتجاهات العديدة المتشاركة والمتصارعة قد وعت جيدا بحساب قدرتها وحساب قدرة غيرها. وان كتب التاريخ مليئة برصد المتناثر من أحداث هذه الفترة بما لا وجه معه هنا من إغراق القارىء في مثل هذه التفاصيل.

ولكن يمكن القول اجمالا للموضوع دون تفاصيل، ان سلطة الدولة في مصر لم تكن في تلك السنين ذات وجود متميز وذات قوة يحسب حسابها ، فلا كانت قواتها منتظمة ولا هياكلها واضحة ولا كانت قدراتها التنفيذية مؤثرة، لا من جهة الضبط والانتظام ولا من جهة جمع المال اللازم لتمويل انشطتها وتوجيهه في شئون ادارتها ولا كانت لها قيادة مستقرة او شبه مستقرة متفق عليها. ولم تكن الصراعات بين القوى والفرق تدور حول السيطرة على الدولة انما كانت هذه الصراعات تدور حول تشكيل الدولة وارساء قواتها واسسها. وللقارىء ان يتصور اجهزة السلطة العثمانية المملوكية قبل الغزو ألفرنسي كانت ضعيفة ومتهرئه ثم جرت تصفيتها بالغزو الفرنسي، وقام الجيش الغازي بمهمة السلطة الجديدة، ثم رحل الغزاة بجيشهم ، فظهر الفراغ الهائل في موقع السلطة السياسية ، ونحن نعلم ، انه كلما كانت سلطة الدولة متبلورة باجهزتها وهياكلها وقواتها التنظيمية، كلما كان الصراع السياسي عليها اوضح رشدا وكلما كانت السياسات المتنازع على اتباعها اكثر تبلورا ، وكلما كان هذا الصراع السياسي احسم في نتائجه واسرع في الوصول الى غاياته، انه مثل الصراع على السيطرة علي قلعة مشيدة ، يدور لامتلاك نواصيها والقوة التي تمسك الزمام ينكفل لها سريعا ادارة القلعة لحماية نفسها بها واخماد انفاس المنافسين ، بعكس ما اذا جري الصراع لا حول قلعة مؤسسة ، ولكنه يجرى في العراء لبناء قلعة ، فيكون الصراع معارك متناثرة غير قابلة للحسم السريع .

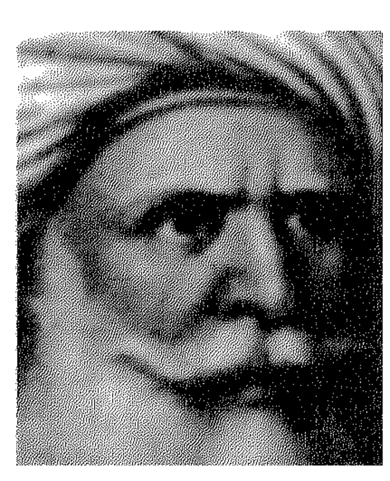
والحاصل ان قام الصراع بين العثمانيين والمماليك ، وبين العثمانيين والانجليز لإخراج الانجليز من الساحة ، وصراع بين أي من هذه القوى وبين العامة من المصريين الذين بدأوا بقيادات مصرية محلية يبدون قوة جديدة . ثم كانت تقوم صراعات أخرى داخل كل من هذه القوى، صراعات بين فرق الانكشارية وفرق الالبان داخل القوة العثمانية . وصراعات بين فرق المماليك وبخاصة جماعة كل من الالفي والبرديس. ثم كانت تقوم صراعات شخصية بين الطامحين الى السيطرة والهيمنة داخل كل فريق .

وفي هذه الصراعات ، سقط من الولاة العثمانيين كل من خسرو باشا واحمد باشا وعلى باشا الجزائرلى، كما سقط البرديسي من المماليك ثم خورشيد. وقتل طاهر باشا من الالبان وانفتح طريق محمد على قيادة الجند الالبان .

(٥)

كان لمرونة وضع محمد على داخل القوة العثمانية ، ماافاده في المراحل الاولى. لأنه كان من رجال الصفوف التالية

للقيادات بما مكنه من مراقبة الاحداث من داخلها بغير أن بتورط فى مسئولية مباشرة لأى من التصرفات التى لايتحمل عبئها الا القيادات ، ومما لايجعله مضطرا لاعلان الدفاع عن موقف يتخذ ولا الهجوم المباشر على فريق ما .



وقد مكنه هذا الوضع ان يدرك اكثر من غيره من اشخاص العاملين فى السياسات الجارية، ان المماليك بوصفهم العنصر المصرى، المحلى فى صيغة الحكم قد ضعفوا كما لم يضعفوا من قبل وان القوة المحلية السياسية فى مصر قد الت الى غير المماليك ، من عامة المصريين الذين يتحركون حركة سياسية ويشاركون فى الاحداث تحت قياداتهم من الازهريين والاعيان، ولم يكن من المشتغلين بالشئون المصرية فى قمة القوى العاملة من فطن الى هذا التغيير ، ولا من فهم هذا الامر وادراك ابعاده وعمل على توظيفه .

كما أن احدا من المشتغلين بهذه السياسات وقتها، لم يدرك مثله الاثر المترتب على الانهيار الحادث فى اجهزة السلطة المركزية مما جعل التكوين المستقر لاجهزة الدولة غير قائم بالفاعلية المطلوبة لاقرار الاوضاع وحفظ الحقوق الجارية.. وكان هذا الانهيار مما انتج عدم وجود مالية مستقرة للدولة لاداء الرواتب والاجور.. والجند يحتاجون الى رواتبهم واجورهم ليعملوا فى ضبط الامن، فإن لم تصرف لهم اضربوا او اعلنوا العصيان، والجند هم عمود الارتكاز لأى دولة ، فاذا عصوا رؤساهم سقط العمود وانهارت الابنية المشيدة والمرتكزة عليها.

ومن جهة اخرى فان توفير المال اللازم لصرف الرواتب يأتى من الضرائب ويقتضى جمعها من الأهالى، وجمع الرواتب فى الظروف الصعبة القائمة تثير الاهالى وتدفعهم الى العصيان والتظاهر ومهاجمة القائمين على الأمر المصدرين لقرارات جمع الضرائب .

وأن المتابع لاحداث هذه الفترة، يتكشف له سريعا ان كل الولاه والقائمين على الامور سقطوا بسبب هذه المفصلة ، تشح الاموال فلا تصرف رواتب الجند فيثوروا فيسقط الحاكم، ويأتى من يفرض الضرائب التى تئن منها العامة فيثور العامة فيسقط الحاكم الجديد .. وهكذا .. ودعم هذه ا لمسألة أن العامة من المصريين كانوا صاروا قوة سياسية حلت محل قوة المماليك ، أو نمت على حسابها ، والعامة هم دافعوا الضرائب ، فليس شأنهم كشأن المماليك فى هذه الامر لأن رد فعل العامة بعد ان صاروا قوة سياسية صار اسرع استجابة .

فطن محمد على الى هذه العناصر ولعل نجاحه جاء من فطنته تلك ، بحلول المصريين محل المماليك فى السياسات المحلية، وبآلية عجز الرواتب وعبء الضرائب ، بوصفها آلية لإسقاط الحكام وقتها، ثم امر اخر جاء محصلة هذه

الاوضاع . وهو أن القوى المتصارعة فى ظروف تكاد تتعادل فيها موازين هذه القوى ضد بعضها البعض، من شأن ذلك ان يفقد القوى المتصارعة الغالب من قواها وهذا مما يمكن القوى الاصغر من الترجيح والظهور ، ومع ادارة رشيدة للصراع يمكن لها أن تسيطر . وأن الامثلة لذلك فى التاريخ كثيرة، ومنها مثلا نجاح الضباط الاحرار بتسعين ضابطا من السيطرة على الحكم في مصر فى ١٩٥٢

ونفوذ احزاب الاقلبات فى الحكومات البرلمانية عند تساوى القوة العددية للحزبين الكبيرين فى اية دولة .. وهكذا امكن لمحمد على بقوة عسكرية البانية مرجوحة وبتأييد شعبى مصرى ناشىء أن يصنع أمر إذا تأثير تاريخى كبير جداً .

(٦)

يصف الجبرتى صعود محمد على الى الولاية ، يقول فى احداث ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ (١٣ مايو سنة ١٨٠٥) «فلما اصبحوا يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضى ، وكذلك اجتمع الكثير من العامة ، فمنعوهم من الدخول الى بيت القاضى وقفلوا بابه وحضر اليهم ايضا سعيد أغا والجماعة وركب الجميع وذهبوا الى محمد على وقالوا له ، إننا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ولا بد من عزله من الولاية ، فقال ومن تريدونه يكون واليا فقالوا له لا نرضى الا بك وتكون واليا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير، فامتنع اولا ثم رضى، واحضروا له كركا وقفطانا وقام اليه السيد عمر مكرم والشيخ الزنارى فالبساه له وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وارسلوا الى احمد باشا فقال انى مولى من طرف السلطان فلا اعزل بامر الفلاحين ، ولا انزل عن القلعة الا بأمر السلطنة . وفى يوم السبت ٢٥ صفر ركب السيد عمر افندى فى قلة من الناس وذهب الى بيت حسين بك اخى احمد باشا وكان هناك عمر بك الذى أنزل من القلعة فوقع بينه بين السيد عمر مكرم مناقشة فى الكلام طويلة، قال كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم، وقد قال الله تعالى «أطيعوا الله والرسول واولى الامر منكم» ، فقال له اولو الامر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان ان اهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شىء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا ساروا فيهم بالجور.. ثم اورد الجبرتى وصف الثورة .

ومن هذا النص التاريخى نلحظ أن كانت العوابد تجرى من السابق ، بان للاهالى ، او للعنصر المحلى فى ارادة الشئون الاقليمية ، لهم شأن فى تعيين الوالى وأن لهم إرادة مرعية بقدر ما يزيد وينقص ولكنه موجود وذلك في تعيين الولاه وفى تغييرهم وفى اختيار بديل عن اى منهم ، قد لا تكون ثمة اجراءات مكتوبة فى قوانين ولوائح تحدد أياً من هذه التصرفات وتضبطها ولكنه كانت موجودة وذات سوابق من وان كان الفكر السياسى يمكن ان يمد المعارضة بالتأويلات اللازمة لذلك من حيث تعريف أولى الامر ، وشروط الولاية وتقدير الظلم والعدل ، والمهم ان توجد الحركة السياسية الواقعية فتستدعى التأويلات الفكرية المناسبة مما تسعه اجتهادات الفقهاء ، وأن فى حالة محمد

على كان القاضى متعاطفا مع مطالب العامة مما يضفى القدر اللازم من الشرعية على حركتهم .

وليس من الصواب في ظني ان ما جرى كان يعكس حركة مصرية قومية تستهدف الاستقلال لمصر عن الدولة العثمانية ، لأن سوابق عزل الولاة وتغييرهم والمساهمة في اختيار البديل كانت قائمة والفكر السياسي يسع هذه الحركات وحركة المصريين هنا كانت قامت لاختيار وال عثماني تركي المنشأ وهو من النخبة العسكرية ذات السهم في حكم مصر وقتها من بين الكثير من المتصارعين علي هذا الحكم من داخل هذه النخبة والارادة المصرية التي اختارت محمد على كانت تدور في هذا الاطار ، وهي تعبر عن حركة ترفض الظلم من الحكام وتستهدف الاعدل والاصلح وليست تستهدف انفصالا واستقلالا سياسيا تبلوره جماعة سياسية وتفصله عن دولة الخلافة وقتها فهي حركة تدور في الاطار العثماني .

والحاصل أن المصريين في هذا النطاق ساعدوا محمد علي كثيرا، فلما حيكت الدسائس ضده من المنافسين له من رجال الدولة العثمانية بمصر ، وطلب الباب العالي استدعاءه هو فرقته الى تركيا، تحرك المصريون للمطالبة ببقائه في مصر فبقي، ولما قامت الدسائس لابعاده مرة اخرى وعينه الباب العالي واليا على جدة تحرك المصريون لابقائه بمصر وبقي، ثم ساهموا في توليته واليا على مصر



حسبما سبقت الاشارة، وجاء قرار السلطان بتعيينه واليا وحملت الرسالة من استانبول بحرا الى ثغر الاسكندرية في سفينه بلغتها في شهر ربيع الثاني بعد نحو شهر ونصف الشهر من اختيار الاهالي له .

والحقيقة ان محمد على في كل ما اتبعه من سياسات وانشطه ومناورات في هذه الفترة، وفي كل مالافسد به طموح القادة العثمانيين الآخرين، انما كان يعمل في الاطار العثماني العام ، ولايبدو لى انه خرج عليه قط، وكان صنيعه هو صنيع القوى المتنافسة التى تتصارع في اطار الولاء العام للدولة التى تنتمى اليها والشرعية التي تقوم عليهاهذه الدولة ، وفي اطار اظهار الخضوع للهيمنة المركزية عليه .

ولم يكن الباب العالي يهمه كثيرا في صراع الفرق والاشخاص التابعين له، لم يكن يهمه اى منهم يفوز في النهاية مادام باقيا على خضوعه للدولة العثمانية معترفا بهيمنتها مقرا بالولاء لها.

بل لعل محمد على هو الوالي الوحيد - في ذلك الوقت المبكر من حكمه - الذى استطاع باقتدار ان ينفذ الخط السياسي العثماني كاملا، باجهاض النفوذ الانجليزى المهدد لمصر وبتصفيته الكاملة للوجود السياسي المملوكي .

وذلك حسبما يبين من بعد ان شاء الله .

■

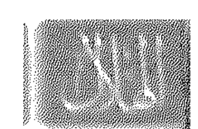
الإصلاح والتحديث

مترادفان أم ضدان ؟

بقلم
د. جلال أمين

منذ وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ المفزعة، لم يتوقف الكلام عن الإصلاح . المؤتمرات تعقد، والمحاضرات تلقى ، والمقالات تنشر ، وكلها يدور حول ضرورة الإصلاح ، وحول سوء الأحوال الذى جعل الإصلاح من ضرورات البقاء نفسه ، بل وجعل التدخل من أجل الإصلاح ، ولو بالقوة مبررا فى نظر البعض ومشروعا .

وقد اختلط الكلام عن الإصلاح اختلاطا شديدا بالكلام عن التحديث ، وكأن الإصلاح (Reform) مرادف للتحديث (Modernization) لا يتصور أحدهما بدون الآخر ، وتغنى الدعوة إلى أحدهما عن الدعوة إلى الآخر . فالإصلاح فى نظر معظم من كتبوا فى الموضوع هو أن تفعل مثلما فعلت بعض الدول الأخرى ، وأن تلحق بها . أن تفعل مثلما يفعل الناس فى العالم المعاصر أو الحديث . وإذا أنت أصبحت مثل هؤلاء الآخرين ، وفعلت مثلما يفعلون ، أي إذا دخلت فى العالم الحديث مثلهم ، وأصبحت معاصرا لهم في طريقة حياتك (وليس فقط فى الزمن) تكون قد قمت بالإصلاح المطلوب .

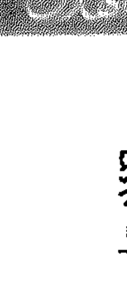


من الأمثلة المألوفة على هذه النظرة إلى الإصلاح والتحديث ، واعتبارهما كمترادفين ، ما تنشره عادة هيئة الأمم المتحدة عن الإصلاحات المطلوبة في الدول «الأقل نموا» فأساس هذا الفكر «الإصلاحي» ، هو اللحاق ببعض الدول المختارة التي حققت «التحديث» قبل غيرها ، فرفعت من معدلات النمو ، وضاعفت من كميات وأنواع السلع والخدمات المطروحة في الأسواق ، وابتدعت وطبقت التكنولوچيا الحديثة في الإنتاج والاستهلاك والاتصال ونقل المعلومات ، وذهبت إلى أبعد مدى وصل إليه الإنسان حتى الآن في تحقيق استقلال الفرد وفي تحرير المرأة من مختلف أنواع القيود السياسية والاجتماعية والفكرية .. الخ ومن ثم لاتكف هذه الهيئات الدولية عن نشر الجداول والاحصاءات التي تقوم على مقارنة الدول بعضها ببعض ، لبيان أيهما أكثر تقدما من غيرها في كل هذه الأشياء ، بافتراض أن الهدف المرغوب من الجميع هدف واحد ، وأن السير نحو هذا الهدف هو المعنى الوحيد للإصلاح .

والتقريران الحديثان اللذان ظهرا في العامين ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣ من برنامج الأمم المتحدة للإنماء بعنوان «تقرير التنمية الإنسانية العربية» هما من أوضح الأمثلة على استخدام هذين المفهومين ، الإصلاح والتحديث ، كمترادفين . فعندما يتكلم التقريران عن أهداف الديمقراطية والحرية والشفافية والنهوض بالمعرفة وبأحوال المرأة ، يتكلمان دائما استنادا إلى مرجعية ثابتة هي ما تحقق بالفعل في الدول الأخرى المعروفة باسم «الدول المتقدمة» ، وهي الدول التي حققت «التحديث» قبل غيرها ، والمطلوب من الجميع اللحاق بها .

وراء هذه النظرة إلى الإصلاح والتحديث كمترادفين يكمن بلا شك الاعتقاد الراسخ في فكرة «التقدم» ، وهو الاعتقاد بأن التاريخ الإنساني هو تاريخ تقدم مستمر ، الأحدث فيه أفضل دائما من الأقدم ، ليس في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة الإنسانية أو التنظيم الاجتماعي دون غيره ، بل في الحياة الإنسانية «بوجه عام» ، وفي التنظيم الاجتماعي «برمته» . إذ لو كان هذا الاعتقاد صحيحا فما الذي يمكن أن يكون أفضل من تقليد من حقق التغيير بأسرع منك ، وتنكر لماضيه قبل أن تتنكر له ، وثار على التقاليد قبل أن تثور ؟ أو إذا أردنا استخدام تعبير يستخدمه عادة الأكثر حداثة ، من قام بعملية «التنوير» قبل أن تقوم بها ؟

ولكن إذا كان المرء شخصا مثلي ، لديه شكوك قوية في فكرة التقدم ، معرفة على هذا النحو ، ويرى أشياء كثيرة مما ابتدعتها الحياة الحديثة كريهة أو غير جديرة بالإعجاب ، ألا يبدو له أن من الخطأ الفاحش هذه التسوية بين الإصلاح والتحديث ، واستخدامهما كمترادفين ؟ إن مثل هذا الشخص ، وأنا مثله ، لابد أن يعتبر من قبيل الخطأ الفاحش أن يفرض



التحديث على أمة باسم الإصلاح ، دون تمييز بين هذا الجانب وذاك من مظاهر الحياة الحديثة ، وأن يعتبر من قبيل القسوة البالغة أن تفرض أمة على غيرها أن تتبنى عاداتها ولغتها ودينها بحجة أنها العادات واللغة والدين «الأفضل» لمجرد أنها عادات ولغة وديانة أمم « أكثر حداثة» أو «أكثر تطورا» .

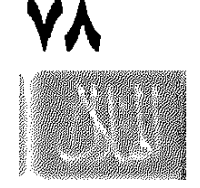
★★★

هذه هي بالضبط المأساة التي تناولتها هاتان الروايتان الرائعتان عن التقاء حضارتين أو ثقافتين ، إحداهما أكثر «حداثة» من غيرها ، ولكنها ليست بالضرورة أفضل في كل شيء من الأخرى . الرواية الأولى هي قصة الكاتب النيجيري «شنوا أشيبي» (Chinua Achébe) التي ظهرت لأول مرة بالانجليزية في سنة ١٩٥٨ ، بعنوان يفصح عن مضمونها وهو «عندما ينهار كل شيء» (Things Fall Apart) .

الرواية تقص ما حدث لقبيلة نيجيرية في أوائل القرن الماضي . وينفق الكاتب أكثر من نصف الكتاب في وصف هذا الجانب أو ذاك من حياة القبيلة : عاداتها وعلاقاتها الاجتماعية، ما تؤمن به وما تخاف منه ، الصفات التي تقدرها والصفات التي تحتقرها ، ما يعتبر لديها عارا وما يعتبر سببا للفخر ، ماذا تأكل وماذا تشرب ، علاقة النساء بالرجال ، خرافاتها وأساطيرها.. الخ .

هكذا ينفق المؤلف أكثر من نصف الرواية حتى يقنعك تماما بهذه «الثقافة» ، بل ويجعلك تحبها وتتعاطف معها تماما ، ومتى أحببتها وتعاطفت معها يصبح من السخف محاولة تقييم كل جزء من أجزائها على انفراد ، والحكم عليه بما إذا كان «مفيدا أو غير مفيد» ، « هناك ما هو أفضل منه عند قبيلة أخرى أو ليس هناك ما هو أفضل منه » ، « عقلاني هو أم غير عقلاني » «علمي أم غير علمي» ، وإنما يكتسب كل جزء من هذه الثقافة عقلانيته من الوظيفة التي يؤديها في تحقيق البقاء والاستمرار لهذه القبيلة .

ثم تبدأ المأساة . فلزعيم هذه القبيلة «أوكونكو» ابن وبنت ، البنت تتجسد فيها كل الصفات التي يحبها أوكونكو ويقدرها . لقد ورثت عن أبيها صلابته وقوة إرادته ، وهي عطوف على أهلها وعشيرتها دون ضعف ، ولكن الابن ضعيف قليل الحيلة ، باهت الشخصية ، ليس فيه شيء من صلابة أبيه أو قوته الجسمانية أو عناده أو صبره وجلده على الشدائد . ما الذي يجعل الابن يخون قبيلته وأباه ، ويفتح للأجانب الباب لغزو قبيلته وتدميرها ؟ هل هو ضعفه الطبيعي أم هو ذاك بالإضافة إلى شعوره بأن أباه لايحبه في الحقيقة أو على الأقل يفضل أخته عليه ؟ لانعرف بالضبط ، أيا كان السبب فإنه عندما يأتي المبشرون بدين أجنبي وغريب عن معتقدات القبيلة ، ينضم الابن إليهم . لايصدق الأب هذا، ويكاد يجن جنونه ، أينضم ابنه إلى أعداء القبيلة التي لايريدون لها إلا الخراب ؟ ولكن الابن مصمم ، والمبشرون ووراءهم حملة البنادق الذين يريدون الاستيلاء على



أرض القبيلة وخيراتها ، يقوون ظهره ويفسلون مخه، ويوهمونه بأنه بانضمامه إليهم ضد أبيه وعشيرته إنما ينتصر للإنسانية وحقوق الإنسان !

لا عجب إذن فى اختيار هذا الاسم للرواية « عندما ينهار كل شىء» ، فقد انهار بالفعل كل شىء فى تلك القبيلة النيجيرية ، وتم تمرير كل ذلك باسم «حقوق الإنسان» مرةً ، وباسم «السلام» مرة وباسم «التنوير» مرة ، وباسم «الإصلاح» فى جميع الأحوال .

★★★

أما الرواية الثانية فهى رواية الكاتب السودانى الشهير الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» التى ظهرت لأول مرة فى سنة ١٩٦٦ ، أى منذ ما يقرب من أربعين عاما ومع هذا فمازالت تقدم لنا وصفا صادقا للمحنة التى تمر بها الثقافة (أو الحضارة) العربية فى مواجهة ضغوط أو غزو ثقافة (أو حضارة) أكثر «حداثة» ، ومن ثم فهى أشد بأسا وفتوة ولكنها أيضا أكثر عدوانية .

ورواية الطيب صالح تحتوى فى طياتها على وصف لثلاثة مواقف من هذه المواجهة . هناك أولا موقف المفتون بالغرب افتتانا تاما ، ولا يجد طريقا للشعور بالرضا على نفسه إلا الحصول على رضا الغربيين عنه ، وتمثله فى الرواية شخصية بطلها «مصطفى سعيد» إنه يتعلم لغة الإنجليز حتى يجيدها ويكتب بها الكتب، ولا يهدأ له بال طالما «جين موريس» ، تلك الانجليزية اللعوب ، ترفض أن تسلم نفسها له ، بل إنه حتى بعد أن يعود إلى قريته السودانية فى النهاية ، بعد أن قتل جين موريس وقضى سنوات فى السجن بسببها ، وبعد أن تزوج من سودانية وأنجب منها طفلين ، مازال يحن إلى حياته فى انجلترا ولايستطيع نسيانها ، فيحول إحدى حجرات بيته إلى نسخة طبق الأصل من حجرة بيت انجليزى . المدفأة نفسها ، وقصاصات الجرائد الانجليزية ، والغليون الانجليزى ، وصور عشيقاته الانجليزيات ودواوين شعراء الانجليز .. الخ، وانتهى الأمر به إلى الانتحار .

وهناك ثانيا موقف المتمسك تمسكا كاملا بالتقاليد الموروثة بحذافيرها وخالصة من أى تأثر بالوافد أو المنقول من الغرب (أى موقف الرافض للتحديث والإصلاح معا) وتمثله شخصية «ود الريس» ذلك الرجل الذى لم يتصل على أى نحو بالغرب ، ويريد، وقد جاوز السبعين وله زوجة وأولاد كبار وأحفاد ، أن يتزوج من امرأة فى عمر أحفاده من دون أن يجد أى غضاضة فى الأمر ، فليس فى تقاليد القرية ما يمنع من أن تكون له زوجة ثانية ، كبيرة أو صغيرة ، مادام قادرا على الانفاق عليها ، ومادام أبوها قد وافق على الزواج ، ولو كانت هى قد هددت بقتله وقتل نفسها إذا أجبروها على الزواج وهو ما حدث بالفعل .

بل إن قارىء رواية الطيب صالح يمكن أن يجد فيها شخصيتين تكاد إحداهما تمثل ، فى نظرى ،الولايات المتحدة نفسها كما تتصرف معنا الآن،

وتمثل الشخصية الأخرى الجوانب الناصعة فى التقاليد الموروثة جيلا عن جيل .

الشخصية الأولى هى «جين موريس» تلك المرأة الشيطانية ، البالغة الجمال والحيوية ، والعصبية المترفعة ، والتى تعرف بالضبط نقاط الضعف فى مصطفى سعيد فلا تكف عن استغلالها لصالحها مهما أدى ذلك إلى إذلاله وتحقيره . لعوب إلى درجة مغازلة الرجال المحيطين بهما فى المقهى ، وهو جالس يشاهد ما يحدث ، والغيظ والغيرة يفترسانه افتراسا . تقول له ، وهى واقفة فى شقته ، إنه يمكنه أن ينالها بشرط أن يمنحها هذه الزهرية الثمينة فيوافق ، فإذا بها تأخذ الزهرية وتهشمها على الأرض . ثم تشير إلى مخطوط نادر على المنضدة وتقول «تعطينى هذا أيضا» ، فيوافق ، فتأخذ المخطوط القديم النادر وتمزقه وتملأ فمها بقطع الورق وتمضغها ثم تبصقها. ولكنها أيضا ذات ميول انتحارية قوية ، تذكرنى بذهاب الولايات المتحدة إلى العراق . عدوانية واضحة تماما ، وظلم فادح لاشك فيه ، ولكن فى هذه العدوانية وهذا الظلم شبه بالعمل الانتحارى . فى يوم زواج جين موريس ومصطفى سعيد ، بعد أن تعبت من الجرى ، أجهشت فجأة بالبكاء أمام مسجل عقد الزواج ، وفجأة انقلب بكاؤها إلى ضحك وقالت وهى تقهقه بالضحك : « يا لها من مهزلة» وعندما رفضت الاستسلام له ، حتى بعد عقد قرانهما ، وشرع هو فى طعنها بالخنجر «لبثت تنظر إلى حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق ، ثم أمسكت الخنجر وقبلته بلهفة .. وتأوهت وقالت : أرجو يا حلوى . هيا . أنا مستعدة الآن» فضغط بالخنجر فى صدرها حتى تفجر منه الدم .

أما الشخصية الثانية ، التى تمثل الجوانب الناصعة من التقاليد الموروثة فهى شخصية الجد الذى جاوز التسعين من عمره ، فى عظمته وصموده وقدرته على الاستمرار ومقاومة عناصر الفناء ، يصف الطيب صالح لقاء الراوى به ، كلما عاد من السفر ، بقوله :

«تمهلت عند باب الغرفة وأنا استمرىء ذلك الاحساس العذب الذى يسبق لقائى مع جدى كلما عدت من السفر . إحساس صاف بالعجب من أن هذا الكيان العتيق لايزال موجودا أصلا على ظاهر الأرض . وحين أعانقه استنشق رائحته الفريدة التى هى خليط من رائحة الضريح الكبير فى المقبرة ورائحة الطفل الرضيع .. نحن بمقاييس العالم الصناعى الأوروبى فلاحون فقراء ، ولكننى حين أعانق جدى أحس بالغنى ، كأننى نغمة من دقات قلب الكون نفسه . إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع فى أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه كشجيرات السيال فى صحارى السودان ، سمكية اللحى حادة الأشواك ، تقهر الموت لأنها لاتسرف فى الحياة ..» .. ومع هذا فهذا الجد العظيم محدود القدرات والمعرفة ، ومن أصعب الأمور أن يتأقلم مع الجديد .

ولكن فى رواية الطيب صالح شخصية

أخرى مدهشة ، أقرأ وصفها وأتتبع تصرفاتها فى الرواية فأجدها تعبر عن موقف ثالث من محنة المواجهة بين ثقافتين ، أو من قضية «الإصلاح» أجده أفضل المواقف جميعا ، هذا هو موقف رجل من رجال القرية ، فاهم لكل شيء ويعرف مزايا هذا وذاك ، وأوجه القوة والضعف فى الوافد والموروث على السواء . يحب أهل القرية كل الحب ويحترم تقاليدهم وعاداتهم ، ولكنه يعرف أيضا نقائصهم وحدود قدراتهم . الإصلاح مطلوب طبعا ، ولكنه يجب أن يتم بالراحة وبالعقل وبدون غضب ، مزيد من المعرفة مطلوب ومرغوب فيه ، ولكن هناك الكثير من المعرفة مما يندرج تحت ما أسمته «نعمة» فى رواية الطيب صالح الأخرى «عرس الزين» «بالطرطشة» ، وهو العلم الذى لاينفع الناس .

هذه هى شخصية «محجوب» لم يعجبه بالمرة طلب ود الريس الزواج من حسنة ، واعتبره لذلك رجلا مخرفا لايدرى ما يقول ، ولكنه غضب أشد الغضب عندما سمع بما فعلته «حسنة»، إذ قتلت زوجها ثم قتلت نفسها ، كان «ود الريس» فى نظره مخرفا غلب حكم التقاليد تغليبا أعمى على حكم العقل ،أما «حسنة» فمتمردة طائشة ظنت أن لها من الحرية أكثر بكثير مما لها بالفعل . محجوب رجل رائع بلاشك ، ولكنه للأسف ذو قدرة محدودة للغاية . وهو يواجه مشكلة تكاد تستعصى على الحل ، وكأنها تنبىء بكارثة حتمية أشبه بالتراجيديا اليونانية .

★ ★ ★

فى ضوء هذه المواقف الثلاثة من قضية الإصلاح والتحديث (أو التقدم والتخلف) ، يمكن أن ننظر إلى ما يطرح علينا اليوم من مشروعات باسم الاصلاح ، وتسمى أحيانا بمشروع الشرق الأوسط الكبير ، أو الموسع ، وأحيانا باسم الإصلاح الديمقراطى ، أو تجديد الفكر الدينى ، أو النهوض بأحوال المعرفة أو تمكين المرأة .. الخ.

ذلك أن ردود الفعل إزاء المشروع الأمريكى المسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير الذى أعلنته الولايات المتحدة فى أوائل سنة ٢٠٠٤ لإعادة ترتيب الشرق الأوسط يمكن تصنيف معظم أصحابها إلى فريقين :

فريق يقبل المشروع ويرحب به ويقول : مادامت الأشياء التى يرمى هذا المشروع إلى تحقيقها هى نفسها ما نريد تحقيقه بالضبط (الديمقراطية والمعرفة وتمكين المرأة) ، فلماذا نرفضه؟

وفريق آخر يرفضه قائلا : لانريد أن يفرض علينا الإصلاح من الخارج ، إذا أردنا الإصلاح فلنقم بذلك بأنفسنا (بيدى لابيد عمرو) .

ومن جانبى أريد أن أقول أولا إن معظم المنتمين إلى هذا الفريق أو ذاك يقولون مالا يضمرون فى داخل أنفسهم فى الحقيقة . فمعظم أعضاء الفريق الأول يرحبون بالمشروع الأمريكى ، لا لأن المشروع يتفق مع ما نريده لأنفسنا ، بل لأنهم مفتونون أشد الفتنة بنمط الحياة

الأمريكى ، ويتمنون لو يغمضون أعينهم ثم يفتحونها فيجدون بلادنا وقد أصبحت قطعة من أمريكا ، كما كان الخديو إسماعيل يتمنى لو أصبحت مصر قطعة من أوروبا ، وهم بناء على ذلك ، لاينفقون وقتا طويلا فى التفكير فيما إذا كانت أمريكا تريد إصلاحا حقيقيا فى بلادنا أو لا تريد .

من المفيد أن نلاحظ أيضا أن هذا القسم من المعلقين على المشروع الأمريكى لايضمر شعورا طيبا نحو تراث العرب أو المسلمين وتقاليدهم ، بل قد يصل شعورهم فى الواقع إلى درجة المعاداة المختلطة بدرجة أو أخرى من الاحتقار ، لكل ما يتعلق بهذا التراث وهذه التقاليد .

أما الفريق الثانى فمعظمهم يرفضون المشروع ويعادونه ، بسبب تهديده لتراث أمتهم وتقاليدهم . المسألة فى نظرهم ليست إذن ، كما يقول كثير منهم ، أنهم يريدون أن يفعلوا بأيديهم ما تزعم أمريكا أنها تريد أن تفعله بنفسها ، بل يفضلون فى الحقيقة ألا يفعلوا أى شىء على الإطلاق على تنفيذ ما تريده أمريكا ، أو يريدون التغيير بمعنى هو عكس ما تريده أمريكا بالضبط ، وهو الرجوع إلى التراث والتقاليد وإحياؤها ، مما يعنى الابتعاد أكثر فأكثر عن النمط الأمريكى فى الحياة . هذا الفريق من المعلقين يكرهون (بل وأحيانا يحتقرون) أى شىء أمريكى ، كما يكره الفريق الأول أى شىء له علاقة بالتراث .

هناك بالطبع من المعلقين على المشروع الأمريكى من لاينتمى إلى هذا الفريق أو ذاك (وأعتبر نفسى من هؤلاء) ولكنهم أقل عددا على الأرجح من المنتمين إلى أى من الفريقين الآخرين . هذا النوع الثالث يضم أفرادا يحبون تراث أمتهم ويحترمونه ويتعاطفون معه ، ويكرهون ولا يطيقون كثيرا من جوانب الحياة الأمريكية ، ويعتبرون غزو هذه الجوانب لحياتنا الاجتماعية من قبيل الكارثة . ولكنهم فى الوقت نفسه على استعداد للإقرار والاعتراف بأن كثيرا من تقاليدنا ومن عاداتنا ومسلماتنا الموروثة ، من الأفضل تغييرها أو التخلص منها كما أنهم على استعداد للإقرار والاعتراف بأن هناك من جوانب الحياة الأمريكية ما يجدر بنا الاقتداء به وتعلمه .

أنظر مثلا إلى ما يطرح علينا تحت اسم «تمكين المرأة» أى الارتقاء بشأن المرأة والاعتراف بحقوقها ورفع الغبن عنها ، الفريق الأول الذى يقبل مشروع الشرق الأوسط الكبير بلا نقاش ، يرى المرأة العربية مقهورة أشد القهر ولا يمكن إلا أن تحقق النفع من تعليم العرب كيف يعاملون المرأة كما تعامل فى المجتمع الأمريكى . أما الفريق الثانى فيرى أن المرأة الأمريكية والأوروبية متحررة أكثر من اللازم ، وعلى نحو يتعارض أشد التعارض مع تقاليدنا وقيمنا الاجتماعية ، ومن ثم يجب رفض أى مشروع يتيح هذه الدرجة من التحرر للمرأة العربية . ولكن الفريق الثالث ، وإن كان يعترف بأن المرأة فى المجتمع العربى تخضع لبعض صور



القهر ، فإنه لايشعر بأية حماسة لتحرير المرأة العربية على الطريقة الأمريكية أو الأوروبية . نعم ، لابد من رفع القهر عن المرأة العربية، ولكن المرأة الأوروبية والأمريكية تخضع بدورها لصور أخرى من القهر المتولد عن شيوع قيم المجتمع الاستهلاكى الذى دفع إلى استغلال المرأة كرمز للجنس ، وفرق شمل الأسرة ، وفرض على المرأة الجمع بين أعباء ثقيلة فى العمل والسهر على مصالح الأولاد والأسرة ، بفرض وجود أولاد أو أسرة أصلا .

كذلك فيما يتعلق بالديمقراطية . مجتمعاتنا تحتاج بلاشك إلى مزيد من الديمقراطية ، ولكن ما هو الرائع بالضبط فى نوع من الديمقراطية . يصفه كاتب أمريكى بأنه «أفضل نظام سياسى يمكن أن تشتريه بالنقود!» وما هو الرائع فى نظام للانتخابات يتنافس فيه حزبان كبيران ، الاختلاف المهم الوحيد بينهما (طبقا لمقال حديث فى جريدة الجارديان البريطانية) ليس هو الاختلاف حول السياسة الخارجية الأمريكية ولا حول البقاء فى العراق أو الخروج منه ، بل ما إذا كان يسمح أو لايسمح بالزواج المثلى ؟

وكذلك فيما يتعلق بالمعرفة . إذ هل ينكر أحد تخلف نظمنا التعليمية ، وانتشار الأمية فى البلاد العربية ، وتخلفنا فى مجالات البحث والابتكار العلمى والتكنولوجى ؟ ولكن بأى حق يأتى من يقول لنا ، باسم النهوض بأحوال المعرفة فى بلادنا ، أن علينا تخفيض عدد ساعات تدريس اللغة العربية ، وإحلال اللغة الانجليزية محلها ، أو أن علينا أن نستبدل بدروس الدين دروسا فى الأخلاق بصفة عامة ، أو أن تدريس التاريخ السياسى الأمريكى يجب أن يحتل درجة الأهمية نفسها التى يحتلها التاريخ العربى أو الإسلامى أو أكثر .. الخ .

★ ★ ★

كل هذا يبدو لى قريبا من أن يكون من البديهات التى لاتكاد تحتاج إلى نقاش . المسألة فى رأيى ، كما ذكرت ، ليست فى صعوبة أن نعرف ماهو الحل الأفضل أو ماهو الإصلاح المنشود بالضبط ، فالحل الأفضل أو الإصلاح المنشود لايمكن أن يخرج عن أن نحاول تبنى الجديد الصالح مع الاحتفاظ بالقديم الصالح أيضا ، أى الذى لم يفقد مغزاه وصلاحيته مع مرور الزمن . ولكن المشكلة هى فيما إذا كان هذا الحل متاحا أصلا ، أى ما إذا كان من الممكن حقا لأمة من الأمم المواجهة بغزو ثقافة مغايرة لثقافتها ، ولكنها أيضا أكثر حداثة ، أن تختار وتنتقى ، فترفض الجديد الذى لانفع منه ، وتستبقى من تراثها مالايتعارض مع آمالها وطموحاتها . إنى أشك فى أن هذا الاختيار متاح أصلا لسببين على الأقل :

السبب الأول : هو أن التحديث الذى يأتينا متخفيا فى زى الإصلاح يأتينا مدعوما بقوة السلاح . إنه يدعونا إلى الديمقراطية وإصلاح أحوال المعرفة وزيادة تمكين المرأة دعوة مقترنة دائما بالتهديد (مما يثير فى حد ذاته الشك فى أن

المقصود قد يكون فى الحقيقة شيئا مختلفا تماما عن الديمقراطية والمعرفة وتمكين المرأة) . والدعوة دائما ليست إلى مزيد من الحرية والديمقراطية بصفة عامة ، أو النهوض بأحوال المعرفة والمرأة بصفة عامة ، بل بطريقة خاصة ومحددة سلفا هى التى طبقوها هم فى بلادهم أو تحقق مصالحهم هم . وكأننا لم نتقدم كثيرا عما فعله نابليون عندما قدم إلى مصر منذ قرنين وقال للمصريين فى منشوره ، بعد أن حاول تبرير مجيء الحملة الفرنسية بأنها جاءت لتخليص المصريين من «السناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية» ، وبعد أن وعدهم بأنه «من الآن فصاعدا لاييأس أحد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة .. » ، بعد أن وعد نابليون المصريين بهذا الإصلاح الباهر قال فى منشوره .

«المادة الثانية ، كل قرية تقوم على (أى تقف ضد) العسكر الفرنساوى تحرق بالنار» .

والسبب الثانى : أن مقاليد الأمور فى داخل البلاد العربية وسلطة اتخاذ القرارات بشأن الإصلاح أو عدمه، هى فى معظم الأحوال فى أيدى المستفيدين من التحديث لا من الإصلاح ، أى من تطبيق النموذج المراد فرضه والمملى مباشرة من أصحاب المشروع التحديثى الذى يختلط فيه الصالح بالطالح ، ولايجرى التمييز الواجب بين النافع والضار .

وهذا الفريق ذو قدرة فائقة - مدعومة أيضا من الأجنبي - على تعطيل أى إصلاح حقيقى ، وعلى منع أى عملية انتقاء واختيار حر بين الأشياء المعروضة . من مصلحة هذا الفريق أن يصور الأمر (على غير حقيقته) بأنه صراع بين المتطرفين والاصلاحيين ، بين المتطرفين المتمسكين بالقديم بأى ثمن ، والتقدميين الراغبين فى تحقيق التقدم والرفاهية . ولكن الحقيقة أن هناك موقفا ثالثا يصمم الآخرون على تجاهله ، مع أنه الموقف الوحيد الذى يمثل الإصلاح الحقيقى وإن لم يكن يقبل «التحديث» بدون قيد أو شرط .

لاعجب أن قال محجوب للراوى فى رواية الطيب صالح :

«الدنيا لم تتغير بالقدر الذى تظنه . تغيرت أشياء . طلمبات الماء بدل السواقى . محاريث من حديد بدل محاريث الخشب. أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس . راديوهات . أوتومبيلات ، تعلمنا شرب الويسكى والبيرة بدل العرقى والمريسة . لكن كل شيء كما كان .. الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثالى وزراء فى الحكومة» ثم أضاف وهو لا يزال يضحك : « وهذا طبعا من رابع المستحيلات» .

★★★

هاتان العقبتان الكأداوان : قوة السلاح لدعم الإصلاح الكاذب من الخارج ، ومؤازرة المستفيدين من هذا الإصلاح الكاذب من الداخل ، يبدو أنهما يزدادان ضراوة مع مرور الزمن، بحيث تتضاءل مع

الزمن فرصة تحقيق الإصلاح الحقيقي كما عرفته من قبل .إن كل تجربة لإحداث نهضة حقيقية قائمة على الاختيار الحر ، وعلى تنقية عملية التحديث من الشوائب والنقائص ، تصبح فرصة نجاحها أقل فأقل ، كلما تأخرت في الزمن . كانت الفرصة المتاحة لمحمد علي لتحقيق مثل هذه النهضة في مصر ، في العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، أفضل بكثير من الفرصة التي كانت متاحة لجمال عبدالناصر في منتصف القرن العشرين . كذلك كانت الفرصة المتاحة لليابان في منتصف القرن التاسع عشر لتحقيق إبداع حقيقي ، والاختيار الحر من بين عناصر التحديث دون التنكر للنافع من التراث ، أفضل بكثير من تلك التي أصبحت متاحة لكوريا أو ماليزيا في أواخر القرن العشرين . فهل مازالت هناك فرصة متاحة للعرب اليوم لتحقيق هذا الاختيار وتطبيق إصلاح حقيقي بدلا من مجرد «التحديث» ؟

هناك بالطبع فريق يائس تماما ، لسبب أو آخر ، من إمكانية هذا الإصلاح المتميز عن محض التحديث . ولكن هناك من لايزال يحمل بعض الأمل ، ويستمد هذا الأمل من درجة عالية من الثقة بحيوية التراث العربي والإسلامي وقدرته على مقاومة محاولات التحديث التي يختلط فيها القليل النافع بالكثير الضار والذي يفت في عضد الأمة ويضعف من ثقتها بنفسها ومن قدرتها على الإبداع وهناك من يستمد الأمل من احتمال عودة الصراع إلى النشوب في داخل معسكر الحداثة نفسها ، نتيجة لتنافس دولها على القيادة والتفوق الاقتصادي والسياسي والعسكري ، كما حدث من قبل عدة مرات ، واقترن أحيانا بحروب عالمية ، وأدى هذا الصراع في كل مرة إلى إتاحة فرصة الهرب أمام بعض الثقافات الأخرى في العالم للمحافظة على وجودها وتحقيق نهضتها .

ولكن هناك مصدرا آخر للأمل ، أمام الثقافات غير العربية ، لتحقيق الإصلاح المرجو دون الاستسلام الكامل لما يراد لها من تحديث ، وهو ما أصاب الحضارة الغربية من ضعف، وأنها هي نفسها تمر بمرحلة لها كل سمات الشيخوخة .. وفي هذه المرحلة يصبح من المستحيل إخفاء الوهن على الجميع ، فإذا بالنقد الموجه للحضارة الغربية يزداد قوة يوما بعد يوم ، وترتفع أصوات الاحتجاج على ما يمارسه أصحاب هذه الحضارة من هيمنة في عدوانها على أصحاب الثقافات الأخرى ، وعلى هذه الثقافات نفسها ، ويتضح أكثر فأكثر ما أصبح يتسم به خطاب أصحاب الحضارة الغربية من هشاشة وترهل أقرب إلى إثارة الضحك والسخرية ، بل ويبدأ أصحاب هذه الحضارة نفسها في فقد الثقة في حضارتهم ، وفي أفضليتها في كثير من الأمور على غيرها . في مثل هذه الظروف قد تزداد فرص الإصلاح المستقل عن التحديث ، ويتجدد الأمل في تحقيق تقدم حقيقي لايتنكر للجوانب الناصعة في تراث الأمة . ■

من ذخائر الكتب العربية



بقلم
مصطفى نبيـــــل

بينما تتعثر محاولات النهضة والتحديث ، يبرز سؤال بالغ الأهمية حول مسار ومسيرة حركة النهوض خلال القرنين الماضيين ، ومتى وكيف نتقدم؟! ومتى نتخلف؟ وكيف كانت البدايات وسبب العثرات !.

وكتاب «رسالة الكلم الثمان» لمؤلفه الشيخ حسين المرصفى ، الذى صدر فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ، إحدى العلامات على درب النهضة، جاء استجابة لمعضلات زمانه ، حتى أن ما جاء فيه ، كان أحد إرهاصات الثورة العرابية ، ألقى الضوء على معنى ثمانى كلمات جديدة «متداولة على ألسنة شباب زماننا ، وهى الأمة والوطن والحكومة والظلم والعدل والسياسة والحرية والتربية» فماذا قال ؟!

كان الشيخ حسين المرصفى من أبرز كتاب عصره ، حتى أنه يعتبر أستاذا لمحمود سامى البارودى فى الشعر وفى السياسة ، والذى أصبح - فيما بعد - رئيس وزراء الثورة العرابية، وتأثر بأفكار الشيخ وكتاباته

قادة الثورة ، فالكتاب رغم صفحاته القليلة ، يتناول الأزمة السياسية في زمانه ، على أن جزءا منها بسبب عدم الوعي وسوء الفهم ، وسوء استخدام الكلمات، والحاجة الملحة إلى وجود نظام قوى راسخ للتربية والتعليم يوحد الأمة حول أهدافها .

ويلاحظ تأثير هذا الكتاب على الثورة عند قراءة بيانها عام ١٨٨١ .. «إن هدف الشعب المصرى توسيع نطاق التهذيب» ، وأيضا الخطاب الذى ألقاه عرابى زعيم الثورة ينادى خلاله بضرورة التربية الجيدة للأجيال الجديدة .

وعرف عن الشيخ مطالبته بتجديد المناهج وتطوير التعليم . يقول .. «هناك بالإضافة إلى المعارف المطلوبة لكل مهنة ، عموم المعارف التى يجب أن يعرفها المواطن ، فبقاء ورفاهية المجتمع يعتمدان على اكتساب تلك المفاهيم ، فهى التى تمكن المجموعات الاجتماعية المختلفة من التفكير وتطوير عملها ، .. والتعليم الذى يشترك فيه الجميع هو الذى يميز المجتمع عن سواه» .. وهو ذات الرأى الذى نادى به د. طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر .

ويعتبر كتاب «الكلم الثمان» التعبير الصادق عن مشاكل وهموم عصره ، والعمل على «تجدد المتجددات الزمانية، لتكون أعمالها مطابقة للأحوال الحاضرة» . وهو دعوة لليقظة والنهوض ، وحملة على الخرافات السائدة ، والمطالبة بثقافة معاصرة .

وجاء ذكر الشيخ وكتابه فى كتاب الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك والذى يورد ترجمة لحياة من أثروا فى حركة النهضة فى القرن التاسع عشر. عند ذكر قرية مرصفا فى الجزء الخامس عشر، وهو مصدر لا غنى عنه لتاريخ مصر الاجتماعى ، يقول .. « .. قل ان يسمع شيئا إلا ويحفظه ، مع رقة المزاج ، وشدة الحذق .. وله تآليف مفيدة أجاد فيها وأفاد ، منها كتاب «الوسيلة الأدبية فى علوم العربية .. وتكلم باللسان الفرنساوى ، وتعلم فى مدرسة العميان التى أنشأها الخديو اسماعيل . وكان معلم العربية فى دار العلوم» .. وفاته أن يذكر أنه كان عضوا فى المجلس العالى للمعارف فى مارس ١٨٨١ ، وأنه ترجم عن الفرنسية بعض حكايات لافونتين .

كما ذكره عبد الرحمن الرافعى فى ترجمته لأدباء عصر إسماعيل، وقال عنه جرجى زيدان .. «كان كفيف البصر ، وبلغ من ذكائه أن تولى التدريس، وله مؤلفات هامة ، الكلم الثمان ، وهو يمثل حال الأمة المصرية فى أيامه» ، ويعتبره أحمد حسن الزيات ، شيخ المعلمين ، وعمدة المؤلفين، وعده محمد مندور من رواد البعث الأدبى المعاصر ومن بناته الأصليين ، أما المستشرق الأمريكى ميتشل فقد أفرد له فصلاً فى كتابه «استعمار مصر» ، واعتبره امتداداً لابن خلدون .

كما ساهم الشيخ فى تحرير مجلة «روضة المدارس» أول مجلة ثقافية تظهر فى العالم العربى، وجاء فى مقالاته نظم الحكم الرشيدة التى يجب أن تحكم بها البلاد .

يقول الشيخ .. «هذه رسالة ألتمس من قرائها أن يخصوها بجانب من عنايتهم ، حتى لا يفوت فهمهم شىء مما تشير إليه بعض عباراتها ، وأن يكرروا النظر لتأكيد معانيها ، وبها أخاطب أذكياء الشبان من أهل هذه الأزمة التى صنعتها الألفاظ الحاضرة، شرحت فيها كل جارية على ألسنة الناس ، لهجوا بذكرها فى هذه الأوقات كلفظ الأمة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية» .

أى أنه يهدف من مؤلفه ضبط استعمال المصطلحات ، وتحديد معناها حتى لا توضع خارج سياقها ، وما قام به كبير الشبه بما قام به الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين ، فى الباب الذى قدمه فى مجلة «صباح الخير» تحت عنوان «كلمات نستعملها ولا نفهمها» ! ، ويكاد بحث الشيخ أن يكون الأول من نوعه فى السعى إلى فهم المصطلحات السياسية الجديدة ، وهو المطالب فى كتابه «الوسيلة الأدبية» بصفاء اللغة والقضاء على الزخارف والمحسنات الخالية من المعنى، كما يرى أن اللغة علم يبين صيغ الألفاظ وتعيينها للأشياء والتى تفهم فى موضعها ، وأن لكل صورة غرضا ، ومنهجه فى دراسة الأدب من خلال النص .. «ووضع القول فى موضعه، فمناط الكمال يتعلق بالسمو الأنسى ، ... والبلاغة تأتى من وضع الشىء فى موضعه» ، ويرى أن دراسة الأدب تفيد من المعارف التاريخية والظروف الاجتماعية التى تحيط بالعمل الأدبى، ويضيف .. «من قرأ العلوم وطاف البلاد ، وعاشر طوائف الناس بعقل حاضر ، وتنبه قائم.. وعرف العوائد المختلفة ، والأهواء المتشعبة ، وميز الحسن .. يكون بالضرورة أكثر أدبا

ممن قرأ وخالط ولم يطف ، وممن قرأ وطاف ولم يعاشر» .

قاموس الوطنية

ويمكن أن يكون «الكلم الثمان» هى الألفاظ الثمانية التى شرحها مقدماً قاموساً جديداً للوطنية المصرية ، ويفسر ميتشل الكلمات الثمان بالمثمن الذهبى لدى أرسطو أو تشير إلى الحكمة الشعبية وفى الكتابات الاجتماعية التى تعبر عن ما هو سياسى .

على أية حال إن رسالة «الكلم الثمان» بحث فى فهم المصطلحات السياسية ، وهى مصطلحات ذات معان جديدة عصرية ، وفى تعريفه للأمة ، يرى أن وحدة اللغة هى الأساس ، ويقصر تعريف الأمة على أبنائها دون غيرهم ، يقول .. «على الأمة أن تكون أرضهم بالنسبة إليهم كالدار بالنسبة للشخص .. لا يجوز أن يدخل أحد داره إلا على سبيل الخدمة أو الضيافة أو السكن .. كذلك الأمة يجب ألا يدخل أحد أرضها إلا على تلك السبيل .. ولا يتصرف فى الدار إلا عن إذن صاحبها ورضاه» .

وهو هنا ينأى عن أية أفكار عنصرية ، ويقصر رابط الأمة على اللغة وحدها ، وأيضا ، ينبه فى ظل التسلل الاستعمارى وسيطرة الأجانب على الكثير من جوانب اقتصاد البلاد، وعلى ضرورة الالتزام بحدودهم .

أما الوطن ، فيرى المساواة بين المواطنين ، فقديما كان الدين هو المحور الرئيسى للوطن والذى يرتبط به المواطن ، أما اليوم فالوطن هو الأرض التى تعمرها الأمة . ويطالب المواطنين باستعمال عقولهم لتمييز المنفعة ، وصيانة الأبدان والمبادرة بإصلاح الخلل ، والاسترشاد بعقلاء الأمة ، والتعاون فى المهمات ، ومعرفة الأشياء، والغيرة لاكتساب المعرفة ، ومسابقة الأمم فى الرقى .

وعنده أن الحكومة .«. قوة تحصل من اجتماع طائفة من الأمة لإمضاء مقتضيات الطبيعة –أى توفير الحاجات الأساسية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن–، على وجه يقرب من رضا الكافة .. وتتكون الحكومة من العسكر لحماية الوطن ، والقضاة للفصل فى الخصومات ، والجباة لجمع الضرائب ، والكتبة لتحرير الوثائق ، وما عداهم ، هم أهل الصناعة والزراعة والتجارة . والحكومة تحفظ أمنهم وتقوم بحمايتهم وحياطتهم وصيانة أنفسهم وأموالهم وأعراضهم» .. ومن مهامها أيضا «أن تستوفى الناس قيمة أعمالهم ، بحيث يجدون سعة فى أغذيتهم وأكسيتهم ، كى يوجد فى طباعهم ويقوى حب الإقبال على مشاق الأعمال ولا يحرجون بتضييق الأرزاق – أى العدل هو الأداة

لزيادة الإنتاج – وإقامة العدل بين الناس هو طريق الحكومة .. لتوفير المأكل والمسكن والملبس، .. وإذا قام البعض وحظر بعض الطيبات عن غير حجة ، وأفرط في الترفه والتنعم ، حتى كأن الدنيا قد خلقت له ، وأن الناس مخلوقة لخدمته .. والناس ليس لهم من ثمرات أعمالهم إلا ما يحفظون به قوى أبدانهم ، نوعا من الحفظ لتصريفها في أغراضه ، – هنا يقل الإنتاج – فالعدل أن يعمل كل أحد عمله الذى يعود نفعه على الناس كاملاً، وأن يوفيه الناس قيمة ذلك العمل كاملة، فإذا لم يعمل وطلب قيمة ، أو عمل ناقصا وطلب كاملاً فقد ظلم ، وإذا عمل ولم يوفر الناس قيمة عمله ، فقد ظلموه».

والحرية عنده مقيدة تحدها مصلحة المجتمع .« فالحرية معرفة وشرف وانقياد وإباء : فإذا لم يكن واحد من تلك الأشياء ، فإن كان إنسان جاهلاً ، دخل تحت أسر التعليم ، ومنع من الأفعال حتى يعرف ماله فعله ، وما ليس له فعله ، حذرا من وقوع الفساد ، وإبطال معنى الاجتماع التعاونى ، الذى قلنا إنه من ضرورة الحياة الإنسانية ، أو كان خسيساً يعرف ماله، ويتجاوزه إلى ما ليس له ، أو منقاداً في محل الإباء ، أو أبيا في محل الانقياد ، .. منع من التصرف لما فيه من العدوان والظلم ، أو الحماقة والسفه ..».

ويدعو إلى ضرورة الاهتمام بالزراعة وبصفة خاصة القطن والكتان، ولا يفوته الحديث عن العلاقات مع الدول الأخرى .. ويقول: «حتى يكون اختلاط الأمم لتوسيع المنافع الإنسانية وتنظيم الأحوال البشرية» .

أما سعادة الأمة وراحة الحكومة فمرتبطان بالتربية من الصغر . وطالب بانتشار التعليم حتى يستطيع الدارسون تعريف كلمات مثل الوطنية ، ويتوعد الأغنياء الأغبياء بقوله .. «فلا والله ، إنما تكون مشيدات قصورهم، وفسيح جناتهم ، بمنزل مضايق السجون ، ومهاوى القبور .. أفيكون أولئك محسوبين من نوع الإنسان ، وهم في تلك الأحوال .. كلا !» .

ويختتم الشيخ حديثه بالقول .. «إن على أذكياء المجتمع أن يولوا اهتماما كبيرا لهذه المفاهيم . ويهذبوا عادات وأخلاق الشعب» .

كان .. ياما كان

وإذا عدنا للسياق التاريخى الذى صدر فيه الكتاب ، والتحديات التى أملته ، والتى عاشها الشيخ ، لوجدنا أنها المرحلة ما بين خلع الخديو إسماعيل ودخول الاحتلال البريطانى مصر أى

الفترة ما بين عامى ١٨٧٩ و ١٨٨٢ ، وفيها تعرضت البلاد للتدخل الأوروبى الاستعمارى ، والسعى الأجنبى إلى إجهاض محاولة جديدة للقيام عندما اراد إسماعيل إحياء مشروع محمد على ، وأخذ فى إقامة المدارس ، ولم يكن موجودا عند جلوسه على أريكة الحكم سوى مدرسة إبتدائية واحدة ، فأخذ فى إنشاء المدارس من جديد ..

ويعتبر الشيخ المرصفى أحد المساهمين فى هذه النهضة ، وقد أصدر كتابه «الكلم الثمان» ، عقب طرد جمال الدين الأفغانى عام ١٨٧٩، وفى ظل الرقابة وقانون المطبوعات الذى صدر فى نفس العام ١٨٨١ وهو العام الذى صدر فيه الكتاب .

وخاطب فى هذا الكتاب جيلا مقبلا، معبراً ومسجلاً طبيعة الأزمة !

وخلال هذه المرحلة ، عانت البلاد من التدخل الأجنبى ومن الانقسام الداخلى ، وشهدت البلاد صراعاً حادا بين أولئك الذين يؤمنون أنه .. «ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وأولئك الساعين إلى التغيير والتجديد ..

ويكفى أن نعرف أن الشيخ محمد عبده طرد من الأزهر سنة ١٨٧٧ لتدريسه مقدمة ابن خلدون، واحتج أصحاب نظرية «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» أنه ليس من المعتاد تدريس مثل هذا الكلام !

وهناك العديد من الصور والمشاهد التى تعكس هذا الانقسام، منها ما شهدته شوارع الجمالية من معارك استخدمت فيها الأطراف المتنازعة العصى عند دخول مشروب القهوة إلى مصر المحروسة باعتبارها منشطا مثل الخمر .

ومعركة أخرى - صحيح ليس فى ذات المرحلة - ولكن دلالتها واضحة عندما شهدت شوارع القاهرة ما يقترب من الحرب الأهلية عند إدخال الصنبور إلى الجوامع والتى أجازها بعد هذا الصراع المذهب الحنفى وسميت بعدها (الحنفية) ، وطالب التقليديون بالحفاظ على الميضة ، التى كان يتفل ويتوضأ الجميع فى ذات المياه !

وطال الانقسام كل المجالات ، فريق لا يرى الحاجة إلى الجديد مكتفين بما بين أيديهم من تراث ، وفريق يسعى للتوفيق بين ما بين أيديهم وبين زمانهم ، وفريق يخاصمون التراث ، ويسعون إلى الانفتاح على فكر العالم .

ومن مشاهد هذا الصراع ، ما جرى بين الشيخ حسين المرصفى والشيخ حمزة فتح الله ، عندما وجه الشيخ حمزة الهجوم على الشعب والدفاع عن الخديو على صفحات إحدي الجرائد، واتهم الشعب «بالغفلة عن الحقوق ، والجرأة

على العقوق .. فالملوك ظل الله على الأرض ولا يجوز الخروج عن طاعتهم ، ولا البغى عليهم ، ولا تخفر ذمتهم ، ولا تنكشف بيعتهم ، ولا ينقض عهدهم» .

ورد الشيخ المرصفى ونبه الشيخ حمزة القادم من تونس .. «أن للضيف حدودا لا يتخطاها» .. واتهم الشيخ أنه خائن ، ودعا إلى تطهير دار العلوم منه . (أحمد زكريا شلق) فشيخنا الذى لا يرى فى المعرفة مجرد الانكباب على تخصصه ، وإنما هى مسئولية عامة ورسالة مقدسة ، فلم يكتف الشيخ بإلقاء محاضراته بل يخوض المعارك الفكرية بشجاعة .

وفى ذات المرحلة أصدر كاتب تنكر باسم امرأة أطلقت على نفسها «الحرة اللى لسانها خارج لبرة» كتابا عنوانه «تحذير الأمم من كلب العجم» وتقصد به جمال الدين الأفغانى ، وكتابا آخر بعنوان «كشف الأستار فى ترجمة حياة الشيخ الفشار» يرد الكتاب على ما طرحه الشيخ محمد عبده من أفكار!

وتظل المقاومة للتغيير والتجديد قائمة ..

أصحاب العمائم

ويلاحظ أن الشيخ حسين المرصفى، واحد من أصحاب العمائم ، من تلك السلسلة من أبناء الفلاحين الذين أدركوا مدى التخلف وضرورة التجديد من أمثال الشيخ حسن العطار ورفاعة الطهطاوى ومحمد عبده .. فمصر الجديدة صاغها وصورها ، شيوخ لم يتخلوا عن العمامة ، ومن هؤلاء الشيوخ قادة حركات التجديد ، ورواد النهضة والتحرر ، لقد ثاروا وتمردوا واصطدموا بقوى عاتية . ولم يتخلوا عن رسالتهم .

صور الظلم !

ولا شك أن المظالم التى عاشها الشيخ والوعى بضرورة تحقيق العدالة، كان وراء إصدار «الكلمات الثمان» ، ففى هذا الوقت كانت مغادرة القرية أو الدخول إلى القاهرة لا يجوز إلا بتصريح ، على «أن يكون بيد كل إنسان تذكرة بختم مصر ، تقدم عنه خروجه ودخوله من أبواب المحروسة ..». الوقائع المصرية ١٨٣٠/١١/٣ ، وهى الفترة التى كثر فيها هروب الفلاحين من قراهم .

ويذكر فى كتابه بعض الصور التى دفعته لتأليف كتابه «العمال فى الزراعة مستعملين لا أقول استعمال البهائم ، بل استعمالاً آخر لا يدركه الوصف ، ولا يحيط به التصور» !! .

ومن مشاهد الظلم التى يسجلها، ما كان يقع من البدو والأعراب الذين يهاجمون القرى ويستولون على

خيراتها ، فلم يكن الظلم الواقع على الفلاحين من السلطة وحدها .. «كانت البدوية تمر بالفلاح يسوق ساقيته ، فتنام له في مدار الثور ، فإن لم يبادر الفلاح بوقفه هلك بسيوف قومها وخرب منزله» .

ومن الصور البشعة التي يذكرها .. «الطامة الكبرى أن البنت تبيت أول ليلة عند العمدة ، يتمتع بها ، ثم تزف ثانى ليلة لصاحبها» !! وهي ما عرفناه في المجتمع الإقطاعي في أوروبا ..

ويكاد الكتاب يكون من أوائل النصوص التى تطالب ، «بالاقتسام الطبيعي للأرض» والذي ينادى بالعدل الاجتماعى ، ويذكر .. «ليس لعلة الغنم في الديار المصرية من سبب إلا أمران :

الأول، أن معظم أراضي الزراعة الجديدة صارت تحت أيدى ناس ليس لهم فكر إلا فيما يرد عليهم من أثمان مزروعات يكابد أبناؤها وخدمتها مسخرين ، يعطون من الأقوات ما يمسك أعضاءهم للعمل ، فهمهم جمع الذهب والفضة .. يرون أنهم أهلها دون غيرهم ، ثم مصارفها كما ترى فى شفوف لا تستر عورة ، ولا تدفيء مبردا» ويضيف .. «ومرايا كبار تصف على الحيطان ، وكراسى عليها ألواح الرخام، توضع فوقها الأعطار ودهانات الشعور ، وأمثال ذلك من مصنوعات لا يعرفها أهل البلاد !» ، ويدعو إلى صنع احتياجات البلاد ، ويستنكر استيرادها من الخارج ، ويقول .. «قديما كانوا يعرفون أحسن منها ، وعلى فرض أن هذه الموجودات لا يماثلها شيء فى الحسن ، أفليس فى الإمكان أن يعرف أهل بلادنا صناعتها، إن لم يكن الحرم فى إطراح أكثرها» .

«والأمر الثانى .. انكسار خواطر الطبقة الأخيرة (أى الفقيرة) والوسطى، وضيق صدورهم بثقل التكاليف ، وحرمانهم من المنافع ، حتى يرى الواحد منهم انصراف النهاية ، وذهابه إلى قاعته المحماة بالحطب ، الغنيمة الكبرى والنعمة العظمى» .

وأخيراً ..

ألا يجدر بنا أن نتساءل .. لماذا لا يحدث التراكم ، وتتجمع الجهود فى نهر واحد متدفق ؟ ولماذا تمضى حركة النهضة فى طريق دائرى ، تعود خلاله إلى نقطة البداية ؟ .. ولم تأخذ - كما يحدث عادة - مساراً مستقيماً متدفقاً ومتصاعداً ؟

ولماذا يكرر دعاة النهضة ذات الكلام بمصطلحات ومعارف عصرهم ، وكأن الزمن لا يتحرك إلى الأمام ؟! ■

مجلة تصدر فى الأرجنتين منذ سبعين عاما وتدعو إلى إصلاح العالم العربى !



كما يراه عرب المهجر

بقلم
د. فاروق أبو زيد

مازال تاريخ الصحافة العربية فى المهجر مجهولا، فما كتب عن هذه الصحافة محصور فى فصل ونصف فصل من كتاب فيليب دى طرازى عن تاريخ الصحافة العربية، الذى توقف تأريخه لهذه الصحافة عند السنوات الأولى من القرن العشرين (١٩١٣م) إضافة إلى صفحات قليلة من كتاب أديب مروة عن الصحافة العربية،نشأتها وتطورها، وعدد قليل من المقالات المتفرقة التى نشرت في أوقات متباعدة في بعض الدوريات العربية والأجنبية ..

وترجع أهمية صحافة المهجر العربية، خاصة تلك التى صدرت فى أوروبا وبعض دول الأمريكتين الشمالية والجنوبية، إلي أن اهتمامها لم يقتصر على معالجة شؤون الجاليات العربية فى البلدان التى صدرت بها، وإنما وجهت جزءا ليس قليلا من اهتمامها إلى معالجة قضايا ومشاكل الوطن الأم ، سواء كان بلدا عربيا بعينه أوالوطن العربى كله ومن منظور لم تتحكم فيه حسابات الداخل أو حساسياته أو قيود السلطة فيه ، فقد كان يحرك كتاب المهجر شعور جارف بالانتماء إلى الوطن الام ، لذلك حرصوا على تقديم رؤى واجتهادات اعتقدوا أنها صالحة لحل مشكلات الوطن العربى ووضعه على طريق التقدم.

ميزة أخرى لصحافة المهجر، فقد صدرت فى أكثر من بلد أوربى وأمريكى وباللغة العربية ومع ذلك فقد تأثرت بطابع وثقافة البلد الذى صدرت فيه، ومن هنا تميزت رؤى واجتهادات كتاب المهجر نحو قضايا ومشكلات الوطن العربى بالتعدد والتنوع، وبثراء فى الأفكار والتجارب، وكان ذلك كله محصلة طبيعية لتنوع وثراء الخبرات التى اكتسبوها فى المجتمعات التي توطنوا فيها

صحافة مهجر وصحافة مهاجرة

ولعل هذا ما يميز «صحافة المهجر العربية» عن «الصحافة العربية المهاجرة» فالأولى صدرت فى بلدان خارج الوطن العربى لتخاطب أبناء الجاليات العربية فى المجتمعات التى تصدر منها، أما الثانية فقد صدرت فى الأساس لتخاطب أبناء الوطن الأم بصرف النظر عن البلد الأجنبى الذى تصدر فيه ، كذلك فالصحافة العربية المهاجرة، قد تهاجر إلى الداخل أو الخارج، فحين كانت مساحة الحرية الصحفية فى بلد عربى ما تضيق إلى الحد الذى لا تسمح السلطة فيه برأى آخر ، يضطر الصحفى أو الصحيفة إلى الهجرة إلى بلد آخر تتمتع فيه الصحافة بقدر أكبر من الحرية، كما حدث من هجرة لبعض الصحف والصحفيين الشوام إلى مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، فحين كانت هذه المساحة من الحرية الصحفية تفتقد فى كافة البلدان العربية ، فتضطر بعض الصحف والصحفيين العرب إلى الهجرة خارج الوطن العربى كله، وكان أغلبهم يتجه إلى



الشاطئ الآخر للبحر المتوسط أوقريبا منه وبخاصة إيطاليا وفرنسا وإنجلترا، وفى السنوات الاخيرة اتجه الكثيرون إلى قبرص لقربها ورخصها وظهر ما يسمى بظاهرة الصحافة القبرصية.

وهذه الصحافة العربية المهاجرة لا تعنى كثيرا بشئون المجتمعات التى تصدر فيها ولا بالجاليات العربية التى تعيش فى هذه المجتمعات، ذلك أن تركيزها كله ينصب على شئون الوطن الأم وشجونه، فهى تصدر وعينها على القارئ العربى فى الداخل بالدرجة الأولى، وليس غريباً أن تحرص هذه الصحف على التوزيع داخل الوطن العربى ، بل إن بعضها اضطر إلى التسلل إلى بعض الأسواق العربية خفية، تهربا من قيود الرقابة الصارمة أو قرارات المصادرة أو المنع من التداول فى بعض الأقطار العربية .

اسم على مسمى

ونحن لا نقلل بالطبع من أهمية الصحف العربية المهاجرة، فهى جزء أصيل من الصحافة العربية رغم صدورها خارج الوطن العربى، وقد كان لبعضها تأثير فاق كثيرا من صحف الداخل العربية المعاصرة لها، فما نقصد إليه هو التأكيد على أن صحافة المهجر العربية قدمت لنا نموذجا مغايرا فى رؤية قضايانا ومشاكلنا يختلف عن ما تعودنا عليه من صحافتنا العربية المحلية أو صحافتنا العربية المهاجرة .

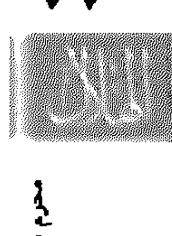
لذلك فقد شعرت بسعادة حقيقية حين أرسل إلى الصديق الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال الغراء مجموعة من أعداد أول مجلة عربية كانت تصدر فى ثلاثينيات القرن الماضى بمدينة بوينس أيرس عاصمة الأرجنتين بأمريكا الجنوبية

ومما يلفت النظر فى هذه المجلة هو اسمها فقد كانت تسمى (الإصلاح) وكانت اسما على مسمى حيث تزخر أعدادها بالكثير من المقالات التى تدعو إلى إصلاح الأوضاع فى الوطن العربى، وإن هذا الإصلاح لابد أن يشمل كافة جوانب حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية، وان الإصلاح هو الطريق الوحيد لتقدم العالم العربى واللحاق بالعصر الحديث.

هذه المجلة تؤكد أن دعوة الإصلاح التى تملأ فضاءنا السياسى هذه الأيام ليست دعوة جديدة على العالم العربى وأنها بقدر ما كانت تشغل العرب فى الوطن الأم فقد كانت تشغل أيضا عرب المهجر ، وعندما نستعرض بعض ما كتب فى المجلة عن قضايا الإصلاح فى ثلاثينيات القرن الماضى سوف نكتشف أن هذه القضايا لا تختلف كثيرا عما يشغلنا اليوم فى قضايا الإصلاح وهمومه.

وقبل أن نتعرض لرؤية المجلة لقضايا الإصلاح فى الوطن العربى علينا أولا أن نتعرف على المجلة ومنشئها وظروف إصدارها.

صدرت مجلة (الإصلاح) فى عام ١٩٢٨م بمدينهة بوينس ايرس عاصمة الأرجنتين باعتبارها «مجلة أدبية انتقادية



اقتصادية تصويرية جامعة» وتصدر فى مائة صفحة مرة كل شهر، تنقل أدب العرب إلى الشرق وتعمل على بث روح الإصلاح والتحرر رافعة لواء العلم الصحيح المجرد من الخرافات والأوهام، والمنزه عن الشعوذة والتضليل، فوق جميع الاقطار والامصار التى يتكلم أبناؤها بلغة قحطان »..

مجلة منوعة

وقد تميزت المجلة بحجمها المتوسط، واستخدامها للصور الملونة على صفحة الغلاف واهتمامها بنشر اللوحات الشهيرة لكبار الرسامين العالميين سواء على غلاف المجلة أو فى بعض صفحاتها الداخلية وقد غلب على فنون الكتابة بها فن المقال الصحفى ، وإن لم تخل من بعض صفحات خصصتها لأخبار الجالية العربية فى الأرجنتين وبعض دول أمريكا الجنوبية إضافة إلى أخبار الوطن العربى، كذلك أفسحت المجلة صفحاتها لفن التقرير الصحفى ونشرت رسائل صحفية لبعض مراسليها أو المتعاونين معها من عواصم عربية وأجنبية، وقد اهتمت المجلة بنشر عدد من القصائد الشعرية والمقالات النقدية، كذلك نشرت فصولا من بعض المسرحيات والروايات العالمية بعد ترجمتها إلى العربية.

وتولى إدارة المجلة ورأس تحريرها الدكتور جورج صوايا، ورغم ندرة المعلومات التى نشرتها المجلة عن منشئها، فقد استطعنا الوصول إلى قدر من المعلومات المهمة عنه، ومع قلتها إلا أنها تكفى لإلقاء بعض الأضواء الكاشفة على مسيرة حياته ، مما يساعدنا على تفسير الكثير من مواقف المجلة واتجاهاتها فالدكتور جورج صوايا طبيب من أصل لبنانى ولد فى عام ١٨٨٢م بجبل لبنان ودرس الطب لسنوات فى الجامعة الأمريكية ببيروت وقبل أن يكمل دراسته سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث استكمل دراسة الطب فى جامعة ماريلاند وحصل منها على شهادته ، وعاد إلى لبنان حيث مكث فترة من شبابه المبكر وأصدر جريدة باسم (سورية الجديدة) فى عام ١٩١١ أى قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره بقليل ولكن الجريدة لم تستمر طويلا ، اذ سرعان ما ترك لبنان واتجه إلى الأرجنتين حيث استقر فى عاصمتها بوينس أيرس، وعمل بالطب ولكنه لم يتخل عن اهتمامه بالسياسة والصحافة، وقد أسس فى الأرجنتين فى عام ١٩١٩م حزبا سياسيا سماه الحزب الوطنى العربى وأصدر جريدة باسم «يقظة العرب» التى سرعان ما توقفت وأصدر بدلا منها جريدة (الإصلاح) اليومية وفى عام ١٩٢٨م حولها إلى مجلة شهرية.

وقد عرف عن الدكتور جورج صوايا أنه يتكلم ويكتب ويخطب باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية، كما اشتهر بنظم الشعر وله ديوانان مطبوعان باللغة العربية وهما «همس الشاعر» «الأوراق المتساقطة» وقد غلب على شعره

الطابع السياسي والحماسي، وله ايضا كتاب في العلوم الطبية نشره بالعربية باسم «المناهج الطبية لاتقاء الأمراض الإفرنجية».

ولن يكتمل حديثنا عن الدكتور جورج صوايا دون أن نشير إلى انضمامه إلى الحزب القومي الاجتماعي السوري الذى اسسه الدكتور انطون سعادة فى عام ١٩٣٢ وكان يدعو إلى فكرة سوريا الكبرى.

والمعروف أن سعادة أعدم في الثامن من تموز ١٩٤٩ بعد اتهامه وحزبه بتدبير انقلاب فاشل فى لبنان.

وقد توفى الدكتور جورج صوايا فى عام ١٩٥٩ عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما.

مفهوم الإصلاح

وحين نبحث عن السياسة التحريرية للمجلة ، أى اتجاهاتها ومواقفها الفكرية نجدها تركز على الدعوة إلى الإصلاح فى الوطن العربى ، أما مفهوم المجلة لهذا الإصلاح فتكشف عنه إحدى افتتاحيات المجلة التى كتبها صاحبها جورج صوايا حيث يؤكد أن «من اسمى مرامي الإصلاح إيقاظ الشعوب العربية من ثباتها وحضها على نبذ الإيمان الأعمى المبنى على تقديس ما قاله الآخرون والاعتماد على الحقائق العلمية المحسوسة التى تأسست عليها حضارة القرن العشرين ، فخفقت بسببها أعلام الرقى فوق صروح الغرب ، بينما لبثنا نحن الشرقيين فى المؤخرة لتلهينا سفسطات وسفاسف حرم علينا صهرها فى بوتقة العلم وتحليلها فى مختبر العقل وتمحيصها بكواشف الإدراك ، ان الإصلاح تناصر الجديد المنعش على القديم البالى والترميم على الرجعية المميتة».

ويكتمل مفهوم المجلة للإصلاح فى مقال كتبه اسكندر كرياج وهو أحد كتاب المجلة الدائمين بعنوان«بين المحافظة والعصرية» في عدد شهر أبريل عام ١٩٣٢ حيث يقول «إن نهضة الشرق التى ينشدها 'أفاضل الشرقيين لاتقوم على تغيير الثوب والعادة، بل على نسخ كل ما يلائم روح العصر الحاضر من شرائعه وتقاليده وأديانه، فضلا عن ذلك بالاختراعات الحديثة ولاسيما ما كان متعلقا منها بتقريب المسافات بين القارات والأمم ، وبما يجمع الشعوب على وحدة اللغة والشرائع والعادات والأديان، فما كان من هذه العادات والشرائع صالحا ومستقيما ثبت من نفسه وما كان فاسدا ومضرا سقط من نفسه أيضا .

ومن الإضافات المهمة إلى مفهوم الإصلاح كما تراه المجلة ، المقال الذى كتبه «فيلسوف الفريكة الأستاذ أمين الريحانى» كما كانت تسميه مجلة الإصلاح، وكان المقال بعنوان «الإصلاح » ونشر بالعدد الصادر من المجلة فى شهر سبتمبر ١٩٣٣م وفيه يؤكد أمين الريحانى «إن لنا مهمة فى الإصلاح هائلة نريد ونحث ونتمنى ونشتهى أن نصلح الناس، أن نهدى الناس ولا يهمنا ضلال أنفسنا

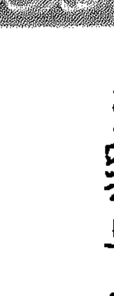
او هلاكها ولكن رأس الحكمة أن يبدأ المرء بنفسه ورأس الإصلاح أن ننقذ عقولنا أولا من عبودية التقيد والاتباع، ثم من العبوديات التي تولدها السياسة، وحب السيادة» ثم يضيف الريحاني «إخواني في الشقاء وفي حب الإصلاح لا حد لفكر الإنسان الحر ولا حد لعمله الحر الصالح إنما الحدود عقائد وتقاليد هي من صنع الناس وكلما ارتقى الإنسان في فكره وعمله بنبذ الفاسد من تلك التقاليد والعقائد وسع من نطاق السليم منها، ولا عدو له في فكره وعمله غير الخوف، وما يولده الخوف من التقاعص والتقاعد، من الكسل والخمول وضعف العزيمة والإرادة فإذا كان الفكر صالحا والإرادة في تحقيقه مقرونة بالعمل، والعمل مقرونا بالثبات والثبات مقرونا بالأمل، فليس في العالم قوة تحول دون الفوز ولو بعد جهاد طويل، حرروا أنفسكم، يتحرر الوطن ارفعوا في قلوبكم علم الاستقلال، تستقل البلاد اعتقوا عقولكم من القيود، تعتز الأمة وتسترد كرامتها فتقف على صغرها وضعفها صامدة الرأى بين الأمم».

ثلاثة عناصر للإصلاح

وهكذا يتبين من النماذج السابقة أن رؤية المجلة للإصلاح تقوم على ثلاثة عناصر، أولها الربط بين إصلاح الفرد وإصلاح الوطن فلا إصلاح للوطن بدون أن يصلح كل فرد من المواطنين نفسه ويخلصها من القيود والتقاليد البالية التي تتحكم في حركته وفكره، أما ثاني هذه العناصر فيقوم على الربط بين الإصلاح والاستقلال، وأن الإصلاح طريق العرب إلى تحقيق الاستقلال وهو ما يعني أنه ليس على العرب انتظار تحقيق الاستقلال، حتى يبدأوا في إصلاح أحوالهم، وإنما عليهم بالإصلاح طريقا إلى التقدم والاستقلال، اما العنصر الثالث والأخير لمفهوم الإصلاح من منظور المجلة فهو الربط بين الإصلاح والحرية، حرية المواطن وحرية الوطن.

وقد تصدرت قضايا الإصلاح في المجلة قضية الوحدة العربية وتلتها في الأهمية قضية الاستقلال، وبعدها تأتي قضية الديمقراطية السياسية والانتخابات الحرة، وأخيراً تأتي قضية الحرية الفكرية والاعتراف بالرأى والرأى الآخر.

وبالنسبة للقضية الأولى، قضية الوحدة العربية فقد كانت المجلة ترى ضرورة إيجاد موقف عربي موحد لمواجهة السيطرة الاستعمارية، وأن وجود الأجنبي لا يجب أن يعوق العرب عن السعي إلى الوحدة، ومن المقالات الهامة التي تبرز رؤية المجلة لهذه القضية، مقال كتبه عبد الغني رضا من القاهرة «خصيصا للإصلاح» بعنوان «زعماء العرب وسياسة الوحدة»، فيه يؤكد «إن المجهودات السياسية التي يبذلها رجالات العرب هنا وهناك متفرقين توشك أن تخرج القضية العربية عن وضعها الطبيعي دون أن تحدث تأثيرا حاسما في قضايا الأفكار العربية كل على حدة، وبالنظر إلى ذلك فإن خير ما تفعله هذه الأفكار هو أن



تجعل من قضاياها المتعددة قضية كبرى واحدة حيث يكون لاتحاد الجهود وتضافر الهمم فى سبيل إنجاحها أثر محسوس»

ويرد الكاتب على من يقولون بعدم إمكان تحقيق موقف عربى موحد فى ظل سيطرة الاستعمار الأجنبى على معظم الأفكار العربية، فيقول «وإما كون الأقاليم العربية خاضعا أكثرها لسلطة الأجانب، فذلك لن يمنعها من السعى إلى الوحدة التى تنشدها، ولدعاة السياسة الجديدة أمثال على ذلك، فهم يقولون إن الوضع الحاضر فى البلاد العربية ليس غريبا أو شاذا فى تاريخ الأمم، بل هناك شعوب كثيرة قد أصيبت بمثله أو بما هو أشد خطبا منه، ومن هذه الأمم الأمة الإيطالية التى مر عليها وقت غير بعيد كانت فيه ممزقة شر تمزيق، فمن أقاليمها ما كان تابعا للفاتيكان ومنها ما كان مقسما بين النمسا من جهة ومملكة نابولى من جهة ثانية، حتى أتاحت لها الظروف غاريبالدى وكافور ومن شابهما من أولى العزم والمضاء، فما برحا يعملان بكل ما أوتيا من عزيمة وصبر حتى كونا من شتات الأقاليم والمقاطعات الإيطالية وحدة سياسية ذات سيادة كاملة واستقلال تام، وتلك هى إيطاليا التى نراها اليوم وقد أصبحت تطاول بأنفها السحاب» ثم ينتهى الكاتب إلى القول بأن:

«الإقلاع عن أساليب السياسة الإقليمية والجنوح إلى سياسة الوحدة عمل جليل فى حد ذاته ومن جهة أخرى فهو دليل من أدلة اليقظة والتطور فى الروح العربى المجاهد، وخطوة إلى الأمام فى سبيل الوحدة والأمانى القومية المنشودة، وليس ببعيد على الظروف التى أنجبت غاريبالدى وكافور فى إيطاليا، أن تنجب لهما ضريبا فى الأمة العربية المجيدة التى طالما عرفت على مر التاريخ شخصيات كبيرة مشرقة وعبقريات فذة يشهد لها العالم بالفطنة ويدين لأصحابها بالفخار».

أما موقف المجلة من قضية الاستقلال، فيعبر عنه موقف عملى تكشف تفاصيله صورة زنكوغرافية نشرتها المجلة فى عددها الصادر فى شهر أبريل ١٩٣٢، وهى رسالة بعث بها «سلطان باشا الأطرش قائد الثورة السورية العام» إلى صاحب المجلة يشكره على تبرعه بقدر من المال لنصرة المجاهدين ضد الاحتلال فى سوريا، ولأهمية هذا الخطاب نشير إلى جزء منه حيث يقول سلطان باشا الأطرش:

«لقد سررت من هذه الروح الوطنية الشريفة التى حفزت بكم وبإخوانكم المخلصين الكرام إلى التفكير فى تخفيف بعض ما يقاسيه إخوانكم المجاهدون من العناء فى سبيل الدفاع عن كرامة الأمة والوطن».

وفى العدد الصادر من المجلة فى شهر سبتمبر ١٩٣٢، تعلن المجلة عن اكتتاب عام للتبرع لنصرة المجاهدين السوريين تتبناه المجلة وتقوم بتنظيمه.

الديمقراطية الشكلية

أما القضية الثالثة فى أجندة الإصلاح

كما تراه المجلة، فهي الديمقراطية السياسية والانتخابات، وفي هذا الصدد حذرت المجلة أكثر من مرة من الديمقراطية الشكلية التي يريد الاستعمار الأجنبي أن يقدمها لنا، ففي الوقت الذي كانت المجلة تنادي فيه بالديمقراطية، فإنها تحذر من سوء استخدامها وتزييفها لصالح المحتل وأعوانه وكأن المجلة تصف بالدقة ما يحدث اليوم في بعض الأقطار العربية المحتلة كالعراق وفلسطين، ونقدم نموذجا لأحد مواقف المجلة من الانتخابات الرئاسية في سوريا في ظل سلطة الانتداب البريطاني. فقد كتب رئيس تحرير المجلة تحت عنوان «الحدث الأخير في سورية»:

«في الشرق العربي يقظة هجوع ونهضة بعد تراخ وخمول، وتلاشى أكاذيب الدعايات فتبيض لذلك وجوه وتسود وجوه وها أن السلطة الفرنسية تزعم أنها قد حلت المسألة السورية، وغاية ما هنالك أنها استمالت نفرا من ضعاف العزائم كانوا في صفوف الوطنيين فأنشأت لهم جمهورية على غرار طيبة الذكر جمهورية لبنان، مقدمة لذلك بحركة انتخابية مفجعة لم تفد الدعاوى العريضة عن حريتها ونزاهة اليد التي أدارتها بدليل ما كشفت عنه من دماء مسفوكة وجثث مضرجة، وجرأة على الاختلاق والتزوير فإذا كان يقال بعد ذلك ولو من باب التجاوز أنه قد جرت انتخابات، فالواقع انه لم يكن هناك من ناخب إلا السلطة بحرابها المسنونة وأفواه بنادقها المسددة، وإذن فلا غرابة ان تأتي حكومتها بدعا من الحكومات فيكون لها مظهر الجمهورية وشكلها بينما هي محرومة من روحها وخصائصها، ناهيك بهيمنة المفوض الفرنسي المطلقة ووحيه الخفي وإرادته التي لا ترد فهي الدستور وهي القانون وهي كل شيء، وماعداها فأشباح متحركة في أثواب رؤساء ووزراء وشيوخ ونواب».

حرية الرأي

واحتلت قضية الحرية الفكرية وحق الاختلاف وأهمية الرأي والرأي الآخر موقعا في أجندة الإصلاح بالمجلة، ومن النماذج الدالة على موقف المجلة من هذه القضية مقال كتبه جورج حسون معلوف يقول فيه: «نحن قوم اختلفت مبادئنا وتباينت أحلامنا وتشعبت طرق تربيتنا وتفرقت أذواقنا وتعددت مذاهبنا وأدبياتنا فنشأ عن ذلك بحكم الطبع تباين في تربيتنا الوطنية واختلاف بين في أميالنا ونظرياتنا، ولابدع في ذلك فأي شعب مهما كانت درجة رقيه لو امتدت إليه وعملت على تفريقه الأيدي التي استغلت في تفريقنا لغادرته شذر مذر، وأية أمة لو خضعت لعوامل التشتيت التي بلينا بها زمنا طويلا لبقي من أواصر اجتماعها أقل مما بقي فينا، ومن ذا الذي يجهل ما نكبت به بلادنا، وأخلاقنا من تعدد النظريات الوطنية واختلاف المقاييس الأخلاقية، ولولا حنو مازج طباعنا ودم واحد جرى في عروقنا أبى أن يصير ماء لكنا الآن أعداء ألداء لبعضنا البعض وما أقبح عداء

الأخوة يظلهم سقف واحد، وطننا اليوم فى طور التشكل ولا عجب والحالة هذه إن اختلفنا فى الشكل الذى نتمناه له ونسعى إليه بل العجب لو لم تأت تلك الأغراس المتباينة بهذه الثمار المختلفة».

إصلاح اللغة العربية

وكانت الدعوة إلى إصلاح اللغة العربية واحدة من قضايا الإصلاح الفكرى والثقافى التى تبنتها المجلة وربطت بينها وبين إصلاح أحوال الأمة، ومن أكثر المقالات المعبرة عن هذا الاتجاه المقال الذى نشرته المجلة بعددها الصادر فى سبتمبر ١٩٣٢ بعنوان «اللغة العربية» بقلم «حبيب اسطفان»، حيث يؤكد الكاتب أنه «بين اللغة العربية والشعب العربى فى هذا العصر تشابه فى الحياة يصعب أن تجده بين لغة سواها وبين الناطقين بها، الشعب العربى يجاهد فى سبيل الاستقلال والحرية، واللغة العربية أيضا مجاهدة فى سبيل استقلالها، بدأت نهضة الأمة العربية من نحو مائة سنة، ومن نحو مائة سنة أيضا أفاقت اللغة العربية من سبات أجيال وهبت تبغى لنفسها كمالا جديدا، وقد مرت مائة سنة والأمة العربية لاتزال بعيدة عن إدراك أمانيها ، ومرت المائة سنة أيضا واللغة العربية لاتزال فى بدء جهادها، وقد حال بين الأمة العربية وبين نبل بغيتها عسف الأمم الغربية من الخارج والآفات المتوارثة من الداخل ، وحال أيضا بين اللغة العربية وكمال استقلالها استيلاء اللغات الغربية على فريق من أبنائها والتقاليد العقيمة فى نفوس المولعين بها وفى المعاهد العلمية التى تدرس فيها».

ويخلص الكاتب إلى «أن اللغة العربية فى هذا الحين صورة تامة للشعب العربى ولروحه ، وهو متألم وهى متألمة ، وهو ناهض وهى ناهضة، هو مقيد وهى مقيدة، وهو أمانيه أعظم من قواه وهى بغيتها أكبر من قواها، هو قادر، إذا أحسن التدبير والسياسة، أن يدرك استقلاله وحريته، وهى قادرة إذا أخلص وجد العاملون لها أن تنال ما تصبو إليه من كمالها، وإذا لم ينبذ الشعب العربى ما ورثه من أسباب التفريق فلا سبيل إلى استقلاله ، وإذا لم تنبذ اللغة العربية ما تأصل فيها من دواعى العقم فلا مقام لها بين اللغات التى لا يحتاج الناطقون بها إلا إليها».

تحرير المرأة

ومن قضايا الإصلاح المهمة التى عالجتها المجلة بشكل مستمر قضية تحرير المرأة العربية ومن أبرز المقالات التى تعبر عن اتجاه المجلة فى هذا المجال مقال طويل نشرته بالعدد الصادر فى يوليو ١٩٢٣ بعنوان «المرأة والعمل فى حقوق الإنسان» بقلم نظيرة زين الدين، وهى كاتبة من أصل لبنانى اشتهرت بالدعوة إلى نصرة حقوق المرأة ووضعت فى ذلك كتابين هما «السفور والحجاب»، «والشباب والشيوخ».

وقد ربطت الكاتبة بين تخلف المجتمعات العربية وتخلف النظرة إلى



حقوق المرأة كما أنها ربطت بين تقدم الأمة العربية وتقدم أوضاع المرأة العربية، ويتضح ذلك من قولها:

«استعبدت التقاليد عقول رجال الشرق واستعبد رجاله نساءه، فلم يبق فيه أمة غير مستعبدة سياسيا أو اقتصاديا للأمم الغربية الحرة، إلا الأمم التى تحررت نساؤها وعقول رجالها، وهذا أمر طبيعى لأن الأمة التى لا تقوى على تحرير عقول أبنائها من قيود التقاليد وتحرير بناتها من عبودية أبنائها، التى مع ما يورثها استعباد العقل من ضعف ووهن، تشل مختارة نصف أعضائها ، لا يتسنى لها أن تنهض نهضة الأمم الحرة القوية الأعضاء وتجاريها أو تقوى على ردع تلك الأمم عن التسلط والسيطرة عليها».

ثم تضيف :

«فإذا غار رجال العرب على أمتهم غيرة صادقة وأرادوا تقويتها والنهوض بها ليتم تحررها واستقلالها فعليهم أن يزيلوا الفوارق بينهم، تلك الفوارق المانعة تكوين الوحدة القومية، ويحرروا قبل كل شىء نساءهم ويوحدوا قوتهم وقوتهن، ولا يحرموا تلك القوة الكامنة فى اتحاد القوتين وإذا أرادوا أن يستمتع كل منهم بحقوق الإنسان تامة لا تنتهك، فعلى كل منهم أن يعرف الحق ولا ينسى أن المرأة إنسان لها ماله منها وألا ينتهك حقها وحريتها».

وهكذا يتبين لنا صدق ما ذكرناه فى بداية هذا المقال، أن مجلة الإصلاح كانت اسما على مسمى، وأنها انشغلت بقضايا إصلاح الوطن العربى تماما بنفس درجة انشغالها بإصلاح أحوال أبناء الجالية العربية بالأرجنتين رغم اختلاف الظروف وبعد المسافات، ولكن الظاهرة التى يلحظها كل من يقرأ أعداد مجلة الإصلاح، أن صفحاتها كانت تحمل حبا جارفا للوطن الأم تكتشف عنه كل مقالات المجلة وما تنشره من أخبار وتقارير وأشعار. ويعبر عن ذلك أصدق تعبير مقال نشرته المجلة تحت عنوان «الواجب الوطنى» ناشدت فيه كل عربى يعيش بالمهجر أن يسعى سعيا حثيثا فى سبيل إنعاش عاطفة حب الوطن فى صدور أبنائه ، لكى يحنوا إلى ربوعه ويتمنوا الإياب إليه، فلا تمنعم عنه مشاغل الحياة المادية على كثرتها وأن يقوم بهذا الواجب ، الشاعر الحساس مترنما بجمال معالمها، والكاتب المدقق ناشرا تاريخها المجيد والصحافى الحر ذابا عن حريتها واستقلالها والفنان مرددا ألحانها ، وكل فرد كائنا ما كان متحدثا عنها إلى أقرانه فى كل فرصة تسنح!

ترى أما زالت تلك مشاعر أهلنا فى المهجر، أم أننا نسيناهم فنسونا؟! ■

دائرة حوار

خواطر عن مستقبل مصر والاعتماد على الذات

بقلم
د. رشدي سعيد

هذا مقال أكتبه تعليقا على دعوة الهلال للحوار حول مستقبل مصر (عدد يناير ٢٠٠٥)، وعلى ضوء الأوضاع الدولية السائدة التي استفاض مصطفى الحسيني في شرح ظروفها غير المواتية، والتى تكاد تجعل مصر وكأنها تبدو عاجزة عن العمل لحل مشاكلها، فضلا عن اقتحام آفاق المستقبل الممدود أمامها.

لقد توقفت مصر عن العمل، وأصبحت فى انتظار العون من القوى العالية، فمنذ مدة طويلة وهى تتحدث عن أن مفتاح حل قضاياها هو فى يد الغير وهى تعمل جاهدة لجذب الاستثمارات الأجنبية، وتشجيع السياحة وتصدير الخامات الأولية وايجاد المناخ الملائم لتقبل الهبات والمنح والمعونات والقروض الميسرة المدرجة فى ميزانيات القوى العظمى، التى نحاول جذب اهتمامها بنا - وفى مثل هذا المناخ العام يبدو أننا فقدنا الثقة فى أنفسنا فأصبحنا ننتظر أن تقوم الشركات الأجنبية بإدارة الكثير من الخدمات، التى كنا وحتى وقت قريب نقوم بها بأنفسنا كنقل البريد أو جمع قمامة المدن أو إدارة المطارات أو تعليم أبنائنا وبناتنا وغير ذلك الكثير.

جذب الاستثمار

ولست هنا فى مجال إثبات عقم هذا الطريق الذى لن يؤدى الاستمرار فيه إلا إلى المزيد من التدهور وإلى إضاعة الوقت الثمين الذى يجب أن ننفقه فى ترتيب بيتنا والاعتماد على أنفسنا فى إصلاح حالنا - ومن عجب أننا نتحدث عن جذب الاستثمارات الأجنبية فى الوقت الذى تمتلئ فيه خزائن بنوكنا بالأموال المتراكمة التى يخشى مديروها من إقراضها للمستثمرين خوفا من أن تتبدد فى عمليات التدليس والنهب التى كثرت

فى السنوات الأخيرة مما أفقدتنا الثقة فى القـدرة على إدارة أعـمـال البنوك بالكفاءة اللازمة.

قضية مصر

ويبدو لى أن قضية مصر ليست فى جذب الاستثمارات الأجنبية، فليست قضية تدبير الأموال هى الأهم فى مصر اليوم، فكما أسلفنا فالأموال متاحة فى مـصـر تنتظر من يستـثـمـرها، هذا بالاضافة إلى أن حال مصر الراهن لن يكون جاذبا للاستثمارات الأجنبية ذلك لأن حركة انتقال الأموال تحكمها ظروف خاصة لاتجعل لمصر نصيبا كبيرا منها. فالأمـوال لا تنتقل لأى بلد إلا لأسباب ثلاثة: أولها الاستثمار فى استخراج خامة أولية ذات فائدة محققة وسوق حاضرة وهو الأمر الذى لا يتوافر فى مصر إلا فى حالة البترول والغاز وهما المادتان اللتـان تجـذبان فى الوقت الحاضر معظم الاستثمارات الأجنبية فى مصر، وثانيها الاستثمار فى بلد ذى سوق كبير وقادر على الاستهلاك المحلى للسلع التى ســتنتج بسـبب هذا الاستثمار، وهذا أمر لا يتوافر فى مصر حاليا ذلك أنه على الرغم من أن عدد سكان مصر فاق السبعين مليونا من الأنفس إلا أن عدد القادرين من هؤلاء على استهلاك السلع غير الأساسية محدود لا يزيد على ١٥ إلى ٢٠ بالمائة من مجموع السكان، أما الباقون فهم من أعضاء كتلة البشر الغاطسة الذين ليست لهم أية أموال زائدة لانفاقها فى غير السلع الأساسية للعيش - وثالثها أن يكون لدى الدولة المستـقـبلة للاستثمارات الأجنبية البنية الأساسية اللازمة لكفاءة الإنتاج ولا تتعلق هذه المسألة بكفاءة الخدمات الأساسية التى تحتاجها إدارة هذه الاستثمارات كالقضاء والجمارك والبريد ووسائل الانتقال فقط بل وأيضا وجود القوة البشرية المدربة وكلها أمور تنقص مصر نقصا ظاهرا لا يحتاج إلى بيان.

مكان فى العالم الجديد

وإذا أردنا أن يكون لنا مكان فى هذا العالم الجديد الذى تحدث عنه الاستاذ مصطفى الحسينى فعلينا أولا أن نعيد الثقة فى أنفسنا وأن نرتب بيتنا أولا وقبل أن نتوجه للغير لمساعدتنا وأن نبدأ فورا بوضع خطة قومية لنقل مصر إلى العصر - لقد كانت سياستنا حتى اليوم لا تنظر إلى الغد فقد تركنا مدننا لكى تمتلئ بالسكان حتى أصبحت شوارعها كافية بالكاد لكتلة المشاة فيها فضلا عن عشرات الآلاف من السيارات والعربات التى عليها أن تستوعبها - وأصبح الانتقال بداخل المدن صعبا وإدارتها عسيرة والعيش فيها مثيرا للمتاعب - وما فعلناه فى مدننا فعلناه أيضا فى رقعة الأرض الزراعية بدلتا ووادى النيل وهى رقعة الأرض التى وهبتها الطبيعة لنا للزرع فيها فقد زحفت عليها المبانى وابتلعت التوسعات العمرانية جزءا كبيرا منها - ولم يفلح القانون الذى سن لمنع البناء عليها فى حمايتها فلم يكن هناك مكان للتوسع العمرانى أمام الكثير من محافظات مصر غير هذه الأرض - ولم تفلح أيضا محاولات التوسع الزراعى فى الأراضى الصحراوية المحيطة بالوادى القديم فى حل مشكلة تقلص الأراضى الزراعية الثمينة فى الوادى القديم فقد كانت الأراضى الجديدة عالية يحتاج ريها إلى رفع الماء إليها كما كانت تربتها فقيرة - وفى الحقيقة فلم يكن هناك سبب



منطقي يبرر البناء على الأرض الزراعية الخصبة في نفس الوقت الذي نزرع فيه الأراضي الصحراوية الفقيرة .

انحدار الأرض الزراعية

وكان للاستغلال المكثف للأرض الزراعية أثره في انحدار خصوبة الأراضي الزراعية في الوادي والتي انجرفت أجزاء كبيرة منها بفعل عوامل التعرية وزادت نسبة الأملاح فيها بسبب ارتفاع منسوب المياه الجوفية - ولم يفلح ادخال البذور المهجنة التي جاءت مع الثورة الزراعية الخضراء في خمسينات القرن العشرين في حل مشكلة الاستفادة المكثفة من أرض مصر الزراعية ذلك أنه على الرغم من نتائجها المبهرة في زيادة انتاجية المحاصيل وعلى الأخص القمح والأرز إلا أن تلك الزيادة جاءت على حساب الاستخدام المكثف للمخصبات وللمياه وهو الأمر الذي لا تستطيع مصر الاستمرار فيه بالنظر إلى ما يتوقعه الكثيرون من أزمة المياه التي سوف تحل بمصر في مستقبل الأيام.

تفاقم الكثافة السكانية

لقد تركت مصر أمر ازدحام وادي النيل بالسكان ليتفاقم حتى لأصبحت أعداد المصريين المقيمين على هذه الرقعة الصغيرة من الأرض لا تتناسب وحجم الموارد المتاحة بها . وقد منع الازدحام أي تقدم في ميادين الزراعة والصناعة والسياحة وكل نشاط آخر . ففي مثل هذا الازدحام تزداد أسعار الأراضي ويصبح الانتقال والاتصال صعبا وتفسد البيئة وتتدهور الحالة الصحية والنفسية للسكان . وتشير التجربة الإنسانية على أن استمرار الحال على ما هو عليه الآن ودون العمل على تقليل عدد السكان على هذه الرقعة المحدودة من الأرض بحيث تتناسب ومواردها سيكون كارثيا ذلك لأننا إن لم نبدأ في نقل جزء من سكان هذه الرقعة المحدودة إلى مناطق جديدة في خارجها بالرضا والتخطيط المنظم فإن هذا الأمر سيحدث بطريقة عشوائية وغير منظمة مما سيؤدي إلى الخسارة والكثير من الآلام.

خطة عملية للإصلاح

والواجب الذي يلح على مصر اليوم لإعادة ترتيب البيت هو في تبني خطة عملية للإقلال من هذا الازدحام وايجاد فرص للعمل لجزء من السكان في الصحراء الواسعة المحيطة بوادي النيل وتسكينه فيها . وتمثل الصحراء امتدادا طبيعيا لمصر وهي ذات بنية هشة بها مصادر محدودة من المياه والطاقة لو أن مصر قامت باستغلالهما حيث يوجدان لأمكن لها إيجاد مصادر للرزق ما سيجعل بناء مدن متكاملة في قلب الصحراء تجذب السكان للعيش الطيب بها ممكنا . وبمصر من مصادر الطاقة ما يمكن أن يجعل هذا الحلم حقيقة واقعة .

وقد استطاعت ايطاليا أن تنقل أهلها نقلة حضارية هائلة باستخدام مصادر الطاقة التي اكتشفت بها في نفس الوقت وبنفس الكميات التي اكتشفت بمصر في بناء صناعات كثيرة رفعت مستوى عيش أهلها وغيرت من أحوالهم ولا أرى سببا واحدا يمنع المصريين من أن يفعلوا نفس الشئ أيضا - في وسط هذا الجو المعتم الذي يخيم على عالم اليوم وعلى منطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص ليس هناك من طريق الا أن نأخذ أمورنا بأيدنا وأن نضع الخطط لحل مشاكلنا بأنفسنا دون أن ننتظر العون من الغير. ■

دائرة حوار

لا.. ونعم يا رئيس التحرير

بقلم

محمد التهامى

حين يعطى الإنسان نفسه كلها لعمله سواء كان علما أو فنا أو مجرد عمل آلى أو حتى حركة رياضية ويندمج فى هذا العمل بإخلاص، يصبح هذا العمل توأما لذاته، ويلتصق به ماديا ومعنويا حتى إذا بدا له أن بعض البعض لا يدرك أبعاد هذا العمل ولا يقدره قدره يصرخ هذا الإنسان وكأنما أصابه جرح غائر.

وفوق هذه الدرجة هناك مرتبة ثانية وهى تتمثل فى أن يتقن هذا الإنسان هذا العمل اتقانا ويحسنه ويتفانى فيه ويعجب به ويرى بعينيه أنه ينفع الناس فيحس إحساسا عميقا بنشوة النجاح ويتوقع أن تتردد فى أسماعه آيات الثناء وفى هذه الحالة يكون وقع مظنة عدم الإدراك أشق وأشد تأثيرا.

وهناك مرتبة ثالثة تتمثل فى أن يكون هذا الإنسان صاحب موهبة متألقة ومقدرة ذاتية حباه بها الله واستثمر الموهبة بأقصى طاقة الإنسان وأعطاها من جهده وعرقه وسهره كل ما يستطيع فى هذه الحالة يبلغ وقع ألم مظنة عدم الإدارك مداه

هذه الصورة المترامية الأبعاد والمتعددة الجوانب تراءت لى بجلاء وأنا أتابع مجلة الهلال عدد يناير ٢٠٠٥ إذ راعنى من العناوين على غلافها عنوان: «المجلات الثقافية والفتوى بغير علم» إذ وجدت فيه نبرة حادة على غير ما تعودنا من الهلال الغراء السمحة التى تزف إلينا ألوان الثقافة الزاهية المتعددة الجوانب بين طيات الحرير الناعم مضمخة بالطيوب والعبير الفواح وحتى الخلاف فى الرأى فيها يدور فى عذوبة ورقة ترضى النفوس وتكاد تحبب المختلفين بعضهم إلى البعض الآخر.

كوكب درى

وأسرعت إلى المقال فإذا كاتبه الأستاذ القدير الدمث جدا مصطفى نبيل رئيس التحرير وقد بدأ بإشارة خاطفة إلى ما ينوء به كاهله وكل العاملين معه وما وفقوا جميعا فيه بعون الله من استثمار للتقنية الحديثة فى تطوير وتنمية وحراسة صرح مجلة الهلال الكبير صاحب الاثنى عشر ومائة عام قضاها

وكأنه كوكب درى يلمع فى السماء العربية حاملا زاد الثقافة وزوادها فى أبهى صورها وأروع ما استطاعه كبار صناعها ومنتجيها فكرا وعلما وفنا، نثرا وشعرا ثم يذكر ما وفقوا إليه من مشروع كبير بالاتفاق مع مكتبة الإسكندرية لوضع كل هذا التراث الثمين فى أقراص مدمجة رقمية تحفظه وتيسر الإطلاع عليه ليصبح كنزا من كنوز الثقافة يعتز به ويستفيد منه الجميع.

ثم يومى بعد ذلك إلى ما أثاره ودفعه إلى أن يباهى بهلاله المضىء وذلك أنه قرأ فى إحدى الصحف وفى تقرير للمجالس القومية المتخصصة دعوة إلى إصدار مجلات ثقافية دون إشارة إلى مجلة الهلال وكأن الساحة خالية تماما من هذه المجلات ويقول: إن الدعوة لا غبار عليها، ولكن اهمال الاشارة إلى الصرح العريق الصامد فى الميدان منذ أكثر من قرن من الزمان هو الذى أثاره ودفعه إلى أن يشهر سيفه بالرغم مما عهدناه فيه من عذوبة ودماثة.

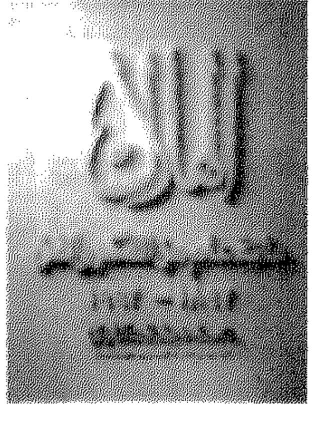
قضايا بالغة الأهمية

وفى نوبة الحماس هذه دخل الساحة الثقافية بشكل عام فعرض وناقش قضايا فى منتهى الأهمية منها مظنة أن وثبة آليات الإعلام الحديثة تنال من القراءة الورقية ويستشهد على بطلان هذا الظن بأن القراءة الورقية فى البلاد المتقدمة زادت ومنها ملاحظات على الحركة الثقافية عامة ودور حملة الأقلام فى العالم الثالث وضرورة إتاحة الحرية والخلاص من إرهاب المخالفين فى الرأى المتناثرين على الساحة ويقول «إن الحرية هى الترياق الذى تعيش به المجلة الثقافية وهى الهواء الذى تتنفسه» ويدعو إلى خفض أسعار الورق وأدوات التقنية الحديثة حتى تنخفض تكاليف المجلة وبالتالى سعرها ويزيد انتشارها خاصة وهى تناضل فى مجتمع تشيع فيه الأمية ثم يتطرق إلى أهم عثرة ثقافية تقع فيها المسيرة الحضارية عندنا وهى الصراع العنيف بين المدارس الفكرية والمدارس الإبداعية فى فنون الكلمة ذلك الصراع الذى يدفع كبار المثقفين والمبدعين إلى محاربة بعضهم للبعض الآخر وتقوم كل مدرسة بالحملة على ابداع المدرسة الأخرى ويتبادل الجانبان الصراع بالحق وبالباطل وتكون النتيجة أن تشوه صورة الابداع الفكرى والفنى بشكل عام مما يصرف عنه المتلقين عامة ولو تبارت وتنافست المدارس المختلفة فى احترام للآخر لازدهرت الحركة الثقافية وتفتحت كل الزهور ثم دعا كبار المثقفين للعمل على تحديد استراتيجية واضحة للحركة الثقافية يتجه إليها الجميع للخلاص من الدوران حول القضايا الذى لا يؤدى إلى التقدم المنشود.

الأذان فى مالطة

ومما دفعنى إلى متابعة المقال باهتمام بالغ تلك النبرة الحادة التى تناول بها المجالس القومية المتخصصة وإن كان وصفها بأنها مجالس لها اعتبارها وقد نما إلى علمه أنها درست موضوع المجلات الثقافية وأوصت بإصدار مجلات جديدة مغفلة الاشارة إلى مجلة الهلال مما جعله يحس أنه ومجلته يؤذنان فى مالطة مما دفعه إلى رد فعل منطلق من احساسه بما حققه من نجاح وما حمله مع زملائه من أعباء تنوء بها العصبة أولو القوة مما كان يتوقع معه الاشادة والثناء.

وبما أنى أتشرف بعضوية المجالس القومية المتخصصة بمجلس الثقافة والآداب والفنون والإعلام وأحرص على حضور جميع الجلسات ما أمكن وأشارك فى إعداد الأبحاث والتوصيات وأذكر أن موضوع المجلات بحث فى المجلس من زوايا مختلفة ليس بينها المجلات الثقافية بالذات مع اهمال الهلال كما ظن رئيس التحرير وقد رجعت إلى سجلات المجالس فوجدت فى «المجلد ٢٦ ص ٧٧٥» أن الدراسة تناولت المجلات الأدبية التى تقوم بنشر فروع الإبداع الأدبى من شعر وقصة ورواية ومقال وليس المجلات الثقافية العامة التى تعنى بالعلم والأدب والفكر والرأى والسياسة والاجتماع والاقتصاد وهذه الدراسة لم تغفل مجلة الهلال كمجلة ثقافية ولكنها لم تركز عليها واقتصرت على الاشارة إليها كعنصر ثقافى مهم «أصدرها جرجى زيدان بالقاهرة عام ١٨٩٢ ومازالت تصدر حتى الآن» وذلك لأن الموضوع الأساسى كان يتعلق بالمجلات الأدبية التى أسفرت الدراسة المستفيضة حولها عن عدة توصيات مهمة منها ضرورة تعديل التشريعات الخاصة بإصدار الصحف بما يضمن المزيد من حرية إصدار الصحف الأدبية، ومنها توصية الصحف بإصدار ملاحق أدبية منتظمة، كما أوصت وزارة الثقافة بتقديم إعانات مجزية للصحف الأدبية التى يصدرها الأفراد والجماعات وأن تتفاوت هذه الإعانة بتفاوت انتشار هذه الصحف ورواجها على أن تزود مكتبات المدارس ومراكز الشباب بأعداد من هذه الصحف إلى غير ذلك من التوصيات التى تطالب بالعناية بالترجمة وأدب الأطفال والتواصل العربى وغير ذلك مما يتعلق بموضوع الأدب وتقدمه وانتشاره.



الموضوع لم يرد

ومن هذا يتضح أن الموضوع الذى أثار رئيس التحرير والمغزى الذى تطرق إلى ذهنه من اهمال المجالس القومية المتخصصة الاشادة بمجلة الهلال حيث كان يجب ذلك لم يرد إطلاقا فإن أعضاء هذه المجالس الذين يختارون لخبرتهم الشاملة لا يمكن أن يغيب عنهم التقدير الكامل لمجلة الهلال بتاريخها المجيد وواقعها المشرف ورئيس التحرير يقول «.. فنحن جيل سادس أو سابع من الكتاب الذين تولوا مسئولية العمل فى الهلال فمسيرة الهلال سلسلة متصلة الحلقات».

والأمر الذى لا شك فيه أن هذا الجيل فى الهلال قيض الله له من القدرات ما يستحق التقدير والاعجاب من رئيس مجلس إدارة تعتز به مصر كفاءة ومقدرة وصدقا والتزاما ثم رئيس تحرير موهوب يعطى أقصى الطاقة ويحرص على النجاح ويناله ويغار عليه وثلة من كبار الكتاب من العلماء والأدباء والباحثين فى كل دروب المعرفة وجماعة موفقة من خبراء الصحف يعرفون كيف يجمعون عناصر العمل الكبير وكيف يجيدون عرضه.

وهذه شهادة مجردة لوجه الحق يؤيدها الواقع ويلهج بها كل منصف.. فلا وألف لا لما خيل اليكم يارئيس التحرير ونعم وألف نعم لما وجب لكم والله معكم.

■

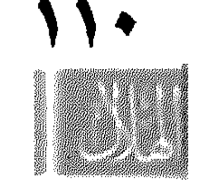
دائرة حوار

على هامش التقرير الثالث للتنمية البشرية العربية

الإصلاح السياسى والحريات وتمكين المرأة فى ديار العرب

بقلم
د. عاصم الدسوقى

بعد أن انتهت الولايات المتحدة الأمريكية من غزو أفغانستان فى أعقاب زلزال الحادى عشر من سبتمبر وإسقاط حكم جماعة طالبان فى مطلع أكتوبر ٢٠٠١ ، وفى أثناء الاستعداد لغزو العراق بدأت الإدارة الأمريكية تعلن تمهيدا لعملية الغزو أن العالم العربى والإسلامى يخضع لحكم استبدادى تغيب فيه الديمقراطية، وتضيع فيه حقوق الأقليات الدينية والعرقية وتعانى فيه المرأة من القهر والتهميش ويجهل جميعه تطورات العلم الحديث وأنه إذا استمرت تلك الأحوال على ما هى عليه فإن المجتمع الغربى «الأرقى حضارة ومدنية» لن يأمن شر غضب الحاقدين فى العالم العربى.



ومع اقتراب يوم الهجوم على العراق أخذت الإدارة الأمريكية تطالب الحكومات العربية الإسلامية في عبارات صريحة بالإصلاح وفى عبارات غامضة تهدد بفرض الإصلاح عن طريق الغزو لتحرير الشعوب من طغاتها والقضاء على الإرهاب وتعلن أنها سوف تراقب عمليات الإصلاح السياسى، وأن الأمم المتحدة سوف تتولى مهمة متابعة هذا الأمر .. ومن هنا بدأت التقارير

السنوية عن «التنمية البشرية فى العالم العربى» ابتداء من عام ٢٠٠٢ .

إثارة التناقضات

وعند هذا الخطاب أدركت الحكومات العربية ما ينطوى عليه هذا التوجه الأمريكى من مخاطر التدخل فى شؤونها باسم الديموقراطية والتحرر وفى الوقت نفسه شددت القوى المعارضة الهجوم على الحكومات القائمة من أجل التغيير استنادا لهذا الدعم الأمريكى الذى لم يكن متوقعا وأخذت الولايات المتحدة من ناحيتها تتفرج على المشهد وتجتهد فى إثارة التناقضات العربية القائمة لتحتفظ بدور التحكيم فى الوقت المناسب فنراها وفى آن واحد تناصر الحكومات القائمة باعتبارها حكومات «صديقة»، وتشجع المعارضة «إنتصارا للديموقراطية» ومن خلال جدل التناقضات برزت على سطح الحياة السياسية عورات الحكومات العربية وبدلا من أن يتماسك العرب انتصارا لحضارتهم ولخصوصيتهم الثقافية انزلقوا أكثر وأكثر إلى مهاوى الذاتية المفرطة حيث أخذت كل طائفة أو أقلية عرقية أو دينية مذهبية أو سياسية تنشط من أجل مصالحها ولسان حالها يقول ليذهب الوطن إلى الجحيم وأهلا بالتدخل الأمريكى طالما سوف يعطينا حقوقنا المهدرة» وتلتقط أمريكا تلك العناصر وتحتضنها لتكون أداتها فى تفتيت الوطن الواحد إلى مجموعة من الأوطان الصغيرة تحت رعايتها وكل هذا لا لشئ سوى أن الحكومات القائمة لاتفكر فى تحويل مجتمعاتها إلى نص وطنى واحد يشعر فيه كل مواطن بآدميته ويجعل محاولات اختراقه من القوى الأجنبية الطامعة فيه أمرا صعبا .

مبادرات الإصلاح العربية

وأمام هذا الخطاب الأمريكى بدأت الحكومات العربية فى تقديم مبادرات الإصلاح وكانت السعودية أول المبادرين حيث أعلنت على لسان ولى العهد مبادرتها لولا غزو العراق الذى أرجأ مناقشتها وقدمت اليمن مبادرة تحت عنوان «تنمية آلية العمل العربى المشترك» وقدمت مصر مشروع تنمية الجامعة العربية وتفعيل آلية العمل العربى المشترك» وتقدمت الجامعة العربية بمشروع «إصلاح الجامعة العربية وتفعيل آلية العمل العربى المشترك» (مارس ٢٠٠٤) والذى كان مقررا عرضه على اجتماع القمة العربية فى تونس (مايو

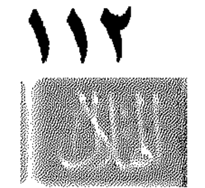
● التدخل الأمريكي في الشئون العربية يتم باسم الديمقراطية والتحرر !

٢٠٠٤) تلك القمة التي لم يحضرها نصف الزعماء العرب بسبب الاختراق الأمريكي للمواقف العربية لكن تلك المبادرات الحكومية كما لاحظ التقرير كانت بعيدة عن جوهر الخطاب الأمريكي إذ لم تتناول جوهر الحريات العامة، والحكم الصالح فيما يتعلق بتداول السلطة والمحافظة على مصالح الشعب .

وعلى هذا ومع إلحاح الإدارة الأمريكية فى كل المناسبات اتخذت الحكومات العربية إجراءات معينة اعتبرها التقرير علامات على الانفتاح السياسى لكن اتخاذ تلك الإجراءات وبعد الخطاب الأمريكى مباشرة يكشف عن كثير من سوءات الحكم فى بلاد العرب ويؤكد من ناحية أخرى طبيعة السلطة المنفردة بالأمور والمحتكرة للحكمة وأن الحكام العرب لا يزالون أسرى مقولة أن المواطنين ما هم إلا رعايا فى خدمة الحاكم !! ومن تلك الإجراءات أن سلطنة عمان قررت منح حق الانتخاب لمن يبلغ سن الواحد والعشرين فارتفع عدد الناخبين بنسبة ١٣ ٪ عن انتخابات عام ٢٠٠٠، وفى الأنتخابات التشريعية (أكتوبر ٢٠٠٣) تقدم ٥٠٩ مرشحين بينهم خمس عشرة امرأة لشغل ٣٨ مقعداً (أى أن كل ثلاثة عشر مرشحا يتنافسون على مقعد واحد) وسمح لأول مرة للمرأة بالاشتراك فى انتخابات مجلس الشورى، وتولت سيدة لأول مرة منصب وزيرة التعليم العالى!!

وفى قطر تأسست لجنة قومية لحقوق الإنسان، وتقرر إصدار دستور للبلاد فى يونية ٢٠٠٥ بعد الاستفتاء عليه !! وفى البحرين أصدرت الحكومة ميثاقا جديدا للروابط السياسية، وتولت سيدة وزارة الصحة وفى الكويت تقدمت الحكومة بمشروع قانون لمجلس الأمة يمنح المرأة حقوقها السياسية في الانتخاب والترشيح وكان المجلس قد رفض فى عام ١٩٩٩ مشروعا مماثلاً !! وفى السعودية اتجهت النية لتنظيم انتخابات لمجالس بلدية فى نهاية ٢٠٠٤ (تمت فى فبراير ٢٠٠٥) وتأسست رابطة للصحفيين وهيئة قومية لحقوق الإنسان، ومركز الملك عبد العزيز للحوار الوطنى وأذيعت مشاهد من اجتماعات مجلس الشورى على شاشة التليفزيون .

وفى سوريا أعلنت قيادة حزب البعث الحاكم الفصل بين الحزب والسلطة وتنظيم العلاقة بينهما دستوريا، ولأول مرة تم اختيار متحدث باسم مجلس الشعب



ليس عضوا قياديا بالحزب وفى لبنان سمح لامرأة بترشيح نفسها لمنصب رئاسة الجمهورية وفى الأردن فازت ست سيدات يعشن خارج العاصمة بالمقاعد المخصصة للمرأة فى انتخابات منتصف ٢٠٠٣ .

وفى مصر أعلن الحزب الحاكم فى نهاية اجتماعات مؤتمره السنوى(سبتمبر ٢٠٠٣) إلغاء قرارات عسكرية كانت قد صدرت بمقتضى قانون الطوارئ وتقدر توسيع نطاق الحرية السياسية للأحزاب والنقابات العمالية والدعوة للحوار مع الأحزاب الشرعية القائمة بما يعنى إهمال القوى السياسية غير المعترف بها حزبيا كما تم الإفراج عن ألف سجين تقريبا من الجماعات الإسلامية (خريف ٢٠٠٣) وإلغاء عقوبة السجن فيما يتعلق بحرية الرأى والنشر (فبراير ٢٠٠٤) كما صدرت قرارات بمنح الجنسية لأولاد الأم المصرية المتزوجة من أجنبى بل لقد حصلت سيدة على منصب عمدة إحدى قرى مركز المراغة فى سوهاج .

تجاوزات

وفى تونس تولت سيدة منصب محافظ إقليم (إقليم زغوان) وفى الجزائر سمح لامرأة بترشيح نفسها لمنصب رئيس الجمهورية وعينت أخرى رئيسا لمجلس الدولة وثالثة فى منصب محافظ إقليم (تيبستى) وتم الإفراج عن زعيم جبهة الإنقاذ الإسلامية مع حرمانة ونائبة من مزاولة حقوقها السياسية . وفى المغرب تأسست هيئة «العدالة» لتدميل الجراح الناتجة من تجاوز السلطات لحقوق الإنسان المعارض حيث تم تعويض ٤٥٠٠ شخص من ضحايا التجاوزات وسمح لحزب العدالة والتنمية ذى التوجهات الإسلامية بممارسة نشاطة علنا وكانت النتيجة حصوله على ثانى أعلى الأصوات فى الإنتخابات البرلمانية كما صدر قانون جديد للعائلة يعتبر المرأة شريكة للرجل فى كافة المسئوليات وترفع عنها الوصاية متى بلغت سن الثامنة عشرة، ويحق لها الزواج والاختيار دون موافقة الأسرة، وللزوجين أن يحررا عقدا فيما بينهما غير عقد الزواج بشأن كيفية إدارة ممتلكاتهما والتصرف فيها أثناء الحياة الزوجية وفى موريتانيا سمح لامرأة بترشيح نفسها لمنصب الرئاسة دون اعتراض ...!!

إجراءات شكلية !

غير أن تلك المبادرات والإجراءات التى اتخذتها الحكومات العربية كما

● مبادرات الحكومات العربية من أجل الإصلاح شكلية ودون نية حقيقية.

لاحظ التقرير لم تتناول جوهر الحريات العامة والحكم الصالح فيما يتعلق بتداول السلطة والمحافظة على الشعب، وأنها كانت شكلية أكثر منها حقيقية، ونوعا من إبراء الذمة أمام الأمريكان وبدون نية حقيقية للمضى فى طريق الإصلاح ولو أن تلك الإجراءات كانت حقيقية وخالصة وكافية لتوقف حركة المعارضة لكن ما يؤكد أن تلك الإجراءات ناقصة ومبتورة وانتقائية وبدون المطلوب بكثير أن حركة المعارضة استمرت فى كشف ستر حكوماتها مستمدة شجاعتها من الظهير الأمريكى.

وعند هذه النقطة راح التقرير يعدد مطالب المعارضة السياسية المستمرة رغم المبادرات الحكومية بشأن الإصلاح وكأنه يريد أن يؤكد على شكلية تلك المبادرات وأن يثبت أن الحكومات العربية تراوغ فى موضوع الإصلاح مما أغضبها ففى البحرين اعتقلت السلطات مواطنين لمجرد أنهم طالبوا بتغييرات دستورية تعطى للبرلمان المنتخب سلطات أوسع ووجهت لهم تهمه الدعوة لتغير النظام السياسى وإثارة الكراهية وتهديد أمن البلاد، وهى تهم من قبيل الكليشيهات الجاهزة ولاتزال اللجنة القومية للشهداء وضحايا التعذيب تطالب الحكومة بدفع التعويضات الضحايا التعذيب وتطالب بإلغاء القانون الذى ينص على عدم التحقيق فى مخالفات حقوق الإنسان التى حدثت فى الماضى.

وفى الكويت التى تحظر تكوين الأحزاب شنت المعارضة من خلال الصحف حملة ضد محاولة الحكومة تقييد حرية الصحافة والنشر، وتطالب بإلغاء القانون الذى يعتبر تجمع أكثر من عشرين شخصا لمناقشة موضوع ما أمرا غير قانونى كما تطالب المعارضة بحق المرأة فى الترشيح والتصويت لمجلس الأمة، وتخفيض سن الناخب إلى الثامنة عشرة، وإعطاء المقيمين بالبلاد تحت صفة «بدون جنسية» حقوق المواطنة كاملة وفاء لجهودهم فى بناء البلاد .

وفى السعودية التى تحظر الأحزاب أيضا قدم عدد من النشطاء في يناير ٢٠٠٣ عريضة للملك عنوانها «رؤية لحاضر ومستقبل الوطن» تبعتها فى إبريل عريضة قدمها عدد من الشيعة رجالا ونساء عنوانها «شركاء فى الوطن» بشأن الحرية الدينية والحقوق المدنية وإيقاف التفرقة العنصرية ضدهم وفى يونية من العام نفسه نشر إسماعيلية نجران (شيعة) بيانا بعنوان «الوطن للجميع

والجميع للوطن» يطالب بالمساواة بين المواطنين وإيقاف التفرقة العنصرية أيضا، وتلك أول مرة يثار فيها أمر الشيعة في السعودية على هذا النحو وفي سبتمبر تقدم أكثر من مائة شخص وصفوا أنفسهم بالليبراليين بينهم شيعة إسماعيلية بالتماس للملك يحمل انتقادا لأعمال العنف التي تقوم بها السلطات ويطالبون بالانفتاح السياسي ، وفي ديسمبر تشجعت ثلاثمائة سيدة سعودية وتقدمن بالتماس بشأن تحسين أوضاع المرأة وضمان مشاركتها الكاملة في الحياة السياسية، ومعه التماس آخر من عناصر شيعية وسنية معا بشأن إقامة ملكية دستورية تشمل إصلاحيات سياسية جوهرية مثل مراقبة المال العام وإصلاح القضاء واستقلاليته وفي يناير ٢٠٠٤ أصدرت المعارضة منشورا بعنوان «الكل من أجل الإصلاح» بتوقيع تسعمائة شخص، وعقد مؤتمر في لندن استضافه مجلس العموم في لندن فما كان من السلطات السعودية إلا أن اعتقلت مجموعة من قيادات المعارضة وسجنت عددا من الكتاب والمثقفين ومعهم صحافي انتقد عمليات الاعتقال بل لقد وضعت يد استاذ جامعي في القيد الحديدي على مرأى من طلابه في الجامعة، ومنع آخرون من السفر للخارج وفرضت القيود على عمليات جمع التبرعات الخيرية .

وفي سوريا حجزت السلطات ثلاثين شخصا تظاهروا من أجل إلغاء حالة الطوارئ وتم اعتقال آخرين بينهم عشرون كرديا أثناء سيرهم في مظاهرة سلمية ابتهاجا بعودتهم من المنفى، ولاتزال المظاهرات تقوم بين آن وآخر. وفي الأردن لاحظ التقرير أن الجرائم السياسية تنظرها محاكم دولة لا تنسجم قوانينها مع المقاييس الدولية كما اعتبر التقرير أن قتل خمس عشرة سيدة أردنية عن طريق عائلاتهم لجرائم مخلة بالشرف أمرا يتنافى مع الحرية الفردية .

مصادرة الكتب

وفي مصر قرر مجلس الشعب (فبراير ٢٠٠٣) تمديد العمل بقانون الطوارئ لمدة ثلاث سنوات أخرى،ولاتزال منظمات المجتمع المدني تشكو من قانون الجمعيات الأهلية، ولاتزال بعض الكتب تصادر حسب مقتضى الحال، وجماعة الإخوان المسلمين لاتزال محظورة وتوضع العراقيل أمام ترشيح عناصرها في إنتخابات مجلسي الشعب والشورى.

● مشروع الشرق الأوسط مجرد «طعم» ابتلعه العرب والبقية تأتي !

وفي ليبيا نشطت حركة المطالبة بالإصلاح من المنفى حيث قامت بتأسيس «منظمة مراقبة حقوق الإنسان» في لندن وتستخدم شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) في بث أفكارها وتعرية نظام الحكم في ليبيا وفي تونس لاتزال الحكومة تحاصر منظمات حقوق الإنسان التي تعمل من أجل السجناء السياسيين وفي موريتانيا اعتقلت السلطات شخصيات مرموقة رشحت نفسها لرئاسة الدولة، وتحددت إقامة رئيس وزراء سابق وأمين عام سابق للحزب الحاكم بتهمة النشاط السياسي المناوئ ، وأصدرت «اللجنة القومية للدفاع عن حرية التعبير» بيانا منددة بسوء المعاملة وطغيان الفكرة الواحدة ومطاردة العناصر الإسلامية مع إشارة للمتاعب التي يلقاها الصحافيون في الحصول على المعلومات.

الشرق الأوسط الكبير

وفي أثناء انشغال الحكام العرب بمناورة الخطاب الأمريكي الذي يطلب الإصلاح وبالدفاع عن الإسلام وتبرئته من الإرهاب وبالرد على ما ورد بشأنهم في تقريري التنمية العربية لعامي ٢٠٠٢/٢٠٠٣، وبعد نحو عام من احتلال العراق فوجئ العرب بورقة أمريكية جديدة اسمها الشرق الأوسط الكبيرGreater تستهدف إعادة تشكيل خريطة الشرق الأوسط بإجراء إصلاحات اقتصادية اجتماعية تتعلق بالديموقراطية وإقامة مجتمع المعرفة والمعلومات وإتاحة الفرص الاقتصادية وبما يحفظ مصالح أمريكا وحلفائها في المنطقة .

وقد اختصت الإدارة الأمريكية جريدة الحياة اللندنية بنصوص هذا المشروع الذي قامت بنشره في ١٣ فبراير ٢٠٠٤ وانشغل المراقبون والمحللون بالمشروع الجديد وانصرف تفكيرهم إلى تحديده جغرافيا وتساءلوا عما إذا كان يضم كلا من الباكستان وأفغانستان وإيران وتركيا ودول المشرق العربي ويستبعد منه دول مغرب العالم العربي !!، وأبدى البعض انزعاجا بأن العرب في هذه الحالة سوف يصبحون أقلية عددية في وسط محيط هذا الشرق الجديد ونوه آخرون بأن المشروع يستهدف فرض إسرائيل على العرب والمسلمين معا.

وبدلا من أن يرفض الحكام العرب مبدأ التدخل الأمريكي في شئون أوطانهم وإعادة صياغته لم يفعلوا أكثر من القول



بأنه لم يؤخذ رأيهم في صياغته وأنهم عرفوا به من خلال صحفية الحياة وأن المشروع لم يضع في الاعتبار الاضطرابات الحاصلة في العراق وفلسطين واستمرار احتلال الجولان في سوريا وتهديد إسرائيل لجنوب لبنان وتأثير كل هذا على عملية الإصلاح بدعوى الانشغال بالمصير ، فما كان من الإدارة الأمريكية وقد أدركت أن العرب بلعوا الطعم إلا أن أدخلت تعديلا على المشروع في يونية ٢٠٠٤ وأسمته الشرق الأوسط الموسع» Broader حيث اعترفت بأهمية حل الصراع العربي - الإسرائيلي واستعادة الأمن والسلام في العراق مع القول بأنه لاينبغي تعطيل الإصلاح لهذه الإسباب وانشغل المراقبون مرة أخرى بالبحث عن الفرق بين الشرق الكبير والشرق الموسع ودلالة كل من المصطلحين دون جدوى ذلك لأن المعنى في بطن الشاعر الذي يحتفظ بتفسيره وشرحه في الوقت المناسب وحسب مقتضى الحال .

وفي تقديري أن هذا المشروع عبارة عن نوع من الإمبريالية المتجددة neo imperialism التي تسعى للاحتفاظ ببلاد الشرق الأوسط سواء الكبير أو الموسع سوقا عريضة متجددة ودائمة لاستهلاك الإنتاج الرأسمالي العالمي الكبير، والإفادة من رخص القوى العاملة في تلك البلاد في تخفيض تكاليف الإنتاج حتى تزداد الأرباح، وليس من سبيل إلى تحقيق هذا الهدف الاستراتيجي إلا أن تحتفظ الإدارة الأمريكية بصداقة الحكام العرب أو «بتبعيتهم» وهذا لايتأتى إلا بإخافتهم من معارضة شعوبهم التي تطالب بالمشاركة السياسية وتعديل الدساتير ومطالب أخرى تقض مضجعهم وهنا تتدخل العناية الأمريكية إذ تخلع حمايتها على الحكام العرب الأصدقاء طالما يحققون المصالح الأمريكية، ومن ثم تغمض عينها عن تجاوزات الديموقراطية وحقوق الإنسان وتمكين المرأة . أما إذا فكر أحدهم في الخروج من بيت الطاعة الأمريكي فما على الإدارة الأمريكية إلا أن تطلق عليه قوى المعارضة وتتبنى قضاياها باسم الديموقراطية وحقوق الإنسان . وتلك هي حقيقة المعادلة السياسية بين أمريكا والعرب ، وسوف يظل المواطنون في ديار العرب يصرخون من أجل الحريات ويظل حكامهم يعطونهم أذنا من طين وأخرى من عجين ، ويظل سيف التفتيش الدولي بشأن متابعة الديمقراطية والإصلاح مشهراً على رؤوس الحكام العرب ولله الأمر من قبل ومن بعد .. ■



هل يوجد أدب أطفال في الوطن العربي؟

بقلم

د. بركات محمد مراد *

لم يختلف الباحثون حول مفهوم «أدب الأطفال» لانفراد هذا الأدب بالجمهور الذي يخاطبه ، فحيثما توجد أمومة وطفولة يوجد بالضرورة أدب أطفال بقصصه وحكاياته، وترانيمه، وأغانيه، وأساطيره، وفكاهاته ، لا تخرج على هذا القانون الطبيعي لغة ، ولا يشذ عنه جنس ، ومن هنا قد يكون أدب الأطفال أقوى سبيل يعرف به الصغار الحياة بأبعادها الماضية والحاضرة حتى المستقبلية .

ولا يمكن فصل أدب الأطفال عن أدب الكبار ، من حيث أنه يؤدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح ، فأدب الأطفال هو كل ما يحتاج إليه عقل الطفل وخياله ، ويكتبه الكبار بمستويات فنية إبداعية ، تناسب قدرات الطفل ، وتغذي نواحي الخيال فيه ، فالكلمة المنطوقة والمكتوبة ، التي تسعد الأطفال ، وتسليهم ، وتطور وعيهم وطريقة فهمهم للحياة ، وتنمي إدراكهم الروحي ،

* أستاذ الفلسفة الإسلامية - كلية التربية - جامعة عين شمس

ومحبتهم للجمال ولروح المرح ، وتوسع أفق القراءة ، هى دائما مفاتيح فى أيدى الأطفال لفهم الجنس البشرى ، ولمعرفة نمو الإنسان على درب التاريخ وعبر مختلف الحضارات ، تمكن الأطفال من التصدى لمخاوفهم واقتلاعها ، وتطلق لأحلامهم وطاقاتهم الإبداعية العنان[1] .

وليست الغاية من أدب الأطفال إذكاء الخيال عند الصغار فقط ، ولكنها تتعداه إلى تزويدهم بالمعلومات العلمية والنظم السياسية ، والتقاليد الاجتماعية ، والعواطف الدينية والوطنية ، وإلى توسيع معجم اللغة عندهم ، ومدهم بعادة التفكير المنظم ، ووصلهم بركب الثقافة والحضارة ، فأدب الأطفال وسيلة من وسائل التعلم والمشاركة والتسلية وسبيل إلى التعايش ، وأداة لتكوين العواطف السليمة .

ولذلك فمصطلح «أدب الأطفال» يشير إلى ذلك الجنس الأدبى المتجدد الذى نشأ ليخاطب شريحة عمرية لها حجمها العددى الهائل فى صفوف أى مجتمع ، فهو أدب مرحلة متدرجة من حياة الكائن البشرى لها خصوصيتها وعقليتها وأساليب تثقيفها فى ضوء مفهوم التربية المتكاملة التى تستعين بالشعر والنثر بما يحقق المتعة والفائدة لهذا اللون الأدبى الموجه إلى الأطفال .

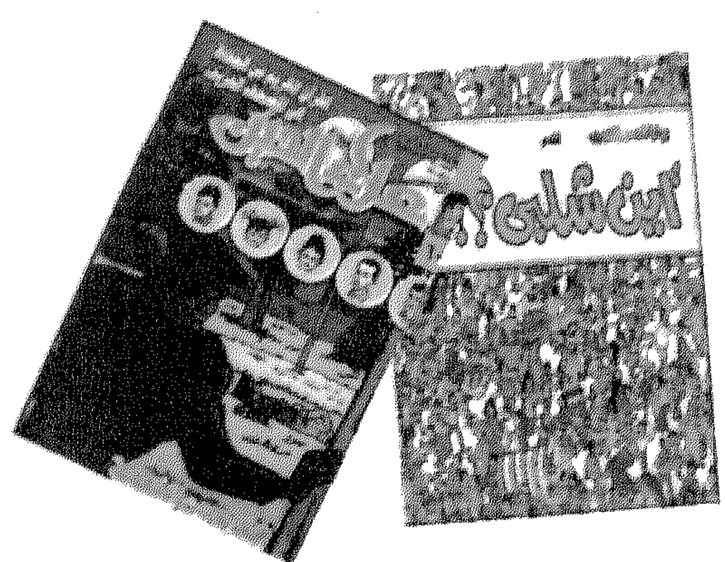
وهذا النوع من الأدب ، باعتباره وسيطا تربويا ، يتيح الفرصة أمام الأطفال للإجابة عن استفساراتهم واستكشاف آفاق الخيال والخبرات الجديدة ، فضلا عن إشباع حب الاستطلاع لديهم ، فينمى سمات الإبداع من خلال عملية التفاعل والتمثيل واستثارة المواهب .

● لم ننتج لأطفالنا أدبا خصبا حقيقيا يمكن أن يعتد به حتى الآن !

ولا ننسى أن نجاحنا فى إبداع أدب للأطفال يتوقف عن تعمقنا فى معرفة عالمهم الخاص ، الوردى البديع وسماته وخصائصه الفريدة ، وكيفية إدراكهم للعالم من حولهم ، وماهية نظرتهم للحياة والناس ، وكيف يعبرون عن إدراكهم الخاص للعالم وبأساليبهم الخاصة . ومن هنا ، تأتى أهمية الدراسات النفسية والبحوث التربوية فى علم نفس الطفل وعلم النفس الاجتماعى ، للتعرف على أنماط السلوك اليومى والحياتى للأطفال ، لمساعدة كل من الكاتب والناقد والمؤرخ لأدب الأطفال فى قيامهم بمهامهم على أحسن وجه ممكن .

ومن أغرب المسائل وأبسطها فى نفس الوقت أن الأطفال هم من يملك مفاتيح الأبواب والطرق للتعرف على ماهية عالمهم الخاص المختلف عن عالم الكبار بقيمه وأفكاره وأحلامه ، وأسراره ، ومتعه الوجدانية ، وأفضل أساليبه التعبيرية ، ولهذا يقترح أحد الباحثين[2] طرقا وأساليب للتعرف على عالم الأطفال أهمها :

١ - إجراء دراسات ميدانية تربوية ونفسية يتاح فيها للأطفال فرصة التعبير الحر الثقافى عن أنفسهم لتصوير وتحديد سمات عالمهم ، حيث يفصحون عن دخائلهم ، وعن المسائل التى تحيرهم ، وعن مخاوفهم ورغباتهم، والألعاب التى



يفضلونها ، وهذه الطريقة تساعد المبدعين أن يشاركوا الأطفال بعض أسرار عالمهم الخاص وأحلامه ، على أن يتم ذلك كله عبر جو من العفوية والبساطة والألفة .

٢ - معايشة الأطفال معايشة عريضة عميقة في مراحل نموهم المتعاقبة ومحاولة تفهم خصوصية عالمهم ، مع مراعاة ما بينهم من فروق شاسعة تعمق إنسانيتهم ، وتبرز ما بينهم من خصائص مشتركة(٣) . والإيمان بأن نفوس الأطفال تكتنز بطاقات إبداعية ، وابتكارية كامنة لا يستهان بها . وهذه الدراسات والبحوث لا تتم إلا بحب ذاتي عميق للأطفال والطفولة، حتى يمكن التقاط بعفوية تامة ما يجول في عقولهم البريئة المكتنزة بالطاقات والإمكانات .

مشاكل أدب الأطفال :

وعلى الرغم من كثرة القصص والحكايات الأدبية التي امتلأ بها التراث العربي والإسلامي ، مثل عشرات القصص الفنية الممتعة التي تحتويها «ألف ليلة وليلة» وقصص الرحالة العرب كابن جبير والمقدسي والأدريسي وابن فضلان وغيرها من روائع لأدب العربي ، إلا أننا لم ننتج أدبا خصبا حقيقيا لأطفالنا حتى الآن يمكن أن يعتد به ، لا لفقر في الإرث الثقافي والمصادر الضرورية لنشوء هذا الأدب ، ولا لعجز المخيلة العربية ، ولا لقصور في اللغة وضيق في رحابتها ، ولا لغياب الوعي بأهمية الابتكار وأهمية الخلق الفني ، وإنما لأسباب أخرى ، أهمها ضعف التواصل بين الأجيال ، وهشاشة العلاقة بين الكبار والصغار، والجهل المدقع بعالم الطفولة وفضائها الحر .

والمسألة ليست أدبية وجمالية(٤) في المقام الأول ، وإنما اجتماعية فكرية عكست نفسها على المفاهيم الجمالية ، وعلى الوعي بالجمال بصورة عامة ، وساعد على تكريس هذه الظروف الأيديولوجية والسياسية التي عاشتها ولا تزال المجتمعات العربية والإسلامية، والتي تسببت كلها في عسكرة المجتمعات ، وقمع حرية المجتمع المدني وأصواته المتعددة ، عبر أشكال الترويض والتدجين والتخدير ، لئلا يبقى راعي الرعية ، وحامي القيم والمثل والأخلاق ، وحارس الحدود والثغور وواهب العطايا والمكرمات .

ونحن هنا بإزاء عملية تزوير للتراث والحاضر معا ، شارك فيها كتاب للأطفال تنقصهم الأمانة وانعدام الإحساس بالمسئولية وأسهموا في عملية غسيل دماغ جماعية للأطفال ، صادرت تفتح الوعي لدى الناشئة ، ووظفت طاقاتها وملكاتها المبدعة في فراغ المشروع السلطوي المهيمن في إطار اللعبة الأكبر لتضليل المجتمع واحتواء احتمالات التفلت وكبح طاقات المعارضة واحتمالات التغيير .

فإذا أضفنا إلى ذلك عدم جدوى أدب

الأطفال العربى المعاصر ، إذ أن نصيب الفرد العربى من كتب ومجلات الأطفال ضئيل للغاية ، إضافة إلى عدم إزالة الحواجز إزاء انتقال الثقافة بيسر وسهولة بين الدول العربية والإسلامية فى عصر السماوات المفتوحة والفضائيات ، لأدركنا حجم المشكلة التى يعانى منها أدب الأطفال فى العالم العربى .

وباستثناء اثنين أو ثلاثة من الكتاب العرب المبدعين ، الذين حاولوا تأسيس كتابة عربية للأطفال مثل كامل الكيلانى ، فإننا نجد الساحة خالية من هؤلاء المبدعين الذين ينشئون أدبا للأطفال مثل هؤلاء الذين يكتبون للثقافات الغربية المعاصرة كتابات تأسست على وعى خلاق بالطفل وعلى عقود من الدراسات المتعمقة التى جعلت الأطفال وعالمهم موضوعا لها ، لاسيما من النواحى السيكولوجية والتربوية واللغوية ، وهو ما لم يحدث فى ثقافتنا وأدبنا .

ولا ننسى الغزو الفكرى الممتد عبر الثقافة والواصل حتى إلى كتب الأطفال ، فقد امتلأت مكتباتنا بكتب للأطفال كتبها غربيون ، تستهدف قيم ومعتقدات وأفكار مغايرة لمعتقدات أمتهم وقيمها ومبادئها ، عن طريق نشر الأسطورة والخرافة ، والإعجاب بالبطولة الغربية - خاصة الأمريكية - فتنتشر فى أعماق الطفل العربى حالة من تبعية تحول بينه وبين فهم ذاته وحقيقية هويته(٥)

التراث العربى والاسلامى :

ليس جديدا القول إن التراث العربى والإسلامى من الغنى إلى درجة أن موضوعاته هاجرت إلى الثقافات الأخرى ، والمطلع على المكتبة الغربية - لاسيما

● ضعف أدب الطفل لدينا يرجع لضعف التواصل معه والجهل بعالمه .

الإنجليزية - يعرف بعضا من قصص «ألف ليلة وليلة» ، وقصص حى بن يقظان لابن طفيل وابن سينا ، واللتين تمثلان أهم مصدرين لكل قصص روبنسون كروز وما على شاكلتها فى الأدب الغربى والتى تحولت إلى أفلام عالمية .

لقد ألهب كتاب «ألف ليلة وليلة» وقصص ابن فضلان ورحلات ابن جبير وغيرها خيال الغرب فى ترجمات لا تحصى ، أمكن الغرب تمثلها وهضمها وإخراجها فى صور فنية وجمالية بديعة ورائعة يستمتع بها أبنائه وأطفاله . ولا أدل على ذلك من قصص «هارى بورتر» بأجزائها الأربعة التى ترجمت لأربعين لغة وتصدرت أرقام مبيعاتها الخيالية نشرات المطبوعات العالمية ، لاشك أن كاتبتها الإنجليزية الشابة «جوان رولينج» قد استلهمت من بين ما قرأت «ألف ليلة وليلة» وعجائب حكاياتها الأسطورية .

ولم يخل التراث الفنى والجمالى العربى والإسلامى ، من إبداعات تشكيلية مثل تلك التى اشتملت عليها مقامات «الواسطى» والتى استلهم فيها قديما تلك القصص التراثية التى أدرنا لها ظهرنا والتى تزدان بها متاحف الغرب ومعارضه ، حيث برهن الواسطى وأمثاله من الفنانين المسلمين ومن خلال المقامات على براعة فى التبويب والترتيب والتذهيب

وتنسيق الصفحات والهوامش وتزيين العناوين لمخطوطات خالدة ، حتى فاقت الصور أو المنمنمات التى رسمها الواسطى النص نفسه ، من حيث البلاغة والإيضاح ، ولذا فهى تمثل ملمحا قويا بين ملامح التصوير الإسلامى ، والذى كان له تأثير كبير على الفن المعاصر وثورة الفن الحديث ، وأثر بقوة فى فنانين عالميين من أهمهم «ماتيس» والتى تمثل أعماله إيقاعات معاصرة شديدة الجاذبية .

كل هذا يكشف ويبرهن على اهتمام المؤلف والكاتب العربى والمسلم بتزيين الكتاب باللوحات المعبرة والتى تدفع إلى الاهتمام بالعلم والثقافة ، بل والشغف بهما ، قبل أن يهتم بهذا الجانب مفكرو العالم الغربى وفنانيه ، خاصة فى تقديمهم للكتب الأدبية والمجلات العلمية للأطفال والناشئة .

فالمشكلة التى تواجهنا اليوم هى ذلك الاستخفاف الذى يجرى معه تبادل التراث العربى والإسلامى فى الكتابات الموجهة للأطفال ، إلي جانب تلك العشوائية فى الاختيار والتقديم ، إن ثقافة عربية للأطفال لا تزال تفتقر إلى الأولويات ، يجدر بمبدعيها أن يلتزموا وضع الأسس قبل التفكير فى كسر القواعد .

ومن هنا يقول «صلاح بيصار»(٦) لقد وقع أدب الأطفال فى فخ التجارة والتجار والأعمال التجارية ، لقد أصابت دور نشر عربية بالتعاون مع كتبة أبعد ما يكونون عن الموهبة والحس الأخلاقى بالمسئولية أموالا كثيرة وجنوا أرباحا طائلة من جراء فتح دكاكين خاصة بالأطفال أنتجت كتبا رديئة الصنع ، أدبيا وفنيا ، فاستعملت التراث الحكائى العربى بصورة عشوائية ، وفصلت بمقصاتها السريعة من قماش هذا التراث قصصا شاحبة وأمثولات واعظة ومعانى ضحلة، فكان لها ضحيتان التراث والأطفال ، ولو ترك التراث على حاله وقدم للناشئة كما هو – وهذا أيضا لا يجوز – لكان أغنى وأجدى .

ونحن لا ندعو إلى فرض رقابة على الثقافة والإبداع ، إنما نفكر معا بمسئولية فيما يمكن أن تكون عليه ثقافة بديلة للطفل ، تقوم على احترام حقيقى لوعى الطفل وحسه الجمالى ورغبته فى الاستكشاف ، وولعه بطرح السؤال ، ونزوعه إلى الحرية ، والسعى إلى إشراكه فى صنع ثقافته واستقبالها .

كما أن علينا أن نستلهم التراث العربى والإسلامى ، الذى يزين صفحاته بكثير من روائع الأدب القصصى ، وخاصة منه الفلسفى ، والتى استلهمها الغرب فى بداية العصور الحديثة ، وكانت أيضا مصدرا ثريا يقتبس منه الفن السابع كثيرا من أعماله ، مثل تلك التى تم إنتاجها لروبنسون كروزو وطرزان ، حيث كانت قصة «حى بن يقظان» وتدبير المتوحد» المصدر الحقيقى لهذه الأعمال الفنية والسينمائية العالمية .

أدب الأطفال والتجربة الإنسانية :

ولا ننسى «وحدة التجربة الإنسانية» التى تسعى مختلف الفنون والآداب إلى تقديمها للطفل ، وهى تشمل التجارب الإنسانية على اختلافها تاريخية وأسطورية وفلكلورية ودينية واجتماعية ، والأديب ذو الخيال المبدع يستطيع أن يقدم للأطفال نماذج بشرية قد تكون أكثر صدقا من واقع الحياة فى ضوء فهمه

● الغزو الفكرى الذى يستهدف ثقافتنا وقيمنا ومعتقداتنا يستهدف ثقافة أطفالنا أيضا.


كامل الكيلاني

لطبيعة مراحلهم العمرية .

هذه «التجارب البشرية» يجب أن تصاغ الصياغة الفنية والأدبية وتقدم خلال وسائل الإعلام على تنوعها، مع الإفادة من خصائصها فى الاتصال ، ومن هنا ضرورة عدم الاقتصار على فن أدبي واحد كالقصة مثلا وإهمال الفنون الأدبية الأخرى .

فإذا توقفنا عند نوع من أدب الأطفال مثل «الحكاية الشعبية» وهى قصة قصيرة نثرية مجهولة المؤلف ، تعيش فى ثقافة المجتمع ، منطوقة ، شفاهة أو مدونة ، أو مطبوعة ، يرجعها العلماء إلى عصور قديمة ، فهى بقايا معتقدات تصل فى تاريخها إلى أبعد عصور البشرية ، وهى تعبر عن تأملات الإنسان الحسية وقوته وخبراته ، حينما كان لا يستطيع معرفة الحقائق إلا عن طريق المعتقدات والخرافات والتفسير الفطرى .

والحكاية هى الأساس فى تكوين القصة ، فيها التشويق لجلب انتباه المستمعين ، وهى تثير فيهم حب الاستطلاع لمعرفة ما سيحدث ، وهى ليست منطقية فى كثير من صورها ، وإنما هى خيالية ، وتتناقل بالرواية الشفوية .

وقد استغلت هذه الحكايات بشكل كبير فى معظم الآداب العالمية عن طريق النقل والترجمة ، وهى تضم فى جوهرها ، عناصر قادرة على تلبية كثير من حاجات الطفولة ، فهى تبعث روح المرح والمتعة وتنمى الخيال ، وتوسع مدارك الأطفال وتصوراتهم ، وتعزز عواطفهم ، وبواسطتها يمكن عرض الحقائق الأولية والأخلاق ، وتجارب الإنسان المتعددة ، فالحقيقة والتجربة تمتزجان بالخيال وتصبحان جزءا من تجربة الطفل وشخصيته .

مجلات الأطفال فى بلاد الشام :

إن ظاهرة موت مجلات الأطفال ، وهى فى أوج طفولتها أو شبابها فى بعض أقطار بلاد الشام ظاهرة مألوفة ، مثل «أروى» و«لونا» و«الكرتون العربى» و«سامر» و«هزار» ، وغيرها كثير .

ولذلك يقول الباحث «حسن عبدالله»(٧) فى مقال له «تنبت مجلة الطفل العربى عادة قرب نبع تمويل كبير أو صغير ، ثم تنمو مستمدة طاقتها وعوامل استمرارها ، ما يمدها به هذا النبع ، فإذا شح النبع تبدأ أوراق المجلة بالاصفرار والذبول ، ثم لا تلبث أن تموت وتندثر ، ولم تنجح مجلة عربية للطفل فى أن تقوم

بذاتها وبجمهورها ، كيف يحدث هذا فى عالم يضم أكثر من ستين مليون طفل وفتى يتكلمون لغة واحدة ، ويجمعهم تراث ثقافى واحد ؟!» .

إن صحافة الطفل عندنا لا تقوم على أسس فنية مدروسة يمكن أن تضمن البقاء وأن هذه الصحافة لا تزال بمعظمها تجريبية وإن تجاربنا التى تتراكم فى هذا المجال تذهب سدى ، إذ لا نكلف أنفسنا عناء فحص هذه التجارب والإفادة منها من أجل تلمس الطريق نحو مجلة للطفل صحيحة وسليمة تلبى احتياجاتنا الفنية والثقافية .

وإذا كانت هناك بعض المجلات التى ماتزال تقاوم الفناء مثل مجلة «أحمد» فى بيروت ، و«هللويا» و«صادق» فى لبنان ، و«وسام» فى الأردن ، و«لونا والفتيان» فى عمان ، و«أسامة» فى سوريا ، إلا أنه لا توجد خصوصية قطرية لدى هذه المجلة أو تلك فى لبنان وسوريا والأردن ، فنادرا ما نعثر فى هذه المجلات على مادة مستوحاة من الفلكلور المحلى أو المرويات الشعبية ، ولا نجد اختلافات فنية كبيرة بينها ، ولا خصوصية فى التوجه الثقافى ، فجميعها تخاطب قارئا واحدا فى الغالب .

وإذا كانت المادة الوضعية فيها تتفاوت من حيث الجودة والرداءة ، لكن الغالب عليها هو التوجه التربوى المباشر على حساب العناصر الفنية ، فالهاجس المدرسى هو الذى يسكن ذهن الكاتب ، ولا نجد اهتماما بالعناصر الفنية المعروفة للقصة ، بل ينصب الاهتمام على التوجيه والإرشاد.

وفى بعض هذه المجلات لا نجد أفكارا فذة ، ولا نجد حبكة مشوقة ، ولا يوجد ما يسلى ويمتع ويدهش ، ولا توجد لغة فنية ، فكيف تساعدنا مثل هذه المجلات فى تكوين ذوق أدبى لدى الطفل ؟

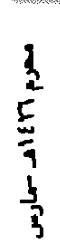
ويرجع الباحث «حسن عبدالله» كل هذا إلى أنها لا تعتمد على مواهب حقيقية فى التأليف والتحرير ، ولا تتشدد فى فحصها وتقييمها لما يتدفق عليها من مواد ، كما تفتقد بشكل خاص إلى الرهافة وروح المرح والجرأة والشجاعة فى البحث عن المدهش والجميل الذى يتعارض أحيانا مع الأنظمة الصارمة للبيت والمدرسة(٨) .

إن أزمة القراءة فى مجلات الأطفال لا تعنى فقط قلة هذه المجلات بالقياس إلى الأعداد الهائلة من الأطفال المتعطشين إلى هذا اللون من الثقافة الذى تمثله المجلة ، بل إن الأزمة قد تنشأ فى وجود المجلة ذاتها ، حين لا تلبى احتياجات الأطفال، ومدى تعبيرها عن اهتمامهم وفقا لمتغيرات عديدة تتعلق بسمات المجلة من ناحية الشكل والمضمون ، والسمات الديموجرافية للأطفال التى تتمثل فى السن والنوع والمرحلة التعليمية والطبقة التى ينتمى إليها الطفل وطبيعة تكوين الأسرة والانتماءات الريفية والحضرية للطفل، والشرائح العمرية المختلفة ، ومن هنا ينبغى اتخاذ عدة خطوات عند إصدار أى مجلة للأطفال ، أهم هذه الخطوات :

* استبيان ميول الأطفال من الجنسين فيما يقرأون .

* استطلاع رأى عينات ممثلة من أولياء الأمور فى البيئات المختلفة فى الحضر والريف .

* دراسة الشكل المناسب الذى تصدر به المجلة ، حتى تكون جذابة لقرائها من



الأطفال .

ولو اقتنعنا بأهمية دور مجلات الأطفال ، لأصبحت هذه المجلات لسان حال الطفولة فى الوطن العربى ، وحافزة للأطفال إلى حياة فكرية ووجدانية متجاوبة مع ملكات النشء وتطلعاتهم للمستقبل المنشود ، خاصة وأن الطفل هو الثروة الأساسية والحقيقية للأمة .

ومن هنا تأتى أهمية أن تصدر هذه المجلات عن المؤسسات الصحفية الكبرى ، وأن يشرف على هذه الصحف والمجلات متخصصون فى ثقافة الطفل إلى جانب العناصر الصحفية الفنية المدربة .

وذلك يتيح لصحف ومجلات الأطفال قسطا أوفر من الحرية المالية ، لأن جانبا من تكاليف إنتاجها ونفقاتها تؤديه صحف كبار . وهنا على بقية وسائل الإعلام دور هام ، فى أدب الأطفال فالتليفزيون له أثره الكبير على الطفل ، ويقتضى ذلك أن توظف برامج الأطفال لتقديم ثقافة أدبية قائمة على الفهم الاتصالى للأدب حتى يواجه التليفزيون ما تبثه إليه الدراسات الحديثة من زوال الحدود بين ثقافة الكبار وثقافة الأطفال ، مما ينبغى معه أن يقتحم الأطفال عالم الكبار قبل الأوان دون أن تتوافر لديهم أسباب الحماية والحصانة .

وهنا لابد من حماية الأطفال من الدور السلبى لمشاهدة الإعلانات التجارية التى تستهوى أفئدة الأطفال وتؤثر عليهم من خلال الصورة الخلابة التى يقدمها التليفزيون بإخراجها الحديث البديع ، على الرغم من أنه يهبط بناحية التذوق الأدبى والجمالى حينما لا يقدم لهم لغة سليمة أو لفظا حضاريا أو حينما يقدم أسلوب فنى

● فى بعض بلاد الشام.. مجلات الأطفال تموت فى أوج طفولتها .

فى مستوى هابط(٩) .

وليس من شك فى أن التركيز على الوعى القرائى فى الصحف والمجلات والكتب من أهم وسائل تحقيق ثقافة أدبية للطفل على مستوى رفيع ، مما يقتضى وضع خطة شاملة لكتاب الأطفال فى مصر والعالم العربى بالقياس إلى بقية دول العالم ، تحدد فيه مجالات المعرفة اللازمة لتكوين الطفل العربى ، بما فيها الثقافة الأدبية، والتى هى الأساس الذى يبنى عليه الإنسان الحر ، الذى يكتشف إنسانيته أو «الوجود المبدع فيه» على حد تعبير الفلاسفة .

تربية الحس الجمالى والأدبى :

وهنا لابد من الاهتمام بتربية الحس الجمالى والأدبى عند الأطفال ، خاصة وأن حاسة البصر عند الطفل تصبح هى الأولى التى يعتمد عليها فى اكتسابه المعرفة والخبرة الجمالية والثقافية ، فالعين هى نافذته على الحياة الخارجية وهى نافذة هذا الخارج بكل جمالياته إلى بصيرة الطفل وعالمه الداخلى وبالتالى نافذته على عواطفه وأحاسيسه

لم يعد البيت والمدرسة وحدهما ينبوع معرفة الحاضر الذى أخذت فيه مختلف المؤسسات الثقافية والتربوية والفنية تسهم فى تكوينهم وتعليمهم وتزويدهم بما تصبو إليه نفوسهم من متعة وترفيه وتسلية ومعرفة واطلاع ورغبة فى الإبداع ، وفى

عصر يتميز بطابع العلم التقنى والإبداع الفنى ويتعدد الاكتشافات فى مختلف ميادين الحياة ، وفيه تحقق حلم الإنسانية فى غزو مجاهيل هذا الكون فى كل المناحى.

ولذلك لابد أن تحتل الصحيفة والمجلة مكانا بارزا فى انطباعات الطفل ، ويجب أن يتم فعل قراءة الصحف أمام الأطفال وعلى ملأ منهم بما تحمله من أخبار جميلة ومعارف خاصة وعامة ، غريبة وطريفة ، حتى تجذبه إلى قراءتها والاستمتاع بها . كما أن الكتاب يؤدى دورا آخر فى تثقيف الطفل أدبيا ، إذ يتعرف الطفل إلى الكتاب عن طريق القراءة المشتركة التى يجب أن تظل أحد أهم اهتمامات الأسرة ، حتى يتعود على قراءة الكتب.

كما أن للسينما دور آخر فى مجال التثقيف الأدبى والتربية المعرفية والفنية والجمالية ، وهى تؤدى دورا هاما فى تنمية الحس الجمالى لدى الأطفال ، وهى تعد فى عصرنا من العوامل التربوية والثقافة ، إذا أحسن توظيفها للتربية بكل جوانبها ، ويدخل هنا التليفزيون والفيديو والفضائيات بأدوار هامة ، لاعتمادها على الصورة بكل مفرداتها الجمالية والفنية ، لذلك يجب أن تكون الرقابة الذكية على كل ما تعرضه هذه الوسائل من صور ، رقابة حقيقية ، تربوية فعالة ، فالآثار السلبية لها كبيرة وفادحة إن لم تعالج فى وقتها .

وهنا يأتى دور تعويد الأبناء على إبداء آرائهم فى المادة السينمائية أو الأدبية وممارسة حرية التعبير والمناقشة مع التوقف عند أهم النقاط التى أعجبتهم والتى لم تعجبهم ، ومن ثم تقويم تذوقهم والسمو به .

أما المتاحف ومعارض الفن فلها شأنها هى الأخرى فى الارتقاء بالحس الجمالى والأدبى لدى الطفل وغيره من أفراد العائلة(١٠) فزيارة الطفل للمتاحف وإطلاعه على مجموعاتها وروائع فن الرسم والنحت والتصوير والحفر والنقش والمنسوجات والمسكوكات والحلى والفخار والخزف والزجاج والمعادن ، مما يثير إعجاب الطفل بما أبدعته الأجيال المتعاقبة ، كلها تلعب دورا هاما فى تنمية الحس الجمالى والثقافى عند الطفل ، خاصة النزهات والزيارات الخاصة بالمواقع الأثرية والسياحية والمهرجانات الأدبية والفنية والأسواق ومعارض الكتب .

وفيما يتصل بتعويد الأطفال على القراءة للكتب ، فقد أدرك المشاركون فى تقديم كتب الأطفال ، من مؤلفين ومصممين وناشرين الدور الأساسى لمختلف حواس الأطفال فى التعامل مع الكتب ، فبدأت ثورة حقيقية فى تكنولوجيا كتب الأطفال الصغار ، تهدف إلى إشراك أكبر عدد من حواس الطفل فى التعامل مع الكتاب ، مثل اللمس والسمع والشم ، فأصبحنا نجد آلافا من الكتب تقترب من الألعاب ، فهى تتجسم ، وبها أجزاء تتحرك ، أو تصدر أصواتا أو موسيقى ، أو يتحسس الطفل صفحاتها ، أو يشمها، مع إعطاء الطفل دورا إيجابيا، يحقق التفاعل والمشاركة بين الطفل والكتاب . كذلك انتشرت كتب صفحاتها من القماش أو من البلاستيك أو البلاستيك الشفاف ، ليستطيع الطفل تكوين صور جديدة أو ألوان جديدة عندما يطبق صفحة



على أخرى .

وهذه الكتب قد أعطت الطفل دورا إيجابيا فى التعامل مع الكتاب ، وذلك لتحقيق التوازن بين علاقة الطفل بالكتاب وعلاقته بشاشة الكمبيوتر . فلم تعد هذه الكتب تكتفى بما تلقاه الطفل بحواسه من الكتاب ، بل أصبحت تلقى عليه أنواعا من الأسئلة أو الواجبات أو الأفعال ، ولكى يجد الإجابة أو يقوم بالاستجابة ، لابد أن يتفاعل مع الكتاب ، ويضيف إلى ما يراه ، بتدخل إضافى منه ، حتى يكتمل استقباله لما فى الكتاب .

وعلى الرغم من أن هناك عشرات من المؤسسات والهيئات والجمعيات التى تعمل فى مجال الطفل ، وثقافته وأدبه ، مثل المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم والمجلس العربى للطفولة والتنمية ، وإدارة الطفولة فى الجامعة العربية ، وكلها تحاول أن تبذل جهدا عربيا فى هذا المجال ، على أن هذه الجهود تحتاج إلى المزيد من الدعم سواء من الحكومات أو الجمعيات غير الحكومية ، كما تحتاج إلى مزيد من التنسيق بينها لكى تكون أكبر أثرا وأنشط عملا .

ومن جهة أخرى ، أجد أن هناك حاجة ملحة اليوم لتأسيس مجلس أو هيئة عربية عليا ، شرط أن تكون أهلية، وبعيدا عن هيمنة الجهات الرسمية ، ويتمتع أفرادها بالمواهب والخبرات والكفاءات والاختصاصات العلمية المشهود لها ، لتكون بمنزلة مرجع تربوى وأخلاقى وجمالى يمكن الاطمئنان إلى ملاحظاته وتوجيهاته واقتراحاته فيما يتعلق بوضع استراتيجية عربية على مستوى الأمة لبناء ثقافة أدبية جديدة منفتحة وذات فحوى إنسانى موجه إلى أطفال العرب والمسلمين .

الهوامش :

١ - أحمد حسين أبو عرقوب : محاضرات فى أدب الأطفال ، بيروت عام ١٩٨٢م ، وصالح خريسات : مفهوم أدب الأطفال وعناصره ، مجلة آفاق الثقافة والتراث العدد ٤٣ ص٧٧، ٧٨ ، دبى ، الإمارات العربية المتحدة عام ٢٠٠٣م.

٢ - عيسى الجراجيرة . كيف نبدع أدبا للأطفال ، المجلة العربية العدد ٩١ ص ٨٦ الرياض ١٩٨٥م .

٣ - يعقوب فام : أطفالنا وكيف نسوسهم ، ص ٧٦ ، كتاب الهلال مصر عام ١٩٨٣م

٤ - د. على الحديدى : فى أدب الأطفال ص ٨٩ مصر عام ١٩٨١م .

٥ - محمد الصالح المديدى : أسرعوا إلى رفع الظلم عن أطفالنا ، مجلة الأمة العدد ٤٧ ص ٣٤ قطر ١٩٨٤م

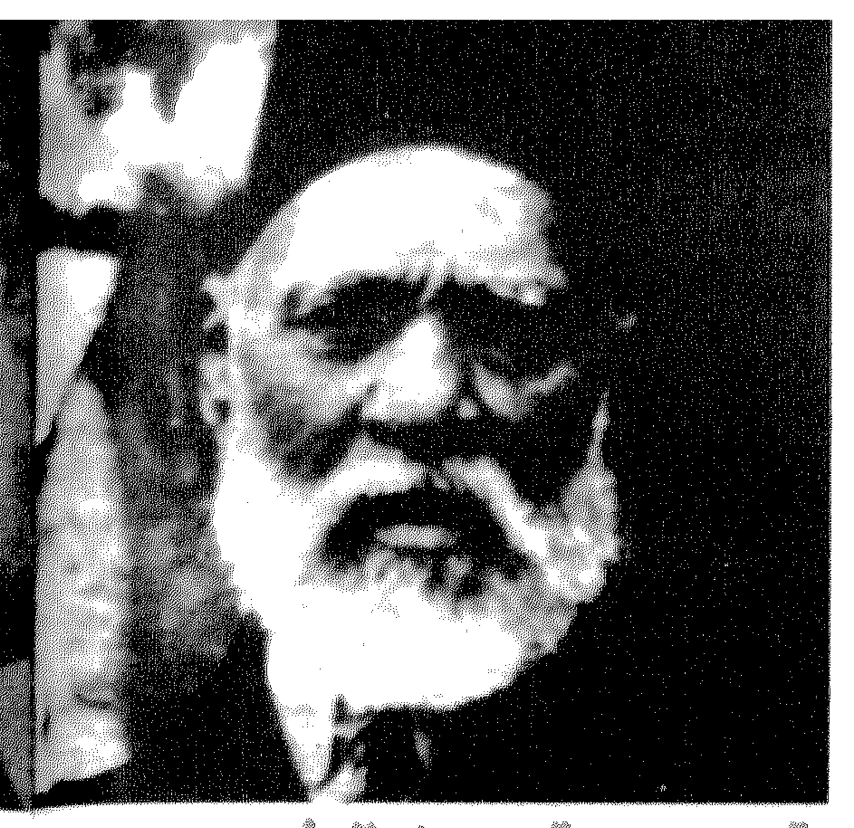
٦ - صلاح بيصار : بيكار .. رائد رسوم الأطفال ص ١٤١ ، ١٤٢ ، القاهرة ١٩٨٧ .

٧ - حسن عبدالله : نظرة إلى مجلات الأطفال فى بلاد الشام ، كتاب العربى العدد ٥٠ الكويت .

٨ - السابق .

٩ - انظر سامح كريم : مجلات الأطفال وتنمية الميول للقراءة ، ص ٧٩ من كتاب العربى العدد ٥٠

١٠ - انظر د. راتب الفوثانى : تربية الحس الجمالى عند الطفل العربى ص ٢٠٤ - ٢١٠ مجلة المنهل العدد ٥٦٣ جدة فبراير عام ٢٠٠٠م . ■

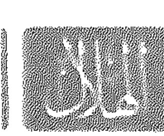




ومعركة شعرية بعد عودته من المنفى

بقلم
أحمد حسين الطماوى

النقائض فن أصيل فى العربية، تتقارع فيه الأشعار، ويقوى فيه الوثب والغلاب، وينهض على الإبرام والنقض الهدام، حيث يخترق شاعر السياج والأسداد التى يقيمها خصمه أمامه، وينهال عليها حتى يحلها ويحيلها إلى أطلال وأنقاض، وفى آدابنا يهجو شاعر شاعراً، ويعرض به ويحقره ويسلبه مزاياه، فينبرى له غريمه، ويزجره، ويكسفه، وينقض معانيه، ويكشف تخرصاته، ولايجاريه إلا فى الوزن والقافية.



وقد يجد القارىء متعة وهو يتابع ملاحاة بين شاعرين، وتستيقظ فيه الحاسة الفكاهية، فيبتسم أو يضحك من الصور والمعانى الشعرية الهجائية مثل قول جرير للفرزدق « لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا ...» أو قول الفرزدق لجرير: «يا ابن المراغة..» والمراغة المكان الذى تتمرغ فيه الدابة، أو قول جرير : «لبست سلاحى والفرزدق لعبة.. عليه...» أو قول عمرو بن لجأ لجرير:

إن التي ربتك لما طلقت
قعدت علي جحش المراغة تمرغ

وقد تعطل بعض الآداب الأخرى حاسة الفكاهة، أو تنال من صفاء الروح، وتخلف فيها الأسى مثل المراثى النائحة، والروايات الفاجعة، والنسيب المأساوى الذى يقرن الحب بالموت، وشعر الحرب والضرب المضرج بالدماء . ولكن النقائض والأهاجى تنشط حواسنا، وتحيي

محرم ١٤٢٦هـ - مارس ٢٠٠٥م



فينا روح الفكاهة ، بما تشتمل عليه من سخرية لاذعة، وصور باسمة .

أحمد شوقي ومحمد الهراوى

وإذا كان شعر النقائض قد ازدهر في العصر الأموى، فإن العصور الأخرى لم تخل منه لأن الإنسان مفطور على الجدل والمخالفة. وفى العصر الحديث ظهرت نقائض سياسية وغير سياسية ، منها ماكان بين شوقى ومعاصريه حول أحمد عرابى (١٨٤١ - ١٩١١) فقد دأب شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢) على هجاء عرابى بمناسبة عودة الأخير إلى مصر بعد ثمانية عشر عاماً قضاها فى منفاه بسيلان.

وكان عرابى قد التمس العفو من ولى عهد بريطانيا «كورنوال ويورك» عندما كان فى زيارة إلى سيلان، فأجيب إلى طلبه ، وأطلق سراحه ، وبهذه المناسبة صرح وهو فى سيلان لإحدى الصحف بتصريحات أشاد فيها بالانجليز، وفى أواخر سبتمبر ١٩٠١ عاد إلى السويس وأدلى بحديث لمراسل التيمس أظهر فيه إعجابه بالحكم الانجليزى ، وفى القاهرة أظهر لصحيفة «المقطم» أن الانجليز حققوا ماكان يتمناه، وكان لهذه التصريحات صداها فى نفوس المصريين، ويصعب الدفاع عن قائلها.

ففى هذه المناسبة هجا شوقى عرابيا بثلاث قصائد نشرتها جريدة «اللواء» عاطلة من إمضائه، ولكن الباحثين من أمثال د. محمد صبرى السربونى تحققوا من صحة نسبها اليه، ومنها قصيدته «عرابى وماجنى» التى نشرتها اللواء فى ٢٩/٩/١٩٠١ ومنها.

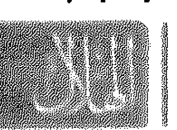
أهلاً وسهلاً بحاميها وفاديها
ومرحبـــاً وســلاماً ياعرابيها
وبالكرامة يامن راح يفضحها
ومقدم الخير يامن جاء يخزيها

وهى مزيج من الهجاء المر، والتهكم المقذع، والتقريع الشديد ، وبعد أيام قلائل أعادت اللواء نشر قصيدة شوقى التى يقول فيها :

صغار في الذهاب وفي الإياب
أهـــذا كل شـــأنك ياعـــرابي

....

أفـــرق بين ســـيلان ومصـــر
وفي كلتيهمـــا حمـــر الثياب
يتـــوب عليك من منفاك فيها
أناس فيـــك أولي بالمتـــاب
حكـــومة ذلة وســـراة جهـــل
كعهـــدك إذ تحييـــك الطوابي
ستنظر إن رفعت بمصرطرفا





رجال الوقت من تلك الصحاب

وقد نبذوا جنابك حين أقوى

وقد لاذوا إلي اقــوي جنــاب

وقد أمسك شوقى فى هجائه بنقطة الضعف فى عرابى التى سماها بالصغار فى الذهاب ويعنى به استسلامه للإنجليز وتسليمه سيفه لهم بعد هزيمته وبعد ذلك النفى أو الذهاب ، أما الصغار فى الاياب فيعنى به التماس عرابى العفو من الانجليز ومديحه لهم. وكأن عرابيا فى نظر شوقى عبارة عن الذهاب المخزى، والإياب المخجل، وتناسى عامدا جهاده ووطنيته، وكيف يصف عرابيا بالهوان والصغران وقد تحدى الخديو توفيق يوم عابدين، وأظهر فحولته ورجولته وهو يحدثه من مركز قوة، ويملى عليه مطالب الأمة، ويلزمه بتنفيذها؟ وهل صغر عرابى عندما بدأ الانجليز الحرب وضربوا الاسكندرية؟

أكان يقف متفرجا وهو وزير الحرب، وزعيم الشعب؟ لقد تجنب شوقى هذا وغيره وأمسك بالرجل وهو فى حالة من حالات الضعف الانسانى التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان.

ولأن عرابياً لم يكن شاعراً فقد تولى بعض الشعراء الوطنيين الدفاع عنه ونقض قصائد شوقى، فقال محمد النجدى الهراوى فى نقض بائية شوقى بالمقطم ١٩٠١/١٠/٤.

سعود في الذهاب وفي الإياب

وعز في الحضور وفي الغياب

إذا رضي الخديـو علي أناس

يعجـل عفـوه قـبل المتاب

حكومــة سـؤدد وسراة فخر

تخـر لهــا المدافـع والطوابي

ستنظر جو مصر في صفاء

بأصـحاب هـم خير الصحاب

يحييك الجميــع بصـدق قـول

وكل يحتمي بحمي الجنــاب

وهذا الشعر يساير فن النقائض من ناحية التزام الشاعر بقصيدة شوقى فى الوزن والقافية، ونقض المعنى، ولكن قوله «سعود فى الذهاب وفى الإياب». غير منطقى، فأى سعد يلقاه زعيم فى غربة تفرض عليه؟ وأى عز لقيه عرابى بعد عودته وهو يعيش تحت حكم أعدائه سواء أكانوا فى قصر عابدين أم فى قصر الدوبارة؟ كما يؤخذ عليه مديحه للجناب الخديوي لأنه لم يكن فى جانب عرابى.



المرصاد والشاعر المجهول

وفى ١٢ من يناير ١٩٠٢ نشرت جريدة «اللواء» قصيدة شوقى الثالثة تحت عنوان «صوت العظام أو عرابى أمام قتلى التل الكبير» ومما جاء فيها:

عرابي كيف أوفيك الملاما

جمعت علي ملامتك الأناما

فقف بالتل واستمع العظاما

فإن لها كما لهمو كلاما

سمعت من الوري جدا وهزلا

فانصت إذ تقول القول فصلا

كأنك قاتل والحكم يتلي

عليك وأنت تنتظر الحماما

ولا تأمل من الأموات عفوا

وإن كان الحسين أباك دعوي

ارقت دماءهم لعبا ولهوا

ولم تعرف لغاليها مقاما

دماء قد فدتك ولم تصنها

نفضت يديك يوم التل منها

فكيف تنام عين الله عنها

إذا غفل الملا عنها وناما؟

لقد سفكت بجهلك خير سفك

لغير شهادة أو رفع ملك

وأنت علي قديم العز تبكي

وتندب رتبة لك أو وساما

والموضوع الذى يشعر فيه شوقى حدث سياسى كبير، وكان عليه أن تكون نظراته فيه سياسية، فيفلسف الحدث أو يفلسف السياسةولكن مانراه هجاء أدبيا لا ترتفع فيه نظرات شوقى إلى أعلى من السب والطعن والفن ليس طرائف فحسب وانما هو إلى جانب ذلك وسيلة لإظهار الحقائق وترجمتها بالخيال الفنى وهذا مالاتجده في هجاء شوقى.

وقصيد شوقى هذا يقع فى نحو تسعين بيتا، ولم يعدم عرابى من يدافع عنه، فألفينا شاعراً ، لم يذكر اسمه، ينشر قصيدة بجريدة «المرصاد» فى عددين من أعدادها (١١، ١٨ فبراير ١٩٠٢) تقع فى أكثر من ثمانين بيتا ينقض فيها قصيدة شوقى على هذا النحو:

دع الجهال تختلق الملاما

فهجوك سيدي هاج الأناما

وإن تقذف إلي كلب عظاها

يزف إليك بالمدح الكلاما

لقد قلبوا لدينا الجد هزلا

وضلوا أن يقولوا القول فصلا

ولكن رغم أنفهمو سيتلي

مديحك كي يذيقهم الحماما

عفا عنك الاله اليوم عفوا

وما كان الحسين أباك دعوي

كما فاهوا بذا إفكا ولغوا

وما حفظوا لسيدهم مقام

بلاد غير سيفك لم يصنها

ولم يقلع أصول الظلم منها

وما نامت عيونك قط عنها

وإن غفل الوري عنها وناما

سفكت بها دماء خير سفك

لإصلاح البلاد ورفع ملك

وصرت علي الأهالي الدهر تبكي

فأنت اليوم أولاهم وساما

ويتواصل نقض شاعر «المرصاد». على هذه الشاكلة، لما أبرمه شوقي، وكأنه طعان «بأطراف القوافي» كما يقول البحتري، فإذا قال شوقي إن الناس جميعاً يلومون عرابياً، قال الشاعر المرصاد المجهول إن هجاء شوقي أثار حفيظة الناس ، وإذا قال شوقي إن القتلى لايعفون عن عرابي، قال الشاعر المجهول إن الله عفا عنه، وإذا قال شوقي إن عرابيا أراق الدماء ولم يصنها، قال الشاعر الآخر إن عرابيا صان البلاد بسيفه، وأن الدماء سفكت من أجل إصلاح الوطن .. وهكذا ينقض شاعر المرصاد كل أقوال شوقي ويقارعه ، ويرد عليه من نفس البحر والقافية وجميعها من خصائص فن النقائض.

وقد افترى شوقي في هذه القصيدة، وكان الوقت وقته، إذ كان شاعر الخديو عباس، والناطق باسمه، أما عرابي فلم يكن له حول ولا طول بعد فشل ثورته، وتقدم عمره، وضعف أنصاره، وكل هذا مكن شوقي من سبه على الملأ واتهامه بالجبن والجهل، وبأن شعوره أصم من الحجر فضلاً عن أن حياته تنقضي في العار، ويدعو الله أن ينتقم منه وتمادى في هذا الاتجاه حتى قال:

رويداً ياشعوب الأرض مهلا

فما كنا لهذا اللوم أهلا

أراكم واحد جبنا وجهلا

فأنساكم مواقفنا العظاما

ولم يكن شاعر المرصاد أقل منه في الطعن واللعن، فقد رد عليه قائلاً:

روايداً عن سباب الناس مهلا

فغيرك لم يكن للسب أهلا

حويت سفاهة وحويت جهلا

ونلت بذلك الرتب العظاما

ولم يكن شوقي سفيها جاهلا، ولا كان عرابي جباناً وقاتلا، ولا نحاسب الشاعرين على مابدر منهما، فشعر النقائض، كما عرفناه عند أعلامه الكبار مثل الأخطل وجرير والفرزدق يستوعب مثل هذه الشتائم والسبات، على أن شوقيا لا يسب فحسب، وانما يغالط في الحقائق، وينحرف عن الصواب فقوله على لسان عظام القتلى:

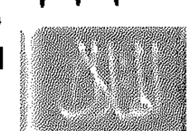
تقول جبنت حين الظلم ينمو

وثرت ولم يكن في مصر ظلم

وغرك من أبي العباس حلم

ولم يكتمل في الحكم عاما

باطل، لأن الظلم كان قائماً، وقد عانت البلاد من الأجانب في مصر منذ عهد إسماعيل باشا، وجأر المصريون بالشكوى من تفاقم نفوذ الشركس وبخاصة في الجيش ، وكان المصري ينفى إلى السودان كعقاب له إذا بدر منه شيء وقد أورد الدكتور «السربوني» في «الشوقيات المجهولة» قول ملنر في كتابه عن مصر «إن الحركة العرابية كانت نهضة عامة نهضها الشعب ضد ظلم لايحتمل» فكيف ثار عرابي «ولم يكن في مصر ظلم» ويفسر شوقي



استجابة الخديو توفيق لمطالب عرابى يوم عابدين بأنه نتيجة حلمه وكياسته، والواقع أن استجابته كانت نتيجة ضعفه، فقد رفض مطالب العرابيين فى البدء ولما رأى الجيش فى أيديهم أذعن صاغرا لمطالبهم، فلم يكن أبو العباس (توفيق) حليما وإنما كان ضعيفاً، وكيف كان حليما وقد نفى الأفغانى بمجرد جلوسه على الأريكة الخديوية، وقول شوقى لعرابى «جبنت حين الظلم ينمو» لا محل له، فقد ثار لأنه لحظ الظلم، ورآه ينمو ويزداد، لذلك فإن قول شاعر المرصاد المجهول أصح حين يقول على لسان عظام القتلى:

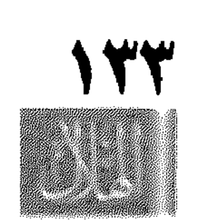
تقول هجمت حين الظلم ينمو
وثرت غداة ثار بمصر ظلم
ولم يختل من السفاح حلم
كختل أصوله عاما فعاما

وقصيدة شوقى فى مجملها وتفصيلها تلقى بمسئولية الهزيمة فى التل الكبير على عرابى:

تقول مقالة فيها اعتبار
عشية حال بينكما الفرار
أموت ياعرابي ثم عار
يلازمنا بقائدنا لزاما

وكأن عرابيا وحده الذى كان يقاتل فى هذه الواقعة، وكان على شوقى أن يأخذ فى الاعتبار أن الانجليز كانوا مصممين على احتلال مصر بعد ظهور الضعف على الدولة العثمانية، وقد حاولت الحكومة المصرية بما فيها عرابى أن تتحاشى ضرب الاسطول الانجليزى للإسكندرية فلم تستطع ، وأغفل شوقى خديعة دى لسبس، وموقف الخديو المتخاذل، هذا عدا خيانة عرب الهنادى والطحاوى، ودور سلطان باشا إلى آخره. أما شاعر المرصاد فإنه يذكر أكثر من سبب للهزيمة يقول:

تقول وفي مقالتها اعتبار
فلولا الخلف ما كان الفرار
قرار الملك بالعصيان عار
يلازم من أشار به لزاما



فهو يرد الهزيمة إلى اختلاف المواقف بين العرابيين والخديو ، ويشير إلى ماكان يصدر عن الخديو والسلطان عبد الحميد من منشورات تصف العرابيين بأنهم عصاة، فشاعر المرصاد أكثر موضوعية من شوقى لأنه ذكر أكثر من سبب للفرار والهزيمة.

محاولة لتفسير حملة شوقى

ولكن ماسر هذه الحملة الكبيرة على عرابى؟ هل تخوف القصر من أن عودته قد تعمل على إثارة الخواطر، واستعادة ذكرى الماضى؟ أو أنها فرصة للانتقام وإظهار الشماتة فيه وإحباطه وهو خائر ضعيف؟ أو أن المقصود هو إفساح المجال أمام زعامة مصطفى كامل وبخاصة أنه اشترك فى هذه الحملة، وكان صديقاً لشوقى، وعلى علاقة وطيدة فى ذلك الوقت بالخديو؟

والعجيب فى الأمر أن جريدة «المقطم» الموالية للاحتلال هى التى نشرت نقيضتين لصالح عرابى، ضد بائية شوقى «صغار فى الذهاب وفى الإياب...» لمحمد توفيق صاحب «حمارة منيتى» والهراوى، ولم تنشرهما «المؤيد» أو «اللواء» وهما من أهم الصحف الوطنية

علما بأن صاحبى الجريدتين من أشياع الخديو عباس . أما الجريدة التى نشرت قصيدة الشاعر المجهول فهى جريدة «المرصاد» (١٨٩٨ - ١٩٠٥) وهى جريدة هزيلة غير منتظمة الصدور، ولا أظن أن الناس فى زمنها كانوا يشعرون بها، ومع ذلك فإن الشاعر المجهول خشى على نفسه فلم يذكر اسمه، وكل هذا يوحى بأن حملة شوقى مدبرة ووراءها على الأرجح عباس الثانى.

ومهما يكن من أمر فإن شوقياً عمل بكل مايستطيع على تنفير الناس من عرابى، فقد ركز على جبنه وجهله، وعاره وفراره، وبلادته، وهزيمته وقتلاه، وربما يكون هذا هو المراد.

وفى النقائض ، إذا ناقض شاعر آخر، فإن الأول منهما يكون عادة مطلق الحرية، يسوق قصيدته على سليقته وهواه، ويختار من البحور والقوافى مايلائمه. فليست عليه قيود لأنه ليس أمامه مايحتذيه ، أما الثانى منهما الذى ينقض قصيدة الأول فمحروم من هذه الحرية لأنه مقيد بالأوزان والقوافى والمعانى التى ساقها الأول مما يحد من انطلاقه، ومن هنا يكون الشاعر الثانى فى وضع أصعب من سالفه، ومع كل هذه القيود والصعاب، فإن شاعر المرصاد الذى التزم بوزن شوقى وقوافيه ومعانيه لم يقصر فى الأداء والاتقان، ولم يهض جناح من أجنحة قصيدته، وإنما كان على مستوى الشاعر الأول الهجاء أحمد شوقى، فقد ناجزه وبارزه وغير معانيه وانتصر لعرابى وأشاد بمجده وفضله.

وفى النقائض قد تتكرر الألفاظ، والعبارات الشعرية، وأحياناً تأتى أبيات بكاملها فى نقيضة الشاعر الثانى فشوقى يقول:

تقول لك العظام مقال صدق
ورب مقالة من غير نطق
قتلت المسلمين بغير حق
وضيعت الأمانة والذماما

وينقض شاعر المرصاد هذا الكلام بقوله:

تقول لك العظام مقال صدق
ورب مقالة من غير نطق
بذلت نفوسنا للوال حق
وقد صنت الأمانة والذماما

فشاعر المرصاد أخذ بيت شوقى الأول بكامله، وجعله جزءاً من كلامه، وغير كلمات فى البيت الثانى، وأدخلها فى تشكيل لغوى يؤدى معانى تنقض معانى شوقى وتلك براعة.

وإذا كان الهجاء من ألوان الفكاهة كما أسلفنا، فإن هجاء شوقى، بالرغم مما فيه من تندر وزراية، غير قادر على التسرية والامتاع، ذلك أن نفس القارىء غير مهيأة للانسجام مع ما قاله شوقى عن عرابى، هذا إضافة إلى أن قصيدته رزينة رهيبة يتردد فى أنحائها ذكر العظام ، والموت الزؤام، وسفك الدماء، وإطلاق الرصاص، والقتلى والهزيمة والقبور وجهنم .. وكل هذا يرهب ولا يضحك وقصيدتا شوقى وشاعر المرصاد، من الناحية الفنية ، شامختان، إذ استوفيتا كثيراً من عناصر الفن، واستحرت فيهما الحماسة، وسلمتا من التعقيد والالتواء، وأتى كل من الشاعرين فى قصيدته بالشواهد والدلائل المؤيدة لأفكاره بغية التأثير والتبصير. ■



٣ شخصيات من عالم الخلود

رياض شمس وروكس العزيزى ومجيب المصرى

بقلم
وديع فلسطين



مجيب المصرى

رياض شمس

أثاب الله كامل زهيرى الذى لا يفتأ يذكّر القراء بفضل أستاذنا الدكتور رياض شمس الذى لا يكاد الجيل الحاضر يعرفه أو يذكره مع أن له أيادى سخية على الصحافة بدفاعه القانونى والأكاديمى عن قيمها وحرياتها .

عرفت الدكتور رياض شمس للمرة الأولى كطالب فى قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية عندما جاءنا كأستاذ قانون يعلمنا قوانين الصحافة بحكم تخصصه بل تبحره فى هذا الباب . والطلاب عادة يتهيبون الأستاذ الجاد الصارم الذى يلقى محاضراته عليهم بجفاف وكأنها طلقات مدافع ، ولكن الدكتور رياض شمس كان يخفف من وطأة النظريات القانونية بسرد أمثلة من التجارب الصحفية ، سواء فى الخارج أو فى الداخل ، حتى يقرب إلى أفهامنا أدغال قوانين الصحافة ، وكان يقول لنا إن هدفه الأسمى هو أن يجنب أيا من طلابه محنة دخول السجن فى قضية صحفية ، لأن الصحافة

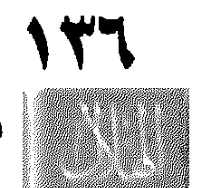
معرضة دائماً للاصطدام مع جهات كثيرة فى تناولها لقضايا المجتمع وشؤون الحياة اليومية . فلابد للصحفى من أن يلم بالقوانين ليتدرع بها من دخول الزنازين والمعتقلات ، وإن كان قد اعترف لنا بأن ثقافته القانونية لم تحل دون دخوله هذه المعتقلات بسبب نشاطه السياسى فى حزب الوفد الذى كان ينتمى إليه .

ومازلت أذكر مما قاله لنا من مزالق الكتابة فى الصحف أن صحفياً وصف وزيراً بأنه «دعى» فأقام الوزير قضية عليه يتهمه فيها بالقذف فى حقه لأن من المعانى القاموسية للفظة «الدعى» المنسوب لغير أبيه ، أى اللقيط ! وهكذا تحولت هذه اللفظة البريئة المظهر إلى جناية تورد صاحبها المهالك . ولكن القاضى البصير برأ الصحفى لأن قارئ الصحيفة لا يفتش فى القواميس عن معانى كل لفظ يقع عليه فى جريدته ، وإنما يقرأ الجريدة قراءة عجلى ويأخذ الألفاظ بظاهر معناها لا بمعانيها المدفونة فى القواميس.

ولم نكن وقتها نعرف الفرق بين السب والقذف ، وكنا نعتبرهما لفظتين مترادفتين ، فنبهنا الدكتور رياض شمس إلى أن هناك فرقاً لا لفظياً بينهما وإنما هناك فرق قانونى بينهما أيضاً . فالسب هو أن تشتم شخصاً بأى صفة عامة من صفات المهانة ، كأن تقول عنه إنه جاهل أو حمار ، وهى صفات تستعصى على الإثبات ، فكيف تثبت مثلاً أن شخصاً حمار ؟ أما القذف فهو أن تتهم شخصاً بتهمة يمكن إثباتها أو نفيها ، كأن تقول عنه إنه سارق أو مختلس أو مرتش ، فيتعرض الصحفى للإدانة إذا ثبتت براءة الشخص من هذا الاتهام ، أو يتعرض للبراءة إذا ما أدين الشخص بهذه التهمة.

وكان الدكتور رياض شمس يلقى محاضراته بلغة عربية سليمة لا يجنح فيها إلى العامية، كما كان يتوقف فى الحين بعد الحين ليشرح لنا قاعدة لغوية حتى لا نخطئ فيها . ومن طريف ما قاله لنا عن تمييز العدد إن العدد من ٣ إلى عشرة هو عملية زواج فى التمييز ، فإذا كان العدد يتعلق بمذكر تم تأنيثه ، وإذا كان يتعلق بمؤنث تم تذكيره ، مثل خمسة رجال أو خمس نساء . وهكذا رسخت هذه القاعدة فى أذهاننا دون أن نراجع كتب النحو والصرف .

ولأن الدكتور رياض شمس كان يلقى محاضراته باللغة العربية فى حين كان يزاملنا فى القسم طلاب من أصول أجنبية لا يتقنون اللغة العربية ، فقد وقع اختياره علىّ لكى أقوم بترجمة كل محاضرة إلى



اللغة الإنجليزية لفائدة هؤلاء الطلاب ، ولما كنت أجهل مصطلحات القانون باللغة الانجليزية ، رجوته أن يدلنى عليها فأملى على قائمة بهذه المصطلحات لأستعين بها فى عملية الترجمة التى كنت أتضرر منها لأنها تجور على وقت أحتاج إليه فى متابعة دروسى . وهذا العمل «البغيض» الذى أديته نزولاً على تعليمات أستاذى أفادنى فيما بعد عندما اخترت كبيراً للمترجمين القانونيين فى إحدى قضايا التحكيم الدولى المنعقدة فى جنيف .

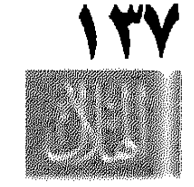
وكان الدكتور رياض يحرص على متابعة طلابه حتى بعد تخرجهم . وعندما انتخب عضواً فى البرلمان عن دائرة عابدين ، أقمنا له حفل تكريم فى نقابة الصحفيين القديمة فى شارع قصر النيل ، محل عمارة وهبة الآن ، وسألناه عما إذا كان يحب دعوة أحد من أصدقائه ، فأشار بدعوة صديقه الزعيم السودانى إسماعيل الأزهرى ، وصديقه المحامى (الأحمر) زهير صبرى العضو فى البرلمان ، وألقيت فى هذا الحفل كلمة قلت فيها إن الدكتور رياض شمس جمع بين الصحافة والفصاحة والحصافة !

أنت ناقدى الوحيد !

وعندما أسند إليه الإشراف على تحرير إحدى صحف الوفد - ولعلها «الوفد المصرى» - رحب بأن يفسح صدر الجريدة لنشر مقالاتى التى لم يعترض على أى منها ، وبفضله نشرت مقالا عن كتاب «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى (١٩٠٥ - ١٩٩٢) - ولم أكن أعرفه وقتها - فلما قدمنى إليه أستاذنا محمود محمد شاكر (١٩٠٩ - ١٩٩٧) بعد ذلك قال لى : «أنت ناقدى الوحيد» ، وهى عبارة ظل يذكرنى بها كلما التقيت به بعد ذلك فى سنوات طويلة.

وللدكتور رياض شمس كتابان هما عمدة فى كتب القانون نياداً منه عن الحريات بصورة عامة والحرية الصحفية بصورة خاصة هما «الحرية الشخصية فى التشريع الجنائى المصرى» الذى نشره أصلاً باللغة الفرنسية بمقدمة للبروفسير ألبير شيرون الأستاذ بجامعة استراسبورج وصدرت طبعته العربية فى عام ١٩٣٤ بمقدمة للأستاذ على بدوى الذى صار نقيباً للمحامين فيما بعد . أما الكتاب الثانى فهو يقع فى جزءين بعنوان «حرية الرأى وجرائم الصحافة والنشر» وقد صدر فى عام ١٩٤٧ ، وهو فى اعتقادى خير ما يسترشد به فى المساعى الحالية لتعديل قوانين الصحافة والنشر التى تنزل عقوبات بدنية على الصحفيين .

وكان الدكتور رياض شمس يحتفظ بمخطوطتين كبيرتين لم يتح له نشرهما فى حياته ولا نشرتا بعد وفاته ، والمخطوطة الأولى جمع فيها حكماً وأقوالاً ومواقف إنسانية كثيرة من مراجع أجنبية وعربية



حول قيم الصداقة والصديق . أما المخطوطة الثانية ، فقد دون فيها خواطر أخلاقية وفلسفية منذ شبابه الأول وحتى تاريخ وفاته في ٣ مارس ١٩٧٧ عن ٧٧ عاماً ، فهو من مواليد ١٥ أغسطس ١٩٠٠ . وهو قد عمل فترة في حياته في المحاماة ، ولكنه تبين أن عهد المرافعات القانونية البليغة انتهى وأن المحاكم تقتصر على المذكرات يقدمها محامو الخصوم، في حين كان هو ينطلق في المرافعات باقتدار ، فانسحب من ميدان لم يجد نفسه فيه.

هذا وقد سجل الدكتور رياض شمس غاياته من تأليف كتابيه عن الحريات بقوله : «وغاية ما نرجوه أن يجد أصحاب الرأى في هذا المؤلف ما يسهل لهم التمتع بكامل حقوقهم الدستورية والقانونية من غير تعرض لمجاوزة الحدود المرسومة ، وأن يشعروا بأن الشارع المصرى لم يكن متسامحاً فيما يختص بحرية إعلان الرأى ، إذ مازال المصريون خاضعين لمواد تحرر من ربقتها القانون الفرنسي والتونسي منذ خمسة وستين عاماً ، فيعملوا على إقناع الرأى العام وممثليه في البرلمان بضرورة التخلص من المواد الرجعية ، والنزول بالعقوبات المبالغ فيها إلى الحد المعقول ، وجلاء ما يكتنف النصوص من غموض وعدم تحديد ، وحياطة النظر في قضايا إعلان الرأى بسياج من الوقاية تستلزمه طبيعتها الخاصة.

«فإذا تحققت أغراضنا ، تمكن الصحفيون وقادة الرأى من أداء مهمتهم الجليلة ، واستطاعت الحكومة والهيئات النظامية والموظفون والرجال العاملون أن يطمئنوا إلى توافر هيبتهم وكرامتهم ، وتهيأ للمجتمع أن يسعد بمبادئه ومعتقداته ، وتيسر للمواطن أن يعرف ما تمس إليه حاجته من المعلومات التي لا غنى عنها له في التزود بها ليتمتع بحقوقه الخاصة ويؤدى واجباته العامة».

وهذه رسالة تركها الدكتور رياض شمس للأجيال المتتابعة التي تحمل القلم في ميادين الصحافة والنشر ، وما أحوجنا إليها اليوم.

روكس بن زائد العزيزى

تحيرني دائما المعايير التي يتوسل بها في الاحتفاء بالراحلين من المشتغلين بالحركة الثقافية فيلقى بعضهم اهتماماً تفترش له الصفحات الأدبية ، في حين تضن هذه الصفحات نفسها بسطرين اثنين عن رحيل آخرين قد تفوق منزلتهم منزلة أولئك الذين تتبارى الأقلام في تسجيل صفحات حياتهم.

فقد رحل عن دنيانا مؤخراً علامة الأردن الكبير روكس بن زائد العزيزى، فتجاهلته صحفنا الأدبية تجاهلاً تاماً على الرغم من أنه عاش عاكفاً على إثراء لغة الضاد ثمانين عاماً قضاها في محراب



العلم لا يبارحه إلا لحضور جلسات مجمع اللغة العربية الأردني ، وهو من أعضائه الدويين ، وإلا للمشاركة في الأنشطة الثقافية المختلفة، سواء في الأردن أو في الوطن العربي الذي كان يعتبره وطنه كقول الشاعر محمود أبي الوفا (١٩٠١ - ١٩٧٩) :

وطني هو الفصحي ، وكل بلادها
في مصر أو في الشام هن بلادي

ولد العلامة روكس في مدينة مادبا من قبيلة العزيزات الأردنية في أغسطس ١٩٠٣ ، وجاءت وفاته في ٢١ ديسمبر ٢٠٠٤ أي أنه عاش أكثر من ١٠١ من الأعوام ، ولعله هو ومحمود المسعدي (١٩١١ - ٢٠٠٤) الأديب التونسي الكبير كانا أكبر المعمرين من الأدباء في العالم العربي ، وكذلك الدكتور نقولا زيادة وحسن الكرمي ، أطال الله بقاءهما .

تعلم روكس في مدارس اللاتين ، ولكن اجتياح الجيوش التركية لمدرسته في عام ١٩١٤ أكرهه على أن يعلم نفسه بنفسه في عصامية مشهودة . واشتغل بالتدريس فترة ، ولكنه لم يلبث أن هجره إلى المآرب الأدبية يتفرغ لها حتى أصدر في حياته نحو ٨٠ كتاباً ، منها «قاموس اللهجات والأوابد الأردنية» في ٣ أجزاء ، و «معلمة للتراث الأردني» في خمسة أجزاء ، عدا سلسلة «المنهل في تاريخ الأدب العربي» التي أصدر منها ٣ أجزاء ، وسلسلة «الزنابق» التي أصدر منها ٧ أجزاء ، وله دراسات عن العشائر الأردنية وأقاصيص مستوحاة من الصحراء ، ومسرحية وتراجم ودراسات نقدية.

وعندما صدرت الطبعة الأولى من قاموس «المنجد» انبرى روكس لانتقاد مادته والتنبيه إلى بعض ما ورد فيه من أوهام أمكن تداركها في الطبعات التالية ، وتواصل مع كثيرين من أعلام العصر كشيخ العروبة أحمد زكي باشا (١٨٦٠ - ١٩٣٤) وعلامة العراق الأب أنستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ - ١٩٤٧) الذي اشترك معه في إصدار ٣ كتب . وكان أول من كتب عن أدب المقاومة في الأردن بقصة عنوانها «أبناء القائد» في عام ١٩٣٤ .

وكان روكس على تواصل مستمر مع الدكتور أحمد زكي أبي شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) رائد جماعة أبولو الشعرية الذي خصه بمذكراته فقام بنشرها ، كما استكتبه مقدمة لترجمته لرباعيات الخيام ، وكان من دأب أبي شادي أن يعقد الصلات الأدبية بين أصدقائه في كل مكان ، وكان من حسن حظي أن وصلني أبو شادي بروكس منذ عام ١٩٤٨ أو نحوه واستمرت هذه الصداقة إلى نهاية عمر روكس . وإني مدين بعضويتي في مجمع الأردن لأستاذنا روكس الذي زكاني مع أكرم زعيتر (١٩٠٩ - ١٩٩٦) والدكتور

همام غصيب أطال الله بقاءه فصرت من أعضاء المجمع المؤازرين منذ عام ١٩٨٨ . وفي اليوبيل الفضي لروكس أهداه الملك الحسين شهادة تقدير اعترافاً بفضله على الثقافة في بلاده وفي دنيا الضاد ، كما حاز في عام ١٩٨٩ جائزة الدولة التقديرية وتسلمها من الملك الحسين .

وكان روكس يؤمن بالتفاؤل على الرغم من المحن التي مرت عليه ، سواء بضياع كل ممتلكاته ومقتنياته في أثناء حرب عام ١٩٤٨ أو لأن العمر الطويل أفقده زوجته وبعضاً من أبنائه وأحفاده فاحتمل هذه الصدمات بإيمان وصبر ، وعزى نفسه بإصدار كتاب بعد وفاة زوجته بعنوان «جمد الدمع» صبَّ فيه أحزانه وأدرج فيه ما تلقاه من ثغريات نثرية وشعرية من أصدقائه ، كما نشر كتاباً عنوانه «أنر ولو شمعة» ليقول للساخطين إن إضاءة شمعة خير من الشكوى من الظلام الذي يحيق بهم.

وكان بيت روكس في عمان كعبة يؤمها كل من يستنير برأيه ، وما أكثر ما استقبل فيه ملك الأردن وولي عهده عدا رجال الفكر من مواطنيه ومن الزائرين من البلدان العربية ، وقد أكرمه الله فجعله في حالة وعي كامل إلى آخر حياته ، لولا نوبة من النسيان ، فالهزال الذي ألم به لم يطفئ جذوة العقل في رأسه.

هذا طرف من حياة هذا العالم الكبير الذي لم يصل خبر رحيله بعد إلى صحافتنا الأدبية .

الدكتور حسين مجيب المصري

في الثاني عشر من ديسمبر ٢٠٠٤ ودع الحياة الأدبية العلامة الأديب الشاعر الكبير الدكتور حسين مجيب المصري المولود في ١٩ فبراير ١٩١٦ بالغاً من العمر ٨٨ عاماً . وقد هاتفني للمرة الأخيرة قبل دخوله المستشفى قائلا إنه انتهى لتوه من إملاء مقدمة آخر كتبه ، وكان مضطرا إلى الإملاء بعدما كف بصره وصار حتماً عليه أن يستعين بغيره.

عرفت الدكتور حسين مجيب المصري للمرة الأولى في مجلة «منبر الشرق » التي كان يصدرها الشيخ على الغاياتي (١٨٨٥ - ١٩٥٦) والتي كانت من أفخر المجلات الاسبوعية إخراجاً ومادة مع تواضع حظها في الانتشار وسوق البيع ، وكنت مع الدكتور المصري وسوانا من الكاتبين نؤازر الغاياتي اعترافاً بجهاده حيث كان من أوائل الذين شردتهم آراؤهم بعد نشر ديوان «وطنيتي» فعاش في مهجره التركي ثم السويسري سنوات طوالا حيث تبنى في جريدته قضايا الوطن العربي الراسف في الأغلال ، واستأنف إصدار المجلة عند عودته من منفاه الاختياري بعد سقوط الحكم بحبسه.

وعلى مدى ما يقرب من ستين عاماً، تابعت عن قرب النشاط الأكاديمي والعلمي

للدكتور المصرى ، فقرأت معظم كتبه التى تجاوزت الثمانين عدا ، كما كان يبثنى على الهاتف عواطف إخائه من ناحية وشكواه من ناحية أخرى . فعدا عن شكواه الصحية التى استطالت معه ، كان يشكو من المجتمع الأدبى الذى كان يتجاهل قيمته تماماً على الرغم من مؤلفاته الضخام بين مؤلف ومترجم باللغات العربية والتركية والفارسية ، بما فى ذلك دواوين نظمها بهذه اللغات الثلاث التى كان يجيدها إلى جانب ست لغات أخرى تمكن منها . وكان مجمع القاهرة قد استعان به على مدى عشرين عاماً كخبير فى لجانه ، ولكنه ضن عليه بعضويته العاملة .

وقد تعاظمت شكواه عندما صدر قانون يعتبر جميع الأساتذة الجامعيين الذين بلغوا الستين من العمر فى حكم المخرفين ، فلا يسمح لهم بإلقاء محاضراتهم على طلابهم ، ولا يعاملون مادياً إلا بأتفه المرتبات التى تتقاضى الخادمات فى المنازل أضعافها !

وعندما أعد صلاح حسين رشيد - وهو واحد من مريديه - دراسة عن شاعريته ،رغب إلىّ فى كتابة مقدمة لهذه الدراسة ، فلم أتردد فى الاستجابة له ، ولعل هذه كانت آخر تحية تهيأ لى أن أسديها اليه فى عمره المديد.

وإلى جانب الكتب الكثيرة التى تناول فيها الدكتور المصرى الأدب المقارن بين اللغات الشرقية ، فقد أصدر معجمين كبيرين هما «معجم الدولة العثمانية» و «المعجم الفارسي العربى الجامع» وعنى عناية خاصة بالشاعر إقبال فأصدر عنه عشرة كتب، وبقى بيته مفتوحاً برغم علله يستقبل فيه كل من يقصده من أصحاب الرسائل الجامعية للاستنارة برأيه .

والغريب أن التكريم الذى سعى إلى الدكتور المصرى سعياً حثيثاً قد جاء من الخارج : من تركيا وباكستان وايران ، بل إنه الجامعى المصرى الوحيد الذى دعته حكومة شاه إيران لحضور احتفالاتها الصاخبة بمرور ٢٥٠٠ سنة على قيام الشاهنشاهية ، وكان جل المدعوين وقتها من الملوك والرؤساء ومن فى طبقتهم.

إلا أن طلابه السابقين فى الجامعة الذين صاروا اليوم أساتذة كباراً ، اعترفوا به مؤخراً عميداً للآداب الشرقية ، ولكانهم بذلك قد قدموا له هدية من الكلام الجميل قبل أن يخلى مكانه من الدنيا جميعا .

***

هذا حديث عن ثلاثة من الأساتذة العظام اقتربت منهم كثيرا وحاولت فى هذه الأسطر القليلة أن أوفيهم بعض حقهم. ■

الإسكندرية في رباعية لورانس داريل

بقلم
د. صلاح خليل

ارتبط اسم لورانس داريل Lawrence Durrell (١٩١٢ - ١٩٩٠) وعلي المستوى العالمي - ارتباطا قويا باسم مدينة الاسكندرية بعد نشر رباعية الاسكندرية (١٩٥٧ - ١٩٦٠) The Alexandria Quartet في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي (جوستين ١٩٥٧ بالثازار ١٩٥٨ ماونتوليف ١٩٥٩ وكليا ١٩٦٠)، والتي اعتقد البعض أنها ربما قد تكون سببا في ترشيحه لجائزة نوبل في الأدب ، وعلي الرغم من أن داريل لم يحصل علي جائزة نوبل إلا أن رباعية الاسكندرية قد حققت نجاحا منقطع النظير بين قراء اللغة الانجليزية وأعيد طبعها أكثر من خمس مرات بعد نفاد الطبعة الأولى منها . وتعتبر الرباعية ضمن أفضل مائة رواية نشرت باللغة الانجليزية في القرن العشرين وذلك طبقا لتقييم جمعية المحررين للمكتبة الأمريكية الحديثة .

والجديد بالذكر أن الاسكندرية وتأثيرها على داريل تجاوز الرباعية المشهورة حيث ظهرت أيضا فى خماسية أفينو .

ولد لورانس داريل عام ١٩١٢ فى نيبال عند سفح جبال الهيمالايا بالهند من أبوين ايرلنديين وعند بلوغه سن الحادية عشرة مثله مثل جميع الأطفال البريطانيين المولودين فى الهند ، أرسل إلى بريطانيا لاستكمال تعليمه هناك حيث التحق بمدرسة سانت أدموند فى كانتريرى (١٩٢٣ - ١٩٢٨) ، وبعد محاولتين فاشلتين للالتحاق بجامعة كامبريدج . التحق بعدة أعمال متنوعة فى لندن وعاش حياة بوهيمية كما عمل عازفا للبيانو بنوادى الجاز بلندن، وفى نفس الوقت بدأ يتجه إلى الشعر والأدب قبل أن ينتقل ليعيش فى جزيرة كورفو باليونان (١٩٣٥) ، وتمكن من الفرار من اليونان قبل احتلال الألمان لليونان ، والتحق داريل بعد ذلك بالسلك الدبلوماسى البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية وعمل لحساب الحكومة البريطانية بكريت وأثينا باليونان (١٩٣٩ - ١٩٤١) ثم جاء إلى مصر حيث تنقل ما بين الاسكندرية والقاهرة (١٩٤١ - ١٩٤٥) . ثم جزيرة رودس (١٩٤٧) ، وعاش داريل حياته متجولا بين العديد من البلاد . ليعمل لحساب الحكومة البريطانية فقضى سنة فى الارجنتين (١٩٤٨) ومنها عاد إلى أوروبا ليخدم فى يوغوسلافيا ثم اختار أن يترك الخدمة ويتفرغ للكتابة واستقر فى جزيرة قبرص (١٩٥٣) وعاد ليخدم الحكومة البريطانية مرة أخرى فى الفترة ما بين ١٩٥٤ - ١٩٥٦ فى قبرص أثناء الثورة القبرصية . وكان لحياته فى دول حوض البحر الأبيض المتوسط أكبر الأثر على إنتاجه الأدبى ، وهناك بعض التضارب بين المؤرخين فى طبيعة عمل داريل فى خدمة الحكومة البريطانية فى الدول الأجنبية التى عمل بها فمن مدرس للغة الانجليزية (كريت واليونان) إلى موظف فى خدمة الصحافة الأجنبية (مصر) إلى ملحق صحفى (بلجراد) إلى مدير للعلاقات العامة لحكومة قبرص ولكن هناك اشارات تكاد تكون مؤكدة أنه كان يعمل لحساب المخابرات البريطانية تحت ستار هذه الوظائف المختلفة التسميات، وقد ترك داريل الخدمة فى الحكومة البريطانية عام ١٩٥٧ وانتقل بعدها ليستقر ويعيش فى جنوب فرنسا ويتفرغ للكتابة والأدب . ويعتبر داريل من الأدباء غزيرى الانتاج وقد نشر أكثر من سبعين مؤلفا فى الرواية والشعر والمسرح وأدب الرحلات .

ولسنا هنا بصدد دراسة حياة داريل أو انتاجه بقدر ما يهمنا ابراز كيف ظهرت مدينة الاسكندرية فى رباعيته ، وقد ذيلت الدراسة الحالية بمحاولة استكشاف ما إذا كان هناك أى مساحة مشتركة بينه وبين نجيب محفوظ فى الكتابة عن الاسكندرية .

شخصية الاسكندرية كما رآها داريل

تبدو الاسكندرية بالنسبة إلى داريل مدينة عريقة تفوح بعبق التاريخ وتحافظ على عراقتها كما تتمسك بوجودها ، وقد عبر داريل عن تلك المعانى بأسلوبه المنمق وتعبيراته الغامضة وصوره الغريبة فى التعبير ، ومن المعروف أن اسلوبه الغريب وانتقائه للتعبيرات الغامضة للتعبير عن أفكاره ورؤاه ، ذلك الأسلوب الشبيه بأساليب التعبير الفنى التى سادت فى القرن السابع عشر فيما عرف بأسلوب «baroque» - قد أثار الكثير من الجدل بين النقاد . فمنهم من يستحسنه ويثنى على عبقرية الكاتب ومنهم من يجده اسلوبا سقيما .

«مدينة قديمة تتغير تحت ضربات فرشاة الأفكار التى حاصرت المعانى ، مطالبة فى صخب بالتعرف على شخصيتها ، فى مكان ما هناك على ذلك النتوء الأسود الشوكى البارز من أفريقيا ، استمرت فى الوجود الحقيقة العطرة للمكان ، العشب المر



الذي يرفض أن يمضغ ، لب الذاكرة» كليا ص ٩ .

ولقد أظهر داريل في الرباعية كيف سيطرت فكرة انتماء الاسكندرية إلى أوروبا على الأجانب المقيمين بها - بطريقة توحي باقتناعه أيضا بها بل وبلغت هذه الفكرة حد ادعاء ملكيتها للأوروبيين الذين عاشوا بها في الرباعية .

«وبدأ الكورنيش - ذلك المتنزه الطويل الممتد بطول شاطىء البحر والذى يحيط بالمدينة الحديثة ، العاصمة الهيلينية لرجال البنوك وتجار القطن الحالمين ، هؤلاء التجار الأوروبيون والذى كان الفضل لمشاريعهم في بعث حلم الاسكندر من إنشاء الاسكندرية .. (كليا ص ٢٩) .

والمتأمل لهذه الكلمات - وبصرف النظر عن مدى الدقة التاريخية لها - إنما يكتشف وبسهولة كيف ينظر الأوروبيون إلى مدينة الاسكندرية ومعهم لورانس داريل بالطبع - أنها مدينتهم واليهم يرجع الفضل في إنشائها أولا في العصر القديم ثم في نهضتها وانتعاشها لاحقا بعد ما لاقت من اهمال أثناء حكم العرب لمصر !!

وفي عبارات تتسم بالدقة والشاعرية في نفس الوقت ، يصف داريل مشاعر ماونتوليف - السفير البريطاني الجديد إلى مصر والذى عاد إلى الاسكندرية ، المدينة التي عرفها وعاش بها في مطلع شبابه ، عندما بعث إليها دبلوماسيا شابا ليتعلم ويجيد اللغة العربية .

«وبدت له الاسكندرية كمعسكر صيفي مرغوب فيه ، فاتحا ذراعيه لكل محبة ومحب للغرباء بالمعني اليوناني للكلمة . ولكن لماذا لم يشعر هو أنه في وطنه ؟» .

إن سكان الاسكندرية أنفسهم كانوا غرباء ومنفيين من أوطانهم إلى مصر ، مصر التي كانت تحت سطح أحلامهم المتألقة ، تحيطها صحراوات ساخنة ... : مصر الأسمال البالية والقروح ، مصر الجمال واليأس .

إن الاسكندرية كانت لا تزال أوروبا ، عاصمة أوروبا الأسيوية ؟؟؟؟؟؟؟؟ (علامات الاستفهام لكاتب هذه السطور) إذا صح هذا التعبير . أنها لا يمكن أن تكون مثل القاهرة حيث للحياة هناك طابع مصرى مميز ، يتحدث بالعربية ، أما هنا فقد سادت المدينة الفرنسية والايطالية واليونانية ، الجو المحيط ، الحياة الاجتماعية ، كل شيء يبدو مختلفا وكأنه قد صب في قالب أوروبي ، بينما تواجدت الجمال وأشجار النخيل وأهل البلد الأصليين بعباءاتهم الفضفاضة كإطار لامع ملون، كخلفية مبطنة لحياة مقسمة في أصولها . ماونتوليف ص ١٣٢ .

هكذا رأى داريل الاسكندرية ، مدينة أوروبية تسودها التقاليد والعادات الأوروبية ، وتتغلغل فيها الثقافة الأوروبية تتكلم الفرنسية والايطالية واليونانية ، بينما بدا السكان الأصليون - له - وكأنهم يمثلون الاطار الخارجي المهمش ربما كان على حق في ذلك ولكن من وجهة نظره هو ، فيجب ألا ننسى أنه أوروبي، عاش بالمدينة ، أختلط بأبناء جلدته ، وربما لم تتح له الفرصة أن يختلط بأهل البلد الأصليين ، ولا أن يتعرف إلى حياتهم ، وذلك لوضعه الإجتماعي والرسمي حيث كان بحكم عمله ووظيفته ، ينتمي إلى السلطة البريطانية المستعمرة ربما كان لذلك كله أكبر الأثر على الصورة التي رسمها للاسكندرية ، وهي لا شك اسكندريته هو اسكندرية لورانس داريل .

الأسكندرية : مشاعر متناقضة

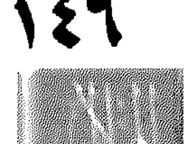
تأرجحت مشاعر داريل نحو المدينة بين حب وكراهية ، إلا أن القارىء للرباعية المشهورة وخماسية أفينو يستطيع بسهولة أن يلمح تعاليا من الكاتب على سكان المدينة من المصريين عموما واستخفافا بل أحيانا سخرية وازدراء من بعض التقاليد والاحتفالات الشعبية والتراث الوطني ! كما يلمح احتقارا للعرب وانحيازا إلى الغرب والحضارة الغربية التي ينتمي هو أصلا إليها ، ولست أجد غرابة في ذلك، فلورانس

داريل ، قبل كل شيء ينتمي إلى بريطانيا (العظمى سابقا) ، إحدى أهم الامبراطوريات الاستعمارية في ذلك الوقت إن لم تكن أكبرها (وإن كانت قد اتجهت إلى الأفول في ما بعد الحرب العالمية الثانية) .
ومعظم الشخصيات التي تناولها داريل في رباعية الاسكندرية «هي شخصيات أوروبية الأصل عاشت في الاسكندرية في ذلك الوقت وذلك فيما عدا نسيم وبعض أفراد أسرته والذين كانوا ينتمون إلى عائلة قبطية ، ويظل العالم الشعبي (أو كما كان سكان الاسكندرية من الأجانب يطلقون عليه في ذلك الوقت عالم أولاد العرب) غريبا نائيا متباعدا أو مبعدا بل منبوذا ومهمشا في كتابات داريل عن الاسكندرية فلقد عاش داريل في الاسكندرية كأجنبي واختلط بالمجتمع السكندري الأوروبي المستوطن .

«وردة من الاسكندرية ، من المدينة التي يمكن أن تمنح لمحبيها كل شيء إلا السعادة .. (بالثازار ص ١٨) .

«تلك المدينة التي أعلم الآن أنني كرهتها ، أراها الآن وقد حملت لي شيئا مختلفا ؛ تقييما جديدا للتجربة التي انطبعت على ووسمتني . لابد لي من العودة إليها مرة أخرى وذلك حتى أتمكن من مغادرتها إلى الأبد . حتى أتمكن من التخلص منها والانسلاخ عنها» (كليا ص ١١) .

أعتقد أنه ليس هناك أوضح من هذه الكلمات التي تصف مدى كره لورانس داريل للمدينة لما تركته تجاربه فيها من ندوب غائرة يتوق إلى التخلص منها ونسيانها إلى الأبد :



«ولقد أمتعتنا الجزيرة (يقصد جزيرة ردوس) بجوها البديع والذي أدركت أنني سأفتقده عندما يطبق على رأسي مرة أخرى جو مصر الخانق العفن» (كليا ص ١٧) .

وبهذه العبارات القاسية ، يصف لورانس داريل جو مصر تأمل الكلمات .. هل هذه كلمات كاتب يحب هذه البلاد أم كلمات رحل أجنبي فرضت عليه ظروف عمله الحارجة عن ارادته أن يعش فيها ..

«إن العوالم الهيلينية يتم استبدالها هنا بشيء مختلف ، شيء خنثوي غامض ومنقلب على نفسه ، إن الشرق غير قادر على الابتهاج بالفوضى العذبة للجسد حيث قد استبق الجسد .

إني أتذكر نسيم أنه قال لي ذات مرة، وأظن أنه كان يستشهد بمقولة ما - إن الاسكندرية كانت المعصرة العظيمة للحب ، وأن هؤلاء الرجال الذين نشأوا فيها كانوا رجالا مرضى، أقصد كل هؤلاء الذين كانوا قد جرحوا بعمق في جنسهم» (من رواية جوستين - رباعية الاسكندرية) .

ويبدو في هذه التعبيرات تأثر داريل بالثقافات والحضارات الأوروبية القديمة كالحضارة الهيلينية وانحيازه لها ضد الحضارات الشرقية عموما ، وهو يسجل أيضا وجود شكل من أشكال صراع الحضارات على أرض المدينة العريقة ، كما يدل على حساسية هذا الكاتب المفرطة وقدرته على رصد التحولات الاجتماعية وربطها بحركة الحضارة والتاريخ .

«كان المطر يهطل بغزارة كما كان يحدث دائما قبل الفجر في الاسكندرية ، مبردا للهواء جارفا معه جذوع النخيل المتساقطة في حدائق البلدية غاسلا معه العوارض الحديدية للبنوك والأرصفة» .

«أما في الجزء العربي من المدينة ، فقد كانت الشوارع تفوح برائحة تشبه رائحة القبور التي حفرت حديثا بينما يقوم بائعو الزهور بعرض بضاعتهم لتكتسب النضارة والانتعاش ، أتذكر صيحاتهم «القرنفل عذب كنفس البنات»، وفي الميناء كانت تتصاعد روائح القطران والأسماك وشباك الصيد المالحة متدفقة خلال الشوارع المهجورة لتختلط بلفحات الرياح العديمة الرائحة والقادمة من الصحراء لتدخل المدينة مع أول أضواء النهار» (كليا ص ٨٥) .

أليس في ادعائه أن الشوارع في الجزء العربي تفوح برائحة تشبه الروائح التي تنبعث من القبور مبالغة يقصد بها الاساءة

إلى أهل المدينة الأصليين ؟

وعلى لسان أحد رجال المخابرات البريطانية العاملين في مصر وفي خطاب منه إلى رئيسه القادم ، إلى سفير بريطانيا الجديد إلى مصر . يكتب داريل عن مصر في هذه الفترة فيقول :

«ولازالت البلاد هنا - كل شيء فيها شاذ ، منحرف ، متعدد الأشكال ، ملتو وغامض ومبهم متعدد الفروع أو حتى مجرد مضطرب ومخبول .» ماونتوليف ص ١١٦ .

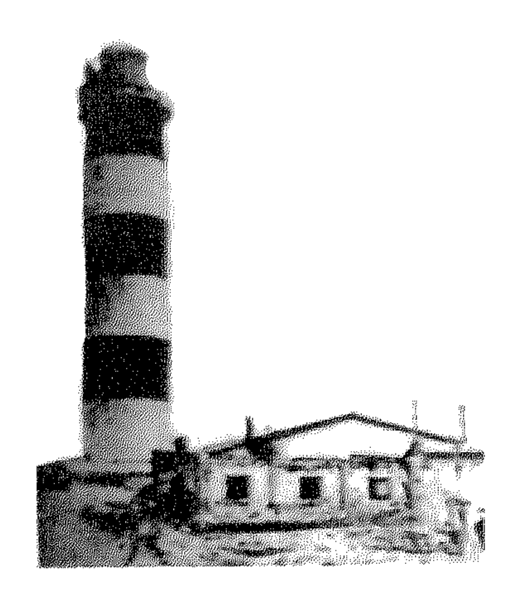
إن داريل يقدم صورة قاتمة عن مصر ، يستخدم فيها ألفاظا وأوصافا مغرقة في القبح والتشاؤم ، هل هكذا رآها البريطانيون ، أم هكذا رآها داريل من موقعه ؟ أم كان ما رآه شيئاً من الحقيقة فعلا ؟

الاسكندرية : زمن الحرب

وقد كتب داريل عن الاسكندرية في فترة الحرب العالمية الثانية (لاحظ أنه عاش بالمدينة خلال هذه الفترة فقط وها هو يصف الاسكندرية بأسلوبه المتميز وصوره وتشبيهاته الغريبة ، داريل بهذه الكلمات ، يسجل مرة أخرى إحدى الحقائق عن ازدواجية شخصية الاسكندرية وتنوع ساكنيها وانتمائهم إلى أجناس مختلفة .

«الاسكندرية ، الأميرة والعاهرة ، المدينة الملكية و....» إنها لا يجب أن تتغير طالما استمرت الأجناس المختلفة تغلي وترغى وتزبد هنا مثل عصير العنب المتخمر في الرواقيد ، طالما تفجرت وتدفقت وانبثقت الشوارع والميادين بعفن تلك العواطف والرغبات الجنسية المتنوعة ، نوبات الغضب والهدوء المفاجيء .». كليا ص ٥٥ .

ويجب ألا ننسى أن الحرب قد ساهمت بقدر كبير في التأثير على صورة الاسكندرية عند داريل ، ومثال ذلك احتشاد المدينة بتلك الأعداد الغفيرة من الجنود والتي جاء بهم الحلفاء من شتى أنحاء العالم (من دول الكومونولث .. استراليا وجنوب افريقيا والهند) إلى جانب الجنود البريطانيين (الانجلوساكسون) وقد قدم داريل وصفا

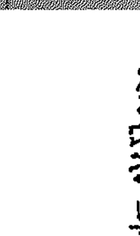


فنار الاسكندرية

رائعا حيا للمدينة أثناء الحرب ومرة أخرى بتعبيراته المنمقة واسلوبه الذى يحفل بالصور الغريبة الغامضة .

« فحتى الحرب قد بدت وكأنها توافقت مع المدينة ، فحفزت تجارتها مع جماعات الجنود الهائمة في شوارعها بلا هدف بمظهرهم المقيت المشوب باليأس المندفع الذى يمارس به «الانجلوساكسون» ملذاتهم

قال داريل عن رباعيته الشهيرة أنها بحث في الحب الحديث ، ولم يفسر ماذا كان يعنيه بذلك ، ولكن رواية تضم أكثر من قصة حب مثل دارلي وميليسا ، ماونتوليف وليلى ، نسيم وجوستين ، وايضا دارلى وكليا ودارلى وجوستين ، إلا أن بعض قصص الحب في الرواية متشابكة متداخلة والبعض منها متعدد الأطراف!! كما أن بعضها غريب في الدوافع مغرق في الغرابة مثل علاقة نسيم بجوستين وعلاقات جوستين المتشابكة بكل من بيرسواردن ودارلى وكليا كما يتناول داريل أيضا تطور الحب ونضجه مع الزمن وتحوله من الشذوذ إلى العلاقة الطبيعية كما حدث مع كليا ويزعم داريل أنه حاول في الرباعية أن يستوحى أفكار الفيزياء الحديثة من حيث الثلاثة أبعاد الفراغية والبعد الرابع



وهو الزمن ويطبقها على الأدب فجاءت الكتب الثلاثة الأولى من الرباعية متوازية الأحداث وليست متتابعة بنفس الشخصيات وبلا تسلسل زمني بينها وكأنها تحكي نفس الأحداث ولكن من وجهات نظر مختلفة، بينماكتب الجزء الرابع (كليا) بطريقة روائية تقليدية أكثر التزاما بالتسلسل الزمني للأحداث ، ولكن داريل وإن كان غريب الأسلوب منمق الكلمات مغرق في الخيال بعيد عن الواقعية أحيانا ، إلا أنه أيضا شاعر عميق الاحساس بارع في انتقاء الكلمات ماهر في وصف المواقف والمشاعر ، وطبقا لآراء بعض النقاد فقد برع داريل في النثر ربما أكثر من براعته في نظم الشعر .

«عندما تقع في حب أحد سكان مدينة ما ، فإن المدينة نفسها تتحول إلى عالم بأسره . ولقد تمت ولادة جغرافيا جديدة تماما للاسكندرية من خلال «كليا» فقد أعاد حبها الحياة إلى معانٍ جديدة ، وجدد أجواء نصف منسية ، معلناً تاريخا جديدا ناصعا ، قصة حياة جديدة لتحل محل القديمة . ذكريات المقاهي القديمة المنتشرة على شاطيء البحر في ضوء القمر البرونزي بمظلاتها المخططة التي ترفرف مع نسمات البحر حيث كنا نجلس ونتناول العشاء المتأخر حتى تمتلأ كؤوسنا وتترع بضوء القمر .. جمع زهور الربيع الصغيرة الرائعة عند رأس التين (بخور مريم وشقائق النعمان) أو الوقوف معا في المدافن القديمة بكوم الشقافة ...» كليا ص ١٩٨ .

الاسكندرية : زمن الرحيل

ويعبر داريل عن ما اعترى احساسه بالاسكندرية من تغيرات بتعبيرات قوية شاعرية وموضوعية أيضا حيث يقول في آخر رسالة له إلى كليا .

«.. لولا أنني أريد رؤيتك مرة أخرى فإنني أشك أنني أستطيع العودة إلى الاسكندرية ، إنني أحس أن المدينة قد ذوت وخبت في داخلي . في أفكاري . مثل ما يخبو سراب الوداع ، مثل ما يخبو تاريخ حزين لملكة عظيمة قد اندثرت ثرواتها تحت خرائب الجيوش ورمال الزمن !! إن عقلي قد يتجه الآن أكثر وأكثر نحو الشمال ، نحو التراث القديم لايطاليا وفرنسا..» كليا ص ٢٤٠ .

ثم يقول على لسان «كليا» :

«.. وفي خلال الأسبوع الأخير كنت أقوم ببعض زيارات الوداع ، حيث أنني أعتقد أنني لن أرى الاسكندرية مرة أخرى ولفترة طويلة ، لقد أصبحت الاسكندرية بالية مبتذلة وغير ذات فائدة بالنسبة لي ، ورغم ذلك .. هل نستطيع إلا أن نحب الأماكن التي تسببت في معاناتنا ؟

إن الرحيل يملأ الهواء .. وكأن تيارا جديدا يكتسح فجأة كل بنية حياتنا . ولست أنا الشخص الوحيد الذي قد قرر الرحيل .. هذا أبعد ما يكون ، فإن ماونتوليف – على سبيل المثال – سيرحل بعد شهرين ، حيث قد حصل ، ويضربة حظ عظيمة على أعلى مكافأة له في حياته المهنية : باريس ..» كليا ص ٢٤٣ .

وداريل هنا يظهر ولو بطريقة غير مباشرة ، البدايات المبكرة لرحيل الأجانب عن مدينة الاسكندرية ، وذلك في أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة ، ويبدو من هذه الكتابات أن العناصر المتثقفة من الأجانب قد أحست أن الاتجاه الطبيعي لحركتهم لابد أن يكون نحو أوروبا ، أو الغرب بصفة عامة وربما يشير ولو من بعيد أن مركز ثقل الفن والأدب سيكون هو أوروبا وبالتحديد غرب أوروبا ؟ هل كان ذلك ما يشير إليه ؟ أو أنه كان يسجل واقعا فرض نفسه فعلا ؟ وهل ذلك يعني ضمنيا أن الاسكندرية قد فقدت تأثيرها على ساكنيها من المبدعين والفنانين ذوي الأصول الأجنبية ؟ لاحظ أن هؤلاء قد استوطنوا الاسكندرية وتعتبر المدينة وطنهم الثاني ؛ ولم يكن قد ظهر بعد في هذه الفترة – ما ينبيء عن تغيرات سياسية أو اقتصادية تدعو المستوطنين الأجانب إلى الرحيل عن المدينة . فلقد حدث ذلك فعلا بعد قيام ثورة ١٩٥٢

وازداد حدة بعد حرب ١٩٥٦ ، فهل كان داريل بهذه الحساسية التى جعلته يشعر بأن المدينة قد بدأت تفقد سحرها وينضب معينها كمهد للفن والأدب ومصدر للإلهام ؟ ربما ؟ وربما أيضا أنه كان يعبر عن شعوره الشخصى ، وقد يكون من المفيد تسجيل أن المقتطفات السابقة جاءت فى الصفحات الأخيرة من آخر كتب الرباعية كليا .

السياسة فى اسكندرية داريل

تعتبر السياسة إحدى المحاور الأساسية لرباعية الاسكندرية ، حيث عالج فيها داريل عدة نقاط سياسية حساسة ، وخصوصا فى الكتاب الثالث من الرباعية (ماونتوليف) فها هم أبطال الرواية - نسيم وجوستين - يتورطون فى دسائس سياسية ومؤامرات ضد المصريين والبريطانيين فى آن معا ، ولحساب اليهود ، (لاحظ أن جوستين من المواطنين السكندريين اليهود) وعلى الرغم من صحة ما تنبأ به داريل فى الرباعية من قرب انهيار الامبراطوريات الاستعمارية القديمة مثل الامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية ، فى هذا الوقت - بنهاية الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، فهو يقدم رؤية غربية بعض الشىء على الأقل فى ذلك الوقت ، حيث يرى (من وجهة نظره) أن الفراغ السياسى الذى سينتج عن زوال امبرطوريات الاستعمار القديم فى المنطقة العربية لابد وأن تملؤه دولة فتية جديدة هى دولة اليهود فى فلسطين (يقصد اسرائيل) وذلك على الرغم من أن الأمبراطورية الأمريكية كانت هى المرشحة للقيام بهذا الدور . وكانت هناك شواهد - وإن لم تكن واضحة للجميع - على ذلك فعلا فى تلك الفترة وتزايدت هذه الشواهد قوة مع تقدم القرن العشرين واتضحت الصورة بشدة فى أوائل القرن الحالى ، ولن نستطرد هنا فى هذا الاتجاه ، ولكن داريل هنا يبدو وكأنه كاد يبدع رواية من «الخيال السياسى» أيضا إن جاز هذا التعبير فى تناوله لهذه القضية فى رباعيته ، فقد شطح بخياله ليتخيل مؤامرات سياسية لا تمت إلى الواقع الممكن بصلة فى ذلك الوقت ، ولكن لنا أن نتساءل اليوم وبعد مرور أكثر من نصف قرن على كتابات داريل ألا يوجد فى بعض المشاهد السياسية اليوم ما يشير إلى محاولة اسرائيل لعب دور المهيمن على المنطقة ؟ ترى هل كان لورانس داريل ذا رؤية ثاقبة إلى هذا الحد ؟ أم أنه استوحى هذا الفكر من معلوماته وخبرته المخابراتية ؟ وربما يكون لهذا حديث آخر .

ومن جهة أخرى تناول داريل أيضا أحد المشاكل الهامة التى أثارها الانجليز فى مصر وهى محاولة الدس بين عنصرى الأمة (المسلمين والأقباط) بصدق بموضوعية تثير الدهشة ، حيث أظهر بوضوح أن هذه المشكلة هى صناعة أوروبية بحتة ، وقد جاءت الاتهامات موجهة إلى البريطانيين على لسان «نسيم» أحد الأبطال المحوريين فى الرباعية وهو أيضا ينتمى إلى أسرة قبطية عريقة .

يقول نسيم مخاطبا ماونتوليف - الدبلوماسى البريطانى الشاب :

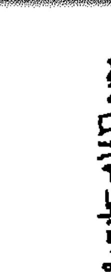
«أليس غريبا أنه بالنسبة لنا (يقصد المصريين) لم تكن هناك حرب حقيقية بين الهلال والصليب ؟ لقد كان ذلك صناعة أوروبية غربية بالكامل» .

ثم يستطرد داريل على لسان «نسيم» .

«إن المسلم لم يكن أبدا ليضطهد المسيحيين على أساس العقيدة بل على العكس إن القرآن نفسه يبين أن عيسى له مكانته واحترامه كنبى حقيقى ، وسلف للنبى محمد «صلى الله عليه وسلم» .

(هذه كلمات داريل على لسان نسيم القبطى فى الرواية) ثم فى موضع آخر ، يواصل نسيم حديثه إلى ماونتوليف :«لقد ظللتم صليبيين فى قلوبكم» ماونتوليف ص ٤١ .

أن القارىء المتأمل لهذه الكلمات يستطيع أن يلمح الحقيقة الناصعة لدور الانجليز فى الوقيعة بين عنصرى الأمة أثناء



الوجود الاستعمارى لها فى مصر ولابد من الاشارة هنا أن داريل ذكر أوروبا الغربية كلها فى أسلوب مباشر بينما كان الحوار السابق يدور بين مصرى قبطى ودبلوماسى بريطانى، أما فى الرواية نفسها ، فقد دارت أحداثها فى هذا الموضوع لتشير بوضوح إلى دور بريطانيا بالذات وعملاء مخابراتها فى مصر .

اسكندرية لورانس داريل

اسكندرية لورانس داريل هى اسكندرية الأربعينيات من القرن العشرين ، هى اسكندرية الحب والحرب ، عندما كانت الحرب العالمية الثانية تدور رحاها ، وكان جنود الانجليز ودول الكومنولث يملئون شوارعها وينتشرون فى طرقاتها وميادينها ، وعندما كانت الجيوش الألمانية على مقربة منها فى الصحراء الغربية تهددها بالغزو والخراب بينما تغير عليها الطائرات الألمانية وتقذفها بالحمم وتحيل ليلها إلى نهار دام ، اسكندرية لورانس داريل هى اسكندرية الأجانب الأوروبيين المقيمين بها والذين استوطنوها وأعمروها ، إنها اسكندرية ميليسا وجوستين وكليا ودارلى وبيرسواردن وماونتوليف وبالتازار وأسرة الحسنانى القبطية (نسيم وناروز وليلى) أيضا ، إنها اسكندرية شارع فؤاد والنبى دانيال ولازاريطة والشاطبى وقلب المدينة ، الميدان ومحطة مصر وشارع التتويج وكوم الشقافة ورأس التين والكورنيش العتيد واسكندرية العجمى وبحيرة مريوط وأبو صير والصحراء الممتدة غربها ، إنها اسكندرية الموالد والضروح وأعياد القديسين وقارئات الكف والعرافات وبنات الليل والهواة ، إن روائح البخور والقرفة تتصاعد من أثناء وصفه للموالد وترى المجنوبين والرفاعية والدراويش والرقص السودانى ، وفى صوره الغريبة ، إنها أيضا اسكندرية الخيال السياسى والمؤامرات والدسائس السياسية والطابور الخامس وألاعيب الاستعمار الانجليزى والمخابرات البريطانية للتفرقة بين عنصرى الأمة ومؤامرات اليهود المصريين لإنشاء دولة اسرائيل، إنها مدينة التاريخ التى اختلط فيها الحاضر المصرى والأوروبى مع الماضى الفرعونى الهيلينى بينما همش تاريخها العربى وكأن لم يكن .

اسكندرية لورانس داريل . هى اسكندرية مبدع غريب عنها ، ينتمى إلى ثقافة غربية متعجرفة ومتعالية ، صنعها كاتبها ونسج سطورها من جغرافيا المدينة وتاريخها من منظور ثقافته الأوروبية الاستعمارية النرجسية الذات ، ولكن داريل أبدع رواية رائعة ، فمن النادر أن يأتى أديب بمثل تلك العمارة الرائعة والنسيج المتشابك المتنوع من الشخصيات والأحداث ، إن رباعية داريل ابداع نادر ، حصل فيه العديد من الدارسين ، مصريون وأجانب ، على درجات الدكتوراه ، واستطاع أن يخلد الاسكندرية من وجهة نظر كاتب غربى رحالة متعدد الثقافات ، فريد الاسلوب عميق البصيرة .

الاسكندرية بين لورانس داريل ونجيب محفوظ

قد يبدو من الغريب أن تقارن بين أديبين ذوى خلفيتين ثقافيتين مختلفتين تماما ، أحدهما مصرى لغة ابداعه هى اللغة العربية والآخر بريطانى ويكتب بالانجليزية ، ولكن الأديبين أبناء جيل واحد نجيب محفوظ (١٩١١) ولورانس دوريل (١٩١٢ - ١٩٩٠) ، ثم أن أحدهما حصل على جائزة نوبل فى الأدب والثانى كاد أن يحصل عليها، وكلا الأديبان تربع على قمة الرواية فى جيله ولغته الأم .

وقد يكون طريق المقارنة بين الأديبين محفوفاً بالمخاطر ولكن الاسكندرية ظهرت فى أعمال الأديبين بوضوح واشتهر أحدهما شهرة فائقة لأنه كتب رباعية الاسكندرية (لورانس داريل)، إذن فهناك على الأقل مساحة مشتركة بينهما - ألا وهى الكتابة الروائية عن الاسكندرية وهنا تقل المخاطرة عندما تكون المقارنة بهدف التركيز على كيفية ظهور الاسكندرية فى الانتاج الأدبى لكل منهما عن المدينة - مدينة التاريخ - وربما

التقينا فى هذا الطريق - بأشياء أخرى تجمع بينهما - أقول ربما . وغنى عن القول أن اسكندرية لورانس دوريل هى الاسكندرية كما رآها وعاشها مبدع أجنبى لا ينتمى إليها ، أما اسكندرية محفوظ فهى الاسكندرية أيضا ولكن بعين ومشاعر وفكر مصرى كتبها مبدع مصرى شديد الانتماء إلى بيئته المصرية (انظر اسكندرية نجيب محفوظ لكاتب هذا السطور - الهلال نوفمبر ٢٠٠٤) .

وعلى الرغم من الاختلاف الكامل فى التفاصيل بين الكاتبين ، فإن اسكندرية نجيب محفوظ تبدو فى منظورنا المتواضع - امتدادا فى البعد الرابع - فى الزمن - لاسكندرية لورانس داريل .

تدور أحداث رباعية الاسكندرية فى الأربعينيات من القرن الماضى وأما اسكندرية نجيب محفوظ فتدور أحداث رواياتها فى الخمسينيات والستينيات من نفس القرن ، وإذا كانت اسكندرية داريل هى اسكندرية الأجانب الذين استوطنوا المدينة وجاءوا من أوروبا باحثين عن الرزق والعمل وربما لائذين بها من حرب أو اضطهاد وباحثين فيها عن الأمان وهى أيضا اسكندرية الباشوات وأثرياء القطن وأصحاب البنوك والقصور ورواد البورصة ، فإن اسكندرية نجيب محفوظ هى اسكندرية من تبقى من هؤلاء الأجانب ، اسكندرية الأجيال التالية من أبناء الباشوات وأثرياء القطن من المصريين، وهى أيضا اسكندرية الغرباء من أهل البلد المصريين الذين جاءوا إلى المدينة لائذين بها وربما باحثين عن الرزق والأمان أيضا فى أحضانها .

اسكندرية لورانس داريل هى اسكندرية السياسة الحب والحرب والغارات وحشود الجنود وما جاءت به الحرب من بارات وبغاء وجنون ، أما اسكندرية نجيب محفوظ فهى أيضا اسكندرية السياسة والحب ، اسكندرية محفوظ هى اسكندرية المصريين من ضحايا حركة التطهير والتأميم والاشتراكية المنسوخة والممسوخة من أفكار ماركس ولينين والاشتراكيين المصريين ، وهى أيضا اسكندرية الوفديين السابقين وأعضاء الاتحاد الاشتراكى الجديد ، إنها اسكندرية الساسة القدامى قبل ثورة ١٩٥٢ والجدد بعد الثورة ..إنها اسكندرية الصراع مع التاريخ ، والتحول من الملكية إلى الثورية ، اسكندرية الانسلاخ من ثقافة مختلطة وأوروبية غالبة إلى ثقافة مصرية خالصة .

وإذا كانت هناك مساحة مشتركة بين الكاتبين فى انتاجهما الروائى عن الاسكندرية فهو فى شبهة اتفاقهما على شخصية الاسكندرية وطبيعتها المزدوجة ، فكما سجل نجيب محفوظ ازدواج شخصية الاسكندرية فى رواياته السمان والخريف وميرامار والطريق فى أكثر من موضع وبأكثر من اسلوب سواء فى وصف المدينة أو على لسان أبطال هذه الروايات كما سجل ادعاء ساكنيها من الأجانب بامتلاكها وانتمائها إلى أوروبا (ميرامار) ، فقد سجل لورانس داريل أيضا هذه الازدواجية أيضا وبقوة - فى رباعيته فى أكثر من موضع وبأكثر من طريقة أيضا ، بل وتجاوزها إلى أن الاسكندرية تنتمى إلى أوروبا بأكثر مما تنتمى إلى مصر بينما همش انتماءها العربى تماما .

وإذا كانت السياسة هى إحدى محاور اسكندرية داريل ، فهى أيضا إحدى محاور اسكندرية نجيب محفوظ (كما ظهر فى السمان والخريف وميرامار) . وإن اختلف الكاتبان تماما فى التفاصيل .

لقد تعرض الأديبان لتأثير المجال السحرى لمدينة التاريخ - الاسكندرية - ولكن فى أزمنة مختلفة ، جمعتهما جغرافيا المدينة وعبقرية مكانها وأسرهما تاريخها فأبدعا نسيجين مختلفين من الأدب المتفرد ، أبدعا عالمين من الفن والخيال لمدينة واحدة شامخة قائمة فى موقعها التاريخى على مر الزمان . ■

تأديب المشاغب بين أهل الغناء





بيرم التونسى وأبو بثينة

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

يزخر تاريخ مصر الحديث بالعديد من معارك - وإن شئنا الدقة - مذابح شعراء الأغانى، وسوف تعرض مجموعة مقالات «أشهر المعارك الفنية بين أهل الغناء» لاثنتين من هذه المعارك، وذلك لطرافة وقائعهما ولاختلاف أسبابهما، فبينما دارت الأولى - وهى موضوع المقال الحالى بين أنصار الزجال الشهير: أبو بثينة وشاعر العامية الكبير: محمود بيرم التونسى، فإن الثانية - التى وقعت بعد الأولى بسنوات طوال - احتدمت بين مجموعة من شعراء الأغانى تزعمها الشاعر والكاتب الصحفى: جليل البندارى والشاعر الغنائى الرقيق: مرسى جميل عزيز، كانت المعركة الأولى بمثابة حملة لتأديب شاعر العامية الكبير، ودارت بعدها المعركة الثانية على طريقة «امسك حرامى»، التى يتداعى لها الجميع فى الأحياء الشعبية، دون أن يعرف أحد من اللص وماذا ومتى سرق!.

ولد محمود محمد مصطفى بيرم الشهير بمحمود بيرم التونسى فى الرابع من مارس عام ١٨٩٣م، وجاء ميلاده فى أحد منازل حارة (السيّالة) بحى الأنفوشى الشعبى فى مدينة الإسكندرية، اكتسب الفتى محمود بيرم من نشأته بحى الأنفوشى بين البسطاء والكادحين الاحساس الصادق بالرجولة والأصالة والقوة، وهو إحساس اغتذى بكفاح أهل الحى فى سبيل لقمة العيش، ذلك الكفاح الذى كثيرا ماتتخلله المشاحنات والمعارك التى يمكن أن تعد بمثابة ملح الحياة فى الأحياء الشعبية، لم يتلق الفتى محمود بيرم تعليما منتظما، حيث اقتصر تعليمه على مبادئ العلوم الدينية التى تلقاها فى كتاب الشيخ جاد الله بزاوية الشيخ خطاب فى حى الأنفوشى، ثم واصل تعليمه الدينى بعد ذلك فى مسجد المرسى أبى العباس، ولما كان أفراد أسرته - التى تنتمى إلى تونس - من التجار، فإنه بدأ حياته العملية - أثناء تعليمه الأولى - كبائع فى متجر للمنسوجات امتلكه والده فى حى الأنفوشى، ولكنه انقطع عن الدراسة بعد وفاة والده، واضطر تحت ضغط الحاجة وتنكر أبناء عمومته للعمل فى وظائف صغيرة، حتى جاءت لحظة التحول فى حياته ومستقبله فى بداية عام ١٩١١م، فقد توفيت والدته قرابة منتصف عام ١٩١٠م، فعمل بما آل إليه من ميراث والدته فى تجارة صفائح السمن بالجملة، ولكنه توقف عن تجارته الناجحة وبالرغم مما حقق فيها من مكاسب، وذلك تحت وطأة الضرائب الكثيرة التى كانت تفرض على التجار من قبل المجلس البلدى لمدينة الاسكندرية، وهو مجلس مكون فى تلك الآونة من غالبية من الأعضاء الأجانب، فحرك الموقف كوامن الموهبة فى نفسه، تلك الموهبة التى اغتذت بنهم شديد للقراءة، فكتب محمود بيرم أولى قصائده أو أزجاله فى هجاء المجلس البلدى، ونشرها فى صحيفة «الأهالى» التى كان يصدرها عبدالقادر حمزة (أحمد يوسف أحمد : فنان الشعب ... بيرم التونسى، ص ٨ - ١١)، وهى القصيدة الشهيرة التى غدت منذ نشرها على كل لسان بمصر وكان مطلعها :

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدى

تضافرت عوامل النشأة والموهبة والبيئة لتشكل شخصية الشاب محمود بيرم - الذى اشتهر من بعد قصيدته الأولى باسم بيرم - فى قالب الثائر والمتمرد، وجاءت أحداث ثورة عام ١٩١٩م ليتفاعل معها بيرم ولتزداد حدة الثورة والتمرد فى نفسه، فى تلك الأيام

الملتهبة بالمشاعر والأحداث، سرت شائعة بين المصريين عن علاقة عاطفية جمعت بين ابنة السلطان أحمد فؤاد (الملك فؤاد الأول فيما بعد): الأميرة فوقية ومحافظ القاهرة آنذاك: حسين باشا فخرى، وتضيف الشائعة إلى ذلك أن محافظ القاهرة رفض طلب السلطان إليه أن يتزوج بالأميرة، فجاء الحل فى زواج شقيق المحافظ.... محمود باشا فخرى: سفير مصر بفرنسا من الأميرة! (المصدر السابق: ص٧٣)، من ذلك الموقف الذى يفيض بالتناقضات... أطلق بيرم زجله الأشهر (البامية السلطانى) فى العدد الأول من مجلة «المسلة»، التى كان بيرم هو صاحبها ومحررها ومنفذها وموزعها، لقد أراد بيرم بزجله هذا أن يشارك فى الثورة، وأن يتبع أسلوب (فتوات الأنفوشى) بتحطيم (الكلوب) – على حد قوله – لإفساد الفرح، بدأ بيرم زجله بالأبيات التالية:

البنت ماشية من زمان تتمخطر
والغفلة زارع في الديوان قرع أخضر
تشوف حبيبها في الجاكيتة الكاكي
والستة خيل والقمشجي الملاكي

وبلغ بيرم مايهدف إليه فى البيت التالى:

الوزة من قبل الفرح مدبوحة
والعطفة من قبل النظام مفتوحة

وعندما رزق السلطان أحمد فؤاد فى مساء الأربعاء ١١ فبراير من عام ١٩٢٠م بابنه: الأمير فاروق، تناقلت جماهير المصريين ورقة صغيرة جعل عنوانها «المنشور الصغير»، تضمنت تلك الورقة تعريضا بمولد الأمير فاروق، لأنه – وعلى حد زعم المنشور – قد حدث قبل تمام سبعة أشهر من زفاف السلطانة إلى السلطان (محمد على غريب: الاذاعة – العدد ١٠٦٥ – ١٩٥٥/٨/١٣ – ص٢٢)، فتلقف بيرم ما حواه المنشور وصاغة فى زجل جاء فيه:

ياباديشاه دا إنت إبنك ظهر
ربك يبارك لك في عمر الغلام
نزل (يلعلط) تحت برج القمر
ياخسارة بس الشهر كان مش تمام

وباديشاه كلمة فارسية معناها السلطان ويلعلط كلمة عامية تعنى يتألق أو يلتمع، كان غضب السلطان فؤاد الأول من هذا الزجل عظيما، مما نتج عنه نفى بيرم إلى تونس فى يوم عيد الأضحى: الأربعاء ١٠ ذو الحجة عام ١٣٣٨هـ الموافق ٢٥ أغسطس من عام ١٩٢٠م.

العودة من المنفى

امتدت غربة بيرم فى المنفى الذى تغير بين تونس وفرنسا والسنغال ولبنان وسوريا إلى عام ١٩٣٨م، وعندما عاد إلى مصر فى ذلك العام متسللا، إتفق محمد محمود باشا – رئيس الوزراء آنذاك – مع وزير الداخلية: محمود فهمى النقراشى باشا على تجاهل عودة بيرم والتستر

عليها، ورويدا مضى بيرم يمارس حياته ويشارك بأزجاله فى سوق الغناء المصرى، كانت ساحة الغناء المصرى قد شهدت ظهور العديد من الشعراء أثناء اغتراب بيرم فى منفاه، ومن هؤلاء ... محمد عبدالمنعم الذى ولد فى عام ١٩٠٥م وكتب أزجاله متخذا اسم «أبو بثينة»، وقد بلغت شهرته إبان سنوات الثلاثينيات حدا جعل البعض يلقبونه «أمير الزجالين»، وقد تدعمت هذه الشهرة بحصوله على جائزة الزجل الأولى فى مؤتمر الزجل العربى الأول، وهو المؤتمر الذى عقدت أولى جلساته مساء الثلاثاء ١٦ أكتوبر عام ١٩٤٥م فى فندق «القاهرة» ببلدة ضهور الشوير فى جبل لبنان، ومن الشعراء الذين لمعت أسماءهم فى عالم الغناء أثناء نفى بيرم... فتحى محمد قورة الذى ولد فى ١٩ أكتوبر من عام ١٩١٩م وعرف الشهرة بكتاباته فى الصحف والمجلات الفكاهية مثل «البعكوكة» و«المطرقة»، وبالرغم من كثرة من شهدت مصر ميلادهم من شعراء غنائيين فى السنوات التى غابها بيرم، إلا أنه عاد ومنذ عام ١٩٣٩م ليلقف بموهبته العديد من الأعمال الغنائية فى المسرح والسينما والاذاعة، ومن هذه الأعمال فى مجال المسرح نذكر ما يلى: أوبريت «مايسة» التى قدمتها فرقة أوبرا ملك على مسرح برنتانيا فى ١٩٤٠/١٠/٣ - أوبريت «مدام بترفلاى» التى قدمتها فرقة أوبرا ملك على مسرح أوبرا فى مارس عام ١٩٤٢م - أوبريت «يوم القيامة» التى عرضتها الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى فى موسم ١٩٤٢/١٩٤٣م وأوبريت «عزيزة ويونس» التى كانت بين أعمال الفرقة المصرية للتمثيل والسينما فى موسم ١٩٤٤/١٩٤٥م (عبدالغنى داود: بيرم التونسى قيثارة الفن - كتاب الهلال - يونية ٢٠٠٣م)، ومنذ عودته إلى مصر فى عام ١٩٣٨م... تولى بيرم صياغة الكثير من أغنيات الأفلام الغنائية والاستعراضية التى راجت إبان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م)، وهى أغنيات جاءت فى سياق أفلام مثل: (بياعة التفاح: ١٩٣٩) - (يوم سعيد: ١٩٣٩) - (الورشة: ١٩٤٠) - (انتصار الشباب: ١٩٤١) - (أحلام الشباب: ١٩٤٢) - (رابحة: ١٩٤٣) - (غرام وانتقام: ١٩٤٤) و(سلامة: ١٩٤٥)، وفى مجال الأغنية الإذاعية... قدم بيرم أجمل وأخلد أغنيات أم كلثوم بعد عودته من منفاه، ومن هذه الأغنيات نذكر: (أنا وإنت: ١٩٤١) - (الآهات: ١٩٤٣) - (حبيبى يسعد أوقاته: ١٩٤٣) - (أنا فى انتظارك: ١٩٤٤) و(الأولة فى الغرام: ١٩٤٤)، كان المتضررون من عودة بيرم التى أضاعت عليهم أعمالا كالتى ذكرت هنا كثرة من الشعراء، يجئ فى مقدمة هذه الكثرة أحمد رامى الذى كتب معظم أغنيات أم

كلثوم فى العشرينيات والثلاثينيات، وها هو بيرم يعود ليشاركه منجم إعجاب جمهور كوكب الشرق، بينما يأتى أبو بثينة بعد رامى فى قائمة المتضررين، لأنه بعودة بيرم... عرف الناس من هو أمير الزجالين الحقيقى!.

بداية المعركة

لم يكن هذا الاكتساح (البيرمى) لعالم الغناء ليمر دون أن يثير ولو مشاعر الغيرة فى نفوس البعض من الشعراء، ولكن التنفيس عن هذه المشاعر لم يكن ليتطلب أكثر من فرصة مناسبة، وقد تولى بيرم تقديم الفرصة بنفسه، حدث ذلك بعد عودة بيرم إلى مصر - سرا - فى صيف عام ١٩٣٨م، حيث وافقت عودته احتفال الهيئات الرسمية فى مصر بعيد الجلوس الملكى (٦ مايو من كل عام)، وفى احتفال الإذاعة بهذه المناسبة، ألقى أبو بثينة بزجل على الهواء مباشرة من دار الإذاعة، فأثار دهشة المستمعين بخروجه عن تهنئة ملك البلاد بعيد جلوسه ليستعطفه كى يعفو عن بيرم بقوله:

مولاي بيرم أساء
لنفسه في عهد جهله
وتاب ونال الجزاء
اعطف عليه لجل أهله
مالوش أمل أو تمني
غير إنه يوم قبل موته
في عيد جلوسك يهني
ولصوتنا ينضم صوته

غضب بيرم لمبادرة أبى بثينة التى لم يطلبها منه، وبعد أن بث شكواه لأصدقاء أبى بثينة، جاء رده فى مجلة «الامام» الى كان يصدرها الدكتور أحمد زكى أبو شادى، فكان مما قاله بيرم فى أبى بثينة:

خراب ما يحتاج لمعاينة
وفن بابر وأهي باينة
أميري جوز أم بثينة
وأنا الرعية أنا وعيالها

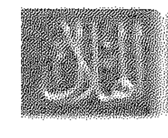
وكان هذا بالضبط ما يريده أبو بثينة وصحبه لتبدأ المعركة، تلك المعركة التى دارت وقائعها على صفحات مجلة «الراديو والبعكوكة»، وبدأت بمقال للشاعر مصطفى عبد الرحمن جاء تحت عنوان: «بيرم التونسى... شاعر أغاني وخلافه»، نشر المقال بالصفحة السابعة من العدد رقم (٦٦٩) من المجلة والذى صدر فى ١٩٤٥/٤/١٥م، هاجم مصطفى عبدالرحمن فى هذا المقال البعض من أغنيات بيرم التى تضمنتها أحداث فيلمى «برلنتى» الذى عرض فى ١٩٤٤/١/٢٤م و«المظاهر» الذى بدأ عرضه فى ١٩٤٥/٤/١م، فكان مما قاله مصطفى عبدالرحمن فى ثنايا مقاله: «ليشتم بيرم مصطفى عبدالرحمن كما شاء، ولكنى أتوسل إليه ألا يحارب مصر فى سمعتها وكرامتها، فهو بهذه الأغانى التى تحملها الأشرطة السينمائية يجنى على مصر أكبر جناية»، وبعد أن استعدى مصطفى

عبدالرحمن من بيدهم الأمر لاصدار أوامر عسكرية بالحبس والغرامة على «مرتكبي» هذه الأقوال» على حد قوله، فإنه قدم بعد ذلك نماذج لتلك الأقوال من أغنيات: «نشيد بنات الجامعة» - «قول معايا واترحم» و«أنا روميو» التي كتبها بيرم في هذين الفيلمين .

ثم تكرر الهجوم على أغاني الأفلام التي صاغها بيرم في مقال آخر، كتب المقال الذي جاء في الصفحة السادسة من العدد رقم (٦٨٠) من مجلة «الراديو والبعكوكة» والصادر في ١٩٤٥/٧/١م وتحت عنوان: «الشعر الغنائي يحتضر - انقذوه من إسفاف بيرم التونسي)... الشاعر فتحي قورة، تناول فتحي قورة في مقاله أغنيات: «كل الأحبة» - «غني لي شوي شوي» و«ليه يابنفسج» بالنقد والتجريح، فكان مما قاله عن أغنية صالح عبدالحي الشهيرة «ليه يا بنفسج»: «فكيف يصف البنفسج بأنه حزين؟، ليس هناك سبب سوى (الجليطة) التي اشتهر بها بيرم»، والجليطة كلمة عامية مصرية تعني تدني الذوق وتبلد المشاعر، ولم تكتف المجلة في عددها رقم (٦٨٠) بمقال فتحي قورة في معرض الهجوم على بيرم، فأفسحت صفحاتها لمقال ثان بعث به عبدالرحيم عثمان صارو: مأمور المحكمة المختلطة بأسيوط!، هاجم مأمور المحكمة بيرم في مقاله واتهمه بسرقة مطلع أغنية «من يوم ما عطف عليه» في فيلم «برلنتي» من مقطع من أغنية للشاعر الراحل عبدالوهاب حلمي .

تحول المعركة إلى مذبحة

تصاعدت حدة المعركة عندما كتب فتحي قورة مقالا بعنوان: «بيرم التونسي أو الطبل الأجوف» في الصفحة الثانية من العدد رقم (٦٨٢) من مجلة «الراديو والبعكوكة» الصادر في ١٩٤٥/٧/١٥م، فكان مما قاله فتحي قورة في هذا المقال: «لقد جنى بيرم التونسي على الغناء جناية لاتغتفر، وانحط به انحطاطا لم يشهده عصر من جميع عصوره، ورجع به إلى الوراء بشكل فاضح يدعو إلى الشفقة والرثاء»، جاء ذلك ردا على هجوم بيرم على أحمد رامي والذي قال فيه: «إن رامي قد هوى بأم كلثوم إلى الحضيض»!، وقد جاء هجوم بيرم على رامي لاعتقاده أن رامي هو المحرك الحقيقي للمعركة التي بدأها ويقودها أبو بثينة ضده، ثم أدلى الشاعر عبدالله أحمد عبدالله (ميكي ماوس) بدلوه في المعركة التي بدأت في التحول إلى مذبحة، فقال في مقال يحمل عنوان: «بيرم التونسي ومشاييده» ونشر بالعدد رقم (٦٨٣) من «الراديو والبعكوكة»: «إن الاستاذ بيرم التونسي قد انتهى أدبيا، وأصدر بنفسه حكم الاعدام الأدبي ضد نفسه... منذ عاد من المنفى، أين حلاوة أزجال بيرم القديمة؟، أين سلاسة أسلوبه التي كنا نقرأها له عبر



البحار؟، أين معانيه الجميلة التى لمسناها فيما كتبه حنينا إلى الوطن من منفاه؟، كل هذا قد تبخر، مات بيرم الفنان، ليولد بيرم المؤلف الميكانيكي والشاعر المادى والزجال الذى يقول: «وأدى أجرتك قرش مصدى»، والذى يقول الكلام المرصوص فى أغاني: (العنوا إبليس) - (واحنا سبعتاشر مليون) و(يا بنات الجامعات) بما يتخلله من كسر وزحاف وعلل!».

التقط فتحى قورة خيط الهجوم على معانى أغنيات بيرم الذى سار عليه عبدالله أحمد عبدالله فى مقاله، فكتب فتحى قورة مقالا فى العدد التالى من «الراديو والبعكوكة» (٦٨٤) وجعل عنوانه: «بيرم التونسى وصبيانه: ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾!، تناول فتحى قورة فى مقاله هذا أغنية «أنا فى إنتظارك» وبعض أزجال بيرم التى قالها فى منفاه بالنقد والتجريح، فكان مما قاله عن أغنية أم كلثوم الشهيرة: «وإذا استثنينا كلمات (اتقلب) و(جمر) و(أتشرد) وما فيها من سخافة وركاكة، فلا يمكن أن نسكت عن تخيل المعنى الذى يرمى إليه، إنه أقرب إلى الأدب المكشوف منه إلى أى شئ آخر، وهذا القول لو قاله رجل لأخذناه، فما بالك والتى تغنيه مطربة كبيرة؟»، وأما ما أخذه فتحى قورة على ما تضمنته أزجال وأغنيات : «حتجن ياريت يا إخوانا مارحتش لندن والا باريز» - «عزيزة ويونس» و«السيد ومراته فى باريس»، فقد جاء فيه مالا يمكن أن ينشر فى مطبوعة الآن!.

نماذج من الهجوم الأخير

توالت مقالات الهجوم على بيرم من معسكر أبى بثينة فى أعداد «الراديو والبعكومة» حتى الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر من عام ١٩٤٥م، ومن هذه المقالات نذكر: «بيرم التونسى الأديب المؤدب» لأبى بثينة فى العدد رقم (٦٨٧) «بيرم التونسى فى الميدان» لأنور عبدالله فى العدد رقم (٦٩٢) - «بيرم التونسى كما عرفته» لحسن إمام عمر فى العدد رقم (٦٩٣) - «بيرم التونسى ... المؤلف الذى فشل » لفتحى قورة فى العدد رقم (٦٩٦) - «بيرم التونسى ... ناكر الجميل أيضا» بدون اسم لكاتبه فى العدد رقم (٦٩٧) و«بيرم التونسى... رجل ممتاز!!» لحلمى سلام فى العدد رقم (٧٠١) الصادر فى ٢٥/ ١١/ ١٩٤٥م، إن الانطباع الذى يخرج به القارئ لهذه المقالات، لا يخرج أبدا عن أن المرحلة الأخيرة من ذبح شاعر غنائى قد أوشكت على الانتهاء إن لم تكن قد انتهت بالفعل.

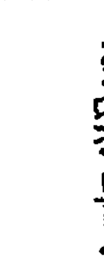
إن عرض نماذج لكل ما حوته مقالات الهجوم الأخير فى هذه المعركة أو المذبحة من طعن وتعريض لبيرم وأعماله لأمر يضيق به المجال هنا، ولكن الاستعانة بنموذج واحد قد يكون كافيا هنا للتدليل

هنا على ما حاوله كاتبو تلك المقالات من التعريض بأزجال بيرم واستعداء العامة قبل الخاصة عليه، يجئ هذا النموذج فيما كتبه أبو بثينة فى مقال «بيرم التونسى الأديب المؤدب»، حيث قال: «لست بأعز من علماء مصر الذين سبهم بيرم بمقالات متتابعة عنوانها (فك الحصر على علماء العصر)»!، ثم يضيف أبو بثينة إلى ذلك فيقول: «ولست بأعز من مفتى الديار المصرية المغفور له الشيخ محمد بخيت الذى قال فيه بيرم: ياشيخ طماطم يازرع بدرى/ جتك البلا فى وشك المجدر»!، ويختتم أبى بثينة مقاله متحديا بيرم بقوله: «ولكنى أتحداك أن تأتى فى أزجالى بلفظ مماثل لألفاظك، فإذا جئتنى بهذا اللفظ.... اعترفت لك بأنك أستاذى فى السفاهة»!، على أن أطرف ما جاء فى الهجوم الأخير من طعنات... هو ما جاء بالعددين رقم (٦٩٦) و(٦٩٨) من «الراديو والبعكوكة»، فقد أعادت المجلة فى عددها، رقم (٦٩٦) الصادر فى ١٩٤٥/١٠/٢١م نشر زجل لبيرم قدمته «أخبار اليوم» فى عددها الصادر فى ١٩٤٥/١٠/١٢م، كان نص الزجل الذى نقلته «الراديو والبعكوكة» عن «أخبار اليوم» كما يلى:

مستشفيات البلد جايبين لها بشوات
من كل باشا علي صدره عشر نشانات
لكن يجي لها الممرض من ورا المحرات
قاتل تمانية ودافن بالحيا عشرات
يسمع شكاة العليل آهات علي أنات
حالا يرد الجواب زغدات علي لعنات
والضهر ياكل غداه لو كان غداه كرّات
ويحرمه من دواه لو كان دواه سلوفات
العيانين جايه تتداوي من الآفات
لكن يباتوا الليالي يحسدوا الأموات

ثم أتبعت المجلة هذا الزجل بتعليق قالت فيه: «ولا نظننا بحاجة إلى إظهار ما فيه من ركاكة وسخف وطعن فى طائفة من الناس هى طائفة (التمرجية) الذين يؤدون للمرضى أجل خدمة»، وجاء رد هيئة التمريض على تحريض «الراديو والبعكوكة» سريعا، ففى العدد رقم (٦٩٨) الصادر فى ١٩٤٥/١١/٤م نشرت المجلة زجلا أرسل به ممرض بمستشفى حميات العباسية يدعى أحمد محمد شعبان، قال الممرض – الذى قد لا يكون له وجود بالمرة – فى زجله مهاجما بيرم:

هو الكلام ع الممرض يبقي أغنيات
لما الزمان ينعكس ويبدل الآيات
حال الأغاني اتوقف ولا أنت سوقك فات؟
عمّال تألف يابيرم كل ليلة وتبات
وتدور تلف البلد في اليوم سبع لفات
ولا تلاقيش حدّ شاري ولو خمس كلمات
فن الزجل اشتكي منك يابو الآهات
الدنيا عارفة الممرض له تلات جنات
وياما شهدوا بفضله محرومين وذوات
يخدم ف وسط الخطر عدوي وحميات
ومين يطول الثواب ده خمسميت هيهات
خليك في نفسك وقول ع الحب والحبيبات



ياناكر الفضل لي معاك تلات كلمات
لولا المرض لكنت بقيت من الأموات

هكذا تنوعت الأيدي التي وجهت طعنات الهجوم الأخير إلى بيرم، فما بين شاعر غنائي وكاتب وحتى ممرض توالت الطعنات، وجاءت الطعنة الأخيرة في مقال الكاتب المعروف: حلمي سلام في العدد رقم (٧٠١) من مجلة «الراديو والبعكوكة» الصادر في ١٩٤٥/١١/٢٥م، وبصدور هذا المقال.... توقف الهجوم الأخير على بيرم من فوق صفحات «الراديو والبعكوكة»، ومضت الأيام لتجر على أحداث هذه المعركة ذيول النسيان.

أسباب ما جرى

قبل أن نناقش هنا ماقد يكون أسبابا لهذه المعركة، فإن من المهم أن نسجل قبلا ملاحظة عامة جديرة بالاعتبار عنها، تتمثل تلك الملاحظة في أن هذه المعركة قد جرت أحداثها على صفحات «الراديو والبعكوكة» وكأنها تحدث من طرف واحد، وهو بالطبع معسكر أبي بثينة، لأن الطرف الثاني - وهو بيرم - لم نطالع رده أو دفاعه عما وجه اليه، اللهم الا بعض التعليقات التي نسبتها إليه الأقلام المهاجمة وجاءت في سياق مقالات الهجوم عليه، ويمكن القول بأن السبب في ذلك يعود إلى حياة التخفي التي عاشها بيرم منذ عودته إلى مصر في عام ١٩٣٨م، ففي عام ١٩٤٥م - وهو العام الذي دارت فيه هذه المعركة - لم يكن العفو الملكي قد صدر بعد عن بيرم، ولم يصدر أبدا مثل هذا العفو طوال ما تبقى للملكية من سنوات في مصر، كان الموقف آنذاك يتبلور في أن القصر يعرف - ومن قبله كانت وزارة الداخلية تعلم - أن بيرم قد عاد إلى مصر، ولكنهما - القصر والوزارة - يغضان الطرف عن تسلل بيرم وحياته الخفية في مصر، ربما لجعله يعيش إحساس المطارد ولا يرتفع عن كاهله خوف إعادة النفي، كي لا يطلق إحساس الأمان بعد العفو عنه لسانه من عقاله، فيعود لتكرار ما قاله في الأب مع الابن الذي كانت حكاياته على كل لسان، أيضا... فان تأخر العفو الملكي المنتظر.... كان حافزا لبيرم كي يبذل الأزجال والأغنيات استرضاء لملك البلاد، ولقد أثمرت تلك السياسة في دفع بيرم لنظم بعض الأعمال الغنائية عن الملك فاروق، ومن تلك الأعمال نذكر ما يلي: طقطوقة «الله يخلي الفاروق للأمة يحييها» التي لحنها فهمي فرج وتغنى بها إبراهيم جاب الله وفرقته في مساء الثلاثاء ١٩٤١/٤/١م، وطقطوقة « في أوان الورد» التي لحنها زكريا أحمد من مقام البياتي وشدت بها أم كلثوم في حفل أقيم بدار الأوبرا الملكية مساء الأحد ٦ مايو من عام ١٩٤٦م، وكانت مناسبة الحفل هي عيد الجلوس الملكي لذلك العام، وهكذا أثمر تأخر العفو الملكي عن بيرم في

تحويله من ثائر على الملك فؤاد الأول إلى مهادن ثم متزلف لنجله الملك فاروق الأول، ولكنها غربة النفي ومرارة التشرد... مما لا يعرف مذاقهما إلا من اكتوى بهما.

يمكن القول بأن هذه المعركة قد اندلعت لأسباب ثلاثة، وأول هذه الأسباب هو تضرر رامي ومن شارك في المعركة من شعراء بعودة بيرم إلى مصر، ولنضرب مثلا هنا بتأثر رامي بعودة بيرم، فبعد أن كان رامي يكاد ينفرد بنظم أغنيات أم كلثوم في سنوات المنفى التي قضاها بيرم خارج مصر، حتى أن أعواما مثل ١٩٢٦ و١٩٣١ شهدت نظم رامي لعشر أغنيات في كل عام لأم كلثوم، ومنذ عودة بيرم... اتجهت أم كلثوم إلى أزجاله لما وجدت إقبال الناس عليها عظيما، ولعل ما سجلته الأعوام منذ ١٩٤٢ من تنامي اعتماد أم كلثوم على أغنيات بيرم حتى بلغ ما غنته من نظمه في عام ١٩٤٥م ثمان أغنيات (د . إيزيس فتح الله ومحمود كامل: أم كلثوم - موسوعة أعلام الموسيقى العربية - المركز القومي لتوثيق التراث الحضاري والطبيعي - دار الشروق - ٢٠٠١م)، لعل في ذلك ما يؤكد ويدعم هذا السبب، وأما السبب الثاني ... فانه يرجع إلى ما تضمنته أزجال بيرم من ألفاظ ترفضها أذواق الطبقة الراقية وتتقبلها أذواق العامة التي بدأت تشكل الغالبية بين متذوقي الغناء منذ بدء الحرب العالمية الثانية، إن كثيرا من الألفاظ التي رصع بها بيرم أزجاله جاء بها من أعماق الحارة المصرية، لا يستطيع ناظم الآن أن يدرجها في سياق عمل والا كان المنع والمصادرة مصير عمله، وأما ثالث الأسباب... فيمكن أن يعزى إلى محاولة البعض - ممن هاجموا بيرم - جذب إنتباه القصر اليهم، عندما يظهرون وكأنهم الأمناء على المبادئ والأخلاق ولقيامهم بتأديب المشاغب .

لقد خرج بيرم من هذه المعركة - وبالرغم من غياب صوته فيها - بأقوى مما كان عند بدئها، وزاد إقبال أم كلثوم وكبار المطربين والمطربات على غناء أزجاله، حقيقة أنه لم ينل عفو القصر كما أسلفنا، ولكنه سعد بمنحه الجنسية المصرية - وهو المصري المولد والأسرة والنشأة - من حكومة الثورة في عام ١٩٥٤م، وعندما توفي محمود بيرم التونسي في يوم الخميس الخامس من يناير عام ١٩٦١، كان قد تلقى قبل وفاته بأيام وسام العلوم والفنون من الزعيم جمال عبدالناصر في احتفال عيد العلم الذي أقيم في ديسمبر من عام ١٩٦٠م، وفي صبيحة يوم جنازته - يوم الجمعة ١٩٦١/١/٦م، - كتب كمال الملاخ في صحيفة «الأهرام» يقول: «مات بيرم ملك الأغاني الشعبية ... مات بيرم التونسي، الفيلسوف ... عمدة الأدب الشعبي الذي جعل منطق أولاد البلد يرتفع إلى مستوى الحكمة»!. ■



عبد الكريم جرمانوس..

شمس الإسلام تشرق من مكة مرة ثانية

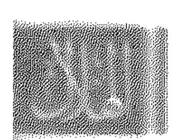
بقلم
عرفه عبده علي

استعداد القوافل
للانطلاق من جدة إلى
مكه - ١٩١٩

الكعبة المشرفة – ١٨٨٠

الرحالة المستشرق المجرى «جرمانوس JCermanus» الذى تعلق قلبه بالإسلام، وفكره بالحضارة الإسلامية والأدب العربى، ولد فى بودابست فى السادس من نوفمبر سنة ١٨٨٤، التحق بجامعة فيينا سنة ١٩٠٥ ثم بجامعة استانبول، صنف كتابا بالألمانية عن الأدب فى العصر العثمانى سنة ١٩٠٦، وألحقه بكتاب عن تاريخ الأتراك فى القرن السابع عشر.

تتلمذ جرمانوس على المستشرقين الكبيرين «فامبيرى» و«جولدتسيهر» وتعلم اللغات اللاتينية واليونانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والمجرية، ومن اللغات الشرقية: الفارسية والأردية والعبرية والأمهرية وأتقن العربية والتركية!



وكان شغوفا لمعرفة تاريخ الشرق الأدنى، فرحل إلى لندن لدراسة المخطوطات التركية بالمتحف البريطاني، وفى عام ١٩١٢، عاد إلى بودابست، أستاذا للغات العربية والتركية والفارسية وتاريخ وحضارة الإسلام بأكاديمية بودابست للدراسات الشرقية، إلى أن أصبح رئيسا لقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بودابست عام ١٩٤٨م.

دعاه شاعر الهند العظيم «طاغور» لإلقاء محاضرات فى التاريخ الإسلامى بجامعات دلهى ولاهور وحيدر آباد فى الفترة من ١٩٢٩ - ١٩٣٢ وهناك أشهر إسلامه فى مسجد دلهى الكبير، وألقى خطبة الجمعة، وتسمى بـ «عبد الكريم» ثم ذهب إلى القاهرة، حيث تعمق فى دراسة الإسلام على شيوخ الأزهر، ثم قصد مكة حاجا وزار ضريح النبى - صلى الله عليه وسلم - وصنف فى حجته كتابه: «الله أكبر» الذى نشر فى عدة لغات .

فى ربيع عام ١٩٥٥، عاد لقضاء بضعة أشهر فى القاهرة والإسكندرية ودمشق، حيث ألقى محاضرات فى الفكر العربى وصور من الأدب المجرى، وعاد مرة أخرى سنة ١٩٥٨ لاستكمال مصادر كتابه عن أدباء الشرق المعاصرين

وكان عبد الكريم جرمانوس عضواً فى عدد من المجامع والهيئات العلمية أنتخب عضواً بالمجمع الإيطالى سنه ١٩٥٢، وأختير عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٦، وفى المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٦٢، وعضوا بمعهد الأبحاث الشرقية بلندن سنة ١٩٧٢ ثم عضوا بأكاديمية علوم البحر الأبيض المتوسط بروما

خواطره عن الإسلام :

خلال إقامة جرمانوس فى الهند - أعلن منها إسلامه - ألف كتابه الشهير التيارات الحديثة فى الإسلام» الذى أعاد فيه إلى الأذهان أمجاد الإسلام، وتحدث بأسلوب صريح عن فترات الضعف والمحن وأسبابها، وبلور أفكار ودعوات المصلحين من أجل نهضة إسلامية حديثة.. وأثار هذا الكتاب ردود فعل إيجابية رائعة فى الشرق والغرب .. كما كان موضع تقدير كبار المفكرين والمستشرقين .. من بينهم فيلسوف الباكستان «محمد إقبال» الذى قدر فيه غيرته على الإسلام وتفاؤله لمستقبل هذا الدين الحنيف وقال كلمته الشهيرة وهو يخاطب جرمانوس» يجب أن تشرق شمس الإسلام من مكة مرة ثانية»!

ويقول «عبد الكريم جرمانوس» عن جوهر الإسلام:

«الإسلام ليس دينا من الأديان .. إنه

الدين الوحيد الذى جاء فى قوله تعالى : «إن الدين عند الله الإسلام» فأنا فى الحقيقة لم أخرج عن دين لأدخل فى دين آخر، وإنما اكتشفت فجأة أننى مسلم، فإذا كنت تعرف الخالق حق المعرفة وتعامل الناس ومن حولك بالمعروف فأنت مسلم بالفطرة، والإسلام هو دين الفطرة، أما الدين الذى يجد الإنسان نفسه عليه بفطرته، والإسلام هو الدين الوحيد الخالى من الرموز، فلا وساطة بين العبد وربه

الحجيج على جبل عرفات - ١٨٨٠



قافلة الحجيج - بيلى ١٨٥٧

لقد قرأت كثيراً فى علم الأديان المقارن ولم أترك دينا سماويا أو وضعياً متطوراً أو بدائياً، إلا وقد تغلغلت فيه تأملته طويلاً وظهرت لى جميع الأديان متكلفة مليئة بالرموز والأساطير والتلفيقات التى يأخذها اتباعها كعقائد جامدة لاسبيل إلى الشك فيها، مع أنها فى الحقيقة

خرافات لاتصمد أمام العقل، ولذلك فهى بالتأكيد إضافات أو تشويهات لحقت بالأديان السماوية فيما عدا الإسلام، فهو خال تماماً من الإضافات والتشويهات والعقائد التى لايقبلها العقل، وهذا دليل على أنه الدين الصحيح أو دين الأديان أو ذروة اكتمال الفكر الدينى لدى الإنسان فإذا أضفت إلى ذلك معجزة القرآن الذى لايدانيه كتاب آخر فى عطائه واتساقه وسيرة حياة محمد وكفاحه وأخلاقه لن يبد لى أى شك فى أن هذا هو الدين الصحيح المنزل من السماء» وأضاف:«وفى اعتقادى أن أى إنسان يدرس الإسلام دراسة موضوعية غير متحيزة لابد أن يعتنقه »!

ويؤكد جرمانوس أن جوهر الدين هو المعرفة وبدونها لايمكن أن يعرف الإنسان ربه، ويؤدى واجباته الدينية .. حيث قال : «الإسلام هو دين كل مسلم ومسلمة وجوهر هذا الدين هو العلم والمعرفة التى يجب على كل مسلم بالغ أن ينهل منها بقدر ما يستطيع، فالإنسان الذى يفتقر إلى المعرفة لا يستطيع تأدية واجبه نحو ربه ولا نحو إخوانه فى الإنسانية وهى الأمور التى بدونها لاتستقيم حياة المجتمع».

ويقول عن معجزة القرآن الكريم: «إن معجزة القرآن الكريم الخالدة حولت النبى الأمى إلى رسول منقذ لأمته من الضلال إلى الهدى، وأخرجها من الظلام إلى النور، حتى أصبحت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر» وأضاف المستشرق جرمانوس «إن هذا الكتاب المقدس، لايزال بعد قرابة ألف وأربعمائة عام، يهز بآياته الكريمة كل سامعيه، حتى من لايفقهون العربية يتأثر وجدانهم لسماعه .. ولن يوجد ذلك الكاتب أو الفنان الذى يستطيع أن يبدع عملاً يضارع القرآن الكريم.. وكلماته المقدسة هى العبادة والابتهال إلى الله والسلوى من الأحزان، وعماد العلوم للملايين من البشر».

وتحدث جرمانوس فى بعض مقالاته عن العادات والتقاليد الدينية التى كان يمارسها العرب فى الحرم المكى فى عهد الجاهلية ؛وقال : «المجتمع فى الجزيرة العربية لم يعرف الصلاة قط، وإنما كانوا فى تلك العصور يحترمون ذكرى ويقدرون الأشخاص الذين ذاع صيتهم نتيجة لميزات جسدية أو عقلية فكانوا يطوفون حولهم سبع مرات وفى أيام الوثنية أيضاً كانوا يطوفون بالحجر الأسود فى الكعبة



الشريفة فى مكة سبع مرات فى الشهر الحرام تعبيراً عن احترامهم، وفى حالة انقطاع المطر كانوا يبتهلون إلى نجوم السماء أن تبارك أراضيهم الجافة بهطول الأمطار وباستثناء هذه الشعائر فإن العرب فى الجاهلية لم يمارسوا أى نوع من أنواع الصلاة المنتظمة قط، وقد فرضت الصلاة كأحد أهم أركان الإسلام. ولازالت حتى يومنا هذا واحدة من أهم مظاهر الإيمان بالعقيدة، وإذا كانت الصلاة تقوم على التلفظ بكلمات استهلال معينة فإن لب الصلاة ليس فى الإلقاء الآلى للنصوص بدون إدراك لمعانى الكلمات، وليست الصلاة مجرد تحريك للفم واللسان، وإنما جوهر الصلاة هو فى التفهم التام والكامل لكل كلمة، ففى الإدراك الكامل للكلمات والإحساس بمعانيها تكمن القوة التى توحى للمؤمن بواجباته الدنيوية التى جاء من أجلها، والتى بأدائها يتمتع بحقوقها الإنسانية التى وفرها له الإسلام»

ويقول صديقه وعارف فضله د.« محمد رجب البيومى» عن تدينه ومواهبه: «كان الدكتور عبد الكريم جرمانوس مسلماً عظيماً حقاً لأنه رحمه الله درس الإسلام دراسة مقارنة ببصيرة قبل أن يعتنقه، حتى إذا أشرق نور الحق فى قلبه هام به حباً، وفاخر بانتسابه إليه، وأخذ يحفظ بعض آيات القرآن وأحاديث الرسول فى شغف وإكبار .. لقد كانت كتب تفسير القرآن أحب الكتب إليه ... وحين انتقل إلى رحمة الله حزن عليه عارفو فضله من مؤيدين ومعارضين إذ قدروا فيه مواهبه الكبيرة النادرة، وتحصيله الدائب الملح وهو تحصيل كاد يقرب من حد الإعجاز، إذ ما تقول فى شيخ قارب المائة من الأعوام وهو لايفارق القرطاس والقلم والكتاب إلا ريثما يقضى ضروريات حياته فإذا قابل أصدقاءه فالحديث عما يتضمن الكتاب والقرطاس وما تقول فى شيخ يؤلف بلغات عدة فيقر أه الناس فى الشرق والغرب معجبين، وهو يعد رحالة منقطع النظير لم تثنه الشيخوخة عن أن يطير فى الجو، أو يرحل فى البحر حتى لكأن القارات الخمس مدينة واحدة ذات دروب يقطعها الشيخ درباً درباً فى سهولة ميسرة »

وقال عنه د. «عبد المنعم خفاجى» «كان عبد الكريم جرمانوس شخصية جديرة بالتقدير والاحترام بين المستشرقين الأوروبيين .. كان يجمع بين وداعة العالم وتواضعه، وحب البحث والكشف عن الحقيقة والإيمان بما يؤدى

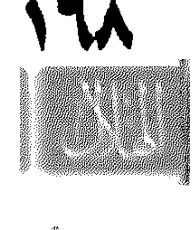


إليه العقل والدليل، لقد كان جرمانوس مثالاً طيباً للإنسان الذى يجسد حقيقة الإنسانية بما انطوى عليه من خصال ومشاعر نبيلة».

وقال عنه الأديب الكبير محمود تيمور: «إن رحلة هذا المستشرق الأوروبى، كانت من أجل دراسة الإسلام، وكان فى رحلته هذه، من العلماء الذين خدموا الإسلام وأثروا الثقافة الإسلامية»..

رحلة الحج إلى مكة المكرمة :

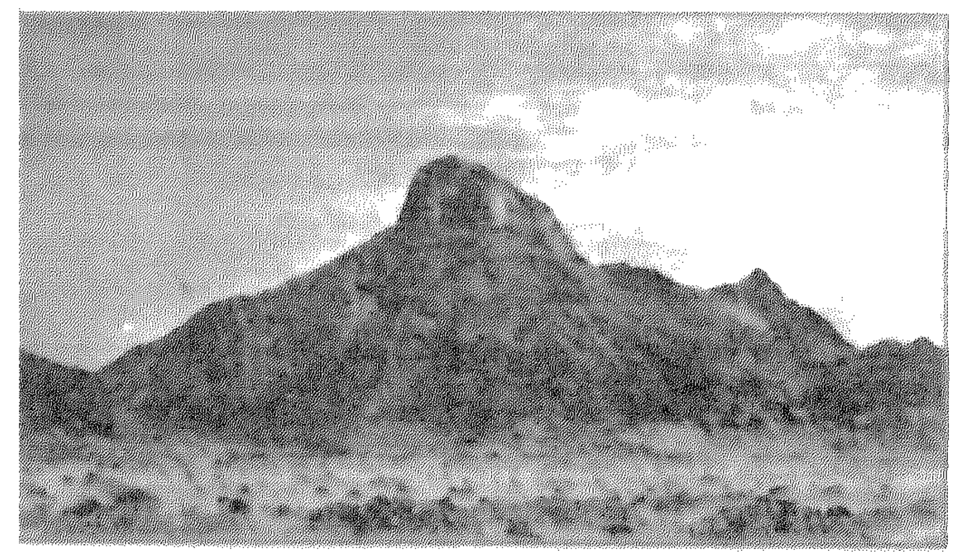
كان جرمانوس يتطلع بشوق إلى زيارة المدينة المقدسة «مكة المكرمة» وازداد شوقاً عندما قال له محمد إقبال: «إن الإسلام يجب أن تشرق شمسه من جديد فى مكة المكرمة» .. ويحقق الله له هذه الأمنية، وكان نتاج رحلته للحج كتابه الشهير «الله أكبر» الذى ترجم إلى عدة لغات، وبقلمه رسم لنا مشهداً إيمانياً رائعاً:-



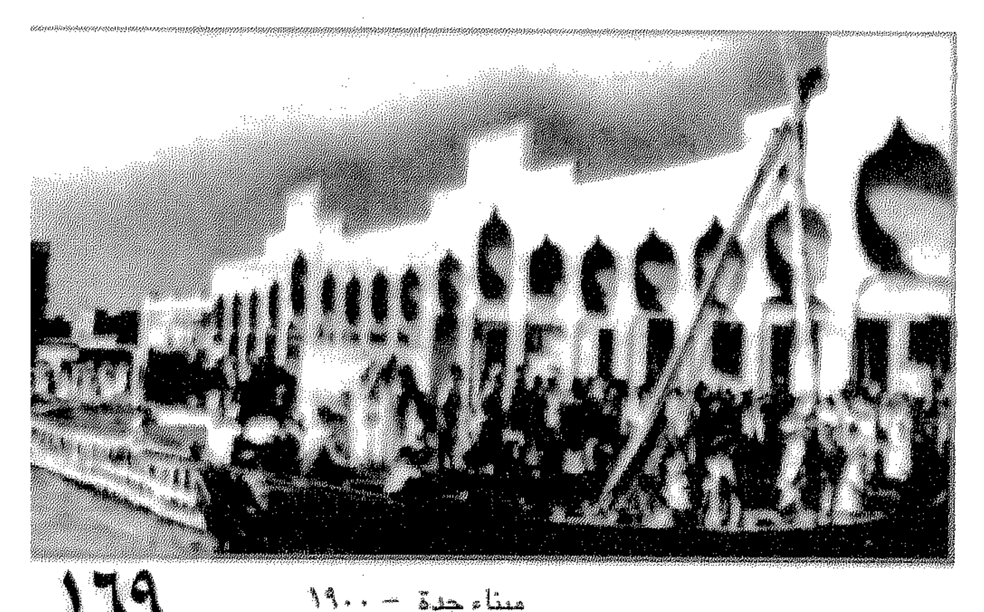
«عند أذان الفجر.. الله أكبر.. نهضت من نومى فسمعت حركة رفاقى فى الغرفة يتهيئون للصلاة، فتوضأت وصليت ركعتين، ثم توجهت إلى الكعبة المشرفة .. فى هذه اللحظة، انفتح أمامى مشهد سماوى، هاهى الكعبة العظيمة تكسوها شقق الديباج الأسود، تزدان بأيات قرآنية من خيوط الذهب، يطوف حولها أمواج من الرجال والنساء، ونداء «الله أكبر» هو الرباط الذى ينتظمنا جميعاً، السكينة والبهجة والرجاء ومشاعر فياضة تسرى فى أبداننا تخلقنا خلقاً جديداً.. فتحولت من إنسان دنيوى إلى مؤمن مفكر، استشعر عظمة الله ورخص الحياة.. وقفت أتأمل وأقول لنفسى: كم من مرة قرأت وصفاً لهذا البيت المقدس، وكم صورة شاهدتها له .. لكن فى واقع الأمر، أن كل ما قرأته لاينتسب إلى هذا المشهد الذى أراه ! .. فالكعبة فى حقيقتها وفى جوهرها، ليست مادة تقاس بمقياس، وإنما هى رمز ومعان روحية سامية، لايكاد المرء يقف أمامها، حتى تنجلى عن عينيه غشاوة الغفلة عن أرقى معانى الوجود وهو وحدانية الله تعالى وسمو العالم الروحى على العالم المادى»!

وبرع «الحاج عبد الكريم» فى وصف مشاهد ومناسك الحج، معبراً فى صدق عما يختلج فى صدره من إيمان عميق .. طواف الحجيج ببيت الله الحرام وهم يذرفون دموع التوبة، ضارعين ملبين لبيك اللهم لبيك .«رفعت يدى إلى السماء، داعياً ومكرراً لما يقول المطوف،

تمر أمام عيونى جموع الطائفين، من كل بقاع الأرض، خليط من البشر، هؤلاء أتوا من جاوه والخشوع والعبرات تملأ عيونهم، وهؤلاء من التتر، يشقون طريقهم بأجسادهم القوية، وأولئك من الصين، تبدو عيونهم مثل حبات اللوز، وبراءة الطفولة وطهرها يكسو ملامحهم، يتتابع من ورائهم الأفغان بلحاهم وهيئتهم المعروفة، ويطوفون وكأنهم غزاة !.. وخلفهم هنود يكررون دعاء المطوف، ضارعين إلى الله وقد تحملوا كافة المشاق والصعاب، بينما النساء فى ردائهن الأبيض، سافرات، يزاحمن فى حذر .. فى هذه اللحظات الرائعة، ليس هناك رجال ونساء، ولكن أرواح مؤمنة صادقة تطلب من الله الرحمة والمغفرة .. فى مشهد سماوى يجل عن الوصف »!



غار حراء فى قمة جبل النور

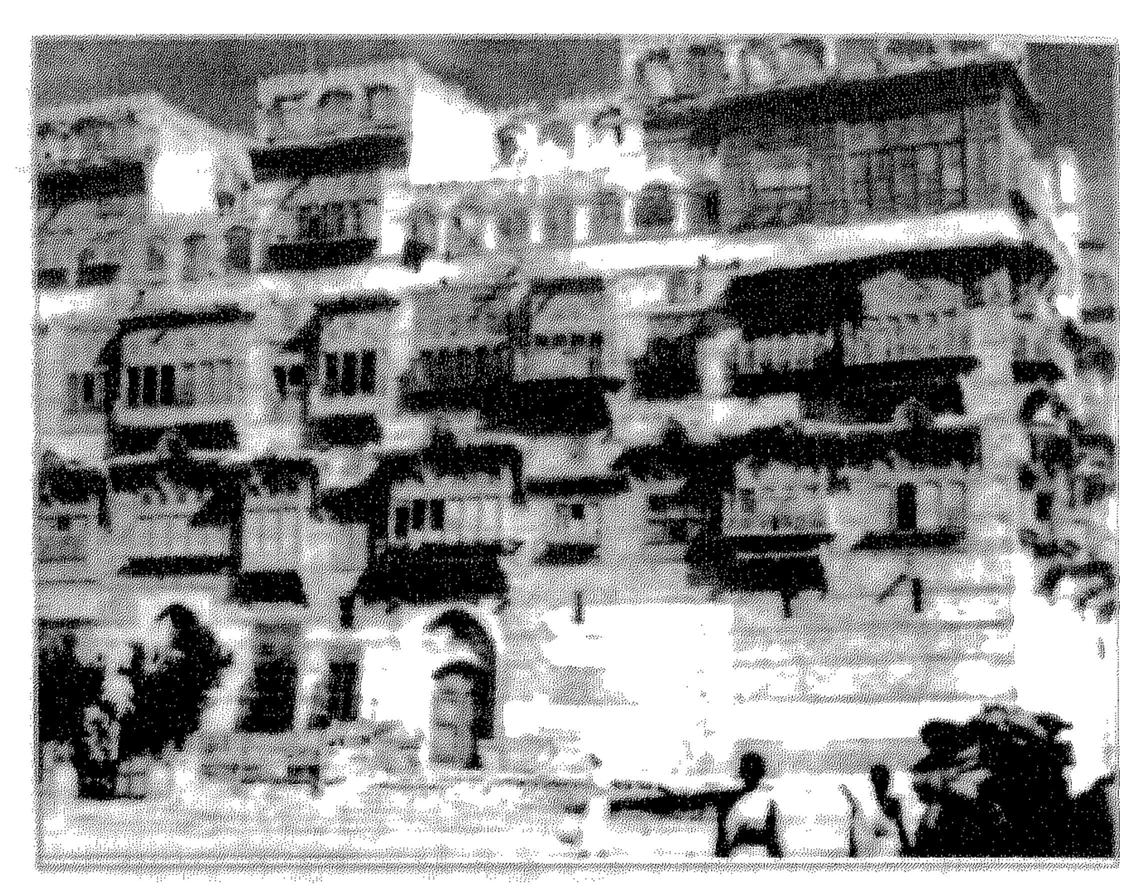


ميناء جدة - ١٩٠٠

«فى معظم مدن الهلال الخصيب ضيق الشوارع يساعد على تلطيف الحرارة، وفى البلاد التى لاتستخدم فيها العربات ذات العجلات، تعد المسافة الكافية لعرض الشرع، هى التى تسمح بمرور جملين فى آن واحد، أما فى مكة فكان من الضرورى أن يترك الممر واسعاً، حتى يمكن أن يستوعب حشود الزوار من الحجاج والمسافرين.. المدينة مفتوحة من كل الجهات والجبال المجاورة إذا تم تحصينها جيداً، يمكنها أن تشكل حاجزاً منيعاً لايستهان به ضد الأعداء، وفى الماضى، كان للمدينة ثلاثة أبواب لحمايتها، أحدها شيد فى الجانب الآخر للوادى عند شارع المعلاة، وآخر عن حى الشبيكة، والثالث عن الوادى المفتوح تجاه حى المسفلة، وقد تم ترميم هذه الأبواب فى عامى ٨١٦ و ٨٢٨ هـ، وقد ظلت بعض أطلالها قائمة لنحو مائة عام

المكان العام الوحيد فى قلب المدينة، وهو ذلك الميدان الرحب للجامع الكبير، لا أشجار أو حدائق تسر الناظرين .. ولا حياة للمشهد العام إلا فى موسم الحج، الحوانيت المنتشرة بكل حى تكتظ بالمعروضات، باستثناء أربعة أو خمسة منازل ضخمة ملك لشريف مكة ومدرستين(تحولتا الآن إلى محال للغلال) والجامع، وبعض المبانى والمدارس الملحقة به، فإن مكة لاتعرف مطلقاً أى نوع من المنشآت العامة، ويمكننا اعتبار مكة، أقل من اى مدينة شرقية أخرى فى هذا الشأن، حيث لا يمكن أن ترى تلك المعالم التى تشتهر بها مدن الشرق.. مثل الخانات اللازمة لراحة المسافرين، أو وكالات لتخزين البضائع، أو قصور عظيمة أو مساجد، وقد يمكننا أن نرجع هذا النقص الشديد فى المبانى العامة، إلى هذا التبجيل الخاص الذى يكنه السكان نحو الكعبة ..

وطراز البناء هو نفسه المستخدم فى جدة بإضافة نوافذ بارزة تجاه الشارع، متقنة الصنع، كثيرة النقوش والزخارف، أمامها ستائر خفيفة من الخوص، تمنع الذباب والهوام بينما تسمح بمرور هواء نقي متجدد. ولكل منزل شرفة خاصة به، من الحجر الجيرى، وتشيد بميل خفيف يمكن مياه الأمطار من أن تجرى عبر – ميزاب – إلى الشارع، والأمطار لاتتساقط بانتظام مطلقاً، وبالتالى لايمكن أن تجمع فى خزانات كما يفعلون فى سوريا»!..



المشربيات تزين بيوت مكه - ١٩٠٠

آثاره العلمية :-

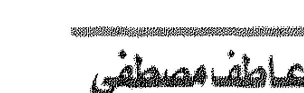
اشتهر عبد الكريم جرمانوس بغزارة إنتاجه العلمى وتنوعه، وله العديد من الدراسات والأبحاث المنشورة فى الدوريات العالمية والعربية، تناولت مجالات اللغة والأدب والتاريخ والحضارة الإسلامية ومن بينها

الأدب العثمانى، بالألمانية. الأدب التركى الحديث بالمجرية. تاريخ الجامعات فى المجر بعد الفتح التركى، بالمجرية. التيارات الحديثة فى الإسلام، بالإنجليزية وترجم إلى عدم لغات. دور الأتراك فى التاريخ الإسلامى، بالإنجليزية «الله أكبر» رحلته إلى الحج، بالمجرية، وترجم إلى عدة لغات. شوامخ الأدب العربى، بالإنجليزية دراسات فى التركيبات اللغوية العربية، بالإنجليزية حياة محمد، بالإيطالية . تجديد الروح العربية، بالمجرية أصول الف ليلة وليلة، بالإنجليزية الجغرافيون العرب، بالإنجليزية روائع أدبية عربية مجهولة، بالإنجليزية الأدب العربى فى القرن العشرين، بالمجرية .. ■









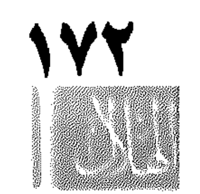
الحوار الحضارى والثقافى

مع الغرب

فى الأسبوع الذى سبق مباشرة مناسك الحج لهذا العام عقد بمكة المكرمة مؤتمر بعنوان «الحوار الحضارى والثقافى .. أهدافه ومجالاته، ناقش من خلال المشاركين فيه خمسة محاور فى غاية الأهمية.

فعلي الرغم من أن الإسلام يجعل من التفكير، ومن العلم ومن الإبداع ومن التقدم ، واجبا يصل إلى درجة الفرض الدينى، وعلى الرغم من الانفتاح الثقافى والحضارى للإسلام، عقيدة وشريعة وحضارة على كل الثقافات الأخرى، فإننا نرى فى أيامنا هذه حملة تشوه حقائقه الواضحة الجلية ، وتدعى أنه دين انغلاق فكرى، ودين عدم تسامح مع الآخر، ودين يرفض الحوار ، ويرفع سيفه على جميع البشر، لإجبارهم على اعتناق هذا الدين .

هـ. الادعاءات والافتراءات ، ليست جديدة، فقد رفع شعارها مشركو مكة، كما رفع شعارها أعداء الإسلام ، وأصحاب المصالح الخاصة فى كل مكان وزمان.

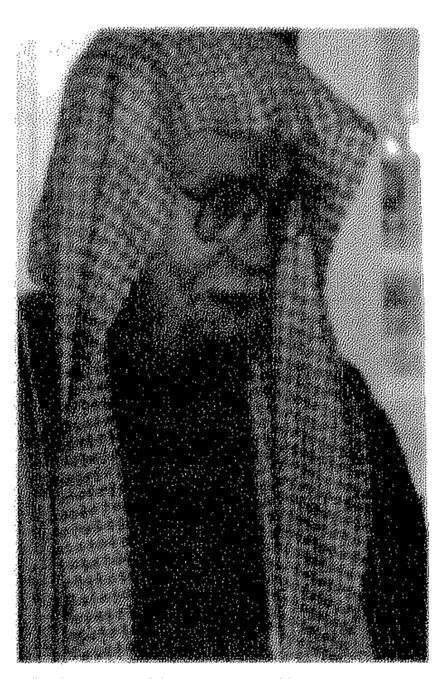


وسبب هذه الهجمة الشرسة على الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة هو أن هذا الدين، يرسى الأساس القويم لمشروع حضارى، يحقق العدل والمساواة والإخاء بين كل البشر، ويرفض الظلم والاستبداد والتسلط، وعبادة الهوى والجرى وراء المصالح، حتى ولو كانت مصادمة لمصالح الآخرين .

ولعله ليس من المصادفة ، أننا نجد أن حملات التشويه والهجوم على المشروع الحضارى الإسلامى، عادة ما تأتى من جانب منظمات تتبنى مشروعات تتصادم مع قيم الإسلام العليا، وتتصادم مع مكارم الأخلاق ، وفى مقدمتها المنظمات الصهيونية، ومؤسسات الرأسمالية، التى لا تتوانى أن تضرب صفحا عن كل القيم العليا، فى سبيل مصالحها وزيادة أرباحها وثرواتها !.

وفى مواجهة هذه الحملة ، أقامت رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة مؤتمرا، دعى له صفوة المشتغلين بالفكر والعمل الإسلامى على مستوى العالم كله، تحت شعار «الحوار الحضارى والثقافى» فى الفترة من ٤ - ٦ ذى الحجة ١٤٢٥هـ الموافق ١٥ - ١٧ يناير ٢٠٠٥ م ، وهذا هو مؤتمر مكة الخامس .

وكان من بين أهداف المؤتمر ، إثبات مجموعة من الحقائق ، التى تؤيدها كل الادلة والبراهين، وفى مقدمتها أن الإسلام عقيدة وشريعة ، يعترف بكل الرسل


د. عبد الله بن عبد المحسن التركى

والكتب السماوية، والرسالات التى أرسلها الله لهداية الإنسان ، وإبراز المنهج السليم فى التعامل مع الآخر، ومن بينها أيضا أن الإسلام قد جعل من الحوار فريضة إسلامية ، لأن الدعوة الى الله ، والى القيم العليا، والى تحقيق التعاون بين البشر، لا يتحقق إلا من خلال الحوار .

كذلك فإن من بين أهداف مؤتمر مكة، التركيز على إعلاء الإسلام لقيمة العقل، والبراهين العقلية السليمة .

فقد جعل الإسلام إعمال العقل السليم ، ومن الوصول إلى الحجج والبراهين، فريضة إسلامية، فالحجة والبرهان ، أساس مهم من أسس الحوار الرشيد، الذى يدعو اليه الإسلام، وهذه الحجج والبراهين إما أن تكون شرعية، فى مجالات العقيدة والشريعة وكافة المصالح

المعتبرة، أو تكون عقلية فى كل مجالات المصالح المرسلة، والمتغيرات العالمية المعاصرة، اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، فى ضوء مجموعة من الضوابط التى تحول دون الانحراف أو التصادم .

وهذه هى الضوابط الشرعية، التى حددها علماء أصول الفقه، وهى أن تكون المصالح عامة ، وليست خاصة . وأن تكون مصالح حقيقية وليست وهمية، وألا تتصادم مع نص أو قيمة إسلامية تثبت بالكتاب والسنة .

الحوار مع الآخر

في هذا الصدد يقول د. نبيل السمالوطى استاذ علم الاجتماع بالأزهر فى بحثه بالمؤتمر «آفاق التفاعل بين الحضارة الغربية والمسلمين – حوار أم صراع» من المعروف أن الإسلام دين الحوار مع الآخر، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهو دين احترام الآخر، وإعطائه كل حقوق المسلمين . مادام مواطنا أو معاهدا، أو مسالما غير محارب، ولا يبغى الفساد فى الأرض. وهو دين تحقيق المنافع والمصالح الحقيقيه والعامة لكل الناس . ودين احترام العقل الإنسانى لدرجة أنه جعل التفكير فريضة إسلامية

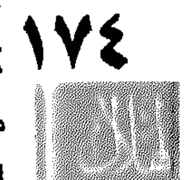
وهو دين الإيمان بالتنوع الثقافى، والتعددية الدينية واللغوية والعرقية – بوصفها سنة من سنن الله فى خلقه،

«ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» .

ومع وضوح هذه الأمور واستثمارها من جانب رواد الحضارة الإسلامية فى عصورها المبكرة، إلا أننا اليوم نواجه حملات مضللة، تدعى أن الإسلام دين يؤيد العنف والتطرف والإرهاب ويشير د. السمالوطى إلى أن هذا يرجع إلى مجموعة من العوامل الخارجية والداخلية .. وأهم العوامل الخارجية: محاولات الهيمنة على مقدرات العالم الإسلامى ، واستنزاف ثرواته، وإبقائه علي حالة من التخلف لصالح مؤسسات صهيونية ، أو رأسمالية .

أما العوامل الداخلية فتتمثل أساسا فى الابتعاد عن المنهج الإسلامى، الذى يؤكد أن الأمة الإسلامية ، أمة واحدة أصابها الآن الوهن والتمزق والتفكك ، والابتعاد عن الأخذ بأسباب القوة، التى أمرنا بها القرآن الكريم والسنة المطهرة، «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »، وتجهيل القوة هنا يعنى تعميمها وشمولها ، فهناك القوة العلمية والتكنولوجية وهناك القوة الاقتصادية ، وهناك القوة الاجتماعية.. والتربية والتعليم والحفاظ على مؤسسات الأسرة، وآخر أشكال هذه القوة ومحصلتها القوة العسكرية .

وقد ابتعد المسلمون – للأسف عن هذا المنهج ، فأصابهم ما تنبأ به الرسول عليه



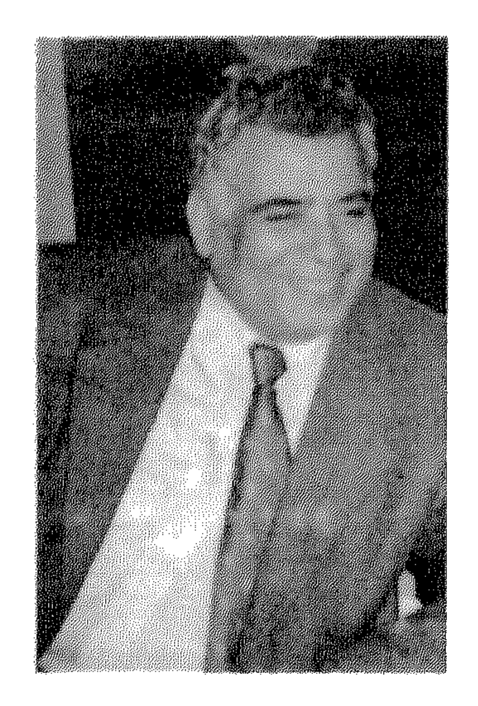
الصلاة والسلام ، حيث تداعت الأمم على المسلمين، كما تتداعى الآكلة على قصعتها .

المنهج الإسلامي

وكشفت كثير من بحوث هذا المؤتمر العالمي، أن هناك العديد من الخطوات التي يجب على المسلمين اتباعها ، فأهل الحضارات الأخرى لا يفرقون بين الإسلام والمسلمين ، ويستنبطون أن الاسلام دين يدعو إلى التخلف، ولهذا فلن تصلح الصورة إلا إذا صلح الأصل، وهنا يجب على المسلمين أن يتمثلوا المنهج الاسلامى فى واقعهم وسلوكهم بالاهتمام بالمنهج العلمى، وبالانجازات العلمية بأن يشجع البحث، وأن يعيدوا النظر فى مناهج التعليم، بما يؤدى الى تنمية القدرات الابتكارية والإبداعية لدى المسلمين فى كل مجالات البحث العلمى، وعليهم أيضا تحقيق تطبيق قيم التقدم، من حيث احترام الإنسان والحرية واحترام الوقت، وممارسة أدب الحوار وأدب الاختلاف كما أقره الإسلام، كذلك فإن على المسلمين أن يستثمروا الجاليات الإسلامية في دول العالم، لتكون قوة مضاعفة للمسلمين وموضحة لحقائق الإسلام فى وسطيته وسماحته أمام الآخر .

ويواصل المؤتمر قراءاته فى الأوراق والبحوث المقدمة من العلماء المسلمين، بهدف الوصول الى ميثاق لأسس الحوار ومنطلقاته وآدابه ومن يقوم به .

وقد أشار د. ابراهيم جاو من تايوان



د. جعفر عبد السلام

الى ضرورة تطبيق الأقليات المسلمة فى دول العالم المختلفة للمنهج الإسلامى، فكرا وسلوكا، فالإسلام دين الحوار ، مستشهدا بالآية الكريمة «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله» .

وابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات ، يرى أن أهل الكتاب يشملون اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم .

كما أشار أيضا الى أهمية إبراز اسهام الحضارة الإسلامية فى انتشال الغرب من عصور الظلام ، وإطلاق ما يسمى بعصر النهضة الأوروبية ، استنادا إلى مناهج التفكير، وإلى العلوم التى أبدعها الرواد المسلمون .

وبين د. جاو الدور المهم الذى ينبغى

أن تقوم به الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة ، في الحوار مع أبناء المجتمع ، والتفاعل الإيجابي معهم ، فلا مجال هنا للعزلة والانكفاء على الذات.

فالأقليات المسلمة والتي يصل عددها في كل البلاد إلى خمسين مليون مسلم، تقف على أرض صلبة ، ويجب أن تثق في نفسها ، وتعتز بذاتها ويكون لها القدرة على التعبير الصحيح عن هويتها الثقافية ، وتقديم مالدى الإسلام من رسالة حضارية ، تفيد البشرية بأسرها، فضلا عن الرد على الشبهات والافتراءات الموجهة ضد الإسلام .

الإسلام وحوار الحضارات

كان من البحوث المهمة أيضا التي تم عرضها ومناقشتها في مؤتمر مكة، بحث لكامل الشريف الأمين العام للمجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة بعنوان «الإسلام وحوار الحضارات» حيث أكد على حقيقة أن محمدا عليه الصلاة والسلام، هو خاتم الإنبياء والمرسلين وأن الإسلام هو آخر ارسال السماء إلى الأرض ، حيث وضع المنهج وبين الطريق ، وحدد المعالم.

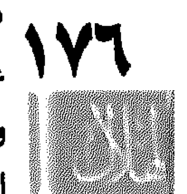
«فمن أدلة ختام النبوة ان الفترات الزمنية بين الأنبياء، لم تتجاوز المائة عام، كما رصدها الفيلسوف باسكال ، وها قد مضى أكثر من خمسة عشر قرنا دون أن يظهر نبي يحمل كتابا ، فهل يعني ذلك أن الخالق القدير تخلي عن مواكبة عباده بالهداية الربانية لا سيما في زمن يفرز كل يوم مسائل ومشكلات معقدة وغير مسبوقة

«إن ما يظهر من تناقض ، هو أن الإسلام آخر الأديان ، يحمل كل عناصر التطور والتجديد التي يحتاجها الإنسان، أو كما ذكر الفيلسوف جارودي في أكثر من كتاب من كتبه ، أن الإسلام دين مفتوح ، ليس له سقف يقف عنده ، وأنه يعين على التطور الإنساني ، ويقود له الغطاء الشرعي حتى لاينفلت ويظل مرتبطا بالإيمان، ومايأتي معه من الاستقامة والالتزام الخلقي.

وعن دور المسلمين ودورهم في الحضارة الإنسانية يقول الشريف:

«لقد كان المسلمون هم الطلائع والرواد، الذين اقتحموا الساحات المجهولة في ميادين العلم والمعرفة، كما يذكر جارودي في كتابه «الاسلام في الغرب» قرطبة عاصمة الروح ، حيث أشار الى اسهامات المسلمين في فروع المعرفة ، من الفلك إلى الحساب الى الجغرافيا . إلى الطب ، مما يجعل المرء يدرك أنه لا يوجد ميدان من هذه الميادين ، إلا وجد في جذوره عالم مسلم يمهد الطريق ، ويضع قواعد الدراسة ، ويحدد أساليب البحث .

على أن إسهامات المسلمين على الإطلاق ، هو ذلك الربط المحكم بين العلم



والإيمان .

فالقرآن الكريم يشتمل علي أكثر من سبعمائة آية، تحض علي العلم واكتشاف الكون، والأمر فيها كلها من الله سبحانه ، مصدر النور والمعرفة، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم» .

الدعوة الى الخير

ولو عدنا مرة أخرى إلى الأقليات المسلمة بتايلاند فى الحوار الحضارى والثقافى نجد . د. اسماعيل لطفى جافيكا رئيس الكلية الإسلامية ، بتايلاند يقول : إن الأمة الإسلامية، هي الأمة المكلفة بتطبيق منهج الله فى الدعوة الى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والمراد بالخير هنا، القرآن والسنة ، والمسلم فى كل زمان ومكان، لابد أن يكون جزءا من كيان هذه الأمة الإسلامية الكبرى فى الدعوة الى الله، والتفاعل مع غيره من البشر بشكل إيجابى .

«والأقليات الإسلامية التى لاتتوفر لديها شروط النهوض ، وأسباب التقدم وإمكانات التغيير من حال الى آخر إلا بالقدر اليسير ، يتأكد عليها الدفاع عن حقوقها بمختلف الوسائل الممكنة، وترجمة معانى وقيم الإسلام فى واقع حياتها ، وفقا للمنهج الرشيد، وبالعلم والحكمة فى اطار الحوار الحضارى والثقافى .

وإذا كان هذا الحوار الحضارى واجب على عاتق المسلمين بشكل عام، فإنه يكون علي الأقلية المسلمة أوجب، لحاجتها الذاتية، إليه، بجانب واجبها الدعوى المكلف على كل مسلم حسب الاستطاعة..



د. نبيل السمالوطي

والحوار الحضارى والثقافى عبارة عن أداء واجب الدعوة الإسلامية المبنية على أسس من العلم والمعرفة والحكمة بشتى الأساليب النافعة وبأحدث الوسائل المعاصرة .

ولا يكون الحوار إسلاميا ذى طابع حضارى، إلا اذا كان صادرا عن المرجعية الإسلامية الصحيحة ، معبرا عن الهوية الثقافية والحضارية للأمة الإسلامية ، أقلية كانت أم أغلبية ومرتكز على المنهج القرآنى المتمثل فى قوله تعالى : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن»..

التناقض مع المبادىء

وفى بحثه «المنظمات الإسلامية والحوار الحضارى والثقافى» يشير د. جعفر عبدالسلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية الي تناقض الفكر

القانوني في الغرب ، فعلى الرغم من ان الغرب يؤمن بالديمقراطية والليبرالية (الحرية والتحرر) ويرفض فكرة فرض الرأى على الآخر . إلا أنه يفرض على الأمة الإسلامية مجموعة من الإصلاحات الواجبة التنفيذ تحت مسميات مختلفة ، مثل مشروع الشرق الأوسط الكبير، وهذا مما يتناقض مع فكرة الديمقراطية والليبرالية الغربية، لذلك فإن هناك القوانين المقيدة لحرية المسلمين فى الغرب ، وهى أيضا فكرة تتناقض مع المبادىء ، والأسس التى قامت عليها الحضارة الغربية .

وفى الوقت الذى يصدر الغرب فيه قوانين معاداة السامية، وقوانين متابعة كل من يتهم بهذه التهمة، نجد هجوما عنيفا على الإسلام والمسلمين ، وعلي محمد صلى الله عليه وسلم وعلي القرآن الكريم، ومحاولة نشر ما يسمى بالفرقان الجديد، كل هذا أيضا لا يتفق مع مبادىء القانون الدولي، ولا مع مبادىء الأديان السماوية الثلاثة ، ولا مع الفكر الإنساني الصحيح، الخالى من التعصب والتحيز والإنحراف .

وفي التوصيات التى خرج بها المجتمعون في هذا المؤتمر، الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى إلى قرار من المؤتمر أن يعد مشروع ميثاق، يتضمن أسس الحوار ومنطلقاته وآدابه، ومن يقوم به ، و سوف يعرض على الملتقى الأول لعلماء المسلمين الذي تنظمه العام القادم ، فإذا أقر هذا المشروع، فسوف نبدأ بالتطبيق التنظيمى من قبل الرابطة ، أو المنظمات الإسلامية والدول الإسلامية، لأنه سيكون هناك تحديد لبرامج معينة فى مجال الحوار .

كما خرج المؤتمر بدعوة للرابطة، بتنظيم جائزة سنوية لمن أسهم فى الحوار وتوجيهه ، وكان لجهده أثر متميز فى هذا الأمر .

كما بين د. التركى أن رابطة العالم الإسلامى اتخذت قرارا لإقامة منتدى عالمى للحوار وسيقام فى إحدى الدول الأوروبية ، وتمت الاتصالات مع عدد من الباحثين والعلماء الذين يسهمون إسهاما متميزا فى الحوار، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين .

هذا المنتدى سيضم نخبة متميزة من المسلمين والغربيين وسيجتمعون سنويا لمناقشة ومتابعة ودراسة القضايا التى تتعلق بالحوار، وبحيث يتم عرض الإسلام فى صورته الصحيحة والنقية ، والرد علي الافتراءات ، وألوان التشويه التى يدعمها الحاقدون على الإسلام ، وصولا إلى بيان حقيقة هذا الدين أمام كل سكان العالم ، وهذه من أولويات الدعوة الإسلامية ، التى هي فرض من فروض الإسلام وواجب كل قادر عليه .■



بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

لا يرد هذا اللفظ، أو ما يشير إلى أصله، في أي من المعاجم العربية التي ألفت قبل القرن الثامن عشر الميلادي، مهما كانت ضخامتها واتساعها. لم يرد مثلا في لسان العرب أضخم معجم عربي، ولا فيما جاء بعده من معاجم أخرى مطولة كالقاموس للفيروزبادي، وإن كان دون اللسان سعة، واستعاض عنه العرب بجملة للتعبير عما يدل عليه لفظ دردشة، يقولون: «الحديث ذو شجون»، إذ ا أرادوا أن يقولوا إن الحديث يجري بين أكثر من واحد واقعا أو اعتبارا، كتابة أو حوارا، بلا ضابط ولا رابط، ولا منهج محكم، وحول عديد من الموضوعات والأفكار، مختلفة المستوى من حيث الهزل والجد، والبساطة والعمق.

وفيما أرى ابتدع المجتمع المصري لمثل هذا المعنى كلمة واحدة تدل عليه: دردشة. أرجح أنها بدأت وعرفت في مصر، لأن المعجم الوحيد الذي أوردها هو: «تاج العروس في شرح القاموس» للزبيدي، وهو يمني الأصل، من مدينة زبيد اليمنية الشهيرة، ولكنه وفد إلى مصر شابا يطلب العلم واستقر فيها، وتوفي عام ١٢٠٥ هـ - ١٧٩٠م، وكان واسع الثقافة، يعرف عددا من اللغات: العربية والتركية، والفارسية والكردية. وكان من بين ما تميز به كتابه «تاج العروس»، إلى جانب أشياء أخرى، أنه استدرك على معجم القاموس المحيط، ما أغفله من مواد أو كلمات أو معان، يقول عند نهاية الحديث عنها: «ومما يُستدرك عليه (أي على القاموس) : الدردشة، وهو «اختلاط الكلام وكثرته»، وهو مستعمل في كلامهم، والضمير هنا يعود على المصريين، لأنه ألف الكتاب وهو في مصر.

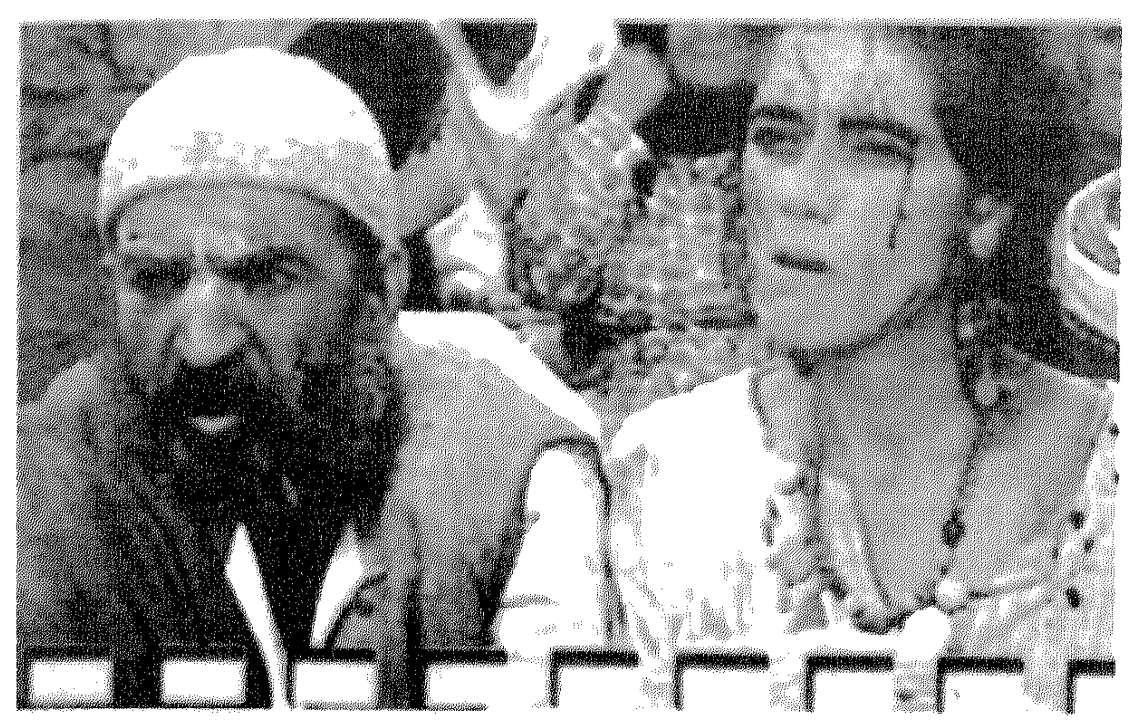
أخذ لفظ دردشة الطابع العربي كاملا، ويَرِد عليه في سهولة شتي ألوان الاشتقاقات العربية في سهولة، تقول: دردش، يدردش، دردش،دردشة ، مُدردش (بفتح الدال الثانية وكسرها ولا تشعر إيقاعا وسهولة بأنك بإزاء كلمة غير عربية.

أول من عرض لها في عصرنا الحديث الطبيب العالم الدكتور أحمد عيسى في كتابه: «المحكم في أصول الكلمات العامية»، الطبعة الأولى، مكتبة الحلبي عام ١٩٣٩، ص ٨٣: «دردشة: تقول فلان قاعد بيدردش تريد : إنه يتكلم من هنا وهناك. الدردشة اختلاط الكلام وكثرته، قال في «التاج: أهمله الجماعة وهو مستعمل في كلامهم.

وقد ضمن المجمع اللغوي الكلمة معجمه الوسيط الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٠ المعنى الذي أورده «تاج العروس» دون زيادة، وذكر عن الكلمة أنها من «المولد»، وهو في اصطلاح المجمع: «ما استعمل في اللغة العربية بعد عصور الاحتجاج من كلمات عربية الأصل، جارية على أقيسة العرب، أو مخرجة عليها، أو أشربت دلالات خاصة بطريق المجاز أو الاشتقاق أو التوسع أو نحو ذلك» ، ولا أرى أياً من هذا ينطبق عليها.

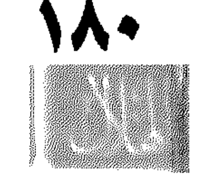
إنها فيما أرى تركية أو كردية الأصل، واليقين عند علماء هاتين اللغتين.

أما المثل على الدردشة، فهو هذه الصفحة التي بين يديك! ■



باب الشمس

سينما زائفة وأخرى صادقة



بقلم
مصطفى درويش

كان عدد أفلام عيد الأضحى الأخير ستة لا تزيد ، بينها اثنان جرى عرضهما بعد طول انتظار .

أحدهما للفوزه ، قبل بضعة أشهر بجائزة أفضل فيلم عربى فى مهرجان القاهرة السينمائى الأخير .

والآخر لاختيار ناقد «تايم» المجلة الامريكية الواسعة الانتشار له ضمن أفضل عشرة أفلام شاهدها خلال العام

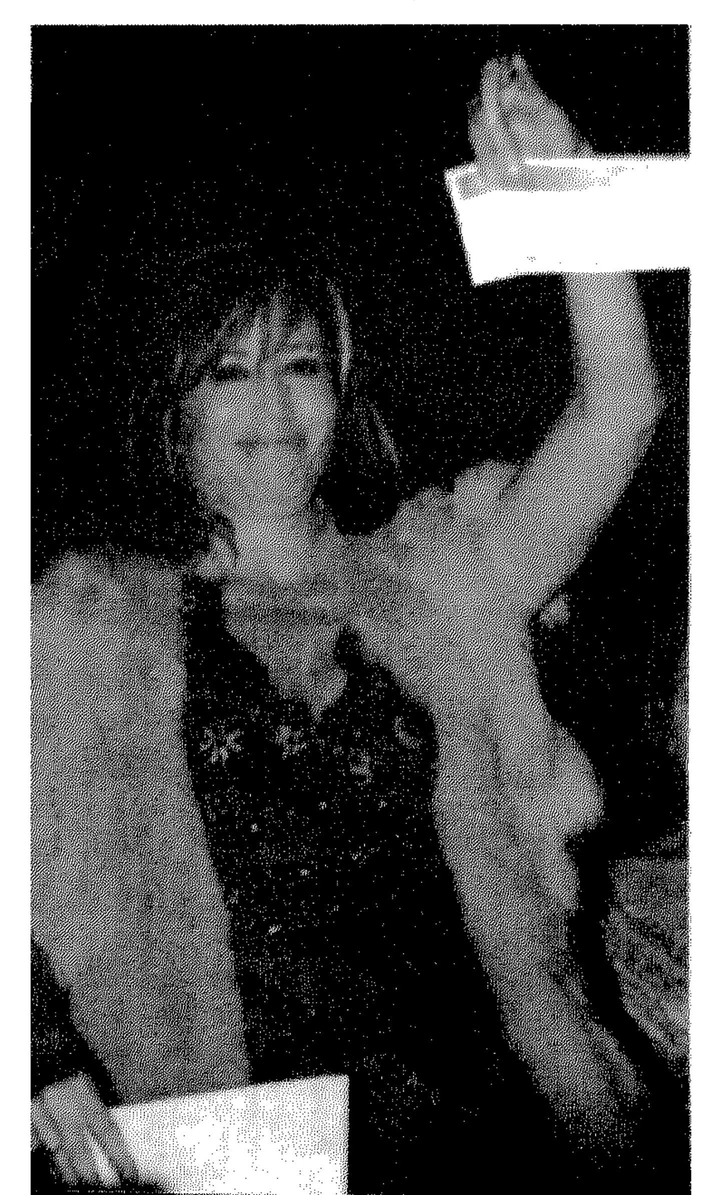
الذى ودعناه قبل بضعة أسابيع

والفيلم الذى فضله ذلك المهرجان على أفلام العرب أجمعين ، هو «الباحثات عن الحرية» ، لصاحبته المخرجة «إيناس الدغيدى» .
ومن خلاله التقت ، لأول مرة ، بكاتب السيناريو السورى «رفيق الصبان» .
وليس بعجيب أن يلتقى الاثنان .



هشام سليم ونيكول بردويل في لقطة من فيلم (الباحثات عن الحرية)

إيناس الدغيدي أثناء فوز فيلمها بجائزة أفضل فيلم عربى



ولكن العجيب هو أن يتأخر اللقاء بين القطبين إلى ما بعد انتهاء القرن العشرين ، بحوالى ثلاثة أعوام ، فكلاهما يعرف عنه الجنوح إلى حصر الحرية فى مفهوم بالغ الضيق ، هو حرية الجسد فى أن يحقق رغباته كيفما يشاء ، حتى لو أدى الأمر إلى الخروج فى السر أو العلن ، على التقاليد ، والتمرد على العادات .

الدرة المنشودة

ولقد وجد الاثنان ضالتهما المنشودة فى قصة «غابة من الأشواك» ، وصاحبتها أديبة سورية اسمها «هدى الزين» .

فهذه الأديبة أدارت أحداث قصتها هذه ، حول ثلاث نساء ، عشن مغتربات فى باريس ، والعقد التاسع من القرن الماضى على وشك الانتهاء .

أصحاب قضية

ولأن «الصبان» واسع الإطلاع على كتابات الأدباء العرب المغتربين ، فأرجح الظن أنه أول من اكتشف وجود تلك القصة ، وإمكانية ترجمتها إلى لغة السينما فى فيلم ، يستطيع أن يقول بجرأة ، ما ليس فى وسع أحد أن يقوله سوى «إيناس» ، لما هو معروف عنها من أنها ، ومنذ بداية مشوارها مع الأطياف ، قد تبنت قضية تحرير النساء ، وهى قضية ، من وجهة نظرها ، لن يكتب لها ختام سعيد ، إلا باسترداد بنات حواء حقهن السليب فى ممارسة الحب بحرية ، لا تقل بأى حال من الأحوال عن الحرية التى يتمتع بها الرجال .

وأيا ما كان الأمر ، فقد تم اللقاء بين «إيناس» و«الصبان» .

فكتب هو السيناريو والحوار ، وأخرجت هى الفيلم المأخوذ عن قصة «غابة من الأشواك» ، أخرجته تحت اسم «الباحثات عن الحرية» .

وهن ، أى الباحثات ، ليس بينهن شئ مشترك ، سوى أنهن عربيات ، مغتربات ، يعشن فى غابة باريس ، وبشكل أو بآخر منحرفات عن جادة الصواب . وفيما عدا ذلك ، فهن مختلفات .

ضحايا مجتمع مريض

«فعايدة» فنانة تشكيلية مصرية ، وتلعب دورها «داليا البحيرى» ، ضحية زوج متخلف فكريا ، عاقبها بتطليقها وحرمانها من حضانة فلذة كبدها ، لا لسبب سوى أنها لم تطعه ، وبدون موافقته غادرت مصر إلى فرنسا ، بعد فوزها بجائزة الدولة التشجيعية ، وبمنحة دراسية تخولها حق الإقامة فى مدينة النور أربعة أعوام .

و«سعاد» المغربية ، وتلعب دورها «سناء موزيان» ضحية مفاهيم عفا عليها الزمان ، لا تزال تعتبر المرأة مجرد جارية ، من الحق عليها إشباع رغبات الرجل ونزواته ، بنفس راضية مرضية .

و«أمل» صحفية لبنانية ، وتلعب دورها «نيكول بردويل» هى الأخرى ضحية ، حرمتها الحرب الأهلية اللبنانية من حبيب قلبها ، حين رأته يختطف أمام عينيها الدامعتين ، ومن لحظتها لا تعرف من أمره شيئا ، إن كان قد لقى حتفه بأيدى المليشيات ، أم لا يزال فى الأسر حيا .

الأصل والصورة

والهدف المعلن من عرض حياتهن فى غابة باريس ، هو حسب قول صاحبة الفيلم ، تقديم صورة المرأة الحقيقية ، بما تعانيه من صراعات ، ورغبة فى التحرر من قيود فرضها عليها مجتمع ذكورى ، على نحو جعلها عرضة للوقوع فى أخطاء ، تدخلها ، دون وجه حق ، فى زمرة ما يسمى بالنساء الساقطات .

ولكن ترجمة قصة «الزين» إلى لغة السينما جاءت على عكس ذلك القول تماما

غلظة وابتذال

فالسيناريو والإخراج ، كلاهما قدم لنا

ميلودراما زاعقة ، فيها من الفواجع الفجة الشئ الكثير .

فعلى امتداد فيلم ممل بحكم إيقاعه البطئ وممثلاته وممثليه يتحركون كالدمى ، ونحن نحس بأصابع المخرجة، غليظة ، تحاول جاهدة أن تعصر عيوننا ، بدلا من أن تتحسس قلوبنا بغشاء من الحزن الرقيق .

وبكلمات كاتب السيناريو ، تزعق فى آذاننا حوارا ينحدر أحيانا إلى مستوى مسرف فى الابتذال ، وأحيانا أخرى إلى ما يشبه الصراخ والعويل .

ولأننى لو عرضت تفصيل حكاية كل واحدة من الضحايا الثلاث ، لتنقلت بالقارئ من شئ سخيف إلى شئ أكثر سخفا ، لذلك سأكتفى ، بالنظر إلى ضيق المجال ، بالوقوف قليلا عند كل واحدة من حكايتهن ، مسلطا الضوء على الحوار ، وأنا أعرض لحكاية «عايدة» .

بداية فهى حسب رسم الفيلم لشخصيتها ، تعتبر أقل النماذج النسائية الثلاث المطروحة ، انحرافا .

قبلة فاقتحام

ومع ذلك ، فما أن التقت «بعمر» — ويؤدى دوره «أحمد عز» الذى جاء إلى معرض لوحاتها فى باريس للفرجة حتى قبلت ، دون سابق معرفة ، دعوته إلى العشاء .

هذا ، ولم يمر على ذلك سوى بضع دقائق ، حتى باغتها ، وهما فى الطريق ، بقبلة خاطفة ، اعقبها بقوله مزهوا «البوسة دى تعرفك على كل حاجة» .

وإذا بها ، وهى منتشية ترد قائلة : «آه .. بس ممكن أعرف أكثر» .

فيسرع مستجيبا بقبلة نارية التقت فيها شفتاه بشفاتيها طويلا ..

وما هى إلا بضع ساعات ، حتى كان الاثنان عاريين فى مخدع «عمر» ، حيث نسمعها ، وهى فى حضنه تهمس قائلة «نفسى أعرف بتقول إيه عليه وأنا معاك» ؟ ، أنا عايزه اعترفلك أن اقتحامك لى عجبنى» .

فيرد ، وهو يكاد يطير من السعادة «وده اللى يؤكد لى انك حرة .. واللى أجمل منك تفكيرك» .

وهكذا ، تقع «عايدة» رغم كل مؤهلاتها ، فريسة قبلة شاب لا تعرف عنه شيئا ، فتسلمه جسدها سريعا ، ودون أية مقاومة ، عند أول اقتحام .

ولأن مثل هذا السلوك الخاضع ، دون أدنى تفكير لإغراء الجسد ، وجبروت الشهوات هو المطلوب للمرأة العربية من الخليج إلى المحيط أن تتبعه دون أن تهاب ، فقد انهت صاحبة الفيلم حكاية «عايدة» ، نهاية سعيدة ، بأن اعادتها إلى مصر المحروسة ، حيث التقت بصغيرها الذى آثرها على أبيه المتزمت .

وأغلب الظن أنه مؤثر عليه عشيق أمه ، عندما يلتقى به فى أجل قريب ، ربما فى ديار مصر أو فرنسا ، حيث تنتهى قصة الحب من أول نظرة بزواج سعيد ، يعيش فيه الثلاثة الصغير وأمه وزوجها

الجديد ، فى التبات والنبات !!

دغدغة الحواس

هذا عن حكاية عايدة المصرية ، أما حكايتا «سعاد» المغربية و«أمل» اللبنانية ، فكلتاهما من ذلك النوع من الحكى الذى لا هدف منه سوى استغلال الجنس بقصد دغدغة الحواس .

فسعاد عشيقة صاحب المحل حيث تعمل ، وهو مغربى مسن ، تمنحه جسدها مقابل توفيره المسكن والطعام، ولأنه عاجز جنسيا ، فما أن يحاول مضاجعتها ، حتى ينهار ، ويأخذ فى البكاء مثل النساء .

وعندما تكتشف أنه انتهز فرصة نومها ، فاسترد الشيك بمائة ألف فرنك الذى كان قد كتبه لصالحها ، بناء على إلحاحها ، مرضاة لها ، فى لحظة ضعف تهجره ، تحت وابل من شتائم مقذعة ، إلى مطعم وملهى ليلى، حيث عملت مغنية فى استعراضات راقصة ، وسرعان ما جاءتها الشهرة ، وسرعان ما رغب فيها العرب الأثرياء .

وحين وقعت الواقعة ، وحاول أحد هؤلاء ، أثناء حفل راقص فى قصره المنيف ، إغراءها ، فأبت صيانة لكرامتها ، كان صاحب المطعم والملهى حيث تعمل ، وهو مصرى مغترب ، أشد الناس غضبا ، إلى درجة محاولة اغتصابها ، ولكن هيهات .

فها هى ذى تنجح فى مقاومته ، فتنجو بنفسها ، وفى شوارع باريس تجرى لاهثة ، إلى أن ينتهى بها المطاف فى محل ، حيث يعمل شاب فرنسى ، بها ولهان .

خاتمة بالفاتحة

وما هى إلا لحظات ، حتى نراها معه فى سيارة ، حيث تكتشف أنه مثلها مسلم ، لأن أمه جزائرية ، فتقبل عرضه الزواج على سنة الله ورسوله .

وها هما يتلوان معا بالكامل فاتحة القرآن الكريم !!

وبهذه النهاية السعيدة التى هى ابسط الحيل السينمائية لكسب رضاء الجمهور انهت صاحبة الفيلم حكاية «سعاد» ، كما انهت حكاية «عايدة» .

ولم تبخل بنفس النهاية على حكاية «أمل» اللبنانية ، وذلك بالرغم من أنها لم تقنع بالنسبة لها إلا بخيوط متعددة، متشابكة ، من بينها أنها جعلتها مريضة بالمازوكية ، لا تضاجع الفتيان إلا بعد أن تتبادل اللكمات معهم ، حتى تسيل الدماء .

وعلاوة على ذلك جعلتها صحفية وطنية ، تفيض حماسا للقضية الفلسطينية ، وجعلت لها أيضا حبيبا مصريا «هشام سليم» يعمل معها فى نفس الصحيفة ، التى يرأسها لبنانى باع نفسه للشيطان .

وزادت «إيناس» من تعدد الخيوط وتشابكها ، فجعلتها قاتلة ، تقدم على اغتيال زعيم لبنانى بغيض ، سعى بشتى الوسائل والأساليب إلى مضاجعتها ، دون أن ينال منها شيئا .

ومثل هذا التعدد والتشابك فى خيوط رسم شخصيتها بحيث بدت لنا امرأة تتنازعها صراعات بلا حل بأي حال من الأحوال ، كان لابد وأن تنتهى معه أحداث حكايتها على نحو فاجع .

عودة المعجزات

غير أن صاحبة الفيلم ارتأت نهاية أخرى ، فكان أن اختارت «لأمل» ، أن تستقل تاكسيا ، بعد أن طعنت الزعيم فى مقتل ، اتجه بها إلى مطار «شارل ديجول» ، حيث استقلت طائرة إلى بيروت حيث التقت بزميلها وحبيبها المصرى .

وكان اللقاء تحت تمثال السيدة العذراء ، حيث خرج من قاعدته ، ويا للمعجزة ، حبيبها اللبنانى الذى ظنته ميتا ، فإذا به أمامها بلحمه ودمه ، وكأنه بعث حيا .

وهى الآن بين الحبيبين ، فى حيرة من أمرها ، أيهما تختار .

والغريب فى الأمر أن صاحبة الفيلم قد ذهب بها الظن إلى أنها بتلك الحكايات المفتعلة ، والنهايات الملفقة ، إنما تخدم قضية المرأة فى صراعها المرير من أجل استرداد حقوقها السليبة .

وفاتها أن ذلك النوع من الحكايات والنهايات لا ينفع تلك القضية المعقدة أشد تعقيد ، بل قد يضرها ، منتكسا به ، فى أجل غير بعيد !!

باب الشمس

أما الفيلم الذى اختاره ناقد «تايم» واحد من بين أفضل عشرة أفلام، فهو «باب الشمس» ، لصاحبه المخرج «يسرى نصر الله» .

وفيلمه يعرض لمحنة الشعب الفلسطينى ، تلك المحنة التى شغلت قلوبنا وعقولنا لأكثر من نصف قرن من عمر الزمان .

وقبل «باب الشمس» ، كانت الأفلام الروائية الطويلة التى عرضت لتلك المحنة ، دون الانحدار بها من منزلة المأساة إلى ميلودراما صارخة لا تقول شيئا ، فلا تقنع أحدا ، كانت أقل من القليل ، وربما لا يزيد عددها على أصابع اليد الواحدة، مع التفاؤل الشديد .

ومن بينها أذكر على سبيل التمثيل «كفر قاسم» و«عرس الجليل» .

وعلى كل، فأخيرا، وبعد أن كاد اليأس يغلب الرجاء، جاءنا «يسرى» بعمل سينمائى جدد الأمل فينا، هو «باب الشمس» .

وعلى غير المعتاد ، فالفيلم طويل ، ومكون من جزئين ، يستمر عرضهما خمس ساعات إلا قليلا (٢٢ دقيقة) . استوحاه صاحبه من رواية بنفس الاسم «لإلياس خورى» الأديب اللبنانى الشهير .

واللافت للنظر مشاركته كلا من المخرج و«محمد سويد» فى كتابة سيناريو الفيلم ، الذى أعطيت له إمكانيات هائلة ، واشترك فى تمثيله حشود كبيرة من الناس العاديين .

ملحمة الخروج

ومع ذلك ، رأيناها لم تصب بتوتر

المسحور بالوقوف ، لأول مرة ، أمام الكاميرا .

كانت ، والحق يقال ، تتحرك ، كما فى الطبيعة ، بتلقائية قل أن يكون لها مثيل فى أفلامنا ، التى تعانى من فقر الفكر والخيال ، فضلا عن ضعف الامكانيات .

وعلى عكس الحال عندنا ، تبدت براعة صاحب «باب الشمس» فى تصوير المجموعات ، مثل مشاهد طردهم من ديارهم ، ودفعهم قسرا إلى مغادرة أرض الآباء إلى الشتات فى لبنان .

ومن مزايا الفيلم الأخرى ، وهى كثيرة، جنوح صاحبه إلى عدم الاستعانة – على الأقل فى الجزء الأول . بممثلين مصريين .

فبفضل ذلك تحررت ملحمته من نظام النجوم .

فالممثلون الذين أدوا الأدوار الرئيسية كانوا مقنعين إلى حد كبير .

أولا لأنهم كانوا يتكلمون بلهجة أهل المكان ، حيث كانت تدور الأحداث ، وهى طوال الملحمة . إما بفلسطين أو لبنان .

وثانيا لأنهم جعلوا من أدوارهم التى رسمت بعناية فائقة شيئا جديدا ، منبت الصلة بعالم التمثيل عندنا .

والفضل فى ذلك ، إنما يرجع ، ولاشك ، إلى تحريك المخرج لهم ، واهتمامه ، فى هذا الخصوص ، بأدق التفاصيل .

وأحداث الملحمة ترجع إلى ما قبل قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الصادر يوم التاسع والعشرين من نوفمبر لعام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية ، والأخرى يهودية ولكن صاحبها آثر أن يبدأ سردها من عام اتفاقيات أوسلو ، ذلك العام الذى وقف فيه «ياسر عرفات» وإسحاق رابين ، قبل أحد عشر عاما ، أمام البيت الأبيض ، حيث تصافحا ، ولأمر ما ساد التفاؤل .

بداية النهاية

ورغم ذلك ، فإنهم بمعسكر شاتيلا للاجئين ببيروت كانوا ، عكس ذلك ، متشككين ، بل قل متشائمين .

وفى هذا الجو المشحون بالتوتر ، وعدم الثقة إلى درجة التخوين ، تطلق المناضلة الشابة «شمس» (هالة عمران) الرصاص على أحد المناضلين فى المعسكر، فترديه قتيلا وماهى إلا ثوان ، حتى نشاهد أحد قدماء المناضلين «يونس» (عروة الميرابية) ، وهو يسقط صريع شلل كلى أقعده عن الحركة ، وأفقده القدرة على الكلام .

وفى محاولة من «خليل» (باسل خياط) ابنه الروحى ، وأحد أبناء الثورة ، لانقاذه من براثن الموت ، يحكى له سيرته ، بدءا من أيام مقاومته الاحتلال البريطانى ، وقت أن كان شابا يافعا، يعيش فى إحدى قرى الجليل، مع أبيه، الشيخ الضرير، الذى قام بتزويجه، دون رضاء أمه، من صبية «نهيلة» (دريم تركى) لم يرها إلا يوم الزفاف، وفيما هو منهمك فى مقاومة الاحتلال، دمر ما كان يسمى وقتها بجيش الدفاع اليهودى قريته، مما أجبر سكانها

بمن فيهم عائلته على النزوح إلى التلال المجاورة .

ومن خلال تتبع أمثلة فردية عن بطولة الكفاح ، قدم لنا صاحب الملحمة لوحة درامية كاملة ورائعة لبطولة كفاح الفلسطينيين ، وهو كفاح تقاسم بطولته مع الرجال ، نساء وشيوخ وأطفال .

منفى لبنان

وينتهي الجزء الأول ، بالعاصفة المميتة، وقد اقتعلت أغلب فلسطينيي الجليل من ديارهم ،. لتتحول بهم إلى لاجئين مشردين في أكثر من معسكر بلبنان .

وإذا كان الحكي فيه قد دار وجودا وعدما حول سيرة «يونس» ، فالحكي في جزء الملحمة الثاني مداره سيرة «خليل» .

فمن خلالها نشاهد فوضى الحرب الأهلية اللبنانية بأهوالها التي انتهت بمنظمة التحرير ومحاربيها مقتلعين من بيوتهم ، مرحلين إلى شتات آخر في اليمن وتونس الخضراء .

صراعات وخيانات

وفوضى صراعات قيادات اللاجئين فيما بينهم ، وخياناتهم ، يغذيها فساد الحكومات .

ومن بين مآسي هذه الصراعات والخيانات مصرع المناضلة «شمس» بوابل من رصاص منظمات تناصب تنظيمها العداء .

وفي هذه الأثناء ، نشاهد «يونس» متسللا من حين لآخر عبر الحدود إلى الجليل . حيث يلتقي في كهف اسمه «باب الشمس» ، بزوجته «نهيلة» المعذبة بمرارة الفراق ، وضرورة التعاون مع الإسرائيليين أسياد البلاد . حتى تستطيع توفير لقمة العيش لوالدي زوجها ، وأولادها منه ، وعددهم سبعة أطفال .

هذه هي الخلاصة الظاهرة للملحمة، وهي إن دلت فإنما تدل على عمق في التفكير ، وبراعة في الابتكار.

اللقاء الأخير

ولعل خير مثل على ذلك ، اللقاء الأخير في الكهف بين الزوجين «يونس» و«نهيلة» ، قبل أن يجيئها الموت، ففيه تواجهه بأكثر من حقيقة مرة ، تقولها بسماحة وإعزاز وهدوء فيه من مرارة التجربة وحكمتها الشيء الكثير .

وثمة مثل آخر ، لعله أكثر إشراقا، وينطوي على شيء من أمل، خاصة أن الملحمة تنتهي به .

ففيه نشاهد «خليل» ، وقد عقد العزم على العودة إلى الجليل ، سابحا ، إلى أن ينتهي به الأمر إلى باب الشمس الذي ينغلق نهائيا .

ثم إلى غير غاية معروفة ، ربما أمه في رام الله ، بالضفة الغربية .

وختاما ، يبقى لي أن أقول: إن باب الشمس من الأفلام المصرية القليلة التي ستحفظها ذاكرة الأيام ، فالنسيان لن يمسه حتى يمحوه في يوم قريب أو بعيد ، كما محا ، وسيمحو كثيرا من الأفلام لكثير من المخرجين . ■

حظي من الدنيا

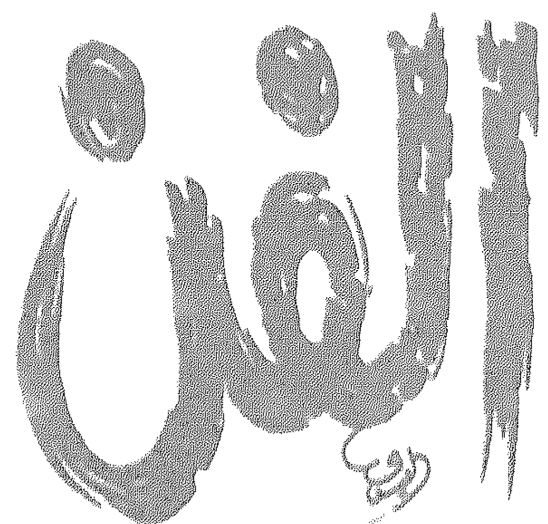
شعر : جورج يوسف شدياق - فنزويلا

فجرا أرى خلف المدى أم غيهبا   أمضي وعمري لم يلح لي كوكبا
أيبش شعري والجراح عصية   وأقول أهلا بالعذاب ومرحبا
مزق الحنايا مذ نأيت عن الحمى   صدري عليها من أساه تحدبا
وطني أتنكر لوعتي يوما وهل   تنسى غدا من في هواك تعذبا
من أي عهد كان حبك مذهبي   أو ما تخيرت العروبة مذهبا
قد زادني هجر الربوع تماسكا   بثرى بلادي ، والرجوع تصلبا
هذي الثلاثون العجاف مضت سدى   خلف البحار ، وإثرها ست هبا
هذا أنا .... وسنين عمري أدبرت   لم يبق مني غير أطلال الصبا

مازلت أرقب من بلادي نفحة   عربية تحيي الفؤاد المتعبا
حظي من الدنيا خريف قاحل   فمتى أرى عمري ربيعا مخصبا
ما قيمة التفريد والدم من حشا   وطني الذي أهوى ثراه تصببا
كم شاعر والروح غرقى بالأسى   قد أرقص الكون الحزين وأطربا
نوب من الشعر المضيء أحيله   شعرا شجيا ما أرق وأعذبا
وإذا أباح البغي حرمة موطني   أرسلت حرفي داميا متلهبا
أصليتهم من غربتي بلظى يراع   ثائر هز العداة وأرعبا
بين الجراح وبين أشواك النوى   أسلمت ذياك الندى ليصلبا
أهواك يا وطن الجراح ومع دمي   أجريت حبك سلسلا فتذوبا

أرنو إليك وفي المآقي دمعة ... تجري على خد الحروب لتعربا
أو ما أحتضنتك رغم أعباء النوى ... أو لم تزل رغم التنائي لي أبا
محن العروبة قد أذابت مهجتي ... وأناخ صدري همها فاحدودبا
فعلام لا أطوي الهموم مفردا ... لحنا كأنات الغروب مشببا

الغيد تسألني علام هجرتنا ... فأحببت قلبي من أساه ترهبا
خلوا الملامة فالعتاب أمضني ... شلال حبي في الحشا لن ينضبا
للحب والاحباب أفتح أضلعي ... رحماك لا تنشب بصدري مخلبا
قلمي يسائل أدمعي مستفسرا ... ويطل من خلل الأسى مستغربا
ذهب الشباب ولم تزل لي صبوتي ... حبان في جنبات قلبي أخصبا
بين الجوانح بعد ينبض خافق ... صب جعلته للواعج ملعبا
من قال لا يهوى الغواني شاعر ... وهو الذي بجمراتهن تلهبا
فلقد هويت الغيد غضا يافعا ... ولسوف أهواهن كهلا أشيبا
الحب سر في فؤادي كامن ... أبدا أخاف عليه أن يتسربا
أنزلته صدري وقلت أقم به ... قلبي بمن أهواه طاب فأعشبا
أهوى كطفل .. ما مررت بغادة ... إلا وضاق بصدره قلب حبا
أرنو إلى الوجه الجميل فأنثني ... وأغض طرفي خوف أن يتعتبا
كأسي تصفق بالشجون فلا تقل ... أولى بكأسك أن تراق لتشربا
حاسبت نفسي مذ تبنيت الأسى ... من ذا بحق الحب مثلي أنتبا
لو شئت خط قصيدة غزلية ... قلمي المدمى من مآسينا أبى
بالعطر يندى ما كتبت قصيدة ... أولى بها بدمائنا أن تكتبا
فإذا غدا شفت أضاميم الدجى ... وتلألأت شمس الضحى فوق الربى
أغمدت سيفي بعد طول جهاده ... ورجعت أنشد من حساني مأربا
يا ليت أفرغ والزمان ينوشني ... ما في الكؤوس من الشجون ترسبا
لا تغترب .. أسدى إليك نصيحتي ... قد مات من هجر الحمى وتغربا



فى مصرنا اليوم بين التقليد والإبداع

بقلم

د. محمد عرابى

فى رحلتنا مع الفن المصـرى هذه الأيام، لا يمكن لنا أن نتجاهل الإشارة إلي صالون الأعمال الفنية الصغيرة السابع نظراً لما قدمه من طرح يهدف إلي تواصل خلاق بين الأجيال كان له أثره الفورى علي حركة الفن نري من أبعاده السلبية فى أتيلييه القاهرة معرض محمود منيسى، كما لا يمكن إغفال الإشارة إلي ما ظهر فى خان المغربى من آثار حسية لزمن يبدو قديماً ولكنه ما زال يحيا فى خبايا المدينة والقرية ، ويتجسد فى صور مناظر الفقر والجوع والدروشة والمآذن والقباب ، وهذا كما جاء مجسداً بأعمال جورج البهجورى وعمر عبد الظاهر ، كما تجلت الطبيعة بايقاعاتها الموسيقية الخفية فى أعمال عاصم عبد الفتاح وأشرف الزمزمى بقاعة سلامة ، وأما مجمع الفنون فيقدم معرض الفنان السورى يوسف عبدلكى الذى يتميز ببساطة موضوعاته وعمق رؤيته الفنية، كما تتألق الفنانة المصرية شلبية إبراهيم فى مركز الجزيرة للفنون ، وبجوارها وفى نفس المكان نطل علي تقنيات الدكتور مصطفي كمال ، وفى بيكاسو يعزف إبراهيم عبد الملاك علي ذاكرة السعادة.





من أعمال الفنانة شلبية إبراهيم

أثارت هذه المعارض تساؤلات مهمة حول أهمـيـة وكيفية التواصل مع الماضي القـريب والبـعـيـد، ذلك الذى يرتبط بإشكاليـة التـأثـيـر والتـأثر ، الأصـالة والتأصيل ، الاستلهام والتقليد .... وغيرها من تلك القضايا التي أشيع حولها جدل طويل، وهى أيضا من المشكلات الشائكة التى تستلزم وعياً حاضراً.

شلبية ابراهيم

تدهشنا الفنانة المصرية " شلبية إبراهيم"،التي لم تتلق تعليماً أكاديمياً ، عند تأمل تجربتها الفنية بوعيها بإمكانات خامة الألوان المائية التي تستخدمها ، وهو ما يؤكد أيضاً عمق موهبتها الفطرية في التعبير اللوني، فتبدو فنانة محترفة احترافاً نوعياً بدرجة امتياز يصب فى أسلوب فنى خاص تمتلك جمالياته من صفاء ونقاء علاقاته اللونية ، التى تجتمع لتجسد حالات شعورية تنبض بالحياة والحب والطهارة ، وتمتد بنا إلى أبعد من ملامح واقعها الموصوف .... الضوء ينتشر ويتسلل برقة وليونة ليسكن أعماق الأشكال وينقيـها فتظهر شفافة نورانية أسرة للعين والقلب ، ويقدمـها الناقد الكبير النافذ أسعد عرابى فى هذا المعرض بقوله " تنقل شلبية صورة الجنة كما هى فى اللاشعور الجمعى أو الثقافة الشعبية ، وهنا يشتد ساعد هيئة البراق وما يطوقه من أشجار ملونة وفوانيس مشرقية وجن ، وإنس ، وكائنات أسطورية تخطر جميعها بدلال ، وكأن خطواتها منتشية بجلسات طرب ومؤانسة ، كثيراً ما تنحنى الهياكل البشرية برقة ، مسترسلة فى عناق وفراق ، وغزل ووفاق ، تشي الأشجار بروح الخصوبة ، رغم أن العالم مرسوم بطهارة الأمومة " .

اعتقد أن تجربة " شلبية إبراهيم " تأتي انعكاساً ذاتياً لروح شفافة نقية نقاء الطفولة والأمومة، وفى نفس الوقت تمتلك من الحكمة الإنسانية درجة تضمن لأعمالها البقاء ، فهي تدعونا للنفاذ إلى عالم أرحب أكثر ضياءً وبهجة ، ورغم أنه يسكننا إلا أنه بعيد المنال ، أو ربما تبصرنا أو تذكرنا بأن هناك عالما آخر جميلا نقيا فقدناه فى زحمة صراع مادي بغيض .

مصطفى كمال

وبجوار" شلبية إبراهيم" يأتى معرض الدكتور "مصطفى كمال" ويعكس عالماً مكبلاً بالحسابات الذهنية رغم محاولات جاهدة تخدع للحظات بالتحرر والاحتفاء بالعفوية والمصادفة إلا أنه سرعان ما ينفض سحرها ونجد أنفسنا أمام أعمال تطرق أبواب التصوير عنوة ولكنها تظل أسيرة خبراته الجرافيكية ، التى ترتبط بفنون الميديا الحديثة وتقنياتها ، هكذا تتأرجح التجربة بين ماهو تشخيصى طبيعي متمثلاً في وجه امرأة أو حصان ، وأيضاً بين التصادف - المرادف لمحاولات التحرر أو الخداع- والتقنيات الرقمية التى تنتج علاقات لونية تتحرك على السطح توحي بانفعال شديد لا



١٩٣
محرم ١٤٢٦هـ - مارس ٢٠٠٥م

لوحة للفنان مصطفى كمال

يخضع لحالات شعورية أو عاطفية وإنما يهدف لحشد الفراغ بمؤثرات بصرية تكون مبرراً لوجود شكل ما في إطار فخم .

عاصم عبد الفتاح وأشرف الزمزمي

وفي مقام آخر تتفجر طاقات عاصم عبد الفتاح وأشرف الزمزمي وتثمر تجربة فنية من طراز خاص يبدو أن القدر قد ساقها إلينا في هذه الأيام لتعيد إلى الأذهان شكلا من أشكال الثنائيات الفنية ربما تقترب في مضمونها الإنساني من تجربة سيف وأدهم وانلي ، ففي قاعة سلامة يأتي معرضهما تحت عنوان " موسيقي " ، الذي يتميز بما يقدمه من تفاعل فكري وإنساني واضح بين جيلين معاصرين كان للثاني أو لأحدثهما نصيب في التلمذة المفتوحة علي يد الأول ، حيث نمت هذه العلاقة بين أحياء القاهرة القديمة والمنيا حيث كان اللقاء في نهاية ثمانينيات القرن المنصرم ، وتسير بهما الأيام والخبرة حتى يشكلا اليوم حالة فنية قلما نجدها في هذه الأيام ، حيث يعطي كل منهما الآخر بلا حدود و يأتي الأخذ على نفس المستوى وبلا حساسية فيثمر، ولعل هذا ما يمكن أن يمثل الأساس الأول لنجاح هذه التجربة وظهورها إلي النور ، حيث نرى حالة عشق لانهائي للون مفعمة بالخبرة والبحث في جماليات الطبيعة من تناغم وشاعرية وبهاء وتباين وانسجام تبدو كامنة خلف المظهر الواقعي، فتتآلف العلاقات اللونية مجردة من معظم احتمالاتها الواقعية رغم ما يظهر في أعمالهما من ملامح تشخيصية ، ومع ذلك تظل فكرة الطبيعة ووحدة عناصرها هي المسيطرة على الصياغة الفنية، عاصم عبد الفتاح عاشق للطبيعة وإبداعاتها اللونية المبهرة ، التي نجدها في مقتنياته الخاصة من صبار وغيره من النباتات المثيرة لذائقة اللون، ويتعامل معها بحساسية المتيم ، الأمر الذي يجعله دائم الحذر من الوقوع في أسرها ومحاكاتها ، فيسعى جاهداً ومضحياً بالكثير من القيم الظاهرة لكي ينفذ ببراعة الصياد وحنكته إلى جوهر إيقاعها اللوني وما تثيره أو تشكله في نفسه ووجدانه من علاقات تصويرية قوامها اللون والخط مع التزرع بتلك العناصر الطبيعية ، التي تتمثل في نبتة أو وجه آدمي أو آلة موسيقية ، تتآلف في نسيج تصويري تذوب فيه الحدود الفاصلة بين العلاقة التقليدية للشكل بالخلفية ، فهو دائما يواجه مآزق ومشكلات الحذف والإضافة والاستغناء عن قيم ظاهرة للكشف عن قيم أخرى أعمق وأبقى، فنرى الشكل يذوب أو يتحد مع الخلفية ليتبادلا الأدوار بسهولة ويسر دون عثرات تربك العين أو تصيب بحيرة التنقل أو الملل، حيث يتم صياغة الشكل وفقاً لقانون جمالي واضح يرى في غنائية الشكل هدفاً وموضوعاً، فدائما يتخفف من كتلة الأجسام لتصبح كما لو انصهرت تحت وطأة ضوء وحرارة شمس ، ولا يبقى منها للعين سوى أطيافها متمثلة في خط يتحرك ليحدد هيئتها فقط دون أن يهب لها صلابتها أو وزنها الطبيعي، وأما الزمزمي فلم يحد عن هذا الإطار سوى بالقدر الذي يجعله أكثر اقتراباً من الطبيعية وقانونها الجمالي الذي يعطي للشكل قدراً من الاستقلال فيبقي على خصائصه الطبيعية واضحة بصورة لا تثير أي

احتمالات أو تصورات أخرى غير ما هو مجسد وموصوف في مجال بصري لا يخلو من الإيحاء بالبعد الثالث ، ولعل هذا ما يعطي لأسلوبه الفني شخصيته المتميزة أو المستقلة.

يوسف عبد لكي

فى مجمع اخناتون يظهر السورى يوسف عبدلكي متميزا بأسلوب فني يتمتع بالبساطة والعمق ، وذلك من حيث الموضوعات المطروحة والخامة المستخدمة ، فهو يتخطى الحدود التقليدية لخامة الفحم النباتي من حيث المساحة الفنية التي تتسع إلى حد مثير ، ويختار أبسط موضوعات التصوير وأكثرها تقليدية ، فتدور في إطارالطبيعة الصامتة من حيث العناصرالمستخدمة التي تتشكل من سمكة كاملة تنتفي عنها ملامح الحياة أو بقاياها متمثلة في رأسها ، أو كؤوس القهوة على رقع الشطرنج وغيرها من أشياء الإنسان البسيطة ، التي نجدها هنا في معظم الأحيان مقوضة فى فضاءات واسعة بصورة تشعرك بأن مستخدمي هذه الأشياء اختفوا من المكان لتوهم ، ولايمكنك سوى أن تحيي الفنان على جرأته وخياله وفهمه العميق لدلالة الشكل ، الأمر الذي أدى إلى صياغة هذه المعادلة التكوينية بين الشكل والفراغ وتوظيفهما معاً لرؤية رمزية توحى بدلالات غير محددة المعنى ، ولكنها تتشابك واللحظات الراهنة بصورة وثيقة يكشف عنها الإحساس .. فعندما تقع العين على مساحاته القاتمة الواســعة تنتاب الفرد حالة من التأمل والدهشة والإبحار بانقياد في الذاكرة ، حيث تتوارد صور الأشلاء البشرية ومشاعر الغربة والحنين أحيانا لحميمية مفقودة ، فهو يجسد إيقاعات نفسية ترتبط بحالات شعورية معاصرة ، وان كانت مجردة من السطحية والمباشرة .

الجهر بالعورة

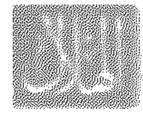
وهناك في الساحة ما يثير الضجر والاشمئزاز و خاصة حينما تجد الفنان يجهر بعوراته بجرأة محيرة يحسد عليها .... فلا تدري إذ كان يعي ما يقدمه ، أم أن جهله البين هو الذي ساقه إلى شرك التقليد والمسخ أم أنه متيم بقيمة أفقدته صوابه !!. ففي كل الأحوال العذر أقبح من الذنب ، وفى نفس الوقت يشير إلى دلالات مؤسفة فى واقع الفن في مصر وحركته اليوم ، وأهمها حالة اللامبالاة وغياب الرؤى النقدية الواعية المطلعة الجريئة والمجردة من الهوى والمنفعة ، الأمر الذي هيأ المناخ لانتشار وتفشي هذه الحالات ، المشار إليها يوما بعد آخر دون أن تعترضها أي إشارة استنكار أو تبصير ، الحقيقة أن حالات التقليد كانت تحدث في زمن غياب ثورة الاتصالات وتطور وسائل النشر وسرعة انتقال المعلومة بالماضي القريب حينما كانت تقع عين أحد الفنانين على كتاب أو مجلة بها أعمال فنان غربي حديث العهد غير معلوم أو مشهور بين جمع الفنانين المصريين ويتسلق على أكتافه باطمئنان لجهل الآخرين بالمصدر، ومع ذلك كان هناك وعي راصد يكشف كل غش وتزوير رغم محاولات التعمية والتبرير الظاهر والباطن عن طريق ابتداع الكلام والتعاويذ المفهوماتية ، وأما عندما تقلد فنانا معلما لكل أو معظم المصريين بحكم موقعه السياسي فنضع تحت الأمر مليون خط أحمر ؟؟!! ، وتستوجب المسألة الانتباه من الجميع ، رأيت هذ المازق حينما ساقتني قدمي المتقدمة والأخرى المتأخرة إلى

أتيلييه القاهرة الشاهد المهم على حركة الثقافة المصرية وهبوط خطها البياني ، ورغم ذلك له مكانة نفسية عندي ، فالذهاب إليه يشبه الطقس الغيبي المقدس ، ولا أخفي سراً فكان المقصد هو مشاهدة معرض بعينه ، ويبدو أنه القدر فعند وصولي علمت انه انتهى البارحة ، فقلت لا بأس طالما بالقاعات المعارض في يومها الافتتاحي ، وصعدت إلى القاعة العليا ووجدت نفسي في معرض ظننت أنه معرض لمستنسخات لأعمال الفنان الوزير فاروق حسني ولكن وجود السيد: محمود المنيسي جعلني أعاود التأكد من المعلومات "بالكتالوج" وتوقيع الفنان الذي لم يترك أي مجال للتراجع أو الشك فيما نرى وندرك ونستنتج بعد التحليل والدراسة ، فالأعمال المعروضة تنتفي عنها صفة الإبداع والفن لأنها شديدة الشبه بأعمال الفنان " فاروق حسنى" إلى حد أن يختلط الأمر على المتلقي ، فالأعمال بهذا المعرض الموقعة باسم المنيسي تقف عند حدود مرحلة غير منتهية بمقياس انتهاء العمل عند فاروق حسني، استقبلت القاهرة المنيسى هاوياً للفن ومتحمساً له بصورة أثارت الإعجاب في البداية لما كانت تتسم به تجاربه الأولى من جدية فى مجال التعبير بالأبيض والأسود أو فن الرسم ، و توقع الكثير له مستقبلا متميزا ، واتجه في منحى العمل المركب فى دورات صالون الشباب واستقر به المقام كثيراً هناك ، حيث الجوائز والشهرة المبكرة وليس لدينا تعليق على ذلك سوى أن نذكر بأن الخبرة الفنية التى يتطلبها العمل المركب تختلف إلى حد كبير عن الخبرة المطلوبة لفن التصوير فكل وسيط فني له أسراره وأغواره لا يمكن أن يؤتي ثماره لصاحبه إلا إذا استطاع سبرها وامتلاك ناصيتها.

ابراهيم عبد الملاك

فى قاعة (بيكاسو) يعرض الفنان " إبراهيم عبدالملاك مجموعة من أعماله النحتية والتصويرية في إطار العزف علي أوتار ذاكرة الحياة السعيدة أو الجميلة ، فلا تخلو أعماله من أبعاد رومانسية بالمفهوم العاطفي ، فهي محتشدة بعاطفة الحب والسعادة واللذة ، .... تجمع أعماله النحتية بين وجوه النساء والفرس فى تكوينات غير مألوفة ، تتحرر فى أحيان كثيرة من قوانين وجماليات فن النحت برؤيته التي ألفناها في النحت الحديث ..... وخاصة عند الجمع بين أجزاء من كائنات حية مختلفة التكوين في بناء عضوي واحد ، كما أنه يميل إلى التباين الذي يتأكد عندما يبزغ أو يهل جسد امرأة بملمس ناعم مصقول لامع بلونه النحاسى الأصفر من بطن كتلة ذات ملمس خشن غشيم عفوي التكوين قاتم اللون كالطين في قاع النيل (أو كما الخرفش) وهو الطين المصهور في قمائن الطوب الأحمر، فيصبح للون والملمس إيحاءات رمزية تنبثق من الدلالة الطبيعية للشكل ، وهو بذالك ينتمى إلى النزعـــة الطبيعية فى الفن ، حيث يكون الإنسان منتمياً إلى منشأه وهو الطبيعة الأم. ■







بقلم
مرفت رجب

الـــدور

رغم بساطة ما ارتدت من سواد، إلا أن بهجة وجهها الوضاء كانت كافية لملء الشاشة بالنور، وقبل أن يربكك ألقه، يساعدك بريق عينيها اللماحتين على أن تصدق، إنها بالفعل من خطرت على بالك لأول وهلة، لم ينقص ما اعتدنا عليه من سحرها، وإن فى الوزن زادت بعض شىء، فهكذا حققت برجيت باردو لنفسها ما شاءت، واختارت دوراً على المقاس...

كانت هى النجمة، أفرد لها الفرنسيون برنامجا خاصا، ويفضل فضائيتهم الدولية، وصلنا قبس من لامع أفكارها، وبساطة رؤاها، وعرفنا كيف كان ذلك معها من زمن، وإن بدا على أهل الفن فى زمانها ما يدل على الصدمة الكاملة، ذلك حين فاجأتهم وهى فى أوج تألقها، بأنه لا تمثيل بعد سن الخمسين، المهم أن تمسكها بالقرار الذى اتخذته لنفسها، وما فعلته على مدى العشرين عاما التالية، هو ما جعلها جديرة بأن تكون نجمة عيد ميلاد العام الجديد.

قبل أن أمضى فى أى تفصيل أو تحليل أو تعقيب، علىّ أن أعترف للقارىء الكريم، أننى علىّ مدى وقت إذاعة البرنامج لم أستطع أن أقاوم تصور، كم الدموع التى كان يمكن أن تنهمر لو أن البرنامج صنع عندنا مع نفس النجمة، على ضوء غرام برامجنا بالحياة فى الماضى!!

أما الفرنسيون، فشاشاتهم تشهد بأنهم من أبرع صناع البرامج، خاصة منها التسجيلية. ويبدو أنهم حين قرروا أن تكون بريجيت باردو أبرز نجوم عيد الميلاد، أرادوا تبنى مشروعها وموقفها من عناصر البيئة، خاصة ما يتعرض للإهمال أو للانقراض من الحيوانات، لدرجة أنك تستطيع أن تقول بلا حرج، هذا برنامج تسجيلى عن البيئة، وما وجود باردو إلا لكونها من أنشط الإيجابيين فيه، بالفعل، وليس بمجرد الكلام، لكنه برنامج مصنوع

بذوق الفرنسيين في الصورة والألوان، وبما يليق بالاحتفاء بمولد عام جديد.

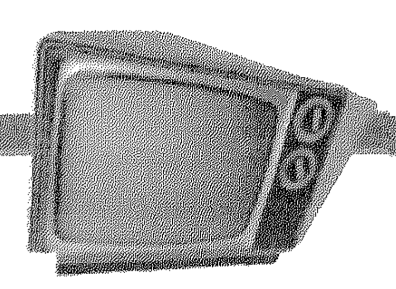
أكد لى هذا البرنامج أن مذيعى البرامج عندهم والضيوف، لا يلبسون على مزاجهم، بل على مزاج مخرج البرنامج، أو من يختاره المخرج ليكون مسئولا عن الملابس.. هذه طبعا من الحقائق القديمة، لكننى أنتهز فرصة الكتابة عن هذا البرنامج لأبين قيمة الالتزام بها. فقد انحصرت الألوان فى ثلاثة، أسود وأحمر أبيض.

لبست ب باردو بنطلونا أسود «وبلوفر أسود وحول رقبتها عقد بحبات سوداء بينها ثلاثة أو أربعة فقط من اللون الأحمر، والعقد كله لا يكاد يظهر. أما المذيع المحاور، فقد لبس هو الآخر بنطلونا أسود من لون البلوفر الذى حددت ياقته بإطار أحمر رفيع لدرجة أنه هو الآخر لا يكاد يرى، وبدلاً من المنضدة التقليدية التى تعودت برامجنا حشرها بين المتحاورين، مع الحرص على باقة زهور تزحم الصورة، بدلا من تجميلها، رأينا فى برنامج «ب ب» صندوقاً من الزجاج الشفاف، يظهر ما بداخله من كرات حمراء، يظهر لمعانها، واختلاف أحجامها، فى تناسق مبهر، مع بالونات حمراء انتثرت هى الأخرى حول الصندوق، فى أشكال وألوان، تتناغم مع بقية مكونات الصورة. هل أكتفى بهذا فى شأن الألوان إن أردت أن أنقل لحضراتكم هذا النوع من الشعور بالارتياح من ناتج هذا الأسلوب فى تشكيل الصورة؟ ربما يتوجب علىّ أن أقرر أننى رأيت فى اختيار الألوان وتنسيقها اجتهاداً لتمكين الصورة من قدرة على ترجمة مشاعر وأفكار برجيت باردو، فقد بدت فى هذا البرنامج نموذجا لاجتماع النعومة إلى الحزن إلى الثورة.

صفاء الروح

هذه روح صافية، ومن ذلك صفت أفكارها، ويأتينا فى هذا البرنامج ما يثبت أن بريجيت باردو لا علاقة لها بالأدوار التى مثلتها فى أفلام جعلتها أشهر ممثلات الإغراء فى العالم. بل إنه يثبت أن عدم ارتياحها هذا بدأ يظهر وهى فى قمة شهرتها. المهم أن البرنامج دأب على دعم ما يأتى على لسانها من كلام بلقطات تسجيلية، بعضها تظهر فيه «ب ب» فى مراحل مختلفة من عمرها، ومنها نكتشف موقفاً فكرياً واضحا» أنا لا أشعر بالارتياح، أشعر أننى فى سجن، إنهم يجعلونني أنطق بما لا أريد قوله، وأتصرف على نحو لا يرضينى، كان هذا ردها فى حوار تليفزيونى أجرى معها قبل أن تبلغ الثلاثين، وقد جاء كلامها هذا إجابة عن سؤال عن رأيها فى النجاح الساحق الذى حققته. عندئذ لم يملك محاورها إلا أن يسألها «متى وأين إذن تشعرين بالارتياح»، وعليه ردت «فى البيت، لا أشعر بالارتياح، والأمان إلا فى بيتى، حيث كل شيء فى المكان الذى اخترته، وعلى الوضع الذى يريحنى»..

ويثبت لنا البرنامج الخاص المحتفى بها، أن «ب ب» كانت دائما عند كلمتها، فقد جاءت الأيام بما يثبت أنها إذا نطقت بكلام، فهو ليس أى كلام، وانما سلوكها على الدوام يثبت أنها تعنى ما تقول، وتعرف دائما كيف تعبر عن أفكارها ومواقفها بأبسط عبارة ، ويأتى انفعالها فى الكلام بقدر حرارة إيمانها بما تقول،



المتفرجة

أو بقدر عنف استيائها من مواقف الآخرين، «أنا قابلت رؤساء فرنسا الثلاثة، من أول ديجول لغاية شيراك، وقبله قابلت ميتران أيضا، ولا حاجة!!، رؤساء الجمهورية رحبوا بى جدا وسمعت منهم أحلى كلام، لكنهم لم يفعلو أى شىء» تقول «ب ب» هذا الكلام لمحاورها ليلة عيد ميلاد ٢٠٠٥ ولقطات لقاءاتها برؤساء فرنسا الثلاثة ديجول وميتران وشيراك تثبت صدق كل حرف فى كلامها، ولا أخفى عليكم أننى فى هذا الجزء من البرنامج، كنت أتابع بكل الشغف والدهشة، فلقد نطقت اللقطات بحفاوة الاستقبال الذى حظيت به «ب ب» من رؤساء فرنسا الثلاثة، لكن كيف يصدق المرء أن «ب ب» بكل ما لها من سحر وجمال فى الشكل والمنطق، تلقى من رؤساء بلدها المتعاقبين نفسى ما يلقاه أى صاحب رأى مخالف لما اعتاده الناس فى العالم الثالث، يتصور أنه يكفيه طرح القضية على رئيس بلاده، وتوضيح الأخطار الناجمة عن عدم الالتفات، لكنه لا يلقى من رئيس بلاده ما يتجاوز تطييب الخاطر، أما التحرك الفعل وإجراء التغيير المطلوب ، فبرجيت باردو توضح لنا أنه أمر آخر ليس بسيطا أو سهلا، ولا حتى على رؤساء فرنسا. ولقد كانت «ب ب» صاحبة قضية، وقامت من جانبها بحشد القوى المؤثرة فى المجتمع الفرنسى، واستطاعت أن تضم إلى صفها نجوما آخرين فى الفن والصحافة والجامعات والأحزاب، أصبحوا بفضل حماسها وعملها الدءوب أطرافاً فاعلة فى حركة المؤسسة التى أنشأتها «ب ب» فور اعتزالها التمثيل، ونجحت مع العديد من أنصارها أن توعى الناس فى الدنيا، ومن قبل بالطبع فى بلادها، بما جعل مسألة الانشغال بالحيوانات المعرضة للانقراض، ومنها الكلاب الضالة، من المسائل المتقدمة على جدول أعمال المجتمع المتنامى لأنصار البيئة. وتبين لنا المشاهد التسجيلية في البرنامج أن مؤسسة باردو من التطور والاتساع بما يؤكد أن سعيها للقاء رؤساء فرنسا واحدا تلو الآخر، لم يكن إلا لأنها تريد منهم قرارات نافذة، يترتب عليها إيجاد صيغ قانونية تلزم الناس بتغيير ما ألفوه من أنماط السلوك المهلكة لأنواع من الحيوانات، سواء منها الأليف أو البرى. كذلك فإننا لا نملك إلا أن نتأمل هذه الفنانة التى سحرت الملايين، لكنها لم تكتف بفتنتهم بجمال شكلها، وانما أصرت على أن تفتن بالمثل عقولهم ووجدانهم، وواصلت ذلك بكل الاصرار، ذلك لأن لها إرادة عازمة على تغيير التعامل السلبي مع عناصر البيئة، ومنها الحيوان. وأكاد أتردد فى استخدامى لفعل الإصرار وربطه بسلوك باردو فى الشأن البيئى، إذ يبدو لى أن ما عندها يجمع الإصرار إلى الدأب الذى لا يعرف التهاون أو اليأس. فأى مناضل تتاح له فرصة التحدث إلى رئيس بلاده فى أمر حيوى ويطول صبره إلي أن ينقضى عهد هذا الرئيس دون أن تتخذ القرارات المغيرة للأوضاع الخاطئة الخطيرة، أى مناضل فى مكانها كان لابد له إما أن ييأس وينفض يديه عن القضية، أو على أحسن الفروض، يبحث لنفسه عن مسار آخر، مهما كان أكثر صعوبة أو مشقة من اللجوء إلي رئيس الدولة القادر علي إصدار القرارات النافذة، لكن من الواضح أن بريجيت باردو ليست أي

مناضل، فـهـا نـحن نرى على الشـاشـة الصور المسجلة الشاهدة على أن صبرها كان أطول من عمر الرياسة في فرنسا على عهود ديجول ثم ميتران ثم شيراك. وعلى هذا النحو نرى كيف صاغت لنفسها دوراً لا يخضع لأى تغيير أو تنويع أو لعب بالألوان، إنه دورها الذى اخـتـارته بفكر حر، وإرادة مستقلة.

الأفكار

ولا يتـصـور أحـد أنهـا جلست ترص الكلام رصاً، أو أن محاورها أوجع رؤسنا بأسئلة تأخذ الكلام في اتجاهات متناطحة أو تقطعه لحشر أغنية أو رقصة أو جزء من فيلم لا علاقة له بما يدور من كلام، خاصة أن ضيفته، السيدة باردو، لها في كل هذه الفنون إبداعات وإبداعات . تصـوروا أن شيئا من كل هذه المصادر للإزعاج والتى تواصل برامجنا اقترافها بلا هوادة لم يظهر أى أثر لأى منها على طول الساعة ونصف الساعة التى قضاها مشاهدو البـرنامج فى حـالة من الانبـهـار الناعم المدهش.. فياسادتى الكرام، هذا واحد من ألمع مـقـدمى البـرامج على التليـفـزيون الفـرنسى، وربما من أجل ذلك جـمـع فى حضوره بين قدرة التأثير والاختفاء، وأما تأثيره الواضح فمنه أنه قاد الحديث معها بحيث يجعله على طول الخط يدور في فلك أفكارها، كما لو كان هو الآخر مصراً على أن يطلعنا على التكوين الفكرى لضيفته، وحتى فى ذلك، كان يريد، ولقد نجح فى أن يتجنب الخوض فى أدوارها السابقة فى الفن، بدءاً من رقص الباليه إلى العديد من الأعـمـال السـينمـائيـة التى غنت فـيـهـا ورقصت مع ألمع النجوم ولقد فـعل ذلك بالرغم من بعض إشارات تعمدها، ولكن بقدر، وفـيـمـا له صلة المقـابلة مع الدور الجديد.. وإذن فـقـد كـان همـه أن يعـرض المكونات الفكرية لدورها الجديد على خلفية دورها فى عالم الفن الذى فى عز مجدها اعتزلت قبل أن تصل إلى الخمسين. لكننا الآن وبعد نحو عشرين سنة من هذا القرار نرى لها بطولة من نوع خاص، عرضت لنا جوانبـهـا فى حديث متدفق، تمتزج فـيـه النعومة بالغضب حتى إذا ما اقتربنا من نهاية البرنامج وجدنا أنفسنا فى القلب ندعـو «يارب مـا يخلص» وكـيف لا نرجـو المزيد، وتنوع اللقطات يتـــوالي، يأتيك بشهادات عن مواقفها وأفكارها ينطق بها ألمع المخرجين ومنهم زوجها السابق روجية فاديم وألمع الممثلين ومنهم زميلها وصديق عمرها آلان ديلون الذى أكد أنها ظلت فى أعين الناس على مر السنين رمزاً لفرنسا، ونعم الرمز، ولكنه أكد اعتقاده بأنه عكسا لم طرحه سائله من أن الكل يحب «ب ب»، قال آلان ديلون إنه لا يرى ذلك صحيحاً.. فهناك من تضـايقوا منها ولم يعجبهم لا كلامـهـا ولا مواقفها، لكن ديلون فى نفس الوقت أكد أن كل من اقترب منها وعرفها لم يسـتطع إلا أن يحـبـهـا» وهنا وجـدت نفسى أصدقه وأؤيده. فمع شخصية مثل بريجـيت باردو يمكن أن تخـتلف، لأن لها من الوضوح والصراحة والجرأة ما يجعلك فى مـوقف حرج، إما أن تكون معـها أو ضدها، ولاشك فى أن تعبيرها عن مواقفها الجريئة لا يخلو من عنف. والرأى عندى أن مثل هذه الشخصية جديرة بكل الاحترام والتقدير.. أما الذين يكتفون عند الاختلاف معـهـا بمجرد الغضب والمقاطعة فـهم فى رأيي يتقـاعسـون عن واجبهم فى توفير المعلومات والشروح اللازمة التى إن غابت فتحت لسوء الفهم أوسع النوافذ!!!.. ■

قصة قصيرة

سوسيولوجيا النظافة

قصة : نبيل صلاح الدين



رقص قلبه بين ضلوعه فرحا حين تبين أن المهام الموكلة إليه فى العمل الجديد، الذى التحق به مؤخرا بعد وساطات عديدة من كبار القوم، هينة واضحة المعالم، ربما أسهل كثيرا من كل توقعاته. مجرد الإشراف على نظافة تلك القاعة الفخيمة الفسيحة المخصصة للحفلات واللقاءات الموسعة والاستقبالات وهو ما لايصعب تنفيذه كما ترون. بدا الأمر بسيطا سهلا للغاية، كما لو أن الحظ قد ابتسم أخيرا بعد طول عبوس .

من المؤكد أن ما ساقه من وساطات قد فعلت فعلها بل آتت أكلها، ها هو يجد وظيفة مرموقة، والمهمة أيسر ما تكون، مشرف نظافة يعمل تحت إمرته أفراد عديدون، والأهم أن المطلوب محدود للغاية

محدد تماما، مجرد السهر والعمل على الحفاظ على نظافة وحسن ترتيب القاعة، مساحة محددة معينة يمكن أن يخصص لكل متر فيها شخص مسئول عن نظافتها مسئولية مباشرة بحكم وجوده في الموقع. كان ذلك بالطبع من شطحات التفكير، حين تذكر ضرورة نجاحه في القيام بالمهمة المطلوبة، خاصة وهي على ما تبدو عليه من اليسر والسهولة فلا يفشل فيها سوى العاجز قليل الحيلة .

كانت الخطوة الأولى في وضوح الشمس، اختيار فريق العمل، انتقاء الأفراد المعاونين الذين ستقوم على أكتافهم مسئولية تنفيذ المهمة، المنوط بهم تحقيق الهدف. هم قلب العمل وروحه. أعلنت الإدارة عن طلب الأفراد حسب الاحتياج، وتقدم العديد من المرشحين لشغل الوظائف الشاغرة ..

كان أول ما تميز به القادمون للمقابلة هو تدني المظهر العام والهيئة الزرية، لكنه أرجع ذلك لكونهم من العاطلين وبلا دخل، ولكن بالتداعي المنطقي وبالتدفقات النقدية الداخلة المتوقعة في القريب العاجل من جراء التحاقهم بهذا العمل شديد البساطة يمكن علاج الأمر. لكن حتى وبعد أن طلب إليهم صراحة بذل المزيد من الجهد لتحسين المظهر لم يحقق أبدا الحد الأدنى كنتيجة مبتغاة. بمرور الوقت واستمرار ورود نفس النوعية من الأفراد المتقدمين، اعتبر أن هناك ارتباطا شرطيا بين المستوى الاجتماعي أو الموطن الأصلي وبين مستوى ونوعية العمل أو الوظيفة التي يتقدم لشغلها الشخص المعني. بمعنى أنه اقتنع في خاتمة المطاف أن لا يمكن أن يتقدم لشغل الوظيفة نوعية خلاف ما تقدم بالفعل .

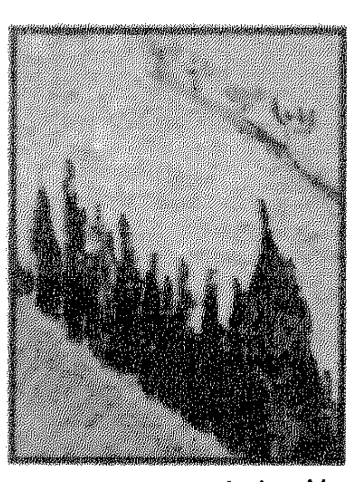
ومن ناحية أخرى فهم ورغم تواضع المظهر وتدني مستوى النظافة لديهم، إلا أنهم وبروح المهنية الحقة لاشك قادرون على إنجاز المهمة فهي أولا وأخيراً مجرد الحفاظ على مستوى النظافة وحسن الترتيب في تلك المساحة المحدودة بالحوائط الأربعة. كذلك فإن الدقة في تحديد المهام، والوضوح في توصيف الأعمال المطلوبة يجعلان الأمر هينا وفي متناول الأفراد، وإن تواضعت قدراتهم .

جاءت العقبة الأولى، وكانت متوقعة بالفعل - العجيب أن هناك دوما عقبات أمام أي مسعى أو سعي أو مسيرة أو مسار - وهي ما تبين سريعا من محدودية قدرات وإلمام الأفراد بمبادئ القراءة والكتابة برغم كونهم من حملة المؤهلات، لكن أمكن تمرير المعارف والملكات الضرورية بالشرح الشفهي المبسط والبيان العلمي. فبلغ الجميع بالأعمال المطلوبة وأصبح الطاقم على حسب ظنه

كافيا وبدأ العمل بالفعل وسط توقعات متفائلة بتحقيق نتائج باهرة فى ضوء التأهيل المكثف الذى تلقاه الأفراد.

لكن النتائج جاءت مشوبة بما أفقدها قيمتها الحقيقية. كان المشهد العام نظيفا مرتبا بشكل مقبول، كل شئ فى مكانه بادى النظافة، ولكن كانت هناك رائحة نفاذة غير مستحبة غلفت جو المكان لتفسد كل استمتاع باللحظة. فى البداية لم يتنبه لذلك الكثيرون فى غمرة الإحساس بحسن ترتيب وفخامة المكان وعاصفة المعطرات التى طبعت أرجاء القاعة. لكن بمضى الوقت بدأ الضيوف فى الإحساس بالتململ فالتذمر فالشكوى.

طفت على السطح اقتراحات عديدة باستخدام المزيد من معطرات الجو الأكثر فاعلية بأنواعها العديدة المختلفة، وهو ما تم بالفعل وجرى استخدام أكثر من عشرين نوعا من

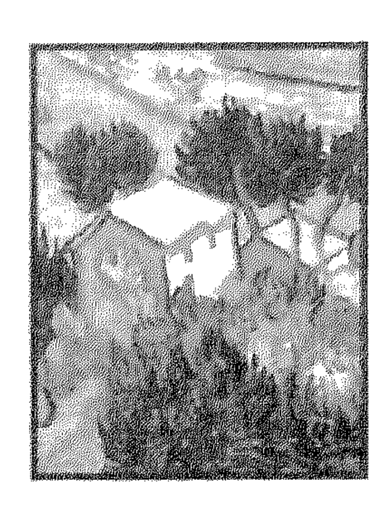


المعطرات ومزيلات الروائح. ولكن تطلب الأمر استخدام نوعيات مستوردة من بلاد الخارج للحصول على رضا الأغلبية، لكنه ظل على إحساسه المبدئى بأن الرائحة مازالت معلما أساسيا فى المشهد العام، تشيع من حولهم فى كل مكان، تؤرقه تقلقه. فهى لا تعنى سوى أن العمل لم يتم، والمهمة لم تنجز.

بدأ باستدعاء الأفراد العاملين أنفسهم لبحث الظاهرة المحيرة. بمجرد ورود طلائعهم خيمت على المكان نفس الرائحة دون تغيير يذكر، فاستنتج الترابط العضوى بين الحدثين، وأدرك حجم المأساة وهول الخطب.

كانت بالفعل لحظة الحقيقة المؤلمة التى عليه أن يواجهها، إذ ان المشكلة فى الأفراد ذاتهم المنوط بهم تنظيف المكان، فيهم هم المشكلة، فضلاتهم وإفرازاتهم ونفاياتهم هى ما يتعين مواجهته بحلول جادة ضمانا لمكان نظيف وهواء أنظف.

خطط لمواجهة الموقف على محورين رئيسيين رفع الوعى العام بالنظافة لدى الأفراد من خلال نشر التعليمات المكتوبة حولهم فى لوحات إرشادية على الحوائط نرجو عدم إلقاء مخلفات، ممنوع البصق، قاعتنا نظيفة جميلة.. إلى جانب تفعيل حملات التوعية عن مزايا النظافة الشخصية وفوائد الاستحمام وقد حققت فى الواقع بعض النتائج، إذ أصبح الموقف فى بعض الأيام محتملا مقارنة بالأيام المستحيلة فيما قبل اتخاذ حزمة التدابير الفنية. لكن المستوى المطلوب تحقيقه والمتفق عليه عالميا لم يكن



متحققا فى أى وقت من الأوقات. وعليه كان لابد من اللجوء لحلول أشد جرأة وتدابير أكثر راديكالية، الإشراف المباشر على نظافة الأفراد .

عليه أيضا تطبيق المدخل العلمى لحل المشكلة والقضاء على الظاهرة. أولى الخطوات هى إعداد قاعدة البيانات التى ستقوم عليها أعمدة الإجراءات العلاجية. توزيع استمارات أو نماذج لملء البيانات، مسح اجتماعى محدود للأفراد محل البحث ثم إجراؤه على عجل، ودراسة نتائجه بالسرعة الواجبة أظهرت مجموعة من الثغرات ومواطن الخلل التى يتوجب علاجها والتصدى لها بتدابير أشد فعالية. كان منها عدم وجود سكن ثابت أو محل إقامة له عنوان، ضعف الإلمام أو عدمه بمبادئ النظافة الشخصية أو أهمية الاستحمام والاغتسال بين الحين والآخر. بدأ فى الإحساس بأن الأمر أصبح خارج نطاق المسح وأن الأمر يتعلق بظاهرة اجتماعية مجتمعية اقتصادية كلية شاملة وعندها تأكد من حتمية اقتحام المشكلة بحلول أكثر جراة وأشد راديكالية.الإشراف اللصيق على النظافة الشخصية للأفراد العاملين بالقسم .

بأيلولة مسئولية نظافة الأفراد إلى الإدارة كان لابد من إعادة النظر فى فلسفة عمل وأسلوب أداء الإدارة، فلم يعد الأمر مقصورا على تنظيف وترتيب المكان، بل أضيف إلى ذلك القيام على نظافة الأفراد أنفسهم، وضمان ألا يخلف القادمون لتنظيفه وراءهم ما يسوء من مخلفات مادية أو معنوية..

تجربة الصين مع الأمية مثيرة، الملايين مطلوب تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة أو محو أميتهم على أقل تقدير. بعد أن أعيتهم السبل لم ينفعهم سوى حل واحد، (كل واحد يعلم واحد) أى أن تنحصر مسئولية تعليم فرد محدد بين يدى فرد آخر محدد بنفس الوضوح. ولك أن تتخيل سهولة الأداء بل والإعجاب بدقة النتائج مسبقا. كان ذلك هو المدخل الذى قرر أن يتبناه فى مواجهة الموقف، أن يكلف الفرد المعين بالقيام على ضمان نظافة الفرد الفلانى. مسئولية محددة والمسئول معين، عندها تكون عوامل النجاح مضمونة محكومة. ارتاحت نفسه للفكرة وأيقن من الخلاص من ذلك الهاجس البغيض فمن غير المتصور أن يعجز فرد عن القيام والسهر على نظافة فرد واحد

آخر لا أكثر، إن بالغسل جيدا أو بالرش بمساحيق مخصصة لهذه الأغراض ..

فكر في تخصيص جانب من القوة البشرية المتاحة من العمالة الحالية للقيام بأعباء المهمات الجديدة، لكنه استبعد الفكرة لسببين أولهما أن الأفراد المذكورين هم جانب من المشكلة ذاتها، إذ إنهم هم الأفراد المطلوب ضمان نظافتهم، بخلاف ما يستتبعه ذلك من نقص في طاقة العمالة المخصصة للمهام الأصلية للإدارة. لم يتبق أمامه سوى التفكير في طلب قوة عمل إضافية. ولكن كيف يمكن ضمان نظافة القادمين الجدد؟ وكيف يمكن تسويغ طلب أفراد إضافيين؟ رغم أن المهمة تجرى بنجاح مرض منذ فترة وكل شئ على ما يرام .

عند هذه النقطة بالتحديد أصبحت المشكلة شخصية محضة، ولا علاقة لها بالعمل إطلاقا. هناك فارق واضح بين المشكلة والإحساس بها، بمعنى أنه قد تكون المشكلة واقعة فعلا ولكننا لا نحس بوجودها، فهي في حكم غير الموجودة. تنشأ المشكلة وتوجد فعلا في لحظة الإحساس بها، مشكلته أن الجميع مجمعون على الرضا عن النتائج المحققة ، هو وحده الوحيد غير الراضي عن النتائج المحققة. أطلت فكرة الاستقالة من أول وظيفة رمزا لمسيرة تكاد تبدأ بفشل مهين والأنكد، في مهمة يصعب تصور أيسر منها . لكن عاوده التعقل أمام اعتبارات احتياجات الحياة اليومية، فبإمكانه الاستغناء عن كثير من الضروريات الأساسية لكن من الصعوبة بمكان تصور إمكان التخلي عن قائمة طويلة من الكماليات .

أدرك بالحكمة البسيطة أن كل ما عليه لايزيد عن مجرد التخلي عن حاسة الشم لا غير، ولو لفترات محدودة أو خلال ساعات العمل كان قرارا صعبا على أي حال ولكنه اتخذه بشجاعة دون وجل. بالتخلي عن هذه الحاسة لفترة محدودة لن تكون هناك مشكلة بالمرة. لكن تعطيل هذه الحاسة الطبيعية يحتاج إلى تفكير، هل هو تعطيل مؤقت، أم بتر تام لهذه المنحة السماوية؟ التعطيل الوقتي، وهو الأقرب للمنطق، يتطلب سد منافذ التنفس بأي مواد معيقة لنفاذ الرائحة، قطع من القطن أو القماش أوالورق أو ما شابه، عليه أن يقنع بحقيقة واقعة ملموسة بحواس أربع وليس الشم ولو مؤقتا. ظل على حيرته طويلاً، ولكن عندما هون أحدهم الأمر عليه مؤكدا استحالة ظهور ذلك في الصور سواء كانت فوتوغرافية أو تليفزيونية أوحتى ديجيتال، عندها قر نفسا وأدرك كم كان مخطئا، وثاب إلى رشده سريعا .

■

أحرص على تقديم أفكاري بأسلوب يفهمه الجميع

محمد السيد عيد

البداية لابد أن تكون من الإسكندرية، مدينتى التى أعشقها.

ولدت بالإسكندرية في أواخر عام ١٩٤٧، فى حى شعبى يقع فـى الجنوب الغربى من الإسكندرية، يسمى غيط العنب، ويتضح من اسـمـه أنه كان منطقة زراعية امتد إليها الزحف العمرانى فتحولت من الزراعة إلى منطقة سكنية. وسكان هذا الحى كلهم من المهاجرين، ويمكن تصنيفهم فى ثلاثة أقسام:

- الصـيـادون الذين جـاءوا من منطقـة المنزلة وبلطيم ودمـيـاط والبـرلـس ورشيـد ليقيموا بجوار بحيرة مريوط ويعملوا بالصيد.
- تجار الألبان العلاقة خليط الوجه البحري والصعيد كلهم أبناء القرى جـاءوا إلى هذا الحى لتربيـة المواشى وبيع ألبانها لأهل المدينة.
- الصعايدة الذين جاءوا من محافظات الوجه القبلى للعمل فى الجمارك والشركات المجاورة للحى (شركات الزيوت والصابون، الغزل والنسيج) والمؤسسـات الحكومـيـة، والأعمال الحرة.

كان جدى ينتمى للمهاجرين من النوع الأول، جاء من مطرية المنزلة مع عدد كبير من أقاربه وبلدياته واستقروا بالحى وعملوا بالصـيـد، أما جدى فقد اختار لنفسه تجارة أدوات الصـيـد، ويبـدو أنها كـانت مـهنة مـربحـة أتاحت له حـيـاة ميسورة، وبنى بيتـا، وتزوج سـيـدة من

برنبال، من عائلة زغلول وأنجب منها بنتين وثلاثة أبناء، وكان ترتيب أبى هو الأول من بين الخمسة وقد اشتغل بالتجارة مثل أبيه مما أتاح له حياة مستورة فى معظم الأحيان، وأدخلنا جميعا المدارس (عدا أختى الكبرى لأن العقول لم تكن قد استوعبت فكرة تعليم البنات بعد) لكن لم يكمل تعليمه سوى ثلاثة منا فقط.

كان غيط العنب يضم عددا كبيرا من المسيحيين الذين ينتمون - غالبا - للصعيد، وأذكر أننا كنا نسكن فى بيت كله مسيحيون عدا أسرتنا. ولازلت أذكر أسماء الجارات والجيران الذين نشأت بينهم وكنا ننادى من فى سن أمى من السيدات بـ «خالتى» وننادى الرجال الذين فى سن أبى بـ «عمى»، ونتبادل الكعك فى الأعياد، وعلى مدار العام ترسل أمى أطباقا من الحلوى التى تصنعها لهم، فيحتجزون الطبق لديهم حتى يصنعوا حلوى فيرسلون لنا الطبق مملوءا.

فى مواجهة بيتنا تقع كنيسة مار جرجس، وفى كل عام يحتفل المسيحيون بمولده والمولد هو صورة كربونية من الموالد الإسلامية: حمص وحلاوة ومأكولات وألعاب كل ما تراه فى موالد المشايخ الإسلامية، لكن الطريف أن المسلمين يشاركون المسيحيين فى كل شئ، حتى دخول الكنيسة فى الليلة الكبيرة يشارك فيه المسلمون بدافع الفضول لمعرفة ما يحدث.

الدين لله

وحين وصلت إلى قرب الخامسة التحقت بمدرسة شباب الإصلاح القبطية الأرثوذكسية، وفى حصص الدين كان يحضر إلينا الشيخ ليحفظنا القرآن والأحاديث. وفى بعض الأحيان لا يحضر الشيخ فنبقى فى الفصل ونسمع دروس الدين المسيحى الموجهة لزملائنا، ونسمع تراتيلهم الإنجيلية، وقد حفظت بعضها ولا أزال أحفظها إلى الآن.

أنا الآن مدين لهذا الحى الذى علمنى أن الدين لله والوطن للجميع، ونزع منى أى ميل للتعصب وأعتز أنى كتبت للإذاعة المصرية المسلسل الوحيد عن الوحدة الوطنية، وأسميته «أقربهم مودة» مستمدا اسمه من الآية الكريمة «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى».

وأذكر أنى ذهبت إلى استراليا عام ١٩٩٩، وفى كانبيرا علمت أن الأسر المصرية فى هذه المدينة (١٦ أسرة) تعاونت فيما بينها وبنت كنيسة أورثوذوكسية وطلبت زيارة الكنيسة وحضرت القداس، والتقيت بقسيسها وحين استضافتنى إذاعة سيدنى لألقى عدة أحاديث خصصت مساحة من حديثى للكنيسة الأرثوذكسية، التى عبرت عن المسيحية كما فهمتها مصر، وميزت شخصيتها فى مواجهة المحتلين البيزنطيين، كما تحدثت عن مصر القبطية باعتبارها مكونا أساسا من مكونات الشخصية المصرية.

أول نشيد قومى

كان النشيد الذى نغنيه فى المدارس كل صباح فى أوائل الخمسينات، يقول:

عاشت مصر حرة والسودان
دامت أرض وادى النيل أمان
اعملوا تنولوا
واهتفوا وقولوا
السودان لمصر
ومصر للسودان

تغير النشيد القومى بعد ذلك مرات لكنى لازلت أذكر هذا النشيد، وأذكر أن

مصر والسودان كانتا دولة واحدة، وأشعر بالأسى العميق لأننا نتحدث كثيرا عن الوحدة ونسير فى الوقت نفسه فى طريق الانفصال.

اسم جمال عبدالناصر

فى السنة الثالثة الابتدائية انتقلت إلى مدرسة التربية الحديثة، وكان يجلس بجانبي زميل لي اسمه فتحي، وكان فتحي بالصدفة ابن خال جمال عبدالناصر، وهو اسم غير معروف لي في هذا الوقت، لكن زميلي راح يتحدث معي عن قريبه الضابط الذي شارك في الثورة، وعن زياراته المتقطعة لهم حتى بعد قيام الثورة.

كانت أسرة فتحي هذا تسكن في الشارع المجاور لنا، وعرفت بالطيبة وبأنها في حالها، وقد ظلت الأسرة في بيتها حتى كبرت، دون أي مميزات استثنائية باعتبارها أسرة الزعيم

بداية الرحلة

بدأت أكتب حين كنت في المرحلة الابتدائية، كان ما أكتبه عبارة عن كلام مسجوع، لكني كنت أعتبره شعرا ذا قيمة. ولا أذكر أني في هذه الفترة المبكرة قرأت مجلة أطفال أو كتابا خارجيا غير كتب المدرسة.

أما مكتبات الأطفال فلم يكن لها وجود في حينا أو في الأحياء الأخرى. وبقيت حبيس الكتب المدرسية حتى السنة الثانية الإعدادية. وفي هذه السنة عرفني أحد زملاء المدرسة على باعة الكتب القديمة في محطة مصر (سور الأزبكية السكندري) كنا نشتري الكتاب في المرة الأولى بقرشين، ثم نستبدله بعد هذا بنصف قرش، وقد أتاح لي هذا أن أقرأ كتب المغامرات أمثال. الفرسان الثلاثة، والفارس الخامس، وعقد الملكة، وكذا قصص أرسين لوبين وأعمال أجاثا كريستي، وبعض القصص المصرية الرومانسية والميلودرامية، أذكر منها قصة أنا يا فاطمة ذات الطابع الرومانسي، وخذني بعاري لعزيز أرماني، وكنت في هذه الفترة المبكرة أعتبر هذه القصص هي النموذج الأول للإبداع القصصي.

النضج الحقيقي كان في المرحلة الثانوية، حيث دخلت مدرسة العباسية الثانوية، والتقيت فيها بمجموعة من هواة الأدب والفن، منهم رجب سعد السيد القاص وأحد أعلام تبسيط العلوم الآن، ومحمود قاسم رئيس التحرير بدار الهلال، ومحمد زهدى الذى درس السينما وتوفى مبكرا، وسامي فهمي الذى مثل مع محمد صبحى فى بداياته ثم رحل إلى أمريكا ولم يعد، ومحمد رفيق الذى صار من كبار الجراحين في الإسكندرية وتحول إلى أستاذ في كلية الطب دون أن ينسى الأدب، ويرأس الآن أتيلييه اسكندرية.

هذه الجماعة كانت تتنافس في القراءة والمناقشة والكتابة، ولم تتوقف علاقتنا على المدرسة بل كنا نلتقي في الأجازات وأثناء الصيف. ونتبادل الخطابات التى تبين أفكارنا في القضايا التى نناقشها.

كان من حسن حظى فى المرحلة الثانوية أن التقيت بمجموعة نادرة من المدرسين، ويكفي أن أذكر أن سليمان فياض كاتبنا الكبير كان مدرس اللغة العربية لفصلي، وأن الدكتور أحمد صبحي أستاذ الفلسفة - فيما بعد - بجامعة الأسكندرية. كان مدرس الفلسفة الذى





محمد السيد عيد مع فاروق حسني والمحجوب وأنس الفقي في أحد المؤتمرات بالإسكندرية

ننهل من علمه.

قصر الحرية

في السنة الثانية الثانوية اصطحبني رجب سعد السيد إلى قصر ثقافة الحرية، وهناك وجدت فتحي الأبياري قد كّون نادي القصة، ويعقد جلسة أسبوعية كل اثنين، وفي هذه الجلسات تعرفت على الأساتذة العمالقة الذين علمونا محمد زكي العشماوي، حسن ظاظا، حلمي مرزوق، وغيرهم ممن تحملوا عبء سماع أعمالنا الأولى وتوجيهنا.

واتسع هذا النادي وضم الشعراء والزجالين، ولم يتوقف بعد رحيل فتحي الإبياري إلى القاهرة، وكان رفاق هذا النادي: مهدي بندق، د. فوزي خضر، سعيد بكر، مصطفى نصر، والشاعر الراحل مصطفى الشندويلي (رحمه الله)، والشاعر العليم بالعروض محجوب موسى والشاعر صبري أبو علم، وغيرهم من الكتاب الذين صار لهم شأن الآن.

قهوة النيل

علمنا أن كبار أدباء اسكندرية يلتقون ظهر الجمعة في قهوة النيل، لذلك رتبنا أمورنا على أن نذهب إليهم كل أسبوع، وفي هذه الندوة تعرفت بالشاعر الرائع عبدالمنعم الأنصاري والكاتب المسرحي فوزي الميلادي، والشاعر المفاجأة عبدالعليم القباني، الذي عرفت أنه كان ترزيا ثقف نفسه بنفسه حتى صار شاعرا متميزا وباحثا ممتازا، وكان عبدالعليم بسيرته التي تنبض بالكفاح يمثل لي معنى من معاني التحدي الذي حرصت عليه طوال عمري.

المسرح

بدأ اهتمامي بالمسرح في السنة الثانية الثانوية، وتابعت في هذه السن المبكرة سلسلة روائع المسرح العالمي، وجمعت كل أعداد مجلة المسرح التي يرأس تحريرها رشاد رشدي، ثم صدرت سلسلة «مسرحيات عالمية» فتابعتها بنفس الشغف

وكان مصروفى كافيا كى أشترى كل هذه الإصدارات التى لم يتجاوز سعر أى منها خمسة قروش، ولازالت هذه الترجمات تعاد إلى الآن وتتعلم منها الأجيال.

وهذه المسرحيات قدمت لنا كتابا من كل الجنسيات، ومن كل العصور، ومن كل الاتجاهات، وعرفنا منها أن هناك كتابات غير أرسطية، مثل كتابات بريخت وبيرانديللو وكتاب العبث، كما عرفنا أن المسرح له علاقة وطيدة بالفلسفة كما رأينا فى أعمال سارتر وكامى وغيرهم من الوجوديين، وفى أعمال بريخت الذى آمن بالاشتراكية وجعلها محور مسرحياته.

لقد كانت هذه المسرحيات نافذتى التى نظرت منها على العالم، وعرفت معانى كلمات مهمة مثل التجريب، والتمرد، والفلسفة.

انضممت فى هذه الفترة للمسرح المدرسى، وكان يخرج لنا مسرحياتنا الممثل المعروف عثمان محمد على ومخرج آخر لم يشأ أن يفارق الإسكندرية هو إسماعيل عزمى وقد مثلنا مسرحيات عالمية مثل: البخيل لموليير، وثمن الحرية الإيمانويل روبلس، وكانت إحدى المدارس المنافسة تقدم مسرحية الأب لستريند برج، وقد فتنت بهذا الكاتب منذ رأيت مسرحيته على الخشبة، وقرأتها أكثر من ثلاثين مرة وصارت بينى وبينه علاقة وطيدة حتى الآن.

الجامعة

كنت أتمنى أن أدخل معهد الفنون المسرحية، لكن والدى رفض الفكرة لأن هذا معناه الانتقال إلى القاهرة، ولم تكن فكرة البعد عن الأسرة واردة، ولذا قررت دخول كلية الآداب، واخترت قسم الفلسفة وحين أفكر الآن فى عدم دخولى لهذا القسم أحمد الله أن والدى رفض ذهابى إلى القاهرة، فقد تعلمت من هذا القسم أشياء لا حصر لها أسهمت فى تكوينى اسهاما حقيقيا.

أهم ما تعلمته فى قسم الفلسفة هو المنهج كيف تفكر، كيف تنقد، كيف تكون صاحب تفكير مستقل، وابتكارى. ومن حسن حظى أنى أدركت أساتذة أجلاء أمثال على سامى النشار، محمد على أبو ريان، أحمد صبحى، وعبدالمعز نصر، وكان يحضر إلينا من القاهرة أستاذان لا يمكن نسيانهما: د. محمود قاسم عميد كلية دار العلوم، د. عثمان أمين صاحب الفلسفة الجوانية.

ربطتنى علاقة حميمة بالدكتور عثمان أمين الذى اصطفانى ومعى زميلين هما: محمد عبدالحميد رجب كاتب الأطفال والمترجم، ومصطفى عبدالسلام الذى انخرط فى السياسة وانتمى لليسار وتمسك بمبادئه رغم ما جره عليه من مصاعب. ولازال متمسكا بانتمائه الفكرى، وإن كان لم يكتب شيئا يذكر.

كان عثمان أمين يأتى إلينا يومى الاثنين والثلاثاء فلا نتركه لحظة. نسير معه إلى سيدى جابر للحجز ثم نعود معه من نفس الطريق، وحين نشفق عليه من السير ونعرض عليه الركوب ينهرنا قائلا:

«أنتم عجزتم؟». وطوال الطريق لا نكف عن الحوار، وربما جلسنا على الكورنيش نأكل سميطا وجبنا، أو على إحدى المقاهى لنواصل الحوار ويبهرنا فى عثمان أمين

موسوعيته. كان تخصصه الدقيق الفلسفة الحديثة، لكنه لم يقف أبدا عند هذا الحد، فهو باحث في الفلسفة اليونانية والإسلامية ومترجم ومحقق، وله اهتمام عجيب بالأدب والشعر ونظرياته المعاصرة، وله ترجمات في هذا الصدد تستحق الاهتمام.

كانت الموضة الفكرية في هذه الفترة هي الماركسية، وكان عثمان أمين يرفض الماركسية، ويرى أنها رد فعل للدين المسيحي في الغرب. ويعلمنا أن الأمر يختلف بالنسبة للدين الإسلامي لأن الإسلام لم يغفل الجوانب المادية وفكرة العدل أساسية فيه وفكرة التكافل محورية.

ظلت علاقتي بعثمان أمين مستمرة بعد التخرج وحين رحل عن دنيانا شعرت بفقدان أستاذ عظيم.

النكسة

وقعت النكسة في منتصف دراستي الجامعية، كان وقعها مذهلا بالنسبة لكل المصريين والعرب، لكنها بالنسبة للشباب كانت قاصمة، فنحن جيل الثورة، آمنا بها ووثقنا في عبدالناصر، وكنا نصدق أن جيشنا هو أكبر قوة في الشرق الأوسط وإذا بنا فجأة نكتشف أننا كنا واهمين وقامت جامعة إسكندرية بأعنف مظاهرات ممكنة وهتفت ضد عبدالناصر، لكن الزعيم كان حريصا على ألا تتحول العلاقة بينه وبين الشباب إلى عداء، وحاول احتواء الأمر وجمع قيادات الطلاب في جامعة القاهرة وألقى فيهم خطابا شهيرا، وكنت ممن حضروا هذا اللقاء لكن من المؤكد أنه لم ينجح في احتوائنا، فقد كانت عقولنا لا تتوقف عن التفكير، تريد معرفة حقيقة ما حدث، وتبحث في التاريخ والفلسفة عن بصيص من الأمل.

في هذه الفترة نشرت دار الهلال شخصية مصر لجمال حمدان في طبعته الأولى، وكان هذا الكتاب حدثا مهما في حياتنا أعطانا الكثير من الثقة بالنفس والأمل في تجاوز النكسة.

في هذه الفترة أيضا درسنا مادة مهمة هي «فلسفة التاريخ» ودرسها لنا د. أحمد صبحي صاحب الكتاب العمدة في هذا المجال. وكان الرجل يبحث لنفسه أولا عن كيفية فهم ما حدث وإمكان تجاوزه ووقف بنا طويلا عند نظرية ابن خلدون التي تربط بين الأخلاق وازدهار الدول وانهيارها. كما وقف بنا عند نظرية التحدي والاستجابة للفيلسوف الانجليزي أرنولد توينبي، وعلمنا أن الأمم حين تتعرض لتحديات كبرى لابد أن تكون استجابتها أو مواجهتها لهذه التحديات كبرى أيضا بحيث يمكنها تجاوز التحدي وإلا فإن العاقبة تكون وخيمة، وقد تضيع الأمم إذا لم تكن استجابتها قادرة على تجاوز التحدي.

كانت فترة عصيبة. ولم تلبث أن انتهت مرحلة الدراسة عام ١٩٦٩، لأجد نفسي جنديا في القوات المسلحة بعد شهر واحد من التخرج.

تحت السلاح

قضيت الفترة من سبتمبر ١٩٦٩ حتى مايو ١٩٧٤ مجندا. وربما كانت هذه الفترة أقسى فترات حياتي، لكنها كانت مرحلة بالغة الأهمية في تكويني، إذ تعلمت فيها الانضباط الصارم والصبر على المشاق.

أذكر أني كنت ملحقا على وحدة مهندسين عسكريين ضمن مشروع كبير للتدريب على العبور وقيام سلاح المهندسين



محمد السيد عيد في حفل تكريم الكاتب الفريد فرج ونيله جائزة القدس بدمشق

بمهامه. وقامت الوحدة بمهامها، لكن السائق ترك الطرق المعروفة وقال إنه يعرف طريقا مختصرا، واخترق الصحراء ليوصلنا إلى المكان المحدد لنا لكنه تاه بنا واستمر يسير حتى نفد الوقود، ووجدنا أنفسنا في وسط الصحراء بلا وقود. بعد فترة جاءت ناقلة جنود أخرى تائهة مثلنا فتركنا الضابط وركب معها ليرسل لنا وقودا كي نعود به .بدأت عاصفة رملية تهب، ثم ازدادت شيئا فشيئا حتى لم نعد قادرين على الوقوف خارج السيارة، كان الوقت صيفا، والحرارة مرتفعة بصورة غير عادية، ونفد الطعام القليل الذي كنا نحمله، وحط الليل علينا، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئا، إلا أن نطلق طلقات في الهواء لعل أحدا يسمعها فيأتي إلينا لكن طلقاتنا لم تأت بأي نتيجة.

طلع الصبح علينا ونحن في مكاننا وقررنا أن نفعل شيئا، تحركنا نستطلع المكان فوجدنا أن بيننا وبين الأسفلت مسافة قصيرة. تركنا السائق ومعه أحد الجنود وتحركنا إلى الأسفلت. لم تكن هناك مشكلة في ركوب عربة عسكرية إلى أقرب نقطة شرطة عسكرية. أبلغنا بما حدث، وقدم لنا رجال الشرطة وجبة سريعة من طعامهم ودبروا لنا أمر الانتقال إلى منطقة التجمع، وحمدنا الله على النجاة بعد أن كنا نظن أنه لا فرار لنا من الموت.

تعلمت من القوات المسلحة أيضا درسا غاليا أفادني في الكتابة إفادة عظيمة، وهو أن أحرص على تقديم أفكاري بأسلوب يفهمه الجميع.. فقد كنت أحد رجال التوجيه المعنوي، وكنت أقوم بإعطاء محاضرات للجنود، وذات مرة رحت أتحدث عن الاشتراكية والرأسمالية، وبعد أن انتهيت وجدت نفسي بجوار جندي اسمه الصباغ يعمل حلاقا للوحدة وسألته: ما رأيك في المحاضرات.؟

– كلام جميل

– هل فهمته؟

– لا

كانت صدمة لي.. سألته: لم؟

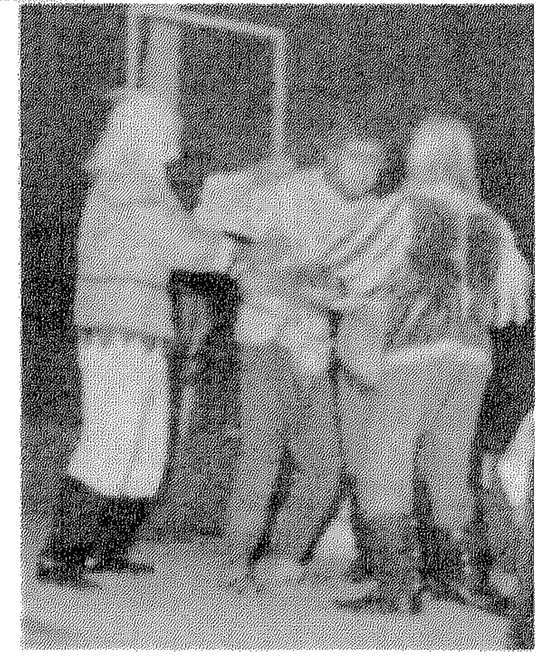
أجاب: أنا رجل حلاق، كيف أفهم هذا الكلام؟



أحسست بأن كل ما قلته لا قيمة له، لأن قيمته الفعلية أن يفهمه الناس، ومنذ هذا اليوم أحرص كل الحرص على أن أوصل أفكارى للصباغ، وحين أكتب للإذاعة والتليفزيون أضع الصباغ أمام عينى وأحرص على أن يصله معنى ما أكتبه وأقول لنفسى: إذا لم يفهم الصباغ فأنا الخاسر الأول.

بدأت حكايتى مع التراث أثناء دراستى الجامعية، فقد تبينت أثناء دراستى للفلسفة الإسلامية أن كل الأساتذة يرجعون لكتب التراث، وقلت لنفسى: لماذا لا أرجع لهذه الكتب مثلهم واعتمدت على مكتبة الكلية واكتشفت أن التراث منجم حقيقى، ولم أكن أتصور أن القدامى أصحاب مناهج، ولديهم إحاطة بموضوعاتهم على هذا النحو، ومن الكتب التى بهرتنى كتاب الملل والنحل للشهرستانى والرسالة القشيرية للقشيرى وفصوص الحكم لابن عربى والأصول الخمسة للقاضى عبدالجبار وقد كان الأساتذة يقدرون هذه القراءات ويحترمون استنتاجاتى الخاصة.

لم تتوقف قراءتى للتراث بعد التخرج، بل توسعت وشملت كتب تاريخ الإسلام وتاريخ الأدب العربى ودواوين الشعر وكتب النقد والبلاغة وقد ساعدنى هذا على كتابة مسلسلات عن أعلام الفكر العربى والإسلامى، مثل: الصولى، الغزالى، ابن رشد، القاضى الجرجانى، أبو الفرج، الأصفهانى، وغيرهم. كما توطدت علاقتى بكتب تاريخ مصر، مثل بدائع الزهور والنجوم الزاهرة.. لكن الذى فتننى هو المقريزى وقد صاحبته سنوات طويلة



خلال المرحلة الجامعية لعب محمد السيد عيد دور سيزيف فى مسرحية «سيزيف والموت»

وحين صرت مسئولا عن النشر في هيئة قصور الثقافة حرصت على إتاحة كتبه للجميع، وكتبت عنه عدة مقالات بعضها مطول وبعضها قصير، كما ألفت عنه مسلسلين إذاعيين ولا أكاد أتركه وأرجع إليه فى كل مناسبة.

ومن قراءتى لتاريخ مصر عشقت الفترة المملوكية، إذ تبينت أن مصر فى ظل المماليك كانت عاصمة العالم الإسلامى، وقبلة عظماء الفكر الإسلامى الراغبين فى تحقيق النجومية والشهرة. كما أن مصر المملوكية هى التى خاضت التحديات الكبرى ضد الصليبيين والتتار ونجحت فى الحفاظ على نفسها وعلى الأمة العربية بانتصارها على هؤلاء وأولئك.

وقد كتبت عشرات المسلسلات الإذاعية عن هذه الفترة وأعلامها، لكن درة ما كتبت عن هذا العصر هو سيناريو وحوار



«الزيني بركات» عن رواية صديقي العزيز جمال الغيطاني.

النقد

أثناء دراستي للفلسفة درست مادة لم أسمع عنها شيئا من قبل هي فلسفة الجمال، وقد تبينت خلال هذه الدراسة أن المدارس الأدبية والنقدية تنهض دائما على قواعد فلسفية، وبدأت أدرس النقد بجهدي الذاتي كما أدرس المسرح، الذي حرمت من دراسته في معهد الفنون المسرحية، ووجهت اهتمامي بشكل خاص لكتاب فن الشعر لأرسطو باعتباره الأساس وقد ساعدني أرسطو كثيرا في فهم كل الاتجاهات المتمردة عليه لأنك دون أن تعرف القواعد التي يتمرد عليها المتمردون لا تستطيع أن تعرف حقيقة التمرد.

رغم دراستي للمسرح والنقد إلا أني اخترت في البداية أن أكون قاصا. ونشرت في أوائل السبعينيات عددا من القصص القصيرة في مجلتي النصر والزهور وغيرهما. ولم يكن في نيتي أبدا أن أكون ناقدا. إلا أن الصدفة لعبت دورا مهما في ذلك فقد أرسلت مقالا بالبريد لمجلة ظهرت في أوائل ١٩٧٤ بعنوان «السينما والمسرح» ويرأس تحريرها يوسف جوهر، ويتولى مسئولية المسرح فيها عبدالفتاح البارودي، وأعجب المقال المسئولين ورد على الأستاذ البارودي مؤكدا أنه سينشره.

في هذه الفترة كنت قد انتهيت من التجنيد، وجئت في زيارة خاطفة إلى القاهرة لأحمل كتبي ومتعلقاتي وأعود إلى الإسكندرية، ورأيت أن أذهب لمقابلة الأستاذ البارودي وأعطيه مقالا ثانيا وقرأ الرجل المقال والتفت إليّ قائلا: إسمع يا ابني، أنت ناقد لك منهج، وسيكون لك مستقبل لو اشتغلت بالنقد».

قلت له بصراحة إني سكندري ولا يمكنني الإقامة بالقاهرة لأنها مكلفة فأجابني مشجعا:

«سأنشر لك مقالا شهريا مقابل ثمانية جنيهات ودبر أنت بقية احتياجاتك» وبدلا من أن أحمل متاعي إلى الإسكندرية، عدت إلى الإسكندرية وحملت متاعي إلى القاهرة، وصدق الرجل في وعده لي. وهكذا ارتبط وجودي في القاهرة بالنقد والنقد المسرحي بوجه خاص، كانت الحياة الثقافية في حاجة لنقاد جادين لذلك قطعت خطوات واسعة في فترة وجيزة.

درس مهم

حين جئت إلى القاهرة لم أكن مستوعبا لخريطة الاتجاهات السياسية التي تحكم عملية النشر. وقد ذهبت ذات يوم بمقال لمجلة الطليعة فقال لي المسئول: مقال ممتاز.

– معنى هذا أنك ستنشره؟
– لا
– لم؟
– لأنك تكتب مع الرجعيين بمجلة المسرح.

وهكذا لم أنشر كلمة واحدة في الطليعة وفي الفترة نفسها ذهبت إلى مجلة «الثقافة» وقدمت عدة أعمال بين مؤلفة ومترجمة لكن أحد مسئوليها كان يرى أني شيوعي فلم ينشر لي. والغريب أني لما تعرفت على د. عبدالعزيز الدسوقي بعد



مع فرخندة حسن وإنعام محمد علي وفريق عمل مسلسل «قاسم أمين»

ذلك وحكيت له الحكاية ضحك على ما فعله مساعده، وتعجب لأني لم أقابله. وقد تعاونت معه في إعادة إصدار الثقافة التي حرمت من النشر فيها ذات يوم.

على أي حال خرجت من هذه التجربة بدرس مهم، هو أن الفترات القلقة تدفع المسئولين إلى تصنيف الكتاب في اتجاهات محددة، ويميلون لتصنيف من لا يعرفونهم في خانة الأعداء، ضمانا لراحة البال لذلك حاولت حين أصبحت مسئولا عن النشر في هيئة قصور الثقافة ألا أتخذ مواقف ضد أحد، وأن أعطى الفرصة للجميع دون تصنيفات.

زواج النقد والتراث

تبينت أثناء احتكاكي بالمسرحيين أن معظمهم لا علاقة له بالتراث. وأن نقاد المسرح المعتبرين يتجهون عادة صوب الغرب للتعريف بنظريات المسرح وتاريخه، ثم الربط بين واقعنا المسرحي والأصول الغربية.. وتبينت أن هناك كتابات مسرحية لا يمكن الحكم عليها جيدا إلا في ضوء التراث، خصوصا المسرح الشعري، ومن هنا فكرت في البحث عن العلاقة بين المسرح المصري المعاصر والتراث، وألفت في ذلك ثلاثة كتب عن صلاح عبدالصبور ونجيب سرور وعبدالرحمن الشرقاوي. وفي كتابي عن الشرقاوي طرحت نظرية عن العلاقة بين المسرح والتراث. وكان رجاء النقاش أول من أثنى عليها بعد صدور الكتاب مباشرة، ولا أظن أن أحدا ممن ألفوا عن المسرح والتراث لم يستفد مما كتبته سواء بالأخذ بما قلته أو الاختلاف معه.

ووجدت أن الأمر لا يتعلق بالمسرح فقط، فهناك اتجاه قوي في الرواية المصرية للاستفادة من التراث، ومن أعلامه جمال الغيطاني، محمد جبريل، وكتاب آخرون أقل غزارة لكن تجاربهم تستحق الاهتمام مثل: أحمد شمس الدين الحجاجي، محمد الراوي، محمد مستجاب وغيرهم، ورأيت أن أكرر في الرواية ما فعلته في التراث، وكتبت عددا من الدراسات المطولة، لكني لم أجمعها في كتاب، وإن كنت أشعر أن تكويني الذي جمع بين المعرفة الوطيدة بالتراث والإطلاع الواسع على الأدب قد أثمر شيئا مفيدا. ■



الحق الذى تخدمه الحقيقة

هلال فبراير الماضى اعتبره - بحق - لبنة فى مواجهة التدمير، بترسيخ ثقافة «التنوير»، رغم تفاوت نوعية مقالاته ، بدءاً بإزاحة الغشاء عن مفهوم «مصطلح الوعى» فى مقال د.مصطفى سويف «الوعى المفقود» وانتهاء بالكلمة الأخيرة «الأسلحة الفاسدة» للأستاذ كامل زهيرى.

ومع احتضان عدة مقالات بين البدء بالوعى ، وانتهاء بالأسلحة الفاسدة، يتم بها جميعا استكشاف ذلك المجهول.. أمريكا، والتى يعاونها إعلام بشتى صوره، لينقل إلينا الخبر مغلفا بضبابية تحتاج من رجالات ثقافتنا بمختلف تخصصاتهم ، أن يعملوا بأدواتهم، مزيحين ضبابية الخبر الإعلامى بما لديهم من أساليب الكشف عن شفافية الحقيقة.

فى مقال د. جلال أمين «جورج أورديل وعالم ما بعد ١١ سبتمبر».

وفى مقال د. محمد المهدى «أمريكا والهنود الحمر وحقوق الإنسان».

وحتى فى مقال د. الطاهر أحمد مكي سعد زهران ومذكراته سجينا» والذى أرى أنه يكشف الحقيقة عن ضبابية الإعلام.

مثل هذه المقالات وغيرها التى ضمها عدد فبراير ٢٠٠٥ تكشف لنا أن ما يقع علينا الآن تهديد لبقائنا، وأن ملاذنا الأول فى شحذ الوعى إلى أقصى المدى، ومنه إلى استنهاض الإرادة السياسية الرشيدة للأمة.

كما ينتهى عددكم الرائع بهذه الكلمة الدقيقة للأستاذ كامل (ص ٢٢٦): «أخشى أن أقول إننا نستخدم فى الحرب الإعلامية أسلحة فاسدة ونترك الحقائق ، وننسى أن الحق تخدمه الحقيقة».

د. سامى منير عامر
جامعة الإسكندرية - كلية التربية

● **الهلال** نشكر الصديق الدكتور سامى على دأبه وحرصه على كل ما تتضمنه الهلال من مقالات وبحوث، وهذا ليس بجديد على مثله من جيل الرواد الذين تابعوا الهلال طوال مراحلها وهى تؤدى دورها التنويرى والثقافى حتى وصلت الآن إلى عامها الثالث عشر بعد المائة.



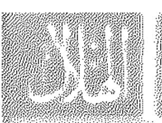
قريتنا

عروس الحب تزدان بأفراح لها شان
تغازلنا نسائمها وتسرى فى ألحان
هواها يحتوى قلبى ففيه الحسن ألوان
رياض الموز يدعونا وتفاح ورمان
لنصحب جوها الصافى إذا ما رق بستان

خلال الشر قد تسعى تضير الحب والزرع
وتنفث فى اللقا مكرا نرى أفكارنا صرعى!!
صديق الحقد نمام نذيل الفكر والمسعى
يزيق الجار تكديرا ويلدغ فى الخفا يسعى!
فلا يدنو لإحسان ويصبو .. يعشق الروع!

وقريتنا تنادينا لنزرع حسنها فينا
ونهجر درب شيطان يطاردنا ويغوينا
ونملأ قلبنا حبا ونغدو فى تآخينا
ونرجع للهدى الأسمى ففيه النور يحيينا
فرب الكون يشملنا بأفراح تهنينا

زكريا عبدالمحسن على سيد - عضو اتحاد الكتاب
أسيوط - الفتح -جزيرة الواسطى



أزمة المسلمين الفكرية

بإمكان الذين هم على وعى بتاريخنا الإسلامى الممتد عبر القرون، أن يوضحوا حقيقة أن الخطر ليس جديدا علينا وإن كان فريدا من نوعه، ومع أننا نواجه أزمة كبرى، ربما تكون الخامسة من نوعها فى تاريخنا الممتد، يبدو أنه ليس لدينا أية رؤية مستقبلية، أما الأزمات الأربع السابقة فهى الفتنة الكبرى التى أدت إلى استشهاد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، وتدمير ونهب بغداد حاضرة العباسيين، وسقوط غرناطة، ونهاية الخلافة العثمانية، إن التبعات النفسية لما يسمى الحرب على الإرهاب، واحتلال العراق المباشر، واستعمار أفغانستان والاستمرار فى إهانة باكستان وغيرها من الشعوب الإسلامية فى مواجهتها مع الإمبريالية، وتغيير علمائنا

ومفكرينا دائما لمواقفهم تجاه قضايا ذات أهمية استراتيجية، هذا كله عزز الإيمان بأن أزمتنا الفكرية أخطر بكثير مما تبدو للناظرين ، وإن فكرنا الدينى أكثر تشوشا مما يبدو للعيان، بل الحقيقة أننا لا نعرف أين نتوجه من موقفنا الراهن؟!

راشد شاز - من علماء المسلمين - الهند

بنات الشعر

لهيب الأحرف الظامى	∴	تأجج بعد إحجام
فوا أسفا على هجر	∴	تخلل قلبى الدامى
بنات الشعر قد عادت	∴	تحطم صمت أيامى
تغازل فى الهوى حرفى	∴	وتلثمه بإعظام
لعل الحرف يأتينى	∴	فتبرأ كل أسقامى
ويوقد نبع قرطاسى	∴	ويثلج صدر أنغامى
فبيت الشعر لى سكن	∴	إليه تئوب أحلامى
وبيت الشعر بستان	∴	شذاه مداد أقلامى

أحمد محمد الدماطى - «الشهداء - المنوفية»

(المجلة الجديدة) أول ناشر لأدب نجيب محفوظ

يعتبر إصدار المجلة الجديدة والتى أصدرها سلامة موسى فى نوفمبر عام ١٩٢٩ من أهم الأحداث الثقافية في تلك الفترة، والقارىء المدقق لأعداد هذه المجلة يلاحظ فنها الطباعي وقد ضمت أبوابا ثابتة مثل «سير الأحداث» وباب «كتب الشهر الجديدة» ونقرأ فيها بواكير إنتاج نجيب محفوظ، عندما بدأ حياته الأدبية والفكرية بكتابة المقالات الفلسفية والاجتماعية.



فى سنة ١٩٣١ يترجم نجيب محفوظ كتاب «مصر القديمة» من تأليف جيمس بيكى عن الإنجليزية، وهو يعرض للحياة اليومية لقدماء المصريين.

وفى عام ١٩٣٩ يقدم نجيب محفوظ روايته الأولى «عبث الأقدار» وكان سلامة موسى أول ناشر لأدب نجيب محفوظ.

وفى نوفمبر ١٩٣٤ تنشر «المجلة الجديدة» فى كتيب صغير منفصل عنها رواية قصيرة ليحيى حقى هى «البوسطجى» فى ست وخمسين صفحة قبل أن تنشر له دار المعارف روايته القصيرة «قنديل أم هاشم» عام ١٩٤٤م.

عمرو عبدالمنعم حمودة - برما - طنطا



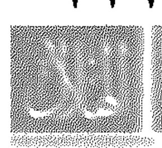
محمد

من الذى فى نوره يسعى
ليقرأه الوجود فى الظلم
ويستعيد به الفراغ هواءه
وشذاه من كف العدم
فتفر من شجر إلى وتر أحاديث الهوى
فتطير المهج المشوقة للنغم ؟
من ذا سواه له رضاه من الذى خلق الرضا
وعلاه بعد الوحى إذ قطع العروج به الفضا
وأباح للكرسى وطأته
فصافح واستسلم ؟
من ذا سواه له انتباه النابهين
وسكة نظمت سلوك العارفين
وحضرة فوق الحضور
لها انفلاق النور من أعلى القمم!؟

عبدالرحيم الماسخ - سوهاج

هل الصمت هو جزاء للجهد والعمل الدءوب؟!



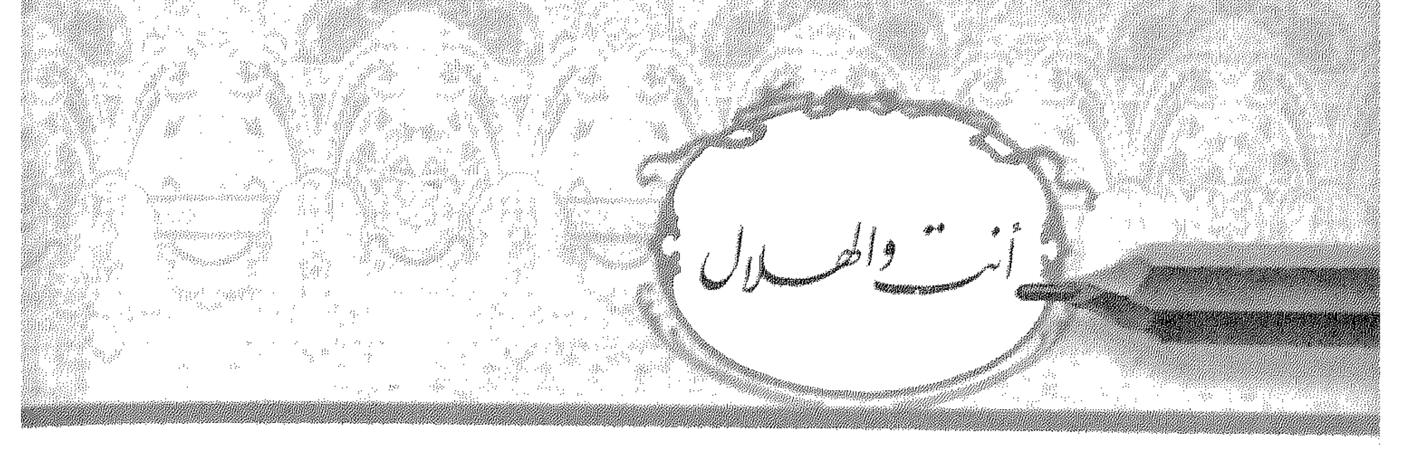


السيد رئيس تحرير الهلال...

قرأت مقالكم الخاص بالمجلات الثقافية.. وتوقفت كثيرا أمام عبارات كثيرة من هذا المقال، خاصة وأننى عملت فى نفس المجال سواء فى مسرح «الهناجر»، أو رئاسة تحرير مجلة فصول، وكلما قدمت جهدا وعملا متصلا يحتاج لمن يقوم بنقد هذا العمل، ويبرز حسناته، كنت أرى الصمت، وهذا بالطبع ليس فى صالح الجهد الثقافى الذى يبذله الواحد منا.

إنها مسألة تستحق الدراسة، وهذا هو الواقع الثقافى الذى نحياه.. عمل متواصل دءوب، وجهد خارق أحيانا.. وفى المقابل صمت ، وكأننا لا نسمع رجع الصدى لما نحدثه من أثر بهذا العمل، أو بالأحرى هذا الجهد .

الدكتورة هدى وصفى



رسالة ماجستير عن روايات جرجي زيدان

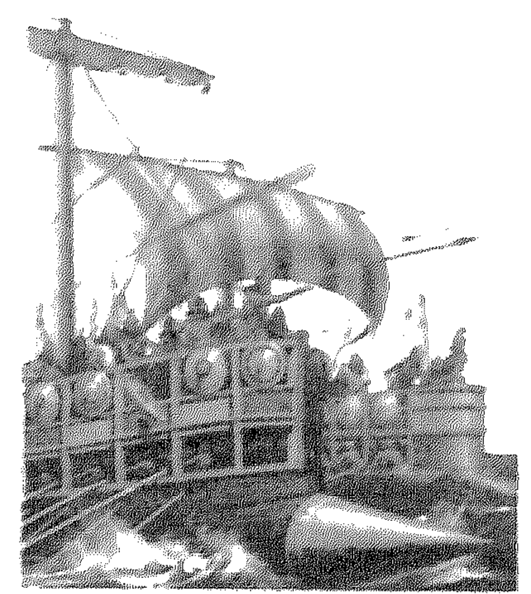
تقدمت إلى كلية التربية - قسم اللغة العربية جامعة طنطا بخطة مقترحة لتسجيل درجة الماجستير فى موضوع «ملامح البناء الروائى عند جرجى زيدان»، وبوصفكم مؤسسة صحفية هو مؤسسها، فهل يمكن مساعدتى فى بعض المصادر الخاصة بهذه الدراسة.

علاء الدين سعد جاويش - كفر الشيخ - دسوق أبومندور

● الهلال : أهلا بك أيها الصديق، ونحن فى انتظارك فى أى وقت بدار الهلال، ولكى نتمكن من مساعدتك، من خلال قسم المعلومات والمكتبة.



عيد يجيء من الجراح
زوابعاً متتالية
وطريقه تلك السيوف الدامية
فى رأسه فاضت فلسطين دماً
فى كفه رأس العراق
بجواره شوط الخيول
يدك أضلاع الحسين
وعلى رسائلِه سجون أميةٍ
وسيوف حجاًج
ومكر معاوية
والبوصلات إلى طريق الهاوية
يا أيها العيد المزق بالقذائف والقنابل
ذبحوا بذبحك سيدى كل السنابل
فرموك جمجمة
لامرأة تسمى فى مراجعنا
بخط الشمس والتاريخ
بابل
ما أنت عيد ها هنا ؟؟؟
ارحل فشعب الضاد
نحو النوم والنهدين والتعليف راحل



عبدالله بن على الأقز



1

إيمانويل كانط

١٧٢٤ - ١٨٠٤

من أكبر فلاسفة الألمان ومن أهم أعلام الفكر الحديث فى الغرب.

ولد كانط فى كونز برج فى بروسيا الشرقية فى الثاني والعشرين من شهر ابريل ١٧٢٤، وكان أبوه سراجا من أصل اسكتلندى.

دخل الجامعة سنة ١٧٣٠م، وكان قصده دراسة اللاهوت، ولكنه أبدى اهتماما متعدد الجوانب بالتعلم والتثقف وتحصيل المعرفة.

في سنة ١٧٥٥ عينته الجامعة معيدا، وبعد خمس عشرة سنة، أى فى سنة ١٧٧٠ عين كانط أستاذا، وظل بعد ذلك ولمدة إحدى عشرة سنة لا ينشر إلا قليلا، وأنفق جل وقته وجهده فى التدريس وفى التأمل، الذى قدر له أن يفضى إلى مذهبه النقدى، فزود عالم الفلسفة بقسمه الأول «نقد العقل الخالص» سنة ١٧٨١، ومنذ ذلك الحين ، حتى أشرف القرن الثامن عشر على نهايته، تتابع صدور مؤلفاته.

قال عنه الشاعر الألماني «هينرش هانيه».

إن ألمانيا كلها قد دفعت إلى طريق الفلسفة دفعا بفضل كانط، وعلى يديه أصبحت الفلسفة فريضة على كل ألماني، ومنذ ذلك الحين، أصبحت قضية الفلسفة قضية وطنية.

وكانط يمثل فى القرن الثامن عشر كله طرازاً للإنسان المثقف بالمعنى الحديث، فإلى جانب تبحره فى أصول الفلسفة وفقهها وفروعها، عكف عكوفا طويلا على العلم الطبيعي والرياضى، والجغرافيا الطبيعية والانثروبولوجيا، والفن والقانون، والدين، والسياسة، فشدا فيها جميعا، وأخذ من كل منها بطرف.

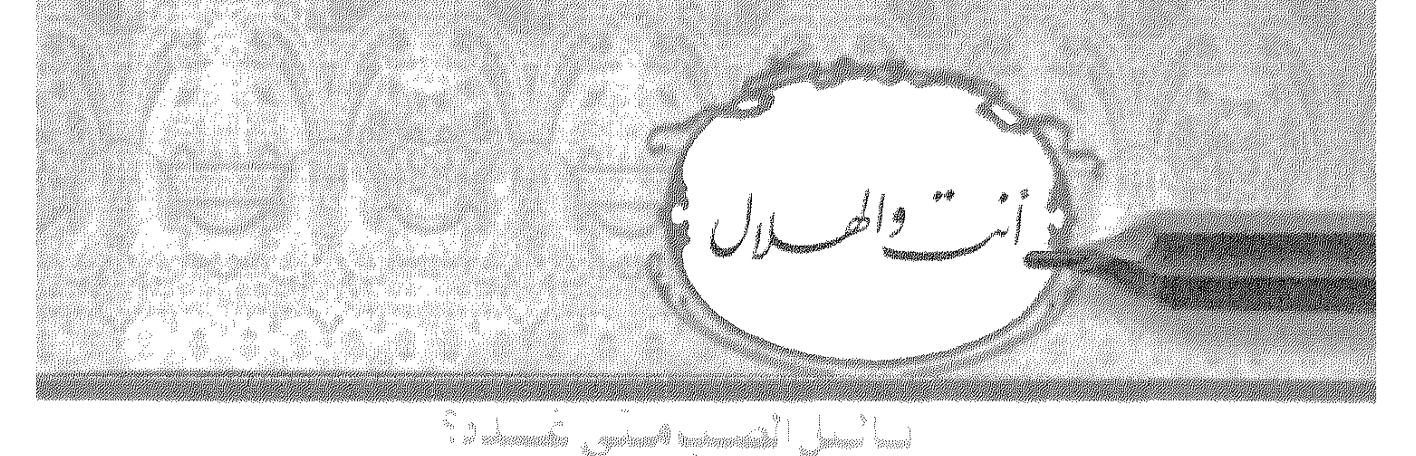
وحين بلغ السابعة والخمسين، نشر على الناس أهم كتبه النقدية «نقد العقل الخالص» والذى أشرنا إليه، وبه أدخل فى نظرية المعرفة تحت اسم النقدية «ثورة كوبرنيقية» حقا.

فى عام ١٧٩٠ أصدر كانط كتاب نقد ملكة الحكم، وأبان نظرته الجمالية وتابعه بكتاب آخر هو ملاحظات عن الشعور بالجميل والجليل عام ١٧٩٤ وفى العام نفسه أصدر كتاب «الدين فى حدود العقل».

وكتبه الثلاثة هذه تعتبر من أهم كتبه على الإطلاق، لأنها تشكل فلسفته كلها، ولعل هذا ما جعل المؤرخين يطلقون على فلسفته الفلسفة النقدية، بل أطلقوا على مثاليته أيضا بالمثالية النقدية.

وعلى الرغم من أن كانط لم يشتغل بالسياسة، لأنه كفيلسوف لم يفته أن يقول رأيه فى السياسة، فأصدر كتاب «مشروع السلام الدائم» عام ١٧٩٥، دعا فيه إلى قيام اتحاد عالمى يضم دولا حرة، ورأى أن الحكام لا يملكون من المال ما ينفقونه فى تعليم الشعب، فقد خصصوا كل مواردهم لحساب الحرب القادمة!

وهو صاحب المقولة المشهورة «لا أمل لنا أن نعيش فى سلام عالمى إلا إذا انقضى عهد الملوك والحكام المستبدين، الذين يعتقدون أن الدولة ملك خاص بهم وحدهم!».



ياليل الصب متى غده؟

هذه قصيدة من عيون الشعر العربي لقد نظمها الشاعر أبوالحسن على بن عبدالغنى الحصرى ولد فى القيروان عام ٤٢٠ هـ وقضى فترة من صباه وشبابه فى القيروان ثم غادرها وهو على مشارف الثلاثين بعد أن أجاد فن الشعر وعلم القراءات ودرس الدين والشريعة وكان خروجه من القيروان بعد نكبتها التى ضربتها عام ١٤٤٩ فى أعقاب الخلاف الذى نشب بين الفاطميين والمعز بن باديس والذى أدى إلى انقضاض قبائل بنى هلال وبنى سليم على القيروان فتشتت أهلوها منها وخرج أدباؤها وعلماؤها فمنهم من ذهب إلى صقلية كابن رشيق ومنهم من توجه إلى الأندلس كابن شرف القيروان، أما الحصرى فكان خروجه إلى سبتة فاستقر بها زمانا واتصل فى الأندلس بعدد من الأمراء مادحاً ونائلا لجوائزهم وهباتهم وعطاياهم ثم عاد الحصرى من الأندلس إلى المغرب غير أنه استقر فى مدينة طنجة حتى كانت وفاته سنة ٤٤٨ هـ لقد تناول الحصرى بأسلوب مرهف ولغة راقية شؤونا شتى مما يدور على لسان المحبين ويفضح أسرار نجاواهم ومكنون قلوبهم تكلم عن طول الليل، وطيف الخيال وخمر الرضاب، وسيف المقلة وجناية العين وحمرة الخدر واستعطاف الحبيب وفناء المحب كل ذلك فى إطار من الشاعرية الصادقة والتعبير البليغ الموحى والخيال السامى الطليق وإليك بعض أبيات القصيدة:

ياليلُ الصبُّ متى غدهُ ؟ أقيام الساعة موعده

رقد السمار فأرقه أسف للبين يردده

فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

كلف بغزال ذى هيف خوف الواشين يشرده

نصبت عيناى له شركا فى النوم فعز تصيده

وكفى عجبا أنى قنص للسرب سبانى أعيده

صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده

صاح والخمر جنى فمه سكران اللحظ معربده

ينضو فى مقلته سيفا وكأن نعاسا يغمده

فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده

رجب عبدالحكيم بيومى الخولى - المعصرة - حلوان

شكر متبادل

نحية صادقة لمجلة الهلال، حيث تسلمت عدد هذا الشهر فشكرا، لأن الظرف كان فيه من الصمغ ما يجعل العدد محفوظا بداخله. فقط أرجو منكم إرسال كتاب «النجاشى اليهودى والشخصية اليهودية» بقلم د عبدالوهاب المسيرى الذى أعتز بكل ما يكتب.

عبدالحميد الصراف - سالى

● الهلال : أرسلنا لك العدد المطلوب عن طريق الاشتراكات حسب طلبك، ونؤكد لك بأن الاهتمام من قسم الاشتراكات لا بتوانى من أجل كل مشتركى الهلال وشقيقاته الرواية والكتاب.



رد على رسالة قارئ عزيز

أحرص دائما على قراءة مجلة الهلال، وأنا معجب برصانتها وجديتها وحسن اختيار موضوعاتها.. لكنني لاحظت في عدد فبراير في صفحة ١٨٢، وفي موضوع الأستاذ مصطفى درويش «بعد السقوط من الأب الروحي تيتو وخالتي فرنسا» وصفا جنسيا، جانبت مجلتكم بذلك ما أحببناه فيها.

مسلم قاسم - الأردن - عمان

● **الهلال :** فور تلقينا الرسالة عرضناها على كاتب المقال والذى جاء رده كالتالي

القارئ العزيز،

قرأت بإمعان رسالتك المكتوبة بأسلوب عربي رفيع المستوى ويقدر ما سرني اعجابك برصانة هلالنا وجديته ووقاره، بقدر ما أحزنني وصفك لما احتواه أسفل العمود الأول من الصفحة ١٨٢ من عبارات تشيع الفحش!

وفي اعتقادي أنك لو كنت قد شاهدت فيلم «خالتي فرنسا» وتعذبت بما انطوى عليه من سوقية وابتذال، قل أن يكون لهما مثيل في أسوأ أفلامنا، لما أساءتك عبارة «من فرط لذة الاستمتاع بفحولة العريس» ولوجدتها مناسبة للمقام.

مصطفى درويش

أمل

أريد أن أكون درباً على ... أحجاره تسير كالأنهر
حبيبتي نحو سفوح الهوى ... أو نحو حلم باسم زاهر
أو نحور بحر بالشذا غارق ... أصدافه غرقى بليل ثرى
أريد أن أكون في لحظةً ... فيروزة في شعرها الأشقر
حقيبة تهتز في كفها ... إذا مشت لبيتها الحائر
قرطاً يضم ساجداً جيدها ... إن قطفت سوسنة الطائر
ياليتني بدارها لوحة ... ترمقها لمنحنى أخضر
أو لشراع عائم مبحر ... يوم شط السحر والساحر
ياليتني كمانها، تنحني ... للحنه قصائد البحترى
وينحني الغروب إن داعبت ... أوتاره في شاطىء مقمر
ماذا إذا أصبحت عصفورها ... في جنة تختال بالكوثر
أوقظها فجراً وأشرى لها ... ما همس الفرات للشاعر
أشرى لها ما كتب النيل عن ... مصر ومن إشماعها الأسمر
أريد أن أكون في لحظة ... يراعها .. أكتب في الدفتر
بأنني أحبها دون أن ... تعلم أني كاتب الأسطر

د. هيثم الحويج العمر - دمشق



التشجير والتسوير ، الجنزير »

بقلم: د. محمود الربيعي

نقول عادة إن الإنسان «ابن بيئته»، لكننا - في حالة الإنسان المصرى - لانراه يعامل «أمه» بأى قدر من البر والرعاية - هذا مع أنه يحتاج إليها ويستنزفها صباح مساء . ونقرأ عن «الخضر» و«الحزام الأخضر» و«القاهرة مدينة نظيفة» و«الجيزة مدينة نظيفة»، لكننا نرى بأعيننا «التصحر» سائدا، والقذارة مهيمنة فى كل مكان! فما سر هذا الانفصام الكامل بين لغة الصحف واللافتات فى جانب ، وحقيقة الحياة اليومية فى جانب آخر ؟

إن عجبى لا ينقضى من شخص يحتاج إلى الطريق العام مرة ومرات كل يوم، مما يعنى أن مصلحته الشخصية أن يحافظ عليه، ومع ذلك يعلن عليه حربا مستمرة، فيحفره، ويقطع أشجاره، ويلقى بالنفايات فيه، ويكسر أرصفته فيثبت بذلك أنه عدو نفسه بالعمل ضد مصلحته الخاصة .

أذرع شوارع القاهرة طولا وعرضا منذ خمسين عاما، وكانت فيها مكتبات عامة من العباسية إلى المنيرة ، قرأت فيها أحلى الكتب، وكانت فيها شوارع هادئة ظليلة تنزهت فيها، فى الزمالك والروضة والعباسية الشرقية وأماكن أخرى، بل كانت فيها دورات مياه نظيفة لقضاء الحاجة فى الميادين العامة والشوارع الرئيسية والفرعية . كانت مدينتى شابة ، ثم رأيتها تحت سمعى وبصرى تصبح كهلة، ثم تدركها الشيخوخة، ولا أبالغ فى القول حين أقول إننى أراها الآن فى أجزاء حيوية منها تحتضر ، وأرجو أن يصدقنى الشباب ممن يجرون وراء «الميكروباصات» ويحشرون أنفسهم فيها حشرا لتأخذهم فى رحلة جنونية قد تعرضهم للموت، إننى كنت أقضى بعض أوقات فراغى متمتعا بركوب الترام، فأجلس على مقعد نظيف، ويقدم لى التذكرة محصل نظيف ، ويسوق الترام سائق نظيف، والكل يرتدى «زى المصلحة» الموحد النظيف .

كان ثمة بصيص ضوء فى مشروع مترو الأنفاق، وهو مشروع حضارى عظيم، بدأ - أو على الأقل فى جزء منه - نظيفا، تنساب فى محطاته الموسيقى الهادئة، ثم تحولت الموسيقى إلى إعلانات صاخبة، كما ساد العنف فى معاملة أبواب المرفق، فأصبح عاديا أن نرى القافزين فوقها والمتسللين تحتها، ومن يحاولون إيقاف حركتها عنوة، مع أنها من الفولاذ!

فى جولتى اليومية أرى يد التجديد تتناول بعض الميادين الفرعية فى الحى الذى أسكنه فتشجر وتسور ولاتنسى اللافتة الرخامية التى تعلن افتتاح «السيد الوزير المحافظ» لهذه الميادين، ولكنها تغلقها « بالضبة والمفتاح»، وأنت ترى الأرائك الجميلة فى الداخل ولكنك لاتستطيع أن تستخدمها لأنها جعلت للفرجة فقط . سألت البستانى الذى يتعهدها :متى تفتح تلك الحديقة الصغيرة الجميلة؟ قال لى: إنها لن تفتح، إذ إنها لو فتحت أسبوعا فستعود إلى سابق عهدها صحراء جرداء! قلت له : لكنها ملك الناس، ولا يصح أن تحجب عنهم، قال لى: « لما يتعلموا يحافظوا عليها تبقى ملكهم » . صدق الرجل فى جزء من كلامه، وذلك حين وضع يده على الحلقة المفقودة المفرغة فى الموضوع . الحل إذن أن «يتعلموا»، لكن ذلك مشروع بطئ النتائج باهظ التكاليف، فأغلب الظن أن أحدا لن يلجأ إليه، وسيستمر أسلوب «التشجير، والتسوير و«الجنزير»!»... ■

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

أدبيات

الكعبة المشرفة

أدبيات

هيكل اليهودي التائه

أدبيات

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

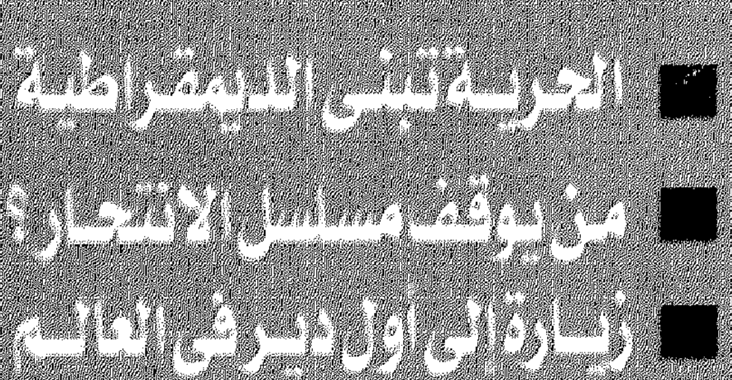
حكايات من أمثال العرب



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠٢ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -
٤ شارع بدري محرم بك - الإسكندرية .

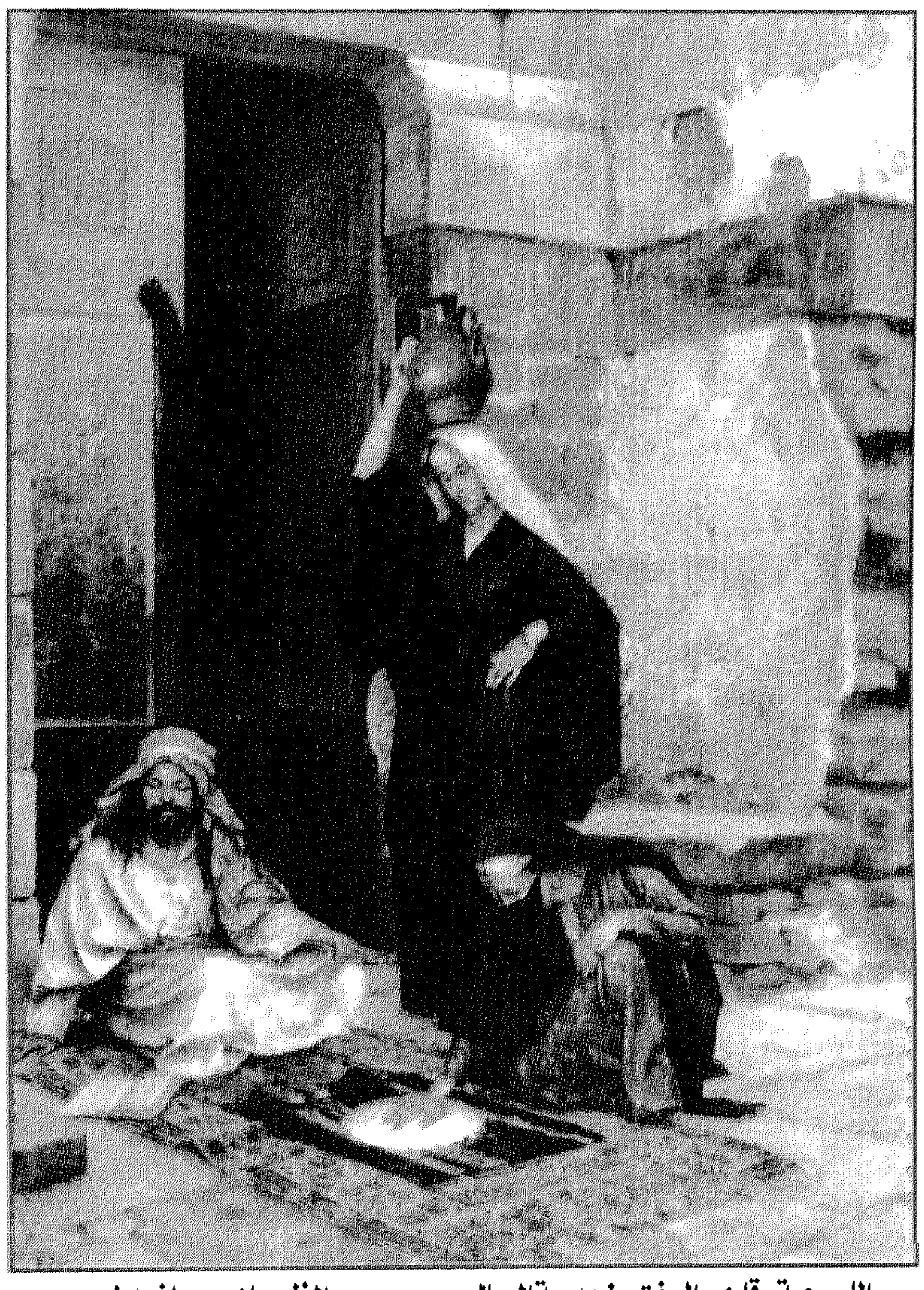


أبريل ٢٠٠٥ الثمن ٤ جنيهات

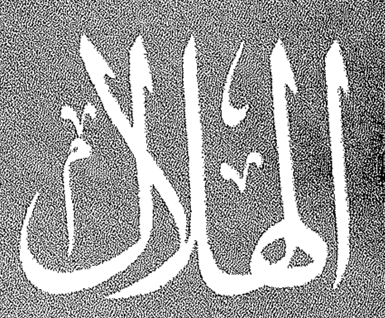


الطيب صالح والهجرة إلى الشمال

لوحة وفنان



اللـوحـة : قارىء البخت من بصمة الرمال — الفنـــان : رودلف إرنست



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثالث عشر بعد المائة صفر ١٤٢٦ هـ - إبريل ٢٠٠٥م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب. ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

مؤمن حسين — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥٠٠ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

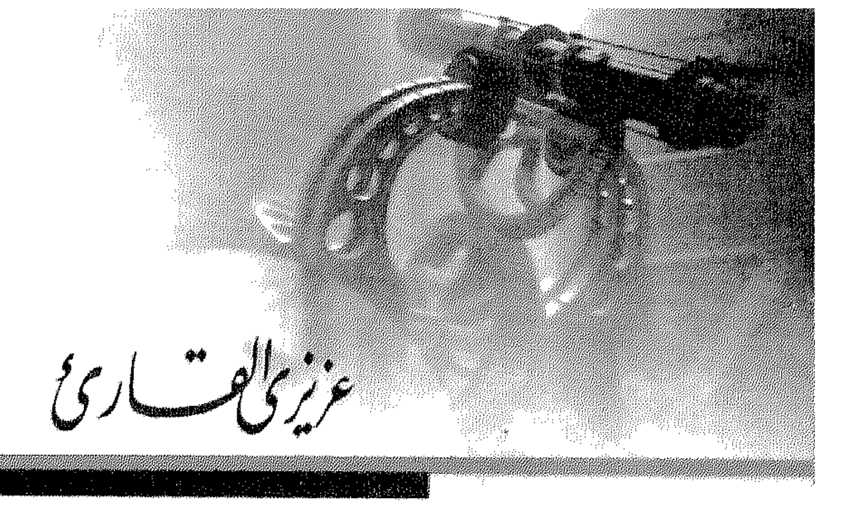
دائرة حوار



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب
عدسة
إبراهيم بشير

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



عزيزي القارئ

الرواية العربية

الطيب صالح أديب السودان الذي عرفناه من خلال روايته الشهيرة «موسم الهجرة إلي الشمال» ، وأصدر بعدها روايتين جعلت منه روائيا من الطراز الأول الذي يتوقف عند أعماله نقاد عندنا وفي الغرب .. هو في حد ذاته ظاهرة أدبية فريدة في عالم الرواية العربية .. كما أحببنا أعماله ، نحبه فهو دائم الحضور إلى كل المنتديات الثقافية العربية وخاصة في مصر ، وقد كرمه المجلس الأعلي للثقافة بحصوله علي جائزة الرواية ومقدارها مائة ألف جنيه في نهاية أعمال المؤتمر الثالث للرواية فى مارس الماضي وكان بعنوان «الرواية والتاريخ».

** نقترب من الروائى الطيب صالح نهنئه بهذه الجائزة .. والجائزة كما قال في كلمته القصيرة التى ارتجلها أمام الروائيين العرب لحظة تكريمه : إنها مهمة جداً بالنسبة لى ، ومؤثرة جداً لأنها تأتى من مصر ، وكونى سودانى ، ولما بيننا من علاقات عميقة وقويمة وأزلية .

لقد أحسست أن هذا التكريم فيه معنى .. فهو يتضمن التحية للسودانيين الذين لم يتزعزع حبهم لمصر على مر العصور .. وبالطبع تأتى فترات من الفتور بسبب الحكام وليس السبب فيها الشعوب ، ويجب أن أذكر أن أول دولة عربية كرمتنى كانت المغرب فى مهرجان أصيلة ، وكان لهم فضل السبق ، لكن التكريم في مصر له معنى آخر ، وهو أن هذه الجائزة تعتبر أهم جائزة فى حقل الرواية العربية وأنا سعيد بها جداً.

أما مشوارى الروائى فهو طويل ..

فلقد بدأت أكتب منذ قرابة الخمسين عاما ، ولكن ليس بشكل منتظم ، لأننى خلال هذه السنوات توليت أعمالا كانت تأخذ كل وقتى ، فعملت فى الـ «ب . ب . س» وعملت فى حكومة قطر ، وعملت فى منظمة اليونسكو ، وكانت هذه الأعمال تقتضى أن أنصرف إليها بكل طاقتى ووقتى.

أنا أكتب حين أجد الوقت ، ولكن لم يكن لدى الالتزام الكامل لقضية الكتابة.



الطيب صالح

وكما قلت فى الكلمة التى ألقيتها فى ليلة التكريم : «إننى لم أرد أن أستسلم تماما لإغراء الكتابة . وقلت : «إن الصورة المجازية التى ذكرت أن الفن عموما ، له معبد تحرسه ساحرات شريرات ، أى شخص يدخل عندهم يتعب ، وأنا أراوغ ، ولا أود أن أستسلم لهن تماماً ، لأنه كما نعلم من قراءاتنا لسير الفنانين والكتاب والشعراء ، أنهم إذا استسلموا تماما ، فبعضهم ينتهوا إلى نهايات محزنة ، بل مأساوية ، وأنا أحب أن أعيش حياة عادية مثل بقية الناس واكتب.

والكتابة نشاط واحد ضمن عدة نشاطات فى الحياة ، لكن الفن ليس هو كل الحياة .

وهناك بعض الناس - وأنا أحترمهم جدا - يعتبرون الفن هو الحياة ، ويلقون بأنفسهم إليه تماما .. وأنا لا أود ذلك !

** وقد يتوقف البعض عند مقولة أن شهرتى بدأت بعد نشر رواية «موسم الهجرة إلى الشمال » وأن إنتاجى شحيح ..

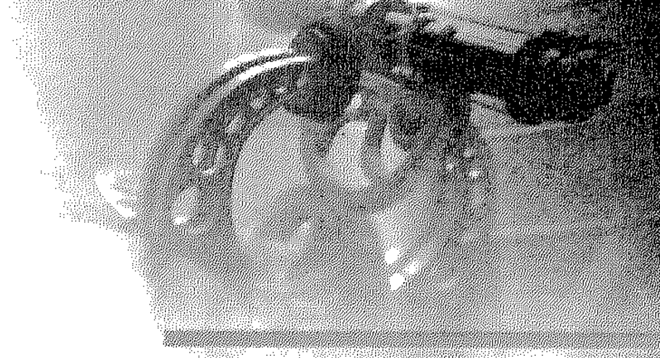
ويجئ ردى على ذلك بأننى كتبت بعد « موسم الهجرة إلى الشمال » روايتين وعندى الآن مشروع روائى اسمه «بندرشاه» وهو مشروع طموح ، ولم ينته بعد ، وأرجو أن يمد لى فى العمر حتى انتهى منه ، وأكون سعيداً جدا بذلك..

لأننى كما أقول أشتغل مثل عالم الآثار ، وبدون زهو بنفسى ، ولعلى من أول الناس الذين استعملوا هذا التعبير..

والأن هذا التعبير شائع ، وهو أن الكاتب الروائى بالذات ، يحفر فى طبقات متراكمة، بعضها فوق بعض من الوعى واللاوعى والماضى ، لكى نعرف مكاننا فى سياق الأشياء ، ونعرف أننا نصنع شيئاً جديداً ، أن نكرر ما حدث فى الماضى ، وأخذت السودان ، بل منطقة شمال السودان بالذات ، مسرحا للأحداث ، لأن هذه المنطقة مثل مصر ، فيها تراكمات حضارية كبيرة جدا ، ونود أن نفهم سياق الأشياء .

ثم إننى لم أتوقف عن الكتابة أيضا ، لأننى ظللت لأكثر من خمس عشرة سنة ، أكتب الصفحة الأخيرة فى مجلة «المجلة» التى تصدر فى لندن ، وكتبت فيها موضوعات لم تكن بطريقة صحفية ، بل كنت أكتب ما يسمى عند الأنجليز بالصحافة الأدبية ، فإذا أعجبنى كتاب احتفى به وأتكلم عنه ، وإذا أعجبنى شاعر أحاول أن أتوغل فى عالم هذا الشاعر .

أيضا تناولت أدب الرحلات وقضايا من التاريخ ، فضلا عن موضوعات كثيرة جداً كتبتها فى هذه الصفحة ، وسوف تصدر فى كتاب قريبا ، وحينما يقرؤها الناس سوف



يجدون أنني لم أتوقف عن الكتابة وتلك السنوات لم تمر سدى ، صحيح ربما كان عليّ أن أبذل جهدا أكبر ، ولكنني في فترات كثيرة أسافر ، وأنا من عشاق السفر ، وأحب أن أتعرف على مناخات جديدة ، وبيئات جديدة ، وخلال هذه الأسفار قرأت للآخرين ، فأنا من عشاق القراءة .

لكن – إن شاء الله – ربما تكون هذه الجائزة التى حصلت عليها من مصر حافزا على أن أضاعف الجهد....

** ودائماً أقول إن النقد عمل إبداعي ، مواز للعمل الإبداعى ، والنقد ليس ظلا لما يسمى بالعمل الإبداعى ، هو فى حد ذاته عمل إبداعى ، وحينما يبلغ درجات عالية من الإتقان ، تصبح قراءة النقد فيها من المتعة الذهنية ، ما يجدها القارئ فى قراءة رواية جيدة ، أو قصيدة جيدة ، فكاتب لا يقرأ نقدا ليتعلم منه ، فكيف يكتب ؟! .. لأن هناك حتمية فى الكتابة ، وأنا أقول إنه توجد حتمية فى الكتابة الإبداعية .

وأنا لا أقرأ النقد لأتعلم منه ، لكن ما أفعله ، وأظن ما يفعله أى كاتب ، يتوقف على حدود قدراته هو شخصياً.

لكننى أستمتع بقراءة النقد ، وأنامحظوظ إلى حد كبير مع النقاد ، ومعروف أن نقادا مثل رجاء النقاش ، قد نوهوا بعملى ، ووجدت نقادا حتى من الانجليز والفرنسيين أعطونى الكثير من خلال نقدهم لأعمالى.

** وحينما نقترب من الإبداع الذى يعشقه الطيب صالح .. الرواية وهل تحقق طموحاتنا كعرب فى مواجهة الدعاوى التى تنطلق بأن الشعر قد انتقصت جذوته الآن ، وأرى أنه قد انتصر تماما للرواية ؟ قال : أنا أؤكد وبكل أمانة أن الرواية العربية الآن مزدهرة جدا ، و لا يوجد بلد عربى إلا وفيه كاتب ، أو كتاب روائيون ، وكثير منهم جيدون جداً.

.... وأقول دائما إن الرواية العربية لو لم تفعل إلا شيئاً واحداً ، لكان ذلك حسبها . وذلك لأنها أضاءت مساحات واسعة فى الوعى العربى ، مثل خارطة كانت بعضها مظلمة، والآن نحن فى عمان وتونس ومصر منذ زمن طويل وبلاد الشام والعراق نجد أن الرواية فعلا قد أضاءت مساحات واسعة بالنسبة للإنسان العربى .

وهذا فيه معنى لم شمل الناس ، من الناحية الثقافية والفنية ، إلى جانب الأعمال الأخرى التى تقدمها الرواية..

.... والرواية العربية ما تزال تعمل فى الميادين التى– أصلا – ابتدع الفن الروائى من أجلها .

الرواية فى الغرب الآن ، وقد ابتدعت فى انجلترا ، بعدت عن الأغراض الأساسية

للفن الروائى ، فأصبحت قضاياها محصورة جدا ، وحتى الفرنسيون ابتدعوا الآن ما يسمى باللارواية ، وبدأوا يتحدثون عن موت الكاتب ، وفي المقابل أشير إلى أن الرواية العربية تشتغل فى الفن الروائى كما قصد منه الآن.

بمعنى أن المقومات الموجودة حاليا أفضل من أى وقت مضى ، وأعتقد أن المستقبل للرواية العربية ، على الرغم من أنه لم يفتح لها المجال ، كما فتح للرواية فى أمريكا اللاتينية ، لكن سيأتى الوقت لذلك.

وهم فى الغرب أصبحوا يقرأون لنا .. وعلى سبيل المثال ، فإننى أذهب إلى ألمانيا كثيرا فى هذه الأيام ، وهم نشروا لى ترجمات كثيرة لبعض أعمالى ، وقد اتصل بى صحفى من جريدة مشهورة عندهم ، وحدثنى بأنه يحب أعمالى..

فقلت له : ماذا تجد فى روايات وقصص عن قرية صغيرة فى شمال السودان ، وأنتم هنا فى عالم آخر مختلف ؟!

فرد من فوره : لقد مللت مما أقرؤه عندنا ، لكننى أجد لديكم شيئاً جديدا ومختلفا فيما تكتبونه .

ولعلنا نذكر هؤلاء الناس بإنسانيتهم التى جاءت عليها تراكمات من الصراع حول الحياة ، والعالم المادى المحيط بهم.

** قاطعنى الطيب صالح بحدة .. لا .. استغفر الله أن تقارننى بنجيب محفوظ وأنا حقيقة لا أحب أن أقارن!..

ونجيب محفوظ هذا .. حكاية كبيرة جداً .. إنه الأستاذ والمعلم ، وهذا الرجل أنا أحترمه جداً ، ليس فقط لفنه الروائى العظيم ، ولكن لأنه بعكسى تماماً .

لقد التزم التزاما كاملا بالفن الروائى ، وألقى بنفسه فى أتون وخضم هذا المعبد الذى وصفته من قبل ، وأكيد أنه ضحى كثيرا من أجل أن يصنع هذا العمل الروائى العظيم.

والرجل معترف به عالميا ، وحاصل على جائزة نوبل ، وأستاذ فى الحقيقة وهناك أيضا قامات كبيرة فى الفن الروائى فى مصر ، لابد أن أذكرها من أمثال يحيى حقى والدكتور يوسف إدريس وعدد من الكتاب الكبار .

***

ولابد لى هنا من الاشارة إلى أهمية مؤتمر الرواية وجهد وزارة الثقافة المصرية وجميل أن تعقد مثل هذه اللقاءات والمؤتمرات التى لها طعم الأسواق الأدبية القديمة ، مثل سوق عكاظ والمربد ، لأن صناع الثقافة - عادة - يعملون فى عزلة ، ومثل تلك المؤتمرات فيها الونس .. وقد قال لى د. يوسف إدريس ذات مرة فى لقاءاتنا .. حينما أقرؤك أشعر بالونس.

كان مؤتمر الرواية الثالث ناجحا جداً .. وأنا سعيد به لأننى كنت من عناصر النهايات الحسنة لهذا المؤتمر ! ■

عاطف مصطفى

الحرية

تبنى الديمقراطية

بقلم
د. مصطفى سويف

يتردد ذكر مصطلح الديمقراطية كثيرا هذه الأيام، تلوكه ألسنة السياسيين بالحق حينا وبالباطل أحيانا، وتذكره جمهرة الإعلاميين والمثقفين على سبيل التقريظ فى بعض المواضع، وعلى سبيل التقريع فى مواضع أخرى. وفى هذه الأحاديث والكتابات جميعا يبدو بوضوح أن الذاكرين يعنيهم فى المقام الأول المضمون السياسى للمصطلح، ومع ذلك فلمفهوم الديمقراطية أبعاد أخرى لا تقل عن البعد السياسى أهمية، سواء فى تشكيل الحياة العملية للناس، أو فى تلوين وجدانهم وتحديد انطباعاتهم نحو هذه الحياة، من هذا القبيل الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

وفى المقال الراهن سأحاول أن أسلط قدرا معقولا من الضوء على البعد النفسى/ الاجتماعى للديمقراطية، لما لهذا البعد من أهمية محورية يجهلها السياسيون أحيانا ويتجاهلونها أحيانا أخرى. وعلى هذا

الدرب سأبدأ بتقديم نظرة تاريخية/ سياسية لتجلية منشأ المفهوم وتطوره، ثم أنتقل إلى عرض النظرة النفسية/ الاجتماعية بقدر معقول من التفصيل، ثم أختم الحديث بإشارات مقتضبة إلى جدوى هذه الدراسات النفسية التى أتحدث عنها فى تغيير أحوال معيشتنا.

الديمقراطية بنظرة تاريخية / سياسية

يرجع أهل الاختصاص منشأ المصطلح إلى اليونانيين القدامى، وبناء على هذا المنشأ فإن الديمقراطية هى حكم الشعب، وقد تحدث بريكليز (٤٩٥ - ٤٢٩ ق. م) عن الديمقراطية كنظام للحكم فأشاد بها، وفى الوقت نفسه حدد معالمها بصورة تجمع بين الإيجاز والإبهار. قال بريكليز فى نص مشهور باسم «الخطاب الجنائزى فى رثاء شهداء حروب شبه الجزيرة اليونانية»: «إننا نعيش فى ظل دستور تقصر شرائع جيراننا عن منافسته، لأن نبراسنا هو استلهام واقعنا لا تقليد قوانين الآخرين، ولأن حكومتنا التى تتركز السلطة فيها فى أيدى الكثرة لا فى يد القلة تعرف باسم «الديمقراطية». ووفقا لقوانيننا فإن لكل فرد منا نصيباً يحظى بمقتضاه بحق متساوٍ فى الحفاظ على منافعه الشخصية، فى الوقت الذى يمكن فيه لكل فرد فى ميدانه أن يُختار للمناصب العامة بناء على مزاياه وفضله.. ونحن نحيا فى حرية سواء فى أمور حياتنا اليومية أو فى شئون حياتنا العامة.. ونحن نُبدى التوقير ونلتزم بالطاعة نحو من يشغلون منا المناصب العامة، ونبدى ذات الاحترام للقوانين.. وكذا للقوانين غير المدونة التى يعتبر انتهاكها تصرفاً يجلب الخزى والعار.. وعلاوة على ذلك فقد أفلحنا فى أن نضمن لأرواحنا ونحصل لعقولنا على فترات من الكثرة بمكان للاسترخاء أو الراحة من العناء.. كما أننا مختلفون فى ميادين شتى عن أعدائنا.. وبوجه خاص فى التدريبات العسكرية والاستعداد للحرب، فمدينتنا مفتوحة بإرادتنا للجميع، ونحن لا نقصى عنها الأجانب ولا نمنع أحداً منهم فى أى وقت من معرفة أى أمر أو رؤيته، لأن جميع ما فى بلدنا واضح جلى للعيان.. ونحن.. نتميز بسلامة أحكامنا.. حينما لا يكون بوسعنا أن نتوصل إلى آراء سياسية جديدة، كما أننا لا نعتبر النقاش أمرا يعوق تنفيذ الفعل، فما يعوق هو بالأحرى نقص الدراية وانعدام وضوح الرؤية قبل اتخاذ التصرف اللازم بوقت كاف».

هذا النص منقول عن ترجمة النص اليونانى القديم وضعها الصديق الأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم أستاذ اللغة اليونانية القديمة وآدابها بجامعة القاهرة، والنص من حيث المضمون أبلغ من أن أعلق عليه، وتتمثل بلاغته فى شموله ووضوحه وإيجازه.



ويعتبر أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) من أكبر الفلاسفة القدامى الذين تحدثوا عن الديمقراطية، وجاءت معظم أحاديثه في هذا الصدد في كتابه «السياسة». ولم يكن أرسطو منبهراً بالنظام الديمقراطي كانبهار بريكليز، فبعد مناقشة مستفيضة لأنواع الدساتير المختلفة نجده يتكلم عما يعتبره أفضل الصياغات، فيقول إنه الدستور الذي يجمع بين قدر من الديمقراطية والأوليجاركية (أي نخبة الأغنياء). ويقرر أرسطو أن الاستقرار السياسي يجب أن يكون الشغل الشاغل للدولة، وإن أفضل سبيل إلى تحقيق هذا الاستقرار هو تمكين عدد من المواطنين من المشاركة في الجاه، والسلطة، والثروة، وإن التربية هي أفضل سبيل إلى تكوين المواطن الصالح، وهو المواطن الذي تتفق سلوكياته مع مقتضيات الدستور، وتشير هذه الآراء وغيرها إلى أن أرسطو لم يكن منبهراً بالديمقراطية، لكنه لم يرفضها (كما رفضها أفلاطون)، بل كان يضع حولها شروطا تحد مما قد تؤدي إليه من مساوىء، وجدير بالذكر أن التفاوت بين آراء بريكليز وآراء أرسطو في هذا الشأن يمكن تفسيره (جزئيا) بالرجوع إلى الأحوال الاجتماعية/ السياسية في مجتمع أثينا كما عايشه كل منهما، فقد عاش بريكليز في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو القرن الذي بلغت فيه الديمقراطية الأثينية أوج عظمتها، بينما عاش أرسطو على امتداد القرن الرابع وفيه كانت عوامل التدهور والتحلل قد بدأت تتسرب إلى نظام الحكم في أثينا.

هذه لمحة موجزة عن التاريخ القديم للفكر السياسي حول منشأ مفهوم الديمقراطية، وقد بعث الاهتمام مجدداً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حول المفهوم وما يثيره من مشكلات، وشارك في التعبير عن هذا الاهتمام مفكرون كثيرون، منهم دي بوردا، والماركيز كوندورسين، وجان جاك روسو، وجون استيورات مل، وجيمس ماديسون، وصولا إلى شومبيتر وغيره من علماء السياسة في القرن العشرين. عند هذا الموضع نتوقف عن متابعة خط التفكير السياسي حول مفهوم الديمقراطية، وننتقل إلى متابعة خط التفكير النفسي، وهو موضوعنا الرئيسي في هذا المقال.

علم النفس السياسي

يكثر الحديث في أدوات الإعلام لدينا عن علم النفس وعن بعض فروعه الحديثة، ولكن لأمر ما قلما يُذكر فرع علم النفس السياسي، ولما كان التعريف بهذا الفرع هو المدخل الطبيعي للحديث عن «الديمقراطية نفسيا» فقد وجب تقديم هذا الفرع إلى القارىء ضمن مقدمات هذا المقال، يدور هذا الفرع حول دراسة دور الفرد (بطموحاته وقدراته واضطراباته) في العمليات السياسية، وتأثير العوامل

السياسية على الفرد، وتستخدم فى هذا السبيل مجموع المناهج وأدوات البحث العلمية التى أمكن تنميتها واستخدامها فى فروع علم النفس الأخري مثل علم النفس الاجتماعى وبحوث الشخصية وقياس وتغيير الاتجاهات النفسية، وقد بدأت التباشير الأولى لظهور علم النفس السياسى فى عشرينيات القرن الماضى، وذلك مع نشر كتاب جراهام ولاس بعنوان «الطبيعة البشرية فى السياسة» سنة ١٩٢١، ومع توالى عقود القرن العشرين تزايدت أعداد الباحثين وتضاعفت وتشعبت بحوثهم التى انتظموا بها فى إطار علم النفس السياسى، وعندما أوشك القرن على نهايته كانت «الجمعية الدولية لعلم النفس السياسى» قد تأسست وأصبحت تضم ما يقرب من سبعمائة عضو، وظهرت دورية متخصصة تحمل اسم الفرع وتقود خط تقدمه وتطوره، كما بدأت بعض الجامعات العريقة (جامعة ييل على سبيل المثال) تمنح درجة الدكتوراة فى هذا الفرع تخصيصاً.

الديمقراطية نفسيا

انتظاما فى إطار علم النفس السياسى، واهتماما بما كان يدور على الساحة الدولية قبيل الحرب العالمية الثانية، واسترشاداً بما ورد فى الأدبيات السياسية من أوصاف للمجتمعات ونظم الحكم الديمقراطية والتسلطية اتجه بعض علماء النفس إلى استخلاص ما يمكن اعتباره الأبعاد الرئيسية لكل من القيادتين الديمقراطية والتسلطية، ومن هذه الخطوة تقدموا إلى القيام ببحوث ميدانية وتجريبية فى الآثار المختلفة لهذه الأبعاد فى مشاعر الأفراد وفى سلوكياتهم داخل الجماعات المختلفة، وفيما يلى ذكر الأبعاد التى أمكن استخلاصها، وذكر بعض الدراسات التى أجريت عليها، وجدير بالذكر هنا أنها جميعا أبعاد إجرائية:

نبدأ أولا بعرض الأبعاد الرئيسية للقيادة الديمقراطية:

(أ) لأعضاء الجماعة أن يحددوا بأنفسهم مجمل سياسات الجماعة، ويقتصر دور القائد على التشجيع، والمساعدة فى البلورة.

(ب) حيثما احتاجت الجماعة إلى المساعدة فى تحديد التوجه العام لنشاطاتها فإن القائد يعرض عليها أعدادا من البدائل على أن تختار هى من بينها ما تراه مناسباً.

(جـ) تقسيم العمل بين أعضاء الجماعة تقرره الجماعة، ولكل عضو أن يختار من يرغب فى العمل معه.

(د) يعايش القائد الجماعة كأنه واحد من أعضائها، هذا فيما يتعلق بالروح العامة السائدة لا فى العمل التنفيذى نفسه، وهو يقدم التقريظ أحياناً والنقد أحيانا أخرى للجماعة فى جملتها، لا إلى فرد بعينه من أعضائها، ويقرن هذا

التقريظ أو النقد بتوضيح مبرراته الموضوعية.

ونأتى الآن إلى ذكر الأبعاد الرئيسية للقيادة التسلطية:

(أ) يحدد القائد كل ما يتعلق بسياسات الجماعة.

(ب) يحدد القائد كل خطوة تخطوها الجماعة نحو تحقيق أهداف بعينها، وتتوالى الخطوات التى يحددها أولا بأول، كل خطوة فى حينها، فلا تعرف الجماعة مقدماً ما هى مقبلة عليه إلا عندما يحين وقته.

(جـ) يحدد القائد لكل عضو دوره فى نشاط الجماعة، كما يحدد له مع من يقوم بأداء هذا الدور.

(د) لا يشارك القائد الأعضاء فى نشاطهم، بل ينأى بنفسه عن هذه المشاركة، ويوزع المدح والقدح على الأفراد كما يرى هو شخصيا.

هذه هى الأبعاد الرئيسية (الإجرائية) لكل من أسلوبى القيادة الديمقراطية والتسلطية أو السلطوية.

بعض الدراسات والنتائج

على هذين الأسلوبين أجرى علماء النفس بحوثهم لاستكشاف ما يترتب على كل منهما من نتائج فى تشكيل ما نطلق عليه اسم «المناخ الاجتماعى» للجماعات التى يمارس فيها هذا الأسلوب أو ذاك من أساليب القيادة والمقصود بمصطلح «المناخ الاجتماعى» الإشارة إلى نمط الحياة العامة داخل الجماعة، أى كيف ينظر الأفراد إلى عضويتهم فى الجماعة التى تضمهم، وكيف يتعاملون مع هذه العضوية، وكيف يتعاملون مع بعضهم فى ظلها، وكيف يتعاملون مع أهدافهم الشخصية وأهداف الجماعة. وفيما يلى نذكر أهم ما توصل إليه الباحثون من نتائج فى هذا الصدد:

أولاً : «الروح المعنوية» للجماعة : تبين أن من أهم النتائج التى توصل إليها الباحثون ارتفاع الروح المعنوية داخل الجماعة التى عوملت من قيادتها بالأسلوب الديمقراطى. والمقصود بالروح المعنوية للجماعة الإشارة إلى ما يدل على التماسك التلقائى للجماعة، أى حرص الأعضاء على هذا التماسك دون أن يكونوا مجبرين على ذلك. وفى الدراسات التى نحن بصددها كان من أهم مظاهر هذه الروح المعنوية المرتفعة زيادة مظاهر التعاون بين الأعضاء فى السعى إلى تحقيق أهداف الجماعة، وشيوع مشاعر المودة بين الأعضاء بدلا من مشاعر التباغض والتنافر، والتعبير عن ذلك باللفظ أحيانا وبالأداء العملى أحيانا أخرى. والزيادة الملحوظة فى استخدام الضمير «نحن» فى الكلام العادى على حساب استخدام ضمير «أنا».

وعلى العكس من ذلك انخفضت «الروح المعنوية» انخفاضا ملحوظا فى

الجماعة التى تلقت من قائدها أسلوب التعامل السلطوى، فالتعاون على تحقيق الأهداف المحددة للجماعة يقع عند حده الأدنى، والتعارض بين أهداف الجماعة والأهداف الخاصة للأعضاء يكشف عن نفسه فى كثير من المواقف. وتشيع بين الأعضاء كثير من مظاهر التباغض والتنافر أكثر مما تشيع بينهم مظاهر التعاطف والمودة. وتكثر فى كلامهم تعبيرات الإحالة إلى «الأنا» أكثر من تعبيرات الإحالة إلى «النحن».

ثانياً : أهداف الجماعة :

من أهم النتائج التى ظهرت فيما يتعلق بسلوكيات العمل نحو تحقيق أهداف الجماعة الفرق الكبير بين الالتزام بتحقيق هذه الأهداف فى الجماعة الديمقراطية مقارنا بنظيره فى الجماعة ذات القيادة السلطوية، ففى الجماعة الأولى يعمل الأعضاء فى حضور القائد بقدر لا يختلف كثيرا عن العمل فى غيابه، إذ يعملون فى حضوره على امتداد ٥٠٪ من الوقت المتاح، ويعملون فى غيابه على امتداد ٤٦٪ من الوقت. أما فى حالة الجماعة السلطوية فالأعضاء يعملون على امتداد ٧٤٪ من الوقت ما دام القائد حاضرا، فإذا غاب القائد هبط حجم العمل إلى ٢٩٪ من الوقت المتاح. هذا عن حجم العمل فى كل من الجماعتين. أما عن تقبل أهداف الجماعة عند الأعضاء فقد أمكن رصد تعبيرات الرضا عن هذه الأهداف وتبين أنها تبلغ فى الجماعة الديمقراطية ثلاثة أمثال نظائرها بين أعضاء الجماعة السلطوية.

الدلالة الاجتماعية/ السياسية للنتائج :

لا شك أن القراءة عن هذه الدراسات التى عرضناها تكون مدعاة لورود كثير من التداعيات والايحاءات ذات الطابع السياسى على ذهن القارىء. والسؤال المحورى الذى لا يلبث أن يتبلور أمامنا هو: هل يمكن الخروج من هذه الدراسات باستخلاصات تصدق فى عالم السياسة؟ هل يمكن مثلا أن نفكر على أساس نوع من التناظر بين ما أوردناه عن هذه الدراسات من كشف عن علاقة جوهرية بين الأسلوب الديمقراطى للقيادة وشيوع سلوكيات الروح المعنوية المرتفعة من ناحية، وتوقع قيام علاقة مناظرة بين الأسلوب الديمقراطى للقيادة السياسية وشيوع سلوكيات ارتفاع الروح المعنوية فى المجتمع العريض من ناحية أخرى؟

وهل يمكن كذلك توقع وجود علاقة جوهرية بين الأسلوب السلطوى للقيادة السياسية وشيوع سلوكيات انخفاض الروح المعنوية بين المواطنين؟ الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة وما يدور فى فلكها يجب أن تؤخذ بقدر كبير من العناية التى تهدف إلى حسن الاستيعاب.

أحد المبادىء الرئيسية التى يقرها علماء البيولوجيا ويعملون على هدى منها

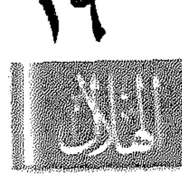
في تحقيق كثير من انجازاتهم هو المبدأ القائل بأن أحد الطرق إلى دراسة الكيانات البيولوجية المعقدة (مثل الإنسان) هو البدء بدراسة بعض الكيانات البسيطة نسبيا (مثل بعض حيوانات التجارب) ، وعلى هذا الأساس يقومون بدراسة تأثير المخدرات في الإنسان عن طريق البدء بدراسة تأثيرها في بعض الحيوانات «سلوكيا أو عضويا»، وعلى هذا الدرب أجريت ولاتزال تُجرى كثير من البحوث التى تصنف تحت اسم البحوث السيكوفارماكولوجية، وقد ترتب على الدخول من هذا المدخل المنهجى أن حصل العلماء المعنيون على أقدار كبيرة من المعلومات العلمية الهامة، وأمكن التحقق من صدقها على الإنسان في مراحل بحثية تالية، مثل هذا حدث بالنسبة لجميع المخدرات والعقاقير ذات التأثير العصبى/ النفسى، المنشط والمهدىء والمهلوس، وهناك أمثلة أخرى عديدة على شيوع استخدام هذا المدخل وجدواه المؤكدة فى الدراسات البيولوجية، والطبية/ البيولوجية الحديثة بوجه عام. ومن أحدث الأمثلة على ذلك ما يجرى من تجارب على الحيوان فى إطار علم النفس العصبى التجريبى، لتصب فى نهاية الأمر فى معرفتنا بالإنسان فى إطار علم النفس العصبى الاكلينيكى.

والخلاصة أن دراسة الكيانات الحيوانية البسيطة كمدخل لدراسة الكيانات المركبة (كالإنسان) مبدأ منهجى هام معمول به فى مجالات البحث البيولوجية بوجه عام والطبية البيولوجية بوجه خاص، مع اتخاذ كافة الاحتياطات المنهجية والمنطقية التى من شأنها أن تحد من الاندفاع غير الناضج فى عمليات الاستنتاج أو التعميم من نتائج دراسات الكيانات البسيطة إلى صياغة توقعات أو تنبؤات بعينها عن الكيانات المركبة.

على هذا النحو يجب أن تؤخذ نتائج البحوث التى عرضنا لها حول الأسلوب الديمقراطى والأسلوب التسلطى فى القيادة، فقد أجريت هذه البحوث على كيانات اجتماعية بسيطة (جماعات صغيرة من الأفراد ، تتجمع حول نشاط عملى بسيط، فى إطار جو معملى محدد)، وفي نهاية المطاف نحاول الإفادة منها فى فهم بعض ما يدور فى الكيانات الاجتماعية المركبة، وفى هذا الصدد نحاول أن نستفيد من الخطوط العريضة للدروس المنهجية التى تعلمها من سبقونا من علماء السيكوفارماكولوجي وعلماء علم النفس العصبى بشقيه التجريبى والإكلينيكى.

غلبة المناخ السلطوى على حياتنا العامة

لا أظن أننى بحاجة إلى تأكيد غلبة المناخ السلطوى على حياتنا الاجتماعية السياسية فى مصر، ويكفينى فى هذا



الشأن أن أذكر حقيقتين هامتين، احداهما حول الدولة المصرية كجهاز سياسى، فهى تدار بأسلوب حالة الطوارىء منذ أكتوبر سنة ١٩٨١، والثانية حول جامعاتنا فى مصر، فهى تدار بأسلوب فوقى فى معظم أمورها (التدريس والبحث وهيئة التدريس)، وقد كتبت فى ذلك تفصيلا فى مقال سابق (الهلال فى يونيه ١٩٩٩). ولا أظن والحالة هذه أنه يمكن القول بأى توسيع للخيال بأن المناخ السائد لدينا فى المجتمع العريض أو فى المؤسسة الجامعية يقال عن بقية أجهزة المجتمع أو مؤسساته . من هذا المنطلق نستطيع أن نتقدم نحو التفسير العلمى لما نشهد من مشاعر وسلوكيات سلبية تملأ علينا المكان وتزداد كثافتها ووطأتها على النفس والعقل بمرور الأيام.

أرجو أن يعيد القارىء النظر فيما أوردته فى الصفحات القليلة السابقة حول نتائج الدراسة العلمية «للمناخ الاجتماعى» للجماعات التى تساس بالأسلوب التسلطى. فقد ذكرت مجموعتين من النتائج : تُجمل إحداهما مظاهر انخفاض الروح المعنوية بين أعضاء الجماعة، وأهم هذه المظاهر التدنى الشديد فى سلوكيات التعاون، والتعارض بين الأهداف العامة والأهداف الفردية، وشيوع التباغض والتنافر بين الأفراد. هذا عن المجموعة الأولى من النتائج . أما المجموعة الثانية فتدور حول أداء العمل بمعناه الرسمى، أى العمل الوظيفى كما تحدده الدولة للأفراد، فالأفراد يعملون مادامت عين الرئيس موجودة للمراقبة، فإذا غفلت عين الرئيس توقف معظم العمل. وإلى جانب ذلك فإن الأفراد يغلب عليهم عدم الرضا عن العمل.

هذا هو مُجمل نتائج الدراسات التى أوردتها.

خلاصة القول أننا هنا بصدد دراسات علمية تكشف عن جوهرية العلاقة بين الأسلوب السلطوى فى قيادة حياة المجتمع بأجهزته ومؤسساته هذا من ناحية وشيوع المشاعر والسلوكيات السلبية بين أبناء هذا المجتمع من ناحية أخرى، فالناس عندنا يفصحون عن هذه المشاعر والسلوكيات التى نشكو منها جميعاً لا لأنهم مخلوقون من طينة غير تلك التى خُلق منها الناس فى المجتمعات المتقدمة، ولكن لأنهم يعيشون تحت شروط لها مواصفات معينة ، ولن يجدى فى تغيير سلوكياتهم ومشاعرهم كثرة السخط أو شدته، ولا الإكثار من التمنيات الطيبة، ولكن الذى سوف يجدى إذا تحقق فهو تغيير شروط حياتهم من شروط تسلطية إلى شروط ديمقراطية. ■

دليل الرجل الذكى إلى الإصلاح المنشود فى مصر

بقلم
د.جلال أمين

ها قد انقضت ثلاث سنوات لم ينقطع خلالها الكلام عن الإصلاح وضرورته في مصر، ومازال الكلام مستمرا.

ولابد أن أعترف للقاريء بأنني منذ أن بدأ الحديث عن الإصلاح في مصر، كنت ولا أزال أشعر، كلما أثير هذا الموضوع، بالقلق وعدم الارتياح، رغم أني أعتقد مثل غيري في الحاجة الملحة إلي الإصلاح في مختلف أوجه الحياة في مصر. فلما حاولت أن استكشف مصدر هذا الشعور بالقلق وعدم الارتياح، توصلت إلي ثلاثة مصادر لا مصدر واحد سأشرحها للقاريء فيما يلي..

أما المصدر الأول للقلق وعدم الارتياح فهو عموم الشكوى بدرجة لافتة للنظر، ومثيرة للتعجب والدهشة. فمنذ اللحظة الأولى شارك الجميع فى الكلام والدعوة إلى الإصلاح: المثقفون والسياسيون، رجال الحكومة ورجال المعارضة على السواء، مؤسسات ومنابر الصفوة وعلية القوم، كمكتبة الإسكندرية مثلا، وقنوات التليفزيون الشعبية التى تخاطب عامة الناس. وشارك فى الدعوة إلى الإصلاح الحكومات الأجنبية أيضا، الأمريكية

والأوروبية، إلى جانب الحكومة المصرية، بل وحتى وكالات الأمم المتحدة التى تمتنع عادة عن أى كلام غير مهذب، وتحرص على مشاعر جميع الدول، انضمت إلى جوقة العازفين فعزفت نفس النغمة، وأصدرت الهيئة الدولية المسماة: «برنامج الأمم المتحدة للإنماء UNDP»، ثلاثة تقارير سنوية حتى الآن تحمل عنوان «تقرير التنمية الإنسانية العربية» ولاقت رواجا واسعا، تعبر فيها عن الحاجة الملحة للإصلاح في البلاد العربية في كل الميادين: التنمية الاقتصادية، الديمقراطية والشفافية، المعرفة والتعليم، فضلا عن «تمكين المرأة».. إلخ

كان عموم الشكوى على هذا النحو، واشتراك الجميع دون استثناء في الدعوة إلى الإصلاح، لابد أن يثير القلق إذ لابد أن يسأل المرء نفسه: «إذا كان الجميع بدون استثناء يدعون إلى الإصلاح، فمن بربك يمكن أن يكون المسئول عما نحن فيه؟» أو بعبارة أخرى: «إذا كان الجميع بدون استثناء يدّعون البراءة مما وصلنا إليه من سوء الحال، فمن هو إذن المذنب؟».

لاشك إذن أن بعض الدموع السائلة على الأقل، هى مثل دموع التماسيح، التى عرف عنها ذرف الدموع أثناء التهامها الضحية أو حتى ذرف الدموع كوسيلة لجذب الضحية إليها وتسهيل افتراسها، مما يذكرّ المرء بالقصة المشهورة عن سرقة بعض المصلين لمصحف الشيخ القائم بوعظهم. عندما أخبرهم الشيخ بأن مصحفه قد سرق، انهمرت دموعهم جميعا استعظاماً لأن يقوم أحد بسرقة مصحف الشيخ الجليل. فلما رآهم الشيخ وقد سالت دموعهم جميعا، قال قولته المشهورة:

«كلكم يبكى، فأيّكم سرق المصحف؟».

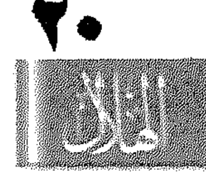
المصدر الثانى للقلق هو اعتقادى الراسخ بأن الإصلاح، تكون فرصته أكبر للتحقق والنجاح كلما قلّ الحديث عنه. شأن الإصلاح فى هذا الأمر كشأن السعادة، كلاهما لا يتحققان إلا إذا انشغل ذهن المرء بشىء آخر استولى على نفسه. ويندر أن يتحقق أى إصلاح بالكلام عن ضرورته أو تحليل دواعيه وأسبابه، كما أن من النادر أن يحصل امرؤ على السعادة بالبحث المتعمد عنها.

إن عصر النهضة الأوربية كان بلا شك من عصور الإصلاح العظيمة فى التاريخ، ولكن كم تكون دهشتى لو عرفت أن أى شخصية عظيمة من الشخصيات التى قامت على أكتافها هذه النهضة كانت مدفوعة إلى ما قامت بتحقيقه بمجرد «الرغبة فى الإصلاح».

كان مايكل أنجلو مشغولا بالرغبة فى التعبير عن جمال الجسم البشرى، وماكيافيللى مشغولا بالرغبة فى مساعدة الأمير على توحيد إيطاليا والتغلب على خصومه، ولكن كليهما، فى غمار الاهتمام بشىء آخر، ساهما مساهمة رائعة فى نهضة الفكر الأوربى، «أى فى الإصلاح».

كم كان فولتير بدوره سيدهش لو عرف أنه كان جزءا من حركة عظيمة تسمى بحركة «التنوير»، ومن المؤكد أنه لو كان مايكل أنجلو أو ماكيافيللى أو فولتير وأمثالهم قد أنفقوا جزءا كبيرا من وقتهم فى مناقشة موضوع الإصلاح ولوازمه، كما نفعل نحن الآن، وفى الاشتراك فى مؤتمرات عن الإصلاح وشروطه بدلا من نحت التماثيل وكتابة الكتب التاريخية والفلسفية، لما قام عصر النهضة ولما تحقق التنوير الأوربى!

إن التاريخ المصرى يمدنا بأمثلة شبيهة بذلك. فمحمد على الذى كثيرا ما يوصف بأنه مؤسس مصر الحديثة، حقق بلا شك حركة إصلاح عظيمة فى مصر، ولكنه حقق ذلك وهو مشغول ببناء جيش قوى وتثبيت دعائم حكمه وضمان استمرار الحكم لأولاده من بعده. ربما كان جمال عبدالناصر، فى حركته الإصلاحية، أكثر وعياً بما تنطوى عليه أعماله من «إصلاح»، ولكن عبدالناصر لم يكن مغرما بالمؤتمرات وببحث شروط الإصلاح ولوازمه، بل كانت مناقشة الإصلاح فى عهده تتم عادة بعد اتخاذ الاجراءات الإصلاحية لا قبلها.



* * *

المصدر الثالث للقلق من حملة الدعوة إلى الإصلاح في مصر فى الوقت الحاضر، هو أنها نبعت ابتداء من خارج مصر. صحيح أنها سرعان ما استقبلت من جانب الكثيرين فى داخل مصر بالحماسة والترحيب، ولكن هذا لا ينفى أن مصدرها الأساسى كان خارجيا، وأن كثيرا من الداعين إلى الإصلاح فى الداخل تلقوا دعما مباشرا أو مستقرا من قوى خارجية.

قد يقال وما الضرر من ذلك؟ ما العيب في أن يكون مصدر الدعوة إلى الإصلاح خارجيا ما دامت الأهداف واحدة، وأوجه الإصلاح المطلوبة من الخارج هى نفسها التى يطالب بها الناس في الداخل؟

ردّى على ذلك أن الأشياء المختلفة كثيرا ما تسمى باسم واحد، وكم كان جديرا بنا، نحن المشتغلين بالعلوم الاجتماعية، أن نعرف أن الاسم الواحد قد يطلق على أهداف متعارضة أشد التعارض، وأن الشعار الواحد كثيرا ما يستخدم لوصف الشيء ونقيضه.

كلنا يعرف الآن أن وصف «الديمقراطية» استخدم لوصف النظام السياسى فى الاتحاد السوفييتى فى ظل حكم ستالين الارهابى، كما استخدم لوصف النظام السياسى البريطانى الأكثر تسامحا بكثير، وأن الديمقراطية وصف بها حكم أسرة الصباح فى الكويت كما وصف بها حكم صدام حسين فى العراق. إن من سوء حظ العلوم الاجتماعية أن كلمات وشعارات مثل الديمقراطية والحرية والشفافية، والتقدم الحضارى والتنمية، وتقدم المعرفة والتعليم، وتمكين المرأة.. إلخ يمكن أن

تفهم بمعان كثيرة، بعضها مضاد تماما لمعانيها الأخرى. والحقيقة أن التدخل الأجنبى بإثارة موضوع الإصلاح فى بلادنا يستخدم شعارات لها فى بضع مدلولاتها معان مطلوبة ومرغوبة، ولكن بقصد تحقيق أهداف أخرى. أى أنه يستخدمها بطريقة «قول الحق الذى يراد به باطل».

إنى لا أقصد بالطبع رفض أى مساعدة قد تأتينى من الخارج، بل ولا يهمنى كثيرا ما إذا كانت المساعدة الخارجية مبعثها مصالح أنانية أو غير أنانية. فالذى يعيب المساعدة الخارجية ليس أنانيتها، بل تعارض هذه المصالح الأنانية فى كثير من الأحوال مع مصالحنا الذاتية. الذى يعيب التدخل الأجنبى أو الاستعانة بالخارج، أن يحدث هذا التدخل فى أمور لا يجوز التدخل فيها، أو بجرعة غير ملائمة، أو فى غير الوقت المناسب أو كل هذا جميعا. فى مثل هذه الحالات لا يؤدى الحقن من الخارج إلى تسهيل تدفق الدم فى الشرايين وإشاعة الحيوية فى الجسم المريض، بل قد يؤدى إلى جلطة تسد الشرايين ويزيد بها الجسم ضعفا على ضعف وقد يؤدى إلى الوفاة.

إن لدى الكثير من الدلائل التاريخية، من العالم العربي وخارجه، على أن التدخل الأجنبى، حتى عندما يتم باسم المساعدة والمعونة، كثيرا ما يتخذ صورة هذا الحقن المشئوم المؤدى إلى مزيد من الضعف بدلا من أن يؤدى إلى الإصلاح. وعلى العكس يؤدى الحقن الخارجى إلى نتائج مرضية للغاية إذا تم فى المكان الملائم من الجسم، وفى الوقت المناسب، وبالجرعة المطلوبة.

ولنأخذ العالم العربى أولا. فبعد سنوات قليلة من هزيمة الجيوش العربية فى ١٩٦٧ شرعت فى إعداد بحث عن التطور الاقتصادى فى تسعة بلاد عربية، خلال فترة ربع القرن الممتد بين نهاية الحرب العالمية الثانية وسنة ١٩٧٠. وعندما انتهيت من البحث وأتممت كتابة كتاب فى الموضوع، وشرعت أبحث عن عنوان مناسب له لم أجد أفضل من عنوان «تحديث الفقر» «The Modernization of Poverty» إذ كانت حصيلة بحثى والنتيجة التى انتهيت إليها منه أن الذى حدث فى البلاد العربية فيما بين ١٩٤٥ و١٩٧٠ لم يكن التنمية المطلوبة، ولا إصلاحا حقيقيا، بل مجرد «تحديث»، أى إقامة واجهة من الحداثة والتمدين يختفى وراءها الفقر والجهل والمرض وسوء توزيع الدخل.

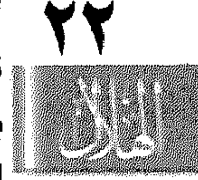
بدا لى حينئذ أن أفضل تفسير لهذه النتيجة البائسة، ومازال هذا التفسير يبدو لى صحيحا حتى الآن، أن العالم العربى خلال تلك الفترة تعرض لنوع من أسوأ أنواع الاتصال بالعالم الخارجى، أو بعبارة أدق، بذلك الجزء من العالم الأكثر «تقدما» وثراء، وأن عملية «الحقن» الخارجي التى تلقاها العالم العربي خلال



تلك الفترة، كانت من ذلك النوع الذى وصفته حالا: حقن فى غير المكان الصحيح من الجسم، وفى الوقت غير المناسب، وبجرعة غير ملائمة.

انظر مثلا إلى نوع الحقن الخارجى الذى تلقته الدول العربية الغنية بالنفط، استثمارات خارجة هائلة فى التنقيب عن النفط واستخراجه، بالمقارنة بإهمال شبه تام لغير ذلك من القطاعات. وكانت النتيجة الحتمية لهذا النوع من الاتصال، تدفقا هائلا للايرادات من بيع النفط مع نمو هائل أيضا فى الاستهلاك المظهرى الذى لا يتناسب مع نموّ «أو بالأحرى عدم نمو» القدرة الإنتاجية للدولة ككل. لقد استوردت التكنولوجيا الحديثة فى خارج ميدان النفط متضمنة فى سلع الاستهلاك لا فى السلع الانتاجية، فإذا بالسيارات الخاصة الفاخرة تستورد بكميات كبيرة من الخارج دون أن تستورد القدرة على إنتاج هذه السيارات.

أما فى الدول العربية التى خضعت لحكومات عسكرية، والتى رفعت شعارات ثورية وتبنت ذلك الفن الحديث المسمى بالخطط الخمسية للتنمية، فقد تمثل الحقن الأجنبى فى الأساس فى صورة تدفق هائل من المعونات الأجنبية، ولكن هذه المعونات ذهب جزء كبير منها فى استيراد الأسلحة التى ثبت من هزيمة ١٩٦٧ أنها كانت عديمة القيمة، أو فى تغذية البيروقراطية الحكومية التى نمت نموا كبيراً وتمتعت بامتيازات تفوق بكثير حجم مساهمتها فى التنمية. من بين صور هذا الحقن الخارجى المؤسفة أيضا، كميات كبيرة من المعونات الغذائية من الولايات المتحدة، التى تدفقت على الأخص على مصر، وأدت إلى تعطيل نمو القطاع الزراعى لفترة طويلة من الزمن.



* * *

إنى أسأل نفسى اليوم عما إذا كنت، بفرض أنى جلست لكتابة قصة التطور الاقتصادى العربي خلال الخمسة والثلاثين عاما التالية (١٩٧٠ - ٢٠٠٥) فأى عنوان اختار لهذه القصة؟ أعتقد أنى لن أجد عنوانا أفضل من نفس العنوان الذى اخترته لوصف ربع القرن السابق (١٩٤٥ - ١٩٧٠)، وهو «تحديث الفقر». ففى خلال هذه الخمسة والثلاثين عاما الأخيرة نجحت البلاد العربية بدون استثناء تقريبا، فى إقامة واجهة خلاّبة من مظاهر المدنية الحديثة، أكثر بريقا وأشد لمعانا من أى واجهة سابقة، ولكن لم تنجح أى منها فى تحقيق أكثر من قدر بسيط للغاية من الإصلاح الحقيقي والتنمية الواعدة بالاستمرار.

والتفسير الذى أعطيته للفشل السابق يصلح بحذافيره لتفسير الفشل الجديد: حقن الاقتصاد والمجتمع بمؤثرات خارجية من كل صنف، ولكن فى المكان الخاطىء من الجسم، وفى الوقت الخاطىء وبجرعات غير ملائمة.

خلال هذه الخمسة والثلاثين عاما الأخيرة تدفقت ايرادات النفط على

المنطقة بمعدلات تفوق أى معدل حققته فى الماضى، ولكن دون أن تحدث تنمية ذات شأن فى قطاعات الاقتصاد خارج قطاع النفط. كذلك استمرت المعونات الأجنبية فى التدفق على البلاد العربية غير الغنية بالنفط، وفى حالة مصر كان تدفق هذه المعونات بمعدلات تفوق معدلات تدفقها فى الخمسينات والستينات، ولكن ذهب جزء كبير من هذه المعونات لشراء الأسلحة فى وقت كان النظام في مصر ينتهج فيه سياسة المسالمة والمهادنة ويصف حرب ١٩٧٣ بأنها آخر الحروب، وذهب جزء كبير آخر مما تبقى من المعونات الأجنبية فى تمويل أنواع من المرافق العامة كانت تخدم الاستهلاك أكثر مما تخدم النشاط الانتاجي، كتجديد شبكة التليفونات أو الأنفاق أو ترميم شبكات الصرف الصحى، أو مضاعفة إنتاج الكهرباء التى استخدمت فى تشغيل أجهزة التليفزيون والمراوح اليابانية أكثر مما استخدمت لتشغيل آلات المصانع.

كانت هناك أيضا تدفقات كبيرة من تحويلات العاملين بالخارج، خاصة إلى مصر والأردن واليمن، وهى صورة من صور «الحقن الخارجى» وكان من الممكن لهذه التحويلات، لو خضعت لتدخل صارم من جانب الدولة بتوجيهها توجيها إنتاجيا، أن تخلق عددا كبيرا من فرص العمالة الجديدة وأن تساهم مساهمة كبيرة فى دفع عجلة التنمية، ولكن فى ظل غياب هذا التدخل تسرب الجزء الأكبر من هذه التمويلات فى الأرض فى صورة إنفاق استهلاكى على الواردات، فخلقت مظاهر خادعة من مظاهر الرخاء والرفاهية سرعان ما خبت وانتهت بضمور الفرص المتاحة للهجرة وللعمالة العربية فى الخليج.

* * *

قارن بين أثر هذا الاحتكاك بالخارج فى حالة البلاد العربية وبين أثره فى حالة ثلاث دول من دول شرقى آسيا، وهى الصين وكوريا الجنوبية وماليزيا، حيث اقترن الانفتاح على الخارج بإدارة حكيمة وصادقة من جانب الدولة، أحسنت توجيه الاستثمارات الأجنبية والمعونات والواردات والتكنولوجيا المتقدمة، إلى ما يحقق تنمية اقتصادية واعدة بمزيد من النمو، وليس مجرد اقامة واجهات للمدينة الحديثة.

* * *

إذا كان هذا التحليل صحيحا يكون علينا مراعاة منتهى الحذر، ونحن نحاول إرساء أسس «الإصلاح» خلال العشرين أو الثلاثين عاما القادمة، من الوقوع فيما وقعنا فيه من قبل، فنحصل من جديد على حقبة ثالثة من حقب «تحديث الفقر». وسوف أضرب مثلين فقط يتعلقان بميدانين مهمين من ميادين الإصلاح للتدليل على ما يمكن الوقوع فيه من أخطاء من هذا النوع.

الميدان الأول هو ميدان الاستثمارات

الأجنبية الخاصة. ليس هناك اليوم من ينكر أن الاستثمارات الأجنبية الخاصة يمكن أن تحقق منافع جمة لمصر، ولكن ليس هناك للأسف كثيرون على استعداد للاعتراف، فى المناخ السائد اليوم، بأن هذه الاستثمارات يمكن أيضا أن تجلب أضرارا كثيرة.

الاستثمار الأجنبى الخاص يجلب تكنولوجيا حديثة، ولكن من الممكن أيضا أن يجلب النوع الضار من التكنولوجيا. من الممكن أن يزيد الاستثمار الأجنبى من حجم العمالة، ولكن من الممكن أيضا أن يزيد البطالة. يمكن أن يرفع من مستوى الأجر الحقيقى فى البلد الذى يأتى إليه، ولكن من الممكن أيضا أن يؤدى إلى انخفاض مستوى الأجور للجزء الأكبر من القوة العاملة وأن يقسم القوة العاملة والمجتمع بأسره إلى قسمين: أرستقراطية مدللة وأغلبية مهمشة. النتيجة فى النهاية تتوقف على نوع الاستثمارات الأجنبية التى تفتح الأبواب أمامها، وعلى القطاع أو القطاعات التى تذهب إليه. ليس صحيحا بالمرة تعميم القول بأنه كلما زاد حجم الاستثمارات الأجنبية، بصرف النظر عن نوعها ووجهتها، عم الخير على المجتمع. لابد من التمييز، ولابد من اخضاع الاستثمارات الأجنبية للتوجيه والمراقبة.

سمعنا مؤخرا أن من الأهداف المهمة للهيئة المسئولة عن الاستثمار الأجنبى الخاص فى مصر هو تقصير المدة اللازمة لحصول المستثمر الأجنبى الراغب فى الاستثمار فى مصر، على موافقة هذه الهيئة على طلبه، إلى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام. أم هما يومان فقط؟ هذا الهدف يتفق بالطبع مع ما دأبت المؤسسات المالية الدولية، كالبنك الدولى، على إعلانه من ضرورة تبسيط الإجراءات وتسهيل حركة الاستثمارات الأجنبية، وما دأبت على عمله من ترتيب دول العالم، الواحدة فوق الأخرى، بحسب نجاحها أو فشلها فى تقصير المدة اللازمة لحصول المستثمر الأجنبى على موافقة الهيئات الحكومية المسئولة.

من المفهوم تماما أن يكون هذا الهدف من بين أهداف المستثمر الأجنبى نفسه، ولكن لماذا يتبناه أيضا البنك الدولى وهيئات الأمم المتحدة التى يفترض أنها تعمل أولا وقبل كل شىء لصالح بلاد العالم الفقير؟ ناهيك عن السؤال: لماذا يكون هذا الهدف من بين أهداف بلد من بلاد العالم الفقير نفسه؟ أليس من الممكن أن نحتاج إلى أكثر من يومين أو ثلاثة للتحقق من أن الاستثمار الأجنبى القادم إلينا يحقق أهدافنا وشروطنا من حيث خلق فرص العمالة، واكتساب المهارات المرغوب فيها، والتوطين الحقيقى للتكنولوجيا الحديثة وليس مجرد نقلها من مكان إلى مكان؟

* * *

من الممكن أن نقول أشياء مماثلة عن ميدان التعليم. فلا أحد راض عن حال التعليم فى مصر، ولا أحد ينكر أن من الأجانب من يستطيع أن يقدم لنا خدمات حقيقية لإصلاح التعليم. ولكن دعنا نقولها بصراحة: إن الأجانب يهتمون بالتعليم فى مصر عندما يكون فى هذا الاهتمام منفعة لشركاتهم ومستثمريهم. إن التعليم الخاص اليوم من أكثر ميادين الاستثمار ربحية فى مصر، كما أن النهوض ببعض أنواع التعليم فى مصر يمكن أن يساعد على تحقيق بعض المصالح الاقتصادية الأجنبية. هكذا أميل إلى تفسير لتسارع معدل الاستثمار الأجنبى فى ميدان التعليم فى مصر فى السنوات العشر الأخيرة، وكذلك ميل بعض الدول الأجنبية إلى فتح جامعات لها فى مصر خلال السنوات القليلة الماضية.

ولكن يجب أن نعترف أيضا بأن إصلاح التعليم يتعلق بأشياء أبعد بكثير من متطلبات الشركات الأجنبية وأرباح المستثمرين. إن من الممكن أن تتضاعف الأرباح من التعليم فى نفس الوقت الذى تنمو فيه ازدواجية حقيقة فى نظام التعليم السائد، حيث تقوم جزيرة صغيرة من أصحاب المهارات، ومجيدى استخدام الكمبيوتر، والمتكلمين بطلاقة بالإنجليزية، وسط بحر وساع من الأميين الذين لا يكادون يستطيعون كتابة أسمائهم باللغة العربية . «اقرأ مقالة د. محمد رجب البيومى فى عدد مارس ٢٠٠٥ من الهلال». إن من الممكن جدا بعد عدد قليل من السنوات من تطبيق الوصفة الأجنبية لإصلاح التعليم فى مصر أن تبدو مصر أكثر «حداثة» بكثير مما تبدو اليوم، دون أن يكون نظام التعليم المصرى قد جرى إصلاحه على الاطلاق.

إن من الممكن أيضا أن نقول أشياء مماثلة فى التمييز بين الإصلاح من ناحية وبين التحديث من ناحية أخرى، فى ميادين أخرى كثيرة، كالديمقراطية السياسية أو الثقافة أو وسائل الإعلام أو ما يسمى بتمكين المرأة.. إلخ فى كل هذه الميادين يمكن للدولة أن تصبح «أكثر حداثة» دون أن تمر بعملية «إصلاح».

قد يقول البعض تعليقا على هذا، إن كل ما يعنيه هذا الكلام أن الإصلاح الذى تدفعه وتدعمه قوى خارجية ليس كافيا وحده، بل يجب أن تكمله جهود الإصلاح من الداخل. ولكنى أريد فى الحقيقة أن أقول شيئا آخر. أريد أن أقول إن للإصلاح وصفة أجنبية «أو جدول أعمال أجنبى» ووصفة أخرى محلية، سواء كانت هذه الوصفة المحلية مدعومة أو غير مدعومة من الخارج. والذى أحذّر منه هو أن نسير فى «الإصلاح» طبقا للوصفة الأجنبية، إذ إن النتيجة الحتمية لهذا ليست فى الحقيقة إصلاحا، بل مجرد واجهة مزيفة من الحداثة. ■

من جحيم الواقع

من يوقف مسلسل الانتحار ؟!

بقلم

د. محمد رجب البيومى

يعتصر قلب الإنسان فى ضلوعه اعتصاراً ، حين يطالع يوميا فى الصحف مسلسل الانتحار الذى لايقف عند حد ، وقد يكون الانتحار شاملاً أسرة بأجمعها ، حيث يطلق الوالد الرصاص على أولاده وزوجته ! وهذا مايحدث فعلا فى وقائع مثيرة ، لقد كانت أخبار الانتحار فى الجيل الماضى وماقبله نادرة شاذة ، بحيث لا يقرأ عنها الإنسان إلا فى فترات متباعدة لا تمثل ظاهرة اجتماعية أليمة ، أما اليوم فالمسلسل الرهيب يتوالى متتابعا فى غير انقطاع ! ولا نجد فريقاً من الباحثين الجادين ، يعكف على تحليل أسبابه، ورسم الطريق لملافاته ! لا نجد إلا إحصائيات تعلن النسب المئوية التى تدل على تفاقم هذه الكارثة عاماً بعد عام .

وأغرب ماقرأته فى إحدى الصحف أنها نشرت بعض الإحصائيات فى أوربا وأمريكا ، لتدل على أن النسبة فى مصر أقل منها فى الدول المتحضرة، فلنا أن نطمئن إذن ، ولا نلتفت إلى فداحة ما نقرأ من الأنباء ! وقد نسى هؤلاء أن الانتحار الغربى فى أمريكا وأوربا انتحار ترف ومجون ثم هو فى أكثره لا يبعث الرحمة لهؤلاء الذين سئموا النعيم ، وتشوقوا إلى ما فوقه من أفانين اللذة المحرمة فحين لم يجدوا اندفعوا إلى الانتحار ، أما المصرى المنتحر ففى أكثر من تسعين فى المائة من أحواله يرجع انتحاره إلى الجوع والمسغبة وإلى حيرة الشاب العاطل حين لايجد عملا، والأب المرهق بأعباء أسرته ، وقد سدت فى وجهه أبواب الرزق ! فعلينا إذن أن نترك هذه المقارنة الباردة تماما ، لأنها غير ذات موضوع .

غريزتان متضادتان

وأكثر مايعوق البحث الجدى عن أسباب الانتحار ، هو ما يتجه إليه بعض

الباحثين ، حين يلجأون إلى معلومات مقررة فى بعض العلوم النفسية والدينية والاجتماعية ، فيجعلونها سبباً مباشرا لهذه المأساة دون أن ينظروا إلى الواقع العملى فى المجتمع ، فقد قرأت لباحث يشتغل بعلم النفس قوله فى تعليل ظاهرة الانتحار ، أن الإنسان كل إنسان ، يجمع فى نفسه غريزتين متضادتين ، غريزة البقاء وغريزة الفناء فغريزة البقاء تدفعه إلى الحياة بأسباب يدريها شعوريا ، وغريزة الفناء تدفعه إلى الموت بأسباب لايدركها شعوريا وهى كامنة فى أعماقه ، وبهذه الغريزة المستترة يندفع المنتحر إلى مصيره تحت تأثير قوى لايملك له دفعا ، وهذا كلام بعيد كل البعد عن مأساة الانتحار فإن جاز أن يقال فى تحليل عوامل الموت الطبيعى ، فإنه لايقال فى تحليل الانتحار ، وهو غير طبيعى ، ومحال أن يقدم عليه الإنسان استجابة لعامل خفى فى نفسه ، لايعرف أسبابه ، فالعاطل يعرف جيدا أنه انتحر لضيق ذات يده ، والمريض الميئوس من شفائه يعرف جيدا أنه انتحر تخلصا من آلامه، والطالب الراسب فى الامتحان يعرف أنه انتحر ضيقاً بحياته التى لم تحقق له رجاءه المأمول ، وهكذا يصح القول بتنازع غريزتى البقاء والفناء خارج مأساة الانتحار تماما ، وكان على السادة الذين يتذرعون بما يعرفون من حقائق علم النفس أن يعلموا أن أول مايجب الاهتمام به هو نفسية المنتحر كفرد ، وليس الحكم الجماعى بصالح للتطبيق المطلق فى هذه الحالات ! وإذا وفق عالم النفس لدراسة شخصية المنتحر ، فسيغنيه ذلك عن الاعتصام بنظريات قد تكون واقعية أو خيالية ، وهى فى هذا الموقف خيالية قطعا ، ونحن نشكر هذا الطراز من النفسيين لو سكتوا تماما ، فإنهم يجعلون الانتحار فرضا محتوما لامفر منه ، وهذا غير صحيح !

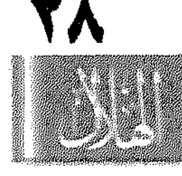
ونحن كمؤمنين نحب أن نسمع صوت الدين من علمائه فى هذه المأساة، ومن هؤلاء من يقدم النصيحة والموعظة بالتى هى أحسن ، ولكن منهم من يزيد الحريق اشتعالا غير ملتفت إلى مقام الحال ، فنحن نعلم سلفا تحريم الانتحار ، ونقرأ الآثار النبوية الدالة على العقاب الأخروى الهائل لمرتكب هذه النكسة الموجعة ، ولا ننتظر فى موقف العزاء حين يجتمع الناس فى حفل المواساة ، أن يخطب من يتحدث عن الانتحار كجريمة ولكننا نطالب من يضمد الجراح ، ويطفىء اللهب ، أعرف أن عالماً فاضلا تجمع حوله الناس ليسمعوا مايقول ، فوفقه الله إلى قول مريح ، حيث أعلن أن الذى يقدم على الانتحار ، لا يكون فى وعيه العقلى المتزن ، بل تعصف به عواصف تشله عن التفكير الصحيح ، وإذا كان المذنب الذى يرتكب جريمة فى حق غيره ، قد يكون فى غير وعيه ، فيحيله القضاء إلى الطب الشرعى ليبحث مدى قدرته العقلية فى تصريف الأمور ، ويأتى البحث مؤكدا عدم اتزانه ، فيكون ذلك داعيا إلى إنقاذه ، إذا كان ذلك هو الشأن مع من يرتكب الجريمة فى حق غيره ، فالذى يرتكبها فى حق نفسه أجدر وأولى بالسؤال عن

مدى قدرته العقلية حين جن جنونه فارتكب المحظور على غير إرادته ، وقد رفع القلم عن ثلاث ، أحدهم المجنون حتى يفيق ، لقد أفاض الرجل فى هذا المنحى إفاضة حكيمة ، جعلت الأقربين من ذوى الرحم، ينهالون على يده تقبيلا ولثما ، ولا أقول ذلك مهونا شأن الجريمة ، ولكنى أقول إن مراعاة المشاعر الإنسانية هى أوجب واجبات الإنسان المتحضر ، أما الذين يفرحون بمآسى الناس ، ويبالغون فى الاتهام فبعيدون عن رحمة الله قبل أن يبعدوا عن قلوب المفجوعين. أذكر أنى قرأت منذ عهد بعيد مقالا رائعا للدكتور العالم الأديب أحمد زكى عن هذه المأساة والوصف بالروعة لا يفى حق المقال من التقدير والإعجاب ، حيث تعرض الكاتب العالم ، والمصور الفنان إلى أهل الفقيد ، واصفا حالتهم النفسية ، وحرجهم الاجتماعى فى مجتمع لايقدر انكسار القلوب ، والتياع الصدور ، فقال فى شفقة تقطر بالدموع ، وسأطيل الاقتباس منه إذ هو أبلغ ماقرأت فى بابه ، وغنيمة القارىء منه أوفى الغنائم إذا قيست بما نقول ، وسأتصرف بعض التصرف زيادة ، فى كلمة أو حذفا من جملة ، فلا ملام !

يقول العالم الأديب الفنان فى كتابه (بين المسموع والمقروء) تحت عنوان (ليته يدرى) « أى مرارة صبها ذلك المنتحر ، فى كأس حياة زوجته وأولاده، ليته يدرى ، إنه جنى على زوجته ، فضاعف أذاها » وسلبها حتى عزاء المعزين ، وحال بينها وبين السلوان ، فالمرأة المفجوعة فى زوجها على الطبيعة ، تلقى الناس فلا تخشى شيئا، والناس لايخشون أن يطيلوا لها فى الرثاء ويسهبوا ، أما المرزوءة فى زوجها انتحارا فتلقى الناس ، وتخشى سؤالهم ، وهم من جانبهم يخشون الحرج ، فتكون تعزيتهم اقتضابا ، وكثيرا مايكون كلامهم صمتا ، وتجلس المرزوءة تستعيد هذا الشريط الذى يحمل ألوان ماضيهم فلا تجد بعد الذى حدث صفاء ، ولا تجد طعماً لما كان من النكات والضحكات ، والفرح فى العيش معاً لما سر ، والحزن معاً لما ساء ، وقد ربطت الزوجة والزوج بروابط لم يعبأ بها الزوج حين صمم على مفارقة الحياة .

أما الأولاد فيقعون فى أزمات نفسية مستعصية ، فإذا تحدث صديقات البنت عن آبائهم ، سكتت البنت فلا تشترك فى الحديث وماذا تقول ! وإذا تحدث أصدقاء الولد عن آبائهم يسمع الولد ولا ينطق ، تتسمع أذنه للألم ، وينعقد لسانه عن الإفصاح وفى الإفصاح التنفس من ضيق ، وفى الحديث استشفاء من الألم ، ثم يكر بالذاكرة إلى حياة أبيه ، فيقول بينه وبين نفسه ، لقد نشأ والدى فى الفقر وعاناه كثيرا ، ثم تبدلت به الحياة فذاق حلاوتها ، واستعاد هدوءه ، ثم تجهم له وجهها ، فعاد إليه خوفه القديم من الفقر، فانهارت أعصابه، واختل توازنه، فخر صريعا!

وأعود للزوجة وهى تجتر خواطرها السود، فتسأل نفسها، كيف حاز له أن يعلم أن فى وفاء حاجة الجسم غناء عن



حاجة النفس، ولو عاش لكافحنا سويا، وكان لنا في الكفاح على الإخلاص لذة، فلمن نقول هذا وا أسفاه والأذن التى تريد أن تسمعها ملؤها التراب! إنه الألم الدائم واليأس الذى لا رجاء فيه».

ساعة اليأس

هذا بعض ما كتبه الدكتور أحمد زكى، ومعروف أن الخواطر التى ذكرها عن الزوجة والابن والبنت لم تكن تخطر على المنتحر فى بال حين هم باقتراف ذنبه، لأن الحياة حين تسود فى عينى يائس لا تبيح له أن يفكر فيما سيكون! وإذا أحس القارئ أنى أرحم المنتحر، حين يرد مورد الهلاك فى ساعة اليأس، فليس كل منتحر جديرا بهذا الشعور الرحيم، فهناك من المنتحرين من لا نأسى على فراقهم، وهم الذين غرقوا فى ملاذ الترف الفاحش، فأتاحت لهم ظروف آبائهم، أن يمتلكوا الفنادق والمطاعم، والسفن الفاخرة فى أرقى الأحياء، وكان فى ذلك لو حسنت تربيتهم الخلقية من المهد ما يكفل لهم سعادة الحياة فى جنة هى الفردوس الفاخر ولكنهم التفتوا إلى شهوات النفس المنحدرة فاخذوا يبدلون الزوجات ممن يعرفن بالفنانات، ويبذلون للواحدة فى الوقت القصير ملايين الجنيهات، ولا يسأمون من تكرار المشاهد المتتابعة نزقا وإسرافا وتهتكا وابتذالا . ثم يأتى الخلاف المتوقع فلا يفيء العابث اللاهى إلى عقل عاصم، بل يندفع إلى مجزرة بشرية تحصد الأرواح، ومعه السلاح الرهيب الذى يملأ بيته دون سؤال! ثم يختم هذه المأساة البشعة بانتحاره، ومثل هذا العابث اللاهى لا يؤسى عليه، بل يؤسى على ضحاياه التعساء الذين أوقعتهم الأيام فى شركه، والمجتمع لا ينجو من المسئولية الخلقية، حين احترم هؤلاء فى حياتهم، وهو يرى اندفاعهم المشين أفنقرن هذا العابث بمن يخلص من حياته لضيق ذات يده وفداحة مسئوليته! إن بينهما لبونا بعيدا، وإن كانت العاقبة هى الوبال!

قلت إن المجتمع لا ينجو من المسئولية حين بالغ فى احترام من لا يستحق الاحترام، بل أضافهم إلى فئة الجد والنشاط ، حين أطلق عليهم عبارة (رجال الأعمال) وقد كثر ترداد هذه العبارة كثيرا فى هذه الأيام، حتى شملت تجار المخدرات ، وسماسرة العمل فى الخارج، ولصوص البنوك، بل شملت العاطلين الذين لا يعرفون بابا للرزق الشريف، فأصبح من السهل على كل نصاب أفاق أن يقول عن نفسه إنه من رجال الأعمال، وقد كان كبار الماليين فى الجيل الماضى من أمثال طلعت حرب، وعلى إسلام، ومحمد فرغلى، وأحمد عبود، وسيد جلال ، ومحمد يس، وطاهر اللوزى لا يسمون أنفسهم رجال الأعمال ، وهم من ركائز الاقتصاد فى مصر، حتى أصبح المظهر الخارجى الزائف لدى بعضهم هو كل مؤهلاته ، فلماذا لا يحدد المسئولون تعريفا دقيقا لمن يجوز أن يعتبر نفسه من رجال الأعمال، فإذا ادعى مدع ما ليس له جوزى بالعقاب!

التبرم بالحياة

أعود إلى مأساة الانتحار ، فأذكر أن هناك ما يشبه الإجماع على أن أدواء الأمة المستعصية هى الجهل والفقر

والمرض، وأنهـــا هـي أيضـــا من دواعي التبرم بالحياة، والحق أن عدو الأمة شئ واحد فحسب هو الفقر، لأن المريض إذا كان ذا مال فعلاجه ميسور، ويصبح سليما معافى بماله، والجاهل إذا كان ذا مال أتاح له ماله الدرس الخصوصي الذى يمحو به معرة الأمية، أما الذى لا علاج له فهو الفقر، وهو أقوى أسباب الانتحار، وعلى المسئولين أن يحاصروه فى أقرب ملابساته وظروفه، فإذا تهدم منزل آهل بالسكان وتشرد ساكنوه دون مأوى أو إذا طرد نفر من العمال وأغلقت أبواب الرزق أمامهم، أو إذا أصيب عامل فى حادث فجائى ولم يستطع أن يكسب قوته! فكل هذه الحالات، مظنة انتحار قادم لا يستبعد توقعه! وهنا يكون التكافل الاجتماعى حكومة وشعبا، بابا للإنقاذ الضرورى من الخطر المتوقع! ولكن هذه الحالات المفاجئة تحدث دون تدبير! وتكرر أمامنا ولا من نصير!

ومن بواعث الإقدام على الانتحار، أن المكروب الضائق بحياته ، لا يجد صدرا حليما واسعا يستمع إلى شكواه فى عطف، فقد يضطر إلى مكاشفة صديق أو قريب، أو زميل ببلواه تنفيسا لأوار يشتعل فى أحشائه، وينتظر أن تجد منه تجاوبا مريحا يمده بأسباب البقاء، فلا يجد غير العزوف ومحاولة إنهاء الحديث، وقد ينحط أحد هؤلاء فيتخذ من حديث صاحبه سخرية يلهو بها متفكها من زملائه ، وينتقل الأمر إلى البائس المتحير فيزيد اللهب اتقادا، وحين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إغاثة الملهوف، وأشاد بمن نفّس عن أخيه كربة من كرب الدنيا، لم تكن هذه الدعوة الكريمة مقصورة على العطاء المادى فحسب، بل تمتد إلى كل ما يوجب الراحة والاطمئنان من مساعدة، وكم يائس مكدود تفتحت آماله بكلمة طيبة ، ومشورة صادقة، فانقلب بؤسه نعيما ونحسه سعدا، وأنا أعرف من ذوى الفضل من يفهم ذلك حق الفهم فلا ينتظر أن يكاشفه محدثه بشجونه، بل يفتح هو باب الحديث مشجعا ملاطفا، ويحسن الاستماع مبتسما ثم يقوم بما يستطيع من وسائل العون قولا وفعلا! ولكن هذا الطراز النادر من فضلاء القوم شحيح نادر! مع أن سعة الصدر ليست ذات مشقة مرهقة، بل هى سهلة الوجود بالمران والتعود ، وإذا لم تكن طبعا، فإن التطبيع يمهد لها ، كما يأتى التحلم بالحلم والتساخى بالسخاء!

ما أقرب الإنسان من الإنسان، إن تقارب الأحاسيس ، وائتلاف المشاعر، يشد الإنسان شدا وثيقا إلى شبيهه مع تفاوت السن، وتباين الثقافة، وارتفاع المستوى الفكرى، واختلاف النظر إلى الأشياء عمقا وضحولة، فقد كنت فى عهد الدراسة الثانوية منجذبا إلى شعر الأستاذ خليل مطران انجذابا لا حد له، وأنا فى بيئة علمية تعتبر أحمد شوقى شاعرا لا يعلى عليه، لأننى كنت أجد نفسى فى قصائده الوجدانية، وموضوعاته القصصية فأحس أنه يعبر عن خواطرى فى كثير مما يقول، ولست مغرورا حين أعترف بذلك، ولكن أريد أن أقول إننى أنهل من مائه فأرتوى، وأفئ



إلى ظله فأستروح، وكان مما هزني من روائعه قصيدة حزينة قالها في مصرع شاب منتحر هام وجدا بحواء، وكان ذا ثراء فمنحها أكثر مما كانت تأمل، ثم فضلت غيره عليه، فجن جنونه، ورمى نفسه بين الأمواج مبكيا على شبابه الغض، وأحلامه التي ذوت كالهشيم، وأستشهد ببعض أبياتها لا لتكون مثلا يقتدى به، فالشاعر نفسه يحذر من العاقبة النكراء، ولكن استشهد بها لتكون صورة للأسى اللاعج حين يغشى المرء فيسلبه رشاده، ويدفعه إلى جنون محتوم فيرمي بنفسه في أعماق اللج غير مدرك ما صنع، وإذا كان هذا واقعا مشهودا لا حيلة لليأس العاجز في اجتنابه فقد أحسن الشاعر وصفه الدقيق حين قال باكيا متحسرا على فقد هذا الشاب الخؤور :

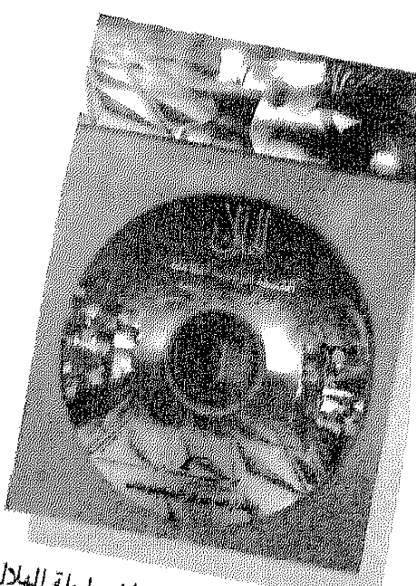
باغته اليائس وأي امرئ
يقدر في حال علي رده
طيف بلا ظل كتوم الخطي
من يعترض مسلكه يرده
يلابس الجسم ويغشي الحشا
ويملأ الهامة من صهده
حلم هلامي اللظي فاجع
يبلغ منه منتهي جهده
حتي إذا ما اقتص منه النهي
في مستطيل الجنح مسوده
أطلقه من حالق ذاهلا
في نيله يهلك أو سنده
صيد من الماء ولو أنصفوا
لظل في الماء علي وده
يهـزه الماء رفيقـا بـه
كما يهز الطفل في مهده
مضي نقي الجسم والبرد لا
في جسمه لوث ولا برده
متبردا بالماء في نفسه
شغل عن الماء وعن برده
مات مرجي في اقتبال الصبي
يا خيبة الدنيا ولم تفده

وقد مات الدكتور إسماعيل أحمد أدهم منتحرا، وكان أول كاتب أخرج بحثا قيما عن حياة مطران وأدبه، فجزع الشاعر لمصرعه وعاتبه عتابا صادقا حين قال:

بفقدك مختارا صدمت عقيـدة
وأوقعت حكما حير الحكمـــاء
وغالبك الطبع العيوف علي الحجا
فأصدر من قبل القضاء قضاء

وبعد، فإن ازدحام القنوات الفضائية بالإعلانات الغاصة بألوان الترف العابثة في المأكل والمسكن والملبس مما يوقع الحسرة في نفوس بائسة لا تجد لقمة العيش الضرورية إلا بشق النفس، وماذا يصنع الجائع المسكين، حين يشاهد أولاده بعض هذه المظاهر المترفة في فضائيات الجيران، إذ ليس لديه غير وابور الجاز، ثم يحدثونه عن أملهم في التهام الفتات مما يرون ! وهو لا يقدر على الضروري الملح مما يمسك الرمق، يبحث عن باب للعمل فلا يجد! أما يكون الانتحار بعض ما يفكر فيه! وهو ما يحدث فعلا، وتتسلسل فجائعه في الصحف والمجلات! ■

لماذا الرقمنة.. ولماذا الهلال؟!


غلاف النسخة الرقمية الأولى لمجلة الهلال

بقلم
د. يوسف زيدان

قد أكمل الله ذياك الهلال لنا.
فلا رأى الدهر نقصاً بعد إكمال

بهذا البيت الشعرى احتفى أمير شعراء وقته (أحمد شوقى) بمجلة الهلال وتمنى لها البقاء بدراً ساطعاً فى ليل ثقافة هذه الأمة وفى نهارها ! كان ذلك قبل قرابة قرن من الزمان

وقبل قرابة اسبوعين تحركت ماكينات (طبع الأسطوانات) حركتها الهادئة ، المنتظمة المتناغمة لتخرج لنا النسخة (التجريبية) الأولى، لأولى حلقات مشروعنا الطامح إلى حفظ أعداد (مجلة الهلال) كاملة، فى صورة رقمية فائقة الجودة، مزودة ببرنامج (بحث) خاص تم بناؤه داخل مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية حينها مسّت القلب فرحة الانتهاء من عمل امتد عامين حافلين بالجهد، الجهد الجهيد الساعى إلى إنجاز خطوة أخرى على درب ترميم الذاكرة، ذاكرة هذه الأمة المهددة بالاندثار!



د.يوسف زيدان مدير مركز المخطوطات ، الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس إدارة دار الهلال ، د. إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية و الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير مجلة الهلال في الاحتفال بإصدار أول أسطوانة رقمية

ومجلة (الهلال) عندى، حالة فريدة نادرة المثال يلتقى فيها ماهو تراث بما هو معاصر. تلتقى فيها الذاكرة والوعى المعاصر. فالهلال التي بدأ صدورها أواسط العام ١٨٩٢ تمثل تراثاً فكرياً لمصر والعرب، والهلال ذاتها هى المجلة التي لاتزال تصدر إلى اليوم، لتمثل واقعنا الثقافي المعاصر وتشارك فى صياغته، ومن هنا، جاءت ضرورة العناية بهذه المسيرة الثقافية الطويلة ورقمنتها .

معنى الرقمنة

يوصف عصرنا الحالي بالعصر الرقمي نظراً للطفرة الهائلة (التكنولوجية) التى أدت إلي تطوير قدرات فائقة علي حفظ ونقل (الصورة النص) فى شكل رقمى، باستخدام وسائط مثل: أجهزة الكمبيوتر الشخصى، شبكات المعلومات، اسطوانات الليزر، الإنترنت، التصوير الرقمى، البث اللاسلكى ،من خلال هذه الوسائل التى تتطور يوما بعد يوم على نحو مدهش، أمكن حفظ مالاحصر له من وثائق، وصور، وبيانات.. وغير ذلك من أشكال الإبداع الإنساني، المتنوع الخلاق.

ولاتقتصر أهمية الرقمنة على قدرتها غير المحدودة فى عمليات الحفظ والاسترجاع، وإنما تتعدى ذلك كونها (نظام) هذا العصر، ولغته الجارية على الألسنة (عبر اختلاف اللغات) ومن لايتحدث هذه اللغة، يخشى عليه: الانزياح والتهميش، بل الخروج من التاريخ الإنسانى المعاصر.

ولاتقتصر صور الرقمنة على شكل أو مستوى بعينه، فالفرد يمكنه رقمنة ما يخصه باستخدام ماسح ضوئى (سكانر) أو باستعمال كاميرا رقمية

(ديجيتال) ثم يحفظ ما رقمنه بأية وسيلة حفظ واسترجاع، من تلك البرمجيات المتاحة اليوم على أى جهاز كمبيوتر.. والمؤسسة يمكنها الرقمنة على نطاق أوسع، باستخدام تقنيات أكثر قدرة على المسح الضوئى والتصوير الرقمى فائق القدرة، وإبداع مالاحصر له من نصوص وصور رقمية فى برامج حفظ واسترجاع، أكثر مناسبة للمادة الوفيرة التى تمت رقمنتها .

خطر الرقمنة

مثلما جرت به عادتنا من قبل ومن بعد فقد سارع أهلونا للدخول فى غمار «الرقمنة» ظناً منهم أنها (موضة العصر) الجديرة بلفت الانتباه أو الحصول علي مكاسب مادية.. ومن هذه الزاوية - وحدها- فوجئنا فى الأعوام القليلة الماضية بثورة عارمة من (تصريحات) أهل التصريح والتلميح، مفادها أن هذه الجهة أو تلك بصدد إنجاز (مشروع رقمى) لأمر ما ! وظلت أغلب هذه التصريحات من يومها أمنيات للاستهلاك ولإهلاك اللحظات التى يقضيها المسئول على كرسيه دونما جدية وخطط عمل كفيلة بأن يظهر منها شئ إلى النور... وظهرت فى (السوق) مجموعة من الأعمال الرقمية، غلب الغث فيها السمين، وتعددت الإصدارات الهزيلة المرقمنة لشئ واحد بعينه، وبالطبع كان (المصحف الشريف) أكثر الأمور المرقمنة فى السوق الجديد، فخرج إلي الناس فى قرابة عشرين برنامجا أصدرتها جهات لاهّم لها سوى الربح المادى السريع.. ثم كان (الحديث الشريف) ثانى البرمجيات الرقمية التي طرحت في السوق، مكررة، لاجديد فيها، ولا مبتكر..

ولما ترهل سوق التوزيع، كفت الجهات الربحية عن طرح المزيد من هذه البرمجيات الرقمية للمصحف وكتب الحديث الشريف، لالشئ إلا لأن المشترين عزفوا عن هذه المكررات .. ولما أدرك أصحاب (إسهال التصريحات) من المسئولين، أن الرقمنة ليست بهذه السبهللة - هذه كلمة عربية فصيحة - التى يتخيلون، قلت تصريحاتهم (فى هذا الصدد !)

ومع ذلك فقد شهدت السنوات الماضية أعمال رقمنة جديرة بالاحترام منها موقع (الوراق) التى يتيح على الإنترنت أمهات كتب التراث العربى، وبرنامج (الموسوعة الشعرية) الذى يضم الإصدار الثالث منه مليونين وأربعمائة ألف بيت من الشعر العربى فى صورة رقمية، وقد أنجز هذين المشروعين (المجتمع الثقافى) فى أبو ظبى ومن باب (فلا تزكوا أنفسكم...) فلن أذكر هنا أعمالى الخاصة فى هذا المجال ولا مشروعاتنا (الكثيرة) فى مكتبة

الإسكندرية، فما غرضى هنا إلا بيان أن الهوجة الرقمية فى ديارنا، أو بالأحرى (صدى الثورة الرقمية) لم ينتج عندنا إلا قليل من كثير كان يتعين علينا عمله ..

وقد تبعثرت خطى الرقمنة فى ديارنا لأسباب منها النزوع العام للاستسهال - وهو أمر شرحه يطول وحديثه ذو شجون - ومنها عدم الوعى بأركان عملية الرقمنة، وهو ما سوف نلمح إليه فى السطور التالية، بحسب ما يسمح به المقام هنا، ثم نعرج بالكلام إلى مشروع رقمنة الهلال ..

أركان الرقمنة

هناك أربعة جوانب رئيسة لأى عملية رقمنة جيدة، ولابد لهذه الجوانب الأربعة من التكامل والتتابع على النحو الآتى ذكره :

(أ) حدود المشروع وجدواه

لابد قبل المشروع فى إنجاز أى عمل رقمى، من طرح تساؤلات أولية عن أهمية (المحتوى) المراد رقمنته، وما تكلفته الإجمالية، وما نفعه لمستخدمى صورته الرقمية، وكيف سيتم الاستخدام بوضعه على الإنترنت بإصداره على اسطوانة بإتاحته داخل شبكة داخلية إلخ ..

ويدخل فى هذا الركن (التأسيس) سؤال الجدوى بالقياس إلى المشروعات القريبة أو المشابهة فإن كان هذا الأمر المراد رقمنته (كتاب، أرشيف، خرائط، صور.. الخ) قد أنجزت رقمنته على يد جهة أخرى، فالأفضل صرف النظر عن المشروع، حتى لو كانت عملية الرقمنة الأسبق تشوبها بعض العيوب أو تحتاج إلى بعض التحسينات .. إذ أن التحسين أو إصلاح العيب، أهون وأجدى من إعادة المشروع بكامله، وهو ما لم يفكر فيه أصحاب دور النشر والمؤسسات التى كررت إصدار النسخ الرقمية للمصحف ومتون الحديث الشريف .

(ب) المسح الضوئى

بعد الخطوة التأسيسة السابقة، يأتى الركن الثانى من عملية الرقمنة، وهو عمل المسح الضوئى للمواد المراد رقمنتها وتتم هذه العملية بمعدات متفاوتة الكفاءة، منها جهاز الماسح الضوئى Scannerالذى تتدرج مستويات جودة وكثافة الصورة فيه من جهاز إلى آخر بيد أن الحد الأدنى لذلك يجب أن يكون ٦٠٠ نقطة فى البوصة الواحدة (وهو ما يعرف فى لغة الكمبيوتر بلفظ dpi) وهى درجة متعارف عليها لقياس درجة الوضوح resolu-tion في أية صورة تعرضها شاشة الكمبيوتر ..

ومن أدوات المسح الضوئى الكاميرا الرقمية وقد تأتى هذه الكاميرا داخل جهاز خاص يسمى الماسح الضوئى للكتاب BookScanner وقد يبلغ الجهاز من الإمكانية الفائقة والحجم،

والسعر! بما يسمح له بمسح الخرائط واللوحات والكتب ذات الحجم الكبير. وبالطبع فما يشترط من الحد الأدنى (٦٠٠ dpi) فى الماسح الضوئى يشترط أيضاً فى الكاميرا الرقمية، وإن كانت أغلب الكاميرات الرقمية تفوق قدرتها هذا (الحد الأدنى) بمراحل .

(ج) معالجة الصورة

لايمكن استخدام الصورة الرقمية الناتجة عن عملية المسح، على حالها! بل لابد من (تجهيز) هذه الصورة على أحد برمجيات معالجة الصور، وأشهرها برنامج (فوتوشوب) الذى يمكن من خلاله تحسين (الصورة الرقمية) وحفظها مؤقتاً على هيئة معينة Format بحسب المراد منها بعد ذلك فإن كانت ستعرض على الإنترنت فالواجب أن تكون على هيئة ملفات jppq، وإن كانت غير ملونة (أبيض وأسود) فالأفضل حفظها على هيئة ملفات gif وإن كانت ستخزن مؤقتاً لحين استخدامها على مستويات وضوح متعددة، تكون الصورة الرقمية على هيئة ملفات Tiff.

ولابد بعد ضبط الصورة، من انضباط نظام استدعائها المؤقت لحين عمل البرمجة النهائية، وهى الركن الرابع من عملية الرقمنة.

(د) التخزين والاستدعاء

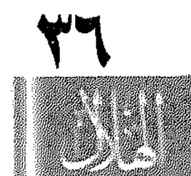
أن نضع نظاماً للتخزين والاستدعاء (عرض المادة على نحو ما) فذلك هو المسمى اصطلاحاً: البرمجة بالطبع فلابد من ضبط الكشافات (الكلمات المفتاحية) التى من شأن مستخدم البرنامج أن يطلب الصورة - أو ملف الصور - بالبحث عنها وبدهى أن إعداد الكشافات التفصيلية يحتاج إلى متخصصين فى التوثيق لا البرمجة ثم يتكامل عمل هؤلاء وهؤلاء، لينضم الكل فى البرنامج الرقمى المتاح للاستخدام على الإنترنت باستخدام كود Html أو غيره من الأكواد المعمول بها على شبكة الإنترنت) أو على اسطوانات الليزر، باستخدام أحد أنظمة البرمجة المعروفة عالمياً ..

وغنى عن البيان أن عمليات الرقمنة منها ما يستهدف الربح المادى، وهو ما تقوم به دور النشر ومنها ما يستهدف النفع العام أو التخصصى دونما أهداف ربحية، وهو ما تقوم بعمله المؤسسات ولهذا أو ذاك، طريقة تعامل مختلفة من حيث (الإصدار الرقمى) بحسب الغرض المقرر سلفاً (ومن أخطر الأمور المزج بين الأمرين!)

وقد ألمحت هنا، فحسب للعملية الرقمية وأركانها، ويبقى من بعد ذلك تفاصيل لكل ركن منها، يضيق المقام هنا عن استعراضها جميعاً .

الهلال الرقمية

بدأ هذا المشروع الطموح يوم تحادثت مع الصديق مصطفى نبيل (رئيس تحرير مجلة الهلال) بشأن تزويد



مكتبة الإسكندرية بنسخة من أعداد مجلة الهلال مصورة على أشرطة ميكروفيلم.. وكان قد أبدى استعداده لذلك مبدئياً فقلت له: إننا فى مكتبة الإسكندرية على استعداد لعمل فهرس تفصيلي ونسخة رقمية للمجلة ولما ناقشت د. إسماعيل سراج الدين (مدير مكتبة الإسكندرية) في الأمر، وافق على الفور، وقال قولته المعتادة التى تعنى : انطلق .

اقتضى الأمر عملاً كثيراً قبل الرقمنة لإصلاح النسخة الميكروفيلمية الكاملة لأعداد المجلة، واستكمال الناقص منها، لتأتى من بعد ذلك مرحلة الحصر والتصنيف الموضوعي لأعداد أحد عشر عقداً من عمر المجلة، وهو تصنيف بحسب : الأبواب عناوين المقالات، أسماء الكُتاب والمحررين، وهى المرحلة التى امتدت عدة شهور تخللتها عمليات (ترميم) لعدة أعداد من المجلة، ما كان من الممكن عمل صورة رقمية لها، إلا بعد الترميم .

وما كادت (العمليات) السابقة تنتهى، حتى وصلت الأجهزة اللازمة لعمليات الرقمنة، وهى أجهزة اشترتها مكتبة الإسكندرية خصيصاً لدعم هذا المشروع الطموح (بميزانية تجاوزت مليونى جنيه) فبدأت المرحلة الأكثر تعقيداً متمثلة فى الآتى:

- تحويل الصور الميكروفيلمية لعشرات الآلاف من صفحات المجلة، إلي صور رقمية .
- المسح الضوئى للأعداد غير المصورة ميكروفيلمياً
- تجهيز الصور الرقمية وإعلاء جودتها بما يسمح بتكبيرها وطباعتها ومعالجتها إلكترونياً
- بناء قاعدة بيانات خاصة لجميع ما نشرته المجلة منذ عددها الأول.
- إعداد الشاشات والمداخل الخاصة بمستخدم البرنامج

وقد تمت هذه الخطوات، جميعها، بمركز المخطوطات ومتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية بالتعاون بين عدة أقسام: قسم الميكروفيلم، قسم الأوعية النادرة، قسم النشر التراثى.. وخلال بضعة أسابيع سينطلق المشروع إلى الناس، حاملاً النسخة الرقمية الكاملة لمجلة الهلال منذ صدورها، ليتاح على شبكة الإنترنت، أو يحلق على أجنحة (أسطوانات ليزر) رخيصة الثمن، واسعة الانتشار، فائقة الجودة، حافظة لجزء مهم من ذاكرة وثقافة هذه الأمة. ■

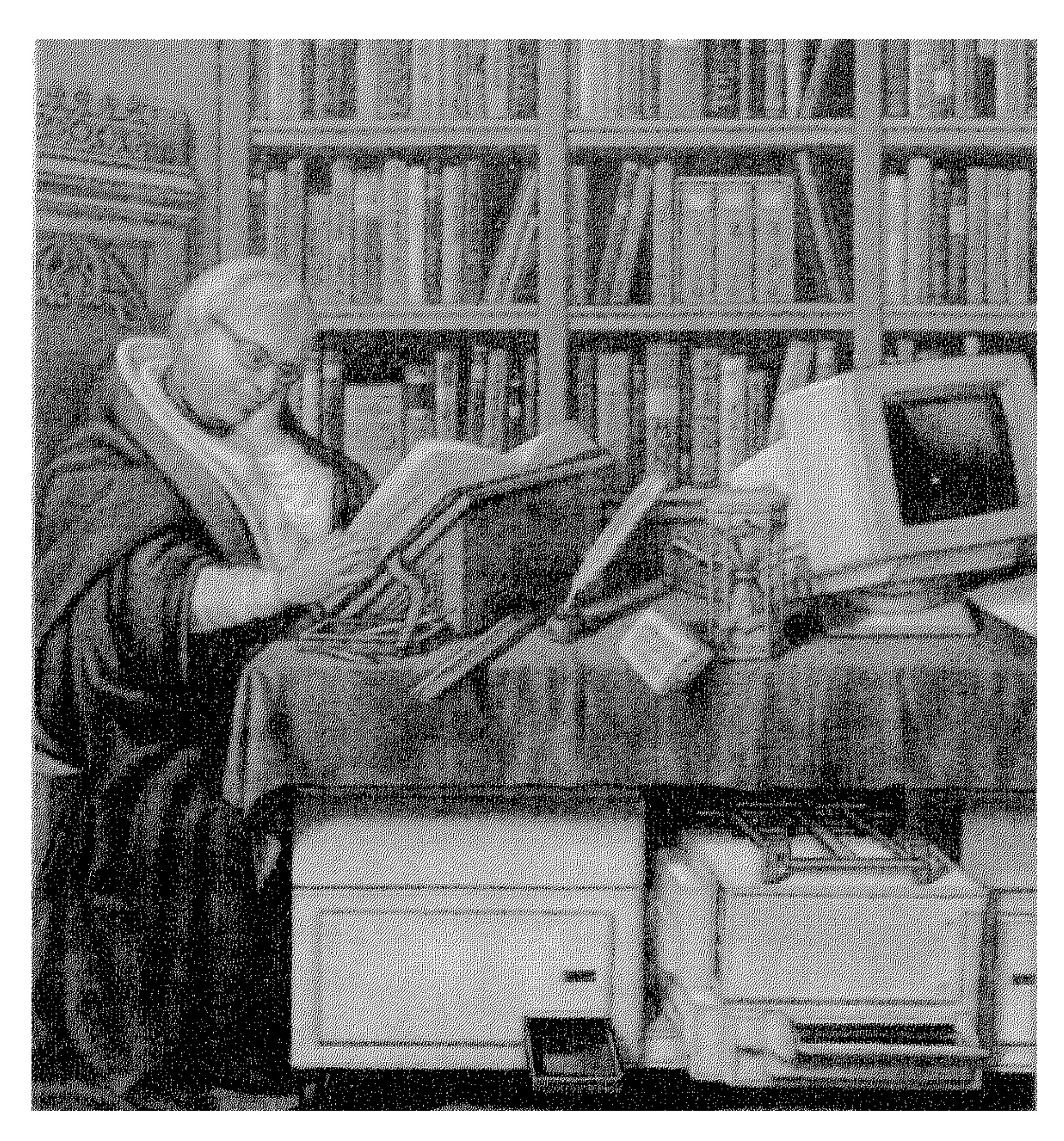
الثورة التكنولوچية وعالم النشر

ترجمة : سناء حنفى

ألقت الثورة التكنولوچية بظلالها على جميع مناحى الحياة ، فدخلت كل مشروع وكل صناعة ، واحتلت أجهزة الكمبيوتر وشبكات الاتصالات موقعا رئيسيا وسط العمليات اليومية لكل مشروع أو مؤسسة، ويمكن القول بأنها أصبحت سلاح التنافس الرئيسى فى معركة السيادة على السوق . وقد شملت الثورة التكنولوچية أيضا الكتب والموسوعات والأفلام والموسيقى والصور لما تتيحه من سهولة ويسر فى الوصول للمعلومات . وكل يوم يشهد مزيدا من التوظيف الجديد للتكنولوچيا فى ميادين النشاط الإنسانى . وأصبح الآن أحد أهم عناصر النجاح فى فهم طبيعة التغير التكنولوچى واتجاهات المستقبل بشأن وسائط تبادل المعلومات.

«جيسون ايبستين» واحد من الذين عملوا فى مجال النشر لأكثر من ٤٠ عاما .. فقد كان مدير تحرير فى دار نشر «راندوم هاوس» وأسس العديد من دور النشر ومنها «انكور بوكس» ، و«نيويورك يفيو أون بوكس» ، و«مكتبة أمريكا» و«كتالوج القراء» والآن بعد تقاعده يرغب فى النشر بالأسلوب الرقمى خاصة وأن هذا الأسلوب أعاد بناء صناعة الموسيقى .

الأمر المثير للدهشة أن جيسون رغم كل هذا التاريخ الحافل لم يصبح ناشرا إلا بالصدفة . فأثناء دراسته فى جامعة كولومبيا عام ١٩٤٥ تعرف على مجموعة من الزملاء أصبحوا أصدقاءه المقربين كانوا مغرمين بالثقافة وكانوا يتحدثون



عن مارقيل وفولتير وجويس واليوت وكان معجبا بأحاديثهم . وكانوا ينتمون إلى سوق كبيرة جديدة من نوعها ولم يتم اكتشاف الكتب الجادة التى تعد ظاهرة جديدة فى الحياة الثقافية الأمريكية ، وبعد تخرجه انضم إلى فريق العمل فى «وابل داى» وآنذاك كانت تصدر طبعة شعبية رخيصة لمجموعة من القصص يتم توزيعها مع المجلات الشهرية مقابل ٢٥ سنتا . ويتم جمع الكتب غير المباعة ويعاد توزيعها فى الشهر الذى يليه .

ثورة فى عالم النشر

استطاع جيسون خلال ستة أشهر من العمل فى المؤسسة استيعاب أساسيات الحرفة بل إنه بدأ يفكر فى عمليات التطوير واقترح على مدير التحرير أن تعرض الكتب فى المكتبات ، وليس عند بائعى الجرائد ، كما اقترح عليه إصدار أنواعاً من الأعمال الجادة التى كان يقرأها هو وأصدقاؤه . هذه

الكتب ستكون أغلى وبمواصفات أفضل من تلك التى يصدرونها . وكان ما اقترحه هو برنامجا لتوسيع السوق عن طريق قائمة بما يصدره الناشرون فى نهاية كل كتاب ، وأصبح هذا الأسلوب شريان الحياة بالنسبة للنشر حيث غطت الكتب تكلفتها وحققت مبيعاتها ربحا مستمرا . وأطلقوا على السلسلة الجديدة «أنكور بوكس» . وقد أصبحت هذه النوعية من الكتب بمثابة ثورة فى عالم النشر .

ولكن لم يستمر الحال طويلا . فقد أعيد تشكيل تجارة النشر وأشياء أخرى كثيرة فى الحياة الأمريكية بعد التحول الديموجرافى الضخم من المدينة إلى الضواحى وذلك فيما بعد الحرب ، واختفت قاعدة العملاء وكذلك مئات المكتبات من المدينة .

وفى منتصف الستينيات كانت أسواق التجزئة الجديدة تعتمد بدرجة كبيرة على المراكز التجارية فى الضواحى حيث لم تستطع سلاسل المكتبات البارزة تحمل التكاليف مع بطء حركة بيع الكتب وكان التحول مهما لهذه الأسواق . فأصبحت الكتب التى يقوم المشاهير بالدعاية عنها ويقوم بكتابتها المؤلفون المعروفون بالإثارة والرومانسية هى ما تحتاج إليه هذه المكتبات ، وبعد فترة قصيرة بدأت تختفى آلاف الكتب الجادة من النشر سنويا .

وقد أدت ظروف التسويق الجديدة إلى قلب الصناعة رأسا على عقب حيث كان الناشرون السابقون يعتمدون على إصدار قائمة بما ينشرونه ، الآن أصبحوا يسعون وراء أفضل الكتب مبيعا

وفى عام ١٩٥٨ ترك جيسون «وابل داى» إلى «راندوم هاوس» ومع منتصف الثمانينيات بدأ مشروعات محدودة وناجحة ، وفى عام ١٩٨٦ تخيل «كتالوج القراء» وهو دليل ضخم يضم أسماء ٤٠ ألف مؤلف ويمكن أن تطلبه ٨٠٠ جهة ، وقد بلغ العائد من الطلب نحو ٣٥ دولارا بالإضافة إلى مصاريف الشحن والتسليم. ولكن تكاليف التسليم للطلبيات الصغيرة تتجاوز عائدتها بكثير .

كتب الكترونية بالطلب

وبعد فشل «كتالوج القراء» توصل جيسون إلى الحل للتغلب على التكاليف الباهظة لتسليم آلاف المطبوعات منخفضة الثمن . فالكتب مثل الموسيقى ضمن المنتجات التجارية القليلة التى يمكن ضغطها إلى ملفات رقمية وتخزينها وتحديد مكان لها ونقلها إليكترونيا بدون تكاليف فعلية .

وقد حاول الناشرون بيع النسخ الالكترونية من كتبهم على مواقع الكمبيوتر منذ أوائل التسعينيات ، لكنهم فشلوا لأن البرامج كانت مصممة بشكل ضعيف ، ولأن معظم القراء قاوموا فكرة قراءة الكتب على شاشات الكمبيوتر وقد توصل إلى أنه من المحتمل إعادة إنشاء ملف رقمى على شكل كتاب .

وما تصوره جيسون هو نفس الذى يقوم به الجهاز ATM الذى يطبع



الكتاب بسرعة من الملف الرقمي ويجلده ويتم تسليمه للقارىء بثمن زهيد . وقد تواجد أسلوب الطباعة حسب الطلب بشكل بدائي حيث يتكون من آلة طباعة مزدوجة ومجلد لكن الجهاز كان غالي الثمن وبطيئا ويحتاج إلى شخص ماهر لتشغيله ، وقد صمم للعمل داخل السلسلة الموجودة في صناعة النشر ومطبوعات محدودة جدا للصحافة التقليدية .

ولكن جيسون كان يتطلع إلى شيء مختلف .. آلة تعمل اتوماتيكيا يمكنها تجنب العقبات التي تعرض لها نظام جوتنبرج . ويمكن للقارىء اختيار الملف ، والملف ينتقل إلى شبكة آمنة وخلال دقائق تقوم آلة الطباعة بإصدار نسخة واحدة بأي لغة وبأقل تكلفة القارىء عن أي كتاب يصدر بالأسلوب القديم . وتقدم التكنولوچيا الجديدة للقراء مختارات أكبر من الكتب .

وفي عام ١٩٩٩ ألقى جيسون ثلاث محاضرات في مكتبة نيويورك العامة قدم فيها رؤيته عن المستقبل الالكتروني وتنبأ بوجود هذه الآلة إن آجلا أو عاجلا .

والطريف أن جيسون لم يكن يعلم أن هذه الآلة موجودة بالفعل وقد أخبره عن وجودها صديق له يهتم بتكنولوچيا الطباعة عند الطلب . وتوجد في ورشة صغيرة في ميسوري مخترعها جيف مارسن . تستقبل الآلة ملفا رقميا وتقوم بضبط نفسها بحيث تتلاءم مع الأبعاد المطلوبة للكتاب وتنقل الملف إلى طابعة الورق المزدوج وتقوم طابعة منفصلة بتجميع الأوراق المطبوعة وتجليدها . وتستغرق العملية كلها دقيقتين ولا تحتاج إلى استخدام أي عامل .

المستقبل الالكتروني للكتاب

ومن منظور المستقبل الالكتروني يمكن استعادة كل منشور عن طريق البحث في «جوجل» أو أي موقع مماثل . حتى بائعو الكتب والناشرون والمؤلفون أنفسهم سوف يرسلون ملفات رقمية للمؤلفات على مواقعهم أو المواقع التي لها نفس مجال الاهتمام . وعلى أجهزة الكمبيوتر سوف يختار القراء الكتب من عدد لانهائي من المكتبات بلغات عديدة ثم ينقلوها إلى أقرب آلات طباعة الكتب حتى تقوم بتجميع الكتب المطبوعة . هذا النظام يمكن تطبيقه باستخدام التكنولوچيا المتوفرة حاليا ولكن البنية الأساسية الداعمة لهذه التكنولوچيا ليست موجودة ويبيع ناشرو الموسيقى مباشرة عن طريق الانترنت إلى المستهلكين ولكن قبل أن يتمكن ناشرو الكتب من بيع كتبهم مباشرة للقراء فإنهم في حاجة إلى نشر الآلاف من آلات طباعة الكتب . أحد الحلول المفترضة تكمن في مقدرة هذه التكنولوچيا الجديدة للوصول إلى أسواق كان يصعب الوصول إليها في الماضي .

بين الناشر والمعلن

وقد امتدت ثورة التكنولوچيا إلى مجال الدعاية .. وتتكون وسيلة الدعاية التجارية المثالية من مساهمة متساوية من ثلاثة أطراف : الناشر والمشاهد والمعلن .

وفى الواقع فإن المعلنين ، وهم المجموعة التى تمتلك معظم الأموال - تسيطر على كل أوراق اللعبة وانحسر دور الناشرين على التنفيذ أما المتفرج فعلية قبول ما يتفق عليه الطرفان الآخران . وقد ورثت الانترنت هذا النمط من دور النشر .

ويعتمد نظام الانترنت على التسويق من خلال الكمبيوتر وهو النظام الذى يختاره الناشر للإعلان وأول خطوة تم اتخاذها نحو بناء مثل هذا النظام هو شبكة الدفع عن طريق الضغط على الزر . والإعلانات الموجودة على الجانب الأيمن من الشاشة تمثل تحولين مختلفين فى العلاقة التقليدية بين الناشرين والمعلنين .. الأول أن المعلن يدفع فقط عندما يضغط شخص ما على زر الماوس لاختيار الإعلان نفسه والثانى هو الإعلانات على شبكة الانترنت ويفصل هذا النظام بين المعلن والناشر بمعنى أن المعلن لا يشترى مساحة على موقع الناشر.

- فى بادىء الأمر فضل المعلنون نظام البحث مدفوع الأجر على شبكة الانترنت لسبب بسيط وهو أنها نجحت وأنها تؤدى إلى انتشار مواقعهم وتحتل مراكز الصدارة إلا أنه لم يكن مناسبا للناشرين ولأن إعلانات الانترنت تمثل جزءا صغيرا من برامج الكمبيوتر فيمكن تزويدها بمعلومات حول الجمهور المستهدف لها وكم ينفق المعلن حتى يصل إلى الجمهور وتكلفة كل ضغطة على الزر وأى نوع من المواقع المقبولة أو المرفوضة ، وإذا كان هناك أى عدد من الملحقات .

والأمر الأكثر أهمية أن كل إعلان يمكن أن يتصل بالاستخدام المنزلى الذى يراقب مدى تقدمه وحالته .

وبمجرد بث الإعلانات المختارة يمكن أن يقوم الناشرون بنسخها واضافتها على مواقعهم . ومن خلال الاتصالات مع مواقعهم المنزلية يكشف الإعلان عن الناشرين الذين قاموا بإضافته على مواقعهم وعدد عروض الإقبال على هذا الإعلان وكم بقى من الأموال فى حساب المعلن . ويستمر بث الإعلان حتى تنتهى أمواله وإذا لاقى الإعلان نجاحا فإن المعلن يزود حسابه البنكى بالأموال .

ويعتبر هذا النموذج أفضل من الحالى لأن الناشر على دراية بطبيعة مستخدمى الكمبيوتر وفى هذه الحالة لن يبث الناشر إعلانا يثير غضب المشاهد لذلك يكون حريصا أن تكون الإعلانات جذابة .

وعلى الرغم من وجود المشاكل التقنية والتجارية التى تحتاج إلى البحث عن حلول لها فإن الإعلان الموجه عن طريق الناشر يمكن أن ينجح خاصة وأنه يفيد الأطراف الثلاثة . الناشر والمعلن والقارىء الطريف أن نظام «الدفع مقابل الضغط على الزر» عندما تم اقتراحه للمرة الأولى كان مثارا للسخرية لكنه أصبح اليوم صناعة تحقق ٥ بلايين دولار ■



أقـــوال معاصرة

● «لا توجد كتابة جيدة بدون قراءة أكثر جودة»

الأديب نجيب محفوظ

● «الصحافة الحرة والمعارضة السياسية النشطة تؤلفان أفضل نظام للإنذار المبكر ضد الأزمات».

المفكر الهندي امارتياض
صاحب كتاب التنمية حرية

● «من كل العالم لا أعرف إلا حمامات السباحة!!»

لور ما نودو
السباحة الفرنسية الفائزة - بثلاث ميداليات
إحداهم ذهبية في دورة أولبمياد أثينا

● «الإرهابيون من الأرجح، ألا يعرضوا أمننا للخطر لو أنهم شعروا بالقلق على أمنهم الخاص».

چورج بوش - رئيس الولايات المتحدة

● «نرفض الجمود ونطور فى حدود».

شيخ الجامع الأزهر - الدكتور محمد السيد طنطاوي

● «أنا لست صدام حسين، أريد أن أتعاون»

الرئيس السوري بشار الأسد
في حديث مع جو كلابن مراسل التايم الأمريكية

● «هدف السياسة أن تغير الأمور»

خافيير سولانا
الممثل الأعلي للسياسة الخارجية - في الاتحاد الأوروبي

● «على الإنسان العامل ألا يتقاعد، فالعقل فى حاجة إلى ممارسة، وإلا سيضمر».

چيمس واطسن
العالم الأمريكي الحائز جائزة نوبل

● «النساء أحيانا يكن ألدّ أعداء النساء».

الاعلامية الكويتية - ضحوك البنوان

● «الواقع شيء أكبر بكثير من مقدرة حواسنا على اكتشافه»

الأديب الأرچنتيني كور تاثر

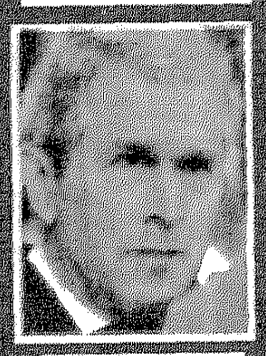
● «الدين - أى دين - يرتقى عن أى إهانة تصدر عن البشر، ولو كنت مؤمنا إيمانا مستقرا فى قلبك فلا يوجد شخص يستطيع أن يهين دينك»

نادين جورديمر
الأديبة الجنوب أفريقية - لحاصلة علي جائزة نوبل

● «جنس المحارم أخذ فى الانتشار بين سكان البيئات المزدحمة مثل العشش والقبور، حيث تنعدم الخصوصية اللازمة لحماية الطفل من الآثار السلبية لرؤية الجماع بين والديه!!»

الدكتور حامد زهران
أستاذ علم النفس


نجيب محفوظ


جورج بوش


نادين جورديمر

ديك تشينى هو الرئيس

بقلم
محمد يوسف عدس

هذا عنوان كتاب «چون نيكولز» الصحفى والكاتب سياسى المتميز.. له عدة كتب أخرى.. ألف بعضها منفرداً وبعضها مع آخرين.. يحرص فى كتابته على تحرى الحقيقة والبحث عن المعلومات فى مصادرها الصحيحة.. تحليلاته دقيقة، فإذا كتب أذهلتك بساطته وصراحته... يقول: «يعلم الناس أن «چورج دبليو بوش» يحتاج إلى من يعنى بأمره،لا لأنه غبي ولكن لأنه مستهتر..»

لقد عجب الناس وتساءلوا: كيف تسنّى لهذا الابن - وحياته تكاد تخلو من أى خبرة أو إنجاز ذى قيمة - أن يقود أعقد نظام للحكم أقامه الإنسان فى التاريخ؟!

للإجابة عن هذا السؤال المحيّر يسوق إلينا المؤلف حكاية شاب يئس من حياته وأراد أن يتخلص منها بأسلوب درامى، فتسلل إلى الساحة الخضراء جنوبى البيت الأبيض وأطلق من مسدسه على جناح الرئيس الأمريكى عدة رصاصات، فعاجله الحرس برصاصة أصابت ركبته وتمت السيطرة عليه. كان لابد من إخطار الرئيس ونائبه على الفور، فتوجه رجال الأمن السرى تجاه مقر الرئيس فماذا وجدوا؟.. كان ديك تشينى مستغرقا فى العمل بمكتبه.. منهمكا فى إعداد خطاب سياسى.. محاطا بأجهزة كمبيوتر وهواتف متواصلة الرنين، ومن حوله مساعدوه يتحركون بنشاط ملحوظ.. منظر مدير عام لمؤسسة كبرى.. اعتاد على إنجاز مهام جادة بروح متحفزة.. فى نفس الوقت ذهب رجال الأمن ليجدوا الرئيس بوش يمارس تدريباته البدنية اليومية فى قاعة الألعاب الرياضية!.

يقول «چون نيكولز»: «ولم لا..؟ لقد كان الرجل رئيسا بالاسم فقط، أما ديك تشينى فهو المسئول الأول.. الذى يقوم بعمل الرئيس .. إنه صاحب السلطة الحقيقى».

البحث عن وصيّ للعرش

لاشك أن بوش الأب كان يعلم مواطن الضعف عند ابنه، لذلك كان يبحث له عن شخص يسدّده ويسانده، ويكون مسئولا عن تسيير حكومته، وقد أفضى إلى ابنه عن مكنون صدره، وأكدّ له أنه من الضرورى لنجاحه إيجاد الرجل القادر على سبر أغوار الشخصيات، واختيار أنسبها للإدارة الجديدة، وبيّن له مواصفات هذا

الرجل.. ومن أهمها: أن يكون قوى الصلة باليمين الصاعد المسيطر على الحزب الجمهورى، وأن يكون على علاقة وثيقة بالمؤسسات الاقتصادية التى ترتبط مصالحها بالحزب الجمهورى، وعلى رأس كل هذا أن يكون مواليا ولاءً مطلقا لعائلة بوش.

ولابد أن حاسة الاستشعار المتميزة عند ديك تشينى كانت فى حالة استنفار، فأسرع بتقديم نفسه فى اللحظة المناسبة على أنه المنقذ الذى تتوافر فيه كل الشروط المطلوبة.. وشرح للأب القلق ما يمكن أن يفعله لابنه فاقتنع الأب.. وأصبح تشينى مرشحا كنائب للرئيس المقبل. وفى أثناء جولات بوش الانتخابية سنة ٢٠٠٠م كانت تصدر منه أحيانا تصريحات عفوية تكشف عما يدور فى عقله حيث قال: «أنا لم أختر «ديك» بسبب فوزه فى انتخابات «وايومنج» ثلاث مرات للكونجرس ولكن لأنه - بلا شك - قادر على أن يكون رئيسا»..

لم يضيّع تشينى وقتا، فبينما كان بوش الابن ينتظر ما تسفر عنه نتيجة التحقيقات فى إعادة فرز أصوات الناخبين بفلوريدا، كان تشينى منهمكا فى عملية اختيار أعضاء الإدارة الجديدة، فحشد فيها كل الشخصيات القديمة الذين عملوا معه واستراح إليهم أثناء عمله وزيرا للدفاع فى إدارة بوش الأب، من أمثال: «رامسفيلد» و«ولفويتز» و«سكوترليبى».. وغيرهم.. لقد بنى الإدارة كلها بنفسه.. وكان لابد من توفير مكان لمنافس قديم هو «كولين باول» صاحب الشهرة الجماهيرية وبطل حرب الخليج (١٩٩١)، وهى شهرة لا يتمتع بمثلها أحد غيره من أعضاء الإدارة، ولعل تشينى أراد أن يحدث شيئا من التوازن والمصداقية لدى الجماهير وأمام الإعلام.. على أن يتخلص منه فى مرحلة قادمة .. (وهذا ما حدث بالفعل سنة ٢٠٠٤م).

يقول المؤلف تعليقا على ذلك: «كان بوش يُستشار دائما فى اختيارات تشينى للأشخاص.. ولكن أى استشارة؟.. إنها مجرد إجراء شكلى للحصول على توقيع للرئيس، الذى لم يكن ليفهم أبعاد ومرامى هذه الاختيارات فى تحقيق خطط تشينى وأهدافه.. لقد كان تشينى يقوم بعمليات تغيير متواصلة دون ضجيج، امتدت إلى صميم النظام القضائى بل إلى جهاز الاستخبارات المركزية، فوضع فيهما شخصيات من الموالين لسياسة الجناح اليمينى فى الحزب الجمهورى.. لذلك يرى بعض المراقبين أن ما يقوم به تشينى إنما هو ثورة أو انقلاب هادىء ولكنه عميق الأثر فى تشكيل السياسة الأمريكية لكى (تتوافق مع توجهات اليمين المتطرف للهيمنة على الحياة الأمريكية وعلى العالم بأسره لزمن طويل قادم، تتحقق فيه رؤية تشينى الإمبريالية التى تبلورت فى مشروعه «القرن الأمريكى»).

صفر كبير!

خلال الحملة الانتخابية لسنة ٢٠٠٠م كان القلق يبدو على بوش الصغير فيضطرب عندما يُسأل عن السياسة الخارجية، فهو يجهل هذا المجال جهلا مطبقا، وقد بدا هذا واضحا فى برنامج يسمى «كويز» بتليفزيون بوسطن يديره المذيع «آندى هيللر» الذى سأل بوش عن أسماء رؤساء عدد من الدول التى لا تخلو نشرة إخبارية من ذكرها، فلم يعرف من هذه الأسماء شيئا.. وانتهت الحلقة بصفر كبير لكل إجابات بوش.

لقد خضع بوش شهرا كاملا لبرنامج

تعليمى أشرف عليه تشينى لتعريف الرئيس المقبل بالعالم الخارجى، ووضعوا له الخرائط والمصورات، ومع ذلك ظل بوش متخبطا فى فهم هذا العالم الخارجى.. وظل جهله ينضح فى كلامه وعباراته الخاطئة ونطقه لأسماء الدول زمنا طويلا.

قد يهون كل هذا أمام المواجهة التليفزيونية التى جرت بين المتنافسين على الرياسة «آل جور» و«بوش»، فقد قال بوش «إننى لا أريد أن أضع قواتنا فى كل أركان الدنيا طول الوقت.. ولا أريد أن أقوم بدور شرطيّ العالم.. وسوف أكون شديد الحرص على أن نستخدم القوات المسلحة فى بناء الأمة».. أكثر من هذا عندما بدأ «آل جور» يشرح كيف أن الولايات المتحدة تحتاج إلى رفع درجة مسئوليتها القيادية فى هذه الفترة الفريدة من تاريخ العالم، هب بوش معارضا بقوة فقال: «لا.. أنا لا أعتقد أن هذا هو ما ينبغى أن يحدث.. أن نذهب حول العالم فنقول هذا ما ينبغى أو لا ينبغى أن تفعلوه.. أنا لا أعتقد أن دور أمريكا هو أن تذهب إلى دولة ما ونقول لها نحن نفعل هذا وعليكم أن تفعلوا مثلنا!».

يقول چون نيكولز لقد فعل بوش عكس ما وعد به كله: فقد أرسل القوات الأمريكية تحارب فى أفغانستان والعراق، ويهدد دولا أخرى بالتدخل العسكرى.. وهو الذى يهدد دول العالم كله بقوله إما أن تكونوا معنا أو ضدنا، ومن يتخلف عنا يتحمل وزر تخلفه.. وهو الذى تتدخل إدارته فى إعادة تشكيل الشعوب والسياسات والثقافات فى دول الشرق الأوسط..!!!

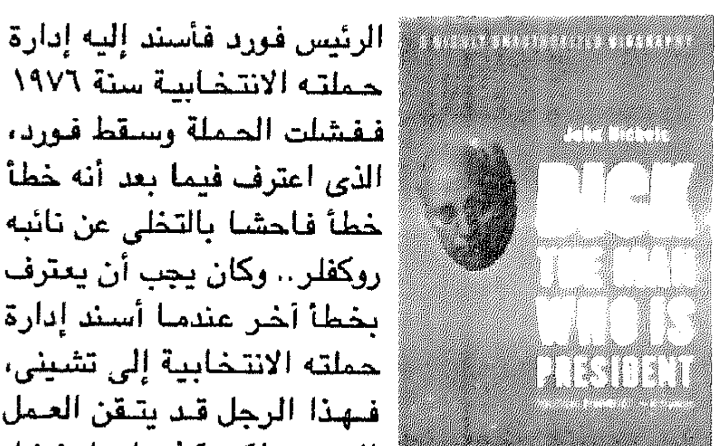
ويفسر لنا چون نيكولز اللغز حيث يقول: «إن مشكلة الأمريكيين الذين تابعوا مشهد المواجهة التليفزيونية كانوا ينظرون إلى بوش ويركزون عليه.. بينما هو وجه العملة الخاسرة الذى قدمه الجمهوريون إلى الشعب الأمريكى لتضليله.. فالوجه الحقيقى الكاسب هو ديك تشينى وليس بوش. والعيب الثانى فى الناس أنهم كانوا يركزون أكثر مما ينبغى على ما يقوله بوش، ولم يلتفتوا بما فيه الكفاية إلى ما كان يقوله تشينى فى نفس الوقت، حيث قال بالحرف الواحد: «إن القوات الأمريكية لن تنتشر فى الكرة الأرضية كقوات لحفظ السلام.. ولكن كمحاربين»!. وظل تشينى يطلق التصريحات فى هذا الاتجاه، حتى جاءت فرصته المواتية لحرب العراق.. بل الأحرى أن نقول إنه هو الذى صنع الفرصة وحرّض على الغزو وأعد له عدّته.

أسلحة الدمار الشامل

لقد اختمرت أفكار الغزو فى رأسه مبكرا أثناء حرب الخليج سنة ١٩٩١م وتبلورت فى خطة عرفت باسم «عملية العقرب»، بل فكر فيما سيترتب على الغزو من غنائم وأسلاب فضمنها فى خطة سرية أخرى سماها «سياسة الطاقة للولايات المتحدة» اعتبرت بترول العراق الذى يمثل ١٠٪ من احتياطى بترول العالم جزءا من الممتلكات الأمريكية.

ولكى يقدّم للعالم مبررات للحرب تدخل بطريقة غير مسبوقة للتأثير على تقارير المخابرات المركزية CIA وكثرت زياراته – على غير عادة مألوفة – لهذه المؤسسة، فأبدى لهم تأفّفه من عدم تجاوبهم مع ادعاءاته بشأن أسلحة الدمار الشامل، واليورانيوم الذى حصل عليه صدام حسين من النيجر، وعلاقة الرجل بالقاعدة – قال لهم: «لماذا لا تدعم مخابراتكم ما نعرف أنه قائم هناك» فاضطر رجال المخابرات للرضوخ لرغبات تشينى الجامحة.. ولُفّقت التقارير...

لقد فاق تشينى الجميع فى خصوصية تميز بها، وهى أنه استطاع دائما أن يبرهن على استعداده للتضحية بكل المبادئ فى سبيل طموحاته.. وخدمة من يتوسم فيهم أن يساعدوه على تحقيقها.. وفى هذا تكمن عبقرية تشينى وجاذبيته عند أولئك الذين يمسكون بمفاتيح السلطة فى كل موقع.



كتاب «جون نيكولز»

الرئيس فورد فأسند إليه إدارة حملته الانتخابية سنة ١٩٧٦ ففشلت الحملة وسقط فورد، الذى اعترف فيما بعد أنه خطأ خطأ فاحشا بالتخلى عن نائبه روكفلر.. وكان يجب أن يعترف بخطأ آخر عندما أسند إدارة حملته الانتخابية إلى تشينى، فهذا الرجل قد يتقن العمل السرى ولكنه كثيرا ما يفشل فى التحديات العلنية، حيث يتحكم الهوى والتعصبات والمصلحة الشخصية فى أحكامه وتقديراته.

حرفة اكتساب السلطة

عمل تشين لفترة طويلة قريبا من مواقع السلطة العليا وكانت تسيطر عليه رغبة عارمة فى السلطة، إلا أن طموحات المطالب بالعرش تحطمت على صخرة الحقائق الأمريكية القاسية، فهو يعلم أنه لا ينتمى إلى عائلة ذات اسم كبير، ويفتقر إلى العلاقات العائلية الواسعة كما يفتقر إلى الأرستقراطية ووسامة الطلعة المطلوبة للبروز .. ومن ثم وطّن نفسه على قبول حقيقة أن المركز الأول فى البيت الأبيض أمل مستحيل، غير أنه لم يفقد الأمل مطلقا أن يحظى بمركز (الوصىّ على العرش) بضربة من ضربات الحظ!.

يقول جون نيكولز: «يفهم ديك تشينى أكثر من غيره دقائق حرفة اكتساب سلطة» وهو يستخدم أساليبه الميكافيلية فى إزاحة الشخصيات السياسية المتقدمة عليه فى السلطة، فإذا أفرغ المنصب المتقدم جاءته الفرصة للتقدم إليه.. فعل هذا عندما كان رئيسا لهيئة موظفى البيت الأبيض فى عهد إدارة الرئيس «جيرالد فورد».. حيث تآمر مع صديقه «رامسفيلد» على إزاحة كيسنجر «مستشار الأمن القومى»، ثم تآمرا على إزاحة روكفلر نائب الرئيس ونجحا فى مسعاهما.. واكتسب تشينى ثقة

الجذور والنشأة

فى حياة ديك تشينى كثير من الادعاءات وإنكار الحقائق والتفاخر بانجازات لم يحققها.. ومن هذه الادعاءات أنه دأب على نسبة نفسه إلى ولاية «وايومنج» التى رشح نفسه عنها عدة مرات فى مجلس النواب وفى الكونجرس.. وهو فى الحقيقة لم يولد فى هذه الولاية ولم يكن له سكن بها كما تشترط قوانين الانتخابات، ولكن أصدقاء له من ذوى الثروة والنفوذ يسّروا له أمور السكن والتسجيل والدعاية الانتخابية.

وقد بحث «جون نيكولز» هذه النقطة فلم يجد لشجرة أسرة تشينى جذورا فى هذه الولاية.. فهم ينتمون إلى مهاجرين بريطانيين من «البيوريتان» الذين استقروا فى نيو إنجلند.. ولم يكن لهم نصيب مع المغامرين الذين اقتحموا الغرب الأمريكى وصنعوا لأنفسهم ثروات ومزارع واسعة، بل قنعوا بالعمل موظفين صغارا فى الحكومة والبنوك.

كان تشينى أكبر أخوة ثلاثة، ولد ونشأ فى لينكولن وظل فيها حتى بلغ سن المراهقة.. وكان أبواه من الأتباع المخلصين

للحزب الديمقراطي، فلما وُلد ابنهما هذا في ٣٠ يناير سنة ١٩٤١ أسموه «ريتشارد بروس تشيني» وقد وافق هذا التاريخ عيد ميلاد الرئيس «فرانكلين روزفلت» فكانت مناسبة سعيدة للأبوين.. لكن «ديك» هجر الولاء السياسي لأبويه في وقت مبكر والتحق بالحزب الجمهوري.. ورغم حب الأبوين لديك إلا أنهما لم يكونا راضيين عن اختياره السياسي. هذه النقلة للحزب الجمهوري وهو حزب الأثرياء ومصالح النخبة من رجال المال والأعمال يكشف عن رغبة مبكرة عند ديك تشيني للانفصال عن طبقته ومبادئها الليبرالية.. وتطلعاته إلى الثروة والسلطة.

تغيرت أحوال الأسرة بعد الانتصار الساحق للجمهوريين بفوز «دوايت أيزنهاور» عام ١٩٥٣ بعد غياب عن السلطة لعقدين من الزمن، فاضطرت إلى النزوح إلى ولاية «وايومنج» لتستقر في بلدة صغيرة اسمها «كاسبر»، وهي ولاية غنية بالبترول ومعامل التكرير.. ولعل هذا المجتمع البترولي هو الذي فتح عيني ديك تشيني الصغير على سحر الطاقة وما يحيطها من ثروة وقداسة ونفوذ.

ويلاحظ «چون نيكولز» أن ديدن تشيني في كل مسيرة حياته أن يكون مساندا للنجم من وراء ستار.. فهو دائما ما يقف خلف المسرح يدعم الممثل في أداء دوره ويلقنه، بينما الممثل هو الذي يواجه الجماهير ويتفاعل معهم.

الفشل في الدراسة الجامعية

أبرز ما في تشيني اعتداده الظاهر بنفسه وعدم خجله من عرض مواهبه وقدراته على الآخرين بكلام لبق، ومن ثم حظي برضا رجل البترول الجمهوري «توم ستروك»، فلما تخرج من المدرسة الثانوية في خريف ١٩٥٩ ساعده الرجل على الالتحاق بجامعة ييل، ولكن تشيني فشل في دراسته لأنه سلك نفس مسلكه في المدرسة الثانوية، غير أن الدراسة الجامعية كانت تحتاج إلى جهد أكبر ومثابرة لم يعتد عليها تشيني..

لم يكن تشيني مهتما بأي مادة دراسية تقدم في جامعة ييل، اللهم إلا مادة واحدة لفتت نظره فمنحها شيئا من الاهتمام.. إنها مادة الدراسات الدولية والعلوم السياسية التي كان يقوم بتدريسها بروفسور «د. هـ . برادفورد وسترفيلد».

رأى وسترفيلد: كان وسترفيلد في ذلك الوقت متحمسا لانخراط أمريكا في صراع الحرب الباردة ويحبذ التدخل لإسقاط الحكومات الأجنبية لترجيح كفة الغرب ضد الاتحاد السوڤييتي، وكانت هذه الأفكار تروق لتشيني ولم ينطفيء إعجابه بها رغم مرور أكثر من أربعين سنة عليها، وكانت هذه الأفكار التي سيطرت على عقله وهو يخطط لغزو العراق وإسقاط صدام حسين.

وظل تشيني ينسب الفضل في هذه التوجهات إلى بروفسور «وسترفيلد»، وتأتي المفارقة هنا في أن الأستاذ غيّر موقفه مع مرور الزمن وفشل التجربة الأمريكية في ڤيتنام واكتساب حكمة السنين، بينما التلميذ لايزال يردد نفس الأفكار التي عفا عليها الزمن..

وكالعادة ذهب چون نيكولز يتحرى الحقيقة عند الطرف الأصلي.. عند وسترفيلد.. وفي هذا يقول: «معظم أساتذة الجامعة يسرّهم أن يتذكرهم طلابهم السابقون فيما عدا وسترفيلد مع ديك تشيني.. فقد بدأ يسمع في الثمانينات عن عضو في الكونجرس من الجناح اليميني في الحزب الجمهوري، دائم الذكر لاسمه وهو يتحدث عن الأفكار التي أثرت في عقيدته السياسية.. ولكن وسترفيلد لم يكن

سـعـيدا بذلك على الإطلاق.. ومن ناحـيـة أخرى لم يستطع أن يتذكر شخصا بهذا الاسم بين طلابه القدامى.. ثم يعلق قائلا: «إن كلامى فى الماضى عن الحرب الباردة كـانت له ظروفـه الخـاصـة ولم أكن أدرك آنذاك أنها أفكار خاطئة وغير عملية فلما تبين لى تغـيـرت وجـهـة نظرى».. وهكذا تحـول وسـتـرفـيلد إلى المعـسكر المضـاد لأفكار تلميذه، التى تجمدت فلم تتطور مع مرور الزمن، ولا استطاع هو أن يستوعب الواقع المتغير فى هذا العالم.

يقـول وسـتـرفـيلد: إننى لا أفـهـم رؤية تشينى لعالم اليوم.. وما أفـهـمـه منها لا أتفق مـعـه فـيـهـا.. إن ديك تشـينى على النقيض من فكرتنا عن عـالم اليوم كـمـا نفـهـمـه للأسف.. ومن الواضح أن بوش يعتمد عليه كلّية.. إنه رجل يفضل العمل من وراء سـتـار.. ولكنى أرى تأثيـره على بوش كـبـيـرا..» وأثناء الحملة الانتـخـابيـة الأخيرة قال وسترفيلد: «إننى أريد حقيقةً هزيمـة بوش وتشـينى وأشـعـر أن هذه الإدارة لا تريد أن تـعـمل فى تعـاون مع العـالم.. وهذا هو المقـترب الخـاطىء الذى تسلكه أمريكا.. إن بلادنا أمامها عمل كثير يجب إنجازه لإعادة بناء مصداقيتها فى العالم...» وهو لا يرى أى أمل فى تشـينى حـيث يقـول: «إنه شـخـص غـيـر قـابلٍ للإصـلاح.. ويبدو أنه مـصـمم على المضىّ فى طريقه مهما صادمته حقائق الواقع.. إنه لأمر يدعو إلى القلق».

النهوض بعد الانهيار

اضطر تشـينى إلى الانسـحـاب من جـامـعـة «ييل» لفشله فى الدراسة بها ثم تكرر فـشله مـرة أخـرى فى جـامـعـة «نيوهافن» فـعـاد إلى «وايومنج».. وأخـذت حـالتـه الاجتـمـاعـيـة تتدهور حتى اضطر للالتحـاق بالعمل فى مشروع مد خطوط القوى الكهربائية بالولاية كأى عامل يدوى بسـيط.. وفى سنة ١٩٦٢ وقد بلغ الواحدة والعشـرين من عـمـره ألقى القـبض عليـه متلبسا بقـيادة سيارة وهو تحت تأثير الخمر. فسحبت رخصة قيادته لمدة ثلاثين يوما وتم تغريمه مائة وخمسين دولارا.. ولكنه ظل يكرر هذه المخـالفـة.. فلمـا تكرر اصطدامه مع الشرطة والقانون بدأ يتنبه إلى حالته المتردية والمصير الذى يمكن أن ينتهى إليه.. فى هذه الأثناء كانت صديقته «لين فنسنت» التى تعرف عليها وصاحبها خلال الدراسة الثانوية – تواصل دراستها الجامعية بنجاح فى جامعة «كولورادو » فلما فاتحها صديق لهما بأن تشينى يريد الزواج منهـا قـالت له باسـتنكار : «أنا لن أربط حـيـاتى بعـامل فى خطوط القـوى الكهربائية».

لعل هذه الصدمة هى التى أيقظت روح التـحـدى فى نفس تشينى.فـهب يسـتـأنف دراسته بجامعة «وايومنج» وتزوج من «لين» سنة ١٩٦٤ قبل أن يتخرج بعام واحد، ثم حـصـل على الماجـسـتـيـر فى العلوم السياسية.

خلال هذا كله لم يقطع تشينى صلته أو نشاطه بالحزب الجمهورى بل أخذ يطور علاقاته مع شخصيات مهمة تمهيدا للدخول فى اللعبة السياسية وكان يساعده فى ذلك «دارين مـورتون» و«جـومـايـر» و«ألان سـمـبـسـون»، فكان مورتون يتحمل دفع شيكات حملاته الانتخابية ويؤكد لمراسلى الصحف المتشككين فى انتماء تشينى إلى ولاية «وايومنج» : إنه ابن وايومنج البـار. وفى مقابل هذه المساعدات سخر تشينى نفسه مدافعا قويا عن مصالح أصدقائه الذين كانوا يسيطرون على صناعة الطاقة فى الولاية.

عمل تشينى لفترة قصيرة رئيسا لهيئة

موظفى البيت الأبيض فى إدارة جيرالد فورد، فلما هزم فورد فى الانتخابات عاد تشينى سنة ١٩٧٦ يرشح نفسه لمجلس النواب ثم تخلي عن المجلس سنة ١٩٨٩ ليعمل وزيرا للدفاع فى إدارة جورج بوش الأب فلما خسر أمام بل كلينتون خرج تشينى مرة أخرى ليعمل مديرا عاما لشركة هاليبارتون ، التى ارتبط اسمه بها ارتباطا وثيقا منذ عام ١٩٩٥، وإن كانت صلته بهذه الشركة أسبق من هذا التاريخ بزمن طويل.

المظهرية والتهرب من الخدمة العسكرية

يلفت «جون نيكولز» نظر قرائه إلى ملاحظات مثيرة فى سيرة حياة ديك تشينى السياسية فقد سجل عليه خلال خمس سنوات فقط بين ١٩٩٥ و ٢٠٠٠ م أنه تخلف عن الإدلاء بصوته الانتخابى ٢٤ مرة فى انتخابات محلية وفيدرالية مما يشير إلى ضعف إيمانه بجدية العملية الديمقراطية كذلك ثبت من سلوكه وتصريحاته أنه لا يكن أى احترام لمجلس النواب أو الكونجرس.. وإنما كان مضطرا للانغماس فى هذه اللعبة لأنه لا يوجد طريق آخر لتحقيق هدفه فى الوصول إلى قمة السلطة.

كذلك يسجل «جون نيكولز» على تشينى تهربه من الخدمة العسكرية أثناء الحرب الفيتنامية، حيث كانت نعوش الجنود القتلى تأتى إلى الوطن بالمئات.. لم يشأ تشينى أن يفعل كما فعل كلينتون مثلا الذى أعلن معارضته لهذه الحرب القذرة، وانضم إلى صفوف المعارضة الوطنية التى انطلقت فى كل مكان.. أما تشينى فقد استقر خلف أعذار : الدراسة والزواج والانجاب وظل ينتحل الأعذار لتأجيل التجنيد حتى انتهت الحرب.. وكان عليه بعد ان رشحه بوش الأب – وزيرا لدفاعه – أن يقف أمام الكونجرس ليجيب عن سؤال: لماذا امتنع عن أداء الخدمة العسكرية؟ فكان رده: لاشك أنى كنت سأشعر بالسعادة أن أقوم بذلك لو طلب منى..».. وقد اعترف لصديق له هو الصحفى «جورج سى . ولسون» قائلا: «كان لدى أولويات أخرى فى الستينات أهم من الخدمة العسكرية!».

ومن باب المظهرية واكتساب الشهرة التحق تشينى بجامعة «وسكونسن» لدراسة الدكتوراه واتخذ من ذلك مدار أحاديث عن طموحاته العلمية، وبعد أن أحدثت الواقعة آثارها الدعائية انسحب من الدراسة بزعم أنه لم يكن ينقصه سوى تقديم الرسالة لولا أن اعترضتها الوظيفة.. وببحث هذه الواقعة تبين لجون نيكولز زيف ادعاءات تشينى الذى تقدم لدراسة الدكتوراه ثم انسحب منها، فالجامعات ومراكز البحث والدراسة ليست هى المجالات التى تجتذب تشينى وتبرز مواهبه فإن له مجالات أخرى بعيدة كل البعد.

وظيفة حامل حقيبة

كان حاكم ولاية «ويسكونسن» «دارين نويلز» من الرعيل المعتدل ذى الشهرة والمكانة فى الحزب الجمهورى.. وقد كان يجمع حوله الشباب ممن يتوسم فيهم مواهب يمكن أن تفيد الولاية فى المستقبل، ومن ثم اتجهت قرون الاستشعار عند تشينى إلى هذا الرجل حتى استطاع ان يلتحق بمجموعته، وكالعادة لم يثبت تشينى نجوميته فى هذه المجموعة إنما تميز بمثابرته وحضوره واستماتته فى ان يقوم بأى عمل مهما كان متواضعا.. ولذلك لم يخجل من وظيفة حامل حقيبة «دارين نويلز» فى سفرياته داخل الولاية ، فماذا كانت تحتوى هذه الحقيبة؟..

كانت الحقيبة مليئة بشارات للدعاية الحزبية.. وكانت مهمة تشيني أن يمر على جميع الحاضرين للاستماع إلى خطاب حاكم الولاية ويتأكد أن كل شخص قد ثبت الشارة على صدره.

الغريب أن وظيفة حامل الحقيبة هى التى وضعت تشينى فى المكان المناسب فى الوقت المناسب.. فقد حدث فى ذلك الوقت أن انتصر الجمهورى الشاب اللامع «بل ستيجر».. على منافسه الديمقراطى كنائب للولاية، وانتقل إلى واشنطن وكان يحتاج إلى بعض المساعدين .كان تشينى هو الاختيار الرابع بعد اعتذار ثلاثة من المرشحين، فرحب متحمسا للانتقال إلى واشنطن ، وبذلك كانت سنة ١٩٦٨ هى نهاية دراسته الجامعية وأول رحلة فى قطار السلطة.

دونالد رامسفيلد

عندما انتقل تشينى إلى واشنطن كان قد بلغ السابعة والعشرين من عمره، فوجد قرناءه مستقرين فى وظائف سياسية مرموقة.. أما هو فقد جاء تابعا يتعلم.. فأخذ يتلفت حوله عله يجد شخصا مناسبا يتعلق بأهدابه ليصعد به سريعا إلى هدفه.. حتى وقع انتباهه على «دونالد رامسفيلد» فهو أكبر منه بتسع سنوات.. من عائلة ثرية نشأ فى ضواحى شيكاغو كان ناجحا فى دراسته ، نجما فى أنشطته الرياضية.. كان مختلفا تماما عن تشينى فقد تطوع فى القوات البحرية.. وفى الخمسينات عمل مساعدا لرجل الكونجرس «روبرت جريفين» ثم حظى بمقعد فى مجلس النواب.. وعندما وصل تشينى إلى واشنطن كان رامسفيلد يقضى فترته الثالثة فى الكونجرس.. اشتهر بلباقته وبجرأته الخشنة.. فهو لا يتورع عن التصادم مع المخالفين له فى الرأى.. بعكس تشينى قليل الكلام المتحفظ، الذى يؤثر المواربة والإنكار والتستر. فلا غرابة أن يتطلع إليه تشينى بحسد ويتابعه حيثما توجه، إلا أنه لم يحظ باهتمام رامسفيلد.. وبدلا من الانصراف عنه تقدم اليه تشينى وعرض خدماته عليه، فخيب رجاءه، ولكن تشينى ليس من دأبه اليأس فأخذ يتربص حتى جاءته فرصته المواتية، بمحض الصدفة «مرة ثانية» فقد رأى على مكتب معلمه «بل ستيجر» رسالة من رامسفيلد يخبره فيها أن الرئيس نيكسون قد أسند إليه إدارة مكتب جديد فى البيت الأبيض لمساعدة المحتاجين اقتصاديا، ويطلب مشورته فى إنشاء هذا المكتب وطريقة عمله.. وهكذا هبطت على تشينى فرصة سانحة ، فقد تطوع بكتابة مذكرة مفصلة، فلما بلغت رامسفيلد وجد توقيع ديك تشينى عليها.. فتمهل بعض الوقت ثم استدعاه ومنحه وظيفة مساعده الخاص.. وكانت هذه نقلة أخرى كبيرة وضعت أقدامه لأول مرة فى البيت الأبيض مهبط أحلام تشينى.. من هذه النقطة توثقت علاقة الرجلين لتستمر ثلاثين عاما.. كان رامسفيلد هو البطل فى مقدمة المسرح طليق اللسان متألقا ومن خلفه تشينى يكتب له ويلقنه.. إنه دوره التقليدى لم يفارقه حتى سنة ٢٠٠٠ م ، عندما لاحت أمامه فرصة عمره النادرة ليرشح نفسه نائبا للرئيس بوش الابن.. عند هذه النقطة وكز تشينى صديقه الحميم رامسفيلد فألقاه جانبا، وقفز هو إلى المركز الذى قضى عمره يتطلع إليه.

استمرار الحرب

هذه الحالة العقلية التى تسيطر على تفكير تشينى وتدفعه بقوة خفية لحرب المستضعفين فى الأرض، لم تأت محض صدفة، ولا علاقة لها بواقعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م، ولا بأى أحداث أخرى، فقد

بدأت نذرها واضحة فى وقت مبكر عندما كان تشينى وزيرا للدفاع وانهار الاتحاد السوفييتى .. وظن الناس أنه لم يعد هناك معنى لاستمرار سباق التسلح ذى التكاليف الباهظة.. وتوقع الأمريكيون أن تتحول بلايين الدولارات المخصصة للبنتاجون إلى تمويل الاحتياجات الإنسانية.. ومن هؤلاء سناتور «إدوارد كنيدى» الذى قدر ما يمكن توفيره من إنفاقات البنتاجون بما يقرب من ٢١٠ مليارات دولار سنويا. يمكن استخدامها فى مجالات التنمية الإنسانية فى أمريكا وحول العالم.. وبذلك يتغير المناخ العالمى المتوتر الذى يدفع إلى التطرف والإرهاب».

لقد أتيحت لديك تشينى فرصة نادرة لاختيار الاتجاه الإيجابى لكى يقود الولايات المتحدة ومن ورائها العالم بأسره بعيدا عن حافة الحرب النووية.. بعيدا عن المتلاعبين بمخاوف شعوب الأرض وأن يهيىء المناخ الصحى لتنظر الشعوب بعضها إلى بعض كجيران متعاونين على هذا الكوكب المشترك، لكن تشينى نبذ هذا الاختيار .. وبدأ يفصح عن مخططاته، فأكد أن العقود القادمة ستكون عقود حروب ضارية.. وقال: «إن أمريكا لن تتخلى عن دور شرطى العالم رغم انهيار الاتحاد السوفييتى» وقال مرة أخرى فى خطاب له أمام مجلس الشئون العالمية :«أنا لا اعتقد أن فكرة التهديد العسكرى للمصالح الأمريكية كانت من اختراع الحزب الشيوعى فقط ولسوف تبقى الفكرة بعد زواله».

فى عقيدة ديك تشينى عنصران لا ينفصمان مَنْ جهلهما يصعب عليه أن يفهم هذا الرجل أو يدرك مدى خطره على أمريكا وعلى العالم: العنصر الأول هو استمرار الحرب فى ظل مشروعه «القرن الأمريكى». وذرائع الحرب متوافرة فإذا انكشف زيفها جاء بذرائع جديدة.. ولن يصعب على ديك تشينى شىء، فمن أبرز خصائصه انه لا يعبأ بالواقع ولا يبدأ بالحقائق، إنما هو يتخيل ما يريد أن يكون ثم يلوى ذراع الحقائق لتتواءم مع ما تخيله مهما كان جموحه.. وهكذا يأتى الواقع وفقا لما تخيله.

اما العنصر الثانى فهو السيطرة المطلقة على مصادر البترول فى بلاد المسلمين واستنزافها لصالح شركات السلاح والبترول الأمريكية.

تبلورت هذه العقيدة عمليا فى علاقته المصيرية بشركة هاليبارتون.

هاليبارتون

عندما سقط بوش الأب فى انتخابات الرياسة أمام بل كلينتون أدرك أن هذه هى نهايته السياسية، أما وزير دفاعه ديك تشينى فقد غاب عن الساحة السياسية خمسة أعوام ابتداء من سنة ١٩٩٥ ثم عاد إليها فى منصب أخطر مع بوش الابن سنة ٢٠٠٠، خلال هذه السنوات الخمس تولى فيها إدارة شركة هاليبارتون بمرتب سنوى بلغ ٤٤ مليون دولار..

فلا عجب أن تكون هاليبارتون والشركات التابعة لها أول من دخل العراق مع القوات الغازية ، لتقديم خدمات لوجستية وإصلاح مرافق حيوية دمرتها الحرب.. دخلت بلا إجراء مناقصات ولا منافسات «ولا يحزنون» وفرضت أسعارا فلكية مستفزة على خدماتها، أثارت ضجة إعلامية وجدلا عنيفا فى الكونجرس.. ولا تنتهى القصة عند هذا الحد كما يقول «جون نيكولز» حيث يؤكد أنه فى عهد إدارة تشينى لهاليبارتون توسعت معاملاتها بالخارج توسعا هائلا استطاعت من خلاله ان تلتف حول الإجراءات القانونية للتهرب

من دفع ملايين الدولارات ضرائب مستحقة عليها للحكومة الأمريكية.

وفي عـام ٢٠٠٣ - وديك تشـيني في قمة السلطة - وافق الكونجرس «بدفع قوى منه» على اعتماد ٨٧ مليار دولار إضافية لمواصلة احتلال العراق فكم كان نصيب هاليبارتون من هذا المال السائب؟ حصلت هاليبارتون على حق إعادة بناء صناعة البترول، واستهلت بتحصيل ٢٧,٥ مليون دولار لإطفاء حرائق الآبار. وفي خريف نفس العام بلغت أرباح هاليبارتون مايزيد على سبعة مليارات دولار ، ارتفعت إلى أحد عشر مليارا في ربيع ٢٠٠٤ ، ولم يتوقف النهب عند هذا الحد فقد مكن تشيني هاليبارتون من توقيع عقود مع البنتاجون قيمتها ١٠٥ مليارات دولار تحصلها خلال العقد القادم. وقد علق على هذا سناتور «واكسمان » فقال: «اننا نعلم ان هاليبارتون حصلت على معاملة خاصة جدا.. ولكن الذى نريد انه نعرفه هو.. لماذا. ورغم أن تشيني أنكر صلته بهذه العمليات وأنه قطع كل علاقاته مع هاليبارتون وتخلص من كل مصالحه المالية معها، فإن سناتور «فرانك لوتنبرج» يدلل بالوثائق على ان علاقات تشيني بالشركة لاتزال قائمة وانه لايزال يحصل على مئات آلاف الدولارات منها سنويا وهي مبالغ تفوق في قيمتها مرتبه في البيت الأبيض..!

شهادة نيلسون مانديلا

خلال وجود تشيني بالكونجرس كان يصوت مع قله من عتاة اليمينيين ضد كل مشروع إنساني . وقد رصد له جون نيكولز خمسا وعشرين حالة في هذا المجال، وكلها مشروعات قوانين تتصل بحقوق الإنسان وتنقية البيئة. ومصالح العمال والمستضعفين والمحتاجين.. وكان هذا الموقف مقصودا لأن تشيني كان حريصا دائما على أن يبعث بإشارة متصلة للقوى الرجعية في الحزب الجمهوري: إنني رجلكم المناسب القادر على خدمة مصالحكم وخططكم. ومن بين المشروعات التى صوت ضدها مشروع قرار لدعم الجهود السلمية لإنهاء التفرقة العنصرية والإفراج عن نيلسون مانديلا ورفاقه.. ولم ينس مانديلا هذا الموقف لتشيني، ففي لقاء صحفي مع «جون نيكولز» قال له: «كثير من الأمريكيين يدهشون لأنك تبدى مشاعر ودية لرئيس جمهوري.. والجمهوريون معروفون بعنصريتهم .. فأجاب مانديلا قائلا: ولكنى لست متحمسا لوزير دفاعه، ولست سعيدا أبدا بمستر تشيني هذا.. إنه ديناصور من العصور البالية.. وهو رجعي عقيم الفكر»..

وفي لقاء آخر تحدث معه عن غزو العراق فقال مانديلا : «إن بوش الصغير أسيىء نصحه.. والذى فعل هذا هو تشيني نائب الرئيس.. إن تشيني لم يشأ أن يجعل الرئيس بوش منتميا إلى العصر الحديث».. ويتساءل جون نكيولز: ما الذى جعل مانديلا يتخذ هذا الموقف من تشيني، وهو الذى اشتهر بالتسامح وسعة الصدر، وهو الذى عفا عن سجانيه وغفر لأعدائه؟ يقول مانديلا : « يعلم الجميع أن أغلبية أعضاء الكونجرس صوتوا للإفراج عنى إلا تشيني الذى وقف معارضا. وقد استطيع أن أغفر له هذا، ولكنى لا أستطيع أن اتغاضى عنه هو شخصيا فهو لم يتغير أبدا.. أنا لست قلقا بسبب سجله التاريخي في التصويت.. وإنما قلق بسبب سلوكه ومواقفه في القرن الجديد.. إننا أمام رجل ليس محافظا فقط بل رجعي متخلف.. والمشكلة الأكبر هنا ليست في جورج بوش الابن وإنما في ديك تشيني فهو الرئيس الفعلي للولايات المتحدة..» ■





أمريكا في عالم نجيب محفوظ

بقلم
مصطفى بيومي

ظلت انجلترا طوال فترة طويلة تعنى فى الوجدان المصرى معانى الاستعمار والعدوان، وكان الوجود الانجليزى يفرض نفسه على الشارع والسياسة المصرية بشكل عام، وهو ما انعكس فى مناحى الحياة كافة ومنها الإبداع الأدبى.. غير أن اختلاف المشهد السياسى، وظهور قوة جديدة كالولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، صنع شيئا من انحسار هذا الوجود الانجليزى لحساب الدور الأمريكى، ليس على المستوى القومى فحسب بل على المستوى الدولى.

ويمكن دراسة الدور السياسى للولايات المتحدة الأمريكية فى مصر، كما يعبر عنه أدب نجيب محفوظ، من خلال عدة محاور:

- ما قبل ثورة ١٩٥٢
- الموقف الأمريكى من الثورة
- حرب سنة ١٩٥٦
- حرب سنة ١٩٦٧
- الدور الأمريكى فى عملية السلام
- أصدقاء أمريكا

ما قبل ثورة ١٩٥٢

على الرغم من أن المبادىء الشهيرة للرئيس الأمريكى ويلسون، بشأن حق الأمم فى تقرير مصيرها، كانت الدافع الأساسى لتشكيل الوفد المصرى بزعامة سعد زغلول، رغبة فى السفر للاشتراك فى مؤتمر السلام، وهى الرغبة التى أدى رفضها ونفى المطالبين بها إلى اشتعال ثورة ١٩١٩، فإن اسم الرئيس الأمريكى - وأمريكا نفسها بالتبعية - لا يُذكر فى الصفحات الكثيرة التى يمتلىء بها أدب نجيب محفوظ عن أحداث الثورة.. واللافت للنظر أنه لا وجود سياسى للولايات المتحدة فى الثلاثية كلها، وهو الغياب الذى يعكس محدودية الدور الأمريكى تاريخيا. ولا وجود كذلك للولايات المتحدة فى الأعمال الروائية التى تتناول أحداث الحرب العالمية الثانية، لأن الاهتمام الأكبر ينصب على ألمانيا وإيطاليا واليابان، فى مواجهة إنجلترا التى تنوب عن الحلفاء جميعا، بل إن النفور من القنبلة الذرية الأمريكية، التى ألقيت على مدينة «هيروشيما» اليابانية قبل نهاية الحرب، يبدو منقطع الصلة بالعمليات العسكرية، فهو نفور إنسانى عام نجده عند ليبرالى عجوز مثل عامر وجدى، فى قوله الاستنكارى لصديقه طلبة مرزوق: أتحسب أن الطوفان قد أهلك من البشر أكثر ممن أهلكتهم قنبلة هيروشيما؟ «ميرامار -٣٣».

والنفور نفسه يسيطر على جعفر خليل، الذى يعود من بعثته الدراسية فى أمريكا معجبا بالحياة والبشر: ولكننى لم أستطع التخلص من إحساس عام بالنفور والكآبة بسبب قنبلة هيروشيما. «المرايا - ٨٢».

لم يكن لأمريكا، بين ثورتى مصر فى ١٩١٩، ١٩٥٢، تأثير ملحوظ فى الحياة المصرية وفى أدب نجيب محفوظ معا، وليست صدفة أن تكون إبداعات محفوظ المعبرة عن تلك المرحلة خالية من الوجود الفعال للولايات المتحدة.

ولعل سالم جبر، اليسارى متقلب المزاج والآراء، هو الوحيد الذى يعلن عن عدائه السافر العنيف لأمريكا، ويتكلم عنها - سنة ١٩٥٠ - على أنها «روح الشر» فى العالم، صارخا بأنه لا نجاة إلا بالشيوعية. «نفسه - ١٤٤».

لا تمثل شهادة سالم أهمية خاصة، فهو مولع بالمعارضة ومخالفة الشائع المألوف، والدليل على ذلك أنه يعود ليعلى من شأن أمريكا، منتقصا من الاتحاد السوفييتي والشيوعية!.

وفي مقابل محدودية الوجود السياسى الأمريكى قبل سنة ١٩٥٢، فإنه يتزايد ويتعاظم بعد ثورة ٢٣ يوليو.

الموقف الأمريكى من الثورة

ربما لأنها حركة عسكرية، وللانقلابات العسكرية سمعتها السيئة، تُتهم ثورة يوليو بالعمالة لأمريكا من قبل بعض شخوص نجيب محفوظ.

الوفدى المتحمس حامد برهان يتخذ موقفا معاديا ورافضا للثورة: ما الحركة إلا مؤامرة أمريكية للقضاء على الوفد «الباقى - ٤١».

أما حمادة الحلوانى، اللامنتمى سياسيا وفكريا، فيرى أن ضباط يوليو: ما هم إلا عملاء أمريكا. «قشتمر - ١٠٥».

وثمة خوف جماعى يسيطر على أفراد شلة «المرايا»، التى ينتمى إليها الروائى الراوى، بعد ثورة يوليو: ساورتنا مخاوف من ناحية أمريكا، وخشينا أن تحل محل انجلترا بطريقة أو بأخرى، بعدما شعرنا بمدى تأييدها للنظام الجديد. «المرايا - ٣٢٧».

المخاوف هنا ليست اتهاما مطلقا كما هو الحال عند حامد برهان، وليست انعكاسا لحالة مزاجية متقلبة كما يفعل حمادة الحلواني، لكنها ترتبط بالتأييد الأمريكى «المريب» للثورة»

لم يكن فى الممارسات الأولى لثورة يوليو ما ينم عن العداء للولايات المتحدة، بل إن الشائع هو الاتهام بالعمالة والنظر إلى الثورة كأنها مؤامرة أمريكية!. ونجيب محفوظ، ذو الرؤية الوفدية الخالصة، يتيح لشخوص الوفديين والمتعاطفين مع الوفد، فرصة توجيه الاتهام المباشر للثورة الوليدة بأنها صناعة أمريكية!.

قدرى رزق، أحد ضباط يوليو، هو الوحيد الذى ينفى التهمة، ويجد فى الاتجاه إلى التعامل مع الكتلة الاشتراكية، بعد صفقة السلاح الشهيرة مع تشيكوسلوفاكيا، دليلا جديا على وطنية الثورة وتوجهاتها المستقلة.

أرأيتم؟ نحن مصريون أولا وأخيرا، لا أمريكيون ولا روسيون!. «نفسه - ٣٣٨».

لا عداء ولا عمالة إذن، ويأتى الموقف الأمريكى فى العدوان الثلاثى على مصر، كما يعبر عنه نجيب محفوظ، ليمثل امتدادا للموقف نفسه.

حرب سنة ١٩٥٦

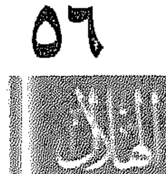
يتساءل إبراهيم خيرت فى انفعال:

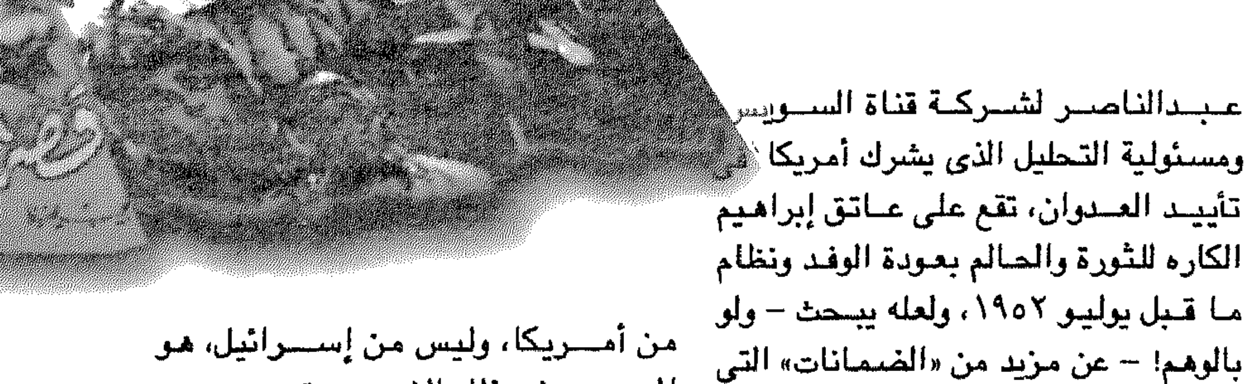
- أتحسبون أن إسرائيل تقدم على هذه الخطوة وحدها؟

وتبادلوا نظرات غريبة نطقت فيها بواطنهم كأنما تذهلهم سكرة، فعاد يقول:

- وراء إسرائيل تلبد فرنسا وانجلترا وأمريكا!. «السمان - ١٣٦».

الخطوة المقصودة هى العدوان على مصر سنة ١٩٥٦، بعد تأميم جمال





عـبـدالناصـر لشـركـة قناة السـويس ومسئولية التحليل الذى يشرك أمريكا فى تأييـد العـدوان، تقع على عـاتق إبراهيم الكاره للثورة والحالم بعودة الوفد ونظام مـا قـبل يوليو ١٩٥٢، ولعله يبحث - ولو بالوهم! - عن مزيد من «الضمانات» التى تؤكد قرب نهاية الثورة!.

الرواية فى عـمومـهـا لا تتـعـامل مع أمـريكا كـأحـد الأطراف المشـاركـة فى العدوان على مصر، والصيـغة المسيطرة تجمع بين انجلترا وفرنسا وإسرائيل دون أمـريكا، وفى الحـديث عن نهـاية الأزمـة إشارة دالة إلى توالى الانذارات «نفسه - ١٤٥».

«إنذارات» وليس «إنذارا»، وهو مـا يعنى التدخل الأمريكى والسوفييتى معا!.

الدكـتـور سـرور عـبـدالبـاقى أكـثـر شخوص نجيب محفوظ اهتماما بتأكيد الدور الأمـريكى الإيجـابى فى إفـشـال العدوان الثلاثى، ويتجلى ذلك بوضوح فى قوله: لولا الولايات المتحدة لقُضى علينا..

وتقـوده المقـولة السـابقـة إلى رؤية استراتيجية أكثر شمولا: يحسن بنا ألا نفرط فى الصداقة الأمريكية بعد اليوم. «المرايا - ١٥٥».

إلى مـا بعـد العـدوان الثـلاثى على مصر، لم تكن العلاقات سيئة أو متوترة مع الولايات المتـحـدة، لكن بين حـربى ١٩٥٦، ١٩٦٧، حدثت متـغيرات شتى، وضعت أمريكا فى الصف الأول من أعداء الثورة الناصرية، وجعلت منها المتهم الأول فى هزيمة يونيو ١٩٦٧.

حرب سنة ١٩٦٧

عندما تلوح نذر الحرب، فإن الخوف من أمـريكا، وليس من إسـرائيل، هو المهـيـمن فى ذلك الشـعـور تعـبـيـر عن الإحساس الشعبى بالتفوق المصرى، وهو مـا يبرر قوة الصدمة وعنف رد الفعل بعد الهزيمة غير المتوقعة.

فى قهوة «الكرنك»، يقول طه الغريب: لا خـوف علينا إلا من تدخل أمـريكا.. «الكرنك - ٣٥».

وفى «الباقى من الزمن ساعة»، تكرر منيرة حـامـد المخـاوف نفسـهـا: ليست إسـرائيل بمشكلة، ولكننا إذا اخـتـرقنا حـدودها فسنجد أنفسنا وجها لوجه مع الولايات المتحدة. «الباقى - ٨٧».

طه ومنيـرة، والملايين من أمـثـالهـمـا، يؤمنون بسهولة الانتـصار على إسرائيل، والخوف كله من التدخل الأمريكى. ليسوا سـاذجين أو مـدمنين لأحـلام اليـقظة، فـالمسـألة أنهم يعـبـرون عن مناخ المرحلة وخطابها السياسى السائد.

إذا كان الخوف - قبل الحرب - من التدخل الأمـريكى، فمن المنطقى أن تُبرر الهزيمة بالدور الأمريكى. سليمان بهجت، المنتفع من ثورة يوليو دون إيمان حقيقى، يجد فى التفسير السهل تخلصا من الأزمة كلها: مـا هى إلا مكيدة أمريكية! «نفسه - ٩٠».

أليس ممـا يدعـو إلى الدهشـة، أن الثورة التى اتهمت فى مهدها بأنها وليدة مؤامرة أمريكية، هى التى يدافع رموزها



عن الهزيمة القاسية، ويبررونها بأنها نتيجة مكيدة أمريكية؟!

الدور الأمريكي في عملية السلام

ظهرت البوادر السلمية لمعالجة الصراع العربى الإسرائيلى، بعد هزيمة ١٩٦٧، وقبل سنوات من حرب أكتوبر ومبادرة السادات.

على المستوى الرسمي، فقد قبلت مصر الناصرية مبادرة روجرز الأمريكية. «الحب تحت - ٢١٠».

وعلى المستوى الشعبي، فقد ظهرت وتعالت الأصوات المبشرة بالحل السلمى تحت المظلة الأمريكية، وخير تجسيد لهذا الاتجاه هو ما يقوله زين العابدين عبدالله: الحل تملكه دولة واحدة هى أمريكا!.. «الكرنك - ٤١».

وفى الرواية نفسها، يقدم رجل المخابرات المعزول خالد صفوان تحليلا شاملا للقوى السياسية فى مصر، ويتضح من تحليله أن الاتجاهات الدينية واليمينية ترحب بالولايات المتحدة، كراهية فى الاتحاد السوفييتى من ناحية، وبحثا عن نظام بديل للنظام الناصرى من ناحية أخرى . «نفسه - ١٠٣».

وإذا كانت حرب أكتوبر لا تحظى باهتمام خاص عند نجيب محفوظ، فإن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التى ترتبت على الحرب، تنعكس على عالمه، وليست هذه المتغيرات السلبية بعيدة عن هزيمة ١٩٦٧ وما أعقبها من تداعيات، وصولا إلى مبادرة السادات ومفاوضات السلام المصرية الإسرائيلية برعاية الولايات المتحدة، وتوقيع اتفاقية السلام فى الأراضى الأمريكية. الرافضون لسلام السادات لا يغفلون الدور الأمريكى في صناعته، والناصرية منيرة حامد برهان تعبر عن هذا الارتباط فى قولها: ليس أمامه اختيار، فإما يدور فى فلك الولايات المتحدة وإما الموت جوعا!. «الباقى - ١٨٢».

ولا تكتمل الصورة الأمريكية فى الواقع السياسى المصرى، إلا بالتوقف أمام أصدقاء الولايات المتحدة والمتحمسين لها فى عالم نجيب محفوظ.

أصدقاء أمريكا

للولايات المتحدة الأمريكية أصدقاء ومؤيدون، بدرجات متفاوتة، فى العالم الروائى لنجيب محفوظ.

جعفر خليل هو «أقدم» المعجبين بالولايات المتحدة وأكثرهم اعتدالا وموضوعية، ويرتبط الإعجاب بإقامته فى أمريكا ومعايشته للحياة الأمريكية أثناء بعثته الدراسية التى بدأت فى العام التالى لنهاية الحرب العالمية الثانية. لم تكن فترة الأربعينيات تعرف الاستقطاب الحاد الذى ساد فى العقود التالية بين اليمين واليسار، وكان السياسيون المصريون - من مختلف الاتجاهات - يركزون على الصراع مع الانجليز دون اهتمام يُذكر بالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى. ولعل فى ذلك المناخ ما يبرر اعتدال جعفر خليل وإعجابه الهادىء بالتجربة الأمريكية التى تجمع بين الغرابة والعظمة، وفى تجربة جعفر وشهادته نبوءة مبكرة بالأهمية المستقبلية للدور الأمريكى فى منطقة الشرق الأوسط. لكن أصدقاء أمريكا يتشددون ويتطرفون بعد ثورة يوليو، التى تبنت اتجاها اجتماعيا لا يروقهم ولا يوافق مصالحهم، وفى هذا الاتجاه ما يفسر تشبثهم بالاختيار الأمريكى النقيض وتحمسهم له

إلى درجة التعصب.

أصدقاء أمريكا لا يختلفون فى ذروة الصمود والزهو الناصرى. قد يتوارون ويتحايلون، لكنهم يفصحون عن أفكارهم ومعتقداتهم عندما يثقون فيمن يسمعهم ويأمنون شره، وطلبة مرزوق، فى «ميرامار»، نموذج لأصدقاء أمريكا التقليديين، والمتطرفين فى صداقتهم وولائهم بلا حدود!

لا يرى طلبة فى نفور عامر وجدى من قنبلة هروشيما إلا ترديدا لـ «دعايات الشيوعيين»!، وهو يزايد على أمريكا عندما يقول مدافعا عما لا ينكر خطأه الأمريكيون أنفسهم: إن أكبر خطأ فى حق البشرية قد وقع لدى تردد أمريكا فى الاستيلاء على سلطان العالم عندما كانت تملك وحدها القنبلة الذرية!. «ميرامار - ٣٣».

إنه لا يقنع بما هو دون السيادة الأمريكية الشاملة على العالم، ولا يفكر فى الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية التى يراها مجرد «دعايات» شيوعية مغرضة!. وفى حواره مع ابن التنظيمات الناصرية، سرحان البحيرى، لا يجد طلبة حرجا فى الإعلان عن هواه الأمريكى ورفض الشيوعية والتحالف مع الاتحاد السوفييتى.

المسكوت عنه فى حوار طلبة مع سرحان، نجده صريحا مباشرا فى حديثه مع عامر وجدى، فهو لا يجد حرجا فى التبشير بأن تحكمنا أمريكا: عن طريق يمنيين معقولين!. «نفسه - ٢٧٧».

لم لا ؟!. الاتجاه الذى يمثله طلبة كاره أصيل للشيوعيين والإخوان المسلمين معا، وليس من بديل إلا الحكم اليمينى الأمريكى. «المعقول»!.

وإذا كان طلبة ينتمى إلي الجيل القديم و«العهد البائد» الذى كان سائدا قبل ثورة يوليو، فإن المحامى حسن حمودة يمثل امتدادا موضوعيا وتعبيرا عن جيل آخر يؤمن بالأفكار نفسها ويتحمس لها ويدافع عنها.

الاشتراكيون يرون فى الديمقراطية «تهمة» ودليلا على الرجعية، وأمثال حسن يقفون على النقيض تماما: الديمقراطية الأمريكية رجعية؟!، أمريكا أمة علمية، وقد تجاوزت بالعلم خزعبلات الشيوعية ونبوءاتها الكاذبة. إنه يكره الروس أكثر من الكوليرا، ولولاهم لكان ٥ يونيه يوم السعادة الحقيقية والفردوس المفقود. «الحب تحت - ١٥٧».

اختلف توجه السادات جذريا عن عبدالناصر، وفى «أمام العرش» يتواجه الزعيمان ويختلفان . يقول عبدالناصر:

- واستبدلت بعملاق طالما ساندنا عملاقا طالما ناصبنا العداء.

ويرد السادات مدافعا عن اختياره ومتشبثا به:

- اتجهت إلى العملاق الذى بيده الحل، وصدقت الحوادث ظنونى!. «أمام - ٢٠٣».

اختيار سياسى فوقى ينعكس على موازين القوى الداخلية، وقد لا يخلو عصر السادات من معارضين أشداء لتصاعد النفوذ الأمريكى، لكن السائد المهيمن هو الحلم الأمريكى!. ■

شوقى ضيف

راهب الأدب العربى

بقلم
د. حسين نصار

هل حقا فقدنا شوقى ضيف . إن كان الأمر كذلك، فقد فقدنا إذن قبله أعلام الحضارة العربية، علماء وفنانين وأدباء وسياسيين.. الحق الذى لا مراء فيه أنه إنما لحق بصفوف طويلة متراصة من خالدى العروبة.

نعم فقدنا شوقى ضيف الشخص، أما شوقى ضيف فباق مع بقاء الثقافة العربية.

لست أهلا لأن أتتبع سيرته الحياتية ولا العلمية فى تفصيل دقيق، لأنها حياة طويلة وخصبة ومتنوعة، وتحتاج إلى من يتعمقون دراستها، بل من يتعمقون دراسة كل فرع من فروعها، إن لم أقل كل واحد من كتبها التى يمتاز منها بالضخامة؟ ولأن الوقت قصير. وكل ما أستطيع إلقاء نظرات على بعض ما كتب.

ربما كان فى جهوده بشير بما سيكون عليه فى المستقبل. فقد اتخذ من «الصناعة الفنية وتطويرها فى الشعر العربى» موضوعا لرسالته للدكتوراه . ثم أصدرها تحت عنوان كاشف هو «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» . فكان توأما لكتابه الآخر «الفن ومذاهبه فى النثر العربى».

فكشف الكتابان عن اتساع طموح المؤلف، وجرأته العلمية، وبشرا بموسوعته الضخمة فى «تاريخ الأدب العربى». التى تناولت أخصب، عصور الأدب العربى وأحفلها بالروائع، تناولتها بالدراسة المستفيضة التى يندر أن تجد نظيرا لها فى الكتب الأخرى.



وإذا كانت موسوعته لم تصل إلى العصور المتأخرة والعصر الحديث، فإن فى كتابه عن أمير الشعراء أحمد شوقى - الذى حمل اسمه لأن اسمه الكامل أحمد شوقى عبدالسلام ضيف وكتابه دراسات فى الشعر العربى المعاصر فإن فيهما وفى أمثالهما بعض العوض.

وكان هو نفسه الذى أحس أن كتبه العامة لا تغنى عن الكتب الخاصة أو لا تسد الطريق أمامها بل قد تقتضيها أحيانا فكتب إلى جوارها عن العصر الأموى وحده، بل عن ذلك العصر فى المدينة ومكة وحدهما .

فنون الأدب العربى

وإذا كان - فى مفتتح عمره - مال إلى الكتب العامة، فقد جعلته صلته بدار المعارف يفطن إلى مزايا الكتب الوجيزة التى يمكن أن نسميها رسائل فكان أنشط أعضاء اللجنة الأدبية التى عهدت إليها دار المعارف الكتابة عن فنون الأدب العربى، ونوابغ الفكر العربى فأعطى القارئ العربى - وخاصة الناشئ - عددا من الكتب المفيدة، مثل الترجمة الشخصية والمقامة والرحلات والنقد والرثاء من الفنون ، وابن زيدون من النوابغ. كما كتب فى سلسلة (اقرأ) عن الفكاهة فى مصر، والعقاد، والبطولة فى الشعر العربى، وترجم لنفسه (معى).

وطبيعى أن يغلب الأدب على مؤلفات شوقى ضيف، لأنه كان تخصصه وهواه، فكتب الموسوعة التى غطت أغلب عصوره منذ الجاهلية إلى عصر الدول والإمارات، كما غطت أغلب أوطان العربية، بل أعطى بعض العصور مجلدين ضخمين.

وأظن أنه يكفى القارئ أن أنقل من متخصص معترف به شرقا وغربا ما قاله عن دراسته شوقى ضيف فى موسوعته لأدب أحد هذه الأوطان. يقول د . محمود على مكى عن دراسته للأدب الأندلسى: «ولسنا نبالغ إذا قلنا : إن هذا الكتاب هو أجمع كتاب فى تاريخ الأدب الأندلسى صدر حتى الآن. صحيح أن محاولات عديدة سبقته إلى ذلك، ولكنها محاولات كانت قاصرة: إما على عصر من عصور هذا الأدب أو على ظاهرة من ظواهره أو شخصية من شخصياته. أما الكتاب الجامع المجمل لتاريخ الأدب الأندلسى فهو أول ما يعالج هذا الميدان، ويسد الفراغ فى مكتبتنا الأدبية حوله.. الكتاب - فى جملته - أو فى دراسته للأدب الأندلسى.. والدكتور شوقى ضيف - بخبرته الطويلة وذوقه المرهف .. يعرف كيف ينتقى من هذا الركام الأدبى الأندلسى خير ما فيه».

وإذا صدق هذا القول الأندلسى، أكثر صدقا على الآداب المشرقية فى عصورها المتعاقبة.

وعلى الرغم من ولعه بالأدب القديم، لم ينس الأدب الحديث، فمنحه بعض التفاته. وكتب دراسات فى الشعر العربى المعاصر. وشوقى شاعر العصر الحديث، والبارودى رائد الشعر الحديث.

وأضاف الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، والفكاهة في مصر.

عناية خاصة بالنقد والبلاغة

ولما كانت رسالته للماجستير عن النقد في كتاب الأغاني، فقد عنى - بعد ذلك - بالنقد والبلاغة، فأصدر «في النقد الأدبي» ، «وفصول في الشعر ونقده»، وأرخ لعلم البلاغة تطور وتجديد.

واختتم دراساته بكتاب البحث الأدبي: طبيعته ومناهجه وأصوله ومصادره، وهو الكتاب الذي وجهه أولا إلى تلاميذه، ثم إلى كل من يريد الاضطلاع ببحث علمي في ميدان الأدب.

وكان للنحو نصيبه الكبير من اهتمام شوقي ضيف. بدأ بتحقيق كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي الذي وهب المحقق مفاتيح التجديد في علم النحو. فاستلهم منه محاولاته في كتابي «تجديد النحو» و«تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا، مع نهج تجديده» . كما أرخ للنحو كما أرخ للبلاغة في كتاب «المدارس النحوية» .

ودفعه اشتغاله بتاريخ الأدب والعلم العربيين إلى العناية بتحقيق المخطوطات المتصلة بها. فشارك في تحقيق رسائل الصاحب بن عباد، والقسم المصري من خريدة القصر للعماد الأصفهاني، والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد، وانفرد بتحقيق الرد على النحاة، ونقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبدالبر وغيرها .

وفي أواخر حياته التفت إلى الدراسات الإسلامية. فحقق بعض كتب القراءات، وألف «سورة الرحمن ولسور قصار : عرض ودراسة، والتفسير الوجيز للقرآن كله. وختم حياته . بمحمد خاتم الرسل .

لقد وهب شوقي ضيف حياته للاطلاع والكتابة عن الأدب والعلوم العربية باحثا ومؤرخا. ونسى حياته الاجتماعية جملة أو كاد. واستطاع أن ينظم وقته فلم تكن تراه إلا في مكتبه وبين دراساته .

وكان - مع معارفه الواسعة - شديد التواضع والحياء، لا تكاد تفرق بينه وبين كبار تلاميذه ، إلا إذا تحدثوا في العلم .

وكان شديد الرغبة في معاونة تلاميذه حتى من لم يشرف على رسائلهم. فقد كان هو الذي اقترح عليّ الاشتغال بالمعاجم العربية في رسالتي للدكتوراه. ووصل بيني - بعد تخرجي - وبين عبدالمنعم الخضري صاحب دار الفكر ولما كنت لم أعمل مدة فقد رشحني لتدريس أحد المستشرقين الإيطاليين إبان وجوده في مصر، ولإلقاء بعض الحصص في مدرسة الجزويت بالفجالة.

لا أتصوره إلا راهبا للعلم راغبا في تقديم العون لمن اتصل به، عازفا عن الشهرة وأسبابها.

جزاه الله كفاء ما قدم لأمته ووطنه من خير . ■



حكايات الطيب

بقلم
محمود سالم



لا شيء يتجاوز موهبة «الطيب صالح» الأدبية إلا سجاياه ومزاياه.. وهو عند عارفيه ومريديه وأنا منهم أكبر من مجرد كاتب مهما كان حجمه وانتشر صيته.

محبو «الطيب صالح» ومريدوه وأنا منهم يضعونه كما يضع العامة الولى.. والقطب.. والشيخ.. والدرويش فى مكانة خاصة محاطة بالسحر والسكينة والعطاء والقناعة والنبوءة والبركة والحكمة.

عرفت «الطيب صالح» عام ١٩٦٨، عندما سافرت «لندن» مع الصديق الراحل «عبد المنعم سليم» الذى كان صديقاً «للطيب» لفترة امتدت أربع سنوات (١٩٦١ - ١٩٦٥) فى «لندن» عندما سافر «عبد المنعم» مع زوجته السيدة «هدى حبيشة» التى كانت تدرس للحصول على الدكتوراه فى اللغة الإنجليزية وقد ظلت هذه الصداقة تربط بين ثلاثتنا فقد سافر «الطيب» قبل وفاة «عبد المنعم» المفاجئة بأيام قليلة.. كأنما كان يخشى لحظات الودا ع الرهيبة ويتجنب قسوتها.

التقيت مع «الطيب على درجات سلم الـ Bush house مقر القسم العربى من الإذاعة البريطانية فى ليلة من ليالى أغسطس وكان المطر الصيفى الغزير يهطل بقوة وانكمشنا تحت مظلة «الطيب» واقترح «عبد المنعم» أن نأوى إلى مقهى قريب نسكن فيه حتى يسكن المطر.. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما دخلنا وكانت تقترب من الحادية عشرة عندما خرجنا فى طريقنا إلى منزل «الطيب» لتناول العشاء.. وبالطبع كانت سيدة البيت قد أعدت الطعام وجلست بجانبه حتى استنفدت صبرها وتركتها.. وتناولنا عشاء بارداً.. وكانت هذه أول خطوة إلى عالم «الطيب صالح».. فالوقت عنده لا يرتبط بالساعات والدقائق.. إنما يرتبط بالشعور.. فإذا حسنت الصحبة وطابت «القعدة» استسلم تماماً للشعور بالرضا وتجاهل كل دعوة للانتقال من مكانه.. وبينما أضع أنا خمس ساعات كبيرة فى غرفة نومى.. وأحصى الساعات والدقائق فإن «الطيب» لا ينظر إلى ساعته أبداً.. ولا يسأل عن الساعة إلا نادراً.

ولكن مفتاح شخصية «الطيب صالح» الحقيقية يكمن في الصداقة والمحبة.. وهو يقول على لسان أحد شخصيات رواية «مريود»: «الإنسان يا محيميد.. الحياة يا



محيميد ما فيها غير حاجتين اتنين.. الصداقة والمحبة ما تقول لى حسب ولا نسب ولا مال.. ابن آدم إذا ترك وعنده ثقة فى إنسان واحد يكون كسبان».

وقد عدت من «لندن» وأنا أحمل رواية «مريود» التى نشرتها على حلقات فى مجلة «الإذاعة والتليفزيون» عام ١٩٦٨ وكانت أول ما نشر فى «مصر»، «للطيب صالح».. ثم جاءت بعدها «موسم الهجرة إلى الشمال» التى نشرها الصديق الأستاذ «رجاء النقاش» فى روايات «الهلال» بعد مقدمة ضافيه كتبها فى «المصور» عام ١٩٦٩ فملأت الدنيا وشغلت الناس.

وبدأ تردد «الطيب» على «القاهرة» وقد توثقت صداقتنا حتى أصبحت عشقاً.. وعادة ما أذهب لاستقبال «الطيب» فى المطار وهو عمل لم أقم به لأى إنسان آخر.

و«الطيب» يحاول دائماً اثنائى عن هذا المشوار المتعب كما يقول ولكنه لا يتصور فرحتى عندما انتظره - أحياناً بالساعات - ثم أراه قادماً مبتسماً ونتبادل التحية السودانية البسيطة وهى تقبيل الأكتاف وسرعان ما ننهمك فى الحديث وهو ينظر إلى شوارع «القاهرة» ليلاً ويهز رأسه قائلاً: هذه المدينة لم يكتب عنها أحد بعد. وهو يسألنى عن أصدقائه - أصدقائنا - مستهلاً بالسؤال عن يوسف إدريس» و«سعد الدين وهبة» و«سميحة أيوب» و«رجاء النقاش» و«عبد المنعم سليم» و«صلاح أحمد» و«عبد الرءوف الريدى» و«حازم هاشم» و«محمد عبد الحليم» و«عايدة عبد العزيز» و«عبد القادر حميده» ود. «محمد أبو الغار» ود. «محمد شرف» ود. «حازم ياسين» وهؤلاء يمثلون الدائرة المعتمدة التى تحيط بالقطب.. وينضم إليها فى السنوات الأخيرة الدكتور «جلال أمين» والمثقف السودانى البارز «محمود عثمان صالح» والدكتورة «فاطمة البودى» وهو يسأل عنهم واحداً واحداً.. ليقوم بواجب الزيارة إذا كان بعضهم مريضا أو معتكفاً.

ومن خلال هؤلاء وبهم يعيش «الطيب» الشهور التى يقضيها فى «القاهرة» ولكن هذا السودانى المحب يخفى حتى عنا زيارات يقوم بها لبعض السودانيين المقيمين فى «مصر» ممن يحتاجون إلى معونته التى لا يتحدث عنها أبداً.. وبينما تبدأ المهاتفات والمكالمات فى الصباح حوالى العاشرة ولا يرد «الطيب» نعرفه أنه «غطس» لأنه فى زيارة لفنان سودانى أرهقته الأيام.. أو وزير سابق أخنى عليه الدهر.. أو سفير على معاشه القليل.. وغيرهم.

وإذا كان «الطيب» يذهب إلى هؤلاء فهناك من يأتون إليه بالليل وبالنهار من الطلبة السودانيين المحتاجين وبعضهم يطلب مالاً وبعضهم يطلب شراء كتب أو جهاز لتسجيل المحاضرات أو

● مفتاح شخصية «الطيب صالح» الحقيقية يكمن فى الصداقة والمحبة

ملابس، وكل هذا يتم سراً ولا نعرف به إلا عرضا.

وهذا الكرم اللا محدود عن غنى المال، ولكن عن غنى النفس.. ويحكى صديقه وزميله فى الـ B.B.C «عبد الرحيم الرفاعى» وهو من أنبل الشخصيات التى عرفنى عليها «الطيب» يحكي أن «الطيب» جاءه ذات يوم فى استديو الاذاعة مهرولاً ويطلب منه إقراضه ١٠ جنيهات ولم يكن مع «عبد الرحيم» هذا المبلغ، ولكنه هرول أيضاً لاقتراضه وعاد به إلى «الطيب» ثم سأله عن سبب هذه اللهفة فقال «الطيب»: أحتاج المبلغ لأننى سأدعوك أنت و«يوسف إدريس» على الغداء.

إن «زهد» الطيب فى المال لا يساويه إلا زهده فى الطعام.. ويحكى لى صديق عمل معه فى «قطر» أيام كان «الطيب» مستشاراً لوزارة الإعلام القطرية أو وكيلاً لها أنه لم يتقاض «بدل سفر» عن سفرياته الرسمية التى يقوم بها لحساب الوزارة.. ويقول: لماذا بدل سفر وقد أمنوا التذاكر والإقامة.

ولعل «الطيب» بهذا خسر مبالغ ضخمة من المال ولكنه الزهد والتعفف.. بل إن هذا الصديق حكى لى ما هو أفدح، فعندما انتهت سنوات خدمة الطيب فى «قطر» وذهب لتوديع الأمير.. أشار الأمير إلى أحد المسئولين وأمره أن يستمر فى دفع مرتب «الطيب» وأن يرسل له مرتبه إلى أى بنك يختار فى أى مكان.. ولكن «الطيب» شكر الأمير ورفض العرض الكريم.

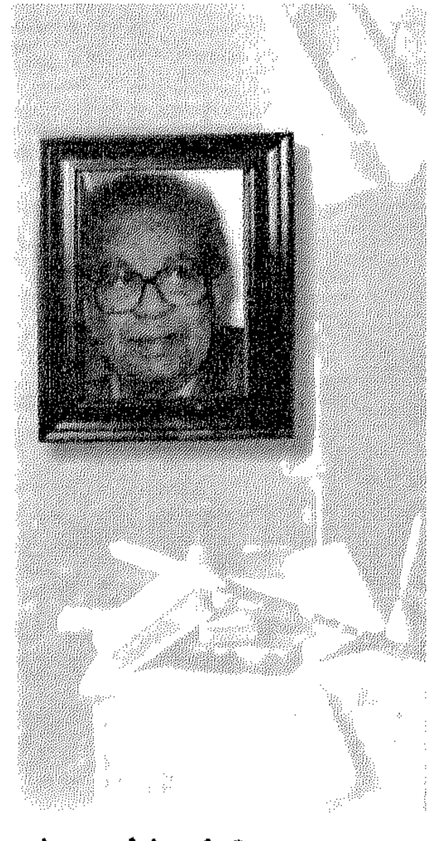
وأكتب هذه السطور وأنا واثق من أنها ستغضب «الطيب» منى ولكنى أعرف أيضاً قدرته على الصفح والغفران. وكم غفر وصفح لمعارف وربما أصدقاء استغلوا كرمه واستغلوا سماحته.

المثقف المستنير

ذات مرة جاء صديق إلى «الطيب» ينقل إليه وشاية عن صديقه «عبدالرحيم الرفاعى» فاستمع «الطيب» فى هدوء كما اعتاد أن يفعل ثم قال: والله يا أخى لو جاء «عبد الرحيم» بذاته وقال لى هذا الكلام ما صدقته.

وقد حرصت فى هذه السطور أن ابتعد عن الحديث عن انتاج «الطيب صالح» الروائى، فقد كتب عنه الكثيرون ممن هم أقدر منى على بيان عبقرية «الطيب» الروائية، ولكن يهمنى أن أتحدث عن «الطيب» المثقف المستنير.. وأشهد أننى لم أقابل فى حياتى التى طالت بأكثر مما ينبغى مثقفاً يسحرك حديثه فى الشعر والرواية والأدب وقبل كل ذلك القرآن الكريم مثل «الطيب صالح».

ولعل من الوشائج التى ربطتنى «بالطيب» استغراقه مثلى فى حب «المتنبى».. وهو يحفظ من شعره الكثير الكثير.. خاصة غير المتداول منه.. فهو فعلا غواص فى بحر «المتنبى» العميق.. ولابد من أن يكون بين الكتب التى يتكرم بطلبها من مكتبتى تفسير أو أكثر لديوان «المتنبى» وهو يفضل تفسير «العكبرى» و«البرقوقى».. ولا يهتم أو يأبه



كثيراً لتفسير «بلا نشير».. فهو يرى أن قارئ المتنبى لابد أن يكون من أهل الضاد.

وفى أيام «عبد المنعم سليم» رحمه الله.. وفى السهرة يغضب «عبد المنعم» ويثور» فهو لا يحب الشعر والشعراء ولايخفى كراهيته «المتنبى» لأنه يجده حاضراً فى حديثنا - الطيب وأنا - أو أننا نتحدث إلى «المتنبى» أكثر مما نتحدث إلى «عبد المنعم».

هذا المثقف المستنير المعجب حتى الثمالة «بأبى الطيب» و«أبى نواس» و«ابن الرومى» و«ذى الرمة» و «شوقى» و«حافظ» و«حجازى» وغيرهم من فحول الشعر العربى يستطيع هذا المثقف أن يتحدث بنفس الإجادة والعمق عن أدب «شكسبير» و«تنسون» و«لورد بايرون» و«فيزجرالد» و«أزبو» وغيرهم.

و«الطيب» يكن تقديراً خاصاً للدكتور «زكى مبارك» ويأسى ويأسف بما فعله «طه حسين» بالدكتور «زكى».. وهو حريص على أن أضع بين الكتب التى يطلبها منى كتاب «زكى مبارك»، «الموزانة بين الشعراء».. وهو معجب بقصيدة «أبى تمام» عن ديوان «كسرى».. وقصيدة «شوقى» فى معارضتها.. وانتصار «زكى مبارك» «لشوقى» خاصة فى المطلع.. ولكن لا يعجب «الطيب» نقد «زكى مبارك» لمطلع بردته «البوصيرى» فيقول لى إن الدكتور لم يفهم المطلع.. أو على الأقل لم يتمعن فيه بما يكفى.

● كم غفر وصفح لمعارف وربما أصدقاء استغلوا كرمه واستغلوا سماحته

*****

يوسف إدريس» هو أهم موهبة قصصية مصرية فى القرن الماضى.. فكذا يقول «الطيب صالح».. وهو يدخل منزلى لسهرة الأصدقاء يسألنى: دعوت «يوسف»؟

فأقول له: لسه!

أطلبه يا «أبا أشرف».. أطلبه يا أخى!

وأطلب «يوسف إدريس» وعندما يسمع صوتى يقول: طبعاً يا ابن (.......) لم تطلبنى إلا لأن «الطيب» طلبنى!

أقول: فعلاً!

يوسف: يلعن.... ابعت حد ياخدنى!

وأرسل أحد أبنائى لإحضاره.. وذات سهرة تفضل الفنان «حلمى التونى» وذهب لإحضار «يوسف».. وكانت سهرة أقمتها لتكريم الشاعر الكبير «محمد الفيتورى» بمناسبة حصوله على جائزة «صدام حسين» وقيمتها ١٠٠ ألف دولار، وكان «يوسف إدريس» قد حصل عليها فى العام السابق وكانت ٢٥ ألفا فقط.. وثار جدل بين «أحمد عباس صالح» و«رجاء النقاش».. وبعض الحاضرين عما إذا كان «يوسف» قد طلب استكمال المبلغ.. وقال «رجاء» إنه بالتأكيد حصل عليه.. فى هذه اللحظة دخل «يوسف»

ومعه «حلمي».. وأنا عادة أترك باب الفيلا المتواضعة التى أسكن فيها مفتوحاً حتى يدخل من يشاء خاصة أننا نسهر في الدور الأرضي.. وقد استمع «يوسف» إلى الجدل الدائر حول الجائزة من الباب المفتوح فلما دخل سأله «أحمد عباس صالح»: هناك من يقول أنك أخذت بقية قيمة الجائزة من «صدام حسين».

ووقف «يوسف» وسط الصالون وأشار إلى «رجاء النقاش» وقال: «ابن (....) هو الذى قال هذا الكلام.. ثم استدار ليخرج وأمسكت به وهو يرغى ويزبد.. ولكن «الطيب» قام واحتضنه وقال: «أجعد» يا «يوسف»!

و«جعد» يوسف وامتدت سهرة رائعة حتى الفجر.

وحكاية أخرى من «الطيب» و«يوسف».. وكنا قد سهرنا كالمعتاد فى منزلنا.. وانصرف الضيوف واحداً وراء الآخر بعد أن أشرفت الساعة على الثانية صباحاً.. ولم يبق إلا «الطيب» و«يوسف» و«عبدالمنعم سليم» وأنا.. وأخرجت سيارتى من الجراج لأقوم بتوصيلهم .. «يوسف» «على النيل فى الجيزة».. و«الطيب فى فندق ماريوت».. و«عبد المنعم» فى «الزمالك».. وطلب «يوسف» أن نوصل «الطيب» أولاً إلى فندقه.. ولم نكد نصل إلى هناك حتى قال «يوسف»: تعالوا نستكمل السهرة عند «الطيب».. وطلب «يوسف» مزيدا من الشراب.. فلما جلسنا قال «يوسف»: أريد أن أنفرد «بالطيب» وحدنا!

وكنت مرهقاً وأريد العودة لأنام.. ولكن «الطيب» قال: ليس هناك شيء يخصنى ولا يخص «محمود» و«عبدالمنعم».. ولا شيء أخفيه عنهما.. تردد «يوسف» لحظات ثم قال: يا «طيب» لقد حضر لى مندوب من لجنة «نوبل» ليعرض على الجائزة.. ولكنى طلبت منه أن تذهب الجائزة إليك.. على أن آخذها أنا فى العام التالى!

وقال «الطيب» مبتسماً: شكرا يا «يوسف».. ولكن أرجوك إذا حضر إليك مندوب «نوبل» مرة أخرى .. أرجوك أن تقبل الجائزة.. وأنتظر أنا للعام التالى.

وكنا .. «الطيب» و«عبدالمنعم» وأنا نعرف أن ما يقوله «يوسف» هو كلام غير صحيح لأن لجنة الجائزة لا ترسل إلى أحد.. ولكن أدب «الطيب» ورقته دفعاه إلى احتضان «يوسف» شاكراً.

ولكن أطرف حكايات «الطيب» و«يوسف» كانت أيضاً بعد سهرة طويلة فى منزلنا وقال «يوسف»: أنه لا يريد العودة إلى بيته ويريد أن ينفرد بنفسه وطلب منى أن أتصل بفندق «شبرد» وأسأل عن صديقه «عنان الجلالى» مالك الفندق.. ولم يكن «عنان» هناك فأمسك «يوسف» بسماعة التليفون وطلب من المتحدث أن يحجز له جناحاً فى الفندق وهو قادم بعد قليل.

وذهبنا فى سيارتى إلى منزل «يوسف» ليحضر ملابس النوم.. وصعد «يوسف» وبقيت مع «الطيب» فى السيارة نغالب النوم. فلما طال انتظارنا صعدت إلى شقة «يوسف» ودققت الجرس وكانت الساعة الرابعة صباحاً تقريباً.. وفتحت السيدة «رجاء» الباب مندهشة وغاضبة فلما سألتها عن الكاتب الكبير قالت بضيق: إنه نائم.

***

ويحب «الطيب» جلسة «رجاء النقاش» .. وما من مرة تداعينا إلى سهرة إلا وقال:



أرجوك يا «أبا أشرف» اتصل «برجاء».

فأقول له إنني اتصلت بكل الوسائل الممكنة لأن رجاء يحيط نفسه بدائرة مغلقة لا ينفذ منها إلا من يريد هو مقابلته.

ويأتى «رجاء» متأخرا ويحرص «الطيب» على أن يجلس بجواره وما أن يبدأ «رجاء» الحديث إلا ويتحول إليه «الطيب» مستمعاً ومستمتعاً وكأنه يستمع إلى «عبدالوهاب».. ويتدفق «رجاء» فى الحديث خاصة عن تاريخ «مصر» الحديث وأهم الشخصيات التى ظهرت فى منتصف القرن التاسع عشر وهو متحدث بارع وأهم من براعته المعلومات الغزيرة والوفيرة التى تأتى أثناء الحديث الشيق.

وهذا هو نوع الحديث الذى يحب «الطيب» الاستماع إليه.. ولكنه يستمع إلى الجميع.. والحقيقة أننى أحسده على صبره فى الاستماع إلى بعض من يتحدثون كثيراً.. وطويلاً ولا يقولون شيئاً.. وعندما أزوره فى «لندن» ويصر على نزولى فى منزله.. وهو ما لا أفعله مع أى صديق آخر ولا حتى أخوتي وأبنائى.. فإنه يحرص على أن يزودني بالمعرفة والمتعة فنذهب معاً لحضور عروض الأوبرا والباليه فى «الرويال كورت»، أو المسرحيات الشهيرة فى «الكوفنت جاردن» و«الوست أند».. وعندما ذهبنا لمشاهدة مسرحية «القطط» وقف «الطيب» فى الطابور لقطع التذاكر وخرجت وأنا أتجول حول المسرح وتهت ولم أعرف كيف أعود وإذا «بالطيب» ينادى من بعيد وقال لى: تعال معى.. فإننا تجاوزنا الستين نحن الاثنين ونحن بالمناسبة من مواليد سنة واحدة.. ومن حقنا أن نحصل على نصف تذكرة ولكن فتاة الشباك تصر أن تراك لتقدر سنك.

وغنى عن القول أن العشاء ودخول المسرح والمواصلات وكل شىء يدفعها «الطيب» يرفض رفضاً باتاً أن أضع يدى فى جيبى.

● حكايات الطيب لا تنتهى وكلها تعكس صفاء نفسه وقناعته ورضاه.

وهو يعيش حياة بسيطة مع زوجته الفاضلة «جولى» وهى مثقفة من طراز رفيع وقد اكتشفت أنها الوحيدة بين من عرفت التى قرأت «البحث عن الزمن الضائع» مرتين «لمارسيل بروست».. فى الترجمة الإنجليزية وفى لغتها الأصلية «الفرنسية» وقد سعدت أن عرفت أنها ترجمت إلى اللغة العربية.

وقد أنجب «الطيب» ثلاث بنات هن «زينب» وسارة و«سميرة».. و«سميرة» حاصلة على دكتوراه من «أكسفورد».. وقد كان عند «الطيب» كلب من نوع «جون رسل» وهو كلب غالى الثمن.. شديد الذكاء وقد رأيته فى فراشه فى ليلة باردة.. وهو يغطى نفسه بالبطانية كأى شخص بردان وقد ضاع الكلب «ديبى» وحزن عليه «الطيب» والسيدة زوجته حزناً شديداً.

ومن حكايات «الطيب» حكاية الرقيب المرحوم» عبدالرحمن الجنايني» توفى (١٩٩٥) فعندما قرر «رجاء النقاش» نشر موسم

الهجرة إلى الشمال كان لابد أن تذهب الرواية إلى الرقابة وتشاء الصدف أن تكون من نصيب «عبدالرحمن الجنايني».. وكان من أعز أصدقائي وكان ضيفي الدائم لأنه لم يتزوج وخرج من الدنيا بلا مال ولا ولد وكانت شقته في شارع «قصر العيني» أمام دار «روزاليوسف» مأوى وملتقى لأشهر الكتاب والصحفيين من الخمسينات وحتى مات.

وقعت «موسم الهجرة إلى الشمال» في يد الرقيب «عبدالرحمن الجنايني» فبدأ بقراءتها.. ولأنه منشغل بالتقارير الرقابية التي كانت ترسل إلى الرئيس «عبدالناصر» فجراً.. فقد اتصل بي وقال: عندك فكرة عن رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» تأليف «الطيب صالح»؟

قلت : عندي !

قال : هل فيها محاذير رقابية؟

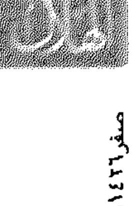
قلت : لا أظن !

وأجاز «عبدالرحمن» الرواية دون أن يكمل القراءة وسارت الأمور على مايرام لمدة أسبوعين تقريباً.. ثم بدأ الهجوم على أجزاء من الرواية وقال من قال إنها رواية إباحية وو.. إلى آخره وسرعان ما حول «عبدالرحمن إلى لجنة تحقيق.. وتم إيقافه عن العمل.. وخصم خمسة عشر يوماً من مرتبه ونقل من الرقابة وأحسست أنني المسئول لما حدث لصديقي وكنت أيامها رئيساً لتحرير مجلة «الإذاعة والتليفزيون التي تتبع وزارة الإرشاد القومي (الإعلام فيما بعد) فسعيت عند السيد «محمد فائق» وكنت أراه كثيراً بحكم عملي وسعى غيري من معارف «عبدالرحمن الجنايني» حتى أزلنا آثار القرار الظالم بعد شهور.

بعدها ربما لسنوات حكيت ما جرى «للطيب» ففزع فزعاً شديداً لأنه تسبب في ايذاء الرجل.. وأصر على رؤية «الجنايني» وتطييب خاطره.. وظل يصر على دعوته إلى سهراتنا أو يذهب لزيارته كلما كان في «القاهرة».

وحكايات الطيب لا تنتهي وكلها تعكس صفاء نفسه وقناعته ورضاه.. ولكن ما دمنا قد وصلنا فيما أظن إلى نهاية هذه الحكايات وأن نكتفي بما سمحت به من ثقوب الذاكرة من بقايا.. فانني أحب جداً أن أتحدث عن «الطيب صالح» المتدين كأجمل ما يكون التدين الذي لا يعرف التعصب طريقاً إليه.. يقول «ضد البيت» للرجل الغريب أخضر العينين الذي خرج من ماء النهر.. «ياعبد الله» نحن كما ترى نعيش تحت ستر المهيمن الديان حياتنا كد وشظف ولكن قلوبنا عامرة بالرضا قابلين بقسمتنا التي قسمها لنا، نصلي ونحفظ عروضنا متحزمين وملتزمين على نوايب الزمن وصروف القدر .. الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلى اللحد.

وهذه هي فلسفة «الطيب صالح» في الحياة.. لم أره يوماً يحيد عنها.. وإذا كان قد فعل فقد يكون في أيام الجاهلية كما يقول وهي السنوات التي عاشها منذ وصوله إلى «لندن» عام ١٩٥٣ حتى زواجه عام ١٩٦٥.. وكم كان هذا السوداني الجميل هدفاً للغيد الحسان ولكن تلك حكاية أو حكايات أخرى. ■





ونظام حكمه

(٢-٥)

بقلم
طارق البشرى

عندما يتولى الحاكم السلطة، يجد على الفور أول مشغلة له هى إدارة الشئون اليومية للمجتمع الذى تسلطن عليه. ويجد على الفور، وقبل إدارة المجتمع،. أن يمسك بمفاتيح جهاز الدولة، وأن ينظر فى احتياجات هذا الجهاز وما يكفل له استمرار الحركة وعدم التوقف. وما يكفل له الانصياع والاستجابة لقيادته الجديدة، أول مايواجه الحاكم الجديد، أن يمسك «بالآلة» وهى دائرة ،ولابد أن تبقى دائرة، وأن يوجه أولى حركاتها لإدارة الشئون اليومية، للمجتمع، حتى لايفاجأ بما لم يعمل له حسابا، ثم بعد ذلك يفكر ويعمل على تطوير هذه الآلة، وتحديثها وعلى تغيير مايرى تغييره من شئون المجتمع، وأنت دائما عندما تمسك بآلة دوارة، ففى البداية هى التى تديرك ولست أنت من يديرها، ولن تستطيع أن تقبض عليها وتسيطر إلا إذا درت معها دورات تزيد أو تنقص حسب قدرتك عليها وقدرتها عليك وحسب سابق خبرتك بها أو بما يماثلها.

وكانت المشكلة الأولى فى إدارة محمد على لولاية مصر، أن جهاز إدارة هذه الولاية كان ضعيفا ومتهرئا قبيل الغزوة الفرنسية فى ١٧٩٨، ثم جاءت هذه الغزوة ثم انتهت وبقيت مصر أربع سنوات تالية فى حالة من الاضطراب ومن ثم كان جهاز إدارة الدولة متفككا، هو أصلا كان جهازا متهرئا، ثم أتت عليه سبع سنوات من غزو وجلاء. وثورات وحروب واضطرابات، فجعله ذلك كله مزقا وإربا، وكان على الوالى الجديد محمد على أن يعيد البناء وأن يعيد تركيب ما انفك وأن يكمل مانقص. ما يكون لازما لتحريك آلة الدولة وإدارتها للمجتمع.

ولعل هذا الانفكاك كان من الفرص المواتية لمحمد على. فهو لم يجد أمامه جهاز إدارة يقاومه وقد يستعصى على قيادته، إن كان الجهاز مكينا وفعالا، بل وجده أجزاء واشطارا بغير فاعلية فكان على محمد على جهد التركيب دون أن يكون عليه عبء مواجهة من يقاومه من داخل جهاز الإدارة. والحاصل أن المقاومين لمحمد على كانوا بين شيخوخة الذاهب الآفل كالمماليك وبين يفاعة الصبى الغر كالقوة الناشئة للشيوخ والأعيان المصريين، وذلك كما ستجيء الإشارة إن شاء الله، أى بين قوة المماليك التى إنفكت وقوة شيوخ المصريين التى لم تتبلور.

والحاكم أيا كان سعيه للإصلاح، لابد أن يبدأ بالقوى الموجودة بحسبانها الأدوات التى يبدأ بها تناول الأعمال، ونخطىء أن تصورنا محمد على فى بداياته كانت له من الأهداف ماتحقق على يديه من بعد، فهذا يكون زعما لانجد له عليه وثائق الفترة دليل من كتابات ولا مرويات

وفترة حكم محمد على امتدت من سنة ١٨٠٥ إلى ١٨٤٨، وهى مما يمكن تقسيمه إلى مراحل تاريخية، وتقسيم مدد حكمه إلى مراحل يمكن أن يكون تقسيما متداخلا حسب أشكال إدارة الدولة وحسب متطلبات الاقتصاد وحسب وقائع الحروب وحسب أوضاع التعليم، والمهم أن الرجل بذكائه وقدراته وسعة حيلته، كان يتعرف على الاحتياجات وتمتد طموحاته فى إطار المدى الذى تنبىء عنه قدراته وإدراكه ملامح عصره ويمكنه التعامل معها، فترد استجابات رجل دولة بحس عملى وببعد نظر، وإذا اردنا أن نجرده من تفاصيل الوقائع والأحداث وننظر إليه فى مجمل حركته ومجمل مرحلته، نراه مصلحا سياسيا عظيما ويبنى نظما حديثة، فإن ذراعيه كانا ذراعى عثمانى ويديه كانتا يدى مملوك، وهو فى كل الأحوال ابن وقته وزمانه بكل دقة.

أما من حيث التقسيم العام لمراحل حكمه فهى يمكن أن تقسم إلى ثلاث مراحل، مرحلة دعم سلطته السياسية من ١٨٠٥ إلى ١٨٢٠ ومرحلة بنائه نظامه الجديد من ١٨٢٠ الى ١٨٤٠ ومرحلة انكساره من سنة ١٨٤٠ إلى نهاية حياته، وإلى مابعد وفاته ممن خلفوه من ذريته.

وبدأ من سنة ١٨٠٥ يقيم دولته (أو ولايته العثمانية)، بين القوى الاجتماعية والنخبوية الموجودة، وهى على التعيين، العثمانيون الاتراك، المماليك، الشيوخ المصريون، والاقباط والبدو، وهو قد تعامل مع هذه «الموجودات» بروح المقاومة لما يشذ منها عنه، والتوظيف والاستفادة لما يقبل أن يندرج منها فى نظامه.

***

كان العدد الإجمالى للمصريين جميعا، حسبما قدره الباحثون الأجانب، سواء من صحب الحملة الفرنسية أو القناصل الأجانب من بعد أو الباحثون المستشرقون، كان عددا يدور بين ٢,٥ مليون أو ٣ ملايين مصرى، وهم مسلمون وفيهم ١٦٥ ألف من الأقباط، والاتراك عددهم يتراوح بين ٢٠ ألف و ٣٠ ألف فرد، والمماليك يتراوحون بين ٤ آلاف و ٥ آلاف فرد، وأهل النوبة نحو ٣٠ ألف فرد، والأوروبيون نحو ٥ آلاف فرد، واليونان نحو ١٠ آلاف، واليهود نحو ٤ آلاف، وكان البدو من سكان الصحارى المتاخمة لوادى النيل بمصر نحو ٢٠٦ آلاف فرد.

والأتراك، منهم وقتها طبعا يتشكل عدد مهم من النخب العسكرية والإدارية وهم من تمرسوا فى فنون الحرب وفنون إدارة الدولة، وأن الغالب من شاغلى المناصب الرفيعة ذات الأثر فى السياسة والقرارات المختلفة كانوا منهم، ومنهم قيادات وحدات الجيش والبحرية، وأهميتهم ترد من خبرتهم فى شئون الحكم والقيادة ومن التقارب النخبوى بالحاكم ودوائره ومما يربطهم بأواصر الاتصال باستامبول ودوائر الحكم لدى الباب العالى هناك.

ولكن مشكلة النخبة التركية لدى محمد على أن كان لمعظمهم وجوه تبعية وأواصر اتصال بعاصمة الدولة العثمانية، ولهم علاقات يمكن أن تنشأ أو تقوى مع الباب العالى مما يجعلهم منافسين محتملين لمحمد على فى ولايته لمصر، أو يجعلهم مصدر أخبار عنه مما يسوءه، سواء بالصواب أو غير الصواب، ونظام الإدارة العثمانية يعتمد على السعاية والوشاية وغير ذلك من أساليب تلقى الأخبار عن ولاته ورجاله.

والمشكلة الثانية لهذه النخبة مع محمد على أن كثيرا منهم يعتبرون قرناء لمحمد على أو قريبين من موقعه زمالة وندية، ومن عادة الحاكم الفرد فى أى مجال أن يتخلص من القرناء والأنداد أو القريبين من مستواه، باعتبار ذلك مهيئ ومسوغ لفرض الهيمنة وإسلاس علاقات الأمر بالمأمورين، كما أن الحاكم يهمه أن تكون العلاقات بين من هم دونه، لا عن طريق مباشر بين بعضهم البعض، ولكن تكون عن طريقه ليمكنه التحكم وليأمن المفاجآت ولئلا يتفق من دونه على أمر لايكون هو صاحبه، وليكون هو من ترد إليه كل المعلومات فلا تكتمل عن غيره

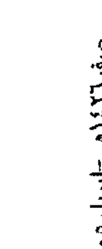
ممن هم دونه أوليكون هو مصدر كل القرارات فلا تصدر ولاتتهيأ للصدور عن غيره ممن هم دونه.

ويأتى بعد ذلك المماليك، وهم من عناصر النخبة المصرية ذات الاتصال بشئون الحكم، وهم مع ضعفهم الذى أسفرت عنه أحداث الحملة الفرنسية ومع بعثرتهم كانوا قوة مناوئة لمحمد على، واستوجب ذلك أن يتعامل معهم بما اعتاد الولاة من أساليب البطش والتآمر والخداع ومما انتهى بما هو معروف فى التاريخ باسمه «مذبحة القلعة» فى سنة ١٨١١، قضى فيها على من لايزال باقيا من رؤوس المماليك، الموجودين فعلا أو المرشحين للرئاسة بينهم وبقيت بعد المذبحة أعداد كبيرة من المستويات الوسيطة والصغيرة من المماليك وهم لديهم وجوه خبرات عسكرية وخبرات إدارية وشعور بأنهم من طبقة الحكام، وتهيؤ لتلقى المزيد من الخبرة والدربة مع السيد الجديد.

وكانت لدى المماليك تقاليد ثقافية وأنظمة للولاء، تجعل المملوك على ولاء لمن استقدمه، ويقاس إخلاصه بمدى أمانته فى ولائه له والزود عنه، وتتوحد به مصلحته وكان هذا الولاء ينتقل من القائد المهزوم الى القائد الجديد المنتصر فتؤول الى القائد الجديد الآتى آصرة الولاء للقديم الذاهب وتتوحد به مصلحته لذلك لم تكن لمحمد على مشكلة جادة مع المماليك الاتباع بعد أن قضى على كبرائهم، وسلس له قيادهم وصار أكثر ثقة بهم وعمل على تدريبهم وأن يبوئهم مراكز فى نخبة الحكم والجيش، وأن يعتمد عليهم فى التدريبات الحديثة للجيش وعلى الأسلحة الحديثة ونظم بناء الجيش الحديثة، وكانوا بشبابهم وأنهم فى أواسط الأعمار أكثر قابلية لتلقى الجديد، كما كانوا ببعدهم عن النخبة التركية أكثر انفكاكا من تقاليد الحكم والجيش القديمة. وعزز المماليك بمماليك استقدمهم من سوريا فمن جزيرة كريت.

وكان محمد على يزاوج بين عناصر النخبتين العثمانية والمملوكية، فجعل للعناصر ذات الأصول المملوكية وجودا وثقلا يوازى به وجود العناصر العثمانية وثقلها فى الجيش وفى الإدارة، وأن «يوالكمت» القنصل الفرنسى بمصر وقتها، كان يقدر نسبة الاتراك إلى الممالك فى إدارة محمد على بما يوازى ٧ مماليك إلى٥ أتراك تقريبا، ولكن محمد على عندما حارب عبد الله باشا الجزار والى عكا، وكان من الممالك، استخدم فى قيادته نسبة ٣ من الاتراك إلى كل ٢ من المماليك، حتى لاتزيد نسبة المماليك فى معركة يخوضها جيش محمد على ضد مماليك عكا، وهكذا كان يتعامل الرجل مع رجاله ويوازن بينهم.

وبالنسبة للمصريين ، كانت الحركة المصرية الشعبية بقيادات أبرزهم السيد عمر مكرم، ساهمت فى وصول محمد على إلى منصب الولاية، ومن عادة الحاكم الفرد ألا يبقى من ولاة أو من ساهم فى ذلك. ممن يستطيع إبعادهم،



ولعل ابلغ مـا يذكـر فى هذا الصـدد، أن الإنجليز عندما شنوا حملتهم على مصر فى سنة ١٩٠٧ بعد تولية محمد على ونزل رجال اسطولهم فى رشيد فيما اسمى «حملة فريزر» وكان محمد على يتعقب فلول قوات المماليك فى الصعيد، ولم تكن قوته مما يعرضه للمجازفة السريعة ولا كان عرف بعد حجم الحملة الإنجليزية، فتلكأ فى الصعيد ينتظر ما يستطيع به أن يحسم قراره، كانت المقاومة الشعبية المصرية وحدها هى من تصدى للهجمة الإنجليزية وردها عن رشيد فلما عاد محمد على وقد تحقق لهم النصر وانزاح عنه هو عبء التصدى للحملة وتكلموا معه عن كيفية تأمين مصر قال لهم ما نقله الجبرتى عنه «ليس على رعية البلد خروج، وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر».

وبذلك حسم الوالى الأمر مع قوة سياسية ، أيا كان نصيبها فى تولية الحكم وفى إجلاء المحتلين الفرنسيين ثم الإنجليز، فهى لم تكن تبلورت سياسيا بعد بما يمكنها من مكافحة سعيه للنفوذ المنفرد بالسلطة من دونها، ولا بما يمكنها من أن تحتل المكانة السياسية التى كانت تشغلها القوة المملوكية الآفلة فى الماضى القريب.

ثم سيطر محمد على من بعد على الأوقاف لتركيز حركة التمويل الاجتماعى فى يديه تحقيقا لما يراه من تنظيمات ومشروعات نهوض وتعبئة، وبذلك ضعفت قوة الشيوخ الذين تشكلت منهم القيادات الشعبية وقتها، كما كانت هيمنته على الأوضاع الاقتصادية من بعد مما أضعف النفوذ الموجود للأعيان ، التجار وكذلك ضعفت امكانات المشاركة لشبكات الطرق الصوفية ونقابات الحرف، ونفى السيد عمر مكرم إلى دمياط، وكان ذلك وقتها يعتبر إبعادا يفقده القدرة على التأثير فى أحداث العاصمة.

ويلاحظ من ذلك أن محمد على قضى على المماليك بحسبانهم قوة مستقله، واستصفى صغارهم لنفسه تحت قيادته، وقضى على براعم القوة المصرية المتمثلة فى قيادة الشيوخ، والاعيان كحركة مصرية، واستصفى هذه الحركة من بعد لنفسه ، حتى قيادات الأزهر أظهروا من بعد الموالاة له وكذلك غيرهم، وهو بذلك كله حقق الحلم العثمانى كاملا بأن يؤمن مصر من مخاطر الخارج - انجليزية أو فرنسية - وأن يقضى على «الشريك المحلى» المصرى فى حكم مصر، متمثلا فى المماليك أو أعيان المصريين، ولكنه ما لبث هو أن قام هو بالدور المصرى المحلى فى مواجهة الدولة العثمانية المركزية .وفى السياسة أنت دائما ترث من تغلبه ويؤول إليك موقعه وتضاف إليك قوته.

★★★

(٣)

نجح محمد على بأكثر كثيرا مما

نجح غيره فى القرن التاسع عشر فى تحديث إدارة الدولة وتجديد مؤسسات المجتمع، وفى حل المعضلة التى كان لابد أن تلازم حركة التحديث هذه، وكانت المعضلة هى أن من يريد إصلاح إدارة الدولة، لابد أن يصلحها بواسطة أداة لديه، وأدوات الحاكم هى أجهزة الدولة، إذا تكون المعضلة أن من يريد تحديث أجهزة الدولة وجيشها لابد أن يفعل ذلك بواسطة الأجهزة الموجودة والتى يريد إصلاحها، أى أن من يريد «التجديد» لابد أن يجريه بواسطة «القديم» أى أنه يكون مطلوبا من الإدارة القديمة أن تنفذ ما من شأنه إن ينفيها.

لم يكن فى تكوينات ذلك الزمان، مؤسسات حزبية تنشأ بفكر ودعوة مجددة وتعتلى الحكم وتنفذ مشيئتها بواسطة نخبة نشأت وشبت فى تشكيل خارجى سيطر من بعد على الدولة.

ولكى ندرك صعوبة تجديد جهاز الدولة من داخله وبواسطة أدواته ذاتها، يمكن أن نستدعى تجربة الدولة العثمانية فى استانبول، لقد عزل سلطان وقتل آخر – وهما سليم الثالث ومصطفى الرابع – فى بدايات القرن التاسع عشر جراء هذا العمل الذى بدا مستحيلا، ثم اضطر محمود الثانى من بعدهما إلى أن يرتكب عملا من أندر ما يرتكب من حماقات فى التاريخ، وهو أن يدير مذبحة لجيشه قتل فيها نحو عشرة آلاف من الانكشارية المتمسكين بالنظام القديم للجيش، ووجه الحماقة فى ظنى أن حاكما لاينبغى أن يذبح جيشه أو يضعفه، وأنه بهذا الصنيع كشف ضعف دولته أمام جميع الدول الأوروبية الكبرى التى كانت تبيت له الأمور بالليل والنهار لتقسيم دولته بينهم، وأنه بذلك شجع العصيان داخل دولته وحركات التمرد، والثورة عليه.

محمد على كان محظوظا، لأنه لم يكن فى استانبول حيث تتركز قمم الدولة وحيث تتماسك قوى القديم وكما أن حظة الطيب جعل بدايته فى مصر فى الصفوف الثوانى فلم يحمل أوزار صراعات القمم، كذلك أوقعه حظه الطيب ليكون فى مصر رهى ولاية عثمانية، ومع ضخامتها وأهميتها تقف بعيدة عن صراع القمم الاستامبولية، فلا كان جيش الانكشارية وقواده الكبار عنده ولا كان فى بؤرة ضوء الصراعات.

وكان مصدر المشغلة لمحمد على فرقته الألبانية، التى كان جاء معها إلى مصر، فلما طلب منه الباب العالى أن يرسل قوات من عنده لقمع الثورة الوهابية فى الجزيرة العربية فى سنه ١٨١١ قذف بالجنود الألبان فى هذه الحملة ليتخفف من عبئهم السياسى فى مصر، وفى معركة بدا أنها مفروضة عليه بأوامر السلطان فلا يتحمل وزرها، وفى الوقت ذاته زادت الحرب الوهابيه الثقل السياسى لمحمد على لدى السلطة المركزية العثمانية، إذ لجأت إليه لقمع ثورة ونفذ ما طلبت وتخلص بذلك لنفسه من جند يحتمل أن يناوئوه، وكان تخلص من قيادات المماليك المناوئة له فى ذات



السنة التي بدأت بها حربه الوهابية، ثم فتح مكة في حرب ضد الوهابيين في سنة ١٨١٣ فقوى نفوذه الإسلامي، ومكة، والمدينة شأنان لهما من الأهمية الإسلامية العامة مالا يخفى ثقله، وانعكس ذلك على نفوذه في مصر.

ومن ثم بدأت تجاربه لإصلاح الجيش في مصر من سنة ١٨١٥، أي بعد عشر سنوات من توليه الحكم وبدأ ذلك بالمتاح وإن كان ينتمي إلى القديم ولكنه صار أسلس معه وأبعد عن المقاومة والتآمر، وكان من هؤلاء بقايا من الانكشارية والولاة مع شباب المماليك، وبعث بهم إلى أسوان للتدريب على من صار من بعد سليمان باشا الفرنساوى، وبعد لأى ومقاومة ضد التحديث وضد وجود قادة أجانب لهم، انتظموا في تدريباتهم بعيدا عن القاهرة، ثم مع حملة الجيش المصرى في السودان استقدم نحو عشرين ألف سوداني ليدربهم على أعمال الجيس في مصر، ولكن التجربة لم تنجح بسبب اختلاف الجو والبيئة وبسبب أن الانتقال من الحياة القبلية الى انضباط الجيش النظامي كانت واسعة ويصعب أن تنجز بالسرعة المطلوبة.

ثم في سنة ١٨٢٢ بدأت تجربة تجنيد المصريين، وكان من مشاكل هذا الأمر صعوبة الجمع بين الخدمة العسكرية والتفرغ لها ولتدريباتها الحديثة وبين بقاء الشباب العامل في القرى لإنجاز مهام الانتاج الزراعى والحرفي المطلوب .. فضلا عن التهيب من تجنيد المحكومين وإدخالهم في جهاز الدولة وهم مندمجون في مجتمعاتهم بممارسة الانتاج والانتماء الأسري والإقليمي، مما كان غريبا قبوله بالنسبة للنخبة التي تربت في ظل النظم العثمانية والمملوكية.

لذلك يقول الأمير عمر طوسون في تاريخه للجيش المصرى أنه في سنة ١٨٢٢ أقبل محمد على «المخاطرة التى كان يتهيبها من قبل، أنفذ الفكرة التي كانت تخامره ولايجرؤ عليها، فأصدر أوامره بجمع أنفار الجيش الجديد من المصريين» وأمر أحمد باشا طاهر بأن يجمع أولا ٤٠٠٠ مجند من الصعيد، وكتب إلى ابنه إبراهيم قائد الجيش أن التجنيد يكون لثلاث سنوات، وأنه يشترط في المجند أن يكون متوطنا بالقرية التي يجلب منها وليس شاردا، وأن تحرر أسماؤهم بواسطة حكام الأقاليم وبكفالة شيوخ القرى وذلك لضمان استقرارهم وتهيئتهم وأن يكون من الممكن بعد عودتهم إلى قراهم أن يستدعوا عند الضرورة وإن يعطوا «لحما وأرزا مفلفلا» في معسكراتهم ثلاث مرات كل أسبوع ويرتب لكل منهم ثمانية قروش شهريا فضلا عن الكساوى.

ومن الجلى أن كان لهذا القرار آثار ممتدة على مدى التاريخ المصرى، لأن المصريين بوصفهم «من الرعية» دخلوا في

جهاز الدولة، وبأعداد غفيرة مايلبثون أن يكونوا هم قاعدة الحكم، وتبدو أهمية هذا الأمر ومدى إدراك أصحاب القرار وقتها لآثاره فيما تكشف عنه خطابات الوالي

كتب محمد على لابنه ابراهيم يقول «من الجلي الواضح أن الواجب يقضى علينا أن نجند العساكر حسبما يتيسر لنا، وأن نستخدمهم حسبما يستوجب الموقف، وأن نوفق بين مصالحنا وحالتنا، وأن نرعى أعمالنا على قدر قدرتنا»، وكتب يقول «يلزم تحرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم إليه، وبملء آذانهم بالأقوال التى تستوجب حسن قبولهم إياه..» وعين الوعاظ والفقهاء لهذا الغرض، وألفت الكتب عن الجهاد فى الإسلام وواجبات حفظ الثغور وغير ذلك.

كما كتب إلى عماله يوجب عليهم حسن معاملة المجندين ويوجههم بإعادة من لم يقبلوا فى التجنيد إلى قراهم وألا يتركوا مشردين، وأوجب على عماله ألا تتعارض أوقات التجنيد مع مواسم البذر والحصاد فى الزراعة «التى عليها مدار الغنى والثروة للجميع» وكان تجنيد المصرين الفلاحين مما يربط بين الفلاح وبين الدولة من حيث الهيبة والاحترام فصار امتهان الفلاح مما يؤثر فى هيبة القاعدة الأساسية التى بنى بها الجيش وهو عمود ارتكاز الدولة ذاتها، لذلك لم يتردد محمد على فى عقاب من تطاول من ذوى الأصول التركية على الفلاحين بالجيش.

ولكن مع كل ذلك بقى الوالى حذرا مما ترتبه هذه الخطوة، وفى ذلك يذكر عمر طوسون «لو سلمت قيادة الجيش إلى ضباط من جنسه لخيف أن ينزعوا يوما إلى الفتنة والتمرد .. الرؤساء قابضون على ناصية الجنود، وهم لا يركنون إلى المصريين كما يركنون إلى أبناء جلدتهم». وبقى المصريون جنودا فحسب ثم لما توطدت سلطة الوالى أدخل أعدادا قليلة من المصريين فى وظائف صغار الضباط.

وهكذا كانت قيادات الجيش والدولة من نخبتى العثمانية والمماليك بالتوازن الدقيق فى كل حالة والمصريون فى القاعدة جنودا، وقد صدق حدس محمد على ورجاله، لأن المصريين لما تصعدوا فى قيادة الجيش من بعد، بعد ستين سنة قاموا بثورة مصر للمصريين فى ١٨٨٢.

★★★

(٤)

وكان أقباط المصريين عددهم يقدر بنحو ١٦٠ ألف فرد بين ٢٫٥ مليون أو ٣ ملايين مصرى، وكان منهم من يتوارثون فنون مساحة الأراضى وتقدير ما عليها من ضرائب وخراج، وكانت الفنون والخزف والمهارات تتناقل بين الأجيال مع خبراتها بالتوارث من الأب لابنه أو من «المعلم» الى «صبيانه» وهكذا ومن ذلك مساحة الأرض وتقرير الضرائب، توارثها العارفون بها من أقباط مصر.

وقد قدر لى فى شبابى عند أول عملى فى مجلس الدولة، أن كنت فى إدارة للفتوى تشرف على أعمال تطبيق قانون

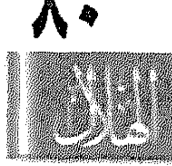
الإصلاح الزراعي، ومنها تحقيق ملكية الأراضي الزراعية.. وكان ذلك يجرى بالتعاون بين الخبرة القانونية لمجلس الدولة، والخبرة الفنية لرجال الشهر العقارى ومصلحة المساحة، وقد كنت ارى وقتها من مستندات الملكيات القديمة ما كان يعرف «بالتقاسيط» ونوع من المكلفات التى يربط على أساسها الضرائب، وكان القديم جدا من هذه التقاسيط ، مكتوب بحروف عربية ، ولكن بمصطلحات قديمة لا يكاد يفهمها إلا كبار السن فى مصلحة المساحة. وبقى أثر لذلك من صور النظام الجديد للصيارفة فى سنة ١٩٢٩ .

ومن المعروف أن غالبية أرض مصر حتى عصر محمد على ومابعده ، كانت تزرع بما عرف برى الحياض اذا يفيض النيل عن موسم فيضانه وتغطى مياهه الأرض الزراعية ثم تنحسر تدريجيا بعد انتهاء موسم الفيضان فيبدأ موسم البذر. وفى أثناء الفيضان ومع انحساره تكاد لا تنطمس الحدود الفاصلة بين حيازات المزراعين وملكياتهم ، ومن هنا جاءت أهمية اعادة مسح الارض أى قياسها لتحديد الحيازات والملكيات ولتوزيع نصيب كل حيازة من ضريبة أو إخراج، واختص بهذا العلم من توارثه من الاقباط ، فضلا عن إمساك الدفاتر والحسابات . وكان منهم المحاسبين لكبار الحكام والمماليك والاغنياء. وابقاهم محمد على فى هذه الوظائف وعين منهم المساعدين فى هذه الأعمال فكانوا هم المختصين بالشئون المالية.

ثم كانت قبائل البدو من المصريين ذات أوضاع خاصة، كان عددهم يشارف تقريبا عشر سكان مصر. وكانوا نوعين ، الرعاة وعددهم يجاوز خمسا وخمسين ألف فرد يتوزعون على نحو ستة عشرة قبيلة وفيهم ما يجاوز عشرة ألاف جندى من المشاه ونحو سبعمائة وخمسين فارسا . والنوع الثانى هم البدو الرحل وهم نحو أربعة وثلاثين قبيلة وعددهم الاجمالى يجاوز المائة وخمسين الفا، ومنهم ما يشارف خمسة وعشرين ألف جندى من المشاه وما يشارف أيضا ستة آلاف من الفرسان.

وهم يحيون على أطراف الوادى المزروع ، ويمارسون العدوان على حدود الوادى المزروع وقراه وسكانه من الفلاحين وغيرهم. فضلا عن ممارسة النهب والسلب بالغارات التى يشنونها ، حتى على الأديرة وسكان الواحات. وأن المعمار الخاص ببناء الاديرة القديمة وبناء مدن الواحات القديمة مثل مدينة «القصر» فى الواحات الداخلة، يثبت ما بقى فيه حتى اليوم من أثار مدى ما كان يعد لحماية هذه الاماكن من غارات البدو ، مثل الاسوار العالية والبوابات الضيقة ذات الاسقف الواطئة والممرات المتعرجة وغير ذلك. وكل ذلك كان موجودا ويزيد أثره فى ظروف الشغب والاضطرابات مع ضعف الحكومات المركزية .

وقد تعامل محمد على مع هذا الأمر



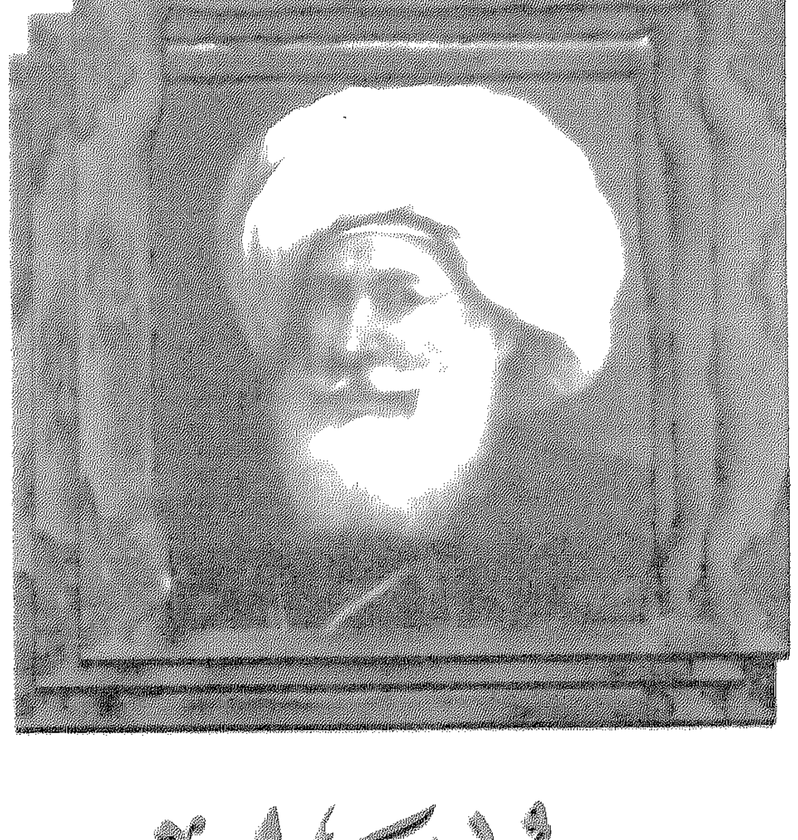
مستهدفا انهاء الاضطرابات الأمنية التى يتسبب فيها نشاط البدو، فتعقبهم أولا ليشعرهم بقوته وقدرته على ازعاجهم ، وسلط عليهم قوات عسكرية تطاردهم مطاردة شديدة حتى إذا خارت قوة أى جناح منهم او عدد قبائل معينة ، وإذا بدت المسالمة منهم شرط عليهم وقف النهب والغارات، ثم أقام معهم الصلات والروابط ، وحف مشياخهم وكبراءهم بمظاهر الشرف والامتياز ، ليزيل من صدورهم مشاعر الضغينة وطلب الثأر ، ثم يعقد معهم العقود، ويكل إلى من يستطيع من عشائرهم حراسة الحدود وحراسة القوافل بأجر، ويجند من يقبل منهم فى فرق خاصة مثل فرق القوزاق الشهيرة فى روسيا القيصرية ومثل فرق الهجانة التى عرفناها فى مصر من جنود السودان فى النصف الاول من القرن العشرين . بلغ من جندهم محمد على فرق البدو نحو خمسة آلاف مقاتل .

وهو مع كل ذلك يعمل لاحتمالات الغدر حسابه ويعتبر ان سوء الظن من حسن الفطن، فهو مع معاملته شيوخ القبائل والعشائر بالاحترام البالغ يأخذ منهم الرهائن من أولادهم ليكونوا تحت سيطرته أن بدا من الرؤساء نكول عن الوعود . ثم هو ينزع منهم أسلحتهم وأجود جيادهم ليلزمهم بالاستقرار وعدم التنقل وليستقروا فى الأرض. ثم هو يؤدب القبائل المتمردة بالقبائل المتصالحة.

ثم أقطع الكثير من القبائل الاراضى الصالحة للزراعة ، وبخاصة فى مناطق الاتصال بين أرض الوادى المزروعة وبين الصحارى ، وبخاصة فيما نعرفه اليوم باسم محافظة الشرقية شرق الدلتا محافظة البحيرة غرب الدلتا ثم فى محافظات الصعيد كلها.

ثم أن محمد على بعد ذلك كان يحتاج الى خبرات فنية أجنبية، عسكرية ومدنية ، وفى ذلك استقدم الخبراء الاجانب من أوروبيين ويونان وأرمن وغير ذلك استفاد منهم فى نظم الادارة الجديدة وفى التعليم الفنى لعلوم الصنائع وفنونها وفى تدريب قواته وبناء جيشه وفى إنشاء كليات الطب والهندسة ونحوها واختار من الأوروبيين خبراء من فرنسا على وجه الخصوص، لأن فرنسا كانت قوة أجنبية خرجت من مصر ولم يكن يحتمل وقتها أن تعود طامعة فيها من جديد ، وكانت بعد فشلها فى احتلال مصر، استعاضت عن الاحتلال العسكرى بالسعى لتوثيق الروابط مع الحاكم القوى الجديد ودعم نفوذه فاستغل محمد على ذلك بالاستفادة من خبرة مواطنى أقل القوى الأوروبية الكبرى احتمالا فى الطمع فى السيطرة المباشرة على مصر.

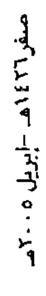
هذا كله عن طريقة الوالى الكبير فى اعادة بناء دولته بالمتاح من الإمكانيات الفنية والتقليدية اى ما يمكن أن يسمى «بالمشروع العاجل قصير الأمد» ، ويبقى بعد ذلك ويتداخل مع هذا القائم، ارساء الأسس التى يقوم عليها البناء الحديث للدولة . ■





محمد علي وتدوين مذكراته

بقلم
د.عبد المنعم إبراهيم الجميعي



ظفرت المكتبة العربية فى السنوات الأخيرة ببحوث شتى، ومؤلفات لها قيمتها، ودراسات تحليلية جديرة بالإعجاب والتقدير عن «محمد على» مؤسس نهضة مصر الحديثة، خاصة وأنها إستندت على وثائق أصلية ومصادر جديدة ذات إضافات واضحة، ومع ذلك فإن أحداً لم يفكر فى الكتابة عن اهتمامات محمد على بالتاريخ ورغبته فى قراءة كتب القادة العظماء، وقراءة تاريخ الدول المختلفة، أو فى تأليف كتاب يشمل انجازات عصره التى أحدثها فى مصر. أو عن رغبة محمد على فى كتابة مذكراته كما فعل غيره من قادة وزعماء العالم فى أوروبا فى القرن التاسع عشر. ومن هنا نبتت فكرة كتابة هذا الموضوع .

لقد أقبل محمد على قراءة التاريخ، واقتنع بنفعه وفائدته فى الحكم بعد أن استمع الى نصيحة القنصل الروسى الكولونيل «دوهامل» Duhamel الذى كان قريب الصلة منه، ونصيحة الفيلسوف الانجليزى «بنتهام» الذى عاصر فترة طويلة من حكمه فقد نصحه القنصل الروسى بأن يقرأ التاريخ حتى يصبح رجلاً عظيماً نظراً لأنه يستفيد من خبرات الملوك والقواد والمصلحين الآخرين، ويتجنب أخطائهم، ويمكنه من المحافظة على عرشه.(١) ونصحه الفيلسوف والمتشرع الإنجليزى الشهير جيريمى بنتهام(٢) بقراءة مقالات «فولتير» وتاريخ الهند، وتاريخ انجلترا، والتاريخ العام وتاريخ الثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية، وتاريخ الإسلام والروسيا والحروب الدينية حتى يستطيع التعرف عما يدور حوله من أحداث.

ونتيجة لاقتناع محمد على بهذه النصائح بدأ يتفحص عن طريق معاونيه الكتب التاريخية التى تتعرض لنظم الحكم ولمنهج بعض الزعماء السياسية حتى يستفيد من خبراتهم، ولما سمع بالضجة التى أثيرت حول كتاب «الأمير» The priuce للسياسى الايطالى «نيقولا ميكافيللى» Niccolo Machiavelli أمر بترجمته فترجمه الأب «أنطون رفائيل زاخور راهبة» من الايطالية إلى العربية فى عام ١٨٢٨ تحت عنوان «الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير».(٣) وكانت فلسفة هذا الكتاب تنحصر فى أن الغاية تبرر الوسيلة، وإعطاء وصايا وإرشادات للحاكم كى يستفيد منها اثناء حكمه كأن يعمل لخير شعبه حتى يأمن كراهيته، وفى نفس الوقت يكون طاغية وغادراً حتى يرهبه الناس، ويستطيع الإستمرار فى الحكم. وبعد أن إطلع محمد على على هذا الكتاب ولم يجد فيه أكثر مما كان يتبعه قال «أعترف بزننى قد وجدته أقل بكثير مما عنت أتوقع ومن الشهرة التى له». ونتيجة لذلك فضل محمد على مقدمه ابن خلدون التى ترجمت له إلى التركية على هذا الكتاب.

وإلى جانب ذلك فقد حاول محمد على التعرف على مادار خلال فترة الحملة الفرنسية على مصر فأمر بترجمة كتاب «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» لعبد الرحمن الجبرتى من العربية إلى التركية والذي يعد بمثابة وثيقة تاريخية هامة لإحتوائه على مجموعة من المنشورات والبيانات والمكاتبات الرسمية التى أصدرتها سلطات الاحتلال الفرنسى بمصر، ولكنه لم يطق صبراً بما كتبه الجبرتى عنه فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار فعندما وقف على مافيه من طعن في سياسته أمر بإحراقه

وعلى أى حال فعندما أحس محمد على بفائدة قراءة الكتب التاريخية فى توسيع مداركه السياسية خاصة وهو يقوم على بناء دولة حديثة وفى حاجة إلى خبرات الآخرين، وبشغفه الشديد لمعرفة تراجم العظماء والقادة والمصلحين وتجاربهم، ومعرفة حوادث الأمم ونظم

الحكم فيها. رأى ضرورة ترجمة العديد منها بواسطة موظفيه في السوريين واليونايين والاتراك الذين يتقنون اللغتين الفرنسية والتركية، ثم عن طريق مدرسة الألسن بعد افتتاحها في عام ١٨٣٥. ثم طبعها في مطبعة بولاق حتى تعم فائدتها، ونظراً لأن رفاعة الطهطاوى ناظر مدرسة الألسن كانت لديه تجربة فريدة في كتابة التاريخ أثناء بعثته في باريس خاصة بعد أن كتب كتابه «تخليص الابريز في تلخيص باريز» والذي كان مصدراً مهما لدراسة البعثة المصرية التي أرسلت إلى باريس عام ١٨٢٦ فقد تطابقت رغبة رفاعة مع رغبات ولى النعم مما أدى إلى قيامه بالاشتراك مع تلاميذه بترجمة بعض الكتب التاريخية خاصة التي طلب الباشا أو ابنه إبراهيم بترجمتها ومن هذه الكتب كتاب كان نابليون بونابرت قد كتبه بخط يده وهو جزء من مذكراته عندما كان منفياً في «سانت هيلانه» وعنوانه.

Extrait du mearial de sainte helene وقد تمت ترجمته إلى التركية وطباعته في مطبعة بولاق في عام ١٨٣٢.

وقد بلغ من اهتمام محمد علي بقراءة كتب التاريخ أنه لما رغب في قراءة كتاب عن تاريخ الإسكندر الأكبر، ولم يتيسر له ذلك طلب من صديقه «المسيو لموسيجة» قنصل اليونان في مصر مساعدته في ذلك فأرسل «لموسيجه» إلى بطريرك الروم الارثوذكس خطاباً يقول له فيه «كلفني سعادة افندينا أن أكتب لكم لعلكم تجدون في مكتبة البطريركية كتاباً خاصاً بحياة الأسكندر الأكبر ويود سموه استعارة هذا الكتاب لترجمته إلى التركية، وإذا كان هذا الكتاب غير موجود لديكم فمن أين يستطيع سموه أن يحصل عليه، أمن دير سيناء أم من الآستانة (٨). ويبدو أن بطريرك الروم أرسل إلى محمد على كتاباً عن تاريخ الإسكندر الأكبر، ويؤكد ذلك انه تم ترجمة كتاب بهذا العنوان إلى التركية وتم طبعه بمطبعة بولاق في عام ١٨٣٩.

والمتصفح للكتب التى قامت مدرسة الألسن بترجمتها، والمؤلفات التى قامت مطبعة بولاق بطبعها خلال فترة حكم محمد على يجد أن علم التاريخ يأتى فى المرتبة الثانية من حيث الكتب المترجمة بعد الكتب العسكرية كما يجد أن الكتب التاريخية المترجمة فى معظمها عبارة عن إما تراجم لشخصيات تاريخية أو مؤلفات عن تاريخ بعض الدول، وتاريخ لمشاهير الشخصيات التاريخية.

علاقة محمد على بالسلطان

والجدير بالذكر أن اختيارات محمد على فى طبع الكتب التاريخية كانت تخضع أحياناً لظروف سياسية فقد خضعت هذه الكتب التى ترجمت وطبعت فى مصر لعلاقة محمد على بالسلطان العثمانى، فعندما تكون العلاقات طيبة، ويكون الوفاق بينهما واضحاً تظهر صورة ذلك فى طبع الكتب التى تؤازر مواقف الدولة مع أعدائها وعلى سبيل

المثال نذكر أنه تم ترجمة وطبع كتاب «تاريخ انورى» فى الدولة العثمانية اثناء طلب السلطان من محمد على مساعدته فى القضاء على الثوار ببلاد اليونان، وبعد انتهاء حروب المورة عام ١٨٢٧ بالخلاف بين السلطان ومحمد على تم طبع كتاب تاريخ «كاترين الثانية» امبرطورة الروسيا، خصم السلطان وعدو الدولة العثمانية الأول.

وربما كان لالتجاء «شارل الثانى» ملك السويد إلى السلطان العثمانى ونجاح الدولة العثمانية فى هزيمة روسيا فى إحدى المواقع سبباً فى طبع كتاب «مطالع شموس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر» فى وقت كان محمد على يريد إرضاء السلطان العثمانى بعد معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وصدور فرمان عام ١٨٤١، (٩) والضغوط الدولية التي فرضتها الدول الأوروبية على محمد على للإنضواء تحت سلطة السلطنة العثمانية.

ترجمة السيرة النبوية

ولم تقتصر اهتمامات محمد على على الأستفادة من التاريخ الأوروبى بل تطرق اهتمامه إلى التاريخ الإسلامى فأمر بترجمة السيرة النبوية إلى التركية فترجم سعيد أحمد (السيرة الحلبية) وطبعت بمطبعة بولاق في عام ١٨٣٣ هذه أمثلة للكتب التى ترجمت فى عصرمحمد على وبأمره، والتى عن طريقها تعرف على ماقام به القدماء من انجازات ومشروعات حتي يقوم بأعمال تماثلها ومما يؤكد ذلك أنه أصدر أمراً فى عام ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م إلى ديوان المالية يوضح فيه أنه اطلع فى الكتب التاريخية أن مؤسس الترعة الاشرافية (وهى تبدأ من ساحل مرقس بالبحيرة) والتى كان يرغب في تجديدها - هو الاسكندر الاكبر ومن معه من حكماء اليونان ثم اندثرت، وفي زمن استيلاء الأكراد على مصر تجددت بأمر السلطان الأشرف ثم اندثرت، وأنه كلف «شاكر أفندى» المهندس بمباشرة فتحها، وبذل المهمة فى ذلك.

ومما لاشك فيه أن الكتب التاريخية التى تم ترجمتها وطبعت فى عصر محمد على قد افادته كثيراً فى معرفة ما يدور حوله في العالم من أحداث وفي معرفة ما قدمه الأقدمون من إضافات للبشرية.

ولم يقتصر الأمر على رغبة محمد على فى تثقيف نفسه فحسب بل رغب فى نشر الثقافة التاريخية بين طلاب المدارس لدرجة أنه وافق على إدخال مادة التاريخ كعلم لأول مرة فى تاريخ التعليم فى مصر فى بعض المدارس، ففى مدرسة المدفعية تم تخصيص أحد الفصول ليقوم رفاعة الطهطاوى بتعليم طلابه علم التاريخ. أطلق رفاعة على هذا الفصل اسم المدرسة وقد أشار إلى ذلك فى مقدمة كتاب «التعريبات الشافية» الذى قام بترجمته فقال:«لما سمحت مشورة الجهادية ذات الآراء السنية الذكية أن أفتح لفنون الجغرافيا والتاريخ مدرسة تكون على قراءة هذه العلوم مؤسسة لتشتهر ثمراتها الزاهرة». يضاف إلى ذلك أن لائحة مدرسة الإدارة الملكية كانت

قد نصت على أن يقدم للتلاميذ كتب في التاريخ تترجم لهم من الفرنسية درساً درساً حتى إذا تمت ترجمة كتاب منها وضبطت مصطلحاته يتم طبعه بمطبعة بولاق.(١٢)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تم ادخال مادة التاريخ ضمن مناهج طلاب المدرسة التجهيزية كما يتضح ذلك من لائحة هذه المدرسة الصادرة في عام ١٨٣٧ فكان يدرس لطلاب السنتين الثالثة والرابعة فيها مادة التاريخ، وكان الكتاب المقرر عليهما هو «بداية القدماء وهداية الحكماء» الذى ترجمه رفاعة من الفرنسية إلى العربية فكان طلاب السنة الثالثة يدرسون القسم الأول منه، ويدرس طلاب السنة الرابعة الجزء الآخر.(١٣)

وإلى جانب ذلك فعندما تأسست مدرسة الألسن فى عام ١٨٣٥ تم ادخال مادة التاريخ ضمن مناهجها، كما تم تزويد مكتبتها بكتب تاريخية اشتريت لها من فرنسا، (١٤) كى تغطى تاريخ العالم فى عصوره القديمة والوسيطة والحديثة.

والسؤال المطروح هو هل كانت مادة التاريخ التى استحدثت فى المدارس المصرية فى عصر محمد على تناول تاريخ مصر القومى أو سيرة مصر والمصريين؟

الواقع أن ذلك لم يكن فى حسبان محمد على الذي لم يكن يهمه فى قليل أو كثير تعريف المصريين بتاريخهم القومى أو بأمجاد أجدادهم القدماء بقدر ما يهمه تعريفهم بحضارة أوروبا الحديثة التى أراد نقلها لبناء دولته الحديثة لذلك كان التاريخ القديم أقل حظاً من عناية محمد على وأن لم يهمله تماماً، كما كان تاريخ العصور الوسطى والحضارة العربية الإسلامية كذلك خاصة وأن العثمانيين عموماً لم يكترثوا بالعمل على إحيائها.

انعدام القراءة

وحول استفادة المصريين من الكتب التاريخية التى طبعت في عصر محمد علي. ففى تصورنا أن الاستفادة منها كانت محدودة، حيث لم يعكف على قراءتها سوى محمد علي وأبنائه وقواده وكبار موظفيه هذا بالاضافة إلى بعض طلاب المدارس التى ادخلت مادة التاريخ ضمن مقررات دراستهم، وربما يرجع ذلك إلى انتشار الأمية بين أغلب الأهالى، وانعدام عادة القراءة لدى المتعلمين منهم.

وإلى جانب ذلك فقد فكر محمد على فى نشر تاريخ لمصر فى عصره تحت عنوان «روضة العمران» ولتحقيق ذلك الغرض أرسل عدة منشورات إلى جميع المصالح الحكومية بعمل كشوف بها بيانات عن أعمالها، وطرق إدارة المصانع والمعامل بها تمهيداً لنشرها فى هذا الكتاب. ففى شهر رجب عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) صدر أمر من محمد علي باشا إلى ناظر الكيلار (مخازن المئونة) «بتحرير كشف بمعمل الشمع وعماله الكائن ببولاق بكيفية صناعة وعمل هذا النوع وارساله لطرفه لذكر ذلك في كتاب التاريخ الجارى تأليفه والمسمى روضة العمران».(١٥) وصدر أمر إلى الموسيو «موسيم» فى غرة شعبان بتحرير كشف



واضح به ما صار تشغيله من معدن الشب وكيفية عمله، والعملة الشغالة بالفاوريقة التى انشئت بهذا المعدن بالواحات وبيان محالها وارساله لطرفه لضرورة ذكر ما توضح بتاريخ «روضة العمران» الجارى جمعه. وصدر أمر منه إلى محافظ دمياط في غرة شعبان بتحرير كشف بالعزب وقلاعها والجبخانات ودوائر الأرز والمدقات والرصيف التى صار انشاؤها فى عصره واضح به المقاس طولا وعرضا وإرساله لضرورة درج ما ذكر بتاريخ روضة العمران.. وصدر أمر منه إلى مأمور ترعة المحمودية بتحرير تاريخ الترعة وطولها وعرضها ومقدار العمال الذين اشتغلوا فى فتحها لدرجه فى كتاب «تاريخ العمران». هذا إلى جانب العديد من الأوامر التى أرسلها محمد على إلى كبار موظفيه فى هذا الشأن.(١٦)

ولما تم جمع الأوراق الخاصة بذلك كلف محمد على لجنة مكونة من «مختار بك» و«كانى بك»، و«أرتين أفندى»، و«يوسف أفندى»، و«اسطفان أفندى» لترجمة ماتم جمعه إلى اللغة الفرنسية وقد طبع هذا الكتاب كما يذكر أمين سامى بمطبعة بولاق فى عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م) باللغتين العربية والفرنسية شاملاً كل التفصيلات التى يعلم منها كيف تأسست إدارات ومصالح القطر المصرى كتأسيس المدارس والجندية البرية والبحرية وانشاء السفن والمعامل على اختلاف أنواعها، وانشاء فروع فى أنحاء القطر المصرى للأقسام الهندسية والمكاتب الصحية.(١٧)

وعلى الرغم من تأكيد أمين سامى بطبع هذا الكتاب، فانه لا يوجد ما يثبت وجوده، ولا أحد يعرف عنه شيئاً، ولكن يرجح كما ذكر أستاذ المؤرخين «شفيق غربال» أنه يكون قد أفاد من هذه البيانات والإحصاءات الرسمية التى تم جمعها كل من الدكتور «بورنج» فى تقريره عن مصر، والدكتور «كلوت بك» فى كتابه «لمحة عامة عن مصر».

هذا عن رغبة محمد علي فى تأليف كتاب عن تاريخ مصر فى عصره أما ماتردد حول رغبته في كتابه مذكراته الخاصة فقد تحدث محمد علي عن ذلك للقنصل الروسى «لافيزون» فى عام ١٨٣١ قائلاً «إن مشاغلى الكثيرة لا تمنعنى من تسجيل تفاصيل حياتى السياسية، وإن المؤرخين الذين تحدثوا عنى منذ ارتقائى عرش مصر حتى الآن قد ارتكبوا عدة أخطاء».

حياة حافلة بالوقائع

كذلك تحدث محمد على إلى السائح الانجليزى «سانت جون» قائلاً «أنا لا استهتر بحكم التاريخ، وأقطع دليل على ذلك هو أننى مهتم منذ وقت طويل بتسجيل حياتى، وكلما انتهزت بعضاً من الوقت الذى أكرسه للمسائل العامة استدعيت السكرتير المنوط بهذا العمل، وأمليت عليه مذكراتى، وهو يدونها دون أن يغير كلمة واحدة من أقوالى.

«إن حياتى حافلة بالوقائع وسأتحدث



عن طفولتي وشبابي قبل قدومي إلى مصر، وسأصف حالة البلاد حين وصولي إليها، وجميع الوقائع التي طرأت في أثناء فتح النوبة وسنار وكردفان والحجاز وسورية مهما تكن خطورتها. إن هذا العمل مضن وأوقات فراغي معدودة».

وسأل السائح «هاريس» الذي كان موجوداً خلال هذه المقابلة: لماذا لا يكلف الباشا أحد الضباط كتابة هذا التاريخ. لأن هذا الكتاب سيكون له قيمة كبيرة في المستقبل. فأجاب محمد على «إني أعنى بهذا الأمر شخصياً، ولم أكلف أي شخص عمله، ولدى منذ سنين كاتب أملي عليه ما أريده في أثناء فراغي، وأطلب منه تدوين تطورات حياتي، والاشارة إلى حالة مصر عندما تسلمت زمام الحكم فيها». والمعروف أن «لوبير» بك الفرنسي كان يقوم بتدوين تاريخ الأسرة العلوية علاوة على مهماته الأخرى.(١٨)

ومن المؤسف حقاً أن التطورات العسكرية والسياسية شغلت جميع أوقات محمد على لدرجة أنه أهمل تسجيل تلك المذكرات وطبعها لقد تحدث محمد على إلى الاقتصادي الانجليزي «جون بورنج».(١٩) فقال نصحني بعضهم بدراسة التاريخ لأتعلم منه كيف أحكم بلادي، ولكني الآن متقدم في السن ولا أستطيع أن أواصل دراسته، كما انني لست رجل الفاظ بل رجل أعمال، فعندما كتب إليَّ ولدي إبراهيم يطلب تعليماتي عندما أحاطت به الصعاب وجدت أن خير تعليمات له هو أن أذهب بنفسي، فسافرت إلى «يافا» وأخضعت الفتنة هناك وهذا هو الحكم العملي للتاريخ.

هذه كانت خطة محمد على في الحكم وهي العمل لا الكلام غير أن تاريخه يثبت أنه لم يهمل النصحية بالأقبال على قراءة كتب التاريخ والتراجم ونظم الحكم بوازع أدل من نفسه، ووازع آخر من هذه النصائح وأبسط الأدلة على ذلك إصدار أوامره بترجمة الكتب التاريخية عن اللغات العربية والايطالية والفرنسية إلى لغته الأصلية التركية.(٢٠)

وهكذا كان اهتمام محمد على بالتاريخ وبكتابة مذكراته واضحاً رغم أنه لم يتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن تجاوز الأربعين من عمره.

لقد نجح محمد على في توطيد دعائم النهضة المصرية الحديثة حيث أرسى دعائم النهضة التعليمية، ووضع قواعد النهضة الاقتصادية، وأنشأ حكومة مركزية لم تعرفها مصر قبل عهده، وبنى الجيش والأسطول بهدف الاحتفاظ بمصر وتقويتها والقدرة على الدفاع عنها، وحاول إقامة دولة قوية تمتد حدودها من جبال طوروس شمالاً إلى أقاسي السودان جنوباً.

حقيقة قد عاني المصريون العديد من مظاهر الإرهاق والمظالم المتعددة في عصره، ولكن هذه المظالم إذا قيست بالعصر الذي سبقه فإننا نجدها أخف وطأة منه.

وعلى أي حال فقد توفي محمد على



في الثامن من أغسطس عام ١٨٤٩ عن عمر يناهز الثمانين عاماً تاركاً للتاريخ حكمه عليه وعلى أعماله، على الرغم من النكسة التى أصابت الحياة الثقافية في عهد حفيده عباس الأول.

---

١ – جمال الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على من ١٦٥

٢ – رسالة مصدرها المتخذ البريطاني بلندن وقام بترجمتها ونشرها الاستاذ محمد رفعت أنظر المقتطعت فى يونيو ١٩٢٢ تحت عنران ذكرى محمد على الأكبر.

٣ – قام الأستاذ محمد لطى جمعة بترجمة هذا الكتاب ترجمة أخرى بعد ذلك وطبع فى القاهرة عام ١٩١٢

٤ – من حسن الحظ أن ظلت نسخة من المخطوط بعيدة عن عيون محمد على، وعباس الأول وسعيد باشا ثم ظهرت فى عصر أسماعيل وأرسلت الى مطبعة بولاق لطبعها ولما بلغ الطبع أخر المخطوط وجد به الكثير من النقد لمحمد على ولإصلاحاته مما جعل «حسين بك حسنى» ناظر المطبعة وقتذ يخشى من أستكمال طبعه، وأشفق على نفسه من القيام بهذا العمل ولما عرض الأمر على المسئولين قامت الحكومة بحذف بعض الألفاظ الشديد التى كتبها الجبرتى ضد محمد على، وأبت علي بعض من النقد وبعد أن تم ذلك ثم أحرق مخطوط التاب بأمر من الحكومة ابوالفتوح رضوان : تاريخمطبعة بولاق ص ٢٨٩

5- Vatikietis, P.J : the Modern History of egypt. london 196p .56-5.

6- Bowringn, Reort on egypt and condia london 18 4p.

للتفاصيل انظر كتابنا مدرسة الالسن وتطور حركة الترجمة

٧ – أنظر وثائق عابدين محفظة ٢٤٣ ١٥٢، وأسد رستم: بيان وثائق الشام، المجلد الثانى من ٢٥٢

٨– الأهرام فى نوفمبر ١٩٤٩

٩ – نادية عبد الحافظ. حركة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية البنات جامعةعين شمس ١٩٩٥ ص ٣٤ – ٣٥

١٠ – الأهرام فى نوفمبر ١٩٤٩

١١ – جمال الشيال: التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع ص ٥٤

١٢ – جمال الشيال: رفاعة رافع الطهطاوى ١٨٠١ – ١٨٧٣ ص ٣١–٣٢

١٣– أحمد عزت عبد الريم : تاريخ التعليم فى صر محمد على ص ٢٢٨ – ٢٢٩

١٤ – دار الوثائق القومية: دفتر رقم ٢٠٢١ ديوان المدارس، جلسة ٢١ القعدة ١٢٥٢ ومحافظ الأبحاث: تعليم، محطة ٦١ تحت عنوان التقرير الفرنساوى المقدم لامتحان تلاميذ مدرسة الألسن

١٥ – أين سامي:تقويم النيل حـ٢ ص ٤٢٩

١٦ – للتفاصيل: أنظر اين سامي: المربع السابق حـ ٢ ص ٤٢٩ –٤٣٠

١٧ – اين سامي : مزجع سابق ص ٥٧٩

١٨ – الأهام: وفمبر ١٩٤٩ تحت عنوان محمد على يملى مذكراته.

١٩ – قدم إلى مصر فى عام ١٨٣٧ موفدا من قبل الحكومة الأنجليزية لوضع تقرير عن أحوال مصر.

٢٠ – الشيال : مرجع سابق ص ١٦٦

تأنيث ألقاب الوظائف

لغويات

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

من قواعد اللغة العربية الأساسية التفرقة بين المذكر والمؤنث بتاء تلحق الفعل حين يكون الفاعل مؤنثاً، وتلحق الصفة حين يكون موصوفها كذلك، وجوبا أحيانا وجوازا أحيانا أخرى.

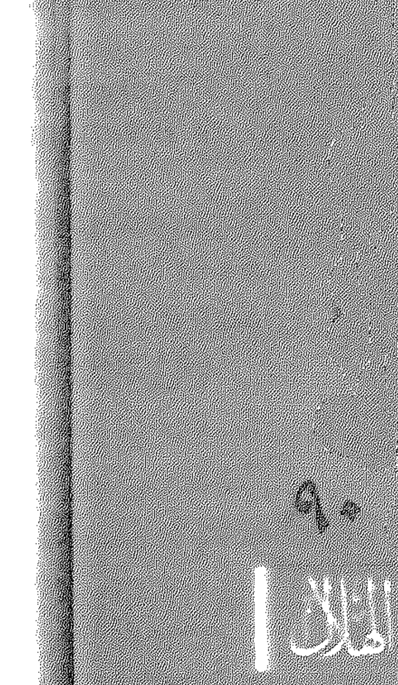
فى أواخر الأربعينيات قادت الدكتورة درية شفيق حركة تحرير المرأة المصرية على طريقة «هوانم جاردن سيتى»، تدور حول نساء الطبقة العليا، والوظائف العليا التى يجب أن يتاح لهن شغلها، والحقوق السياسية لهن، وتصدر مجلة «بنت النيل»، فى ورق جميل، وطباعة فاخرة، تليق بالمستوى الاجتماعى لمن تصدرها وتحررها ولمن يكتب فيها ومن يقرؤها.

وكان من بين مادعت إليه حذف تاء التأنيث من اللغة العربية لتتساوى المرأة بالرجل فى الخطاب، وأثارت الدعوة سخرية سوداء بين الرأى العام، فقد رآها ترفا تشغل به مجموعة من النساء الأنيقات المعطرات أوقاتهن، فى بلد غالبية المرأة فيه غارقة فى الأمية والفقر والمرض، وبهذه الثرثرة يجدن طريقهن إلى وسائل الإعلام.

وطوى النسيان الدكتورة ودعاواها، وكانت نهايتها أليمة ومأساة.

مع تولى المرأة الآن الكثير من الوظائف المختلفة على نحو يكاد يتساوى مع الرجل برزت الحاجة إلى وصف المرأة بلقب بالمنصب الذى تتولاه أستاذة أو طبيبة أو مديرة أو وزيرة أو نائبة وغيرها، مما دعا لجنة الأصول فى المجمع اللغوى إلى التعرض إلى هذه القضية عام ١٩٧٨، ورأت: أن نهج العربية أن تطابق الصفة موصوفها، تذكير أو تأنيثا، ولكن الذوق الحديث يميل إلى حذف العلامة إذا كان اللفظ اسما لوظيفة عامة يشغلها الرجال والنساء على السواء، فيقال مثلا: الدكتورة إحسان أستاذ الأدب العربى، والدكتورة مرفت وزير الشئون الاجتماعية، وفاطمة النائب فى البرلمان... وهكذا، وقدمت اللجنة شواهد على اقتراحها من التراث العربى. ■

« البقية العدد القادم »



القطن

فى الحياة المصرية

بقلم : مصطفى نبيل

على كل جيل أن يعرف طريقه.. فحاضره ومستقبله يولد من رحم التاريخ..
هيا عزيزى القارىء.. أدعوك إلى رحلة بين صفحات التاريخ، لعلنا نبتعد قليلا عن السياسة، التى يكثر عندها الكلام ويقل الفعل، نبحث عن تأثيرات القطن، أو الذهب الأبيض، على الحياة المصرية، ونتابع دراما متعددة الأبعاد فى ملحمة حياة الفلاح المصرى.
ويفاجئك امتداد تأثير الكثير من الأحداث الدولية، على حجم إنتاج القطن وعلى أسعاره، تلحظ ذلك منذ احتكار الأستانة لمحصول القطن المصرى وحتى الحرب الأهلية الأمريكية، ومن الحرب الكورية وحتى سقوط الاتحاد السوفييتى!



ولتكن بداية الحكاية منذ عصر محمد على..

زمان.. كان القطن، مثل النفط اليوم، مصدرا رئيسيا للدخل.. يقوم النساء بغزله فى البيوت، وتصديره، وكانت السيطرة على البلاد تعنى السيطرة على القطن.

ونقرأ فرمان عثمانيا صدر إلى محمد على (١٧٦٩ - ١٨٤٩م) والى مصر، فى أوائل شعبان سنة (١٢٢٥هـ - ١٨١١م)، يأمر بعدم تصدير محصول القطن لأى دولة سوى الأستانة العلية، كما طالب الفرمان.. «بضبط السفن المشحونة بالقطن حتى وإن كان أربابها من أتباع الدول الأجنبية..» ويطالب بضرورة احتكار تلك المحصولات..

وحدث تطور كبير فى زراعة القطن خلال حكم محمد على، فزاد محصوله والارتقاء برتبته والوصول به إلى القطن طويل التيلة..

كان القطن المألوفة زراعته حتى سنة ١٨٢١ من صنف قليل الجودة يستخدم معظمه فى صنع الوسائد والحشايا، وكان هناك صنف نادر يزرع فى بعض الحدائق، يفوق غيره، فهو ناعم وطويل التيلة، يزرع كأشجار الفاكهة. ورأى مسيو «چوميل» الذى جاء من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج شجرته فى حديقة محو بك (حكمدار السودان)، فاقترح أن تعمم زراعته..، وأطلق على هذا النوع عند المصريين اسم «محو» وعند الفرنسيين «چوميل» الذى دعا إلى استخدام تقاويه.

وتغير العديد من جوانب الحياة المصرية..

أدت زراعة القطن إلى اهتمام محمد

على بالكشف عن الترع القديمة، وحفر ترع جديدة، وإنشاء عدد من السواقي والشواديف لرفع المياه من الترع عندما يهبط مستوى النهر خلال فصل الصيف في وقت زراعة القطن. وصنعت مكابس آلية بأمر الباشا، واتسعت رقعة الأرض المستغلة في زراعة القطن.



ويسجل «آمين باشا سامي» مع أرقام مقياس النيل ما بلغه محصول القطن كل عام ومتوسط سعره، في كتابه القيم «تقويم النيل». وأصبح القطن المصرى ينافس عن جدارة القطن الأمريكي. وأقبلت على طلبه مصانع النسيج في كل من فرنسا وانجلترا.

بعد أن أدرك محمد على ما تحصل عليه البلاد من أرباح كبيرة إذا زاد إنتاجه، اشتراه بأثمان مرتفعة حتى يشجع على زراعته. وشهدت البلاد طفرة هامة في هذا الإطار، فأصبح بعضه يصدر بعد غزله في البيوت، إلى جانب قيام عدد من مصانع الغزل والنسيج في هذه المرحلة المتقدمة من التاريخ الحديث.

وقامت سياسة محمد على على ضرورة معاملة الفلاح معاملة لائقة، لضمان زيادة الإنتاج.. ومن أقواله في هذه الحقبة.. «لتهتموا براحته، وتزيدوا أجره، حتى ينكب على العمل وهو راض».

ولم تكن كل الأيام لبنا وعسلا، فبعد الحروب الخارجية، جرى تحويل المصريين إلى سجناء في قراهم، وأيضا بسبب القطن، ذلك خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر، عندما صدر مرسوم حكومي في يناير ١٨٣٠، حدد حركة أبناء الريف بمسقط رأسهم، واشترط حصولهم على تصريح بالانتقال، بل وحصولهم على بطاقات إذا رغبوا في الانتقال خارج قراهم.

وكان الحرص على زيادة إنتاج القطن هو الهدف من بقاء الفلاحين في قراهم مما استلزم رسم حدود أماكنهم بدقة، وتحديد الكميات والحصص المطلوبة منهم .

وخضع الريف لنظام صارم لصالح أصحاب الأرض، وبدأت قصص فرار الفلاح الأجير من قريته. ويحضرني هنا في السيرة الذاتية للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فرار عائلته من قريته هربا من الاضطهاد والقهر. ونجد أن الحكومة تصدر في أبريل ١٨٤٤م مذكرة جاء فيها .... «إن الزراعة تهدف إلى رفاهية وسعادة الأهالي، ومن الضروري أن يعود الذين تغيبوا إلى قراهم..»، ووصل الأمر

إلى الحكم بالإعدام على من يأوى الفلاح الهارب!.

وقدم القطن الدروس والعبر، حتى كاد يقرر مصير مصر كلها.. وأصبحت ذبذبة أسعار ومساحة القطن، لا تعود إلى عوامل داخلية أو ضوابط طبيعية بقدر ما ترجع إلى عوامل خارجية نائية، خاصة بعد أن استقلت الزراعة عن ذبذبات الفيضان، وانحصر الضابط فى الأسواق الخارجية..

الحرب الأهلية الأمريكية

كان القطن من أهم الأسباب التى وقفت وراء المصير المظلم والنهاية الدرامية لحكم الخديو إسماعيل، فرغم أن الشائع هو تضخم الديون بسبب البذخ والإنفاق السفيه، لا يذكر أحد أسباب العجز الذى أدى إليه هبوط أسعار القطن بعد ارتفاعها خلال الحرب الأهلية الأمريكية.. مما أدى إلى تدخل صندوق الدين، وما حدث بعدها من تداعيات انتهت بضرب الإسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ ودخول قوات الاحتلال البريطانى..

عندما قامت الحرب الأهلية الأمريكية، تزايد الطلب على القطن المصرى، وانتشت البلاد بثروتها المفاجئة الناشئة عن ارتفاع ثمن القطن، وخاصة فى ظل طلب القطن المصرى طويل التيلة، والذى ارتفعت أسعاره ثلاثة أمثال ما كان عليه.

وعندما تولى إسماعيل الحكم سنة ١٨٦٣م، اعتمدت الدولة على حالة الرواج القائمة والناتجة من ارتفاع أسعار القطن، ولكن سرعان ما انخفضت هذه الأسعار فى أعقاب توقف الحرب الأهلية الأمريكية، وتراجع استهلاك القطن المصرى فى الأسواق الخارجية، وجاء انحسار الأسعار ليخلف العديد من المشاكل، المديونيات المستحقة للسداد، الخطط الطموحة القائمة على التوسع مع التزاماتها، مع تزايد عبء الديون بضمان القطن.

وكان ذلك أحد أسباب اضطرار الخديو للاستدانة، وإسراع الأوروبيين إلى نزح أكبر قدر من الثروة قبل أن تهبط أسعار القطن..

ويصف الحالة البائسة دافيد لاندز في كتابه «ملوك وبشوات» ويقول.. «إذا ارتفعت أسعار القطن فى بورصة ليفربول فثمة رواج ينتظر تجار القطن، وإذا هبطت الأسعار، ضاقت السبل على الخديو فى تسديد الديون»، وهو ما وقع بالفعل...

ويروى أحد جوانب الظلم الفادح فى التاريخ المصرى.. «لقد ضحى الحاكم بكل شيء فى وادى النيل من أجل القطن.. ومصر البلد الذى كان مصدر الحبوب لكل بلدان البحر المتوسط، وقد أصبح فى الوضع الذى كان فيه استيراد الأغذية من الخارج ضروريا.. وكان أغنياء تجارة القطن الجدد سببا فى ارتفاع الأسعار بل تسببوا بإفراطهم في

الاستهلاك الترفى فى رفع الأسعار أكثر فأكثر.. ويستطيع السياسيون والموظفون أن يتحدثوا عن الدخول قبل رواج القطن وبعد رواجه.. ولما كان معظم قطن إسماعيل مكوما فى المخازن اضطر ان يقترض ! وكثير من الشركات الأوروبية ، أقرضت الفلاح، لابضمان المحصول ، وإنما بضمان الأرض.. ولم يهبط سعر القطن فحسب بل هبطت أيضا قيمة الأرض»!.

وصح وصف القنصل الفرنسى.. «ماتت التجارة المصرية بالسكتة القلبية»! ولا نملك سوى أن نقارن بين ما جرى فى أيام إسماعيل، وبين ما هو حاصل اليوم، من غياب التخطيط، والجرى وراء بعض الظواهر وحتى تلك التى تؤدى إلى عواقب وخيمة، وياليت الذين يتخذون قرارات عشوائية أن يطلعوا على تاريخ تلك الحقبة.

الحرب والثورة!

هل تم استيعاب الدرس..؟ ..فلنقلب صفحات التاريخ من جديد..

لم تبلغ مساحة القطن المليون فدان حتى أواخر القرن التاسع عشر، وبلغت المليون وثلاثة أرباع المليون فدان عشية الحرب العالمية الأولى.

بعد نهاية الحرب وعقب ثورة ١٩،



نشرت الأهرام فى خريف ١٩٢٠،.. «عادة يقترن حصاد القطن وبيعه. بعقد الزيجات، وإحياء المناسبات فى القرى، التى تشهد حالة رواج فى الأسواق من تجارة الأثاث إلى الأقمشة والملابس وحتى دكاكين الحلى الذهبية.

ومرة أخرى يشهد القطن ازدهارا وارتفاعا غير متوقع فى الأسعار . مما زاد مديونيات منتجى القطن.

وكانت السياسة البريطانية فى السودان، تشجع زراعة القطن فى أرض الجزيرة ، حتى تخلق حالة تنافس بين الفلاح المصرى ونظيره السودانى!

وعندما هبطت الأسعار إلى أقل من الربع.. وشاع تكدس القطن فى مخازن الدول الأوروبية، وانخفضت الأسعار فى أمريكا. وظهرت الأزمة علقت الأهرام بقولها.. «كلما زاد الله الأغنياء غنى زادوا شحا».

وتناولت الوثائق البريطانية أبعاد الأزمة، فكتب المستر «سكوت» ممثل المندوب السامى فى ٢٦ أكتوبر ١٩٢٠ إلى اللورد كرزون وزير الخارجية. يبلغه تدهور الأوضاع فى الريف المصرى نتيجة هبوط أسعار القطن .. «حتى أن عددا من الفلاحين فى دائرة الوالدة باشا أم

الخديو. رفضوا ترك اراضيهم بعد أن استنعوا عن دفع ايجار الأرض، ومنعوا بالقوة موظفي الدائرة تشغيل فلاحين من مناطق أخرى».

ونشرت الأهرام يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٢٠، بلاغا حكوميا، يؤكد أن الأزمة في حقيقتها أزمة عالمية وليست محلية. وهبوط سعر القطن يعود إلي أحوال اقتصادية عامة ،لا تأثير لنفوذ المنتجين عليها. وبعدها ومرة أخرى اضطرت الحكومة المصرية إلى شراء الأقطان التى لم يتم بيعها حلا للأزمة.

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، فكانت فترة الحضيض في تاريخ القطن كله ، واستلهمت الكثير من الأعمال الأدبية الأثر الفادح لهذه الأزمة على أهالي المحروسة، ومع إغلاق سوق التصدير هوت مساحة زراعة القطن!

وفي الخمسينات خلال الحرب الكورية ، دفعت الأسواق الخارجية بزراعة القطن من جديد إلى المليون فدان، وهى تعتبر ثالث مرة يبلغ فيها القطن رقم المليونين. وظلت العلاقة التنافسية بين المحاصيل التجارية من جانب والمحاصيل الغذائية من جانب آخر، أى القمح والقطن، قائمة.

وبدأ تراجع محصول القطن سنة ١٩٧٥ ، ولم تزد المساحة على مليون و٣٤٦ ألف فدان.

وظل القطن هو المحصول الرئيسي الذى يشكل محور الدورة الزراعية المصرية وأكثر محاصيلها ربحا.

التحولات الكبيرة

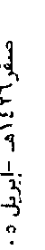
وعشنا خلال الربع الأخير من القرن العشرين، عصر التحولات الكبيرة وزمن غياب اليقين ، عصر ادعاء الأقوياء نهاية زمن السيادة الوطنية، زمن الانفلات من القيود سوى تلك التى يفرضها الأقوياء، وكان علينا دفع الثمن الفادح أمام هذه التغيرات.

وظهرت سياسات متضاربة لايجمعها نسق واحد ولا تضمها حزمة واحدة، ولا يوجد اى تناغم في تفاصيلها.

ولست هنا خبيرا في المسألة الزراعية ، ولكن مجرد مراقب لما يجرى .. فبلا مقدمات ، ألغيت الدورة الزراعية والتقسيم المحصولى، ورغم احتياج القطن إلى كمية كبيرة من المياه، وتاريخيا أهم مهمة لوزارة الري. هو الإشراف على توزيع المياه على أساس الحصص المخصصة للمحاصيل المختلفة، وتوفير النسب المتفاوتة للمياه، وهو التوزيع الذى تضعه وزارة الزراعة وتطبقه وزارة الرى.

وهذه قضية قديمة فرضها نهر النيل، وقرر مركزية توزيع مياهه ، والمركزية ليست نقيض الديمقراطية، ولكن يمكن ان تكون نقيض الفوضى!

والغريب أن هذا القرار لم يخضع - رغم أهميته - لأى مناقشة عامة، وباسم الحرية، أصبح الفلاح يزرع ما يروقه ،



وبدأت أسعار القطن فى الانخفاض، وبدأ الانصراف عن زراعته ، فقررت الحكومة شراء القطن بأسعار عالية.

وفى ظل النظام الجديد تأثرت زراعة القطن مرة من إلغاء الدعم ومرة من إلغاء الدورة الزراعية، وتغلبت الفراولة والكانتلوب على القطن والقمح، فى ظل غياب الخطة وقع التناقض أحيانا والاضطراب أحيانا أخرى. واستمرت الحيرة بين الواقع والبقرات المقدسة التى يلزم بها البعض أنفسهم.

وجاءت فترة لم يعد محصول القطن يكفى لا للمحالج ولا لمصانع الغزل والنسيج وتأثرت صناعة النسيج أقدم صناعة في مصر ، والتي تتمثل في ٢٦ شركة كبيرة ومئات من المصانع الصغيرة ، وتصل استثماراتها الي حدود ٢٥ مليار جنيه ، ويعمل فيها ما يزيد على مليون عامل ، اي ٣٠ في المائة من قوة العمل ، وينتجون ٣٠ في المائة من حجم الإنتاج الصناعى . ولم يعد يكفى للتصدير وزاد الاستيراد عن التصدير، واضطرت الحكومة لشراء المحصول رغم تذبذب أسعاره العالمية بسعر ثابت.

وفى ذات الوقت الذى نادت فيه الولايات المتحدة ومؤسساتها المالية



بضرورة الاحتكام إلى السوق، والمطالبة بإلغاء كل صور التدخل ومن بينها صور الدعم المختلفة، قامت الحكومة الأمريكية بدعم كبير لمحصول القطن لكى يغرق الأسواق، مما أدى إلى شكاوى العديد من الدول، وقدمت البرازيل هذه القضية أمام منظمة التجارة الحرة، وشاركت البرازيل العديد من الدول.

وتوقفت مراكز البحث التابعة لوزارة الزراعة عن دورها التقليدى، فى تقديم تقاو جديدة لأنواع أرقى. نتيجة عدم تجاوز ميزانيتها الأجور والمرتبات، وعدم وجود ميزانية للأبحاث.

وأحجمت الحكومة عن الخطوة التالية والضرورية ، وهى دعم صناعة الغزل والنسيج، التى تعانى أصلا من توقف التجديد والصيانة. وهى الخطوة الضرورية التالية بعد دعم إنتاج القطن، مما أدى إلى وضع أقدم وأعرق الصناعات فى مصر فى مأزق حقيقى، بعد انهيار اقتصادياتها، واختل توازنها المالى، بسبب ارتفاع أسعار القطن عن ما كان مخططا له بعد أن كانت تحصل عليه بسعر محدد ومعروف.

وأخذت تبحث هذه الصناعة على من ينقذها؟!

وما زالت القصة مستمرة. ■

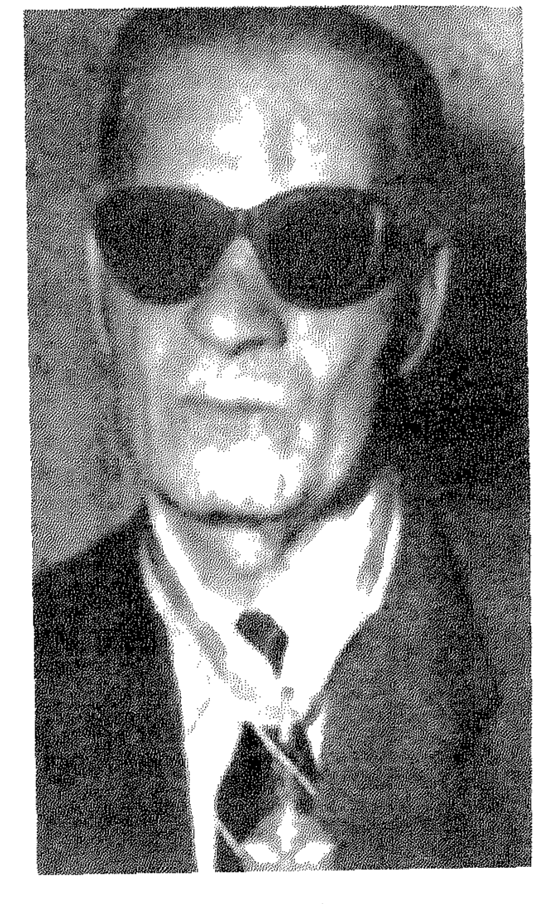
دائرة حوار

الثقافة العربية والغرب

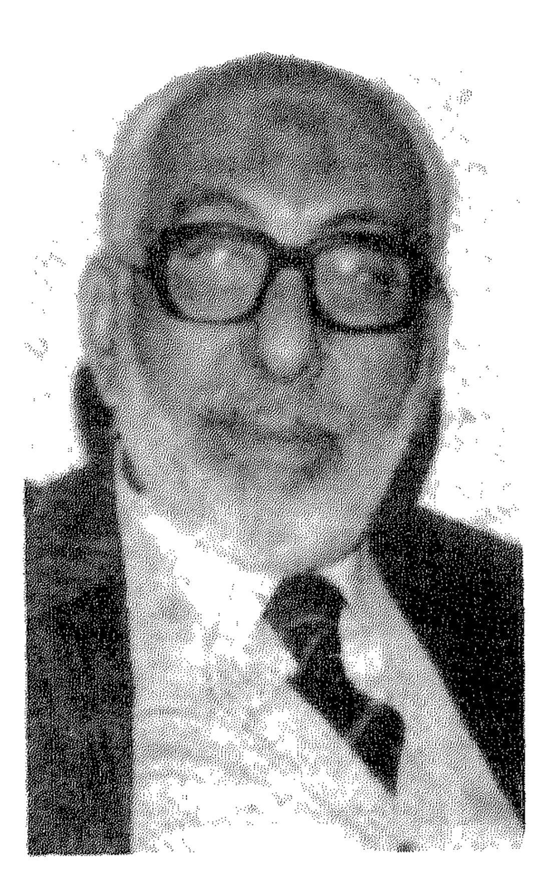
ساحة التشابك والنزاع

بقلم
د. عبد الرشيد الصادق محمودى

أود فى هذه المقالة أن أستأنف حديثاً بدأته فى الثمانينيات من القرن الماضى عن الثقافة العربية فى مواجهة الغرب فمازال هذا الحديث مناسبا لمقتضى الحال، لأن وجود الثقافة العربية فى ملتقى الثقافات يعنى فى المقام الأول أننا فى مواجهة الغرب. فنحن العرب عندما نتحدث عن الآخر إنما نعنى فى المقام الأول من يواجهوننا عبر البحر المتوسط إلى الشمال والشمال الغربى، أو لنقل أوروبا والعالم الغربى بصفة عامة. وقد تغيرت الخارطة منذ تلكم الأيام. فمن ناحية الشرق والجنوب الشرقى زاد تشابك العلاقات بيننا وبين البلاد الآسيوية بما فى ذلك إيران والهند وباكستان وبلدان الشرق الأقصى، لكننا مازلنا نولى أوروبا والعالم الغربى جل اهتمام، وقد رجحت كفة الميزان نحو الغرب البعيد نتيجة لتزايد نفوذ الولايات المتحدة، ولكن مازالت الساحة التى حددها طه حسين بيننا وبين الغرب بمنطقة حوض البحر المتوسط أوالشرق الأدنى أو الشرق الأوسط هى محط أنظارنا وأنظار من يواجهوننا إلى الشمال والغرب، وإن كانت الساحة قد اكتسبت طابعاً جديداً كما سأبين بعد قليل



طـه حسين



محمود محمد شاكر

وقد كنا بحكم هذا التوسط ومازلنا فى ملتقى الثقافات، ولكن استقبال العلوم والمعارف وسائر ثمار الثقافات من الشرق والشرق البعيد لا يكاد يثير قلقاً لدينا. أما تلقيها من الشمال والشمال الغربى والغرب البعيد فهو موضوع الاهتمام والقلق الدائمين. وذلك أن الغرب مازال هو المصدر الرئيسى للمعارف والعلوم، ومازال هو مركز الثقل من حيث العلاقات السياسية والاستراتيجية. بل إنه يواجهنا من الشرق عن طريق محمياته وقواعده. ويبدو إذن أن علاقاتنا بالعالم من هذه الناحية ذات وضع خاص فى حياتنا.

ثقافة البحر المتوسط

لقد ظن طه حسين فى كتابه عن مستقبل الثقافة «القاهرة ١٩٣٨» أن تشابك العلاقات بين

مصر وبين الثقافة الأوروبية ووجود قواسم مشتركة بينهما- وهي العقلانية اليونانية والفقه الروماني وديانة التوحيد - يعني أن ثمة ثقافة واحدة تجمع بين الطرفين، هي ثقافة البحر المتوسط. ولكن الحقيقة كما نتبينها في واقع التاريخ هي أن ثمة ثقافتين متشابكتين وإن كانتا متنازعتين، وذلك أن التراث اليوناني المشترك لم ينقل إلى الثقافة العربية دون مقاومة ولم يستقر فيها دون طبعه بطابع عربي إسلامي خاص، وأن أوروبا عندما نقلت هذا التراث عن العرب طبعته بدورها بطابعها الخاص، وكان ذلك يعني من بين ما يعني محو الطابع العربي الإسلامي أو اخفاءه. يضاف إلى ذلك أن التراث القديم الذي كان موضع تحوير هنا وهناك لم ينتقل في أي الحالتين إلا في ظل علاقات القوى والصراع: الفتوح الإسلامية التي امتدت إلى قلب أوروبا، والتنازع على السيطرة على البحر المتوسط وطرق التجارة والحروب الصليبية وإعادة السيطرة الأوروبية على الأندلس، والاستعمار الغربي بالمعنى الحديث.

تداخل أم تصارع؟

وقد يبدو إذن أن النموذج الصراعي الذي قدمه محمود محمد شاكر في كتابه عن المتنبي أو رسالة في الطريق إلى ثقافتنا «جدة- القاهرة،١٩٨٧» أقرب إلى الصواب، وإن كان ينطوي على تبسيط شديد. فشاكر يرى أن الصراع في حقيقته كان ومازال دينيا وصليبيا على وجه التحديد، وأنه يعني وجود ثقافتين تشكل كل منهما نظاما مغلقا ومكتفيا بذاته ومرتكزا على أساس من الدين أو ما قام مقام الدين، وحقيقة الأمر أن الثقافتين متداخلتان بحكم تراثهما المشترك، وإن كان التداخل ينطوي على التنازع للأسباب التي بيناها، وليس ثمة اكتفاء ذاتي ولا انغلاق. ولم يكن الدين في يوم من الأيام سدا منيعا محكما دون التبادل مع أوروبا، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن التشابك مع أوروبا والعالم الغربي بلغ حدا من التعقيد بحيث لا يمكن كتابة تاريخ أي من

الثقافتين دون الرجوع إلى الثقافة الأخرى ودون الإشارة إلى ما استعارته كل ثقافة من الأخرى.

ومازال التشابك بيننا وبين العالم الغربى يتزايد منذ ألف طه حسين كتابه، ويكفى أن نعدد على سبيل المثال لا الحصر ما يدل على ذلك، فمن هذه الناحية زاد التغلغل العربى الإسلامى فى العالم الغربى بسبب الهجرة وما اقترن بها من انتشار العمالة العربية والإسلامية وانتشار اللغة العربية والإسلام دينا وثقافة. ومن الظواهر ذات الدلالة فى هذا الصدد أن علماء العرب والمسلمين أصبحوا يحلون محل المستشرقين التقليديين فى تعليم أبناء الغرب فى مجالات الثقافة العربية والإسلامية.

أما من الناحية الأخرى، فقد زاد اعتمادنا على الغرب وزاد تغلغل ثقافته فينا. فمن الممكن أن نقول بصفة عامة إن الحضارة الغربية هى الحضارة المنتجة المصدرة بينما نقف نحن وكثير من أجزاء العالم فى موقف المستورد المستهلك، فالحركات الأدبية والفكرية الكبرى والاكتشافات العلمية الضخمة والمبتكرات التكنولوجية الرئيسية تظهر فى الغرب وتنتشر من ثم إلى بقية أنحاء العالم، بما فى ذلك منطقة الشرق الأوسط، غير أن هذه المنطقة تتميز خاصة بضعف شديد بإزاء النفوذ الغربى. وذلك أن الاستعمارين البريطانى والفرنسى لم يرحلا دون غرس إسرائيل فى قلب العالم العربى ودعمها بالنفوذ الأمريكى الجبار. وزاد الأمر سوءاً بفرض الحماية على أجزاء كبيرة من العالم العربى، واحتلال العراق، والرغبة فى إعادة تخطيط منطقة الشرق الأوسط وفقاً لمصالح الغرب، ومحاولة فرض اصلاحات سياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية وثقافية «بالمعنى الضيق للكلمة» وفقاً لنفس المصالح. وقد اشتد النفوذ الغربى واحتد بعد سقوط الاتحاد السوفييتى وسيطرة القطب الواحد. وبذلك أصبح الأمر يتجاوز التداخل والتشابك، وأصبحنا الآن بإزاء حالة من التأزم والصراع المحتدم. وصحيح أن الميل إلى هيمنة القطب الواحد يؤثر فى العالم ككل، ولكن يبدو أن

وقعه أشد وأسوأ على المنطقة العربية.

فإذا كان ذلك هو ملتقى الثقافات كما نشهده اليوم، فماذا عسانا نفعل؟ فى ماض ليس ببعيد كانت المشكلة تطرح فى إطار التقابل بين الأصالة والمعاصرة، وكانت الأصالة بالنسبة لنا هى التراث العربى الإسلامى. أما الحداثة فقد أصبحت تعنى اتباع نمط النمو الرأسمالى فى الاقتصاد، والأخذ بالعقلانية ومناهج العلم الحديث فى مجال الفكر، وتطبيق النظام الديمقراطى وحقوق الإنسان فى مجال السياسة. ولقد كان يبدو أن من الممكن الاختيار، وكان المعتدلون منا يؤكدون أن لا تعارض بين الجانبين، وكانوا يبحثون عن صيغة يمكن بها الجمع أو التوفيق بينهما.

اللحاق بالحداثة

ولكن الوضع قد تغير الآن وتوارت تلك الطريقة فى طرح الموضوع على ضوء قوة الغرب الزاحفة. فقد أصبح الكل يسعى إلى الأخذ بالحداثة أو اللحاق بركبها على نحو أو آخر دون كثير اهتمام بالأصالة. وأقول على نحو أو آخر لأن الأمر يتوقف على قدرة كل دولة على المناورة مع القوة الغالبة. فهناك هامش للمناورة يضيق أو يتسع وفقاً لموازين القوى وحسابات المصالح فى كل حالة على حدة. وذلك أن الطرف الغربى الغالب يولى الاهتمام الأكبر لاتباع نمط النمو الرأسمالى ويقنع بتحقيق مصالحه، فإذا تحقق ذلك كان مستعدا للتضحية بجوانب أخرى من الحداثة. فهو قد يقنع عندئذ بنظام شبيه بالنظام الديمقراطى بل وقد يؤيد الأنظمة الدكتاتورية والقمعية. وهو قد يتخذ من حقوق الإنسان وسيلة للضغط والابتزاز من أجل الحصول على تنازلات فى مجالات أخرى، وقد يغض الطرف عن انتهاكها أو يقدم هو نفسه على انتهاكها، ولا يعنيه كثيراً أن يأخذ الغير بالعقلانية والمناهج العلمية بل وربما قاوم هذه النزعة. وهناك إذن ما يسمى بازدواج المعايير أو الكيل بمكيالين، وما دام الأمر كذلك فإن ثمة هامشا للمناورة.

وعلى هذا الأساس أصبح

بمستطاع الدول غير الغربية اتخاذ بعض الإجراءات والترتيبات الحداثية دون غيرها وذلك فى الحدود التى يسمح بها هامش المناورة فالدول القوية أو الناهضة بدأت تطبق النظام الرأسمالى وتركز على تقوية الاقتصاد وتسعى بهمة إلى امتلاك ناصية العلوم والتكنولوجيات الحديثة وتناور فيما يتعلق بتطبيق الديمقراطية وحقوق الإنسان. وهى إذ تتخير من جوانب الحداثة ما يناسبها لا تفعل ذلك حرصا على أصالتها، بل تحاول أن تحقق من أسباب القوة الاقتصادية والعلمية والعسكرية ما يكفل لها التوصل إلى قدر من التوازن أو المهادنة مع قوة الغرب ويضمن لها الأمن والاستقلال. ولقد نحيت جانبا أفكار مثل التمسك بالتراث والعدالة الاجتماعية وحقوق الشعوب «فى مقابل حقوق الأفراد» وحرية تداول المعلومات.

الموقف العربى

أما فى بلداننا العربية فإننا نحاول اللحاق بركب الحداثة دون نجاح كبير. فالرأسمالية التى أخذنا فى تطبيقها رأسمالية متخلفة، وهناك خطوات تتخذ نحو الديمقراطية ولكنها خجولة متعثرة، وقد أصبحنا نؤمن بضرورة تحصيل المعارف العلمية والتكنولوجية دون أن تتوافر لدينا الإرادة السياسية أو السياسات التعليمية اللازمة، وليس هناك إرادة عربية موحدة، فنحن نواجه التوسع الغربى ضعفاء متفرقين. والموارد العربية مبددة. والدول العربية مفروض عليها أن تقف موقف المتفرج من الغزو الصهيونى المستمر لفلسطين وأن تقف موقف الحليف مع الغزو الأمريكى للعراق وأن تطلب الحماية من الغرب وأن تفتح له أراضيها كى يقيم فيها قواعدة العسكرية ومواقعه الأمامية وأن تقنع فى أفضل الحالات بما يشبه الديمقراطية وأن تكون عرضة للابتزاز فى مجالات التعليم والإصلاح السياسى والاجتماعى وحقوق الإنسان. ومؤدى كل ذلك أن الحداثة كما نحاول تطبيقها لا تضمن لنا أى نوع من القوة أو الأمن، بل تنتهى بنا إلى أسوأ صفقة فى العالم وهى التبعية

الكاملة.

فماذا عسانا نفعل؟ أعتقد أن الإجابة صارت واضحة، لم يعد الأمر يتعلق بالأخذ بالحداثة أو عدم الأخذ بها. ولم يعد الأمر يتعلق بالنقل عن الغرب أو عدم النقل عنه. فقد أصبح من الضرورى ضرورة قصوى أن نأخذ بوسائل القوة، وهو ما يعنى ضرورة الانفتاح على الغرب مع مقاومته بوسائله. فالهم الغالب فى الوقت الحاضر هو مقاومة الخطر الزاحف والقدرة على البقاء مستقلين.

إن الثقافة التى تنغلق على نفسها تعرض نفسها لخطر التجمد والانحطاط والفناء. فهى تصبح فريسة سهلة للمغيرين عليها والطامعين فيها. ذلك ما حدث لثقافات العالم الجديد عند اكتشاف الأوروبيين له. فلقد واجهت الثقافات الأصلية غارات المستعمرين والمغامرين الأوروبيين بوسائلها الخاصة المحدودة ولم تستطع الصمود أمامهم فأبادوها. ولو أن أهل تلك الثقافات كانوا على وعى بأساليب المغيرين وحيلهم لكانوا أقدر على الصمود. ولو أنهم كانوا أكثر مرونة فى مواقفهم من تراثهم الأصلى لكانوا أكثر نجاحاً فى مواجهة الهجوم الماحق. والثقافة الغربية مغيرة علينا بخيرها وشرها ولابد أن نفيد منها وأن نتقى شرها لكى نبقى.

ولابد إذن من الأخذ بأسباب الحداثة على أن تكون حداثة حقيقية تضمن لنا القوة. وهنا قد يسأل سائل: كيف يمكن مقاومة النفوذ الغربى إذا كنا سنصب كل اهتمامنا على الأخذ بوسائله ومسايرته فى أساليبه؟ والرد على ذلك أن أدوات الحداثة المفروضة علينا من الغرب لا تؤدى بالضرورة إلى الضعف بإزائه. فمن الممكن مقاومته بهذه الوسائل عينها. بل يبدو أن ليس هناك طريقة أخرى للمقاومة كما نلاحظ فى حالة الثقافات التى اندثرت والثقافات التى مازالت قادرة على الصمود والمناورة.

الأولوية للاقتصاد

ولو جاز لى أن أضع سلما للأولويات لقلت ما يلى: ينبغى



التركيز فى هذه المرحلة على قوة الاقتصاد والقدرة على تحصيل المعارف العلمية والتكنولوجية غير أن هذا يتطلب كما نعلم قدراً من التحرر السياسى والاجتماعى وسياسات تعليمية رشيدة. ولست فى قلق شديد على الإبداع الأدبى لأن هذا الإبداع ممكن فى ظل أحلك الظروف، ولن أركز على الإبداع فى مجال الفكر والفلسفة لأن هذا النوع من الإبداع يتوقف فى رأيى على امتلاك ناصية العلوم، والعلوم الأساسية بصفة خاصة.

ولكن ألا تقتضى القدرة على المقاومة بهذه الوسائل الاستعانة بمواردنا الذاتية أو لنقل بأصالتنا أو تراثنا؟ والإجابة عن هذا السؤال لابد أن تكون بالإيجاب. ولكن الثقافة التى تريد أن تقاوم خصومها بوسائل لابد أن تتحلى بالمرونة فيما يتعلق باللجوء إلى مواردها الذاتية. فليس من الممكن أن نختزل الأمر فى مبدأ واحد دون سواه، مثل الدين.

وعند هذه النقطة لابد من التوقف مرة أخرى عند نظرية شاكر فيما يتعلق بارتكاز الثقافة، والثقافة الإسلامية خاصة، على الدين أو ما يقوم مقام الدين. فسوف يقال عندئذ إن الإسلام هو الأساس فى ثقافتنا، وهو العنصر الثابت الذى لابد من التمسك به فى جميع المواقف والحالات، ولكن هذا الرأى ينبغى أن يمحص وينقح.

فليست الثقافة بصفة عامة نسقا فلسفيا محكما يمكن استنباط كل ما فيه كما تستنبط الفروع من مبدأ أو أصل واحد. فإذا نظرنا إلى الثقافة العربية خاصة وكما تطورت فى التاريخ، تبين لنا أنها اقتربت أكثر ما اقتربت من النموذج الذى يقدمه شاكر فى لحظة عابرة، وذلك عندما كانت كل العلوم- بما فى ذلك علوم اللغة والفقه والكلام- تتمحور حول دراسة القرآن الكريم والسنة. ولكن هذا التمحور لم يحل دون تطور هذه العلوم وازدهارها على نحو يتجاوز الاهتمامات الدينية الأصلية، بل ولم يمنع المسلمين الأوائل من تطويع الثقافة الإسلامية

بحيث تتسع لمبادئ أخرى مثل مبدأ العقل الذى تقوم عليه العلوم العقلية «فى مقابل علوم النقل». كلا ولم يمنع الإسلام ابن خلدون - وهو الفقيه المسلم- من الاحتكام فى دراسة التاريخ والعمران إلى مبدأ ثالث، هو التطابق مع واقعات العمران وطبائعه، أو لنقل بإيجاز مبدأ الواقع. وليس صحيحاً إذن أن الثقافة الإسلامية ترتكز على الدين بالمعنى الذى يستبعد أصولا وموارد أخرى، وقد تقتضى مقاومة الخصم بوسائله أن نلجأ إلى أصول وموارد آلت إلى الثقافة العربية قبل ظهور الإسلام أو اكتسبتها بعد ظهوره، وصار الكل جزءاً لا يتجزء من الثقافة الإسلامية.

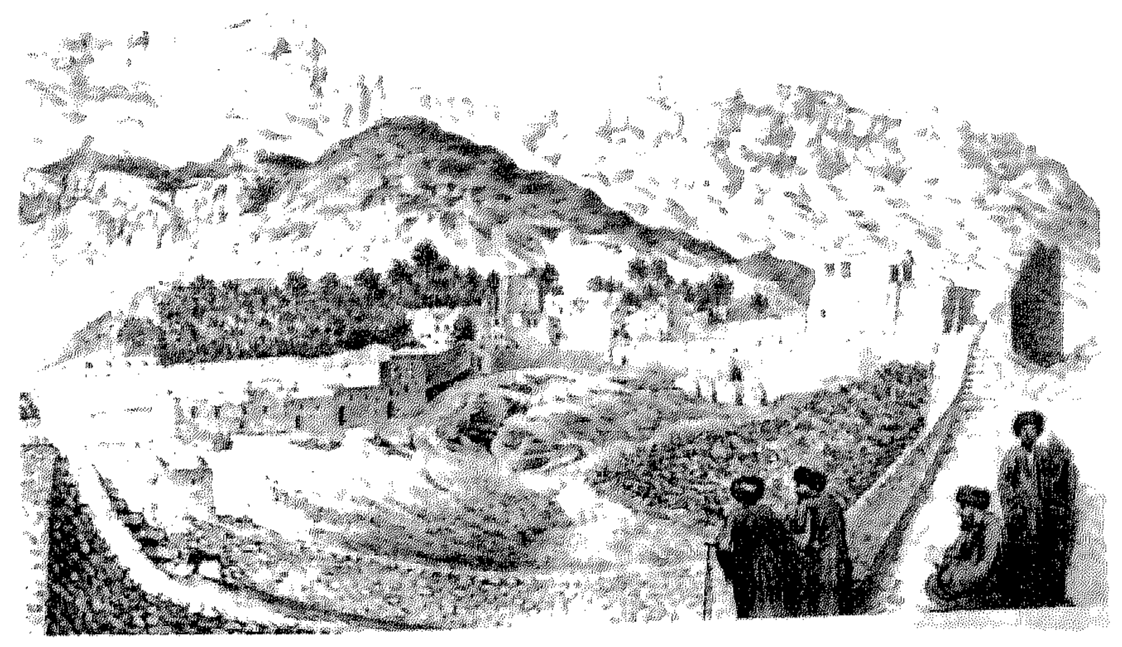
ولم يعد من الجائز فى مجال تخطيط السياسات الثقافية أن نتساءل عما إذا كان هناك متسع للعلوم العقلية أوالعلوم الوضعية أو العلوم الاجتماعية والإنسانية. وذلك أن استقبال هذه العلوم ورعايتها أمر مسلم به أو ينبغى أن يكون كذلك. ولمن شاء أن ينقد العقل أو العلم أو بعض العلوم، على ألا يكون هذا النقد عقبة تحول دون دراستها أو نموها.

تفاؤل بدور تاريخى

وأود أن أقول فى الختام إننى لست متشائما رغم سوء الظروف بل لعلى أميل إلى شئ من التفاؤل بسبب سوء الظروف. ولست أعنى بذلك ما يقال من أنه لابد لليل من آخر. إنما أعنى أن الوضع الراهن يمكن أن يقرأ على نحو آخر. إذ يبدو لى أن الأمة العربية مؤهلة فى ظل هذه الأزمة أو المحنة للعب دور تاريخى ضخم، دور عسير ولكنه حاسم. فبينما قررت كثير من الدول أن تشترى أمنها بأن تطلق الغرب فى الشرق الأوسط وأن تقف موقف المتفرج أو المهادن أو المتواطئ أو الحليف عن رضا أو على مضض، أصبحت الثقافة العربية هى التى تواجه قوة الهيمنة وحدها فى هذه الساحة. وهو وضع كما تعلمون سيئ غاية السوء من حيث موازين القوى. ولكن انفتاح الساحة على هذا النحو يفضح طبيعة العدو كما يكشف طبيعة المعركة. فهو عدو غاشم فى معركة غاشمة لا علاقة لها بالديمقراطية

ولا بحقوق الإنسان ولا بأبسط قواعد القانون الدولى ولا بالسلام. ونفسى تحدثنى بأن منازلة هذه القوة الغاشمة قد تكون هى الدور التاريخى المناط بالعرب نيابة عن العالم. أقول هذا وفى ذهنى كيف زحزحت إسرائيل من سيناء، وكيف طردت من جنوب لبنان، وكيف سترحل عن غزة والضفة الغربية. وبذلك ينحسر المد الصهيونى داخل قلعة مدججة بالسلاح تحتمى من المقاومة الفلسطينية بسور عازل، والحرب ما زالت سجالا، فستحاول إسرائيل أن تخرج من هذا الجيتو الذي وضعت نفسها فيه، وسيحاول الفلسطينيون أن يخترقوا السور. كما ألاحظ أن الحرب مازالت سجالا فى العراق بعد أن ظنت الولايات المتحدة أنها مقبلة على نزهة واعتقدت أن نهاية الجولة الأولى تعنى أنها هزمت العراق بالضربة القاضية. ولكن الحرب هنا مازالت سجالا. وما دامت المقاومة مستمرة فإنى متفائل بقدرة الثقافة العربية. فالمقاومة فى ظل المحنة تعنى أن هناك موارد غير مرئية وراء الآداب والسياسة والاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا، وأن من الممكن استغلالها وأن الابتكار من ثم ممكن وقائم. وإذا كان للأصالة العربية دور فلابد أن يتجلى أول ما يتجلى فى هذا الإطار. وعندما أتحدث عن الموارد غير المرئية فإننى لا أعنى بطبيعة الحال التراث المكتوب أو الشفهى، وإنما أعنى أشياء وخصائص تتعلق بالشعوب ومواردها الروحية مثل صلابة الأمهات الفلسطينيات وصبر المصريين الذى لا حد له على الشدائد وقدرة العراقيين على مد أمد المعركة. ولقد أحسن محمود محمد شاكر صنعا عندما خفف من تطرفه فقال إن الثقافة ترتكز على الدين أو ما قام مقام الدين. فمن الواضح أن هذه العبارة الأخيرة مطاطة ويمكن أن تشمل الأخلاق، والأخلاق لا بالمعنى الضيق كما قد يود شاكر، ولكن بالمعنى الواسع بحيث تشمل العادات والتقاليد والخصائص والتجارب التى تراكمت منذ أزمنة سحيقة ومازالت تنمو وتتطور. ■

رسم لدير أنطونيوس يعود للقرن الثامن عشر



زيارة إلى:

أول دير في العالم

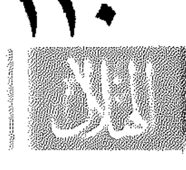
بقلم
فكرى اندراوس

كانت المسيحية فى مصر فى قرونها الأولى مصدر إشعاع للعالم المسيحى ، فقد كانت مدرسة اللاهوت بالإسكندرية مدرسة فلاسفة المسيحية الأوائل. وكان تمسك المصريين بالمسيحية مثالا للتضحية، فقد قدمت مصر للمسيحية ثم للأرثوذكسية آلاف الشهداء ، ثم كانت الرهبنة المصرية منارا للرهبنة المسيحية والتى انتشرت منها لبقية العالم المسيحى. فى هذا المقال سنتحدث عن أنطونيوس الراهب الذى ابتدأ الرهبنة، وعن الدير الذى أنشأه ، وسنزور هذا الدير منذ أن بدأ فى القرن الرابع وحتى الوقت الحالى. كيف بدأ الدير؟ وكيف تطور؟ وقت ازدهاره ووقت اضمحلاله، تأثير انفصال الكنيسة المصرية عام ٤٥١ على الدير. وأخيرا بعض الأحداث الطريفة التى حدثت لزوار هذا الدير من صعوبة الوصول ثم الدخول للدير وما كتبه بعض الزوار القدامى.

حورس.. الكنيسة الأثرية، تحمل زخرفتها طابعا إسلاميا ◀



ولد أنطونيوس عام ٢٥١ فى قرية قمن العروس مركز الواسطى محافظة بنى سويف من والدين مسيحيين ، كانت مصر مستعمرة رومانية تعانى من وطأة الاحتلال اقتصاديا ومعنويا، فقد كان أغلب المصريين مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة بعد الرومان والإغريق ، وحتى يهود الإسكندرية، والذين كان لهم وضع خاص . كانت حالة اليأس شديدة وكان اضطهاد المسيحيين عنيفا أحيانا، إلا أن المسيحية بشرت بخلاص قريب ، وقد اعتقد الكثيرون «كما هو الآن!!» أن عودة المسيح لخلاص البشرية ستكون قريبة ، وربما خلال حياتهم. خلال هذا المناخ كان أنطونيوس شابا فى عمر العشرين، تكتنفه الكآبة والحزن لفقد والديه حديثا. ذات يوم بينما كان أنطونيوس يحضر الصلاة وإذا بالكاهن يقرأ عبارة بالإنجيل تقول «إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال واتبعنى» . وكأن تلك العبارة قد تليت فى ذلك الوقت لكى يسمعها أنطونيوس. وقد نفذها حرفيا. باع أملاكه وأعطى ثمنها للفقراء وسلم أخته والتى كانت تصغره لأحد بيوت العذارى «راهبات» . ذهب أنطونيوس ليعيش بجوار المقابر وحيدا على صدقة المحسنين أو من عمل يديه البسيط مثل عمل الحصر أو الحبال. كان ذلك النظام يعرف بنظام «الحيساء» وهو نظام نسكى ليس له قواعد محددة وكان منتشرا فى مصر فى ذلك الوقت. كان أنطونيوس يكتفى بالقليل من الأكل والنوم ولكنه أكثر من الصلاة والتأمل فى الخالق وفيما خلق. وقد اعتاد أنطونيوس تلك المعيشة الصعبة وبمرور الوقت بدأ البعض يتعرف عليه كرجل صالح ليس له من أمور الدنيا الشىء الكثير. ذاع صيت أنطونيوس وكما هو الحال الآن مثل ذلك الرجل يلجأ إليه البعض ساعين إلى التبرك به طالبين النصح. وسرعان ما أصبح له زوار ومريدون. لكن أنطونيوس كان يريد حياة أكثر وحدانية فترك معيشته بجوار المقابر وعبر النيل شرقا وعاش فى مكان مهجور ليعيش الحياة التى أرادها «يعتقد البعض أنه دير الميمون بجوار بنى سويف» . عاش أنطونيوس فى ذلك المكان ما يقرب من عشر سنوات حيث صهرته حياة الوحدة وأصبح إنسانا روحانيا. ولكن سرعان ما عرف أن ذلك المكان هو مكان أنطونيوس الجديد، وسعى كثيرون إليه. ولكنه آثر مجددا الابتعاد فاتجه شرقا مع بعض العرب الرحل حتى جبل القلزم على بعد حوالى ٣٠ كم غرب خليج السويس. هناك عثر على غايته وكان بالمكان عيون ماء ونخيل وبعض الأعشاب. ولم يكن يطرق هذا المكان سوى العرب الرحل بين الحين والحين، وقد كان رغم بعده عن البشر مكانا جميلا مثالا للهدوء ترى منه



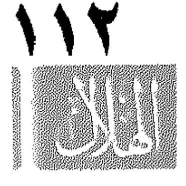


أيقونة للسيدة العذراء والسيد المسيح قبل البدء في عمليات الترميم وبعدها

البحر الأحمر وجبال سيناء لعشرات الكيلومترات. وهناك وجد أنطونيوس مغارة على سفح هذا الجبل وكانت على ارتفاع ٣٠٠ متر من عيون الماء . في ذلك المكان قضى أنطونيوس باقي عمره.

أصبح أنطونيوس أسطورة خلال حياته وبعد مماته فقد ذاع صيته وأثر مساره في النسك في مسيرة الرهبنة المسيحية . رغم انعزال وبعد مكان أنطونيوس فإن البعض تتبعوا خطاه إلى مكانه البعيد للزيارة أو للتتلمذ على يديه في النسك . عندما بلغ أنطونيوس من العمر ستين عاما حوالى سنة ٣٠٥ بدأ . يرشد المجتمعين حوله إلى حياة النسك والوحدة والصلاح. كان ذلك المجتمع الصغير أول تجمع رهباني في العالم المسيحي. نحن لا نعلم الكثير عن ذلك التجمع الرهباني وخصوصا أن أغلب ما كتب عن ذلك القديس كتب من وجهة نظر المحبين ولم تكن بالضرورة كتابة موضوعية. لا نعلم مثلا ما كان عدد هؤلاء الرهبان؟ ومن هم؟ وهل أوجدت تلك المعيشة الصعبة خلافات بين الرهبان؟ وما هي إن وجدت؟ وكيف كان التصرف حيالها؟ وما هي الصلاة التي كانوا يصلونها؟ ومتى وكيف؟ وما علاقة كل منهم بأنطونيوس؟ ومن الممكن الاسترسال في أسئلة من هذا النوع، والتي يجب على المدققين أن يسألوها . وإن كانت سيرة حياة القديس أنطونيوس قد كتبها أثناسيوس البطريرك المصرى سنة (٨-٣٥٧) وكان أحد تلامذة أنطونيوس إلا أن تلك السيرة لم تذكر الكثير عن الاسئلة السابق إثارتها. كتب أنطونيوس سبع رسائل عن حياة النسك. وقد كانت تلك الرسائل عميقة وتعتمد على بعض الفلسفة اليونانية. وقد استبعد البعض أن يكون أنطونيوس قد كتب تلك الرسائل لما عرف عن كونه إنسانا أميا وغير متعلم. إلا أن البحث الحديث في تحليل تلك الرسائل أثبت أن أنطونيوس هو الذى كتب تلك الرسائل والتي يعتمد بعضها على فلسفة اليونان وفلسفة مدرسة اللاهوت بالإسكندرية . أي أن أنطونيوس لم يكن إنسانا أميا أو جاهلا كما يراد لنا أن نعلم. وإذا صدقنا كاتب سيرة أنطونيوس من أنه ولد من عائلة ثرية تملك ٢٠٠ فدان، فلا يعقل أن يكون لمثل هذه العائلة ولد وحيد دون أن تهتم بتعليمه!!

قيل الكثير عن تعرض أنطونيوس لهجمات الشياطين المتكررة أثناء توحده . وقد يكون بعض من كتبوا عن ذلك قد غالوا كثيرا. يجب علينا في العصر الحديث أن ننظر لمثل تلك الروايات نظرة موضوعية وعلمية. نحن نعلم أن أنطونيوس كان مقلا في الأكل، فكان يأكل مرة واحدة في اليوم. وأنه أيضا كان مقلا في النوم، حيث إنه كان يصلى كثيرا بالليل. ومثل تلك الحياة تحدث



قباب كنيسة القديس أنطونيوس الأثرية

تغيرات كيميائية فى خلايا المخ (ميتابولزم) . هذه التغيرات يتسبب عنها ما يشبه الرؤيا وتختلط تلك الرؤيا مع خلفية الإنسان الفكرية.

وإن كنا لا نعلم الكثير عن تجمع أنطونيوس الرهبانى إلا أننا نعلم أنه حوالى سنة ٣٦٣ كان هناك بعض الرهبان يعيشون فى مغارات فى الجبال أو فى مبان بدائية، وقد ذكر كاتب سيرة القديس أن الجبال كانت تكتظ بالرهبان. كان هناك أيضا كنيسة، غرفة طعام، ومخزن للحبوب ، وبعض الأطعمة. وكان أهم ما يميز هذا التجمع الرهبانى هو وجود أنطونيوس بينهم وقد قال كاتب سيرته إنه قال «أنا كأخ أكبر لكم أشارككم معرفتى وما تعلمته بالاختبار» .

توفى أنطونيوس عام ٣٥٦ عن ١٠٥ أعوام، وقبل وفاته بقليل أوصى اثنين من تلاميذه أن يدفنوه تحت الأرض، وألا يعرف المكان أحد سواهما. وإن كان رهبان الدير يؤكدون أن جثمانه مازال موجودا بالدير فى مكان ما، إلا أن البعض يعتقد أنه فى عام ٥٦١ قد هرب جثمانه إلى كنيسة فى كانوب حتى سنة

٥٦٣ حيث هرب إلى القسطنطينية ، وفى القرن الحادى عشر هرب مرة أخرى إلى شمال مرسيليا فى فرنسا. وهناك بلدان أوروبية أخرى تدعى قصصا مشابهة، وإن كان من الصعب إثبات أى من تلك القصص ، إلا أن هذه القصص تدل على اهتمام الأوروبيين بشهرة وتأثير ذلك القديس. ولم يقتصر اهتمام الأوروبيين على جثمان القديس، بل امتد أيضا لنهب أغلب كتب ومخطوطات الدير كما سنذكر.

الدير بعد أنطونيوس

قليل ما هو معروف عن الدير فى النصف الثانى من القرن الرابع وحتى القرن السادس، وإن كان من الطبيعى أن يكون عدد الرهبان ، وكذلك أنشطة الدير المختلفة قد زادت كثيرا. وكانت تلك الفترة مزدهرة للمسيحية وللدير حيث زاد عدد المسيحيين وأصبحت المسيحية ديانة الدولة الرسمية. بنى دير الأنبا بولا جنوب دير أنطونيوس ومازال عامرا بالرهبان، كما يوجد أيضا ثلاثة أديرة أخرى بجوار الدير فى وادى عربة وهى دير بردع، دير بخيت ودير حنا ولا نعرف عن هذه الأديرة إلا وجود انقاضها وقد كانت امتدادا طبيعيا لدير أنطونيوس . فى منتصف القرن الخامس انفصلت الكنيسة المصرية وبعض الكنائس الشرقية عن باقى الكنائس ، و كان لذلك تأثير كبير على دير القديس أنطونيوس، حيث إن الدير أصبح يقطنه رهبان يونانيون (الروم الأرثوذكس) وباختصار شديد سنشرح ما حدث فى تلك الحقبة لتأثيرها الواضح على الدير.

فى عام ٤٥١ انفصلت الكنيسة المصرية ومعها السورية، الأرمنية، الحبشية، والهندية عن باقى الكنائس فى مجمع مقدس عقد فى مدينة خلقدونيا بجوار القسطنطينية . كان السبب الظاهر لعقد هذا المجمع هو خلاف لاهوتى حول طبيعة المسيح. تمسكت الكنائس الشرقية المذكورة بما أقره مجمع نيقيا السابق سنة ٣٢٥ من أن للمسيح طبيعة واحدة. وإن كان الأقباط قد حددوا تلك الطبيعة أنها ذات شقين: لاهوتى وإنسانى فى آن واحد. أما الكنائس الغربية فقد رأت أن للمسيح طبيعتين منفصلتين، فإحداهما لاهوتية والأخرى إنسانية. والخلاف قد يبدو لكثيرين أنه غير جوهرى حيث إن حاصل ضرب ١×٢= حاصل ضرب ٢×١. أما السبب الحقيقى لعقد ذلك المجمع فقد كان لإضعاف وتحجيم الكنيسة المصرية، والتى كانت تعد أقوى كنيسة فى ذلك الوقت. ولم يكن يرضى عن ذلك أباطرة الرومان وبعض رؤساء الكنائس الأخرى، خصوصا كنيسة روما والقسطنطينية ، حيث الثقل السياسى للإمبراطورية. وقد قيل عن البطريرك المصرى فى ذلك الوقت «ديوسقوروس» قوله «إننى أولى بحكم مصر من الأباطرة الرومان» . وقد كان

هناك مجمع سابق فى مدينة أفسس «فى آسيا الصغرى» سنة ٤٤٩ وقد رأس المجمع البطريرك المصرى ديوسقوروس وكان سبب عقد ذلك المجمع أيضا خلافا حول طبيعة المسيح. وقد قرر هذا المجمع حرمان بابا روما وعزل أساقفة أنطاكية والقسطنطينية ولم يكن ذلك مقبولا من روما أو القسطنطينية. تغيرت القيادة السياسية فى القسطنطينية وتغير الوضع بالنسبة للكنيسة المصرية. قرر مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ عزل البطريرك المصرى ونفيه خارج مصر، وتعيين نائب البطريرك ليحل محله بعد قبوله لقرارات المجمع. رفض أغلب الشعب المصرى البطريرك المعين من قبل الإمبراطور وأصبح فى مصر كنيستان، واحدة فى الإسكندرية تؤيدها الدولة ولا تتمتع بشعبية وسميت كنيسة ملكانية، لانها تابعة للملك. وكنيسة أخرى قبطية مضطهدة تعيش تحت الأرض ويتبعها أغلب الشعب المصرى وسميت كنيسة قبطية أو يعقوبية، لم تمض مدة طويلة على البطريرك برويتريوس الذى عينه الإمبراطور إلا وقتله المصريون، ويقال إنهم حرقوا جثته.

كانت أغلب الأديرة القبطية لا تعترف بالبطريرك الملكانى التابع للإمبراطور. أما عن دير أنطونيوس فنجد أنه اعتبارا من أوائل القرن السادس أصبح ديرا ملكانيا وكذلك دير القديسة كاترين بصحراء سيناء ودير الأنبا بولا القريب من دير أنطونيوس. هذه الأديرة الثلاثة تقع على حدود مصر الشرقية معبر القوات التى احتلت مصر على مر التاريخ . لا نعلم كيف تحولت تلك الأديرة إلى الملكانية إلا أننا نعلم أن الإمبراطور جوستانين ٥٢٧ - ٥٦٥ قد بنى الأسوار القوية حول تلك الأديرة وخصوصا دير سانت كاترين والذى بنى كحصن. وقد بنى حصن صغير داخل دير انطونيوس مازال موجودا ومازالت آثار السور القديم موجودة بهذا الدير. وقد استعملت هذه الأديرة كحامية عسكرية أو كنقط مراقبة ولم يكن من الممكن أن يثق الرومان فى المصريين ولهذا يبدو أن الرومان قد فرضوا بالقوة رهبانا ملكيين على تلك الأديرة، وقد استمر ذلك الوضع حتى دخول العرب أرض مصر سنة ٦٤١.

دخول العرب

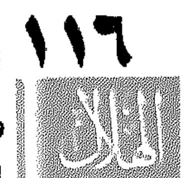
عندما دخل عمرو بن العاص مصر، كانت مصر ممزقة وكان المصريون مضطهدين من الرومان. كان عمرو بن العاص محنكا أو داهية كما يعتبره البعض. فهم عمرو بن العاص موقف الأقباط من الرومان فأعاد البطريرك المصرى بنيامين لرئاسة كنائسه بعد أن كان مختفيا من اضطهاد الرومان لمدة ثلاثة عشر عاما. ولابد أن ذلك قد أسعد الأقباط كثيرا. بعد دخول العرب مصر

استمر الرهبان الملكيون فى الدير حتى القرن الثامن وكذلك دير بولا وكاترين. وقد ناصر العرب الأقباط ضد الملكيين والذين اعتبروهم موالين للرومان. إلا أن السياسة بين الرومان والعرب كانت متأرجحة فيما يختص بالملكيين الذين بقوا بمصر بعد خروج الرومان. ما يهمنا أن دير القديس أنطونيوس ظل ديرا ملكانيا حتى القرن الثامن، ولا نعرف الكثير عن ظروف الدير فى تلك الفترة. بعد القرن الثامن تأرجح رهبان الدير بين الملكيين، السوريين، والأقباط حتى أوائل القرن الثالث عشر. بعد ذلك التاريخ عاد الدير للأقباط ، وحتى الآن.

خرج الرومان من مصر واستقر الأمر للعرب. تغيرت أحوال الدير تحت الحكم الإسلامى تبعا لتغير أحوال الأقباط. كان العديد من الحكام المسلمين معتدلين ولكن كانت هناك قلة شديدة القسوة ، وكان ذلك أساسا لتحصيل الضرائب أو المزيد منها. وقد عانى المسيحيون والمسلمون من ذلك. كانت ولاية عبدالعزيز بن مروان قاسية على المصريين فكان أول من حصل جزية من الرهبان. ولما ولى مصر عبدالله بن عبدالملك بن مروان اشتد على النصارى ويقول المقريزى إن أسامة بن زيد التنوخى. متولى الخراج، أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها من قبل. وقد كتب المقريزى فصلا متزنا عن ذكر دخول النصارى من قبط مصر فى طاعة المسلمين. ولم يكن تعسف بعض الحكام مع الأقباط من الإسلام فى شىء ، فعندما دمر الحاكم بأمر الله «٩٩٦ - ١٠٢٠» وكان مختلا عقليا - قرابة ألف كنيسة ودير، أو عندما حطمت العديد من كنائس مصر «المقريزى يذكر ٤٥ كنيسة بالإضافة إلى بعض الأديرة» خلال حكم الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٢٠ ، لم يكن ذلك من الإسلام فى شىء. وقد كان العديد من الحكام المسلمين معتدلين ، فمثلا القرن العاشر وحتى الثالث عشر كانت فترة اعتدال .

وكان نتيجة دخول الكثير من المصريين فى الإسلام ومن غير رجعة أن أصبح الأقباط أقلية عددية. وكان لذلك تأثيره المباشر على تعداد الرهبان وأحوال الأديرة ماديا ومعنويا.

كتب الشيخ أبو المكارم تاريخ الكنائس والأديرة فى حوالى القرن الثانى عشر، وفيه يذكر أن الدير به جماعة كبيرة من الرهبان، وبه حصن دائر ، وداخل الدير بستان كبير به الكثير من أشجار الفواكه وبه ألف نخلة. ولم يكن له مثيل فى سائر الأديرة التى يسكنها رهبان مصريون ، وبعد أن عاد الدير للأقباط فيما بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر احتفل الأقباط بذلك. جمع بعض المال من حوالى ٤٠ قبطيا لإعادة ترميم ورسم الكنيسة الأثرية والتى قد



تعود إلى ما بين القرنين السادس والثامن، وقد أعيد رسم حوائط الكنيسة سنة ١٢٣٢ - ١٢٣٣، وقد رسمها طاقم من الرسامين المصريين تحت رئاسة فنان اسمه تادرس «ثيودور» . وقد كان الرسم في غاية الجمال وقد رسمت حوائط الكنيسة بطريقة تسمى secco وهي الرسم على حوائط جافة، ولا تختلف هذه الطريقة كثيرا عما نراه للآن على حوائط المنازل في القرى المصرية مثل الاحتفال بالذهاب والعودة من الحج، وهذه الطريقة لها جذور فرعونية. وبعض الرسوم الزخرفية في تلك الكنيسة ذات طابع إسلامي وقد كان ذلك شائعا في ذلك العصر، وكان ذلك من خلال الدولة الأيوبية، وتعد تلك الفترة وحتى القرن الخامس عشر هي العصر الذهبي للدير إذا ما استثنينا فترات بسيطة . كان بالدير في تلك الفترة مكتبة زاخرة . وكان الدير يمتلك العديد من الممتلكات والأوقاف بمصر.

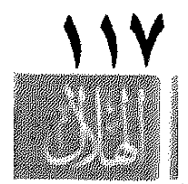
الدير من القرن الخامس عشر وحتى التاسع عشر

على الرغم من أن دير القديس أنطونيوس يعد تاريخيا أهم دير في مصر إلا أن معلوماتنا عن الدير قليلة للغاية، وإن بعض المعلومات المتداولة يصعب توثيقها. فمن ناحية لا يوجد سجلات بالدير وإن كان قد وجد بعض السجلات في زمن معين فإنها اختفت.

ومن ناحية أخرى فنحن مضطرون لاستقاء بعض المعلومات مما كتبه بعض زوار الدير، وأغلبهم أجانب وغالبا ما كتبوا ببعض القصور والتخيل. أو من بعض قصص الرهبان والتي توارثوها من جيل لجيل وكثير منها مشوه تشويها يمسخها. ولنبدأ بما نعرفه مما ذكر المصريون ثم نعود لما رواه الأجانب..

ذكر المقريزي (١٤١٩ - ١٤٤١) أنه تجرى زراعة كل أنواع الفواكه بالدير، وانه يوجد به ثلاث عيون من الماء الجاري ويعيش رهبانه صائمين طوال حياتهم ويستمر صومهم حتى المساء.

من الأعمال القليلة المسجلة أنه في عام ١٧٦٦ و ١٧٧٢ و ١٧٨٣ اهتم بعض أغنياء الأقباط بترميم الكنائس والأسوار، إلا أن أهم الأعمال ابتدأت في عام ١٨٢٨ حين ترهبن بالدير شاب عمره ٢٢ عاما اسمه داود بن توماس بن بشوت بن داود.. كان داود محبا للعلم ورياضة ركوب الخيل والجمال. بعد سنتين منذ دخوله للدير ولثقة الرهبان به ولفقر الدير في القيادة اختير رئيسا للدير رغم صغر سنه، وعندما أصبح عمره ٣٧ سنة أصبح مطرانا عاما للكرازة المرقسية ، وبعدها بسنة واحدة اختير بطريركا باسم كيرلس الرابع (١٨٥٤ - ١٨٦١) . من أعماله الجليلة اهتمامه بالتعليم، فقد أنشأ العديد من المدارس لعامة المصريين ، وأنشأ مدرسة للبنات قبل قاسم أمين بحوالي



نصف قرن، وقد أنشأ أيضا المكتبات بالبطرخانة وكذلك بالأديرة . وقد أحضر لمصر مطبعة للغة العربية تعد ثالث مطبعة عربية بعد المطبعة التى أحضرها نابليون وبعد المطبعة الأميرية، وللأسف فإن الكنيسة قررت سنة ١٩٠٣ أن تبيعها حديد خردة بدلا من وضعها فى متحف، وكثيرا ما يفعل بنا الجهل. وقد أطلق الأقباط على ذلك البطريرك اسم ابو الإصلاح وقد توفى هذا الراعى وعمره ٤٥ سنة فى ظروف تثير الريبة، ويقال إن الوالى سعيد باشا قد دس السم له.

وقد اهتم كيرلس الرابع بدير أنطونيوس فزادت مساحة الدير من ٦ أفدنة إلى ١٨ فدانا، وقد أضاف وجدد بعض المبانى ورمم الأسوار، وبنى سورا لمدخل الدير من الحجر ارتفاعه ١٢ مترا وعرضه عند القاعدة متران. وقد اهتم بالعرب الذين يتجولون فى الصحراء المحيطة بالدير. وأصبح الدير يتعهدهم بالشاى والسكر وبعض الأطعمة وبالعلاج، وللأسف فالنهضة التى بدأها هذا الراعى لم تستمر طويلا.



الدير فى القرن العشرين

أجمل وصف لرحلة الدير منذ القدم وحتى أوائل القرن العشرين كتبه عالم المصريات لبيب حبشى، والأستاذ ذكى تواضروس المحامى فى عام ١٩٢٧ «فى صحراء العرب والأديرة الشرقية . طبعة ١٩٩٣ مكتبة مدبولى» وقد سلك مؤلفا الكتاب الطريق الذى سلكه القدماء فذهبا جنوبا حتى بنى سويف ومنها شرقا مع العرب الرحل بالجمال حتى مقر الدير وقد استغرقت الرحلة فى الصحراء حوالى أربعة أيام. ولم تختلف هذه الرحلة عما وصفه الأجانب إلا أن مهد الطريق فى أواخر القرن الماضى بين الكريمات والزعفرانة. والرحلة بالجمال قد تكون جميلة أو مرعبة حيث إن الصحراء كما قال الرحالة أحمد حسنين باشا «شيمتها الغدر. فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب وغاية القسوة».

حال الدير فى النصف الأول من القرن العشرين كما يصفها الكتاب السابق كانت سيئة، فالبرغم من وجود العديد من الأوقاف للدير. إلا أن رؤساء الدير أساءوا التصرف فى إيراد الدير، وكان أغلب الرهبان عديمى أو قليلى العلم وفى حالة سيئة من الفقر. كان عدد الرهبان منذ القرن الخامس عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين غالبا ما يتأرجح بين ١٠ و ٢٠ راهبا. فى منتصف القرن العشرين كان التعليم قد انتشر فى مصر، ومعه ازدادت الحاجة إلى رئاسات دينية متعلمة وقد كان ذلك نادرا. كان هناك عدم رضا عن الكثيرين من رئاسات الكنيسة، وقد تجلى ذلك فى كتابات الشباب والمتعلمين المطالبة بالإصلاح . وقد كان هناك بعض العنف، والذى تجلى فى محاولة عزل البطريرك بالقوة وتحت تهديد السلاح، ونفيه إلى

أحد أديرة وادى النطرون سنة ١٩٥٤ إلا أن الدولة تدخلت وأعادت البطريرك لمنصبه. كانت رياح التغير قوية، وكان بعضها طائشا وساذجا مثل رفع شعار «الأمة القبطية» . تيقظ الشباب إلى أن إصلاح الكنيسة يأتى من الأديرة، حيث إن رئاسات الكنيسة قاصرة على الرهبان. وقد كان أغلب الرهبان فى حالة سيئة من الجهل بمتطلبات العصر والحاجة للتغيير. بدأ بعض المتعلمين يلجأون إلى الرهبنة كطريقة لإصلاح الكنيسة من الداخل. كان من أوائل هؤلاء الرهبان الأب متى المسكين ، وقد ترهبن عام ١٩٤٨ . وقد كان صيدليا ناجحا، وقد أصبح رئيس دير القديس مقار بوادى النطرون، اما الراهب الثانى فهو قداسة الأنبا شنودة، البطريرك الحالى. وقد ابتدأ الرهبنة سنة ١٩٥٤ ثم أصبح أسقفا للتعليم سنة ١٩٦٢، ثم اختيرا بطريركا سنة ١٩٧١، وقد تتبع خطى هذين الراهبين العديد من الشباب وحتى الآن . وقد كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن تلك الفترة بموضوعية وبتحليل عميق فى كتابه «خريف الغضب».

ما حدث فى دير أنطونيوس فى النصف الثانى من القرن العشرين حدث فى كثير من الأديرة فى ذلك الوقت. زاد عدد الرهبان المتعلمين لما يقرب إلى مائة راهب. وزادت مساحة الدير إلى ما يقرب من ٥٠٠ فدان. بدأت مشروعات بناء وتعمير عديدة. بنى العديد من القلايات داخل أسوار الدير القديم وكذلك حجرات الضيوف خارج أسوار الدير القديمة. دخلت الكهرباء للدير عن طريق المولدات لأول مرة سنة ١٩٥١ ثم ازداد استعمال الكهرباء كثيرا بعد ذلك . بنيت ورش للكهرباء وللسيارات ومنشار للحجر الجيرى وبدأ الدير بعض المشروعات الاقتصادية مثل تربية الدواجن والزراعة بالصوبات. وقد ساعد على ذلك وجود كفاءات مختلفة من بين الرهبان. وابتدأ بعض الرهبان فى نشر بعض الكتب الدينية وإن كان بعضها ضعيفا وينقصه التحرى والتوثيق . تم رصف شبكة الطرق الحديثة وأصبح الطريق ممهدا حتى باب الدير . كان لذلك تأثير مباشر على زيادة الزيارات للدير، ففى بعض المواسم والأعياد يزور الدير المئات والألوف من الزوار، أصبحت زيارة الأديرة سياحة دينية. فقد الدير الهدوء. فبعد أن كان الدير منعزلا عن العالم الخارجى دخل العالم الخارجى للدير، بل وأصبح بعض الرهبان يستعمل الهواتف المحمولة.

والدير الآن بمبانيه العديدة ورهبانه الكثيرين والكثير من العمال والمشروعات، أصبح مؤسسة كبيرة . كيف تدار هذه المؤسسة؟ وهل هناك شفافية فى تلك الإدارة؟ وهل من الممكن تقييم الحركة الرهبانية الحديثة فى الأديرة المصرية؟ أعتقد أن الإجابة على هذه الأسئلة تحتاج إلى مقال آخر. ■

الخشب المسندة

يحسبون كل صيحة عليهم !

بقلم
صافي ناز كاظم

محتارة أى عنوان أختار لهذا الهلع ، أيكون : «مثقفون مكارثيون عرب فى خدمة محاكم التفتيش الأمريكية» أم «أتباع موسولينى من المثقفين الفاشست العرب يواصلون محاكمة عمر المختار» ؟

«الهلع» نتيجة من الدهشة القصوى، وليس ناتج الخوف ، إزاء ذلك البيان الذى قرأت خبره بالصفحة الأولى فى جريدة الشرق الأوسط الصادرة ٤ مارس ٢٠٠٥ ، تحت عنوان : «أنان يتسلم البيان الدولى الداعى لمحاكمة فقهاء الإرهاب من بينهم القرضاوى و الغنوشى» ، ومفاده كما أورده من واشنطن منير الماورى: أن الأمين العام للأمم المتحدة كوفى أنان تسلم «البيان الدولى ضد الإرهاب» الذى أعده وزير التخطيط العراقى السابق الدكتور «جواد هاشم»، والمفكر التونسى «العفيف الأخضر» ، والمفكر الأردنى الدكتور «شاكر النابلسى» قبل ثلاثة أشهر ، ووقعت عليه أكثر من أربعة آلاف شخصية فكرية وثقافية وفنية ، كما وقع عليه صحافيون وشعراء وكتاب

وأكاديميون ورجال أعمال ومستشارون سياسيون واقتصاديون وأطباء وصيدلانيون وطلاب وعمال وربات بيوت وزعماء عشائر . ومن المنتظر أن يحدد الأمين العام للأمم المتحدة موقفه من هذا البيان خلال الأسابيع القريبة المقبلة والخطوات التى سيتخذها إزاءه. ومعرف أن «البيان الدولى ضد الإرهاب» ، دعا مجلس الأمن والأمم المتحدة إلى إقامة محكمة دولية لمن أطلق عليهم «فقهاء سفك الدماء» من علماء الدين ، الذين يدعى عليهم «البيان» أنهم يصدرون «فتاوى الإرهاب والقتل بحق المدنيين من النساء والأطفال الأبرياء» ، وخص البيان بالذكر أسماء علماء بعينهم منهم الشيخ يوسف القرضاوى ، والأستاذ راشد الغنوشى ، رائد «حركة النهضة التونسية» .. !

فى العدد نفسه من الجريدة صفحة ١٣ ، كاريكاتير للفنان أحمد رسمى دال وملخص لبعض الأصوات العالية فى العالم العربى ، منها من يحتمى بحكومات العسكر ، ومنها من يحتمى بالسفارات الأجنبية ، تلك الأصوات التى يطلق عليها البعض «المعارضة» و«الليبرالية» ويبالغون فى المؤتمرات الأدبية والثقافية فيسمونهم «التنويريين»!

ولا شك أن الغالبية منهم هى التى حررت البيان ووقعت عليه واجتذبت البلهاء والسذج إلى مستنقعه الملوث، غير مكترثين بأنهم، بواقع تحرير هذا البيان،

قد أصبحوا هم «فقهاء محاكم التفتيش الأمريكية»، إذ يهرعون بالشكوى – بلا حياء أو تأثم نحو أعداء أمتهم ودينهم وثقافتهم، يرتمون ببلاغاتهم الملفقة وبهتانهم الصريح في أحضان أمهم : «إدارة بوش السفاحة»، التى أجمع الإنسان من كل أطراف العالم على أنها الإدارة العليا لإرهاب وترويع كل البشر ..

هؤلاء الذين حرروا ووقعوا على هذا «البيان» ، الآثم ثقافيا وفكرياً وحضاريا ومبدئيا وعقائديا وأخلاقيا ، من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، فأليسوا هم الذين صدعوا الأدمغة بالشكوى من «المكفراتية» ، المجمدين ، الذين هجروا «الاجتهاد» وعوقوا «حرية التعبير» ، التى منعت كتابا مهما فى «التراث» الليبرالى عنوانه «لماذا أنا ملحد؟» ، لمؤلف اسمه الدكتور إسماعيل أحمد أدهم انتحر عام ١٩٤٠ شابا فى التاسعة والعشرين من عمره ، يأسا من عدم قدرته على «التبشير» بالإلحاد؟

فى الوقت الذى استكثروا فيه سلب «راحتهم» فى النوم ، فى بلد مسلم ، بسبب «ضجيج» الأذان فى الفجر ، وتقييد «حرياتهم» فى الجهر بسب القائد الصحابى «عمرو بن العاص» واعتبار فتح الإسلام لمصر ، إحتلالا وفرضاً للبداوة و«نباح غربان الصحراء» ، و«منعهم» من «التقدم» بفصل الدين عن الدولة ، بما يعنى تنحية الإسلام تماما عن أوجه حياة أهل البلاد ، المؤمنين به شريعة ومنهاجاً ؟

أليسوا هم الذين ضاقوا ذرعا ، وانشغلوا بمحاربة ما أسموه «الأمور التافهة» لتفشى مصطلحات الإسلام بين ناسه ، على أرضه ، فأهملت «ألو» و«هالو» و«مرسى» و«باى باى» و«سعيدة» لتحل مكانها «السلام عليكم» و«جزاكم الله الخير» و«لا إله إلا الله» ليرد الذاهب مكملا «محمد رسول الله»؟

أليسوا هم الذين تحمسوا للحملة العالمية ضد الإلتزام بالزى الإسلامى ، وساندوا القوانين الجائرة التى سنتها فرنسا وألمانيا لقهر مواطنيها على مخالفة عقيدتهم الإيمانية ، ووجدوا فى علاقات الزنا والشذوذ الجنسى معقولية وحرية شخصية ، بينما ارتفعت عقيرتهم لنسخ آيات القرآن الكريم التى تبيح التعدد – المقيد بشروطه – للزواج مثنى وثلاث ورباع ؟

أليسوا هم الذين غضوا الطرف عن الاغتصاب الصهيونى ، المفروض على أصحاب فلسطين ، بالحديد والنار والعنف المباشر والقتل والاغتيال الصريح للعلماء والأدباء والمثقفين ، وقلع أشجار الزيتون وسحق النساء والأطفال والرضع والشيوخ ، وطالبوا الضحايا بالتوقف عن

مـقـاومـة الظلم والظالمين بالحـجـارة والاستشهاد وطالبوهم بالخنوع والتطبيع مع عـدو يدعى أن بالقـرآن الكريم آيات معادية للسامية ؟

أليسـوا هم فـقـهـاء الترويع الذين باركوا حكم الطغاة ثم انسلتوا ليبرروا حق الهيمنة الأمريكية فى الحرق والنسف والقصف وأشكال التدمير كافة ، بحجة «فرض» الديمقراطية وتثبيت «حريات» الشـعـوب بالتـدخل العـسكرى والقـوة الجبرية لمجنزرات الإحتلال تمشط القرى والنجوع والمدن، بمساجدها ، ومتاحفها وكنائسها التاريخية تبحث عن .. وعن .. وعن .. وأسموهم ، بأفعالهم هذه الشنعاء الهمجية : «قوات الحضارة» ؟

أليسوا هم الذين مجدوا آثام الحملة الفرنسـيـة الدمـوية ، ولم يروا منهـا إلا «مطبعة» جاءت بها لتنشر دعاياتها وأكاذيبها على شعب يعتز بدينه وتراثه وحـضـارته ، فى الوقت الذى لم يروا فى الخلافة العـثـمـانية إلا دعـايات روايات «چورچى زيدان» الكاذبة ، وتبنوا الحـقـد الغـربى لعـصـر الأمـراء المصـريين ، وأسموهم «المماليك»، ذلك العصر ، الذى إمتد ٢٥٠ سنة ، كان به قواد عظام مثل قطز الذى حـقق النصـر على ثلاث قـوى شرسة : الصليبيين والتتار والمغول ، لم يتذكروا منه سـوى سنوات الاضـمحلال الأخيرة؟

أليسـوا هم الذين أجادوا لعبة خلط الأوراق وقلب المعانى وتشويه دلالات اللغة ، ليصبح «النور» عندهم «الظلامية» وتظل الإشـارة إلى القـرن السـابع الميـلادى ، الذى بعث فيه محمد رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين «ردة إلى الوراء ، إلى القرن السابع الميلادى» ، مع تأكيدهم أن استلهـام التـعـاليم النبـوية : «لى عنق التاريخ ونكوص عن مدنية القرن الواحد والعشرين..» !

* * *

سقط القناع عن الوجوه الشائهة ، وهاهم يتقدمون ، اليد فى اليد ، يؤازرون الجور العاتى فى فرض ما يسمى «قانون معاداة السامية» ، بقصد ضرب «فقه الإسلام» وليس «فقهاءه» فحسب ، العلماء ، الذين لهم «الأجر» حتى فى الاجتهاد الخاطىء .

ماذا نقول عن هؤلاء الخُشُب المسنَّدة الذين يحسبون كل صيحة عليهم ؟

نقـول : شكواهـم لفراعين العـصـر ، وشكوانا للواحد القهار ، فله الملك بالأمس واليوم وغدا وإلى ما لا نهاية .■



الملفقون

بقلم

وديــع فلسطيــن

تعلمنا الصحافة وعلمناها باعتبارها مهنة لنقل الأخبار الصحيحة من مصادرها الموثوق بها ، فلا نزيف الأخبار ولا نلونها ولا نلفقها وإنما نسجلها بأمانة ودقة وحرص على سمعة الصحفى وجريدته ولكن مع انهيار كثير من القيم فى مجتمعنا نشأت فئة من الصحفيين أو مدعى الصحافة أصفها - آسفا - بالخطافة أو بالملفقين ، وهى تصول وتجول فى أوساط ما يمكن تسميته تجاوزا «صحافة بير السلم» ، أو هى تتخطى الحدود إلى الصحف والمجلات النفطية طمعا فى دولاراتها ، واستغلالا منها لمحرريها الذين يفتقرون إلى الإحاطة بكل جوانب الحياة الأدبية .

ولست أزعم أننى أقرأ جميع الصحف والمجلات العربية الصادرة فى مصر والبلدان العربية والعواصم الأوروبية حتى استقصى اضطبوطات هؤلاء الملفقين ، ولكن أصدقائى هنا وهناك يوافوننى بما يهمنى الإطلاع عليه من كتابات هؤلاء الصحفيين وسواهم ، ولاسيما إذا ما اتخذونى موضوعا لكتاباتهم ، ظنا منهم أننى فى عزلتى لن أستطيع رصد كل ماهو منشور.

فقد نشرت خمس مجلات عربية ، تصدر واحدة في لندن ، وثلاث في السعودية ، وواحدة في مصر ، مقالات تتطابق في مادتها وإن تنوعت إمضاءات كاتبيها ، مما يوحى بأن كاتبها شخص واحد تنكر وراء أسماء آخرين بقصد التمويه . وقد زعم كاتبو هذه المقالات - أو كاتبها الأوحد على الأصح - أنني أمتلك رسائل ثمينة لها قيمة تاريخية عظيمة تلقيتها من مصطفى صادق الرافعي والشاعر على الجارم والشاعر على محمود طه ، والشيخ حسن البنا ، والشيخ أحمد حسن الباقورى ، والشيخ محمد متولى الشعراوى وآخرين ، واستصرخ الغيارى على التراث أن يبادروا بإنقاذ هذه «الكنوز» خشية أن تتعرض للضياع ! وفي حين أن الرافعي توفي وأنا طالب في المدرسة الثانوية وعمرى ١٤ عاما ويستحيل أن يكون قد كاتبني، فإنني لم أعرف ولا قابلت بقية القائمة التي تزداد أسماؤها طولا مع كل مقال ملفق جديد !

غاية الملفقين

ولا أدرى من أين يستقى هؤلاء الملفقون - أو الملفق الأوحد - هذه المعلومات عني ، في حين أنني لا أعرفهم ولا راجعني أحد منهم ليتأكد من صدق معلوماته . أما المسئولون عن هذه المجلات جميعا ، فهم حسنو النية، يفترضون أن كل رسالة تأتيهم بالبريد هي رسالة موثوق فيها وأن كاتبها واقف على أسرار الحياة الأدبية عليم ببواطن الأمور ، وأنها تستحق النشر فورا ، وتستحق المكافأة الدولارية المرصودة والتي هي غاية المنى بالنسبة للملفقين !

ولولا أنني أطلعت بنفسي على نصوص هذه المقالات الملفقة ، لشككت في صحة الذين نقلوا إليَّ أخبارها . وعندما أشار على عدد من الأصدقاء بأن أنبه المسئولين عن هذه المجلات إلى الأكاذيب التي يروجها هؤلاء الملفقون ، آثرت تجاهل الأمر ، وكأنني لم أطلع أصلا على هذه الفصول المنشورة ، وما كان في وسعي أن أطلع عليها لولا القصاصات التي تلقيتها من مراسلي يستفسرون فيها عن هذه «الكنوز» المزعومة التي أحتفظ بها في خزانتي !

هذا صنف من الخطافة أو الملفقين باسم الصحافة . وهناك صنف آخر يستسهل الاتصالات الهاتفية للحصول على رأيك في قضية من القضايا التي قد لاتهمك . فما أيسر الحصول على رقم التليفون سواء من الدليل أو من أى وريقة أو بطاقة تحمل اسمك وعنوانك ، فتنهال عليك الأسئلة ، ويدعوك حسن النية والرغبة في التشجيع على الرد عليها بصبر ، والمفروض أن الصحفي يسجل ردودك حتى لاتتعرض للتزييف . فإذا سألته عن الصحيفة أو المجلة التي يمثلها اسمعك اسم مجلة جديدة ستصدر قريبا أو أخرى تطبع في الجزائر - مثلا - أو قال إن الحديث سيذاع على قناة كذا ، وهكذا تغدو جاهلا مصير كلامك إلى أن تأتيك في البريد قصاصة من صديق تعرف منها أن كلامك نشر مشوها في مجلة لم تسمع باسمها من قبل .

وهناك صنف آخر من الملفقين أجرأ وأقدر على الاقتحام ، وهذا يزورك بموعد أو بغير موعد ، ويوهمك بأنه محرر في جريدة كذا وأن رئيس التحرير أوفده لإجراء حوار معك - كنا في الماضي نسميه بـ «الحديث» - فتستقبله وترد على أسئلته المتلاحقة ، وهو يزداد إلحاحا في توجيه أسئلته حتى إذا ما انتهى من المقابلة طلب مجموعة من الصور لتزيين الحديث بها ، على وعد بأن يعيدها إليك - وطمع في الحصول على كتاب أو كتابين من تأليفك ، ثم ينصرف ، وتمر الأيام والأسابيع والشهور فلا ترى هذا الحديث منشورا ، وتنتظر إعادة الصور التي يهمك الاحتفاظ بها فيطول انتظارك بلا طائل .

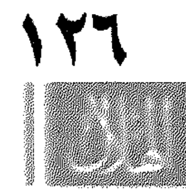
وقد جربت هذه الصنوف الثلاثة من خطافة الصحفيين وملفقيهم ، ولم أعد أحسن الظن بأي طارق ، ولا صرت آخذ أي مكالمة هاتفية مأخذ جد مادمت أجهل صاحبها .

ولم يقتصر الأمر على هذه الشرذمة من الملفقين ، فهناك مجلة عربية كبرى حفيت قدماها في سبيل الاهتداء إلى رقم هاتفي ، وذهبت تستفسر عنه من صحف تصدر في لندن ومن مكاتب صحفية في القاهرة إلى أن أهتدت إليه في آخر الأمر ، ثم دعتني إلى الكتابة فيها ، وأوفدت من يجري حوارا معي في قضايا الأدب وتوقعت بعد هذه المطاردة والملاحقة لي أو لعنواني أن تحتفي المجلة بما كتبته وبالحوار الذي أجرته معي ، ولكن بمراجعة ايصالات البريد المسجل التي أحتفظ بها تبين لي أن مقالي مضت عليه ثلاث سنين وأن حواري مضى عليه أكثر من خمس سنين ، فلا نشر هذا ولاذاك ، ولأنني أتمثل قول الشاعر إيليا أبي ماضي «عللوها فأحسنوا التعليلا» فقد مضيت أعلل موقف هذه المجلة وقلت : لعلها تتعمد الاحتفاظ بهذه «الآثار» في تلاحقها لنشرها كسبق صحفي عندما تأتيها منعاتي !

حتى التليفزيون

ولي مع تليفزيون القاهرة تجربة توبتني من الاقتراب من «ماسبيرو» فقد هاتفتني مذيعة تدعوني للمشاركة في ندوة عن المفكر سلامة موسى مع مجموعة من المتحدثين ، وكنت الوحيد بينهم الذي عرف هذا الرجل بشحمه ولحمه في حين أن الآخرين سمعوا به أو قرأوا له . وقيل لي إن التسجيل سيتم في مكتبة القاهرة الكبرى في الزمالك وإن عليَّ أن أبكر في الذهاب إلى هناك في الموعد المحدد تماما ، وتوجهت إلى المكان المعين وبعد عمليات لضبط الأجهزة وانتظار المذيعة تم التسجيل وكنت فيه المتحدث الرئيسي وكان المفروض أن يذاع هذا البرنامج في شهر أغسطس وهو موعد رحيل سلامة موسى . ولكنه لم يذع إلا في شهر نوفمبر وفي الساعة الثالثة فجرا ربما لتتابعه ديكة الصباح ! وكم أسفت لأنني ضيعت ست ساعات من وقتي وجهدي ، منذ خروجي من منزلي وإلى موعد عودتي ، ولا كانت هناك مكافأة مادية تعوضني عن هذا الوقت المهدر ، وفي حين بت أرفض بكل إصرار دعوات «ماسبيرو» يدهشني تهافت الناس على الظهور في برامج التليفزيون ولو بدفع رشاوي !

وأعود إلى الصحافة وهي ميداني الأصيل ، كنا في الماضي نقف الجهد كله على العمل في الجريدة التي نتقاضى منها مرتباتنا ، فلا نفكر في المتاجرة



بالمادة الصحفية ، فنقدم جزءا منها للصحيفة التى نعمل فيها ونبيع جزءا منها إلى جريدة أخرى - ربما منافسة - مقابل أجر إضافى .

وكان الصحفى يعرف بصحيفته ، فهذا محرر فى جريدة «الأهرام» وهذا فى «المقطم» وذاك فى «المصرى» وهلم جرا . صحيح أنه كانت هناك حركة تنقالات تحدث كلما ظهرت جريدة جديدة ، فتحاول إغراء الصحفيين البارزين على الانضمام إليها بأجر أعلى ، ولكن الولاء الأول للصحفى كان ينصرف إلى الجريدة التى يتقاضى منها راتبه ، فيخصها بكل جهده وربما قضى العمر كله فيها ، ولكننى ألاحظ اليوم أن هناك من الصحفيين من لايقنع بالعمل فى جريدته ، بل يبحث عن عمل آخر ، سواء فى المحطات الفضائية أو فى الوزارات ذات الصلة بالإعلام والثقافة ، أو يوزع نشاطه على أكبر رقعة ممكنة من وسائط «الميديا» ، أفهم أن يظل الكاتب كاتبا إلى أن يموت ، فإذا حتمت عليه جريدته أن يتقاعد بسبب السن ، أنفسح أمامه المجال للكتابة فى صحف الدنيا جميعا - إن استطاع - ولكن المفروض فيه يبقى على ولائه الوحيد لجريدته مادام لم يزل محررا فيها له منصب ثابت ووظيفة محددة وراتب مقطوع .

صحفيو المعاش

والصحفى الذى لايلتزم بالعمل فى جريدة واحدة يسمى فى الخارج Free Lance أى أنه حر ويتعامل مع أى عدد من الصحف أو وسائط «الميديا» بلا قيد . ولكن نقابة صحافتنا لاتعترف لصحفى فى العمل الحر بعد تقاعده ، ولهذا تمنحه بطاقة عضوية فى النقابة يشار فيها عند اسم الجريدة بحرف «ميم» أى معاشات ، وكأنها تعطيه بطاقة صحفية تقول إنه ليس صحفيا ! مع أن النقابة ترى أن جميع الذين خرجوا إلى المعاش يكتبون فى الصحف ويحاورون فى التليفزيون ويزحفون إلى الفضائيات وإلى الصحف التى تصدر فى الخارج .

وصحفيو المعاشات هم فى كثرتهم الغالبة صحفيون محترمون حصلوا خبرة واسعة من العمل فى الصحافة ولم يشاءوا أن يئدوها ، فمضوا يستثمرونها فى صحف ترحب بكتاباتهم . فالصحفى لايتقاعد إلا إذا قرر هو أن يتقاعد ، والقلم لايكف عن الكتابة إلا إذا رغب صاحبه فى التوقف عن الكتابة .. وشتان بين صحفيين مسئولين من صنف أرباب المعاشات ، والصحفيين الخطافة الذين لايقدرون مسئولية الكلمة ولا يحترمون الفن الصحفى أصلا . ولا أدرى كيف ننقى الصحافة من هؤلاء الطفيليين الذى وجدوا فى الصحافة مهنة من لا مهنة له ، وأصبحوا كالبائع الجوال الذي يبيع بضاعته المعطوبة استغفالا للجالسين وراء مقاعد رئيس التحرير ولاسيما فى المجلات النفطية .

وأقول بعد ٦٣ عاما من العمل فى الصحافة والتطفل على الأدب إن مهنة الصحافة قد دخلت فيها عناصر انتهازية تبرز أخبار الفضائح على صفحاتها الأولى ، وتنشر صور الإغراء فى صدارتها وتتسابق فى اكتساب القارىء بالعناوين الزاعقة المضللة . فهل هانت أخلاقيات الصحافة إلى هذا الحد المخزى ؟ عسى أن تكون هناك صحوة بعد غفوة ، ترد الصحافة إلى سواء السبيل . ■

الثعلب فات

بقلم
أبو المعاطى أبو النجا

● يمشى بلا صوت كأنه لا يصير على قدميه، دائماً تُفاجأ به على رأسك أو بجوارك، لا أظنه طرق يوما بابا مواربا أو مفتوحا، أما الأبواب المغلقة فله وسائله التى لا تنتهى لمعرفة ما يدور خلفها، لكن ليس من بينها أبدا أن يطرقها مستئذنا، أو يدخلها بقامة مشرعة، وخطى ثابتة واضحة.

● يجلس راجعا بجذعه إلى الوراء كأنه يحذر أن يتلقى ضربة مفاجئة من محدثه، أو منكفئا إلى الأمام كأنه يوجُهها، أو كأنه بصدد أن يهمس باسم خطير.

● أحاديثه إلى مجموعة من الزملاء تأخذ دائما طابع رواية الأسرار أو خلاصة الخلاصة، أو ما لا يعلمه أحد غيره، ويختارها بعناية فائقة لتقول إلى جوار ما تقوله شيئا آخر يشى بصلاته بأصحاب النفوذ والشهرة، وبما له عندهم من مكانة، ويبدو وكأنه لا يقصد حين تبُث فى هذه الأحاديث ما يزيل أى شك فى صدقها... وهو فى النهاية، وبمعنى من المعانى يعتبر ملكا من ملوك الحديث، لوقت يطول أو يقصر وفق نوعية من يستمعون إليه، وقد يبقى بالنسبة لكثير من الناس ملكا للفكاهة كذلك.

● ذكاؤه العملى ينفذ فى مشكلات الحياة اليومية كالسكين فى الزبد، وشبكة علاقاته التى يختارها بحرص صياد ماهر، ويرعاها بصبر من يعرف حدود ملل الناس، وإن كانت تتمزق دائما على حدود ملله هو، وحواس يقظة على ما يريد هو فقط.

● ذكاؤه النظرى يلمع أحيانا فى جملة عابرة كضوء نجمة تومض ثم تختفى فى ظلمات سحيقة، ولعل ذكاءه ذلك يحتجب خلف رغباته اللاهثة أبدا وراء متطلبات الحياة العملية اليومية، وفى رأيه أن الذكاء النظرى حماقة يتسلى بها أذكياء حمقى يقول ضاحكا: إنهم يكتشفون قوانين الحياة ،أما نحن فنستخدمها، إنهم يميزون الحقائق من الأوهام، أما نحن فنعرف كيف نستخدم

الحقائق والأوهام معا !

● فى عينيه سوف تجد دائماً نظرة لا تتغير، وهى نظرة بلا عمر ليست نظرة طفل أو شاب أو ناضج أو كهل، ولكنها نظرة شك عميق وارتياب وتوجس، تبقى من بداية الحديث إلى نهايته، سواء أكان حديثك أم حديثه، تساير الكلمات، تتلمس انطباعات الوجه، تقرأ المعانى الظاهرة والخفية وكأنها شراك منصوبة، يبقى ذلك الشك هو اللون الكامن فى أعماق تلك النظرة، كامن فى السواد والبياض، أحيانا تتهلل تلك النظرة أو تحزن، تنتصر أو تنهزم، تسأل أو تجيب ولكنها فى كل الحالات تبقى نابضة بذلك الشك العميق والارتياب والتوجس فى الفرح والحزن والنصر والهزيمة والسؤال والجواب جميعا.

● ولأن الشك فى جوهره حركة متعاقبة فى اتجاهين أو فى عدة اتجاهات، فإن هذه الحركة المُعذبة التى تبدأ رحلتها من عينيه، تنساب إلى اليدين والقدمين والجسد فلا تعرف حقا متى تهدأ أو يسترخى أو ينام صاحبها ؟

سوف ترى تلك النظرة تطل من عينيه فى اليوم الأول لمعرفتك به وقد لا تستغربها فى ذلك اليوم، ولكنك سوف تجدها تطل عليك من عينيه بعد سنين من معرفتك به لو عرفت كيف تبقى على علاقة معه طوال هذه السنين.

هو دائما شخص ناجح فى حياته العملية والمهنية والاجتماعية، أصدقاؤه بلا حصر، يخسرهم بسهولة، ويعوضهم بسهولة أكثر، لا يعرفون بعضهم، ولكنهم جميعا يعرفونه، يجمعهم ضعف مشترك أمام وعود لا يكف عن بثها، وخدمات هى نوع من الوعود بخدمات أكثر.

وأنت أمام هذا النجاح المؤكد قد تجد نفسك تقوم نيابة عنه بتفسير سقطات لسانه، وسقطات سلوكه بما لا يتناقض مع هذا النجاح، ولكنه دائما وفى الوقت المناسب يقوم نيابة عنك بوضع الأمور فى نصابها، فترى لأول مرة إلى أين تمتد جذور ريبته وشكه..

تقول له يوما:

– علام الأسف؟ لقد بذلت كل ما فى وسعك؟!

– وكيف عرفت ما فى وسعك؟ ثم يضيف متهكما:

إذا كنت أنا نفسى لا أعرفه.

تقول متردداً:

– مهما تكن النتيجة فهى أفضل من استمرار التمزق.

فيردد متسائلا:

– حزين من أجلى؟

– وهل نشك فى ذلك؟

– لا، إذا شككت فى كل الناس، ما سمحت لنفسى بالشك فيك أنت!

– من يقبل بالشك فى جميع الناس، كيف ينجح فرد واحد فى كسب ثقته!؟ وفى الغالب أنت لن تنطق بهذا الجواب ستكتفى بأن تديره فى رأسك وأنت صامت.

فيقول لك:

- أراك صامتا... لم لم تعلق على كلامي!

فترد بيأس: أحيانا يلجمنا مديح الأصدقاء

- نعم.. الأصدقاء.. الأصدقاء.. صحيح.. صحيح.

● كلماته كلها منظومة في ذلك الخيط الدقيق الممتد بين الجد والهزل، بين القبول والرفض، بين الرضى والغضب وسوف تتعب حتى العياء لو حاولت أن تمسك به من كلمة قالها، أو حتى تستشف حقيقة ما يريد أو يحب أو يكره.

ملامح وجهه، مثل كلماته تملك هذه القدرة الفذة على الانتقال في تعبيراتها بين الجد والهزل، والقبول والرفض، والرضا والسخط..

● الحياة بجواره أو العمل معه، هي حياة في أرض مزروعة بالألغام، وبالقمح والشعير، قمحها له وشعيرها لمن يرضى عنه، وألغامها لمن يغضب عليه، ومشكلة من يقتربون معه، إنه يريد أن يزرعوا القمح ويحصدوا الشعير، وإذا لم تعجبهم القسمة فعليهم أن يكونوا هم حصادا للألغام. التي لا يعرفون مكانها ولا متى تنفجر؟!

● الحب الوحيد الواضح في حياته هو حبه لذاته. والكره الوحيد الخفي هو كرهه لذاته أيضا، ولكنك سوف تحتاج إلى وقت طويل من القرب منه لاكتشاف ذلك الكره الخفي المستكن والذي يبدو أحيانا وكأنه نوع من الاحتقار لهذه الذات تشف عن ذلك محاولاته المستميتة وغير المباشرة لمعرفة ما يقول الآخرون عنه أو رأيك أنت فيه! ثم إصراره على امتحان الرأي المعلن بأكثر من طريقة، منك أو منهم.

وبين هذين القطبين من الحب والكراهية، يظل يدور ويتمزق، ويدور ويتمزق معه الأهل والأصدقاء والكلمات والمواقف.

● الأطفال وحدهم هم الذين ينجون من عالمه المتقلب المضطرب، ومع أن أحاديثه عن حبه لهم لا تنتهي، فإنه يفشل في الاقتراب من عالمهم، قد ينجذبون إليه لأول وهلة، ولكنهم يدركون بغرائزهم الملهمة، والباحثة عن الحب والأمان بلا شروط، أنه هو غير آمن وأن كل ما بيديه من عواطف هي شروط لصفقة مبهمة فيهربون منه ومنها.

● أحيانا يبدو أن نجاحه العملي والاجتماعي ليس إلا محاولته اليائسة المستمرة لتحسين صورته أمام نفسه أو أمام الناس، وقد لا تكون صورته الحقيقية بهذا القبح الذي يراه، فنجاحه نفسه ما كان يتحقق لولا العديد من الصفات والقدرات الجيدة التي يمتلكها، ولكنه في حيرته وقلقه وتقلبه وارتيابه لا تكاد تستقر نظراته على هذه الصفات، ومع ذلك يبقى هذا النجاح صخرة نجاته وسط هذه العواصف المظلمة.

● آخر شىء سوف تكتشفه وغالبا ما يحدث ذلك فى لحظات هزيمته أو بؤسه، هو ذلك الحزن المستكن فى أعماقه وهو حزن يمكنك أن تراه أيضا فى لحظات أيضا فرحه وانتصاره، فهذه اللحظات لا تكون عنده أبدا نقية أو خالصة، ولو نفذت إلى ما وراء صخب النجاح وضجة الفوز لتأكد لك أن ذلك الحزن العميق الدقيق هو وحده الذى ينجو من أمواج شكه وارتيابه، وهو الحقيقة الأليمة الدائمة والمستترة وراء كل المتغيرات.

● هذا الحزن قد يستبقى من حوله عددا من الأصدقاء لهم صبر الأنبياء، وفضول من يعشق المعرفة... غالبا ما يتساءل هؤلاء... متى يا ترى يأتى فرحه العظيم كذلك؟؟

وبالتأكيد سوف يلاحظون أن فرحه العظيم يأتى حين يلقى إنسان فيه قدراً واضحا من الصدق والبساطة والتلقائية.

يقبل على هذا الإنسان مغردا بالافتنان والإعجاب يشيد به، يتحدث عنه لمن يعرف ولمن لا يعرف. وكأنه يرى هذا النوع من الناس لأول مرة...! متى يدوم هذا الفرح؟... ربما أياما ربما شهورا يحرص هو فيها أن يقدم أبهى صورة له لنفسه أمام ذلك الصديق... وأمام أول اختلاف فى تقدير الأمور... يبدأ فى النظر لهذا الصديق بعين مستريبة، وتبدأ معزوفة الشك المرير... وتبدأ الازدواجية القاتلة... يبدو فى وقت واحد وكأنه يمنح ثقته بغير حدود، ويرسل وراءها جواسيس شكه بغير عدد كذلك.

وأحيانا يبدو المشهد القاسى وكأن ثقته تلك ليست سوى مجرد إغراء يبثه فى طريق صديقه ليطمئن إليه ليظهر على حقيقته، لو كانت له حقيقة أخرى، لو كان صدقه مجرد قناع، أو مجرد حيلة العاجز ويوم يعثر فى حياة ذلك الصديق على لحظة ضعف، أو نقيصة خافية فى الماضى أو فى الحاضر، يبدو وكأن فرحته الحقه قد جاءت أخيرا.

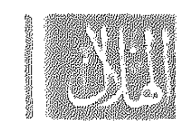
يصرخ لنفسه وأحيانا لمن حوله.

ألم أقل لكم؟ هكذا الناس، هكذا الإنسان وإذا لم يسعفه الحظ بمثل هذا الاكتشاف... فإنه فى الغالب يسقط مثل هذا الإنسان من حياته، ينساه ولأن مثل هذا الإنسان لا يكون فى العادة من ذوى النفوذ أو الجاه، فانه يجد الفرصة آن ذاك ليتحدث عن العلاقة الأزلية بين الطيبة والخيبة وقد يتذكر فجأة مثل هذا الصديق الطيب الخائب فيذهب إليه... وقد يقدم له بعض العون فيما يظنه وحدته وفشله... مؤكدا لنفسه أن الوحدة واليأس هما قدر الإنسان، وأنه من الخير أن يبقى الإنسان وحيدا ويائسا فوق صخرة النجاح من أن يبقى وحيدا ويائسا مع الخيبة والفشل. ■

محاكمة شعر



بقلم
د. نبيل حنفى محمود

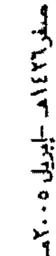


صفر ١٤٢٦هـ - أبريل ٢٠٠٥م

كثيرة هى قضايا الشعر العربى، ولعل الانتحال أقدمها، وهاهو أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسى (٢٤٦ - ٣٢٧ هـ) يحدثنا فى «كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومخارجه» من موسوعته الشهيرة: «العقد الفريد» عما نحله حماد الراوية من شعر، ويثبت ابن عبدربه ما قاله حماد عن ذلك «ما من شاعر الا قذ زدت فى شعره أبياتا فجازت عليه إلا الأعشى، أعشى بكر، فإنى لم أزد فى شعره قط غير بيت فأفسدت عليه الشعر»، حدث ذلك إبان

أزهى عصور الشعر فى الجاهلية وصدر الإسلام وحتى أوج الدولة العباسية، فلما تسللت العجمة إلى لغة الضاد باتساع رقعة دولة الإسلام، عرف الشعر أشكالا جديدة ظهرت أولا بالأندلس، ومن ذلك الموشحات التى ولدت على يد مقدم بن معافر الفريرى من شعراء الأمير عبدالله إبن محمد المروانى بالأندلس، والزجل.. الذى كان أول من قاله بالأندلس: أبو بكر بن قزمان، ولما كانت علاقة هذه الأشكال الجديدة من الشعر العربى بالغناء علاقة إرتباط وإمتزاج، مما جعل الإقبال عليها وطلبها عظيما، فكان ذلك حافزا لتعاظم الانتحال وإستشراء السرقات على يد المدّعين وأنصاف الموهوبين، وبالرغم من ذلك.. كان استنكار الناس عظيما فى مطلع الستينيات من القرن العشرين، لمحاولة البعض إلصاق تهمة انتحال الأزجال وأفكارها بالشاعر الرقيق: مرسى جميل عزيز (١٩٢١ - ١٩٨٠).

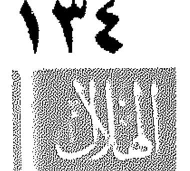
ولد مرسى جميل عزيز بمدينة الزقازيق فى اليوم التاسع من يونيه سنة ١٩٢١، كان والده جميل مرسى عزيز من كبار تجار الفاكهة بمحافظة الشرقية، وإلى هذا الوالد وتجارته تعزى كثير من عناصر التكوين الفكرى والإبداعى للابن، فقد أتاح اليسر المادى للوالد تعليما جيدا للابن، حيث حصل مرسى جميل على شهادة البكالوريا من مدرسة الزقازيق الثانوية، مما أهله للالتحاق بعدها بكلية الحقوق «خيرى شلبى: مرسى جميل عزيز.. موسيقار الكلمات - الكتاب التذكارى - الهيئة العامة لقصور الثقافة - يونيو ١٩٩٥م)، وقد أتاح اليسر المادى للوالد أيضا توفير ما تاقت إليه نفس الابن من مصادر ترفد مواهبه الأدبية والفنية، حيث شب مرسى جميل عاشقا للأدب والشعر والموسيقى والتصوير الفوتوغرافى، كذلك أثر تفتح مدارك الإبن على الفواكه بألوانها وأشكالها البديعة فى إثراء وجدانه وإرهاف مشاعره، بينما أمدته نداءات باعة الفاكهة وما حفظه التراث الشعبى من أغنيات أفردت لأنواع من



الفواكه مثل البلح والعنب بمعين لا ينضب من الصور الشعرية الشديدة الثراء والجمال، لذلك لم يكن غريبا أن تتفجر كوامن الموهبة من نفسه في سن مبكرة، حيث يذكر خيري شلبي - في كتابه الجميل عنه - أنه ألقى قصيدته الأولى وهو في الثانية عشرة من عمره «خيري شلبي : المصدر السابق»، وتقول المصادر أنه كتب أول أغنياته المذاعة في عام ١٩٣٩م، وهي أغنية «الفراشة» التي كانت من ألحان رياض السنباطي «خيري شلبي : المصدر السابق، محمد قابيل: موسوعة الغناء المصري - ص ٢٨٢».

سُجل أسم مرسي جميل عزيز في نادي المشاهير من شعراء الأغاني عندما أذيعت أغنيته «يامزوق ياورد في عود»، والتي كانت من ألحان وغناء المطرب والملحن: عبدالعزيز محمود، قدم مرسي جميل بعدها وخلال عقد الأربعينيات - وهو أوج ازدهار الغناء المصري - مجموعة من الأعمال الغنائية ذات القوالب المختلفة ولكثير من الأصوات المعروفة أنذاك ، ومن تلك الأعمال نذكر الآتي: أغنية «ماليش حبايب الا إنت» التي لحنها محمد هاشم وتغنت بها نجاة علي من الإذاعة مساء الأربعاء ١٩٤٥/٥/٢٣م - أغنية «جميل جميل» التي لحنها الموسيقار أحمد صدقي وتغنى بها في برنامج «ركن الأغاني الريفية» الذي أذيع مساء الخميس ١٩٤٥/٥/٢٤م والبرنامج الغنائي «يمّ الساقية» من ألحان أحمد صدقي وإخراج محمد محمود شعبان والذي أذيع مساء الاثنين ١٩٤٦/٤/٢٢م (لم تكن تلك إذاعته الأولى وطبقا لتنويه مجلة «الراديو المصري).

تميز إنتاج مرسي جميل الغنائي على امتداد مشواره بالغزارة ، فاذا ما قفز الراصد لانتاجه عقدا من السنوات بعد تاريخ تقديم أغنياته الأولى. حيث يصل بذلك إلى قرابة منتصف عقد الخمسينيات ، فيجد الراصد أن إسم مرسي جميل يتألق في صدارة الصف الأول من الشعراء الغنائيين بأغنيات رددتها جماهير المصريين والعرب بحب وإقبال . وللتدليل على ذلك نذكر من هذه الأغنيات النماذج التالية: «يا أسمر ياجميل» لعبدالعزيز محمود - «عيد الميلاد» لشادية - «ياضنين الأمس» لكارم محمود - «عطشان يا أسمراني» لنجاة الصغيرة - «سبحانك» لسيد مصطفى - «ياعيني فين قلبي» لنجاح سلام وجميع أغنيات فيلم عبدالحليم حافظ الثاني: «أيامنا الحلوة» وهي: «الحلو حياتي - ليه تشغل بالك - هي دي هي وياقلبيي خبي»، وإلى جوار تلك الأغنيات .. إقترن اسم مرسي جميل بكثير من البرامج الغنائية الجميلة التي شهدت أزهى عصورها في عقد الخمسينيات، ومن هذه البرامج.. برنامج «المولد» الذي لحنه عزت الجاهلي وقدم في العاشرة من مساء الأحد ١٩٥٥/٣/٢٠م، وبالرغم من غزارة هذا الإنتاج من الأعمال الغنائية الجميلة، فإن الراصد المدقق سوف يتوقف عند عملين لمرسي جميل لما لهما من أهمية وقيمة كبيرتين. والعمل الأول من هذين العملين هو قصيدة «بلدي» التي لحنها وغناها الموسيقار محمد فوزي، وقد أذيعت هذه القصيدة الوطنية للمرة الأولى من الإذاعة



فى الحادية عشر وخمس عشرة دقيقة من مساء الأحد ١٩٥٥/١/٢٣م، وكان مطلعها مكونا من الأبيات التالية:

بلدي أحبيتك يا بلدي
حبا في الله وللابد
فثراك الحرّ تراب أبي
وسماك يزفّ صبا ولدي
بلدى احببتك يا بلدي

وهى قصيدة عاشت فى الوجدان الجماعى للمصريين، واستعادتها أسماعهم وألسنتهم فى كل مناسباتهم الوطنية خلال معظم النصف الثانى من القرن العشرين ، وأما العمل الثانى الذى سوف يتوقف عنده المتأمل لأعمال مرسى جميل الغنائية فى منتصف الخمسينيات، فهو القصيدة الأولي التى تغنت بها مطربة لبنان والعرب الكبيرة : نهاد حداد الشهيرة بفيروز لشاعر مصرى، ونعنى بذلك قصيدة «سوف أحيا» ، والتى قدمت للمرة الأولى من إذاعة القاهرة فى السابعة والربع من مساء الخميس ٥ مايو ١٩٥٥م، لحن الأخوان رحبانى: عاصى ومنصور القصيدة فى قالب موسيقى أقرب للموشحات ، وكان مطلعها الذى جاء فى سياق نصها المنشور بالصفحة رقم (٥٦) من العدد رقم (١٠٥٠) من مجلة «الإذاعة المصرية» والصادر فى ١٩٥٥/٤/٣٠ م كما يلي.

كيف لا أحيا وظل الورد يحيا في الشفاه
كيف لا أحيا وهذا الظبي يجري في الفلاه
كيف لا أحيا وفي قلبي وفي عيني الحياه
سوف أحيا سوف أحيا هكذا قال الاله

فى تلك القصيدة الرائعة مزج مرسى جميل بين التغنى بجمال الطبيعة والتأملات الصوفية، وبدا أسلوبه كخليط من أساليب على محمود طه وإبراهيم ناجى وابن الفارض الشعرية، فاذا ما أضاف الراصد إلى هاتين القصيدتين قصيدة ثالثة كتبها مرسى جميل وتغنى بها المطرب كارم محمود بألحان الملحن الجديد - وقتها - كمال الطويل فى يوم الجمعة ١٩٥٢/١/٤، وهى قصيدة «ياضنين الأمس»، فإن ما سيخرج به الراصد من مهمته سيتبلور فى نتيجة واحدة، وهى أن شاعرا كبيرا وزجالا موهوبا ظهر فى سماء الأغنية المصرية والعربية ليكتب فصلا جديدا وجميلا فى سيرة الغناء المصرى والعربى خلال القرن العشرين المنصرم، لذلك كان إندهاش المصريين عظيما عندما طالعت أعينهم فى صباح السبت ١٩٦١/١٠/٢٨م ما حوته الصفحة الثانية عشر من صحيفة «أخبار اليوم» عن شاعر الأغنيات والقصائد الجميلة : مرسى جميل عزيز.

بداية المعركة

كتب جليل البندارى (توفى ١٩٦٨م) فى الصفحة المشار إليها بعدد ١٩٦١/١٠/٢٨ من «أخبار اليوم» مقالا بعنوان: «من هو قرصان الأغانى.. الذى سرق أجمل كلمات هذا الموسم؟!» ، بدأ جليل البندارى مقاله بالتساؤلات التالية: «هل صحيح أن مؤلف الأغانى مرسى جميل عزيز قد استولى بطريق القرصنة على مطلع أغنية (أنا شفت جمال) من

زميله الشاعر أحمد شفيق كامل (١٩٢٣-) وإذا كان هذا صحيحا، فما حكم القانون الذى صدر ليحمى المؤلفين والملحنين وأصحاب الأفكار من قراصنة الأدب ولصوص الأفكار؟، ما رأى جمعية المؤلفين والملحنين إذا رأت واحدا من بين أعضائها ينهب أفكار الآخر؟، لماذا وقفت الجمعية مكتوفة الأيدى أمام هذه الواقعة بالذات؟»، ومن المهم هنا - وقبل التصدى لتحليل ما تضمنه مقال البندارى من وقائع - أن يلاحظ القارىء أسلوب البندارى فى الاستفزاز والتهييج وإيغاله فى لى الحقائق، فمرسى جميل الذى يكتب الشعر والزجل قبل أكثر من عقدين من تاريخ كتابة البندارى لمقاله هو «مؤلف أغانى» فى حديث البندارى، وأحمد شفيق كامل الذى كان يتحسس آنذاك - بدايات مشواره فى عالم الغناء، يسبغ عليه البندارى لقب «الشاعر الغنائى»!، ويتلخص ما أورده البندارى فى مقاله من وقائع فى الآتى: أن أحمد شفيق كامل كتب أغنية تحمل اسم «أنا شفت جمال»، وبعد نشر نص الأغنية فى عام ١٩٥٨ بمجلتى «المصانع الحربية» و«الإذاعة»، قام أحمد شفيق كامل بإعطاء الأغنية لمحمد الموجى «١٩٢٣ - ١٩٩٥م» كى يلحنها، على أن يقوم عبدالحليم حافظ بعد ذلك بغنائها ، وبعد أن أجرى أحمد شفيق كامل بعض التعديلات التى طلبها عبدالحليم فى نص الأغنية، قام عبدالحليم بتسليم الأغنية لكمال الطويل ليتولى تلحينها بدلا من محمد الموجى الذى شغلته أعمال أخرى ، وفى إحدى نوبات الكسل التى تلم بكمال الطويل، ترك كمال الأغنية فى درج مكتبه وأهمل شأنها، وبعد حوالى ثلاث سنوات.. قدم مرسى جميل إلى الإذاعة نصا لأغنية تحمل اسم «أنا شفت جمال» أيضا، وما أن طالع محمد الموجى عنوان الأغنية التى قدمها له محمد حسن الشجاعى - مستشار الغناء والموسيقى بالإذاعة - كى يلحنها ، حتى قال الموجى أن مطلع هذه الأغنية مأخوذ من أغنية سابقة لأحمد شفيق كامل، وقد أرفق البندارى نص أغنية أحمد شفيق كامل بمقاله، وبدون أن يضع إلى جواره نص أغنية مرسى جميل، وذلك حتى يمكن للقارىء أن يحكم على صحة الاتهام الذى تضمنه المقال.

اختتم جليل البندارى مقاله فى عدد ١٩٦١/١٠/٢٨ من «أخبار اليوم» بسؤال الشاعر الغنائى: مأمون الشناوى (١٩١٤ - ١٩٩٤) عن رأيه فى الواقعة، فكان مما قاله مأمون الشناوى ردا على سؤال البندارى: «وكان ينبغى على الموجى أن ينبه مرسى جميل إلى أن مطلع هذه الأغنية سبق أن قاله شفيق كامل»، ثم اختتم الشناوى حديثه قائلا: «وأنا فى حكمى هذا.. لا أعفى الموجى ومرسى من التواطؤ معا!».

رد عنيف

نشرت «أخبار اليوم» فى الصفحة السادسة من عددها الصادر فى ١٩٦١/١١/١١م ردا من مرسى جميل على ما جاء فى مقال جليل البندارى بعدد ١٩٦١/١٠/٢٨م، كتب مرسى جميل رده تحت عنوان ساخن جاء كما يلى: («أغانى الشعراء.. وأغانى «صبيان العوالم»، !!) ، افتتح مرسى جميل مقاله



بالفقرة التالية: «جليل البنداري.. مأمون الشناوي.. شفيق كامل.. محمد الموجي، ثلاثة من مؤلفي الأغاني ورابعهم ملحن، اجتمعوا لا لعمل أوبريت أو أغنية للمسرح أو السينما أو الراديو أو التليفزيون أو حتى الأرجوز، لا.. اجتمعوا للقضاء على مرسي جميل أو ظنوا أنهم يستطيعون ذلك»، سخر مرسي جميل مما قال به جليل البنداري من أنه سرق مطلع أغنية «أنا شفت جمال» من أغنية لأحمد شفيق كامل، وكان سنده في ذلك أن جملة «أنا شفت جمال» لا تعدو كونها تعبير تلقائي يرد على لسان أي إنسان يمر بهذا الموقف، ومن منطلق الرد على ما أدلى به مأمون الشناوي من رأي في مقال البنداري، طعن مرسي جميل في موهبة مأمون الشناوي وتحداه بأن «يقف أمام لجنة من النقاد والأدباء تمتحنه في أبسط قواعد الكتابة الفنية»، وفيما يختص بمأمون الشناوي.. ذكر مرسي جميل أيضا أن أغنيتيّ «يا شاغلني» لليلى مراد و«القلب والا العين» لسعاد محمد قد سُرق مطلعاهما من أغنيتين ذكرهما، وأتبع ذلك بقوله: «واخد بالك يا مأمون؟»!، قدم مرسي جميل النصين الكاملين لأغنية أحمد شفيق كامل وأغنيته في ختام مقاله، وأتبع ذلك برجاء بعث به إلى (السادة كتابنا الكبار) كي يقولوا كلمتهم في القضية المثارة، وعبر عن ذلك بقوله: «أرجو أن نسمع كلمتهم التي تضع الحدود الفاصلة بين أدب الشعراء وأدب صبيان العوالم»!، كان مطلع أغنية أحمد شفيق كما أورده مرسي جميل في ختام مقاله على النحو التالي:

قولوا للأجيال
أنا شفت جمال
أنا عشت معاه في زمن واحد
علي أرض النور
أرض الأحرار والحرية
وفي وطني أنا
وطن القومية العربية
بكره .... بكره

وأما مطلع أغنية مرسي جميل فإنه كان كما يلي

أنا شفت جمال والنبي يا مه
أنا شفت جمال
الدنيا إحلوّت قوي لما
أنا شفت جمال
أنا في البلكونة البحرية
ويّا الأفراح مستنيْه
الموكب هلّ علي شارعنا
مع أجمل نسمة عصريّه
وف قلب الموكب واللمّه
أنا شفت جمال

ولم يدع مرسي جميل الفرصة تفلت من يده قبل أن يطعن في صنعة الأغنية التي زعم البنداري أنه سرق منها، فقال عن ذلك: «وليس أدل على صدق ما أقول من النموذج الذي يزعمون أني تركت شعر الدنيا لأسرق منه، فهو يتخبط بين الكثير من بحور الشعر كالمتدارك.. والرمل... والكامل.. ومخلع البسيط وغيرها، ولم يكتفوا بهذه الخلطة العجيبة... بل كسروا رقبة كل وزن من هذه الأوزان»، كان رد مرسي جميل أشبه بمذكرة محام ماهر يفنّد فيها عريضة اتهام في ساحة محكمة، وهكذا أظهر مرسي جميل أن ما قضاه من

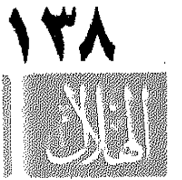
سنوات بكلية الحقوق لم يذهب سدى.

جاء رد مأمون الشناوى سريعا على ما نسبه إليه مرسى جميل فى مقاله المشار إليه، حيث نشرت «أخبار اليوم» رد مأمون الشناوى بالصفحة السادسة من عدد ١٨/١١/١٩٦١، وضع الرد بعد عنوان رئيسىّ اتخذته الصحيفة لمقالات المعركة وكان نصه: «مذبحة بين مؤلفى الأغانى»، بينما اتخذ رد مأمون الشناوى العنوان التالى: «مرسى جميل عزيز إشاعة كاذبة فى جوّ الأغنية - منطق البطيخ.. ومنطق الفن والأدب»!، إفتتح الشناوى رده بالفقرة التالية: «قلت كلمة الحق... وهى أن مرسى جميل قطع رأس الأغنية الضخمة التى صوّر فيها المؤلف أحمد شفيق كامل أمجاد ثورتنا وكفاح بطلنا، ثم وضع مرسى لهذا الرأس جسماً هزيلاً نحيلاً أعجف ينم عن هيئة مؤلفه!»، ثم إنثنى الشناوى بعد ذلك ليقدح عمل مرسى جميل فى تجارة الفاكهة فقال: «وتجارة البطيخ التى يزاولها مرسى جميل، والتى يجنى من ورائها دخلاً ضخماً، هذه التجارة عمل شريف لا يحط من قدره كمؤلف أو مواطن!، ولكن لا ينبغى أن نستخدم منطق البطيخ فى النقد الأدبى أو النقاش الفنى، وإلا أصبح المجال الأدبى (شادرا) تختلط فيه نداءات الباعة بطلبات الزبائن، ويختلط فيه الحلو بالمائع والطازج بالحامض والسليم بالمكسور والطيب بالأقرع!»، والشادر هو سرادق يقيمه تجار الفاكهة ومن فى حكمهم لاستقبال وتخزين وبيع ما يتجرون فيه، وينتقل مأمون الشناوى بعد ذلك إلى هدفه وهو إلصاق جريمة السرقة بمرسى جميل والطعن فى موهبته، فيقول فى ذلك: «فلتكن أغنية شفيق كامل مكسورة.. مهلهلة.. (مدشدشة)، وليقل (أى مرسى جميل) فيها ما يشاء، ولكن هذا لا يبرئه من واقعة (لطش) رأسها وضمه إلى ممتلكاته الخاصة!!، يكفى للتدليل على أن شفيق كامل شاعر وأن مرسى غير شاعر، هو أن أغنية شفيق كامل يمكن ترجمتها إلى أى لغة، ولكن كيف يمكن ترجمة (والنبى يامّه)!!»!

عريضة دعوى

انطوت الصفحة الثانية عشر من عدد ١٨/١١/١٩٦١م من «أخبار اليوم» على مقال نارى لجليل البندارى، كان المقال الذى إختار له البندارى عنوان: «حبك نار.. بتلومونى ليه.. يامه القمر ع الباب! - الأغانى التى ألفها غيره.. وإشتهرت باسمه!!» بمثابة عريضة دعوى أو إتهام لمرسى جميل عزيز بسرقة مجموعة من الأغنيات، تضمن المقال قائمة أولى لعدد من الأغنيات التى قال البندارى أن مرسى جميل سرقها من مؤلفيها؛ وهى أغنيات: يامه القمر ع الباب - حبك نار - فى يوم فى شهر فى سنة - بتلومونى ليه ويا أسمر يا جميل، خمس أغنيات.. فإذا ما أضيفت إليها «أنا شفت جمال»، يصبح العدد ست من أشهر أغنيات مرسى جميل، أغنيات وضعت إسمه وأسماء من لحنوها وتغنوا بها على كل الشفاة.

افتتح البندارى مقاله بإثبات حقيقة نمت إلى علمه، حيث قال أن محمد الموجى أفضى إليه فى حضور المذيع الشاعر: أحمد خميس بأن علاقته بمرسى



جميل كانت تسوغ لمرسي أن يفتح أدراج مكتب الموجي، وأن يقلب فيما تحويه من أغان يرسل بها إليه الشعراء ليلحنها، كان ذلك يعني أن مرسي جميل اقتحم مكتب الموجي واطلع على نص أغنية أحمد شفيق كامل قبل أن يكتب أغنيته التي أشعلت المعركة، ثم إستطرْد البنداري بعد ذلك إلى صلب دعواه فقال: «وتحت يدى الآن كتاب الأغاني الحديثة لذائعة الصيت بلبل مصر في هذا العصر... الست توحيدة المغنية الشهيرة الذى صدر فى سنة ١٩٢٢، وهو يضم عشرات الأغانى التى كانت تغنيها ومن بينها هذه الأغنية المشهورة: (يابا القمر ع الباب - نَّور قناديله/ أرد يابا الباب - والا أناديله)، فجاء سارق المفاتيح ونشَّال الأفكار من أدراج المكاتب وأجرى تعديلا بسيطا فيها وقدمها على هذا النحو: (يامه القمر ع الباب - نوّر قناديله/ يامه أرد البـاب - والا أناديله)»، ومضى البندارى بعد ذلك فى بيان ما رآه من سرقات ارتكبها مرسي جميل في بقية أغاني القائمة الأولى، فقال أن أغنية عبد الحليم حافظ الشهيرة «نار» والتى كان مطلعها كما يلى: (حبك نار - قربك نار - بعدك نار/ واكتر من نار/ نار يا حبيبي نار)، قد أخذه مرسى جميل من أغنية قدمتها المونولوجست سميرة عبده من نظم عبد الفتاح شلبي وألحان فهمي فرج وقبل سبعة عشر عاما وكان مطلعها: (حبك نار - قلبك نار - طبعك نار/ خليت عيشتي مرار فى مرار/ نار نار نار)، وأضاف البندارى إلى ذلك أن مطلع أغنية «بتلوموني ليه» لعبد الحليم حافظ، والذى صاغه مرسى جميل بالصورة التالية: (بتلوموني ليه/ لو شفتم عينيه)، أن ذلك المطلع سرقه مرسى جميل من مطلع أغنية لرجاء عبده كتبها سعد عبد الرحيم ولحنها عبد العظيم محمد، وكان مطلع أغنية رجاء عبده يقول: (بتلوموني ليه/ روحوا لوموه هو)، ولتوثيق ما تضمنته الدعوى/ المقال من اتهامات، فإن البندارى - ولطول باعه فى مثل هذه النوعية من الكتابات - أرفق بكل أغنية تضمنتها قائمة الاتهام الأولى ما يثبت أن تاريخ أغنيات مرسى جميل كان لاحقا لتاريخ ما اتهمه بسرقته من أغنيات، ومن ذلك ماذكره فى شأن أغنية «بتلوموني ليه» حيث قال: «وسعد عبد الرحيم سجَل أغنيته التى يقول فيها (بتلوموني ليه) فى يوم ٦ يونيو سنة ١٩٥٨، أما مرسى جميل عزيز فسجَّل كلمات أغنيته التى تحمل نفس العنوان ونفس المطلع ونفس المفتاح فى يوم ١٩ يناير سنة ١٩٦٠»!.

استكمل جليل البنداري في الحلقة الثانية من عريضة دعواه ضد مرسى جميل ما بدأه من رصد لسرقات تضمنها إنتاجه الغنائي، جاءت الحلقة الثانية فى مقال كتبه البندارى بالصفحة الثانية عشر من عدد «أخبار اليوم» الصادر فى ١٩٦١/١١/٢٥م، اختار البندارى لمقاله عنوانا دالا ومعبراً وجعله على النحو التالى: «وسرق (إنت وبس اللى حبيبى)! - إنت وبس اللى حرامى!»!!، قدم البندارى فى القائمة الثانية التى تضمنها مقاله المشار إليه ست أغنيات «شفت بعيني ما حدش قاللى» التى كتبها مرسى جميل وتغنى بها محرم فؤاد، قد سرقت من أغنية «شفت بعيني وقلبي قاللى» للشاعر الغنائي حنفى فراج، وأن أغنية

«عطشان يا أسمراني محبة» التي نظمها مرسي جميل وشدت بها نجاة الصغيرة مسروقة من أغنية المطربة السودانية عائشة الفلاتية: «يا حبيبي يا أسمراني محبة» التي نظمها حنفي فراج أيضا، وأضاف البنداري إلى ذلك أغنيات: «إنت وبس اللي حبيبي» - و«وصفوا الخطاب» - «أبو رمش بيجرح ويداوي» و«في العين دي والعين دي»، فقال بأن مرسي جميل قد سرق مطالعها وأفكارها من أغنيات أخرى لشعراء آخرين، وبذلك إكتمل عدد ما حوته عريضة الدعوى التي قدمها البنداري بجزئيها على صفحات «أخبار اليوم» من أغنيات يتهم مرسي جميل بسرقتها ليبلغ إثني عشر أغنية، كانت واحدة منها كافية - إن صحت سرقتها - لإصدارحكم بالإعدام الأدبي على أكبر شعراء الدنيا، فما بالنا باثني عشر أغنية؟!

أول محاكمة غنائية

لم يهتز مرسي جميل عزيز لفداحة ما حملته دعوى جليل البنداري ضده، وأرسل إلى «أخبار اليوم» - وبعد نشر الجزء الثاني من دعوى البنداري - شيكا بمبلغ خمسمائة جنيه من جنيهات ذلك الزمان، وطلب مرسي جميل في مقابل ما قدمه من غطاء مادي أن تعقد «أخبار اليوم» محاكمة علنية له، بأن تبعث الصحيفة بعريضة الدعوى التي جاءت في مقاليّ البنداري إلى مجموعة من كبار النقاد والأدباء، وذلك لاستطلاع آرائهم في صحة ما اتهمه به البنداري، وفي الحقيقة... فإن محاكمة كهذه لم تكن الأولى في تاريخ الأدب العربي، فقد حفظ لنا التاريخ كتاب «العمدة» للحسن بن رشيق القيرواني (٣٦٨ - ٤٥٦هـ)، الذي أوقف فيه مؤلفه فصلا طويلا للحديث عن سرقات الشعر وأنواعها، وليس ببعيد عن ذلك ما حواه «كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين» للخالديين: أبي بكر محمد (توفي ٣٨٠هـ) وأبي عثمان سعيد (توفي ٣٩٠هـ) إبني هاشم من حديث عن سرقات الشعر.

انعقدت المحاكمة على الصفحة السادسة من عدد ١٩٦١/١٢/٩م من «أخبار اليوم»، وضمت هيئة المحكمة كل من: د. علي الراعي - د. لويس عوض - د. عبد القادر القط - د. محمد مندور والشاعر صلاح عبد الصبور، وبعد أن تداولت هيئة المحكمة ما تضمنته دعوى جليل البنداري من اتهامات لمرسي جميل، وبعد أن محّصت هيئة المحكمة ما ساقه البنداري من قرائن، فلم ينخدع أعضاء هيئة المحكمة بصخب ما أطلقه البنداري من اتهامات أو ببريق ما صاغه من مقالات، وإنما أعمل أعضاؤها ما حباهم الله به من علم فيما طرح أمامهم من نصوص، ففي أغنية «إنت وبس» التي اتهم البنداري مرسي جميل بسرقتها من أغنية لأحمد شفيق كامل تحمل نفس الاسم، كان مطلع أغنية أحمد شفيق كامل المطروح أمام المحكمة يقول الآتي: (إنت وبس - روحي وقلبي/ عمري وأملي - وكل نصيبي/ إنت وبس اللي حبيبي)، بينما كان مطلع أغنية مرسي جميل على النحو التالي: (أنا قلبي إليك ميّال - وما فيش غيرك ع البال/ إنت وبس اللي حبيبي - مهما يقولوا العزّال)، لذلك قال الدكتور محمد مندور عن هذه الأغنية ما يلي: «إن الأغنيتين مختلفتين تمام



الاختلاف، وإن كان الطابع الشعبى والنغم الشعبى واضحين فيهما معا»، وأضاف الدكتور على الراعى لذلك قوله: «لا وجه للاتهام هنا بأى سرقة، فالأغنيتان مختلفتان»، واختتم الشاعر صلاح عبد الصبور مناقشات هيئة المحكمة لما أحاط بهذه الأغنية من اتهامات بقوله: «لا مجال للمقارنة بين الأغنيتين، لأن مفتاح أغنية مرسى هو (أنا قلبى إليك ميال) وليس (إنت وبس اللى حبيبى)»، وبذلك أجمعت هيئة المحكمة على أن أغنية «إنت وبس» ليست مسروقة كما إدعى البندارى، وأعملت المحكمة نفس المنهج فيما تبقى من أغنيات تضمنتها عريضة البندارى، وجاء حكم المحكمة فى النهاية على النحو التالى: «أولا: يميل الرأى العام للنقاد إلى تبرئة مرسى جميل عزيز من تهمة السرقة فى عشر قصائد (أى أغنيات)، وهناك رأى آخر يميل الى إتهامه بالاقتباس فى قصيدتين (أى أغنيتين) هما (يابو رمش بيجرح) و(يامّه القمر ع الباب)، ثانيا: يجمع النقاد تقريبا على أن موهبة مرسى جميل عزيز لاشك فيها، والذين يسلمون من النقاد بأن مرسى قد استعار شيئا من الآخرين، هناك شبه إجماع على أن مرسى يتفوق على الذين أخذ منهم تفوقاً كبيراً وملحوظا، ثالثا: قاموس الأغانى عندنا محدود، والكل يأخذ من التراث الشعبى، وهذا سبب كبير من أسباب التشابه والالتقاء بين المؤلفين».

سبب وحيد

هكذا برأت أول وآخرمحكمة غنائية عقدت بمصر فى العصر الحديث ساحة مرسى جميل عزيز مما رماه به جليل البندارى، ويبرز هنا فى نهاية تلك المعركة سؤال واحد يتخذ الصيغة التالية: لماذا كانت كل هذه الضجة؟، وهو سؤال قد يتولد عنه سؤال فرعى وحيد يقول الآتى: ألم يكن لدى جليل البندارى ومن سانده من شعراء من الحس الفنى ما يكفى لادراك عقم ذلك الاتهام؟، إن الإجابة على السؤالين سوف تكشف للقارئ والمتأمل أسباب هذه المعركة، وهى أسباب يمكن أن تختزل فى سبب واحد هو الغيرة المهنية، وهى تتوفر فى حالة جليل البندارى بشكل واضح، لأن البندارى الذى كان صحفيا مرموقا... يحسب له أهل الفن ألف حساب لجرأته وحدته فى الهجوم عليهم، لم يكن شاعرا مجيداً أو مجدداً، ولم يقدم من الأعمال الغنائية شيئا سوى بعض الأغنيات الخفيفة مثل: «تاكسى الغرام» لعبد العزيز محمود و«يا شمعدان حارتنا» لنجاح سلام، فأين أغنيات كهذه من قصيدة مثل «سوف أحيا»؟، لا مجال للمقارنة بين مرسى جميل عزيز كشاعر وبين جليل البندارى كمؤلف أغانى، فإذا ما أضفنا إلى الغيرة التى قد تعتمل فى نفس البندارى تجاه موهبة مرسى جميل، موهبة البندارى الكبيرة فى الهجوم على النجوم، توفر لدينا سبب واضح ووجيه كى تفتح «أخبار اليوم» صفحاتها لمعركة كهذه.. تجذب بها المزيد من القراء إلى عددها الأسبوعى الوحيد. ■

عجائب المخلوقات للقزويني

بقلم
د. محمد فتحي فرج

يذخر التراث العلمي العربي بثروة هائلة من المؤلفات والمصنفات ، التي ساهمت مباشرة أو بشكل غير مباشر ، في ارتقاء العقل البشري ، والفكر الإنساني ، لاسيما في فترة المد الحضاري العربي ، الذي تواصل لعدة قرون ، كان يرزح فيها الغرب الأوربي ، في ظلام دامس ، ومن ثم كان بعض الأوربيين ولا يزالون ، يطلقون علي هذه الفترة : العصور المظلمة ، بينما كان يشع ضوء العلم من منطقتنا ، في المجالات المختلفة ، إلي كل حدب وصوب. ومن بين المؤلفات التي طبقت شهرتها الآفاق ، واحتوت علي معلومات قيمة ، في عدة تخصصات ، المصنف الذي نعرض له في هذا المقال وهو : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لمؤلفه الملقب بالقزويني ، وقبل أن نتطرق لموضوعات هذا الكتاب ، لعله من المهم أن نعرف شيئا عن مؤلفه .

القزويني رجل عربي الأرومة ، اسمه أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القاضي ، وينتهى نسبه إلى الإمام مالك بن أنس الأنصارى ، فقد نزحت أسرته فى وقت مبكر ، من المدينة المنورة واستوطنت " قزوين" ، فولد ونشأ بها ، بين "رشت" و" طهران" ، ومن هنا لُقب بالقزوينى . هناك خلاف فى تحديد العام الذى ولد فيه ،إلا أن معظم المصادر تذكر أنه قد ولد عام ٦٠٠ هـ ، الموافق لعام ١٢٠٣ م ، أى قبل سقوط بغداد على أيدى التتار " القدامى" بخمس وخمسين عاما . وقد رحل فى فترة شبابه (٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) إلى دمشق ، وتعرف إلى الصوفى الشهير صاحب " الفتوحات المكية" : محيى الدين بن عربى ، ثم استقر به المقام فى العراق ، فتولى قضاء "واسط" و"الحلة" فى زمن المستعصم ، آخر الخلفاء العباسيين.

والقزوينى كمعظم العلماء القدماء ،

ممن سبقوه أو عاصروه أو جاءوا بعده ، كان إلى جانب اشتغاله بالقضاء ، جغرافيّا وفلكيّا ، كتب فى علمى الجغرافيا والفلك ، كما كان أيضا مُلمّا بعلوم الأحياء (البيولوجيا) ، فقد صنّف فى علمى النبات والحيوان ، كما كانت له اليد الطولى فى علوم التاريخ والجيولوجيا وعلم الطبيعة (الفيزيقا) . ونظرة عجلى إلى بعض ما وصلنا من مؤلفاته تدلنا على مقدار تضلّعه وتمكنه فى العلوم المختلفة التى أشرنا إليها ، ومن هذه المؤلفات ما يلى :



لوحة من مخطوطة لعجائب المخلوقات نسخت فى القرن الرابع عشر

- آثار البلاد وأخبار العباد : فى التاريخ والجغرافيا والفلك .
- خطط مصر : وفيه وصف رائع للقاهرة ، ويشبه فى ذلك خطط المقريزى .
- الإرشاد فى أخبار قزوين .
- غرائب المخلوقات وغرائب الموجودات : وهو الكتاب الذى نعرض له الآن . هذا ، إلى غير ذلك من الكتب والمصنفات .

هذا ، وتجمع معظم المراجع العلمية على أن القزوينى قد وافته المنية فى السابع من المحرم سنة ٦٨٢هـ - ١٢٨٣م .

القيمة العلمية للكتاب:

يعتبر هذا الكتاب من أنفس مؤلفات القزوينى وأكثرها شهرة ، وقد تضمن معلومات قيمة فى الفلك والجيولوجيا وعلوم البحار والنبات والحيوان ، لولا ما يشوبه من بعض الأوهام ، التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ، إلا أن الكتاب أيضا يتميز بخاصيتين : تتمثل أولاهما فى سلاسة العرض ، وسهولة الانتقال من موضوع إلى آخر. أما الخاصية الثانية فتتعلق أيضا بسابقتها ، وهى تتمثل فى كثرة النقل عن الآخرين ؛ مما يضع أعماله تحت ما يعرف حديثا باستعراض أدبيات العلم فى الموضوعات المختلفة . وهذا لا ينتقص من قيمة مؤلفاته العلمية بقدر ما يخرجها من دائرة الأصالة فى فن البحث العلمى ، حيث اكتفى بالجمع والنقل ، بيْد أنه كان أمينا فى كل ما نقله وذكره فى كتابه ، مع إحاطة وشمول وجاذبية وتشويق.

وقد فطن إلى قيمته العلمية طلاب العلم ، والباحثون عن المعرفة الأصيلة ، شرقا وغربا ، فطُبع على هامش كتاب "حياة الحيوان الكبرى " لكمال الدين

الدميرى ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات ، كما ترجم إلى الفارسية - كما يذكر أستاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم منتصر - وإلى الألمانية وطبع فى " ليبزج " ، كما ترجم إلى الفرنسية وطبع فى باريس ، أوائل القرن التاسع عشر ، كذلك ترجم إلى التركية ونشر بها . أما المستشرقون فقد عنوا بدراسة أعمال القزوينى ، لاسيما هذا الكتاب ، واهتموا بإضافاته إلى علوم الفلك والحيوان والنبات والجيولوجيا.

كما أن فى الكتاب ، من الملحوظات والتعليلات العلمية ، التى لازلنا نلاحظها ونأخذ بها إلى الآن ، مثل ملاحظته حول كثرة نسل الحيوانات ، التى تتعرض لمخاطر الفناء ، حتى لا تفنى وتنقرض . كما تعرض لدورة حياة الضفدع ، متتبعا مراحل تكوينه مرحلة بعد أخرى ، بالطريقة ذاتها التى ينتهجها علماء الأجنة ، ولكن فى شئ من التبسيط والتسطيح نظرا لعدم توافر الأدوات والأجهزة الدقيقة ، فى ذلك الوقت . وقد أوضح أيضا بعضا من سلوك الضفادع، حيث تُحدثُ ذكورها أصواتا (نقيقا) فى الليل دون النهار. كما يسجل شيئا هاما لازلنا نطبقه فى معاملنا إلى الآن ، وهو ما ذكره حول تأثير النبيذ (الكحول) فى تخدير الضفدع ، الذى يمكن أن يبلغ حد الموت ، هذا إلى جمع المؤلف لمجموعة من المنافع والتطبيقات الصيدلانية المرتبطة بالضفادع وغيرها ، وكذا استخداماتها فى العلاج وبيان تأثيراتها السامة ، والتى أشار إليها العلم الحديث ، ومن ذلك أنه توجد بجلود معظم الضفادع غدد سامة ، تهاجم بها أعداءها عند تعرضها للخطر .

وتجدر الإشارة إلى أن القزوينى قد انتهج نهجا علميا بحتا ، عندما ضمّن كتابه بعض الرسوم والصور والأشكال التوضيحية ، فمعظم نُسخ هذا الكتاب تحتوى على منمنمات وصور ، توضح أشكال بعض المخلوقات العجيبة ، التى أوردها فى كتابه .

تعتبر مقدمات الكتب من الأجزاء الهامة فيها، ولم يشذّ القزوينى عن هذه القاعدة ، بل إنه غالى أكثر من غيره فى ذلك ، فقد كان مشغوفا بوضع أكثر من مقدمة للكتاب الواحد من كتبه ، ومنها الكتاب الذى بين أيدينا ، فقد وضع له أربع مقدمات ، كشف النقاب فيها عن الأغراض المختلفة التى ألّف من أجلها هذا الكتاب ، فإذا كان "الكتاب يبدو من عنوانه" كما يقولون ، فإن مقدمته هى الشارحة للعنوان والدالّة - فى أغلب الأحيان - على مضمون الكتاب . ففى المقدمة الأولى تعرّض القزوينى لشرح معنى " العجب" و"العجائب" التى أوردها بعنوان الكتاب ، وفى ذلك يقول : قالوا العجب حالة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشئ ، أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه ، ثم أتبع ذلك بأمثلة توضح هذا التعريف وتؤكده .

أما المقدمة الثانية فقد تعرض فيها لتقسيم وتصنيف المخلوقات . والتقسيم أسلوب علمى ينتهجه العلماء والباحثون فى كل علم ، لاسيما العلوم البيولوجية ، إلا أن تقسيمه أشبه بتصنيفات الفلاسفة



لوحة أخرى من مخطوطة نسخت فى القرن السادس عشر

وعلى رأسهم الفيلسوف الإغريقى أرسطو [illegible] منه إلى تصنيفات العلماء ، كعالم النبات السويدى كارل لينيوس ، فى تصنيفه للكائنات الحية .

أما المقدمة الثالثة ، فقد كرّسها لشرح كلمة "غرائب" ، بينما عرض فى المقدمة الرابعة لأنواع "الموجودات" ، مما تناولها فى مصنفه ، وهى أيضا آخر كلمة فى عنوان الكتاب.

أما عن متن الكتاب ، فقد قسّمه صاحبه إلى قسمين ، أو مقالتين على حد تعبيره ، اختصت أولاهما بالعلويات ، وقد دارت معظم موضوعاتها حول علم الفلك ، ومن ثمّ فقد تضمّنت معلومات كثيرة حول : حقيقة الأفلاك ، ثم أتبعه ببعض التفصيلات حول مجموعة من الكواكب المعروفة فى ذلك الوقت كالقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل ، إضافة إلى نجم الشمس . ثم تحدث عن فلك الثوابت ، والكواكب الثابتة ، والصور الشمالية ، وخواص القطب الشمالى ، ثم أدار الحديث حول الصور الجنوبية ، ثم أتبعه بذكر فوائد القطب الجنوبى ، ثم فلك البروج ، وفلك الأفلاك ، ثم ذكر بعض المعلومات حول سكان السماوات وهم الملائكة . وبعد ذلك كرّس جزءا هاما حول الزمان ، تحدث فيه تفصيلا عن الليالى والأيام والشهور ، فذكر شهور العرب وشهور الروم والفرس ، ثم تكلم عن السنين ذاكرا بعض العجائب المتعلقة بتكرار السنين .

أما المقالة الثانية من الكتاب ، فقد دارت حول السفليات ، بدأها بالحديث عن الشهب وانقضاض الكواكب . أما الجزء الخاص بالهواء فقد تحدث فيه عن السحاب والمطر وما يتعلق بهما ، ثم انتقل للحديث حول الرياح والرعد والبرق وما يتعلق بها ، ومما ذكره في هذا الشأن قوله : اعلم أن الرعد والبرق يحدثان معا لكن البرق يُرى قبل الرعد ، ثم ذكر من المعلومات والشواهد ما يدل على معرفته بأن سرعة الضوء أكبر من سرعة الصوت ، وهو ما أثبته العلم الحديث. ومما ذكره حول الرياح قوله : وريح الشمال باردة لأنها آتية من المنطقة التي لا تسامتها الشمس أصلا ، بل ولا تقترب منها ، وتكون الثلوج والمياه الجامدة بها كثيرة . وريح الجنوب حارة رطبة لأن هبوبها من ناحية خط الاستواء ، والحر مفرط هناك لأن الشمس تسامتها في العام دفعتين ولا تباعد عنها فتزداد بذلك حرا.

وريح الصبا قريبة من الاعتدال ، وتكون مائلة إلى البرودة في أول النهار ، ومنها "النسيم السحري" أو نسيم السّحر الذي يهب بالأشجار من الليل فيلتذ به الإنسان ، ويطيب له النوم . وقد أشار القزويني إلى تخلخل الهواء وتحركه وهبوب الريح ، اشارات متكررة تؤكد فهمه وإدراكه . كما عرّف الزوبعة بأنها الريح التي تدور على نفسها وأوضح أن أكثر تولدها يتأتى من رياح ترجع من الطبقة الباردة ، فتصادف سحابا تذروه الرياح المختلفة ، فيحدث من دوران الغيم تدوير في الرياح ، فينزل على تلك الهيئة. أما السحاب فقد أشار إلى تكوينه وتحركه أمام الريح ، مما يسبب هطول المطر . كما ذكر أن الشمس إذا أشرقت على الماء والأرض حللت من الماء أجزاء لطيفة مائية تسمى بخارا .

ثم تعرّض إلى الهالة وقوس قزح وغيرهما ، ومما ذكره في قوس قزح أنه : يكون إذا حدثت في خلاف جهة الشمس أجزاء مائية شفافة صافية من نزول المطر أو بخار ، وكانت الشمس مكسوفة قريبة من الأفق المقابل ، ووراء تلك الأجزاء جسم كثيف مثل جبل أو سحاب مظلم. فإذا استدبر الناظر الشمس ونظر إلى تلك الأجزاء صارت الشمس في خلاف جهة الناظر ، فانعكس شعاع البصر من تلك الأجزاء إلى الشمس لكونها صقيلة فأدت ضوء الشمس دون الشكل لكونها أجزاء صغيرة ، فكل واحد يؤدي ضوء الشمس دون شكلها كما بيّنّا ، ثم تكلّم عن سبب استدارة القوس وعن تعدد ألوانه .

أما الجزء الخاص بكرة الماء فقد تحدث فيه عن صورة البحر في جانب من الأرض ، ثم تكلّم عن أحوال عجيبة تعرضُ للبحار ، ثم أدار الحديث حول حيوانات البيئة المائية .

أما الجزء الخاص بالأرض ، في هذه المقالة ، فقد تحدث فيه عن اختلاف آراء القدماء في هيئة الأرض ، كما ذكر مقدار جرم الأرض ومعمورها وخرابها (صحاريها) ، ثم انتقل للحديث حول أرباع الأرض وعماراتها ، وأقاليم الأرض ، ثم تعرّض للزلازل وصيرورة السهل جبلا والبر بحرا وعكسهما . ثم انتقل إلى

فوائد الجبال وخواصّها وعجائبها ولم ينس أن يشير إلى حكمة وجود الجبال التى تعمل كأوتاد للأرض تمنعها من أن تميد وتهتز. ثم تكلّم عن تولد الأنهار والعيون والآبار وعجائبها . وبعد أن ذكر القزوينى جملة من الأنهار تكلم عن نهر النيل قائلا: ليس فى الدنيا نهر يجرى من الجنوب إلى الشمال ، ويفيض فى شدة الحر حين تنقص الأنهار كلها ، ويزيد بترتيب وينقص بترتيب إلا نهر النيل .

وقد وفق إلى حد ما فى التمييز بين الفلزات واللافلزات ، وبين الأحجار ومعادن الأرض ، إلا أنه ذكر من أعداد الفلزات سبعة فقط بينما هى أكثر من ذلك بكثير . كما جانبه الصواب أيضا عندما ذكر أن الفلزات تتولد من اختلاط الزئبق بالكبريت كالذهب والفضة ، إلا أن ذلك يؤكّد أيضا شغفه بعلوم الكيمياء والجيولوجيا وتأثره بكيميائى العرب كجابر بن حيان وغيره .

ثم انتقل للحديث حول النباتات فعرّفها أولا ثم أورد كثيرا من أنواعها ، ثم أتبع ذلك بالكلام حول الحيوانات ، فبدأ بالحديث عن الإنسان ، وحقيقته ، ثم ذكر بعض المعلومات المتاحة فى ذلك الوقت ، والتى يمكن أن تندرج حول "علم النفس" تحت عنوان النفس الناطقة ونفوس عجيبة التأثيرات . وقد تعرّض بعد أيضا للتكوين الجنينى للإنسان ووضْع الجنين . ثم ذكر بعد ذلك من أسباب الذكورة والأنوثة ما يرفضه العلم الحديث . كما أشار إلى وضع الحمل ، ثم تعرض لتشريح أعضاء جسم الإنسان ، فذكر الأعضاء المتشابهة منها والمركبة ، والأعضاء الظاهرة منها والباطنة ، ثم تحدث عن القوى الظاهرة وفوائدها والباطنة منها وفوائدها ، ثم خواص الإنسان وفوائد (وظائف) أعضائه .

ثم أفرد جزءا من هذه المقالة للحديث حول الجن ومكائد الشيطان مع ذكر لبعض المتشيطنة ، أتبعها ببعض الحكايات العجيبة عن الجن وما جرى لهم . ثم أدار الحديث بعد ذلك عن الحيوانات الأخرى كالدواب والنعم والسباع والطير والهوام والحشرات ، كالنمل والنحل والزنابير والفراش ، كما تكلم أيضا عن بعض الحيوانات اللافقارية الأخرى مثل الحلزون والعقارب والعناكب ، أما الزواحف فقد ذكر منها السلحفاة والضب والورل والحيّة والثعبان والحرباء وقد ذكر ظاهرة تغير لونها ، ثم أدار الحديث حول حيوانات ثديية معينة كالظربان والقنافذ والفئران والجرذان ، التى عدّد أنواعها وميّز بينها ، وقد أتبع كل حيوان بفصل عن خواص أجزائه ساردا الفوائد الطبية والتطبيقات العلاجية لبعض أعضاء هذه الحيوانات . وقد أنهى كتابه بالحديث عن ظاهرة التهجين بين بعض الأنواع من الحيوانات كالبغل الذى يولد من تزاوج الفرس والحمار ، ثم أتبع ذلك بذكر بعض النوادر والعجائب فى هذا الشأن . وإنه ليختم كتابه بالحديث عن حيوانات عجيبة الأشكال ، حتى لتحار فى تصديق ذلك العقول.

فتح ملف المسرح

فنون الاستعراض..
والموسيقى والغناء المسرحى ومداعبة الخطر

بقلم
مهدى الحسينى

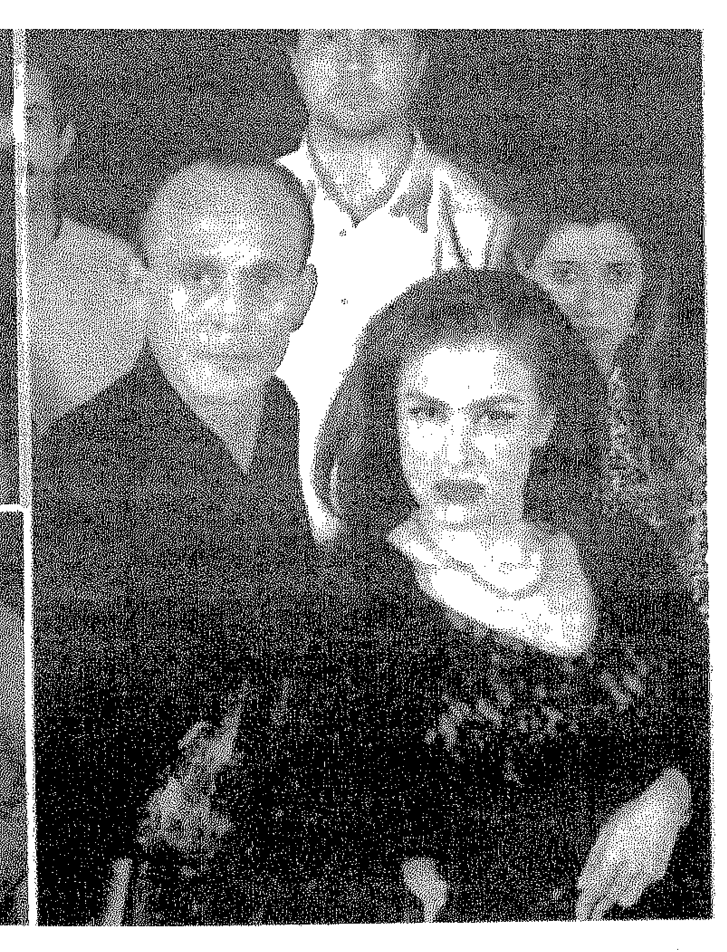
هنا متع الجماهير البسيطة العريضة هنا الفن والفكر يكتسيان ثوبا ملونا وأصواتا مستعارة وألاعيب المهرجين، هنا يمكن أن نعثر على مهارات الرقص والغناء والتمثيل والأكروبات والعزف على الآلات من خلال فنان واحد دفعة واحدة، إنه عالم عجيب وغريب وجميل وساحر..... ولكن وبكل أسف!!

قطاع الفنون الشعبية والاستعراضية

إن التاريخ الإدارى لهذا القطاع الحكومي، وكذلك قطاع المسرح، شديد التركيب زاخر بالتحولات.

فقد كان هناك المسرح القومي، ومصلحة الفنون، ودار الأوبرا، وأوركسترا الإذاعة وكلها تبعت وزارات عديدة مثل الأشغال العمومية والداخلية والشئون الاجتماعية والإرشاد القومي والمعارف العمومية، ولما أنشئت فرق جديدة مثل المسرح القومي للعرائس، وأوركسترا القاهرة السيمفونى، وكورال أوبرا القاهرة، وفرقة المسرح الغنائى، فإنه تم ضم كل هذا إلى ما يسمى: مؤسسة فنون المسرح والموسيقى والسينما، التى تحولت إلى ما يسمى: الهيئة المصرية العامة للمسرح والموسيقى والسينما، ثم تم تقطيع هذا الكيان الهلامى الضخم إلى قطاعات. قطاع المسرح وقطاع الفنون الشعبية والاستعراضية وقطاع الأوبرا وقطاع السينما (تم ضم الأخير وشركاته إلى قطاع الأعمال) وإلى آخر ما يشابه ذلك، وبالطبع فقد تمت كل هذه التحولات والتعديلات والتقسيمات والانضمامات بعد إنشاء وزارة الثقافة والإرشاد القومى سنة ١٩٥٧، ثم أصبحت الوزارة وزارتين: واحدة للثقافة والثانية للإرشاد.. فالإعلام، ثم تم بعد ذلك ضمهما لوزير واحد دون أن يكون هناك كيان أو هيكل إدارى واحد، ثم عادتا وزارتين مستقلتين.. وهكذا مما يدل على تنافس أشخاص فى قمة السلطة على هذا المنصب أو ذاك، ومن سيكون صاحب النفوذ الأقوى والأوفر حظا من (اللمعان) أو (الحظوة) وأيهم سيكون له التمكين من أنف المثقفين والمبدعين وضمائرهم وانتاجهم الذهنى والروحى.

غير أنه – بالنسبة للقطاعين موضوعنا أى قطاع المسرح وقطاع الفنون الشعبية –



محمد صبحي مع سيمون في « كارمن »

فركشة

فالأجدى أن ينضم القطاعان في كيان إداري واحد لأن أنشطتهما المتنوعة عبارة عن فن متصل متجانس بنيته التمثيل والغناء والموسيقى والاستعراضات وكلها فنون مسرحية، ولا يوجد فارق جذري بينهما يستدعي قيام كيانين إداريين منفصلين وأحيانا متناقضين بلا أي مبرر، وإن كان من الضروري أن يكون لكل فرقة هوية فنية متميزة.

ومع مراجعة مقالنا في هلال سبتمبر ٢٠٠٤، يمكننا القول أن علينا الاتجاه لبناء مؤسسة مستقرة ليست رهينة بتغير حكومة أو أخرى أو وزيراً وآخر.. فما بالكم بتغير شخص أو آخر من رؤساء القطاعات أو الفرق؟.

موقع القطاع ومكانه وهويته

يقع المقر الفني لهذا القطاع في مسرح البالون المقام على أرض كان الفاتيكان يمتلكها، وفي ساعة نهب حكومته توزعت هذه الأرض بطريقة عشوائية فأصبحت تضم مسرح البالون وخيمة السيرك ومسرح الساحر (مع إيقاف التنفيذ بعد الهدم غيرالمبرر) وجراج يتبع الثقافة الجماهيرية وكان يسمى (منف) وإزاء هذا الوضع الذى وقع فعلا سوف نكتفي هنا بمناقشة ما يملكه قطاع الفنون الشعبية والاستعراضية أي أرض البالون والسيرك القومي وما عليها من فرق وأنشطة

أ - البالون: وفرق رضا للفنون الشعبية والاستعراضية، والقومية للفنون الشعبية، والغنائية الاستعراضية، وأنغام الشباب، وتحت ١٨، والغد، والقومية للموسيقى الشعبية (والثلاثة المتأخرة استحدثها عبد الغفار عودة الرئيس الأسبق للقطاع أما

الغد فقد تم نقله إلى قطاع المسرح) كل هذه الفرق - عدا الغد - تتزاحم فوق خشبة مسرحية واحدة هي مسرح البالون، وذلك بالاضافة للرحلات الصيفية إلى الأسكندرية ومصيف جمصة بالدقهلية ودعوات بعض المحافظات، أو ما تيسر من رحلات إلى الخارج لعلها تفرج من كرب هذا الزحام.

١ - فرقة رضا الشعبية الاستعراضية

تتميز فرقة رضا بأسلوبها الفني الذي يخصها، الذي يستلهم مفردات بذاتها من الفنون الشعبية التراثية المصرية (الفولكلور) ويضعها على هيئة أبجدية حركية وتمارين للرقص الشعبي على أنواع الإيقاع المصري المختلف (الوحدة الكبيرة - الواحدة ونصف - اللفوف - المصمودي - الكوكارتش.. إلخ) والمكتسب من التيمات الشعبية المختلفة، هذا بالإضافة إلى تدريب الفرقة على جمل مختارة - أثبتت أصالتها - من رقصات الريبرتوار - وذلك لتنمية المهارات على قاعدة سبق اختبارها، أما الباليه الكلاسيك فلا تستخدم تدريباته إلا في حدود تنمية العضلات واكتساب المهارات - بمصاحبة بيانو - دون إصابة الجسم المصري المثالي بمعاييره الفرعونية المعروفة بأي تشوهات أو تصلبات، بل الحفاظ على المرونة الكاملة من أضلاع الجسم الأربعة.

وهي فرقة لا تقدم التراث أو المأثور الشعبي بحذافيره، مثلما هو واجب الفرقة القومية، وإنما مهمتها استلهامه استلهاماً مباشراً أو غير مباشر إلى حد الاستعراض، دون أن تفقد العلاقة، مع المصدر الأصلي بصفة نهائية، لذا فمن حقها أن تقدم رقصات قصيرة، ولوحات تعكس موضوعاً متكاملاً، أو لوحات مستوحاة من الصور الإذاعية الشهيرة مثل «على بابا» و«الدندرمة» و«رنة الخلخال» و«وفاء النيل»، كما أن من حقها - ومن واجبها أيضا - تقديم أوبريتات استعراضية، متكاملة مثل «ياليل يا عين».. أو غيرها مثلما قدمت أفلاماً استعراضية مثل: أجازة نص السنة، وغرام في الكرنك، وحرامي الورقة. وأمام الفرقة ينابيع إبداعية غنية يمكن أن تنهل منها مثل حكايات الحضارة الفرعونية وقصص ألف ليلة وليلة.

وبالطبع فإن اللغة الفنية (الحركية) التي تنطق بها فرقة رضا ليست لغة (رسمية) مقررة لتقديم الفولكلور المصري على المسرح، أي أنها ليست لغة عامة ملزمة للجميع، لذا فقد أخطأت فرقنا الإقليمية في تقليد فرقة رضا، وكذا تقليد الفرقة القومية، لأن ما تقدمه فرقة رضا يخصها وحدها، وهو أسلوب مرتبط بشخصي محمود وعلي رضا وفريدة فهمي وتلاميذهم من مصممين وراقصين، فلابد لكل فرقة أخرى من أسلوب وطابع يخصها وحدها، أيضاً، وأي تدخل في هذا الأسلوب أو فرض برامج وموضوعات ومناهج وأساليب أخرى على الفرقة يعتبر تدخلا مدمراً يمحو هويتها ولا يقدم هوية بديلة، بل هو تشويه مؤكد، وهذا ما حدث في السنوات التي أبعد فيها محمود رضا عن فرقته بحجة إحالته إلى المعاش (لا يوجد فنان حقيقي يصح أن يحال إلى المعاش مثله مثل العالم والمفكر ولكن في بلد البيروقراطيين والموظفين والقوى العاملة والوسائط تجوز مثل هذه المصائب) . أما أوركسترا الراحل الكبير الموسيقار علي إسماعيل فإنه يؤكد هذه الخصوصية، فلم يحدث أن سمعت مصر مثل هذا الأوركسترا أو موسيقاه المتميزة قبل علي إسماعيل، إذ قام بتشكيل آلاته على مقاس أبجديات وعناصر وعالم رقصات رضا ولوحاتها بل ساهمت في إثرائها وزيادة طاقة الجمال والمتعة فيها، فآلة البيكولو تعزف مع الناي كي تعطي تأثيراً معيناً يساعد على تصوير الأجواء التي تجري فيها رقصة ما، والطبلة تصاحب آلة التيمباني كي تعطي وقعاً



محدداً تقتضيه الحركة.. وهكذا، لذلك فإلغاء بعض الرقصات أو إضافة بعضها، لا يصح معه الإخلال بهذا المنجز الأوركسترالى (الهجين) الذى ابتكره على إسماعيل، بل إن الحفاظ عليه يعنى الحفاظ على طابع فرقة رضا وتراثها ومنهاجها حتى ولو أضيفت رقصات وموسيقات جديدة لمصممين جدد إلى جانب محمود رضا.

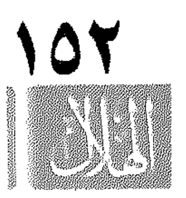
٢ - الفرقة القومية للفنون الشعبية

لعل تأسيسها جاء رداً على قيام فرقة رضا، حيث اهتم الوزير ثروت عكاشة والمفكر الكبير أحمد رشدى صالح والفنان راجى عنايت بهذا الأمر فأولوه عناية خاصة فرصدوا الميزانيات واستدعوا طلبة وخريجى كليتى التربية الرياضية وطالباتها وخريجاتها إلى جانب ضم عناصر أخرى من الهواة تبغى الاحتراف والتفرغ لهذا الفن، ثم أقاموا الأقسام الفنية الضرورية لخدمة العروض لصناعة الديكورات والإكسسوارات والملابس والأحذية، وتعاقدوا مع عدد من الموسيقيين.. وأهمهم طبال ماهر ذو دراية بكافة الايقاعات المصرية.

إذن فكل شىء جاهز وموجود (عدا المصمم (!!) ولما كان لدى فرقة رضا مصممان هما محمود وعلى رضا ومعهما فريدة وشقيقتها ونديره والراعى المفكر حسن فهمى، فلابد للفرقة الوليدة التى كانت تتعاون مع دولتنا فى أمور شتى منها الثقافة والفنون، فخبراء الروس ينشئون معهداً للباليه (الروسى) فى مصر، ومعهداً آخر للموسيقى الغربية (الكونسيرفاتوار) فلا بأس إذن من الاستعانة بالمصمم الروسى (رامازين) الخبير فى الراقصات الروسية الريفية الفولكلورية (قال لى مصممون مصريون أنهم شاهدوا فى فرق العراق نفس راقصات رامازين التى صممها لمصر.. وكلها من أصل أوكرانى!!!) ريثما تثمر جهودنا عن ظهور مصممين مصريين، بالتعاون مع المركز المهم الجديد للفنون الشعبية الذى أنشأه رشدى صالح بالتعاون مع مجموعة من شباب الباحثين الفولكلوريين والمثقفين والفنانين الممارسين، وكان من المتوقع أن يعلمنا رامازين المنهج العلمى فى قيام رقص مصرى صميم، ولكنه جاء ليعلمنا الرقص نفسه لا المنهج، فأخذ يصمم ويخرج لوحات بأكملها تزخر بالمفردات الروسية والقوقازية والأوكرانية والتى تأخذ أشكالا هندسية مثل الصف والمثلث ورأس السهم والدائرة، بالإضافة إلى دقة القدم والصيحة، بينما آليات الحركة الجماعية عندنا خلاف ذلك فهى تعتمد على الكتلة البشرية وغياب التماثل الهندسى (السيمترية) غير أن الذى أكد هذا اللبس الفولكلورى هو أن ثمة تشابهات فى ثقافات الشعوب عامة، وتشابهات أكثر فى ثقافات الشعوب ذات الطابع الريفى والفلاحى، خاصة لوحة صناعة الخبز، فهناك تشابها ما بين أساليب الفلاحة الروسية أو القوقازية أو الأكرانية وبين أساليب الفلاحة المصرية، وهنا لم يبحث المصمم الأجنبى عن المميز أو المختلف لصالح ثقافتنا الريفية المصرية، بل تم الاحتفاء بلوحة رامازين عن صناعة الخبز.. كما لو كان هذا هو فننا المصرى الأصيل، ومن هنا تأكد اللبس أو الخدعة، وبالطبع نالت الفرقة نجاحاً زائداً بفضل مساندة الدولة ورجالها والمثقفين العاملين فى خدمتها وصحفها المؤممة وإذاعتها وتليفزيونها الذى ولد عملاقاً، وزاد الأمر اختلاطاً حين وجدت ترحيباً فى رحلاتها فى الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية، أو لدى بلاد لا تدرى شيئا عن فولكلورنا، أما عن الخبراء المصريين الواعين فقد اعتبرت آراؤهم دعاية مضادة أو غيرة من النجاح أو عدم فهم فى حالة حسن النية أى الجهل. ولعل هناك من يعلم أن لدينا العشرات من أنواع الخبز وأنواع الأفران وطرق التجهيز وأساليب الخبيز.. هناك الشمس والبتاو المصرى والقمح

والأذرة والحلبة والشعير.. وهناك الصعيدى والبحراوى والساحلي والبدوى والنوبى.. وهنا.. وهناك.. وهناك.. كل ذلك كان قبل رغيف الطوابير.. وخبز التوحيد القياسي!

لقد تمت محاولاتي لتصحيح هذا الوضع التخريبي لفنوننا الشعبية وملامحنا الوطنية، أى تمصير برامج الفرقة ورقصاتها وخطواتها وإيماءاتها، وأسهم في ذلك فنانون كبار مثل صلاح عبد الكريم وعبد الغنى أبو العنين من ناحية ومصممون مجتهدون منهم كمال نعيم وأحمد نديم ودولت إبراهيم وسمير جابر ومحمد خليل وغيره، فاتجهوا لإختيار موضوعات بيئية ذات أطر مادية محلية وموسيقات شعبية مصرية، رغم هذا فقد ظلت آثار الخطوط الروسية وخطواتها العنيفة الحادة والايماءات والاشارات الروسية باقية هنا أو هناك في هذه الحركة أو تلك، كانت «روح الرقصة» يتنازعها اتجاهان: المنهج والتدريب الروسي من جهة والموضوع والملامح المصرية من جهة أخرى. وزاد الأمر سوءاً حين تراجع الاهتمام بتمويل البعثات البحثية الميدانية في البيئة المصرية المكلف بها مركز الفنون الشعبية، وبعد أن كان هناك اتجاه لجعله مركزاً قومياً لأبحاث الفنون الشعبية ومتحفا وثائقيا لها، تم إهماله حتى جعلوه مجرد إدارة تابعة لأكاديمية الفنون، ومن هنا تراجعت المصادر التى كان المصممون ينهلون منها مصريتهم حين يريدون تصميم رقصة جديدة.



ومع الضعف المتزايد فى علاقة الفرقة بمصادرها الإقليمية وواقعها الاجتماعى، وتوجه المصممون - نظراً لضعف المرتبات - للسفر إلى الخارج أو العمل بالتليفزيون والمسرحيات الخاصة أو العمل بمهن أخرى، وعدم توفير الامكانيات الفنية والمادية لإنتاج رقصات جديدة الأمر الذى أحبط الطموح نحو تطوير برامج الفرقة، أصبحت برامجها برامج مناسبات، أو برامج تعد خصيصا للسفر إلى الخارج، أو لتكريم ضيف وافد على رئاسة الجمهورية، أو العمل فى الاحتفالات الرسمية مثل ٢٣ يوليو.

فرقة لتقديم المأثور الشعبي

أما غرضنا من مناقشة ما سبق، هو الرغبة فى إعادة هذه الفرقة المهمة إلى وظيفتها العضوية الأصلية وإلى الهدف الوطنى من تكوينها، والذى نص عليه قرار إنشائها، أى أنها فرقة مختصة بتقديم المأثور الشعبى المصرى كما هو، أى طرح الفولكلور المصرى فى الرقص والموسيقى داخل إطار من ثقافته المادية من العمارة والزى و الزينة والأداة، وعلى ضوء ظروفه الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية التى تسببت في وجوده وتشكيله، وذلك على هيئة رقصات أو لوحات أوبريتات استعراضية بيئية دون محاولة للاستلهام أو التحوير (لاتطوير فى الفلكلور فهذا خطأ فى المفهوم وفى المنهج).. وإنما بواسطة عملية محددة أطلق عليها «المسرحة» أى إخضاعها لمقتضيات العرض الفنى من حيث التوقيت والتكثيف والايقاع وجماليات التلقى، ومن خلال وعى علمى بدلالة المأثور الشعبى وفلسفته.

غير أن الأمر - اليوم - مازال غير ميئوس منه، سيما وأنه توجد لدينا أدوات جاهزة لإصلاحه وهى:

١ - ضم الفرقة القومية للآلات الموسيقية الشعبية إلى الفرقة القومية للفنون الشعبية بحيث تصبحان فرقة واحدة، ولتشكل الأوركسترا الشعبى لرقصات ولوحات وأوبريتات الفرقة، وهذه المجموعة الموسيقية الغنائية تضم ألوانا وأصنافا من الفنانين الشعبيين متراوحي المستويات والأنواع والثقافات دون تصنيف أو تمييز، أو بالأحرى دون توظيف. فالسمسمية مع الرباب، والبحرى مع القبلى، والبدوى مع

النوبي، ولكن بعد ضمها للفرقة القومية كأوركسترا لها سوف تصاحب البرامج سواء من الحفرة أو فوق الخشبة (حسب الرقصة) ولا مانع أن تقدم الآلات الموسيقية فقرات موسيقية غنائية بحتة بين الرقصات أو اللوحات. مع عدم تقديم أى عرض بمصاحبة تسجيلات موسيقية مهما كانت الظروف.

٢ - إعادة النظر فى رصيد الفرقة كاملا، ويقوم المكتب الفنى المنتخب باستبقاء الأصيل واستبعاد السطحى والدخيل، وليس من حق أى مدير جديد أن يأتى ليشطب على ما سبق من أعمال ولا أن ينفرد وحده بأعمال الفرقة، وهنا لابد أن يضع المكتب الفنى نظاما لاستهلاك الرقصات على أساس موضوعى وعلمى وليس على أساس شخصى، فالقول بأن رقصة ما قديمة أو أن بها خطأ منهجى لا يتم إلا بعد جلسة مشاهدة يقوم بها المكتب الفنى ومن يستعين بهم من خبراء.

٣ - توفير الاعتمادات المالية الكافية والكفيلة بإنتاج رقصات أو لوحات أو أوبريتات جديدة، بواقع ٣ رقصات أو لوحتان أو أوبريت كل عام. وذلك بالاستعانة بالباحثين فى مركز البحوث وخبراء يحددهم المكتب الفنى.

٤ - العمل على انتاج المواويل القصصية الفولكلورية مثل (سعد اليتيم - حسن ونعيمة - زهران دنشواى - أيوب ورحمة - أدهم الشرقاوى - شفيقة ومتولى - فوزى وأنصاف - صالح وصالحة... إلخ) أو الاستعانة بالموضوعات الكثيرة التى تزخر بها السيرة الهلالية. وذلك بشرط الحفاظ على الأصول الأدبية والفولكلورية للعمل الأصلى، وعدم اعتماد مصدر واحد للموضوع الواحد، والاستعانة بخبراء فولكلوريين فى هذا المجال (النص - الموسيقى - الحركة - الثقافة المادية - البيئة) مراعاة الابتعاد التام عن الاستلهام أو التحوير.. أما ما يسمى بـ «التطوير» فهذا خطأ فادح لا يحتمله أى ضمير مثقف.

٤ - العناية التامة بمدرسة الفرقة والارتقاء بشروط الالتحاق بها وصرف بدلات للتغذية والرعاية الطبية للدارسين، ولا تعتمد عضوية أى راقص أو راقصة فى الفرقة إلا بعد التخرج من المدرسة أو مروره - فى حالات الضرورة الاستثنائية - باختبار فنى وثقافى ونفسى معتمد من المكتب الفنى.

٥ - منح فرص التصميم لكل من يتقدم للمكتب الفنى - لا إلى المدير - بمشروع وفقاً لاستمارة مواصفات مطبوعة وموزعة مسبقا وبعد معاينة بروفة جنرال للرقصة أو اللوحة.

٦ - يعتمد المكتب الفنى المنهاج التدريبى المستقر والمتفق عليه الذى تتميز به الفرقة القومية كفرقة مصرية تراثية صميمة ولا يتم الاخلال به أو تعديله بالحذف والاضافة إلا وفقا لضرورة فنية يقرها المكتب الفنى وخبراؤه.

٧ - تسعى الفرقة لإرسال مصمميها وباحثيها فى بعثات قصيرة إلى البلاد التى أنجزت فى تقديم مأثورها الشعبى القومى على المسارح مثل (الصين، والهند، وروسيا، المجر، ورومانيا، أسبانيا...) ليس لتعلم الرقص أو التدريب، وإنما لدراسة مناهج البحث وطرق التصميم وأساليب التدوين، هذا بغرض تعميق صورتنا المصرية على خشبة المسرح لا لمحوها أو تشويهها لحساب ثقافة وافدة أو مستوردة.

٨ - للمكتب الفنى الحق فى رفع مذكرة للتعاقد (سنويا أو لعمل محدد) مع أصحاب الخبرات المشهورة من المحالين إلى المعاش مع أعضاء الفرقة أو غيرهم.

٩ - الاستقرار على منهج تدريبى للرقص يحافظ على جماليات الجسم

البشري المصري وطبيعته ونسبه وملامحه، بعيداً عن الطابع القوقازى والروسى من جهة، وبعيداً عن الباليه الكلاسيك من ناحية أخرى، وإذا تمت الاستعانة بجانب من تقنيات الباليه لأسباب تدريبيه، فليكن بواسطة مدرب مساعد، فقط لتحسين القدرة الجسدية لأعلى الأداء، على أن يتم ذلك فى حدود عدم تغيير البنية العضلية الأساسية لمعايير الجسم المصرى الذى يتميز بالمرونة التامة خاصة فى المناطق المفصلية، على عكس الباليه المتسم بالاتصال والتصلب، فالراقص المصرى يعبر بأضلاعه الأربعة معا (أمام وخلف والجانبين) مع مرونة تامة للعنق والكتفين والجذع والبطن والكاحل والقدمين (لا يرقص على البوانت) كأن يقول «البدأ ع» البدوى فى سامر النجع (كعب البنت ريال مدور) إذن نحن نشاهد (كعب البنت) فنشاهد جذعها وشعرها.. وهكذا، بينما يركز الباليه الكلاسيك على الجزء الأمامى من الجسم البشرى والذراعين واليدين فقط، أما الساقين فمتصلبتان فى قوة، لأنهم هناك (فى الأصل) يرقصون فوق الصخر والجليد وفى مناخ بارد وصقيع، أما نحن فنرقص فوق رمال الصحراء وعلى شواطىء البحيرات الدافئة وعلى ضفاف النيل وحقوله وأجرانه وسطوح مراكبه التى يهزها الريح والموج. لقد تكونت بالفعل لدى مصممى ومدربى الفرقة القومية خبرات خاصة بالتصميم والتدريب وتقنية تكوين (الراقص لابد من إثباتها وتدوينها فى صيغة منهج جمالى مصرى بحت كى يتفق مع الروح المصرية الخالصة. هنا نستطيع التخلص من تأثيرات رامازين ونترفع عن التقليد الرخيص للرقصات الأجنبية ولو بتمصيرها.

١٠ - ضم إدارة البحوث إلى الفرقة القومية، وإعادة تكوينها كمركز بحثى ميدانى لتقدم خدمات فنية مباشرة محددة لبرامج الفرقة، بناء على تكليفات من المكتب الفنى، أى أنها لا تبحث فى المطلق أو وفقا للأهواء أو المصادفات، وإنما تلبى متطلبات البرنامج المزمع تحسينه أو إنتاجه فى موسم محدد، وذلك بتقديم مواد محددة لهذه الرقصة أو تلك اللوحة أو هذا الأوبريت، أى التزويد بتسجيلات موسيقية وبمفردات حركية مصورة بالفيديو أو بالفوتوغرافيا مع خلفياتها المادية والثقافية (العادات والتقاليد والطقوس والعمارة والأزياء والأدوات والمكان والزمان والمناسبة والمناخ ونوع الأعمال وايقاع الحياة.. والدلالات المتنوعة لكل ذلك إن أمكن) ويتكون هذا المركز من عدد من الباحثين المتخصصين والراقصين والعازفين المعتزلين بعد تدريبهم بواسطة خبراء على البحث الفولكلورى الميدانى، وذلك بتكليف من المكتب الفنى للفرقة لقاء مكافآت مجزية.

١١ - إعادة المشغل وورشة الأحذية «وهذان قادران على تنفيذ متطلبات جميع فرق القطاع من ملابس وأحذية» وكذا إدارة الديكور والاكسسوار والماكياج مع فصل التصميم عن التنفيذ ، ثم إلغاء الإدارات المركزية لهذه الشئون فهى لا تتمتع بالمرونة والتلبية العاجلة التى يتطلبها تنفيذ البرامج

١٢ - التخلص من العمالة الزائدة، بواسطة لجنة مشتركة من المكتب الفنى وشئون العاملين ، إما بإعادة تأهيلها من خلال دورات تدريبية محددة على أعمال تحتاجها الفرق بالفعل ، وإما بإحالة كل الزائدين عن حاجة العمل إلى وزارة القوى العاملة .

١٣ - الحفاظ على مكانة فرق القطاع عامة ، بعدم اشراكها فى عروض خارجية هامشية وعلى مسارح غير مجهزة وأمام جمهور يغلب عليه العشوائية

٣ - الفرقة الغنائية

الاستعراضية

قدمت هذه الفرقة أعمالا فنية رائعة مثل القاهرة فى ألف عام وملك الشحاتين وزبانية جهنم والعشرة الطيبة وحمدان وبهانة ووداد الغازية والسنيورة وتعاملت مع أبرز المخرجين مثل فؤاد الجزايرلى والكتاب والشعراء مثل نجيب سرور والموسيقيين مثل سيد درويش وزكريا أحمد وأحمد صدقى ، وأنضج المصممين سواء فى الاستعراض والسينوغرافيا ويرجع ذلك إلى تعاقب نخبة من مديريها يتميزون بفهمهم السليم لفن الأوبريت الذى هو اختصاص الفرقة مثل كرم مطاوع وسعد أردش ويرجع أيضا إلى سلامة البنية الفنية لكيان الفرقة وقوتها . من حيث توفير عنصر الممثل الشامل الذي يرقص ويغني ويمثل في آن واحد . فضلا عن عدد متنوع من المطربات والمطربين والكورال الأكفاء ، وفرقة استعراضية من الراقصين والراقصات غير محدودى الطابع أو الأسلوب مع القدرة على أداء كل الألوان المطلوبة فى كل أوبريت على حدة ، وعدد لا بأس به من العازفين يمكن أن يشكلوا أوركسترا ملائمة لطبيعة هذه المسرحية الاستعراضية أو تلك إذا ما طعموا بموسيقيين ممتازين مما تتطلبهم طبيعة العمل ، كما كان يتم الاستعانة فى بعض العروض بعناصر من السيرك حسبما يتطلب العمل .

واليوم لا توجد فرقة غنائية استعراضية لا يوجد راقصون ولا مغنون ولا عازفون ، لا يوجد شئ سوى المدير والإدارة وبعض قدامى الفنانين الذين يزورون المقر فى (انتظار جودو) توجد فقط بعض الأموال التى يجب انفاقها قبل نهاية السنة المالية ، على عمل فنى ما ... عادة لا يكون فنيا ، لقد ذهب البريق مع الطموح مع الوعى وحسن الاختيار والجدية والاخلاص ، كلها ذهبت أدراج الرياح حيث لا توجد خطة جماعية أو رؤية فنية أو رسالة اجتماعية أو وطنية .

أما الحل فيكمن فى تكوين مكتب فنى مهمته الوحيدة إحياء الفرقة ، وتبدأ بالآتى :

١ - إقامة ورشة كتابة فنية دائمة ودورية لتدريس فن تأليف الأوبريت والأوبرات الشعبية الصغيرة .

٢ - تكوين فرقة تمثيل من فنانين يعشقون الغناء والاستعراض المسرحى ويتقنونه .

٣ - تكوين نواة فرقة موسيقية محترفة ومتفرغة قابلة للإضافات الضرورية تضم عائلات آلية تصلح لمصاحبة كافة أنواع الأوبريت .

٤ - تشكيل مكتب خبرة استشارى مساعد يضم عناصر على دراية تامة بهذا اللون المسرحى بكل عناصره وتفاصيله ابتداء من النص إلى الأداء المتعدد إلى الموسيقى إلى تصميم الاستعراض إلى تخطيط منصة العرض وعناصرها الجمالية السينوغرافيا .

٥ - كل ما سبق يتم تحت إدارة وإشراف مكتب فنى منتخب يرأسه مدير الفرقة الذى يعينه الوزير أو رئيس القطاع .

٤ - فرقة أنغام الشباب

اتفقنا أنه لابد وأن يكون لكل فرقة فى هذا القطاع فرقتان لازمتان :

١ - فرقة رقص واستعراض .

٢ - فرقة موسيقية متكاملة أو متعددة ، كل حسب طبيعته واختصاصه ، فما هى طبيعة فرقة أنغام الشباب واختصاصها فى مطلع ١٩٧٤ أقنع الفنان محمد نوح الفنانة منار أبو هيف المسئولة عن الفرقة الغنائية الاستعراضية أن تشاركه حلمه بإنشاء فرقة غنائية وطنية حديثة حيث أصبحت «فرقة أنغام الشباب» إحدى الشعب المتفرعة عن الفرقة الغنائية الاستعراضية ولدى الاختلاف فى الآراء انسحب محمد نوح

ليعود إلى مسماه الأصلى «فرقة النهار» بينما أكملت منار أبو هيف عملية تكوين أنغام الشباب . ولم يعبر الإنتاج الجديد عن النبرة القوية المتفائلة والوطنية «مدد مدد .. شدى حيلك يا بلد» التى أداها محمد نوح ، بعد ذلك أنتجت الفرقة الجديدة ، باكورة أعمالها «حب وفركشة» إخراج كرم مطاوع ثم أعمال أخرى مثل ألوان وتفاريح وأفراح وشواكيش ، وهكذا لم تتلبس الفرقة الهوية الوطنية فى الأغنية والموضوع كما أراد محمد نوح وظلت هكذا حتى سنة ١٩٨٤ وابتداء من ١٩٩٣ استقلت الفرقة الجديدة عن الفرقة الأم ، قدمت عرضا عن فنان الشعب سيد درويش وعرضا آخر عن رفاعة الطهطاوى وعرضا ثالث عن جمال حمدان ولكنها لم تكن من الجودة بمكان حتى تترك أثرا أو ذكرى رغم أهمية الموضوعات ، هذا أمر يرجع إلى عدم نضوج الرؤية وعدم رد البرامج الجديدة إلى أصول مبنية على فكرة أن الجديد هو استمرار للقديم وليس تكرارا له أو انقطاعا عنه . وأن لكل حداثة أصالة والعكس صحيح . فهذا الجيل الجديد من الشباب ليس منبت الصلة بتاريخه وأن كانت تمت تعميته عنه ولا منقطع الاتصال عن مجتمعه وأن كان محتجا عليه ، ولو أن جزءا من هذا الجيل زعم ذلك . فلا مناص من وصمه بصفات المروق والفوضوية وإدانته ثم العمل على تصحيحه ، ويبدو أن هذا الدور كان غائبا عن مخططى الفرقة الذين غلبت عليهم روح عملية تبغى التنفيذ ثم العرض ثم تحقيق العوائد ثم تحقيق العوائد والمكاسب .. بل كان فى ذهنهم شئ من موسيقى الجاز الأمريكية والديسكو الأوروبى ، وكان البعض ينصت كثيرا إلى موسيقى البوب الغربية الحديثة .

وفى المقابل كان هناك آخرون يرون أن الموسيقى المصرية الحديثة بدأت من أعمال المفكر الموسيقار سيد درويش خاصة وأنه حين أنجز «الباروكة» تلك الأوبرا الصغيرة، حيث قال النقاد الطليان إنه فاق قرينه الفرنسى فى la mascatte والتى سبق عصره فى تلحينها حتى أنها تصلح ليومنا هذا .. بل ولغدنا أيضا هذا بخلاف ما تركه من ألحان حديثة فى أوبريتاته الأخرى وأغانيه المفردة من أدوار وموشحات وطقاطيق ومونولوجات وعلى نفس نهجه سار مصورو ألحان الأوبريتات الإذاعية التى أبدعها الإذاعى الكبير عبدالوهاب يوسف وعباس أحمد وديمترى لوقا وغيرهم حتى وصلوا إلى حد الإعجاز ، فألحان «عذراء الربيع» التى أدتها «جيهان» لم تزل تؤثر فى الأذن حين تدعوك «هيا إلى الربا» أما محمود الشريف فى «الراعى الأخضر» فقدم لحنا مذهلا «الكهنة» فى ربيع دقيقة حين تسمعه تكاد ترى بأذنك هؤلاء الكهنة لا بعينيك .. وكذا ألحان أحمد صدقى الشعبية فى «عواد باع أرضه» هذا بخلاف زكريا أحمد وعبد الحليم على وعبد الرءوف عيسى وعبد الرءوف إسماعيل وعبد الحميد وعبد الرحمن وحسن الشجاعى .. وغيرهم كثير . هؤلاء جميعا إمتداد لمنهج سيد درويش فى القدرة على التعبير والتصوير والخيال وكسر الرتابة والملل والقدرة على طرح الحدث الدرامى وتجسيد الشخصيات وتجاوز المألوف وحسن التعامل مع الأصوات والآلات وقوة التدفق مع الايقاع والزمن . أليس هذا كله رصيدا لموسيقى مصرية حديثة تستطيع الفرقة أن تستوحيه أو تسير على منواله أو تعتمد عليه مباشرة ؟

أما من حيث البرنامج . فهى قادرة على مسرحة الأغنية الفردية والجماعية ، وتقديم الصور اللحنية الغنائية القصيرة فى لوحات استعراضية ، ومسرحيات الريفيو ،

والعـروض التجريبية فى ذات المجـال ، فـهكذا تتـميـز الفـرقـة بطابع خـاص عن شقيقـاتها الثلاث الأخريات .

غـيـر أن ثمـة مسـألة تتـعلق بالرقص المصرى الحديث ، وأذكر هنا ما قـالته لى مصممة لفرقة يونانية شاركت فى التجريبى «أنتم هنا لكم آليـة خـاصـة فى الحـركـة والإشارة والإيماءة وفى تعاملكم مع الأشياء وفى اسـتجـابتكم للمـؤثرات خـارجكم وفى تناولكم للزى والأكسسوار وفى صناعـة هيئتكم وفى إيقاعكم ، لماذا لا ترقصون كما تشعرون وتعيشون . هذا فى ظنى كلام مهم فى صيغة الرقص المصرى الحديث وجوهره فنحن فى غير حاجة لتقليد ما يرد إلينا فى الأفـلام الأمـريكيـة وهى المنوعـات التليفـزيونية الأجنبية

٥ - السيرك القومى

يغالبنى الضحك حين أتأمل هذا الاسم : سيرك ؟ وقومى ؟ فـهل حين يزأر الأسـد فى العـجـوزة فإن العـدو سـوف يجفل على الحدود ؟ هذه إحـدى مـفـارقـات التـأميم واخفها وقعا وظلا . فكما سبق أن بينا أن جميع السيركات المصرية وأشـهرها الحـو والأحـمـر وكـوته وعـاكف وبغـدادى كـانت مؤسسات أهلية حرة . غير أنه مع موجـة تـأميم الثـقافة والفنـون وفرض هيـمنة الدولة ورجالها من أهل الثقة على كل ما هو مـتـعلق بالعـقل والروح تم تأمـيم هذه السيركات بعد إجراءات طريفة ومعقدة فى كيان موحد يسمى السيرك القومى أتخذوا له أماكن عدة حتى استقر بالعجوزة ، ومن قبلها كان السيرك كائنا حرا ومرنا يتنقل فى الأحياء والمدن الكبيرة والصغيرة فى أماكن اتفق على تسميتها بأرض المولد أو السوق الأسبوعى.

كـانت هناك عـائلات كـبـيـرة وألعـاب متنوعة وكثيرة ولاعبون يتقنون الابتكار والمنافسة وأصناف من الحيوانات والأدوات : أسود . نمور ، فهود ، قردة، نسانيس . دببة . أفيال . كلاب ، حمير ، خيول ، عادية ، خيـول قـزمـيـة ، ثعـابين ، دسـتـة من الحيوانات ، أو يزيد ، أصبحت اليوم أسودا ونمورا فقط ، وكانت هناك ألعاب الترابيز والعقلة والمتوازيان وحصان القفز والألعاب الأرضية والمصـارعة ، ولكنها اليـوم تكاد تكون «انتـهت» وكـانت هـناك ألعـاب المشى على الحبل «السلك المشدود» ثم ألعـاب السيف والسكاكين وفتاة النشان والعازفون والراقصون ومغامرات الموتوسيكل والعجل وألاعيب المهرجين كل هذا قد انتهى ، مات لاعبوه أو شـاخـوا ولم يورثوا أحـدا ، لأن روح المنافسة والحرية قد تم الأجهاز عليها . قتلها ، الموظفون والبيروقراطيون ونهابوا الحوافز والبدلات وسـمـاسـرة المأكولات والمصروفات والتعـاقدات . ويكفى أن أقول إن حـسـن الحـلـو الكبـيـر قـدم أجـمـل العـروض وأروعها ورحل دون أن تمر عليه كل هذه المصائب والغرائب.

والحل فى ظنى تسريح السيرك القومى بعد تأمين أعضـائه صحـيا وضد العدوى والموت بسبب العمل بالإضافة إلى تأمين الحياة العادى . والتأمين على الحيوانات والعـدد والآلات وتحويلهم إلى شـركـات صغيرة أو جمعيات مدعومة من الدولة بالإعانات والمعاشات ، وتسهيل حصول هذه السيركات الحرة الجديدة على أراض كمقار لأنشطتهم الرئيسية وتنظيم جولاتهم الإقليمية ومشاركتهم فى الأنشطة والمواكب الاحتفالية وبالطبع إخلاء المكان الحالى تمهيدا لضمه لأرض البالون وإعادة تخطيط المنطقة بأسرها كمدينة للفنون الشعبية والاستعراضية. ■



الهتاف

شعر
عماد غزالى

إلى السماء التى علت،

كشفوا أكفهم،

فى ضراعة، هتفوا

كانت نجوم، وما بها شعل

كانت غيوم،

وما بها نطف

كانت طيور تحوم،

قد تعبت من الفناء،

الذى سدى نزفوا

فحلقت حيناً،

ثم طاردها نسر الظلام العميق،

إذ دلفوا

أيسطعون القليل،

يحرقهم سطوعهم ساخرا

كأن كسفوا؟

أيمرحون القليل،

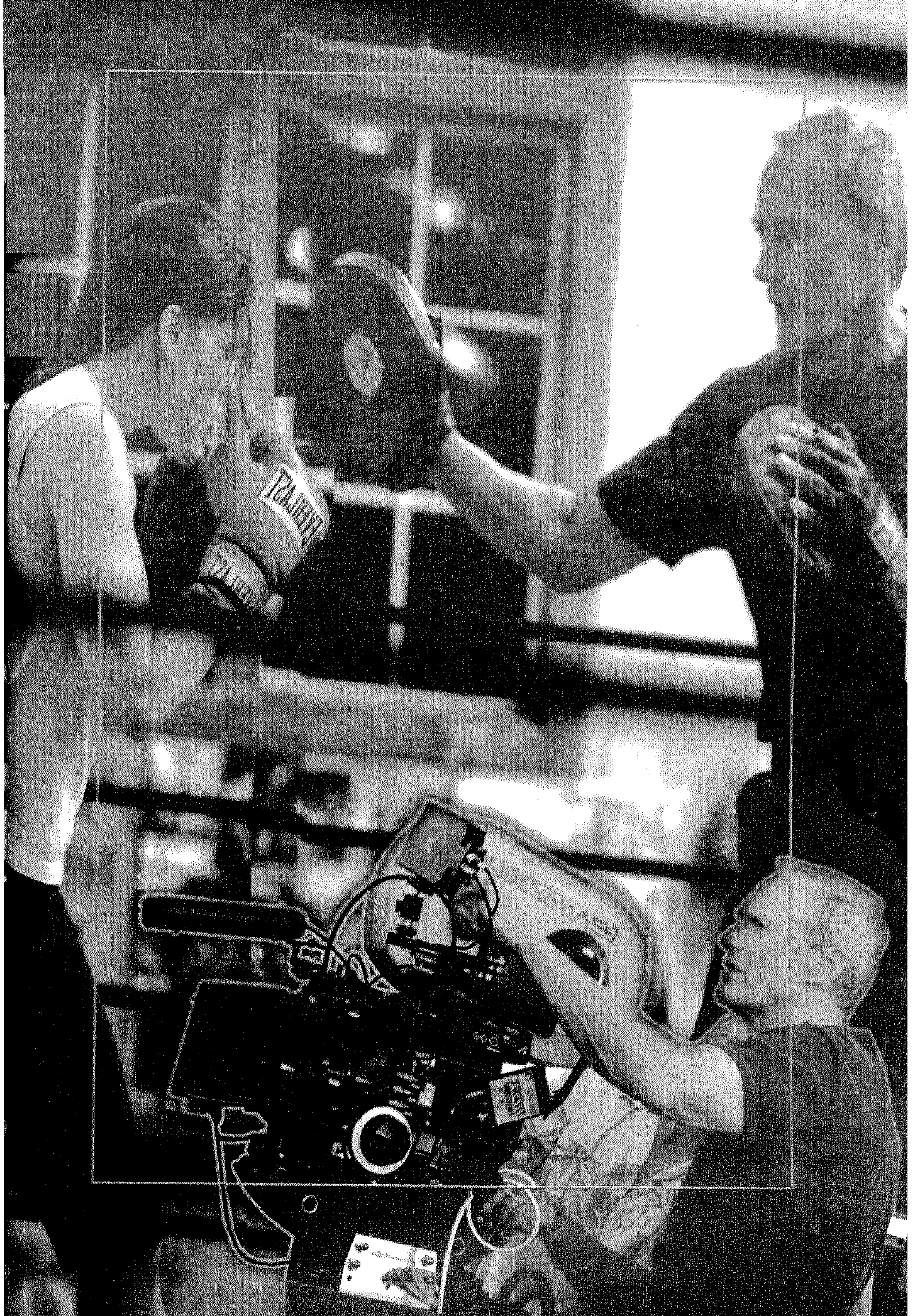
يسلمهم مراحهم للسراب

إن رشفوا؟

أيذهبون البعيد،
يرجعهم جموحهم
نحو بدء ما عرفوا؟

●●●

كانت لغات ،
تفر من مدن، جاسوا بها
والحروف قد خلفوا
كانت نساء،
تموء في سرر، عاشوا بها
والذنوب ما سلفوا
خانوا أم أختانوا
لايهم لهم
باعوا أم ابتيعوا
أم نسوا وعفوا
تعارفوا،
رغم جهل أعينهم
تناكروا
بعد لأى ما أكتشفوا
أيديهم، سافرات
ما نظروا إلى الفراغ الذى
هم قطفوا
إلى بلاد،
تغوص فى ترح
وخيرها
لاغتراف من ترفوا
إلى قراهم،
تنوب فى صمم
وأهلها ساهمون، مارجفوا
إلى السماء، التى غدت كسفا
إلى القيود التى،
بها رسفوا
إلى بلاد بعيدة،
غصبت أقداسها،
والنخيل
والشرف
إلى كتاب، وأسطر محيت
وهم على متنها،
وقد حذفوا
الآن يبدو الزمان فى يدهم،
وليس فيها
وليس ما ألفوا
لم يجدوا
غير صمت أحرفهم
يعلو،
ويعلو،
كأنهم هتفوا



صناعة النجوم

في هوليوود وعلى ضفاف النيل

بقلم
مصطفى درويش

١٦١

الهلال



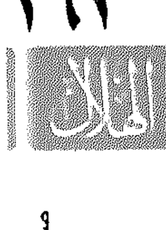
قبل بضعة شهور، اذيع خبر فوز الممثلة الناشئة «نيللى كريم» بجائزة أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها فى فيلم «أنت عمرى» الذى وقع عليه الاختيار، مع فيلم «الباحثات عن الحرية» ، كى يمثلا السينما المصرية فى مهرجان القاهرة السينمائى الأخير.

ومع مجىء العام الجديد، وبالتحديد فى السابع والعشرين من شهره الثانى ، اذيع خبر فوز الممثلة الصاعدة الواعدة «هيلارى سوانك» بجائزة أوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها فى فيلم «فتاة بمليون دولار» .

وكل شىء عن فوز كل من «نيللى» و«هيلارى» بجائزة أفضل ممثلة رئيسية غريب حقا.

ووجه الغرابة فى فوز «نيللى» فى «أنت عمرى» لصاحبه المخرج «خالد يوسف» فيلم مفتعل اشد افتعال.

فلقد استهله ببطلته «شمس» - تؤدى دورها «نيللى» - وهى اصلا راقصة باليه، قبل احترافها فن التمثيل السينمائى - استهله بها.. وهى ترقص على خشبة المسرح بدار الأوبرا، حيث نراها، وقد سقطت مغشيا عليها، بعد انتهاء عرض الباليه، وقبل إسدال الستار.



وسرعان ما نكتشف انها مريضة بسرطان الدم «لوكيميا» ورقصها كان بالمخالفة لتعليمات طبيبها الخاص - «هشام سليم» - الذى يتبين لنا - فيما بعد - انه بها ولهان.

أما لماذا رقصت متحدية تعليماته، فذلك لأن فن الباليه أصبح بالنسبة لها كالأوكسجين، بدونه لا يستطيع الإنسان أن يبقى حيا لأكثر من بضع ثوان.

وحتى يثبت لزوم ممارستها هذا الفن لاستمرار حياتها، افتعل كاتب السيناريو الدكتور «محمد رفعت» قصة ثانية لمريض بنفس الداء.

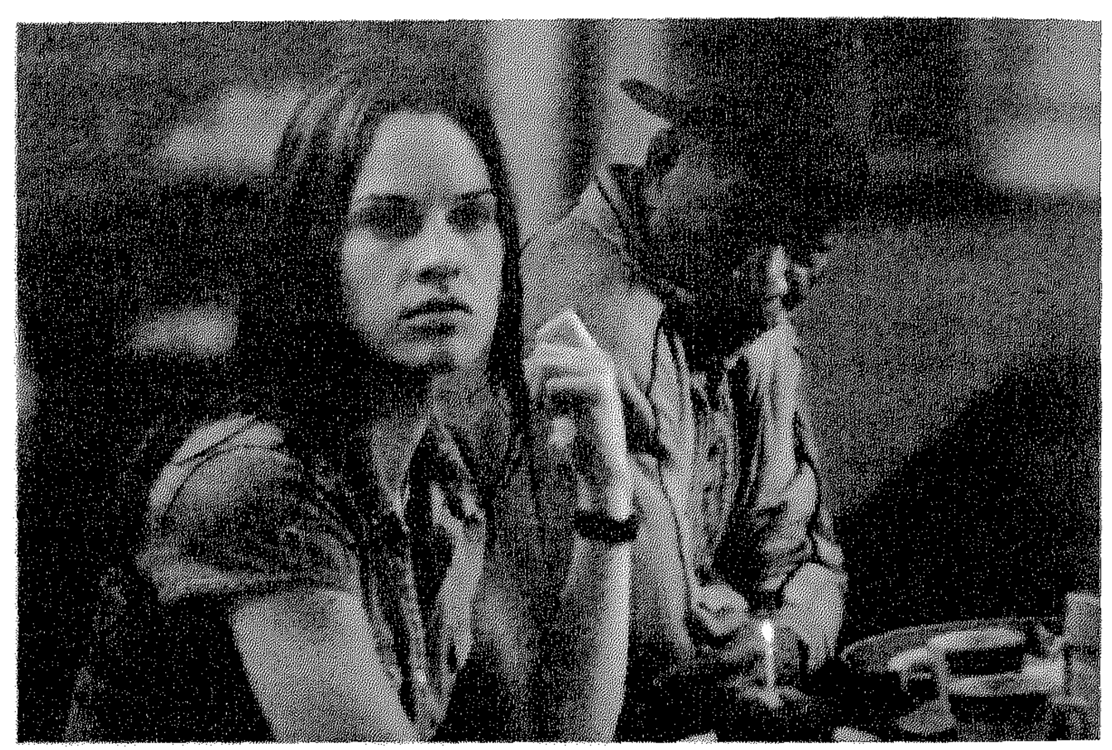
وهذا المريض واسمه «يوسف» - يؤدى دوره «هانى سلامة» - يعيش حياة رغدة مع زوجة حسناء «هند» - تؤدى دورها «منة شلبى» - له منها صغير، وكذلك مع أب واسع الثراء.

ولأن السعادة لا تدوم، فقد جعله كاتب السيناريو يصاب هو الآخر بمرض «شمس» ، المتفانية فى حب الباليه .

وهنا . افتعل له أمرا غير مألوف، عندما رسم له أن يقرر الاختفاء، متذرعا بالسفر إلى الخارج. حتى يجنب اسرته آلام مشاركته فيما أصابه من بلاء ثم افتعل لقاء بالصدفة بينه وبين «شمس» فى مستشفى الطبيب الولهان.

قوة الحب

ولم يكتف السيناريو بهذا كله، بل



« هيلارى سوانك » فتاة المليون دولار

افتعل صدفة أخرى وهى أن تعرف «شمس» أنه بنفس علتها عليل.

فتدبر لقاء معه. بالتواطؤ مع الطبيب الولهان، الذى سرعان ما يكتشف انها وقعت فى حب «يوسف» . فيبارك حبها ، لانه وفقا لعلم الطب الحديث، فى الحب الشفاء و، الأغرب ، افتعال لقاء بين «شمس» والزوجة «هند»، انتهى بها ، بعد حيرة ومعاناة، مباركة ، هى الأخرى . الحب الكبير.

ولأن هذا الحب قد ساعدها على مواصلة الرقص حبها الأول والأخير، انتصرت على المرض، وتماثلت للشفاء وغنى عن البيان، انه ، ومع كل هذا الافتعال ، كان لابد ان يفقد الفيلم مصداقيته تماما.

وبحكم اللزوم يفقد أداء «نيللى» مصداقيته هو الآخر، وبالتالى ما كانت لتستحق عنه التقدير الذى نالته من لجنة تحكيم مهرجان القاهرة السينمائى الأخير.

سر الفوز

اما فوز «هيلارى» بجائزة الأوسكار، فغرابته لا ترجع إلى عيب شاب سيناريو «فتاة بمليون دولار»، أو إخراجه.

فالسيناريو محكم البناء، تسلسل المشاهد فيه، وتركيب بعضها فوق بعض يسيران باتصال مقنع ، ومريح. لا يقطعه تخلخل. وركود أو غموض، وحشو لا طائل تحته والإخراج جاء، هو الآخر، آية فى الاتقان، والعناية بالتفاصيل. مما كان سببا فى استحقاق «كلينت ايستووده» جائزة أوسكار أفضل مخرج، وهى جائزة سبق له الفوز بها. قبل ثلاثة عشر عاما ،

عن إخراجه فيلم «لا غفران»

غروب وشروق

كما لا ترجع غرابة فوزها إلى عيب شاب تمثيلها. وانما ترجع إلى أن أعضاء إكاديمية فنون وعلوم الصور المتحركة الذين بيدهم الأمر والنهى فى كل ما يتصل بالترشيح لجوائز أوسكار، ومنحها لمن يرونهم اهلا للفوز بها، قد جنحوا على غير المعتاد - إلى منح جائزة أفضل ممثلة رئيسية مرة ثانية لنجمة لا تقيم وزنا للظهور على الشاشة، متقمصة شخصية أنثى مغرية، مرغوبة من الرجال.

فقبل خمسة أعوام، ولمايكن لها من العمر سوى ستة وعشرين عاما، منحها أعضاء تلك الإكاديمية جائزة أوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها فى فيلم «الصبيان لا يبكون» لصاحبته المخرجة «كيمبرلى بيرس»، حيث تقمصت شخصية «براندون تيبا» وهى شخصية حقيقية لفتاة رأت فى نفسها القدرة على أن تمارس حياتها، وكأنها من جنس الرجال.

واستمرت على هذا الحال إلى أن ماتت مقتولة، الأمر الذى جعل سيرتها حديث أجهزة الإعلام فى بلاد العم سام.

والحق، انها كانت فى تقمصها لتلك الشخصية حتى نهايتها الفاجعة رائعة مشعة حيوية، ودفئا، فيهما من الصدق الشيء الكثير.

وفى «فتاة بمليون دولار» تلعب دورا خشنا آخر، ليس من المعتاد أن تلعبه نجمات مصنع الأحلام وهو دور فتاة ذات عزم أكيد، وإرادة من حديد.

رأت فى نفسها القدرة على احتراف الملاكمة مثلها فى ذلك مثل الرجال.

فعزمت ثم مضت لا تحيد، متغلبة على جميع المعوقات والصعوبات، حتى انتصرت فى نهاية المطاف.

وهى فى أدائها لدور تلك الملاكمة كانت والحق يقال، أشبه باعصار اقتلع مدرسة التمثيل القديمة مستبدلابها مدرسة جديدة، الاعتماد فيها. لا على الكلام، بل على كامل الجسم وقدرته اللانهائية على التعبير.

انتصار الإرادة

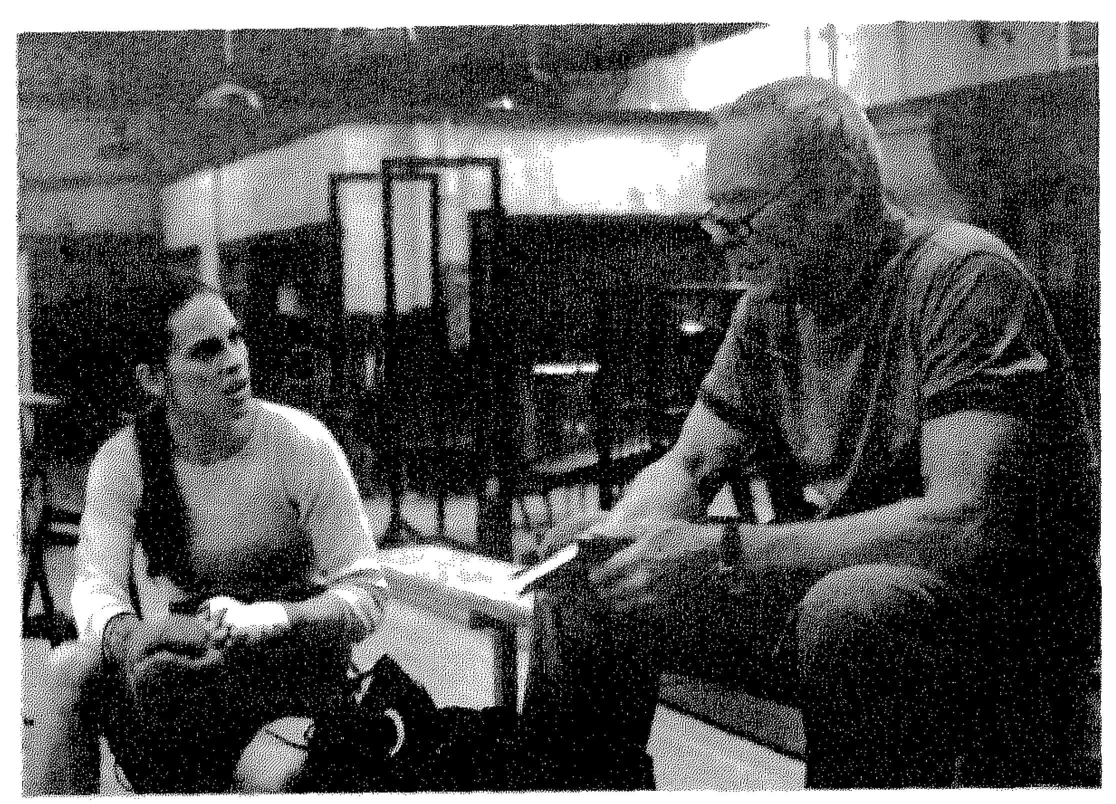
ومما هو جديدر بالذكر هنا، أن فوزها للمرة الثانية، بجائزة أوسكار، انما كان ثمرة مجهود بذلته فى التدريب على الملاكمة التى لم يكن قد سبق لها ممارستها، ولم تكن تعرف من قواعدها شيئا.

ولقد استمر تدريبها بمعدل اربع ساعات يوميا. لمدة ثلاثة اشهر. دون انقطاع، عانت، أثناءها، كثيرا إذ كان عليها ان تزيد وزنها، وان ترفع اثقالا، كى تزيد من حجم عضلاتها، بحيث تبدو مفتولة تليق بملاكمة محترفة، حتى يقتنع بها جمهور المشاهدين.

هذا، ولم ينته «فتاة بمليون دولار» مثلما انتهى «انت عمرى»، بختام سعيد.

كانت خاتمته حزينة، وكانت أكثر تأثيرا فى النفس، لما ترسب بعدها من ثقل المأساة فى نفوسنا.

«فماجى» بطلة الفيلم التى لعبت «هيلارى» دورها بجدارة تصعد فى سلم الملاكمة، حتى تصل إلى مصاف



هيلاري سوانك مع مخرج الفيلم «كلينت ايستوود»

الملاكمات الكبار.

الموت الرحيم

وهاهى ذى ، قاب قوسين أو أدنى، من الفوز ببطولة العالم، لولا ضربة غادرة من ملاكمة شرسة، اصابتها بشلل اقعدها على نحو اصبحت معه عاجزة عن تحريك اى جزء من أجزاء جسمها العليل.

وهكذا تحول حلمها إلى كابوس ، تريد التخلص منه بالموت الرحيم، تلتمسه من مدربها - يؤدى دوره «كلينت ايستوود».

فيستجيب لندائها ولكن بعد تردد، دام طويلا، لم يتحرر منه، الا بعد ان قالت له «ماجى» صادقة انها وقد ذاقت طعم النجاح، ولو قليلا تشعر بسعادة لم تكن لتشعر بها، لو انها بقيت نكرة، لا احد يعرف من امرها شيئا.

وعن اوجه الشبه بينها وبين «ماجى» تقول «هيلارى» فى حديث لها.

«ربما لم اكن اشبهها، قبل ان أؤدى الدور أما الآن فاحس اننى وهى واحد.

واكاد ازعم ان حلمى السينمائى يشبه حلمها الرياضى».

فاذا ما سئلت عن حلمها هذا، وهل تحقق، اجابت «ليس بعد، والا لكان على اتوقع نهاية كنايتها».

وكأنها بذلك تريد ان تقول : إنه من الأفضل الا تتحقق الأحلام!! ■

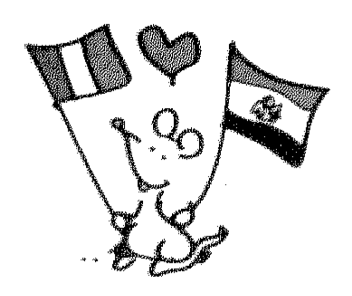
PLANTU

بلانتو: ٢٠ عامًا على الأولى!

بقلم
محيى الدين اللباد

في الشهر الماضي، مر **بلانتو** (انطقها أقرب إلى **پلانتي** حسب عوجة اللسان «الإفرنسي») علينا في القاهرة للمرة الرابعة وليست الأخيرة. أقيم لرسومه معرض صغير، مع محاضرة له كانت أشبه بتظاهرة في قاعة محاضرات المركز الثقافي «الإفرنسي»، شُغلت فيها كل أماكن الجلوس ووقف الكثيرون على أقدامهم لساعتين، بينما جلس عشرات أخرون في مدخل المركز يتابعون المحاضرة على شاشة تليفزيونية عملاقة. وحولهم كانت ملصقات تنبه إلى المحاضرة، رسم عليها **بلانتو** أحد فيرانه، يحمل بإحدى يديه علم فرنسا وبالأخرى علم مصر، ويخفق قلبه الأحمر بين العلمين.

بلانتو أصبح بديهة مشتركة لكل الفرنسيس «القارئين بالإفرنسية»، إذ أنه -الآن- مثل قلائل آخرين من النجوم الذين يلتقي بهم جمهور الفرنسيس كل صباح: مثل مذيع نشرة الأرصاد الجوية، ومدام **سوليي** (شمس) التي تذيع حظوظ أبراج الفلك المختلفة من الراديو كل صباح. ورغم أن **بلانتو** يطلع كل يوم على الصفحة الأولى من جريدة **لوموند Le Monde** التي تصدر في منتصف النهار وليس في الصباح، إلا أنه أصبح من عادات الفرنسيس اليومية. فإن لم يكن لهم «فنجان قهوة





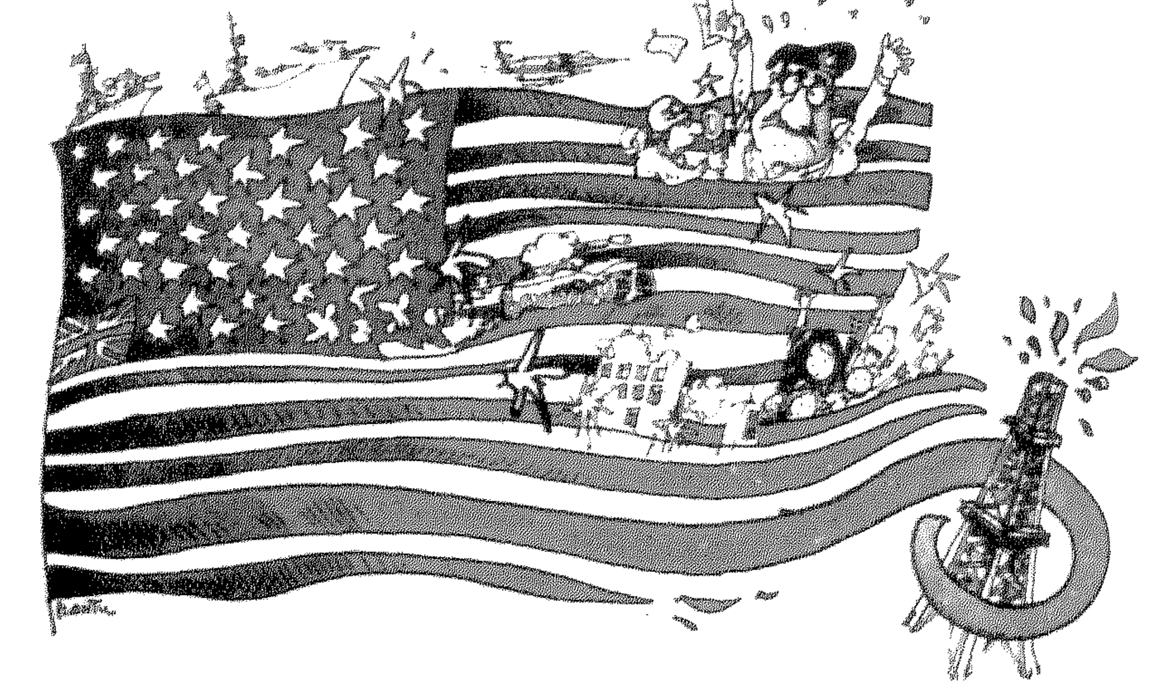
الصباح» (مثلما وصف **محمود درويش** رسوم **ناجى العلى** فى جريدة **السفير**)، فإنه قدح النبيذ مع الغداء اليومى السريع وسط ساعات العمل فى المقهى «المقابل»، أو هو فنجان القهوة السوداء الذى «يحبس» على سندوتش منتصف النهار.

وأقرب مثال عرفناه للنجم الفرنسى رسام افتتاحية **لوموند** كان **صلاح جاهين** فى افتتاحيته **للأهرام** بالكاريكاتور فى السبعينيات والثمانينيات.

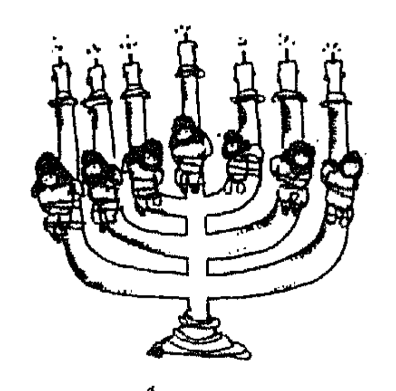
يضبط رسم **بلانتو** على صفحة **لوموند** الأولى أدمغة الفرنسيس وأنواقهم وأمزجتهم السياسية المتقلبة والمدللة والمتبرمة دائماً والمعترضة. يثير النقاش بين بعضهم البعض، كما يثير تساؤلات القارئ الواحد ويدفعه للمراجعة وتقليب الأمور السياسية فى فرنسا والعالم. وهذا ما يحتاجه كل إفرنسى ليتزود بموضوع للثرثرة ورفع الصوت والسفسطة خاصة بعد قدحين من النبيذ الأحمر. وتختار الجريدة كل يوم -وبعناية- خبراً أو تقريراً تضعه على رأس الصفحة الأولى، وتطلب من رسامها **بلانتو** أن ينجز تحته أو بجواره رسماً حول الموضوع نفسه.

بلانتو صاحبنا: فهو نصير الفلسطينيين والعراقيين والعرب والمسلمين والأفارقة والآسيويين واللاتين الأمريكان والعالم الثالث عموماً. وهو صاحب «الأجانب» المطاردين فى فرنسا، الذين يطاردهم المتعصبون من **جبهة لوبين «الوطنية»** FN اليمينية، ويطاردهم البوليس لأنهم لا يحملون أوراق إقامة صالحة، ويسميهم المجتمع هناك «البدون أوراق sans papiers».

بلانتو صاحبنا لأنه لا يشتمنا مقدماً بتعميم خاطئ، ولا يستسهلنا على طول الخط. هو يدين القمع والوحشية الإسرائيلية وقتل الأطفال، ويحتج على الجدار العازل، وعلى هدم بيوت الفلسطينيين، ويهجو الاستيطان، حتى أنه تعرض لاحتجاجات واتهامات من المنظمات اليهودية. وربما كان



يتعرض لقوانين معاداة السامية فى أوروبا وأمريكا، لو أن بعض رسومه نشرت الآن بعد سريان تلك القوانين.



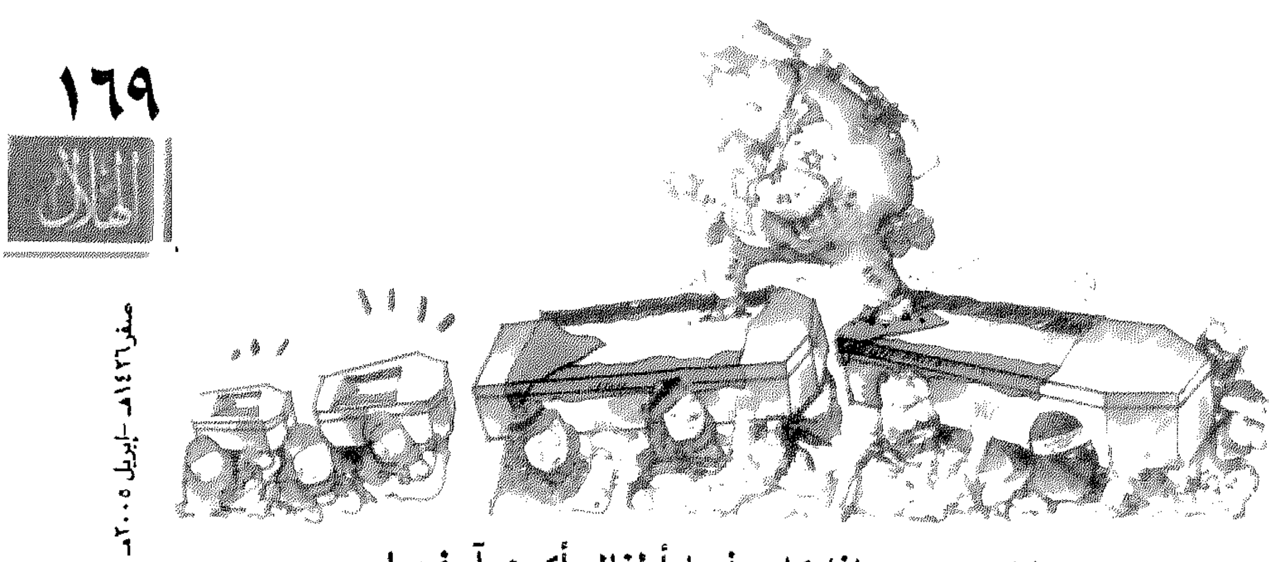
لكن رسامنا النجم كثيراً ما يحتج على «الملتحين» سواء كانوا فى الجزائر أو فى أفغانستان أو فى فلسطين. ويرسمهم متمنطقين بالأحزمة الناسفة والخناجر. ويتعجب أيضاً من تحجب النساء المسلمات فى بلادهم وفى فرنسا على السواء. وهو أيضاً يحمل أمريكا مسئولية صناعة **بن لادن** وأتباعه الملتحين فى أفغانستان، ويبين كيف انقلب هؤلاء المصنوعون على الصانع. وهو ضد الاحتلال الأمريكى للعراق وضد جرائمه على طول الخط، ولم تنطل عليه كذبة أسلحة الدمار الشامل، ولا كذبة قدوم الاحتلال الأمريكى بهدف نشر الديمقراطية فى بلادنا الديكتاتورية، وقد عبّر عن كل هذا فى رسومه الذكية اللماحة.

وهكذا، يقف **بلانتو** فى مساحة دقيقة قياسها محسوب بإحكام: فهو بالنسبة لجمهور الفرنسيس العريض متجاوز للسائد المتفق عليه، و«جديد» و«متهور» قياساً برسامى الكاريكاتور فى **لو فيجارو** و**فرانس سوار** وكثير من الصحف الإقليمية المحافظة جداً. وهو بهذا يلبى موقف الفرنسيس من الطبقة الوسطى الذين يعتبرون أنفسهم «مختلفين» دون أن يتورطوا فى تبنّى المواقف الثورية لليساريين المتطرفين والفوضويين، ومنهم رسامى الأسبوعية الكاريكاتورية **شارلي إبدو**، وبعض رسامى جريدة **ليبيراسيون** اليومية. وتحفل كاريكاتورات هؤلاء بالشطط والعنف و «قلة الأدب» و«انحطاط الذوق» و «مجافاة الأخلاق البورجوازية» و«عدم مراعاة الحدود». ولا عجب، فرسامو كل من الأسبوعية واليومية المذكورتين، هم من أبناء «هبّة» الشباب عام ١٩٦٨، وبعضهم رسَم فى مجلاتها الكاريكاتورية التى دخلت التاريخ ولم تخرج منه بعد.

يحكى **بلانتو** عن برنامجه اليومى فيقول: أنه يذهب إلى الجريدة فى العاشرة صباحاً، فيصله من رئاسة التحرير موضوع القطعة الخبرية التى سينشر معها رسمه الكاريكاتورى فى منتصف اليوم. يرسم الرسام ثلاث أو أربع أفكار، ويذهب لعرضها على رئيس التحرير الذى يختار منها فكرة واحدة، يوافق عليها أو يطلب من الرسام تعديلاً فيها. وتستغرق المهمة، بدءاً من وصول **بلانتو** إلى الجريدة حتى تسليمه الرسم، ساعةً ونصفاً عليه أن ينهى خلالها إنجاز الكاريكاتور. وقال **بلانتو** أنه يوافق على هذه الطريقة لأنها تعبر عن تعاون التحرير معه، وقال: أى نعم فيها نوع من الرقابة (رغم الكلام المعروف عن حرية الرأى فى فرنسا)، ثم أضاف: لكن هذا التدخل يحمينى من نفسى!

رسم **بلانتو** أمامنا فى المحاضرة عدداً من الرسوم السريعة عرضها على الشاشة العملاقة شارحاً بها حديثه إلينا. كان يرسم ببساطة آسرة، وبلا تردد أو وجل. كان لديه

- بابا .. هي لسه بعيدة فلسط ....



شارون- .. إذا كان فيها أطفال أكون آسف !

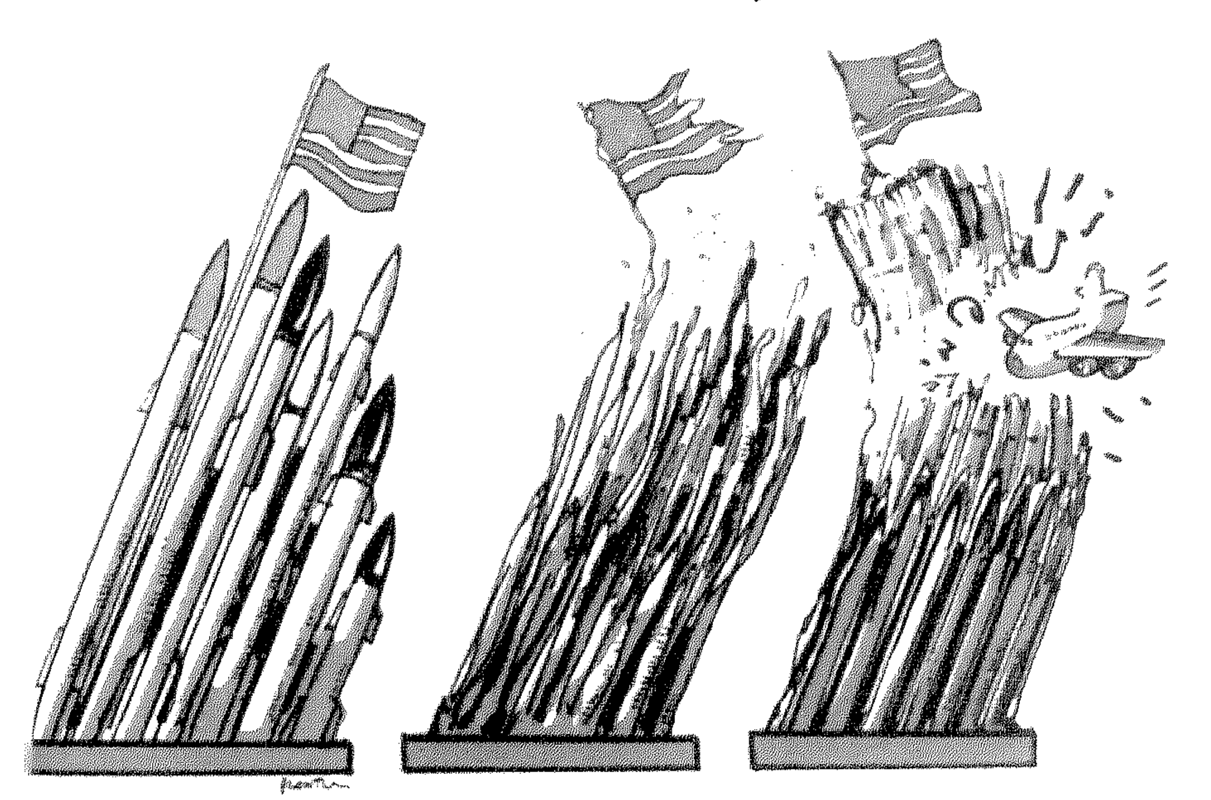
حلاً نموذجيًا جاهزًا ومجربًا لرسم وجوه **شيراك ولوبين ورافاران** وغيرهم من الرجال المقربين على الكاريكاتور الفرنسى هذه الأيام. وقال أنه يلجأ إلى رسم **العم سام** بدلاً من **جورج دبليو بوش** لأن «فى وجهه ملاحة تعوقه دون رسمه بالكاريكاتور». كان هناك أيضًا عدد من الرموز النمطية المكررة. وكانت لديه حلول نموذجية جاهزة لكل الأشكال والأحوال.

وقد قال لنا **بلانتو** أن فى رسومه كثير من «الكليشيهات» الثابتة، أى الاصطلاحات الرمزية التى اتفق عليها مع قارئه كمفاتيح لدلالات ومعانٍ محددة. وقال الرسام النجم أيضًا أن «الأسلوب» فى رسومه لا يعنيه من قريب أو من بعيد، بل تعنيه أولا وأخيرًا الفكرة أو الرسالة التى يحملها الكاريكاتور إلى القارئ.

الرسم فى كاريكاتور **بلانتو** يبدو أنيقًا، ومحكمًا، ونظيفًا، ومستقرًا، ومتوقعًا، وخالٍ من المفاجآت. ومع أنه يتناول كثيرًا من الموضوعات الساخنة والموجعة ويحمل قدرًا من الصدام مع ثوابت بالية، إلا أن الرسم يبدو على الأغلب مهذبًا. وتبدو عناصره وكأنها مفردات لغة متدفقة، ما على الرسام أن يجمعها إلى بعضها البعض بسرعة قياسية لتتكون العبارات والنصوص المركبة.

كان أخونا العزيز **حسن حاكم** (١٩٢٩-١٩٩٨) يشبِّه الرسوم المهذبة لبعض زملائنا الرسامين بأنها مثل خط النسخ(!)، ولعله كان يقصد أنها كانت رسومًا «حلوة» حلاوة نمطية، متكررة ومتوقعة ومضمونة الأداء. وبالفعل، تحتاج رسوم الكاريكاتور إلى بعض الخشونة والعنف و«القبح»، إذ لا يستقيم أن ينشر الرسام أفكارًا معارضة «من خارج الهيئة الاجتماعية» وصادمة تهدف إلى التغيير، ويعبر عنها برسوم طلية وحلوة وعاقلة تسعى لنيل إعجاب الجميع.

بدأ **بلانتو** علاقته مع **لوموند** -من



النهب فى بغداد !

الخارج- بتقديم رسومه إلى رئيس التحرير كل يوم، وظل رئيس التحرير يرفض نشر أى منها. حتى وقعت الواقعة فى أكتوبر ١٩٧٢، حين نشرت الجريدة بين أعمدتها أول رسم لـ**بلانتو** عن محادثات السلام المرتقبة بين الفيتناميين والأمريكان. وبعدها، أخذ رئيس التحرير ينشر له القليل من أعماله وبين كل منها والآخر أسابيع طويلة.

وفى عام ١٩٧٨، قدم **بلانتو** كاريكاتوراً يهاجم فيه **كارتر** الذى ضغط على الحكومة الإيطالية -آنذاك- بسبب ضمّها لبعض الوزراء الشيوعيين، وكانت المفاجأة أن رئيس التحرير أطاح بكل تقاليد **لوموند** التى سارت عليها منذ صدورها قبل ٣٤ عاماً. ظلت الجريدة طوال هذه السنين لا تنشر على صفحتها الأولى صورة ولا رسماً على الإطلاق. لكن رئيس التحرير فى ذلك اليوم

Page 2 — LE MONDE — 1er-2 octobre 1972 • • •

ASIE

Indochine

La Commission internationale de contrôle transfère son siège de Saigon à Hanoi

La Commission internationale de contrôle créée par les accords de Genève de 1954 sur l'Indochine a décidé de transférer son siège de Saigon à Hanoi à partir du samedi 30 septembre. Cette décision fait suite aux mesures prises par le gouvernement sud-vietnamien contre des délégués indiens depuis que New-Delhi a décidé d'élever en janvier au rang d'ambassade sa représentation à Hanoi. Des représentants canadiens et polonais demeureront cependant en poste à Saigon.



(dessin de Plantu.)

La situation militaire était relativement calme au Sud samedi matin. Cependant, les Américains affirment qu'ils ont tué trois cent soixante communistes dans la province de Quang-Ngai. Ils ont d'autre part commencé à utiliser leurs avions à géométrie variable F-111 qui bombardent le Nord et sont basés en Thaïlande. Ces appareils remplacent des Phantom qui transportaient 7 tonnes de bombes et sont capables quant à eux d'en transporter 18 tonnes. Les Nord-Vietnamiens affirment que des hameaux viennent d'être attaqués dans la banlieue de Hanoi et leur presse consacre un article à la protection des écoles : deux cents d'entre elles ont été touchées depuis la reprise des raids, et de nombreux enfants ont été tués. Toujours selon Hanoi, huit appareils américains ont été abattus de mardi à vendredi. Vendredi aussi trois fusées ont été tirées à Hanoi contre un mystérieux engin immobile qui n'a pas été atteint ; les Américains ont fait savoir qu'il s'agit d'un ballon d'observation météorologique qui n'est pas utilisé à des fins d'espionnage.

● A STOCKHOLM, Mme Binh, ministre des affaires étrangères du G.R.P. sud-vietnamien, a déclaré vendredi que les rumeurs concernant une paix imminente ne reposent sur rien. Les Nord-Vietnamiens de Paris indiquent aussi que ces rumeurs ont été répandues intentionnellement et font partie d'une campagne de propagande américaine alors qu'en fait les positions des deux camps demeurent contradictoires.

MM. Ngo Cong Duc et Pham The Truc, anciens députés du Sud, et des responsables du Mouvement pour l'autodétermination du Sud, des Forces libres du Vietnam, du Mouvement des catholiques au service de la nation, du mouvement Vers le pays vrai, de l'Union des Vietnamiens en France, etc. Les participants ont dénoncé « *la répression sans précédent menée par l'administration Thieu à l'encontre des mouvements d'opposition* », « *la campagne d'injures déclenchée par M. Thieu contre les mouvements patriotiques et la communauté des résidents vietnamiens à l'étranger dans le but de camoufler son isolement total parmi les Vietnamiens* » ; ils « exigent » la libération des personnes emprisonnées, réclament la démission du président et la fin de la guerre américaine.



أعلى:

الرسم الأول لبلانتى فى لوموند، ١٩٧٢.

أسفل:

كاريكاتور بلانتى على الصفحة الأولى للمرة الأولى، ١٩٨٥.





المحامى: - واحد بيلبس شرابات زى دى، لا يمكن يكون فاسد

نشر كاريكاتور **بلانتو** على الأولى، مسجلاً بذلك تهوراً كبيراً وطيشاً وصدمة للقراء والصحفيين، وربما لفرنسا كلها.

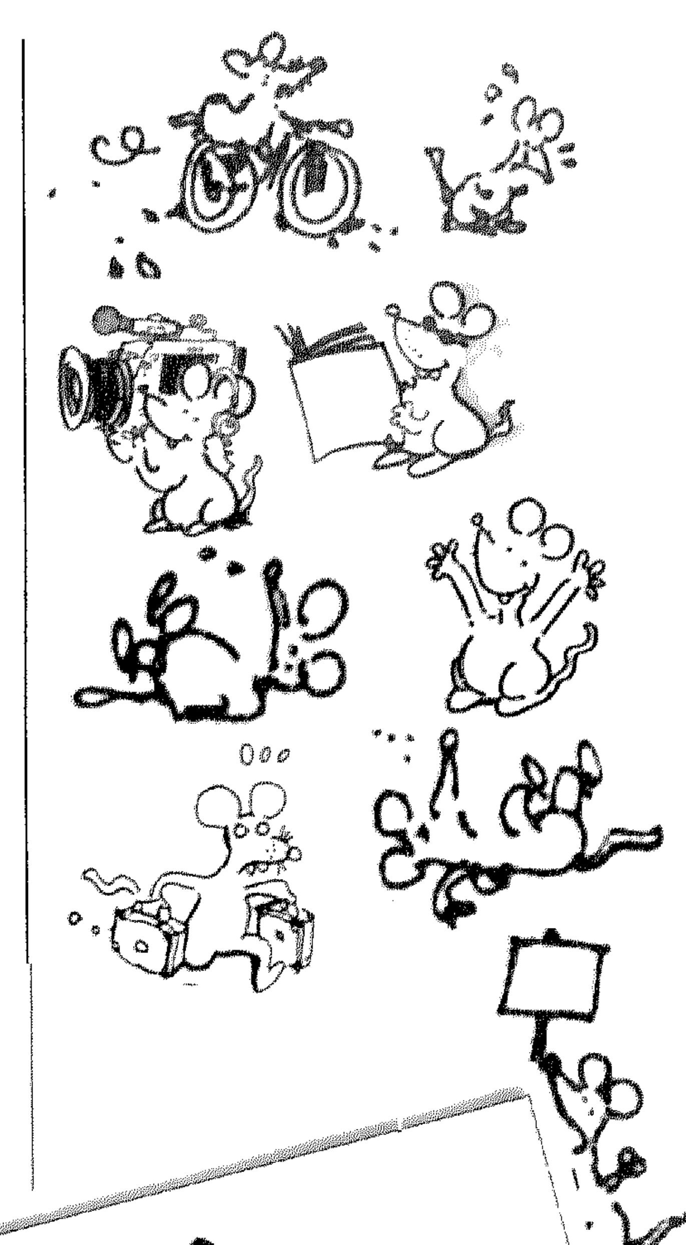
لم يتكرر تهور رئيس التحرير مرة أخرى، واستمر رسوم **بلانتو** فى الصفحات الداخلية. وبعد ٧ سنوات أخرى (١٩٨٥)، اتخذت الجريدة قرارها بتثبيت رسوم **بلانتو** على صدر الصفحة الأولى. ومن يومها وهو هناك.

وبعد عامين، تم القبض على وزير الاقتصاد الفرنسى بتهمة الفساد، ودافع عنه محاميه بأن «رجلا يلبس مثل تلك الجوارب التى يلبسها الوزير المتهم، لا يُعقل أن يكون فاسداً». وفى كاريكاتور **بلانتو** تعليقاً على القضية، قام بتلوين جوارب الوزير فى الرسم باللون الأحمر، وظل يلونها باللون نفسه طوال الأسابيع التى ظل يتناول فيها القضية ذاتها على الصفحة الأولى. ومن يومها، أصبحت رسوم **بلانتو** على الأولى ملونة، ليس بالأحمر وحده، بل بكل الألوان. وهو يستعمل الألوان فى رسومه بحكمة واقتصاد وبلا إسراف، بل فقط فى الحدود الدنيا لتأكيد الفكرة دون أن يصبغ الرسم كله. وقد شجع انتقال الكاريكاتور إلى الأولى ثم تلوينه على تطوير تصميم الجريدة كلها، وتطوير ماركتها التجارية (اسم الجريدة)، من الخط القوطى التقليدى المعقد إلى الأبسط والأحدث؛ فحلقوا للحروف زوائدها، وبسّطوها دون قطيعة مفاجئة مع القديم، حتى أن عدداً لا بأس به من قرائها لم يشعر بصدمة هذا التغيير.

ومنذ عشر سنوات مضت، دسّ **بلانتو** فى رسومه فأراً صغيراً يظهر فى إحدى



Le Monde



[أعلى وأسفل] الصفحة الأولى من لوموند قبل بلانتى، وبعده، بعد تحديث تصميم الصفحة.

[اليمين] عينات من فيران بلانتى، منذ ١٩٩٥.



Le Monde

MARDI 10 JANVIER 1995

Le palais présidentiel de Grozny est assiégé par les forces russes

Sourd aux critiques, Boris Eltsine semble décidé à écraser militairement la résistance tchétchène

Les affaires de corruption repartent en force à droite

L'autonomie palestinienne enlisée

Petits Français retour d'Algérie

Des rentiers heureux, des consommateurs moraux

À nos lecteurs

الزاويتين السفلتين من رسمه أو فى كلاهما. لا يفعل الفأر شيئًا يذكر، فقط يظهر مثل كومبارس مصغر صامت، قد يذكّر -مع حفظ الفوارق والألقاب- بحنظلة **ناجى العلى**، وبغيره من الشخصيات الكرتونية الميكرو فى كاريكاتورات الأمريكان: يشتت التركيز إذا ما زاد، ويخفف من استقطاب الفكرة، ويهدئ من جرعة الجدية والدراما والتحليل المحكم.

وطوال سلسلة الرسوم التى تناول فيها قضية **بيل كلينتون** و**مونيكا لوينسكى** أدلى هذا الفأر بدلوه كثيراً وبنجاح.

عندما غادر **بلانتو** بلادنا الشهر الماضي، توجه إلى رام الله والقدس ليقابل الفلسطينيين والإسرائيليين، وبعدها يذهب إلى جنوب شرقى آسيا. وسيعود إلى مصر مرة أخرى فى الخريف القادم، حيث يقام معرض لرسومه فى مكتبة الإسكندرية.

لقد أصبح **بلانتو** مثل عمل فنى فرنسى عملاق، تطوف به وزارة الخارجية الفرنسية العالم، لتكسب به الأصدقاء لبلدها، ولتروج به لسياساتها. ويحفل العام ببرنامج مكثف من مثل هذه الزيارات والمؤتمرات والمعارض والمحاضرات.

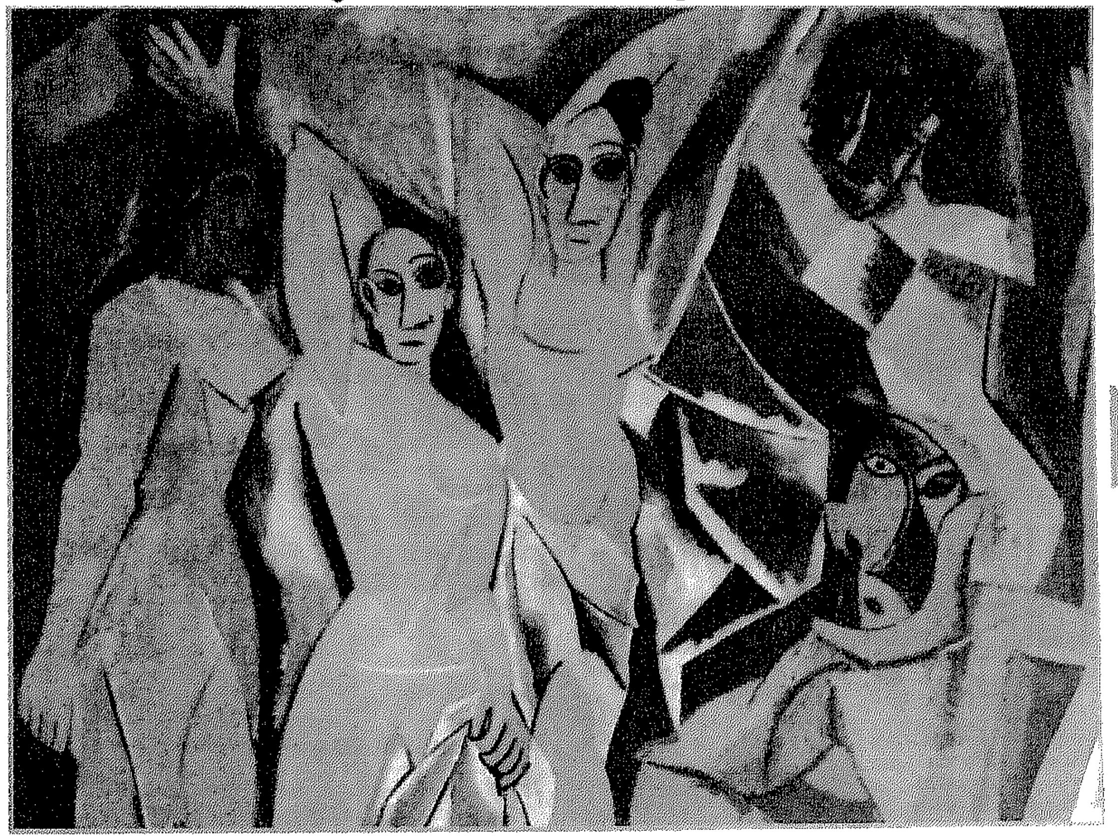
وفى محاولة لتنظيم هذه الأنشطة والمهام والمشاغل المتعددة والمتشعبة، خصصت جريدة لوموند مساعدة دائمة لـ **بلانتو**، تتولى مسؤولية تنظيم أرشيف أعماله (١٦٠٠٠ رسم أصلى)، وتنظم علاقته بقرائه وبالناشرين وبالصحف الفرنسية والأجنبية التى تطلب إعادة نشر رسومه. وتتولى المساعدة **بريجيبت روكان** أيضاً إمداد الرسام بالمراجع المصورة وصور الشخصيات والأماكن والوثائق البصرية الأخرى التى يطلب توفيرها له للاستعانة بها فى إنجاز كاريكاتوراته التى لا تغفل صورة الواقع ولا تحورها كثيراً، بل تميل إلى تطوير عناصره فى صورة أقرب إلى حقيقتها ■

• أيام مونيكا لوينسكى •

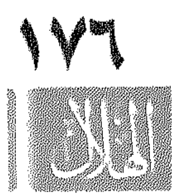
- أنا جاى أعتذر آسف !
- .. بس الأول شيل إيدك !



أثمرت المدرسة التأثيرية روائع كان للتأثير الضوئى فيها موضع البطولة والصدارة ..



مع بدايات القرن العشرين ، كانت نهاية صرامة الفن المرتبط بالأحداث التاريخية ليكون التجريد ..



الطريق إلى الحرية

بقلم
عدلى رزق الله

ظل الفن هو طريق بحث للإنسان عن طريق الأسطورة، جزءا منها، متخلقا معها يحاول بها السيطرة علي الظواهر التي تقع تحت تأثيرها، لكنه لا يعرف لماذا تحدثها، كلما اكتشف ظاهرة تحولت إلي جزء من مدركاته، وهي الخطوة الأولي لكي تصبح علما. يتبع سقوط الأمطار نمو في الخضار الممثل في العشب، حينئذ كان الراعى يتهلل لأن فيه حياة للقطيع، فلنحاول الابتهال والصلاة لكى يرسل إلينا الماء فيصبح التضرع إلي تلك القوى الخفية محاولة للبقاء والاستمرار، وتنسج الأساطير التى يولد بها ومعها الفن رقصا وغناء وموسيقى مملوءة بالحس والروح، وفى الحق هذا الذى يبقى لنا من كل إنتاج فنى من تلك الروح الخفية المبثوثة فى الفن والتى لا يمكن القبض عليها بقوانين مهما اقترب الإنسان من قوانين العمل الفنى . الذى يبقى لنا بعد الطقس الأسطورى النفعى فى بعض أوجهه، والذى تحول فيما بعد إلى طقوس العبادة فى المعابد. لكن سيظل أو ستظل تلك الروح الفنية هى النبض الذى يصل إلينا من الفن حتى لو لم نشارك أجدادنا طقوس العبادة والإيمان بما كانوا يؤمنون .

كان للأسطورة بأشكالها الفنية فضل تجميع البشر. ينتمى الفرد إلى الجماعة وتنتمى الجماعة إلى الأسطورة، التى أصبح لها سطوة العقيدة. من خرج عليها جلب الشر لنفسه وللجماعة ومن اتبع تعاليمها واحترم طقوسها وسطوتها جلب الخير لنفسه وللجماعة. خلقت الجماعة الأسطورة وخلقت الأسطورة الجماعة.

ضاعت أو قلت غربة الإنسان وأصبح فردا فى جماعة. أخذ الأمان وبعض الراحة وضاعت منه بعض حريته، وسيظل تاريخ الأفراد العمالقة المتميزين، أبدا منذ ذلك التاريخ، إما الإضافة إلى أو الخروج على الإضافة. الأسطورة من ناحية والعلم من ناحية أخرى والخروج على ما استقر، وخلق الجديد الذى يجد معارضة من الجماعة المستسلمة ذات

الروح الهادئة والخاملة وقادتهم من السحرة ورجال العقيدة، ويظل الفن إما تكريسا للمستقر أو خروجا عليه وكلنا يذكر ثورة اخناتون ضد ما استقر عليه كهنة أمون . ضوء جديد يخترق الحياة ويبشر «بالتوحيد» كعقيدة لأول مرة في التاريخ وفيه يؤمن بالإنسان أكثر مما يبحث عن المثل الأعلى المستقر ولأول مرة نجد فرعونا ذا بطن بارز واكتاف معوجة ونسب بشرية ليست للآلهة، أضاء نور عقيدة الفرعون الشاعر، لكن طالها بعد ذلك قدرة وقوة السلطة المستقرة في المعبد والعرش معا. وانهزم الجديد لبعض الوقت لكن الفن الجديد ولد ليعيش مهما حاولوا طمسه وإزالته. أليس لدينا حتى الآن بعد انقضاء آلاف السنين هذا الفن المتوهج في تاريخ الفن المصرى القديم؟.

خدمت العقيدة الجماعة وانشأت لنا فنا عقائديا جماعيا تتلاشى أو تكاد الفردية فيه، ويصبح للفن تقاليد ليس مقصودا بها خاطر الفن بل إثبات العقيدة وإقامة شعائرها ولدينا الفن المصرى القديم معبرا عن أقدم وأعرق حضارة زراعية كان للعقيدة فيها قوة وجود مركزى طغى على كل شئ وقدم للحياة والإنسانية أروع جماعة بشرية ذات حضارة نقلت الإنسانية من حياة الرعاة إلى استقرار الزراع وأبدية التكرارية التى لا تنتهى . بديمومة تتعاقب فصول السنة ، يأتى الفيضان فى موعده بالخير ، عبدوه كما عبدوا الشمس أصل كل الأشياء . هندسة عظيمة تليق بنهر إله وبقيت لنا تلك المعابد المقابر التى لا مثيل لها فى البشرية والتى تعتبر بكل المقاييس معجزة معمارية حتى الآن. ظلت تلك الحضارة تعتمد على الأبدية المركزية، الإيمان المطلق، النظام المطلق، حتى أصابها الوهن بعد ما يقرب من ٧٠ قرنا كاملة غير منقوصة سبقتها بالطبع قرون وقرون .



توازى مع تلك الحضارة، الحضارة الآشورية وتركت لنا هى أيضا أعمالا أسطورية تفسر العالم وتحاول السيطرة عليه هى الأخرى ، وتميزت بالقانون وأحكامه وستظل أسطورة جلجامش واحدة من أجمل أساطير التاريخ . تقول الأسطورة عن الأنثى «.. انتظرته عند مورد المياه لتريه مواطن الحسن فيها ، حينئذ تنور قلبه وتبعها».

كان انكيدو نصف وحش / نصف إنسان . ابن الانسان ربته الحيوانات البرية أخذ قوتها الحيوانية استطاعت الأنوثة أن تحول نصف الوحش/ نصف الإنسان إلى إنسان كامل هل تموت أسطورة كهذه أبدا.

ولنر كيف يمكن أن يحصل الفرعون على حياة أبدية والشروط الواجب توافرها أيام حكمه حتى يصبح من حقه «حق الخلود».

١ - أن يقدم العدل وألا تظلم أيام حكمه أرملة أو يظلم طفلا .

٢ - ألا يتلوث ماء النيل فى أيامه .

٣ - أن ينشر الحضارة لأبناء المناطق المتاخمة .

من لنا الآن بحضارة تدعو إلى العدل لكل الناس خاصة الأرامل واليتامى والمحافظة على البيئة وخاصة مصادر المياه والمسئولية لنشر الحضارة للآخرين. أى فن خالد ينشأ فى ظل حضارة مثل هذه؟.

ولننتقل بعد ذلك إلى الحضارة اليونانية بمثاليتها التى اقتربت كثيرا من المثال الأعلى الإنساني واعتبرت الجسد الإنسانى فضيلة لو أحسن تربيته وتنميته لحصلنا على النموذج الأسمى، وأصبحت للآلهة اشكال بشرية بل وطبائع بشرية أيضا وأعطانا الفن نماذج إنسانية اختلفت عن كل ما سبقها خاصة في النحت، أما فى الفكر فكانت الفلسفة والشعر والمسرح هي من مظاهر نتاج عبقريات الأساطير الإغريقية .

الدين والفن

جاءت بعد الدين فى الحضارة المصرية الأديان السماوية حيث اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام وبعد الأساطير اليونانية وتعدد الآلهة، واقترابهم من السلوك البشرى بل والمثال البشرى وعبادة الجسد الإنساني والاقتراب من محاكاة الطبيعة والانغماس فى اللذات الديونزايسية. وجاءت الأديان السماوية الثلاثة تباعا واشتركت فى الأخلاق الأساسية التى تجعل الجنة للأبرار والنار لمن يفسدون في الأرض ويتبعون ملذاتهم الحسية والجسمانية .

ولابد أن نلاحظ منذ البداية رفضى لذلك الاصطلاح الخاطئ ونسبة الفن إلى الدين فمن وجهة نظرى الشخصية أن ما يطلق عليه الفن القبطى ما هو إلا فن مصرى فى الفترة القبطية وما يطلق عليه الفن الإسلامي فى مصر هو فن مصرى فى الفترة الإسلامية فإذا كانت الايقونات الكنسية تنتسب إلى الدين فما هى علاقة الأزياء المصرية فى ذلك الوقت وما علاقة التحفة الفنية للراقصات على النسيج الرفيع وهلم جرا، إذن لنتفق أن نسبة الفن إلى الدين ليست من طبائع الأمور.

ولنلاحظ : تحريم رجال الدين فى مختلف الأديان وفى فترات بعينها بعض الإنتاج الفنى، منعته بل حرمته تحريما مثلما فعل بعض رجال الكنيسة الارثوذكسية الشرقية من تحريم لأى نحت أو سطح به تجسيد مثل النحت البارز أو الغائر، وهذا يجرى حتى الآن.

حرم بعض رجال الدين الإسلامى وفى فترات بعينها كل التصوير التشخيصى بينما هناك اجتهادات لبعض رجال دين آخرين لا تحرم الفن بل إن الشيخ مصطفى عبدالرازق وهو أحد شيوخ الأزهر الأفاضل له كتابات عن فنانين تشكيليين، ولدى نص منشور له عن فنان يدعى «هيلبير غارو» كان يعيش فى مصر من (١٩٢٦ - ١٩٦٢) أثر هذا المنع بشكل أو بآخر رغم أننا سنجد فى تاريخ الفن الايرانى فى العهد الإسلامى رسوما تشخيصية كثيرة وقد اشتهر الواسطى برسومه لكليلة ودمنة وأعمال أخرى كما أننا سنجد الإسراء والمعراج ونورا بدلا من وجه الرسول عليه السلام وهلم جرا .

من أجمل منجزات الفن المصرى فى الفترة القبطية: الايقونات القباطى والنسيج الحفر الغائر على الخشب والحجر، وبورتريهات الفيوم ذات التحقق الفنى العالى فى فن رسم الوجوه .

عظمة التجريد والرسوم النباتية المصاحبة للخزف فى الفترة الإسلامية سواء فى مصر أو بلاد الشام وتطور العمارة فى مصر والمشرق والعراق. وصول الزخرفة إلى آفاق كانت المثيرة والملهمة لما يطلق عليه الآن الفن البصرى وخير أمثلته اجام وفازرلى الخ. المسيح ومماته وصعوده خاصة فى عصر النهضة



وخير مثال أعمال رفائييل ومايكل انجلو، الدين موضوع للفن لكن الفن ليس دينا ولا يمكن أن يكون ، وقد قال البعض عن رسوم مايكل انجلو إنها أعمال ذات حس بشرى وفنى .

عصر النهضة

يأتى عصر النهضة ليدعم اكتشاف مثاليات الفن اليونانى ويكشف لنا عصر النهضة واحدا من أهم منجزات الفن الغربى وهو المنظور البصرى الفوتوغرافى كما أحب أن أطلق عليه وأصبح التجسيد ومشابهة الطبيعة والنقل عنها ومحاكاتها بحسنات هذا الاتجاه وعيوبه هو أهم ملامح الفن فى ذلك العصر عصر الاكتشافات العلمية والخروج من ظلام العصور الوسطى الغربية المظلمة، عصر العباقرة الذين يمتلكون نواصى العلم والأدب والفن فى آن واحد وخير مثال هو ليوناردو دافنشى. ويصبح للفنان الفرد وجود وينتسب إلى عبقرية الفنان الفرد أهم المنجزات، الاستاذ والتلاميذ العاملون وفق أسلوبه حتى يتميز أحدهم فينفصل بأسلوبه الخاص ويصبح له تلاميذ .

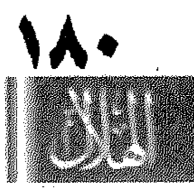
ولنلاحظ معا رحلة الفن حيث كانت الجماعة التى تتكون هى الهادية فى الفترات الأولى ثم الدولة المركزية فى الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية ثم المعابد ورجال الدين وننتقل هنا إبان عصر النهضة إلى ظاهرة جديدة يجب الالتفات اليها وهى دخول العائلات الاقطاعية كراعية للفن تتقاسم مع الكنيسة الاشراف على الفن ورعايته .

وولدت البشرية فنا ذا اتجاهات فردية، كلما تميزت شخصية الفنان الفرد علا شأن العمل الفنى وأصبح للفنان حق أن يعتبر أحد الشخصيات العبقرية الملهمة التى ينظر إليها المجتمع بكل التقدير وازداد انفصال الحرف الفنية عن الفن الذى أصبح له المنزلة الأعلى مقارنة بالمهن والحرف .

وأصبح عصر النهضة والذى كانت إيطاليا هى الدولة التى تكاد تكون هى الأم الشرعية لعصر النهضة والذى تأثرت به كل أوروبا ، وكان عصر الأحياء الذى منه ولدت الحضارة الغربية الحديثة وبعد سبعة أو ثمانية قرون نرى ما كان أحلاما قد تحقق بعضه وما كان خافيا من سلبيات أصبح الآن واضحا كل الوضوح بعد أن وصلت تلك الحضارة إلى أوج ازدهارها فنيا، ومع القرن الـ ٢١ سنرى كيف أن حضارة تتبنى الانجاز القوة القدرة» وحدها ستصل إلى موت الأسطورة وموت الأدب واللافن وهى مؤلفات نتداولها الآن .

الطبقة الوسطى والفن

ظل الفن لقرون طويلة خادما فى بلاط العقيدة فى المعبد والدولة ثم الاقطاع والكنيسة ثم تحدث أكبر الثورات حيث ولدت الطبقة الوسطى بفضل الاكتشافات الصناعية وتحول المجتمع الزراعي الإقطاعي إلى مجتمع صناعى والذى بفضله تكونت أهم طبقة وسطى قادرة على الحياة المستقلة بعيدا عن رعاية الأمراء وأصحاب الألقاب، طبقة استطاعت الاستقلال بل وأصبحت أكبر طبقات المجتمع فإذا كان الكهنة والحكام والإقطاعيون أفرادا معدودين، هنا انقلبت كل الموازين والمعايير بفضل تلك الطبقة المتوسطة الجديدة والتى بالتطور أصبحت قادرة على استهلاك



الفن وتغيرت طبيعته وطرق انتاجه ذاتها وأصبح أكثر ديمقراطية واقترابا من الفرد انتاجا واستهلاكا وكما أن ذات الفنان وجدت تقديرا خاصا فى عصر النهضة تطور الأمر هنا وأصبح الفنان الفرد أكثر قدرة على التعبير عن ذاته فى الفن بعد أن كان مرتبطا فى عصر النهضة بمواضيع ظل لها ارتباط إما بحكايات الأناجيل أو بعض الأعمال التى يمكن أن يطلق عليها مواضيع تخص الجماعة .

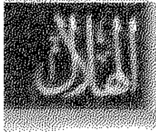
لكن الثورة الصناعية ولدت فنا أكثر شعبية من ناحية همومه ومن يعبر عنهم وأكثر ذاتية وأصبح لأول مرة فى التاريخ من حق الفنان أن يعبر عن مخاوف ذاته وأحلامها وكوابيسها. بالطبع لم يستقر هذا مرة واحدة بل وجدنا فى بعض الحقب الحنين والعودة إلى المواضيع حتى فى استعارة مواضيع الاساطير القديمة بل وبعض أبطالها أيضا لكن الأمر استقر فى النهاية رغم كل محاولات الحنين والعودة إلى الماضى التى ظلت مستمرة حتى القرن التاسع عشر حين ولدت أهم إنجازات العبقرية الفرنسية ممثلة فى المدرسة التأثيرية.

ويلاحظ أن الثقل الفنى انتقل إلى باريس بدلا من روما التى ظلت مسيطرة على فن أوروبا لأكثر من قرن بعد عصر النهضة وكان للفنانين الإيطاليين نصيب الأسد فى الأعمال التى تتم فى القصور الأوروبية .

مع الثورة الصناعية ومع وهج التأثيرية انتقل الثقل كلية إلى باريس . مع اكتشاف تحليل الضوء ولدت التأثيرية وكأن إحداهما بشرت بالأخرى. مع تفسير الأحلام ولدت السوريالية وكأن إحداهما بشرت بالأخرى. مع الحروب العالمية ولدت وترعرعت الدادا.

وإذا تتبعنا هذا المنهج لأمكن القبض على مظاهر وظواهر الارتباط بين العلم - الناس - الفن وأنا قد قصدت كلمة الناس بدلا من المجتمع عمدا ومع سبق الاصرار خوفا من ذلك الربط الميكانيكى الأيديولوجى الذى ساد لكثير من الوقت وساهم فى تبسيط مخل واستسهال ويلاحظ أن الفنان احتفظ بهالة من التقدير فى المجتمع كفرد خلاق لكن لم تصل المسألة أبدا إلى اعتباره عبقريا كما حدث فى عصر النهضة وحتى هذه الهالة من التقدير والاحترام بل وشراء أعماله كانت دائما تأتى للفنان بعد طريق طويل من المعاناة والإصرار وصل أحيانا إلى موت بعض الفنانين كمدا وفقرا وكان هذا شيئا من العذاب قبله الفنانون فى مقابل انعتاقهم من الاتباعية وحصولهم على الحرية وقبلوا مشقاتها عن طيب خاطر .

نازع الفنان على حريته السلطة فى بعض الحالات وبعض السلطة فى الحالات الأخرى، وللنظر إلى تبنى الاتحاد السوفيتى نظريات الواقعية الاشتراكية والتى لم تكن حقا واقعية إلا فى أعين موظفى الحزب ذوى العقول الضيقة بل هى كانت أقرب إلى الطبيعية من ناحية الشكل والدعائية من ناحية الهدف وهنا حل الحزب أو عادت الدولة مرة أخرى إلى الإملاء وعاد الفنانون إلى الاتباع. من الغريب واللافت للنظر تتطابق نتائج هذه السيطرة مع المنتج الفنى الذى أنتج بناء على دعم روزفلت للفن بعد انهيار اقتصاد أمريكا فى الثلاثينات وتطابق أيضا مع بعض نتائج الفن إبان الفترة الهتلرية التى مجدت الشخصية الرياضية الصحية



والتى تتشابه فيها الفتاة مع الشاب ولا يحمل تاريخ الفن أسماء هؤلاء الفنانين.

لكنه سيذكر هؤلاء الذين طاردهم هتلر مثل كل كبار فنانى الفن الحديث فى ألمانيا أو مدرسة الباو هاوس والتى هاجرت إلى أمريكا وسيذكر تاريخ الفن كاندينسكى وشابال اللذين كانا قد حلما بتحقيق أحلامهم الفنية فى روسيا بعد الثورة .

بنى كاندينسكى ٢٦ متحفا بكل مدينة وغطى شابال حوائط مدينته برسوم حائطية وكان يريد للفن أن يصبح شعبيا انتاجا واستهلاكا لكن الموظف الحزبى الذى اعتبر أن بناء كوبرى أهم من بناء متحف طاردهم وأمثالهم .

قال هتلر عن الفن الحديث : إنه منحط وقال عن فنانيه : إنهم أعداء الشعب طاردهم بحرق الكتب وبيع أعمالهم بملاليم فى مزاد كبير بسويسرا جعل عليهم من المتعذر بيع أعمالهم لسنوات بعد ذلك.

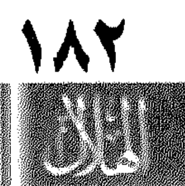
ومع كل هذا وغيره كثير حصل الفن على حريته وحصل الفنان على حريته وما أغلاها من حرية للفن والفنان .

مع استقلالية الفنان وقدرة بعض أفراد الطبقة المتوسطة اقتناء الأعمال الفنية (تفتت اللوحة) وبالطبع الكلمة صادمة لكن تعالوا نستطلع ونشاهد ما حدث ، كانت اللوحة الجدارية فى المعبد أو الكنيسة أو القصر تستغرق سنوات من عمر الفنان لإنجازها يراها الآلاف من البشر لكن ومع الاقتناء الخاص فى المساكن الخاصة لا يرى اللوحة إلا العشرات بدلا من الآلاف بالطبع ستصبح الأحجام صغيرة بحيث تتلائم مع المسكن الصغير والقدرة الشرائية الصغيرة والجمهور الصغير أيضا حينئذ استبدلت اللوحة الجدارية بمئات اللوحات صغيرة الحجم تنويعات على الفكرة التشكيلية الواحدة مما أثرى المنتج الفنى ببحث الفنان عن إمكانات الفكرة الواحدة والتيمة الواحدة وخير مثال على ذلك بيكاسو فى أوروبا والعبد لله فى مصر حيث مجموعة زهور المحاكاة تكاد تبلغ الألف لوحة تلك المجموعة الآن .

لكل عصر ما يعبر عنه أو ما يميزه أو مالا نراه فى عصر تاريخى آخر أليس كذلك؟

القرن العشرون

قيل فى العلم أن القرن العشرين وحده قد حقق اكتشافات علمية تساوى ما أنتجته البشرية فى عشرين قرنا ويكاد يكون هذا ما حدث بالفعل فى الفن أيضا كانت نهاية القرن التاسع عشر هى فترة التأثيرية بلا جدال حطمت القديم وأثمرت روائع كان للتأثير الضوئى فيها موضع البطولة والصدارة وتميزت اللوحات باهتزازات الضوء واللمسات والتى تكون قد أدت إلى فقدان اللوحة لبعض تماسكها ورصانتها وجاء سيزان ليأخذ منجزات التأثيرية ويعيد للوحة تماسكها وقيل وهم على حق أن سيزان «اب » للفن الحديث فتح الباب وتبعه الجميع. وأطلعنا على عشرات المدارس الفنية نلهث فى محاولة تتبع تخلقها واحدة بعد الأخرى قبل أن يكون الجمهور قد هضم اكتشافات مدرسة فنية سنصرف عنها الفنانين إلى غيرها هكذا كانت التأثيرية قد ولدت خلافا تراوح بين رفضها المطلق لدى البعض لكن الذائقة الجمالية تغيرت حقا بفضل البعض الآخر الذى أقبل على التأثرية



انتاجا ودعما وتبشيرا نقديا. مع بداية القرن كان كل من سيزان، «فان جوخ» و«جوجان» يبحثون عن الاعتراف بفنهم . كانوا يعتبرون حفنة من الطليعيين ولم تكن تلك صفة إيجابية كما تحمل الكلمة من ظلال الآن. تصدع البناء المتسق بفضل ولادة التعبيرية فى ألمانيا وأثمرت جهود التأثيرية فى فرنسا والتعبيرية فى ألمانيا لتغيير إلى مجهول ولم يعد الفن إلى الوراء مرة ثانية. بيكاسو يحقق شهرة مدوية وهو فى الـ٢٦ من العمر بعد حياة عوز وفاقة مع زملائه الموهوبين والذين سيأتى ذكرهم كركائز لفن القرن العشرين.

ولنلاحظ :

تحطم كل صرامة وتماسك الماضى.

نهاية الفن المرتبط بالتاريخ والأحداث التاريخية، وكانت النيوكلاسيك هى آخر نبضات هذا الفن . نهاية فن التظاهرات الضخمة .

الطليعيون لن يحرموا أنفسهم أبدا من طرح «السؤال» كأننا نعود إلى بدايات تخلق الأسطورة ، أقول كأننا!! كاندينسكى يحقق أول لوحة تجريدية عام ١٩١٠، ويصرخ قائلا : إن تفتت الكرة يعبر حقا عما يحدث الآن فى هذا العصر.. فليتحلل اليقين وليحل محله الشك. الفنان أصبح جزءا من الطبيعة وكان هذا جديدا على الفن الغربى الذى حاكى الطبيعة والموديل الانسانى سواء فى الفن اليونانى أو عصر النهضة وما تلاه .

بول كلى يكتشف قوانين النمو فى النبات وهو يرى – وله الحق – فى أن الفنان اقترب هكذا من الطبيعة أكثر من محاكاتها الظاهرية قارن ظهور المحاكاة فهى فى صلب ما يتحدث به بول كلى فى مقابل أعمال جورجيا أو كيف التى تتركز على نقل الطبيعة الظاهرى رغم أننا نعمل فى موضوع واحد. أنا وهى ولكن شتان بين الرؤية الفوتوغرافية لديها، والتأليف الموازى لدىّ. السوريالية والبحث عن الفضيحة والخفى بدلا من جمود الواقع المعاش .

قرن التحدى والجرأة والاقتحام

شامب يرسل مبولة على قاعدة نحتية تحت عنوان «نافورة» . الفنان كريستو يرسم لوحة بعرض ٤٠ مترا على حائط سيزال . سقوط الفن وإلغاؤه. تقديس حرية الفنان إلى آخر المدى. أعمال عظيمة تتجاور مع أعمال لا قيمة لها.

قرن حافل بالهدم كما هو حافل بالبناء باليأس والأمل بالعدم والوجود حربان عالميتان دمرتا الكثير .

أطلق على القرن السابع عشر فى أسبانيا القرن الذهبى لكن القرن العشرون كان حقا أكثر ثراء فى ناحية وأكثر انحطاطا وفقرا .

١٩٠٥ ولدت الوحشية والتعبيرية
١٩٠٨ ولدت التكعيبية
١٩١٠ ولدت التجريدية
١٩١٨ ولدت الدادا.
١٩٢٤ ولدت السوريالية
١٩٤٨ ولدت الكوبرا.

سأكتفى بهذا القدر من المدارس من اعتناء آخر ونص آخر فى اقل من نصف قرن ولدت ست مدارس رئيسية غير بعض الاتجاهات والأعمال الفردية مثل عمل روسو مثلا أو أعمال موديليانى وآخرين كثر.

قرن الأسماء الكبيرة ولنذكر منها:

بيكاسو / براك / كاندينسكى/ميرو / ماتيس/ سيزان / ماليفتش / موندريان/ فرنان ليجيه / ديلوناى/ دوفى



/ سوتين / دالى .

ولاننسى أن فى القرن ولد الاهتمام بالفن التشكيلى مرة أخرى بعد انقطاع دام قرونا، حيث زاد الاهتمام بالحرف الفنية وأصابت من الرقى وارتفاع المستوى شأوا، لكن ولد الاهتمام بالفن التشكيلى فى مصر ثم فى البلاد العربية، ويمكن اعتبار القرن العشرين عن حق هو قرن التشكيل العربى والمصرى والحديث .

رواد ولدوا كبارا فأعمالهم لايمكن أن تعتبر بدايات متعثرة وهذه ظاهرة تحتاج إلى دراسة وتمعن .

مختار / راغب عياد / محمد ناجى/ محمود سعيد أصحاب الانجازات الكبرى حقا، ثم يوسف كامل وأحمد صبرى المقلدان للغرب بلا إضافة رغم براعة أحمد صبرى، لكن ! التقليد لا يعطى فنا .

وتلى تلك المجموعة مجموعة ثانية من الموهوبين، وولد العقل التشكيلى والنص التشكيلى أيضا ولأذكر أسماء الكبار وهى الأسماء التى تكتب التاريخ.

حامد عبد الله : مصرية رافضة وتمكن وقدرة تصويرية فائقة . شخصية فارس يناطح الجميع كما يناطح الضحالة .

رمسيس يونان : العقل التشكيلى الموسوعى الثقافة، يختلف عن كثير من أبناء جيله الذين ينظرون إلى الثقافة بعين الريبة كما لو أنها نقيصة فى الفنان يضيف إلى التجريد جديدا وهو ما أطلقت عليه «أنسنة التجربة» .

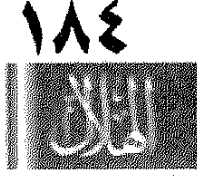
فؤاد كامل والتجريد الشاعرى المتدفق حسيا بعد فترة سوريالية لم ينجز فيها بقدر ما أنجز فكريا مع رفيق عمره رمسيس يونان .

الجزار : عبقرية انتجت أهم أعمالها فى العشرين من العمر كالمجنون الاخضر والشيخة وإلى آخر تلك المجموعة المهمة من الأعمال ذهب إلى إيطاليا وعاد لينجز اعمالا لاتمت إلى موهبته السابقة ابدا ولاتقارن بها. احتكاك سلبى بالغرب .

حامد ندا: رفيق الجزار والذى استمر حتى نهاية حياته مخلصاً لسوريالية تقاسمها مع الجزار فى الفترة الأولى للجزار وبقى حامد مخلصا حتى الرمق الأخير .

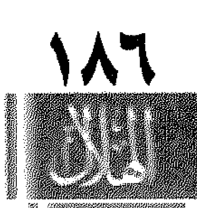
كمال خليفة : شاعر الحركة التشكيلية، الشجن فى أصفى تجلياته التشكيلية، رحل ذلك المريض بداء الصدر بعد شجاعة فائقة فى المواجهة مع المصير المقرر سلفا نحاتا فى البداية بأعمال فائقة الحس والجمال ثم تحول إلى التصوير كلية حين اشتد به داء الصدر فاعطانا زهورا ولا أجمل وبورتريهات وثنائيات لن تنسى .

تلك هى الأسماء التى انحاز إلى إنجازها المتفوق حين يكتب تاريخ الحركة التشكيلية ، الحق سيكون لهم الصدارة فقد تركوا لنا بصمات لن يمحوها الزمن أذكركم بأننى لست مؤرخا يلتزم بذكر الجميع أو ناقدا يحاول المحافظة على ما يطلقون عليه الموضوعية بل أنا أكتب من موقع الفنان المنحاز وسيكون دائما بكتاباتى شطط الفنان وجنونه وعقله أيضا ، وهناك الكثيرون من المبدعين لم تذكر أسماؤهم رغم اهمية الإنجاز، فالتدقيق والتوثيق مهمة أدعو إليها القادرين عليها، ولكننى استدعى بعض الأمثلة التى تؤكد أو تساعد على فهم ما أود التعبير عنه . ■




g. de Chirico

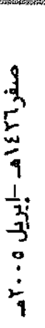
فتحات مقابر بنى حسن المنحوتة فى الصخر !!



مقابـــر



بقلم وعدسـة : د.عثمـان حســن إبراهيـــم





مقبرة خنوم حتب وفيها رسوم لصاحبها وهو يصطاد الطيور بالعصا المعقوفة ..

لو أتيحت لك زيارة مقابر بنى حسن الصخرية ، فلا بد أن تستولى عليك لحظات من الإبهار والإعجاز ، وقد لا تصدق أن هذا العمل قد تم تنفيذه منذ أكثر من أربعة آلاف عام ، عندما كان العامل يفتقد أبسط أدوات قطع الصخور ، وقد تصدق بعض من يعزو هذا العمل إلى الجن المسخر بسحر القدماء.



قد تتوقف أمام الإبهار الهندسى ، فهذه قواعد هندسة الإنشاءات تطبق ليس عن طريق الخرسانة ولكنها بنحت الجبال ، فلا تكاد تصدق أن هذه الكمرات قد شكلت فى قلب الجبل، وإن صدقت ذلك فكيف السبيل إلى التصديق بأن هذه الأعمدة وتلك الأساطين قد نحتت من نفس صخور المقبرة وفى مكانها ، قد يخيل إليك أنه قد تم تشكيلها خارج المقبرة ثم أرسيت فى موضعها ، ولكن هناك شاهدا ، فما تحطم من هذه الاساطين يثبت أنها قد نحتت فى نفس كتلة الصخر ، ويريد المصرى القديم أن يضاعف من إبهارك فلا تتشابه الأساطين بل تختلف فى أشكالها فمنها ما هو أسطوانى وما هو على شكل حزم البردى.

عندما تثوب إلى رشدك فلابد أن تقف أمام إعجاز آخر لا يقل روعة وبهاء عما سبق ويتمثل فى دقة وجمال حوائط المقبرة بألوان مازالت تحتفظ بجدتها ورونقها ، وقبل كل ذلك بذوقها ورهافة حسها.

إن المصرى القديم كان يعتبر الحياة الدنيا مجرد مقدمة لحياته الأخرى حيث يخلد فيها ، فعمل كل ما استطاع ليضمن لنفسه الخلود بخلود دار البقاء ومكان البعث والنشور ، وهذا ما رآه الكاتب الألمانى «أدولف ارمان» فى مؤلفه عن ديانة مصر القديمة فقال «لئن كان الشعب المصرى يختلف فى شئ عن غيره من الشعوب فإنما ذلك فى العناية التى كان يوجهها إلى موتاه ، فقد كان اليهود أو الإغريق لا يتحدثون كثيرا عن مصير موتاهن ، بل لقد كانوا يتحرجون من الحديث عنهم ، على حين كان المصريون يفكرون فيهم بغير انقطاع ولا يدخرون وسعاً فى العناية بهم والاهتمام بشعائرهم كما كانوا يودون ألا تفنى ذكراهم».

تطور المقابر فى مصر القديمة

يقول الأستاذ عباس العقاد فى كتابه «الله»، «ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات» ، يصدق هذا

أحد الأساطين بمقبرة خيتى .. دليل متجدد على مهارة المصرى القديم

القول على ما حدث لمقابر المصرى القديم من تطور مع تطور عقيدته وصناعاته ، ففى بداية التاريخ الفرعونى كان يكتفى بحفرة فى الأرض توسد بها جثة المتوفى ، ثم أصبحت هذه الحفرة تبطن بالطوب وتغطى بالنباتات مما يحول بين الجثة وبين الحيوانات الضارية ، فلما ترقى الإنسان المصرى القديم فى عقيدته وظهر اهتمامه بالحياة الأخرى أقدم على بناء ما يعرف تاريخيا باسم (المصطبة) وقد أخذت اسمها من البناء الذى كان يقيمه الفلاح خارج بيته للراحة والسمر مع جيرانه ومعارفه ، فكان الدفن يتم تحت الأرض وتحفظ حاجيات المتوفى فى المصطبة التى تبرز فوق سطح الأرض ، وكان الوصول إلى مكان الدفن يتم عن طريق بئر رأسية ، هناك مثل معروف فى مصر يأخذ شكل الأحجية حيث يقول أحدهم للآخر : هل فيك من يكتم السر ، فيرد عليه الآخر : فى بير. ويعزو البعض هذا المثل إلى بئر الدفن حيث كانت تمثل سر مكان جثة المتوفى والتى كان أهل الميت يجتهدون فى إخفائها عن أعين اللصوص وأيديهم وكذلك عن الأعداء من البشر والحيوانات .

كانت الانتهاكات التى حدثت لمقابر القدماء خاصة بعد الأسرة الرابعة تتطلب من المصرى القديم زيادة فى الاحتياط للحفاظ على مقابرهم سليمة ، صحيح أن المصرى القديم استخدم مواد أكثر متانة وتفتق ذهنه عن كثير من الحيل لإبعاد اللصوص عن أجداثهم ، إلا أنها كانت فى نظره دون ما يأمل فى تحقيقه ، لذلك طور نظام المصطبة إلى ما يعرف بالمقابر الصخرية.

المقابر الصخرية

نشأت المقابر الصخرية بنحتها داخل الجبل ، وقد منحت هذه الطريقة للمصرى القديم قدرا أكبر من الأمان ، انتشرت هذه المقابر فى كثير من البلاد المصرية وخاصة فى الوجه القبلى ، فكانت هناك مقابر فى الجيزة وطهنا ووشاشة والشيخ سعيد ودير الجبراوى ومير وأسوان وبنى حسن وهى التى نخصها بهذه المقالة .

قامت المقابر الصخرية غرب النيل فيما عدا مقابر بنى حسن فقد أقيمت فى الضفة الشرقية



للنيل وبحذائه.

تقع مدينة بنى حسن فى محافظة المنيا وتبعد ٢٧٧ كم جنوبى القاهرة ، وكانت هذه المنطقة تعرف بالإقليم السادس عشر حيث كانت مصر مقسمة فى وقتها إلى ٢٢ إقليما أو مقاطعة وكانت تسمى (اقليم الغزال) ، يبلغ عدد هذه المقابر فى هذا المكان ٣٩ مقبرة ، معظمها تعود إلى حكام وأمراء هذه المقاطعة .

ترجع مقابر بنى حسن الصخرية إلى الدولة الوسطى التى تشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢٠٤٠ - ١٧٨٥ ق م) ، اتجه الأمراء والحكام إلى إقامة مقابرهم فى أقاليم حكمهم منذ نهاية الدولة القديمة (٢٧٨٠ - ٢٢٨٠ ق.م) بعد أن كانوا يقيمون مقابرهم فى ناحية إقامة الملك لمقبرته ، ثم تحولت إلى عادة فى عصر الانتقال الأول (٢٢٨١ - ٢١٣٤ ق.م) وصار الوضع على هذا النهج فى الدولة الوسطى (٢١٣٤ - ١٧٧٨ق.م).

عندما ضعفت الحكومة المركزية فى منف فى أواخر العهد القديم زادت سطوة ونفوذ حكام الأقاليم ، فأعلنوا الاستقلال عن الحكومة وكانت بنى حسن أول مقاطعة تعلن استقلالها.

تظهر فخامة هذه المقابر ما كان عليه حكام الأقاليم من ثراء وسطوة وقوة شكيمة ووصل الأمر بهم إلى أن أصبح الحكم وراثيا بين أبناء حكام المقاطعات.

تم القضاء على ملك اهناسيا فكان ذلك مقدمة لتوحيد مصر للمرة الثانية فى تاريخها وكان أيضا بمثابة الإعلان عن انتهاء فترة استقلال حكام الاقاليم عن الحكم المركزى ، ومن خلال حكم سنوسرت الثالث (١٨٧٩ - ١٨٤١) أسدل الستار على فترة حكام الأقاليم.

إذا كانت هذه المقابر تشهد بما كان لحكام الاقاليم من سلطات ، فإن انتهاء هذه الفترة هو خير دليل على قوة وصلابة الملوك الذين وضعوا حدا لهذه الفرقة والشتات بين أقاليم مصر..

مكونات المقابر الصخرية

مرت المقابر الصخرية بالعديد من المتغيرات شأنها شأن أى منشأ معمارى ، فلا يظل على حاله إنما يخضع للكثير من المتغيرات سواء

صورة مكبرة
لرحلة خنوم
حتب للصيد ،
ويظهر جزء من
باب الهيكل



صورة لعمليات
الصيد واستخدام
الكلاب وكثير من
أنشطة الحياة
الفرعونية فى زمن
الأسرة الثانية
عشرة

كانت اجتماعية أو معمارية أو تغير من المواد المستخدمة فى البناء أو تطور الآلات والمعدات ذات الصلة بالإنشاء ، وكما سبق ذكره فإن المقابر الصخرية قد بدأت منذ الأسرة الرابعة ولحقها الكثير من التغييرات على مر الزمن ، ابتداء من الأسرة الحادية عشرة لوحظ تطور جديد مثل تقسيم القاعة إلى قسمين ، كما سنرى فى مقابر بنى حسن ، أما جميع ملامح الدولة الوسطى فقد أخذت سمتها فى الأسرة الثانية عشرة .

من أهم ملامح المقبرة فى الفترة الأخيرة تقسيم القاعة إلى ثلاث حجرات عن طريق إقامة أساطين أو أعمدة تصطف فى خطوط متوازية كما سنرى فى بعض المقابر التى سيرد ذكرها ، كما أن هناك تطورا آخر قسمت فيه المقبرة إلى فناء ورواق وقاعة رئيسية ومقصورة.

لا تخلو مقبرة من وجود بئر أو أكثر فى أرضية القاعة يؤدى إلى مكان الدفن حيث إن الدفن هو السبب الأساسى من إقامة المقبرة ، تختلف المقابر فى عدد هذه الآبار ، هناك مدافن تحتوى على الباب الوهمى وكانت له أهمية حيث تقدم أمامه القرابين ويؤدى الكهنة صلواتهم ، كان الباب الوهمى فى اعتقاد المصرى القديم هو الباب الذى تدخل منه الـ (با) لتعيد الحياة إلى صاحب المقبرة ، قد تحتوى المقبرة أيضا على كوة يوضع بها تمثال لصاحب المقبرة.

تشترك معظم المقابر الصخرية فى احتوائها على رسوم حائطية ، ولا يستخدم فيها الرسم البارز ، إنما يتم على طبقة من الجص تدهن بها حوائط المقبرة ثم يجرى الرسم عليها ، وكان الرسم على شكل أشرطة وكان يُتبع نظام معين فى رسم هذه الأشرطة ، فالشريط العلوى مثلا يتم فيه رسم مناظر للصحراء أما مناظر الوادى فتحتل الوسط ويأتى النيل فى آخر الرسوم ، يكون الرسم بالألوان ويعرض فيه صاحب المقبرة للنشاطات العادية فى المجتمع وأصحاب الحرف المختلفة ، كما كان يذكر شيئاً من تاريخه وسجلا لأهم أعماله ومناصبه التى تولاها ، كما قد تحتوى الرسوم على صور بعض أبنائه.

سنحاول فيما يلى أن نقدم

عرضا مختصرا لبعض المقابر وهى التى يتاح حاليا زيارتها ، والتى وافقت مصلحة الآثار على فتحها أمام الجمهور.

مقبرة خنوم حتب الثانى

خنوم حتب الثانى هو أمير مقاطعة منعات خوفو (أى مرضعة خوفو) حيث يعتقد أن خوفو قد بدأ حياته فى محافظة المنيا ، وهو ابن لأمير مقاطعة الأرنب .

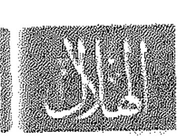
أبلى خنوم حتب الثانى بلاء عظيما فى حروب امنمحات الأول حيث كان قائدا فى حروب الفرعون ضد السود والاسيويين ، وقد ولاه امنمحات الأول هذه المقاطعة كمكافأة لما قام به ، وارتفع شأن خنوم حتب فى الأسرة الثانية عشرة ، وعموما فإن هذه الأسرة قد حكمت عدة مقاطعات مثل : ابن آوى والوعل والارنب ومنعات خوفو ، وظلت لها السيطرة حتى منتصف الأسرة الثانية عشرة حيث أذن لهذه السلطة أن تنحسر ويأفل نجمها نتيجة لانتهاء سلطة حكام المقاطعات واسترداد الفرعون لمصر الموحدة.

تمثل هذه المقبرة مع مقبرة امنمحات (أمينى) أهم مقابر مجموعة القسم الشمالى فى مقابر بنى حسن الصخرية ويعطى لها الرقم (٣) فى ترتيب مقابر هذه المنطقة.

تتكون المقبرة من رواق ومقصورة، بالرواق أسطونان عدد أضلاع الأسطون ستة عشر ضلعا ، وتحمل الأساطين السقف المقبى .

عند الدخول من الرواق إلى المقصورة تفاجأ بأن أعمدتها قد هدمت، ولم يتبق منها إلا جزء صغير من أحد الأساطين ، وتكاد المقصورة أن تكون على شكل مربع، بأرضيتها بئران للدفن . أما الهيكل فيوجد فى الحائط الشرقى

على الحائط الغربى رسم يبين عائلة خنوم حتب فى رحلتهم إلى أبيدوس وهى كلمة يونانية وتعنى (العرابة المدفونة) وتقع غرب مدينة البلينا بمحافظة سوهاج ، وكانت جبانة لمدينة (ثنى) التى ولد بها الملك (منا) مؤسس الأسرة الأولى وموحد الوجهين، وكان القادر من حكام الأقاليم يوصى أن تحج بجثته إلى ابيدوس لتقام له الشعائر ويؤتى له بما يتاح من هذه



المدينة من أشياء تدفن معه تبركا بهـــذه الزيارة ، وتتكرر صـــورة الزيارة إلى أبيـدوس على الحـائط الغربى مرة فى الجانب الشمـالى ومرة أخرى فى الجانب الجنوبى.

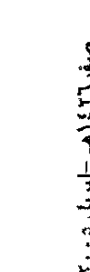
مقبرة امنمحات (أمينى)

استحـوذت هذه المقبـرة على إعـجاب علمـاء المصريات ورجـال الفن ، فـقـال عنهـا سليم حـسن «ليس شئ يعـادل مـقبـرة (أمينى) المتناسبة الأجزاء الرائعة التركيب بما فيها من أعمدة جميلة من كل ما كشف عنه منحوتا فى الصخور المصـرية فى الأزمنة التى توالت» أمـا الدكتور اسكندر بدوى فيقول عنهـا «يمكن اعتبار مقبرة أمينى أجمل مثـال فى المجموعة كلها – يقصد مقابر بنى حسن الصخرية

لا يقتصر الإعجاب بهذه المقبرة على المصـريين فقط بل يشاركـهم الأجانب فى هذا الإعجاب بل قد يزيد على إعجاب المصريين . دكتور هول استـاذ تاريخ الفن يقول عنها «تعـتبـر مقبرة امينى ببنى حسن كـشـفـا جـديدا للذين يسـتـمـدون معلومـاتهم عن الفن المصرى ، فلا يوجد مبنى مثل صالة مقبرة أمينى الكاملة فى نسـبـهـا» أمـا العـالم جيمس بيكى فكان من ضمن من وقع فى غرامها فقال عنها «لا يوجد فى المعمار المصرى إلا القليل الذى يمكن أن يضاهيها» .

إذا كـان سيـربل الدريد يقـول عن صور بنى حسن إن «التصوير فى المقـابر ذات مـستوى منخفض ومقاييس الصورة شاذة ومرسومة رسمـاً رديئاً، وكانت الموضـوعات متـزاحـمـة على الحـائط بدون أى اعتبار للتخطيط أو التـرابط بينها «إلا أن شــهادته هذه لم تمنعه أن يــردف الرأى السـابق بقوله «ومع ذلك فـهـذه المناظر الملونة تصــور الحياة اليومية تصويرا حيا بكل ما فيـهـا من صخب ، مع التـأليـفـات الفنيـة المنقولة عن مصـاطب الدولة القــديمة برؤيا جــديدة هى رؤيا الدولة الوسطى «ثم يستطرد معلقا على مناظر ألعـاب الأطفـال أنهـا «أصبحت أكثر اتقانا واحيانا نجده يقترب من الباليه» ، أمـا عن رأيــه فى مقـبرتى خنوم حتب وامنمـحات فهو يقول عنهما «تتميزان بالإبهار والتنـاسب الرشـيق.. وفوق ذلك كله نجـد الزخـارف الملونة بهـمـا من أجود وادق الزخارف» .

امنمـحـات هو أمـيـر مـقـاطعـة الغزال ببنى حسن وقد خلف والده



خنوم حتب فى عهد سنوسرت الأول (١٩٨٠ - ١٩٣٦ ق م) ، وكان أمينى أو امنمحات يفخر بأنه يدفع إلى بيت مال الفرعون كل سنة جزية من المواشى يبلغ عددها ٣٠٠٠ ثور من مقاطعته .

تتكون المقبرة من فناء ورواق ثم القاعة أو المقصورة ، الفناء كباقى المقبرة منحوت فى الصخر أما الرواق فيحتوى على أسطونين قرب مدخل القاعة ، الأسطون مثمن الأضلاع، يرتكز على الأسطونين عتب يرتكز فى نهايتيه على بروزين ناتئين من الحائط وسقف المدخل مقبى ويتم الدخول إلى القاعة عبر باب فى وسط الحائط الفاصل بين الرواق والقاعة ، أما المقصورة فهى مربعة الشكل وتقسمها الأساطين الأربعة إلى ممر أوسط وممرين جانبيين ، أحد الأساطين الغريبة من الهيكل محطم ولم يتبق منه إلا قطعة معلقة بالسقف أو أن شئت الدقة فمعلقة بعتب القاعة ، ومن باب صغير تدخل إلى الباب الوهمى والذى كان يتصدره تمثال لامنمحات ولكنه غير موجود حاليا ، وبالمقصورة بئران للدفن.

مقبرة خيتى

خيتى هو حاكم مقاطعة (الوعل) من الأسرة الحادية عشرة ، وهى من فترات ضعف الملوك الفراعنة وسيادة حكام الأقاليم وهو ما تم التخلص منه وإعادة السلطة المركزية للفرعون ، رقم هذه المقبرة (١٧) فى سلسلة مقابر بنى حسن الصخرية.

يتم الدخول إلى قاعة المقبرة عن طريق باب فى الجدار الغربى . بالقاعة صفان من الأساطين مكونة من ستة أساطين ، والأسطون يأخذ شكل حزمة اللوتس ، ويتكون جسم الأسطون من أربعة فصوص والجسم ملون بأشراطة وينتهى جسم الأسطون العلوى بتاج على شكل البرعم.

تعلو الاسطون عتبتان ترتكز نهايتهما على جزء من عمود مربع ناتئ فى الجدار تحتوى أرضية المقبرة على بئرين للدفن ، كما يوجد باب وهمى.

تتحلى حوائط المقبرة بالكثير من الرسوم ، والتى تمثل الأنشطة اليومية فى مصر القديمة ، وكذلك بعض حركات رياضة المصارعة وتصوير لبعض المعارك التى خاضها الجيش المصرى. ■

اغتيال

قصة
محمد جبريل

إلى المناضلة الفلسطينية
مروة جبر

لكزه الواقف إلى جانبه وهو يشير بامتداد ذراعه إلى المدينة فى أسفل

- أطلق الرصاص على أى شئ يتحرك ، ولا تشغلك النتائج..

وحدجه بنظره محرضة:

- هذه فرصة ممتازة للتدرب على الجسد الحى..

سأل فى دهشة:

- أقتل؟

- من تتردد فى قتله سيقتلك

ثم وهو يهز قبضته:

- لا مجال للتردد فى مواجهة الموت!

أسند البندقية على الساتر الرملى ، وتأمل المدينة فى أسفل ، الشارع الواسع ، المسفلت ، تتفرع منه شوارع جانبية البيت على اليمين - يفصله عن الساتر ساحة دائرية صغيرة ، على ناصيتها طابقان شيدا من الطوب الأبيض، وسقفه من القرميد الأحمر ، تسلقت لبلابة حافة النوافذ الخشبية ، العالية، وكست الجدران ، وصعدت إلى السطح ، تحت البيت دكان بقال يقف أمامه شاب فى حوالى الخامسة والعشرين ، يرتدى قميصاً طوى كميه ، وبنطلوباً من الجينز ، فى طرف الرصيف شجرة تين تساقط معظم أوراقها، لم يعد إلا الفروع الجرداء ، المتشابكة . يترامى - من بعيد - صوت سرينة إسعاف ..

معظم النوافذ وأبواب البيوت والدكاكين على جانبى الشارع المواجه - مغلقة ، أو تطايرت، البنايات مشيدة من الحجارة والطوب الرملى المتداخل بتكوينات من الخشب .

ثلاثة دكاكين فقط ظلت مفتوحة . البقال ، ومخبز ، وصيدلية ، ومقهى تجاوزت فى داخله كراسى ذات قيعان

مجدولة من الخوص ، حول طاولات قديمة مختلفة الأحجام ، رواده ثلاثة ، ثبتت عيونهم - من وراء النافذة الزجاجية المفتوحة - على بقايا البيت المتهدم، وولدان أمسكا بخيط طائرة ورقية ، يتابعان ارتفاعها فوق البنايات ، وإلى جوار الرصيف كومة زبالة ، تعبث فيها قطة ، والسماء ملبدة بالسحب ..

ظل المعركة التى دارت - قبل ساعات - بين الجنود والفلسطينيين المسلحين ، امتص حركة الطريق . المارة قليلون ، خلت الشوارع . تناثرت آثار المواجهة : دماء متخثرة على الجدران والأرصفة وفوق اسفلت الطريق ، طلقات رصاص فارغة، مزق ورقية متطايرة ، زجاجات ، علب صفيح وكرتون ، غيمات التراب - بفعل القصف - غطت واجهات البيوت ، كومات



الحجارة تناثرت أمامها ، تشى بأنها سقطت من فترة قريبة .

لم يشاهد المعركة ، وإن تابع تعليقات زملائه، رفض الفلسطينى أن يسلم نفسه . رآه الجنود وهو يقتحم الباب ويتركه - باللهفة - مفتوحاً . وقف الجنود والبولدوزر أمام البيت ذى الطوابق الثلاثة. علا صوت الميكروفون يدعو السكان إلى إخلائه. انطلق الرصاص من النافذة العلوية . دارت المعركة فى دقائق ، ثم تهاوت الطوابق الثلاثة . لم تذكر التعليقات إن كان من فى المنزل قد فازوا بحياتهم ، أم ماتوا بين الأنقاض ..

طالت مناقشات الضباط .. الأخذ والرد ، الأسئلة والأجوبة . هل من الأجدى فرض حظر التجول؟.

حسم القائد الأمر بالقناصة ، وتسيير الدوريات . وقفته - وراء الساتر- لإطلاق الرصاص على من يلمح، ولو مجرد سيره أمام البناية . إطلاق الرصاص بلاتردد . اصطياد من تلتقطه الشبهات سهل، إن أغلقت المدينة أبوابها على الفارين وظلت الأبواب مفتوحة وأطل الناس من النوافذ والشرفات وجلسوا على المقاهى وأمام الدكاكين وداخل البيوت..

أمر نقله من صحراء النقب إلى مدن الضفة الغربية ، فرض توقعاً طيباً . تصور فى الحياة

بين الناس ما يطرد الملل. يطل - فى وقفته - على صحراء ممتدة، اختلطت فيها الرمال ومساحات الخضرة والبنايات الصغيرة المتباعدة والمعسكرات . أربكته نظرات السكان العرب ، التقط منها مالم يستطع تحديده، وإن غاب عنها الود والألفة . لم يكن يستطيع أن يرد النظرات المتطلعة ناحيته، تحدق فيه ، تحاصره. حرص على ما ألزمته به الأوامر. كن قريباً من القوة لتحتمى بها . يشكل - داخل المدن - مجموعة مع جنديين أو ثلاثة ، يحتفظون بكامل الأسلحة ، يقيسون المسافة مع نقاط التفتيش والحواجز والعربات المصفحة والدبابات ..

تركت له الأوامر تحديد الهدف . يضغط زناد البندقية على ما يثير الريبة . يقتل قبل أن يستوضح ، أو يسأل أو يتأكد الأوامر الصريحة تساعده . لاتحدق فى ملامح من تصوب إليه . الشك يكفى للضغط على الزناد. هذا هو الهدف فاطلق رصاصاتك عليه ، لاتتردد ، إذا ترددت فى قتل عدوك، فسيبادر هو بقتلك . إما أن تتركه حياً، أو تفقد حياتك . ظل إسقاط المسئولية فى القتل الخطأ بلا معنى . قانون الحرب لا يعرف المشاعر الطيبة ..

ترامى هدير سيارة . بدت مقدمتها فى إنحناءة الشارع الجانبى . توقفت فى موضع محطة الباصات . خلفت عجوزاً يرتدى العباءة والعقال والكوفية الفلسطينية . أسند راحته على قبضة العصا جال بعينيه فيما حوله، كأنه يتوقع أحداً فى انتظاره . تأكد من إمساكه بالعصا جيداً ، وعبر الطريق إلى الشارع المقابل ..

أحس برغبة فى أن يسدد بندقيته إلى موضع ما ، أحد ما ، يضغط على الزناد . لا يرفع إصبعه . أصدر صوتاً من بين شفتيه : تك تك تك تظاهر بالضغط على الزناد ثم أرخى ساعده ..

هز رأسه يطرد النوم، فرك عينيه أغمضهما وفتحهما ، ثم أعاد النظر إلى الواقف بجانبه ، وإلى الطريق والبنايات أمامه..

تحسس البندقية وهو يرمق مسلحاً يعبر المسافة بين تقاطعات شارعين . قبل أن يلتقط البندقية من فوق الساتر، كان المسلح قد اختفى ..

قرب جهاز اللاسلكى من أذنه ، يستمع إلى اختلاط المكالمات والملاحظات والأوامر ، ربما يكون بينها ما يأمره بفعل شئ يحدد له الهدف الذى ينبغى أن يصوب إليه رصاص بندقيته أغلق الجهاز ..

ركز نظرته على الجسد الأنثوى ، يبين عن قسماته فى العباءة

السوداء ، قدمت من شارع جانبى ناحية دكان البقال..

خمن من تلويحة يد الشاب أنه ينتظرها ..

اطمأن - بنظرة جانبية - إلى زميله خلف الساتر الرملى قرفص فى إغفاءة بين جوالين ، اسند البندقية على الساتر أمامه ثبت النظارة المكبرة على مدخل الدكان . وقف أمامه الشاب والفتاة الحاجز الخشبى فوقه رخامة تحتل معظم مساحة الواجهة، ماعدا مساحة صغيرة سدت بباب ذى مفصلات ، ينفذ منها إلى الداخل..

مديده لها بالمصافحة. استبقى يدها فى يده ، وضغط عليها بكفه لما ربتت صدره بيدها ، حدس أنهما يعرفان بعضهما . ما يراه ليس أول لقاءاتهما .

تابع إشارة الشاب ناحية البناية المتهدمة . قال كلاماً كثيراً ، آضاف إليه تعبيرات يديه ، مرر جانب يده على رقبته دلالة الموت..

أزاحت العباءة عن مقدمة الرأس، فبرزت خصلة من شعرها . أظهرت التأثر فى إسناد ذقنها على قبضة يدها ، وإعادة النظر إلى المكان بعينين متأملتين ..

رفع الشاب رأسه وذراعيه إلى السماء، وقال مالم يتبينه، ثم مسح براحتيه على وجهه، قال الشاب ما فطن إلى معناه فى اتجاه نظرة الفتاة إلى الناحية المقابلة..

التفت - بتلقائية - إلى مصدر ترامى هدير سيارة مد عنقه وزوى عينيه . تبين عربة مصفحة ، بداخلها ضابط وثلاثة جنود . مالت إلى الشارع الجانبى أسفل الساتر الرملى، واختفت .. قرن الشاب كلماته بإيماءة إلى الدكان : هل يدعوها إلى الدخول؟

كان الدكان من الداخل معتماً ، لم يستطع تبين ما إذا كان خالياً

تحركت شفتا الشاب كمن يهم بالكلام ، ثم سكت . الزم صمتا واكتفى بالنظر إلى قدميه ، نبهته إلى أنه وضع زرار القميص العلوى فى العروة الثانية . اتجه إلى

الناحية المقابلة . تأكد من وجود الأزرار فى مواضعها ، وعاد إليها بابتسامة معتذرة ..

ظل صامتاً، وإن استحثته بنظرة مشجعة على الكلام.

شوحت بيدها ، وابتعدت خطوات . لحقها مد ذراعيه، أعادها إلى وقفتها أمام الدكان . أزاحت خصلة الشعر المتهدلة على جبينها ، وواجهته بنظرة متسائلة انتفضت لسقوط ورقة يابسة من فوق الشجرة . طفرتها بطرف إصبعها . تأملت نثارها على الأرض، وداست عليه .

خبط جبهته علامة التذكر . اتسعت ابتسامتها - رد فعل لما قاله - فتوضحت الغمازتان فى وجنتيها ، والتمعت اسنانها البيضاء . قربت فمها من أذنه . قالت ما أضحكه حتى ضرب ركبته ..

أخفضت عينيها ، فحدس أنه قال ما أربكها. أشاحت بوجهها حتى لا يفطن إلى ما قد تعبر عنه عيناها ..

لو يعرف ماذا يقولان؟ ماذا يقول لها؟ . ماذا تقول له؟ .التخمين صعب ، وإن حرك الشاب يده بما يشى أنه قال ما لديه ...

ظلت أصابعها على ظهر يده، كأنها استراحت إلى هذا الوضع . داعبت ظهر كفه بظفرها . عاد إلى احتواء أصابع يدها بين راحته ، يضغط عليها بآخر ما عنده وهى تضحك . وضعت سبابتها على شفتيه دلالة أن يصمت .. تظاهر بأنه سيعض إصبعها .احتضن الإصبع . ورفعه إلى شفتيه، وقبله تراجعت بأعلى كتفيها ، وأعادت خصلة الشعر المتهدلة بهبة هواء مفاجئة..

أحس بتوتر يتولد داخل نفسه ، لايدرك بواعثه وتملكه إحساس بالمحاصرة. لم يستطع السيطرة على انفعاله ، اختلطت المشاعر فى داخله . تداخلت . وتشابكت . غاب حتى إحساسه بالزمان والمكان . حاول أن يتجه بنظراته إلى أعلى، حتى يعود إلى نفسه..

كانت الشمس قد مالت نحو الغروب . انحسرت عن الأسطح وأعلى البيوت، وتقلصت الظلال ، تناثرت سحب كثيفة تشى بمطر وشيك ، ودارت أوراق الشجرة المتساقطة فى دوامة بتأثير الهواء المندفع من تلاقى الشوارع الجانبية..

تأكد من وجود رأس الشاب فى دائرة التلسكوب .. ضغط على الزناد . ■



بقلم
مرفت رجب

دواء.. البيت بيتك !!

يجب أن أكتب هذه السطور على عجل، فلو تأنيت لأحجمت عن الكتابة وامتنعت، على أساس أن أحدا منهم لايقرأ، هؤلاء الذين لو عرفوا، لأدركوا ماذا يخسرون والذين لايعرفون إلى من ينسبون البيت، وبالتالى ينتبهون لحقوق صاحب البيت، أم أنهم يتصرفون على أن البيت بيتهم وعلى الغرباء، أن يضربوا رءوسهم فى الحائط إن لم يعجبهم الكلام .. أكتب هذه السطور لأنبئهم .. أن خيط الرأس فى الحائط آت آت وأن حسبوا أن أمره عنهم بعيد!!

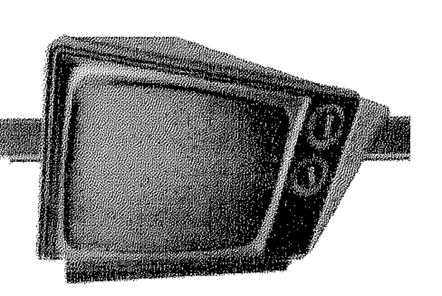
تقول لنا الوقائع إن خيط الرأس فى الحائط بدأ بالفعل وإن كابر البعض أو ظن أن ما يحدث لا يعنيه .. البيت بيتك .. برنامج يذاع حاليا على القناة الثانية فى التليفزيون المصرى .. وذلك فى إشارة عملية إلى نجاح الفكرة كما تم طرحها على القناة الأولى طوال أيام شهر رمضان الماضى ..

وكنت أحسب أن مجموع ساعات بث البرنامج فى ذلك الشهر كانت كافية ليأتى البرنامج بعد ذلك فى صورة تثبت لنا أنه خضع للمراقبة والتقييم المدقق، بحيث تأتينا النتيجة، وقد بنيت على عوامل القوة والنجاح، مستبعدة كل عناصر الضعف .. لكن مايحدث يلقى بظلال كثيفة من الشك على ما كان

راودنا من آمال ..



ظهر صوت الدكتور حمدى السيد عبر التليفون، يتحدث بكل وضوح وقوة، يبين حقيقة أوضاع الدواء المصرى، ويؤكد سلاسته من أى شائبة، وكذلك البراءة من تهم مغرضة تنسب إليه، رآها تؤثر بالسلب على حركة السوق عندنا، بل وعند آخرين فى الدول العربية والأجنبية التى تشترى الدواء الذى تنتجه مصانع الدواء المصرية، ولقد حاول المحاور الرئيسى - فى تلك الحلقة من البرنامج - وهو الصحفى الكبير الأستاذ سعد هجرس، وكرر المحاولة عند نهاية كل جملة نطق بها د.حمدي السيد باحثا عن سبيل لطرح ثلاثة أسئلة أراد أن يوجهها للدكتور حمدى السيد، لكن نقيب الأطباء فى مصر، يجمع إلى هذه الصفة مهمة أخرى لاتقل أهمية، هى مهمة السياسى المحنك، ولذلك فقد عرف كيف يأتى بكلامه ثابتا واضحا متدفقا لم يعط أى فرصة لمقاطعة، وإن كانت فى الموضوع .. يتضح للمشاهد أن الجو بدأ يتوتر، نستشعر ذلك من لهجة د.حمدى السيد، فهو يتكلم من موقع المسئولية، أو فلنقل إدراك مسئولية الحرص على منتج وطنى يستحق أن نصونه وندافع عن دوره الإيجابى فى اقتصاد البلاد بدلا من الإصغاء إلى ما يوجه إليه من اتهامات، يؤكد د.حمدى السيد أنها باطلة، ولقد أوجد التوتر إحساسا بالضيق، لم أفهم لماذا لايتركوننا نستمع لكل مايريد الرجل أن يقول، لماذا يستعجلونه؟ هل عندهم ماهو أهم من مثل هذا الكلام؟.. هل ترتب الحلقة فى فقراتها التالية ماهو أهم من موضوع الدواء وما يثار حوله من جدل؟ هل .. وقبل أن أفكر فى أى سؤال آخر فوجئت بالحوار على التليفون ينتهى، ليتوجه الاستاذ سعد هجرس بأسئلته الثلاثة إلى السيد نقيب الصيادلة الذى كان ضيفا على البرنامج وفى أقل من دقيقة سمعنا كلاما موجزا منه ومن زميل له لم يتمكن من توضيح ماالديه من كلام، فقد تكلمت المذيعة الجالسة إلى جوار الأستاذ سعد هجرس بما يشير إلى نهاية الفقرة. هكذا، والسلام، ظننت أن كل هذا الاستعجال جاء بدافع واحد وحيد، وهو أن وقت البرنامج انتهى .. ومع ذلك





تضايقت جدا، لأن معنى ماحدث لايتجاوز حقيقة تقول وتؤكد سوء الإعداد و سوء تقدير أهمية الموضوعات المختارة للحلقة، لكن المسألة لم تكن أبدا بهذه البساطة، فقد فوجئت بأن البرنامج لم ينته، نعم لم ينته .. كل مافي الأمر أنهم بعد الفاصل بدأوا في تقديم فقرة أخرى لاعلاقة لها من قريب أو بعيد بسابقتها، كل مافي الأمر أن المذيعة هي هي نفس المذيعة، وقد انضم إليها مذيع آخر اشترك معها في محاورة أحد الفنانين في فقرة نزلت علينا نزول السم الزعاف، لاطعم، ولا لون ولا معنى والسبب بسيط جدا، لأن الفقرة بدأت قبل أن نشفى من أثر الضيق الذي عانيناه ونحن نتابع عملية خنق وذبح فقرة شديدة الأهمية لعموم المشاهدين .. ماهذا؟ ماهذا بالضبط؟ لأ فعلا أنا أريد من يشرح لي مبرر هذا الاستهتار والسخف .. إن كانوا لايعلمون فها أنذا أقول لهم .. إن كنتم تعمدتم ذبح فقرة الدواء والتضييق على د.حمدي السيد في وقت الكلام فقد ضربتم عصفورين بحجر واحد .. ودعوني أنبئكم أولا بأمر العصفور الثاني، يعني إن كان قصدكم اقتصاد الوقت لصالح فقرة الفنان فقد سببتم له ضررا بالغا .. لأننا تضايقنا منه، ومنكم ومن البرنامج ومن الاستخفاف والعبث الذي تتصرفون به في برنامج تقولون إنه يذاع على الهواء، يعني لو كان هناك عاقل واحد لتصرف بالطريقة التي تتيح للمتحدثين على هذا المستوى الرفيع أن يكملوا مالديهم من كلام في موضوع يهم الملايين، أما الذين يصرون على إثارة غضب المشاهدين حرصا على تقديم فقرة مع فنان مختلف عليه فالواضح أن المسافات الفاصلة بينهم وبين الذوق والعقل تحتاج إلى حسابات أخرى ..

أما العصفور الأول فقد خرج سليما معافى، بل لقد زاد احترامنا للدكتور حمدي السيد، وزاد تقديرنا للجهد الذي بذله والذي بفضله نجح في التغلب على كل محاولات المقاطعة، وأثبت أنه وجه سياسي مشرف، يعرف معنى المسئولية، ويتحملها بكل شجاعة بالرغم من كل محاولات التعتيم والتضييق.

أصحاب البيت

يقول عنوان البرنامج .. البيت بيتك .. ومازلت أطرح السؤال، بيت من؟! إن كان قصدكم أن البيت بيت المشاهدين، فهذا طبعا هو الأصل، في كل أمر، يعني أن المفروض من الناحية النظرية أن الشاشة بكل ما فيها ومن فيها تعمل في خدمة المشاهدين، وذلك لسبب بسيط جدا وهو أن هذا التليفزيون مازال - من الناحية النظرية طبعا - ملكية عامة، ومازال الشعب هو المالك الفعلي للجهاز وهو الذي يتحمل مسئولية الإنفاق عليه ودفع رواتب العاملين فيه .. أقول إن هذا هو الأساس النظري، وإن كان الواقع العملي قد خلط الحابل بالنابل، وأدخل مكونا غريبا هو الإعلانات التي دخلت ومعها كل مكونات وخصائص العمل التجاري الذي يستهدف الربح بصرف النظر عن المضمون، أو فلنقل: إن النتيجة التي آلت إليها الأمور هي التضحية بالمضمون من أجل عيون الأرباح التجارية من عوائد الإعلانات ..

وإذا كان أمر الإعلانات قد صار معضلة يحار فى أمرها الحكماء والنتيجة لاشك مؤسفة، لأننا خسرنا المضمون ولم نكسب من الإعلانات. وأظننى لست بحاجة إلى تكرار الإشارة إلى عجز ميزانية اتحاد الإذاعة والتليفزيون المرتبط ارتباطا وثيقا بوجود الإعلانات.. بمعنى أنه جاء معها وزاد بزيادتها لكن طبعا هذه مجرد إشارة عابرة لكنها لازمة للعودة إلى أصل الموضوع .. البيت بيتك .. فإذا عدنا إلى الأصل والأصول، فهو يؤكد أن كل شىء يجب أن يكون فى خدمة المشاهدين وليس فى خدمة فئة نفضلها على غيرها على هوانا .. يعنى أنه لاينفع ولايصح أن تخصص فقرة فى برنامج أردنا أن نجعله مثالاً على تطوير إلى الأفضل ونجعل موضوع الفقرة واحدا من الفنانين اختاره فلان أو علان أو فلانة أو علانة لا لشىء إلا لأنهم قرروا أنه يستحق، وربما - كما ورد فى الحلقة المشار إليها - لأنه بصدد عمل فيلم مازال متحيرا فى عنوانه!!

خبط الرأس

ولقد فجرت تلك الحلقة ما كنت قد كتمته من ملاحظات تعمدت حبسها، فى محاولة لموازنتها بأخرى إيجابية، عملا على إنصاف التجربة، ولقد سعدت بالفكرة بالرغم من تحفظات عدة، أولها عنوان البرنامج، فإلى جانب أن السطور السابقة تثبت أنهم يتصرفون على أن البيت بيتهم، فالتحفظ الأصلى يرجع لما أراه فيه من مجافاة للياقة، لأن العنوان نفسه سبق وتكرر ظهوره بين فقرات برنامج آخر شهير يبث على قناة فضائية عربية، وهذا النوع من النقل لايليق ولاتسنده ضرورة لا فى الشكل ولا فى الموضوع، والمؤسف أن النقل لم يقتصر على العنوان، فقد تكرر فى البرنامج ظهور أشكال من الديكور وأنواع من الفقرات جاءت مسخا للأصل كما يذاع على القناة الفضائية التى سبقت فى هذا الاتجاه لكن البرنامج اجتهد فى اختيار الضيوف والموضوعات والمذيعين، ومنهم من أثبت حضورا وجدارة، إلا أن العشوائية تظل تحاصر البرنامج ومن فيه وأعود إلى مثال الحلقة موضوع هذه السطور فأقول : إن التردد والعشوائية تربك الجميع، وإن الظروف لاتسمح بترك الأمور على هذا الحال، وفى هذا البرنامج كما فى غيره، فلابد أن تكون شروط اختيار الموضوع واضحة، ونفس الشىء ينطبق على اختيار شكل البرنامج .. هل هو برنامج «سمك لبن تمر هندى» أم أنه برنامج متخصص فى موضوعات بعينها أم برنامج يتابع مجريات الأحداث يوما بيوم، وفى كل ذلك يجب إن يكون الإعداد متوازنا وأن يكون الإخراج على المستوى اللائق .. أما المذيعون فقد ثبت أن بينهم من أصحاب الحضور والاجتهاد مايستحق الدعم والفرصة المتوزانة.. يعنى إرحمونا من زحام المذيعين وزحام الضيوف وزحام الموضوعات فى غير ما مبرر ، وإن أردتم أن يكون مذيع البرنامج صحفيا فى قامة الاستاذ سعد هجرس فهو جدير بإقصاء عوامل التضييق والتوتر فى غير ما زحام .. وإن كنتم نسيتم يا أصدقائى فها أنا ذا أذكركم بأن المصريين مفطورون على حس فى التذوق والفهم رفيع .. وهم لذلك يدركون من الأولى يخبط الرءوس فى الحيطان. ■



عزف على وتر الاغتراب

مجاهد عبد المنعم مجاهد

«ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم»

(آل عمران - ١٠١)

(١) هذا فضل الله

الحمد الذى خلقنى.. والحمد لله أن خلقنى من ضمن بنى الإنسان الذين فضلهم الله على كثير من العالمين.. والحمد لله أن جعلنى ابنا لوالدين مسلمين فاختصرت المسافات لكى أهتدى إلى الإسلام.. والحمد لله أن جاء مولدى فى مصر التى أكرمها الخالق العظيم.. «وقال ادخلوا مصر إن شاء آمنين» «يوسف / ٩٩».. والحمد لله الذى جاء مولدى فى ٢٠ يوليو ١٩٣٤ فجاءت فترة شبابى فى مرحلة مفصلية من التاريخ بين الملكية والجمهورية.. وهكذا كنت فى هذه الفترة واقعا على أسماه الفيلسوف الألمانى المولد الأمريكى المواطنة المعاصر بول تيليش (التخوم).. فإذا كانت هناك تخوم فإنها تفصل بين حدين ولكنها فى الوقت نفسه تقيم جسر اتصال بين هذين الحدين.. ومن هنا شببت عن الطوق فى مرحلة يمكن أن أسميها جدل الانفصال والاتصال بين عهدين.. وهذا هو جدل (الاغتراب) الذى سيشكل اللحن الأساسى لكل حياتى.. فالانفصال بشكل (التشيؤ) فى الاغتراب، والاتصال يشكل «الحب» فى الاغتراب.. ومن هنا نشأ أيضا الإحساس [illegible] جعلته أفقا لوجودى وكتاباتى [illegible] امتدت حياتى.. وكان المشهور أن



مجاهد عبدالمنعم مجاهد فى مؤتمر عن طه حسين بالمجلس الأعلى للثقافة - ١٩٩٨

الجدل نشأ عند الفيلسوف اليوناني زينون الإيلي، ولكنني اكتشفت بعد هذا أن الجدل كان منذ عهد نوح عليه السلام، فالكافرون «قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا» (هود / ٣٢)، بل إن الجدل سيمتد إلي يوم القيامة «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون» (النحل / ١١١) و«فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة» (النساء / ١٠٩).. فالحمد لله الذى يخرجنى بفضله من الانفصال إلي الاتصال ويخرجنى من الديجور إلي النور.. فله الحمد «قبل» كل عطائه، وله الحمد «بعد» كل نعمائه.

(٢) من الصفر إلي الفلسفة والشعر

الحمد لله أن ناظر المدرسة الأولية التى التحقت بها وأنا فى الرابعة من عمرى بفضل جهود والدى مدرس اللغة العربية كان يعطينى صفرا فى موضوع الإنشاء.. والحمد لله أن هدى والدى أن ينصحى بأن أقرأ مجلة أو صحيفة لآخذ منها تعبيرات أدخلها فى موضوع الإنشاء.. والحمد لله أن جعل عينى تقع على إعلان فى إحدى الصحف عن (روايات الجيب) التى تترجم الروايات الأجنبية.. وقد عانيت كثيرا أثناء قراءة الرواية الأولى. فالاسماء أجنبية وكنت فى بداية فك الخط.. وتكرر الأمر مع الرواية الثانية والتى لم تعجبنى مثل سابقتها.. وقد (قررت) أن أشترى الرواية الثالثة فإذا لم تعجبنى فسوف أكف عن المتابعة.. فالحمد لله أنها كانت ترجمة لرواية «آمالى كبار» لتشارلز ديكنز.. البطلة فى ليلة زفافها لم يحضر عريسها وظلت بفستان الفرح حتى سن السبعين.. وكعكة الزفاف عشش عليها العنكبوت طوال السنين.. ثم احترقت هى.. لقد ظلت «مخلصة» حتى آخر عمرها.. فالحمد لله أن هدانى وأنا فى هذه السن الصغيرة أن أجعل «الإخلاص» دربا لحياتى وهو إخلاص أدركت ساعتها على نحو غامض أنه ليس موجودا من حولى فى العالم الخارجي.. ومن هنا أحببت أن يكون «الأدب» وسيلة أظهر فيه هذا الإخلاص.. وعلى نحو ضبابى أيضا أن الأدب المهم فيه «الرسالة» لا

الموضوع.. ومن الطريف أن رواية ديكنز التى كانت مهمازا لى هى التى تبنيت فيها عندما بدأت أهتم بالنقد الأدبى أن ديكنز لا يعرف الفن الروائى لأن الرواية تقوم على قدرة البطل على «الصدام» مع الواقع ومحاولة «قهرة» لا أن «يصنعه» الواقع.. وأن ديكنز هو المسئول عن ضعف الكثير من أعمالنا الروائية التى تأثرت به فى الوصف على ماهو فى الخارج وليس «التنقيب فى أعماق» النفوس.

والحمد لله أننى عكفت على شراء روايات الجيب وقرأت فيها منذ البداية البؤساء لفكتور هوجو ونانا لإميل زولا وأجاثا كريستى وفى سن الحادية عشرة كان لدى ٦٦٠ رواية. وقد جلدتها بنفسى كل خمس روايات فى مجلد واحد.

والحمد لله أن كان أول كتاب خارج نطاق الروايات المترجمة أقرأه هو «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل.. والحمد لله أن ثانى كتاب كان «على هامش السيرة» لطه حسين . ومن ساعتها أصبح أستاذى ومثلى الأعلى، وتعلمت منه ضرورة التميز فى الأسلوب وهذه القدرة الهائلة على مزج التاريخ بالخيال والاستقلال فى الرأى وموسوعية المعرفة.. وربما كان هذا الأفق هو الذى سيدفعنى عندما توجهت إلى الشعر أن تكون خلفيته العقل لا الإحساس.. وقد تبلور هذا عندما قرأت الفيلسوف الألمانى هيجل الذى قال إن الفن هو العقل وهو يتبدى من خلف ستائر الإحساس.

والحمد لله أن طه حسين كان أيضا هو مرشدى منذ الصغر إلى عالم الفلسفة.. فقد قرأت كتابه «قادة الفكر» ومن هنا تولد حبى للفلسفة.. وفى هذه الآونة قررت أن أجرب الفنون والأبحاث كلها فاشتريت عددا وأنا فى السابعة من عمرى وأدركت أننى فاشل فى الموسيقى.. ولأننى لا أعرف أن أرسم الوجوه فشلت فى الرسم.. وجربت القصة والدراما ولم أنجح وإن كنت نشرت إحدى قصصى بعد ذلك عام ١٩٥٦ فى مجلة «الأديب» اللبنانية.. ولما جربت الشعر أحسست بأننى سأطير بجناحين.. الشعر والفلسفة.. وتأصل هذا عندى بعد عدة سنوات عندما هجرت فن التمثيل.. ففى المرحلة الابتدائية قمت بدور «بلال» مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام.. وفى السنة الرابعة من المرحلة الثانوية اشتركت مع عادل إمام فى تمثيل مسرحية «الدنيا لما تضحك» على مسرح مبرة مصطفى كامل بالقلعة.. وقد تبدى نبوغه وشعرت بأننى لست على مستوى التمثيل وإن كنت قد أجدت الدور الذى مثلته.. ولما كانت البروفات تستهلك وقتى قررت بحزم أن أقلع عن هذا والحمد لله أننى هجرت كل هذا لاتفرغ للشعر والفلسفة وهذا عطاء كبير فالحمد لله.

(٣) أحمد الصاوي محمد واتساع الآفاق

الحمد لله أننى لم أقرأ مجلتى الرسالة والثقافة كما فعل أبناء جيلى.. فقد هدانى العلى القدير إلى مجلة «مجلتى» التى كان يصدرها أحمد الصاوى محمد والذى سيصبح فيما بعد أحد رؤساء تحرير صحيفة «الأخبار».. كان والدى فى الثلاثينيات من القرن الماضى يقتنى جميع أعداد هذه المجلة وقد بلغت ٤٨ عددا.. وكان كل عدد يحتوى على عرض وتلخيص لأكثر من عشرة أعمال أدبية عالمية.. وهكذا فى هذه السن المبكرة عرفت أسماء تولستوى وأناتول فرانس وأندريه جيد وجورج صاند وغيرهم.. ومن هنا اتسعت آفاق عقلى من التراث الغربى قبل أن أطل على تراثى العربى الذى قرأته بعد ذلك من منظور جديد.. وتأثرت فيما بعد بكلمة للفيلسوف الألمانى المعاصر هيدجر وهى أن نقف على التراث لا أن نحمل التراث على رؤوسنا وذلك



فى مؤتمر الترجمة مع الدكتور جابر عصفور بالمجلس الأعلى للثقافة

لكى نضيف إليه..

(٤) النقد الأدبي رفيق الشعر والفلسفة

الحمد لله أن سكننا فى الصغر كان مكانا فسيحا.. وقد خصص لى جدى المقيم معنا غرفة مساحتها ستة أمتار فى ستة أمتار.. وكان فيها عمودان وكنت أضع مكتبى بينهما وأجلس بين العمودين فأشعر كأننى فى محراب.. وفى هذا المكان وهذا الجو جاء تجميع بعض المحبين للأدب والفن وكان هذا فى بواكير مرحلتى الثانوية.. بدأ التجميع بكمال عمار «الشاعر»، أحمد مختار الجمال «السفير» ، وبعد ذلك تشارك فيها: بدر نشأت «القصاص»، فاروق منيب «القصاص»، سيد جاد «القصاص» ، أمين ريان «الفنان والروائى»، عبدالقادر حميدة «الشاعر»، ثم توالى المشاركون: صبرى موسى «القصاص»، وحيد النقاش «القصاص»، أمير اسكندر «الناقد»، كامل أيوب «الشاعر»، نجيب سرور «الشاعر والناقد والفنان»، محمود عبدالعظيم «الناقد»، عبد الرشيد الصادق «الباحث»، لمعى شلبى «الشاعر والصحفى»، ثم انضم بعد ذلك محمد إبراهيم أبو سنة «الشاعر»، أحمد عبدالقادر وسعيد محمد حسن «محبان للشعر والأدب» والشعراء السودانيون: محيى الدين فارس. تاج السر الحسن، جيلى عبدالرحمن.. وآخر المنضمين محمود رجب «أستاذ الفلسفة».. كان كل واحد يلقى قصيدة أو قصة أو تلخيصا لكتاب ومن هنا جاءت حلقة النقد والتقييم، وقامت على الصراحة.. وكانت هذه الحلقة أيضا وسيلة للتثقيف.. فالحمد لله أن هذه الصحبة استمرت لأكثر من خمسين عاما.. ومن ساعتها تولد حبى للنقد.. ورغم تخصصى فيما بعد فى الفلسفة وعلم الجمال ونسج الشعر فإن كتب النقد فى مكتبتى هى الأكبر عددا بعد كتب الدين.. والحمد لله أننى اكتشفت مبكرا ان النقد يستهدف إقامة الميزان والعدل: «وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا

الميزان» «الرحمن / ٩» فالحمد لله على كل ما أولانى من توجهات فهو الواهب والرزاق الكريم الرحمن الرحيم الخالق العظيم.

(٥) حب .. قبل فن الحب

الحمد لله أن هدانى إلى أن أترجم فى السبعينيات من القرن الماضى كتاب «فن الحب» لعالم النفس والفيلسوف الأمريكى المعاصر إريك فروم.. لقد اعتاد الباحثون أن يدرسوا كيف يحبنا الآخرون ولكن إريك فروم درس كيف نحن نحب.. ان الحب عطاء دون مقابل.. لكن وأنا أعطى الآخرين فإننى أعلمهم فن الإعطاء وربما يصبحون هم أيضا معطائين مثلى.. وفن الحب قائم على أن نجعل من كل لحظة عطاء متصلا.. إن فن الحب هو التكريس الدائم.. ولقد علمنا الفيلسوف نيتشه قبل هذا أن نجعل كل لحظة فى حياتنا عيدا للفرح فلا نقتصر على يوم واحد نجعله عيدا للحب بل ليكن الاحتفال عيدا متصلا من الحب والود..

والحمد لله أن هيأ لى العلى القدير أن أعيش الحب على هذا النحو قبل أن أبلغ الخامسة من عمرى.. فأسرتى كانت تعيش فى كنف جدى لأمى وكان على شىء بسيط من اليسار.. وكنا نسكن قرب مسجد السيدة سكينة بحى الخليفة.. وكان جدى يحتفل بمولدها كل عام لمدة أسبوعين فينصب الزينة أمام المسجد ويستدعى الشيخ طه الفاشنى وبطانته لإلقاء التواشيح وكان يطعم الفقراء طوال هذه المدة.. وكان هذا يقضى إعداد العدس والفول والأرز قبل المولد بشهر.. فتجتمع عندنا جميع نساء الأسرة الكبيرة لتنقية مواد الطعام.. وكنت اجلس بينهم وأرى الحب الذى يجمعهم على فعل الخير.. فلا حسد ولا تنافس.. ولكن تقارب فى المودة وحب الله.. ومن هنا تعلمت بشكل عملى فن الحب..

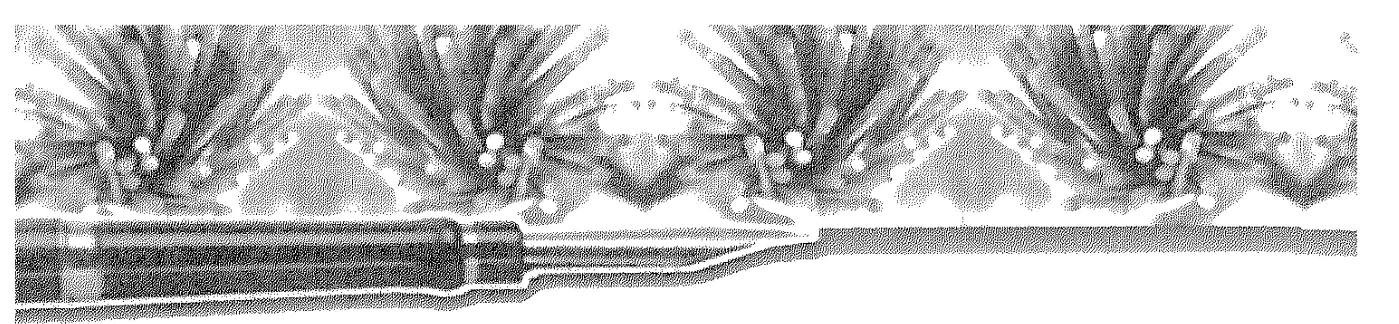
(٦) ١٩٤٩ عام الوجودية

الحمد لله أن دار الكتب المصرية افتتحت مكتبة فرعية لها فى منطقة القلعة حيث اسكن.. والحمد لله أن كان فيها عدد محدود من الكتب الانجليزية وكان منها كتاب بلاكهام: ست مفكرين وجوديين.. كان هذا هو أول التقاء لى بالوجودية.. وكانت المرة الأولى التى أقرأ فيها أسماء : هيدجر ومارسل. وياسپرز ونيتشه وكيركجو وكذلك سارتر وإن كنت قد عرفته من قبل عندما كتب طه حسين عنه مقالا بعنوان «سارتر والسينما» فى مجلته «الكاتب المصرى».. لقد طرح المؤلف الوجودية على أنها فلسفة التساؤل «ووضع وجود الإنسان موضع التساؤل ليقرر بنفسه مصيره.. إن الإنسان حر، انه الحرية.. وحسب اختياره يتحدد مصيره وجزاؤه فالحمد الله الذى هدانا النجدين وعرض علينا الأمانة لكى نختار ومن هنا صارت الوجودية هى أفق تفكيرى.. لكنى لم اعتبرها مذهبا فكل المذاهب هى بشكل ما أشكال مزيفة.. ولقد أحسن فؤاد كامل بترجمته لهذا الكتاب .. فالحمد لله أن هداه والحمد لله أن هدانى أن اختار الخير بإرادة حرة وبالتالى نختاره هو فهو الخالق ذو الجلال والاكرام.. فالحمد لله.

(٧) أساتذة أجلاء

الحمد لله أن سنوات دراستى الجامعية كان فيها كوكبة من العلماء الأجلاء وهبوا أنفسهم للعلم.. ولم يكن لهم شغل شاغل.. إلا أن يبثوا العلم فى نفوس طلابهم والأخذ بأيديهم.

والحمد لله وأنا فى قسم الفلسفة كنت أواظب الاستماع لمحاضرات طه حسين بقسم اللغة العربية.. كما كنت أواظب على الاستماع لمحاضرات الدكتور لويس عوض والدكتور شوقى السكرى بقسم اللغة الانجليزية.



والحمد لله عندما تقبلت الدكتورة فاطمة موسى أستاذة الأدب الانجليزى وأنا فى السنة الأولى نقدى لشكسبير وأنه كان ضعيفا فى رسم شخصية ماكبث لأنه جعل الشر نابعا من زوجته وليس منه هو.. والحمد لله أن أثنى الدكتور عبد الحميد يونس على بحثى عن الذئب بمناسبة قصيدة الذئب للبحترى.. والحمد لله أن أثنى الدكتور توفيق الطويل على عرضى التحليلى لكتاب بلا ميناتز عن مذهب المنفعة العامة.. والحمد لله أن علق الدكتور زكريا إبراهيم على بحثى عن ميتافيزيقا الفيلسوف الألمانى كانت وكتب أن هذا بحث جديد وجرىء.. والحمد لله أن أشاد الدكتور محمد مصطفى حلمى أستاذ الفلسفة الإسلامية وهو كفيف ببحثى.. عن النفس والعقل عند الكندى بالرغم من أننى انهيت مقدمة بحثى بجملة وجهها الكندى للخليفة المعتصم : «فتفهْم ما كتبت به إليك أسعدك الله فى دنياك وآخرتك» فالحمد لله أن أستاذى تقبل الداعبة بصدر رحب وأثنى كثيرا على بحثى فالحمد لله.

والحمد لله أن الدكتور عثمان امين رئيس قسم الفلسفة وأستاذ كرسى الفلسفة قرر فى السنة الرابعة تدريس برجون والشيخ محمد عبده فتساءلت ولماذا لا ندرس هيدجر وسارتر فرد قائلا إن الفلسفة آخرها برجسون.. ولأنه أستاذ عظيم ترجم هو بعد هذا بحث هيدجر «الشعر والفلسفة» فالحمد لله أننى تشربت العلم من هذه الكوكبة العظيمة والحمد لله أننى لست من الفئة الضالة التى تقول إنها نشأت بلا أساتذة .. استغفر الله والحمد لله.

(٨) جدل الانفصالي والاتصال

الحمد لله أن هدانى فى عام ١٩٥٨ أن أشترى كتابين هامين بالانجليزية الأول هو «الإنسان اللاعقلانى» من تأليف وليم باريت، والثانى «الوجودية والأزمة الراهنة» من تأليف هينمان.. لقد أرشدانى إلى الاغتراب الذى كنت لمسته فى قصيدة كتبت فى العصر الوسيط عند قدماء المصريين للحكيم ايبور.. كان يتحدث عن أن الخدم قد ناموا فى أسرة أسيادهم وأن الظلم قد عم البلاد حتى أن القضاة لا يجدون لهم مكانا فى طول البلاد . لقد لمست فى هذه القصيدة وجود اغتراب اصاب الجميع وأنهم عاشوا حالة تشيؤ وفقدوا إنسانيتهم .. فجاء هذان الكتابان وهما يتحدثان عن ظاهرة الاغتراب.. ومن ساعتها أصبح هذا الموضوع اللحن السارى فى كل ما أكتب شعرا أو فلسفة أو علم جمال ونقدا أدبيا..

(٩) وأنا فى حالى .. الحمد لله

الحمد لله أننى فى حالى .. لا أريد أن أزاحم أحدا .. بدلا من أن يكون لى قميصان وكتاب واحد .. أفضل أن يكون لى كتابان وقميص واحد.. فالحمد لله على أنه رغم أننى فى حالى فإن الأبواب كانت تنتفح أمامى بفضله ورعايته ومحبته .. فبرغم أننى فى حالى نشرت أشعارى وأبحاثى ومقالاتى فى خمسين صحيفة ومجلة فى مصر والعالم العربى . والحمد لله وأنا فى حالى نشرت كتبى المؤلفة والمترجمة لدى ٢٥ ناشرا فى مصر والعالم العربى والحمد لله وأنا فى حالى ساق لى الإعلامى الكريم سعد لبيب عام ١٩٥٨ فأوصى سميرة الكيلانى صاحبة برنامج مع النقاد فى إذاعة البرنامج الثانى أن تناقش ديوانى «أغنيات مصرية» .. والحمد لله أن استضافت لمناقشتى الدكتور محمد مندور وصلاح عبدالصبور ورجاء النقاش .. والحمد لله وأنا فى حالى استضافنى الدكتور لويس عوض فى منزله وإبرز جماليات شعرى وتراكيبى المصرية فى الديوان .. والحمد لله وأنا فى حالى اشتركت فى الندوات وأنا فى الثانية عشرة من عمرى فى رابطة الأدب

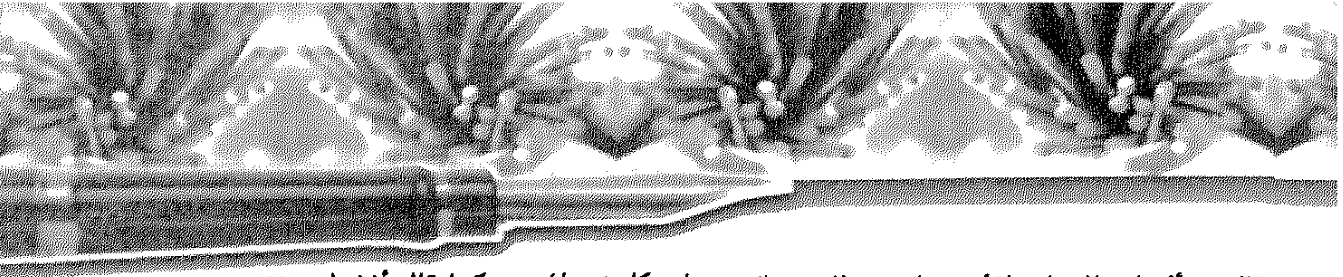
الحديث وجمعية الشبان المسيحية ونادى الأدباء والجامعة الأمريكية والأندية السودانية في مصر .. والحمد لله وأنا في حالي عهدت إليّ مصلحة الاستعلامات ترجمة بعض الكتب وصدرت لي في سلسلة كتب سياسية أول ترجمة عن ثورة كوبا واقتصاديات أمريكا اللاتينية .. والحمد لله وأنا في حالي وليست معي إلا شهادة ليسانس الفلسفة استضافتني أربع جامعات مصرية كأستاذ زائر للفلسفة وعلم الجمال على مدار ٢٤ سنة دراسية بجانب التدريس لمدة عامين لطلبة الدراسات العليا بجامعة عين شمس، والحمد لله وأنا في حالي اشتركت في مناقشة ثلاث رسائل جامعية للحصول على درجة الدكتوراه بكلية بنات جامعة عين شمس.. والحمد لله وأنا في حالي ترجم عدد كبير من قصائدي إلى الإسبانية .. والحمد لله وأنا في حالي أشاد أحد النقاد الروس عام ١٩٥٧ بأشعاري وما فيها من تراكيب شعبية.

والحمد لله وأنا في حالي صدرت مجموعة مترجمة من الشعر العربي المعاصر إلى الروسية وقد اختاروا من مصر ثلاثة شعراء: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وذلك الذي هو في حاله، والحمد لله وأنا في حالي أكتب مقالا أوله أن لدينا نقادا ولانقد، فينشره برحابة صدر الدكتور على الراعي المشرف على القسم الأدبي بصحيفة المساء عام ١٩٥٩ لأنه ناقد كريم والحمد لله وأنا في حالي يقرر الدكتور يحيى هويدي رئيس قسم الفلسفة وعميد كلية آداب جامعة القاهرة ترجمتي وتعليقي لنصوص هيرقليطس على طلبة الدراسات العليا لمدة عامين. والحمد لله وأنا في حالي ينتدبني الفنان حمدي غيث وكيل وزارة الثقافة عام ١٩٧٣ لأحاضر في علم الجمال في دورة تثقيفية لمديري قصور الثقافة وتكرر الأمر عام ١٩٧٤ ثم بعد عشر سنوات. والحمد لله وأنا في حالي وأنا نائب رئيس تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط تستضيفني وكالة أنباء سلطنة عمان مرتين لتدريب الصحفيين.. والحمد لله وأنا في حالي يتذكر الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة أن كان لي حلم منذ أكثر من عشرين عاما أن أترجم كتاب (تاريخ النقد الأدبي الحديث) للناقد الأمريكي رينيه ويليك، فعهد إليّ بترجمته وصدرت بالفعل ترجمة الأجزاء الخمسة الأولى والحمدلله وأنا في حالي يثني على نزار قباني عام ١٩٥٧ في الشعر ويصرح للأستاذ أنيس منصور عام ١٩٥٨ بأنني أمثل الشعر في مصر. والحمد لله وأنا في حالي يثني على الأستاذ والأديب والمفكر أنيس منصور ويكتب أنه لايوجد أحد يستحق الكتابة عنه كشاعر وكمفكر سوى ذلك الذي هو في حاله،

والحمدلله وأنا في حالي يطلب مني صاحب دار الكلمة ترجمة كتاب هيجل (محاضرات فلسفة الدين) وقد أنجزت الترجمة وصدرت في تسعة أجزاء فالحمد لله على كل نعمائه وأنا في حالي.

(١٠) وردة من أجل هيجل

الحمد لله أن وصلت إلى مصر عام ١٩٥٨ نسخة من الطبعة الجديدة للترجمة الإنجليزية لكتاب هيجل (محاضرات تاريخ الفلسفة) في ثلاثة أجزاء .. وكان ثمنها ٤٩٠ قرشا ولم يكن لدي المبلغ .. وكنت أمر على الفترينة المعروضة فيها الكتاب كل يومين للتأكد من أن أحدا لم يشتر الكتاب بعد .. وظللت على هذا الحال حتى توفر لي المبلغ وكان شرائي للنسخة عيدا كبيرا .. وقد احتفل الأصدقاء بهذا الحدث ورتبوا حفلا في منزل الصديق أحمد عبدالقادر الذي اشترى وردة وضعها في كوب ماء وحول



الكوب أكواب الشاى للأصدقاء .. فالحمد لله على هذا الاحتفالية الفريدة فى نوعها والحمد لله على كل الأصدقاء المحبين لهيجل ولى .. نعم الحمد لله .. الحمد لله.

(١١) الشعر بوجه مصري

الحمد لله أننى فى مجال الشعر ومبادرتى الخاصة فى كتابة الشعر، كنت وسط كوكبة من الشعراء: عبدالمنعم عواد يوسف، صلاح عبدالصبور، أحمد عبدالمعطى حجازى، فوزى العنتيل، محمد مهران السيد، فاروق شوشة، نازك الملائكة، نزار قبانى، بدر شاكر السياب، عبدالوهاب البياتى.. كنت قد كتبت الشعر على النهج التقليدى، لكننى كنت قد تنبهت إلى ضرورة الوحدة العضوية والحكى من خلال التجربة والصياغة الموسيقية الرقيقة والانطلاق من الفكر لا الشعور .. ومع قراءتى لما كتبته نازك الملائكة عن الشعر وما قرأته للشاعر ت.اس.اليوت ومن الطريف أننى ترجمت له قصيدته (أربعاء الرماد) عام ١٩٥٢ ومازالت مخطوطة الترجمة لدى كما ترجمت قصيدة (الثعبان) للروائى والشاعر د.هـ.لورانس بدأت مع صديقى عبدالمنعم عواد يوسف الخطوات الأولى فى الشعر.

ولما كان الفيلسوف الألمانى هيدجر قد ذكر أن نهاية العمل الفنى ترتد على العمل كله وتعطيه معنى فإننى كنت أصل إلى البيت الأخير أولا قبل الشروع فى كتابة القصيدة .. واستفدت من أجاثا كريستى كاتبة الرواية البوليسية فن البناء والعنوان يبين ويخبىء فى الوقت نفسه لاستثارة فضول القارىء.

والحمدلله أننى منذ الصغر كنت أنقب فى قاموس مختار الصحاح وبعد ذلك فى قاموس المحيط ولسان العرب وكنت أنقب عن الأصول العربية للكلمات العامية ..

والحمد لله أن صدرت الأعمال الشعرية العاملة بعنوان (أقمار على شجرة العائلة) ووصل عدد قصائدى ٤٢٠ قصيدة فالحمد لله على كل نعمائه .. وكما قال أفلاطون فإنه بدون المس الإلهى أولا لايولد الشعر فالحمد لله على كل عطائه..

(١٢) الحكمة وفصل الخطاب

الحمد لله وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى كتبت أول مقال فلسفى بعنوان (الجوهر الفرد) .. إلا أنه ضاع منى بعد قليل .. والحمد لله أن وجهنى وهو الحكيم إلى أن يجعل تفكيرى العقلى سابقا سنى .. ومن هنا توجهت إلى الفلسفة ومن الطريف أننى فى سن التوجيهية كنت بالقسم الأدبى لكن مع مادة الرياضة بدل الفلسفة بسبب تفوقى فى العلوم الرياضية .. وفي السنة الثانية من التعليم الجامعى التحقت بقسم الفسلفة .. والحمد لله منذ البدايات الأولى فهمت الفلسفة، والحكمة على أنها من الله فهو الذى يعطى الحكمة لمن يشاء وساعتها يعطى صاحبها الخير الكثير وعلى أصحاب الألباب أو العقول أن يتفهموا هذا والفيلسوف الحق هو الذى يصل إلى الحقيقة التى شاء العلى القدير أن تكون واحدة ومن هنا جاء إعجابى بصفة خاصة بالفيلسوف هيجل ..

(١٣) السير على صراط الجمال

الحمد لله هدانى وتبين لى أن كلمة الجمال كما وردت فى القرآن الكريم إنما ترتبط بالسلوك الإنسانى الحق .. فعندما تأسى سيدنا يعقوب عندما قال له أبناؤه كاذبين إن الذئب قد أكله فقال «فصبر جميل (يوسف/١٨) إلى الصبر الذى لامرارة فيه. وعندما قال العلى القدير لرسوله إذا كانت زوجاته يردن الدنيا عليه أن يمتعهن وبعد ذلك «أسرحكن سراحا جميلا» (الأحزاب/٢٨) أى يتركن بإحسان وهكذا تبين لى أن الجمال ليس صفة فى العمل الفنى حتى يساعد الإنسان على أن يكون إنسانا حقا..

ومن هنا فهمت رسالة الجمال ورسالة من الجمال بل ورسالة النقد الأدبى ألا و هى

تكشيف العمل الفني لكي نتبين إذا كان قد سار على صراط الجمال أم انحرف عنه. وذلك الصراط هو الذى قال عنه الباحث المعاصر الكسندر إليوت فى كتابه (آفاق الفن): ومن يقع من على صراط الجمال يمرض .. فالحمد لله الذى أوقفنى على هذا الصراط وجاءت أعمالى فى علم الجمال وأبرزها «جدل الجمال والاغتراب» وكان هذا سبب انتدابي للتدريس بالجامعات..

والحمد لله أن الدكتورة فاطمة موسى كانت سببا لاهتمامي بفن الجمال من حيث لاتقصد .. فعندما قرأت بعض أشعارى التى عرضتها عام ١٩٥١ قالت إن شعرى رومانسى ونصحتنى بقراءة الشعر الواقعى .. لكننى استمعت للنصيحة ولكن بطريقتى أن أقرأ (النظرية) الواقعية .. وقد رصدت من مكتبة الجامعة حوالى عشرين كتابا بالإنجليزية عن الواقعية ولفت نظرى كتاب (دراسات فى الواقعية الأوربية) لمفكر اسمه جورج لوكاتش.. وقد وجدته يفسر العمل الأدبى مازجا بين النقد الأدبى والفلسفة وعلم الجمال وأن العمل الفنى يجيب عن سؤال واحد: من هو الإنسان؟ فقررت أن يكون علم الجمال هو تخصصى وبدأت نشر أبحاثى فى هذا المجال فالحمد لله على كل عطاءاته.

(١٤) سبحان المانح والواهب

الحمد لله أننى لم أحصل على أى جائزة علمية مادية دنيوية .. والحمد لله أن العلى القدير أهدانى أعظم الجوائز الروحية .. فالحمد لله أنه ألهم والدى أن يعطينى جائزة عظمى وأنا فى التاسعة من عمرى .. فوالدى مدرس اللغة العربية وسكرتير عبدالرحمن فهمى باشا زميل سعد زغلول باشا والذى ألقى قصيدة وخطبة فى الذكرى الأولى على وفاة أحمد شوقى وألقى القبض عليه لأن رئيس الوزراء كان قد منع التجمعات وجاءت صورته فى مجلة (اللطائف المصورة) وماجرى له ورغم هذا لم يستنكف أن يمنحنى لقبا رائعا وأنا فى التاسعة من عمرى فقد كان ينادينى (الاستاذ).. وهذا اللقب ألقى علىَّ عبئا أكبر لمضاعفة قراءاتى لكى أظل فى نظره (الاستاذ)..

والحمد لله أن هدى والدى قبل وفاته بأسبوع واحد عام ١٩٨٠ فأبدى رأيه فىَّ لأول مرة قائلا إنه يحب شعرى لكنه يحب نثرى أكثر لأنه نثر مميز .. فالحمد لله أن ذكر هذا ومن الجميل أنه بعد أربعة عشر عاما ذكر الرأى نفسه الشاعر فاروق شوشة عندما استضافنى فى احدى أمسياته الثقافية قائلا إن جمال نثرى يتحدى جمال شعرى.

والحمد لله أنه منحنى من خلال الباحثة السورية فاطمة يوسف التى كانت تستعد لنيل درجة الماجستير فى الفلسفة فى جامعة القاهرة أن تعلق على قصيدة لى من خلال التليفزيون فقالت فى التو: (الله أكبر).. وإذ بى أبكى بكاء شديدا أن يقترن الإعجاب بشعرى باسمه هو (الله أكبر) فما قيمة لقب أمير الشعراء وما قيمة جائزة نوبل؟ وتسبب هذا أن سقطت على فراشى مرضا من شدة فرحى فالحمد لله أن منحنى (مرض الصحة).

الحمد لله أن وجهنى وأنا فى السادسة فتطلعت إلى السماء فرأيت نجما شديد اللمعان وعرفت أنه النجم القطبى وأن الأرض تدور حول محورها الممتد من القطب الشمالى إلى الجنوبى وتصورت أن هذا النجم هو الشئ الوحيد الثابت فى الوجود .. فجعلته محبوبى .. والحمد لله أن جعلنى أعدل عن قرارى بعدم الزواج منذ الصغر فقد ساق إلى عام ١٩٦١ إنسانة قابلتها بالصدفة .. لم تكمل تعليمها حتى بالنسبة للشهادة الابتدائية لكننى اكتشفت أنها بشفافية روحها تكتشف الشعر الجميل ومن هنا رأيت فيها نجمتى القطبية

الأرضية .. ربما بقراراتى أكون مثقفا لكننى اكتشفت من خلالها أن الثقافة هى الارتفاع من الجزء إلى الكل ومن الحسى إلى العقلى ومن المادى إلى الروحى تحقيقا للإنسان الكامل الذى تحدث عنه الصوفية أو الإنسان الشامل على نحو مايقول هيجل ولو كاتش .. وعلى مدى ٣٨ سنة زواج لم تطلب منى شيئا .. أفهمت أولادى أنها لاتتدخل فى شئونى الثقافية وأنها سعيدة بأننى صورت أكثر من ٣٠٠ كتاب مادام فى هذا سعادتى.

والحمد لله أننا مرة كنا نستمع لقرآنه المجيد من الراديو وكانت الآية تتحدث أن جلودنا ستشهد علينا يوم القيامة فتساءلت أنا: هل الجلد سيكون له فم يتكلم؟ فردت فى ثانية واحدة: إن الراديو الذى هو من بلاستيك وأسلاك ومن اختراع الإنسان ينطق فهل سيعجز الجلد عن النطق بأمر الله؟ لقد تضاءلت إزاء رؤيتها .. فإذا كنت أنا مثقفا فإنها هى المثقفة التى تثقف الآخرين..

والحمد لله أن أجريت لها عملية أخطأ الطبيب فى إجرائها فلم تشتك ولزمت الكرسى المتحرك طوال عشر سنوات لم تشتك، وعندما توفى الطبيب دعت له بالرحمة .. فالحمد لله أن بث فى قلبها الرحمة ..

والحمد لله أنه فى إحدى العمرات وهبت عمرة لامرأة تكون معقدة لاتستطيع أداء العمرة وتركت لله أن يختارها. وعندما انتهت من أدائها وكانت جالسة على كرسيها المتحرك أمام الكعبة سمعتها تتمتم ببضع كلمات فسألتها فقالت إنها شعرت بأن الكرسى يسحب من تحتها ووجدت نفسها جالسة على كرسى مذهب بقطيفة خضراء وأن هاتفا يقول لها إن لها مقعد صدق عند المليك المقتدر.. فبكيت فرحا وحسدتها حسد الغبطة على حب الله لها .. لقد كانت نجمتى القطبية التى جعلت من بيتى (سكنا) وربت أولادى الأربعة على أن يكونوا أربع نجمات الحب وجعلت من أحفادى الأحد عشر: أحد عشر كوكبا .. فالحمد لله أن أعطانى من خلالها سكنا مما جعل عطائى الثقافى تضاعف خلال وجودها .. فالحمد لله على ما أعطى والحمد لله على ما أخذ فهو صاحب الملكوت..

(١٦) مت فى الوقت المناسب

الحمد لله أننى تنبهت لجملة الفيلسوف الألمانى نيتشه: «مت فى الوقت المناسب» ، إنه يرى أن الموت نوعان موت يتسلل كاللص وهذا هو الموت الطبيعى وموت يتخذه الإنسان لا بالانتحار بل بالتنحى فى الوقت المناسب وقبل فوات الأوان .. والحمد لله أننى كتبت آخر قصيدة لى فى يناير ١٩٩٦ وقررت التوقف فقد استنفدت الأمل الذى كنت أبثه من خلال عرض الاغتراب فى الشعر ولم يعد هناك أمل دنيوى وليس هناك إلا الأمل فى الله لإنقاذ الإنسان من شرور الإنسان..

والحمد لله وأنا فى عام ١٩٩٨ فى العمرة وكنت أصلى فى مسجد الرسول الحبيب وإذا بالهاتف يخبرنى وسط صلاتى أن علىّ أن أكتب شعرا .. وظننت أننى سأكتب شعرا دينيا أو صوفيا .. ومر عام دون أن أكتب شيئا .. وفى العمرة عام ١٩٩٩ عقب عودتنا مباشرة توفيت زوجتى وهى سعيدة بعد أن عرفت أن شهر رمضان قد هل فماتت فى اليوم الثالث منه وهو يوم سبت .. وتذكرت أن الله قد خلق تراب الأرض يوم السبت فهى عادت فى مثل ذلك اليوم إلى الأرض التى منها نبتت .. وإذا بى أكتب ثلاث قصائد عنها .. فشكرا لله الواحد الأحد الذى إليه أتضرع حامدا شاكرا .. فاللهم ادخلنى من باب رضوانك «واجعل لى لسان صدق فى الآخرين» (الشعراء/٨٣) آمين .. فأنت الوهاب وأنت أرحم الراحمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ■



العرب يرفضون كل مبادرات الاصلاح من الخارج!

مقال «الاصلاح السياسي وتمكين المرأة فى ديار العرب» للمؤرخ الذى يتسم بالموضوعية د. عاصم الدسوقى والذى كتبه فى عدد مارس الماضى.

وبادىء ذى بدء أتحدث عن أطماع أمريكا فى العالمين العربى والإسلامى، بزعم غياب الديمقراطية فيهما، وضياع حقوق الأقليات الدينية والعرقية، وتهميش المرأة.

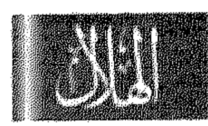
وأناأقول: إن الحقيقة التى لا يجانبها الصواب، أن أمريكا تستهدف فى المقام الأول، تقطيع أوصال العالمين إلى كيانات منفصلة، بعضها عن البعض، والاصلاح الأمريكى فيهما، ما هو إلا إظهار للمكونات الطائفية، والاثنية، وتفتيت الدول القائمة.

ولعل التفكك العربى، كان مناخا مثاليا لها، لتنفيذ مشروعها الذى يندرج تحت اسم الشرق الأوسط الكبير، ومن هنا اتهمت العرب بالتخلف، بغية التدخل السافر فى المنطقة، وظهر ذلك فى غزوها لأفغانستان والعراق، وتهديداتها المستمرة لسوريا وإيران.

إننا نعيش ظروفا تتسم بالتناقضات والأطماع، وعلى الرغم من ذلك نرفض بشدة وإصرار مبادرات الاصلاح التى تأتينا من الخارج فضلا عن أن الخطاب الأمريكى للإصلاح المزعوم فى العالم العربى، لا يزيد على كونه نصوصا اختطفتها أمريكا من جملة من المشروعات والبرامج البحثية، التى تشكلت إبان عصر الحرب الباردة.

وأمريكا تحاول أن تجمل وجهها .. ولكن هيهات فكل شعوب العالم العربى تكن كراهية عميقة ومقيتة فى آن واحد للسياسة الأمريكية!

د. صمويل لبيب سيحة
باحث تاريخي - المنيا - مصر



معنى الحياة!!

يا قلب ما معنى الحياة؟!
والموج يهزأ بالقلوعْ
والحزن يعبث بالضلوعْ
والصمت حيلتنا،
يكسّر كلّ وجه قصيدةٍ
نادت وقالت فى أسى:
أنى الرجوعْ؟!
أنى الرجوعْ؟!

محمود أحمد المُصلّي
شربين - دقهلية



الصحراء هى الأمل فى حل مشكلة مصر

«خواطر عن مستقبل مصر» للدكتور رشدى سعيد، واحد من المقالات المهمة التى حرص الهلال على نشرها فى عدد مارس الماضى، وكاتبه كما عودنا يكتب من منطلق عشقه وحبه للوطن، على الرغم من أنه يعيش بعيدا عن مصر، لكنه لا يبتعد عن همومها ومشاكلها، وحرصه على مستقبلها.

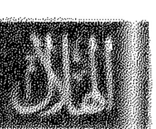
فقط هنا أردد مقولته: «إذا أردنا أن يكون لنا مكان فى هذا العالم الجديد، فعلينا أولا أن نعيد الثقة، فى أنفسنا، وأن نرتب بيتنا أولا وقبل أن نتوجه للغير لمساعدتنا، وأن نبدأ فورا بوضع خطة قومية لنقل مصر إلى العصر.. لقد كانت سياستنا حتى اليوم لا تنظر إلى الغد، فقد تركنا مدننا لكى تمتلىء بالسكان، حتى أصبحت شوارعها كافية بالكاد لكتلة المشاة فيها..

وما فعلناه فى مدننا فعلناه أيضا فى رقعة الأرض الزراعية بالدلتا ووادى النيل، .. منع الازدحام أى تقدم فى ميادين الزراعة والصناعة والسياحة، وكل نشاط آخر.

وحل هذه المشكلة يجيء من خلال الانطلاق إلى الصحراء الواسعة، فضلا عن أنه من الضرورى أن نأخذ أمورنا بأيدينا، وأن نضع الخطط لحل مشاكلنا بأنفسنا، دون أن ننتظر العون من الغير.

.. وكل ما أرجوه ألا يتوقف أستاذنا د. رشدى سعيد عن الكتابة وتناول مثل هذه الموضوعات المهمة فى «الهلال».

محمود السيد بدران - المنيا - سمالوط



في زورق ضائع

تحت أضـــواء مـــســـاء ... ذابـلٍ ســـار شـــراعُ

ضـــائعٌ فـى مـــوجـــةٍ ... والموجُ سِـحـر وضـيـاعُ

فـــيـــه حـــسـنـاء تمنّى ... شـعـرهـا ذاك الشـعـاعُ

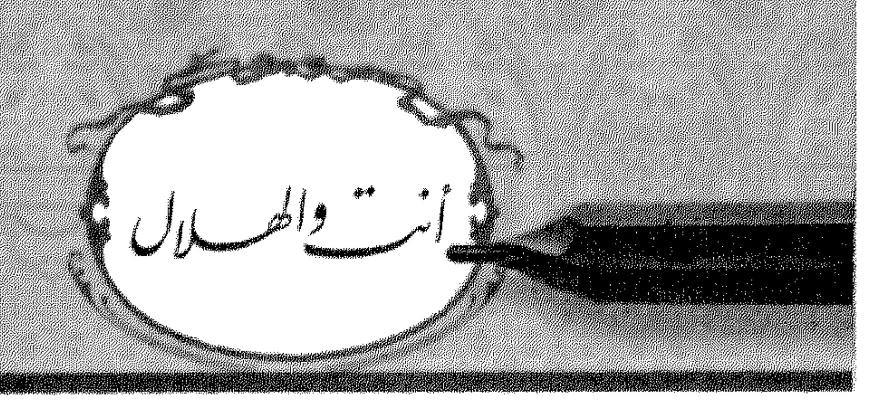
وفـــتـى فـى شـــفـــتـيـه ... نـام شِـعـر ويـراعُ

لمـســـاء الحـب لحـنٌ ... لصـدي اللحن التـمـاعُ

للأحـــاســـيس شـــروق ... وغـــروب وقـنـاعُ

* * *

ينـثـــر الزورق سِـحـراً ... حين يسـري كـالكمـانِ



يالـه مـن زورق يـحـبـبـو	كـأنفـاس الجـمـان
البـحـار الزرق تشـدو	حين يشـدو عـاشـقـان
أى سـر يـدفـع الـروح	إلـي بـر الأمـانـي؟
أى شـوق يزرع النجـوى	ببـسـتـان الزمـان؟

* * *

كلمـات صـاحت: ياحـبـيـبى	سـال دمـع الأرجـوان
كلمـا قـبّلهـا قـالت	لـه الأمـواج كـلاً
إنهـا شـرقـيـة والشـرقُ	يـسـقـي الحـب ذلاً
قـالت الأقـمـار دعـهـا	إنّ صـمـت الحـب أحلـي

د. هيثم الحويج العمر - دمشق

مشكلات مستعصية يواجهها التعليم فى مصر!

كتب الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى فى العدد الماضى موضوعا حول «متى نصلح التعليم الأساسى» وحدثنا فيه عن مشكلات يخجل لها الجبين، ولكنه لم يتكلم عن ضرب المدرسين فى المدارس، ولم يتحدث عن تكسير سيارات المدرسين لمجرد أن أحدهم حاول أن يمنع طالبا من الغش.

على الرغم من كل ذلك وهذا المستوى المتدنى لتلاميذنا، تقوم لجان بالبحث فى رفع أجور المدرسين.. هؤلاء الذين انصرفوا إلى الدروس الخصوصية.

والآن ما هو الحل.. وهل يعود أستاذنا البيومى بكتابة حلول لهذه المشكلة التى طرحها فى مقاله القيم؟

د. جمال علي العطار
كامب شيزار -الاسكندرية

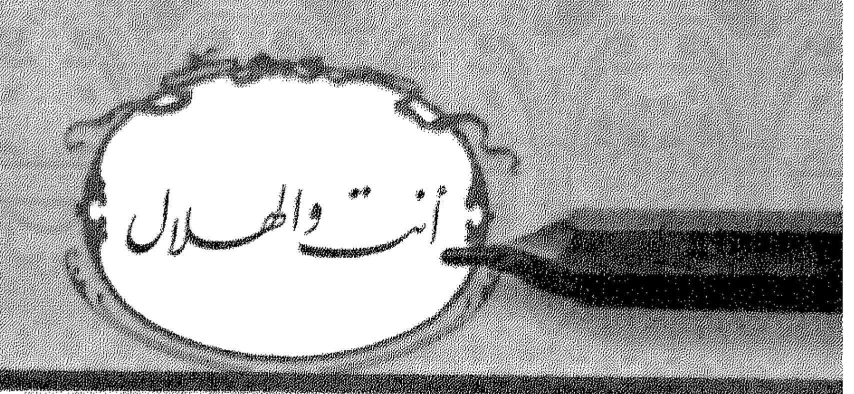
● الهلال: فى مقال الدكتور رجب البيومى، وغيره من عشرات المقالات تطرح مثل تلك القضايا، وتلقى الضوء على السلبيات، والمطلوب من قيادات التعليم فى مصر أن تضع الحلول لتلك المشكلات، وتحقق فى كيفية انتقال تلميذ من مرحلة إلى أخرى، وهو لا يعرف كتابة اسمه!



حجة الوداع

حج الرسول وقد أتم رسالةً ... والله يعلم أنه الإتمام
واستشعر الموت القريب بحجه ... والموت غيب شاءه العلام
بالحج أعلن فاستعدً جميعهم ... وأتوه يأتمون وهْو إمام
بالكل سار من المدينة قاصداً ... والقصد أكده له الإحرام
بعد الطواف سعى الرسول ولم يحلْ ... وإلى منىً فى ثامنٍ قد قاموا
فى التاسع انطلق الرسول معرِّفاً ... وهنا أقام اليومَ فهْو مقام
ظهراً تحرك للجموع بخطبة ... خطب الرسول وأصغت الأيام
قال اسمعوا فلعلنا لا نلتقىً ... هذا اللقى من بعدُ يا أقوامِ
هل كان يعلم أنه فى عامه ... سيموت؟!.. لا ندرى ولا الأعوامُ
قال الرسول وكل قول حكمةٌ ... لمن اصطفاه الوحى والإلهامِ
أنهى الرسول فجاءه قول السما ... «اليوم أكملتُ..» وكان كلامُ
فرحوا ويفرحنا الكمال فما الذى ... أبكاك ياعمرُ؟!.. الكمال مرام
قال الكمال فبعده النقصان ذا ... دمعٌ يلوم صنيعهم ويلام
سمعوا الرسول وقام بعدُ مصلياً ... بهمو ويجدى السامعين قيام
وأتى الغروب فراح مزدلفاً بها ... صلى وبات وقام بعدُ وقاموا
صلى بهم فجراً وقام لمشعرٍ ... ومنىً ويرمى هكذا ويرام
وتحللوا والنحر فيه طعامهم ... وأفاض طاف وطافت الأيام
وهنا ضحىً خطب الرسول وسمعهم ... للقول إن لم يفعلوه حرام
والسعى للمتمتعين الآن لا ... للقارنين.. أتى منىً وأقاموا
ورمى ويرمى الكل فيها رميهُ ... والكل وحيٌ شاءه العلام
وبرابع العيد استعدّ لنفرة ... منها لخيف حيث قام وقاموا
فى الخامس انطلق الرسول مودّعاً ... بطوافه.. وكذلك الإتمام
وإلى المدينة عاد من أم القرى ... لجهاده أيضاً عليه سلام

حسن أبو الغيط
كفر مصيلحة - منوفية



الهلال.. وألف ليلة وليلة

الهــــلال ديوان العـرب
أبـــدا وعنـــوان الأدب

هكذا أبدأ كلماتي.. فما أن وقع بصرى على غلاف عدد مارس ٢٠٠٥ معنونابخط بارز متمايز (ألف ليلة وليلة) حتى وجدتنى أنقب متصفحا أعدادكم من الهلال: فى أواخر تسعينيات القرن الماضى: أبريل ١٩٩٥، أبريل ١٩٩٨، وصولا إلى عدد قرننا الحادى والعشرين فى سنته الخامسة (مارس ٢٠٠٥) لكى يعلن الكاتب ماهر البطوطى (من ص ٤٢ إلى ص ٤٩) أمرا ثقافيا متصلا بميدان كشف أغوار النفس عند فرويد، يتصل بشخصية المرأة فى حكايات «ألف ليلة وليلة».

لقد وجدتنى أسترجع ما جاء بعد أبريل ١٩٩٥ من الهلال، والمعنون (حكاية ألف ليلة وليلة) من مقال د.شكرى عياد حين قال: «لقد حاول شهريار، أن يصحح الموقف بالقسوة، واستخدم سلطته المستمدة من كونه الأقدر على إعاشة المرأة، ولكن المرأة طريقا أفضل ولم يقف الناقد ابراهيم فتحى فى عدد أبريل ١٩٩٨ (ألف ليلة وليلة/ شهر زاد بين السخرية والإباحية) حين تحدث عن «عفاريت نجيب محفوظ، وليالى ألف ليلة وليلة من ص ٦٠ وحتى ص ٦٦ حيث قال

«ففى رواية محفوظ، ابراز لجوانب غامضة داخل البشر، لا يعيها الفرد بعقله، ولا يتحكم فيها بإرادته، وتحل فيها كأنها قوى خفية غريبة عنه، ذات نداء آسر».

وباستقرائنا لما جاء فى تلك المقالات، فإن «الهلال» يفرض على قارئيه الانتباه الواعى، لكى يستبين خيطا واحدا متصلا - مهما تباعد الزمن

حيـــاء

غضت الطـرف واستحت
أن تلتقــى عينـانـــا
أتـرى عيـونـك قـدمـت
عـن حبهـــا برهـانـــا
فيضـــا تـــلالأ بالمنـــى
قـــد عاشـــه قلبانـــا
وأضـــاء فى جنباتـــه
ألحـانـــه وازدانـــا
باللــه قـولى حبتـــى
ما أجمـل الإعـــلانـــا
قولى: «أحبك» واشهدى
رد الجـــواب الآنـــا

أحمد محمد الدماطى - الشهداء - منوفية



١ البابا كيرلس السادس

(١٩٠٢ - ١٩٧١)

ولد بدمنهور فى ٢ أغسطس ١٩٠٢

بعد أن أتم دراسته الثانوية عمل بإحدى الشركات بالإسكندرية، كان دائما يتخلى عن فراشه وينام على الأرض، كما كان يترك الطعام الذى يقدم إليه، ويكتفى بكسرة صغيرة من الخبز وقليلا من الملح.

فوجئ مدير الشركة التى يعمل بها باستقالته، وأغراه بزيادة مرتبه عشرة جنيهات دفعة واحدة.. فأبى، فقد كانت ينابيع الحياة الروحية أخذت طريقها إلى روحه، وأصبح وادى النطرون، برماله وحرارته القاسية ، وجباله المرتفعة، منتهى أمله.

فى وادى النطرون، وبالتحديد فى دير البراموس بدأ البابا كيرلس السادس، رحلته مع الرهبنة، وكان وادى النطرون مشهودا له بالقدسية، حيث كانوا يطلقون عليه «وادى القديسين»، وبعد أربع سنوات تم ترسيم «عازر يوسف عطا» قسا، وأخذ اسم القمص «مينا البراموسي» ولفرط جنوحه للوحدة، أطلقوا عليه المتوحد.

فى عام ١٩٣٥ مكث فى مغارة بالجبل الشرقى بجوار مصر القديمة، حتى عام ١٩٤٢، بعدها توجه إلى كنيسة العذراء عام ١٩٤٤، حتى أسس كنيسة «مارمينا» بمصر القديمة وطوال إقامته بها كان سمحا ودودا، يلقى الناس بالابتسام والبشر، ويحب الخلوة بالجبل.

حين توفى البابا يوساب فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٦ تم فتح الترشيح للبطريرك، وتمت الانتخابات فى يوليو ١٩٥٨، وكانت النتيجة أن نجح ثلاثة رهبان فقط، كان البابا كريس أحدهم، وبالقرعة أصبح القمص مينا البراموسى هو البابا كيرلس السادس وكانت له منزلة روحية، وله بعض المعجزات .

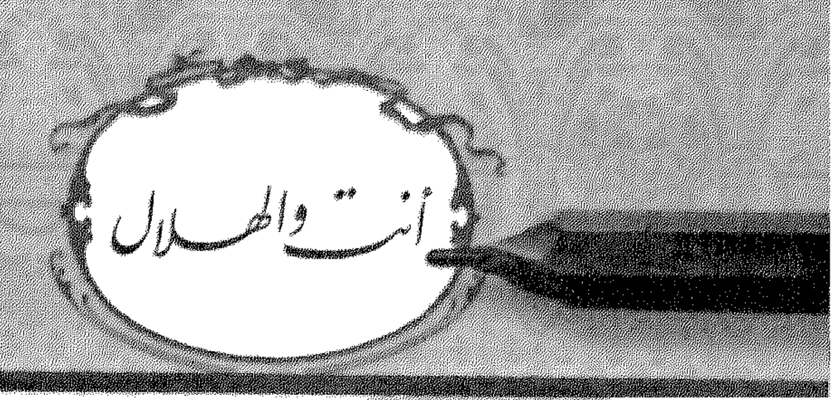
وقف البابا بكل قوة إلى جانب القضية الفلسطينية، وحينما ضمت اسرائيل القدس كتب رسالة إلى بابا الفاتيكان يقول فيها: «إننا هنا فى الشرق نحس بالأزمة فى الصميم، ونعتبر الطعنة التى سددتها اسرائيل بقرارها التعسفى، موجهة إلى قلب العرب، كل العرب مسيحيين ومسلمين، ووقتها خاطب الامبراطور هيلاسلاسى والذى رد عليه بأن أثيوبيا إلى جانب الحق العربي.

كان البابا كيرلس وطنيا محبا لجمال عبدالناصر وتربطهما علاقة وثيقة، وكان أول المطالبين له بالعدول عن التنحى فى ١٠ يونيو ١٩٦٧ عقب النكسة، وحين أعلن عبدالناصر قراره بالرجوع أمر البابا بأن تدق الأجراس ابتهاجا بهذه المناسبة .

وكانت علاقته متينة بعبدالناصر، حيث كان يذهب إلى بيته، وينقل إليه هموم الأقباط، وحلمه ببناء كاتدرائية جديدة، وقد وافق عبدالناصر على ذلك، ودفعت الدولة نصف مليون جنيه مساهمة فى بنائها، وكان قد تبرع قبل ذلك بعشرة آلاف جنيه للكنيسة، لكى تخرج من أزمتها المالية.

أما المفاجأة الأخرى فى علاقته الحميمة بعبدالناصر ، فهى أن الأرض التى بنيت عليها كنيسة «مارمينا» تم شراؤها بما تبرع به أبناء عبدالناصر، الذين كان يباركهم البابا فى زياراته الكثيرة لدى أبيهم فى منشية البكرى.

فى التاسع من مارس عام ١٩٧١ رحل الرجل الذى أحب وطنه وكثيرا ما ردد هذه العبارة « أن الروح العربية أقوي من الروح الغربية .



قصة قصيرة

زيارة لهم

أنهيت لتوى استعداداتي للحياة الجديدة، اتخذت مستقرى، كم اشتقت لأهلى وخلانى، أظنهم لى اشتاقوا، عزمت على أن أفاجئهم، أذهب لهم بنفسى.. دارت بخيالى دروب شتى كيف يستقبلونى بعد كل هذا الغياب عنهم.. ذهبت إليهم فى اليوم الذى قررت.. وجدتهم جميعا لم ينسونى، لم يجحدوا أعمالى بينهم، هم أوفياء حتى من لم يران منهم جهزوا لى أمسية جميلة تملأ أضواؤها الشوارع المجاورة، دون أن يعلموا أنى معهم، يحتفلون بى، يمجدون أعمالى، يسترجعون ذكرياتهم معى ويهدون باسمى الجوائز، كنت سعيدا جدا، التصفيق حاد، الدفاع عنى مستميت، طال بهم وبى السهر، مازالت جعبتهم تخرج أجمل الكلمات كأنهم لا يريدون الانتهاء... انتهت الأمسية... حرت لمن أبدا بشكرى، تفرق الجميع إلى مجموعات صغيرة، علاقات بينهم مشتركة... اقتربت من أحدهم، يكاد فرح قلبى ينطلق يعانقهم يشكر لهم جميل قولهم وفعلهم.

فلما اقتربت سمعت ما يقولون:

- كان اليوم متعبا جدا حمدا لله أنه مر بسلام..
- تصور لم أخذ من الندوة سوى ٢٠٠ جنيه...
- إذا كانت الجائزة الأولى ١٠٠ جنيه فقط!!!...
- كنا أرسلناها للفائزين بالبريد انتهينا من هذا العناء...

اتجهت إلى مجموعة ثانية:

- كان بحق تافها.. اكتسب أهميته من علاقته بالكبار...
- عرفت أنه كان قريبا للملك...
- وعصر الملوك انتهى ...
- لذلك زادت شهرة من عاصرهم...

جُلت كالضائع بين المجموعات، كم هى قاسية شدة الصدمة بعد شدة السعادة...

حمدت الله أنى تركت لهم الدنيا بما عليها منذ خمسين عاما!

راندا رأفت - القاهرة



مصطفى كامل.. زعيم وطنى

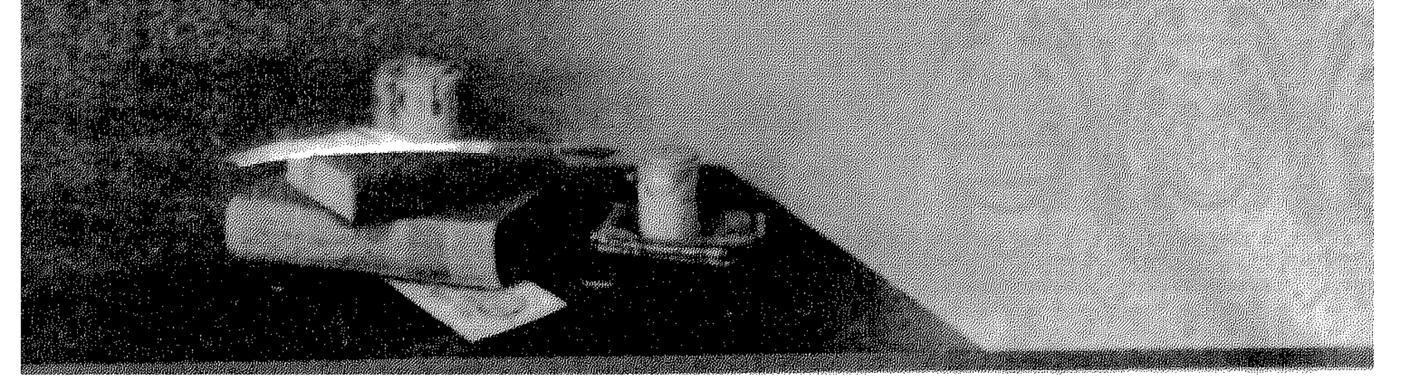
هو زعيم وطنى قال فيه الشاعر:

جلاء تم أو موت زؤاما ... وإلا صار ما نبغى كلاما

يسافر والقضية منه تسرى ... خلال عروقه ترجو احتداما

لأوروبا وللدنيا جميعا وان ... سكن الضنا منه العظاما

وأسس حزبه الوطنى حتى ... يجمع القلوب أن جمع الأناما



ويحكـــى الآن تـــــاريخ البـــــلاد	وإن كـان الزمـان على ابتـعـاد
بأنك كنت تمحـــو اليـــأس مـــحـــوا	وتشـرق كـالحـيـاء بكل واد
فتحـــرير البـــلاد يقول صـــبرا	غصـــون النصر تنبت من جهاد

ولد مـصطفى كـامل سنة ١٨٧٤ بحى الخليفـة بالقـاهرة وفى سنة ١٨٩١ بدأ عمله بالصحافة فكتب فى جريدتى الأهرام والمؤيد وظهر اهتمامه بالسياسة مبكرا وتجلى ذلك فى إصدار جريدة اللواء سنة ١٩٠٠ وفى سنة ١٩٠٧ أصدر جريدتين يوميتين بالانجليزية والفرنسية وفى نفس السنة أسس الحزب الوطنى وجعل شعاره الجلاء وفى سنة ١٩٠٤ حصل على الباشوية وسافر إلى أوروبا ليدعو إلى القضية المصرية.. أصدر مصطفى كامل عدة مؤلفات منها الشمس المشرقة، مصر والاحتلال الانجليزى وتوفى سنة ١٩٠٨

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

حوار داخل الذات

ما أعجبك ياقلبي! حبيبك يتحسس خطاك ويتنصت لهمساتك، يتحرك قلبه شوقا إليك تتجاذب أنفاسه إلى أنفاسك تحتضن عيناه عيناك وتقبل نظراته إياك، كم بات الليالى حزينا تمتلئ عيناه بالدموع يتطلع إلى لقائك.. يترجى كلامك.. وكأنه حين تمر من أمامه.. ينزع قلبه من جوفه، وترتعد جوارحه كل هذا لأنه يمتزج بفؤادك يهيم فى هواك، كل هذا وأنت واقف مكانك لا تحرك ساكنا، وكأنك قد تحجرت وأصبحت كالجمادات، لا تحس بما يدور من حولك، ومع ذلك فهو يتقدم إليك بخطوات حانية، فهل أنت ستسعى إليه؟

أم تقف كعادتك مكتوفي الأيدى، متبلد العقل، متعثر اللسان.

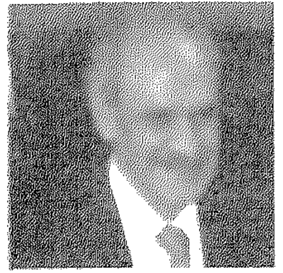
لا لا لا.....

سأتقدم إليه وأكسر كل الحواجز المانعة حتى أصل إليه، فأنا لا أحتمل أكثر من ذلك، فأنا لا أنام لأن صورته تطاردنى فى منامى، وأجدها فى المرآة، وعندما أتصفح كتيباتى أجد صورته مرتسمة على صفحاتها، وكأنه يسألنى كم ستظل على هذه الحالة المتردية؟ أريد منك أن تكون شجاعا تقتحم غمار المصاعب، كالفارس الجسور ممتط جواده حاملا سيفه اللامع، أريدك مثل أبطال الحكايات، لا أريدك خاويا تزروه الرياح!

عبدالله محمود عنتر - شبراخيت - بحيرة

الكلمة الأخيرة

الكتابة على أوراق النقد



بقلم: شكري فؤاد

للدكتور سيد عويس دراسة علمية طريفة منشورة بعنوان «هتاف الصامتين – ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات في المجتمع المصرى الحديث» تناول فيها بالتبويب والتحليل الكلمات والعبارات المتنوعة التى يكتبها المصريون على السيارات واللوريات والعربات والمركبات المختلفة، وإذا كانت الكتابة على المركبات ظاهرة تشاركنا فيها مجتمعات أخرى فهناك ظاهرة جديدة فى المجتمع المصرى أظن أننا ننفرد بها وهى الكتابة على أوراق النقد المتداولة ولعل بعض الباحثين يقدم لنا دراسة حولها شبيهة بدراسة الدكتور سيد عويس المذكورة.

ومن ملاحظة عامة لما يقع فى يدى من أوراق النقد بفئاتها المختلفة وجدت انه إلى جانب ماكان شائعاً من كتابة اسم أو رقم مثل «٢٠٠٠ جنيه» أو «الباقى ٨٥٠ جنيه» فإن هذه الأوراق أصبحت تستخدم الآن كوسيط لتبادل الرسائل أو إسداء النُصح أو بث المشاعر والعواطف، فعلى ورقة كتبت عبارة «جزمة كوتشى مقاس ٤٠ لأسامة ياأستاذ محمد» وعلى اخرى «إلى عادل السواق لا إله إلا الله» وعلى ثالثة «أهم شىء فى الدنيا الصلاة بعد الآذان فوراً فوراً» وعلى رابعة «من عمو بسام إلى سلوى وحسين كل عام وأنتم بخير مع أبوكم».

لاحظت كذلك أن كثيراً مما يكتب على هذه الأوراق كلمات تعبر عن مشاعر الحب والمودة منها «أذكرنى ولا تنسانى. نادية». و«إلى حبيبة قلبى. رامى». ومنها «بحبك موت. محمود». وأغلب الظن أنها وسيلة للاحتفاظ بذكرى من الحبيب أكثر آمناً من الاحتفاظ بخطاب منه قد يجلب لصاحبه أو صاحبته المشاكل.

أما الذى «أوقع القلب فى الأحزان والكمد» فكان ورقة من فئة الخمسة جنيهات كتب عليها «بحبك وبس وبك قلبى حس – حبيب عمرى لما تغيب أحس بعنيا تدور عليك – أسعد يوم فى حياتى. بموت فيك ٢٠٠٣/٤/٩». وقعت الورقة فى يدى بعد أقل من شهر من تاريخ الكتابة عليها فكيف هانت على صاحبها ليتخلص منها بعد هذه الفترة القصيرة؟ هل افترق الحبيبان بالرغم من هذه العاطفة الجياشة؟ ربما. أم أن ظروف الحياة الصعبة جعلت من الاحتفاظ بخمسة جنيهات كتذكار من حبيب أمراً لا طاقة له به؟ أرجو أن يكون الأمر كذلك. ■

أدبيات

بع الآداب والثقافة المعاصرة

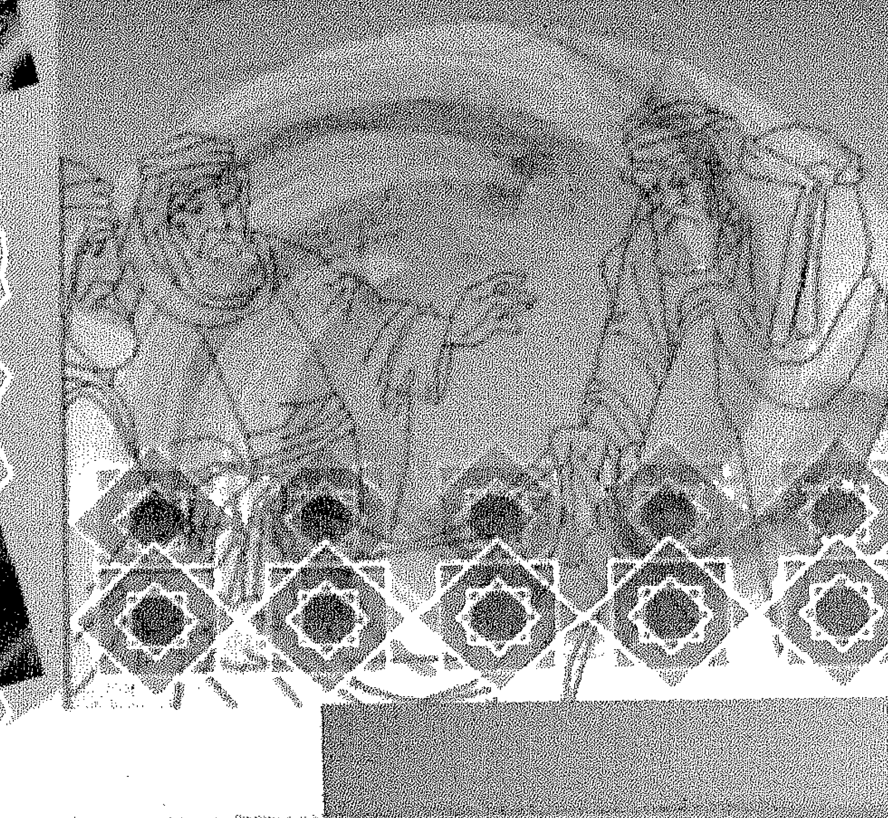
أدبيات

الكعبة المشرفة

أدبيات

هيكل اليهودي الثالث

أدبيات



عة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع ... شارع المنطقة
اعية بالعباسية - منافذ البيع ... ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري
... مصر الجديدة - القاهرة ت: ... فاكس: ...

الهلال

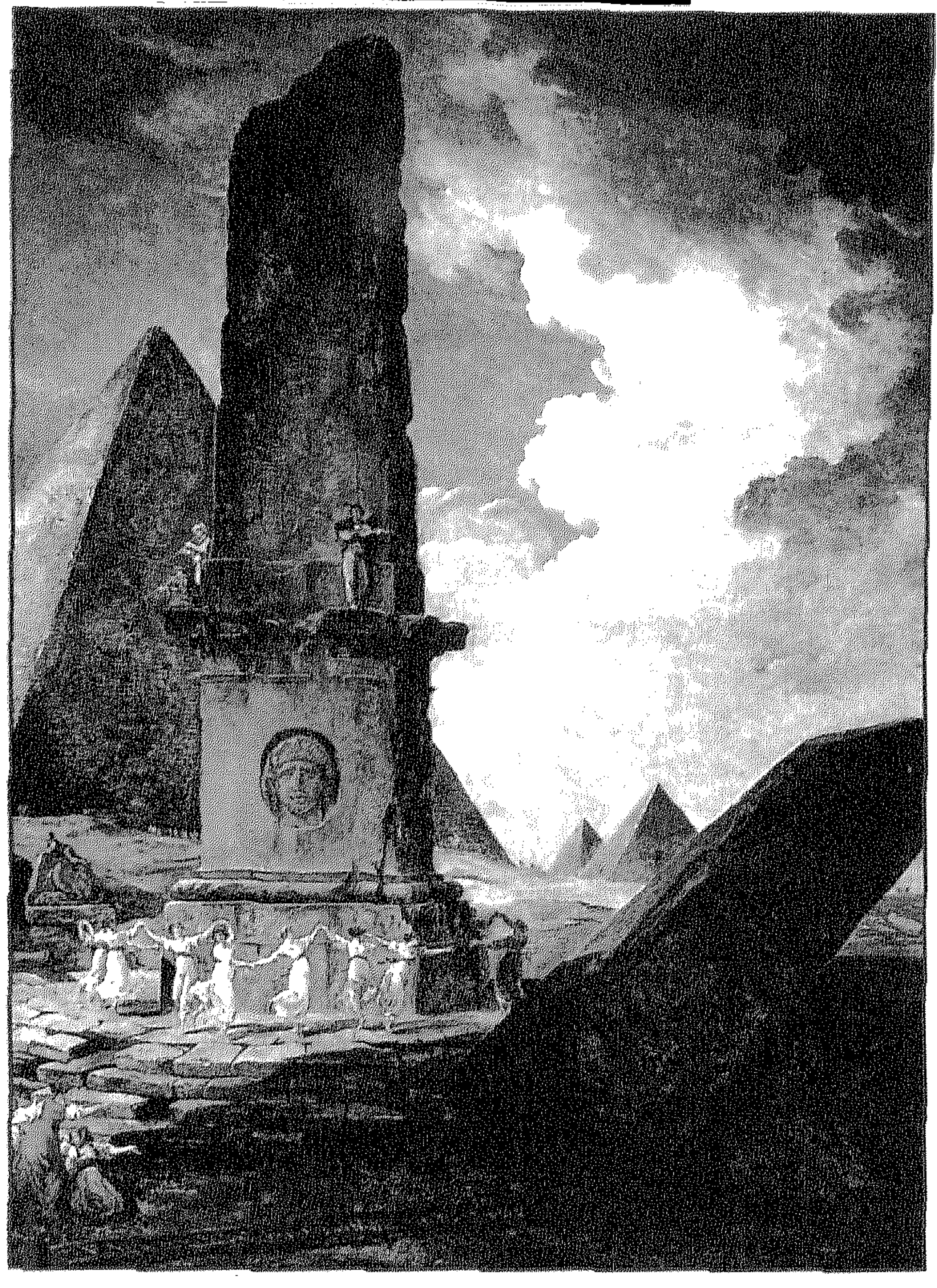
مايو ٢٠٠٥ الثمن ٤ جنيهات

- العولمة ومستقبل اللغة العربية
- الزواج العرفى إلى أين؟
- باشوات الصحافة



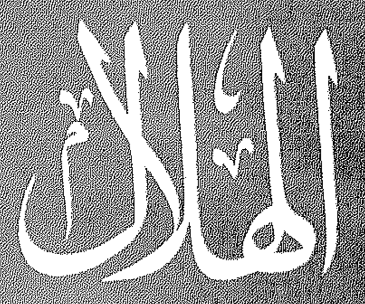
ذكريات جزائرية

لوحة وفنان



اللــوحــة : قارىء البخت من بصمة الرمال

الفنــــان : رودلف إرنست



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثالث عشر بعد المائة ربيع أول ١٤٢٦ هـ - مايو ٢٠٠٥م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

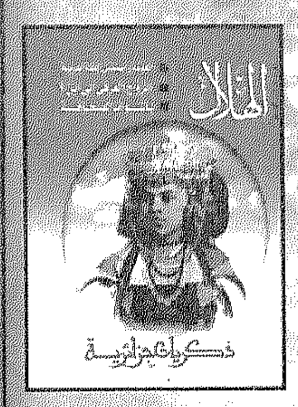
المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال

تليفون ٣٦٢٥٤٦٩ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن [illegible] دينار - الكويت ١ دينار - السعودية [illegible] ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي [illegible] - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ [illegible] / [illegible] ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات

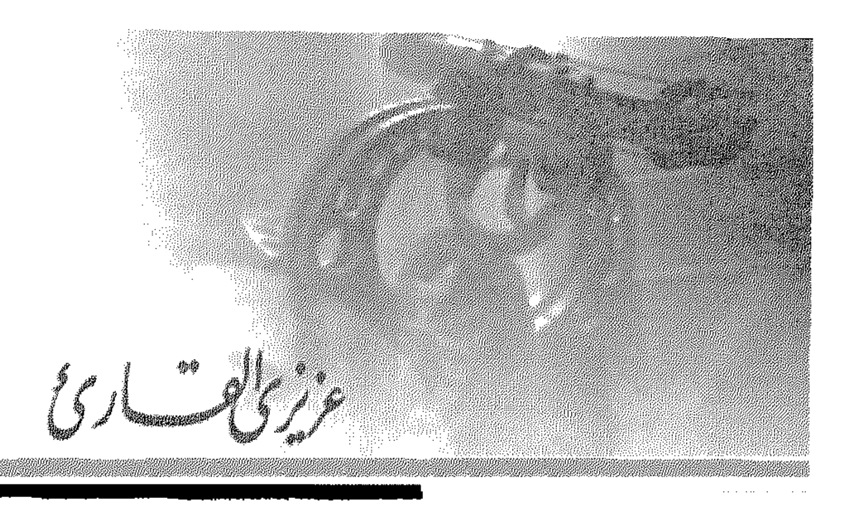




تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



مهرجان السينما

كل فن خليق بهذا الاسم يأخذ ويعطي، ويتلقي الثروة من كل وجه.

والمهم أن يحتفظ الفن بشخصيته، ويحرص على مقوماته، ويحسن الموازنة بين عناصر الثبات والاستقرار وعناصر التحول والتطور .

وبحكم أن السينما فن وصناعة وتجارة، في آن معا، فهي أكثر الفنون السبعة تعرضا لمحنة الاختيار التي قد تفسد - في حالة غياب الوعي- الأمر على فن السينما.

فصانعو الأفلام في مصر، قد يجدون أنفسهم بين أمرين إما أن يسايروا السينما الأجنبية، خاصة الأمريكية في كل صغيرة أو كبيرة، فيضعف فنهم، ويبتذل كثيرا. وإما أن يحتفظوا لفنهم السينمائي بشخصيته ومقوماته، ويحسنوا الموازنة بين القديم والجديد، فيجودوا أفلامهم، ويحفلوا بهذا التجويد .

وهؤلاء هم قوام الحياة السينمائية عندنا، وهم هداة الناس إلى فن سينمائي قومي، طابعه الأصالة والجمال .

وقد فطنت هوليوود إلى أهمية حماية السينما الأمريكية برفع مستواها والدعاية لأفلامها داخل الولايات المتحدة وخارجها، فأقامت لها، قريبا من نهاية عشرينات القرن العشرين مهرجانا سنويا، اشتهر ، فيما بعد، تحت اسم جوائزه، أوسكار ، وسرعان ما حذت حذو هوليوود صناعات سينما أخرى في بلاد كثيرة، أذكر من بينها على سبيل المثال، فرنسا إيطاليا إسبانيا، الهند واليابان.

وفي مصر ، قررت وزارة الثقافة، قبل ستة وعشرين عاما، إقامة مهرجان قومي للسينما، قصرته على الأفلام التسجيلية والقصيرة والتحريك.

وبدأت تظهر الثمار تباعا ، لاسيما أثناء المهرجان القومي الحادى عشر الذى انتهت فعالياته قبل أيام .

ومن بين هذه الثمار باقة من الأفلام التي ستحفظها زمنا غير قصير ذاكرة كل من أتيحت له متعة مشاهدتها ، ومن بين هذه الأفلام يذكر على سبيل التمثيل «جميل شفيق» للمخرجة علية البيلي و«جليد» رائعة المخرج رامي عبدالجبار و«تعيش سنيورة» وهو فيلم تحريك مخرجه خالد عبدالفتاح الطالب في المعهد العالي للسينما ، و«ملاكمة» و«أحلام حمار» وصاحبهما مخرج التحريك الموهوب علي سعد مهيب وكلا الفيلمين من

روائع ذلك النوع الصعب من الأفلام الذى تعثر إنتاجه فى مصر زمنا طويلا .

بعد ذلك باثنى عشر عاما تداركت الوزارة الأمر، فقررت إقامة مهرجان قومى آخر للأفلام الروائية الطويلة .

وما أن انتهت الدورة الرابعة للمهرجان الأخير، حتى قررت الوزارة دمج المهرجانين فى مهرجان واحد، أسمته المهرجان القومى للسينما المصرية.

والحق، أنه بدءا من ١٩٩٥ عام الدمج هذا، اتخذ المهرجان طابعا أكثر جدية .

فطوال الأعوام العشرة اللاحقة للدمج، راعى المشرفون على المهرجان إقامته بانتظام، دون أى انقطاع .

وواصلوا إصدار مطبوعات تعرف القارئ بالسينمائيين المكرمين، الأحياء منهم والأموات. وإن كان معظمها كتب دون التزام أصحابها بما كتبوا ، واحتمالهم تبعة ما كتبوا. فكان أن جاءت مخيبة للآمال، لا تقول عن المكرمين إلا أقل القليل، بل وفى بعض الأحيان لا تقول شيئا ، كما أن الشكل والحجم اللذين صدرت بهما قبل عشرة أعوام لا يزالان كما هما، لم يطرأ عليهما أى تغيير أو تبديل .

ومع ذلك ، فإيجابيات المهرجان أكثر من سلبياته شأنه فى ذلك شأن أى مهرجان قومى آخر. فبفضل تسليط الأضواء على الأفلام التسجيلية والروائية القصيرة والتحريك، نشأ جيل من المتخصصين في إبداع هذا النوع من الأفلام، وأخذت الثمار تظهر تباعا.

ووجدت السينما الروائية الطويلة طريقها من جديد .

ولعل خير مثل على ذلك هانى خليفة وكاملة أبو ذكرى وإيهاب لمعى وهالة خليل . فالمخرجون الأربعة سبق لهم قبل سنوات إما الفوز بجائزة لجنة تحكيم المهرجان للعمل الأول ، أو بجائزة أفضل فيلم روائى قصير .

وقد أتاح لهم هذا الفوز اقتحام عالم الفيلم الروائي الطويل ، بل إن أحدهم وهو هاني خليفة حصل هو وفيلمه «سهر الليالى» على جائزتى أفضل فيلم وإخراج «٢٠٠٤»

وبفضل قصر منح الجوائز ، إلا فى حالات قليلة، على مستحقيها، أصحاب الأفلام الروائية الطويلة ذات القيمة رفيعة المستوى، أخذت السينما الجادة، ورغم كل العقبات، تشق طريقها من جديد .

وهذا دليل من الأدلة على أن الفن السينمائى فى مصر يجتاز مرحلة جديدة، تقترب من الصدق والحياة، كما يحياها الإنسان. ■

المحــــرر



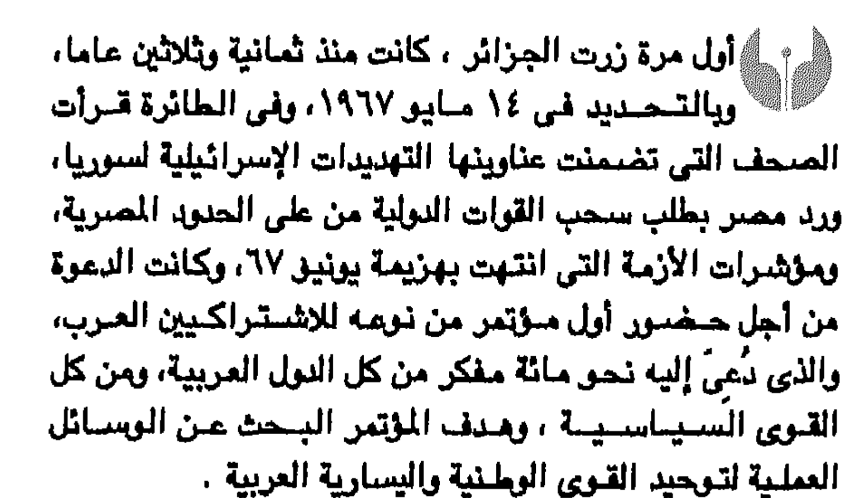
ذكريات جزائرية

بقلم
مصطفى نبيـــل

تتمتع الجزائر بميزات يصعب أن تجدها فى سواها ، وهى من أحب البلاد إلى قلبى ، زرتها كثيرا ، ولى فيها الكثير من الأصدقاء .

الصحراء والبحر ، والغابة والجبل ، التلال والوديان ، مشاهد تطالعك عند زيارتها ، تدرك عند التجول فى أنحائها ، لماذا أصر المستعمرون الفرنسيون على البقاء فيها نحو ١٣٠ عاما ! ، ولماذا أصيبت فرنسا بعقدة الجزائر ! ، ولماذا قاتل الجزائريون ببسالة حتى يستردوا بلادهم!

وكلما غادرتها ، عاودنى الحنين إليها ..

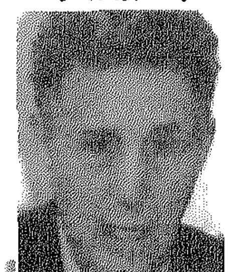


أول مرة زرت الجزائر ، كانت منذ ثمانية وثلاثين عاما ، وبالتحديد فى ١٤ مايو ١٩٦٧، وفى الطائرة قرأت الصحف التى تضمنت عناوينها التهديدات الإسرائيلية لسوريا، ورد مصر بطلب سحب القوات الدولية من على الحدود المصرية، ومؤشرات الأزمة التى انتهت بهزيمة يونيو ٦٧، وكانت الدعوة من أجل حضور أول مؤتمر من نوعه للاشتراكيين العرب، والذى دُعِىَ إليه نحو مائة مفكر من كل الدول العربية، ومن كل القوى السياسية ، وهدف المؤتمر البحث عن الوسائل العملية لتوحيد القوى الوطنية واليسارية العربية .

ومازلت أذكر المناقشات التى دارت بين أعضاء الوفد المصرى ، وأكد الرسميون منهم ، عدم توقع نشوب القتال ، فالولايات المتحدة الأمريكية مشتبكة فى فيتنام لذا فليس لديها استعداد لفتح جبهة جديدة !



عبد العزيز بوتفليقة



أحمد بن بيلا

وباستعراض أسماء المدعوين ، تلحظ التغيرات الكبيرة التى وقعت فى أفكار وتوجهات الكثير منهم .

كان من المدعوين جلال الطالبانى (رئيس العراق الحالى) ، ونقولا شاوى (لبنان) وعبدالخالق محجوب (الذى أعدم فى السودان) ، وفؤاد نصار (الأردن) ، وفؤاد الركابى (الذى صفى فى أحد سجون العراق) ، وخير الدين حسيب ، وسعدون حمادى ، وعبدالله الطريقى (السعودية) وفاروق

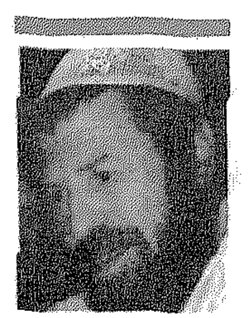
قدومى (أبـو اللطـف) ، ومنهم محـسن إبراهيم وكمال جنبلاط وحسـين عـودات ، وعبدالله الريمادى والصادق المهدى .

وضم الوفد المصرى، كمال الدين رفعت ، ود. إبراهيم سعد الدين ، ومـحـمـود العالم، وأحـمـد بهاء الدين، ولطفى الخـولى وغيرهم .

وقام بالإعداد والتحضير لهذا المؤتمر كل من الأخضر الإبراهيمى ومحمد الميلى ، ومن علامات الاهتمام بهذا المؤتمر، أنه عـقـد فى «نادى الصنوبر» أو «قـصـر الأمم» واستـمـرت مناقشات المؤتمر ، خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر مايو، وفى أوراقى ملاحظة حول عـقـد المؤتمر مع وجـود عـدد من المناضلين في السجون الجزائرية بلا محاكمة، منهم بن بلا ومحمد حربى وبشير الحاج على .

ووصل المؤتمر لنتائج باهرة فى إطار توحيد القوى الوطنية ووضع برنامج عملها ، وجاءت هزيمة يونيو ومانتج عنها من احتلال أراضى ثلاث دول عربية ، لتزيل نتائج المؤتمر وتقضى عليه بالضربة القاضية .

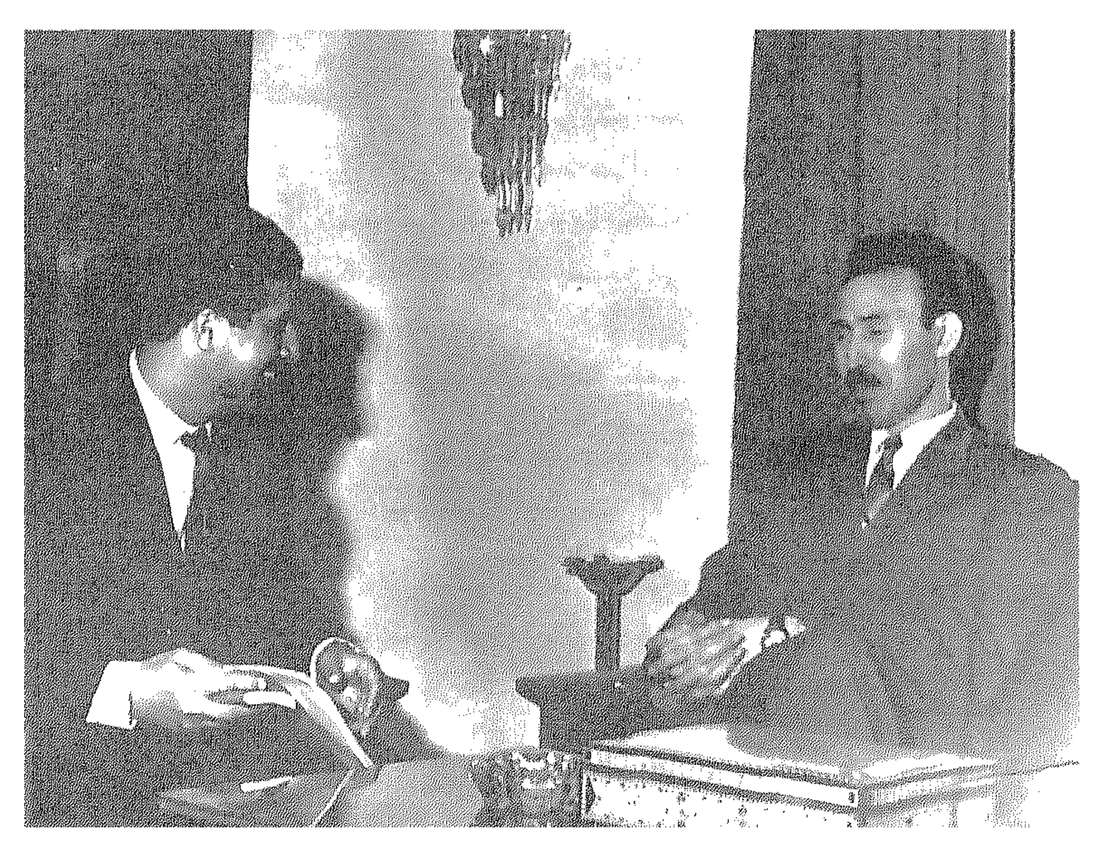
وأظن أن هناك علاقة وثيقة بين هذا المؤتمر وبين ما وقع فى ٥ يونيو ، ليس فقط فى زمن كل منهما ، بل جاءت يونيو حتى توقف زحف القوى السياسية المختلفة نحو الحداثة والنهضة على امتداد الأرض العربية ،ولم تتحقق قرارات المؤتمر، ولم تعقبه اجتماعات دورية كما كان مقررا، والتى حدد مكانها فى دمشق .


عباس مدني


الشاذلي بن جديد

بين مؤتمرين .. !!

أما المرة الأخيرة التى زرت فيها الجزائر ، فكانت فى الشهر الماضى لحضور «المؤتمر القومى العربى» ، وشتان بين ما دار فى كلا المؤتمرين ، الأول يبحث عن آليات العمل ، ووسائل عملية لتحقيق أهدافه ، أما الثانى فلا ينقصه الإيمان ولا الحماس . وبذل جهد حسن فى توصيف الوضع الراهن ، ولكنه لم يقدم ما يمكنه من اقتحام المستقبل ، حتى ولو كانت رؤية نظرية تساعد على فتح مجالات جديدة للنهضة ، وتاه خلال البحث عن وسائل مبتكرة ومبادرات فعالة فى مواجهة المخاطر الحالية ، ومثلما اجتمع من قبل فى ظل التهديد الأمريكى بغزو العراق ، وارتفعت خلال المؤتمر صيحات إدانة الغزو ، ولم



بسيط .. خجول .. رغم كونه رجل دولة من طراز فريد .. هكذا كان هوارى بومدين فى لقائه مع مصطفى نبيل - ١٩٦٧

يجدوا ما يقدمونه لوقف الغزو ، يكتفون بالكلام ويعجزون عن الفعل !

وما رأيته فى مؤتمر الجزائر ، لا يزيد على مظاهرة تعبر بصدق عن المشاعر العربية ، تجاه ما يحيط بالموقف العربى من مخاطر ، يشترك فيها أناس لا ينقصهم الإخلاص ، ولا النوايا الحسنة ، ولكنهم فى ذات الوقت ينطبق عليهم ما سبق وقيل عن «البربون» ملوك فرنسا .. «إنهم لم ينسوا شيئا ، ولم يتعلموا شيئا !» .

الجزائر فى القلب

وعاشت الجزائر - تلك الأيام - فى قلب الحركة العربية وعقلها ، وخاصة خلال حرب التحرير، نتحمس لانتصاراتها، ونأسى لمصاعبها . وقدم العرب للثورة الجزائرية كل الدعم، وعرف الرأى العام أسماء قادتها ، وقرأ صحفها ونشراتها، وتحيز لقادتها .

واحتفى بالجزائر بعد استقلالها ، ورحب بثورتها التى

غيرت موازين القوى ، وإضافة قوة الجزائر إلى القوة العربية . واعتبر انتصارها من أهم انتصارات العرب فى النصف الثانى من القرن العشرين ، بعد أن كتبت الثورة بدماء الشهداء أكبر ملحمة فى تاريخ العرب الحديث . ويوم رفعت الأعلام الجزائرية ونكست الأعلام الفرنسية فى ٣ يوليو ١٩٦٢ ، كان انتصارا للعرب جميعا .

كانت قلوبنا متعلقة بأحمد بن بلا أول رئيس للجمهورية ، بصفته رمزا للأحلام العربية ، والذى أطيح به عقب فترة الانطلاق سنة ١٩٦٥ ، التى اتسمت بالعاطفة الجياشة والحماس ، واستعجال إنجاز كل ما فات الجزائر تحقيقه .

ولكن صح ما قاله لى فى باريس أحمد بن بلا بعد الإطاحة به والإفراج عنه .. قال :

«لم ندرك بالقدر الكافى ، قوة القوى الدولية ، واستهنا بحيلها وبقدرتها» .

مع بوخروبة

وفى ذكرياتى .. عندما التقيت بالرئيس هوارى بومدين فى لقاء خاص قبل حرب يونيو، وعندما كانت أزمة الصراع العربى الإسرائيلى فى أوجها وجدتنى أمام إنسان بسيط ، وخجول ، يتكلم بصوت خافت ، وهو رجل دولة من طراز فريد ، يأخذ نفسه بالشدة ، صارم فى حياته ، ترك الدراسة فى الأزهر الشريف وانضم إلى قوات جبهة التحرير كجندى بسيط ، ولكن مقدرته وبسالته جعلته رئيسا للولاية الخامسة ، ولاية وهران ، ثم أصبح قائدا للجيش عام ١٩٥٩ ، ثم رئيسا للجزائر

وقد خرج من بين فلاحى الجزائر فى عنابة ليعبر عن إصرار الشعب العربى فى الجزائر على التحرر والنهضة .

كان هادئا واثقا من المستقبل ، بعد أن أعلنت الجزائر التعبئة العامة ، وهوارى بومدين هو اسمه الحركى ، الذى حمله بعد ذلك ، أما اسمه الحقيقى فهو «بوخروبة» .

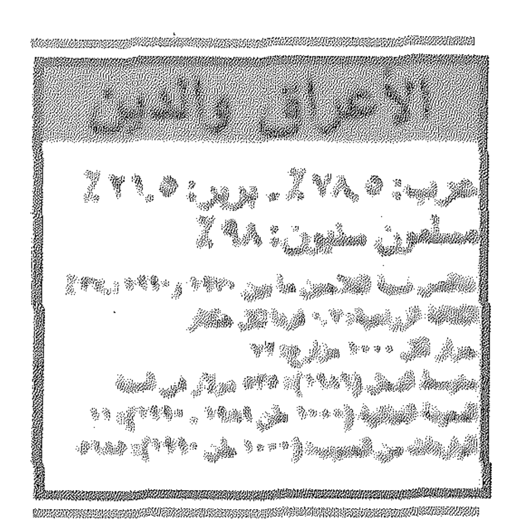
ومما ذكره فى هذا اللقاء قوله :

«المعركة بالنسبة لمصر وسوريا والجزائر معركة واحدة ، وموقف الجزائر هو رد فعل طبيعى ومنطقى ، وهو ليس ردا عاطفيا ، أو مجرد عمل من أعمال التضامن ، ولكنه قائم على

أساس الدفاع عن النفس . فقد حان الوقت لتواجه القوى المختلفة مسئوليتها ، وعلينا أن نقف صفا واحدا أمام مصالح الإمبريالية والصهيونية والاستعمار القديم والجديد ، ومن الضرورى أن نقف صفا واحدا لمواجهة هذا التحالف» .

ومما قاله : «منذ قرن من الزمان تستغل دول العالم الثالث، وحان الوقت لرفع الظلم والاستغلال عن دوله ، وألا يستمر استنزاف موارده عن طريق تجهيل وإفقار الشعب ..».

وتمضى الذكريات ، ولا تكتمل الحكاية فصولا .. فبعد أن غادرنا الجزائر إلى المغرب ، بدعوة من الاتحاد الوطنى للشعب، وبينما كنا نتجول فى ربوع المغرب ، ونتنقل بين مدنها، وقع العدوان الإسرائيلى وعشنا أياما صعبة ، نتلمس حقيقة ما يجرى ، ولم يصدق أحد ما تذيعه إذاعة أوروبا رقم (١) ، وأكد لنا الدبلوماسى المصرى عبدالعزيز اسحق ، أن طائراتنا مازالت فى هناجرها تحت الأرض ، وسيكون ظهورها هو مفاجأة الحرب! وكان ذلك تعبيرا عن رفض تصديق ما يجرى!، وأخذنا نعمل من أجل العودة إلى القاهرة ، وعندما أغلق مطار القاهرة ، سعينا للعودة عن طريق البر ، ولكن السفارة الليبية رفضت إعطاءنا تأشيرة مرور للعبور من ليبيا .



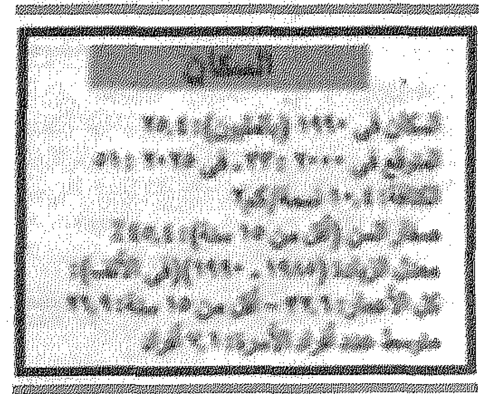
وعدنا إلى الجزائر ، ومرة أخرى استضافتنا الجزائر فى قصر الشعب ، ورافقنا الكولونيل عثمان ، وكنا نجلس يوميا مع عدد من أركان حرب الجيش الجزائرى ومستشارى الرئيس الجزائرى ، يسألون ويناقشون ما يجرى على أرض المعركة ، وكثيرا ما دمعت عينا الكولونيل عثمان ، ورووا مدى انفعال الرئيس ، حتى أنه انتزع خصلة من شعره فى لحظة غضب ، ولم تكن لدينا إجابات على الكثير من أسئلتهم ، وأقيم اتصال مباشر وخط تليفون مفتوح بين القاهرة والجزائر ، تابع من خلاله بومدين سير المعارك ، ووضع جميع قوات جيش التحرير فى المعركة ، وتحركت بالفعل أعداد كبيرة من هذه القوات إلى أرض المعركة ، بل ووضع جميع أرصدة الجزائر من العملة الصعبة تحت تصرف مصر ، وقطعت الجزائر النفط والغاز عن

الدول المعتدية ، واقترح الرئيس الجزائرى على الدول العربية وقف النفط لمدة عام .

وأضيفت قوة ثورية كبيرة إلى رصيد المعركة ، وفى كلمات واضحة قال وهو يودع طلائع جيش التحرير المتجهة إلى أرض المعركة .. «أقول لكم من وحى تراث الجزائر ، أمامكم أحد طريقين النصر أو الاستشهاد» وأضاف .. «المعركة ليست من أجل القناة ، ولا من أجل سيناء ، ولا من أجل شبر واحد من الأرض فقط ، ولكن المعركة إذا لم تكن قائمة على أسسها وقواعدها الحقيقية التى هى الوطن العربى كله ، وإذا لم تستمر المعركة فسنبقى راكعين» .

وأكد .. «لقد وجدنا أمريكا وبريطانيا بكامل قواتهما العسكرية والمادية والدعائية ومن ورائهما أوروبا كلها جندت لسحق العرب» .

«وسيحكم علينا التاريخ بأننا خونة ومنهزمون ، إذا قبلنا الهزيمة» .

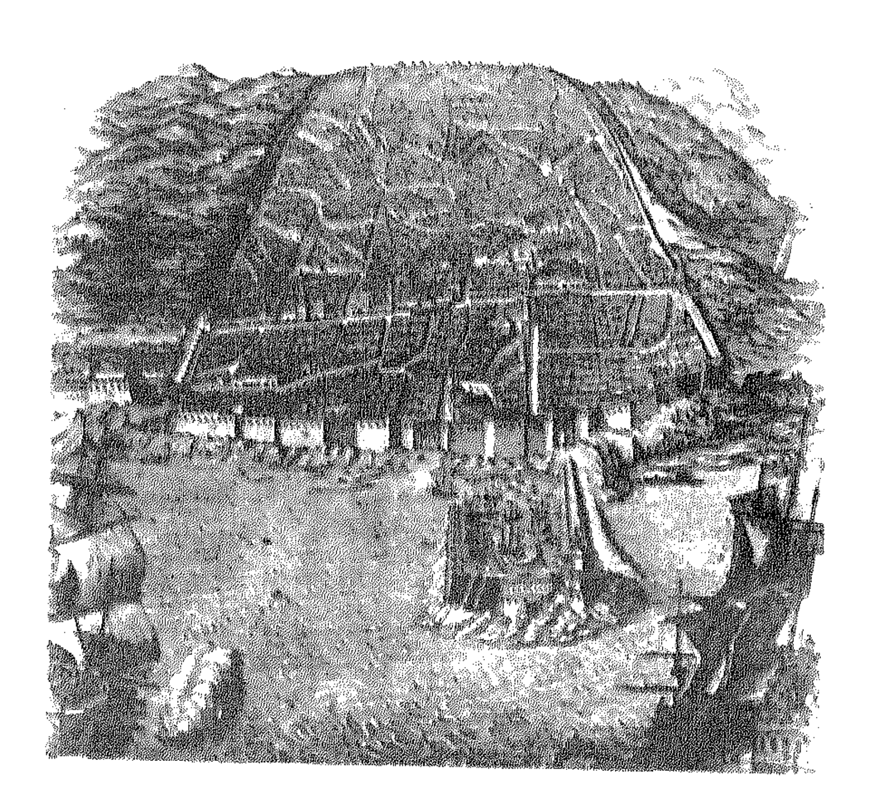


وعبر بعد ذلك عن دهشته لوقف إطلاق النار ، وكان يرى استحالة عبور القوات الإسرائيلية قناة السويس ، وإلا ستكون مهمتها الدفاع عن نفسها .

ورغم هذا الموقف سافر إلى موسكو مع الرئيس العراقى عبدالرحمن عارف للإعداد للجولة التالية، وقدم للسوفييت مائة مليون دولار ثمنا للأسلحة التى تحتاجها المعركة .

ومع كل يوم جديد ، نهيم على وجوهنا فى شوارع وسط العاصمة ، ونتجنب الكلام باللهجة المصرية حتى لا نتعرض لتصرفات عدائية ، فقد كانت الجزائر «غاضبة» من وقف إطلاق النار ، وفى يوم واحد ، يوم ٩ يونيو ، خرجت المظاهرات فى الصباح ترشق السفارة المصرية بالحجارة ، احتجاجا على وقف إطلاق النار .

وفى المساء استمعت الجزائر بكاملها إلى خطاب عبدالناصر ، وعندما أعلن التنحى خرجت مظاهرات عارمة من هؤلاء الذين كانوا يقذفون السفارة بالحجارة ، يطالبون عبدالناصر بالعدول عن الاستقالة والاستمرار فى المعركة



لوحة لمدينة الجزائر بأسوارها القديمة ، رسمت فى ١٦٨٨ ، وتعتبر من أدق اللوحات التى صورت المدينة فى ذلك الوقت

العربية ضد الصهيونية .

وعدت مع الوفد الصحفى فى أول طائرة تصل إلى مطار القاهرة ، وهى طائرة خاصة كانت تحمل كلا من عبدالعزيز بوتفليقة وزير الخارجية والرائد سعيد عبيد أحد قادة جيش التحرير (الذى أعدم بعد ذلك لاتهامه بالقيام بمحاولة انقلابية) وكان المبعوث الجزائرى من أوائل الوفود العربية التى وصلت إلى مصر ، وكانت مهمته البحث عن وسائل دعم الموقف العربى .

أزمة فى العلاقات !

وفى المرة الثانية التى زرت فيها الجزائر كنت بصحبة وزير الخارجية فى هذا الوقت د. مراد غالب ، وضمن وفد صحفي، وكانت ثمة بوادر افتراق بين القاهرة والجزائر ، وأخذت الصحف الجزائرية تنتقد الموقف المصرى والسياسة المصرية، وضم الوفد الصحفى مكرم محمد أحمد وأنيس منصور ومحفوظ الأنصارى ، والتقى الوفد الصحفى المصرى لقاء مطولا مع الرئيس الجزائرى رتبه محيى الدين عميمور .

ونزلنا ضيوفا على أحد القصور التى كان يقطنها أحد أبرز رجال الإدارة الفرنسية السابقين ، وهو قصر يذكرك بقصور ألف ليلة وليلة ، ترى الفن فى كل جزء منه ، ومن

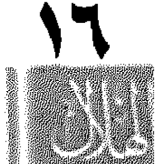
خلف ظهورنا ، طلب أنيس منصور نوعا خاصا من الطعام ، يتناسب مع حاجته الصحية ، وطلب أن يقدم لنا يوميا !

وأستطيع أن أزعم أن هذا الوفد لعب دورا بارزا فى تجاوز الأزمة بين البلدين ، وعندما قلت للرئيس الجزائرى ، إن مصر وقفت إلى جانب الثورة الجزائرية وأيدتها فى كل الأحوال ، ولم تعترض عندما وقعت الحكومة المؤقتة اتفاقية إيفيان التى جعلت ميناء المرسى الكبير للفرنسيين لمدة ١٥ عاما ، فممثلو الجزائر هم الأعرف بظروف الثورة وموازين القوى ، وهى فى النهاية التى تتحمل نتائج اختياراتها ، أبدى الرئيس تفهما كبيرا ، وسحب الكثير من تحفظاته ..

ومما قاله .. «من اجتهد وأصاب فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد ، ولابد فى مواجهة الأزمة التى تواجهها الأمة العربية أن تختلف الاجتهادات ، والتباين فى وجهات النظر لا يضر القضية الرئيسية ، ولعل اختلاف الوضع الجغرافى والسياسى هو الذى أدى إلى اختلاف الاجتهادات ».

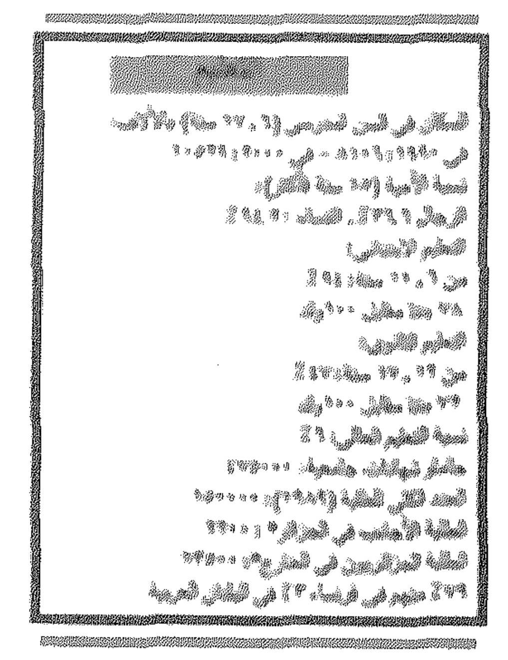
وأضاف الرئيس الجزائرى : «قلنا إنه لا ينفع الكلام اللين مع الصهاينة ، فلا ينفع معهم سوى الهراوة والدبوس .. وهم مازالوا منتشين بنشوة النصر وغروره ، .. ومن الصعب أن يقبلوا العودة إلى خطوط ١٩٦٧ ، ولابد من كفاح مرير ، ودفع ثمن غال من أجل التحرير» ، وأردف قائلا .. «يقولون إن مصر ضربت ، وتريد الجزائر أن تحل محلها وترث نفوذها .. والذين رددوا هذا الكلام لم يقدموا عليه أى برهان أو دليل ، ولم تثبته الشواهد المادية» ..

وأضاف: «القول بأن مفتاح القضية فى أيدى الأمريكان ، أو أن الأمل فى تقديمهم للحل ، خطأ جسيم ، وهو يضلل الرأى العام ، وله أسوأ الأثر على الشباب المتطلع لتحرير أرضه .. ولا يهم أفق هذه المراحل ، ولتكن عشر أو خمس عشرة أو عشرين سنة ، والمهم أن نكافح ، وإذا لم نقدر نحن تأتى أجيال جديدة تكمل الطريق ، وهناك نقطة أريد أن أؤكدها ، وهى أننا كنا صادقين وحريصين ومنفعلين بالأحداث التى هزتنا جميعا ، والتى كان الشرق العربى مسرحا لها ، وصحيح أننا بعيدون جغرافيا عن أرض المعركة ، ولكننا نعيشها بكل ما نملك» ..



ومما قاله أيضا : «نعم علينا أن نلجأ للمنظمات الدولية كمنبر للدفاع عن حقوقنا المشروعة ، ولكن على ألا نتصور أن في ذلك حلا لمشاكلنا ، فما تمكنت الأمم المتحدة من وضع حل لأى مشكلة حادة ، كما أن التسليم للقوى الكبرى سواء الصديقة أو العدوة لا يخدم المصالح العربية . (المصور ٧٢/٤/٢١) .

وعندما ذهب رئيس الأركان المصرى الفريق الشاذلى إلى الجزائر قبل حرب أكتوبر ، قال له الرئيس الجزائرى ، «عليك أن تقوم بجولة فى جميع معسكرات الجيش الجزائرى ، وأن تنتقى من مخازن الجيش كل ما تحتاجه القوات المصرية »، . وهذا بعد أن نجح بومدين فى تحويل كتائب المجاهدين إلى جيش عصرى، وقدم خلال حرب أكتوبر ٢٥٠ دبابة وسربا من طائرات ميج ١٨ . وظهرت بالفعل قوة الشعب الجزائرى وجيشه .



لقد رحل بومدين ، بعد أن أضاف الكثير للموقف العربى ، وليس غريبا ما أذاعه الطبيب السوفييتى المعالج يفجينى شازوف ، والذى ألمح إلى شبهة اغتيال الرئيس الجزائرى ، ويتساءل : هل مات بومدين مسموما ؟!

وهو يقول : «انتابنى شعور عميق لحظة وفاة بومدين بأن أسبابا تم إخفاؤها عن أعيننا كأطباء هى التى تكمن وراء وفاة بومدين ، فبدأت كرات الدم البيضاء تتزايد ، ولاحظنا تغيرات مرتبطة باختلال جهاز المناعة ، ولا نملك سوى القليل عن أسرار تحول جهاز المناعة لدى الإنسان من صديق يدافع عن جسده إلى عدو غادر يودى بحياته »

ربع قرن على الاستقلال

وتكررت زيارتى للجزائر ، زرتها بمناسبة الاحتفال بمرور ربع قرن على الاستقلال فى يوليو ١٩٨٧ ، مع عدد من الكتاب، وبدت لى بعض الأمور تتغير ، وكتبت فى المصور ٨٧/٧/١٧، أقول .. «وصلت أرض الثورة وأتوقع أن أسمع جوانب من ملحمة البناء ، وأن أشاهد تقييما لأحداثها وأتعرف على بعض خفاياها ، وأن تقدم دروسها للأجيال الجديدة ، ودهشت عندما

لم أر ولم أسمع أى فرد من رموز الكفاح ، ولم يذكر خلال الاحتفال اسم التسعة الذين فجروا ثورة الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ ، وحتى لم يذكر اسم عباس فرحات أول رئيس للحكومة المؤقتة ، ولم يذكر إلا قليلا هوارى بومدين ..».

كما لاحظت خلال هذه الزيارة ، بداية معاناة الجزائر من الانفجار السكانى واكتظاظ المدن بأهل البادية والريف ، فإذا كان السكان فى مصر يعيشون على الوادى الضيق ، فسكان الجزائر يعيشون فى ساحل ضيق فى الشمال ، ويتناقص السكان كلما اتجهنا جنوبا مع تناقص المطر ، هذا رغم مساحة الجزائر الواسعة .

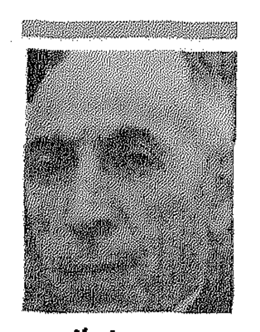
وتحت عنوان .. هل تصمد تجربة الحزب الواحد فى الجزائر ، كتبت .. «انطلقت المياه من خلف السد ، وما لم تنظم هذه المياه المتدفقة فى قنوات ومسارات واضحة فهى تنذر بالكثير من الأخطار» .

ولم يعد ما تم إنجازه فى الماضى كافيا ، ولم يعد الاحتماء بالنقاء العقائدى السابق أو استمرار الجمود الفكرى بقادرين على صد تيار التغيير، فأخذت الصحافة الجزائرية تستنكر احتكار الرأى وفرض وصاية الحزب الواحد على الشعب ، وقيام طبقة جديدة من الأثرياء الذين يحققون الثروات الضخمة على حساب الشعب ، بعد أن استولوا على قصور «الكولون» الفرنسيين وامتيازاتهم، وظل الشعب الذى قدم أغلى التضحيات يعانى الفاقة ، وأخذت مكاسبه التى وفرها بومدين تتآكل .

وعجزت الحكومة عن الاستجابة إلى مطالب الأجيال الجديدة فى العمل والسكن ، كما عجزت عن التواصل مع أجيال جديدة لم تعش الثورة يصل عددها إلى ٧٥٪ من السكان الذين تقل أعمارهم عن ثلاثين عاما ..

ورغم أن الجزائر تتمتع بثروات كبيرة ، فهى تجمع بين الزراعة والنفط ، ولديها قاعدة صناعية تعمل بأقل من ٣٠٪ من طاقتها ، ولكن أعجزها تخلف الأداء ونقص الكوادر القادرة ، ثم انتشار الفساد .

وأكدت التجربة الجزائرية أن بناء الدولة الحديثة أكثر مشقة من تحقيق الاستقلال وأن بناء المؤسسات فى ظل الحرية هو التحدى الذى يواجه دول العالم الثالث ..» (المصور


محمد بوضياف


هواري بومدين

٨٨/١١/٢٥) .

واستعانت الحكومة فى اتجاهها الجديد بكل من التيار الأمازيغى والتيار الإسلامى ، وعانت من الفساد حتى أعلن أحد رؤساء الوزارة السابقين عبدالحميد إبراهيمى الميلى أن الفساد أدى إلى نهب ٢٦ مليار دولار !

وانتهت هذه المرحلة بتدخل الجيش ، وتقليص نفوذ الحزب، وتعيين العميد خالد نزار قائدا لأركان الجيش واليامين زروال نائبا لقائد الجيش .

وفى ظل هذه الظروف أحرزت جبهة الإنقاذ بقيادة عباس مدنى الأغلبية فى انتخابات البلدية ، وبعدها الانتخابات النيابية التى جرت فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١ ، ولعل وجود قادة الجبهة فى السجون خلال إجراء الانتخابات كان أحد أسباب هذه النتيجة ، والتى تعتبر فى أحد وجوهها هزيمة لجبهة التحرير أكثر من أنها فوز لجبهة الإنقاذ ، وعندما اختلط الحزب والسلطة ، أصبح من العسير التمييز بينهما .

وأدى الانفجار الشعبى فى أكتوبر ١٩٨٨ إلى قرار إلغاء الطوارئ ، وإعلان عدد من الإصلاحات الدستورية التى قضت على هيمنة حزب جبهة التحرير على الحكومة .

وبعد أن ظهرت رغبة جادة في الانتقام من النظام، رجاله ومؤسساته ، وبعد أن زادت الفجوة بين الخطاب والواقع وفقد الرأى العام الثقة فى مؤسسات الدولة .

وظهرت نتيجة لتقاعس الحكومة مجموعة من الأمراض ، فبعد أن كان سكان المدن لا يتجاوزون ١٧٪ فى الخمسينيات ، وأصبحوا سنة ١٩٨٧ يزيدون على ٥٠٪ . وأقيمت مدن تفتقر إلى الحد الأدنى من توفير الاحتياجات ، كما بلغ معدل البطالة فى أوائل التسعينيات ٣٠٪ من القادرين على العمل ، وتفاقمت مشاكل السكن والصحة والتعليم .

ووقع الانفجار فى لحظة تحول ، وعند مفصل الانتقال من نظام إلى آخر .

وبعد إلغاء نتيجة الانتخابات ، انتقل الصراع من صناديق الانتخابات إلى الجبال والقفار ، بين الجيش وقوى التمرد ، وأدى إلى ضحايا بالآلاف ، وخسائر مادية كبيرة وأدى إلى إضعاف الاقتصاد وتفكيك الدولة والمجتمع .

وأقيل الرئيس الشاذلى بن جديد ، ومنذ استقالته فى يناير ٩٢ حتى انتخابات نوفمبر ١٩٩٥ ، تولى الرئاسة أربعة رؤساء محمد بوضياف أحد القيادات التاريخية الذى تم اغتياله ثم على كافى واليامين زروال .

وعاشت الجزائر مسلسلا طويلا من الإرهاب ، ومر نحو عقد من الزمان والجزائر تعيش محنة سوداء ، بعد أن أنهكها العنف، وحان الوقت لكى تسترد عافيتها ، مع الجهود التى يبذلها الرئيس الجزائرى عبدالعزيز بوتفليقة ، وإعلانه قانون الوئام الوطنى ، ومناداته بالمصالحة والحوار بين كل الأطراف ، وإصداره قانون العفو العام ، وفتح صفحة جديدة ، يسود فيها الحوار، وتسقط سياسة الإقصاء والاستئصال .

سى عبدالقادر

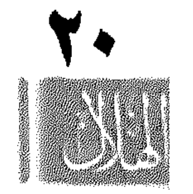
ولم تنقطع رحلاتى إلى الجزائر ..

بعضها كان من أجل حضور المجلس الوطنى الفلسطينى ، فلم تتوقف الجزائر فى كل الظروف عن العطاء للقضية الفلسطينية ، أما هذه الزيارة فكانت من أجل حضور «المؤتمر القومى العربى» .

ولا يفوت زائر الجزائر ، أن يلحظ التغير ونهاية التوتر والقلق الذى عاشته الجزائر ، بعد توقف العنف والإرهاب وبعد خطوات المصالحة التى قطعت شوطا كبيرا ، ومنها الإفراج عن المسجونين السياسيين ، وفتح صفحة جديدة يسود خلالها الحوار ، وبعدالإفراج عن قادة جبهة الإنقاذ عباس مدنى الذى يعيش فى قطر ، وعلى بن الحاج الذى ظل فى الجزائر.

واعتبر نجاح مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى الجزائر، هو الحلقة الأخيرة من سياسة التهدئة التى انتهجها الرئيس الجزائري عبدالعزيز بوتفليقة ، الرئيس السابع منذ الاستقلال، والتى أثمرت خلال فترة ولايته الثانية .

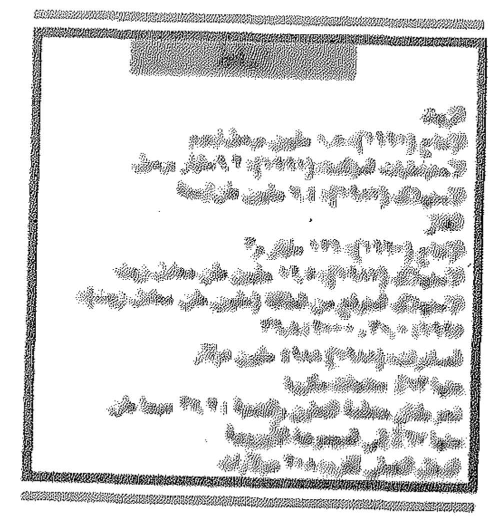
واستقبل الشعب الجزائرى بالترحاب والتفاؤل العديد من الخطوات ، مثل قرار دخول المغاربة إلى الجزائر دون تأشيرة ، وينتظرون استكمال هذه الخطوة بفتح الحدود البرية بينهما ، كما تحسنت علاقات الجزائر بكل من فرنسا والولايات المتحدة. وهناك ترتيبات تتخذ لكى يهبط مكوك الفضاء الأمريكى فى الصحراء الجزائرية ، وهى الصحراء التى سبق أن أجرت فيها



فرنسا تجاربها النووية ، وقادت الجزائر الدعوة إلى حوار دول شمال البحر الأبيض مع جنوبه .

وحقق وحدة القرار فى ولايته الثانية عندما أصبح وزيرا للدفاع، وبذل جهودا كبيرة فى علاج مصاعب الأهالى سواء فى توفير العمل وحل مشكلة البطالة، أو توفير السكن فى العاصمة والولايات المختلفة.

وانجلى ليل الجزائر الطويل ، واستفادت من ارتفاع أسعار النفط ، مما حقق فائضا كبيرا ، وكاد الصراع بين المدنيين والعسكريين أن يتوقف ، وانتهى أو كاد تدخل العسكريين فى الحكم ، كما تراجع صراع الهوية بين الذين يتحدثون بالعربية وأولئك الذين يتكلمون بالفرنسية ، وظل الوضع القائم على ما كان عليه ، يتكلم سكان الداخل العربية ، أما سكان المدن فيتكلمون الفرنسية ، ويتحدث سكان مناطق القبائل الأمازيغية التى اعترف بها كإحدى اللغات الرسمية .



ومازال الأمل كبيرا فى «سى عبدالقادر» ، الاسم الحركى لسى عبدالعزيز خلال حرب التحرير ، فى أن يتجه لمزيد من الحرية ، وأن يستكمل قيام الجزائر من كبوتها ، وهو الذى يتمتع بتجربة غنية ، وحنكة وحصافة سياسية مشهودة . وله تاريخ طويل ، فقد انضم إلى صفوف جبهة التحرير عندما كان طالبا فى المدرسة الثانوية بالمغرب ، وعمل فى صفوف الثورة ، حتى أصبح أحد المحيطين بقائد جيش التحرير بومدين قائد جيش التحرير فى مدينة وجده على الحدود المغربية الجزائرية .

وأصبح وزيرا فى أول وزارة بعد الاستقلال عام ١٩٦٢ ، ثم تولى وزارة الخارجية ثلاثة عشر عاما خلال حكم الرئيس بومدين، ولديه خبرة دولية واسعة عندما كان رئيسا للجمعية العامة للأمم المتحدة، وهو العارف بالتيارات الدولية واتجاهاتها، كما كان أحد قادة جبهة التحرير ، وهو سجل حافل يزيد الأمل فى المستقبل .

ومازالت الرحلة التى على الجزائر أن تقطعها شاقة وطويلة ■

تقرير التنمية البشرية

كيفية تطوير الإدارة الرشيدة للتعليم؟

القضايا الغائبة في عولمة التعليم!

بقلم

د. حامد عمار

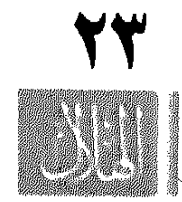
منذ عام ١٩٩٢ يصدر معهد التخطيط القومي في مصر بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في نيويورك تقارير سنوية بعنوان (مصر: تقرير التنمية البشرية) يتناول فيها كل عام محوراً أو قضية هامة من قضاياها راصداً أحوال التنمية البشرية والمتغيرات المحيطة بها والمتفاعلة معها، داخليا وخارجيا وفي هذا الصدد نود الإشارة إلى الاهتمام العالمي والإقليمي والقطري بمجال التنمية البشرية، باعتبارها هدفاً ووسيلة في الجهود الساعية إلى التنمية الشاملة المستدامة من أجل تطوير العمران البشري، وتحسين الأحوال المعيشية للسكان، وتوفير مقومات النوعية الكريمة للحياة والتمتع بثمراتها..

ومن بين التقارير الدولية فى هذا الشأن ذلك الذى يصدره سنوياً برنامج الأمم المتحدة (تقرير التنمية البشرية فى العالم) الذى يستعرض ويحلل عوامل ومؤشرات التنمية فى (١٧٧) دولة من دول العالم، ومن التقارير الإقليمية فى هذا المجال (تقرير التنمية الإنسانية فى الدول العربية) الذى تصدره نخبة من الأساتذة والخبراء المتخصصين من الأقطار العربية عن طريق برنامج الأمم المتحدة الإنمائى والصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى، والأمانة العامة لجامعة الدول العربية وتقريرها الثالث عام ٢٠٠٤ يركز على قضية الحرية والديمقراطية وقيودها المؤثرة على تحسين أحوال الإنسان العربى والخروج من دائرة المجتمع المغلق .

ومن التقارير الخاصة بمصر إلى جانب التقرير السابق أصدر معهد التخطيط بالاشتراك مع منظومة الأمم المتحدة تقريراً بعنوان (تقرير الأهداف التنموية للألفية) والذى ارتبط بمتابعة الأهداف التنموية التى أقرتها قمة رؤساء الدول فى الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠ حتى نهاية عام ٢٠١٥ وتتلخص هذه الأهداف فى حث الحكومات على تخفيض نسبة الفقر والجوع إلى النصف من سنة الأساس (٢٠٠٠) وتعميم فرص التعليم الأساسى لجميع أطفال الفئة العمرية المناظرة من السكان ذكوراً وإناثاً وتمكين المرأة من المشاركة فى التنمية وعوائدها وإنقاص معدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة بمقدار الثلثين وتخفيض معدل وفيات الأمهات عند الولادة بمقدار ثلاثة اربا ع، إلى جانب الحد من انتشار الأمراض الخطيرة كالإيدز وضمان إصحاح البيئة وإقامة شراكة عالمية من أجل التنمية وقد صدر التقرير الثانى من هذا التقرير (٢٠٠٤) لمتابعة تلك الأهداف الإنمائية فى مصر.

وقد أصدرت بعض الدول العربية تقارير حول التنمية البشرية فى أقطارها ومما وصل إلى علمى تقرير التنمية البشرية فى الجماهيرية الليبية وسلطنة عمان وقد تكون هناك تقارير قطرية أخرى، احتذى معظمها نموذج تقرير التنمية البشرية فى العالم مع تكييف لمؤشراته فى ضوء فواعلها وظروفها المحلية .

والواقع أنه جدير بالباحث فى موضوع التنمية البشرية وقطاع التعليم فى القلب منها، الإطلاع على هذه التقارير لما فيها من بيانات وتحليلات ومصادر للمعلومات ورسوم



بياناته تستحق الدراسة والتأمل والتدبر - مع نظرة ناقدة لما وراء مؤشراتها ولما تجاهلته بياناتها - في تخطيط استراتيجيات التنمية وخططها ومساراتها المستقبلية كما أنه جدير بالمستويات الرسمية العليا في مواقع اتخاذ القرار أن تولى هذه التقارير ما تستحقه من تقدير فى دراسة معالم الواقع وتوجهات تطويره على الأمد القريب والأبعد فى سياق المتغيرات العالمية

وهدفنا فى هذا المقال التركيز على ما ورد فى (تقرير مصر: التنمية البشرية ٢٠٠٤) الذى سبقت الإشارة إليه، والذى يعنى بمحور (اختيار اللامركزية من أجل الحكم الرشيد) وما يعنينا منه فى الحديث عن اللامركزية فى قطاع المنظومة التعليمية فى اعتمادها كجزء من السياسة التعليمية ما لها وما عليها وما صعوبات تنفيذها، ومراحل التدرج فى اعتمادها كجزء من السياسة التعليمية .

وإذ يستعرض الباحث مايرد فى هذه التقارير باستثناء - تقارير التنمية الإنسانية الثلاثة - يلحظ أنها تتخذ موقفاً يوصف بأنه محايد من تداعيات إدراكها بأن التعليم عملية سياسية، كما أن السياسة عملية تربوية فهى تنظر إليه على أنه عمليات فنية مستقرة لدى الخبراء ذات طابع عقلانى فيما عرف بمصطلح الرؤية الفنية العقلانية Technical Nationality.

مستحدثات الإصلاح

ومع معالجة هذه القضايا الفنية المصطلح عليها فى التعليم - دون الالتفات إلى إطارها السياسى وسياقها المجتمعى المنظومى الراهن أو المنشود - يمكن فى تصورها تطبيق مقاصدها فى إصلاح التعليم وتطويره كما وكيفا وتحت شعار الحداثة والتجديد الفنى تزاحمت على منظومة إصلاح التعليم فى مصر حالياً مفاهيم متعددة منها على سبيل المثال: مستويات ضمان الجودة الشاملة، ووضع معايير قومية تقيس أداء مختلف مراحل التعليم، والاهتمام بالمهارات والكفايات لسوق العمل، وإدخال التكنولوجيا كوسائط للتعليم والتعلم، ووضع نظام الاعتماد لتقييم مدى الإنجاز وبلوغ المستويات المطلوبة فى المؤسسات التعليمية مع ما تقتضيه من مهمات الشفافية والمساءلة هذا إلى جانب طرح أنماط جديدة من المؤسسات منها المدرسة الفعالة والمدرسة الذكية، وأساليب تنمية

قدرات التميز والتنافسية والإبداع لدى الطلاب، مع تطوير المناهج وطرائق التعليم والتعلم التكنولوجي.

وأخيراً وليس آخراً التوجه نحو اللامركزية الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك المحدثات التطوير الإدارة الرشيدة للتعليم ومن ثم جاء عنوان مقالنا (اللامركزية وأخواتها الحداثية).

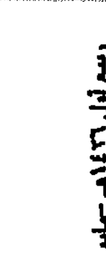
كل هذه قضايا حق، وكل منها فى حد ذاته جدلية معقدة من مقومات أخرى سواء فى مفهومها ودلالاتها وأساليب تنفيذها ومعظمها - فى تقديرنا - خارج إمكانات وبنية وقدرات المنظومة التعليمية الراهنة أو المتوقعة فى المستقبل المنظور، فى حين أن أبسط أهداف التعليم الكمية والنوعية لم يتم إنجازها بعد وهذه السياسة فى التحديث إنما هى نوع من محاولة القفز فوق الواقع فى صور مظهرية لنوايا التغيير دون توفر شروطها الموضوعية .

وفى زحمة هذه التوجهات الجديدة التى يعتقد أنها مفاتيح النجاح - ومع الانشغال الملح بها تاهت قضيتان محوريتان فى أهداف التعليم ومهماته الإنسانية والمجتمعية، هما وظيفة التعليم فى توفير فرص الحراك الاجتماعى وارتباط ذلك بتكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية المتاحة فعلاً.

و المهمة الثانية هى التساؤل حول: أى مواطن تشكل المنظومة التعليمية فى إطار متغيرات العولمة وآثارها المجتمعية؟ والحاصل فى تقديرنا أنه قد خفت صوت هاتين المهمتين، بل وخفت صوت تقييم الواقع التعليمى الراهن وحالته تقييماً موضوعياً للتعرف على إمكانية استيعابه وتكييفه للمستحدثات المتزاحمة ويبدو أننا وراء اقتداء بما يجرى فى الدول الصناعية المتقدمة وتلك هى آفة النقل والتقليد دون فهم سياق الواقع وتقييمه الصحيح والصريح، دون تحيز أو تزييف .

أنيميا الواقع التعليمى

ونظرة إلى هذا الواقع تدلنا على هشاشته وما يتسم به من أنيميا منظومية بنيوية.وضعف فى كثير من مقومات الأداء الفعال. يحضرنى فى صدد مطالب الإصلاح الحديثة ومفاهيمها تشبيه إنسان فقير لاتكفى موارده للوفاء باحتياجاته الأساسية فى الحياة ويطلب منه أن يلتحق بفريق لحمل الأثقال يسعى للمنافسة فى دورة الألعاب الأليمبية وتفرض علية شروط ومواصفات وتدريبات لبناء عضلاته لكى يقوم برفع الأثقال، لكنه



ليس مهيأ أصلا للتكيف مع هذه المطالب والشروط والتعديلات فى نمط حياته وهكذا يجرى التوجه نحو إصلاح تعليمنا مع إمكاناته الراهنة حين نفرض عليه كل تلك المطالب لتكون مخرجاته قادرة على المنافسة فى السوق العولمية .

لدينا فى مصر قطار مزدحم بالطلاب يبلغ عددهم فى التعليم ما قبل الجامعى حوالى (١٦) مليوناً وحوالى (١,٢) ألف فى التعليم العالى ومستمر فى الزيادة والحشر فى عرباته كقطار الصعيد التى تبلغ فى التعليم ما قبل الجامعى حوالى ٣٧ ألف مدرسة، وحوالى مليون مدرس، ومعدل القيد الإجمالى فى المرحلة الإبتدائية (٦-١١) بلغ عام ٢٠٠٣ حوالى ٩٨٪ أى حوالى ٢ ٪ لم يلتحقوا أصلاً بالمدرسة .

وتشير الإحصاءات الواردة فى التقرير وفى غيره من المصادر إلى أن المقيدين فى الصف الأول الابتدائى عام ٩٢ / ٩٣ قد تساقط وانقطع عن الدراسة منهم أثناء الوصول إلى الصف الثالث الإعدادى عام ٩٩/ ٢٠٠٠ بلغ حوالى ١٣,٢ ٪ أى حوالى (١٨٥) ألف طالب، ومن المحتمل أن يرتد بعضهم إلى الأمية. وبلغ معدل القيد فى المرحلة الإعدادية عام ٢٠٠١ / ٢٠٠٢ حوالى ٩١ ٪ أى أن حوالى ٩٪ من الفئة العمرية المناظرة من السكان من (١٢ - ١٤ سنة) لم يلتحقوا بهذه المرحلة، وفى الثانوى بقسميه العام والفنى بلغ معدل القيد حوالى ٧٨٪ أى أن حوالى ٢٢٪ من الفئة العمرية المناظرة من السكان لم تلتحق بهذه المرحلة ونسبة القيد فى التعليم العالى حوالى ٢٦٪، أى أن حوالى ٧٤ ٪ من الفئة العمرية المناظرة من السكان لاتتذوق طعم التعليم الجامعى والعالى فضلاً عن إن حوالى ٢٤,٦ ٪ فقط من مجموع المقيدين فى التعليم العالى يلتحقون بالكليات والمعاهد العلمية هذا هو القصور فى الاستيعاب الكامل للملزمين فى التعليم الأساسى، وتدنى المعدلات فى التعليمين الثانوى والجامعى بالمقارنة بدول مثل كوريا وماليزيا وبعض دول أمريكا اللاتينية وإسرائيل، ناهيك عن الدول الصناعية.

وتجدر الإشارة إلى تدنى الإنفاق على التعليم بصورة عامة، ونسوق مثال الإنفاق على التعليم من الميزانية العامة لسنة ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ وهى من أعلى الميزانيات التى خصصت للتعليم نسبة مقبولة فى السنوات العشر الماضية والتى تقدر بحوالى ٢٢ مليارا

وحين نجرى بعض الحسابات البسيطة فيها نجد أن متوسط تكلفة الطالب الواحد فى مختلف مراحل التعليم تصل إلى ١٤٦٦ جنيهاً أى حوالى ٢١٦ دولاراً وبالنسبة لتكلفة الطالب فى التعليم ما قبل الجامعى تبلغ حوالى ألف جنيه أى حوالى ١٦٦ دولاراً وبالنسبة للتعليم العلالى تبلغ حوالى ٧٠٠٠ جنيه أى حوالى ١١٦٦ دولاراً ومع كل الحسابات للفروق فى التكلفة وقيمتها الشرائية بين الدول تظل تكلفة تعليم الطالب فى مصر متدنية بالمقارنة حتى مع بعض الدول العربية، والفرق بطبيعة الحال شاسع مع الدول الصناعية ومن ثم فإن عائد مخرجات النظام متدنية نوعاً وكيفاً هذا إلى جانب ما يشير إليه التقرير من كثافة أعداد الطلاب حيث تصل فى المتوسط فى التعليم ما قبل الجامعى إلى ٤٥ متعلماً فى الفصل الواحد، إلى جانب ما هو ملاحظ من ازدحام فى المدرجات والمعامل الجامعية، وقد نجم هذا من التقصير الواضح خلال عقود من الزمان فى نمو البنية الأساسية وتجهيزاتها للتعليم من بناء مدارس وجامعات جديدة وتذهب بعض التقديرات فى المبانى التعليمية إلى الضرورة الملحة الإنشاء (١٥) ألف مدرسة جديدة مع نهاية عام ٢٠١٥ وبناء عدد مماثل للعدد الحالى من الجامعات الجديدة ولا يتسع المقام للحديث عن تقييم الجهود المبذولة فى محو الأمية التى دعا إليها مجلس شورى القوانين عام ١٨٧٦ ولما تزال نسبتها حتى اليوم تصل إلى حوالى ٣٥ ٪ مع تفاوت بين الذكور والإناث والريف والحضر، وهى ظاهرة تتسم بها معظم مؤشرات التعليم الجغرافية.

والخلاصة أن هذه المؤشرات تنتهى بنا إلى ما بدأت به مما يصيب تعليمنا من ضعف أنيمى فى طاقات إنتاجه البشرى، رغم تقديرنا لكل الجهود المبذولة ومع ذلك يضاف إليه فى هذه الحقبة المأزومة من تاريخه وتاريخنا المجتمعى مطالب يعجز عن تحملها بل ويستحيل عليه تمثلها تمثلاً حقيقياً، وليس شكلياً أو إدارياً أو مظهرياً وهى جميعها مظاهر تزعم السعى المتعسف لتحديث التعليم كضرورة لتحديث العقول والتفكير وكفاءة العملية التعليمية .

جدوى اللامركزية

وفى هذا السياق يأتى تقرير التنمية البشرية المصرى لعام ٢٠٠٤ ليعرض لنا الأهمية البالغة فى (اختيار اللامركزية من أجل الحكم الرشيد)، ومن بينها اختيار اللامركزية فى إدارة

المنظومة التعليمية وينشغل الخطاب التعليمى الرسمى بالحديث المكرور عن المزايا اللامركزية فى صنع القرار ومتابعة تنفيذها وتمويلها وتقييمها وفى الخطة القومية الخمسية (٢٠٠٢ - ٢٠٠٧) كما فى السياسة التعليمية يبرز الاهتمام باللامركزية باعتبارها علاجاً ضرورياً لتخفيف أوجاع الفقر والتفاوت فى مستويات التنمية البشرية بين المحافظات وبين الريف والحضر والذكور والإناث، ولست من المقتنعين بتصورات اللامركزية المطروحة وتجاربها الحالية التى تشكلها مرحليا حوافز المعونات الأجنبية وعلينا أن نتدبر فى الوقت ذاته ما تعثرت فيه قوانين الإدارة المحلية وتعددت مشكلاتها حتى قيل فى مجلس الشعب (إن الفساد فيها قد وصل إلى الركب) وأخشى، كما بدأ يظهر فعلاً أن تغرق محاولات اللامركزية فى مشكلة الخلل والاضطرابات والفساد ومن المحتمل أن تتكون مركزية وبيروقراطية محلية لاتقل مخاطرها إن لم تزد عن مخاطر المركزية الوزارية ولنتذكر أن هناك فى عالم اليوم نظم تعليم تقوم على مركزية محكمة كما هو الحال فى فرنسا واليابات حيث يتميز بالنمو والجودة، كما

ونوعاً وأن اللامركزية فى الولايات المتحدة لها جذور تاريخية ممتدة القدم.

إن هذا الانشغال بالمستحدثات المتزاحمة التى أشرنا إليها - بما فيها اللامركزية - أغفلت فى الخطاب الرسمى - كما سبقت الإشارة قضية تكافؤ الفرص التعليمية والعدالة الاجتماعية وفى هذا الصدد يشير التقدير إلى ما عبر عنه بأن (الفقراء أقل فرصة فى الالتحاق بالمدارس ومستويات تحصيلهم منخفضة، وهم يعانون من خدمات تعليمية متدنية) ويورد مؤشرات فى هذا الصدد حيث بلغ معدل الالتحاق الصافى بالتعليم الابتدائى عام ٢٠٠٠ فى صعيد مصر من الأسر ذات الوضع الاقتصادى والاجتماعى المنخفض ٨٤ ٪ فى مقابل ٩٧٪ فى المحافظات الحضرية من الأسر ذات الوضع الاقتصادى والاجتماعى الأعلى وفى المناطق الحضرية بصورة عامة تصل معدلات الالتحاق بالتعليم الابتدائى إلى ٨٨ ٪ بالنسبة للفقراء فى مقابل ٩٦ ٪ بالنسبة لغير الفقراء ، وفى المناطق الريفية تبلغ نسبة الفقراء الملتحقين بالمرحلة الابتدائية ٧٢٪ فى مقابل ٨٥ ٪ لغير الفقراء، ثم إنه يأتى تصنيف غير المسجلين بالمدارس الإبتدائية عام

٢٠٠٢ من الفئات منخفضة الدخل.

كذلك لا يحصل معظم الفقراء إلا على التعليم الأساسى أو أقل أو لا يحصلون على تعليم أساسى، بينما ١,١ ٪ منهم فقط هم الذين يحصلون على تعليم جامعي ومن حيث مستويات التحصيل كانت معدلات النجاح فى امتحان نهاية المرحلة الإعدادية فى ٥٠ ٪ من المدارس فى الصعيد عام ٢٠٠١ أدنى من المتوسط القومى، مقارنة بنسبة ٢٧ ٪من المدارس فى الوجه البحرى، ٣ ٪ فى المحافظات الحضرية ثم إن ثلث الأطفال الفقراء هم الذين يتمكنون من الالتحاق بالتعليم الثانوى العام، بينما ينتهى مصير الثلثين الباقيين إلى التعليم الثانوى الفنى حيث تقل فرص متابعة تعليمهم العالى وبطبيعة الحال فإن الميسورين والأغنياء يجدون مجالهم فى مدارس التعليم الخاص والتعليم الأجنبى، وهكذا كل فى فلك يسبحون .

ولاشك فى أن هذه مؤشرات مقلقة تصيب واحداً من الأهداف الرئيسية للتعليم القومى فى مقتل إن تلك هى الصورة السائدة من حال العدالة الاجتماعية فى إطار الإدارة المركزية حيث تكون من مسئوليات الدولة حسب الدستور وقوانين التعليم باعتبارها المنوطة بتحقيق تكافؤ الفرص التعليمية لكل أبناء وبنات مصر، ريفاً وحضراً أغنياء وفقراء وفى جميع أرجاء مصر، شمالاً وجنوباً وعلى سواحلها وفى واحاتها ونتساءل بوضوح كيف يمكن ضمان قضية العدالة الاجتماعية وكفالتها للجميع مع التوجه نحو اللامركزية وإطاراتها المحلية . هذا مع العلم أنه نادراً ما يقترن الخطاب الرسمى المروج للأهمية اللامركزية بتأكيد الحرص على مراعاة مبدأ العدالة الاجتماعية، بل غالباً ما يبدأ معه الحديث بين الفينة والأخرى عن اقتصار المجانية على التعليم الأساسى والحاصل أن معظم التركيز فى أهداف اللامركزية منصب على المسائل الفنية والاقتصادية والإدارية، وعلى أن تتحمل المشاركة المجتمعية المحلية مسئولياتها فى بناء المدارس وسد الفجوة التمويلية بمواردها الخاصة. ومن أين ياترى؟

ونتساءل كذلك كيف تتعامل الإدارة اللامركزية مع مسائل الإشراف على التعليم الخاص أو الأجنبى ونشير هنا إلى ما ظهر من صعوبات الإشراف عليها عام ٢٠٠٢ ونضرب المثل: هناك أكثر من ٣٠٠ قضية تختصم فيها وزارة التربية والتعليم المركزية مع المدارس الخاصة بسبب مخالفتها لشروط عملها أو مع

تعاقدات مدرسيها أو من شئون مصروفاتها كذلك لم تخل مسيرة الجامعات الخاصة من مشكلات منذ إنشائها مع وزارة التعليم العالى ولعل من أهم صعوبات تطبيق اللامركزية هى ماترسخ فى ذهنية العاملين فى إدارات الدولة من عدم القدرة على التعامل والتعاون الأفقى بين جماعاتهم فى إنجاز المهمات واتخاذ القرارات العملية حيث تعودوا على التنظيم الهرمى الإدارى الذى يقوم على انتظار القرارات الفوقية وتأشيرات الرؤساء ومن العسير حتى على عمليات التدريب وإرسال البعثات القصيرة إلى الخارج أن تغير هذه الذهنية ومن الضرورى أن يتغير النظام الإدارى على مختلف المستويات تغيراً تاماً ليسمح بالعمل الجماعى والمسئولية الجماعية ومشاركة المجتمع مع المسئولين التنفيذيين فى القرار ومتابعة المسار.

وأتساءل أخيراً هل الإلحاح على اللامركزية هو من تأثيرات العولمة التى أدت وتؤدى إلى تقليص سيادة الدولة ومسئولياتها فى مختلف مجالات العمل الوطنى ومن بينها خدمات التعليم ؟! وهل هى أيضا من التوجيهات العولمية لإحداث السيولة والتفكيك فى مفاصل المجتمع وتنظيماته المؤسسية ؟!

القضايا الغائبة عن عولمة التعليم

وأخيراً يتساءل المرء فى معظم تقارير التنمية البشرية عن تجاهله لدور التعليم المصرى فى تنمية مقومات التماسك الاجتماعى والوحدة الوطنية والثقافة القومية، ووشائج التواصل والتضامن مع الأقطار العربية الأخرى وهذا دور بالغ الأهمية للتعليم فى كل عصور تاريخ مصر الحديث وبخاصة فى هذه المرحلة التى تعج بالمتغيرات العولمية وآثارها المتضاربة على حياة الشعوب .

كذلك تتجاهل معظم التقارير نوع الإنسان الذى يتحقق تكوينه من مختلف تلك التفاصيل قديمها وحديثها فى التطوير الفنى للمنظومة التعليمية وهنا أيضا تبرز إشكالية إطار اللامركزية فى سياق تيارات العولمة وإضعافها للمقومات السيادية للدولة وللقانون الدولى، ولهيمنة السوق وشركاته المتعددة الجنسية، ومحاولات التهوين والتشوية للخصوصيات الثقافية للشعوب، والسعى نحو صياغتها وتنميطها فى ثقافة موحدة Mono Culture متجاهلة أهمية التنوع الثقافى الخلاق الذى دعا له تقرير اليونسكو بقيادة خافيير دى كويلار الأمين العام الأسبق للأمم



المتحدة، والذى اتخذ هذا التوجه عنواناً لتقريره .

وهنا أيضا تثور عدة تساؤلات نحو تكوين المخرج النهائى من خريجى المنظومة التعليمية أى نوع الحصاد البشرى المتولد من عمليات التعليم والتعلم ونرى مما يتحقق فى الواقع أننا بصدد نظام تعليمى تختلط فيه تشكيلات الإنسان المصرى بين كونه:

(١) مواطناً منتمياً لوطنه معنياً بهمومه ومتمثلاً لقيمة وواعياً بثقافته، عقلانيا علمياً فى تفكيره ومشاركاً فى صناعة حاضره ومستقبله.

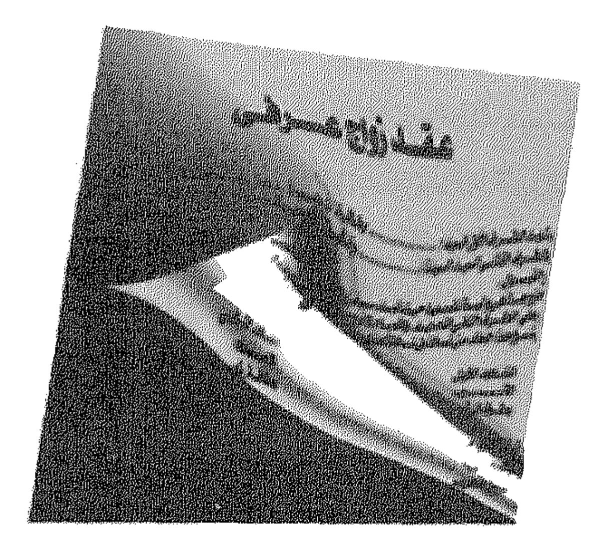
(٢) وفى الطرف الأقصى المقابل يخرج إنسان فرد مكتسباً لمعارف ومهارات ودرايات تكنولوجية ولغات أجنبية يتطلبها سوق العمل، وعالم البيزنس، وبخاصة فى الشركات الأجنبية ومجالاتها المالية والاستثمارية والإعلامية ويتركز ولاؤه لهذا السوق ومواقع توظيفه فى الداخل أو فى الخارج وحيث يضطر فى كثير من الحالات مع شيوع البطالة إلى محاولة الهجرة إلى دنيا الغرب وإغراءاتها المادية، ويعنى هذا باختصار تكوين فرد - وليس مواطناً - سوق عولمى.

(٣) وبين طرفى المواطن المنتمى والفرد السوقى العولمى يشكل نظام تعليمنا مواطناً مستغرقاً فى إنكار ثقافة مجتمعه السائدة ومنغمساً فى توجهات تطويره من خلال حلول الماضى وأمجاده بما فيها من أوهام وغيبيات وأساطير ودون إدراك لسنة التغيير فى حياة المجتمعات ومن ثم فهو يسعى إلى العودة إلى الوراء لا إلى التقدم نحو المستقبل .

(٤) وبين الطرفين أيضاً تكوين إنسان فرد مهنى حرفى صاحب قدرات فنية أو مهارية يقوم بممارستها دون أن يعنيه ما يدور فى مجتمعه من أحداث، وما يجيش به من تطلعات، وما ينبغى عليه أداؤه من مشاركات خارج نطاق مهنته أو حرفته ..

(٥) وبين الطرفين أيضاً تكوين إنسان فرد مغترب عن واقعه الاجتماعى، ناقم ساخط متمرد على هذا الواقع، يراوده بين الحين والآخر استخدام وسائل العنف فى هدم هذا المجتمع وتغييره، وقد يصل به الحال إلى تدمير نفسه.

إن لمحاولة الاقتراب من هذه الإشكالية وأنماطها من مخرجات تعليمنا فى نهاية مطاف مسيرته، حديث آخر. ■



الزواج العرفى

وكيف نحاصره؟

بقلم
د. محمد رجب البيومى

يتفاقم خطر الزواج العرفى يوماً بعد يوم، فمع قيام الصيحات العالية المتكررة منادية باستنكاره، والعمل السريع على التخلص من شره، فإنه يزداد انتشاراً، وقد تنوعت وسائله واختلفت طرق تداوله، وإذا كان بالأمس مقصورا على كتابة ورقة وحضور شاهدين، فأصبح اليوم ذا طرق شتى ، منها الوشم بأن يكتب كلا الزوجين اسم صاحبه بحجم بارز فى جزء من أجزاء جسمه، ويكون ذلك اعترافاً لا يقبل النقض، ومنها أن يمتزج الدم بالدم بأن تسيل الإصبع بوساطة إبرة لتلصق بدم الإصبع الأخرى أمام الشاهدين، ويكون ذلك دليلاً على الالتحام

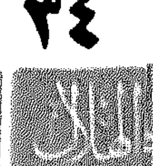
التام، ولعمرى إنها لمهزلة حقا، إذ أنها لا تثبت فيما بعد أى دليل على الزوجية إذا لجأ أحدهما إلى الإنكار، ولكن الخيال العاطفي لدى المراهقين يجيز ما لا يستساغ، ويجعل المحال فى حكم الجائز، ومنها أن يقوم الكاسيت مقام الورقة المعهودة إذ يسجل الايجاب والقبول بين الطرفين، مع شهادة الزميلين اللذين تطوعا بالشهادة، ليتبادلا الموقف فى حالات كثيرة بهذه الطريقة، فكلا الزوجين شاهد ومشهود، لقد تعددت الوسائل وانتشرت كالوباء الذى لا يجد أية مقاومة تقف فى وجهه فتتكاثر ضحاياه.

ولم أكن لأفكر فى كتابة مقال عن الزواج المزعوم، لأن غيرى من رجال التشريع والاجتماع أقدر على تشخيصه واستيعاب معاضله واقتراح ما يمكن من أسباب تلافيه، ولكنى أدركت خطورته القاسية فى موقف استدعيت إليه، وشاهدت من شرره اللافح، ما جعلنى أستعيذ بالله من شره.

أريد حلاً

فقد جاءنى أب يعرف صلتى باب مثله، جاءنى ليقول إنه يريد حلا لابنته الرعناء التى تزوجت دون علمه منذ ثلاثة أشهر زواجاً عرفيا من نجل فلان، وقد تركها، وعليها دلائل الحمل، والزوج المراهق لا ينكر بل يعترف اعترافا لا شبهة فيه، ولكنه طالب ينفق عليه أبوه. ولا يستطيع أن يكلفه بنفقة زوجة لم يستشر فى أمرها، وما يرجوه الأب المفجوع منى أن أتوسل لأب الزوج كى يجد مقراً للأسرة الجديدة، فلا يتسع الخرق على الراقع، ولو كان لديه حجرة تتحمل بقاءها لديه لهان الأمر، ولكن منزله لا يحتمل ساكنيه إلا بكثير من الصبر والضيق، وذهبت إلى الوالد أنمق له من الكلمات ما أستميله بها إلى الحل المرتقب فأحزننى أن.رأيت الرجل يبكى وتتقاطر دموعه ويقول فى حزن : أنا أقدر موقف صاحبك، وأعلم أنه مسكين، فقد فوجىء بما فوجئت به تماما، ولكن منزلى أضيق من منزله، فليبق ابنته عنده، وسأقوم بما يلزم ولدى من النفقة قدر طاقتى ثم تطلع إلىّ وقال: ماذا أفعل بعد ذلك، كن عونى!

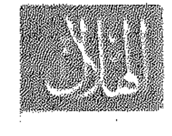
ولا أترك هذه الحادثة المتكررة دون أن أقف عندها وقفة سريعة، فالزوجان الصغيران هنا لم يتجاوزا معا سن الثانية والعشرين، فليسا يشكوان العنوسة، ولايزال المستقبل فسيحا أمام أحلامهما، فما الذي عجل بهما إلى هذا النشاز الأليم؟ إن نظام التدريس بالجامعة هو أكبر الأسباب في هذه الانحرافات، لأن أكثر الكليات لا تسير المحاضرات بها على نحو متتابع، فقد يحضر الطالب المحاضرة الأولى في الساعة الثامنة، وتأتي المحاضرة الثانية في الساعة الحادية عشرة وقد تأتي الثالثة في الساعة الواحدة وفقا لانتظام المحاضرين، وتحقيقا لرغباتهم الشخصية، فماذا يفعل الطلاب في هذه المساحات التي تتسع يوميا، للخروج إلى ما حول الكلية ذهابا وإيابا كل طالب يبحث عن صديقة تسعى إليه بدورها، ولايكادان يفترقان ! ونحن نشاهد ازدحام الطلاب خارج الحرم الجامعي ، فنعلم أن الجدول الدراسي قد ساعد في هذا الفراغ السقيم، وماذا يقول الطالب والطالبة في غدوهما ورواحهما سوى الحديث عما يشاهدانه في الأفلام السينمائية على الشاشة الصغيرة، والإعجاب بفلان وفلانة من الممثلين والممثلات، وكل ذلك تمهيد لقصة عاطفية سيقومان بتمثيلها، وسرعان ما تتم الأدوار على نحو يعجل بالنهاية المؤسفة، لقد كانت الجامعة من قبل ذات ارتباط خلقي يكف دواعي النزق ونحن لم نسمع عن الزواج العرفي في الستينات والسبعينات، وسمعنا عنه على استحياء في أوائل الثمانينات، ثم فاض الكيل بعد ذلك حتى أصبح الزواج العرفي بين الطلاب جامعة ومدرسة ثانوية مما يهول المصلحين، فالقول بأن الاختلاط وحده في التعليم سبب هذه المأساة مبالغ فيه، إذ كان الاختلاط موجوداً منذ نشأت الجامعة الأولى، وتبعها هذا الحشد من الجامعات! ولكن حسن النظام، وانتظام المواعيد، ويقظة الأساتذة، وتربية المنزل والمدرسة، كل ذلك قد وقف سداً منيعاً دون أعتى العواصف، بل كان الأستاذ الملتزم يفرض نظاماً خاصا بمحاضراته فيستجيب له جميع الطلاب في حب واعتزاز، كان الأستاذ الكبير محمد أبوزهرة يفرض على الطالبات أن يجلسن في محاضراته بالصفوف الأولى وحدهن، وخلفهن صفوف الطلاب فلم يجد من يعترض من الطلاب ولا من الإدارة الجامعية! بل عرف الجميع قيوداً من الالتزام الخلقي باعدت بينهم وبين الإسفاف! فلا نقل بعد ذلك إن الاختلاط قد أدى إلى هذه الكوارث بل



نقول إن ضياع القدوة، وسوء الإدارة قد انتهيا إلى شر كبير.

أربعمائة ألف زيجة

ولنترك حديث الطلبة والطالبات ممن وقعوا فى شرك الزواج العرفى إلى حديث السواد الأعظم ممن غادروا التعليم إلى الفضاء العام فى محيط الحياة، فقد ذكرت جريدة الوفد (٢٠٠٥/٢/٢٣م) أن إحصاء قامت به إحدى الهيئات الرسمية للذين أعلنوا عن زواجهم العرفى، يقرر أن هؤلاء قد بلغوا أربعمائة ألف حالة! وهم بطبيعة الحال غير الذين تستروا فى هذه الناحية فلم يشاءوا أن يبيحوا بزواجهم العرفى، وهم بالضرورة كثيرون كثيرون، ولن يعجب القارىء لضخامة هذا العدد، فإن الحالة المادية فى مصر، وهى أول الأسباب الداعية، قد فرضت عليهم هذا السلوك فرضا لا تحيد عنه إذ أن صاحب الزواج العرفى لا يبحث عن الشقة المريحة، ولا عن الجهاز المعهود بثمنه المرهق، ولا عن متطلبات العرس من خطبة وزفاف، ولا عن المهر المماثل للنظراء، وكلها مرهقات لا تتاح للخاصة إلا ببذل الجهد دون انقباض، فكيف بالرجل المتواضع مادياً والآنسة التى بلغت من العمر ما أصبحت به موضع الحرج الجارح فى نفسها، قبل أن يحرج ذويها، كل ذلك يدفع إلى الزواج المستتر بأعبائه النفسية، والحق أن أكثر المصائب المادية فى هذه الحياة لا تأتى من طبيعة الأمر المتفق عليه وحدها، بل إن مصائب الناس تأتى فى أكثرها من الناس، فلولا خوف الرقابة المشينة من المعارف والأقرباء، إذ يعقدون الموازنات بين مهر ومهر، وشقة وشقة، وجهاز وجهاز، ويميلون بالتهكم على من رضى بالقليل، لولا هذا الخوف البغيض من هذه المقارنات البغيضة، لانحلت أكثر العقد فى هذا الموضوع بالذات، فلا يصبح عيبا أن يكون السكن متواضعا فى حجرتين أو أن تتزوج الجامعية بغير الجامعى، أو أن يكتفى بالضرورى من الجهاز الذى يقضى الحاجة دون إسراف، ولكن الألسنة الطويلة تنهال كالسهام فى مجتمع غمرته دعايات الترف فى إعلانات التليفزيون، وفى مباهاة أهل اليسار بما يبذلون من تبذير سفيه، أضف إلى ذلك غول البطالة الذى جعل المتخرجين من كليات القمة لا يجدون ما ينفقون، فما ظنك بمن تخرج فى المدارس الفنية ومن اقتصر على الثانوية، وطالت به الأيام دون أن يوفق إلى عمل يسعى إليه جاهداً مهما انحط مستواه، وكان على القائمين بالأمر فى مصر أن يتوقعوا هذه الشرور، قبل أن يندفعوا فى إنشاء



الكليات الجامعية على وجه مدمر، فاض طوفانه الجارف عاماً بعد عام، ومازال يفيض دون أن نجد المجرى الطبيعى لتدفقه فى الجداول والأنهار، فأحدث من النكبات النفسية والجسمية ما أصبح حديث الناس، ومما يضاعف البلوى أن مثل هذا الزواج فى كثير من أحواله لا يستقر على وضع مريح، فسرعان ما تتكشف الثغرات بعد زمن ما، يقصر أو يطول، ويراجع كلا الزوجين نفسه، مراجعة من يلومها على تسرع مشتط وقع فيه اضطرارا دون اختيار، وقد لا يوفق أصحاب النيات الحسنة فى رأب الصدع، فتكون المحكمة هى الحل الوحيد، الذى يلجأ إليه الطرفان، وكلاهما خائر العزم، متضايق النفس وأمله فى النجاح ضئيل.

فتوى أنصاف العلماء

ولننتقل إلى الناحية الشرعية فى الزواج العرفى، وهى واضحة لا لبس فيها، ولكن الذى يبلبل الأذهان هو ما تذهب إليه بعض الصحف من استطلاع الآراء المختلفة فى المسائل، فقهية وغير فقهية، فنأتى إلى أنصاف العلماء أو من لم يصلوا إلى مقام الفتوى من الأثبات الراسخين فنسألهم عما لا يملكون الإجابة الصحيحة عنه، بغير علم، ونقرن فتواهم المتعارضة بفتوى ذوى الرأى الصحيح، وتكون مصدر لغط مخطىء لا مبرر له، وقد حدث ذلك حين أصدرت محكمة الإسماعيلية منذ ثلاثة أعوام حكماً بأن ورقة الزواج العرفى تصلح دليلاً لإثبات الميراث للزوجة طبقا لما نص عليه قانون الأحوال الشخصية الجديد رقم (١) لعام ٢٠٠٠م وقبل أن نصل إلى الرأى القاطع نعلن أن توثيق الزواج على يد المأذون الشرعى لم يكن معروفاً إطلاقاً قبل مطلع القرن العشرين، حيث رأى الإمام محمد عبده رحمه الله فى ذلك الوقت أن يكون التوثيق على يد مأذون يسجل الزواج، ويقدمه للمحكمة الشرعية، تلافيا لأخطاء حدثت، وتحدث حين يموت الزوج، وينكر أهلوه واقعة الزوجية، لمنعها من الميراث، ولا تستطيع المسكينة أن تجد شهود الإثبات إذ يكونون قد سبقوه إلى الرحيل، وقد قامت مناقشة حادة حول هذا الإجراء بين المؤيدين والمعارضين انتهت إلى صحة ما ذهب إليه الإمام، وبدأ التنفيذ الفورى للنظام الجديد فى محافظات القاهرة والجيزة والفيوم، ثم شمل القطر المصرى جميعه، فأصبح الطريق الرسمى للزواج، ولم يمنع ذلك أن يتخلى عنه بعض الناس فيعقدوا رابطة الزواج بالشاهدين والإيجاب والقبول دون حاجة إلى المأذون مع «الحفل العلنى» وهو زواج صحيح



شرعا، ولكنه غير الأولى، ومازالت بعض القبائل البدوية المنتسبة لمصر تغفل هذا العقد، وتكتفى بالشهود، ويجرى الأمر على ذلك إذ لا خطر لديهم بعد إعلان الزواج فى محفل علنى يشهده الأقرباء والبعداء ولكن ما جد الآن من موجة انتشار هذا الزواج بين الشباب العابث الذى لا يدرى خطورة ما يأتيه قد جعل الأمر موضع التباس يجب إزالته، والمقرر المعترف به شرعاً شىء وما اقترح إضافته شىء آخر فالمقرر المعترف به شرعاً أن الزواج يكون صحيحاً مع حضور الشاهدين فى موقف علنى يتم فيه الإيجاب والقبول، وهو زواج شرعى لا ينقصه إلا التوثيق على يد المأذون ليكون رسمياً لا مجال للشك فيه، فإذا تمت العلانية وشهد الشاهدان ووقع الإيجاب والقبول، فهو زواج لا خلاف عليه، أما ما يكتب على الجلد، أو يعلن فى الكاسيت دون العلانية الصريحة فهو زواج باطل ولكل من الزوجين الحق فى الميراث دون اعتراض إذا ثبت الزواج على النحو المشار إليه، وقد لوحظ من إجابات الذين يمنعون الميراث عن طريق الزواج العرفى أنهم يخافون من انتشاره إذا تقرر ذلك مع عبث العابثين من الشبان والشواب، ولكن الفرائض الشرعية، يجب أن تؤدى على وجهها الصحيح، وهذا ما أقرته محكمة الإسماعيلية مؤكدة أن ورقة الزواج العرفى كافية فى إثبات الميراث لأنها وثيقة صحيحة لم يحاول أحد الطعن فى ثبوتها !

ضرورة الولي

وبعد، فما الذى أريد أن أنتهى إليه؟.. أريد أن أقرر أنه مادام عقد الزوجية معترفاً به شرعاً سواء كان على يد المأذون، أم كان عقدا عرفياً، وهذا ما لا يمكن الاعتراض عليه، فإن علينا أن نشير إلى شرط واجب فى صحة العقد، وبمراعاة هذا الشرط الضرورى يتقلص كثير من الأضرار التى يسببها عبث المستهترين، فيكف عن هذا العبث، وتعود لعقد الزوجية حرمته سواء كان شرعياً على يد المأذون أو كان شرعياً عن طريق العرف الذى يأخذ به المستسهلون.

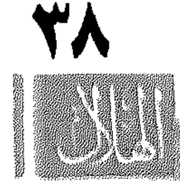
أما هذا الشرط الضرورى فهو ألا يصح العقد إلا بوجود ولى للزوجة سواء كان أبا، أم قريبا عاصبا كابن أو أخ أو عم أو ابن عم بحيث يقدم الأقرب فالأقرب وفق الترتيب المتبع، وإلى هذا ذهب جميع علماء الشافعية والمالكية والحنابلة، أما الحنفية، فلم يوجبوا فى الظاهر اشتراط الولى، كما هو ذائع عند الفقهاء ولكن الذى يتأمل نصوصهم الملحقة بما قرروه يجد أنهم مع علماء المذاهب الأخرى على حد سواء! ووجهة نظر الجمهور

هي أن المرأة في بعض أحوالها قد تخضع لعاطفتها فيما لا تعرف عقباه، أما وليها المسئول عنها فبعيد عن التيار العاطفي ، ناظر بعين الواقع إلى المستقبل، وما يمكن أن يجد فيه من أحوال لا ينهض بها هذا الوافد الجديد، وهنا يكون الولى صمام الأمان.

والحنفية يقولون إن للمرأة أن تتصرف فى مالها وعقارها دون وصاية أحد، فالأولى تتصرف فى أخص شئونها ، وهو ارتباطها بزواج ينتظر له الدوام والاستقرار، وهذا رأى له وجاهته ، ولكن السكوت عنده، لا يبرز الرأى على حقيقته كما جلاه كبار العلماء من الحنفية ، لأنهم اشترطوا أن يكون اختيار المرأة سليما من النقد، فلا تسىء باختيارها إلى نفسها وإلى أسرتها وراء شهوة لا تعرف عقباها، وهنا كان لولى أمرها أن يرفض الزواج، ويردها إلى الطريق القويم، ولجلاء هذه الناحية أنقل ما قاله الأستاذ الكبير الشيخ عبدالرحمن الجزيرى عضو جماعة كبار العلماء ومؤلف الموسوعة الحافلة «الفقه على المذاهب الأربعة» فى أجزائها الكبار، حيث قال هذا الفقيه الثبت فى المجلد الثامن من مجلة الأزهر الصادر فى سنة ١٣٥٦ ص ٢٣١ تحت عنوان (اشتراط الولى فى عقد الزواج)، ما نصه «يجب أن يناط أمر زواج المرأة بها، ولا يجعل لأحد مطمعا فى حرمانها من الكفء ولكن بشرط ألا يترتب على تصرفها ضرر يمسها أو يمس أسرتها، بأن تندفع وراء شهوتها فتقع فى غير الكفء المناسب، فإنها إن فعلت ذلك كانت جديرة بالحجر عليها، وكان لوليها حق الاعتراض وفسخ العقد، فإذا كان لها أخ أو أب أو نحوهما من الأقربين فمن اللائق أن نفوض لهم ليتصرفوا فى أمر زواجها كما يحبون فلا تخرج عن إرادتهم، ولا تحاول إحراجهم بما لا ينفعها بل يضرها بفقد عطفهم عليها».

هذا رأى كبير من كبار الأحناف فيما ذهب إليه أعيان مذهبه، حيث حدد الأمر تحديداً دقيقاً لا يحتمل الخلاف، وهو بذلك يجعل رضا ولى الأمر أساساً لصحة العقد فتلتقى جميع الآراء على اتجاه واحدا ويكون اشتراط ولى الأمر ضروريا لا محيد عنه.

وأكرر بعد ذلك: إن اشتراط الولى فى صحة العقد أمر واجب التنفيذ، ويمقتضاه لا نسمح للمراهقات والمراهقين أن يجلبوا الشرور على أنفسهم وعلى مجتمعهم الحائر فى شذوذهم وسواء بعد ذلك كان العقد رسمياً ، أو عرفيا، فقد سلم من التهور والنشان، لأن الوالى عاصم منيع . ■



أقـــوال معـاصرة

● « العالم يعيش اليوم خرافة معولة أداتها التلفزيون الذى نجح فى تحويل الواقع اليومى الى صورة غرائبية» .

الأديب اللبنانى إلياس خورى

●« ليس من وظيفـة الأدب أن يجـعل الحـيـاة أجـمل، بل إنه يجعل البشر أكثر قدرة على فهم أنفسهم وعالمهم ليغيروا ما يجب أن يتغير»

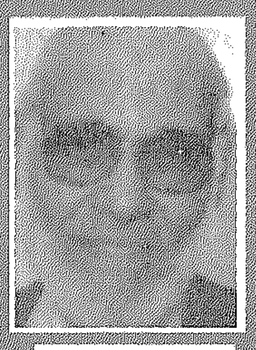
الشاعر المصرى محمد عفيفى مطر

●« البـعض من النخـبـة أدمن إجترار المقولات المكروورة التى تعزى النفس بلوم الغير على التقصير الذاتى»

د. عبد الوهاب الأفندى

●« إن مـا حـدث من زلزال فى جنوب شرقى آسيا هو عقاب للعاصين، وابتلاء وعبرة للناجين»

د. زغلول النجار
الأستاذ فى علم الجيولوجيا



زغلول النجار

●« التنوير ليس بحـاجـة إلا إلى قـدر من الحـرية فى المعرفـة والاطلاع والتفكير»

الاستاذ عبد العزيز خضر

●« لقد أصبحت كل مكتبات العالم التى كنت أحلم بزيارتها أو الدخول إليها فى مدى بحث لبضع ثوان على الإنترنت»

الصحفى اللبنانى سمير عطا الله



البابا يوحنا بولس الثاني

●« الإنسـان العصرى أصبح لا يعرف كيف يفرق بين الخير والشر»

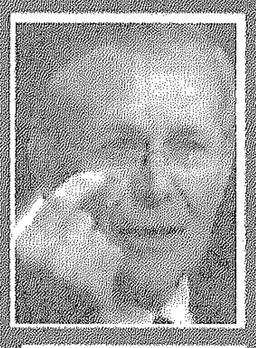
البابا يوحنا بولس الثانى

●« لأن نكتب هو أن نبدع أشخاصا وندعهم يعيشون»

الأديبة الاسبانية أنا غافالدا

●« لا يجوز مغـادرة السفينة، وهـى فى أعـالى المحيط، مازال لدينا الكثير لنقوله فى كل شئ»

جبرائيل جارثيا ماركيز
في نصيحة لصحفى بلغ التسعين
ويريد أن يتقاعد



دونالد رامسفيلد

●« ليست إستراتيچيتنا أن نغادر إستراتيچيتنا أن ننتصر!!»

دونالد رامسفيلد
وزير دفاع الولايات المتحدة

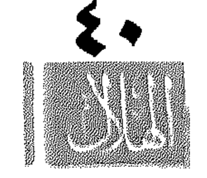
جرجي زيدان

رائد الرواية التاريخية

بقلم
د. محمود علي مكي

-١-

يتفق جمهور مؤرخي أدبنا العربي الحديث علي أن مولد الرواية الحديثة في مصر كان علي يد المفكر والأديب الكبير محمد حسين هيكل «عاش بين سنتي ١٨٨٨ و١٩٥٦» وأن روايته «زينب» هي التي تمثل تلك البداية. وإنما وصفت الرواية هنا «بالحديثة» حتي نستبعد بعض الكتابات المبكرة التي اتخذت قالباً شبه قصصي مثل «المرشد الأمين» لرفاعة رافع الطهطاوي «ت ١٨٧٣»، والرواية ذات الطابع التعليمي الخالص مثل «علم الدين» لعلي باشا مبارك «ت ١٨٩٣»، وكذلك الروايات التي أنشأها أصحابها علي غرار الكتابات القصصية الموجودة في تراثنا العربي القديم مثل «حديث عيسي بن هشام» للمويلحي «ت ١٩٣٠» و«ليالي سطيح» لشاعر النيل حافظ إبراهيم «ت ١٩٣٢»، وهما عملان احتذي فيهما المؤلفان طريقة كتاب المقامات. وجميع هذه الكتابات تنتمي إلي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والأولي من القرن العشرين قبل رواية «زينب». فالذي أقصده هو الرواية المكتوبة علي النهج الحديث الذي يتابع ما كان الأوروبيون يكتبونه في هذا الفن.





جرجي زيدان

على أنني أعد اعتبار رواية هيكل هي البداية الحقيقية للفن الروائي ظلماً وغمطاً لجهد أديب وكاتب كبير تركز جهده في إبداع قصصي لم يسبق إليه، وهو «الرواية التاريخية»، وأعني به جرجي زيدان «عاش بين سنتي ١٨٦١ و١٩١٤» قبل هيكل بأكثر من عشر سنوات.

والحق أن الباحثين المحدثين لم يغفلوا هذا الكاتب العظيم ، إلا أنهم عدوا جهوده في هذا الفن من قبيل «الرواية التعليمية» أي مواصلة لطريقة رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك، ولكني أرى في عمل جرجي زيدان خطوة واسعة تجاوز بها تلك الكتابات التعليمية وبلغ به مستوى فنياً جديراً بالتقدير كفل له دور الريادة في ذلك النوع من الروايات، قبل أن يكتب هيكل روايته بزمن غير قصير، إذ إن جرجي زيدان ينتمي بثقافته إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

- ٢ -

ولد جرجي حبيب زيدان في سنة ١٨٦١ في بيروت حيث أتم دراسته ، ثم رحل إلى مصر شأنه في ذلك كشأن كثير من المثقفين اللبنانيين والسوريين الذين اجتذبهم جو الحرية في مصر بعيداً عما كانوا يعانونه من بطش السلطات التركية التي كانت تبسط سيطرتها على بلادهم، وقد كان لهؤلاء المثقفين الشاميين فضل كبير على مصر في المجال الفكري والصحفي، فقد اتخذوا من مصر وطنهم الثاني، وفيها أنشأوا العديد من المدارس ونهضوا بالصحافة ، فأسسوا الكثير من دور النشر والمجلات التي أصبحت مراكز إشعاع للتنوير والمعارف، ويكفي أن نشير إلى آل اليازجي وتقلا وصروف وثابت.

وهكذا كان الأمر مع آل زيدان، إذ قدم عميدهم جرجي إلى مصر مع بعض أفراد أسرته، وبها أنشأ مجلة «الهلال» في سنة ١٨٩٢ ، وهي المجلة الوحيدة التي لم تنقطع عن الصدور حتى اليوم على مدى أكثر من قرن من الزمان، وسرعان ما تحولت إلى إحدى كبرى المؤسسات الصحفية ودور النشر ، ومازالت حتى اليوم تباشر رسالتها الثقافية هي وما

انبثق عنها من مجلات أسبوعية وشهرية وكتب، وفيها تخرج عدد هائل من كتاب ومفكرين وصحفيين حملوا مشاعل النهضة فى عالمنا العربي.

وعلى الرغم من أن الحياة لم تمتد طويلا بجرجي زيدان، إذ إنه توفى وقد جاوز الخمسين فإنه لم يقصر جهوده على الصحافة التى كان من أبرز أعلامها، بل كان إلى جانب ذلك عالماً موسوعى المعرفة، فقد خلف لنا تراثاً ضخماً من المؤلفات فى اللغة والتاريخ والجغرافيا والأنساب والتراجم. نذكر منها فى المقام الأول كتبه التاريخية: التاريخ العام، وتاريخ اليونان والرومان، وتاريخ مصر الحديث، وتاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ التمدن الإسلامى فى خمسة أجزاء «والتمدن هو اللفظ الذى استعضنا عنه اليوم بمصطلح الحضارة» وتاريخ الماسونية العام، وفى مجال سير العظماء كتابه تراجم مشاهير الشرق، وفى الجغرافية مختصر جغرافية مصر، وفى ميدان اللغة كتاب الفلسفة اللغوية وتاريخ اللغة العربية، أما تاريخ الأدب العربى فقد أصدر فيه كتابه الكبير الذى يعد من أعظم منجزاته : «تاريخ آداب اللغة العربية» فى أربعة أجزاء، وهو يعد فى وقته أشمل كتاب فى تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى حتى العصر الحديث.

وعلى الرغم من أن هذه الكتب التاريخية قد بعد بها العهد، إذ مضى عليها أكثر من مائة عام فإنها مازالت حتى الآن مراجع للباحثين لم تفقد قيمتها بعد، ونخص بالذكر منها كتابيه تاريخ التمدن الإسلامى وتاريخ آداب اللغة العربية. وقد حرص آل زيدان على إصدار طبعة جديدة لهذين الكتابين يقوم بمراجعتهما عالمان جليلان يضيفات إلى مادتهما ما يجعلهما مواكبين لتقدم الأبحاث فى ميدانيهما، فعهد بكتاب التمدن لأستاذ التاريخ الإسلامى الدكتور حسين مؤنس «وكان وثيق الصلة بدار الهلال وتولى تحرير مجلتها خلال فترة من الزمن» فأضاف إليه تعليقات عظيمة الفائدة، وأما تاريخ آداب اللغة العربية فقد تولى تحديث مادته أستاذنا الذى رحل عنا منذ أيام الدكتور شوقى ضيف الذى يقول فى تقديمه له إن مراجعته تمت بطلب من الأستاذين إميل وشكرى زيدان وإن من أهم ما يميز هذا الكتاب هو أنه عرف كيف يحسن الانتفاع من «تاريخ الأدب العربى» للمستشرق الألمانى كارل بروكلمان الذى صدرت أولى طبعاته فى سنة ١٩٠٢.

- ٣ -

ونعود إلى الرواية التاريخية ، فنقول إن جهوده فيها لا تقل عن عمله فى تلك المؤلفات التى قدم لنا فيها تاريخ الأمة العربية الإسلامية وحضارتها ولغتها وأدبها فى تلك الصورة المفصلة التى رأيناها من خلال عرضنا لعناوينها، فقد ترك لنا هذا الكاتب العظيم اثنتين وعشرين رواية فى نحو ستة آلاف صفحة، وهى جميعاً تتناول صفحات من تاريخ الأمة العربية فيما عدا رواية واحدة يقص علينا فيها حكاية حب بين شابين تعترض طريقهما عقبات يعانيان بسببها

من آلام الحرمان وتعذر اللقاء ما نراه يتكرر في كثير من تلك الروايات الرومانسية الباكية، تلك هي رواية «جهاد المحبين» التي تدور أحداثها في جو عصري.

أما الروايات التاريخية فإنها تتألف من ثلاث مجموعات:

أ - الأولى روايات تاريخ الدولة الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى النزاع بين الأمين والمأمون ابني الخليفة هارون الرشيد، وهي تبلغ عشر روايات نذكر فيما يلي موضوعاتها:

١ - فتاة غسان : ويتناول فيها حال الجزيرة العربية في وقت ظهور الإسلام ، ثم فتوح المسلمين للعراق والشام ، وهي في مجلدين.

٢ - عذراء قريش: وهي حول فتنة عثمان بن عفان ومقتله وخلافة علي بن أبي طالب والحرب بينه وبين معاوية والتحكيم.

٣ - ١٧ رمضان: حول الأحداث التي وقعت بعد التحكيم إلى مصرع الإمام علي.

٤ - غادة كربلاء : حول الصراع بين بني أمية وبني هاشم وخروج الحسين بن علي على يزيد بن معاوية ومقتله في كربلاء.

٥ - الحجاج بن يوسف: حول النزاع بين عبدالملك بن مروان وعبدالله ابن الزبير وحصار مكة وخلوص الخلافة لعبد الملك والدور الذي قام به الحجاج في ولايته للعراق.

٦ - أبو مسلم الخراساني: حول سقوط الدولة الأموية واستيلاء العباسيين على الخلافة ودور القائد أبي مسلم الخراساني في هذه الأحداث.

٧ - العباسة أخت الرشيد : حول نكبة البرامكة وفيها تصوير للحضارة العباسية إبان بلوغها أوج ازدهارها على عهد هارون الرشيد.

٨ - الأمين والمأمون: حول الصراع بين ابني الرشيد وعصر المأمون.

٩ - عروس فرغانة : وفيها يتتبع أحوال الدولة العباسية في خلافة المعتصم والصراع مع الإمبراطورية البيزنطية، وبداية سيطرة القواد العسكريين الأتراك على الخلافة.

وبهذه الرواية تنتهي السلسلة التي خصصها لتاريخ الدولة الإسلامية منذ البداية حتى نهاية القرنين اللذين شهدت هذه الدولة خلالهما أوج اتساعها وقوتها، وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى نهاية الخلافة العثمانية في أوائل القرن العشرين في رواية :

١٠ - الانقلاب العثماني : وفيها يذكر أحداث الجمعيات السرية التي كانت تستهدف في تركيا إسقاط الخلافة العثمانية وفوز جمعية الاتحاد والترقي في ٢٣ يوليه ١٩٠٨.

ب - المجموعة الثانية من روايات جرجي زيدان التاريخية تاريخ مصر منذ فتحها العربي حتى أواخر القرن التاسع عشر، وهي تضم سبع روايات هذا بيانها:

١١ - أرمانوسة المصرية: وتتناول فتح مصر والإسكندرية على يد عمرو ابن العاص.

١٢ - أحمد بن طولون : حول سيرة ابن طولون الذي ولي حكم مصر وعمله على الاستقلال بها وإن ظل تابعاً من الناحية الشكلية لخلافة بغداد العباسية.

١٣ - صلاح الدين والحشاشون :

حول سقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبى، وفرقة الحشاشين وهم من فلول الدولة الفاطمية، ومن غلاة الإسماعيلية.

١٤ - شجرة الدر: فى سيرة هذه المرأة القوية الجازمة، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم زوجة وزيره عز الدين أيبك الصالحى، وكانت تدبر أمور المملكة ويخطب لها على المنابر، وبوفاتها انتقل حكم مصر من دولة الأيوبيين إلى المماليك.

١٥ - استبداد المماليك: حول أحوال مصر والشام فى أواخر القرن الثامن عشر، ومحاولة على بك الكبير الاستقلال بمصر والتخلص من سيطرة الترك العثمانيين.

١٦ - المملوك الشارد: فى أحوال مصر وبلاد الشام خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، والعلاقات بين والى مصر محمد على والزعيم اللبنانى بشير الشهابى.

١٧ - أسير المتمهدى : ويعنى المؤلف بالمتمهدى مدعى المهدية، إشارة إلى الثائر السودانى المجاهد محمد بن أحمد الملقب بالمهدى، وثورته فى السودان على الحكم المصرى الإنجليزى بالسودان ما بين سنتى ١٨٨١ و١٨٨٥.

وبهذه الرواية تنتهى السلسلة التى أفردها زيدان للتاريخ المصرى من فتح العرب لمصر حتى أواخر القرن التاسع عشر.

جـ - المجموعة الثالثة: وتتناول فيها المؤلف فترات من تاريخ المغرب والأندلس وما يلحق بها من فتوح المسلمين فيما وراء جبال البيرينيه أى فى فرنسا، وهى تضم أربع روايات هذا بيانها:

١٨ - فتاة القيروان: وفيها يقص خبر دولة العبيديين الفاطميين الذين استولوا على إفريقية «أى تونس» ونادوا بأنفسهم خلفاء، ثم سيرة الرابع منهم وهو المعز لدين الله الفاطمي وفتحه لمصر وإنشائه لمدينة القاهرة والجامع الأزهر.

١٩ - فتح الأندلس وطارق: وهى عن فتح العرب لشبه جزيرة إيبيريا فى سنة ٧١١ (م) والموقعة التى دارت بينهم وبين لذريق آخر ملوك القوط، ومصرع هذا الملك ودور طارق بن زياد فى ملحمة الفتح.

٢٠ - عبدالرحمن الناصر، وهى عن خلافة عبدالرحمن بن محمد الناصر لدين الله أعظم من حكم الأندلس من بنى أمية، خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادى،

٢١ - شارل وعبدالرحمن الغافقى: وشارل المقصود هو شارب مارتيل «المطرقة» ملك فرنسا، والمعركة الهائلة التى دارت بينه وبين والى الأندلس وقائد جيش المسلمين الذى عبر جبال البيرينيه «التى تدعى البرانس» وتوغل فى الأرض الفرنسية، ولكنه منى بالهزيمة فى بواتييه فى الموقعة التى تدعى «بلاط الشهداء» وقتل القائد عبدالرحمن بن عبدالله الغافقى وذلك فى سنة ٧٣٢ (م).

- ٤ -

هذه هى موضوعات الروايات الإحدى والعشرين التى صدرت عن قلم جرجى زيدان، ومن الغريب والمؤسف أنها لم تلق ما تستحقه من دراسة ووضع لها فى مكانها الصحيح من النتاج الروائى العربى، وذلك منذ أن وصفها عدد من الدارسين بأنها «روايات تعليمية» تنقصها المعالجة الفنية التى تسمو بها إلى مرتبة

«الروايات التاريخية» التى كانت دائما ممهدة للكتابة الروائية الفنية، مع أنها تمثل خطوة هائلة نحو النضج الفنى بعد المحاولات البدائية الأولى التى تتمثل فى كتابات رفاعة الطهطاوى وعلى باشا مبارك، ومع أنها تمثل أيضا تمهيداً للمرحلة الأولى من المسيرة الفنية لكاتبنا الروائى العظيم نجيب محفوظ، وهى التى أنتج لنا فيها رواياته التاريخية الثلاث: عبث الأقدار، ورادوبيس، وكفاح طيبة.

صحيح أن نجيب محفوظ بلغ فى هذه الروايات التى جلّى لنا فيها صفحات من التاريخ المصرى القديم درجة من النضج والإتقان تجاوز بها أعمال جرجى زيدان، غير أن هذه هى سنة التطور وما يقضى به تواصل الأجيال، غير أنه ينبغى ألا ننسى فضل الريادة متمثلة فى الدور الذى اضطلع به جرجى زيدان، فشق به طريقاً جديداً فى الفن الروائى لا يمكن تجاهله.

وقد كان جرجى زيدان مع تمكنه من تاريخ الإسلام وتبحره فى الإحاطة فى معرفة تطور الحضارة العربية ومصادر الأدب العربى - واسع الاطلاع على الآداب الأوربية بفضل إتقانه للإنجليزية والفرنسية والألمانية . وأدى به جمعه بين الثقافتين العربية والغربية إلى ريادة هذا الميدان الجديد من الكتابة الذى لم يسبق إليه. وإنما تبع فيه القواعد التى أرساها فى الغرب كتاب الرواية التاريخية.

وكان أبرز هؤلاء فى الأدب الإنجليزى السير والتر سكوت Sir Walter Scott (١٧٧١ - ١٨٣٢) الذى اتخذ من التاريخ الإسكتلندى مادة خصبة لرواياته التاريخية، ولكنه لم يكتف بتاريخ بلاده القومى، بل مد اهتمامه إلى سير الشخصيات التاريخية البارزة خارج ذلك الإطار، كما نرى فى روايته «إيفانهو» (١٨١٩) وتسجيله لحياة نابليون بونابرت» (١٨٢٧). وسار على منواله فى الأدب الفرنسى إليكساندر ديماس «الأب» Alexandre Dumas (١٨٠٢ - ١٨٧٠) الذى كان من أهم أعماله «الكونت دى مونت كريستو» (١٨٤٤) و«الفرسان الثلاثة» (١٨٤٤)، ثم مجموعة أخرى من الروايات يدور بعضها حول الحرب الدينية فى فرنسا، والأخرى حول الثورة الفرنسية والأحداث الممهدة لها، وكانت هذه الروايات تنشر فى الصحف السيارة فى حلقات مسلسلة ، وأصبحت هذه الروايات بما تشتمل عليه من مغامرات وحركة هى متعة جماهير القراء، فشاعت فى القارة الأوروبية كلها، ففى إيطاليا كتب على نهجها الأديب الإيطالى اليساندرو مانزونى Alessandro Manzoni (١٧٨٥ - ١٨٧٣)، وكان قد بدأ حياته شاعراً وكاتباً مسرحيا، ثم تحول إلى كتابة الرواية التاريخية منذ سنة ١٨٢١، وكثير من نتاجه الروائى يدور حول أحداث القرن السابع عشر فى بلده ميلانو إبان فترة الاحتلال الإسبانى لإيطاليا، وفى إسبانيا كان علم هذا النوع من الكتابة بنيتو بيريث جالدوس Benito Perez Galdos (١٨٤٣ - ١٩٢٠) ، خلال المرحلة الأولى من حياته الأدبية، إذ كتب مجموعة بالغة الضخامة بعنوان «الأحداث القومية» (فى ٤٦ مجلداً) وفيها يقص علينا أحداث بلاده منذ سنة ١٨٧٣ حتى نهاية القرن التاسع عشر.

استوعب جرجى زيدان هذا النوع من الكتابة التى يمتزج فيها القصص

بالتاريخ ، وهو يقوم على «وصفة» معروفة : يختار الكاتب شخصية تاريخية مشهورة ، أو حدثاً مثيراً من أحداث التاريخ ، ومن حوله عدداً من الشخصيات الثانوية بعضها تاريخي وبعضها الآخر من نسج خياله ، ويدير الكاتب أحداث الرواية في جو من الصراع تكثر فيه الدسائس والمؤامرات، فتتعقد وتتصاعد على النحو الذي يستخدمه الكاتب المسرحي إلى أن تبلغ ذروتها ، ثم يأتي الحل في النهاية، ، وتكون في الغالب نهاية سعيدة ينتصر فيها الحق ، ويدفع المجرم الشرير ثمن جرائمه ، ولا يخلو الأمر من مفاجآت غير متوقعة ، ولا ينسى الكاتب أن يداعب عواطف الجمهور بقصة حب تكون مركزاً للأحداث أو على الأقل تحتل جانباً مهماً من الرواية، مع الحرص على أن تنتهي هذه القصة إما بزوال العوائق التي تحول بين المحبين أو على العكس من ذلك يكون ختامها مأساوياً بموت أحد المحبين أو كليهما.

- ٥ -

ولو أننا تأملنا روايات جرجي زيدان التاريخية لرأينا أنه حرص دائماً على الالتزام بهذه الوصفة وتطبيقها . ويكفي أن نختار من أعماله رواية واحدة يمكن أن نتخذ منها نموذجاً لطريقته في المعالجة ، وهي رواية «عبد الرحمن الناصر» الذي كان من أعظم من حكموا الأندلس على مدى خمسين سنة (بين ٩١٢ و ٩٦١) وبلغت هذه البلاد في عهده أوج عظمتها وازدهارها .

على أن جرجي زيدان لم يجعل الناصر محوراً رئيسياً لروايته وإنما أخذ من أحداث خلافته واقعة مثيرة هي قتله لأحد أبنائه ، ومعه عالم وفقيه كان وثيق الصلة به إذ اعتبره هو المحرض له على تدبير مؤامرة استهدفت قتل أبيه الخليفة.

فالمصادر التاريخية تذكر أن من بين أبناء عبد الرحمن الناصر اثنين كان لهما تميز خاص : ابنه الأكبر الحكم الذي ولي الخلافة بعده وتلقب بالمستنصر بالله ، وابن آخر يدعى عبد الله . وكان كلاهما معنيا بالعلم جماعاً للكتب . أما الحكم فكان في حياة أبيه أشبه بوزير الثقافة ، وهو الذي بإشارته استدعى عبد الرحمن الناصر اللغوي الكبير أبا علي القالي البغدادي، ، وبرسمه ألف القالي كتابه «الأمالي» ، كما كان له فضل استدعاء كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني من بغداد لقاء ألف دينار من الذهب ، فوصل هذا الكتاب إلى الأندلس قبل أن يخرجه مؤلفه في بغداد ، وقد اشتهر الحكم بخزانة كتبه الخاصة التي كانت من أضخم الخزائن في وقته، وكان أبوه يؤثره على سائر إخوته حتى ولاه عهده.

وأما عبد الله فقد كان يباري أخاه في الإقبال على العلم ، وقد وصفه ابن حزم بأنه كان فقيها شافعيا (مخالفاً بذلك المذهب السائد في الأندلس وهو المالكي) شاعراً أخبارياً متنسكاً . وأما خبر مقتله المأساوي فقد ذكره المؤرخ ابن سعيد المغربي قائلاً «إنه بايع قوماً على قتل والده وأخيه الحكم ، فسجنه أبوه ثم قتله يوم الأضحى سنة ٣٣٩ (أو ٣٣٨) وقتل أصحابه » ومنهم الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر الذي يوصف بأنه كان متصرفاً في فنون العلم ، «وتوفي في السجن إذ كان متورطاً في مؤامرة العاق

عبد الله بن الناصر».

- ٦ -

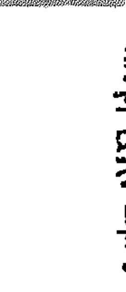
كان هذا هو الخبر الذى اتخذ منه جرجى زيدان محوراً لروايته عن عبد الرحمن الناصر والملاحظ أن الناصر نفسه ليس له فى الرواية إلا دور ثانوى، إذ أن الضوء كان مسلطاً فى المقام الأول على شخصية خيالية من ابتكار المؤلف هو سعيد الوراق صاحب المكتبة التى يتردد عليها طلاب العلم، وهو يبدو فى الفصول الأولى من الرواية عالماً واسع المعارف، دمث الأخلاق طيب المعشر، ثم إذا به يتكشف فى الفصول الأخيرة عن متآمر خبيث عميل للفاطميين الذين يرسلونه لاغتيال عبد الرحمن الناصر، ولكن دسائسه وخططه الجهنمية تنكشف، وتكون عاقبة جرائمه أن يقتل نفسه بيده وهو يعترف بما ارتكب من فظائع. ومن الشخصيات الرئيسية فى الرواية جارية سعيد الوراق الواسعة الثقافة والتى يغريها بالاشتراك معه فى مؤامرته لقتل الخليفة، فتنقاد له ولا تعصى له أمراً لأنها مغرمة به على حين أنه مغرم بالزهراء حظية عبد الرحمن الناصر، ولكنها تكتشف تغريره بها، وتحمد الله على أنها فشلت فى دس السم للخليفة.

وتتوالى فى الرواية شخصيات كثيرة من صنع خيال المؤلف وتتشابك علاقات هذه الشخصيات الخيالية بالشخصيات التاريخية إلى أن نصل إلى نهاية الرواية

وقد أدار زيدان أحداث الرواية على نحو ذكى وفق فيه توفيقاً كبيراً، إذ أن القارئ يرى نفسه مشدوداً للرواية منذ الصفحة الأولى حتى الأخيرة. ونحن نرى أنها تعد من أنجح أعماله الروائية. وكان نقاد جرجى زيدان قد ذكروا من عيوب تصويره لشخصيات روايته أنها إما نماذج للخير المحض أو للشر الخالص، وأنه لا يراعى تطور نفسياتها ونموها، غير أن ذلك غير صحيح فى هذه الرواية وفي العديد من أمثالها، فنحن نرى هنا أن الأمير عبد الله كان معترضاً على ما كان يردده على مسامعه سعيد الوراق والفقيه ابن عبد البر من تحريض له على الثورة على أبيه الخليفة، إذ ظل خلال الفصول الأولى من الرواية مسلماً لأخيه الحكم بتقدمه عليه، غير أن مشاعره تتغير على نحو تدريجى بفعل الوشايات والنمائم حتى ينتهى به الأمر إلى الانقياد لعصابة محرضيه والاشتراك فى مخطط الثورة على أبيه ومحاولة اغتياله. ومثل هذا التنامى فى الشخصية والتحول فى العواطف نجده أيضا لدى غير عبدالله من المشتركين فى الأحداث.

على أن الرواية لا تخلو من بعض المآخذ، ومنها كثرة الاستطرادات وإيراد نصوص منقولة من كتب التاريخ أو الأدب على نحو مباشر، مشفوعة أحيانا فى الحواشى بذكر المصادر التى نقل منها تلك النصوص، وهى معلومات يمكن أن يستغنى عنها أو إثباتها بشكل غير مباشر فى ثنايا الحوار.

وعلى كل حال فإننا نرى فى هذا الكم الهائل من روايات جرجى زيدان ما يشهد له بريادة فن الرواية التاريخية، ولهذا فإننا ندعو الباحثين إلى مراجعة أحكامهم والعودة إلى دراسة نتاج جرجى زيدان الروائى بتعمق ودقة، حتى نرد إلى هذا الكاتب العظيم اعتباره، ويكون تقييمنا لعمله أقرب إلى الإنصاف. ■



چورچ جالاوى

فارس من عصر المبادىء

كتاب لابد من ترجمته إلى اللغة العربية

بقلم
محمد يوسف عدس

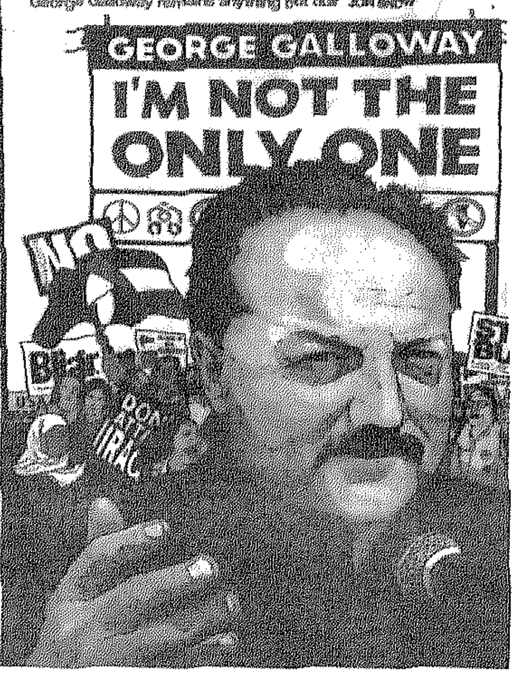
سمعت عنه كثيراً من الأصدقاء، وقرأت عن أنشطته السياسية فى الصحافة البريطانية، وشتان بين ما سمعته وما قرأته، فقد قال عنه الأصدقاء إنه رجل فريد فى نوعه بين السياسيين: مقاتل شجاع بالفطرة.. عاشق للحرية والحق.. كاره للظلم والاستغلال.. ولا حدود لما يمكن أن يفعله أو يضحى به انتصاراً للمقهورين والمستضعفين إذا آمن بقضيتهم. أما الصحافة فتقدم له صورة مناقضة تماماً: فهو خائن لوطنه لأنه كسر الحصار المفروض على العراق وانتهك الحظر الجوى.. وهو مناهض للسامية مؤيد للفلسطينيين الذين يسعون لتدمير إسرائيل.. وهو عميل لصدام حسين ومروج لدعايته ويتلقى منه ملايين الجنيهات نظير خدماته!.

التبست قضية الرجل عندى فانصرفت عن الاهتمام بها إلى شؤون أخرى.. كنت قد اقتنيت كتابه الشهير (أنا لست الوحيد) فوضعته أمامى على المكتب حتى تتهيأ ظروف مواتية لقراءته.. ثم كان يوم ٤ نوفمبر عام ٢٠٠٤م عندما أعلنت محكمة بريطانية براءة الرجل من تهمة الرشوة التى روجتها صحيفة «الديلى تلجراف» استناداً إلى وثائق ثلاثة قيل إن الأمريكيين اكتشفوها ضمن أوراق رسمية لصدام حسين (بعد غزو العراق)، تشير إلى أن «چورچ جالاواى» يتلقى مرتباً سنوياً مقداره ٣٧٥ ألف جنيه استرلينى.

إلا أن المحكمة لم تجد دليلاً على صحة هذه التهمة.. بل ثبت لديها بالفحص أن الوثائق المزعومة ليست سوى أوراق مزورة، فى هذه اللحظة التقطت الكتاب وشرعت أقرأه قراءة متواصلة حتى انتهيت منه فى يومين.. ولأننى كدت لا أصدق ما قرأت أعدت قراءته بشغف أكثر متريثاً متأملاً..

أذهلتنى حقائق الكتاب وقوة منطقه.. وشعرت بالذنب أننى أهملت الكتاب كل هذا الوقت وهو أمامى وأنا عازف عنه.

ليس چورچ جالاواى شاباً متهوساً، فهو فى أواخر عقده الخمسين، ولكنه يتدفق



حيوية ونشاطاً.. يقود مظاهرات حاشدة فى بريطانيا ضد الحرب ووجود الجيش البريطانى فى العراق، وضد الاحتلال الإسرائيلى الغاشم على فلسطين والشعب الفلسطينى..

جاءتنى فرصة مواتية لكى أستمع إلى چورج جالاواى وأراه عن قرب وأتحدث إليه.. وكان ذلك فى محاضرة دعته لإلقائها جامعة جرينتش مساء يوم الاثنين ٢١ فبراير عام ٢٠٠٥.. قلت له: لقد قرأت كتابك وسمعت ما قلت فتطابقت عندى صورة كتاب صادق النبرة مع صورة مؤلف شامخ الهمة..

الصبيان والأتباع فى الفقاعة

يحتوى كتاب جالاواى على تسعة فصول، أشير إلى بعضها سريعاً وأتمهل عند بعضها قليلاً، وصولاً إلى صورة مختصرة ولكن مكتملة عن الكتاب وفكر مؤلفه. عنوان الفصل الأول «الصبيان والأتباع فى الفقاعة» ويقصد بالفقاعة المنظومة السياسية فى حكومة العمال التى يترأسها «تونى بلير» صاحب نظرية «حزب العمال الجديد» لقد أدار بلير ظهره لنقابات العمال التى قام الحزب على أكتافها وتمويلها زمناً طويلاً.. والتحق بركب الشركات الكبرى ورجال المال والأعمال.. يمولونه ويقبضون ثمن ذلك أضعافاً مضاعفة.. وكان هذا أكبر تحول لا فى حزب العمال فحسب ولكن فى السياسة البريطانية.. فقد تخلى الحزب الوحيد الذى كان نصيراً للطبقات الكادحة والفقيرة عن واجبه، وربط مصيره بمصالح الرأسمالية فى تجلياتها الإمبريالية الجديدة.. ومن هنا ظهرت على أوسع نطاق حالات الانخراط فى الحروب الخارجية.. وخصخصة القطاع العام وإضعاف الرقابة على الشركات.. والقوانين الاستثنائية والقمعية التى تحد من الحريات، وتحرم فئات من المواطنين من حقوقهم المدنية والمساواة أمام القانون.. وتفشت روح العنصرية مستهدفة الملونين والمسلمين على وجه الخصوص.

النظام العالمى الجديد ورائحته

فى الفصل الثانى (رائحة العالم الجديدة) سخرية بعبارة «النظام العالمى الجديد».. وهى عبارة اقتبسها المؤلف من أغنية «ألفيس كاستيلو» يقول فيها: «إنها نفس الرائحة الكريهة التى كانت لها فى الماضى».. ولأنه ليس هناك من جديد.. فلا يزال العالم منقسماً إلى النخاع.. **أكثر الناس عملاً وكدحاً هم أقل الناس كسباً**.. هذه الحقيقة هى السبب فى تعاسة العالم وما يسود فيه من مظالم.. العالم الغنى غنى لأن العالم الفقير فقير.. حتى فى البلاد الغنية.. الأقلية فيها غنية لأن الأكثرية فقيرة.

بعد استدعاء حشد من الإحصائيات



والأرقام الدالة يقول چورچ جالاواى: يموت كل أسبوعين فى العالم الفقير عدد من الناس أكبر من ضحايا هيروشيما وناجازاكى (بسبب القنابل الذرية).. ويموت كل عامين من الجوع ونقص الدواء أكثر ممن قتلوا فى كل الحروب فى كل دول العالم فى تاريخ البشرية كله..

لقد هوجم «كن لفنجستون» عمدة لندن هجوماً ضارياً لأنه قال صادقاً لقد قتلت الرأسمالية من البشر أكثر مما قتل هتلر فى الحرب العالمية الثانية. إن العولمة ليست سوى غطاء جديد تستغل فيه الأقلية القوية الأكثرية الضعيفة.. إنها حرب مستمرة على الفقراء لكى يستمر ١٥٪ من سكان العالم يحتكرون ويستهلكون ٨٠٪ من ثروته. ولكى تتحكم قلة من البشر فى مصير الشعوب والدول.. ينصبون أنفسهم أباطرة يفعلون ما يحلو لهم ويمنحون لأنفسهم الحق فى تصنيف بقية العالم: هذه دولة شريرة وتلك دكتاتورية وهؤلاء إرهابيون وأولئك طغاة مجرمون.. إنهم هم الذين يقررون من يملك أسلحة معينة ومن لا يصح أن يملك.. وأى قرارات للأمم المتحدة تنفذ وأيها لا تنفذ.. وأى دكتاتور يجب تغييره، وأى دكتاتور آخر يستحق التعزيز والتسليح. تحت هؤلاء الأباطرة اكتسب العراق سمعة سيئة بأنه يخالف قرارات الأمم المتحدة وهو لم يفعل، بينما إسرائيل امتنعت بإصرار فلم تنفذ قراراً واحداً من قرارات الأمم المتحدة.. ومع ذلك تم غزو العراق وتدميره، وكوفئت إسرائيل بالمال والسلاح والدعم السياسى.

القضية الفلسطينية

فى الفصل الثالث بعنوان (فى البدء) يتحدث المؤلف عن قصة حياته وانتماء أسرته إلى الطبقة العاملة.. وكيف هام حباً بالشرق وأسواقه وتقاليده.. ويذكر واقعتين أيقظتا عقله فى وقت مبكر.. لاحظ فى الأولى إصرار أبيه على نصرة المظلومين مهما كانت التضحية، فتشرب هذه السجية فى روحه فلم تفارقه طوال حياته.. وفى الثانية سمع من جده وكان جندياً من جنود الإمبراطورية البريطانية قال: إن الله جعل هذه الإمبراطورية لا تغرب عنها الشمس لأنه لا يثق فى البريطانيين عندما يحل الظلام!!.

أما الواقعة التى غيرت مجرى حياته فقد حدثت عام ١٩٧٥ وكان حينذاك قد أمضى ثمانية أعوام فى خدمة حزب العمال حتى أصبح رئيساً لمركز الحزب فى إسكوتلانده.. قال: حضر إلى مكتبى رجل غريب وقدم نفسه باسم «سعيد حمامى» فلسطينى من الأردن.. وكانت هذه أول مرة ألتقى فيها برجل عربى.. كان يبدو لى مثل نجم السينما المشهور عمر الشريف.. قال: أنا أمثل اتحاد الطلبة الفلسطينيين فى جامعة «دندى» وأريد أن أناقش قضيتنا مع قادة حزب العمال.. قلت له: لا يوجد هنا أحد من القادة.. ولكن يمكنك أن تناقش معى قضيتك.. مكثت أستمع إليه لمدة ساعتين فأدهشنى لبساطة حديثه وصدقه.. أقنعنى بقوة حجته فوجدت نفسى أقول له: اعتبرنى من هذه اللحظة عضواً فى المقاومة الفلسطينية..

تضمن حديث الرجل سرداً كاملاً مفصلاً لوقائع النكبة التى حلت بوطنه وشعبه.. وكيف اختفى وطن بأكمله من خريطة العالم.. وتشتت شعبه فى الأرض.. يقاسى ويلات اللجوء والتشرد.. والأسوأ من كل هذا أن يغمض العالم عينيه عن هذه المأساة فلا يعبأ بها.

تحدث جالاواى عن القضية الفلسطينية فى مجموعة من أصدقائه الاشتراكيين والثوريين الذين كانوا يقفون ضد الامبريالية العالمية ويؤيدون حركات التحرير

فى أفريقا وأمريكا اللاتينية.. ولكنهم يقفون مع إسرائيل ضد الفلسطينيين.. فأثار هذا الموقف استغرابه وراح يحلل هذه الظاهرة حتى اهتدى إلى سببين أساسيين:

الأول: أن الصهيونية دأبت على ترويج وترسيخ فكرة أن «فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض».. والحقيقة هى أن الصهيونية هى الوجه الآخر لعملة اللاسامية، وأما الوجه الأول فيتمثل فى جميع الكارهين لليهود الذين عملوا بكل قوة لتهجير اليهود من أوربا، وكانت الصهيونية تتآزر معهم وتتعاون فى اقتلاع اليهود من أوربا.. يضاف إلى ذلك أن اليهود قبل شيوع الحركة الصهيونية كانوا من أكثر خلق الله انخراطاً فى الحركات الثورية والاشتراكية وكانوا من أبرز قادتها فكراً وعملاً.. كان ماركس وتروتسكى يهوديين..

للأسف لم يكن أحد من أصدقاء جالاواى يفهم أن الاحتلال العسكرى الاستيطانى فى فلسطين ظاهرة إمبريالية، ولا علاقة لها مطلقاً بالأفكار الثورية التى عرفت عن اليهود فى أوربا.

أما السبب الثانى لدعم اليساريين لإسرائيل فيرجع إلى أنه فى الستينات والسبعينات من القرن العشرين كان يحكم إسرائيل حزب العمال الذى كان يفخر بانتمائه للاشتراكية الدولية ويروج للطبيعة الاشتراكية لإسرائيل ويشجع الشبان على زيارة الكيبوتزات فى إسرائيل، ليروا بأنفسهم كيف تهتم إسرائيل بتربية أطفالها تربية اشتراكية.. وفى نفس الوقت يتمتع الشباب بالإقامة المجانية وأطايب الطعام والحب المتحرر من كل القيود.. الشىء الوحيد الذى حجب عن هؤلاء الشبان هو أن الأرض التى أقيمت عليها هذه الكيبوتزات أرض مغتصبة وأن أصحابها الحقيقيين يرتعدون من البرد والجوع فى مخيمات اللاجئين..

كذلك حجبوا عنهم حقيقة أخرى وهى أن إسرائيل التى تدعى الاشتراكية كانت تعتمد اعتماداً كلياً على الولايات المتحدة أكبر رأسمالية إمبريالية فى العالم.. تمدها بعناصر الحياة والقوة كما كانت تساند - فى نفس الوقت - نظاماً عنصرياً مثيلاً فى جنوب أفريقيا ضد الأغلبية السوداء.

بهذا الفهم العميق تبنى جالاواى القضية الفلسطينية.. وأكدت له الأحداث والمعرفة المتراكمة عبر ثلاثين سنة أن اختياره كان صحيحاً.

قصته مع العراق

زار جالاواى سوريا ولبنان والمغرب ومصر ودولا عربية أخرى ولكن الدولة الوحيدة التى لم تدعه لزيارتها كانت العراق.. وكان يعلم أنه لو ذهب إلى العراق لألقى القبض عليه، ذلك لأنه كان يكتب ويخطب ضد حزب البعث وجرائمه ضد الشعب العراقى - خلال السبعينات - وكان ينادى بالديمقراطية والحرية للشعب العراقى.. حتى خشى عليه أصدقاؤه الفلسطينيون من تهديدات حزب البعث له بالقتل.

يقول جالاواى كنت أقود المظاهرات خارج السفارة العراقية ضد صدام حسين بينما كان هو الصديق المدلل للحكومتين البريطانية والأمريكية، وكانت الصفقات التجارية وإمداده بالأسلحة تجرى على قدم وساق.. وكان رامسفيلد يزور العراق ويلتقى بصدام حسين يشجعه على استخدام الأسلحة الكيماوية ضد الإيرانيين.. كانت أمريكا وبريطانيا تبيعان الأسلحة لصدام حسين حتى بعد واقعة حلبجة، وكانتا تعلمان كل تفاصيلها المأساوية، ولكنهما هونتا من شأنها وأخفتا حقائقها.. قالوا: إن ضحاياها لا يزيدون

عن أربعمائة.. فلما خاصمتنا العراق وأرادتا اختلاق ذرائع للحرب ارتفع عدد ضحايا حلبجة إلى ثمانية آلاف!.

خرج صدام حسين من حرب إيران بجيش كبير قوامه مليون جندي مسلم بترسانة عسكرية أمريكية بريطانية.. ولكن أحد أخطائه الفادحة أنه أعلن في أحد مؤتمرات القمة العربية أنه: إذا قامت إسرائيل بالهجوم على أي دولة عربية فإن لدينا السلاح الذي يستطيع أن يحرق نصف إسرائيل. هنا بدأ أصدقاء الأمس يستشعرون خطره على إسرائيل وعلى المنطقة، واستدرجوه لغزو الكويت فكانت هي الصخرة التي حطم رأسه عليها.

ثم بدأت حملات الدعاية الأمريكية والبريطانية حول امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل تمهيداً لشن الحرب على العراق.

يقول جالاواي:«شعرت بخطر المنزلق الذي تجرنا إليه الامبريالية الأمريكية.. وبدأ اليسار البريطاني ينضم إلينا في حركتنا ضد الحرب». فلما بدأ غزو العراق تحدث جالاواي في لقاء مع تليفزيون دبي فوصف بلير وبوش بأنهما هبطا كالذئاب الجائعة على شعب العراق الأعزل.. فالتقطها أحد المنافقين من وزراء بلير وكتب مقالاً فاحشاً ضد جالاواي، وأرسله إلى صحيفة إسكوتلاندية هي «إسكوتش ديلي ريكورد» فرفض رئيس تحريرها «بيتركوكس» أن ينشرها وبعث برسالة إلى صديقه جالاواي يحذره.. قال: «لم أستطع أن ألوث يدي بدم جالاواي لأنك واحد من القلائل من أصحاب المبادىء في هذه الحكومة.. لقد جلست إليك وعرفت وجهة نظرك وأوافقك عليها.. ولكن كن حذراً ياجورج فإن الوحوش قد نزلت لافتراسك».

فقد «بيتر كوكس» وظيفته بسبب موقفه، وهذا ما يحدث للصحفيين الشرفاء اليوم في بريطانيا كما يحدث في أمريكا..

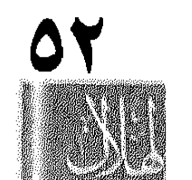
تسرب المقال فنشرته صحيفة «الصن» تحت عنوان ضخم «الخائن» في صفحتها الأولى.. وعندها فتحت أبواب جهنم باللعنات تتدفق عليَّ من كل مكان.. وامتلأ بريدي وموقعي على الإنترنت بسيل من الإهانات والشتائم المقذعة وتدفقت المكالمات التليفونية الجارحة ليل نهار على مساعدي مكتبي فانقلبت حياة الجميع إلى جحيم.

بغداد

يكاد حديث جالاواي عن بغداد يذوب رقة وتزداد نبرات عشقه للمدينة العربية الجميلة في طبيعتها الآسرة أثناء النهار، فإذا هبط المساء ارتفع صوت المؤذن من مآذنها العالية المشرئبة بأعناقها إلى السماء يدعو المتقين إلى الصلاة، فيتوجهون زرافات ووحدانا يمشون في وقار وخشوع إلى المساجد، فإذا خفتت حركة الناس في الطريق والتأم شمل الجميع داخل المساجد تخشع الأصوات ولا يبقى في مجال الرؤية إلا تلك المآذن تتلألأ بأضوائها في سماء بغداد.

يصف جالاواي السنوات الخمسة الأولى من الحصار فيما بين ١٩٩٠ و١٩٩٥ وكيف تحولت الحياة إلى جحيم.. ثم جاءت مرحلة (النفط مقابل الغذاء) مع استمرار الحالة المأساوية لشعب العراق وأطفال العراق.. راح ضحيتها نصف مليون طفل!.

ذهبت مذيعة أمريكية من تليفزيون (CBS) هي «ليزلي ستيل» إلى بغداد وشهدت ما حل بأطفال العراق من كوارث.. وسألت «مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية: كيف نبرر موت نصف مليون طفل عراقي؟ فأجابت الوزيرة بكلمات يصفها جالاواي



بأنها أوزار ستحملها أولبرايت على كتفيها يوم القيامة فى طريقها إلى جهنم.. قالت: إنه أمر مؤسف ولكننا نعتقد أن الأمر يستحق هذا الثمن!!.

السلام عليك يامريم

تحت هذا العنوان عقد جالاواى فصلاً كاملاً عن معركته مع السلطات البريطانية من أجل قضية أطفال العراق.. يقول: فى زيارتى لبغداد سنة ١٩٨٩ دخلت عنبر الأطفال فى مستشفى بغداد وشاهدت مئات المرضى الذين كتب عليهم الموت بسبب الحصار والافتقار إلى الدواء المناسب.. وبينما كنت أمر على المرضى استوقفت نظرى طفلة فى الرابعة من عمرها لها وجه ملائكى واسم ملائكى إنها «مريم حمزة».. استمعت إلى تشخيص حالتها من الطبيب.. شيء يوجع القلب!.. وقررت أن آخذها معى إلى بريطانيا للعلاج: لم أفكر لحظتها فيما إذا كانت أسرتها ستسمح بذلك.. أو هل يسمح النظام؟.. أو هل يوافق «روبين كوك» وزير خارجيتنا على منح مريم تأشيرة دخول؟.. لم أفكر من أين نأتى بالمال للإنفاق على رحلتها وإقامتها مع ذويها وعلاجها.. وماذا سيكون موقف الإعلام البريطانى من هذه المغامرة غير المسبوقة؟..

لما شرعنا فى الإجراءات بدأت العقد تنحل واحدة بعد الأخرى.. واستقرت مريم فى مستشفى جلاسجو.. كل مشكلات مريم انحلت إلا مشكلتى مع الصحافة والإعلام البريطانى فقد وجهت إلى موجة جديدة من الهجوم بدأتها صحيفة «الديلى تلجراف» تحت عنوان «الغبى المفيد لصدام» ثم توالت الهجمات المتلفزة تصف الطفلة البريئة بأنها «سلاح صدام السرى».. وخرج طبيب نفسى لا أدرى من أى مكان جاءوا به على التليفزيون ليتهمنى بتعريض طفلة شرقية للاضطرابات النفسية.. والسبب عنده هو أنها صدمت عندما رأت فى مطار جلاسجو نساءً يلبسن «سكيرت» قصيرة فوق الركبة وقد اعتادت أن ترى أهلها من النساء يلبسن الشادور الأسود الذى يغطيهن من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. تحملت كل هذا الهراء وأنا أتابع علاج الفتاة حتى حدثت المعجزة وزالت حالة الخطر عن مريم.. كم كنت سعيداً بهذا الخبر.. ولكن حكومة بلير لم تدعنى أنعم بهذه اللحظة السعيدة إذ سلطت علىّ «جولد سميث» النائب العام، الذى أفتى من قبل بشرعية غزو العراق نفاقاً لسيده.. وهو هنا يريد فتح تحقيق لمعرفة ما إذا كان جمع أموال تبرعات لغرض العلاج فى حالة مريم العراقية فيه مخالفة للقانون؟!.. أرادوا بذلك أن يدخلونى فى دوامة جديدة من التحقيقات والإثارة الإعلامية لتغطية ما ظهر من حقائق فى حملتنا لعلاج مريم.. فقد عرف الناس أن حكومتهم ترتكب جرائم حرب فى العراق، وبرز بوضوح للرأى العام البريطانى التأثير المدمر للأسلحة المصنوعة من اليورانيوم المستنفد فى نشر السرطان بالعراق، فالولايات المتحدة وحدها أسقطت على العراق ثلاثين ألف قذيفة من هذا النوع، وأطلقت تسعمائة ألف رصاصة، إضافة إلى ٣٠ ألف طن من المخلفات المشعة.. كل هذا لتلويث الهواء والماء والتربة والطعام والأجسام.. وكان الأكثر تأثراً هم أطفال العراق..

من «بيج بن» إلى بغداد فى رحلة لكسر الحصار

يقول جالاواى عن هذه الرحلة: «قصدنا بهذه الرحلة عام ١٩٩٩ إذاعة عملية «إغاثة مريم» ونشرها بين عشرات الملايين من





المشاهدين فى أنحاء العالم خرجنا فى حافلة كبيرة من أمام ساعة «بيج بن» وسط لندن حتى وصلنا إلى فرنسا ومنها إلى إسبانيا ثم عبرنا مضيق جبل طارق إلى المغرب ثم الجزائر وتونس وليبيا ومصر والأردن، وعبرنا الحدود حتى وصلنا إلى بغداد.. حيث فوجئنا بطوفان من البشر قُدر عددهم بثلاثة ملايين.. استقبلونا بالأهازيج والهتافات ولافتات الترحيب.. كانت البعثة مؤلفة من مجموعة مختارة من نشطاء حزب العمال والثوريين السابقين من الطلاب والموسيقيين والأكاديميين.. تكلف الشيخ زايد آل نهيان بنفقات الرحلة التى استغرقت ستة أيام عبرنا فيها ثلاثة قارات.. وكنا نعيش معاً: نعد طعامنا ونأكل ونغسل ثيابنا بأنفسنا.. توثقت علاقاتنا الإنسانية وارتفعت روحنا المعنوية.. وكنت حريصاً ألا يصحبنا فى هذه الرحلة أحد من النساء، حتى لا نعطى للمتربصين بنا فرصة لمهاجمتنا وتشويه أهدافنا».

تلت هذه رحلة جوية سنة ٢٠٠٠م لخرق الحصار الجوى فلما وصلت إلى مطار بغداد خرجت التايم اللندنية بعنوان كبير: «عضو البرلمان يخرق الحصار الجوى على العراق»!.

يقول جورج جالاواى فى رده على اتهامات حكومة بلير بالعمالة لصدام حسين: فى جميع رحلاتى إلى العراق لم ألتق بصدام سوى مرتين، فى الأولى التقيت به مع مجموعة كبيرة من الناس، وفى الثانية حاولت إقناعه بالسماح لفريق تفتيش الأمم المتحدة لدخول العراق ظناً منى أن هذا سوف يؤدى إلى إنهاء الحصار ووضع حد لمعانات الشعب العراقى، وتبين فيما بعد أننى كنت مخطئا. وعندما عدت إلى بريطانيا أعلنت لهم فى البرلمان أن صدام لا يملك أسلحة دمار شامل وسوف يسمح لفرق التفتيش بالعمل فى العراق.. ولكن لم يصدقنى أحد فى الحكومة ولا فى الصحافة.. ثم أظهرت الأحداث أن الدكتاتور الشرير كان صادقاً فى كلامه وفى وعده كليهما، أما قادة العالم المتحضر أمثال بوش وبلير فقد كذبوا على شعوبهم وعلى العالم تبريراً لجريمة غزو العراق. لقد قاما بغزو العراق وبمراه لأنه لا يملك أسلحة دمار شامل ولا يمثل خطراً عليهم، ولم يقوما بغزو كوريا الشمالية لأنها تملك أسلحة نووية وهى خطر عليهما!.

ويؤكد جالاواى أن الغرب منذ تقسيم البلاد العربية فى «سيكسبيكو» سنة ١٩١٦ وسياسته ثابتة على الابقاء على العالم العربى ضعيفاً مفككاً.. فلما ظهر البترول زادت القبضة الامبريالية على منابع البترول فيه.. وظهرت مشروعات جديدة لمزيد من التقسيم والإضعاف، والآن تحتل القوات الأمريكية والبريطانية أراضى أربع دول خليجية، فهذه البلاد (فى مجموعها) تمتلك احتياطياً من البترول والغاز يكفى لمائة وخمسين عاماً قادمة، بينما احتياطى البترول فى أمريكا سينتهى خلال ٢٥ سنة، ولن يستمر بترول بريطانيا أكثر من ١٥ سنة فقط. ويضيف جالاواى: إن موارد الثروة فى الماضى كانت تنتزع بالقوة وبلا

ثمن تحت سيوف الاحتلال، أما الآن فقد أضافوا أردية جديدة لعمليات النهب.. من الديمقراطية.. وحقوق الإنسان.. وحقوق النساء..

ذئاب وأسود وحمير

تحت هذا العنوان المثير (في الفصل التاسع) يشرح جالاواي الآثار الخطيرة لتطور حزب العمال الذي انخرط في منظومة الشركات العملاقة ذات النزعة الإمبريالية، وأصبح في هذا منافساً لحزب المحافظين، فلما تساويا أصبح أفضلهما من يقدم تنازلات أكثر وخدمات أكبر، وكانت هذه لعبة بلير ونجح فيها. حكومة العمال تنشط في مجال الخصخصة وتمنح عقوداً بالمليارات لشركات الصناعات الحربية.. تعود ببعضها على حزب العمال لينفق على حملاته الانتخابية ويطيل عمره في السلطة ليمنحها بدوره عقوداً جديدة. ومن ناحية أخرى تريد هذه الشركات لأسلحتها أن تستخدم وتستهلك دائما حتى تتمكن من تطوير أجيال جديدة من الأسلحة أشد فتكا. ومن ثم كان واجباً على القيادات السياسية أن تختلق من الذرائع ما يضمن استمرار الحروب والغزو الخارجي.

وتريد الشركات السيطرة على أسواق العالم وفتح أسواق جديدة دائماً.. ولا تكون السيطرة كاملة إلا بالغزو والاحتلال.. ويؤدي الاحتلال إلى نتيجة أخرى وهي السيطرة على المواد الخام وعلى الأخص الغاز والبترول والتحكم في أسعارها وكمياتها ومواعيد استكشافها.

ولكي يخفي السياسون سوء أعمالهم وسوء نواياهم لجئوا إلى طمس الحقائق وإخراس الألسنة وتدمير الأدلة التي تدينهم، ومن ثم تفاقمت الحملة على أجهزة الإعلام وعلى الصحفيين. ولأن مثل هذه السياسات لا يصلح لتنفيذها سوى الإمعات أصبحت بطانات الحكام في الدول الديمقراطية من المنافقين والانتهازيين.. إنها إذن منظومة متكاملة!.

لذلك يقول چورچ جالاواي إن من بين أهداف حزبه الجديد الذي سماه رسبكت RESPECT أنه سوف يقاتل لاستعادة القيم البريطانية التقليدية في التسامح والحرية والديمقراطية والمساواة واحترام الناس على اختلاف ألوانهم وأديانهم وثقافاتهم.. «سوف ندافع عن المسلمين ضد الهجمات العنصرية من جانب بطانة توني بلير وأصدقائه في إمبراطورية مردوك الإعلامية.. سوف ندافع عن حقوق المتدينين ليلبسوا ما يريدون من أردية على رءوسهم التزاماً بواجباتهم الدينية.. سوف نشجع الجمهور على أن يمحو من قائمة مشترياته كل ما ينتجه ماكدونالد الأمريكي، وكل ما تنتجه إسرائيل.. وأن يقاطع منتجعاتها السياحية التي احتلتها في فلسطين، فإسرائيل دولة عنصرية تقتل أطفال الفلسطينيين شأنها في ذلك شأن دولة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا».

لقد حرص جالاواي على طهارة يديه من المال الحرام، وحمل حياته ومستقبله السياسي على كفيه وهو يخوض معاركه ضد الظلم والقهر والاستغلال في شجاعة نادرة.. وهو اليوم يقود أكبر حركة احتجاج ومقاومة للحروب الامبريالية ظهرت في تاريخ بريطانيا.

إنه حقاً فارس من عصر المبادىء يناضل في عصر الانحطاط. ■

سعيد النجار



بعد سنة من رحيله

بقلم
د. جلال أمين

ها قد حانت فرصة جديدة للحديث عن الدكتور سعيد النجار، هذا الرجل الفذ الذى أجمع كل من عرفه على تقديره واحترامه والإشادة به ، ففى ١١ أبريل ٢٠٠٥ تم عام على وفاته، وهو فى الخامسة والثمانين ، وكان

قبل أيام قليلة من وفاته ملء السمع والبصر . وهو ليس من الناس الذين ينضب الكلام عنهم بسهولة ، فهو رجل متعدد الجوانب ، عاش حياة ثرية للغاية ، وأسهم فى الحياة العامة بنصيب وافر فى مجالات مهمة : الاقتصاد والسياسة والقانون ، وكان أستاذا مبهرا وخطيبا مفوها ، وذا حضور قوى للغاية فى أى ندوة أو مؤتمر أو مناظرة يشارك فيها.

وهو إنسان شجاع لا يهاب موقف الحكومة منه ولا رأى الناس فيه، فكيف ينضب الكلام بسهولة عن مثل هذا الرجل؟

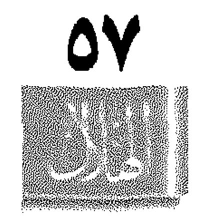
لم أكن من أقرب المقربين إليه ، بسبب اختلافى معه فى الرأى حول السياسة الاقتصادية الواجبة الاتباع فى مصر والعالم الثالث ، ولكن هذا لم يؤثر ولا للحظة واحدة على حبى وتقديرى له ، كما أنه لم يؤثر إلا لفترة قصيرة ، على صفاء علاقتى الشخصية به . وقد كتبت عنه أكثر من مرة ، وتكلمت عنه فى كل مناسبة دعيت فيها للكلام . فما الذى يمكن أن أضيفه اليوم ؟

* * *

أريد أولا أن أضيف كلمات قليلة إلى ما سبق أن قيل عن الدكتور سعيد النجار كأستاذ . كل تلاميذه ، وهم كثيرون ، وتتراوح أعمارهم بين الأربعين والثمانين ، يجمعون على أنه كان أستاذا رائعا . وقد تتلمذت عليه أنا أيضا ابتداء من سنة ١٩٥١ ، فى أول سنة لى كطالب فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وكانت هذه السنة أول سنة له فى التدريس بعد حصوله على الدكتوراه من انجلترا . وقد وجدته أنا أيضا أستاذا رائعا . فما هى الخصلة الأساسية التى جعلته كذلك ؟

نعم كانت طريقته فى الإلقاء أخاذة، وكلامه واضحا دائما ومنطقه سلسا ولغته العربية راقية . ولكنى أعتقد أن وراء كل ذلك كانت تكمن خصلة مهمة ربما كانت هى المسئولية عن كل هذه الصفات الآسرة ، وأقصد بها أنه كان من ذلك الصنف النادر من الرجال الذى يشعر بمتعة حقيقية من التعرض لمشكلات عقلية بحتة ، يحاول جاهدا أن يحلها ولا يهدأ له بال حتى يعثر على هذا الحل .

أقول إن هذه الخصلة نادرة إذ ما أكثر من عرفت من أساتذة جامعيين ، ومن مثقفين ، بل وممن يتكرر



وصفهم «بالمفكرين» ، بل «وبالمفكرين الكبار» ، لا يتحلون فى الحقيقة بهذه الخصلة .

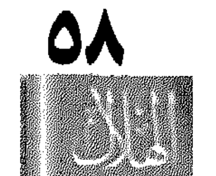
كان د. سعيد ، على العكس ، يبدو وكأنه يملك حاسة قوية لاكتشاف المشكلة الفكرية التى تكمن فى أى موقف يتعرض له ، فيسلط عليها أضواء ذهنه القوى ، يغالبها وتغالبه حتى يصرعها . يذكرنى هذا بوصف أطلقه على الكاتب الانجليزى الشهير «چورج أورويل» صديق له ، إذ قال إن حسه الأخلاقى كان من القوة بحيث يجعله يرى المشكلة الأخلاقية الكامنة وراء أى موقف يعرض له ، فلا أستطيع أن أتصوره ، هكذا قال صديق أورويل، «وهو يخرج منديلا من جيبه دون أن يشرع فى التفكير فى الجوانب الأخلاقية التى تثيرها صناعة المناديل»! أستطيع أنا أن أقول قولا مماثلا عن سعيد النجار ، فأنا أيضا لا أستطيع أن أتصوره وهو يخرج منديلا من جيبه دون أن تدور بذهنه مشكلة العلاقة بين تقييد التجارة فى مصر ، وتدهور صناعة المناديل فيها .

من هنا يأتى ، فيما أظن ، هذا الأسلوب البالغ الوضوح وطريقة عرضه البالغة السلاسة والنقاء لأى موضوع يكتب أو يحاضر فيه . إذ أن المصارعة العقلية لأية مشكلة ، إذا بلغت أقصى مداها ، لابد أن تؤدى إلى تفتيت المشكلة إلى أبسط عناصرها وأصغر أجزائها ، فإذا بشرحها وفهمها وهضمها يصبح أمرا بالغ السهولة والبساطة .

لا أظن أن كل من تتلمذ عليه قد أدرك هذه الخصلة المميزة للدكتور سعيد إدراكا واعيا ، وإن كنت أعتقد أن كل من تتلمذ عليه لابد أن شعر بآثارها . فهذا الغرام بمصارعة المشكلات العقلية وحلها لابد أن يدفع الأستاذ دفعا إلى الاهتمام بأى مشكلة عقلية قد تصادف تلميذا من تلاميذه ، ومحاولة مساعدته فى الوصول إلى حل لها ، ومشاركة التلاميذ همومهم الفكرية ، إن كان لهم مثل هذه الهموم، والفرح بالتلميذ الواعد منهم ومساعدته على تحقيق المزيد من النجاح . فكيف لا يشعر تلاميذه بالولاء له ، وكيف لا يبادلونه حبا بحب؟

* * *

لم يكن د. سعيد النجار ارستقراطى النشأة ، بل نشأ فى بيئة اجتماعية أقرب إلى العسر المادى منها إلى الرخاء . ولكن كان دائما يبدو لى «أرستقراطى» الطباع . وأنا أستخدم هذا اللفظ هنا لا بمعنى التعالى والتكبر على من كان دونه مقاما ، بل بمعنى الترفع عن الصغائر ، كما يترفع الارستقراطى . وعندما أفكر فى «أرستقراطية» الدكتور سعيد النجار لا أجد من الصعب تفسيرها ،



فالمشغول دوما مثله بمشاكل فكرية لا يمكن أن تهمه صغائر الأمور ، ولا صغار الناس المشغولين دوما بصغائر الأمور .

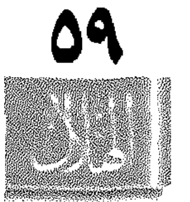
يتذكر المرء ، إذ يفكر فى هذا النوع من الارستقراطية قول السيد جمال الدين الأفغانى فى وصف تلميذه الشيخ محمد عبده ، وهو الرجل النادر الذكاء المشغول بدوره دوما بالمسائل الفكرية ، والذى نشأ أيضا نشأة ريفية أقرب إلى العسر منها إلى اليسار . إذ يروى أن الأفغانى سأل محمد عبده مرة متعجبا ، وقد رأى اعتزازه بنفسه وترفعه عن الصغائر «ابن أى ملك من الملوك أنت ؟» . وقد عرفت رجلين أو ثلاثة فى حياتى ممن يمكن أن يوجه إليهم مثل هذا السؤال ، أحدهم هو الدكتور سعيد النجار .

* * *

فى كلمة ألقاها د. فوزى منصور فى الاحتفال الذى أقيم منذ عام لتأبين د. سعيد النجار ، وكان د. فوزى أيضا تلميذا له ، (وإن كان الفارق فى السن بينهما ليس كبيرا ، إذ كان د. النجار معيدا فى كلية الحقوق فى سنة ١٩٤٣ فدرس للدكتور فوزى وهو تلميذ فى نفس الكلية) أشار فوزى منصور إلى هذا الإجماع الملحوظ على حب وتقدير د. النجار حتى بين من كانوا يختلفون معه فى الرأى اختلافا شديدا ، فأشار إلى أن الحاضرين فى حفل تأبينه يمثلون «كل أطياف الضوء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار» . وقد سألت نفسى عما إذا كان هذا الإجماع النادر يرجع فقط إلى الإجماع على صفات د. سعيد الشخصية ، أم أن له أيضا علاقة بمواقفه الفكرية ، فرأيت نفسى أميل إلى الاعتقاد بأن المسألة تتجاوز تقدير صفاته الشخصية وتشمل أيضا موقفا فكريا محددا يحظى منا جميعا بمثل هذا الاجماع .

أقصد بذلك اهتمام د. سعيد النجار البالغ وتأكيده المستمر على مبدأ «سيادة القانون» ، كهدف أساسى من أهداف الحركة الوطنية ، وكشرط ضرورى لأى نجاح اقتصادى أو سياسى . بل أكاد أميل إلى أن هذا الهدف (سيادة القانون) ربما كان يحتل فى تفكير د. سعيد النجار وسلم أولوياته مكانة أكبر من مكانة الحرية الاقتصادية والليبرالية السياسية .

فمن بين العناصر الراسخة فى عقيدة د. سعيد النجار السياسية أنه ، بصرف النظر عن السياسة الاقتصادية المتبعة أو الفلسفة السياسية التى تطبقها الحكومة ، لابد أن يحترم القانون ، وأن يطبق على الكبير والصغير على السواء ، وألا يسمح بالخروج على القانون لأى سبب من الأسباب . كان هذا ، فيما أرى ،

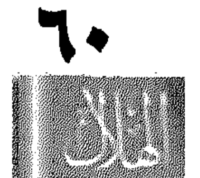


أحد أسباب نفوره الأساسية من نظام الحكم فى الستينات ، بل أكاد أقول إنه هو السبب الأساسى لهذا النفور ، أكثر من نفوره من سيطرة الدولة على الاقتصاد . لم يكن د. سعيد مثلا ليتصور أن يرفع أحد شعار «إعطاء القانون إجازة» ، كما فعل أحد المسئولين في فترة من فترات الستينات. ولكن استمر نفور د. سعيد من النظام السائد خلال السبعينات ، رغم عدول هذا النظام عن تدخل الدولة الصارم فى الاقتصاد ، إذ رأى القانون يعبث به فى السبعينات وما تلاها من عقود بدرجة أكبر من درجة العبث به فى الستينات ، كل ما هنالك أنه بينما كان الخروج على القانون فى الستينات يستند إلى محض القوة السياسية أو العسكرية ، أصبح العبث بالقانون فى السبعينات وما تلاها يستند أساسا إلى قوة المال .

من الممكن فى ضوء هذا أن نفهم تأكيد د. سعيد النجار المستمر على دور الفساد فى تبديد طاقة الأمة وإفشال أى نهضة اقتصادية أو سياسية ، إذ ما هو الفساد ، فى نهاية الأمر ، إن لم يكن العبث بالقانون والخروج عليه لتحقيق مصلحة شخصية؟

بهذا يمكننا أيضا أن نفسر تصدى د. سعيد النجار بالدفاع عن رجال يختلف معهم أيديولوجيا اختلافا شديدا ، إذا وجدهم يتعرضون لأى نوع من المعاناة والظلم نتيجة لعدم اتباع الدولة لقواعد القانون . من هؤلاء الرجال الذين دافع عنهم د. سعيد النجار بضراوة د. حلمى مراد فى الثمانينات ، عندما رآه يحتجز ظلما فى قسم من أقسام الشرطة لمجرد أنه استخدم حقا يكفله له القانون فى انتقاد تصرف من تصرفات السلطة .

عندما يفكر المرء فى إصرار د. سعيد النجار علي الدفاع عن سيادة القانون وعلى تطبيقه على الكبير والصغير ، سنة بعد سنة ، وعقدا بعد عقد ، وهو ما يؤيده الجميع فيه ، وبضراوة لا تقل عن ضراوة مناداته بسحب يد الدولة من الاقتصاد ، وهو ما يختلف معه فيه الكثيرون ، وأنا منهم ، وعندما ننظر حولنا الآن فنرى أن هدف تحقيق سيادة القانون أصبح يحتل الآن أهمية لا تقل ، إن لم تزد ، على أهمية استعادة الدولة لدورها المركزى فى توجيه الاقتصاد وإعادة توزيع الدخل ،. لا عجب أن يشعر كل المهتمين بمستقبل هذا الوطن ، الذين يمثلون «كل أطياف الضوء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار» ، بافتقادهم الشديد للدكتور سعيد النجار ، وقد مضى عام كامل على رحيله . ■



تأنيث ألقاب الوظائف



لغويات

بقلم

د. الطاهر أحمد مكى

وانتهت قرارات مجمع اللغة العربية فى تأنيث ألقاب الوظائف إلى القرار التالى :

«يجوز في ألقاب المناصب والأعمال اسما كان أو صفة أن يوصف المؤنث بالتذكير، بشرط ذكر الموصوف منعا للبس، فيقال فلانة أستاذ أو عضو أو رئيس أو مدير استنادا إلي ما نقله ابن السكيت عن العرب وما أورده من أمثلة».

ولما عرض الاقتراح على مؤتمر المجمع، وهو السلطة العليا، ويضم ممثلين عن كل الأقطار العربية ومجامعها، اعترض عليه أستاذنا الجليل، شيخ النحاة المحدثين، قائلا: كيف نوفق بين هذا والقاعدة النحوية التى توجب مطابقة النعت للمنعوت، ومطابقة خبر كان لاسمها، إذا أبحنا هذا فسوف يهدم قواعد النحو.

وأيده فى هذا الدكتور عبدالكريم خليفة من الأردن، ورئيس مجمعها اللغوى الآن.

وبعد المناقشة انتهى المؤتمر إلى القرار التالى:

«لا يجوز فى ألقاب المناصب والأعمال – اسما كان أو صفة – أن يوصف المؤنث بالتذكير، فلا يقال: فلانة أستاذ أو عضو أو رئيس أو مدير».

بعد ٢٧ عاما عاودت لجنة الأصول فى مجمع اللغة العربية عرض الاقتراح على المجلس من جديد بعد أن دعمته بشئ من الشواهد، ولكن الاقتراح يدعم الفكرة القائلة، والشائعة عنا، أننا مجتمع ذكورى!

حين دعت الدكتورة درية شفيق إلى إلغاء التاء منذ نصف قرن من الزمان، كانت ترنو بعقلها إلي الغرب واللغات الأجنبية، ونحن الآن نرفض هذه الخطوة خوفا من اتهام الغرب. الأمر فى الحالين رد فعل لما يفعله الآخرون، أو يرونه فينا.

بعيدا عن الرفض أو القبول مجمعيا، دعونا نترك ذوق العصر يقرر، لا نرفض ولا نلزم، وإنما نجيز، وأظن ذلك ما اختاره المجمع واقعا، حين ضمن معجمه الوسيط ذلك الرأى.

أحمد رجب

صورة من بعيد

بقلم
جمال الغيطانى

½ كلمة

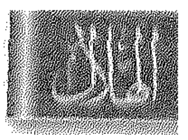
من صور غباوة الروتين: عاملان زراعيان تابعان لإحدى الإدارات الحكومية كل منهما يمسك بفأس واحد يحفر الأرض والثاني يردم ما حفره الأول ثم يبدأ الأخير في حفر حفرة جديدة ليردمها الثاني وهكذا.. واقترب منهما أحد العقلاء وسأل أحدهما لماذا تردم ما يحفره زميلك فقال أصل أنا شغلي أحفر الحفرة وبعدين أردمها بعد ما يحط زميلنا الثالث شتلة الزرع في الحفرة، والذي حصل أن زميلنا بتاع الشتلات غايب من جمعتين

أحمد رجب

½ كلمة

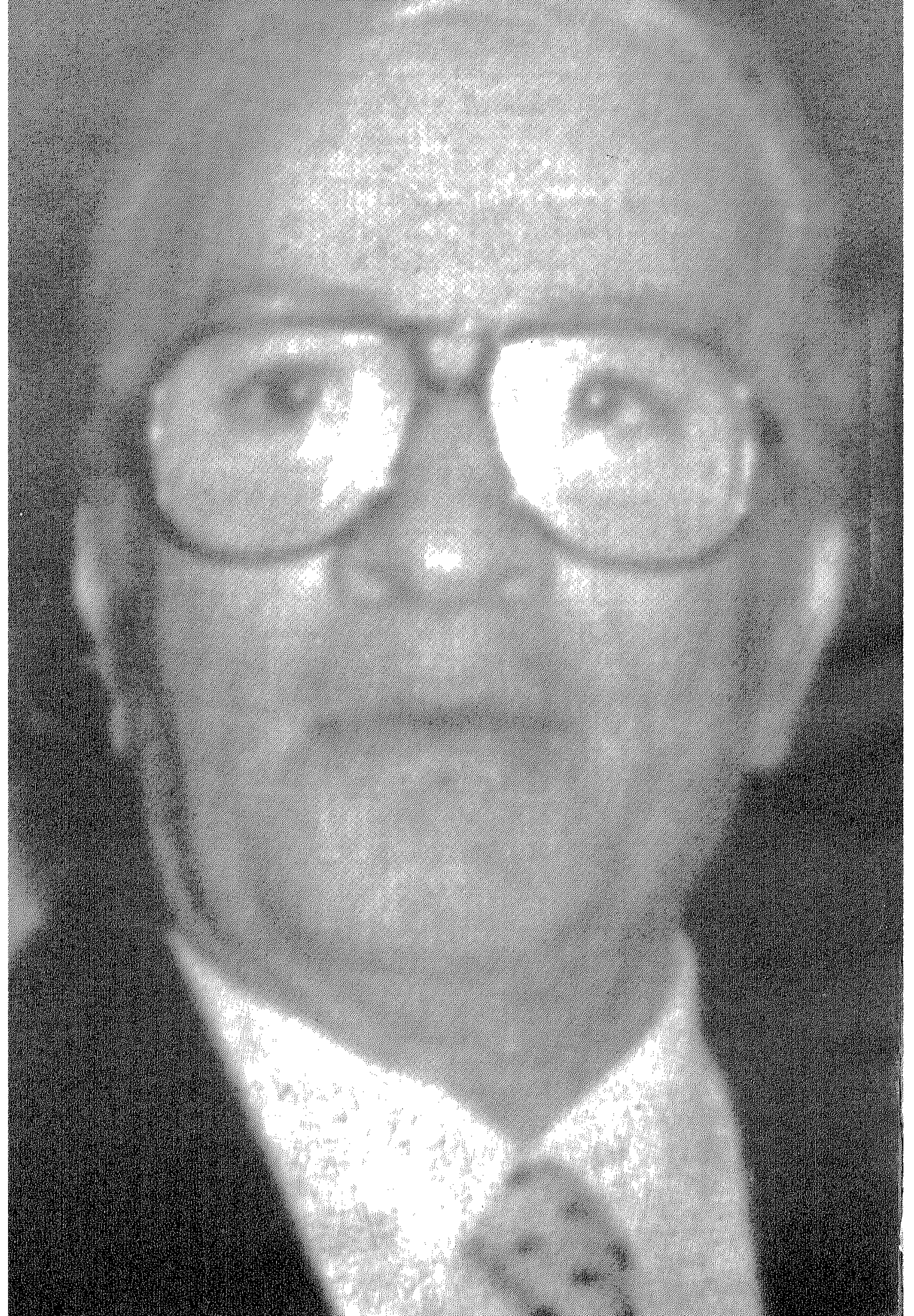
من أغرب التصريحات التي قرأتها لوزير ...حات والشباب قوله: «لن أنفذ الأحكام القضائية إلا بعد موافقة هيئة قضايا الدولة»، وهو بهذا التصريح يضع هيئة قضايا الدولة فوق القضاء بجميع درجاته، علما بأن هيئة قضايا الدولة تتكون من المحامين الذين يمثلون الدولة في المحاكم، ولابد أن الوزير يعرف هذه البديهيات إلا أننا نلتمس له العذر بسبب الفئة التي تأخذ تصريحات!

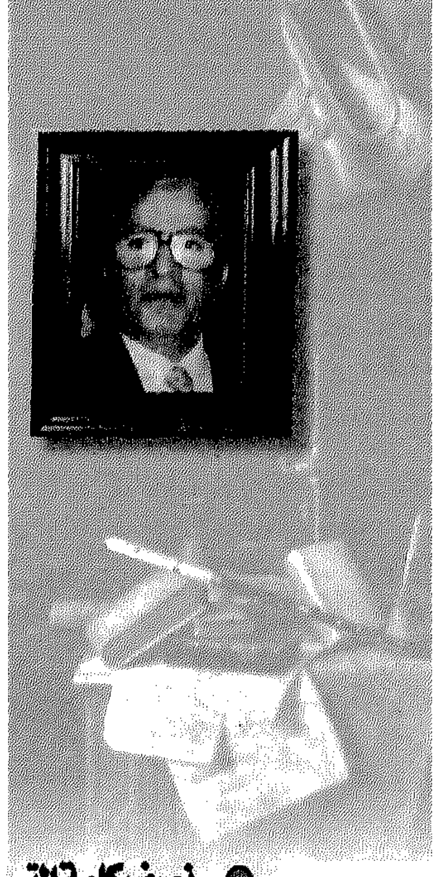
أحمد رجب



ربيع أول ١٤٢٦هـ - مايو ٢٠٠٥م

لو أنني جمّعت الأوقات التى أمضيتها بصحبة أحمد رجب لما تجاوزت الساعة الواحدة على مدى حوالى أربعة عقود هى مدة عملي فى دار أخبار اليوم، وتقريبا فى مبنى واحد. فى معظم أيام الأسبوع نصل فى وقت متقارب، العاشرة والربع، أراه مغادرا عربته التى تتوقف عند المدخل. يغادرها بسرعة، لا يتلفت حوله، وإذا ألقى التحية أو ردها فمجرد إيماءة محدودة، سرعان ما يدخل الى المصعد، الى مكتبه الذى التقيته فيه مرات قليلة أو الى مكتبه بالطابق التاسع الذى انتقل اليه منذ سنوات قريبة ولم أدخله قط، ليس عن مقاطعة إنما عن تأجيل مستمر.. غدا سأتصل بالأستاذ أحمد رجب وأطلب موعدا، غير أن هذا الغد لم يحن بعد، هذا شأنى مع كثيرين أحبهم وأحترمهم خلال السنوات الأخيرة، يلج أحمد رجب مكتبه ويظل الباب مفتوحا حوالى نصف ساعة، وفى الحادية عشرة يغلق محمود الساعى الباب عليه من الخارج ويظل المفتاح معه، ولمدة ثلاث ساعات



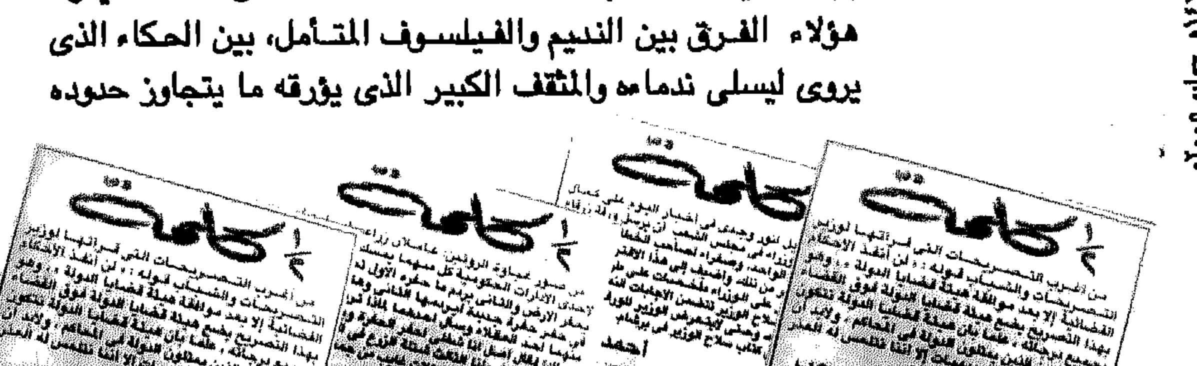


يظل بمفرده منقطعا، لا يلتقى بأحد، لا يرد على رنين هاتف، ولا تحول السكرتيرة إليه أى مكالمة.

ماذا يفعل خلال تلك الخلوة؟

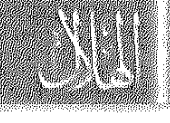
لا أعرف على وجه الدقة. لكن بعد انقضاء تلك المدة تصل الى سكرتارية تحرير الأخبار ورقة بخطه تحوى سطرين أو ثلاثة أو أقل، ربما سطرا واحدا، كلمات قليلة مكتوبة بخط كبير نسبيا، منسق، منمق، تبدأ سطوره على مسافة من حافة الصفحة وتنتهى قبل حدها الأيسر. تتوسط الفراغ الأبيض ، لا أرى حرفا واحدا مشطوبا، إنها نصف كلمة التى يكتبها يوميا فى جريدة الأخبار، كلمات قليلة لاذعة، حادة ثاقبة، كثيرون من القراء يقصدونها مباشرة قبل أن يطالعوا الصفحة الأولى، جرعة مركزة من السخرية الحادة، من وضع اجتماعى، اقتصادى، سياسى، محلى جدا أو عربى أو عالمى، من خلالها ابتكر قاموسه الخاص ومصطلحاته، بدءا من دولة اسبرطة القديمة الى وزير الدندرمة، نصف كلمة تشكل فى مجموعها، اذا ما طالعناها عبر الأرشيف منذ أن بدأ كتابتها، تاريخا فريدا لمصر خلال العقود المنقضية، سجلاً خاصاً جدا لم نعرف مثله من قبل فى أدبنا القديم أو الحديث، إنه الأدب الذى يبدعه معلق القوم وحكيمهم والناطق نيابة عنهم، ورغم الظاهر الساخر الذى يجعلنا نبتسم ، إلا أنها تفيض بالأسى المصرى القديم.. وأحيانا الحزن، ليس الكمد، لكنه الحزن الذى تصير إليه الأمور، هذا الحزن الخاص هو الوجه الآخر للسخرية، وهذا ما لاح لى من أحمد رجب خلال المرات القليلة التى التقيته فيها، صامت هو دائما، قليل الكلام، ما يصدر عنه شفاهة لا يتسق مع ما يكتبه. رأيته فى بعض المناسبات الاجتماعية، مثل فرح كريمة الراحل سعيد سنبل، يجلس محاطا ببعض كبار المجتمع، من مسئولين فى السلطة الى نجوم اقتصاد وفن. طبعا ينتظرون منه أن يسمعهم ما يثير ابتساماتهم، غير أنه يمضى معظم وقته صامتا، أو ينطق معلقا بجمل قليلة، لكنها بالغة الدلالة، تماما مثل «نص كلمة» لا يدرك هؤلاء الفرق بين النديم والفيلسوف المتأمل، بين الحكاء الذى يروى ليسلى ندماءه والمثقف الكبير الذى يؤرقه ما يتجاوز حدوده

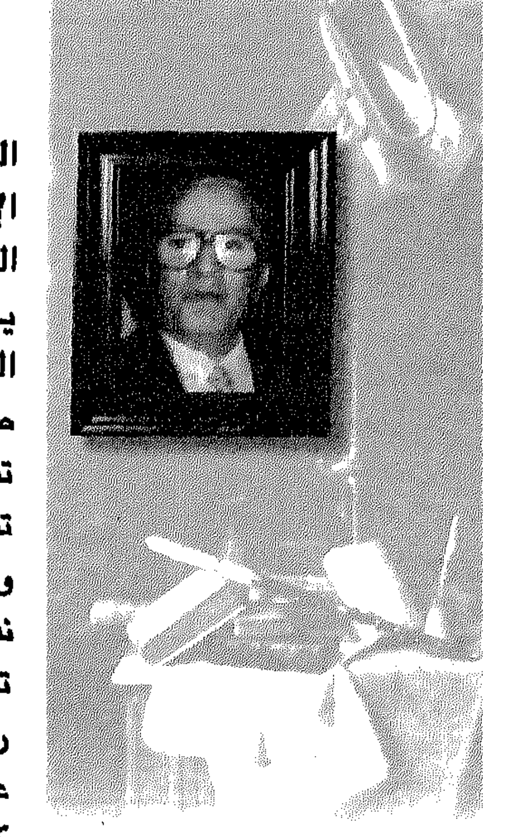
● نصف كلمة التى يكتبها يوميا فى جريدة الأخبار، كلمات قليلة لاذعة، حادة ثاقبة، كثيرون من القراء يقصدونها مباشرة



كفر القاضوة كلامه ممكن أمانة هيه عاطف؛ إن مرة كلص الصاحب تعي
كتير من الشعر، والرواية الرمزية تبقى في الأول ثلاث أربع سنين فلغة
عشان الحكاية الرمزية تبقى متشبرقة ومنشنشة ومتحبشة للآخر
ومع كده وكده للرمزية والرمزا والأذكار، كلكم بيبقوا الهيس ولسانهم بسط
شهد وعسل - يطلع الوطني الموسيقي أبولسان زالف يقول شهد إيه
وعسل إيه .. دي وعود كلها فشنك فرح العمدة تطقطق في الهوا على
مفيش - قلت له وماله ياله .. ماهي الوعود للازم تبقى عسل عشان
أسيادنا الأكابر يلحسوها - مايلحسوها - كفاية علينا الكلمة الحلوة وكشوة
له حق الشيخ سروى المقرئ، كان ياكل
اللي يهبل .. وكل
انتخابات وانت طيب وكل عام

فكرة : أحمد رجب



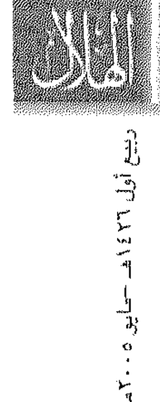


الضئيلة إلى ما هو أشمل، ما يتخطى همومه الخاصة، الى الهم الإنساني العام، هكذا أرى أحمد رجب من خلال أدبه المكتوب الذى أعرفه أكثر من شخصه، إنه الفيلسوف، الاديب، الذى يحول أساه الى سخرية حادة، والسخرية هى الوجه الآخر من الحزن، من الوجد ، من الاكتئاب، لهذا يبدو أعظم الساخرين صامتا، موغلا إلى داخله أكثر مما يسعى إلى الخارج ، لذلك تبدو سخرية أحمد راجب ثاقبة، تثير فينا التأمل، تحرضنا، لا تنتهى مع إطلاقها مثل القفشة المصرية التى نضحك لها كثيرا وسرعان ما تتوارى من ذاكرتنا، لا نستعيدها، وإذا حاولنا نفشل، أما كتابة أحمد رجب فتظل ماثلة، توغل داخلنا، فى تقديرى ان ذلك يرجع إلى ثقافته الواسعة ورؤيته الفريدة، أحمد رجب أحد أكبر مثقفينا، يقرأ بنهم فى شتى فروع المعرفة، مطلع على أحدث الإبداعات الأدبية والفنية والسياسية، لذلك تساند كتابته رؤية.. رؤية عميقة، بعيدة المدى. كما أنه دائم التأمل فى الأحوال على مختلف مستوياتها ، من هنا يمتد عمق ما يقول، وما يكتب إلى مستويات ندرك بعضها ولا ندرك معظمها. الكلمات التى تبدو لنا سلسلة سهلة والتى نقرأها صباح كل يوم وراءها معاناة عميقة فى الكتابة، مرة دخلت مكتبه ظهرا بعد أن أذن الساعى بفتح الباب، لاحظت بدهشة كم الورق الذى يحمل مسودات نصف كلمة، وعندما أبديت له ملاحظتى تطلع إلىّ وكأنى ضبطه عاريا، أعرف هذا الحال جيدا، عندما يتجنب المبدع الحديث عن الأسرار المتعلقة بكتابته، لذلك لم ألح .

● يقرأ بنهم فى شتى فروع المعرفة، مطلع على أحدث الإبداعات الأدبية والفنية والسياسية، لذلك تساند كتابته رؤية عميقة بعيدة المدى

«نصف كلمة» جزء من إبداع أحمد رجب. هناك المقال القصير الذى يتصدر الصفحة الأول لجريدة «أخبار اليوم» صباح كل سبت ، غير أننى أتوقف عند النصوص التى ينطق بها فلاح كفر الهنادوة التى يتحدث بها الى رئيس الوزراء وكأنه ذلك المصرى الفصيح القديم. هذه الشخصية من أجمل ما أبدع أحمد رجب، إنها التعبير الدقيق عن الشخصية المصرية الصامتة، المسحوقة، الصابرة، التى تصمت وفى سكوتها بلاغة، وعندما تتكلم تدارى وتعلن، إنها خبرة آلاف السنين فى التعامل مع القهر والفساد هكذا تخيل فلاح كفر الهنادوة مخاطبا رئيس





بريشة عمرو فهمي

الوزراء، وهو أعلى مستوى يمكن رسمه بالكاريكاتير فى ظروفنا الحالية، غير أن ما يحيرنى هذا القاموس الفريد الذى يأتى به أحمد رجب على ألسنة شخصياته التى أبدعها، خاصة عزيز بيه الأليت، وكمبورة .

من أين له هذه اللغة وهو الذى لايفارق مكتبه. ويمضى معظم وقته وحيدا فيما يشبه الحبس. وفى المساء يتحرك فى مجتمع القاهرة المخملى؟!

المرة الأولى التى أمضيت فيها وقتا طويلا معه لم أكن بمفردى، كان ذلك منذ حوالى ربع قرن، عندما اتصل بى الأستاذ ارنو يوهاس السفير المجرى بالقاهرة، تلميذ المستعرب الكبير عبدالكريم جرمانوس وتربطنى به صلة عميقة منذ اوائل السبعينات. كان وقتئذ مستشارا ثقافيا لبلاده فى القاهرة، زارنى ومعه ملف ضخم فتحه وفوجئت أنه أرشيف لكل ما أبدعه أحمد رجب من شخصيات كان يرسمها الفنان مصطفى حسين - قبل اختلافهما - قال ارنو المهتم بدراسة العامية إنه يرغب فى لقاء أحمد رجب ليناقش معه مفردات تلك اللغة، عندما اتصلت به حدد الموعد على الفور، ثمة مشاعر قوية تربطنا لا يتاح لها التعبير عن نفسها ولكنها المعرفة عبر النصوص ، قرأ لى منذ مجموعتى القصصية الأولى، «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» واقرأ له يوميا، وقد يدرك كل منا ما لاينطق به الآخر، حمل ارنو يوهاس معه النصوص التى جمعها، وقدم إليه أسطوانة للموسيقار المجرى بيلا بارتوك. فى هذا اللقاء علمت أن أحمد رجب عندما يبقى بمفرده معزولا يستمع الى الموسيقى الكلاسيك ، وذكر اسم مقطوعة بيانو لبيلا بارتوك يفضلها، هذا ملمح كاف لعمق ومتانة علاقته بالموسيقى، لكننى لا أعرف تفاصيل أكثر، فى هذا اللقاء تحدث عن الأصل الواقعى لإحدى شخصياته، عزيز بك الأليت، كان أحد أبناء الأسر الثرية، عضوا فى نادى الجزيرة، ومما أغضبه بعد هزيمة يونيو أن استيراد خرطوش الصيد توقف. كان محترفا لصيد البط فى محافظة الشرقية. سألته عن مصادره فى اللغة، عن علاقته بالمقاهى، قال إنه لا يعتبر المقاهى مصدرا حقيقيا للحياة ، لكنه لم يشبع فضولى ولم

● مايحيرنى أحمد رجب هذا القاموس الفريد الذى يأتى به على ألسنة شخصياته التى أبدعها، خاصة عزيز بيه الأليت، وكمبورة



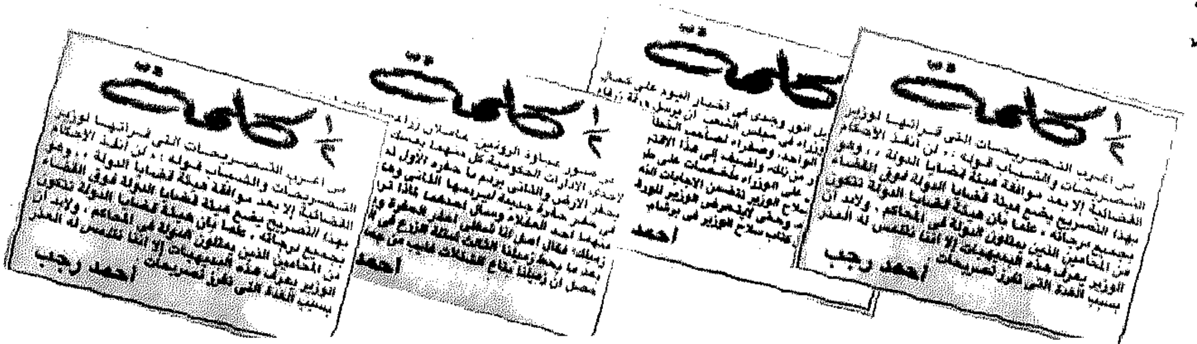


يحدثني عن مصادره في الوصول إلى أعماق أحوال الناس، أما الحوار الذي دار بينه وبين يوهاس فكان حول مفردات لغته، خاصة تلك المتعلقة بشخصية عضو البرلمان الفاسد ، النصاب، كمبورة.

بدأ أحمد رجب حياته الصحفية بفضيحة ثقافية. في الستينات راجت في مصر موجة مسرح اللامعقول، وقدم أحمد رجب نصا مسرحيا نشر في مجلة الجيل التي كانت تصدر عن دار أخبار اليوم. كان عنوان المسرحية (الهواء الأسود) وانني أكتبه من الذاكرة. بعد نشره باسم أحد كبار كتاب اللامعقول قدمه إلى عدد من كبار نقادنا، وتبارى كل منهم في التحليل واستخراج الدلالات والإشادة، ثم أعلن أحمد رجب عن المفاجأة، أن النص من تأليفه. عندما أعدت قراءة ما كتبه أحمد رجب بعد اكثر من أربعين عاما التمست العذر للنقاد، النص رفيع المستوى وفعلا يمت الى أدب اللامعقول، هل ساهم المؤلف نفسه في التقليل من شأنه بإعلانه الميلودرامي والذى كان مقصودا به إحداث ضجة صحفية؟ لا أدرى ولكنني معجب بما كتبه احمد رجب على انه خدعة وارى فيه أمرا! خلال لقاءاتي بمصطفى أمين المنتظمة كل أربعاء حتى أعجزه المرض ثم وافته المنية، كان من يترددون عليه من تلاميذه عدد قليل جدا، اذكر منهم احمد رجب وسعيد سنبل وأنيس منصور. كان حب أحمد رجب لمصطفى أمين باديا، والمؤكد انه لعب دورا مهما في الإفراج عنه. عندما توفيت زوجته اتصلت به معزيا، كان حزنه فادحا، قويا، حزنا أعجزه عن الكتابة، وكلما اتصلت به كان يردد أن الأوان لم يحن بعد، في حدود ما أعلم انها المرة الوحيدة التي طغا فيها حزنه على مقدرته، على كتابته. في جنازة سعيد سنبل لمحته، كان مطرقا، حزينا ، عندما تقدمت منه معزيا قال إنها المرة الوحيدة التي يحضر فيها جنازة مشيعا .

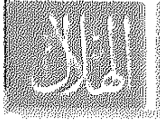
منذ سنوات ، طلب مني في اتصال هاتفي نادر أن أقدم كتابا جديدا له، حرت.. من يقدم من ؟ غير أنني لبيت، لعله يدرك أنني قريب، تماما مثل قربه مني، رغم أننا على المستوى الواقعي، المعاين، يعد كل منا بعيدا جدا عن الآخر ! ■

أحمد رجب حياته الصحفية بفضيحة ثقافية، عندما قدم نصا مسرحيا له، نشر في مجلة الجيل باسم أحد كبار كتاب اللامعقول



الولد ابن ابو سالم قال عن الحكومة ... الدعم في الوقت اللى مجلس الشعب
... الحكومة بالبرلمان ... قلت له اخرس يا ولد
... والرغيف ...
... وقال ده من باب واحد من
... وراح مطلع السبحة السودة بتاعة الدعا
هاتا يا دعاء عاع الحكومة وربنا يسلم ويجعله عامر

أحمد رجب — ريشة — عمرو فهمي



العربية لغة العلوم الحديثة

بقلم
د. حسين محمد نصار



ثلاثة مآزق مصيرية واجهتها لغتنا العربية في المجرى الذي أعرفه من حياتها.

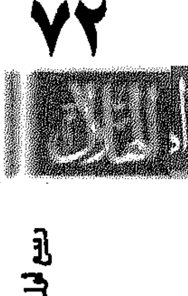
أما المأزق الأول فقد وقع عندما أخرجها الإسلام من جاهلية غنية كل الغنى في الإبداع الأدبي، فقيرة كل الفقر - بل مملقة - في الإنتاج العلمي، غير ما حصلته من تجاربها الساذجة. ثم ألقى بها - في القرنين الثاني والثالث الهجريين - في بحر زاخر من الحضارات والعلوم والفلسفات والفنون وكل صنوف المعرفة، التي ابتكرتها الأمم المتاخمة للجزيرة العربية كالفرس والروم والسريان والمصريين، والأمم البعيدة عنها كالهنود والصينيين والأتراك والبربر وشعوب أسبانيا.

ولكن العربية صمدت في هذا المأزق، بفضل ما بثه الإسلام في العرب من رغبة في المعرفة، وسعي في طلبها، وطموح وعزم وتخطيط وتنفيذ، وتعاون مع غير العرب من أبناء الشعوب العارفة باللغات الأجنبية واللغة العربية. فلم يمض إلا وقت غير طويل حتى نقلت العربية كل ما وجدت عند هذه الأمم إليها. فاستطاع أبناؤها بعد أن يتمثلوها فهما، ولم ينقض وقت كبير حتى شاركوا في الإنتاج والابتكار.

فصار ما كتبه هؤلاء المفكرون والعلماء - منذ القرن الثالث - نبراساً، استضاءت به شعوب العالم القديم. لا يستطيع أن ينكر ذاك إلا منكر لعقله، منكر لشمس النهار الصحو، منكر لتاريخ الإنسان وتطوره الحضاري.

وكان المأزق الثاني عندما أخذ العرب يفقدون حسهم بأنفسهم، ويستبد بالسلطة فيهم ذوو الأصول غير العربية إلى أن انفرد بها المماليك، فالعثمانيون، الذين أزاحوا العربية عن دست الحكم، وفرضوا التركية لغة رسمية على البلاد، فأخذت العربية في الاعتلال والضمور: حتى على ألسنة العلماء وأقلام المؤلفين.

ويبلغ الضعف ذروته في أواخر القرن



الثامن عشر الميلادى، عندما تحالفت أقطار أوروبا على اقتطاع الأقطار العربية من دار الخلافة الإسلامية، وواجه العرب الذين نخر الضعف أجسادهم، وأهزل لغتهم حتى كاد يقتلها، حضارة أوروبية تريد بهم الغوائل. وعندما تدبروا الأمر، وصلوا إلى الإيمان بأن عليهم أن يأخذوا من هذه الحضارة كل ما يمكن أخذه، وكل ما يمنحهم القدرة على المواجهة والصمود، دون أن يفقدوا مقوماتهم الأساسية.

وتم الأمر كذلك، بفضل عدد قليل من الحكام المستنيرين وعدد أكثر من المفكرين الواعين. فتحوا الأبواب للعلوم، ووضعوا الخطط للترجمة أولاً، وللتأليف بالعربية ثانياً، إلى أن صار منهم العلماء والمفكرون الذين أضافوا إلى العلم الأوربى وأقرت لهم الدول الأوروبية بالتقدم.

وكان التعليم والتأليف والابتكار بلغة عربية سليمة. وخلّصت العربية من المأزق الثانى.

ولكن هذه النهضة لم يطل أمدها. لأن خصوماً كثيرين أحاطوا بها، وأفلح كل منهم فى أن يسيطر على قطر عربى أو أكثر، بذل قسطاً كبيراً من جهوده فى توجيه التعليم والثقافة فيه الوجهة التى يريدها.

فوجدت أجيال من الشباب العربى التى تلقت المبادىء الأساسية للتعليم بلغة غير عربية، ووجدت سوق العمل رائجة لمن عرفوا غير العربية، موصدة أمام من لا يعرفون إلا العربية، واستبد بهم إعلام محلى وأجنبى يضخم - ما استطاع - الفجوة التقنية التى بين مواطنهم والأقطار الأوروبية.

فلوجد كل هذا أجيالاً عربية الاسم، عربية العِرْق، عربية الكلام ولا أقول اللغة، تؤمن بالتأخر العربى العلمى التقنى السحيق المدى. وذلك منها حق. ولكنها تؤمن فى الوقت نفسه أن من أهم أسباب هذا التأخر عجز اللغة العربية عن التعبير عن هذا التقدم، وتؤمن أن محاولة تعليم هذه العلوم بلغة عربية تقطع ما بين الشباب العربى والعلم الغربى من صلات، وتحول بينهم وبين مواكبة مجرى العلم، الغزير التدفق، السريع التجدد، الذى يكاد لا يستقر عند ابتكار حتى يأتى بغيره.

وذلك هو مأزق العربية الثالث، والحالى. ولعله أخطر المآزق الثلاثة. إذ تؤمن به جبهة عربية خالصة، ربما وصلت فى تخصصها العلمى إلى درجة رفيعة، ولكنها ضيقت النظر غاية التضييق.

العربية والوجود العربى

فأهملت الاعتبارات الوطنية والقومية، فاللغة من أهم مقومات وحدة الشعوب، والعربية من المقومات الرئيسية للوجود العربى، ولعلها أقوى الروابط التى تجمع بين الأقطار العربية. فالإصرار على

العربية إذن إصرار على إثبات الوجود العربي، وعلى تيسير التنسيق أو التضامن أو الوحدة العربية، فإن تعذرت الوحدة السياسية بين الأقطار العربية، فإن الوحدة اللغوية والثقافية هي المسعى الضروري، ولن تتم هذه الوحدة إلا بالمحافظة على اللغة العربية، واستخدامها في كل مجال، لأن ذلك يؤدي إلى وحدة الشعور والفكر والاتجاه.

والتعليم باللغة الوطنية أمر طبيعي، تحرص عليه جميع الأمم ، مهما اتسع أو ضاق نطاق المتحدثين بلغتها. لا يخرج على هذا الإجماع الا أصحاب اللغات البدائية الفقيرة أو أصحاب اللغات المحلية التي بلغت من التشتت والتعدد ما جعلها متدابرة، مما أجبر أهلها على استخدام لغة أجنبية . واستخدام مثل هذه اللغة البديلة عن اللغة الوطنية ضار بهذه اللغة، وبالمجتمع الذي يفعل ذلك.

وأهملت هذه الجبهة الاعتبارات الاجتماعية لأن الجامعات ومراكز البحث العليا مؤسسات علمية «تختص بكل ما يتعلق بالتعليم الجامعي والبحث العلمي الذي تقوم به كلياتها ومعاهدها ومراكزها في سبيل خدمة المجتمع، والارتقاء به حضاريا، متوخية في ذلك المساهمة في رقي الفكر، وتقدم العلوم، وتنمية القيم الإنسانية، وتزويد البلاد بالمتخصصين.. وإعداد الإنسان المزود بأصول المعرفة، وطرائق البحث المتقدمة، والقيم الرفيعة، ليساهم في بناء وتدعيم المجتمع .. وصنع مستقبل الوطن وخدمة الإنسانية» (قانون تنظيم الجامعات المصرية في سنة ١٩٧٢).

ولن تستطيع هذه المراكز العلمية خدمة المجتمع إلا بالارتباط به، وتعرف حاجاته، ودراسة أسبابها ومواجهتها، أما الفصل بين الجامعيين ومجتمعهم فيؤدي الى عواقب وخيمة. يؤدي الى التمزق النفسي المدمر لخبرة الجامعيين، إزاء الاختلاف بين القيم التي يتلقونها في جامعتهم، والقيم التي يعيشونها في مجتمعهم. فإن نجوا من هذا التمزق، وقعوا في شبكة السخط على هذا المجتمع المتخلف (في نظرهم) ، دون أن يدفعهم ذاك السخط الى محاولة الارتقاء به . فإن برئوا من التمزق والسخط، خشينا أن يقعوا في وهم يوسوس لهم أنهم فئة ممتازة لا تماثل بقية أبناء مجتمعهم، فيترفعون عنهم ويمزقون ما يربط بينهم من وشائج تبقي على المجتمع كله .

لغة للعلوم الحديثة

يضاف الى ذلك أن استخدام العربية لغة للعلوم الحديثة يتيح للهواة والطامحين من غير رجال تلك العلوم أن يطلعوا عليها، فيتسع نطاق الثقافة العلمية في المجتمع، ويرسخ الميل اليها. ويوجد هذا الاستخدام طبقة وسيطة بين العامل القديم والتكنولوجي الجامعي ذي التعليم العالي، طبقة تلقت قدرا من العلوم المتقدمة، يجعلها قادرة على العمل

بالأجهزة الحديثة المتطورة، وعلى صيانتها وإصلاحها. والسبيل القويم الى ذلك هو استخدام العربية فى تعليم هذه العلوم.

وأهملت هذه الجبهة الاعتبارات العلمية والتربوية. فالتعليم عملية متصلة لا ينفصل فيها التعليم الجامعى عن التعليم العام . ويقتضى هذا الاتصال وجود إطار للمناهج التعليمية لتكمل مناهج كل مرحلة مناهج المرحلة التى تسبقها ، وتعمل على الوصول بالطلبة الى المستوى الذى تتطلبه الدراسة فى المرحلة التالية .

واذا فرضنا على الطالب الجامعى أن يتلقى علومه بلغة غير لغته الوطنية، فرضنا عليه أن يواجه مشقتين : مشقة تحصيل المادة العلمية وفهمها ، ومشقة فهم اللغة التى تلقى بها هذه العلوم أما اذا فرضنا عليه الدراسة باللغة الوطنية، فإننا نعفيه من إحدى المشقتين، ونوفر له جهدا يمكن له أن يستخدمه فى التحصيل العلمى وحده .

أما القول بعجز اللغة العربية عن الوفاء بحاجات العلوم الحديثة فدليل على عدم ادراك القوى البشرية ، وقوة اللغة، وعدم معرفة بتاريخ العربية. فلا توجد لغة تعجز عن التعبير وانما يوجد بشر يعجزون عن التعبير . فإن كان ذاك كذاك استوى العجز بالتعبير مع العجز بالتعبير بلغة أجنبية . لأن المتكلم باللغة الأجنبية فى تلك الحالة لا يكون معبرا حقيقيا أو أصيلا، وإنما يكون حاكياً لما سمعه من أستاذ أو قرأه فى كتاب. ولن يرتفع عن هذا المستوى إلا إذا وصل الى مستوى الإدراك الحق، الذى قد يؤدى الى التجديد أو المخالفة أو الابتكار .

وليس الواقع العلمى للعربية اليوم بأسوأ ولا أفقر من واقعها يوم مأزقها الأول أو الثانى، وليس البوق بينها وبين التقدم العلمى عند الأمم الأخرى بأبعد مما كان بينهما حينذاك ، وإن اختلف الأمر فى النوع والمظهر . إذن لم يبق أمامنا الا العامل البشرى :

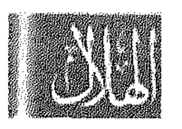
هل عرب اليوم أبناء لعرب الأمس ، يملكون ما امتلكه الآباء من رغبة فى البقاء، وتصميم قوى على البقاء الفاعل، وسعى لا يكل ولا يمل نحو البقاء الفاعل المتميز فى عالم التنافس الرهيب الراهن .

لا أعنى بذلك خصومة لأى شعب مهما اختلف أو بعد عنا ، ولا إعراضا عن أية ثقافة ، ولا إهمالا لأية لغة . فماضينا السحيق، الثرى بالثقافات ، وحاضرنا الذى نتمناه ونسعى الى تحقيقه بأيدينا وكل الأيدى المحبة لخير الإنسان، يفرض علينا حب أخينا الإنسان مهما كان الموطن الذى يعيش فيه، والعرق الذى ينتمى اليه . ويفرض علينا الاحتفاء الكامل بكل الثقافات، والإحاطة بكل ما استطعنا من لغات. ■

اللغة العربية وهمومها !!

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

تلعب اللغة فى المجتمع دوراً بالغ الأهمية مهما كان اتساعه وتنوعه، واختلاف مستوياته، لأنها العروة الوثقى التى تجمع بين أعضائه، وهى دائماً رمز مابينهم من مشاركة فى الآمال والآلام والغايات، وأقوى الوسائل فى توطيد دعائمه، وكأن هناك عقدا ضمنياً أقامته الطبيعة بين أفراد الجماعة الواحدة ليحافظوا على اللغة فى الصورة التى توجبها القاعدة، والصرامة التى تفرض بها القاعدة نفسها فى غاية الصرامة، تستوى فى ذلك الجماعات اللغوية، فى أى مكان من الأرض، وربما الأفلاك الأخرى فيما بعد.



وهى ليست من الأمور التى يصنعها فرد بعينه، أو أفراد بذواتهم، مهما كان سلطانهم السياسى أو المادى ، وإنما تحتمها طبيعة المجتمع، وتنبعث عن الحياة الجمعية فيه، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر، وتبادل الأفكار، وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه، فيتلقاه عنه تعلماً أو تقليد، كما يتلقى سائر النظم الاجتماعية الأخرى، ويصب أفكاره

فى قـوالبـه، ويحـتـذيه فى تفـاهمـه وتعبيره .

ويقاوم المجتمع أى فرد يحاول الخـروج على قـواعـد هذاالنظام اللغوى، فإذا أخطأ فى نطق كلمة أو استخدامها فى غير مدلولها، أو خرج فى تركيب جملة عن القواعد التى ترسـمـهـا، أصبح مـوضع السخرية والازدراء من قـارئيه أو سامعيه، ورمى بالجهل والغفلة، وكلما كان المجتمع سليماً معافى بريئـاً من الأمـراض التى تصيب الشعوب وتنتهى بها إلى التخلف ثم السقوط كلما كان هذا الزجر عنيفاً قوياً. ومن حسن حظ المبدع والمفكر والعالم أن يجد أمامه تقاليد لغوية محكمة، ومعجما ثرياً، وطريقاً معبداً يسير على هديه، رسمته كوكبة من الشعرا والناشرين والعلماء والعظام الذين سبقوه، أثروا هذه اللغة، وصقلوها ودافعوا عنها، وفى الوقت نفسه عليه حمايتها والحفاظ عليها، وهو فى هذا الجانب لايتحمل المسئولية وحده، وإنما الجانب الأكبر منها يقع على الوسط الذى يعيش فيه، لأن المرء يتكلم ليسمع ويفهم والأديب يكتب ليقرأ ويبلغ رسالة، ومن ثم من الضرورى أن يجد جمهوراً على درجة من الثقافة، ومن الوعى بلغته، مايتيح له أن يعى سامعاً أو قارئاً، وأن يشارك محاورا. والكاتب الموهوب، يستطيع فى لحظات النشاط الأدبى القوى، والتوهج الوطنى، والشموخ القومى، والقوة السياسية، أن يخلع على اللغة درجة عالية من الكمال تكاد تكون مطلقة، وبالتالى يضفى عليها هيبة تتجاوز بها الحدود، وتفرضها على الكون بأسره. حدث هذا للإغريقية فى القرن الخامس قبل الميلاد واللاتينية فى القرن الأول قبل الميلاد، والعربية فى القرن العاشر الميلادى، والفرنسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

والتقدم اللغوى المطلق لاسبيل إليه إلا بالتقدم المطلق أيضاً فى السياسة والرفاهية الاقتصادية والثقافة والأخلاق، وأكاد أقول إن التقدم فى هذه الجوانب يجب أن يسبق تقدم اللغة، لأنها أسباب والتقدم اللغوى ثمرتها. وفى أيامنا

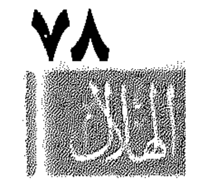
هذه تتجاوز آثار اللغة مجالات التربية والثقافة والأدب إلى المجالات السياسية والاقتصادية والتقنية وحتى العسكرية. ولم يكن انتشار اللغة وتغلغلها فى شتى النشاطات الاجتماعية فى يوم من الأيام كما هو الآن، بفضل التقدم الهائل فى تكنولوچيا المعلومات، فقد أصبحت اللغة فى موضع الصدارة، فهى أهم مقومات ذكاء الإنسان محور هذا التقدم.

الجانب السياسى للغة يتجلى واضحاً فى الخطاب الإعلامى، وهو من أخطر الأسلحة فى وقتنا الحاضر، ونشهد الآن مايمكن أن نسميه الإنفجار اللغوى، فثمة شعوب أخذت تعمل على إحياء لغاتها المندثرة، وكانت فى الماضى ممنوعة من استخدامها، على نحو ما يفعل القطلان والباسك فى إسبانيا، وأهل ويلز فى بريطانيا، ولهجة مندرين الصينية فى سنغافورة بعد أن سادتها الإنجليزية زمناً، وبذلت الجزائر جهوداً جبارة كى تسترد هويتها العربية، ونجحت فى ذلك فى زمن قصير وقضت على اللغة الفرنسية، بعد أن كانت هذه تبسط سلطانها على شتى نشاطات الحياة. ويمثل تعدد اللغات عقبة كأداء أمام الاتحاد الأوربى تحول دون انصهاره فى كيان موحد. ويؤثر عن مونتينى أبى السوق الأوربية المشتركة، وكان بداية هذه الوحدة قوله: إنه كان يتمنى لو بدأ بالثقافة، أى اللغة، أولا.

أهمية اللغة اقتصاديا

أما أهمية اللغة فى الجانب الاقتصادى فيكفى أن نشير إلى الميزة النسبية الهائلة التى تتمتع بها الولايات المتحدة فى تنافسها الشديد مع اليابان للسيطرة على سوق البرمجيات العالمى، لشيوع اللغة الانجليزية وبساطتها، وانغلاق اللغة اليابانية وصعوبتها، وصناعة البرمجيات أصبحت فى عالم اليوم ذات أهمية بالغة الخطر، خاصة بعد دخولها فى مجال الإنسانيات.

ومع ذلك من الخطأ أن نعتبر اللغة كائناً مثالياً يسير فى تطوره مستقلا عن الإنسان، متجهاً إلى غاياته الخاصة، فاللغة فى الواقع ذات صلة وثيقة بالواقع، بالحياة نفسها، ولأن اللغات الحية أنظمة اتصال فعالة، فهى تخدم حاجات المجتمع المتعددة والمختلفة، وهذه الحاجات تتغير، ومن ثم فإن اللغة فى حاجة بدورها لأن تتغير أيضاً،



لتـواجـه الظروف الجـديدة، وهذا التـغـيـيـر يحتـاج إلى تنظيم حتى لاتفقد اللغة تماسكها، فتتوزع وتتفرق، ومع الزمن تصبح جزرا متباعدة لا اتصال بينها، هذا التغيير والتطوير ليست مهمة فرد بعينه ، ولا يستطيعه على أية حال، وإنما هو مهمة المجامع اللغوية نائبة عن المجتمع، ولهذا السبب كان إنشاؤها ، تقول المادة الثانية من قانون إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٣٣:

– أغراض المجمع هى:

(أ) – المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والآداب والفنون وملائمة لحاجات الحياة المتطورة.

(ب) النظر فى أصول اللغة العربية وأساليبها لاختيار مايوسع أقيستها وضوابطها، ويبسط تعليم نحوها وصرفها، وييسر طريقة إملائها وكتابتها.

(جـ) دراسة المصطلحات العلمية والأدبية والفنية والحضارية، وكذلك دراسة الأعلام الأجنبية والعمل على توحيدها بين المتكلمين بالعربية.

(د) بحث كل ما له شأن فى تطوير اللغة العربية والعمل على نشرها.

إصلاح اللغة العربية

إن الحديث عن اللغة، وإصلاحها وتطويرها ليس مجرد دردشة نشغل بها الوقت والناس، ولا أحكاماً هوائية تذروها الرياح، ولا أحلاماً جميلة يلقى بها الحالمون دون أن يتحققوا علمياً – ونحن فى عصر العلم – من إمكان تحقيقها. عالم اللغة وحده هو الذى يستطيع أن يحلل اللغة العربية ويحدد وظيفتها، ويصف عورها ومواطن الداء فيها، إن وجدت، ويقرر العلاج المناسب المثمر، وهى مهمة بالغة الصعوبة والتعقيد. وقد شهد القرن التاسع عشر مولد دراسة اللغة علمياً فى العالم الغربى، وبدأوا يتناولون ظواهر اللغة بطريقة موضوعية مستخدمين المنهج الحديث الذى يستخدم الفرض والاستقراء، ومن ثم تطور فقه اللغة المقارن تطوراً أدى إلى بروز الكثير من قواعد اللغويات الحديثة، وتقدم الدرس اللغوى فى العالم كثيراً وتعمق وتنوعت مذاهبه، وكانت له – إجمالا – نتائج طيبة، وأصبح من تقاليد دار العلوم العريقة أن تبتعث بمن سوف يتخصصون فى دراسة اللغة إلى الجامعات الغربية التى

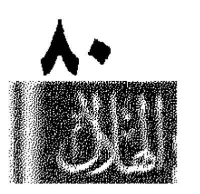
سبقت في هذا المجال، ليتمكنوا من استيعاب هذه الاتجاهات الجديدة ، ويستوعبوا تفاصيلها ودقائقها.

وأحد هؤلاء الباحثين، وهو المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس درس فقه اللغة في إنجلترا، أحدث بعد عودته تحولا هائلاً في البحث اللغوي، وتمثل دراساته خطا فاصلاً بين مرحلتين: في النظر إلى اللغة كيف تنشأ وتدرس وتتطور، وطرق توظيفها بكفاءة في خدمة التقدم والحضارة، دون استهانة بتراثنا أو عدوان على السابقين من علمائنا، وعلى أي منهج علمي يجب أن تقوم هذه الدراسة وعلى كتبه: الأصوات واللهجات ومن أسرار اللغة وموسيقا الشعر وغيرها تعلمت أجيال على امتداد العالم العربي بأسره.

ولكن الذين ابتعثوا بعده آثروا، لظروف اقتصادية أو غيرها، أن يرحلوا إلى الجامعات النفطية، وعملوا فيها لسنوات طويلة، أنستهم ماتعلموه في الغرب وفي مصر نفسها، وعادوا بعد غربة طالت ليبدأوا من الصفر، واختار الموت مبكراً ألمع شابين كان يرجى من ورائهما خير كثير لو امتد بهم العمر: الدكتور محمد فتيح مدرس فقه اللغة في دار العلوم، وترك وراءه من المؤلفات القيمة: في الفكر اللغوي، وترجمة أهم كتاب في علم الأصوات وهو «مبادىء علم الأصوات العام» تأليف ديفيد ابركرومبي ، والثاني د. محمود جاد الرب مدرس فقه اللغة في كلية الآداب جامعة المنصورة، ونقل إلى العربية كتاب العالم الألماني بوند شبلنر: علم اللغة والدراسات الأدبية: دراسة الأسلوب والبلاغة وعلم اللغة النصي ، وهو المحور الذي تدور حوله الدراسات الأسلوبية الحديثة .

قمة انتصار الفصحى

عبر القرن العشرين تقدمت اللغة العربية تقدماً مذهلاً، وامتدت إلى مستويات ماكانت تتذوقها من قبل، وفي أروع أشعارها حين يغنيها محمد عبدالوهاب أو أم كلثوم، فيطرب لها المثقفون والعامة على السواء. وكلما انتشر التعليم، وانحسرت الأمية، تراجعت العامية، واختفت كلمات أجنبية كثيرة، تركية وإيطالية وفرنسية وإنجليزية، كانت تخالط العامية،وبلغت الفصحى قمة انتصارها حين اختارها الروائي العظيم نجيب محفوظ مركبا لإبداعه، ولم يستخدم العامية أبداً،



فى أى من رواياته، ونقلهـا من المحلية إلى العالمية بحصوله على جائزة نوبل العالمية.

كانت الصحف الكبرى، على قلة صـفـحـاتـهـا إذ ذاك، تضم بين العاملين فيها لغوياً كبيراً، تمر من

وأسهمت الصحف والمجلات فى هذا الرقى إسهاماً عظيماً، فقد التزمت الصحف المصرية عامة باستخدام الفصحى أساساً للتعبير، فى إطار المستوى اللغوى السائد فى كل مرحلة، عدا استثناءات قليلة تمثلت فيما كانت تنشره بعض الصحف والمجلات الأسبوعية من أغان وفكاهات وأزجال بالعامية، وهى ظاهرة اتسعت خلال الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من سنوات، واتسمت بهبوط الذوق العام، وانعكس ذلك على الأغانى والمسرح والسينما والفن إجمالاً، حين زادت أجور العمال، وجرى المال وفيراً بين أبناء الطبقة الدنيا، وأصبحوا المستهلك الأكثر عددا والأقوى تأثيراً وبلغ تأثيرها قمته فى صدور مجلة «البعكوكة» باللغة العامية كلها، ورواج تماثيل من الفخار للمطرب الأول فى تلك الأيام محمود شكوكو تباع على العربات!.

وهى ظاهرة لم تبق غير سنوات قليلة، اختفت بزوال أسبابها، وعاد بعدها كل شىء إلى سيرته الأولى.

بين يديه كل المواد التى سوف تنشر قبل أن تذهب إلى المطبعة لضمان سلامتها لغوياً من أى خطأ.

وفى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين بدأ مايمكن أن نسميه: «عصر الإذاعة»، وظهر فى البدء فى شكل محطات أهلية، تعتمد على الهواة الذين يستخدمون العامية على نطاق واسع، لاجتذاب أكبر عدد من المستمعين فى مجتمع تغلب عليه الأمية، غير أن هذا الانحدار لم يستمر طويلاً، ففى ٣١ مايو ١٩٣٤ بدأت الإذاعة المصرية الرسمية إرسالها، ومعها دخل الإعلام المصرى عصراً جديداً، فقد أدرك المستمع إليها منذ اللحظة الأولى أنها جاءت لتصحح ما ازدحم به الأثير من فوضى قبل هذا التاريخ، من خلال ماكانت تقدمه المحطات الأهلية من برامج هزيلة، وألوان فنية شديدة التواضع، وتنبه المستمعون إلى الفرق الهائل بين اللغة التى بدأت بها الإذاعة المصرية وبين التى كانوا يستمعون إليها من الإذاعات الأهلية، فقد التزمت الإذاعة المصرية العربية الفصحى

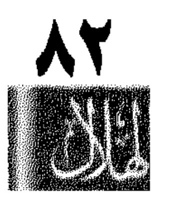
فى عرض فقرات البرنامج اليومى وتقديمها، وفى نشرات الأخبار والبرامج الثقافية والخاصة واقتصر استخدام العامية على أعمال محدودة للغاية، تتطلب استخدامها بحكم طبيعتها كالأغانى والحوارات الفنية، ثم التمثيليات من بعد ، وكان استعمال الفصحى موضع احترام وتقدير من المستمعين رغم شيوع الأمية فى تلك الأيام على نحو واسع، ومرد هذا التقدير أن الإذاعة فرضت احترامها على المستمعين من خلال استخدامها العربية الفصحى أساساً لمخاطبتهم.

صور الإعجاز البلاغى

جاء استخدام الفصحى والحرص عليها من إدراك القائمين على الإذاعة، وكانوا من صفوة المثقفين ، أن الفصحى تملك من المقومات مايجذب المستمعين إليها، يستوى فى ذلك المتعلم والأمى، فهم جميعاً، وقبل وجود الإذاعة، ينصتون إلى قراءة القرآن الكريم بشغف ويستوعبون آياته إجمالاً بكل ماتتضمنه من صور الإعجاز البلاغى، وفى ذلك رد مفحم على من يزعمون أن المستمع العادى غير قادر على فهم الفصحى، ليبرروا فى الواقع عجزهم عن استخدامها، وليبرروا فى الوقت نفسه إصرارهم على استخدام العامية فى أعمالهم الإذاعية، حتى لو لم تكن ثمة حاجة إليها.

هذه البداية القوية باحترام الفصحى واعتبارها أساساً للتخاطب، وأن استخدام العامية يجب أن يكون فى أضيق نطاق إذا دعت الحاجة إليه، أرسى للإذاعة تقاليد عريقة فى الأداء الإذاعى، وحفظ لها مكانتها المتميزة وجعل، إلى سنوات خلت، كل ماينطق به المذيع لايتطرق إليه الشك، وساعد على تحقيق ذلك ماالتزمت به الإذاعة آنذاك من دقة شديدة فى اختيار المذيعين، والحرص أن يكونوا متمكنين من العربية الفصحى، وأن يكون حسهم اللغوى عالياً، إلى سلامة النطق، وجاذبية الصوت، وجودة الأداء.

دعمت الصحافة والإذاعة الفصحى، وارتقى بها الكتاب والأدباء، وبلغ ذلك قمته مع ظواهر الحياة الأخرى فى المجتمع ، فى النصف الثانى من القرن العشرين . ثم – لأسباب ليس هنا مكان إيرادها – بدأت الحياة المصرية كافة، تأخذ طريقها إلى السفح،



وبدأ كل شىء يتدهور، وبدأ عصر الانبطاح فى السياسة والاقتصاد والثقافة، ولا استثنى من ذلك اللغة، وهى التى تهمنا هنا.

هجمة شرسة على اللغة

تدهورت اللغة العربية بين المثقفين وفى التعليم (العامة الآن لغويا أفضل بكثير عما كانوا عليه قبل قرن من الزمان)، ووراء هذا عوامل خارجية وأخرى داخلية. أما الخارجية فتتمثل فى هجمة شرسة تستهدف ثوابت الوطن، وفى مقدمتها اللغة والأسرة، وتسلك طريقاً ناعماً غير مرئى، قد تبطىء نتائجه ، ولكنها فى نهاية المطاف مضمونة ومدمرة، وغايتها تفتيت اللغة العربية وتلويثها والحط من قدرها لغة قومية ، ومن كل ماتقدمه ، أدبا أو تاريخاً أو قيماً، وتبغيض الأجيال الجديدة فيها. وطريقها إلى هذا الهدف تزهيد الناشئة فى التمكن من العربية، واعتبارها عبئاً ثقيلاً، من الأفضل التخلص منه، واستخدام اللغة الأجنبية .

قد يكون تعلم اللغة الأجنبية ، أو معجماً خاصاً منها على الأقل، ضرورى لغاية تربوية، لكى تدرس موضوعاً خاصاً، أو تتحدث عنه بشكل مقنع، إن دارس الفلسفة اليونانية مثلا قد يجد نفسه محتاجاً لأن يتعلم اللغة اليونانية، وهو أمر مطلوب ولا ضرر فيه، ولكن الخطر أن يعتقد حينئذ أن لغته القومية أفقر من اليونانية لأنها لاتمده بالمصطلحات الضرورية فى هذا الحقل المتخصص ، فالحق أنه لا يمكن القول بأن لغة أغنى من الأخرى، لأمر يتعلق بها ذاتها، أى بصفاتها الجوهرية، لأن أى لغة هُيئت لتلبى مطالب المتكلمين بها.

ساعد هذه الهجمة الأجنبية الشرسة طبقة غنية طفيلية، بالغة الثراء (لايهم من أين) واهنة الانتماء، بدأت مع عصر الانفتاح، فى بداية العقد السابع من القرن العشرين، ولاؤها لمصالحها الخاصة قبل أن يكون للوطن، وهى فى العمق غير مثقفة، وغير ذات تقاليد عريقة أو نافعة، تود دائماً أن تزهو بتميزها الطبقى، فعملت على قيام مايسمى بالمدارس الخاصة على نحو كثيف، وهى مستويات متعددة، ومتفاوتة فيما بينها، من حيث الأسعار والمستوى الاجتماعى : مدارس تتبع السفارات الأجنبية، وتجىء فى القمة: أمريكية وألمانية وإنجليزية وغيرها، وتطبق مناهج مدارس تلك الدول فى

بلادها،ومخصصة قانوناً لأبناء الجاليات الأجنبية، ولكنها من وراء القانون تقبل شريحة محدودة من أبناء المصريين، السادة الجدد، ذات نفقات باهظة، لاتستطيعها إلا فئة محدودة، ولا تدرس من العربية أو الدين أو التاريخ القومي شيئاً، وتستخدم لغتها القومية في تدريس كل المواد. ومثلها مدارس خاصة لاتتبع السفارات، أغلى نفقات، وتقوم على جوانب القاهرة في قصور فخيمة، وإمكانات هائلة، رياضية ووسائل تربوية وترفيهية ، وتقدم لتلاميذها حياة اجتماعية مرفهة، منفصلة عن واقعهم الاجتماعي حولهم تماماً، ورغم أنها نظرياً تحت إشراف وزارة التعليم فهي أعز من أن تخضع لسلطانها واقعاً، وتزهو بأنها تطبق مناهج أجنبية، ولا يدرس تلاميذها أي مواد تربطهم بالوطن الذي سوف يعيشون فيه.

وثمة مدارس أخرى أهلية، نفقاتها في طوق المصريين القادرين، من غير أصحاب الملايين، والذين يريدون لأبنائهم تعليماً مصرياً راقياً تحمل اسم المدارس التجريبية أو مدارس اللغات ، تدرس المناهج المصرية، وتعنى باللغات الأجنبية في الوقت نفسه، وبعضها يعطي جرعة زائدة على المنهج في الجانب الديني والعربي، وهذه تلاقي عبثاً شديدا من البيروقراطيين في الوزارة،وبعضها أرغم على تغيير اسمه، لأنه يحمل معنى إسلامياً.

وبقيت المدارس الحكومية، وهي الأصل، شبه مجانية، وتقدم تعليماً متواضعاً ، وحياة داخل المدرسة أشد تواضعاً، ومع ذلك تضم الغالبية من أبناء هذا الوطن بشتى طبقاته، ورغم تواضعها هي مصانع فاعلة في إبداع الذكاء المصري، ومن بين تلاميذها أصحاب المجاميع العالية في الثانوية العامة،وهم الذين يأخذون طريقهم إلى الجامعة، وكليات القمة من بينها بخاصة.

التسابق نحو التميز الطبقي لايقف عند المدارس الثانوية، وإنما سلك طريقه إلى الجامعات أيضاً، فبدأت كليات كثيرة في جامعاتنا المصرية، تنشيء أقساماً يجرى التدريس فيها باللغات الأجنبية ، دون دواع تربوية ملحة. حدث ذلك في كليات الحقوق والتجارة والإعلام والاقتصاد والعلوم السياسية، والقبول في هذه الأقسام لا صلة له بالمستوى العلمي أو العقلي، وإنما

أساسه القدرة على النفقات وتبلغ فى كل كلية عدة آلاف من الجنيهات فى العام الواحد.

سمع الدولة وبصرها، وتختفى وراء إعلام ذكى ونفوذ قوى يخفى غايات مريبة.

ثم جاءت الجامعات الأجنبية الأخرى لتنافس الجامعة الأمريكية، فلا تكون المحتكر لعقول فريق من أبنائنا، وهكذا تقوم الآن على أرض مصر جامعات فرنسية وألمانية وإنجليزية وكندية والبقية تأتى. ويلفت النظر أن آخر ماتهتم هذه الجامعات بتدريسه هو العلوم البحتة والتطبيقية لأن هذه محايدة بطبيعتها ، وإنما تركز على الدراسات التى تكوّن الوجدان، وتصنع الولاء والعرفان، فهى تعنى بالدراسات الإنسانية، ولا بأس أن تضم إليها قشورا من العلوم محدودة الأثر والفائدة العملية، وقد مضى على الجامعة الأمريكية فى القاهرة أكثر من قرن من الزمان وليس فيها كليات للطب أو الهندسة أو الصيدلة أو العلوم، وإنما تركز على دراسة الاقتصاد والصحافة والإعلام والإدارة وأشياء أخرى لاتحتاجها مصر، ولاتصنع تقدما حقيقيا.

إجمالاً، هذه مؤسسات مدارس أو جامعات ، تهان فيها اللغة العربية كل يوم وفى كل ساعة، تحت

إن الدول ليست جمعيات بر وإحسان تتطوع لوجه الله وطمعاً فى رضاه لمساعدة الضعفاء والمحتاجين والمتخلفين، وكل دولار تنفقه على الآخرين خارج وطنها لابد أن يكون له عائد مادى أو معنوى يفيدها.

انعكس إهمال اللغة العربية فى المدارس الأجنبية والتقليل من شأنها، أو إهمالها فى الجامعات كافة، فى شتى مظاهر الحياة الوطنية ،وتجلى ذلك واضحاً فى المؤسسات الإعلامية عندنا، خاصة التى تتعامل مع الجمهور، خاصة الإذاعة بنوعيها مسموعة ومرئية، وعلى حين أن بعض العاملين فيهما يملك إمكانات لغوية جيدة، فإن الجانب الأكبر منهم يبدو وكأنه بلغ مكانه قفزاً من الشباك، فهم لايحسنون التعبير، ولا يملكو له القدرة على الحوار الجيد، وكلماتهم ينقصها الوضوح، وشاهد حى على أنهم لم يمروا بأى امتحان ولم يدخلوا أى تدريب، وأن المحسوبية وحدها هى التى جاءت بهم إلى هذا المكان .

في زحام هذا التردي أهملت الدولة تنفيذ قانون صدر عام ١٩٥٨ يلزم الشركات العاملة في مصر بأن تكون العربية لغتها في التعامل مع الجمهور،ولكن المؤسسات الأجنبية كلها الآن تخاطب عملاءها باللغة الأجنبية دون أن تكون مصحوبة بترجمة عربية، وبدأت الإعلانات في الشوارع وأسماء المحلات التجارية تستخدم أسماء أجنبية تكتبها بحروف لاتينية أو عربية، وفي أحايين كثيرة لايعرف المواطن الموجهة إليه شيئاً من معناها، وحين حاول د. أحمد جويلي وزير التجارة السابق أن يواجه هذا الانفلات وجد نفسه خارج الوزارة مع أول تعديل ، رغم كفاءته العالية.

إن إصلاح اللغة وحمايتها ليس طريقه الهتاف بسقوطها، كما أن إحياء لغة ماتت واندثرت وضاعت معالمها، وأهيل عليها التراب منذ آلاف الأعوام لن تبعثها الأحلام الجميلة، لأن الأمر في الحالتين يخضع لقوانين اجتماعية صارمة لا تتخلف.

إنما الخطوة الأولى لكي تسترد العربية مكانتها وأمجادها، أن تنال احترامها كاملا في المؤسسات الرسمية أولاً، وأن يعد الخطأ فيها فاحشة يخجل منها صاحبها ، وأن نستخدم القانون القائم، وإن لم يكن كافياً نسلك قانوناً آخر، أو حتى قوانين، لحمايتها وتهيئتها على نحو ماتفعل الدول الكبرى، ذات التاريخ،ونحن إن لم نكن أمة كبرى الآن، فنحن على التأكيد أصحاب تاريخ عريق.

منذ أعوام عشرة تقدم نائبان فرنسيان من الحزب الشيوعي إلى البرلمان الفرنسي بقانون لحماية اللغة الفرنسية ، وأقره البرلمان، كما أتمنى أن يكون لنا مثل هذا القانون، يومها لن تشكو اللغة العربية من المهانة التي تلاقيها على أرضها، في وطنها .

وتبقى قضية جادة، ذات أبعاد خطيرة، تستحق دراسة علمية متأنية وهي: اللغة العربية في مواجهة تكنولوچيا المعلومات، من تخزين المعلومات، والترجمة الآلية وغيرها، بودي أن ينهض بها من يستطيع، وأن نتحاور حولها، لنصل إلى أفضل الحلول، وقد أعود إليها يوماً. ■

اللغة العربية..
تراثنا الخالد

بقلم
د. محمد عبد المنعم خفاجى

لا نستطيع أن نتجاهل عوامل القوة والصمود والخلود التى تملكها لغتنا العربية، فهى لغة القرآن الكريم المعجز الخالد. وهى لغة أكبر تراث معرفى عرفه التاريخ العالمى، إنها لغة الثقافة العربية الإسلامية على امتداد ألف وأربعمائة عام. وهى الركيزة القوية للشخصية العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها، .إنها هويتنا، وذاتيتنا وكياننا الذى يناضل جميع أسباب الضعف فى حياتنا الوطنية والقومية والاجتماعية بل والاقتصادية أيضا.

لغة عالمية

رسمية.

وتمتلك العربية ثروة لغوية زاخرة تنافس بها جميع اللغات العالمية، بل تمتاز عن سائر اللغات من المشترك والمترادفة والقياس ومن المجاز الاشتقاق والتعريب والقدرة على الإيجاز والبلاغة والتأثير الصوتى البارع وهى كذلك إحدى اللغات العالمية الذائعة: الإنجليزية - الفرنسية - الاسبانية - الروسية - الصينية - الأوردية - الهندية.

والعوامل التى تحيط سياج العربية بالقوة، وتجدد من دمائها المتدفقة دائما، كثيرة وتعصمها من الضعف والذبول كما حدث للغات عديدة، أدى بها الضعف إلى الانقراض.

وقد أقرت هيئة الأمم المتحدة اللغة العربية لغة عمل ولغة رسمية للجمعية العامة للأمم المتحدة وشتى فروعها ومختلف أنشطتها منذ عام ١٩٧٣، ثم تساوت مع باقى اللغات فى سنة ١٩٧٩، فصارت لغة العمل فى شتى هيئات الأمم المتحدة، واعتمدها مجلس الأمن والمجلس الاقتصادى والاجتماعى ولغة هذا فضلا عن أنها اللغة الأولى لجميع شعوب الشرق الأوسط وللكتاب العربى الإسلامى ولمختلف وسائل الإعلام فى هذه المنطقة الواسعة ولجميع المراكز الثقافية المبثوثة حول العالم، وهى كذلك لغة مائة وستين جامعة عربية تضم ملايين من الطلاب وعشرات الآلاف من أعضاء هيئات التدريس فى جميع فروع المعرفة.

- ٢ -

ونفوذ وسطوة اللغة العربية عالميا أكبر من أن تتجاهل بحال من الأحوال.

وإذا كانت الأمم القوية فى العالم، وبخاصة ذات النفوذ الاقتصادى الهائل، والسطوة الاستعمارية الغاشمة، باسم العولمة، وعوامل أخرى تعمل جاهدة للحد من نفوذ العربية وقوتها وصلابتها بمختلف العوامل الظاهرة والخفية، وبشتى وسائل الإعلام، وبنشاطات علماء الاستشراق وعلماء الجامعات الغربية، وبوسائل الإعلام المختلفة، فإن ذلك لا يعنى أن نترك العربية

وحدها تناضل خصوماً أقوياء لُداً، يفاجئوننا بأسماء وهمية، وبأسباب ملفقة تارة باسم التنوير، وتارة باسم التجديد، وتارة باسم العولمة، وهكذا..

وإلا فأين علماؤنا وجامعاتنا وهيئاتنا الثقافية المختلفة، وأين جامعاتنا الشامخة، وأين مجامعنا وصحفنا ومجلاتنا وكل ما يمثل قوتنا اللغوية والثقافية الصامدة.

– ٣ –

إن جامعاتنا وبخاصة فى دول الخليج حين تتذرع باسم العلم فى إدخال ملايين المصطلحات العلمية إلى لغتنا تكون ساهية عن الأخطار التى تنجم عن ذلك فيما بعد.

ولم لا نلجأ إلى الوسائل اللغوية المساعدة لنتلافى بها الهجمة اللغوية الزاحفة وأمامنا التعريب والقياس والمجاز والتوليد وسوى ذلك من أسباب الحفاظ على نقاء وصفاء العربية وبقائها.

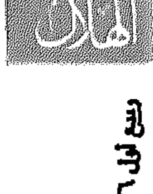
إن سيادة العربية، وبخاصة فى مواطنها الأولى أمر ضرورى، وحفاظ على شخصية لغتنا وكيانها وذاتيتها وإحاطة لها بسياج قوى من الثراء والأصولية اللغوية السليمة.

والأمم القوية دائما تنظر إلى اللغة على أنها العمود الفقرى للإنسان الوطنى المحب لبلاده، وفرنسا تعد فى ذلك مثل كبير للعمل على صيانة اللغة والمحافظة عليها حتى إنها تمنع من أن يسجل طالب نفسه فى الدراسات العليا دون أن يؤدى امتحانا عسيرا فى اللغة الفرنسية.

وقد غضب بوتين حين أرسلت إليه تلميذة روسية خطابا احتوى على بعض أخطاء لغوية وأرسل إلى المدرسة يدينها على ذلك، كما أرسل إلى التلميذة لتحضر وتقابل بوتين نفسه ليتحاور معها.

إن الاهتمام باللغة العربية هو الأصل المتين فى الحفاظ على وجودنا واستقلالنا وكياننا.

فلتعمل جامعاتنا فى مناطق الخليج العربى ما تشاء، إلا أن تفرط فى أمر وتنود عن كيانها، وتدفع عنها عوامل الضمور والذبول والموت البطىء.



إحياء علوم الدين

بين فكر الغزالى وتكوينه الثقافى

بقلم
د. محمود إسماعيل

عن أبى حامد الغزالى كتب الكثير، قديما وحديثا، ومع ذلك لا يزال الخلاف بين الدارسين قائما بصدد فكره. فمن الدارسين من اعتبره «حجة الإسلام» المنافح عن العقيدة ضد حملات «أهل البدع والضلالات»(١)، ومنهم من اعتبره «فقيه السلطان» الذى سخر الشريعة الإسلامية لتبرير وتسويغ سياسات الخلفاء العباسيين «الثيوقراطيين»، والسلاطين السلاجقة الجائرين(٢). بل أناط به بعضهم مسئولية انحطاط الفكر الإسلامى فى عصره وإلى الآن، حيث حَرم الفلسفة - بمفهومها الواسع الجامع للعلوم الطبيعية وجرّم المشتغلين بها(٣).

ويرجع هذا الاختلاف - فيما نرى - إلى إهمال الدارسين بحث «مكونات ثقافته» التى شكلت «مخياله» وصاغت رؤاه. تلك المكونات التى تمثلت فى ثقافة عصره، ووضعه الطبقى ومواقفه الإيديولوجية من النظم السياسية القائمة، كذا فى أنواع العلوم المختلفة التى حصلها إبان صباه ويفاعته وشبابه، وأخيرا فى طموحاته السياسية وتطلعاته.

بين مرحلتين

لقد عاصر الغزالى المرحلة الفاصلة بين ازدهار الفكر الإسلامى العقلانى والتجريبى، وبين بواكير انهياره نتيجة غلبة النقل والسماع على العقل والإبداع،

وهو ما أسهم فيه الغزالى نفسه، مؤصلا ومقعدا ومنظرا.

كان التيار العقلانى التجريبى مرتبطا بما أسميناه «الصحوة البورجوازية» الأخيرة التى شملت الفترة ما بين منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس الهجريين. كما كان انتكاس تلك الصحوة وسيادة نظام الإقطاع العسكرى أهم أسباب دخول الفكر الإسلامى «طور الانحطاط».

عكس هذا الوضع الاقتصادى الاقطاعى العسكرى نفسه على الواقع السياسى، فالخلافة العباسية فقدت نفوذها وسلطاتها التى أغتصبتها السلطنة السلجوقية. كما تمزق العالم الإسلامى إلي كيانات متصارعة بعد تعاظم شأن الخلافة الفاطمية وتهديدها بالقضاء علي العباسيين. وتعرضت بلاد الشام للغزوات الصليبية التى نجحت فى تكوين ثلاث إمارات فضلا عن مملكة بيت المقدس. كما تفاقم خطر الإسماعيلية «النزارية» فى فارس يهدد الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية معا، باتباع سياسة الاغتيال السياسى(٤).

تحولات فكرة

عاش الغزالى إبان تلك الفترة، إذ ولد بمدينة «طوس» بين أسرة رقيقة الحال، فكان والده غزالا.. وفى طفولته حفظ القرآن الكريم، وحين صار يافعا درس الفقه وغيره من العلوم الدينية. وفى شبابه رحل إلى جرجان حيث نهل من المعارف الشيعية الإسماعيلية، كما درس علم الكلام الأشعرى على يد «الجوينى» إمام الحرمين، (٥) فجمع لذلك بين الفكر الإسماعيلى العقلانى والفلسفى، وبين الفكر السنى المحافظ ممثلا فى «الأشعرية»، وهو أمر بالغ التأثير فى انعطافات تفكيره وتردده بين الأصولية والعقلانية، حسب معطيات مواقفه السياسية. خلال تلك المرحلة مال الغزالى إلى العقلانية، حيث ألف كتابه «المنحول فى علم الأصول».. وهو فى العشرين من عمره - بروح نقدية. كما كتب كتابه «مقاصد الفلاسفة» الذى عالج فيه الفلسفة اليونانية والإسلامية بروح تشير بعشقه للفلسفة، (٦) .

لكن تحولا هاما فى منحنى فكره من النقيض إلى النقيض، حدث حين التحق بخدمة الوزير «نظام الملك» السلجوقى، حيث استقدمه وكرمه وأغدق عليه، ليكون «فقيه السلطان» ومبررا لسياسات الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

إبان مرحلة الوئام بينهما. كما قام بالتدريس في «المدرسة النظامية» ببغداد التي أسسها نظام الملك للدفاع عن مذهب أهل السنة ضد خصومه الإسماعيلية على وجه الخصوص (٧).

عندئذ وجه الغزالي معارفه الواسعة لخدمة السياسة، فولف مذهبا يجمع بين الفقه الشافعي وعلم الكلام الأشعري. لذلك تحامل في كتابه «المستصفى» في الفقه، على المذاهب الفقهية الأخرى، لصالح المذهب الشافعي. كما كتب كتاب «فضائح الباطنية» - بأمر الخليفة المستظهر بالله العباسي للنيل من عقائد أهل الباطن. والأخطر، تنكره للفلسفة في كتابه «تهافت الفلاسفة» واعتبرها مناقضة لتعاليم الإسلام،(٨) كما اعتبر الكندي والفارابي وابن سينا «أهل ضلال» (٩).

وفي كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد»، عول على «السماع» و«الاتباع» ، وندد بالعقلانية، حيث حمل على المعتزلة واعتبرهم «مبتدعة» (١٠). كما جعل «المتواتر» و«مقتضى العادة» مناط التفكير ومدخل المعرفة (١١).

مضاعفات الانحياز للسلطة

وفي مجال السياسة، انحاز إلى السلطنة السلجوقية، واعتبر السلطان «خليفة الله على الأرض»، «فالدين والسلطان توأمان» والسلطان «يفعل بالسيف والسنان ما لا يفعل بالبرهان واللسان». (١٢) كما هاجم مفهوم «الإمامة» عند الشيعة الذين أدمجوا الحكم في علم الأصول (١٣)، نافيا اعتبار الإمامة خطة دينية.

وهنا يبدو تأثير طموحات الغزالي السياسية ووضعه الطبقي الأرستقراطي في توجيه فكره على المستوى المعرفي والسياسي.

أما المرحلة الثالثة في تحوله الفكري، فكانت نتيجة هربه من بغداد بعد اغتيال الإسماعيلية النزارية الوزير نظام الملك وعددا من أصدقاء الغزالي المنحازين للسلاجقة. إذا أصيب بحالة اضطراب نفسي نتيجة الخوف على حياته. بل ذهب بعض الدارسين إلى إصابته «بانهيار في قواه العقلية» (١٤).

وعندنا، أنه أزمع الهرب إلى الغرب لائذا ببلاط صديقه «يوسف بن تاشفين» سلطان المرابطين. لكنه عدل عن ذلك عندما علم - وهو بالإسكندرية - بموته، وحملة الفقهاء المالكية على الغزالي وإحراق كتبه. لذلك أمعن في الاستتار والتخفي والترحال بين بيت المقدس والحجاز لمدة عشر سنوات. لذلك أيضا نشكك في الروايات القائلة بعكوفه على العبادة والنسك والتحول إلى التصوف عن قناعة وإيمان. صحيح أنه درس التصوف إبان شبابه وأشاد بأعلامه من أمثال المحاسبي والشبلي والبسطامي (١٥)، لكن تصوفه - خلال تلك المرحلة - كان تصوفا طرقيا تهويميا ليس إلا، إذ ندد بالتصوف الشيعي العرفاني الذي يقيم وزنا للمعارف الدنيوية الفلسفية.

ولا أدل على هشاشة تصوفه من عودته إلى «طوس» حين علم بقضاء السلطان «سنجر» على الإسماعيلية النزارية فى فارس. لذلك لم يدخر وسعا فى الاتصال بالوزير السلجوقى «فخر الملك» طمعا في المال والجاه، حسب اعترافه. ومن خلال تجربته الصوفية «الزائفة» أدرك إمكانية توظيف التصوف الطرقى فى صيغته الإيديولوجية المؤلفة من المذهبين الأشعرى والشافعى ليصبح هذا التصوف ضمن تلك الإيديولوجية. وهذا يعنى مواصلة دوره كفقيه سلطوى، حيث كان التصوف آنذاك وسيلة لكسب الرعية وتطويعها لطاعة السلطان.

تظهر تلك النزعة الصوفية واضحة فى كتاب «إحياء علوم الدين»، من منظور سياسي بحت. إذ كرسه لتبجيل مكانة السلطان وإلزام الراعية بطاعته حتى لو كان «متغلبا» جائرا فى سياساته. فليس من حق الرعية إلا «وعظه وإرشاده»، أما الثورة عليه «فليس ذلك لآحاد الرعية.. فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر».(١٦) ولكى يصرف الرعية إلى العزوف عن السياسة، حثهم على «الفقر والزهد» وحذرهم من «المال والجاه»، ودعاهم إلي انتظار «الآخرة»، حيث ينعمون بالولدان والحور (١٧).

لم يكن لوجه الله

أما عن الانعطافة الأخيرة فى فكر الغزالى، فكانت قرينة آخريات عمره. إذ شهدت تمزق الدولة السلجوقية، واستشراء الفتن والصراعات. وأدرك الرجل دنو أجله، فتنكر لفكره السلطوى وتاب إلى رشده. ويعبر كتابه «المنقذ من الضلال» عن هذا التحول الإيجابى، فأعلن أن «جل ما كتبه لم يكن لوجه الله»، وهجر التقليد والتهويم الصوفى معولا على «العقلانية»(١٨) ولاغرو، فقد أظهر أهمية المعارف الدنيوية إلى جانب الدينية، إذ فحواها - فى نظره - «إدراك حقائق الأمور».(١٩) كما تنكر لتوليفته «الإيديولوجية» السابقة - الجامعة بين المذهبين الشافعى والأشعرى والتصوف التهويمى فحكم عليها بأن «دخلها الريب والغلط والوهم» (٢٠). وتخلى عن عدائه للفلسفة، فاعتبر بعض الفلاسفة «مؤمنين»، خصوصا من مال منهم إلى التصوف «المعرفى» الذى اعتبره «مفتاح أكثر المعارف»(٢١).

وفى كتابه «معيار العلم» أسفر عن تبجيل العلوم، حيث رفض «التقليد» وعول على الدليل» و«البرهان» (٢٢) .

كما كتب كتاب «محك النظر فى المنطق» بنفس الرؤية التى تبرز قانون «العلية» فى تفسير الظواهر الطبيعية، برغم غلبة الطابع الصوفى فى منظوره (٢٣).

علة الخلاف

خلاصة القول، أن الاختلاف بين الدارسين راجع إلى أسباب منهجية، إذ درسوا مؤلفات الغزالى بمعزل عن تواريخ كتابتها، كما لم يقيموا وزنا لمعطيات العصر السياسية والاجتماعية وتذبذب مواقف الغزالي إزاءها حسب طموحاته وتطلعاته: وأخيرا لم يقفوا على منحنيات

سيرته الذاتية، وأصناف العلوم التى كونت منظوره و«مخياله». إن موضع تلك المعطيات فى الاعتبار، توضح تعدد مواقف الغزالى الفكرية بتعدد مواقفه الإيديولوجية التى تأثرت بدورها بمكونات ثقافته. لذلك لم يخطىء أحد دارسيه المرموقين حين حكم بأن «مذهبه صورة لشخصه» (٢٤).

البيليوغرافيا والتوثيق

(١) أنظر:

دى بور: تاريخ الفلسفة الإسلامية، الترجمة العربية، ص ٣٣٥، الجزائر، د. ت.

(٢) (أنظر :

Burlot,J : La civilisation Islamiques, P. 105, Paris, 1982.

(٣) بناسلم حميش: الغزالى ومرحلة الإقطاع، مجلة «البديل»، عدد (١)، ص ٤٠ وما بعدها، الرباط ١٩٨١.

(٤) عبدالنعيم حسنين: إيران والعراق فى العصر السلجوقى، ص ٢٧٥ وما بعدها ، بيروت ١٩٩٢.

(٥) دى بور : المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٦) نفسه، ص ٣٢٣.

(٧) Ali Isa Othman: The Concept of Man in Islam, in the writtings of Al-Gazali, P. xvi, Cairo, 1960.

(٨) أوليرى دى لاسى: الفكر العربى ومكانته فى التاريخ، الترجمة العربية، ص ٢٢٨، القاهرة، د.ت.

(٩) الغزالى: تهافت الفلاسفة، ص ٣٠، بيروت ١٩٩٤.

(١٠) الغزالى: الاقتصاد فى الاعتقاد، ص ٢٤٣، بيروت ١٩٩٣.

(١) نفسه، ص ٥٠، ٥٢.

(١٢) نفسه، ص ٥٠.

(١٣) نفسه، ص ٢٥٣.

(١٤) أنظر:

عبد الأمير الأعثم: الفيلسوف الغزالى، ص ٧٦، القاهرة ١٩٩٨.

(١٥) الغزالى: إحياء علوم الدين، جـ ١ ، ص ٢١، القاهرة، د.ت.

(١٦) نفسه ، ص ٢٣٧.

(١٧) نفسه، ص ٥٢٥.

(١٨) الغزالى: المنقذ من الضلال، ص ٦، ٨، بيروت ١٩٩٣.

(١٩) نفسه، ص ١٧.

(٢٠) نفس المصدر والصفحة.

(٢١) نفسه، ص ٢٣.

(٢٢) الغزالى: معيار العلم، ص ٢٢، القاهرة ١٣٢٩ هـ.

(٢٣) الغزالى: محك النظر فى المنطق، ص ١٤٥، بيروت ١٩٦٦.

(٢٤) تعليقات المرحوم/ محمد عبدالهادى أبو ريدة على ما كتبه «دى بور» عن الغزالى فى كتابه سالف الذكر، ص ٣٦٢. ■



العلم وتاريخه

بقلم
د. محمد فتحى فرج

فى إحدى برديات «الهرموبوليس» - إحدى وثائق قدماء المصريين - هناك بردية تقطر شعرا وحكمة وموسيقا ، وهى بعنوان : « أسطورة العلم» ، يقول فيها المصرى القديم : « خلق الإله الكون بالكلمة ، فأرسل تحوت ، رسول المعرفة فأنبت غاب النهر ليصنع منه الإنسان القلم ، ليكتب ويقرأ ، ويصنع منه الناى ليشدو بالنطق ، نطق الأسماء ، وأنبت له البردى ليصنع منه الورق ، ليخط عليه ما يتعلمه ، ليقرأ رسائل الإله للبشر ، فيرشده الإله إلى طريق الخلود بعد اجتيازه عالم التجربة (١) .

هل هناك أجمل وأجل من هذا الرباط المقدس بين الإله الخالق وأكرم مخلوق خلقه ، وهو الإنسان ، فى الإطار العام لحياته ومختلف نشاطاته وهو الكون بما فيه ؟ وهل هناك أكثر من هذه السلاسة والعذوبة وهذا الوضوح فى بيان العلاقة بين العلم وأدوات تحصيله ، التى تتمثل فى الحروف أو الأبجدية ، وهى المواد الخام فى صناعة الكلمة ، التى تدل على معنى . أما وسائل حفظ العلم وبقائه وتنميته فلم يغفلها أيضا ، وهى تتمثل فى القلم والورق . وهذا التصوير الرائع الحى للعلاقة الحميمة بين الإله ومخلوقه الإنسان ، الذى لم يتركه وشأنه ، بل أعد له كل شىء ، وذلل له كل شىء ، ليس فقط من خلال ما وفره له ،

وده عليه من أشياء ، ولكن أيضا بما حباه من عقل ونظر وحواس ، وهى أيضا وسائل للعلم ، وأيضا من خلال ما فطره عليه من نزوع نحو الخير والبناء والتعمير ، ولذا فقد كانت المسيرة الإنسانية ، فى مجملها ، موجهة نحو البناء والإضافة ، وبالتالى نحو التقدم ، وذلك من ألزم مميزات العلم الذى يؤدى إلى العمران (وهو الوجه التطبيقى المفيد للعلم) . والعلم يتصف أيضا بخاصية النمو ، وهو ما يميز الكائنات الحية . فالعلم النافع شجرة نامية مثمرة تؤتى أكلها على الدوام .

والواقع أن جميع الأديان تحض على العلم والعمل ، فهما أداتا التطوير والتقدم والترقى فى الدنيا والآخرة ، حيث يقول الله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» المجادلة : ١١

وأرى أن التمييز هنا بين «الذين آمنوا» و«الذين أوتوا العلم» (من العلماء) يشير إلى فضل العلماء . يقول الفخر الرازى فى تفسيره «مفاتيح الغيب» تعليقا على ذلك . « وقال القاضى : لا شبهة أن العالم يقتضى لطاعته من المنزلة ما لا يحصل للمؤمن » (٢) والعالم هنا : الطالب للحق ، القاصد وجه الحقيقة ، وهل العالم الحق ، سواء فى العلوم الكونية أو العلوم الدينية إلا كذلك ؟

وفى هذا السياق ، نذكر الحديث النبوى الشريف : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر» يقول أبو حامد الغزالى – رحمه الله – إن ذلك العلم المقدم على العمل لايخلو إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وإما أن يكون علما سواه ، وباطل أن يكون الأول هو المراد وذلك لأنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذى له العلم بالعبادة ، وإلا هو عابث فاسق (٢) .

ولعلنا نقترب أكثر من معنى كلمة «العلماء» إذا عرفنا أنها وردت على النحو التالى فى القرآن الكريم من سورة فاطر : « إنما يخشى الله من عباده العلماء» فاطر : ٢٨ . وقد جاءت فى السياق القرآنى بعد الإشارة لعلوم كونية كثيرة كعلم الأرصاد الجوية Meteorology ، وعلم النبات Botany ، وعلم الجيولوجيا Geology ، وعلم الإنسان Anthropology ، وعلم الحيوان zoology، وذلك فى الآيتين الكريمتين ، كما نوه إلى ذلك الشيخ الشعراوى – طيب الله ثراه – حيث يقول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور «فاطر : ٢٧ – ٢٨ .

أى أن المقصود – والله أعلم – بلفظة «العلماء» ، فى هذه النصوص ، علماء



العلوم الكونية المختلفة ، وهذا لايمنع أن ينسحب ذلك أيضا إلى علماء العلوم الشرعية واللغوية والإنسانية وما شابهها ، إذا ما كانت قائمة على المنهج العملى ، ذلك المعيار الذى يميز بين الزائف والصحيح من العلوم .

أما بالنسبة لتاريخ العلم History of Science ، فهو فى رأينا ، يعتبر علم العلوم ، لأنه يؤرخ لجميع العلوم ويرصد أطوارها المختلفة ، من منشئها إلى ما انتهت إليه ، وله أهدافه وفوائده.

التعريف الحديث للعلم

الواقع أن هناك تعريفات حديثة متعددة للعلم ، بيد أنها تتأثر بالفلسفة التى يتبناها ، أو التوجه الذى ينتهجه صاحب هذا التعريف ، والأمانة العلمية تقتضينا أن ننقل هنا بعض هذه التعريفات ، كما دبجتها قرائح أصحابها .

يقول كامبل فى كتابه What is Science? ما نصه :

Science is a branch of pure learning which aims at intellectual «satisfaction» (٤) وهذا يعنى ببساطة أن العلم هو ذلك الفرع من المعرفة الخالصة (البحتة) الذى يهدف إلى الإشباع العقلى . ويضيف كامبل : إن كلمة « علم» Science كلمة مرادفة للمعنى الإنجليزى : Knowledge ، فهى مشتقة من الكلمة اللاتينية Scire ومعناها to know ، فالعلم « معرفة» من نوع معين .

أما جيفونز Jevons فيرى أن العلم هو الكشف عن أوجه الشبه بين المختلفات (٥) . إذ أن معرفتنا لجزئية واحدة لاتمثل علما ، ذلك أن الجزئية الواحدة المعزولة عن سياقها لا تؤدى إلى إدراك لقوانين الطبيعة . أما العلم فهو إدراك القانون أو القوانين التى تقع الجزئية الواحدة وفقا لها (٦) ولعل ذلك يتفق مع ما أبداه برتراند راسل من أن العلم يبدأ بدراسة الحقائق الجزئية ، إلا أن هذه الحقائق الجزئية لاتكون بذاتها علما ، لأن العلم لايكون إلا إذا كان هناك كشف للقوانين العلمية العامة التى تمثل هذه الجزئيات تطبيقا لها ، فأهمية الحقيقة الجزئية تتمثل فى كونها أحد الأمثلة التى تدل على أنها قانون من قوانين الطبيعة (٧) إن المقارنة بين الظواهر المختلفة التى نصادفها فى سياق خبراتنا ، ثم استخلاص مابينه من علاقات مشتركة ، نطلقها عليها جميعا ، أو على طائفة منها ، على سبيل التعميم ، هو مايقصد به التفكير العلمى (٨) .

والعلم يعنى تلمس «الحقائق» فى عالم الحس . وأساس العلم الرصد والقياس باستخدام الحواس ، ثم معالجة ذلك القياس الحسى بالقوى العقلية (٩) . ومن التعاريف الموجزة الدالة قول كراوثر : إن العلم هو أسلوب من السلوك بواسطته يكتسب الإنسان السيطرة على بيئته (١٠).

والعلم كما يذكر كامبل - له وجهان:
أما أحدهما فهو مجموعة المعارف النافعة والعملية ومنهج الحصول عليها، وهو بهذا التعريف يشمل العلم الذى أدى إلى الدمار الذى أحدثته الحروب، كما أنه ينطبق أيضا على العلم الذى أدى إلى استعادة السلام. وبهذا المفهوم فهو سلاح ذو حدين يمكن أن يستثمر للخير والتشييد والبناء، ويمكن أن يوظف فى سبيل الشر والدمار والفناء. فالعلم العملى، الذى يؤدى إلى تصنيع غارات الحروب الكيميائية، هو أيضا ذلك العلم الذى يصنع مايكفل القضاء على آثارها المرعبة

وإذا كان العلم مسئولا عن الشرور التى نجمت عن الثورة الصناعية، فهو أيضا قد أدى إلى الحد من الكثير من تلك الشرور، وذلك عن طريق تقليل حجم الجهد الموجه لإنجاز العمل وتقليل وقت إنجازه، وهما العاملان الضروريان لمواجهة حياتنا العملية، إضافة إلى الحد من الآثار السلبية لكثير من المنتجات التى واكبت بزوغ الثورة الصناعية وما تلاها من عقود وعهود.

أما الوجه الآخر للعلم، فهو ذلك الجانب البعيد منه عن الناحية العملية أو التطبيقية بطريقة مباشرة (فقد يكون له علاقة بالنواحى العلمية بطريقة غير مباشرة) سواء فى جانب الخير أو جانب الشر على حد سواء. وعلى ذلك، فهذا النوع من العلم، هو نوع عقلى بحت، والعلم بهذه المثابة، أشبه شىء بفنون التصوير والنحت والأدب أكثر منه شبها بالفنون التقنية، حيث إن هدفه هنا هو إشباع حاجات العقل وليس مطالب الجسد إنه هنا لايهتم بشىء سوى إشباع حب الاستطلاع، المنزه عن الغرض للنوع الإنسانى وهو ما تضمنه تعريف كامبل للعلم الذى تقدم ذكره فى بداية هذا المقال

إن هاتين الصيغتين للعلم، وأعنى بهما:
العلم العملى أو التطبيقى، مجال اهتمام المهندس والطبيب، والعلم البحت أو المحض، مجال اهتمام العلماء، هما صيغتان مألوفتان لكل منا. ذلك أن الحاجة لكليهما غالبا ما تجذب الاهتمام العام. على أنه فى بعض الأحيان يكون هناك شد وجذب وأخذ ورد بين مؤيدى هذه الصيغة أو تلك. فدارسو العلوم البحتة يتهمون أولئك الذين يوجهون كل اهتمامهم نحو القيمة العملية للعلم بأنهم ماديون، يغمضون عيونهم عن القضايا العليا للحياة أما المشتغلون بالعلوم البحتة فيتهمون - هم أيضا - بأنهم أكاديميون وأناس حالمون غير عمليين، بل وجاهلون بالحاجات الحقيقية التى يتطلبها العالم (١١)
على أننا نرى أن كلا الوجهين للعلم لاغنى عنهما، إذ أنهما - فى رأيى -



متضافران يخدم كل منهما الآخر . وسيظهر ذلك في ثنايا هذا الكتاب الذى يتعرض لمسيرة العلم عبر العصور بوجهيه : العلم البحت والعلم التطبيقى المتمثل فيما يعرف بالتقنية أو «التكنولوجيا» .

والعلم يهدف إلى فهم العالم الطبيعى ، وتفسير ما يحدث فيه من ظواهر ووقائع تؤدى فى النهاية إلى استنباط القوانين العامة التى تسير هذا العالم ، ويؤدى هذا بالتالى إلى إمكان التنبؤ بأحداث قد تقع فى العالم - فى المستقبل - وليس ثمة طريق آخر سوى العلم يمكن أن يقودنا إلى ذلك ، ولعلنى أنكر فى هذا السياق العمل الفذ الذى قام به مندليف حيث رتب العناصر الكيميائية فى جدول سمى بعد ذلك بالجدول الدورى ، ولما كانت بعض العناصر مازالت مجهولة فى ذلك الوقت فقد ترك لها العالم الروسى أماكن شاغرة فى جدوله ، وهو متأكد تماما أنه سيأتى اليوم الذى ستوضع فيه هذه العناصر بعد اكتشافها وبهذا يصبح العلم غاية ووسيلة فى وقت معا، غاية تعزز مركز الإنسان وسط بقية الكائنات ، ووسيلة لتفسير ما يحدث حوله من ظواهر (١٢) ، بل وضوءا كاشفا يمكن أن يساعدنا على التنبؤ بما يمكن أن يحدث فى المستقبل .

أما بالنسبة لتاريخ العلم ، وهو أيضا جزء لايتجزأ من العلم ، فلعله من المفيد أن نستعير كلمات أستاذ ضليع كرس حياته لتاريخ العلم ، وهو جورج سارتون Sar-ton G.S.، وفحواها أن تاريخ العلم ميدان واسع ، ليس من المستطاع شرحه فى مائة محاضرة أو ألف . وعلى ذلك فلا مفر من انتقاء طائفة من الموضوعات المختارة فى الحدود المستطاعة ، إذ ليس ثمة مكان أو زمان لإثبات كل شيء ، على أن اختيار الموضوعات التى يضمها كتاب هى عملية أكثر دقة وخصبا مما يستطاع فى المحاضرات المرتجلة .

أصعب أشكال التاريخ

إن تاريخ العلم هو من أصعب أشكال التاريخ ، إذ ينبغى لمن يتعرض لهذا النوع من التاريخ ، كما يعتقد الثقات المتخصصون فى هذا الميدان ، أن يجمع بين :

- رؤية المؤرخ .
- شخصية العالم .
- رؤية الفيلسوف (١٣) .

هذا إلى جانب مجموعة من السمات التى يلزم توافرها فى الباحثين عموما وفيمن يتخصص فى البحث فى تاريخ العلوم على وجه الخصوص ، كالإيمان بقيمة العلم ، الإكثار من جمع الشواهد والظواهر ، النزاهة والصبر ، الشجاعة العلمية ، إنكار الذات ، الثقافة الواسعة ، النقد النزيه ، إلى غير ذلك من صفات ومميزات . ذلك أن الشيء الهام بالنسبة لتاريخ العلوم ، ليس فى الواقع نتائجها ، بل المناهج التى أدت إلى التوصل إلى هذه النتائج ، وكشف هذه الحقائق .

فالعالم يكرس كل اهتمامه بالنتائج ، أما المتفلسف فيوجه أكثر اهتمامه لعرض العلوم فى حالة نشأتها ، وذلك بهدف استخلاص الدروس والعبر ، التى تبقى بعد كل شىء ، وحتى يكشف النقاب عن طبيعة الصراع القائم دوما بين العقل والمادة أما طبيعة المؤرخ فهى التى تملى عليه تسجيل كل ذلك ، دون إغفال أو إهمال ، فى أمانة وتجرد ، دون تحيز أو تحزب ، ولذلك نجد بروفيسور سارتون يقول فى كتابه «تاريخ العلم» : ومما أفسد فهم العلم القديم ، فى كثير من الأحيان ظاهرتان من الإهمال الذى لايمكن التسامح فيه: الأولى : تتعلق بإهمال العلم الشرقى ، فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق ، فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية ، فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم ، والعلم اليونانى بهذه المثابة كان إحياء أكثر منه اختراعا .

وفى هذا السياق يقول الأستاذ العقاد ، وذلك فى معرض تفسيره لاشتغال الإغريق بالبحوث النظرية والفلسفية فى وقت ما من الأوقات من تاريخ العلم ، يقول العقاد : وإنما امتاز الاغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الأزمان لسبب واضح هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العربية ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصيلة فى طبيعة التركيب ، كما وهم (من الوهم) القائلون بذلك الرأى المتعجل العسوف ، ولكنها أبيحت لهم لأن بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها ملك قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية ، كما قامت فى مصر وبابل ، لكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الإلهية كشأن البابليين والمصريين (١٤) .

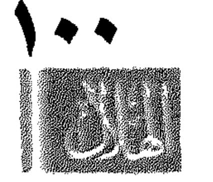
أما مفكرنا الكبير د. زكى نجيب محمود فيقول :

لا شرق هناك ولا غرب ، ولاشمال ولا جنوب فى خصائص البشر وصفاتهم ، فكل شعب فى الدنيا ككل شعب آخر ، من حيث الاستعداد والفطرة ، وتبقى بعد ذلك ظروف اقتصادية وسياسة قد توجد فى الشرق أو الغرب ، فى الشمال أو الجنوب على السواء ، فهى تظهر هنا مرة وهناك مرة (١٥) . ويقول أيضا : أليست المدنية الإنسانية تغمر العالم موجة فى إثر موجة ، والموجات تارة يكون سراها من هنا إلى هناك ، وطور من هناك إلى هنا ؟.. خرافة إذن أن يقال فى الحضارة البشرية شرق وغرب وشمال وجنوب (١٦) .

أما الظاهرة الثانية فهى إهمال الإطار الخرافى الذى نشأ منه العلم ، لا الشرقى فحسب بل اليونانى ذاته كذلك .

ويستطرد سارتون ليقول :

كفانا سوءا أننا أخفينا الأصول الشرقية التى لم يكن التقدم الهيلينى مستطاعا بدونها ، ولكن بعض المؤرخين



أضافوا إلى هذا السوء بما أخفوا مالا حصر له من خرافات يونانية ، عاقت هذا التقدم ، وكان من الجائز أن تقضي عليه (١٧) .

وقد اقتضت الأمانة العلمية من سارتون أن يقول هذا الكلام العلمي الذي ربما يكون في صالح التاريخ العلمي اليوناني والحضارة اليونانية ، أكثر مما هي الحال عليه في حالة إخفائه ، فعندما يتكشف لنا انتصار المذهب العقلي اليوناني ، رغم ما اعتقده الإغريق من معتقدات خرافية غير عقلية ، فهنا تكون المعجزة الحقيقية والانتصار الأكبر .

وقد نوه العرب للكثير من الترهات والأباطيل والخرافات التي اعتقد بها الإغريق ، ممثلة في أكبر الأسماء لديهم ، مثل أرسطو ، ولنستمع للعالم العربي الذي عاصر ابن سينا وهو أبو الريحان البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨م) ، وقد كان عالما تجريبيا مثل ابن الهيثم ، يقول البيروني : إن موضع الخطل بالنسبة لمعظم الناس هو مغالاتهم باحترامهم لآراء أرسطو . إنهم موقنون بأنه ليس هناك إمكان الخطأ في آرائه، على الرغم من معرفتهم بأنه إنما كان ينظر كأفضل ما أمكنته رؤيته (١٨) .

ويقول البيروني أيضا بشأن خرافات القرون الوسطى : يقول الناس بأنه في ساعة معينة من السادس من يناير (كانون الثاني) تتحول مياه البحر جميعها إلى مياه عذبة . ولكن حيث إن جميع خصائص المياه تعتمد على طبيعة التربة ، فإن هذه الخصائص لابد وأن تكون ذات طبيعة ثابتة . إن ذلك القول ليس له أي أساس من الصحة على الإطلاق ، وسوف توضح التجارب المتأنية والمتكررة للجميع عبث هذا الزعم (١٩) .

وقد انصف بريفول Briffault حينما قال : قام الإغريق بالتصنيف والتعميم والتنظير ، ولكن الطرق الدوبة للملاحظة المفصلة والممتدة ، والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن طبائعهم . إن مانطلق عليه اسم العلم ، برز نتيجة لطرق جديدة في التجارب (يقصد بذلك المنهج العلمي الحديث) ، وإلى الملاحظة والقياس ، فقد أدخلها العرب إلى أوروبا . إن العلم (الحديث) هو أهم وأقيم إسهامات الحضارة الإسلامية .

وقد أكد على ذلك أيضا مؤرخ العلم الأشهر سارتون بقوله : إن الإنجاز الرئيسي وإن كان الأقل وضوحا في القرون الوسطى هو إبداع الروح التجريبية ، ويرجع ذلك إلى المسلمين في المحل الأول منذ القرن الثاني عشر ، كذلك يقرر كراوذر أن العرب هم المؤسسون لمفهوم عالمية المعرفة ، وهي إحدى السمات البالغة الأهمية للعلم الحديث .

وهذه هي بعض فوائد التاريخ العلمي النزيه ، الذي يرد الحق إلى نصابه ، ويرجع الفضل لذويه ، من خلال روح نقدية

علمية سمحة وذلك فى النهاية يخدم العلم والتقدم العلمي، ذلك أن العلم ليس حكرا على شعب من الشعوب أو جنس من الأجناس ولكنه تراث إنسانى مشترك، ساهمت فيه كل الشعوب على امتداد الزمان والمكان، والذى يكشف النقاب عنه ويرجع الإسهام فيه إلى من قاموا به وشاركوا فيه، هو التاريخ وحده، تاريخ العلم، وهنا تحضرنى مقولة باسكال : إن تعاقب البشر خلال القرون الطويلة المتلاحقة يجب أن ينظر إليه كوحدة مستمرة، تزداد معارفها بصور مطردة ومن أسباب ذلك كما يقول ديكارت : سعى الإنسان نحو الكمال. أو أن ذلك يرجع لوجود الرغبة المتأصلة والمتصلة فى نفوس جميع الكائنات للوصول إلى وضع أفضل. أما بيكون فقد كان يؤمن بالتقدم اللانهائى للمعرفة الإنسانية، ولذلك فإن بعضهم - كوندرسيه - يقرر أن التقدم نحو الكمال، بعد التحرر من القوى المعوقة، لايخضع إلا لعامل الزمن، ومدة استمرار الحياة على سطح الأرض (٢٠).

إن تاريخ العلم يمكننا من فهم ظاهرة العلم فهما أعمق وأشمل ومن ذا سوى مؤرخ العلم يستطيع أن يرصد كل ذلك ويؤكد عليه ؟ ومن ناحية أخرى فنحن ندرس تاريخ العلم، لنعرف ماضينا، وما مر بنا من التجارب وكيف وصلنا إلى مانحن فيه، فتزداد ثقافتنا بهذا العلم، وتتسع آفاق فكرنا وإحساسنا، ويزداد الفكر خصوبة وعمقا، والإحساس شفافية، كما ندرسه ليزداد شعورنا بالأخوة البشرية، وبقيمة العلم والعمل، وبما يعود علينا وعلى غيرنا من الخير، إذا نحن وجهنا جهودنا نحو الأعمال المثمرة البناءة، التى تعمل فى النهاية على ازدهار شجرة الحضارة وتقدم الإنسانية.

إن من أهداف تاريخ العلم أيضا أن يوضح، فى غير تحيز، كيف يعمل المعقول ضد غير المعقول، ويشرح التكشف التدريجى للحقيقة فى كل أشكالها، سواء أكانت سارة أم غير سارة، ونافعة أم عديمة النفع، مرضى عنها أو غير مرضى (٢١).

ونحن ندرسه كمسلمين وعرب، بوجه خاص، لنعرف كم كانت إسهاماتنا ذات أهمية بالغة فى التراث العلمى الإنسانى، وأن رصيدنا فى هذا المضمار جد ثمين وليس له مثيل أو قرين، مما يحفز أبناءنا ليستعيدوا أمجاد أسلافهم ويتبوءوا مكانتهم اللائقة بين الأمم والشعوب.

إن تاريخ العلم - وليس تاريخ الجيوش والعروش والتيجان والحروب والمؤامرات - هو التاريخ الحقيقى للإنسان، وصلب قصة الحضارة فى تطورها الصاعد دوما (٢٢).

ودراسة تاريخ العلم، يمكن ألا نقصر اعتبارها على أنها نبع الحكمة والنزعة الإنسانية، بل نتخذها هاديا ومرشدا، ومقوما لضمائرنا، إنها تساعدنا على أن



نكون متواضعين غير مغالين ولا متجانفين لكبرياء تلقاء انتصاراتنا ، وأن نظل شاكرين آملين عاملين بهدوء وهوادة فى سبيل إنجاز واجبنا (٢٣) .

المراجع والهوامش :

(١) سيد كريم (١٩٩٧) : الحكم والأمثال فى الأدب الفرعونى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

(٢) الفخر الرازى (١٩٩٣) : مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير . المجلد الخامس عشر . دار الغد العربى – مصر ص ٤٥٢ .

(٣) سليمان دنيا (١٩٨٠) : الحقيقة فى نظر الغزالى . دار المعارف بمصر .

(4) N. Campbell (1953) : what is Science ? Dover Incorporations, Inc ., New York.

(5) Jevons, w. s., principles of Science.

(٦) زكى نجيب محمود (١٩٥١) : المنطق الوضعى . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة .ص ٣٧١ .

(7) Russell , B ., The Scientific Outlook .

(٨) المرجع السابق رقم ٦ ص ٣٧٢ .

(٩) محمد جمال الدين الفندى (١٩٧٨) : الله والكون . الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٥ .

(10) J. G. Crowther (1941) Social Relations of Science . London .

(11) Reference number 4 .

(١٢) محمود قاسم (١٩٩٥) : المدخل إلى فلسفة العلوم . دار المعرفة الجامعية . مصر . ص ٣ .

(١٣) بول موى (بدون تاريخ) : المنطق وتاريخ العلوم . ترجمة د. فؤاد زكريا الدار القومية التأليف والترجمة والنشر .

(١٤) عباس محمود العقاد (١٩٦٩) : أثر العرب فى الحضارة الأوربية . دار المعارف بمصر . الطبعة الثامنة ص ٨٥ .

(١٥) د. زكى نجيب محمود (ب . ت) شروق من الغرب . دار الشروق . مصر . ص ٢٢١ .

(١٦) المرجع السابقة . ص ٤ .

(١٧) جورج سارتون (١٩٦٣) : تاريخ العلم . دار المعارف بمصر جـ ١ الطبعة الثانية . ص ٢٠ – ٢١ .

(١٨) د. محمد عبدالسلام (١٩٨٦) : المسلمون والعلم . الغد للنشر والدعاية والإعلام . ص ٣٢ .

(١٩) المرجع السابق . ص ٣٣ .

(٢٠) م . دى كوندرسيه (١٩٩٥) : مخطط تاريخى لتقدم العقل البشرى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢١) جورج سارتون (١٩٦٣) : تاريخ العلم . جـ ١ . الطبعة الثانية . دار المعارف بمصر . ص ٢٩ .

(٢٢) د. يمنى طرف الخولى (١٩٩٨) : بحوث فى تاريخ العلوم عند العرب . دار الثقافة . ص ١١

(٢٣) جورج سارتون (١٩٦١) تاريخ العلم والإنسية الجديدة . دار النهضة العربية . مصر . ص ٣٠٣ .



زيارة إلى الصحراء الشرقية

وادى العلاقى

بقلم
د. محمد عبد الفتاح القصاص *

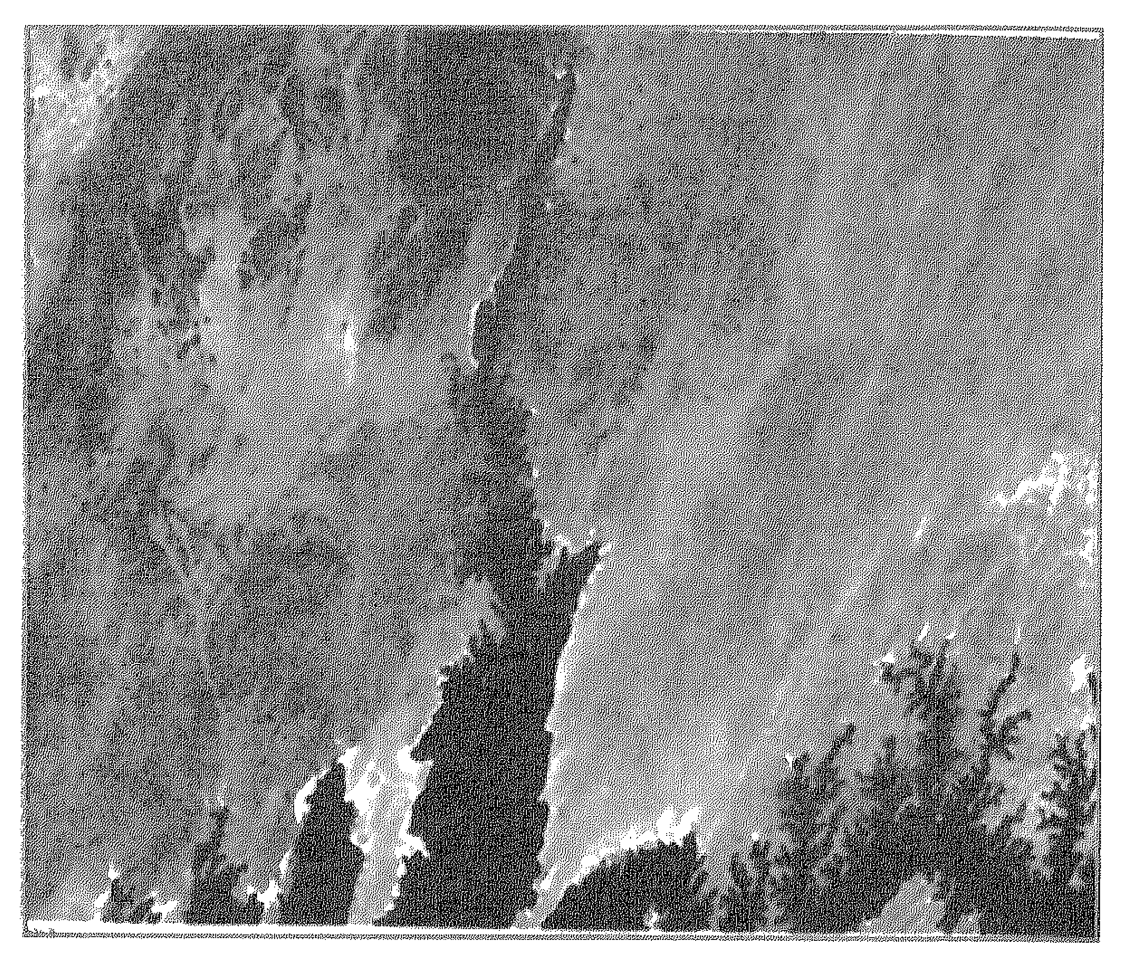




الوادى نهر قديم جفت منابعه وبقي مجراه ومجارى روافده محفورة فى الهضاب الصحراوية، فإذا هطلت على منابعه رخات المطر النادرة تجمعت مياه الجريان السطحى فى المجارى القديمة، وتكون منها فى مجرى الوادى نهر عرم هو السيل الذى يجرف فى طريقه الكثير.

وتشق هضبة الصحراء الشرقية الممتدة من وادى النيل إلى جبال البحر الأحمر عدد من الوديان يشاهدها المسافر بالطائرة كأنها خريطة لأنهار تنبع من الجبال فى الشرق وتصب فى وادى النيل. كثيرون من سكان ضاحية المعادى

* أستاذ علم النبات - كلية العلوم - جامعة القاهرة



وادى العلاقى كما يظهر فى صور الأقمار الصناعية

يعرفون وادى دجلة ويرتادونه فى أيام الربيع، كذلك يعرف سكان حلوان وادى حوف العظيم. ويوجد فى جنوب حلوان وادى جروى وعليه أطلال سد الكفرة الذى يرجع إلى الأسرة الثانية أو الثالثة من حكم فراعنة مصر، وهو أقدم سد بنى لحجز مياه السيول. ويتصل الحصر إلى أن نصل إلى وادى العلاقى على بعد حوالى ٢٠٠ كيلو متر جنوب مدينة أسوان.

وادى العلاقى هو أكبر وديان الصحراء الشرقية. يبدأ مجراه الرئيسى من السفوح الغربية لجبال البحر الأحمر فى مصر «جبال منطقة علبه» وفى السودان (جبال منطقة أسطريه)، وينتهى إلى وادى

النيل، وتبلغ مساحة حوض الوادى حوالى ٤٤٠٠٠ كيلو متر مربع، وتشق هذا الحوض الوديان الروافد. والوادى جزء من تاريخ مصر، وخاصة تعدين الذهب، إذ توجد أطلال المناجم القديمة فى الوادى وفى روافده - ولعل أكبرها منجم أم قريات والذى تدل شواهده على استخدام متصل منذ مصر القديمة وحتى أوائل القرن العشرين، وبه مقابر لمن عملوا فيه منذ الفراعنة حتى عام ١٩١٦.

وادى العلاقى بروافده الجنوبية، خاصة وادى جبجابه، يصل أراضى مصر والسودان على جانبى خط عرض ٢٢ شمالا، وعبره مسار قوافل الجمال القادمة من شرقى السودان «الدبوكة» والمتجهة إلى سوق الجمال فى دراو شمالى أسوان. والدراسات السابقة لمد خط السكة الحديد بين أسوان فى مصر وحلفا فى السودان بقيت علاماتها فى وادى جبجابه.

تكون بيئة فريدة

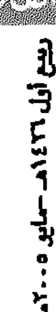
عندما اكتمل بناء السد العالى وامتلأت بحيرة ناصر بالمياه المختزنة، فاضت البحيرة على دلتا الوادى فأصبحت جزءا من البحيرة وامتدت المياه إلى الأحباس الدنيا من الوادى فوصلت إلى أكثر من خمسين كيلو مترا وغمرت مصبات روافد الوادى الكبير: أم عشيرة وقليب، وانحرفت مسارات «الدبوكة» لتفيد من مياه الوادى، وأفاد البدو من قبائل العبابدة والبشاريين فجعلوا عند حواف المياه مستقرات لهم خاصة فى الفصول التى تجف فيها مراعى المطر. كذلك نشأت عند حواف المياه محاولات لزراعات شاطئية أقامها فلاحون قدموا من صعيد ودلتا النيل. هكذا نشأت فى أحضان وادى العلاقى أوضاع بيئية واجتماعية فريدة، فيه تتجاور بيئة الصحراء القاحلة مع بيئة البحيرة ذات الماء الوفير، وعندها تحولت المجتمعات البدوية إلى مجتمعات ذات مستقرات عند ضفاف البحيرة تقيم فيها النساء والأطفال بينما يمضى الرجال فى موسم المطر إلى الوادى وروافده، يجمعون ما تيسر من نباتات العقاقير. وتفيد قطعان الجمال والماعز من النبت الموسمى. وانجذب إلى شواطىء البحيرة جماعات من بدو الرشايدة القادمين من سواحل السودان، وجماعات من فلاحى وادى النيل، ونشأت من ذلك مجتمعات ذات طرافة تستحق الدراسة.

جذب هذا الاطار البيئى




وادى العلاقى « محمية طبيعية » بين البحيرة والصحراء

الاجتماعى انتباه فريق من الباحثين فى فرع جامعة جنوب الوادى بأسوان «والذى كان فى ذلك الوقت تابعا لجامعة أسيوط». قاد الفريق منذ ١٩٨٤ الدكتورة إيرينا شبرنجل «روسية المولد» وزوجها الدكتور أحمد عصمت بلال عميد كلية العلوم بأسوان حينذاك، وضم الفريق عددا من شباب أسوان من الباحثين والباحثات، وانضم إليهم علماء من جامعات الصعيد وخاصة أسيوط. ولفتت بحوثهم الأولى أنظار المجتمع الدولى فقدم لهم برنامج الأمم المتحدة للبيئة دعما عاونهم على إنشاء محطة بحوث حقلية وحقول تجريبية في وادى العلاقى، وعاونهم المجلس البريطانى علي الصلة والتعاون مع فريق بحثى من جامعة جلاسجو، وعاونهم المجلس الأعلى للجامعات علي برنامج تعاون مع جامعة كسيدي بالولايات المتحدة الأمريكية، وعاونهم مركز البحوث الدولى الكندى على برنامج تعاون جامعة ترنت بكندا، كذلك ساعدتهم هيئات التعاون الفرنسية والألمانية وغيرها على تنفيذ برامج بحث وتدريب مع جامعة أوروبية. ومع حلول عام



١٩٩٠ كان وادي العلاقي مركزا علميا دوليا ذائع الصيت، وأعلن جهاز شئون البيئة وادي العلاقي «محمية طبيعية»، واعترفت به اليونسكو ضمن محميات المحيط الحيوي في العالم (عام ١٩٩٣)، ودعمت وزارتي التعاون الدولي والزراعة تجارب لاستزراع غابات الهجليج والحراز في تخوم العلاقي.

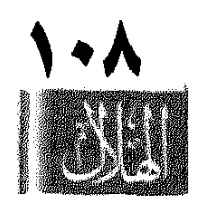
مركز علمي دولي

ومع حلول عام ٢٠٠٠ كانت من ثمار هذا العمل العلمي الدائب تكون فريق بحثي من علماء أسوان الحاصلين على درجات عليا في مجالات البيئة والمتمرسين في بحوث البيئة البحيرية والبيئة الصحراوية ومسوح الموارد الطبيعية ودراسة المجتمعات والعشائر في صحراء النوبة الشرقية. وامتدت حقول الدراسة إلى بحيرات مفيض توشكي وتخومها، والوديان الواقعة شمال أسوان. وأصبح وادي العلاقي مركزا دوليا للبحوث البيئية، ومنارة ذات إشعاع دولي في الموقع القصي من صحاري مصر.

أضاف فريق الباحثين المصريين، وخاصة الباحثات، إلى برامج البحوث برامج لخدمة المجتمع، فكانت فصول محو الأمية التي أقبلت عليها النساء، وكان إدخال تربية الدواجن كوسيلة لزيادة الدخل وتحسين مستوى الغذاء «لم يكن بيض الدجاج في قائمة الطعام المعروفة من قبل»، وعاون الفريق على تكوين جمعيات لخدمة المجتمع شاركت فيها النساء.

كذلك تضمن برنامج التعاون مع جامعة جلاسجو تبادل الطلاب، حضر إلى أسوان والعلاقي فريق من الطلاب البريطانيين انتظموا أزواجا مع زملائهم في أسوان، وحدد الأساتذة لكل زوج موضوعا يتصل بدراسات البيئة في الوادي أو في البحيرة أو في مجتمع أسوان. ورد الطلاب المصريون الزيارة لاستكمال دراستهم المشتركة، في هذا الاطار عاش الطلاب البريطانيون في بيوت زملائهم المصريين في أسوان، وعاش الطلاب المصريون في بيوت زملائهم البريطانيين في جلاسجو. وكررت جامعات المنيا وقناة السويس هذه التجربة الفريدة مع جامعات بريطانية، وقام المجلس البريطاني بتمويل هذا التبادل الثقافي.

كنت قد زرت وادي العلاقي مع فريق من الزملاء الباحثين في مجالات الدراسات عام ١٩٦٢ بقصد دراسة





المدير العام السابق لليونسكو أثناء افتتاح إحدى ندوات البحوث البيئية

الأراضى التى ستصبح فيما بعد قاع بحيرة ناصر. أمضينا ستة أسابيع، كان مركزنا فى معسكر أقمناه فى رحاب أطلال منجم أم قريات. وعندما أتيحت لى زيارات للمركز العلمى الذى أقامته كلية العلوم بأسوان، لاحظت التحولات التى نشأت عن تلاقى بحيرة المياه والصحراء المحرومة من المياه، وأثر الحماية التى نتجت عن إعلان وادى العلاقى محمية طبيعية «عام ١٩٨٩» بما فى ذلك عودة الغزلان والنعام إلى المنطقة.

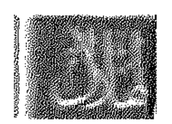
هل ينطفىء شهاب العلاقى؟

هذه تجربة علمية فريدة تمثل البحوث والدراسات متعددة التخصصات، وتثمر مدرسة علمية مصرية على صلة بمراكز التقدم العلمي فى العالم. تجربة ليس لها نظير إلا تجربة مركز بحوث «العميد» غربى الإسكندرية التى قادها العالم الجليل الدكتور محمد عبدالجواد عياد، وهى المنطقة التى ضمتها اليونسكو إلى قائمة المحيط الحيوى فى العالم. وقد انطفأ شهاب «العميد» بوفاة الدكتور عياد، وينطفىء شهاب العلاقى بقرار رئيس جامعة جنوب الوادى بعزل الدكتورة إيرينا شبرنجل - رائدة المشروع - بعد نيف وعشرين عاما من الجهد العلمى الراقى ذى الثمار الجليلة. ■

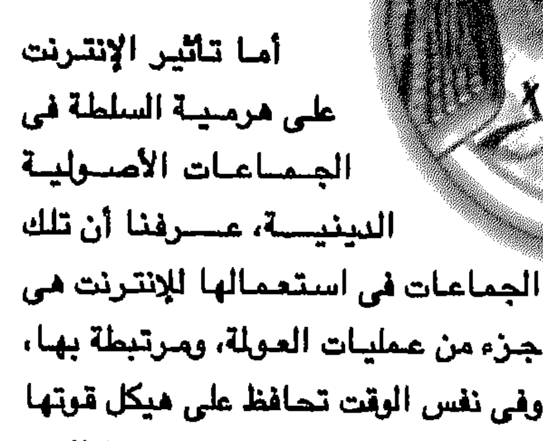
الإنترنت والأصولية الدينية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

بدأنا فى المقال السابق مناقشة علاقة وتأثيرات الإنترنت على جماعات الأصولية الدينية، واتفقنا على أن الأصولية الدينية ليست حكرا على دين واحد، بل هى موجودة فى اليهودية وفى المسيحية، وفى الإسلام، وهى أيضا لا تنحصر فى الأديان فقط، بل هى سمة الكثير من الحركات والأحزاب بما فيها حركة الدفاع عن البيئة، ومنتشرة فى العالم بين جماعات عرقية عديدة، وتتلاقى كل جماعات الأصولية الدينية فى خصائص مميزة لها، أهمها صراعها مع الحداثة. وتعليقا على دراسة دكتور برازيلى وزوجته دكتور كارين ناهون التى بدأنا تحليل نتائجها فى العدد السابق، نشر يوم ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٤ فى صحيفة هارتز Haaretz الإسرائيلية، أن المحاكم الإسرائيلية تتابع دعوة تشهير وقذف ضد رجل من جماعة دينية أصولية وهى جماعة هاريدي الأرثوذوكسية المتطرفة Ultra- Orthodox Haredi انتقد فيها تصرفات أعضاء جماعته الدينية أثناء حواراته داخل منتديات الإنترنت لتلك الجماعة!



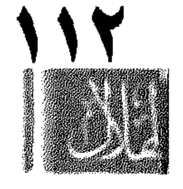
وهى مؤشر على تحويل جزء من معارك تلك الجماعة الداخلية إلى عالم فضاء الإنترنت. وهى إشارة أيضا إلى الكيفية التى اخترقت بها الإنترنت الحياة المغلقة لتلك الجماعة الأصولية، بحيث لن يستطيع أعضاؤها بعد ذلك تجنب وإهمال الإنترنت، فمنذ حوالى سنة أقامت تلك الجماعة دعوة تشهير وقذف ضد موقع منتدى هيدبارك العبرى بدعوى أنه سمح بنشر بيانات تحريضية ضد واحد من حاخامات الجماعة، واتهموه بالعلمانية والهرطقة! والمفارقة هنا كما يقول دكتور برازيلى أن تلك الجماعة الدينية الأصولية المغلقة عندما واجهت مشكلة داخلية بحتة، وكان يفترض حلها داخل الجماعة ، لكن لوحظ أن الشاكين من تلك الجماعة اتجهوا إلى المحاكم العلمانية! وان تلك الدعاوى القضائية عكست الكيفية التى عدلت وغيرت بها الإنترنت حدود الاتصالات التقليدية فى تلك الجماعات، لدرجة جعلتها أكثر تعددية وديمقراطية وسمحت بالنقد الداخلى بدون أن يتعرض صاحب النقد لخطر هؤلاء الذين نقدهم. ورغم أن استعمال الحاسبات والإنترنت سمح به حاخامات الجماعة لأغراض العمل فقط قبل حوالى سنتين، وحرموا رسميا أى استعمال آخر، إلا أن دراسة برازيلى وزوجته دعمت الانطباع الذى يؤكد فشل حاخامات تلك الجماعة فى جهودهم المانعة للإنترنت، وأن استعمال الانترنت من قبل أعضاء تلك الجماعة لم يعد شيئا غامضا ومقتصرا على فئة محدودة منهم، وبينت الدراسة أيضا أن الاستعمال الهائل للإنترنت بين أفراد الجماعة لا يتم من داخل بيوتهم، فنسبتهم مازالت منخفضة إذا قورنت إلى عامة السكان، وعلى خلاف كل التوقعات المسبقة كشفت الدراسة أن كل الأعضاء الجدد فى تلك الجماعات يبحرون على الإنترنت فى أوقات فراغهم من الأماكن العامة أيضا مثل مقاهى الإنترنت ، ويتجنبونها داخل بيوتهم! هذا واتفقت عدة دراسات، منها دراسة الباحثان برازيلى على أربعة أبعاد اجتماعية وسياسية تميز جماعات الأصولية الدينية فى تفاعلها فى سياق الإنترنت وهى: الهرمية والتدرج ، النظام الأبوى، الانضباط، العزلة . وان فهمنا لتلك الأبعاد قد يمكننا من فهم معنى مفهوم الإنترنت كتقنية مثقفة، حيث انبثق مفهوم التقنية المثقفة Cultured Technology من نتائج تحليل الدراسات للطريقة التى تعيد بها المجتمعات المحلية تشكيل التقنية لتصبح جزءاً من ثقافاتها، ومن ناحية أخرى تسمح تلك المجتمعات للتقنية أن تحدث فيها تغييرات محددة فى طريقة حياتهم المألوفة وفى قوانينهم غير المكتوبة.



أما تأثير الإنترنت على هرمية السلطة فى الجماعات الأصولية الدينية، عرفنا أن تلك الجماعات فى استعمالها للإنترنت هى جزء من عمليات العولمة، ومرتبطة بها، وفى نفس الوقت تحافظ على هيكل قوتها وسلطتها وشكلها الهرمى، وفى هذا العدد تكمل مناقشة وتحليل بقية الأبعاد الاجتماعية والسياسية التى تميز جماعات الأصولية الدينية فى تفاعلها فى سياق الإنترنت.

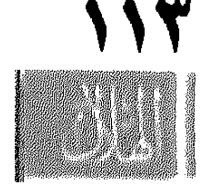
النظام الأبوي البعد الثاني للتوتر

تبين نتائج الدراسات التى تناولت تأثير الإنترنت على جماعات الأصولية الدينية مثل دراسة برازيلى بأن النساء فى تلك الجماعات قد يستعملن الإنترنت للنقاش والمجادلة والتساؤل الفقهى مع الهرمية أو التراتبية البطريركية فى جماعاتهم الدينية الأصولية، مع المحافظة طوال الوقت على الموالاة إلى ثقافة وديالوج جماعاتهن. على سبيل المثال ، تستعمل النساء فى تلك الجماعات الإنترنت للتلاقى والاجتماع ونشر المعلومات، وتحسين دراساتهن حول تأريخ النساء، والعلم، والفلسفة. مثل موقع الأخت Sister Site على الإنترنت الذى يخدم الجماعات الأصولية الدينية ويهدف لنشر معلومات عن تجمعات النساء الدينية، وتأريخ الحياة الدينية من منظور أنثوى، والمخاوف المعاصرة للنساء الدينيات . وتركز بعض تلك المواقع على الكاثوليكية، لكنها فى نفس الوقت تحاول خدمة الأخوات فى الأديان الأخرى. بالإضافة إلى المواقع التى تخدم النساء بالأدوات المعلوماتية، ومواقع تحتضن التفاعلات بين الأخوات على الإنترنت مثل مجموعات النقاش الروحانية، ومجموعات تنمية المجتمعات ، ونستطيع أن نرصد بسهولة أمهات وربات بيوت من جماعات أصولية إسلامية من مصر، إيران، والعربية السعودية، والضفة الغربية يتبادلن الأفكار على الإنترنت خلال غرف الدردشة على موقع إسلام أمريكا أون لاين America Online Islam Chat Rooms ، ويتبادلن الرسائل أيضا من خلال خدمة Msn Islam Message boards ، ومثل أى شخص آخر، يتحدثن من خلال البريد عن أطفالهم ، وإتقان علاقتهن بالله. على الرغم من هذا، تؤكد تلك النسوة فى اتصالهن على الإنترنت، والتزامهن بالأمومة وأن يكن نساء صالحات. ويلاحظ على تلك الأنشطة أنها تكمل الحياة الدينية التى يعيشها النساء فى الواقع داخل جماعاتهن، وحديثا لوحظ تزايد أعداد النساء اللاتى يستعملن الإنترنت هروبا من الحياة داخل



جماعتهن الأصولية. ويصبح الاتصال بالإنترنت بينهن نوعا من البدائل والخيارات مقابل القواعد الداخلية الصارمة للجماعات الدينية الأصولية ، فمثلا استعمال الإنترنت من قبل النساء اليهوديات لاحتضان الدراسات التوراتية والتلمودية. وعموما الإنترنت تستعمل داخل جماعات الأصولية الدينية كوسيلة اتصال بالعالم الخارجي وبين أعضاء الجماعات نفسها بحيث تتجاوز القيود والحدود التي وضعتها الهرمية أو التراتبية البطريركية في جماعات الأصولية الدينية، فتستعمل النساء المتدينات في تلك الجماعات الإنترنت لتجاوز القيود المفروضة عليهن سواء على مستوى الحياة الشخصية أو الحياة العامة . لذلك تعمل الإنترنت إلى حد ما كوسيلة مجتمعية لفك تحرير الأنوثة في سياق جماعات الدين الأصولي، وتبين دراسات ظاهرة الانقسام الرقمي، بينت أن الانقسام الرقمي موجود بين الرجال والنساء، ودراسات أخرى تجادل في عدم وجود فجوة بينهما، وتستنتج دراسات أخرى بأن الفارق الرقمي موجود بالفعل، لكن ليس من ناحية إمكانية وقدرة الوصول لكن بالأحرى من ناحية مدى التردد وكثافة الاستعمال: بصفة عامة ظهر احتمال أن النساء كن أقل استعمالا للإنترنت مقارنة بالرجال في منتصف التسعينات، لكن هذا الفارق اختفى بين الجنسين في عام ٢٠٠٠، على أية حال تبقى النساء أقل استعمالا للإنترنت، وأقل تكرارا في التواجد عليها! حيث تبين الاحصائيات أن ٤٩.٥٪ من كل مستعملي الإنترنت في الولايات المتحدة نساء. وتبين إحصائيات أخيرة أيضا بأن النساء لا يصرفن عادة وقتا كثيرا على الإنترنت مقارنة بالرجال. ويبدو أن الإنترنت لم تثر بعد جماعات الأصولية الدينيةافوصول النساء إلى الإنترنت، ومدى ترددهن عليها وكثافة استعمالهن مازالت محصورة ومقيدة بالمقارنة بالرجال.

وعلى الرغم من أن عالم الإنترنت أعتق وحرر النساء بعض الشيء من عدم قدرتهن على تجاوز حدود مجتمعاتهن المحلية وتحديدا جماعاتهن الدينية الأصولية، لكن في أكثر الحالات ، لم يدرك ويفهم عالم الإنترنت كبديل للحياة الدينية في جماعاتهن . بالأحرى، الإنترنت محسوس ومفهوم كمنصة تمكن وتشجع الهوية الانثوية للاتصال داخل وخارج جماعات الأصوليات الدينية. نتيجة لذلك، نزعم بأن الإنترنت خلقت فرصا أفضل للأصوات الأنثوية التي يمكن أن تسمع في سياقات الأصولية الدينية، ولو أن هذه الفرص مشكلة ومصاغة ضمن السياق العمومي للهرمية



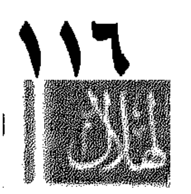
والتراتيبية في تلك الجماعات . بمعنى أن التكنولوجيا المثقفة تخفف وتسكن النزاع والصدام الممكن بين المساواة بين الجنسين والتدين والجماعة الدينية.

الانضباط والطاعة: البعد الثالث للتوتر

الجماعات الدينية الأصولية قائمة على الانضباط الشديد والطاعة، وسلوكياتها تستند تماما على النصوص المقدسة وتأويلاتها، وتجاهد هذه الجماعات لحفظ المعنى الأصلي لنصوصهم المقدسة مع أقل القليل الممكن من الاقتباسات والتكيف مع الحداثة، لذلك فإن ظاهرة الانضباط والطاعة محسوسة وملحوظة جدا في تلك الجماعات لأن البديل الوحيد لذلك هو الكفر. والتغيير الممكن والوحيد في آليات الطاعة والانضباط في تلك الجماعات لابد أن تشرعه وتسمح به السلطات الروحية من خلال تأويلاتها للنصوص. والانضباط والطاعة أهم متضمنات الوعي الجمعي في تلك الجماعات من خلال السلطات الروحية، والقانون، وأنظمة التعليم والتربية، والممارسات العائلية واليومية. والانضباط والطاعة أيضا ليس بعدا محددا رسميا يخص تلك الجماعات، ولا هو ظاهرة نصية كلية، بالأحرى ، هو مجموعة من الممارسات والوعي موجود في أي مكان وفي أي وقت في الحياة المجتمعية، لكن الدراسات أظهرت احتمال أن تكون الأجهزة القانونية والسياسية الاجتماعية للانضباط في تلك الجماعات تملك اتجاهات عدائية نحو الإنترنت، ومنذ ذلك الحين تفسهم وتدرك العصرية أو الحداثة على أنها من المصطلحات والتعبيرات المحظورة في تلك الجماعات مثلها في ذلك مثل مصطلحات العلمانية المعاصرة، والعقوبات المدنية، وتقنيات الرقابة. وتعتبر النصوص الدينية في تلك الجماعات ذات دستورية ملزمة للجماعة، حيث تحرم وتمنع تماما كافة التأويلات للنصوص التي لم تشرع من قبل سلطة الجماعة. على أية حال، الإنترنت ، قد تكون طريقا لتجنب مثل هذا المنع والتحريم على الرغم من قيود الهرمية التراتيبية في السلطة، والنظام الأبوي، والانضباط. ونوهت دراسات أخرى إلى أن النصوص المطبوعة كمخطوطة تحدد وتبنى بمنطق المتأكد والثابت الراسخ، وأنها مركزة لجمهور معرف واضح له صوت واحد، والمخطوطة المطبوعة هي بنية الشريعة حيث النصوص المختارة لتأكيد الانضباط والطاعة . ونزعم أن هذه الخصائص صحيحة جدا فيما يتعلق بالنصوص الدينية المطبوعة التي تتمتع بمكانة تعكس الحقائق المقدسة والصارمة والموثوقة والقانونية، وبينما توجه وترشد

النصوص الدينية المطبوعة المؤمنين للنظر داخل الجماعة والتحقق من جوهرها، ورعاية وصيانة النصوص التراثية، تدخل المستحدثات التكنولوجية فى تفاعلات مركزة تحاول بها عبور الحدود الصلبة للجماعة نفسها. وهنا نذكر القارىء بما كتبناه منذ فترة عن اللغة الجديدة للإنترنت النص الإليكترونى Hyper-text، التى تفعل وتغنى النصوص، ورغم أن هذه اللغة تتطلب مهارات وعادات خاصة فى القراءة والكتابة إلا أنها تتشابه مع النص المقدس، فكلاهما نص مطبوع يتكلم Talk Text؛ وكلاهما يحمل من الإشارات والأدلة، أو الصلات التى تشير إلى الأجزاء الأخرى؛ ويسمح بالابحار خلال الوصلات والروابط وليس بشكل متسلسل ومتتابع حيث تسمح للقارىء بالقفز إلى عدة مواقع على الشبكة فى نفس الوقت. وبذلك تكسر مادة الإنترنت، التدرج التقليدى بين النصوص، ويبدو أن خصائص الإنترنت تعزز الأفكار الانتقادية الحرجة حول حدود المراوغة بين النصوص وسلطة المؤلف المشكوك فيها، وعلى نقيض النصوص المطبوعة، نجد أن مادة إنترنت Hypertext تفاعلية، غير خطية ترابطية، وليست ثابتة، ومرنة، وليست بالضرورة تكون مملوكة من قبل مؤلف واحد مميز. لذلك مادة إنترنت قد تساعد على الإنكار والتنصل من الانضباط والطاعة بتحويل سلطة تقديم النصوص الدينية من يد السلطات الروحية إلى يد الأتباع المستعملين للإنترنت. ونتيجة لذلك قد تحرض الاتصالات السلكية واللاسلكية فى حد ذاتها شكوكا ذات معنى حول الانضباط والطاعة ضمن سياق جماعات الأصولية الدينية. علاوة على ذلك، الإنترنت قد تتحدى مباشرة قيود الانضباط والطاعة المفترضة على جماعات الأصولية الدينية بسماح واستفتاح منشورات جديدة من التفسيرات والتأويلات للأقوال المأثورة التى فرضتها الجماعة الأصولية، فجماعات الأصولية الدينية لا تستطيع تجنب وجود الإنترنت كليا، وفى نفس الوقت التى تفهم وتدرك فيه التقنية كتهديد إلى وجود جماعات الأصولية، قد ينظر إلى تلك التقنية كقوة تحسن وتعزز تماسك الجماعة. ومستعملى الإنترنت عادة ما يصدقون هذه التقنية التى تسمح باندماج وسائط مختلفة مثل الصوت والنص والصورة والحركة فى ترابط مع عناصر النص الإليكترونى Hyper-text، وهذه الخاصية غنية بما فيه الكفاية، لتدعيم بنية قصة الجماعة الدينية ذاتها، وهذا يمكن العديد من الناس بالمشاركة فى قصص وروايات الجماعة فى نفس الوقت من خلال تطبيقات

الإنترنت مثل المنتديات ومجموعات المناقشة والأخبار. وهنا أيضا يمكن أن تبنى الإنترنت ثقافيا بطرق متكيفة مع الانضباط الأصولى الدينى، فالعديد من جماعات الأصولية الدينية المنتشرة على الإنترنت تدعم وتعزز الانضباط والطاعة داخل نسقها الجماعى باستعمال الكثير من تطبيقات الإنترنت مثل مجموعات الحوار وشبكات الإنترنت، وخدمات النقاش على الإنترنت، والدردشة، والمنتديات التى تمكن وتعزز من تأهيل وعى جماعى بين العديد من المستعملين، وهذه التطبيقات لا تنتهك بالضرورة الانضباط والطاعة، بل تدعم هذا الانضباط باستقطاب المستعملين المختلفين، وبهذا المعنى أصبحت الإنترنت عنصرا هاما فى رأس المال الاجتماعى العام لتلك الجماعات ، ونزعم أنه رغم التأثيرات القوية لعامل الانضباط والطاعة على الحياة داخل جماعات الأصولية الدينية، فإن الإنترنت بالتأكيد قادرة على اختراق تلك الجماعات، طالما تم تكييف بنيتها ثقافيا مع تلك الجماعات. هناك العديد من الأمثلة على الكيفية التى تساعد بها الإنترنت فى صيانة الانضباط الدينى داخل تلك الجماعات، وبشكل رئيسى من خلال حفظ وصيانة الخواص الثقافية الأساسية. فقد أظهرت الدراسات التى تناولت ظاهرة الإسلام على الإنترنت، كيف دعمت الإنترنت وعززت الإسلام على نطاق واسع، فتروج العديد من المواقع الإسلامية للدراسات التقليدية والتراثية عن الإسلام، فمن المؤشرات النوعية للتحويلات المحتملة للإنترنت على المسلمين وجود تشكيلة كبيرة ومتعددة الاتجاهات من الخطب والمواعظ على الخط، وكلها قابلة للتنزيل من على الإنترنت لتصبح فى متناول الجميع، ومنصات أخرى تقدم الخطب والمواعظ ليس لجمهور المسلمين فقط بل لكافة المستهلكين الدينيين على مستوى العالم مثل مواقع طالبان، والمهاجرين، وغيرها من الجماعات الأصولية الدينية؟ وفيما يتعلق بالأديان الأخرى، تشير الدراسات حول الجماعات الدينية المختلفة فى الولايات المتحدة بأن حوالى ٨٢ مليون أمريكى (٦٥٪ من المستعملين الأمريكان) يستعملون الإنترنت للأغراض الدينية، ويصف ٨١٪ من المبحرين فى مواقع الدين على الويب بأن إيمانهم الدينى قوى جدا، و٦١٪ من الجمهور الأمريكى فى استطلاع جالوب مارس ٢٠٠٠ اقروا بأن الدين كان مهما جدا فى جياتهم، ومن المثير للاهتمام ملاحظة أن أعداد الناس الذين يبحثون عن المعلومات الدينية والروحية ويدخلون المواقع الدينية أكثر من أعداد الذين



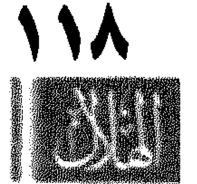
يبحثون عن مواقع المقامرة أو مواقع الصفقات والمزايدات التجارية، أو الأسواق الإليكترونية، أو البورصات، والأعمال المصرفية، والتسويق، وفى نفس الدراسة عن الحياة الدينية للأمريكان على الإنترنت قرر ٨٣٪ من الجمهور الذى شارك فى الدراسة بأنهم استعملوا مواقعهم على الإنترنت والبريد الإلكترونى فى تجمعات دينية وروحية. فى الحقيقة، مثل هذه الاستطلاعات لا تفرق بين جماعات الأصولية الدينية والمؤمنين الآخرين، لكن من الواضح عموما، أن الإنترنت فى الولايات المتحدة أصبحت مجهزة بالكثير من الخدمات الدينية وهذا قد يوضح تزايد أعداد النشطين الدينيين على النت بل هم الأكثر نشاطا بالمقارنة بالأعضاء العاملين فى تجمعات دينية غير متصلة بالإنترنت؟!

والانضباط المجتمعى فى جماعات الأصولية الدينية ربما يكون له تداعيات سلبية ، مثل ظهور الجماعات الأصولية الدينية التى تستخدم العنف فى تحقيق أهدافها، وأمامنا الآن تلك الجماعات الأصولية السنية فى العراق التى ترفع شعار الجهاد تضليلا مثل جماعات الملثمين المتأسلمين الذين يخربون وخطفون ويذبحون ويفجرون ويقطعون الرءوس باسم الدين والإسلام والقرآن والرسول الكريم؟! والعجيب أنها اتخذت من نفسها أسماء مستلة من الإسلام، كجيش محمد وكتائب الأقصى وجيش المهدى وأبو حفص والمجاهدين وغضب الله وثوار الإسلام ، وجيش أنصار السنة، وجماعة التوحيد والجهاد وما إلى ذلك.

العزلة: البعد الرابع فى التوتر

من تحليل الأبعاد الثلاثة السابقة، سؤال هام يطرح نفسه! وهو إلى أى مدى تستطيع الإنترنت فعلا أن تقلل عزلة جماعات الأصولية الدينية؟! ونذكر بدراسة دكتور برازيلى الذى أوضح فيها أن عزلة جماعات الأصولية الدينية وحدودها الثقافية التى تحيط بها هى جزء من هويتهم الجماعية كمجتمع محلى . وفى واقع الأمر الإنترنت تزيد عزلة جماعات الأصولية الدينية بدلا من تخفيضها، حيث أظهرت الدراسات أن ٦٧٪ من المبحرين الأمريكان فى مواقع الويب الدينية، يستعملون الإنترنت لجمع معلومات حول عقيدتهم هم، ولا يحاولون معرفة أو تعلم شىء حول الأديان الأخرى؟! لأنه ببساطة تلك الجماعات الدينية تعدل وتكيف وتموضع التقنيات الجديدة ثقافيا بالطرق التى تحفظ للجماعة عزلتها الدينية تعدل وتكيف وتموضع التقنيات الجديدة ثقافيا بالطرق التى تحفظ للجماعة عزلتها وتحافظ على ثوابتها، فهم قد يجبرون أعضائهم على التفاعل فقط من خلال منصات الإنترنت

الداخلية للجماعة مثل منتديات الجماعة على الإنترنت، مع تجنب أى استعمال للمنصات العلمانية، وقد يحددون ويضيقون الوصول إلى المعلومات، إلا لتلك المعلومات الملائمة فقط لثقافتهم ومن مصادرهم داخل الجماعة، طبعا كل ذلك لكى يتمكنوا من حماية جماعاتهم من الثقافات الخارجية . لكن قد يحدث تآكل وانخفاض فى عزلة الجماعات الأصولية الدينية عندما تبدأ تلك الجماعات فى أنشطة الوعظ والهداية والتبشير إلى الآخرين! أو عندما يحاول غير الأعضاء الانضمام للجماعة والتوحيد معها. وهذا، الإنترنت يمكن أن تسهل تلك التفاعلات فالجماعات الإسلامية تستعمل الإنترنت لنشر الدين الإسلامي إلى ما بعد حدوده الكلاسيكية، وهذا يجعل جماعات الأصولية الدينية الإسلامية مفتوحة أكثر إلى المعارضة والخلافات الداخلية على الرغم من عناصر هرمية السلطة والانضباط والطاعة التى تتميز بها تلك الجماعات، وفى رأى الكثير من علماء الإسلام أن الإنترنت حرضت وحركت الكثير من الخلافات بين الجماعات الإسلامية حول تفسيرات القرآن. ومن ناحية أخرى هذا التوسع والامتداد للجماعات الدينية من خلال تكنولوجيات المعلومات يزيد درجة شفافيتها أمام الجمهور العام . فمجرد وجود تلك الجماعات على الشبكة يسهل جمع المعلومات والاحصائيات عنها بخصوص سلوكياتها، وتصبح فى متناول الجمع والتحليل! وكما زعمنا فى العجالة السابقة أن الإنترنت تتيح المجال للجماعات الدينية المختلفة بعرض تراثها الدينى من كتب مقدسة، وشرائع، وفتاوى وعبادات، وطقوس، وشعائر، وشروح، وتفاسير، وتواريخ، وسير.. إلخ فى فضاء الإنترنت لتعليم وهداية أتباعها. ونشر دعوتها بين الآخرين. لكن فى نفس الوقت تعطى الإنترنت الفرصة للآخرين خاصة العلمانيين بأن يكون هذا التراث الدينى فى متناول يدهم، يأخذونه بالنقد والتشريح، لهدم قناعات تلك الجماعات بأنها تملك الحقيقة المطلقة. لذلك تتولد على تلك الجماعات الدينية المتصلة بالإنترنت ضغوط علمانية أكثر، إضافة إلى ذلك، أن أعضاء الجماعة قد يستعملون الإنترنت بشكل مجهول فى المنصات التى لم تدعمها جماعاتهم ويسمح لهم بالوصول إلى المحتوى البديل الذى قد يكون غير مقبول فى سياقهم الدينى. لذلك، بينما تبنى الإنترنت ثقافيا فى السياق الجمعى، فهى أيضا تخفض العزلة داخل الجماعة نفسها وبين الجماعات المماثلة. هذا ويبرز تحليل عوامل هرمية السلطة والنظام الأبوى والانضباط والعزلة التوترات العملية الرئيسية والمحتملة بين جماعات الأصولية



الدينية والإنترنت.

الدين والتكنولوجيا والجماعة الدينية

وفى نهاية المحاولة لاستكشاف تأثيرات الإنترنت على جماعات الأصولية الدينية، والتى استمرت على مدى عددين فى مجلة «الهلال» واعتمدنا فيها على عدة دراسات كان أهمها الدراسة المثيرة للباحثين Gad Barzilai, Karine Barzilai والصادرة عن جامعة واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، تحت عنوان «الإنترنت والأصولية الدينية التى نشرت منذ أسابيع فى المجلة العلمية «مجتمع المعلومات» فى مجلدها رقم ٢١، يناير ٢٠٠٥. واستكشفنا فيها المفارقات بين الأصولية الدينية والإنترنت من خلال أربعة أبعاد: هرمية وتدرج السلطة، والنظام الأبوى والانضباط والعزلة. أول ما يلفت الانتباه هو الضرورة والأهمية التى تراها جماعات الأصولية الدينية لحفظ ثقافاتهم الفريدة، وأن الدين حتى فى التأويلات والممارسات الأصولية، لا يبدل تكنولوجيا المعلومات العداوة غير القابلة للنقض. وفى معظم الأديان، التقنية نفسها محسوسة ومدركة كأداة ودية فعلا، أو على الأقل كضرورة، لكى تنشر النصوص الدينية والدراسات الدينية داخليا وخارجيا. إضافة إلى ذلك، الأديان تستعمل التقنية لأغراض التعبئة السياسية ولأسباب اقتصادية، ولتفاعلات أكثر مع العالم. وإذا كان فضاء الإنترنت دينامى فى طبيعته، وسريع وسهل الوصول إليه ، ويزود مستعمليه بالقوة والثروة فى إمكانيات الاتصال ، فإن هذه الخصائص تجعل للإنترنت قيمة خاصة بين المؤمنين الدينيين . وخلال استعراض نتائج الدراسات، عرضنا مفهوم التقنية المثقفة Cultured Technology كطريق لفهم كيف يكيف الأصوليون الدينيون الإنترنت إلى ثقافة جماعتهم الدينية، وكيف أثرت التقنية على الحدود الداخلية والخارجية للجماعة. وكشفت الدراسات على أن جماعة هاريدى الأرثونوكسية اليهودية المتطرفة تعرض الإنترنت لعمليات مركبة جدا حتى تتكيف مع البنية التقليدية للجماعة، وأنها عملت على بناء تقنية معلومات ساعدت الأصوليين الدينيين ليس فقط للبقاء على قيد الحياة، لكن أيضا لاستعمالها لحاجاتهم الدينية. والنتيجة .. ان الجماعات الدينية أصبحت متعددة الجوانب وإلى حد ما تجمع وجوها متعددة، وأكثر كفاءة ومخولة أكثر لتوفير مجال الإنترنت المجانى للجماعات غير المتصلة. وبذلك تكون الإنترنت كيفت ثقافيا لتلائم ثقافة الجماعات الدينية ، ومن ناحية أخرى لوحظ أن اختراق تقنيات المعلومات لتلك الجماعات لم يغير بشدة المؤسسات الأساسية فيها. ■



محمد علي

وبنـــاء الـــدولـــة الحـديثـــة

بقلم
طــارق البشــرى



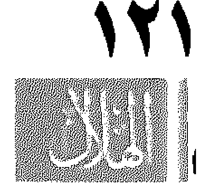
(١)

محمد على ، هذا الذى نتكلم عنه ونحتفى بمناسبة مرور مائتى سنة على توليه حكم مصر ، كان حاكما ومصلحا . وهو جدير بهذا الاحتفاء . وقد أمتدت قامته فصارت من أعلى القامات التى عرفتها بلادنا العربية والإسلامية على مدى القرن التاسع عشر . والآن فى هذا الحاضر الممتد بما صرنا إليه، ونحن فى وهدة من وهاد التاريخ ، علينا أن نذكر القمم الشوامخ ، لأن ذلك أول ما نتغذى به للنهوض، ونحن الآن أمام مناسبة صالحة لحديث عن الماضى يصلح حافزا للمستقبل .

وإذا كنت فى حديث سابق ، تكلمت عن حكومة محمد على ، وكيف استخدم بذكاء شديد المكنات المتاحة لإدارة دولاب العمل الحكومى ، مصداقا للمثل الشعبى الساخر «الشاطرة تغزل برجل حمار» ! ، فإن الرجل لم يقف عند هذه الحدود ، بل إنه عمل على إرساء قوائم النظم الحديثة للدولة المصرية ومؤسساتها وهياكلها التنظيمية . ونحن لا نبالغ أبدا إذا قلنا أن أجهزة الدولة المصرية التى تقوم أمامنا الآن ، تعود فى نشأتها إلى أيام محمد على ، ولا نبالغ أيضاً إذا قلنا أن الكثير الطيب الذى أنجزه هذا الوالى فى مدة حكمه . بعضه تقوض بفعل عدوان الخارج على مشروعه السياسى ، وبعضه الباقى تآكل بعد هزيمته وتولى الضعفاء الحكم من بعده وتسرب النفوذ الغربى للبلاد ، ولكن الباقى الذى ظل قائما ، كان يتعلق بأمرين أساسيين ، بدء النظم الحديثة فى الرى والزراعة وبدء احلال الرى الدائم الذى يسمح بزراعة الأرض أكثر من محصول سنوى واحد ، وكل ذلك بدء ببناء «القناطر الخيرية» ، والأمر الثانى هو بدء انشاء جهاز إدارة الدولة المصرية على أسس حديثة وتنظيمات رشيدة.

ويتعين ملاحظة أنه رغم كل ما نلحظه ونلقاه ونعانى منه من نشاط أجهزة الإدارة فى الدولة المصرية ، فإنها تظل هى أبقى ما شيده المصريون من مؤسسات استطاعت أن تستمر وأن تنمو فى ظروف تاريخية شديدة الصعوبة ، وهى أنجع ما راكم من خبرات المصريين وتجاربهم فى الحكم وفى الإدارة وفى القضاء وفى الإشراف على الإنتاج . وهى من خرج منها الغالبية الغالبة من زعماء مصر وقادتها ، عسكريين ومدنيين ، على امتداد القرنين الأخيرين . وهى أهم ما جمع من كفاءات التخصصات العلمية والانتاجية والحكومية والعسكرية والأمنية ، وكل ذلك كان رامى بذرتها وراعى براعمها الأولى هو محمد على . ولن نجد فى مصر مؤسسات أهلية فى أى من وجوه النشاط السياسى أو الاجتماعى أو الثقافى أو الاقتصادى ، لا نجد ما بقى من ذلك على مدى القرنين الأخيرين ، إلا الأزهر والدولة المصرية بمؤسساتها وأجهزتها العسكرية والمدنية ، وما تبع هذه المؤسسات من مدارس عليا وغيرها .

وقد يستحيل بطبيعة الحال على من يريد أن ينشئ جيشاً بأسلحة حديثة من مدافع وبنادق وذخيرة ، ومصانع للذخيرة والحاصلات الزراعية وللغزل والنسيج ، وينشئ مدارس للطب والهندسة الحديثة وغيرها ، ويبنى القناطر الخيرية لتتحكم فى كل مياه النيل التى تروى أراضى الدلتا كان يستحيل أن يقوم بذلك إلا بان يبنى إدارة وأجهزة للدولة تكون على نظم الادارة الحديثة المتخصصة والقائمة على



تقسيم العمل وتوزيع الاختصاصات الفنية ، وعلى نوع ما من أنواع العمل الجماعي الذى تتبادل به الخبرات وتتجمع.

***

(٢)

ومحمد على عندما أنشأ جهاز ادارته الحديث ، أنشأه من مادة وطنية خالصة ، كان زعيما وطنيا ومستقلا أراد أن يبنى أجهزة دولة تتفق فى صبغتها السياسية مع هذا الطابع الوطنى والمستقل - وأنا لا أقصد بالوطنية والاستقلال ذات المعنى السائد الآن ، فى النطاق الإقليمى لدولة مصر التى تتحدد بسواحل البحرين الأبيض شمالا والأحمر شرقا وبالخط الرأسى من رفح إلى طابا فى الشمال الشرقى وخط العرض ٢٢ جنوبا مع السودان وخط الطول الغربى من السلوم إلى جغبوب ثم العوينات . إنما أقصد المعنى الوطنى والاستقلالى الذى كان سائدا فى بدايات القرن التاسع عشر والذى يجعل ولاية مصر مشمولة بدولة الخلافة الاسلامية وعاصمتها استامبول فى ذلك الوقت ، مصر تتحرك فى إطار الحكم الذاتى فى هذا النطاق للجماعة السياسية الأعم ، وهى جماعة تشمل من اعتمد عليهم الوالى من عثمانيين ومماليك بمصر ، وكذلك من تعاونوا معه من أرمن الدولة العثمانية وغيرهم، فضلا عن العنصر المصرى التقليدى من سلالات الفلاحين وقاطنى الأحياء الشعبية بالمدن.

وأنا أقصد بالوطنية والاستقلال هنا ، هو هذه المناعة الداخلية السياسية والثقافية فى مواجهة الأطماع والضغوط وخطط السيطرة والنفوذ التى كانت تمارسها الدول الغربية الكبرى وقتها تجاه مصر وبلاد الشام والأناضول والرافدين وجزيرة العرب والشمال الافريقى وغير ذلك . وكان المشكل أن إرادة البناء الفنى والعلمى والتقنى والادارى ، يحتاج إلى خبرات الغرب ودوله ومجتمعاته المتقدمة، وهى ذاتها الدول والمجتمعات الطامعة فى البلاد التى تنشأ فيها تجربة الإصلاح فى مصر محمد على واستامبول محمود الثانى ، والمشكلة هى كيف يمكنك أن تأخذ من الطامعين فيك وتحتفظ بمناعتك ازاءهم وأن تستفيد من علومهم وصنائعهم لتقوى بنفسك على أطماعهم فيك.

واستطاع محمد على أن يتعامل مع هذه المشاكل ، مستفيدا بوضعه فى مصر بوصفه صاحب ولاية بعيدة عن مركز الصراع الدائر فى عاصمة الدولة العثمانية ، ومستفيدا فى الوقت ذاته من أن مصر يمكن أن تكون مركزا للقوة يناوئ السلطة المركزية فى العاصمة .

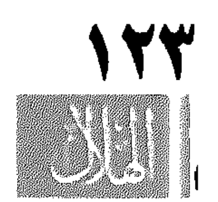
وإذا كان غلبة الموقف الدولى واجتماع الغرب فى النهاية عليه وكسر مشروعه السياسى ، وذلك بعد سنه ١٨٤٠ ، إلا أنه كان أرسى القواعد الأساسية لنشوء الدولة فى مصر بأجهزة إدارتها الحديثة وفقا لمعايير القرن التاسع عشر ، وأرسى الأسس الإدارية التنظيمية والأسس العلمية التقنية التى تقوم بها هذه الدولة . وإذا كانت الدولة بعد انكسار مشروع محمد على قد آلت إلى المصرية القطرية دون الامتداد الذى كان محتملا لها فى النطاق العثمانى الاسلامى أو العروبى ، فإن ذلك بذاته وعلى مدى عقود القرن التاسع عشر التالية لمحمد على ، قد أجرى الاقتراح بين النخب العثمانية والمملوكية فى أجهزة الدولة وبين الفنيين المصريين الصاعدين إلى نخب الحكم من قواعد وأجهزة الدولة ذاتها ، جرى ذلك بتمصير الأولى وصعود الثانية وبالإمتزاج الاجتماعى والأسرى من بعد . وجرى على مدى زمنى استبقى الانجاز المؤسسى والادارى الذى كان بدأه محمد على واستمر من بعده.

وأن أهم ذوى الخبرات الاجنبية من الغربيين الذين استعان بهم محمد على ، هو الكولونيل «سيف» (العميد سيف) وكان فرنسيا فى جيش نابليون وخاض معه بعض حروبه ، وجاء مصر فى ١٨١٩ ، وهو من عهد إليه الوالى تدريب جنده على الأنظمة الجديدة وخاصة بعض الحروب المصرية تحت قيادة ابراهيم باشا ابن محمد على . لقد توطن الرجل من بعد وأسمى نفسه «سليمان أغا» وعرف باسم سليمان باشا الفرنساوى ، واعتنق الديانة الاسلامية ، وذلك فى سنة ١٨٢٤ وقد ورد فى تقويم النيل لأمين سامى فى وقائع هذه السنة (سنه ١٢٣٩ هـ) «صدر أمر من محمد على باشا إلى ابراهيم باشا ابنه والى جده فى ٢ ربيع الأول يشير بأنه علم من إفادته ميل سليمان أغا معلم العساكر النظامية إلى اعتناق الديانة الاسلامية..» .. «وتزوجت ابنته من محمد شريف الذى صار من بعد رئيسا لوزراء مصر ومن القيادات الوطنية للدولة المصرية فى فترة الثورة العرابية.

***

(٣)

عندما أريد وضع تماثيل فى ميادين القاهرة والاسكندرية لبناة مصر الحديثة ، ظهر طبعا اسم محمد على ، ثم اسم ابنه ابراهيم قائد جيوشه فى حروبه المنتصرة ، كما ظهر اسم سليمان باشا الفرنساوى بوصفه أهم بناة الجيش الحديث وقتها ، وظهر أيضا اسم محمد لاظ أوغلى ، وهو عثمانى كان من أهم من نيط بهم بناء أجهزة الادارة المدنية الحديثة فى الدولة ، فى ذلك العهد ذاته ولازال تمثاله قائما فى الميدان الذى كانت تحيط به وتنشأ بالقرب منه أهم الوزارات



المصرية التقليدية ، مثل المالية والداخلية والمعارف والعدل (الحقانية) ، وكان مما يتفرع منه شارع اسمه القديم «شارع الدواوين»..

وكان محمد لاظ أوغلى دخل فى خدمة محمد على فى سنة ١٨١٠ (١٢٢٥ هـ) ، ليؤسس الدواوين والمصالح الحكومية وتوفى فى سنة ١٨٢٧ ، وبقى من بعده العمل فى تشكيل هذه المصالح ، ونحن هنا أيضا وبالنسبة لانشاء أجهزة الدولة الحديثة ، ليس من الصواب أن نتصور إن كان أعد مشروع متكامل لترتيب أوضاع الادارة المصرية لتنشأ به أجهزتها الجديدة بالنظم الجديدة ، إنما كان الأمر يجرى بالتراكم البطئ ، وبما تستدعيه الحال من ضرورات فى أى من مجالات العمل ، وبما يجد من احتياجات ، فيعين من يقوم بهذا الأمر ثم تتبلور بموجب الاحتياجات المستجدة عناصر لتقسيم العمل ، ثم تجرى الاستفادة من التجربة فى غير الحال الذى سبق ، ثم يجرى التنسيق بين ما ينشأ ثم تتعدل الأوضاع ويعاد الترتيب من وهكذا حتى يتبلور التشكل فى علاقات أجزائه وتكويناته ، وكل ذلك يقوده طبعا حس سياسى وقدرات ادارية ووجود من تتفتق على أيديهم الحلول استفادة من تجارب الآخرين.

ولذلك ، فإذا كان من المقرر أن بدأ تشكل الادارة الحكومية بنظمها المستجدة ، بدأت أولى لبناته توضع من نحو سنة ١٨١٥ بعد عشر سنوات من تولية محمد على ،. فإن هذا التشكل اتخذ سمته الواضح فى نحو سنة ١٨٣٧ . وكان تقدمه يسير جنبا إلى جنب مع التقدم فى الزراعة والرى والمدارس والبعثات ونمو الجيش وتقدم الانتصارات فى الحروب وغير ذلك ، والفوائد متداخلة والتجارب يغذى بعضها بعضا وهكذا ونحن عندما نتابع فى حوليات هذه الفترة ، ما كان يصدر من قرارات ومكاتبات ، يظهر لنا الأمر فى صور قرارات ومكاتبات جزئية وفردية ، من تعيين «ناظر» لوجة نشاط هنا ووجه نشاط هناك ، سواء فى أقسام «الجهادية» أو مدارسها ، أو للنظارة على السفن أو «مأمور» لاقليم من الأقاليم ، وذلك دون أن تظهر الصورة العامة لخريطة التنظيم الإدارى لهيئات الدولة ، وقرب منتصف الثلاثينيات من القرن ذاته ، بدأت تستقيم الاسماء وتستقر الوظائف المسماه وتتحدد ، بما يمكن من ادراك الهياكل العامة لها فى المنظمات الادارية ، وكان ذلك بتشكيل الدواوين وقانون سياستنامه الصادرين شهرى يونيه ويوليه سنة ١٨٣٧ (ربيع أول سنة ١٢٥٣ هـ) ، حسبما سيرد البيان ، وكانت هذه الدواوين هى مبدأ النظارات ثم الوزارات

على أن ثمة أمرا آخر يتعلق بهذه الترتيبات ، غير تشكيل الدواوين ، وهو تشكيل المجالس، وهى مجالس استشارية طبعا لا الزام على الوالى أن ينصاع لقراراتها ، لأنه هو من أنشأها ، كما أن أى نظام حكم أو نظام ادارة ، سواء فى السياسة أو فى غيرها ، إنما يعتاد أولو الأمر فيه أن يجمعوا ذوى الرأى المؤثر فى أى من الشئون لتداول الرأى وتقليب وجوه النظر ، وكان ذلك يجرى فى كل عصر ومصر ، ونستطلع عنه الأخبار المروية فى مجالس الحكام والولاة والسلاطين والخلفاء ، وذلك بغير أن نعرف ويغير أن ينقل لنا الرواه والمؤرخون نظاما مرسوما لهذه المجالس ، إلا أن يكون الاجتماع عفوا أو لمناسبة طارئة أو باعتياد إطرد . إنما الجديد فى مجالس محمد على أنها تشكلت وفقا لنظم الادارة الحديثة ، بقرارات مكتوبة وبأشخاص معينين باسمائهم أو موصوفين بوظائفهم وباجراءات مرسومة.

وفى ١٨٢٥ (١٢٤٠ هـ) أنشئ مجلسان ، المجلس العالى للشئون المدنية ، ومجلس الجهادية للشئون العسكرية . وفى سبتمبر ١٨٢٩ (ربيع الأول ١٢٤٥ هـ) **«اجتمع لأول مرة مجلس الشورى الذى تطلقت ارادة أفندينا محمد على** باشا بتشكيله من مأمورى الأقاليم والعلماء وكبار مشايخ البلاد برياسة أفندينا ابراهيم للنظر فى إدارة شئون البلاد ، وكان عدد اعضائه نحو مائة وخمسين عضوا من كل أقاليم مصر وأجهزتها الادارية المركزية ومن شيوخ المذاهب الاسلامية. وفى ١٨٣٧ .حل المجلس العالى وشكل بدلا منه ما سمى بالمجلس الكبير أو مجلس النظار الكبير ، وهكذا .

***

(٤)

إن قانون سياستنامه الصادر فى ١٨٣٧ يعتبر نوعا من التقنين الادارى لما سبق أن تبلور عن نظم ادارة الدولة خلال العقود السابقة من السنين، وقد أجرى تقسيما لأنشطة الادارة العامة التى تقوم بها الدولة ، وجعلها سبعة دواوين . ويظهر من مقدمه هذا القانون أن الباعث على إصداره كان يتعلق بتحديد مسئوليات العاملين بالجهاز الحكومى ليمكن مساءلتهم عما أنجزوا وما قصروا فيه وتتحدد به واجباتهم وحقوقهم «يكون سؤال أمور مصلحته المستخدم فيها راجعا عليه وطيبها ورديئها ملزوما منه..» وأن الأمر يقتضى «تركيب قانون عمومى يجمع من اللوائح والسياستنامه..»

وأشارت مقدمة القانون إلى تجارب الممالك الاوروبية **التى يستفيد من نظمها ، ثم تحفظت قائلة «لما كان عدم توافق** قانون مملكة إلى آخر شيئاً معلوما ، صار إجراء أى قانون من قوانين الممالك المذكورة بعينه فى هذه الأقاليم (أى



مصر) شيئاً معدوماً ...» ثم شرح ما يمكن الاستفادة منه من هذه النظم ، ومن ذلك مثلا أمور الخزانة العامة وتوحيد الجهة التى تتلقى ايرادات الحكومة ، وأن تتبع الأصول الجارية فى «جمع الممالك» بالنسبة لتقديم الحسابات السنوية والتفتيش على الحسابات وضبطها ، ثم وبعد ذلك تحديد دواوين الدولة السبعة.

وأولها «الديوان الخديو» وهو يختص بالأمور الخاصة بمدينة القاهرة وبيت المال والأوقاف والمستشفيات ودار سك العملة والتوريدات والمخازن وخزينة الوالى . وثانى الدواوين هو ديوان «الايرادات» وهو ينقسم قسمان أحدهما لايرادات الأقاليم والحجاز والسودان وجزيرة كريت ، والثانى لإيرادات الاسكندرية والمصالح المختلفة والجمارك والأقاليم وتتفرع منه مفتشون بالأقاليم «والورش» . والديوان الثالث هو «ديوان الجهادية» وهو يتعلق بتنظيم القوات البرية والذخيرة والامدادات وغيرها ، والديوان الرابع هو «ديوان البحر» ويتعلق بالقوات البحرية والسفن والترسانات وتجهيزاتها وامداداتها وخزينتها مع الخدمات الطبية ، ثم يأتى ديوان المدارس ، سواء مدارس المبتديان أو التجهيزية (الثانوية) أو الخصوصية ويضم المكتبات والمصانع والقناطر الخيرية ومطبعة بولاق وجريدة الوقائع المصرية وغيرها . ثم ديوان الأمور الخارجية والتجارة المصرية ، ثم الديوان السابع والأخير «ديوان الفاوريقات» ويضم المصانع.

وأضيف إلى هذا التوزيع الادارى ، تقسيم الأقاليم المصرية ، قسمت إلى سبعة أقاليم ، منها أربعة فى الوجه البحرى وثلاثة فى الوجه القبلى ، فضلا عن القاهرة (مصر المحروسة) . ثم غلب تقسيم المديريات الذى نعرفه الآن بالمحافظات ، وذلك فى أربع عشرة مديرية ، بالوجه البحرى ، البحيرة والغربية والمنوفية والمنصورية (الدقهلية) والشرقية والقليوبية ، وجنوب القاهرة الجيزة والفيوم وأطفيح وبنى سويف والمنيا وأسيوط وجرجا (سوهاج) وأسنا (أسوان) . وكانت المسافة بين عاصمة كل مديرية والقاهرة أو بين أى من هذه العواصم وبين السابقة لها فى اتجاه القاهرة ، كانت هذه المسافة تتراوح بين مائة كيلو متر ومائة وعشرين كيلو مترا ، حسب موقع المدينة التى تكون موجودة ومؤهلة بوصفها مركزا عمرانيا لأن تقوم بهذا الدور.

ولا أريد أن استطرد فى بيان التفاصيل ، لأنها لا تهم كثيرا فى بيان الملامح العامة ولأن القارىء يمكن أن يستخلصها بنفسه ، فالدواوين تنقسم إلى «مصالح» و «إدارات» و «أقلام» و الأقاليم تنقسم إلى وحدات جغرافية

أصغر من المديرية وهكذا . وحدثت حركة مشابهة فى تكوين ما سمى بمجالس الأحكام التى كانت لها وظائف قضائية وتقوم بجوار المحاكم الشرعية ذات الولاية العامة .

***

(٥)

التقسيم هنا تقسيم حديث ، يوحى طبعا بالإطلاع على نظم الادارة الحديثة ، بمعايير القرن التاسع عشر ، فى الدول والمجتمعات الأوروبية ، وهذا التقسيم الحديث من شأنه أن يكون أكثر استجابة لما أوجبته أوضاع النشاط الاجتماعى والاقتصادى الحديث ، بمراعاة تعدد الاختصاصات وتنوع التخصصات الفنية والمهنية . وهو فيما يتعلق بالإدارة العسكرية يعكس ما طرأ على أوضاع هذه الادارة من تنوعات وتخصصات فنية . ومهنية ، إذ لم يعد الجيش جموع وحدات متماثلة من الرجالة (المشاة) والفرسان ، يمسكون سيوفا ورماحا وسهاماً ، إنما صار فرقا متنوعة السلاح من حيث طبيعته ومداه وأنواع استخدامه ، وهى كلها تشكل مجموعا متماسكا وليس مجرد تكرارات عددية لذات السلاح ، وصار يدخل فى ذلك جملة أسلحة نارية وبنادق ومتفجرات ، ومدافع ، فضلا عن الاسلحة التقليدية ، والخيول وغيرها ، وصار كل ذلك يحتاج إلى تنوعات هائلة فى المنتجات الاجتماعية ، من زراعية كالتموين للجيش ، وزراعية صناعية كالملابس والأنسجة ، وبيطرية كالخيل وصناعية كالمدافع والبنادق والبارود ، وكل ذلك يحتاج إلى دائرة واسعة جدا من التخصصات العلمية والفنية ، كما يحتاج إلى تفرغ واحتراف .. والمنتجات المدنية من ناحية أخرى تحتاج لذات القدر من التفرغ والتخصص العلمى والفنى لحفر مجارى الرى وانشاء القناطر والكبارى والطرق ، وكل ذلك ايضا يحتاج إلى أساليب ادارة وحسابات مركبة وتنسيق.

ومن جهة ثانية ، فعلينا أن نوضح أنه يبين من استقراء الوظائف المنوطة بالدواوين السبعة المذكورة والتى رتبها نظام «سياستنامة» أنها فى غالب أنشطتها تمارس ما صرنا نسميه الآن بالوظائف السيادية للدولة ، فهى تتعلق بشئون ديوان الوالى وهو مركز اتخاذ القرارات والعمل السياسى ، كما تتعلق بالقوات المسلحة البرية والبحرية (لم يكن هناك قوات جوية وقتها ولا دفاع جوى) ، وبالضرائب وايرادات الدولة ، وبادارة الأقاليم والشئون الخارجية ، فضلا عن السودان والحجاز وكانوا تحت إمرة الوالى ، أما الباقى وهو المدارس و «الفاوريقات» ، فإن التعليم الحديث المعنى به هذا الديوان والمصانع المعنى بهما الديوان الآخر ، فقد كان كلاهما فى غالب نشاطهما يخدمان القوات المسلحة ، بل لم تكن انشئت المدارس والمصانع إلا للقيام بهذه الخدمة المعاونة للجيش والاسطول إعدادا للأفراد بالعلوم الحديثة اللازمة للسلاح والذخيرة وملبس الجند ورعايتهم الصحية ورعاية الخيول

البيطرية ، بوصف ذلك كله من عناصر التكوين الحربي . ومن ثم فهي من الخدمة المعاونة للهيئات السيادية . ويبقى ديوان الأمور الافرنجية وهو يتعلق بالعلاقات الخارجية بالقدر الذي يسمح به وضع مصر بوصفها من ولايات الدولة العثمانية ، وبقدر ما يتاح لواليها من اتصالات بموجب الأمر الواقع وفي اطار الشرعية المرسومة.

وعندما يؤسس محمد على هذه الدواوين ، نلحظ أنها أسس لتكوينات سيادية ، مما يعتبر حكرا على الدولة في كل زمان ومكان ، أي أجهزة حفظ الأمن الخارجي والأمن الداخلي وجباية المال من المواطنين والاتصال بالدول الأخرى ، فإن ذلك يفصح عن أن أسس قيام الدولة في مصر قد تحددت وتأسست من هذا الوقت البعيد . بصرف النظر عن هدف محمد على منها في اطار الدولة العثمانية ، إنه لم ينشئ مؤسسات انتاج فحسب ولا مؤسسات خدمات فحسب ، إنه أنشأ مؤسسات «سيادة» ويدور في فلكها كل شئ آخر . وهذا هو أهم ما بقي من تكوينات محمد على إلى اليوم...

***

(٦)

نحن نظلم معاصري محمد على ومشاركيه في السلطة ، عندما ننسب إليه كل شئ . لا شك أن أعوان الوالي كانوا مساهمين ، كل بدرجة أو بأخرى ، في كل ما صنع ، ولا يجوز أن ترد الأعمال الكبيرة إلى فرد مهما كانت قدرته الذاتية ، ومهما كانت درجة قيادته لمن معه ، وأن العقل المفكر هنا ليس مجرد قدرة ذاتية لفرد ولكنه عقل جماعي ، وهو يتكون بالاتصال المستمر وطول التمرس والمداولة ، وأن الزعيم أو القائد مهما بلغ علمه وتجاربه وذكاؤه وإقدامه ، فهو لا يعدو أن يكون «علامة» على فريق عمل جماعي غير محدود بفرد ولا بأفراد قليلين. ويتعين أن نلحظ أيضا أن ما صنعه محمد على في مصر ، كان يحاول السلطان محمود الثاني أن يصنع مثله أو شيئاً منه في استامبول ، وأن نجاح فريق محمد على أكثر من نجاح فريق محمود كان يرجع لأسباب سياسية وللظروف والأوضاع المختلفة بين كل من القاهرة واستامبول.

ومن جهة أخرى ، فإن التقسيم الاداري الحديث الذي قام على صورة الدواوين والمصالح والتقسيمات الفرعية، فضلا عن كونه يتضمن تقسيما للعمل يتيح الرشد في العمل والفاعلية الأوفر ، فإنه من ناحية السياسات ، كان من شأنه ألا تتجمع الصورة الكلية للواقع الاجتماعي أو السياسي أو لأي من أحداثه ، ألا تتجمع الصورة الكلية إلا في القمة المركزية لهذا التكوين الهرمي ، حيث تتجمع الخيوط كلها والمعلومات كلها وخبرات الخبراء كلهم والمتخصصين جميعا على تعددهم وتباينهم ، ولذلك لا

تكتمل الصورة إلا فى القمة المركزية ، وخبرة الحلول للمشاكل والاستفادة المثلى من الممكنات الواقعية ، لا تتجمع إلا لدى هذه القمة المركزية ، وكذلك إمكانات العمل وتكامله وتناسقه لا تظهر إلا لهذه القمة ، وهذه القمة وحدها هى من يستطيع اتخاذ القرار ويمكن أن يبقى دلالاته والمقصود منه بعيدا عن التداول والمعرفة العامة المشتركة ، بأن يحيله عن طريق أجهزته المتعددة إلى مجموعات من القرارات الجزئية النوعية، يوزع كل منها على جهة اختصاص وتخصص به ، فلا تعرف يمينه ما أخذت يسراه ، ولا يستبد جهاز واحد ولا ديوان واحد برسم سياسة عامة ولا بتنفيذها كاملة.

وهذا من شأنه أن يبلور نوعا من السلطة المركزية يصعب تحديها من داخل أجهزة الادارة ذاتها ، كما يصعب الوقوف مع هذه السلطة موقف ندية ما ، لأن من يطمح '' أن يتخذ موقف التساوى مع القمة المركزية ، لابد أن يدرك فورا أنه يفتقد من قدرات المعارف ما تجمع لدى الأعلى ، وأنه يفتقد من قدرات العمل ما يملكه الأعلى، وكان هذا أحد أسباب استقرار الحكم لمحمد على ، لأن النظم الحديثة بما تنطوى عليه من توزيع للعمل وتقسيم له إنما تكسب السلطة المركزية قوة يصعب جدا تحديها من داخل أطر النظام إلا فى فترات تفكك واضمحلال..

وقد كنت مثلا فى عملى الوظيفى ، ألحظ ، أن من كان يجلس بيننا ندا بين أنداد ، ثم يأتى عليه الدور ليتولى رئاسة بيننا ، ما يلبث بعد وقت ليس طويلا ، أن يصير لا أكثر إمكانية فقط، ولكنى أكاد أقول أنه يصير أكثر ذكاءً . وقد فهمت السبب ، ذلك أنه فى موقعه الجديد تنكشف له الناس أكثر مما كانت تفعل وتعرض عليه احتياجاتها وطلباتها وتعرض عليه قدراتها ايضا واستعدادها لمده بالخدمات الفنية وغيرها ، وما كان من المجاهيل فى أوضاع الواقع قد صار لديه من المعارف المعروضة ، وما كانت تحتاج معرفته إلى ذكاء الاستنتاج والاستخلاص قد صار معارف يعرضها الناس عليه بأنفسهم فلا تحتاج لفضل تدبر وتفكير وأعمال ذكاء ،. وفضلا عن ذلك تزداد القدرة ويزداد المتطوعة للعمل التنفيذى .

***

(٧)

وفى النهاية اختم بعبارة أحمد فتحى زغلول يصف بها حكم محمد على فى الجانب التنظيمى له ، يقول «كانت أيام المغفور له محمد على باشا كلها نظامات وتأسيسات نافعة للبلاد. حتى أنه لم يترك شيئاً إلا وجعل له قاعدة يجرى عليها ، حتى لائحة العمَّارة وبيان مواقفهم والمخالفات التى تقع منهم وكيفية معاملتهم «(كتاب المحاماه ، طبعة ١٩٠٠ ، ص ٢٤٦). ■

معبد دندرة

خزانة أسرار الخلق في الديانة المصرية القديمة

بقلم : أمانى عبد الحميد
عدسة : شرين شوقى

معبد دندرة .. أجمل المعابد التي بناها المصرى القديم ، موطن عبادة إلهة الحب والجمال «حتحور» ، رمز لإكتمال الكون .. تحيط به الأسرار وتملأ فضاءه الأساطير .. كأنه رحم كبير يحتضن الأرض والسماء حتى الريح الحاملة نداوة نهر النيل .

جـدرانه تحكى أسطورة بداية الخلق (المولد الإلهى) وإنبعاث الضياء . أرضه تمثل الحياة على الكرة الأرضية ، أعمدته تتزين بكل نباتات الأرض أما سقفه فهو السماء الرحبة بما تزخر به من نجوم وكواكب وأبراج . وعلى جدرانه نرى الصورة الوحيدة للملكة كليوباترا وابنها قيصرون ، ومن أبياره المقدسة لاتزال نساء «دندرة» يغسلن أيديهن وأرجلهن تيمنا بها وبجمالها أو حتى أملا فى الإنجاب والخصوبة .. لذا بنى المصرى المعبد على أرض طاهرة لايطأها سوى الكهنة القائمين على خدمة الإلهة .



يقع المعبد على بعد عشرة كيلومترات من «قنا» ويعتبر من أجمل المعابد فى صعيد مصر ، تحمل جدرانه فكرة تقديس الجمال والحب ورحابة الفضاء الكونى ، لذا يشعر الزائر بشعور راق بالإنسانية الشديدة ورهافة الإحساس .

تعاقبت عليه أيادى البناء بداية من عصر الأسرة الحادية عشرة ثم عصر البطالمة واستمر بناؤه خلال العصر الرومانى بإلحاق بيت الولادة .

حتى فى العصر القبطى تم انشاء كنيسة صغيرة داخله . ولذلك لم يشهد أى من بنائيه نهاية عمله . يشتهر المعبد بأنه موطن عبادة الإلهة حتحور أقدم الإلهات الفرعونية ، وإيزيس الأكثر شهرة .

الجزء المخصص لحتحور عبارة عن عين للتطهر ومعبد وبحيرة مقدسة ومقصورة خاصة بالمركب الإلهي وبئر ، وهناك معبدان آخران مخصصان لميلاد ابن حتحور «إيحى» .

أما الجزء المخصص لإيزيس فعبارة عن باب أثرى ومعبد وبئر .

كما تذكر عالمة الآثار الفرنسية سيلفى كوفيل التي ظلت تدرس المعبد على مدى أكثر من عشرين عاما .

ويعد السور الحجرى الضخم - والذى يبلغ طوله ٢٨٠ مترا - من أجمل الأسوار فى مصر كلها .

بل لاتجد مثيلا له من حيث الحفاظ على شموخه وحالته البنائية على مدى أكثر من ألفى عام .

علاوة على جمال اللوحات الست التى تزين

• جدرانه ،أعمدته ،أسقفه تجسد تفاصيل فضاء الكون .

• موطن حتحور.. إلهة الحب والجمال سيدة نساء العالم القديم .

الواجهة الأمامية حيث يتعرف من خلالها الزائر على آلهة دندرة .

وفيها نرى الملك يتوجه نحو الآلهة ، حيث تظهر «حتحور» مرتدية فوق رأسها التاج الأكثر شيوعاً وشهرة «قرني البقرة وبينهما قرص الشمس» وبجوارها زوجها «حورس» إله «إدفو» ويقدم الملك الإلهة الصغيرة «ماعت» رمز العدالة والنظام وتوازن العالم .

وبجوار «حتحور» يكون ابنها المولود فى أحد المعابد الصغيرة (الماميزى) ويحمل فى يده آلة موسيقية (الصلاصل) ويحمل اسم «إيحى» وفى أسفل الجدران نجد الإلهة فى وضع وقوف ويكتب إسم كل إله بالقرب منه .

أما الإلهة «إيزيس» - التى تحتل المرتبة الثانية - فيقع معبدها فى الخلف والذى شهد ميلاد إيزيس فى صورة فتاة صغيرة ببشرة وردية وشعر أسود

ويرتفع سقف أعمدة المعبد الكبير «لحتحور» على ٢٤ عمودا يبلغ ارتفاع كل واحد منها ١٨ مترا . يزين قمة كل عمود ٤ وجوه ملونة لحتحور . وهى تنظر إلى الجهات الأربع بشمال والشرق والجنوب والغرب .

وإن كان جمال الأعمدة لايضاهى جمال السقف الملون فى معبد دندرة ، فهو يحوى زهورا بألوان الأزرق والأحمر والأصفر ونرى فى جهة الشرق الآلهة التى تحمى ساعات النهار وفى الغرب آلهة ساعات الليل وتظهر سماء النهار شرقا جهة شروق الشمس بينما نجد سماء الليل فى الغرب حيث غروب الشمس .

كذلك تجد رسوما لمراكب رحلة الشمس ١٢ مركبا للتعبير عن رحلة الشمس التى تظهر فى صورة طفل خلال الساعة الأولى من النهار وتنتهى فى صورة عجوز فى الساعة الأخيرة من النهار .

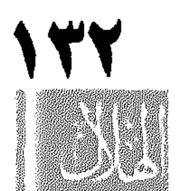
لذا تظهر مراكب النهار ومراكب الظهيرة ومراكب القمر .

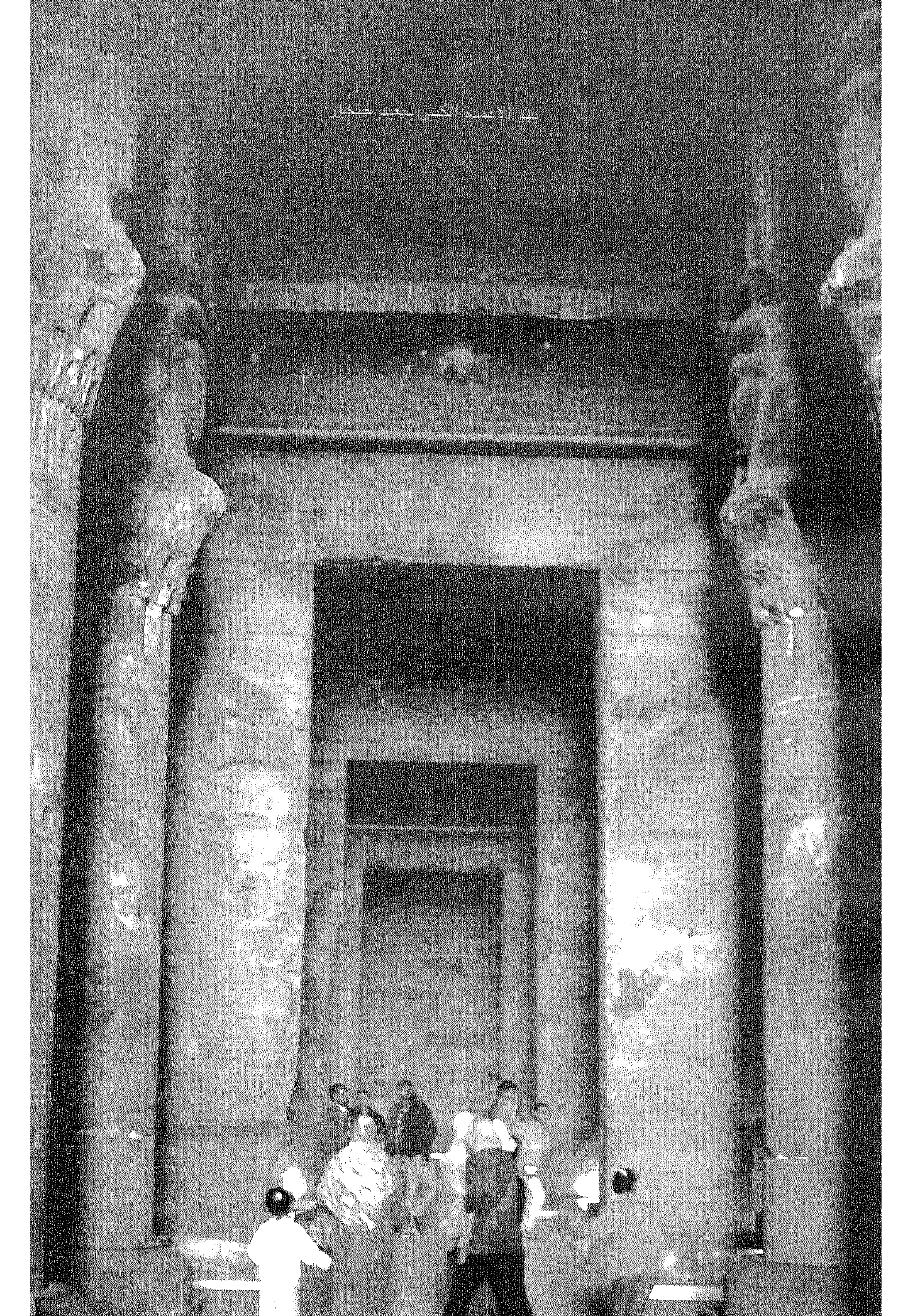
وفى جوانب السقف نرى إلهة السماء «نوت» تظهر فى صورة جسد أنثى ممدد بشكل طولى أقدامها جهة النوافذ ورأسها نحو الداخل وتخرج من بطنها أشعة الشمس تضئ رأس «حتحور» .

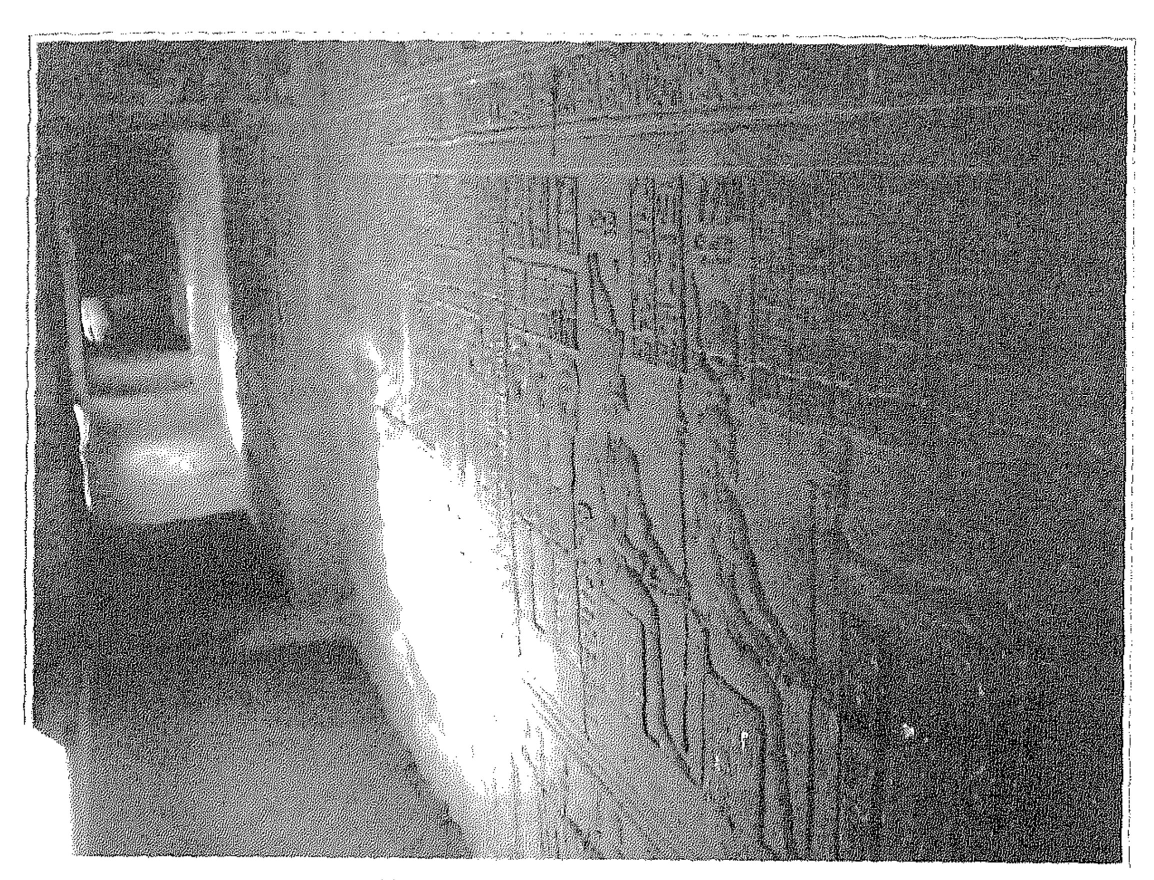
لذا من أجمل مايمكن أن يراه الزائر تسريل أشعة الشمس الساقطة من نوافذ المعبد خلال النهار علي رأس حتحور .

وإن من أكثر الجداريات جمالاً لا مثيل له داخل سقف المعبد جدارية الأبراج حيث تظهر فى عدة مواقع داخل المعبد فى سقف بهو الأعمدة وفى مقصورة أوزيريس ويعتبر السقف الدائرى فى المقصورة الثانية بالمعبد هو الأهم والأكثر شهرة وللأسف قام أحد علماء الحملة الفرنسية بالحصول على موافقة من محمد على باشا بنقل السقف إلى باريس حيث يعرض اليوم فى متحف «اللوفر» وفى المقابل قام فى عام ١٩٢٠ علماء فرنسيون بصنع نموذج للسقف ومايحويه من رسوم لمجموعة الأبراج وهو الموجود اليوم بالمعبد.

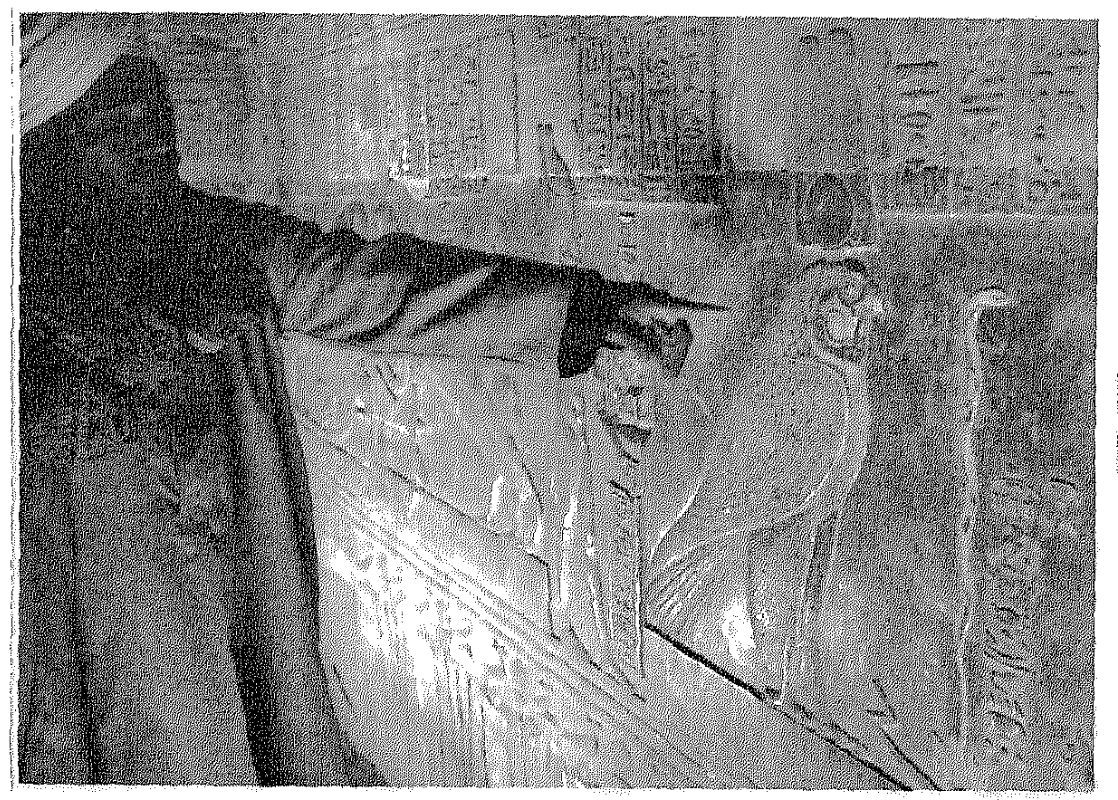
وعليه تحمل أربع سيدات دائرة الأبراج وهن يمثلن الشرق والغرب







سرداب بيت الحياة في دهاليز جدران المعبد



الإله حورس المنحوت على جدران السرداب

والشمال والجنوب وفى الوسط يظهر الدب القبطى ممثلا القطب الجنوبى وحول الدب تتخذ الكواكب والنجوم أماكنها وهى أشبه بالقبة السماوية .

وعلى سقف المعبد خاصة فى مقصورة أوزيريس حيث يظهر على شكل القمر داخل شبكة الصيد . لأن المصريين كانوا يعتقدون فى أسطورة فحواها أنه مع بداية كل شهر عندما يختفى القمر ينتاب القدماء الخوف ألا يظهر مرة أخرى لذا يقوم إلهان باصطياد القمر ليعيدوه إلى السماء ليسطع من جديد .

لذا شبهوا أوزيريس بالقمر لأنه يموت ثم يعود للحياة ليحيا الحياة الأبدية الخالدة وكان المصريون يتطلعون إلى أن يصبحوا مثله يموتون ثم يحيون من جديد إلى جانبه أوزيريس خالد خلود الشمس والقمر .

وتعد المقصورات الست الموجودة أعلى معبد حتحور خير راو لأسطورة ميلاد أوزيريس وموته وأجملهم وأغناهم على الإطلاق .

ويضم السقف أيضا شكل البقرة فى المركب . ليمثل ظهور نجم يسمى «الشعرى اليمانى» الذى يعلن عن وصول الفيضان وحدد الكهنة اتجاه معبد دندرة بناء على ظهور هذا النجم فى السماء فى يوم ١٦ يوليو عام ٥٤ قبل الميلاد الساعة السادسة صباحاً .

أساطير الكون

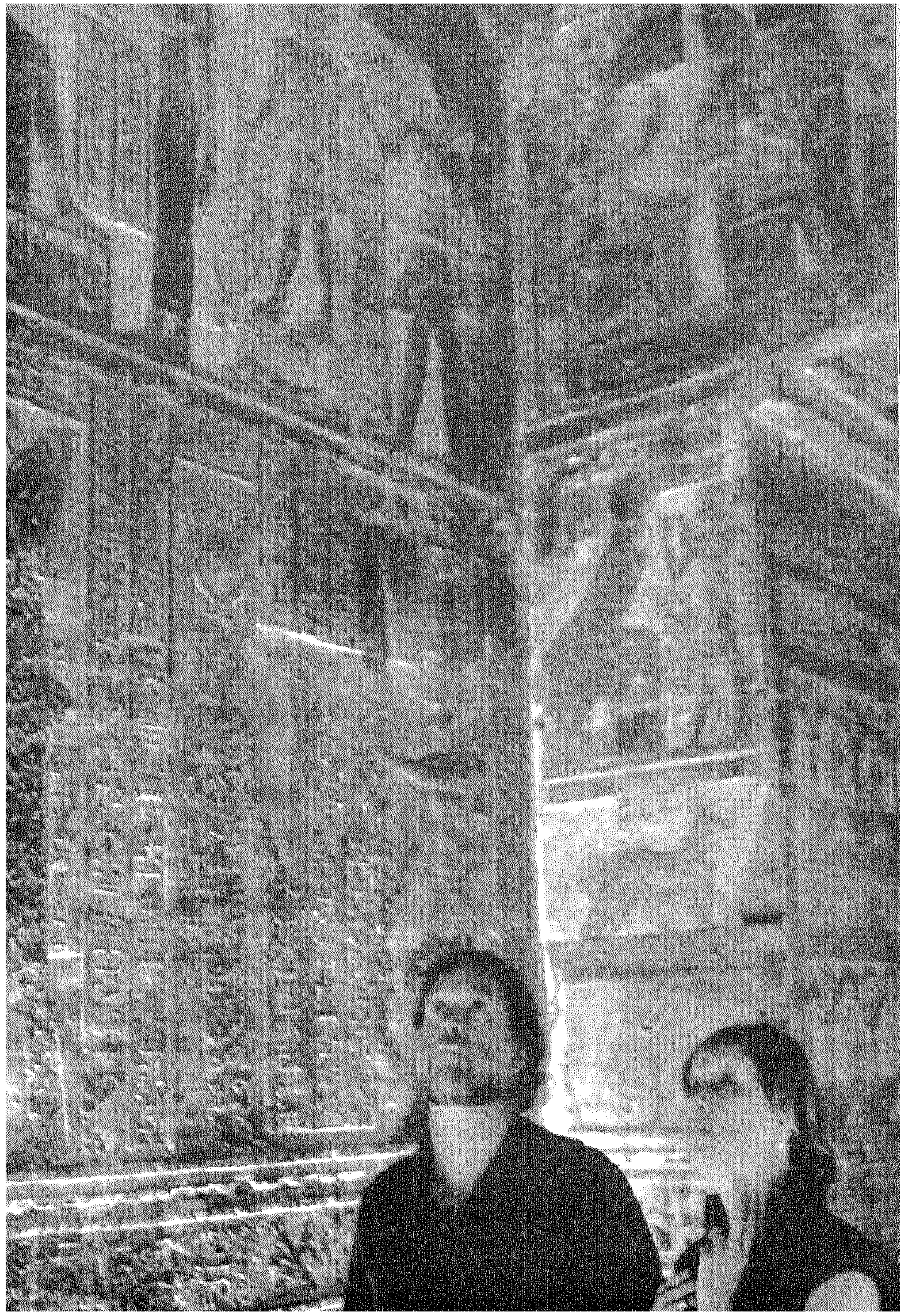
المعبد تحيط به الكثير من الأساطير التى تحكى تاريخ الإلهة مثل حتحور ، وأوزيريس والإله الأعظم رب الأرباب أى أنها كلها ترتبط بالديانة المصرية القديمة رغم ماهو متعارف عليه فى اللغة العربية بأن الأسطورة أو الأساطير هى مجموعة من القصص التى يتلاسنها البشر أغلبها غير محبوك أو حتى مترابط فهى تعنى الخرافة أو الحديث الباطل الذى لا أصل له .

أما فى اللغة الإنجليزية فهى تعنى القصة التى تدور حول شخصيات خارقة للطبيعة أو للتعبير عن القصص الشعبى ذى الأصل التاريخى ولكن عندما ننظر للأساطير المصرية القديمة نجد أن أفرادها من بنى البشر وترتبط أحداثها بما يدور فى المعابد أو عن ممارسة الطقوس الشعبية كما يذكر رندل كلارك فى كتابه «الرمز والأسطورة فى مصر القديمة» .

ويوضح أن المصريين فكروا قبل مولد الفلسفة واستخدموا أساطيرهم للتعبير عن نظراتهم فى عمل الطبيعة ولتصوير ماعجزت ألسنتهم عن وصفه فى حقائق الروح لذا أرتبطت أساطيرهم بنصوص اللاهوت . فالآلهة المصرية كما يرى «كلارك» أقرب إلى الأنماط الفطرية الصريحة للعقل الباطن بل هى أكثر عقلانية من آلهة الإغريق لأنها تعبر عن أفكار واقعهم .

لذا يعتبر معبد «دندرة» موطنا لأهم أساطير المصريين القدماء عن الكون والخلق . فنرى على جدرانه على سبيل المثال نتيجة أو تقويما للأعياد الموسمية التى تزدهر خلالها الآلهة . حيث تزين الجدار الخارجى للمقصورتين الخارجيتين.

ويعد أول يوم من أول شهور موسم الفيضان هو عيد الإلة «رع» وعيد جميع



الآلهة . وفى الساعة الثامنة فى هذا اليوم تبدأ الطقوس بخروج موكب الإلهة «حتحور» العظيمة إلهة دندرة . أما آخر أعياد السنة فهو اليوم قبل الأخير من السنة حيث يخرج موكب «حتحور» معها صحبة إلهية ليلاً لتقوم بجولة فى المعبد وتقام الطقوس ثم يرجع كل إله لمقصورته.

وفى قاعة القرابين تشرح اللوحات كيف يقوم الكهنة بخدمة المعبد والطقوس التى عليهم القيام بها يوميا .

ونرى فى واجهة قدس الأقداس الصلوات التى كانوا يتلونها :

«حتحور» ، يا إلهة دندرة ، قومى للحياة .. الآلهة تستيقظ مبكراً كل يوم لعبادتك» فلتقومى فى سلام يا إلهة دندرة، ياسيدة النساء ، ياصاحبة الوجه الجميل والعيون الكحيلة يا ملكة الزينة ....» .

وجه السماء والبحر

وسع خيال المصرى القديم بالعديد من الأساطير التى تدور حول الإلهة حتحور فهى بقرة السماء ، المعبودة الكونية العظيمة التى تلد الشمس ، فهى التى تسمح للشمس بأن تسطع كل صباح من بين قرنيها .

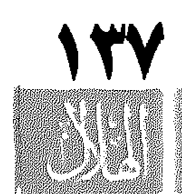
كانت على الدوام المعبودة الكونية العظيمة المرتبطة بـ «رع» وتحكى الأسطورة القديمة بأن «رع» عندما كان لايزال يعيش على الأرض ويتولى بنفسه حكم البشرية كانت ابنته «حتحور» تقطن صحارى النوبة الشرقية فى صورة لبؤة متوحشة ومخيفة تقذف عيناها النار وتلتهم لحم أعدائها ودمهم

كلف «رع» رسولين من الآلهة هما «شو» و«تحوت» ليحضرا «حتحور» إليه . وبالفعل تمكنا من إقناعها بالعودة لوالدها . وعلى مدى رحلة العودة كانت المعابد تشيد لها فى كل مكان ، ولم تنقطع الموسيقا والأناشيد والرقص فى ساحات أبوابها حتى السيدات كن يتوجن رؤوسهن بالزهور ويحتفلن بقدومها بالرقص والغناء على صوت الصلصلات والطبول وعزف القيثارة من «فيله» إلى «كوم إمبو» و«إدفو» و«اسنا» حتى تصل إلى مدينتها «دندرة» مقر القلب والموضع الذى تحبه «حتحور» .

وعبرت الأسطورة عن طبيعتها المزدوجة والمتناقضة فهى الخالقة والمدمرة وهى الوادعة والرهيبة وهى أيضا رمز البهجة والحب حتى أصبحت إلهة الحب . مما جعل الإغريق يطلقون عليها «أفروديت» ولم لا ؟ فهى الجميلة سيدة الحب والبهجة ، سيدة المديح والفرح ، الرقص والطرب ، وسيدة النشوة التى يثمل المرء من أجلها .

وكان المصريون يحتفلون بعيد النشوة على مدى خمسة أيام فى شهر توت أول شهور السنة المصرية . بل كانت آنية النبيذ لا تفارق «حتحور» . وكانت الخالقة لأن جوفها يحوى مكان الحمل الأبدى لشمس الليل التى كانت تعود وتولد صغيرة وجديدة ، كل صباح . وقامت بخلق كل الكائنات وعلى الأخص الآلهة والبشر أى هى إلهة الشمسية المعادلة الإنثوية «رع» كما يسرد فرانسوا ديماس فى كتابه «آلهة مصر» .

وهى أكثر الآلهة العظمى جاذبية



قدس الأقداس بمعبد حتحور

للمصريين «فحتحور» هى وجه السماء والبحر والسيدة التى تقطن الأيكة القائمة عند نهاية العالم وابنها «إيحى» هو الطفل الذى تلده أمه كل يوم عند الفجر باعتباره الشمس الجديدة . وتعتبر أمه هى السماء وإن كانت تعد أيضا أما لسائر المخلوقات.

و«إيحى» هو طفل النور ورمز لإنبلاجه فى قوة ونقاء وتعتبر الأسطورة أن اللون الوردى للسقف عند الفجر هو فى الأصل الدم الذى تنزفه الآلهة حينما تلد ابنها ... كما يحكى رندل كلارك فى كتابه «الرمز والأسطورة فى مصر القديمة» لذا حظيت «حتحور» بأسمى درجات التقديس فهى «بيت حورس» الصقر الذى يحلق فى السماء .

رغم أن المصريين صوروها بقرنى بقرة وأذنيها ، وأحيانا برأس بقرة كاملة حيث يرجع ذلك إلى العقيدة التى تصور السماء على شكل بقرة وظلت تحتفظ بدورها كسيدة للآلهات نظرا لدورها الذى يجعل منها المكان الذى تختفى فيه شمس المساء . كما جعلها المصريون إلهة الحب والطرب عند النساء . وقاموا بخدمتها وأحيوا حفلاتها بالرقص والغناء والموسيقى .

لذا كانت مقربة من قلوب النساء . وأطلقوا عليها «ربة الإبتهاج ، سيدة الرقص والغناء ، وربة الوثب وضفر التيجان» حتى أطلقوا على معبدها فى دندرة لقب قصر النشوة ومكان الحياة الراضية كما جاء فى كتاب «ديانة مصر القديمة – نشأتها وتطورها ونهايتها فى أربعة آلاف سنة» .

لذا تعتبر مقصورة حتحور التى تقع وسط المعبد من أهم وأجمل مقصورات المعبد فهى تضم التماثيل الرئيسية لحتحور .

كما تظهر مرتدية العشرات من التيجان وأمامها يظهر الملك «بيبى» ممسكا فى يديه تمثالاً للطفل «إيحى» . وهو الملك صاحب أول بناء معبدى فى دندرة . رغم أنه حكم مصر قبل بناء المعبد الحالى بألفين ومائتى عام . أى منذ حوالى ٤٢٠٠ عام .

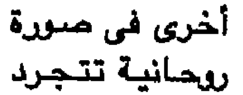
سراديب الأسرار الخفية

ورغم الأساطير التى تحويها جدران المعبد ، فإن باطن تلك الجدران تضم سراديب ودهاليز سرية ضيقة لم يكن لأحد أن يتخيل وجودها من الخارج . وفيها كان يجرى أداء مايسمى «بالأسرار الخفية» ، فهى أجمل وأبدع مايمكن للمرء أن يراه ، وهى أيضا أكثر الأماكن قداسة فى المعبد . لأنها كانت بمثابة مخزن تماثيل الآلهة والأدوات المقدسة خاصة التى كانت تستخدم خلال الأعياد الكبرى . وفى الحجرة الأولى تم العثور على آلات الصلاصل القديمة مدفونة أسفل المعبد . ويحمل أحدها اسم الملك «بيبى» ووفقا للنصوص الهيروغليفية كانت هذه الآلهة مصنوعة من الخشب المذهب ويبلغ ارتفاعها ٧٨ سينتيمترا .

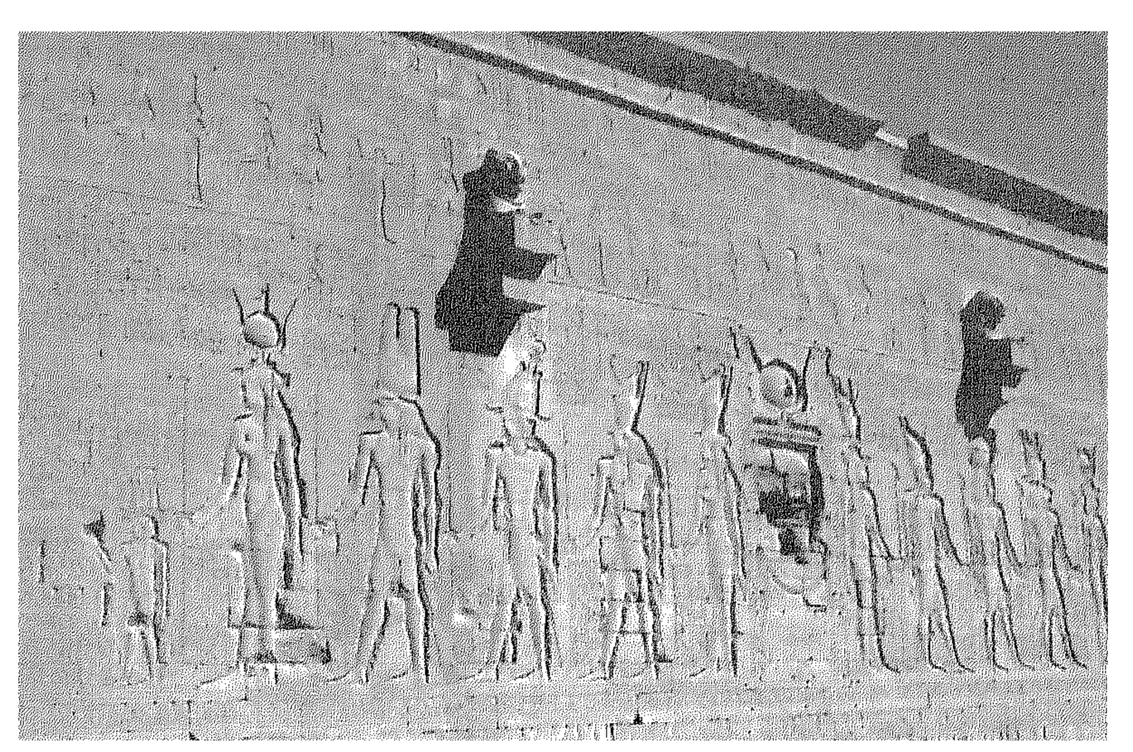
والشىء الغريب أن المعبد يضم عددا من السراديب بعضها لم يتم العثور عليه أو معرفة طريقة الدخول إليه ، سوى السرداب الواقع أسفل المقصورتين ٨و٩ و«سرداب» الوثائق» الموجود أسفل المقصورة رقم «١١» . والأخير هو سرداب طويل سجل الكهنة



داخله جميع الأسماء المقدسة مثل أسماء حتحور وأعيادها ، أسماء الآلهة ، أسماء المعبد والمقصورات ، أسماء الكهنة والمغنيات وأسماء المدن والأشجار . ويؤكد فرانسو ديماس في كتابه «آلهة مصر» أن المصريين وضعوا أساطير تشرح كيفية خلق العالم وآمنوا بوجود حياة أخرى ممتدة بعد الموت ، وأن مصير الروح الخيرة إلى جنة الفردوس التي تخيلوها تارة بقعة في السماء وسط النجوم وتارة أخرى في صورة روحانية تتجرد فيها الروح من الملذات الدنيوية وتنعم باللذة الروحية . كانت كل الأسرار توضع داخل المعابد في مكان يسمى «بيت الحياة» حيث يضم المصنفات والنصوص الدينية القديمة وعلى الأخص كتب الصلوات التي كان الكهنة يحتاجونها . علاوة على البرديات الدينية أو القانونية . وفي معبد دندرة كان بيت الحياة أكثر الأماكن خفاءً ، مخبأ داخل أحد الهياكل التي تحيط بقدس الأقداس . وكان يضم أيضا أناشيد وصلوات شعائر ومسرحيات دينية مثل الشعائر المحجوبة التي تتصل بالمولد الإلهي على سبيل المثال.



كليوباترا وابنها قيصرون في لوحة لا مثيل لها نحتت علي الجدار الجنوبي للمعبد



لوحة جدارية نادرة تجتمع فيها جميع آلهة الفراعنة

وذلك رغبة فى المصريين فى تخليد عبادتهم كما يقول «ديماس» فى كتابه .

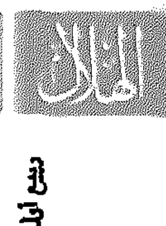
وفى المقصورة رقم ١٣ والتى تسمى «الخزانة» ، وهى عبارة عن ممر صغير مابين الدهليز والسلم ، كان الكهنة يحفظون المجوهرات والتعويذات الخاصة بالأعياد الكبرى داخلها .

وفى أعلى الجدران نرى مجموعة من الآلهة الصغيرة ومجموعة من الثعابين التى تمثل الأجرام السماوية . وفى الأسفل تحمل آلهة النيل بقاعا من الأرض الغنية بالمناجم والتى يستخرج منها المواد الثمينة.

أما الفناء الخاص بعيد العام الجديد فنجده يفضى إلى سرداب يضم لوحات ونقوشا تشرح ما كان يحدث بدقة . حيث يردد الكهنة الأناشيد الدينية لحتحور ورع ويقولون «كم هى جميلة إشراقتك يارع ، فأنت تتحد مع أبنتك وتسمع ماتقول لك فى هذا اليوم الجميل فى العام الجديد» .

أسطورة ذهب الآله

وفى الماضى السحيق كانت الجماهير تتجمع فى الميدان الواسع أمام المعبد خلال الأعياد الكبيرة يصطف ضيوف الأعياد المتميزون من أصحاب الحظوة فى البهو الأمامى الكبير ، أما البهو الكبير «لهو التجلى» فهو لعلية القوم ، ثم تدخل قاعات العبادة الحقيقية حتى تصل إلى «مقصورة القربان» حيث كان «الإله يقاد إلى أقواته» وتحكى سيلفى كوفيل أنه من السهل لأهالى دندرة رؤية المخربشات المنحوتة على جدار المعبد من الخارج . خاصة عندما تسقط أشعة الشمس على النقوش فتظهر تفاصيل الجدران مثل الورود والعصافير والملك حتحور على لسان الكهنة :



ففى البداية ظهر الإله رع إله الشمس فى صورة طفل داخل نبات اللوتس ، وفتح الإله رع عينيه . فنزل منها سائل وسقطت إحدى نقاط هذا السائل على الرمال فتحولت إلى إمرأة جميلة بلون الذهب هى حتحور التى تعرف بإسم «المذهبة» أو «ذهب الإلهة» .

كذلك يحكى الجدار الجنوبى كيف كان المصريون يعتقدون أن مياه العواصف تشكل خطرا وتدنس الأراضى المقدسة وهى أحد أشكال إله الشر «ست» لذلك تحرس الأسود مدينة دندرة ومعبدها وتحميها خلال ساعات الليل والنهار . لذا يضم الجدار عددا من المزاريب على شكل أسود وعند أرجل كل أسد توجد فتحات صغيرة لتصريف مياه الأمطار . وهى من اللوحات الجدارية النادرة والتى قد لايكون لها مثيل فى معبد آخر .

وإن كان الجدار الخارجى يضم الصورة الوحيدة فى مصر للملكة كليوباترا حيث تقف وراء الملك البطلمى ، القيصر الصغير ، ابنها من قيصر روما والذى مات فى سن السابعة عشرة .

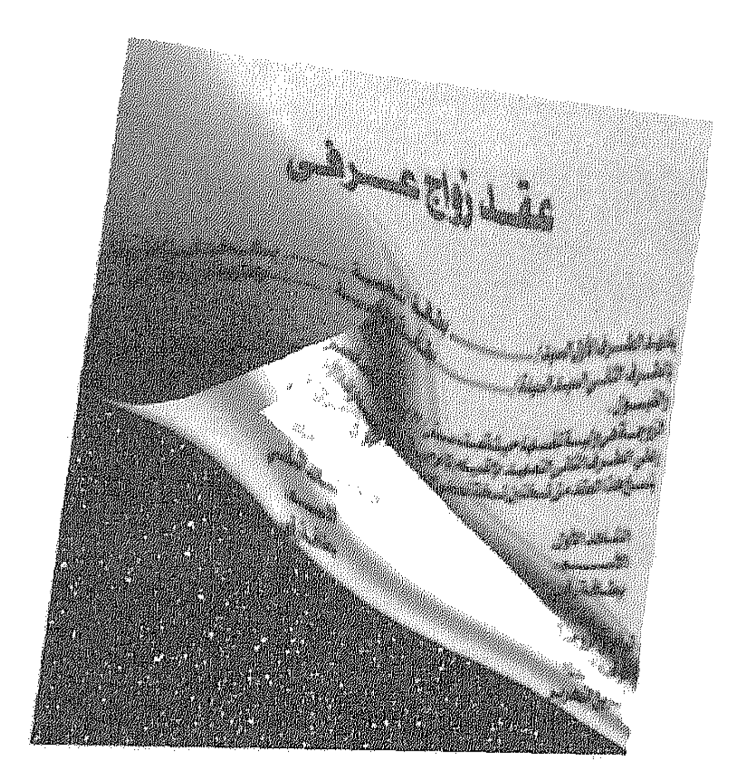
ولكن اللوحة يظهر فيها فى عمر أمه العمر المثالى حوالى ثلاثين عاماً .

وفى عهد الملكة كليوباترا كان يتم الاحتفال بعشرين عيداً فى دندرة ، بعضها كان يستمر عدة أيام . أهمها كان عيد رأس السنة حيث تخرج التماثيل الإلهية ، كل «من مقصورته» حيث كانت محفوظة فى ذخائر دينية فى أعلى المعبد ، وقبل بداية الطقوس توضع الآلهة فى الدهاليز .

ورغم الوجود الوحيد لكيلوباترا على جدران المعبد فإن أهالى دندرة خاصة النساء لايزلن يعتقدن فى كثير من سحرها وجمالها . فلا تزال النساء تذهب إلى البئر القريب من البحيرة المقدسة ليغسلن أيديهن وأرجلهن بمائها ويصعدن السلالم الملاصقة للجدران الخارجية ليصلن إلى ماسمى بحمام كليوباترا ويغتسلن فيه ثم يدخلن المعبد لتمر المرأة التى ترغب فى الإنجاب فوق عتباته السبع ثم تنزل السرداب ليقوم أحد الحراس «بخلعها» أو إفزاعها . بعدها تذهب المرأة إلى منزلها مضمخة بالبركة أملاً فى الإنجاب كما يحكى لنا عم طلعت خفير الآثار داخل المعبد . الذى يؤمن كغيره من أهالى دندرة بوجود الأرواح التى تسكن المعبد والتى تظهر على شكل أرنب أو قط بلا ذيل أو ذئب أو حتى مارد فى مركب بشراع ضخم ..

ورغم جمال منطقة آثار معبد دندرة وروعة الجدران والأسقف والأعمدة التى تؤكد عبقرية الحضارة المصرية القديمة فى تجسيدها لأساطير بداية الخلق وإبداع الكون من أرض وسماء وفضاء وكواكب وأبراج .. لانزال نجهل ونهمل قيمة وثقافة المكان رغم وجوده منذ مايزيد على أربعة آلاف عام ...!

ويكفينا تعليق هيرودوت حين جاء مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد عندما وصف المصريين بأنهم أكثر شعوب العالم تديناً . وأن المعابد الممتدة آثارها على طول وادى النيل خير شهادة على مدى تغلغل العاطفة الدينية فى أفئدة المصريين القدماء .■

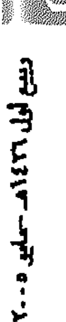


سرحان بين البيت والغيط!

بقلم
صافي ناز كاظم

كوّمت أشياء يمكنني رتقها بالإبرة والخيط. لا أعرف الحياكة، لكنني أستطيعها في أبسط أشكالها، مثل لضم الإبرة بالخيط ورتق المقطوع والمخزوق والمفكوك والساقط والمنفلت.

أنهمك مستغرقة في اللضم أحضّر نفسي للفق ذيل ثوب أو جورب مشقوق. هذه إحدى وسائلي لتوصيلي «أرضي» حتى لا تتمكن مني شحنات الغضب والغيظ والتوتر وتحرق دمي. يجب أن أصرفها بعيدا تلك الشحنات، وأنا أغز الإبرة ثم أشدها بخيطها بعد غزة ثانية معاكسة، أتذكر الطرائف التي بوسعها أن تهون الأمور. في مرحلة دراستي الإبتدائية كانت قصة «سرحان بين البيت والغيط»، في كتاب المطالعة، شاهد على حماقة سرحان الذي اختلت موازينه وتقديراته فحمل الخروف الثقيل، الذي بإمكانه أن يقف على أرجله ويسير بلا عناء، وجرّ الأوزة وراءه بالحبل وكان الأولى به أن يحملها ويجر الخروف.



حماقة «سرحان بين البيت والغيط» لم تعد مسألة رمزية، لقد صارت واقع المنطق الذى أراه سائدا على المستوى العالمي والمحلي، السياسي والثقافي، من أول المنطق الذى يحرك لسان الرئيس الأمريكى بوش بالكلام، ويحكم تصريحات وزيرة خارجيته كوندوليزا رايس، حتى فتاوى وعظات «الدّعاة الفيديو كليب»، مروراً باستجوابات نواب مجلس الشعب، والمنصّبين أنفسهم حماة للتقاليد والقيم وسمعة مصر، الغياري، بزعمهم، «دينيا» و«سياسيا» و«ديمقراطيا» إلخ.. إلخ.. إلخ.

★ ★ ★

فى واحدة من الندوات المرئية، التى شاركت فيها وتم بثها من إحدى القنوات الفضائية، وكان عنوانها «حدود الإعلام فى الإعلام»، أو شيء من هذا القبيل، قال أحدهم أن قضية الزواج العرفى - التى تفجرت إعلاميا إثر إنكار ممثل شاب لزواجه من شابة مهندسة ديكور، والتى تم اختصارها بـ«قضية هند وأحمد» - تسيىء إلى «سمعة مصر». فى العودة بسيارة القناة إلى منزلى بعد التسجيل قال لى السائق متهكما: «يعنى سمعة مصر لا تسيىء لها البطالة والعشوائيات وسكان المقابر وفضائح السياحة والسياح و... و... و...»، وأخذ الرجل يعدد وسائل «الإساءة لسمعة مصر» كأنه يفر ورق كوتشينة متجمعة من آلاف العلب. ابتسمت، فهذا المواطن قد لاحظ على الفور «شيل الخروف وجر الأوزة» فى هذه الجزئية الصغيرة من الندوة ، التى كانت نموذجا متخماً بحماقات «سرحان بين البيت والغيط»، والتى تطرح للمناقشة أمراً بدهيا لايحتاج إلى مناقشة، فما «الإعلام» إلا للإعلام، ومحاولة الإيحاء بأن «تقاليدنا» و«أخلاقياتنا» و«ديننا» لا يسمح بمناقشة القضايا «الحساسة»، محاولة تفرض الكذب والتلفيق على مجتمعنا الذى يجب أن يسترشد بالتوجه القرآنى، هذا التوجه الذى «أعلمنا» بقصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز «إعلاما» تفصيليا كاملاً، ولم يقل أحد أن هذه القصة «تسيىء إلى سمعة مصر» - اللهم إلا دكتور لويس عوض الذى قال لى أنها قصة اختلقها اليهود وروّجها



الإسلام، فكيف يقولون على زوجة حاكم مصرى أنها «......»؟ - ولم ينهنا رسولنا الكريم عن قراءتها واستيعاب دلالات وشواهد الظلم والافتراء والإدعاء الكاذب، على البرىء العفيف، بما يمس الشرف ويوصم بالخيانة. كذلك علمنا القرآن الكريم أن كان هناك قوم اسمهم «قوم لوط» وكانوا «يأتون الذكران من العالمين»، ولم ينهنا رسولنا الكريم عن تحفيظ هذا «الإعلام» حتى للأطفال الصغار دون العاشرة، وأعلمنا القرآن الكريم بحديث الإفك الذى قالت - بمناسبته - سيدتنا أم المؤمنين عائشة بعد تبرئة الله سبحانه وتعالى لها: «هلك فىّ فلان... وهلكت فىّ فلانة»، فأين هى تلك «الحساسية» التى يدّعونها على ثقافتنا وحضارتنا الإسلامية ليحاصروا النقاش فى قضايا مجتمعنا بدعوى أننا «مجتمع شرقى» يستنكر طرح «الأمراض» علنا وإعلاميا؟

★★★

فى تلك الندوة حاولت أن أقول الكثير مثل أن مطلع القرن الماضى شهد ضجة إعلامية حول زواج الشيخ على يوسف من ابنة السيد السادات، لأن والد الزوجة طلب فسخ الزواج والتفريق بين الشيخ على يوسف وابنته لعدم كفاءة الزوج، وحدد عدم كفاءة على يوسف بكونه يحترف مهنة الصحافة، وهكذا تصعدت القضية، التى بدأت موضوعاً شخصيا بحتا، لتصبح قضية رأى عام، إذ رغم حق الوالد فى الاستناد إلى «عدم الكفاءة»، كقاعدة شرعية تلغى الزواج، إلا أن الرأى العام، بقيادة المثقفين، تنبه إلى التساؤل: وهل مهنة الصحافة تجعل الصحفى أقل شأنا وكفاءة فلا يحق له الزواج من ابنة السيد السادات؟ كانت ضجة أثارتها تداعيات الموضوع، وليس الموضوع نفسه، أدلى فيها كل بدلوه ، منهم من ساند الشيخ على يوسف صاحب المؤيد، ومنهم من ساند السيد السادات والد الزوجة، وانشغل الرأى العام بالقضية، ولم يسمها أحد «فضيحة»، وحاولت أن أذكّر بقضية الفنانة فاطمة سرى التى تزوجت من محمد على شعراوى، ابن هدى شعراوى، وأنجبت بنتا رفضت هدى شعراوى الاعتراف بها وطعنت فى صحة

زواج ابنها من فاطمة سرى، إلى أن أثبتت المحكمة صحة الزواج وصحة نسب الإبنة إلى والدها محمد على شعراوى، وأثيرت وقتها ضجة إعلامية انشغل بها الرأى العام كذلك، وحاولت بهذين المثلين بيان أن ما يجرى تسميته «مسائل شخصية» يمكن أن يتصعد باهتمام الناس فيصبح «قضية رأى عام» - وليس فضيحة - لأنه يصطحب معه تداعيات تخرج بالموضوع الخاص إلى القضية العامة. وحاولت أن أقول - ولم أفلح - أن «الدعاة الفيديو كليب»، بسبب بضاعتهم المزجاة، لم يكتفوا بحمل الخروف وجر الأوزة، بل أصروا على اعتبار الخروف أوزة ورأوا الأوزة خروفاً! حكموا، كما حكم آخرون من الإسلاميين للأسف، بغضبهم ولم يحكموا بقوانين الشريعة التى تعتبر أن الجاهل بالحرمة يدرأ عنه الحد، بخلاف القانون الوضعى الذى يقرر أن الجهل بالقانون لا يُعفى من العقوبة. ساووا بين الجانى المغرِّر - بكسر الشدة على الراء - الذى عقد النية على الزنا وبين المجنى عليها، التى عقدت النية على الزواج وأخطأت فقط فى منح الثقة لمن لا يستحقها، وفى إخفاء أمر زواجها عن والديها. وتم فتح ملف «الزواج العرفى» ومخاطره، وهل هو صحيح أم باطل، وإذا بالحجارة تنهال، وبين ليلة وضحاها أصبح «الزواج العرفى»، بفضل غوغائية «الدعاة الفيديو كليب»، مرادفا «لفاحشة الزنا»، وتعالى الهتاف: «أين الورقة.. أين الورقة»، «أين الولى.. أين الولى»، وعبثا يتدخل العلماء الثقات ليقرروا الرأى الشرعى، بعيدا عن اندفاعات خلط الغضب والحمية الجاهلية، فيقول الشيخ حامد بن عبدالله العلى، أمين عام الحركة السلفية فى الكويت من عام ١٤١٨ حتى ١٤٢١: «...... فإن المرأة لو حدث بينها وبين الرجل معاشرة ظانة أنها ليس مما حرم الله فليست زانية، وإذا تبين أنه كانت تجهل الحكم الشرعى فإنها يدرأ عنها الحد بلا ريب، هذا إذا كانت المعاشرة بغير عقد أصلا، فكيف إذا كانت المعاشرة فى عقد نكاح ظنته صحيحا، ومعلوم أنه قد اتفق الفقهاء، على وجوب العدة وثبوت النسب بالوطء فى النكاح المختلف فيه بين المذاهب، كالنكاح بدون شهود، فالمالكية يصححون

العقد بلا شهود إذا وقعت الشهادة قبل الدخول، وإذا استفاض أغنى عن الشهود، أو بدون ولى الذى تجيزه الحنفية، وكنكاح المحرم بالحج، ونكاح الشغار، ويتفقون كذلك على وجوب العدة وثبوت النسب فى النكاح المجمع على فساده بالوطء، كنكاح المعتدة، وزوجة الغير، والمحارم، إذا كانت هناك شبهة تسقط الحد، بأن كان لا يعلم بالحرمة، ولأن الأصل عند الفقهاء: إن كل نكاح يدرأ فيه الحد فالولد لاحق بالواطىء..............

وإذا كانت المرأة تعلم كونها حملت من نكاح، ما حملها عليه إلا ظنها أنه نكاح صحيح شرعاً فليس لها أن تجهض جنينها، حتى لو أنكر الزوج النكاح، وتمسكها بالجنين موقف شرعى يجب أن تشكر عليه، واعترافها بأنها حملت بسبب عقد ظنته صحيحا واصرارها على عدم إجهاض جنينها، فضيلة وليس عيبا تعاب به، والذى يعيبها به هو الجاهل، والواجب على المسلمين تقديم إحسان الظن بالمرأة إن وقعت فى مثل هذه المشكلة، وكف الألسن عنها، لا سيما إن قامت القرينة على صدقها، ومن ذلك تمسكها بالجنين، ذلك لأن الزانية ترغب فى التخلص من الجنين غالبا ولا تتمسك به - فى العادة - إلا من تعده ولدها شرعاً، فيحملها الخوف من الله أن تقتله. وليعلم الذين يخوضون فى أعراض الناس، ويلغون فى سمعتهم، أن ذلك من أشد الذنوب جرما.....»

ونص الفتوى كاملا بجريدة القاهرة ٢٠٠٤/١١/٢، صفحة ٩، كذلك نص فتوى مفتى الديار المصرية الأستاذ الدكتور على جمعة بجريدة القاهرة ٢٠٠٤/١٢/١٤، الصفحة الأولى، وهى تؤكد بدورها: «من المقرر شرعاً أن الأصل فى النسب الاحتياط وتشوف الشارع إلى إثباته بكل الوسائل كالشهادة والإقرار والقيافة وغيرها من الوسائل العلمية، حملا لحال امرأة على الصلاح وإحياء للولد، وإذا اعتبر النكاح فيه قائما مقام الدخول. ولا يقتصر ثبوت النسب على الزواج الصحيح فقط بل يثبت أيضا بالزواج الفاسد والوطء بشبهة وهذا لأن المشرع يتشوف إلى إثبات النسب مراعاة لحق الطفل ....

....

.... بعض الفقهاء يرى أن المرأة البالغة لها أن تزوج نفسها.....»، لكن كلام العلماء الثقات هذا لم يعجب «الدعاة الفيديو كليب» وأصروا على صيحة «زنا»! يرمون بها من عقد النية على الزواج، حتى تجرأ المتنكر للزواج، ليجد فى اعترافه بالفاحشة ملاذه المثالى! وحتى ألقى فى روع العامة أن من حق أى جزار، يظن فى إبنته أو أخته أو قريبته أنها متزوجة عرفيا، أن يسحبها للذبح تحت بند «جريمة الشرف»، أليست متزوجة عرفيا؟ إذن هى زانية، إذن لابد من قتلها، من دون شهود أربعة، بل ومن دون التأكد أنها قد فعلت فعلة «الزواج العرفى»!

أقول فى الندوة، لا يجوز تصحيح «خطأ» تفشى الزواج العرفى، بتشجيع «جريمة القتل» بظن غسل الشرف المطعون، وأنبه إلى أخبار الحوادث المنشورة عن ذبح النساء بالشبهة، فيراجعنى عالم اجتماع - نعم عالم اجتماع - بأن المقتولة أخت الجزار، فأنظر إليه: «وهل هو حر فى قتل أخته من دون شهادة أربعة شهود باقترافها الفاحشة؟» فينتقل إلى فقرات «مرفوضة» من مقررات مؤتمر بكين سنة ١٩٩٥، ليعتبرها الدليل المربوط بتفشى ظاهرة «الزواج العرفى»، الذى يراه هو الآخر: إنحلالا وشيوعية جنسية!

«الزواج العرفى» خطأ وخطر نعم، لكن محاربته للقضاء عليه لا يكون بالخوض والغوص فيما هو أشد خطأ وخطراً، إنما بالبحث فى أسبابه ودوافعه، ومعالجته بالفهم والتفهم وليس بالتنكيل والظلم والإفتاء العشوائى المنافى لقواعد الشريعة، من «الدعاة الفيديو كليب»، خريجى التجارة والهندسة والدراسات التكميلية السطحية التى لا تعلمهم الفارق الواضح بين الألف وكوز الذرة.

إن تخبط هؤلاء «الدعاة الفيديو كليب» هو الذى يؤدى بالضرورة إلى إنتعاش الأقوال المرفوضة، شرعاً، هى والبنود الفاجرة، التى قررها مؤتمر بكين لعام ١٩٩٥، وليس العكس، لو كانوا يعلمون ويفقهون ويدركون، ولله الأمر من قبل ومن بعد يفصل بيننا فيما نحن فيه مختلفون.

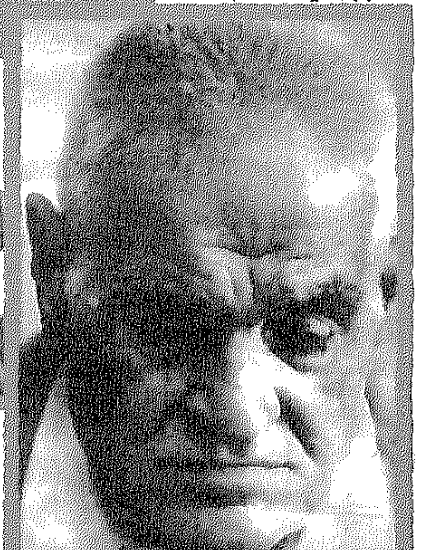
خليل ثابت باشا



جبرائيل تقلا باشا

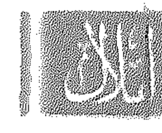


كريم ثابت باشا



فكرى أباظة باشا

١٤٨



ربيع أول ١٤٢٦هـ - مايو ٢٠٠٥م



باشوات الصحافة

بقلم
وديع فلسطين

إن الجيل الجديد من الصحفيين بصورة خاصة والقراء بصورة عامة لايعرفون أن أعلام الصحافة في عصر ماقبل عام ١٩٥٢ كانوا يكرمون من الجالس علي العرش بمنحهم لقب باشا، وهو مايؤهل صاحبه لأن يخاطب بحضرة صاحب السعادة فلان باشا اللهم إلا إن تولى الوزارة كالدكتور محمد حسين هيكل باشا مثلا (١٨٨٨ - ١٩٥٦) فيخاطب في هذه الحالة وفي فترة بقائه في المنصب فقط بحضرة صاحب المعالي فلان باشا، أما الألقاب المدنية التى كان يتمتع بها من هم أعلى مرتبة من أصحاب السعادة والمعالى، فهى لقب حضرة صاحب الدولة يسبغ على كل من يتولى رياسة الوزراء ويحتفظ به بصورة دائمة، وكذلك لقب حضرة صاحب المقام الرفيع، وكان يمنح لعدد محدود من المسئولين ويحتفظ به صاحبه بصورة دائمة.

أما ألقاب الأسرة المالكة، فالأمراء يخاطبون بحضرة صاحب السمو الأمير فلان، فإن كان من صلب الجالس على العرش أضيفت إلى لقبه عبارة «الملكى» فيصبح حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فلان، أما أنسباء وأصهار الأسرة المالكة فكان يطلق عليهم لقب حضرة صاحب المجد النبيل، أما أعلى الألقاب طراً، فهو لقب الجالس على العرش، وهو حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد أو فاروق، وإن كان لقب فاروق استطال حتى أصبح حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ملك مصر والسودان!.

سبقت هذه المقدمة تعريفا بالألقاب التى كانت معروفة فى العهد الملكى، وقد سبقتها ألقاب أطلقت على السلطان حسين كامل والسلطان أحمد فؤاد ومن قبلهما الخديويون من نسل محمد على باشا الكبير رأس الأسرة العلوية..

وأعود إلى باشوات الصحافة الذين أتيح لى أن أعرفهم.

جبرائيل تقلا باشا (١٨٩٠ - ١٩٤٣)

عندما كنت أدرس الصحافة فى الجامعة الأمريكية، كان أساتذتنا يصحبوننا إلى مطابع الصحف للتعرف عمليا على كيفية تجهيز الجريدة للنشر وعندما قصدنا دار الأهرام فى شارع مظلوم باشا. حيث كان عمال المطابع يجمعون مادة الجريدة بأجهزة اللينوتيب باستخدام الرصاص المنصهر قبل الانتقال إلى مطابع بولاق الدوارة لطبع الجريدة، لاحظنا أن رجلا يمر بصفوف العمال ليتابع عملهم عن كثب ويتحدث مع هذا وذاك من العمال باهتمام، واكتشفنا أن هذا الرجل هو جبرائيل تقلا باشا صاحب الجريدة. وعرفنا أن زياراته لأقسام الجمع والطباعة تتواتر بسبب حرصه على متابعة جميع المراحل العملية بانسياب ودون مشكلات، وتقدم جبرائيل باشا بنفسه إلى أستاذنا الأمريكى، وأخذ يشرح له - أو لنا على الأصح - كل مايدور فى بدروم الأهرام من عمليات اللينوتيب. كانت هذه المرة الأولى التى رأيت فيها جبرائيل تقلا باشا عن قرب. وعندما تخرجت فى الجامعة فى عام ١٩٤٢ وتقدمت للعمل فى جريدة الأهرام عينت مفتشا فى قسم توزيع الصحف حيث مكثت ثلاث سنين صرت فى أثنائها خبيرا فى توزيع أكثر من ٤٠ جريدة ومجلة تصدر باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية واليونانية وكانت لدينا تعليمات من جبرائيل تقلا باشا بأن نبعث إليه صباح كل يوم بوريقة داخل مظروف مغلق وباللغة الفرنسية تتضمن رقمين هما: عدد النسخ التى طبعت من الجريدة فى صباح اليوم نفسه، وصافى عدد النسخ التى بيعت فى اليوم السابق بعد استبعاد المرتجعات، وكانت تعليماته تنص على أن نضيف إلى الرقمين - وكانا فى حدود ١٥٠ ألف نسخة - مئة ألف نسخة، حتى إذا ما استقبل الباشا فى مكتبه ضيفا أطلعه عل هذه الوريقة التى تؤكد أن الجريدة توزع ٢٥٠ ألف نسخة!.

وفى الفترة التى عملت فيها فى هذه الجريدة توفى جبرائيل تقلا باشا فجأة فى عام ١٩٤٣ فتقرر تشييع جنازته من أمام مقر الجريدة فى شارع مظلوم باشا على أن يشارك فيها جميع العاملين من محررين وإداريين وعمال، وسرنا فى موكب مهيب وراء العربة التى تجرها



عشرة من الخيل إلى أن وصلنا إلى كاتدرائية الموارنة فى حى القاهرة حيث صلى على جثمانه بحضور مندوب الملك ورجال الدولة ومن إليهم.

كريم ثابت باشا (١٩٠٢ - ١٩٦٤)

لم أكن سعيدا بعملى الإدارى فى الأهرام، ولهذا كنت أمارس هواية الكتابة فى صحف ومجلات متعددة، مما أكسبنى شهرة متواضعة ولو بين الصحفيين، وكان كريم ثابت باشا قد توافق مع أصحاب جريدة «المقطم» على أن يتولى هو رياسة تحرير الجريدة خلفا لأبيه خليل ثابت باشا الذى تولى الجانب الإدارى للجريدة وإن استمر فى كتابة المقالات الافتتاحية - وأسميها مقالات الصدر. وفاتحنى كريم باشا فى العمل محررا فى المقطم اعتبارا من أول مارس ١٩٤٥ وهو اليوم الذى استهل فيه كريم باشا عمله رئيسا للتحرير، وكان كريم باشا يجمع وقتها بين أعمال متباينة، فقد كان مستشارا صحفيا لجلالة الملك، ومستشارا لمحطة الإذاعة المصرية وعضوا فى مجلس إدارة الشركة الدولية لقناة السويس، ومع ذلك كان يخصص الصفحة الأولى من الجريدة للشكوى من الغلاء الفاحش الذى يعانى منه الشعب، فقد أخبره «السفرجى» أن الخيار زاد ثمنه مليما، والطماطم مليمين والبصل ثلاثة مليمات، فكيف يسكت المسئولون عن هذا الغلاء الذى يكتوى به أفراد الشعب! بل إنه كلفنى أن استنطق شوارع القاهرة بما يعانى منه الناس من آلام، فقطعت أهم شوارع القاهرة الشعبية: شارع القلعة وشارع الجيش وشارع الجيزة وشارع شبرا، وكنت أستوقف المارة أو أصحاب المحال أو الجالسين على المقاهى لسؤالهم عن شكواهم، حتى إذا استكملت مهمتى نشرت صفحة كاملة بعنوان «شارع شبرا يتحدث» وهلم جرا، فقد كان كريم باشا يؤمن أن رسالة الصحافة الأولى هى خدمة الشعب ونقل شكاواهم إلى المسئولين.

وقد قيل كلام كثير عن كريم باشا لا أخوض فيه لأننى أجهله بل لعلنى أتشكك فيه، ولكن الذى عرفته عنه عن قرب، حتى وأنا مازلت طالبا فى الجامعة حيث دعوناه لكى يلقى علينا محاضرة باللغة الإنجليزية عن زعماء العالم الذين قابلهم، هو أن كريم باشا صحفى معمد بالصحافة، وهو لم يحصل على درجة جامعة اكتفاء بشهادة متوسطة من المدارس الأجنبية فصار يجيد اللغتين الفرنسية والإنجليزية، ثم خاض ميادين الصحافة، محررا هنا وهناك، وأصدر مجلة اسمها «العالم» واشترك مع محمود أبى الفتح (١٨٨٥ - ١٩٥٨) ومحمد التابعى (١٨٩٦ - ١٩٧٦) فى إصدار جريدة المصرى، وبقى على ولائه للصحافة إلى أن عرف حياة السجون فى العهد

الثورى.

ومن المفارقات أنه نال رتبة الباشوية مثل ابيه خليل باشا الذى كان عضوا معينا فى مجلس الشيوخ، وكان محظورا منح أى ألقاب إلى أعضاء مجلس البرلمان حرصا على استقلال البرلمانيين كما أنه توفى فى ١٣ مارس ١٩٦٤ قبل وفاة أبيه فى ٨ مايو ١٩٦٤ بستة وخمسين يوما.

ولابأس أن أذكر حكاية طريفة فقد كنت واقفا فى مطبعة الجريدة أشرف على تنضيد صفحاتها، عندما جاءنى كريم باشا وطلب ورقة وقلما، فقدمت إليه الورقة وأخرجت قلمى من جيبى فكتب بقلمى نص البلاغ الرسمى الذى صدر معلنا طلاق الملك فاروق عن الملكة فريدة وطلاق شاه إيران من الإمبراطورة فوزية، وطلب نشر هذا الخبر فى صفحة داخلية وليس فى الصفحة الأولى، وفى اليوم التالى نقلت جميع الصحف الصباحية هذا البلاغ الرسمى بنصه من جريدتنا المسائية وهو البلاغ الذى كتب بقلمى!.

لم يعمر كريم باشا فى رياسة تحرير المقطم، لأنه اختلف مع بقية شركائه من أصحاب الجريدة، ورفع دعوى أمام المحاكم طالبا تصفية الجريدة وإعطاء كل ذى حق حقه، وظلت القضية متداولة فى المحاكم إلى أن قامت الثورة وعجلت بإغلاق الجريدة فى نوفمبر ١٩٥٢.

خليل ثابت باشا (١٨٧٠ - ١٩٦٤)

كان أصحاب المقطم، وهم الدكتور فارس نمر باشا (١٨٥٦ - ١٩٥١) والدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) وشاهين مكاريوس (١٨٥٣ - ١٩١٠) يصدرون فى الخرطوم جريدة باللغتين العربية والإنجليزية اسمها «سودان تيمس» واختاروا خليل ثابت لرياسة تحريرها، فبقى يواصل العمل فيها خمس سنين، وعندما قامت ثورة ١٩١٩ هوجم مقر جريدة المقطم فى القاهرة بدعوى أن الجريدة كانت إنجليزية الهوى - فى حين كانت الأهرام فرنسية الهوى وكان صاحباها يتمتعان بالرعوية الفرنسية، وكانت جريدة اللواء لمصطفى كامل باشا (١٨٧٤ - ١٩٠٨) عثمانية الهوى، فارتأى الدكتور فارس نمر باشا أن يتخلى عن رياسة تحرير المقطم، وجىء بخليل ثابت من السودان لكى يتولى هذه المهمة بموضوعيته واعتداله، وهو ماخفف من وطأة الحملات على الجريدة بدعوى أنها إنجليزية الهوى، وبقى ثابت يمارس سلطات رئيس التحرير منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٤٥ وكانت مقالاته اليومية الضافية تعليقا على الأخبار المحلية والعالمية والعربية والاقتصادية تستأثر باهتمام القراء، واستمر يكتبها حتى بعدما تخلى عن رياسة التحرير لابنه لأنها كانت ركنا أساسيا فى الجريدة.

واتخذ خليل ثابت من مقر الجريدة منزلا له، يستيقظ فى الساعة الخامسة

صباحا ينتقل من غرفة النوم إلى غرفة المكتب ويطالع البرقيات الواردة بآلة التيكر (المبرقة الكاتبة) ثم يستمع إلى إذاعة لندن ويعكف على كتابة مقاله اليومي. وكان يرى أن ساعات العمل مقدسة، فلا يغادر مكتبه إلى أى جهة لأنه حريص على أن يقرأ كل حرف فى الجريدة بل أن يصحح بنفسه جميع تجارب المطبعة بما فى ذلك الإعلانات المأجورة حتى لاتقع فيها أخطاء طباعة أو لغوية، بل كان يبيح لنفسه حق مراجعة حتى خطب العرش وخطب المسئولين ويصوب ما قد يلحظه فيها من أغاليط اللغة.

وعندما قرر خليل باشا أن يتقاعد، كتب مقالا يودع به قراءه، ولكننا رفضنا نشره على أمل أن يعدل عن قراراته، وهكذا منعناه من نشر آخر مقال له.

الدكتور فارس نمر باشا (١٨٥٦ - ١٩٥١)

هو ثالث باشاوات «المقطم» وإن كان أكبرهم سنا وأعرقهم صلة بالجريدة لأنه من مؤسسيها عند صدورها فى عام ١٨٨٩ وعاصر حياتها حتى قبل احتجابها بعام واحد لأنه توفى فى ١٩ ديسمبر ١٩٥١ بينما أغلقت الجريدة فى نوفمبر ١٩٥٢، وهو لبنانى الأصل عرف اليتم منذ طفولته وكان فى الرابعة من عمره عندما نشبت حرب الستين (عام ١٨٦٠) ولهذا بات يؤرخ ميلاده منذ عام ١٨٥٦، وبسبب يتمه دخل دور الأيتام فى لبنان وفلسطين ولكن استعداده للتعلم هيأ له فى نهاية الأمر أن يتخرج من جامعة بيروت الأمريكية (وكانت تسمى وقتها الكلية الإنجليزية السورية)، ولما نال درجة البكالوريوس منها فى أول دفعة للخريجين عين فيها استاذا لعلم الفلك (وكان يسمى وقتها بعلم الهيئة)، وكان فى الثلاثينات من عمره عندما منحته جامعة نيويورك درجة الدكتوراه الفخرية.

بدأ حياته الصحفية فى بيروت مع زميله الدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) عندما أصدرا نشرة علمية شهرية اسمها «المقتطف» تعنى فى المقام الأول بمتابعة التطورات العلمية فى العالم، فلما ضاقت السلطات العثمانية التى كانت تهيمن على بلاد الشام بهذه النشرة لأنها توقظ العقول النائمة، قرر نمر وصروف الهجرة إلى أمريكا عن طريق القاهرة، ولكن وزير المعارف مصطفى رياض باشا (١٨٣٤ - ١٩١١) أقنعهما بالبقاء فى مصر ومواصلة رسالتهما العلمية، فانشأ مطبعة لاستئناف إصدار «المقتطف» فكانت المطبعة تنشغل عدة أيام فى طباعة هذه المجلة الشهرية ثم تعانى من البطالة بقية الشهر، وعندها قررا إصدار جريدة يومية لتشغيل المطبعة أسمياها «المقطم» وجعلاها مسائية وانضم إليهما فيما بعد شريكهما الثالث شاهين مكاريوس.

عندما عرفت الدكتور فارس نمر باشا

فى المقطم كان وقتها فى التاسعة والثمانين من عمره وكان يعانى من جملة من الأمراض تحول دون انتظام حضوره فى الجريدة، ومع ذلك كان يتابع أوضاعها عن كثب، ومع أن مكتبه كان يقع أسفل مكتبى. فكان يحرص برغم سنه العالية كلما جاء إلى الجريدة أن يتحامل على نفسه ويصعد إلى الدور الثانى ليتحدث معى اشفاقا منه على إضاعة وقتى فيما لو هبطت إلى مكتبه فى الطابق الأرضى، وكنت على فترات أتلقى منه ملاحظات مكتوبة تتعلق بالجريدة عموما أو بما أنشره فيها، وعندما تخلى خليل ثابت باشا عن عمله فى الجريدة وتوقف عن كتابة مقالات الصدر، كلفنى فارس نمر باشا بأن أتحمل مسئولية كتابتها على الرغم من استهوالي هذه المهمة بسبب فارق السن والخبرة بينى وبين خليل باشا وهو نحو خمسين عاما. ومع ذلك قبلت التحدى ولم أتوقف عن كتابة مقالات الصدر إلا عند اعتقالى فى أكتوبر ١٩٥٢ بعد تلويحات من وجيه أباظة المسئول وقتها عن الصحافة بإرسال دبابة لاعتقالى، لأننى إذا تناولت فى مقالاتى موضوعات مصرية لم تعجب سيادته وإذا تناولت موضوعات دولية كالحرب فى الشرق الأقصى استنكر أن نترك مصر ونعيش فى الهند الصينية التى كانت تدور فيها حرب عوان.

وبسبب ضعف حاسة السمع عند فارس نمر باشا، صار يحمل معه بوقا يشبه بوق «الفونوغراف» العتيق فيضعه على أذنه سواء وهو يستمع إلى محاضرة أو وهو يشارك فى اجتماعات مجمع اللغة العربية المصرية باعتباره من أعضاء المؤسسين، وفى آخر يوم من حياته المديدة استدعانى ليسدى إلىّ نصائحه الأخيرة، وكان ممددا فى فراشه فى جلباب أبيض وأنا جالس إلى جواره وظل يتحدث بصوت خفيض نحو ساعة، وعندما غادرته دخل فى غيبوبة انتهت بعد يومين بوفاته عن ٩٥ عاما.

فكرى أباظة باشا (١٨٩٧ - ١٩٧٩)

لم تتح لى الظروف أن أعمل مع فكرى أباظة باشا فى مجلة «المصور» التى أسسها ورافق مسيرتها إلى آخر عمره حتى وإن أكره على تركها بسبب آرائه التى لم تلق قبولا من المسئولين بعد التأميم، ولكننى لجأت إلى فكرى باشا عندما كنت أقوم بتدريس علوم الصحافة فى الجامعة الأمريكية، وكنت بهذه الصفة مشرفا على نادى الصحافة فى الجامعة، فقد كنا وقتها دعونا خليل ثابت باشا لإلقاء محاضرة فى النادى، ورغبنا إلى نقيب الصحفيين فكرى باشا أن يشهد هذه المناسبة ويفتتحها بكلمة ترحيبية، وبمجرد أن هاتفته رحب بدعوتى وجاء فى الموعد المضروب وكان كالعهد به خطيبا



مفوهاً يمزج الفكاهة بالجد ويسوق النصائح لشبيبة الصحفيين بأبوة وتعاطف جميلين.

كانت هذه هى المرة الأولى التى «تعاملت» فيها مع فكرى أباظة باشا.

أما المرة الثانية فكانت عند فوزى بجائزة فاروق الأول للصحافة التى كان يمنحها سنويا إدجار جلاد باشا صاحب جريدتى «الجورنال ديجيبت» و«الزمان» وهو أيضا من باشوات الصحافة الذين عرفتهم عن قرب، فقد أقام جلاد باشا مأدبة عشاء كبرى فى فندق شبرد القديم - قبلى احتراقه طبعا - دعا إليها مئات من رجال الدولة والصحافة وزوجاتهم وكانت المناسبة هى توزيع الجوائز على الفائزين، وكنت أحتل المنزلة الأولى بينهم، وطلب جلاد باشا من فكرى أباظة باشا أن يلقى كلمة باعتباره رئيسا للجنة التحكيم فى هذه الجوائز، فتحدث طويلا وأثنى على ثناء مستطابا واستشهد بمقالاتى فى «المقطم» قائلا ما معناه إننى كنت أصاول فيها عتاة الاستعماريين مثل ونستن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيته أنطونى إيدن والرئيس الأمريكى الصهيونى هارى ترومان وكانت تزكيته لى شهادة اعتززت بها على مدى العمر وشكرته عليها بعد انتهاء الحفل ولاسيما لأن فكرى باشا عرف طول عمره بالمعارضة، فكيف يقف هذا «المعارض الأزلى» أمام هذا الجمع الحاشد ليدافع عن شاب لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره، بعد - وهو باشا فى عمره الرخى، ولا غرو، أن ينتخب ويعاد انتخابه نقيبا للصحفيين لأنه كان عنوانا مشرفا لمهنة الصحافة التى احترفها هاجرا مهنة المحاماة التى مارسها فى فجر حياته.

★★★

وثمة ملاحظة أبديها عن هؤلاء الباشوات وعصرهم، فإن هذا اللقب الارستقراطى لم يحولهم إلى آلة يتعالون على الناس ويوصدون أبوابهم أمام الراغبين فى لقائهم، أو يتهربون منهم بأعذار ملفقة يطلقها جهاز السكرتارية الملحق بهم، لقد كانوا جميعا على قدر متناه من التواضع، فأبوابهم مفتوحة، حتى أبواب أنطون الجميل باشا (١٨٨٧ - ١٩٤٨) رئيس تحرير أكبر جريدة يومية فى وقتها، وكان التواصل معهم شخصيا أو بالهاتف ميسرا، ولم نكن نعرف الحواجز بل المتاريس التى استحدثت فى يومنا هذا باسم مكاتب الأمن ومكاتب الاستقبال ومكاتب السكرتيرات لتصد الناس عن الوصول إلى هؤلاء الباشوات، وكنت فى بداية عمرى أحسب أن مجرد رؤية واحد من الباشوات يورثنى رهبة ورعبا لأنهم من طبقة السوبرمان، فلما تعاملت مع هؤلاء، أيقنت أنهم بشر مثلنا. ■

قصة
قصيرة



بقلم

زكى سالم

لم أتردد لحظة فى قبول دعوة صديق طفولتى، الدكتور فكرى، لقضاء يوم فى بيته الريفى، فأنا أعانى منذ فترة من حالة قبض شديد، ولا أعرف كيف أخرج مما أنا فيه!

مر على بسيارته فى الصباح الباكر، وانطلقنا معا للخروج من أسر القاهرة وبينما السيارة تنساب بنعومة على صوت موسيقى خفيفة دافئة، شعرت أن صمت فكرى، وهذه النغمات الساحرة تمثل لي نوعا من العلاج!، ففكرى بطبيعته كثير الكلام، ويكاد لا يتوقف أبداً ! لكنه دعانى وحدى ليعطينى الفرصة لكى أفضفض، وها هو الآن يتركنى براحتى انظر إلى الخضرة عبر الطريق، وأتأمل بهدوء كل ما بداخلى!

وبعد أن قطعنا تقريبا نصف الطريق، قال لى ضاحكاً: هل أنا صامت لأكثر من نصف ساعة، ألا أستحق جائزة؟

- نعم، وجائزتك أن تجد من يستمع إليك حتى نهاية الطريق .

- لا ! سأكمل معك اللعبة إلى أن تتكلم

-أنت تعلم الموضوع جيداً .

- ولكنك أنت لا تعلم بالضبط أبعاد مشكلتك!

- ..!

- إننا لا نعلم أبناءنا ونربيهم لكى ينفذوا أوامرنا .

- الأمر ليس أوامر وأنا علمتها الحرية، وهى حرة، لكننى أشفق عليها جداً !

- أنت قلت هى حرة، خلاص ياأخى، دعها لمن اختارت أن تتزوجه .

- يافكرى أنا لو غلطان قل لى .

- نعم أنت غلطان ! أنت ربيتها، وعلمتها أحسن تعليم، وهى الآن دكتورة راشدة تعالج نفوس المرضى ومشاكلهم، وتعرف مصلحتها جيداً .

- هذه هى المشكلة، فبعد كل هذا التعليم هى لا تعرف مصلحتها،! وأنا لم أعد أعرف هل هى طبيبة نفسية، أم مريضة نفسية!

- حتى لو صح أنها لا تعرف مصلحتها، فكذلك الغالبية العظمى من البشر، لكننا لانحجر عليهم .

- لكنهم ليسوا ابنتى

- أنا أعلم كم تحبها لكنك أنت الذى علمتها كيف تفكر بشكل مستقل، ولا تتبع مفاهيم الآخرين وأفكارهم ، فلا تحزن الآن عندما تراها تفكر بطريقة مختلفة، ثم هى ليست أول من تتزوج من رجل متزوج .

- المشكلة ليست فقط أنها تزوجت رجلا متزوجا وعنده أبناء! ولا

أنها أضاعت الكثير من الفرص الممتازة للزواج المناسب، وأى منها كانت أفضل ألف مرة من هذه الزيجة الخاطئة، ولا القضية - فقط - أنها تستحق أفضل من هذا بكثير، لكن ما يحزننى بعمق، ويملأ نفسى حسرة، هو شعورى أنها تصرفت بطريقة لا أخلاقية .

- لا تقل هذا، أنها تزوجته على سنة الله ورسوله .

- لا يافكرى ! فلكل عصر ظروفه، ولكل زمان اجتهاداته، ولكنى لن أدخل معك فى مناقشات فقهية . فثمة امرأة كانت آمنة فى بيتها، مع أبنائها وزوجها، ثم جاءت ابنتى أنا، وخربته .

- لا تنظر إلى الأمر بهذا الشكل، ثم أليست زوجته الأولى مازالت على ذمته؟

- نعم، ولكنك حتى لو قلت أن هذه المرأة الأخرى هى أسوأ امرأة فى العالم، ماذا يمكنك أن تقول فى ثلاثة أطفال صغار! أخذت ابنتى منهم أباهم، هذا الأحمق!

- لا تعقد الموضوع.

-صدقنى ربما أكثر ما يؤلمنى فى هذا الأمر، هو صورة ابنتى التى لم أكن أتصور أنها يمكن أن تكون هكذا!

- إذن أنت حزين على نفسك، وليس عليها !

- كلامك صحيح، فأنا كنت أتصور أننى ربيت ابنتى جيداً، ونقلت لها الكثير من المفاهيم الدينية والأخلاقية، وربما أنا حزين لشعورى بالفشل المهين !

- لاتقل هذا، أنت علمتها أن تختار، وهى قد اختارت، فدعها وحياتها التى اختارتها.

- كنت أتصور، ويبدو أن كل من حولى كان يتصور كذلك أنها تشبهنى تماماً، ليس فى الشكل وحده ولكن فى طريقة التفكير، وفى نظرتنا المشتركة إلى الأمور كلها! حتى أننى ظننتها حقا مثلى!

- لا أحد مثل أحد.

- عندك كل الحق، لكننى أشعر بمسئوليتى عن منظومة القيم التى تشكلت لديها عبر السنوات.

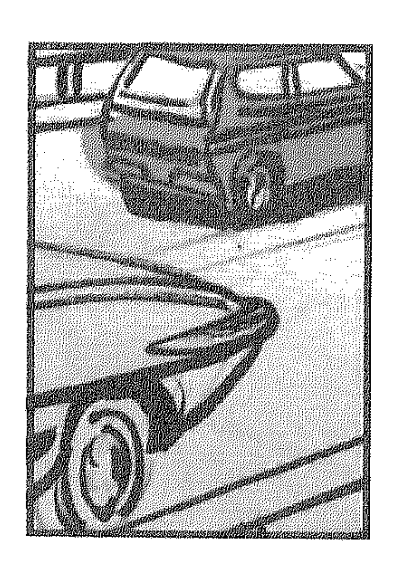
- نعم أنت بالتأكيد تتحمل جزءاً من مسئولية ما تعلمته من القيم الأخلاقية، ولكن هذا ينطبق عليها وهى طفلة، أو وهى صبية، ولا ينطبق عليها بعد أن أصبحت

راشدة وطبيبة مسئولة، ولها قيمها وأفكارها الخاصة.

- ربما وربما ثمة مشكلة فى منظومة القيم لدى أنا، وربما أيضا ما أحمله داخلى لم يعد يتناسب مع قيم العصر الذى نعيشه!

- هذا العصر ليس عصرنا، هذا عصرهم وهم أبناؤه ولهم طريقتهم وأسلوبهم ومفاهيمهم المناسبة لزمانهم .

- لن أقول لك: إننى كنت أتمنى أن تختار حبيبتى حياة طبيعية مع شاب مثلها لم يتزوج من قبل، ويريد أن يبنى بيتا سعيدا مع ابنتى ، فضياع هذا الأمل الجميل ليس وحده هو المشكلة، لكن المشكلة أنها بعد كل هذا القدر من التعليم لا تعلم حقيقة إنسانية فى غاية البساطة، وهى أنه لا يمكن لأى إنسان أن يبنى سعادته على أنقاض



تعاسة إنسان آخر .

- هذه حياتهم ولا يمكن لنا أن نختار لهم حياتهم.

- نعم لتختر ما تشاء لكنها للأسف أساءت الاختيار جدا.

- لا أحد يعلم المستقبل ولكل قاعدة استثناء وقد تسعد باختيارها.

- مستحيل أن تسعد على أنقاض بيت آخر، صدقنى ثمة قواعد فى هذا الوجود بلا استثناء .

- لن تهتدى من أحببت .

- هذه هى الحقيقة التى أعلمها جيداً، ولكننى حزين، حزين جداً من أجلها، فبدلا من أن تختار حياة هادئة بلا منغصات، اختارت مشاكل أكبر منها، ولن تنتهى أبداً !

- لاتحزن. كل إنسان يأخذ نصيبه.

- صدقت . سأقول لك شيئاً، مع الفارق طبعا، هل يمكنك أن تتصور شعور النبى نوح - عليه السلام - وهو يحاول أن يقنع ابنه أن الجبل لا يمكن أبدا أن يعصمه من الطوفان!

- ثمة أشياء لا نتعلمها عندما تقال لنا، إذ لابد أن نخبرها بأنفسنا !

- صحيح، لكنها ربما كانت القاضية!

- لم يعد لك فى الأمر شئ

- وهناك شئ آخر، عميق جدا بداخلى، ولا يمكننى أن أقوله لأحد ولكنى سأقوله لك، أنا لم أكن أتخيل أبدا، أن

تتعامل من ربيتها على يدى كل هذه السنوات الطويلة، بكل هذه البساطة، والاستخفاف برائى واعتراضى.

- اعتراضك لا يجب أن يقف ضد مصلحتها

- لك كل الحق! وأنا لا أضع نفسى فى مقارنة مع أحد، فهذا لايصح ولايجوز، ولكن فكرة أن دورى قد انتهى، وأننى لابد أن أفسح الطريق ..

- لا . لا تنظر إلى الأمر بهذا الشكل.

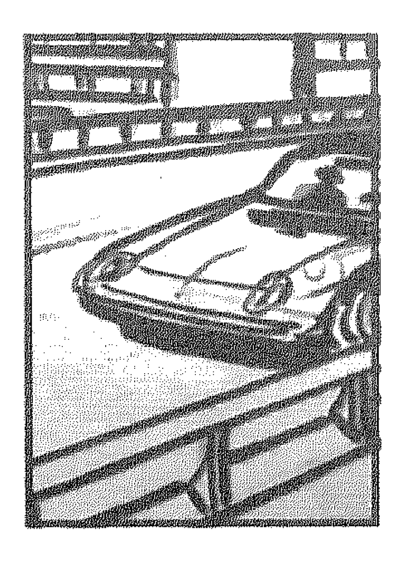
- القضية لم تعد قضية نظر!

- أى شئ تعنى؟

- أنا الآن أصبحت بعيداً تماما عن ابنتى الكبرى التى أعبدها، والتى كانت فى يوم ما تحبنى!

- يجب أن تتجاوز هذا الموضوع تماما.

- معك حق ، لكننى غير قادر على نسيان ثلاثين سنه! كيف أنسى



كل هذه السنوات؟!

أتعرف لو كنت أربى حيوانا، قطة أو كلبة، كل هذه السنوات، أو نصفها أو ربعها أو حتى عشرها، ما كان يمكن أن تفعل بى هذا!!

- برغم كل هذا، ما كان لك أن تعاقبها.

- أنا لم أعاقبها بل ياللمهزلة - هى التى تعاقبنى وتقاطعنى !

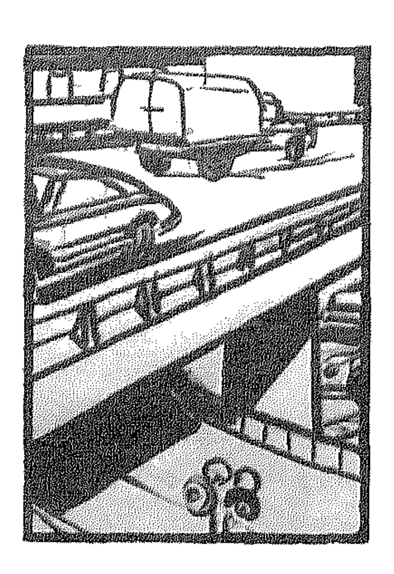
- هانحن قد وصلنا، حمد لله على السلامة.

ما أبسط هذا البيت الريفى الجميل، الممتلئ بالسكينة والطيبة، وهذه السيدة الرائعة أم فكرى التى تعاملنى بأمومة أحتاج إليها بشدة، ثم قابلت ستى! لقد قابلتها مرات قليلة قبل ذلك لأنها تقضى أغلب وقتها تتعبد فى حجرتها ودائما ما أتذكر كلماتها القليلة النافذة، وقد كلمنى فكرى عنها كثيراً، فهى فى الحقيقة ليست جدته، لكنها مربية أمه! ومن الطريف أنها حتى الآن تخاطب أم فكرى بقولها ياستى، وأم فكرى تقول لها أيضا يا ستى، وتعتبرها بركة البيت. وقد تجاوز عمر ستى الآن المائة عام ربما بكثير من السنوات!

فلا أحد يعلم عمرها بالضبط! لكنها بصحة جيدة ! وتكاد لا تأكل شيئاً ! حتى إنهم جميعا يتعجبون من أمرها، كيف تعيش هكذا تقريبا بلا طعام!

وبعد الغداء الشهى جلسنا نشرب الشاى بين الأشجار وأمامنا

الخضرة ممتدة، ثم جاءت ستى تتحرك وحدها وهى تستند إلى عصى قديمة جلست معنا، وبينما فكرى يحاول أن يداعبها ويجذبها إلى الحديث التفت إلي وقالت إلى اسمع: أتعرف كيف عرفت أنه أختارنى؟ لاتصدق أننا نحن الذين نسعى إليه أبداً ! هو الذى يجذب إليه من يشاء، ويختار! ففى بداية الطريق ، والطريق كله - كما تعلم بدايات ! كنت لا أتعلق بشئ إلا وأخذه منى! حتى أخذ منى زوجى نفسه ! أخذه وأخذ ابنائى ! لكنه ترك لى ستى، تركها لى لأخدمها، ولا أدرى لماذا تحاول هى أن تخدمنى! وأنا لا أتعلق بها ولا بغيرها أبداً ! فأنا الآن إذا حدث والتفت لشئ ما، مجرد التفاتة، أخذه على الفور !!! لهذا منذ زمن طويل، وأنا لا التفت لأى شئ فلا يوجد فى قلبى سواه



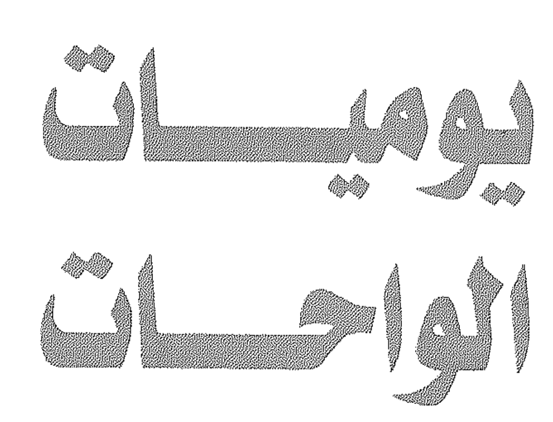
أتعرف لايمكنك أبدا أن تتصور كم يغير على ! فهو غيور جداً !!!

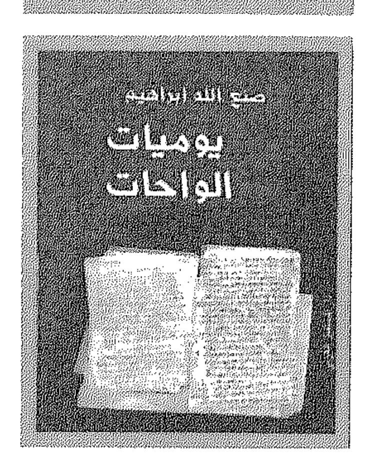
وقبل المغرب شكرتهم جميعاً فقد أمضيت يوما طيبا ودافئاً جداً، كنت فى أشد الحاجة إليه، ثم قلت لفكرى هيا بنا حتى لا يحل الظلام علينا فى الطريق .

وفى طريق العودة، كان الحال غير الحال! فلا شئ يدوم، وانطلق فكرى فى الحديث، ينتقل من موضوع إلى آخر، دون أن يتوقف، وأنا أيضا انطلق لسانى فجأة بلا إذن منى! فأخذنا نتجاذب أحاديث عديدة مختلفة، ونتذكر معا أشياء كثيرة من أيام طفولتنا البعيدة، نتذكر أشياء قديمة جداً، لكنها تضحكنا حتى تمتلئ عيوننا بالدموع ! إلى أن قال لى : لا تعرف كم أنا سعيد أنك أخيراً خرجت مما كنت فيه، لا شىء صدقنى مهما كان يستحق فى عمرنا هذا- أن نتوقف عنده فالحياة قصيرة جداً، وقد مر من أمامنا الجانب الأكبر منها ! وها هى تنطلق بسرعة فائقة، وتضاعف من سرعتها كل يوم!

لقد فوجئت بكل هذا الضحك، والانشراح والانبساط، دونما سبب يذكر ! بينما كلماتها ظلت تتردد داخلى بقوة وعمق، فهو وحده الذى يختار ما يشاء، ويحب من يريد، وهو - أيضا - غيور جداً ! ■

صنع الله إبراهيم كاتباً .. فى



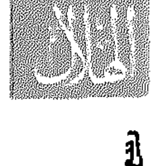


بقلم
إبراهيم فتحى

كتاب اليوميات هو فى حقيقته وفى محوره مذكرات سنوية تمتد من ١٩٦٢ حتى ١٩٦٤ وتتوزع على بعض الشهور لا الأيام . وهذه المذكرات الطازجة التى كتبت فى تلقائية وقوع أحداثها والاستجابة لها يتصدرها مدخل يربط حلقات حياة صنع الله فى معنى شامل إبان صباه وشبابه . كما يتخلل الذكريات جميعا هوامش تجىء بعد نهاية اليوميات التى تؤكد أنه أكبر مغامرة تدبرها فى حياته بل والتى شكلت نسيج حياته ومعناها هى أن يكون وأن يصير كاتبا .

وفى تلك المغامرة الممتدة بطول العمر كان السجن هو جامعته التى عايش فيها القهر والموت ، ورأى بعض الوجوه النادرة للإنسان وتعلم الكثير من عالمه الداخلى وحيواته المتنوعة ومارس الاستيطان والتأمل وقرأ فى مجالات متباينة . وإذا كان السجن هو جامعة الكاتب فإن أباه هو المدرسة التى سبقت الجامعة . فلقد كان بالنسبة لروائى المستقبل حكاء عظيما يتقن سبك حكاياته ونوادره المختلفة النابعة من تجاربه أو قراءاته . لقد تشرب من مدرسة والده احترام الكثير من القيم الدينية السامية وكراهية المحتل الانجليزى والملك والأحزاب الفاسدة والاستعداد للتمرد على الأوضاع والأفكار الرسمية الحاكمة . ولكن هذا الأب المدرسة كان مثل الكثيرين من أبناء عصره يحمل تناقضا فى ملامحه الفكرية ، فهو يؤمن بالكثير من الأمور الغيبية وبالسحر والشعوذة . وحينما بلغ الصبى فى نموه مرحلة التمرد على الأب الذى علمه التمرد على الأوضاع لم يجد هدفا لتمرده إلا فى الجزء الخرافى من أفكار الأب .

ومن البداية ومن الطبيعى لموهبته الكامنة أن يكون مولعا بعالم القصص الساحر أنى وجده ، وقد وجده فى روايات الجيب الشهيرة التى شجعه أبوه على قراءتها وكانت تنشر ملخصات مترجمة وافية للروايات العالمية من كلاسيكية إلى بوليسية بأسلوب لغوى عصرى بعيد عن التقعر. ومنذ هذا الوقت المبكر شديد التبكير حاول الكتابة محاكيا الروايات البوليسية . فهل استهواه واستمر معه فى كتاباته الناضجة بعد ذلك هذا البناء البوليسى القائم على التساؤل والحيرة على اللغز والتشويق قبل الحل؟ . وفى مرحلة المراهقة كان لابد أن تتغير اهتماماته ونوعية قراءاته فاتسعت لقصص ذات طابع حسى ساخن . فهل ظلت التجارب الحسية والجسدية الحميمة موضع اهتمام الكاتب الناضج كأثر من آثار فترة المراهقة ؟ لقد اشترك فى مسابقات أدباء القصة الشبان وفاز بجوائز لم يقبض قط جنيهاتها شديدة الضآلة . وكانت قصة فائزة يقول عنها الآن إنها ساذجة للغاية تحمل عنوان «الأصل والصورة» كما يقول إنه لم يدرك وقتها أن حياته ستدور كلها حول هذه المقارنة الصعبة ، والمحاولة المستمرة للمواءمة بين المثال والواقع . وفى هذه الفترة العاصفة بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ كان من الطبيعى أن تتسع اهتماماته للموضوعات السياسية وبدأ فى تكوين ارشيف سياسى من المواد والقصاصات الصحفية . ومع السياسة احتضن الأرشيف صور نجمات السينما الشهيرات اللائى يتميزن بصدر أعظم وسيقان ذهبية وشفاه دافئة غليظة . ويقول صنع الله إنه قد لازمته عادة تكوين أرشيف سياسى إلى الآن وإن اختفت منه



صور الممثلات بالتدريج . إن صنع الله في تأويله لملامحه المتطورة الثابتة يحاول أن يستفيد من الرجوع إلى الوراء بدءا من الحاضر لينتقي عناصر يراها محورية ويغفل آلاف الأشياء الأخرى من الماضي . وهو يستعمل الاستعارة النباتية بحيث تبدو لنا «بذرة» صنع الله متحققة بسماتها النموذجية من الطفولة إلى المراهقة والصبا في خط مستقيم ودون انقطاعات أو وثبات أو عناصر لا واعية قفزت إلى الوعي بمرور الزمان .

عالم الكبار المثير

وبالمثل نجده يبحث عن بذور وجذور مواقفه السياسية بعد ١٩٥٢ مباشرة ، فقد التحق بجامعة القاهرة لدراسة القانون وسرعان ما هرب من قاعة المحاضرات إلى عالم الكبار المثير وحرر بمفرده جريدة حائط باسم الحزب الاشتراكي دون أن يعلم هذا الحزب شيئا عنها . وفي هذا إيماءة إلى موقف مستمر له ، ربما لم يكن يعيه بالكامل أيامها وربما لم يكن يتخذه بتماسك أو دون اختلاط بعناصر غريبة عنه هو علاقة مشروع الكاتب أو الكاتب في مرحلة التكوين أو الكاتب الناضج بالتنظيم السياسي . إنه لا يأبه كثيرا بالطاعة الحزبية الضيقة ولم يرد قط أن يكون عمودا من أعمدة الجهاز الداخلي. ويمعنى من المعاني إنه لا ينضم إلى التنظيم بالمعنى الحرفي أي إلى سلمه وواجباته المرحلية بل يضم التنظيم إلى مثل وقيم ومبادىء ورؤى يؤمن هو بها . وهو يقول في الفذلكة الختامية : «انقطعت صلتي التنظيمية ب «حدتو» منذ لحظة الإفراج دون قرار منها أو مني . فلم يسع أحد منا إلى الآخر . وفيما بعد لم اشترك لا في الاتحاد الاشتراكي أو التنظيم الطليعي ولا حضرت أيا من ندوات لجنة الفكر والدعوة .. لم يدعني أحد لشيء من ذلك فلم أكن بذي شأن . كما كانت لي أجندتي الخاصة» (ص ١٩٦) .

لقد كانت له دائما أجندته الخاصة.

بعد جريدة الحائط تستحضر ذاكرته إصدار مجلة مطبوعة باسم «أنوار الجامعة» اقتفاء لأثر تجربة مجلة ناجحة اسمها اخبار الجامعة . ولكن الثقب في الذاكرة ينسب أخبار الجامعة إلى «محمد جلال» دون تعريف. إنه ليس الروائي المعروف ولعله يقصد محمد جلال كشك مسئول الطلبة أيامها في منظمة الحزب الشيوعي المصري (الراية) . ولكن مجلة محمد جلال لم تكن على الاطلاق «أخبار الجامعة» المتعاونة مع أخبار اليوم بل كان اسمها الطلبة . ولعل ثقب الذاكرة أدمج لحظة من الماضي مع لحظة جاءت بعدها . كان محمد جلال في المجلة الجامعية مذهبيا ماركسيا متنطعا يهاجم الخميس لأنه قصاص ويهتم بدور الموسيقى في تحرير الإنسان المصري ولا يضع في الصدارة نضال الطليعة قائدة الجماهير . ولكنه بعد ذلك أصبح ناصريا متشددا يحاكم الصحفيين في الاتحاد

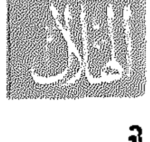


الاشتراكى . ثم أصبح إسلامياً متشددا وكان فى حاجة إلى هامش فى الكتاب الذى زادت هوامشه على المائة والخمسين هامشا فيما يقرب من التسعين صفحة . أما صنع الله الأورفيلى - كما كان يكتب اسمه الثلاثى - ففى اجندته الخاصة مقال عن الشاعر الهندى طاغور وعرض لكتاب بوكاشيو ديكاميرون . وفى صحبته التى ضمنت فى هذه الفترة مصطفى الحسينى ومحفوظ عبدالرحمن وفاروق منيب وجيلى عبدالرحمن وتاج السر الحسن وغيرهم كان وعيه يتعمق ويكتسب اتجاها من قراءة أعمال عالمية والتعرف الشخصى على يوسف إدريس وصلاح حافظ . وكان يكتب القصص - التى لم تنشر - على المنوال الواقعى الرومانسى الذى تجلى لدى الخميسى والشرقاوى ولا تقف الذكريات عند هبة مارس الديمقراطية (١٩٥٩) وتناقضاتها ونهايتها المأساوية باعتقالات ضخمة وتأثيرها الضخم فى شكل الحكم بعدها .

الالتحاق بتنظيم حديتو

وفى تلك الفترة قرر الانتقال من المظاهرات والندوات إلى الفعل المنظم ، وكانت من المظاهرات رواية جوركى الأم قد سحرته فالتحق بعد قراءتها مباشرة بتنظيم حدتو . فى مناظرة بالجامعة حول رؤوس الأموال الأجنبية غير ثقب الذاكرة اسم الدكتور وهيب مسيحة إلى عبد الوهاب مسيحة .

وبمناسبة جريدة حدتو الملايين يجىء تاريخ طويل لحدتو وانقساماتها لم يعاصره الكاتب أو يؤثر فى حياته فلم يكن مهتما فى فترته التنظيمية بتفاصيل الصراع الداخلى بعد ذلك . وليس مستغربا أن يتسع ثقب الذاكرة . فهو يتحدث فى صفحة ٢٠٢ عن عبد المنعم الغزالى - الكاتب المؤرخ العمالى- شقيق سيف الوفدى وزينب وحكمت الاخوانيتين والداعية الإسلامى المعروف محمد الغزالى . فحكمت الغزالى مناضلة شيوعية مسئولة فى قسم المرأة بحدتو والشيخ محمد الغزالى شقيق عبد المنعم الغزالى ليس الداعية المعروف فالأمر تشابه فى الاسماء . ويصفى صنع الله حسابه مع ماضيه التنظيمى ومع مؤسس حدتو هنرى كورييل فى عرض مطول يمزج بطريقة روائية فى الاختيار من كتاب «جيل بيرو» عن كورييل السياسية بكتابة الجسد (ص ٢٠٤) فى العشرين أصيب بالسأم والضجر . إنه وسيم يقص شعره على الموضة وله ابتسامة ساحرة تفتن الفتيات . ينتقل من واحدة إلى أخرى ويحب اجتذابهن وأن يؤخذ منهن غلابا يحب أن تغتصبه المرأة إلى حد ما ، ويبدى مقاومة فى بعض الأحيان ، فلاحقته الشائعات حتى قبره بأنه عاجز جنسيا . ضعيف صحيا فيتعاطى الكثير من المنشطات والمنبهات وخاصة المبتدرين مما جعله يبدو دائما على حافة الانهيار وجعل أعصابه متوترة لأمد طويل . وصار نباتيا متحمسا يتردد على بيوت الدعارة



ويناشد العاهرات ترك وضعهن كأدوات جنسية . كما يعتقد فى الأبراج.

ولقد ذهب صنع الله ليلتقى بمجموعة كوربيل فى باريس عام ١٩٨٦ ليكون فكرته عن كوربيل على الطبيعة بعد اغتياله . وهو يرى أن التطورات السياسية دحضت فكرة كوربيل الرومانسية عن الكفاح المشترك بين الشعبين العربى واليهودى وهى فكرة خاطئة قامت على المساواة بين أصحاب الأرض والمستعمرين .

ويقول صنع الله إن يوسف حزان أخلص زملاء كوربيل أخبره بأنه كان مسئولا عن الرقابة فى حدتو واسمه الحركى كوكو (ربما كان هذا خطأ مطبعيا أو عدم دقة . إن كوكو هو الحروف الأولى من لجنة الرقابة المركزية (كوميتى دى كونترول سنترال) وليس اسما للسيد يوسف حزان . وهذه الكوكو كانت بغيضة أشد البغض عند الأعضاء طول تاريخ حدتو . وقد سأل صنع الله زميلة من أقرب المقربين إلى كوربيل هى جويس بلاو فى لقاء تم عام ١٩٨٦ ماذا كان كوربيل يعتبر نفسه عند وفاته ، وتوقع أن تقول كان يعتبر نفسه ماركسيا أو شيوعيا عالمياً أو شيوعيا تقليديا أو مواطنا فرنسيا أو مصرياً أو أى شىء . ولكنها ردت عليه فى شىء من التحدى كان يعتبر نفسه يهودياً . فقال لها إن اسرائيل تابعة للولايات المتحدة . فأشاحت بيدها قائلة فى حدة : اسرائيل هى التى تقول للولايات المتحدة ما ينبغى عليها أن تفعل ، وخيل إليه أن هناك شيئا من الفخر فى لهجتها (ص٢١٩) .

ولم يغفل صنع الله أن يذكر بعض المواقف الصائبة لكوربيل نقلا عن جيل بيرو وكتابه «رجل نسيج وحده» ولكن الصورة الإجمالية لا توحى بأن صنع الله يعتبره أستاذه أو زعيمه .

وفى فترة الانغماس الكامل فى الاحتراف السياسى هجر الجامعة وتخلص من القصص القليلة التى كان قد كتبها معتبرا أنها من عبث المراهقة وذلك فى لحظة حماس عابرة لأنه وهو يشارك فى لجنة تحرير مجلة الحزب السرية كتب قصة حب قصيرة للغاية عن لقاء غرامى بين فتى ثورى وفتاة ثورية وأراد نشرها فى لسان حال الحزب ولكن المسئول عن المجلة لم يتحمس للأمر . ثم قد قبض عليه وهو فى مظاهرة ، وفى السجن تعرف على أغانى سيد درويش المفضلة لدى الشيوعيين وعند خروجه لحظة إعلان عبد الناصر تأميم قناة السويس كان فى حذائه ورقة مهربة تتضمن النص الكامل لأغنية سيد درويش «شفتى بتاكلنى» .. فثورية صنع الله ثورية فنية فى عز احتدامها . وبعد ذلك انتقل مركز الثقل من العمل السرى إلى العمل الجماهيرى وشرع فى الاختلاط بالناس والتعرف على مشاكلهم ومحاولة الوصول إلى تجمعاتهم . وكانت تلك عملية شاقة للغاية كما يقول بسبب



شخصيته الانطوائية وهو لا يقف طويلا عند أى تجارب للنضال الجماهيرى . وصنع الله نموذج لما نكره جرامش من أن الفنان والمزاج الفنى لا يقدمان أفضل تأهيل لما يسميه المثقف العضوى الذى يعايش الطبقة الثورية فى تفصيلات حياتها وتحركاتها ويلتزم التزاما يوميا وسطها لا بقرارات الحزب الطليعى .

فالفنان تلزمه نزعة فردية حادة لاكتساب أدواته الفنية ورؤيته الخاصة المبتكرة وتجسيدها على غير مثال وإن التزم بالمبادىء والقيم الثورية التزاما صارما .

وقد عاد إلى الكتابة الصحفية وتعرف على الشهيد شهدى عطيه وعمل معه فى منشأة صغيرة للترجمة وكانت العلاقة ذات طابع شخصى ، إذ احتل شهدى موقع الوالد أو الأخ الأكبر الذى يشجعه على الابتكار وتنفيذ الاقتراحات الصادرة عن ذاته وسنرى شهدى يلقى بظله على إبداعات متعددة لصنع الله خارج السيرة الذاتية .

أخلص المخلصين

لقد تتلمذ عليه قبل السجن ، وانتمى إلى حدتو التى كان شهدى من أبرز قيادييها فى تلك الفترة ، ثم انتمى معه إلى حزب ٨ يناير ١٩٥٨ وخرج معه فى انقسام حدتو على هذا الحزب لأن الحزب كان يعارض عبد الناصر فى مسألة الديموقراطية أما حدتو وعلى رأسها شهدى من الناحية الإيديولوجية فكان تأييدها مطلقا . وقد يبدو هذا الأمر غريبا على تنظيم سرى يخالف قانون عبد الناصر فى تجريم الأحزاب والشيوعية بمجرد وجوده ليثبت أن أعضاءه «أخلص المخلصين» للرئيس ونظامه . ولكن المسألة فى حقيقتها تتجاوز هذه المفارقة التى طالما وقف صنع الله عندها فى كتاباته . فشهدى فى كتابه «تطور الحركة الوطنية فى مصر» استشهد بمقال لماركسى سوفييتى اسمه روياشتين عن الهند يتحدث عن طريق غير رأسمالى للبلاد المستقلة حديثا التى يمكن أن تحرق المراحل دون أن تمر بالضرورة بمرحلة الرأسمالية المكتملة . واعتقدت قيادة حدتو مع شهدى وخاصة بعد تأميم البنك الأهلى وبنك مصر قبل موجة تأميمات يوليه ١٩٦١ أن عبدالناصر ومجموعته معادين للرأسمالية ويسيرون فى اتجاه الاشتراكية وبذلك تصبح المطالبة بتعددية حزبية ومعارضة منظمة ارتدادا إلى الليبرالية الرجعية القديمة وتسليحا للقوى اليمينية التى صفتها الثورة ، فقد انتقلت مصر إلى مرحلة الثورة الاشتراكية وصارت المطالبة بالديموقراطية القديمة تخلفا ، فالديموقراطية الشعبية الممثلة فى الاتحاد القومى الذى ليس حزبا للبورجوازية والذى تنتخب عضويته من الجماهير مباشرة ويعد ذلك فى الاتحاد الاشتراكى لا ينقصها لكى تتحقق إلا وحدة العمل بين مجموعة عبد الناصر ومجموعة حدتو وحدها دون بقية

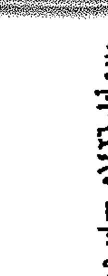
الشيوعيين المنحرفين المطالبين بديموقراطية ليبرالية . وتتحقق وحدة العمل هذه في هيكل تنظيمي واحد لهذه القوى الاشتراكية تمثل كاريكايتره في التنظيم السري الطليعي. ولا يتناول صنع الله تفاصيل الخط السياسي لحدتو في تلك الفترة . ولكنه يذكر أن الفصل الأخير من الدراما التي بدأت منذ أكثر من خمس سنوات بالاعتقال الجماعي للشيوعيين انتهت بتصفية الحركة المنظمة كلها ، فإن فقد الرؤية المستقلة والبرنامج المستقبلي أدى إلى إفقادهم مبرر وجودهم المستقل . وفي أواخر فبراير من عام ١٩٦٠ نقلت كوادر حدتو للمثول أمام محكمة عسكرية بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم (!!) وجرى الاعتداء عليهم في السجن . وفي المحكمة التي استمرت منعقدة ثلاثة شهور وقف شهدي عند انتهائها وودع القضاة العسكريين المعينين بقرار جمهوري وطالب بالافراج عن زملائه «للمساهمة في بناء الوطن كجنود مخلصين لحكومتنا الوطنية ولرئيسنا جمال عبد الناصر» وكان شهدي مؤمنا أعمق الإيمان بكل كلمة قالها في المحكمة بل إن كلماته في المحكمة كانت أقل إيجابية من تقييمه للحكومة في اجتماعات الحزب ، فقد تطورت كلمة وطنية فيها إلى الاشتراكية . وفي الرحلة إلى أبو زعبل اشترك معصم صنع الله مع معصم شهدي في القيد الحديدي وقضيا الوقت في الحديث عن الكاتب الامريكي همنجواي (لشهدي رواية اسمها حارة أم الحسين). يقدم صنع الله لوحة مؤثرة دقيقة لاستشهاد شهدي ، لوحة نابضة بالصدق دون افتعال أو ادعاء . لقد حاول جلاد من الجلادين بعد بدء التحقيق في القتل أن يعقد مع صنع الله مساومة ليشهد شهادة كاذبة (ولم يكن يعلم أن تحقيقا جديا بدأ) ويصف صنع الله تلك اللحظة من التوتر «بأنه شعر بالوحدة التامة وشل الرعب تفكيره وإرادته وصار مثل الروبوت المستعد لتنفيذ كل ما يطلب منه . قال الضابط . أنا عاوزكم تقولوا إنه حصل هياج وهتاف وبعدين حصل الضرب ولكن صنع الله استرد آدميته بعد أن رفض زميله ، فكرر عبارة الرفض وراءه» . هنا الصدق مع المبدأ ومع النفس ومع الرفاق . وهو يقول كفنان إن تجربة السجن والتعذيب علمته بشاعة القهر وإهدار الكرامة الإنسانية وعلمته النظر إلى الإنسان ككل متكامل مؤلف من نقاط قوة ونقاط ضعف . واحتل هذا الموضوع مكان الصدارة من تفكيره بعد ذلك . ونحن نرى ذلك في مقومات رسمه للشخصيات حتى ذوي الإنجازات البطولية مثل شهدي .

مشروع الكاتب

وفي أوقات مختلفة من تجربة السجن عند إغلاق الزنازين على أسراها يمكن تزجية الوقت كما يقول بذكريات ونوادر حكائين من الزملاء . وكان مشروع



الكاتب يترك الحكايات تحملـه على أجنحتها فيتخيل نفسه في أماكن غريبة : شواطىء بحار وغابات ووحوش أو صحراء لا نهاية لها . ويصوغ لنفسه في كل ليلة حياة مختلفة . فلاحا يجمع القطن أو بحارا في مركب أو حمالا في ميناء أو متسلقا للجبال أو صيادا أو عاملا في عنبر من آلاف العمال أو عالما في معمل كبير أو صحفيا . والكاتب الروائي وحده هو الذي تستهويه كل هذه الحيوات المثيرة ويستطيع على الورق أن يعايشها جامعات . إن الزنازين والعنابر كانت عنده مختبرا علميا للسلوك البشرى والقصص الحية فقد تضمنت بين نزلائها أنماطا شديدة الثراء وتجمع صحفيين وعمالا نقابيين وأساتذة جماعات وفلاحين وطلابا وأبناء أقاليم مختلفة من النوبة وفلسطين. وجرى صراع حاد بين التيارات السياسية وبين التكوينات الشخصية على السواء. وواجه عند الكتابة المشاكل التى يواجهها الكاتب عند بداية عمله فأى طريق يسلك بين عشرات الطرق والأساليب والمدارس والأشكال . فأخذ نفسه بجدية شديدة وأخضع كل دقيقة في اليوم لهدف الكتابة ، القراءة (بعد أن غضت الإدارة العين عن الصحف والكتب) . والعلاقات الشخصية وسبحات الذكريات والإصغاء إلى الآخرين بل لقد توفرت الأوراق والأقلام للكتاب الراسخين من أمثال : فؤاد حداد ، محمود العالم ، عبد العظيم أنيس صلاح حافظ ، معين بسيسو ، محمد خليل قاسم وكذلك للناشئين الواعدين من أمثاله وأمثال عبد الحكيم قاسم ، سمير عبد الباقي ، كمال القلش ، رءوف مسعد، فؤاد حجازى ، مهران السيد، محسن الخياط (هنا ثقب الذاكرة اتسع لذكر الشاعر الكبير كمال عمار بين هذه الأسماء وكان في الحقيقة قد تمكن من الخروج قبل ذلك ولم يكن في الواحات بعد عودة صنع الله من المحاكمة) . وقد أتيح لصنع الله أن ينقل إبداعاته على ورق لف السجائر الرقيق بخط دقيق يسمح بتهريبها إلى الخارج ، كما احتفظ بهذه اليوميات التى دون فيها خواطره ومشروعاته العصبية وتعليقاته على الكتب التى قرأها وقام الكاتب السياسى والمسرحى حسين عبد ربه بإخراجها من السجن . وقد تكون اليوميات شهريات تمتد بغير استمرار يومى بين سنتى ١٩٦٢ و١٩٦٤ . وفي بداية الخواطر المتناثرة يقدم مفتاحا مهما عن إدراكه للتغير المتسارع في شخصيته بسبب الخبرات المتراكمة وعلى رأسها التعذيب والاحتكاك المباشر برجال كانوا بالنسبة إليه في مصاف الأبطال ثم تبين أنهم بشر مثله لهم عيوبهم الإنسانية والأمر الثانى هو العلاقة المركبة بالسلطة الناصرية التأييد التام من «جانبنا» والقتل من جانبها وهى علاقة جديدة تماما في مضمار العمل السياسى ولها انعكاسات فكرية وسيكولوجية عديدة .

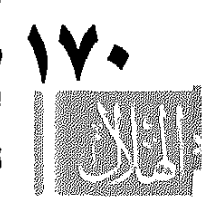


إنه لم يقبل الخط الرسمي لحدتو وخط شهدي على وجه الخصوص من أن الاعتقال والتعذيب لا مسئولية لعبدالناصر عنهما بل لا يعرف عنهما شيئا فهما من عمل جهاز رجعي يتآمر عليه .

طريق مليء بالتضحيات

وبعد ذلك الشأن العام تجيء هموم الكاتب والكتابة فهو يستهدف تناول الإنسان من الداخل . مئات المشاعر والعمليات الداخلية الغريبة والمعقدة . وتكوين الكاتب كما يقول ليس بالمسألة السهلة إنه نضال طويل وشاق وقاس وصارم يتطلب إرادة كالحديد . وطريق الكاتب مليء بالتضحيات وكل شيء يجب أن يخضع لفنه ولا يجب للكاتب أن يسمح بأي شيء يعوق عمله وفنه . إنه قديس وشهيد ولكن هذا الحماس الرومانسي يصطدم بحماس رومانسي في الاتجاه المضاد ظلا دائما يتفاعلان في كتابة صنع الله . فإحدى الخواطر تؤكد أن التجربة الفردية الذاتية إنسانية وضرورية ولكنها محدودة ولابد أن يتسع الفنان للتجربة العامة لمجتمعه وشعبه . ولا يمكن تصور مصر تبني وتضج بالعمل والحياة والحركة والمشاكل ثم يكتب الكاتب عن الضياع فالضياع والعدم فكرة لا تتفق والصورة العامة لبلادنا اليوم (يونيه ١٩٦٢) ولن تكون إلا تعبيرا عن موقف فردي معين ، عن تجربة مؤقتة ، عن إحساس عارض ، يجب أن يذوب الفنان في الموجة العارمة التي تكتسح البلاد .

فالفن الذي يعيش هو فن تسجيل حركة المجتمع الواقعية وروح الشعب . وليس التسجيل وحده ولكن المساهمة في استكشاف الطريق . في تعبئة المجتمع في اتجاه تقدمه بحث مشاكله والقاء الضوء عليها . لا أن يكتب أي شيء يحلو له لقيمة جمالية بحتة ، لا أن يعيش أسير تجربته الفردية التي قد تسلمه للانعزال والاحساس بالضياع والعدم . لا أن يكتفي بتسجيل ما يحدث في المجتمع تسجيلا انطباعيا حياديا سطحيا بل يغوص في أعماق الشعب والفرد . وفي هامش هذه الفقرة يعلق الكاتب : سنلحظ بعد قليل أن هذه اللهجة الحماسية قد اعتراها تغير تدريجي . وهذا التغير المهم يقوم على توفيق بين ما يبدو تناقضات لا تقبل الحل أو المصالحة بين الفن والسياسة إنه ينقل من المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي خواطر للشاعر تفاردوفسكي يتعاطف معها ، فما ينتظره الحزب وتطلبه من الأدب أوسع من العمل والانتاج بل يتعلق بحياة الشعب ، بالمباهج والآلام والهموم والرغبات التي تفيض بها الحياة اليومية والعلاقات العائلية والحب وكل التعقيد الذي تتصف به الحياة كما هي. وكل شيء يتوقف على حب الصنعة والتعلق بنوعية الأدب الذي يصبح بشكل ما قضية حياة أو موت للكاتب . هنا التوفيق بين فهم خاص للسياسة في الأدب وبين الصنعة . وحينما قال أحد الكتاب في



المؤتمر عن الالتزام بالمعنى الضيق الذى يوجب على الكاتب الذى يصور مزرعة جماعية أن يعرف معلومات لا تقل عن المهندس الزراعي المحلى يورد صنع الله معارضة تفاريوفسكى التى تقول بأن الفنان يقدم شيئا آخر . ويبدو أن صنع الله تشغله منذ البداية مسألة المعرفة الفنية وخصوصيتها واكتشافات الفنان التى تتجاوز ما يجيء فى كل دوائر المعارف أى تشغله مسألة جوهر الفن . وفى صفحة ٦٠ ينقل خطأ عن أيزنشناين المخرج العبقرى قولا «يدعى أن المادة الحقيقية للفيلم (جوهره) هى المونولوج . فأيز نشناين يؤكد أن جوهر فن الفيلم هو المونتاج (جمع الأجزاء المنفصلة فى كل مترابط) ولا يمكن أن يكون الكلام المنفرد بطبيعة الحال . ولعل ذلك خطأ مطبعى. وهو يرفض ما يقوله ابراهيم عبد الحليم عن أن تصوير العمليات الدقيقة النفسية للفرد الإنسانى متعارض مع تصوير المعارك القومية والطبقية ويتساءل لماذا لا يسيران سويا فى رحلة الشك والبحث ، رحلة التعبير المتآزر عن التجارب الذاتية وتجارب الآخرين . ويتساءل أيضا ما قيمة أى دفاع سياسى أو اعتبار اجتماعى لا أحس به فعلا هل أقف عند أدب سوفييتى ليس معظمه إلا ريبورتاجات صحفية تسجيلية . وتشمل الانطباعات اللغة وينقل عن بوشكين فى نبذة مطولة (يناير ١٩٦٣) قوله إن اللغة المكتوبة تثريها باستمرار التعبيرات التى تنشأ فى لغة الحديث ولكن لا يجدر بنا أن نتنكر لهبة القرون ، فاستخدام اللغة المنطوقة وحدها فى الكتابة معناه أن المرء لا يعرف لغته، وفى لغة بوشكين تعبيرات أدبية متميزة وكلمات شائعة الاستعمال وعناصر من اللغة القديمة ذابت فى لغة بوشكين . وفى الشهور التالية نجد مشاكل فنية ونقدية وأدبية تكشف عن اطلاع واسع دؤوب وجرأة فى طرح الأسئلة وتأمل فى الفنون . ولكنه مع ذلك ينقل عن شتاينبيك قوله إن الفنان الكبير يستمد مادته من عملية الحياة وليس من تأمل الفن الماضى . فما يفعله هو أن ينظم الأحاسيس والمدركات التى يتلقاها من حياته هو . ثم لا يخجل صنع الله من أن يستوعب نظرية النقد عن إليوت كما يفسرها رشدى فى المعادل الموضوعى، والهرب من الذاتية العاطفية ففى بوصلته تتردد أسئلة الكتابة الشائكة . إنه ينقل قولا عن أننا لم نعد فى عصر الثورة الاجتماعية بل نحن فى عصر كشف الكون ويتساءل معقبا هل ذلك شطحة فكرية . فعصر الثورة الاجتماعية لم ينته حتى الآن ولا يبدو أنه سينتهى فى يوم من الأيام ، ثم ما معنى استبعاد إمكانية التعايش بينه وبين عصر كشف الكون وكشف الذات . لذلك فإن يوميات الواحات ذات دلالة أكبر من أيامها ، فهى رحلة فى أعماق فن الكتابة ومسئولية الكاتب . ■

عندما كنت آية في الجمال

عن مأساة الجمال فى زمن الحرب

بقلم

د. حسن فتح الباب

يعزف الشاعر اليابانى إيماركى نوريكو فى قصيدته «عندما كنت آية في الجمال» التى صاغها بلسان امرأة على وتر شديد الوقع والشجى فريد فى نبرته. فليس ثمة كثير من النماذج الشعرية التى تمتاز بمثل هذه الرهافة البالغة، والقدرة على إثارة الكوامن الدفينة فى أغوار النفس، وتعميق الشعور بمأساة الحرب. كما تمتاز بازدهار الجماليات الفنية.



وربما يرجع ذلك إلى أن القصيدة تعبر عن رؤية شاعر أوتىَ حساً إنسانيا بلغ الذروة فى الصفاء والشفافية، وحسا فنيا فى نفس المستوى، فانسابت أبياته فى تلقائية آسرة يشعر القارىء من ورائها بسيطرة الشاعر من خلال خبرته الفنية على هذه التلقائية كى يصل إلى جوهر الكمال الفنى، وهو البساطة والروعة معا، أو ما نعبر عنه بالسهولة والامتناع. وقد كان الأسلوب الذى مكّنه من تحقيق هذه الغاية هو استرجاع المرأة ذكرياتها فى عهد الشباب الذى أدركته الحرب العالمية الثانية بشرورها وأهوالها.

إن القصيدة تلمس القلب منذ البداية، فهى تدخلنا إلى عالم الشعر الساحر منذ أولى كلماتها.. عالم حقيقى لكن له عبير الأساطير. فها هو الشاعر يهمس لنا بصوت يابانية ملتاعة:

عندما كنت آية في الجمال
كانت المدن تتساقط
ومن أماكن غير متوقعة
كانت السماء الزرقاء ترى

أى قلب يقرأ هذه الأبيات ولا يعتاده الأسى لذكر الفردوس المفقود، أيام الصبا، عالم البراءة والحب والجمال، ثم لا يضنيه الألم لهذه البشرية التعسة التى تدمر بيديها ما تبنيه، أو تستبد به النقمة على الأيدى الهمجية التى تسرق حتى أحلام الشباب، ولا تبقى لهم غير الخوف والويل والدموع. إننا بين يدى امرأة تقص علينا فى نغم حزين كيف كانت فى ربيع العمر زهرة ريانة الكأس فاغمة العطر رائعة البهاء فتختلج أمام أعيننا أجمل الرؤى، ونتذكر دقات القلب الأولى ونستعيد عهد التألق والمرح.

الدمار والخراب

ولكنها مثل لحظة تمر كالطيف، فما تلبث مأساة الإنسان أن تتسلل من كلماتها البسيطة المشحونة فتعتصر جوانحنا اعتصارا.. إنها الحرب فى بشاعتها، تلك البشاعة التى تقف شبحا يحول دون إشعاع الجمال الذى وُهبته الصبية فى نفسها ومن حولها. هكذا تذهب نفسها حسرات وهى تردد: كنت آية فى الجمال.. ولكن الفراغ الموحش كان يلف كل الأشياء، ويغشى وجه الكون بنقاب كئيب. ولم يكن فراغ الأرض المجدبة أو البيداء المحرقة، بل كان الفراغ الذى خلفه حريق الحرب فى وطنى الحبيب. كان هناك الدمار الذى أحال المدن المأهولة الصاخبة إلى خراب بلقع. ولقد شهدت عيناى فى وجوم مبانيَها الشاهقة والمتلألئة الأنوار وشرفاتها الضاحكة التى صُفت عليها أصص الأزهار، إذ تتساقط فى فرقعة وحشية، فيثب الفزع من عينى وتوشك أضلاعى أن تخنقنى.

ولكن الصَّبيَّة الجميلة تواصل طريقها وأشباح الفراغ تتبعها فى كل خطوة. لم يعد عالمها تلك الدور المتجاورة والشوارع والحدائق التى طالما اتخذت منها هى

وأترابها ملاعب، ونزعت دروبها وثبا وعدوا، وملزما الناس بالحياة وزينتها الأيدى الحانية الصلبة بالأشياء الملونة البهيجة.. وها هى السماء قد كشفت عن وجهها فى الأماكن التى لم تكن تظهر فيها أبدا. فلقد انهارت فجأة، وعلى غير ما كان يتوقع أحد، مجموعة الأبنية والمصانع التى كانت جدرانها العالية تخفى زرقة الأفق هناك.

عندما كنت آية في الجمال
قُتِل أشخاص كثيرون من حولي
في المصانع.. في البحر..
على جزر مجهولة
وضاعت عليّ فرصة وضع «المكياج»

ياللجمال العبقرى الحالى حين ترف من حوله أجنحة الحب والسلام.. والويل له إذا غاصت قدماه فى دم مسفوك.. دم مواطنيه الشرفاء من محاربين وآمنين أبرياء.. هذا هو الإيحاء الشجيّ الذى يردده الشاعر إيماركى فى المقطع الثانى إذ يقول بلسان الصبية التى أدركتها مأساة الحرب: كثيرون هم هؤلاء الذين سقطوا من حولى ضحايا الكارثة البشرية، ووقودا للغريزة الهمجية قواعد البيت الوادع السعيد وآلات مصانع الحرير واللعب، أو ينشدون أغنيات البهجة والأمن العذبة الحارة فى رحلاتهم عبر البحار فى قواربهم ينشدون الصيد. كما كانوا هناك تحت الشمس المشرقة فى الجزر اللؤلؤية النائية التى لم تكتحل عيناى برؤية الشفق والفجر على تلالها ووهادها.

كنت آية في الجمال

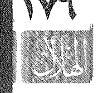
لقد صرعهم الموت قتلا فالتقفهم قاع الأبدية الرهيب، وكان قَتَلتهم ليسوا من بنى جنسهم، أو من أبناء الإنسان.. لقد شوهوا آية الجمال وألقوا بى فى غيابة الضياع .. كنت آية فى الجمال.. ولكننى لم أملك بين أشباح المأساة حتى التفكير فى أدوات الزينة ولمسات المكياج.

عندما كنت آية في الجمال
لم يمنحني أحد هدية رقيقة
لم يكن الرجال يحسنون إلا أن يحيّوا
ثم يمضوا مخلّفين ذكريات أعين لامعة

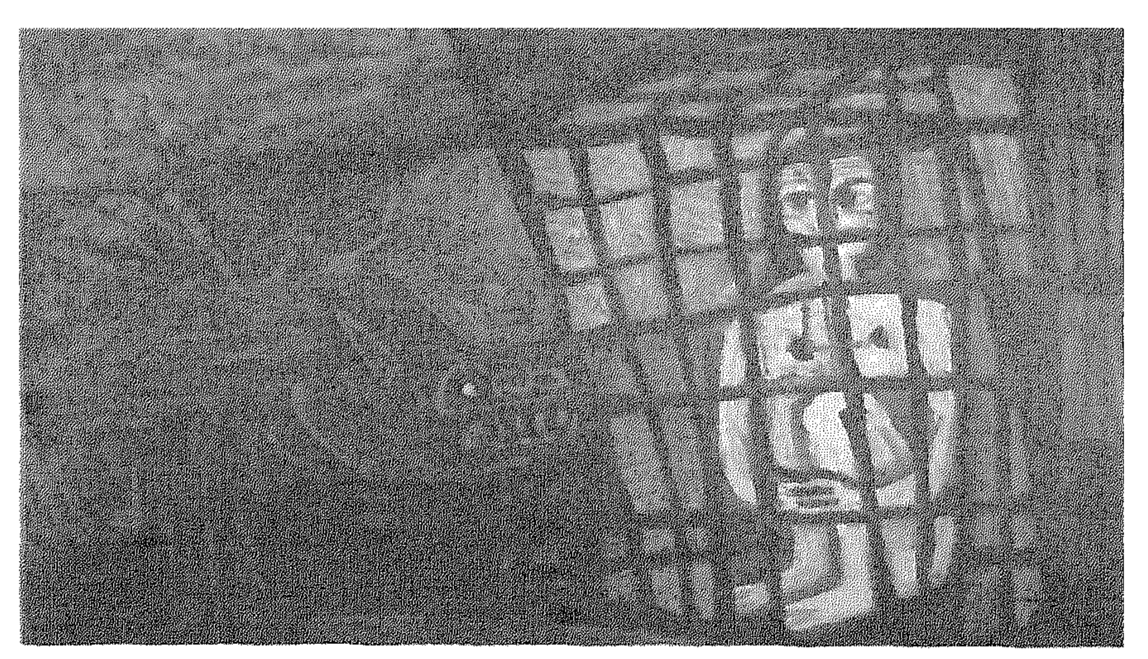
يقطرُ هذا المقطع من القصيدة رقة ونعومة، ويتفجر فى الوقت ذاته وجدا ومواجع. فليس أشد إثارة للإحساس بالفاجعة التى يصورها الشاعر من منظر زهرة يابانية وفراشة ندية فى صورة امرأة تنبض الحياة حارة فى كل خلجة من خلجاتها. ثم لا تقع عليها عين أو ينعطف إليها قلب محب. لا أحد يمنح هذا السحر الأنثوى المتدفق هدية.. منديلا أو زهرة.. قربانا صغيرا للجمال الإلهى البشرى، فلقد ذهبت كارثة الحرب بعاطفة الحب كما وطئت سنابكها النارية كل نبتة خضراء، فلا صديق ولارفيق ولا معنى للحياة. ■

الليل المغناطيسي

شعر
محمد محمد السنباطي



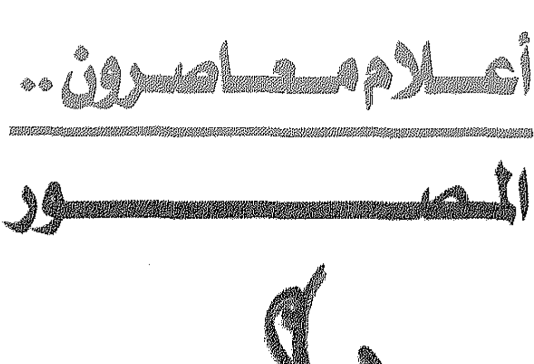
من أعطاك الحق لتحكم قبضتك علي عنقي؟
من أعطاك الحق لترقص منفرداً في حفلة عرقي ؟
من أعطاك الحق لتنويمي مغناطيسيا فتحدق فى حدقي؟
يا هذا المفروض علي انزع أشواكك من أملي، واتركني هذا من حقي .
كل رعود العالم دوت لكني لم ألمح برقي
كل طيور العالم طارت من أفق، وتبدت في أفق
والشمس عروس تبتسم من الشرق
لكنى لا أتحرك إلا بإرادتك المدفونة فى عمقى
هل أشكوك؟
فعلت كثيراً، لكن الشكوى لاتخرج فى نطقى !
وجهك يفجؤنى فى الحائط فى السيارة، فى وهن المارة
فافر إلى الريح الطلق
لكنك من تحت الريح، ومن بين العشب المتمايل تزحف
كالثعبان من الشق!
من أعطاك الحق لتخرق وعيى؟
تنفذ فى لاوعيى من بعد الخرق
هل هذا الليل المغناطيسى سيمضى منهاراً بنهار كعهود الرق؟
وأنا، هل سأكون هنا
أتنفس عذب نسيم وأهيم إلى عشقى؟
ياليت صغارى لا يرثون الليل المغناطيسى ولايحرقهم حرقى!
وأعود وأتساءل : من يدري؟!
فلعل الفجر يكون قريباً جداً
ولعلي لا أهدم هذا المعبد فوقي !!



المرأة والوحش ١٩٧٤

أعلام معاصرون ..

المصور



(١٩٢٦ - ٢٠٠٤)

واختيارات الفنان

بقلم
د. صبري منصور

١٧٨
الهلال
ربيع أول ١٤٢٦هـ - مايو ٢٠٠٥م



العازف ١٩٨٨

يمثل الفنان سمير رافع حالة فريدة فى حركة الفن التشكيلى المصرى، ولقد ساهمت عوامل عديدة فى إضفاء هالة مثيرة حول إبداعه الفنى، ومن أهمها هجرته عن وطنه وإقامته الدائمة فى باريس منذ قصدها عام ١٩٥٤ فى بعثة دراسية للحصول على درجة الدكتوراه فى تاريخ الفن من جامعة السوربون، وفيما عدا سنوات قلائل قضاها فى الجزائر فإنه ظل مقيماً فى فرنسا حتى وفاته.

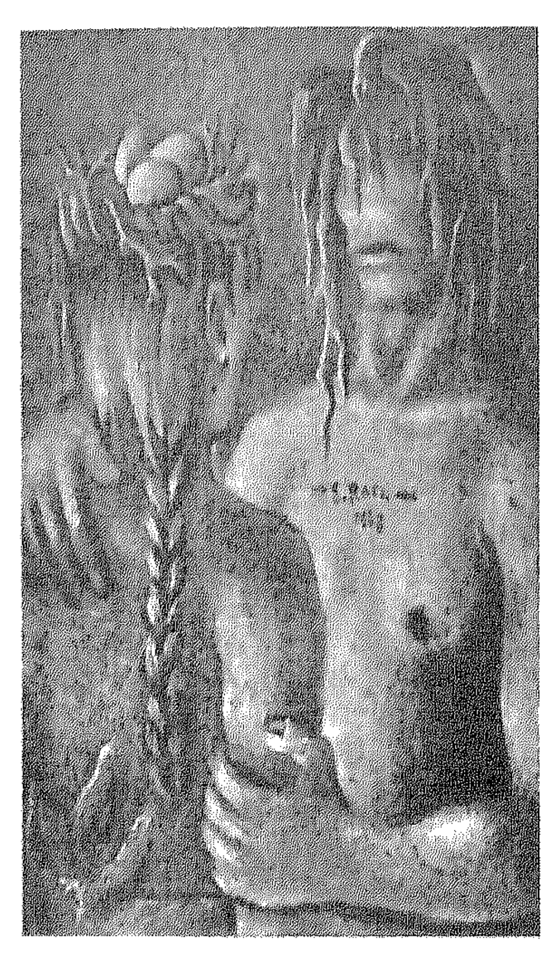


ومصدر الدهشة فى هجرة الفنان أن أعماله الفنية المبكرة كانت تشى بروح مصرية خالصة، كما تنمّ عن ارتباط وثيق وعشق وفناء فى أرض الوطن، ومن العوامل أيضاً زمالته لنجمى فن التصوير المصرى المعاصران عبد الهادى الجزار وحامد ندا فى عضوية جماعة «الفن المعاصر» منذ تشكيلها بريادة حسين يوسف أمين عام ١٩٤٦، تلك الجماعة التى كان لها دور رئيسى فى توجيه الإبداع الفنى نحو مصادر جديدة تعتمد على تأكيد ملامح ذاتية للفن

المصرى باستيحاء الموروث الشعبى والتقاليد الفنية المحلية، كما أن من بين العوامل المثيرة كذلك حياة الفنان الباريسية التى أتاحت له الفرصة للاقتراب والاختلاط بالأوساط الثقافية الفرنسية، والحوار مع نجومها اللامعة فى سماء الفن العالمى.

مفاجأة وتساؤل:

وفى معرضه الضخم الذى أقيم فى قاعات قصر الفنون خلال الشهر الماضى وضمّ معظم انتاجه، توافرت فرصة طيبة - كنا فى شوق لها - للمتابعة الدقيقة لتجربة الفنان، وملاحظة ما ألّم بها من تغيير، وما حدث فيها من تطور منذ بداية تجربته عام ١٩٤٥ وحتى قبل رحيله، وقد أصيب المرء بالحيرة والدهشة حين يجد أن عظمة تجربة الفنان وقوة أدائه وثروة عطائه الفنى لم تتخط تلك المجموعة المتميزة من الأعمال التى نفذها فى باكورة حياته الفنية، والتى صنعت شهرته ووضعته فى مصاف المجددين فى مسيرة فن التصوير المصرى، أعمال مثل «من وحى مصر» و«الزمن» و«أرض مصر» و«الوادى الأخضر» و«البغاء» و«أصدقاء الليل» (وهى لوحة اقتناها رائد التصوير المصرى الحديث محمود سعيد). فتلك المجموعة التى أبدعها الفنان فى الفترة من ١٩٤٥ وحتى ١٩٥١، تجد فيها إيماءات قوية وارتباطاً بالمشهد المصرى،



وحى مصر ١٩٤٨

كما أنها تعكس بلاغة تشكيلية فى الصياغة والبناء وهى تتناغم مع إبداع زميليه فى جماعة الفن المعاصر وتشترك معهما فى الكشف عن وجه جديد لفن التصوير المصرى بما تحمله من دلالات وما تشى به من رموز ذات صلة وثيقة بالشخصية المصرية بكل أبعادها التاريخية والثقافية.

ويتجول المرء فى أرجاء القاعات منقباً عن عمل يهز وجدانه ويلمس شغاف قلبه ويثير فيه الرؤى والأفكار، مثلما فعلت ومازالت تفعل أعماله الأولى، ولكنه لا يجد



الزمن

سوى أعمال – على كثرتها – بسيطة فى أدائها وفى تناولها الفنى، ساذجة فى موضوعها وفكرتها، كما يشعر كما لو أنه سبق وقد رأى شبيهاً لها من قريب أو من بعيد، ويحس المرء بالحسرة على موهبة الفنان التى لم يزدها الزمن تألقاً وبريقاً، وثارت فى النفس تساؤلات كثيرة حول موهبة الفنان، وكيف تنضج ويصان توهجها لتؤتى ثمارها على أحسن ما يكون من القيمة الفنية الرفيعة. وإذا كان التشجيع والرعاية فى البدء عاملين مهمين لإنضاج التجربة، فلقد توفرا لسمير رافع الذى لفت الأنظار إليه فى أول معرض يقيمه عام ١٩٥١ فى نادى المحامين بالقاهرة، مما دعا الناقد البلچيكى الكونت دارسكوت لأن يصدر عنه كتيباً بعنوان «سمير رافع وفنه» والذى صدر بالقاهرة عام ١٩٥١، حيث رأى فيه أن سمير رافع.

«أحد أهم عناصر الجيل الجديد فى مصر» كما أوضح «أن ألوانه الشرقية تبين مميزات تكاملها إلى أساسها الشعبى».

فماذا حدث للفنان حتى لا يستمر إبداعه بنفس القيمة وعلى نفس المستوى الرفيع؟ وما هى المبررات المنطقية التى يمكن أن تكون أسباباً مقنعة؟ وفى محاولة لرصد هذه الأسباب فإنه تجدر الإشارة إلى أن هناك العديد من أصحاب المواهب الواعدة لا يدركون أهمية أن تأتى اختياراتهم فى بداية حياتهم وبعدها أيضاً لصالح تجربتهم الفنية، حتى لا تتعرض موهبتهم للذبول والضياع، فالموهبة مثلها مثل النبات يحتاج فى نموه النمو السليم إلى عوامل عديدة من تغذية سليمة ومناخ صحى ملائم ورعاية دائمة حتى ينضج ويكتمل ويثمر، وفى حالة مثل موهبة سمير رافع التى نعتقد أنها كانت مؤهلة للقيام بدور رائع فى فنى التصوير المصرى، فإن اختياراته – كما يبدو لنا – لم تساعد على اتمام هذا



الرجل والكلب عام ١٩٧٧

الدور ولم توفر الفرصة لموهبته لكي تتألق كما كان ينبغي أو يتوقع لها.

دراسة الزخرفة بدلاً من التصوير

وكان ذلك الاختيار في رأينا أول اختيار غير موفق لسمير رافع، حين فضّل أن تكون دراسته في الفنون الجميلة في تخصص الزخرفة بدلاً من فن التصوير كما كان ينبغي وكما فعل زميلاه الجزار وندا، ولم يتح هذا الاختيار للفنان الفرصة لتدعيم تكوينه الفني وإثراء موهبته، فلا شك في أن الدراسة العملية اليومية لمدة أربع سنوات لطالب موهوب مثل سمير رافع كانت ستنمي قدراته الأدائية، وتجعله أكثر حصافة وبلاغة في استخدام اللون، حين يقوم طيلة سنوات الدراسة بالتدريب على عملية مزجه وخلطه بالطريقة التي تناسب رؤيته، وتلك عملية حرفية وتقنية ليست بالهينة، وهي لا تقل دقة عن تعلم الموسيقى كيف يتعامل مع أوتار آلته، ويدرب أصابعه على التحكم والسيطرة عليها، واستخراج الألحان العصية والحساسة منها.

ولم يقتصر تأثير تفضيل سمير رافع لفن الزخرفة - مجالاً لدراسته - على مهارته الحرفية وقدراته الأدائية التي بدت بسيطة ومتواضعة، وإنما امتد هذا التأثير أيضاً على كيفية التعامل مع موضوعات لوحاته التي أخذت تميل إلى السطحية أيضا، أسلوب التحليل للعناصر والأشكال الآدمية والحيوانية، فهي لا تعكس فهماً واعياً لتناسب علاقات الأجزاء ببعضها البعضّ، وخاصة حين يتناول الفنان الوجوه والأطراف، فقد جاءت ساذجة في تحليلها وركيكة في تصميمها، وحين يقارن في هذا المجال بزميلين الجزار وندا فسوف نجد مساحة واسعة من الاختلاف، وبشكل خاص عند



القط والسمكة

لدا الذى بلغ فى تحريفاته الفنية للأشكال حداً بعيداً، ووصل إلى درجة ابتكار نسب جديدة لها جاءت مبررة تشكيلياً، ومتسقة متلائمة، تستريح لها العين وتألفها، بل وتسعد بتناسقها رغم غرابتها.

غربة الفنان

وكان اختيار الغربة عن الوطن هو الاختيار الأكثر إثارة لسمير رافع، فقد كانت غربة مبالغاً فى قسوتها جعلته يبتعد عن مصر وأن يعيش فى بلاد غريبة بكل ما تعنيه هذه الغربة من اغتراب عن روح المكان ومناخه الثقافى المحمل بعبق التاريخ، وابتعاده عن صوره وأشكاله ومشاهده التى مثلت للفنان فى بداية تجربته منبعاً أصيلاً لعناصر ومفردات لوحاته. فهل قدمت هذه الغربة للفنان امكانيات جديدة لمواصلة تجربته الفنية بما يكفل لها النضج الكامل وجعلها أكثر شمولاً وأكثر عمقاً؟ أم أن هذه الغربة قد جردتها من كل ما هو أصيل واستبدلته بما هو منقطع الصلة بالجذور؟

وهل يصدق على غربة الفنان التشكيلى ما يصلح مع فنون إبداعية أخرى كفنون الأدب من شعر ورواية مثلا؟ أم أن تعامل الأديب مع الأفكار الذهنية الخالصة يسمح لها بإبداعها فى أىّ وطن، مثلما نجد عند شعراء المهجر أمثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة؟

إن تجربة سمير رافع كما تتضح معالمها فى أعماله العديدة التى أنتجها فى الغربة، أخذت فى الابتعاد عن بداياته الأولى، وتأثرت إلى حد كبير بالأجواء الثقافية المختلفة التى انخرط فيها فى باريس، لذلك تجد أصداء المذاهب الفنية التى كانت سائدة هناك تنعكس على أسلوبه الفنى، وكذلك تجد بعض ملامح

أساليب الفنانين المعروفين أمثال بيكاسو وأندريه لوث وماتيس وغيرهم واضحة في لوحاته، وتراه أحياناً تكعيبي النزعة، وفي أحيان أخرى يستخدم الألوان الساخنة بطريقة انفعالية مثل أتباع المدرسة الوحشية، كما أنه بحكم تكوينه الفكري والثقافي قد انجذب أيضاً للمدرسة الرمزية ثم التعبيرية التي استعار طرق أداء فنانيها، وكذلك الموضوعات التي طرقوها فأصبحت محفوظة من كثرة ما ألفت العين رؤيتها، مثل العلاقة بين القط والسمكة، أو بين المرأة والذئب أو الكلب أو الوحش، وعموماً فإن الفنان قد اتجه في معظم انتاجه في الغربة إلى رسم ثنائيات أصبحت مثل «الكليشيهات» في الفن الأوروبي المعاصر، أما الصياغة التشكيلية فقد جاءت بسيطة تكاد تقترب من أساليب الهواة في طريقة التصميم والإنشاء، وضاع منها عنصر الرسوخ الذي تميّزت به أعمال الفنان الأولى، في الوقت الذي أضاف فيه عدم الإلمام الاحترافي بتقنيات فن التصوير ضعفاً إلى التحويرات والمعالجات لعناصر لوحاته الآدمية والحيوانية.

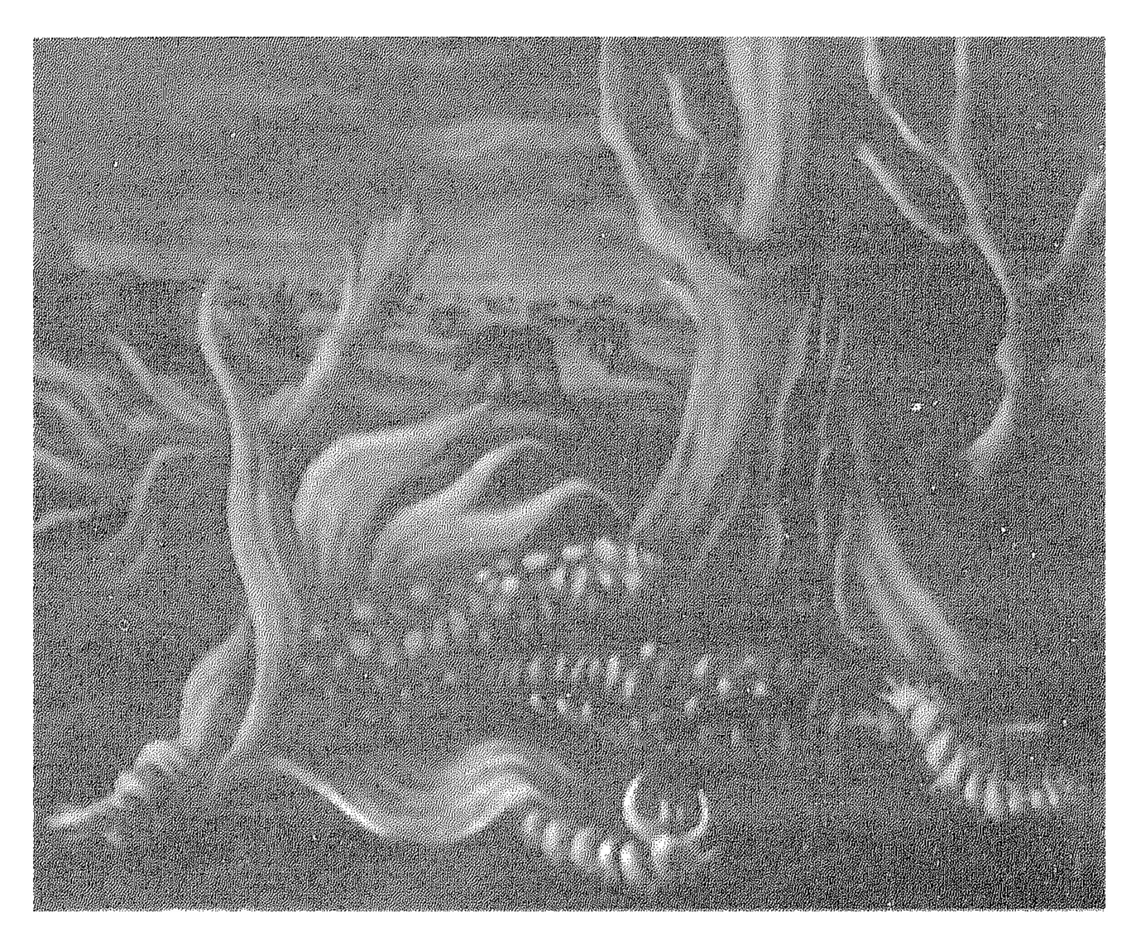


من اعمال الفنان سمير رافع



دور ثقافي مفقود:

ولم يكتف سمير رافع بهجرة الوطن، لكنه ازداد إمعاناً في البعد



ارض مصر

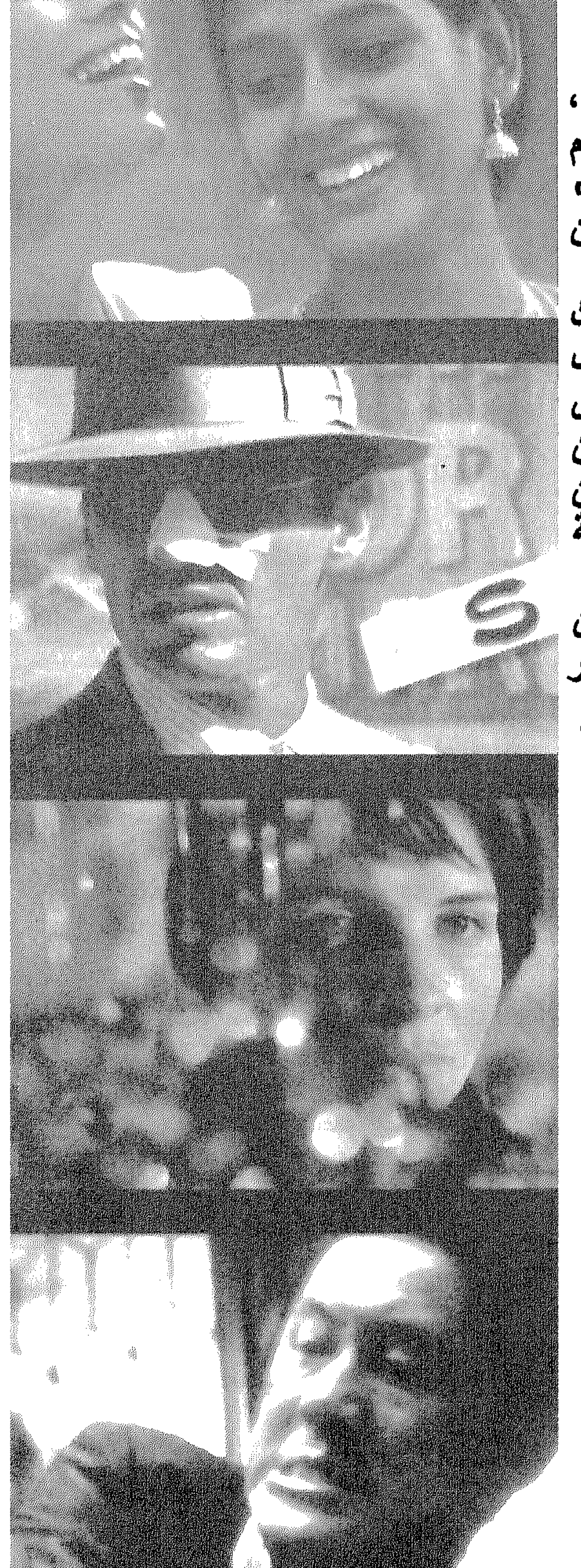
والمخاصمة، فنأى بنفسه عن المشاركة فى بناء حركته الفنية الوليدة، والتى كانت فى أشد الحاجة إلى تواجده الثقافى والفنى، بموهبتـه العـاليـة وامكانيـاته الفكرية والثقافية المتميزة، وترك الساحة خالية للمدعين والفنانين المزيفين. ففيما عدا بعض المقالات التى أرسلها من باريس ونشرت فى مجلة الهلال فى الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٦٩ بتأثير من صديقه كامل زهيرى حين كان يتولى إدارة المجلة، فإن سمير رافع لم يبد أىّ اهتمام أو اكتراث بوجوده الفنى فى مصر، ويبدو وكأنه كان متعالياً على أن يكون له حضور فى المشهد التشكيلى المصرى، معتبراً نفسه - لصلته القريبة من نجوم الفن فى القرن العشرين - أعلى مرتبة وأكثر قيمة، وأنه طالما أصبح قريباً من دوائر الشهرة - الفنية العالمية فإنه سوف يطول بعضاً منها، وهذا تصور - إذا كان صحيحاً - فإنه يكون وهماً، فهو لم يصبح فناناً عالمياً، فى نفس الوقت الذى لم يتح الفرصة فيه لموهبته أن يأتى نتاجها - كما كان يتوقع - جزءاً من تاريخ مصر الفنى وقمة من قممها الإبداعية السامقة ■

كتابان:

السينما اليوم

حياتي حتى الآن

بقلم
مصطفى درويش



هذان كتابان ضخمان ، أولهما وعنوانه السينما اليوم «صاحبه أدوارد بسكومب» شغلت السينما أكثر من ثلاثين عاما من حياته .

ومن النافع ، قبل الحديث عن كتابه المذكور ، أن نقف عند بعض ما أنجزه فى مجال التعريف بالسينما ، الفن الأكثر بين جميع الفنون شعبية وانتشارا ؛ نقف وقفة قصيرة.

فقد يكون من المفيد أن نرى كيف عنى بهذا الأمر الخطير الذى هو فن السينما .

فرغ «بسكومب» لذلك الفن ، لابوصفه صانعا للأفلام ، وإنما بوصفه ناقدا لإبداعات صانعى الأطياف ومحاضرا فى السينما ، ومؤرخا لها .

وهو يعتبر ، بحق ، خبيرا فى ذلك النوع الذى أطلقوا عليه أفلام الغرب الأمريكى ، أو رعاة البقر ، فله عن هذا النوع أكثر من مؤلف كبير القيمة ، بما فيه من معلومات تدل على سعة الاطلاع

ويعد « السينما اليوم» تتويجا لحياة خصبة ، أمضاها صاحبها فى عمل مضن ، هو مشاهدة الأفلام ، ونقدها فى دراسات جادة ، ينشرها تباعا فى مجلات سينمائية متخصصة ، رفيعة المستوى ، أذكر من بينها «چمب – كت»

jump - cut سينما جورنال و «سكرين» .

وهو فى كتابه هذا ، إنما يعرض للسينما فى مشارق الأرض ومغاربها ، وما حدث لها ، ليس بدءا من مولدها ، قبل أكثر من قرن من عمر الزمان ، وإنما وهى على مشارف سبعينات القرن العشرين .

عصر جديد

فمع بداية العقد السابع من ذلك القرن ، أخذ التحدى لهيمنة هوليوود، يزداد ، على مر الأعوام .

ولقد تجسد ذلك التحدى فى أنواع سينمائية جديدة ، تجلت إما فى بلاد أخرى ، غير الولايات المتحدة ، حيث مصنع الأحلام .

وإما تعبيرا ، حتى فى هوليوود، عن وجهات نظر أخرى ، منبتة الصلة بما كان سائداً حتى عهد قريب ، فى صناعة الأفلام .

وفى مواجهة تلك التحديات ، سعت هوليوود جاهدة إلى تجديد نفسها .

وفعلا ، تحقق لها ما سعت له ، فبدت وكأنها ولدت من جديد .

وذلك ، كان له على الإنتاج السينمائى العالمى تأثير كبير إلى حد أنه أدى إلى انطلاق عصر سينمائى جديد ، أطلق عليه صاحب الكتاب العصر السينمائى الثالث.

بدء الغروب

ومع ذلك ، ظلت هوليوود مهيمنة ، وإن كانت هيمنتها قد أصابها شىء من الوهن ، يرجع إلى عدة أسباب ، أذكر من بينها نمو صناعة السينما فى كل من الهند وغرب أوروبا .

ففى شبه القارة الهندية فاق عدد ما يجرى انتاجه سنويا فيها من أفلام، عدد ما ينتجه مصنع الأحلام .

وفى أوروبا الغربية ارتفع الإنتاج السنوى إلى سبعمائة فيلم أى إلى ما يعادل ما تنتجه هوليوود سنويا .

هذا ، وكتاب «بسكومب» عبارة عن مجلد ضخم من خمسمائة واثنتى عشرة صفحة ، يضم بين دفتيه مقدمة ، وتاريخ العصر الثالث السينمائى ، فضلا عن سرد لأهم الأحداث العالمية بدءا من ١٩٧٠ وحتى ٢٠٠٢ ، وفهرس الكتاب ، وثبت المراجع ، علاوة على بيان بأسماء وأعمال فئة قليلة من المخرجين ، ممن ارتأهم صاحب الكتاب جديرين بالذكر .

حقوق الهيمنة

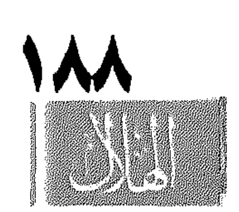
ولأن هوليوود لاتزال لها الهيمنة على مقدرات السينما ، وآية ذلك ما هو ثابت من أن انفاقها السنوى على ما تنتجه من أفلام يبلغ أكثر من ضعف انفاق باقى العالم مجتمعا. وايراداتها من تصدير أفلامها خلال عام الفين بلغت ستة مليارات وأربعمائة مليون دولار.

فقد أفرد «بسكومب» نصف صفحات كتابه لأفلامها ، والنصف الآخر لأفلام سائر بلاد الكرة الأرضية بدءا من اليابان شرقا وحتى مراكش غربا ، ومن روسيا شمالا وحتى استراليا جنوبا .

ومن بين دول الشرق الأدنى أفرد للسينما فى مصر وإيران وتركيا خمس عشرة صفحة ، انطوت على العديد من صور الأفلام التى ارتآها جديرة بالحديث عنها ، ولو قليلا وفيما لو طرحنا الصفحات التى شغلتها الصور، لما بقى للحديث عن السينما وأفلامها فى الدول الثلاث سوى عشر صفحات .

اختيار واقتصاد

ومن هنا ، اقتصاد صاحب الكتاب



فى الحديث عن الأفلام التى وقع عليها الاختيار ، وذلك رغم أنها جد قليلة ، لم تزد بالنسبة للسينما المصرية عن تسعة أفلام ، ثلثاها لمخرج واحد ، هو يوسف شاهين .

أما الأفلام الثلاثة الأخرى ، والتى لغيره من المخرجين ، فهى أسرار البنات لصاحبه « مجدى أحمد على» ، و «أهل القمة» لصاحبه «على بدرخان» و «المومياء أو ليلة حساب السنين» لصاحبه شادى عبدالسلام .

وعند الحديث عن الفيلم الأخير لم يكتف «بسكومب» كما فعل مع فيلمى «مجدى» و« بدرخان» بكتابة سطرين عن الموضوع دون أى تعريف بالمخرج ، فى بضع كلمات .

فيلم يتيم

وإنما كتب عنه كلمة متوازنة استهلها بقوله عن مخرجه «شادى» أنه أحد علامات سينما المؤلف فى مصر ، ومع ذلك لم يخرج حتى جاءه الموت ، سوى فيلم روائى طويل وأنه ، قبل قيامه باخراج فيلمه اليتيم هذا ، كان مصمم إنتاج ناجحا ، وآية ذلك مساهمته فى تصميم ديكورات «كليوباترة» أحد أفلام الإنتاج الضخم، ذلك النوع المكلف الذى انفردت بانتاجه هوليوود على مر السنين

وبعد أن عرض للمومياء فى بضعة سطور ، ملؤها الإعجاب والثناء ، ختم كلمته بما يشبه الرثاء ، لأن الفيلم لم ينجح جماهيريا ، الأمر الذى حال بين صاحبه «شادى» رغم ما بذله من جهود مضنية ، وبين الحصول على تمويل لمشروع فيلمه الروائى الطويل الثانى ، عن «اخناتون» .

غزو سينمائى

هذا عن «مومياء» شادى ، أما عن أفلام شاهين الستة ، فاللافت للنظر فى شأنها ، أن أولها «الناصر صلاح الدين» (١٩٦٣) من أفلام عقد الستينات ، وبالتالى فهو لايدخل فى عداد أفلام العصر السينمائى الجديد .

وما ذكره صاحب الكتاب إلا لسبب هو التدليل على أن «شاهين» بدأ مشواره السينمائى غير متمرد على التيار التجارى السائد فى السينما وقتها ، وحتى الآن ، بانواعه المختلفة بدءا من الميلودراما ، وانتهاء بالملاحم التاريخية ومرورا بالملهاة ، والتشويق.

هذا ، ولم يختر صاحب الكتاب من بين أفلام شاهين التى قام بإخراجها أثناء الثلث الأخير من القرن العشرين، سوى «العصفور» ، «اسكندرية ليه» ، «اسكندرية كمان .. وكمان» ، «المهاجر» ، «سكوت حنصور» .

وهى جميعا من نوع الإنتاج المشترك ، الممول أوروبيا ولم يقف صاحب الكتاب بعض الشيء إلا عند «اسكندرية كمان .و كمان» و «المهاجر».

ومن بين ما لفت نظره فى هذين الفيلمين أن أولهما تقمص بطله شخصية المخرج الذى نراه قريبا من نهاية الفيلم يرقص مقلدا «جين كيللى» نجم الأفلام الموسيقية الأمريكية ، ذائع الصيت ، وذلك تعبيرا عن فرحته بالفوز بجائزة مهرجان كان الكبرى .

سر المنع

وإن البطل فى ثانيهما تقمص شخصية النبى يوسف ، تحت اسم «رام»

، الأمر الذى أثار حفيظة المتشددين دينيا ، فوقفوا «للمهاجر» بالمرصاد ، وكان من بين عراقيلهم الحيلولة دون عرضه عرضا عاما ، الأمر الذى تحقق ، ولكن إلى حين

واللافت للنظر كــذلك ، أن أيا من أفلامه ، أو أفلام غيره من المخرجين المصريين لم يفز بالسعفة الذهبية جائزة مهرجان كان الكبرى .

النهضة .. لماذا ؟

فى حين فاز بها المخرج التركى «يلماز جوناى» عن فيلمه الطريق (١٩٨٢) وتم إبلاغه بخبر فوزه ، وهو سجين !!

كما فاز بها المخرج الإيرانى «عباس كيارو ستامى» عن فيلمه «طعم الكرز» (١٩٩٧) ، وذلك رغم اعتراض المتشددين فى إيران على إرسال فيلمه إلى المهرجان ، لا لسبب سوى أن بطله لايفكر إلا فى أمر واحد ، هو الانتحار ومن غرائب السينما الايرانية ، عكس السينما فى مصر وتركيا ، كما جاء فى الكتاب ، نجاحها فى التغلب على محظورات نظام الملالى ، وما أكثرها ، وتجاوزها على نحو جعل أفلامها حديث الناس فى المهرجانات ، وغيرها .

والفضل فى ذلك إنما يرجع إلى فئة قليلة من صانعى الأفلام فى إيران ، آثرت النضال من أجل حرية التعبير ، على الاستسلام لقوى الظلام .

والآن إلى الكتاب الضخم الآخر «حياتى حتى الآن» يضم الكتاب بين دفتيه السيرة الذاتية لنجمة ، ذاع صيتها ، حتى أصبحت حديثا من أحاديث التاريخ السينمائى ، ستحفظه ذاكرة الأيام» .

مجد وارتقاء

وكيف لاتكون أحد أحاديث ذلك التاريخ ، وقد شغلت هى وأبوها أكثر من نصف عمر السينما .

وجرى ترشيحها لجائزة أوسكار أفضل ممثلة رئيسية سبع مرات ، وتتويجها بها مرتين .

وعقد قرانها ثلاث مرات ، وفى كل مرة كان الزواج السعيد ينتهى بطلاق، لم يورثها لا حزنا شديدا ، ولا بؤسا ممضا ، كذلك شاءت أن تفارق الحياة اللذيذة فى بلاد العم سام ، إلى بلد بعيد ، فى جنوب شرق آسيا ، حيث ركبت مخاطر الانضمام إلى قوى السلام من أجل وقف العدوان الأمريكى على شعب فييتنام .

وأن تختار ، ولم يكن لها من العمر سوى اثنين وخمسين عاما ، اعتزال التمثيل .

عودة بفيلم وكتاب

فإذا ما مرت الأيام أعواما بعد أعوام ، آثرت العودة إلى الأضواء ، بفيلم لعبت فيه دور حماة متوحشة ، لاتحمل لزوجة ابنها «جنيفر لوبيز» إلا نكدا متصلا ، جعل حياتها جحيما ويكتاب ادارته حول حياة من سبعة وستين عاما ، كل ما فيها مثير ، ملىء بالمتناقضات .

هذه هى «جين فوندا» النجمة التى شغلت مركزا مرموقا بين نجوم مصنع الأحلام ، وذاعت شهرتها فى أرجاء المعمورة ، على مدار ثلث قرن من عمر الزمان .

وكتابها الذى يقع فى ستمائة وأربع وعشرين صفحة من القطع الكبير ، يكمل كتابا آخر « لاتقل شيئا لأبى » ، سبق لشقيقها الممثل والمخرج «بيتر فوندا » أن ضمنه سيرته الذاتية ، وذلك قبل سبعة أعوام .

الأبناء والآباء

فكلاهما «بيتر» و«چين» يشكو فى كتابه مرّ الشكوى من افتقاد العلاقة بينهما وبين ابيهما حرارة الحب ، وصفاء التواصل بين الآباء والأبناء .

فرغم أنه كان ممثلا قل أن يجود بمثله الزمان ، إلا أنه فى حياته الخاصة ، كان باردا ، بعيدا ، مزعجا، بل ومخيفا فى بعض الأحيان .

وإذن ، فلا غرابة فيما عرف عنه من أنه تزوج خمس مرات ، وإحدى زوجاته «فرانسيس فوندا» ، أم « جين » و «بيتر» آثرت الانتحار .

انتحار أم

وعن إيثار أمها الانتحار ، سبيلا للخلاص ، تقول «جين» فى كتابها أنها، وقت حدوثه ، لم يكن لها من العمر سوى إثنى عشر عاما ، وكان أخوها يصغرها بعامين .

وطبعا ، اخفوا عنها الخبر المفجع ، فلم تعرف أن أمها لم تمت بالسكتة القلبية ، كما قيل لها وقتها ، وإنما ماتت منتحرة ، إلا بعد سنوات طوال .

والغريب فى الأمر ، أنه لم يرد أى ذكر لأمها فى أى حديث دار بينها وبين أبيها ، إلى يوم إن جاءه الموت ، بعد الانتحار ، بعشرات السنين .

ولأن حياة «جين» غنية ، فيها من الغرائب الشيء الكثير ، جاء كتابها زاخرا بأحداث يكاد يكون من المستحيل الإشارة إلى معظمها ، ولو باختصار .

لذلك سأكتفى بالإشارة إلى حديثين فى أقل القليل من الكلمات .

فيتنام إلى الأبد

الحدث الأول ، والأهم ، هو قيامها بزيارة شمال فييتنام عام ١٩٧٢ ، أى أثناء العدوان الأمريكى .

فهذه الزيارة تعد ، ولاشك ، عملا شجاعا من ممثلة شابة ، كانت إلى عهد قريب فتاة مدللة ، وزوجة لمخرج فرنسى ، ساحر نساء ، اسمه «روجيه ڤاديم» .

ولأهمية هذه الزيارة فى حياتها ، أفردت لها فصلين من الكتاب ، وعكس الفصول الأخرى ، كتبتهما فى الزمن الحاضر ، للتدليل بذلك على أن زيارتها لفييتنام حية لاتزال على شاشة ذاكرتها ، حتى يوم تأليف الكتاب ، وكذلك حية على شاشة ذاكرة الأمريكيين .

هاوية الإدمان

أما الحدث الثانى ، فهو إدمانها شرب الخمر ، وانحدارها إلى هاوية ازعجت أولادها الثلاثة «ڤانيسا ڤاديم» ، «تروى جاريتى» ابنها من زوجها الثانى و« لولو» ابنها بالتبنى من الفهود السود .

فاحاطوها بانزعاجهم علما ، وكان رد فعلها الأول الصراخ والعويل بشكل جنونى إن دلّ فإنما يدل على فقدان الثقة بالنفس . غير أنها سرعان ما استردت توازنها ، وأخذت تفكر مليا كيف تتخلص من داء الإدمان .

وبطبيعة الحال لم يكن العلاج أمرا سهلا ، عانت منه كثيرا .

إهداء

وختاما ، لعله من المفيد أن أذكر أن «جين» أهدت كتابها إلى «فرانسيس سيمور فوندا» التى انتحرت سنة ١٩٥٠ ، أى قبل خمسة وخمسين سنة بالتمام !! ■

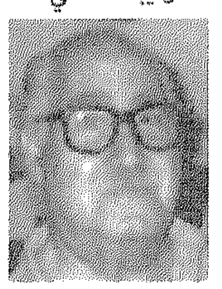

عبد الوهاب
مقتبسا
كيف تأثر الموسيقار من النغم التي رحلت إليه؟
بقلم
د. نبيل حنفي محمود

وحدهم العباقرة من تثار حولهم المعارك والمناقشات فى حياتهم وبعد مماتهم، وتبدو تلك المقولة متسقة مع قوانين الطبيعة، فما الذى يمكن للخاملين والمغمورين أن يقدموه ليثير معركة أو يعقد نقاشاً أو حتى يلفت إنتباه أحد؟ ، ويعد محمد عبدالوهاب (١٩٠١ - ١٩٩١م) أكثر من تنطبق عليهم هذه المقولة من بين أهل الغناء، فمن الاعتداء البدني الذى تعرض له فى أحد أيام شهر مايو من عام ١٩٦٠م بمقص فى يد مختل، وحتى الاتهام بانتحال الألحان والأفكار الموسيقية الذى صاحب خطواته فى عالم الغناء ومازال ملتصقا باسمه بعد رحيله، تعددت الهجمات والاتهامات التى تناولته وجرت على سطور الصحف وفى أروقة المحاكم، وبالرغم من كثرة تلك الهجمات والاتهامات ، فإن ما أثاره الملحن الراحل: رءوف ذهنى (١٩٢٤ - ١٩٨٥م) فى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر فى عام ١٩٥٦، يعد الأقوى بين ما تناول شخصية موسيقار الأجيال المثيرة للجدل من هجمات واتهامات.

تعددت الأقلام والأسماء التى اتهمت محمد عبدالوهاب بانتحال الجمل بل والمقاطع الموسيقية فى بعض ألحانه، مثلما تعددت المصادر التى أتهم بالأخذ منها، كانت ألحان موسيقار الشعب: سيد درويش (١٨٩٢ - ١٩٢٣م) هى المصدر الأول الذى قال البعض بأن عبدالوهاب اغترف منه الكثير الذى دخل فى أعماله الأولى، قالت بذلك د. رتيبة الحفنى فى كتابها: «محمد عبدالوهاب.. حياته وفنه»، حيث ذكرت فى الفصل السادس ما يلى: «واجه عبدالوهاب فى بداية حياته الفنية من يتهمونه بسرقة ألحان سيد درويش»، وقد ذكر الناقد الراحل كمال النجمى ذلك أيضا، ولنضرب مثلا هنا بما أخذه عبدالوهاب من ألحان سيد درويش فى واحدة من أغنياته المشهورة، وهى أغنية : «ياوابور قوللى» التى جاءت فى سياق فيلمه الثالث «يحيا الحب» الذى عرض فى ١٩٣٨/١/٢٤م، فى تلك الأغنية.. حاكى عبدالوهاب ونقل لحن مقطع «زمر يا وابور واربط/ نزلنى عند البلد دى» الذى جاء فى سياق أغنية «سالمة ياسلامة» لسيد درويش فى تلحينه لمقطع «عمال تجرى قبلى وبحرى/ تنزل وادى تطلع كوبرى» فى أغنية «ياوابور قوللى»، ولا يتبقى هنا من حديث عن المصدر الأول من المصادر التى اتهم عبدالوهاب بالاقتباس أو النقل منها، سوى اعترافه بنفسه وبصراحة وعلى الهواء مباشرة بصحة اتهامه بالاقتباس أو النقل



رتيبة الحفني



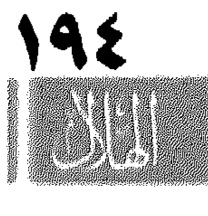
عبد الحميد توفيق

من ذلك المصدر، حدث ذلك في سهرة قدمتها إذاعة «صوت العرب» في مساء ثالث أيام عيد الفطر المبارك لعام ١٣٧٩ هـ والتي قدمت في التاسعة من مساء السبت ١٩٥٩/٤/١١، فعندما سألت مذيعة السهرة: نادية توفيق ضيف السهرة: محمد عبدالوهاب عن مصدر ألحانه الأولى وهل استوحاها من ألحان سيد درويش كما يدعي البعض، أجاب عبدالوهاب بالآتي: «طبعا، لأن الفنان عندما يبدأ في الظهور، يترسم خطى الشخصية التي يحبها، ومن ثم يكون شخصيته الجديدة شيئا فشيئا، وأنا كنت مضطرا أن أسير في أول الأمر على هدى ألحانه وأتأثر بروحه» (الإذاعة: العدد ١٢٥٦ - ١٩٥٩/٤/١١ - ص ٢٤: ٢٥)، وقد وضعت زينب محمد حسين، محررة المقال الذي جاء بمجلة «الإذاعة» عن هذه السهرة.. عنوانا فرعيا للمقال بالنص التالي: «أول ألحاني اقتبستها من سيد درويش»!

الموسيقى الغربية

يمكن القول بأن الموسيقى الغربية أو العالمية هي المصدر الثاني والأكبر الذي رمي البعض عبدالوهاب باتهام الأخذ منه والتأثر به، إن ما حوته الأدبيات التي عقدت حول الغناء المصري والعربي في القرن المنصرم، والتي اهتمت بما أخذه عبدالوهاب من الموسيقى العالمية، أكثر من أن يحاط بها في سياق مقال كهذا، وبالرغم من ذلك.. فإن المتصفح لتلك الأعمال سوف يتوقف عند مقال واحد تضمنه عدد يونية ١٩٩١م من مجلة «الهلال»، كان كاتب المقال هو المؤرخ والناقد والموسيقى الراحل عبدالحميد توفيق زكي (١٩١٧ - ١٩٩٨م)، وقد جاء المقال تحت عنوان: «محمد عبدالوهاب بين المحاكاة والاقتباس والنقل»، قدم عبدالحميد توفيق زكي لموضوع مقاله بتعريف ماهية كل من المحاكاة والاقتباس والنقل في مجال الموسيقى، فقال بأن المحاكاة تجيء على صورة الاستعانة بالقوالب الموسيقية أو بأخذ الايقاعات المختلفة ودون المساس بالألحان الأخرى التي وضعت في هذه القوالب أو قامت على تلك الإيقاعات، وأما عن السرقة الموسيقية.. فقد قال عنها عبدالحميد توفيق زكي: «إذا ما نقل ملحن ما جملة موسيقية تامة حوالي ٨ (موازير) من الايقاع الثنائي، كأن ينقل لحنا يعادل زمنيا وموسيقيا موسيقى جملة (بلادي بلادي لك حبي وفؤادي)، فهي سرقة ولا شك»، و«الموازير» في حديث عبدالحميد توفيق زكي جمع «مازورة» وتعني الكلمة الموسيقية، والجملة الموسيقية تتكون عادة من ثماني كلمات موسيقية أو ثماني موازير، ثم يفرق عبدالحميد توفيق زكي في مقاله بين السرقة والاقتباس بقوله: «أما إذا حرف في بعض نوتاتها الموسيقية «أي الجملة الأصلية»، فيقع تحت بند الاقتباس، فلا جريمة هنا.. إلا إذا كانت الجملة الصغيرة أو جزء من جملة مشهور جدا كمطلع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن»، ويضرب عبدالحميد توفيق زكي مثالاً لبيان الحد الفاصل بين السرقة والاقتباس من أعمال عبدالوهاب، فيقول: «ان نقل هذا الجزء الصغير المشهور (ويعني به جزء معين من مطلع السيمفونية الخامسة لبيتهوفن) في مطلع غنائية: (أحب عيشة الحرية) هو سرقة لا شك فيها، وليس من الضروري أن تكون جملة كبيرة بنصها وحرفها»، ثم يستعرض عبدالحميد توفيق زكي فيما تبقى من مقاله نماذج لأشهر ما اقتبسه أو نقله عبدالوهاب في أغنياته من الموسيقى العالمية.

يتمثل المصدر الثالث من المصادر التي يتهم البعض محمد عبدالوهاب بانتحال بعض ألحانه منها في أعمال بعض معاصريه، وتضم قائمة الأعمال الغنائية التي يقول البعض من كبار الموسيقيين والنقاد بأن عبدالوهاب استوحى بعض





رءوف ذهني و محمد عبد الوهاب ... علاقة ملغزة واتهامات خطيرة !!

جملها أو نقلها من أعمال معاصريه عددا كبيرا من الأغنيات والمقطوعة الموسيقية، ومن ذلك ما ذكرته د. رتيبة الحفنى من أن عبدالوهاب أعجب بلحن أغنية: «يالابسين الملا/ لبس الملاغية» لمحمود الشريف، فكان أن طلب من الشاعر أبوالسعود الأبيارى وضع كلمات لأغنية تبدأ بنفس لحن مطلع أغنية محمود الشريف، فأثمر ذلك أغنية رجاء عبده الشهيرة: «البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلى»، وتعلق د. رتيبة الحفنى على ذلك فتقول: «يلاحظ هنا أن هذه الأغنية (تعنى بذلك أغنية رجاء عبده) فى أسلوبها تبعد كل البعض عن لون عبدالوهاب فى التلحين، فهى فى طابعها شعبية.. فيها الأصالة المصرية التى عرف بها محمود الشريف فى ألحانه» (د. رتيبة الحفنى: المصدر السابق - ص ١١٣)، لم يكن محمود الشريف وحده الذى عانى من اقتباسات عبدالوهاب من ألحانه، ولكنه واحد من قائمة ضمت زكريا أحمد وفريد الأطرش وكمال الطويل ومحمد الموجى وحسين جنيد وكثير من الملحنين والموسيقيين، ممن يؤكد موسيقيين ونقاد وثقات أن البعض من جمل ألحانهم قد عرفت طريقها إلى ألحان بعض أغنيات عبدالوهاب.

مطرب وملحن وسكرتير ؟!

بعد أن عمل محمد عبدالوهاب مدرسا للموسيقى بمدرسة الخازندار فى عام ١٩٢٤م، وبدأ نجمه فى الصعود بعد رحيل سيد درويش فى عام ١٩٢٣م وبدعم من أمير الشعراء أحمد شوقى وأصدقائه، ولد الطفل رءوف ذهنى أحمد ذهنى فى الخامس من أغسطس عام ١٩٢٤، وبينما

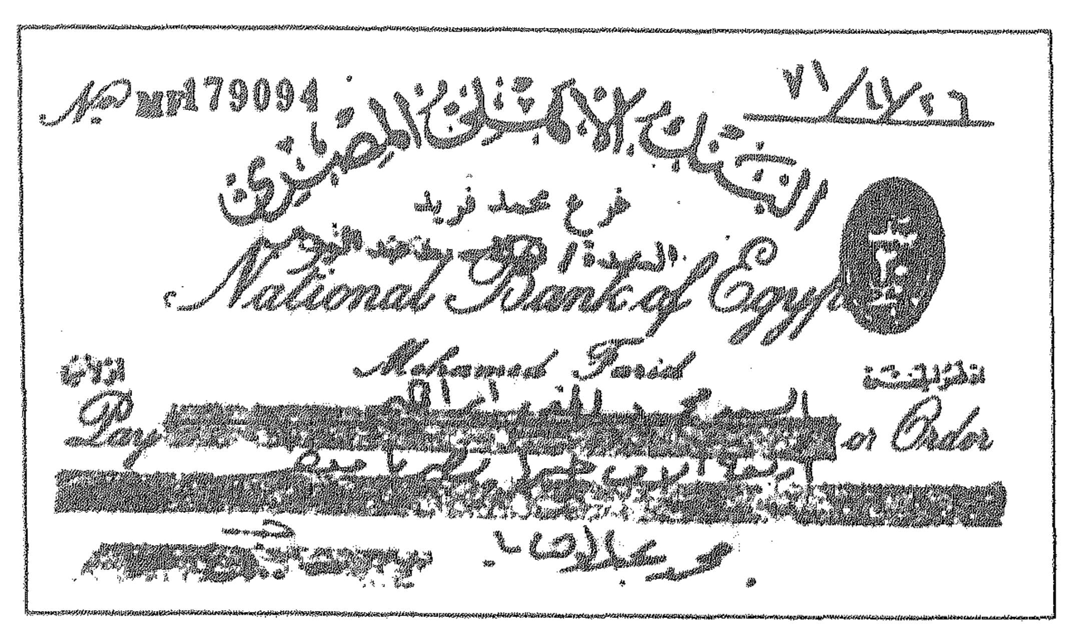
كان عبدالوهاب يواصل صعود سلم الشهرة والمجد، كان الفتى رءوف ذهني يتم تعليمه الأساسي بمدرسة المحمدية الابتدائية بحي الحلمية الجديدة في القاهرة، التحق الفتى رءوف في عام ١٩٣٩م بمدرسة الصناعات الميكانيكية، وقد أظهر الفتى خلال دراسته ميلا للفن واهتماما بالموسيقى والغناء، حيث شارك بالغناء مع أقرانه في برنامج «بابا صادق» الذي كان يقدم بالإذاعة، ثم أتقن العزف على البيانو أثناء دراسته بمدرسة الحلمية الثانوية، ومنذ البداية.. أحب الفتى صوت وألحان محمد عبدالوهاب، حتى جاءت معرفته - أي رءوف - بعبدالوهاب عن طريق والده، فقد كانت ابنة شقيقة الأب - وهي ابنة عمه رءوف - هي السيدة إقبال نصار: زوجة عبدالوهاب وأم أولاده، أعجب عبدالوهاب منذ لقائه الأول برءوف في عام ١٩٤١م بمواهب ابن عمة زوجته في الغناء والموسيقى، ولما كان رءوف قد حصل في هذا العام على دبلوم اللاسلكي من مدرسة الصناعات الميكانيكية، وبالرغم من حصوله على وظيفة في مصلحة الأشغال العسكرية بوزارة الحربية، إلا أنه فضل أن يعمل سكرتيرا خاصا لعبدالوهاب وبمرتب قدره خمسون جنيها في الشهر (الجيل: العدد ٢٣٣ - ١٩٥٦/٧/١١ - ص ٤٥)، كان حماس عبدالوهاب لمواهب ابن عمة زوجته منقطع النظير، حتى أنه وبالرغم من أن رءوف يلثغ في حرف الراء حتى يكاد لا يستطيع أن يظهره في حديث أو غناء، إلا أن عبدالوهاب ومن فرط حماسه لتلميذه وسكرتيره الجديد لحن له أغنيتان هما: «لما كنتي عارفة الحق عليكي» و«أنا واخد على خاطري منك»، وقد تغنى رءوف بالأغنيتين من الإذاعة في شهر أكتوبر من عام ١٩٤١م (محمد قابيل: موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين - ص ٩٧)، وبذلك دفع عبدالوهاب بسكرتيره الجديد ليكون مطربا بين الكبار من مطربي ذلك العهد.

لم يطل المقام برءوف ذهني في وظيفة السكرتير وموقع المطرب، حتى طلع على الناس بلحنين وضعهما ليتغنى بهما المطرب الشهير - آنذاك - عبده السروجي (١٩٠٨ - ١٩٨٧م)، أذيع اللحنان في سهرة يوم الاثنين ١٩٤٥/٥/٢١م، وهما: «معلهش وماله يا دنيا» من نظم جمال فكري و«مين فينا كان الحق عليه» من تأليف علي الشيرازي، وبالرغم من ذلك فإن الشهرة لم تطرق باب القادم الجديد لعالم الغناء، ويبدو أن طموح رءوف قد أثر في محمد عبدالوهاب، فنشط عبدالوهاب لتقديم رءوف إلى جمهور الغناء مرة ثانية، في تلك المرة التي كانت في مطلع الخمسينيات.. اهتم عبدالوهاب بالدعاية جنبا إلى جنب مع إتقان التلحين، ففي الصفحة رقم (٢٦) من العدد (٨٤٩) من مجلة «الإذاعة المصرية» الصادر في ١٩٥١/٦/٢٣م.. نشرت صورة تجمع بين محمد عبدالوهاب ورءوف ذهني، وجاء التعليق تحت الصورة كما يلي: «المطرب رءوف ذهني يذيع أغنية من تلحين الموسيقار محمد عبدالوهاب.. ٧,٥٥ مساء الخميس (الموافق ١٩٥١/٦/٢٨م)»، كانت الأغنية التي كتبها مأمون الشناوي هي الثالثة في ألحان عبدالوهاب لصوت رءوف ذهني، وهي طقطوقة من مقام البياتي الشرقي المشبع بالطرب والجمال، وتبدأ الأغنية بالمذهب التالي:

كل يوم وياك
وغضبك مني يزيد النار في فؤادي
النهارده معاك
ويمكن بكره ما أكونشي معاك في الدنيا دي

لم تمض ستة أشهر على تقديم أغنية «كل يوم وياك» في الإذاعة، حتى أتحف عبدالوهاب صوت تلميذه الجديد وأسماع الجمهور باللحن الرابع لقصيدة «النيل»




البنك الأهلي المصري
فرع محمد فريد
National Bank of Egypt
Mohamed Farid
Pay ... or Order
179094

صورة الشيك الذي تم تحريره بمعرفة نهلة القدسي زوجة محمد عبد الوهاب
الذي وقع عليه بخط يده لصالح محمود لطفي المحام

وهى من أشعار محمود حسن إسماعيل، وقد تغنى بها رءوف للمرة الأولى من الإذاعة فى الثامنة والربع من مساء الخميس ١٩٥١/١١/١م.

استمد رءوف ذهنى من نجاح أغنيتى عبدالوهاب: «كل يوم وياك» و«النيل» حافزا لمواصلة الغناء، فقدم من الإذاعة وخلال عام ١٩٥٢ مجموعة من الأغنيات نذكر منها: «إزيكم» وهى من تأليف حسين السيد وألحان رءوف والأغنية الشعبية الجميلة التى حققت نجاحا كبيرا: «ياجواهر بالمال».

لم يكن نجاح رءوف ذهنى كمطرب كافيا لإشباع طموحه أو صنواً - من وجهة نظرة - لموهبته، وإنما كان نجاحه كمطرب هو غاية ما تطمح له نفسه، وقد تحقق ذلك فى السابعة والربع من مساء السبت ٣/ ٢/ ١٩٥٥، وعندما قدمت الإذاعة وللمرة الأولى لحنا جديدا لرءوف انفجر كقنبلة فى عالم الغناء المصرى، كان اللحن لأغنية «سلم لى عليه» التى صاغ كلماتها مأمون الشناوى وتغنت بها نجاة الصغيرة، تبدأ الأغنية التى جاءت فى قالب الطقطوقة بالمذهب أو المطلع التالى:

سلم لى عليه　　وأعرف جرى إيه
واسأل لى عينيه　　ييجوا ويشوفونى
بالروح حبيت　　وفى حبى قاسيت
وبدمعى بكيت　　من قلبى وعيونى

لم يلتفت أحد - آنذاك - إلى التشابه الواضح فى الصياغة الشعرية لمطلع هذه الأغنية ومطلع أغنية أخرى لعبدالحليم حافظ، كانت أغنية عبدالحليم هى «إيه ذنبى إيه» من نظم مأمون الشناوى أيضا، وهى من أغنيات فيلم «أيام وليالى» والذى كان عرضه الأول فى يوم الاثنين ١٩٥٥/١٢/٥ وبعد إذاعة «سلم لى عليه «بيومين!، وكان مطلع «إيه ذنبى إيه» كما يلى:

إيه ذنبى إيه　　ماتقولى عليه
مخاصمنى ليه　　لما أنت حبيبى

لم يقف التشابه بين مطلعى الأغنيتين عند الصياغة الكلامية، بل تجاوزه ليصل إلى الجملة اللحنية وأسلوب التعبير

الموسيقى، ولكن ذلك لم يجذب الانتباه آنذاك، ومضى اللحنان يحصدان إعجاب الجمهور المتعطش للجيد والمبتكر فى عالم الغناء.

إن ما حققته «سلم لى عليه» وما تلاها من أغنيات لحنها رءوف ذهنى من نجاح جماهيرى، وما أحدثته هذه الأغنيات فى عالم الغناء المصرى من مفاجأة، كان إيذانا بميلاد ملحن موهوب، سوف ينضم إلى الكتيبة الرائعة من الملحنين الجدد، تلك الكتيبة التى ستقود ثورة الغناء المصرى والعربى فى النصف الثانى من القرن العشرين، ولكنها لم تكن المفاجأة الأخيرة لرءوف ذهنى فى عام ١٩٥٦.

الموقعة الأولى

بدأت أحداث الموقعة الاولى من هذه المعركة عندما فجر رءوف ذهنى مفاجآته الأخيرة لعام ١٩٥٦م، حمل العدد رقم (١٤٨٨) من مجلة «روزاليوسف» تلك المفاجأة التى تمثلت فى حديث أدلى به رءوف للصحفيين المعروف محمد تبارك، وقد أعطى تبارك للحديث الذى شغل الصفحتين الثلاثين والحادية والثلاثين عنوانا ساخنا بالنص التالى: «رءوف ذهنى يصرخ: سرقنى عبدالوهاب – ويقول إنه صاحب ألحان بنت البلد وإيه ذنبى إيه – عبدالوهاب ورءوف ذهنى فى قسم الأزبكية»! قال محمد تبارك فى بداية مقاله الذى تضمن حديث رءوف ذهنى إليه مايلى: «إن رءوف ذهنى يتحدى عبدالوهاب أن ينكر أن ٧٠٪ من الألحان التى وضعها للأفلام ابتداء من فيلم (لست ملاكا)، هى فى الحقيقة من تأليف رءوف ذهنى سكرتيره الفنى»، وأتبع تبارك ذلك التصريح ببيان ماقال رءوف إنه لحنه من أغنيات مع ذكر ماتلقاه مقابل ذلك من عبدالوهاب، ففى فيلم «عنبر» الذى لعبت بطولته ليلى مراد وجاء عرضه الأول فى ١٩٤٨/١١/١م، كانت أغنيات: «سالت عليه»- «اللى يقدر على قلبى» ماعدا المقطع الأخير منها و«بوس ع الدنيا» من تلحين رءوف وليس عبدالوهاب كما عرف الناس منذ اليوم الأول لعرض الفيلم، وقال رءوف إنه تقاضى مبلغ ١٥٠ جنيها من عبدالوهاب مقابلا لانتفاع عبدالوهاب بألحانه لأغنيات ليلى مراد المذكورة، وقد تكرر الأمر فى فيلم «غزل البنات» .. حيث تسلم رءوف سيارة فورد موديل ١٩٤٩ فى مقابل تلحينه لأغنيات: «أبجد هوز»، «عاشق الروح» والنصف الأول من أغنية «الحب جميل» التى تغنت بها ليلى مراد فى الفيلم، وأضاف رءوف إلى هذه القائمة بعض أغنيات فيلم «لست ملاكا» ومجموعة من أغنيات عبدالوهاب الإذاعية وعدد من المقطوعات الموسيقية!، وقال رءوف لمحمد تبارك إنه لما شعر بالغبن الذى لحق به عندما شاهد مايجنيه عبدالوهاب من استغلال ألحانه فى الأفلام السينمائية، فإنه طالب عبدالوهاب قبل ثلاث سنوات – أى عام ١٩٥٣ – بملغ خمسة آلاف جنيه تعويضا عن العائد الهزيل الذى جناه فى مقابل ألحانه التى ذاعت وكمقابل عادل لألحانه التى لم يستغلها عبدالوهاب بعد، ويصف محمد تبارك ماحدث بعد ذلك فيقول: «ولما امتنع عبدالوهاب عن دفع الثمن، قرر رءوف استرداد الألحان التى لم يستغلها عبدالوهاب بعد، واستولى عليها فعلا من درج مكتب عبدالوهاب، ففقد عبدالوهاب أعصابه وأبلغ قسم بوليس الأزبكية، وقام البوليس بتفتيش منزل رءوف، فلم يعثر فيه على شىء»، ويمضى محمد تبارك فى سرد ماحدث بعد ذلك، ففى حضور مأمور قسم الأزبكية: القائمقام حسن كامل، طلب عبدالوهاب أن ينفرد برءوف لعله ينجح فى إقناعه بحل المشكلة قبل الذهاب إلى النيابة، وعندما انفرد عبدالوهاب برءوف فى مكتب نائب المأمور، قدم له أكثر من عرض فى مقابل استعادة



النوت الموسيقية، كان آخر العروض - الذى حاز قبول رءوف - يتمثل فى الحصول على ستمائة جنيه نقدا وفى الحال بالإضافة إلى عقد لمدة عشر سنوات وبمرتب شهرى قدره خمسة وخمسون جنيها، وألحق عبدالوهاب بعرضه هذا وعدا بشراء سيارة جديدة لرءوف.

أوضح محمد تبارك فى نهاية مقاله بالعدد رقم (١٤٨٨) من «روز اليوسف» السبب الذى أطلق تلك المفاجأة التى كانت بداية الموقعة الأولى، فقال تبارك إن ذلك السبب يتمثل فى أغنية «إيه ذنبى إيه» ، فقد لحنها رءوف أولا وقدمها للإذاعة ليغنيها بنفسه وعلى أنها من ألحان عبدالوهاب!، ولكنه ثار عندما علم بأن عبدالحليم سيغنى الأغنية فى فيلم قادم وبالرغم من موافقة لجنة الاستماع بالإذاعة على غناء رءوف لها. فأسرع رءوف إلى مأمون الشناوى - مؤلف «إيه ذنبى إيه» - كى يكتب له كلمات جديدة للحن الموضوع للأغنية ، فأعطاه مأمون كلمات أغنية «سلم لى عليه»، وعندما أذيعت «سلم لى عليه» من الإذاعة فى مساء السبت ١٩٥٥/١٢/٣ وقبل عرض فيلم «أيام وليالى» الذى تضمن أغنية «إيه ذنبى إيه» المنسوبة إلى عبدالوهاب، أرسل عبدالوهاب إنذارا إلى رءوف على يد محاميه - أى محامى عبدالوهاب - يخطره فيه بانتهاء عمله كسكرتير خاص له، فكان أن ذهب رءوف إلى محمد تبارك ليقص عليه حكايته العجيبة مع المطرب الذى عرفه الناس بألقاب عدة منها: الموسيقار الكبير - أمير الطرب - بيتهوفن الشرق ومطرب الملوك والأمراء.

إن مفاجأة كالتى فجرها رءوف ذهنى فى حديثه إلى محمد تبارك تستعصى على الفهم حتى الآن، إذ أن مفاجأة كهذه سوف تثير فى عقل المتلقى لها عدة أسئلة متلاحقة ومتداخلة. حيث يسائل المرء نفسه أولا عن السبب أو الأسباب التى تدفع موسيقيا وملحنا موهوبا بل وعبقريا مثل محمد عبدالوهاب لارتكاب مثل هذه السقطة الفنية والأخلاقية؟، إن ما أبدعته قريحة عبدالوهاب فى الأغنيات التى لم يتقول عليها رءوف ذهنى لكفيل بحفر اسم الرجل فى سجل الخالدين من الموسيقيين بأحرف من نور ، فهل كانت الألحان التى انتحلها - فى حديث رءوف - ستطاول أو تضيف جديداً إلى ماحققه من أمجاد فى تلحين أغنيات مثل : «كليوباترا» و«الجندول» و«فلسطين» وغيرها؟. على أن الأغرب من التساؤلات المتعلقة بعبد الوهاب هى التساؤلات الخاصة برءوف ذهنى، فما الذى يدفع شابا موهوبا استطاع أن يصنع ألحانا بهذا القدر من الجمال والابتكار لأن يرضى بنسبتها إلى آخر ولو كان أعظم موسيقيى الأرض؟!، هل كانت الحاجة هى واقع رءوف إلى تصرفه الغريب أم شىء آخر؟

مضت أحداث الموقعة الأولى فى التصاعد بتوالى صدور أعداد «روز اليوسف» ، حتى أنها اجتذبت إليها اطرافا أخرى اكتوى بعضها - على حد زعمهم - بمثل ما اكتوى به رءوف من عبدالوهاب، وتدخل البعض من هذه الأطراف فى الموقعة من باب إيفاء الشهادة وإحقاق الحق!، ومن الصنف الأول من هذه الأطراف.. الموسيقى والملحن: حسين جنيد «١٩١٨ - ١٩٩٠»، تحدث حسين جنيد إلى محمد تبارك فى العدد (١٤٩٠) من «روز اليوسف» شاكيا عبدالوهاب ومتضامنا مع رءوف ، فقال: «كنت لا أزال أقيم فى الإسكندرية، أسجل أنا وفرقتى ما ألحنه من مقطوعات فى استديوهات الإذاعة بالإسكندرية، ومن بين هذه المقطوعات واحدة اسمها «عرايس الربيع»، وحدث أن زرت القاهرة وترددت على معهد الموسيقى الشرقية، فوجدت بعض زملائى يرددون

أحد مقاطع «عرايس الربيع» ، فقلت لهم: إنها مقطوعتى، وكانت إجابتهم: نحن نعرف ذلك، ولكن عبدالوهاب سجلها واختارا لها إسم «أنا وحبيبى» ! «ص ٣٦»، وعندما واجه حسين جنيد عبدالوهاب بالنوتتين الموسيقيتين لمقطوعتى «عرايس الربيع» و«أنا وحبيبى»، ابتسم عبدالوهاب وقال لجنيد: «إن السرقات لا يمكن إثباتها بسهولة وخاصة أمام القضاء» ، وعندما عرض عبدالوهاب على حسين جنيد - كحل للمشكلة - عقدا لأربع اسطوانات باسم جنيد مع شركة عبدالوهاب للصوتيات ويمقابل قدرة ٣٠٠ جنيه، قبل جنيد على الفور العرض السخى وطوى النوتتين وانصرف راضيا بعد أن تبادل مع عبدالوهاب العناق والقبل!، وأما السبب الذى جعل حسين جنيد يتحرك ويدلى بحديثه هذا لمحمد تبارك ويشارك فى الموقعة الأولى من المعركة، فقد تمثل فى إخلال عبدالوهاب باتفاقه مع جنيد، فلم يسجل من المقطوعات الاربعة التى تم الاتفاق عليها سوى واحدة، أى أن ما ناله جنيد مقابل ابتلاعه لشكواه كان خمسة وسبعون جنيها لا غيرا!، ويعد مقال عبدالمنعم السباعى (١٩١٨ - ١٩٧٨) المنشور على الصفحتين الثامنة والثلاثين والتاسعة والثلاثين من العدد رقم (١٤٩١) من «روزاليوسف» والصادر فى ١٩٥٧/١/٧ م معبرا عن رأى الأطراف الأخرى التى تدخلت فى هذه الموقعة إحقاقا للحق، وعبدالمنعم السباعى هو أحد الضباط الأحرار، وقد تولى منصب رئيس أركان حرب الإذاعة المصرية بعد نجاح ثورة يوليو ١٩٥٢م، وهو شاعر غنائى أيضا ومن أعماله التى تغنى بها محمد عبدالوهاب إبان رياسته لأركان الإذاعة أغنيات مثل: «تسلم ياغالى» و«أنا والعذاب وهواك»، جاء ذلك المقال لعبد المنعم السباعى تحت عنوان : «أضواء على قصة عبدالوهاب ورءوف ذهنى - ماذا لطش عبدالوهاب من زكريا أحمد وكمال الطويل وكورساكوف»، رجع السباعى فى مقاله أن السبب فى (اندلاع الموقعة الأولى من المعركة هو ظهور ألحان رءوف، مما قد يكشف بعد ذلك عن حقيقة العلاقة بين الأستاذ وسكرتيره والتى كثر اللغط حولها فى الوسط الفنى، ويضيف السباعى إلى ذلك أن الناس تتساءل وتتعجب من منطقية السبب الذى يجعل ملحنا ناشئا يقبل نوعية العلاقة التى يقول رءوف بأنها قامت بينه وبين عبدالوهاب، فيعبر السباعى عن ذلك بقوله: «وهو سبب أو سر، قد تهضمه بعض العقول وقد تقبله، وتنكره عقول أخرى لا يقنعها الا الدليل الملموس، لأن عبدالوهاب صخرة فنية، أضخم من أن تحطمها فى أنظار الجماهير تقولات فنان حاقد، أو موسيقى مغمور حتى لو كانت أقواله صادقة!، أين الدليل؟، لا دليل أبدا فى الموضوع، وكل الأدلة على كثرتها ... فهى أدلة ظنية»، وللتدليل على ما يقول حول كثرة الأدلة الظنية... يقدم عبدالمنعم السباعى ثلاثة أدلة على اقتباسات أو سرقات إقترفها عبدالوهاب فى ثلاث من أغنياته، تمثل الدليل الأول فى أن اللازمة الموسيقية التى تعقب كلمة (الصيف) فى مقطع (قال لى كام كلمة يشبهوا النسمة فى ليالى الصيف) من أغنية «كل ده كان ليه» لعبدالوهاب، تلك اللازمة مأخوذة من اللازمة الموسيقية التى استخدمها زكريا أحمد (١٨٩٦ - ١٩٦١م) بعد كلمة (سلطان) فى مقطع (حبيبى يسعد أوقاته ع الجمال سلطان) من أغنية: «حبيبى يسعد أوقاته» لأم كلثوم، ويتعجب السباعى من أن عبدالوهاب كرر هذه اللازمة فى أغنيته تماما مثلما كررها زكريا أحمد فى أغنية أم كلثوم!، ويخرج السباعى من تلك المقارنة بالنتيجة التالية: « ومعنى هذا أن الفكرة الموسيقية واحدة، ولكن زكريا أحمد أسبق من عبدالوهاب، لأن



أغنية (حبيبي يسعد أوقاته) أقدم من أغنية (كل ده كان ليه) بعشر سنوات على الأقل»، وبنفس المنهج الذي ينم عن عمق الثقافة ورهافة الاحساس بالموسيقى وتذوقها، يكشف عبدالمنعم السباعي ما أخذه عبدالوهاب من متتالية «شهرزاد» الشهيرة للموسيقار الروسي ريمسكي كورساكوف (١٨٤٤ - ١٩٠٨م)، فيقول بأن عبدالوهاب أخذ بعض الجمل من «شهرزاد» في أغنية «يانايمة الليل وأنا صاحي» لمحمد عبدالمطلب والمقدمة الموسيقية لقصيدة عبدالوهاب الذائعة «كليوباترا»، ويختم السباعي شهادته ببيان ما أخذه عبدالوهاب في أنشودة «قولوا لمصر»، فيشير إلى أن الجملة الموسيقية التي تغطي تماما كلمات (قولوا لمصر تغني معايا في عيد تحريرها) في تلك الأنشودة، هي تماما الجملة الموسيقية المؤداة بآلة الفلوت في المقدمة الموسيقية لأغنية «لا ياحلو لأ» التي لحنها كمال الطويل (١٩٣٢ -٢٠٠٣م) وتغنى بها المطرب اللبناني محمد مرعي، وفي نهاية مقاله ... يخلص السباعي إلى أن: «الفنان الذي يسمح لنفسه بهذا العبث الفني، وفيه استهتار عجيب بعقول الناس، هل يتورع عن (لطش) اللزم الموسيقية من أي موهبة مغمورة؟»!.

الموقعة الثانية

أسدلت الشهور المتبقية من عام ١٩٥٧م ستائر النسيان على ما أطلقته اتهامات رءوف ذهني لعبدالوهاب في الموقعة الأولى من أحابيث وشجون، ومضى عبدالوهاب بعد أن تناسى الناس والاعلام أصداء تلك الاتهامات في طريقه يحصد النجاح تلو النجاح، ويلقى من التكريم والتقدير المسبغين عليه من الناس والحكام الشئ الكثير، بينما انطلق رءوف ذهني - بعد انفصام علاقته بعبدالوهاب - في التلحين لكثير من الأصوات الجميلة في مصر وخارجها، حيث مضى يوزع ألحانه على أصوات مثل: ليلى مراد - نجاة الصغيرة - صباح - فايدة كامل - مديحة عبدالحليم - مها صبري - شريف فاضل - فدوى عبيد - كارم محمود - عادل مأمون وماهر العطار، وبالرغم من فداحة الظلم الذي تعرض له رءوف ذهني إن كان صادقا في اتهامه لعبدالوهاب، ومن شناعة الاتهام الذي ألحق بسمعة موسيقار كبير كعبدالوهاب أبلغ الضرر إن كانت اتهامات رءوف له ملفقة، إلا أن عام ١٩٦٦م شهد - وللعجب - عودة المياه إلى مجاريها بين الاستاذ وسكرتيره السابق، حيث يذكر محمود الخولي في كتاب «من مذكرات رءوف ذهني: سرقني عبدالوهاب»، أن عبدالوهاب هاتف رءوف في منزله وطلب اليه أن يزوره، وعندما ذهب رءوف إلى منزل عبدالوهاب وهو يكاد يطير من فرط سعادته، فاتحه عبدالوهاب بعد الأحضان والقبلات في أنه يريد أن يستشيره في لحن أغنية «فكروني» التي كان يلحنها لأم كلثوم في تلك الأيام، ويشرح رءوف في مذكراته - التي استعان بها محمود الخولي في كتابه - ما قام بإضافته إلى الأجزاء التي كان عبدالوهاب قد أنهى تلحينها من الأغنية، وعندما شاع في الوسط الفني وعلى صفحات إحدى المجلات الحديث عن التشابه بين ألحان «فكروني» وبعض الألحان الأخرى، فان عبدالوهاب استدعى رءوف إلى منزله واستكتبه إقرارا بأنه لا علاقة له - أي رءوف - بأي مجهود بذل في تلحين أغنية «فكروني»!.

وبالرغم من ذلك - وطبقا لمذكرات رءوف ذهني - استمرت العلاقة اللغز بين عبدالوهاب وسكرتيره السابق، بل وامتدت إلى لبنان... حيث تبادل الاثنان المنافع، فقد أفاد رءوف من علاقات عبدالوهاب بكبار الاعلاميين والشعراء اللبنانيين في تسجيل عدد من أغنياته بأصوات لبنانية، وذلك كمقابل لقيامه - أي رءوف بإجراء بعض

التعديلات فى قصيدة هذه ليلتى إن علاقة ملتبسة كهذه لم تكن تنتظر سوى حدث أو موقف مناسب لتنفجر وتشتعل المعركة من جديد بين طرفيها، وقد حدث ذلك عندما تناقلت وسائل الاعلام فى مطلع صيف عام ١٩٧١م أنباء ترشيح محمد عبدالوهاب من قبل ما يسمى بالمجلس الأعلى للفنون والآداب لنيل جائزة الدولة التقديرية، فبادر رءوف بارسال برقية إلى كل من رئيس الجمهورية وسكرتير المجلس الأعلى للفنون والآداب يعترض فيها على ترشيح عبدالوهاب للجائزة، وأوضح رءوف فى برقيته أن شروط الترشيح لجائزة كهذه لا تتوافر فى عبدالوهاب، كان تاريخ إرسال البرقية – كما جاء فى كتاب محمود الخولى – هو ١٩٧١/٦/٢٣م، وعندما طلبت وزارة الثقافة فيما بعد تفسيرا من رءوف لاعتراضه العلنى على ترشيح عبدالوهاب للجائزة، فإنه تقدم فى ١٩٧١/٧/٢١م بمذكرة تفصيلية إلي مكتب وزير الثقافة، حيث أفاض فى شرح أسباب اعتراضه وخلص فى نهايتها إلى الآتى: «وخلاصة القول إن الاستاذ عبدالوهاب لم يعتمد على نفسه فى بناء مجده الفنى، بل استعان بالكثيرين من الموسيقيين الأجانب والعرب، دون أن يشير إلى هذه الاستعانة، كما أن الاستاذ عبدالوهاب ليست له أعمال فنية تدرس فى المعاهد الموسيقية العليا» (محمود الخولى: المصدر السابق – ص ١٠٦ : ١٠٩) .

تفجرت الموقعة الثانية من المعركة فى أروقة وزارة الثقافة وبعيدا عن أنظار الجماهير وأسماعها، وكان ذلك على العكس من الموقعة الأولى التى دارت على صفحات «روزاليوسف» وطالعها الجميع، وفيما يبدو أنه متسق مع طبيعة الموقعة الثانية، فإن نهايتها حدثت بعيدا عن الأنظار أيضا، حيث يذكر محمود الخولى أن رءوف حرر إقرارا بتاريخ ١٩٧١/١١/٢٥م، وقد نص الاقرار الذى رفع لوزير الثقافة على نفى رءوف لقيامه «بتأليف أى مصنف فنى موسيقى لمحمد عبدالوهاب»، وفُى اليوم التالى لتاريخ تحرير الاقرار – وهو يوم ١٩٧١/١١/٢٦م – تسلم رءوف ذهنى قيمة (شيك) بمبلغ أربعة آلاف من الجنيهات!، وقد تحرر الشيك بمعرفة السيدة نهلة القدسى – زوجة محمد عبدالوهاب – ووقع عليه عبدالوهاب!، كان الشيك الذى صدر باسم محمود لطفى ابراهيم المحامى مسحوبا على البنك الأهلى المصرى (فرع محمد فريد) ويحمل رقم ١٧٩٠٩٤، وقد حمل الوجه الآخر للشيك توقيع رءوف ذهنى على تسلمه قيمة الشيك بالاضافة إلى رقم بطاقته العائلية.

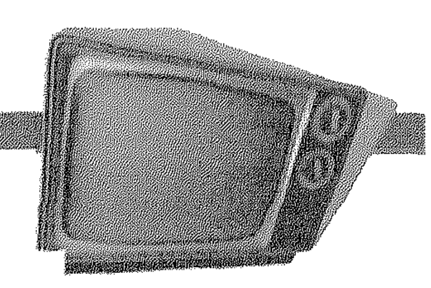
جاء صرف ذلك الشيك إيذانا بإنزال الستار بعد المشهد الأخير من المعركة، حيث انصرف عبدالوهاب بعدها لتدعيم مكانته وزيادة رصيده من الجوائز والتقدير الرسمى والشعبى، فها هى الاتهامات التى ثارت حوله قد نفاها وكذبها من أطلقها، ولم تثبت عليه بحال تهمة واحدة مما رماه به سكرتيره السابق، بينما انزوى رءوف ذهنى بعيدا عن الأضواء المسلطة على الاستاذ، تتنازعه مشاعر متضاربة تتردد بين الأسى لفشله فى النيل من عبدالوهاب وفى استعادة ما يراه من حقه وبين الرجاء فى أن يتمكن يوما ما من إقناع الناس بصدق دعاواه، حتى تبددت تلك المشاعر برحيله عن الدنيا فى ١٩٨٥/١٢/١٦م ■



بقلم
مرفت رجب

البابا .. فى التليفزيون

كانت لدى قائمة بعدة موضوعات أردت الكتابة فيها ، لكن ها أنذا أضطر لتركها جانبا لأكتب فيما كنت نويت تجنب الكتابة فيه .. صحيح أننى قضيت ساعات أتابع الفضائيات الأوروبية فى اليوم السابق على إعلان وفاة البابا ، وصحيح أننى وجدت فيها مايستحق التعليق والبحث، لكننى حين تابعت ماحدث فى اليوم التالى غيرت رأيى وقلت : إن هذا النوع يصيب الناس بنوع من التشبع معروف ومحسوب ومؤكد .. وربما يكون الأفضل أن نتكلم فى أمور أخرى .. لكننى سرعان ما راجعت نفسى وسألتها ، بصرف النظر عن شخص قداسة البابا الراحل ، وبصرف النظر عن تأييد أو نكران كل أو بعض آرائه وتاريخه ، هل يمكن أن نفوت هذا الحدث التليفزيونى غير المسبوق ولا نتكلم عن أول أضخم هندسة خطة رحيل لشخص من بنى البشر ؟ وماذا نفعل فى فيض الأسئلة التى تطرح نفسها ؟ ألا يمكن أن يعنينا طرحها ومناقشتها على فهم أمور أخرى تحيرنا وتوقع البعض منا فى أخطاء فى التفسير والتحليل !! والأمر لايخلو من عوامل الدهشة أو الصدمة ، تلك التى تشمل الواقع وقراءاته .



الأمر المؤكد أن الهندسة هى العنصر الحاكم لعمليات التغطية التيفزيونية ، ولقد حققت من الدقة والتوازن مايجعلها الأحق بالجائزة إن أخذنا الأمر من منظور تقييم كفاءة الأداء .

وقد يرى البعض أن تغطيات الألعاب الأوليمبية لاتقل تعقيداً من الناحية الهندسية، وقد أثبت التنسيق فى النقل الحى عبر الأقمار الصناعية كفاءة متصاعدة على مر السنين الفائتة ، وهو رأى حق ، وإن كان يتحدث عن نوع آخر غير ما أقصده باستخدامى لكلمة الهندسة .. فما أقصده هنا ليس تنسيق الإمكانات التقنية ، وإنما هندسة المضمون هى ما أقصده ، هندسة الكلام ، وأن مايقال بالدقيقة والثانية وتحويل مركز الصورة المعروفة على الشاشة بين المتحدثين بما يمكن من إلغاء الشعور بالمسافات التى تفصل بينهم سواء كانت هذه المسافات على الأرض ، أى مسافات فى المكان ، أو لو كانت مسافات معنوية ، أى مسافات فى الفكر .. ولقد تحقق ذلك بدقة وسلاسة مذهلة ودون استثناء أى ركن من أركان العالم الأربعة ليلة الرحيل ..

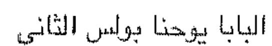
توقع النهاية

لم يكن أى شىء مفاجئاً ، فلقد تغيرت صيغة الأخبار المذاعة عن تدهور صحة البابا ، ومع تصاعد التغيير فى العبارات المنذرة أصبح توقع النهاية قائما فى أى لحظة ، وحين حولت القناة الفضائية بالتيفزيون الأولى نشرة أخبارها الرئيسية فى المساء إلى ندوة أو مائدة مستديرة يستمر فيها البث الحى ليجاوز الساعة ، قلت فى نفسى ، لابد أنهم علموا بالوفاة ، لكن عندهم تنسيقا معينا للحظة الإعلان ، وكاد توقعى يتأكد حين خرج الكلام من فم الطبيب الخاص ، أو فلنقل كبير أطباء البابا وقال فيما قال :

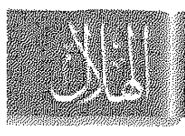
إن آخر تقرير طبى يقول كذا وكيت ، وهذا معناه الوفاة كما لو كان يقول واحد + واحد يساوى اثنين، لكن ما أذيع بعد كلام كبير الأطباء ألقى بظلال كثيفة من الشك على ما قال وعلى هنا أن أؤكد أننى لا أحقق فى توقيت وفاة البابا ولكننى أحلل هندسة الإعلان وهندسة حشد الاهتمام وهندسة إثارة العواطف وهندسة إسقاط الدموع وهندسة الكذب والنفاق ، والحق أقول : إن العبارة الأخيرة أى الكذب والنفاق ليست من عندى كما سيتضح من السطور التالية ، أما الحكم بأن كل شىء مرتب سلفاً ، وهندسة الحشد تتضح أمام عينى من تفاصيل صغيرة لكنها ليست عابرة ، أولا ، أن المشاهد التى يتم نقلها من الساحة المقابلة لسكن البابا فى روما لم يكن بها من البشر سوى عشرات ، وأما المشاهد التى كانت تأتينا من الفلبين أو إفريقيا أو أمريكا اللاتينية ، فقد كانت تنقل صور أفراد معدودين فى كنائس

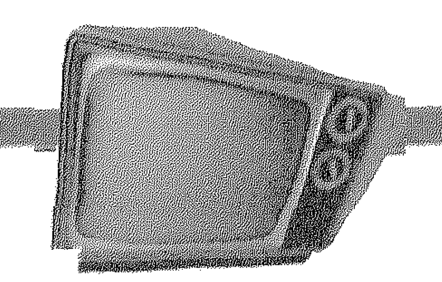
صغيرة نسبيا والصور الأكثر ظهوراً هى صور المراسلين خاصة مراسل التليفزيون فى بولندا والملاحظة هنا أن الكلام كان أعلى بكثير من الصورة ، لأن الكلام يأتى من أركان العالم الأربعة ، فيوحى بعالمية الاهتمام ، ثم إنه يؤكد طوال الوقت على قيمة هذا الرجل وتاريخ كفاحه الطويل بدءا من كفاحه للقضاء على الشيوعية ومابنسب إليه من نجاح فى هذا وانتهاء بكفاحة المتصل من أجل تحقيق التفاهم والسلام بين شعوب الأرض ، لكن طبعا من باب الأدب واللياقة ، فإن أحداً لم يذكر أن سعى الرجل لم يحقق مبتغاه لا فى تحقيق التفاهم ولا فى إنجاز السلام ..

ثانيا ، قبل أن تنتهى الندوة الحية المفتوحة على الهواء والنقاش فيها دائر بين المذيعة مديرة الندوة ، وكبير أطباء البابا وخبير فى الشئون البابوية وخبير فى الإعلام البابوى .. والكلام يجرى سجالا، يعدد ويستعرض ويمجد كفاح الرجل المستمر ويؤكد أنه لم يتوقف قط عن أداء رسالة حتى وهو يستعد للقاء ربه فقد آثر أن يبقى فى بيته ورفض فكرة نقله للمستشفى فى إشارة واضحة لرفض الاستسلام للأجهزة الطبية وإشكاليات الوفاة الإكلينيكية ، وما إلى ذلك من كلام يؤكد ويعمق ويحلل مايرد على ألسنة الناس الذين نتلقى صورهم وكلامهم من كنائسهم فى أركان الأرض الأربعة .. لكن المهم هنا أننا


البابا يوحنا بولس الثانى

فوجئنا بالكرادلة يأخذون أماكنهم لبدء صلاة دعاء الاحتضار ، وبدأت الكلمة تتكرر على ألسنة المراسلين وهم يخاطبون الناس ويسألونهم عن أفكارهم ومشاعرهم ودعائهم للبابا الذى يحتضر .. ويبدأ المرسل فى روما يحدثنا عن تدافع الناس إلى ساحة الفاتيكان وتوقعاته بأنهم سيقضون الليل بطوله يصلون ويدعون للبابا الذى يحتضر ، ومع تكرار هذه العبارة ، وتكرار نقل صور الكرادلة الذين يرددون ابتهالات وأدعية الاحتضار ، تدافعت الحشود بالتدريج إلى ساحة الفاتيكان .. وظلت الأعداد تتوافد ، بالعشرات ، ثم بالمئات







ثم بالألوف كما رأينا جميعا وقد كنت طوال الوقت أسأل ، لماذا قالوا فى المساء ، إنهم يتوقعون أن يحتشد الناس للدعاء للبابا طوال الليل ، ألم يكن هناك أى احتمال أن تحدث الوفاة قبل أن يكتمل امتلاء الساحة بكل هؤلاء الناس الباكين المتألمين لأن البابا يحتضر وأقل مايستحقه أن ندعو له .. لو كانوا ينقلون لنا الحقيقة أو لو كان ذلك أصلا فى نيتهم ، لما جاء كلامهم على هذا النحو كأنهم متأكدون أنه لن يموت إلا بعد أن تمتلىء الساحة بعشرات الألوف من الأتقياء والمتعاطفين ..

الكذب والنفاق

أما وقد تابعت الدنيا ما تواصل نقله على شاشات العالم من وقائع الحدث ، وبكل التفاصيل ، وباللقطات المقربة المكبرة لصور العيون الباكية والقسمات المتألمة ، تشمل البسطاء الصادقين المتألمين ، كما تشمل الحكام المنافقين الكذابين وتستعرض يوم الجنازة من يصافح من ، ومن يبتسم لمن ومن يربت على كتف من .. وبدأ الناس فى البيوت يتساءلون هل هى تغطية أبدية ؟

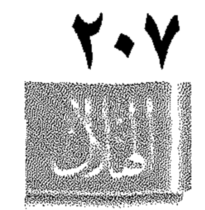
هل وقعت الشاشات فى ورطة التسابق على إظهار المحبة والتقدير ، والآن يأتى الحرج من الذى يضع نقطة النهاية وينتقل إلى موضوعات أخرى ؟!!

المهم أنه كان لابد من وضع نهاية للنقل الحى لكن بعد النقل الحى ، يأتى دور البرامج ، وبدأ الناس فى بلادى يتساءلون ، هل انتقلت إلى الغرب عاداتنا القديمة فى استمرار مراسم الحزن لأربعين يوما ، على كل حال ، فسيبقى الأمر مفتوحاً للبحث والنقاش لأسابيع أو قل لشهور قادمة لكننى لا أستطيع أن أختم هذا المقال دون أن أحكى لكم أهم ما التقطته من كلام فى شأن هذه التغطية المهندسة غير المسبوقة فى تاريخ وسائل الإعلام الحديثة ، وأنا لا أحكى الواقعة لمخالفتها للسياق ، أو لأنها فى الواقع كانت السبب الرئيسى فى أن أحسم قرارى وأكتب فى الموضوع ، وإنما أذكرها ، لأننى أظنها المفتاح الذى يعيننا على فهم أسرار الحملات الإعلامية التى نقع فريسة لها بين الحين والحين ، أو فلنقل : إننا أصبحنا على طول الخط فريسة لحملات إعلامية مهندسة ومصممة بكل الدقة والحذق للسيطرة على أفكار الناس وإلهائهم عن ماهو أحق وأجدر بالاهتمام والالتفات ..

تدور الواقعة فى برنامج أذيع يوم ١٢ إبريل ٢٠٠٥ وأترك لكم حساب الفاصل الزمنى بين هذا التاريخ ، وتاريخ وفاة البابا المهم أن هذا البرنامج المذاع على شاشة أوروبية ، هو من برامج الرأى ، وفى كل حلقة يستدعى عدداً من كبار الشخصيات والكبر هنا ليس كبراً فى السن ، إنما هو فى تخصص وقيمة الضيف ، وعلى هذا النحو ، فالضيوف

الستة المستضافون فى كل حلقة هم من أصحاب المكانة ، ولكن من الواضح أن معدى البرنامج ينتقونهم بحيث يكونون من اتجاهات فى الرأى مختلفة ، وأحيانا متناقضة ، بحيث يحتدم النقاش وتعاكس الأفكار بعضها ويظل مدير الندوة يتقافز ويكاد يصرخ وهو يحاول السيطرة على النقاش المحتدم وكأنه الحكم فى مباراة كرة قدم فى نهائى كأس العالم .. المهم أن الحلقة المذاعة من البرنامج فى هذا اليوم كانت عن رحيل بابا الفاتيكان .. ولأول مرة نرى ونسمع من يوجه النقد للبابا ولأفكاره ، وأنا لا أنوى بالطبع أن أنقل فى هذه السطور كل مادار فى البرنامج من آراء تختلف فى درجة تأييدها أو رفضها لبعض أو كل ما جاهد البابا فى سبيله ، أو أسلوبه فى الجهاد أو ماحقق من ثمار ، ليس هذا هو مقصدى ، ولكن مقصدى هو أن أحكى لكم عن تلك القنبلة التى فجرها أحد المتحدثين فى وجه زملائه وفى وجهنا بالطبع ، ونحن نشاهد البرنامج يقترب من نهايته وإذ بالرجل يكاد يصرخ ، يريد أن يطغى بصوته على أى محاولة للمقاطعة أو الاعتراض ، وليقول لهم : الخلاصة هى أن كل ماحدث ماهو إلا كذب وتضليل ونفاق، أنا أريد أن أسأل سؤالا واحداً ، لو كان حكام العالم مؤيدون للبابا كل هذا التأييد، لو كانوا يحملون له كل هذا الإعجاب فلماذا لم يعملوا بنصائحه ، لماذا تعمدوا التصرف فى عكس اتجاه مادعا إليه إسألوا أنفسكم سؤالا واحدا ، لماذا ذهب چورچ بوش وأبوه وكلينتون إلى جنازة البابا .. لقد اعترض البابا على غزو العراق ولم يلتفت چورچ بوش لدعوة البابا وقام بغزو العراق ، جاهد البابا للفت الانتباه لأحوال الفقراء فى العالم ، وكل قرارات بوش الاقتصادية تزيد الفقراء فقراً ، طالب البابا بمراعاة شروط حماية البيئة ، وتجاهل بوش كلام البابا وخاصم كل الاتفاقيات الدولية التى تحاول حماية البيئة ، وآراء البابا فى شأن الطلاق والإجهاض ووو وعدد المتحدث من النقاط عشراً وفى كل مرة يقول دعا البابا إلى هذا وتصرف چورچ بوش فى عكس اتجاه دعوة البابا ..

وظل المتحدث يسرع فى الكلام غير عابىء بإشارات مدير الندوة المتقافز بالإشارات إلى قرب انتهاء موعد البرنامج، وظل الرجل يؤكد وجهة نظره من أن كل هذه الحشود وكل هذه المبالغة فى التعبير عن الاحترام والتبجيل والتقدير ليست إلا لإحكام التضليل والكذب والخداع ، وعلى كل حال فقد دق الرجل جرس التنبيه والإنذار وعلينا نحن أن نمحص الكلام ونحاول أن نطبقه على كل مظاهر التكثيف والمبالغات فى الكلام والتصريحات والحملات الإعلامية ، ألا يمكن أن يصدق عليها كلام هذا المتحدث الأوروبى الذى يرى أن كل مبالغة وتكثيف إعلامى يخفى حقيقة مخالفة !!! ■





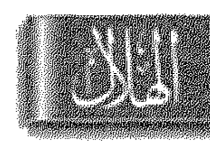
اختلفنا وتحاورنا وأحببنا..
وطافت بنا الأحلام إلى أبعد نقطة
في هذا الكون الفسيح

فاروق جويدة

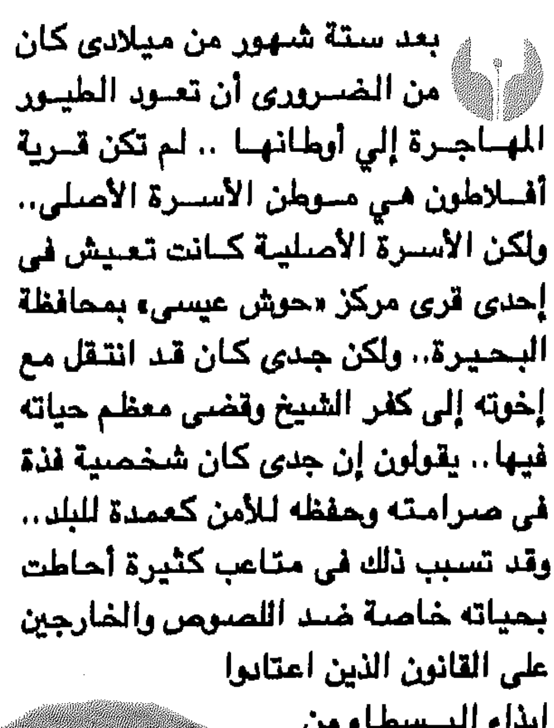
يبدو أن شتاء عام ١٩٤٥ كان شديد البرودة، على الرغم من أن اللحظات الأخيرة في الحرب العالمية الثانية كانت أشدها سخونة وأكثرها دمارا.. كان العاشر من شهر فبراير يستعد لاستقبال طفل صغير فى قرية صغيرة تسمى «أفلاطون» ولقد تساءلت كثيرا بعد ذلك عن سبب هذا الاسم حتى أننى سألت أصدقاء من اليونان : هل زار أفلاطون مصر؟.. ولم أعرف الحقيقة.

كانت قرية أفلاطون في هذا الوقت قرية صغيرة، وفى جزء منها أقرب إلى الأرض الزراعية ولدت.. كانت الزراعات أقرب كثيرا إلى بيتنا من البيوت الأخرى فى القرية، فقد بنى جدى هذا البيت بما يتناسب مع مكانته كعمدة لأفلاطون..

وكان جدى قد رحل من سنوات قليلة وقبل أن أفتح عينى على أول نقطة ضوء تتسلل إليها... مات جدى فى ظروف صعبة ووالدى - وهو أكبر إخوته - فى الثانية عشرة من عمره.. وأمام رحيل الجد والسن الصغيرة للابن وخمس بنات وأم، تزوج والدى فى سن صغيرة حتى يصبح رجل البيت، كما يقولون عندنا فى الريف.. وبعد عامين من زواجه أنجب شقيقتى الكبرى وهى تكبرنى بثلاث سنوات..



بعد ستة شهور من ميلادى كان من الضرورى أن تعود الطيور المهاجرة إلي أوطانها .. لم تكن قرية أفلاطون هي موطن الأسرة الأصلي.. ولكن الأسرة الأصلية كانت تعيش فى إحدى قرى مركز «حوش عيسى» بمحافظة البحيرة.. ولكن جدى كان قد انتقل مع إخوته إلى كفر الشيخ وقضى معظم حياته فيها.. يقولون إن جدى كان شخصية فذة فى صرامته وحفظه للأمن كعمدة للبلد.. وقد تسبب ذلك فى متاعب كثيرة أحاطت بحياته خاصة ضد اللصوص والخارجين على القانون الذين اعتادوا إيذاء البسطاء من الفلاحين والاعتداء على ثرواتهم المتواضعة.. كان أمام والدى أن يختار اسمى.. ولأن والدتى من كفر الشيخ.. ولأنها الآن أمام مفترق الطرق أمام حياة جديدة سوف تترك فيها أسرتها ربما للأبد.. وأمام رحيل أسرتنا بكامل أشخاصها إلى مكان آخر وأرض أخرى وبشر آخرين كانت والدتى حزينة لوداع أهلها، بينما كان أبى سعيدا أن يعود إلى أحضان أسرته فى محافظة البحيرة.. واختارت أمى اسما غريبا يتناسب مع حالتها النفسية ووداعها لأمها وأبيها وهى مازالت فتاة صغيرة لم تكمل العشرين من عمرها، على الرغم من أنها زوجة وأم لطفلين.. اختارت أمى اسما غريبا.. «فراق» ولنا أن نتخيل لو كنت حملت هذا الاسم طوال حياتى .. فراق محمد جويدة بدلا من فاروق محمد جويدة.. واختار أبى اسم «الفاروق» تيمنا بسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. وبين الفاروق وفراق اختارت جدتى «فاروق» ملك



مصر الصاعد فى ذلك الوقت..»

لم يكن عمرى قد تجاوز الشهور الستة وأمى تحملنى ذات مساء من شتاء عام ١٩٤٥ فى رحلة فراق بين كفر الشيخ والبحيرة، وعلى الرغم أن المسافة بين البلدين لا تتجاوز ٧٠ كيلو مترا، فإن الفراق هو الفراق.. فما بالك إذا كانت الأسرة كلها قد تركت البيت والأرض والأصدقاء والأهل وذكريات الطفولة.. وربما كانت لحظة الوداع هذه من أكثر الجوانب تأثيرا فى حياة أمى التى كانت قد اعتادت أن ترى أهلها كل يوم وأصبحت لا ترى منهم أحدا إلا كل عام فى زيارة قصيرة حيث تزورهم أو يزورونها..

انتقلت الأسرة إلى مركز «حوش عيسى» حيث كانت طفولتى فى قرية صغيرة حملت بعد ذلك اسم أسرتنا وهى «عزبة جويدة» ومازالت تحمل هذا الاسم حتى الآن.. كان والدى قد باع أرضنا فى كفر الشيخ واشترى أرضا جديدة فى هذا المكان البعيد الهادئ قرب أحد روافد نهر النيل العظيم.. مضت طفولتى هادئة فى سنواتها الأولى.. بيت صغير على ترعة يسير فيها الماء على استحياء.. وشجيرات نارنج .. أو تمر حنة.. أو صفصافة صغيرة..

فى حديقة البيت كانت أول علاقة بينى وبين الكتاب.. وعلى الرغم من أن أبى لم يكمل تعليمه فى الأزهر الشريف بسبب وفاة جدى، فإنه كان يمتلك مكتبة صغيرة ولكنها ثرية.. كان بعض هذه الكتب من أشياء تركها جدى ومازلت احتفظ بطبعات نادرة مضى عليها قرنان من الزمان منها «فتح البارى» للإمام البخارى.. ونسخة نادرة.. من «المسند» لابن حنبل.. ونسخة نادرة من كتاب سيدنا على رضى الله عنه «نهج البلاغة».. هذا بجانب «المنتخب من الأدب العربى» الذى قدمه طه حسين وأحمد أمين.. ولا أعتقد أن هناك مثقفا من جيلنا لم تكن له لحظات جميلة مع هذا الكتاب.. فى جانب آخر كانت «ألف ليلة وليلة» و«كليلة ودمنة» لابن المقفع ودواوين من الشعر القديم ابتداء بالمتنبى حتى شوقى وحافظ ، وبجانب هذا كان الكتاب الرائع «الأغانى للأصفهانى» بكل أجزائه و«نهاية الأرب فى فنون الأدب».. ومع هذا كله كانت ذخيرة كبيرة من الكتب الإسلامية مثل «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى «والفقه على المذاهب الأربعة».

حبى لجماليات اللغة العربية

كان والدى على درجة عالية من الثقافة الدينية والأدبية فى وقت واحد وكان قارئا جيدا.. وأذكر أننى قرأت له القليل من محاولاته الشعرية فى شبابه.. ووسط هذا المناخ كانت نشأتى الأولى.. لا أبالغ إذا قلت إننى قرأت الأغانى كله.. ومعظم الروايات والحكايات فى «نهاية الأرب فى

أفضل زملائى على الأقل فى الكتابة.. واللغة العربية وحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم كان منها سور: «يوسف وآل عمران وجزء عم كاملا».. ولم ينس والدى بعد أن دخلت المدرسة أن أذهب إلى الكتاب لتحسين الخط.. وحفظ المزيد من أجزاء القرآن الكريم..

كان والدى متحدثا لبقا.. وكان يهز أرجاء المسجد وهو يخطب بالناس فى يوم الجمعة.. وكان صوته جميلا وهو يقرأ القرآن الكريم.. وقد اجتهد كثيرا فى دراسة علم القراءات حتى أنه حفظ القرآن الكريم بقراءاته العشر.. وفى آخر أيامه رأيته يوما يبكى وسألته: ما الذى يبكيك؟ فقال: نسيت آية من آيات القرآن الكريم..

.رة هائلة على الحفظ

بدأت رحلتى مع التعليم فى مدرسة حوش عيسى الابتدائية.. ثم جاءت المرحلة الإعدادية، وذات يوم أقامت المدرسة حفل وداع لأحد أساتذة التاريخ.. وكان هذا المدرس هو السبب فى عشقى الشديد للتاريخ حتى أننى حصلت على الدرجة النهائية فيه فى الشهادة الإعدادية.. طلب منى ناظر المدرسة أن أكتب كلمة وداع للأستاذ المسافر ولا أدرى يومها.. ذهبت إلى ديوان ابن زيدون وكنت فى الثانية عشرة من عمرى واخترت نونيته الشهيرة «أضحى التنائى بديلا من تدانينا.. وناب عن طيب لقيانا تجافينا» وأخذت بعض أبياتها لكى أبدأ به كلمتى فى وداع



جويدة .. وميلاد ديوان جديد

فنون الأدب».. وقرأت «نهج البلاغة».. والكثير من «إحياء علوم الدين».. وقبل هذا كله حفظت على يد والدى أجزاء كثيرة من القرآن الكريم.. ولقد ترك ذلك كله أثرا عميقا فى حبى الشديد وعشقى لجماليات اللغة العربية أسلوبا ونطقا ولغة وإحساسا..

كان والدى قد أعدنى لكى ألتحق بالسنة الثانية فى المدرسة الابتدائية دون أن أعبر بالصف الأول.. وكنت بالفعل

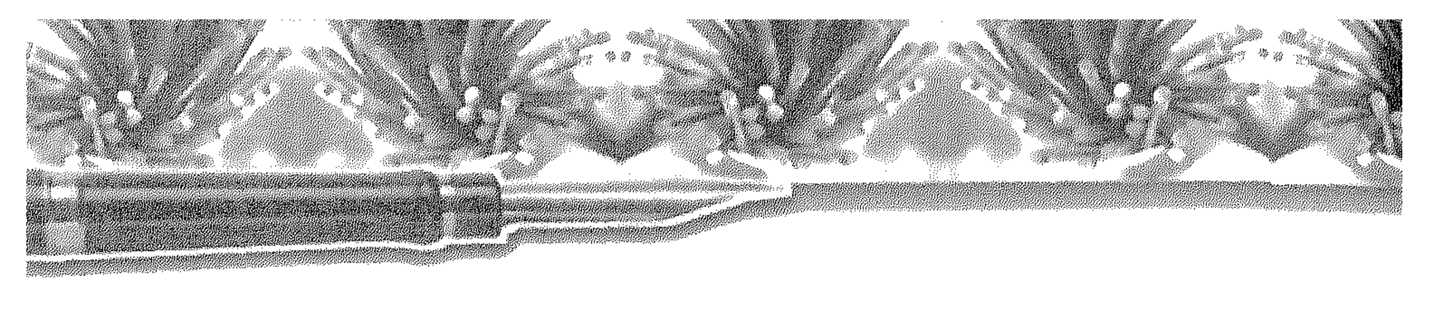


مع محمد عبد الوهاب ومحمود ياسين

أستاذى.. وبينما كنت أقرأ هذه الأبيات تدفقت الدموع من أعين الناظر والمدرسين واختلطت الكلمات بالأبيات بالدموع.. ووقف الناظر يقول لى أمام المدرسة.. ستكون شاعرا.. فى هذا اليوم ذهبت إلى أبى وحكيت له ما حدث.. وأشار إلى من بعيد: هذه كلها كتب مليئة بجواهر الشعر.. وقضيت خمسة أعوام كاملة حفظ القصائد وأرددها وأتغنى بها.. ولا أبالغ إذا قلت إننى كنت احفظ آلاف الأبيات من الشعر وأنا فى بداية المرحلة الثانوية.

فى هذا الوقت كنت قد أنهيت المرحلة الإعدادية.. وكان لدى إصرار غريب على أن التحق بالقسم الأدبى، على الرغم من أن مدرسة حوش عيسى الإعدادية كانت قد افتتحت لأول مرة فصلا ثانويا واحدا.. واخترت أن أسافر بعيدا عن الأسرة وألتحق بمدرسة عمر مكرم الثانوية فى دمنهور وأترك والدتى وأنا الابن الوحيد.

هناك صدفة غريبة فى حياة أمى تركت آثارا عميقة فى حياتى.. كان قدرنا العجيب أن يموت لى خمسة أشقاء أولاد بعد ولادتى.. كانت البنت تعيش.. والولد يموت.. وتكررت هذه المأساة فى حياتنا سنوات طويلة.. ونشأ داخلى إحساس غريب وأنا طفل صغير أننى سألحق بإخوتى فى أى لحظة.. لقد ماتوا جميعا ويقى الدور على.. وكنت أسمع أمى وهى تبكى كلما رحل واحد من إخوتى وهو فى سن صغيرة.. أكبرهم رحل وعمره تسع سنوات، وهناك من رحل وعمره شهور..





لقاء الشعر والشعراء ، د. أحمد هيكل وجويدة ونزار قباني

وقد تركت الدموع أثرا عميقا على والدتى ما بين غربتها عن أهلها وخسارتها ومعاناتها فى رحيل أبنائها الصغار.. ولعل هذا السبب كان وراء معاناتها دائما من متاعب كثيرة أصابت نظرها.. كان هناك شبح غريب ظل يطاردنى فى طفولتى أننى سألحق بإخوتى فى أى لحظة.. وكنت أرى المشيعين وهم يحملون جسد شقيقى الصغير إلى المدافن وهو طفل بلون الورد عمره شهور أو سنوات قليلة.. وربما كانت هذه الصورة من أكثر الصور تأثيرا فى شعرى وفى حياتى.. وشاءت إرادة الله أن يعوض أمى عن معاناتها بعد سنوات طويلة من الألم والعذاب.. كنت قد بلغت الخامسة عشرة من عمرى عندما أنجبت أمى شقيقى عبدالعزيز.. وهو مهندس وشاعر.. ثم انجبت شقيقى عبدالله.. وهو أيضا مهندس.. وكان آخر رحلاتها مع الأبناء شقيقى الأصغر صبرى وهو محاسب .. وإخوتى الثلاثة كانوا ومازالوا فى موقع الأبناء منى..

آلام الاغتراب

علمت من والدى يوما أن أسرتنا تمتد من نسل سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.. وجاء فى عهد عمرو بن العاص وعاش فى صعيد مصر ومات فيها.. كان فراقى عن والدتى وأنا أعيش وحيدا فى مدينة حوش عيسى ثم دمنهور هو أصعب اللحظات



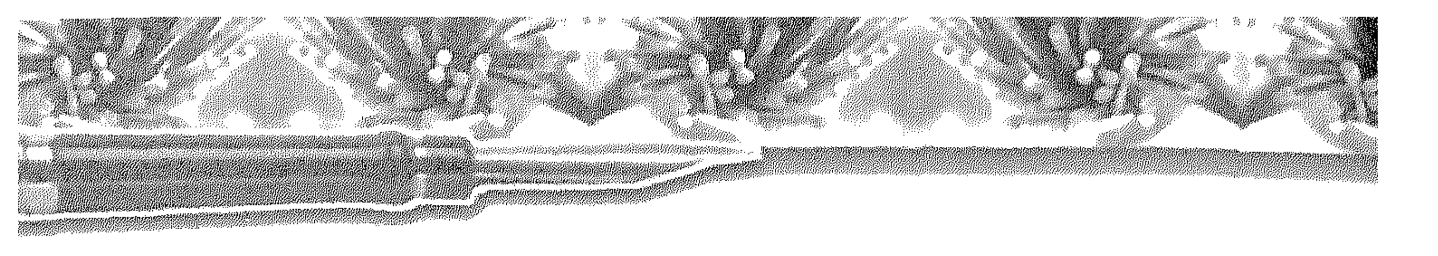
يصافح ياسرعرفات .. وفي الصورة الفنان عبد الله غيث

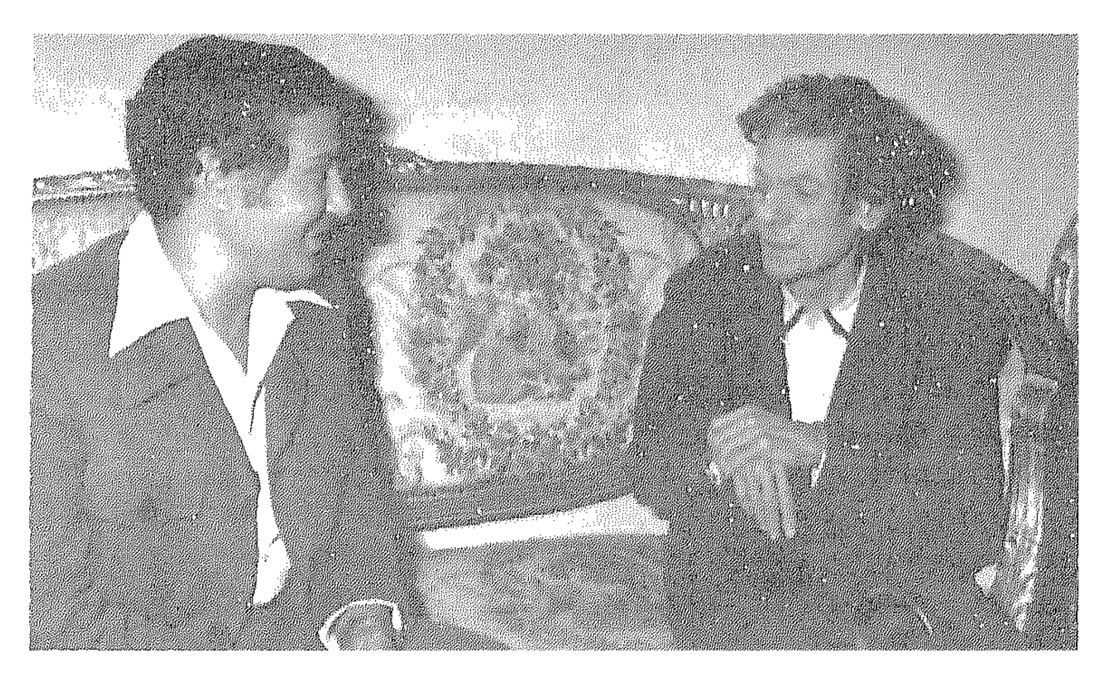
عندى.. خاصة أننى تركت الأسرة مغتربا من أجل التعليم وأنا فى الحادية عشرة من عمرى.. ومنذ تركت البيت فى هذه السن المبكرة كنت أعود إليه فى الإجازات وأنا أقرب للضيف منى إلى صاحب البيت.

كانت هناك حياة أخرى فى مدرسة عمر مكرم الثانوية فى دمنهور.. مكتبة كبيرة أقرب للحاضر منها للماضى.. وأقرب للمعاصرة منها للتراث .. وهنا كانت أول لقاءات بينى وبين الرواية.. إحسان عبدالقدوس.. نجيب محفوظ.. يوسف السباعى.. يوسف إدريس.. وإن كان الأقرب إلى قلبى فى ذلك الوقت ابن البحيرة محمد عبدالحليم عبدالله.. كان الأقرب إلى نفسى فى أسلوبه ورشاقة عبارته وإحساسه الجميل..

وفى دمنهور عرفت طريقى للندوات و«قهوة المسيرى».. وإن بقيت لى ذكرى جميلة فى المدرسة عندما فازت بكأس أوائل الطلبة على مستوى المحافظة بسبب قصيدة ألقيتها.. وكانت بداية معرفة أساتذتى بى كشاعر.

فى هذه المرحلة بدأت دراسة علم العروض والأوزان وساعدنى على ذلك آلاف من أبيات الشعر التى كنت أحفظها.. وتعلمت بعد ذلك أن تكتبنى القصيدة ولا أكتبها.. ولا أذكر أننى يوما أمسكت قلما وورقة وقطعت أبيات قصيدة كتبتها.. فقد ترسخت فى أذنى موسيقى الشعر والبحور





مع الموسيقار الكبير رياض السنباطي

قبل الأوزان والعروض.. وكان أساتذة اللغة العربية يقرأون قصائدى وأسمع منهم ملاحظاتهم على الوزن أو القافية أو المعنى.. وفى مدرسة عمر مكرم الثانوية كنت مسئولا عن الإذاعة أقرأ الصحف.. والقصائد.. والنوادر من التراث.

فى هذا الوقت كنا جيل ثورة يوليو الذى أحب عبدالناصر بجنون.. ومازلت احتفظ مثل الملايين غيرى برسالة من الزعيم الخالد.. كان عبدالناصر بالنسبة لنا الماضى والحاضر والمستقبل.. ولم نكن نرى شيئا أمام أعيننا سواه.. فهل أسرفنا فى جنون حبه؟.. أم أسرف هو فى جنون أحلامنا وكلانا أخطأ ؟!..

كان ناظر مدرسة عمر مكرم الثانوية يراهن على أننى ساكون من أوائل الجمهورية فى الثانوية العامة على القسم الأدبى.. وكنت أنتظر اسمى على صفحات الجرائد من أوائل الناجحين وليس فى كشوف المدرسة.. وعدت إلى قريتنا فى حوش عيسى للاستعداد لامتحان الثانوية العامة فى شهر يونيو من عام ١٩٦٣ .. كنت أسهر طوال الليل وعندما يطلع النهار أحمل كتبى وأدور فى الحقول حول بيتنا وأذاكر.. وفجأة سقطت مريضا مصاباً بالتهاب رئوى وقضيت شهرا كاملا فى العلاج.. وضاع حلم الناظر وحلمى.. وانتظرت اسمى فى كشوف الناجحين وليس على صفحات الجرائد.. فقد تخيلت يومها مع شدة المرض أن الاسم سيكون فى صفحة الوفيات.

نجحت فى الثانوية العامة وكان والدى

يريد أن ألتحق بكلية البوليس.. قبل أن تسمى كلية الشرطة .. ورفضت اقتراح والدى وذهبت لتقديم أوراقى بمكتب التنسيق فى جامعة الإسكندرية.. كان أبناء البحيرة يذهبون إلى جامعة الإسكندرية.. فهى الأقرب لنا مسكنا ومكانا وأهلا.. وأبديت لوالدى رغبتى فى أن ألتحق بقسم الصحافة بكلية الآداب جامعة القاهرة.. وكان رد أبى : ولماذا جامعة القاهرة إذا كانت جامعة الإسكندرية هى الأقرب والأفضل بالنسبة لنا؟.. وكانت المرة الوحيدة التى كذبت فيها على أبى عندما كتبت كلية آداب القاهرة كرغبة أولى فى استمارة مكتب التنسيق.. وبعد أيام قليلة جاء خطاب قبولى بآداب القاهرة.. كانت مفاجأة بالنسبة لأبى أن أذهب إلى القاهرة ودار يومها بيننا حوار طويل عندما أفصحت له عن حلمى فى أن أكون كاتبا.. فقال لى بالحرف الواحد: فاكر نفسك هتكون مصطفى أمين واللا هيكل؟!.. فقلت له: يما .. وضحك أبى يومها ساخرا منى..

أحلام تتحقق!

فى آداب القاهرة قسم الصحافة كانت أول محاضرة للدكتور محمد مندور رحمه الله عليه.. وقرأ شعرى بعد ذلك وشجعنى.. ثم كان د. شوقى ضيف.. وقرأ شعرى وشجعنى .. ثم كان د. عبد اللطيف حمزة.. وأقام لى أمسية فى نادى خريجى الصحافة بشارع قصر النيل واحتفى بى حفاوة بالغة.. فى جامعة القاهرة رأيت مناخا جديدا وفكرا جديدا وحياة صاخبة فى منتصف الستينيات.. وفى كواليس الجامعة اختلفنا وتحاورنا وأحببنا وطافت بنا الأحلام إلى أبعد نقطة فى هذا الكون الفسيح.. كانت جامعة القاهرة محطة أخرى فى حياتى.. بدأت الرحلة فى مكتبة صغيرة ووالد مثقف وأم تعلمت منها الصبر والإيمان وشجيرة نارنج تتمايل على أجنحة المساء.. وطافت بى الأيام فى دمنهور ثم أضواء القاهرة.. وذات يوم حملتنى أقدامى إلى مؤسسة روزاليوسف لكى أعمل بها محررا تحت التمرين دون أن أقبض مليما واحدا ثلاث سنوات كاملة.. وجاءت مأساتنا مع نكسة ٦٧.. ومع مطلع عام ٦٨ كنا نتظاهر أمام الجامعة وحاصرتنا قوات الأمن المركزى فى أول صدام بين ثورة يوليو وأبنائها.. وقبل أن أترك الجامعة بأسبوع واحد وجدت الراحل الكبير د. خليل صابات يطلبنى فى مكتبه .. ويبادرنى قائلا: هل تقبل أن تعمل فى جريدة الأهرام؟.. أمامك فرصة أن تكون معيدا بالكلية فأنت الأول على الدفعة منذ التحقت بها.. وأمامك الأهرام .. وقلت له بلا تردد.. أنا أريد الأهرام.

وفى الأهرام مشوار.. بدأ بى محررا بالقسم الاقتصادى على غير رغبة منى.. ثم سكرتيرا لتحرير الأهرام .. ثم أنشأت صفحة «دنيا الثقافة» أشهر صفحات



الشاعر فاروق جويدة يراجع نص الوزير العاشق مع الفنانة سميحة ايوب والفنان حمدي غيث

الأهرام الثقافية وأكثرها تأثيرا وهى جزء عزيز من عمرى.. وكان آخر المشوار أن أصبحت مديرا لتحرير الأهرام ومشرفا على صفحاته الثقافية والأدبية..

وقبل هذا كله كانت المكتبة العربية قد احتضنت بود وتقدير ٤٢ كتابا تحمل اسمى.. منها ١٦ مجموعة شعرية.. هى أكثر كتب الشعر مبيعا فى العالم العربى طوال ربع قرن من الزمان.. و ٣ مسرحيات هى: «الوزير العاشق» و«دماء على ستار الكعبة» و«الخديو» .. ورابعة فى الطريق هى «هولاكو» .. وعضوية الأكاديمية العالمية للشعر التى أنشأتها اليونسكو فى مدينة فيرونا بإيطاليا واختارتنى المنظمة الدولية عضوا مؤسسا فى هذه الأكاديمية من بين ٤٥ شاعرا من العالم.. وترجمات لأكثر من عشر لغات عالمية.. ومجموعة كتب فى القضايا السياسية والثقافية والتاريخية.. وعشرات الطبعات من كتبى وأعمالى الكاملة فى دور النشر العربية والمصرية، وعشرات الأمسيات والندوات الشعرية فى مصر والعالم العربى والدول الأجنبية ، وآلاف المقالات السياسية والأدبية فى جريدة «الأهرم» لأكثر من خمسة وثلاثين عاما، وعشر رسائل جامعية تناولت شعرى ومسرحياتى.. منها رسالة دكتوراه فى جامعة بكين باللغة الصينية.. وأخرى فى جامعة مدريد باللغة الإسبانية.. ويعد هذا كله جائزة الدولة التقديرية التى شرفنى بها وطنى الغالى فى عام ٢٠٠٢.

هذه رحلة متواضعة لشاب بسيط جاء من أعماق ريف مصر لينشر على ضفاف نيلها قصائد حب تسللت فى دمائه ذات يوم وهو يشرب ماء النهر العريق. ■



إبداعات الهلال

في العددالأخير من الهلال رأيتها كعادتها تكرم الشخصيات المبدعة المصرية والعربية، فكان غلافها عن الأديب السوداني المعروف الطيب صالح بمناسبة فوزه بجائزة الرواية العربية، في أعمال المؤتمر الثالث للرواية الذي عقد بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة في شهر مارس الماضي.

ثم كانت مقالة د . مصطفى سويف بعنوان «الحرية تبني الديمقراطية» والتي تناول فيها أبعاد الديمقراطية، التي لا تقل عن البعد السياسي أهمية، سواء في تشكيل الحياة العملية للناس، أو في تكوين وجدانهم، وتجديد انطباعاتهم نحو هذه الحياة، ولفت نظري مقال د. محمد رجب البيومي الذي تناول فيه مسلسل الانتحار وأسبابه » والتي من أبرزها دواعي التبرم بالحياة وهو الفقرالذي يعد أقوى أسباب الانتحار، كما أن من تلك البواعث أن المكروب الضائق بحياته، لا يجد صدرا حليماواسعا، يستمع إلى شكواه في عطف!

د . رجب يلفت نظرنا إلى دور الفضائيات بإعلانها المثير عن المآكل والمسكن، مما يوقع الحسرة في نفوس بائسة، لا تجد لقمة العيش الضرورية إلا بشق الأنفس، فيؤدي ذلك إلى الحسرة واليأس عند البائسين، الذين لا يجدون حلا إلا في الانتحار.

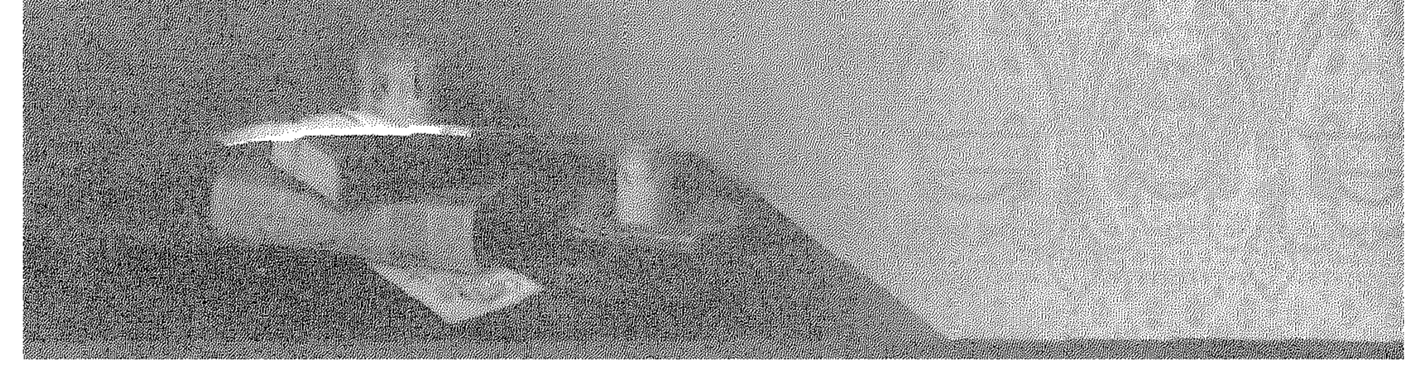
وقد أسعدني كثيرا مقال د . يوسف زيدان حول المشروع الطموح الذي تم بين دار الهلال ومكتبة الإسكندرية بحفظ أعداد مجلة الهلال على C.D .

عبدالله محمد - القاهرة - الزيتون

في مولد الهادي آيات وآمال

الكون ضاء وهلت الأفراح — لما أتيت له فجاء صباح
جئت الدنا فتزينت وتألقت — والروض ذاع عبيره الفواح
كم حنت الأكوان تشفي جرحها — فأتى لها عيد الصفا رواح
هل السلام (محمد) يحيي المنى — فالعدل يسمو، ترتقي الأرواح
يا خير مبعوث أتيت إلى الدنا — فعلا عليها البلبل الصداح
قد كانت الدنيا تموج بجهلها — فهديتها، هي باللقا ترتاح
مكث الأمان بأرض مكة فازدهت — قد زانها حب صفا ووشاح
أنت الأمين وأنت شمس وفائهم — سطعت بمكة فانتشى الإفصاح
وحكمت في الحجر العتيق بمنطق — أرضى القبائل، للصفا مفتاح
وأقمت وداً للجميع فرحبوا — وتألفوا حبا وهل سماح
وأتي الكتاب فهل في أنواره — عِزٌ علا، قد شُلت الأقداح

زكريا عبدالمحسن علي سيد - أسيوط



محمد على فى ميزان النقد

اهتمت الهلال بتجربة محمد على فى الاصلاح والتحديث، خاصة وأن مؤسس مصر الحديثة قد مرت مائتى سنة على توليه حكم مصر فى عام ١٨٠٥م فلقد كان محمد على يتمنى الكثير لمصر، لولا تكالب الدول الأجنبية عليه وبمقتضى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وئدت كل أحلامه وطموحاته.

ففى عام ١٨٣٣ أوقف التدخل الروسى محمد على على أبواب استانبول، وهو فى أوج نجاحاته العسكرية التى أذهلت الجميع، وهزم قوات الدولة العثمانية هزيمة نكراء فى موقعة نكراء فى موقعة «نزيب» ١٨٣٩، وباتت تلك الدول فى مهب الريح .

كما بذلت الدولة العثمانية طاقتها لتدمير الإمبراطورية المصرية، التى أرسى قواعدها محمد على، وآزرتها بريطانيا حينما استشعرت الخطر منه على مواصلاتها إلى الهند، ومن ثم سعت لتأليب الدول الأوروبية الأخرى على محمد على لكى تلحق به الهزيمة، وترغمه على الانسحاب من جميع أملاكه باستثناء مصروالسودان.

لقد كانت طموحاته فى أن يحقق الكثير لمصر وذلك من خلال قوله: «سيجنى أحفادى ثمار ما زرعت» .. ولكن الغرب لم يسمح له بذلك وعمل علي قتل كل آماله وطموحاته .

د . صموئيل لبيب سيحة - المنيا

وقال عمرو عبدالمنعم حمودة.. برما - طنطا

فى مقال د . عبدالمنعم الجميعى المنشور فى عدد أبريل الماضى بعنوان «محمد على وتدوين مذكراته».. لم يذكر أن محمد على لم يكن يعنى بعلم السياسة ونظم الحكم ولا كان يحترم فلاسفته، والدليل على ذلك ما جاء فيما كتبه هيورث دن: من أن مبعوثا مصريا قابله فى الاسكندرية عند عودته من بعثة إلى فرنسا، فسأله محمد على ماذا كان يفعل، فأجابه المبعوث أنه كان يدرس الإدارة المدنية وسياسة الحكم، فأجاب محمد على: وهل هناك سياسة للحكم غير التى أمارسها بنفسى.. اذهب إلى القاهرة، واجتهد أن تترجم كتبا فى غير هذا العلم، ولتكن كتبا فى العلوم العسكرية!

صمود

قدسنا يا فارق — فى عيون الزمن
قدسنا بالجراح — فى ضمير الشجن
قدسنا بالنواح — أعولت بالمحن
فالأمان الأمان — يا جنود الوطن
فوق تلك البطاح — قدسنا مرتهن
أقبلوا بالجهاد — واستعيدوا القدن !

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية



العلاج بالقراءة والشعر

عرف العرب القدماء العلاج بالقراءة - إلقاء الشعر وإنشاده - وجعلوا منه ترويحا للنفوس الكليلة العليلة، فتراثنا الشعرى، لم يكن بعيدا عن فكرة العلاج بالشعر.

فامرئ القيس أول من أشار إلى فكرة الشفاء عن طريق البكاء أو الشفاء بالدموع، هذا الشفاء هو التطهر، وما يحدثه من راحة فى النفس، وهى تواجه موقفا تراچيديا مأساويا، حين تقف على الأطلال وتتذكر الأحباء الراحلين، والأيام التى انقضت برحيلهم، والأماكن التى كادت تزول هيئتها وصورتها بزوالهم . والشعر الذى ارتبط بهذا المخزون من الذكريات، استعادته تدفع بالدموع الحارة إلى العيون، وإنشاده وترديده هما بداية الإحساس بالتطهر، والشعور بها يعقبه راحة.

يقول امرئ القيس:

وإن شفائـــى عبـرة مهراقـــة   فهل عند رسم دارس من معول؟

أيضا فى العصر العباسى رأينا المنصور يطلب من يسليه بالشعر.

كما اتخذ العلاج بالقراءة أنماطا أخرى كالكتابة الساخرة والفكاهة التى تعالج الاكتئاب، وأشهر من قاموا بذلك الجاحظ فى البخلاء، والأصفهانى فى الأغانى ، وأبو نواس الذى يقول:

أتبـــع الظرفـــاء أكتب عنهم   كيما أحدث من أحب فيضحكا

صلاح عبدالستار الشهاوي - طنطا - نواج

« مات المعلم »
إلى روح الدكتور شوقى ضيف

وداعـــا رائدالأجـيـــال طرا   وصـبـــرا آل شـوقى ثم صـبـــرا
أجل باق برغم الموت حـيـــا   فـقـد أحـيـا له التـأليف ذكـرا
هوالأسـتـاذ فى حل وبعـد   هو النبـراس منهـاجـا وفكرا
هو الأسـتـاذ يجـمع راغبـيـه   ويلقى بالقـصـيـد الحق جـهـرا
أكـاد أراه فى كـتـبى جـمـيـعـا   أكـاد أراه أنسـامـا وعطرا
يقـول الناس: (قـد مـات المعلم)   فـهل تجـدى المدامع منك حـرى؟
وهل يجـدى الثناء على فـقـيـد   تـكاد الخلد تلـقـاه أغـرا
بحق العلم والسـهـر الطويل   وطـلاب دعـوك أبا أبـرا
ألا فـانظر لمجـمـعنا مليـا   وراقب حـاله صـبحـا وعـصـرا
فـإن عـيـون صـهـيـون عليه   تكاد تراه كـالبـيت المعـرى
ولو هـدمت صـروح العلم فـيـه   فـقل يا ضـاد مـغـفـرة وعـذرا
وقل يا ضـاد مـوعـدنا قـريب   بعـيـد النصـر تبـتـهلين بشـرا

السيد التحفة

شبراخيت - شارع أحمد عرابي

قصة قصيرة

رآه

نهرته أمه بعنف إذ رآته وحده في هذا المكان الذي يخافه الجميع . وأمسكت بيده فقام معها حائرا لا يعي سر غضبها واستلقى على سريره وراح في سبات . في الصباح حمل أوراقه ثم جلس أمام البحر في انتظارها، تجلس إلى جواره، لا تفهمه. هو سر غامض لا تقوى على فهمه .

– كنت أجلس في ذات المكان وأنت أمي أخذتني.

– لا تذهب ثانية. قد تموت .

– لم ؟؟

– أمي تقول هناك روح تقتل كل سنة فرداً.

في المساء تسلل وخرج وجلس في المكان. أحقا مما قالته ريحانه في الصباح؟ في الصباح سأل أمه وهو يتناول إفطاره:

– لماذا تخافين المكان؟

– كلنا نخافه.

حمل كراسته وذهب للمدرسة إفطاره في المساء تسلل ثانية إلى المكان كأنه منقاد إليه. ظل يقترب منه . جسد بشرى بندقية مدفوعة نحوه.

– أنت لماذا تجلس هنا؟

– ....

– انطق .

– أ..... أ...

وجلس إلى جواره وصمت. هدأ بعض الشئ، الظلام يخفي ملامحه. يزول قلقه رويدا. ربت على كتفه.

– الحكاية طويلة تبدأ منذ زمن حين قتل امرأتي إذ أراد قتلي وأخطأ.

– ولم ؟

– لأني لم أبع؟!

– تبيع ؟

– قتلته .

– لم ؟

– كي لا يأخذها. أقتل كل من يريدها ويدعى أنه صاحبها . بعيد أنا عن الأعين. كل من يحاول أخذ أرضي البور أقتله.

ودعه دون أن يتبين ملامحه. صوت عذب يتسلل إلى أذنيه في طريق العودة. فتح الباب وألقى نظرة على أمه وهو يبتسم. أدرك السر.

وحده!!

حمادة البيلي



كتب مهمة ينبغي إعادة نشرها

أتابع ما تنشره الهلال فى باب «من ذخائر الكتب العربية» وأعجبنى بشكل خاص هذا الكتاب الذى تناولتموه فى «عدد مارس ٢٠٠٥» بعنوان رسالة الكلم الثمان والذى كتبه رئيس التحرير، وأشار فى مقدمته إلى تعثر محاولات النهضة والتحديث وما ينتج عن ذلك من تساؤل بالغ الأهمية حول مسار ومسيرة حركة النهوض خلال القرنين الماضيين.

ويلقى الضوء على أهمية هذاالكتب والذى ألفه الشيخ حسين المرصفى، وصدر فى ثمانينيات القرن التاسع عشر وألقى الضوء على معانى ثمانى كلمات جديدة متداولة على ألسنة شباب زماننا وهى، الأمة والوطن والحكومة والظلم والعدل والسياسة والحرية والتربية.

أقول ألا ترون ضرورة إعادة نشر مثل تلك الكتب المهمة، خاصة التى صدرت فى مطلع النهضة!

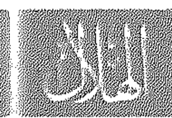
إبراهيم السكرى – المنصورة

من عالم القهر

أطرقت حتى ملنى الإطراق	فسمعى يقول: أثم من ينجينى؟
من ذا الصويحب، ذى الكروب، مقته	قد رمت أوهنه، فهز مكينى
يا ليل هل أضجرت جوفك بالذى	فجرت قسرا من لظى مسكين!
يا دمع هل جفت جوارى أنهر	هى طال أن ماجت بسيل هتون!
أم أننى خلفت قاعك صفصفا	ورياحك الهوجا.. غبار سنين!
أنا شاعر أورثت هما جاحما	هو مجد أباء، وذل بنين
أنا مثلما عاشت بلادى ضائع	ما بين أحلام الغفوا ويقينى
أنا لست أصغى فى الوجود لنامة	إلا استثارت فى ما يبكينى
فى لحظة أحسست أنى إنما	ملكت هذا الكون دون قرين
هى لحظة مرت فأودت بالذى	خالت مناى قيامه يكفينى
أنا مذنب حمل الغرور، فآداه	وزر ثقيل، كاد أن يردينى
أنى التفت محاصر أشكو، فلا	سمع يرق لغصتى وأنينى
عتمت .. وشيئا فشيئا، عاد أبلجها	ينير أحلك ليلاتى، ويرضينى
رافقت عمرى ديمة تهوى العطا	لم تحتجب يوما، ولم تقصينى
هى لا تزال كما الملاك تحوطنى	بعميم حب صادق تحفينى
رفعت جبينى حين نكس ذلة	قالت: تمهل.. أنت من يعنينى
قم والتحق عجلا بركب ألى النهى	كن عاقلا، ولدى، ولا تثبقينى
الله يرعى خطوكم ويقيله	إما تعثر، فاعتدل، وأرينى
لبيك يا أبتى سأقبس شعلة	وسأركب الموج الذى يعلينى
كيما أنال رضا الإله، ونظرة	منمقلتيك رنت بفيض حنين

أمانى حتم بسيسو

عمان – الأردن



١ أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني

٢٨٤هـ/٨٩٧م - ٣٥٦هـ/١٩٦٧م

أبوالفرج الأصفهاني علي بن الحسين الأموي ولد في أصفهان، وقيل إنه بغدادي المنشأ والمسكن، ولعل أجداده كانوا يعيشون في أصفهان بعد سقوط دولتهم، ثم نزح أحفادهم إلي بغداد وأقاموا بها .

كان جده محمد بن أحمد الأصفهاني من كبار رجالات سامراء، وعلى صلة متينة بوزرائها وأدبائها وكتابها، أما نسب أبي الفرج من ناحية أمه، فهو ينتسب إلى آل ثوابه المعروفين في عصرهم بالكتابة والأدب والشعر، تعلم في الكوفة في فترة مبكرة من حياته، وأخذ الحديث والتاريخ واللغة عن شيوخها الكبار، ثم رجع إلى بغداد وبدأ حياة علمية جادة، وأظهر شغفه بالعلم، واتصل بشيوخ بغداد وعلمائها يستقى منهم العلم والمعرفة، كما لازم عددا من كبار أئمة اللغة مثل: علي بن سليمان الأخفش، وابن دريد العالم اللغوي المعروف، وأبي بكر الصولي.

وتذكر المصادر التاريخية أن لأبي الفرج صلات بملوك الأندلس من بني أمية، يؤلف لهم الكتب ويرسلها، فيصلونه بجوائز كبيرة، وأما صلته بسيف الدولة، فليس في أخباره ما يوضح حقيقتها، ويلقى الضوء عليها، سوى أنه أهداه كتاب الأغاني ، فأعطاه ألف دينارا

ألف أبوالفرج الأصفهاني أكثر من ٣٠ كتابا من بينها «الإماء الشواعر، » غير أن أهم كتبه على الاطلاق هو «الأغاني» الذي نال شهرة واسعة وصيتا ذائعا لم ينله كتاب في الأدب العربي، فقد ظهر للناس في القرن الرابع الهجري حتي يومنا هذا، وقد وصفه ابن خلدون بأنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن.

ويشير أبو الفرج في أن الباعث على تاليف كتابه في مقدمته فيقول «والذي بعثني على تاليفه أن رئيسا من رؤسائي، كلفني جمعه له، وعرفني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى اسحاق الموصلي في الغناء، مدفوع أن يكون من تاليفه، وهومع ذلك قليل الفائدة، وأنه شاك في صحته، وموضوع الكتاب هو الغناء، ألفه ليكون بديلا عن الكتاب المنسوب إلي اسحق الموصلي».

ونظرا لضخامة هذاالكتاب وأهميته، فقد عمد كثير من العلماء لاختصاره بمناهج مختلفة، ليسهل تداوله ومن أشهرتلك المختصرات «تجريد الأغاني من المثالث والمثاني» — «مختار الأغاني في الأخبار والتهاني» «تهذيب الأغاني» .

وبعد حياة حافلة بالعمل والتاليف توفي أبو الفرج الأصفهاني في بغداد في ١٤ من ذي الحجة ٣٥٦هـ - ٢٠ نوفمبر ١٩٦٧م.



دائــرة الفكــر

يطيب لى أن أطلق تسمية «دائرة الفكر» على حالة الفكر الإنسانى على مر العصور، فالإنسان منذ القدم، وهو يفكر، وفى عصرنا الحديث يفكر أيضا، ولكن هناك تساؤل يفرضه علينا تاريخ الفكر الانسانى وهو: فى أى شئ كان يفكر الانسان قديما، ويمكن أن يجئ الجواب كالتالى: كان يفكر فى الحصول على الطعام وحماية نفسه من الأخطار التى تحيط به من كل اتجاه، وبالتالى فقد كان تفكيره محدودا، وفقا لطبيعة حياته وثقافته البدائية.

ونتج عن هذا التفكير المحدود، تفسيرات بدائية لم تصل بعد لدرجة الدقة والنضج الفكرى، فكانت بالطبع تفسيراته للتغيرات التى تحدث لمظاهر الطبيعة المحيطة به، تفسيرا خرافيا، وذلك راجع لطبيعة حياته البدائية.. ولكنه تفكير .

أما عن الإنسان فى عصرنا الحديث، وفى أى شئ يفكر؟

فإننا نجده يفكر فى كل شئ يحيط به، وبما لا يحيط به، فهو شغوف بالتفكير، وذلك يرجع كما حدث من تغيرات عديدة اجتماعية وثقافية وعلمية، وما يحيط به من ثورة تكنولوجية . ومعنى هذا أن الإنسان منذ نشأته على الأرض وهو يفكر ويعمل فكره فيما يحقق أهدافه فى هذه الحياة..

لكن هل إنسان اليوم الذى حقق من الانجازات ما يفوق الوصف، هو نفس الإنسان البدائى الذى عاش الأسطورة والخرافة؟! بالطبع اختلف الحال تماما .

عبدالله محمود عنتر - شبراخيت - بحيرة

إلــى أمــى

طول عمرك يا أمى
بتحضنى وتضمى
ولاً مرة مليتى
ما إنتى طول عمرى
على طول بى بتحسى
يا أقرب منى لنفسى
لو يوم نسيت الدنيا
عمرى ليكى ما ح أنسى
طول عمرك
ياما سهرتى علىَّ يا أغلى من نور عينىْ
نظرة عينيكى فيها حب وحنان لى
كل الحب فى قلبى بينادى ويقول ياأمى
أنا عايش بدعاكى ورضاكى على

عمرو أحمد عبدالحميد



من رواد الصحافة فى مصر

الشيخ علـى يوسـف واحد من رواد الصحافة المصرية ، ورجل دين .

ولد سنة ١٨٦٣ وبعد أن أنهي دراسته بالأزهر اتصل بجمال الدين الأفغاني وتعلم مبادئه .. عمل بالصحافة المصرية فأصدر جريدة المؤيد التي كانت مدرسة أكثر منها جريدة ، حيث تخرج فيها تلامذة نابهون ساهموا في تطوير الصحافة المصرية الحديثة ومنهم العقاد والمنفلوطي ، وكان الشيخ علي يوسف أول من أدخل في مصر مطبعة دوارة لطبع جريدته المؤيد .

وفي سنة ١٩١٣ عين شيخا للسادة الوفائية وهو منصب ديني كبير .

من مؤلفاته ديوان نسيم السحر ، وعدد كبير من المقالات في موضوعات مختلفة، وتوفي سنة ١٩١٣

محمد أمين العيسوى
الاسماعيلية

طبع روايات دستويفسكى

أعتبر نفسى من الذين يهتمون بكل ما يصدر عن روايات الهلال وأتوجه بالشكر لجهودكم فى كل ما ينشر مترجما بشكل خاص، حيث أننى وغيرى من المهتمين بتلك الآداب، نجد غايتنا ومتعتنا فى اختياراتكم لكتاب عالميين وخاصة الروائيين الحاصلين على «نوبل » مؤخرا.

لى مطلب أرجو أن يتم تحقيقه، وهو إعادة طبع كل روايات الكاتب الروسى الشهير «دستويفسكى» كى يستفيد منها قارئ اليوم، كما استفاد منها قارئ السبعينيات، حيث أن الذين يبحثون عن طبعات منها لا يجدونها.

أحمد حسن
كفر الشيخ

● **الهلال :** كما تلاحظ فنحن نحرص على ترجمة روايات حديثة لأشهر الروائيين العالميين، وفكرتك طيبة جدا فى محاولة إعادة طبع روايات دستويفسكى، ونرجو أن يقوم بذلك المجلس الأعلى للثقافة .

الكلمة الأخيرة

تجـربة وطـن..

بقلم: د. محمد صابر عرب

لم يكن عصر محمد على ١٨٠٥-١٨٤٩ مجرد تجربة يتفق المؤرخون أو يختلفون حول تقييمها. وإنما كان بمثابة مشروع كبير، لم يكن له نظير فى تاريخ مصر الحديث، حيث امتلك الرجل رؤية متكاملة لتحديث مصر فى شتى مجالات الحياة المصرية، معتمداً بشكل رائع على كل التجارب العالمية وخصوصاً التجربة الفرنسية، ابتداء من التشريعات القانونية والقواعد الفنية التى نجم عنها ما يمكن تسميته بالمؤسسات التى اكتملت كل ملامحها مع نهاية ثلاثينيات القرن التاسع عشر، مروراً ببرامج التنمية الاقتصادية والتعليمية التى أحدثت انقلابا مذهلاً على كل المستويات، وانتهاء بعمل أول تعداد للنفوس «تعداد السكان» فى تاريخ مصر. يدهش القارئ لطريقة الاحصاء التى كانت بمثابة قواعد فنية وعلمية قدمت لمحمد على صورة واقعية عن جدوى مشروعه الاقتصادى، والسياسى، والعسكرى، والتعليمى اعتماداً على معرفة حقيقية بحجم السكان وتوزيعاتهم العمرية، والجنسية، والتعليمية بهدف توظيف السكان بما يتناسب وبرامج التنمية. أعتقد أن التجربة فى مجملها جديرة بإعادة دراستها والاحتفاء بها لعدة أسباب:

أولها: تلك النجاحات المبهرة التى ضاعفت من مساحة الرقعة الزراعية فى مصر، ووضعت لأول مرة برامج متكاملة للتعليم الذى امتد من حدود مصر الجنوبية إلى حدودها الشمالية، وحجم البعثات واكتمال البنية الاقتصادية والعسكرية لدرجة أذهلت كل المراقبين للتجربة التى لم يعتمد فى استكمالها على أية قروض أجنبية، وإنما على العائد من محصلة تجربته.

ثانيها: لم تكن تجربة محمد على إلا نتاج جهد وعرق المصريين الذين أفلحوا الأرض، وبنوا المصانع، وانخرطوا فى العسكرية، وسافروا لأول مرة فى بعثات منتظمة إلى أوروبا، وحينما عادوا راحوا يصوبون فى التجربة ويكملون ملامحها، والاحتفاء بهذه المناسبة يعد احتفاء بتجربة شعب تعود على البناء.

ثالثها: لعل ما يمكن استخلاصه من هذه التجربة أنها اتسمت بقدر من القسوة والعنف، وجعلت المصريين جميعاً بمثابة كتيبة من الجنود الذين يعملون فى ثكنة عسكرية وفق إجراءات شديدة الصرامة وشديدة القسوة، وحولت المصريين جميعاً إلى جنود للباشا يأتمرون بأوامره، ويواصلون أعمالهم فى ظروف اجتماعية شديدة القسوة، لذا حينما تعرضت هذه التجربة إلى الفشل عقب وفاة محمد على، لم تجد من يدافع عنها، وسقط المشروع بالضربة القاضية.

ولو أن محمد على قد سلك بسلوكاً يتسم بقدر من الإنسانية، لكانت تجربة الرجل من أغنى وأكبر التجارب ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم كله، وعلى الرغم من ذلك، فإننا نتطلع إلى الاحتفاء بهذه التجربة التى تؤكد أننا قادرون على صناعة النجاح، لكن كيف؟ هذه هى القضية.. ■



بمناسبة الصيف
رحلات يومية
مع مصر للطيران
The Studio
إلى مدن الخليج العربى والشرق الأوسط
ابوظبى الرياض
دبى دمشق
الدوحة عمان
الكويت بيروت
الدمام
لمزيد من المعلومات اتصل الآن
سعر الدقيقة ٥٠ قرشاً او سعر الدقيقة جنية
مصر للطيران
EGYPTAIR
اكتشف عروض هذا الصيف

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

أدبيات

الكعبة المشرفة

أدبيات

هيكل اليهودي الثالث

أدبيات



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة - ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ . فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوي محرم بك - الإسكندرية .



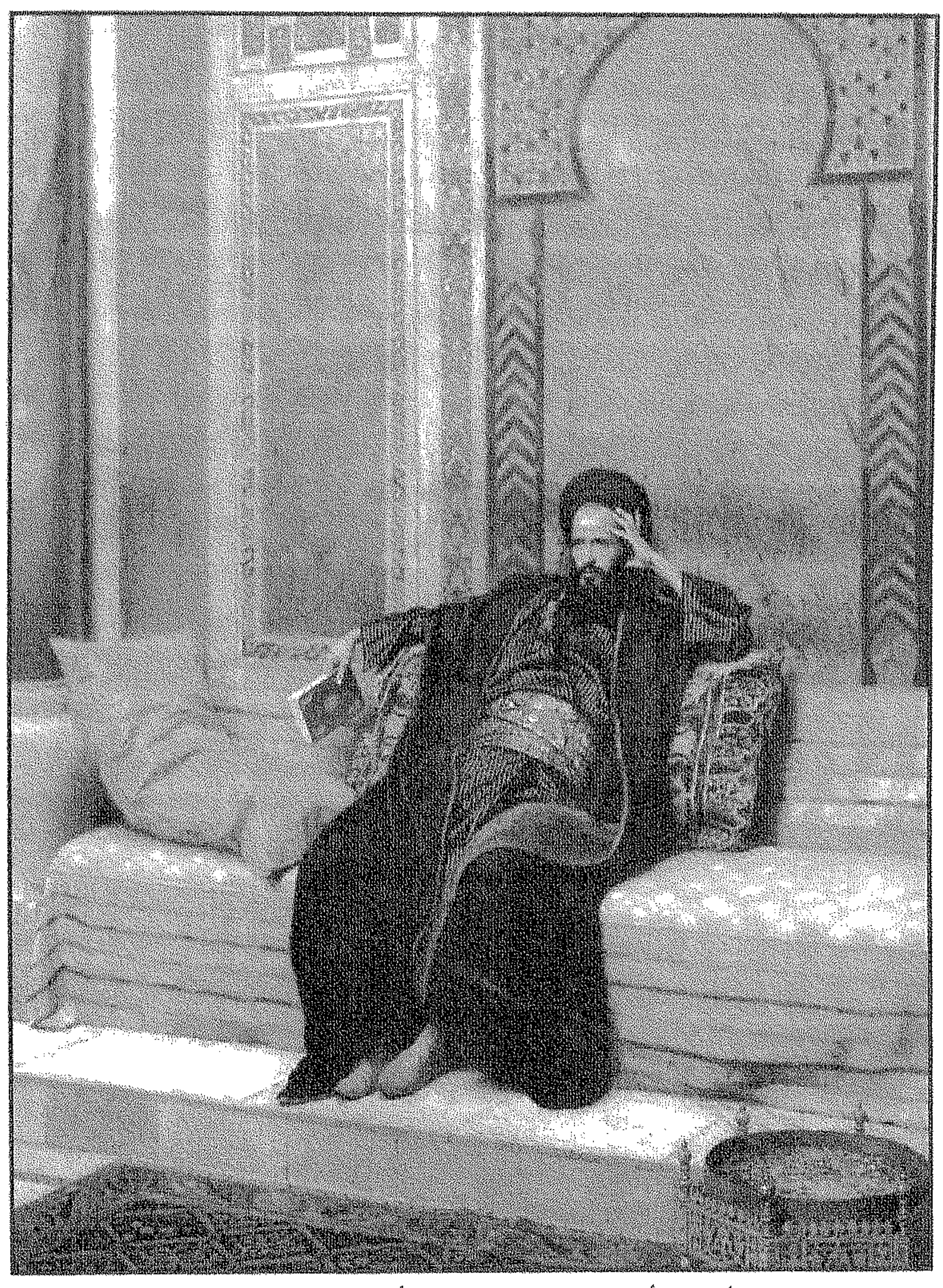
يونيه ٢٠٠٥ الثمن ٤ جنيهات

- الوجه الإنساني للديمقراطية
- خوف الناس من الناس
- كويليو ساحر الرواية

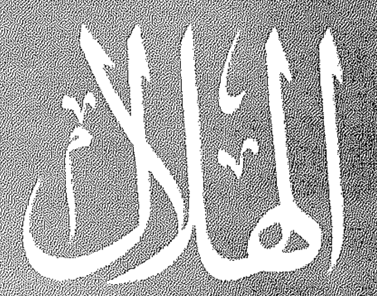
القاهرة

وحنين إلى الماضي

لوحة وفنان



اللــوحــة : أستاذ الأزهر الشريف فى لحظة تأمل — الفنـــان : دويتش



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

العام الثالث عشر بعد المائة ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ - يونيه ٢٠٠٥م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).

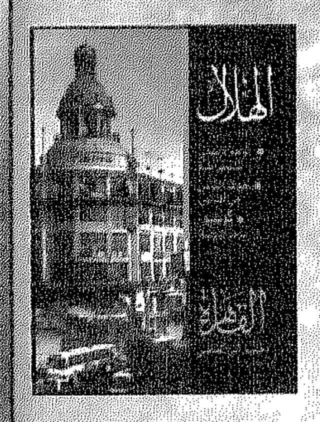
المكاتبات:ص.ب. ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال

ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة ــ الأردن ١,٥دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار- البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٣ دولار- إيطاليا٤ يورو- سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

صيف ساخن !

هذا صيف ساخن جدا ، ونحن تعودنا على هذا الصيف الساخن .. فثورة يوليو ١٩٥٢ جاءت فى الصيف ، وتأميم قناة السويس جاء أيضا فى ٢٣ يوليو ، وحرب ١٩٦٧ بدأت فى أوائل الصيف . ومعنى هذا أن مصر موعودة بالأحداث الكبيرة ، وهى على أبواب الصيف ، وأحيانا كانت تنجو من هذه الأزمات ، وفى بعض الأحيان، كانت هذه الأزمات تترك إصابات بالغة ، وجروح غائرة ، ونتائج مدمرة !

وفى هذا الصيف يحدث الاستفتاء على المادة ٧٦ من الدستور ، وهى مادة فاصلة، لأنها فتحت الباب بأن تكون الانتخابات الرئاسية ، فى مصر بحرية تامة ، فلأول مرة فى تاريخ مصر يكون للشعب حق الاختيار بين أكثر من مرشح ولم يحدث فى التاريخ المصرى قديمه وحديثه أن أتيح للشعب أن يختار رئيسه بهذه الحرية .

ذلك يعنى أن صيف هذا العام تاريخى. سوف يترتب عليه آثار غير مسبوقة ، أن يشارك الشعب فى اختيار رئيسه ، وبالتالى يترتب عليه أن يختار الشعب نوابه بحرية تامة ، ويعنى ذلك أن فجرا جديدا سوف يطل على مصر، ونحن أمامنا هذا الحدث التاريخى المهم ، فماذا ياترى تكون النتيجة ، وما نملكه فى هذه اللحظات أن نتمنى على الله أن يحفظ مصر الكنانة ، وأن يهدى الجميع إلى نسيان ذواتهم ، ومصالحهم الخاصة ، وأن يتذكروا أن الوطن إذا غرق فسوف نغرق جميعا !

والمفروض أن الشعب المصرى سوف يكون من الوعى ، بحكم تجاربه ، بحيث يختار الرئيس الذى سوف يقود الأمة إلى بر الأمان ، فى هذه الأيام التى يمر فيها العالم أجمع بجو عاصف ، وحالة من الغليان والتوتر ، فضلا عما نراه من محاولات غريبة للتدخل فى الشأن المصرى من قوى خارجية ، اعتادت مؤخرا على محاولات لفرض هيمنتها على العالم كله ، وبلا أدنى مبرر ، وهذا أمر مرفوض تماما من كل مصرى حر أبى ، كما يستوجب تحرك الجماهير والشعب بكل طوائفه وفئاته بهدف أن يحمى ترابه واستقلاله وحرية القرار .

إن مصرنا الغالية تحتاج فى هذا الوقت العصيب ، إلى من يقود سفينة مصر إلى بر الأمان ، وقائد هذه السفينة ينبغى أن تكون لديه الحنكة السياسية ، والحكمة التى

تحافظ على مصر بتاريخها العريق ، ودورها المهم فى هذه المنطقة المؤثرة من العالم كله.

عزيزى القارىء ...

على الرغم من سخونة الصيف ، فكلنا يعلم أن الصيف ينافس الربيع ، بما تحفل به شواطىء البحار من مباهج ومفاتن .. وكانت الهلال دائما سباقة فى إصدار الأعداد الخاصة فى الصيف وتزدان بمقالات لكتابها الكبار من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وأحمد أمين ومحمد فريد أبوحديد وفكرى أباظة وأمينة السعيد وبنت الشاطىء، كلهم يعبر عن الصيف وأهميته فى تجديد الحياة من خلال هدوء المصايف بعد الإرهاق من العمل المتواصل ، والحر الذى يطاق فى مدن مزدحمة ، يملأ الضجيج والتلوث كل أرجائها .

يقول محمد فريد أبوحديد فى عدد أغسطس ١٩٥٢ :

«ليالى الصيف ترد إلى الناس إنسانيتهم، وتشعرهم بأن فى الحياة ماهو أغنى من الغنى ، وأقوى من القوة ، وأسمى من المجد والسطوة . فليالى الصيف الوديعة ، تفيض سلاما ورقة بأنفاسها ، وهى التى تبعث الغناء فى القلوب ، وتجلو مبدأ الغرور عن النفوس» .

وقد تبارى كل الكتاب فى أعداد الهلال الخاصة وغيرها المنشورة فى فصل الصيف، عن متعة التصييف ، وأهمية الأجازة بالنسبة للواحد منا ، فى تجديد نشاطه ، وضرورة استمتاعه بأيام بعيدا عن قيظ حر المدن ، وإرهاق العمل .

لكننا نتوقف عند أهمية القراءة خاصة عند مدمنيها فى مقال للعقاد بعنوان ماذا نقرأ فى الصيف ؟

يقول :

يحدث كثيرا أن يكون الصيف عند القراء المدمنين موعدا ..

وكانت الهلال في بدايات صدورها تتوقف لمدة شهرين فى فصل الصيف وتقدم فيهما كتابا أو رواية لجرجى زيدان صاحب الهلال ، يستمتع بهما القارىء ، وقد قال عن ذلك عباس العقاد ، حينما سأله سائل :

ما بالك وأنت تتحدث عن الصيف ، قد نسيت الصحافة ؟! .. أليست للصحف والمجلات نصيب فى قراءة الصيف ؟!

ويرد العقاد بذكائه المعهود :

كلا لم أنس الصحافة ، ولا محل لنسيانها ، لأن الصحافة «شجرة سنوية» دائمة الخضرة ، وما تعطل منها شهرا أو شهرين فى السنة ، فقلما يستبيح العطلة إلا تعوض من كتاب أو رواية أو هدية سنوية .. والصحافة لا مهرب منها فى صيف ولا شتاء بين العامة والخاصة .

***

وعزيزى القارىء .. ترى هل تستمتع بهذا الصيف ، وتقضى إجازة سعيدة هانئة على شواطىء البحار ؟!

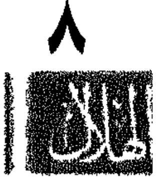
نرجو لك ذلك !

المحـــــرر

الوجه الإنساني للديمقراطية

بقلم
د. مصطفى سويف

كان الخطاب الجنائزي الذي ألقاه بريكليز، القائد الاثيني الكبير سنة ٤٣١ق.م. في رثاء الجنود الأثينيين الشجعان الذين ضحوا بحياتهم دفاعا عن وطنهم، أثينا، كان مرصعا بذكر الكثير من الإشارات والتنبيهات الإنسانية التي ينطوي عليها مفهوم الديمقراطية كنظام حكم يعتبره مفخرة للأثينيين، ويعتبره في الوقت نفسه رسالة إيجابية إلى كل من يهمه أمر الحكم والمحكومين. وقد تلقفت الأجيال التالية هذا المفهوم بالكثير من العناية بصورة قلَّما تحظى بها المفاهيم السياسية، وكذلك أحصى بعض الباحثين للاستدلال على هذه العناية ثلاثمائة وأحد عشر تعريفا صدرت لهذا المفهوم على مر التاريخ منذ خطاب بريكليز وحتى نهاية القرن العشرين.



وليس في مخطط للمقال الراهن أن أدخل في مناقشة هذه التعريفات وما تنطوي عليه من توجهات متنوعة. ولكن يكفيني فيما أنا بصدده أن أقف عند التعريف الذي صاغه بريكليز نفسه لمصطلح الديمقراطية ثم أتقدم إلى باقي النقاط التي أريد أن أعالجها. والتعريف الذي أعنيه في هذاالشأن هو ما ورد في صدر الخطاب المشار إليه علي النحو التالي: «إننا نعيش في ظل دستور تقصر شرائع جيراننا عن منافسته... لأن حكومتنا التي تتركز السلطة فيها في أيدي الكثرة لا في يد القلة تعرف،

باسم «الديمقراطية». ووفقا لقوانيننا فإن لكل فرد... بارز فى ميدانه أن يختار للمناصب العامة بناء عى مزاياه وفضله، بغض النظر عن مستواه فى المجتمع أيا كان هذا المستوى». هذا هو التعريف الذى أعنيه. ومن الواضح أن يحتوى على نقطتين محوريتين، هما: أن السلطة فى هذه الحكومة الديمقراطية تتركز فى أيدى الكثرة، وأن لكل فرد الحق فى أن يختار للمناصب العامة بناء على مزاياه وفضله. ويشكل هذان العنصران معا الأساس التاريخى البعيد لقولنا بلغة المصطلحات الحديثة: «الديمقراطية هى حكم الشعب، بالشعب، وللشعب». غير أنى أتجاوز هذا المضمون السياسى الآن لكى أناقش ما أسميه الوجه الإنسانى للديمقراطية، وأقصد بذلك مجموعة من المعانى الملازمة للديمقراطية، وقد ذكرها بريكليز كذلك فى خطابه سالف الذكر، كما تكلم عنها باحثون أحدث كثيرا من بريكليز ومن عالمه الكلاسيكى القديم. سوف أناقش هذه المعانى، وسوف أوضح لماذا توصف بأنها معان إنسانية، ولماذا تعتبر بالغة الأهمية رغم أنها قد لا تدخل فى صميم تعريف مصطلح الديمقراطية.

الوجه الإنسانى للديمقراطية:

أشار القائد الأثينى فى خطابه سالف الذكر إلى أربعة عشر عنصرا من هذه العناصر الإنسانية التى نهتم بالنظر فيها، وجاءت إشاراته موحية بأنها جميعا مترتبة على تطبيق النظام الديمقراطى. وفيما يلى نورد ذكر هذه العناصر:

١ - الحرية فى الحياة الخاصة.

٢ - الاهتمام بالشأن العام قدر الاهتمام بالشأن الخاص.

٣ - التعاون مع الغير.

٤ - المرونة، أو القدرة على تطويع النفس استجابة لمطالب المجتمع.

٥ - تفضيل الاعتماد على النفس.

٦ - حب الوطن.

٧ - تخصيص أوقات كثيرة للراحة والاستمتاع بالحياة.

٨ - القدرة على توفير البهجة.

٩ - عدم الاستسلام للهم والحزن قبل الأوان.

١٠ - الاستمتاع بالجمال.

١١ - طلب المعرفة بغير ليونة .

١٢ - الترحيب بالنقاش كمقدمة للفعل.

١٣ - اعتبار أن السعادة تنبع من الحرية.

١٤ - اعتبار أن الحرية تتولد من الشجاعة.

هنا تجدر بالذكر ملاحظتان: أولاهما أن هذه العناصر جميعا وردت فى الوثيقة المذكورة صراحة ودون مواربة. والملاحظة الثانية أن هذه العناصر (وخاصة ما ورد منها فى

البنود الثمانية الأخيرة) هى التى تهم المواطن العادى غير المسيس، أقصد بذلك أنه يتفهمها، ويقدرها، ويمكنه أن يتفاعل معها بغض النظر عن مدى فهمه لصيغة التعريف الأساس لمفهوم الديمقراطية. وفى هذه الحقيقة ما يضاعف من تقديرنا لعبقرية بريكليز الذى جمع فى قيادته بين الرؤية السياسية الناضجة والقدرة الفذّة على مخاطبة الجماهير دون غش أو مراوغة. وفيها كذلك ما يضاعف من تقديرنا للجاذبية الجماهيرية للنظام الديمقراطى.

تداعيات الديمقراطية

نترك بريكليز وعالمه القديم، لنصل إلى عالمنا المعاصر حيث الاهتمام بمفهوم الديمقراطية لم يتوقف، بل اتسع نطاقه ليشمل إلى جانب السياسيين المحترفين أعدادا كبيرة من فلاسفة السياسة وأساتذتها، ومن العلماء المتخصصين فى فروع العلوم الاجتماعية المختلفة. ولعل القارئ يذكر فى هذا المقام أننى قدمت فى مقال سابق دراسة ممتازة تلقى الضوء باسم علم النفس السياسى على العلاقة الجدلية بين الحرية والديمقراطية. وقد رأيت أن أقدم فى المقال الراهن دراسة للتداعيات الانسانية حول مفهوم الديمقراطية نشرت نتائجها فى سنة ١٩٩٥، وتعاون فى إجرائها ثلاثة من علماء النفس، اثنان فى جامعة استيرلنج فى اسكتلندة، والباحثة الثالثة فى جامعة كومينيوس فى سلوفاكيا.

هذه دراسة علمية تجريبية، كان الهدف الرئيسى منها هو الكشف عما يمكن أن يصدر من تداعيات المعانى بصورة تلقائية لدى الفرد (المواطن العادى) عندما يتعرض هذا الفرد لكلمة الديمقراطية، وقد أجريت الدراسة على عدد كبير من الأفراد، بأسلوب علمى منضبط، كما استخدمت فى تحليل دلالات التداعيات اللفظية للأفراد تقنيات حديثة رفيعة المستوى. وإلى القارئ مجمل النتائج التى حصل عليها الباحثون الثلاثة: فقد تبين أن أكثر التداعيات شيوعا بين أفراد التجربة ثلاثة معان، هى: الحرية، وحقوق الفرد، والعدل. وبالاضافة إلى هذه المعانى وردت تداعيات أخرى متعددة تشير إلى ما يمكن اعتباره عمليات إجرائية أو مؤسسات، وكانت أكثر هذه الإشارات انتشارا هى الإشارات الخمس التالية:

المعارضة، والرأى العام، والبرلمان والقانون، والدستور.

ومع أن الصلة وثيقة بين هذه التداعيات الإجرائية/ المؤسسية والمعانى الثلاثة سابقة الذكر فلن نناقشها فى المقال الراهن لأن المقام لا يتسع لذلك، ولكننا أوردناها لمزيد من اطلاع القارئ على الجو الذهنى الذى



استثارته كلمة الديمقراطية عند أفراد التجربة.

هكذا جاءت نتائج هذه الإطلالة العلمية الحديثة لتكشف عن التداعيات التى يستحضرها مفهوم الديمقراطية. والسؤال الآن أين تلتقى هذه النتائج (التداعيات/ المعانى الثلاثة الأولى) مع ما أحصاه بريكليز من قسمات فى الوجه الانسانى للديمقراطية؟

مواضع الالتقاء بين العناصر الكلاسيكية والتداعيات:

يستطيع القارئ أن يتتبع مواضع الالتقاء هذه، فهى واضحة ومتعددة، وتدور معظمها حول محورين: الحرية، وحقوق الفرد، وقد ورد ذكر المحورين صريحا ومكثفا فى نتائج البحث الحديث، وجاء كذلك صريحا ومفصلا فى خطاب بريكليز. ثم هناك محور ثالث هو محور العدل، وقد ورد ذكره صراحة فى الدراسة الحديثة، وأقل صراحة فى النص القديم، فالمعنى الجذرى للعدل هو التوازن، وهو ما نلمسه فى العنصر الثانى من عناصر الخطاب البريكليزى، التوازن بين الاهتمام بالشأن العام والاهتمام بالشأن الخاص، وهذا ما تترجمه المجتمعات الديمقراطية الحديثة (فى مواقف الصراع بين الفرد والمجتمع) فى شكل ضرورة التوازن بين حق المجتمع فى اتهام الفرد وحق الفرد فى الدفاع عن نفسه.

فى هذا السياق يأتى رسم الميزان باعتباره من أشد رموز العدل عمقا فى التاريخ.

حقوق الأفراد، والحرية، والعدل:

يلزمنا أن نقف عند كل محور من هذه المحاور وقفة تفكر مزود بأعلى درجات الوعى، وذلك بالقدر الذى يسمح به المقام. ولعل القارئ يذكر فى هذا الصدد حديثا سبق لى أن نشرته فى هذه المجلة الرصينة حول طبيعة الوعى، ووظيفته الأولى فى حياتنا وهى حفظ البقاء (بالمعنى الإنسانى المتكامل)، وكيفية تفعيل هذا الوعى فى حياتنا الاجتماعية، وذلك بالنظر فى أى موضوع هام يطرح علينا بنظرة تجمع بين التكامل (أى تكامل الموضوع مع مقدماته التاريخية والمنطقية)، والنقد (على ضوء الخبرات السابقة)، والتحليل التنبؤى (أين يتجه بنا فى المستقبل).

بهذا المضمون المركب للوعى يلزمنا أن ننظر الآن فى أمر حقوق الأفراد، والحرية، والعدل، لأن هذه المفاهيم تقترن فى العقل البشرى (قديما وحديثا) بمفهوم ديمقراطية الحكم، ولأنها من أولويات أمورنا (على المستوى الوطنى، والقومى، والعالمى) فى الحاضر التاريخى. جدير بالتنبُه أن بؤرة الضوء التى يجب أن تظل مشعة أمامنا لكى تهدينا فى مجال التفكير هنا هى أن نظام الحكم الديمقراطى يستقطب ثلاثة مكونات معا، هى: حقوق

الأفراد، والحرية، والعدل.

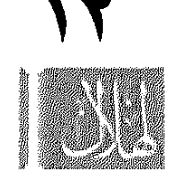
والسؤال المفتاحى أو المرشد لنا فى هذا السياق هو: لماذا تطالب الشعوب، ومن بينها الشعب المصرى/ العربى، بديمقراطية الحكم؟

والإجابة الأمينة، والمعقولة أيضا، هى : لأن الديمقراطية ترتبط بالمعانى الانسانية التى أوردناها، وهى المعانى التى أحصاها بريكليز على سبيل الاستقراء، والتى كشفت عنها الدراسة الحديثة من خلال عمليات التداعى. بعبارة أخرى أكثر توضيحا لحقائق الأمور إن الناس العاديين يستشعرون فى نفوسهم طلب العناصر الانسانية التى ذكرناها: الحرية، وحقوق الأفراد، والعدل. وفى بحثهم عن عنوان يستوعب هذه الأصول الثلاثة لا يجدون خيرا من مفهوم الديمقراطية للقيام بهذه المهمة. هذا هو المنطق الحقيقى للموضوع. فإذا أتحنا لأنفسنا أن يتمكن هذا المنظور من عقولنا استطعنا أن نفهم أشياء كثيرة، منها على سبيل المثال السبب فى كل هذا النفاذ للمصطلح فى النفوس منذ أطلقه بريكليز، ومنها كذلك السبب وراء التداعيات التى أوردناها عن البحث الحديث، بل واستطعنا أن نفهم أيضا لماذا يتمسح بعض السياسيين بهذا المفهوم وهم فى الحقيقة لا يؤمنون به ولا بتداعياته، وسنفهم بالإضافة إلى هذه الأمور كيف أن الدعوة إلى النفور من مصطلح الديمقراطية بحجة أنه وارد إلينا من الغرب عموما ومن الإدارة الأمريكية خصوصا إنما هى دعوة غير سليمة، وهذا أقل ما يقال فيها، لأنها دعوة إلى رمى الجمل بما حمل.

وحقيقة الأمر أنه لا الإدارة الأمريكية ولا الحكام الغربيون عموما يريدون لنا الحكم الديمقراطى بمضامينه التى أوردناها، إنهم يريدون لنا شيئا آخر يتفق والمشهد الذى يقدمونه فى أفغانستان والعراق، حيث الحكم يمكنهم هم وعملاؤهم من الاستيلاء على ثروة البلاد (عن طريق هاليبيرتون وأمثالها)، وحيث المحاولات المستميتة لأمركة الحياة وأوربتها وطمس معالم الهوية الوطنية/ القومية (والنموذج هنا هو تخريب المتحف الوطنى العراقى).

الحق والباطل فى أمر الديمقراطية :

والسؤال الجديد الذى يفرض نفسه فى هذا الموقع، هو: كيف نميز بين الحق والباطل فى ادعاءات تبنى الديمقراطية؟ هذا سؤال شديد الأهمية خاصة فى هذه الفترة المفصلية فى تاريخ مجتمعنا المصرى/ العربى، وفى تاريخ العالم، حيث أصبح أحد الأسلحة التى يستعان بها فى الصراعات الجارية، سلاح التحكم فى اللغة (عن طريق الإعلام المنطوق والمكتوب) وذلك لتضييق الخناق على العقول والضمائر. أمام



هذه الحقيقة من ناحية وحقيقة كوننا لا نستطيع أن نستغنى عن استخدام اللغة فى حياتنا الخاصة والعامة من ناحية أخرى فلا مخرج لنا من هذا المأزق إلا بشحذ الوعى فى جوانبه التحليلية النقدية، وابتكار الأساليب الناجعة فى التغلب على ما ينشره الزيف الإعلامى من ملوثات فى الأجواء ومشوهات للإدراك، ومغيبات للضمائر وفى موضوعنا الذى نحن بصدده فإن أحد الأساليب الناجعة أسلوب يقوم على دعامتين: إحداهما تجنب الدخول فى أى سفسطة لغوية أو تاريخية حول مصطلح الديمقراطية، والدعامة الثانية هى الاتجاه مباشرة إلى مكونات الوجه الإنسانى للديمقراطية، فهذه المكونات التى ذكرناها هى اللب الذى نقف عنده، والذى لا يجوز أن يشغلنا عنه شاغل. وانطلاقا من هذه الوقفة ينبغى لنا أن نعمق فى نفوسنا المعانى الإنسانية لنظام الحكم المرغوب فيه.

ما هو الإنسانى فى مكونات الديمقراطية ؟

لماذا نصف هذه المكونات، حقوق الفرد، والحرية، والعدل، بأنها الوجه الإنسانى للنظام الديمقراطى؟ هذا هو السؤال. وهناك مصادر متعددة للإجابة عنه، منها كتابات بعض الكبار من علماء النفس عن مكونات الطبيعة البشرية، ومنها توجيهات بعض كبار المشتغلين بالعلاج النفسى حول التوجه الأساسى الذى يجب أن يتأسس عليه هذا العلاج. ومنها بعض ما أذاعه الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، ومنها أخيرا وليس آخرا بعض ما نصت عليه الدساتير الحاكمة لكثير من الدول بما فى ذلك دستورنا المصرى الصادر سنة ١٩٧١. وإلى القارئ عينات محدودة مما أوردته هذه المصادر على تنوعها.

فى سنة ١٩٦٤ نشر هيدلى كانتريل، أحد كبار المتخصصين فى علم النفس الاجتماعى بحثا بعنوان: «التصميم الإنسانى»، وهو يستخدم مصطلح التصميم هنا بمعنى مماثل للمعنى الذى يستخدمه به مهندسو المعمار (فيتحدثون عن تصميمات المبانى). تحدث كانتريل فى هذا البحث عن أحد عشر عنصرا فى هذا التصميم، يهمنا من بينها فى السياق الراهن أربعة عناصر هى بمثابة مطالب تقوم وراءها احتياجات فطرية، هى: الحاجة إلى حفظ البقاء، والحاجة إلى الأمن أو الأمان بمعناه المادى والنفسى، والحاجة إلى تنمية الإشباعات كما وكيفا، والحاجة إلى ممارسة حرية الاختيار. جدير بالذكر أن هذه الاحتياجات جميعا لها جذورها البيولوجية التى تجمع بيننا وبين المملكة الحيوانية، لكن الإمكانيات الكامنة فيها والتى تكشف عن نفسها فيما بعد (على امتداد مسار النمو والارتقاء).

من خلال ما نسميه بالتجليات النفسية، هذه الإمكانيات وإفصاحاتها هى التى تجعل منها عناصر فى التصميم الانسانى. مثال ذلك أن الحاجة إلى البقاء تمتد فى ثنايا النمو الإنسانى لتغذى الإبقاء على الهوية. والحاجة إلى الأمن تمتد لتغذى الارتباط أو الانتماء الاجتماعى، والحاجة إلى تنمية الإشباعات تسهم فى تنشيط الابتكار العلمى والتكنولوجى، كما أن الحاجة إلى ممارسة حرية الاختيار تقوم وراء الارتقاء بالإرادة. هكذا تبدو المكونات الأولية للطبيعة الإنسانية فى منظور هيدلى كانتريل.

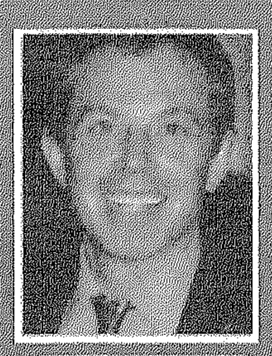
وهناك نوع آخر من كتابات علماء النفس يعرف عند أهل الاختصاص باسم التوجه الإنسانى فى العلاج النفسى، وهو توجه يقوم على محاولة استنهاض كل طاقات المريض بحيث تشارك هذه الطاقات بإيجابية ملحوظة فى تحقيق شفائه. ومعنى ذلك أن يتجه المعالج إلى التعامل مع المريض كذات فاعلة لا كموضوع يطبق عليه تقنيات علاجية جامدة. ويقترن هذا التيار بأسماء عدد من العلماء فى مقدمتهم كارل روجرز وإبراهام مازلو.

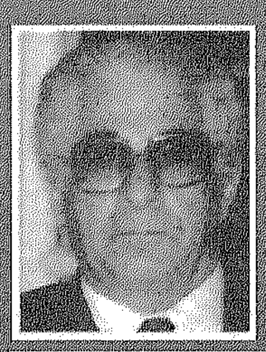
ولا يسمح المقام هنا بالدخول فى مناقشات تفصيلية لهذا التوجه، ولكننا نقدمه فى هذا السياق لدعم وجهة نظر كانتريل، وبيان أن هناك قاعدة عريضة من علماء النفس الذين يهتمون اهتماما خاصا بالعناصر النوعية التى تميز الانسان من حيث هو إنسان.

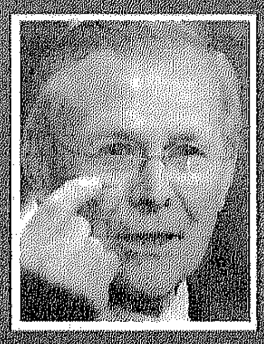
ثم بعد هذا الرصد لكتابات علماء النفس ما قدمه الإعلان العالمى لحقوق الإنسان كما أصدرته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨، وهو يعم على كل أفراد البشرية بغض النظر عن اعتبارات العرق أو القومية أو الفئة التى ينتمى إليها هؤلاء الأفراد من بين فئات التصنيف التى نعرفها كالجنس والدين... الخ ثم هناك ما نصت عليه صراحة بعض مواد الدستور المصرى الصادر فى سنة ١٩٧١ (انظر على سبيل المثال المواد رقم ٤٠، ٤١، ٥٠، ٥١ ٥٢). وهناك أولا وقبل كل شئ ما تضمنته وثيقة إعلان الدستور عن الحرية، وعن كرامة الفرد، و«أن سيادة القانون ليست ضمانا مطلوبا لحرية الفرد فحسب، لكنها الأساس الوحيد لشروعية السلطة».

هذا التلاقى لهذه الروافد كلها هو الذى نستوحيه أو نستلهمه ونحن نتكلم عن الوجه الإنسانى للديمقراطية. ومعطيات هذا الوجه هى التى تكسب الديمقراطية جاذبيتها. ■

أقـــوال معاصرة


تونى بلير


أنيس منصور


دونالد رامسفيلد

• «المفارقة فى هذا المنصب أن شعبيتك تقل كلما تستمر فى العمل ، رغم اكتسابك دراية أكثر بكيفية إنجاز العمل» .

تونى بلير - رئيس وزراء بريطانيا

• «السياسة هى فن استغفال الناس !!» .

الكاتب أنيس منصور

• «حجم القرصنة فى العالم العربى شىء مشين !» .

إبراهيم المعلم - رئيس إتحاد الناشرين العرب

• «الحرية غير قابلة للتنظيم ، والشعب الحر له مطلق الحرية فى ارتكاب الأخطاء ، واقتراف الجرائم !!» .

دونالد رامسفيلد
وزير دفاع الولايات المتحدة

• «الأشياء الجوهرية فى التاريخ تبدأ دائما بالجماعات الصغيرة ، الأكثر اقتناعا» .

البابا جوزيف راتزينجر - (بنديكت السادس عشر)

• «قبائح الحياة الاجتماعية المعاصرة يقف وراءها العجز عن توفير النظرة المتوازنة التى تفلح فى إعطاء العلوم الاجتماعية بوجه عام العناية التى هى جديرة بها» .

د. مصطفى سويف - رائد علم النفس الإبداعى

• «النجمات الأسطورة لسن جميعاً أمريكيات» .

جيل جاكوب رئيس مهرجان كان
بمناسبة إعطاء كاترين دى نيف سعفة فخرية

• «أنبل طاقة يمنحها الله للناس هى طاقة الحب» .

الطيب صالح
الأديب السودانى الفائز بجائزة
الرواية العربية فى مصر

• «نظام السينما فى أوروبا أقل بربرية عن مثيله فى أمريكا» .

شارلوت رامبلنح النجمة الإنجليزية
التى أفتتح بفيلمها مهرجان كان الأخير

• «يجب علينا أن نتعامل مع العالم كما هو ، ولكن لايجب علينا قبول العالم كما هو !» .

كونداليزا رايس - وزيرة خارجية الولايات المتحدة

• «لاينبغى عليكم الاستماع إلى الذين يصيحون وإنما إلى الذين يفكرون» .

نضال ناصر
أول محامية فى النجف

خوف الناس من الناس

بقلم
د. محمد رجب البيومى

أصبح خوف الناس من الناس بلاء موجعا ، يسبب من المشكلات المستعصية ما لاطاقة لرب الأسرة باحتماله ، ويولد من الأزمات الطارئة ما كان القوم فى غنى عنه لولا هذا الخوف المزعج الكريه ، وقد يستغرب القارىء ذلك بادىء ذى بدء ، ولكن الحقائق الأليمة تنطق بهذا الخوف بما لايستطيع باحث أمين أن يتجاهله ، وكان فى النظرة المتأنية والعقل البصير ما يجتث هذا الخوف باجتثاث أسبابه ، ولكن ما طرأ على المجتمع من ملابسات شاذة ، وكماليات مظهرية صارت بتكرارها ضروريات ملزمة لامفر منها ، كان مصدر الأزمات الطاحنة التى ينوء الكثيرون تحت أثقالها المتراكمة ، وقد كان فى غلاء الأسعار الملتهب يوما بعد يوم ، وعجز المرتبات الناحلة عن استيعاب الضروريات ما يلزم العقلاء بمعالجة أمورهم على وجه مريح قانع ، ولكن الغلاء يشتعل ويستفحل ، ثم تكون الكماليات أمرا لا مفر منه ، خوفا من انتقاد الناس ، وتوقيا من ألسنة تتلمس أوجه النقص لدى المعارف والزملاء ، فإذا لم تجد هذا النقص على وجه صريح حاولت أن تختلقه اختلاقا ، وأخذت تتلذذ بشيوعه وإعلانه على نحو بغيض .

جاءنى إنسان فاضل يشغل منصب المدير العام فى أحد المرافق الحكومية وكان تلميذا لى بالمدرسة الثانوية منذ عهد بعيد، وظلت أواصر الود وطيدة بينى وبينه إذ يحرص على مراسلتى فى المناسبات الداعية، ويتفضل بزيارتى من وقت لوقت، فهو صاحب الفضل الأول فى تدعيم هذه الصداقة الكريمة، وقد زارنى ذات عشية ووجدت فى ملامحه ما يدل على عدم الارتياح فسألته عن حقيقة ما يشغله فقال لى فى أسف، كنت أود لو أتاح الله لى مسكنا فى منزل متواضع أعيش به مع أسرتى حيث لايجاورنى أحد، لأنى أسكن فى عمارة ذات شقق وأدوار، وقد توشجت صلاتنا بالجيران على نحو طبيعى لانشاز فيه، ولكن هذه الصلات أصبحت تجر على من المتاعب المادية ما لاطاقة لى به، فأصبحت أعانى رهقا شديدا فى استواء معيشتى، وإذا أردت أن انكمش فى حدود مقدرتى المادية، ثار أولادى وغضبت زوجتى، ومصدر غضبها الأول هو الخوف من كلام الناس.

ووجد زائرى منى اهتماما بحديثه، فواصل القول فى ارتياح، وقال: فى العيد الماضى - عيد الأضحى المبارك - ارتفع ثمن الأضاحى، بحيث أصبح الخروف المتواضع يباع بأكثر مما أقبضه من مرتبى الشهرى، فلم أجد ضرورة تدفعنى إلى أن أتكلف ما لا أطيق، ولكن جارة كريمة تفضلت بزيارة زوجتى، وأعلنت أن زوجها قد اشترى عجلا لهذه المناسبة، وأنه سيفرق اللحم أمام العمارة حيث يجتمع المحتاجون، كما أن الجيران سيذبحون الخرفان فقط، ولن يبلغوا مبلغ ما تضحى به، وكأنها تقول إن منزلتها قد أصبحت فوق الجميع، وما رحلت هذه المتغطرسة حتى جاءت زوجتى إلى عابسة تصر على أن نذبح، ولا نكون موضع انتقاد! قلت إننا نذبح لله لا للناس، ولن يكلف الله نفسا إلا وسعها، فثارت وتجهمت، وجاء الأولاد، وكلهم يؤيدونها، ثم نزل الفرج من السماء على غير انتظار، إذ حدثنى أخى من القرية تليفونيا بأن زفاف ولده فى ليلة العيد وأنه يدعو الأسرة جميعها إلى تشريفه بهذه المناسبة، فأسرعت لأخبر الأسرة بهذا الحل الموفق، وأعددنا العدة للرحلة الميمونة التى انقذت الموقف، واطمأنت الزوجة لأنها، كما قالت، وجدت العذر المقبول أمام الجيران، فلن ينبسوا بالملام! وأسأل نفسى أى عذر؟ وهل وقع ذنب يوجب الاعتذار؟

الشقاء المرير

هذه واحدة، أما الثانية فشبيهة بها وقد وقعت فى الصيف الماضى، إذ انتهت الدراسة بعد عناء الدروس الخصوصية التى لم تقتصر على طلاب المدارس بل تعدتهم إلى طلاب الجامعة! حيث فرض الأستاذ الدكتور ألفين فى المادة الواحدة وذلك ما جعلنى أستدين وألعن الأيام التى دفعت بأولياء الأمور إلى الشقاء المرير، وقد تهيأت فئة من سكان العمارة إلى المصيف فى أماكن أقلها الاسكندرية ورأس البر! وجاءت زوجتى ومعها الأولاد يصرون على رحلة المصيف كما كنا نفعل من قبل، قبل فراغ اليد

والجيب ، فأعلمتهم أن ذلك مما يستحيل هذا العام ، فأنا مدين وقد أواصل الدين فى العام المقبل كى أفى بحاجة الدروس الخصوصية ! ومر بنا أسبوع لم يخل من نزاع ، وصل إلى درجة الغضب من الزوجة ، فالبكاء من الأطفال ، ثم نزل الفرج من السماء – إن كان المرض يدعى فرجا – فقد مرضت زوجتى ، واستدعى الأمر مراجعة الطبيب يوما بعد يوم ، وأصبحت الرحلة الصيفية فى هذا الموسم ممتنعة تماما ، ومع ذلك فالأولاد غاضبون ، ومنهم من يقول إننى السبب الأول فى مرض زوجتى لأنها تأثرت كثيرا بامتناعى عن المصيف ، وذلك ما يجعلها فى مستوى أقل من مستوى الجيران ! وقالت إحدى بناتى إن الجزار الذى يسكن معنا فى هذه العمارة قد ذهب بأسرته شهرا كاملا فهل لايقدر المدير العام على رحلة تستمر أسبوعا واحدا؟.. فقلت لها فى ألم، يا بنيتى إن ما يكسبه الجزار الكريم فى اليوم الواحد أكثر مما يقبضه المدير العام فى الشهر الطويل ! فماذا تقولين؟

كان حديث صاحبى بالغا موضع التأثير من نفسى ، فحاولت أن أخفف عنه بعض ما يتلبسه من شجن، وأذكر أنى قلت له إنى أعرف رجلا فاضلا من طرازك فوجىء بالأعباء الكمالية التى لايطيق دفعها ، فرأى بعد تفكير أن يشرك زوجته فى تيسير العسير ، وكانت ذات حصافة وقناعة ، فقال لها سأضع راتبى فى يدك جميعه ، لتتصرفى فيه كما ترين ، وعليك أن تقنعى الأولاد بما يجب أن يكون من الاعتدال والقصد ، فقدرت الموقف حق قدره ، ولم ترهق الأب الكادح فى مطلب لاينالة ، وسارت السفينة باتزان فى هبة العاصفة ، ورضى الأولاد بالأمر الواقع ، فلم يعقدوا موازنة بينهم وبين الجيران ! فعليك أن تحاول ذلك مع زوجتك ، لتكون عونا لك بدل أن تثقل عليك بما لاتطيق .

دور مهم للأم

وهنا يجب أن نتساءل ، لماذا كثرت الكماليات فى هذا الزمن ، ولماذا أصبحت لدى الكثيرين من الضروريات؟ وقد كنا فى الجيل الماضى نرى رب الأسرة آخذا أولاده وزوجته بالحزم ، فلا يتطلعون إلى مالايملكون ، وكانت الحياة تجرى رخاء ، بحيث يفيض المرتب فى كثير من الأحيان عن حاجة المنزل فيدخر منه إلى حين ! ولن نعجز عن الجواب الصحيح ، حين نوازن بين البيت والمدرسة والجامعة فى الماضى وفى الحاضر .

كانت الأم فى المنزل كأنها مدرسة فى المدرسة ترعى شئون الأطفال ، وترشدهم إلى النهج الصحيح خطوة خطوة ، فهى تفرض عليهم آدابا من السلوك ، وتقيم علاقتهم مع أطفال الجيران على نحو من الحزم يمنع التأثر والتطلع إلى ما ليس باليد ، وتساعد على هدوء المنزل للاستذكار بعد العودة من المدرسة ، وإذا رأت من سلوك الابن ما لا ترتضيه وجهته وحذرته ، وقضت على أسباب التنافس بين أبنائها ويأتى الوالد بعد الظهيرة فلا يلمس غير ما يحب من الهدوء ، واعتدال الرغبات ، والتفكير فى الغد الذى لابد أن يحين بأعبائه ، وكل ذلك قد ساعد على النشأة الهادئة ، والاعتدال السديد .

هذا هو المنزل ، أما المدرسة فقد كانت مثالا للمساواة العادلة ، لايتقدم فيها التلميذ على زميله إلا بما يبذل من الجهد والمثابرة ، وقد يكون الأول فى الفصل الدراسى ابن عامل صغير أو فلاح أجير ، فيلاقى من التشجيع ما يزيده التفاتا إلى واجبه ، أما دروس التربية الرياضية وأوجه النشاط المختلفة فى الجمعيات الطلابية ، فتدفع إلى التنافس الشريف ، وتجعل من التلميذ رجل المستقبل فى اتزانه وضبط عواطفه ، فإذا انتقل إلى الجامعة ، وجد المجال الرحب لإنماء قواه الفكرية وحسن التعامل مع النظراء ، والمساواة هى الميزان السائد فى التعامل ، دراسة ، ورحلة ، ونشاطا ، وذلك ما يمنع الإنسان أن يتطلع إلى خطوة خاصة ، أو مكانة ملحوظة لاتصاله بمسئول كبير.

وننتقل إلى المنزل والمدرسة والجامعة الآن ، فماذا نجد ؟ لقد تخلت الأم تماما عن رسالتها التربوية ، وانتقلت عدوى التليفزيون إلى الأطفال، فكثرت بواعث الشجار والتنافس وعادى الأخ أخاه ، لما لحظة من ميزة فى عقله أو سلوكه ، وتطلع إلى رفقائه من أبناء الجيران طالبا ما ليس بيده مما يملكون ، فإذا عاد الأب المرهق من عمله ، لم يجد من أعصابه ما يتيح له الجلوس الهادىء مع أبنائه ، ولم يعبأ بما يسمع عن مشاجراتهم ، وقد تكون الأم عاملة فترجع فى حاجة إلى الراحة بعد أن تؤدى حاجات المنزل ، وبهذا فقد الابن درس التربية العملية فى بيته، وأسلمته الظروف الجديدة إلى ميوله الذاتية دون ضبط أو توجيه .

والمدرسة فقدت روح المساواة تماما ، فليس بها من أوجه النشاط العملى ما يجمع الطلاب على عمل تربوى يتيح لمواهبهم الكامنة أن تلوح ، ولن يترأس من الطلاب غير ذوى الثراء، ممن يجيئون إلى المدرسة فى العربة الخاصة ، ويرتدون الحلل الزاهية ولهم مكانتهم عند متصيدى الدروس الخصوصية من المدرسين ، وإذا كنا قد افتقدنا أوجه النشاط تماما فى هذا المحيط ، فإن الدروس العملية قد فقدت تماما ، وأصبحت مظهرية تدون عناوينها على السبورة فقط ، والناظر والمفتش والمدير يعلمون ذلك تماما ، ولامن نكير ! فأى خلق إنسانى ينمو فى هذا الهرج الهائج ، وكيف يتربى التلميذ على نماذج طيبة من السلوك الحميد ؟

والجامعة بأعدادها المكدسة فى المدرجات ، بين قعود ووقوف لاتتيح للطالب نوعا من المعرفة الصحيحة ، فضلا عن أن تتيح له نوعا من التربية الصالحة ! وقد يحمل المتخرج درجة الليسانس أو البكالوريوس ، وهو لايعرف شيئا عن تخصصه ! ذكر الدكتور مهدى علام رحمه الله أنه سأل ممتحنا فى لجنة من لجان الجامعيين المتقدمين إلى بعض الوظائف ، وكان ممن تخرج فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب ، سأله عن الصومال أين هى ؟ فقال إنها فى أوربا ! وحين لحظ هيئة الاستنكار قال لا ، إنها فى أمريكا!! وهذا ممن درس الجغرافيا ، ونال درجة الليسانس ! أفنقرن أبناء الجيل الماضى بطلاب اليوم ! ذلك رجع بعيد ! وأعود إلى خوف

الناس من الناس فأذكر أن ما سطرته عنه أهون وأضأل من خوف سواه ، ذلك هو خوف الكثير من الناس أن يقولوا كلمة الحق فى وجه الظالم الآثم ، وليتهم اعتصموا بالسكوت فلم ينطقوا بخير أو شر ، ولكنهم انساقوا إلى المديح الكاذب فى مداهنة بغيضة ، وأخذوا يبدون من مظاهر الولاء ما ينكره الممدوح نفسه ، إذ هو فى أعماقه يزدريهم كل ازدراء

لقد زكمت الأنوف لدينا رائحة المرتشين واللصوص من ذوى المناصب فى مجلس الشعب ، وإدارات البنوك ومجال الإيراد والتصدير ، وكان الحق كل الحق أن يلاقوا بالازدراء والتحقير، ولكن خوف الناس من الناس جعل السفلة من الوصوليين يقابلونهم بالإعزاز والتوقير ! وقد يقوم شرير من مدعى الوجاهة الكاذبة بجريمة اغتيال، ويجتهد المحامون فى تبرئته بالباطل ، وتؤثر العائلة بنفوذها فى تهديد الشهود فيعدلون عن قول الحق ، ويخرج المجرم من القفص ، فماذا يحدث؟ نجد هؤلاء الذين يعتقدون فى صميم قلوبهم إجرامه ، وفحش جنايته يسارعون إلى الاحتفاء بتكريمه ، ويحجون لمنزله مبتهجين ، ويصفقون له، وكأنه جاء بنصر مبين ، ويسارعون بتهنئته فى الجرائد اتقاء لشره ، وخوفا من عقبى مغاضبته ! بل تجد الثرى ينتزع الأرض غصبا من الضعفاء ، ويقدم الأدلة الزائفة تبريرا لما ارتكب من الجرم ، ولايستطيع المجنى عليه مقاومة هذا الحشد المزدحم المتربص به، ويصدر الحكم وفق ما توجبه الأدلة المصطنعة ، وإذ ذاك يسارع من يعلمون علم اليقين أن البرىء فى حكم القضاء مجرم أمام الله ، يأتون لتهنئته ويستنكرون أن يعارضه معارض ! بل قد يرشح أحد هؤلاء نفسه لمجلس الشعب أو لمجلس مشابه ، فيجد آلاف المؤيدين من الخائفين ، ويعلو الهتاف باسم الغاصب دون نكير ولو كان لدينا رأى عام يحترم الحق ويحتقر الظالم الغاصب، ما تمت هذه المسرحيات الهزيلة ، ولما كان اللصوص وأشباه اللصوص فى مقدمة الصفوف وجاهة واستعلاء إن أغرب ما فى الأمر أن أحدهم يتهم صراحة بالدعارة ، ويقابله الناس بالتحية خيفة من بطشه ، أليس هذا الخوف القاتل مما يحتاج إلى دواء حاسم يرتفع بنفوس المرضى من وهدة الرياء إلى منزلة الصدق والإخلاص !

رأى للإمام محمد عبده

لقد وصفت بعض مظاهر الخوف فى ناحيتيه المختلفتين ، وبقى أن أشير إلى ما أراه من وسيلة حاسمة لعلاجه ، وقد لا أكون مؤهلا لتحديد هذا العلاج كما ينبغى أن يكون ، ولكنى أسترشد بموقف سابق للأستاذ الإمام محمد عبده حين رأى الأمة المصرية قد أصابها الفتور القاتل بعد إخفاق الثورة العربية ، فسكت الصوت الوطنى الذى ارتفع قبل الثورة ، ولولا صيحات مصطفى كامل ما شعر أحد أن البلاد مصابة بالاحتلال لانصراف كل مصرى إلى شأنه الخاص ، هنا رأى الإمام محمد عبده أن يكون التعليم الصحيح وسيلة لإيقاظ الشعور الهامد ، وتطلع الأمة إلى المستقبل عن طريق شديد لاتكتنفه العثرات ، وأنا أرى تبعا له أن تكون التربية الصحيحة فى



المنزل أولا ثم فى المدرسة والجامعة ثانيا هى التى تقضى على الانهيار الخلقى الملموس ، فإذا رجعت للمنزل رعايته الصحيحة فى إنماء الحاسة الخلقية لدى الطفل ، وبعث عوامل الصدق والوفاء والقناعة فى كيانه الآخذ فى التدرج ، وجاءت المدرسة لتؤكد معانى الحرية والصراحة، ومحاسبة المخطىء على خطئه ، وإثابة المحسن على إحسانه فى جو من المساواة الحقيقية التى لاتغلفها الأهواء ، ثم كانت الجامعة هادية إلى ترسيخ هذه المعانى سلوكا وعملا قبل أن يكون ذلك كلمات تسطر فى المذكرات دون تنفيذ إذا تم ذلك على وجهه البصير ، فإن الأمل فى الإصلاح الخلقى يتحقق على وجهه المنشود ، وإن الخوف القاتل من الجهر بالحق ، والمداهنة المقيتة لذوى الانحطاط الوضيع ، مما سيمحق أثره فى نفوس تعشق الفضيلة وتمقت الإرهاب الدنىء، أما الخوف من انتقاد الجيران، وعيون المتطلعين إلى ما لا يعنيهم من المواقف ، فسيكون تاريخا أليما مضى ولن يعود ، وهذا ما نرجوه .

إن التربية الخلقية يجب أن تعود ، وإن الغضب من الاندحار الخلقى فى المجتمع يجب أن يحفز الغاضبين إلى تغيير سريع فى كل ما يتصل بأدوات التعليم والإعلام ليأخذ كل مواطن ما يستحق من الإجلال أو الإهمال وفق سلوكه الصريح ، وختاما أستأذن القارىء فى أن أقص عليه قصة لطيفة، تصور مدى خوف الناس من الناس وبطلتها امرأة ريفية ساذجة ، فقد فوجىء أهل القرية بها ذات صباح تصيح فى الشارع صارخة ، فتجمع حولها الناس يسألونها ما شأنها ؟ فقال فى تشنج مزعج : ابنتى الطائشة ، هربت منى ، وعقدت قرانها على ابن فلان ، دون أن أعلم ، وواصلت الضجيج ، فجعل الناس يصبرونها ، ويقولون الزوج شاب مستقيم فلا تفزعى ، ورجعت إلى المنزل دون أن أشهد هذا الموقف ، فقالت لى والدتى رحمها الله اذهب يا بنى إلى فلانة ، فصبرها وطيب خاطرها أنت طالب فى الأزهر وتعرف تتكلم مع مجروحة وأطعت أمى ، وذهبت ، فوجدت الجارة متماسكة طبيعية لا يوجد فى ملامحها بعض ما يدل على الفجيعة ، فبدأت أقول يا خالتى (كل امرأة فى سن والدتك فى الريف النبيل هى خالتك) ابنتك تزوجت على سنة الله ، ولم تعمل شيئا يغضب الله ، فلم تغضبين وتفزعين ؟ ففوجئت بها تقول : أعرف ذلك تماما ، ولكن أولاد الحرام من حولى سيملأون البيت ويقولون : بنت قليلة الأدب . بنت عديمة التربية ، ماشية على حل شعرها ، فأردت أن أقطع لسانهم ، وأستريح من شرهم بما صنعت ، والحمد لله انقطع (الواغش) ولم يأت إلا من يصبرنى ويقول مثلك : تزوجت على سنة الله ورسوله !! وقد سعدت بحديثها وخرجت مسرورا ، أقول فى نفسى : ويل الناس من الناس ! ولم أكن حفظت بعد قول الشاعر :

وما ساءنى إلا الذين عرفتهم
جزى الله خيرا كل من لست أعرف

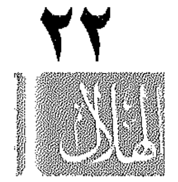
■



مجلة الهلال بين الورق والإليكترون

بقلم
د. أحمد محمد صالح

هل سيأتى يوم تنقرض فيه مجلة الهلال فى صورتها الورقية المطبوعة أمام تنامى وجودها فى وسائط إليكترونية متعددة سواء فى اسطوانات رقمية أو موقع أرشيفى على الإنترنت؟! بداية لا أعتقد ذلك، والدليل أن الإحصائيات العالمية تؤكد على أن المجلات الثقافية الرقمية تزداد توزيعا فى الأسواق التى تعرف انتشارا كبيرا للإنترنت والمنتجات الثقافية الرقمية كالسوق الأمريكية والأسواق الأوربية والتى يفترض أن تتراجع فيها المطبوعات الورقية، لكن هذا لم يحصل فالمجلات الورقية آخذة فى الازدياد والانتشار بتناسب مع تنامى المجلات المتعددة الوسائط، مع التأكيد على أن المجلات



بصدور الأسطوانة الرقمية الأولى

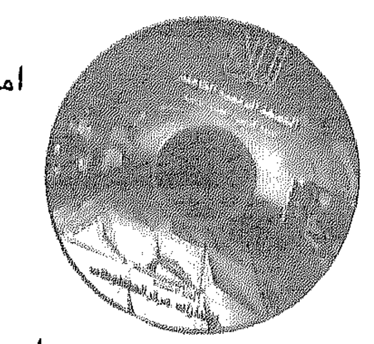
الثقافية التى لن تساير التكنولوجيا، هى التى ستنقرض! لكن ماذا عن بعد غد؟ كيف ستتكيف مؤسسة مثل مؤسسة دار الهلال العريقة مع العالم القرمى والتكنولوجيا الجديدة التى تشكل تحديات يومية لكل الأفكار القديمة؟! ماهو التحول الذى على وشك الحدوث لمجلة موغلة فى التاريخ مثل مجلة الهلال؟

وبالفعل هناك تطورات كافية فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لتجعلنا نتساءل عن مصير الورق ورائحة حبر الطباعة، بل تجعلنا نتساءل عن مصير مؤسسة دار الهلال نفسها ذات المبنى الفيكتورى التى لا تملك حتى الآن موقعا لنفسها على شبكة الإنترنت؟!

وعندما قرأت خبر صدور الأسطوانة الرقمية الأولى لمجلة الهلال، وبحكم اهتماماتى الأكاديمية والثقافية شغلتنى تساؤلات عديدة، أطرحها على إدارة وقراء الهلال، لعلنا نصل الى أفضل توظيف للصورة الرقمية لمجلة الهلال .

خصائص النسخة الرقمية

وبداية ما هى المجلة الرقمية؟ المفروض أن تظهر الصورة الرقمية الجديدة لمجلة الهلال فى نفس صورتها المطبوعة ورقيا بنفس التصميم، والنص، والصور، والغلاف، حتى الإعلانات بحيث يتوفر للقارئ خبرة قراءة شبيهة بالورق ولها نفس الملمس! ولكنها تتميز عنها بعدة مزايا: توفر برنامج قارئ خاص بها يتميز بامكانيات أرشيفية كبيرة مثل البحث عن كلمة أو موضوع، أو اسم الكاتب، أو عناوين المقالات فى ثوانٍ، إمكانية طباعة أى صفحة ترغبها،



امكانية توظيف الانترنت كمنصة تنطلق منها مجلة الهلال فى صورتها الرقمية، ووقتها يمكن للقارئ ان يتسلم أوتوماتيكيا موضوعاته المفضلة مباشرة الى جهاز الكمبيوتر الخاص به عبر الإنترنت، أو من خلال بريده الإليكترونى اذا كان له اشتراك فى النسخة الرقمية، علاوة على القدرة على قراءة المجلة فى أى وقت، وفى أى مكان، حتى لو كان القارئ غير متصل بالإنترنت، من خلال الأسطوانة الرقمية، أو من خلال النسخة التى نزلها القارئ من الإنترنت، أو تسلمها عبر بريده الاليكترونى، قدرة فهرس المجلة القائم على النصوص الاليكترونية المتشعبة hy-pertext أن يوصلك مباشرة الى مقالك المفضل، وأيضا عندما تتوفر تلك النصوص المتشعبة في متن المجلة معناها انها ستوصلك لارتباطات جديدة فى نفس موضوع السياق، إمكانية التواصل والتفاعل مع كتاب الهلال خلال ميزة التعليق الفورى المتوفرة فى نهاية كل مقال، أو من خلال البريد الإليكترونى، مع امكانية الارسال الفورى لمقالك أو موضوعك المفضل الى أصدقائك عبر الإيميل، القدرة على ابراز النص والاضافة بملاحظاتك على صفحات المجلة، حفظ ارشيفى اليكترونى على كمبيوترك الشخص للمراجعة السريعة والتخزين السهل، علاوة على وجود النسخة الرقمية للهلال على الانترنت يوسع بشكل كبير قاعدة قرائها على مستوى العالم من الناطقين بالعربية خاصة من الشباب. والسؤال الآن هل ستتوافر فى النسخة الرقمية للمجلة كل تلك المزايا أم سيتم حفظها رقميا كمادة تراثية للباحثين ، مجرد وثيقة وليس اكثر من ذلك؟؟

وهذه التساؤلات توصلنا لموضوع عجالة هذا العدد وهو يتركز فى سؤالين: ماهى الفرص التى تتوفر امام المجلات الرقمية لتصبح واقعا؟ والسؤال الثانى ماذا يقرأ الناس وهم على الخط فى شبكة الانترنت؟!

فرص وتحديات المجلات الرقمية

الناشرون فى العالم، ومنذ أول مجلة رقمية، وهم يفكرون فى الكيفية التى يتم بها تسليم المجلات الرقمية للقراء اليكترونيا! لكن هذا الحلم يحتاج سنوات من التطور التكنولوجى، وتوسيع قاعدة مستخدمى الانترنت للوصول الى نقطة تبدو فيها المجلات الرقمية خيارا ناجحا، والآن يتم تسويق نظم اليكترونية جديدة تستخدم فى الانترنت لإرسال النسخ الرقمية الدقيقة للمجلات متضمنة كل المواد التحريرية من اعلانات وافتتاحيات ومقالات. ويقوم رواد الناشرون الآن بالوثبة الرقمية فى طباعة المجلات. ومثل اى تقنية جديدة تواجه المجلات الرقمية تحديات متعددة منها الحاجة لقياس

قدرة السوق الاستيعابية وترتيب أولوياته، ونموذجة الأعمال المناسبة لتسويق النسخ المطبوعة والنسخ الرقمية بطريقة فورية. هذا وتسبب حقوق النشر وقضايا التحويل من الصورة الورقية للصورة الرقمية الكثير من التعطيل والتوقف المؤقت لبعض الناشرين المهتمين. وبالفعل اشتركت تشكيلة من الناشرين الكبار فى العالم مع عدد متزايد من موزعى المطبوعات الإليكترونية، وبدأوا بالفعل فى عرض النسخ الرقمية للمجلات على القراء منذ عام ٢٠٠١ ، ونجحوا فى التسليم الإليكترونى الفورى للمجلات الرقمية الى أى مكان فى العالم بتكلفة اقل من التوزيع البريدى العادى، وبدون ورق! ويقول الناشرون الذى التزموا بنشر التكنولوجيا الرقمية إنهم يشعرون أن جودة الصورة فى المجلات الرقمية قد وصل أخيرا إلى المستوى الذى يطلبه القراء، واعتبروها من أهم عوامل مصداقية المجلات الرقمية. ويقول بينلوب موسيى أبيرناثى Pene-lope Muse Abernathy رئيس مجموعة النشر بكلية إدارة الأعمال فى جامعة هارفارد، والذى بدأ فى عرض النسخة الرقمية لمجلة هارفارد بزنس فى وقت متأخر من يونيه عام ٢٠٠١ ، ثم فتح الاشتراكات فيها فى سبتمبر من نفس الطابع والملمس للنسخة الورقية. حتى الناشرين غير الجاهزين حتى الآن فى اصدار وتجريب النسخ الرقمية يقولون إنهم ينبهرون بتلك التقنيات، ويعتقدون إن لها تأثيراً مستقبليا هاماً على نماذج النشر، وتطوره الى الأفضل، ومعظم الناشرين الذين تعاقدوا فعلا على إصدار النسخ الرقمية أو الجادين فى ذلك يعتبرون الاختيار الرقمى مثل عامل الوقت من المقومات المهمة للتوزيع على مستوى العالم . ومع سهولة توظيف المجلات الرقمية فى تطبيقات الويب المختلفة، نجد معظم المتبنين الأوائل لقراءتها من القراء الأذكياء المهتمين بالأعمال والتسويق، ومحترفى الكمبيوتر والإنترنت. وإذا كانت التكلفة الفورية، وانتهاز الوقت المناسب من محددات التسويق الدولى للمجلات الرقمية، فمن الواضح أن هناك تحديات كثيرة أمام المطبوعات الرقمية منها، إمكانيات التسويق، وتكاليف التوزيع، لكن هناك الكثير من مشاكل التوزيع تستطيع النسخ الرقمية التغلب عليها : حيث يكون التسليم ليس فقط مباشراً وفورياً بل اكثر مصداقية وثقة خاصة التوزيع الدولى، ومن خلال النسخ الرقمية يستطيع الناشرون ان يصلوا الى مناطق كان من الصعب ان تصل اليها النسخ المطبوعة الورقية سواء كان ذلك بسبب ارتفاع التكلفة او بسبب الحظر السياسى أو الفكرى على المطبوعة. توفير فرص توليد مشتركين جدد على مستوى العالم من خلال القدرة على تسويق اصدارات المجلة المتداولة حاليا او تلك المحفوظة ارشيفيا، مع فرصة



البحث والوصول للإصدارات المرغوبة من خلال البحث عن كلماتها المفتاح، القدرة على التحكم في عمليات التسويق والاستعمال، فالناشرين يمكن أن يعرضوا اى عدد من الإصدارات التجريبية، ويستطيعوا العودة والاتصال بالمشترين وتسجيل رغباتهم، وبعد هذا الاستعراض الموجز لفرص النسخ الرقمية للمطبوعات الورقية، يصبح السؤال الملح ماهى أنماط القراءة للمطبوعات الرقمية؟

ماذا يقرأ الناس على الشبكة

فى دراسة مثيرة وحديثة نشرت فى عدد يولية ٢٠٠٤ من مجلة (SURL) . وهى مجلة علمية عن موقع فى الإنترنت له نفس الاسم يهتم بأبحاث التأثيرات والتفاعلات المختلفة بين الانسان والكمبيوتر، وتحت عنوان الورق او شاشة الكمبيوتر: ماذا يقرأ الناس على الشبكة تناولت الدراسة عادات القراءة بين مستعملى الانترنت عبر خمسة انماط من الوثائق وهى: المقالات الصحفية، الأخبار، الأخبار المتخصصة، الآداب، المعلومات عن المنتجات المختلفة. ومن خلال مسح بين مستعملى الانترنت أوضحوا فيه كيف يقرأون تلك الوثائق هل تقرأ فى صورتها الورقية أو تقرأ على الخط فى الانترنت ، اتضح ان المقالات الصحفية والثقافية تقرأ عادة فى صورتها المطبوعة ورقيا، بينما وثائق مثل الأخبار، أو الأخبار المتخصصة، أو المعلومات عن المنتجات عادة ما تقرأ بشكل رئيسى فى صورتها الرقمية وهى على الخط. وأوضح المستخدمون انهم يميلون لاستخدام مصادر الشبكة لقراءة الأدب. وبداية تبين أن العوامل الرئيسية التى تحدد كون الوثيقة تقرأ فى صورتها الورقية أو تقرأ فى صورتها الرقمية على الخط هى : حجم الوثيقة، مدى أهميتها، الهدف المقصود من الوثيقة. ويلاحظ التزايد التدريجى المنتظم لعدد المكتبات والمواقع فى الشبكة التى تعرض على الخط حرية الوصول للكتب والمراجع الدراسية، والصحف، والاخبار، والمعلومات العامة. ووصل عدد الدارسين على الخط من خلال التعليم من على بعد المعتمد على المراجع والمواد الدراسية العلى الخط الى حوالى ٢.٢ مليون فى عام ٢٠٠٣ فى امريكا وحدها. وفى أبريل من عام ٢٠٠٣ كانت هناك ١٤٨ جريدة ومجلة من أصل ١٥٠ جريدة ومجلة تعتبر الأكثر رواجا فى امريكا موجودة على الشبكة، علاوة على ان الجامعات هناك تقدم أكثر من عشرة امثال الصحف الغلى الخط، كصحف مطبوعة؟! طبعا لا وجه للمقارنة بين تلك الارقام والأرقام العربية التى لا تذكر، لكنها تعطينا مؤشراً على مستقبل وانتشار المطبوعات الرقمية فى العالم المتقدم. ووصلت صفحات الانترنت التى تفيض بالمقالات

والأخبار والمعلومات والمراجع الرقمية بالمليارات، فبوابة البحث الأشهر فى العالم الآن وهى بوابة جوجل كان فى امكانها ان تبحث عصر يوم ١٧ مارس عام ٢٠٠٥ اثناء كتابة تلك العجالة فى حوالى ٨ مليار وثيقة على الانترنت، وان شئت الدقة كانت تبحث فى ٨,٠٥٨,٠٤٤,٦٥١ صفحة، وموقع مثل : www. eastoftheweb. com يضم اكثر من ١٥٠٠ قصة قصيرة من الأدب العالمى متاحة للقراءة من قبل رواد الشبكة، وأن موقعا واحدا يديره شخص واحد (Books Page The On-line) يضم أكثر من ٥٠٠٠ كتاب، ويعرض العديد من الأعمال الكلاسيكية الضخمة، مثل «الحرب والسلام» و«اناكارنيننا» و«الجريمة والعقاب» و«الأخوة كرامازوف» و«قصة مدينتين»، وحتى ندرك مدى ضخامة هذه الأعمال. علينا أن نتذكر أن رواية «الحرب والسلام» لا تعتبر فى تقدير العديد من النقاد أهم روايات الأدب الواقعى على الاطلاق، ولكنها من أضخم الروايات حجما، أيضا. إذ يزيد عدد صفحاتها فى سلسلة مطبوعات Penguin المعروفة بصغر حجم الخط وضيق المسافة بين السطور على ١٠٠٠ صفحة. وهذا يعنى أن المطبوعات الرقمية الموجودة على الانترنت ليست بالأعمال الصغيرة أو الهامشية، ولكنها نخبة من أهم منتجات الفكر الإنسانى. وفى تقرير نشر عام ٢٠٠٣ فى مجلة جمعية المكتبة الطبية اتضح فيها ان دراسات كثيرة وجدت ان المهنيين فى المجال الطبى يفضلون للوصول الى الوثائق خاصة المجلات الأكاديمية على الشبكة باستخدام قواعد البيانات «العلى الخط»، وأنهم يفضلون قراءة النص كاملاً على الشبكة، أو يطبعونه للقراءة. وقرر هؤلاء المهنيون انهم يقضون كل أسبوع فى المتوسط ٤,٤ ساعة فى قراءة مقالات تلك المجلات على الشبكة، وأعلنت مكتبات جامعية كثيرة عن تدهور وتراجع فى قراءة المجلات والصحف الأكاديمية المطبوعة، حيث يتزايد قراء النص الكامل على الشبكة، وبالرغم من الزيادة الظاهرة فى القراءة على الشبكة، قرر مستخدمون كثيرون أنهم يستعملون الطابعة الشخصية لطبع القطع والمقالات من على الشبكة للقراءة. ونفس الاتجاهات المتشابهة تقريبا تظهر فى المهن الأخرى، فقد قرر ٩٦٪ من الباحثين فى الجامعات وطلاب الأبحاث أنهم يحددون المقالات المطلوب قراءتها من خلال الويب، والغالبية منهم تفضل قراءة استخلاصية سريعة للمقال على الشبكة، ثم طباعته على الورق للقراءة الفاحصة، لكن القليل منهم حوالى ٣٪ قرروا ان يقرأوا المقال بالكامل على الشبكة. وتنوعت أسباب عدم قراءة الوثائق على الشبكة حيث بينت الدراسات ان المستخدمين يجدون صعوبة فى الابحار على الشبكة والبحث



عن الوثائق، وفضلوا الصورة الورقية الملموسة للوثائق، ومن الأسباب الأخرى بطء سرعة القراءة على الشاشة، وصعوبة الاستيعاب والفهم، وزيادة الارهاق، صعوبة قراءة الوثيقة فى اى مكان، تفضيل المواد المطبوعة ورقيا، الجرافيك يكون افضل وهو مطبوع على الورق ، الوثيقة الورقية لها قابلية للحركة والانتقال، ولها قدرة على ابراز فقرات معينة، الاحتفاظ بالشكل والتنسيق الاصلى للوثيقة، الجداول فيها مقروءة اكثر. اما عن أسباب تفضيل قراءة المطبوعات فى صورتها الرقمية على الشبكة هى : السرعة، السهولة فى تحديد ما يقرأ، امكانية الوصول طوال ٢٤ ساعة، تكلفة منخفضة، امكانية الوصول من اى مكان من المكتب المنزل للوثيقة، توفر الفاعلية، والملاءمة والراحة.

عادات وأنماط

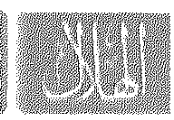
أما عن عادات وانماط قراءة الوثائق الرقمية وهى على الشبكة: ففى دراسة جمعت بياناتها عن طريق البريد الإليكترونى، بين الطلبة المسجلين فى مقررات متنوعة بجامعة كليمسون بالولايات المتحدة الامريكية، وكان مجموعة المبحوثين ٣٣٠ مبحوثا منهم ٢٢١ اناثاً و١٠٩ ذكورا، تراوحت اعمارهم بين ١٨ الى ٧٣ عاما بمتوسط ٣٣ عاما. كان المشاركون من تشكيلة مهن متنوعة ؛ (٣٦.٤٪) طلبة (١٤.٢٪) يعملون فى مجال التكنولوجيا، (١٢.١٪) فى قطاع التعليم ، (٠.٢) فى مهن حرة، (٤.٨٪) ربات البيت ، (٤.٢٪) مسئولين اداريين، (٣.٣٪) مهن طبية، وأخرى (١٩.٨٪) . وأيضا كان بين المشاركين ٤١.٢٪ حصلوا على شهادات جامعية ودراسات عليا، و٤٧٪ كان تعليمهم قبل الجامعى. وقرر اكثر من ٤٩٪ انهم يقرأون على الخط لمدة تتروح بين ٢ - ٦ ساعات كل أسبوع ، و١٣٪ يقرأون على الخط من ٧ - ١٤ ساعة كل أسبوع، وتقريبا ٧٪ يقضون اكثر من ١٥ ساعة اسبوعيا للقراءة من على الشبكة. وعندما سئلوا عن مدى راحتهم عند تحديد المعلومات المطلوب قراءتها على الانترنت، أجاب ٦١.٨٪ منهم أنهم مرتاحين جدا. وعن عادات القراءة على الشبكة اتضح الآتى من الجدول بالصفحة المقابلة :

لوحظ أن غالبية المبحوثين (٦٥٪ - ٧٣٪) يفضلون قراءة الأخبار العامة ، والأخبار المتخصصة، والمعلومات عن المنتجات المختلفة من على الشبكة مباشرة، والغالبية منهم حوالى ٧٠٪ لم تفضل قراءة المقالات الصحفية والأكاديمية من على الشبكة مباشرة بل طباعتها على الورق ثم قراءتها ، وفضل نفس الشيء ٢٥٪ منها فيما يتعلق بقراءة الأدب (مثل الكتب والقصص

القصيرة) فى حين أكثر من نصفهم ٥٦٪ فضل عدم استخدام الشبكة كمصدر للإطلاع الأدبى، وحوالى نصفهم (٤٨٪) فضلوا الفحص والتمعن فى المقالات الصحفية والاكاديمية على الشبكة أولا ثم طباعتها على الورق لقراءة التفاصيل، واتضح من النتائج الميل للقراءة على الورق، وتبرز النتائج ايضا ان طبيعة الوثيقة عامل محدد للقراءة من على الشبكة او القراءة من على الورق، ولم تختبر تلك الدراسة عامل السن والمهنة والتعليم، حيث اظهرت دراسات أخرى ان الشباب مثلا اميل للقراءة الرقمية، وأصحاب المهن الطبية اميل للقراءة من على الشبكة. ونرجع مرة اخرى للدراسة الأمريكية التى قد تعطينا علامات نستفيد منها فى ظروفنا العربية التى قطعا تختلف عن ظروفهم، لكن لغياب الدراسات العربية فى هذا المجال، نزعم ان نتائج تلك الدراسات العربية فى هذا المجال، نزعم ان نتائج تلك الدراسة تعطينا مؤشرات تساعد دور النشر العربية عندما تتخذ قرار الاصدارات الرقمية، حيث تكشف الدراسة وتحلل العوامل الرئيسية المؤثرة فى اتخاذ قرار طباعة الوثيقة على الورق ثم قراءتها او قراءتها مباشرة على الخط سواء من الشبكة او من الاسطوانة الرقمية، وفيما يتعلق بالعوامل المحددة لقراءة الوثيقة فى صورتها الرقمية من على الشبكة كانت على الترتيب حسب أهميتها هى : حجم الوثيقة، مدى الأهمية والاهتمام بالوثيقة، الغرض من الوثيقة، مدى جودة الوثيقة،والراحة، القدرة على الابحار فى الانترنت، واخيرا نوع المعلومات المطلوبة. اما عن العوامل المحددة لقراءة الوثيقة فى صورتها

عادات القراءة	المقالات الصحفية والاكاديمية	الأخبار	الأدب	الأخبار المتخصصة	معلومات عن المنتجات
١ - قراءة علي الشبكة فقط	٢٠.٣٪	٦٨.٢٪	١٨.٥٪	٧٢.٧٪	٦٤.٨٪
٢ - طباعة الوثيقة علي الورق فقط للقراءة	٧.٣٪	٢.٤٪	٩.٤٪	٠.٩٪	٠.٦٪
٣ - قراءة الوثيقة علي الشبكة أولا ثم طباعاتها علي الورق ثانيا للقراءة	١٥.٢٪	١٠٪	٣.٦٪	٤.٢٪	١٧.٦٪
٤ - الفحص والتمعن في الوثيقة علي الشبكة اولا ثم طباعتها علي الورق لقراءة التفاصيل	٤٧و٩٪	١١.٨٪	١٢.٤٪	٦.٧٪	١١.٨٪
٥ - عدم استخدام الشبكة في قراءة هذا النوع من الوثائق	٩.٤٪	٧.٦٪	٥٦.١٪	١٥.٥٪	٥.٢٪

الورقية كانت على الترتيب حسب أهميتها هى : الحجم، أهمية الوثيقة، الحاجة لها كمرجع مستقبلى، الغرض من الوثيقة،القدرة على التعليق وابراز نقاط معينة فى الوثيقة، مدى تعقيد الوثيقة، مدى الراحة والوضوح فى القراءة واخيرالقابلية للنقل والحركة، وعند تحاليل تلك العوامل، ظهر أن عامل حجم الوثيقة سبب رئيسى فى اتخاذ قرار قراءة الوثيقة من على الشبكة أو قراءتها بعد طباعتها على الورق، واتضح ان غالبية المبحوثين يطبعون الوثائق الطويلة، بينما يقرأون الوثائق القصيرة التى تترواح بين (١ - ٥ صفحة) من على الشاشة مباشرة، فالقصيرة اسهل قراءة على الخط. بالنسبة للغرض من الوثيقة اقر المبحوثون ان غرض واهمية الوثيقة عامل محدد اخر مهم، فاذا كان الغرض هو للبحث او التقديم والعرض، أو مساندة وتدعيم نقطة معينة فضل المبحوثين طباعتها على الورق للقراءة، واذا كانت الوثيقة بغرض الترفيه والتسالى، استحسن المبحوثين قراءتها على الشبكة مباشرة. بالنسبة لعامل مدى الشعور بالراحة اثناء الملاحة والابحار فى الانترنت ظهر أيضا كعامل رئيسى فى تقرير القراءة على الشبكة مباشرة، حيث كان المستبينون ميالين إلي ان يطبعوا الوثيقة اذا كان الابحار خلال الوثيقة صعبا، وايضا اذا كانت هناك صعوبات فى العودة للوثيقة من خلال الابحار فى الانترنت، واعتبروا ذلك نقطة سلبية فى القراءة الوثيقة على الشبكة، ومن ناحية عامل الملاءمة وهو السهولة والراحة فى تحديد وقراءة الوثيقة مع اختيار الوقت المناسب لذلك كان أيضا سببا رئيسيا فى تقرير القراءة على الشبكة ، حيث استحسن المشاركون على الشبكة مباشرة أن فى إمكانهم قراءتها فى أى وقت، واصبح تحديد الوثيقة المستهدفة اكثر فاعلية واسهل من الذهاب الى المكتبة او مخازن الكتب التى اصبح الذهاب لها غير ضرورى، ومن حيث جودة الوثيقة قرر العديد من الباحثين ان جودة الوثيقة عند استلامها على الشبكة فى شكلها الاليكترونى اذا كانت فقيرة تعتبر عائقاً لقراءتها على الخط، ويبحثون عن نسخة مطبوعة، اما عن درجة تعقيد الوثيقة ظهر كعامل محدد لقراءة الوثيقة فى صورتها المطبوعة الورقية، حيث فضل المشاركون قراءة الوثائق المعقدة علي الورق، حيث القدرة على ابراز وتحديد وعمل التعليقات وهى مميزات ايجابية للورق، وايضا القابلية فى نقل الوثيقة برزت كفائدة وميزة للمادة المطبوعة، علاوة على ملمس الورق فى اليد ورائحته التى تعطى الراحة فى قراءة الوثيقة وتعطى الثقة فيما يقرأ . وخرجت هذه الدراسة بأن

القارئ الذى يقصد الشبكة مستهدفا مادة بذاتها فإنه يفضل قراءة النص على الشبكة بدلا من الورق. وأشار ايضا المبحوثين أنمن طباعة الوثيقة تبنى اصلا على نوع الوثيقة والغرض المقرر لها، فبصفة خاصة الموضوعات الاكاديمية تطبع فى أغلب الأحوال خاصة اذا كانت كبيرة فى الحجم ومهمة للقارئ. والكثير من مواقع الأخبار على الشبكة **مثل** **CNN.COM BBC. COM** تعرض فى موقعها نسخ قابلة ومهيئة فى فورمات للطباعة. وتبين نتائج الدراسة أن هناك حاجة واضحة ان تكون المواد على الشبكة لها نسخ فى فورمات الطباعة حيث قرر حوالى ٧٠٪ من قراء المقالات الصحفية والاكاديمية طبع الوثيقة للقراءة على الورق، وهى نتائج تؤكدها دراسات أخرى. ونتائج هذه الدراسة تحمل دور النشر مسئولية العمل على جعل القراءة على الخط للنسخ الرقمية أكثر جودة وشعورا بالراحة، لأن من الأسباب الرئيسية لطباعة الوثيقة والحاجة لها كمرجع فى المستقبل ، والقدرة على ابراز النقاط الهامة والفرصة للتعليق على الورق، وهى كلها سمات قد لا تتوفر فى النسخ الرقمية، لكن برنامج مثل Adobe Acrobat وهو برنامج لقراءة الوثائق فى فورمات اقرب الى الفورمات الورقية، تتوفر فيه القدرة على تحديد وابراز النقاط الهامة، والتعليقات الجانبية والهوامش، ويستعمل هذا البرنامج على نطاق واسع، ويطبق على اللغة العربية أيضا، وهذا يدعونا للتساؤل عما يحمله المستقبل الرقمى للقراءة والكتابة.

وازعم فى نهاية العجالة ان غالبية قراء الهلال من الجيل الذى يتمتع بالقهوة وصحيفة الصباح كطقس يومى، ويحتفل بالهلال كل شهر على اريكة مريحة فى المساء؟! فإذا كنت عزيزى القارئ من تلك الأغلبية فلا تيأس من بعض المتنبئين الذين يعتقدون ان شكل الحبر الإليكترونى للأخبار والمجلات الثقافية سيحل محل جرائدنا اليومية ومجلاتنا الشهرية، فحتى مع طبعات الحبر الاليكترونى والاصدارات الرقمية مازالت الصحف فى الدول الغربية تقدم وتعرض فى نهاية الأسبوع الاهتمامات العامة، وقراءات لوقت الفراغ المحملة بفيض من الاعلانات واخبار التجارة والاقتصاد المعولم . وايضا قد تؤدى العولمة وعمليات الدمج التجارى الى ظهور اصدارات لجرائد يومية دولية بكافة لغات العالم تصل لسكان المعمورة فى نفس الوقت، فتخيل جريدة رقمية يومية يمكن ان تسلم الكترونيا، وهى تبدو مثل النسخة الورقية بالحبر العادى؟! ويقرأها أكثر من ٢٠٠ مليون قارئ كل صباح فى كل انحاء العالم؟! ■

ما خفى من أدب الرحلات

سياحة فى حياة

حسن أفندى العدل

١٨٦٢ - ١٩٠٤م

بقلم
د. محمد صابر عرب

نشرت صحيفة المؤيد فى ١٩ يونيه ١٩٠٤ تحت عنوان «إنما يعرف الفضل من الناس ذووه» نص خطاب من الأستاذ براون الأستاذ بجامعة كمبردج إلى مفتى الديار المصرية« الإمام محمد عبده » ينعى فيه موت الشيخ حسن توفيق العدل، الذى وافته المنية فى ٣ يونيو ١٩٠٤ وهو يؤدى عمله كمدرس للأدب العربى فى نفس الجامعة، ورسالة الأستاذ براون تشيد بما كان يتمتع به الشيخ حسن العدل، الذى لم يكن قد تجاوز الاثنين وأربعين عاماً وكان محبوباً بسبب علمه وفضله وذكائه وروحه الجميلة، وقد كتب الأستاذ براون عدة رسائل أخرى، واحدة إلى يعقوب باشا أرتين (وكيل المعارف) وأخرى إلى اللورد كرومر والثالثة إلى كل أصدقاء العدل وإلى المصريين جميعاً .



ويشير براون فى رسالته إلي مفتى الديار المصرية إلى أن الفقيد قد صلى عليه أصدقاؤه ومحبوه من المصريين والأتراك والهنود وغيرهم، وقد غسّل وكفن وفقاً للشريعة الإسلامية وقد قرأ عليه القرآن عبد الحق حامد مستشار السفارة العثمانية فى لندن.

لقد راحت الصحف المصرية

الشيخ حسن توفيق العدل

والإنجليزية تتابع نشر تفاصيل عن شخصية الفقيد وظروف وفاته، فبعد انتهاء أعمال الامتحانات وكان مكلفاً مع الدكتور براون بوضع درجات الامتحانات، وعقب يوم من العمل ركب دراجته للتنزه وكان حريصاً على ارتداء زيه الأزهرى، وعندما شعر بخفقان فى قلبه عاد إلى الجامعة التى استدعت الطبيب، ولم تمض أكثر من ساعة حتى قضى الفقيد نحبه، وعلى حد تعبير الدكتور إدوارد براون: «لقد اهتزت جوانب الجامعة من هول الصدمة، وحزن عليه كل من عرفه من الإنجليز والهنود والأتراك، وموته يعد خسارة للعلم وللإنسانية».

وبعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٨ يونيو ١٩٠٤ شيعت الجنازة من محطة مصر العمومية، حيث اصطفت عساكر سوارى الفرسان، ثم عساكر البيادة (المشاة) ثم طلبة دار العلوم، ثم طلبة مدرسة عثمان ماهر، ثم تلامذة مدرسة والدة عباس باشا الأول ثم النعش .

وتقدم المشيعين حسين فخرى باشا ناظر المعارف ويعقوب أرتين باشا وكيلها، ثم عائلة الفقيد وأصدقاؤه، حيث سارت الجنازة من محطة مصر فشارع باب الحديد وصولاً إلى عابدين ثم ميدان السيدة زينب، حيث أقيمت صلاة الجنازة، ثم حمل الفقيد على الأعناق إلى أن واراه التراب فى مدافن السيدة نفيسة .

فضل الشيخ

واللافت للنظر أن وزارة المعارف كانت عازمة على عودة الشيخ حسن العدل من انجلترا إلى القاهرة لكى يقدم خبرته لنظارة المعارف، وكان من المتوقع أن يعود بشكل نهائى عقب العام الدراسى (١٩٠٤)، وكان الأستاذ براون قد كتب إلى ناظر المعارف حسين فخرى باشا يرجوه ما أمكن أن يوافق على استمرار الشيخ حسن أفندى أكثر من السنتين اللتين

أمضاهما فى كمبردج، ويأمل الأستاذ براون أن يستجاب إلى مطلبه وهو أمر يطوق عنق رجال كمبردج نظراً لما للشيخ حسن العدل من فضل وعلم (على حد قول براون)

لقد كان الأستاذ براون يشعر بأن الجامعة سوف تخسر كثيراً إذا ما رحل الشيخ حسن لذا فقد بادر بالكتابة إلى اللورد كرومر طالباً منه أن يقوم بما لديه من علاقات مع الإدارة المصرية لكى توافق على استمرار الشيخ العدل أستاذاً للدراسات العربية بجامعة كمبردج، وأشار إلى مجموعة من الفضائل، من أهمها : «ما للشيخ حسن، العدل مما يعجز اللسان عن شرحه من توقد القريحة وسعة الإطلاع والجدل الذى لايتطرق إليه الملل، وما يملك من وسائل التعليم، حيث يخترع من أساليب التعلم ما يأخذ بالباب تلامذته ويصرف قلوبهم إليه، أما أخلاقه فى معاملاتهم فحدث عنها ولا حرج، فما خالط قوماً إلا انغرس فى نفوسهم حبه».

لم تكن إقامة حسن العدل فى بريطانيا وعمله فى كمبردج هى المرة الأولى للإقامة فى أوروبا فقد سبق له العمل فى برلين، التى وصلها عام ١٨٨٧م حيث عمل خمس سنوات معلماً ومتعلماً للدراسات العربية بمعهد الدراسات الشرقية ومتعلماً للثقافة الألمانية، التى أجاد لغتها وخالط أهلها وساح فى الولايات الألمانية والسويسرية حيث كتب أجمل وأروع ما يمكن أن يندرج تحت مسمى أدب الرحلات .

مهمة إشرافية

لقد كتب حسن العدل عن رحلته تحت عنوان : «رحلة حسن أفندى توفيق»، ولعل مما يلفت النظر للوهلة الأولى هذا التشابه بين مهمة الطهطاوى إلى باريس ومهمة حسن العدل إلى برلين فالأول ذهب رائداً وموجهاً لطلاب البعثة المصرية ففاق الجميع علماً ومعرفة ويقيت كتاباته بمثابة ومضة نور وضياء فى تاريخ الثقافة المصرية، أما الشيخ حسن العدل فقد اختارته نظارة المعارف المصرية معلماً للغة العربية وآدابها فى مدرسة برلين الشرقية عاصمة بروسيا وقتئذ، وقد أسند إليه الخديو توفيق إضافة إلى هذه المهمة القيام بالإشراف على طلاب البعثة التعليمية المصرية فى برلين، إضافة إلى عمله فى انجلترا، التى أقام فيها عامين أستاذاً للغة العربية وآدابها بجامعة كمبردج

واللافت للنظر فى القضية برمتها عدة أمور:

أولها : أن الشيخ حسن العدل لم يكتف بمهمته الرسمية كمدرس أولاً ثم كموجه للطلاب المصريين فى برلين ثانيا وإنما قدم الرجل خلال إقامته التى استغرقت خمس سنوات فى ألمانيا (١٨٩٨ - ١٨٩٢م) وعامين فى انجلترا

(١٩٠٢ - ١٩٠٤م) وقد قدم للمكتبة المصرية مجموعة من الأعمال العلمية والتربوية والثقافية شكلت أعظم نتاج علمي، لعل أهمها تاريخ آداب اللغة العربية، ووفق معلوماتي المتواضعة فهو يعد أقدم كتاب أرخ لتاريخ الأدب العربي، وهو يتتبع تاريخ اللغة العربية نشأة وتطوراً، وكذا تاريخ العلوم والمعارف التي ارتبطت بها، وقد كتب عنه الأستاذ براون منوهاً إلى أهمية ما كتبه الشيخ حسن باعتباره صاحب السبق الأول في تاريخ الأدب العربي .

كما عني الرجل بتربية الناشئة مستفيداً من تجربة الألمان التي أثرت في ثقافته تأثيراً كبيراً لدرجة أنه كتب كتاباً عن التربية الرياضية ١٨٩٥ وآخر في التربية أسماه «مرشد العائلات في تربية البنين والبنات» وهو يتوجه بهذا الكتاب إلى شريحة معينة من البنين والبنات حتى سن البلوغ وهي دراسة رائعة لعلها كانت الأولى من نوعها في الكتابات العربية .

كما كتب كتاباً آخر طبع على نفقة نظارة المعارف بعد وفاته أسماه «سياسة الفحول في تثقيف العقول» وهو غاية في الأهمية، ولعل أهم ما كتبه حسن العدل على الإطلاق رحلة حسن أفندي توفيق، حيث كتب عن تجربته في ألمانيا وسويسرا، دقيق الملاحظة، غزير المعرفة، مقدماً رحلته التي اتسمت بغزارة المعلومات وطرافتها أحياناً اعتقاداً منه أنه بهذا يؤدي واجباً وطنياً كبيراً، حينما يتيح لبني وطنه ممن لم تتوافر لهم فرصة السفر إلى هذه البلاد أن يقفوا على الحياة في ألمانيا من الناحية الاجتماعية والثقافية والسياسية، بل والجغرافية في صورة غاية في التشويق، ولا يتحرج الرجل من الحديث عن أشياء قد يتصور البعض أنها تقلل من شأنه، بل جاءت غاية في الصدق مع النفس وغاية في الصدق مع الواقع الاجتماعي والثقافي الذي يكتب عنه، كل ذلك والرجل متمسك بزيه الأزهري الذي كان يلفت نظر الأوروبيين إليه كثيراً، حتى بسمارك نفسه وهو في إحدى جولاته في شوارع برلين، فلم يجد الشيخ حسن غضاضة من النزول إلى الشارع لقراءة الحياة بكل جوانبها وإذا به وجهاً لوجه أمام بسمارك الذي بادره بالتحية وصفق الحضور تقديراً لمشاركة هذا الشرقي معهم في أفراحهم.

وعلى الرغم من كل ذلك فلم يلتفت أحد إلى أعمال هذا الرجل وخصوصاً في مجال الدراسات الأدبية، ويكفي أدب الرحلات فيما كتبه حسن العدل لكي

يكون قيمة ثقافية غاية فى الأهمية .

ولعل أمرا أخر قد ضاعف من تقديرى لتلك الحقبة المهمة من تاريخ مصر حينما عرض الشيخ حسن العدل على نظارة المعارف القيام برحلته وإعداد كتاب عنها يكون في متناول القراء ، وقد وافقت نظارة المعارف على هذه المهمة وقبلت أن تمول تكاليف رحلة الرجل أثناء سفره وإقامته فى الولايات الألمانية والسويسرية، وهى رسالة تقيم دليلاً واضحاً على أهمية الثقافة فى تلك الفترة وتقدير المسئولين لروادها .

ثانيها : لم يكن حسن العدل سواء فيما يقوم به من عمل رسمى كمدرس فى برلين أو كمبردج أو من أعمال أخرى كالسياحة وكتابة ملاحظاته أو غير ذلك من أعمال أنصبت فى مجملها حول التربية والثقافة، لم يكن فى كل ذلك إلا رجلاً غاية فى الوطنية مقدراً أهمية ما يقوم به من أعمال، واثقاً من أنه يقوم بوظيفته باعتباره ممثلاً لوطنه ورسولاً من قبل أمته،لذا فقد بقى حتى آخر لحظة وفياً لعاداته وتقاليده، حريصا على أن يقدم كل تجربته بمعناها الكبير لأبناء جلدته، لذا فقد راح يكتب فى كل المجالات، وقد اتسمت كتاباته فى جميع الحالات بالدقة وقوة الملاحظة وخفة الظل، والتركيز على الصورة بمعناها الواسع والمقارنة أحياناً بين العادات الشرقية والعادات العربية ومخالطة المجتمع بكل طبقاته، ولا يجد حرجاً من أن يذهب إلى القرى الألمانية مشاهداً مطلعاً على التجربة بمعناها المتسع وخصوصاً المدرسة الألمانية التى انبهر بها حسن العدل وتمنى أن يتخذ وطنه من المدرسة الألمانية نموذجاً وخصوصاً فى حرية البحث ودقة العملية التعليمية ونظامها وإقبال الطلاب على التعلم بطريقة مشوقة وكان يرى أن المدرسة المصرية تفتقد إلى كل هذه المقومات ..

ثالثها : عناية الدولة بالنابهين من أبنائها والعمل على فتح مجالات واسعة للمعرفة، حيث كان المناخ العام رغم ظروف الاحتلال يتيح قدراً لا بأس به من تحقيق الطموح اعتماداً على معيار أساسى هو الذكاء والنباهة رغم كثير من المحسوبيات لأبناء الكبار لكن كانت ثمة مساحة واسعة للمنافسة فى ظل تيار وطنى جارف يتزاحم من خلاله الشباب رغبة فى خدمة الوطن كل فى مجاله وكان حسن العدل نموذجاً لهذا التيار.

حياة ثرية

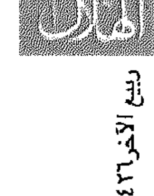
لقد كانت حياة حسن العدل رغم قصرها (٤٢ عاماً) حافلة بالثراء وخدمة الوطن فقد ولد عام ١٨٦٢ من أسرة متوسطة، حيث شغل والده عدة وظائف فى القضاء واختار لابنه (حسن) الأزهر وبعدها التحق بدار العلوم، حيث تخرج عام ١٨٨٧م وتعلم الفرنسية مثل كثير

من أقرانه وقتئذ، ثم عمل بالتدريس فى وزارة المعارف العمومية إلى أن أختير مبعوثاً لألمانيا (سبتمبر ١٨٨٧م) إلى أن عاد إلى مصر ١٨٩٢، وخلال هذه الفترة كتب معظم مؤلفاته، لعلم أهمها «وسائل البشر فى السياحة إلى إلمانيا وسويسرا، وسياحة الفحول فى تثقيف العقول، ثم تاريخ آداب اللغة العربية وأصول الكلمات العامية، وكانت رحلته الشهيرة والمسماة رحلة حسن أفندى توفيق من أهم أعماله وفيها قدم تجربته خلال إقامته فى ألمانيا وهى تجربة رائعة تتسم بالعمق وقوة الملاحظة والمشاعر المتقدة وطنية وانتماء للوطن فى كل خلجاته، نابضاً بالحب متطلعاً إلى تقدمه عازماً على خدمته، ويود لو أن مصر تصل إلى مبتغاها وغالباً ما يعبر عن حسرته وألمه وخصوصاً حينما يعقد مقارنة بين التعليم هنا وهناك أو حينما يرى الألمان وهم مقبلون علي أعمالهم فى حماس وسعادة وكثيراً ما كان يؤكد أن الأوطان لا تشيد إلا بسواعد أبنائها، لقد عاد الشيخ حسن العدل إلى القاهرة عام ١٨٩٢ لكى يواصل رسالته فى نظارة المعارف ناقلاً خبرته التعليمية وخصوصاً فى مجال الأساليب التربوية الحديثة منبهاً إلي أهمية تعليم البنات ليس فقط العلوم الإنسانية والتجريبية ولكن وضرورة العناية بالروح والنفس من خلال برامج رياضية تكون بمثابة جزء أساسى من برامج الدراسة، وقد قدم لنظارة المعارف العديد من الدراسات والبحوث التى أفادت التعليم كثيراً وقتئذ.

على الرغم من أن حسن العدل لم يتزوج ولم يترك بنات ولا وبنين إلا أنه ترك تجربة رائعة ونتاجاً فكرياً وثقافياً رائعاً فى حاجة إلى جمعه وإعادة دراسته ونشره وهى مهمة ثقافية فوق أنها وطنية لرجل كان نموذجاً فى كل شئ، لذا فقد أحبه الأجانب وكان موضع تقدير كل الجهات المعنية بالتعليم والثقافة فى مصر وقتئذ.

ولما قدم الدكتور براون إلى مصر وأقام بها أستاذاً فى دار العلوم اقترب من حسن العدل وعرف إمكاناته العلمية فى مجال اللغة والأدب والثقافة العربية لذا فقد اختاره للعمل أستاذاً بجامعة كمبردج التى سافر إليها فى أكتوبر ١٩٠٢ وقد ارتبط بالجامعة طلاباً وأساتذة، وأحبه الإنجليز والهنود والأتراك وكل الجنسيات التى ارتبطت بالجامعة وظل يعمل بها حتى فأجأته المنية وهو فى كامل صحته شباباً وحيوية مساء ٣ يونيو ١٩٠٤.

أعتقد أن جمع تراث حسن العدل ونشره يعد خدمة جليلة ليس لحسن العدل فقط وإنما للوطن الذى أنجب آلاف النابهين والبنائين فى كل موقع شريطة أن تتوافر المقومات المؤهلة لذلك .. ■



عصر الإرهاب..

أم عصر التخويف منه ؟

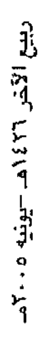
بقلم

د. جلال أمين

سأبدأ بتقرير حقيقة بسيطة، كلنا متفقون عليها، يعقبها سؤال بسيط، لا أعتقد أننا متفقون على إجابته.

الحقيقة البسيطة هى أننا نعيش فى عالم يزداد معدل عولمته يوما بعد يوم. وأقصد بمعدل العولمة المعدل الذى يجرى به تقصير المسافات الفاصلة بين سكان هذا العام، سواء كانت المسافات التى يقطعها انتقال السلع، أو الخدمات، أو الأشخاص، أو الأفكار والمشاعر، أو القيم وأساليب الحياة.

كل هذا يجرى تسهيله واختصار الجهد والوقت اللازمين له، يوما بعد يوم. هذه هى الحقيقة التى يبدو أننا متفقون عليها. أما السؤال الذى سوف نختلف حول إجابته فهو ما إذا كانت هذه الحقيقة «ارتفاع معدل العولمة» تؤدى إلى زيادة العنف أم نقصانه ؟!



لا أظن أن سبب اختلافنا في الإجابة على هذا السؤال هو اختلافنا حول تعريف العنف. فمن الممكن أن نتفق على تعريف العنف بأنه استخدام القوة لإجبار شخص آخر على شيء لا يريده.. من الممكن أن نتفق على هذا التعريف ونختلف، مع ذلك، حول ما إذا كانت العولمة تؤدى إلى مزيد من العنف أم تقلل منه.

سبب الاختلاف، فيما يبدو لى، أن العولمة «أو ارتفاع معدلها» تعمل فى نفس الوقت في اتجاهين متضادين: فى اتجاه زيادة العنف، وفي اتجاه تقليله فى نفس الوقت. ذلك أن تقريب الناس، بعضهم من بعض، قد يقوى أواصر المحبة بينهم، ولكنه قد يقوى كراهية بعضهم لبعض. قد يؤدى إلى انصهارهم فى أمة واحدة «أو قرية واحدة كما يقال» ولكنه قد يؤدى إلى نشوب الحرب بينهم. والأمثلة التى يمكن إعطاؤها على هذا لا نهاية لها. فالاستعمار، مثلا، هو بلاشك صورة من صور العولمة وهو نفسه عمل من أعمال العنف. ولكن من صور العولمة أيضا تدفق المعونات الأجنبية من دولة لأخرى، أو انتقال الاستثمارات الأجنبية، أو إرسال مواد غذائية عاجلة من أوربا إلى آسيا لانقاذ بعض ضحايا الفيضانات والسيول.. الخ.. كل هذه صور من صور العولمة، ولكنها ليست من صور العنف بل قد تكون نقيضه.

وانتشار التليفزيون فى مختلف أنحاء الكرة الأرضية ، هو طبعا صورة من صور ارتفاع معدل العولمة، والتليفزيون يزيد من درجة التعاطف بين الناس، ولكنه أيضا قد يزيد من حنقهم، ويغذى تطلعات استهلاكية من السهل أن تؤدى إلى العنف. بل إن مجرد غزو ثقافة لأخرى عن طريق التليفزيون يمكن جدا أن يقوى من دواعى العنف، إما لصد هذا الغزو الثقافى أو للانتقام منه.

والذى يفعله الرئيس بوش اليوم فى العراق، هو بالطبع صورة من صور ارتفاع معدل العولمة، وهو بالطبع من أعمال العنف، وإن كان هو يدعى أنه عمل من أعمال المحبة والإخاء البشرى.

أعتقد أنى أستطيع ان أقول باطمئنان إن نفس القول ينطبق، ليس فقط على العولمة بل على أى تطور تكنولوجى. فمن السهل أن نتبين أن أى تطور تكنولوجى، من اكتشاف كيفية إشعال النار، أو اختراع القوس والسهم لصيد الحيوان، إلى توليد الطاقة الذرية، ينطوى دائما على احتمالات للتحرير واحتمالات للقهر أو العنف. القوس والسهم ، بتسهيل الحصول على الغذاء يحرر الإنسان ويقلل بهذا من بعض صور العنف، ولكنه بتسهيل أنتصار قبيلة على أخرى

يسمح بصور أخرى من القهر والعنف. وكذلك بالطبع اكتشاف الطاقة الذرية.

إذا كان هذا شأن تاريخ التكنولوجيا فلا بد أن يكون هو أيضا شأن العولمة إذ إن ارتفاع معدل العولمة هو النتيجة الحتمية للتطور التكنولوجي.

ليس من الواضح لى إذن، عما إذا كانت العولمة تنطوى دائما على زيادة درجة العنف. ولكن الذى لا أشك فيه. وأعتقد أنكم ستتفقون معى فيه، هو أن ارتفاع معدل العولمة قد صحبه، خاصة فى الخمسين سنة الأخيرة، زيادة درجة **الخوف من العنف**.

ذلك أنى أريد أن أميز بين العنف وبين الخوف من العنف. بين الإرهاب وبين الخوف منه. وهما ليسا دائما متلازمين. إنى أستطيع أن أقتل دون أن أثير أى شعور بالخوف، ولكن بإمكانى أيضا أن أثير خوفا مستطيرا من الموت دون أن أقتل احدا. وأنا لا أعرف فى الحقيقة، ، أيهما افظع، ارتكاب العنف أو إثارة الخوف منه، ولكنى واثق من أننا نعيش فى عصر يسوده الخوف من العنف، وأن هذا الخوف من العنف يزداد يوما بعد يوم.

من أين أتت هذه الزيادة المفزعة فى الخوف من العنف؟ لا مفر من الاعتراف بأن العولمة مسئولة إلى حد كبير عن ذلك. فالعولمة، حتى عندما لا تزيد أعمال العنف، تزيد بلا شك من الخوف منه. ذلك أن الخوف يزيد للأسف ، و لا ينقص مع ازدياد درجة المعرفة، ويرتفع للأسف، ولا ينخفض بارتفاع القدرة على التخيل. والعولمة تزيد من معرفتنا، كما تقوى من قدرتنا على التخيل. انظر مثلا إلى الطفل الصغير الذى يسير فى الطريق العام ممسكا بيد أبيه أو أمه.. من الممكن جدا أن نتصور هذا الطفل وهو محصن تماما ضد أى خوف. لا يخاف السيارات، ولا من حادث اختطاف. ولا من اعتداء إرهابى .. الخ . ولكن الخوف كله يمكن ان يسيطر على الأب والأم. الأب أو الأم هما اللذان يسمعان عن حوادث الخطف المستمرة من التليفزيون ويقرآن عنها فى الصحف، وهما اللذان يستمعان إلى تصريحات مستمرة من بوش وكونداليزا رايس عن الإرهاب.

نحن للأسف نتعرض يوميا، بل فى كل لحظة ، لما من شأنه ان يبعث فينا الخوف من العنف. إذا لم نقرأ الصحف فى الصباح، سمعنا أخبار العنف من التليفزيون أو الراديو أو حصلنا عليها من شبكة الإنترنت. ثم نشاهد أفلام الجريمة والعنف فى نهاية اليوم. وبسبب العولمة لم تعد معلوماتنا مقصورة على أخبار الحى الذى نعيش فيه، أو البلد أو الدولة التى ننتمى



إليها، بل أصبحت تشتمل على أخبار العنف فى العالم كله. وبسبب التقدم الباهر فى التكنولوجيا لم تعد معلوماتنا مقصورة على مجرد قراءة الخبر أو السماع به، بل أصبحت تشمل أيضا صورة الخبر الثابتة والمتحركة، وأصبح من الممكن أن نرى صورة المجرم من كافة الزوايا، وأن نرى صور أبيه وأمه ونعرف كل شىء عن نشأته وتاريخ حياته .. الخ.

الذى حدث بسبب العولمة ليس بالضرورة زيادة أعمال العنف بل هو بكل تأكيد الزيادة أضعافا مضاعفة فى معرفتنا به وفى قدرتنا على تصوره وتخيله ، ومن ثم الزيادة أضعافا مضاعفة فى الخوف منه.

من المؤكد مثلا أن الخوف من حوادث اختطاف الأطفال فى أوربا قد زاد أضعافا مضاعفة فى الثلاثين سنة الأخيرة، وأصبح الآباء والأمهات يتخذون حيطة أكبر لحماية أطفالهم منه. ولكنى قرأت إحصاءات تدل على أن حوادث اختطاف الأطفال فى بريطانيا لم تزد خلال هذه الفترة بل انخفض عددها. ليس الاختطاف إذن هو الذى زاد بل الخوف منه ، ذلك ان وسائل الإعلام حريصة على نشر صور الإجرام والكلام عن وحشية المجرمين أكثر بكثير من حرصها على نشر إحصائيات الجرائم.

قد يقول البعض : فلنتفق على أن الخوف من العنف يزيد، وأن العولمة مسئولة عن زيادة هذا الخوف، ولكن أليس صحيحا أيضا أن العنف نفسه فى تزايد ، وأن العولمة مسئولة أيضا عن ذلك؟

هل تنكر أن أعمال الإرهاب الآن أكثر مما كانت منذ خمسين عاما؟ وهل تنكر أن العولمة أو سهولة التنقل من مكان لآخر. وتعرض بعض الثقافات والأمم للقهر من ثقافات أو أمم أخرى، يحفز بعض المنتمين إلى هذه الثقافات المقهورة على الرد أو الانتقام بأعمال العنف.؟

إنى بصراحة لست واثقا على الإطلاق من أن أعمال الإرهاب الآن، سواء كانت من أعمال الإرهاب المنظم، من دولة ضد دولة أخرى أو شعب آخر «كالذى يحدث الآن فى العراق مثلا من جانب الدولة الأمريكية، أو فى فلسطين على يد الدولة الإسرائيلية» ، ومن أعمال الإرهاب غير المنظم او الفردى «كالذى حدث فى نيويورك فى ١١ سبتمبر، أو من الفلسطينيين ضد الإسرائيليين ، أو من العراقيين ضد سلطات الاحتلال.. الخ»، لست واثقا من أن هذه الأعمال أكثر اليوم. أو أشد عنفا مما كانت أعمال الإرهاب فى الماضى. «خاصة إذا أخذنا نسبتها إلى عدد السكان وليس عددها المطلق». فالتاريخ مملوء بأعمال الإرهاب من النوعين، ولست واثقا على الإطلاق مما

إذا كانت أعمال التعذيب والقسوة فى القـــرون الوسطى فى أوربا ضـــد الخارجين عن الدين وأعمال الإرهاب التى مارسها المستعمرون الأوائل، أو الأواخر ضد شعوب البلاد المستعمرة كانت أقل عددا أو أكثر، أخف أو أشد قسوة ، مما نشاهده من أعمال الإرهاب اليوم. بل وحتى ما يحدث الآن فى العراق من أعمال العنف من الجانبين . لست واثقا من أنها أسوأ مثلا أو أشد قسوة مما حدث خلال الحربين العالميتين فى القرن الماضى.

بل إنى لست واثقا تماما حتى مما إذا كان الكثير من أعمال الإرهاب يقوم به إرهابيون حقيقيون بغرض الانتقام أو ايقاع الأذى بالضحية، أم انها أعمال ارتكبت خصيصا من أجل تخويف الناس ، إما لتسهيل حكمهم، ولتبرير أعمال معينة لم يكن من السهل تبريرها أولها الإرهاب.

هل هذا الخوف حتمي ؟

السؤال المهم الآن، هو ما إذا كان هذا الخوف المتزايد من العنف حتميا، أم من الممكن تجنبه وتلافيه؟

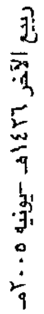
الإجابة تتوقف بالطبع على تفسيرنا لهذه الظاهرة . فإذا كان ما قلته صحيحا من أن ارتفاع معدل العولمة هو المسئول عن انتشار هذا الخوف من العنف، وإذا اتفقنا على أن تسارع معدل العولمة ظاهرة حتمية لا يمكن وقفها . فهل نستنتج من هذا أن هذه الظاهرة الفظيعة وهى انتشار وذيوع الخوف من العنف ، ظاهرة لا يمكن وقفها، أو وضع حد لها؟

إن إجابتى على هذا السؤال إجابة متشائمة ولكنها ليست بهذه الدرجة من التشاؤم.

نعم إنى أعتقد أن التقدم المستمر فى التكنولوجيا ظاهرة حتمية لا يمكن وقفها، وأعتقد أيضا أن التقدم التكنولوجى لابد أن يؤدى إلى مزيد من العولمة، ومن ثم فتسارع معدل العولمة هو أيضا فى رأيى ظاهرة حتمية لا يمكن وقفها. كما أعتقد ان ارتفاع معدل العولمة. بما يتيحه اتساع المعرفة وزيادة حجم المعلومات المتاحة، وتوسيع القدرة على التصور والتخيل يساعد أيضا على إشاعة المزيد من القلق والخوف من أعمال العنف . هناك مع هذا تحفظ واحد، هو الذى يحمل لنا، فى رأيى، بعض الأمل فى المستقبل.

هذا التحفظ هو أن تسارع معدل العولمة ليس هو وحده المسئول عن إشاعة كل هذا الخوف والقلق من العنف، بل إن المسئول الأول عن إشاعة كل هذا الخوف والقلق من العنف هو نوع معين من العلومة، وأقصد به تلك العولمة القائمة على مايمكن أن نسميه بثقافة أو حضارة السوق، أى ثقافة أو حضارة «البيع والشراء» العولمة قد تكون حتمية، ولكن حضارة البيع والشراء أو حضارة السوق ليست





حتمية، أو على الأقل أرجو ألا تكون كذلك.

لماذا أقول إن المسئول الأول عن إثارة كل هذا الخوف من أعمال العنف «والإرهاب» هو العولمة القائمة على حضارة البيع والشراء؟

أقول هذا لأن المستفيدين الحقيقيين من إشاعة كل هذا الخوف «بل وأكاد أقول المستفيدين الرئيسيين من انتشار أعمال العنف نفسها» هم في الأساس المستفيدون من حضارة البيع والشراء.

إني لا أقصد فقط الفكرة المعروفة من أن الاستعمار «الذي هو عمل من أعمال العنف» هو نفسه نتيجة لغلبة دواعي الربح التي تسود في ظل حضارة السوق، بل أقصد أشياء أكثر من هذا.

أقصد أولا أن الإنسان الخائف، والمتوتر باستمرار، والمتوقع لعمل إرهابي في كل لحظة، هو مستهلك مثالي. وهو أيضا عامل مطيع وموظف ذليل.

الإنسان الخائف مستهلك مثالي لأن السلع والخدمات، خاصة الكمالي منها، بديل ممتاز للطمأنينة والشعور بالأمن، إذن فنشر الخوف بين الناس أداة فعالة لتسويق السلع. والشخص الخائف هو أيضا عامل أو موظف ذليل ومطيع، ذلك أنه ليس فقط في حاجة مستمرة لكسب المزيد من المال لإشباع نهم مستمر إلى المزيد من السلع والخدمات، ولكنه أيضا شخص غير مطمئن على قدرته على الحصول على عمل آخر إذا فقد عمله الحالي، كما لو حدث مثلا وسيطر الإرهابيون على الحكم، ومن ثم فهو على استعداد لقبول أي شيء، بما في ذلك الأجر المنخفض وشروط العمل المجحفة، من نظام يعد بحمايته من الإرهاب.

لهذا السبب يبدو لي من الوسائل الفعالة لنشر الخوف من الإرهاب القول بأنه أحد الدوافع الرئيسية للإرهابيين حقدهم على نمط الحياة الأمريكية، وحسدهم للأمريكيين لما يتمتعون به من رفاهية العيش، مثل هذا القول يجعل الأمريكي ليس فقط يكره الإرهاب أكثر، ويخافه أكثر، بل ويجعله أيضا يتمسك أكثر وأكثر بما يتمتع به من سلع وبما يحصل عليه من أجر، ويجعله يذعن أكثر للنظام الذي يدعي حمايته من الإرهابيين.

* * *

الكاتب الصحفي المشهور توماس فريدمان، محرر الشئون الخارجية في جريدة النيويورك تايمز نشر منذ سنوات قليلة كتابا حظي برواج كبير، وترجم إلى العربية تحت عنوان «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون» «The Lexus and the Olive Tree» قال فيه شيئا، لو كان صحيحا، لكان على درجة كبيرة من

الأهمية فى موضوعنا هذا. قال إن أفضل طريقة لضمان تحقق السلام فى العلاقة بين دولتين، هى أن ينشأ فى كل منهما فرع من مطاعم ماكدولاند، ويقصد بذلك أن الحرب لايمكن أن تقوم بين بلدين لدى كل منهما مطعم ماكدولاند، وإن كان من الممكن جدا أن تقوم حرب بين بلدين ليس فيهما هذا المطعم، أو بين بلدين أحدهما فيه مطعم ماكدولاند، والآخر لايوجد فيه هذا المطعم!

هذا كلام فى صميم موضوعنا وليس فقط لأن معناه أن العولمة سوف تنشر روح السلام فى ربوع العالم، وتقلل من العنف، بل وأيضا أن العولمة فى صورتها الحالية وهى العولمة القائمة على حضارة البيع والشراء هى السبيل إلى تحقيق هذا الهدف العظيم وأنا أجد هذا الكلام طريفا ومسليا لأكثر من سبب:

السبب الأول: أن مجرد إدخال مطعم ماكدولاند فى بلد ما، قد يحتاج هو نفسه إلى استخدام قدر ليس يسيرا من العنف، وذلك إذا افترضنا أن هذا البلد كان يقاوم دخول مثل هذه المشروعات إلى أرضه، انظر مثلا إلى العراق، فدخول ماكدولاند إلى بغداد لم يكن أمرا سهلا قبل الغزو الأمريكى. وانظر أيضا إلى الاتحاد السوفييتى، حيث احتاج إدخال ماكدولاند إلى كثير من أعمال العنف لدرجة إسقاط نظام بأكمله.

والسبب الثانى: أن دخول مطعم ماكدولاند، حتى لو حدث سليما، يمكن أن يولد بعض أعمال العنف، إذا رأى فيه بعض الناس شيئا يهدد ثقافة البلد أو يمهد لإحلال نمط من أنماط الحياة محل النمط الأصلى.

والسبب الثالث: أن هذا الكلام الذى قاله توماس فريدمان يفترض أن سندوتش الماكدولاند الذى دخل إلى بلدين وأدى إلى تصالح أحدهما مع الآخر، وجعلهما يعيشان فى سلام، تنتجه نفس الشركة، إذ إننا لو افترضنا جدلا أن هناك شركتين لا شركة واحدة، دخلت إحداهما إلى أحد البلدين بسندوتش ماكدولاند، ودخلت الأخرى إلى البلد الآخر بماكدولاند «معدل» ومنافس، فمن الممكن جدا أن يؤدى هذا إلى عمل من أعمال العنف، ربما يصل إلى درجة الحرب، خاصة إذا كان كل سندوتش من السندوتشين ينتمى إلى دولة قوية، لها جيش كبير وجهاز مخابرات قوى، «إذ ما هى أسباب الحروب الحديثة أصلا، إلا أشياء كهذه؟».

* * *

قد يميل البعض، ومنهم توماس فريدمان نفسه وأمثاله، إلى الاعتقاد بأن عولمة الاستهلاك على هذا النحو، أو عولمة حضارة السوق، أو ثقافة البيع والشراء، أمر حتمى لا فرار منه، وأن

علينا قبوله طائعين، إذ أننا سنقبله لا محالة، طائعين أو مجبرين.

وأنا أرفض تصديق هذا القول «أى القول بأن عولمة حضارة السوق على النحو الذى نراه اليوم أمر حتمى لافرار منه».

ورفضى يدور حول الحقيقة الآتية: وهى أن*حضارة السوق نفسها «أو حضارة البيع والشراء» حضارة جديدة على الإنسان، ولا تمثل إلا جزءا صغيرا جدا من تاريخ البشرية، إن هذه الحضارة لايزيد عمرها على ثلاثة قرون «أو خمسة على أكثر تقدير» على حسب ما إذا كنا نعتبر بدايتها هى نشأة الرأسمالية الصناعية أو نشأة الرأسمالية التجارية. فلا أوروبا العصور الوسطى، ولا العالم الإسلامى فى نفس الوقت، كان يعرف مثل هذه الحضارة. «بل إن من الممكن أن نعتبر تسمية هذه العصور بالعصور الوسطى، هى نفسها نتيجة لنظرة بورجوازية، للتاريخ أى نظرة نابعة من حضارة السوق نفسها».

إنى لا أقصد بالطبع القول بأن أوربا فى العصور الوسطى أو العالم الإسلامى فى تلك العصور لم يعرفا البيع والشراء، بل لقد لعبت التجارة، خاصة فى العالم الإسلامى، دورا مهما فى نشر الحضارة الإسلامية نفسها، ولكنى أزعم أن كلتا الحضارتين لم تكونا مانسميه اليوم «بحضارة السوق»، أى أن دافع الربح لم يكن هو الدافع المسيطر على مختلف نواحى الحياة، كما هو اليوم.

حضارة السوق، وأقصد بها سيطرة عامل الربح على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لم تكن إذن هى الحضارة السائدة قبل القرون الثلاثة، أو الخمسة الأخيرة، فلماذا نفترض أن الإنسان محكوم عليه أن يظل أسير هذه الحضارة إلى الأبد؟.

على أى حال نحن نواجه الآن هذا التحدى العظيم: كيف نخلص العولمة من هذا الاشتباك المشئوم بينها وبين حضارة السوق؟ وأعتقد أن هذه هى المهمة الأساسية لمثقف هذا العصر، وهى المهمة الأساسية التى تجمع بين مثقفى هذا العصر، باختلاف جنسياتهم وأممهم.

هذه هى أيضا فى رأيى المهمة المشتركة الحقيقية بين المسلمين والأقباط فى مصر، فالتحدى الأساسى الذى يواجهنا هو تحد واحد، وهو مواجهة هذا النمط من العولمة القائم على حضارة السوق. ذلك أن الضرر الذى يصيبنا، مسلمين وأقباطا، هو ضرر واحد وذو طبيعة واحدة وبنفس القدر فما أجدرنا بأن نضم جهودنا للتصدى له. ■

وعى المجتمع والإرهاب

(فراغ جاهز للتفجر)

بقلم
د. يحيى الرخاوى

لكى يقتل إنسان شاب إنساناً آخرا لايعرفه أصلاً، لابد أن تتوافر ثلاثة شروط على الأقل (ربما فى طبقة أعمق من مستويات وعيه).

أولاً : أن يعتبر أن ضحيته ليست من نوعه (النوع البشرى «الخاص» !).

ثانياً : أن يكون القتيل شخصياً (أو بما يمثله)، مهدداً لوجود هذا الصبى القاتل (هو أو من يمثله).

ثالثاً: ألا تكون أمام هذا الصبى (أو الصبية) وسيلة أخرى للتعبير عن رعبه من الهلاك من جهة، وحرصه علي الحفاظ علي بقائه (أو بقاء نوعه الخاص) من جهة أخري.

فى دراسات العدوان عند الإنسان (بما فى ذلك الحروب الحديثة تحت أى عنوان) تعجب الدراسون مما تميز به عدوان البشر على بعضهم البعض دون سائر الأحياء، ذلك لأن النوع البشرى هو النوع الوحيد الذى يقتل بنى جنسه لأسباب غير بقائية أو غير تطورية يستوى فى ذلك السيد دبليو بوش وهو يفخر بفاعلية قنابلة الذكية، أو بؤساء شبابنا وهم يفجرون أنفسهم فى الأزهر أو السيدة عائشة أو من على كوبرى ٦ أكتوبر. لانريد أن نعمم القضية حتى لاتضيع ملامحها أو نتخلى عن مسئوليتنا. دعونا نتساءل: كيف وفرنا لهؤلاء الصبية هذه الشروط الثلاثة حتى حدث ماحدث وما سوف يحدث؟



في محاولة التقليل من الفزع من الأحداث الأخيرة، وفي نفس الوقت الاعتذار عنها، وربما تبريرها ارتفعت الأصوات تحجم آثارها وتقلل من دلالة الذى جرى، وهى تصف الحادثة بأنها: فردية، عائلية عشوائية، هذه الصفات الثلاثة هى هى التى تنبه إلى خطورة دلالة ماحدث، لأنها تؤكد كيف أنها النتاج «الطبيعى» لمناخ عام أفرزها، برغم أنها لم تصل فى تواترها وتكرارها إلى ما يسمى الظاهرة. إن جذور مانسميه التطرف فالإرهاب تمتد أساساً إلى بداية التعصب الذى يفصل فئة بذاتها عن جموع البشر وهى (هذه الفئة أو الفرقة) موهومة بالتميز أو التفوق أو التفرد، ناهيك عن احتكار الحقيقة، فالجنة ، مروراً بالوصاية على رحمة الله سبحانه وتعالى.

أساتذتي المرضى

أبدأ من البداية : من منطلق حرفى أساسا: علمنى مرضاى أننى لايمكن أن أحترم موقفهم إلا إذا وضعت نفسى موضعهم، وهو موضع صعب بحق، إذ كيف يمكن – مثلا – أن أتقمص من يعتقد أن ربنا سبحانه؟ لكن من يريد أن يتعاطى هذه المهنة بجدية مسئولة عليه أن يحاول كل ما هو صعب احتراماً لمرضاه، أملاً فى شفائهم مهما كان الثمن، من هذا المنطلق، ودون قصد واع، وجدتنى أمارس نفس النهج مع الأسوياء، وقد يظن القارىء أنها مسألة أسهل، لا، أبدا، فكثيرا ما أوقعنى ذلك فى الحرج، مع نفسى غالبا، ومع غيرى أحياناً، ثم من أين لى أن أزعم أننى نجحت فى تقمصهم مع احتمال أننى لا أفعل إلا أن أسقط عليهم تصورى عنهم؟

أدت بى هذه المراجعة إلى رفض فتعرية مايزعمه أغلبنا من ادعاء قبول الآخر، وقد كتبت فى ذلك مراراً منبها إلى ضرورة التفرقة بين الأساليب السطحية لما نسميه قبول الآخر (مثل (١)التفويت المبتسم (٢) التحمل الظاهرى و(٣) التأجيل المناور و(٤) الإنكار النعامى، وغيرها)، وبين عمق جدل وعى بشرى بذاته مع وعى بشرى آخر (لا مجرد الحوار والمناقشات). إن التمثيليات التى نقوم بها على صفحات الصحف، وفى ندوات حوارات الأديان، وأحياناً حوار الحضارات أو الثقافات، قد تكون مسئولة بشكل أو بآخر عن مزيد من نفى الآخر وليس قبوله، إننا لانستطيع أن نضحك على الوعى البشرى الأعمق من خلال تسويق كلمات حسنة النية ظاهرة الطيبة. علينا أن نتعرف بهدوء عن الفرق بين هذه النشاطات المعلنة، والخطب الرنانة وبين مايجرى فى حصص الدين، وداخل دور العبادة، ثم فى التجمعات الأصولية الأكثر عمى وحماسة، هو فرق شاسع. هذا

الفرق هو مسئول عن حالة النفاق التى وصلنا إليها، والتى تصل إلى عمق وعى أولادنا فلا يعودون يصدقوننا، ثم هم يتمادون فيما وصل إليهم من داخلنا حتى يلغون كل من ليس مثلهم (مثلنا) بما يترتب عليه من رعب من «الآخر المختلف»، وكأنه نوع آخر من الأحياء يهدد نوعى، وليس فقط فرقتى، ومن ثم تقفز ضرورة التخلص من هذا «الشىء» الغريب الذى أصبح - بإلغائه - خطراً على بقائى، نتخلص منه فرادى (بالإرهاب) أو جماعات (بالحروب).

ابني الكاتب، وطفلي العابث

هل يمكن أن نتصارح بحق ونحن نغوص فى جوهر المسألة لعلنا نتعرف على جذور عمق تعصبنا «الطبيعى»؟، لعلنا نقبله ثم نحترمه ، ثم نفهمه، ثم ننمو من خلال مايمكن أن يكون؟.

أبدأ هنا من موقف شخصى، اقتداءً بابنى محمد يحيى الرخاوى فيما نشره فى مجلة سطور مايو ٢٠٠٥، ليس فقط لإقرارى ماقال، وهو فى نفس الموضوع ، ولكن أيضاً فى محاولة التعرف على كيف وصله ما وصله من أب مثلى، وياترى هل وصل لإخوته مثل ذلك، كل بطريقته، وكيف نجحنا: أمه وأنا والمجتمع الصغير المحيط بنا أن نقلل مما كان يمكن أن ينتهى إليه من تعصب أو انغلاق. لاشك أننى عايشت هذه المشكلة التربوية بتحد حقيقى ليس بصفتى الحرفية أو الأكاديمية ، وإنما بصفتى أباً مسئولاً مع أمهم لا أكثر، ربما من هنا جاءت فرحتى بمقال محمد حتى استلهمته فى كتابتى ما أكتب الآن.

حين كنت أسافر للخارج ، وخاصة فى بلد لا أعرف لغتها أصلاً (أسبانيا مثلاً، أو إيطاليا) كنت أقف مشدوها أمام هؤلاء الناس الظرفاء، أو غير ذلك، وأتعجب كيف يفهمون بعضهم البعض بهذه السهولة مع أنى لا أفهم حرفاً مما ينطقونه، قلت لنفسى: حتى الأطفال هناك يفهمون أيضاً هذه اللغة الصعبة جداً، بدا لى هذا التساؤل غريباً لشخص يعمل مدرسا بالجامعة فى الطب النفسى، وممارسا يومياً لنفس التخصص، ثم إننى كنت فى منتصف العقد الرابع من عمرى. قدرت من هذه الدهشة الحقيقية أن طفلى بداخلى مازال نشطاً قادراً على مثل هذا التساؤل، وفى نوبة من نوبات هذه الفرحات الصغيرة، حضرنى خليط من الرجز (لاالشعر) تصورت أنه صادر عن هذا الطفل الشقى ولم أتردد فى تسجيله. صور لى خيال هذا الطفل بداخلى ثلة تمارس عكس ما وصلنى من دهشة فرحة، ثلة تحتكر الجنة والحقيقة معا دون تردد، فراح طفلى هذا يردد على لسانهم أغنية راقصة تقول:

«بالسيف حجزنا مقعدنا بدليل

شهادة مولدنا، فالدين الأوحد مذهبنا، و«الآخر وهم وغباء».

لعل طفلى كان يتعجب مثلى كيف أن شهادة الميلاد هى التى تسمح لهم - لنا - أن نحجز موقعاً فى الجنة دون غيرنا هكذا بمجرد مايثبته الوالدين فى تلك الشهادة (كما ذكر محمد فى سطور). لم يقف أمر عبث هذا الطفل الراجز عند ذلك، بل راح يكمل أن ما يدعم هذا التميز الموهوم، بفضل صدفة ما دونه الوالدان فى شهادة الميلاد، هو الانضمام التلقائى لأسرة تعيش نفس المصادفة، ثم الاحتماء بثلة أكبر فأكبر تعمق نفس الموقف، فمضى طفلى يكمل:

«الثلة قالت ماقلنا فتردد فى الصحن المغنى، وتمايلنا وتوجهنا: للجنة دون الأعداء.

ثم لايقف الأمر عند هذه الثللية الخاصة التى تتباهى بهذا الفخر الأبله، بل يتمادى الأمر إلى التدخل فى الوصاية على رحمة ربنا وجنته يحتلونها دون غيرهم: ولسان حالهم يقول «ما دمت مثلى (ولو بالصدفة) سوف آخذك معى إلى جنتنا دونهم»، هذا ما يصل لمثل هؤلاء الصبية من المفسرين سرا وعلانية دون الرجوع إلى رب العالمين، يمضى طفلى العابث فى تعرية هذا الموقف أيضاً:

«جاء التنزيل وقال اتبع، فتبعت النص وما أسمع، وتأرجح فى العقل المضجع... إلخ».

.. زودها هذا الطفل الشقى حبتين، لكننى حين تأملت العبارة الأخيرة تعجبت أن المضجع هو الذى يتأرجح داخل العقل، وليس العكس، هل كان يعنى ذلك الطفل بذلك المضجع الذى يترجح تلك السكينة المهدهدة المزعومة التى نحشرها فى عقول أطفالنا ونحن نوهمهم أنهم الأفضل والأصح، ثم يبدو أن تلك الحركة المترجحة الثابتة فى المحل داخل العقل هى التى تحل محل حركية العقل النامية الخلاقة؟. أظن أن ما أصاب شبابنا خاصة، ومجتمعنا عامة، هو نوع من التراخى العقلى حتى الشلل، يحدث هذا نتيجة لفرط التسليم المسبق من ناحية، ثم استغلالا لفراغ الوعى المتمادى من ناحية أخرى.

عقل الأطفال الصغير البسيط يعمل فى اتجاه صحيح، ونحن، بإصرار غبى خائف نروح نشوه فطرته بما نحشره فيها من مخاوفنا، ثم نذهب نهزه يميناً وشمالاً ونحن نهننه بأغنيات الفخر الزائفة، ثم نتفرج عليه مطمئنين لنجاح الخدعة الجماعية. هذا التمهيد والتفريغ والحشر والخداع هو الذى يؤدى إلى شلل التفكير إلا من نمو أفكار طفيلية حشرت حشراً بديلاً عن حركية الفطرة.

الشباب الأصغر أقل مرونة

علينا ألا نعجب بعد ذلك حين نفاجأ

بالفرقعات التي تحدث في فراغ الوعي/العقل، والتي تتجلى مفعلنة فيما نسميه إرهاباً (أو حروبا). لماذا يتزايد هذا الوضع (الفراغ المتفجر) في شبابنا الأصغر أكثر فأكثر هذه الأيام؟ كيف انتهت الأمور إلى أن تصبح عقول الأصغر أكثر فراغاً وأعجز نقداً من الأكبر فالأكبر؟ كثيراً مايأتي لعيادتي شابات محجبات وأمهاتن سافرات، وهن جميعاً فاضلات متدينات كبيرات وصغيرات ، لا أميل إلى تفسير ذلك بأن الجيل الجديد أصبح أكثر التزاما وتدينا، بل إني ألاحظ من واقع الحال أن الأصغر أصبح أقل مرونة، وأبلد تفكيراً، وأخطر فراغاً، لا أريد أن أعمم اتهام المحجبات الصغيرات بأنهن أقل تدينا، مع أن ذلك وارد في ملاحظاتي الإكيلينيكية، مثلا: حين أعطي بعض التعليمات (لا الأدعية) في خطوة من خطوات العلاج المعرفي، وأطلب من الصغيرة المحجبة أن ترددها بعد صلاة الصبح (أو الفجر) وبعد صلاة العشاء، فأفاجأ بأنها غير منتظمة على أداء الفروض، أو أنها لاتؤديها أصلاً!! أي والله. لم يعد هناك تناسب طردي حقيقي بين مظهر التدين وبين مدى الالتزام بالعبادات أو ترك المنكر يبدو أن طفلي الراجز قد لاحظ ذلك قبلي إذ مضى - من ورائي - يدندن:

«والمنكر يسري يتسحب ، أستغفر أسهو أستعذب ، والغير جهنم فتحسب ، لعذاب القبر ونار سقر» .

أكتشف سخريته ممن يستعذب المنكر وفي نفس الوقت يخص «الغير» بعذاب القبر ونار سقر.

عودة إلى العيادة مرة أخرى: حين تدعو أم مريض عندي لابنها بالشفاء أنبهها باسما أن الأفضل أن تعمم الدعاء أملا في استجابة أسرع، بأن تضيف لدعائها «هوه واللي زيه» فلا تتردد الأم الأكبر سنا في فعل ذلك، إلا أن الأصغر سنا يضفن من عندهن «هو والمسلمين»، فأوقفهن متسائلاً، و«النصارى بلاش يخفوا»؟ ماذا حدث للأصغر عندنا بالضبط، ماذا فعلنا بهم؟ وكيف الخلاص؟

حين انتبهت لعبث الطفل بداخلي، هذا الراجز الراقص، كنت أمسك بمذياع صغير ترانسستور، وكان إصبعي يعبث بمفاتيحه فأتذكر طريقتي الخاصة في كسر التعصب والانفتاح على العالم أثناء سفري للخارج، فيستيقظ في الشاعر رداً على رجز طفلي قائلا:

« ... غصبا صدفه لمست إصبعي المفتاح فسرت كلمات عجميه ، تنساب إلى عمق النبضه ، تنتزع السيف من الغمد ، تلتهم ظلام الرؤية ، يتبين خيطي من خيطي ، فيطل الفجر الأصدق ،

يجتمع السامر من أحباب الله، البيض السمر السود الحمر، البيذق والفرز ورخ الشاه».

يبدو أن طفلى قد فرح بهذا الحوار فراح يكمل راقصاً معى طالباً منى أن أعيد وكأننا فى حفل طروب، راح يغنى بدوره:

يافرحى هات من أول يا سعدى ماعدت الأوحد، ياأنسى بالناس الأبعد، يا رعبى من رغد مفرد».

هكذا تكسرت موجة التعصب المتشنج من خلال حوار صامت مع مذياع صغير»:

تنكسر الموجة تتفتر، تترنح من طعن مؤشر، تتقدم حور الأرض، يرتفع صرير المزلاج، يتراقص سهم الأفق يفتح وعى المرتجف الأعشى فيريه العالم: رؤية يقظان كالنائم: مذياعاً ملقى، فى حجم الكف، يجمعنا جمعا فى نفس الصف، تمطرنا الرحمة، والواحد ألف».

أطمئن إلى نهاية اللحن لصالح هذا الانفتاح فندعو سوياً - أنا وطفلى - أنه.

«**...يارب الناس، ملك الناس، إله الناس، أحشرنى معهم: كل الناس**» يصادق الشاعر فى على ماقلناه فيعلن أنه: «**تتفتح أبواب الرحمة دون استئذان: للسمر الصفر البيض السود لكل الألوان: للفيل الأبيض، والسنجاب الأزرق، والإنسان».**

البيت بيتك

فى برنامج «البيت بيتك» منذ أسبوعين تقريباً سألنى المذيع الشاب عن التفسير (النفسى لما حدث). أنا عادة أنزعج من هذ الصفة (النفسى) التى تلصق بمعظم الأسئلة التى توجه إلىّ، مع احترامى لمبرراتها، وذلك خشية الإسراع بالتشخيص فالتبرير فالنصائح ودمتم، أجبت الابن السائل بأن المسألة أعقد من أن نعزوها إلى سبب بذاته، أو نفسرها بحالة نفسية محددة، ناهيك عن الإسراع بالتشخيص والتحليل، قلت له إن أمى كانت تعلمنا أن ننظر فى الملوخية «البايتة» (دون ثلاجة - لم يكن لدينا مثل هذه الرفاهية آنذاك) لنلاحظ إن كان على سطحها أية فقاعات متفجرة، باعتبار أن هذه الفقاقيع عى دليل فسادها، وكان علينا أن نتجنب الأكل منها حتى تأتى أمى وتشمها، ثم تلقيها عادة بعيداً حرصا على صحتنا. قلت إن هذه الفقاقيع على سطح الملوخية لانعاملها بأن «نفقعها» الواحدة تلو الأخرى، لأنه سوف يظهر غيرها طالما أن الملوخية قد حمضت، كنت أشير بذلك إلى ضرورة

الانتباه إلى أن مجتمعنا يسير فى اتجاه تخثر الوعى العام بشكل أو بآخر. الحادث فى هذا المجتمع منذ أكثر من نصف قرن هو متعدد الأبعاد والمستويات بما يشمل: سطحية التعليم، وانفصال الصفوة وتفاهة الإعلام، وكذب البيانات، وضعف المشاركة فى اتخاذ القرارات، ومن ثم التخلى عن تحمل أى مسئوليات نتيجة أى قرار، أضف إلى ذلك قلة الفرحة الجماعية، واختفاء أغانى العمل، ضمن اختفاء الأغانى الجماعية التلقائية عموماً، ثم تمادى الخصام مع الجسد (من أول نفى الرقص الشعبى التلقائى الجماعى، حتى التحفظ على طقوس ذكر الله فى الموالد من خلال حركية الجسد)، يتفاقم الأمر بانتشار القيم السلبية واعتبارها مزايا وشطارة يحسد صاحبها عليها فيتسارع تخثر الوعى الجماعى وقد ألهبوا تكاثره بسماد القيم الفاسدة من الغش فى المدارس حتى الرشوة فى المصالح حتى الوصول الملتبس إلى المراكز حتى استغلال المواقع الرسمية للمصالح الشخصية والشللية.

المصائب الثلاث

يمكن أن نضع كل ذلك نتيجة لمصائب ثلاث هى : (١) سوء التربية و(٢) فساد التعليم و(٣) تمييع السياسة.

أما التربية: التى هى أساساً مهمة الأسرة والمجتمع الأصغر فالأوسع، فقد تراجع الاهتمام بها حتى صار ناتج نمو أطفالنا مرهون بالستر والصدفة.

أما التعليم كما يجرى عندنا – فى عمق واقعه وبرغم الأرقام والتصريحات – فقد أصبح أضر على العقل البشرى من قلته. فى البرنامج المشار إليه سالفا، نبه فضيلة المفتى السابق د. نصر فريد إلى أن الوقاية من مثل هذه الأحداث هى تعليم الدين تعليماً صحيحاً، ومع اتفاقى معه على ذلك من حيث المبدأ ، إلا أننى أصررت على أن إطلاق التفكير (أو ما أسميته تعليم أطفالنا طريقة التفكير) هو فى نفس الأهمية أو أهم وأضمن، لأن التفكير السليم هو الذى سيوصل إلى الدين السليم، فالإيمان ليس إلا النتاج الطبيعى لطلاقة الفطرة وسلامة التفكير، أما تعليم الدين الجاهز من خلال التفسيرات الثابتة دون استلهام الوحى الإلهى المتجدد، فهذا أمر يحتاج إلى فحص دقيق، ومتابعة متلاحقة لنعرف ماذا نفعل بما نتصوره دينا، فى العقل البشرى، كما خلقه الله، إذ نحشر فيه مالم ينزله سبحانه ، وإنما نملأه بنتيجة ماتمليه علينا مخاوفنا ومحدودية اجتهادنا.

أما عن تمييع السياسة فأعيد ماجاء فى نفس البرنامج حين أشار الصحفى



النايه الأستاذ عادل حمودة إلى أن الفراغ الذى يعيش فيه الشباب يمكن أن يملأ بمزيد من السماح بالممارسات السياسية من خلال الحزب الوطنى أو حزب الوفد كأمثلة، وإذا بى أرد عليه تلقائياً ونحن على الهواء : «مش لما يبقى فيه حاجة اسمها الحزب الوطنى أو حزب الوفد أصلاً»، لينتهى البرنامج بقول المذيع المهذب «ما احنا كنا ماشيين كويسين»، احترمته، واحترمت مساحة الحرية التى تبادلنا فيها هذا الحوار وعلانية، وقلت فى نفسى : لعلها بداية طيبة.

ممارسة السياسة التى يمكن أن تملأ وعى الشباب لاتتأتى من خلال الحزب الوطنى بكل ضخامة هيكله التنظمى، ولا من خلال حزب الوفد بكل تاريخه وتراثه الذى يتمثل فى صحيفة خضراء ونوايا حسنة. إن كنت تريد أن تقيس كيف تملأ السياسة وعى الشباب لتغنيهم عن ممارسة الإرهاب فابحث عنها فى المقاهى، والجلسات الخاصة، والنوادى، والمدارس والجامعات، قبل أن تدعى رصدها أمام صناديق الانتخاب المشبوهة. السياسة التى تمارس بين شبابنا الآن – نتيجة عدم وجود شارع سياسى حقيقى – هى التى تمارس فى المساجد واجتماعات الجماعات المحظورة ، وكلاهما بديل يغذى الفراغ لا يملؤه.

فراغ مثلوج

لابد أن أعتذر عن هذه النظرة التى تبدو متشائمة تماماً، مع أنها ليست كذلك من وجهة نظرى لأنها مجرد بداية حتمية ونحن نحاول أن نجيب عن سبب ظهور تلك الفقاقيع على سطح وعى مجتمعنا المتخثر وهو على وشك الفساد والتعفن. أقر وأعترف أننى برغم كل ذلك قادر على الاحتفاظ بالأمل، وأيضاً بدليل كتابة ونشر هذا المقال، وما جرى فى ذلك البرنامج على الهواء . فلنواصل الإصرار والمحاولة مهما طال الزمن.

يمكن وصف ما آل إليه حال الشباب خاصة، والمجتمع عامة بأنه «فراغ مثلوج جاهز للتفجر»، وبالتالى فإن علينا أن نجتهد فى اتجاه أن نعرف كيف نملأ هذا الفراغ، وكيف نقترب منهم فى إحاطة دافئة، واحترام مسئول، فى محاولة لإذابة الثلوج التى جمدت تفكيرهم دون أن تحفظ وعيهم من التخثر، ولكن بالله عليكم كيف يمكن أن نفكر فى ذلك، أو حتى نأمل فيه، ونحن – الكبار – لا نتمتع به أصلا؟.

أين الوعي الخاشع

اضطررت مؤخراً أن أضع بين الأسئلة الروتينية التى أسألها للمريض وأهله فى عيادتى سؤالاً عن عدد الساعات التى يفتح فيها إذاعة القرآن الكريم، أفعل ذلك حتى لو كانت حالته

ليس لها علاقة بذلك، وفى كثير من الحالات ينبرى الأهل فخورين بأنها مفتوحة طوال النهار والليل، جنباً إلى جنب مع الشرائط الدينية لملأ مايفيض من وقت بين فقرات إذاعة القرآن الكريم، أنبه المريض والأهل إلى أن للقرآن الكريم حضوره فى الوعى البشرى بشكل متميز، وهو حضور يتطلب مسئولية خطيرة من ناحية، كما قد يستجلب استلهاما مبدعا من ناحية أخرى، وأضيف شارحاً ما وصلنى من معنى «الإنصات والاستماع» الذى أمرنا به ونحن نسمعه، وأذكر مريضى وأهله بالآيتين الكريمتين.

«**إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً**» ثم « **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله**» - شارحا أن تكرار الأصوات دون إنصات فى خلفية الوعى بشكل راتب هكذا ، قد يهمش كلام الله سبحانه ونحن لا نتصدع به من خشيته، وفى نفس الوقت هو يخدر الوعى بشكل يجعله عرضة لتفريخ ما يلقى فيه دون نقد، وحتى أضبط جرعة تعليماتى ولا يساء فهمى أطلب من الشاب (أو المريض عامة) أن يقرأ بنفسه ربع حزب يوما بعد يوم، لا أكثر ولا أقل، وأن يستمع كل صباح لربع ساعة تلاوة مصحف مجود (ليس مرتلا)، وأن يتحمل مسئولية هذا وذاك مباشرة دون اللجوء إلى تفسير من خارجه، لعله يستلهم ما وصله بما يعينه فى تحريك عقله دون الاستسلام لأرجوحة السكينة التى حشروها فيه بديلا عن حركيته الفطرية، ثم لعله يجد بعد ذلك، ومن خلال ذلك، الوقت الذى يعمر فيه وبه نفسه وأرض الله والناس جميعاً.

إن لجوء الأسر والشباب لسوء استعمال مثل هذه التلاوة المستمرة بأقل قدر من المسئولية والاستلهام إنما يسمد وعى الشاب بشكل سخى قادر على إنبات أى بذرة عابرة مناسبة تلقى فيه، فتكون النتيجة أن أى بذرة طائرة فى جو ملوث سرعان ماتنبت بسرعة، ثم تتفرع مثل النبات الطفيلى والحشائش لتحل كل المساحة القادرة على التفكير السليم نحو الحق سبحانه وتعالى .

مالا ينبغي

قبل إنهاء المقال الذى لايمكن أن ينتهى، لابد من التنبيه إلى أن ندرة من شبابنا يلجأ إلى حل آخر على أقصى الطرق الآخر، وذلك حين يتجه إلى ملء فراغ وعيه بطفيلات أخرى لاسبيل هنا الآن إلى تفصيل أضرارها ومخاطرها، ألا وهى المخدرات و«الصياعة»، وهى حلول ليست أقل سلبية، وإن كانت مازالت محدودة ، ومكلفة عادة . ثم إننى لاحظت سهولة الانتقال من غيبوبة المخدرات إلى خدر التدين السطحى بشكل زائف وخطير عند نفس الشخص دون أن أجد فروقا

كثيرة.

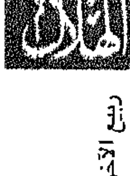
لامجال في هذه العجالة أن أطرح حلا عملياً قابلاً للتطبيق الفورى، فالأمر يحتاج إلى تغيير جذرى فى كل شىء تقريباً بدءاً من التربية والتعليم منتهياً إلى تنمية الفطرة السليمة كما خلقها الله حتى تتوجه بالاستلهام والإبداع، وليس بالتبعية أو التشنج، وهى تكدح إلى ربها كدحا لتلاقيه، إن ما وجدنا أنفسنا فيه من ديانة معينة – عادة بالمصادفة – هى بداية مفيدة ولازمة، يدعمها ما نمارسه من عبادات والتزام، وهو أمر ضام وموجه، لأنها جميعاً تمثل القاعدة التى يمكن أن تتشكل فوقها المسيرة المبدعة إلى وجه الحق سبحانه وتعالى.

ليس عندى حل جاهز ولا أميل إلى تقديم نصائح خطابية، ولا حتى توصيات للسلطة التى لا يعنيها إلا ما يعنيها . كل ما استطيع أن أنبه إليه فى نهاية هذا المقال هو ما ينبغى تجنبه حالا، انتظارا لمزيد من الاجتهاد والإبداع والعمل، لعلنا نصل إلى بعض ماينبغى عمله على أرض الواقع.

أولا : علينا أن نتجنب ادعاء قبول الآخر فى حين أننا لانفعل ذلك حقيقة وفعلاً، بل إننا فى داخل داخلنا ننوب عن الله سبحانه فى إدخال بعضنا بعضا النار على العمال على البطال، بوعى أو بغير وعى، فى الوقت الذى نواصل فيه الحوار حول الموائد المستديرة (ويمكن سؤال البابا الجديد فى ذلك!!).

ثانياً : علينا أن نفهم أن قبول الآخر ليس دعوة للتخلى عن موقعى أو موقفى الذى وجدت نفسى فيه بصدفة الميلاد ، ليس فقط خوفاً من أتخلى أنا، لايفعل «الآخر» مثلى سرا أو علانية خاصة (ونحن مازلنا نذكر لعبة أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص). إن القبول الحقيقى للآخر يبدأ بالتمسك بما أنا فيه احتراما وبداية سعياً للتعلم مما «غيرى» فيه، مع الاعتراف أن كلينا قد وجد نفسه هو فيه بمحض الصدفة، هذا الاحترام لاينبغى أن يأخذ شكل المجاملة أو التفويت أو التجاهل أو الإنكار، وإنما شكل التقدير ومحاولة الفهم من موقع ذلك الآخر حقيقة وفعلاً (ما أمكن ذلك).

ثالثاً : ليس المطلوب هو أن نخفى رأسنا فى الرمال بنفى صفتنا الدينية فى أوراقنا الرسمية ونحن نتصنع ممارسة السماح والموضوعية ، إن إعلان لونك وأصلك ودينك تحديداً هو البداية الأشرف لتحديد علاقتك بهذا الذى أعلن بدوره مثلما أعلنت ، إنها نقطة البداية الحقيقية لاحتمال جدل بناء على كل المستويات، أما أن نترك الأمر للحدس والتجسس وفحص الاسم (أصبح اسم «محمد» لايمر بسهولة على وعى أى ضابط جوازات أمريكى) فهذا اخبث ادعاء



وأغبى تصنعا.

رابعاً : علينا أن نعيد فحص شعارات طالما فرحنا بترديدها ردحا من الزمن. قد تكون هذه الشعارات قد أدت دورها حين أطلقت، لكن ثمة احتمال أن يكون عمرها الافتراضي قد انتهى. خذ مثلا شعار «الدين لله والوطن للجميع»، هو شعار براق، يقال وكأنه أنهى المسألة بخبطة مزدوجة، لكننى عندما رحت أتأمله تعجبت، أظن أنه حين ظهر كان يعنى إزاحة السلطة الدينية تعبير الدين لله مشيراً إلى أن حساب كل واحد على الله ومزيحا لتدخل السلطة الدينية فى شئون إدارة الوطن الذى هو ملك الجميع، إن صح هذا التفسير الإيجابى فى حينه، أو كما توحى به ظاهر الألفاظ، فهو لم يعد كذلك بعد الفحص (فحصى أنا على الأقل). وإليكم النقد والبديل.

إن الدين هو للناس المتوجهين إلى الحق تعالى، والوطن هو لله بالمعنى الأشمل بعيداً عن السلطة الدينية لأنها ليست وكيلة عن الحق سبحانه، أن كل ما خلقه الله هو لله بمعنى التأكيد على مسيرة التطور بلا نهاية، نحوه جل شأنه، ومن ثم يكون الوطن وناس الوطن (الجميع) هم لله أيضاً (بما فيهم من ينكرونه).

إن البديل لهذه المقولة حسنة السمعة هو أن الدين هو للجميع على اختلاف أديانهم لأنه طريق إيمانهم، وأن الوطن هو ومن عليه، هو لله سعياً إلى حق ضام مشترك على المدى الطويل، وإن كنا لانتبين نهايته الآن، هذا حقنا جميعاً دون تدخل من أى سلطة دينية أو مدنية.

خامساً : علينا ألا نرضى بالاستسلام لزعم نجاح فصل الدين عن الدولة دون الانتباه إلى مايجرى داخل نفوس البشر (الناخبين) من ناحية، وبين فرق المشاركين سرا وعلانية فى مطبخ الانتخابات (أى انتخابات على مستوى العالم) حيث تتضمن هذه الفرق عدداً بلا حصر من رجال الدين والطوائف ووكلائهم ولا مؤاخذة يبيعون للمرشح أصوات المتدينين مقابل الموافقة على نشاطهم المغترب والمغرور وتعزيزه ضد المخالفين. يتم ذلك سراً وعلانية، واسألوا السيد دبليو بوش. إن القول لأن الدين أمر شخصى بحث هو فى ذاته تأكيد أنه يتدخل فى السياسة من الباب الخلفى لأن الناخب هو «شخصى بحت» (أليس كذلك؟).

بداية متواضعة

فإذا كنت قد نبهت على بعض ماينبغى تجنبه، وإعادة النظر فيه فإنى أرى أن المقال لم يحتمل أن أطرح ما الذى يمكن عمله، وبصراحة هى فرصة هروبية لأننى لا أعرف نقطاً محددة يمكن تطبيقها الآن فوراً، أخشى أن استسلم لنظرة سوداء تعلن أننا أصبحنا نعيش فى مجتمع لا هو منتج ولا هو مبدع، وأن كل المطروح هو

بيانات وخطب ووعود وبعض الخدمات والعلاوات فى مناسبات الاحتقان السياسى وقبيل الانتخابات، وأنه فى مناخ مثل هذا سوف يزداد وعى المجتمع عرضة للتخثر ، ومن ثم سوف تزداد فقاقيع الإرهاب - فرادى وجماعات - وهى قادرة على الظهور على سطحه فى أشكال مختلفة مهما حاولنا فقعها الواحدة تلو الأخرى ما دام الطبيخ أصبح حامضا وهكذا.

لايمكن أن أنهى المقال بهذه الصورة وأنا أعتبر نفسى متفائلا متألما عنيداً طوال الوقت، لهذا سوف ألجأ إلى بعض ما أمارسه مع مرضاى مما يسمى علاج معرفى. استلهمه من طفلى الراجز، ووعيى الشاعر معا (أنظر أول المقال)، فأعرض على القارىء مايلى:

علاج معرفى

عزيز القارى:

من فضلك : أمسك بمذياعك الصغير (ياحبذا الترانسستور فى حجم الكف) وأدر مفتاحه ببطء أنت وابنك أو ابنتك، واجعل أمهما الطيبة تشترك معك، وكلما وقفت عند رطان لاتفهمه قادم من موقع ما من العالم الواسع، إسأل نفسك قبل أن يسألك ابنك : هل صاحب هذا الصوت سوف يدخل النار إن لم ينضم إلى دينك، حتى لو علم عنه (عن دينك) الكفاية؟ ثم اسأل ابنك واستمع لرده شرط ألا ينسب رده هذا إلى مرجعية سمعها من رجل دين هاو أو محترف.

راجع إجاباتك بهدوء: وأضف إلى كل إجابة «بأمارة إيه»؟.

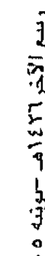
افعل ذلك دون الرجوع إلى من أفتاك بغير ذلك.

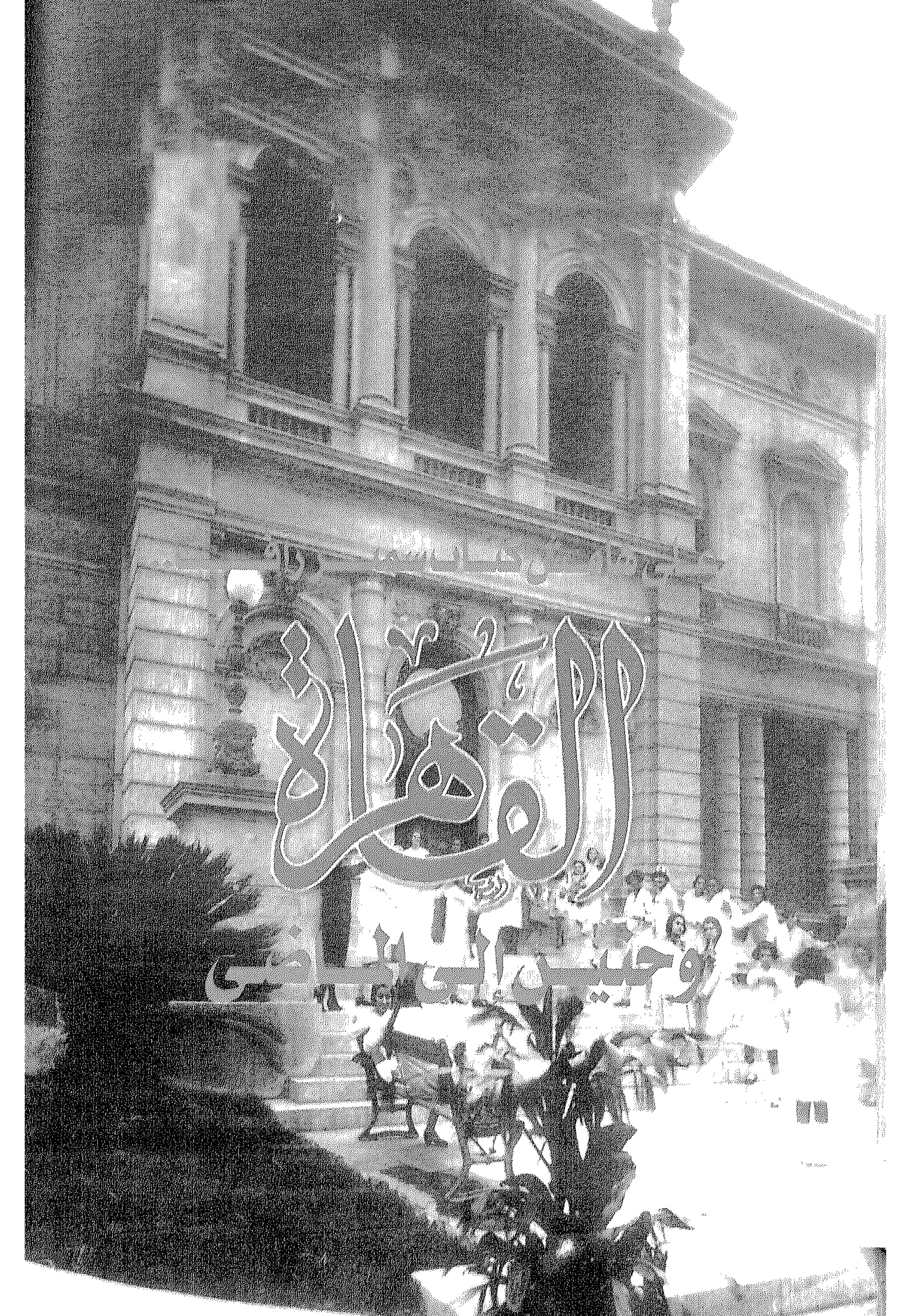
دعونا نشرح توضيحاً لجدوى هذا العلاج هكذا: لو أن حسن بشندى مثلا سأل نفسه وهو يستعد لدخول الجنة إن كانت ضحيته فى الأزهر ستذهب معه إليها أم لا؟ فهل كان سيواصل فعلته كما فعلها؟ ربما جاءته الإجابة تبرر فعلته من فتوى سمعها من شيخ جماعته، أو من إذاعة متشنجة، أو حتى من مفتى رسمى، لكنه لو كان مارس هذا التساؤل صغيراً كما عرضته حالا فى التدريب المعرفى سالف الذكر، فربما كان انتبه إلى الآية الكريمة التى تؤكد أنه شخصياً مسئول طول الوقت أمام الله سبحانه عما يصله من فتاوى أياً كان مصدرها، هذا إذا كان قد أعطى نفسه الفرصة ليفهم بنفسه ، أو يستلهم بوعيه، ما ينتظره من كل من أفتوا بما يخالف الفطرة والمنطق السليم.

«إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب .. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا» .

صدق الله العظيم

■




القاهرة

«قاهرة» الخديو إسماعيل.. كيف كانت.. وأين راحت..؟!

من سكن الطبقة الراقية.. إلى زحام العشوائيات

بقلم
د. عاصم الدسوقى

كان الخديو إسماعيل بن إبراهيم أحد أفراد البعثة الدراسية «الخامسة» التى أوفدها محمد على باشا إلى باريس عام ١٨٤٤ وضمت اثنين من أبنائه واثنين من أبناء إبراهيم ولهذا أطلق عليها على مبارك الذى كان أحد أعضائها «بعثة الأنجال». وفى أثناء البعثة أظهر إسماعيل ميلا إلى دراسة تنظيم المدن وتخطيطها وتجميلها، وعلى هذا فعندما تولى حكم البلاد «١٨٦٣» اهتم باستكمال المشروع الذى كان أبوه إبراهيم باشا قد بدأه من حيث إزالة تلال الأتربة التى كانت تحيط بقاهرة الفاطميين وشق شوارع جديدة مثل: محمد على، وعبدالعزيز، وكلوت بك، والفجالة الجديدة، وشارع عابدين حيث أقام قصرا كبيرا «قصر عابدين» نقل إليه مقر الحكم من القلعة، وقد ساعدت هذه الشوارع على امتداد القاهرة الفاطمية إلى مناطق أخرى.

وكانت المنطقة من عابدين باتجاه نهر النيل وفى مكان ميدان التحرير حاليا تغمرها مياه الفيضان فى كل عام وتخلف وراءها مستنقعات تتكاثر فيها الحشرات والهوام، ووقعت عين إسماعيل على هذه المنطقة ليقيم عليها مشروعه «باريس على النيل»، وكانت البداية تجفيف المستنقعات وتعلية مستوى الأرض وتقوية جسر النهر، ورصف ميدان واسع أطلق عليه «ميدان الإسماعيلية» نسبة إليه، وأحيط الميدان من جهة النيل وبامتداده إلى حلوان بسلسلة من قصور

أفراد العائلة ووجهاء البلد. وأقام كوبرى قصر النيل ليصل الجزيرة بالقاهرة، وكوبرى البحر الأعمى «فيما بعد كوبرى الإنجليز ثم بديعة وأخيرا الجلاء» لوصل الجزيرة بالضفة الغربية للنهر «الجيزة».

ويبدأ تخطيط الشوارع التى تصل عدة أحياء بعضها ببعض أشهرها الإسماعيلية وعابدين والأوبرا ثم التوفيقية، شقت جميعها على خطوط مستقيمة، تتقاطع على زوايا قائمة، ودكت أرضيتها بالحجر «الدقشوم»، وأقيمت على جوانبها الأرصفة، ومدت فى أرضها أنابيب المياه، وأقيمت فيها أعمدة المصابيح لإنارتها بغاز الاستصباح، فأصبحت «من أبهج أخطاط القاهرة وأعرضها وسكنها الأمراء والأعيان» على حد قول على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية».

وتم بناء المسرح الكوميدى ومسرح الأوبرا، وأعاد تنسيق حديقة الأزبكية التى كان فيها قصر الألفى بك زعيم المماليك وأقام فيه أبوه إبراهيم باشا. وشرع فى وضع تماثيل «العظماء» فى الميادين، كما رأى فى باريس، أشهرها تمثال إبراهيم «١٨٧٣»، وأعاد تعمير مسجد الحسين، وأصلح ميدان الرميلة بجوار القلعة ووسعه وغرس به الأشجار وأوصله بشارع محمد على. وأنشأ حمامات حلوان لما عرف مزايا مياهها المعدنية، وعنى بعمرانها حيث أقام قصرا لوالدته ولاتزال هناك حتى اليوم عزبة الوالدة التى كانت سكنا لفلاحى العزبة، وخط طريقا إليها من جهة نيل القاهرة، ومد خط سكة حديد لوصلها بالقاهرة.

وسط البلد.. أشهر المباني

وعندما تم وصل الجيزة بالقاهرة وربط الجزيرة بالإثنين نشأت قاهرة إسماعيل على مشارف القاهرة الفاطمية فى هذا الفراغ الواسع الممتد حتى الضفة الشرقية لنهر النيل. وإلى هذا الفضاء الواسع انتقلت الشرائح العليا من صفوة المجتمع من الأجانب على وجه الخصوص الذين أخذوا يتوافدون بكثرة منذ أواخر حكم سعيد، إذ لم يكن ممكنا أن يقيموا فى المدينة القديمة وسط الأهالى، ثم من المصريين من كبار ملاك الأراضى الزراعية بعد أن أخذت الملكية الخاصة تستقر وتنمو ابتداء من مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر. ومن هنا نشأت منطقة «وسط البلد» المعروفة بهذا الاسم لتضم أشهر المبانى التى سكن فيها هؤلاء وأولئك وأشهر أماكن الترفيه مثل نادى محمد على «النادى الدبلوماسى حاليا»، ومقهى ريش وكافيتريا جروبى ودور السينما وملاهى عماد الدين، وكذا المحلات التجارية الكبرى مثل صيدناوى وشملا وعدس وأوريكو وبنزايون .. إلخ وتلك أماكن لم يكن يغشاها إلا أبناء الصفوة بطبيعة الحال.

وبامتداد الضفة الشرقية لنهر النيل المطلة على ميدان الإسماعيلية «التحرير» وعلى أطرافه أقيمت قصور أفراد العائلة الحاكمة وأشهرها قصر الدوبارة الذى أصبح مقرا للمعتمد البريطانى فى مصر بعد الاحتلال وقصر النيل والقصر العالى ولكل قصر منها حديقة تطل على النيل مباشرة. وفى رحاب تلك المنطقة اقيمت قصور «الوجهاء» وأشهرها قصر الأمير كمال الدين حسين «وزارة الخارجية فيما بعد»، وقصر قصدو غلى «مدرسة على عبداللطيف حاليا» على ميدان قصر الدوبارة «سيمون بوليفار حاليا»، وقصر





زحام ميدان طلعت حرب ..

فخرى باشا «بنك مصر باريس»، وقصر داوود عدس «مطابع دار الشعب» وقصر الأميرة شويكار «مجلس الوزراء»، وقصر الأمير سعيد حليم ناصية شارع شامبليون «جاراج سيارات حاليا». وقد تنوعت طرز هذه المبانى جميعا بين الإيطالية والبلجيكية والانجليزية والفرنسية فى الغالب الأعم حسب ثقافة أصحابها وحسب جنسياتهم وخاصة الأجانب منهم.

أما الضفة الغربية لنهر النيل ابتداء من البحر الأعظم جنوبا وحتى إمبابة شمالا فقد كانت أرضا زراعية من ممتلكات الخديو إسماعيل تعرف باسم «أراضى الدايرة السنية»، وعلى مشارفها كان يقيم الفلاحون الذين يزرعونها «التملية» والذين كونوا بتجمعاتهم عدة قرى محيطة لعل أشهرها قرية العجوز «أصبحت تعرف باسم العجوزة». وقد أقام فيها قصرا لحريمه فى منتصف السبعينيات أحاطه بمساحة هائلة من الحدائق الغناء على الطراز الإيطالى، وقصرا لابنته الأميرة فاطمة «كلية الآداب جامعة القاهرة فيما بعد حتى لقد أطلق أشرار الطلاب فيما بينهم أسم كلية فاطمة على كلية الآداب..»، وقصرين آخرين لابنيه، ولهذا عرفت المنطقة ولاتزال باسم «بين السرايات». ولقد ظل هذا هو طابع منطقة غرب النيل، أى أراضى الدايرة السنية، بمجموعة القصور وسط الزراعات حتى تم عزل إسماعيل ورحيله إلى منفاه الاختيارى فى إيطاليا فى يوليه ١٨٧٩ وبعد ذلك بدأت المتغيرات تطرأ على المكان، فبعد حوالى عشرين عاما من رحيل صاحبه وفى عام ١٨٩٧ أصبحت حدائق القصر حديقة للحيوانات، وخصص جانب منها للاحتفاظ بالآثار الفرعونية المكتشفة حتى تم بناء المتحف المصرى على النيل فى عام ١٩٠٢.

وبعد خروج إسماعيل من البلاد أصبح من اليسير التصرف فى أراضيه لتسديد

بعض من الديون التى كان قد اقترضها. وفى هذا الخصوص وضعت جميع أراضى الدائرة السنية فى المنيا وبنى سويف ومنطقة الجيزة غرب النيل تحت إدارة خاصة تتولى سداد الأقساط وفقا لقانون التصفية الذى كان قد صدر فى ١٨٨٠ حتى إذا حل عام ١٨٩٨ قررت الحكومة بيع جميع ممتلكات الدائرة إلى شركة تكونت لهذا الغرض من ممولين فرنسيين وإنجليز ومصريين وفق القانون الإنجليزى حتى يتم تسديد القروض على آجال، وأصبح من حق الشركة الجديدة أن تتصرف فى الأراضى كما تشاء فبدأت تطرح مساحات معينة للبيع ابتداء من ١٩٠٠. وفى هذا الاطار عرضت أراضى الدايرة غرب النيل للبيع، وهذا هو موضوعنا، فى مساحات صغيرة ومتوسطة ابتداء من عام ١٩٠٣.

وفى ضوء تلك الظروف بدأت منطقة غرب النيل تتحول من طابعها الريفى - الزراعى إلى منطقة حضرية تدريجيا وقد ساعد على ذلك سهولة اتصالها بالقاهرة شرق النيل من خلال كوبرى قصر النيل والبحر الأعمى كما سبقت الإشارة ثم بإنشاء كوبرى عباس ١٩٠٨ «الجيزة حاليا». وكان من الطبيعى أن يشترى المساحات المعروضة للبيع أغنياء القوم وسراتهم الذين بادروا ببناء قصور وفيلات لكى تكون منتجعا فى أحضان المزارع والأشجار بعيدا عن ضوضاء قاهرة الخديو التى لم تكن قد ازدحمت بعد، وعلى طول شاطىء النيل من كوبرى الجلاء وحتى إمبابة اقيمت العوامات والدهبيات انتهاء بكازينو «الكيت كات» وكانت جميعا أحد أمكان سهر أصحاب المال والجاه كما وردت فى ثلاثية نجيب محفوظ وغيرها من الروايات.

ولنتأمل معا بعض تلك المظاهر ابتداء من كوبرى الجلاء «الأعمى» وجنوبا حتى كوبرى الجيزة «عباس سابقا» كما عنى سمير رأفت بإثباتها فى كتابه.. ففى مكان فندق شيراتون القاهرة حاليا وفى عام ١٩٢٦ أقامت أسرة شامية «نجيب ولطيف صبحانى» منزلا من ثلاثة طوابق على الطراز الإيطالى شغلا طابقا وأجرا الطابقين لكل من صهرهما من أسرة توتونجى الحلبية وإلى مدير شركة لاجنيفواز للتأمين. ثم أقامت بديعة مصابنى كازينو ليليا بجوار المنزل وبذلت محايلات كثيرة للحصول على موافقة الملاك حيث لم يكن مسموحا بإقامة تلك الملاهى بجوار المساكن واستغلت فى تلك المحايلات صلة الجيرة حيث إن الجميع من بلاد الشام، ووافق الرجل بشرط أن ينهى الكازينو نشاطه الساعة الحادية عشرة مساء. وفى أثناء الحرب العالمية الثانية كان الكازينو محلا مفضلا للجواسيس والضباط الإنجليز حتى أن ابن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا آنذاك كان من زبائنه. وفى مطلع الخمسينيات تم بيع منزلى صبحانى إلى مرشاق وهو شامى آخر ظل على اسمه حتى تأميمات ١٩٦١ حين رحل الرجل واشترى بيته أحد أفراد أسرة الصباح الكويتية، ثم اشترى الملك فيصل آل سعود المنطقة كلها وأقام عليها فندق شيراتون.

فيلات ومساكن شهيرة

وفى مكان سفارة روسيا الآن على شارع النيل كانت فيلا جوزيف نسيم موصيرى المالى اليهودى وقد أقام فيها منذ عام ١٩٢٦، وبنى فى نهاية الجزء الشمالى من حديقة الفيلا معبدا صغيرا

إحدى فيلات الجيزة فى العشرينات





كان يقيم الصلاة فيه حاييم ناحوم أفندى كبير حاخامات يهود مصر. وبعد وفاته فى ١٩٣٤ ظلت زوجته جانيت آجيون تعيش فى الفيلا حتى منتصف الخمسينيات ثم عرضت على السفارة الأمريكية شراءها فلما رفضت باعتها للحكومة السوفييتية. وفى مواجهة فندق شيراتون القاهرة الآن كان لأغنياء اليهود عدد من الفيلات حتى لقد عرف المكان بالركن اليهودى ولم يبق منها إلا فيلا سولومون جرين التى يشغلها حاليا قسم شرطة الدقى.

وأما مقر السفارة السعودية بشارع النيل فقد كان قصرا أقامه مائير إيلياقيم الجواهرجى اليهودى وتوالت على الإقامة فيه عدة شخصيات ابتداء من داوود عدس قبل أن يقيم لنفسه سكنا مستقلا، ورالف هرارى، وعبدالله وموريس زليخة أصحاب بنك زليخة، ولويس فاندام مدير البنك البلجيكى، وجولى أرتادو صاحب الشركة المصرية - البلجيكية، ثم حسن نشأت باشا الذين كان رئيسا لديوان الملك فؤاد ثم على سرى باشا حتى اشترته المملكة العربية السعودية.

وأما قصر أنور السادات فلا يعرف صاحبه الأصلى الذى أقامه لكن آخر من شغله قبل الرئيس شارل كاسترو أحد أغنياء اليهود حتى عام ١٩٦١ وكان قريبا للورد روتشيلد رئيس الطائفة الإسرائيلية فى لندن. وإلى جواره قصر محمد محمود خليل الذى انتقل إليه من سكنه بشارع قصر النيل مع زوجته الفرنسية وكان عضوا بحزب الوفد وأصبح رئيسا لمجلس الشيوخ. وبعد وفاته حررت زوجته وصية لتحويله إلى متحف بعد وفاتها التى حدثت فى ١٩٥٤. لكن بعد تولى السادات الحكم وكان يقيم فى قصر كاسترو كما رأينا احتاج توسيع المكان فتحول متحف محمد محمود خليل إلى مبنى إدارى للرئاسة ونقلت محتويات المتحف إلى مبنى آخر فى الزمالك إلى أن عاد متحفا فى ١٩٩٥.

وإلى جنوب هذا القصر يقع قصر الأميرة فوقية ابنة الملك فؤاد من زوجته الأولى شويكار وكان زوجها محمود فخرى باشا سفيرا لمصر فى باريس لكنهما كانا يعيشان معظم الوقت فى باريس. ولما أنشىء مجلس الدولة فى عام ١٩٤٩ واحتاج إلى مبنى قامت الأميرة بتأجير قصرها للمجلس بثلاثمائة جنيه شهريا، ثم قررت بيعه لأختها غير الشقيقة الأميرة فايقة بعد أن استقر مجلس الدولة فى مبنى آخر حتى آل القصر للدولة بعد ١٩٥٢.

مقر الاتحاد الاشتراكي

وفى مكان مكتبة مبارك العامة كان يعيش مدير البنك العقارى الفرنسى فى الطابق الأعلى ويشغل الطابق السفلى زميله فى البنك وبعد تأميم البنوك الأجنبية أصبح القصر مقرا للاتحاد الاشتراكى ثم شغله المشير عبدالحكيم عامر حتى آل للدولة فى عام ١٩٨٠ بعد وفاة زوجة عامر الأولى. وبجوار هذا القصر كان قصر على ماهر باشا. وإلى جنوبه من جهة شارع النيل كانت فيلا سولومون شيكوريل وقد اشتراها من صاحبها الأصلى هنرى نوس البلجيكى الذى كان مديرا لشركة السكر. وقد شغل هذه الفيلا قسم الجغرافيا بكلية الآداب جامعة القاهرة واقيم فيه مكتب تنسيق طلاب الجامعات لبضع سنوات ثم أصبح الآن مركز الدراسات الشرقية وعدة مراكز بحثية أخرى تابعة لجامعة القاهرة.

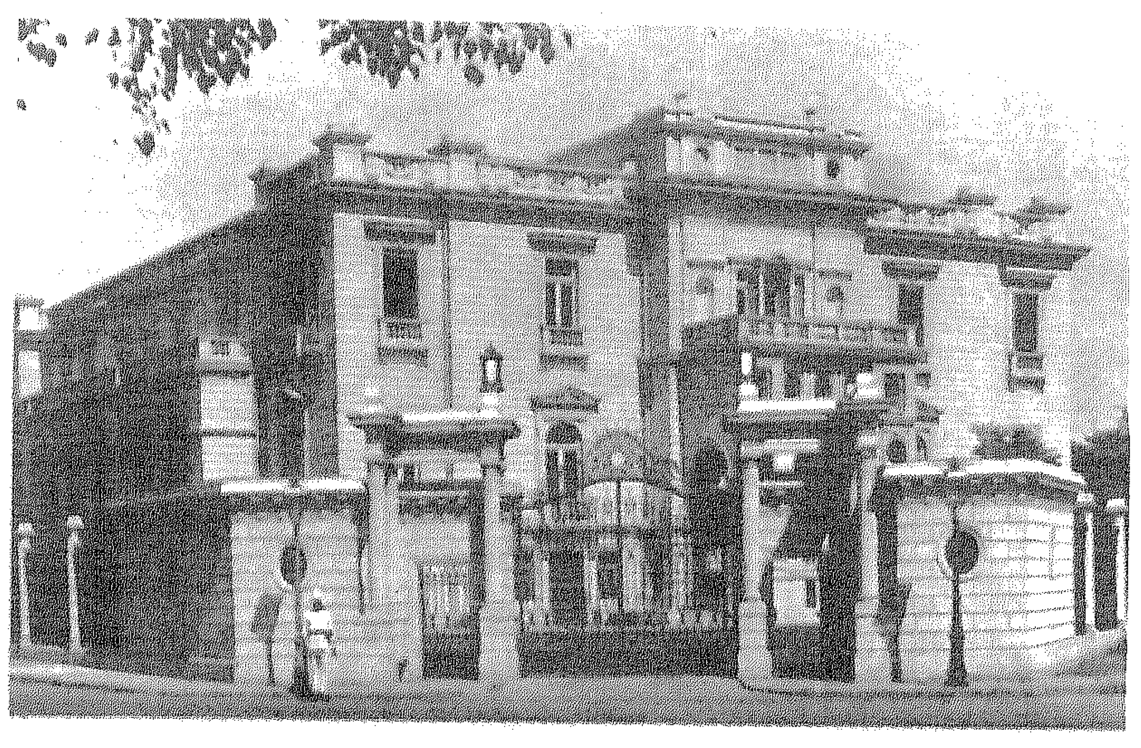


قصر الأميرة نعمت كامل الدين .. و تمثال الشيخ عمر مكرم

وإلى الشمال قليلا من منزل كوبرى الجامعة بالقرب من شارع أحمد نسيم قصر الأميرة حورية محمود حمدى وابنتها بالتبنى الأميرة منيرة، وفيلا المليونير صعب. وإلى الجنوب من منزل كوبرى الجامعة فيلا روبرت جريج الذى كان العضو البريطانى بصندوق الدين ويجوارها فيلا ويصا واصف ومكانهما الآن عمارة الرياض الشاهقة حيث سوبر ماركت ألفا ومطعم الأمم. ويليها فيلا الأميرة كظيمة بنت السلطان حسين كامل وبوفاتها دون عقب آلت الفيلا لأخيها الأمير كمال الدين حسين وبوفاته هو الآخر دون عقب أخذته السفارة التركية مقرا. وأما السفارة الفرنسية بشارع النيل فأصلها بيت عائلة سينوت حنا أحد أثرياء الصعيد وعضو حزب الوفد وبعد وفاته فى ١٩٣٣ باع الورثة المكان للحكومة الفرنسية.

وهناك فيلا أحمد شوقى أمير الشعراء المعروفة بكرمة ابن هانىء التى انتقل إليها من وسط البلد. وخلف الفيلا كان يعش أقرباؤه فى بيت صغير أصبح مقرا لسفارة المكسيك. وفى مقابل الكرمة كانت فيلا توجو مزراحى المخرج السينمائى وفيلا المليونير اليهودى ليفو بيريز ثم سراى الأميرة خديجة بنت الخديو توفيق التى كانت عامرة بالأفراح على مدى سنوات عند تزويج بناتها الستة. وبجوار كوبرى عباس «الجيزة» أراضى عائلة غالى وفى وسطها فيلا عطا عفيفى بك وأخرى لأخته هدية هانم زوجة بهى الدين بركات.

هكذا كانت منطقة غرب النيل التى صنعها بيع أراضى الدائرة السنية، ومنطقة شرق النيل التى خطط لها إسماعيل التى اتصلت بالقاهرة الفاطمية كما سبقت الإشارة.



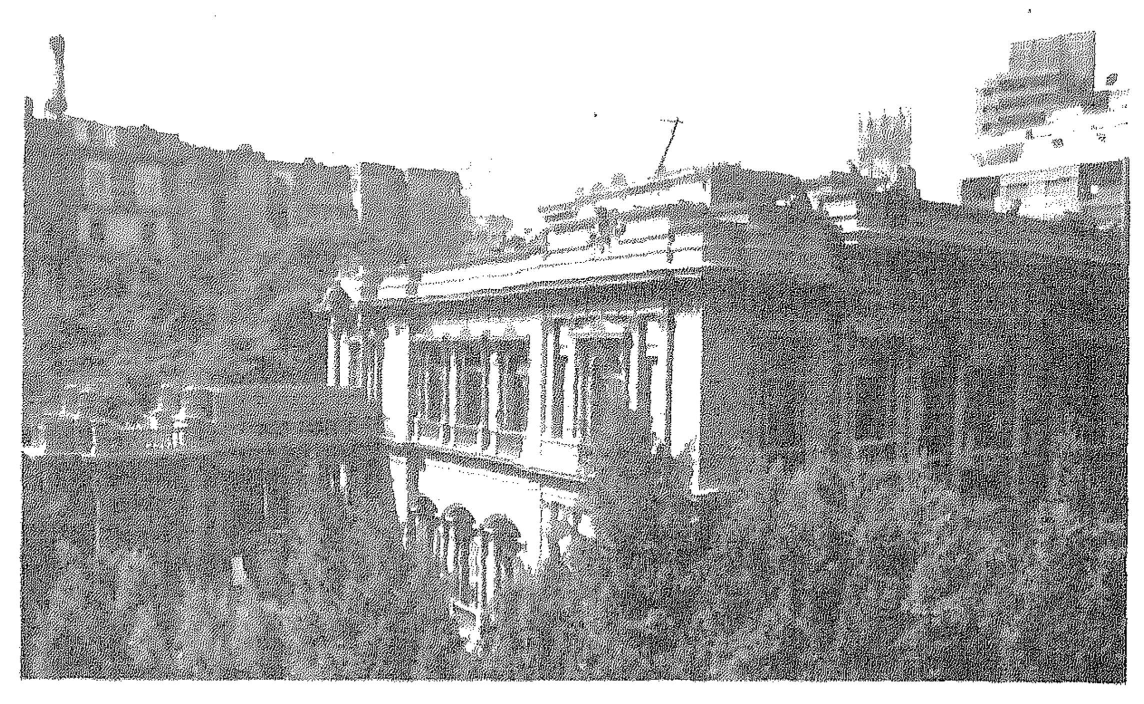
قصر عدلى يكن باشا

لكن .. ما الذى حدث لهذا العمران على مدى السنين؟!

رحيل أبناء الصفوة

الحاصل أنه بعد مغادرة اليهود للبلاد ومعهم الأجانب فى أعقاب حرب فلسطين «١٩٤٨» ثم فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢ وما تلاها من تأميم شركة قناة السويس «١٩٥٦» وتأميم رأس المال الأجنبى «١٩٥٧» ثم رأس المال المحلى «١٩٦١» بدأ هذا المربع العمرانى الكبير يفقد طابعه الذى كان يميزه حيث زحف إليه أبناء البلد وبعضهم ممن كانوا يعملون عند اليهود والأجانب على وجه الخصوص. وتدريجيا بدأت الشرائح الاجتماعية الجديدة من الطبقة الوسطى أولا تطبع المكان بخصالها وخصائصها الأمر الذى أدى إلى رحيل من بقى من أبناء الصفوة عن المكان إلى مناطق أكثر هدوءا وصفاء مثل مصر الجديدة التى كانت قد تأسست مع مطلع القرن العشرين وإلى منطقة غرب النيل حيث أقيمت أحياء الدقى والعجوزة فى أراضى الدائرة السنية الخديوية التى سبقت الإشارة إلى ظروفها.

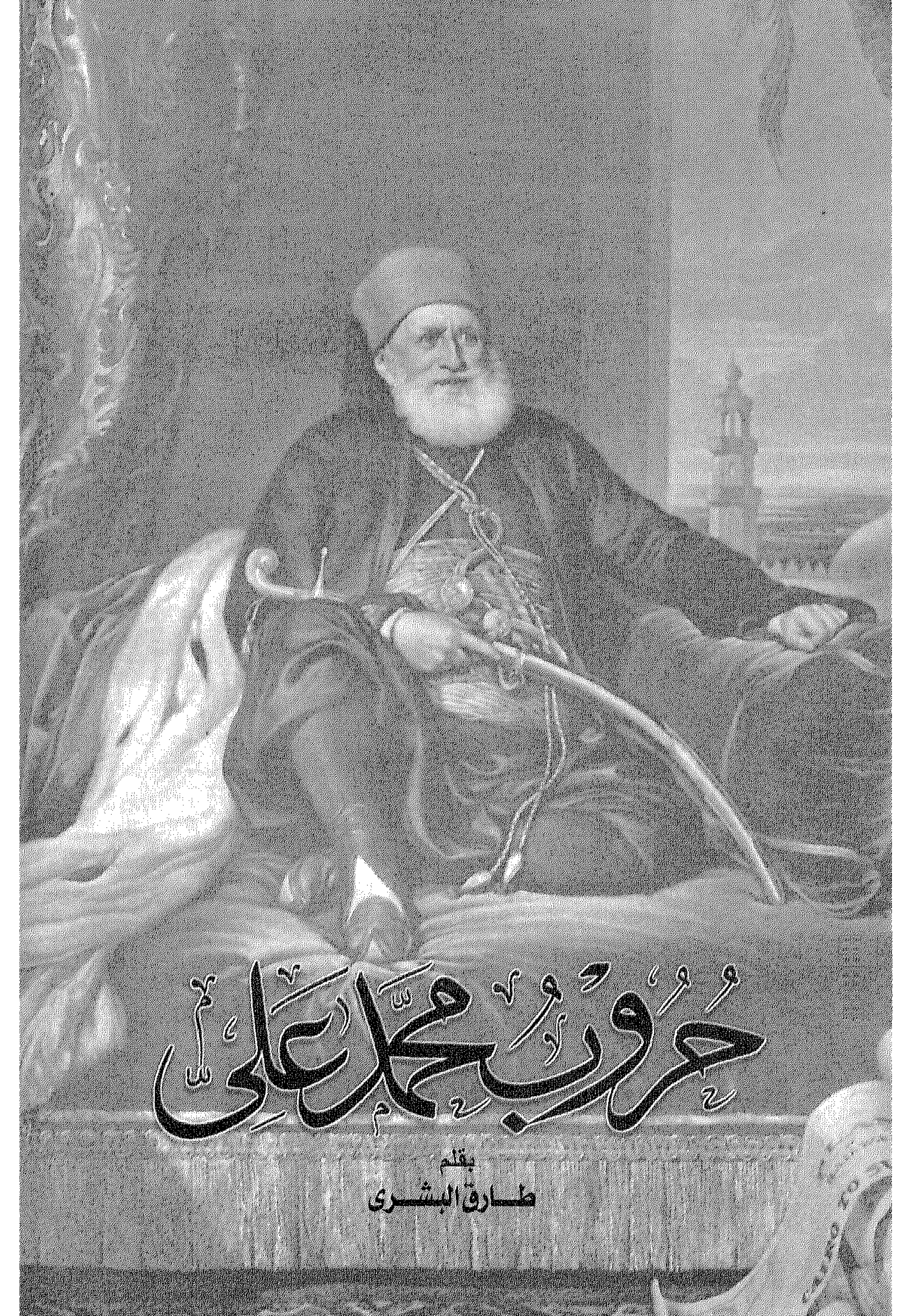
وبدأت حركة منتظمة بطيئة وخاصة بعد منتصف سبعينيات القرن العشرين لتحويل المبانى الصغيرة والفيلات فى قاهرة الخديو إسماعيل إلى محلات تجارية وشركات ومؤسسات وبنوك، أو هدمها حسب مقتضى الحال وإقامة عمارات شاهقة وفنادق فخمة، وقام بعض أصحاب المحلات بتغيير مجال عملهم إلى المجالات الأكثر ربحا ورواجا حيث مطاعم الكشرى والفول والطعمية ومقاهى الشيشة. والذى كان يخالط الحياة فى وسط البلد فى أواخر الأربعينيات ونهاية الخمسينيات يكتشف أن كثيرا من مجال ذكريات الشباب والكهولة قد ضاع إلى الأبد.. فهذا مقهى وبار بوديجا الذى ذكره



قصر سعيد باشا حليم

نجيب محفوظ فى السمان والخريف مثلا يتحول إلى محل «كشرى سحس»، وفوتر كـــوان «أى ركنك» الذى خلده نجـــيب محـفـوظ أيضـا تحـول إلى مطعم «بيـتـزا هت» بعد أن شـغله «أسـترا» سنين عددا، ومقـهى نيو كورسـال أصبح محلات عـامة. إلخ.

كـمـا تحـولت منطقـة غـرب النيل إلى عمارات شاهقة.. فنادق ومحلات وكافيتريا تحـجب رؤية النيل على الذين يقـيـمـون خلفها ويكفى من باب السخرية والتأمل أن أحمد شوقى عندما كان يعيش فى كرمته كـان يرى الأهرامـات من شـرفـة الطابق الثانى «هل يتخيل أحد هذا!!» فوفرت عليه رحلة أسـبـوعـيـة كـان يقطعـهـا من سكنه القديم فى وسط البلد لكى يستمتع لبعض الوقت مع شيطان شـعـره بالطبـيـعـة عند سفح الهرم. وأكثر من هذا فلقد أحاطت العشـوائيات بغـرب النيل زاحفـة من ميت عقبة وإمـبابة وبولاق الدكرور، وانتـشرت المحـلات وأمـاكن العـمل من كل لون دون مراعـاة لأى سلوك. وأذكر أن كاتبنا أحمد بهاء الدين كتب يوما كيف أنه كان يعيش فى منطقة الدقى وكانت تعرف بأنها منطقة سكنية يحظر اقامة محلات عامة فيها من أى نوع ثم تحولت إلى عشـوائية كـبيـرة حيث تحولت حدائق البـيـوت إلى محـلات وورش للسمكرة فبدأ القادرون فى الرحيل عن المنطقة إلى منطقة المهندسين الجديدة هربا من الضـجـيج .. لكن سـرعـان مـا تحيط العشـوائيات بالمنطقة فيهرب الناس إلى المقطم وإلى المنتجعات الجديدة وأظن أنها لن ترحم من تراكم العشـوائيات طالما أننا لا نحـتـرم قانونا ولا نسـتطيع تنفيذه أمام الغرائز وإغراء المال. ■



حروب محمد على
بقلم
طارق البشرى

لايمكن لحديث أن يتصل عن محمد على دون أن أشير إلى الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال، لأننى أدين له بأن منهجه فى كتابة التاريخ صحح لى نظرتى إلى أحداث التاريخ المصرى والعربي عن عصر محمد علي وأرانى الزاوية التى يمكننى منها أن أتابع وقائع هذا التاريخ واتفهم سياقها. وهو فى ظنى مؤسس المدرسة العلمية الحديثة لكتابة التاريخ المصرى المعاصر، وهو المؤسس الأهم لأقسام التاريخ بالجامعات المصرية بدأ من جامعة القاهرة.

ومؤلفاته قليلة لاتتجاوز ستة كتب فيما أعرف، ولكن خصوبة الأستاذ لاتحسب بقدر ما سطر من صفحات فقط، ولكن يضاف اليه قد ربى من علماء وباحثين وقدر ما أرسى من مناهج وحل من مشاكل بحث وبلور من فكر.

وشفيق غربال لا يوجه حديثه فى كتبه ودراساته إلى جمهور القراء، إنما هو يخاطب الباحثين، ويعودهم على النظر المشرف، وعلى تعدد جوانب النظر للأحداث وتعدد مستويات التجريد والتطبيق، وعلى كيفية الحكم على أحداث العصر المؤرخ له بمعايير يستخلصها من ذلك العصر المؤرخ له وحده. وأنت إن كنت باحثا وقرأت له بحثا واحداً أو صفحتين اثنتين، فلن تنساه بعدها أبداً.



وأنا فهمت محمد على وعصره من شفيق غربال أكثر مما فهمته من أى مؤرخ آخر، لأنه نظر فى وقائع محمد على فى اطار عصره ودون أن يضيف اليها عناصر أخرى من عصر المؤرخ. أو بعبارة أدق ، كان أقدر من استطاع أن يستخلص الدلالات المقنعة المستقاة من العصر الذى جرى فيه الحدث دون أى اضافة إليه من فكر المؤرخ وعصره. لذلك جاءت الأحداث أكثر استقراراً وأكثر منطقية فى اطار السياق الذى وضعها فيه هذا المؤرخ الكبير، وله من كتبه الستة رسالته «المسألة المصرية وصعود محمد على»، وكتابه «محمد على الكبير» ظهر سنة ١٩٤٤ فى سلسلة أعلام الاسلام.

يقول المؤرخ «لنبدأ بحثنا من آخر ما وصلنا اليه، ولنثبت ما نراه فيه بلا لبس: إن محمد على بدأ وعاش وانتهى عثمانياً مسلماً، وان مهمته من أول الأمر إلى آخره كانت إحياء القوة العثمانية فى ثوب جديد» ثم يقول «رفض أن يكون معول الهدم فى العالم العثمانى، حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال والباعث المحرك له اسمه العصبية القومية، وكان

آخر من يعلم إن انفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ووقوع الأجزاء جزءً جزءً فى حكم الدول الغربية».

وهو يسمى المشروع السياسى لمحمد على «مشروع إحياء العالم العثمانى». ويقول إن الأوروبيين من معاصرى محمد على خفى عليهم هذا المشروع، لأن مصر التى اتخذها محمد على أساساً لعمله هى «عظيمة فى ذاتها ، ويصح جداً أن تكون ملكاً قائماً بنفسه ولنفسه» ومن الأوروبيين أخذ المؤرخون المحدثون. ثم يشرح وجهة نظره قائلاً أن محمد على كان «ينتمى لطور من أطوار التفكير الانسانى لايعرف لتنظيم الحياة السياسية إلا أساساً واحداً هو وحدة الحضارة، أو ما يمكننا أن نسميه وحدة التماسك التاريخى، وهذه الوحدة لاتتنافى مع انفصال الأوطان، بل ولا تتعارض مع تعلق الناس بأوطانهم الخاصة، ولا تشترط إلا عدم فناء الكل فى الأجزاء» وأن هذا التنظيم لايستتبع حتما وحدة الحكومة، وأن ثمة ماتختلف به الأجزاء إلى مايقوى به جزء يسيطر على التكوين العام أو لدرجة أقل من ذلك، مع بقاء المحافظة على نوع الحضارة.

ثم يقول شفيق غربال «أنا بهذا التصور للخطة المحمدية العلوية نذلل كل الصعوبات التى تعترضنا فى فهم أعماله ونستغنى عن اختراع تفسيرات لها».

***

وبهذا النظر يمكننا أن نفهم الاطار السياسى لحروب محمد على، ونحن نعرف أن «قاطرة التنمية» فى ذلك العهد كانت هى الجيش، ويقصد «بالقاطرة» هنا مجال الاهتمام السياسى الأساسى، والذى تقتضى تنميته أو أنها تؤدى إلى شدً مجالات النشاط الاقتصادى والثقافى المختلفة إلى هذا المجال المحرك الأساسى ، فيتحرك المجتمع كله ويتصاعد نموه، وبتنمية الجيش يقوى محمد على بحسبانه من ولاة الدولة ويعظم مكانه بين النخبة العثمانية، وتنمو به أهمية مصر بحسبانها قاعدة الحكم التى أوجدت هذا الجيش، فى الاطار العثمانى العام، وتقوى به سلطة الخلافة فى مواجهة ثورات الداخل عليها ومخاطر الخارج المحدقة بها .

وأول حروب محمد على كانت الحروب الوهابية «١٨١١ - ١٨١٩». إذ قامت ونمت الحركة الوهابية السعودية فى جزيرة العرب، بدءً من نجد ثم امتدت إلى الحجاز وسيطرت على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة والسلطان العثمانى هو خليفة المسلمين، ومن ألقابه أنه «حامى الحرمين» وخروج الحرمين من حمايته مما يجرح شرعية حكومته حسب الثقافة السائدة، فكلف والى مصر بإعداد الحملة التى تقضى على الوهابيين وثورتهم، وكان انتهى محمد على من ملاحقة المماليك بمصر وكسر شوكتهم . فأعد جيشا من قواته التقليدية من الأرناؤوط فى غالبهم وفرسان الترك، وأعد المراكب التى تنقلهم عبر البحر الأحمر، بقيادة طوسون ابن محمد على، وهُزم جيشه أولا ثم عاد إلى الانتصارات الجزئية وعلى مدى متطاول واستولى على مكة ثم المدينة فى أواخر ١٨١٢ وأوائل ١٨١٣، ثم تكبد جيشه مجموعة خسائر فادحة.



وسافر إبراهيم الابن الأكبر لمحمد على إلى هناك وارسلت الامدادات من الجند وغيرها وبقيت الحرب سجالا من الحجاز إلى نجد حتى سقطت الدرعية عاصمة الوهابيين والسعوديين فى سنة ١٨١٨، وهى فى نجد قرب الرياض. ودمرها جيش محمد على تدميرا رغم سابق وعده بتأمينها، كما أنه أمن زعيمهم عبد الله ابن سعود وكرمه ثم أرسله إلى الاستانة فقتله هناك رجال الباب العالى.


بعض جنود جيش محمد على

والحرب هنا عثمانية من بدئها إلى نهايتها، وحملة محمد على إلى الجزيرة العربية كانت حملة قمع لثورة قامت هناك ضد الدولة العثمانية. وعمل فيها الوالى بجيشه امتثالا لأمر السلطان، واخضع الثائرين هناك لصالح السلطان. وكان مكسب محمد على من هذه الحرب ومن الانتصار فيها، إنه زاد قدرة فى حراسة الدولة العثمانية وعظم شأنه بحسبانه والياً قوياً يمكن أن يحقق للدولة من الهيبة والاحترام مايستحق بشأنه البقاء ونمو النفوذ سيما أن الأمر هنا يتعلق بالحرمين الشريفين وبقبلة المسلمين ومهبط وحى رسالة الاسلام ومتجه الحجيج فى كل عام.

***

الحرب الثانية لمحمد على هى حرب السودان والتى بدأت فى سنة ١٨٢٠ بعد حول واحد من انتهاء حرب الوهابيين. وفتح محمد على للسودان، استخرج له المؤرخون الكثير من الأسباب، منها تعقب بقايا المماليك الهاربين من مصر جنوباً والذاهبين إلى السودان، ومنها حرص محمد على على التخلص من بقايا قوات الأرناؤوط فى جيشه التقليدى ومنها مايعتبره الكثير من المؤرخين أكثر أهمية وهو السعى لتجنيد السودانيين فى الجيش النظامى الجديد الذى يزمع الوالى انشاءه، وكذلك السعى لكشف مجرى نهر النيل بالقدر المناسب لتأمين

مورد المياه لمصر، مما يشير إليه إبراهيم فوزى فى قول أن محمد على عرف «دولا أوربية» بدأت تتحكم فى مصر بالسيطرة على السودان.

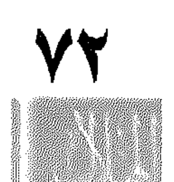
وكتب التاريخ تفصل وقائع الحروب والمعارك، لجيش تكوّن فى البداية من نحو أربعة آلاف مقاتل، وتحرك من مصر جنوباً إلى دقهلة وإلى بربر ثم أم درمان، وفتح سنار، وفّتح كردفان فى الغرب وسار إلى واد مدنى على النيل الأزرق وأسس مدينة الخرطوم عند ملتقى النيل الأبيض والنيل الأزرق، وضم ممالك وقبائل وأقاليم بما يعتبر به أن جيش محمد على وحكمه من بعد هو وماوحد السودان الحالى، شمالا وشرقا ووسطا حسبما يظهر حتى الآن، ثم ضم اليه ما فتحه إسماعيل بحروبه فى الربع الثالث من القرن العشرين، ثم إقليم دارفور من بعد، وإنما يمكن القول له رغم القسوة التى اتبعت فى الحرب مماله مثيل فى كل الحروب من قبل ومن بعد، فان البداية والجزء الأغلب فى توحيد السودان جرى على يد محمد على فى هذا الوقت المبكر.

وهنا يذكر الأستاذ غربال ، أن السلطنه العثمانية كانت تباشر حقوق السيادة من قواعد عدة، أولها ولاية جدة مع الساحل الشرقى للبحر الأحمر ويلحق بها ولاية «الحبش» والتى تشمل سواحل السودان واريتريا والصومال الفرنسى بغير امتداد داخلى محدد فى قلب أفريقيا، ثم ثانيها باشوية مصر، وثالثها باشوية دمشق، ورابعها باشوية بغداد.... وهكذا. ويستخلص من ذلك أن شمول ولاية جده ولاية الحبش يعنى أن شاطىء البَحر الأحمر كانا يشكلان تكوينا واحداً ومن ثم «ينبغى أن نلاحظ هنا أن وصل فتوح محمد على السودانية بمناطق النفوذ العثمانى على البحر الأحمر أضبط تاريخياً وأدق من وصل تلك الفتوح - كما يفعل المحدثون - بالفكرة النيلية البحتة» ومن هنا نلحظ أن فتح السودان جاء تاليا للحرب الوهابية . وكان محمد على يجمع بين ولايته على مصر وولاية جده. وكان ذلك كله مما يمكن من مراقبة أنشطة الأوروبيّين فى هذه المناطق.

ومن هنا يبدو أمن الدولة الإسلامية مفسرا للأمر كله. والحال أن هذه الأقاليم المفتوحة كان يسكنها مسلمون ، وأغلبهم من أصول عربية وفيهم من المسيحيين، فالفتح هنا ضم جزء من أراضى المسلمين إلى الأمة الاسلامية، أى أنه عمل على توحيد ماكان مجزء من وحدات فعلية وإمارات صغيرة وممالك ضعيفة ، وربطها عن طريق مصر بالعالم الاسلامى الحضارى الأكبر. وقد قتل إسماعيل ابن محمد على فى هذه الحرب وأكملها إبراهيم.

***

ثم ترد بعد ذلك الحرب الثالثة، وهى حرب اليونان. إذ كانت ثورة اليونانيين ضد الدولة العثمانية قامت فى مارس ١٨٢١ وكانت القوى الأوروبية الكبرى هى من ساعد الثوار وأجج حركتهم لا لتستقل اليونان فقط ولكن لكى تنهك القوة العثمانية، واستنجد السلطان محمود الثانى بمحمد على فى يناير ١٨٢٤ وكلفه بقمع الثورة. وجند محمد





كلوت بك

على لهذه المهمة، فأعد حملة من ٥١ بارجة حربية مصرية و١٤٦ نقالة و١٧ ألف جندى من المشاه وغير ذلك ، وتحركت فى يوليه ١٨٢٤ وخاضت ماسمي بمعارك شبه جزيرة المورة باليونان من ١٨٢٥ حتى كانت واقعة نفارين فى أكتوبر ١٨٢٧.

لقد توحدت القوى الغربية الأوربية، انجليزية وفرنسية وروسية، ضد الأسطولين المصرى والتركي. ونسفت أغلب السفن الحربية التركية المصرية. وانتهت المعركة بهزيمة قضت على القوة البحرية لمحمد على التى كانت آلت إلى أن تكون مهددة للهيمنة البريطانية بخاصة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، أو بالأقل فى القسم الشرقى منه، وبمراعاة أن الدولة العثمانية كانت تسيطر على نحو ثلاثة أرباع سواحل البحر الأبيض. وهى السواحل الشمالية للبحر جنوبى بلاد اليونان وتركيا والأناضول ثم السواحل الشرقية للبحر على طول بلاد الشام من سوريا ولبنان وفلسطين، ثم السواحل الجنوبية للبحر على طول سواحل مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب.

وهنا تظهر طبيعة هذه الحرب فى إطار الدولة العثمانية وبتكليف من السلطان وبهدف قمع الثورة اليونانية القائمة ضد هذه الدولة. ومحمد على فى خوض هذه الحرب إنما يتحرك بقواته لتنفيذ السياسات العثمانية، فى مواجهة هذه الثورة وفى مواجهة صراع القوى العالمى بين هذه الدولة وبين الدول الأوروبية الغربية التى كانت تعمل على تفكيك الدولة العثمانية وإرث أسلابها.

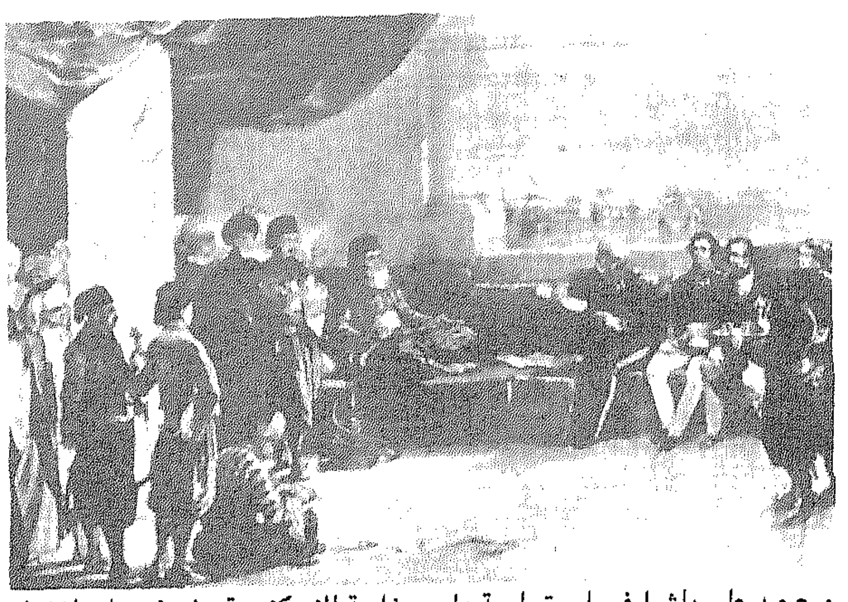
***

ثم ترد بعد ذلك رابعة الحروب وخامستها، وهما حرب الشام الأولى فى أكتوبر ١٨٣١، وحرب الشام الثانية فى يونيه ١٨٣٩. ونحن هنا فى مجال التعرض لحروب قام بها محمد على ضد السلطان العثمانى نفسه، وهنا يثور السؤال عن كيف يتأتى أن تكون الحرب ضد السلطان هى فى اطار الدولة العثمانية.

إن كثيراً من المؤرخين، تراوحت تحليلاتهم فى ذلك، فمنهم قائل أن محمد على كان يقصد الاستقلال بمصر مع التوسع الأمبراطورى لها جنوباً فى السودان وشمالاً فى بلاد الشام. وغلب على هؤلاء الصدور عن فكر الجماعة السياسية المصرية التى تبلورت فى بدايات القرن العشرين من خلال التحرير الوطنى المصرى، ويلحظ هذا المناخ فى كتابات الوطنيين والمصريين مثل عبدالرحمن الرافعى، ومنهم قائل بأن محمد على كان يقصد إقامة وحدة عربية بدليل وقوفه عند الحدود الشمالية لسوريا لم يجاوزها ووقوفه فى السودان عند حدوده الجنوبية تقريباً لمن يتكلم العربية، ومن هؤلاء مثلا كتابات العربى المشرقى د. زوقان قرقوط.

وفى ظنى أن محمد على كان يستشعر الغدر من الباب العالى بما يقصد الباب العالى توريطه فيه لافساد سعيه فى بناء قوة عسكرية صارت أقوى من جيش السلطان، إذ نجح محمد على فيما فشل فيه السلطان محمود من بناء القوة العسكرية الجديدة. وإذ كان محمد على يتخلص من جنوده القدامى التقليديين (من الأرناؤوط وغيرهم) فى حروب ينتصر فيها فى جزيرة العرب

والسـودان، أمـا محـمـود فلم يجد طريقه للتخلص من جنوده القـدامى التـقليـديين (الانكشـارية) إلا بمذبحة دبرها لهم ونفـذها فى سنة ١٨٢٦، فظهـر بمظهر قائد يقتل جنوده والجندى رجل معـد لأن يستقبل الموت، ولكنه يكون دائماً معتادا أن يكون ذلك الا أن ظهره آمنا من وقواده وأنهم لايدفعونه إلى حتفه تخلصا منه وإلا رفض طاعتهم. وكيف لمحمد على ولنخبة الحكم العثمانى أن تطمئن لمجموعة حاكمة فى الباب العالى تتخذ هذا القرار الأحمق العجيب وهو أن تقرر ذبح قوات من قواتها المسلحة.وحتى إن كان محمد على ومن على شاكلته ضد الإنكشارية فهم لايطمئنون إلى حكام يفكرون فى قتل قوات لهم. وقد دفع السلطان وبابه العالى بأسطول محمد على فى معارك خاسرة فى اليونان وافقده أغلب قطع اسطول بناه بشق النفس على مدى عقدين من الزمان.



محمد علي باشا في استراحة دار صناعة الاسكندرية يشرف على إنشاء السفن وترميمها وأمامه الكولونيل كامبل قنصل بريطانيا العام

لقد كان صنيع محمد على عندما قاد قواته البرية بقيادة ابنه إبراهيم إلى الشام، كان ذلك منه عملا من أعمال الفتنة والتمرد،وهو لم يفكر فى أن يستقل بمصر فى ذلك الوقت من بدايات ١٨٣٠، وكان ذلك لايكلفه مؤونة حملة عسكرية، وكان يمكن أن يتخذ جيشه فى ذلك وضع الدفاع عن مصر التى أعلن استقلالها وهو واثق أن السلطان لن يستطيع أن يقتحم عليه داره، وكان مع محمد على فى ذلك أرض السودان وشعبه وسواحل البحر الأحمر ووضعه فى الحجاز وجزيرة العرب. إن كان يريد أن ينشىء إمبراطورية مصرية مستقلة. ولكن سعيه بجيشه البرى الكثيف إلى أرض الشام هو دليل على أنه يقوم بعمل من أعمال العصيان والتمرد العسكرى ضد سلطة الدولة المركزية فى النطاق العثمانى.

وقد انهزم جيش السلطان محمود هزيمة واضحة فى ١٨٣٢ ودمرت قواته فى قونية. وأرسل القائد إبراهيم إلى أبيه محمد على يخطره أنه لم تعد توجد فى طريقه إلى استامبول أية قوة مقاومة . وطلب إلى أبيه «بحق حبنا لهذه الأمة .. ولمصلحة هذه الأمة كلها ، ومن أجل ذلك يجب علينا أن نرجع إلى القرار

الأول أي خلع هذا السلطان المشؤوم ووضع ابنه ولى العهد على العرش، حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق» (البطل الفاتح إبراهيم باشا داوود بركات) إلا أن محمد على قرر أن التحرك الأوروبي، لم يكن يسمح بذلك. وقد كان إبراهيم متنبها إلى هذا الاعتبار واقترح على أبيه أن يتحركوا بسرعة قبل أن تتدخل أوروبا. ولكن الأب كان يدرك أن هذه المسألة من الخطورة بحيث أن أوروبا لن تستطيع هضمها، وأن السرعة لن تجدى.

***

وقد ثبت من بعد صحة نظر محمد على وصواب تقديره لموازين القوى. ذلك أن وجود وحدة سياسية أو تنسيق سياسى تستمده قوة عسكرية واحدة قادرة أو تحالف عسكرى وثيق، ويجمع جيش استامبول إلى دمشق إلى القاهرة إلى الحجاز، أن وجوداً كهذا يمتنع به احتمال أى غزو أجنبى يهدد هذه الديار ، وهذه خبرة التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه. وما كان لقوى الغرب الاستعمارية الطامعة فى هذه المنطقة وفى اقتسامها بين بعضها البعض، أن تقبل وتتسامح فى تحقق هذه الوحدة الوثيقة.

وقد كان صنع محمد على أن يتحقق به هذ الهدف،وكان لابد – لدى الأوروبيين – من الحيلولة دون بلوغه هدفه.

لذلك وقف محمد على جيشه عند حدود الأناضول وجعل ابنه يوقع اتفاقية كوتاهيه فى مايو ١٨٣٣ بهذا الوضع، وصارت له ولايته بالشام مع ولايته مصر على مدى الثلاثينيات.

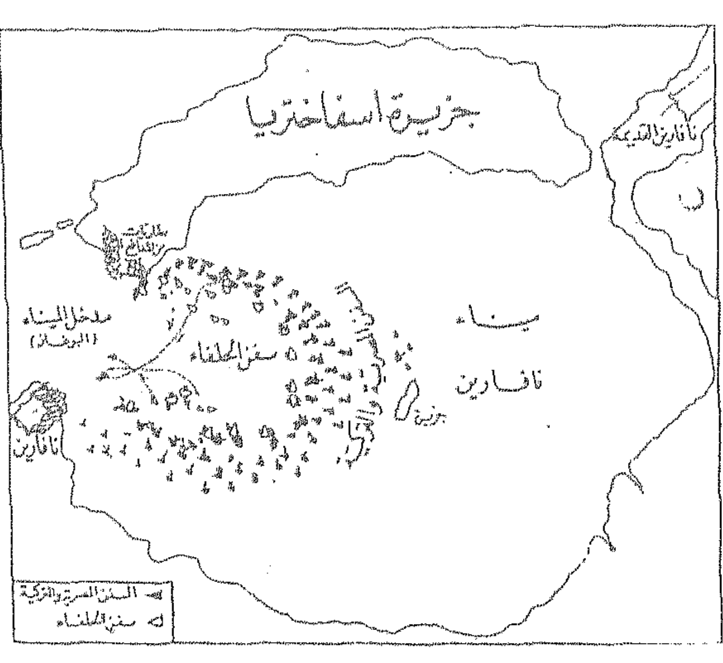
واستمر السلطان محمود يعمل لكى يسترد من محمد على ماجرده منه، وبدأ السلطان تحرشه العسكرى بجيش الوالى فى شمال سوريا وبدأ جيشه زحفه فى مايو ١٨٣٩ عند قرية نصيبين وما لبث جيش محمد على أن واجه هذا الزحف وحسبما يذكر القائد إبراهيم فى خطاباته لأبيه : كان جيش السلطان يتكون من نحو ٩٠ ألف جندى نظامى وغير نظامى، وكان جيش إبراهيم يتكون من ٣٠ ألف جندى نظامى.

وانتصر جيش إبراهيم فى تلك المعركة البرية الفاصله انتصاراً عسكرياً تاماً، وانفتح من جديد الطريق أمام جيش محمد على إلى استامبول، وكان السلطان محمود الثانى توفى بعد ستة أيام من المعركة، وخلفه ابنه السلطان الشاب عبد الحميد الأول. وفى الوقت ذاته فان فوزى باشا قائد الاسطول العثمانى جمع قطع أسطوله وأبحر بها إلى الأسكندرية منضماً إلى محمد على ومؤيدا له . وبذلك تجرد السلطان من جيش برى مهزوم ومن قوات بحرية أسلمت زمامها لخصمه الثائر عليه.

ومن فعلة فوزى باشا هذه نفهم طبيعة الصراع بين الوالى محمد على والسلطان محمود وبابه العالى وأن محمد على فى حروب الشام لم يكن مؤسسا لجماعة سياسية مصرية ابتغى أن يحقق استقلالها عن الدولة العثمانية، ومحمد على كان هو واغلب رجال نخبته الحاكمة فى مصر من هذه الدولة العثمانية لغة وثقافة وارتباطا، بإطارها الفكرى السياسى المستمد من المفهوم السياسى للجامعة الإسلامية. ولم يكن أيضاً داعية لفكرة عربية، إنما كان



يتصارع مع السلطان في إطار الدولة العثمانية، وكان صنيعه صنيع المتمردين والثوار لاصنيع طلاب الانفصال أو الاستقلال. كما نفهم إن فوزى باشا عندما تحرك بأسطوله العثمانى إلى الأسكندرية كان يعبر عن دعمه للقوة العثمانية الثائرة التى يمثلها محمد على، وتنقل إلينا مراجع التاريخ أن الشعب التركى فى أراضى الأناضول كان يتعاطف مع إبراهيم وجيشه ومع محمد على، أكثر مما كانوا يتعاطفون مع محمود الثانى .



ميناء نافارين والواقعة البحرية

مع انتصار جند إبراهيم بدأ يتحرك بجيشه إلى ما وراء جبال طوروس شمالاً وغرباً فى أراضى الأناضول، لولا أن وصل إلى معسكره «المسيوكايه» مندوب وزير خارجية فرنسا يحمل اليه كتابا من محمد على يأمره بالوقوف فأطاع وتوقف. وتدخلت انجلترا وفرنسا وروسيا متحالفين معا لوقف محمد على وللدفاع عن السلطان الشاب الجديد وبابه العالى الضعفاء . ولما حاول محمد على أن يقطف بعضا من ثمار انتصاره تجمعت سفن الحلف الغربى أمام شواطىء الشام فتراجع محمد على، وكان بعد ذلك ماكان من انعقاد مؤتمر لندن فى سنة ١٨٤٠ وما فرضه على محمد على من تصفية جيشه مع بقاء حكمه لمصر ومن بعده ذريته، وكان القصد من ذلك فيما عرف تاريخياً، وهو كسر وحدة هذه المنطقة» أى كسر خط الدفاع العسكرى الحضارى السياسى الممتد من الشام ومصر والحجاز واستامبول وهو خط الدفاع الذى بقى نحو ثلاثة قرون، ولم يجتمع من بعد قط أى خط انصال ثابت بين استامبول ومصر قط ولا اجتمع قط من بعد مايصل بين دمشق والقاهرة وجزيرة العرب على نحو مستقر .

ولكن مايتعين أن نذكره لمحمد على، أن فشل مشروعه السياسى لم يأت من داخل تجربته ولا كان جاء من أسلوب بنائه لدولته وجيشه، بمراعاة معايير العصر الذى عاش فيه والسياق التاريخى الذى عمل فيه إنما جاء انكسار مشروعه من خارجه، وبموجب موازين القوى الدولية التى فرضت أوضاعها – بكل مافيها من قسوة وظلم – على الواقع العالمى فى القرن التاسع عشر.

والحمد لله

زبيدة هانم زوجة
محمد على الكبير

المرأة في حياة محمد على

بقلم

د.عبد المنعم إبراهيم الجميعى

على الرغم من أن التاريخ خلّد في أسفاره سطورا مضيئة تشيد بدور المرأة فى تكوين عظماء الرجال فإن الحديث عن حريم محمد على مؤسس مصر الحديثة ، وأفراد أسرته من النساء ، كان من المحظورات كما كان من الأمور البعيدة عن متناول فكر الباحثين نظرا للجدران العالية والستار الحديدى الذى أحاط بهن ، والذى كان من الصعب اختراقه وكشف خباياه ، وأيضا لندرة المادة العلمية فى هذا الموضوع، واعتبار البعض أن الكتابة فيه قد يكون مجانبا للحشمة مما جعله يؤثر السلامة .



ومع ذلك فإن بصيصا من الضوء كان يظهر بين حين وآخر عن طريق النساء الأوروبيات اللاتى تسابقن لاكتشاف ذلك المجهول فقمن بزيارة نساء وبنات محمد على فى قصورهن بهدف اكتشاف خبايا الحريم الشرقى العالى الذى ظل مغلقا أمام كل من يقترب منه ، وكان من هؤلاء المستشرقة الإنجليزية «صوفيا لين» مؤلفة كتاب «The english Womanin Egypt» والذى ترجم إلى العربية تحت عنوان «حريم محمد على باشا» . كما كان يظهر بين ثنايا بعض الكتابات المتناثرة عن أفراد هذه الأسرة . ولما كانت الكتابة فى هذا الموضوع تعد من الأمور المهمة للتعرف على دور المرأة وأثرها فى تكوين مؤسس هذه الأسرة فإن الباحث الذى يخضع دراسته فى ثوب يحترم الحقيقة .

إن أثر المرأة فى حياة محمد على ودورها فى وضع بصمات واضحة فى تكوينه ، وفى مساندته لارتقاء سبيل المجد يبدو جليا فى دور والدته «زينب بنت حسين أغا» فى تكوينه وتنشئته . تلك السيدة الحازمة التى توفى زوجها «إبراهيم أغا» والد محمد على وهى فى ريعان شبابها ، وأوقفت حياتها على تربية

محمد علي باشا

بنها ، ورغّبت إليه الشعور بالطموح والمجد ، وحببت إليه الرغبة فى القضاء على الأشرار والسفاحين إنتقاما لأبيه الذى قتل على يد عصابة من اللصوص . وفى دور زوجته الأولى (١) أمينة هانم بنت على باشا الشهير بنصرتلى (٢) .

حلم المجد

لقد رأت زينب قبل ولادتها لمحمد على حلما فى منامها كان فى نظرها حلم المجد والعظمة ، فقد رأت ابنها يعتلى فرسا أبيض مزينا بغطاء من الفضة ، وركابه الفضية تبرق فى الشمس مع كل خطوة يخطوها وهو يصعد به بصعوبة طريقا وعرا شديد الانحدار ، وعندما وصل إلى القمة نزل من على فرسه ليصعد أعلى منصة ثم يجلس على كرسى ضخم مطلى بالذهب وهو ممسكا سيفه (٣) .

ولما حكيت زينب ما رأته لزوجها قال إنها خرافات ونصحها بألا تكثر من الأكل قبل الذهاب إلى الفراش ، ومع ذلك . فقد ظلت زينب مقتنعة فى سريرتها بأن هذا الحلم له مغزى خاص (٤) ولذلك لجأت

إلى عرافة ذاع صيتها فى قوله Kavala(٥) وطلبت منها تفسير هذا الحلم ، وعما يخبئه الزمان لمولودها الجديد ، فتنبأت لها بأن ولدها سيرقى ذروة المجد والعظمة، وسيكون حاكما قويا لأمة كبيرة ، وأن السماء بشرتها بذلك فرأت بعينيها عرش ابنها وهو يجلس عليه (٦) فاغتبطت أمينة بهذه النبوءة ولم تكف عن حكايتها لابنها محمد على عندما ترعرع واشتد عوده فأثرت فيه تأثيرا شديداً وأقسم لأمه أنه سيعمل على تحقيق هذه النبوءة ، وشكرها على أنها كشفت له عن مستقبل حياته ثم لم يلبث أن أحس بدافع يدفعه إلى سلوك الطريق المؤدى إلى المجد فأخذ يرقب الفرصة حتى سنحت له (٧) .

وظل محمد على تحت رعاية أمه الحنون يستمع هو وإخوته إلى قصصها المثيرة التى كانت ترويها له مساء كل يوم قبل النوم عن مشاهير السلاطين وحكايات النبل والشهامة والفروسية وكان أحبها إلى قلبه قصة تلك الرؤيا التى رأتها أمه فى الحلم قبل ولادته والتى كانت طبقا لكلام أمه حلم المجد والعظمة

ولكن سعادة محمد على لم تدم طويلا فقد قتلت عصابة من اللصوص والده خلال مطاردته لها وشوهت وجهه ونقل جثمانه إلى بيته مضرجا بالدماء (٨) .

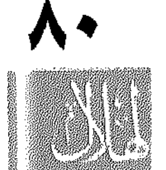
وعلى الرغم من طلب الكثير من الرجال الاقتران بوالدة محمد على فقد رفضت هذا الطلب رفضا باتا وباعت كل ما لديها للإنفاق على أولادها . وأخذت فى تحميس محمد على على اجتياز الصعاب بعد وفاة والده حتى لا يشعر أحد بيتمه ، وأن يكون أكثر قدرة على تحمل المسئولية.

يتيم الأبوين

ولم يطل المقام بوالدة محمد على حيث أصيبت بمرض خطير انتقلت على أثره إلى الرفيق الأعلى فبات محمد على يتيم الأبوين وحيدا ويرى الدنياحوله كأنها قفر مقفر لا يدرى ما المصير (٩) .

تولى تربية محمد على والإنفاق عليه عمه طوسون غير أن المنية عاجلته فأصبح الغلام يتيما قاصرا (١٠) وخلال تلك الفترة ظل الحلم الذى حكته له والدته فى ذاكرته يبعث فيه روح الأمل .

هذا عن دور والدة محمد على فى تكوينه وتنشئته أما عن دور زوجته الأولى «أمينة بنت على أغا» الأرملة الشابة (١١) فقد شجعته على تحقيق طموحه الذى لا يتوقف عند حد ، وكانت الشخص الوحيد الذى كان له الجرأة على ترويض أحلامه ومواجهته بأخطائه ، وعلى مر السنين أنجبت أمينة لمحمد على خمسة أطفال ثلاثة أولاد وبنتين وهم ابراهيم وأحمد طوسون ، وإسماعيل كامل وتوحيدة ، ونازلى . وبعد أن حشد الباب العالى جنوده لإخراج الفرنسيين من مصر تم استدعاء محمد على وتعيينه نائبا لقائد فرقة ألبانية مسافرة إلى مصر (١٢) فترك لزوجته حملا ثقيلا وهو مسئولية



تربية أطفاله الخمسة بعد أن أوصى ابنه الأكبر إبراهيم بأمه وإخوته . ومع أن أمينة عانت منذ سفر زوجها إلى مصر عشر سنوات من الوحدة . والخوف والقلق فقد تحملت بشجاعة وبدون شكوى كل ذلك ، وكان نصيبها فى هذه الفترة الانتظار كما كانت تتظاهر أمام الناس بأن حياتها هادئة سعيدة وهى ترعى بيتها وأبناءها الخمسة انتظاراً لعودة زوجها الحبيب إلى أن وصلها نبأ توليته نائبا للسلطان على مصر .

الحلم يتحقق

لقد وصل محمد على إلى حكم مصر بناء على رغبة شعبية حيث بايعه زعماء الشعب وهنا تذكر الحلم الذى كانت تحكيه له والدته مرارا وتكرارا والذى كانت قد رأته قبل ولادته بأنه سيكون عظيما . وبعد أن استقرت الأمور لمحمد على فى مصر أرسل إلى زوجته رسالة يأمرها فيها بارسال نجليه ابراهيم وطوسون إليه فى القاهرة ، وأن ترحل هى وابنها الأصغر اسماعيل وبنتاها توحيدة ونازلى إلى استنبول ليتعلموا البروتوكول والايتيكيت المتبع فى البلاط السلطانى .

وعلى الرغم من فرحة أمينة بمنصب زوجها كوالٍ على مصر فقد امتلأت الغيرة قلبها خشية أن تستميله إمرأة جميلة وصغيرة من حريمه أو تحظى به الفتيات الشركسيات وتحاول كل منهن جذبه ، وتعمل على أن ينسى زوجته وأبناءه الخمسة وتحاول أن تعطيه ابنا لترتفع به إلى مرتبة «قادن» أى زوجة مما ملكت أيمانهم (١٣) .

حقيقة لقد كانت أمينة تعلم أن زوجها يحترمها ، ولكن هذا الاحترام وحده لا يكفى، تلك المرأة المحبة لزوجها لذلك كانت الغيرة والشكوك تساورها .

لقد أدركت أمينة هانم أفندى أنه منذ اللحظة الأولى التى ستطأ قدمها أرض مصر فإن حياتها سوف تتغير تغييرا شاملا فمنصبها الجديد كان يتطلب منها مسئوليات كبيرة ، وكان عليها أن تساند زوجها فى حدود قدرتها . يضاف إلى ذلك أن مركزها كزوجة للوالى سيخرجها من محيط الحياة العادية كزوجة وأم ويجعلها السيدة الأولى أو هانم أفندى ، وأن تعطى انطباعا بأنها أسعد سيدة فى مصر .

وبعد أن وصلت أمينة هانم إلى أبواب القاهرة ، كان ابنها إبراهيم فى انتظارها ثم استقبلها الباشا وقادها إلى «الحرملك» لترى محل إقامتها الجديد ، حيث أنها بصفتها زوجته الأولى ستكون السيدة الرئيسية فيه . وعندما دخلت أمينة إلى هذا المكان رأت صفين من أجمل الفتيات واقفات لتحيتها ، فردت أمينة هانم التحية ثم قامت برفع الخمار والتفتت لمشاهدة نفسها فى المرآة ، وعندئذ أصيبت بصدمة ، واختفت الابتسامة من شفتيها عندما رأت فى صورتها آثار الإرهاق من السفر وبداية




التجاعيد على وجهها ، وظهور الشيب فى شعرها مما ذكرها بسنها ، فالتفتت إلى الفتيات مرة ثانية لتنظر إليهن بدقة لتجد فتيات ممتلئات بالصحة والحيوية والجمال أكبرهن لا يزيد عمرها على الخامسة والعشرين فأدركت أن منافستهن أمر مستحيل فاتخذت قرارها فى الحال وقالت فى نفسها أنا أمينة بنت على أغا أرفض اقتسام زوجى مع تلك الفتيات مهما كانت عادات وتقاليد هذا البلد، ثم اقتربت أمينة هانم من الباشا وطلبت منه أن تحدثه على انفراد ، وقالت له فى هدوء أرجو أن تفهمنى أفندينا سوف أقوم بكل إمكانياتى وقدراتى بمهام سيدة مصر الأولى ، ولكن من الآن فصاعدا أرجوكم أن تنسوا أننا زوج وزوجة ، فنظر إليها محمد على باستغراب دون أن يفهم سبب هذا القرار المفاجىء ، ولم ينطق بكلمة . ومنذ ذلك اليوم لم يطأ قدم أمينة هانم جناح الباشا ، ولم يدخل هو جناحها قط (١٤) ومع ذلك فقد ظلت أمينة على وفائها واحترامها لمحمد على، وإن ظلت تأخذ عليه إرسال أولادها إلى الحروب ومواجهة المخاطر للوصول إلى غايته وأهدافه ، ومع ذلك فإنها لم تفقد صوابها معه إلا بعد إحراق ابنها اسماعيل خلال حروبه فى السودان حيث انطلقت إلى جناح الباشا تفتح الأبواب بعصبية زائدة ، وهى تقذفه بالاتهام الرهيب أنتم المسئول عن موت اسماعيل . أنتم الذى قتلتم إبنى سامحكم الله . ومع كل ذلك ظلت أمينة على وفائها واحترامها لمحمد على، وبعد وفاة ابنها طوسون بمرض الطاعون اعتزلت أمينة الحياة الرسمية وعاشت باقى حياتها فى خدمة البؤساء وفى أعمال الخير ، فكانت تكثر من الصلاة وقراءة القرآن وقد توفيت أمينة هانم فى عام ١٨٢٤ بالقاهرة ودفنت فى المدفن الكبير بالإمام الشافعى (١٥) .

هذا عن دور أمينة فى حياة محمد على كزوجة أولى ، أما عن زوجته الثانية «ماه دوران هانم» أو «قمش قادين» فإنها لم تنجب له أطفالا ، كما أن تأثيرها فى حياته ليس كبيرا .

وبالنسبة لمستولدات محمد على فهن :

- أم نعمان وقد رزق منها الأمير نعمان .
- عين حياة قادين وقد رزق منها محمد سعيد باشا الذى تولى حكم مصر فى الفترة من ١٨٥٤ - ١٨٦٣ .
- ممتاز قادين وقد رزق منها الأمير حسين بك .
- ما هوش قادين وقد رزق منها الأمير على صديق بك .
- نام شاز قادين وقد رزق منها الأمير محمد عبد الحليم الذى تنافس على عرش الخديوية مع الخديو توفيق..
- زيبة خديجة قادين وقد رزق منها الأمير محمد على الصغير .
- شمس صفا قادين ، وقد رزق منها بنتين هما الأميرة فاطمة هانم والأميرة رقية هانم .
- شمع نور قادين وقد رزق منها



الأميرة زينب هانم .

– نايلة قادين ولم يرزق منها أولادا .

– كلندان قادين ولم يرزق منها أولادا

– قمر قادين ولم يرزق منها أولادا .

وإلى جانب كل ذلك فإن محمد على لم يفقد إعجابه بالوجوه الجميلة للفتيات الحسناوات اللاتى لم تتعد بعضهن العاشرة من عمرها التركيات والشركسيات والجورجيات اللاتى عادة لهن بشرة ناصعة البياض (١٦) على الرغم من لحيته البيضاء .

ومن هؤلاء الزوجات والمستولدات انجب محمد على سبعة عشر ولدا وثلاث عشرة بنتا . وقد ولد آخر طفلين له عندما كان قد تجاوز الثالثة والستين (١٧) .

وبالنسبة لعلاقة محمد على ببناته فقد أظهر الاهتمام بهن ، وأمر بتعليمهن وتشجيع المتفوقات منهن ويبدو ذلك واضحا فى رسالة إلى زوجته يعبر فيها عن سعادته لسماعه أن ابنته الكبرى كانت منكبة على القراءة ، وفى رسالة إلى زينب أصغر بناته يمتدح فيها مهارتها فى دروسها . ومع ذلك فلم تنج بناته من التأنيب إذا تجاوزن الحدود المعقولة أو ابتعدن عن الذوق السليم .

وهكذ ومن خلال الصورة التى قدمناها عن دور المرأة فى حياة محمد على يبرز أثر والدته ، وزوجته الأولى فى تكوينه ومساندته فى ارتقاء سلم المجد والعظمة .

الهوامش :

١ – تزوج محمد على أكثر من مرة فتذكر مصادر التاريخ أن زوجته الثانية كانت «ماه دوران هانم» أو «قمش قادين» ولم يرزق منها بأولاد ، هذا بالاضافة إلى مستولداته .

٢ – اسم قرية بمقاطعة دراما Drama شمال مدينة قولة .

٣ – يقارن المؤرخون بين هذا الحلم، والحلم الذى رأته والدة الاسكندر الأكبر قبل مولده بأن رأت صاعقة انقضت على الأرض قبل ولادة ابنها وقد تنبأ لها العرافون بأن ابنها سيكون عظيما ، وأنه سيملك الأرض وما عليها .

٤ – نيفين يسرى : قسمة . القدر العجيب لمحمد على باشا الكبير مؤسس مصر الحديثة – ترجمة على محمد ذو الفقار ص ٣ – ٤ .

٥ – مسقط رأس محمد على .

٦ – لويزا مولباخ : محمد على الكبير ص ١٥ .

٧ – كريم ثابت : محمد على ص ١٨ .

٨ – لويزا مولباخ : مرجع سابق ص ١٤ .

٩ – خالد عبد المحسن بدر : شخصية محمد على رؤية تحليلة دراسة فن ندوة مصر في عصر محمد على، اصلاح أم تحديث ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ص ٣٤ – ٣٥ .

١٠ – جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن حـ ١ .

١١ – كانت أرملة دون أن تكون قد تزوجت ، وقصة ذلك أن والدها توفى وهى طفلة فطمع حارسها القضائى فى ميراثها وأرغمها على الزواج منها على أن يدخل بها عند بلوغها ، ولكن هذا الرجل قتل قبل أن يدخل بها . انظر نيفين يسرى : مرجع سابق ص ١٦/١٧ .

١٢ – تولى محمد على قيادة هذه الفرقة بعد ذلك عند عودة قائدها إلى قولة ، وترقية محمد على إلى رتبة البكباشى .

١٣ – نيفين يسرى : مرجع سابق ص ٨٥ .

١٤ – نيفين يسرى : مرجع سابق ص ١٣٨ – ١٤٠ .

١٥ – حنفى المحلاوى : حريم ملوك مصر من محمد على إلى الفاروق ص ٥٤ .

١٦ – صوفيا لين : حريم محمد على باشا ص ١٧١ .

١٧ – عفاف لطفى السيد :مصر فى عهد محمد على – ترجمة عبد السميع زين الدين ص ٥٦ .

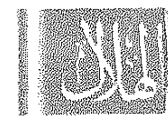
بمناسبة زيارة الروائى البرتغالى باولو كويليو للقاهرة ، أصدرت روايات الهلال الطبعة الثالثة لروايته «السيميائى» التى قد تكون من أكثر الروايات الحديثة رواجا ، إن لم تكن أكثرها ، إذ بيع منها حتى نهاية الألفية المنقضية ما يربو على سبعة وعشرين مليون نسخة فى خمسة وأربعين بلدا ، وفى عدة ترجمات كانت العربية إحداها .

غير أن الترجمة العربية لرواية «السيميائى» تعتبر بحق إبداعا موازيا لعمل كويليو ، إذ قام بها الأستاذ بهاء طاهر ، وهو الروائى المبدع ، الذى يعرف سيمياء الفن الروائى ومكامن امتيازه ، فأظهر ما في الرواية من عمق ومغزى دون تضحية بسحر السرد أو تماسك البناء .

ساحر الصحراء

نجاح خارق للمألوف

بقلم : بهاء طاهر



ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - يونيه ٢٠٠٥م





رواية السيميائى قصة نجاح خارق للمألوف ، فلم تكن بدايتها توحى بهذه النهاية .. فالطبعة الأولى من الرواية فى ١٩٨٨ لم تحقق أى نجاح، ولم توزع أكثر من ٩٠٠ نسخة، وقرر الناشر البرازيلى ألا يعيد طبعها ! .. غير أن ناشرا جديدا تبنى الرواية وأعاد نشرها بعد عامين ، واهتم بالترويج لها ، فاكتشف القراء قيمتها الحقيقية ، وتصدرت كل الكتب البرازيلية المبيعة فى حينها وحتى الآن. . وهنا افتح قوسا لأذكر بأن الناشر كما رأينا فى هذا المثال يمكن أن يحيى عملا أدبيا أو أن يميته ، فكم من ناشرينا المصريين والعرب يا ترى يحيى الأدب بجهد محب ودءوب ، وكم منهم يقبره فى المخازن والإهمال ؟!

متوالية النجاح

يقول المثل الإنجليزى «لاشىء يتتابع كالنجاح» ، وهو لفظ واحد فى هذه اللغة يعنى التتابع والنجاح معا .. وهكذا فمن ناشر برازيلى ناجح إلى ناشر انجليزى أمريكى أنجح «هاربركولينز» غامر بطباعة خمسين ألف نسخة لكاتب برازيلى مجهول، واثقا من أن تلك مجرد قطرة سيتلوها غيث ، ولم يكذب التوزيع توقعاته من بعد ، ثم تتابع النجاح أيضا .. فى اللغة الفرنسية ظلت «السيميائى» على رأس قائمة أكثر الكتب مبيعا لخمس سنوات متتالية ، ثم كان النجاح نفسه فى الترجمات الإيطالية والألمانية والروسية وكل اللغات الأوروبية . ولم يكن الشرق بعيدا ، ففى إيران وزعت الرواية آلافا مؤلفة من النسخ ، ووجهت الجمهورية الإسلامية لباولو كويليو دعوة رسمية لزيارتها فى إطار المركز الدولى للحوار بين الحضارات وحظى بتكريم كبير هناك .

أما فى مصر والأقطار العربية ، التى تدور معظم أحداث الرواية فى ربوعها ، فقد صادفت الرواية أيضا نجاحا كبيرا .

وقد يشير المرء إلى عوامل مشتركة فى روايات كويليو : «الجبل الخامس» و«فيرونيكا تقرر أن تموت» و«الفالكبريات (ربات النعمة)» الخ ، وهى أنها جميعا تعلى من شأن إرادة الإنسان وقدرته على تغيير مصيره بإرادته ، والإيمان بالقدرة الإلهية وبأن الخوارق أو المعجزات أمر طبيعى فى الحياة ، قد يفسرها العقلانيون ، مثلما حاولت تفسيرها فى سياق السيميائى، بأنها تجسيد لأحلام الإنسان ورغباته، ثم الإيمان بأن الحب قوة علوية تستمر بوجود الإنسان كما أن غيابها يدمره .

تلك محاور أساسية فى فكر باولو كويليو الروائى تتجلى فى سائر رواياته، ومن المنطقى أن تلقى تجاوبا فوريا من القارىء العادى ، فهى رسائل منعشة فى هذا العصر الخانق الذى يسحق الفرد بأزمات متلاحقة من كل لون ونوع . ثم إن كويليو يكتب ببساطة وسلاسة مدهشة وتخلو أعماله من أى غموض أو تعقيدات تقنية ، قد تمثل نوعا من التعالى على هذا القارىء ، وبذلك فهو ينفذ بكتابته وأفكاره إلى مستويات متعددة من القراء ويحقق تلك الشعبية الهائلة .

وأسباب النقد

إن يكن ما تقدم هو سر نجاح كويليو ، فربما يكون هو أيضا سر ما يوجه إليه من نقد ممن لايبغون عن التعبد إلى ربات الجمال حولا ، أى من يقيسون الأعمال الأدبية والفنية بمقاييس تعطى الأولوية لمعايير الفن الصارمة لا لمعايير

الرواج الشعبى ، فباولو كويليو يشير مثلا في تقديم صفحته على شبكة الانترنت إلى ما وجهه نقاد برازيليون إلى أعماله من نقد لاذع على مر السنين ، مما عطل شغله لمقعد في أكاديمية الآداب البرازيلية رفيعة المستوى حتى عام ٢٠٠٢ .

ليكن لكل ناقد ولكل قارىء الحق فى أن يرى ما يراه فى أعمال ذلك المؤلف السيميائى ، ولكن على هؤلاء النقاد أن يفسروا لنا لماذا ترجمت هذه الرواية إلى قرابة ستين لغة حتى كتابة هذه السطور ، ولماذا كان نجاحها مدويا فى كل مكان رغم اختلاف الثقافات وعادات القراءة والتذوق ما بين أمريكا وافريقيا وأوروبا وآسيا ؟!

لابد مع ذلك من تفسير مقنع لهذه الظاهرة .

وعندى بعد ذلك أسباب إضافية لتقدير باولو كويليو ، أولها موقفه العنيد فى مقاومة الحرب العدوانية على العراق الشقيق ، وهجومه الشرس على بوش وبلير قبيل هذه الحرب التى تنبأ عن حق بأنها ستزهق آلافا مؤلفة من الأرواح البريئة دون أى مبرر غير الجشع الاستعمارى وغطرسة القوة ، وقد انضم فى ذلك إلى كثير من كتاب الغرب الشرفاء الذين حاولوا بأقلامهم وقف هذه المجزرة والدفاع عن حق شعب العراق فى الحياة مثل «هارولد بنتر» الإنجليزى و«ساراماجو» البرتغالى ، ومعظم الأدباء العرب .. وإن يكن الجهد لمنع العدوان قد فشل ، فقد كان لهم شرف السعى وتنبيه العقول الغافلة حتى لاتتكرر المأساة .

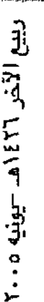
وسبب ثان للتقدير هو أن هذا الكاتب متعلق بثقافة بلدى ، يكفى هنا أن أشير إلى ما كتبه عن مصر وأهرامها فى رواية السيميائى ، غير أنى أضيف إلى هذا أنه قد صدر واحدة من آخر رواياته وهى «إحدى عشرة دقيقة» بقصيدة جميلة مهداة إلى «إيزيس» فى القرن الثالث قبل الميلاد تم اكتشافها مؤخرا فى نجع حمادى .

تقديم الطبعة الأولى

وتجربتى مع هذه الرواية غريبة إلى حد ما ، فقد جاء وقت لم أكن افتح فيه صحيفة سويسرية إلا وأقرأ تقريظا حماسيا لها أو حوارا مع مؤلفها ، وعرفت من الصحف أنها ترجمت بعد صدورها بوقت قليل فى خمسة وأربعين بلدا ، وأن مؤلفها برازيلى اسمه باولو كويليو .. ، ثم إن الرواية حصدت بعد ذلك عدة جوائز أدبية .

ولم يكن كل ذلك إغراء كافيا لقراءة الرواية ، بل ربما كان العكس هو الصحيح ، فصناعة الجوائز الأدبية فى العالم أمر يشكو منه القراء المخدوعون قبل الأدباء المحبطين الذين تخاصمهم تلك الجوائز ، غير أن عبارة استوقفتنى فى مقال قال كاتبه : هذه رواية لاتقارن إلا بكتاب «النبى» لجبران أو برواية «الأمير الصغير» لسانت إكزيبورى ، قلت لنفسى بمثل هذه الصحبة فليهنأ أى كاتب ، فأنا مثل ملايين غيرى مفتون بكليهما ، ولكن أتراه حقا جديرا بها ؟

عندما قرأت الصفحات الأولى بل والفصول الأولى من الرواية قلت ، لغيرى هذه المرة ، ها أنا أتعرض للخديعة من جديد، وأقع فى شباك الدعاية والتهويل . وجدت بالفعل البساطة المتناهية التى تميز كتابى جبران وسانت إكزيبورى ، ولكنى لم

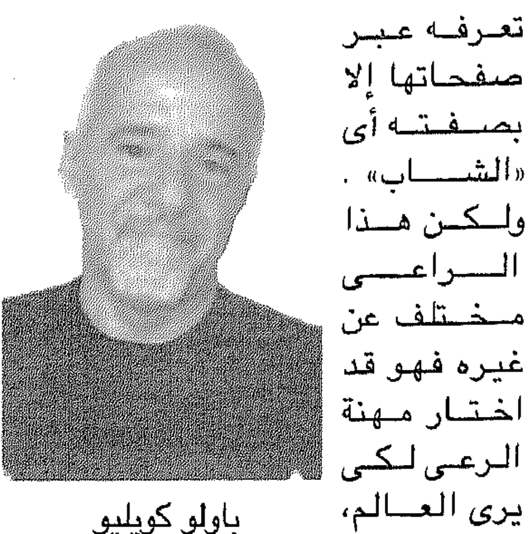


أجد ما عندهما من عمق وشعر ، أو هكذا خيل إلى ، فاتنى رغم العمر والتجريب أن الكاتب يستدرجنى بهون ورفق لكي أدخل عالمه ، ثم إنى حين دخلت لم يعد لى من سحره وأسره فكاك ، وبالتالى فإن هذه السطور وما بعدها هى نوع من الاعتذار لمن أسأت لهذه الرواية أمامهم ، ومن التحذير - لنفسى قبل أى إنسان آخر - من ادعاء الفطنة ومن الغفلة عن كنز حين تقع عليه .

البحث عن الكنز

وكلمة الكنز هى المدخل الصحيح لرواية «السيميائى» فهى باختصار شديد رحلة أخرى من رحلات البحث عن الكنوز التى قرأناها فى الروايات وشاهدناها على الشاشة ، مع شىء من الاختلاف ، فالبحث عن الكنز هذه المرة ليس مغامرة إثارة ، نتابع فيها الأحداث المشوقة ، بحيث نتطلع فى لهفة إلى ما تحمله لنا الصفحة التالية من مفاجآت ، هذه المرة نحن بالفعل فى رحلة بحث عن كنز حقيقى قيل إنه مخبوء فى الصحراء بالقرب من أهرام الجيزة ذاتها ، ولكن الرحلة التى تقود الشاب الباحث عن الكنز من الأندلس عبر الصحراء هى رحلة فى داخل النفس أولا قبل أن تكون فى دروب الصحراء ، نحن باختصار أمام رواية فلسفية مثل «حى بن يقظان» لابن طفيل أو «الأمير الصغير» ومثلهما هى أيضا مبذولة للجميع للكبار وللصغار على السواء ، لكل أن يستمتع بها فى ذاتها ، ولكل أن يستشف من طبقات المعنى فيها ما يستطيع .

الباحث راع إسبانى بسيط يتجول بأغنامه فى ريف الأندلس ، اسمه سانتياجو ، ولكنك باستثناء الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة من الرواية لن تعرفه عبر صفحاتها إلا بصفته أى «الشاب» .


باولو كويليو

ولكن هذا الراعى مختلف عن غيره فهو قد اختار مهنة الرعى لكى يرى العالم، وترك المدرسة والدراسة وهجر بلدته الصغيرة وسط دموع أمه وإشفاق أبيه ، لم يكن يملك مالا وكان الرعى وسيلته الوحيدة لكى يكتشف عوالم جديدة ولكى يتعلم أشياء لم تتحها له الدراسة ، أول ما تعلمه أن هناك لغة تتجاوز الكلام ، تلك اللغة ربطت بينه وبين غنمه حتى نشأ بينه وبينها عبر الصمت حب وحوار ، تعتمد هى عليه مثلما يعتمد عليها ، يسأل نفسه هل تعرف هى لحظة يقظته فتهب من رقادها أم هو الذى يهجره النعاس لحظة استيقاظها ؟ هل تعرف مثله علامات الطريق وتسترشد بالنجوم؟ وأية قدرة داخل تلك الحيوانات تجعلها تميز بين الدخيل الكبير فتنفر منه وتنفره وبين الطفل الصغير الذى يحب أن يلعب معها ويمسد فراءها فتتركه يلهو دون أن تزعجه ؟

بدا الراعى راضيا عن حياته وعما يعلمه له التجوال والرعى ، ثم إنه يحب القراءة ويصحب معه باستمرار قصة يقرؤها ويبدلها حين يفرغ منها بكتاب جديد ، وحين نلتقى به فى البداية نعرف أن هذه القصص كانت وسيلة لاجتذاب الفتاة التى استهوته فى المدينة والتى

اعتقد أنها فتاة حياته ، كانت ابنة التاجر الذى يجز له فراء غنمه ، وأدهشها أن تجد راعيا يقرأ الكتب ويحكى القصص .

تأويل الحلم

بدا أن كل شىء الآن قد استقر من جديد فهو يربح من عمله ما يكفيه ، وهناك فتاة تنتظره وتتعلق به كما يتعلق بها ، وبوسع الشاب الآن أن يتزوج وأن يكون أسرة أندلسية صغيرة مثل كل رفاقه ، ولكن حلما يأتى فيتغير كل شىء .

ها هو ذا يقضى مع غنمه ليلة فى كنيسة مهجورة مهدمة ، نمت فيها شجرة جميز ضخمة مكان الهيكل ، وبينما هو راقد تحت الشجرة إذا بطفل يأتيه فى المنام ينبئه أن هناك كنزا مخبوءا له ويقوده من يده حتى أهرام مصر ، كانت تلك هى المرة الثانية التى يطارده فيها هذا الحلم .

مفسرة الأحلام الغجرية التى ذهب يستعين بها على تعبير الرؤيا تشترط أن تحصل على العشر من الكنز قبل أن تبوح له بالسر ، وإذ تحصل منه على القسم الذى لن يحنث به تنبئه أن عليه أن يذهب حتى أهرام مصر لأنه سيجد هناك كنزه ! وحين ترى العرافة على وجهه علامات الغضب والإحباط لأنها فسرت الماء بالماء تبادر بقولها .. أرأيت .. قلت لك منذ البدء إن حلمك عصى على التعبير ، الأشياء البسيطة هى أغرب الأشياء ، والحكماء وحدهم هم الذين يرونها .

ها نحن إذن منذ مدخل الرواية نلتقى بمواقف وعبارات سيكون لها ما وراءها فى تلك الرواية الجميلة : اللغة التى تتجاوز الكلام وتربط الإنسان بغيره من الكائنات ، التعلم من رؤية العالم .. البساطة التى ترادف الحكمة .. والسعى إلى تحقيق الحلم الذى يساوى فهم الذات وتحقيق الذات ، وتلك محاور سوف تتداخل فيما يلى من الرواية وستتطور حتى تبلغ ذروتها الكاشفة فإذا بك بالفعل تشعر أنك ترى الأشياء فى نور جديد وترى نفسك فى قلب الأشياء مجلوا بهذا النور الكاشف «أليس ذلك بالفعل هو شأن كل أدب جدير بصفته ؟» .

ولن يسمح المجال بأن نتتبع بالتفصيل عملية التطور تلك ، ولا هو بالأمر المطلوب ، فمن المعلوم أن أى تلخيص لعمل أدبى هو إفساد له لأن كل جزئية وكل كلمة يضعها الكاتب الحصيف لهما دورهما فى السياق الكامل للعمل ، ولذا فسيكون من الأجدى أن نتوقف عند بعض القطايا التى يطرحها هذا العمل وأن نستمع كلما أمكن إلى صوت المؤلف الخاص فى عبارات مستمدة من روايته .

وأول تلك المسائل التى أحب أن نشترك معا فى تأملها هى استخدام الكاتب لعنصر الغرائبية «الفانتازيا» فى عمله ، فهذه حكاية «أو إن شئت حدوتة» للخيال أن يجمح فيها كما يشاء ، وأنت لاتعرف فى أى وقت تدور أحداثها ، يمكنك أن تجازف فتقول إن تلك الأحداث تقع فى نهاية القرن الماضى أو فى مطلع هذا القرن ، إذ لايوجد ذكر فى الرواية لسيارة أو لطائرة أو لإمكان استخدام أى من هاتين الوسيلتين فى الانتقال ، والأماكن أيضا غير واقعية تماما ، فالفيوم فى هذه الرواية واحة كبيرة تضم خمسين ألف نخلة ، يسكن أهلها الخيام وهى معزولة عن العالم لاسبيل إلى الوصول إليها إلا

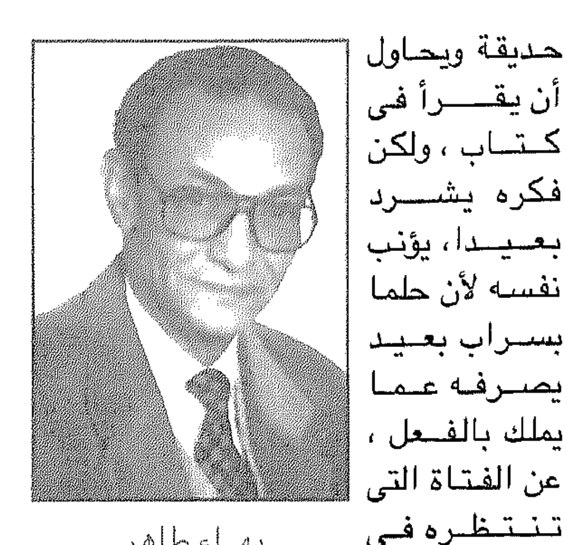
بقوافل الجمال ، ويمكن للقبائل الصحراوية المتناحرة أن تحاصرها وتغزوها .

العالم إذن فى هذه الرواية عالم يصنعه خيال الكاتب لا الواقع الجغرافى ولا التاريخى ، ومع ذلك - وكما لعلنا قد لاحظنا من العرض السريع لمدخل الرواية - فإن تسلسل الوقائع لاينبو عن الواقع الذى رسم لنا المؤلف حدوده ، وحين تصادفنا الغرائب فى الرواية وهى تحدث أكثر من مرة - فهى ليست من نوع غرائب جارسيا ماركيز التى تصنع عالما موازيا لعالم الواقع يريد به ماركيز أن يخاطب وعيا يعلو على المنطق المألوف كيما يغير - بالضبط - هذا المنطق المألوف الراكد . الغرائب فى الرواية البرازيلية ترد باعتبارها معجزات أو خوارق ، هكذا يراها أبطالها ويدهشون لها مثلما ندهش نحن القراء. وبهذا يتم إحكام الإيهام الروائى ، والمعجزات فى نهاية المطاف أمر وارد .

ومهما يكن الحال فإن للعناصر الغرائبية - هنا وهناك - مبررا فنيا بالغ الوقع والتأثير ، ويحسن أن يتدبر بعض كتابنا الجدد - وبعض نقادنا - مغزاه الحقيقى ، حتى لايزيد بفعل التقليد انتشار تلك الأعمال القصصية التى تنقض فيها على القراء الغرائب كالصواعق ، على غير فهم ولا مأرب كما يقول حافظ إبراهيم

توظيف الفانتازيا

ولنأخذ مثالا من روايتنا لتوظيف ذلك العنصر من حيث توقفنا بالضبط يخرج بطلنا الشاب غاضبا من عند العرافة التى ابتزت منه وعدا بمكافأة سخية لكى تكرر على سمعه ما أخبرها هو به ، يجلس فى حديقة ويحاول أن يقرأ فى كتاب ، ولكن فكره يشرد بعيدا، يؤنب نفسه لأن حلما بسراب بعيد يصرفه عما يملك بالفعل ، عن الفتاة التى تنتظره فى المدينة وعن عمله



بهاء طاهر

الذى يحبه والمراعى التى يألفها وقطيعه الذى يبادله حبا بحب ، ويبدو لنا أن عزمه سيستقر على البقاء عندما يأتى عجوز يحاول أن يستدرجه للحديث ، ولكن الشاب المشغول بأفكاره يصده ويعزف عنه ، غير أن العجوز يفرض عليه أن ينتبه إليه حين يحدثه عن كنز ينتظره ، هل هو عراف آخر ؟ .. لا .. هو ملك لمدينة بعيدة اسمها «سالم» كما يقول ، يضحك الشاب ساخرا منه، ولكن حين ينحنى العجوز ليخط بعصا صغيرة شيئا على الأرض تخطف بصر الشاب تحت معطف العجوز المهلهل درع من الذهب الخالص تتلألأ فيها الأحجار الكريمة . ولكن ما يخطه على الأرض هو الأكثر غرابة ، فالعجوز يكتب سطورا من حياة الراعى لايعرفها غيره ، هنا يصغى إليه فيحدثه الملك «الملاك» عن أسطورة الذات أو الأسطورة الذاتية ، لا يعرف الشاب ما هى تلك الأسطورة فيشرحها له ، يقول إن كلا منا يعرف فى شرخ شبابه ما هى أسطورته الذاتية التى ينبغى أن يحققها ولكن قوى غامضة تحاول أن تصرفك عن تحقيق تلك الأسطورة ، تضع أمامك كل أنواع

العقبات ، ومع أنك عندما تريد شيئا بحق فإن رغبتك الحقيقية تصبح جزءا من روح العالم الذى أنت جزء منه ، وروح العالم تتغذى من سعادة البشر ، إلا أنها تتغذى أيضا من الشقاء والحسد والغيرة حين ينكص الإنسان عن إنجاز أسطورته ، ذلك أن تحقيق الذات هو الالتزام الوحيد للإنسان على الأرض ، حين يسعى إليه يندرج هو أيضا فى تلك الروح الشاملة ويتآمر العالم كله لكى يحقق له رغبته مادام قد أوتى الشجاعة لقهر القوى الغامضة التى تريد أن تشل قدرته على الفعل ، فليذهب الشاب إذن إلى مصر ، هكذا ينصحه ملك سالم ، وهو يزوده بنصح آخر : أن يتخذ قراراته بنفسه حين يسعى إلى تحقيق أسطورته على أن يلقى بالا إلى الاشارات والتنبيهات ، ذلك أن الله قد خط فى العالم الطريق الذى يتعين أن يسلكه كل منا ، وما علينا إلا أن ننتبه إلى ما فى الطريق من علامات .

ها هو ذا الملك العجوز قد أنهى تردد الراعى ، ولكن من يكون ذلك الملك الذى لايفتأ يكرر أن كل الأشياء هى شىء واحد ؟ أليس هو على وجه التحديد وعى ذلك الراعى الصغير الذى خرج صبيا لكى يرى العالم ، وصنع أسطورته الخاصة منذ آثر المرعى المتفتح على العالم وقد أخرجه الشاب من باطن ذاته لكى يحاوره ولكنه على كل حال ملك روائى جميل .

وأجمل منه بكثير السيميائى أو الخيميائى الذى يعطى الرواية عنوانها «وفى هذه المرة فإن كلا النطقين مقبول إذ وجدتها فى أحد المعاجم العربية بالسين وفى معجم آخر بالخاء» ونحن نعرف ما السيمياء ، ذلك العلم القديم المشكوك فيه الذى ورثت الكيمياء فكرته الأساسية أى تحويل العناصر بعضها إلى بعض ، أما السيمياء التى عرفتها العصور الوسطى فكانت تسعى إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب خالص وإلى البحث عن إكسير الحياة الذى يهب الخلود .

لن يلتقى الراعى بهذا السيميائى الأسطورى إلا فى جزء متأخر من الرواية وهو سيميائى مصرى من واحة الفيوم .

المكتوب

قبل ذلك كان لابد للشاب أن يعبر المضيق من الأندلس إلى افريقيا وأن يتعرض لمحن كثيرة وأن يفقد ماله ويقرر العودة إلى وطنه قبل أن يلتقى بمغربى بائع أوان بلورية «كريستال» يتعلم منه الكثير ويعلمه الكثير ، وحين يجمع قدرا كافيا من المال يقرر العودة إلى الأندلس ليشترى قطيعا جديدا من الغنم ويستأنف حياته التى قطعها حلم وعرافة غجرية وملك عجوز ، ولكنه يجد نفسه مسوقا فى اللحظة الأخيرة لكى ينضم إلى قافلة جمال ستشق الصحراء من الغرب إلى الفيوم ، ويتذكر أثمن ما علمه إياه صديقه المغربى ، تلك الكلمة العربية التى لاتقبل الترجمة إلى لغة أخرى : «مكتوب» .

لايستطيع إنسان أن يهرب من المكتوب، ومادام قد كتب له أن يحقق أسطورته الخاصة فلا مهرب له من أن يمضى حتى النهاية . ويبدو للشاب أن رحلته قد انتهت إلى غايتها عندما يصل إلى واحة الفيوم مع القافلة ، ثم يظل محاصرا هناك بسبب حروب قبلية فى الصحراء ، فهناك يعثر على أثمن كنز كان يبحث عنه وهو الحب الحقيقى حين يلتقى بفاطمة الصحراوية الجميلة التى تبادله الحب ، يحكى لها سره وقصته منذ البداية ويقرر أن يبقى فى الواحة ما بقى له من العمر ليعيش فرحة الحب التى لاتعدلها أى

ثروة ولكن فاطمة ترفض ، تقول له لقد علمتنى أن الإنسان يجب أن يقاسى لكى يحقق حلمه ، فاذهب وأبحث عن كنزك ، تلال الرمال تغيرها الريح ولكن الصحراء تظل هى الصحراء ، إن كنت أنا حقا جزءا من أسطورتك فسترجع لتجدنى هنا ذات يوم .

وذلك أيضا ما يقوله له السيميائى العجوز الذى تخشاه الواحة ويلقبه بالساحر ، يلتقى به فى مشهد عاصف ويحثه على أن يكمل رحلته حتى الأهرام . يسأله لماذا يسمونك السيميائى ؟. لأنى كذلك بالفعل ، ولماذا إذن فشل كل الآخرين ؟. لأنهم يبحثون عن الذهب فحسب، يبحثون عن كنز أسطورتهم الخاصة دون أن يعيشوا تلك الأسطورة .

لكى تصل إلى السر لابد أن تنفذ إلى روح العالم ، لايلزمك حتى أن تشق الصحراء لكى تفهم ، يكفى أن تتأمل ذرة واحدة من الرمل ففيها كل بدائع الخلق .

وما السبيل إلى ذلك ؟ .. استمع إلى قلبك فهو يدرك كل شىء لأنه قبس من روح العالم . ولكن قلبى يخشى الألم . قل له إن خشية الألم أمض من الألم نفسه ، وإنه ما من قلب قد تألم وهو يسعى إلى تحقيق حلمه ، توغل فى العالم تلج إلى روحه وتكشف الكنز الذى خبأته تلك الروح لكل منا .

هذه هى السيمياء ، كل مافى الكون يتطور والذهب هو أرقى المعادن لكنه بدلا من أن يصبح رمز التطور أصبح رمزا للجشع ، عرفت فى حياتى سيميائيين انعزلوا عن الدنيا فى معاملهم وحاولوا أن يطوروا أنفسهم ليصبحوا مثل الذهب وهؤلاء هم الذين اكتشفوا بالفعل حجر الفلاسفة ، لأنهم فهموا أنه عندما يرتقى الكائن فإن كل ما حوله يتطور ، الحياة تريد أن تصهرك لكى تصبح أنت أيضا مثل الذهب ، ولهذا فهى تختبرك بالمحن قبل أن تعطيك كنزك الموعود لك .

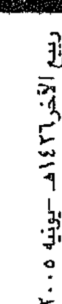
ذلك هو درس السيميائى وهى أيضا نبوءة ، فما أشق المحن التى يخوضها الشاب لكى يجد كنزه ، ولكن البوتقة التى تصهره هى نفسها التى تجلو روحه لكى تلتقى بروح العالم .

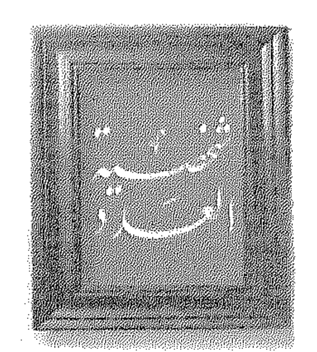
السيميائى حدوتة بسيطة كما قلت، لاتصنع سحرها الأحداث ولا حتى الأفكار فهى لن تعلم الجديد لدارس الفلسفة أو الباحث عن الحكمة ، تماما كما أن السيمياء لن تعلم شيئا لمن يبحث عن الذهب ، ولكن من يدخل عالمها سيجد أن الرحلة نفسها هى المنتهى .

ولم تنته بعد حكايتى مع هذه الرواية الجميلة ، فقبل أن أفرغ منها دلتنى صديقة أديبة، أكن لعلمها كل الاحترام، على عرض قدمه الأديب الأرجنتينى بورخيس لإحدى ليالى ألف ليلة وهى التى استلهمها كاتبنا البرازيلى بالقطع فى روايته ، وحين قرأت تلك الحكاية التى لا تتجاوز صفحة ازددت تقديرا لهذا السيميائى الروائى .

ثم إنى لم أنته أيضا .. فأنا لا أستطيع أن أمنع نفسى فى الختام من الإشارة - بكل تواضع - إلى أنى قبل نشر السيميائى بثلاث سنوات ، نشرت قصة عنوانها « أنا الملك جئت» لم تترجم إلى أى لغة ، وهى أيضا رحلة بحث عن الذات فى الصحراء ، فكيف اتفق أن توجد - دون معرفة ولا لقاء - مواقف متطابقة فى العملين ، وفى بعض الأحيان نفس العبارات ؟!

سؤال أطرحه على «روح العالم» ■







دكتور إبراهيم أبو العيش

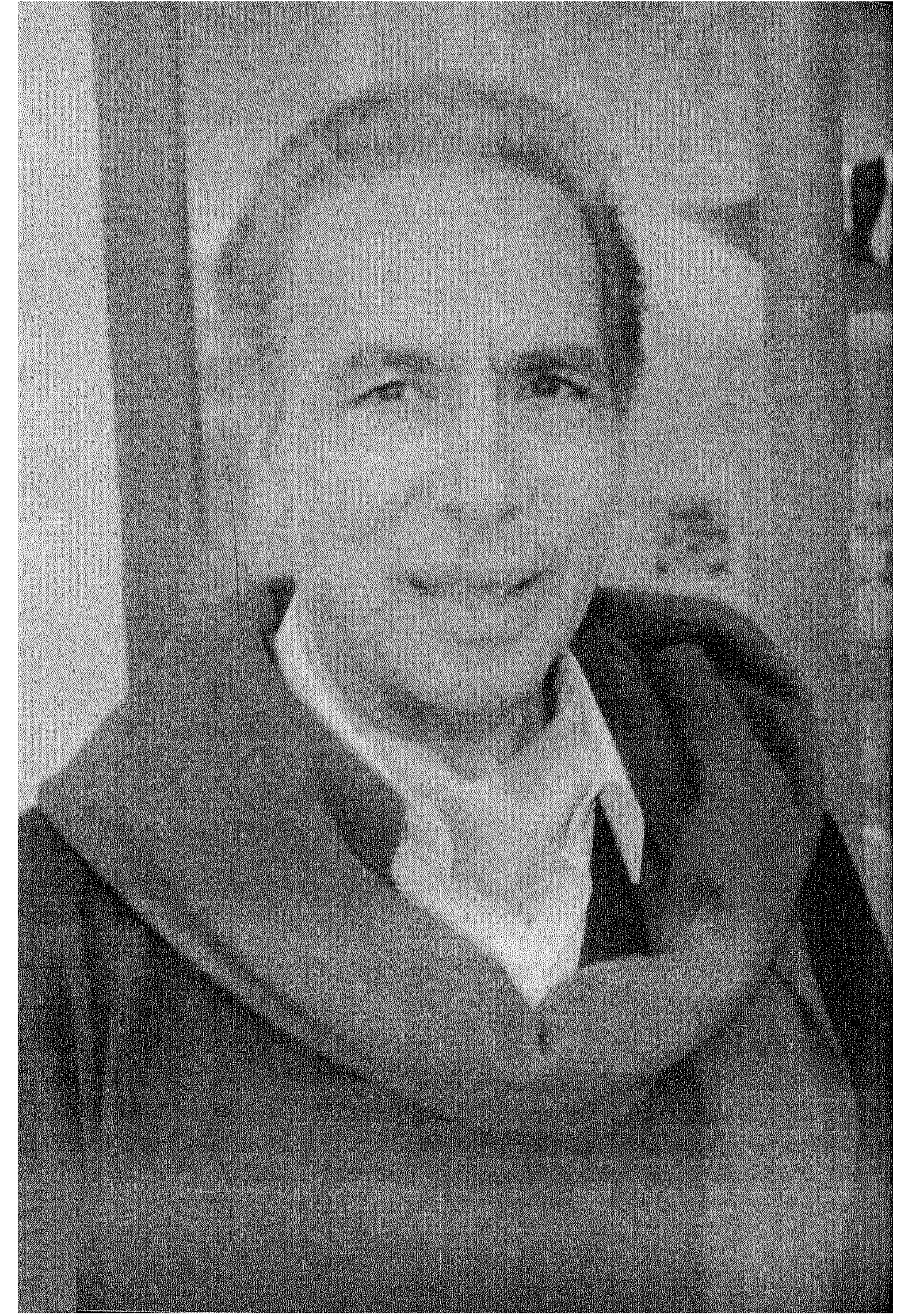
وحلم بمستقبل الزراعة الحيوية

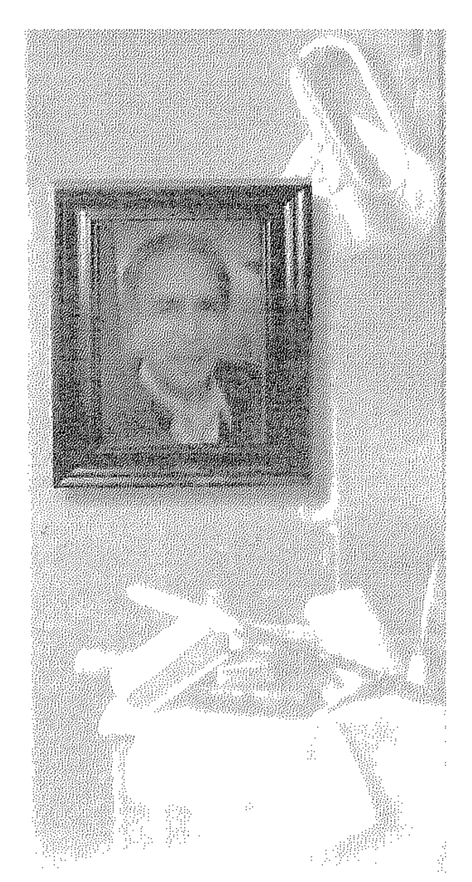
أماني عبدالحميد

اعتدنا تحت هذا العنوان (شخصية العدد) أن نقدم المثقفين والمفكرين ، وفى هذه المرة نقدم رجل أعمال باعتباره شخصية عامة تقدم شيئاً مهما للوطن وتجربة يمكن أن تحتذى..

شاب لم يبلغ التاسعة عشرة من عمره، يطل من فوق مركب يهم بالتحرك من ميناء الاسكندرية، يلقى بنظرة الوداع على وطنه، وحياته كلها.. ليبدأ رحلة طويلة من التعب والدراسة والتأمل. لا لشىء سوى أنه لم يكن راضياً عن نفسه.. ولا عن مظاهر المد الثقافى المنتشر فى كل مكان فى مصر، ويحلم ببلوغ الكمال يوما ما، يحمل معه خلال رحلة الغربة - التى استمرت أكثر من ٢٥ عاما - أفكاراً وكتابات عبدالرحمن بدوى، وإيماناً عميقاً بفلسفة الحضارة الأوروبية وولعاً شديداً بفنونها، وبعد مرور ثلاثين عاما على عودته إلى بلاده وتحقيق حلمه الأكبر على أرض الواقع، لايزال التساؤل مطروحا: من هو الدكتور إبراهيم أبوالعيش ؟؟ .

لم يكن ذلك الشاب المهاجر إلى المجهول سوى العالم الدكتور إبراهيم أبوالعيش، الذى يميل إلى أن يكون فيلسوفا أكثر من كونه رجل علم، والحاصل على جائزة «نوبل» الجديدة من الأكاديمية الملكية السويدية عام ١٩٥٤ لدوره فى مجال «التنمية الشاملة». وهو أيضا من أبرز رجال الأعمال فى مجال العمل الاجتماعي على مستوى العالم والذى نال جائزة «التنمية المستدامة» العالمية





- التى حصل عليها من قبله المهندس المعمارى المصرى حسن فتحى - وقد رأت هيئة المحلفين المشرفة على الجائزة أن أبوالعيش استطاع أن يظهر كيف يمكن المزج بين الربح والمشاركة فى الأسواق العالمية وبين منهج إنسانى وروحى للبشر يحترم الطبيعة وينميها.

عندما تراه يقف فى الدائرة الكبيرة التى تضم العاملين معه فى مجتمعه النموذجى بالقرب من مدينة بلبيس عقب نهاية يوم عمل.. الكل يقدم بإيجاز أهم ما قام به خلال اليوم، وما سيقوم به غداً من أعمال.. تختلط عليك الأمور ولا تعلم من هذا الرجل الذى هجر وطنه فى منتصف الخمسينات وهو فى مقتبل العمر ليعود بعد ٢٥ عاما من الغربة . عاد بعدها فى منتصف السبعينيات فى القرن الماضى ومعه زوجته الألمانية حاملاً معه رصيداً علمياً أكاديميا فى مجال الصيدلة، «الكيمياء، الصناعية والطب البشرى» ليحقق حلم عمره ويحوله إلى حقيقة. ويضع خلاصة رؤيته - بعد طول تأمل - داخل مجتمع زراعى، صناعى، تعليمى يوتوبى - قد لا نجد مثيلا له فى العالم. مجتمع متكامل يشبه نظام «الكيبوتس» يحمل أعرافه وقواعده ونواميسه الخاصة جداً، وعلى أفراده الالتزام بها وفق نظام شديد الانضباط لا يُسمح فيه بأى خلل.



تأثير المغناطيس

العالم المصرى الدكتور إبراهيم أبو العيش حاول أن يجسد حلمه القديم على أرض الواقع. على بُعد حوالى ٦٠ كيلو مترا من القاهرة. فى منطقة بلبيس بمحافظة الشرقية حيث حاول أن يخلق مجتمعا جديدا يتكامل فيه النجاح الاقتصادى مع الفكر العلمى والثقافى وذلك ضمن نسيج اجتماعى قائم على السلوك المرتبط بالإدراك وبقيمة الطبيعة التى خلقها الله وكيفية التعامل معها باحترام والحفاظ عليها.

يرى أن عظمة «الحضارة الأوروبية» تكمن فى أسلوب حياة أفرادها. فلا يوجد انفصال بين الفكر والسلوك لذا فمشوار حياته كله قائم على الحب الشديد لتلك الحضارة كما يقول «أبو العيش»، ويرى أن إدراك حقيقة الأشياء يحتاج إلى الفكر المطلق

إلى جانب التأمل العميق، ويتحدث عن الماء ويقول «لو تأملنا قدرة الماء على استيعاب أى شيء فى العالم لاندهشنا كثيراً ، مثال كوب الماء الصغير يستطيع أن يحتوى على أكثر من ملعقة سكر، كذلك أرواحنا هى كالماء يمكن لها ان تستوعب أى شيء فى العالم، لكن ذلك لا يتأتى إلا بالتأمل العميق حتى تنضج الرؤى أمامنا». لذا يلخص «أبو العيش» وظيفة البشر فى قوله «نقوم بالإدارك ثم العمل. أى ندرك حقيقة الأمور بعد طول تأمل ثم العمل وفق الرؤى التى توصلنا إليها. وتلك هى تجربة حياتى ومع مجتمعى المكون من أكثر من ألفى شخص ما بين مزارع ومساعد وخبير».

نشأ الدكتور أبوالعيش وسط أسرة مصرية تعمل فى مجال الصناعة بمحافظة الشرقية. والده كان يملك مصانع للصابون فى منطقة «مشتول السوق» ورغم ذلك لم يملك يوماً الرغبة فى العمل مع والده. كانت الحضارة الأوروبية تجذبه وقتها «كتأثير المغناطيس» كما يذكر لنا. «لم أرغب فى العمل مع والدى، بل كنت أحب الترحال والفن خاصة الرسم والموسيقى حتى أنى وقتها كنت أحلم بأن أكون مايسترو أوركستراً أو حتى عازف موسيقى وبرغم انتشار المد الثقافى والقومى فى مصر والوطن العربى خلال فترة الخمسينات إلا أننى كنت أرى «الرجوع إلى المنبع الأوروبى أفضل».

لذا قرر السفر إلى أوروبا فى عام ١٩٥٩ بعد انتهائه من الدراسة الثانوية لاتمام التعليم الجامعى فى النمسا ودراسة الهندسة الكيميائية. وظل هناك لمدة ٢٥ عاما حصل خلالها على درجة الدكتوراه فى الصيدلة وأسس مركزا للأبحاث الطبية فى ألمانيا. حتى جاء قرار العودة مرة أخرى إلى الوطن أملاً فى تكوين مجتمع تتكامل فيه عناصر الاقتصاد والاجتماع والثقافة يقوم على رؤى خاصة يعمل من خلالها أفراد ذلك المجتمع بلا اختلاف أو تمييز ولكن وفق منظومة شديدة الانضباط.

الزراعة الحيوية

أسس الدكتور أبوالعيش عدة شركات تعمل على العناية بخصوبة التربة وعلاجها بأسلوب الزراعة الحيوية. أي تخليص الأرض مما أصابها من تلف نتيجة كثرة استخدام المبيدات والكيماويات. والتى تؤثر بشكل سلبى ومضر على صحة الإنسان . وبالفعل وقع اختياره على أرض صحراوية مجاورة لمدينة «بلبيس» تبلغ مساحتها مائة وأربعين فدانا لتكون المزرعة الأم التى ينطلق منها مشروعه الحلم. فى عام ١٩٧٧ . وانتشرت الزراعة الحيوية مما أسفر عن إنشاء الجمعية المصرية للزراعة الحيوية فى عام ١٩٦٦ كمنظمة حكومية لا



تهدف إلى الربح وتتعاون مع منظمات أخرى لتعزيز مناهج الزراعة الحيوية والتوعية بأهميتها في مصر. وتم اتباع أسلوبها في زراعة الأعشاب والحبوب والخضراوات حتى تم حصاد أول محصول قطن حيوى في عام ١٩٦٦ وذلك بعد تصدير أول طلبية لمستخلصات النباتات الطبية إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٨٢.

ونجح في تحويل ما يقرب من ٨ آلاف فدان في ٤٠٠ مزرعة إلى الزراعة الحيوية . علاوة على تأسيس عدة شركات: لإنتاج الأدوية والملابس، والمنتجات الغذائية، ولتغليف الأغذية وللمشروبات الطبيعية، ولإنتاج الأسمدة، وإن كان يفتخر بتسويق منتجاته بأسلوب اقتصاد الأخوة أو المحبة أى مشاركة المنتجين والتجار في كل شيء بل واشتراك المستهلكين في اتخاذ قرار التسعير. علماً بأن منتجات مزرعة أبو العيش تعتبر أسعارها مرتفعة عن باقى المنتجات المنافسة . ويكفى أن نقارن أسعار الخضراوات المزروعة بالأسلوب الحيوى والأسعار الأخرى المزروعة بالطرق المعتادة لنعرف فرق السعر الكبير!

○ محو الأمية والمسرح والسينما فى قرية مصرية

ومع ذلك يؤمن بأن الإنسان لم يأت إلى الدنيا ليملك ولكن ليعمل في مناخ شديد الإنسانية يحترم الطبيعة والبشر ويتطلع نحو مُثل عليا. لذا قرر أن يكون مجتمعه الاقتصادى الكبير «وقفا لا يُورث وتكون أرباحه ضماناً لاستمرار حلمه.

من الناحية الاجتماعية يحرص أبو العيش على قيام أعضاء مجتمعه باللقاء كل صباح في دائرة يقدم كل منهم تقريراً مختصراً عما تم انجازه وهو يرى أن ذلك يحقق المساواة والعدالة بين أفراد المجتمع. لذا أسس جمعية أهلية لتوعية الناس بحقوقهم في التعليم، وواجباتهم في العمل وكيفية احترام الآخر وخصوصيته. وقد وصل عدد أعضاء تلك الجمعية ألفى شخص ودورها هو خلق مناخ صحى وبيئة عمل إنتاجية سليمة علاوة على تدريب العاملين وتطويرهم مهنياً ورعايتهم صحياً.

برامج ثقافية متنوعة

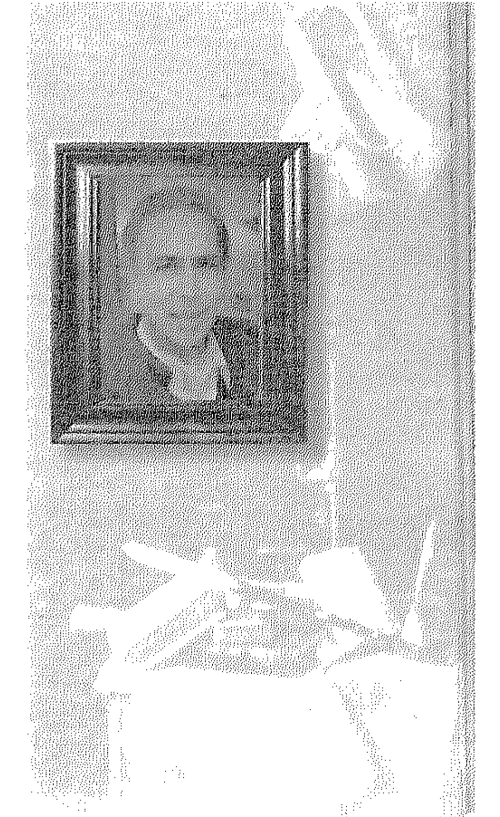
أما الجانب الثقافى فيضم عدة محاور تقوم على توجيه قدرات الإنسان بعد اكتشافها وما ينطوى عليها من مواهب. لذا يضم المجتمع أكاديمية للفنون والعلوم تحتوى على حضانة أطفال

ومدرسة ابتدائية وإعدادية وثانوية وأخرى للتعليم الصناعى علاوة على برنامج لمحو الأمية، ومركز للتدريب المهنى مثل النجارة وصناعة السجاد والميكانيكا والحدادة وورشة لتصنيع الأثاث الخاص بالعرائس. أي مؤسسة تعليمية يلتحق بها أبناء العاملين داخل مجتمع «أبوالعيش» أو حتى من المقيمين فى المناطق الريفية المحيطة بمدينة «بلبيس» وقد وصل عدد الطلبة إلى حوالى ثلاثمائة طالب وطالبة. وتتضمن المناهج الفنية تذوق الجمال من خلال الموسيقى والرسم والرقص وطرق الإلقاء والمسرح وفن الأوريتمى، والتى يشارك بها الطلبة فى احتفال أسبوعى كل يوم خميس يحضره جميع العاملين فى المزرعة، ليشاهدوا أداء طلبة الأكاديمية.. علاوة على حضور ضيوف الدكتور أبوالعيش لذلك الاحتفال وما أكثرهم!!

خميس الزائرين

يوم الخميس فى مزرعته النموذجية يوم غير عادى. فهو يوم الزائرين من كل حدب وصوب: كُتاب، شعراء، دبلوماسيون، رجال أعمال، رجال سياسة، وزراء، أساتذة جامعات، عسكريون قدماء.. لذا يحرص «أبو العيش» على أن يجعل هذا اليوم يضم أعمالا ترفيهية ثقافية يستمتع بها أهل مجتمعه وزائروه أيضا كأنه يوم «استعراض القوى !! يحضر الجميع الاحتفال الذى تنظمه أكاديمية الفنون والعلوم ويقدمه طلبة مدارسها التعليمية، وهى عروض موسيقية، مسرحية ، وشعرية، وعروض زائرة أيضا من خارج المزرعة، وأخرى راقصة، والكل لا يملك خياراً آخر سوى حضور تلك العروض والتى تبدأ من الساعة الثانية عشرة ظهراً وتستمر حتى موعد الغداء. خاصة أن مزرعته تضم مسرحاً مكشوفاً ذا تصميم رومانى قديم مبنى على شكل مدرجات دائرية، تقام فيه الاحتفالات الكبرى ويستوعب أعضاء ذلك المجتمع إلى جانب الزائرين أيضا. أما الاحتفالات الأسبوعية العادية فيتم إقامتها داخل المبنى الخاص بالاحتفال، وهو عبارة عن مسرح صغير يقام داخله الاحتفال على مرحلتين مرة للعمال ومرة أخرى للطلبة والشباب.

والشىء الغريب هو حرص الدكتور أبوالعيش على تعليم فنون الحضارة الأوروبية «وثيرته» لأطفال الفلاحين والعمال العاملين فى المزرعة. بل يتباهى «أبو العيش» بأنه علم أطفال الفلاحين كيفية عزف قطع موسيقية كلاسيكية. ويقول لى: «إن الأطفال عندنا يعزفون باخ وموتسارت» وهى مقولة تتردد فى أذن كل زائر للمكان بتفاخر شديد وكأن الفلاح المصرى لم يملك من قبل فنونه الخاصة وليدة بيئته مثل فنون الفرجة الشعبية والأراجوز وخيال الظل. برغم أنها فنون جديرة بالاحترام إلا أن الولع الأوروبى هو المسيطر على الأجواء



داخل مزرعة أبوالعيش فى «بلبيس»، ويبدو على وجوه العاملين هناك وعلى ألسنتهم رؤى «أبو العيش» الكل يردد أقواله وقناعاته فى الحياة. حتى ابتسامته الهادئة يتسم بها الجميع. بل قد تجد داخل ورش الحدادة أو العرائس أو حتى حياكة الملابس القطنية والأنسجة لوحات معلقة على الحوائط عليها أشعار الدكتور أحمد تيمور التى نظمها امتداحاً فى فلسفة الدكتور ونواميسه الخاصة بالحياة وبالموت والكون والخالق والشمس.

احترام الطبيعة

ولايزال أبو العيش يحلم بمجتمع يعمل فيه الناس ويتعلمون على اختلاف ثقافاتهم فى سلام وتناغم. بمجتمع يضم كل الأعمار والمهن ودرجات الوعى الإنسانى . يحترم الطبيعة ويؤمن بالغيب ويصبو نحو المثل العليا والحق والتسامح ويحب خدمة الإنسان والبيئة، ولكن الشمس وأشعتها الذهبية لها مكانة خاصة داخل المزرعة . بل لها تقديس كبير . فالكائن الحى يستمد حيويته من أشعتها المسترسلة إلى الأرض.. لذا نرى قرص الشمس الدائرى فى كل مكان .. حتى أن الكثيرين ارتابوا فى أمر هذا الفيلسوف العالم وتهكم عليه البعض بأنه «من عبدة الشمس» فلماذا إذاً يقف الجميع فى دوائر كبيرة مع بداية نهار كل يوم عمل وعند نهايته أيضا. ويعجب كثيراً أبو العيش من ذلك فالشمس ودفئها جزء من أكاسير الحياة «الماء، الهواء، التربة، الشمس»، ورغم الشكوك التى تتناقلها الألسن داخل المزرعة نجد أن بوابتها الكبيرة يقف عندها شباب يحلم بالدخول، يتوسلون إلى رجال الأمن بالسماح لهم أملاً فى العثور على فرصة عمل حتى ولو بالأجر الضئيل المتاح للعاملين هناك. ولم لا فالعمل يمتاز بإعطاء وجبة ساخنة لكل العاملين داخل المزرعة!

وداخل صالات الطعام المنتشرة لا تجد اختيارات طعام كثيرة فعلى الجميع أن يتناولوا نفس الأصناف التى أتوا بها من مزرعته التى يتم زراعتها بالأسلوب الحيوى. ووقتها يتبادل الزائرون الأحاديث الجانبية والنظرات والتساؤلات حول هذا الرجل الذى يستضيف العدد الكبير من البشر ويتحرك بينهم والابتسامة تعلو وجهه ونظرته الثاقبة تروقهم. ■

○ معظم إنتاج قرية أبوالعيش للتصدير



لافت للنظر أو ملفت له تعبيران كلاهما صحيح! (٢/١)

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

لغويات

يقول المعجم الوسيط أدق معاجمنا العربية الحديثة، وأقربها إلى الكمال:

لفت الشيء لفتا : لواه على غير وجهه، وصرفه إلى ذات اليمين وذات الشمال.

ولفت الكلام: أرسله على عواهنه لا يسأل كيف جاء المعنى.

ولفته عن الشيء، أو عن رأيه: صرفه عنه

والتفت إلى الشيء، أو تلفت إليه: اهتم به، وصرف وجهه إليه.

والتفت عنه: أعرض.

واللافتة: لوحة من الخشب ونحوه يكتب عليها اسم أو شعار لتوجيه النظر إليه، والجمع لوافت.

ويمضي المعجم الوسيط مع اشتقاقات المادة ومعانيها، اعتمادا على «لسان العرب»، وهي كثيرة ومتنوعة ومتباعدة ، وقد تتناقض أحيانا.

وأسقط المعجم الوسيط معنى هو الأروج في عربيتنا المعاصرة ، ولا أدرى السبب، مع أنه ورد في لسان العرب ، وهو: لفت نظره إلى كذا، أي نبهه إليه.

وقد اشتق الكتاب والأدباء من الفعل لفت اسم الفاعل ، فيقولون هذا أمر لافت للنظر، وهو اشتقاق صحيح. يجرى على قواعد الصرف المعروفة، والذين يحرصون على استخدامه هم الواعون بقواعد العربية دراسة أو دربة ويحرصون على احترامها.

ولكن هناك من يستخدم تعبير «ملفت» للنظر، ودرج النحاة، والمتشددون منهم خاصة على تخطئة هذا التعبير ، اعتمادا على أن معاجمنا التراثية كلها. ومعها المعاجم المحدثة ، ومن بينها المعجم الوسيط، لم تشر فيما أوردت من مشتقات المادة وصيغها إلى الفعل «ألفت» الرباعي ، لأن الفعل «لفت» متعد بنفسه، وليس في حاجة إلى إلحاق الهمزة به.

وخرج عن هذا الإجماع «المعجم العربي الأساسي»، الذى أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وصدر في تونس عام ١٩٨٨، وتولت دار لاروس الفرنسية طباعته وتوزيعه «شيء مؤسف، معجم عربي، تصدره الجامعة العربية، تصدره دار فرنسية!»، فقد ورد فيه: «ملفت للنظر باعث على الاهتمام به».

فى البدء بدا لى أن لبسا أو وهما وقع فيه المؤلفون، ثم تراجعت عن هذا الظن حين تبينت أن بينهم كوكبة من خيرة علماء العربية ، بينهم من هم أعضاء فى مجمع اللغة العربية الموقر في القاهرة، وإذن فوراء إجازة هذا التعبير مبررات جادة جعلتهم يجيزون استخدامه ويضمنونه المعجم الرسمى للجامعة العربية، أو شبه الرسمى، وهو الوحيد الذى أورده ، فما هى هذه المبررات ، ذلك ما سنعرض له، في العدد القادم.. ■

الشاعر الفائز بجائزة سعاد الصباح للإبداع:

محمد أبوزيد، وصمته الصارخ:

أنا لا أغنى.. أنا أنوووووح!

بقلم
صافى ناز كاظم

احترت فى اختيار العنوان من بين اقتباسات عديدة من ديوانه «يبدو أننى قد مت فعلا»، الفائز بإحدى جوائز سعاد الصباح للإبداع الفكرى والشعرى لمن هم تحت سن ٣٥ سنة، التى أعلنت نتائجها الشهر الماضى عن عامى ٢٠٠٣/ ٢٠٠٤. كان اختيارى الأول:

«صبى إذن لى نظرتين وبسمة،
قد عاش قلبى فارغا كزجاجة مثقوبة،
إن كدت أبدى أننى حرمت ،
كل العشق فى الكتمان»

ثم توقفت عند: «يا أيها الوطن الحزين/ رتقوا عيون الصبح بالدمع الذى...»، وتمهلت عند: «ملت ملابسنا القطار/ هذى الحقيبة تشتهى قدم الرصيف الواجف المقتول»، وعند: «نيل تمطى فى العراء، وقام ملتحفا بخوف سرمدى»، وعند: «أوقات صمتى قد تبوح بذعرها ... ... وحديث صمتى صرخة/ نامت على جثث الشفاه القرمزية»، و«هذى القلوب النافقة»، و«الموت حرية... ... وأنا طليق!»، و«الليل يهدينى استغاثاتى، فأصرخ/ لا استيقظ الموتى، ولا هبت رياح الله تأخذنى إلى بلد، تقوقع فى فؤادى»، و«يابلاد الله هذا عاشق/ باح البنفسج فى سموى بالحبيبة/ والسؤال المريمى: أنىّ لها هذا؟/ قل لى ، ولن أحكى لإصغائى/ فى البدء لم أكن/ أما الختام، فقد أجن»، «أنا وحيد كالحقيقة/ لا الأهل أهل لى/ ولا بنت ستقرأ فى القصيدة دمعها / ستقول لى: ارجع/ فأنا اغتراب الاغتراب/ وطنى رصاص يشتهى قلبى/ رمادى/ فأعد إلىّ أنا ولا تغتالنى بالربو»، «رئتى تصلى فى



جنازة بهجتى/ وتصنع الهم المعطر/ ثم تضحكنى بمزحة / (فأنا غيوم ضخمة وبلا جناح/ فراشة من غير قصد/ قمر حزين)»، حتى قرأت :

«أنا لا أغنى للحبيبة
أنا لا أغنى للوطن
أنا لا أغنى لى
أنا لا أغنى
أنا ... ... أنوووووح»

فقلت : صدقتك !

محمد أبو زيد

* * *

كتب محمد أبو زيد ديوانه، هذا الفائز، نوفمبر سنة ٢٠٠٠، بعد أن أتم العشرين فى ٤ مايو من ذلك العام، كتبه وهو طالب مغترب فى تجارة الأزهر، آت من طهطا إلى القاهرة يسكن بالغورية بيتا مزدحما، كان يسكنه الشيخ خطاب السبكى وصار مأوى للشباب المصرى النازح من كل المدن ليدرس بالقاهرة ، تسعون صفحة من النواح المتحرك الذى لا يفارق صاحبه، ولا يفارقه صاحبه صحوا أو نوما، يخرج معه صافقا الباب، ماشيا فى الزحام، فى التفاصيل، والواجبات، والالتزامات، والانهماكات اليومية، صاخبا خلف عازلات للصوت، ثم يعود معه إلى المهجع ليتقوقع، كما يقول، فى فؤاده، ويهديه إلى: «أمى رحمها الله، إلى جدتى وخالى، إلى الفاطمتين، وردة أخيرة من دمى، محمد»، فاطمة أخته، وفاطمة زوجة خاله، لكنهما النداء الذى يتشبث به ذلك الطفل الذى لم يبرحه، الصبى الذى شبّ لكنه لم يزل يحتاج يد «فاطمة» تمسح رأسه بأمومة مستعارة:

« ... ...
... ...
يا فاطمة ردي علىّ
أريد نيلا طيبا
وأريد بعض البمب للعيد الجديد
أريد شمسا كى أعلمها القراءة
طائرا لم يرتد الأوهام

كشكولا
عيون حبيبة
يافاطمة
أشجارنا تعدو وراءك
سكّر الأحلام لا يمشي ورائى
غزل البنات معلق فى قفة الجدات والعمات
(هل آكل ؟)
حزنى سيوصينى بحلوى قد يشكلها الدخان
بوحي إذن
قولى لربى ليلة الإسراء يعطينى
بلادا أشتهيها
يا فاطمة
البرد يدخلنى بلا خجل
ونافذتى بلا خشب
حتى القصيدة
ترتعش
ماذا سأفعل كي أموت البارحة ؟
ماذا سأفعل فاطمة ؟»
ويتسمع بوهم الشوق حلم الإجابة من «فاطمة»:
«لمحمد سأعد مروحة
ونافذة
وبنتا فى حقيبتها الشموس
وناي هيرودوت
نيلا من نسيب
لمحمد سأعد من هذى الجنائن
وردة حبلي
وسوناتا الحبيب
لمحمد سأعد عصفورا
لعصفور يغيب



لمحمد
سأعد شايا
بالحليب !»

الله! هل ترون مثلي صنعة اللطافة؟

هذه التى تأتى بعد عصرة القلب فتجعلك ، بلاش ، تجعلنى : أبتسم ، مثل قوله متعابثا:

«قولوا إذن
لبلوزة البنت
ابعدي عينيك عن ولد
ضعيف» !

* * *

فى هلال نوفمبر ٢٠٠٣ تحت عنوان : «أقدم لكم الشاعر محمد أبوزيد» قلت: إلى الذين يتصورون أن الشعر قد انتهى ، لأنه لم يعد كما يحبون، لأنه لا يعيد زمانهم، وصار يتكلم بلسان أحفادهم، أقدم، بحماس فرح، هذا الشاعر الذى بلغ فى ٢٠٠٣/٥/٤ الثالثة والعشرين وتخرج هذا العام فى كلية تجارة الأزهر، بعد أن عبر مشوار دراسته كله بين مدارس الأزهر فأتقن اللغة، وعبر مشوار يُتْم الوالدة منذ الفطام فأرهف الإحساس بالوجع، وجعه والآخرين. أقدم محمد أبوزيد «الطهطاوى»، الذى يجرب مع القاهرة محاولة الائتناس، التى تبدو للغريب، مستحيلة. قرأت له ديوانه الأول - (المطبوع) - «ثقب فى الهواء بطول قامتى» الذى يطارده فيه، رغم شبابه الغض هاجس «الموت»، وهو جاد فى مصاحبته ومرافقته ومطاعمته وارتشاف القهوة معه يسائله، فى قصيدة من قصائده، «هل فنجان يتيم من القهوة السادة يكفى لرتق كل الهموم؟» أدهشتنى وأعجبتنى لغته عن «الموت»، التي تبدو أنها لغته الأم ومفردات حياته اليومية، فهو يمضغ كلمة «الموت» بلذة من وجد فيها حريته... ... ... هذا الفتى الشاعر جعلنى أقول . ما أغرب الشعر الذى بإمكانه أن يصنع ، حتى من «الموت»، جمالا يغسل القلب بالعزاء ....

* * *

الكلام، الذى قلته منذ ما يقرب من عامين، لم أتراجع عنه، بل تعزز بديوانه الفائز ، غالبا هو أول إنتاجه ولم يطبعه ناشر بعد، وديوانه الأخير تحت الطبع «قوم جلوس حولهم ماء»، والذى يأتى بعد خمس سنوات من ديوانه الأول،ذلك الفائز، وقد بلغ عمره

الآن ربع القرن، يتحكم فى النواح، وإن ظل هو الخيل الذى يقود عربته، يمزح فيه أكثر:

«محمد

اسم جميل جداً عندما تنطقينه
الواحد لن يحمل اسما كهذا كل يوم
الواحد لن يسمعه بهذه الطريقة
إلا منك»

ويتفاءل :

«لديه ما يكفيه وزيادة
أب
وخالة
وزوجة لم تصب بالصرع
وأولاد عم لم ينازعوه فى الميراث
وبنت كالقمر
سمتها أمها مريم
أما المحبة
فأصحابه أصابوا الهاتف بالإرهاق
وقبر أمه يزوره كل جمعة
مع ٢ كيلو عنب بناتى
... ...
... ...
لماذا إذن يكتب الشعر؟»

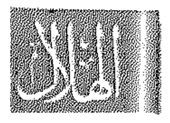
ويحكى عن العشاق ويتلصص عليهم:

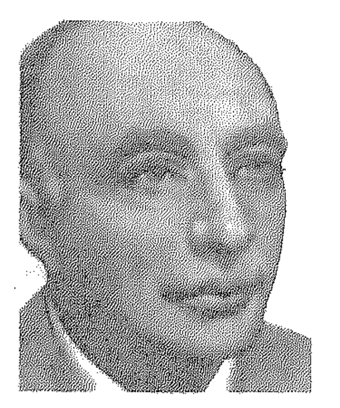
«حين همس لها بكلمة
تتسلق جدار المراهقة
أغمضت عينيها في حياء
وهي تتلقف الكهرباء
في الذاكرة
حين فتحت عينيها

ذهلت من راكبي عربة المترو
الذين تشوفهم
- ربما لأول مرة -
بضفائر موسيقية
قبل محطة سعد زغلول
حين ينسي السائق أن يضىء العربة
ستتسلل قبلة إلى وجنتها
فتضىء ذعرها
وفستانها الثرثار
بينما الدهشة تتأهب لمغادرة عينيها
ستنسي النمش الذى
يداعب وجهها لحين
فيما قناديل عينيه
تهديها عصافيره
وصوره المختبئة فى كراريسها
وأوقاتا حريرية
... ...
العربة مظلمة
فى غير اكتراث
الملائكة يهزون أجنحتهم
ربما فى ترقب -
الركاب يهذون كالدمى
وأنا وحدى
أبص عليهما» !

* * *

محمد أبوزيد مولود ١٩٨٠/٥/٤، من طهطا، شاعر حقيقى، يتكلم بلغة جيله، ومفردات عصره، يقف على ساقين : النواح والمزاح، يمشى بهما، ويجرى، ويطلقهما للريح... ... ■





ابراهيم ناجي



جورج صيدح

الشعراء ومنادماتهم

بقلم
وديع فلسطين

إذا التقى رهط من الشعراء دارت بينهم كؤوس الشعر المترعة، وشرعوا يتنادمون فيقول قائلهم شعرا لا يلبث أن يعارضه آخر بنفس الوزن والقافية، ويتدخل ثالث بقصيدة تدور فى نفس الفلك. وهم إذ يرتجلون شعرهم إنما يديرونه حول موضوع استأثر بجمع اهتمامهم، ففاضت قريحتهم بمشاعر صبوها فى قوالب الشعر فى منافسة شريفة ليس فيها غالب ومغلوب ولا فيها سعى للظفر بجائزة مرصودة للشعر.

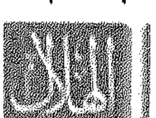
وفى أضابيرى منادمتان جرت أولاهما فى جلسة للشعراء جمعهم الود ولم يفرقهم شيطان الشعر، فجاد كل منهم بما تفتقت عنه مشاعره، أما المنادمة الثانية، فجرت بين شعراء تفرقوا فى أنحاء العالم ولكن سحر الشعر جمع بينهم فتقارضوه على نأى الديار .

أما المنادمة الأولى، فقد جرت فى مدينة حيفا فى فلسطين التى تتكسر عند أعتابها وأقدامها أمواج البحر الطاغية وماؤه بزبده ورغوته، حيث استضاف وكيل البلدية رشيد خورى (١٨٩٣ - ١٩٨١) والد الصحفية جاكلين خورى (١٩٢٥ - ١٩٨٠) أصدقاءه الشعراء إبراهيم ناجى ووديع البستانى ونبيه ثابت، وأخذ ثلاثتهم يتغزلون فى مدينة «حيفاء» وإن كانوا يقصدون الطفلة الهيفاء ابنة صاحب الدار. وظل الشعراء الثلاثة يتطارحون الشعر إلى ما قبل مطلع الفجر، فقال إبراهيم ناجى: (١٨٩٨ - ١٩٥٣):

حيفاء والحسن يسبي ... ماذا صنعت بقلبي
ياأطهر الناس نفساً ... برئت من كل عيب
فإن أهم بك وجدا ... فما المحبة ذنبي
الذنب للحسن تاج ... علاك، سبحان ربي
إن صرت نجوى صلاة ... أو صرت معبد حب
أو صرت إلهام قوم ... فحلقوا فوق سحب
فقد رضيت بأني ... منهم، وحسبي حسبي
الشعر يا وحي شعري ... إذا دعوت يلبي
لو دان للفكر عندي ... عصيه المتأبي
ملأت دنياي شعرا ... ما بين قطب وقطب
مخلدا لجمال ... ككوثر الخلد عذب
مجلجلاً بقريض ... يصبو له المتنبي

وحل الدور على الشاعر اللبنانى وديع البستانى (١٨٨٦ - ١٩٥٤) فقال:

حيفاء والحسن يصبي ... هذا الفؤاد فأصبي
آمنت بالله ربا ... إن كنت من صنع ربي
ما أنت بالعين مني ... وقد زهدت بقربي
لكن ذكراك تهفو ... مثل الخيال بقلبي
لا تنكري شيب رأسي ... فالحب والله حسبي
والشعر يا أخت روحي ... خمري، فذوقي وصبي
ناجاك قبلي (تاج) ... أمير شعر وطب
دعا إليك ونادي ... فجاء (شوقي) يلبي
يا كرمة لابن هاني ... طابت لصحب وشرب
إن كنت للطيب روحا ... فإنني المتنبي



أما الشاعر نبيه ثابت (ولم أعثر على ترجمته) فقد فاق الشاعرين بطول قصيدته حيث قال:

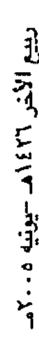
حيفاء والحسن يسبي ... ماذا صنعت بقلبي
حبست عنه بيانا ... يفيض فيض سحب
فأعجزته القوافي ... وكم أتته تلبي
ألهمت (ناجي) فجلي ... مذللا كل صعب
وزنت شعر (وديع) ... بالوحي من كل حدب
فاستأثرا بمعان ... تسبي القلوب وتصبي
إن خانني أمس شعري ... وليس ذلك دأبي
فلا أدين بقول ... ولا أميل لعتب
ولا أري فيك ذنبا ... فالذنب والله ذنبي
ذكرت إلفاً قصياً ... يدنيه شوقي وحبي
فقال قلبي وجداً ... ياليته كان قربي
وكنت ما بين صحبي ... ولم أكن بين صحبي
وقد أتيت بعذري ... وبعض صفحك حسبي
يا أكرم الغيد خلقا ... سناك بدعة ربي
كسيت ثوب جمال ... ضافي الغلائل عذب
تشع فيه خلال ... يحدو بها كل ركب
فأكبري فضل رب ... يحبو، وفضل المربي
عروسة الشعر فينا ... ما بين قطب وقطب
مني القرائح تسطع ... شعرا بأنوار شهب
أيا لمست بوحي ... تقمص المتنبي

جرى هذا الشعر فى جلسة حميمة فى مدينة حيفا قبل أن تسقط فى أيدى إسرائيل.

ولكن المنادمة الثانية جرت بين باريس وبيروت والصين والسعودية بين شعراء اجتمعوا على إجلال المجاهد الفلسطيني الكبير محمد على الطاهر (١٨٩٦ - ١٩٧٤) المكنى بأبى الحسن، الذى كان يقيم ندوة فى مكتبه بالقاهرة يستقبل فيها كبار المجاهدين العرب، ثم انتقل إلى بيروت وواصل عقد ندوته تحت اسم «الأكاديمية».

واتفق أن زار الشاعر اللبنانى الكبير أمين نخلة (١٩٠١ - ١٩٧٦) مدينة باريس ليحتفل فيها بأعياد رأس السنة الجديدة (١٩٦٦) فرحب بمقدمه الشاعر المهجرى الكبير جورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٧٨) الذى كان قد استقر فى عاصمة النور واستضاف بهذه المناسبة عددا من الأدباء والصفوة من العرب المقيمين فى العاصمة الفرنسية، الذين افتقدوا صديقهم المجاهد محمد على الطاهر، فناب عنهم المضيف جورج صيدح بأبيات فى تحيته قال فيها:





ولقد ذكرتك (والأمين) منادمي ... وأنا طروب الروح سكران النهي
بدأ الحبيب عن الحبيب حديثه ... وأنا أعيد وأستعيد متي انتهي
قبلت بالرؤيا حروف كلامه ... إن الحروف لها شفاه تشتهي!

وهى أبيات نشرتها مجلة «الأديب» البنانية لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨ – ١٩٨٥) فذاعت ذيوع المجلة فى أرجاء العالم العربى بل فى مهاجره السحيقة. ولما اطلع الشيخ جلال الحنفى الشاعر العراقى الكبير الذى كان يقيم وقتها فى بكين عاصمة الصين – أطال الله بقاءه – على هذه الأبيات، فاضت قريحته الشعرية بأبيات حيا فيها صديقه المجاهد أبا الحسن قائلا:

لم يبرح اسمك- لابعدت-مضمنا ... بالحمد ما بدأ الحديث وما انتهي
تعزي إليك المكرمات جميعها ... والألمعية والحصافة والنهي
شتان بين المدنفين، فمدنف ... عشق الجهاد، ومدنف عشق المها
ما كان بالشاني جهادك مدع ... دعواه ماأمر الأوامر أو نهي
ولرب محص ما صنعت أضله ... عظم الرصيد، فكم أعاد، وكم سها
عزم رأيت الدهر جاذب حبله ... جذب الغريم، فلم يرك ولاوهي
إني وقد أسقيت ودك رائقا ... لأراك ماعشت اللذيذ المشتهي

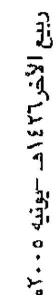
ومن مكة المكرمة فى قلب الجزيرة، شارك الشاعر الكبير فؤاد شاكر (ت ١٩٧٣) فى تكريم المجاهد أبى الحسن فنشر أبياته فى جريدة «الندوة» حيث قال:

تاالله ماكذب (الفؤاد) مقالة ... فيما أشار به عليك وما نهي
فانهض إليه اليوم، غير مذمم ... حتي ولو بلغت مكانته السهي
واصعد إلي أفق الخيال مجنحا ... واستدن آفاق المني، واشهد بها
وارشف رحيقا من حلاوة «طاهر» ... هو من طلاوته الرحيق المشتهي
ولقد رأيتكما «جلال» و«صيدحا» ... وسمعت شدوكما المرنم، يزدهي
فذكرت قلبا طاهرا ينبوعه ... ثر المحامد، ما استكان ولا وهي
إن قيل عنه «مجاهد» فجهاده ... لن ينتهي، عبر الزمان ولا انتهي
إني لأذكره وأذكر عهده ... في ندوة كانت غذاء للنهي
أيام كنا والشباب يضمنا ... يوما، وفيه الحسن «مي» أو سها
هي ذكريات في النفوس خلودها ... هيهات ما نسي الزمان وما سهي

ولولا أننى عرفت الشعراء الثلاثة والشاعر أمين نخلة والمجاهد محمد على الطاهر، لما انضمت هذه المنادمات إلى أضابيرى، فأحببت اليوم أن أشرك القراء فيها قبل أن تعدو عليها عوادى النسيان.

وصفوة القول ان منادمات الشعراء، التى تجرى عادة ارتجالا ومن وحى اللحظة، هى من أجمل ما يحفل به ديوان العرب، ما كان منه منشورا أو مرددا على الشفاه.

ومن أسف أن عصر المنادمات لم يعد معهودا فى يومنا الحاضر، لأن الشعر الأصيل كادت دولته تزول، أما ما يرجف به شعراء اليوم فهو لا يسوغ فى أى منادمة. ■



الإحباط واليأس في الرواية العربية

بقلم
د. متولى محمد البساطى

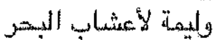
لا أظن أن حدثا من الأحداث كان له من التأثير على الواقع العربى مثلما كان لهزيمة الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ م . على الرغم من كثرة الأحداث التى تتابعت على العرب فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، والتى لاتزال تتابع فى القرن الحادى والعشرين .

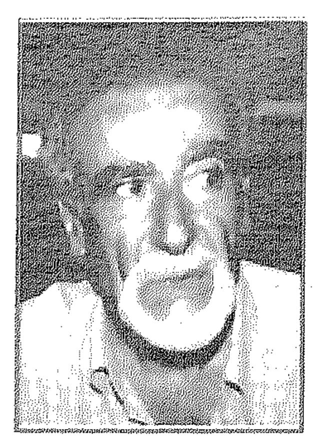
فهذا الحدث لم يقتصر تأثيره على مصر وحدها التى هى بؤرة الحدث ، وإنما امتد ليلقى بظلاله الكثيفة على العالم العربى بشرقه وغربه وشماله وجنوبه ، وإن اختلفت درجة التأثير تبعا للقرب أو البعد من مركز الحدث، الذى أشبه الزلزال، ليهز النفس العربية من الأعماق، ويجعل الكثيرين يفقدون اتزانهم ، وتهتز ثقتهم فى حاضرهم ومستقبلهم ، ويتزعزع إيمانهم فى كثير من الثوابت المستقرة التى عاشوا بها ، وعاشوا لها .

ولا أحد يستطيع أن يتصور مرارة هذا اليوم إلا من عايش تلك الأحداث ، وتجرع غصتها.

وقد بذلت محاولات لتجاوز آثار هذا اليوم ، وبدأت المحاولات برحلة البحث عن الأسباب التى أفضت إلى هذا المآل أملا فى تغيير الواقع ، وكان من الطبيعى أن تتشعب السبل والمسالك ، وتتفاوت الرؤى مع مرور السنين على فترة من حياة أمة لايزال جرحها ينزف (١).

وعلى الرغم من رد الاعتبار بالانتصار العظيم فى رمضان – أكتوبر سنة ١٩٧٣ م ، لكن الانتصار لم تستثمر نتائجه بالدرجة التى تتناسب مع عظمة


وليمة لأعشاب البحر


ومؤلفها حيدر حيدر

الحدث ؛ ليكون نقطة الانطلاق الفارقة بين حدثين متباينين غاية التباين فى طبيعتهما وتأثيرهما .

وتظل مرارة الحدث عالقة بالنفوس فى صورة تجل عن الوصف والتصوير ، ملقية بظلالها الكثيفة على واقعنا .

لقد كانت الهزيمة نتاجا طبيعيا لفترة غير طبيعية سادت العالم العربى ، ومن ملامح هذه الفترة أن ساد جو من كبت الحريات ، وغياب المؤسسات الديمقراطية والتشديد على المثقفين لدرجة الاضطهاد ، ولم تكن حالة الكبت والاضطهاد وغياب الحرية نتيجة للهزيمة بقدر ما كانت سببا من أسبابها.

انعكاس الهزيمة

ولم تكد الحرب تنتهى حتى أصيب الوطن العربى بحالة من الضعف والتشرذم الذى انعكست انعكاسا حادا على الرواية العربية ، وبدلا من أن تشغل الطاقات الإبداعية بالظواهر الايجابية ، والحيلولة دون اهتزاز الهوية العربية فإن الروايات التى صدرت سيطر على أغلبها الإحساس بالهزيمة ، إذ أن الهزيمة كانت من الفظاعة بحيث هزت الوجدان الروائى بعنف شديد ، فجاءت الاستجابة عاطفية أكثر منها عقلية ، وسقطت الرواية فى براثن الاحباط (٢) .

لقد خلقت الهزيمة فراغا عقائديا وسياسيا على الساحة العربية ، وتعددت وجهات النظر فى البحث عن طريق للخروج من هذا النفق المظلم؛ فكان هناك فريق اتجه إلى العقيدة ، مرتئيا أن الهزيمة كانت نتاجا طبيعيا للبعد عنها ، أو منقبا فى جنبات التاريخ العربى ، والإسلامى ؛ ليذكر بالانتصارات المجيدة التى ظلت كاملة فى الوجدان العربى ، وبالشخصيات التى أدت دورا فارقا فى تاريخ الأمة (٣) .

ومن هذه المحاولات محاولة نجيب الكيلانى بتقديم رؤية مستقبلية متفائلة بتفسيره لما حدث من خلال التصور الإسلامى فى روايته «عمر يظهر فى القدس» التى كانت بمثابة جرعة الأمل وسط ظلمات اليأس (٤) ومنهم من رصد الواقع بقتامة ، لعل معرفة الواقع تكون نقطة الانطلاق لتجاوزه .

وليمة البحر

ومن أبرز النماذج الروائية التى جاءت انعكاسا لهذا الواقع المتردى ، بأحداثها وشخصياتها رواية «وليمة

لأعشاب البحر» لحيدر حيدر (٥) ضمن روايات كثيرة رصدت هذا الواقع بقسوته وبشاعته .

فمهدى جواد الشخصية المحورية فى الرواية يرى هو وزميله مهيار الباهلى أن التخلص من هذا الواقع المتردى ، وبناء واقع جديد إنما يكمن فى اعتناق الفكر الماركسى.

وتجرى أحداث الرواية ما بين العراق ، والجزائر مرورا بالعالم العربى ، مصورة للحيوات السياسية ، والاجتماعية ، وما تفيض به من سلبيات ، وتناقض ، وقصور ، وبطش وتنكيل ، وتخلف ، وبؤس ، وانحلال .

ويأتى ذلك فى صورة فنية موحية حينا ، وحينا آخر فى صور تقريرية ، مباشرة ، منقولة عن الواقع نقلا يكاد يكون حرفيا ، خاصة عند الحديث عن التأريخ للحركة الشيوعية فى العراق ، التى أولاها الكاتب جل عنايته واهتمامه ، وعند الحديث عن الجنس ، والدين ، وتاريخ العرب، وواقعهم .

وتأت هذه التقريرية فى صورة تصيب القارىء بالملل والسأم ، كما تأتى أحيانا فى شكل فج مباشر ، بعيد عن جماليات الفن ، ومجافية لأصوله ، من حيث توظيف الأحداث لخدمته ، ليكون الفن أرقى من الطبيعة والواقع .

كلنا فى الهم

ومهدى جواد عراقى الجنسية ، ينتمى إلى أسرة شيعية من البصرة - جنوب العراق - خريج كلية الآداب ، وبعد هزيمة الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ يعتنق الفكر الماركسى وينذر نفسه لمبادئه ، ويرى فيه خلاص أمته وبناء واقع مغاير ، كما يرى فيه الخلاص من طغيان الحكم الفردى - خاصة فى العراق فالشيوعية سفينة المضطهدين فى بحر الحيتان (٦) ونتيجة لذلك يعيش مطاردا ، هو ورفاقه فيخرج هاربا من العراق ذات ليلة بجواز سفر مزور ، ملتمسا الأمان فى بلد آخر . فيرنو ببصره إلى الجزائر ، بعد تحررها ، وحصولها على الاستقلال ، وينزل بمدينة «بونة» ويمتهن فيها التدريس ، ليعول نفسه فى غربته .

ولكنه يكتشف أن مدينة «بونة» الجزائرية لاتختلف فى واقعها عن أى مدينة عربية أخرى ، فهى مدينة متوحشة ، محكومة بالإرهاب ، والجوع، والسمسرة ، والحقد ، والجهل، والقسوة ، والقتل ، وكراهية الغرباء - حتى لو كانوا عربا .

كما أنها مدينة شرسة ، وفظة ، أهلها متوحشون ، يسرقون ويذبحون ، مع أنه كان يمكن أن تكون مدينة جميلة، لأنها مطوقة بالبحر ، والغابات (٧) .

وهكذا يجد مهدى جواد نفسه وقد فر من طغيان إلى طغيان ، ويجد نفسه مطوقا بالطغيان الداخلى ، والخارجى، والسياسى ، والاجتماعى ، الفردى ، والجماعى .

ووسط هذا الطغيان تنشأ علاقة عاطفية ما بين مهدى جواد ، وتلميذته الجزائرية آسيا لخضر ، لتمثل تلك العلاقة خطا من الخطوط الأساسية فى الرواية .

ويجد مهدى جواد فى هذه العلاقة عوضا عن الغربة والاغتراب وعزاء له فى منفاه بالجزائر ، ومن خلال هذه العلاقة تبرز الأحداث التى مر بها مهدى جواد ، هو ورفاقه ، كما يصور الواقع العربى ، مركزا على الجزائر بعد الاستقلال ،

بعشر سنوات ، وأهم القضايا التى جدت من الاشتراكية والتأميم ، والتعريب ، والصراع بين العربية ، والبربرية ، والعربية والفرنسية .

أوثان الماضى !

وتأتى سلوكيات مهدى جواد وتصرفاته وآراؤه متوافقة مع طبيعة شخصيته سواء فى نظرته إلى الدين ، أو إلى الأسرة ، أو العلاقات السياسية، والاجتماعية ، فحمدان القرمطى، وبابك الخرمى ، وسبارتاكوس .. هو مثله الأعلى ..

وهو فى حديثه مع آسيا يفكر فى حياة جديدة معها ، ويتجلى تفكيره على النحو التالى :

أن يرتضى كل منهما التضحية بميراثه الدموى القديم، والدخول فى الآخر بشكل متفرد ، ومفارق للماضى «إذ كنا سنبنى على الصخر بيتا لايتزعزع فلابد من أن نرمى الأهل فى البحر ، وفى تلك الليلة تحدث عن تحطيم الأوثان التى أقامها الآباء والأجداد ، وضرورة الانفصال عن الدين والله ، والأخلاق ، والتقاليد ، والأزمنة الموحلة ، والجنة والجحيم الخرافيين ، وطاعة أولى الأمر والوالدين، والزواج المبارك بالشرع ، وسائر الأكاذيب ، والطقوس التى رسمتها دهور الكذب» (٨) .

فمهدى جواد منذ صغره فتى شقى يكره المدرسة والكتب ، والمدرسين ، كما أنه تعلم الطعن بالسكين فى المدرسة ، وتبدو نزعة التمرد عنده منذ الصغر فى حواره مع أمه (٩) ، كما أنه عاش طفولة كريهة ذاق فيها القسوة بعد أن مات أبوه ، وتزوجت أمه من رجل فظ، وقد كان والده سعدون جواد هو الآخر سكيرا ، وطائشا ، وكارها للناس جميعا حتى امرأته ، وقد (١٠) علم ابنه مهدى جواد الحقد والقسوة ، ولذا يصب حقده على كل شىء فى الوجود ، وهو باعتناقه الماركسية فى رحلة البحث عن الحرية وقع أسيرا للأفكار الحزبية الضيقة ، وهو بتحلله من الدين ، والقيم، والأعراف ، نتاج طبيعى للنشأة، وللحياة، غير الطبيعية التى عاشها .

فهو رجل مشوه ، وشخصيته مهترئة حاقدة ناقمة ، لاتبشر بأمل ، يقع فريسة لذكريات مرعبة عن طفولته البائسة ، ولما تعرض له من سجن ومطاردات ، ويأتى ذلك فى شكل تهويمات ، أو هلوسات ، أو أحلام يقظة مرعبة ، وهو بأفكاره وسلوكه جزء من هذا الواقع المأساوى التعس ، فى حقبة ازدهر فيها الفكر الماركسى، وتردى الواقع العربى .

شخصيات سوداوية

ويمكن القول بأن أغلب شخصيات الرواية تتسم بهذه السمات، وترتد دائما إلى الأسوأ ، ومنه شخصية «فلة بوعناب» المجاهدة الجزائرية التى تحولت إلى بغى ، وكأنها رمز لما فعله الاستعمار بالجزائر والبلاد العربية من استعباد لخدمة نزواته ورغباته .

وشخصيات الرواية سوداوية تمثل واقعا كريها يفيض بالوحشية والتخلف، والجنس ، والمخدرات ، والحقد ، والكراهية .

حتى آسيا لخضر هى الأخرى تحلم ببلاد عامرة بالرقص، والمغامرات ، بعد إلقاء الأهل فى البحر ، وعمر يحياوى مناضل جزائرى انتهى به الأمر إلى الفساد، والحانات ، ومحسن نايف أحد رفاق مهدى جواد لص ، وأفاق ، وقاتل ،

وهو الملقب بسبع الهور (١١) .

وأبو صبرى شيوعى آخر لايخشى فى الحق لومة لائم ، وهو رجل هارب من القانون ، قاتل لابنة عمه .

وعمر يحياوى مناضل جزائرى انتهى به المطاف إلى النساء والحانات.

والمدرسون العرب بالجزائر صورة أخرى للفساد .

ومهيار الباهلى : هذا البهلول المأخوذ بابتهالات الدماغ لايسمح كثيرا لبروق القلب البشرى أن تلمع . بين الضجر والحزن يتحدث عن الثورة التى لم تبدل شيئا فى أعماق الإنسان. لقد زادت مرارته وتعمقت كآبته أكثر فأكثر ، وعلى ما يبدو فقد بدأ يكتشف أن سنوات الحرب الوطنية لم تكن أكثر من صرخة فى عراء » (١٢) .

وشخصية «مهيار فى الرواية قد أفلتت من يد مؤلفها ، وعربدت كما شاءت على صفحات الرواية وأصبح أسلوبها فى الحديث والحوار والتصرف غير محكوم ، بطريقة تسمح لهذه الشخصية بأن تعبر عن نفسها تعبيرا صحيحا خاليا من الفظاظة وقلة الذوق ، والتجاوز الشديد . وهى أشياء كان يجب على المؤلف نفسه أن يكون واعيا بها لأنها زوائد تشوه عمله وليست أساسيات تفيد هذا العمل الفنى . وقد تكرر هذا كله مع شخصيات أخرى فى الرواية » (١٣) .

فهؤلاء هم الذين يبحثون عن الحرية، والتغيير ، والتطلع إلى المستقبل الأفضل ، ومحاولاتهم أقرب ما تكون إلى اليأس ، ولذا ينتهى الأمر بمهدى جواد إلى أن يقول : « أرغب أن أنزوى عن العالم لأننى عاجز ووحيد» ثم يلقى (١٤) نفسه فى البحر ليكون طعاما لأعشابه ، ومدينة «بونة» التى تشبه سفينة قديمة أكلتها طحالب البحر هى الأخرى ، ولصوص العهد الجديد نموا كطحالب البحر (١٥) .

والحب الأول مرصود لطحالب البحر ، فالفساد والعفن يعمان كل شىء الأزمنة والأمكنة ، والأحداث والشخصيات ، واللغة .

وتلك كلها إشارات لفقد الأمل ، فكل شىء، يغرق ولاسبيل إلى إنقاذه ، إذ تلتهمه طحالب البحر وأعشابه ، وكان العرب وليمة لهذه الأعشاب ، وتلك الطحالب .

«فالاحباط الذى هو أساس رواية» «الوليمة» سيطر على أبطال الرواية فأغرقوا أنفسهم فى كل شىء (١٦) .

ومن الشخصيات التى ورد ذكرها فى الرواية أكثر من مرة شخصية «عبدالله بن أبى ضبيعة الكلبى » (١٧) ، وهى شخصية ليس لها وجود تاريخى، وإنما هى شخصية رمزية للحاكم العصرى فى عالمنا العربى بآفاته من التسلط، والقهر ، والفساد، وحب التمجيد ، والتمسك بالسلطة .

وتتضمن الرواية إشارات تاريخية لأحداث ، وشخصيات عربية ، وإسلامية ، ومن تلك الإشارات سيرة بنى هلال وتغريبهم فى بلاد المغرب (١٨) ، وهى تذكر بتغريبة مهدى جواد، وخروجه من العراق إلى الجزائر طلبا للأمن والأمان ، وفرارا من الجدب، أملا فى حياة خصيبة .

وما سبق يؤكد ما قيل فى البداية من أن الخامس من يونيو امتد تأثيره التدميرى إلى النفسية العربية، ليهزها من الأعماق ، ويجعل الكثيرين يفقدون

اتزانهم ، كما فقدوا الأمل فى كل شىء، ولذا كانت طبيعة الشخصيات نتاجا لهذا الواقع ولتلك الفترة الزمنية، التى لاتزال نجتر هوانها وخزيها .

من ملامح الرواية

والتقريرية والمباشرة سمتان من السمات التى تبدو بصورة واضحة فى كثير من فصول الرواية خاصة عند الحديث عن الحركة الشيوعية فى العراق ، وعما خاضه معتنقو الفكر الماركسى من معارك ، إذ يسرد المؤلف تقارير مفصلة عن تلك المعارك ، ويكرر ذلك ، فيصيب القارىء بالملل ، والسأم، وكأننا أمام مراسل حربى ، كذلك تبدو التقريرية ، والمباشرة فى الخضوع للفكر الحزبى الضيق ، وفى إيراد أحاديث مباشرة عن الجنس ، فيهبط بنا إلى السفوح بعيدا عن التحليق فى سماء الإبداع .

والسرد فى الرواية يعتمد على زمن الاستحضار ، أى استحضار الماضى فى الزمن الراهن ، والماضى هو المحرك لوجدان الكاتب ، ولكن الحاضر يشغله بهمومه ، وتمزقه ، واهتدائه ، أما المستقبل فليس له فى الرواية نصيب ؛ فهو أشد قتامة من الماضى ، والحاضر ، لنظل نجلد أنفسنا ونعذبها..

والرواية بما تتضمنه من أحداث وشخصيات ، ورؤى، تثير تساؤلات عدة منها : هل الرؤية التى يقدمها الكاتب هى رؤيته هو ، أم أنها رؤى لشخصيات الرواية ؟

وإذا كان الأمر كذلك : فأين المبدع من تلك الرؤى ؟ وما المدى الذى يمنحه المبدع لشخصياته فى البوح والتعبير ؟

وإلام يظل العرب يجترون آلام هذه المحنة ، ويترددون فى وهادها ؟ ومتى تنبت لهم أجنحة ؟ ، ومتى تقوى هذه الأجنحة ليتخلصوا من الآثار النفسية للهزيمة ، مستخلصين منها العبر ، ليحلقوا فى سماء الحرية ، ويلحقوا بركب التقدم والازدهار ؟ ■

الهوامش

(١) يونيو سنة ١٩٦٧ وأثره فى الرواية المصرية لشوقى عبدالحميد يحيى ص ١٤ . الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠ م .

(٢) الاتجاه القومى فى الرواية للدكتور مصطفى عبدالغنى من ص ١٧٤ - ١٧٦ .

(٣) الاتجاه القومى فى الرواية صـ ١٨٩ .

(٤) الرواية التاريخية فى أدبنا الحديث للدكتور حلمى محمد القاعود صـ ٥٢٢/٥٢٣ . الهيئة العامة لقصور الثقافة . أكتوبر ٢٠٠٣ م .

(٥) «وليمة لأعشاب البحر» الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٩ م .

(٦) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٢٦٣ .

(٧) «وليمة لأعشاب البحر» ص ١٧/١٢ .

(٨) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٣٤٨ .

(٩) ص ١٣٧/١٢/١١ .

(١٠) ص ١٣٨ / ٢١٦.

(١١) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٣٨٥/٣٧٥/٣٧٤/٣٤٨/٣٣٢ .

(١٢) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٢٠٩ .

(١٣) قصة رايتين لرجاء النقاش ص ٦٨ دار الهلال - الطبعة الأولى يناير ٢٠٠١ م .

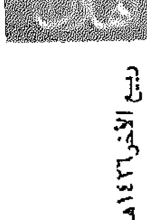
(١٤) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٥٦٦ .

(١٥) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٦٩٠/٣٨٦/٣٣٢/٣٢٣ .

(١٦) قصة رايتين لرجاء النقاش ص ٦٧ .

(١٧) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٢٢٥/٢١٤ .

(١٨) «وليمة لأعشاب البحر» ص ٥٠١ .



الشخصية المصرية

فى عالم المازنى

بقلم
مصطفى بيومى

لعل إبراهيم عبدالقادر المازنى هو أكثر أبناء جيله اقترابا من دائرة الفن والإبداع ، وأوفرهم موهبة فى التعبير عن الشخصية المصرية متخلصا من وقار العلم وكهنوت الثقافة وعبء اللغة الرصينة الجادة دون سقوط فى شرك التسطح والابتذال والمباشرة .

ليس من المستطاع أن ننكر أو نقلل من شأن إبداعات طه حسين والعقاد وهيكل وسلامة موسى ، فى الرواية والقصة القصيرة والشعر والسيرة الذاتية ، ولكن المازنى يتميز عنهم بكتابة هذه الأجناس الأدبية جميعا من ناحية وبإخلاصه للتعبير الأدبى - كهم رئيسى - من ناحية أخرى.

الهلال

ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - يونيه ٢٠٠٥م

المازنى روائيا ، فى «إبراهيم الكاتب» و«إبراهيم الثانى» و«ميدو وشركاه» و«ثلاثة رجال وامرأة» و«عود على بدء» و«من النافذة» ، والمازنى شاعرا ، رغم تنكره لشعره وانقلابه عليه ، والمازنى قصصيا ، فى مجموعاته التى تختلط فيها القصة الغنية بالخواطر والصور والمقالات، مبدع عظيم الصدق فى ترجمة البيئة المصرية التى يعيشها - على المستوى الواقعى والتاريخى والقريب - وفى التجسيد الفنى الأخاذ ، المغلف بالفكاهة الصافية والسخرية المريرة غير الجارحة ، للشخصية المصرية فى صعودها المتوهج وانكسارها الحزين .

لقد عاش المازنى ثلاثين عاما قبل ثورة ١٩١٩ ، وعايش واقع مابعد الثورة ثلاثين عاما أخرى ، وغادر الدنيا - فى هدوء يليق بعالمه البسيط العميق - قبل

ثلاث سنوات فحسب من ثورة جديدة تمثل تطورا مختلفا في تاريخ هذا الوطن العظيم ؛ الوطن الذى أخلص الأديب والمفكر والناقد الكبير فى التفاعل معه مقدما عصير شخصية أبنائه وعصارة روحهم وشهادة كاملة على أيامهم ووقائعهم وأحزانهم وأفراحهم .

البساط أحمدى !

يتفنن المازنى فى اختيار العناوين الدالة على شخصيته التى تجمع بين الزهد والسخرية ، وتمزج بين المرارة والشعور الطاغي بعبث الوجود :

«خيوط العنكبوت» ، «حصاد الهشيم» ، «قبض الريح» ، «صندوق الدنيا» ، «ع الماشى» ، «فى الطريق» ... الخ .

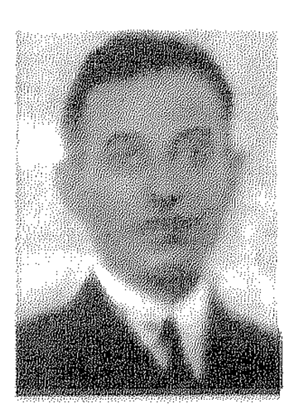
العنوان يقود المتلقى ، بغريزة موروثة، إلى الإحساس بزهد الرجل وتواضعه وقلة حيلته . إن المازنى ، بخبث طفولى ، يريد أن يوحى بأنه لايرى فى إنتاجه مايستدعى التعالى ويستحق الفخر ، ويبادر - قبل أن يمارس الآخرون عليه بطولة زائفة - إلى الانتقاص من نفسه واللجوء إلى التواضع غير الحقيقى .

نقول «غير الحقيقى» لأن المازنى كان يعرف قيمة مايقدمه ، وهو مانجده بوضوح فى مقدمة الطبعة الأولى من «حصاد الهشيم» حيث يقول :

وفى الكتاب عيب هو الوضوح فأعرفه!

وستقرؤه بلا نصب ، وتفهمه بلا عناء ، ثم يخيل إليك من أجل ذلك أنك كنت تعرف هذا من قبل وأنك لم تزدد به علما !

فرجائى إليك أن توقن من الآن أن الأمر ليس كذلك ، وأن الحال على نقيض ذلك !

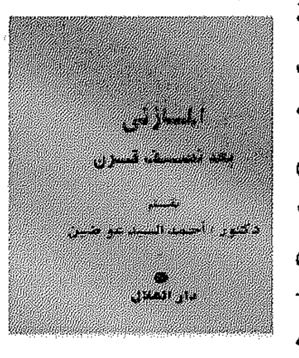


وأعلم أنه لايعنينى رأيك فيه . نعم يسرنى أن تمدحه كما يسر الوالد أن تثنى على بنيه ، ولكن لايسوؤنى أن تبسط لسانك فيه إذ كنت أعرف بعيوبه ومآخذه منك .



وما أخلقنى بأن أضحك من العابثين ، وأن أخرج لهم لسانى إذ أراهم لايهتدون إلى مايبغون وإن كان تحت أنوفهم ! «حصاد - ص ٤»

«البساط أحمدى» عند المازنى ، والتقعر والتفصح - رغم ثقافته اللغوية الرفيعة - مرذول ومكروه ، والقارىء صديق وليس تلميذا .



ولا تنفصل إهداءات كتب المازنى ومقدماتها عن عناوينه ، ولا تنفصل - أيضا - عن سمة بارزة عنده وهى السخرية من كل شىء والسخرية من نفسه وأقرب الناس إليه قبل كل شىء .

فى إهداء «خيوط العنكبوت» يقول المازنى :

إلى أبنىَّ الصغيرين .

رضى عبدالقادر المازنى الذى أوفى على السادسة .

وعبدالحميد عبدالقادر المازنى الذى شارف الرابعة.

أعترافا بفضلهما عليّ وشكرا لمعونتهما لي ..

فلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين ! «خيوط - ص ٣٧»

إلى ماقبل السطر الأخير يوحي الإهداء بالجدية الكاملة ، ثم تتحقق المفارقة مع السطر الأخير الإنقلابي !

وتختلف مقدمات المازني - بشكل عام - عن عناوينه وأهداءاته ، فهي بعيدة عن الزهد والسخرية - وإن لم تخل منهما - وأقرب إلى الجدية والصرامة .

في «فاتحة» كتابه المهم «خيوط العنكبوت» ، يقتحم المازني - بقسوة حانية - مغاليق الشخصية المصرية كما يراها .

إن إرادة الحياة عنده لاتعرف الهزل ، والانتماء إلى مصر والانغماس في طينها لاينفي التعامل بقوة وموضوعية :

في حياة المصريين على العموم من اللين والبلادة أكثر مما ينبغي ، وهم - على الجملة - أطلب للترف والرخاء السمين والراحة ، منهم للقوة والبأس والتجريب ، ولهم صبر على الفاقة إذا رقت حالهم في بلادهم ، ولكنهم لا صبر لهم على المغامرة ولا إقبال منهم على الخطأ ، وقد يضطرون إلى ذلك فيتجلدون ولكن نفوسهم لاتنزع بهم إلى معاناة التجريب .

ويضع المازني يده على مايراه سببا للملامح التي يرصدها :

وأحسب أن طبيعة البلاد تجنح بأهلها إلى إيثار الدعة والراحة ، فليس في مصر جبل شاهق أو غابة موحشة أو وحش ضار أو مغارة مهلكة أو على الأقل مرعبة، وأرضها مستوية ، وتربتها خصبة ، والنيل يجري فيها ولا يحوجها إلى المطر . «نفسه - ص ٥ ، ص٨» .

ليس هذا التوصيف يتيما ونادرا في عالم المازني ، فسنجد شبيها له في عديد من كتاباته .

وعلى سبيل المثال ، فإنه في حديث إذاعي بعنوان «الرأي العام المصري» يقول: والمصري بطبيعته لين العريكة . شديد التسامح . طويل الأناة عظيم الصبر . ولكن فيه عنادا شديدا ولجاجة قوية فيما يأخذ فيه . وله قدرة عجيبة الاحتمال . وفيه فكاهة يركب بها كل شيء . وروح فتية وإيمان عميق . وسوء ظن تركته في نفسه وكادت تطبق عليه حقب طويلة من الحكم الظالم المتعسف .. «أحاديث - ص٦٨» .

عظيم الصبر والتسامح

وغير مستغرب أن يكون هذا هو منطق المازني ، ففي حياته وإبداعه تطبيق نموذجي لما يؤمن به .

إنه لايعرف الترف ولا يطيقه ، عظيم الصبر والتسامح ، شديد البساطة والوضوح ، فكر وساخر من طراز فريد ، ومن رواد التعامل مع الطبيعة والذوبان فيها .

ربما يعيب المازني على الشخصية المصرية بعض جوانبها السلبية ، ويجتهد في البحث عن تبرير وتفسير لهذه الجوانب ولكنه - كمصري قح - لايستطيع أن ينجو من هذه المؤثرات .

يقول المازني :

وفي الروح المصرية كآبة ومرارة هما من فعل الاستبداد على الحقب الطويلة ، والكآبة تقتير ، والمرارة تزهيد ، ولولا ما تركه فيه الاستبداد لما كان ثم من داع لتلقي الحياة بغير السرور والاقبال والنشاط ، فإن الحياة لاتحزن ، وهي

تلقى بالمرء فى الدنيا ، وتلقى الدنيا كلها أمامه ليصنع بها ، ويبلغ فيها ، مايريد أو يقوى عليه . «خيوط - ص١١» .

المازنى أفضل من يعبر عن هذه السمات ويترجمها فى أدبه الذى يمتلىء بالمرارة ولا يخلو من الكآبة ، ولكنه يتعامل معهما بخصوصية ساخرة تخفف من الحدة وتهذب الوجع والألم .

ومن الصعوبة بمكان أن ندلل على سخرية المازنى ، فالسخرية عنده طاغية وظاهرة بحيث لاتحتاج إلى تدليل .

ولكن عبقريته وشجاعته المحمودة فى أنه لايستثنى نفسه ولا يرحمها :

وما أصبحت يوما على وجهى إلا لقيت ما أكره ، ولهذا أتحرى أن أرى أى وجه آخر قبل أن تطالعنى هذه السحنة .. وأرانى اقتصد فى ذم الوجوه الدميمة لفرط شعورى بما «حبانى» الله إن صح التعبير بهذا اللفظ . «أحاديث - ص٥» .

وفى «جر الشكل» يختتم المازنى ذكرياته الطفولية قائلا :

وكم رحت أعجب لقسمة الحظ .

كنت فى حداثتى لا أتردد أن أؤدى وظيفة «جر الشكل» فى معارك الحارات .

وقد شببت عن الطوق جدا ولكنى أرى آخرتى مازالت معقودة بأولادى ، فقد طوفت ما طوفت ، ثم انتهيت إلى الصحافة وعدت - كما كنت «جر الشكل» . «خيوط - ص٢٥» .

لقد كان العمل الصحفى الاضطرارى من أجل لقمة العيش ، وهو عمل لايرحم ولا يحنو ، من مآسى المازنى التى لايكل عن ترديدها .

ليست الصحافة مجرد تطوير لدور «جر الشكل» الذى مارسه المازنى فى طفولته ، ولكنها أيضا شبيهة بحامل صندوق الدنيا الذى يتلذذ به الأطفال ولكن صاحبه وحامله لايعرف اللذة :

كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر مافيه، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الحياة الكبار ، فأحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر الذى شبر فيافى الزمان ، وماله سوى أماله وهى لوافح ، ونجم سوى ذكرها نورها خافت» . «صندوق - ص٥» .

ثمة صلة دائمة ووثيقة بين المازنى وطفولته ، فهى الموضوع الأثير لعديد من مقالاته وصوره وقصصه ، والأساس الذى تشكلت عليه رجولته ونضجت شخصيته .

ليس المازنى - فى مراحل العمر المختلفة - إلا ذلك الطفل المولع بإخراج لسانه - حبا للفكاهة وليس ولعا بالأذى - لكل مايمر ومن يمر به ، ولكنها «شقاوة» لاتثير الغضب ، فصاحبها ينال نصيبا يدفع الآخرين إلى التغاضى ويجبرهم على التواصل مع جوهر وجواهر أفكاره الصافية المتألقة .

أجمل ماكتب فى النثر العربى

هل من تناقض بين سخرية المازنى وولعه بالموت ؟! .

سينتفى التناقض تماما إذا أدركنا أن الإيمان العميق بالموت - إيمان المكره لا البطل - هو الدافع الرئيسى لنظرة المازنى إلى الحياة - نقيض الموت ومقدمته القصيرة باستهانة تليق بمحدوديتها وزوالها المؤكد .

لقد تحالف الموت ، مع منغصات

حياتية أخرى ، ضد المازنى ، ولم يكن عند المصرى الأصيل من سلاح يشهره للمقاومة الا السخرية .

فى مقدمة «فى الطريق» صفحات من أجمل ماكتب فى النثر العربى عن الموت، موت الأبنة والأمل والبهجة وشهوة الحياة

.. بل أفتح العين على جثة صغيرة حملتها بيدى هاتين إلى قبرها ، وأنزلتها فيه ، ووسدتها التراب بعد أن سويته لها بكفى ، ورفعت من بينه الحصى الدقاق ثم أنكفأت إلى بيتى جامد العين ، وعلى شفتى أبتسامة متكلفة وفى فمى يدور قول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لأمرىء عبثا
الله أدرى بلوعة الحزن .
«فى – ص٤» .

وفى أعمال المازنى الأخرى – شعرا ونثرا – أحاديث لايمكن حصرها عن الموت. إنه لايعتبر نفسه «حيا» رغم ممارسته لكافة الأنشطة التى تميز الأحياء :

وإنى لأقضى أيامى على نحو ما
أروح وأجىء وأكتب وأتكلم ، وأضحك وآكل وأشرب ، ولكنى لا أرجو ولا أغضب، ولا أحزن ولا أطرب ، ولا أرهب ولا أرغب، لأنى لست أحيا الآن !!
«حصاد – ص١٣» .

تسيطر خيالات الموت على المازنى فتزيح حياته وتنفيها ، ولم يعد الجمال قادرا على أن ينسيه الموت المتكفل بإفساد كل شىء ، أو كما يقول شعرا فى «شؤم الخيال» :

أرى رونق الحسناء فى ميعة الصبا
فيوضع بى شؤم الخيال ويعتق
ويشهدنيها فى التراب مرمة
وقد عالها غول الحمام الموفق

صاح الشاعر الجاهلى المكسور بالموت صحيته الخالدة :

لقد أفسد الموت الحياة ، ولم يكن المازنى قادرا على الصياح أو راغبا فيه .

لقد أدرك مبكرا أن المعركة محسومة لصالح الموت وأدمن – مبكرا أيضا – ترديد حكمة ابن داود الموجعة :

«باطل الأباطيل ، الكل باطل . ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبد تحت الشمس ؟ . دور يمضى ودور يجىء، والأرض قائمة إلى الأبد – كل الأنهار تجرى إلى البحر ، والبحر ليس بملآن» .. وأنا أيضا كالجامعة وجهت قلبى إلى المعرفة ، وأمتحنت نفسى بالسؤال ، وعللت روحى بالتفتيش .. بنيت لنفسى آمالا.. غرست لنفسى أوهاما .. عملت لنفسى جنات وفراديس .. غرست فيها أحلاما من كل نوع ثمر .. وهذا كان نصيبى من كل تعبى .. . قبض الريح ! .
«قبض – ص٦» .

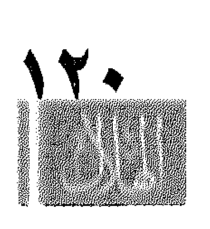
ربما كان المازنى هو الوحيد من أبناء جيله ، جيل الرواد وممهدى الطريق ، الذى يستحق صفة «ابن البلد» ، ولكنه ابن البلد المثقف الرقيق المصاب بداء الحكمة .

علمته الحكمة أن يرضى ويقنع ويزهد ويسخر ويخرج لسانه للحياة ، بل يحلم أن يخرج لسانه – وهو ميت – للأحياء :

أيها الزائر قبرى
أتل ماخط أمامك
هاهنا ترقد عظامى
ليتها كانت عظامك

الكتاب من عنوانه ، وفلسفة المازنى مستمدة من عناوين كتبه .

فلسفة تعكس الشخصية المصرية



وتعبر عنها ، تجمع المتناقضات فى يسر لانشاز فيه ولا شبهة تباين . السخرية الدائمة ، والإحساس الحاد بالموت والبساطة التى تختصر عمق شعب اخترع الحضارة وشب مع الزمان محتفظا بشبابه .

كان الرائد العظيم بعيد النظر وهو يحدد حقيقة الدور الموكول إليه وإلى جيله كله :

فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد ، وأن يشتغل أبناؤه بقطع هذه الجبال التى تسد الطريق ، وبتسوية الأرض لمن يأتون من بعدهم .

ومن الذى يذكر العمال الذين سووا الأرض ومهدوها ورصفوها ؟

من الذى يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد الذين أدموا أيديهم فى هذه الجلاميد ؟

وبعد أن تمهد الأرض ، وينتظم الطريق ، يأتى نفر من بعدنا ويسيرون إلى آخره ، ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة باذخة . ويذكرون بقصورهم ، وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها سامقة رائعة ، والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد ؟.

فلندع الخلود إذا ولنسأل :

كم شبرا مهدنا من الطريق ؟ .

«حصاد – ص ٢٠٨» .

لم يمهد المازنى شبرا أو أشبارا ، ولكنه مهد أميالا وشكل أجيالا .

تدين له الثقافة المصرية بجميل عظيم لدوره الجليل فى التمهيد والتشكيل ، وتدين له أيضا باعتذار ضرورى عن التقصير والقصور فى دراسته ومتابعته والاعتناء بآثاره ومؤلفاته والنسيان المتكرر لذكرى ميلاده التى تتوافق مع ذكرى وفاته: «١٠ أغسطس ١٨٨٩ – ١٠ أغسطس ١٩٤٩» .

على أصابع اليدين نستطيع أن نذكر الأسماء التى اهتمت به عبر مناهج مختلفة:

نعمات أحمد فؤاد ، مصطفى ناصف، صلاح عبدالصبور ، فاروق خورشيد ، عبداللطيف عبدالحليم ، فاروق عبدالقادر ، وأسماء قليلة أخرى .

وبمرارة لا تعرف الحدود ينبغى أن نشير إلى أن أعماله الكاملة لم تطبع حتى الآن فى الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وهى الهيئة التى تهتم ببعض الذين لايرتفع إنتاجهم إلى ركبة المازنى ، قصير القامة عظيم المكانة والقيمة .

وإلى أن تهتدى الهيئة المبجلة إلى ، وجود كاتب مصرى عظيم اسمه إبراهيم عبدالقادر المازنى ، وإلى أن ينتبه الدارسون والباحثون والأكاديميون – الغارقون فى البحث عن قطط سواء فى غرف مظلمة – إلى غزارة إنتاجه خصوبته ، إلى أن ينتهى التليفزيون من الاحتفال والاحتفاء بمطربى الدرجة الثالثة وراقصات هز البطن ، لا نملك إلا أن نردد مع صلاح عبدالصبور :

سيبقى المازنى رائد الثقافة ، سلطان السخرية ، مبتدع القصة النفسية فى أدبنا العربى ، الرجل ذو القلب الدافىء الذى كشف لنا عن كل تجربته ، فى ترجمته الذاتية لنفسه فى أكثر من كتاب وقصة ومقال وقصيدة «ماذا يبقى منهم للتاريخ – ص ١٦٤»

رحم الله المبدع العظيم ذا القلب الدافىء والقلم المصرى الأصيل .■



بقلم
د. أحمد القصير *

ارتبط ظهور حركة المرأة اليمنية ارتباطا وثيقا بفترة المد القومى في بدايات النصف الثانى للقرن العشرين . وكان أول ظهور لهذه الحركة فى مدينة عدن فى جنوب اليمن . وفى واقع الأمر تعتبر هذه المدينة نقطة محورية فى مجال تطور التاريخ الاجتماعى لليمن الحديث. ويعود ذلك إلى عدة أسباب أهمها التطورات الاقتصادية الاجتماعية التى أخذت تشهدها تلك المدينة منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد أخذت تلك التطورات فى التسارع بعد الاحتلال البريطانى لها فى عام ١٨٣٩ كانت عدن هى المدينة الوحيدة التى ظهر فيها التحديث منذ وقت مبكر على خلاف المدن اليمنية الأخرى . كما كانت الموقع الذي ظهرت فيه شرائح وجماعات اجتماعية جديدة . وفضلا عن ذلك فإنها المدينة الوحيدة التى شكلت منذ منتصف القرن التاسع عشر مركزا لجذب الهجرة الداخلية من مختلف مناطق اليمن . وكان لهذه العملية تأثيراتها على كل من المرأة والشخصية اليمنية عامة . وقد أدى اتساع نطاق الهجرة إلى أن تتحمل المرأة فى القرى التى هاجر معظم رجالها مسئولية فلاحة الأرض وتربية الأطفال بمفردها . واستمرت هذه الظاهرة حتى الوقت الراهن .

وينبغى التنويه بأن التطورات المشار إليها آنفا عبرت عن تحولات جذرية فى التاريخ الاجتماعى لليمن بأسره وليس عدن وحدها . وكان من الطبيعى أن تنشأ المؤسسات والحركات التى تعبر عن الجماعات الاجتماعية الجديدة التى حملت ثقافة غير قبلية . ومن هنا نشأت المؤسسات الأهلية . وشمل ذلك المنتديات الثقافية والأدبية والجمعيات الخاصة بالحركة النسائية . وكانت المنتديات الأدبية قد أخذت تتأسس منذ عشرينات وثلاثينات القرن العشرين . ففى عام ١٩٢٥ تأسس أول ناد ثقافى في عدن هو نادى الأدب العربى . ومنذ ظهور هذا النادى حتى تأسيس أول جريدة أهلية باسم «قناة الجزيرة» ١٩٣٩ كان هناك نشاط ثقافى وأدبى فى عدن ومساجلات أدبية مع الأدباء فى كل من تعز والحجرية والمكلا ولحج وغيرها .

وقد لعبت تلك النوادى أدوارا اجتماعية وثقافية أساسية فى حياة اليمن . كما تحول البعض منها إلى أحزاب سياسية . لكن المرأة

* كاتب وأستاذ علم اجتماع



أمة العليم السوسوة وزيرة حقوق الانسان بجوار الدكتور أحمد القصير مع وهيبة فارع أول وزيرة يمنية لحقوق الانسان

كانت غائبة تقريبا فى نشاط النوادى التى شكلها فى عدن المهاجرون من أبناء قرى شمال اليمن .

وعلى الرغم من اختلاف الأوضاع فى عدن عنها فى شمال اليمن سابقا ، أى فى المملكة المتوكلية ، فإن الشمال لم يكن خاملا . بل وجدت محاولات عملية للتحديث من أهمها تأسيس مدارس أهلية لتعليم العلوم الحديثة مثل التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية فى ثلاثينات القرن العشرين . ومثال ذلك مدرسة حيفان ومدرسة ذبحان بمحافظة تعز . وكانت مدرسة ذبحان هى الأكثر شهرة حيث كان هناك ناد يوفر كتبا وصحفا . لكن الإمام اعترض على تدريس العلوم الحديثة وأمر بمنع تدريسها بحجة أنها تفسد عقول الأطفال . وفى النهاية تم إغلاق المدرسة والنادى .

وفى السنوات اللاحقة وجدت قضية المرأة من يناصرها فى الشمال . فعندما انتقل عبدالله باذيب من عدن للإقامة فى تعز بالمملكة المتوكلية أصدر فى أكتوبر ١٩٥٩ صحيفة أسبوعية سياسية باسم «الطليعة» تضمنت الدعوة إلى تحرر المرأة . لكن هذه الصحيفة توقفت عن الصدور فى ١٠ يوليو ١٩٦٠ بعد أن صدر منها ١٣ عددا .

روافد أسهمت فى خلق الحركة النسائية

يمكن القول بأن الحركة النسائية اليمنية تشكلت نتيجة تجمع ثلاثة روافد أساسية . وأدى تجمع تلك الروافد الثلاثة إلى خلق المجرى الذى سارت فيه هذه الحركة . وتتمثل تلك الروافد فى التنظيمات والأحزاب السياسية ، والحركة الطلابية ، والجمعيات النسائية.

• التنظيمات والأحزاب السياسية

شاركت المرأة فى عدن فى نشاط التنظيمات والأحزاب السياسية . وقد تكون عدد من قيادات الحركة النسائية من خلال المشاركة فى ذلك النشاط الحزبى . وشملت تلك الأحزاب حزب الشعب الاشتراكى برئاسة عبدالله الأصنج ، وحركة القوميين العرب ، والمجموعات الماركسية خاصة حزب الاتحاد الشعبى الديمقراطى برئاسة عبدالله باذيب ثم الجبهة القومية . والجدير بالذكر أن حزب الاتحاد الشعبى الديمقراطى أنشأ فى نفس عام تأسيسه ، أى فى عام ١٩٦١ تنظيما للشباب باسم «المنظمة المتحدة للشباب اليمنى» عرفت فيما بعد على المستوى الشعبى باسم «شبيبة السفلى» . وقد قامت هذه المنظمة بدور تنويرى بين الشباب بنين وبنات

لقد كانت هذه الأحزاب بمثابة الجسر الذى ربط المرأة اليمنية بالحركة الوطنية والكفاح المسلح . والجدير بالذكر أن العديد من الشخصيات والقيادات النسائية اللاتى لعبن دورا بارزا فى الحركة النسائية فيما بعد كانت لهن بشكل أو آخر صلة بتلك الأحزاب والتنظيمات . وفى ظل ذلك المناخ تدعمت

الحركة النسائية بجمعياتها ومنتدياتها .

الحركة الطلابية

كان العمل والنشاط الطلابي لتلميذات المدارس الثانوية في عدن من المجالات الأساسية التي أسهمت في تبلور حركة المرأة وقد برز ذلك النشاط في بداية ستينات القرن العشرين في كلية البنات (وهي مدرسة ثانوية) في حي خور مكسر بعدن ، وتصاعد ذلك النشاط خلال موجة اضرابات ومظاهرات الطالبات في فبراير عام ١٩٦٢ احتجاجا على المناهج الدراسية . وقد خرج الطلاب في المظاهرات تضامنا من الطالبات . وجرى اعتقال ٦ طالبات وحكم عليهن بدفع غرامات . وقد عادت الدراسة إلى الانتظام في مدارس البنين لكنها تعطلت طوال ذلك العام في ثانوية البنات .

وعلاوة على ذلك شاركت التلميذات خاصة المنتميات لجمعية المرأة العربية بدور كبير وأساسي في عملية الزحف إلى المجلس التشريعي عدن يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٦٢ وكان هدف المظاهرة منع ضم عدن للاتحاد الفيدرالي . ويمكن القول بأن الحركة الطلابية أسهمت في تصاعد حركة المرأة . كما شكلت هذه الحركة أحد روافد عملية الكفاح المسلح ضد الوجود البريطاني . وقد تأسست في تلك الفترة الرابطة الطلابية العربية . وكانت عائشة السقاف من بين أعضاء لجنتها التنفيذية . كما كانت ثريا منقوش ثاني رئيس لهذه الرابطة بعد غازي علوان الذي كان أول رئيس لها . وينبغي التنويه بأن معظم القيادات النسائية التي برزت في السنوات اللاحقة كن من بين التلميذات اللاتي شاركن في الحركة الطلابية .

الجمعيات النسائية

برزت ثلاثة تجمعات أساسية للمرأة في عدن بدءا من منتصف القرن العشرين . وأسهمت هذه التجمعات النسائية بدور بارز في تاريخ الحركة النسائية اليمنية .

نادي نساء عدن :

تم تأسيس هذا النادي كمؤسسة أهلية في أوائل خمسينات القرن العشرين بعد أن حلت الحكومة البريطانية النادي البريطاني للنساء الذي أنشأته أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان يدير النادي مديرة انجليزية قبل أن تسيطر عليه النساء العربيات .

الجمعية العدنية للنساء :

تأسست هذه الجمعية في عدن في عام ١٩٥٦ بعد أن كانت المدينة قد عرفت تنظيمات المجتمع المدني من منتديات أدبية واجتماعية وثقافية علاوة على النقابات ، والأحزاب . وكانت رقية ناصر التي تلقب برقية لقمان والمعروفة باسم «أم صلاح» هي أول رئيسة لهذه الجمعية .

جمعية المرأة العربية :

تجدر الاشارة إلى أن نشاط الجمعيات النسائية وحركة المرأة اليمنية قد شهدا تطورات وآفاقا جديدة مع تشكيل جمعية المرأة العربية في عام ١٩٥٧ . وتشير تسمية الجمعية بجمعية المرأة العربية إلى دلالة عامة هدفها التأكيد على الانتماء القومي العربي .

حركة المرأة والكفاح المسلح

كانت توجد على الدوام صلة بين حركة المرأة وتنظيماتها والحركة الوطنية وتنظيماتها . ونعني هنا حركة القوميين العرب ، والناصريين ، والبعثيين ، والماركسيين ، وجبهة التحرير ، والجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل . ولعبت النساء من أعضاء جمعية المرأة العربية أدوارا هامة في الأعمال السياسية مثل المشاركة في المظاهرات الطلابية والمظاهرات العامة في بداية ستينات القرن العشرين ثم في عملية الكفاح المسلح بدءا من عام ١٩٦٣ . وكانت قيادات جمعية المرأة العربية على صلة وثيقة بالمؤتمر العمالي وزعيمه عبدالله الأصنج . كما عملت عضوات الجمعية المنتميات سرا للجبهة القومية على توجيه نشاط عضوات الجمعية في اتجاه دعم الأعمال التي تساعد الكفاح المسلح ضد البريطانيين . وتم أيضا استخدام العمل الاجتماعي للتوعية خاصة من خلال نشاط الجمعية في مجال محو الأمية .

وحدث ذلك بعد أن تزايد ضغط عدد كبير من عضوات الجمعية لدعم الكفاح المسلح

خاصة بعد أن رفض عبدالله الأصنج زعيم المؤتمر العمالي وحزب الشعب الاشتراكى الذى تأسس عام ١٩٦٢ الاشتراك فى تأسيس الجبهة القومية عام ١٩٦٣ . وهى الجبهة التى اختارت أسلوب الكفاح المسلح لطرد الاحتلال البريطانى .

تميز نشاط المرأة فى تلك الفترة بالجمع بين العمل الاجتماعى الخيرى والعمل الطلابى الجماهيرى علاوة على العمل السياسى السرى . والجدير بالذكر أن جمع المرأة بين النشاط الاجتماعى الخيرى والعمل السياسى لم يقتصر على مدينة عدن ، بل تواجد على نطاق واسع ومؤثر فى مناطق أخرى خاصة فى لحج . وقد ظهر عدد بارز من القيادات النسائية من تلك النواحى شاركن فى البداية فى العمل العسكرى ضد قوات الاحتلال ولعبن فيما بعد أدوارا سياسية من خلال عضويتهن فى الجبهة القومية .

وكانت النساء يشتركن فى المظاهرات السياسية وفى توزيع المنشورات . وتعرضن للملاحقة من جانب البريطانيين خلال قيامهن بتلك الأعمال . ومثال ذلك القبض على نجوى مكاوى وفوزية محمد جعفر أثناء قيامهما بتوزيع منشور عن أحد شهداء الكفاح المسلح وتم سحب السيارة التى كانتا تستخدمانها بدبابة وهما بداخلها . ومن أبرز النساء اللاتى شاركن فى تلك الأعمال الراحلة زهراء هبة الله مسئولة القطاع النسائى فى شعبة الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن المحتل بدءا من عام ١٩٦٤ ، وثريا منقوش الكاتبة وأول أمين عام للاتحاد العام لنساء اليمن ، وشفيقة مرشد الأستاذة الجامعية سابقا والعضو الحالى فى الأمانة العامة للحزب الاشتراكى اليمنى ، وأنيسة الصايغ التى كانت عضوا بأول لجنة تنفيذية للاتحاد العام لنساء اليمن عند تشكيله فى عام ١٩٦٨ ، والراحلة عايدة على سعيد التى كانت أول امرأة يتم انتخابها لعضوية مجلس الشعب الأعلى فى جنوب اليمن قبل الوحدة والتى تولت رئاسة الاتحاد



أنيسة الصائغ عضوة اللجنة التنفيذية لاتحاد نساء اليمن

زهرة هبة الله رئيسة القطاع النسائي بالجبهة القومية في عدن

العام لنساء اليمن أكثر من مرة فى اليمن الجنوبى سابقا . كما كانت أول رئيسة لاتحاد نساء اليمن عندما تشكل عام ١٩٩١ بعد تحقيق الوحدة اليمنية .

كانت قيادة الجبهة القومية لعدن تسمى «شعبة» الجبهة القومية . وكان جميع أعضاء هذه الشعبة من الرجال باستثناء امرأة واحدة هى زهرة هبة الله . وتولت هذه السيدة مسئولية القطاع النسائى الذى كان يسمى تنظيميا «الرابطة» وتشكلت هذه الرابطة من : عايدة على سعيد ، فوزية محمد جعفر ، ثريا منقوش ، أنيسة الصايغ ، فتحية باسنيد ، فطوم على أحمد الدالى ونجوى مكاوى (مقابلة مع ثريا منقوش يومى ١١ و١٨ سبتمبر ٢٠٠٣ ومقابلة مع أنيسة الصايغ يوم ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ ، ومقابلة مع فوزية محمد جعفر يوم ١ أكتوبر ٢٠٠٣) .

المرحلة الثانية لحركة المرأة

تبدأ هذه المرحلة مع قيام ثورتى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ فى الشمال وثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣ فى الجنوب . كما تنتهى مع تحقيق الوحدة فى عام ١٩٩٠ . ويجب التنويه بأن القيود كانت توضع على تأسيس منظمات المجتمع المدنى على الرغم من اختلاف التوجهات السياسية لكل من عدن وصنعاء . وكانت «الحقوق المتميزة التى حصلت عليها المرأة فى الجنوب نتيجة لتوجهات النظام فى المحل الأول . كما كانت بدرجة ما تعبيرا عن

وضع المرأة فى عدن على وجه الخصوص» (ثائرة شعلان ، دور المنظمات الأهلية اليمنية فى تطبيق منهاج عمل بكين - تقييم نقدى ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٦٠ - ٦١ ، يناير - يونيو ١٩٩٩)

تطورات متباينة فى كل من الشمال والجنوب بدءا من ١٩٦٧ :

شهد شهر نوفمبر ١٩٦٧ تطورات متباينة فى كل من الشمال والجنوب كان لها تأثيرها على مؤسسات المجتمع المدنى ومن بينها تنظيمات المرأة . ففى ٥ نوفمبر ١٩٦٧ جرى الانقلاب ضد عبدالله السلال . وحل نظام آخر عمل على المصالحة مع الملكيين والسعودية . كما عمل قادة الانقلاب على دعم مشايخ والأوضاع القبلية .. وظهر منذ ذلك الحين التداخل بين أجهزة الدولة والقبيلة . وأصبح هذا التداخل بين القبيلة والدولة سمة أساسية ازدادت ترسخا فى السنوات اللاحقة . وكان القاضي عبدالرحمن الارياني ومحسن العيني من قادة ذلك الانقلاب . فقد تولى الأول رئاسة الدولة بينما تولى الثانى رئاسة مجلس الوزراء

وقد حدث ذلك الانقلاب فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ وبعد انسحاب القوات المصرية من اليمن . وأسفرت الإجراءات التى اتخذها النظام الجديد عن تضييق الخناق على الأحزاب .. وتحولت الأحزاب السياسية إلى العمل السرى . وبينما كان هذا التراجع يجرى فى الشمال كان الجنوب يعيش وضعا مغايرا فى ظل انتصار الكفاح المسلح ، وتحقق الاستقلال وجلاء القوت البريطانية فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧.

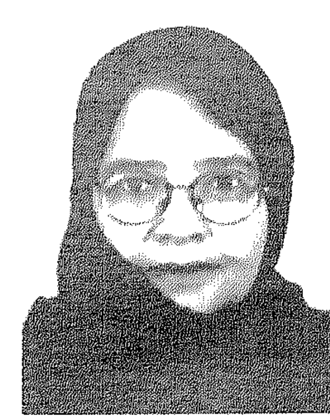
منع المرأة من ممارسة حقها فى الترشيح

حرمت عدة عوامل المرأة فى اليمن الشمالى عام ١٩٨٨ من ممارسة حقوقها السياسية التى منحها لها القانون . وعلى سبيل المثال حاولت خمس سيدات ترشيح أنفسهن لانتخابات مجلس الشورى التى أجريت ذلك العام لكن تم الضغط عليهن ومنعن من الترشيح . وقد لاحظ أحد المتخصصين فى القانون أن التيار السلفى وتيار الحداثة فى اليمن الشمالي آنذاك قد توحد موقفهما تجاه هذا الموضوع قائلا بأن «المفارقة الصارخة هنا هى أن تيار الحداثة قد ضبط موقفه من الحقوق السياسية للمرأة الخاصة بالانتخابات على الأقل على إيقاع تبنى الموقف السلفى واللاحداثى من تلك الحقوق السياسية . فحين خطر لتيار الإسلام السياسى عند انتخابات مجلس الشورى عام ١٩٨٨ أن يعارض ويحرم على المرأة ممارسة حقوقها الانتخابية ارتأى كذلك التيار الحداثى أن يطلب إلى المرأة التريث فى استعمال حقوقها السياسية بتعلة الواقع والظروف غير المناسبة». (أحمد على الوادعى ، المرأة والديمقراطية والحداثة ، ورقة مقدمة إلى ندوة المرأة والتحديث والديمقراطية صنعاء ١٤ - ١٨ أبريل ١٩٩٣) . وينبغى أن نوضح هنا بأن المقصود بتيار الحداثة بعض قادة تنظيم المؤتمر الشعبى العام .

تطورات فى الجنوب :

ظهرت فى الجنوب ، حسبما اتضح من سياق الصفحات السابقة ، تنظيمات جماهيرية للمرأة . وحصلت المرأة بعد الاستقلال على حقوق تتعلق بالمساواة ، كما حصلت نظريا وعمليا على حق شغل كافة الوظائف بما فى ذلك منصب القضاء . ولكن يلاحظ أن التنظيمات الخاصة بالمرأة ومختلف الجماعات المهنية والنقابية كانت خاضعة ، بدرجة أو أخرى ، للسلطة السياسية ، وفيما يتعلق بالأحزاب السياسية لم يكن مسموحا سوى بالأحزاب الموجودة فى السلطة بالإضافة إلى الأحزاب التى تعارض النظام القائم فى الشمال . وعلى الرغم من ذلك كان يوجد تيار عام يؤيد تحرر المرأة . ومثال ذلك ما حدث فى عام ١٩٧٢ حينما خرجت الجماهير فى مظاهرات سميت بالأيام السبع ، وكان بين مطالبها محو الأمية وتحرير المرأة (انظر : افتتاحيات الحكمة ، مختارات ١٩٧١ - ١٩٨٩ ، كتاب الحكمة رقم ٣ اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين ، بيروت ١٩٨٩ ، صفحة ١٨٩) .

وعلاوة على ذلك فقد اتسم الوضع في الجنوب آنذاك - على الرغم من القيود على منظمات المجتمع المدني- بالمساواة بين المواطنين أمام القانون . كما وجد نمط من السلوك المدنى غير القبلي خاصة في المدن وفى مقدمتها مدينة عدن . وفي ظل ذلك السياق أتيحت للمرأة بالطبع حريات أكبر .



فوزية جعفر أول رئيسة لاتحاد نساء اليمن



عائدة سعيد رئيسة اتحاد نساء اليمن أكثر من مرة

تأسيس «الاتحاد العام لنساء اليمن» بعد الاستقلال :

تشكل هذا الاتحاد في ٣٠ يناير ١٩٦٨ ، فى العام التالى للحصول على الاستقلال بالشطر الجنوبى من اليمن ، أى فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية سابقا . وتم بعد الوحدة تسميته «اتحاد نساء اليمن» عندما تم توحيده مع جمعية المرأة اليمنية التى كانت قائمة فى الشطر الشمالى من اليمن . وكانت أول رئيسة لذلك الاتحاد العام عندما تأسس فى عام ١٩٦٨ هى فوزية محمد جعفر . كما كانت الراحلة عايدة على سعيد نائبة للرئيس ، وثريا منقوش أول أمين عام لهذا الاتحاد . وكان من بين أعضاء المجلس التنفيذى أنيسة الصايغ ، وأنيسة أحمد سالم ، وآمنة عثمان يافعى .

الاتحاد العام لنساء اليمن وقانون الأسرة :

تقدمت قيادة اتحاد نساء اليمن فى بداية سبعينات القرن العشرين باقتراح لتغيير القوانين الخاصة بالأسرة بهدف استبعاد ما يتعلق بما يسمى نشاز المرأة ولوضع قيود على تعدد الزوجات وسن الزواج ، وكان يمثل اتحاد النساء فوزية محمد جعفر ، وعايدة على سعيد وأنيسة الصايغ وأخريات .

وتم تحويل هذا الاقتراح إلى وزارة العدل لدراسته . وتشكلت لهذا الغرض لجنة مشتركة من القيادات النسائية والمستشارين القانونيين بوزارة العدل . وأسفر ذلك عن صدور القانون رقم ١ لعام ١٩٧٤ باسم قانون الأسرة . وهو القانون الذى تبنى مطالب المرأة وأقر مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات فى علاقة الزواج بين الرجل والمرأة . كما منع تعدد الزوجات (انظر : جمهورية اليمن الديمقراطية ، قانون رقم ١ لعام ٧٤ بشأن الأسرة (الطبعة الثانية) ، إصدار الاتحاد العام لنساء اليمن ، عدن ، يناير ١٩٩٠) .

ظل هذا القانون ساريا فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية سابقا حتى تحقيق الوحدة اليمنية فى عام ١٩٩٠ . ولكن تم فى عام ١٩٩٢ تغييره بصدور القانون رقم ٢٠ بشأن الأحوال الشخصية الذى ألغى مبدأ المساواة فى العلاقة الزوجية .

وعلاوة على ذلك تخلى القانون الجديد، حسب رأى أحد رجال القانون المشار إليه آنفا عن المكاسب التى كان ينص عليها قانون عام ١٩٧٤ . فقد استعاد «جميع النصوص التى تجعل العلاقة الزوجية عملا إراديا ينفرد به الرجل ، وعادت المرأة إلى الطرف السلبى فى هذه العلاقة . والجدير بالملاحظة أن ذلك تم فى بسهولة ويسر .. وباستثناء الاحتجاجات التى أبدتها النساء فى حاضرة اليمن عدن ، فإن الأمر بدا وكأنه لايعنى المرأة فى اليمن ، ولزم الحداثيون من الرجال تجاه الاحتجاجات والمعارضة النسوية لهذا القانون الجديد الصمت واللامبالاة باستثناء مثقفى عدن» (أحمد على الوادعى ، مرجع سابق) .

وشهدت السنوات اللاحقة المزيد من التراجع فى هذا المجال . فقد حددت المادة ١٥ من قانون ١٩٩٢ سن الزواج بخمسة

عشر عاما لكل من الفتى والفتاة . لكن تم إلغاء هذا الحد الأدنى فى عام ١٩٩٩ بصدور القانون رقم ٢٤ حيث نصت المادة ١٥ منه على أن لولى الصغيرة أن يعقد لها لكن لا تزف إلى الزوج إلا بعد أن تكون «صالحة للوطء».

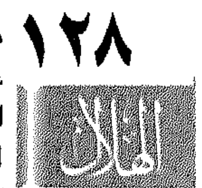
ومن جانب آخر فإن قانون عام ١٩٩٢ يتناقض مع نصوص الاتفاقية الدولية الخاصة بإلغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة التى وقعت عليها اليمن منذ عام ١٩٨٤ . ويبدو أنه ليس القانون الوحيد الذى يتعارض مع الاتفاقيات والمواثيق الدولية التى صادق عليها اليمن . وهذا ما تشير إليه دراسة بعنوان «حقوق المرأة بين القانون والتطبيق» حيث ترى أن الاتفاقيات الدولية «تلزم الدول بتعديل تشريعاتها بحيث تصبح موائمة لتلك الاتفاقيات والمعاهدات . وإذا رجعنا لنصوص القوانين والتشريعات اليمنية سنجد أن معظمها قد عدلت بعد التوقيع على تلك الاتفاقيات ولكن بعض تلك التعديلات لم تكن تلبى بصورة كاملة نصوص تلك المواثيق» (نبيلة المفتى، حقوق المرأة بين القانون والتطبيق ، اللجنة الوطنية للمرأة ، مارس ٢٠٠٣) .

اتحاد الأدباء والكتاب والمواطنة المتساوية :

تحدثنا فى الصفحات السابقة عن التنظيمات التى تواجدت خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٦٢ حتى تحقيق الوحدة اليمنية فى عام ١٩٩٠ . وشملت تلك التنظيمات المنظمات النسائية والشبابية مثل «لاتحاد العام لنساء اليمن» و«منظمة شبيبة السلفى» و«الرابطة الطلابية» غير أن تلك التنظيمات واجهت بعض القيود فى الفترة التالية للاستقلال . ولم تظهر أى مجموعة سواء فى الشمال أو الجنوب تتمتع بدرجة أساسية من الاستقلالية فى مواقفها والقدرة النسبية على مواجهة القيود التى تفرضها السلطة سوى اتحاد الأدباء والكتاب الذى تشكلت لجنته التأسيسية فى أكتوبر ١٩٧٠ من أبناء الشمال والجنوب معا وعقد مؤتمره الأول فى فبراير ١٩٧٤ . وقد أصدر هذا الاتحاد مجلة ناطقة باسمه هى مجلة الحكمة بدءا من أبريل ١٩٧١ ، وعبرت مجلة الحكمة عن التطورات الجديدة وثقافة المجتمع الحديث والشخصية اليمنية الحديثة . ودأبت المجلة على الدعوة إلى «وحدة التراب والشعب والثقافة على أسس حديثة» . لقد عبر الاتحاد عمليا عن تطلع اليمنيين إلى وحدة اليمن ، وتحديثه ، وبناء مؤسساته على أسس «المواطنة المتساوية» والديمقراطية .

لقد عملت الشخصية اليمنية الحديثة سواء فى الجنوب أو الشمال على دعم مواقعها وتثبيت ثقافتها ونشر أفكارها . كما طالبت بالدوام بالديمقراطية والحريات وبتطبيق قاعدة المساواة أمام القانون ومبدأ المواطنة المتساوية . كما لعب عمر الجاوى الأمين العام الراحل لاتحاد الأدباء دورا رئيسيا فى صياغة دستور الوحدة اليمنية . وقد تعرض لمحاولة اغتيال فى عام ١٩٩١ بزعم أنه ساهم فى وضع دستور علمانى .

لقد كان هذا التنظيم المدنى الطابع الموحد لأبناء شمال اليمن وجنوبه وسيلة استخدمها المبشرون بثقافة اليمن الحديثة . ولذا كان من أهداف هذا الاتحاد الدفاع عن الحريات وحقوق الإنسان فى كل اليمن الطبيعى علاوة على محاربة النزعات العرقية والطائفية والقبلية . أى أن الاتحاد كان من الوسائل التى استخدمتها الشخصية اليمنية الحديثة لبث ثقافتها ودعم مواقفها فى المجتمع . وقد حدث ذلك على الرغم من وجود نظامين سياسيين آنذاك ، وعلى الرغم من القيود التى كانت مفروضة على مؤسسات المجتمع المدنى فى الجانبين بدرجة أو أخرى . لكن يمكن القول إن سلطات الجنوب كانت تقف من الناحية الفكرية، وبدرجة ما ، مع أفكار المشرفين على الاتحاد وإن كانت تصطدم بهم فى بعض المواقف . ومن جانب آخر كان يتم فى أحيان كثيرة منه توزيع مجلة الحكمة الناطقة باسم هذا الاتحاد من دخول اليمن الشمالى . ولهذا لم يكن غريبا أن يطالب أمين عام الاتحاد على صفحات مجلة الحكمة برفع «الحواجز بين الشمال والجنوب وتوفير حرية



التنقل فى ربوع اليمن لكل من الإنسان والكتب والسلع إلى جانب الدعوة إلى التحديث والديمقراطية والمساواة فى المواطنة » (أحمد القصير ، عمر الجاوى ذاكرة المجتمع ، مجلة الحكمة ، العدد ٢٢١ ، خريف عام ٢٠٠٢) .

المرحلة الثالثة لحركة المرأة اليمنية (١٩٩٠- ١٩٩٤) .

حملت هذه الفترة بالرغم من قصرها الزمنى الجديد بالنسبة لأوضاع المرأة خاصة فيما يتعلق بالحقوق الدستورية والاتفاقيات الدولية المتعلقة بالمرأة وحقوق الإنسان . فقد نصت المادة رقم ٢٧ من دستور دولة الوحدة اليمنية على مساواة غير مشروطة بين الرجل والمرأة . وتقول هذه المادة . «المواطنون جميعهم سواسية أمام القانون . وهم متساوون فى الحقوق والواجبات العامة ولا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو اللون أو الأصل أو اللغة أو المهنة أو المركز الاجتماعى أو العقيدة» .

غير أن هذه المادة ألغيت عندما تم تعديل الدستور فى ٢٩ سبتمبر ١٩٩٤ فى أعقاب الحرب الأهلية التى نشبت فى منتصف ذلك العام . وبموجب ذلك التعديل أضيفت للدستور مادة كانت موجودة فى دستور اليمن الشمالى قبل الوحدة . وتقول تلك المادة التى تحمل رقم ١٣ أن «النساء شقائق الرجال ولهن من الحقوق وعليهن من الواجبات ما تكفله وتوجيه الشريعة وينص عليه القانون» . وهذه المادة منقولة حرفيا من الدستور الدائم للجمهورية العربية اليمنية أى اليمن الشمالى سابقا وكانت تحمل رقم ٣٤ من ذلك الدستور.

ومن جانب آخر تم بتحقيق الوحدة الالتزام رسميا بالمواثيق الدولية التى كان تم التوقيع عليها فى أى دولة من دولتى اليمن سواء فى الشمال أو الجنوب . ومن بين تلك المواثيق «اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة» . وكان اليمن الجنوبى قد وقع عليها فى ٣١ مايو ١٩٨٤ وبدأ تنفيذها فى ٢٩ يونيو من ذلك العام .

وعلى الصعيد العملى شاركت المرأة اليمنية فى عموم البلاد لأول مرة فى الانتخابات النيابية فى عام ١٩٩٣ ، ونجحت فى تلك الانتخابات سيدتان من بين السيدات اللاتى رشحهن الحزب الاشتراكى فى عدن والمحافظات الجنوبية ، وقد ترشح فى تلك الانتخابات عدد كبير نسبيا من النساء فى العاصمة صنعاء لكن لم ينجح منهن أحد نظرا للطابع المحافظ الذى تتسم به العاصمة .

إيجابيات ترتبت على الوحدة اليمنية :

أدت الوحدة إلى حدوث إيجابيات تتعلق بوضع المرأة سواء على مستوى الدستور والقوانين أو على المستوى العملى . ولكن يجب الإشارة إلى أنه قد حدث ، بعد حوالى أربع سنوات من قيام الوحدة ، تراجع كبير فى هذا المجال على كل من المستوى الدستورى والقانونى والمستوى العملى . وسوف نتناول ذلك الأمر بعد أن نستعرض الايجابيات فى أوضاع المرأة اليمنية التى ترتبت على تحقيق الوحدة . وتشمل تلك الايجابيات ما يلى :

١ - مشاركة المرأة فى الانتخاب والترشيح فى الانتخابات النيابية .

٢ - عمل المرأة فى القضاء والنيابة فى المحافظات الشمالية وفى العاصمة صنعاء بعد أن كان هذا مقصوراً على عدن والمحافظات الجنوبية والشرقية .

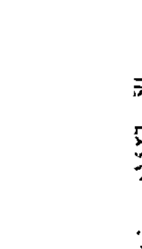
ولا يقلل من أهمية ذلك ما حدث بعد الحرب الأهلية فى عام ١٩٩٤ من تهميش المرأة فى مجال القضاء . فقد تم استبعادها من العمل بالمحاكم الجنائية وتم حصر عملها فى مجال الأحوال المدنية .

٣ - عمل المرأة بالمحاماة فى كافة محافظات اليمن ولم يعد ذلك الأمر محصورا فى عدن والمحافظات الجنوبية والشرقية

٤ - عمل المرأة فى رئاسة الجمهورية بعد أن كان ذلك ممنوعا فى اليمن الشمالى قبل الوحدة .

تأثيرات الحرب الأهلية فى عام ١٩٩٤ على المرأة

شمل التراجع الذى حدث فى المكاسب التى حققتها الوحدة للمرأة اليمنية عدة قضايا أبرزها ما يلى:



١ – تعديل الدستور الذى قامت الوحدة اليمنية على أساسه وإلغاء مبدأ المساواة المطلقة التى كان ينص عليها ذلك الدستور.

٢ – ابعاد المرأة من العمل فى مجالات القضاء الجنائى.

٣ – فصل البنات والبنين فى التعليم بدءاً من ١٩٩٤ بالمحافظات الجنوبية والشرقية فى أعقاب الحرب الأهلية .

٤ – زيادة العزلة بين البنات والبنين فى التعليم الجامعى .

٥ – زيادة انتشار الحجاب ووصوله إلى ريف اليمن عامة واتساع نطاق انتشاره فى المدن اليمنية بما فى ذلك عدن ذاتها ، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الوضع قد بدأ يظهر مع بداية الوحدة فى عام ١٩٩٠ لكنه تصاعد بعد الحرب الأهلية فى عام ١٩٩٤ . وقد لعب الطابع المحافظ للعاصمة صنعاء دورا فى هذا الانتشار للحجاب. وكان الحجاب ولايزال منتشرا فى العاصمة ، لكن انتشاره كان أقل فى المدن اليمنية الأخرى . أما الريف اليمنى فلم يعرف انتشار حجاب المرأة إلا فى السنوات القليلة الماضية خاصة بعد عام ١٩٩٠ .

فلم يكن حجاب المرأة منتشرا قبل ذلك التاريخ فى الريف اليمنى خاصة فى المناطق الوسطى والغربية والجنوبية ، وهى مناطق تتميز بأنها الأكثر كثافة سكانية فى اليمن . وتبرز فى هذا المجال ٣ محافظات هى تعز وإب والحديدة التى يقيم بها وحدها ٣٤٪ من سكان اليمن بينما يقيم بقية السكان فى ١٦ محافظة أخرى علاوة على مدينتى صنعاء وعدن ، وذلك طبقا لبيانات عام ٢٠٠١ . كما تجدر الإشارة إلى أن سكان الريف يمثلون ٧٣,٥٪ من مجموع سكان اليمن .

المرحلة الرابعة لحركة المرأة:

تمتد هذه المرحلة ما بين أواخر عام ١٩٩٤ حتى الآن . وقد عانت حركة المرأة فى هذه الفترة من القيود التى تفرض عليها مما أدى إلى زيادة تهميشها . ولا يوجد على سبيل المثال أى نشاط مؤثر لاتحاد نساء اليمن . وأصبح هذا الاتحاد خاضعا تقريبا لتوجهات حزب المؤتمر الشعبى الحاكم. ومن دلائل تهميش هذا الاتحاد تجميد مؤتمره العام لمدة تزيد على ١٢ عاما ، فقد ظل ذلك المؤتمر دون انعقاد منذ مايو عام ١٩٩١ حتى سبتمبر ٢٠٠٣ .

ويجرى ذلك التهميش على الرغم من زيادة الثقل النسبى للمرأة فى المجتمع والحياة العامة . وقد أسهمت عدة عوامل وبعض التطورات فى السنوات القليلة الماضية فى زيادة ذلك الثقل النسبى . ومن بين تلك العوامل والتطورات ارتفاع نسبة وعدد المتعلمات ولو بشكل محدود ، وظهور تمثيل المرأة فى وظائف رئيسية ، وزيادة المنظمات الأهلية المعنية بالمرأة ، وبروز مشاركة المرأة فى الميدان الثقافى خاصة فى مجال الإبداع الأدبى . وعلاوة على ذلك تم فى هذه الفترة تعيين وزيرة لأول مرة هى وزيرة حقوق الإنسان . كما شملت العوامل التى زادت من الثقل النسبى للمرأة تطور شبكة المؤسسات الرسمية الخاصة بالمرأة .

تطور شبكة المؤسسات الرسمية المعنية بالمرأة :

تشمل شبكة المؤسسات الرسمية الخاصة بالمرأة التى ظهرت فى هذه المرحلة المؤسسات والإدارات التالية :

أ – المجلس الأعلى للمرأة .

ب – اللجنة الوطنية للمرأة .

ج – إدارات المرأة فى عدد من الأجهزة الحكومية . وتلقى تلك المؤسسات والإدارات الخاصة بالمرأة الدعم والرعاية من المنظمات والحكومات الغربية ومنظمات الأمم المتحدة .

وينبغى التنوية بأن هذا التوسع فى شبكة المؤسسات الخاصة بالمرأة يرتبط بشكل ما بالتوصيات الصادرة عن مؤتمر المرأة العالمى المنعقد فى بكين عام ١٩٩٥ . كما يرتبط من جانب آخر بإيجاد وسائل لتسهيل العلاقات مع المؤسسات والدول المانحة .

الموقف من منظور النوع الاجتماعى :

لا توجد منظمة نسائية أهلية تتبنى منظور



النوع الاجتماع ، أى لا توجد حركة نسائية مستقلة تنشط انطلاقا من هذا المفهوم . وتعتبر اللجنة الوطنية للمرأة . وهى مؤسسة حكومية تشكلت بقرار من رئيس الوزراء أكثر المؤسسات اهتماما بقضية النوع الاجتماعى ، لكنها خاضعة فى كل نشاطها للتوجهات الحكومية . وأصدرت هذه اللجنة استراتيجية وطنية للمرأة فى عام ١٩٦٦ تتركز حول تلبية الاحتياجات العملية للمرأة . وفى عام ٢٠٠٠ صاغت هذه اللجنة مشروعا لاستراتيجية النوع الاجتماعى لكن مجلس الوزراء لم يقرها وطلب إجراء تعديلات من بينها استبعاد كلمة النوع الاجتماعى من عنوان الاستراتيجية ، وفى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ أقر مجلس الوزراء تلك الاستراتيجية بعد تعديلها . وأصبح اسمها «الاستراتيجية الوطنية لتنمية المرأة» . ومع ذلك فقد تبنت هذه الاستراتيجية لأول مرة منظور النوع الاجتماعى ومنهاج عمل بيجين . وهو ما يمثل تطورا جديدا فى مجال حقوق المرأة . لكن المشكلة الأساسية تكمن فى عدم وجود منظمات نسائية أهلية تتبنى هذا المنظور .

إشكاليات تواجه حركة المرأة:

توجد عدة عقبات وإشكاليات تعرقل تطور حركة المرأة اليمنية . وتبرز بينها الاشكاليات التالية :

١ - الثقافة التمييزية للقوانين اليمنية . وتمتد ثقافة التمييز هذه للمشتغلين بالقضاء فإن الثقافة التى نشأ فيها القضاء الحالى هى ثقافة تمييزية . وبالتالى فإن الفكر السائد لدى معظم المشتغلين فى هذا المجال هو فكر تمييزى ينظر إلى المرأة كمخلوق ناقص لايتمتع بالكثير من الحقوق وإنما هو تابع يجب عليه الخضوع لرغبة المتبوع» (نبيلة المفتى ، مرجع سابق) .

٢ - سياسة التمييز فى المناصب والوظائف الأساسية وفى عضوية المجالس التنفيذية للمنظمات الجماهيرية ومن بينها اتحاد نساء اليمن . فهناك توجهات حكومية لمنع الذين لاينتسبون إلى حزب المؤتمر الحاكم أو ينتمون إلى مناطق معينة من تولى المناصب الرئيسية . وهناك أيضا سياسة ثابتة لوضع عراقيل أمام كل من لاينتمى للحزب الحاكم لكى لايتم انتخابه فى المجالس التنفيذية للمنظمات الجماهيرية . وتثير هذه السياسة التى تعانى منها قطاعات مختلفة فى المجتمع سواء من النساء أو الرجال إشكالية أخرى هى غياب مبدأ المواطنة المتساوية .

٣ - تفتقر بعض القيادات النسائية التى تترأس المنظمات النسائية خاصة اتحاد نساء اليمن إلى النظرة الداعية إلى المساواة الفعلية بين الرجل والمرأة . وقد أدت الحرب فى عام ١٩٩٤ وسيطرة توجهات الحكومة على تنظيمات المرأة سواء الرسمية أو غير الحكومية إلى تهميش العشرات من الكوادر النسائية التى أسهمت خلال الخمسين عاما الماضية فى حركة المرأة اليمنية .

٤ - تركيز منظمات المرأة الحكومية منها وغير الحكومية على احتياجات المرأة العملية وعدم الاهتمام الكافى بالاحتياجات الاستراتيجية . وتكمن المشكلة فى أن معظم المنظمات غير الحكومية المعنية بالمرأة لاتستوعب منظور النوع الاجتماعى فى الأساس .

٥ - لاتوجد فى واقع الأمر حركة مستقلة للمرأة حيث تعمل الدولة جاهدة على السيطرة على المنظمات النسائية وإبعادها عن تبنى التوجهات التى تخدم القضايا الجوهرية المتعلقة بالمرأة . وليست منظمات المرأة وحدها هى التى تعانى من تلك الضغوط والممارسات . وخلاصة القول إن معظم التنظيمات النسائية تفتقر عامة إلى الاستقلالية وتسيطر على توجهاتها كل من الحكومة والجهات المانحة . ومن المفارقات أن حركة المرأة اليمنية بدأت كحركة مستقلة فى ظل وجود الاحتلال ومن خلال مقاومتها له لكن هذه الحركة لاتتمتع بالاستقلال فى عهد الحكومات الوطنية . ■

عفواً يا أم محمد

شعر
جلال عابدين

عفواً .. يا أم محمد
إن كنت نسيت دعاباتى .. وهجرت جميع حماقاتى
ما عدت أطارد حلواك .. مثل الأطفال
عفواً .. يا أم محمد
إن ذبل الورد بشرفاتى .. أو قل الزيت بمشكاتى
وانكسر العود على كتفى
حين تعثر فى شفتى .. عبق الموال
عفواً يا أم محمد .. لا لوم عليك الآن..
فها أنذا أعترف أخيراً:
أن الظهر أنكفأ قليلا .. وأن الشعر أنطفأ كثيراً
وأن الفرس الأبيض .. مات ..
وان سيوفى صدئت منى.. فى نوات العشق النازف
بين ضلوعى.. منذ سنين
حين نويت السفر بعيداً
عن عينيك الساذجتين .. وعن شفتيك النازفتين
وأن جوادى مات صريعاً .. فى معركة النخاسين
حين قبلت بأن أتبارى مثل الصبية..
بالأحجار والأحبار وبالسكين

* * *

عفواً .. يا أم محمد .. لا لوم عليك الآن..
إنى ما عدت المهر الجامح
والفرس الرابح .. فى بغداد وفى حطين
ما عادت خيلى .. ترقص حولى
ما عادت تصهل عند شطوط العرب

تبلغ يوماً بجناحيها .. سور الصين
حلواى صارت مالحة .. ما عادت تسكر أبداً غيرى
ما عادت تطفئ ظمأ المقهورين
ما عاد صهيلى يغرى أحداً ..
كى يتنفس تحت الماء .. وأن يتراقص فوق الطين
ما عادت حلواى المرة .. تحيى الموتى
أو تشفى بعض جراح المحمومين

* * *

عفواً .. يا أم محمد .. لا لوم عليك الآن
فإن جميع النسوة شهدت ضدى
أنكرن جميع صبابات .. ى وبسالة جندى
أكدن بأنى ما كنت الفارس ..
حين دخلت حروب الردة وحدى
ما عاد المزمار الباكى فوق جدارى .. يقرأ وردى
الآن .. انتحر النورس مختاراً ..
من طول الرحلة .. دون رفيق
ما بين هوان الجزر .. وبين أوان المد

* * *

عفواً يا أم محمد .. لا لوم عليك الآن
فالأن احترقت مملكتى .. الكل تأمر كى يلقى
فى وجهى ماء الغربة والعصيان
لم ألق أمامى .. سيدتى
غير حقولك وطنا .. يستدرجنى ويدحرجنى
كى أرتاح قليلا ..
فى عينيك الساذجتين .. وفى شفتيك النازفتين
جئت لأقرأ مثلك .. يا ملهمتى
سورة مريم والإسراء .. وفاتحة القرآن
عنترة مات بلا درع .. فى زمن السوقة والغلمان
وها هو ذا .. قد عاد الفرس الجامح يبكى
ويرتل بعيون الموتى ..
ورد كلاب البحر .. حين تموت على قدميها..
دون بكاء .. فى شط الأحزان. ■

تذكرة أولى الألباب للأنطاكى

بقلم
د. محمد فتحى فرج

جانبنى الصواب، فى وقت مبكر من تكوينى الثقافى، فى وجهة نظرى حول الطبيب الحكيم داود الأنطاكى وكتابه العظيم المعنون: «تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب». فقد ظننت، اعتمادا على ما أشاعه البعض، حول المؤلف وكتابه، أن الـ «تذكرة» عبارة عن مجموعة من الأساطير والخزعبلات، التى لا تمت للعلم بصلة، ولا يعتمد مؤلفها، فى تصنيفه لها، على العقل والمنطق. هذا، فى الوقت الذى لا يخلو هذا الكتاب حانوت من حوانيت العطارين، ومن ثمّ فقد اعتقدت أنه قد ألفها ليدغدغ بها أحلام طائفة من الناس الذين يجرون وراء الظنون والأوهام، لاسيما العجزة والشيوخ المعمرين، الذين انقطعت بهم سبل الحياة، ويحلمون بأوبة الصبا وعودة الشباب! ولذلك فقد عزفت عن قراءته فضلا عن اقتنائه، فقد اعتبرت أن قراءته مضيعة للوقت والجهد، وأن اقتناءه عبث وإهدار للمال. والحقيقة، التى لا مراء فيها، هى على النقيض من ذلك تماما. فهذا الكتاب يعتبر من ذخائر العلم والثقافة العلمية الرفيعة، لاسيما فى مجالات الطب والصيدلة وكل ما يتعلق بصحة الإنسان وسعادته.



والأمانة العلمية تقتضى أن أرد الفضل، فى معرفتى لقدر هذا الطبيب الحكيم، وقيمة مؤلفه العظيم، للأستاذ مصطفى صادق الرافعى - رحمه الله - الذى أورد فى كتابه: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» فصلا قصيرا بعنوان: «تفسير آية»، تعرّض فيه لتفسير آية: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين «المؤمنون: ١٢، وما بعدها من آيات تتعلق بخلق الإنسان، وذلك اعتمادا على تفسير الأنطاكى، أطلع عليه الرافعى فى بعض كتب هذا العلامة الكبير. وقد هالنى أن هذا التفسير، الذى يرجع إلى القرن العاشر الهجرى «السادس عشر الميلادى» - وهو يعتبر من أضعف الأزمنة وأشدها انحطاطا وفقرا، فى الوسائل العلمية - يتوافق تماما مع معطيات العلم الحديث، وحقائقه الثابتة، ونظرياته المستقرة.

وقبل أن نعرض لسفر الأنطاكى العظيم: «تذكرة أولى الألباب»، لابد من كلمة حول مؤلفه الطبيب والفيلسوف الحكيم:

مولد الأنطاكى ونشأته

ولد داود عمر الأنطاكى عام ٩٥٠ هـ - ١٥٤٣م، ضريرا كسيحا، فى بلدة انطاكية المعروفة تاريخيا، والشهيرة فى الناحية الطبية، وإليها ينتسب، وهى تقع فى الشمال الغربى من سوريا بالقرب من حلب. وتتبع أنطاكية لواء الإسكندرونة، الذى يقع الآن تحت الحكم التركى.

وقد عافاه الله من الكساح، بيد أنه ظل مكفوف البصر حتى وفاته. هذا، ولم يفت فى عضده فقدان بصره، بل إن ما آلت إليه أموره تبعث على الاعتقاد بأن هذه العلة ربما كانت دافعا له على التحدى والتفوق حتى صار - كما كانوا يلقبونه - «أبقراط زمانه»، والطبيب الوحيد، والحكيم الفريد. وقد قرأ كثيرا فى المنطق والعلوم الطبيعية والرياضيات المعروفة لوقته، فخدمت هذه الروافد العلمية المتنوعة ما نذر نفسه له من العلوم الطبية والصيدلية، فقد وجد فيها بغيته وهدفه المنشود، فاهتم بها وبرز فيها. وقد ارتحل كثيرا طلبا للعلم، فقصد بلاد الروم فى الأناضول وبيزنطة لتعلم اليونانية واللاتينية، رغبة منه فى إدراك أصول العلم بعد أن نصحه طبيب مشهور بذلك.

ويذكر الأستاذ حكمت عبدالرحمن فى كتابه: «تاريخ العلوم عند العرب»: أن الأنطاكى قد أقام بمصر، وكانت له حجرة فى المدرسة الظاهرية لغرض اجتماعه بالناس ومداواة المرضى منهم، وقد ألف كثيرا من المصنفات، فى فترة إقامته بمصر، من أشهرها كتابه الذى نحن بصدد تقديمه اليوم: «تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب» المشهور بين العامة والخاصة بـ «تذكرة داود».

وقد اشتغل الأنطاكى بالتدريس، فلم يضن على طلابه بفيض علمه، ونتاج تحصيله، فكان مثلا يحتذى للصالحين من

علماء المسلمين، حتى أن شهرته قد ذاعت في البيمارستان المنصوري بالقاهرة وضواحيها - كما يذكر الدكتور أحمد فؤاد باشا - كطبيب معالج للفقراء والأغنياء على السواء، فاختير لتفوقه رئيسا للعشابين «الصيادلة» في هذا البيمارستان ثم رئيس عاما له. واللافت للنظر أن مزاولة الطب أو الصيدلة وغيرها من الفنون العملية والعلوم التطبيقية يستلزم إبصار مزاوليها بدرجة كبيرة، إلا أن الرجل قد استعاض عن ذلك بفيض علمه وذكائه الشديد، ورأيه السديد، وقوة حافظته، وإرادته القوية، وثقته الكبيرة بنفسه، ولولا أن المقام يضيق عن ذكر أمثلة تؤيد كل هذه الصفات لذكرنا منها الكثير والمثير، حتى أنه لفرط ثقته بعلمه قد أثر عنه قوله: لو رآني ابن سينا لوقف ببابي، أو ابن دانيال لاكتحل بتراب أعتابي.

وللأنطاكي آراء سديدة، نسديها لمن تصدوا لتطوير الطب والصيدلة في بلادنا، بإلغاء السنة الإعدادية: التي كان الطلاب يُحصلّون خلالها بعض العلوم الأساسية، والتي لا غنى عنها لدراسة الطب والصيدلة، بينما لا يُسمح للطالب، في بلاد الله المتقدمة، بدراسة الطب، إلا بعد حصولهم على درجة البكالوريوس في العلوم، في معظم الأحيان. وفي ذلك يقول الأنطاكي - رحمه الله - بعد تقسيمه للعلوم: وإذا عرفت المنزع والدستور في تقسيم العلوم فينبغي أن تعرف أن حال الطب معها على أربعة أقسام.. ثم يقول في لقسم الثالث: وقد يستغني العلم في نفسه عن الطب بينما يحتاج الطب إليه، كعلم التشريح، إذ لا غنى للطبيب عنه، أما التشريح فلا حاجة به إلى الطب، وعلى هذا المعيار ينطبق ذلك على مجموعة أخرى من العلوم الأساسية كالنبات والحيوان والكيمياء وغيرها من علوم، ولولا ذلك لما استطاع الأنطاكي أن يعرض في كتابه هذا لمئات من أنواع النبات والحيوان والمعادن التي اتخذ منها العقاقير والأدوية.

وقد توفي في عام ١٠٠٨هـ - ١٥٩٩م، عن ست وخمسين عاما، حيث مكث عامه الأخير في مكة المكرمة، وحينما وافته المنية دفن بالقرب من الحرم المكي.

مؤلفاته

للأنطاكي جملة من المؤلفات والمصنفات جاوز عددها ٢٦ كتابا، يدور معظمها حول العلوم الطبية والصيدلانية، وقد تم تحقيق ونشر بعضها، ومن هذه المؤلفات التي يعددها مؤرخو العلم بخلاف كتابه «التذكرة» ما يلي:

- شرح القانون لابن سينا - طبقات الحكماء - مجمع المنافع البدنية - ألفية في الطب - استقصاء العلل وشافي الأمراض والعلل - البهجة والدرر المنتخبة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة «وقد يعرفه آخرون باسم. النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة» - أرجوزة شعرية طويلة في الطب - تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، وقد اختصره بعنوان مختصر أشواق العشاق - غاية المرام في تحرير المنطق والكلام -



نزهة الأذهان فى إصلاح الأبدان - زينة الطروس فى أحكام العقول والنفوس - رسالة فى علم الهيئة - القواعد المحبّرة فى البيطرة والبزدرة - كفاية الحتاج على علم العلاج، إلى غير ذلك من المؤلفات والرسائل والمصنفات.

القيمة العلمية للكتاب

يأتى هذا الكتاب ثمرة يانعة لعلم هذا الطبيب المجتهد، ويعتبر الكثيرون، من مؤرخى العلم، كتاب الـ «تذكرة» من الموسوعات الطبية الشاملة، المؤلفة والمرتبة على حروف المعجم، حتى يسهل الحصول على المعلومات الكثيرة، التى تحتويها هذه الموسوعة العظيمة، لدرجة أن العشابين القدماء وأصحاب محلات العطارة المحدثين قد اقتنوه وحفظوا ما فيه لاستثماره فى تجاراتهم ووصفاتهم العلاجية. ولابد أن الإسراف فى هذا الباب قد نال من سمعة هذا الكتاب الجليل، كما ذكرت فى بداية المقال. وقد جمع الأنطاكى فى هذا السّفر جملة المعارف الطبية والصيدلانية المعروفة فى زمانه، حتى أن هذا الكتاب ظلّ معينا لا ينضب، فاعتمد عليه الباحثون وطلاب العلم والأطباء والصيادلة وإخصائيو التغذية والعلاج، ومن ثم فقد ترجم إلى لغات عدة، حيث اعتمد عليه كمرجع أساسى للتدريس فى مدارس ومعاهد وكليات الطب فى أوروبا والعالم الإسلامى لعدة قرون. هذا، ويناهز عدد الأدوية المذكورة فيه - كما يذكر الأب جورج شحاته قنواتى فى كتابه «تاريخ الصيدلة والعقاقير» - ١٧٠٠ دواء. بل إن الطب الحديث قد أثبت صحة كثير مما جاء فى «التذكرة»، وعلى سبيل المثال فإن علاج مرض البهاق قد قرر كيميائيا من نيف وخمسين عاما فقط، بناء على المعلومات التى سجلها الأنطاكى، فى تذكَرته منذ مئات السنين، فقد عالج الأنطاكى هذه الحالة المرضية بثمار نبات الخلة الشيطانى، واشترط لذلك أن تكشف الأماكن المصابة للشمس. أما العلم الحديث فقد أثبت أن ثمار الخلة الشيطانى تحتوى على مادة «الأمويدين» المتبلرة المجردة من خاصية استقطاب الضوء كما تحتوى على مادة «الأميدين» المماثلة، وعلى مركب آخر هو «برجابتين»، ويتأسس العلاج على إعطاء المريض مادة الأمويدين بعد إذابتها فى المذيبات المناسبة مع تعريض المواضع المصابة لأشعة الشمس تماما كما أشار الأنطاكى!

كما لفت الأنطاكى الأنظار إلى أن السرخس يفيد فى علاج ديدان البطن. وذكر أيضا أن منقوع جذور الرمان طارد لهذه الديدان، فجاء العلم الحديث بعد عدة قرون - كما تقول الدكتورة خديجة زين الدين - مؤيدا لما ذكره كل التأييد!

وقد طبع كتاب «التذكرة» للمرة الأولى فى القاهرة سنة ١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨م، ثم أعيد طبعه بعد ذلك تسع مرات على الأقل، بخلاف طبعاته فى بيروت وغيرها.

لمحات من محتويات الكتاب

النسخة التى بين أيدينا هى طبعة «المكتبة التوفيقية» بالقاهرة، وهى بدون تاريخ، وتقع فى جزءين اضافة إلى «ذيل تذكرة أولى الألباب الجامع للعجب العجاب»، كل ذلك فى مجلد واحد تقترب

صفحاته من ٨٥٠ صفحة من القطع الكبير.

وقد بدأ الأنطاكى الجزء الأول من كتابه بمقدمة ضافية قسّم فيها العلوم والمعارف إلى أقسام، عرّفها وسمّاها، وحدّد مدلولاتها، فذكر منها الكيمياء والتشريح والفلك والرياضيات والفقه والمنطق وغيرها من علوم، فرسم حدودها وبيّن أغراضها ومراميها وعلاقتها بالطب، ثم أوضح مكانة الطب وشروط الطبيب، ومما ذكره الشيخ عن الطب قوله: ينبغى لهذه الصناعة الإجلال والتعظيم، والخضوع لمتعاطيها لينصح فى بذلها، كما ينبغى تنزيهه عن الأرذال، والضن به على ساقطى الهمة، لئلا تدركهم الرذالة عند واقع فى التلف فيمتنعون، أو فقير عاجز فيكلفونه ما ليس فى قدرته، ثم أورد عهد «قسم» أبقراط، ثم ذكر طرفا من تاريخ صناعة العقاقير وتحضير الأدوية، فعرض لأعلامها ولمؤلفات السابقين فى مضمارها، مع النقد الأمين والتقويم المستقيم. ثم أورد خطته فى البحث والدرس وذكر أنها تتألف من عشرة قوانين، ثم يضيف الأنطاكى معيارين مهمين هما: الزمن الذى يقطع فيه الدواء، ويدّخر حتى لا يفسد، ثم موطن الدواء. ولهذين المعيارين أهميتهما من حيث كمية العنصر أو الجوهر الفعّال Aciveingredient فى زمن القطع، وهو ما يشار إليه حديثا بانتهاء فترة الصلاحية Expiry date، ثم أثر البيئة على فعل الجوهر وآثاره، ومن أجل ذلك يُنصح حديثا بتخزين الدواء فى مكان بارد «ثلاجة» أو جاف، أو بعيدا عن الضوء، إلى غير ذلك من ظروف بيئية ملائمة.

أما الباب الأول فقد فصل فيه الأنطاكىُ الحديث حول كليات هذا العلم «علم الأبدان» والمدخل إليه.

أما الباب الثانى فقد تحدث فيه المؤلف عن قوانين الإفراد والتركيب، وأعماله العامة، وما ينبغى أن يكون عليه من الخدمة فى نحو السحق والقلى والغسل والجمع «المزج» والإفراد، وأوصاف المقطع والملين والمفتح إلى غير ذلك.

أما الباب الثالث فيدور حول المفردات والمركبات وما يتعلق بها من اسم وماهية، مرتبة على حروف المعجم. وإلى هنا ينتهى الجزء الأول من الكتاب ليبدأ الجزء الثانى.

يحتوى الجزء الثانى على الباب الرابع فقط، الذى يمثل بحق صُلب الكتاب، ويدور حول تفصيل أحوال الأمراض، وما يخصها من العلاج. هذا، وقد أوضح المؤلف، منذ البداية، خطته ومنهجه فى تصنيف هذا الجزء على النحو التالى: ذكر المؤلف بعد البسملة أن الباب الرابع مخصص لتفصيل أحوال الأمراض الجزئية واستقصاء أسبابها وعلاماتها وضروب «طرق» معالجتها الخاصة بها، ووجه اعتلاق «تعلق» هذه الصناعة بها، واحتياج كل إلى الآخر، على وجه لا يستغنى الحكيم عنه، بل متى جهل شيئا من ذلك خرج عن كونه حكيما بل طبيبا، ثم يقول: وقد رأيت أن أرتب ذلك كله على وضع «أبجد» وأن أقدم

أسماء الأمراض، وما يتبعها من العلاج، وأختم الحرف بذكر ما فيه من العلوم، حسبما سبق، ولا ألتزم ذكر الحرف مع ما يماثله كالألف مع الألف كما سبق بل أكتفى بأول حرف من الاسم جمعا بين الطريقتين، وبعد الدعاء بالهداية والتوفيق قال: وقبل الخوض فى فتح هذا الباب لابد وأن أذكر قواعد تجرى منه مجرى المقدمة، ثم شرع فى بيان بعض القواعد والتعريفات المفيدة للقارىء والمزاول لفن الطب ووصف العلاج.

وقد كرّس الفصل الأول من هذا الباب حول صفة البيطار «يقصد الطبيب البيطرى»، ومما أورده فى هذا الشأن قوله: لا يشترط فيه النظافة ولا لطف الهيئة كما فى الطبيب ولكن يجب أن يكون صحيح النظر مطلقا، قوى الذراعين، عبل البدن، خفيف الحركة، نصوحا صدوقا، وأن تكون آلته نقية محكمة، وأن يتعاهد الكفة والمباضع بالتنظيف لئلا يُعدى بها، وأن تكون نفسه قوية الإقدام، غير نفورة من القاذورات، شفوقا بالطبع، عالما بأن الحيوانات تتألم كالإنسان فيتقى الله فيها.

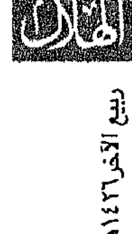
أما الفصل الثانى فقد خصصه للحديث عن «آلاته» (أى آلات البيطار).

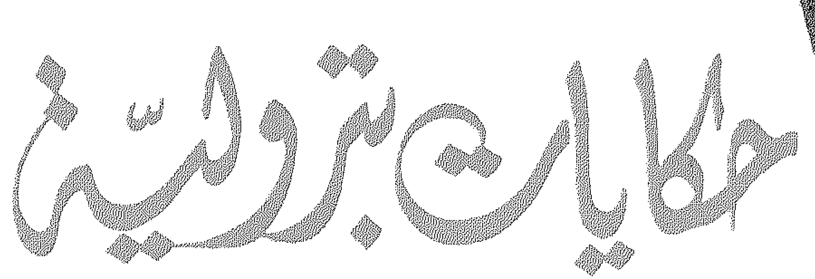
أما الفصل الثالث فقد قصره للحديث حول موضع هذه الصناعة ومبادئها.

أما الفصل الرابع فقد جعله: «لما يختار منها (أى من الخيل) وذكر عمرها وما يستدل به على سنها وغير ذلك». ثم خصص فصلا لبيان أن التشريح يعد من أهم ما يجب أن يعرفه الطبيب، أتبعه بفصل حول الأخلاق السيئة فى الحيوان وفصول أخرى كثيرة يدور بعضها حول أدوية العين وأخرى حول الأدوية الموجبة للحبل «الحمل»، إلى غير ذلك بحيث إنه قد بسط العلوم المذكورة، وما يخص العلم من النفع، وما يناسبه من الأمزجة، وما له من المدخل فى العلاج.

أما الخاتمة فقد احتوت على نكت وغرائب ولطائف وعجائب. وعلى هذا النحو ينتهى الجزء الثانى من الكتاب ليبدأ المؤلف فى «ذيل التذكرة» والذى استغرق نحوا من : ٢٤٠ صفحة، وقد احتوى على جملة من الفصول المهمة منها الحد والموضوع، والعناصر، والمزاج، والعلامات الدالة على تغير المزاج، ومعرفة هضم الغذاء وفساده وآخر فى مقدار الماء الذى يشربه المهموم عند العطش وفصل فى الفصد والاستفراغ ودوائها وفصل فى : أن المعالجة بالدواء الواحد خير من المعالجة بالمركب وفصل فى كيفية محبة الرجال والنساء إلى آخر ذلك من فصول.

والكتاب فى مجمله موسوعة طبية قيمة بمعايير العلم فى زمنه، وقد يثبت العلم الحديث صحة بعض ما قرره من علاجات لبعض الأمراض، على ما تقدم ذكره. وقد ظل لفترة طويلة حجة فى مجال الطب وعلم العقاقير ومن ثم فقد ترجم إلى لغات عديدة، إلا أنه قد احتوى أيضا على فصول ونقول، لا نتردد فى القول فى أنها، بميزان العقل، لا تمت إلى العلم بصلة. والتماس العذر له فى ذلك أمر يسير، إذ أن طريقة كثير من القدماء فى التصنيف تعتمد على النقل عن سابقيهم، وربما اقتضتهم الأمانة والوفاء نقلها كما هى دون غربلة أو تمحيص. ■





بقلم
مصطفى نبيل

• أخطبوط الشركات متعددة الجنسيات.. كيف نواجهه؟!

• ما زال النفط وراء معظم الصراعات المسلحة!

قليلة تلك الكتب التي تجمع بين الجاذبية والمنفعة..

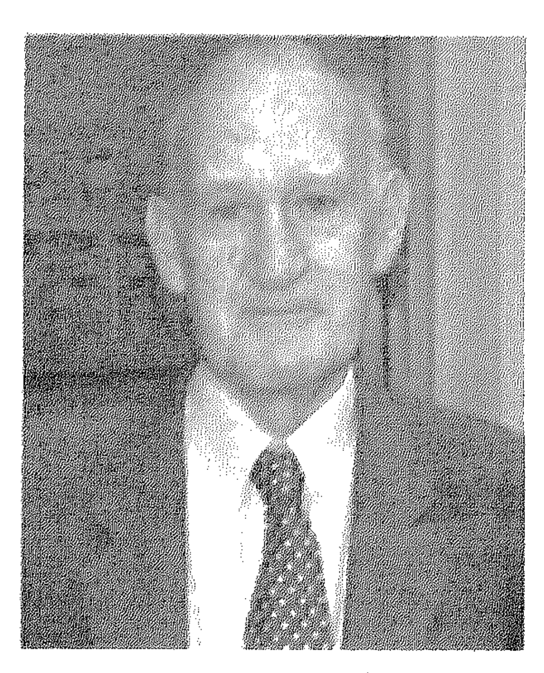
من هذه الكتب «الشقيقات السبع، والعالم الذي صنعنه»، قرأته منذ مدة طويلة، وتذكرته عندما قرأت رحيل مؤلفه عن دنيانا خلال الشهر الفائت - الكاتب البريطاني آنتوني سمسون - ومازلت أذكر تفاصيله،التي تتناول أعقد المسائل الاقتصادية المرتبطة باستخراج وتسويق النفط، والصراع الحاد الذي يدور حول السيطرة علي مصادر الطاقة، بين الشركات السبع الكبري من جانب والدول المصدرة للبترول من جانب آخر، وبين الشركات وبعضها البعض، ومزاحمة الشركات المستقلة للاحتكارات الكبري.

وقد حول «سمسون» هذا الصراع إلي قصة مثيرة، واستنطق الأماكن والأشخاص، وقدم اللاعبين، كل علي حدة، وسبر أغوار كل منهم، والتقي بكل من له علاقة بصناعة النفط، وجاء ذلك بعد قراءة متأنية، لم يترك كتابا ولا قصاصة من الصحف ولا وثيقة إلا واطلع عليها، حتي تقارير الكونجرس الأمريكي، وتقارير مجالس إدارات هذه الشركات، وجلسات الاستماع، وصاغ من كل هذه التفاصيل قصة تزخر بالدراما.

ومؤلف «الشقيقات السبع» الكاتب البريطانى «آنتونى سمسون»، تشبه مكانته فى حقل الثقافة فى بريطانيا، مكانة الكاتب الأمريكى «نعوم تشومسكى»، ويمكن القول إنه أحد أحفاد «الفريد بلنت» الكاتب البريطانى وصديق عرابى ومحمد عبده، الذى دافع عن الثورة العرابية، ووقف ضد الغزو البريطانى لمصر، وتميز هؤلاء بأنهم أصحاب ضمائر حية، وأقلام نزيهة، يكتب دفاعا عن ما يمليه عليه ضميره.. واتسمت كتابات مؤلفنا بالنزاهة، فى الحملات التى كان يكتبها فى صحيفة الأوبزرفر. وعرف عنه وقوفه ضد احتكارات الشركات متعددة الجنسيات، وانحرافات الثروة والسلطة، ونقد القطط السمان، والقبيلة البيضاء. وتميز بعين الصقر ورصد كل وأى تجاوز.

ولم يكن غريبا أنه كان من أوائل الذين وقفوا ضد التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، وارتبط بصداقة حميمة مع «نلسون مانديلا»، وكتب ترجمته الذاتية فى كتاب صدر سنة ١٩٩٩. وقد وصل مانديلا خصيصا إلى لندن حتى يكون فى وداعه ويلقى عليه النظرة الأخيرة.

ورفض «تونى بلير» رئيس الوزراء البريطانى مؤخرا مقابلته عندما كان يعد كتابا عن الأوضاع الداخلية فى بريطانيا، عقابا له على معارضته



أنتونى سامبسون

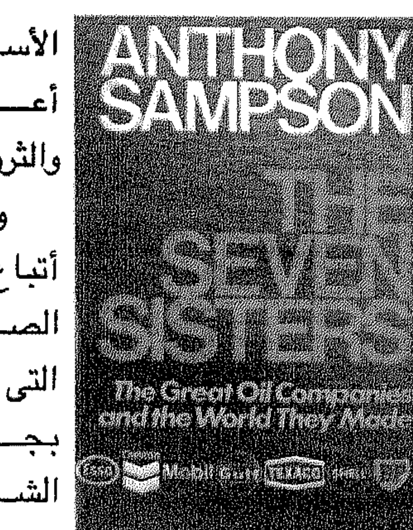
اشتراك بريطانيا فى غزو العراقى، وهاجم فى مقال مهم فى الأوبزرفر فى ١٦ فبراير ٢٠٠٣ اشتراك بريطانيا فى غزو العراق، وتساءل عن دوافعها، فى تقديم تأييد غير مشروط للسياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط، مما أدى إلى شرخ فى علاقات بريطانيا مع شركائها الأوروبيين، فى أكبر أزمة فى العلاقات الأوروبية منذ الأربعينات، وحذر من أثر تداعيات ما يجرى على الاتحاد الأوروبى وحلف الأطلنطى.

أما الكتاب الذى تقرأه وكأنك تقرأ رواية مثيرة، فيجذبنى أسلوب كتابة القصة أكثر من القصة ذاتها، خاصة بعد أن تبدل الكثير من وقائعها مع مرور الأيام، إلا أنه مازالت قاعدة «ابحث عن النفط» هى الدافع الخفى وراء الأزمات العالمية.

ولنبحر معاً فى بعض ما جاء فى الكتاب، والذى كتبه فى عبارات رشيقة، سريعة بسيطة، ونرى - معا - كيف ومتى وقعت أكبر وأخطر صناعة فى العالم تحت سيطرة سبع شركات عملاقة، وكيف انتزعت هذه الشركات جانبا من العمل الدبلوماسى من الحكومات، وكيف تعاملت البلدان المصدرة للنفط مع هذه الشركات؟! ومتى تمكنت الدول المصدرة من انتزاع المبادرة من هذه الشركات بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل، عندما نجحت فى رفع الأسعار.

ويتابع الكتاب الآثار السياسية لصناعة النفط.. «وأحاول تجنب الغموض، والتعقيد، وأترك الحكاية تسير وحدها سيراً طبيعيا» هكذا ينبىء القارئ وهو يروى القصة التى أدت إلى تغيير موازين العالم.

ويضيف .. «أكتب هذا العمل بوصفى صحفيا فضولياً، أتيحت لى فرصة الحديث مع أى شخص، والتنقل بين عواصم العالم، مما مكننى من الكتابة بأسلوب بعيد عن الشكليات، وينقل الوقائع والقرارات من خلال أعين وتصور أصحابها..، وبطل القصة هو ذلك «السائل الزلق» النفط الخام



الأسود الداكن، الذى أعاد توزيع السلطة والثروة..»

ويلتف حول «البطل» أتباع من كل صنف، من الصعب تجاهل الأدوار التى يقومون بها، وقام بجزء منها بعض الشخصيات البارزة، التى اتسمت بحب جارف للسيطرة على ما حولهم، وأخذت هذه النوعية من الشخصيات فى البروز منذ «روكفلر» الأمريكى.. وحتى ملوك النفط وأساطينه المعاصرين، ومن خلال رؤية هؤلاء ينقل بعض جوانب الحكاية.

مناسبة مقدسة

مفتتح الكتاب أو بداية الحكاية فى الجزائر..

المكان، قصر الأمم أو قصر الصنوبر، فى هذا المكان الشاعرى الجميل خارج العاصمة، يعقد مؤتمر ملوك ورؤساء «الأوبيك».

الزمان، مارس ١٩٧٥..

... كأنى فى مناسبة مقدسة أو أحضر أوبرا رائعة، سيطر على الذهول بل والانبهار عند مشاهدتى لدخول الملوك والرؤساء، يسيرون فى مجموعات أمام حرس الشرف الجزائرى بملابسهم المميزة، العمائم البيضاء

والعباءات الخضراء، ويمسكون بسيوفهم بإحكام. يمر أمامهم شيخ أبو ظبى بلحيته السوداء، ويعقبه رئيس جمهورية الإكوادور الجنرال لارا ضئيل الجسم ويتحلى بعدد كبير من الأوسمة والأشرطة الذهبية.. وبعد وصف دخول الملوك والرؤساء يؤكد.. إنه قبل ثمانية عشر شهرا، لم يكن أحد يتصور مطلقا إمكانية عقد هذا الاجتماع، ولا أن يتناول الاجتماع «الامتياز المرهق» الذى تحصل عليه الشركات، ويتمتع به منتجو النفط، كما جاء على لسان الرئيس الجزائرى هوارى بومدين.

وبدا النفط وكأنه وحد هذه البلدان المتباينة فى مؤسسة واحدة، وهذا بعد أن عمل كلا التجمعين أو الطرفين الاحتكاريين، على بناء كل منهما للآخر بصورة تدريجية.

وكأننى أقف أمام المسرح الدوار، فهل يعود إلى الدوران من جديد، وهل سيظل المنتجون يسيطرون على السوق، أم ستنتقل السيطرة من جديد إلى الشركات.؟، وهل مازال باستطاعة شركات النفط استعادة سيطرتها، وهى الشقيقات السبع، إكسون (إسو)، وشل، وبى لى، وجولف، وتكساسو، وموبيل، وسوكل (تشيفرون)، خمس منها أمريكية، وواحدة بريطانية، وواحدة أنجلو - هولندية، وكل واحدة من هذه الشركات ذات شأن كبير فى صناعة النفط، وقدر لهذه الشركات مجتمعة السيطرة على سوق النفط، وأن تصبح هياكل تنظيمية صناعية من نوع خاص، ورائدات من نوع خاص لظاهرة الشركات متعددة الجنسيات أو عابرة للحدود، كما تطورت كل واحدة منها لتصبح شركة متكاملة، لا يقتصر عملها على الإشراف على إنتاجها فحسب، بل وتمارس أيضا عمليات النقل والتسويق، وتم الاتفاق بين هذه الشركات بعد المنافسة الشرسة بينها، وكلما اشتد التنافس ازداد التشابه، ويشبه «سمسون» هذه الشركات بأنها تشبه الغانيات، تحاورت وتنافست، فيما كانت تظهر صورتها العائلية للغير، كما كانت توحد صفوفها عندما يتحداها الغرباء!.

وبالفعل أصبح «الكارتل» الذى شكلته هذه الشركات كجزء من الحكومة العالمية، بعد أن فاقت أرباحها معظم البلدان التى تعمل بها، بل وأدارت مدنا كاملة فى الصحراء، وأصبحت هذه الشركات السيد على نصف تجارة العالم، وبعد أن كادت المنافسة على تخفيض الأسعار تدمرها تم الاتفاق على استبعاد تخفيض السعر من المنافسة.

والمدهش أن بعض رجال البترول من المغامرين الأوائل فى الولايات المتحدة، تصوروا أنهم مبعوثو العناية الإلهية، فعندما ساهموا فى اكتشاف السائل الثمين فى ذات الوقت الذى بدأت فيه الحيتان فى الاختفاء من

المحيطات، والتى كانت تمد المصابيح بالضياء عند الظلمة.

وتابع الكاتب، بداية تكوين شركات النفط، واستعرض الصراع الذى نشب بينها، والذى استخدمت فيه كل وسائل الخداع من أجل الحصول على الامتيازات، وخاصة فى المنطقة العربية، وقد تحركت فى سبيل هذه الامتيازات الجيوش والأساطيل، ورصد ظهور الدور الأمريكى الذى اقتحم المشهد مزاحماً الشركات الأوربية، ويصف هذا الدور بأنه «متطلع بشغف إلى الآفاق الجديدة، وأنه كان مهاجماً ومغامراً وعدوانيا» !.

ويفضح دور الحكومات الذى تقوم به أحيانا سافرة وأحيانا من وراء ستار، وهذه الشركات هى الظهير الدائم لشركاتها..

وزادت أهمية النفط خلال الحرب العالمية الأولى.. واستحضر أقوال عدد من شخوص هذه الفترة.. يقول كلمنصو.. «النفط مثل الدماء»، ويقول فوش.. «يجب أن نمتلك البترول، حتى لا نخسر الحرب» ويؤكد اللورد كيرزون..» إن الحلفاء حققوا النصر عن طريق السباحة فوق موجة من البترول..»

وقد تمتعت الولايات المتحدة بميزة نسبية، وظلت مصدراً لـ ٨٠٪ من كل موارد الحلفاء من النفط، فقد نشطت داخلها عمليات التنقيب والاكتشاف، وكانت من أوائل البلدان التى استبدلت الفحم بالنفط، ففى الوقت الذى دارت فيه مناقشات طويلة فى بريطانيا من أجل استخدام النفط فى الأسطول البريطاني، أصبح النفط جزءاً من الصناعة.

أرض بلا صاحب

وتمضى المنافسات والصراعات على بترول الشرق الأوسط، وتوزع الامتيازات وكأنها أرض بلا صاحب، وتنقل الشركات والدول من مرحلة التنافس إلى مرحلة التكامل.

ويتحرى عن بداية فكرة إقامة منظمة «أوبيك»، ومن له فضل الدعوة إليها ثم إقامتها، هو «بيريز ألفونسو» من فنزويلا، فهو مهندس أقام مشروعها فى خياله، وهو عالم الاقتصاد والراهب المثقف الذى وضع الخطوط الأساسية لها.

فقد كانت دول أمريكا اللاتينية أكثر تمتعا بروح النضال من الدول العربية المنتجة للنفط، وعندما كانت الدول المنتجة تتقاسم الأرباح مع الشركات المنتجة خفضت شركة «أكسون» ثمن البرميل ١٠ سنتات، مما أدى إلى انخفاض دخل هذه الدول.

واتبعت بقية الشركات خطى شركة أكسون، وبدأت فكرة إقامة منظمة للدولة فى مواجهة الشركات، والتى جاءت بعد سلسلة من الوقائع والأحداث

شــهــدتـهــا كل من المكســيك وإيران والعراق.

وأول قرار تأميم للبترول حدث فى المكسيك، وتنبأت الحكومات الغربية أن المكسيك سوف تغرق فى نفطها!

أما التطورات على الجانب العربى فيرى الكاتب أن.. «أمريكا كانت تثقف خصومها»! ويستشهد بما جاء فى كتاب فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر، عندما يصف البترول بأنه أحد العناصر الرئيسية التى تمثل القوة العربية، ويرجع المصدر الذى استمد منه عبد الناصر معارفه إلى مقال حول النفط فى منشورات جامعة شيكاغو، ورد فيه أن استخراج برميل من النفط فى البلدان العربية يكلف عشرة سنتات!، وأن إنتاج البئر العربية يصل إلى أربعة آلاف برميل يوميا، يقابلها فى أمريكا ١١ برميلا يومياً.

لذا قال عبد الناصر.. «إن النفط هو العصب الحيوى للمدنية، وبدونه لا يمكنها الاستمرار».

أما الشخص العربى الثانى الذى طالب باتحاد المنتجين، فهو عبدالله الطريقى الذى كان أحد أبناء الجيل العربى الجديد، والذى خبر صناعة النفط فى أمريكا، والذى تلقى علومه فى جامعة تكساس، وتدرب فى شركة تكساكو، وتزوج وهو السعودى من فتاة أمريكية، ودرس معلومات دقيقة ومفصلة عن التكتلات داخل أمريكا.

أما أولئك العرب الذين ساهموا فى إعادة صياغة العلاقات بين الدول المنتجة وشركات النفط، فبعد عبدالله الطريقى يأتى زكى يمانى وعبداللطيف الحمد وسعدون حمادى.

ومن ناحية أخرى، ساهم تخفيض السعر من جانب واحد فى عقد اجتماع فى بغداد ضم خمسة بلدان تنتج نحو ٨٠٪ من صادرات البترول فى العالم، وهى المملكة العربية السعودية وإيران والعراق والكويت وفنزويلا.. وسيطر كل من الطريقى وألفونسو على أعمال هذا الاجتماع.

وكانت البذرة الأولى فى قيام كارتيل فى مواجهة الكارتيل الآخر القائم الذى أقامته الشركات.

هزيمة العرب!

وعاد المسرح الدوار للعمل..

وأدت هزيمة العرب فى يونيو ١٩٦٧ إلى استخفاف الشركات بالدول المنتجة، ونظرت واشنطن بازدراء نحو العرب، كما أدت هذه الهزيمة إلى الاعتقاد بأنه يمكن فصل النفط عن موضوع إسرائيل، والتعامل مع كل منهما ضمن اطارين منفصلين.. «بدت شركة أكسون الأمريكية متأكدة أن العرب لا يمكنهم أن يصلوا إلى اتفاق فيما بينهم، فالصورة التى كونتها عن العرب، لا تزيد على الصورة التى ظهر بها العرب فى فيلم «لورنس العرب»!

ولعل بعض الوقائع تكشف موقف



الحكومات الغربية التى عملت على استغلال البترول الرخيص من خارج أراضيها، وفى ذات الوقت الاحتفاظ ببترولها فى باطن الأرض، وتبين موقف الغرب من العرب.

فعندما اكتشف النفط فى ألاسكا فى بحر الشمال، لقيت الشركات معارضة الحكومة فى استخراجه، كما كان النرويجيون مصممون على عدم استخراج ما لديهم فى باطن الأرض من البترول، والاكتفاء بما يسد حاجتهم، وحرصوا على صنع العدد والآلات اللازمة لاستخراج النفط..

وهنا أشار الأمريكيون بصورة فظة إلى النرويجيين بصفتهم «العرب ذوى العيون الزرق»!، رغم الفارق بينهما، فلم يتحول النفط إلى طاقة لدى العرب أو إلى مدن صناعية، كما حدث فى جنوب إيطاليا، ولم تحتفظ مصر بالغاز فى باطن الأرض، وإنما يتم تصديره!.

نعود إلى شركة أكسون..

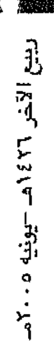
كان بإمكان شركة «أكسون» الأمريكية أن تتباهى بأنها أول شركة متعددة الجنسيات، والتى أصبحت أكبر نفوذاً، وأغنى من معظم الحكومات التى تتعامل معها، كما تقدمت على أية سلطة دولية أو أى تنظيم دولى فعال!.

وقامت إسرائيل بدورها خير قيام وألجمت الطموحات العربية التى تسعى للاستفادة من ثروتها الوطنية. وعلى عكس ما وقع فى أكتوبر ١٩٧٣، بعدما أخذت الدول المنتجة بزمام المبادرة لأول مرة.

وفى فصل مثير يتحدث عن الفساد فى هذه الشركات، ودأبها على تقديم الرشاوى والتى تم اكتشافها لأول مرة، حين بدأت لجنة السندات المالية والبورصة فى الكونجرس فى التحقيق عن مدى مساهمة هذه الشركات فى القضايا السياسية، وكان ذلك سنة ١٩٧٥.

واعترفت شركة «جولف» بأنها استخدمت بين عامى ١٩٦٠ و١٩٧٣، نحو ١٠.٣ مليون دولار من اعتماداتها فى داخل أمريكا وخارجها لأغراض يمكن اعتبار بعضها غير قانونى .

وطالبت كل من فنزويلا وبوليفيا وبيرو والاكوادور بالكشف عن الرشاوى التى وصلت إلى سياسييها، وصادرت بيرو أملاك شركة «جولف»، كما اعترف مدير شركة «جولف» بأنه قدم رشاوى قيمتها ٤ ملايين دولار ابتداء من سنة ١٩٦٦ إلى الحزب الحاكم فى كوريا



الجنوبية، ومبلغ قدره ٣٥٠ ألف دولار وطائرة هليكوبتر إلى الجنرال باريتتوس فى بوليفيا..

وأصبح الكل يعرف دور شركات البترول فى إنتخابات الرئاسة الأمريكية. ويستشهد الكاتب بكلمة فرانكلين روزفلت والتى يقول فيها.. «إن ما يزعج هو أنك لا تستطيع أن تكسب انتخابا، دون دعم من مجموعة شركات البترول، كما أنك لا يمكنك أن تحكم وأنت تعتمد على دعمها!».

لصوص العصر

ويضيف «سمسون».. و اصفا هذه الشركات بأنهم لصوص عصرهم، يعملون لنشر صناعة عالمية تتميز بالجشع، عبر حواجز أقامتها الحرب، وهم لا يعرفون متى يتوقفون، مما كشف فوضى صناعة النفط، وقدرة هذه الصناعة على تحدى الحكومات الوطنية.

وامتد أخطبوط شركات النفط إلى الكثير من المجالات، فمثلا حول اللورد كودرى أحد أغنى رجال الأعمال فى بريطانيا، والذى يمتلك إمبراطورية ضخمة تضم بنك لازار وصحيفتى الفاينانشيال تايمز، والإيكونومست، وأيضا سلسلة كتب «لونجمان» و«بنجوين»!

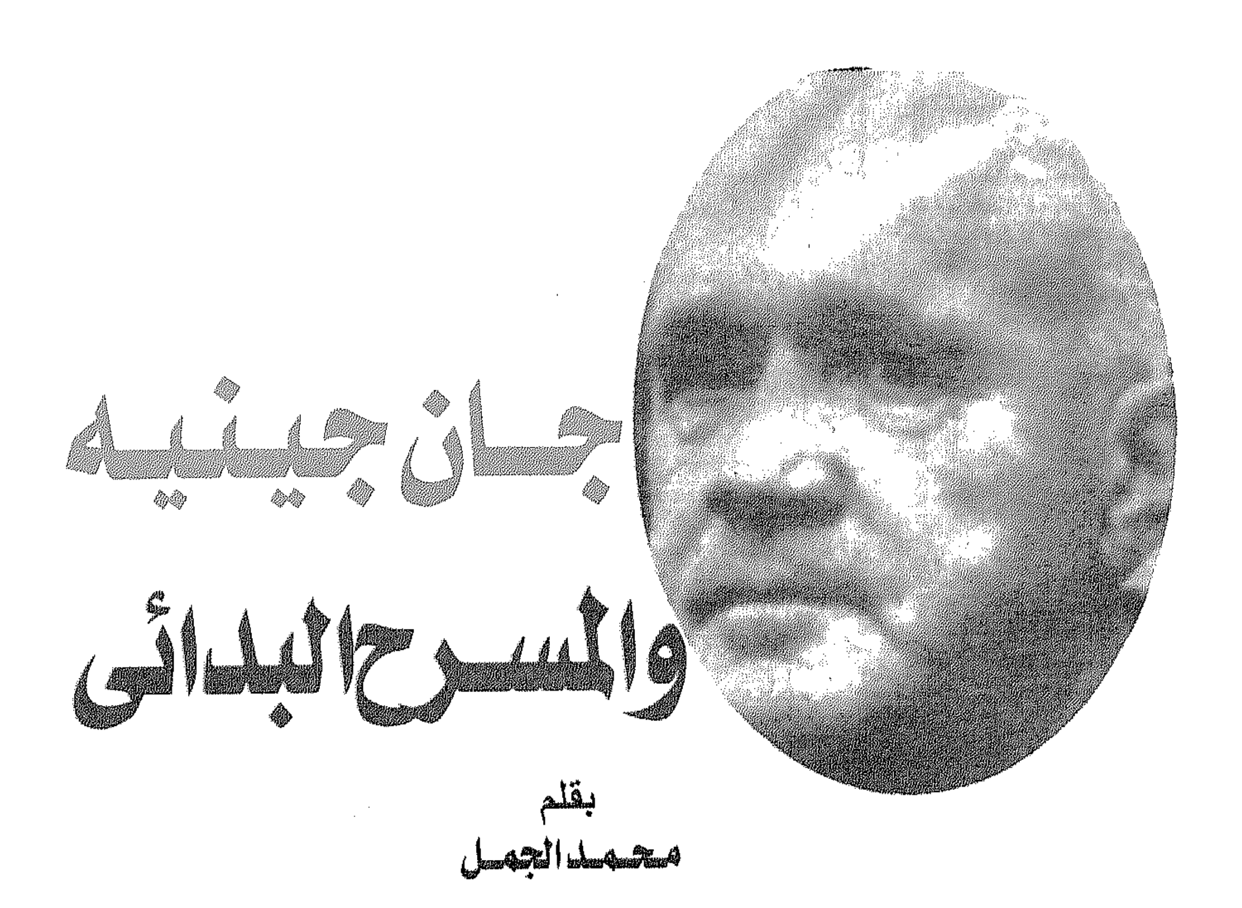
وتأكد دور شركات النفط فى رسم السياسة الخارجية الأمريكية، وساعدت الحكومة الأمريكية على تأييد إسرائيل علنا، وتأييد العرب بشكل خفى، متجاهلة الكونجرس الأمريكى.

ومع تزايد الضعف العربى، انقلبت قوة الضغط النفطية، وتقلص نفوذها من جانب، وانقلبت على العرب من جانب آخر، وتقلص أيضا دور الدبلوماسيين المحترفين والمستعربين الذين قضوا معظم خدمتهم فى العواصم العربية، وحل محلهم الدبلوماسيون اليهود والموالون لإسرائيل.

وبعد..

هذا النوع من الكتب، أفرد له مكانا خاصا، يضم قائمة من الكتب مثل، النيل الأبيض والنيل الأزرق الذى يتناول الكشوف الجغرافية عند منابع النيل، وكتاب داخل أفريقيا وداخل أوروبا وداخل آسيا للكاتب چون چنتر وهو أحد أمتع كتب الرحلات، وكتاب «بونابرت فى مصر» لمؤلفه الأمريكى كريستوفر هيرولد، كذلك كتاب «موسى والتوحيد» لسيجموند فرويد،الذى يعتبر نموذجا فذاً للبحث والدراسة عند إعادة تركيب قصة تاريخية من خلال مجموعة متناثرة من التفاصيل، ومن الكتب التى تثير الخيال والتى تحمل الأسئلة أكثر من الإجابات، كتاب «الحاكم بأمر الله» للكاتب الكبير محمد عبدالله عنان، وغيرها كثير.. ■





جان جينيه والمسرح البدائى

بقلم
محمد الجمل

لو أن «أنطونين آرتو» عاصر چان چينيه، لوجد فيه وريثه الموعود بدون جدال، حيث يخلق مسرحا سينمائيا بدائيا خلاصيا، ينطوى على كثير من تصورات «آرتو» لمسرح شرقى ذى ميول ميتافيزيقية، هو المعادل العصرى لديانات الغموض والأسرار.

إنه «چينيه» ينتزع أساطيره من أعماق لا شعور متحرر كل التحرر لا أثر فيه للأوامر والنواهى، ومسرحياته تتخذ شكل أحلام متحررة، منظمة على شكل طقوس، تهدف إلى طرد ما بنفسه وما بنفوس المشاهدين من قسوة وعنف وعدوان.

ويدعو چينيه إلى نبذ جميع تقاليد المسرح الغربى، ويرى أن أرفعها لا يخلو من الرثاثة، وفيها جو من التقنع وليس من الاحتفال، ولا بديل للخلاص من هذا المسرح الركيك، إلا بتبنى مسرح «الأشباه» ، الذى يجعل الشخصيات على المسرح تشبيهات فقط، لما هو مفروض أن يمثلوه. وهذه الأشياء تصل عالم الحقيقة بعالم الخيال ، الذى يخفى الواقع ويكشفه.

وهكذا يصبح «التشبيه والاحتفال» هما حجرا الزاوية فى مسرح «چينيه»، الذى يرى أن أعظم التشبيهات وأرقى أشكال الاحتفال توجد فى «القداس الدينى» ، ويتصدر مسرحا طقوسيا يستمد مادته من مخيلة الشاعر الذى سيكون مدير الاحتفالات المقدسة، حيث يغدو الجمال والشعر والجريمة أسس

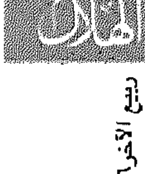
عقيدة طقوسية جديدة.

إن چينيه واحد من هؤلاء الكتاب الفرنسيين الثوريين، من طراز «ساد»، «ولا سنيير»، «وبودلير» ، و«رامبو» ، الذين تمتد أحلامهم الثورية إلى العالم المستيقظ، فهم يحققون خيالاتهم ثم يحيلونها أدبا. ولكن «چينيه» لا يكرس جهوده الأدبية ، التى بدأها فى السجن عام ١٩٤٣، لتبرير حياته فقط، بل لتقديسها أيضا، فهو لص موصوم، يمجد العالم السفلى ويقول فى «يوميات لص»: «إن القداسة هى مأربى»، والأسطورة عند «چينيه» تتحقق بالسعى الدائب للمطلق، وتستمد قوتها من الشر الفائق، مثلما تستمدها من الشر الفائق، والإنسان فى نظره، قد يصبح نورانيا عن طريق الغدر والقسوة ، وهكذا تكون فكرة «چينيه» عن القديس مصحوبة على الدوام بفكرته عن المحرم. ومعيار الأخلاق عنده هو «البطولة» فى أى مجال ، حتى لو كان مجال الشر، ومقياس الأخلاق هو الجمال حتى لو كان جمالا بدائيا، يحاكى بداوة الإنسان قبل تحضره وإرتقائه.

القدسية والسلب

وقد كانت جماليات «چينيه» الشاذة، نتاجا لحياة أكثر شذوذا، وقد أوضح «جان بول سارتر» نشأة هذه الأفكار عنده، فى دراسته المستفيضة عنه، المعنونة «القديس چينيه : كوميدى. وشهيد». يروى «سارتر» كيف ولد چينيه لقيطا متروكا لرعاية الجمعيات الخيرية، وكيف صار لصا بسبب مجموعة من الأحداث تعرض لها فى طفولته وكيف بدأ حياته «طفلا طيبا.. طيبا كالذهب» ثم تعلم «أخلاقا تجلب عليه اللعنة، لأن أخلاق الملكية «التملك» تلقى به إلى العدم مرتين. مرة كلقيط وأخرى كصعلوك»، وهكذا يشترك چينيه فى لعبتى «القدسية والسلب»، مندفعا بتقديس منحرف لقوانين البورجوازية وفضائلها، فيبدأ لصنا المقبل بتعلم الاحترام المطلق للملكية، ثم يأخذ فى تدنيس الأشياء التى يوقرها، وتخضع تصرفاته لقوانين العالم الذى هو مبعد عنه، فهو ابن غير شرعى وسط أبناء شرعيين، ينقلب إلى الجريمة فى مجتمع القوانين.

ويقول فى «يوميات لص»: «لما كنت مهجورا من أسرتى، فقد شعرت أن من الطبيعى أن أعمل على تفاقم هذه الحالة بتفضيل السرقة ، وعلى تفاقم السرقة بتفضيل الجريمة، أو باتخاذ موقف التساهل إزاء الجريمة، وبذلك تنكرت لعالم تنكر لى». وچينيه هكذا يقلب العالم ظهرا لبطن. وتغدو حياته صورة مقلوبة فى المرآه لحياة «القوم الشرفاء»، ويقول عنه «سارتر»: «إن چينيه الذى ولد بدون أبوين، مستعد لأن يموت بدون ذرية، فإن نشاطه الجنسى سيكون عقيما وتوترا مجردا». ومثلما انعكس البؤس والشقاء فى طفولة چينيه وصباه، على أفكاره ومشاعره، فقد ساهم الواقع الأوروبى الممزق فى تشكيل سلوكه ورؤيته الفنية، فعندما سافر إلى ألمانيا النازية، شعر بأنه يواجه مجتمعا من اللصوص ، فالشر فيه منظم، والشرطة والجريمة شىء واحد، وتتخذ ثورته صورة هازلة «إن البشاعة هنا مستحيلة، فأنا أسرق فى خواء» وتقوده رغبته فى الانتقام من منظومة القوانين واللوائح، التى يراها كاذبة وملفقة وخادعة، الى التجسس ، الذى يتيح له عن طريق الخيانة، تلويث النظام القائم، الذى يدعى الوفاء للناس ورعاية مصالحهم، وهو بذلك يخون الشر بالشر، وكانت تطارده على الدوام فكرة



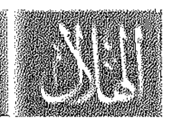
ارتكاب جريمة قتل، ولكنه رأى أن هناك جرائم أخرى ، أشد حطة ودناءة، وهى السرقة والتسول وخيانة العهد، ومع أنه لم يرتكب جريمة قتل أبدا، فإنه فى عام ١٩٤٨ كان قد أدين عشر مرات فى جرائم سرقة ، ولم يفلت من عقوبة السجن المؤبد إلا بعد عريضة استرحام قدمها رجال الفكر والفن الفرنسيون.

لقد حاول أن يكون جديرا باحتقار العالم له، فانغمس فى الرذيلة. ولكنه لم يستطع أن ينفصل عن العالم كل الانفصال، وكان من شأن شهرته الأدبية المتزايدة أن أكسبته مجدا من نوع مختلف كل الاختلاف، وهكذا يبدو أن مثله الأعلى هو «اللاشيئية المستحيلة» التى تقوم على سلبية الشر المحض، ومع ذلك لم يستطع التحرر المطلق من منظومة القيم والشرائع الإنسانية، فقد وجد نفسه يتواصل مع الناس ويلتحم بهم، من خلال إبداعاته الأدبية والفنية، على أمل أن يطهرهم بفنه ورؤاه، من نوازع الشر والقسوة والعنف والعدوانية، الكامنة فى روحهم البدائية ، والمتجذرة فى كينونتهم، والمغطاة بمفاهيم وقيم ملتوية ومنحرفة وخداعة. وهكذا يجد نفسه غير مستسلم تماما لنزعة العدمية واللاشيئية ، ويلعب فى كتاباته الإبداعية على ثنائية الدوافع الفطرية الوحشية البدائية، ومنظومة القيم والمفاهيم التى تحقق شكلا من أشكال النظام والاستقرار فى الجماعة الإنسانية

وهكذا لا يبدو چينيه مجرما أصيلا ، وفق المصطلح الجنائى للقوانين والشرائع الدستورية والسماوية ، بقدر ماهو ضحية نشأته وظروفه الخاصة، وضحية النزعة النازية الفاشية التى اجتاحت أوروبا، واكتوى بنارها ضمير چينيه. فهو إذا كان يحلم فى بعض الأحيان بارتكاب جريمة قتل، فهو فى أغلب الأحيان يحلم بكونه ضحية القاتل.. وربما قصد بتضخيم النزعة الإجرامية عند البشر. إلى تعرية وفضح وإدانة الأنظمة والحكومات التى تتصف بالسادية وتعذيب شعوبها والفتك بهم، من خلال وظائف ذات طبيعة مزدوجة، مثل وظائف الجيش والشرطة والقضاء والمعبد، التى لا تعدو أن تكون مجرد اقتناء لوظائف ، حبا فى الوظائف، لتغطية الدوافع الفطرية البدائية الأنانية.. وهنا يتضح الجانب الثورى فى رؤية چينيه، والذى يتجاوز الجانب العدمى اللاشيئى فى هذه الرؤية، مما يستدعى استبعاد «چينيه» من موجة كتاب العبث، من أمثال يونسكو وبيكيت وكامى ، ومما يجعل رؤيته حافلة بالتناقضات والصراعات الداخلية، فهو إذ ينشد اللاشيئية، يضطر إلى طلب الأسطورة ، وهو إذ يحب الفوضى والحرية، يتبين أنه يقدس النظام والتنظيم، وهو إذ يتفانى فى الحقيقة، لا يستطيع أن يهرب من الوهم.. وهم الوظائف والأدوار، التى تحقق انسجام المجتمع قدر الإمكان. ومثل هذه المتناقضات هى مادة «الدراما الثورية»، حيث نجد الصراع بين الحقيقة والوهم، بين الكينونة وعدم الكينونة. بين الفوضى والنظام، وهو هكذا يضع صراعاته الشخصية فى خدمة مسرحياته، متخذا من الثورة موضوعا لفنه ومن النظام مبدأ له، وقد وجد خلاصته فى الفن، لأنه لا يستطيع أن يتسامى على صراعات حياته إلا بخلق عالم من صنع مخيلته.

إغراء الزيف

والأمر الآخر الذى يجذب «چينيه» إلى المسرح - كما يقول سارتر - هو عنصر الزيف والتقليد والتكلف، فالمسرح عنده هو مكان التقنع الاحتفالى، وهو



صريح جدا فى حبه للخداع. يقول فى مسرحية «سيدة الأزهار» ١٩٤٢: «إن ماسيلى ذلك زائف، وأنت لست مضطرا إلى أن تتقبله كحق لا ريب فيه، فليس الحق من خصالى الطيبة، ولكن لابد أن يكذب المرء لكى يكون صادقا، بل لابد أن يذهب حتى إلى أبعد من ذلك. وهو هكذا يخلق مسرحية مظاهر يتناول عن طريقها حقيقة أعمق،»إنه فن ماهو كائن وما هو ظاهر، ذلك الفن القائم على موهبة الإنسان فى صنع الأوهام.

چينيه إذن يتعذب بالوهم، ويغوص من خلال المظاهر إلى الحقيقة التى هى نفى الوظائف والأدوار، والحقيقة هى اللاشيئية المستحيلة، فإن اللا أحد يجد نفسه على الدوام يتحول إلى أحد ما يؤدى دورا. چينيه يتصور أن الحياة قناع أبدى، والناس الشرفاء - بدون أن يدروا - يلعبون لعبة المظاهر. إن مدام «إيرما» تخاطب المتفرجين فى ختام مسرحية «الشرفة» قائلة: «لابد أن تذهبوا الآن إلى بيوتكم، حيث تجدون كل شىء - أؤكد لكم - أشد زيفا حتى من هنا..». يقول سارتر فى هذا الصدد: «چينيه يرى أن أصل العالم هو اللعب، والعالم ينتظم عندما تصبح قواعد اللعبة ثابتة، والدولة هى نظام قام بتخليد صورة، على مر القرون، والنظام المستتب يتكون من أدوار مسرحية فى دراما قومية، وقواعد اللعبة هى قوانين الدولة ولوائحها، والإخلال بهذه القوانين، ليس إلا الإقدام على لعبة أخرى ذات قواعد مختلفة، والمجرمون أشبه كثيرا بالأطفال فى حبهم للأقنعة، فكل واحد يؤدى دوره، شرطى وقاتل، موظف وثائر، وقديس ومذنب. ويقول چينيه: «شخصياتى كلها أقنعة، فكيف تنتظر منى أن أقول لك أصادقة هى أم زائفة؟!» وأعظم الرجال هم أعظم الممثلين فحسب، وأعظم الكتاب المسرحيين هو الذى يكشف زيف التقنع ويحتفل به.

ايجابية التطهر

إن «چينيه» يخلق دراما التحول، فالعناصر التى يتكون منها مسرحه، مثل القتل، الإغتصاب، أكل لحوم البشر، الذبح، القسوة، الانتحار، الهمجية، الشهوانية، تتحول إلى تصرفات احتفالية وإشارات كهنوتية. يقول سارتر فى هذا الصدد: «إن أعظم جريمة فى النظام البدائى ستكون أجمل إشارة فى النظام المتحضر، والعمل البشع الذى يرتكبه القاتل هو فى الوقت ذاته. الإشارة المأساوية لمن يقدم القربان»، من هذه الإشارات يأتى طرد الأرواح الشريرة، فچينيه يطهر نفسه من الجريمة، ويطهر المتفرج أيضا، وهذا هو الجانب الإيجابى فى مسرح چينيه، كما يقول سارتر: «إن چينيه إذ يعدينا بشره» يخلصنا منه فى نفس الوقت، فكل كتاب من كتبه هو أزمة من أزمات التسلط التطهرى، هو دراما نفسية، إن عشر سنوات من أدبه. بمثابة علاج عن طريق التحليل النفسى»، وهذه الفكرة السحرية تسعى إلى طرد خيالات المتفرج بإخراج «الرواسب الصادقة فى أحلامه»، وقد ظن بعض النقاد بداية أن چينيه يظل حبيسا داخل نفسه، بخيالات ملونة بمخيلته السادية الماسوخية، ولكن هذه النظرة تحتاج إلى مراجعة، فبعد رواياته الأولى، وبعد مسرحيتى «الخادمتان» و«حراسة مميتة» التى تدور كلها فى منظر مغلق نسبيا، تزداد أحلام «چينيه» انفتاحا، إلى أن تتسع رؤياه فى مسرحيات «الشرفة»، «والسود»، و«الستائر»، فتشمل السياسة العالمية، والصراع العنصرى، والتاريخ، والدين.



وچينيه يعتمد فى مسرحه على البراعة اللفظية والمناظر المسرحية الهائلة فهو يستخدم جميع مسرحياته الطويلة، الدمس والأقنعة، وآلات التعذيب المأساوية، والملابس المبطنة ، وتماثيل عرض الملابس ، والأشياء ذات الأبعاد الغريبة، كما يستخدم الرقص والإيماء والإشارة ، ليخلق شعرا فى الفضاء عن طريق جميع وسائل التعبير الممكن استخدامها على خشبة المسرح. وهو يقوم بالتحويل عن طريق الشعر اللفظى أيضا فيقول: «إن انتصارى لفظى، وأنا مدين به إلى بذخ المصطلحات اللفظية» ونظرا لأن اللغة قد حولته من مجرم إلى فنان ، فإنها ستظل فى نظره أداة للتحويل.

رغبة التحرر

إن أساطير چينيه، تكشف عن رغبة المؤلف الفوضوية فى التحرير الكلى. ولكن الثورة التى تتطرد فى مسرحياته تكاد تكون على الدوام غير مجدية، فچينيه يريد أن يقضى على النظام القائم، وهو فى نفس الوقت يعرف أن النظام لا يمكن استئصاله، وأن الثورة المطلقة مستحيلة، وأن جميع الثورات محكوم عليها بأن تتخذ - ولو بطريقة سلبية فقط - خصائص النظام القديم، وهكذا تصبح الثورة والنظام دورين لتقنع واحد.

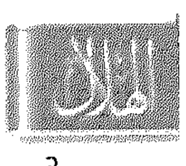
وتعتبر مسرحية «الشرفة»، أكبر عرض مسرحي مؤثر، يقدمه «چينيه» عن الكذب والتصنع ، اللذين يرى أن الحياة قائمة عليهما. والمسرحية مذهلة فى التواءاتها وتعرجاتها الفنية، وتتسع لتصبح نظرة مسرحية على المجتمع، ومفهوما للتاريخ والدين عند عقلية جريئة.

تبدأ المسرحية فى غرفة أحد الكهنة، حيث نجد أسقفا يتلقى اعتراف تائبة نصف عارية، تعترف بخطايا ملفقة، بما يوحى بأن المنظر كله مزيف، فغرفة الكاهن أحد استوديوهات ملهى ليلى، يسمى «الشرفة الكبرى»، تديره مدام «إيرما»، التى تقدم الملابس والأثاث والشخصيات المطلوبة، بينما يقدم الزبائن السيناريوهات، والأسقف رجل غازى، يرتدى زيا كنسيا، والطقس الذى يؤديه مع التائبة ليس إلا مقدمة متقنعة للقاء عاطفي.

وكذلك الحال مع الزبائن الآخرين، حيث نجد من بينهم «المدعى العام»، يحكم ويدين ويلعق قدم سارقة. و«جنرالا» يطوف بميدان قتال على ظهر حصان جميل البدن، هو فى حقيقته فتاة . وصلعوكا ملاءه القمل، تضربه بسوطها فتاة، ومجذوما تشفيه مارى العذراء.

والملهى هو إنعكاس للعالم الخارجى، غير أن هذه المناظر ليست إلا تمهيدا للمسرحية الأصلية. فلدى دخول مدير الشرطة - حبيب إيرما السابق وبطل الجمهورية ، نعلم أن «الشرفة الكبرى» هى حليف النظام القائم، الذى لا يتسامح مع هذا اللهو العابث فحسب، بل هو لازم كل اللزوم لبقاء هذا النظام، حيث أن الملهى . يدنس الوظائف الكبرى، ويحافظ عليها فى نفس الوقت ، حيث أن محاكاة وظيفة ما، يعنى اتخاذ قوتها وتقبل سلطتها.

أما التهديد الحقيقى للنظام، فيأتى من ثورة يشتعل أوارها فى شوارع المدينة، تستهدف القضاء على الصرح بأسره، الحكومة، والكنيسة، والقضاء، والجيش، وهو هدف «روچيه» أحد قواد الثورة، الذى يتمسك بهدف «بيوريتانى» طاهر ، يضع حدا للتمثيل. ويكتشف



مدير الشرطة حقيقة ما تقوم به الثورة، من خلال رؤية چينيه ، فيقول: «إن الثورة نفسها لعبة. فمن هنا لا تستطيع أن ترى شيئا فى الخارج، ولكن كل ثائر يقوم بلعبة، وهو يحب لعبته» . ويرى مدير الشرطة الخطر فى أن الثوار سينتشون بخمرة اللعبة، ويقفزون إلى «الحقيقة» بدون أن يدروا.

و«روچيه» يريد أن يحقق ثورة مطلقة، بعيدة عن الوظائف والأدوار والمسميات لكى تصبح نهاية التراضى، وإبادة الأوهام، وختام التقنع، ولكن «روچيه» مستحيل . فعندما يصوغ مثله العليا، تخرج الثورة عن زمامها ، وتتحول إلى مهرجان ، فالرجال يقتلون لمجرد القتل، بدلا من أن يقتلوا بتعقل، وجد، وحزن، ويقول قائد آخر «لروچيه»: «أنت تحلم.. تحلم بثورة مستحيلة، تقوم فى تعقل وبرودة دم. أنت مفتون بهذا، فتنة هؤلاء الذين فى المعسكر الآخر، باللعبات الأخرى.. ولابد أن تدرك أن أشد الناس تعقلا، يدبر أمره دائما – بعد أن يجذب الزناد – ليتولى أمر العدالة» وتبوء الثورة بالفشل تماما، عندما يأخذ الثوار فى المطالبة بالشعارات والأبطال والرايات ، وإذ يتطلعون إلى شخصية أسطورية يقدسونها، يقع اختيارهم على «شانتال» ، التى أنقذها روچيه من الماخور . ستصبح قديسة الثورة «اللعوب المجيدة التى تنشد النشيد الوطنى فتعود عذراء». وإذ تتحمس «شانتال» للدور التاريخى، توافق على أن تكون تجسيدا للثورة ، فتصبح رمزا، وتفر من أنوثتها إلى الأبد، لقد تعلمت فى الملهى «فن التمثيل والتزييف»، وهى تطبق هذا الفن الآن على دور أسمى. فى حين يدرك «روچيه » – الذى يريدها أن ترعى الجرحى، أن كل ما فعلته هو أنها اندمجت فى لعبة الملهى مرة أخرى.

ثورة چينيه

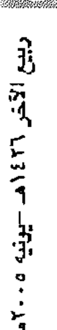
لقد صاغ چينيه ثورته على غرار الثورة الفرنسية ، التى بدأت بكراهية التحايل والخداع، ثم أصبحت لها احتفالاتها الخاصة. وكأن «روچية» البيوريتانى هو «روبسبير» إلا أن «چينيه» يعمم مسرحيته لتضم معظم ثورات التاريخ الحديث. فالنزعة نحو التغيير تتحطم أمام الحاجة إلى دور، والقواد الثوريين يصبحون معززين مكرمين كملوك جدد، ويصبح لباسهم الطاهر البسيط نوعا من الزى الرسمى وهكذا يأتى «روبسبير» برعب أسوأ بكثير من فظائع النظام القائم القديم. ويأتى ستالين ببيرقراطية تنافس السلطة الإقطاعية فى عهد آل «رمانوف» . التقدم كله حلم ، لأن الحقيقة مستحيلة المنال. ومنظر معسكر الثوار هو أشد المناظر واقعية، ولكنه المنظر الذى تنهزم فيه الواقعية، ويصبح المصير النهائى الذى تصير إليه الثورة غامضا إلى حد كبير . لقد حقق الثوار أهدافهم فى قتل الملكة، والقاضى، والأسقف، والجنرال، ولكنهم بإخفاقهم فى قتل الأفكار التى تمثلها هذه الشخصيات. أو قتل حبهم للتمثيل، خسروا اللعبة. ماتت الملكة ولكن فكرة الملكة لم تمت ، ولعبة الوظائف السلطوية والعقوبات المترتبة عليها، قد أبقت على الكنيسة، والجيش، والقضاء، حية إلى حد كبير. وهكذا عندما يأتى مبعوث البلاط إلى «الشرفة الكبرى» ليقول إن الملكة ماتت، فهو يقول ذلك عن استنتاج، من خلال سلسلة من التشبيهات الغامضة، كأن يقول: «إن ملكة تقوم بتطريز منديل لن تكمله أبدا.. هى مستغرقة فى تأمل لا نهاية له.. إنها تختفى لكى لا يعثر عليها

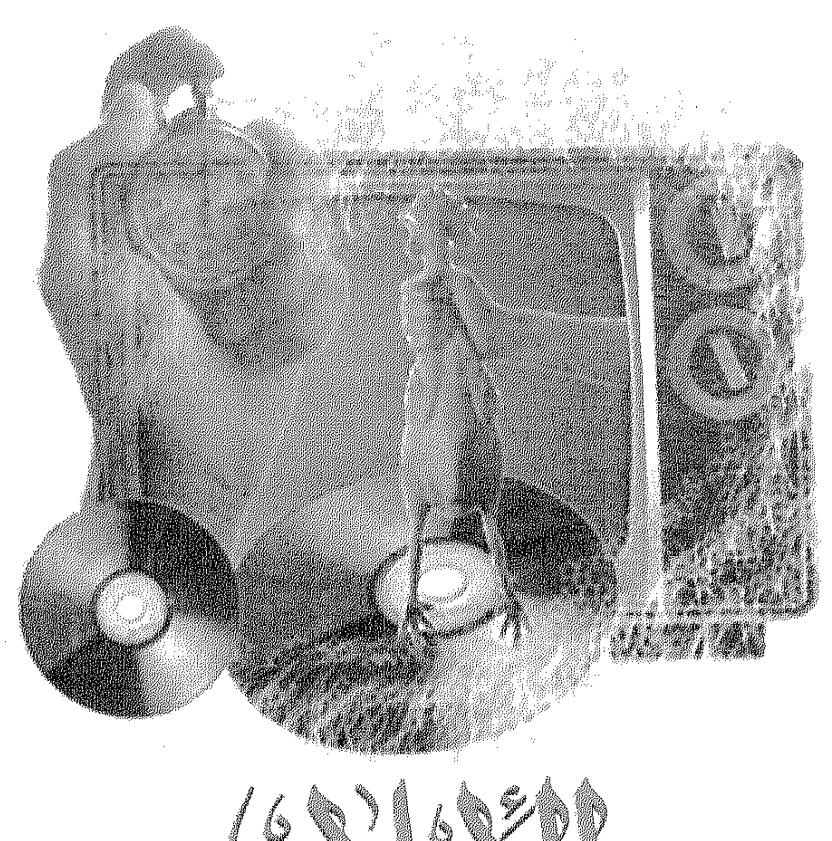


أحد، وبذلك تصبح مهددة بألا تكون مرئية. هناك إذن ملكة مهددة بألا تكون مرئية، وأخرى لابد أن تصبح مرئية، ولذلك يقترح «المبعوث» أن تقوم مدام «إيرما» بهذا الدور، وأن يقوم المزيفون الآخرون في الملهى بأدوار الأسقف، والقاضي والجنرال. وعندما يرتدي هؤلاء المزيفون الأربعة الأزياء الرسمية المزخرفة ويؤدون الحركات المناسبة، تنخدع بهم الجماهير كأنهم الشيء الحقيقي. ويقول أحد هؤلاء المزيفين «ما كان في وسع أحد أن يتعرف علينا، فقد كنا في الذهب والبريق، وقد أعماهم ذلك». وهكذا أخمدت الثورة، وقتلت شانتال.

ويتجاوز «چينيه» هذا النقد اللاذع للوجود الإنساني، من خلال شخصية مدير الشرطة الذي يزدهر وجوده على التوهم، وعن طريق التصنع يأمل بلوغ الخلود. ولقد حياه الناس فعلا بوصفه بطل الجمهورية، فشيدوا له ضريحا هائلا تكريما له، لكن أطماعه تفوق الجميع، فيطالب بمنحه سلطة أكبر من سلطة الأسقف والقاضي والجنرال، بحيث يقتحم أبواب الأسطورة وسيعلم مدير الشرطة أنه صار أسطوريا عندما يقوم بتمثيل شخصيته أحد رواد الملهى، باعتبار أن التقليد هو البرهان على القدسية، وراح يبحث عن رمز ملائم، فنصحه واحد من الناس بأن يظهر كجلاد وسفاح، ومع ذلك لا يحظى بالمجد الذي ينشده، ويظل الاستوديو الخاص به شاغرا، وتظل صورته ضئيلة نسبيا. وتنصحه «إيرما» بأن يواصل القتل لعل الافراط في القسوة يجعله نورانيا. كما جلب ذلك شهرة محلقة في الآفاق لهتلر وموسوليني وستالين. غير أن مدير الشرطة يتطلع لأكثر من ذلك، فهو يبغي سلطة فوق أعلى كل المناصب، بمعنى أن يصبح دنيويا ودينيا معا، أسطوريا وبشريا معا، بعد أن يخلق وظيفة تستقر في عقول الناس، ليصبح هو الأعلى والأسمى، الذي تصبح حياته قدوة للجماهير. وعندما يدرك مدير الشرطة أن شخصيته على وشك أن تمثل. يدرك أنه نال غايته، وأنه أصبح ينتمي إلى المسميات. ويأتيه البرهان، في شخص «روچيه» الذي يقيم حدادا على الثورة، بعد أن اقتنع أخيرا بأن الحقيقة عصية على المنال وأن الصدق مستحيل فقرر أن يكون ممثلا في كوميديا الأوهام، بل أن يكون الممثل الرئيسي. وفي الاستوديو الضريح حيث جاء مرتديا زيا مطابقا لزي مدير الشرطة، يمضي روچيه في تمثيل دوره السامي. ويقول: «كل شيء يتحدث عني. كل شيء يتنفسني وكل شيء يعبدني. لقد عشت تاريخي بحيث تكتب صفحة مجيدة ثم تقرأ». وهو هكذا ينال خلوده، ويأمر بطعام للألفي عام القادمة، ثم يهبط إلى مقبرته، بينما يشير صوت المدافع الرشاشة إلى ثورة جديدة آخذة في النشوب في الخارج. وتمضي تصرفات الناس في طريقها الدائري، ولكن مدير الشرطة قد ثبت في الأسطورة.

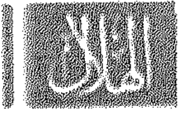
نقول في النهاية إن التاريخ قد يسجل لچينيه أنه الفنان الدرامي الذي أشرف على تفكك الغرب، والذي استطاع أن يعتصر من علته أساطير تتميز بالجمال والتلقائية والعمق، وإذا استطاع أن يداوي نفسه، فربما استطاع إذن أن يداوينا، من سادية الحضارة الغربية، التي ينتمي إليها چينيه، ويدينها في نفس الوقت، وربما استطاعت المدينة التي يورخ لها أن تحيا من جديد. ■





الإعلان وعقل الأمة

بقلم
د. نسمة البطريق



ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - يونيه ٢٠٠٥م

ينهض الإعلان بدور حيوى فى ظل ما يسود العالم الآن من اتجاه نحو النظم الاقتصادية الحرة والخصخصة ، فهو إحدى أهم آليات تمويل المؤسسات الإعلامية كالإذاعة والتليفزيون ودور النشر الصحفى .

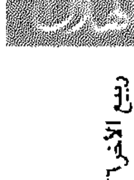
والإعلان إلى جانب ذلك الدور الاقتصادى ، يقوم بدور اجتماعى ومعرفى خطير، خاصة إذا أدركنا أهميته فى سياق منظومة الإعلام كعملية متكاملة واسعة الإطار، لها قدرة فائقة على التأثير والإقناع يمكن توجيهها فى مجالات الدعاية السياسية والاقتصادية وأيضا فى مجالات تنمية الإدراك للمفاهيم الحديثة المختلفة سواء كانت هذه المفاهيم تؤكد القيم السائدة أو الدعاية لترويج مفاهيم وأفكار حديثة.

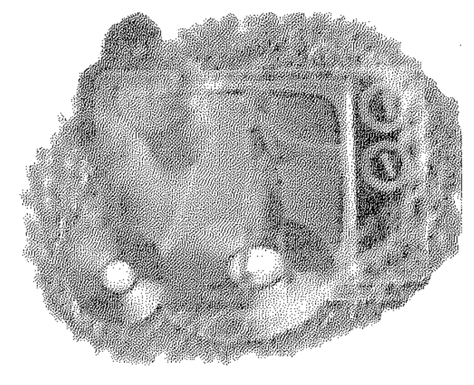
وإذا تأملنا تلك المرحلة من مراحل التحول الفكرى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى فى مفهوم عملية الإعلام والاتصال الجماهيرى كعملية يدخل فى إطارها جوانب عديدة ثقافية واجتماعية وإعلانية ، وبالنظر إلى الأهداف والوظائف ، نجد عملية الاتصال الجماهيرى لا تنطلق وتتحدد من مفهوم ومعنى واحد فى جميع المجتمعات ، من حيث أدواتها وتأثيرها المباشر وغير المباشر على الفرد والجماعة خاصة فى عصر العولمة الاقتصادية وهيمنة الاقتصاد الحر فى مجالات الإعلام والثقافة والمعرفة ، ولكن تنطلق من خلال مفاهيم وأهداف يجب أن تكون مغايرة ومختلفة فى تأثيراتها ومنطلقاتها فى الدول النامية والعربية والدول المتقدمة فى الغرب الصناعى المتقدم .

تهيئة البيئة الاجتماعية

هذه الاختلافات التى يمكن أن توجد فى البيئة الاجتماعية والثقافية والعلمية بين دول العالم النامى ودول العالم الغربى الصناعى المتقدم ، والتى تداركتها الدول الصناعية فى الغرب المتقدم منذ فترات طويلة تظهر أهمية العمل على تهيئة تلك البيئة الاجتماعية، لمواكبة التغيرات والإصلاحات والمشروعات الكبرى للثورة الصناعية الأولى والثانية .. وأكدت هذه المنطلقات بدورها على أهمية أن الفرد والجماعة كقوة بشرية يجب تهيئتها فكريا وعلميا وصحيا حتى تكون أكثر قدرة على الاختيار بين البدائل المتاحة والتمييز بين الإعلان الاستهلاكى والدعاية السياسية والاقتصادية كظاهرة حديثة . ولم تتأكد خصوصية أهداف ونوايا واستخدامات الإعلان والدعاية المختلفة إلا مع نشأة المجتمع الحديث المتطور مع بدايات القرن العشرين ، والتى قد تكون براقة فى أحيان كثيرة للتأثير على توجهات ومسارات قد تكون فى غير الصالح العام

وألقى هذا البعد المهم الضوء على إجراء الإصلاح فى المجالات المتصلة بظروف الفرد والجماعة كقوة بشرية يجب تنشئتها النشأة الاجتماعية والاقتصادية والمعرفية والتربوية والصحية المناسبة ، حتى تصبح أقدر على مواكبة التطور العلمى والاقتصادى ، فأحدثت تغيرات جذرية فى بيئة الفرد الاجتماعية والثقافية والعلمية والاقتصادية حتى يصبح أقدر على عملية التعرض للمضمون المتعدد والمتباين فى تأثيراته وأهدافه ومنطلقاته، وأكثر مقدرة على الانتقاء والتقييم لمضمون التحديث فى الفكر القائم على العلوم الحديثة وما تبعه من تطور فى الصناعات المتعددة وفى مجالات جديدة للتسلح والترفيه والرياضة والصناعات الالكترونية .. وكلها أحدثت ثورة هائلة فى مجالات صناعة الثقافة والمعرفة فى دول الغرب الصناعى المتقدم ومنذ بدايات



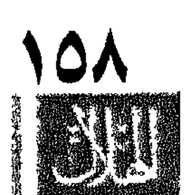


القرن العشرين . كان يجب أن يتفاعل المجتمع الحديث فى دول الغرب الصناعى المتقدم حتى يلاحق تلك الطفرات والإنجازات التكنولوجية والعلمية الكبرى ، وما حققته من تطور فى الفكر العلمى وفى المناهج التعليمية والبحثية منذ بدايات القرن الماضى فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة فى مجالات التربية والتعليم والصحة والبحث العلمى ، فأحدثت هذه التغيرات والتوجهات تطويرا كبيرا فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والصحية والظروف النفسية المحيطة ، فأصبح الفرد قادرا على المواجهة والتصدى بالتفكير السليم والنقد الاجتماعى والفكرى الموضوعى البناء .

التأثير على فكر الأمة

إذن .. ومن خلال هذه الخلفية يمكن تقديم بعض النقاط لايضاح ما يحدثه الإعلان فى الدول النامية والعربية كجانب من الجوانب المهمة الداخلة فى الآليات الكلية للعملية الإعلامية والثقافية وكعنصر يمكنه أن يهيمن ويؤثر على فكر الأمة ، ويأخذ فى الكثير من الأحيان مهام الدعاية لأفكار قد تلعب دورا مدمرا للقيم والأفكار الاجتماعية المختلفة ، باستعراض لبعض الاختلافات بين وظائف الإعلان وآلياته فى الدول المتقدمة فى الصناعة والدول العربية ، أى الاختلاف بين البيئة الاجتماعية التى تمت تهيئتها وبين أخرى غير مهيأة التهيئة الكاملة المتوازنة .

أولا : إن عملية الاتصال الجماهيرى يجب النظر إليها نظرة متعددة الجوانب من حيث مضمونها المتنوع فى الأهداف والتوجهات ، فهناك شقان رئيسيان : الشق الإعلانى والشق الإعلامى ، وهما يسيران بالتوازى ليحققا أهدافا اجتماعية وثقافية وقومية وسياسية واقتصادية ، لا تنطلق وتتحدد من مفهوم ومعنى واحد من حيث آلياتها وتأثيرها المباشر وغير المباشر على الفرد والجماعة خاصة فى عصر العولمة الاقتصادية وهيمنة القطب الأوحد والاتساع فى الأخذ بنظم الاقتصاد الحر فى مجالات الإعلام والثقافة والمعرفة . ومن هذا المنطلق يجب النظر إلى عملية الاتصال الجماهيرى نظرة مختلفة من حيث أهدافها ووظائفها وآليات تأثيرها فى كل من الدول المتقدمة فى الصناعة والتكنولوجيا والدول النامية والآخذة فى النمو . ففى الديمقراطيات الأوروبية للدول الصناعية الكبرى ذات السيادة الاقتصادية السياسية والثقافية يوجد الشق الأول والأساسى فى المضمون الإعلامى وهو الشق المعرفى فى تلك الدول ليكون أحد المقومات الأساسية فى تدعيم ثقافة وفكر الأمة ولتوجيه وإرشاد الفرد إلى الموضوعات والعناصر

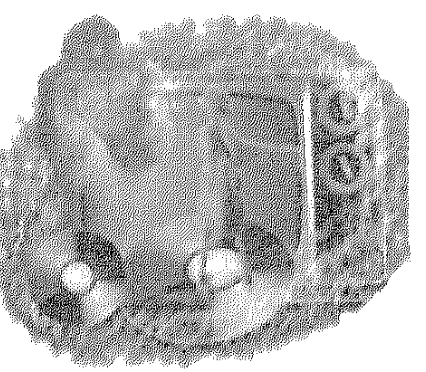


ذات الأهمية من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية بشفافية وموضوعية ووضوح . أما الشق الثانى وهو المضمون الإعلانى والذى يخدم بالضرورة الأهداف الاقتصادية والسياسية فى تلك الدول فيضع فى اعتباره ما يمكن أن يقدمه هذا الشق من توجهات لتدعيم أفكار وسياسات واستراتيجيات قصيرة وطويلة المدى ليس فقط لخدمة المشروعات الاقتصادية فى مجالات الصناعات الثقيلة ولكن أيضا فى مجالات صناعة المعرفة والاستهلاك والمجالات الترفيهية المختلفة .. أى أن الإعلان كشق ثان للمضمون الإعلامى يحتل دورا ومكانة كبيرة فى تلك الدول الصناعية المتقدمة نظرا لغزارة إنتاجها الثقافى والمعرفى والصناعى والاستهلاكى .. فيوجه رسائله من خلال المؤسسات الكبرى للإعلان ، وهى مؤسسات تجارية بالدرجة الأولى ، وترتبط فى أغلب الأحيان بمراكز البحوث ، فيوجه وفق استراتيجية وخطة متفق عليها تسير فى اتجاه يخدم اقتصاديات الدولة وتوجهاتها السياسية والثقافية وصورتها داخل الدولة وخارجها ، مراعيا بالضرورة بالدرجة الأولى المصلحة العامة للفرد والمجتمع ، فأصبحت العملية الإعلامية بشقيها الإرشادى والإعلانى تلعب دورا كبيرا فى مجالات متعددة .

ثانيا : والمشكلة فى مجتمعاتنا العربية ؛ أن الإعلان أصبح بجميع صوره هو الشق المهم والمهيمن على العملية الإعلامية ؛ فأصبحنا لا نهتم إلا فى أضيق الحدود بالمضمون الثقافى والفكرى والتربوى كشق أول وأساسى بصفة عامة؛ ونهمل فى إنتاج المضمون الجيد المدقق الذى يستطيع وحده أن يعزز صورتنا أمام أنفسنا ويعيد لنا الثقة فى ثقافتنا وتراثنا وقيمنا التى نريد تأكيدها . فأصبح الإعلان يحتل مكانة مهمة فى عملية الإعلام بمفهومها الواسع ؛ فأدرج فى أحيان كثيرة فى المضمون الذى يتصل مباشرة بفكر وثقافة وقيم الأمة

غياب الاستراتيجية العربية

ونظرا لغياب استراتيجية واضحة لتوجيه وتنمية الفكر والثقافة العربية يحاول الإعلان بما يمتلكه من سلطات مادية واقتصادية وهيمنة فى مجالات التمويل والإنتاج الإعلامى وأيضا الثقافى والمعرفى ، ملء الدور الرائد الذى كان يجب أن تقوم به وسائل الثقافة والفكر العربى لمضاعفة قدرات الفرد على الخلق والابتكار والمشاركة البناءة لتقديم الحلول والإجابات على التساؤلات العديدة التى يمكن طرحها فى شتى المجالات ، التى ترتبط بفكر المجتمع وقضاياه المتعددة . ويؤدى كل ذلك إلى تحقيق نوع من عدم التوازن الفكرى والاجتماعى . وإذا أضفنا إلى كل ذلك مضمون الإعلان الغربى والدعاية عن طريق البرامج



والمعلومات العربية العديدة والتى تبث عبر قنوات التليفزيون الفضائية العربية بل والقنوات الرسمية من خلال الدراما الأجنبية أيضا ، أصبح الإعلان فى صوره المباشرة وغير المباشرة يلعب الدور المهم فى تغيير مسارات فكر وثقافة الأمة فى اتجاهات غير مرغوب فيها ، نظرا لهيمنة مؤسسات الإعلان كمؤسسات تجارية تقوم على مبدأ الربح المادى ، وسيطرة هذه المؤسسات على جوانب متعددة وعلى تمويل البرامج المتعددة ، التسجيلية منها والدرامية بل تمتلك القنوات خاصة الفضائية ببرامجها المختلفة بالكامل .

فإذا كان المضمون الإعلامى وتعدد أنماطه المختلفة فى الدول المتقدمة فى الغرب ، إزدهر وتطور من خلال التقدم المذهل فى العلوم والصناعات منذ بدايات القرن العشرين خاصة فى علوم وفنون عرضه وكيفية توظيفه للتأثير والإقناع ، وأجاد فى كيفية توظيفه نظرا لتحسين أوضاع الفرد والجماعة الاقتصادية ، وقدرتها الشرائية الاستهلاكية وتزايد اهتمامات الأفراد نتيجة للتطور الصناعى وازدياد المستوى الثقافى والمادى فى تلك الدول . فالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية تختلف تماما فى دول العالم العربى . ومن هذا المنطلق يمكن التأكيد على أن دور الإعلان أصبح متزايدا فى الإعلام العربى ، عن طريق آليات الإنتاج التى تؤثر فى مضمون البرامج الإعلامية خاصة المضمون التليفزيونى القومى والفضائى الدولى من خلال ألوانه الزاهية والتى لا تحمل فى باطنها فكر المجتمع وثقافته . فأصبحت الثقافة العربية السياسية والاجتماعية والفكرية تعانى من ثغرات ومعوقات لدورها فى تنمية الفكر والمعرفة.

ولعل الأسباب كثيرة ومتنوعة وفى مقدمتها سياسة الانفتاح الاقتصادى فى معظم الدول العربية ، وعدم ترشيده وتوسيع الروابط الاقتصادية بالسوق الرأسمالى العالمى ؛ والتى شملت قطاع الإعلان والثقافة ، فأصبح لسياسة الإعلان الدور الرائد فى توجيه مسارات فكرية وثقافية متعددة قد تسئ إلى فكر الأمة وأمنها الثقافى ، خاصة من خلال عمليات التمويل للبرامج التليفزيونية الرسمية والفضائية ، والتى لا تقدم سوى فقرات بسيطة لا تعالج فكر وثقافة وقضايا المجتمع ، بدلا من تلك البرامج القادرة على توجيه وإرشاد فئات الجمهور الأكثر احتياجا للتوجيه والإرشاد خاصة فى تلك الفترات العصيبة التى تمر بها الأمة العربية .

لغة الإعلان

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى

هذا الكم من البرامج الدرامية والمسلسلات والأفلام والأغانى العربية المصورة (الفيديو كليب) ، والتى تعرض أشكالا للحياة الاجتماعية ونمط حياة يختلف شكلا وموضوعا عن عادات وتقاليد ونمط الحياة الاجتماعية العربية. فهو نمط مشوه يقترب كثيرا من نمط وأسلوب الحياة الغربية للدول المتقدمة فى العلوم والتكنولوچيا والثقافة والتى لم تصل إلى هذا المستوى إلا بالعمل والإنتاج والابتكار والتجويد المستمر .. هذا النمط أصبح المؤثر فى حياة الأفراد والجماعات فى دول العالم النامى والعربى التى تسعى إلى التقليد والانقياد غير الواعى إليه . وصاحب هذا التشويه استهانة باللغة الإعلامية العربية لتتلائم الألفاظ مع تركيبات لغوية مشوهة مغلوطة حتى يصبح الإعلان أكثر جاذبية ، فتدخلت ألفاظ لغوية جديدة فى مجالات اللغة الدارجة فى حياة الأفراد والحديث اليومى ، ضاعفت من قضايانا الثقافية والاجتماعية بل أدت إلى بعض السلوكيات اليومية كإفراز لما يشاهده جمهور التليفزيون من الشباب والأطفال خاصة فى المضمون الإعلانى من كلمات ومواقف لا تعكس سوى استهتارا بكثير من القيم والعادات والألفاظ الصحيحة .

لقد استغلت وكالات وشركات الإعلان التابعة للمشروعات الخاصة تلك الثغرة للنفاذ عن طريقها إلى عقلية المواطن والفرد والمستهلك العربى لتقديم السلع الاستهلاكية وأيضا بعض الأفكار السطحية لمزيد من الترويج من خلال إعلانات تحاكى نمط الحياة الغربية لدول متقدمة .

وتسابقت وكالات وشركات الإعلان على عرض منتجاتها فى التليفزيون المصرى والعربى الفضائى الرسمي وأصبحت العملية الإعلامية تستخدم فى تقديم مضمون يظل من أهم أهدافه إنجاح جماهيرى يسوده عمليات التفاوض فى النشاط الاقتصادى والاستثمارى مستغلة تلك المجالات المتصلة بالثقافة والفكر ؛ وذلك بتكثيف الدعاية والإعلان عن أهم ما تنتجه خاصة مصانع الدول الصناعية الكبرى فى الغرب والشرق المتقدم ؛ بل وتعزز تلك السياسات . مضامين ثقافية متصلة بالقيم والعادات والتقاليد الغربية . وكلها آليات تساعد على تدعيم ورواج سلوكيات ومواقف اجتماعية تسهل وتمهد لبعض الاتجاهات والأهداف الغربية المرتبطة بسياسات مغرضة مستقبلية من الناحية الاقتصادية والسياسية .

ثالثا : ولعل هناك جوانب أخرى تؤكد على خطورة الإعلان ومردوده الاجتماعى فى فكر الأمة العربية ، على المستوى الفردى والجماعى ، خاصة فى

عـــصـــر أصـــبـح للإعـلان التـجـارى أهـمـيـة كـبـرى ، أصبحت تتنامى مع تنامى أعداد الفضائيات العـربيـة الفـضـائيـة ، وأصبح لصناعـة الإعلان اليد العليا فى توجيـه سياسات الإعـلام والثـقـافـة والأخـبـار فى تلك الفـضـائيـات ، التى يمتلكهـا القطاع الخاص فى العديد منها بل أغلبها ، وفى مـضـمـون البـرامج الدراميـة والثـقـافيـة والإخـبـارية المخـتلفـة ، والتى قـد ترجح مصالح أفراد أو حكومات أو قد تستغل للترويج لأفكار فى أغلب الأحوال ، أفكار تدعم فى المقـام الأول الجـانب المادى الاستهلاكى .

ثقافة هابطة

ومن هنا يعزز الإعلان داخل مضمون الثـقافـة الجـمـاهيـرية العـربيـة ألوانا من الثـقافـة الهـابطة للكلمة والحـركـة ، طالما يجـد فـيـهـمـا سـهـولة فى النطق غـيـر مكترث بمنطقية التناول ، ضاربا بعرض الحـائط صـحـة الألفاظ طالما كـان هناك انسـجـام وتوافق لفظى، غـيـر مكتـرث بالمفـاهيم الجـانبـيـة التى قـد تولدها إيحـاءات الكلمـة والحـركـة والإيماءات وألوان من الرقص المخل والموسـيـقى الهـابطة . متـخـذا من النمـوذج الغـربى الهـابط وليس الجـيـد ، فى إنتـاج هذه الصـناعة منطلقا للتقليد وهدفا ومـثلا أعلى ، مع عـدم التـعـمق فى النظر إلى تأثيـراته الجـانبـيـة على العـقل والفكر العربى ، فأصبحت تؤثر تأثيرا كبيرا فى طريقـة المعالجـة ، خـاصـة فى مـضـمـون الفيلم السينمائى والمسلسـل التليفزيوني ، فتنتقل وتنتشر من تلك الأشكال الثقافية الهـشـة إلى السلوك الفردى والجـمـاعى خـاصـة الشـبـابى . كل ذلك سـيكون له تأثيـره فـى المسـتـقـبـل على هوية الأمـة العـربية ، ذلك إذا مـا استـمر فى تطبـيق تلك الآليـات التى لا تأخـذ فى الاعـتـبـار سوى أهداف مادية توجه لمزيد من الربح وتسويق لأفكار استـهلاكيـة على حـسـاب القيم والعادات والتقـاليد واللغة السليمة ، والتى تحـتـاج منا جميعا إلى وقفة متأنية للحد من تأثيرها المعاكس تماما للأهداف الثـقافيـة للأمة العـربيـة والتى كـان يجب تدعيمها من خلال وسائل إعلامنا وثقافتنا

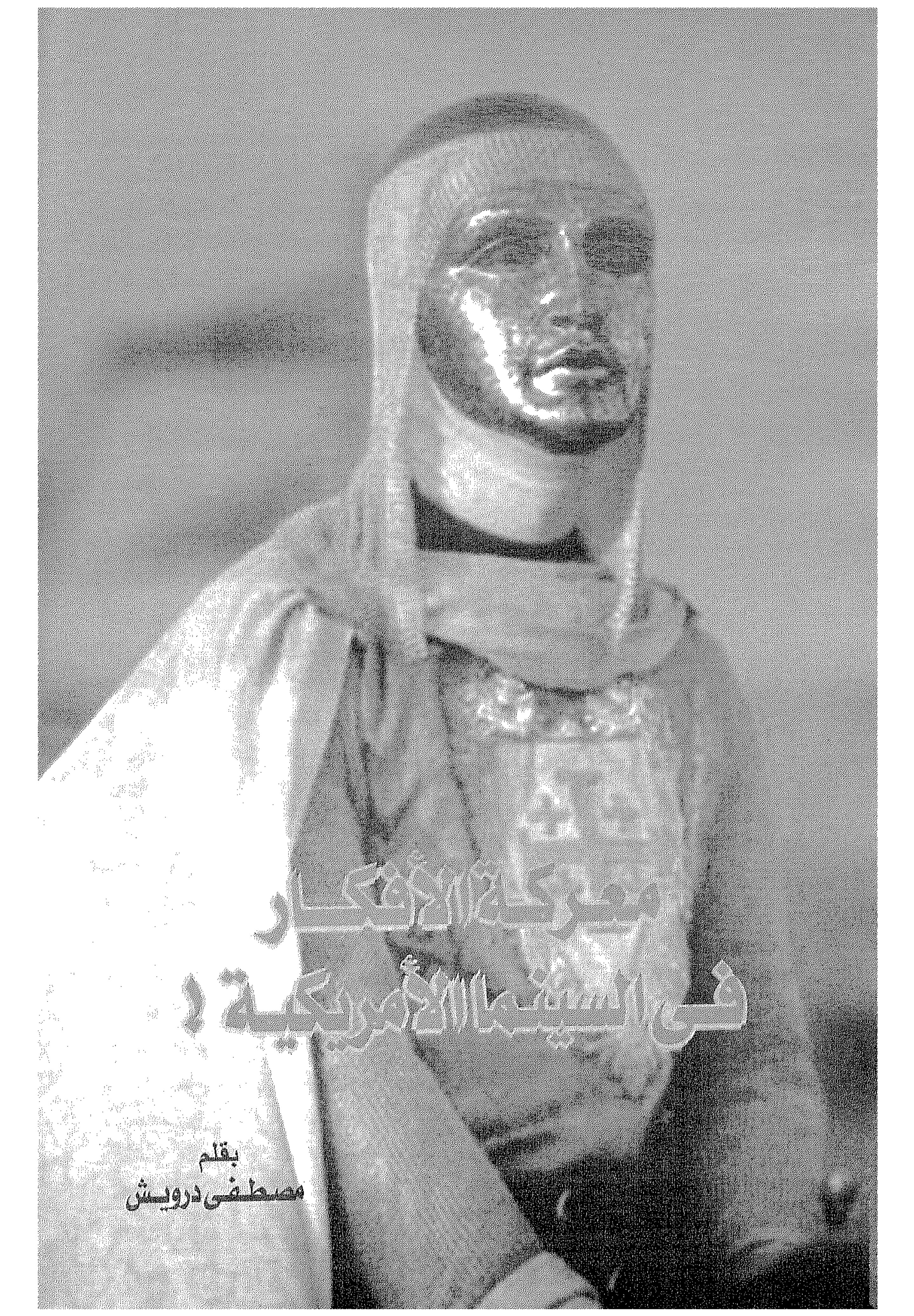
الإصلاح بديلا للحرب

وتتفاقم المشكلة ويزداد تأثير الإعلان السلبى نظرا لغياب استراتيجية واضحة لتوجيه وتنمية الفكر والثقافة العربية عن طريق إظهار ما للثقافة والفكر العربى من أدوار رائدة يمكنها مضاعفة قدرات الفرد على الخـلق والابتكار والمشاركة البناءة، ولتـــقـــديم الحلول والاجـــابـات على التسـاؤلات العديدة التى يمكن طرحـهـا فى شـتـى المجـالات ، التى ترتبط بفكر المجـتـمع وقـضـايـاه المتـعـددة . والتى



ستؤدى بالضرورة إلى تحقيق نوع من التوازن الفكرى والاجتماعى ، بدلا من أن تترك الساحة لوسائل الفكر والثقافة الغربية لتؤكد على أفكار وأطروحات مغرضة لتحقيق وتأكيد أهداف طويلة وقصيرة المدى عن طريق توظيف اللغة الإعلامية والإعلانية الدعائية تعمل من خلال بث المعلومات على تدعيم هذه الاتجاهات بمنطق مدروس ، ولتعزيزه على مسمع ومرأى من الشعوب العربية والإسلامية ، فتوظف بإتقان ودراسة متعمقة لتلك المضامين الإعلامية فى اتجاه مجتمعاتنا بشقيها الفكرى والإعلانى لتحقيق أهداف ومكاسب على ساحة الرأى العام الدولى ، وتعزز هذا المنطق المعكوس فى إدارة شئون العالم العربى ، وفرض مشروعات وإصلاحات مزعومة تنطلق كلها من أهداف استعمارية تؤجل بعضها وتعجل بالبعض الآخر ، خاصة مشروع إصلاح الشرق الأوسط الكبير الذى أصبح من الأهداف البديلة لسياسة الحرب المسلحة للولايات المتحدة الأمريكية ، والحرب الإعلامية والثقافية والإعلانية تجاه العالم الإسلامى ، وتوجه لهذا الغرض لإنجاحه العديد من الإمكانات المادية والبحثية فى مجال المعلومات بصفة خاصة حتى تكون موضوعية متخفية وراء آليات إعلامية وإعلانية مختلفة لإخفاء نوايا اقتصادية جديدة بعيدة المدى تحقق مزيدا من بسط الهيمنة والاستعمار غير المباشر ، ورواج أفكار لا تمت بصلة إلى المنطق والموضوعية والمفهوم الدارج ، فاستفادت القوى الاستعمارية بثورة المعلومات والمعرفة والإعلام والإعلان المغلوط الذى يغير المعانى ويموه الرأى العام العالمى والعربى بأفكار دخيلة بافتعال مواقف مسبقة ، مستفيدة من الثورة التكنولوجية الهائلة فى مجال التسليح والحروب النووية وأيضا الحروب النفسية من خلال الدعاية والإعلان .

هذا المنطلق يفرض إعادة النظر فى أهداف عملية الإعلام العربى بشقيه الفكرى والإعلانى حتى يمكن الحفاظ على تراثنا وأمننا الثقافى والعلمى ، ولغتنا العربية الإعلامية التى كانت أداة مهمة فى تفعيل عنصر المشاركة العربية وتوحيد ثقافتها على مدى أكثر من ستين عاما منذ بدايات القرن العشرين وحتى نكسة يونيو ١٩٦٧ . فعلينا أن نعمل بجدية لحوار إعلامى وإعلانى يجمع ويوحد ولا يفرق ؛ ينتقد ولا يضلل ؛ ينتقى الألفاظ والمعانى بدلا من تلك المفاهيم التى قد تدعم بدراسات وتقارير علمية مبهمة لا يكون هدفها سوى مزيد من الربح المادى على حساب تمييع المعانى بعدم إعطائها المدلول الصحيح خاصة فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والعرب . ■


مذبحة الأفكار
في السينما الأمريكية !
بقلم
مصطفى درويش

يضل الطريق إلى معرفة حقيقة مصنع الأحلام فى هوليوود كل من يجنح به الظن إلى الاعتقاد بأن ما ينتجه هذا المصنع من أفلام لا تشوبه شائبة من سياسة، وذلك لأنه لا هدف له من الانتاج سوى الترفيه، ومن حين لآخر أثارة ومضات من الفكر والخيال.

فمنصع الأحلام ، كعهدنا به، منذ نشأته الأولى قبل حوالى تسعين عاما. وهو فى خدمة سياسة البلد الحاضن له. وهذا البلد كان، ولا يزال، الولايات المتحدة الأمريكية.

وقطعا للشك باليقين، أضرب على ذلك مثلا بما حدث للمصنع وأفلامه، أثناء الحرب العالمية الثانية، وخاصة بدءا من الهجوم اليابانى الغادر على ميناء بيرل هاربر، ذلك الهجوم الذى زج بالولايات المتحدة فى أتون تلك الحرب «١٩٤٢» وحتى انتهائها «١٩٤٥» بانتصار الحلفاء.

فالثابت أن ثلث الأفلام المنتجة أثناء سنوات الحرب الثلاث، وعدده خمسمائة فيلم، كان مداره الحرب بشكل أو بآخر.

وان جميع جوائز أوسكار الرئيسية تاثرت هى الأخرى بالحرب.

«فمسز ينيفر» «١٩٤٢» وكازا بلانكا «الدار البيضاء» «١٩٤٣» وأحسن أيام حياتنا «١٩٤٦»، فازت بأوسكار أفضل فيلم ، لأن موضوعاتها تدور حول الحرب وجودا وعدما

وأثناء عامى ٤٢ و١٩٤٣ كانت معظم جوائز أوسكار الرئيسية من نصيب ذلك النوع من الأفلام.

كل ذلك اذكره بمناسبة فيلمين أمريكيين جرى عرضهما على أرض مصر، فى نفس وقت عرضهما فى الولايات المتحدة ، بل إن عرض أحدهما عندنا كان سابقا على عرضه فى الولايات المتحدة بأربعة أيام.

وقبل الكلام عن هذين الفيلمين، وهما «المترجمة» أو «مؤامرة فى الأمم المتحدة» الاسم العربى الذى أطلق عليه عند عرضه عندنا.

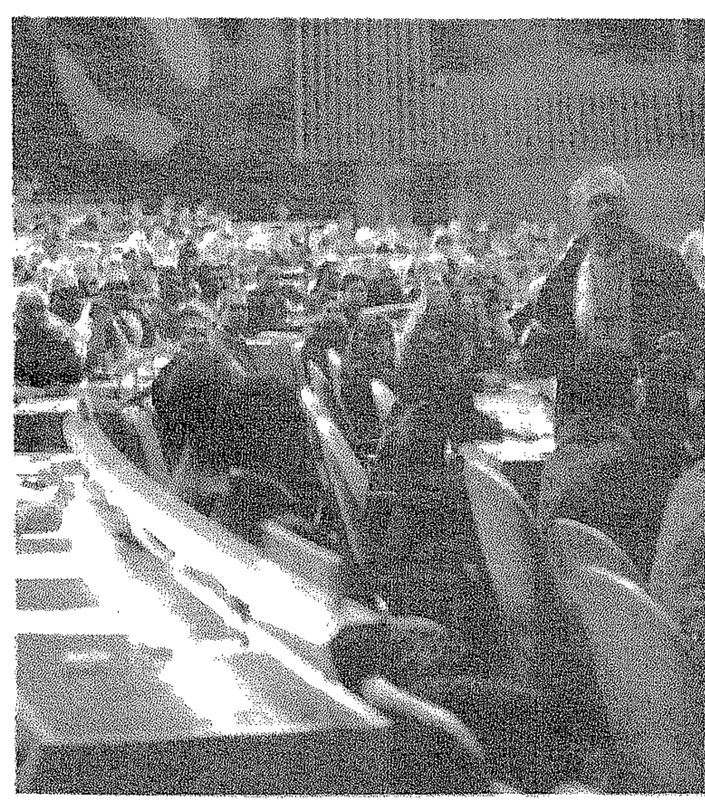
و«مملكة السماء» أو «مملكة الجنة» الاسم العربى الذى وقع عليه الاختيار.

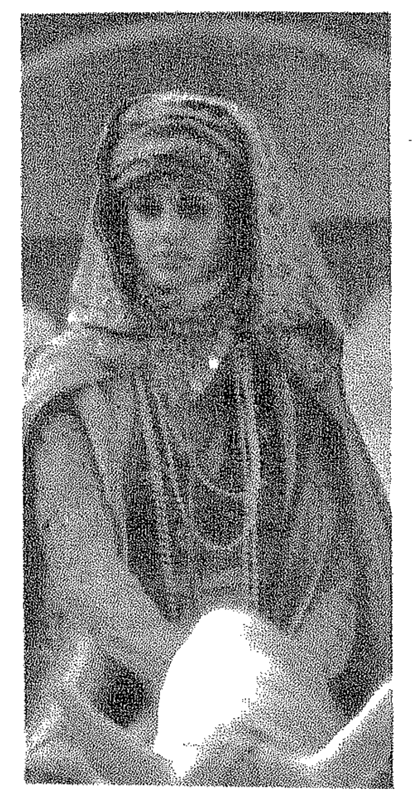
هوليوود والأمم المتحدة

ويعتبر «المترجمة» أول فيلم فى تاريخ السينما يحصل على ترخيص من أمين عام الأمم المتحدة «كوفى عنان» ومجلس الأمن، بتصوير الكثير من أحداثه داخل مبناها. بحى «مانهاتان» .

ويقال من بين ما يقال: إن من بين الأسباب التى رجحت كفة موافقة الأمين

ملك القدس وراء قناع من الفضة


الجمعية العمومية بالامم المتحدة


أخت الملك

العام، ومعه المجلس على تصوير الفيلم داخل المبنى العالمى أولا أن موضوعه يدور حول خطر الإرهاب.

وثانيا : ان بطلته النجمة الاسترالية الشقراء «نيكول كيدمان» الفائزة ، قبل عامين ، بجائزة أوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن تقمصها بنجاح شخصية الأديبة الانجليزية التى انهت حياتها بالانتحار «ڤيرجينيا وولف» فى فيلم «الساعات» وهى ليست وحدها الفائزة بتلك الجائزة ، فنجم الفيلم «شين بن» الذى شاركها بطولته، ومخرجه «سيدنى بولاك» ، كلاهما سبق له، هو الآخر، الفوز بأوسكار. الأول، قبل عام، وذلك عن آدائه فى فيلم «النهر الغامض» ، لصاحبه «كلينت ايستوود» الفائز، قبل بضعة أشهر ، بأوسكار أفضل مخرج عن «فتاة بمليون دولار».

والثانى ، أى «بولاك» عن إخراجه ، قبل عشرين عاما. فيلم «الخروج من أفريقيا».

كشف المستور

وفضلا عن عبء قيامه بإخراج «المترجمة» فقد أسند لنفسه دور رئيس ضابط المباحث الاتحادية «توبين كيللر» - ويؤدى دوره «شين بن»، الملكف بجمع التحريات عن «سيلڤيا بروم» - وتؤدى دورها «كيدمان» - ومقدار الصدق فيما ابلغت به السلطات من انها قبل مغادرتها مبنى الأمم المتحدة، سمعت صدفة. بضع كلمات من حديث هامس ، مداره الإعداد لجريمة اغتيال رئيس جمهورية «ماتوبو» الافريقية، أثناء قيامه بإلقاء خطاب فى مبنى الأمم المتحدة



نيكول كيدمان تهرب من الموت

أمام وفود الدول الأعضاء بغرض تبرئة نفسه من اتهامات، لو ثبتت فى حقه، لاوجبت احالته للمحاكمة دوليا، وذلك لمعاقبته عما ارتكب فى حق شعبه من جرائم يشيب من هولها الولدان.

ورغم ان الفيلم تدور أحداثه حول مؤامرة اغتيال رئيس بلد افريقى يسوم شعبه سوء العذاب، فذلك البلد واسمه «ماتوبو»، ولغة شعبه التى تتردد على لسان «سيلفيا» فى بعض اللقطات، واسمها «كو» كلاهما ليس له وجود واقعى، كلاهما، والحق يقال، من صنع الخيال.

عرب أم أفارقة

وفضلا عن ذلك، فالأحداث التى جرت على أرض القارة السوداء، أقل من القليل، لم تستغرق من الوقت السينمائى سوى دقائق معدودات، كلها سابقة على ظهور العناوين.

وفيما عداها، فالفيلم بكامله تدور أحداثه فى مدينة نيويورك، حيث تحاك خيوط مؤامرة اغتيال «ادموند زوانى» رئيس «ماتوبو»، تلك الجمهورية الصورية التى من صنع الخيال.

وفى البداية، كانت النية متجهة نحو رسم شخصية الرئيس الديكتاتور المهدد بالاغتيال، بحيث يكون رئيسا عربيا، يجمع بين الاستبداد والفساد.

إيثار السلامة

الا ان اصحاب الفيلم آثروا السلامة، فى نهاية المطاف، فاستبدلوا بالرئيس العربى، رئيسا افريقيا.

ورسموا شخصيته على نحو تبدو معه قريبة الشبه من «موجابى» رئيس



الفارس باليان

جمهورية زيمبابوى ، الذى بدأ حياته السياسية مناضلا من أجل تحرير الشعب من نير الاستعمار، غير أنه ما ان تولى الرئاسة، حتى انقلب وحشا كاسرا يحكم بالحديد والنار.

وكالمعتاد فى هذا النوع من الأفلام حرص مخرج «المترجمة»، على النهاية السعيدة.

فالمباحث الاتحادية تلحق هزيمة ساحقة بالإرهاب عندما تكشف للملأ أن المتآمر الرئيسى هو الرئيس الافريقى، وهدفه من التآمر اكتساب عطف الشعوب ، وبالتالى التخلص من وصمة عار الاستبداد وهكذا، فالقدر المتيقن ان الفيلم انما يخدم سياسة الولايات المتحدة فى توجهاتها الجديدة.

هذا عن «المترجمة» ، أما «مملكة السماء» فله شأن آخر فى هذه التوجهات.

لماذا .. الآن؟

بداية ، هو أول فيلم مصرى عن الحروب الصليبية يجرى عرضه على أرض مصر، منذ سبعين عاما، اى منذ فيلم «الصليبيون» «١٩٣٥» لصاحبه «سيسيل . ب . دى ميل» المخرج الأمريكى ذائع الصيت.

ووقتها مرّ عرض فيلم «دى ميل» فى مشارق الأرض ومغاربها مر الكرام، دون ان يثير ضجة من اى نوع كان.

ومثل هذا التوفيق لم يصادف فيلم «مملكة السماء» فلم يختلف حاملو القلم والفكر مثلما اختلفوا فى شأنه وذلك رغم أن صاحبه «ريدلى سكوت» مخرج «المصارع» الفائز قبل خمسة اعوام بجائزة أوسكار أفضل فيلم، فضلا عن ست جوائز أوسكار أخرى.

فالبعض قال قدحا فى الفيلم ان اختيار الممثل الناشىء «اورلاند بلوم» لاداء دور «باليان» الفارس النبيل، وهو الدور الرئيسى الذى تدور حوله معظم الأحداث، اختيار خانه التوفيق.

كما ان السرد للأحداث التاريخية جاء مشوبا بالتلفيق فضلا عن ان مشاهد المعارك، وما أكثرها، لا تعدو ان تكون تكرارا لمشاهد رأينا مثلها، وبشكل أفضل فى ثلاثية سيد الخواتم الفائز قبل اكثر من عام ، بالعديد من جوائز أوسكار.

كما ان مشاهد الغرام بين الفارس «باليان شقيقة ملك القدس «سيبيللا» ، وتؤدى دورها «ايفاجرين» افتقدت اى سحر جديد.

والبعض الآخر صعد به، هو ومخرجه إلى أعلى عليين. مقيما حماسه الشديد، على أساس خلوه من روح التعصب البغيض ضد الإسلام، ودعوته الحارة إلى التسامح والمحبة والسلام.

انتصار الغلاة

وعلى كل. فالمقصود بمملكة السماء فى الفيلم مملكة القدس وما حولها تحت حكم الصليبيين، أثناء القرن الثانى عشر. وقبل الحملة الصليبية الثالثة، بقليل.

ففى ذلك الزمن الموغل فى القدم، وجيش صلاح الدين الأيوبى - ويؤدى دوره الممثل السورى «غسان مسعود» يدق أبواب القدس محررا. يشتد الصراع داخل المعسكرين المتقاتلين إلى درجة الغليان.

فغلاه الغزاة الصليبيين، وغلاة المسلمين يسعون جاهدين إلى التخلص من الهدنة الهشة المتفق عليها بين الملك «بالدوين الرابع» المصاب بالجزام - ويتقمص شخصيته النجم الأمريكى «ادوارد نورتون» الذى اخفى وجهه، طوال الفيلم، وراء قناع فضى -والقائد صلاح الدين.

فى حين ان انصار الأبقاء على تلك الهدنة، يسعون من جانبهم إلى الحفاظ عليها، حقنا للدماء.

غير أن سعيهم ينتهى، بسبب مؤامرات غلاة الصليبيين، بفشل ذريع.

فيزحف جيش «صلاح الدين» نحو مدينة «القدس» ما هى إلا ايام حتى يحكم عليها الحصار.

وبعد معارك طاحنة تحت اسوار المدينة بين المدافعين عنها ببسالة تحت قيادة «باليان» الفارس المغوار، وجيش صلاح الدين الجرار، يدخل المسلمون القدس منتصرين محررين.

ويخرج منها الصليبيون - نساء واطفالا ورجالا، سالمين، وذلك بعد ان اعطاهم «صلاح الدين» الامان.

ويعود «باليان» إلى وطنه فرنسا، وقد عاهد النفس، بعد ان اقتنع بعدم جدوى الحرب، على ان يكون رجل سلام.

براعة المعارك

يبقى لى أن أقول اولا ان مشاهد الفرسان وهم على ظهور الجياد يتبارزون، ومشاهد المعارك، لاسيما ما كان منها متصلا بحصار القدس قد تبدت منها براعة «سكوت» فى تصوير الحشود، وهى تتقاتل، ودماء المحاربين تتناثر على الشاشة. حبات صغيرة، تعطى الاحساس بهول المعارك، وبشاعة الاحداث.

ثانيا أن «اورلاندو بلوم» عكس ما قيل عنه كان رائعا فى دوره كحداد فى فرنسا، ماتت زوجته منتحرة، وكفارس لا يشق له غبار فى مملكة السما.

ولقد ساعدته ملامح وجهه البريئة، على اداء دور الإنسانى الذى يعانى أزمة ضمير، ومن ثم يبحث عن عالم مثالى ملؤه المحبة والوئام.

ثالثا : أن الفيلم فيه من التلفيق الشيء الكثير، كما انه يتفق مع السياسة الامريكية الحالية، الداعية إلى مصالحة تاريخية بين الأديان السماوية الثلاث عل أرض إسرائيل، وما تبقى من أرض فلسطين. ■



قصة قصيرة

تخشيبة الحب

بقلم

محمد السيد سالم

حياةً شتا، ميمى سحاب، حمادة عقرب، سناء أبو غالى، محمود الملط، أحمد لسان العصفور.

مجموعة من هواة الفن المسرحى.. رفضهم معهد التمثيل فاتجهوا للشارع وانضموا إلى فرق مراكز الشباب لتعويض طريقهم المسدود إلى معهد التمثيل، وكسر صخرة اليأس التى تعوق حتى مجرد التمنى فى الظهور على خشبة المسرح، أى مسرح حتى لوكان على قارعة الطريق..

وفى مركز الشباب يكتشف الشباب أن المسرح فى مراكز الشباب مجرد سد خانة، روتين سنوى لابد أن يقام على كواهل صياع الحى لنهب ميزانيته بعد حضور المسئولين الحفلة الوحيدة وجماهير تم سحبها من على المقاهى ومن على النواصى.. وتنتهى الليلة.. ليتلقى مسئولو الشباب التحية والتصفيق ويعود كل ممثل إلى بيته وقد أحس ببعض الامتلاء الفنى.. وترفض الشلة هذا الاستغلال الرخيص لطاقتهم الفنية ووقتهم وجهدهم ويقومون بالانفصال من المسرح الشبابى..

وبالطبع يجدون أنفسهم فى الشارع، على الأرصفة وفى الحدائق وعند هضبة الأهرام يفكرون فى مسرح بديل.. فى اشباع فنى آخر غير هذا الاستغلال المسرحى

في مراكز الشباب.. يفكرون في نص جديد.. في قالب مسرحي مبتكر في جمهور يعرف كيف يكون التذوق والاحساس.. يحلمون بالتليفزيون يصور كل فصول المسرحية.. جماهير غفيرة تصفق، بصحافة تقول وتزيد وتعيد مقالات وربيورتاجات وأخبار بالصور الملونة.. وفي مساحات ظاهرة..

وخلال هذه الأماني الوليدة يتحدثون عن حياتهم.. عن الحياة التي تضيق بهم ولا تمنحهم لقمتهم إلا بصعوبة وتستهين بكل شيء أخر في حياتهم الصعبة، البائسة.

(حياة شتا) تحكي عن جمالها الذي ظلمها بسبب تكالب الذئاب عليه.. دون النظر للانسانة التي تحمل هذا الجمال.. وتحكي عن أسرتها الفقيرة التي أوصلتها لدبلوم التجارة الذي لا يزيد عن شهادة محو الأمية فقط لا غير.. وكغيرها بدأت حياة تشترى الجريدة اليومية لا لتعرف أخبار الفنانين وسياسة الأسعار بل لتتصفح الوظائف الخالية كبائعة في محل أو صانعة في ورشة أو عاملة في عيادة طبيب تمسح البلاط وتقبض أثمان الفيزيته وتستقبل الزبائن وتدخلهم إليه بالدور.. ورغم الثراء الشديد للطبيب وشهرته الواسعة ينظر دوما إلى صدرها الناهد وإلى يدها كمحاولة للوصول إلى أرقام البقشيش التي وصلتها.. كان هذا يحدث أيام كان أهل الحارة يندهشون وهي تدخل الحارة وفي يدها جريدة..

.. وللحاجة قبلت ما كان يجرى عند البيع في المحلات، من سخافة بعض الزبائن وتسلل يد صاحب الدكان إلى مؤخرتها.. بشكل يبدو كأنه غير متعمد، كانت دائما تضطر للتغاضي عنه..

وتغير الحال.. وأصبحت العمالة بعد أن تكدست وازدحمت تتعرض للنهب والسحق شبه العلني.. والعقد دائما شريعة المتعاقدين.. فالمسألة تبدأ بإعلان صغير، سطرين ليس إلا (مطلوب عاملة دبلوم يشترط الأناقة والجمال). وتسرع إلى العنوان وهو في العادة يقع وسط البلد فتجد زحاما من فتيات لبسن الذي على حبالهن وحبال غيرهن من الشقيقات والصاحبات والجارات في سبيل أن (تعدى) في هذا العمل الذي يشترط (الأناقة والجمال) ويبدأ قيد الأسماء واستلام الشهادات الأصلية المعتمدة، الفيش والتشبيه والبطاقة الشخصية.. ثم يبدأ امتحان القبول.. وبالطبع تنجح كالعادة حياة شتا للباقتها وجمالها ورقة هندامها.. وتقيد في العمالة المطلوبة فورا التي لا تزيد عن فتاتين ليس إلا وتقيد فتاتين (تحت الاحتياط) ويتبعثر الزحام في شوارع نص البلد وهو يعض الندم.. وعلى الفور تدخل الفتاتين (مفرمة) العمل ولا فرق بين البيع ومسح البلاط والعمل في الخزينة والتسجيل في السجلات واستلام البضاعة ورصها..

وفي البداية تخجل من الحديث عن الأجر.. ولكن حين تطول المدة ويزداد الارهاق يبدأ الهمس (كم يساوى هذا العذاب اليومي عند نهاية الشهر) ولا تتلقى أي إجابة من العاملات القدامى

فجميعهن يبدون كتماثيل شمعية خرساء.. وعندما يقترب الشهر من نهايته يسألن عن الأجر الشهرى.. ويكتشفن أنه لا يساوى أجر يوم.. فيسرعن بالفرار ولكن كيف وشهادة الدبلوم الأصلية والبطاقة الشخصية والفيش والتشبيه، مودعة جميعها فى الخزانة ولا يمكن إخراجها قبل مرور ثلاث أشهر كما طلبت إدارة التأمينات كما يزعم صاحب المحل.. ويبدأ تسول حقهن فى استعادة أوراقهن وينسين فى هذا الصراع المطالبة بحقهن فى الأجر الهزيل وما يكدن بعد أسبوع أو أكثر يتسلمن أوراقهن حتى يسرعن بالفرار حتى يبدأ صاحب العمل فى استدعاء البنتين الاحتياط حتى لا يتكلف إعلانا جديدا.. وتتكرر التمثيلية بنفس السيناريو والحوار..

.. تبكى حياة شتا على ما بذلته من جهود فى بلاط دكاكين وسط البلد.. وتتذكر يوم صحبتها صديقة لها إلى إحدى مراكز الشباب لتشاهد مسرحية تعمل فيها.. وتبهرها المسألة.. ومن يومها وهى تقرأ فى المسرح وتقلد الممثلات وتبحث عن أخبار النجوم.. صار المسرح الشئ الوحيد الذى تعشقه فى هذه الدنيا رغم أنها لم تكسب يوما قرشا واحدا من وراء هذا المسرح.

لهذا حين صارت جزءا من سبوبة المسرح فى مركز الشباب انسحبت مع الشباب لفرصة جديدة ولو فى قارعة الطريق العام.

(ميمى سحاب) بكالوريوس خدمة اجتماعية لا يعرف حتى اليوم كيف حصل عليه وماذا يعنى. شاب ناعم.. بشرة ملساء، أصابع بيضاء، يد نظيفة، شعر هفهاف أفكار لينة كالوسادة الوثيرة، حياة ناعمة، سيارة رياضية تملك الهاى فاى بأعلى صوت.. ثراؤه مصدره مقاولات والده.. لهذا لا يرى فى الحياة إلا الجانب الملون مصطلحات الفقر لا يعرفها، لم يكابدها.. النساء يتساقطن عليه كذباب وصل إلى بقعة عسل.. لا يعانى كغالبية الشباب مشكلة الجنس.. فهو متوفر فى سكرتارية والده واغراء سيارته وحشو جيبه.. انضم للفرقة المسرحية لا لموهبته الفنية ولكن لمواهبه المالية.. لهذا نفخوا فيه نارا من هواء النفاق وصار مصدرا ماليا لازما لأيام الجوع حين يأتى للفرقة المسرحية بسندوتشات الفول والطعمية والباذنجان المخلل وعلب السجاير الرخيصة. وأكواكب الشاى.. دون أن يعطوه من الأدوار المسرحية إلا أنعم الأدوار وأقلها تعبيرا وجهدا.. ولكن النفاق يغطى النقص، ويعوض الموهبة المفقودة.

(حمادة عقرب) دبلوم صنايع يسكن هو وأمه واخته الشابة فى شقة لا تزيد عن حجرة وصالة.. مات الأب. وترك المهمة على كاهل أم فقيرة، جاهلة فنشأ الولد والبنت يعتمدان على الجيران وأهل الحى والشارع.. البنت حصلت على الإعدادية بعد عامين.. الابن يعمل صنايعيا.. وحين يكبر سن الفتى والفتاة ويكاد قطار الزواج أن يفوتهما.. تزوجهما الأم من ابن وبنت أختها وتصنع سريرا بدورين فى

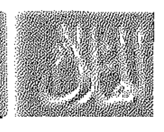
الحجرة الوحيدة فى السرير الأسفل الابن وابنة خالته، وفى السرير المرتفع الأبنة وابن خالتها.. ويكتشف حمادة عقرب فى ليلة الزفاف أنه عاجز جنسيا يكتشف فيما بعد أنه مصاب بالسكر.. وكل ليلة تحدث مأساة فى الحجرة فالسرير الأسفل ساكن كقبر.. والسريرالأعلى كأن الزلزال يصيبه كل ليلة وكان لابد لحمادة من أن ينضم للفرقة المسرحية للظهور بمظهرالفنان الأول كشىء تعويضى يخفف عنه مأساة الليل الحزين .. ومع الوقت يبدع فى الأدوار المأسوية ويصير فى الفرقة اللون المخالف والمضاد للون ميمى سحاب.

(سناء أبو غالى) بكالوريوس تجارة.. مثقفة ولكنها غير جميلة.. لهذا ارتكزت أحلامها على عقلها أكثر من قلبها .. ووجدت فى طريق المسرح ما يسمح بمرور جمال عقلها.. أكثر من انتقال قلبها.. إنها تمثل الأدوار الجادة وتحاول أن تكتب لتعبر عن مأساة فقد الجمال عند المرأة، وعدم الاعتماد على قيمة العقل لديها.. ومع هذا تحاول أن تبدو خفيفة الدم، منطلقة فى حوارها خاصة وهى تحكى عن تعثرها فى الحصول على عمل بسبب ذكائها المفرط وجمالها الشحيح.. وقد حاولت كثيرا أن تبدو عكس ذلك حتى يمر تعيينها ولكنها فشلت لضآلة جمالها.. وهى تؤمن أن المسرح لا يعتمد على الجمال.. بل يمكن للقبح الواعى على خشبته أن يقوم بدور هام ومؤثر.. لهذا هى تحاول تحقيق هذه المعادلة دون أن تترك نفسها تتعرض لأى فرص حب لن تكتمل.. لهذا تعتبرها الفرقة المتشردة عقلها المستنير وخطتها إلى النجاح اليائس..

(محمود الملط). ثورى فى مجتمع يسير طابورا يزحف بجانب الحائط للوصول إلى منفذ العيش البلدى الذى لا يغنى ولا يسمن من جوع.. لهذا فهو يتكلم على الغلاء والتغيير والديمقراطية والحرية وتكافؤ الفرص.. وحقوق الإنسان.. دخل السجن أكثر من مرة بسبب لسانه الطويل، وآرائه الحادة، أحيانا يتوب عن الكلام لفترة بعد خروجه ثم يعاود الصياح.. هو الذى يكتب نصوص الفرقة بشكل سريع لا يستغرق سوى ساعات.. ماكينة فى الكتابة المسرحية.. ولكنها فى الغالب محاولات فاشلة لا ترضى سناء أبو غالى التى تستخف به دائما وتبلغه أنه يبالغ فى أوراقه وفى كلامه وفى حياته.. تأتى له بمسرحيات أجنبية تعبر عن حال الناس والشباب فى الفرقة، يطلب أن يعدل فى بعض أحداثها وكلامها حتى تناسب وضعنا الشرقى.. يشطب ويضيف ثم يشيطب ويضيف ثم يزيد ويعيد لتخرج فكرة المسرحية الأجنبية من نصه المعدل وتبقى فكرته الجديدة التى لا تقترب من النص المسرحى الأجنبى ولا تبتعد عن فكره المعهود، تلغى بالطبع الفكرة والكتابة والموضوع ويتم معاودة البحث عن نص جديد والنتيجة كالعادة اتهامه لها بأنها تتشدد لتتحبب.

(أحمد لسان العصفور) وصل إلى السنة النهائية فى معهد السينما.. ولكنه لم يتخرج بل فصل لعدم استطاعته القيام بتمويل مشروع





تخرجه ومحاولته تسول أى مال للقيام بهذا المشروع.. مما أوقعه فى قضية شيك بدون رصيد انتهى به إلى السجن والطريق العام.. وعاش حياته يمارس العمل السينمائى فى الحكايات والذكريات والأفلام والأفكار.. لهذا كان لابد بعد الضياع من أن يجد نفسه فى هذه الجوقة التى تبدو كدور يجاهد للخروج من تحت القشرة الأرضية. لكل هذا يتولى أحمد لسان العصفور دور المخرج الواعى الجاد.

تلك كانت الشخصيات بشكل مفصل ومركز. أما الأحداث: فتدور حول هذه الفرقة المتجولة بعد أن وجدت نصا مناسبا للأفكار والشخصيات وتمثلت المشكلة فى عملية البروفة و(الميزانية) والإخراج. ولكن الأولوية كانت للبروفة الورقية.. القراءة..

اتجه أفراد الفرقة إلى حديقة الأندلس.. وبدأوا بروفة قراءة لمسرحية تتحدث عن الحق والعدل والانسان بأصوات زلزلت المكان.. مما حدا بمسئولى الأمن بالحديقة إلى التدخل لايقاف هذا الكلام الفارغ.. فحدث أول تصادم فى الطريق العام انتهى إلى التخشيبة.. وبدأت البروفات تنعقد فى التخشيبة تحت سمع رجال الأمن وابصار المحتجزين الذين اشتركوا فى التميل فارتبك الموقف .. واهتز المأمور.. فاتصل بقياداته الأمنية التى أمرت بتوزيع هذا الجمع على أقسام القاهرة لحين عرضهم على النائب العام بتهمة التحريض على اخلال الأمن العام.. وتظهر الصحف فى اليوم التالى لتعلن عن ضبط شبكة لقلب نظام الحكم تتوارى تحت أشجار حديقة الأندلس وذلك تحت شعار القيام بعمل مسرحى رغم أن جميع أفرادها من الصياع والمومسات الذين لا صلة لهم بالفن ولا اسم لهم فى نقاباته المعروفة التى يمكن أن تؤهلهم لتحقيق مثل هذا العمل. كما أن حجتهم فى إقامة العمل المسرحى فى حديقة أمر يدعو للسخرية ويثبت تهمة التحريض وقلب نظام الحكم..

ويتفرق أفراد العصابة فى أقسام القاهرة.. وتبدأ صفحات الحوادث فى ذكر ما يحدث.. فلا جريمة فى الأمر ولا دياولو .. بل المسألة فبركة منذ البداية وفى النهاية يفرج عن الجميع بضمان بطاقاتهم الشخصية .

ويجتمعون مرة أخرى بعد أن قاموا بخوض هذه التجربة المؤلمة التى تركت أثارا مدمرة على بعضهم، وتحفزا ويقظة فى البعض الآخر.. ويتفقون على أن يقوموا ببروفات (الحركة) فى الصحراء بعد أن انتهوا من بروفة القراءة فشاركوا فى شراء كلوب وصفيحة جاز.. وفى الصحراء بدأوا البروفة على أنوار الكلوب.. وبمرور طائرة استطلاع تم اكتشاف أضواء غريبة وحركات أفراد تبدو وكأنها تدريب على مهمات تخريبية تدميرية.. وتلتهب الاتصالات وتندفع قوات مشتركة من الشرطة والقوات المسلحة لاجهاض هذه المحاولة الخطيرة وتتم محاصرة المكان من كل الجوانب بالدبابات والمدرعات والآليات والطائرات، ويتم القبض على الزمرة المجرمة متلبسة بالفعل المخالف للقانون، المؤدى إلى حبل المشنقة وفى التحقيق يقسمون بأغلظ الإيمان بأنهم كانوا

يقومون بأداء بروفة حركية للمسرحية التى ينوون تقديمها.. وحين يسألهم المحقق عن مكان تقديم المسرحية بعد انتهاء البروفات لها يصابون بالخرس فيعتبر ذلك اعترافا ضمنيا بأن المسرحية ليست أكثر من واجهة أو ستار للعمل الإجرامى..

ويرحلون إلى السجن مع التنبيه بعدم القيام بأى دور مشبوه داخل الزنازين وإلا ستتضاعف العقوبة وتتعرض حريتهم للخطر.

ومع هذا يقوم كل فرد فيهم بحفظ دوره فى المسرحية، كما يقوم المخرج بالتفكير فى الأضواء والحركة والتعديل لبعض الفقرات. فى الوقت الذى يفكر فيه المؤلف بفكرة نص جديد يقوم على هذه التجربة المريرة الفريدة التى يمر أفراد الفرقة بها..

ويتم بعد الترهيب والترغيب الإفراج عن أفراد الفرقة بعد أن تم استدعاء أهليهم لتحدث مواجهات غريبة واصطدامات بائسة.

وحين يلتقون ويجلسون على النيل وهم يرقبون الشوارع ويتوقعون كتيبة الهجوم المباغت عليهم.. يفكرون مرة جديدة فيما يمكن أن يفعلوا ليصلوا إلى هدفهم المصرين عليه دون أن يتعرضوا للمطاردة والتخشيبة والسجن.

يقترح أحدهم أن يكون مكان البروفة الجديد هناك عند حارة شق الثعبان التى ولد فيها ولم يسبق أن زارها شرطى لأنها مخنوفة فى قاع المدن ولا تلفت نظر أحد لهدوء أهلها وقناعتهم بنصيبهم من الدنيا..

وبالفعل يبدأ التنفيذ بالمرور على سكان حارة شق الثعبان واستدانة بعض الكنب البلدى والملاءات المشجرة والمخططة والسادة وفى نهاية الحارة يتم إقامة خشبة المسرح المحاطة باستار الملاءات .

وحين يحل أذان المغرب وإتمام تجهيز بعض اللمبات الكهربائية التى جعلوها تتسلط على خشبة المسرح يبدأ عرض مبدئى كبروفة كبيرة، وتغص النوافذ والأسطح والشرفات والحارة بالناس تشاهد ما يعرض من تمثيل وأغان ورقص وتنطلق الزغاريد ويدوى التصفيق. ولكن على حين غفلة تفاجأ الفرقة بمحاصرتها بقوة من شرطة المرافق وكانت التهمة الجاهزة هى سرقة التيار الكهربائى بشكل علنى وبكل بجاحة.

يساق الجميع إلى البوكس فى الوقت الذى يقوم فيه الجنود بمصادرة الكنب والستائر والمقاعد وشحنها فى سيارات إلى جهة غير معلومة.

وفى قسم الشرطة ينبرى مخرج الفرقة أحمد لسان العصفور بتحمل مسئولية ما حدث وحده دون غيره.. فيتم القبض عليه والإفراج عن الآخرين، غير أن سناء أبو غالى وقد مال قلبها بشدة نجوه لهذا الموقف الشهم تتهم نفسها هى الأخرى بارتكاب المخالفة كى لا يكون وحده فى هذه الكارثة.. ثم ما تلبث الفرقة فردا فردا فى مشاركة لسان العصفور وسناء فى تحمل مسئولية هذه الجريمة ويودع الجميع فى التخشيبة مرة أخرى..

وتتحدد كفالة، وبالطبع لا أحد يستطيع دفعها إلا ميمى سحاب لا من أجل عيون أفراد الفرقة بل من أجل الافراج عنه كما قال

والده وهو يصرخ فى وجه ابنه الذى يراه قد خسر مستقبله بمصاحبة هؤلاء الصياع الزبالة وعلى سطوح بيت أحد أفراد الفرقة يجلسون بجانب عشش الفراخ وبرج الحمام يفكرون فى حل لموضوعهم النحس الذى كثيرا ما يهزمهم و يجيبهم الأرض.

فجأة وهم فى هذا الهم اليومى يصعد إليهم رجل أنيق ليطلب منهم مقابلة مخرج الفرقة ومؤلفها وحين يسألون عن السبب يخبرهم أنه السائق الخاص لنجم المسرح المصرى واصل عبدالسلام الموجود الآن فى السيارة فى الحارة وأمام البيت ليقابلهما لأمر هام.

وينزل إليه أحمد لسان العصفور المخرج ومحمد الملط المؤلف كمندوبين عن الفرقة وأمام الباب وقد انجعص الممثل الكبير فى السيارة وفى يده سيجار بحجم قطعة سجق ليخبرهم أنه تأثر بتجربتهم، ولكنه يتعجب لشهرتهم التى أتت لهم من باب الله ويطلب أن يعرضوا عليه حكايتهم كى يضمهم لفرقته ويؤمن لهم عيشهم الذى لا يزيد عن عيش وطعمية وفول وباذنجان مخلل.

ولكنهم يرفضون هذا العرض ويودعونه طالبين منه أن يدعوا لهم فى صلاته أن ينقذهم من ظلام الطريق ومن أنفسهم ومن خطورة الذين يتعاملون معهم ويعطلون مسيرتهم .

ويمضى الممثل الكبير ليبدأ حربا شعواء على تلك العصابة التى تود اهدار حياة المسرح وخنق الفن بالأونطة . بينما هم يبحثون عن مكان لعمل بروفة نهاية المسرحية.. ليبدأوا بعد ذلك فى البحث عن مسرح لعرض المسرحية بشكل متكامل وتقفز إلى خيال المخرج فكرة مجنونة :

لماذا لم نتسلل ليلا إلى أحد المسارح الكبرى فى القاهرة، المسرح القومى مثلا أو الأوبرا للقيام بالبروفة النهائية، لنمارس المسألة فى جو طبيعى من الأضواء المتاحة والمكان المناسب ويستحسن الجميع الفكرة.. ويبدأون فى وضع خطة التسلل بحيث لا تخر المية.. بعد أن بعثوا باثنين للمراقبة وتحديد مواقع الدخول الخفية بعيدا عن أعين رجال الأمن والمارة فى الطريق .

وبالفعل يتم التسلل إلى الأوبرا خلال ظلام الليل.. وفى الداخل وبناء على وسائل التحرى والبحث يتم اضاءة المسرح وضبط الأنوار والحركة وتبدأ الفرقة فى الأداء المسرحى الدرامى الغنائى خاصة بعد أن خلا من الخوف وترقب الخطر.

ويحس أحد رجال الأمن بالأوبرا بحركة غير عادية داخل المسرح، ويزحف نحوه ليكتشف أن ثمة ضجة تهب من الداخل فيسرع بالتبليغ لتتم محاصرة منطقة الجزيرة ومنع المرور بها .. ويتم الهجوم المباغت على الفرقة وهى ترقص وتغنى وتهدر بالأقوال والحكم والمواويل ليلقوا فى التخشيبة استعدادا للعرض على النيابة بتهمة اقتحام مكان حكومى بقصد سرقته واشعال النار فيه ويتم إدخالهم للتخشيبة ويبدأو فى ترديد موال القهر. ■



رسوم فترة النقاهة !

بقلم
محيى الدين اللباد

قبل نصف قرن، رأينا صورة **حسن حاكم** للمرة الأولى فى مجلة «**التحرير**»، مع خبر عن معرض مشترك أقيم فى **أتيليه القاهرة**. كانت صورة صغيرة لوجهه: أصلع، لحيته القصيرة سوداء خشنة، وعيونه محمّرة (مع أن المجلة مطبوعة بالأسود والأبيض فقط)، وأسنانه قوية، والعبسة بين حاجبيه قاسية. كل هذا كان يجعله زعيم حركة تحرر أفريقية، أو عضو فرقة مجاريح ملتاعين من عازفي الجاز، يئنون بأنغام البلوز الحزينة حتى الفجر. وكتبت المجلة تعليقًا تحت صورة **حاكم** المعبرة: «**كرامة الفنان**». وحكى الخبر عن أن **حاكم** شارك فى المعرض، وعندما حضر الافتتاح، وجد أنّ المنظمين وضعوا أعماله المبرْوَزة على الأرض ولم يعلقوها على الحائط، فحملها وانصرف.



كان ما أخبرتنا به المجلة عن **حاكم** مثيراً يدعو إلى الإعجاب بهذا الفنان الأفريقى الرسام الشجاع وبطل حركة الاستقلال وعازف الجاز (كما اقترحنا).

ورسمت له تلك الحكاية صورة مثالية فى مخيلات الصبية الذين يقتفون أثر الفنانين العظام (مثلى حينذاك). ولم يطل بنا الوقت حتى رأينا توقيع هذا الفنان على رسوم جميلة: حديثة ومختلفة عما تعودنا عليه من قبل. رأينا تلك الرسوم فى مجلة دار الهلال المصورة «**الاثنين والدنيا**». وبعد شهور طالعنا مجموعة قصص **لمحمود السعدنى** بعنوان «**السماء السوداء**» منشورة فى كتاب فقير فى الورق والطباعة والتجليد، وغني بقصص قصيرة كانت هى الأخرى اختراقًا للسائد وقتذاك، ويضم -أيضًا- ثروة من رسوم **لحسن حاكم** أنجزت بالحبر الصينى وبريشة الرسم المعدنية النحيفة. ووضعتنا تلك الرسوم فى حالة رائعة من التوتر والاندهاش والابتهاج بالاكتشاف الجديد.

كانت شخوص تلك الرسوم مثل بعض من عرفناهم -فى الطفولة- فى حارات القاهرة القديمة الشعبية، من هؤلاء البؤساء الذين كانوا ينامون شتاءً فى دفء مواقد الفول المدمس التى تسخن ماء الحمامات الشعبية. كانوا حفاة مشعثين فى أسمال سوّدها الهباب. شعورهم ووجوههم وأكفهم وأقدامهم الحافية يغطيها السواد والتراب أسنانهم محطمة سوداء، يتحركون فى أطلال يغطيها سواد الزمن هى الأخرى وأعلاها تحلق طيور سوداء تقطع الفضاء فى همة قليلة وتحمل أحزانًا ثقيلة.

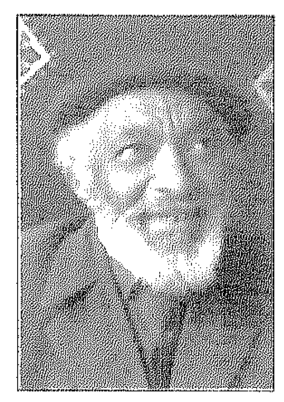
لم نكن قد رأينا من قبل كتبًا بها رسوم تحمل ذلك القدر من اللوعة والشقاء والفقر والميلودرامية والرومانسية. كانت مختلفة عن الرسوم التى صاحبت القصص وقتذاك فى مجلات دار الهلال (**هبة عنايت وجمال كامل** و**سميحة** و**فيدروف**) وأخبار اليوم (**بيكار** و**كنعان** و**فريدون**) والأهرام (**كمال الملاخ** والشيخ **عبد المجيد وافى**)، وكانت أيضًا تختلف عن رسوم **حسن فؤاد** وجماعته التى كانت كتب «**دار الفكر**» قد بدأت تعرفنا بهم.

تتبعنا مجلات دار الهلال، والمجلات التى تطبع فيها أيضًا مثل مجلة «**البوليس**» [التى كانت مجلة أدبية (!) يرأس تحريرها **سعد الدين وهبة**] لنطالع فيها رسوم **حاكم** وبعض أفراد عصابته: **مصطفى حسين** و**محمد قطب** و**على إسماعيل**. رسم **حاكم** الكاريكاتور وقليلاً من رسوم القصص والموضوعات، ومثله **على إسماعيل** الذى لم يواصل العمل فى هذه الفروع واختفى. أما **مصطفى حسين** فقد كان -حتى وقتها- رسامًا للقصص وقصائد الشعر.

صدرت جريدة «**المساء**» عام ١٩٥٦ قبل تأميم قناة السويس، وقبل العدوان الثلاثى على بلادنا. ومنذ صدرت، لفتت الجريدة الأنظار بخطها السياسى الجديد وبأدائها المهنى العصرى، وبكتابها ومحلليها وصحفييها ورساميها وتصميمها الحديث. وبعد تأميم القناة، وخلال العدوان الثلاثى ومقاومة الشعب له فى بورسعيد، لعلعت الجريدة وعلا صيتها. ولمعت فيها رسوم **حسن حاكم** الجديدة، سواء فى كاريكاتوره المتفرد الجديد على صدر صفحتها الأولى، أو فى رسومه للقصص والموضوعات. ولعل الستينيون (عمرًا) لم ينسوا بعد رسمه التاريخى فى الصفحة

الأخيرة لإحدى القصص القصيرة المصرية الذى شغل عموداً واحداً كاملاً من أعمدة الصفحة الثمانية. وفى هذه المساحة البالغة الضيق والشاهقة الارتفاع، رسم **حسن حاكم** -بحبره وريشته النحيفة- منظوراً عجيباً لعمق حارة مصرية، ببيوتها المتساندة على الضفتين، ودكاكينها وناسها وشبابيكها بصوانى القليل وبالغسيل المنشور، وبالراجلين فى الشوارع وبالباعة على عرباتهم والشاريات المناديات من الأعلى، وغير ذلك من أشكال الزحام القاهرى الحى. كان رسماً عجيباً، لفنان خفيف الدم، ماهر حسّاس يعرف القاهرة بقيعانها وأسرارها وروحها وروائحها الخاصة، ويعرف جيداً أصول المنظور وقوانينه وأفانين التلاعب بها.

كان **حاكم** قد ولد عام ١٩٢٨، فى أنشاص (محافظة الشرقية) لأب وأم سودانيين. كان الأب ضابطاً فى الحرس الملكى بقصر الملك هناك. وشب **حسن** فى


حسن حاكم

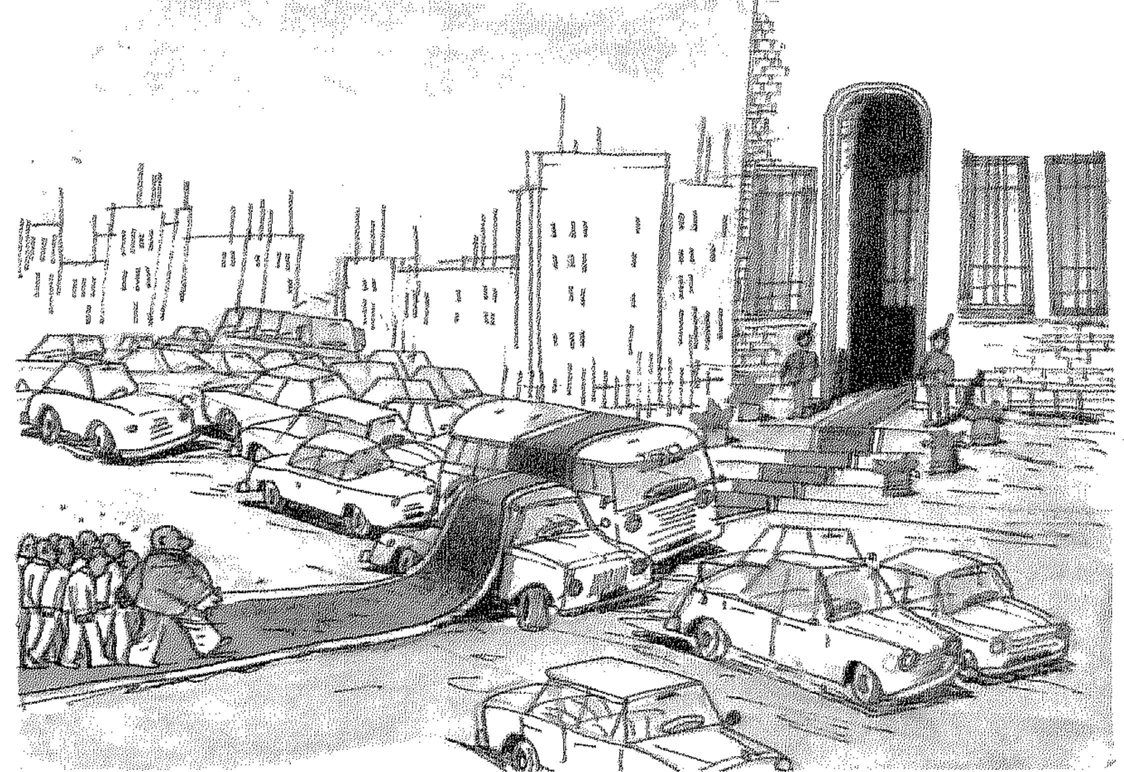
الريف حول القصر، وسط عدد من أبناء العاملين فى الخاصة الملكية، مثل: الشاعر السودانى **جيلى عبد الرحمن** والقصاص المصرى **فاروق منيب**. وخلال دراستهم الثانوية هناك، التقى هؤلاء الثلاثة ليتعرفوا على الأدب الجديد «الثورى»، وعلى أفكار العدالة الاجتماعية، ومجابهة مظالم الإقطاع وحقوق الفلاحين الضائعة.

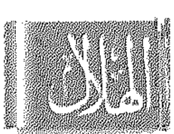
وحكى لنا **حاكم** ذات مرة، كيف وضع هؤلاء الصبية الثلاثة خطة للكمون فى طريق سيارة الملك، ومفاجأته بالهتاف ضده بصوت جهير. ونفذ الثلاثة الكمين، وربضوا فيه انتظاراً للسيارة الملكية. وعندما هلت فى أحمرها وأسودها المهيبين، استعدوا، وحين اقتربت وكان عليهم فتح أفواههم للهتاف، خانتهم حناجرهم ولم يصدر عنها سوى فحيح بائس من جراء الخوف. وأدار الثلاثة ظهورهم للطريق، وانطلقوا يبرطعون وسط الحقول المزروعة فى الاتجاه العكسى!

حانت مرحلة الدراسة فى الكليات، وانتقل **حسن حاكم** مع أسرته إلى القاهرة ليدرس فى كلية الفنون الجميلة بالزمالك، كما انتقل أيضاً صديقاه للدراسة الجامعية فى العاصمة. وأصبح بيت العائلة الكبيرة فى ضاحية عين شمس، معسكراً عامّاً تعيش فيه مع **حاكم** عصابة من زملائه الرسامين والكتاب والصحفيين والسياسيين والصعاليك. يرسمون ويقرأون ويضحكون ويأكلون



التلفون
مراقب
يابني آدم!





ويشربون ويستحمون وينامون.

تعرضت جريدة «المساء» عام ١٩٥٩ لضغوط سياسية رسمية، وتم اعتقال عدد من صحفييها وكتابها، وانكمش طاقمها.

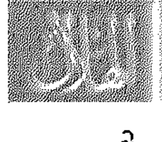
فى هذه الظروف، طلب **خالد محيى الدين** رئيس الجريدة من **مصطفى حسين** أن يتحول من رسام للقصص وللموضوعات إلى رسام كاريكاتور سياسى. وكان وقع الطلب على **مصطفى** مباغتًا وغير معقول. واصطحب **حسن حاكم** زميله فى عصابة عين شمس إلى «كازينو الجوهرة» فى حديقة الأزبكية.

وهناك، جلس معه يهدئ من روعه، ويثبت له –عمليًا وبالورقة والقلم– أن رسم الكاريكاتور «سهل» مثل شكة الدبوس. رجل مرسوم بالكاريكاتور؟ سهل جدًا: هكذا. موظف قاعد على مكتب؟ بسيطة خالص: هكذا!. مواطن يقدم طلبًا للموظف؟ يا سلام. هكذا! العم سام؟ من أسهل ما يمكن: كده!

وهكذا أقلع الرسامان الصديقان معًا، وكوّنا ثنائيًا كاريكاتوريًا. يرسمان معًا فى أسلوبين متآلفين متقاربين، ويتحركان معًا. وبخلاف الكاريكاتور السياسى ضد أمريكا ومشروع أيزنهاور لملء «الفراغ فى الشرق الأوسط»، والذى رسماه على الصفحة الأولى (حسب ماكيت **عبد السلام الشريف** المبتكر لجريدة «**المساء**») صنعًا ثنائيًا خاصًا ومبتكرًا على الصفحات الرياضية (التى كانت إحدى أهم بضاعة الجريدة المسائية). اصطنع أحدهما أنه «أهلاوى» والآخر أنه «زملكاوى»، واختلقا بينهما معركة دموية وتنافسا وتعصبًا، وأرضيا بنجاح التعصب الذى يقسم قراء الجريدة إلى فريقين متحاربين فى ميدان كرة القدم، التى تقسم أبناء البلاد إلى: «شعب واحد فى ناديين».

فى عز لمعانه ونجوميته، وفى عز كهولته وصحته ولياقته، كان **حسن حاكم** صاحب حياء بالغ حتى وهو يوزع نكاته وهذره طوال النهار: كان ينكت بالحكايات والمؤثرات والتقليد وبالرسم أيضًا. كان يرسم طوال الوقت، وعلى أى سطح، كالأطفال الحمقى النشطين. كان يرسم لأنه يعشق الرسم، ولم يكن يكرر ما يرسم. كان يتدرّب باستمرار كالعازف الڤيرتيوزو. وعندما يفيق أحيانًا من استغراقه فى الرسم، ويفاجأ بوجهك أمامه، يخبرك باكتشافاته، مثل: «هل تعرف أن الشخص الذى يلصق ظهره وعجيزته إلى الحائط لا يستطيع الانحناء إلى الأمام طالما لم يبدل موضع قدميه؟ هل تعرف لماذا؟ لأن من ينحنى لا يصنع ظهره مع ساقيه زاوية قائمة بل زاوية حادة، ولذا عليه أن يرجع بحوضه إلى الخلف، وسيمنعه الجدار من ذلك!. عرفت إزاى؟»، أو يقول لك: «هل تعرف أنك إذا أردت أن ترسم سيارة تتوقف فجأة، أن عليك أن ترسمها وقد اندفع صندوقها إلى الأمام أو إلى الخلف لكى توضح أنها تتوقف فجأة وليست واقفة ساكنة من قبل؟ هكذا تكون الحركة ورد فعلها. واخد بالك؟».

كان يستذكر الرسم بمتعة لا نظير لها. وكان أيضًا ينشغل فى أوقات فراغه الكثيرة، بتصحيح رسوم الرسامين الآخرين المحليين والأجانب المنشورة فى الصحف



والمجلات. كان يصحح لهم الحركة والمنظور والنسب. يمحو بالجواش الأبيض ويعيد رسم الجزء المحو بالحبر الأسود، ثم يكتب تعليقات للرسام «المخطئ»: «عيب يا راجل كده!» أو «مش كده أحسن والا إيه؟»، وقد فعل ذلك أيضاً مع الرسوم في الكتب السميكة المجلدة التي تجمع أعمال الفنانين الأجانب المعروفين.

وكان **حاكم** يتدرب -رغم كسله المعروف عنه- كل يوم جمعة (شوفوا النظام الحديدي!) على الرسم بيده اليسرى كي يستطيع أن يواصل الرسم بالشمال إذا ما أصاب يمناه الشلل الذي كان شائعاً في أسرته (هل كان يتنبأ بالمستقبل؟)

والمُطالع لرسوم **حاكم** يجد فيها أثراً لكل تلك التدريبات والتمرينات والاستذكار وحب الرسم كالعيال. وسيرى المطالع ما يمكّنه من الإقرار بيسر بأن **حاكم** أعرف رسامي جيله بالرسم والتشريح وحركة الجسم بل وباللقطات، وبالمنظور، وبالتعبير عن شغل الإنسان لحيز الفراغ وحوله، وعن ذلك الفراغ.

وبكل هذا الغنى والثراء والتكوين الإنساني النادر، ظل **حسن حاكم** متواضعاً دمثاً لا يحب القتال ولا الشكوى، حتى انتهى به الحال في جريدة «**المساء**» إلى مرتب لا يتناسب مع قيمته ومع العمل الذي يؤديه، ولا يتناسب معّ مستوى المعيشة في منتصف الستينيات. ولذا لم يتردد كثيراً في توقيع عقد عرضته عليه مجلة «**العربي**» الكويتية عام ١٩٦٦، ليعمل في مقرها بالكويت، وليبقى هناك ربع قرن يرسم أحياناً، ويحكي ويضحك دائماً، إلى أن عاد إلى القاهرة بعد احتلال الكويت.

قبل عودته بعشر سنوات، فقد **حسن حاكم** ابنته الكبرى فجأة، وكانت صدمة من الصعب عليه -وعلى أيّ من كان- تجاوزها. ولم يجد سلوًى ومهرباً في غير الرسم الذي غرق فيه حتى شوشته. ولم يكن يرسم بقصد النشر، ولم يرسم الكاريكاتور وحده، بل كان يرسم ويرسم ليتناسى قسوة الموت وخسّته. وكشفت تلك الرسوم البديعة طريقاً جديداً أزاح عنها **حاكم** التراب الذي كان يغطيها.

وعندما عاد **حاكم** إلى القاهرة (يقود سيارته بنفسه!)، كانت مجلة «**كاريكاتور**» التي يرأسها زميله وصديقه القديم **مصطفى حسين** قد صدرت، فانضم إلى فريقها، وعمل بحماس. وضمن ما أبدعه فيها عدداً من الأغلفة والصفحات الداخلية صوّر فيها ثنائياً لزوج وزوجة طاعنين في السن، تطلع فيه الزوجة **نفيسة** المتهالكة دائمة المهارشة لزوجها **مرسي** الذي يواصل تهدئتها وزجرها ومحاولة منعها من اغتصابه، بعبارته الثابتة: «عيب يا نفيسه!». وتبدت في تلك السلسلة براعة **حاكم** واقتداره كمعلم رسم مديد القامة. وإلى جوار السلسلة، رسم **حاكم** سلاسل من الكاريكاتور الصامت، تدور كل منها حول فكرة أو موضوع.

وفي العامين الأخيرين من حياة **حسن حاكم**، حدث ما كان قد توقعه وتمرن على مواجهته من قبل: أصابته جلطة في المخ أقعدته لفترة، فقد فيها النطق، كما فقد القدرة على القراءة والكتابة والرسم وعدّ

فطار
مُغذى
أهه..
لما أشوف!!

عيب
يانفيسة

من سلسلة «نفيسة ومرسى»

يا قليل الأدب

الأرقام وإدراك معنى الحساب وغيره.
وكانت وسيلة **حاكم** للتغلب على إصابة المخ وعلى نتائجها المؤسفة هي الرسم. طلب **حسن** أوراقًا كثيرة من قياس صفحة مجلة «الهلال»، وظل يملؤها -بالقلم الجاف- رسومًا بسيطة، بدأت بخرطشات غير مفهومة، وظلت تتراكب حتى صارت بعد فترة رسومًا كاريكاتورية، واستمر تراكبها حتى أصبحت سلاسل من الكاريكاتور الخاص المميز والملون، تدفق منه بيسر كبير وفي بساطة آسرة، لم تحجب خبراته الفنية الاحترافية الهائلة.

لم يعتن **حاكم** بنشر تلك الرسوم، ولم يوقع أغلبها. ومع تراكم تلك الرسوم وتلك السلاسل، استعاد **حسن حاكم** نطقه ومنطقه، وعاد للثرثرة والهذر والحكايات. واستطاع **حاكم** أن يغادر البيت، وخرجنا معًا إلى بعض الحدائق العامة المشمسة، وإلى بيوت بعض الزملاء. إلا أن الموت اللئيم ظل يحوم حوله ويترصده لأكثر من عام، إلى أن استطاع اختطافه منا عام ١٩٩٨.

يلاحظ المطالع للرسوم المختارة مع هذه الذكريات المكتوبة، قدرات هائلة متعددة: الشخوص التي تبدو مثل دمًى مختصرة سليمة التركيب والحركة، رُسمت بيد فنان لديه مخزون ثرى من المعرفة بالإنسان تشريحًا ونفسًا، والقدرة على خلق المكان بفراغاته وأجسامه وبعناصر البيئة الطبيعية والمصنوعة فيه، ومعرفة واسعة بالمنظور وإحساس قوى بقوانينه. وبالتأمل المدرك، سيجد المطالع اللبيب أن **حسن حاكم** (الذى عرف كل هذه القوانين المدرسية) قد حطمها جميعًا واحتفظ بأرواحها ودلالاتها دون سجون قوانينها. وسيلمس المطالع روحًا ساخرة خبيرة بالكوميديا وبفنية صنع أبطالها ومواقفها. كما سيرى تميزًا يتفرد به **حاكم** بين زملائه المصريين وباقى العرب، هو قدراته الفنية الهائلة على نقل الواقع إلى الكاريكاتور بأسلوب مركّب قوى ومهارات في الرسم والتجسيم والتلوين لا تقل عن تلك التى تمتع بها الأساتذة الكبار الأوائل مثل **صاروخان** و**سانتيز** و**رفقى**، مع الاحتفاظ بلطف الدمى وبالإيجاز والروح العصرية. كل هذا بالإضافة إلى فهم جرافيكى راقٍ وثقافة فنية تخلو من الادعاء، وذكاء في التوصيل البصرى للأفكار.

وسوف يلاحظ المطالع أن الأشخاص الذين رسمهم **حاكم** طيبون، يتمتعون بسلامة النفس والطوية مع سلامة البدن. أصحاء وليسوا مرضى: نساؤه شهيات يتمتعن بطلاوة ولطف. ويظهر فى رسوم **حسن** احترامه للمرأة وتقديره لها، وحبه لأنوثتها. وليس كل رسامى الكاريكاتور فى هذا الشأن مثله، ونذكر له وعيه الخاص بهذا الأمر المهم، كما نذكر له تعجبه من درجة الاعتلال الجسدى والنفسى فى بعض الشخوص التى رسمها زملاؤه من رسامى الكاريكاتور! ■

بين الجد والهزل والهوى يتشكل وجه

الفن المصرى الحديث

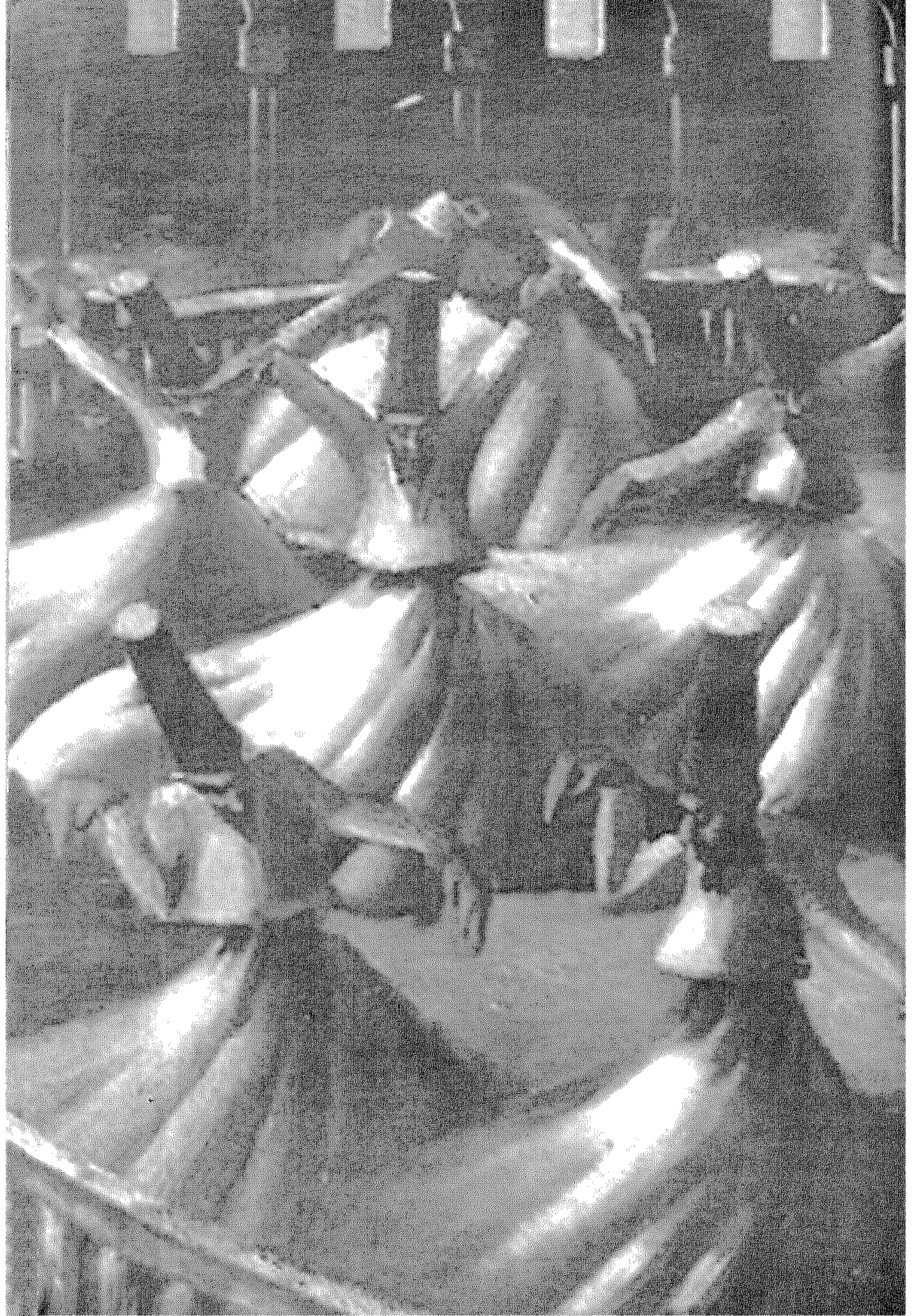
بقلم
د. محمد عرابى

تعد إعادة افتتاح متحف الفن المصرى الحديث من الأحداث المهمة التى ظهرت علي الساحة الثقافية ليس فقط لكونه حدثا فنيا مهما ولكن لما أثاره من جدل واسع النطاق اتسعت فيه مساحة الاختلاف والمعارضة والرفض لما تقوم به المؤسسة الرسمية من ممارسات وأفعال أجمع الكثير علي انها تتسم بالتسلط والوصاية وأنها أيضاً تنطلق من تحقيق مصالح فئة من الموظفين فقط ، يمكن أن نفهم هذا مما دار حول هذا الموضوع من حوار وكتابات عبر وسائل النشر المختلفة، ولهذا ذهبت جولة المعارض لمشاهدة الثوب الجديد للمتحف وتركيبته التى تمخضت عن عمل لجان استمر ما يزيد علي ثلاث سنوات.

من الوهلة الأولى عندما دارت العين بين جنبات المتحف تذكرت حواراً قد دار بيني وبين أحد أوصياء الثقافة المصرية وفنونها التشكيلية ، ... المهم تذكرت حديثه معي عن رؤيته الجديدة التي " تبغي قلب التربيزة " ، كان لكلامه بريق مثير يجذب من لا يرى ما بين السطور ، وظهرت بوادر تنفيذ هذا المخطط مع نهايات ثمانينيات القرن المتصرم حتي بات متحققاً بكل أبعاده الآن بين جنبات متحف الفن الحديث ، حيث انقلب كل شئ رأسا على عاقب بصورة تامة تجعلني لا أملك سوى أن أفصح عن إعجابي بحسن التدبير لتحقيق الغايات .

وربما نلمح في فلسفة قلب التربيزة بعداً ثورياً كان يتواءم مع حمية الشباب آن ذاك فأغراهم واصبحوا درعا واقية مهمة مملوكة في يده لكونه يملك الجزرة والعصا ولغياب التعددية واتباع سياسة القطب الواحد , وكان جوهر الدعوة متمثلا في الثورة على كل ما هو يرتبط بمكان وزمان هذا الوطن ، وذلك من خلال ما كانوا يطرحونه عند بداياتهم من أفكار نظرية تتسم دائما بالمثالية ولكنها لم ترتق ابداً الى حيز التنفيذ لان فيه اعاقة لمصالحم الشخصية وضد وجودهم ، فالمسألة لم تتعلق فقط بالشكل النهائي الذي يظهر به المتحف وانما بالدلالات السلبية التي تتكشف من خلال استقراء وضعه الحالي من اول وهلة ، اذ يؤكد دأب فئة من الستينات على إشاعة ما

« الدراويش » – محمود سعيد



يسمى بأزمة القيادات والخبرات ، ولا مناص من أن يظلوا هم حماة الثقافة والفنون وهم أيضاً طليعتها وروادها في آن واحد ، وعلينا ان ندعو لهم بطول العمر وان نفديهم بأرواحنا حتى لا يصيبنا الخراب والدمار ، فهاهم فرسان الغيب يتصدرون قيادة حركة الفن المصري عنوة فانتشرت أعمالهم تغطى البهو الرئيسي بالمتحف ، ولم يتركوا مساحة لمن قبلهم أو بعدهم ليظهر بجوارهم سوى أقل القليل من رواد الحداثة المصرية ، ولا شك في ان حركة الفن من الشواهد المهمة على حركة المجتمع ولا يمكن ان نفصل امورها الإجرائية التي تتعلق بالنظام العام الرسمي الذي مازال المتحكم الوحيد – بمنطقه الروتيني – في تكوين شكل الفن الرسمي بعيداً تماماً عن ذائقة المجتمع ومتطلباته الثقافية والتعبيرية ، فهي تخضع لهيكل إداري وظيفي له أبعاده السلبية التي تعاني منها معظم المؤسسات المصرية الحكومية.

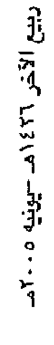
المظهر العام للأعمال المعروضة لا يوحي بالانسجام بل يصيب بصدمة بصرية من فرط عشوائية التنسيق ويذكرنا بمعارض التجارب الطلابية التي كنا نقصد إظهارها بصورة متواضعة من حيث طريقة العرض فلا نشعر بجلال المتحف ونشك في قيمة ما هو مقدم او معروض ، وعندما نفكر في البهو الرئيسي فيجب ان يضم الأعمال ذات الدلالات المهمة في تاريخ حركة الفن المصري وتطوراتها، ولا يوجد سوى ثلاثة – أو أكثر قليلا _ من تلك التي تنطبق عليها هذه الشروط واما الباقي فلا يمثل حتى قيمة أصحابها إلا إذا كان ما نسمعه عنهم هو مجرد وهم ، وأبسط مثال على هذا هو تلك اللوحة الصغيرة متواضعة القيمة بصورة لا ترتقي الى " كروكي لشخص مبتدئ في دراسة الفن" و هي معروضة باسم سعيد الصدر وتظهر أسفل لوحة محسين شعلان ، ونحن على استعداد لمناقشة هذا الموضوع الذي يحتاج إلى متسع من الوقت .

فما نراه بالبهو الرئيسي بصفة خاصة يؤكد ما شاب حركة الفن المصري من عشوائية وازمات تتوازى وأزمات الفن الحديث التى زادت حدتها وأتت بثمارها السلبية خلال العقد الأخير من القرن العشرين ، فباستثناء اعمال قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ___ كما ذكرنا ___ لا نجد سوى هيئة ممسوخة دميمة الوجه تتشكل من أعمال تفتقر الى الهوية والمعنى ولا يمكن ان نجد لها اي ملامح تذكر ، فاذا كان هذا هو حال الفن المصري المعاصر او الحديث فنحن في مأساة حقيقية يصعب تداركها ، وان كنت أشك في هذا فهناك حركة فنية أخرى تنمو وتتحرك خارج الاطار الرسمي الظاهر يجب الالتفات اليها وآن الأوان لظهورها ، ... ومن العشوائية والاستهتار المتعمد ان نرى لوحة السد العالي لعبد الهادي الجزار ذات القيمة التاريخية والفنية التي تؤهلها لتكون علامة في تاريخ مصر في مكان لا تذهب إليه العين طواعية ، فتبدو كما لو أنها سلعة ليس لها سوق و تورط فيها صاحب الدكان فوضعها على رف المهملات أى فيما لاتطوله اليد أو العين بسهولة فلا يلفت إليها الانتباه سوى الفضول المتمكن من صاحبه لما يثيره من غموض ، وهناك الأمثلة الكثيرة مثل حالة الجزار ، وعلى الرغم من ضيق مساحة العرض بالمتحف إلا انه تم فرد مساحة عريضة لمستنسخات لأعمال غربية مشهورة بيد فنان مصري ... فما هي الضرورة لهذا ؟! ، على اى حال سنترك الفرصة للمهتمين ان يشاهدوا بأنفسهم .

في ذكرى محمود سعيد

ومن حسن الطالع ان نتذكر محمود



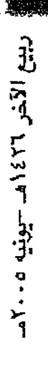


من أعمال الفنان فريد فاضل

سعيد رائد المدرسة المصرية في الفن الحديث في ذكراه في معرض تحت عنوان " ملامح من الطبيعية " بمركز محمود سعيد للمتاحف بالإسكندرية ، يضم بالطبع مجموعة من أعمال محمود سعيد التي تأتي في إطار فن المنظر بملامحه الأسلوبية الخاصة التي تميز بها سعيد في معالجة الشكل واللون والخط والضوء بالإضافة الى أعمال عدد كبير من فنانى وفنانات الإسكندرية يمثلون أجيالا مختلفة ، وفي مجالات متنوعة من الفنون الجميلة ــ التصوير النحت الجرافيك والخزف" ــ وتكمن أهمية هذا المعرض في كونه يأتي في ظل الهجمة الشرسة للاتجاهات التجريبية التي أفصحت عن نواياها السيئة بمتحف الفن الحديث الآن .. ضد الطبيعة ومعطياتها، ليضئ الطريق ويجعلنا ننظر إلى صور اخرى من الفن غير تلك التي عفى عليها الزمن ، وأن هناك تيارات فنية تعيد للانسان مكانته في العمل الفني وكذلك قيم أخرى يحتاجها إنسان اليوم في مقابل ما يضغط عليه من قيم مادية متأصلة في ثقافة السوق ورأس المال المسيطر على حركة الحياة في هذه الايام .

فهو يذكرنا بأن الفن والطبيعية متلازمان لا ينفصلان وهذا التلازم يأخذ ملامح متنوعة وفقا لما يتميز به العصر من معطيات ثقافية بما فيها الزمان والمكان ، فلم تكن الطبيعة عائقا لمحمود سعيد بل كانت مصدراً مهماً من مصادر تميزه وذلك حينما آمن بها واستطاع النفاذ إلى حقيقة طاقاتها التعبيرية وخصوصيتها المكانية والزمانية التي تحمل الملامح الخاصة بالانسان ، وذلك على الرغم من أنه تربي في تعاليم الكلاسيكية أو تلك المذاهب الغربية التي تدور في فلك مفهوم المحاكاة وقواعدها الفنية المنبثقة من قوانين الرؤية البصرية ، إلا أنه استطاع أن يبدع فنا مصري الهوية والمذاق ويمثل علامة متميزة التأثير في حركة الفن والثقافة المصرية والعربية.

وفي منطقة اخرى من الفن يعرض فرغلي عبد الحفيظ في قاعة الزمالك انطباعاته عن " الحياة علي ضفاف البحر الميت " ... نفهم هذا من عنوان معرضه وربما يقودنا فضول البحث عن المعني إلى أبعاد دلالية تتأثر بواقعنا وما يدور فيه من أحداث ضد الحياة ، وذلك قبل أن نرى أعماله ولكن فهمنا لتاريخ هذا الرجل المغرم بالمعنى والمفاجآت يجعلنا نتروى قليلا ، فهو كثيرا ما يطالعنا بمسميات لمعارضه مثيرة ، فهو كاتب موهوب يجيد السرد و الحكي والتفلسف وإيصال الحاضر بالماضي عبر حالة وجدانية ثقافية طقوسية مادتها الكتابة، وربما في محاولته تلك يبحث عن شرعية شرقية مصرية عربية أو ربما عالمية لحاضره أو وجوده أو ربما يكون ثائرا لهويته البيولوجية أو الأيديولوجية ... وهي في كل الأحوال حالة تشير إلي هموم ذاتية ربما تمتد في جوهرها الى أبعد من ذلك وترتبط من ناحية بأزمة ثقافية إنسانية تعاني منها الحياة المصرية المعاصرة ومن جانب آخر ترتبط بأزمات الانسان العالمية ... فهو من أكثر هؤلاء الذين يمكن وصفهم بالتجريبيين جرأة علي اقتحام مناطق كنت حقيقة أحسده عليها ، حيث يذهب مفاخراً محتميا بالخامات البيئية في كثير من الأحيان فتارة يرى في الطين ضالته وتارة أخرى يراها متمثلة في جريد النخيل اكثر خامات البيئة المصرية حميمية ويشير إلى ما قام عليها من حرف تحيا في حاضرنا مفاخرة بأصالتها وجذورها التاريخية ، وفي أحوال أخرى يذهب إلى القاهرة ويستحضر جده " إخناتون " أو " أبو الهول " ، أو يذهب إلى ليالي فيينا، أو " أساطير البطراء





١٩٣
الهلال
ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - يونيه ٢٠٠٥م

من أعمال عبد الهادى الجزار

المفقودة ...! ، كل هذه الأماكن أو الأزمنة أو المعاني تتفجر في معظم الأحيان من عناوين معارضه وكتاباته وأما عندما نذهب إلى أعماله فنجده في معظم الأحيان مسجونا في عالم محلي لا يتعدى حدود ملامح وجوه أفريقية نوبية مصرية وبعض الأشكال الأخرى تجتمع في فضاء يخرج من روح تحلق في حدود إطار الانفعال ... يا له من جرئ ... يذهب اليوم إلي البحر الميت وتكون فكرة الحياة في مقابل الموت المنتشر في بقاع الأرض الملتهبة ويثير في أذهاننا تلك الصور بما تنطوي عليه من متناقضات يجتمع فيها الأخضر واليابس .. القاتل والمقتول يتصارعان ...الصدق والكذب كذلك.. الخ وتنقلب فيها المعاني والحقائق، ولكن عندما نري الأعمال قلما نجد إشارة إلي البحر الميت ، وملامح الناس تبدو آتية من جنوب الوادي علي ضفتي النيل ، وهو يشير أيضا بصورة رمزية إلي الحياة ، حيث تتضمن بعض أعماله عناصر رمزية لها دلالاتها الضاربة في أعماق الثقافة المصرية مثل " السمكة " ، التي تشير إلي الخصوبة والتكاثر والكثرة والوفرة ، المهم هي عنصر يرتبط مباشرة بالحياة في مقابل تلك اللفظة التي ليس لها مبرر موضوعي في سياق الشكل ودلالاته في هذا المعرض وهي " البحر الميت " ، غير انه لا يؤمن بقوة الشكل التعبيرية أو لا يثق في قدرتنا على استيعاب ما يبطنه الشكل فاستعان بقوة الكلمة ليشير صراحة الى بحضور الموت الممتدة في ربوع المعمورة بصورة تجعلنا نخشى علي الحياة ... ، وهذه قضية فنية تتلخص في فكرة تزاوج الشكل والكتابة في التعبير الفنى التي تعتبر ميراثاً مصرياً صرفاً ، ولكن هل مقتضيات حالنا اليوم تستوجب هذا النوع من التعبير الفني ؟ وفي اي صورة ممكن ان يكون...؟؟!!

وعلي أية حال فان الإشارة إلي الحياة في زمن الموت تعد قيمة إنسانية يجب التمسك بها وان نحيي من يتبناها لكي نتمسك بالحياة وندافع عنها بكل ما أوتينا من قدرة وقوة قبل فوات الأوان .

جائزة راتب صديق

وفي أتيلييه القاهرة معرض جائزة راتب صديق في فن التصوير وهي تؤكد أهمية دور المؤسسات الأهلية في حركة الثقافة والفن ، التي تنعكس بدورها على المجتمع في صيغة ربط الجوائز بأسماء لها قيمتها في حركة الثقافة المصرية ، على الرغم من ان الدولة مازالت ترعي الفن وربما في السنوات الأخيرة ، حيث زادت أنشطة الفنون التشكيلية ، فهناك ميزانية للمقتنيات سنوية من المفترض انها تبحث عن القيم الفنية العالية التي ترتبط بحركة هذا المجتمع فتجمعها وتغذي بها المتاحف القومية لتحفظ للأمة ذاكرتها ، وهناك عدد من البناليات الدولية تطرح روح التسابق على المستوي العالمي وأيضاً مسابقات للشباب أكثرها بريقا صالون الشباب وله ميزانية للجوائز لم نكن نحلم بها من قبل إلا أن الأمر يظل في حدود منطقة شبه هيمنة القطب الواحد الذي ينحاز لسيادة نوع واحد من الثقافة والفنون ، وذلك نظرا للأنظمة الوظيفية ومن ساقهم القدر لقيادتها ، تذهب المقتنيات في معظم الأحوال للمحاسيب ، وتذهب الجوائز حسب أغراض الباب العالي وأهوائه المزاجية ولجنة الأوصياء ، التي تحرص دائما على راحة مزاجه ، ويتم هذا عبر ألاعيب السياسة فمن يجيدها هو الذي يكسب المقعد وما يتعلق به من " جزر وعصي" الحقيقة أن جائزة راتب صديق يجب أن تتسم بقدر كبير من الحرية لأنها خارج المؤسسة ، وان كان أتيلييه القاهرة نفسه لم يعد هو الذي كنا نتوق

للالتحاق به وننال شرف عضويته ، فهو كمثل كل شيء طالته الخفة والرعونة والرتابة و يحتاج لدماء حرة جديدة ، تتميز هذه المسابقة بكونها سنوية و في مجال واحد من مجالات الفنون وهو التصوير الذي يعد عصب العملية الإبداعية في الفنون التشكيلية علي مر تاريخها القريب والبعيد ، والذي أيضا يحتاج إلي دعم كبير في ظل ما يموج به العالم من تطورات تكنولوجية تفرز أشكالا فنية تزحف زحفا وتسحب البساط من تحت أقدام الفنون التقليدية وخاصة التصوير ، وشارك في دورتها الثالثة هذا العام ٨٦ فنانا وفنانة ، وفاز بالجائزة الأولي محمود حمدي عن ثلاثية الأحمر والذهبي ، والثانية فازت بها فيروز عبد الباقي ، وبالثالثة هند حسن وأما الرابعة فذهبت إلي محمود حلوي وفاز بالخامسة محمد إبراهيم المصري ...



« البحر الميت » - فرغلي عبد الحفيظ

معرض لفريد فاضل

وأما التجربة الاخري التي تستحق الاشارة تكمن في معرض " انا بيدي آخر " لفريد فاضل وعدد كبير من الفنانين ، فهو يدور في اطار فن الصورة الشخصية ولكن بفكرة تذهب بها الى مناطق أخرى من الابداع الفني بمقاماته الحديثة، حيث يكون وجه الفنان موضوعاً فنياً لعدد من الفنانين وهم على سبيل المثال لا الحصر " عبد العال ، ابوبكر النواوي ، فرحات زكي ، مكرم حنين ، آمال مصطفى، مصطفى حسين ، رضا عبد السلام ، محمد الناصر، امال قناوي ، نفين جندي ، عزالدين نجيب ، احمد عسقلاني ، جمال عبد الناصر ، احمد رفعت ، سيد سعد الدين ، جورج البهجوري وغيرهم ... ، تناول كل منهم الموضوع بحرية وفقاً لرؤيته واسلوبه الفني ، وبدورهم اصبح كل منهم موضوعاً فنياً لفريد فاضل، صاحب الدعوة ، الذي ظهر بثوب تقليدي في رسمه لوجوه الفنانين ، ولم تتأثر رؤيته اللونية بانطباعاته النفسية او البصرية او بما توحي به الشخصية ـــ موضوع العمل ـــ الى نفسه من انطباعات ، حيث انحصرت ألوانه في اطار درجات بنية تخضع لأسلوب أكاديمي واقعي النزعة مغرم بتفاصيل الوجوه ، وأما الجانب الآخر من التجربة فتباينت فيه الأساليب والرؤى والمشاعر تجاه الموضوع - وهو وجه فريد فاضل - الذي يظهر مرة مرسوماً لذاته حاملا رؤية الفنان لشخصية صاحبه وفي حالة أخرى لايتعدي مجرد مثير للإبداع وهكذا فان أهمية هذه التجربة تكمن فيما يبدو خلفها من دوافع ظاهرة او باطنة، فهي تحيى روح الحوار و الثراء في التنوع والاختلاف في إطار كل موحد هو الإنسانية، هذه التجربة قد قامت بها مجلة الهلال من فترة طويلة مع اختلاف التوقيت والتوجه الذي يضفي على كل من التجربتين خصوصيتها. ■

بقلم : د. السيد أمين شلبي

أقنعوا الأمريكيين بأن حالتهم الطبيعية هي الحرب .. والحرب فقط !
لايميلون إلى التسامح.. ويتبنون استخدام القوة العسكرية كأداة وملجأ.
ينظرون إلي عملية «السلام في الشرق الأوسط» باعتبارها فكرة مشبوهة.

مع تعدد الكتابات التي صدرت عن مجموعة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة ، فإن هذا الكتاب الذي صدر في نهاية عام ٢٠٠٤ يتميز عنها في ثرائه بما يقدمه عن هذه المجموعة وتطورها عبر إدارات أمريكية متتالية، خاصة منذ الستينات حتي وصولها إلي قمة نفوذها ، بل «واختطافها» للسياسة الخارجية لإدارة بوش الابن في سنوات ولايته الأولي ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤ ، وصياغتها للمفاهيم والاستراتيجيات التى تصرفت هذه الإدارة وفقا لها ووضعتها موضع التنفيذ .

ويبحث هذا الكتاب في نفوذ وتسرب هذه المجموعة إلي كافة المؤسسات الأمريكية وخاصة العسكرية والإعلامية، وكتاباتهم الكثيفة عن رؤاهم.

ويبدو الكتاب في أفضل صوره حين يناقش التأثير الذي أحدثته هذه المجموعة علي الولايات المتحدة خارجيا وداخليا وعلي الصورة التي بدا بها النظام الدولي بفعل ممارسات سياسة بوش وقناعاتها الأيديولوجية .. فخارجيا يقول الكتاب إن الأمريكيين وأمتهم أصبحوا في خطر أعظم أكثر من أي وقت مضي منذ أزمة الصواريخ الكوبية، وداخليا اقتربت أمريكا من حالة استقطاب لم تشهدها منذ حرب فيتنام ، ولهذا فإن هذا الكتاب هو مناقشة للخطأ الذي جري ، وكيف وصلت أمريكا إلي هذه الحالة، وينتهي إلي أن المسئولية الرئيسية تكمن في المحافظين الجدد في أساسيات أيديولوجيتهم التى تفسر النظام الأحادي القطبية الذى صنعه التفوق العسكرى الأمريكي.



• أقنعوا الأمريكيين بأن حالتهم الطبيعية هى الحرب.. والحرب فقط !

• ينظرون إلى عملية «السلام فى الشرق الأوسط» باعتبارها فكرة مشبوهة.

الجدد بأمريكا والعالم ؟

١٩٧



حوار هامس بين بوش ووزير دفاعه رامسفيلد



● لايميلون إلى التسامح.. ويتبنون استخدام القوة العسكرية كأداة وملجأ.

وبداءة يعتبر الكاتبان أن القوة العسكرية الأمريكية، والتي سيطرت لقرابة القرن، قد وصلت إلى قمم جديدة لايمكن تحديها، كما ظلت قوتها الاقتصادية متفوقة، وعلى الرغم من هذا الواقع الجديد بالترحيب فإن قوتها الأخلاقية معرضة للخطر، وهذا بسبب أن السياسات التى تبنتها استجابة للرعب المأسوى وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، قد قامت علي سلسلة من المقدمات الخاطئة، التي تفترض أن التحديات التي تواجهها هي أساسا ذات طابع عسكرى، وأن القوة العسكرية وحدها هي التى يمكن أن تقدم النصر.

دعوة لرؤية النفس

ولهذا يطلب الكتاب من الأمريكيين أن يتراجعوا عن المشاعر التى ولدها هذا اليوم الرهيب، وأن يمسكوا بمرآة ليروا فيها أنفسهم ومحيطهم وعلاقاتهم مع جيرانهم وأصدقائهم، وهو يدعوهم أن يتأملوا التغيرات التى جرت وأن يسألوا ما إذا كانت هذه هى الصفات والمستقبل الذى يودون أن تتبعه أمريكا. فسواء بوعى أو بغير وعى، وخلال هذه الفترة القصيرة منذ ١١ سبتمبر فقد تغيرت أمريكا كشعب ومجتمع، وفى علاقات أمريكا مع العالم الأوسع فإن كثيرا قد تغير، فالموجة التلقائية من التعاطف بعد ١١ سبتمبر قد تحولت إلى عداء لأمريكا ومناهضة لها، وتفككت التحالفات التى شيدت بجهد عبر نصف قرن، فضعفت سلطة المؤسسات المتعددة الأطراف والتى ولدت بإلهام أمريكى، والسفارات الأمريكية فى الخارج أصبحت تختبىء خلف المدرعات وأصبح الأمريكيون أنفسهم مترددين فى السفر للخارج فى ضوء تحذيرات رسمية ضد السفر وراء البحار، وحين يسافرون فإنهم يندهشون من العداء الذى يواجهونه، واقتصاديا فإن الثمن الذى دفعه المجتمع الأمريكى كان غالياً، فقد تضخم عجز الميزانية وجزء كبير من هذا كان بسبب المتطلبات الأمنية، وامتلكت وزارة الأمن الداخلى ووزارة العدل سلطات غير مسبوقة فى الاقتحام والمراقبة، غير أن أعظم تغير كان سيكولوجيا، فقد اقنع الأمريكيون أنفسهم أن حالتهم الطبيعية هى الحرب، الحرب التي لا أبعاد لها مع عدو مراوغ وبلا تحديد لما يشكل النصر.

وهكذا، وفى ظل عقلية الحصار، أصبح الأمريكيون يعيشون فى «مزاج الأزمة» وأصبح الشعار السياسى هو «أنه الإرهاب ياغبى»، وكانت المحصلة النهائية هى هذه المفارقة الصارخة، فرغم الاستخدام الشامل لقوى النيران الأمريكية وراء البحار وتحويل مماثل للموارد للأمن الداخلى لايشعر الأمريكيون بالأمن ولكن العكس تماماً، تظهر الاستطلاعات أن الأمريكيين يشعرون أنهم مهددون شخصيا أكثر من أى وقت مضى فى تاريخهم، وليس هذا غريبا بعد أن أخرجت أيديولوجيات سابقة من الأدراج ونفض عنها الغبار وتسميتها أنها رد على الإرهاب والحقيقة أن هذه الأيديولوجيات ليست لها علاقة بمحاربة الإرهاب بل فى الحقيقة أنها تجعل محاربة الإرهاب أسوأ، وهى الأيديولوجية التى كيفت الصراع التقليدى بين دولة ودولة على أنه يلائم عصرا التهديدات فيه غير تقليدية وعابرة للقوميات. هذه الأيديولوجية التي توصف عادة بالمحافظة الجديدة، وإن كان أصحابها الذين يشعرون بالمذاق السلبى لهذه التسمية يفضلون تسميتها بـ «العالمية الأمريكية» Americn Internationalist أو «العالمية الديمقراطية» Democratic globalist وينظرون إلى الدبلوماسية كعبء ثقيل على الانفرادية unipolarity

الأمريكية ويتبنون سياسة خطرة ومغامرة التى تستخدم القوة العسكرية كأداة وملجأ أو لنطاق واسع من التحديات ، وتتصور أن الولايات المتحدة فى حالة توتر دائم مع العالم الخارجى ، ويميلون إلى مناخ من عدم التسامح والتطابق فى الداخل ، والمحافظون الجدد فى الواقع يدافعون عن الحديث عن الحرب العالمية الرابعة، ويتبنون بحماس فكرة «الحرب الجديدة» ، ويشككون فى وطنية هؤلاء الذين تجرأوا على إثارة الأسئلة، وهكذا فطالما تدوم حالة حرب أو حالة أزمة، فإن النقاش ، ودعك عن الانشقاق Dissidence، يصاب بقشعريرة، وتمر البدائل بدون فحص، ويستخلص الكاتبان من تقديمهما لدور المحافظين الجدد فى ظل إدارة بوش ، أنه رغم عملهم السابق مع رؤساء مثل ريجان وبوش الأب ، فإن هذه المجموعة اليوم وفى وقت مختلف ورئيس مختلف يستبدلون المصالح بالأيديولوجية وبشكل يترك الأمة الأمريكية معزولة فى الخارج ومستقطبة فى الداخل، ولهذا يعتبر الكاتبان أن الولايات المتحدة فى مرحلة حاسمة غير عادية فى التاريخ الأمريكى، وباعتبار وصولهم إلى القوة العسكرية وأدوات السلطة الداخلية فإن هذه المجموعة الصغيرة نسبيا لديها القدرة على وضع أفكارها حول أمريكا المعتمدة على القوة والمتجهة إلى الحرب موضع التنفيذ، ولهذا يعتقد الكاتبان أن المحافظين الجدد يقدمون نموذجا لا يمكن الدفاع عنه لمستقبل الولايات المتحدة ، وتوحى كتاباتهم الحديثة أنهم، وكما لاحظ تاليران عن البربون، أنهم يتذكرون كل شىء ولكنهم لم يتعلموا شيئا من خبرات بلدهم عام ٢٠٠٣ فى أفغانستان والعراق، وفى مقابل هذا النموذج ، يقدمان نموذجاً بديلاً عن السياسات التى تركز على المصالح الوسطية التى وجهت كلا من الإدارات الجمهورية والديمقراطية منذ عام ١٩٤٥ – ٢٠٠٠ . وتتجه سياستهم حول الاستباقية الأمريكية preeminence، والاستعداد للعمل المنفرد ، وحصولهم على قاعدة واسعة لاتتعرض للهجوم داخل الإدارة الأمريكية، ونتيجة ذلك وجدت الولايات المتحدة نفسها اليوم لسوء الحظ معزولة داخل المجتمع الدولى، وارتفعت بسرعة معارضة أمريكا، وتواجه الأمة نتيجة معقدة ومتزايدة الخطورة. وفى عرضهم لأكثر الثغرات ضيقاً للسيادة الأمريكية فقد ضيقت سياساتهم من الاختيارات الأمريكية وضاعفت من خسائر أمريكا البشرية والمالية، وما هو أكثر أهمية فإن تبنيهم للانفرادية قد شوه سلطة أمريكا الأخلاقية وللمرة الأولى منذ الحرب الثانية تعانى أمريكا أزمة فى الشرعية الدولية.

غموض المحافظين الجدد

أما داخليا فإن الضرر الذى نشأ من سياسات المحافظين الجدد لاينسحب فقط فى الساحة الدولية، فالأولوية الدائمة حقا، والتى تم التجاوز عنها منذ ١١ سبتمبر ، كانت هى صحة المجتمع الأمريكى فى الداخل وهنا فإن الأثر المستمر يمكن أن يعيش طويلاً.. وفى الوقت الذى يظهر فجأة الإحساس بالأزمة ثم يختفى، فإن الحريات الداخلية بقيت تحت الضغوط وخاصة التعديل الرابع للحريات وافتراضات الخصوصية، كما تنحدر الحياة السياسية نحو الاستقطاب وحيث يوصم النقاد بعدم الولاء والانهزامية ، وأصبح الجدل السياسى يجرى لا على أساس الأفكار وإنما على أساس التصنيف الأيديولوجى.

ويخصص الكاتبان معظم فصول الكتاب لكى يزيلوا الغموض المحيط بالمحافظين الجدد ويسألون كيف ومتى وصلوا إلى مناصبهم ونفوذهم ، وينظرون فى تاريخهم ويتأملون فى نقاط قوتهم

وضعفهم ويقيمان تأثيرهم على السياسة وعلى حياة الأمريكيين فى الداخل وأمنهم القومى. ويسجلان قمة قصتهم عند لحظة الأزمة القومية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حين وجدوا أنفسهم، جزئيا بالتصميم وجزئيا بالمصادقة ، فى مراكز النفوذ العليا وتحركوا لكى يتولوا زمام آلة الحرب الأمريكية، ويستخلصان من هذا التتبع لقصتهم أنهم قد أخذوا العلاقات الدولية للولايات المتحدة إلى انعطافه سيئة الحظ بعيدة عن الأسلوب التقليدى القائم على بناء التوافق والاقتصاد فى الموارد ، وكانت النتيجة النهائية لسياساتهم المنفردة منذ منتصف التسعينات هى أن أمريكا للمرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية تعانى أزمة فى الشرعية الدولية.

ويحدد الكاتبان القضايا التى يتوحد حولها المحافظون الجدد فى :

– الاعتقاد الناشئ عن اقتناع أن الوضع الإنسانى يتحدد باختيار بين الخير والشر وأن المقياس الحقيقى للطابع السياسى إنما يوجد فى استعداد الأول لمواجهة الثانى.

– التأكيد على أن المحدد الرئيسى للعلاقة بين الدول يرتكز على القوة العسكرية والاستعداد لاستخدامها.

– التركيز الأساسى على الشرق الأوسط والإسلام العالمى كتهديد رئيسى للمصالح الأمريكية فيما وراء البحار.

وفى وضعهم هذه المفاهيم موضع التنفيذ فإن المحافظين الجدد :

– يحللون القضايا الدولية كأبيض وأسود ووفق مستويات أخلاقية مطلقة، وأنهم وحدهم الذين يملكون التميز الأخلاقى ويجادلون بأن الاختلاف يرقى إلى الانهزامية.

– ازدراء المؤسسات الدبلوماسية التقليدية مثل وزارة الخارجية والمحللين البرجماتيين ، وهم على عداء مع المؤسسات المتعددة الأطراف غير العسكرية وعلى خصومة غريزية مع الاتفاقيات والمعاهدات الدولية، وشعارهم هو «الانفرداية العالمية» Global unilaterlism وهم يشعرون بالقوة من النقد العالمى ويعتقدون أنه يؤكد الفضيلة الأمريكية.

وبناء على هذه العقائد فإن المحافظين الجدد يجدون أنفسهم فى موضع المواجهة:

– مع العالم الإسلامى ولايعلم أحد مع من فى المستقبل.

– مع حلفاء أمريكا وأصدقائها ، ومع الحاجة للتعاون فى الأمم المتحدة وأماكن أخرى لتحقيق الأهداف الأمريكية.

– مع من يبحثون عن مواجهة العجز فى الميزانية وعلى التعقل فى الانفاق ، ومع زملائهم الأمريكيين الذين لايتفقون معهم ومع أهدافهم.

بالإضافة إلى هذا فإن المحافظين الجدد فى غاية الوضوح حول عقائد الشئون الدولية التى لا يتفقون معها ، ففى الأيام الأولى لبوش فى المنصب أرسل مجموعة منهم للرئيس الجديد خطابا ينصحونه ألا تلقى اهتماما لأفكار مثل «الاستقرار» ، و«الحالة السوية» Normalcy، و«العلاقات الجيدة» ، ويعتقدون أن مفاهيم مثل «الردع»، «الاحتواء» ، «الواقعية» ، «الأمن الجماعى» ، «بناء الثقة» ، «الحوار» و«التوافق» هى مفاهيم غير مجدية فى عالم اليوم، وعندهم أن عبارة «التواضع» التى استخدمها بوش ليست أكثر من بلاغة انتخابية ونظروا إلى «عملية سلام» الشرق الأوسط كفكرة مشبوهة، وإلى المعاهدات والاتفاقيات باعتبارها «قيدا على القوة الأمريكية» ، وهم يعطون اهتماماً ضئيلا لدور العوامل غير العسكرية مثل الحوافز الاقتصادية، وتخفيف الفقر والقوة اللينة power soft ، وخسائر البيئة ، وللتجارة

الدولية، وهم لايظهرون اهتماماً بالنتائج الاقتصادية لسياساتهم ، وينظرون إلى من يعتبرون هذه المظاهر على أنهم «مخربون» ، و«مكتئبون» أو «انهزاميون» ، بل يشككون فى وطنيتهم.

أعلام المحافظين الجدد

من هم أصحاب وأعلام الفكر المحافظ الجديد؟

من أبرز الأسماء الذين تولوا مناصب رسمية من قبل وبشكل أكثر في إدارة بوش الثانية: لويس ليبى، رئيس موظفى مكتب نائب الرئيس ديك شينى، والمستشار الخاص للرئيس الأمريكى اليوت ابرامز ، ونائب وزير الدفاع بول وولفيتز ، وشخصيات فى وزارة الخارجية مثل جون بولتون ودافيد وورمز ، وفى الأجهزة الاستشارية ريتشارد بيرل واليوت كوجين ومن الأكاديميين دونالد كاجان الأستاذ فى جامعة بريستون برنارد لويس وآرون فريدبرج ، وفى الإعلام محرر مجلة ويكلى ستاندرد ويليام كريستول الذى يعتبر من الجيل الأول للمحافظين الجدد فى التسعينات الذى يعتبر أن الأفكار هى التى تحكم العالم لأن الأفكار هى التى ستحدد طريقة تصور الواقع «وهذا ما جعل البعض يرى وجه الشبه بين هذا التفكير وتفكير لينين وتروتسكى» ، كما يعتبر أن الديمقراطية الأمريكية ليس من المحتمل أن تبقى طويلا فى عالم معاد بشكل بالغ للقيم الأمريكية، وشارلز كروتهامر كاتب العمود فى واشنطون بوست، ومعظم كتاب الرأى فى الوول ستريت جورنال ، ومحطة فوكس نيوز، ومدير المخابرات السابق جيمس وولس ، وفى مراكز البحث ماكس بوت فى مجلس العلاقات الخارجية، ونورمان بورهرتز وميرياف وورمز فى معهد هدسون ، ومعظم الباحثين فى معهد أمريكان انتربرين، وأعضاء مشروع القرن الأمريكى.

وثمة شخصيات قد لاتحسب مباشرة على الفكر المحافظ الجديد ولكنهم من الأفضل تسميتهم بالقوميين الأمريكيين American Nationalist إلا أنهم وجدوا أن أفكارهم حول الاستثنائية الأمريكية American Exceptional-ism والانفرادية إنما تتماشى مع عقائد المحافظين الجدد ، مثل نائب الرئيس ديك تشينى، ووزير الدفاع رامسفيلد ، والذين كان تأييدهم وراء اندفاع ونفوذ وتأثير أيديولوجيات المحافظين الجدد .

وينتمى أيضا لهذه الشخصيات أسماء أعضاء فى مجلس الشيوخ والنواب أبدوا اهتماماً بحركه المحافظين الجدد: جاك كمب والسيناتور دانيل باتريك مونيهان، وتوم نويت جينجرتش وجوزيف ليبرمان خاصة فى تأييده القوى للعمل العسكرى الأمريكى فى الشرق الأوسط.

وبين هؤلاء تحدث كاجان وكريستول عن تأسيس «مستوى من المنهجية العالمية التي تميل إلى تشكيل بيئة دولية لمصلحتها الخاصة» ، وهما ينتقدان بقسوة التحديد الضيق «لمصالح أمريكا الحيوية» ويجادلان أن أهداف أمريكا الأخلاقية ومصالحها القومية متطابقان ، ويطالبان بسياسة خارجية ودفاعية لاتقدم اعتذارات، ومثالية ومؤكدة وممولة جيداً أكثر من المخصصات الحالية، فأمريكا «لا يجب فقط أن تكون رجل العالم ولكن يجب أن تكون منارته ومرشدته. وفى كتابهما «نهاية الشر» الذى ظهر عام ٢٠٠٣ بعد حروب أفغانستان والعراق، كرر ريتشارد بيرل ودافيد فروم هذه الأطروحات باعتبارها مادة المحافظة الجديدة للسياسة الخارجية فى المستقبل، وفى هذا الكتاب يتناول بيرل وفروم «الإرهاب العالمى» باعتباره تحدي السياسة الخارجية الوحيد للولايات المتحدة .

ولدى بيرل أفكار تفصيلية حول

تطبيق القوة الأمريكية فى كل ركن من العالم، ولكن حين يأتى الأمر إلى الوصول إلى سلام بين العرب وإسرائيل فإنه يقول إن دور الولايات المتحدة مقصور فى أحسن الأحوال على مساعدة خلق دولة فلسطينية صغيرة محيدة «منزوعة السلاح»

أما موقف المحافظين الجدد من العراق فإن الكتاب يرجعه إلى أوائل التسعينات حين وجهوا عام ١٩٩٢ ما عرف بـ Defense Planning Guidance Paper وهى الوثيقة التى حازت تأييد وزيرالدفاع وقتئذ ديك تشينى ، وفى خطاب للرئيس كلينتون فى ٢٦ يوليو ١٩٩٦ ، كما برزت فيما عرف «بمشروع القرن العشرين» الذى وقعه العديد من شخصيات المحافظين الجدد وأيده ديك تشينى، وطوروا تفكيرهم واعتبروا إمكانية أن يكون العراق قادرا على استخدام أسلحة الدمار الشامل ، وفى المدى القصير فإن هذا يعنى الاستعداد للقيام بعمل عسكرى حين تفشل الدبلوماسية ، وقد كان بول وولفيتز وبعد أربعة أيام من ١١ سبتمبر هو الذى شجع على الهجوم على العراق واتفق مع دافيد فروم على أن الولايات المتحدة يجب أن تذهب إلى أبعد من الإرهابيين إلى الدول التي تأويهم. وهكذا وجد ١١ سبتمبر المحافظين الجدد وهم مستعدون تماما لتطبيق فكرهم القديم.

وثمة ثلاثة مواقف ترتبط منذ البداية بالمحافظين الجدد منذ السبعينات: عداؤهم لسياسة الوفاق مع الاتحاد السوفييتى كما تبناها نيكسون وتابعها كارتر حين وصفها بودهرتز على أنها سياسة «تجعل العالم أكثر أمنا بالنسبة للشيوعية» ووصف سياسة كارتر تجاه السوفييت بأنها «ثقافة التهدئة» Culture appeasement وهذا الموقف من الوفاق ومن أسلوب التعامل مع الاتحاد السوفييتى هو الذي قربهم من رونالد ريجان وأيدوا حملته الانتخابية ورأوا فيه أكبر أمل فى احتواء التوسع السوفييتى.

وإن كانوا بدأوا يختلفون معه حين شرع ريجان فى سياسة الاقتراب من السوفييت خاصة مع مجىء جورباتشوف.

وباعتبار أن نضال المحافظين الجدد قد ارتكز على معاداة الشيوعية والاتحاد السوفييتى، فإن انهيار الإمبراطورية السوفييتية قد واجه المحافظين الجدد بسؤال لم يواجهوه من قبل وهو : ماذا يجب أن يكون أساس السياسة الخارجية؟ وقد وجد، وخاصة الجيل الجديد من المحافظين الجدد Young Turks، هذا الأساس فى «الهيمنة العالمية» Universal Domination فى عالم «أحادى القطبية» Unipolar ، وانه مع تراجع الشيوعية فإن تقدم الديمقراطية يجب أن يكون حجر الزاوية فى الأيديولوجية الجديدة للسياسة الخارجية الأمريكية.

والموقف الثانى هو العلاقة مع الأمم المتحدة ونقدهم لها باعتبارها جهازا غير فعال ، وهو الموقف الذى تبناه أيضا رونالد ريجان وجعله يعين شخصية معروفة بنفوذها للمنظمة الدولية هى جين كركباتريك مندوبة للولايات المتحدة فى المنظمة الدولية وكانت هى وبودهيرتز وموبيهان يطالبون بتقييم واقعى لعلاقة الولايات المتحدة مع الجهاز الدولي، وكانوا يعتقدون أن الاتحاد السوفييتى لايحترم الأمم المتحدة كجهاز حل للنزاعات وجهاز للتوازنات ، ومع هذا فإن الولايات المتحدة مصرة على اعتقاد خاطىء فى ميثاق الأمم المتحدة كأداة مفيدة لإدارة السياسة الخارجية الأمريكية.

أما الموقف الثالث الذى ارتبط بالمحافظين الجدد وفكرهم فهو الاهتمام الفائق بشئون إسرائيل وهم يعتقدون أن

التزام الولايات المتحدة بإسرائيل ينبع من طبيعة إسرائيل الديمقراطية وليس الدينية، وهذا التأييد لايعنى أن حركة المحافظين الجدد كانت بشكل مسيطر ظاهرة يهودية، فالحركة قد جذبت مخلصين لها من مختلف الخلفيات الدينية فضلا عن الالتزام بأمن إسرائيل كان مبدأ جوهرياً لكل الإدارات الأمريكية منذ اعتراف ترومان بإسرائيل عام ١٩٤٩، ومع هذا فان بعض المحافظين الجدد يدعون أن العداء لهم هو قناع للعداء لإسرائيل ، وفى نظر المحافظين الجدد فإن الالتزام بأمن إسرائيل والتأييد الوطنى للقيم الأمريكية يرتبطان بشكل لاينقسم . وقد ساعد الموقف من إسرائيل على صياغة مواقف أخرى لحركة المحافظين الجدد مثل موقفهم من أوروبا حين بدأت تميل إلى السياسات العربية، وكان تصور أن أوروبا بعد تقييمها لأمن إسرائيل على بذر بذور العداء لأوروبا بين بعض مثقفى المحافظين الجدد ، وبدأوا يتساءلون كيف تظل الولايات المتحدة قوية لأوروبا فى الوقت الذى تزداد فيه أوروبا فى تأييد إسرائيل ، وكتب عدد منهم المقالات بأن الأمم المتحدة والشيوعية ، ومعظم العالم الثالث معادون للسامية ومعهم عينات كبيرة من المثقفين الأمريكيين، وعلى هذا فقد استخلص المحافظون الجدد أن الولايات المتحدة وإسرائيل يشتركان فى صراع أيديولوجى مشترك ضد أعداء مشتركين.

ولهذا السبب فإنه إذا أراد أحد أن يفهم اتجاه السياسة الخارجية الأمريكية اليوم فإنه يجب أن يقرأ ماذا كان يكتب المحافظون الجدد منذ أكثر من سنوات ، وقد يظن الأمريكيون وحلفاؤهم فيما وراء السياسة أنهم منغمسون ضد الإرهاب ، وهذا جزئيا ما يحدث ، ولكن الجزء الأكبر من نظرية المحافظين الجدد والذى تطور خلال التسعينات وما يؤثر اليوم بشكل كبير أولويات واشنطون له علاقة بالارهاب ، وبدلاً من هذا فإن التركيز على «بروز الصين كقوة قوية ومصممة ومعادية محتملة، واتجاه التطورات المغلقة فى روسيا والتهديد المستمر الذى تفرضه الديكتاتوريات فى العراق وصربيا وكوريا الشمالية» و«الانحدار المتزيد المنذر فى القدرات العسكرية الأمريكية» ، فى ضوء هذا يصبح السؤال هو ما إذا كان اتباع هذه النظرية سوف يلهى أمريكا عن تعقب الإرهاب ، أم أنه سوف يفاقم من خطره.

مع انتخاب جورج دبليو بوش امسك المحافظون الجدد بالفرصة ، فخلال عشر سنوات من الإحباط تلت ما رأوه من نهاية غير ناضجة للحرب فى الخليج ، فقد صقلوا أجندتهم وتطلعوا إلى ممارسة السلطة ، ولكن كان يتعين معهم التصرف بحذر ، وفى البداية أقصى بعضهم مثل وليم كريتسول عن حفلات البيت الأبيض حيث ذكر أنه حذر الجمهوريين من أنه كان من الخطأ تأييد بوش ، وإزاء هذا فإن جورج بوش لم يقترب من السلطة بسياسة خارجية تميل إلى برنامج المحافظين الجدد، وفى خطاب مؤتمر ١٩٩٩ قدم سياسة أمريكية عالمية تقوم على التوازن والجمع بين العناصر السياسة والاقتصادية والعسكرية والثقافية واعتبر «أن القوة العسكرية ليست هى المقياس النهائى للقوة» «دعونا نلفظ غمامات الانعزالية» ومثلما نرفض تاج الإمبريالية دعونا لانسيطر على الآخرين، ودعونا نحصل على سياسة خاصة أمريكية تعكس تواضع القوة الحقيقية، وتواضع العظمة الحقيقية» وأكثر من هذا فإن المرشح بوش كان يرفض الأفكار الضخمة حول إعادة صياغة المجتمعات أو إعادة بنائها أو تأييد العمليات العسكرية فى مناطق لاتمثل مصلحة حيوية للولايات المتحدة. وكان يميز

بين السياسة الخارجية فى عهده وبين سياسة كلينتون «المدفوعة بالافكار» وهو يؤمن «بناء الأمة» ولكنى «سأكون حريصا جدا فى استخدام قواتنا لبناء الأمم» .
ومقارنة هذه الأفكار التى طرحها بوش خلال حملته الانتخابية بممارسات إدارته فى أعوامها الأولى، إنما يكشف عن أنه عندما تحول بوش إلى المحافظين الجدد بعد ١١ سبتمبر فقد ظهر كمن اهتدى إلى مذهب جديد قائم على الحدس والشخصية أكثر منه عن اقتناع عميق . وكان على المحافظين الجدد من أمثال ريتشارد بيرل أن يجتمعوا من أجل الوصول إلى بوش. ورغم هذا فإن تركيز بوش على إعادة بناء القوة ورؤيته للمصلحة القومية وافتقاده إلى أفكار قوية مسبقة عن السياسة الخارجية قدم الأمل للمحافظين الجدد، وكان قد مضى وقت طويل حتى وجد عدد منهم طريقهم من مراكز البحث والجامعات ومكاتب المحاماة التى قادت السلطة فى واشنطون وتولوا مراكز رئيسية فى البتاجون ومكتب نائب الرئيس ومجلس الأمن القومى ومن هذه المراكز المترابطة استطاعوا أن يدعموا بعضهم البعض وحول برنامجهم الذى صاغوه بمشقة فى الحقبة الماضية وحتى جاءتهم الفرصة بعد ١١ سبتمبر كانوا أكثر استعدادا من أى أحد فى الإدارة لكى يجمعوا البلد حول رؤيتهم للعالم، ووضعوها فى موضع المواجهة العالمية والإمبريالية التبشيرية، وكان أهم ماحققوه هو أنهم دفعوا بوش والأمة للحرب على الإرهاب أن يغير من البيئة الاستراتيجية ، وأن يتحول من المرشح «المتواضع» إلى الرئيس الذى تستند رئاسته على الضربة الاستباقية الأحادية وعلى الإيمان بالعصر الألفى لبناء الأمم Nation Building وقد كان مفتاح نجاحهم هو أنهم ، على عكس غيرهم من صناع القرار ، لم يكن عليهم أن يتوقفوا لكى يتأملوا أو لكى يتجادلوا حول أفضل طريق للعمل، ولكن لكى «يقدموا توصيات محددة» وهكذا كانت أجندة المحافظين الجدد بعد ١١ سبتمبر بعيدة كل البعد عن المحافظة المتوازنة التي شكلت جوهر خطاب بوش في نوفمبر ١٩٩٩ والذى تحدث فيه عن «المثالية» بلا أوهام ، والثقة ، بدون خيلاء ، والواقعية فى خدمة المصالح الأمريكية. وقد تكون كلمة «الاختطاف» قاسية ولكن ليس هناك وصف أفضل لما حدث فقد كان على أمريكا والعالم أن تعيش النتائج ولفترة طويلة بعد أن يكون المحافظون الجدد أنفسهم قد أصبحوا ذكرى ولم ينعكس هذا التحول الذى أحدثه المحافظون الجدد مثلما انعكس فى خطاب بوش عن حالة الاتحاد فى ٢٩ يناير ٢٠٠٢ والذى وصف فيه إيران والعراق وكوريا الشمالية «بمحور الشر» وبعد اعترافه بأن بعض الحكومات قد تكون مترددة فى وجه الإرهاب فإنه قد حسم الأمر بقوله «إذا لم يتصرفوا فإن أمريكا سوف تتصرف» ، وفي هذا الخطاب قدم أول الإشارات عن سياسة الضربة الاستباقية بقوله «لن أنتظر الأحداث» وحذر أنه «مع تجمع الأخطار فلن أقف اتفرج بينما الخطر يقترب» وبهذا البيان فإنه لم يغير سياسة الولايات المتحدة الخارجية ولكنه ألمح إلى أن سياسة أكثر أمنا يجرى العمل بها . وفى بيانات حذر من امتلاك الإرهاب لأسلحة الدمار الشامل وأن على الولايات المتحدة أن تقوم بعمل قبل الحصول على هذه الأسلحة، «فالأخطار الجديدة تتطلب تفكيرا جديدا» و «إذا ما انتظرنا التهديدات لكى تتحقق فسوف نكون قد انتظرنا طويلا جدا» و «الحرب على الإرهاب لن تكسب ونحن فى موقع الدفاع» و«إن الأمة سوف تتصرف وأن هذا سوف يعتمد على أن يكون كل الأمريكيين

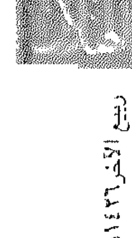
مستعدين للعمل حين يكون ضروريا للدفاع عن حريتنا وعن حياتنا».

استراتيجية الأمن القومي

أما الوثيقة الثانية التي عكست تفكير المحافظين الجدد فقد كانت هى وثيقة «استراتيجية الأمن القومى» التى أعلنها بوش في ١٧ سبتمبر ٢٠٠٢ ، وهي الوثيقة التى ليس لها أمثلة قليلة فى التاريخ الحديث للسياسة الخارجية الأمريكية، بعض الرؤساء الأمريكيين فى الماضى قد فكروا فى أعمال إجهاضية وكان أكثرها قربا هى الأعمال العسكرية فى بنما وجرينادا ، ولكنه لم يحدث من قبل أن صاغ رئيس أمريكى نظرية قومية التى تضمنت العمل الاستباقى.

وقد كان تركيز المحافظين الجدد والبنتاجون المباشر على العراق بعد أحداث ١١ سبتمبر مثار الخلافات بينهم وبين وزير الخارجية باول من ناحية وبين ديك تشينى ورامسفيلد من ناحية أخرى، فى هذا النقاش رد باول أن تصرفات الإدارة يجب أن تأخذ فى الاعتبار تأييد الرأى العام الأمريكى الذى يركز الآن على القاعدة ، ولم يكن هذا الخلاف جديدا بل إنه برز أيام حرب الخليج الأولى، وبدلا من التركيز على القوة بعد ١١ سبتمبر ، وبعد تأكيد وولفيتز أن الأسلوب القديم فى مكافحة الإرهاب لم يعد مقبولا ، حث باول على أن يكون المكون العسكرى محدودا وعلى أن يكون الرد الأمريكى واسع النطاق ويشمل الوسائل السياسية والمالية والقانونية والدبلوماسية ، وإذا لم يكن المكون العسكرى محدودا فإن الحملة ضد الإرهاب ، قد تبدو كحرب ضد الإسلام وتتحول الحملة الأمريكية إلى مقدسة . وفى مقابل اعتبار البنتاجون سوريا كراعية للإرهاب ومنتجة لأسلحة الدمار الشامل ، اعتبرتها وزارة الخارجية كعنصر استقرار في لبنان ولاعب هام فى عملية سلام الشرق الأوسط، وهكذا شجع باول علاقات أمريكا مع سوريا. أما الفكرة التى تبناها المحافظون الجدد فى الفترة التى سبقت الحرب على العراق فهى إعادة صنع الشرق الأوسط ، وبدت العراق وكأنها تقدم أفضل أمل فى إطلاق هذا الجهد، وقبل الحرب قال بيرل «إن هناك إمكانية ضخمة فى تحويل المنطقة فإذا ما سقط مستبد مثل صدام حسين فإن الآخرين سوف يبدأون فى التفكير» ، ويبدو أن مستشارة الأمن القومى كونداليزا رايس قد دعمت موقف المحافظين الجدد بمقارنتها المهمة فى العراق بإعادة بناء أوروبا بعد الحرب الثانية ، وهنا يكمن أكثر التيارات مدعاة للقلق فى اختطاف المحافظين الجدد للسياسة الخارجية الأمريكية ألا وهو الافتقار للحقيقة فى السياسة.

وفى مناقشة كيف استجابت الولايات المتحدة على المستوى الداخل لأحداث ١١ سبتمبر وتأثير ذلك على القيم الأمريكية فى الحرية الفردية والمدنية يقدم الكتاب رؤية المحافظين الجدد التى قامت على أن الولايات المتحدة في حالة حرب مشابهة للحرب العالمية الثانية، وأن كل الطرق التى كانت متاحة للحكومة خلال هذه الحروب يجب أن تتبع فى الحرب على الإرهاب وضمان سلامة الجمهور، ولم يظهروا أى تأنيب للضمير تجاه التشريعات التى ظهرت منذ ١١ سبتمبر بل واعتبروا أن معارضتها هى من قبيل «الهيستريا المدنية» ، وهو ما جعل بعض الأكاديميين يرون هذه الصورة لأمريكا«كإمبراطورية الخوف» ، ويقدمون رؤية بديلة لأمريكا تقوم على الالتزام بالقيم الأمريكية وليس بقواعد وقيم خصومها ، وتخشى هذه الرؤية أن المناخ الذى أثاره المحافظون الجدد وحديثهم عن الحرب الرابعة ، وما يستتبعه من التعدى على الحريات المدنية سوف يكون من الصعب تعديله فى المستقبل خاصة وإذا ما شق المحافظون الجدد طريقهم فإن أمريكا لن ترى «زمنا للسلام» فى المستقبل القريب. ■





نقلت بخط اليد ثمانمائة صفحة من كتاب الأحلام لسيجموند فرويد

جمال الغيطاني

رغم أن أقدم لحظة في ذاكرتي تمت إلي سماء القاهرة إلا أن المكان المهيمن بدون لحظة معينة أو صورة محددة يمت إلي الصعيد ، إلي جهينة ، القرية التي كانت تابعة لمديرية جرجا عندما جئت إلي الدنيا في التاسع من مايو عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف .

أرحل بالذاكرة والحنين إذن إلي مكانين ، أعتبر نفسي محصلة لهما ونتاج «جهينة» التي ولدت فيها يوم انتهاء الحرب العالمية الثانية، كما عرفت فيما بعد ، عندما كنت أقلب الكتب القديمة والصحف فى دكان الحاج دياب تاجر الورق فى الجمالية ، كان ذلك في نهاية الخمسينات ، عندما عثرت علي عدد من جريدة الأهرام ، صادر صباح الأربعاء التاسع من مايو ١٩٤٥ ، عنوانه الرئيسي «استسلام ألمانيا وانتهاء الحرب في أوروبا» ، كان من أربع صفحات فنية ، هكذا أدركت المناسبة التي جئت فيها إلي الدنيا والتي مضي عليها الشهر الماضي ستين سنة قدر لي أن أبلغها .

يهيمن عليّ الصعيد ، يشكل الخلفية المستمرة

لوعيي ، ثمة يقين خفي أن المكان الذى يشهد وفادتنا يهيمن علينا ويؤثر فينا بشكل ما ، اضافة إلى ذلك كان والدىّ يحتفظان بلغتهما الجنوبية ، ويعيشان دائما فى أخبار البلدة ، من جاء ومن رحل ، من مات ومن ولد ، كان لدى الوالد حنين قوى إلى جهينة . بل يمكن القول إنه يعيش فيها ، يتابع أدق أخبارها ، ورغم أنه أمضى فى مصر حوالى نصف قرن إلا أنه كان يعتبر إقامته فى القاهرة مؤقتة، وأنه بعد التقاعد سيعود إلى البلدة . فى الصيف نرحل جنوباً ، نقضى شهور الاجازة الصيفية هناك ، ربما لذلك أفضل زيارة الصعيد فى يونيه ويوليه واغسطس الآن وخلال السنوات الماضية التى أقصد فيها الأقصر بالتحديد ، حيث أقيم فى بيت يشبه البيت الذى ولدت فيه بجهينة ، مبنى بالطوبة الخضراء (اللبن) وسقفه من جذوع النخيل ، فى شهور الصيف استعيد سفرنا إلى جهينة ، فى الوقت نفسه انفرد بالآثار المصرية القديمة حيث يخف عدد السائحين . هكذا يتاح لى التأمل والإمعان فى الثقافة المصرية القديمة والتى أعيد اكتشافها فى السنوات العشرين الأخيرة ، إذن للصعيد الهيمنة الأولى على الذاكرة ، رغم أننى لم أمكث فيه بشكل متصل ، ولا أتذكر أى صورة فى وعيى من الأيام الأولى ، بل من الشهور الأولى لوفادتى، أما اللحظات التى أعيها جيداً فتمت إلى تلك الإقامة الصيفية ، بالتحديد فى بيت خالى محمد على باشا (الباشا اسم العائلة وليس لقبا)، أمام الغرفة التى ولدت فيها . تحت جدار به تجويف داخله لمبة «ساروخ» ، إلى جوار جدتى عائشة . تلك الجلسات ، تلك الأمسيات التى نخلو فيها معاً بعد خروج أمى إلى نساء العائلة ، ربما تكون أحد مكوناتى الأولى .

جدتي مهابة

جدتى نحيلة القوام ، طويلة ، قوية الحضور ، لحضنها رائحة كرائحة الخبز ما تزال فى أنفى ، ترتدى السواد دائماً ، ترملت فى مقتبل عمرها ، ربما فى العشرين ، تفرغت تماما لتربية ورعاية ابنها وابنتها الصغرى ، رفضت كل عروض الزواج، وأصبحت مهابة ، هذا وضع معروف فى الصعيد ، كان زوجها – جدى – بمنزلة شيخ القرية ، اشتهر بصوته الجميل فى إنشاد مدائح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد ادركت من أهالى جهينة من يذكره جيدا ، ومنهم الشيخ عبد اللطيف محمد على ناظر المدرسة الوحيدة حتى الخمسينات ، رحمة الله عليه ، درس الجد فى المعهد الأزهرى بطهطا . ولم يتم تعليمه فى الأزهر ، عاد إلى جهينة ليصبح مأذونا ، وإماما للمسجد ، ومداويا للأوجاع بواسطة التعاويذ والأحجبة والوصفات القديمة . لم أره ، كما لم أر جدى وجدتى لأبى ، فقد أصبح أبى يتيما وهو ابن عامين ، وعاش حياة شاقة كان يلخصها فى قوله لى :

«أنا اعلمكم واشقى من أجلكم حتى لا تروا ما رأيته ..»

تفاصيل حياته كما عرفتها منه ومن أقاربنا ومن صحبه كانت إحدى المصادر لكتاب التجليات الذى بدأته فور رحيله المباغت عام ثمانين من القرن الماضى ، القعدة إلى جوار جدتى من معالم ذاكرتى ،

في البيت صندوق خشبي كبير ، «سحارة» بها مجموعة كبيرة من الكتب . بعضها مخطوط ، من الصفحات التي أكاد أراها أمامي الآن مسطورة بخط اسود، العناوين بخط لونه أحمر ، اسم المؤلف «القاضي عياض» . لا أذكر العنوان . عناوين أخرى ماثلة . شرح نصوص الحكم للشيخ الأكبر ، شمس المعارف الكبرى ، أوردة وأذكار ، كتب مطبوعة ، ورق أصفر ، اجزاء من طبعة قديمة لسيرة الظاهر بيبرس ، سيرة عنترة بن شداد ، مدائح نبوية اشتهر بإنشادها خاصة عند بدء التحنين إلى الأراضي المقدسة التي لم يبلغها .

اقرأ لجدتي من سيرة الظاهر بيبرس ، من سيرة عنترة ، أذكر عبارات بنصها «وثار الغبار حتى سد منافذ الأقطار» و«انشد يقول..» و«لما فرغ سقط مغشيا عليه» .

اقرأ على الضوء المهتز . المرتعش للفتيل المنبعث من اللمبة المصنوعة من الصفيح ، احاول تغيير نبر صوتي عند قراءة الشعر ، لا أدري الآن . هل كانت جدتي تصغي حقاً أم تتظاهر بالاصغاء ارضاء لي أو قطعا للوقت حتى يحين موعد عودة أمي وامرأة خالي . هل كانت تحضر معي أم ترحل عبر ذكرياتها بالتأكيد كنت اعرف القراءة وقتئذ ، لكن ربما جرى بعض ذلك قبل دخولي مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية» إذ أنني عرفت القراءة قبل دخولي المدرسة ، كيف كان ذلك ؟

كان والدي يفك الخط ، يقرأ بصعوبة ، كان حريصا على شراء جريدة المصري صباح كل جمعة ، مازال العلم الذي كتب فوقه العنوان يرفرف عندي بلونه الأخضر الخصب وهلاله الأبيض ونجومه الثلاثة ، كانت أصباح الجمعة من أوقات صفوه ، يمسك الجريدة بيديه . ثم يبدأ القراءة المتأنية ، من العناوين إلى التفاصيل ، أثناء ذلك يشير إلى الحروف بأصبعه ، هكذا حفظت شكل الحرف قبل أن أعرفه من المدرسة ، كنت أتعجل القراءة والكتابة ، في نهاية السنة الأولى الابتدائية كتبت أول خطاب إلى خالي ، أملاه عليّ الوالد ومازلت اذكر نظرته عندما امسك بالورقة وتطلع إليّ !

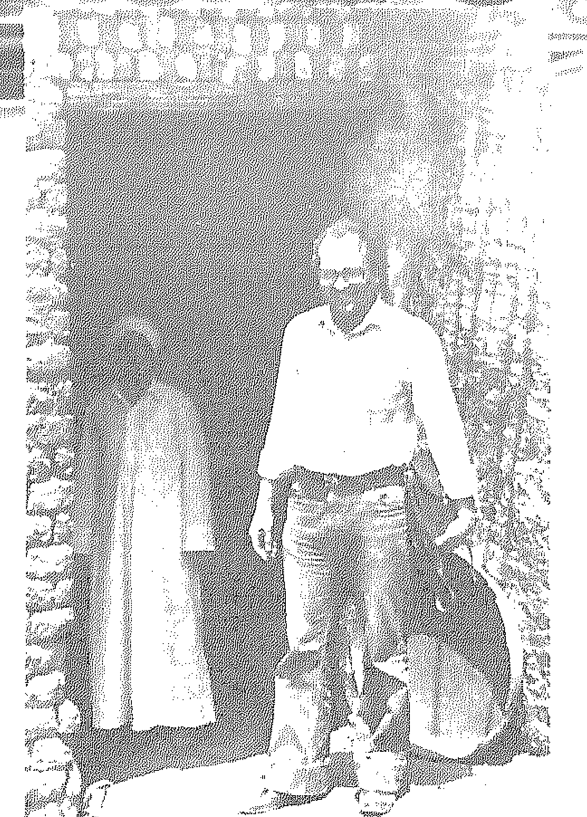
في الصعيد يمتزج الواقع باللاواقع، أصغي مبهوراً إلى حكايات الجان الذين يظهرون في الخلاء ، والعفاريت الذين يظهرون بعد مقتل أصولهم البشرية . كانت الطرق واجزاء الحقول تعرف باسماء العفاريت الذين يسكنون السواقي المهجورة والمغازات المظلمة ، أذكر أسما منهم ، «شكيتح»، كنت أصغي إلى حكايات المساخيط في الجبل الغربي ، هكذا يطلقون على تماثيل الفراعنة والمومياءات التي كان بعض الفقراء يفكون الكتان ويعودون ليستتروا به بعد تفصيله جلابيب . لكم أصغيت مبهوراً ، مطلقا لخيالي العنان، خائفاً ، متطلعا ، إلى ما يروى على سمعي ، كان اللاواقع الموجود في الواقع من أقوى عناصر المكان الذي ولدت فيه . لعل ما سمعته عن المخلوقات غير المرئية

فى الصعيد أو الجمالية . وكرامات الصوفية وسير أولياء الله والحكايات التى تتردد عن المساخيط فى الجمل (التماثيل والآثار الفرعونية من الزمن القديم) من مصادر استثارة الخيال قبل معرفة القراءة والعوالم التى قادتنى إليها .

القاهرة القديمة

درب الطبلاوى المتفرع من شارع قصر الشوق . بداخله عطفة قصيرة كالحياة اسمها عطفة باجنيد ، لابد أنه حضرمى فالحضارمة تبدأ اسماؤهم بـ (با) ، لكن من هو بالدقة ؟ لم أعرف . تضم العطفة ثلاثة منازل ، فوق سطح الأول منها أقمنا ، وإليه تمت أول الصور فى وعيى أول صورة بقيت فى الذاكرة من ليلة دامسة . عمرى ثلاث سنوات تقريباً . اخرج بصحبة أبى وأمى التى تحمل شقيقى اسماعيل ، إذن .. ربما كان ذلك فى ابريل عام ثمانية واربعين ، نتجه إلى الطابق الأسفل . حيث يتجمع السكان فى شقة الحاج أحمد عمر التاجر من طهطا وزوجته السيدة وجيدة ذات الأصول التركية ، لهما ابنة اسمها «ثريا» مازال لون عينيها الأخضر وجمالها الأشم ماثلاً عندى .

ننزل إلى الطابق الأرضى تلبية لنداء رجال الدفاع المدنى ، وبعد سماع صفارات الإنذار ، غارة جوية . سماء سوداء جدا . نجوم قريبة وأخرى بعيدة، أذرعة الضوء العملاقة المنبعثة عن كشافات الدفاع الجوى تمسح السماء بحثاً عن الطائرات المغيرة ، فيما يلى ذلك من أزمنة ، بعد أن عملت مراسلاً حربياً ،



الغيطانى أمام البيت الذى ولد فيه - جهينة ١٩٨٠

علمت أن سلاح الجو الاسرائيلى شن غارة جوية وحيدة على القاهرة ، إنها تلك الغارة التى قدر لذاكرتى الاحتفاظ بأول الصور التى تبقت معى حتى الآن . ما سبق هذه اللحظة يدخل فى العدم الذى عشت عبره ثلاث سنوات .

صورة تالية . أقف إلى جوار أبى ، بينما يقوم هو بنصب السرير الحديدى اسود القوائم بمساعدة أمى ، فوق حشية فى ركن الغرفة، اسماعيل شقيقى ، طفل ابن شهور معدودات . ملفوف فى قماط أسود ، على جبهته علامة مستديرة من البن ، كان جميل الصورة ، ويبدو أن تلك العلامة درءاً للحسد ، خاصة أنها فقدت أول ابنائها خلف ، والذى اطلق عليه الوالد اسم المرحوم المستشار خلف الحسينى

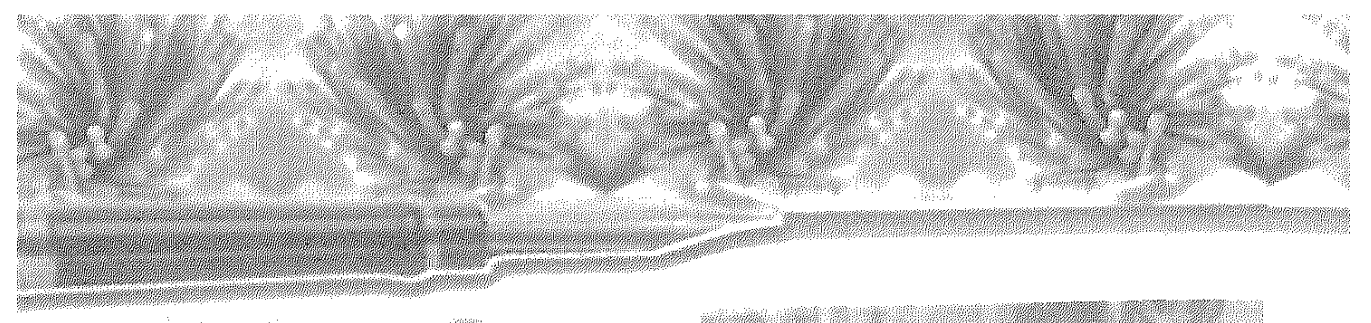


الذى كان سببا فى جريان رزقه وتعيينه فى وزارة الزراعة ، فقدت أيضا ابنها الثانى كمال الذى توفى على باطها أمام فرن الحاج ناصيف الذى يتوسط الدرب أثناء عودتها من عيادة الطبيب ، أنا أول من قدر له أن يعيش .

هذه الحجرة ، هذا السطح ، أول سمات عالمى الأول ، منه كنت أرى مآذن مسجد مولانا الحسين ، والأزهر، والرفاعى والسلطان حسن ، أينما وليت الوجه ثمة مآذن . مئذنة سيدنا الحسين أقربها ليس بقياس المكان . ولكن إلى قلبى ، عند الظهيرة أرى شيخاً يطوف الشرفة الدائرية رافعاً الآذان ، كنت اعجب ، لماذا يبدو صغيراً جداً هكذا ، بامكانى الاستماع إلى صوته ، لكنه عندما يتجه إلى الجانب الآخر يختفى ، فى السماء تعبر الطائرات قادمة من الجنوب إلى الشمال . فى اتجاه المطار، كثيرا ما تعلقت بها ، ربما لطول تحديقى كنت أتمنى أن أصبح طياراً ، وبعد حصولى على الشهادة الاعدادية تمنيت لو ألتحق بمدرسة الطيران ، لكن لم يتم ذلك ، محيت هذه الرغبة تماما ، لكنها ربما تكون وراء هذه العادة التى تدفعنى إلى رسم اشكال مختلفة من الطائرات على الورق كلما استغرقت فى التفكير ، أيضا اهتمامى بكل ما يتصل بالطيران وصولا إلى الصواريخ وسفن الفضاء وإن كانت هذه الأخيرة تتعلق باهتمامى الشديد بالكون ، والفلك كامتداد لسؤالى الأول والأخير عن كنه الزمن وكافة ما يتصل به من سكون وحركة . من دوران أفلاك ، من حياة وموت وحياة ، فوق السطح أيضا كانت والدتى تجلس مدداً طويلة ، إما فى الشمس أيام الشتاء ، أو مطرقة تفكر ، أو أمام طشت الغسيل ، تغنى مقاطع من أغنيات صعيدية تفيض بالحنين والشجن إلى جهينة .

إلى جوارها كنت أقعد بعد التحاقى بالمدرسة الابتدائية ، أحكى لها عن ممرات سرية فى المبنى ، عن تقسيم الطلبة إلى مجموعات ، توزيع اسلحة عليها ، نشوب قتال فيما بينها ، أفصل هذه المعارك . كانت تصغى مبدية الجزع أحيانا ، أو تحذرنى من المخاطر ، ألا أعود إليها ، كنت أحدثها عن ممرات سرية تحت الأرض ، وتماثيل تتكلم ، وبيت مهجور فيه غولة تطل احيانا من النافذة وتشفط أحد الأطفال السائرين ، حتى الآن ، لا أدرى ، هل كانت تصدق اكاذيبى البيضاء ؟ أو أنها كانت تسايرنى . أيا كان الأمر ، فإصغاؤها يعد أول منشط لخيالى ، ومشجع له على الانطلاق .

داخل الحجرة ، يتمدد والدى فى أوقات الصفو ، يقرأ استقالة متخيلة فى الصحيفة التى يواظب على شرائها صباح كل جمعة ، من النافذة الوحيدة التى تطل على الدرب كنت أتابع أصوات الناس ، أحيانا أصغى إلى أبى مبهوراً بما يحكيه عن حروب دارت فى جهينة ، وعن المعارك الكبرى بين «البسة» والاميرهمام زعيم الهوارة ، يروى شعراً مازال مكتوبا فوق





ومع الشاعر ممدوح عدوان فى الجبهة السورية - أكتوبر ١٩٧٣



الغيطانى أثناء عمله بالجمعية التعاونية خان الخليلى ١٩٦٧

بيت البسة فى جهينة حتى الآن يسجل الانتصار على الاميرهمام . كان يحكى عن أدهم الشرقاوى ، وعن الخط . وعن مصطفى أبو هاشم ابن جهينة الذى يعتبره الأمن من المطاريد وتمكن من قتله ، لكن تحول إلى اسطورة ورمز للشهامة والرجولة وتحدى السلطة الغاشمة حتى الآن ، كان يحفظ ، ربما لو أتم تعليمه لأصبح مبدعا بشكل ما . عند جاء فى العشرينات من الصعيد كان معه خمسة وعشرين جنيها أو ادخرها وسلمها إلى شيخ مقيم فى القاهرة ، موثوق به . على أساس أن ينفق عليه منها اثناء دراسته بالأزهر ، لكن الشيخ الموثوق به خان الأمانة وتبدل مسار الوالد تماما وقد دونت بعضا منه فى كتاب التجليات .

* * *

امبارح راح فين ؟

متى تردد هذا السؤال عندى لأول مرة ؟

أين بالضبط ؟

لا أدرى ، ولا يمكننى التحديد ، كأنى ولدت به لقدمه وامعانه عندى ، أو اثناء صحبتى لوالدى عند ذهابه لزيارة الاضرحة والأولياء كان يزور كافة المشايخ والأولياء ، كبيرهم وصغيرهم . وكثيرا ما صحبنى . حتى إلى قبور الراحلين ، ومن قبر الشيخ مصطفى المراغى ارتبطت عندى رائحة الريحان بالموت الذى لم أكن افكر قط فى هذه الأيام الأولى . ولكن هذا السؤال تردد عندى اثناء تحديقى إلى أفق القاهرة من فوق السطح .

متى ؟

لا يمكننى التحديد .

لقد انتقلنا من هذه الحجرة إلى شقة



من حجرتين فى عمارة حديثة تقع فى مواجهة خانقاه بيبرس ، أحد أجمل وأرق المبانى الإسلامية ، بيت عليش ، وكانت اسرة لديها مخابز فى الجمالية ، كان عمرى وقتئذ عشرة اعوام تقريبا .

قبل انتقالنا هذا اذكر أننى سألت أبى فى ساعة صفو أثناء جلوسنا فوق السطح

«امبارح راح فين ؟» .

تطلع إلى صامتا ، لم يجب ، مع أنه كان يرد على كافة ما استفسر عنه، مازلت اذكر عينيه المثقلتين بشقاء وكدد عظيمين .

ترى ماذا دار بخلده ؟

هذا ما سأرحل عن الدنيا ولن أعرفه أبدا . لكن ما أدركه تماما أن هذا الاستفسار الذى كنت اردده بينى وبين نفسى ، ثم استمر وتصاعد ، وتعقد ، مازال هما يلازمنى ، خاصة مع إدراكى الأتم أن للآجال حداً ، وأن ما مضى أكثر مما تبقى .

ولو فصلت ما يثيره عندى هذا السؤال ، لما توقفت ، ولكن أظن أنه كان مدخلا لقراءتى التلقائية للتاريخ ، للتراث .

* * *

يمكننى تحديد أول كتاب اقتنيته ، لكننى لا اقدر على تحديد اول كتاب قرأته

كان ذلك أول أيام العيد . بعد أن أدينا الصلاة فى مسجد الحسين مررنا ببائع صحف يعرض مجلات وكتباً جديدة ، كنت امتلك خمسة قروش مقدار عيدتى . لمحت رواية «البؤساء» لفيكتور هوجو ، كانت ترجمة بيروتية صادرة فى سلسلة عنوانها «روايات اليوم» ، اشتريتها بالقروش الخمسة ومضيت إلى البيت سعيدا ، التهمت صفحاتها . ومازلت اذكر شعرا ورد على لسان جان فالجان اثر سقوطه فى أحداث ثورة باريس .

سقطت بوجهى إلى الثرى
وداعا رفاقى إلى الملتقى

كان ذلك أول كتاب أقتنيه . وقد فقد منى فيما بعد ، ولكن قراءاتى الأولى بدأت من مكتبة المدرسة ، مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية ، ومدرسة الحسين الاعدادية .

قرأت مجلدات مجلة «سندباد» التى أصدرها المرحوم محمد سعيد عريان ، وكانت تتخذ شعارا «مجلة الأولاد فى جميع البلاد» وانطبعت رسوم الفنان بيكار فى ذاكرتى ، قرأت سلسلة كتب اولادنا التى تصدرها دار المعارف ، «جحا في جانبولاد» «بينكيو» وغيرهما ، وكتب كامل كيلاني .

ولكن تعرفى على الشيخ تهامى كان بمثابة نقلة كبرى فى مسار قراءاتى . كان الشيخ تهامى أسمر اللون . الممتلىء قليلا من اسوان ، جاء ليدرس فى الأزهر . لكنه لأسباب لا أدريها لم يتم دراسته واحترف بيع الكتب المستعملة ، كان يتخذ مقرا له فوق الرصيف المجاور لباب الأزهر

الرئيسى، أكوام من الكتب ، يفردها للعرض نهارا ، ويجمعها ليلا لينام فوقها ، وكان لديه دكة صغيرة يخصصها للأطفال الصغار الذين يجلسون فوقها ليقرأوا ما يريدون مقابل تعريفة . وحتى سنوات قريبة كانت الدكة ماتزال موضعها ولكن أمام الكشك الذى حصل عليه وكذلك زملاؤه بعد أن طالبت بإعطائهم تصاريح بعد عملى فى جريدة الأخبار عام تسعة وستين وتسعمائة والف واستجابت المحافظة ومشيخة الأزهر . وهكذا عرف باعة الكتب المستعملة الاستقرار بعد أن كانت تطاردهم الشرطة شأن الباعة الجائلين .

عناصر التكوين

من كتب الشيخ تهامى وزملائى بدأت اقرأ . قراءة تلقائية ولكننى مؤخرا وأنا امعن النظر فيما مضى اكتشفت بعضاً من عناصر التكوين فى تلك القراءات .

كان الشيخ تهامى وزملاؤه يبيعون الكتب المستعملة للقراء من أبناء المنطقة، وطلبة الأزهر ، الروايات وكتب الفقه والتراث وكتباً متنوعة . ومازلت اذكر سيدات شابات كن يجئن إليه ، لم يكملن تعليمهن فرحن يستعرن منه الكتب ، خاصة الروايات ، تشترى الواحدة منهن الرواية وتبدلها مقابل قرش صاغ بأخرى . واذكر شابة فارهة سمراء ، جميلة ، فسيحة العينين، كانت تجىء وتجلس فوق الدكة فيزداد التصاق ملاءتها اللف بجسدها الفتى ، تجلس قليلا لتستعرض العناوين ، ثم تمضى ، كان اسمها فرنسا ، وكنت ولم ابلغ بعد العاشرة أسر كثيرا عند رؤيتها ولكننى لا اطيل النظر إليها خجلا ، واظن أننى بادلتها الحوار مرات ، وكان طبعا حول الروايات ، إلا أنها كانت تفضل الروايات العربية ، خاصة روايات احسان عبد القدوس ، ومحمد عبد الحليم عبد الله . وأمين يوسف غراب ، ويوسف السباعى وكانت كتب الأخير فاخرة الطباعة . ولهذا كان يعيرها الشيخ تهامى بحرص .

قراءاتى بدأت تشكلنى

لكننى كنت أفضل قراءة الروايات المترجمة . وفى هذه السن بهرنى أرسين لوبين ، هذا اللص الشريف الذى كان يسرق من الأغنياء ويعطى الفقراء ، وقد تخيلته إلى درجة أننى رسمت له ملامح شخصيته بخيالى بحيث كنت اوشك أن أراه فى الطريق يسعى . ولأننى اعيش فى حارة يسكنها فقراء . ولأننى انتمى إلى اسرة يعانى عائلها كثيرا ، كنت أحلم بإنشاء جماعة سرية ، تسرق من الأغنياء وترسل المساعدات إلى الفقراء، تماما مثل أرسين لوبين ، وربما كان ذلك أول خطوة فى اتجاه الاشتراكية التى اعتنقت مبادئها بعد سنوات قليلة، قرأت شارلوك هولز ومغامرات روكامبول ، ومغامرات جونسون ، وبن جونسون ، وطرزان الذى احببت أمه القردة لايكا . كانت الكتب قديمة مطبوعة فى القاهرة ، بدايات القرن فى المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على أو فى روايات الجيب ، أو فى طبعات بيروتية .

غير أن روايات الجيب التى كان يصدرها عمر عبد العزيز أمين كانت بمثابة نقلة أخرى فى مسار قراءاتى . وهذا



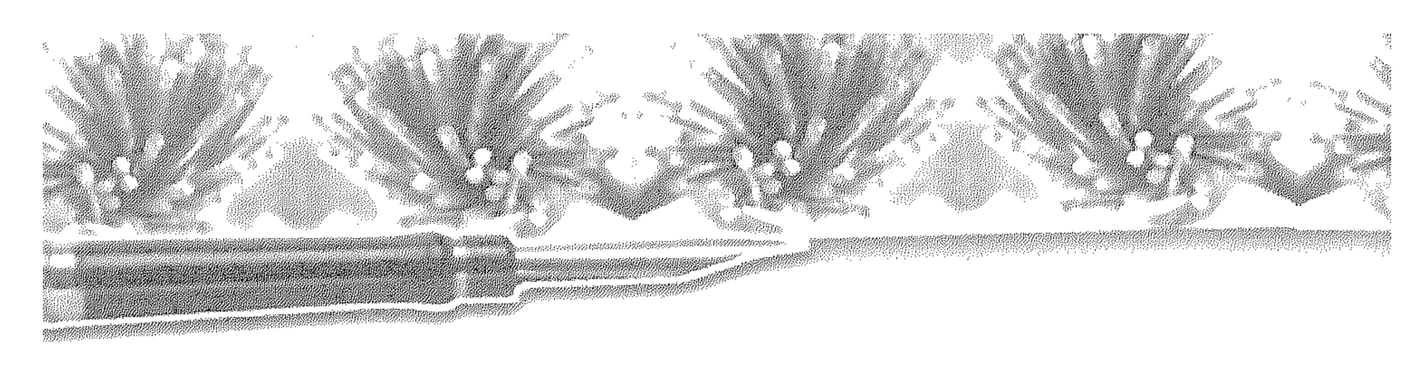
الرجل لم يلق ما يستحقه رغم الدور الكبير الذى لعبه فى تقريب الأدب العالمى . فى روايات عالمية التى كانت قديمة وقتئذ ، إذ أنها كانت تصدر فى الثلاثينيات والاربعينيات قرأت ترجمات موجزة لدستويفسكى ، وستيفان زفايج . واميل زولا . وبلزاك . واسكندر ديماس الأب ، والابن ، قرأت عددا هائلا من الروايات عن الثورة الفرنسية لرفائيل سباتينى، قرأت عن سكاراموش النبيل ، ومغامراته ، وروايات تدور حول المآسى التى تعرض لها النبلاء بعد الثورة ، وأذكر أننى كنت أحفظ أسماء مناطق فى باريس ، وبعض الشوارع ، وشعرت بحب إنسانى تجاه دارتنيان النبيل أحد الفرسان الثلاثة فى رواية اسكندر ديماس ، وعندما قرأت مشهد مصرعه بكيت حزنا ، تماما كما شعرت بألم عميق لما عاناه أحدب نوتردام كازيمودو إلى درجة إننى مشيت على مهل محدبا نفسى مثله ، مشفقا وأى اشفاق على صعوده البرج وقرعه الأجراس . ثم ضربه بالسياط .

لم يكن هناك فارق بين الواقع والخيال ، بين ما أعيشه فى اليومى وما اتخيله مع قراءاتى ، حقا .. كان ذلك عصر القراءة الذهبى .

قرأت روايات جرجى زيدان كلها فى رمضان ، لا أذكر السنة على وجه الدقة ، وملحمة عنترة بن شداد (ثمانية مجلدات) ، و (سيف بن ذى يزن) و(الأميرة ذات الهمة) و(الزير سالم) و(تغريبة بنى هلال) و(ألف ليلة وليلة) ، وكانت هذه الملاحم تطبع بواسطة مكتبات تقع فى شارع الصناديقية ، وللأسف توقفت الآن ، ونفدت نسخها .

قادتنى قراءتى للروايات المكتوبة عن الثورة الفرنسية إلى قراءة كتب عن تاريخ هذه الثورة ، ومن الكتب التى قرأتها باستمتاع وكانت أول خروجى من دائرة الروايات ، كتاب (قضايا التاريخ الكبرى) لمحمد عبدالله عنان وله أيضا « تاريخ الجمعيات السرية» .

كذلك الأمر بالنسبة لجرجى زيدان، إذ بدأت أبحث عن كتب تروى هذا التاريخ ، وأذكر أننى قرأت تاريخ مكة للازرقى ، وتاريخ ابن كثير ، وحياة محمد لمحمد حسين هيكل وأنا فى الثانية عشرة ، وهذه الكتب التى تتكون من عدة أجزاء مثل تاريخ مكة ، والسيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ ابن كثير ، كنت استعيرها جزءا جزءا من الشيخ تهامى الذى أصبح يثق بى، ولكنه لم يكن يكف عن تحذيرى بضرورة الحفاظ عليها ، وارجاعها فى الوقت المحدد ، وكنت التهم صفحات المجلد الأول لأعيده بسرعة خوفا من أن أفشل فى الحصول على المجلد الثانى ، وربما كان هذا القلق سببا فى رغبتى الشديدة فى اقتناء الكتب، هذه الرغبة التى لم تهن ولم تضعف حتى الآن ، المهم أن يكون الكتاب تحت يدى ، خاصة المصادر النادرة للتراث العربى ، وقد تطور الأمر مع السنوات إلى اقتنائى مخطوطات أصلية أو صور





فى موقع متقدم من سيناء مع العميد محمد عبد الحليم أبو غزالة قائد مدفعية الجيش الثانى

مخطوطات لم تطبع بعد ، واظن أن الشىء الوحيد الذى انفق عليه بسخاء وبلا تردد ، الكتب ، ربما اتردد فى شراء الملبس ، وحتى المأكل ، أما الكتب فلا احسب حسابا تجاهها أبدا وأينما كنت ، فى مصر أو خارجها ، الآن اشعر برضا عما اقتنيه ، وأقول لنفسى دائما . تلك ذخيرتى فى الحياة الدنيا .

* * *

كنت فى السنوات الأولى أقرأ كل ما تقع عليه يدى ، ولا أستطيع الآن تذكر كافة العناوين ، أحيانا كنت أقرأ رواية منزوعة الغلاف ، لا أعرف اسمها ولا مؤلفها ، كما قرأت روايات ضخمة ترجمت أو ادعى كتابها أنها مترجمة – هذا تقديرى – فى نهاية القرن التاسع عشر . من ذلك رواية ضخمة عنوانها «غرائب الاتفاق» ، كانت تقع فى حوالى ثمانمائة صفحة ، ورواية اسمها «وردة» عن التاريخ الفرعونى لكاتب ألمانى ، سنوحى المصرى ليكاوالتارى ، أسرار باريس واليهودى الثانية لأوجين سو . كتب لمغامر مصرى اسمه حافظ نجيب ، عناوين عديدة ، أذكر بعضها ونسيت معظمها ، كنت أقتنى ما أقدر عليه، ومن الكتب التى اقتنيتها فى سن مبكرة ، طبعة بولاق من نفح الطيب للمقرى ، والكامل لابن المبرد ، وكان الكتاب الأخير يتكون من جزءين ، استولى ضابط المباحث الذى

.. وفى لسان بور توفيق بعد تحريره – ١٩٧٣



اعتقلني عام ستة وستين وتسعمائة والف على الجزء الأول منه وترك لي الثاني ، مع كمية كبيرة من الكتب ، وكميات من ورق الكتابة الأبيض ، وهذا ما لن أنساه أبدا ، إنما أذكره بمرارة شديدة حتى الآن ، كنت أبحث عن الكتب في أرخص المصادر المتاحة ، ومن ذلك دكاكين باعة الورق المستعمل في الجمالية ، كانوا يبيعون الورق الناتج عن مخلفات الصحف ، والكتب القديمة أيضا ، وأذكر أنني اشتريت مجلدين من جريدة المؤيد للشيخ على يوسف وأنا في الخامسة عشرة ، وتسعة مجلدات من مجلة المصور المصرية

وقد اهديت هذه المجلدات إلى الصديق صلاح عيسى في مطلع السبعينات ، بدافع حبي وتقديري وامتناني له ، فقد لعب في حياتي دوراً لاينسى أبدا . سأذكره فيما بعد .

***

في بداية عامي الثالث عشر ، عرفت دار الكتب المصرية في ميدان باب الخلق ، مسافة قصيرة تفصل حارة درب الطبلاوي عن باب الخلق ، حوالي ربع ساعة مشيا على الأقدام عبر الغورية ، ولكنها خطوة واسعة بالنسبة لي ، ربما تعادل بمقاييس الآن الذهاب إلى مضيف بيرنج . أو فلادينستوك في سيبريا ، لم أكن أتحرك في القاهرة إلا بصحبة الوالد ، لكن منذ الثانية عشرة بدأت ابتعد عن الحسين والأزهر ، وصلت إلى ميدان العتبة ، إلى سينما أوليمبيا ، وإلى سور الأزبكية ، وإلى .. دار الكتب ، كان أحد أقاربنا يعمل في مخازن الدار ، ساعدني على استخراج بطاقة استعارة بضمان والدي ، وكان يصحبني إلى الرفوف المدججة بالكتب في الداخل لأختار ، كان ينتمي إلى جيل من موظفي الدار الذين كانوا يمارسون رسالة أكثر من وظيفة .

هكذا .. قرأت مؤلفات دستويفسكي في ترجمات كاملة ، الجريمة والعقاب ، ذكريات منزل الموتى ، المساكين ، الأخوة كرامازوف ، الليالي البيضاء .

هكذا قرأت الحرب والسلام في أربعة مجلدات لتولستوي .

هكذا قرأت «الساقطون» ، حياتي ، الام ، لجوركي .

كانت هذه الترجمات الكاملة صادرة عن دار اليقظة العربية في دمشق ، بأقلام سامي الدروبي ، وآخرين لا أذكر أسماءهم الآن ، وحتى الآن لم تخرج إلى مجال النشر دار تجاوزت الدور الهام الذي لعبته هذه الدار في تقديم الأدب العالمي ، والروسي خاصة .

بهرت بدستويفسكي ، ولا أدري أين قرأت أنه لم يكمل الأخوة كرامازوف ، وكان من أحلام يقظتي أن أتم الرواية ، أعتبر دستويفسكي هو الروائي الذي عشت في ظله سنوات طويلة وهو من يمثل نقطة طموحي ، وفيما بعد انضمت «موبي ديك» إلى أعماله العظمى التي اقرأها بشكل منتظم ، وقد أصبح دستويفسكي متاحا كله بعد أن أصدرت دار الكاتب العربي في

مصر أعماله الكاملة فى نهاية الستينات عندما تولاها الأستاذ محمود أمين العالم ، من الروائيين الذين تعرفت عليهم فى مطلع الستينات ، ايفواندريتش فى عمله الفذ «جسر على نهر درينا» الذى صدر فى القاهرة بترجمة إحسان الدروبى وكان ثمن النسخة من الطبعة الأولى تسعة وعشرون قرشا ، ادخرتها من مصروفى اليومى ، ومازلت احتفظ بهذه النسخة التى أوقع فى نهاية صفحاتها مسجلا تاريخ انتهائى من قراءتها .

وقد بلغ عدد هذه التوقيعات حتى الآن سبعة عشر توقيعا ، ثمة رواية أخرى اقتنيتها فى هذه المرحلة وتعلقت بها جدا ، إنها «العالم سنة ١٩٨٤» لجورج أورويل .

لكم كانت ١٩٨٤ تبدو نائية فى مطلع الستينات . وكأننا لن ندركها أبدا ، لكن مر الزمن بكل ما جرى فيه، وأدركتنا ١٩٨٤ ، وتجاوزتنا ، ونحن الآن ننطلق بعيدين عنها ، تماما مثل سفن الفضاء التى يطلقها الإنسان إلى عمق الكون ، وفى لحظة معينة ينقطع الاتصال بها ، لكنها لاتكف عن السعى باتجاه المجهول ، لعل وعسى !

يمكننى أن اتجاوز السياق الزمنى، لأذكر الروايات التى تمثل دائما أمامى الآن ، وأعدها خلاصة ما قرأت عبر ما يقرب من أربعين عاما ، بالإضافة إلى ما ذكرت أضع :

صحراء التتار لدينو بوتزانى .

القضية ، المسخ ، القصر ، لفرانز كافكا

أعمال تشيخوف جميعها

البحث عن الزمن الضائع لبروست

ثلاثية نجيب محفوظ

البخلاء للجاحظ

نشواء المحاضرة والفرج بعد الشدة للتنوخى .

ألف ليلة وليلة .

الهلالية .

المنازل والديار والاعتبار لأسامة بن منقذ.

الاشارات الإلهية للتوحيدى.

الفتوحات المكية لابن عربى .

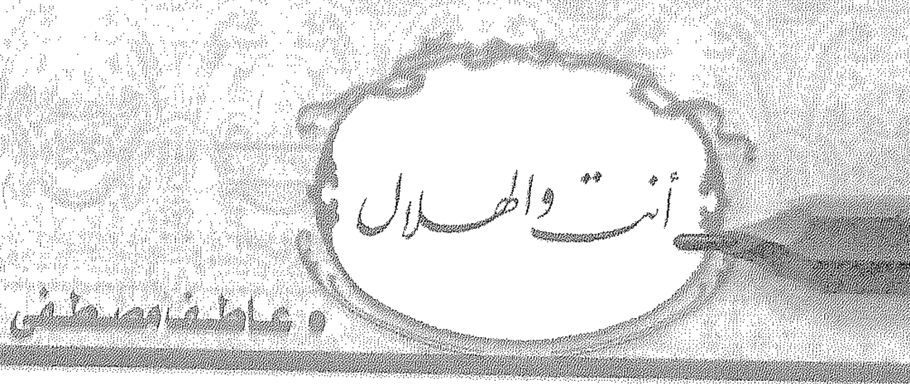
بدائع الزهور لابن إياس .

خطط المقريزى .

تلك هى الأعمال التى أصحبها دائما وأعود إليها باستمرار ، تعرفت إليها فى دار الكتب المصرية ، وخلال الفترة التى بهرنى فيها دستويفسكى قرأت نجيب محفوظ وبدأ تعلقى واعجابى به كأديب واقترن ذلك بعلاقتى به كإنسان بعد تعرفى إليه وأنا فى الخامسة عشرة تقريبا .

كان دافعى لقراءته الفضول ، فعناوين أعماله أسماء شوارع أعيش فيها ، هكذا قرأت خان الخليلى أولا ، ثم زقاق المدق ، ثم الثلاثية . ومنذ تلك الفترة المبكرة شعرت أنه الأديب الوحيد الذى تقف أعماله جنبا إلى جنب مع الروايات العظمى التى قرأتها لدستويفسكى وتولستوى وجوركى وأورويل وغيرهم .

البقيــة العدد القادم



مشكلات الزواج العرفى.. إلى أين ؟!

قضية الزواج العرفى التى تناولها الدكتور محمد رجب البيومى فى عدد مايو الماضى ، تعد من أهم الموضوعات الراهنة التى تناقشها الهلال وتفتح الباب على مصراعيه ، لكى نتعرف على ما يحدث فى هذا المجتمع على مسمع ومرأى من الجميع ، ودون إيجاد حل لهذه المشكلة التى تهدد المجتمع ، ولا توجد أى بادرة لكى يتخلى الشباب عنها

وقد مس الدكتور البيومى بشجاعته المعهودة أبعاد هذه المشكلة الخطيرة من خلال نموذج رآه وشاهده بنفسه ، وسجل وقائعه بأمانته المعهودة ، وهو يتألم من هذا الواقع المرير الذى يعيشه المجتمع المصرى..

والسؤال الذى أطرحه الآن ، هل قرأ المسئولون عن الجامعات المصرية ما كتبه شيخنا عن الخلل الموجود فى التعليم ، وما سببه هذا الخلل فى أن ينصرف الطلاب والطالبات ، إلى الإقدام على عمل غير مشروع ، وزواج باطل بحق ؟

أم أن القضية لا تحتاج إلى دراسات ومؤتمرات وندوات تهز المجتمع هزا ، وتثور ثورة عاتية لما يحدث لشبابنا !

إن إبنتى أو أبنى من الممكن أن يفعل ذلك ، فهل المجتمع برئ من هذه الجريمة ؟! .. وهل الظروف التى نحياها ابتداء من البطالة ، والعجز عن وجود المسكن المناسب وتوفير عمل للشاب الذى يقدم على الزواج ، ناهيك عن المغالاة فى المهور والشبكة الفاخرة ، وحفلات الزواج المبالغ فيها ، والتى أصبحت عبئا آخر يواجه شبابنا اليوم...

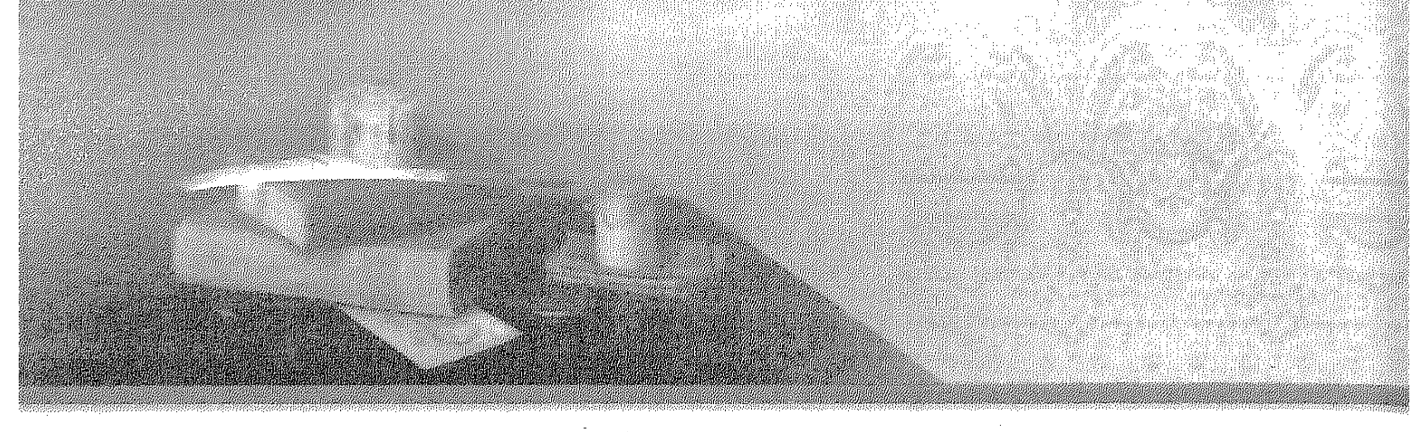
نطالب الإعلام أن يؤدى دوره الحقيقى فى هذه القضية ولا يمر ذلك مرور الكرام .. فالمشكلة أكبر بكثير ، لأن طلاب المدارس الثانوية هم على الطريق الآن .. للزواج العرفى !!

حسام عثمان جوده - القاهرة - مدينة نصر

هو الله

ما شئت إلا أن يشاء الله — ما قابض أو باسط إلا هو
قلب فؤادك حيث شئت فلن ترى — أحداً سواه ، وليس إلا الله
ما كنت سائر خطوة ما كنت سا — ئغ مطعم أو مشرب لولاه
ما كنت صاحب حكمة أو فكرة — إلا بنور الله جل علاه..
ما كنت نائل نعمة أو نقمة — إلا وعلم الله قد أملاه
ما كنت مدرك لمسة أو سامعا — أو مبصرا إلا الذى جلاه
ما كنت ناشق نسمة ما كنت نا — طق لفظة إلا الذى أبلاه
فإذا عجبت لأى أمر باطل — فالحق والنور المبين الله
وإذا انقطعت ولم تجد لك ملجأ — فالباب رحب والمجير إله
لا تخش ذا بطش على جبروته — سلطان ربك ظاهر أعلاه
لا تحسدن منعما فى جهله — سبحانه مولاه قد أولاه
قد سبحت كل الخلائق باسمه — ويفوز بالنفحات من والاه

سليم شافعى - القاهرة



تعقيب على مقال زيارة إلى أول دير في العالم

نشرت الهلال فى عدد أبريل ٢٠٠٥، مقالا للأستاذ فكرى أندراوس بعنوان «زيارة إلى أول دير فى العالم» ، وإذ أبدى اعجابى بالمقال وما ورد فيه من معلومات ثرية تنعش العقول ، فإننى أود التعقيب على بعض ما جاء فيه ، فقد ذكر كاتبنا فى الصفحة ١١٧، أنه على الرغم من أن دير القديس أنطونيوس يعد تاريخياً فإن الدير يخلو من السجلات ، ولدى رجوعى إلى بعض المصادر والمراجع التاريخية وجدت أنه حدث فى عام ١٤٨٤ م - أى فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر - هجوم على ديرى أنطونيوس وبولا وبقيا خرابا نحو ثمانين عاماً ، وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب الثمينة ، فجمعت وتم إحراقها عن آخرها ، ولم يتبق منها إلا ما خفى عن عيونهم ، وقد قام الأنبا غبريال السابع وهو البابا الخامس والتسعين والذى تولى رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية بتعمير ديرى الأنبا انطونيوس ودير الأنبا بولا، ومن المعروف أنه كان يوجد بكل دير فئة النساخ والكتاب ، يقومون بكتابة الكتب ونسخ المخطوطات والتى كان من بينها أسفار الكتاب المقدس ، وسير البطاركة ، وخطاباتهم الخاصة بالرد على البدع وترجمات حياة الشهداء وأعمالهم ، والرد على الخلافات العقائدية واللاهوتية.

- ويقول كاتبنا فى مقاله ص ١١٠: «لكن أنطونيوس كان يريد حياة أكثر وحدانية فترك معيشته بجوار المقابر وعبر النيل شرقاً ، وعاش فى مكان مهجور ليعيش الحياة التى أرادها» يعتقد البعض أنه دير الميمون بجوار بنى سويف » . والنقطة التى أود مناقشتها هنا أن دير القديس أنطونيوس قد ارتبط بمدينة أطفيح بمحافظة الجيزة حاليا .

كما أود الإشارة إلى أن مدينة أطفيح بها دير الميمون والكريمات التى يتفرع أو يكون منها طريق وادى عربة والزعفرانة الطريق الذى سلكه العرب - وفى الغالب القديس أنطونيوس - إلى البحر الأحمر - تابعتان لهذه المدينة من الناحية الإدارية.

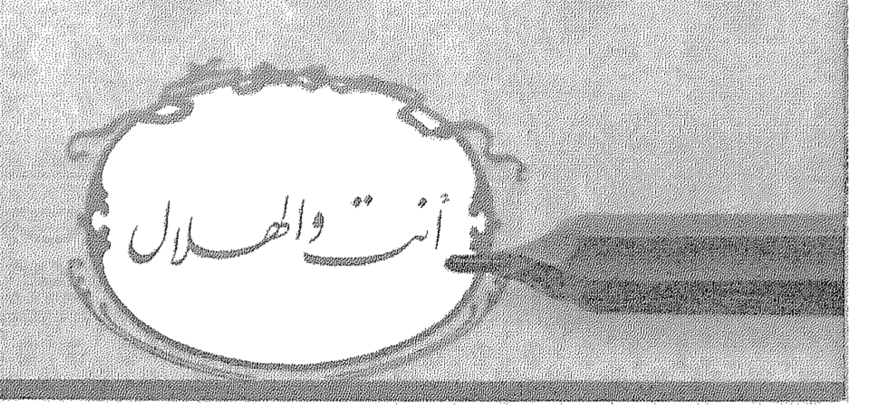
هاني مشرف على
طالب بكلية التربية قسم التاريخ ، جامعة عين شمس - الجيزة - مصر

سلسلة مقالات عن عالمنا العربي

قرأت مقال رئيس التحرير فى عدد مايو الماضى بعنوان ذكريات جزائرية ، حيث تتضمن صفحات مطوية للعلاقات المصرية الجزائرية ، وقد ربط أحداثها ربطا متناسقا ، وكشف عن خبايا وخفايا هذه العلاقات ، والمؤثرات والدوافع ، التى أثرت فى تطورها سلبا وايجابا بنظرات ثاقبة وأسلوب ممتع .

ومن ملاحظاتى على كتابات هذه الرحلة أننى أشبهه بالرحالة دقيق الملاحظة ، لا يمر بمشهد إلا وقف أمامه واستخرج منه العبرة والدرس المستفاد من بين السطور ، وسؤالى لماذا لا يكون مقال «ذكريات جزائرية» نواة لسلسلة من المقالات عن عالمنا العربى ، شرقه وغربه ، وهو الذى شرق وغرب فى رحلاته الصحفية ؟

عمرو عبد المنعم حمودة - برما - مركز طنطا



فرحة الحب

غرقت فى الحب ولم تدرِ
فكت فى الليل ضفائرها
ورأت أقماراً فى فمها
القصة قد بدأت ، وصلت
من يطعمها غيرى عنباً
من يلثمها حتى تنسى
تتحدث عنى وتغنى
لوسادتها ، لستائرها
كم داعبها طيفى صبحاً
أن يغدو الطيف فماً شبقاً
عيناها لى وبها أحيا

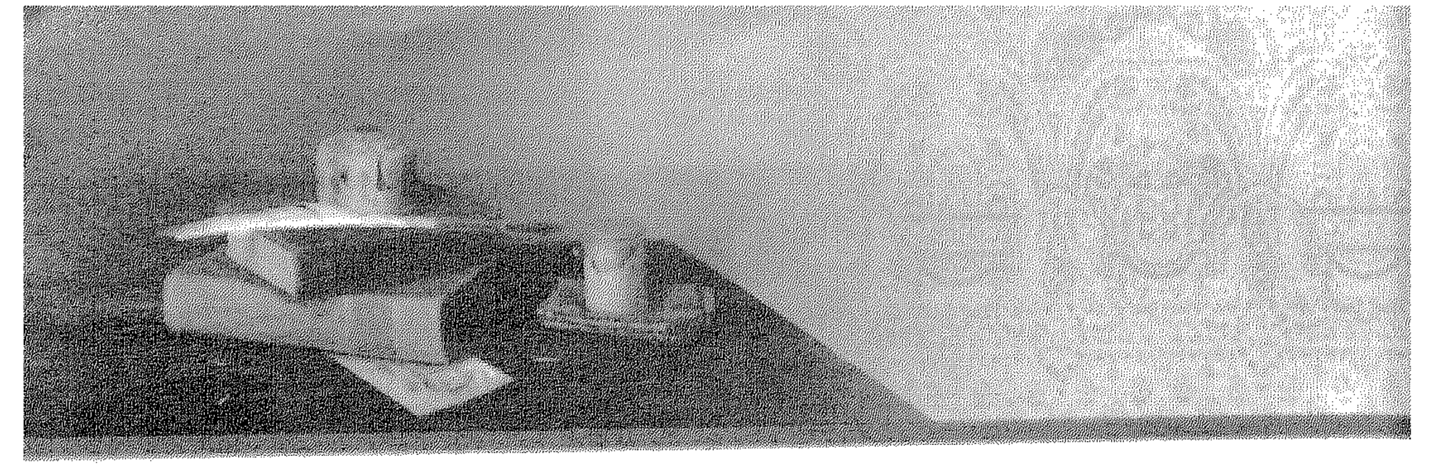
ذابت .. هل ذوبها عطرى ؟
فرأت تحت شذاها شعرى
وبحيرة حب مخضر
أمواج البحر إلى البدر
ويطوف بها حول القصر ؟
شكل الشمس ولون البحر ؟
لشهاب الليل وللنسر
لطيور الحلم على الجسر
فتمنت أن تلثم ثغرى
ينقض على قمر حر
هل فى الدنيا رجل غيرى؟

د. هيثم الحويج العمر - دمشق - سوريا

عالمية اللغة العربية

رسالة وصلتنا من القارئ صلاح عبد الستار الشهاوى بعد قراءته للجزء الخاص بعنوان «العولمة ومستقبل اللغة العربية» فى العدد الماضى ونجتزئ من الرسالة جزءا مما تناوله حول عالمية اللغة العربية حيث يقول : «إذا أردنا للعربية أن تحتفظ بمكانتها اللائقة فى دنيا العالمية ، فيجب علينا نحن أبنائها خوض غمار العلوم الحديثة بها ، وعدم الوقوف بها عند النظرة القاصرة ، على أنها لغة شعر وأدب فقط ، فهى قادرة على التعبير عن العلوم ومصطلحاتها ، ومسايرة الحضارة الحديثة ، فأين هو نتاج أبنائنا العلماء من الاختراعات والابتكارات وتسميتها بمسميات عربية ، تنتقل إلى اللغات الأخرى بلفظها العربى ، مما يضعها فى مصاف اللغات العالمية بحق ، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية ، تعبر عن مكانة الناطقين بها ، والمجتمع الأكثر تفوقاً ، هو القادر على أن يفرض وجوده على الآخرين .

.... إن علماء العرب لم يكتبوا أعمالهم التى نهل منها الغرب ، وكانت سبب نهضته ورقية ، إلا باللغة العربية ، عندها صارت وعاء للعلوم ، وأصبح لها اليد الطولى فالسيطرة على سائر لغات العالم أجمع ، وقد رأينا كثيرا من رواد ومشاهير الأدب العالمى يهرولون إلى تعلم اللغة العربية بعد ما استهوتهم جماليات الثقافة العربية الإسلامية أمثال بوشكين وتولستوى وغيرهما ، ويكفى لاجمال الأثر الذى تركه الأدب الاسلامى باللغة العربية فى آداب الأوربيين ، أننا لا نجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم خلا شعره أو نثره من بطل اسلامى أو نادرة اسلامية ، ومنهم شيكسبير وبيرون وكولردج وشيلى من الأدباء الانجليز ، وغيرهم من الأدباء الألمان والفرنسيين .



الحلم ومسجد قبة الصخرة

استيقظت اليوم على حلم عجيب فإذا بي أزور عمي في فلسطين لأول مرة – وهو المقيم أصلا في محافظة المنصورة – وأول ما اهتممت به فور زيارتي له أن أفتح الشرفة ذات الدور الأرضي على ألمح طيف مسجد قبة الصخرة .

وما هالني فعلا .. أن أجد المتاريس مصوبة تجاهي .. أسلحة مما ثقلت وخفت .. وجنود لا حصر لهم .. يوجهونها إليّ .. أو كذلك حسبتهم أول الأمر .. إلى أن رأيت أن هناك العديد من الشباب بدأ يتوافد من خلفي .. واتضح لي أنه كان هناك من قبلي في هذه الشرفة .. تجاهلت هذا كله .. وظللت أبحث عن بغيتي .. ولكن لم يصل بصري إليها .. فكل ما أراه هي أبنية تشابهت في البنيان معه .. ولكن ليس هو .

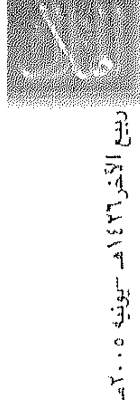
ثم بدأت أتساءل .. هل احتشد كل هؤلاء الجنود فقط لحراسة المكان وأمنه؟! وممن ؟؟!! ، وما أن تدارك ذهني هذا الأمر حتى بدأت أرى النيران تنفتح عليّ وعلى من أمامي وخلفي .. فتراجعت لأصل إلى آخر الغرفة صاحبة الشرفة .. وأنا في ذهول مما يفعله الشباب .. فهو يحمل سلاحا صغيرا غريبا في شكل البخور .. وما أن يشعله الواحد منهم ويقذفه حتى يؤتي ثمره على الفور .. وظللت على حالي منكمشا ملتصقا بالحائط .. حتى وجدت شابا أصابته رصاصتين غادرتين .. ربما كانتا في مقتل .. فحملته وخرجت به مسرعا عبر الغرفة لأجد طبيبا يتساءل باستنكار قبل أن يهم بالرحيل «إذن ليس هناك حالات أخرى» .. فصرخت به .. «كلا .. هذه حالة حرجة» ووضعت جريحي على الفراش .. وعدت للغرفة المطلة على الشرفة لأجد الأوضاع هادئة .. وإن لم يدل ذلك إلا على السكون الذي يسبق العاصفة .

فالشارع خال تماما من المارة .. وهناك من يتفحص الباقي من جرحى الأحياء عبر الشرفات العلوية فقط ، ولكن مهلا .. فأنا ألاحظ شئ غريبا .. هناك من يرتدي ملابس سوداء على شكل مثلث علوى القمة لا يظهر منهم شئ .. يقتربون بالخطوة العسكرية من الشارع الجانبي المطل على الشرفة .. أظنهم سيمرون بسلام .. مر منهم الكثير .. وأنا لا يسعنى إلا الاختباء .

لاحظت شيئا غريبا .. أني كلما خفضت رأسي نحو الأرض حتى لا يروني .. يقل سمك السور الأسمنتي الذي يفصل الشرفة عن الشارع .. حتى أكون مرئيا لهم .. والأعجب .. أن السور الحديدي – الذي يعلو السور الأسمنتي كان يزداد طولا .. حتى ليصبح كالقضبان التي تأسرني .. مهلا .. أنا لست وحدي .. فجانبي الآن يقف خمسة أو ستة أفراد .. يقفون أسودا شامخين .. وأنا المنبطح أرضا أكاد أكون في صورة الطريح الذي يجد من رأسه مشكلة لظهورها أمامهم .. ما هذا .. إنهم يغيرون اتجاههم نحو الشرفة .. ويقتربون بهذه الأعداد المهولة .. ما هذا الذي يفعله رفاقي الذين بجانبي .. إنهم يتأهبون بالخطوة العسكرية الثابتة المزلزلة للأرض التي تحتهم .. يبدون استعدادهم لما هم مقدمون عليه في بسالة .. بيقين لما هم مقدمون عليه .

فهممت أن أقف بجانبهم سائلا نفسي .. إذا كنت في كل الأحوال ميت .. ففيم الاختباء !!

محمد عاطف – الجيزة – الهرم





الفكرة العربية الآن في جمعية أصدقاء احمد بهاء الدين

جمعية أصدقاء الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين والذى أثرى الحياة المصرية على مدى ما يقرب من خمسين عاما فى مختلف القضايا السياسية والفكرية والثقافية والتى تهم المجتمع العربى كله وليس مصر وحدها

طرحت الجمعية مؤخراً موضوعا مهما هو «ماذا تعنى الفكرة العربية الآن» محورا لنشاطها هذا العام ، ودعت الجمعية للقاءات تحضيرية ، لبحث كيفية تناول الموضوع ، وتبويبه ، واقتراح المشاركين فيه ، وصولا لأقصى استفادة ، ومحاولة لتقديم خطوة إيجابية.

وتهدف الجمعية من طرح هذا الموضوع إلى الوصول عبر الحوار إلى حقيقة الفكرة العربية الآن ، وإلى قيمتها وأهميتها ، ومحاولة إحياء الفكرة باستمرار واختبارها والحوار حولها والاستفادة والاستزادة برؤى المفكرين والمتخصصين والمهتمين ، فضلا عن مساعدة الباحثين والمهتمين بهذه الفكرة للإلتقاء والحوار.

وطرحت أفكار حول المحاور التى يمكن تناولها من بينها

* تاريخ تطور الفكرة العربية فى برامج ورؤى الأحزاب والاتجاهات والتيارات السياسية والفكرية فى الوطن العربى.
* هل غياب الفكرة العربية الآن هو المسئول عن الصراعات العربية ؟
* الصراع بين الفكرة العربية الآن والنزعات الاقليمية كالفرعونية مثلا .
* الفكرة العربية الآن وعلاقتها بالدين.
* حلم الدولة العربية الآن .. الواقع والآمال والعوائق.
* هل يمكن أن تكون الجامعة العربية تعبيرا عن الفكرة العربية.

ويشارك فى اللقاء الافتتاحى الأستاذ محمد حسنين هيكل والبدء بالمحور الأول بمكتبة القاهرة وهناك اقتراح بدعوة عدد كبير من المفكرين والمتخصصين والمهتمين بهذه الموضوعات ، ووجهت بالفعل دعوات لهم حول مشاركاتهم ورؤاهم فى الجوانب والمحاور المختلفة.

محمود عبد الحميد - مدير جمعية أصدقاء - أحمد بهاء الدين

الموت والحياة

ميلادنا يعنى البداية	والموت لا يعنى النهاية
المـــوت بدء آخـــر	لرواية غيـــر الروايـــة
لا فية خافيـــة ولا	من بعده أبداً غـــواية
والموت إما فرحة	أو حسرة والفرح غاية
الفرح غاية كل حى	.. والوسيلة فى الهداية

حسن أبو الغيط - كفر المصيلحة - منوفية



١

ابن بطوطة

(٧٠٢هـ/١٣٠٤م - ٧٧٠هـ/١٣٦٨م)

هو محمد بن عبدالله بن محمد ابن ابراهيم اللواتى المولود فى طنجة فى ١٧ رجب سنة ٧٠٢هـ/ ٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤م وهو المعروف بابن بطوطة ، ويكنى بأبى عبدالله ويلقب بشمس الدين وهو سليل بيت كريم ، حيث اشتغل أبوه بالعلوم الشرعية الإسلامية ، وتولى منصب القضاء بين الناس ، فدرس الأبن العلوم الدينية والفقه والأدب والشعر ، وشب تقيا ورعا محبا للعلماء والأولياء الصالحين ، قضى قرابة ثمانية وعشرين عاما يجوب الأرض شرقا وغربا ، فقطع في رحلاته مسافة لم يقطعها رحالة في العصور الوسطى ، قدرت بنحو مائة وعشرين ألف كيلو متر، وكانت رحلته الأولى لغرض الحج ، فخرج من طنجة سنة ١٣٢٥م وسار إلى شمال افريقيا ومصر ، وزار بلاد الشام ، وأدى فريضة الحج ..

قام بن بطوطة بثلاث رحلات قضى فيها ما يساوى نصف عمره .. الرحلة الكبرى ورحلتين قصيرتين ، الأولى وشملت كل العالم القديم الذى كان معروفا فى ذلك الوقت ، ما عدا أوروبا .. وفى هذه الرحلة حج بيت الله الحرام ست مرات، وزار الصين بتكليف من ملك الهند ، وكان قد عمل قاضيا فى الهند فترة من الزمن وعاد إلى مدينة فاس بالمغرب فى أواخر مايو سنة ١٣٤٩م واستغرقت هذه الرحلة أربعة وعشرين عاما من عمره ، وقد تزوج أكثر من مرة .

الرحلة الثانية كانت إلى مملكة غرناطة وجنوب الأندلس ، وفى هذه الرحلة قابل لسان الدين بن الخطيب ، الذى لم يصدق ما كان يحكيه عما شاهده ، ووصفه فى كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» بالكذب .

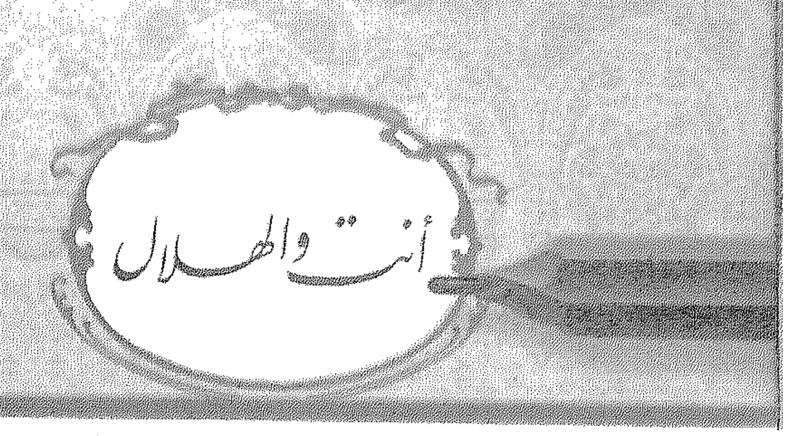
والرحلة الثالثة كانت بتكليف من السلطان أبى عنان إلى السودان وإمارات النيجر ، وقد عاد منها بعد أن أستدعاه السلطان من أجل أن يتفرغ لإملاء رحلته ، واستغرقت الرحلة عامين .

وكان من معاصريه عبدالرحمن بن خلدون الذى شارك من استمعوا إليه فى عدم تصديق ما يقوله ، وربما شعر ببعض الغيرة منه .

وبأمر من السلطان أبى عنان تم استنساخ الرحلة بمؤلف كبير «أثرى المكتبة العربية الإسلامية ، هو تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار »

ثم عين قاضيا على إقليم تامسنا إلى أن أدركه الموت فى عام ٧٧٠هـ - ١٣٦٨م .

وقد أقيمت له احتفالية كبرى منذ سنوات قليلة بمناسبة مرور سبعمائة عام على وفاته .



الرد على المزاعم اليهودية

هناك مسرحيات عالمية من بينها مسرحية «تاجر البندقيه» لوليم شكسبير تتحدث عن اليهود ودورهم التخريبى ولقد ظل الأوربيون على مر العصور ينظرون إلى اليهود هذه النظرة حتى الآن .

والسؤال الآن إذا كان الأوربيون يكرهونهم ، فنحن فى المقابل لانكرههم ، فقد عاشوا بيننا مئات السنين ولم يحدث بيننا وبينهم ما يعكر صفو الحياة ، ولكننا نكره الحركة الصهيونية التى قامت بأعمال دمار وقتل للفلسطينيين من أجل إقامة دولتهم على مدى ما يقرب من ٧٥ عاما !

إن الغرب وأوروبا تحديدا عاملتهم بقسوة وصلت فى أحيان إلى الإبادة ، فأين هؤلاء وهم يرون أن اليهود يعبثون فى بلاد دولة شقيقة هى فلسطين فسادا والكل يقف الآن دون أن يحرك ساكنا ،إنهم حتى لم يتركونا .. لقد أدعى بيجين أن الأهرامات الثلاثة بناها أجداده ، وبعدها وضعت إحدى قنواتهم الفضائية هذه الأهرامات رمزا لها ..

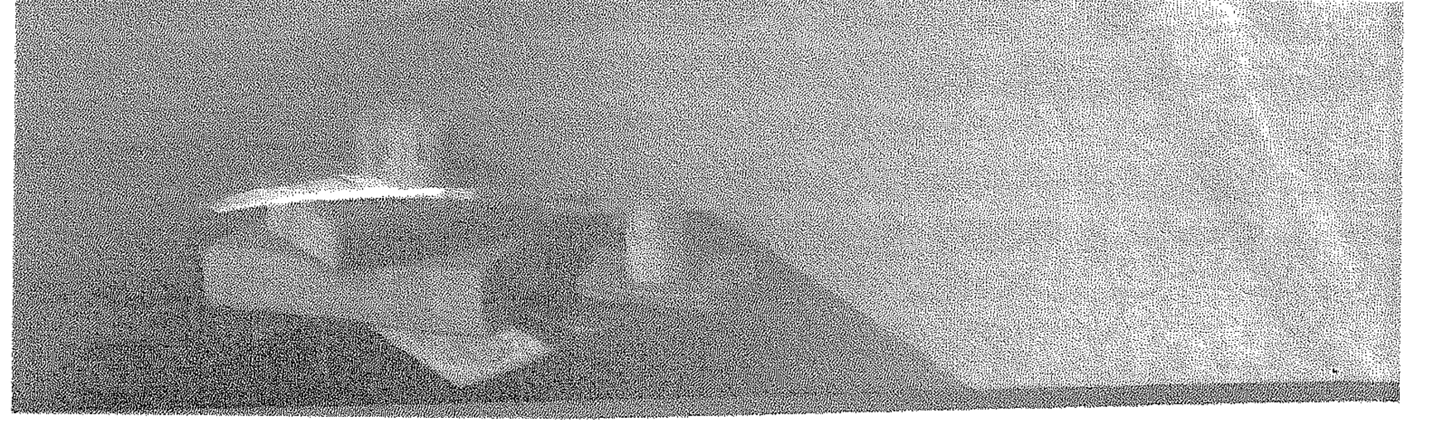
هم لا يخجلون ، ويريدون تحقيق أحلامهم مهما كلفهم ذلك .. وعلينا ألا نقف مكتوفى الأيدى .. بل نكتب ونرد عليهم ولا نتوقف أبدا .

د. جمال العطار - الاسكندرية - كامب شيزار

تمنت أن أبيع لها حياتى

أيا من عشقها يلتف حولى ... غصونا كى يقدم لى اعترافا
كأمطار على أوتار قلبى ... تمنت أن أكون لها مضافا
تمنت أن أعيد لها احتفالا ... من الاشواق طار لها وطافا
تمنت أن أبيع لها حياتى ... وأن ألتف فى دمها التفافا
أحبت أن تطير لها حروفى ... وأن يبقى الغرام لها لحافا
هى البحر العميق وكم أرادت ... إذا عانقتها أمسى ضفافا
أيا من عشقها مازال شهدا ... وشعرى منه يغترف اغترافا
يفيض السحر من فمها زلالا ... وبين النهد يبعث لى هتافا
هواها ها هنا أعراس جذر ... وماء قد أعد لها زفافا
تذوب لها سماواتى اشتياقا ... ولا أخشى بقبلتها انحرافا
أحبك فانظرى أوراق عشقى ... على شفتيك تكره أن تعافا
غلافى منك شلال وقلبى ... بحبك قد أقام له غلافا

عبدالله على الأقزم - السعودية
المنطقة الشرقية - القطيف



أم كلثوم

نغم أهدته للأرض السماء
أترع الوجدان والروح سواء

يرسل الحب أغاريدا كما
طاف بالآمال في الله الدعاء

طار بالفن على أجنحة
من جمال وجلال وفداء

كان سلوى الصب إذا ضن الهوى
كان قوتا ليقين الأتقياء

***

قد سقتنا من لسان واحد
عربى بعذاب الكلمات

شعلة أن تنتهى أيامها
نبصر الجذوة .. تبقى الذكريات

هى إن غابت عن الدار فما
تمحى ذكرى الليالى العطرات

رب فرد يملأ الدنيا سنا
حقق الحلم وأحيا الأمنيات

د. أحمد بديع

صاحب بداية الهداية

من خلال اهتمام الهلال بعلماء اللغة العربية أتناول واحدا منهم فى سطور .. وهو أبو بكر الأنبارى المولود بالأنبار فى عام ٥١٣هـ ، وقد تعلم من أبيه ، ثم انتقل إلى بغداد ، وهو فى سن مبكرة ..

نبغ فى علوم العربية ، حتى صار إماما لعلماء النحو ، وأستاذا بالمدرسة النظامية ، ثم تنسك وانقطع فى داره للعبادة ، حتى توفى فى بغداد سنة ٥٧٧هـ وله تصانيف كثيرة منها : أسرار العربية - الانصاف - الأضواء - بداية الهداية - الأساس فى شرح الأسماء .

وهذه أبيات زجلية تتناول الرجل :

نحوى مولود بالأنبار
واسأل تأتيك الأخبار
بارع فى علوم العربية
وكبير علماء النظامية
وميراثه ثروة علمية
ومعاها ديوان الأشعار
عشرات من كتبه المعروفة
تحتار إيه فيهم تختار

محمد أمين العيسوى - الاسماعيلية

الوعى التاريخى



بقلم: د. رءوف عباس

تحرص الأمم على توعية أبنائها - على اختلاف أجيالهم - بتاريخها القومى باعتباره مستودع تجاربها، بكل ما فيها من إيجابيات وسلبيات. وهذه التوعية متصلة الحلقات، تبدأ بمرحلة التنشئة الأولى فى التعليم العام، وتمتد إلى التثقيف العام للراشدين بمختلف مراحل أعمارهم. ومن هنا كانت كتب التاريخ فى مرحلة التعليم العام تحظى باهتمام كبير، فيقوم على تحديد محتواها وتحرير مادتها نخبة من المتخصصين فى التاريخ والتربية، وتكتب بأسلوب جذاب، يحبب التلاميذ فيها، ويجتذبهم إليها، وتزود بما يخدم النص من وسائل الإيضاح المختلفة. ويواكب ذلك إعداد المدرس إعداداً علمياً دقيقا حتى يحسن توصيل المادة إلى التلاميذ ، ويحفزهم على إعمال الفكر فيها.

أما الراشدون، فيتخذون من الأفلام التسجيلية الوثائقية، والدراما التاريخية زادهم المعرفى، إضافة إلى الكتب التى تتناول التاريخ الإنسانى والقومى، والروايات التاريخية التى تجسد التجارب الهامة فى حياة الأمة والإنسانية معا.

ورغم عراقة تاريخنا، وتنوع تجاربنا، لا نحفل بتاريخنا ولا ندرك أهمية تعميق الوعى به، فإذا قارنا حالنا بحال أمم أخرى، جاءت المقارنة كاشفة لأوجه القصور عندنا، سواء فى ذلك مقررات التاريخ والطريقة التى يدرس بها فى التعليم العام، أو المادة الإعلامية والثقافية المتاحة للراشدين، وينعكس ذلك سلبيا - بالطبع - على إدراك شبابنا لهويته فى عصر «العولمة» الذى يجتاح الهويات الوطنية لصالح إمبريالية من نوع جديد خطير . ولعل لنا فى تجارب أمم أخرى كاليابان والهند والصين ما يجعلنا نأخذ قضية الوعى التاريخى مأخذ الجد، ونسعى للحذو حذوها.

فهل من مجيب؟! ■


عرض خاص
٢٤٠٠ جنيه
السعر لا يشمل الضرائب المطبقة
زوروا أوروبا
هذا الصيف
* امستردام * چينيڤ
* برلين * لندن
* بروكسل * ميونخ
* دسلدورف * باريس
* فرانكفورت * فيينا
مع مصر للطيران
لمزيد من المعلومات اتصل الآن
٠٩٠٠٧٠٠٠١ سعر الدقيقة ٥٠ قرشا
أو ١٧١٧ سعر الدقيقة جنيه واحد
www.egyptair.com.eg
The Studio
تمتع برحلاتنا الصيفية
مصر للطيران
EGYPTAIR

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .